

تفسير الكشاف

سجده حقانوه التنزيل محمود للقاويل في جموه الناويل

تأليف

أبي القاسم جابر الله بن محمد بن موسى

الريختري السخوارزمي

٤٦٧ - ٥٣٨ م

اعتنى به وخرجه أمهاتيه وعلمه عليه

عجليل بن مأمون شيخنا

دار المعرفة

بيروت لبنان

تفسير الكشاف

عنه حقانوه التنزيل وحيون الله اويل في وحيوه النأويل

تأليف

أبي القاسم جابر الله محمد بن محمد الزخشي الخوارزمي

٤٦٧ - ٥٣٨ هـ

اعتنى به وفزع أمانيه وعانى عليه

خليفة بل برأيهون مشيخا

وعليه تعليقات كتاب «الانتصاف» فيما تضمنه
الكشاف منه الاعتزال «للإمام ناصر الدين ابن منير المالكوي»

دار المعرفة

بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953 - 420 - 87 - 4

الطبعة الثالثة
1430 هـ - 2009 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٢٤٣٢٢-٨٢٤٣٠١
فاكس: ٨٢٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

تفسير الكشاف
بمناهج القرآن في علومه اللغوية والنحوية
بمناهج القرآن في علومه اللغوية والنحوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وجوه القراءات من الحفاظ، ليكون نوراً يَهْتَدَى به من الضلالة، وَيَفْهَم به مراد رَبِّهِ لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنَ الْجَهَالَةِ، فَيُحْكَمَ بِالْفَلَاحِ لِمَنْ تَفْهَمُ مَعَانِيَهُ وَاتَّبَعَهُ، وَبِالْخُسْرَانِ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ.

وها نحن نضع بين يديك كتاب «الكشاف»، ليكون لصدرك الدواء الشاف، للإمام المفسر الجليل، اللغوي الأديب الخليل، أبي القاسم الزمخشري محمود، عفا الله عنه لاعتزاله المعهود، وغفر له زلته وأكرمه بمقام محمود، فقد أوّلَى مصنّفه عناية كبيرة، وأحسن انتقاء أحاديثه الغزيرة، فألفه بشكل وسط لا بالطول الممل، ولا بالمختصر المخل، رحمه الله تعالى.

وأخيراً أسأل الله أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، ونوراً لقبورنا ومصدراً كريماً لعيشنا وسرورنا، إنه قريب مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين.
بيروت في 17 جمادى الأولى 1423
الموافق 26 تموز 2002

كتبه النليل إلى مولاه الجليل
خليل مامون شيحا

الحمد لله الذي نَزَّلَ كَلَامَهُ الْقَدِيمَ عَلَى عَبْدِهِ فَالْهَمَهُ التَّوِيلَ وَالتَّفْسِيرَ، فَكَانَ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا تَحْدَى بِهِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ عَجْزَهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَقَالَ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ أُرْسِلَ لِلْعَالَمِينَ بِشِيرًا نَذِيرًا، وَمَعْلَمًا لِكِتَابِ اللَّهِ الْحَكِيمِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ حَفِظُوا آيَاتِهِ فَازْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرَّجْسَ بِنَصِّهِ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ تَفْهَمُوا مَرَادَهُ فَبَاعَوْا بِهِ الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا وَالنَّبِيِّينَ وَالْقَنَاطِيرَ، وَعَلَى اتِّبَاعِهِ الَّذِينَ انْتَهَجُوا نَهْجَهُمْ فَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ تَدَبِيرًا، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ قَلِيلًا كَانَ أُمَّ كَثِيرًا.

أما بعد:

فإن علم التفسير أشرف العلوم أبداً؛ لأنه علم يختص بكتاب الله العزيز أكرم به منداً، فبه يفهم القرآن وتدرك معانيه، وبه يكشف عن مقاصده ومراميه، هذه المقاصد لا تعرف إلا بدرية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على المنسوخ منه والناسخ، ليتبين لنا الحق كالنور الراسخ، وإدراك الخاص منه والعام، وإظهار حكمهما للأنام، والاستنباط لمعاني دلالات الألفاظ، ومعرفة

ترجمة الإمام الزمخشري

بلد إلى آخر، فورد العراق فلما دخل بغداد اجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني⁽¹⁾، فسأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، ونلك أنني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، وانفلت من يدي، فاندركته وقد دخل في خرق، فجنبتة فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت أُمي لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عليّ عملاً أوجب قطعها.

وكذلك دخل خراسان، ثم خرج منها إلى الحج، فلما نزل مكة شرفها الله تعالى وجد بها الشريف السيد الفاضل الكامل أبا الحسن علي بن عيسى الحسني فعرف قدره ورفع أمره، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري وأخذ الزمخشري عنه ونشطه لتصنيف ما صنّف، وقال الشريف مادحاً للزمخشري:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداء زمخشرا
وأحربان تزمي زمخشر بامرئ؛ إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرى
ثم انتقل مقيماً برهة في الحجاز، حتى هبت على كلامه رياح البادية، وورد مناهل العرب العاربة، ثم انكفاً راجعاً إلى خوارزم، وأكثر من التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، حتى بدأت تشد إليه الرحال في فنونه، ثم قوي عزمه على الرحلة عنها، وعوده إلى الحجاز، فقيل له: قد زجيت أكثر عمرك هناك فما الموجب؟ فقال: القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا.

وكان كلما دخل بلدًا اجتمع عليه أهل هذا البلد وتلمذوا له، واستفانوا منه ونقلوا عنه، ويعد أن جاب الدنيا ورحل من هنا وهناك عاد من مكة إلى وطنه الحبيب خوارزم وبقي فيها يصنّف ويلقى بها الأكابر والأفاضل، ويتلمذ فيها إلى أن توفاه الله تعالى.

اعتقاده:

لقد أشارت كل التراجم بدون استثناء أن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، متشدداً بأرائه، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأنن عليه

اسمه:

محمود بن عمر بن محمد بن عمر.

كنيته:

أبو القاسم.

لقبه:

جار الله.

ولُقّب بهذا اللقب؛ لأنه لما سافر إلى مكة - حرسها الله تعالى - وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه.

نسبته:

الخوارزمي الزمخشري.

وخوارزم: بلدة في العراق.

وزمخشري: قرية من قرى خوارزم القريبة منها، وقيل: إن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها، فصارت من جملة محالها.

مولده:

ولد رحمه الله تعالى وعفا عنه بزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربع مئة من الهجرة النبوية الشريفة.

نشأته ورحلاته:

نشأ الإمام الزمخشري محباً للعلم منذ صغره، فما أن وصل إلى سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم وهناك قطعت رجله، فجعل له رجلاً من خشب يستعين بها في المشي، ومن هناك كانت بدايته، ففتح الله تعالى عليه من العلم ما لم يفتح على غيره من أهل بلده في عصره، فكان أعلم الفضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً وأطلاعاً، وبه ختم فضلاؤهم حتى أصبح يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وقد ساعده على ذلك التوفيق أولاً، ثم إقباله على العلم ثانياً، وبدأ يحط رحله من

(1) هو الإمام أحمد بن علي بن محمد أبو الحسين الدامغاني المتوفى

في الدخول يقول لمن يأخذ له الإنن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب.
والظاهر أنه كان يتفاخر ويتباهى باعتزاله، كيف لا، وقد وصفه أحدهم بأنه كبير المعتزلة، المتحقق به. أعاننا الله تعالى وإياكم من سوء الاعتقاد.
وسنورد كلاماً خاصاً عن أثر اعتقاده في تفسيره الكشاف وكيف أنه فسّر القرآن الكريم بالطريقة التي تنصر مذهب الباطل.

مذهبه:

لم تشر التراجم إلى مذهب الزمخشري الفقهي، باستثناء كتابين، أحدهما: كتاب: «العقد الثمين» 137/7، للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي المتوفى سنة 832هـ حيث يقول معنوناً: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الحنفي أبو القاسم المعروف بالزمخشري والثاني: كتاب: «المغني» ص 123 للإمام محمد طاهر بن علي الهندي المتوفى سنة 986هـ حيث يقول: الزمخشري منه: محمود بن الخوارزمي الحنفي مذهباً صاحب تصانيف عجيبة. ولعل الذي يؤكد ما ذهب إليهما الإمامين اجتماعه بالفقيه الحنفي الدامغاني رحمه الله تعالى في بغداد.

ويؤكد الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «طبقات المفسرين» 474/1 انتماءه للمذهب الحنفي قائلًا: وهو معتدل - في المسائل الفقهية - لا يتعصب لمذهبه الحنفي والله أعلم بالصواب.

شيوخه:

لم تذكر لنا المصادر أسماء شيوخه الذين لقيهم وتلقى العلم عليهم، ولكن اكتفوا بذكر أسماء ستة من شيوخه وهم:

- 1 - أبو الخطاب نصر بن البطرية.
- 2 - أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري.
- 3 - أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني.
- 4 - أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة.
- 5 - أبو سعد الشقاني.
- 6 - أبو منصور الحارثي. وغيرهم كثير.

تلاميذه:

- ظهر للزمخشري جماعة من التلامذة منهم:
- 1 - أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان.
 - 2 - وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بأبيورد.
 - 3 - وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر.
 - 4 - وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي بسمرقند.

5 - وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم.

6 - وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي.

7 - وزينب بنت عبد الرحمن الشُّعْري وجماعة سواهم.

والظاهر أن تلاميذه كثير؛ لأنه جاء في المصادر ما نصه:

وما نخل بلدًا إلا واجتمعوا عليه وتلمنوا له واستفانوا منه.

مصنّفاته:

ألف الإمام الزمخشري كتباً كثيرة وصلت إلى (49) كتاباً تقريباً، منها في علوم التفسير والحديث واللغة والنحو وعلم البيان والمواعظ والفقه والتاريخ وغيرها. وسنعرض لما وصلتنا من أسماء مؤلفاته حسب ترتيبها الألف بائي وهي كالتالي:

حرف الألف

- 1 - الأجناس. في اللغة.
- 2 - الأسماء. في اللغة.
- 3 - الأصل.
- 4 - الأمالي. في النحو.
- 5 - أسس البلاغة. في اللغة.
- 6 - أطواق الذهب. في المواعظ.
- 7 - أعجب العجب في شرح لامية العرب.

حرف التاء

- 8 - تسلية الضير.

حرف الجيم

- 9 - الجبال والأمكنة.
- 10 - جواهر اللغة.

حرف الحاء

- 11 - حاشية على المفصل.

حرف الدال

- 12 - ديوان التمثيل.
- 13 - ديوان خطب.
- 14 - ديوان رسائل.
- 15 - ديوان شعر.

حرف الراء

- 16 - الرائض في الفرائض.
- 17 - الرسالة الناصحة.

- 36 - المفرد والمؤلف في النحو.
37 - المفرد والمركب في اللغة.
38 - المفصل في النحو.
39 - المنهاج في الأصول.
40 - متشابه أسماء الرواة.
41 - مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.
42 - معجم الحدود.
43 - مقامات في المواعظ.
44 - مقدمة الألب في اللغة.

حرف النون

- 45 - النموذج في النحو.
46 - نزهة المستانس.
47 - نصائح الصغار.
48 - نصائح الكبار.
49 - نكت الأعراب في غريب الإعراب.

أشعاره:

إنَّ للزمخشري رسائل مسجوعة، ومقامات مصنوعة، محلاة بالبدیع، وفيها أثر التعمل؛ جرياً مع العصر الألبی الذي كان يعيش فيه. وله أيضاً ديوان شعر تشيع فيه عبارة الفقهاء فمن قوله:

سهرى لتنقيح العلوم الذلي من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة اشهى واحلى من مدامة ساق
وصرير اقلامي على أوراقها احلى من الدوكاء والعشاق
والذ من نقر الفتاة لئفها نقري لالقي الرمل عن أوراق
أبيت سهران النجى وتبيته نوماً وتبغى بعد ذلك لحاق
ومن شعره أيضاً هذه الأبيات:

ألا قل لسعدى أما لنا فيك من وطن وما تطلبين النُجْل من أعين البقر
فإننا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوه ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أر إذ غازلته قرب روضة إلى جنب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بوردا وإنما أربت به ورد السخود وما شعز
فقال انتظرني رجع طرفي أجيء به فقلت له هيهات ما لي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر فقلت له: إني قنعت بما حضر

ومن شعره يرثي شيخه أبا نصر منصور:
وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا أبو مضر أذني تساقطن من عيني
ومن شعره أيضاً على ما يقال:
هو النفس الصعاد من كبد حوى إلى أن أرى أم القرى مرة أخرى

- 18 - ربيع الأبرار. في الأدب والمحاضرات.
19 - رسالة الأسرار.
20 - رسالة المسامة.
21 - روح (رؤوس) المسائل. في الفقه.

حرف السين

- 22 - سوائر الأمثال.

حرف الشين

- 23 - شافي العي من كلام الشافعي.
24 - شرح كتاب سيويه.
25 - شرح مقاماته.
26 - شقائق النعمان. في حقائق النعمان في مناقب الإمام أبي حنيفة.

حرف الصاد

- 27 - صميم العربية.

حرف الضاد

- 28 - ضالة الناشد.

حرف العين

- 29 - عقل الكل.

حرف الفاء

- 30 - الفائق في غريب الحديث.

حرف القاف

- 31 - القسطاس في العروض.

حرف الكاف

- 32 - الكشاف. في التفسير، وهو كتابنا الذي بين أيدينا، وقد أقرنا فصلاً خاصاً للكلام عليه آخر هذه المقدمة.
33 - الكلم النوابع. في المواعظ.

حرف الميم

- 34 - المحاجة ومتمم سهام أسباب الحاجات في الأحاجي والألغاز.
35 - المستقصى في الأمثال.

وما عذر مطروح بمكة رحله على غير يؤس لا يجوع ولا يعرى
يسافر عنها يبتغي بدلاً بها وربك لا عنزى وربك لا عنزى
وغير هذا كثير مكتفين بهذا القدر خشية الإطالة والملل.
وفاته:

توفي الزمخشري ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين
وخمسمائة من الهجرة النبوية الشريفة بجرجانية خوارزم
بعد رجوعه من مكة، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه أمين.
وقيل: إنه أوصى بعد موته أن تكتب على قبره هذه
الآيات:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول
ورثاه بعضهم قائلاً:
فأرض مكة تنزي النعم مقلتها حزنناً لفرقة جار الله محمود
وجرجانية: بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون
الراء وكسر النون وتشديد الياء، وهي قسبة خوارزم وتقع
على شاطئ جيحون.

التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه

سنة 808هـ) في «المقدمة» ص 491، فقال: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري.

9 - ونكره الإمام ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (المتوفى سنة 852هـ) في «لسان الميزان» 4/6، فقال: محمود بن عمر الزمخشري المفسر... يسمى كتابه الكشاف تعظيماً له.

10 - ونكره حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (المتوفى سنة 1067هـ) في «كشف الظنون» ص 1475، فقال: الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام العلامة أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري.

11 - ونكره ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة 1089هـ) في «شذرات الذهب» 4/118، فقال: أبو القاسم الزمخشري... صاحب الكشاف.

12 - ونكره البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين (المتوفى سنة 1339هـ) في «هدية العارفين» 2/402، فقال:

13 - ونكره بروكلمان (المتوفى سنة 1376هـ) في «تاريخ آداب اللغة العربية» 215/5، ونص على وجود مخطوطاته في مكتبات العالم، وذكر المطبوع منها، وما لم يطبع.

14 - ونكره الزركلي، خير الدين (المتوفى سنة 1396هـ) في «الاعلام» 178/7، فقال: أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن.

15 - ونكره الدكتور الذهبي، محمد حسين (المتوفى سنة 1397هـ) في «التفسير والمفسرون» 429/1، واستفاض في الكلام عليه.

16 - ونكره كحالة، عمر رضا (معاصر) في «معجم المؤلفين» 186/12، فقال: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المفسر... من تصانيفه الكثيرة: الكشاف عن حقائق التنزيل.

هذه هي من أهم المصادر التي ترجمت للزمخشري، ونكرت تفسيره الكشاف، ولا يشك أحد من المترجمين له نسبة هذا الكتاب للإمام الزمخشري.

(1) توثيق نسبة الكشاف للزمخشري:

أجمع الذين ترجموا للزمخشري على نسبة هذا التفسير المسمى «بالكشاف» له، وسنذكر بعض أهم المصادر التي نصت على نسبة الكتاب له، وفق التسلسل الزمني لوفيات أصحابها:

1 - نكره الإمام الزمخشري نفسه مانحاً له:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشافى إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي ويكفي قوله هذا في توثيق نسبة الكتاب له.

2 - ونكره الإمام السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة 562هـ) في «الأنساب» 163/3، فقال: لقي الأفاضل والكبار وصنّف تصانيف في التفسير. وهو أقدم من ترجم له وعاصره، فقد قال: ورد مرو في زمني ولم يتفق لي رؤيته والاعتباس منه. ولم يصرح بذكر اسم الكتاب.

3 - ونكره الإمام ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (المتوفى سنة 597هـ) في «المنتظم» 37/18، فقال: وصنّف التفسير الكبير، ولم ينص على اسمه أيضاً.

4 - ونكره الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى سنة 624هـ) في «إنباه الرواة» 265/3، فقال: صنّف التصانيف في التفسير وغريب الحديث. ولم يصرح باسمه كذلك.

5 - ونكره الإمام ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (المتوفى سنة 681هـ) في «وفيات الأعيان» 168/5، فقال في بداية ترجمته معنوناً: الزمخشري صاحب الكشاف.

6 - ونكره الإمام الذهبي، شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان (المتوفى سنة 748هـ) في «سير أعلام النبلاء» 152/20، فقال: أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الزمخشري... صاحب الكشاف.

7 - ونكره الإمام ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (المتوفى سنة 774هـ) في «البداية والنهاية» 12/219، فقال: صاحب الكشاف في التفسير.

8 - ونكره الإمام ابن خلدون، عبد الرحمن (المتوفى

(ب) سبب تأليفه للكشاف:

يذكر الإمام الزمخشري في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه فقال: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الآيات، في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعمضاء الدين، وعلماء العدل والتوحيد.

والذي حدثني إلى الاستعفاء - على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين - ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله، وركاكة رجاله، وتناصر مهمم عن أنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي البيان والمعاني، فألميت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيل والانتاب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتمونه، ومثالاً يحتنون به، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله فتوجهت لتقاء مكة، وجبت مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطش الأكباد إلى العثور على نك المملئ، متطلعين إلى إيناسه حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي.

فلما حططت الرجل بمكة إذا أنا بالشعبية السنية من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن بن حمزة بن وهاس - أدام الله مجده - وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبدًا، والههبهم حشئ، وأوفاهم رغبة، حتى نكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبيتي عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطى المهامه، والإفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب نقافة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدده، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً على الصراط يسعي بين يدي ويميني، ونعم المسؤول أه. وكان الفراغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع

الأخر في عام ثمان وعشرين وخمسائة.

(ج) قيمة الكشاف العلمية:

إن كتاب الكشاف من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعه الاعتزالية، وأغلب التفسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه.

وقيمة هذا الكتاب تبرز من خلال علمين مختصين بالقرآن الكريم وهما: علم المعاني وعلم البيان، وبهما برع الزمخشري حتى أصبح سلطان هذا الفن، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب.

ولقد أحسن الزمخشري حين استخرج من القرآن الكريم محاسن النكت، ولطائف المعاني التي يستعمل فيها الفكر؛ لإظهار جمال النظم القرآني، ورونقة الإعجاز منه، من خلال أسرار البلاغة وليس كالمزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن الكريم وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النوع العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه انظار العلماء، وعلق به قلوب المفسرين.

ويمتاز الكشاف بأمور منها:

- 1 - خلوه من الحشو والتطويل.
- 2 - سلامته من القصص والإسرائيليات.
- 3 - اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.
- 4 - عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز.

5 - سلوكه فيما يقصد إيضاحه طرق السؤال والجواب كثيراً، ويعنون السؤال بكلمة «فإن قلت» بفتح التاء، ويعنون الجواب بكلمة «قلت» بضم التاء.

وهذا مما زاد في تفسير الكشاف قيمة يجعل النفوس تميل إليه، والطباع راغبة في قراءته وتناوله.

وهكذا نجد أن الأئمة الذين تكلموا على الإمام الزمخشري وعلى تفسيره من الناحية الاعتزالية - كما سيأتي في فصل خاص - قد أثنوا على الكشاف من الناحية العلمية الأدبية والبلاغية واللغوية وغيرهم، وإليك بعض مقالاتهم:

1 - مقالة الإمام الهروي

ويشهد الإمام الهروي أحد الذين تتبعوا زلات الزمخشري بأن كتاب الكشاف: كتاب علي القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، وأجمعت على محاسن أساليبه الأنيقة السنة الكلمة المفلقين، ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشبيد معاقده، وكل كتاب بعده

1 - انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبار:

فمثلاً يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾⁽¹⁾.

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمو منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل نذب محمو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: ﴿لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم﴾، وفيه: ﴿لو أن رجلاً قتل بالمشرك وأخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه﴾، وفيه: ﴿إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه﴾، وفيه: ﴿من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله﴾.

والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطعبيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم منهاهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾⁽²⁾... فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبار؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله: ومن يقتل أي قاتل كان من مسلم، أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليات بدليل مثله.

2 - انتصاره لرأي المعتزلة في الحسن والقبح

العقليين

ولما كان الزمخشري يقول مبداً المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذا النص المنافي لمذهبه، وهو قوله تعالى: ﴿وما كنا معنيين حتى نبعث رسولا﴾⁽³⁾ فنراه في هذه الآية يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل: لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من ردة الغفلة، لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا

2 - مقالة الإمام ابن خلدون

وهذا هو ابن خلدون يشهد للكشاف أنه أفضل الكتب في التفسير من حيث معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى فيقول: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق. ثم يقول: فلتفتنم مطالعته لغرابته فنونه في اللسان.

3 - مقالة الإمام التاج السبكي

وكذلك نجد أن الإمام تاج الدين السبكي يشهد أيضاً ما للكشاف من الفوائد وما للزمخشري من طول باع في هذا العلم فيقول: وأعلم أن «الكشاف» كتاب عظيم في بابيه أي: في بابيه العلمي الأدبي، ومصنفه إمام في فنه.

4 - مقالة الإمام ابن المنير المالكي

وهذا الإمام رغم شدة ووروثه على الزمخشري وردة العنيف عليه - كما سيأتي - لا ينسى ما للزمخشري من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابيه به؛ لتتويجه بأساليب القرآن العجيبة، وكثيراً ما يعترف بتقدير كبير بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية.

فتارة نراه يقول منصفاً بعد تعقبه تفسيره: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز، والعمق في آثار معانته، وإبراز محاسنه.

وتارة أخرى نجده يقول أيضاً باعتدال: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان ملياً بالحقافة في علم البيان.

هذه بعض شهادات العلماء الذين ركبوا على الزمخشري اعتراله وشنّوا عليه الحرب، وحذروا من كشافه، نجدهم يشهدوا أن للكشاف قيمة غنية من ناحية البلاغة، والإعجاز، واللغة، والبيان، بإنصاف دون انتقاص من قيمته العلمية شيئاً.

(د) انتصار الزمخشري لعقيدته الاعتزالية في الكشاف:

لقد نحى الزمخشري في تفسيره منحى الاعتزال، وقد مرّ سابقاً أنه متشدد بأرائه ومتعصب بأفكاره، وقد جعل من هذا التفسير طريقاً سهلاً لنصرة مذهبه الفاسد، وإظهار آرائه وأفكاره الباطلة، فنرى أنه يؤيد مذهبه الاعتزالي بكل ما أوتي من قوة الحجة، وسلطان الدليل، وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلى أن يتاول ما كان منها معارضاً

(3) سورة الإسراء، الآية: 15.

(1) سورة النساء، الآية: 93.

(2) سورة محمد، الآية: 24.

ينبها على النظر في أئمة العقل.

3 - انتصاره لرأي المعتزلة في السحر

نجد من خلال تفسيره لسورة الفلق انتصاره لرأي المعتزلة النافين للسحر وللسحرة حيث يستهزئ ويُسخر بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر قائلاً:

(النفاثات) النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقن، والنفث: النفخ مع الريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبوت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسب له الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعيثن به.

فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعه السحر ومن إثمهن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿إن كيئتك عظيم﴾⁽¹⁾ تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك.

4 - انتصاره لرأي المعتزلة في حرية الإرادة

وخلق الأفعال

لقد تشدد الزمخشري في مسألة حرية الإرادة وخلق الأفعال، رغم وجود آيات صريحة تصادم مقولته وهي أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فتفادي هذا التصادم لتعصبه لمذهبه الباطل باعتقاده بالطف الإلهي الذي يسهل على الإنسان عمل الخير، ويسلبه يصعب عليه عمل الخير.

فنراه يفسر قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾⁽²⁾ فيقول: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تلبنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لينك أو لا تمنعنا الطافك بعد إذ لطفت بنا.

وهكذا نجده قد خرج من ورطته الكبرى فساعدته على

هذا المعنى - اللطف الإلهي - الذي تمسك به هو والمعتزلة، ونفعهم في كثير من المواضع.

5 - انتصاره لرأي المعتزلة في عدم

رؤية الله تعالى

ناهيك عن تفسيره للنصوص بما يوافق عقيدته الاعتزالية، فهو يتنزع بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، فنراه كغيره من المعتزلة إذا مرّ بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجوداً في اللغة.

فمثلاً نراه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾⁽³⁾ يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ﴿ناظرة﴾؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه القائل بعدم رؤية الله تعالى فنراه يثبت له معنى آخر وهو التوقع والرجاء فيقول:

﴿إلى ربها ناظرة﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾⁽⁴⁾، ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾⁽⁵⁾، ﴿إلى الله تصير الأمور﴾⁽⁶⁾، ﴿إلى الله المصير﴾⁽⁷⁾، ﴿وإليه ترجعون﴾⁽⁸⁾، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾⁽⁹⁾ كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين ناظرة ذلك اليوم؛ لأنهم الأمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء.

(هـ) موقف الزمخشري من الفقهيات:

ونجد أن الزمخشري لا يتوسع في المسائل الفقهية أبداً، بل على العكس نراه أنه يتعرض لها إلى حد ما دون الميل إلى مذهبه الحنفي، فهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الفقهي على عكس مذهبه الاعتقادي فإنه متعصب جداً جداً.

(و) موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

إن الناظر في كتب التخرجات لأحاديث الكشاف، يجد أن الزمخشري مثل من نكر الروايات الإسرائيلية، وهو

(6) سورة الشورى، الآية: 53.

(7) سورة آل عمران، الآية: 28.

(8) سورة البقرة، الآية: 245.

(9) سورة الشورى، الآية: 10.

(1) سورة يوسف، الآية: 28.

(2) سورة آل عمران، الآية: 8.

(3) سورة القيامة، الآيتان: 22 - 23.

(4) سورة القيامة، الآية: 12.

(5) سورة القيامة، الآية: 30.

الشرس لأهل السنة والجماعة؛ لذلك نجد أن تفسيره هذا الاعتزالي أثار عليه خصومه من أهل السنة، فتعقبوه بالمناقشة والتقنيدي، ورووا بشكل حاسم على ما أورده في كشافه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنها جافة وقائمة على الرأي الطليق.

(ح) موقف أهل السنة من الزمخشري وتفسيره:

لقد تصدى أهل السنة لأقارب الزمخشري واعتقاده، فاتبعوا زلاته المشينة التي تطاول بها على أهل الفوز والنجاح، وروبوها كلها وبيّنوا ركافة مذهبه وأبطوه بحجج وبراهين قوية لا ينكرها إلا مشرك أو كافر، وما نحن ننكر لكم بعض الأئمة الذين أقاموا حملات على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي فمنها:

1 - حملة ابن القيم

فهذا هو الإمام العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور على الزمخشري من أجل كشافه الاعتزالي. فنراه بعدما أورد تفسير الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه...﴾⁽³⁾ يقول: فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معزلياً قدرياً⁽⁴⁾.

2 - حملة تاج الدين السبكي

فهذا هو الإمام العلامة تاج الدين السبكي يشن هجوماً على الزمخشري وكشافه الاعتزالي قائلاً: إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء إليه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله⁽⁵⁾.

3 - حملة أبي حيان

فهذا هو الإمام العلامة أبو حيان صاحب البحر المحيط في التفسير يتعقب الزمخشري في تفسيره فيجد فيه من الزلات الكثيرة، ويصفه بالجهل والضلالة والسرقة، ويصفه بالمروق من الدين فيقول بعد نكر ما مدحه به:

ولكنه في مجال لناقد
ويثبت موضوع الأحاديث جاهلاً
ويشتم أعلام الأئمة ضلة
ويستهم في المعنى الوجيز دلالة
يقول فيها الله ما ليس قائلاً
ويخطئ في تركيبه لكلامه

وزلات سوء قد أخذن المخانقا
ويغزو إلى المعصوم ما ليس لانفاً
ولا سيما إن أولجوه المضايقا
بتكثير الفاظ تسمى الشفاشا
وكان محباً في الخطابة واقما
فليس لما قد ركبه موافقا

يتبع خطة للكشف عن هذه الروايات، بأن يصدر الرواية بلفظ «وي»، المشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا في الغالب يكون عند نكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس الدين، وإما أن يبني على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتأكد فليُنظر في التفسير ويعود إليه، والله أعلم.

(ز) موقف الزمخشري من أهل السنة والجماعة:

إن الناظر اللبيب في تفسير الكشاف ليجد أن الزمخشري قد مزج تفسيره بنصوص قاسية مليئة بالسخرية والاستهزاء بأهل السنة، وكذلك يجده لا يدع فرصة تفوته إلا ويحقرهم فيها ويقلل من قدرهم، فتارة يسميهم الجبرة، وتارة أخرى يسميهم الحشوية، حتى أنه رامهم بالقدرية والمشبهة، أعاننا الله وإياكم من سوء الاعتقاد.

ومع هذا كله نراه أنه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي ورت في حق الكفار إلى ناحية مخالفته في العقيدة من أهل السنة والجماعة.

والظاهرة الأعبى في تفسيره وفي اعتقاده الزائف أنه يخرج خصومه السننيين من دين الإسلام ويحكم عليهم بالكفر الصريح.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم...﴾⁽¹⁾ سائلاً:

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعده؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعده بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد - يعني في قوله: إن الدين عند الله الإسلام - قلت: فائدته أن قوله: لا إله إلا هو؛ توحيد، وقوله: قائماً بالقسط؛ تعديل، فإذا أُرِدَفه قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾⁽²⁾ فقد آنن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيّن جلي كما ترى.

فمن خلال هذا التفسير يظهر الزمخشري بمظهر المتعصب القوي لاعتزاله، وكذلك يظهر بمظهر العدو

(4) إعلام الموقعين: 1/202.

(5) النماذج الخيرية ص 310.

(1) سورة آل عمران، الآية: 18.

(2) سورة آل عمران، الآية: 19.

(3) سورة الاعراف، الآية: 176.

في الخطأ والخلط، سقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فشتت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظائر، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الألبية وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم في كتابه أمور أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواه، فتكررت مشاريعه الصافية، وتضيقت موارده الصافية، وتزلزلت رتبته العالية:

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتسفات جامدة... وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى... وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويفعل عن هذا الصنيع لفرط عناده.

ومنها: أنه.. أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها.

ومنها: أنه ينكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارة فاحشة⁽³⁾.

وأخيراً هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه، ومهما يكن من شيء، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه.

(ط) الأئمة الذين كتبوا على الكشاف ولخصوه وخرجوا أحاديثه:

لما اشتهر الكشاف وطار في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محشى وضّح ونقّح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزاً وأسند وصحح وانتقد، ومن مختصر ولخص وأوجز.

(أ) فمن الأئمة الذين كتبوا على الكشاف:

- 1 - الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمد ابن المنير الإسكندراني المالكي (المتوفى سنة 683هـ)، له كتاب اسمه «الانتصاف» وهو الذي لخصناه.
- 2 - الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي (المتوفى سنة 704هـ)، له كتاب سماه «الإنصاف» وجعله حكماً بين الكشاف والانتصاف.

وينسب إبداء المعاني لنفسه ويخطئ في فهم القرآن لأنه وكم بين من يؤتى البيان سليقة ويحتال للألفاظ حتى يبهرها فيا خسره شيخ تخرق صيته لئن لم تداركه من الله رحمة لسوف يرى للكافرين مراقفاً⁽¹⁾

4 - حملة ابن المنير

فهذا هو الإمام القاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الذي خصص جهوده للكشف عن حقيقة الكشاف، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف) فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) ناقش فيه الزمخشري وجائله ورد عليه أقواله الاعتزالية، فنجده يتوجه إلى الزمخشري باللوم على تفسيره لقوله تعالى: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾⁽²⁾ قائلاً: فانظر إليه كيف اشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التوكل عليه، لأنه اخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمى أفتلتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسته.

وكثيراً نراه يعمن السخرية أيضاً من المعتزلة ويفرق في النكير على الكشاف، ويصفه بالبشاعة المنطقية، وكل هذا مقابل ما اعتمده الزمخشري في حملاته السخرية على أهل السنة، حتى إننا نجد ابن المنير يتطرف فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك الخفي.

وهكذا نجد أن أهل السنة والجماعة تحذر الناس من الزمخشري واعتقاده الفاسد الباطل، وكذلك تحذر الناس من تفسيره المليء بالاعتزال والاعتراض على أهل السنة والجماعة. فكن حذراً من كشافه، هذه مقولة أكثر أهل السنة.

5 - حملة الشيخ حيدر الهروي

فهذا هو الشيخ حيدر الهروي أحد الذين علقوا على الكشاف نجده يصف الكتاب وصفاً دقيقاً فيمدحه بما فيه من رونق البلاغة وأناقته أساليبه ثم يذكر ما فيه من الآراء الفاسدة نكراً؛ ما ضيع عليه هذا الرونق والأناقته وما أبطل صيته الرنان فقال: ولو فرض أنه لا يخلو - أي: الكشاف - عن النقيير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسال خبره، وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع

(3) كشف الظنون: 2/ 176- 177.

(1) البحر المحيط: 7/ 85.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

وأبي حيان وأجوبة السمين الحلبي والسفاقي مع زيادة تخرّيج أحاديثه.

17 - الإمام علاء الدين علي بن محمد الشاهروزي الشهير بمصنّفه (المتوفى سنة 871هـ)، له عليه حاشية.

18 - الإمام محيي الدين محمد ابن الخطيب (المتوفى سنة 901هـ)، له على حاشية السيد حاشية.

19 - الإمام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بفقيد التفتازاني (المتوفى سنة 906هـ)، له حاشية بلغ بها إلى أواسط سورة البقرة.

20 - الإمام شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا المفتي (المتوفى سنة 940هـ)، وقد علق على بعض مواضعه، وهو من أحسن تأليفاته.

21 - الإمام خير الدين خضر بن عمر العطوفي (المتوفى سنة 948هـ)، له عليه حاشية.

22 - الإمام أبو السعود بن محمد العمادي (المتوفى سنة 982هـ)، له حاشية على سورة الفتح سمّاها «معاهد الأطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف».

23 - الإمام صنع الله بن جعفر المفتي (المتوفى سنة 1021هـ)، له حاشية على أوائله، وغيرهم أيضاً ولكن اكتفينا بهذا القدر من الأئمة الذين كتبوا على الكشاف.

(ب) فمن الأئمة الذين اختصروا ولخصوا الكشاف:

1 - الإمام محمد بن علي الانصاري (المتوفى سنة 662هـ)، وقد أزال عنه الاعتزال.

2 - الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (المتوفى سنة 692هـ)، له تلخيص سمّاها «أنوار التنزيل»، وهو سيد المختصرات.

3 - الإمام قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الغالي الشقار (المتوفى سنة 698هـ)، لخصه وسمّاها «تقريب التفسير».

4 - الإمام محب الدين محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الحنفي (المتوفى سنة 859هـ).

5 - الإمام عبد الأول بن حسين الشهير بأبى ولد (المتوفى سنة 950هـ)، وغيرهم كثير مكتفين بهذا العدد من الأئمة الذين لخصوا واختصروا الكشاف.

(ج) فمن الأئمة الذين خرّجوا أحاديث الكشاف:

1 - الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (المتوفى سنة 762هـ)، وقد طبع هذا الكتاب بأربع مجلدات ضخمة.

3 - الإمام قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (المتوفى سنة 710هـ)، له عليه حاشية في مجلدين لطيفين.

4 - الإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي (المتوفى سنة 743هـ)، له عليه حاشية في ست مجلدات ضخمة.

5 - الإمام عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (المتوفى سنة 745هـ)، له حاشية سمّاها «الكشف» وهي في مجلد واحد.

6 - الإمام فخر الدين أحمد بن حسن الجاربردي (المتوفى سنة 746هـ)، له عليه حاشية.

7 - الإمام عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي، المعروف بالفاضل اليميني (المتوفى سنة 750هـ)، له حاشية سمّاها «درر الأصداف في حل عقد الكشاف»، وله حاشية أخرى اسمها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف».

8 - الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام (المتوفى سنة 762هـ)، اختصر الانتصاف والإنصاف.

9 - الإمام قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي (المتوفى سنة 766هـ)، له عليه حاشية كلها اعتراضات، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار.

10 - الإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرّي (المتوفى سنة 786هـ)، له عليه شرح وصل به إلى تمام الزهراوين.

11 - الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفى سنة 792هـ)، لخص فيها حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، وصل فيها إلى سورة الفتح.

12 - الإمام يوسف بن حسن التبريزي (المتوفى سنة 804هـ)، له عليه حاشية.

13 - الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (المتوفى سنة 805هـ)، له حاشية في ثلاث مجلدات سمّاها «الكشاف على الكشاف».

14 - الإمام السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة 816هـ)، له عليه حاشية.

15 - الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (المتوفى سنة 817هـ)، له حاشية شرح فيها خطبة الكشاف، سمّاها «قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف».

16 - الإمام ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العراقي (المتوفى سنة 820هـ)، له حاشية لخص فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي

علماء الأزهر، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف».

2 - الإمام محب الدين أفندي، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «تنزيل الآيات على الشواهد عن الأبيات».

2 - الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (المتوفى سنة 852هـ)، لخص كتاب الزيلعي، واستدرك عليه ما فات الإمام الزيلعي وسمّاه «الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف»، وقد طبع هذا الكتاب في آخر «كتاب الكشاف» بمفرده، كملحق له.

(د) فمن الأئمة الذين شرحوا شواهد الكشاف:

1 - الإمام محمد عليان المرزوقي الشافعي من أكابر

المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة

علم التفسير

(1) تعريف التفسير:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان⁽¹⁾: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من التفسير أي الإبانة والكشف، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل.

وأما في الاصطلاح: فهو علم يبحث عن كيفية النطق بالفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإقرائية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك.

تعريف التاويل:

التاويل في اللغة: مأخوذ من الأول وهو الرجوع يقال: أوّل الكلام تأويلاً وتأوله: نبّهه وقدره وفسّره، والتاويل: عبارة الرؤية. فكان المؤول أُرْجِعَ الكلام إلى ما يحمله من المعاني. وأما في الاصطلاح: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه.

وفرق بعض العلماء بين التفسير والتاويل.

(ب) نشأة التفسير:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم⁽²⁾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، لذلك كان الصحابة الكرام يفهمون القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء فقد تفاوتوا في ذلك، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم، وبمعرفة أسباب النزول، فكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ فيما لم يفهموه فيفسّره لهم لذا فقد أُرِّثَ عنه ﷺ عدد كبير من الأحاديث تتناول تفسير القرآن.

وبعد وفاة النبي ﷺ اشتهر عدد كبير من الصحابة بالتفسير، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن

مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

1 - مصادر التفسير في عهد الصحابة:

1 - القرآن الكريم نفسه: حيث إن آياته يفسر بعضها بعضاً، وما أُجْمِلَ في موضع منه قد يبين في موضع آخر، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة المؤمن⁽³⁾: ﴿وَإِنْ يَكُ صَائِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ بأنه العذاب الأدنى المعجل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر السورة، الآية: 77 ﴿فَإِذَا نُزِّلَتْ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَالَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

2 - السنة النبوية الشريفة: فقد فسّر النبي ﷺ كثيراً من آيات القرآن الكريم، والذي يرجع إلى كتب الحديث يجدها حافلة بآبواب التفسير الماثور عن النبي ﷺ، من ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «(الصلاة الوسطى) صلاة العصر».

3 - أقوال الصحابة: كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا لم يجدوا التفسير في القرآن، ولم يسمعهوا من رسول الله ﷺ، رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم لأنهم عاينوا نزول القرآن، ولأنهم كانوا من خلص العرب، يعرفون عاداتهم والألفاظ ومعانيها، ومناحي العرب في كلامهم، ومعتمدين في ذلك على الشعر الذي هو ديوان العرب كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كان الصحابي الجليل ابن عباس صاحب النصيب الأكبر من ذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه دعا له فقال: «اللهم فقّه في الدين، وعلّمه التاويل»، ولذلك لقب «بترجمان القرآن».

2 - مدرسة التفسير على عهد الصحابة:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم، وتوزّع الصحابة في البلاد المفتوحة، وحملوا معهم علومهم وجلس إليهم كثير من التابعين يتعلمون عليهم، فقامت في هذه البلاد مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهرت من بين هذه المدارس ثلاث هي:

(2) السيوطي، الإتيقان 2/88.

(3) السيوطي، الإتيقان 2/189.

(1) اقتبسنا الكلام في هذا الفصل من كتاب «التفسير والمفسرون»

للمرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي.

الزجاج، والواحدي في «البيسط» وأبو حيان في «البحر المحيط».

2 - التفسير العقلية: ومنهم من عني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، ينكر شبههم والرد عليهم، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره «مفتاح الغيب»...

3 - التفسير الفقهي: وهي التي عني مؤلفوها باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها، وإيراد الفروع الفقهية كل وفق مذهبه مع الرد على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي في «أحكام القرآن»، والقرطبي المالكي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن».

4 - التفسير التاريخية: وهي التي عني مؤلفوها بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، كما فعل الثعلبي والخازن.

5 - تفسير الفرق: وهي التي وضعها أصحاب الفرق والعقائد المتباينة، محاولين تأويل كلام الله حسب مذاهبهم، كما فعل الرماني، والجبائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري.

6 - تفسير المتصوفة: وهي التي قصد مؤلفوها نواحي الترغيب والترهيب، واستنباط الأسرار الباطنية والإشارات الرمزية، كما فعل ابن عربي، وأبو عبد الرحمن السلمي.

(د) التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور - أو التفسير النقلي - هو تفسير القرآن بما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته، وبما أُورث عن الرسول ﷺ وللصحابه والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وقد كان هذا النوع من التفسير أولها ظهوراً كما تدرج خلال تطور هذا العلم من الرواية في عصر الصحابة والتابعين إلى التكوين في القرن الثاني؛ لأن الحديث كان أول ما اهتم العلماء بتكوينه، ثم لما انفصل التفسير عن الحديث وأقر بتأليف خاص كان أول ما ظهر فيه صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ثم ظهرت أجزاء في التفسير كجزء أبي روق، وأجزاء محمد بن ثور عن ابن جريج، ثم ظهر التأليف الموسوعي في التفسير الذي جمع أصحابه فيه كل ما روي من التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير الطبري، وتوسع أصحابها في النقل وأكثروا منه بالأسانيد المتصلة حتى استفاض.

ثم وُجد بعد ذلك أقوام دونوا التفسير بالمأثور بدون ذكر الأسانيد، وأكثروا من نقل الأقوال بدون التفرقة بين الصحيح وغيره، مما أفقد الثقة بها، وبخاصة عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب، حتى نُقِل عن الإمام الشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث» وهو عند لا يكاد يُذكر أمام ما يُروى عن ابن عباس في التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير بالمأثور من الروايات الموضوعة والإسرائيلية، ولقد كانت كثرة المرويَات أكبر عامل في صرف همة العلماء إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح،

1 - مدارس مكة المكرمة: استأذنها الصحابي الجليل ابن عباس، وتلاميذها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وعطاء...

2 - مدرسة المدينة المنورة: استأذنها الصحابي أبي بن كعب، وتلاميذها: زيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي...

3 - مدرسة العراق: استأذنها الصحابي عبد الله بن مسعود، وتلاميذها: علقمة، ومسروق، والأسود، ومزة، وعامر، والحسن، وقتادة...

وقد أضيف للتفسير في هذا العهد أقوال التابعين، وبدأ الخلاف يظهر فيه، كما بدأ يتسرب إليه الروايات الإسرائيلية بسبب رجوع بعض المفسرين لاهل الكتابين اليهود والنصارى.

3 - تدوين التفسير على عهد التابعين:

مع بداية القرن الثاني للهجرة، بدأ المسلمون بتدوين علومهم، بعد أن كانوا يعتمدون على الرواية في حفظها وتبليغها، وأصدر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (المتوفى سنة 101هـ) أمره لعماله في الأفاق بجمع حديث رسول الله ﷺ، وكان التفسير باباً من أبواب الحديث، ولم يفرد له أول الأمر تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة من مبدئه إلى منتهاه، ثم انفصل التفسير تدريجياً عن الحديث، وبدأت تظهر المحاولات الأولى للتأليف في تفسير القرآن تمثلت بكتب «غريب القرآن» التي تناولت ألفاظه فقط ككتب الرؤاسي (المتوفى سنة 170هـ) والكسائي (المتوفى سنة 189هـ) والفراء (المتوفى سنة 207هـ)، ثم ظهرت التفسيرات الأولى التي تناولت السور والآيات كتفسير ابن ماجه (المتوفى سنة 273هـ) وابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ)، وابن المنذر النيسابوري (المتوفى سنة 318هـ) وابن أبي حاتم (المتوفى سنة 327هـ) وتناولت هذه التفسيرات الأولى غريب الألفاظ، وإيراد ما ورد من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات.

(ج) أنواع التفسير:

كانت المحاولات الأولى للتفسير تعتمد على المأثور من حديث رسول الله ﷺ، وما نُقِل عن السلف، ثم تدرج التفسير بعد ذلك لتدوين العلوم العقلية إضافة للتفسير النقلي، وبدأ هذا الجانب يتضخم شيئاً فشيئاً متأثراً بالمعارف العامة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، وامتزج كل ذلك بالتفسير وتحكمت الاصطلاحات العلمية والعقائد المذهبية بعبارات القرآن الكريم، وظهرت آثار الثقافات والفلسفات في تفسير القرآن، وراح كل من برع في فن من الفنون يفسر القرآن على الفن الذي برع فيه:

1 - التفسير اللغوية: فاللغوي، والنحوي يهتم بجانب الإعراب ووجوهه، والنحو ومسائله وفروعه وخلافياته، ويكثر من الشواهد النثرية والشعرية كما فعل

منه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

الإسرائيليات وأثرها في التفسير بالمأثور:

قسم العلماء الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول وهو ما علم صحته بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك كتعيين اسم الخضر عليه السلام، إذ ورد فيه حديث صحيح عند البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، أو ما كان له شاهد من الشرع يؤيده.

والثاني: مسكوت عنه: وهو ما لم يعلم صحته ولا كذبه، وهذا القسم تجوز حكايته للغة والعبرة، ولا نؤمن بصحته ولا كذبه امتثالاً لأمر النبي ﷺ: «لا تصنقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...».

والثالث: مرفوض: وهو ما علم كذبه لتناقضه مع شريعتنا أو مخالفته للعقل، ولا يصح تصديقه ولا قبوله ولا روايته، وإذا رواه المفسر في تفسيره وجب عليه بيانه. وقد كان لهذه الإسرائيليات أثر سيئ في التفسير، إذ انخلت فيه كثيراً من القصص الخيالي المخترع، والأخبار المكذوبة، وهذا ما دفع العلماء لمقاومتها، وإخضاعها لمعايير نقد الرواية، وموازين الشريعة لتمييز المقبول من المربود. وبسبب هذه الإسرائيليات تفاوتت الثقة في كثير من التفاسير التي وضعها كبار الأئمة.

(و) أشهر كتب التفسير بالمأثور:

اشتهر من بين هذه الكتب ثمانية، تفاوتت قيمتها عند الأمة بين القبول والرفض، وسنذكرها مع تبيان قيمة كل واحد منها:

1 - جامع البيان لابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ): وهو من أقدم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين بالنقل والعقل، نظراً لما فيه من الروايات والاستنباطات، وترجيح بعضها على بعض، ويقع في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد طبع هذا التفسير في دار المعرفة في بيروت، كما قام العلامة أحمد شاکر رحمة الله بتحقيق نصفه فوافته المنية قبل إتمامه.

2 - بحر العلوم للسمرقندي (المتوفى سنة 373هـ):

صاحبه هو الإمام أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، الفقيه الحنفي المعروف بإمام الهدى، وهو تفسير لطيف مفيد لكنه ينكر الروايات مجردة عن أسانيدها، نون ترجيح، وقد خرج أحاديثه قاسم بن قطلوبغا (المتوفى سنة 854هـ)، وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار بدار الكتب المصرية.

3 - الكشف والبيان للثعالبي - أو الثعالبي - (المتوفى سنة 427هـ): صاحبه أبو إسحاق أحمد بن

وترجع أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى كثرة الوضع، ودخول الإسرائيليات.

أما الوضع فقد كان مصدره أهل البدع والأهواء والفرق، والأقوام الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم يبتغون الكفر بقصد الكيد له وتضليل أهله، فوضعوا الروايات الباطلة في تفسير القرآن ليصلوا إلى أغراضهم، فكثر الروايات، وضمن مؤلفو التفاسير هذه الروايات في كتبهم نون تحرر منهم لصحة أسانيدها؛ لأن منهجهم في التأليف كان إيراد كل ما ورد من الروايات في الآية الواحدة تاركين أمر تمحيصها لثقافة القارئ. ولقد بذل المحذون في هذه الفترة جهوداً جبارة في مقاومة الوضع وتمييز الصحيح من الروايات عن غيره، ووضعوا في ذلك التصانيف، وأنشأوا علم مصطلح الحديث، ووضعوا قواعد دقيقة جداً لمعرفة الصحيح من غيره، حتى ميزوا الصحيح من الموضوع فحفظ الله بهم دينه ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾⁽¹⁾.

(هـ) التفسير والإسرائيليات:

وأما الإسرائيليات: فيمكن تعريفها بأنها الروايات المأخوذة عن اليهود والنصارى في أخبار أممهم السابقة وخصص أنبيائهم، وإن كان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره، وغلب على الجانب النصراني بسبب أغلبية اليهود في تلك الوقت واختلاطهم مع المسلمين في بلادهم، ولقد نزل القرآن بموضوعات وردت في التوراة والإنجيل، كقصة آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وقصة موسى عليه السلام مع قومه اليهود، وقصة عيسى عليه السلام وأمّه مريم، كل ذلك ورد في القرآن الكريم موجزاً يقتصر على ذكر العظة والعبرة من قصصهم نون التعرض لتفاصيل قصصهم، وقد وجد المسلمون تفصيل هذا الإيجاز عند أهل الديانات السابقة بما لا يتعارض مع شريعتهم، فلجأوا إليهم، واقتبسوا منهم، نون تحرر منهم لصحة هذه الأخبار.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أن أهل الكتاب قد حرفوا كتبهم فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾⁽²⁾ وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾⁽³⁾. كما بين النبي ﷺ لأصحابه الموقف الواجب اتخاذه تجاه أهل الكتاب فقال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»⁽⁴⁾ ولكن المسلمين تساهلوا في الأخذ عن أهل الكتاب وهكذا نخلت الإسرائيليات في كتب التفسير، وكانت مصادر الإسرائيليات تدور حول أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وهب بن

(4) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (الحديث: 7542).

(1) سورة يوسف، الآية: 21.

(2) سورة النساء، الآية: 46.

(3) سورة البقرة، الآية: 79.

الجزء الأول في القاهرة، ولا يزال الباقي مخطوطاً، وهو يقع في عشرة مجلدات كبار يوجد منه أجزاء بدار الكتب المصرية.

6 - الجواهر الحسان للثعالبي (المتوفى سنة 876هـ): مؤلفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي المالكي، الإمام الحجة، العالم، الزاهد الورع. وقد اعتمد في تفسيره على تفسير ابن عطية وأبي حيان وزاد عليهما. وهو يذكر الروايات المأثورة بدون أسانيدھا. وإذا نكر الإسرائيليات تعقبها بالنقد والتمحيص. وقد طبع الكتاب في الجزائر في أربعة أجزاء.

7 - الدر المنثور للسيوطي (المتوفى سنة 911هـ): اختصر السيوطي في هذا التفسير كتاباً مسنداً ألفه قبله هو «ترجمان القرآن» جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف بأسانيدھا. ثم رأى حذف أسانيدھا والاقتصار على متونها فقط ونكر من خرجها، فوضع الدر المنثور، وهو حافل بالأحاديث دونما تمييز بين صحيحها وسقيمها ويقتصر من بين سائر الكتب المذكورة سابقاً على الحديث دون غيره، وقد طبع بدار المعرفة في بيروت في ست مجلدات كبار.

إبراهيم النيسابوري المقرئ، المفسر، الحافظ، الواعظ، رأس التفسير والعربية. وقد نكر الثعالبي في مقدمة تفسيره منهجه ومصادره وأسانيدھ إلى من يروي عنه، واكتفى بذلك عن نكر الأسانيد أثناء الكتاب وهو كتاب حافل بالإسرائيليات دون التنبيه عليها، ويوجد منه مخطوط غير كامل في مكتبة الأزهر ينتهي عند أواخر سورة الفرقان.

4 - معالم التنزيل للبغوي (المتوفى سنة 516هـ): صاحبه أبو محمد الحسين بن مسعود، الفراء، البغوي، الفقيه الشافعي، المحدث، وهو من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلامها، جامع للصحيح من الأقاويل. وقال عنه ابن تيمية في أصول التفسير: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة). وقد طبع هذا التفسير مؤخراً بدار المعرفة في بيروت في أربع مجلدات بتحقيق خالد العك ومروان سوار.

5 - المحرر الوجيز لابن عطية (المتوفى سنة 546هـ): مؤلفه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأنلسي المغربي الغرناطي، الحافظ، القاضي، من بيت علم وأدب، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري الغص وأغوص. وقد طبع من هذا التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يسيرة أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معاني يدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وخصهم، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم جزئ نواصيهم وإطلاقهم. ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلفظ مسلكتها، ومستودعات أسرار يدق سلكتها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما نكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحو وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما أونة، وتعب في التنقير عنهما أزمناً، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون أخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقطن النفس دراكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرزمة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريش بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما نفع إلى مضايقه، ووقع في مداخله ومزالقه، (ولقد رأيت) إخواننا في الدين

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعانة مختتماً وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً، وفصله سوراً وسوره آيات، وميز بينهم بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشئ مخترع، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم، أنشاه كتاباً ساطعاً تبيانته، قاطعاً برهانه، وحيماً ناطقاً ببيانات وحجج، قرأنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً نون كل معجز على وجه كل زمان؛ دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أقحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضادة والمضارة، ولقائهم الشرائع على المعازة والمعاراة، ولقائهم نون المناضلة عن حسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن اتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمائرة رموه بمائر، وقد جرد لهم الحجة أولاً والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده على أن السياف القاضب مخراق لآعب إن لم تمض الحجة حده فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب، والصلاة على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشاوخ الغرّة، الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل، وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناعات فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطأ

من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت
الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية
الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن
علي بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده، وهو النكتة
والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم
مناقبهم أعطش الناس كبداً والههبهم حشى وأوفاهم
رغبةً حتى نكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتني
عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشاهدة بقطع
الفيافي وطى المهامم والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل
إلى إصابة هذا الغرض. فقلت: قد ضاقت على
المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورايتني قد أخذت
مني السن، وتقعق السن، وناهزت العشر التي سمتها
العرب نقاعة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من
الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن
السرائر ووفق الله وسنّد، ففرغ منه في مقدار مدة
خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر
تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من
آيات هذا البيت المحرم وبركة أفيضت عليّ من بركات
هذا الحرم المعظم أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه
منه سبباً ينجيني ونوراً لي على الصراط يسعني بين
يدي وييمينني ونعم المسؤول.

من أفاضل الفئة الناجية⁽¹⁾ العلوية، الجامعين بين علم
العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير
آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في
الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف
يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن
ألمي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل،
في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة
والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد،
والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما
الإجابة إليه عليّ واجبة، لأنّ الخوض فيه كفرض العين
ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله
وتقاصر همهم عن أننى عند هذا العلم، فضلاً أن
تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان،
فأملت عليهم مسألة في الفواتح وطائفة من الكلام في
حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال
والجواب طويل النيول والأناب، وإنما حاولت به التنبيه
على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً
ينتحنونه ومثالاً يحتنونه، فلما صمم العزم على معاودة
جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجدت
في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل
ما هم عطشى الأكباد إليّ العثور على تلك المملى
متطلعين إلى إيناسه حراساً على اقتباسه، فهز ما رأيت

(1) هي التي سماها أهل السنة بالمعتزلة فقولوه: إخواننا في الدين يقتضي أنه من المعتزلة ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة
يقول بقول المعتزلة فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم عفى الله عنه.

سورة فاتحة الكتاب

مكية، وقيل: مكية ومننية، لأنها نزلت بمكة مرة، وبالمدينة أخرى، وتسمى أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، وسورة الكنز والوافية لذلك، وسورة الحمد والمثاني لأنها تثني في كل ركعة، وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلةً أو مجزئةً بقراءتها فيها، وسورة الشفاء والشفافية. وهي سبع آيات بالاتفاق إلا أن منهم من عد «اتعمت عليهم» نون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٧﴾ مَلِكٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴿٩﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿١٠﴾ هَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾

قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها. كما بدئ بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا أمين. فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى.

فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره بسم الله اقرأ، وأتلو؛ لأن الذي يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل، وبسم الله ارتحل، وكذلك الذابح، وكل فاعل يبدأ في فعله ببسم الله كان مضمرًا ما جعل التسمية مبدأ له، ونظيره في حذف متعلق الجار قوله عز وجل: ﴿ففي تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾^(١) أي: اذهب في تسع آيات، وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس بالرفاء والبنين،

وقول الأعرابي: باليمن والبركة. بمعنى: أعرست أو نكحت. ومنه قوله: فقلت إلى الطعام فقال منهم:

فريق تحسد الإنس الطعاما

فإن قلت^(٢): لم قدرت المحذوف متأخرًا؟ قلت: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إياك نعبد﴾^(٣) حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله: ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾^(٤).

فإن قلت: فقد قال: ﴿اقرأ باسم ربك﴾^(٥) فقدم الفعل! قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم.

فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قوله: كتبت بالقلم، على معنى: أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتدًا به في الشرع واقعًا على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»^(٦) وإلا كان فعلاً كلاً فعل جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم. والثاني: أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله: تنبت بالدهن على معنى: متبركًا بسم الله اقرأ. وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين. ومعناه: أعرست ملتبسًا بالرفاء والبنين. وهذا الوجه أعرب وأحسن.

فإن قلت: كيف قال الله تبارك وتعالى متبركًا باسم الله؟ ﴿اقرأ﴾ قلت: هذا مقول على السنة العباد كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى آخره. وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه، ويمجبنونه، ويعظمونه.

فإن قلت: من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو: كاف التشبيه، ولام الابتداء، وواو العطف، وفائه، وغير ذلك ... فما بال لام الإضافة، وبائها بنيتا على الكسر؟ قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء. وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون؛ فإذا نطقوا بها مبتدئين زانوا

(1) سورة النمل، الآية: 11.

(2) قال أحمد: وفي قوله إن اسم الله هو: الذي صير فعله معتبراً شرعاً، حيد عن الحق المعتقد، لأهل السنة في قاعدتين أحدهما: أن الاسم هو: المسمى، والأخرى: أن فعل العبد موجود بقدره الله تعالى، لا غير فعلى هذا تكون الاستعانة باسم الله، معناها: اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه، وهو مكحل له لا غير، وأما وجود الفعل فيه، فيأش الله تعالى، أي: بقدرته تسليمًا لله في أول كل فعل، والزمخشري رحمه الله لا يستطيع هذا التحقيق، =

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) سورة هود، الآية: 41.

(5) سورة العلق، الآية: 1.

(6) أخرجه البخاري تعليقاً عن أبي عبيدة، في كتاب: التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب.

= لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم الله تعالى، الذي هو: التسمية معتبر في شرعية الفعل، لا في وجوده إذ وجوده على زعمه بقدره العبد، فعلى ذلك بنى كلامه.

في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح.

فإن قلت: هل تفخم لامة؟ قلت: نعم قد نكر الزجاج: أن تفخيمها سنة وعلى ذلك العرب كلهم وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر. و﴿الرحمن﴾ فعلان من رحم، كغضبان وسكران من غضب وسكر، وكذلك ﴿الرحيم﴾ فعيل منه، كمرريض وسقيم من مرض وسقم. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمَن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، ويقولون إنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الزجاج في الغضبان: هو الممتلئ غضباً. ومما طن على أنني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مركبهم بالشفد، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق. فقلت في طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردت المحمل العراقي. فقال: ليس ذاك اسمه الشدق؟ قلت: بلى. فقال: هذا اسمه الشقنداف. فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة؛ كالديبران، والعيوق، والصعق، لم يستعمل في غير الله عزَّ وجلَّ. كما أنَّ الله من الأسماء الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة: رحمَن اليمامة، وقول شاعرهم فيه:

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فباب من تعنتهم في كفرهم.

فإن قلت: كيف تقول الله رحمَن، أتصرفه أم لا؟ قلت: أقيسه على أخواته من بابه، أعني نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه.

فإن قلت: قد شرط في امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى فلم تمنعه الصرف؟ قلت: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلانة كندمانة، فإذا لا عبرة بامتناع التانيث للاختصاص العارض؛ فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، وهو القياس على نظائره.

فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة، ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطاقها على ما فيها؟ قلت: هو مجاز عن إنعامه على عباده لأنَّ الملك إذا عطف على رعيته وبقَّ لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه، كما أنه إذا انركته الفظاظة والقسوة عطف بهم ومنعهم خيره ومعروفه.

فإن قلت⁽²⁾: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما

همزة لثلا يقع ابتدأهم بالساكن إذ كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة؛ ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة. وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدنها وأستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سم وسم قال: باسم الذي في كل سورة سمه، وهو من الأسماء المحنوفة الأعجاز كيد وبم وأصله سمو بليل تصريفه كاسماء وسمى وسميت واشتقاقه من السمو، لأنَّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بنكره، ومنه قيل للقب النبز من النبز بمعنى النبز: وهو رفع الصوت، والنبز: قشر الخلة الأعلى. **فإن قلت:** فلم حذف الألف في الخط وأثبتت في قوله: ﴿باسم ربك﴾؟ قلت: قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال، وقالوا: طولت الباء تعويضاً من طرح الألف، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه: طول الباء، وأظهر السنات، وبور الميم و﴿الله﴾ أصله الإله قال:

معاذ الإله أن تكون كظبية

ونظيره الناس أصله الأناس قال:

إن المنايا يطلع ن على الإنسان الأمنين
فحذفت الهمزة، وعوض منها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا الله، بالقطع. كما يقال: يا إله، وإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس. اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل. ثم غلب على المعبود بحق، كما أنَّ النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الشريا، وكذلك السنة على عام القحط والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره، ومن هذا الاسم اشتق تاله، وآله، وأستأله. كما قيل: استنوق واستحجر في الاشتقاق من الناقة والحجر.

فإن قلت: الاسم هو أم صفة؟ قلت: بل اسم غير صفة، لا تترك تصفه ولا تصف به لا تقول شيء إله كما لا تقول شيء رجل وتقول: إله واحد صمد. كما تقول رجل كريم خير، وأيضاً فإنَّ صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال.

فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: إله إذا تحير، ومن أخواته له وعله ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنَّ الأوهام تتحير

= العكس، فإنه ترق من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات، وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى، تقول ما فلان تحريراً، وإلا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار، إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى، وكل ذلك مستمدة في عموم الأدنى، وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

(1) قال أحمد رحمه الله: فالرحمة على هذا من صفات الأفعال، ولك أن تفسرها بإرادة الخير، فيرجع إلى صفات الذات، وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة، وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى، فمنهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل.

(2) قال أحمد رحمه الله: إنما كان القياس تقديم الأدنى الوصفين؛ لأنَّ في تقديم أعلاهما ثم الإرداف بانضمامها نوعاً من التكرار، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى، نكره بعده غير مفيد، ولا كذلك =

تجدّده وحديثه. والمعنى: نحمد الله حمداً، ولذلك قيل: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾⁽³⁾ لأنه بيان لحمدهم له. كأنه قيل: كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في إرسالها العراك وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو العراك ما هو من بين أجناس الأفعال والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم. وقرأ الحسن البصري ﴿الحمد لله﴾ بكسر الدال لإتباعها اللام: وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿الحمد لله﴾ بضم اللام لإتباعها الدال. والذي جسرهما على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم: منحدر الجبل ومغيرة تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين. وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة الينائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن: الرب المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوزان. تقول ربه يربه فهو رب: كما تقول: نم عليه ينم فهو نم، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقييد بالإضافة كقولهم: رب الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: ﴿ارجع إلى ربك﴾⁽⁵⁾ ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾⁽⁶⁾ وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ﴿رب العالمين﴾ بال نصب على المدح، وقيل: بما دل عليه الحمد لله. كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين، العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض.

فإن قلت⁽⁷⁾: لم جمع؟ قلت: ليشمل كل جنس مما سمي به.

هو بونه والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحري وشجاع باسل وجواد فياض. قلت: لما قال الرحمن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أرفه الرحيم كالتممة والريف ليتناول ما نى منها ولطف.

الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والثناء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أفانتم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحبب والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه السلام: الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده. وإنما جعله رأس الشكر لأن نكر النعمة باللسان والثناء على موليتها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وأداب الجوارح، لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه. والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران. وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله وأصله النصب⁽⁸⁾ الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم: شكراً وكفراً وعجباً وما أشبه ذلك، ومنها سبحانه ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها، ولذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾⁽⁹⁾ رفع السلام الثاني للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحييتهم، لأنّ الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون

(1) قال أحمد رحمه الله: ولأنّ الرفع أثبت اختار سببويه في قول القائل: رأيت زيداً، فإذا له علم، علم الفقهاء الرفع، وفي مثل رأيت زيداً، فإذا له صوت، صوت حمار النصب، والسر في الفرق بين الرفع والنصب، أنّ في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعاراً بالتجدد، والطرف، ولا كذلك الرفع فإنه إنما يستدعي اسماً نك الاسم صفة ثابتة ألا ترى أنّ المقدر مع النصب نحمد الله الحمد ومع الرفع الحمد ثابت لله، أو مستقر، قال محمود رحمه الله: وتعريف الحمد نحو التعريف في إرسالها العراك، وهو تعريف الجنس ومعناه الخ.

(2) سورة هود، الآية: 69.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) قال أحمد رحمه الله: تعريف التكرار باللام إما عهدي، وإما جنسي، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس، باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد، كالتعريف في نحو، فعصى فرعون الرسول، وإما أن ينصرف العهد فيه إلى الماهية باعتبار يميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في: نحو أكلت الخبز وشربت الماء والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الأحاد نحو الرجل أفضل من المرأة، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها، وإنما يوجب الجنس خاصة، فالزمخشري جعل تعريف الحمد من

(5) سورة يوسف، الآية: 50.

(6) سورة يوسف، الآية: 23.

(7) قال أحمد رحمه الله: تعليقه الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر، فإنّ عالمياً كان قرره اسم جنس عرف باللام الجنسية، فصار العالم وهو مفرد، أدل على الاستغراق منه جمعاً، قال إمام الحرمين رحمه الله: التمر أحرى باستغراق الجنس من التمر، فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمر ترده إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب انتهى كلامه، والتحقيق في هذا، وفي كل ما يجتمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس، أنه يفيد أمرين أحدهما أنّ تلك الجنس تحته أنواع مختلفة، والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها لكن المفيد لاختلاف الأنواع الجمع، والمفيد لاستغراق جميعها للتعريف ألا ترى أنه إذا جمع مجزئاً من التعريف دل على اختلاف الأنواع، ثم إذا عرف أفراد استغراق

ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة، والجلال والدفائق، ومن كونه مالكا للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: ﴿الحمد لله﴾ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله. ﴿إياك﴾ ضمير منفصل للمنصوب والواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك وإياه وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما لا محل للكاف في آريتك وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون. وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فشيء شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿قل اغيبر الله تامروني أعبد﴾ (4) ﴿قل اغيبر الله أبغي رباً﴾ (5). والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة. وقرئ ﴿إياك﴾ بتخفيف الياء، و﴿إياك﴾ بفتح الهمزة والتشديد، و﴿هياك﴾ بقلب الهمزة هاء: قال طفيل الغنوي:

فهياك والأمر الذي إن ترأحت موارده ضاقت عليك مصاربه
والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذل، ومنه: ثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع.

فإن قلت (6): لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم﴾ (7). وقوله تعالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ (8) وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفتات في ثلاثة أبيات:

فإن قلت: هو اسم غير صفة، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام. قلت: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم، قرئ: ملك يوم الدين، وملك وملك بتخفيف اللام، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿ملك يوم الدين﴾ بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿مالك﴾ بالنصب. وقرأ غيره: ﴿ملك﴾ وهو نصب على المدح، ومنهم من قرأ: ﴿مالك﴾ بالرفع، وملك هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لمن الملك اليوم؟﴾ ولقوله: ﴿ملك الناس﴾ (1) ولأن الملك يعم والملك يخص، ويوم الدين يوم الجزاء، ومنه قولهم: «كما تدين تدان» وبيت الحماسة.

ولم يبق سوى العلوا ننامم كما دانوا
فإن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع مجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾.

فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان في تقدير الانفصال كقولك: مالك الساعة أو غداً، فأماً إذا قصد معنى الماضي كقولك: هو مالك عبده أمس أو زمان مستمر، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في ملك يوم الدين، ويجوز أن يكون المعنى ملك الأمور والدين، كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (2) ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ (3) والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: ﴿ملك يوم الدين﴾. وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكا للعالمين لا يخرج منهم شيء من

غير موقوف على الجمعية، إذ هذا حكم مفردة إذا عرف، فقول الزمخشري إذا أن فائدة جمع العالمين الاستفراق مردود بثبوت هذه الفائدة، وإن لم يجمع وقول الإمام الحرمين إن الجمع يؤيد الإشعار بالاستفراق لما نخيله من الرد إلى الوجدان مردود، بل فائدة الجمع الإشعار باختلاف الأنواع، واختلافها لا ينافي استفراقتها بصيغة المفرد المقر من تعريف الجنس، وإن أراد أن الجمع يخيّل الإشارة إلى أنواع محله معبودة، فهذا الخيال يعينه من المفرد، فالعالم إذا جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والإنس والملائكة، وعرف ليفيد عموم الربوبية لله تعالى في كل أنواعه، وتوضيح هذا التقرير أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا أهد متساوية، وهو الذي يسميه غير النحاة: النوع الأسفل، لما جاز جمع هذا بحال، لا معرفاً ولا منكرأ، ويهذه الفائدة يرد قول

- إمام الحرمين إن التمر جمع من حيث اللفظ، لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق، ونياق، وأنيق، وأما تحليل الزمخشري جمعه بالواو والنون، بإشعاره لصفة العلم، فيلحق بصفات من يعقل، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم، وأما على

القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب العاقل، في الجمع على غير العاقل.

- (1) سورة الناس، الآية: 2.
- (2) سورة الأعراف، الآية: 44.
- (3) سورة الأعراف، الآية: 48.
- (4) سورة الزمر، الآية: 64.
- (5) سورة الأنعام، الآية: 164.
- (6) سورة يونس، الآية: 22.
- (7) سورة فلان، الآية: 9.
- (8) قال أحمد رحمه الله: يعني أنه ابتداء بالخطاب، ثم التفت إلى الغيبة، ثم إلى التكلم، وعلى هذا فهما التفتان لا غير، وإنما أراد الزمخشري، والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب خطاب، لاضرر، وغائب، ولنفسه، فوهم بقوله ثلاث التفتات، أو تجعل الأخير ملتفتاً للتفتين عن الثاني، وعن الأول، فيكون ثلاثاً، والأمر فيه سهل.

فإن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع مجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾.

فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان في تقدير الانفصال كقولك: مالك الساعة أو غداً، فأماً إذا قصد معنى الماضي كقولك: هو مالك عبده أمس أو زمان مستمر، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في ملك يوم الدين، ويجوز أن يكون المعنى ملك الأمور والدين، كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (2) ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ (3) والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: ﴿ملك يوم الدين﴾. وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكا للعالمين لا يخرج منهم شيء من

﴿الصراط﴾ الجادة من سرط الشيء إذا ابتلعه؛ لأنه يسترط السابلة إذا سلكره كما سمي لعماً لأنه يلتقمهم؛ والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء كقوله مصيطر في مصيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي وقرئ بهنً جميعاً، وفصاحهن إخلاص الصاد وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام ويجمع سرطاً نحو: كتاب وكتب، وينكر ويؤنث كالطريق والسبيل. والمراد به طريق الحق وهو ملة الإسلام. ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل. كأنه قيل: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ اهدنا ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ كما قال ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾.

فإن قلت: ما فائدة البديل؟ وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم! قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على إبليغ وجه وأكده. كما تقول: هل انك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان. فيكون ذلك إبليغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل انك على فلان الأكرم الأفضل؟ لأنك تثبت نكره مجملاً أولاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته معلماً في الكرم، والفضل. فكأنك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو المشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. ﴿والذين أنعمت عليهم﴾ هم المؤمنون،⁽⁷⁾ وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا. وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: صراط من أنعمت عليهم ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإن قلت: كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، كقوله:

تطاول ليلك بالإتمد ونام الخلسي ولم ترقد
وبك وبانت له ليلة كليلية ذي العائثر الأمد
ولك من نبي إجماني وضبرته عن أبي الأسود
وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من أجرئه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقفه بفوائد ومما اختص به هذا الموضوع أنه لما نكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب تلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: ﴿إياك﴾ يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته.

فإن قلت⁽¹⁾: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها. فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن يراد الاستعانة به وتوقيفه على أداء العبادة ويكون قوله: ﴿اهدنا﴾ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أمينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم. وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجرة بعض. وقرأ ابن حبيش: نستعين، بكسر النون، هدى أصله أن يتعدى باللام أو يالي كقوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾⁽²⁾ ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾⁽³⁾. فعول معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽⁴⁾ ومعنى طلب الهداية وهم مهتدون طلب زيادة مهتدون طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾⁽⁵⁾ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾⁽⁶⁾. وعن علي وأبي رضي الله عنهما: ﴿اهدنا﴾ ثبتنا وصيغة الأمر والدعاء واحدة لأن كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة. وقرأ عيد الله: أرشدنا

(1) قال أحمد رحمه الله: معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء تعالى الله عن ذلك، والثواب عندنا من الإمانة في الدنيا على العبادة، ومن صنوف النعيم في الآخرة ليس بواجب على الله تعالى، بل فضل منه وإحسان، في الحديث، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قول: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا لنا إلا أن يتغمديني الله برحمته» مضافاً إلى دليل العقل المحيل، أن يجب على الله تعالى شيء، لكن قام الدليل عقلاً وشرعاً، على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلاً وشرعاً، وعلى أن خبره تعالى صدق، ووعدته حق، أي: يجب عقلاً أن يقع، فإنما أن يكون الرمششري تسامح في إطلاق الاستيعاب، وأراد وجوب صدق الخبر، وإما أن يكون أضرجه على

= قواعد البديعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى، وإن لم يكن وعد.

(2) سورة الإسراء، الآية: 9
(3) سورة الشورى، الآية: 52.
(4) سورة الأعراف، الآية: 155.
(5) سورة محمد، الآية: 17.
(6) سورة المعنكوت، الآية: 69.
(7) قال أحمد رحمه الله: إن إطلاق الإنعام يفيد الشمول، كقوله إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه، وليس بمسلم، فإن الفعل لا عموم لمصدره، والتحقق أن الإطلاق إنما يقتضي إبهاماً وشيوعاً، والنفس إلى المهيم اشوق، منها إلى المفيد لتعلق الأمل مع الإبهام، لكل نعمة تخطر بالبال.

وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله ﷺ. وعند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ولا الضالين قال: آمين⁽⁶⁾، ورفع بها صوته. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بن كعب: «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلاً؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»⁽⁷⁾. وعن حنيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»⁽⁸⁾.

سورة البقرة

مدنية وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَدَّة

اعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك: ضاد، اسم سمي به ضه من ضرب إذا تهجيته، وكذلك رابا اسمان، لقولك: ره به، وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كاسماتها، وهي حروف وحدان، والأسامي عند حروفها مرتقي إلى الثلاثة، أتجه لهم طريق إلى أن يملوا في التسمية على المسمى، فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى. إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماه لأنه لا يكون إلا ساكناً، ومما يضاهيها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى التلهيل والحوكمة والحيلة والبسطة. وحكمها ما لم تلتها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفة كاسماء الأعداد، فيقال: ألف، لام، ميم، كما يقال: واحد، اثنان، ثلاثة. فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب، تقول: هذه ألف وكتبت ألفاً ونظرت إلى ألف، وهكذا كل اسم عمدت إلى تانية ذاته فحسب قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من

ولقد أمر على اللثيم يسبني

ولأن المغضوب عليهم والضالين خلاف النعم عليهم فليس في غير إن الإيهام الذي يابى عليه أن يتعرف، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب. ورويت عن ابن كثير: ونو الحال الضمير في عليهم، والعامل أنعمت. وقيل: «المغضوب عليهم» هم اليهود، لقوله عز وجل: «من لعنه الله وغضب عليه». والضالون هم النصارى لقوله تعالى: «قد ضلوا من قبل». فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى غضب الله؟ قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. نعوذ بالله من غضبه ونساله رضاه ورحمته.

فإن قلت: أي فرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية؟ قلت: الأولى، محلها النصب على المفعولية، والثانية: محلها الرفع على الفاعلية.

فإن قلت: لم نخلت لا في ولا الضالين؟ قلت: لما في غير من معنى النفي كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيدا غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيدا مثل ضارب، لأنه بمنزلة قولك: أنا زيدا لا ضارب. وعن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قرأ: وغير الضالين. وقرأ أيوب السخيتاني: ولا الضالين، بالهمز. كما قرأ عمرو بن عبدي: ولا جان وهذه لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين، ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شابة ودابة. آمين⁽²⁾. صوت سمي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد وحيهل وهلم أصوات سميت بها الأفعال التي هي أسهل وأسرع وأقبل، وعن ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن معنى: آمين، فقال: «افعل»⁽³⁾، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها. قال: ويرحم الله عبداً قال آميناً⁽⁴⁾. وقال:

أمين فزاد الله ما بيننا بعداً

وعن النبي ﷺ: «لقنني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب»⁽⁵⁾، وقال: إنه كالختم على الكتاب، وليس من القرآن بليل أنه لم يثبت في المصاحف. وعن الحسن: لا يقولها الإمام لأنه داعي. وعن أبي حنيفة رحمه الله مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها؛

(6) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (2875)، وأخرجه النسائي في كتاب الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»، الحديث رقم: (913)، وأخرجه الحاكم في المستدرک: 557/1، وأخرجه البخاري عن ابن سعيد بن المعلی في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (4474)، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في لم القرآن، الحديث رقم: (37).

(7) الشاهد من مسند الدارمي.

(8) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب: سورة المؤمنين.

(1) قال أحمد رحمه الله: أدرج في هذا ما يقتضي عنده وجوب وعيد العصاة، وليس مذهب أهل السنة بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكل إلى المشيئة، فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته، والانتقام منه، فيقع ذلك لا محالة، ومنهم من أراد والله الموفق.

(2) أخرجه الثعالبي بسند واه.

(3) (أمين مثل الطابع على الصحيفة). أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التامين وراء الإمام، الحديث رقم: (938).

(4) قال ابن حجر: لم أجد عن واحد منهما، وقال الزبيطي: غريب جداً.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التامين وراء الإمام، الحديث رقم: (932).

لخصته من الدليل؛ والسبب في أن قصرت متهجاة، ومئت حين مسها الإعراب أن حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه أكثر.

فإن قلت: قد تبين أنها أسماء الحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت: فيه أوجه:

أحدها: وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السور، وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على نكرها في حد ما لا ينصرف بباب أسماء السور، وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب نحو: كهيعص والمر.

والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً كص، وق، ون، أو أسماء عدة مجموعها على زنة مفرد كحم، وطس، ويس، فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك طسم، يتأتى فيها أن تفتح نونها وتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعل اسماً واحداً كدار أبجد. فالنوع الأول محكي ليس إلا، وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب والحكاية: قال قاتل محمد بن طلحة السجاء، أو هو شريح بن أوفى العنسي:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلاتلاحاميم قبل التقدم
فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كلما أعرب من أخواتها لاجتماع سببي منع الصرف فيها، وهما العلمية، والثانيث. والحكاية أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى، كقولك: دعني من تمرتان، وبدأت بالحمد لله، وقرأت سورة أنزلناها. قال:

وجننا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار
وقال ذو الرمة:

سمعت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالاً
وقال آخر:

تناوبوا بالرحيل غداً وفي ترحالهم نفسي
وروي منصوباً ومجروراً، ويقول أهل الحجاز في استعمال من يقول: رأيت زيدا من زيدا، وقال سيبويه: سمعت من العرب لا من أين يا فتى.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ ص، وق، ون مفتوحات؟ قلت: الأوجه أن يقال ذاك نصب وليس بفتح،

تأثيراتها فحك أن تلفظ به موقوفاً. ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقي على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسابنا كيف تصنع، وكيف تلقينا إغفالاً من سمة الإعراب، فنقول: دار، غلام، جارية، ثوب، بساط، ولو أعربت ركبت شططاً.

فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالإسمية، وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين؟ قلت: استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجنناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في أسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك: ألف دلالتة على أوسط حروف. قال: وقام دلالة فرس على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدلالتين. ألا ترى أن الحرف ما دل على معنى في غيره، وهذا كما ترى، دال على معنى في نفسه، ولأنها متصرف فيها بالإمالة. كقولك: باتنا وبالتفخيم كقولك: ياهاء، وبالتعريف، والتذكير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المنصرفة. ثم إنني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك قال سيبويه قال الخليل يوماً وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف⁽¹⁾ التي في لك، والياء التي في ضرب؟ فقيل نقول: بالكاف، فقال: إنما جتمت بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه به، وذكر أبو علي في كتاب «الحجة في يس». وإمالة يا أنهم قالوا: يا زيد في النداء، فأملوا. وإن كان حرفاً قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء فلأن يميلوا الاسم الذي هو يس أجدر. ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها.

فإن قلت⁽²⁾: من أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة؟ أم مبنية؟ قلت: بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكون زيد وعمرو، وغيرهما من الأسماء؛ حيث لا يمسه الإعراب لفقد مقتضيه وموجبه، والدليل على أن سكونها وقف وليس ببناء أنها لو بنيت، لحدى بها حنو كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: ص، ق، ن، مجموعاً فيها بين الساكنين.

فإن قلت: فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مد فقال: هذه باء وياء وهاء. وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك لا مقصورة، فإذا جعلتها اسماً مددت، فقلت: كتبت لاء. قلت: هذا التخيل يضمحل بما

(1) قال أحمد رحمه الله: وسألهم أيضاً كيف ينطقون بالفاء من يقبل، فقالوا: قاف كقولهم الأول فجابهم كجوابه الأول، وقال: أما أنا فاقول قه، فالحق رضي الله عنه أولاً هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانياً همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة، وعلى الوجه الثاني، يحتمل أن يكون أراد أن الفتحه لالتقاء الساكنين نشأت عن سكون الحكاية، فإنها إنما تحكي ساكنة مجردة من سمة الإعراب، فلا تكون الحركة إذا إعراباً؛ إذ لا مقتضى له مع الحكاية، ولا بناء إذ هي معرفة عنده على هذا =

= التقدير، ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية، فتكون الحركة مثلها في أين، وكيف حركة بناء، والأول هو الظاهر من مراده، إذ حتم قيل أنها معربة على أن سيبويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه، قال: وأما ص، فلا يحتاج إلى أن يجعل اسماً أعجمياً؛ لأن وزنه في كلامهم ولكنه يجوز أن يكون اسماً للسورة، فلا يصرف، ويجوز أن يكون أيضاً يس وص اسمين غير متمكنين، فيلزمان الفتح، كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو كيف، وأين، وحيث، وأمس ه كلام سيبويه وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه، أن تكون معربة، وأن فتحها نصب أو لانتقاء =

تجعل الواو للعطف لمخالفة الثاني الأوّل في الإعراب.

فإن قلت: فقدرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: الله لأفعلن، مجروراً ونظيره قولهم: لاه أبوك، غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، وأجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما اشترت إليه. قلت: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما رووا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقسم الله بهذه الحروف⁽³⁾.

فإن قلت⁽⁴⁾: فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر. قلت: وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين، والذي يبسط من عنر المحرك أنّ الوقف لما استمرّ بهذه الأسامي شاكلت، لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات فعولت تارة معاملة الآن، وأخرى معاملة هؤلاء.

فإن قلت⁽⁵⁾: هل تسوّغ لي في المحكية مثل ما سوّغت لي في المعربة من إرادة معنى القسم؟ قلت: لا عليك في ذلك، وإن تقدّر حرف القسم مضمراً في نحو قوله عزّ وجل: ﴿حَمَّ وَالْكَبَّ ابْنَيْ يُحْيَى﴾⁽⁶⁾ كأنه قيل أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المبين، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾. وأمّا قوله ﷺ: ﴿حَمَّ لَا يَبْصُرُونَ﴾⁽⁷⁾، فيصلح أن يقضى له بالجرّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره.

فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت: كأن المعنى في تلك الإشعار بأنّ الفرقان ليس إلا كلمات عربية معروفة معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ كما قال عزّ من قائل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾⁽⁸⁾.

فإن قلت⁽⁹⁾: فما بالها مكتوبة في المصحف على صور

وإنما لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ما نكرت، وانتصابها بفعل مضمّر، نحو: أنكر. وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في حم، وطس، ويس، ولو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أنّ بعضهم قرأ يس، ويجوز أن يقال: حركت لالتقاء الساكنين كما قرأ من قرأ ولا الضالين.

فإن قلت⁽¹⁾: هلا زعمت أنّها مقسم بها، وأنّها نصبت نصب قولهم: نعم الله لأفعلن، وآي الله لأفعلن، على حذف حرف الجر، وإعمال فعل القسم. وقال ذو الرمة:

الأرب من قلبي له الله ناصح

وقال آخر:

فذلك أمانة الله الثريد.

قلت: إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على قسم واحد، وقد استكروها ذلك. قال الخليل في قوله عزّ وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ والنهار إذا تجلّى * وما خلق الذكر والأنثى⁽²⁾ الواوان الأخریان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمّان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. قال سيبويه: قلت للخليل فلم لا تكون الأخریان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى قسمه بالأوّل على شيء لجاز أن يستعمل كلياً آخر فيكون كقولك: بالله لأفعلن، بالله لأخرجنّ اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك، وحق زيد لأفعلن، والواو الأخيرة أو قسم لا يجوز إلا مستكراً. قال: وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلن، فثم ههنا بمنزلة الواو، هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن

= الحكاية لا سكنون البناء، وهو مخالف لنص سيبويه، كما نبهت عليه أيضاً.

(5) قال أحمد رحمه الله: وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم، لما تقدّم وأجاز أن يكون حم في الحديث المنكور، منصوبة على القسم بخلاف حم في القرآن، فنكح يتعين أن يكون نصيباً على إضمار الفعل، أو مجرورة على القسم، وأمّا النصب مع القسم، فلا يبيّزه إلا في الحديث، والفرق عنده، أنّ المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الإعراب، إذ المعطوفات كلها مجرورة، ويتعذر عنده القسم في الثواني، خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد، ولا كذلك الحديث، فإنه لم يأت بعده ما يباه، فلذلك خصّ جواز هذا الوجه بالحديث، وأمّا على الوجه الذي أوضحته، فيعمّ جواز ذلك القرآن، والحديث جميعاً، (قال محمود رحمه الله: فإن قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف الخ).

(6) سورة النخان، الآية: 1، وسورة الزخرف، الآية: 1.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في الرجل ينادي بالشعار، الحديث رقم: (2596)، واللفظ له. وأخرجه الترمذي في كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الشعار، الحديث رقم: (1682). والنسائي في اليوم والليلة، باب: كيف الشعار، الحديث رقم: (620).

(8) سورة يوسف، الآية: 2.

(9) قال أحمد رحمه الله: على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضي الله عنه، في كتاب الانتصار، في الجواب عما نقل عن عثمان رضي الله عنه، أنّ عكرمة لما =

= الساكنين المعارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً، وسيأتي له أيضاً ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البيت. أقول بعد تسليم أنّ الأوّل هو الظاهر من مراده، فما نكره حكاية عن سيبويه غير وارد عليه، لأنه اختار أحد الوجهين.

(1) قال أحمد رحمه الله: وله البقاء على أنها منصوبة على القسم، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل، وسيبويه في أمثاله، ويسلك حينئذ في العطف سبيل:

ولا سائق شيئاً إذا كان جائياً

فإنّ المقسم به، وإن كان منصوباً؛ لأنه محل يعهد، وفيه الخير، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد وههنا أولى بالصحة منه في بيت زهير المنكور، لأنّ انتصاب المقسم به، إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه ليس ناشئاً عن حذف، غايته أن حرف الجر قد يصحّب خبرها بخيلاً، فمراعاة الأصل أجبر من مراعاة العارض، فقد تحرر في فتح ص، وجهان أحدهما: أن يكون إعراباً، وهو إما جر على الوجه الذي إبداه الزمخشري، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه، ثانيهما: أنه لا إعراب ولا بناء، وهو عروضه على الوقف في الحكاية.

(2) سورة الليل، الآية: 1 - 3.

(3) أخرجه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا تحقّق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكّنة، وبذلك على أنّ فتحها التي قال قبل: إنّها لانتقاء الساكنين فتحة بناء أنه إنما أراد السكنون العارض في =

أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى رده، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: فلان يروي قفا نيك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: الحمد لله، وبراءة من الله ورسوله، ويوصيكم الله في أولادكم، والله نور السموات والأرض، وليست هذه الجمل باسمي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية واستقيد منها ما يستفاد من التسمية قالوا: تلك على سبيل المجاز دون الحقيقة، وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة حضرموت، فإيماً غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية كما سموا بتأبط شراً، وبرق نحره، وشاب قرناها، وكما سمي بزيد منطلق، أو بيت شعر، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم دلالة قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتها فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً لأنها تسمية مؤلف بمفرد، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه كقولهم: صاد. فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً، الوجه الثالث: أن ترد السور مصدرية بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف انفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسماء الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة. كما قال عز وجل: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا خطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ (2) فكان حكم

الحروف انفسها لا على صور اسمائها؟ قلث: لأن الكلم لما كانت مركبة من نوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت، ومتى قيل للكاتب: اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف نفسها؛ عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، وأيضاً فإن شهرة أمرها وإقامة السن الأسود والأحمر لها، وأن الالفاظ بها غير منهجاة لا يحلى بطائل منها، وأن بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده، أمئت وقوع اللبس فيها، وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بصير ولا نقصان لاستقامة اللفظ، وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه المترجم بكتاب «الكتاب المتمم في الخط والهجاء»: خطان لا يقاسان خط المصحف لأنه سنة، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبتته اللفظ، ويسقط عنه ما أسقطه. (1) الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن، وبغرابة نظمه، وكالتحريك النظر في أن هذا المثلث عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤيدهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم بونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهاكون على الافتتان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي برزت بلاغة كل ناطق وشقت غبار كل سابق ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح عين البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر، وإنه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوة والخلافة بالقبول بمنزل ولناصره على الأول أن يقول: إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبواً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء، وأربعة، وخمسة والقول بأنها أسماء السور حقيقة يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدي

= لأنه غاية الصناعة، ونهاية البراعة لولا الإخلال بلطيفة لو سلكتها لتعت فصاحتها، وهي أنه بنى أول الكلام على النفي، وطول فيه حتى انتهى إلى الإثبات، فكان أول الكلام رهيباً لآخره يفهم على الضد، حتى ينقض على البعد، فهو كما انتقد على أبي الطيب قوله في الخيل:

ولا ركبت بها إلا إلى ظفر ولا حصلت بها إلا على أمل
فإنه صدر الصدور والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب في العرض، مستدركاً بعد، وإنما يؤخذ بهذا مثل أبي الطيب، والزمخشري؛ لأن لهما في مراتب الفصاحة علواً يظن السامع، لمثل هذا النقد.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 48.

= عرض عليه المصحف، وجد فيه حرفاً من اللحن، فقال لا يغيروها، فإن العرب ستقيها بالسنتها، فلو كان الكاتب من ثقيف، والمثل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف قال القاضي: وإنما قال عثمان رضي الله عنه ذلك، لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء، وهذيلاً كانت تظهر الهمز والهمزة إذا ظهرت في لفظ الملل كتبها الكاتب على صورتها، فما أراد عثمان رضي الله عنه، إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط، مثل كتابة الصلوة والزكوة بالواو لا بالالف، قال القاضي: وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة، وأما الخط، فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم الخط، أه كلاه.

(1) قال أحمد رحمه الله: إنما أردت هذا الفصل في كلام الزمخشري: =

نقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطوائف التنزيل واختصاراته، فكان الله عزَّ اسمه عدَد على العرب الالفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التثبيت لهم والزمام الحجة إياهم. (2) ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءت في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر.

فإن قلت: فهلا عدت بأجمعها في أول القرآن، ومالها جاءت مفردة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقديره.

فإن قلت: فهلاً جاءت على وتيرة واحدة، ولم اختلفت أعداد حروفها؟ فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين. وآم، وآر، وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر على أربعة أحرف، وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف؟ قلت: هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك.

النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأفاضل المنكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالبطانة من غير أن يسمعا من أحد. واعلم (1) أنك إذا تأملت ما أورده الله عزَّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء هي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتتة على أنصاف الحروف بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقة نصفها: القاف والطاء، ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألقى الله نكرها من هذه الأجناس المعهودة مذكورة بالمنكورة منها، فسبحان الذي

= منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان، وبين الصمت، فالحق أنهما صنفان ضعيف تمييزهما، فلم يعتبر جريانها على النمط المستمر في غيرهما من الأصناف البين امتيازها، وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقة، وذكر أن المذكور منها النصف القاف، والطاء، وهم، فإنها خمسة أحرف لم يذكر منها في الفواتح، سوى الحرفين المنكورين، وعلى الجملة، فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه، يمكن الاستئناس إليه.

(2) قال أحمد رحمه الله: الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل، فعندما عدَّ الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح، قال إنها نصف حروف العربية، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفاً، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد، إما اللينة أو الهمزة، وإلا كانت تسعة وعشرين، والظاهر أن الساقط الهمزة، وعندما قال في تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الألفين في العدد، والظاهر من كلامه أن الألف عنده هي اللينة، فلذلك على تسميتها بالألف بان النطق لما تعذر بها أولاً استقرت الهمزة مكانها وفاء، بمرعاة تلك اللطيفة التي قُدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه، وأما عند النحاة، فالألف المعهودة في حروف المعجم مفردة، هي: الهمزة وأما اللينة، فهي المعهودة مع اللام، حيث يقولون لام الف، ويكتبونها على صورة لا.

(1) قال أحمد رحمه الله: بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد نكر تعالى نصفها الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء، والمطبقة، وقد نكر تعالى نصفها الصاد، والطاء، والمنفتحة: وقد نكر نصفها الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء، وحروف الصغير لما كانت ثلاثاً: السين، والصاد، والزاي لم يكن لها نصف، فنكر منها اثنين السين، والصاد، وتلك العادة المانوسة فيما يقصد إلى تنصيفه، فلا يمكن، فبميت الكسر ألا ترى طلاق العبد، وعدة الأمة، ونحو ذلك، والحروف اللينة، وهي: ثلاثة الألف، والياء، والواو، ونكر منها اثنين الألف، والياء كحروف الصغير، والمكرر، وهو الراء، والهاوي، وهو الألف، والمنحرف، وهو اللام، وقد نكرها، ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط، إلا ما بين الشديد، والرخو، فإنه لم يقتصر منها على النصف: لأن ما نكر منها زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاقتصاد لها كالشديدة، والرخوة فلم يكن بها عناية، وأما حروف الذلاقة، والمصمتة، فالصحيح أن لا يعدا صنفين، ولمن عدما صنفين متميزين خبط طويل في جهة تمييزهما، حتى أبعث الزمخشري في مفصله في تمييزهما، فقال حروف الذلاقة، التي يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان، أي: طرفه، وهو تميز مردود جداً، لأن من جملتها الميم، والياء، والفاء، ولا مدخل لطرف اللسان فيها، ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمتة، إذ المصمتة مفسرة عنده، بانها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية، فما زاد =

القسم بها وكونه بمنزلة الله والله على اللغتين، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأة والمفردات المعنودة.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

فإن قلت⁽⁶⁾: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟ قلت: وقعت الإشارة إلى ﴿الْم﴾ بعدما سبق التكلم به وتقصي، والمتقصي في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام، يحث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه، ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: ﴿لا فإرض ولا بكر عوان بين ذلك﴾⁽⁷⁾ وقال: ﴿ذلكم مما علمني ربِّي﴾⁽⁸⁾ ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك، وقيل: معناه ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت⁽⁹⁾: لم نكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؟ قلت: لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته، فإن جعلته خبره كان ذلك في معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير كما أجرى عليه في التانيث في قولهم: من كانت أمك. وإن جعلته صفته فإنما أشير به إلى الكتاب صريحاً لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له تقول هند: ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا. وقال النيباني:

نبئت نعمي على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذلك العائب⁽¹⁰⁾ الرازي⁽¹¹⁾
فإن قلت: أخبرني عن تاليف ﴿ذلك الكتاب﴾⁽¹²⁾ مع ﴿الْم﴾ قلت: إن جعلت ﴿الْم﴾ اسماً للسورة ففي التاليف وجوه أن يكون ﴿الْم﴾ مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول، ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كان ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستاهل أن يسمى كتاباً كما تقول: هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال:

هم القوم كل القوم يا أم خالد

فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه والمبايعة كلها في تادية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمي الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً لم يقل له لم خصصت ولك هذا يزيد وذلك بعمرو؟ لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك، ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل، وذلك بالفرس، ولم قيل للاعتماد الضرب، وللاختصاص بالقيام، ولتقيضه القعود؟

فإن قلت: ما بالهم عدواً بعض هذه الفواتح أية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كعرفة السور، أما الم فآية حيث وقعت من السور المفتحة بها وهي ست، وكذلك المص أية، والمر لم تعد أية، والر ليست بأية في سورها الخمس، وطسم أية في سورتها، وطه، ويس آيتان، وطس ليست بأية، وحم أية في سورها كلها. وحمعسق آيتان، وكهيعص أية واحدة، وص وق ون ثلاثها لم تعد أية. هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لم يعدوا شيئاً منها أية.

فإن قلت: فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة أية؟ قلت: كما عد ﴿الرحمن﴾⁽¹⁾ وحده و ﴿مدهامتان﴾⁽²⁾ وحدهما آيتين على طريق التوقيف.

فإن قلت: ما حكمها في باب الوقف؟ قلت: يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينطق بالأصوات، أو جعلت وحدها إخبار ابتداء محذوف كقوله عز قاتلاً: ﴿الْم * الله﴾ أي هذه ﴿الْم﴾⁽³⁾ ثم ابتداء فقال: ﴿الله لا إله إلا هو﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب؟ قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور لأنها عند كسائر الأسماء الاعلام.

فإن قلت⁽⁵⁾: ما محلها؟ قلت: يحتمل الأوجه الثلاثة: أما الرفع فعلى الابتداء، وأما النصب والجر فلما مر من صحة

(1) سورة الرحمن، الآية: 1.

(2) سورة الرحمن، الآية: 64.

(3) سورة آل عمران، الآية: 1.

(4) سورة آل عمران، الآية: 2.

(5) قال أحمد رحمه الله: وإنما جاز النصب مع القسم، فيما لا يعقبه معطوف مجرور، فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص، وق، ون، فإنه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة، ويحمل على إضمار فعل، أو على أن الفتح في موضع الجر، وأما على وجه بدئه، فيما تقدم، فيجوز النصب مع القسم في جميعها، فجدد به عهداً، وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيبويه في كتابه. قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾.

(6) قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواء، ما يقطعون بتم للإشعار بتراخي المراتب، وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه، وسيأتي أمثاله.

(7) سورة البقرة، الآية: 68.

(8) سورة يوسف، الآية: 37.

(9) قال أحمد رحمه الله: ولو مثل ذلك بقول القائل حصان كانت دابتك، لكان أقوم، وأسلم من الفرق بما في لفظ من الإبهام الصالح للمذكر والمؤنث ومثل هذا قوله يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فيمن وصل الكلام، ففعل هم العدو جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان، وعدل عن أن يقول هي العدو، نظراً إلى به المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصيحة، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى، وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري، وتسمى الجملة بالتاء، والياء عقيب قوله، والكلام هو المركب من كلمتين بهذا التوجيه. قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾.

(10) العائب: نو عنب.

(11) الرازي الذي يروي العنب.

(12) سورة البقرة، الآية: 2.

كتاباً آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله: ﴿لا فيها غول﴾ تفصيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي. كانه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والتقصية. وقرأ أبو الشعثاء: لا ريب فيه، بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة أنّ المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوزه، والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفنا على ﴿لا ريب﴾، ولا بد للواقف من أن ينوي خيراً ونظيره قوله تعالى: ﴿قالوا لا ضير﴾⁽⁴⁾ وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير لا ريب فيه. ﴿فيه هدى﴾ الهدى مصدر على فعل كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بليل وقوع الضلالة في مقابله. قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾⁽⁵⁾. وقال تعالى: ﴿العلی هدی أو فی ضلال مبین﴾⁽⁶⁾. ويقال: مهدي في موضع المدح كمهتبه، ولأن اهتدى مطاوع هدى، ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله. لا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه ذلك.

فإن قلت⁽⁷⁾: فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون؟ قلت: هو كقولك للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته. كقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾⁽⁸⁾ ووجه آخر وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»⁽⁹⁾. وعن ابن عباس: إذا أراد أحدكم الحج فليحجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة وتكتنف الحاجة. فسمي المشارف للقتل والمرض والضلال قتيلاً ومريضاً وضالة. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفراً﴾⁽¹⁰⁾ أي: صائراً إلى الفجور والكفر.

فإن قلت: فهلا قيل هدى للضالين؟ قلت: لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقيين على الضلالة، فبقي أن يكون هدى لهؤلاء.

وأن يكون الكتاب صفةً ومعناه هو ذلك الكتاب الموعد، وأن يكون ألم خبير مبتدأ محذوف أي هذه ألم، ويكون ذلك خبيراً ثانياً أو بدلاً على أنّ الكتاب صفة، وأن يكون هذه ألم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى، وإن جعلت ألم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدر مبتدأ محذوف أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: ألم تنزّل الكتاب لا ريب فيه، وتألّف هذا ظاهر، والريب مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشك ريبة وإنّ الصنق طمانينة»⁽¹⁾. أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحاً صافياً مما تطمئن له وتسكن. ومنه ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوابه، ومنه أنه مر بظبي حاقف فقال: «لا يربه أحد بشيء».

فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه؟ قلت: ما نفى أنّ أحداً لا يرتاب فيه، وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾⁽²⁾. فما أبعد وجود الريب منهم، وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروّزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل بونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

فإن قلت: فهلا قتم الظرف على الريب كما قتم على الغول في قوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾⁽³⁾؟ قلت: لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفى الريب عنه وإثبات أنّه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعون، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أنّ

والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه أولئك الذين هدى الله، فبهادهم اقتده، فإنما ثبت وروده على المعنيين، فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيين جميعاً، وأمّا قول الزمخشري إنّ القرآن لا يكون هدى للمعلوم بقاؤهم على الضلالة، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم، وأمّا إذا أريد معناه الأول، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين، وبين للناس ما نزل إليهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من حققت عليه الضلالة هذا مذهب أهل السنة.

- (8) سورة الفاتحة، الآية: 6.
 (9) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلاً فله سلبه.. الحديث رقم: (3142)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: استحقاق القتال سلب القتيلى، الحديث رقم: (4541).
 (10) سورة نوح، الآية: 27.

- (1) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (60)، الحديث رقم: (2518)، وقال حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرک 13/2 و99/4، وأخرجه البيهقي في: شعب الإيمان، باب: في المطاعم والمشارب، فصل: في طيب المطعم والملبس، الحديث رقم: (5747).
 (2) سورة البقرة، الآية: 23.
 (3) سورة الصافات، الآية: 47.
 (4) سورة الشعراء، الآية: 50.
 (5) سورة البقرة، الآية: 16.
 (6) سورة سباء، الآية: 24.
 (7) قال أحمد رحمه الله: الهدى يطلق في القرآن على معنيين: أحدهما الإرشاد، وإيضاح سبيل الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿وأمّا ثمود فهديناهم﴾ فاستحبوا العمى على الهدى، وعلى هذا يكون الهدى للضال، باعتبار أنه رشد إلى الحق سواء حصل له الاهتداء أولاً =

للمتقين ﴿ فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبنا هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة.

ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشقه.

وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة.

وفي الثالثة: ما في تقديم الربيب على الظرف.

وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هادٍ وإيراده سكرًا، والإيجاز في نكر المتقين زاننا الله اطلاعا على أسرار كلامه، وتبييننا لنكت تنزيهه وتوفيقاً للعمل بما فيه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُسِرُّونَ الْأَسْرَارَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة أو مدح منصوب أو مرفوع بتقدير أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون. وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ ﴿أولئك على هدى﴾ (4) فإذا كان موصولاً كان الوقف على المتقين حسناً غير تام، وإذا كان مقتطعاً كان وقفاً تاماً.

فإن قلت: ما هذه الصفة أوردة بياناً وكشفاً للمتقين، أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها، أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيدياً؟ قلت: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات. أمّا الفعل فقد انطوى تحت نكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها ونكر الصلاة والصدقة، لأن هاتين أمّا العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما. ألم تر كيف سمي رسول الله ﷺ «الصلاة عماد الدين»؟ (5) وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة؟ وسمى الزكاة قنطرة الإسلام؟ وقال الله تعالى: ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة﴾ (6) فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجرار سائر العبادات

فلو جاء بالعبرة المفصحة عن نكته لقيت هدى للصابغين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي نكرنا فقيل: هدى للمتقين، وإيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أولى الزهراويين، وسنام القرآن، وأول المثاني بنكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

والمتقي: في اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة، ومنه فرس وآق، وهذه الدابة تقي من وجاها إذا أصابه ضلع من غلظ الأرض وريقة الحافر فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. واختلف (1) في الصغائر وقيل: الصحيح أنه لا يتناولها لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر. وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر. ومحل ﴿هدى للمتقين﴾ (2) الرفع لأنه خير مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه، ويجوز أن ينصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال: إن قوله: ﴿الْم﴾ (3) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿نكلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة، و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جاء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نَبّه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من الربيب فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص انقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لنكت؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تضاهل افتضاحاً، ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن تمنى القدرية على الله تعالى، اعتقدهم أن الصغائر محورة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وأنه يجب أن يعفو الله عنها، لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحاذة آيات الله البيّنات، وسنن رسول الله ﷺ الصراح، والحق أن غفران الصغائر، وإن اجتنبت الكبائر موكول إلى المشيئة، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضاً، ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فإنه ناطق بالمؤخذة بالصغائر، ويحجرون عند قوله تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ فإنه مصرح بمغفرة الكبائر، أمّا أهل السنة، فقد القوا بين هاتين الآيتين، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

= يشاء﴾ فإن التقييد بالمشيئة في هذه، يقضي على الآيتين المطلقتين. قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 2.

(3) سورة البقرة، الآية: 1.

(4) سورة البقرة، الآية: 5.

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات الحديث رقم: (2807)، أما حديث معاذ فأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، الحديث رقم: (2616)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة الحديث رقم: (242)، وأخرجه الطبراني الجامع الصغير 2/ 281 الحديث رقم: (4589).

(6) سورة فصلت، الآيات: 6، 7.

قبيل والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلنناه أو نصب لنا ليلياً عليه، ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب، وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوت وما يتعلق بها، والبعث، والنشور، والحساب، والوعد، والوعيد، وغير ذلك، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما الإيمان الصحيح؟ قلت: أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله، فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق. ومعنى إقامة الصلاة، تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيع في فرائضها وسننها وأدائها، من أقام العود إذا قومته، أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾⁽⁵⁾، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾⁽⁶⁾. من قامت السوق إذا نفقت وأقامها قال:

أقامت غزالة سوق الضراب لاهل العرأتين حولاً قميطاً
لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه، أو التجلد والتشمر لأدائها، وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها، ولا توارٍ من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه، إذا تقاعس وتبسط. أو أدائها فعبّر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها، كما عبّر عنه بالقنوت والقنوت القيام، وبالركوع وبالسجود. وقالوا: سبح، إذا صلى لوجود التسبيح فيها فولوا أنه كان من المسبحين. والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلويين لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، ونظيره: كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه واتحنى عند تعظيم صاحبه لأنه يئنثني على الكانتين وهما الكافرتان. وقيل للداعي مصلى تشبيهاً في تخشعه بالراكع والساجد⁽⁷⁾.

واستتباعها، ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، وأما الترك، فكذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽¹⁾ ويحتمل أن لا تكون بياناً ﴿للمتقين﴾ وتكون صفةً براسها دالةً على فعل الطاعات، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي، ويحتمل أن تكون منحاً للموصوفين بالتقوى وتخصيصاً للإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بالذكر إظهاراً لإناقته على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات. والإيمان أفعال من الأمن. يقال: أمنته وأمنتيه غيري، ثم يقال: أمنه، إذا صدقه. وحقيقته أمنه التكنيب والمخالفة، وأما تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقر وأعترف، وأما ما حكى أبو زيد عن العرب: ما أمنت أن أجد صحابةً، أي: ما وثقت، فحقيقته صرت ذا أمن به، أي: ذا سكون وطمانينة. وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب، أي: يعترفون به أو يثقون بأنه حق، ويجوز أن لا يكون بالغيب صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته ملتبسين بالغيب، كقوله: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾⁽²⁾ ليعلم أني لم أخنه بالغيب، ويعضده ما روي أن أصحاب عبد الله نكروا أصحاب رسول الله ﷺ وإيمانهم، فقال ابن مسعود: إن أمر محمد كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية.

فإن قلت: فما المراد بالغيب إن جعلته صلة وإن جعلته حالاً؟ قلت: إن جعلته صلةً كان بمعنى الغائب إما تسمية بالمصدر من قولك غاب الشيء غيباً كما سمي الشاهد بالشهادة، قال الله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾⁽³⁾ والعرب تسمي المطمئن من الأرض غيباً. وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها، يريد بالغيب الخمصة التي تكون في موضع الكلية إذا بطنت الدابة انتفتحت، وإما أن يكون فيعلا فخفف كما قيل قبل وأصله

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 49.

(3) سورة السجدة، الآية: 6.

(4) قال أحمد رحمه الله: يعني بالفاسق غير مؤمن، ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية، وما أنزل الله بها من سلطان، ومعتقد أهل السنة أن الموحّد لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن، وإن ارتكب الكبائر، وهذا الصحيح لغةً وشرعاً، أما لغة فإن الإيمان هو التصديق، وهو مصدق، وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان، دل على أن الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان، لكان العطف تكراراً، وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة، بقوله: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه، وصدقه بعمله، فجعل التصديق من حظ العمل، حتى يتم له أن من لم يعمل، فقد فوت التصديق الذي هو الإيمان لغةً، ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب، ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح، =

= فما يحق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله، ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح، فهو مؤمن باتفاق، وإن لم يعمل وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿إن أحبكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقةً عمل بعمل أهل الجنة؛ فكتب من أهل الجنة؛ وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بوقاق الناقة: لأنه الغاية في القصر، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة، ومع ذلك، فقد عدّه من أهل الجنة، وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين، والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً.

(5) سورة المعارج، الآية: 23.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 9.

(7) قال أحمد رحمه الله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يبرق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يبرقه لنفسه، حتى يقسمون الأرزاق قسمين، هذا لله بزعمهم وهذا لشركائه، وإذا

﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: قوله ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ إن عني به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم. فكيف قيل: ﴿أنزل﴾ بلفظ الماضي؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومتروقه واجب. **قُلْتُ:** المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه متروقاً تغليّباً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب فيقال: أنا وأنت فعلنا، وأنت وزيد تفعلان. ولأنه إذا كان بعضه نازلاً وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله ويبدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾⁽¹⁾ ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله منزلاً ولكن سبيله سبيل ما نكرونا ونظيره قولك: كل ما

خطب به فلان فهو فصيح، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر. ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب دون الآتي لكونه معقوداً بعضه ببعض ومرتبواً آتية بماضيه. وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على لفظ ما سمي فاعله، وفي تقديم الآخرة وبناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على هم تعويض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من أمن ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، والآخرة تأنث الآخر الذي هو نقيض الأول وهي صفة الدار بلبيل قوله: ﴿تلك الدار الآخرة﴾⁽²⁾ وهي من الصفات الغالبة وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام كقوله: ﴿دابة الأرض﴾⁽³⁾ وقرأ أبو حية النميري يُوقِنُونَ بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه فقلها قلب واو وجوه ووقنت ونحوه.

لحب المؤقدان إلى موسى وجعدة إذ أضاءهما الوعود
أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿أولئك على هدى﴾ الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ونظم الكلام على الوجهين إنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهب به مذهب الاستئناف، وذلك أنه لما قيل: هدى للمتقين، واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر، وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلفظ بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي: الذين

وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه، وأنخل من التبعية صيانة لهم وكفاً عن الإسراف والتبذير المنهي عنه، وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم. كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة لاقرانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة، وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبيل الخير لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق، وأنفق الشيء وأنفده أخوان، وعن يعقوب: نفق الشيء ونفذ واحد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فдал على معنى الخروج والذهاب، ونحو ذلك إذا تأملت.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿والذين يؤمنون﴾ أهم غير الأولين أم هم الأولون، وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد وفي قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزبح
وقوله:

يالهف زيباة للحارث الصـ ابح فالغانم فالأبيب
قُلْتُ: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا فاشتمل إيمانهم على كل وحى أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واجتماعهم على الإقرار بالنشأة الأخرى، وإعادة الأرواح في الأجساد، ثم افتراقهم فرقتين منهم من قال: تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمنالك على حسب مجراها في الدنيا. ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسييم، والأرواح العبيقة، والسماع اللذيذ، والفرح، والسرور، واختلافهم في اللوام والانقطاع، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه.

فَإِنْ قُلْتَ: فإن أريد بهؤلاء غير أولئك فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟ **قُلْتُ:** إن عطفهم على الذين يؤمنون بالغيب نخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على المرتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم، وإن عطفهم على المتقين لم يدخلوا. وكأنه قيل: ﴿هدى للمتقين﴾ وهدى للذين

(1) سورة الأحقاف، الآية: 30.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

(3) سورة سبأ، الآية: 14.

== اثبتوا خالقاً غير الله، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره، أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقدهم، إلا الله سبحانه تصديقاً بقوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو، فإني أتفكرون﴾ ليها القدرة.

العاطف، بخلاف الخبيرين ثمة فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيهم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مفرّدة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفانثت الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه بون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. ومعنى التعريف في المفلحون الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة؛ كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل: زيد التائب، أي: هو الذي أخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوّروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعنون تلك الحقيقة. كما

تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ أن زيدا هو هو، فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي نكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قتموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتعني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، اللهم زينا بلباس التقوى واحشرنا في زمرة من صدرت بنكرهم سورة البقرة، والمفلح الفائز بالبقية، كأنه الذي انتفتحت له

وجوه النفر ولم تستغل عليه. والمفلح بالجيم مثله، ومنه قولهم للمطلقة: استفلحي بأمرك بالحاء والجيم، والتركيب دال على معنى الشق والفتح، وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو: فلق وفلد وفلى. لما قدم نكر أولياته وخاصة عباده بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلغى عنده، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة قفى على أثره بنكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته.

فإن قلت: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف؟ كنحو قوله: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾⁽²⁾ وغيره من الآي الكثيرة. قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما نكرت لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لنكر الكتاب وأنه هدى للمتقين، وسبقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت فبين الجمليتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف.

فإن قلت: هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين، فأمّا إذا ابتدأه وبينت الكلام لصفة المؤمنين ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم كان مثل تلك الآي المتلوّة. قلت: قد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف وأنه مبني على تقدير سؤال، فلذلك إدراج له في حكم المتقين وتابع له في المعنى وإن كان مبتدأ في

هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح، ونظيره قوله: أحبّ رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا بونه وكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين وقع الاستئناف على أولئك كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا بون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح أجلاً. وأعلم أن هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه.

فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم الإشارة الذين هو أولئك إيدان بأن ما يرد عقبيه فالمنكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدت لهم كما قال حاتم: والله صلوك ثم عند له خصالاً فاضلة ثم عقب تعييدها بقوله:

فإنك إن يهلك فحسنى ثناؤه وإن عاشر لم بقعد ضعيفاً منمماً
ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً وأمطى الجهل واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هدى من ربهم﴾ أي: منحوه من عنده وأوتوه من قبله وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي إلى الأفضل فالأفضل، ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كأنه قيل: على أي هدى؟ كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وقال الهنلي:

فلا وأبى الطير المرية بالضحي على خالد لقد وقعت على لحم
والنون في من ربهم أدغمت بغنة وبغير غنة. فالكسائي وحزمة ويزيد وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها، وقد أغنها الباقون إلا أبا عمرو فقد روي عنه فيها روايتان. وفي تكرير ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها.

فإن قلت: لم جاء مع العاطف، وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾⁽¹⁾؟ قلت: قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل

(2) سورة الانفطار، الآيات: 13، 14.

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

والتعريف في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم كآبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وأن يكون للجنس متناولاً كل من صمم على كفره تصميماً لا يروعى بعده وغيرهم، ودل على تناوله للمصريين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم. و﴿سواء﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾^(١) ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾^(٢) بمعنى مستوية، وارتفاعه على أنه خبر لأن. وأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع المرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون أنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء، وسواء خبراً مقدماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن.

فإن قلت: الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء^(٣) وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعني، أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استوائهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا يعينه فكلاهما معلوم بعلم غير معين. وقرئ: ﴿أنذرتهم﴾ بتحقيق الهمزتين والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققتين وبتوسيطها، والثانية بين بين، ويحذف حرف الاستفهام، ويحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله. كما قرئ: ﴿قد

أفلح﴾^(٤)

فإن قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلت: هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حده، وحده أن يكون الأول حرف لين، والثاني حرفاً مدغماً، نحو قوله: ﴿الضالين﴾^(٥) وخويصة، والثاني إخطاء طريق التخفيف لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح قبلها أن تخرج بين بين، وأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس، والإنذار التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي.

فإن قلت: ما موقع ﴿لا يؤمنون﴾؟ قلت: إما أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبراً لأن، والجملة قبلها اعتراض.

حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

الختم والكتم: أخوان لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية لثلاً يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاوة: الغطاء، فعلة من غشاه إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة.

فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والاسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فإن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرهما من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجج وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها عين المعتبرين المستبصرين، كأنما غطي عليها وحجبت وبينها وبين الإدراك. وأما التمثيل فإن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعى ختماً عليه فقال:

ختم الإله على لسان عذافر ختماً فليس على الكلام بقافر

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.

(2) سورة فصلت، الآية: 10.

(3) قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه، فالهمزة المعادلة لـ دام موضوعة في الأصل، للاستفهام عن أحد متعاليين في عدم علم التعيين، فنقلت إلى مطلق المعادلة، وإن لم يكن استفهاماً واستعملت في الجزء الحقيقي، وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل، لتخصيص المنادي بالدعاء، ثم نقل إلى مطلق التخصيص، ولا نداء كما يكون المجاز بالتخصيص.

= والقصر مثل تخصيص الدابة بنوات الأربع، وإن كانت في الأصل لكل ما دب، فقد يكون بالتعميم، والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً، نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص، وهو الحيوان المعروف إلى كل موصوف، بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي. قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ الآية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 1.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 7.

وإذا أراد النطق جُلت لسانه لِحماً يحركه لصقِر ناطر
فإن قلت⁽¹⁾: فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه
يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو
قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ولعلمه بقبحه
وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وما أنا
بظلام للعبيد⁽²⁾﴾ ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم
الظالمين⁽³⁾﴾ **إن الله لا يامر بالفحشاء⁽⁴⁾**، ونظائر ذلك
مما نطق به التنزيل. **قلت**: القصد إلى صفة القلوب بأنها
كالمختوم عليها وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه
على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء
الخالقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول
على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه،
وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على
الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد

بعذاب عظيم، ويجوز أن تضرب الجملة كما هي وهي
﴿ختم الله على قلوبهم⁽⁵⁾﴾ مثلاً كقولهم: سال به الوادي
إذا هلك، وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة. وليس للوادي
ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته، وإنما هو
تمثيل مثلث حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي
طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكنك مثلث حال
قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب
ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام التي هي في خلوها عن
الظن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو
بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً
ولا تفقه، وليس له عز وجل فعل في تجافياها عن الحق
ونبورها عن قبوله وهو متعالٍ عن ذلك، ويجوز أن يستعار
الإسناد في نفسه من غير الله فيكون الختم مسنداً إلى
اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره، حقيقة تفسير هذا

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا أول عشاء خطبها في مهواة من الأهواء
هبطها، حيث نزل من منصة اللحن إلى حضيض تأويله ابتغاء
الفتنة استبقاء، لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على
ضلالات أدها وأردها. الأولى: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله
تعالى، ومقتضاه أنه لا حاد إلا بقدرته الله تعالى، لا شريك له،
والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث، فوجب انتظامه في
سلك متعلقات القدرة العامة المتعلق بالكائنات والممكنات. الثانية:
مخالفة دليل النقل المضاهي للدليل العقل، كأمثال قوله تعالى:
﴿الله خالق كل شيء﴾ هل من خلق غير الله، وهذه الآية أيضاً،
فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصاً، والزمخشري رحمه الله
لا يابى ذلك، ولكنه يدعي الاتجاه إلى تأويلها للدليل قام عنده
عليه، فإذا ثبت أن الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه وجب
إيقاؤها على ظاهرها، بل لو وردت على خلاف ذلك ظاهراً، لوجب
تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل. الثالثة: الفرار من نسبة ما
اعتقده قبحاً إلى الله تعالى تنزيهاً على زعمه، إن الإشراك به في
اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم، والكافر يخلقه لنفسه
بقدرته على خلاف مراد ربه، فلقد استوخم من السنة المناهل
العذاب، وورد من حميم البديعة موارد العذاب: الرابعة: الغلط
باعتقاد أن ما يقبح شاهداً يقبح غائباً، فلما كان المنع من قبول
الحق قبيحاً في الشاهد، وجب على زعمه أن يكون قبيحاً من
الغائب، وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها. الخامسة:
اعتقاده أن لك لو فرض وجوده بقدرته الله تعالى، لكان ظلماً، والله
تعالى منزّه عن الظلم بقوله تعالى: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ ومن
الظلم البين جهل حقيقة الظلم، فإنه التصرف في ملك الغير بغير
إذنه، فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى، وكل مفروض
محصور بسور ملكه عز وجل الملك لله الواحد القهار. السادسة:
أنه فرغ من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى، ففروط فيه إلى عنقه؛
لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق، لو كان من فعل الله تعالى،
لكان ظلماً، فيقال له وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى،
فيلزمك أن يكون ظلماً تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً،
والخيال الذي يندن حوله هؤلاء أن أفعال العبد، لو كانت
مخلوقة لله تعالى، لما نعاها على عيابه، ولا عاقبهم، ولا قامت
حجة الله عليهم، وهذه الشبه قد أجراها في إدراج كلامه المتقدم،
فيقال لهم: لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله، لما نعاها على عيابه،
فإن أسنوا هذه الملازمة، وكذلك يفعلون إلى قاعدة التحسين، =

والتقبيح، وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد،
لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل، فيلزم طرد ذلك غائباً قيل
لهم، ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القباح،
والفواحش يمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك مع القدرة على
ردعه؛ ورده من الأول عنها، وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن
القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى،
على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة
إعطاء سيف باتر، لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل، ويسبي به
الحريم، وذلك في الشاهد قبيح جزماً، فسيقولون أجل إنه لقبيح
في الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعملها فرقت بين
الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع
القدرة، على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك في الشاهد،
وفي هذا الموطن تزلزل اقتدامهم، وتتنكس أعلامهم إذا لاحت لهم
قواطع اليقين، ووبراق البراهين، فيقال لهم: ما المانع أن تكون تلك
الأفعال مخلوقة لله تعالى، ويعاقب العبد عليها لمصلحة، وحكمة
استأثر الله بها، كما فرغتم منه الآن، سواء فلم لا يسلك أحكم
الطريق الأعدل، وينظر عاقبة هذا الأمر، فيصير آخر أول، وليفوض
من الابتداء إني خالقه، ويتلقى حجة الله تعالى عليه بالقبول،
والتسليم ويسلك مهتدياً بنور العقل، ومقتدياً بدليل الشرع
الصراط المستقيم، فإن نازعت النفس وحادثته الهواجس، ورجب
في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاز الفكر، فليخطر بباله
ما نكر عند كل عاقل من التمييز، بين الحركة الاختيارية
والقسرية، فلا يجد عنده في هذه التفرة ريباً، فإذا استشعر ذلك،
فليتنبه فقد لطف به إلى أن انصرف عن مضايق الجبر، فادرا أن
يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه بونها
بزماء دليل الوحدانية على أن لا فاعل، ولا خالق إلا الله تعالى،
فإذا وقف لم يقف، إلا وهو على الصراط المستقيم، والطريقة
المثلى ماراً عليها في أسرع من البرق الخاطف، والريح العاصف،
فليتأمل الناظر هذا الفصل، ويتخذة وزره في قاعدة الأفعال يقف
على الحق إن شاء الله تعالى.

- (2) سورة ق، الآية: 29.
- (3) سورة الزخرف، الآية: 76.
- (4) سورة البقرة، الآية: 7.
- (5) سورة فصلت، الآية: 5.

وَأَنْتَ تَرِيدُ الْجَمْعَ رَفْضُوهُ، وَلَكِ أَنْ تَقُولَ السَّمْعَ مَصْدَرٌ فِي أَصْلِهِ وَالْمَصَادِرُ لَا تَجْمَعُ فَلَمَحَ الْأَصْلُ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَمْعُ الْأَذْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرًا﴾ وَأَنْ تَقْدِرَ مِضَافًا مَحذُوفًا أَي: وَعَلَى حَوَاسٍ سَمِعَهُمْ. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبِلَةَ: وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هَلَا مَنَعَ إِبْرَاهِيمَ وَالْكَسَائِيَّ مِنَ إِمَالَةِ أَبْصَارِهِمْ مَا فِيهِ مِنْ حَرْفِ الْإِسْتِعْلَاءِ وَهُوَ الصَّادُ! قُلْتُمْ: لِأَنَّ الرِّاءَ الْمَكْسُورَةَ تَغْلِبُ الْمَسْتَعْلِيَةَ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّكْرِيرِ كَانَ فِيهَا كَسْرَتَيْنِ، وَنَدَّ عُنُوقُنَّ شَيْءٌ عَلَى الْإِمَالَةِ وَأَنْ يَمَالَ لَهُ مَا لَا يَمَالَ، وَالبَصْرُ نُورُ الْعَيْنِ، وَهُوَ مَا يَبْصُرُ بِهِ الرَّائِي وَيَدْرِكُ الْمَرْتِيَّاتِ، كَمَا أَنَّ الْبَصِيرَةَ نُورُ الْقَلْبِ، وَهُوَ مَا بِهِ يَسْتَبْصِرُ وَيَتَأَمَّلُ. وَكَانَهُمَا جَوْهَرَانِ لَطِيفَانِ خَلَقَهُمَا اللَّهُ فِيهِمَا آلَتَيْنِ لِلْإِبْصَارِ وَالْإِسْتِبْصَارِ. وَقُرِئَ: ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بِالْكَسْرِ وَالنَّصْبِ، وَغَشَاوَةٌ بِالضَّمِّ وَالرَّفْعِ، وَغَشَاوَةٌ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْبِ، وَغَشَاوَةٌ النِّكَالُ بِالْكَسْرِ وَالرَّفْعِ، وَغَشَاوَةٌ بِالْفَتْحِ وَالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، وَغَشَاوَةٌ بِالْعَيْنِ غَيْرُ الْمَعْجَمَةِ، بِنَاءٍ وَمَعْنَى لِأَنَّكَ تَقُولُ: أَعَذَّبَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا أَمْسَكَ عَنْهُ. كَمَا تَقُولُ: نَكَلَ عَنْهُ، وَمِنَ الْعَذْبِ لِأَنَّهُ يَقْمَعُ الْعَطْشَ وَيُرَدِّعُهُ بِخِلَافِ الْمَلْحِ فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ نَقَاحًا لِأَنَّهُ يَنْقَحُ الْعَطْشَ أَي يَكْسِرُهُ، وَفَرَاتًا لِأَنَّهُ يَرِفْتُهُ عَلَى الْقَلْبِ، ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ فَسَمِيَ كُلُّ أَلْمِ فَادِحٌ عَذَابًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نِكَالًا أَي: عِقَابًا يَرْتَدِعُ بِهِ الْجَانِيَّ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ أَنَّ الْعَظِيمَ نَقِيضُ الْحَقِيرِ، وَالْكَبِيرَ نَقِيضُ الصَّغِيرِ، فَكَانَ الْعَظِيمُ فَوْقَ الْكَبِيرِ كَمَا أَنَّ الْحَقِيرَ دُونَ الصَّغِيرِ، وَيَسْتَعْمَلَانِ فِي الْجَنَّةِ وَالْأَحْدَاثِ جَمِيعًا. تَقُولُ: رَجُلٌ عَظِيمٌ وَكَبِيرٌ، تَرِيدُ جَنَّتَهُ أَوْ خَطَرَهُ. وَمَعْنَى التَّنْكِيرِ أَنْ عَلَى أَبْصَارِهِمْ نَوْعًا مِنَ الْأَعْطِيَةِ غَيْرَ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَهُوَ غَطَاءُ التَّعَامِيَّاتِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَلَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْأَلَامِ الْعِظَامِ نَوْعٌ عَظِيمٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ أَجْرْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَلَا تَبْلُنَا بِسَخَطِكَ يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ.

وَمَنْ كَانَتْ مِنْ يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَإِلَيْهِ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾.

اِفْتَتَحَ سَبْحَانَهُ بِذِكْرِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ وَوَأَطَاعُوا فِيهِ قُلُوبَهُمْ السَّنْتَهُمْ وَوَأَفَقَ سِرَّهُمْ وَعَلَنَهُمْ وَقَطَعَهُمْ قَوْلَهُمْ، ثُمَّ ثَنَى بِالَّذِينَ مَحْضُوا الْكُفْرَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا قُلُوبًا وَالسَّنَةَ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِأَقْوَاهِمُ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَأَبْطَنُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ مُنْذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَاءٍ وَلَا إِلَى هُوَاءٍ وَسَمَاهِمُ الْمُنَافِقِينَ وَكَانُوا أَخْبَثَ الْكُفْرَةِ، وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَقَّتْهُمْ عِنْدَهُ لِأَنَّهُمْ خَلَطُوا بِالْكَفْرِ تَمْوِيحًا وَتَلْبِيسًا وَبِالشَّرِكِ اسْتِهْزَاءً وَخِدَاعًا، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ

أَنَّ لِلْفِعْلِ مَلَابِسَاتٌ شَتَى يَلْبَسُ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ وَالْمَصْدَرُ وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ وَالْمَسْبَبُ لَهُ، فَيَأْتِيهِ إِلَى الْفَاعِلِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ يَسْتَدِرُّ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْمَسْمُومَةِ اسْتِعَارَةً وَتِلْكَ لِمُضَاهَاةِهَا لِلْفَاعِلِ فِي مَلَابِسَةِ الْفِعْلِ كَمَا يُمَازِيهِ الرَّجُلُ الْأَسَدُ فِي جِرَائِهِ فَيَسْتَعَارُ لَهُ لِسْمُهُ. فَيُقَالُ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ: عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ وَمَاءٌ دَافِقٌ، وَفِي عَكْسِهِ سَيْلٌ مَفْعَمٌ. وَفِي الْمَصْدَرِ: شَعْرٌ شَاعِرٌ وَذَيْلٌ ذَائِلٌ، وَفِي الزَّمَانِ: نَهَارُهُ صَائِمٌ وَلَيْلُهُ قَائِمٌ، وَفِي الْمَكَانِ: طَرِيقٌ سَائِرٌ وَنَهْرٌ جَارٌ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: صَلَّى الْمَقَامُ، وَفِي الْمَسْبَبِ: بَنَى الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ، وَنَاقَةٌ ضَبُوثٌ وَحُلُوبٌ. وَقَالَ:

إِذَا رَأَى عَاقِي الْقَدْرِ مَنْ يَسْتَعْبِرُهَا

فَالشَّيْطَانُ هُوَ الْخَاتِمُ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ الْكَافِرُ، لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا كَانَ هُوَ الَّذِي أَقْدَرَهُ وَمَكَّنَهُ أَسَدًا إِلَيْهِ الْخَتْمَ كَمَا يَسْتَدِرُّ الْفِعْلُ إِلَى الْمَسْبَبِ، وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَلَى الْقَطْعِ وَالْبَتِّ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ وَلَا تَغْنِي عَنْهُمْ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ وَلَا تَجْدِي عَلَيْهِمُ الْإِلْطَافُ الْمَحْصَلَةُ وَلَا الْمَقْرَبَةُ إِنْ أَعْطَوْهَا، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعِلْمِ بَانُهُ لَا طَرِيقَ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا طَوْعًا وَاجْتِبَاءً طَرِيقَ إِلَى إِيْمَانِهِمْ إِلَّا الْقَسْرُ وَالْإِلْجَاءُ، وَإِذَا لَمْ تَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يَقْسِرَهُمُ اللَّهُ وَيُلْجِئَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَقْسِرَهُمْ وَلَمْ يُلْجِئَهُمْ لَثَلَا يَنْتَقِضُ الْغَرَضُ فِي التَّكْلِيفِ، عَبْرَ عَنِ تَرْكِ الْقَسْرِ، وَالْإِلْجَاءُ بِالْخَتْمِ إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ الَّذِينَ تَرَامَى أَمْرُهُمْ فِي التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهِ إِلَى حُدِّ لَا يَتَنَاوُونَ عَنْهُ إِلَّا بِالْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ وَهِيَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى فِي وَصْفِ لِحَاجَتِهِمْ فِي الْغِيِّ، وَاسْتِشْرَاهِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْبَغْيِ. وَوَجْهٌ خَامِسٌ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا كَانَ الْكُفْرَةُ يَقُولُونَهُ تَهْكَامًا بِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةِ حِجَابٍ﴾^(١)، وَنَظِيرُهُ فِي الْحِكَايَةِ وَالتَّهْكَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٢).

فَإِنْ قُلْتُمْ^(٣): اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْأَسْمَاعُ دَاخِلَةً فِي حِكْمِ الْخَتْمِ وَفِي حِكْمِ التَّغْشِيَةِ فَعَلَى إِيْمَانِهِمَا يَعُولُ؟ قُلْتُمْ: عَلَى نَحْوِهَا فِي حِكْمِ الْخَتْمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَخْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً﴾^(٤) وَلَوْ قَفَّهْمُ عَلَى سَمْعِهِمْ دُونَ قُلُوبِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أَيُ فَائِدَةٌ فِي تَكْرِيرِ الْجَارِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾؟ قُلْتُمْ: لَوْ لَمْ يَكْرُرْ لَكَانَ انْتِظَامًا لِلْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ فِي تَعْدِيَةِ وَاحِدَةٍ، وَحِينَ اسْتَجَدَّ لِلْأَسْمَاعِ تَعْدِيَةَ عَلَى حِدَةٍ كَانَتْ أَدْلَى عَلَى شِدَّةِ الْخَتْمِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَوَحْدَ السَّمْعِ كَمَا وَحْدَ الْبَطْنِ فِي قَوْلِهِ: كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفَوْا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا أَمِنَ اللَّبِيسُ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ كَقَوْلِكَ: فَرَسَهُمْ وَثُوبَهُمْ

(1) سورة فصلت، الآية: 5.

(2) سورة البينة، الآية: 1.

(3) قال أحمد رحمه الله: وكان جدي رحمه الله يذكر هذا، وي زيد عليه

أَنَّ الْأَسْمَاعَ وَالْقُلُوبَ لَمَّا كَانَتْ مَحْوِيَّةً، كَانَ اسْتِعْمَالُ الْخَتْمِ لَهَا =

= أُولَى، وَالْأَبْصَارَ لَمَّا كَانَتْ بَارِزَةً وَإِدْرَاكَهَا مُتَعَلِّقًا بِظَاهِرِهَا، كَانَ الْغِشَاءُ لَهَا الْبِقِ.

(4) سورة الجاثية، الآية: 23.

مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خبيعةً للمسلمين واستهزاءً بهم، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي كان خبثاً إلى خبث وكفراً إلى كفر، وأيضاً فقد أوهموا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان من جانبيه واكتفوه من قطريه، وأحاطوا بأوله وآخره، وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ قولهم: ﴿أما بالله وباليوم الآخر﴾ والأولى في نكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في نكر شأن الفاعل لا الفعل؟ **قلت:** القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج نواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لها علم من حالهم في المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذ شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾⁽⁴⁾ هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها.

فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول؟ **قلت:** يحتمل أن يراد التقييد ويترك للدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ولا من الإيمان بغيرهما.

فإن قلت: ما المراد باليوم الآخر؟ **قلت:** يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع لتأخره عن الأوقات المنقضية، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده.

يُحَدِّثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾

والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه، من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارس يده على باب جرحه أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر. **فإن قلت:**⁽⁵⁾ كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح

فيهم: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾⁽¹⁾، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم وسفهمهم واستجهمهم واستهزاءً بهم وتهكم بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمهمهم وبعامهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل ناس: أناس حنفت همزته تخفيفاً. كما قيل: لوقة، في لوقة. وحنفها مع لام التعريف كالألزام لا يكاد يقال: الأناس، ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وأنس. وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجن لاجتنائهم، ولذلك سموا بشراً. ووزن ناس فعال لأن الزنة على الأصول الأترك تقول: في وزن قه أفعال، وليس معك إلا العين وحدها، وهو من أسماء الجمع كرجال، وأما نوبس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبره كاتنسيان ورويجل، ولام التعريف فيه للجنس، ويجوز أن تكون للعهد والإشارة إلى الذين كفروا المان نكرهم. كانه قيل: ومن هؤلاء من يقول: وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق، ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقروني والقوم لثام. ومن في ﴿من يقول﴾: موصوفة كانه قيل: ﴿ومن الناس﴾ ناس يقولون كذا كقوله: ﴿من المؤمنين رجال﴾⁽²⁾ إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة كقوله: ﴿ومنهم الذين يؤنون النبي﴾⁽³⁾.

فإن قلت: كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ **قلت:** الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس مغايراً للنوع الآخر بزيادة زائدها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس، فلأن الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأتي الدخول تحت الجنسية.

فإن قلت: لم اختص بالنكر الإيمان ﴿بالله﴾ والإيمان ﴿باليوم الآخر﴾! **قلت:** اختصاصهما بالنكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتمانيهم في الدعارة لأن القوم كانوا يهوداً وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان لقولهم: عزيز ابن الله. وكذلك إيمانهم باليوم الآخر لأنهم يعتقدونه على خلاف صفة فكان قولهم: ﴿أما بالله وباليوم الآخر﴾ خبثاً

(1) سورة النساء، الآية: 145.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) سورة التوبة، الآية: 61.

(4) سورة المائدة، الآية: 37.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الفصل من كلام الزمخشري، جمع فيه بين الغث والسمين، ونحن ننبه على ما فيه من الزيد، ليتم للناسر

أخذ ما فيه من السنة أمناً من التورط في ضرر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين، فمما خالف فيه السنة قوله إن الله تعالى عالم بذاته يريد لا يعلم، وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يجحدون صفات الكمال الإلهي يبيغون بذلك زعمهم التوحيد والتزيه، ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالم بعلم قديم أزلي متعلق بكل معلوم واجب، أو ممكن، أو مستحيل، ولا يعزب

توطئة وتمهيد لنكر فضله.

فإن قلت: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت: وجهه أن يقال: غني به فعلت، إلا أنه أخرج في زنة فاعلت لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مباراة لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ يخدعون الله والذين آمنوا وهو أبو حيوة. ويخادعون ﴿ بيان ليقول، ويجوز أن يكون مستأنفاً، كانه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقه في ذلك فقيل يخادعون.﴾

﴿فإن قلت﴾: عم كانوا يخادعون؟ قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإغافؤهم عن المحاربة، وعم كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار، ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغنم ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم لاختلاطهم بهم على الأسرار التي كانوا حراساً على إذاعتها إلى منابذهم.

فإن قلت: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخادعهم عنها. قلت: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانتقلت مفسد، واستبقاء إبليس وذريته ومتاركتهم وما هم عليه من إغواء المناققين وتلقينهم النفاق أشد من ذلك، ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة.

فإن قلت: ما المراد بقوله: ﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾؟ قلت: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم، لأن ضررها يلحقهم ومكرها يحيق بهم. كما تقول: فلان يضار فلاناً، وما يضار إلا نفسه. أي دائرة الضرر راجعة إليه وغير متخضية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به وأنفسهم كذلك تمنيمهم وتحديثهم بالأمانى، وأن يراد: وما يخدعون، فجيء به على لفظ يفاعلون للمبالغة.

لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا. ألا ترى إلى قوله: واستمطروا من قريش كل منخدع. وقول ذي الرمة.

إن الحليم وذا الإسلام يختلب

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع! قلت: فيه الوجوه. أحدها: أن يقال: كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم، حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم. والثاني: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان ادعائه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غني عن فعل القبائح، فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله تعالى في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يلبس على عباده ويخدعهم. والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ لأنه خليفته في أرضه والناطق عنه بأوامره ونواهي مع عباده كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا، وإنما القائل والرسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه. مصداقه قوله: ﴿إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله يد الله فوق أيديهم﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽²⁾. والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبتني زيد وكرمه، فيكون المعنى: يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص. ولما كان المؤمنون من الله بمكان سلك بهم ذلك المسلك، ومثله والله ورسوله أحق أن يرضوه، وكذلك إن الذين يؤثرون الله ورسوله، ونظيره في كلامهم: علمت زيداً فاضلاً. والغرض فيه نكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه لأنه كان معلوماً قديماً. كانه قيل: علمت فضل زيد، ولكن نكر زيد

منه في الإطلاق، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلاً، لما نكره من خداع المناققين، كمقابلة المكر بمكرهم علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سماه خداعاً مقابلة ومشاكلة، وإلا فهو قاصر على هتك سترهم، وإنزال العذاب بهم رأي العين، فهذا معتقد أهل السنة في هذه الآية وأمثالها، إلا كالكلمة مشري وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحون، فيجحدون وينزهون، فيشركون، والله الموفق للحق، وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز، عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصنق شاهد على أنه مجاز نفيهم بعقب إثباته في قوله: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ ففي هذه التهمة نفي احتمال الحقيقة، حتى تتعين جهة المجاز ومما عده البيانيون من ألة المجاز صدق نفيه، فتأمل هذا الفصل، فله على سائر الفصول الفضل.

(1) سورة الفتح، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 80.

عن علمه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر إلا في كتاب مبين، وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى، وفي عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك، ولسنا بصدد نكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مخلوقاً لله تعالى؛ لأنه قبيح على زعمه، كالمفهوم من الخداع في هذه الآية، وما جره إلى هاتين النزعتين، إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعاً، إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه؛ لأنه قبيح على زعمهم، ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه، ولا شرط فيه، فنحن معاشر أهل السنة نعتقد أن الله تعالى عالم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعاً؛ لأن علمه عندنا عام التعلق، كما وصفنا، ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود، إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى، لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة، وإظهار المكتوم، هذا هو الموهوم =

وقرىء: وما يخدمون ويخدمون، من خدع ويخدعون يفتح
 البلاء بمعنى يخدمون ويخدمون ويخدعون على لفظ ما لم
 يسم فاعله. والنفس ذات الشيء وحقيقته يقال: عندي كذا
 نفساً، ثم قيل للقلب نفس لأن النفس به. ألا ترى إلى
 قولهم: المرء بأصغريه، وكذلك بمعنى الروح، وللمد نفس
 لأن قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. قال الله
 تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾⁽¹⁾. وحقيقة نفس
 الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه كقولهم: صدر الرجل.
 وقولهم: فلان يؤامر نفسه، إذا تردد في الأمر واتجه له
 رأيان وداعيان لا يدري على أيهما يعرج. كأنهم أرادوا
 داعي النفس وهاجسي النفس فسموهما نفسين، إما
 لصدورهما عن النفس، وإما لأن الداعيين لما كانا
 كالمشيرين عليه والأمريين له شبهوهما بذاتين فسموهما
 نفسين. والمراد بالانفس هنا نواتهم، والمعنى: بمخادعتهم
 نواتهم أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم
 ولا يتخطاهم إلى من سواهم، ويجوز أن يراد قلوبهم
 ودواعيهم وأراؤهم.⁽²⁾ والشعور علم الشيء علم حس من
 الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر
 ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتماذي غفلتهم كالذي لا حس له.

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا
 يكذبون ﴿١٧﴾.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة
 ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض.
 والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد
 والغفل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها
 واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو
 فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة
 في نقائص ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء
 الاعتقاد والكفر أو من الغفل والحسد والبغضاء لأن
 صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً
 وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في
 قوله: ﴿قد بنت البغضاء من أقواهم وما تخفي صدورهم
 أكبر﴾⁽³⁾ ويحترقون عليهم حسداً ﴿إن تمسككم حسنة

(1) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(2) قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور، كما
 قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ، أنه لما كانت مفسدة
 النفاق عادة على المنافق عوداً بيناً، جلياً، محسوساً، نعى عليهم
 جهلهم بالمحسوس، فنفى شعورهم به، ولا كذلك معرفة الحق،
 وتمييزه عن الباطل، فإنه أمر عقلي نظري.

(3) سورة آل عمران، الآية: 118.

(4) سورة آل عمران، الآية: 120.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿ولنسمعن
 من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾
 الحديث رقم: (4566)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير،
 باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين الحديث رقم=

= (4635).

(6) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى ﴿فلم تجدوا
 ماء﴾. الحديث رقم: (335)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع
 الصلاة الحديث رقم: (1163).

(7) سورة التوبة، الآية: 125.

(8) سورة نوح، الآية: 25.

(9) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى:
 ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ الحديث رقم: (3358)، وأخرجه مسلم
 في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ الحديث
 رقم: (6097)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن
 سورة الأنبياء عليهم السلام الحديث رقم: (3166).

مرفوعاً: «ياكم والكتب فإنه مجانب للإيمان»⁽¹⁾. وقرئ: يكذبون من كذبه الذي هو نقيض صلته، أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب كما بولغ في صدق. فيقول: صدق، ونظيره ما بان الشيء وبين، وقلص الثوب وقلص، أو بمعنى الكثرة كقولهم: موتت البهائم وبركت الإبل. أو من قولهم: كذب الوحشي، إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه لأن المناقق متوقف متردد في أمره. ولذلك قيل له: مذنب. وقال عليه السلام: «مثل المناقق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»⁽²⁾.

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴿١١﴾
ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴿١٢﴾.

فإن قلت: كيف صح أن يسند قيل إلى لا تفسدوا وأمنوا، وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ قلت: الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل وهذا إسناد له إلى لفظه كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام فهو نحو قولك: ألف ضرب من ثلاثة أحرف، ومنه: «زعموا مطية الكذب»⁽⁶⁾.

وإذا قيل لهم ما يبرؤا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿١٣﴾.

وما في ﴿كما﴾ يجوز أن تكون كافةً مثلها في ربما ومصيريةً مثلها في بما رحبت. واللام في الناس للعهد، أي: كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه، أو هم ناس معهودين كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل. والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ في معنى الإنكار واللام في ﴿السفهاء﴾ مشار بها إلى الناس كما تقول لصاحبك إن زيدا قد سعى بك. فيقول: أو قد فعل السفية. ويجوز أن تكون للجنس وينطوي تحته الجاري نكرهم على زعمهم واعتقادهم لأنهم عندهم أعرق الناس في السفة.

فإن قلت: لم سفههم واستركوا عقولهم وهم العقلاء المراجيح؟ قلت: لأنهم لجهلم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفياً. ولأنهم كانوا في رئاسة وسطة في قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم، أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم، وما غاظهم من إسلامهم وقت في أعضادهم، قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفة بمعزل، والسفة سخافة العقل وخفة اللحم.

فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها

﴿وإذا قيل لهم﴾ معطوف على يكذبون، ويجوز أن يعطف على يقول أمناء، لأنك لو قلت ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً والأول أوجه. والفساد خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض هيج الحروب والفتن لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتقاء الاستقامة عن أحوال الناس والزور والمانع البينة والنبوية. قال الله تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾⁽³⁾ ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾⁽⁴⁾ ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان فساد المناققين في الأرض أنهم كانوا يميلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من صنيعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: لا تفسدوا. كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيديك ولا تلق نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته، وإنما لقصر الحكم على شيء كقولك: إنما ينطلق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب.

ومعنى: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قالدح فيها من وجه من وجوه الفساد، و﴿ألا﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: ﴿اليس ذلك بقادر﴾⁽⁵⁾ ولكنها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرية بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي أما من مقدمات اليمين وطلائعها: أما والذي لا يعلم الغيب غيره. أما والذي أبكى وأضحك. رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ رد وأدله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستثناء، وما

(3) سورة البقرة، الآية: 205.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة القيامة، الآية: 40.

(6) أخرجه أحمد في المسند 401/5.

(1) أخرجه أحمد في المسند 5/1، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب: ما جاء في الصدق والكتب. الحديث رقم: (19).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفات المناققين وأحكامهم الحديث رقم: (6974).

فإن قلت⁽²⁾: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصنق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة وكيف يقولونه ويطمعون

في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والانصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل. ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ﴿ربنا إننا آمنّا﴾. وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صنق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم مقبل منهم فكان مظنةً للتحقيق ومثنةً للتوكيد.

فإن قلت: أتى تعلق قوله: ﴿إنما نحن مستهزون﴾ بقوله: ﴿إنّا معكم﴾؟ قلت: هو توكيد له لأن قوله: إنّا معكم معناه الثبات على اليهودية. وقوله: ﴿إنما نحن مستهزون﴾ رد للإسلام ودفع له منهم لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿إنّا معكم﴾. فقالوا: فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام! فقالوا: ﴿إنما نحن مستهزون﴾.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَيَسْتَهْزِئُ فِي طَعْنِهِمْ يَعْهَوُونَ ﴿١٦﴾

والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات على المكان، عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لاهزأً على مكاني، وناقته تهزأ به أي: تسرع وتخف.

فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى لأنه متعالٍ عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: ﴿قالوا اتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾⁽³⁾ فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما نكرنا شاهد لذلك، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وأزراء أمرهم والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون، ويجوز أن يراد به ما مر في يخادعون من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في

بلا يشعرون؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤذي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد نكر السفه وهو جهل فكان نكر العلم معه أحسن طباقاً له.

وَإِذَا لَعُنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا بِكُمْ فَأَنَآءُ بِكُمْ ءِئِمَّا عَنْ مُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٧﴾

مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أول قصة المنافقين فليس بتكرير لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكنيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصالحين وياهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صنقوهم ما في قلوبهم. وروي أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله: انظروا كيف ارد هؤلاء السفهاء عنكم فاخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار البائل نفسه وماله لرسول الله. ثم اخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في بين الله البائل نفسه وماله لرسول الله. ثم اخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأئنا عليه خيراً⁽¹⁾ فنزلت، ويقال: لقيته ولاقيته، إذا استقبلته قريباً منه وهو جاري ملاقي ومراويقي وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى، وخلاك نم أي عداك، ومضى عنك، ومنه القرون الخالية ومن خلوت به إذا سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان يعرض فلان يعبت به. ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحنثوهم بها كما تقول: أحمد إليك فلاناً وإنمّه إليك.

﴿وشياطينهم﴾: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم. وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة، والدليل على أصلتها قولهم تشيطان واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده من الصلاح والخير، ومن شاط إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، ومن أسعته الباطل. ﴿إنّا معكم﴾: إنّا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم.

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 16.

(2) قال احمد رحمه الله: وبني هذا التقرير على أن الجملة الاسمية

أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بـ «أن» مرفقة، بـ «إنما» على أنه

حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله: =

= ﴿ربنا أمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول﴾، وعلى الجملة، فلقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء، وأجمل ما أزد قوله تعالى: ﴿إنما نحن مستهزون﴾ الآية.

(3) سورة البقرة، الآية: 67.

والظاهر، وهو مبطن بإسار ما يراد بهم. وقيل: سمي جزء الاستهزاء باسمه كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾⁽¹⁾ ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتوا عليه﴾⁽²⁾.

فَأَنْ قُلْتُ:⁽³⁾ كيف ابتدئ قوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ ولم يعطف على الكلام قبله؟ قلت: هو استثناء في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال، ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله.

فَأَنْ قُلْتُ:⁽⁴⁾ فهلا قيل: الله مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله: ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾⁽⁵⁾؟ قلت: لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجديده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبيلاياه النازلة بهم. أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم. يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون﴾⁽⁶⁾. ﴿ويمدّمهم في طغيانهم﴾ من مدّ الجيش وأمدّه إذا زاده والحق به ما يقويه ويكثره، وكذلك مدّ الدواة وأمدّها زادها ما يصلحها، ومدت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماذ، ومدّه الشيطان في الغي وأمدّه إذا وصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهماكاً فيه.

فَأَنْ قُلْتُ: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال؟ قلت: كفاك ليلياً على أنه من المد دون المدد قراءة ابن كثير وابن محيىن: ويمدّمهم، وقراءة نافع وإخوانهم: يمئونهم، على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مد مع اللام كاملي له.

فَأَنْ قُلْتُ:⁽⁷⁾ فكيف جاز أن يوليههم الله مدداً في الطغيان

= على مراحل.

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(8) سورة الأعراف، الآية: 202.

(2) سورة البقرة، الآية: 194.

(9) قال أحمد رحمه الله: فإن قال قائل، أفلا تستفاد هذا المعنى من

(3) العطف، قيل له لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع

إن نظرت إلى وجوده وحوثه، وما هو عليه من وجوه التخصص،

(4) مضمون الجمليتين، وإعراض عن هذا المبني، الذي ينفرد به

فانسب نك إلى قدرة الله وحده وإرادته، لا لشريك له، وإن نظرت

(5) الاستثناء.

إلى تمييزه عن القسر الضروي، فانسبه في هذه الجهة إلى العبد،

(6) قال أحمد رحمه الله: ولهذا الفرق بين الفعل، والاسم ورد قوله

وهي النسبة المعبر عنها شرعاً بالكسب، في أمثال قوله تعالى:

(7) تعالى: ﴿إننا سخرننا الجبال﴾ معه يسبحن بالعشي والإشراق،

﴿وما كسبت أيديهم﴾ وهي المتحقة أيضاً، إذا عرضت على

(8) والطير محشورة، لما كان التسييح من الطوائف متكرراً متجدداً

بينهما لا محالة بتلك النسبة، فإذا تقرّر تعدد الاعتبار، فإذك تميز

(9) شيئاً فشيئاً، وحشر الطير معه أمر دائم ذكر التسييح بصيغة

الطغيان مخلوق لله تعالى، فأضافه إليه، ومن حيث كونه واقعاً

(10) الفعل، والحشر بصيغة الاسم، وسيتي إن شاء الله تعالى مزيد

منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب، أضافه إليهم، ففرع

(11) تقرير فيه.

على أصول السنة بحسن ثمار فروك في الجنة، لا كما تفرع

(12) سورة البقرة، الآية: 14.

القدرية، فإنهم يجنون ولكن على أنفسهم، ألهمنا الله التحقيق

(13) سورة التوبة، الآية: 64.

وأبينا بالتوفيق.

(14) قال أحمد رحمه الله: ما يمنعه أن يقره على ظاهره، ويبقيه في

نصابه، إلا أنه توحيد محض وحق صرف، والقدرية من التوحيد

دالة لم يصح.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽²⁾: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال فما معنى نكر الربح والتجارة كان تم مبيعة على الحقيقة؛ قلت: هذا من الصنعة البيعية التي تبلغ بالمجاز النزوة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى باشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ببياجة وأكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشح، وذلك نحو قول العرب في البليد: كأن أني قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار ثم رشحوا ذلك روماً لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أنين وادعوا لهما الخطل ليمثلوا

البلادة تمثيلاً يلحقها بلادة الحمار مشاهدة معابنة، ونحو: ولما رأيت النسر عز ابن دابة وعشش في وكريه جاش له صدي لما شبّه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه نكر التعشيش والوكر. ونحوه قول بعض فتاكهم في أمه:

فما أم السرين وإن ألتت بعالمه بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التوام
أي: إذا دخل الشيطان في قفاها استخراجناه من نافقائه بالحبل المثني المحكم. يريد إذا حررت وأساعت اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوه من خلقها. استعار التقصيع أولاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل التوام. فكنك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾؟ قلت: معناه أن الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح. وهؤلاء قد اضعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الننيوية لأن الضال خاسر دامر ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح. وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دَهَبًا اللَّهُ بِضُرُوبِهِمْ وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ⁽³⁾.

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في

من يلد في صفاته، ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾.

والعمه: مثل العمى إلا أن العمى عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردد لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله بالجاهلين: العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضاً عمها لا منار بها.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ بِمِزْنِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ⁽⁴⁾.

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة⁽¹⁾ لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ومنه:

أخذت بالجملة رأساً زعرا وبالشنايا الواضحات الدوبرا
وبالطويل العمر عمرأ حيدرا كما اشترى المسلم إن تنصرا

وعن وهب قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: تفقهون لغير الدين، وتعملون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبطلوها به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

والضلالة: الجور عن القصد وفقد الهداء. يقال: ضل منزله وضل دريص نفقه، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين.

والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي الشف من قولك أشف بعض ولده على بعض إذا فضله، ولهذا على هذا شف.

والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشترى للربح، وناقاة تاجرة كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها. وقرأ ابن أبي عتبة: تجارتهم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتريين.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هل يصح ربح عبيك وخسرت جارتك على الإسناد المجازي؟ قلت: نعم إذا بلت الحال، وكذلك الشرط في صحة رأيت أسداً، وأنت تريد المقدم إن لم تقم حال

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا النوع قريب من التيمم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء:

وإن صخرأ لتاتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لما شبهته في الهداء به بالعلم المرتفع أتبعته ذلك ما يناسبه، وبحقته، فلم تقنع بظهور الارتفاع، حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر، باشتعال النار في رأسه.

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن هذا القبيل، منع مالك رضي الله عنه أن يشتري إحدى أوزتين منبوحتين، يختارها المشتري منهما؛ لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما، ثم بائعاً لها بالأخرى، فيبخله الربا وهو الذي يعبر عنه متأخروا أصحابه، بأن من ملك أن يملك هل يعد مالكا، أو لا، وربما قالوا من خير بين شيئين، عد متناً على أحد القولين.

النار سطوعها وارتفاع لهبها، ومن أخواته: وقل في الجبل إذا سعد وعلا.

والنار: جوهر لطيف مضيء حار محرق.

والنور: ضوءها وضوء كل نير وهو نقيض الظلمة واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً والنور مشتق منها.

والإضاءة: فرط الإنارة ومصداق تلك قوله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾⁽⁵⁾ وهي في الآية متعديّة ويحتمل أن تكون غير متعديّة مسندة إلى ما حوله، والثانيث للحمل على المعنى لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: ضاعت، وفيه وجه آخر وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار، ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها، على أن ما مزيدة أو موصولة في معنى الامكنة، وحوله نصب على الظرف، وتأليفه للدوران والإطافة، وقيل للعام حول لأنه يدور.

فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن جوابه ﴿ذهب الله بنورهم﴾.

والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به﴾. وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه وكان الحذف أولى من الإنبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى: كأنه قيل: فلما أضاء ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

فإن قلت: فإذا قدر الجواب محذوفاً فبم يتعلق: ﴿ذهب الله بنورهم﴾؟ قلت: يكون كلاماً مستأنفاً كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل له: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان؟

فإن قلت: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني؟ قلت: مرجعه الذي استوقد، لأنه في معنى الجمع، وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في حوله فلحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى.

فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾؟ قلت: إذا طفئت النار بسبب سماوي ريح أو مطر فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، ووجه آخر وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضأها الله، ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام وتلك النار متقاصرة

صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبيكيت للخصم الألد وقع لسورة الجامع الأبوي، ولامر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفتشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾⁽¹⁾ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال، والمثل في أصل كلامهم بمعنى: المثل، وهو: النظير. يقال: مثل ومثل ومثيل، كشيء وشبهه وشبيه، ثم قيل للقول السائر: الممثل مضره بمورده مثل، ولم يضر بوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جبيراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حوفظ عليه وحمي من التغيير.

فإن قلت: ما معنى ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾؟ وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟ قلت: قد استعير المثل استعارة الأسد المقدم للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: مثل الجنة التي وعد المتقون، أي وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة. ثم أخذ في بيان عجائبها والله المثل الأعلى أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. مثلهم في التوراة: أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثله في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن.

فإن قلت: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ قلت: وضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾⁽²⁾ والذي سور وضع الذي موضع الذين ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران:

أحدهما: أن الذي لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة وتكاثر وقوعه في كلامهم وكونه مستطالاً بصلته حقيق بالتخفيف ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياء ثم كسرتة ثم اقتصرنا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين.

والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً. على أن المنافقين ونواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد ونحوه قوله: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾⁽⁴⁾ ووقود

(4) سورة محمد، الآية: 20.

(5) سورة يونس، الآية: 5.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 43.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) سورة الجمعة، الآية: 5.

إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد، ويجوز أن يشبهه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاق الله على أسرارهم، وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق. **صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَمَنْ لَا يَرِيحُونَ** (٧).

والأوجه أن يراد الطبع لقوله: **﴿صم بكم عمي﴾** وفي الآية تفسير آخر، وهو أنهم وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضئية ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتكثير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سئوا عن الإصاحة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به السننهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقولهم:

صم إذا سمعوا خيراً نكرت به وإن نكرت بسوء عندهم أنثوا
أصم عما ساءه سميح

أصم عن الشيء الذي لا يريدُه وأسمع خلق الله حين أريد
فأصممت عمراً وأعميته عن الجود والفخر يوم الفخر
فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان؟ **قلت:** طريقة قولهم هم ليوث للشجعان ويجوز للأسخياء إلا أن هذا في الصفات وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً. تقول: رأيت ليوثاً ولقيت صماً عن الخير، وبجا الإسلام وأضاء الحق.

فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ **قلت:** مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة لأن المستعار له منكور وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوي نكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام. كقول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقنف له لبد أظفاره لم تقلم
ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون
التشبيه ويضربون عن تومهم صفحاً. قال أبو تمام:
ويصعد حتى يظن الجهول بان له حاجة في السماء
ولبعضهم:

لا تحسبوا أن في سرباله رجلاً ففيه غيث وليث مسبل مشبل
وليس لقاتل أن يقول: طوى نكرهم عن الجملة بحذف
المبتدأ فانساق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه في حكم المنطوق به. نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أسد علي وفي الحروب نعاماً فتخاء تنفر من صغير الصافر
ومعنى **﴿لا يرجعون﴾** أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين

مدة اشتغالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله: **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾**، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ويتهدوا بها في طرق العيث فأطفاها الله وخيب أمانيتهم.

فإن قلت: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ **قلت:** هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره.

فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله **﴿فلما أضاءت﴾**؟ **قلت:** نكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف نكر عقيب **﴿وتركهم في ظلمات﴾** والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكرها، وكيف اتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمه لا يترأف فيها شبحان وهو قوله: **﴿لا يبصرون﴾**.

فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ **قلت:** هذا على مذهب قولهم للباطل صولة ثم يضمحل، وريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح. والفرق بين أذهب وذهب به أن معنى أذهب أزاله وجعله ذاهباً. ويقال: ذهب به، إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله أخذه، فلما ذهبوا به إذا لذهب كل إله بما خلق. ومنه ذهب به الخيلاء، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسك وما يمسك الله فلا مرسل له، فهو أبلغ من الإذهاب، وقرأ اليماني: أذهب الله نورهم. وترك بمعنى طرح وخلق إذا علق بواحد كقولهم: تركه ترك ظبي ظله، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير فيجري مجرى أفعال القلوب كقول عنتره:

فتركته جزر السباع ينشنه

ومنه قوله: **﴿وتركهم في ظلمات﴾** أصله هم في ظلمات ثم نخل ترك فنصب الجزأين، والظلمة: عدم النور، وقيل: عرض ينافي النور، واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا؟ أي: ما منعك وشغلك، لأنها تسد البصر، وتمنع الرؤية، وقرأ الحسن: ظلمات، يسكون اللام؛ وقرأ اليماني: في ظلمة على التوحيد، والمفعول الساقط من لا يبصرون من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال لا من قبيل المقنن المنوي كأن الفعل غير متعد أصلاً، نحو يعمهون في قوله: **﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾** (١).

فإن قلت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ **قلت:** في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورطوا في حيرة.

فإن قلت: وأين الإضاءة في حال المنفاق، وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ **قلت:** المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على السننهم ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم

كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها. كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ﴾ (5) الآية، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب، وكقوله: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (6) المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فإما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئاً واحداً فلا، فذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفتت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الذي كنت تقدره في المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك: أو كمثل نوي صيب، هل تقدر مثله في المركب منه؟ **قُلْتُمْ:** لولا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره لأنني أراعي الكيفية المنترعة من مجموع الكلام فلا على أولى حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ (7) الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره، ومما هو بين في هذا قول لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بهايوم حلوها وغلوا بالآقع
لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها وشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أي التمثيلين أبلغ؟ **قُلْتُمْ:** الثاني لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخرجوهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ **قُلْتُمْ:** أو في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك. ونلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ (8) أي الأثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما. فكنلك قوله: ﴿أو كصيب﴾ معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن

في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون، وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه؟

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَرَبْقٌ يَجْعَلُونَ أَسْمِعًا مِّنْ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّخْرِ حَذَرٌ الْمَوْتِ وَاللَّهُ حَيِّطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾.

ثم شئى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكنلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشيع. أنشد الجاحظ:

ترمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خيفة الرقباء
ومما شئى من التمثيل في التنزيل قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴿١﴾. **قُلْتُمْ:** ألا ترى إلى ذي الرمة كيف صنع في قصيدته:

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه أذاك أم خاضب بالسعي مرتعه
فَإِنْ قُلْتُمْ: قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فماذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق؟ **قُلْتُمْ:** لقاتل أن يقول شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل نوي صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين نكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما في قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ (2) والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء؟ وفي قول امرئ القيس:

كان قلوب الطير رطباً وبابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
قُلْتُمْ: كما جاء نلك صريحاً فقد جاء مطوياً نكره على سنن الاستعارة كقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ (3) ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل﴾ (4). والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة بون المفرقة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل، والمذهب الجزل، بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجرة ذاك فتشبهها بنظائرها. كما فعل امرؤ القيس، وجاء في القرآن. وتشبه

(5) سورة الجمعة، الآية: 5.

(6) سورة الكهف، الآية: 45.

(7) سورة يونس، الآية: 24.

(8) سورة الإنسان، الآية: 24.

(1) سورة فاطر، الآيات: 19 - 22.

(2) سورة فاطر، الآية: 19.

(3) سورة فاطر، الآية: 12.

(4) سورة الزمر، الآية: 29.

مكانهما السحاب؟ قلت: إذا كانا في أعلاه ومصبه
ولمتبسين في الجملة به فهما فيه. ألا تراك تقول: فلان في
البلد وما هو منه إلا في حيز يشغله جرمه.
فإن قلت: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالابلاغ كقول
البحثري:

يا عارضاً متلفعاً ببروده يختال بين بروقه ورعوده
وكما قيل: ظلمات. قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في
الأصل يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً، روعي حكم
أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع.
والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق.
وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات لأن المراد أنواع منها،
كأنه قيل: فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف.
وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع
كونه محنوقاً قائماً مقامه الصيب. كما قال: أو هم قائلون،
لأن المحذوف باقٍ معناه وإن سقط لفظه. ألا ترى إلى
حسان كيف عول على بقاء معناه في قوله:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
حيث نكر يصفق لأن المعنى ماء بردى ولا محل لقوله
يجعلون لكونه مستأنفاً لأنه لما نكر الرعد والبرق على ما
يؤذن بالشدّة والهول فكان قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل
نلك الرعد؟ فقيل: «يجعلون أصابعهم في آذانهم». ثم
قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: يكاد البرق
يخطف أبصارهم.

فإن قلت⁽²⁾: رأسيس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن
فهلا قيل: أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي
لا يكاد الحاصر يحصرها. كقوله: «فاغسلوا وجوهكم
وأيديكم»⁽³⁾ «فاقطعوا أيديهما»⁽⁴⁾ أراد البعض الذي هو
إلى المرفق والذي إلى الرسغ. وأيضاً ففي نكر الأصابع من
المبالغة ما ليس في نكر الأنامل.

فإن قلت⁽⁵⁾: فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع
خاصة، فلم نكر الاسم العام بون الخاص؟ قلت: لأن
السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بأدب القرآن،
ألا ترى أنهم قد استبشعوا فكنوا عنها بالمسبحة
والسبابة والمهلبة والدعاء.

فإن قلت: فهلا نكر بعض هذه الكنايات؟ قلت: هي

القستين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل
فبإيتيها مثلتها فانت مصيب وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك.
والصيب: المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع، ويقال
للسحاب: صيب أيضاً. قال الشماخ:

وأسم دان صانق الرعد صيب
وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل كما
نكرت النار في التمثيل الأول. وقرئ: كصائب، والصيب
أبلغ.

والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف.
فإن قلت: قوله: «من السماء» ما الفائدة في نكره
والصيب لا يكون إلا من السماء؟ قلت: الفائدة فيه أنه جاء
بالسماء معرفة فنفي أن يتصوب من سماء أي من أفق
واحد من بين سائر الأفاق لأن كل أفق من أفاقها سماء،
كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله، «وأوحى في
كل سماء أمرها»، والدليل عليه قوله:

ومن بعد أرض بيننا وسماء
والمعنى: أنه غمام مطبق أخذ بأفاق السماء، كما جاء
بصيب وفيه مبالغت من جهة التركيب والبناء والتذكير، أمد
نلك بأن جعله مطبقاً وفيه أن السحاب من السماء ينحدر
ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر،
ويؤيده قوله تعالى: «وينزل من السماء من جبال فيها من
برد»⁽¹⁾.

فإن قلت: بم ارتفع «ظلمات»؟ قلت: بالنظر على
الاتفاق لاعتماده على موصوف.

والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كان أجرام
السحاب تضطرب وتنتفض إذا حثتها الريح فتصوت عند
نلك من الارتعاد.

والبرق: الذي يلعب من السحاب، من برق الشيء بريقاً
إذا لمع.

فإن قلت: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من
أن يراد به السحاب أو المطر فإيهما أريد فما ظلماته؟ قلت:
أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقاً فظلمته سحمته
وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل، وأما ظلمات المطر
فظلمة تكافئه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه
مع ظلمة الليل.

فإن قلت: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد، وإنما

= والحيرة، أو فعلهم يؤثرون في هذه الحال سد آذانهم بالوسطى؛
لأنها أصم للآذن، وأوجب للصوت، لم يلزم اقتصارهم على
السبابة، وأما السؤال الثاني فمفروق على الأول، وقد ظهر بطلانه،
وأيضاً ففيه مزيد رككة، إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال
أمثالهم من نوي الحيرة، فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم
بالمسبحات، ولعل السننهم ما سبحت الله قط، ثم إذا كان الغرض
من التمثيل تصوير المعاني في الأذان تصور المحسوسات، فنلك
خليق ينكر الصرائح، واجتناب الكنايات والرموز. قوله تعالى: «إن
الله على كل شيء قدير».

(1) سورة النور، الآية: 43.
(2) قال أحمد رحمه الله: لأنّ فيه إشعاراً، بأنهم يبالغون في إبخال
أصابعهم في آذانهم، فوق العادة المعتادة في نلك فراراً من شدّة
الصوت.
(3) سورة المائدة، الآية: 6.
(4) سورة المائدة، الآية: 38.
(5) قال أحمد رحمه الله: لا ورود لهذين السؤالين. أما الأول: فلأنه غير
لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة، ولا به فإنها حالة حيرة
ودهش، فأي أصبع اتفق أن يسدوا بها، فعلموا غير مرجحين على
ترتيب معتاد في نلك، فنلك مطلق الأصابع أدل عليه الدهش =

لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزداد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم. وأضاء إما متعدد بمعنى كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف، وإما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم. ﴿مشوا﴾ في مطرح نوره وملقى ضوئه. ويعضده قراءة ابن أبي عبيدة: كلما ضاء لهم. والمشى جنس الحركة المخصوصة فإذا اشتد فهو سعي فإذا ازداد فهو عو.

فإن قلت: كيف قبل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذا؟ قلت: لأنهم حراس على وجود ما مهمم به معقود من إمكان المشى وتأتيه فكلمة صانفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتجسس. وأظلم يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: أظلم، على ما لم يسم فاعله، وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هما أظلماحالي ثمت أجليا ظلاميها عن وجه امرد اشيب وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء الليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. ومعنى: ﴿قاموا﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه قامت السوق إذا ركبت، وقام الماء جمداً. ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد، لا يكابون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله:

فلوشئت أن ابكي لمألبكيتي

وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهاً لاتخذناه من لينا﴾⁽²⁾ و ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدأ﴾⁽³⁾ وأراد ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ بقصيف الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق. وقرأ ابن أبي عبيدة: لآذهب بأسماعهم، بزيادة الباء. كقوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾⁽⁴⁾ والشيء ما صح أن يعلم ويخبر عنه. قال سيبويه في ساقعة الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم من العربية: وإنما يخرج التانيث من التذكير. ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أنك هو أم أنتي، والشيء منكر وهو أعم العام، كما أن الله أخص الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم. تقول شيء لا كالأشياء، أي معلوم لا كسائر المعلومات وعلى المعلوم والمحال.

فإن قلت⁽⁵⁾: كيف قيل: ﴿على كل شيء قدير﴾؟ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل وفعل قادر آخر!

الفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد وإنما احتشوها بعد. قوله: ﴿من الصواعق﴾ متعلق ببجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. كقولك: سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنفض معها شقة من نار، قالوا تنتفض من السحاب إذا اصطلكت أجرامه وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حبتها سريعة الخمود، يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفت. ويقال: صعقت الصاعقة إذا اهلكته، فصعق أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقاً﴾⁽¹⁾. وقرأ الحسن: من الصواعق، وليس بقلب للصواعق لأن كلا البناءين سواء في التصرف وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله. ألا تراك تقول: صعقه على رأسه، وصقع الديك، وخطيب مصقع مجهر بخطبته. ونظيره جذب في جذب ليس بقلبه لاستهوائهما في التصرف، وبنائهما إما أن يكون صفة لقصفه الرعد أو للرعد والتاء مبالغة كما في الرواية، أو مصدرأ كالكاذبة والعافية. وقرأ ابن أبي ليلى: حذار الموت، وانتصب على أنه مفعول له. كقوله:

وأغفر عوراء الكريم انخاره والموت فساد بنية الحيوان وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة. وإحاطة الله بالكافرين: مجاز، والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة، وهذه الجملة اعتراض لا محل لها.

بَكَدَ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَسْرًا يَدٌ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَاتُوا وَكُوَّ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾.

والخطف: الأخذ بسرعة. وقرأ مجاهد: يخطف، بكسر الطاء، والفتح أقصح وأعلى. وعن ابن مسعود: يختطف. وعن الحسن: يخطف، بفتح الياء والخاء وأصله يختطف، وعنه: يخطف، بكسرهما على اتباع الياء الخاء. وعن زيد بن علي: يخطف من خطف، وعن أبي: يتخطف، من قوله: ويتخطف الناس من حولهم. ﴿كلما أضاء لهم﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين يشدته على أصحاب الصيب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صانفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهروا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطواتٍ يسيرة، فإذا خفي وفت

(1) سورة الاعراف، الآية: 143.

(2) سورة الانبياء، الآية: 17.

(3) سورة الزمر، الآية: 4.

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع: أما على الأصل، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة،

= وأما على الفرع فلأننا وإن فرعنا على معتقد القدرية، والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم، الذي يصح وجوده، فلا يتناول المستحيل إذاً على هذا التفريع، فايبراده إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين، وأما المقدور بين قادرين، فإنها ورطة إنما يستاق إليها القدرية، الذين يعتقدون أن ما تعلق به قدرة العبد، استحال أن يتعلق به قدرة الرب إذ قدرة العبد خالفة، فيستغني =

ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به وأبصر! قلتُ: هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظانِّ الرزقي وما يقربُه إلى رضوان الله ومنازل المقرِّبين هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتقريب في جنب الله مع فرط التهاك على استجابة دعوته، والإنان لندائه وأبتهاله.

وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن نر والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يرفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء. فالذي يعمل فيه حرف النداء هو أي والاسم التابع له صفته كقولك: يا زيد الظريف، إلا أن أياً لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة. وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لغائبتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أي من الإضافة.

فإن قلتُ: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلتُ: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهييه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيدته، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكد الأبلغ.

فإن قلتُ: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة. على ما روي عن علقمة والحسن: فالؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل:

فلو أنني فعلت كنت من تسد إليه وهو قائم أن يقوما
وأما الكفار فلا يعرفون الله ولا يقرؤون به فكيف يعبدونه؟ قلتُ: المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها، وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما. وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر حيث لم

قلتُ: مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلاً فالمستحيل مستثنى في نفسه عند نكر القادر على الأشياء كلها. فكانه قيل: على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره: فلان أمير على الناس، أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه.

فإن قلتُ: مم اشتقاق القدير؟ قلتُ: من التقدير لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز. لما عند الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، ونكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويريدها، أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المنكور عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾ وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما إن فلاناً من قصته كيت وكيت فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تترجم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي على جادة السداد في مصارك ومواردك، نبهته بالفتاكت نحوه فضل تنبيهه واستدعيت إصغاه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجيته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازماً من طبعه ما لا يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف يستفتح الأذان للاستماع ويستنهش الأنفس للقبول.

يَتَأْتِي النَّاسَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ بَيْنِكُمْ لَكُمْ تَقْوَى (١١).

وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة أن كل شيء نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾⁽²⁾ فهو مكّي، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁽³⁾ فهو مدني، فقله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ خطاب لمشركي مكة، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله أي والهزمة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل، وإن قرب تنزيلاً له منزله من بعد فإذا نودي به القريب المقاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً.

فإن قلتُ: فما بال الداعي يقول في جواره: يا رب،

= عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أصنق القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قلنا القدرة تتعلق بمقتورها، فتوجد فيكون حينئذ شيئاً فلما كان مأل ما تعلقت به القدرة، إلى الشيء حتماً، صح إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي من قتل قتيلاً، فله سلبه، وإذا سماوا الشيء باسم ما يؤل إليه غالباً فما يؤل إليه حتماً أجبر.

(1) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(2) سورة الزخرف، الآية: 87.

(3) سورة البقرة، الآية: 172.

= الفعل بها عن قدرة خالق آخر: ﴿تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً﴾، وأما أهل السنة، فالقادر الخالق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل، فيخلقه وتتعلق به قدرة العبد تتعلق اقتران لا تأثير، فلذلك لم يخلق مقبور بين قادرين على هذا التفسير، وقد حشى الزمخشري في إخراج كلامه هذا، سلب القدرة القديمة وجدها، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة بس تلك تحت قوله، وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليقتطن لبغائه، وكم من ضلالة استنسها في هذه المقالة، والله الموفق. فإن قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء =

مالك الملوك ذي العز والكبرياء، أو يجيء على طريق الإطعام نون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (4).

فَإِن قُلْتُمْ: ففعل التي في الآية ما معناها وما موقعها؟
قُلْتُمْ: ليست مما نكرناه في شيء لأن قوله: ﴿خَلَقَكُمْ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم، لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسيد أيضاً⁽⁵⁾، ولكن لعل واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة؛ لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبد لهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم، وهادهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل، ومصادقه قوله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (6) وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبهه بالاختيار بناء أمرهم على الاختيار.

فَإِن قُلْتُمْ: كما خلق المخاطبين لعلمهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم نون من قبلهم؟
قُلْتُمْ: لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرانتهم جميعاً.
فَإِن قُلْتُمْ(7): فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم. **قُلْتُمْ:** ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي نك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده. فإذا قال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وثابت لها في النفوس. ونحوه أن تقول لعبيدك: احمل خريطة الكتب فما ملكتك يميني إلا لجر الأثقال، ولو قلت: احمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه نك الموقع.

أَلَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ رِشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَسْلُمُونَ ﴿١٧﴾

قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له

ينفعل إلا به، وكان من لوازمه على أن مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿وَلئن سألتم من خلقهم ليقولن الله﴾.

فَإِن قُلْتُمْ: فقد جعلت قوله ﴿اعبدوا﴾ متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بزيادةها! **قُلْتُمْ:** الزيادة من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر.

فَإِن قُلْتُمْ: ﴿ربكم﴾ ما المراد به؟ **قُلْتُمْ:** كان المشركون معتقدين ربوبيتين ربوبية الله، وربوبية آلهتهم. فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والارض والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً. وكان قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به ربكم على الحقيقة، والذي خلقكم صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة إلا أن الأول أوضح وأصح، والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء. يقال: خلف النعل، إذا قترها وسواها بالمقياس. وقرأ أبو عمرو: خلقكم بالإدغام، وقرأ أبو السميغ: وخلق من قبلكم. وفي قراءة زيد بن علي: والذين من قبلكم، وهي قراءة مشكلة ووجهها على إشكالها أن يقال: أحتم الموصل الثاني بين الأول وصلته تأكيداً، كما أحتم جرير في قوله:

ياتيم تيم عدي لا أبالكم

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه. وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في لا أبالك. ولعل للترجي أو الإشفاق، تقول: لعل زيدا يكرمني، ولعله يهينني. وقال الله تعالى: ﴿لعله يتنكر أو يخشى﴾ (1). **لعل الساعة قريب﴾** (2). ألا ترى إلى قوله: ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ (3) وقد جاءت على سبيل الإطعام في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطعام من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجرى أطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به. قال من قال: إن لعل بمعنى كي، ولعل لا تكون بمعنى كي ولكن الحقيقة ما القيت إليك، وأيضاً فمن بين الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات، أو يخيلوا إخالاً أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة. فإذا عثر على شيء من ذلك منهم لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام

(6) سورة الملك، الآية: 2. وسورة هود، الآية: 7.

(7) قال أحمد رحمه الله: كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة، فإنه مفرغ على تلك النزعة المتقدمة آنفاً، والعبارة المحررة في نك على قاعدة السنة أن يقال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم على حالة من خلقكم معها، أن تستولوا على أقصى غاية العبادة، وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول، وبينه لكم من البواعث على تقواه، فكان جديراً بكم، أن لا تدعوا من جهنم في التقوى شيئاً.

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة الشورى، الآية: 17.

(3) سورة الشورى، الآية: 18.

(4) سورة التحريم، الآية: 8.

(5) قال أحمد رحمه الله: كلام سيد إلا قوله، وأراد منهم التقوى والخير، فإنه كلام أبرزه على قاعدة للقدرية، والصحيح، والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين، والطلب والأمر عند أهل السنة مباين للإزادة، ألهمنا الله صواب القول وسداده.

ثمرات ﴿¹﴾ ولأن المنكرين أعني ماء ورزقاً يكتنفاه، وقد قصد بتكبيرهما معنى البعضية، فكانه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهذا هو المطابق لصحة المعنى لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ولا جعل الرزق كله في الثمرات، ويجوز أن تكون للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً.

فإن قلت: فيم انتصب ﴿رزقاً﴾؟ قلت: إن كانت من للتبعية كان انتصابه بأنه مفعول له، وإن كانت مبنيةً كان مفعولاً لأخرج.

فإن قلت: فالثمرات مخرج بماء السماء كثير جم، فلم قيل: الثمرات، نون الثمر والثمار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قوك: فلان أدركت ثمرة بستانه تريد ثماره، ونظيره قولهم: كلمة الحويدرة لقصيدته، وقولهم: للتقرية المدرة، وإنما هي مدر متلاحق.

والثاني: أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقاءها في الجمعية كقوله: ﴿كم تركوا من جنات﴾ و﴿ثلاثة قروء﴾؛ ويعضد الوجه الأول قراءة محمد بن السميع: من الثمرة، على التوحيد. و ﴿لكم﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم.

فإن قلت: بم تعلق ﴿فلا تجعلوا﴾؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه، أن يتعلق بالأمر أي: اعبثوا ربكم فلا تجعلوا له ﴿انداداً﴾؛ لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد، وأن لا يجعل لله ند ولا شريك، أو بلعل على أن ينتصب تجعلوا انتصاباً قاطعاً في قوله عز وجل: ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾ أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى⁽²⁾ في رواية حفص عن عاصم: أي خلقكم؛ لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقهم. أو بالذي جعل لكم إذا رفعته على الابتداء، أي: هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية فلا تتخذوا له شركاء.

والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناويء، قال جرير:

أنيما تجعلون إلي نداءً وماتيم لذي حسب ننيذ
وناديت الرجل خالفته ونافرتي، من ند نوداً إذا نفر،
ومعنى قولهم: ليس لله ند ولا ضد، نفي ما يسد مسده
ونفي ما ينافيه.

فإن قلت: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه! قلت: لما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قادرة على مخالفته ومضادته، فقيل لهم: ذلك على سبيل التهكم كما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفزع شأنهم بأن

خلقهم أحياء قادرين، أولاً لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما. ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه. ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المنطبة على هذا القرار. ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من الوان الثمار رزقاً لبني آدم ليكون لهم نكح معتبراً ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف، ونعمةً يتعرفونها فيقابلونها بلأزم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها. فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلهما حتى لا يجعلوا المخلوقات لله أنداداً، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر. والموصول مع صلته إما أن يكون في محل النصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم. وإما أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح.

وقرأ يزيد الشامي: بساطاً. وقرأ طلحة: مهاداً. ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقبلون كما يتقبل أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده.

فإن قلت: هل فيه ليل على أن الأرض مسطحة وليست بكربة؟ قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفترضونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها، وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل.

والبناء: مصدر سمي به المبنى بيتاً كان أو قبةً أو خباءً أو طرافاً، وأبنية العرب أخبيتهم ومنه: بنى على امراته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جيداً.

فإن قلت: ما معنى إخراج الثمرات بالماء، وإنما خرجت بقدرته ومشيئته؟ قلت: المعنى أنه جعل الماء سبباً في خروجها ومادة لها، كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مندرجاً لها من حال إلى حال وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ونواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبداً وأفكاراً صالحاً، وزيادة طمأنينة وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته. ليس نكح في إنشائها بغتة من غير تدرج وترتيب.

ومن: في ﴿من الثمر﴾ للتبعية بشهادة قوله ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾. وقوله: ﴿فأخرجنا به

قال الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾⁽²⁾ فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبة، وهلموا نجماً فرداً من نجومه، سورة من أصغر السور أو آيات شتى مفتريات، وهذه غاية التبكيك ومنتهى إزاحة العلل.

وقرىء: على عبدنا، يريد رسول الله ﷺ وأمته. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات وواوها إن كانت أصلاً فلما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولرهمط حزاب وقدسورة في المجدليس غرباها بمطار
لاحد معنيين لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، وهي أيضاً في نفسها مترتبة طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلانها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه.

فإن قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة ولامر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزيور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور، وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده أن الجنس إذا انحطت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبى وأفخم من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوي فرسخاً أو انتهى إلى رأس يريد نفس ذلك منه ونشطه للسير، ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً وأجزاءً وعشوراً وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حنق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغضب به، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا⁽³⁾، ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل، ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحق المعاني ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع. ﴿من مثله﴾⁽⁴⁾ متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا أو لعبدنا،

جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ند قط. وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه:

أربأً واحداً أم ألف رب أين إذا تقسمت الأمور
وقرأ محمد بن السميع: فلا تجعلوا لله نداً.

فإن قلت: ما معنى ﴿وانتم تعلمون﴾؟ قلت: معناه: وحالكم وافتكم أنكم من صفة تمييزكم بين الصحيح والفساد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير والدعاء والفظنة بمنزل لا تدفعون عنه، وهكذا كانت العرب خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة لا يصطلى بناهم في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها، ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل: وانتم من أهل العلم والمعرفة والتوبيخ فيه أكد. أي: انتم العارفون المميزون، ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر وانتم تعلمون أنه لا يماثل، أو وانتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو انتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله. كقوله: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾⁽¹⁾.

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأقولوا بآياتنا
وآدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿٣٧﴾.

لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويحققها ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أن من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه، عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم وينوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلده.

فإن قلت: لم قيل ﴿مما نزلنا﴾؟ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم، وهو من محازه لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً وشيئاً فشيئاً حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة.

(1) سورة الروم، الآية: 40.

(2) سورة الفرقان، الآية: 32.

(3) أخرجه أحمد في المسند 3/245.

(4) قال أحمد رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدّي عليهم في =

= التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أي: أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً، عجزة عن الإتيان بطائفة منه، وأما على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم، يكون معارضاً للمتحدّي، بأنه يأتي بمثل ما أتى به، أو ببعضه ولا شك أن عجز =

ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿فَاتُوا﴾ والضمير للعبد.

فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت: معناه فاتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فاتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك، ولكنه نحو قول القبيعري للحجاج وقد قال له: لأحملنك على الأدهم مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب، أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج، ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى: ﴿فَاتُوا بسورة مثله﴾⁽¹⁾ ﴿فَاتُوا بعشر سور مثله﴾⁽²⁾ ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾⁽³⁾ ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبداً مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مربوذاً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أن محمداً منزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله. ولأنهم إذا خطبوا جميعاً وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة.

ومعنى نون: أنى مكان من الشيء. ومنه الشيء اللون وهو النبي الحقيق، ونون الكتب إذا جمعها لأن جمع الأشياء إبناء بعضها من بعض، وتقليل المسافة بينها. يقال: هذا نون ذلك، إذا كان أحط منه قليلاً. وبنوك هذا، أصله خذه من بنوك، أي من أنى مكان منك، فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب. فقيل: زيد نون عمرو في الشرف والعلم. ومنه قول من قال لعده وقد رآه بالثناء عليه: أنا نون هذا وفوق ما في نفسك. واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي حكم إلى حكم. قال الله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من نون المؤمنين﴾⁽⁴⁾ أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. وقال أمية:

يا نفس ما لك نون الله من واقبي

أي: إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يقك غيره.

﴿ومن نون الله﴾ متعلق بادعوا، أو بشهداءكم، فإن علقته بشهداءكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من نون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى:

ترك القذى من نونها وهي نونه

أي: ترك القذى قدامها وهي قدام القذى لرققتها وصفائها، وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم. أو ادعوا شهداءكم من نون الله أي من نون أوليائه ومن غير المؤمنين ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله، وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مدارة القوم الذين هم وجوه المشاهد، وفرسان المقاول والمناقلة، تآبى عليهم الطباع وتجمع بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته. وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز، وإن علقته بالدعاء فمعناه: ادعوا من نون الله شهداءكم. يعني: لا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا الله يشهد أن ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه، وادعوا الشهداء من الناس الذين شهداتهم بينة تصحح بها الدعوى عند الحكام. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم، وأن الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبهاً غير قولهم الله يشهد أنا صادقون، وقولهم هذا تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة. وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشي والحمد لله، فقيل له: قولك الحمد لله في هذا المقام ريبة. أو ادعوا من نون الله شهداءكم، يعني: أن الله شاهدكم؛ لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم، والجن والإنس شاهدوكم، فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله نون كل شاهد من شهدائكم. فهو في معنى قوله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن﴾⁽⁵⁾ الآية. لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسره وامتياز حقه من باطله قال لهم: فإذا لم تعارضوه، ولم يتسهل لكم ما تبغون، وبن لكم أنه معجز عنه، فقد صرح الحق عن محضه، ووجب التصديق، فأمنا وخافوا العذاب المعد لمن كذب. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدثي به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله.

فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهل جاء بإناء

(3) سورة الإسراء، الآية: 88.

(4) سورة آل عمران، الآية: 28.

(5) سورة الإسراء، الآية: 88.

= الخلاق أجمعين، أبهى من عجز واحد منهم، ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

(1) سورة يونس، الآية: 38.

(2) سورة هود، الآية: 13.

اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد من حيث إنه من نتائجه، لأن من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أرتبتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري وأفعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منأ به وإبرازه في صورته مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفطيع أمرها.

والوقود: ما ترفع به النار، وأما المصدر فمضموم وقد جاء فيه الفتح. قال سيبويه: وسمعنا من العرب من يقول: وقنت النار وقوداً عالياً، ثم قال: والوقود أكثر، والوقود الحطب، وقرأ عيسى بن عمر الهمداني: بالضم، تسمية بالمصدر كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده، ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط. أي: ليست حياته إلا به، فكان نفس السليط حياته.

فإن قلت: صلة الذي والتي يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت: لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب أو سمعوه من رسول الله ﷺ أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾⁽¹⁾.

فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكرة في سورة التحريم وهنا معرفة؟ قلت⁽²⁾: تلك الآية نزلت بمكة فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾؟ قلت: معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها لا تنقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحصاء الحجارة أوقدت أولاً بوقود، ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحصاءه، وتلك أعاننا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ما يحرق ويحمى بالنار، وبأنها لإفراط حرها وشدة نكلها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها.

فإن قلت: نار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ قلت: بل هي نيران شتى منها نار توقد بالناس والحجارة يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾⁽³⁾ ﴿فأنذرتكم ناراً تلتظي﴾⁽⁴⁾ ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أن لكفرة الإنس ناراً وقودها هم جزء لكل جنس بما يشاكله من العذاب.

فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة

الذي للوجوب دون إن الذي للشك؟ قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حساباتهم وطمعهم وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لتكالمهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أن يتهم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً به.

﴿إِن لَّمْ تَقْمَلُوا وَلَٰكِنْ نَّقْمَلُوا فَآتُوا النَّارَ آتِيًّا وَرُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥).

فإن قلت: لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه؟ قلت: لأنه فعل من الأفعال تقول: أتيت فلاناً. فيقال لك: نعم ما فعلت. والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه. ألا ترى أن الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا وشتمته ونكلت به، ويعد كيفيات وأفعالاً. فتقول له: بشما فعلت. ولو نكرت ما أثبتت عنه لطلال عليه، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تاتوا بسورة من مثله ولن تاتوا بسورة من مثله.

فإن قلت: ﴿ولن تفلحوا﴾ ما محلها؟ قلت: لا محل لها لأنها جملة اعتراضية.

فإن قلت: ما حقيقة ﴿لن﴾ في باب النفي؟ قلت: لا ولن أختان في نفي المستقبل إلا أن في لن توكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك: لا أقيم غداً. فإن أنكرك عليك قلت: لن أقيم غداً، كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه أصلها لا أن. وعند الفراء لا أبطلت ألفها نوناً وعند سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل حرف مقتضب لتأكيد نفي المستقبل.

فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه إذ خفاء مثله فيما عليه مبني العادة محال لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابيين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة.

فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صبح عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صبح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقلوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار ف قيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع ﴿فاتقوا النار﴾ موضعه لأن

(1) سورة التحريم، الآية: 6.

= القصة المشهورة أصبق شاهد على ذلك، فالظاهر أن الزمخشري وهم في نقله، أنها مكية.

(3) سورة التحريم، الآية: 6.

(4) سورة الليل، الآية: 14.

(2) قال أحمد رحمه الله: يعني بالآية: قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾، لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين، أن سورة التحريم مننية، وما اشتعلت عليه من

معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشّر عمراً بالعفو والإطلاق، ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشّر يا فلان بني أسد بإحسانني إليهم. وفي قراءة زيد بن علي رضي الله عنه: وبشّر، على لفظ المبني للمفعول عطفاً على أعدت، والبشارة الإخبار بما يظهر سرور المخبر به. ومن ثم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أيكم بشّرني بقدم فلان فهو حر، فبشّروه فرادى، عتق أولهم لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره نون الباقين. ولو قال مكان بشّرني: أخبرني، عتقوا جميعاً، لأنهم جميعاً أخبروه. ومنه البشارة لظاهر الجلد، وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما فبشّره بعذاب اليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتآلمه واغتمامه كما يقول الرجل لعنوّه: أبشّر بقتل ذريتك ونهب مالك. ومنه قوله: فاعتبوا بالصليب والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني
والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بليل العقل
والكتاب والسنة واللام للجنس.

فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟

قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه.

فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف. والجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه. قال زهير:

تسقي جنة سحفاً

أي: نخلاً طويلاً. والتركيب دائر على معنى الستر، وكانها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرة من مصدر جنه إذا ستره كأنها سترة واحدة لفرط التفافها، وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان.

فإن قلت: الجنة مخلوقة أم لا؟ قلت: قد اختلف في ذلك

معهم وقوداً قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعبوها من دونه قال الله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (1). وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه فقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ (2) في معنى الناس والحجارة ﴿حصب جهنم﴾ (3) في معنى وقودها. ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من نون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستشفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم، جعلها الله عذابهم فقرنهم بها محمأة في نار جهنم إبلاغاً في إيلاهم وإغراقاً في تحسيرهم، ونحوه ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذمهم وفضتهم عدّة ونخيرة فشحوا بها ومنعوا من الحقوق حيث يحى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل. ﴿أعدت﴾ هيئت لهم وجعلت عدّة لعذابهم. وقرأ عبد الله: أعتت من العتاد بمعنى العدة. من عانت عَزَّ وجَلَّ في كتابه أن ينكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلّف، فلما نكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب ففاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب.

وَيَبِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُتَهَرَّةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

فإن قلت: من المأمور بقوله تعالى: ﴿وبشّر﴾؟ قلت: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ وأن يكون كل أحد كما قال عليه الصلاة والسلام: «بشّر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة» (4). لم يامر بذلك واحداً بعينه وإنما كل أحد مأمور به، وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشّر به كل من قدر على البشارة به.

فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي

(1) سورة الانبياء، الآية: 98.

(2) سورة الانبياء، الآية: 98.

(3) سورة الانبياء، الآية: 98.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام الحديث رقم: (561)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة =

= الحديث رقم: (223)، وفي كشف الأستار كتاب: الصلاة، باب: المشي إلى المساجد في الظلم الحديث رقم: (432) عن أبي موسى، وأخرجه ابن ماجه عن أنس في كتاب المساجد والجماعات، باب: المشي إلى الصلاة الحديث رقم: (781)، وحديث سهل الحديث رقم: (780)، والحاكم في المستدرک عن أنس وسهل 212/1.

والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى أمم وحواء الجنة وبمجئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالاعلام كالنبي والرسول والكتاب ونحوها.

فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان.

فإن قلت: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر، وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية فهلا شرط ذلك؟ قلت: لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء إذا لم يتعقبه مما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً وأعلم بقوله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾⁽¹⁾ وقال تعالى للمؤمنين: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم﴾⁽²⁾ كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالدخل تحت النكر.

فإن قلت: كيف صورة جري الأنهار من تحتها؟ قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وعن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظلمة والأنهار في خلالها مطردة. ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت أتق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تهيج الأنفوس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء؛ وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً وكانت كتمائيل لا أرواح فيها وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشيثيين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعمتها. والنهر المجري الواسع فوق الجدول ودون البحر. يقال لبردى: نهر دمشق. وللنيل: نهر مصر. واللغة العالية النهر بفتح الهاء ومدار التركيب على السعة، وأسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازي كقولهم: بنو فلان يطؤون الطريق وصيد عليه يومان.

فإن قلت: لم نكرت الجنات وعرفت الأنهار؟ قلت: أما تنكير الجنات فقد نكر، وأما تعريف الأنهار فإن يراد الجنس كما تقوله لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب، والوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم

المخاطب. أو يراد أنهارها فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾⁽³⁾ ويشار باللام إلى الأنهار المنكورة في قوله: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾⁽⁴⁾ الآية. وقوله: ﴿كلما رزقوا﴾ لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس. فقيل: إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها، وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله.

فإن قلت: ما موقع ﴿من ثمرة﴾؟ قلت: هو كقولك كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك، فموقع من ثمرة موقع قولك: من الرمان. كأنه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو غيرها أو غير ذلك رزقاً قالوا ذلك، فمن الأولى والثانية كلتاهما لا ابتداء الغاية لأن الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة، وتنزيله تنزيل أن تقول: رزقني فلان فيقال لك: من أين؟ فنقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فنقول: من رمان. وتحريره أن رزقوا جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار، ووجه آخر وهو أن يكون من ثمرة بياناً على منهاج قولك: رأيت منك أسداً، تريد أنت أسداً، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار والجنات الواحدة.

فإن قلت: كيف قيل ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل⁽⁵⁾ وشبهه. ببديل قوله: ﴿واتوا به متشابهاً﴾⁽⁶⁾ وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كان ذاته ذاته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿واتوا به﴾؟ قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً. لأن قوله: هذا الذي رزقنا من قبل انطوى تحته نكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾⁽⁷⁾. أي بجنسي الغني والفقير. لدلالة قوله: ﴿غنياً أو فقيراً﴾ على الجنس، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقيل: أولى به على التوحيد.

فإن قلت: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

(2) سورة الحجرات، الآية: 2.

(3) سورة البقرة، الآية: 25.

(4) سورة مريم، الآية: 4.

(5) سورة النساء، الآية: 135.

(6) سورة محمد، الآية: 15.

(7) قال احمد رحمه الله: وهذا من التشبيه بغير الاداة، وهو ابلغ =

يكتسب بآنفسهن، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والعناشئ المفسدة، ومن سائر عيوبهن ومثالهن وخبثهن وكيدهن.

فإن قلت: فهلا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ **قلت:** هما لغتان فصيحتان يقال: النساء فعلن، وهن فاعلات وفواعل والنساء فعلت، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة:

وإذا العذاري بالبخان تقنعت واستعجلت نصب القبور فملت

والمعنى: وجماعة أزواج مطهرة، وقرأ زيد بن علي: مطهرات. وقرأ عبيد بن عمير: مطهرة، بمعنى مطهرة. وفي كلام بعض العرب: ما أحوجني إلى بيت الله فاطهر به أظهرة. أي فاطهر به تطهرة.

فإن قلت: هلا قيل: طاهرة؟ **قلت:** في مطهرة فعامة لصفتهن ليست في طاهرة وهي الإشعار بأن مطهراً طهرهن، وليس ذلك إلا الله عز وجل المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم.

والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع. قال الله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفلان مت فهم الخالون﴾⁽³⁾. وقال امرؤ القيس:

الآنعم صلباً أيها الطفل البالي وهل ينعم من كان في العصر الخالي
وهل ينعمن للأسعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا تُوقَفُهَا فَمَا أَلَازِمُهَا أَتَمَّتْ مَا تَمَّتْ مِنْ رَبِّهَا وَآمَّا أَلَيْسَ كَعَزْوِهَا يَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾⁽⁴⁾.

سيفت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء، وأهل العناد والمراء من الكفار واستغريبه، من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإنشاء المتوهم من المشاهد. فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً، إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له. وتستجره إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ كيف تمثل له بالضياء والنور، وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة، ولما كانت حال الألهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي نوبها مثلاً لم يستنكر، ولم

بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر؟ **قلت:** لأن الإنسان بالملوك أنس وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألغه نفر عنه طبعه. وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقنم له معه لف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أقرط ابتهاجه واعتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقيق مقدار الغبطة به؛ ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً حسب أن تلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين، فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكن، والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر. كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا، وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة بسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعه كان تلك أبين للفضل، وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما، وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أن تلك التفاوت العظيم هو الذي يستلمي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان. عن مسروق: «نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وأنهاها تجري في غير أهدود، والعنقود اثنتا عشرة ذراعاً. ويجوز أن يرجع الضمير في أتوا به إلى الرزق كما أن هذا إشارة إليه، ويكون المعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه. كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة لياكلها فما هي بواصلة إلى فيه حتى يبذل الله مكانها مثلها»⁽¹⁾. فإذا أبصروها، والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك والتفسير الأول هو هو.

فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿واتوا به متشابهاً﴾ من نظم الكلام؟ **قلت:** هو كقولك: فلان أحسن بفلان، ونعم ما فعل ورأى من الرأي كذا وكان صواباً. ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا أعزّة أهلها أنثى وكنتك يفعلون﴾⁽²⁾، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضاً للتقرير.

والمراد بتطهير الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من الأقدار والأناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا مما

(2) سورة النمل، الآية: 34.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 34.

(1) كشف الاستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في ثمار الجنة الحديث

رقم: (3530).

الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير منتكس القوة منتقص الحياة. كما قالوا: هلك فلان حياة من كذا، ومات حياة، ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء، وذاب حياة، وجمد في مكانه خجلاً.

فإن قلت: كيف جاز وصف القديم سبحانه به⁽¹⁾، ولا يجوز عليه التغير، والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردّهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً»⁽²⁾؛ قلت: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخيب العبد، وأنه لا يردّ يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياةً منه. وكذلك معنى قوله: «إن الله لا يستحي» أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع وطرز عجيب منه قول أبي تمام: من مبلغ أقاء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل وشهد رجل عند شريح فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعد عني. فقال: لله بلاك، وقبل شهانته. فالذي سورج بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار وسبوبة الشهادة لامتنع تجعيدها، والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجه وأسدّ مدارجه، وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه.

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن⁽³⁾ بسبت⁽⁴⁾ في إناء من الورد وقرأ ابن كثير في رواية شبل: يستحي، بياء واحد، وفي لغتان التعدي بالجار، والتعدي بنفسه. يقولون: استحيت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا. وضرب المثل اعتماده، وصنعه من ضرب اللين وضرب الخاتم، وفي الحديث: اضطرب رسول ﷺ خاتماً من ذهب⁽⁵⁾ وما

استبدع، ولم يقل للمتمثل استحي من تمثيلها بالبعوضة لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه محتجاً على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، وليبان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغصبهم على بصائرهم فلا يتقنون، ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أنّ حب الرياسة، وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا. وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وإنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وانهمك الفاسقين في غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم ويوانبيهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء، فقالوا: أجمع من نرّة، وأجرأ من الذئب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة، وأكل من السوس، وقالوا: في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض، ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة: كالزوان والنخالة، وحب الخردل والحصاة والأرضة والود والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء بأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أننى مسكة، ولكن نيند المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل، ولا متمسك بأمانة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح، وإنكار المستقيم، والتعويل على المكابرة والمغالطة؛ إذا لم يجد سوى ذلك معولاً، وعن الحسن وقتادة: لما نكر الله الذئب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية. والحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، واشتقاقه من الحياة. يقال: حيي الرجل. كما يقال: نسي وحشي وشظي الفرس؛ إذا اعتلت هذه الأعضاء جعل

رقم: (3556)، واللفظ له بون وحتى يضع فيهما خيراً، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء باب: رفع اليدين في الدعاء، الحديث رقم: (3865)، والحاكم في المستدرک 497/1 عن سلمان وعبد الرزاق في مصنفه عن انس 251/2 الحديث رقم: (3250) كتاب الصلاة، وأبو نعيم في الحلية 254/7، وأخرجه الحاكم عن انس 498/1، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق (7)، باب الادعية، حديث رقم: (876).

(3) الرعن: موضع لين.

(4) سبت: أصله من السبات؛ وهي الرحلة.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: من جعل فص الخاتم في بطن كفه الحديث رقم: (5876). بلفظ: «أن النبي ﷺ اصطنع خاتماً من ذهب».

(1) قال احمد رحمه الله: ولقائل أن يقول، ما الذي دعاه إلى تأويل الآية، مع أنّ الحياء الذي يخشى، نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب في الآية، كقولنا لا يسبح بحسب، ولا بجواهر في معرض التنزيه والتقيس، وأما تأويل الحديث فمستقيم؛ لأنّ الحياء فيه ثبت لله تعالى، وللزمخشري أن يجيب بأن السلب في مثل هذا، إنما يطرأ على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه، إذ مفهوم نفي الاستحياء عنه في شيء خاص ثبوت الاستحياء في غيره، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أقضى إليه مفهومه، وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً، كقولنا: الله لا يحول ولا يزول، فإن ذلك لا يثبت ومحال، بل يقال: هو مقدس منزّه مطلقاً.

(2) أخرجه ابو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء الحديث رقم: (1488)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (105) الحديث

هذه إبهامية⁽¹⁾ وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمت إبهاماً وزانته شياعاً وعموماً. كقولك: أعطني كتاباً ما تريد: أي كتاب كان، أو صلة للتأكيد كالتي في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ كأنه قيل لا يستحي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة هذا إذا نصبت «بعوضة»، فإن رفعتها فهي موصولة صلتها الجملة؛ لأنّ التقدير هو بعوضة حفن صدر الجملة كما حنف في تماماً على الذي أحسن ووجه آخر حسن جميل وهو أن تكون⁽²⁾ التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات. قال: إن الله لا يستحي أن يضرب للانداد ما شاء من الأشياء المحقرة، مثلاً بله البعوضة فما فوقها. كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما بينار وديناران. والمعنى أن الله أن يتمثل للانداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل. كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ، وبما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه أو بالمعموم. كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد. ولقد ألم به قوله تعالى: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من لونه من شيء﴾⁽³⁾ وهذه القراءة تعزى إلى رؤبة بن العجاج وهو أمضغ العرب للشحيح، والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه وهو المطابق لفصاحته، وانتصب بعوضة بأنها عطف بيان لـ «مثلاً» أو مفعول لـ «يضرب»، ومثلاً حال عن النكرة مقدّمة عليه أو انتصبا مفعولين فجرى ضرب مجرى جعل، واشتقاق البعوض من البعض، وهو

القطع كالبضع، والعضب. يقال: بعضه البعوض، وأنشد: لنعم البيت بيت أبي نثار إذا ما خاف بعض القوم بعضاً ومنه بعض الشيء لأنه قطعه منه، والبعوض في أصله صفة على فاعول كالقَطوع فغلبت، وكذلك الخמוש: ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان: أحدهما فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة. نحو قولك لمن يقول فلان أسفل الناس وأنزلهم: هو فوق ذلك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة، والثاني فما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك وقد نَمَ من عرفته يشح باندنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه، تريد بما فوقه ما بخل فيه، وهو الدرهم والدرهمان. كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين. ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم، عن الأسود قال: نخل شباب من قريرش على عائشة رضي الله عنها وهي بيمى، وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرّ على طنّب فسقاط فكانت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا، إنني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»⁽⁴⁾. يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة، وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أصاب مؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياها حتى نخبة

(1) قال أحمد رحمه الله: وفيها وهم إمام الحرمين في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام: «لينا امرأة نكحت بغير إذن ولها»... الحديث، فإنه قرر العموم والإبهام في أي، ثم قال فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم، فاعتقد أنّ المؤكدة هي الشرطية، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض، وأما ما الشرطية، فاسم كمن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: جعلها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرره فيه نظر، لأنّ قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ في الحقارة، فيكون معناه فما دونها، وأما أن يراد به فما هو أكبر منها حجماً، وعلى كلا التقديرين يتقدّر الاستفهام؛ لأنه إنما يستعمل في مثل ما بينار وديناران أي إذا جاد بالكثير، فما القليل وإذا ذهبت في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالاً، إذ يكون المراد: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالمحقرات، فما البعوضة، وما هو أحقر منها، وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات، وفي الوجه الآخر ليست نهاية، بل النهائية في قوله: ﴿فما فوقها﴾، أي: دونها، فإذا حمل ما يعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم ينتظم التنبيه المنكسر، بل ينعكس الغرض فيه، إذ المقصود في مثل قولنا: فلان لا يبالي بعباء الألواف، فما الدينار الواحد التنبيه، على أن إعطائه القليل منه محقق بعبائه الكثير، بطريق الأولى، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير، أنه لا يستحي من ضرب المثل بالمحقرات، التي لا تبلغ النهاية، فكيف يستحي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة، كالبعوضة هذا عكس لنظم الأولوية، ولو كانت الآية مثلاً وأردت على غير هذا التكلم، كقول =

القائل: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالبعوضة، التي هي نهاية في الحقارة، فما الانعام التي هي إبهى من البعوضة، أو أبعد منها عن الحقارة، بما لا يخفى، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً وما أراه والله أعلم، إلا وأهأما في هذا الوجه، وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه، إلا أنه محل ضيق، ومعنى متعاض لا يخلص إلى الفهم، إلا بهذا المزيد من البسط، ونهايك بموضع العكس على فهم الزمخشري، بل مع تعوّد فهمه وإصابة نسجه خصوصاً في تنسيق المعاني، وتفصيلها، والله الموفق، وما توجهه بالعتور على الوجه الذي ظنّ أن رؤبة بن العجاج رعاه في قراءته، فكلام ريك توهّم أنّ القراءة موكولة إلى رأي القارىء، وتوجيه لها، ونصرته بالعربية، وفصاحته في اللغة، وليس الأمر كذلك، بل القراءة على اختلاف وجوهها، ويعدّ حروفها سنة تتبع وسماع يقضي بنقله الفصيح، وغيره على حدّ سواء، لا حيلة للفصيح في تعمس شيء منه، عما سمعه عليه، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بندل كل فصاحة، وعزل كل بلاغة، فالصحيح والمعتمد أن كل قارئ معزول، إلا عما سمعه، فوعاه وتلقنه من الأقراء، فأداه إلى أن ينتهي نك إلى استماع من أقص من نطق بالضاد سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتأمل هذا الفصل، فإنّ فاهمه قليل.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(4) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى للشوكة يشاكها الحديث رقم: (6506).

مرفوعاً وعلى الثاني منصوباً ليطابق الجواب السؤال، وقد جَوَزُوا عكس ذلك. كما تقول في جواب من قال: ما رأيت خير، أي المرثي خير. وفي جواب ما الذي رأيت خيراً، أي رأيت خيراً. وقرئ قوله تعالى: ﴿ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو﴾⁽⁶⁾ بالرفع والنصب على التقديرين.

والإرادة: نقيض الكراهة وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك، وفي حدود المتكلمين الإرادة معنى يوجب للحق حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه نون وجه، وقد اختلفوا في إرادة الله في بعضهم على أَنَّ للباري مثل صفة المرید منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالمًا غير ساء، وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها، وهو غير ساء ولا مكره، ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها، والضمير في أنه الحق للمثل أو لأن يضرب. وفي قولهم: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ استبدال، واستحقاق. كما قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاصي: يا عجباً لابن عمرو هذا! ﴿مثلاً﴾ نصب على التمييز كقولك: لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً؟ ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً؟ أو على الحال، كقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم﴾⁽⁷⁾ آية. وقوله: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بـ «أما»، وإن فريق العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم يكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأن الجهل بحسن موده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خطأ في ظلماتهم.

فإن قلت: لم وصف المهديين بالكثرة⁽⁸⁾ والقلة صفتهم، وقليل من عبادي الشكور وقليل ما هم الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة وجدت الناس أخير ثقله! قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم وحين يوصفون بالقلة؛ إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً فإنَّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة فسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً.

إنَّ الكرام كثير في البلاد وإنَّ قلوباً كما غيرهم قل وإنَّ كثروا وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب،

النملة⁽¹⁾؛ وهي عضتها، ويحتمل ما هو أشد من الشوكة. وأوجع كالخزور على طناب الفسطاط.

فإن قلت: كيف يضرب المثل بما نون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت: ليس كذلك فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للذئب⁽²⁾ وفي خلق الله حيوان أصغر منها، ومن جناحها. ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة نوبية لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواربها، ثم إذا لوحت لها بيك حانت عنها وتجنبنت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة. وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾⁽³⁾. وأنشدت لبعضهم:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الليل
ويرى عروق نياطها⁽⁴⁾ في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تائب من فرطاته⁽⁵⁾ ما كان منه في الزمان الأوّل

﴿وأما﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد. تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبيويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مثل لفائتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدرتين به، وإن لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون: إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿الحق﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره. يقال: حق الأمر إذا ثبت ووجب، وحقت كلمة ربك، وثوب محقق محكم النسج. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي فيكون كلمتين، وأن يكون ذا مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة، فهو على الوجه الأوّل مرفوع المحل على الإبتداء، وخبره ذا مع صلته، وعلى الثاني منصوب بالمحل في حكم ما وحده. لو قلت: ما أراد الله، والأصوب في جوابه أن يجيء على الأوّل

(1) لم أجده، قال ابن حجر، وأصل الحديث نون ما في آخره مروى بطرق كثيرة، وقال الزيلعي: غريب جداً.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل الحديث رقم: (2320).

(3) سورة يس، الآية: 36.

(4) نياطها: موتها.

(5) فرطته: أي ضيغ ما عنده فلم يعمل له.

(6) سورة البقرة، الآية: 219.

(7) سورة الاعراف، الآية: 73.

(8) قال أحمد رحمه الله: جوابه صحيح وتنظيره بالبيت، وهم لأنَّ =

= الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام، وإن كان قليلاً منهم في نفسه، فالواحد منهم لعموم نفعه. وانبساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً، وعدد اللئام، وإن كثروا فالأكثر منهم يعنون بواحد من غيرهم، لغل أبيهم، وانقباضها عن الجواد، وعدم تعذّي نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن زيد:

الناس ألف منهم كواحد وواحد كالف إن أمر عرا

وأما الآية، فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه، ومضمون الآيات الأخر، وإن عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فعبر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

والعهد: الموثق، وعهد إليه في كذا إذا وصاه به ووثقه عليه، واستعهد منه إذا اشترط عليه واستوثق منه، والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبار اليهود المتعنتون أو منافقهم أو الكفار جميعاً.

فَأَنْ قُلْتُ: فما المراد بعهد الله؟ قلتُ: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به، ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (3) أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصنّفه الله بمعجزاته صنّفوه واتبعوه ولم يكتفوا بذكره فيما تقدّمه من الكتب المنزلة عليهم كقولهم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ﴾ (4). وقوله في الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه: (سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل وما أريته إياهم من الآيات وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به وما ضيعوا من عهده إليهم وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهده ونصره إياهم وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غنروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده) لأن اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد ﷺ من التحريف والجحود، وكفروا به كما كفروا بمحمد ﷺ، وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأوّل الذي أخذه على جميع نرية آدم الإقرار بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْكُمْ بَيْعًا﴾ (5)، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويقيّموا الدين، ولا يتفرّقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ (6)، وعهد خص به العلماء، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ (7). والضمير في ميثاقه للعهد، وهو ما واثقوا به عهد الله من قبوله والزمه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه كما أنّ الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى أي من بعد توثيقه عليهم أو من بعد ما واثق به عهده من آياته، وكتبه، وإنذار رسله. ومعنى قطعهم ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. قطعهم الأرحام وموالاته المؤمنين. وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد، والاجتماع على الحق في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض.

لأنّه (1) لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم. وعن مالك بن دينار رحمه الله: أنّه نخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد فقال: يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود. فرفع مالك رأسه فرأى سلة فقال: لمن هذه السلة؟ فقال: لي. فأمر بها تنزل، فإذا بجاج وأخبصة. فقال مالك: هذه وضعت القيود على رجلك. وقرأ زيد بن علي: يضل به كثير، وكذلك، وما يضل به إلا الفاسقون.

والفسق: الخروج عن القصد. قال رؤية:

فَوَاسِقًا عَن قَصْدِهِمَا جَوَائِرًا

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين أي بين منزلة المؤمن والكافر. وقالوا: إنّ أوّل من حدّ له هذا الحدّ أبو حنيفة وأصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه، وكونه بين بين أنّ حكمه حكم المؤمن في أنّه يناكح ويوارث، ويفسل ويصلى عليه، وينفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وأن لا تقبل له شهادة، ومذهب مالك بن أنس والزبيدي أنّ الصلاة لا تجزئ خلفه، ويقال للخلفاء: المردة من الكفار الفسقة، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله بسن الاسم الفسوق بعد الإيمان يريد اللمز، والتنازع: إنّ المنافقين هم الفاسقون.

أَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ مِيثَاقِهِ وَيَتَّفِقُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفَادَرُكَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٣٧).

النقض: الفسخ، وفك التركيب.

فَأَنْ قُلْتُ: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلتُ: من حيث تسميتهم العهد بالحبيل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان، في بيعة العقبة: يا رسول الله إنّ بيننا وبين القوم حبلاً ونحن قاطعوها فنخشى أنّ الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك (2)، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يستكثروا عن نكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روائفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفتسر أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأة فاستوثقها، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فرس.

(1) قال أحمد رحمه الله: جرى عن سنة السببية في اعتقاد، أنّ الإشراف بالله، وإن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عزّ وجلّ، بل من مخلوقات العبد لنفسه، على زعم هذه الطائفة تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وانظر إلى ضيق الخلق، فغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ، فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى، واقتحام الهلكة، وما أشنع تصريحه بأنّ الله سبب الإضلال، لا خالفه كما أنّ السلة سبب في وضع القيود في رجل المحبوس، وإنسان الفعل لله عزّ وجلّ مجاز لا حقيقة كما أنّ إسناد الفعل إلى البلد كذلك ياله في تمثيل صار =

(2) أخرجه أحمد في المسند، 3/ 461-462.

(3) سورة الأعراف، الآية: 172.

(4) سورة البقرة، الآية: 40.

(5) سورة الأعراف، الآية: 172.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 7.

(7) سورة آل عمران، الآية: 187.

فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة، فما وجه صحته؟ قلت: قد نكرنا أن معنى الاستفهام في كيف الإنكار، وإن إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه.

فإن قلت: إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتاً فاحياهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلت: قد تمكنوا من العلم بها بالدلائل الموصلة إليه فكان نك بمنزلة حصول العلم، وكثير منهم علموا ثم عانوا.

والأموات: جمع ميت كالأقوال في جمع قيل.

فإن قلت: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جماداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البني؟ قلت: بل يقال نك لعالم الحياة كقوله: ﴿بلدة ميتاً﴾⁽¹⁾ و﴿آية لهم الأرض الميتة﴾⁽²⁾ أموات غير أحياء، ويجوز أن يكون استعارةً لاجتماعهما في أن لا روح، ولا إحساس.

فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر، وبالرجوع النشور، وأن يراد به النشور وبالرجوع المصير إلى الجزء.

فإن قلت: لم كان العطف الأوّل بالفاء، والإعقاب بـ ﴿ثم﴾؟ قلت: لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت؛ إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزء أيضاً متراخ عن النشور.

فإن قلت: من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي نكرها الله لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً لأنّ ما عنده آيات وهي مع كونها آيات من أعظم النعم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جِئِمًا ثُمَّ أَسْرَوَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿لكم﴾ لاجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم، ودينكم، أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأما الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التنكير بالأخرة وبتوابعها وعقابها لاشتماله على أسباب الانس واللذة من فنون المطاعم، والمشارب والفواكه والمناجك والمراكب والمناظر الحسنة البهية. وعلى أسباب الوحشة، والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغوم والمخاوف، وقد استدلل بقوله: ﴿خلق لكم﴾ على أنّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها⁽³⁾ ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحةً مطلقاً لكل

فإن قلت: ما الأمر؟ قلت: طلب الفعل ممن هو نونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور. لأنّ الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به، فقيل له: أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به. كما قيل له: شأن، والشأن الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده ﴿هم الخاسرون﴾ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بتوابعها.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾

معنى الهمزة التي في ﴿كيف﴾ مثله في قولك: اتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتظير بغير جناح؟ وكيف تظير بغير جناح؟

فإن قلت: قولك: أتظير بغير جناح إنكار للطيران لأنّه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر بغير مستحيل مع ما نكر من الإماتة والإحياء. قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوي من الصارف عن الكفر، والداعي إلى الإيمان.

فإن قلت: فقد تبين أمر الهمزة، وآنها لإنكار الفعل والإيدان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه. فما تقول في كيف، حيث كان إنكار الحال التي يقع عليها كفرهم. قلت: حال الشيء تابعة لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال، فكان: إنكار حال الكفر لأنها تتبع ذات الكفر وريفيها إنكاراً لذات الكفر وثبتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ. وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أنّ كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو: في قوله: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ للحال.

فإن قلت: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض ولا يقال: جئت وقام الأمير، ولكن وقد قام لا أن يضمّر قد. قلت: لم تدخل الواو على كنتم أمواتاً وحده، ولكن على جملة قوله: ﴿كنتم أمواتاً﴾ - إلى - ﴿ترجعون﴾ كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم، فجعلكم أحياءً ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم بعد الموت ثم يحاسبكم.

فإن قلت: بعض القصة ماض وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضرًا وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟ قلت: هو العلم بالقصة. كأنه قيل: كيف تكفرون، وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها؟

(1) سورة الفرقان، الآية: 49.

(2) سورة يس، الآية: 33.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهب، إلى أن

حكم الله تعالى الإباحة في نوات المانع، التي لا يدل العقل على=

أحد أن يتناولها ويستمتع بها.

فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها، وجه صحة؟ **قلت:** إن أراد بالأرض الجهات السفلية نون الغبراء كما تنكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. و**«جميعاً»** نصب على الحال من الموصول الثاني.

والاستواء: الاعتدال والاستقامة. يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل. ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستويًا من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله: **«ثم استوى إلى السماء»** (1) أي قصد إليها ببارئته ومشيتته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد بالسماء جهات العلو. كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. والضمير في **«فسواهن»** ضمير مبهم. و**«سبع سموات»** تفسيره كقولهم: ربه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء والسماء في معنى الجنس. وقيل: جمع سماء، والوجه العربي هو الأول، ومعنى تسويتهن تعديل خلقهن، وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهن. **«وهو بكل شيء عليم»** فمن ثم خلقهن خلقاً مستويًا محكماً من غير تفاوت مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم.

فإن قلت: ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه ثم لإعطائه معنى التراخي والمهلة؟ **قلت:** ثم هنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السموات على خلق الأرض لا للتراخي في الوقت كقوله: ثم كان من الذين آمنوا. على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به لأن المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك أي في تضاعيف القصد إليها خلقاً آخر.

فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: **«والأرض بعد ذلك نحاها»** (2) **قلت:** لا لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء، وأما نحاها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصد الدخان، وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله: **«كانتا رتقا»** (3) وهو الالتزاق.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً قَالُوْۤا اَجْعَلْ فِيْهَا مَنۢ يُسۡبِحُ فِيْهَا وَرَبُّكَ اَلرَّحۡمٰنُ رَحۡمٰنٌ سَبِّحُ بِحَمْدِكَ

وَتَقُوۡسُ لَكَ قَالَ اِنِّيۡۤ اَعۡلَمُ مَا لَا تَلۡمُوۡنَ (٣٢).

«وإذ» نصب بإضمار انكر، ويجوز أن ينتصب بقاؤها. والملائكة جمع ملاك على الأصل كالشمال في جمع شمائل والحاق التاء لتأنيث الجمع. و**«جاعل»** من جعل الذي له مفعولان نخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله: **«في الأرض خليفة»** فكانا مفعوليه، ومعناه مصير **«في الأرض خليفة»** والخليفة من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم. لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم، وذريته. **فإن قلت:** فهلا قيل خلائف أو خلفاء؟ **قلت:** أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن نكر بنيه كما استغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم، أو أريد من يخلفكم أو خلفاً يخلفكم، فوجد لذلك، وقرئ خليفة بالقاف، ويجوز أن يريد خليفة مني لأن آدم كان خليفة الله في أرضه. وكذلك كل نبي إذا جعلنا خليفة في الأرض.

فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ **قلت:** ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيئوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. **«اتجعل فيها»** تجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير.

فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ **قلت:** عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض. فآفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.

وقرئ يسفك، بضم الفاء. ويسفك ويسفك من أسفك وسفك.

والواو في **«ونحن»** للحال كما تقول: اتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان، والتسبيح تعبيد الله عن السوء. وكذلك تقديسه من سبوح في الأرض والماء، وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. و**«بحمك»** في موضع الحال أي: تسبح حامدين لك وملتبسين بحمك لأنه لولا إتمامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك. **«أعلم ما لا تعملون»** أي: أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم.

= الأشياء، فإن دلت الآية على الإباحة، فنحن نقول بموجبها، ويكون إذا إباحة شرعية سميعة، وإن لم تدل على الإباحة، لم يبق في الاستدلال بها مطمح.

(1) سورة البقرة، الآية: 29.

(2) سورة النازعات، الآية: 30.

(3) سورة الانبياء، الآية: 30.

= تحريمها قبل ورود الرسل تلقياً من العقل، وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق، داعية إليها، فخلقها مع خطرهما على العباد خلاف مقتضى الحكمة، فوجب عندهم بمقتضى العقل، أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عز وجل، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقيح الباطلة، وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية، فغير مستقيم، فإن دعواهم أن العقل كاف في إباحة هذه

أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك، وبين لهم بعض ما أجمل من نكر المصالح في استخلافهم في قوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾⁽⁴⁾ وقوله: ﴿الم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون﴾ استحضار لقوله لهم: إني أعلم ما لا تعلمون. إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح.

وقرىء: وعلم آدم، على البناء للمفعول. وقرأ عبد الله: عرضهن، وقرأ أبي: عرضها، والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها، لأن العرض لا يصح في الأسماء.

قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَتْلُكُمْ رَبِّي فَأَعَزُّمُ عِيبَ النَّبِيِّ وَالْأَرْضِ وَأَعَزُّمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ⁽³³⁾

وقرىء: أنبيهم، بقلب الهمزة ياءً، وأنبيهم بحذفها، والهاء مكسورة فيهما.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ ابْنًا وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ⁽³⁴⁾

السجود لله تعالى على سبيل العبادة، وبغيره على وجه التكرمة، كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف وإخوته له، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه، وقرأ أبو جعفر: للملائكة أسجدوا، بضم التاء للإتباع. ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتباع إلا في لغة ضعيفة كقولهم: الحمد لله. ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل لأنه كان جنبا واحداً بين أظهر الألف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه. في قوله: ﴿فسجدوا﴾ ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً. ﴿إبليس﴾ امتنع مما أمر به، ﴿واستكبر﴾ عنه. ﴿وكان من الكافرين﴾ من جنس كفره الجن وشياطينهم، فلذلك أبي واستكبر كقوله: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾⁽⁵⁾ السكنى من السكنون لأنها نوع من البث والاستقرار.

وَلَمَّا يَتَّكُمُ اسْتَكْبَرُ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجِنَّةَ وَلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونًا مِنَ الظَّالِمِينَ⁽³⁵⁾

فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَذِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁽³⁶⁾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ⁽³⁷⁾

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ واشتقاقهم آدم: من الأدمة ومن أنيم الأرض نحو اشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلان. وما آدم إلا اسم أعجمي وأقرب امره أن يكون على فاعل كأرز وعازر وعابر وشالغ وفالغ وأشباه ذلك.

الأسماء كلها: أي: أسماء المسميات⁽¹⁾، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً ملولاً عليه بنكر الأسماء لأن الاسم لا بد له من مسمى، وعض منه اللام كقوله: ﴿واشتعل الرأس﴾⁽²⁾.

فإن قلت: هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ ﴿أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾⁽³⁾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات، ولم يقل أنبئوني بهؤلاء وأنبئهم بهم وجب تعليق التعليم بها.

فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراد الأجناس التي خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿ثم عرضهم﴾ أي عرض المسميات، وإنما نكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم، وإنما استنبأهم، وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبيكيت ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني: في زعمكم أنني استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء، إرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي

(1) قال أحمد رحمه الله: وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى؛ لأن ذلك معتقد أهل السنة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية، بقوله أنبئهم بأسمائهم، ويتناقل عن قوله، ثم عرضهم على الملائكة، فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً، ولم يجر نكر الأسماء، فدل على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم، وإن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير، غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات، وإطلاعه على حقائقها، وما أورد الله تعالى فيها من خواص وأسرار، وعلى تسميتها أيضاً، فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها، فقد ثبت بهاتين النكتتين أن المراد بالأسماء: المسميات، وأما استدلاله بقوله: أنبئوني بأسماء هؤلاء، فغايته إضافة الأسماء إلى الذوات، فلمهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هي الذوات، لزمت إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا ما لا مطمع فيه، فإن هذه الإضافة مثلها في قولك: نفس زيد حقيقته، =

= فالمراد إذا نبئوني بحقائق هؤلاء، ولا نكير في هذه الإضافة، فإن الأسماء بمعنى المسميات، والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم، والمضاف إليهم فصحت الإضافة لما بين الأعم، والأخص من التفاضل، وهذا هو المصحح للإضافة في نفس زيد وأشباهه، فهذه نبتة من مسألة الاسم والمسمى تختص بهذه الآية، وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عدها المتكلمون، من فن الكلام، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية، والمعزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة.

(2) سورة مريم، الآية: 4.

(3) سورة البقرة، الآية: 33.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة الكهف، الآية: 50.

عدو⁽⁴⁾ ويدل على نك قوله: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكتبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾⁽⁵⁾. وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض، والهبوط النزول إلى الأرض. ﴿مستقر﴾ موضع استقرار أو استقرار، ﴿ومتاع﴾ وتمتع بالعيش. ﴿إلى حين﴾ يريد إلى يوم القيامة، وقيل إلى الموت.

قَلَّلْنَا مَادُّمَ مِنْ رَبِّهِ كَيْتَرَ كَاتَبَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَالِيُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾

ومعنى: تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات على أنها استقبلته بان بلغته واتصلت به.

فإن قلت: ما هن؟ قلت: قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾⁽⁶⁾ الآية. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقتترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمك، وتبارك اسمك وتعالى جنك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تسيق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكنني جنتك؟ قال: بلى. قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم⁽⁷⁾ واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء لأنها كانت تبعاً له كما طوى نكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك، وقد نكرها في قوله: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾⁽⁸⁾. ﴿فتاب عليه﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جِئِمًا فَإِنَّا يَاثِيَتِكُمْ مَنِي هُدَى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

فإن قلت: لم كرر ﴿قلنا اهبطوا﴾؟ قلت: للتأكيد، ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فإنما ياتينكم مني هدى﴾. فإن قلت: ما جواب الشرط الأول؟ قلت: الشرط الثاني مع جوابه كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك، والمعنى: فإنما ياتينكم مني هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم، بليل قوله: ﴿والذين كفروا وكتبوا بآياتنا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فمن تبع هداي﴾.

فإن قلت: فلم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى⁽⁹⁾ كائن

و ﴿انت﴾ تأكيد للمستكن في ﴿اسكن﴾ ليصح العطف عليه. و ﴿رعداً﴾ وصف للمصدر أي: أكلاً رعداً واسعاً رافهاً. و ﴿حيث﴾ للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة ﴿شنتما﴾ اطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعة حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الفائقة للحصر، وكانت الشجرة فيما قيل الحنطة أو الكرمة أو التينة. وقرئ: ولا يقربا بكسر التاء، وهذي والشجرة بكسر الشين، والثيرة بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنه كرهها وقال: يقرأ بها بربابة مكة وسودانها. ﴿من للظالمين﴾ من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فتكونا﴾ جزم عطف على ﴿تقربا﴾ أو نصب جواب للنهي.

قَارَأْمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَرْجَمَهَا وَمَا كَانَ يَدُهَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكِنَّ فِي الْأَرْضِ مُنْتَفِعٌ لِمَنْ حِزِبِ ﴿٣٠﴾

الضمير في ﴿عنها﴾ للشجرة أي: فحملها الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتها عنها وعن هذه مثلها في قوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾⁽¹⁾ وقوله:

ينهبون عن أكل وعن شرب

وقيل: فأزلها عن الجنة، بمعنى أنهيهما عنها وأبعدهما، كما تقول: نزل⁽²⁾ عن مرتبتك، وزل عني ذاك إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا. وقرئ: فأزالها. ﴿وما كانا فيه﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في عنها. وقرأ عبد الله: فوسوس لهما الشيطان عنها، وهذا دليل على أن الضمير للشجرة لأن المعنى: صدرت وسوسته عنها.

فإن قلت: كيف توصل إلى إزالتهما ووسوسته لهما بعدما قيل له: ﴿أخرج منها فإنك رجيم﴾⁽³⁾؟ قلت: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاءً لأدم وحواء. وقيل: كان ينو من السماء فيكلمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى. وروي: أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى نخلت به وهم لا يشعرون. قيل: ﴿اهبطوا﴾، خطاب لأدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية، والصحيح أنه لأدم وحواء والمراد: هما ونزيتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلنا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض

(7) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/542.

(8) سورة الاعراف، الآية: 23.

(9) قال أحمد رحمه الله: هاتان زلتان زلهما، فزلهما في قرن: الأولى إيراد السؤال بناء على أن الهدى على الله تعالى واجب، والثانية: بناء الجواب على أن الوجوب الشرعي يثبت بالمقل، قبل ورود الشرع، والحق أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، وإنما يدخل تحت رتبة التكليف المرئوب، لا الرّب،

(1) سورة الكهف، الآية: 82.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد له قوله تعالى: ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾.

(3) سورة الحجر، الآية: 34.

(4) سورة طه، الآية: 123.

(5) سورة البقرة، الآيتان: 38، 39.

(6) سورة الاعراف، الآية: 23.

ومعنى: ﴿وَأَوْفُوا بعهدي﴾ وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، كقوله: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ (2) ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ (3) ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (4) ﴿أوف بعهديكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. ﴿وإياي فارهبون﴾ فلا تنقضوا عهدي. وهو من قولك: زيداً رهبت، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إياك نعبد﴾ (5)، وقرئ: أوف بالتحديد، أي: أبلغ في الوفاء بعهديكم، كقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ (6) ويجوز أن يريد بقوله: وأوفوا بعهدي ما عاهدوا عليه ووعده من الإيمان بنبي الرحمة، والكتاب المعجز، ويدل عليه قوله.

وَأَوْفُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كُفْرٍ بِّهِ وَلَا تَنزَرُوا يَدَيَّ سَمًا فَلَا تُبْرَأُوا وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْ بَيْنِكُمْ أُولَٰئِكَ لَمْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿وَأَمَنُوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾ أول من كفر به، أو أول فريق أو فرج كافر به، أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. كقولك: كسانا حلة، أي: كل واحد منا، وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفةهم به وبصفته، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه، والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعنون اتباعه أول الناس كلهم؛ فلما بعث كان أمرهم على العكس. كقوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيئة﴾ (7) إلى قوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيئة﴾ (8) فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، ويجوز أن يراد، ولا تكونوا مثل أول كافر به يعني من أشرك به من أهل مكة. أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه منكرين في التوراة موصوفاً مثل من لم يعرفه، وهو مشرك لا كتاب له، وقيل الضمير في به لما معكم لأنهم إذا كفروا بما صدقته فقد كفروا به.

والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ (9) وقوله:

لا محالة لوجوبه؟ قلت: للإيمان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً كان الإيمان به وتوحيده واجباً لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكّنهم من النظر والاستدلال.

فإن قلت: الخطيئة التي أهبط بها آدم (1) إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس، والإخراج من الجنة والإهباط من السماء كما فعل إبليس ونسبته إلى الغي والعصيان، ونسيان العهد وعدم العزيمة، والحاجة إلى التوبة؟ قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة وتفضيلاً لشأنها وتهويلاً ليكون ذلك لطفاً له ولزيتته في اجتناب الخطايا وابقاء المآثم والتنبية على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها نو خطايا جمّة. وقرئ: فمن تبع هدى، على لغة هندي فلا خوف بالفتح.

يَبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا يَمِينِ آلِي أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُولَٰئِكَ لَمْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام لقب له، ومعناه في لسانهم صفة الله، وقيل عبد الله، وهو بزنة إبراهيم وإسماعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة، وقرئ: إسرائيل وإسرئيل. وذكرهم النعمة أن لا يخلوا بشكرها ويعتدوا بها ويستعظموها ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آباؤهم مما عند عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إبراهيم زمن محمد ﷺ المبشر به في التوراة والإنجيل.

والعهد: يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. يقال: أوفيت بعهدي، أي: بما عاهدت عليه، كقوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله، وأوفيت بعهديكم﴾ أي: بما عاهدتكم عليه.

= في هذا لا جواب للزمخشري عنه، إلا الإنصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة، والمذاهب المائلة، ولقد شنع السؤال بقوله: لئن الذي جرى على آدم عليه السلام، كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة، ومعاد الله أن يكون الحالان سواء، والعاقبتان كما تعلم أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم، وإن إبليس خالد في العذاب الأليم.

(2) سورة الفتح، الآية: 10.

(3) سورة التوبة، الآية: 75.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(6) سورة النمل، الآية: 89.

(7) سورة البيئ، الآية: 1.

(8) سورة البيئ، الآية: 4.

(9) سورة البقرة، الآية: 16.

= وأما وجوب النظر في أدلة التوحيد، فإنما ثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، بل محض للعقل كما في باتفاق.

(1) قال أحمد رحمه الله: مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهرها، بوقوع الصفات من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها، على أن تجوز الصفات عليهم قد قال به طوائف أهل السنة، في طي وقوعها إطفاء وزيادة في الاجتهاد إلى الله تعالى، والتواضع له والإشفاق على الخطائين، والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له، يدعو للخطائين كثيراً، وعلى الجملة فالقدرى يجوز الصفات على الأنبياء، ويقول: لئن اجتناب الكباير يوجب تكفير الصفات في حق أحد الناس، فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكباير باتفاق، فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير، والمحور غير مؤاخذ عليها، ولا مستوجب بسببها عقوبة، ولا شيئاً مما وقع

دين الله، ويجوز أن يراد بالركوع الصلاة، كما يعبر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بأن يصلي مع المصلين يعني في الجماعة، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة، وصلوها مع المصلين لا منفردين.

﴿أَتَأْتُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَسْؤُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤١).

﴿تأمرؤن﴾ الهزمة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم. والبر سعة الخير والمعروف، ومنه البر لسعته ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت وبررت، وكان الأبحار يأمرؤن من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ﷺ، ولا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرؤن بالصدقة، ولا يتصدقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع: بلغني أن ناساً من أهل الجنة أطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمرؤنا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا: كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها. ﴿وتتسئون أنفسكم﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبيكت مثل قوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾⁽²⁾؛ يعني تتلون التوراة، وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول بالعمل، ﴿أفلا تعقلون﴾ توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدمكم استقباله عن ارتكابه، وكانكم في ذلك مسلوبو العقول لأن العقول تأباه، وتدفعه، ونحوه: أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون.

﴿وَأَسْتَبِيحُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَافِلِينَ﴾ (٤٢) الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُؤْتَوُونَ رِزْقَهُمْ وَأَنَّ لَهُمِ إِلَهُهُمُ رِزْوَانٌ﴾ (٤٣).

﴿واستعينوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بالصبر والصلاة﴾ أي: بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتلمين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب وحفظ النيات ودفع الوسواس ومراعاة الآداب، والاحتراس من المكاره مع خشية والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه. ومنه قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾⁽³⁾ أو واستعينوا على البليات والنوايب بالصبر عليها والاتجاه إلى الصلاة عند وقوعها، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَّ به أمر فزع إلى الصلاة⁽⁴⁾، وعن ابن عباس أنه نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال

كما اشتري المسلم إذ تنصرا
وقوله:
فإني شريت الحلم بعك بالجهل
يعني: ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً وإلا فالثمن هو المشتري به.

والثمن القليل: الرياسة التي كانت لهم في قومهم خافوا عليها الفوات لو أصبحوا اتباعاً لرسول الله ﷺ فاستبدلوها، وهي بدل قليل ومتاع يسير بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل وكل كبير إليه حقير، فما بال القليل الحقير. وقيل: كانت عامتهم يعطون أبحارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع، وكان ملوكهم يترؤن عليهم الأموال ليكتموا أو يحرفوا.

﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَمَىٰٓ ۖ إِنَّ الْإِطْلَاقَ وَكَتَبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَمُوتُونَ﴾ (٤٤).

الباء التي في ﴿بالباطل﴾ إن كانت صلةً مثلها في قولك لبست الشيء بالشيء خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق بالباطل الذي كتبتم حتى لا يميز بين حقاها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه. ﴿وتكتموا﴾ جزم داخل تحت حكم النهي، بمعنى: ولا تكتموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع أي: ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق كقولك: لا تاكل السمك وتشرب اللبن.

﴿فإن قلت﴾⁽¹⁾: لبسهم وكتمانهم ليسا بفعالين متميزين حتى نهبوا عن الجمع بينهما لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتّموا الحق؛ قلت: بل هما متميزان لأن لبس الحق بالباطل ما نكرناه من كتابتهم في التوراة ما ليس منها، وكتمانهم الحق أن يقولوا لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ أو حكم كذا أو يحموا ذلك أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه، وفي مصحف عبد الله: وتكتمون، بمعنى كاتمين. ﴿وأنتم تعلمون﴾ في حال علمكم أنكم لا يسون كاتمون، وهو أقبح لهم لأن الجهل بالقبيح ربما عذر راكبه.

﴿وَأُوبِئُوا بِالصَّلَاةِ وَهَؤُلَاءِ أَرْكَوهُ وَأَرْكَوهُ مَعَ الرُّكِيِّينَ﴾ (٤٥).

﴿واقموا الصلاة﴾: يعني صلاة المسلمين وركاتهم، ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ منهم لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل: الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم في

(1) قال أحمد رحمه الله: السؤال غير موجه؛ لأنه ادعى فيه عدم التميز

بين الفعلين، وغاية ما قدره تلازمهما، والمتلازمان مغييران

متميزان، إلا أن يعني بعدم التميز: عدم الانفك، فلا نسلم له تعذر جمعها في النهي، إذا بل النهي عن أحدهما على هذا التقدير

مستلزم للنهي عن الآخر، وإن لم يصرح به.

(2) سورة البقرة، الآيات: 22، 42، 188.

(3) سورة طه، الآية: 132.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب، الحديث رقم: (9682).

نعمتي وتفضيلي. ﴿على العالمين﴾ على الجم الغفير من العالم كقوله تعالى: ﴿باركنا فيها للعالمين﴾⁽⁴⁾، يقال: رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة.

وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ ﴿١٨﴾

﴿يوماً﴾ يريد يوم القيامة. ﴿لا تجزي﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق. ومنه الحديث في جذعة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعنك⁽⁵⁾، و ﴿شيئاً﴾ مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي: قليلاً من الجزاء. كقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾⁽⁶⁾. ومن قرأ: لا تجزي من أجزاء الله إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الأجزاء. وقرأ أبو السرار الغنوي: لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً، وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوماً.

فَأَنْ قُلْتَ: فإين العائد منها إلى الموصوف؟ قلت: هو محنوف تقديره لا تجزي فيه. ونحوه ما أنشده أبو علي:

تروحني أجدر أن تقيلي

أي: ماء أجدر بأن تقيلي فيه. ومنهم من ينزل فيقول: اتسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا. ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقنات الكلي القطاع للمطامع، وكذلك قوله: ﴿ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل﴾: أي فدية، لأنها معادلة للمفدي. ومنه الحديث: «لا يقبل منه صرف ولا عدل»⁽⁷⁾: أي: توبة ولا فدية. وقرأ قتادة: ولا يقبل منها شفاعاة، على بناء الفعل للفاعل، وهو الله عز وجل، ونصب الشفاعاة، وقيل: كانت اليهود تزعم أن أباهم الأنبياء يشفعون لهم فاويسوا.

فَأَنْ قُلْتَ⁽⁸⁾: هل فيه دليل على أن الشفاعاة لا تقبل للعصاة؟ قلت: نعم لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعاة

فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة⁽¹⁾. وقيل: الصبر الصوم، لأنه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر، ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء، وأن يستعان على البلايا بالصبر والاتجاه إلى الدعاء والابتهاج إلى الله تعالى في نفعه. ﴿وانها﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها. من قوله: ﴿انكروا نعمتي﴾ - إلى - ﴿واستعينوا﴾. ﴿لكبيرة﴾ لشاقة ثقيلة، من قولك: كبير علي هذا الأمر: ﴿كبير على المشركين ما تدعوهم إليه﴾.

فَأَنْ قُلْتَ: ما لها لم تثقل على الخاشعين، والخشوع في نفسه مما يتقل؛ قلت: لأنهم يتوقعون ما انخر للصابرين على متاعها فتهن عليهم.

الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ أي: يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطعمون فيه. وفي مصحف عبد الله: يعلمون، ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسر يظنون بيتيقنون، وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة، فتقلت عليه كالمناققين، والمرائين بأعمالهم. ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع لجرأة زائدة على مقدار عمله، فنراه يزاوله برغبة، ونشاط وانسراح صدر ومضاحكة لحاضريه، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرّة عيني في الصلاة»⁽²⁾، وكان يقول: «يا بلال، روحنا»⁽³⁾.

والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة المرملة المتطامنة، وأما الخضوع فاللين والانقياد، ومنه: خضعت بقولها، إذا لينته.

يَبَيِّنْ إِسْرَائِيلَ أَنْكُرُوا شَيْئًا آتَيْنَا أُسْرَتَكُمْ وَعَلَىٰ فَسَلَّكُمْ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾

﴿واني فضللكم﴾ نصب عطف على نعمتي أي: انكروا

= الحديث رقم: (1870)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فضل المدينة الحديث رقم: (3314)، وعبد الرزاق في مصنفه 9/263 الحديث رقم: (17153)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الحج، باب: فضائل المدينة، الحديث رقم: (3317)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في المتشقق الحديث رقم: (5006).

(8) قال أحمد رحمه الله: أما من جحد الشفاعاة، فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصنقها، وهم أهل السنة والجماعة، فأولئك يرجون رحمة الله ومعقدهم، أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما انخرت لهم، وليس في الآية دليل لمنكريها؛ لأن قوله يوماً أخرجه منكراً، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معبود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة، وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد وردت أي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها، واختلاف أوقاتها منها قوله تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ مع قوله: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ فيتعين حمل =

(1) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 3/128، وأخرجه الحاكم في المستدرک 2/160.

(2) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 3/128، وأخرجه الحاكم في المستدرک 2/160.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة، الحديث رقم: (4985)، وأخرج الحديث الثاني، الحديث رقم: (4986)، وأخرجه أحمد في المسند 5/364، وللرواية الثانية أخرجه 5/371. سورة الأنبياء، الآية: 71.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب: قول النبي ﷺ لا يبي بردة ضحّ إلخ... الحديث رقم: (5556)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: وقتها الحديث رقم: (5043).

(6) سورة مريم، الآية: 60.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل المدينة باب: حرم المدينة، =

شفيع، فلم أتأها لا تقبل للعصاة.

والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

فإن قلت: الضمير في ﴿ولا يقبل منها﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى: لا يقبل منها شفاعاة، إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها. ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني: ما لبثت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة، والتذكير بمعنى العباد والأناسي كما تقول: ثلاثة أنفس.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْرًا لَكُمْ وَأَمْرًا لَكُمْ وَأَمْرًا لَكُمْ
أَنبَاءَكُمْ وَرَسْمًا لَكُمْ وَرَبِّكُمْ بَلَاءً بَيْنَ رَبِّكُمْ عَظِيمًا ﴿٥٦﴾

أصل ﴿أل﴾ أهل، ولذلك يصغر بأهل، فابليت هاؤه ألفاً وخص استعماله بأولي الخطر والشان كالمملك وأشباههم فلا يقال: آل الإسكاف والحمام. و﴿فرعون﴾ علم لمن ملك العمالة كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس، ولعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن فلان إذا عتا وتجبر، وفي ملح بعضهم:

قد جاءه موسى للكلوم فزاد في أقصى تفرعنه وفرط عرامه
وقرى: أنجيناكم ونجيتكم. ﴿يسومونكم﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ابيناً أن يقر للخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبيغونكم ﴿سوء العذاب﴾ ويريونكم عليه، والسوء مصدر السيء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل. يراد قبحهما. ومعنى سوء العذاب - والعذاب كله سيء - أشده وأقطعه، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائرته. و﴿ينبجون﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾، ولنلك ترك العاطف كقوله تعالى: ﴿يضاهون قول الذين كفروا﴾^(١) وقرأ الزهري: ينبجون، بالتخفيف. كقولك: قطعت الثياب وقطعتها. وقرأ عبد الله: يقتلون. وإنما فعلوا بهم نلك لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنذر نمرود، فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفظ، وكان ما شاء الله.

والبلاء: المحنة إن أشير بملككم إلى صنيع فرعون،

الآيتين على يومين مختلفين، ووقتین متفايرين أحدهما: محل للتساؤل، والآخر: ليس محلاً له، وكذلك الشفاعاة وألمة ثبوتها لا تحصى كثرة، رزقنا الله الشفاعاة، وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة.

(1) سورة التوبة، الآية: 30.

(2) قال أحمد رحمه الله: فتكون الباء على هذا الوجه، استعانة مثلها في كتيب بالقلم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه سببية، كما تقول أكرمتك بإحسانك إليّ.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه للمصاحبة، مثلها في=

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْرًا لَكُمْ وَأَمْرًا لَكُمْ وَأَمْرًا لَكُمْ
أَنبَاءَكُمْ وَرَسْمًا لَكُمْ وَرَبِّكُمْ بَلَاءً بَيْنَ رَبِّكُمْ عَظِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿فرقنا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: فرقنا، بمعنى فصلنا. يقال: فرق بين الشيئين، وفرق بين الأشياء، لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط.

فإن قلت⁽²⁾: ما معنى ﴿بكم﴾؟ قلت: فيه أوجه أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكانما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما، وأن يراد فرقناه بسببكم⁽³⁾ وبسبب إنجانكم، وأن يكون في موضع الحال بمعنى: فرقناه ملتبساً بكم، كقوله:

تتوس بنا الجماجم والتربيا

أي: تتوسها ونحن راكبوها. وروي⁽⁴⁾: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم. فقال: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة. فأوحى إليه أن قل بعصاك هكذا. فقال بها على الحيطان فصارت فيها كوى فقرأوا وتسامعوا كلامهم. ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى نلك وتشاهدونه لا تشكون فيه. لما نخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة.

وَإِذْ رَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَنزَلْنَا الْمَائِدَةَ مِنْ سَمَوَاتِنَا
وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاكَ مَا كُنْتَ لَدَيْكَ
غَافِلًا ﴿٥٧﴾

وقيل: ﴿أربعون ليلة﴾ لأن الشهور غررها بالليالي. وقرىء: وأعدنا لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور. ﴿من بعده﴾ من بعد مضيئه إلى الطور. ﴿وأنتم ظالمون﴾ بإشراككم.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِمَّا فَرَغْنَا بِكُمْ تَبَرُّهُمُ عَنْكُمْ
فِي الْبَلَاءِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاكَ
مَا كُنْتَ لَدَيْكَ غَافِلًا ﴿٥٧﴾

﴿ثم عفونا عنكم﴾⁽⁵⁾ حين تبتم ﴿من بعد نلك﴾ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم، وهو اتخانكم العجل. ﴿لعلكم تشكرون﴾ إرادة أن تشكروا النعمة في العفو عنكم.

أسندت ظهري بالحائط، والوجه الأول ضعيف من حيث إن مقتضاه، أن تفریق البحر وقع ببني إسرائيل، والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز، أن البحر إنما انفرق بعصا موسى يشهد لنلك قوله تعالى: ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ فالآلة التفریق العصا لا بنو إسرائيل.

(5) قال أحمد رحمه الله: خطأ في تفسير لعل بالإرادة؛ لأن مراد الله تعالى كائن لا محالة، فلو أراد منهم الشكر، لشكروا، ولا بد وإنما لجراه الزمخشري على قاعته الفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد منه، ما يقع ومنه ما يتعذر تعالى الله عن نلك ما:

رَادَةً آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِمَنْكُم مَّنْ دُونِ ﴿٥٦﴾

﴿الكتاب والفرقان﴾ يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل، يعني التوراة. كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً ونكراً﴾⁽¹⁾ يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً ونكراً أو التوراة. والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انفراق البحر، وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾⁽²⁾ يريد به يوم بدر.

رَادَةً قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَوْمَ إِتْمَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ إِتْمَامَكُمْ أَجَلٌ فَتَوَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَاغْلُظُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ صِرٌّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِذْ هُوَ الْغَوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾

حمل قوله: ﴿فاغظوا أنفسكم﴾ على الظاهر وهو البغض، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد، وروي أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فإرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمرها أن يحتبوا بأقنية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم. وقيل لهم: اصبروا فلعن الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل. فيقولون: آمين. فقتلهم إلى المساء، حتى دعا موسى وهرون وقال: يا رب، هلكت بنو إسرائيل البقية البقية. فكشفت السحابة، ونزلت التوبة، فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً.

فإن قلت: ما الفرق بين الفأنت؟ قلت: الأولى للتسبب لا غير لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب، لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاغظوا أنفسكم، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل

تمام توبتهم فيكون المعنى: فتوبوا، فاتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم، والثالثة متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير فعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم.

فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بذكر الباري؟ قلت: الباري هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾⁽³⁾، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تفرقة بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي براهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة في أمثال العرب: أبلد من ثور - حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركه من خلقهم وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها. قيل: القائلون السبعون الذين صعقوا، وقيل: قاله عشرة آلاف منهم.

رَادَةً قَتَرَهُ يَكُونُ لَنْ قُوتِهِ لَكَ حَقٌّ رَزَىٰ اللَّهُ جَهْرَةَ فَأَخَذْتَكُمُ الْمَنِيْعَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿جهرة﴾ عياناً، وهي مصدر من قولك جهر بالقرءة والدعاء، كان الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى نوي جهرة، وقرىء: جهرة، بفتح الهاء. وهي إما مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر. وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رآهم القول وعزفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه⁽⁴⁾ أن يكون في جهة محال، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراف. فرأوه بعد بيان الحجة

== شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والتفسير الصحيح في لعل هو الذي حرره سيبيويه رحمه الله، في قوله لعل يتنكر أو يخشى، قال سيبيويه: الرجاء منصرف إلى المخاطب، كأنه قال كوناً على رجائكما في تنكره وخشيته، وكذلك هذه الآية معناها: لتكونوا على رجاء لشكر الله عز وجل، ونعمه، فينصرف الرجاء إليهم، وينزه الله تعالى.

(1) سورة الانبياء، الآية: 48.

(2) سورة الانفال، الآية: 41.

(3) سورة تبارك، الآية: 3.

(4) قال أحمد رحمه الله: لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية، التي لا مطمح له عند التحقيق في التشبث بها، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه، وأني له ذلك، وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه، هو كل السبب، وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في أية الاعراف في دار الدنيا، فأخبره الله ==

== تعالى أنه لا يراه في الدنيا، وصار ذلك عنده، وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة، أن الله تعالى لا يرى في دار الدنيا؛ لأنه أخبر أنه لا يرى، والخبر واجب الصق، وكما خبر أنه لا يرى في دار الدنيا، فقد وعد الوعد الصالح عز وجل برؤيته في الدار الآخرة، وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤيا في الدنيا تعنتاً، أو شكاً في الخبر، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة، وكيف تخيل الزمخشري وشيعته، أن موسى عليه السلام طلب من الله، ما لا يجوز عليه، وهل هو لو كان الأمر على ما تخيله، إلا كبنى إسرائيل، ومعاذ الله لقد براه من ذلك، وكان عند الله وجبهاً، وأما الأئمة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلاً، والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة، فأكثر من أن تحصي، وهي مستقصاة في فن الكلام، وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري، والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه، وأخذة قوماً منه، والله الموفق.

النصب بمعنى: حط عنا نوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله:

صبر جميل فكلانا مبتلى

والأصل صبراً على اصبر صبراً. وقرأ ابن أبي عبيدة بالنصب على الأصل. وقيل: معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها.

فإن قلت: هل تجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها يقولوا على معنى قولوا هذه الكلمة! قلت: لا يبعد، والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، وينتصب محل ذلك المضمر يقولوا. وقرأ ﴿يُغْفِرْ لَكُمْ﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء. ﴿وَسَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

قَدَلَّ الْبُرْجُ طَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَّ الْبُرْجِ طَلَمُوا يَجْرًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: وضعوا مكان حطة ﴿قَوْلًا﴾ غيرها. يعني: أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمثلوا أمر الله. وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه، وهو لفظ الحطة، فجاؤوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاؤوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكار حطة نستغفرك وتتوب إليك، أو اللهم اعف عنا، وما أشبه ذلك. وقيل: قالوا مكان حطة حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية حطا سمقائا، أي: حنطة حمراء، استهزاءً منهم بما قيل لهم وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا. وفي تكرير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (2) زيادة في توبيخ أمرهم، وإيدان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم، وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ (3) على الإضمار.

والرجز: العذاب، وقرأ بضم الراء، وروي أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً. وقيل: سبعون ألفاً عطشوا في التيه فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا مِمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (4)

﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ واللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه وكان حجراً مريعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط

ووضوح البرهان ولجوا، فكانوا في الكفر كمعدة العجل، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين، ودلالة على عظمهما بعظم المحنة. و﴿الصاعقة﴾ ما صعقهم، أي أماتهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل الله جنوداً سمعوا بحسبها فخرؤا صعقين ميتين يوماً وليلاً. وموسى عليه السلام لم تكن صعقته موتاً ولكن غشيةً بليل قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُ﴾ (1) والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. وقرأ علي رضي الله عنه: فأخذتكم الصعقة.

ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدْرِ مَوْجِكَ لَمَلَكُكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم باس الله في رميكم بالصاعقة وإنقاذكم الموت.

وَوَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْقَمَامَ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْكُمُ النَّارَ وَالسَّلْوَاجِ كُلُّوا مِنْ طَبِيبَاتِ مَا رَزَقْتَكُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وظللنا﴾ وجعلنا الغمام يظلمكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلمهم من الشمس، وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تلبى. وينزل عليهم ﴿المن﴾ وهو الترنجيبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم ﴿السلوى﴾ وهي السماني، فينبج الرجل منها ما يكفي. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول: ﴿وما ظلمونا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿وما ظلمونا عليه﴾.

وَإِذْ قُلْنَا أَنْتَلُوا مِنْذِهِ أَنْتَرِيَّةَ فَكَلَّمُوا بَنِيَّ حَيْثُ وَنْتُمْ رَضَاءٌ وَأَنْتَلُوا أَبَابَ سُجُكَا وَقُولُوا حِطَّةً نَنْزِلُ لَكُمْ غَمَلِيكُمْ وَسَزَّيْدُ الْمُخْبِيِّينَ ﴿٥٨﴾

﴿القرية﴾ بيت المقدس. وقيل: أريحاء من قرى الشام أمروا بدخولها بعد التيه. ﴿الباب﴾ باب القرية، وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرًا لله وتواضعاً. وقيل: السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ليكون دخولهم بخشوع وإخبات. وقيل: طوطى لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوها، ودخلوا متزخفين على أوراكهم. ﴿حطية﴾ فعلة من الحط كالجلسة، والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسالتنا حطة، وأمرك حطة، والأصل

(3) سورة الأعراف، الآية: 162.

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر، وهو مفيد لذلك، إذ هو من قبيل الأشهر، لهذا المعين.

لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً. يراد بالوحدة: نفي التبديل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا انها ضرب واحد، لأنها معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحه أهل زراعات فما نريد إلا ما الفناه، وضربنا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك. ومعنى ﴿يُخْرِج لَنَا﴾ يظهر لنا ويوجد. والبقول ما أنبتته الأرض من الخضرا، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كاللبنوع والكرفس والكرات وأشباهاها. وقرئ: وقثائها بالضم.

والقوم: الحنطة، ومنه فوموا لنا، أي: اخبزوا، وقيل: الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وفومها؛ وهو العنس؛ والبصل أوفق. ﴿الذي هو ابني﴾ الذي هو أقرب منزلة وأبون مقداراً، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار، فيقال: هو داني المحل، وقريب المنزلة، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحل، ويعيد الهمة يريدون الرفعة والعلو، وقرأ زهير الفرقي: أننا بالهزمة من الدناءة. ﴿اهبطوا مصرأ﴾ وقرئ: اهبطوا بالضم، أي: انحدروا إليه من التيه. يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج. وبلاد التيه ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. ويحتمل أن يريد العلم، وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث لسكون وسطه كقوله: (ونوحاً ولوطاً) وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد وإن يريد مصرأ من الأمصار. وفي مصحف عبد الله، وقرأ به الأعمش: اهبطوا مصر بغير تنوين، كقوله: ﴿اخلوا مصر﴾ وقيل: هو مصراثيم فعرّب. ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ جعلت الذلة محيطاً بهم مشتتة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه، أو الصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومقنعة، إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقروهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمسواته له، ومكافاته، أي: صاروا أحقاء بغضبه. ﴿نلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب. أي: نلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وقد قتلت اليهود - لعنوا - شعياً وذكرباً ويحيئاً وغيرهم.

فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة نكره؟ قلت: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم، فقتلوهم. فلو ستلوا وأنصفا من أنفسهم لم ينكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم. وقرأ علي رضي الله عنه: ويقتلون بالتشديد. ﴿نلك﴾ تكرار

الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فندفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالآخرة ففرّ به فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: أرفع هذا الحجر فإنّ لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة. فحمله في مخلاته. وأما للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه⁽¹⁾. قال: وهذا أظهر في الحجّة، وأبين في القدرة. وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة؟ فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا القاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فيبيس. فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً. فأوحى إليه لا تفرق الحجارة، وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون، وقيل: كان من رخام، وكان نراعاً في نراع. وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار. ﴿فانفجرت﴾ القاء متعلقة بمحذوف، أي فاضرب، فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت. كما نكرنا في قوله: ﴿فتاب عليكم﴾⁽²⁾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ. وقرئ: عشرة، بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. ﴿كل أناس﴾ كل سبط ومشربهم﴾ عنهم التي يشربون منها. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿من رزق الله﴾ مما رزقكم من الطعام، وهو المن والسلوى، ومن ماء العيون. وقيل: الماء ينبت منه الزروع والشمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب.

والعني: وهو أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتماذروا في الفساد حال فسائكم، لأنهم كانوا متمائنين فيه. كانوا فلاحاً فنزعوا إلى مكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة، وطلبت أنفسهم الشقاء.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِبَ قَدْ جَاءَنَا رَبُّكَ بِخَبْرٍ لَنَا مِنَّا نُبْتِ الْأَرْضِ مِنْ بَقَلِكُمْ وَقَفَايِكُمْ وَمَوْجِبَا وَعَدِيكُم وَبِسِلْمَا قَالَ أَسْتَبْدُرُونَ الَّذِينَ هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَنْسَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِ النَّاسِ بِمِثْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوا في التيه من المن والسلوى.

فإن قلت: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، ولو كان على مائة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها قيل:

(2) سورة البقرة، الآية: 54.

(1) قال ابن حجر: حديث الحسن في قوله: ﴿إن اضرب بعصاك الحجر﴾ لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، ثم قال: وهو أظهر في الحجّة.

وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي النَّبْتِ فَعَلْنَا لَهُمْ كُفْرًا وَّرَدًّا
خَبِيرِينَ ﴿١٦﴾

﴿والسبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أي: جاوزوا ما حالهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرقت. كما قال: تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم فحفرُوا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم. ﴿قردة خاسئين﴾ خبر إن أي: كونوا جامعين بين القرديّة والخسوء، وهو الصغار والطرده.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾

﴿فجعلناها﴾ يعني: المسخة، ﴿نكالاً﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل القيد. ﴿لما بين يديها﴾ لما قبلها، ﴿وما خلفها﴾ وما بعدها من الأمم والقرون لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، أو أريد بما بين يديها، ما بحضرتها من القرى والأمم، وقيل: نكالاً، عقوبة منكرة لما بين يديها لأجل ما تقدمها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وموعظة للمتقين﴾ للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل متقى سمعها. كان في بني إسرائيل شيخ موسى، فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدينه، فأمرهم الله أن ينبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيضربهم بقاتله.

وَأَذِّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ يَنْجُوا بِقُرَّةِ
رَأْسِهِمْ أَن يُضْرِبُوا فِيهَا رِجْلَهُمْ وَلَا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ عَدْوًا أَغْرُوبًا ﴿١٨﴾

﴿قالوا اتخذننا هزواً﴾ اتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو. أو مهزواً بنا، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء. ﴿من الجاهلين﴾ لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وقرئ: هزواً بضميتين، وهزاً بسكون الزاي نحو كفووا وكفووا. وقرأ حفص: هزوا بالضميتين والواو، وكذلك كفووا. والعياذ واللياذ من واد واحد.

قَالُوا أَتُحَدِّثُنَا لَمَّا كُنَّا نَمُوتُ وَأَنَّا نَحْيَا آلَ مَرْيَمَ إِذْ نَبِّئُوهَا بِمَا هِيَ قَائِلَةٌ لِّمَلَأِكُوتِهَا
وَلَا يَكْفُرُ الْوَعْدُ بِاللَّهِ عَدْوًا أَغْرُوبًا ﴿١٩﴾

في قراءة عبد الله: سل لنا ربك ما هي؟ سؤال عن حالها وصفتها، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر.

والفارض: المسنة، وقد فرضت فروضاً فهي فارض. قال خفاف بن نديبة:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً تساق إليه ما تقوم على رجل
وكانها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعته،

للإشارة ﴿بما عصوا﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إن للذين آمنوا﴾ بالسننتهم من غير مواطاة القلوب، وهم المنافقون. ﴿والذين هادوا﴾ والذين تهودوا. يقال: هاد يهود وتهود، إذا دخل في اليهودية، وهو هاند، والجمع هود. ﴿والنصارى﴾ وهو جمع نصران. يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة لم تحنف، والياء في نصراني للمبالغة كالتي في حمري سموا لأنه نصرنا المسيح. ﴿والصابئين﴾ وهو من صبا إذا خرج من اللين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة. ﴿من آمن﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصيلاً ﴿وعمل صالحاً﴾ فلملهم أجرهم الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم.

فإن قلت: ما محل ﴿من آمن﴾؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتدأ خبره ﴿فلملهم أجرهم﴾، والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلملهم أجرهم. والغاء لتضمن من معنى الشرط.

وَأَذِّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ يَنْجُوا بِقُرَّةِ
رَأْسِهِمْ أَن يُضْرِبُوا فِيهَا رِجْلَهُمْ وَلَا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ عَدْوًا أَغْرُوبًا ﴿٢١﴾

﴿وإذ اخذنا ميثاقكم﴾ بالعمل على ما في التوراة. ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ حتى قبلتم وأعطيت الميثاق، وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح قرأوا ما فيها من الأصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها. فأمر جبريل فقلع الطور من أصله ورفعها وظلله فوقهم. وقال لهم موسى: إن قبلتم، وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. ﴿خنوا﴾ على إرادته القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿وانكروا ما فيه﴾ واحفظوا ما في الكتاب وانرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خنوا وانكروا إرادة أن تتقوا.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا وَّعَدْنَاكُمْ وَإِن تَعِدُّوا لَهُمْ
لَا تُؤْتِيهِمْ بِهِ سُلَيْمَانُ وَدَاوُدُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ثم توليتهم﴾ ثم عرضتم عن الميثاق والوفاء به. ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم وقرئ: خنوا ما آتيتكم وتكروا وانكروا.

وبلغت آخرها.

والبكر: الفتية.

والعوان: النصف. قال: نواعم بين أبكار وعون. وقد عوّنت.

فإن قلت: ﴿بين﴾ يقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على ﴿نلك﴾؟ قلت: لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما نكر من الفارض والبكر.

فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين، وإنما هو للإشارة إلى واحد منكراً؟ قلت: جاز ذلك على تأويل ما نكر وما تقدم للاختصار في الكلام، كما جعلوا فعل نائباً عن أفعال جمة تنكر قبله. تقول للرجل: نعم ما فعلت، وقد نكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك! وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا قال أبو عبيدة: قلت لرؤية في قوله:

يها خطوط من سواد وبلق⁽¹⁾ كأنه في الجلد توليع للبهق⁽²⁾

إن أردت الخطوط فقل كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال: أردت كأن ذلك يلك، والذي حسن منه أن أسماء الإشارة تثنيها وجمعها وتانيها ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع. ﴿ما تؤمرون﴾ أي: ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قوله: امرتك الخير، أو امركم مأمورك، تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير.

قَالُوا أَوَّحْنَا لَكَ إِلَهُنَا مَا لَكُنْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ⁽³⁾

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس. كما يقال: أسود حالك وحانك. وأبيض يقق ولهق. وأحمر قاني وذريحي. وأخضر ناضر ومدمام. وأورق خطباني، وأرمك رداني.

فإن قلت: فاقع ههنا واقع خبراً عن اللون، فلم يقع توكيداً لصفراء؟ قلت: لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل، واللون من سببها وملتبس بها فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها.

فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في نكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكانه قيل: شديدة الصفرة صفرتها، فهو من قولك جدّ جدّه، وجنونك مجنون. وعن وهب: إذا نظرت إليها

خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

والسرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه. وعن علي رضي الله عنه: من لبس نعلأ صفراء⁽⁴⁾ قل همه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. وعن الحسن البصري: صفراء فاقع لونها، سوداء شديدة السواد، ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها تعلوه صفرة، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جمالات صفراً﴾⁽⁴⁾. قال الأعشى:

تلك خيل ي مني وتلك ركابي من صفرا ولدها كالزبيب
قَالُوا أَوَّحْنَا لَكَ إِلَهُنَا مَا لَكُنْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ⁽⁵⁾

﴿ما هي﴾ مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها. وعن النبي ﷺ: «لو اعترضوا ابني بقرة فنبحوها لكفتهم»⁽⁵⁾، ولكن شدوا فشدّ الله عليهم والاستقصاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم. فكتب إليه: بأيهما أبدا؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني بأي نوع منها أبدا، وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاةً سألتني أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أنكر أم أنتي؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني⁽⁶⁾. وفي الحديث: «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم لأجل مسألته»⁽⁷⁾. ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي: إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح. وقرئ: تشابه، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين، وتشابهت، ومتشابهة، ومتشابه. وقرأ محمد نو الشامة: إن البقر يشابه بالياء والتشديد. جاء في الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»⁽⁸⁾. أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى: إننا لمهتدون إلى البقرة المراد نبجها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْوَةَ
مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا اتَّقِ اللَّهَ يَا أُنْحَارُ فَمَنْ جَاءَهُ فَمَا يَسْأَلُكُمْ
بِعَمَلِهِمْ⁽⁹⁾

﴿لا تلؤل﴾ صفة لبقرة، بمعنى بقرة غير تلؤل، يعني لم تلؤل للكراب وإثارة الأرض، ولا هي من النواضع التي يسنى عليها لسقي الحروث، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى لا تلؤل تثير وتسقي على

(6) لم اتف عليه.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال الحديث رقم: (7289)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: توقيه ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له... الحديث رقم: (6069).

(8) أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً.

(1) بلق: بياض.

(2) البهق: بياض لون البرص.

(3) أخرجه العيني في كتاب: الضعفاء الكبير: 3/446، رقم 1496، عن ابن عباس ولم أجده عن علي.

(4) سورة المرسلات، الآية: 33.

(5) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم:

أَنَّ الفَعْلَيْنِ صَفْتَانِ لِلنُّوْلِ. كَانَهُ قِيلَ: لَا نَلُولُ مَثِيرَةً، وَسَاقِيَةً. وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ: لَا نَلُولُ. بِمَعْنَى لَا نَلُولُ هُنَاكَ. أَي: حَيْثُ هِيَ، وَهُوَ نَفْيٌ لِنَلُولِهَا وَأَنَّ تَوْصِفَ بِهِ. فَيُقَالُ: هِيَ نَلُولٌ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَا بَخِيلَ وَلَا جَبَانَ. أَي: فِيهِمْ أَوْ حَيْثُ هُمْ. وَقَرَى: تَسْقَى بِضَمِّ التَّاءِ مِنْ أَسْقَى: ﴿مُسْلِمَةً﴾ سَلِمَهَا اللَّهُ مِنَ الْعِيُوبِ، أَوْ مَعْفَاةً مِنَ الْعَمَلِ سَلِمَهَا أَهْلُهَا مِنْهُ. كَقَوْلِهِ:

أَوْ مَعْبَرِ الظُّهْرِ يَنْبِي عَنْ لَيْتِهِ مَا حَجَّ رَبِّهِ فِي النَّبْيَا وَلَا اعْتَمَرَا
أَوْ مَخْلَصَةَ اللُّونِ، مِنْ سَلِمَ لَهُ كَذَا إِذَا خَلَصَ لَهُ، لَمْ يَشِبْ صَفَرْتَهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَلْوَانِ. ﴿لِأَشْيَةٍ فِيهَا﴾ لَا لَمْعَةً فِي نَقْتِهَا مِنْ لَوْنٍ آخَرَ سِوَى الصَّفْرَةِ، فَهِيَ صَفْرَاءُ كُلِّهَا حَتَّى قَرْنَهَا وَظِلْفَهَا. وَهِيَ فِي الْأَصْلِ مَصْرٌ، وَشَاهُ وَشِيَا وَشِيَةٌ إِذَا خَلَطَ بِلَوْنِهِ لَوْنًا آخَرَ، وَمِنْهُ ثَوْرٌ مَوْشَى الْقَوَائِمِ. ﴿جَسَّتْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِحَقِيقَةِ وَصْفِ الْبِقْرَةِ، وَمَا بَقِيَ إِشْكَالٌ فِي أَمْرِهَا. ﴿فَنَبِّحُوهَا﴾ أَي: فَحَصَلُوا الْبِقْرَةَ الْجَامِعَةَ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ كُلِّهَا فَنَبِّحُوهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اسْتِنْقَالٌ لِاسْتِقْصَانِهِمْ، وَاسْتِبْطَاءُ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ لِنَطْوِيلِهِمْ الْمَفْرُطِ وَكَثْرَةِ اسْتِكْشَافِهِمْ مَا كَانُوا يَنْبَحُونَهَا، وَمَا كَانَتْ تَنْتَبِي سؤَالِهِمْ، وَمَا كَادَ يَنْقَطِعُ خَيْطُ إِسْهَابِهِمْ فِيهَا، وَتَعَمَّقَهُمْ. وَقِيلَ: وَمَا كَانُوا يَنْبَحُونَهَا لَغَلَاءِ ثَمْنِهَا، وَقِيلَ: لِخَوْفِ الْفُضِيحَةِ فِي ظَهْرِ الْقَاتِلِ. وَرَوَى: أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْخٌ صَالِحٌ لَهُ عَجَلَةٌ فَاتَى بِهَا الْغِيضَةَ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتُوْدِعُكَهَا لِابْنِي حَتَّى يَكْبُرَ، وَكَانَ بَرًّا بِوَالِدِيهِ، فَشَبَّتْ وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْبِقْرِ وَأَسْمَنَهُ. فَسَاوَمُوهَا الْيَتِيمَ وَأُمَّهُ حَتَّى اشْتَرَوْهَا بِمَلْءِ مَسْكَهَا ذَهَبًا، وَكَانَتْ الْبِقْرَةُ إِذْ ذَاكَ بِثَلَاثَةِ دِينَارِيْنَ، وَكَانُوا طَلَبُوا الْبِقْرَةَ الْمَوْصُوفَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

فَإِنَّ قُلْتَ: كَانَتْ الْبِقْرَةُ الَّتِي تَتَاوَلَهَا الْأَمْرُ بِقْرَةً مِنْ شِقِّ الْبِقْرَةِ غَيْرِ مَخْصُوصَةٍ ثُمَّ انْقَلَبَتْ مَخْصُوصَةٌ بِلَوْنٍ وَصِفَاتٍ، فَنَبِّحُوا الْمَخْصُوصَةَ فَمَا فَعَلَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ؟ قُلْتَ: رَجَعَ مَنْسُوخًا لِانْتِقَالِ الْحُكْمِ إِلَى الْبِقْرِ الْمَخْصُوصَةِ، وَالنَّسِخُ قَبْلَ الْفِعْلِ جَائِزٌ عَلَى أَنَّ الْخَطَابَ كَانَ لِإِبْهَامِهِ مَتَنَاوَلًا لِهَذِهِ الْبِقْرَةِ الْمَوْصُوفَةِ، كَمَا تَنَاوَلَ غَيْرَهَا، وَلَوْ وَقَعَ النَّبِّحُ عَلَيْهَا بِحُكْمِ الْخَطَابِ قَبْلَ التَّخْصِيصِ لَكَانَ امْتِنَالًا لَهُ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَقَعَ عَلَيْهَا بَعْدَ التَّخْصِيصِ.

وَإِذْ قُلْتُمْ نَسْنَا قَادِرَةً ثُمَّ يُبَأُّ وَرَبُّهَا اللَّهُ فَخَرَجْنَا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ ﴿٧٦﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خَوَّطَبَتِ الْجَمَاعَةُ لَوْجُودِ الْقَتْلِ فِيهِمْ. ﴿فَإِذْ أَرَاتُمْ﴾ فَاخْتَلَفْتُمْ وَاخْتَصِمْتُمْ فِي شَأْنِهَا، لِأَنَّ الْمُتَخَاصِمِينَ يَدْرَأُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَي يَدْفَعُهُ وَيَرْجِمُهُ، أَوْ تَدَافَعْتُمْ بِمَعْنَى طَرَحَ قَتْلَهَا بِبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَنَفَعَ الْمَطْرُوحَ عَلَيْهِ الطَّارِحُ، أَوْ لِأَنَّ الطَّرْحَ فِي نَفْسِهِ نَفْعٌ، أَوْ دَفَعَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَنِ الْبِرَاءَةِ وَاتَّهَمَهُ. ﴿وَإِنَّهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ﴾ مَظْهَرٌ لَا مَحَالَةَ مَا كُنْتُمْ مِنْ أَمْرِ الْقَتْلِ لَا يَبْرُكُهُ مَكْتُومًا.

فَإِنَّ قُلْتَ: كَيْفَ أَعْمَلُ ﴿مَخْرَجٌ﴾، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْمَضِيِّ؟ قُلْتَ: وَقَدْ حَكَى مَا كَانَ مُسْتَقْبَلًا فِي وَقْتِ التَّدَارُؤِ كَمَا حَكَى الْحَاضِرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَسْطِ نَزَاعِيهِ﴾⁽¹⁾ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَهِيَ ﴿إِدَارَاتُمْ﴾ وَ﴿فَقُلْنَا﴾.

قُلْنَا أَسْرُؤُهُ بِمَعْنَى كَذَلِكَ يُبَى اللَّهُ أَلَمَوْقَ وَرَبِّيكُمْ ءَاتِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ إِذَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النَّفْسِ وَالتَّنْكِيرُ عَلَى تَأْوِيلِ الشَّخْصِ وَالْإِنْسَانِ، وَإِنَّمَا إِلَى الْقَتِيلِ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾⁽²⁾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ بِبَعْضِ الْبِقْرَةِ، وَاخْتَلَفَ فِي الْبَعْضِ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ، فَقِيلَ: لِسَانَهَا، وَقِيلَ: فَخْذُهَا الْيَمْنَى، وَقِيلَ: عَجَبُهَا، وَقِيلَ: الْعِظْمُ الَّذِي يَلِي الْغُضْرُوفَ وَهُوَ أَصْلُ الْأَنْزِ، وَقِيلَ: الْأَنْزِ، وَقِيلَ: الْبِضْعَةُ بَيْنَ الْكَتْفَيْنِ. وَالْمَعْنَى فَضْرُوبُهُ فَحْيِي، فَحَذَفَ ذَلِكَ لِذِلَّةِ قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُ كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾⁽³⁾. رَوَى: أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبُوهُ قَامَ بِإِنِّنِ اللَّهِ وَأُودِاجِهِ تَشَخُّبٌ دَمًا وَقَالَ: قَتَلْتَنِي فَلَانَ، وَفَلَانَ لِابْنِي عَمِّهِ، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّتًا. فَأَخَذَا وَقَتْلًا، وَلَمْ يُوْرَثْ قَاتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ. ﴿كُنْتُ كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ إِذَا أَنْ يَكُونُ خَطَابًا لِلذَّيْنِ حَضَرُوا حَيَاةَ الْقَتِيلِ بِمَعْنَى: وَقُلْنَا لَهُمْ كُنْتُ كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿وَبِرَبِّكُمْ آيَاتِهِ﴾ وَدَلَالَتُهُ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تَعْمَلُونَ عَلَى قَضِيَّةِ عَقُولِكُمْ، وَأَنْ مِنْ قَدْرِ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ قَدْرِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَنْفُسِ كُلِّهَا لَعْدِمِ الْإِخْتِصَاصِ حَتَّى لَا تَنْكُرُوا الْبَعْثَ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ خَطَابًا لِلْمُنْكَرِينَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَإِنَّ قُلْتَ: هَلَا إِحْيَاءُ ابْتِدَاءً، وَلَمْ شَرْطٌ فِي إِحْيَائِهِ نَبِحِ الْبِقْرَةِ وَضْرِبِهِ بِبَعْضِهَا؟ قُلْتَ: فِي الْأَسْبَابِ وَالشَّرُوطِ حُكْمٌ وَفَوَائِدُ، وَإِنَّمَا شَرْطٌ ذَلِكَ لِمَا فِي نَبِحِ الْبِقْرَةِ مِنَ التَّقَرُّبِ وَإِدَاءِ التَّكْلِيفِ وَاكْتِسَابِ الثَّوَابِ وَالْإِشْعَارِ بِحَسَنِ تَقْدِيمِ الْقَرِيْبَةِ عَلَى الطَّلَبِ، وَمَا فِي التَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ لِتَشْدِيدِهِمْ مِنَ اللَّطْفِ لَهُمْ وَأَخْرِيْنَ فِي تَرْكِ التَّشْدِيدِ وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى امْتِنَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَارْتِسَامِهَا عَلَى الْفُورِ مِنْ غَيْرِ تَقْتِيْشٍ وَتَكْتِيْرِ سؤَالٍ، وَنَفْعِ الْيَتِيمِ بِالتَّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى بَرَكَةِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِيْنَ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَتَجْهِيلِ الْهَازِئِ بِمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ، وَبَيَانِ أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُتَقَرَّبِ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَتَنَوَّقَ فِي اخْتِيَارِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ وَأَنْ يَخْتَارَهُ فَتِي السَّنَنِ غَيْرِ قَحْمٍ وَلَا ضَرَعٍ حَسَنِ اللَّوْنِ بَرِيًّا مِنَ الْعِيُوبِ يُوْنِقُ مِنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَغَالِي بِثَمْنِهِ. كَمَا يَرُوى عَنْ عَمْرِ بْنِ رَضِيٍّ أَنَّ اللَّهَ عَنَهُ أَنَّهُ

(3) سورة البقرة، الآية: 73.

(1) سورة الكهف، الآية: 18.

(2) سورة البقرة، الآية: 33.

منه أفعل التفضيل، وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنه قيل: اشتنت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة. وقرئ: قساوة، وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس. كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم. وقوله: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة، وتقرير لقوله: أو أشد قسوة، وقرئ: وإن بالتخفيف، وهي إن المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ﴾⁽²⁾ والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار: ينفجر بالنون ﴿يشقق﴾ يتشقق، وبه قرأ الأعمش. والمعنى: أن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً. ﴿يهبط﴾ يتردى من أعلى الجبل، وقرئ: بضم الباء. والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقرئ يعملون، بالياء والتاء، وهو وعيد.

﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمُؤُونَ كَلِمًا اللَّهُ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(v).

﴿افتطمعون﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمؤمنين ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم، كقوله: ﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ﴾⁽³⁾ يعني اليهود. ﴿وقد كان فريقاً طائفة فيمن سلف منهم﴾ يسמעون كلام الله وهو ما يتلونه من التوراة ﴿ثم يحرفونه﴾ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ وآية الرجم. وقيل: كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور، وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس. وقرئ: كلم الله. ﴿من بعد ما عقلوهُ﴾ من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون مفترين، والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلم سابقة في ذلك.

﴿وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضِبُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(v).

﴿وإذا لقوا﴾ يعني: اليهود. ﴿قالوا﴾ قال منافقوهم: ﴿آمننا﴾ بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به. ﴿وإذا خلا بعضهم﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إلى بعض﴾ الذين نافقوا. ﴿قالوا﴾ عاتبين عليهم ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ بما بين لكم في التوراة من صفة محمد،

ضحى بنجبية بثلاثمائة دينار⁽¹⁾. وأن الزيادة في الخطاب نسخ له، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل. وإمكانه لأدائه إلى البداء، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيب أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة.

فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم نكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بنبحها وأن يقال: وإن قتلتم نفساً فادارتهم فيها فقلنا انبجوا بقرّة واضربوه ببعضها. قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنائيات وتقريعاً لهم عليها. ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدثين. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآيات العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بنبح البقرة على نكر القتل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكته بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها إن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَوَيْ كَالْحِجَارَةِ أَزَّ شَدَّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَبِيضٍ عَلَى الْمُتَمَلِّكِينَ﴾^(vi).

معنى ﴿ثم قست﴾ استبعاد القسوة من بعد ما ذكر، مما يوجب لين القلوب ورفقتها، ونحوه: ثم أنتم تمترون. وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوها عن الاعتبار، وأن المواعظ لا تؤثر فيها، و﴿ذلك﴾ إشارة إلى إحياء القتل أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعبودة. ﴿فهي كالحجارة﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة، ﴿أو أشد قسوة﴾ منها، وأشد معطوف على الكاف إما على معنى أو مثل أشد قسوة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة، وأما على أو هي أنفسها أشد قسوة، والمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً، أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

فإن قلت: لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج

(2) سورة يس، الآية: 32.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 26.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: تبديل الهدى الحليث

رقم: (1756).

كَلِمَةٍ مِّنْ كَسَبِ سَيِّئَةٍ وَأَكَلْتُمُ بِهٖ حَبِيبَتُمْ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْلَحُوا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿بلي﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: ﴿لن
تسمننا النار﴾، أي: بلى تمسك أبداً ببليلى قوله: ﴿هم فيها
خالدون﴾. ﴿من كسب سيئة﴾ من السيئات؛ يعني: كبيرة
من الكبائر، ﴿واحطت به خطيئته﴾ تلك، واستولت عليه
كما يحيط العنق، ولم يتقص عنها بالتوبة، وقرئ: خطاياها،
وخطيئاته. وقيل في الإحاطة: كان نذبه أغلب من طاعته،
وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله إلا أراك
ذا لحية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية
نهي فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار
فهي الخطيئة المحيطة.

رِذَّةً أُخَذْنَا مِنِّيَّ لَإِشْرَاقِ لَيْلٍ لَا تُبْصِرُونَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْتِي
إِنشَاءً وَيُؤْتِي الْقُرْآنَ وَيُؤْتِي السَّكِينِ وَيُؤْتِي النَّاسَ حُسْنَ
وَأَيُّهَا الصَّلَاةَ وَهَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ
وَأَنْتُمْ مُرْتَدُونَ ﴿٨٣﴾

﴿لا تعبدون﴾ إخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب
إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح
الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتفاء فهو
يخبر عنه، وتنصره قراءة عبد الله، وأبي: لا تعبدوا، ولا بد
من إرادة القول يدل عليه أيضاً قوله: ﴿وقولوا﴾. وقوله:
﴿وبالوالدين إحساناً﴾. إما أن يقدر وتحسنون بالوالدين
إحساناً، أو وأحسنوا. وقيل: هو جواب قوله: ﴿أخذنا ميثاق
بني إسرائيل﴾ إجراء له مجرى القسم. كأنه قيل: وأذ
أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل: معناه: أن لا تعبدوا فلما
حنفت أن رفع. كقوله:

الاهذا الزاجري احضر الوغى

ويدل عليه قراءة عبد الله: أن لا تعبدوا، ويحتمل أن
لا تعبدوا أن تكون أن فيه مفسرة، وأن تكون أن مع الفعل
بدلاً عن الميثاق. كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل
توحيدهم، وقرئ بالتاء. حكاية لما خاطبوا به، وبالياء لأنهم
غيب. ﴿حسناً﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنة،
وقرئ: حسناً وحسنى على المصدر كبشرى. ﴿ثم
توليتهم﴾ على طريقة الالتفات، أي توليتهم عن الميثاق
ورفضتموه. ﴿إلا قليلاً منكم﴾ قيل: هم الذين أسلموا
منهم. ﴿وانتم معرضون﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض
عن المواثيق والتولية.

رِذَّةً أُخَذْنَا مِنِّيَّ لَإِشْرَاقِ لَيْلٍ لَا تُبْصِرُونَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْتِي
دِينَكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُنْفَرُونَ ﴿٨٤﴾

﴿لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم﴾ لا يفعل
نلك بعضكم ببعض، جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به
أصلاً أو نبتاً، وقيل: إذا قتل غيره فكانما قتل نفسه لأنه
يقتص منه. ﴿ثم أقررتم﴾ بالميثاق، واعترفت على أنفسكم

أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم:
أتحننونه إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم
فينافقون المؤمنين، وينافقون اليهود. ﴿يلجأوكم به عند
ربكم﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا
محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله
الإتراك تقول: هو في كتاب الله وهو عند الله هكذا، بمعنى
واحد.

أَوْ لَا يَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٥﴾

﴿يعلم﴾ جميع ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ ومن تلك
إسراهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وَتَوَهَّمْ أُمَّتُورًا لَا يَسْمَعُونَ الْكِتَابَ إِلَّا آفَاقًا وَإِنَّ هُمْ إِلَّا
يُظُنُّونَ ﴿٨٦﴾

﴿ومنهم أميون﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة
ويتحققوا ما فيها. ﴿يعلمون الكتاب﴾ التوراة ﴿إلا
أمانى﴾ إلا ما هم عليه من أمانيم، وأن الله يعفو عنهم
ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء
يشفعون لهم، وما تمنيم إخبارهم من أن النار لا تمسهم
إلا أياماً معدودة، وقيل: إلا أكانيب مختلقة سمعوها من
علمائهم فقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن داب في
شيء حدث به: اهذا شيء رويته أم تمنيمته، أم اختلقت؟
وقيل: إلا ما يقرؤون من قوله: تمنى كتاب الله أول ليلة.
والاشتقاق من منى إذا قرأ، لأن التمني يقتر في نفسه
ويحز ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة
كذا بعد كذا. وإلا أمانى من الاستثناء المنقطع. وقرئ:
أمانى بالتخفيف. نكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع
العلم والاستيقان، ثم العوام الذين قلوبهم، ونبه على أنهم
في الضلال سواء؛ لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى
العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لِيَشْرَبُوا بِهٖ سُمًّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ
مِّمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٨٧﴾

﴿يكتبون الكتاب﴾ المحرف ﴿بأيديهم﴾ تأكيد، وهو
من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا
هذا كتبه بيمينك هذه. ﴿مما يكسبون﴾ من الرشا.

وَقَالُوا لَنْ نَسْأَلَ النَّارَ إِلَّا أَنْهَاكُمُ الْمَسْجُودَ فَلْأَخَذْتُمُ عِنْدَ اللَّهِ
عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَطَّعُوا اللَّهَ عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

﴿إلا أياماً معدودة﴾ أربعين يوماً عدد أيام عبادة
العجل. وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف
سنة، وإنما نعتب مكان كل ألف سنة يوماً. ﴿فلن
يخلف الله﴾ متعلق بمحنوف تقديره: إن اتخذتم عند الله
عهداً فلن يخلف الله عهده. و﴿أم﴾ إما أن تكون معاملة
بمعنى: أي الأمرين كائن على سبيل التقرير لأن العلم واقع
بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة.

بِمَا لَا تَهْوَىٰ أُنْسُكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ فَرِيقًا كَذِبًا وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿الكتاب﴾ التوراة آتاه إياها جملة واحدة. ويقال: قفاه، إذا أتبعه من القفا. نحو: نذبه من الذنب، وقفاه به أتبعه إياه. يعني: وأرسلنا على أثر الكثير من الرسل. كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾ (١) وهم: يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل: ﴿عيسى﴾ بالسريانية أي شوع، و﴿مريم﴾ بمعنى الخادم. وقيل: المريم بالعربية من النساء كالزير من الرجال، وبه فسر قول رؤبة:

قلت ليزير لم تصله مريمه

ووزن مريم عند النحويين مفعول، لأن فعيلا بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب. ﴿البيئات﴾ المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ: وأبيناه، ومنه أجده بالجيم إذا قواه. يقال: الحمد لله الذي أجدني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر. ﴿بروح القدس﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صديق. ووصفها بالقدس، كما قال: وروح منه، فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث، وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: وروحاً من أمرنا. وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم. ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ منهم بالحق ﴿استكبرتم﴾ عن الإيمان به، فوسط بين الفاء، وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يريد ولقد آتيناكم ما آتيناكم ففعلتم ما فعلتم، ثم وبخهم على ذلك، وبخول الفاء لعطفه على المقتر.

فإن قلت: هلا قيل: وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، وقال ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خبير تعاونني، فهذا أوان قطعت أبهري».

وَقَالُوا ثَلُوثًا غُلْفًا كُلٌّ لَهُمْ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿غلف﴾ جمع أغلف أي: هي خلقه، وجبلة مغلشة باغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن. كقولهم: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه﴾ (2). ثم رد الله أن تكون قلوبهم

بلزومه. ﴿وانتم تشهدون﴾ عليها كقولك: فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها، وقيل: وانتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق. ثم انتم هؤلاء استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعنوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهانتهم. والمعنى: ثم انتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون. يعني: أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تنزيلاً لتغيير الصفة منزلة تغيير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَحْرِمُونَ فَرِيقًا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ قَهْرًا وَعَدْوًا وَأَلْمَانًا وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهَرَمَ عَلَيْكُمْ إِتْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَجْمَ الْقَيْمَةِ يَرَوْنَ إِلَهًا أَسْدًا الْمَلَأَتْ رَمَاهُ اللَّهُ بِقَوْلِي عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾.

وقوله: ﴿تقتلون﴾ بيان لقوله: ﴿ثم انتم هؤلاء﴾. وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذي. وقرئ: تظاهرون، بحذف التاء وإدغامها، وتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظهرون أي: تتعاونون عليهم. وقرئ: تفدوهم وتغالوهم، وأسرى وأسارى. ﴿وهو﴾ ضمير الشأن، ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره. ﴿إخراجهم أفؤمنون ببعض للكتاب﴾ أي: بالفداء، ﴿وتكفرون ببعض﴾: أي: بالقتال والإجلاء. وذلك أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا بيارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فغيرتهم العرب، وقالت: كيف قاتلونهم ثم تفدونهم؟ فيقولون: أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نذل حلفاءنا.

والخزي: قتل بني قريظة وأسروهم، وإجلاء بني النضير، وقيل: الجزئية، وإنما رد من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب: لأن عصيانه أشد. وقرئ: يربون، ويعملون، بالياء والتاء.

أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آسَرُوا الْحَيَّةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُهُمْ الْمَكَّابُ وَلَا هُمْ يَصْرِفُونَ ﴿٩٠﴾.

﴿فلا يخفف عنهم﴾ عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم، وكذلك عذاب الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِإِسْرَىٰ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(1) سورة المؤمنون، الآية: 44.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من نواصب الزمخشري على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة، وأني له ذلك في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ألا تراه كيف أخذ من رد الله

= على هذه الطائفة، أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر، أن الكفر والامتناع عن قبول الحق هم خلقوه لانقسام، تمهيداً لقاعته الفاسدة في خلق الأعمال، وسبيل الرد عليه أن الله تعالى، إنما كذبهم ورد عليهم في ادعاتهم عدم الاستطاعة للإيمان، وسلب =

يكفروا ﴿واشترتوا بمعنى باعوا. ﴿بغياً﴾ حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشترتوا. ﴿أن ينزل﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل. أي: حسدوه على أن ينزل الله ﴿من فضله﴾ الذي هو الوحي. ﴿على من يشاء﴾ وتقتضي حكمته إرساله ﴿فبأعوا بغضب على غضب﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنهم كفروا بنبي الحق، وبغوا عليه. وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل: بعد قولهم: عزير ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك من أنواع كفرهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَأْتِيُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَنُكْفِرُكُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فِيمَ تَسْتَلُونَ أَلْيَاكَةَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ بِكُمْ مَوْجِبَاتٍ ﴿٤١﴾

﴿بما أنزل الله﴾ مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب. ﴿قالوا تؤمن بما أنزل علينا﴾ مقيد بالتوراة. ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ منها غير مخالف له، وفيه رد لمقالتهم (1)؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع أديعتهم الإيمان بالتوراة، والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَدُونِهِمْ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وانتم ظالمون﴾ يجوز أن يكون حالاً، أي: عبثتم العجل، وانتم واضعون العبادة غير موضعها. وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وانتم قوم عانتكم الظلم. وكثر رفع الطور لما نيظ به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَوْلًا تِيمَنًا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ آلِجَالٍ يَخْفُونَ قُلْ يَسْكَا يَأْتِرُكُمْ بِهِ إِسْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿واسمعوا﴾ ما أمرتم به في التوراة. ﴿قالوا سمعنا﴾ قولك، ﴿وعصينا﴾ أمرك.

فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبيل وطاعة. فقالوا: سمعنا، ولكن لا سماع طاعة. ﴿واشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: تداخلهم حبه والحرص على عباته

مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، وتسببوا بذلك لمنع اللطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين. ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم. وقيل: غلف تخفيف غلف، جمع غلاف أي: قلوبنا أوعية للعلم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمين.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأُوا مِنْ قَبْلِ يَنْتَهِيهِمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَّتْهُمُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٤٤﴾

﴿كتاب من عند الله﴾ هو القرآن. ﴿مصنقاً لما معهم﴾ من كتابهم لا يخالفه، وقرىء: مصنقاً على الحال. فإن قلت: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف كتاب بقوله: ﴿من عند الله﴾ وجواب لما محذوف، وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك. ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلهم قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وقيل: معنى يستفتحون: يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه، والسين للمبالغة، أي: يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم. ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ من الحق ﴿كفروا به﴾ بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسة. ﴿على الكافرين﴾ أي: عليهم وضماً للظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس، ويدخلوا فيه سخولاً أولياً.

يَسْكَا أَشْرَبُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بَعَاوَهُ بَعَاوَهُ بِعَصَبٍ عَلَى عَصَبٍ وَاللَّكْرِ بَيْنَ عَدَابٍ مُهَيَّبٍ ﴿٤٥﴾

﴿ما﴾ نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بشس بمعنى بشس شيئاً ﴿اشترتوا به أنفسهم﴾ والمخصوص بالذم ﴿أن﴾

= التمكن وعللوا ذلك، بأن قلوبهم غلف وصنق الله ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة إياه في قلوبهم، بعدما انشاهم على الفطرة، فقيام حجة الله تعالى عليهم بانه خلقهم متمكنين من الإيمان، غير مقسورين على الكفر، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة، في اعتقاد أن الله تعالى خلق ذلك في قلوبهم، على وفق اختيارهم هذا هو الحق الإبلج، والصراط الأبهج، والله الموفق. وقول الزمخشري أن كفرهم إنما خلقوه، لأنفسهم بسبب منع اللطاف الله تعالى التي تسبب المؤمنين في حصولها لهم، وكانت

= سبباً في خلفهم الإيمان في قلوبهم كل هذا تستر من الإشراف، واعتقاد آلهة غير الله خلق لنفسها ما شاعت من إيمان وكفر ﴿تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً﴾.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذه النكته بعينها هي الموجب لكفر القدرية، على أحد قولَي مالك والشافعي، والقااضي رضي الله عنهم، فإن العائد الصحيحة السنوية متلازمة متوافقة، يصلق بعضها بعضاً، فجدد احداها كفر به، ثم كفر بالجميع، نسال الله تعالى العصمة.

لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى وليت كلمة التمني. ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا، لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك.

فإن قلت: لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصنّفون. قلت: كم حكى عنهم من أشياء قالوا بها المسلمين من الافتراء على الله، وتحريف كتابه، وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدّقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت، ولم يبالوا. فكيف يمتنعون من أن يقولوا: إن التمني من أفعال القلوب، وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصنق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه. «والله عليم بالظالمين» تهديد لهم.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾
وَأَلْفَ مِائَةٍ أَوْ سِتِّمِئَاتٍ مِّمَّا هُمْ بَشِيرُونَ ﴿٦٢﴾
وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

﴿ولنجزيهم﴾ هو من وجد بمعنى: علم، المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجبت زيداً ذا الحفاظ، ومفعولاه هم ﴿أحرص﴾.

فإن قلت: لم قال: ﴿على حيوة﴾ بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطولة، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: على الحياة. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ محمول على المعنى أحرص الناس أحرص من الناس.

فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى ولكنهم أفرادوا بالذکر لأن حرصهم شديد، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا، فحنف لدلالة أحرص الناس عليه، وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليهم لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ.

فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا لعلمهم بحالهم أنهم صابرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس، لأنهم كانوا يقولون لملوكمهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾، كلام مبتدأ أي: ومنهم ناس. ﴿يؤود أهدهم﴾

كما يتداخل الثوب الصبيخ، وقوله: ﴿في قلوبهم﴾⁽¹⁾ بيان لمكان الإشراب. كقوله: ﴿إنما ياكلون في بطونهم ناراً﴾⁽²⁾. ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم. ﴿بئس ما يامرکم به إيمانکم﴾ بالتوراة لأنه ليس في التوراة عبادة العجايل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم، تهكم كما قال قوم شعيب: ﴿اصلاتك تامرک﴾⁽³⁾، وكذلك إضافة الإيمان إليهم. وقوله: ﴿وكنلك إضافة الإيمان إليهم وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له. قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ آذَانُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامِ فَاسْمِعُوا كَمَا سَمِعْتُمْ يَوْمَ يَأْتِي السَّحَابَ مَتْرَافًا ﴿٦٤﴾

﴿خالصة﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة والمراد الجنة. أي: سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق يعني: إن صح قولكم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. ﴿والناس﴾ للجنس، وقيل: للعهد، وهم المسلمون. ﴿فتمنوا الموت﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوايب، كما روي عن المبشرين بالجنة ما روي. كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفيين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزّي المحاربين، فقال: يا بني لا يبالي أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت⁽⁴⁾، وعن حنيفة رضي الله عنه: أنه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلق من ندم⁽⁵⁾. يعني: على التمني. وقال عمار بصفين: الآن افاقي الأحبة محمداً وحزبه⁽⁶⁾. كان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن إليه، وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»⁽⁷⁾.

وَلَنْ يَسْتَنْوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٥﴾

﴿بما قدمت أيديهم﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد ﷺ⁽¹⁾ ومما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان. وقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿ولن تغفلوا﴾⁽⁸⁾.

فإن قلت: ما ادراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لتنقل ذلك، كما نقل سائر الحوادث، وكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ وليس أحد منهم نقل ذلك.

فإن قلت: التمني من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه ليت

(6) كشف الاستار، كتاب: علامات النبوة، باب: مناقب عمار بن ياسر الحديث رقم: (2690).

(7) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (الحديث: 83/1)، ونكره القرطبي في تفسيره (96/18).

(8) سورة البقرة، الآية: 24.

(1) سورة البقرة، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 10.

(3) سورة هود، الآية: 87.

(4) لم أقف عليه.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک، الحديث: 502/4، مطولاً.

ولأنتم أكثر من الحمير، ومن كان عبواً لأحدهما كان عبواً للآخر، ومن كان عبواً لهما كان عبواً لله، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي ﷺ: «لقد وافق ربك يا عمر». فقال عمر: لقد رأيتني في بين الله بعد ذلك أصلب من الحجر.

وقرىء: جبريل بوزن قفشليل، وجبريل بحذف الياء، وجبرائيل بحذف الهمزة، وجبريل بوزن قنديل، وجبرائيل بلام شديدة، وجبرائيل بوزن جبراعيل، وجبرائيل بوزن جبراعل⁽²⁾، ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة، وقيل: معناه عبد الله. الضمير في «نزله» للقرآن، ونحو هذا الإضمار أعني: إضمار ما لم يسبق نكره فيه فخامة لشان صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بنكر شيء من صفاته. «على قلبك» أي: حفظه إليك وفهمك. «بإذن الله» بتيسيره وتسهيله.

فإن قلت⁽³⁾: كان حق الكلام أن يقال على قلبي؟ قلت: جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي «من كان عبواً لجبريل فإنه نزله على قلبك».

فإن قلت⁽⁴⁾: كيف استقام قوله «فإنه نزله» جرأ للشرط؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفاً لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصح المنزل عليهم.

والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابتهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن، ولموافقتهم لكتابتهم، ولذلك كانوا يحرقونه ويجحدون موافقتهم له. كقولك: إن عاداك فلان فقد أنيته وأسأت إليه. أقرد الملكان بالنكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أن التغيرات في الوصف ينزل منزلة التغيرات في الذات.

مَنْ كَانَ عَبْداً لِلَّهِ رَبِّكَ بِرِئَاسَةِ رُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾.

على حذف الموصوف كقوله: «وما منا إلا له مقام معلوم» والذين أشركوا على هذا مشار به إلى اليهود لأنهم قالوا: عزيز ابن الله والضمير في «وما هو» لأحدهم. و «أن يعمر» فاعل بمزحجه، أي: وما أحدهم بمن يزحجه من النار تعميره، وقيل: الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره، وأن يعمر بدل منه، ويجوز أن يكون «هو» مبهماً، «وأن يعمر» موضحة، والزحجة التبعيد والإنحاء.

فإن قلت: «يؤدأ أحدهم» ما موقعه؟ قلت: هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

فإن قلت: كيف اتصل «لو يعمر» ب «يؤدأ أحدهم»؟ قلت: هو حكاية لودائتهم، ولو في معنى التمني، وكان القياس: لو أعر، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: «يؤدأ أحدهم»، كقولك: حلف بالله ليفعلن.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَرَكَ بِيَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾.

روي: أن عبد الله بن سوريا من أحبار فندك حاج رسول الله ﷺ وسأله عمن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عبونا، ولو كان غيره لأمنا بك، وقد عادانا مراراً وأشدنا أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله، فلقبه ببابل غلاماً مسكيناً فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلمكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونه؟ وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا⁽¹⁾. وروي: أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر قد أحببتك وإنما لنطمع فيك، فقال: والله ما أحببتكم لحكم، ولا أسألكم لأنني شاك في ديني، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سأله عن جبريل فقالوا: ذاك عبونا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى؟ قالوا: أقرب منزلة جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عبو جبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعدون،

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 20.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 19 - 20.

(3) قال أحمد رحمه الله: الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة اللفظ، فعمل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام، أن يحكى معنى قول الله تعالى له من كان عبواً لجبريل، فإنه نزله على قلبك بلفظ المتكلم، ونظير هذا قوله تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً» إلى قوله: «والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً» فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم بما يفهم، أنه قول الله عز وجل، لا على سبيل الحكاية عنهم إذ هم لا يقولون، فأنشربنا، وإنما يقولون، =

= فأنشر على لفظ الغيبة، ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأن معنى قولهم فأنشر الله، هو معنى قول الله عن ذاته، فأنشربنا ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة، إلى التكلم الذي يسمى التفتات، فإن في هذا مزيداً، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام، «قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض»، إلى قوله: «فأنخرجنا به أزواجاً من نبات شتى» فأول الكلام يفهم قول موسى، وآخره يفهم قول الله تعالى، والطريق الجامع في ذلك ما قررته، والله أعلم.

(4) قال أحمد رحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقاً لسببين، أحدهما: أنه جملة إسمية، والآخر: أنه ماض صحيح.

بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نذبوا العمل به. وعن سفيان: أرجوه في اليبياج والحريير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله، ولم يحرموا حرامه.

وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا مِنَ التَّوْرَةِ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۗ وَمَا كَفَرْنَا بِشَيْءٍ
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ۖ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
الْمَلَائِكَةِ بِبَابِ حُرُورٍ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ مِنَ اللَّهِ سَخِرَ لَكُمْ فِي الْأَخْيَارِ
فَعَنْ فِتْنَةٍ فَلَا تَكْفُرْ ۗ فَيَتَمَلَّكُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرُونَ بِهِ بَيْنَ الْأَمْوَ
لِ وَالْجَنَّةِ ۗ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُونَ مَا
يُحَرِّمُهُمْ وَلَا يَنْهَاهُمْ ۗ وَكَفَدَ عَلَيْهِمْ أَسْرَهُمَا مَا لَكُمْ فِي الْأَخْيَارِ
مِنْ حَلَالٍ وَحَلَالٍ ۚ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿واتبعوا﴾ أي: نذبوا كتاب الله واتبعوا. ﴿ما تلتوا﴾
الشياطين. يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي
كانت تقرؤها ﴿علي ملك سليمان﴾ أي: على عهد ملكه
وفي زمانه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم
يضمون إلى ما سمعوا أكانيب يلفقونها ويلقونها إلى
الكهنة، وقد نونوها في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس،
وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن
الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم
لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن
والريح التي تجري بأمره. ﴿وما كفر سليمان﴾ تكذيب
للشياطين، ونفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر
والعمل به، وسماه كفراً ﴿ولكن الشياطين﴾ هم الذين
﴿كفروا﴾ باستعمال السحر وتدوينه. ﴿يعلمون الناس
السحر﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم. ﴿وما أنزل
على الملكين﴾ عطف على السحر، أي: ويعلمونهم ما أنزل
على الملكين. وقيل: هو عطف على ﴿ما تلتوا﴾. أي:
واتبعوا ما أنزل ﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان للملكين
علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء
من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن
تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به
كان مؤمناً:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

كما ابتلى قوم لوط بالنهر فمن شرب منه فليس مني
ومن لم يطعمه فإنه مني. وقرأ الحسن: على الملكين، بكسر
اللام على أن المنزل عليهم علم السحر كانا ملكين ببابل.
وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبهاه وينصحه ويقول له:
﴿إنما نحن فتنة﴾ أي: ابتلاء واختبار من الله. ﴿فلا
تكفر﴾ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر. ﴿فيتعلمون﴾
الضمير لما دل عليه ﴿من أحد﴾. أي: فيتعلم الناس من
الملكين. ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي: علم

وقرىء: ميكال بوزن قنطار، وميكاثل كميكاعيل،
وميكاثل كميكاعل، وميكل كمكعل، وميكاثل كميكاعيل. قال
ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. ﴿عدو﴾
للكافرين. أراد عدو لهم، فجاء بالظاهر ليدل على أن الله
إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت
عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف. والمعنى:
من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿إلا الفاسقون﴾ إلا المتمردون من الكفرة، وعن
الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع
على أعظم تلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس
رضي الله عنه: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: «ما جئتنا
بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبع لها، فنزلت» (١).
واللام في الفاسقون للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى
أهل الكتاب.

أَوْكَلْنَا عَهْدُورَا عَهْدًا نَبَدُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿أو كلما﴾ الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا
بآيات البينات، وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال: بسكون
الواو على أن الفاسقون بمعنى: الذين فسقوا. فكأنه قيل:
وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً
كثيرة. وقرىء: عوهدا، وعهوا. واليهود موسومون بالغدر
ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم
فنقضوا، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا الذين
عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة. والنبد
الرمي بالذمام ورفضه. وقرأ عبد الله: نقضه ﴿فريق﴾
منهم. وقال فريق منهم لأن منهم من لم ينقض. ﴿بل﴾
أكثرهم لا يؤمنون. بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء،
فلا يعنون نقض المواثيق نبأ ولا يباليون به.

وَكَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَدُّ فَرِيقٌ
مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ لَكِبَتْ لَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

﴿كتاب الله﴾ يعني: التوراة لأنهم بكفرهم برسول الله
المصدق لما معهم كفروا بها نابذون لها، وقيل: كتاب الله
القرآن، نبذوه بعدما لزمهم تلقيه بالقبول. ﴿كانهم
لا يعلمون﴾ أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك. يعني: أن
علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا، وعاندوا ونبذوه وراء
ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل ما يرمى به
وراء الظهر استغناء عنه، وقلة التفات إليه. وعن الشعب: هو

(١) رواه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا، ثم ابتدئ: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا رُءُوسًا وَتَوَلَّوْا آخِرَتَنَا وَاسْمِعُوا
رَبِّكُمُ عَذَابَ آيَةٍ ﴿١٤﴾.

كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا لقي عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله. أي: راقبنا، وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا، افترضوه، وخاطبوا به الرسول ﷺ، وهم يعنون به تلك المسبة. فنهى المؤمنون عنها، وأمروا بما هو في معناها وهو ﴿انتظرنا﴾ من نظره إذا انتظره. وقرأ أبي: انتظرنا من النظرة أي أمهلنا حتى نحفظ. وقرأ عبد الله بن مسعود: راعونا، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير، وقرأ الحسن: راعناً بالتثنية من الرعن، وهو الهوج. أي: لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن، بمعنى: رعنياً كدراع ولابن، لأنه لما أشبه قولهم راعينا، وكان سبباً في السب اتصف بالرعن. ﴿واسمعوا﴾ واحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ويلقي عليكم من المسائل بأذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراجعة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾⁽²⁾. أو واسمعوا ما أمرت به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتهم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة. وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه⁽³⁾. فقالوا: أو لستم تقولونها، فنزلت ﴿وللكافرين﴾ ولليهود الذين تهاونوا برسول الله ﷺ وسبوه ﴿عذاب اليم﴾.

مَا يَدْعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشَّكِرِينَ أَنْ يُرَكَّلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾.

من الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون، كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾⁽⁴⁾. والثانية: مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة: لابتداء الغاية.

والخير: الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾⁽⁵⁾ والمعنى: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي ﴿والله يختص﴾ بالنبوة ﴿من يشاء﴾

السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنثف في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرق والنشوز والخلاف ابتلاء منه لا أن السحر له في نفسه. بلبيل قوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله، وربما لم يحدث. ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ لأنهم يقصدون به الشر، وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية. ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي: استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ من نصيب، ﴿وليبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي: باعوها، وقرأ الحسن: الشياطين، وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون، وقد نكر وجهه فيما بعد، وقرأ الزهري: هاروت وماروت بالرفع على هما هاروت وماروت، وهما اسمان أعجميان بديل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت، وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفاً، وقرأ طلحة: وما يعلمان من أعلم. وقرئ: بين المرء بضم الميم وكسرهما مع الهمز، والمر بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الأعمش: وما هم بضاري بطرح النون، والإضافة إلى أحد، والفصل بينهما بالظرف.

فإن قلت: كيف يضاف إلى ﴿أحد﴾ وهو مجرد بمن؟ قلت: جعل الجار جزءاً من المجرور.

فإن قلت: كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: ﴿ولقد علموا﴾، على سبيل التوكيد القسمي، ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾. قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقَوْا لِمُتَابِعَةِ رَبِّكَ لَأَمَّنَّا اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ برسول الله والقرآن. ﴿ولتقوا﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله، واتباع كتب الشياطين، ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ وقرئ: لمثوبة كمشورة ومشورة. ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لترك العمل بالعلم.

فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع في ﴿سلام عليكم﴾ لذلك.

فإن قلت: فهلا قيل: لمثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى لشيء من الثواب خير لهم⁽¹⁾، ويجوز أن يكون قوله: ولو أنهم آمنوا، تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله

(3) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، ص 19.

(4) سورة البينة، الآية: 1.

(5) سورة الزخرف، الآية: 32.

(1) قال أحمد رحمه الله: التمني مجاز عن إرادة الله تعالى، لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره لئلا بالإرادة، والرء عليه على سبيله، ثم قوله تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 93.

ونفراً من اليهود قالوا لحنيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم يروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؛ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا، وقال حنيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه. فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما⁽⁴⁾. فنزلت.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَدْرِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَدِّ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَاصْتَبَحُوا سَحَابًا مِّنْ آلِهِ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ مَكْرَهُمُ الْقَارِئُ⁽⁵⁾.

فإن قلت⁽⁵⁾: بم تعلق قوله: ﴿من عند أنفسهم؟﴾ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بـود، على معنى: أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم، وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنك على الحق، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق. وإما أن يتعلق بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل انفسهم.

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل، والعداوة، ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الذي هو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وإذلالهم بضرب الجزية عليهم. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَعُدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ⁽⁶⁾.

﴿من خير﴾ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرها. ﴿تجدوه عند الله﴾ تجدوا ثوابه عند الله. ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمْثَالُ الَّذِينَ قُلُّ هَاوًا رُّمِّنْكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁽⁷⁾.

الضمير في ﴿وقالوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأما من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونحوه، وقالوا: ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾⁽⁶⁾.

ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ إشعار بأن إتياء النبوة من الفضل العظيم، كقوله تعالى: ﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾⁽¹⁾ روي أنهم طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً فنزلت.

﴿مَا نُنسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بَحَيْرٍ مِّمَّا أَوْرِثْنَاكُمْ مِمَّا نَسَخَ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁾.

وقرىء: ما ننسخ من آية، وما ننسخ بضم النون من أنسخ أو نساها، وقرىء: نسسها وننسها بالتشديد، وتنسها وتنسها على خطاب رسول الله ﷺ، وقرأ عبد الله: ما ننسك من آية أو ننسخها، وقرأ حنيفة: ما ننسخ من آية أو ننسكها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونسؤها تأخيرها، وإزهابها لا إلى بدل، وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل. ﴿نات﴾ بآية خير منها للعباد أي: بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك. ﴿على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبٍ اللَّهُ مِّنْ وَرِيٍّ وَلَا يُعِيرُ⁽²⁾.

﴿له ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أموركم ويديرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ. لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومديرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقرره على ذلك بقوله: ﴿ألم تعلم﴾ أراد أن يوضحهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم، وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم. كقولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾⁽²⁾، ﴿أرنا الله جهرة﴾⁽³⁾، وغير ذلك.

أَمْ يُرِيدُونَ أَنِ اتَّخَلُّوا رُسُلَكُمْ كَمَا اتَّخَلَّوْا مَوَدَّةَ مَن بَدَّلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَذَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ⁽⁴⁾.

﴿ومن يتبدل للكفر بالإيمان﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها، واقترح غيرها ﴿فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ روي أن فنحاص ابن عازورا، وزيد بن قيس،

(5) قال أحمد رحمه الله: يبعد الوجه الثاني دخول عند، ويقرب الأول قوله تعالى: ﴿تلك أمانيهم﴾.

(6) سورة البقرة، الآية: 135.

(1) سورة الإسراء، الآية: 87.

(2) سورة الأعراف، الآية: 138.

(3) سورة النساء، الآية: 153.

(4) أخرجه التعلبي في تفسيره.

واليهود: جمع هاشم، كعائذ وعود، وبازل وبزل.

فإن قلت: كيف قيل: كان هوداً، على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت: حمل الاسم على لفظ من، والخبر على معناه. كقراءة الحسن: إلا من هو صالحو الجحيم. وقوله: ﴿فإن له نار جهنم خالدين فيها﴾⁽¹⁾. وقرأ أبي بن كعب: إلا من كان يهودياً أو نصرانياً.

فإن قلت⁽²⁾: لم قيل: ﴿تلك أمانيتهم﴾، وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة﴾ أمنية واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المنكورة وهو أمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يربوهم كفاراً، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم، وقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾، متصل بقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وتلك أمانيتهم اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمانى أمانيتهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. يريد أن أمانيتهم جميعاً في البطلان مثل أمانيتهم هذه، والأمنية أفعولة من التمني مثل الأضحوكة والأعجوبة. ﴿هاتوا برهانكم﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إن كنتم صابقين﴾ في دعواكم، وهذا أهم شيء لمذهب المقلدين، وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت، وهات صوت بمنزلة هاه، بمعنى: احضر.

بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿من أسلم وجهه لله﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فله أجره﴾ الذي يستوجبه. فإن قلت: ﴿من أسلم وجهه﴾، كيف موقه؟ قلت: يجوز أن يكون بلى رداً لقولهم ثم يقع من أسلم كلاماً مبتدأ، ويكون من متضمناً لمعنى الشرط وجوابه فله أجره، وأن يكون من أسلم فاعلاً لفعل محذوف أي: بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله: ﴿فله أجره﴾ كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

وَوَالَيْتُ الْيَهُودَ لَيَسِّرَنَّ لَكَ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَوَالَيْتُ الْيَهُودَ لَيَسِّرَنَّ لَكَ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿على شيء﴾ أي: على شيء يصح ويعتد به⁽³⁾، وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، وهذا كقولهم: أقل من لا شيء. ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ الوار للحال، والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرها من كتب الله وأمن به أن لا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابيين مصنفٌ للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً. ﴿كنك﴾ أي: مثل تلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج. ﴿قال﴾ الجهلة ﴿الذين﴾ لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم. قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. وروي: أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ اتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت النصرارى لهم نحوه، وكفروا بموسى والتوراة⁽⁴⁾. ﴿فأله يحكم﴾ بين اليهود والنصارى ﴿يوم القيامة﴾ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم لله بينهم أن يكذبهم ويخلفهم النار.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَوَّىٰ فِي حُرَابِهَا أَوْلِيَّاتِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٤﴾

﴿أن ينكركم﴾ ثاني مفعولي ﴿منع﴾ لأنك تقول منعت كذا، ومثله وما منعت أن نرسل وما منع الناس أن يؤمنوا ويجوز أن يحذف حرف الجزم مع أن، ولك أن تنصبه

(1) سورة الجن، الآية: 23.

(2) قال أحمد رحمه الله: يبعد هذا الجواب، قوله تعالى عقيب ذلك. ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صابقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فإن البرهان المطلوب منهم ههنا، إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم، ويحقق هذا قوله بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه، فإنما يعني الجنة ونعيمها، رداً عليهم في نفي غيرهم عن دخولها، ففي هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها، ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته، وهو أمنية واحدة، والله أعلم، والجواب القريب أنهم لشدة تمنيتهم، لهذه الأمانة، ومعاونتهم لها وتاكدها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متاكدة في قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤنثاً واحداً، ونظيره قولهم معاً جياح، فجمعوا الصفة ومؤنثاً واحداً لأن موصوفها واحد، تأكيداً لنبوتهما وتمكنها وهذا =

= المعنى لحد ما يرى في قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء لشرمنه قليلون﴾ فإنه جمع قليلاً، وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشرمنه قليلة، كقوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً، فتبهر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان، والله الموفق.

(3) قال أحمد رحمه الله: وتفسيره الشيء مخالف لفريقي أهل السنة، والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود، وعند المعتزلة، يطلق على الموجود، وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولاً للمحال، بحال عندهما، وقد تقدم له مثله.

(4) أخرجه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصرارى على شيء﴾ وقالت النصرارى...

وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿3﴾ ﴿فَنَمَّ وَجَهَ اللَّهِ﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها، والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وأفعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم. وعن ابن عمر: نزلت في صلاة المسافر على الرحلة أينما توجهت، وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطاهم فعذروا، وقيل: معناه: فأينما تولوا للدعاء والذكر، ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فأينما تولوا، بفتح التاء من التولي، يريد: فأينما توجهوا القبلة.

وَقَالُوا أَتَجَدَّ اللَّهُ وَكَلَّا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ لَمْ قَبِيحُونَ ﴿١٧﴾

﴿وقالوا﴾ وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد. ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ هو خالقه ومالكة، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح، ﴿كل له قانتون﴾ منقادون لا يمتنع شيء منه على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، والتنونين في كل عوض من المضاف إليه، أي: كل ما في السموات والأرض، ويجوز أن يراد: كل من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرّون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم.

فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قانتون﴾؟ قلت: هو كقوله: سبحان ما سخركن لنا، وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم، وتصغيراً لشأنهم كقوله: وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا.

يقال: بدع الشيء فهو بديع، كقولك بزغ الرجل فهو بزيع.

يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

﴿ويدع السموات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي: بديع سمواته وأرضه، وقيل: البديع بمعنى: المبدع، كما أن السميع في قول عمرو:

أمن ريحانة الداعي السميع

بمعنى: المسموع، وفيه نظر، ﴿كن فيكون﴾ من كان التامة: أي: أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا

مفعولاً له؛ بمعنى: منعها كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من نكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وأن الروم غزوا أهله فخرّبوه، وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسبوا، وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

فإن قلت: فكيف قيل ﴿مساجد الله﴾ وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً، ومن اظلم ممن أذى الصالحين، وكما قال الله عز وجل: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾⁽¹⁾ والمنزل فيه الأخنس بن شريق. ﴿وسعى في خرابها﴾ بانقطاع الذكر، أو بتخريب البنين. وينبغي أن يراد بمن منع العموم، كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين ﴿أولئك﴾ المانعون ﴿وما كان لهم أن يدخلوها﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إلا خائفين﴾ على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم، وقيل: ما كان لهم في حكم الله. يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوّمهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً مسارقة. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنكهض ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل: نادى رسول الله ﷺ: «ألا لا يجعن بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان»⁽²⁾. وقرأ عبد الله: إلا خيفاً، وهو: مثل صميم، وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد، فجوزّه أبو حنيفة رحمه الله، ولم يجوزّه مالك، وفرّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول، والتخية بينهم وبينه. كقوله: «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله». ﴿خزي﴾ قتل وسبي، أو نلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية، ورومية، وعمورية.

وَلِلَّهِ الشَّرْيفُ وَالْقَرِيبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿وجه المشرق والمغرب﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب، والأرض كلها لله هو مالكةا ومتولياها. ﴿فأينما تولوا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية. يعني: تولية وجوهكم شطر القبلة، بليل قوله تعالى: ﴿قول وجهك شطر المسجد الحرام

(1) سورة الهمزة، الآية: 1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب: لا يطوف بالبيت

عريان ولا يحج مشرك الحديث رقم: (1622)، وأخرجه مسلم في

(3) سورة البقرة، الآية: 150.

قول ثم، كما لا قول في قوله:

إذ قالت الانساع للبطن الحق

وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل، لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مביئة لأحوال الأجسام في توأدها. وقرئ: ببيع السموات، مجروراً على أنه بدل من الضمير في له، وقرأ المنصور: بالنصب على المدح.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا يَا أَيُّهُ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ نَبْئَلُ قَوْلِهِمْ فَشَبَّهَتْ قُلُوبَهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٧٤﴾

«وقال الذين لا يعلمون» وقال الجهلة من المشركين، وقيل: من أهل الكتاب، ونفي عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به. «لولا يكلمنا الله» هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوا. «أو تنزيراً» أو تنزيراً أياً جوداً لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها. «تشابهت قلوبهم» أي: قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى، كقوله: أتواصوا به. «قد بينا الآيات لقوم» ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجُبَيْرِ ﴿١٧٥﴾

«إننا أرسلناك» لأن تبشر وتنذر، لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه، لأنه كان يغمم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسالك «عن أصحاب الجحيم» ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت، وبلغت جهنك في دعوتهم، كقوله: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»^(١). وقرئ: ولا تسأل، على النهي. روي أنه قال: ليت شعر ما فعل أبوي. فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة، والاهتمام بأعداء الله، وقيل: معناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان، سائلاً عن الواقع في بلية؟ فيقال لك: لا تسأل عنه، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضره، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل. وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: ولن تسأل، وقراءة أبي: وما نسأل. كأنهم قالوا: لن نرضى عنك، وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا. إقناباً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فحكى الله عز وجل كلامهم، ولذلك قال:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ إِلَٰهُهُمْ وَلَا الشَّمْسُ بِمَا نَجَّحَ إِلَيْهِمْ قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ

هُوَ الْهُدَىٰ وَيَا أَيُّهُ اتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَّ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْإِلَٰهِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا سَيِّرٍ ﴿١٧٦﴾

«قل إن هدى الله هو الهدى» على طريقة إيجابتهم عن قولهم. يعني: أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراء هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: «ولئن اتبعت أهواءهم» أي: أقوالهم التي هي أهواء وبدع «بعد الذي جاءك من العلم» أي: من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة.

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَنَّا بِتُلُوتِهِمْ حَتَّىٰ يَلَاقِيَهُ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاطِبُونَ ﴿١٧٨﴾ بَيَّنَّا إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَرَّمَا بِسَمِيِّ آلِهِ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَإِنِّي فَضَّلْتُكَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾ وَأَتَقَرُّا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَسْرٌ عَنْ نَسْرِنَا وَلَا يُغْنِي سِنَا عَدْلٌ وَلَا نَنفَعُهَا شَتْمَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿١٨٠﴾

«الذين آتيناهم الكتاب» هم مؤمنو أهل الكتاب، «يتلوونه حق تلاوته» لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ. «أولئك يؤمنون» بكتابتهم دون المحرفين، «ومن يكفر به» من المحرفين «فأولئك هم الخاسرون» حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

﴿ وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلِرَاهِيمَ زُيُومًا بَكْرَتِهِمْ فَاتَّبَعُوهُ قَالَ إِنِّي بَاعِعْتُكَ لِلنَّاسِ إِمَارًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٨١﴾

«ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات» اختبره بأوامر ونواهي، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهي العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه: إبراهيم ربّه، رفع إبراهيم ونصب ربّه، والمعنى: أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا.

فَإِن قُلْتُمْ: الفاعل في القراءة المشهورة بلى الفعل في التقدير فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر! قلت: الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربّه إبراهيم، فأما ابتلى إبراهيم ربّه، أو ابتلى ربّه إبراهيم، فليس واحداً منهما بلإضمار قبل الذكر. أما الأول: فقد نكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير نكراً ظاهراً، وأما الثاني: فأبراهيم فيه مقدم في المعنى، وليس كذلك ابتلى ربّه إبراهيم، فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى صحته. والمستكن في «فاتمه» في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بهن حق القيام واداهن أحسن التادية من غير تفريط وتوانٍ ونحوه. وإبراهيم الذي وفى، وفي الأخرى لله تعالى بمعنى: فاعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً. ويعضده ما روي عن مقاتل أنه فسّر الكلمات بما سأل إبراهيم ربّه في قوله:

يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذنب ظلم.

وَإِذْ جَعَلْنَا لَبِيبَ بْنَ مَرْيَمَ إِبرَاهِيمَ مُصَلِّاً وَعَهْدْنَا إِلَيْهِ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهراً بَيْتِي لِلطَّائِبِينَ وَالْمُتَّكِبِينَ وَالرَّاكِعِينَ أَشْجُورٍ ﴿١١٥﴾.

﴿والبيت﴾ اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا. ﴿مثابة للناس﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج، والعمار يتفرون عنه، ثم يثوبون إليه. أي: يثوب إليه أعيان الذين يزورونه، أو أمثالهم. ﴿وأمناً﴾ وموضع أمن، كقوله: حرماً أمناً ويتخطف الناس من حولهم. ولأن الجاني يأوي إليه، فلا يتعرض له حتى يخرج، وقرئ: مثابات، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم سواء العاكف فيه والباد. ﴿واتخذوا﴾ على إرادة القول. أي: وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، وعن النبي ﷺ أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أملاً نتخذُه مصلي يريد: أملاً نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطئ قدم إبراهيم؟ فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت⁽⁸⁾، وعن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ استلم الحجر، ورمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعة حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي﴾⁽⁹⁾، وقيل: مصلى مدعى، ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل المطلب بن أبي وداعة: هل تدري أين كان موضعه الأول؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء: مقام إبراهيم عرفة والمزلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع، ودعا فيها. وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم. وقرئ: واتخذوا، بلفظ الماضي عطفاً على جعلنا. أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم - الذي رسم به لاهتمامه به وإسكان نريته عنده - قبلة يصلون إليها. ﴿عهننا﴾ أمرانها ﴿أن طهراً بيتي﴾ بأن طهراً أو أي طهراً، والمعنى: طهراه من الأوثان، والأنجاس، وطواف الجنب، والحائض، والخباثات كلها، أو إخلاصه لهؤلاء لا يغشه غيرهم. ﴿والعاكفين﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي:

﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾⁽¹⁾ ﴿واجعلنا مسلمين لك﴾⁽²⁾ ﴿وابعث فيهم رسولا منهم﴾⁽³⁾ ﴿ربنا تقبل منا﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما العامل في إذ؟ قلت: إما مضمرة، نحو: وانكر إذ ابتلى، أو وإن ابتلاه كان كيت وكيت، وإما ﴿قال﴾ إنني جاعلك.

فإن قلت: فما موقع قال؟ قلت: هو على الأول استئناف، كأنه قيل: فماذا قال له ربّه حين أمّ الكلمات؟ فقيل: قال إنني جاعلك للناس إماماً، وعلى الثاني: جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون بيانا لقوله: ابتلى، وتفسيراً له، فيراد بالكلمات ما نكره من الإمامة، وتطهير البيت ورفع قواعده. والإسلام قبل ذلك في قوله: ﴿إذ قال له ربّه أسلم﴾⁽³⁾ وقيل في الكلمات: هنّ خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في البين: الختان، والاستحدا، والاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الأبط. وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في ﴿براءة التائبون العابثون﴾⁽⁶⁾ وعشر في الأحزاب إن المسلمين والمسلمات وعشر في المؤمنون، وسأل سائل إلى قوله: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾⁽⁷⁾. وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والتعريف، وغيرهنّ. وقيل: ابتلاه بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، ونبع ابنه، والنار، والهجرة. والإمام: اسم من يؤتم به على زنة الآفة، كالإزار لما يؤتزر به. أي: يأتون بك في دينهم. ﴿ومن نريتي﴾ عطف على الكاف، كأنه قال: وجاعل بعض نريتي، كما يقال لك: ساكرمك، فتقول: وزيداً. ﴿لا ينال عهدي للظالمين﴾. وقرئ: الظالمون، أي: من كان ظالماً من نريتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم. وقالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجود نصره زيد بن علي رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد، وأرادوني على عد أجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف

(8) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿اتخذوا من مقام إبراهيم مصلي﴾ الحديث رقم: (4483)، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل عمر رضي الله تعالى عنه الحديث رقم: (6156).

(9) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

(2) سورة البقرة، الآية: 128.

(3) سورة البقرة، الآية: 129.

(4) سورة البقرة، الآية: 127.

(5) سورة البقرة، الآية: 131.

(6) سورة التوبة، الآية: 112.

(7) سورة المعارج، الآية: 34.

أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين: الواقفين، يعني: القائمين في الصلاة، كما قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽¹⁾ والمعنى: للطائفين والمصلين، لأن القيام والركوع والسجود هيأت المصلي. أي: اجعل هذا البلد أو هذا المكان:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آسَافًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرْحَةِ مَنْ مَأْمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ رَبِّ كَفَّرَ فَأَتَيْتُهُ قِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ، إِنَّ عَذَابَ النَّارِ رَيْسُ أَلْمِيمٍ ﴿١٧٧﴾.

﴿بلدًا آمنًا﴾: ذا أمن، كقوله: ﴿عيشة راضية﴾⁽²⁾ أو آمنًا من فيه، كقوله: ليل نائم، و﴿من آمن منهم﴾: بدل من أهله، يعني: وارزق المؤمنين من أهله خاصة. و﴿ومن كفر﴾: عطف على من آمن، كما عطف، ومن ﴿نريتي﴾ على الكاف في جاعلك.

فإن قلت: لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى رد عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة، فعرف الفرق بينهما، لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم: بخلاف الرزق، فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق والزاماً للحجة له، والمعنى: وارزق من كفر فامتعه، ويجوز أن يكون، ومن كفر مبتدأ متضمناً معنى الشرط، وقوله: ﴿فامتعه﴾، جواباً للشرط. أي: ومن كفر، فإنا امتعه. وقرئ: فامتعه. فأضطره، فالزه في عذاب النار. لز المضطر الذي لا يملك الامتناع، مما اضطر إليه. وقرأ أبي: فنمتعه قليلاً ثم نضطره. وقرأ يحيى بن وثاب: فأضطره، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس: فامتعه قليلاً ثم اضطره، على لفظ الأمر. والمراد: الدعاء من إبراهيم، دعا ربه بذلك.

فإن قلت: فكيف تفسير الكلام على هذه القراءة؟ قلت: في قال ضمير إبراهيم، أي: قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق، ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن: فأطهره، إدغام الضاد في الطاء، كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرنولة لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هي فيما يجاورها، وهي حروف ضم شفر.

وَإِذْ يَفْعُ الْفَرَسِيُّ الْقَرَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧٧﴾.

﴿يرفع﴾: حكاية حال ماضية. و﴿القواعد﴾: جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها: الثابتة، ومنه: قعدك الله، أي: أسأل الله أن يقعدك، أي: يثبتك، ورفع الأساس البناء عليها، لأنها إذا بني عليها

نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطلعت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها: سافات البناء، لأن كل ساف قاعدة للذي يبني عليه ويوضع فوقه، ومعنى: رفع القواعد، رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات، ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت، أي: استوطأ. يعني: جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء، وروي أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم، فبنى على الأساس، وروي إن الله تعالى أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد شرقي وغربي، وقال لأمم عليه السلام: أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي. فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً وتلقته الملائكة، فقالوا: برّ ححك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفري عام⁽³⁾، وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة، فهو البيت المعمور، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببناؤه، وعرفه جبريل مكانه، وقيل: بعث الله سبحانه أظلمته، ونودي أن ابن على ظلها لا تزدد ولا تنقص. وقيل: بناه من خمسة أجيال: طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وأسسها من حراء. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء، وقيل: تمخض أبو قبيس، فانشق عنه، وقد خبئ فيه في أيام الطوفان، وكان ياقوته بيضاء من الجنة، فلما لمستة الحيض في الجاهلية أسود، وقيل: كان إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة. ﴿ربنا﴾: أي: يقولان ربنا، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين: ربنا. ﴿إنك أنت السميع﴾: لدعائنا ﴿العليم﴾: بضمائرنا ونياتنا.

فإن قلت: هلا قيل قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلت: في إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام ما ليس في إضافتها، لما في الإيضاح بعد الإيهام من تقديم لشأن المبين.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُونِنَا إِنَّهُ شَهِدَ لَكَ وَأَرْنَا مَسَافِكًا رَبَّنَا عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيبُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٨﴾.

﴿مسلمين لك﴾: مخلصين لك أوجهنا. من قوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾⁽⁴⁾ أو مستسلمين. يقال: أسلم له، وسلم، واستسلم إذا خضع وأذعن، والمعنى: زبنا إخلاصاً أو إنعاناً لك. وقرئ: مسلمين، على الجمع كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع، لأنها منه. ﴿ومن نريتنا﴾: واجعل من نريتنا ﴿أمة مسلمة لك﴾. ومن للتبعيض أو للنبين، كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا

(1) سورة الحج، الآية: 26.

(2) سورة القارة، الآية: 7.

(3) كشف الاستار، كتاب: علامات النبوة، باب: قدم نبوته الحديث رقم: (2365)، والحاكم في المستدرک 418/2. وأحمد في المسند 4/4 =

= 127، وأخرجه أحمد في المسند 262/5، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: حب النبي ﷺ الحديث رقم: (1385)، والحاكم في المستدرک 600/2.

(4) سورة البقرة، الآية: 112.

ظني مقيم أي: في ظني، والوجه هو الأول. وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس»⁽⁵⁾. وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذلال نفسه، وتعجزها حيث خالف بها كل نفس عاقلة. **﴿ولقد اصطفينا﴾** بيان لخطأ رأي من رغب عن ملته، لأن من جمع الكرامة عند الله في الدارين بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا، وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِ مَا لَمْ يَأْمُرْكَ بِأَلَّا تَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (13)

﴿إذ قال﴾ ظرف لاصطفينا، أي: اخترناه في ذلك الوقت، أو انتصب بإضمار أنكر استشهاده على ما نكر من حاله، كأنه قيل: انكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله. ومعنى قال: له أسلم: أخطر بباله النظر في الدلال المؤدية إلى المعرفة والإسلام. **﴿قال أسلمت﴾** أي: فنظر وعرف. وقيل: أسلم أي: أذعن وأطع. وروي: أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فقال لهما: قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسمايل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى وشرده، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فنزلت.

وَوَصَّ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأنتُمْ مُسْلِمُونَ (13)

قرئ: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. الضمير في **﴿بها﴾** لقوله: **﴿أسلمت لرب العالمين﴾**⁽⁶⁾ على تاويل الكلمة والجملة. ونحوه رجوع الضمير في قوله: **﴿وجعلها كلمة باقية﴾**⁽⁷⁾ إلى قوله: **﴿إنني براء مما تعبديون﴾** إلا الذي فطرنى⁽⁸⁾ وقوله: **﴿كلمة باقية﴾** دليل على أن التابيث على تاويل الكلمة. **﴿ويعقوب﴾** عطف على إبراهيم داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً، وقرئ: ويعقوب بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه: ووصى بها إبراهيم بنيه، وناقلته يعقوب. **﴿يا بني﴾** على إضمار القول عند البصريين وعند الكوفيين، يتعلق بوصى لأنه في معنى القول، ونحوه قول القائل:

رجلان من ضبة أخبرانا أناراينا رجلاً عريانا
بكسر الهمزة، فهو بتقدير القول عندنا وعندهم يتعلق
بفعل الإخبار، وفي قراءة أبي، وابن مسعود: أن يا بني
﴿اصطفى لكم الدين﴾ أعطاكم الدين الذي هو صفوة

منكم⁽¹⁾. **﴿فإن قلت﴾** لم خصا نريتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة: **﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾**⁽²⁾ ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايحهم على الخير. ألا ترى أن المقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالامة أمة محمد ﷺ **﴿وارنا﴾** منقول من رأى بمعنى: أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين أي: وبصرنا متعبداً في الحج، أو وعرفناها، وقيل: مذابحنا. وقرئ: وارنا بسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ، وقد استرذلت لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة لليل عليها، فسقطاها إجحاف. وقرأ أبو عمر بإشمام الكسرة. وقرأ عبد الله: وأرهم مناسكهم. **﴿وتب علينا﴾** ما فرط منا من الصغائر أو استتاباً لذريتهما.

رَبَّنَا وَأَبَتْ فِيهِمْ رَسُولًا لِمَا يَأْتِيهِمْ آيَاتِكُمْ وَيَعْلَمُهَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْكَافِرِينَ (13)

﴿وابعث فيهم﴾ في الامة المسلمة **﴿رسولاً منهم﴾** من أنفسهم، وروي أنه قيل له: قد استجيب لك، وهو في آخر الزمان. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورويا أمي»⁽³⁾. **﴿يتلو عليهم آياتك﴾** يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحي إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك. **﴿ويعلمهم الكتاب﴾** القرآن، **﴿والحكمة﴾** الشريعة وبيان الأحكام. **﴿ويزكّيهم﴾** يطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس. كقوله: **﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾**⁽⁴⁾.

وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَوَّاهُ فَقَدْ آمَنَ ظَلَمَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَنِ الْكُلُوبُ (13)

﴿ومن يرغب﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم. **﴿ومن سفه﴾** في محل الرفع على البذل من الضمير في يرغب، وصح البذل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد. سفه نفسه امتنها واستخف بها، وأصل السفه الخفة، ومنه: زمام سفیه. وقيل: انتصاب النفس على التمييز نحو: غبن رأيه، وألم رأسه، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

ولا بفزارة الشعر الرقبابا أجب الظهر ليس له سناب
وقيل: معناه سفه في نفسه، فحذف الجار. كقولهم: زيد

= الحديث رقم: (548)، والحاكم عن أبي هريرة 2/182، وأحمد في المسند 4/133.

(6) سورة البقرة، الآية: 131.

(7) سورة الزخرف، الآية: 28.

(8) سورة الزخرف، الآيتان: 26، 27.

(1) سورة النور، الآية: 55.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) قال ابن حجر: أخرجه الفاكهي في كتاب: مكة.

(4) سورة الأعراف، الآية: 157.

(5) كشف الاستار، كتاب: الإنكار، باب: فضل لا إله إلا الله الحديث

رقم: (3069)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد 4/2، باب: الكبر، =

الاديان، وهو دين الإسلام، ووقفكم للأخذ به. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾⁽¹⁾ معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنتهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع. فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته.

فإن قلت: فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة، وليس بمنهي عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: إنهاك عنها إذ لم تصلها على هذه الحالة. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»⁽¹⁾. فإنه كالصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا في المسجد، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. ونقول في الأمر أيضاً: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات، إنما أمرته بالموت اعتدالاً منك بميتته، وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بان بحث عليها.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ النَّوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدْوٍ قَالُوا فَاَلَوْ نَعْبُدُ إِلَّاكَ وَآلِهَةَ آبَائِكِ إِتْرَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَحِدًا وَنَحْنُ أَنْكُم مُّسْلِمُونَ ﴿٣٢٦﴾

﴿أم كنتم شهداء﴾ هي: أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها: الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب⁽²⁾ للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. وقيل: الخطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية. إلا أنهم لو شاهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم. فكيف يقال لهم: أم كنتم

شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. يعني: أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنييه على التوحيد، وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء. وقرئ: حضر، بكسر الضاد، وهي لغة. ﴿ما تعبدون﴾ أي شيء تعبدون، وما عام في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن، وكفكك ليلياً قول العلماء من لما يعقل، ولو قيل: من تعبدون لم يعم إلا أولي العلم وحدهم، ويجوز أن يقال: ما تعبدون سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه أم طيب أم غير ذلك من الصفات؟ و﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحق﴾ عطف بيان لأبائكم، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه لأن العم أب والخالة أم لانخراطهما في سلك واحد، وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام: «عم الرجل صنو أبيه»⁽³⁾. أي: لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»⁽⁴⁾. وقال: «رئوا عليّ أبي فأني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود». وقرأ أبي: وإله إبراهيم، بطرح آبائك. وقرئ: أبك⁽⁵⁾، وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون. قال: وفيدينا بالابينا. ﴿إلهها واحداً﴾ يدل من إله آبائك، كقوله تعالى: ﴿بالنّاصية * ناصية كاذبة﴾⁽⁶⁾ أو على الاختصاص أي: تريد بإله آبائك إلهاً واحداً. ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله لرجوع الهاء إليه في له، ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة. أي: ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مدعون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ حَتَّتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلكُمْ مَا كَتَبْنَا وَلَا تَتْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَمْلُونَ ﴿٣٢٧﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 1/246، والدارقطني في کتاب: الصلاة، باب: الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر الحديث رقم: (2) وابن أبي شيبه في 1/345، کتاب: الصلوات، باب: من قال إذا سمع المنادي فليجب.

(2) قال أحمد رحمه الله: وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة؛ لأنه لو جعلها منقطعة كالأول، لكان مضمون الكلام نفي شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثاني لوفاء يعقوب، والوصية بالإسلام، وحينئذ يكون ذلك كإقامة حججهم على جحد الإسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضد ذلك، وإنما كان الكلام يقتضي النفي حينئذ؛ لأن الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره، فتعين صرفه إلى الإنكار، لأن السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب، ووصيته على التفسير الأول لا سيما، والمعناد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام، بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلومهم ورضاهم منزلة حضورهم، وتعاطيهم، كقوله تعالى: ﴿وإذ =

(3) قتلتهم نفساً، إذ قلتهم يا موسى إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود، فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله﴾ الحديث رقم: (1468)، ولم يذكر فيه: «عم الرجل صنو أبيه». وإنما تفرد بها مسلم فقامل، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها الحديث رقم: (2274).

(4) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه 12/109، كتاب الفضائل، باب: العباس.

(5) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه 14/481، كتاب المغازي، باب: حديث فتح مكة.

(6) سورة العلق، الآيتان: 15، 16.

واليعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقماً كان أو متأخراً فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افترضوا بأولادهم، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»⁽¹⁾.
﴿ولا تسالون عما كانوا يعملون﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تتفكع حسناتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٥﴾

﴿بل ملة إبراهيم﴾ بل تكون ملة إبراهيم أي: أهل ملته. كقول عدي بن حاتم: إني من دين، يريد من أهل دين⁽²⁾. وقيل: بل نتبع ملة إبراهيم. وقرئ: ملة إبراهيم بالرفع أي: ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى: أهل ملته. و﴿حنيفاً﴾ حال من المضاف إليه كقولك: رايت وجه هند قائمة.

والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق، والحنف الميل في القدمين. وتحنف إذا مال، وأنشد:

ولكننا خلقنا إذ خلقنا حنيفاً أينما عن كل دين
﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم، وهو علي الشرك. ﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين. أي: قولوا لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل، وكذلك قوله: بل ملة إبراهيم، يجوز أن يكون على بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.
والسبب: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ.

قُولُوا مَا مَلَكَ يَأْتِي وَمَا أُرِيَلْ إِنِّي وَمَا أُرِيَلْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَلَا يُعْبَدُ
وَلَسَحَقَّ وَتَعَوَّبُ وَالْأَسْبَابُ وَمَا أُرِيَلْ مَرْسَى وَيَسِي وَمَا أُرِيَلْ أَلْتَبْرُكُ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَحَنَّ لَمْ سَلِيلُونَ ﴿٣٦﴾ فَإِنَّ آمَنُوا
يَبْتَلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ قُولُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَبِيِّكُمْ
أَلَّهُ وَهُوَ السَّبِيحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿والأسباط﴾ حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ﴿لا تفرق بين أحد منهم﴾ لا تؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى⁽³⁾. و﴿أحد﴾ في معنى الجماعة ولذلك صح دخول ﴿بين﴾ عليه.

﴿بمثل ما أنتمت به﴾ من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، ﴿ومن يبتغ غير

سَبِيَّةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِرْكَ اللَّهُ سَبِيَّةً وَحَنَّ لَمْ عَيْدُونَ ﴿٣٨﴾

﴿سبغة الله﴾ مصدر مؤكد منتصب على قوله: أمنا بالله، كما انتصب ﴿وعد الله﴾ عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده نلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا أمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقولون المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتم، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس. كما يغرس

(1) لم اتف عليه، قال الزيلعي: غريب جداً: 91/1.

(2) رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة عدي بن حاتم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي، تفيد العموم لفظاً، حتى يتنزل المفرد فيها منزلة الجمع، في تناوله الأحاد مطابقة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن ملولها بطريق المطابقة في النفي، كملولها في الإثبات، وذلك الدلالة على =

= الماهية، وإنما لزم فيها العموم، من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الأفراد، لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي، إذ سلب الأعم، أخص من سلب الأخص، فيستلزمه، فلو كان لفظاً، ما لا إشعار له بالتعمد والعموم وضماً، لما جاز دخول بين عليها.

أحدهما: إن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها.

والثاني: إننا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا، فلا نكتمها، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهادته، ومن في قوله شهادة عنده من الله مثلاً في قولك: هذه شهادة مني لفلان، إذا شهدت له. ومثله: براءة من الله ورسوله.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الشَّرْكَ وَالْمَغْرِبُ يَدِي مَنْ يَبْتَأ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ الخفاف الأحلام، وهم اليهود كراحتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ، وقيل: المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء. وقيل: المشركون قالوا رغب عن قبة آباءه، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى بينهم.

فإن قلت⁽²⁾: أي فائدة في الأخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقنمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم. ﴿وما ولاهم﴾ ما صرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهي بيت المقدس. ﴿والله المشرق والمغرب﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها. ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من أهلها ﴿إلى صراط مستقيم﴾ وهو ما توجهه الحكمة والمصلحة من توجيههم تارة إلى بيت المقدس وأخرى إلى الكعبة.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ مِّمْلًا لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ نَبِيٌّ وَلَا يَسْمَعَ الرُّسُلَ عَلَيْنَا وَمَا جَعَلْنَا آيَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا بَلْ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾

﴿وكنك جعلناكم﴾ ومثل ذلك جعل العجيب جعلناكم ﴿أمة وسطاً﴾ خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث ونحوه قوله عليه السلام: «وأنطوا الثبجة»⁽³⁾ يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء، وصفاً بالثبج وهو وسط الظهر، إلا أنه الحق تاء التانيث مراعاة لحق الوصف⁽⁴⁾، وقيل: الخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار والأوساط محمية محوطة. ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً وقد اكرتت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من

فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم. ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ يعني: أنه يصبغ عباده بالإيمان، ويظهرهم به من أوصار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وقوله: ﴿ونحن له عابنون﴾ عطف على أمانة بالله، وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم. وإخراج الكلام عن التامة واتساقه، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سييويه، والقول ما قالت حذام.

﴿قُلْ أَتَمَّجُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لِمُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قرأ زيد بن ثابت: أتجاجونا، بإدغام النون، والمعنى: أتجالوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لانزل علينا، وترونكم أحق بالنبوة منا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي بون عربي إذا كان أهلاً للكرامة. ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ يعني: أن العمل هو: أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك، ثم قال: ﴿ونحن له مخلصون﴾ فجاء بما هو سبب الكرامة أي: ونحن له موحسون نخلصه بالإيمان، فلا تستبعدوا أن يؤمل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لانا أهل كتاب، والعرب عبدة أوثان.

أَمْ تَتَّوَلُونَ إِنْ بَرَّوْهُمُ وَإِسْرَائِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ كِتَابٌ هَدَىٰ عَنْكُمْ بَلْ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أم تقولون﴾ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معاملة للهمزة في أتجاجوننا بمعنى: أي الأمرين تاتون: المحاجة في حكمة الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء، والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً وأن تكون منقطعة بمعنى: بل اتقولون، والهمزة للإنكار أيضاً. وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة. ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾ يعني أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾⁽¹⁾. ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية، ويحتمل معنيين:

(1) سورة آل عمران، الآية: 67.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولهذه النكتة أجرى من حذر النظر في إخراج مناظرتهم العمل، بمقتضى الذي هو كذا، السالم عن معارضة كذا، فسيقول درء للمعارض، قبل ذكر الخصم له، وهي =

(3) ذكره القاضي عياض في الشفاء، انظر نسيم الرياض: 1/403.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم.

= نكتة بديعة، أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية، فتفتن لها، فإنها من الملح.

أَنْ أَصِلَ أَمْرَكَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، وَأَنْ أَسْتَقْبِلَكَ بَيْتَ المَقْدِسِ كَانَ أَمْرًا عَارِضًا لْغَرَضٍ، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا الجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا قَبْلَ وَتَكَ هَذَا وَهِيَ بَيْتَ المَقْدِسِ لِنَمْتَحِنَ النَّاسَ وَنَنْظُرَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا يَتَّبِعُهُ وَيَنْفِرَ عَنْهُ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَتْ قَبْلَتَهُ بِمَكَّةَ بَيْتَ المَقْدِسِ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ الكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ⁽⁸⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ قَالَ لِنَعْلَمَ، وَلَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِنَلْكَ؟ قُلْتُمْ: مَعْنَاهُ لِنَعْلَمَهُ عَلِمًا يَتَّعَلِقُ بِهِ الجِزَاءَ، وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَهُ مَوْجُودًا حَاصِلًا وَنَحْوَهُ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمُ اللهُ الذِّنِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾⁽⁹⁾. وَقِيلَ: لِيَعْلَمَ رَسُولَ اللهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا أَسْنَدَ عِلْمَهُمْ إِلَى ذَاتِهِ لِأَنَّهُمْ خَوَاصُهُ وَأَهْلُ الزَّلْفَى عِنْدَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لِنَمْتَحِنَ التَّابِعَ مِنَ النَّاكِصِ، كَمَا قَالَ ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، فَوَضَعَ العِلْمَ مَوْضِعَ التَّمْيِيزِ لِأَنَّ العِلْمَ بِهِ يَقَعُ التَّمْيِيزُ بِهِ. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لِكَبِيرَةٍ﴾ هِيَ: إِنَّ المَخْفِقَةَ الَّتِي تَلْزِمُهَا اللَّامُ الفَارِقَةُ، وَالضَّمِيرُ فِي كَانَتْ لَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾⁽¹⁰⁾ مِنَ الرَّدَّةِ أَوْ التَّحْوِيلِ أَوْ الجَعْلَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلقِبْلَةِ لِكَبِيرَةٍ لِثِقَلِهَا شَاقَةً. ﴿إِلاَّ عَلَى الذِّنِينَ هَدَى اللهُ﴾ إِلاَّ عَلَى الثَّابِتِينَ الصَّادِقِينَ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ الذِّنِينَ لَطْفَ اللهِ بِهِمْ وَكَانُوا أَهْلًا لِلطَّفَةِ. ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أَي: ثَبَاتَكُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَزَلُوا وَلَمْ تَرْتَابُوا، بَلْ شَكَرَ صَنِيعَكُمْ وَأَعَدَّ لَكُمْ الثَّوَابَ العَظِيمَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ: وَمَا كَانَ اللهُ لِيَتْرَكَ تَحْوِيلَكُمْ لِعِلْمِهِ أَنْ تَرُكَهُ مَفْسُودَةً وَإِضَاعَةً لِإِيمَانِكُمْ، وَقِيلَ: مَنْ كَانَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ قَبْلَ التَّحْوِيلِ فَصَلَاتُهُ غَيْرُ ضَائِعَةٍ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا وَجَّهَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى الكَعْبَةِ قَالُوا: كَيْفَ بَمَنْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ مِنْ إِخْوَانِنَا؟ فَنَزَلَتْ⁽¹¹⁾. ﴿لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ﴾ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَهُمْ وَلَا يَتْرَكَ مَا يَصِلُحُهُمْ، وَيَحْكِي عَنِ الحِجَاجِ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَسَنِ: مَا رَأَيْتُ فِي أَبِي تَرَابٍ؟ فَقَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿إِلاَّ عَلَى الذِّنِينَ هَدَى اللهُ﴾⁽¹²⁾، ثُمَّ قَالَ: وَعَلِيٌّ مِنْهُمْ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنَتُهُ عَلَى ابْنَتِهِ وَأَقْرَبَ النَّاسَ إِلَيْهِ وَأَحْبَبَهُمْ.

سَطَاتِنَهُ، أَرَادَ مِنْ خِيَارِ الذَّنَانِيرِ، أَوْ عُلُودًا، لِأَنَّ الوَسْطَ عَدْلٌ بَيْنَ الأَطْرَافِ لَيْسَ إِلَى بَعْضِهَا أَقْرَبُ مِنْ بَعْضٍ. ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ رَوَى أَنَّ الأَمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَجْعُدُونَ تَبْلِيغَ الأنْبِيَاءِ، فَيَطَّالِبُ اللهُ الأنْبِيَاءَ بِالبَيْتَةِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا وَهُوَ أَعْلَمُ. فَيُؤْتِي بِأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْهَدُونَ، فَيَقُولُ الأَمَمُ: مَنْ أَيْنَ عَرَفْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: عَلِمْنَا نَلْكَ بِإِخْبَارِ اللهِ فِي كِتَابِهِ النَّاطِقِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ، فَيُؤْتِي بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَسْئَلُ عَنْ حَالِ أُمَّتِهِ، فَيُرَكِّبُهُمْ، وَيَشْهَدُ بَعْدَئِهِمْ⁽¹⁾، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾⁽²⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽³⁾: فَهَلَا قَبِلَ لَكُمْ شَهِيدًا وَشَهَادَتَهُ لَكُمْ لَّا عَلَيْهِمْ؟ قُلْتُمْ: لَمَّا كَانَ الشَّهِيدُ كَالرَّقِيبِ وَالمُهَيِّمِ عَلَى المَشْهُودِ لَهُ جِيءَ بِكَلِمَةِ الاستِعْلَاءِ، وَمِنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾⁽⁴⁾. ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾⁽⁵⁾ وَقِيلَ: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فِي النِّدْيَا فِيمَا لَا يَصِحُّ إِلاَّ بِشَهَادَةِ العَدُولِ الأَخْيَارِ. ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يَزَكِيكُمْ، وَيَعْلَمُ بَعْدَئِلْتِمِ. فَإِنْ قُلْتُمْ⁽⁶⁾: لَمْ أَخْرَجْتَ صَلَاةَ الشَّهَادَةِ أَوْلًا وَقَدِّمْتَ آخِرًا؟ قُلْتُمْ: لِأَنَّ الغَرَضَ فِي الأَوَّلِ إِثْبَاتُ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الأَمَمِ، وَفِي الأَخْرِ اخْتِصَاصُهُمْ بِكَوْنِ الرَّسُولِ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ. ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ لَيْسَتْ بِصِفَةِ لِلقِبْلَةِ إِنَّمَا هِيَ ثَانِي مَفْعُولِي جَعَلَ، يَرِيدُ: وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَهِيَ الكَعْبَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى الكَعْبَةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ الهِجْرَةِ تَأَلُّفًا لِلْيَهُودِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى الكَعْبَةِ، فَيَقُولُ: وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي تَحِبُّ أَنْ تَسْتَقْبِلَهَا الجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا أَوْلًا بِمَكَّةَ، يَعْنِي: وَمَا رَدَدْنَاكَ إِلَيْهَا إِلاَّ امْتِحَانًا لِلنَّاسِ وَابْتِلَاءً، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ الثَّابِتَ عَلَى الإِسْلَامِ الصَّادِقَ فِيهِ. ﴿مِمَّنْ﴾ هُوَ عَلَى حَرْفِ يَنْكُصُ. ﴿عَلَى عَقْبِيهِ﴾ لِقَلْبِهِ فَيَرِيدُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلذِّنِينَ لِكُفْرِهِمْ﴾⁽⁷⁾ الأَيَّةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِلْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ بَيْتِ المَقْدِسِ قَبْلَتَهُ. يَعْنِي:

(1) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ: التَّفْسِيرِ، بَابُ: سُورَةِ البَقْرَةِ الحَدِيثِ رَقْمٌ: (4487).
(2) سُورَةُ النِّسَاءِ، الأَيَّةُ: 41.
(3) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: وَجْهُ الاستِدْلَالِ بِالأَيَّةِ، أَنَّهُ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِهَا بِالرَّقِيبِ، وَفِي آخِرِهَا بِالشَّهِيدِ، عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيسِ أَوْلًا، ثُمَّ التَّعْمِيمِ ثَانِيًا، وَإِنَّمَا يَنْتَظِمُ التَّعْمِيمَ وَالتَّخْصِيسَ مَعَ اتِّحَادِ مَوْدِي الرَّقِيبِ وَالشَّهِيدِ، إِذِ الأَيَّةُ فِي مِثْلِ قَوْلِ القَائِلِ لِمَنْ شَكَرَهُ: كُنْتُ مُحْسِنًا إِلَيْكَ وَأَنْتَ بِكُلِّ أَحَدٍ مُحْسِنٌ، وَكَانَتْ لَمَّا قَالَ: كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مَخْصَصًا لِرَقِيبِيَّتِهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرَادَ أَنْ يَصِفَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، حَتَّى يَنْفِي وَهُوَ الخُصُوصِيَّةُ، فَقَالَ فِي التَّقْدِيرِ: وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ كُنْتُكَ، فَوَضَعَ شَهِيدًا مَوْضِعَ، كَذَلِكَ المِشَارَ بِهِ إِلَى رَقِيبِيَّتِهِ، فَلَا يَتِمُّ الاستِدْلَالُ بِهَا، إِلاَّ عَلَى هَذَا الوَجْهِ، وَفِيهِ غُمُوضٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الأَقْهَامِ، وَاللهُ المَوْفِقُ.
(4) سُورَةُ المَجَالَةِ، الأَيَّةُ: 6.
(5) سُورَةُ المَائِدَةِ، الأَيَّةُ: 117.
(6) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: لِأَنَّ المُنَّةَ عَلَيْهِمْ فِي الطَّرْفَيْنِ، فَنَفِي الأَوَّلِ: =

(1) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ: التَّفْسِيرِ، بَابُ: سُورَةِ البَقْرَةِ

الحديث رقم: (4487).

(2) سورة النساء، الآية: 41.

(3) قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية، أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب، وفي آخرها بالشهيد، على وجه التخصيص أولاً، ثم التعميم ثانياً، وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدي الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره: كنت محسناً إلي وأنت بكل أحد محسن، وكان لما قال: كنت أنت الرقيب عليهم، وكان ذلك مخصصاً لرقيببيته تعالى على بني إسرائيل أراد أن يصفه بما هو أهله، حتى ينفي وهم الخصوصية، فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كنتك، فوضع شهيداً موضع، كذلك المشار به إلى رقيببيته، فلا يتم الاستدلال بها، إلا على هذا الوجه، وفيه غموض على كثير من الأقسام، والله الموفق.

(4) سورة المجادلة، الآية: 6.

(5) سورة المائدة، الآية: 117.

(6) قال أحمد رحمه الله: لأن المنة عليهم في الطرفين، فنفى الأول: =

وقرىء: إلا ليعلم، على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن يكون من متضمنة لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو؟ وقرأ ابن أبي إسحق: على عقبية، بسكون القاف. وقرأ اليزيدي: لكبيرة، بالرفع، ووجهها أن تكون كان مزيدة كما في قوله:

وجيران لنا كنا كنا كرام

والأصل وإن هي لكبيرة، كقولك: إن زيد لمنطلق، ثم وإن كانت لكبيرة، وقرىء: ليضيع بالتشديد.

فَدَرَى تَلَقَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوَّحْتَكَ قَبْلَهُ رَضْنَهَا قَوْلٌ
وَجْهَكَ سَطَّرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ سَطَّرُوا
وَلَيْتَ الْذِينَ أَرَوْا الْكُتُبَ لَيَتَلَوْنَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿قد نرى﴾ ربما نرى⁽¹⁾، ومعناه: كثرة الرؤية. كقوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

﴿تقلب وجهك﴾ تردّد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبله إبيه إبراهيم⁽²⁾ ودعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل: ﴿فلنولينك﴾ فلنعطينك، ولنمكنك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس. ﴿ترضاه﴾ تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها. ووافقت مشيئة الله وحكمته⁽³⁾. ﴿شطر المسجد الحرام﴾ نحوه. قال:

وأظعن بالقوم شطر الملوك

وقرأ أبي: لقاء المسجد الحرام. وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله ﷺ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة⁽⁴⁾. وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصلاة واستقبل

الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسمي المسجد مسجد القبلتين⁽⁵⁾. وشطر المسجد نصب على الظرف أي: اجعل تولية الوجه لقاء المسجد. أي: في جهته وسمته، لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد، ونكر المسجد الحرام بون الكعبة دليل على أنّ الواجب مراعاة الجهة بون العين. ﴿ليعلمون أنه الحق﴾ أنّ التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلي إلى القبلتين. ﴿يعملون﴾ قرىء: بالياء والتاء.

وَلَيْتَ أَنْتَ الْذِينَ أَرَوْا الْكُتُبَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا بَيْنَكَ وَمَا أَنْتَ
بِتَابِعٍ بَيْنَهُمْ وَمَا بِعَشْمِهِمْ بِتَابِعٍ قَبْلَهُ بَعْضٌ وَلَكِنْ أَنْجَمْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِنَ بَدْرٍ مَا جَاءَكَ مِنْ آلِمِمْ إِلَيْكَ إِذَا لَيْتَ الْغُلَّابِيْنَ ﴿١٣٧﴾

﴿ما تبعوا﴾ جواب القسم المحذوف سد مسدّ جواب الشرط ﴿بكل آية﴾ بكل برهان قاطع أنّ التوجه إلى الكعبة هو الحق. ما تبعوا ﴿قبلتك﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزليلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق. ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم، وقرىء: بتابع قبلتهم، على الإضافة. ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك، وذلك أنّ اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه، فالحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمة في عناده. وقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر، ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾ المرتكبين للظلم الفاحش. وفي ذلك لطف

= يعنيها، إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير، لكن الجواز في مثل هذا مع البعد، متفق عليه، وأما على قول الجهة، فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً، إلى الجهات الثلاث؛ لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعى على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخطب من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت، ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هنسي في كتاب الإحياء، فلا نطول بذكره، والتحقيق عند الفتوى أنّ المعبر مع البعد: الجهة، لا السمّت.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان الحديث رقم: (369).

(5) ذكره أبو الفتح اليعمرى في سيرته نقلًا عن الواقدي، قاله الزيلعي: 95/1.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من المواضع التي يتبالغ العرب فيها، بالتعبير عن المعنى بضع عبارته، ومنه ربما: ﴿يود الذين كفروا﴾ والمراد: كثرة موتهم للإسلام في القيامة، وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك: ﴿يود تعلمون أنّي رسول إليكم﴾ ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته، يقيني مؤكّد، ومع ذلك يكفرون به.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد نقل أصحابنا المالكية، خلافاً عن المذهب في الواجب، فقيل: الجهة، وقيل: العين، هذا مع البعد، وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام، فمن خرج عن السمّت، ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال، أما على قول العين، فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل، زيادة على مسامحة الكعبة شرفها الله تعالى؛ لانا نعلم بالضرورة، وإن لم نشاهد، أن بعضهم يصلي إلى غير =

مع علمهم، أو في أنه من ربك.

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ مَّرْمُومًا فَاسْتَبِقُوا الْحَزَبَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَيْبًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ ﴿١٤٨﴾

﴿ولكل﴾ من أهل الأديان المختلفة. ﴿وجهة﴾ قبله، وفي قراءة أبي: ولكل قبله ﴿هو موليها﴾ وجهه، فحذف أحد المفعولين، وقيل: هو لله تعالى، أي: الله موليها إياه. وقرئ: ولكل وجهة على الإضافة، والمعنى: وكل وجهة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول، كقولك: لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه، وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أي: هو مولى تلك الجهة، وقد وليها، والمعنى: لكل أمة قبله تتوجه إليها منكم، ومن غيركم. ﴿فاستبقوا﴾ أنتم ﴿الخيرات﴾ واستبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره، ومعنى آخر: وهو أن يراء، ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أي: جهة يصلي إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات. ﴿أيضا تكونوا يات بكم الله جميعا﴾ للجزء من موافق ومخالف لا تعجزونه، ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامحة للكعبة وإن اختلفت، أيما تكونوا من الجهات المختلفة يات بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

وَمَنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

﴿ومن حيث خرجت﴾ أي: ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿قول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إذا صليت. ﴿وإنه﴾ وإن هذا المأمور به، وقرئ: ﴿يعملون﴾ بالباء والياء، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مضان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصيلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا، ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلقت فوائدها.

وَمَنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرًا يُدْعَى لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشُرْهُمْ وَأَشْرُوكَ لِأَتَمَّ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه: لثلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحياً لبلده،

للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الذليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتبيح إلهاب للثبات على الحق.

فَأَنْ قُلْتَ (1): كيف قال: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ ولهم قبلتان لليهود قبله وللنصارى قبله؟ قلت: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبله واحدة.

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَسَنَبَّ بِرِفْوَاهِ كَمَا يَرْفُونَ أَنبَاءَهُمْ وَإِنَّ رَبَّآ مَنَّهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿١٥١﴾

﴿يعرفونه﴾ يعرفون رسول الله ﷺ معرفةً جليةً يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص. ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لا يشبهه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني يا بني. قال: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي ففعل والديه خانت، فقبل عمر رأسه، وجاز الإضمار وإن لم يسبق له نكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه معلوماً بغير إعلام، وقيل: الضمير للعلم، أو القرآن، أو تحويل القبلة، وقوله: كما يعرفون أبناءهم يشهد للأول، وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١٥٢﴾

فَأَنْ قُلْتَ (2): لم اخص الأبناء؟ قلت: لأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء الزم وبقلوبهم الصق. وقال: ﴿فريق منهم﴾ استثناء لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذين قالوا: يقال فيهم، ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾.

﴿الحق من ربك﴾ يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف أي: هو الحق، أو مبتدأ خبره من ربك. وفيه وجهان: أن تكون اللام للبعد والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ، أو إلى الحق الذي في قوله: ﴿ليكتمون للحق﴾، أي: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك، وإن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره: يعني: أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل.

فَأَنْ قُلْتَ: إذا جعلت ﴿الحق﴾ خبر مبتدأ فما محل ﴿من ربك﴾؟ قلت: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وإن يكون حالاً. وقرأ علي رضي الله عنه: الحق من ربك على الإبدال من الأول، أي: يكتمون الحق: الحق من ربك. ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ الشاكين في كتمانهم الحق

(1) ﴿واحد﴾ وللزمخشري عنه جواب آخر، سلف بمكانه.

(2) قال أحمد رحمه الله: بني كلامه هذا على أن الإنث لا يدخلن في لفظ الأبناء، كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك، بل اللفظان سواء في شمول الإنث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف، إذا وقف على بنيه وبني بنيه، كما يدخلن في لفظ الأولاد، هذا مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

(1) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما اجيب به عن قوله تعالى: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ مع أنه متعدد، وهو: المن والسلوى، فقيل: إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه، وأثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفامية، جعلوهما طعاماً واحداً، وهذا المعنى في إنكار الطعام، أبلغ؛ لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم: ﴿لن نصبر على طعام﴾ حتى اكدره بقولهم: =

ولو كان على الحق للزم قبله الأنبياء.

فَأَنْ قُلْتَ: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟ **قُلْتَ:** كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبله أبيه إبراهيم، كما هو منكر في نعته في التوراة.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ **قُلْتَ:** لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لثلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبله إبراهيم وإسماعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له، فرجع إلى قبله أبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: إلا الذين ظلموا منهم، على أن إلا للتنبيه، ووقف على حجة ثم استأنف منبها. **﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾** فلا تخافوا مطاعنهم في قبلكم، فإنهم لا يضرونكم. **﴿وَلِخَشُونِي﴾** فلا تخالفوا أمري، وما رأيته مصلحة لكم. ومتعلق اللام محذوف معناه: وإلتامني النعمة عليكم وإراني اهتداءكم أمرتكم بذلك، أو يعطف على علة مفترية، كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولاتم نعمتي عليكم، وقيل: وهو معطوف على **﴿لثلا يكون﴾**، وفي الحديث: «تمام النعمة، نخول الجنة»⁽¹⁾. وعن علي رضي الله عنه: تمام النعمة، الموت على الإسلام.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيَسَِّّرُ لَكُمُ الْكِتَابَ وَالْعِزَّةَ وَالْمَغْنَمَ مَا لَمْ تَكُونُوا تَشْكُرُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿كما أرسلنا﴾ إما أن يتعلق بما قبله أي: ولاتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده أي: كما نكرتكم بإرسال الرسول.

فَأَذَرْتُمُوهُنَّ أَدْخَاتِكُمْ إِلَىٰ وَلَا تَكَفِّرُونَّ ﴿١٥٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتِيفَاءً وَالتَّائِبِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَتَىٰ اللَّهُ مَعَ النَّبِيِّينَ ﴿١٥٨﴾

﴿فأنكروني﴾ بالطاعة **﴿أنكروكم﴾** بالثواب **﴿وأنكروا لي﴾** ما انعمت به عليكم. **﴿ولا تكفرون﴾** ولا تجحسوا نعمائي.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْرٌ بَلْ أَعْيَاهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿أموات بل أحياء﴾ هم أموات بل هم أحياء **﴿ولكن لا تشعرعون﴾** كيف حالهم في حياتهم. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرواحهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها، وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملةً فيحييها ويوصل إليها النعم وإن كانت في حجم الذرة، وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

وَلَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي أَيِّ ذُنُوبٍ كُنْتُمُ الْفَالِقِينَ ﴿١٦٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١٦١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١٦٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١٦٣﴾

﴿ولنبليوكنكم﴾ ولنصيبكنم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ **﴿بشيء﴾** بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه. **﴿وببشر الصابرين﴾** المسترجعين عند البلاء لأن الاسترجاع تسليم وإذعان، وعن النبي ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»⁽²⁾. وروي: أنه طفق سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كل شيء يؤدي المؤمن فهو له مصيبة»⁽³⁾. وإنما قلل في قوله بشيء ليؤن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويربهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزيلهم، وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم.

﴿ونقص﴾: عطف على شيء، أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال، والخطاب في **﴿وببشر﴾** لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى منه البشارة⁽⁴⁾، وعن الشافعي رحمه الله: الخوف خوف الله، والجوع صيام شهر رمضان، والنقص من الأموال الزكوات والصدقات، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد، وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة،

من الله تعالى، لم يزل مشحوناً في قلوب المؤمنين، ويعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص، وقد عبر عنها الشرع بالزكاة، التي هي النمو ضد النقص، وورد ما نقص مال من صدقة، ويمكن أن يقال: هي نقص حساً، وإنما سميت زكاة، باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو، فالعوض المرجو من كرم الله خلف، فلما نكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها، عبر عنها بالزكاة، تسهلاً لإخراجها على المكلف؛ لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى، ونمّر ماله بذلك، هان عليه بذلها، وسمحت نفسه لذلك.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: 94 الحديث رقم: (3527)، وأحمد في المسند 231/5.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب الحديث رقم: (9689).

(3) رواه أبو داود في المراسيل، كتاب الجنائز الحديث رقم: (412).

(4) قال أحمد: وفي تفسيره هذا نظر؛ لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل، منكر قبل وقوعه، توطناً عليه عند الوقوع، ولعله ما من بلية نكرها، إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية، إذ الخوف =

وسموا بيت الحمد⁽¹⁾.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿١٧٧﴾

والصلاة: الحنو والتعطف فوضعت موضع الرافة وجمع
بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: ﴿رَافِقَةٌ وَرَحْمَةٌ﴾ (2) رؤوف
رحيم والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة أي رحمة.
﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا،
وسلموا لأمر الله.

﴿إِنَّ الصَّمَ وَالْمُرَّةَ مِنَ سَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ
اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ
اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٨﴾

والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم.

والشعائر: جمع شعيرة وهي: العلامة. أي: من اعلام
مناسكه ومتعبداته.

والحج: القصد، والاعتمار: الزيارة، فغلبا على قصد البيت:
وزيارته للسنن المعروفين وهما في المعاني: كالتجم، والبيت
في الأعيان. وأصل ﴿يطوف﴾ يتطوف فادغم، وقرئ: أن
يطوف، من طاف.

فإِنَّ قُلْتَ: كيف قيل إنهما من شعائر الله، ثم قيل:
﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قلت: كان على الصفا
أساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى إنهما كانا
رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فمسخا حجرتين فوضعا عليهما
ليعتبر بهما، فلما طالت المدّة عبدا من بون الله، فكان أهل
الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت
الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية،
وأن لا يكون عليهم جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح،
واختلف في السعي فمن قائل: هو تطوّع ببليل رفع الجناح،
وما فيه من التخخير بين الفعل والترك، كقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ (3) وغير ذلك، ولقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ
خَيْرًا﴾ كقوله: فمن تطوّع خيراً فهو خير له، ويروى ذلك عن
أنس، وابن عباس، وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود:
فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، وعن أبي حنيفة رحمه الله
أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم، وعند الأولين لا شيء
عليه، وعند مالك والشافعي هو ركن لقوله عليه السلام:
«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» (4). وقرئ: ومن يطوّع؛
بمعنى: ومن يتطوّع فادغم، وفي قراءة عبد الله: ومن يتطوّع
بخير.

﴿إِنَّ الْأَرْبِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِ مَا يُبَيِّنُكَ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْمُزُهُمُ اللَّهُ وَيَلْمُزُهُمُ الْبَشَرُ﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحابر اليهود ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾
في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر
محمد ﷺ ﴿وَالهَدَى﴾ والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان
به. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ ولخصناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾
في التوراة لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد
منهم فعمدوا إلى تلك المبين المخلص فكتموه ولبسوا على
الناس. ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الذين
يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من
الثقلين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ نَابُوا وَآمَنُوا وَبَيَّنَّا فَأُولَئِكَ أَوْتِبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٨٠﴾

﴿وَأَصْلِحُوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط
منهم، ﴿وَيُبَيِّنُوا﴾ ما بيّنه الله في كتابهم فكتموه، أو بيّنوا
للناس ما أحدثوه من توبيتهم، ليحسوا سمة الكفر عنهم،
ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به، ويقنطروا بهم غيرهم من
المفسدين.

﴿إِنَّ الْأَرْبِينَ كَفَرُوا وَأَمَّاوُا وَمَنْ كَفَرَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٨١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الذين ماتوا من هؤلاء
الكافرين ولم يتوبوا نكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً.
وقرأ الحسن: والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على
محل اسم الله لأنه فاعل في التقدير، كقولك: عجبت من
ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو. كأنه
قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة.

فإِنَّ قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفي
الناس المسلم والكافر؟ قلت: أراد بالناس من يعتدّ بلعنه
وهم المؤمنون، وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

﴿حَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخْتَفِعُ عَنْهُمْ أَمْزَاجُهُمْ وَلَا هُمْ يُعْرَفُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾

﴿حَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة، وقيل: في النار، إلا أنها
أضمرت تفخيماً لسانها وتهويلاً. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من
الإنظار أي: لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون
ليعتدوا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ جَزَاءٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٨٣﴾

﴿إِلَهٍ وَاحِدٍ﴾ فرد في الإلهية لا شريك له فيها، ولا
يصح أن يسمى غيره إلهاً. و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير
الوحدانية بنفي غيره وإثباته ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المولى

(2) سورة الحديد، الآية: 27.

(3) سورة البقرة، الآية: 230.

(4) أخرجه أحمد في المسند 421/6. والدارقطني في كتاب: الحج،

باب: المواقيت، الحديث رقم: (85)، والحاكم في المستدرک 70/4.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: فضل المصيبة إذا

احتسب الحديث رقم: (1021)، وأخرجه ابن حبان في كتاب

الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض الحديث رقم:

(2948).

لجميع النعم أصولها وفروعها ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإن كل ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّوَالِيَةِ
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ بُعْدَ مَوْتِهَا ذَرْبًا مِمَّا يَحْيِي النَّاسَ وَمِمَّا يَحْيِي
الْبَهَائِمَ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾

وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقا فات بآية نعرف بها صدقك، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واعتقباهما لأن كل واحد منهما يعقب الآخر كقوله: جعل الليل والنهار خلقة. ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها، أو ينفع الناس.

فإن قلت: قوله: ﴿وَبِئْسَ فِيهَا﴾ عطف على أنزل أم أحياء؟ قلت: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لأن قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ عطف على ﴿أَنْزَلَ﴾ فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة، ويجوز عطفه على ﴿أَحْيَا﴾ على معنى فأحيا بالمطر الأرض، وبث فيها من كل دابة لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحقايق. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ في مهابها قبولاً وديوراً وجنوباً وشمالاً، وفي أحوالها حارةً وباردةً وعاصفةً ولينةً وعمماً ولواثق. وقيل: تارة بالرحمة، وتارة بالعذاب. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يطر حيث شاء. ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة، وعن النبي ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها» أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وقرئ: «والفلك بضممتين، وتصريف الرياح على الإفراء».

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَكْفُرُ بِدُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَدُّونَ الْمَدَابِقَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَوِيدٌ الْمَدَابِقِ ﴿١٦٧﴾

﴿أنداداً﴾ أمثالاً من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم، وأستدل بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ (1) ومعنى (2) ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كحُبِّ الله﴾ كتعظيم الله والخضوع له، أي: كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبني

للمفعول، وإنما استغنى عن نكر من يحبه لأنه غير ملبس. وقيل: كحُبِّهم الله. أي: يسوون بينه وبينهم في محبتهم، لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنهم لا يعملون عنه إلى غيره بخلاف المشركين، فإنهم يعملون عن اندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبسون الصنم زماناً، ثم يرفضونه إلى غيره، أو ياكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام المجاعة. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى متخذي الأنداد، أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون اندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا﴾ (3) وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، وقرئ: «ولو ترى بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً. وقرئ: «إذ يرون على البناء للمفعول، وإن في المستقبل كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ (4).

إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّكَ الْمَدَابِقَ وَتَطَمَّتْ بِهِمُ الْأَنْسَابُ ﴿١٦٧﴾

﴿إذ تبرأ﴾ بدل من إذ يرون العذاب، أي: تبرأ المتبعون، وهم الرؤساء من الأتباع. وقرأ مجاهد الأول على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، أي: تبرأ الأتباع من الرؤساء. ﴿ورأوا العذاب﴾ الواو للحال، أي: تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب. ﴿وتقطعت﴾ عطف على تبرأ و﴿الأسباب﴾ الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب والاتباع والاستتباع، كقوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِعَارِفِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾

﴿لو﴾ في معنى التمني، ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني. كأنه قيل: ليت لنا كربةً فنتبرأ منهم. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿يريدهم﴾ الله أعمالهم حسرات. أي: ندامات، وحسراتٍ ثالث مفاعيل أرى، ومعناه أن أعمالهم تنقلب حسراتٍ عليهم فلا يرون إلا حسراتٍ مكان أعمالهم. ﴿وما هم بخارجين﴾ (5) هم بمنزلته في قوله:

(1) سورة البقرة، الآية: 166.

(3) سورة الانعام، الآية: 27.

(4) سورة الاعراف، الآية: 44.

(5) قال أحمد رحمه الله: أشد ما أخفي في هذه الكلمات، معتقد أو رب صدره كلمات، فهو بنفس عن نفسه خناق الكتمان، بما ينفثه منه في بعض الإحسان، وكشف ذلك أن يقال، لما استشعر دلالة الآية =

(2) قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول، ولكن هذا مسمى الفاعل، وفعله مبني للفاعل، عند فكه من السبك، قوله تعالى: ﴿كذلك يريدهم﴾ الله أعمالهم حسرات عليهم. الآية. (قال محمود رحمه الله: هم هنا بمنزلته في قوله: هم يفرشون الخ.)

أَوْ لَوْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ لَا يَسْتَوُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَوُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿لهم﴾ الضمير للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون؟ قيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم. وألفينا بمعنى: وجدنا. بليل قوله: ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾. ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ الواو للحال، والهمزة بمعنى: الرد والتعجيب. معناه: آيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَرِيِّ يَرَىٰ بِمَا لَا يَبْسُغُ إِلَّا دُعَاؤَ وَبِدَاعًا مِّمَّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهَبْ لَآ يَمُؤَلُونَ ﴿١٧٨﴾

لا بد من مضاف محذوف تقديره، ومثل داعي الذين كفروا ﴿كمثل الذي ينطق﴾ أو مثل الذين كفروا كهائم الذي ينطق، والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناقع بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناقع ونداء الذي هو تصويت بها، وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون، ويجوز أن يراد بما لا يسمع الأصم الأصلح الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير من غير فهم للحروف، وقيل: معناه ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته، فكنكك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل. وقيل: معناه ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناقع بما لا يسمع. إلا أن قوله ﴿إلا دعاء ونداء﴾ لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع شيئاً.

والنعيق: التصويت، يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضان، قال الأخطل:
فانعق بضانك يا جريير فإنما مئتك نفسك في الخلاء ضلالاً
وأما نعق الغراب فيالغين المعجمة. ﴿صم﴾ هم صم، وهو رفع على الذم.

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَكْفُرُ أَهْلُهَا

لزم حصر نفي الخروج من النار في هؤلاء الكفار، نون غيرهم من الموحين، لكن الزمخشري يابى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة، بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المنكور، يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم، لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة؛ لأن العصاة، وإن خلدوا على زعمه، إلا أن الكفار أحق بالخلود، وأنخل في استحقاقه منهم، فسبحان من امتحنه بهذه المحنة، على حلق وفطنة، والله ولي التوفيق.

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

(2) سورة يوسف، الآية: 53.

هم يفرشون اللبداكل طمرة

في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَكْفُرُ أَهْلُهَا
لَتَكْفُرُنَّ إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧٩﴾

﴿حلالاً﴾ مفعول كلاً، أو حال مما في الأرض. ﴿طيباً﴾ طاهراً من كل شبهة. ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فتدخلوا في حرام. أو شبهة أو تحريم حلال، أو تحليل حرام، ومن للتبعيض لأن كل ما في الأرض ليس بماكول.

وقرى: خطوات بضميتين، وخطوات بضمّة وسكون، وخطوات بضميتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو، وخطوات بفتحيتين، وخطوات بفتحة وسكون.

والخطوة: المرة من الخطو، والخطوة ما بين قدمي الخاطي، وهما: كالغرفة، والغرفة والقبضة والقبضة. يقال: اتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به وأستن بسنته. ﴿مبين﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَكْفُرُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿إنما يأمركم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم ﴿بالسوء﴾ بالقيح و﴿الفحشاء﴾ وما يتجاوز الحد في القبح من العظام، وقيل: السوء ما لا حد فيه، والفحشاء ما يجب الحد فيه. ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وهو قولكم هذا حلال وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

فإن قلت: كيف كان الشيطان أمراً مع قوله: ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ (1). قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا، وتحته رمز إلى أنك منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال: ولأمرنهم فليبتكن أذان الأنعام، ولأمرنهم فليغيثن خلق الله وقال الله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (2) لما كان الإنسان يطيعها فيطيعها ما اشتتهت.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَحْنُ مِمَّنْ كَفَرُوا

لاهل السنة، على أنه لا يخلد في النار، إلا الكافر، وأما العاصي، وإن أصر على الكبار، فتوحيدته يخرجها منها، ولا بد وفاء بالوعد، ووجه الدلالة منها على ذلك، أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثل هذا النظم يقتضي الاختصاص والحصر لغة، ويستمر للزمخشري مواضع، يستدل فيها على الحصر بذلك، فقد قال في قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ أن معناه: لا ينشر إلا هم، وأن المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الآلوهية فيهم، وكذلك يقول في أمثال قوله: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أن معناه: الحصر، أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابنتى الأمر على ذلك،

ياكلن كل ليلة كافا

أراد ثمن الأكارف فسماه أكافاً لتلبسه بكونه ثمناً له. ﴿ولا يكلمهم الله﴾ تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكلمة الله إياهم بكلامه وتزكيتهم بالثناء عليهم، وقيل: في الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصمره وقطع كلامه، وقيل: لا يكلمهم بما يحبون ولكن بنحو قوله: اخسؤا فيها ولا تكلمون.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْرَوْا الْمَسْكَةَ بِالْهُدَى وَالْمَذَابَ بِالْمُؤْمَرَةِ فَكَأَصْبِرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾

﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن! تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب، وقيل: فما أصبرهم، فأي شيء صبرهم. يقال: أصبره على كذا وصبره، بمعنى وهذا أصل معنى فعل التعجب. والذي روي عن الكسائي أنه قال: قال لي قاضي اليمن بمكة: اختصم إلي رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له: ما أصبرك على الله. فمعناه: ما أصبرك على عذاب الله.

ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ سَزَّلَ الْأَكْبَبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٧﴾

﴿ذلك بأن الله نزل﴾ أي: تلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتاب بالحق. ﴿وإن الذين اختلفوا﴾ في كتب الله فقالوا في بعضها حق وفي بعضها باطل وهم أهل الكتاب ﴿للفي شقاق﴾ لفي خلاف ﴿بعيد﴾ عن الحق. والكتاب للجنس، أو كفرهم تلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق، كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين، فقال بعضهم: سحر، وبعضهم: شعر، وبعضهم: أساطير. لفي شقاق بعيد، يعني: أن أولئك لو لم يختلفوا، ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

﴿يَسِّرَ اللَّهُ لِي أَوْلِيَاءَ مِنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَالْمَرْبِ وَالْمَرْبِ وَالْمَرْبِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاللَّيْثَةِ وَالْكَتَبِ وَالْيَتِيمِ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتِيمَ وَالسَّكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ يَمَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَيْتِ وَالْمَرْكُوبِينَ وَالَّذِينَ سَدَّوْا أَوْلِيَاءَكَ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾

﴿البر﴾ اسم للخير ولكل فعل مرضي ﴿إن تولوا﴾

كُنْتُ إِيَّاهُ مَبْدُوكَ ﴿٧٧﴾

﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ من مستلذاته لأن كل ما رزقه الله ما يكون إلا حلالاً، ﴿واشكروا لله﴾ الذي رزقكموها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ إن صبح أنكم تحصونه بالعبادة، وتقرؤن أنه مولى النعم، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «إني والجن والإنس في نبي أعظم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»⁽¹⁾.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾

قرىء: حرم على البناء للفاعل، وحرم على البناء للمفعول، وحرم بوزن كرم. ﴿أهل به لغير الله﴾ أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية باسم اللات والعزى. ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر بالاستيثار عليه. ﴿ولا عاد﴾ سد الجوعة.

فإن قلت: في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان»⁽²⁾. قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة ألا ترى أن القائل إذا قال: أكل فلان ميتة لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال، ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا ياكل لحماً فاكل سمكاً لم يحنث وإن أكل لحماً في الحقيقة. قال الله تعالى: ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾⁽³⁾ وشبهوه ممن حلف لا يركب دابة فركب كافرأ لم يحنث وإن سماه الله تعالى دابة في قوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: فما له نكر لحم الخنزير بون شحمه؟ قلت: لأن الشحم داخل في نكر اللحم لكونه تابعاً له وصفة فيه بليل قولهم: لحم سمين يريدون أنه شحم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْرُرُونَ بِهَا، نَبَأَ قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنْتَارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿في بطونهم﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه. ﴿إلا النار﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل اللية التي هي بدل منه. قال:

أكلت دماً إن لم أرمك بضرة

وقال:

= الصيد والنباتح الحديث رقم: (25)، والشافعي في ترتيب المسند، كتاب: الصيد والنباتح الحديث رقم: (607).

(3) سورة النحل، الآية: 14.

(4) سورة الأنفال، الآية: 55.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعبيد نعم الله عز وجل وشكرها الحديث رقم: (4563).

(2) أخرجه أحمد في المسند 97/2، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: لكبد والطحال الحديث رقم: (3314)، والدارقطني في كتاب: =

الدائم السكنون إلى الناس لأنه لا شيء له، كالمسكير الدائم السكر، ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص: القاطع وابن الطريق. وقيل: هو الضيف لأن السبيل يرعف به. ﴿والسائلين﴾ المستطعمين، قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه»⁽⁵⁾. ﴿وفي الرقاب﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، وقيل: في ابتياع الرقاب واعتاقها، وقيل: في فك الأسارى.

فإن قلت: قد نكر إيتاء المال في هذه الوجوه، ثم ففاه بإيتاء الزكاة، فهل دل ذلك على أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت: يحتمل ذلك، وعن الشعبي أن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية. ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبار. وفي الحديث: «نسخت الزكاة كل صدقة»⁽⁶⁾. يعني: وجوبها. ودوي: «ليس في المال حق سوى الزكاة»⁽⁷⁾.

﴿والموفون﴾ عطف على ﴿من آمن﴾. وأخرج ﴿الصابرين﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح وإظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال على سائر الأعمال. وقرئ: والصابرون، وقرئ: والموفين والصابرين. ﴿الليساء﴾ الفقر والشدّة ﴿والضراء﴾ المرض والزمالة. ﴿صدقوا﴾ كانوا صادقين جادين في الدين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصَّوَامُ فِي أَلْفَلَاكٍ لَمْ بِالْمُرِّ وَالْأَمْبَدِ
بِالْمَبْرِ وَالْأَنْقَى بِالْأَنْقَى مَنْ عَمِيَ لَهُ مِنْ أُجْرِهِ مَنِّي قَائِلِيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُهُ
إِلَيْهِ بِإِسْنِ ذَلِكَ تَحْتَفِيَتْ مِنْ رَبِّكُمْ رَحْمَةً مِمَّنْ أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء

وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ الخطاب⁽¹⁾ لاهل الكتاب لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق، وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وزعم كل واحد من الفريقين أن البرّ التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم، وقيل: ليس البرّ فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البرّ، ولكن البرّ ما نبينه. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة بر من آمن، وقام بهذه الأعمال. وقرئ: وليس البر، بالنصب على أنه خبر مقدم، وقرأ عبد الله: بأن تولوا، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد، كقولك: ليس المنطلق بزيد، ﴿ولكن البرّ من آمن بالله﴾ على تأويل حذف المضاف، أي: بر من آمن، أو يتأول البر بمعنى: ذي البر. أو كما قالت:

فإنما هي إقبال وإدبار

وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرات. ولكن البرّ، بفتح الباء. وقرئ: ولكن البار. وقرأ ابن عامر ونافع: ولكن البرّ، بالتخفيف. ﴿والكتاب﴾ جنس كتب الله، أو القرآن. ﴿على حبه﴾ مع حب المال والشح به، كما قال ابن مسعود: أن تؤتبه وأنت صحيح صحيح تامل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم⁽²⁾ قلت لفلان: كذا ولفلان كذا. وقيل: على حب الله، وقيل: على حب الإيتاء. يريد أن يعطيه وهو: طيب النفس بإعطائه. وقدم ذوي القربى لأنهم أحق، قال عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان لأنها صدقة وصلة»⁽³⁾. وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصبقة على ذي الرحم الكاشح»⁽⁴⁾. وأطلق ﴿ذوي القربى واليتامى﴾ والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس، والمسكين

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا منقول عن المبرد، مصمى بسهام الرد، فإن فيه إبهاماً، بأن اختلاف وجوه القراءة موكل إلى الاجتهاد، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة، جازت القراءة به، لمن يعد أهلاً للاجتهاد في العربية واللغة، وهذا خطأ محض، فالقرآن سنة متبعة، لا مجال فيها للدرابة، على أن ما قاله، وقدر أنه الأوجه، ليس يبلغ نبرة فصاحة الآية، إلا على القراءات المستقبضة: لأن الكلام مصدر بنكر البر، الذي هو المصدر قولاً واحداً، فلو عدل إلى نكر البر، الذي هو الوصف، لانفك المطابقة ومعنى النظام، ولذلك كان تأويل الآية، بحذف المضاف من الثاني على تأويل بر آمن أوجه، وأحسن وأبقى على السياق، ومن ظن أنه يشق غباراً، أو يتعلق بأذيال فصاحة المعجز للفصحاء، فقد سؤلت له نفسه محلاً، ومنته ضلالاً.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 55/9، الحديث رقم: (16324)، وأخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح، الحديث رقم: (1419)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح الحديث رقم: (2379).

(3) أخرجه أحمد في المسند 214/4، والدارمي في كتاب: الزكاة، باب: =

= الصدقة على القرابة الحديث رقم: (1680)، والحاكم في المستدرک 407/1. وأخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، الحديث رقم: 658، والنسائي في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على الأقارب الحديث رقم: (2582)، وابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة، الحديث رقم: (1844)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع الحديث رقم: (3344)، وابن أبي شيبة 192/3، كتاب: الزكاة، باب: الرجل يدفع زكاته إلخ. رواه أحمد في المسند 402/3، والحاكم في المستدرک 406/1. (4) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: حق السائل، الحديث رقم: (1665)، ومالك في الموطأ، كتاب: الصدقة، باب: الترغيب في الصدقة، الحديث رقم: (3). (5) أخرجه الدارقطني في كتاب: الصيد والذبائح والأطعمة، الحديث رقم: (39)، وعبد الرزاق في المصنف 505/7، الحديث رقم: (14046). (6) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما أدى زكاته ليس بكنز الحديث رقم: (1789)، ورواه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة الحديث رقم: (660).

وعكرمة⁽¹⁾، وهو مذهب مالك والشافعي رحمة الله عليهم أن الحر لا يقتل بالعبد، والذکر لا يقتل بالأنثى، أخذاً بهذه الآية، ويقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: ﴿النفس بالنفس﴾⁽²⁾، ولأن تلك وإرادة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون، وكتب عليهم ما فيها، وعن سعيد بن المسيب والشعبي والنخعي وقاتدة والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنها منسوخة بقوله: ﴿النفس بالنفس﴾ والقصاص ثابت بين العبد والحر، والذکر والأنثى، ويستدلون بقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»⁽³⁾. وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس بلبيل أن جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وروي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول على الآخر، فاقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد منا، والذکر بالأنثى، والآنين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزلت وأمرهم أن يتباؤوا ﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾⁽⁴⁾، فمن عفى له من جهة أخيه شيء من العفو، على أنه كقولك: سير بزيد بعض السير، وطائفة من السير، ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به؛ لأن عفا لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة.

وأخوه: هو ولي المقتول، وقيل له: أخوه، لأنه لا يسه من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أنى ملابس، أو نكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بنكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام.

فإن قلت: إن عفى يتعدى بعن لا باللام، فما وجه قوله: ﴿فمن عفى له﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿عفا الله عنها﴾⁽⁶⁾، فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى. كما تقول: عفرت له ذنبه، وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى له عن جنائته، فاستغنى عن نكر الجنائية.

فإن قلت: هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن أعفاه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأعفوا للحي»⁽⁷⁾.

فإن قلت: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محى له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقة في مكانها، والعفو في باب الجنائيات عبارة متداولة مشهورة في الكتب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة ثابتة عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله على اختراع لغة وإدعاء على العرب ما لا نعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها.

فإن قلت: لم قيل شيء من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية. ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع، وهذه توصية للمعفو عنه والعافي

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من الزمخشري، وهم على الإمامين، فإنهما يقتصان من الذکر للأنثى بلا خلاف عنهما، وأما الحر والعبد عندهما، فهو: الذي وهم الزمخشري عنهما.

(2) سورة المائدة، الآية: 45.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: النيات، باب: إيقاد المسلم بالكافر الحديث رقم: (4530)، والنسائي في كتاب القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكافر، الحديث رقم: (4746)، وأخرجه الحاكم في المستدرک عن عمرو بن العاص 141/2، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السرية الحديث رقم: (2751)، وابن ماجه في كتاب: النيات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم الحديث رقم: (2685)، وعن ابن عباس الحديث رقم: (2683)، وعن معقل بن يسار الحديث رقم: (2684)، وعن عائشة، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى 30/8.

(4) قال أحمد رحمه الله: ويقوي هذا التأويل القول بأن موجب العمدة أحد الأمرين من القصاص أو الدية، والخيار إلى الولي، وهو أحد القولين في مذهب مالك رضي الله عنه ومشهورهما، إذ لو جعلنا موجب العمدة للقود على القول الآخر، لكان في ذلك تضيق على الولي، والآية مشعرة بالتخفيف والسعة، وتحتل الآية وجهاً آخر، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي، وقالوا على هذا الوجه: يكون العفو إعطاء البدل، كأنه قال: فمن أعطى شيئاً من أخيه، أي: بدلاً من أخيه، ويكون من مثلهما في قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي، قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة

= النكاح﴾ إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه، ويقول أصحابه: عفو على أحد وجهين: إما من استرجاع النصف الواجب، إن كان قد سلم جميع المهر، وأما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه، إن كان لم يسلمه، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء، ويقوي هذا الوجه في أنه لا قصاص، قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾ لأن المخاطب بالاتباع بالمعروف، إنما هو الولي، فإذا جعلنا الضميرين له، انساق الكلام سياقة واحدة، إلى جهة واحدة، وصار المعنى: فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى، ولما خالفه الولي عن التقاضي، خاطب القاتل بحسن الأداء، فليتنظم الكلام موجهاً إلى وجهة واحدة، وأما على الوجه الذي قرره الزمخشري، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل، وتقدير الكلام: فمن عفى له من القاتلين عن جنائته، شيء من العفو، فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف، فيكون المخاطب أول الآية القاتل، وآخرها الولي، بخلاف الوجه الذي قررته، والله أعلم، وكلا الوجهين حسن جيد.

(5) سورة التوبة، الآية: 43.

(6) سورة المائدة، الآية: 101.

(7) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ولفظه: انتهكوا الشوارب وأعفوا للحي، في كتاب اللباس، باب: إعفاء للحي الحديث رقم: (5893)، وأخرجه مسلم ولفظه: «أحفوا الشوارب وأعفوا عن للحي»، في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة الحديث رقم: (599).

أمراته. ﴿خَيْرًا﴾ مالا كثيراً، عن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار. فقالت: ما أرى فيه فضلاً، وأراد آخر أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إنّما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإنّ هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك. وعن علي رضي الله عنه: إنّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة، فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال، وليس لك مال. و﴿الوصية﴾ فاعل ﴿كتب﴾ ونكر فعلها للفصل ولأنّها بمعنى: أن يوصي، ولذلك نكر الراجع في قوله:

﴿فَمَنْ بَلَغَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾

والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بأية الموارث ويقوله عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ أَوْ لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ﴾⁽²⁾. ويتلقى الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الأحاد لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثبوت الذي صحت روايته، وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين، وقيل: ما هي بمخالفة لأية الموارث، ومعناها: كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾⁽³⁾ وكتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم وأن لا ينقص من أنصبتهم ﴿بالمعروف﴾ بالعدل وهو: أن لا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكّد أي: حق ذلك حقاً.

فَمَنْ بَلَغَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُيَاسِرُونَ؛ إِنَّ اللَّهَ نَجِيءٌ لِلْيَمِينِ ﴿٧٨﴾

﴿فَمَنْ بَلَغَهُ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بعدهما سمعه﴾ وتحققه، ﴿فإنّما إثمهم على الذين يبطلونه﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبطليه دون غيرهم من الموصي والموصى له لأنهما بريان من الحيف. ﴿إنّ الله سميع عليم﴾ وعيد للمبطل.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْسٍ جَفَاً أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿فمّن خاف﴾ فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع. يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم. ﴿جنفاً﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية. ﴿أو إثمًا﴾ أو تعمداً للحيف. ﴿فاصلح بينهم﴾ بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون

جميعاً. يعني: فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة، وليؤدّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان بأن لا يطله ولا يببخسه. ﴿نلك﴾ الحكم المنكور من العفو والدية ﴿تخفيف من ريبكم ورحمة﴾ لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الإنجيل العفو، وحرّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيراً. ﴿فمّن اعتدى بعد نلك﴾ بالتخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمّن القاتل بقبوله الدية، ثم يظفر به فيقتله. ﴿قله عذاب اليم﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية، لقوله عليه السلام: «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ولكم في القصاص حيوّة﴾⁽¹⁾ كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أنّ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتذكير الحياة لأنّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنّهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرح القصاص كانت فيه حياة. أي: حياة أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل لأنّه إذا همّ بالقتل فعلم أنّه يتقصّ فارتدع منه سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصاص حياة، أي: فيما قصّ عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل: القصص القرآن، أي: ولكم في القرآن حياة للقلوب. كقوله تعالى: ﴿روحاً من أمرنا﴾ ويحيى من حي عن بيته. ﴿لعلكم تتقون﴾ أي: أرينكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لعلكم تتقون، تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالائمة.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾

﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ إذا لنا منه وظهرت

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث الحديث رقم: (2870)، والترمذي في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء لا وصية لوارث الحديث رقم: (2120)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث الحديث رقم: (2713).

(3) سورة النساء، الآية: 11.

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله: جعل أحد الضمّين محلاً للأخر، كلام إما هم فيه، أو تسامح، لأنّ شرط تضادّ الحياة والموت، اجتماعهما في محل واحد تقديراً، ولا تضادّ بين حياة غير المقتص منه، وموت المقتص، والبلاغة التي أوضحها في الآية، بيّنة بدون هذا الإطلاق.

الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنه في سعة من الإفطار. وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾. وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل. واختلف أيضاً في القضاء فعامة العلماء على التخيير، وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: إن الله لم يرخص لكم في فطره، وهو يريد أن يشق عليكم في قضاؤه، إن شئت فواتر، وإن شئت ففرق⁽⁴⁾ وعن علي وابن عمر والشعبي وغيرهم: أنه يقضي كما فات متتابعاً⁽⁵⁾. وفي قراءة أبي: فعدة من أيام آخر متتابعات.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿فعدة﴾ على التنكير، ولم يقل فعدتها أي: فعدة الأيام المعدودات؟ قلت: لما قيل: فعدة، والعدة بمعنى المعهود، فأمر بان يصوم أياماً معدودة مكانها علم أنه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة. ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أقطروا ﴿فدية طعام مسكين﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مد، وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعدوه فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية. وقرأ ابن عباس: يطوقونه، تفعيل من الطوق إما بمعنى: الطاعة، أو القلادة أي: يكلفونه أو يقلدونه. ويقال لهم: صوموا، وعنه: يتطوقونه، بمعنى: يتكلفونه أو يتقلدونه ويطوقونه بإدغام التاء في الطاء، ويطبقونه ويطيقونه بمعنى: يتطوقونه. وأصلهما يطيقونه ويطبقوقونه على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق، فادغمت التاء في الواو بعد قلبها ياء، كقولهم: تدبر المكان وما بها ديار، وفيه وجهان: أحدهما نحو معنى يطيقونه، والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر، وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية. وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ، ويجوز أن يكون هذا معنى: يطيقونه أي: يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم. ﴿فمن تطوع خيراً﴾ فزاد على مقدار الفدية. ﴿فهو خير له﴾ فالتطوع أخير له أو الخير، وقرئ: فمن يطوع بمعنى: يتطوع. ﴿وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وحملت على أنفسكم وجهتم طاقتكم ﴿خير لكم﴾ من الفدية وتطوع الخير، ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً. وفي قراءة أبي: والصيام خير لكم. رمضان مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء، فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والالف والنون، كما قيل: ابن داية للغراب: بإضافة الابن إلى داية

بإجرائهم على طريق الشرع. ﴿فلا إنم عليه﴾ حينئذ لأن تبدليه بتبديل باطل إلى حق، نكر من يبذل بالباطل ثم من يبذل بالحق ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَنْفُونَ ﴿٧٧﴾

﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ على الانبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم. قال علي رضي الله عنه: أولهم آدم. يعني: أن الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحكم. ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي لأن الصائم أظلف لنفسه وأردع لها من موافقة السوء. قال عليه السلام: «فعلية بالصوم فإن الصوم له وجاء»⁽¹⁾. أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأن الصوم شعارهم. وقيل: معناه أنه كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده فجعلوه خمسين يوماً، وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحر الشديد فشق عليهم في أسفارهم ومعاشهم، فجعلوه بين الشتاء والربيع وزادوا عشرين يوماً كفاًرة لتحويله عن وقته.

أَيُّهَا مَن دُونَهُ مَن كَانَتْ مَعَكُمْ رَيْبًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فِدْيَةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخْرَى وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِّسْكِينٍ مَّنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

وقيل: الأيام المعدودات عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، كتب على رسول الله ﷺ صيامها حين هاجر، ثم نسخت بشهر رمضان. وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء، وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾⁽²⁾ الآية. ومعنى: ﴿معدودات﴾ موقفات بعدد معلوم، أو قلائل. كقوله: ﴿بإرام معدودة﴾⁽³⁾ وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد وينحكر فيه، والكثير يهال هيالاً، ويحشى حشياً، وانتصاب أياماً بالصيام، كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة. ﴿أو على سفر﴾ أو راكب سفر. ﴿فعدة﴾ فعلية عدة. وقرئ: بالنصب، بمعنى: فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدة. ﴿من أيام أخر﴾ واختلف في المرض المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض لأن الله تعالى لم يخص مرضاً بون مرض، كما لم يخص سفرًا دون سفر، فكما أن لكل مسافر أن يفطر، فكذلك كل مريض، وعن ابن سيرين أنه نخل عليه في رمضان وهو ياكل فاعتل بوجع أصبعه. وسئل مالك عن

(3) سورة يوسف، الآية: 20.

(4) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب الصيام، باب: القبلة للصائم الحديث رقم: (63).

(5) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 242/4 الحديث رقم: (7658).

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: من لم يستطع الباء فليصم الحديث رقم: (5066)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح، الحديث رقم: (3384).

(2) سورة البقرة، الآية: 187.

كان شاهداً أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر، والشهر منصوب على الظرف، وكذلك الهاء في فليصمه، ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة، لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر **﴿يريد الله﴾** أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، ومن جملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر

في السفر والمرض، ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر حتى زعم أن من صام منهما فعليه الإعادة، وقرئ: اليسر والعسر بضميتين⁽⁵⁾. الفعل المعطل محذوف منلول عليه بما سبق تقييره: **﴿ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾** شرع

لكم يعني: جملة ما نكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أقطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: **﴿لتكمّلوا﴾** علة الأمر بمراعاة العدة، ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النقب المححث من علماء البيان، وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنه

قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم، ومعنى: **﴿ولعلكم تشكرون﴾**، وإرادة أن تشكروا. وقرئ: ولتكمّلوا بالتشديد.

﴿فإن قلت﴾: هل يصح أن يكون **﴿ولتكمّلوا﴾** معطوفاً على علة مقدرة كأنه قيل: لتعلموا ما تعملون ولتكمّلوا العدة؟ أو على اليسر، كأنه قيل: يريد الله بكم اليسر ويريد بكم لتكمّلوا، كقوله: **﴿يريدون ليطفئوا﴾**⁽⁶⁾؛ قلت: لا يبعد ذلك والأول أوجه.

﴿وإذا سألت عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجبوا لي ويوقروا لي﴾ ولتكمّلوا **﴿ولتكمّلوا﴾**.

﴿فإن قلت﴾: ما المراد بالتكبير؟ قلت: تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هو التكبير عند الإهلال.

﴿فإني قريب﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجابه حاجة من سألته بحال من قرب مكانه، فإذا دعى أسرعت لتبتيته ونحوه: **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**⁽⁷⁾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «هو بينكم وبين أعناق رواحلكم»⁽⁸⁾. وروي: أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد

البعير لكثرة وقوعه عليها إذا ببرت.

﴿فإن قلت﴾: لم سمي **﴿شهر رمضان﴾**؟ قلت: الصوم فيه عبادة قديمة، فكانهم سموه بذلك؛ لارتماضهم فيه من حرّ الجوع ومقاساة شدته، كما سموه ناتقاً؛ لأنه كان ينتقهم أي: يزعجهم إضجاراً بشدته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالآزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر.

﴿فإن قلت﴾: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»⁽¹⁾، «من أدرك رمضان فلم يغفر له»⁽²⁾؟ قلت: هو من باب الحذف لا من الإلباس، كما قال بما أعيان النطاسي حنيماً: أراد ابن حنيم وارتفاعة على أنه مبتدأ خبره.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن نَّهَىٰ بِكُمْ فُلُوجَهُمْ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَلَكُمْ تَشْكُرُونَ **﴿١٥﴾**.

﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾، أو على أنه بدل من الصيام في قوله: **﴿كتب عليكم الصيام﴾** أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب على صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من أياماً معبودات، أو على أنه مفعول وإن تصوموا، ومعنى: أنزل فيه القرآن، ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر. وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوماً. وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: **﴿كتب عليكم الصيام﴾**⁽³⁾ كما تقول: أنزل في عمر كذا وفي علي كذا. وعن النبي عليه السلام: «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزل التوراة لسب مضيّن، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين مضيّن»⁽⁴⁾. **﴿هدى للناس وبينات﴾** نصب على الحال أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحق والباطل.

﴿فإن قلت﴾: ما معنى قوله: **﴿وبينات من الهدى﴾** بعد قوله: **﴿هدى للناس﴾**؟ قلت: نكر أولاً أنه هدى، ثم نكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال. **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** فمن

(5) قال أحمد رحمه الله: ولقبه الخاص به في صناعة البعير، رد أعجاز الكلام إلى صدره، ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه، فهو منظوم في سلك حسناته.

(6) سورة الصف، الآية: 8.

(7) سورة ق، الآية: 16.

(8) لخرجه الدارقطني في: المؤلف والمختلف.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان الحديث رقم: (38)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في قيام رمضان الحديث رقم: (1778).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل» الحديث رقم: (3545).

(3) سورة البقرة، الآية: 183.

(4) أخرجه أحمد في المسند 107/4.

حرتكم ﴿⁽¹¹⁾﴾ من قبل أن تمسوهن ﴿⁽¹²⁾﴾. ﴿فما استمتعتم به منهنّ ولا تقرّبوهنّ﴾ ﴿⁽¹³⁾﴾ قلت: استجناناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم.

فإن قلت: لم عدى الرفث بيلي؟ قلت: لتضمينه معنى الإفشاء. لما كان الرجل والمرأة يعتقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه. قال الجعدي:

إذا ما الضجيع نثني عطفها نثنت فكانت عليه لباساً

فإن قلت: ما موقع قوله ﴿هنّ لباس لكم﴾؟ قلت: هو استئناف، كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة قلّ صبركم عنهنّ وصعب عليكم اجتنابهنّ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهنّ.

﴿تختانون أنفسكم﴾ تظلمونها وتنقصونها حظها من

الخير، والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب فيه

زيادة وشدة ﴿فتاب عليكم﴾ حين تبتّم مما ارتكبتن من

المحظور. ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ واطلبوا ما قسم الله

لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة أي: لا تباشروا

لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح

من التناسل. وقيل: هو نهي عن العزل لأنّه في الحرائر،

وقيل: وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم، وحله دون ما لم

يكتب لكم من المحل المحرّم، وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله

لكم من الإباحة بعد الحظر، وقرأ ابن عباس: وابتغوا. وقرأ

الأعمش: وأتوا، وقيل: معناه: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله

لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتوها، وهو قريب من

بدع التفاسير. ﴿الخييط الأبيض﴾ هو أوّل ما يبدو من

الفجر المعترض في الأفق كالخييط الممدود، و﴿الخييط

الأسود﴾ ما يمتدّ معه من غبش الليل، شبهها بخيطين

أبيض وأسود. قال أبو داود:

فلما أضاعت لناسفة ولاح من الصبح خيط اناراً

وقوله: ﴿من الفجر﴾ بيان للخييط الأبيض، واكتفى به

عن بيان الخييط الأسود لأنّ بيان أحدهما بيان للثاني،

ويجوز أن تكون من للتبعض لأنّه بعض الفجر وأوله.

فإن قلت ﴿⁽¹⁴⁾﴾: أهذا من باب الاستعارة أم من باب

فنائيه ⁽¹⁴⁾؟ فنزلت: ﴿فليستجيبوا لي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أتى أحببهم إذا دعوني لحوائجهم. وقرئ: يرشدون ويرشدون بفتح الشين وكسرهما.

أَمَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ مَن لَّيَّسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَيِّنُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْوَيْسُ مِنَ الْحَيْضِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا النِّسَاءَ إِلَىٰ أَيْلٍ وَلَا تُبَشِّرُوا وَاتُّبِعَتْ عَلَيْكُمْ فِي السَّجْدِ بِأَنَّهُ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾.

كان الرجل ⁽²⁾ إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ بيكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله إنني اعتدت إلى الله واليك من نفسي هذه الخاطئة، وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت جديراً بذلك يا عمر». فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت ⁽³⁾. وقرئ: أحل لكم ليلة الصيام الرفث أي: أحل الله. وقرأ عبد الله الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه أنشد وهو محرم:

وهنّ يمشين بنا هميسا إن تصحق الطيرنك لميسا
فقليل له: أرفثت؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء ⁽⁴⁾، وقال الله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ ⁽⁵⁾ فكنى به عن الجماع لأنّه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك.

فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ ⁽⁶⁾. ﴿فلما تفشاهما﴾ ⁽⁷⁾. ﴿بأشروهن﴾ ⁽⁸⁾. ﴿أو لامستم النساء﴾ ⁽⁹⁾. ﴿دخلتم بهن﴾ ⁽¹⁰⁾. ﴿فاتوا

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر الحديث رقم: (4205)، ومسلم في كتاب النكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب:

استحباب خفض الصوت بالنكر الحديث رقم: (6802)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب: (3) الحديث رقم: (3374)، واللفظ له.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد لصحة هذا الجواب، أنه لما استقرت

الإباحة فيه، قال: فالآن بأشروهنّ، فكنى عنه الكناية المألوفة في

الكتاب العزيز، ويشكل بقوله: فلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في

الحج، فإنّ هذه العبارة استعملت، ولم ينقل في الحج ما نقل في

الصوم من سبب نزول الآية، وهو موافقة المكروه، ويمكن أن

يجاب عنه، لما وقع في آية الحج منهياً عنه، أريد للشعبة عندهم،

كيلا يقعوا فيه، فعبر عنه بما هجته لكون ذلك منفراً لهم عن

التورط. (3) رواه الطبري في تفسيره.

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) رواه الطبري في تفسيره.

(6) رواه الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/276.

(5) سورة البقرة، الآية: 197.

(6) سورة النساء، الآية: 21.

(7) سورة الأعراف، الآية: 189.

(8) سورة البقرة، الآية: 187.

(9) سورة النساء، الآية: 43.

(10) سورة النساء، الآية: 23.

(11) سورة البقرة، الآية: 223.

(12) سورة البقرة، الآية: 237.

(13) سورة النساء، الآية: 24.

(14) قال أحمد: وجه استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذر؛ لأن

إقران النية بأول الصوم وجوداً، غير معتبر باتفاق، وتقديمها من

الليل، وتستصحب معتبر باتفاق، فإنّ لا تناقض بين الأكل =

على فعله إذا استوضح المراد منه. ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم الوصال. ﴿عاكفون في المساجد﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف أن يجلس نفسه في المسجد يتعبد فيه.

والمراد بالمباشرة: الجماع لما تقدم من قوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم... فالآن باشروهن﴾. وقيل معناه: ولا تلامسوهن بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل. وعن قتادة: كان الرجل إذا اعتكف خرج فباشر امرأته، ثم رجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك، وقالوا: فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد. وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبي وهو أحد المساجد الثلاثة، وقيل: في مسجد جامع، والعمامة على أنه في مسجد جماعة. وقرأ مجاهد: في المسجد. ﴿تلك﴾ الأحكام التي نكرت ﴿حدود الله فلا تقربوها﴾ فلا تعشوها.

فإن قلت: كيف قيل: فلا تقربوها⁽⁴⁾ مع قوله: ﴿فلا تعتبوا ومن يتعد حدود الله﴾ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه لأن من تعدها وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الوسطة متباعدًا عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله ﷺ: ﴿إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحده⁽⁵⁾. ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصاً لقوله: ﴿ولا تبشروهن﴾ وهي حدود لا تقرب.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْمَلَكِ
إِنَّا كُنَّا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَكْمُلُونَ ﴿٢٨٠﴾

التشبيه؛ قلت: قوله: ﴿من الفجر﴾ أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً.

فإن قلت: فلم زيد ﴿من الفجر﴾ حتى كان تشبيهاً، وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأنخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم ينكر من الفجر لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد من الفجر فكان تشبيهاً بليغاً. وخرج من أن يكون استعارة.

فإن قلت: فكيف التيسر على عدي بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسائتي فكنت أقوم من الليل فانظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فضحك وقال: «إن كان وسائك لعريضاً⁽¹⁾. وروي: «إنك لعريض القفا»⁽²⁾، إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل؛ قلت: غفل عن البيان، ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته. وأنشدتني بعض البيديات لبيدي:

عريض القفا ميزانه في شماله قد انحص من حسب القراريط شاربه

فإن قلت: فما تقول فيما روي عن سهل بن سعد الساعدي أنها نزلت، ولم ينزل من الفجر⁽³⁾، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال ياكل ويشرب حتى يتبين له، فنزل بعد ذلك ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعني بذلك: الليل والنهار، وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد إذ ليس باستعارة لفقده الدلالة. ولا بتشبيه قيل نكر الفجر، فلا يفهم منه إن إلا الحقيقة وهي غير مرادة! قلت: أما من لم يجوز تأخير البيان وهو أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم، فلم يصح عندهم هذا الحديث، وأما من يجوزه فيقول ليس بعبت لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب، ويعزم

= والشرب إلى الفجر، وبين نية الصوم المستقبل من الليل، ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار، لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر، ينافي صحة استصحاب النية، وكان اقتضاء الآيات جواز الأكل، والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر، لوجود المناقاة لها، ولا بد منها، فيتعين أن يوقع بعد الفجر على هذا التقدير، وذلك التقدير، كما علمت متفق على بطلانه، وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين، فصحيح مستند، والله أعلم، ولتفطن الزمخشري لبطلان الاستدلال، بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم، فقال: قالوا لا يقولها، إلا في مثل هذا المعنى، ولم يسهه التشبيه على بطلان الاستدلال؛ لأنه على وفق مذهبه.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (4510)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: بيان أن النحول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2528).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قول الله تعالى: «وكلوا واشربوا» الحديث رقم: (1917)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: بيان أن النحول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2529).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه الحديث رقم: (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات الحديث رقم: (4070).

(4) قال أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل بين، لمذهب مالك رضي الله تعالى عنه في سد الذرائع، والاحتياط للمحرّمات، لا يدافع عنه.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأقضية، باب: في قضاء القاضي إذا أخطأ الحديث رقم: (3584)، وأحمد في المسند 230/6، والحاكم في المستدرک 95/4، وابن أبي شيبه في المصنف كتاب أقضية رسول الله ﷺ 168/10.

حكمةً بالغةً ومصلاً لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برًا، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما نكر أنها مواقيت للحج لأنه كان من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بز من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله. ثم قال: ﴿وَاتُوا للبيوت من أبوابها﴾ أي: وياشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشروا عليها ولا تعكسوا، والمراد: وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه لما في السؤال من الاتهام بمفارقة الشك: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾⁽⁴⁾.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٣٦﴾

المقاتلة في سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿الذين يقاتلونكم﴾ الذين يناجرونكم القتال نون المحارزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾⁽⁵⁾ وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة. فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل ويكف عن كف، أو الذين يناصبونكم القتال نون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم، لأنهم جميعاً مضانون للمسلمين قاصون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة قاتلوا أو لم يقاتلوا. وقيل: لما صد المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قریش. ويصدونهم ويقاتلهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكروها ذلك، نزلت، وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك. ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال من نهيتهم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان، والذين بينكم وبينهم عهداً، وبالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة.

ولا ياكل بعضكم مال بعض ﴿بالباطل﴾ بالوجه الذي لم يبيحه الله ولم يشرعه. ولا ﴿تدولوا بها﴾ ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لتاكلوا﴾ بالتحاكم ﴿فريقاً﴾ طائفة ﴿من أموال الناس بالإثم﴾ بشهادة الزور أو باليمين الكاذبة أو بالصلح مع العلم بأن المقضي له ظالم. وعن النبي ﷺ أنه قال للخصمين: ﴿إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً، فإن ما أفضي له قطعة من نار. فيكيا، وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي. فقال: «أذهباً فتوخياً ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه». وقيل: ﴿وتدولوا بها﴾، وتلقوا بعضها إلى حكاهم السوء على وجه الرشوة. ﴿وتدولوا﴾ مجزوم داخل في حكم النهي، أو منصوب بإضمار أن كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾⁽¹⁾ ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم على الباطل وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح وما صاحبه أحق بالتوبيخ.

يَتْلُوكَ عَنِ الْآهْلِ قُلٌّ مِنْ مَوَاقِيْتِ النَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتُوا اللَّهَ لِمَسْأَلِكُمْ يُقْبَلُ ﴿٣٧﴾

وروي: أن معاذ بن جبل وثلعبه بن غنم الأنصاري قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو نقيفاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة⁽²⁾ فنزلت: ﴿مواقيت﴾ معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وقطرمهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدد حملهن وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته.

كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ﴿ليس البر﴾ بتحرركم من دخول الباب ﴿ولكن البر﴾ بز ﴿من اتقى﴾ ما حرم الله.

فإن قلت⁽³⁾: ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الآهله وعن الحكمة في نقصانها وتامها معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا

النوع، الذي نبه عليه اللمخشري؛ لأنه مفرد عن الاستطراد الذي يربب عليه أهل صناعة البيع، والمطابق لما يؤيوا عليه سواء قوله تعالى: ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فإنه ذم اليهود، واستطرد بذلك ذم المشركين المنكرين للبعث، على نوع من التشبيه لطيف المنزع، وفي البيع التمثيل بقوله:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

(4) سورة الأنبياء، الآية: 23.

(5) سورة التوبة، الآية: 36.

(1) سورة البقرة، الآية: 42.

(2) رواه الواحدي في أسباب النزول ص 31.

(3) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من الاستطراد في كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وما يستوي البحران هذا غيب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، ومن كل تاكلون لحماً طرياً﴾ إلى آخر الآية، فإنه تعالى بين عدم الاستواء بينهما، إلى قوله: ﴿أجاج﴾ وبذلك تم القصد في تمثيل عدم استواء الكافر، والمسلم، ثم قوله ومن كل تاكلون لا يتقرر به عدم الاستواء، بل المفاد به استولؤهما، فيما نكر، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المنكور، وإنما مثلت هذا

وَأَتْلُوهُمْ حَيْثُ يَفْتَنُوهُمْ وَارْحُومِهِمْ مِنْ حَيْثُ أَرْحَمَكُمْ وَأَلْفَنَّهُ أَشَدَّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِزَكَاةٍ حَتَّى يُفْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ مَا قَتَلْتُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

﴿حيث تفتنتموهم﴾ حيث وجبتهم في حل أو حرم، والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه. قال:

إما تثقفوني فاقتلوني فمن ثقف فليس إلى خلود
 ﴿من حيث لخرجوكم﴾ أي: من مكة، وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح. ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت: جعل الإخراج من الوطن من الفتنة والمحن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل:

لقتل بحد السيف أهون موقعاً على النفس من قتل بحد فراق
 وقيل: الفتنة عذاب الآخرة، نوقوا فتنتم، وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم، فلا تبالوا بقتالهم. وقرئ: ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم. يقال: قتلنا بنو فلان، وقال: فإن تقتلونا نقتلكم.

فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَمُورٌ رَجِيمٌ ﴿١٣٢﴾

﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك والقتال، كقوله: ﴿إن انتهوا﴾ يغفر لهم ما قد سلف.

وَيَقْبَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيُكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك. ﴿ويكون الدين لله﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ فلا تعدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: ﴿إلا على الظالمين﴾ موضع على المنتهين، أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمي جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ (١) وأريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

الَّذِينَ لَمْ يَرْكَبُوا السَّلَاحَ وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا

عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٣٤﴾

قاتلهم المشركون عام الحبيبية في الشهر الحرام، وهو نوا القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك في ذي القعدة. ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ أي: هذا الشهر بنك الشهر، وهتكه بهتكه: يعني: تهتكون حرمة عليهم كما هتكوا حرمة عليهم. ﴿والحرمات قصاص﴾ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فاعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾

الباء في ﴿بأيديكم﴾ مزيدة مثلها في: أعطى بيده للمتناه، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم. أي: لا تجعلوها آخذةً بأيديكم مألقةً لكم، وقيل: بأيديكم بأنفسكم، وقيل: تقديره ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعز. وروي: أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة (٢)، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وشهدنا معه المشاهد، وأثرناه على أهاليها وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهاليها وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. وحكى أبو علي في الحلبيات، عن أبي عبيدة: التهلكة والهالك والهلك واحد. قال: فدل هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر، ومثله ما حكاه سيبويه من قولهم: التضرة والتسرة، ونحوها في الأعيان المتصلة والتنقلة. ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالتحجيرة والتبصرة ونحوهما على أنها مصدر من هلك، فأبطلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار.

وَأَيُّهَا النَّبِيُّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ أُصْرِمْتُمْ فَأَسْتَسِرَّ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْفَرُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِنَ رَأْسِهِ فَدِيدَةٌ مِنْ رِيسِهِ أَوْ مَدَقَةٌ أَوْ سُكُوءٌ فَإِذَا أُنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْمَرْءِ إِلَى النَّجْعِ فَا

== التفسير، باب: تفسير سورة البقرة الحديث رقم: (2976)، وأحمد في المسند 4/281.

(1) سورة البقرة، الآية: 194.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الحديث رقم: (2512)، والترمذي في كتاب: ==

أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لَحَجٍّ وَسَمَّوْهُ إِذَا رَجَعْتُمْ
بِنَاكِ عَشْرَةَ كَامِلَةً ذَلِكَ لِئِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاكِمِي الْمَسْجِدِ الْمُرَامِ وَأَتَقُوا
اللَّهَ وَأَتَمَّلُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾.

﴿واتموا الحج والعمرة لله﴾ اتوا بهما تامين كاملين
بمناسكهما وشراطينهما لوجه الله من غير توانٍ، ولا نقصان
يقع منكم فيهما. قال:

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام
جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم
إلا به، وقيل: إتمامها أن تحرم بهما من بويرة أهلك. روي
ذلك عن علي، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم،
وقيل: أن تفرد لكل واحد منهما سفراً، كما قال محمد: حجة
كوفية وعمرة كوفية أفضل، وقيل: أن تكون النفقة حلالاً،
وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من
التجارة والأغراض الدنيوية.

فإن قلت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما
هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما
واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع
جميعاً إلا أن تقول الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما بدليل
قراءة من قرأ: وأقيموا الحج والعمرة، والأمر للوجوب في
أصله إلا أن يدل دليل على خلاف الوجوب، كما دل في
قوله: ﴿فأصطابوا﴾⁽¹⁾ ﴿فانتشروا﴾⁽²⁾ ونحو ذلك. فيقال
لك: فقد دل الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي أنه
قيل: يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا ولكن
أن تعتمر خير لك»⁽³⁾. وعنه: «الحج جهاد والعمرة
تطوع»⁽⁴⁾.

فإن قلت: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه
قال: إن العمرة لقرينة الحج⁽⁵⁾، وعن عمر رضي الله عنه أن
رجلاً قال له: إنني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي
أهللت بهما جميعاً. فقال: هديت لسنة نبيك⁽⁶⁾، وقد نظمت
مع الحج في الأمر بالإتمام، فكانت واجبة مثل الحج. قلت:
كونها قرينة للحج، أن القارن يقرب بينهما وأنهما يقترنان
في الذكر، فيقال: حج فلان واعتمر، والحجاج والعمار؛
ولأنها الحج الأصغر، ولا دليل في ذلك على كونها قرينة له
في الوجوب. وأما حديث عمر رضي الله عنه، فقد فسّر

الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهللت بهما، وإذا أهل
بالعمرة وجبت عليه، كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة،
والدليل الذي نكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فيقي
الحج وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان،
وستة من شوال، في أنك تأمره بفرض وتطوع، وقرأ علي
وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم: والعمرة لله بالرفع،
كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب
﴿فإن أحصرتم﴾ يقال: أحصر فلان إذا منعه أمر من
خوف، أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: ﴿الذين أحصروا
في سبيل الله﴾⁽⁷⁾ وقال ابن ميادة:

وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول
وحصر إذا حبسه عدو عن المضي أو سجن، ومنه قيل
للمحبس: الحصر، وللملك: الحصر، لأنه محجوب هذا هو
الأكثر في كلامهم. وهما بمعنى: المنع في كل شيء مثل
صدّه وأصدّه، وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني،
وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى: كل منع عنده من
عدو كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم
الإحصار، وعند مالك والشافعي منع العدو وحده، وعن
النبي ﷺ: «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من
قابل»⁽⁸⁾. ﴿فما استيسر من الهدى﴾ فما تيسر منه. يقال:
يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدى
جمع هدية. كما يقال: في جديّة السرج جدي. وقرئ: من
الهدى بالتشديد، جمع هدية كمطية ومطي. يعني: فإن
منعتم من المضي إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة
فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو
بقرة أو شاة.

فإن قلت: أين ومتى ينحر هدى المحصر؟ قلت: إن كان
حاجاً فبالحرم متى شاء، عند أبي حنيفة يبعث به ويجعل
للمبعوث على يده يوم أمار، وعندهما في أيام النحر. وإن
كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً، وما
استيسر رفع بالابتداء أي: فعلية ما استيسر أو نصب على
فاهدوا ما استيسر. ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم﴾ الخطاب
للمحصرين، أي: لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى الذي
بعثتموه إلى الحرم بلغ. ﴿محلّه﴾ أي: مكانه الذي يجب
نحره فيه، ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر

(1) سورة المائدة، الآية: 2.

(2) سورة الاحزاب، الآية: 53. وسورة الجمعة، الآية: 10.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في العمرة اواجبة
هي أم لا الحديث رقم: (931)، والدارقطني في كتاب الحج، باب:
المواقيت الحديث رقم: (224 و225).(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: العمرة الحديث رقم:
(2989).(5) البخاري تعليقاً، كتاب: العمرة، باب: العمرة، وجوب العمرة
وفضلها.(6) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الإقران الحديث رقم:
(1799)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: القران الحديث رقم: == (2720)، وابن ماجه في الحج، باب: قران الحج والعمرة الحديث
رقم: (2970)، وابن حبان في كتاب: الحج، باب: القران الحديث رقم:
(3910).

(7) سورة البقرة، الآية: 273.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الإحصار الحديث رقم:
(1862)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الذي يهل
بالحج فيكسر أو يمرح الحديث رقم: (940)، والنسائي في كتاب:
مناسك الحج، باب: فيمن أحصر بعد الحديث رقم: (2860)، وابن
ماجه في كتاب: المناسك، باب: المحصر الحديث رقم: (3077)،
وأحمد في المسند 3/450، والحاكم في المستدرک 1/482.

على مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

وسبعة بالنصب عطفًا على محل ثلاثة أيام، كأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام، كقوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيمًا﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: فما فائدة الفلنكة؟ قلت: الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسا جميعاً أو واحداً منهما كان ممثلاً، ففلنكت نفيًا لترحهم الإباحة، وأيضاً ففائدة الفلنكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة، كما علم تفصيلاً ليحاط به ومن جهتين فيتأكد العلم. وفي أمثال العرب: علمان خير من علم، وكذلك «كاملة» تأكيد آخر، وفيه زيادة توصية بصيامها وإن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها، كما تقول للرجل: إذا كان لك اهتمام بامر تامره به، وكان منك بمنزل الله: الله لا تقصر، وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدى، وفي قراءة أبي: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. «ذلك» إشارة إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه: لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن، كان عليه دم، وهو دم جنائية لا يأكل منه، وأما القارن والتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك ياكلان منه. وعند الشافعي إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئاً. وحاضر المسجد الحرام وأهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة «واتقوا الله» في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره. «واعلموا أن الله شديد العقاب» لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه لطفًا لكم في التقوى.

أَلْعَجَ أَشْهُرٌ مَّمْلُوكَةٌ مَمَّنْ وَرَمَّ فِيهِمْ أَلْعَجَ فَلَا رَوْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي أَلْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَبْرٍ يَسْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّرُوا فَإِنَّ حَبْرَ الرَّادِ الْكُفْرَى وَأَتَوْنِ بِكَأُولِ الْأَلْبَابِ (٨٧)

أي: وقت الحج «أشهر» كقولك: البرد شهران. والأشهر المعلومات⁽⁵⁾: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي تسع ذي الحجة وليلة يوم النحر. وعند مالك ذو الحجة كله.

فإن قلت: إن النبي ﷺ نحر هديه حيث أحصر⁽¹⁾. قلت: كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة، وهو من الحرم. وعن الزهري أن رسول الله ﷺ نحر هديه في الحرم، وقال الواقدي: الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة. «فمن كان منكم مريضاً» فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق، «أو به أذى من رأسه» وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية «من صيام» ثلاثة أيام، «أو صدقة» على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر، «أو نسك» وهو شاة، وعن كعب بن عجرة: أن رسول الله ﷺ قال له: «لعلك أذاك هوامك». قال: نعم يا رسول الله. قال: «احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو اطعم ستة مساكين، أو انسك شاة»⁽²⁾. وكان كعب يقول: في نزلت هذه الآية، وروي: أنه مرَّ به وقد قرح رأسه، فقال: «كفى بهذا أذى». وأمره أن يلقح ويطعم أو يصوم⁽³⁾.

والنسك: مصدر، وقيل: جمع نسيكة. وقرأ الحسن: أو نسك بالتخفيف. «فإذا أمنتم» الإحصار يعني: فإذا لم تحصروا وكنتم في حال أمن وسعة، «فمن تمتع» أي: استمتع «بالعمرة إلى الحج» واستمتعته بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقريبه بالحج. وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج. «فما استيسر من الهدى» هو هدي المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه. وعند الشافعي يجري مجرى الجنائيات، ولا يأكل منه، وينبجه يوم النحر عندينا، وعنده يجوز نبجه إذا أحرم بحجته. «فمن لم يجد» الهدى «ف» عليه «صيام ثلاثة أيام في الحج» أي: في وقته، وهو: أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم. وعند الشافعي لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكاً بظاهر قوله: «في الحج وسبعة إذا رجعتكم»: بمعنى: إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي هو الرجوع إلى أهاليهم، وقرأ ابن أبي عبيدة:

(3) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (280).

(4) سورة البقرة، الآيات: 14، 15.

(5) قال أحمد: الذي نقله عن مالك أحد قوليه، وليس بالمشهور عنه، وأما استدلاله لهذا القول بكراهية عمر الاعتناء إلى أن يهل الحرم، فلا ينهض ليللاً لمالك؛ لأنه يقول لا تنعقد العمرة في أيام منى خاصة، لمن حج ما لم يتم الرمي، ويحل بالإفاضة، فتتعقد وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك، إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لا غير، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة، ولعمري أن هذا القول حسن ليللاً، فلا يحتاج إلى مزيد، ولكن ظاهر الآية، ومقتضاها أن جملة الأشهر =

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء الحديث رقم: (4251).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المحصر، باب: قول الله تعالى «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى...» الحديث رقم: (1814)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز حلق رأس المحرم إذا كان به أذى الحديث رقم: (2873)، وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الفدية الحديث رقم: (1856)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في المحرم يلقح رأسه الحديث رقم: (953)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: في المحرم يؤذيه القمل الحديث رقم: (852)، وابن ماجه في كتاب: الحج، باب: فدية المحصر حديث رقم: (3079)، ومالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: فدية من حلق قبل أن ينحر.

فإن قلت: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت: فائدته أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا: فيها، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضاً عند الشافعي في غيرها. وعند أبي حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه.

فإن قلت: فكيف كان الشهران، وبعض الثالث أشهراً؟ قلت: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بليل قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾⁽¹⁾ فلا سؤال فيه إن، وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات، وقيل: نزل بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيتك سنة كذا أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر، وإنما رآه في ساعة منها.

فإن قلت: ما وجه مذهب مالك وهو مروى عن عروة بن الزبير؟ قلت: قالوا وجهه أن العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر، فكانها مخصصة للحج لا مجال فيها للعمرة، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهن. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لرجل: إن أطعني انتظرت حتى إذا أهملت المحرم خرجت إلى ذات عرق فأهملت منها بعمرة. وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر. ﴿معلومات﴾ معروفات عند الناس لا يشكّن عليهم، وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه وإنما جاء مقرراً له. ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ فمن أزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة، وعند الشافعي بالنية. ﴿فلا رفث﴾⁽²⁾ فلا جماع لأنه يفسده أو فلا فحش من الكلام. ﴿ولا فسوق﴾ ولا خروج عن حدود الشريعة، وقيل: هو السباب، والتنازب باللقاب. ﴿ولا جدال﴾ ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكاري، وإنما أمر باجتناب تلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه مع الحج أسمع، كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن، والمراد بالنفي وجوب انتفائها وأنها حقيقة بأن لا تكون.

وقرىء: المنفيات الثلاث بالنصب وبالرفع، وقرأ أبو عمر وابن كثير الأولين بالرفع، والآخر بالنصب: لأنهما حملا

الأولين على معنى النهي، كأنه قيل، فلا يكون رفث ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال. كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج. وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة، وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرون سنة وهو النسبي، فرد إلى وقت واحد ورد الوقوف إلى عرفة فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج، واستدل على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال، بقوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج كهيئة يوم ولدته أمه⁽³⁾». وأنه لم ينكر الجدال. ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حث على الخير عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الرفق والأخلاق الجميلة، أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أي: اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإن خير الزاد اتقاؤها، وقيل: كان أهل اليمن لا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس، فنزلت فيهم، ومعناه: وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقل عليهم، فإن خير الزاد التقوى. ﴿وتلقون﴾ وخافوا عقابي ﴿يا أولي الأبواب﴾ يعني: أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الأبواب فكانه لا لب له.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٣٨﴾

﴿فضلاً من ربكم﴾ عطاءً منه وتفضلاً، وهو: النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يتاثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا نخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، يسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون:

= فالنهي عنه خاص بالحج، وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي، وقد نبه مالك رضي الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء إلا أن ذلك قد يوقع في الوهم أنه يؤدي إلى ترك المحذور، وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرفث للحاج، وما يتعلق به، والله أعلم، وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبية، وتحريم الغيبة على الصائم، فيقولون وعلى المظفر، فلا فائدة في تخصيص الصائم، ويعنون ذلك وهماً منه، وهم بمعزل عن هذه الآية، وأمثالها، فقد أوسعته عنراً في عبارته تلك، إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة، وصحة العبارات.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، الحديث رقم: (1521)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة الحديث رقم: (3278).

= هي زمان الحج، ألا ترى أن من قال، وعشر من ذي الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه، إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه، ويستشهد على ذلك بقوله:

ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال

وإنما أحوجه إلى الاستشهاد خروج مقالته عن ظاهر الآية، فالتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة، واقف مع اقتضاها، غير مضطر إلى مزيد عليه.

(1) سورة التحريم، الآية: 4.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان، وهي: أن تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه، والفسوق، والجدال يشعر بأنها في غير الحج، وإن كانت منهاياً عنها، وقبيحة إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج، كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج، فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة، والله أعلم على أن الرفث إن كان التحث في أمر الجماع خاصة، =

بعده. وعن النبي ﷺ: «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج»⁽⁵⁾ **﴿فانكروا الله﴾** بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، وقيل: بصلاة المغرب والعشاء. و**﴿المشعر الحرام﴾** قزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميمنة، وقيل: المشعر الحرام ما بين جبلي المزلفة من مازمي عرفة إلى واد محسر، وليس المازمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام. والصحيح أنه الجبل، لما روى جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما صلى الفجر يعني: بالمزلفة بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر⁽⁶⁾. وقوله تعالى: **﴿عند المشعر الحرام﴾** معنا: مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزلفة كلها موقف إلا وادي محسر، أو جعلت أعقاب المزلفة كونها في حكم المشعر، ومتصلة به عند المشعر، والمشعر المعلم؛ لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرم لحرمة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه نظر إلى الناس ليلة جمع، فقال: لقد أدرت الناس هذه الليلة لا ينامون، وقيل: سميت المزلفة جمعاً لأن آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء، وأزلف إليها أي: دنا منها، وعن قتادة: لأنه يجمع فيها بين الصلاتين، ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله أي: يتقربون بالوقوف فيها. **﴿كما هداكم﴾** ما مصدريه، أو كفاة، والمعنى: وأنكروه نكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، وأنكروه كما علمكم كيف تنكروه لا تعلوا عنه. **﴿وان كنتم من قبله﴾** من قبل الهدى **﴿للمن الضالين﴾** الجاهلين لا تعرفون كيف تنكروه وتعبدونه، وإن هي مخفة من الثقلية واللام هي الفارقة.

ثُمَّ أَوْبَحْنَا مِنَ حَيْثُ أَفْكَسَ النَّكَاسُ وَاسْتَفْرَرُوا اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزُورٌ رَجِيمٌ ﴿٣٣٣﴾

﴿ثم أفضوا﴾ ثم لتكن إفاضتكم **﴿من حيث أفاض الناس﴾** ولا تكن من المزلفة⁽⁷⁾، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع على الناس والتعالي عليهم وتعظيمهم

هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأموا، فرجع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا⁽¹⁾، فقال: سأل رجل رسول الله ﷺ عما سألت، فلم يرد عليه حتى نزل: **﴿ليس عليكم جناح﴾** فدعا به، فقال: انتم حجاج، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: هل كنتم تكروهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معاشنا إلا من التجارة في الحج⁽²⁾. وقد أورد ابن عباس رضي الله عنهما: فضلاً من ربكم في مواسم الحج. إن تبتغوا في أن تبتغوا. **﴿أفضتم﴾** دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء، وهو صب بكثرة، وأصله أفضتم أنفسكم فترك نكر المفعول، كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: صب في دقران، وهو يخرش بعيره بمحجنه⁽³⁾، ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه. و**﴿عرفات﴾** علم للموقف سمي بجمع كأذرع.

﴿فإن قلت﴾⁽⁴⁾: هلا منعت الصرف فيها السببان التعريف والتأنيث؟ قلت: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة، كما في سعاد فالتى في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، ولا يصح تقدير التاء فيها؛ لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مائة من تقديرها، كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فابت تقديرها، وقالوا: سميت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها، وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها، فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا، وقيل: لأن الناس يتعارفون فيها، والله أعلم بحقيقة ذلك. وهي من الأسماء المرتجلة لأن العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف، وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة، لأن الإفاضة لا تكون إلا

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الكري الحديث رقم: (1733).

(2) رواه الطبري في تفسيره.

(3) الشافعي في مسنده ص 369.

(4) قال أحمد رحمه الله: يلزمه إذا سمي امرأة بمسلمات، أن لا يصرفه، فيقول هذا مسلمات بغير تنوين، وهو قول ردي، بل الأصح الصحيح في مسلمات، إذا سمي به أن يتنوين، وإنما بنى الزمخشري كلامه هذا، على أن تنوين عرفات للمتكين، لا للمقابلة، ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين، التي عدّها في مفسله على أنه راجع إلى تنوين المتكين.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: من لم يدرك عرفة الحديث رقم: (1949)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج الحديث رقم: (889) =

= والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزلفة الحديث رقم: (3044)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة الجمع الحديث رقم: (3015)، والحاكم في المستدرک 1/464.

(6) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: صفة حب النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

(7) قال أحمد رحمه الله: وقد اشتملت الآية على نكتتين إحداهما عطف الإفاضتين، إحداهما على الأخرى، ومرجعها واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهم من التباين ما بين العام، والخاص، والمخير عنه، ولا الإفاضة من حيث هي غير مقيدة، والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع المهملة، وذلك يستدعي =

بنكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين. ﴿آتَنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة. ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: من طلب خلافي، وهو: النصيب، أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب لأنَّ هَمَّهُ مقصور على الدنيا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

والحسنتان ما هو طلبه الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن علي رضي الله عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار امرأة السوء.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦٧﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نصيب مما كسبوا﴾ أي: نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو: الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا كقوله: ﴿مما خلياتهم أغرقوا﴾⁽³⁾ أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيههم منه ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة، وسمي الدعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب ﴿بمما كسبت أيديكم﴾، ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعاً وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا. ﴿والله سريع الحساب﴾ يوشك أن يقيم القيامة، ويحاسب العباد فبادروا إكثار النكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلاق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه. روي: أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة. وروي: في مقدار فراق ناقة. وروي: في مقدار لمحة⁽⁴⁾.

عن أن يسأروهم في الموقف، وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمه، فلا نخرج منه فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات.

فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس، ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي به ثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما، فذلك حين أمرهم بالنكر عند الإفاضة من عرفات قال: ﴿ثم أفيضوا﴾ التفاوت ما بين الإفاضتين وأن أحدهما صواب، والثانية خطأ، وقيل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ وهم الحمس أي: من المنزلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات. وقرئ: من حيث أفاض الناس بكسر السين أي الناسي، وهو آدم من قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾⁽¹⁾ يعني: أن الإفاضة من عرفات شرع قديم، فلا تخالفوا عنه. ﴿واستغفروا الله﴾ من مخالفتكم في الوقف، ونحو ذلك من جاهليتكم.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاجِبَكُمْ فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ زِكْرًا وَقُلْ أَلَيْسَ مِنِّي مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴿١٦٨﴾

﴿فإنذا قضيتم مناسككم﴾ أي: فإذا فرغتم من عبادتكم الحجية، ونفرتم، ﴿فانكروا الله كنكركم آباءكم﴾ فاكثروا نكر الله وبالغوا فيه، كما تفعلون في نكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدنون فضائل آبائهم وينكرون محاسن أيامهم. ﴿أو أشد نكراً﴾⁽²⁾ في موضع جر عطف على ما أضيف إليه النكر في قوله: ﴿كنكركم﴾ كما تقول: كنكر قریش آباهم، أو قوم أشد منهم نكراً، أو في موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى: أو أشد نكراً من آبائكم على أن نكراً من فعل المذكور. ﴿فمن الناس من يقول﴾ معناه: اكثروا نكر الله ودعاهه فإنَّ الناس من بين مقل لا يطلب

آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما نكره سيويه، قال: ويقولون: هو أشج الناس رجلاً، وهما خير الناس رجلاً، وهما خير الناس اثنتين، فالمجور هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل، والاثنتين كما انتصب الوجه في قولك هو أحسن منه وجهاً، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ، وإنما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة هو أشج الناس غلاماً، فإنَّ هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ، كما في المثال الأول، ويجوز أن يكون غيره، فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأول، فيكون نكر المنسوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنسوب واقعاً على أشج، فكانه قال أو أشد الأنتكار نكراً، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة إلا هذا الوجه الذي زنته، فإنَّ خاطري أبو عنترته، كخشية الله، أو أشد خشية، ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

(3) سورة نوح، الآية: 25.

(4) لم أجده. وقد روى القرطبي في تفسيره: أن الله يحاسب في قدر حلب شاة 435/2 بون إسناد.

التراخي مضافاً إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلقة، والمقيدة تراخ، فالجواب غير ذلك أن التراخي، كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبعدها في العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط، وإيضاح.

(1) سورة طه، الآية: 115.

(2) قال أحمد رحمه الله: فعلى الأول يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول، وهو خلاف القياس، وقد نكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم اتسبل مرأة التحسين، وأنا أسر منك على النكر الأول، لئلا يكون واقعاً على النكر، وقد انتصب النكر تمييزاً عنه، فيكون للنكر ذاكراً، وهو محال لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه، والحقه بباب قولهم شعر شاعر وجن جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه، حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكيناً لثبوتها، ووضع ذلك أن انتصاب النكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه، إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله نكراً على ما صار إليه أبو الفتح: إنك لو قلت زيداً أكرم أباً، لكان زيد من الأبناء، ولو قلت زيد أكرم أب لكان من الآباء، ويحتمل عطفه على النكر أعني وجهاً

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُنْهَى اللَّهُ عَنَّا مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٦٤﴾

﴿من يعجبك قوله﴾ أي: يروقك ويعظم في قلبك، ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهو: الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق إذا لقي رسول الله ﷺ إلا أن له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أنني صادق، وقيل: هو عام في المنافقين كانت تحلو لي السننهم وقلوبهم أمر من الصبر.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾؟ قلت: بالقول أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا، لأن ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما تراء بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول، فكلامه إن في الدنيا لا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ«يعجبك» أي: قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحسنة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه. ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام. وقرئ: ويشهد الله، وفي مصحف أبي: ويستشهد الله. ﴿وهو ألد الخصام﴾ وهو شديد الجدل والعداوة للمسلمين، وقيل: كان بينه وبين ثقيف خصومة، فبينهم ليلاً وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم، والخصام المخاصمة، وإضافة الألد بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر، أو جعل الخصام ألد على المبالغة، وقيل: الخصام جميع خصم، كصعب وصعب، بمعنى: وهو أشد الخصوم خصومة.

وَإِذَا تَوَلَّى سَوًى فِي الْأَرْضِ لِيُتَبَّعُ بِهَا وَالْحَرَّتِ وَالنَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦٥﴾

﴿وإذا تولى﴾ عك، وذهب بعد إلاة القول وأحلاء المنطق ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ كما فعل بثقيف، وقيل: ﴿وإذا تولى﴾ وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه الفطر فيهلك الحرث والنسل. وقرئ: ويهلك الحرث والنسل، على أن الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى. وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة نحو أبي بابي، وروي عنه: ويهلك

﴿وذكروا الله في آيات ممدودات﴾ مَن تَمَحَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنكُم بِهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٦٦﴾

الأيام الممدودات أيام التشريق، وذكر الله فيها التكبير في إبداء الصلوات وعند الجمار، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يكبر في فسطاطه بمنى، فيكبر من حوله حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف. ﴿فمن تعجل﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى: عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل، ومتعديين يقال: تعجل الذهاب واستعجله، والمطاوعة أوفق لقوله: ﴿ومن تأخر﴾ كما هي كذلك في قوله:

قد بورك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل لأجل المتأني ﴿في يومين﴾ بعد يوم النحر يوم القر، وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده، ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم، وهو مذهب الشافعي، ويروي عن قتادة، وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر. ﴿ومن تأخر﴾ حتى رمى في اليوم الثالث، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة، وعند الشافعي لا يجوز.

فإن قلت: كيف قال: ﴿فلا إثم عليه﴾ عند التعجل والتأخر جميعاً؟ قلت: دلالة على أن التعجل والتأخر مخير فيهما، كانه قيل: فتعجلوا أو تأخروا.

فإن قلت^(١): ليس للتأخر بأفضل؟ قلت: بلى ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل، وقيل إن أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل أثماً، ومنهم من جعل المتأخر أثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً. ﴿لمن اتقى﴾ أي: تلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي لثلا يتخالج في قلبه شيء منهما فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه أثام في الإقدام عليه، لأن ذا التقوى حذر متحز من كل ما يريبه، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله. ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ ليعبا بكم، ويجوز أن يراد تلك الذي مر ذكره من أحكام الحج وغيره. ﴿لمن اتقى﴾ لأنه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: ﴿ذلك خير﴾^(٢) للذين يريون وجه الله.

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله إن التخيير يقع بين الفاضل، والأفضل غير مستقيم، فإن التخيير يوجب التساوي في غرض المخير، وينافي طلب أحد الطرفين، والأمر به وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب، والترجيح، وما يوجب التساوي والتخيير، وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا، فإنه ميز الوجوب من النذب، بأن النذب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك، ولا كذلك الوجوب، ولم يرضه محققو الفن، وإنما أخذ الزمخشري في تفسيره الآية، فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه، وبيان عدم التطابق بين تفسيره،

(2) سورة الاعراف، الآية: 26.

على البناء للمفعول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَعْتَدْتَهُ الْعَذَابَ بِالإِثْمِ فَحَسِبُهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ آلِهَاهُ (٣٦).

﴿لذنته العزة بالإثم﴾ من قولك اخذته بكذا إذا حملته عليه والزمته إياه، أي: حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه والزمته ارتكابه، وأن لا يخلى عنه ضراراً ولجاجاً، أو على رد قول الواعظ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعَاصِينَ (٣٧).

﴿يشري نفسه﴾ ببيعها أي: يبذلها في الجهاد، وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيب بن سنان أرادته المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نقرأ كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فخلوني وما أنا عليه، وخنوا مالي، فقبلوا منه ماله، وأتى المدينة. ﴿ووالله رؤوف بالعباد﴾ حيث كلّفهم الجهاد فعرضهم لشواب الشهداء.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنزَلُوا فِي أَسْجِدٍ كَاذِبَةٍ وَلَا تَنَكُّمُوا حُطُوتِ السَّيِّئِينَ إِنَّمَا لَكُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ (٣٨).

﴿السلم﴾ بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش: بفتح السين واللام، وهو الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله وأطيعوه ﴿كافة﴾ لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته، وقيل: هو الإسلام، والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتباتهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بالسننهم، ويجوز أن يكون كافة حالاً من السلم لأنها تؤنث، كما تؤنث الحرب. قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من انفاسها جرع

على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها، وأن لا يدخلوا في طاعة نون طاعة، أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يخلوا بشيء منها، وعن عبد الله بن سلام أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يقيم على السبت، وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل⁽¹⁾.

وكافة: من الكف، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجماعهم.

فَإِن رَّكِبْتُمْ مِّنْ بَدْرٍ مَّا جَاءتْكُمْ الْبَيْتَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٩).

﴿فإن زلتم﴾ عن الدخول في السلم ﴿من بعد ما جاءتكم البيئات﴾ أي: الحجج والشواهد، على أن ما دعيتم

إلى الدخول فيه هو الحق. ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حكيم﴾ لا ينتقم إلا بحق، وروي أن قارثاً قرأ: غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا ينكر الغفران عند الزلزل لأنه إغراء عليه، وقرأ أبو السمال: زلتم بكسر اللام، وهما لغتان نحو ظللت وظللت.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفِي الْأُمُورِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٠).

إتيان الله: إتيان أمره وبإسائه، كقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾⁽²⁾ فجاهم بأسنا، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً بمعنى: أن يأتيهم الله بإسائه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: ﴿فإن الله عزيز﴾⁽³⁾ ﴿في ظلال﴾ جمع ظلة وهي: ما اظلك، وقرئ: ظلال وهي جمع ظلة، كقلة وقلال، أو جمع ظل. وقرئ: والملائكة بالرفع، كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾⁽⁴⁾ وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام. فإن قلت: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظلم وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفزع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾⁽⁵⁾ ﴿وقضى الأمر﴾ وتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه، وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: وقضاء الأمر، على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة. وقرئ: ترجع وترجع على البناء للفاعل والمفعول بالتانيث والتنكير فيها.

سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْتَهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْذُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَدْرٍ مَّا جَاءتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤١).

﴿سل﴾ أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقريع، كما تسئل الكفرة يوم القيامة ﴿كم آتيناهم من آية بيّنة﴾ على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام. و﴿نعمة الله﴾ آياته وهي أجل نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة وتبديلهم إياها أن الله أظهرها لتكون أسباب هدايم، فعملوها أسباب ضلالتهم، كقوله: ﴿فرزانتهم رجساً إلى رجسهم﴾⁽⁶⁾ أو حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ.

فإن قلت: كم استفهامية، أم خبرية؟ قلت: تحتل الأمرين، ومعنى الاستفهام فيها للتقرير.

(1) رواه الدارمي في أسباب النزول ص 37.

(2) سورة النحل، الآية: 33.

(3) سورة الزمر، الآية: 47.

(4) سورة التوبة، الآية: 125.

(5) سورة الأنفال، الآية: 49.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً قَعَتَ اللَّهُ النَّبِيَّاتِ مُتَّبِعِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدَى مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٦﴾

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على دين الإسلام ﴿فبعث الله النبيين﴾ يريد فاختلّفوا، فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ عليه. وفي قراءة عبد الله: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فاختلّفوا، ﴿فبعث الله﴾. والدليل عليه قوله عز وعلا: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا﴾⁽⁴⁾ وقيل: كان الناس أمة واحدة كفاراً فبعث الله النبيين فاختلّفوا عليهم، والأول الوجه.

فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق، فاختلّفوا، وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة. ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه، ﴿ليحكم﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه. ﴿فما اختلفوا فيه﴾ في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق. ﴿وما اختلف فيه﴾ في الحق ﴿إلا الذين أوتوه﴾ إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي: ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الاختلاف واستحكامه. ﴿بغياً بينهم﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم. ﴿ومن الحق﴾ بيان لما اختلفوا فيه، أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْبَيْتَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَمُمُّوا أَسْأَةً وَالْفَرْثَةَ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

= (1) سورة البقرة، الآية: 75. (2) قال أحمد رحمه الله: وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز، وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجاز على قواعد السنة، والزمخشري يعمل على عكس هذا، فإن أضاف الله فعلاً من أفعاله إلى قدرته، جعله مجازاً، وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته، جعله حقيقة، وسبب هذا التعكيس، بتابع الهوى في القواعد الفاسدة. (3) قال أحمد رحمه الله: وهذا من وضع الظاهر موضع المضممر بصفة أخرى، ومثله في كتاب الله كثير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنَّ الظالمين في عذاب مقيم﴾ وكان الأصل إلا إنهم، الآية، فوضع الظاهر موضع المضممر بصفة أخرى، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران، وفي كلام الزمخشري طماع إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة، ألا تراه يقول، ليريك أنه لا يسعد

(4) سورة المطففين، الآية: 34.

(5) سورة يونس، الآية: 19.

فإن قلت: ما معنى ﴿من بعد ما جاءته﴾؟ قلت: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها، أو عرفها، كقوله: ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾⁽¹⁾ لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها، أو لم يعرفها، فكانها غائبة عنه. وقرئ: ومن يبذل بالتخفيف.

زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ رِزْقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٣٧﴾

المزين⁽²⁾: هو الشيطان زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم، فلا يريدون غيرها، ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها، أو جعل إمهال المزين له تزييناً، ويدل عليه قراءة من قرأ: زين للذين كفروا الحياة الدنيا، على البناء للفاعل. ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم. أي: لا يريدون غيرها، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها. ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾⁽³⁾ لأنهم في عِلين من السماء، وهم في سجين من الأرض، أو حالهم عالية لحالهم لأنهم في كرامة وهم في هوان، أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم، كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا، ويرون الفضل لهم عليهم ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾⁽⁴⁾ ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بغير تقدير يعني: أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة، وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم.

فإن قلت: لم قال ﴿من الذين آمنوا﴾، ثم قال: ﴿والذين اتقوا﴾؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

مَمْرٌ مَثْرٌ نَصْرُ اللَّهِ آلَا إِنْ نَصَرَ اللَّهُ فَرْبَهُ ﴿١٧٤﴾.

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْشَرِ
لَا تَلْمُزُوا ﴿١٧٥﴾.

﴿وهو خير لكم﴾ من الكراهة، ببليلى قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾، ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها: فإنما هي إقبال وإبصار. كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له، وإما أن يكون فعلاً بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز أي: وهو مكروه لكم، وقرأ السلمي: بالفتح على أن يكون بمعنى: المضموم، كالضعف والضعف، ويجوز أن يكون بمعنى: الإكراه على طريق المجاز، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم، ومنه قوله تعالى: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾^(١). وعلى قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ جميع ما كلفوه فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه، ﴿والله يعلم﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ذلك.

يَسْأَلُكَ عَنِ الْآخِرَةِ إِنَّمَا فِيهِ قَلٌّ فِيهِ كِبِيرٌ وَمَسَدٌ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرًا بِهِ، وَالسَّجِدِ الْآخِرِ وَإِرْحَاجِ أَهْلِيهِ، مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُبْقِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ اسْتَكْبَرُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ، فِيمَنْتَ وَهُوَ كَارٍ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٦﴾.

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليرتصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب، وهم يظنون من جمادى الآخرة. فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويذعر فيه الناس إلى معايشهم، فوقف رسول الله ﷺ العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة، والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و﴿قتال فيه﴾ يدل الاشتمال من الشهر، وفي قراءة عبد الله: عن قتال فيه، على تكرير العامل، كقوله ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾^(٣) وقرأ عكرمة: قتل فيه، قل: قتل فيه كبير، أي إثم كبير. وعن عطاء أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام، إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. ﴿وصد عن

﴿إم﴾ منقطعة، ومعنى الهزمة فيها للتقرير، وإنكار الحسين واستبعاده. ولما نكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿إم حسبتم﴾. ﴿ولما﴾ فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرة قد في الإثبات، والمعنى: أن إتيان ذلك متوقع منتظر. ﴿مثل الذين خلوا﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة، و﴿مستهم﴾ بيان للمثل، وهو: استئثار، كان قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقبل: مستهم البساء. ﴿وزلزلوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة، بما أصابهم من الأهوال والأفزع، ﴿حتى يقول للرسول﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها ﴿ومتى نصر الله﴾ أي: بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب الصبر وتمنيه واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية لبلى على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم؛ لأن الرسل لا يقار قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها. ﴿إلا إن نصر الله قريب﴾ على إرادة القول، يعني: فقبل لهم: ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر. وقرئ: حتى يقول، بالنصب على إضمار أن، ومعنى: الاستقبال، لأن أن علم له، وبالرفع على أنه في معنى الحال، كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجز بطنه، إلا أنها حال ماضية محكية.

يَسْأَلُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَإِنَّ السَّكِينِ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾.

فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قل ما أنفقتم﴾، وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا ببيان المصروف؟ قلت: قد تضمن قوله ما أنفقتم ﴿من خير﴾ بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصروف، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. قال الشاعر:

إن الصنيفة لا تكون صنيفة حتى يصاب بها طريق المصنع
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه جاء عمرو بن الجموح، وهو شيخ هم وله مال عظيم، فقال: ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت، وعن السدي: هي منسوخة بغير الزكاة. وعن الحسن: هي في التطوع.

كَيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْفَيْتَالٌ وَهُوَ كَرٌّ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

(3) سورة الأعراف، الآية: 75.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 15.

(2) الواحدي في أسباب النزول، ص 38.

وَمَنْعِ لِلنَّاسِ وَإِزْمِمْهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسَتَلُوكَ مَاذَا يُفْعَلُونَ قُلِ
الْمَعْرُوفُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَكُم تَنْفَكُونَ ﴿١١٨﴾.

نزلت (1) في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ﴿ومن ثمرات
النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ (2) فكان المسلمون
يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمر ومعانداً ونفراً من
الصحابة قالوا: يا رسول الله اقتنا في الخمر فإنها مذهب
للعقل مسلبة للمال (3). فنزلت: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع
للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن
عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فأمَّ بعضهم، فقرأ: قل يا
أيها الكافرون أعبد ما تعبدون. فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة
وأنتم سكارى﴾ (4). فقلَّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك
قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا،
وتناشوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار
فضربه أنصاري بلحي بعير فشجّه موضحة، فشكا إلى
رسول الله ﷺ، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا
شافياً. فنزلت: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ (5) إلى قوله: ﴿فهل
أنتم منتهون﴾ (6) فقال عمر رضي الله عنه: انتبهنا يا رب،
وعن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت
مكانها منارة لم أؤنن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف
ونبت فيه الكلال لم أرفع (7). وعن ابن عمر رضي الله عنهما:
لو أنخلت أصبعي فيه لم تتبعني (8). وهذا هو الإيمان حقاً
وهم الذين اتقوا الله حق تقاته.

والخمر: ما غلى واشتدَّ وقنف بالزبد من عصير العنب،
وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن
طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلى واشتدَّ ذهب خبثه ونصيب
الشيطان، وحلَّ شربه ما نون السكر إذا لم يقصد بشربه
اللهم والطرب. عند أبي حنيفة وعن بعض أصحابه: لأن
أقول مراراً هو حلال أحب إليَّ من أن أقول مرة هو حرام،
ولأنَّ آخر من السماء فاتقطع قطعاً أحب إليَّ من أن أتناول

سبيل الله ﴿ مبتدأ، واكبر خبره. يعني: وكبائر قريش من
صدَّهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وكفرهم بالله،
 وإخراج أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله والمؤمنون.
﴿أكبر عند الله﴾ مما فعلته السرية من القتال في الشهر
الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على الظن. ﴿والفئنة﴾
الإخراج أو الشرك. والمسجد الحرام عطف على سبيل الله،
ولا يجوز أن يعطف على الهاء في به. ﴿ولا يزالون
يقاتلونكم﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم
لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها:
التعليل، كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي:
يقاتلونكم كي يردوكم، و﴿إن استطاعوا﴾ استبعاد
لاستطاعتهم. كقول الرجل لعنوه: إن ظفرت بي فلا تبق
علي، وهو واثق بأنَّه لا يظفر به ﴿ومن يرتدد منكم﴾
ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطلوهم على رده إليه.
﴿فيمت﴾ على الردة. ﴿فأولئك حبطلت أعمالهم في الدنيا
والآخرة﴾ لما يفوتهم بإحداث الردة مما للمسلمين في
الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من
ثواب الآخرة. وبها احتج الشافعي على أنَّ الردة لا تحبط
الأعمال حتى يموت عليها. وعند أبي حنيفة أنها تحبطها
وإن رجع مسلماً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَوَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكْبَرُ
رَجُونَ رَحِمَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾.

﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ روي أن عبد الله بن
جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ظنَّ قوم أنهم إن
سلموا من الإثم فليس لهم أجر. فنزلت: ﴿أولئك يرجون
رحمت الله﴾ وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم
جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وإنه من رجاء طلب،
ومن خاف هرب.

﴿سَتَلُوكَ غِبَّ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

(1) قال أحمد: ويظهر لي سر واقع، مما نكره في هذا الغرض، وذلك
أنَّ السؤال الأوَّل من الأسئلة المقرونة بالواو، عين السؤال الأوَّل
من الأسئلة المجردة عن الواو، ولكن وقع جوابه أوَّلاً بالمصرف؛
لأنه الأهم، وإن كان المسؤل عنه، إنما هو المنفق لا وجه مصرفه،
ثم لما لم يكن في الجواب الأوَّل تصريح بالمسؤل عنه، أعيد
السؤال، ليجابوا عن المسؤل عنه صريحاً، فقبيل العقوف، أي:
الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حينما ورد في
تفسيره، فتعيين إذا افتتران هذا السؤال بالواو، ليرتبط بالآخر
ويحتمل أنهم لمَّا أجيبوا أوَّلاً ببيان جهة المصرف، ولم يصرح
لهم بالجواب على عين المنفق ما هو أعاد السؤال، لكي يتلقوا
جوابه صريحاً، فتعيين دخول الواو، وأما السؤال الثاني من الأسئلة
المقرونة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى، وهل يجوز لهم
مخالطتهم في النفقة، والكسوة، والسكنى، وقد كانوا يتخرجون من
ذلك في الجاهلية، فلما كان مناسباً للسؤال عن الإنفاق، باعتبار
المنفق، وباعتبار جهة المصرف عطف عليه، ليكمل لهم بيان
المشرعية في النفقة، وأدائها لليتيم بيانياً شافياً؛ لأنه قد اجتمع
في علمهم ما ينفقون، وفيهم ينفقون، وعلى أي حالة ينفقون من

- (2) سورة النحل، الآية: 67.
(3) أخرجه الثعلبي من غير إسناد، قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ /1
132.
(4) سورة النساء، الآية: 43.
(5) سورة المائدة، الآية: 90.
(6) سورة المائدة، الآية: 91.
(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 4/8 كتاب: الأشربة، باب: في
الخمر.
(8) أخرجه أحمد في المسند 446/1.

﴿العفو﴾ نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه لجهد واستفراغ الوسع. قال:

خذني العفوني تستبيمي موتني

ويقال للأرض السهلة العفو، وقرئ: بالرفع والنصب. وعن النبي ﷺ: **أَنْ رَجُلًا آتَاهُ بَبِيضَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَصَابَهَا فِي بَعْضِ الْمَغَارِي فَقَالَ: خَذَهَا مِنْي صَدَقَةٌ.** فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فاتاه من الجانب الأيمن، فقال مثله، فأعرض عنه، ثم آتاه من الجانب الأيسر، فأعرض عنه. فقال: **هَاتَهَا، مَغْضَبًا.** فأخذها فخنفه بها خنقاً لو أصابه لشجه أو عقده، ثم قال: **«يَجِيءُ أَحْلَمُكُمْ بِمَالِهِ كُلِّهِ يَتَصَلَّقُ بِهِ وَيَجْلِسُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ، إِنَّمَا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غَنَى.»**

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَتَلَوَّنَكَ عَنِ الْإِسْتِمَاءِ قُلْ إِسْلَاحٌ لِمَنْ حَرَّ وَإِنْ عَاظُوهُمْ فَاجُوزَتْكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَوَسَاةَ اللَّهِ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٣).

﴿في الدنيا والآخرة﴾ إما أن يتعلق بـ ﴿تتفكرون﴾، فيكون المعنى: لعلمكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخون بما هو أصلح لكم، كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع، ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾^(٣) لتتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة، والنفع في الدنيا، حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم. وإما أن يتعلق بـ (يبين) على معنى يبين لكم الآيات في أمر الدارين، وفيما يتعلق بهم لعلمكم تتفكرون. لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾^(٤) اعتزلوا اليتامى وتحاموهم وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم والاهتمام بمصالحهم، فشق ذلك عليهم وكاد يوقعهم في الحرج، فقيل: ﴿إصلاح لهم خير﴾ أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم. ﴿وإن تخالطوهم﴾ وتعشروهم، ولم تجانبوهم ﴿فهم﴾ إخوانكم في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه، وقد حملت المخالطة على المصاهرة. ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي: لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح، فيجازهيه على حسب مداخلتهم، فأحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح. ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ لحملك على العنت، وهو المشقة وأحرجكم، فلم يطلق لكم مداخلتهم. وقرأ طائوس: قل إصلاح إليهم، ومعناه: إيصال الصلاح. وقرئ: لعنتكم، بطرح الهمة والقاء حركتها على اللام، وكذلك فلا إثم عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم ولكنه ﴿حكيم﴾ لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم.

منه قطرة. وعند أكثر الفقهاء هو حرام كالخمر، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب، وسميت خمرًا لتغطيتها العقل والتمييز، كما سميت سكرًا لأنها تسكرهما أي: تحجزهما، وكانها سميت بالمصدر من خمره خمرًا إذا ستره للمبالغة.

والميسر: القمار مصدر من يسر، كالموعد والمرجع من فعلهما يقال: يسرته إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر، لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب، أو من اليسار، لأنه سلب يساره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله. قال:

أقول لهم بالشعب إذ يسرونني

أي: يفعلون بي ما يفعل اليسرون بالميسور.

فإن قلت: كيف صفة الميسر؟ قلت: كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام والقد والتوام والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلي والمنيح والسفيح والوغد، لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزونها عشرة أجزاء، وقيل: ثمانية وعشرين إلا لثلاثة، وهي: المنيح، والسفيح، والوغد. ولبعضهم:

لسي في الدنيا سهام ليس فيهن ربيحو
أساميهن وغد وسفيح ومنيح

للفذ سهم، وللتوام سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة: وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلي سبعة يجعلونها في الرباية وهي خريطة يضعونها على يدي عدل، ثم يجلسها ويخلل يده فيخرج باسم رجل رجل قبحاً منها، فمن خرج له قدح من نوات الانصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الانصباء إلى الفقراء، ولا ياكلون منها ويفتخرون بذلك، ويمون من لم يخلل فيه، ويسمونه البرم، وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما، وعن النبي ﷺ: ﴿إياكم وفاتن اللعبتين المشؤومتين فإنهما من ميسر العجم﴾^(١). وعن علي رضي الله عنه: «أَنَّ النرد والشطرنج من الميسر»^(٢)، وعن ابن سيرين: كل شيء فيه خط فهو من الميسر، والمعنى: يسالونك عما في تعاطيهما بدليل قوله تعالى: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ ﴿وإثمهما﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أكبر من نفعهما﴾ وهو الالتذان بشرب الخمر، والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصانقات الفتيان ومعاشراتهم والنيل من مطاعهم، ومشاربهم، وأعطيتهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الإبرام. وقرئ: إثم كثير، بالثاء. وفي قراءة أبي: وإثمهما أقرب، ومعنى الكثرة: أن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الأثام من وجوه كثيرة.

(١) أخرجه التبريزي في «مشكاة المصابيح» (الحديث: 4510).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الرجل يخرج من ماله

الحديث رقم: (1673)، والدارمي في كتاب: الزكاة، باب: النهي عن

الصنعة بجميع ما عند الرجل الحديث رقم: (1659)، وأخرجه ابن =

= حبان في كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع الحديث رقم: (3372).

(3) سورة البقرة، الآية: 219.

(4) سورة النساء، الآية: 10.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْتَمَةٌ حَتَّىٰ تَنْسُرِكُ مِنْ مُّشْرِكِيكُمْ وَلَا عَمِّيَّةٌ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَمَّذٌ مُّؤْمِنٌ حَتَّىٰ مِنْ مُّشْرِكِيكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَاللَّهُ يُدْعَوُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَرَبِّيَ الْكَافِرِينَ لِلَّذِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ولا تنكحوا﴾ وقرئ: بضم التاء، أي: لا تتزوجوهن أو لا تزوجوهن. و**﴿المشركات﴾** الحريبات، والآية ثابتة، وقيل: المشركات الحريبات والكتابات جميعاً لأن أهل الكتاب من أهل الشرك لقوله تعالى: **﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾** وقالت النصارى المسيح ابن الله⁽¹⁾ إلى قوله تعالى: **﴿سبحانه عما يشركون﴾**⁽²⁾ وهي منسوخة بقوله تعالى: **﴿والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**⁽³⁾ وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط، وهو قول ابن عباس، والأوزاعي. وروي أنّ رسول الله ﷺ بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق فاتته، وقالت: لا انخلو. فقال: ويحك إنّ الإسلام قد حال بيننا، فقالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فاستأمره، فاستأمره، فنزلت⁽⁴⁾. **﴿ولامة مؤمنة خير﴾** ولامة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، وكذلك **﴿ولعبد مؤمن﴾** لأن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. **﴿ولو أعجبكم﴾** ولو كان الحال أنّ المشركة تعجبكم وتحبونها، فإنّ المؤمنة خير منها مع ذلك. **﴿أولئك﴾** إشارة إلى المشركات والمشركين. أي: يدعون إلى الكفر فحقم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال. **﴿والله يدعو إلى الجنة﴾** يعني: وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة. **﴿والمغفرة﴾** وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم. **﴿بإذنه﴾** بتيسير الله وتوفيقه لعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة. وقرأ الحسن: والمغفرة بإذنه، بالرفع. أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره.

رَبِّعَلُونَكَ عَنِ الْمَرْحُومِ قُلْ هُوَ الَّذِي فَاعْتَرَلُوا أُنْسَاءً فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوا حَتَّىٰ يَطْهَرُوا إِذَا تَقَرَّعَنَ فَأَقْرَعُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٣١﴾

﴿المحيض﴾ مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً وبيات مبيتاً. **﴿قل هو أذى﴾** أي: الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه، فرة منه وكراهة له. **﴿فاعتزلوا﴾**

﴿النساء﴾ فاجتنبوهن يعني فاجتنبوا مجامعتهن. روي: أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يواكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت، كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة، فإن أترناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحيض. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت، كفعل الأعاجم»⁽⁵⁾. وقيل: إنّ النصارى كانوا يجامعونهن ولا يباليون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين. وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فابو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أنّ عبد الله بن عمر سأله: هل يباشر الرجل امراته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها على سفلتها، ثم ليبارها إن شاء⁽⁶⁾. وما روى زيد بن أسلم: أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ: ما يحل لي من امراتي وهي حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها»⁽⁷⁾. ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة. وقد جاء ما هو أخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك⁽⁸⁾.

وقرئ: يطهرن، بالتشديد، أي: يطهرن، بلبيل قوله: **﴿فإذا تطهرن﴾** وقرأ عبد الله: حتى يطهرن. ويطهرن بالتخفيف، والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض. وكلتا القراءتين مما يجب العمل به. فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح ويعضده قوله: **﴿فإذا تطهرن﴾** **﴿من حيث أمركم الله﴾** من المأتي الذي أمركم الله به وحلله لكم؛ وهو القبول. **﴿إن الله يحب المتطهرين﴾** مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك **﴿ويحب المتطهرين﴾** المتنزهين عن الفواحش، أو إن الله يحب المتطهرين الذين يطهرون أنفسهم بطهارة التوبة من كل ذنب، ويحب المتطهرين من جميع الأقدار كمجامعة الحائض، والظاهر

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الطهارة، باب: ما يحل للرجل من امراته وهي حائض الحديث رقم: (93).
 (6) أخرجه مالك في الموطأ، برواية محمد بن الحسن، كتاب أبواب الصلاة، باب: الرجل يصيب من امراته أو يباشرها وهي حائض الحديث رقم: (73).
 (7) أخرجه الدرهمي في كتاب: الطهارة، باب: مباشرة الحائض الحديث رقم: (1040) ولم يذكر ذلك ما سواه.
 (8) لم أجد. كذا قال ابن حجر.

(1) سورة التوبة، الآية: 30.
 (2) سورة التوبة، الآية: 31.
 (3) سورة المائدة، الآية: 5.
 (4) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في قوله تعالى: ﴿الزانية لا ينكح إلا زانية﴾ الحديث رقم: (2051)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النور، الحديث رقم: (3176)، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب: تزويج الزانية الحديث رقم: (3228).

قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباح وغير ذلك.

يَسْأَلُكَ رَبُّكَ لِمَ قَاتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَاتِلْتُمُوهُمْ وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾

﴿حُرث لكم﴾ مواضع حرث لكم، وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿قاتلوا حرثكم أنى شئتم﴾ تمثيل أي: فاتوهن كما تاتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة نون جهة، والمعنى: جامعهن من أي شق أردتم بعد أن يكون الماتى واحداً وهو موضع الحرث، وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾ (1) ﴿من حيث أمركم الله﴾ (2) ﴿قاتلوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنایات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم. وروي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجيبة من برها في قبلها كان ولدها أحول. فنكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كذبت اليهود» (3). ونزلت: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ ما يجب تقيمه من الأعمال الصالحة، وما هو خلاف ما نهيتكم عنه. وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء. ﴿وانقوا الله﴾ فلا تجرؤوا على المناهي ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ فتزولوا ما لا تفضحون به، ﴿وبشروا المؤمنين﴾ المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات.

فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ ما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فاتوهن﴾ من حيث أمركم الله (4) يعني: أن الماتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له، وتفسيراً وإزالة للشبهة، ودلالة على أن الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تاتوهن إلا من الماتى الذي يتعلق به هذا الغرض.

فإن قلت: ما بال ﴿يسألونك﴾ جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قلت: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأولى وقع في أحوال متفرقة فلم يؤت بحرف

العطف لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوها عن الحوادث الآخر في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق. والسؤال عن كذا وكذا.

وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا عُرْضَةً لِيُنَبِّئِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّوا بِرَبِّكَ الْأَنْبِيَاءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

العرضة: فعلة بمعنى: مفعول، كالقبضة والغرفة. وهي اسم ما تعرضه نون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض نونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة نون الخير، والعرضة أيضاً المعرض للأمر. قال: فلا تجعلوني عرضة للوالم

ومعنى الآية: على الأولى أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه. فقيل لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ أي: حاجزاً لما حلفت عليه، وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمره: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فات الذي هو خير وكفر عن يمينك» (5). أي: على شيء مما يحلف عليه، وقوله: ﴿أن تبرؤوا وتتقوا وتصلحوا﴾ عطف بيان لأيمانكم أي: للأمر المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

فإن قلت: بم تعلقت اللام في ﴿لأيمانكم﴾؟ قلت: بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض بمعنى لا تجعلوه شيئاً يعترض البر. من اعترضني كذا، ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبرؤوا بالفعل أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل إيمانكم به عرضة لأن تبرؤوا، ومعناها: على الأخرى، ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه، ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ بأشنع المذام وجعل الحلاف مقمته، وأن تبرؤوا علّة للنهي. أي: إرادة أن تبرؤوا وتتقوا وتصلحوا.

(1) سورة البقرة، الآية: 222.

(2) سورة البقرة، الآية: 222.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الحديث رقم: (4528)، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: جواز جماعة امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها، الحديث رقم: (3521 و3522)، وأبو داود في السنن، كتاب: النكاح، باب: في جامع النكاح الحديث رقم: (2160)، والترمذي في التفسير، باب: من سورة البقرة الحديث رقم: (2980)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب: النهي من إتيان النساء في أديارهن الحديث رقم: (7925)، كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة، الحديث رقم: (3192).

(4) سورة البقرة، الآية: 222.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: من لم يسأل الإمارة الحديث رقم: (7146)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: نذب من حلف يميناً... الحديث رقم: (4257)، وأخرج أبو داود الشطر الأول في كتاب الخراج والإمارة، باب: ما جاء في طلب الإمارة الحديث رقم: (2929) والشطر الثاني أخرجه في الأيمان والذنور، باب: العبد يكفر قبل أن يحث الحديث رقم: (3277)، والترمذي في كتاب: الذنور والأيمان، باب: ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها الحديث رقم: (1529)، وأخرجه النسائي في كتاب: آداب القضاة، باب: النهي عن مسالة الإمارة الحديث رقم: (5399)، الشطر الأول والشطر الثاني، أخرجه في كتاب الأيمان، باب: الكفارة قبل الحث الحديث رقم: (3792).

فَأَنْ قُلْتَ: كيف عدي بمن، وهو معدى يعلى؟ قلت: قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين أو مقسمين، ويجوز أن يراد لهم **﴿من نسائهم تربعص أربعة أشهر﴾** كقوله: لي منك كذا. والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقليد بالأشهر، أو لا أقربك على الإطلاق. ولا يكون في ما دون أربعة أشهر إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي، وحكم⁽¹⁾ نك أنه إذا فاء إليها في المدة بالوطء إن أمكنه، أو بالقول إن عجز، صح الفاء وحنت القادر ولمزمته كفارة اليمين، ولا كفارة على العاجز. وإن مضت الأربعة بانته بتطبيقه عند أبي حنيفة، وعند الشافعي لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر، ثم يوقف المولي، فأما أن يفى، وإما أن يطلق، وإن أبى طلق عليه الحاكم. ومعنى قوله: **﴿فإن فاءوا﴾** فإن فاءوا في الأشهر، بليل قراءة عبد الله: **﴿فإن فاءوا فيهن﴾** **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء، وهو الغالب، وإن كان يجوز أن يكون رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل، أو لبعض الأسباب لأجل الفينة التي هي مثل التوبة.

وَأَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ فتربصوا إلى مضي المدة **﴿فإن الله سميع عليم﴾** وعيد على إصرارهم وتركهم الفينة. وعلى قول الشافعي رحمه الله معناه: فإن فاءوا، وإن عزموا بعد مضي المدة.

فَأَنْ قُلْتَ (2): كيف موقع الفاء إذا كانت الفينة قبل انتهائها مدة التبرص؟ قلت: موقع صحيح لأن قوله: **﴿فإن فاءوا﴾** وإن عزموا، تفصيل لقوله: **﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾** والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: إننا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمتم عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما اتحول.

فَأَنْ قُلْتَ: ما تقول في قوله: **﴿فإن الله سميع عليم﴾** (3)

لأن الحلاف مجتري على الله غير معظم له، فلا يكون برأ متقياً ولا يثق به الناس فلا يخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَمْرِ فِي أَيْتِنَاكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾

اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره، ولذلك قيل: لما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل لغو، واللغو من اليمين الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان، وهو الذي لا عقد معه، والدليل عليه: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان بما كسبت قلوبكم. واختلف الفقهاء فيه فعند أبي حنيفة وأصحابه، هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه. وعند الشافعي: هو قول العرب لا والله، وبلى والله، مما يؤكدون به كلامهم، ولا يخطر ببالهم الحلف، ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام، لأنكر ذلك. ولعله قال: لا والله ألف مرة، وفيه معنيان:

أحدهما: لا يؤاخذكم، أي: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحكم بالظن، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم. أي: اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين. وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس.

والثاني: لا يؤاخذكم، أي: لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم. أي: بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان. ولم يكن كسب اللسان وحده. **﴿والله غفور حليم﴾** حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قرأ عبد الله: **﴿ألوأ من نسائهم﴾** وقرأ ابن عباس: يقسمون من نسائهم.

(1) = تربصت لك أربعة أشهر، المقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة، فلذلك التبرص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب أجل المولى، قد تربصت لك أربعة أشهر، كما قال الله تعالى **﴿لينظر أبفي﴾** ويصلى رب الدين في أن يقول لمديانته حالة القرض قد أجلتكم بهذا الدين سنة، وإن المقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة، فلذلك التبرص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب أجل المنكور، فالفينة الواقعة في الأجل إنما يقع بعده، فالفاء على بابها المعروف.

(2) قال أحمد رحمه الله: في هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبي حنيفة رضي الله عنه، فيقال له إذا كان مضي الأربعة الأشهر، يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه، غير موقوف على إيقاع من أحد، فما الذي يسمع إناً وهو أمكن من السؤال الذي قدره الزمخشري، فإن لقاتل أن يقول: عبّر بالعزم عن الإيقاع؛ لأنه يستلزمه غالباً، وفي أثناء كلامه نكتة تحتاج إلى التنبيه عند قوله، والعزم مما يعلم ولا يسمع والذي ننبه عليه أن =

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التفسير منزل على مذهب أبي حنيفة؛ لأنه لا يرى الفينة بعد انقضاء الأربعة الأشهر مقيدة، إذا وقع الطلاق بنفس مضيها، لا تكون الفينة معتبرة عنده، إلا في أربعة الأشهر خاصة.

(2) قال أحمد رحمه الله: هذا جواب عن سؤال موجه على أبي حنيفة رضي الله عنه؛ لأنه إذا رأى الفينة في الأشهر الأربعة، خاصة لا فيما بعدها، والله تعالى عطف الفينة على تبرص أربعة أشهر بالفاء، ومقتضاها كما علمت وقوع ما عطفه بعدما عطفه عليه، فيلزم وقوع الفينة المعتبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة، وأبو حنيفة بابها، فلذلك أجاب عنه الزمخشري بجوابه المتقدم، والسؤال عندي يندفع بطريق آخر، وهو أن المعطوف عليه التبرص، وهو حاصل من أول المدة، فوقوع الفينة في الأربعة الأشهر على تربصها، بناء منه على أنه لا يصدق قول القاتل قد تربصت بفلان أربعة أشهر، إلا إذا انقضت المدة، وليس الأمر كذلك، فإنه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولى، قد =

نسانكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر⁽³⁾ فأقام الأشهر مقام الحيض ونون الأطهار؛ ولأن الغرض الأصلي في العدة استبراء الرحم والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام نون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة، ويقال: أقرت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرءة. وقال أبو عمرو بن العلاء: نفع فلان جاريته إلى فلانة تفرقتها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء.

فإن قلت: فما تقول في قوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ الطلاق الشرعي، وإنما هو في الطهر؟ قلت: معناه: مستقبلات لعدتهن، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلًا لثلاث، وعدتهن الحيض الثلاث.

فإن قلت: فما تقول في قول الأعشى:

لما ضاع فيها من قروء نسانكا

قلت: أراد لما ضاع فيها من عدة نسانك لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن. أي: من مدة طويلة كالمدة التي تعدت فيها النساء. استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات، وأنه تمر على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاعف فيها، أو أراد من أوقات نسانك، فإن القرء والقارئ جاء في معنى الوقت، ولم يرد لا حيضاً ولا طهراً.

فإن قلت: فعلام انتصب ﴿ثلاثة قروء﴾؟ قلت: على أنه مفعول به، كقولك: المحتكر يتربص بالفلاء أي: يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء.

فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة نون القلة التي هي الأقراء؟ قلت: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿هيا نفسهن﴾ وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع. وقرأ الزهري: ثلاثة قرو بغير همزة. ﴿وما خلق الله في أرحامهن﴾ من الولد، أو من دم

وعزمهم الطلاق مما يعلم، ولا يسمع. قلت: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفية والضرار لا يخلو من مقابلة ودمية، ولا بد له من أن يحدث نفسه ويتأججها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله، كما يسمع وسوسة الشيطان.

والمطلقات بربصت بأنفسهن فلكنه قروء ولا يحل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كنن يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤمنن أخن برؤهن في ذلك إن أودوا إحساناً وكان مثل الذي عليهن بالمؤمنن واللاتل عليهن درةً والله عزيز حكيم (33).

والمطلقات أراد المدخول بهن من نوات الأقراء. فإن قلت: كيف جازت إراتهن خاصة، واللفظ يقتضي العموم؟ قلت: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكه وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك.

فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خير في معنى الأمر، وأصل الكلام ولتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكانهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها، وينأوه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة.

فإن قلت: هلا قيل: يتربصن ثلاثة قروء، كما قيل: تربص أربعة أشهر. وما معنى نكر الأنفس؟ قلت: في نكر الأنفس تبييض لهن على التربص وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال فأمرن أن يقمن أنفسهن ويفلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

والقروء: جمع قرء أو قرء. وهو: الحيض، ببليد قوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك»⁽¹⁾. وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»⁽²⁾. ولم يقل طهران. وقوله تعالى: ﴿واللاتي يئسن من المحيض من

المسألة، فنقول مضي أربعة الأشهر، بمجرد لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج؛ لأن الأصل بقاء العصمة، وقد جعل الله له الفية بعد تربص الأجل المنكور، ونحن وإن بينا أولاً أن الآية لا تلبس وقوع الفية في الأجل، وهي أيضاً تلبس وقوعها بعد الأجل، فينتظم من أصلية، أعني بقاء.

(1) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحيض الحديث رقم: (36).
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في سنة طلاق العبد (الحديث رقم: (2189)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في أن طلاق الأمة تطليقتان الحديث رقم: (1182)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: في طلاق الأمة وعدتها، الحديث رقم: (2080)، وأخرجه الدارقطني عن ابن عمر، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء الحديث رقم: (104).

(3) سورة الطلاق: الآية: 4.

قاعدة أهل السنة، أن كل موجود يجوز أن يسمع، حتى الجواهر والألوان، والمعاني بجملتها، وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم، وليس بحرف، ولا صوت، فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً، ولا نطقاً غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع، ومرئي، وملسوس، ومشموم، ومذوق، وهو المعلوم بالحواس، وإلى معلوم بغير ذلك، وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده، وإن كان الزمخشري ثابتاً، فيما قاله على الأمر العرفي معتقداً ما نكرناه من حيث المعروف، وما أراه كذلك، فالأمر سهل، وإن كان أخرج كلامه المنكور على قاعدة الاعتزال، وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات، لا يجوز أن يسمع عقلاً، فالحنز الحنر من هذه القاعدة الفاسدة، والله المستعان، ثم لا بد لنا في مسألة الإيلاء من الجبر، لما يعتقد من مذهب مالك رضي الله عنه، ومذهب مالك رضي الله عنه، هو الذي اقتفاه الشافعي رضي الله عنه في

الحيض، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لثلاثا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولثلاثا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض قد طهرت استعجالاً للطلاق، ويجوز أن يراد اللاتي يبيغين إسقاط ما في بطونهن من الاجنة، فلا يعترفن به ويحصدن لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه ﴿إِنْ كُنْ يَوْمُنَ بِبَاطِنِ الْيَوْمِ الْآخَرَ﴾ تعظيم لفعالهن، وأن من آمن بالله ويعقابه لا يجترئ على مثله من العظام. والبعولة جمع بعول، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع، كما في الحزونة والسهولة، ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعول حسن البعولة، يعني: واهل بعولتهن. ﴿أَحَقُّ بِرُؤْسِهِنَّ﴾ برجعتهن. وفي قراءة أبي: برئتهن. ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ في مدة ذلك التريص.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف جعلوا أحق بالرجعة، كان للنساء حقاً فيها؟ قُلْتَ: المعنى: أن الرجل إن أراد الرجعة وأبنتها المرأة يجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً في الرجعة. ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَاحاً﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهن. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهن، ولا يكلفونهن ما ليس لهم، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال. ﴿بِدَرَجَةٍ﴾ زيادة في الحق وفضيلة. قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

أَلَطَّقَ مَرَّتَيْنِ فَمَا سَأَلَ بِمُرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتْرًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُبَيِّنَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُبَيِّنَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿الطلاق﴾ بمعنى: التطلق كالسلام بمعنى: التسليم، أي: التطلق الشرعي، تطلقه بعد تطلقه على التفريق دون الجمع والإرسال بفعلة واحدة، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير. كقوله: ﴿ثم أرجع البصر كرتين﴾ (1) أي: كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من التثنية التي يراد بها التكرير قولهم: لبيك وسعديك وحنانيك وهذا نيك

وبإحسان﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجبهن، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرتان، لأنه لا رجعة بعد الثلاث، فإمسك بمعروف أي: برجعة، أو تسريح بإحسان، أي: بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدة، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضرارها. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث، وروي: أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ: أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان» (2). وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطلقين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال له: إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا فتطلقها لكل قرء تطلقه (3). وعند الشافعي: لا بأس بإرسال الثلاث، لحديث العجلاني الذي لاعن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه. روي أن جميلة بنت عبد الله بن أبي كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يحبها، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا أنا ولا ثابت، ولا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قاماً وأقبحهم وجهاً (4)، فنزلت. وكان قد أصنقها حقيقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام.

فَأَنْ قُلْتَ: لمن الخطاب في قوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾، إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾، وإن قلت: للأئمة والحكام، فهو لأ ليسوا بأخذين منهم ولا بمؤتبهين. قلت: يجوز الأمران جميعاً، أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره. وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكانهم الأخذون والمؤتون. ﴿مما آتيتموهن﴾ مما أعطيتموهن من الصدقات ﴿إلا أن يخافا﴾ إلا يقيما حدود الله، إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها. ﴿فلا جناح عليهما﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت. ﴿فيمما افتدت به﴾ فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾... الحديث رقم: (4745)، ومسلم في كتاب: اللعان الحديث رقم: (3723).

(1) سورة الملك، الآية: 4.

(2) أخرجه الدارقطني في كتاب: الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (1)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 259/5، كتاب: الطلاق، باب: قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾.

(3) أخرجه الدارقطني في كتاب الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (84).

قولك الأول، فلن أصدقك في الآخر. فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ، فأتت أبا بكر رضي الله عنه، فقالت: أرجع إلى زوجي الأول؟ فقال: قد عهدت رسول الله ﷺ حين قال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه قالت مثله لعمر رضي الله عنه، فقال: إن أتيتني بعد مرتك هذه لأرجمك، فممنها.

فإن قلت: فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟
قلت: ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة، وعنه أنها إن أضرمت التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة. وعن النبي ﷺ أنه لعن المحلل، والمحلل⁽⁴⁾ له. وعن عمر رضي الله عنه: لا أوتي بمحلل، ولا محلل له إلا رجمتها⁽⁵⁾. وعن عثمان رضي الله عنه: لا إلا نكاح رغبة غير مدالسة. **﴿فإن طلقها الزوج الثاني﴾**، **﴿إن يترجعا﴾** أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزوج. **﴿إن ظننا﴾** إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية، ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن هنا بالعلم، فقد وهم من طريق اللفظ، والمعنى: لأنك لا تقول علمت أن يقوم زيد، ولكن علمت أنه يقوم، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنما يظن ظناً.

وَإِذَا طَلَّقَ الْمَرْءُ الْمَرْءَ فَلَمْ يَلِدْ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ بَعْرُونَ أَوْ سَرَّحْتُمْ بَعْرُونَ وَلَا تُكْرَهُنَّ صِرَاحًا لِمَتَدَا وَمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ فَقَدْ طَلَّقَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْكِحُوا أَبَاتِ اللَّهِ هُرُورًا وَأَذْكَرًا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعَلِّمُكُمْ بِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾.

﴿فيلغن أجلهن﴾ أي: أحر عدتهن وشارفن منتهاها، والأجل: يقع على المدة كلها وعلى آخرها. يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به أجل، وكذلك الغاية والآمد. يقول النحويون من لابتداء الغاية، وإلى لانتها الغاية. وقال:

كل حي مستكمل مدة العم روموت إذا انتهت أمده

من المهر والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم. وروي أن امرأة نشرت على زوجها، فرفعت إلى عمر رضي الله عنه، فاباتها في بيت الزيل ثلاث ليال، ثم دعاها، فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: ما بت منذ كنت عنده أقر لعيني منهون، فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها⁽¹⁾. قال قتادة: يعني بمالها كله هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه كره له أن يأخذ منها شيئاً.

وقرىء: إلا أن يخافا على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال، كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله. ونحوه: **﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾**. ويعضده قراءة عبد الله: إلا أن تخافوا. وفي قراءة أبي: إلا أن يظننا، ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن. يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون يريدون الظن.

وَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنْدَ لَكُمْ مِنْ بَدْحٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿فإن طلقها﴾ الطلاق المنكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى: **﴿الطلاق مرتان﴾**⁽²⁾ واستوفى نصابه، أو فإن طلقها مرةً ثالثة بعد المرتين **﴿فلا تحل له من بعده﴾** من بعد تلك التطلق، **﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾** حتى تتزوج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجل كما الزوج، ويقال: فلانة ناكح في بني فلان، وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره، وهو سعيد بن المسيب، والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة؛ لما روى عروة عن عائشة رضي الله عنها: أن امرأة رفاعة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما معه مثل هبة الثوب، وإنه طلقني قبل أن يمسنني، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تنوقي عسيلته وينوق عسيلتك»⁽³⁾. وروي: أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت، فقالت: إنه كان قد مسني، فقال لها: «كذبت في

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (5227)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ ما أعطاهما، الحديث رقم: (2056)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (2227)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (3462)، وأحمد في المسند 434/6، ومالك في الموطأ، كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الخلع الحديث رقم: (31)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ من أعطاهما الحديث رقم: (2057)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: من أجاز طلاق الثلاثة الخ. الحديث رقم: (5260)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى... الحديث رقم: (3512).

(2) سورة البقرة، الآية: 229.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في المحل، الحديث =

(4) أخرجه الحاكم حديث ابن عمر في المستدرک 199/2.

(5) عبد الرزاق في مصنفه 265/6 الحديث رقم: (10777)، وأخرجه ابن أبي شيبة في 294/4، كتاب: النكاح، باب: في الرجل يطلق امرأته.

ويتسع في البلوغ أيضاً، فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه، ويقال: قد وصلت، ولم يصل وإنما شارف. ولأنه قد علم أن الإمسك بعد تقضي الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له في غير عدة منه، فلا سبيل له عليها.

﴿فامسكوهن بمعروف﴾، فإذا ان راجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، **﴿أو سرحوهن بمعروف﴾**، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار. **﴿ولا تمسكوهن ضرار﴾**، كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمسك ضراراً. **﴿لتعتدوا﴾** لنظلموهن، وقيل: لتلجئوهن إلى الافتداء. **﴿فقد ظلم أنفسه﴾** بتعريضها لعقاب الله. **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوا﴾** أي: جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخنتموها هزواً ولعباً. ويقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازيء، ويقال: كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج، ويقول: كنت لاعباً. وعن النبي ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق، والنكاح، والرجعة»⁽¹⁾. **﴿وانكروا نعمة الله عليكم﴾** بالإسلام، وبينوة محمد ﷺ. **﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾** من القرآن والسنة، وذكرها: مقابلتها بالشكر والقيام بحقها. **﴿يعظكم به﴾** بما أنزل عليكم.

وَيَتَسَعُ فِي الْبُلُوغِ أَيْضاً، فَيُقَالُ: بَلَغَ الْبَلَدَ إِذَا شَارَفَهُ وَدَانَاهُ، وَيُقَالُ: قَدْ وَصَلْتَ، وَلَمْ يَصِلْ وَإِنَّمَا شَارَفَ. وَلِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْإِمْسَاكَ بَعْدَ تَقْضِي الْأَجْلِ لَا وَجْهَ لَهُ، لِأَنَّهَا بَعْدَ تَقْضِيهِ غَيْرُ زَوْجَةٍ لَهُ فِي غَيْرِ عِدَّةٍ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا.

﴿فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، فَإِذَا ان رَاجِعَهَا مِنْ غَيْرِ طَلْبِ ضَرَارٍ بِالمَرَاجَعَةِ، **﴿أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾**، وَإِمَّا أَنْ يَخْلِيَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا وَتُبَيِّنَ مِنْ غَيْرِ ضَرَارٍ. **﴿وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا﴾**، كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ وَيَتْرَكُهَا حَتَّى يَقْرِبَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهَا، ثُمَّ يَرَاغِبُهَا لَا عَنْ حَاجَةٍ وَلَكِنْ لِيَطْوِيلَ الْعِدَّةَ عَلَيْهَا، فَهُوَ الْإِمْسَاكُ ضَرَارًا. **﴿لِتَعْتُدُوا﴾** لِنَظْمِوهُنَّ، وَقِيلَ: لِنَلْجِئُوهُنَّ إِلَى الْإِفْتِدَاءِ. **﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** بِتَعْرِيفِهَا لِعِقَابِ اللَّهِ. **﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً﴾** أَي: جَدُوا فِي الْأَخْذِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، وَارْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَإِلَّا فَقَدْ اتَّخَذْتُمُوهَا هُزْوَاً وَلَعِباً. وَيُقَالُ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي الْأَمْرِ: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ وَهَازِيءٌ، وَيُقَالُ: كُنْ يَهُودِيًّا وَإِلَّا فَلَا تَلْعَبُ بِالتُّورَةِ. وَقِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ وَيَعْتَقُ وَيَتَزَوَّجُ، وَيَقُولُ: كُنْتُ لَاعِباً. وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثُ جِدْهِنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: الطَّلَاقُ، وَالنِّكَاحُ، وَالرَّجْعَةُ»⁽¹⁾. **﴿وَانْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾** بِالإِسْلَامِ، وَبِابْنِوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. **﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾** مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ، وَذَكَرَهَا: مُقَابِلَتِهَا بِالشُّكْرِ وَالقِيَامِ بِحَقِّهَا. **﴿يُعَظُّكُمْ بِهِ﴾** بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ.

وَيَتَسَعُ فِي الْبُلُوغِ أَيْضاً، فَيُقَالُ: بَلَغَ الْبَلَدَ إِذَا شَارَفَهُ وَدَانَاهُ، وَيُقَالُ: قَدْ وَصَلْتَ، وَلَمْ يَصِلْ وَإِنَّمَا شَارَفَ. وَلِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْإِمْسَاكَ بَعْدَ تَقْضِي الْأَجْلِ لَا وَجْهَ لَهُ، لِأَنَّهَا بَعْدَ تَقْضِيهِ غَيْرُ زَوْجَةٍ لَهُ فِي غَيْرِ عِدَّةٍ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا.

﴿فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾، إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج، والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهن، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن. روي: أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول، وقيل: في جابر بن عبد الله حين عضل بنت عم له، والوجه أن يكون خطاباً للناس. أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، والعضل الحبس والتضييق، ومنه: عضلت الدجاجة، إذا نشب بيضها فلم يخرج، وأنشد لابن هرمة: وإن قصائدي لك فاصطنعني عقائل قد عضلن عن النكاح وبلوغ الأجل على الحقيقة، وعن الشافعي رحمه الله: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين. **﴿إذا تراضوا﴾** إذا

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِزْرًا وَسَهْمًا لَا ضَرَارَ وَلَا إِهْدَارَ وِلْدَانٍ وَلَا مَوْلُودًا لَهُمْ يُؤَلَّفُ لَهُمْ الدِّينُ وَمِثْلَ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَائِفِ بُنْيَانِهِمْ وَتَكَوُّبِهِمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا وَلَكِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُم مَاءَ أُمَّتِكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ وَأَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٦﴾

﴿يرضعن﴾ مثل يتربصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد. **﴿كاملين﴾** تأكيد كقوله: «تلك عشرة كاملة»⁽²⁾ لأنه مما يتسامح فيه. فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: أن يكمل الرضاعة. وقرئ: الرضاعة، بكسر الراء، والرضعة، وأن تتم الرضاعة، وأن يتم الرضاعة برفع الفعل تشبيهاً لأن بما لتأخيها في التاولين.

﴿فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لمن أراد﴾ بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم كقوله تعالى: ﴿هيت لك﴾⁽³⁾ لك بيان للمهيت به. أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة: حولين كاملين. ثم أنزل الله اليسر والتخفيف، فقال: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أراد أنه يجوز النقصان. وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه، بعد أن لا يكون في انقطاع ضرر، وقيل: اللام متعلقة بيرضعن، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده. أي: يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الآباء، لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئر إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح، وعند الشافعي: يجوز، فإذا انقضت عدتها جاز بالاتفاق.

﴿فإن قلت: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن

= السنن، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء، الحديث رقم: (50)، والحاكم في المستدرک 2/197.

(2) سورة البقرة، الآية: 196.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل الحديث رقم: (2194)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الجد والهزل الحديث رقم: (1184)، وابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: من طلق ونكح... الحديث رقم: (2039)، والدارقطني في =

أولادهن! قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار. وقيل: أراد الولادات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع. **﴿وعلى المولود له﴾** وعلى الذي يولد له، وهو الوالد، وله في محل الرفع على الفاعلية، نحو: عليهم، في **﴿المغضوب عليهم﴾**.

فإن قلت: لم قيل المولود له نون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الولادات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للأب، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات. وأنشد للمأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس لوعية مستودعت ولأبائهم إبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظفار. ألا ترى أنه نكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى: **﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾**⁽¹⁾ **﴿بالمعروف﴾** تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضاراً. وقرئ: لا تكلف، بفتح التاء. ولا تكلف، بالنون. وقرئ: لا تضار بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضار بكسر الراء، وتضار بفتحها. وقرأ: لا تضار بالفتح أكثر القراء. وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين أيضاً. ويبين ذلك أنه قرئ: لا تضار، ولا تضار بالجزم وفتح الراء الأولى وكسرهما. وقرأ أبو جعفر: لا تضار، بالسكون مع التشديد على نية الوقف.

وعن الأعرج: لا تضار بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضيره، ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً. وعن كاتب عمر بن الخطاب: لا تضار، والمعنى: لا تضار والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس يعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعدما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً وما أشبه ذلك. ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعه شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، ولا يأخذ منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون تضار بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته. أي: لا تضر والدة بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعهد، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضر الولد به بأن ينتزع من يدها، أو يقصر في حقها، فتقصر هي في حق الولد.

فإن قلت: كيف قيل بولدها ويولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه في حقها، فتقصر هي في حق الولد.

فإن قلت: كيف قيل بولدها ويولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه

وأنه ليس بأجنبي منها، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد. **﴿وعلى الوارث﴾** عطف على قوله: وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، فكان المعنى: وعلى وارث المولود له مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة. أي: إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي نكرت من المعروف، وتجنب الضرر. وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، واختلفوا. فعند ابن أبي ليلى كل من ورثه. وعند أبي حنيفة من كان ذا رحم محرم منه. وعند الشافعي لا نفقة فيما عدا الولاد، وقيل: من ورثه من عصبته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعمة وابن العم، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجره رضاعه في مثاله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه. وقيل: على الوارث، على الباقي من الأبوين. من قوله: واجعله الوارث منا **﴿فإن أراداً فصلاً﴾** صائراً **﴿عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾** في ذلك زاداً على الحولين أو نقصاً، وهذه توسعة بعد التحديد. وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما في الفصال وتشاورهما. أما الأب فلا كلام فيه، وأما الأم فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي. وقرئ: فإن أراد.

استرضع: منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي لتعنيبه إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجحت الحاجة، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجحت الحاجة، ولا تنكر من استنجحته، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأول. **﴿إذا سلمتم﴾** إلى المراضع **﴿ما آتيتم﴾** ما أرتبتم إيتاءه، كقوله تعالى: **﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾**⁽²⁾ وقرئ: ما آتيتم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله، ومنه قوله تعالى: **﴿إنه كان وعده ما تيا﴾**⁽³⁾ أي: مفعولاً. وروى شيبان عن عاصم: ما أوتيتم، أي: ما آتاكم الله، وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه: **﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾**. وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو: ندب إلى الأولى، ويجوز أن يكون بعناً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المراضع من أهني ما يكون لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشان الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كأنه قيل: إذا آتيت إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن. **﴿بالمعروف﴾** متعلق بسلامتم، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطييين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

(3) سورة مريم، الآية: 61.

(1) سورة لقمان، الآية: 33.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك. وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ، وحق جدي علي، وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك أخطبني في عدتي وانت يؤخذ عنك، فقال: أو قد فعلت، إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي. قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، وكانت عند ابن عمها أبي سلمة، فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده من شدة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة⁽⁵⁾.

فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده. ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بالكسرة لا معرضين ولا مصرحين. ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن ولا تصبرون عنه. وفيه طرف من التوبيخ، كقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾⁽⁶⁾.

فإن قلت⁽⁷⁾: أين المستدرك بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن﴾؟ قلت: هو محذوف لدلالة ستذكرونهن عليه تقديره: علم الله أنكم ستذكرونهن فانكروهن، ولكن لا تواعدوهن سرا، والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء لأنه مما يسر. قال الأعشى:

ولا تقربين جارة أن سرها عليك حرام فانكحن أو تابدا
ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد لأنه سبب فيه كما

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَرْءِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣٧﴾.

﴿والذين يتوفون منكم﴾ على تقدير حذف المضاف، آزاد وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، وقيل معناه: يتربصن بعدهم، كقولهم: السمن منوان بدرهم. وقرئ: يتوفون بفتح الياء أي: يستوفون أجالهم⁽¹⁾. وهي قراءة علي رضي الله عنه، والذي يحكى أن أبا الأسود الدولي كان يمشي خلف جنازة فقال له رجل: من المتوفي، بكسر الفاء؟ فقال: الله تعالى، وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي رضي الله عنه على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو تناقضه هذه القراءة. ﴿يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ يعتدين هذه المدة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: عشراً، نهاباً إلى الليالي والأيام داخله معها، ولا تراهم قط يستعملون التنكير فيه ذاهبين إلى الأيام⁽²⁾. تقول: صمت عشراً، ولو نكرت خرجت من كلامهم، ومن البين فيه قوله تعالى: ﴿إن لبئتم إلا عشراً﴾⁽³⁾ ثم ﴿إن لبئتم إلا يوماً﴾⁽⁴⁾ ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ فإذا انقضت عنتهن. ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأئمة وجماعة المسلمين ﴿ففيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، والمعنى: أنهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن، وإن فرطوا كان عليهم الجناح.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطَابٍ لِّلنِّسَاءِ أَوْ أَعْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُنَّهُنَّ وَلَكِنْ لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّشْرُوفًا وَلَا تَسْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾.

﴿فيما عرضتم به﴾ هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة، ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن يبسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه

= المعتمد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقبيها، ونظير هذا =
النظم قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾، فتاب عليكم، وعفا عنكم، فالآن بأشروهن﴾ الآية، ولهذا الحذف سر، والله أعلم، وهو اجتناب؛ لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً، بل اقتصت بوجه واحد من وجوهه، وذلك الوجه المباح عسر التميز، عما لم يبيح، فنكرت مستثناة بقوله إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، تنبيهاً على أن المحل ضيق، والأمر فيه عسر، والأصل فهي الحظر، ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم، فإنه أبيع مطلقاً غير مفيد، فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد، تلواً للإباحة، وتبعاً في الذكر؛ لأنها حالة فائدة، والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم، ولكن الأمر يتعلق به، من حيث المصاحب، وهو الاعتكاف، فتفتن لهذا السر، فإنه من غرائب النكت. قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ الآية.

(1) قال أحمد رحمه الله: ولعل السائل لأبي الأسود كان ممن يفهم عنه، أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح، وهو الظاهر، على ذلك اجابه أبو الأسود، فلا تناقض حيثنذ.
(2) قال أحمد رحمه الله: ومنه من صام رمضان، وأتبعه بسب من سؤال، فكانه صام الدهر، فغلب الليالي، وإن كان الصوم غير متصور فيها، حتى قالوا إن شرطه النية، وزمانها الليل، فلهذا جعل لها حظاً في الصوم، وغلبها. قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ الآية.
(3) سورة طه، الآية: 103.
(4) سورة طه، الآية: 104.
(5) أخرجه الدارقطني في 3/224، كتاب النكاح الحديث رقم: (18).
(6) سورة البقرة، الآية: 187.
(7) قال أحمد رحمه الله: وقويت دلالة هذا المنكسر على ما حذف؛ لأن =

فعل بالنكاح ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو: أن تعرضوا ولا تصرحوا.

فَبِأَنْ قُلْتُمْ: بِمَ يَتَعَلَّقُ حَرْفُ الِاسْتِثْنَاءِ؟ قُلْتُ: بِمَا تَوَاعَدُوهُنَّ، أَيْ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ مَوَاعِدَةً قَطُّ إِلَّا مَوَاعِدَةً مَعْرُوفَةً غَيْرَ مَنْكُورَةٍ، أَوْ لَا تَوَاعَدُوهُنَّ إِلَّا بِأَنْ تَقُولُوا: أَيْ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ إِلَّا بِالْتَعْرِيزِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مَنْقُطَعًا مِنَ الْأَدَاةِ إِلَى قَوْلِكَ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ، إِلَّا التَعْرِيزُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ جَمَاعًا، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: إِنْ نَكَحْتِكَ كَانَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، وَيُرِيدُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا تَحْتَ اللَّحَافِ. إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا. يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ رَفْتٍ، وَلَا إِفْحَاشٍ فِي الْكَلَامِ، وَقِيلَ: لَا تَوَاعَدُوهُنَّ سِرًّا، أَيْ: فِي السِّرِّ، عَلَى أَنَّ الْمَوَاعِدَةَ فِي السِّرِّ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَوَاعِدَةِ بِمَا يَسْتَهْجِنُ، لِأَنَّ مَسَارَتَهُنَّ فِي الْغَالِبِ بِمَا يَسْتَحْيَا مِنَ الْمَجَاهِرَةِ بِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: هُوَ أَنْ يَتَوَاتَقَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرُهُ، ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ﴾: مِنْ عَزَمَ الْأَمْرَ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ، وَنَكَرَ الْعَزْمَ مِبَالِغَةً فِي النَّهْيِ عَنِ عَقْدَةِ النِّكَاحِ فِي الْعَدَةِ، لِأَنَّ الْعَزْمَ عَلَى الْفِعْلِ يَتَقَدَّمُهُ، فَإِذَا نَهَى عَنْهُ كَانَ عَنِ الْفِعْلِ أَنْهَى، وَمَعْنَاهُ: وَلَا تَعَزَّمُوا عَقْدَ عَقْدَةِ النِّكَاحِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَقْطَعُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ، وَحَقِيقَةُ الْعَزْمِ الْقَطْعُ، بِبَلِيلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَعْزَمْ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ»⁽¹⁾. وَرَوَى: «لِمَنْ لَمْ يَبِيَّتِ الصِّيَامَ»⁽²⁾. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ لُجْلَهُ﴾ يَعْنِي: مَا كَتَبَ وَفَرَضَ مِنَ الْعَدَةِ. «يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» مِنَ الْعَزْمِ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ، ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ وَلَا تَعَزَّمُوا عَلَيْهِ. ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لَا يَعْجَلُكُمْ بِالْعُقُوبَةِ.

لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَيَتَوَهَّنَ عَلَى الْوَيْسِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَتْرُوقِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَتْرُوقِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

﴿لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لَا تَبْعَةٌ عَلَيْكُمْ مِنْ إِجَابِ مَهْرٍ ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ مَا لَمْ تَجَامَعُوهُنَّ، ﴿أَوْ

تفرضوا لهنَّ فريضة﴾ إِلَّا أَنْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، أَوْ حَتَّى تَفَرَّضُوا، وَفَرَضَ الْفَرِيضَةَ تَسْمِيَةً الْمَهْرِ، وَنَلِكَ أَنْ الْمَطْلُقَةُ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا إِنْ سَمِيَ لَهَا مَهْرٌ فَلَهَا نِصْفُ الْمَسْمُومِ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَ لَهَا فَلَيْسَ لَهَا نِصْفُ مَهْرِ الْمَثَلِ وَلَكِنْ الْمَتَّعَةُ، وَالْبَلِيلُ عَلَى أَنْ الْجَنَاحُ تَبْعَةُ الْمَهْرِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَنِصْفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾⁽³⁾ فَقَوْلُهُ: ﴿فَنِصْفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾ إِثْبَاتٌ لِلْجَنَاحِ الْمُنْفِيِّ ثَمَّةً، وَالْمَتَّعَةُ دَرَعٌ وَمَلْحَقَةٌ وَخِمَارٌ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَهْرٌ مِثْلَهَا أَقَلُّ مِنْ نَلِكِ، فَلَهَا الْأَقْلُ مِنْ نِصْفِ مَهْرِ الْمَثَلِ، وَمِنَ الْمَتَّعَةِ: وَلَا يَنْقُصُ مِنْ خَمْسَةِ دِرَاهِمٍ؛ لِأَنَّ أَقْلَ الْمَهْرِ عَشْرَةُ دِرَاهِمٍ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْ نِصْفِهَا. وَ ﴿الْمَوْسِعُ﴾ الَّذِي لَهُ سَعَةٌ، وَ ﴿الْمَقْتَرُ﴾ الضَّيْقُ الْحَالِ، وَ ﴿قَدْرُهُ﴾ مَقْدَارُهُ الَّذِي يَطْبِيقُهُ؛ لِأَنَّ مَا يَطْبِيقُهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ. وَقُرِئَ: بِفَتْحِ الدَّالِ، وَالْقَدْرُ وَالْقَدْرُ لَغْتَانِ، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَسْمَ لَهَا مَهْرًا، ثُمَّ طَلَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَسْمَا: أَمْتَعْتَهَا؟ قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ. قَالَ: «مَتَّعَهَا بِقَلَنْسُوتِكَ»⁽⁴⁾. وَعِنْدَ أَصْحَابِنَا لَا تَجِبُ الْمَتَّعَةُ إِلَّا لِهَذِهِ وَجْهًا، وَتَسْتَحِبُّ لِسَائِرِ الْمَطْلُوقَاتِ، وَلَا تَجِبُ ﴿مَتَّعًا﴾ تَاكِيدٌ لِمَتَّعُوهُنَّ بِمَعْنَى: تَمْتِيعًا. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِالْوَجْهِ الَّذِي يَحْسَنُ فِي الشَّرْعِ وَالْمَرْوَةِ. ﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ لِمَتَّعًا أَيْ مَتَّعًا وَاجِبًا عَلَيْهِمْ، أَوْ حَقٌّ نَلِكٌ حَقًّا. ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ عَلَى الَّذِينَ يَحْسِنُونَ إِلَى الْمَطْلُوقَاتِ بِالتَّمْتِيعِ، وَسَمَاهُمْ قَبْلَ الْفِعْلِ مُحْسِنِينَ، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبَةٌ».

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ وَوَدَّ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةً مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ أَوْ يَمُوتَ الَّذِي يَدَّوهُ عَقْدَتُهُ الْكِنَاحُ وَأَنْ تَمُوتَا أَوْ تَمُوتَا لِلْقَوَى وَلَا تَسُوهُنَّ فَالْفِعْلُ بَيْنَكُمَا إِنْ اللَّهُ يَمَّا تَمُوتُونَ بَعِيرٌ ﴿٣٧﴾

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يَرِيدُ الْمَطْلُوقَاتِ. فَإِنْ قُلْتُمْ⁽⁵⁾: أَيْ فَرَقَ بَيْنَ قَوْلِكَ الرَّجَالِ يَعْفُونَ وَالنِّسَاءِ

(1) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الصَّوْمِ، بَابُ: النِّيَّةِ فِي الصِّيَامِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (454)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الصَّوْمِ، بَابُ: مَا جَاءَ لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَعْزَمْ مِنَ اللَّيْلِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (730)، وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ، بَابُ: نَكَرَ اخْتِلَافَ النَّاقِلِينَ لِخَيْرِ... الْحَدِيثِ رَقْمًا: (2337)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ، بَابُ: مَا جَاءَ فِي فَرَضِ الصَّوْمِ مِنَ اللَّيْلِ وَالْخِيَارِ فِي الصَّوْمِ الْحَدِيثِ رَقْمًا: (1700).

(2) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ، بَابُ: 68 الْحَدِيثِ رَقْمًا: (2331).

(3) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ: 237.

(4) نَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (202/3).

(5) قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا النُّقْلُ وَهُوَ فِيهِ الزَّمْخَشَرِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ مَذْهَبَهُ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ: الزَّوْجَ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَرَادَ: الْوَلِيَّ الْإِمَامَ مَالِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَدَّقَ الزَّمْخَشَرِيُّ أَنَّهُ قَوْلُ ظَاهِرِ الصَّحَّةِ، عَلَيْهِ رَوْنَقُ الْحَقِّ، وَطَلَاوَةُ الصَّوَابِ لَوُجُوهِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ ثَابِتَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ هُوَ: الْوَلِيُّ، وَأَمَّا الزَّوْجُ،

فَلَهُ ذَلِكَ حَالَةُ الْعَقْدِ الْمَتَّقَدِّمِ خَاصَّةً، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ الطَّلَاقِ، وَالْكَلامِ حِينْتِئِذٍ لَيْسَ مِنْ عَقْدَةِ النِّكَاحِ فِي شَيْءِ الْبِتَّةِ، فَإِنْ قِيلَ: أُطْلِقَ عَلَيْهِ نَلِكٌ بَعْدَ الطَّلَاقِ بِتَأْوِيلِ كَانِ مَقْدَرَةً، فَلَا يَخْفَى عَلَى الْمُصَفِّ مَا فِي نَلِكِ مِنَ الْبَعْدِ، وَالخُرُوجِ عَنِ حَدِّ إِطْلَاقِ الْكَلَامِ وَأَصْلُهُ. الثَّانِي: أَنَّ الْخُطْبَةَ الْأَوَّلَ لِلزَّوْجَاتِ اتِّفَاقًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ وَفِيهِنَّ مِنْ لَا عَوْفَ لَهَا الْبِتَّةُ، كَالْأَمَةِ وَالْبِكْرِ، فَلَوْلَا اسْتِثْنَاءُ التَّقْسِيمِ بِصَرَفِ الثَّانِي إِلَى الْوَلِيِّ، عَلَى ابْنَتِهِ الْبِكْرِ أَوْ أُمَّتِهِ، وَإِلَّا لَزِمَ الْخُرُوجُ عَنِ ظَاهِرِ عَمُومِ الْأَوَّلِ، وَحَيْثُ حَمَلَ الْكَلَامُ عَلَى الْوَلِيِّ، صَارَ الْكَلَامُ بِمَعْنَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ إِنْ كُنَّ أَهْلًا لِلْعَوْفِ، أَوْ يَعْفُو لَهُنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا، وَلِهَذَا كَانَ الْوَلِيُّ الَّذِي يَعْفُو، وَيَعْتَبَرُ عَفْوُهُ عِنْدَ مَلِكٍ هُوَ الْآبُ فِي ابْنَتِهِ الْبِكْرِ، وَالسَّيِّدُ فِي أُمَّتِهِ خَاصَّةً. الثَّلَاثُ: أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ جَدِيرٌ بِتَنَاسُبِ الْأَقْسَامِ، وَانْتِظَامِ أَطْرَافِ الْكَلَامِ، وَالْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هَذَا الْمَحْمَلِ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ، فَإِنَّ آيَةَ حِينْتِئِذٍ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى خُطْبَةِ الزَّوْجَاتِ، ثُمَّ الْإِوْلِيَاءِ، ثُمَّ الْأَزْوَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْسَوْنَ الْفَضْلَ بَيْنَكُمُ﴾ فَتَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَلِيَّةً بِالْفَوَائِدِ، جَامِعَةً لِلْمَقْصَدِ الرَّابِعِ: أَنَّ الْمُضَافَ إِلَى الزَّوْجَاتِ هُوَ الْإِسْقَاطُ بِلا رَيْبٍ

تنسوا الفضل بكسر الواو.

حَفَظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ تَنَبُّيًّا ﴿٣٧٥﴾.

﴿الصلاة الوسطى﴾ أي: الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى من قولهم للأفضل الأوسط، وإنما أقرنت وعظفت على الصلاة⁽²⁾ لانفرادها بالفضل، وهي صلاة العصر. وعن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم ناراً»⁽³⁾. وقال عليه السلام: «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب»⁽⁴⁾. وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، فأملت عليه والصلاة الوسطى صلاة العصر⁽⁵⁾. وروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم: والصلاة الوسطى وصلاة العصر⁽⁶⁾، بالواو. فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين إحداهما: الصلاة الوسطى إما الظهر وإما الفجر وإما المغرب على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعاشهم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: هي صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار⁽⁷⁾، وكان رسول الله ﷺ يصليها بالهجرة، ولم تكن صلاة أشد على أصحابه منها، وعن مجاهد: هي الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. وعن قبيصة بن نؤيب: هي المغرب؛ لأنها وتر النهار، ولا تنقص في السفر من الثلاث⁽⁸⁾. وقرأ عبد الله وعلي:

يعفون؟ قلت: الواو في الأوّل ضميرهم والنون علم الرفع، والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهنّ، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب. ويعفو عطف على محله، و ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ الولي. يعني: إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهنّ فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأيي ولا خدمته ولا استمتع بي، فكيف أخذ منه شيئاً. أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهنّ، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأوّل ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوّج، فإذا طلقها استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة، فقد عفا عنها، أو سماه عفواً على طريق المشاكلة، وعن جبير بن مطعم أنه تزوّج امرأةً وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحقّ بالعفو، وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص، فعرض عليه بنتاً له، فتروّجها، فلما خرج طلقها، وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت رده. قيل: فلم بعثت بالصداق؟ قال: فإين الفضل⁽¹⁾. و ﴿الفضل﴾ التفضل، أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمروا ولا تستقصوا. وقرأ الحسن: أو يعفو الذي، بسكون الواو، وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيه لهما بالآلف؛ لأنهما أختاهما. وقرأ أبو نهيك: وأن يعفو بالياء. وقرئ: ولا

(2) لعله على الصلوات.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ الحديث رقم: (4533)، وفي كتاب: المغازي الحديث رقم: (4111)، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب: الليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1424)، والترمذي أخرج حديث ابن مسعود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الوسطى أنها العصر الحديث رقم: (181)، وحديث سمرة (1820).

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في 505/2، الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

(6) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره الحديث رقم: (6323).

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1426)، وأبو داود في وقت صلاة العصر الحديث رقم: (410)، والترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة البقرة الحديث رقم: (2982)، والنسائي في كتاب: الصلاة، باب: المحافظة على صلاة العصر الحديث رقم: (471)، ومالك في الموطأ، كتاب: صلاة الجماعة، باب: الصلاة الوسطى الحديث رقم: (25)، وأحمد في المسند 73/6.

(8) أخرجه الطبري في تفسيره. وأخرجه ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت 505/2، الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

= ولو كان المراد بصاحب العقدة: الزوج، لتعين حمل العفو على تكميل المهر، وإعطائه ما لا يستحق عليه، وهذا إما يطابقه من الأسماء التفضيل، ومن ثمّ قال في خطاب الأزواج: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ لأنّ المبتول من جهته غير مستحق عليه، فهو فضل لا عفو. ولا يقال: لعلّ الزوج تعجل المهل كاملاً قبل الطلاق، وطلق، فيجب استرجاع النصف، فيسقطه ويعفوا عنه، وحينئذٍ يبقى العفو من جانب الزوج، على ظاهره وحقيقته. لانا نقول: حسينا في ردّ هذا الوجه ما فيه من الكلفة، وتقدير ما الأصل خلافه. الخامس: أن صدر الآية خطاب للأزواج في قوله: ﴿ولن تطلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فرضتم﴾ فلو جاء قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ مراداً به: الزوج، لكان عدولاً والتفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وليس هذا من مواضعه، ولأجل هذا جاء قوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ على صيغة الخطاب؛ لأنّ المراد به: الأزواج، لخطابهم أوّلًا. السادس: أن قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ وأصل الكلام على الولي، استقام، إذ هم لو كملوا المهر لهنّ، فالنصف واجب عليهم، لا يتغير، ولا يخالف الحالة المستثناة، مما وقع منه الاستثناء، فلا يجري الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأوّل والثاني، إلا أن يقال مقتضى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واجب عليكم، أن النصف الآخر، غير مؤدّى إليهنّ؛ لأنه ساقط عن الزوج، فإذا عفى، بمعنى: كمل المهر، فقد صار النصف الآخر مؤدّى إليهنّ، ففي هذا التأويل من الكلفة، ما يسقط مؤنة رده.

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (12/5) وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (369/12).

الصلاة الوسطى. وقرأت عائشة رضي الله عنها: والصلاة الوسطى، بالنصب على المدح والاختصاص، وقرأ نافع: الوصل بالصاد، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿فَانْتَيْن﴾ ذاكرين لله في قيامكم، والقنوت أن تنكر الله قائماً، وعن عكرمة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا. وعن مجاهد: هو الركود وكف الأيدي والبصر. وروي: أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمدّ بصره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا.

فَإِنْ جِئْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾.

﴿فإن خفتهم﴾ فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره ﴿فرجالاً﴾ فصلوا رجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل ويقال: رجل رجل، أي: راجل، وقرئ: فرجالاً بضم الراء، ورجالاً بالتشديد، ورجلاً، وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصلون في حال المشي والمسايقة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي رحمه الله يصلون في كل حال، والراكب يومي ويسقط عنه التوجه إلى القبلة. ﴿فإذا أمنتم﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فانكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من صلاة الأمن، أو فإذا أمنتم، فاشكروا الله على الأمن، وانكروه بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَمَلَّكَتُمْ فِي أَسْهُرٍ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٤﴾.

تقديره فيمن قرأ: وصية بالرفع، ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو الذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم. وفيمن قرأ: بالنصب، والذين يتوفون، يوصون وصية، كقولك إنما أنت سير البريد بإضمار سير، أو والزم الذين يتوفون وصية، وتدل عليه قراءة عبد الله: كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول، مكان قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول﴾ وقرأ أبي: متاع لأزواجهم متاعاً. وروي عنه: فمتاع لأزواجهم، ومتاعاً نصب بالوصية إلا إذا أضمرت يوصون فإنه نصب بالفعل. وعلى قراءة أبي: متاعاً نصب بمتاع؛ لأنه في معنى: التمتع، كقولك: الحمد لله حمد الشاكرين، وعجبتني ضرب لك زيداً ضرباً شديداً. و ﴿غير إخراج﴾ مصدر مؤكّد، كقولك: هذا القول غير ما تقول، أو بدل من متاعاً، أو حال من الأزواج، أي: غير مخرجات، والمعنى: أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً أي:

ينفق عليهم من تركته، ولا يخرج من مساكنهم، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾⁽¹⁾ وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار ونسخت النفقة بالإرث الذي هو: الربع، والثلث. واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى لهن. ﴿فيم فعلن في أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للخطاب. ﴿مز معروف﴾ مما ليس بمنكر شرعاً.

فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت قد تكون الآية متقدمة في التلاوة، وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾⁽²⁾ مع قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾⁽³⁾.

وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّبِعِ ﴿١٢٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٢٦﴾.

﴿وللمطلقات متاع﴾ عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبهن لواحدة منهن وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: ﴿حقاً على المتقين﴾ كما قال: ثمة حقاً على المحسنين. وعن سعيد بن جبيرة وأبي العالية والزهري: أنه واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أولئك حدّ الزّمر فقال لهم الله موتوا ثمّ أموتوا﴾⁽¹⁾ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿١٢٧﴾.

﴿الم تر﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب بما من لم ير ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب.

وروي: أن أهل داوردان - قرية قبل واسط - وقع فيه الطاعون، فخرجوا هاربين، فماتهم الله ثم أحياهم، ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل: مرّ عليه حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم، وتفردت أوصالهم، فلوى شبقه وأصابه تعجباً مما رأى، فأوح إليه ناد فيهم أن قوموا بإنان الله، فنادى فنظر إليهم قياه يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، وقيل: ه قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خذراً من الموت فماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. ﴿وه الوف﴾ فيه ليل على الألوف الكثيرة، واختلف في ذلك فقيل: عشرة، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون، ومن بد التفسير الوف متأفون، جمع ألف كقواعد وقعود.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت: معناه: فماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتة

(3) سورة البقرة، الآية: 144.

(1) سورة البقرة، الآية: 234.

(2) سورة البقرة، الآية: 142.

وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إياء ولا توقف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁽¹⁾ وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وأن الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله. ﴿لِنُوْزِلَ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به، ويستبصرون كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم أو لنو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا، فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله.

وَوَدَّيْتُمْ لَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له ذلك علينا ونحن أئمن بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطنع عليكم وزادكم بسطة في أولئكم والجرس والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴿١٤٧﴾

﴿طالوت﴾ اسم أعجمي. كجالوت وداود، وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم ووزنه إن كان من الطول فعلوت منه أصله طولوت إلا أن امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبراني وافق عربياً كما وافق حنطاً حنطاً، وبشمالاً لها رخماناً رخيماً، بسم الله الرحمن الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببية العجمة لكونه عبرانياً. ﴿أنى﴾ كيف ومن أين؟ وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له.

فإن قلت⁽³⁾: ما الفرق بين الواوين في ﴿ونحن أحق﴾ و﴿ولم يؤت﴾؟ قلت: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتها معاً في حكم أو الحال، والمعنى: كيف يملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين؛ ولأنه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً. وروي: أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساروا إلا طالوت. ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم﴾ يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما نكروا

﴿واعتلموا أن الله سميع﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون، بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء. مَن ذَا الَّذِي يَرْمِيُ اللَّهَ قُرْسًا وَكَسًا وَيَقُولُ لَهُ أَمْطَاكَ كَثِيرٌ وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤٦﴾

إقراض الله مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، والقرض الحسن إما المجاهدة في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله. ﴿أضعافاً كثيرة﴾ قيل: الواحد بسبعمائة، وعن السدي: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله. ﴿والله يقبض ويبسط﴾ يوسع على عباده ويقتصر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبذلكم الضيقة بالسعة. ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَ إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَمَلَكَ لَنَا مَلِكًا نُنْتَبِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقِيَامِ أَنْ تَعْتَدُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُنْتَبِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَنْبِيَاءَنَا فَمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقِيَامِ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا يَنْهَرُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿لنبي لهم﴾ هو يوشع أو شمعون أو إسموئيل. ﴿بعث لنا ملكاً﴾ أنهض للقتال معنا أميراً نصر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره. طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله ﷺ من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره، وروي: أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم. ﴿نقاتل﴾ قرئ: بالنون والجرم على الجواب، وبالنون والرفع على أنه حال، أي: ابعثه لنا مقدرين القتال، أو استئنفاً كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك! فقالوا: نقاتل. وقرئ: يقاتل بالياء والجرم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة لملكاً. وخبر ﴿عسينتم﴾ ﴿ألا تقاتلوا﴾

= الحالية بنفسها، وأقادت الجملة الثانية الحالية أيضاً، لكن بواسطة الواو عاطفة، وهذا النظر من السهل للمتمتع.

(1) سورة يس، الآية: 82.

(2) سورة الدهر، الآية: 1.

(3) قال احمد رحمه الله: وحاصل هذا، أن الواو الأولى، أقادت جملة =

وهي لغة الانصار.

فإن قلت⁽¹⁾: ما وزن التابوت؟ قلت: لا يخلو من أن يكون فعلوتاً أو فاعولاً، فلا يكون فاعولاً لقلته نحو سلس وقلق ولأنه تركيب غير معروف، فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذا فعلوت من التوب وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته، وأما من قرأ بالهاء فهو فاعول عنده، إلا فيمن جعل هاء بدلاً من التاء لاجتماعهما في الهمس وأنهما من حروف الزيادة ولذلك أبدلت من تاء التائيت. وقرأ أبو السمال: سكيئة بفتح السين والتشديد، وهو غريب. وقرئ: يحمله بالياء.

فإن قلت: من «آل موسى وآل هرون»؟ قلت: الانبياء من بني يعقوب بعدهما؛ لأن عمران هو ابن فاهث ابن لاوي بن يعقوب فكان أولاد يعقوب ألهماء، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهرون، والآل مقم لتخيم شأنهما.

لَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَلْمَسْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ لَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَبْتُلُونُ أَنَّهُمْ كَلَّمُوا اللَّهَ بِكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَلَيْسَ بَعَثَ فِيهِ كَذِبَةً يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿فصل﴾ عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله فصل نفسه ثم كثر محنوف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كالفصل، وقيل: فصل عن البلد فصولاً. ويجوز أن يكون فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقف وصد ونحوهما، والمعنى: انفصل عن بلده. ﴿بالجنود﴾ روي أنه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا تاجر مشتغل بالتجارة، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبين عليها، ولا ابتغي إلا الشاب النشط الفارغ، فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيبظاً وسلوكوا مفازة، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً ف﴿قال إن الله مبتليكم﴾ بما اقترحتموه من النهر، ﴿فمن شرب منه﴾ فمن ابتدا شربه من النهر بأن كرع فيه، ﴿فليس مني﴾ فليس بمتصل بي ومتحد معي، من قولهم: فلان مني، كانه بعضه لاختلاطهما واتحادهما. ويجوز أن يراد

من النسب والمال، وهما: العلم المبسوط، والجسامة. والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها، وقيل: قد أوحى إليه ونبي، وذلك أن الملك لا بد أن يكون من أهل العلم، فإن الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهاراً لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب.

والبسط: السعة والامتداد، وروي: أن الرجل للقائم كان يمد يده فينال رأسه. ﴿يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي: الملك له غير منازع فيه فهو يؤتيه من يشاء، من يستصلحه للملك ﴿وإله واسع﴾ الفضل والعطاء يوسع على من ليس له سعة من المال، ويفنيه بعد الفقر ﴿عليم﴾ بمن يصطفيه للملك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا كَرَهِيَ آلُ مُوسَىٰ وَمَا لَكُمْ مِنْهُنَّ عَمَلَةٌ الْيَوْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿والتابوت﴾ صندوق التوراة، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون.

والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كراس الهر ونسب ككنبه وجناحان، فتثن فيزف التابوت نحو العنق وهم يمشون معه، فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن علي رضي الله عنه: كان لها وجه كوجه الإنسان، وفيها ريح هفافة. ﴿وبقية﴾ هي: رضاض الالواح، وعصا موسى وثيابه، وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام، فنزلت به الملائكة تحمله، وهم ينظرون إليه، فكان تلك آية لإصفاة الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار، فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين فساقهما الملائكة إلى طالوت، وقيل: كان من خشب الشمشام مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في نراعين، وقرأ أبي، وزيد بن ثابت: التابوت بالهاء

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد: لأن الفاء تاء، واللام كذلك، والعرب تستقل ما فاؤه ولامه حرف واحد؛ لأنه توائم للتكرار. قوله تعالى: ﴿فمن شرب فليس مني﴾ الآية.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفي هذه الآية تقوية، لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجم، لا يتعين عوده إلى الأخيرة، لاحتمال عوده إلى ما قبلها، ورد على من منع ذلك، محتجاً بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه، باجتناب من الاستثناء، ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة، وتوقف في انعطافه على ما تقدمها، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة، وأما عوده على ما قبل

الأخيرة نونها، فمعتذر عن هذا القائل، فلم يقف في العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة، وقد بين القاضي أبو بكر صلاحية عوده إلى ما قبل الأخيرة نونها، رداً على هذا القائل، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذي يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ ووجه استشهاده، أن المعنى يابى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة، ويعين عوده إلى ما قبلها، وسياقي بيان ذلك عند الكلام على الآية. قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا﴾ الآية.

الْمَلِكِ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهٗ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَالِكِينَ ﴿٢٥٦﴾

كان أيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيهِ، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم فأوحى إلى إشمويل أن داود بن أيشى هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، وروي: أنه حسده وأراد قتله، ثم تاب. ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها. وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والنبوة. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدروع وكلام الطير والدواب وغير ذلك. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلِب المفسدون، وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض، وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بيعت الكفار فيها وقتل المسلمين، أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر ونزلت السخطة، فاستؤصل أهل الأرض.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٦﴾

﴿تلك آيات الله﴾ يعني: القصص التي اقتصصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء وغلبة الجبابرة على يد صبي. ﴿بالحق﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم كذلك. ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَنْفُسَ اللَّهِ وَكَوَّاهُ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلُوا مِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَكَوَّاهُ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿٢٥٧﴾

﴿تلك الرسل﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات. ﴿منهم من كلم الله﴾ منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. وكلم، قرئ: الله بالنصب، وقرأ اليماني: كلم الله، من المكاملة. ويدل عليه قولهم: كلم الله، بمعنى: مكالمه. ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أي: ومنهم من رفعه على سائر

فليس من جملتي وأشياعي. ﴿ومن لم يطعمه﴾ ومن لم ينقه، من طعم الشيء إذا ذاقه، ومنه طعم الشيء لمذاقه. قال:

لئن شئت لم أطعم نقاحاً ولا برداً

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم، ويقال: ما نقت غمضاً، ونحوه من الابتلاء ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد من إتيان الحيتان شرعاً، بل هو أشد منه وأصعب، وإنما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي، وإن كان نبياً، كما يروى عن بعضهم فبالوحي، وقرئ: بنهر بالسكون.

﴿إِن قُلْت: مِمَّ اسْتَنْتِي قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مِنْ اغْتَرَفَ﴾؟ قُلْت: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ وَالجَمَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي حُكْمِ الْمَتَأَخَّرَةِ إِلَّا أَنَّهُا قَدِمَتْ لِلْعَنَاءِ، كَمَا قَدِمَ وَالصَّابِئُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (١) وَمَعْنَاهُ: الرَّخِصَةُ فِي اغْتَرَفِ الْغُرْفَةِ بِالْيَدِ دُونَ الْكُرُوعِ، وَاللَّيْلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أَي: فَكُرِعُوا فِيهِ. ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وَقُرِئَ: غُرْفَةً بِالْفَتْحِ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَبِالضَّمِّ بِمَعْنَى: الْمَغْرُوفِ، وَقَرَأَ أَبِي وَالْأَعْمَشُ: إِلَّا قَلِيلٌ بِالرَّفْعِ، وَهَذَا مِنْ مِيلِهِمْ مَعَ الْمَعْنَى وَإِعْرَاضٌ عَنِ اللَّفْظِ جَانِباً، وَهُوَ بَابٌ جَلِيلٌ مِنْ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ مَعْنَى فَشَرِبُوا مِنْهُ فِي مَعْنَى فَلَمْ يَطْبِعُوهُ حَمْلَ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمْ يَطْبِعُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ. وَنَحْوَهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

كأنه قال: لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف. وقيل: لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: القليل. ﴿قَالَ الَّذِينَ يظنون﴾ يعني: الخلف منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وليقنوه، أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله. والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين، ونصوع البصيرة. وقيل: الضمير في ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ للكثير الذين انخرلوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، كأنهم تقاولوا بذلك، والنهر بينهما يظهر أولئك عذرهم في الانخزال، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرون به، وروي: أن الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته، والذين شربوا منه أسوت شفاهم وغلِبهم العطش.

﴿وَمَا بَرَأُوا إِلَٰهَاتٍ وَجُودِيهِمْ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا مَسْكِينًا وَكَيْتٌ أَقْدَامُنَا وَأَصْرُنَا عَلَى الْغَمْرِ الْكَثِيرِ﴾ ﴿٢٥٨﴾

وجالوت: جبار من العمالققة من أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل. ﴿وَنَبِّتْنَا أَقْدَامَنَا﴾ وهب لنا ما نثبت به في مداحض الحر من قوة القلوب وإلقاء الربع في قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب.

﴿هَكَرْتُمْهُمْ يَا ذُنُوبَ اللَّهِ وَقَتَلُوهَا دَاوُدُ جَالُوتَ وَعَاثَكَ اللَّهُ

بالذكر؟ قلت: لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة. ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل، وهو آية من الآيات، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل، وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا ﷺ هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمتها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع. اللهم أرزقنا شفاعته يوم الدين. ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة إيجاباً وقسر، ﴿ما اقتتل الذين﴾ من بعد الرسل لاختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً. ﴿ولكن لختلفوا فمنهم من آمن﴾ للترامه دين الأنبياء، ﴿وممنهم من كفر﴾ لإعراضه عنه. ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾⁽³⁾ كرزّه للتأكيد، ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ من الخذلان والعصمة.

يَأْتِيَهُ الْيَوْمَ مَمَوًّا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مَن قَبِلَ أَن يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ نَبِيٍّ وَلَا خَلَّةٍ وَلَا شَعَمَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿انفقوا مما رزقناكم﴾ أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ لا تقدرين فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿لا بيع فيه﴾ حتى تتباعوا ما تنفقونه، ﴿ولا خلة﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به⁽⁴⁾، وإن أرتبتم أن يحط عنكم ما في نمتكم من الواجب لم تجبوا شفيعاً يشفع لكم حط الواجبات؛ لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير. ﴿والكافرون هم الظالمون﴾

الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة⁽¹⁾، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر نون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفضيح فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة، على أنه العَلَم الذي لا يشتبه والتميز الذي لا يلتبس. ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: لأحکم، أو بعضكم. يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فنكر زهيراً والنايعة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه. ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره، ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنا في المسجد نتذكر فضل الأنبياء فنذكرنا نوحاً بطول عيادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله أفضل منهم بعث إلى الناس كافة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فنخل عليه السلام، فقال: «فيم أنتم؟ فنكرنا له، فقال: «لا ينبغي لأحد أن يكون خير من يحيى بن زكريا، فنكر أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهيم بها»⁽²⁾.

فإن قلت: فلم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء

كان على وفق المشيئة، ثم طال الكلام، وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى، كما فنغت في هذا الأمر الخاص، وهو اقتتال هؤلاء، فهي نافذة في كل فعل واقع، وهو المعنى المعبر عنه في قوله: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ طرا نكر تعلق المشيئة بالاقتيال، لتلوه عموم تعلق المشيئة، لتناسب الكلام وتعريف كل بشكله، فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر، ويرتاج السر، والله الموفق، وآي قدم يثبت للاعتزال قبالة هذا؛ لأنه الدائرة القاطعة لدابره، الكافة بالرد على منتحله وناصره، ولتلك جوزها الزمخشري لاعتياصها على تاريه، واعتصامها بالخصوصية من حيله ونحيله. قوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع﴾ الآية.

(4) قال أحمد رحمه الله: أما القدرية، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة، وهم جدير أن يحرموها، وأدلة أهل السنة على إثباتها للمصاة من المؤمنين، أوسع من أن تحصى، وما أنكرها القدرية، إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة، وللعاصي على المعصية، إيجاباً عقلياً على زعمهم، فهذه الحالة في إنكار الشفاعة في بعضها ثابتة، فكل ما ورد مفهوماً لنفيها، حمل على الأيام الخالية منها، جمعاً بين الأدلة، كما ورد قوله تعالى: ﴿فإننا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ وورد: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وورد: ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ وورد: ﴿وقفوفهم إنهم مسؤولون﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق، إلا الحصل على تعدد أوقات القيامة، واختلاف أحوالها وإيامها، وكذلك أمر الشفاعة، سواء رزقنا الله الشفاعة، وحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(1) قال أحمد رحمه الله: وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له، لفظاً ومعنى، وتبركاً بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه، وأصحاب الزمخشري في قوله، حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيته الأنبياء، على الجميع الصلاة والسلام، وليس كما يقال عن بعض أهل العصر، من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من أحاد الأنبياء، وينبغي الوقوف عن نسبته له، فإنه من العلماء الأعلام، وعمد بين الإسلام، وللوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه. قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ الآية.

(2) كشف الاستار 3/108، كتاب: علامات النبوة، باب: يحيى عليه السلام الحديث رقم: (2358).

(3) قال أحمد رحمه الله: ووراه التأكيد سر أخص منه، وهو: أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد، ثم اعترضها مقصد آخر، وأرادت الرجوع إلى الأول، قصدت نكره إمّا بتلك العبارة، أو بقريب منها، وتلك عندهم مهيب من الفصاحة مسلوب، وطريق معتد، وكان جدي لامي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير، يعد في كتاب الله تعالى مواضع هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرجة بغير علم﴾ إلى قوله: ﴿لو تزيلاو لعنينا الذين كفروا منهم﴾ وهذه الآية من هذا النمط، لما صدر الكلام بأن اقتتالهم

لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء. ﴿من علمه﴾ من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ إلا بما علم. الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد⁽³⁾، وفي قوله: ﴿وسع كرسيه﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد. كقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾⁽⁴⁾ من غير تصور قبضة وطى ويمين وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسي. ألا ترى إلى قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

والثاني: وسع علمه: وسمى العلم كرسيًا تسميةً بمكانه الذي هو كرسي العالم.
والثالث: ﴿وسع ملكه﴾ تسميةً بمكانه الذي هو كرسي الملك.

والرابع: ما روي أنه خلق كرسيًا هو بين يدي العرش بونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كاصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش. ﴿ولا يؤده﴾ ولا يثقله ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ حفظ السموات والأرض، ﴿وهو العلي﴾ الشأن العظيم الملك والقدرة.

فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي وأردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه، والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يديره. والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرضى منهم المستوجب لشفاة وغير المرتضى. والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره.

فإن قلت⁽⁵⁾: لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها

أراد التاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: والكافرون للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج: ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿ويرى للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة﴾⁽¹⁾ وقرئ: لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاة بالرفع.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

﴿الحي﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر. و﴿القيوم﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقرئ: القيام والقيم. والسنة: ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس. قال ابن الرقاق العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم. وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيومًا. ومنه حديث موسى أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيديك قارورتين مملوأتين، فأخذهما والقي الله عليه النعاس، فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزلتا. ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتماك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. كقوله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾⁽²⁾. ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما كان قبلهم، وما يكون بعدهم، والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء، أو

(1) سورة فصلت، الآيات: 6، 7.

(2) سورة النبا، الآية: 38.

(3) قال أحمد رحمه الله: قوله في الوجه الأول: أن ذلك تخييل للعظمة سوء أب في الإطلاق، وبعد في الإضرار، فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكون معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد: وكان جدي رحمة الله عليه يقول: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً، فيها اسم الله تعالى، ظاهراً في بعضها، ومستتخفاً في بعض، ويظهر لكثير من العالدين منها ستة عشر، إلا على بصير حد البصيرة، لدقة استخراجها، الأول: الله،

الثاني: هو، الثالث: الحي، الرابع: القيوم، الخامس: ضمير لا تأخذه السانس: ضمير له، السابع: ضمير عنده، الثامن: ضمير إلا بإنه، التاسع: ضمير يعلم، العاشر: ضمير علمه، الحادي عشر: ضمير شاء، الثاني عشر: ضمير كرسيه، الثالث عشر: ضمير ولا يؤده، الرابع عشر: وهو، الخامس عشر: العلي، السادس عشر: العظيم، فهذه عدة الأسماء البينة، وأما الخفي، فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله: حفظهما، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد له من فاعل، وهو: الله، ويظهر عندك المصدر: فيقول: ولا يؤده أن يحفظهما هو، وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي قد رام الزيادة على هذا العدد، لما أخبرت به عن الجد رحمه الله، فقال: يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة، كل واحد منها بانئين؛ لأن كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة، وكونه مشتقاً، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها اسم، وقد اشتملت على آخر مضمراً، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحداً وعشرين اسماً، وكنت قد أجزيت معه في تعدد الزيادة المذكورة، وجهاً لطيفاً،

ما ورد، منه قوله ﷺ: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها»⁽¹⁾. وعن علي رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر، وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد. ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره، والآيات حوله»⁽²⁾. وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما في القرآن، فقال لهم علي رضي الله عنه: أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا علي، سيد البشر أئم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي»⁽³⁾. قلتُ: لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتغالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان نكراً له كان أفضل من سائر الأندكار، وبهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلىها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد، ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه.

فإنَّ العرانيين تلقاها محسدة ولا ترى للشام الناس جساداً

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾

﴿لا إكراه في الدين﴾ أي: لم يجز الله أمر الإيمان على الإيجاب والقسر، ولكن على التمكن والاختيار. ونحوه قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾⁽⁴⁾ أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل وبنى الأمر على الاختيار. ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة، ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ فمن

اللَّهُ وَبِئْسَ الْأَلْفَاكُ مَا نَسُوا اللَّهَ فَرَسُوا خَلْقَهُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ اللَّهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ خَزَائِرُ عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ ﴿١٧٦﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أي: أرادوا أن يؤمنوا، يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأبيده من الكفر إلى الإيمان، ﴿والذين كفروا﴾ أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقه لهم من حلها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين: ﴿والذين كفروا أولياؤهم﴾ الشياطين ﴿يخرجونهم﴾ من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ في ربهِ أَنِ اعْبُدِ اللَّهَ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ بَارئُ السَّمَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ ﴿١٧٧﴾

﴿الم تر﴾ تعجيب من محاكاة نمرود في الله وكفره به⁽⁷⁾ ﴿إن أتاه الله الملك﴾ متعلق بحاج على وجهين:

- (1) لم أجده.
- (2) نكره السيوطي في الجامع الكبير. راجع فيض القدير للمناوي.
- (3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن فصل في فضائل السور والآيات الحديث رقم: (2395).
- (4) سورة يونس، الآية: 99.
- (5) سورة التوبة، الآية: 73.
- (6) الواحد في أسباب النزول ص 48.
- (7) قال أحمد: عفا الله عنه، والوجهان قريبان من حيث المعنى، إلا أن بينهما في الصنعة فرقا، وهو: إنما استعمل المصدر في الأول مقعولاً من أجله، وفي الثاني ظرفاً، وقد وقعت المصائر ظرفاً في مثل حقوق النجم، ومقمت الحاج وأمثال ذلك، وإنما وقعت حاجته بهذا الظرف لاشتماله على إيتاء الملك الحامل له على البطر، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها، وهذان المعنيان هما =

= وهو: أن الاسم المشتق، لا يتحمل الضمير بعد صيرورته بالتسمية علماً على الأصح، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل، فالمشتق إنما يقع على موصوفه، باعتبار تحمله ضميره، إلا تراك إذا قلت: زيد كريم، وحدث كريماً، إنما يقع على زيد؛ لأن فيه ضميره، حتى لو جرئت النظر إليه لم تجده مختصاً بزيد، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكريم من الناس، ولا تجده مختصاً بزيد، إلا باعتبار اشتغاله على ضميره، فليس المشتق إذاً مستقلاً بوقوعه على موصوفه، إلا بضميمة الضمير إليه، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير، مع الحكم برجوعه إلى معين البتة، فرضي الشيخ المنكور عن هذا البحث، وصوبه، والله الموفق للصواب. قوله تعالى: ﴿الم تر إلى الذي حاج إبراهيم﴾ الآية.

أبو حيوة: فُيْهَتْ بوزن قرب. وقيل: كانت هذه المحاجة حين كسر الأصنام، وسجنه نمرود ثم أخرجه من السجن ليحرقه، فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُغِيهِ هَٰذَا اللَّهُ بِمَا يَشَاءُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ عَمَايِكَ وَشِرَايِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٖ وَانظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ وَرَجَمَكَ ۖ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ آلِطَّيْرِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكَّسُوهَا لِحَمَآءٍ فَلَئِمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٥﴾

﴿أو كالذي﴾ (4) معناه: أو رأيت مثل الذي مر، فحذف لدلالة ألم تر عليه لأن كلتيهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى بون اللفظ، كأنه قيل: رأيت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية (3)؟ والمبار كان كافراً بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: أتى يحيي، وقيل: هو عزيز أو الخضر

أحدهما: حاج؛ لأن آتاه الله الملك على معنى: أن آتاه الملك أبطره وأورثه الكبر والعنوّ فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكان المحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأنني أحسنت إليه، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ (1).

والثاني: حاج وقت أن آتاه الله الملك. فإن قلت (2): كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والاتباع، وأما التغليب والتسليط فلا. وقيل: ملكه امتحاناً لعباده. و﴿إذ قال﴾ نصب بحاج، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى الوقت (3). ﴿أنا أحيي وأميت﴾ يريد أعضو عن القتل واقتل، وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب لبيهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة. وقرئ: فَبَيَّهت الذي كفر، أي: فغلب إبراهيم الكافر، وقرأ

حتى تتوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفها في قصة نمرود، فإنه باو التي لا تستعمل إلا مشرطة، إذ عطف التحسين اللفظي خاص بالواو، فنقول: إذا انتهت الترجيع إلى هذا التفتيح، فهو معارض بما بين قصة المار، وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي، لأن طلبتهما واحدة إذا المار سال معاينة الإحياء، وكذلك طلبة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم التناسب المعنوي، أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة، ويؤيد القول بأن المار كان مؤمناً تحريه في قوله تعالى: ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ظاهر الاحتراز من التحريف في القول، حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم، حذراً من إيهام طلبته لجملة اليوم، ومثل هذا التحري لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال: إنما صدر منه هذا التحري، بعد أن حيي وأمن. لانا نقول: إنما أمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وإما التحري المنكور، فكان أول القصة قبل الإيمان، وما قدرت هذا السؤال، إلا لنكتة ينكرها الزمخشري، لأن تشعر بإيراده على الترجيع المنكور. ثم هذه الجراءة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه، من أنه قال: ﴿أو بعض يوم﴾ لما رأى بقية من الشمس، لم يكن رأها أول كلامه، فاستدرك الأمر فيها نظر دقيق، لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره، وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته، وكلام المار المنكور بني أولاً على الجزم بأنه لبث يوماً، ثم جزم آخره أن لبثه، إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول: بل بعض يوم، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثاني، لأن أو، إنما تدخل في الخبر، إذا انبنى أوله على الجزم ثم عرض في آخره شك ولا جزم بالنقيض، فالحكاية المنكورة توجب أن يكون الموضع ليل، لا لاو إذ موضح بل جزم بنقيض الأول، فإذا استقر ذلك، فالظاهر من حال المار أنه كان أولاً جازماً، ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية، وبدولاً عن الحكاية التي تثبت إلا بإسناد قاطع، فيضطر إلى تأويل، فتأمل هذا النظر، فإنه من لطيف النكت، والله الموفق.

= المنكوران في الوجه الأول بعينهما، فلهاذا نيهت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي، والله الموفق، لمعاني كلامه.

- (1) سورة الواقعة، الآية: 82.
- (2) قال أحمد: السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرية صلاحاً، أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، وكل ذلك من أسول القدرية التي اجتبتها البرهان القاطع، فما لها من قرار، وأما إيراد السؤال على صيغة: لما آتاه الله الملك وهو كافر؟ أولم يفعل كذا وكذا؟ فجواب رده على الإطلاق في قوله تعالى: ﴿لا يستل عما يفعل وهم يستلون﴾ لو سمع الصم البكم، والله ولي التوفيق.
- (3) قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء، أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام، ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال، وأما الحجة، فهي: استدلاله على الوهية الله تعالى، بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة، منها: الإحياء، والإماتة، ومنها: الإتيان بالشمس من المشرق، والعنول بعد قيام الحجة، وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال، ليس يبدع عند أهل الجدل، والله أعلم.
- (4) قال أحمد: ومثل هذا النظم يحذف منه فعل الرؤية كثيراً، كقوله: قال لها كلابها أسرعي كالسيوم مطلوباً ولا طلبياً يريد: لم أر كالسيوم، فحذف الفعل وحرف النفي، والظاهر حمل الآية على الوجه الأول، لوجود نظيره، والله أعلم.
- (5) قال أحمد: أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمرود في سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره، باقتتران قصته مع قصة نمرود، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول: أن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمرود، عطف تشريك في الفعل، منطوقاً به في الأولى، ومحدوقاً من الثانية مدلولاً عليه بذكره أولاً، ولا كذلك عطف قصة إبراهيم، فإنها مصدرية بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك، ولكن لتحسين النظم =

فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حثثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. ﴿وانظر إلى العظام﴾ هي عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم، ﴿كيف نشرها﴾ كيف يحييها. وقرأ الحسن: نشرها من نشر الله الموتى بمعنى: أنشرهم فنشروا. وقرئ: بالزاي بمعنى: تحرّكها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وفاعل ﴿تبيين﴾ مضمّر تقديره، فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قال اعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ فحنف الأول لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيدا، ويجوز فلما تبين له ما أشكل عليه يعني: أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فلما تُبَيَّنَ له، على البناء للمفعول. وقرئ: قال اعلم على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل اعلم.

فإن قلت: فإن كان المار كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟ قلت: كان الكلام بعد البعث، ولم يكن إذ ذاك كافراً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْوِيلَهُ قَالَ لِلَّهِ الْغَيْبُ خْفَى قَالَ فَذَرْنُنِي مِمَّنْ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا يَجِدُ لِحْمًا مِنْ حَرَامٍ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا وَلَا يُبَدِّلُ اللَّهُ أَمْرًا إِذْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿أرني﴾ بصرنى.
فإن قلت^(١) كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت للناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من

أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة، كما طلبه إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿أنى يحيى﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقه الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي. والقربة بيت المقدس حين خربه باختصر، وقيل: هي التي خرج منها الألف. ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ تفسيره فيما بعد ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ بناء على الظن. روي أنه مات ضحى، وبعث بعد مائة سنة قبل غيوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً. ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. وروي: أن طعامه كان تيناً وعنباً، وشرايه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا والشراب على حاله ﴿لم يتسنه﴾ لم يتغير. والهاء أصلية أو هاء سكت، واشتقاقه من السنه على الوجهين؛ لأن لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان، وقيل: أصله يتسنن من الحما المسنون، فقلبت نونه حرف علة كتقضي البازي، ويجوز أن يكون معنى لم يتسنه لم تمر عليه السنون التي مرت عليه. يعني: هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك، وهذا شرايك لم يتسن. وقرأ أبي: لم يسنه بإدغام التاء في السين. ﴿وانظر إلى حمارك﴾ كيف تفرقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من اعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرايه من التغيير. ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ فلعلنا ذلك، يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب حماره، وقال: أنا عزيز، فكذبه. فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يهدأ هذا عن ظهر قلبه، وهم ينظرون في الكتاب

== فتقول له: أرني كيف تحمل هذا، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال، الذي أحاط علم الله تعالى، بأن إبراهيم مبرأ منه، أراد بقوله: ﴿أولم تؤمن﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: ﴿بلى﴾ أمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً، نص عليه بعبارة يفهما كل من يسمعا، فهما لا يلحقه فيه شك. فإن قلت: قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين، فما موقع قول إبراهيم، ولكن ليطمئن قلبي، وذلك يشعر ظاهراً، بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة. قلت: معناه: ولكن ليوزل عن قلبي الفكر في كيفية الحياة؛ لاني إذا شأنتها، سكن قلبي عن الجولان في كفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد، وجاءت الآية مطابقة لسؤاله؛ لأنه شاهد صورة حياة الموتى، تقديره الذي يحيى ويميت، فهذا لحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية، وربك الفتح العليم، وأما قول الزمخشري: إن علم الاستدلال يتطرق إليه التشكيك، بخلاف العلم الضروري، فكلام لم يصدر عن رأي مؤنر، ولا فكر محرر، وذلك أن العلم الموقوف على سبب، لا يتصور فيه تشكيك، ما دام سببه متكرراً في نفس العالم، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً، هو الاعتقاد، وإن كان صحيحاً، وسببه باق في النكر، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ثروة العلم، ولكن للقماء من القدرية، خبط طويل في تمييز العلم عن الاعتقاد حتى غالى أبو هاشم، فقال: العلم =

(١) قال أحمد: الأولى في هذه الآية أن ينكر فيها المختار في تفسيرها، من المباحث الممتحنة بالفكر المحرر، والنكت المفصحة بالرأي المخمر، فما وافق من كلام المصنف ما ينكره، فالحمد لله وما خلفه، فالحق فيما نكرناه، والله الموفق، فنقول: أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له: كيف تحيي الموتى، فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سال عن كيفية حكمه، لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية، وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم». أي: ونحن لم نشك، فلان لا يشك إبراهيم أحق وأولى فإن قلت: فإنما كان السؤال مصروحاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورهما ومشاهدتها بالإيمان، ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى: ﴿أولم تؤمن﴾ قلت: قد وقعت لبضع الحقائق فيه على لطيفة، وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل في الاستعجاب، مثاله: إن يدعي مدّع أنه يحمل ثقلًا من الأثقال، وأنت جازم بعجزه عن حمله، =

وجبه أنه خفف بطرح همزته، ثم شدد كما تشدد في الوقف إجراءً للوصول مجرى الوقف.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَمْعَ سَكَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٧﴾

﴿مثل الذين ينفقون﴾ لا بد من حذف مضاف أي مثل نفقتهم، كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمثبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبله، وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر.

فإن قلت: كيف صح هذا التمثيل، والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في البخن والذرة وغيرها، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المقلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير.

فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة، كما قال: ﴿وسبع سنبلات خضر﴾ (2) قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ (3) من وقوع أمثلة الجمع متعاقبة مواقعها. والله يضاعف لمن يشاء ﴿أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء لا لكل متفق لتفاوت أحوال المنفقين، أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٧﴾

المن: أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتهم صنيعاً فانسوها. ولبعضهم: ولن أسراً أسدى إلي صنيعاً ونكرنيها مرةً للئيم وفي (4) نوابغ الكلام صنوان: من منح سائله ومن، ومن

الفائدة الجلية للسامعين، و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي معناه بلى أمنت. ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ ليزيد سكناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الألة أسكن للقلوب وازيد للبصيرة واليقين؛ ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك.

فإن قلت: بم تعلقت اللام في ﴿ليطمئن﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره ولكن سألتك إرادة طمأنينة القلب. ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قيل: طواصلاً وديكاً وغراباً وحمامة. ﴿فصرهن إليك﴾ بضم الصاد وكسرها، بمعنى فاملهن واضمهن إليك. قال:

ولكن أطراف الرماح تصورها

وقال:

وفرع يصير الجيد وحف كائنه على الليت فنوان الكرم الدوالح
وقرا ابن عباس رضي الله عنه: فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه نحو ضره ويضره ويضره، وعنه: فصرهن من التصرية وهي: الجمع أيضاً، ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ يريد، ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال، والمعنى على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك. قيل: كانت أربعة أجبل، وعن السدي: سبعة: ﴿ثم ادعهن﴾ وقل لهن: تعالين بإنان الله، ﴿ياتينك سعياً﴾ ساعيات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن على أرجلهن (1).

فإن قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت: ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك، ولذلك قال: ﴿ياتينك سعياً﴾ وروي أنه أمر بان يذبها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحمها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل رباعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإنان الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن كل جثة إلى رأسها، وقرىء: جزأ بضميتين، وجزأً بالتشديد،

بالشيء، والجهل به مثلاً، وهذا على الحقيقة جهل، حتى لحقيقة الجهل، والزمخشري في قواعد العقائد، يفقو آثار هذا لغائل آية سلك فعله، من ثم طرق إلى العلم النظري الشك، حسب تطرقه إلى الاعتقاد، الذي يكون مرة جهلاً مرة مطاباً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: يريد: ولم يقل طيراناً؛ لأنه إذا كانت ساعية، كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة، والله أعلم.

(2) سورة يوسف، الآية: 43.

(3) سورة البقرة، الآية: 228.

(4) قال أحمد: ثم في أصل وضعها، تشعر بتاريخ المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان، وبعد ما بينهم، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب، والتباعد بينهما، حيث لا يمكن حملها على التراخي في الزمان، لسياق يابى ذلك كهذه الآية، وحاصله =

= أنها استعيرت من تباعد الأزمنة، لتباعد المرتبة، وعندى فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على نوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدثه، ومعناها المستعارة إليه، نوام وجود الفعل، وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ أي: داموا على الاستقامة دواماً متراخياً، ممذ الأمد، وتلك الاستقامة هي المعترية، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد، إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا ممناً ولا أذى﴾ أي: يدومون على تناسي الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإداية، وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم، وقريب من هذا، أو مثله أن السين =

فإن قلت: كيف قال: ﴿لا يقدرُونَ﴾، بعد قوله: ﴿كأذي ينفق؟ قلت: أراد بالذي ينفق الجنس، أو الفريق الذي ينفق؛ ولأن مَنْ والذي يتعاقبان، فكأنه قيل: كمن ينفق. ومَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِيَةً مَّرْصَاتٍ اللَّهُ وَتَثْبِيَتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَمْرٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطَبُهَا ضَمَّتَيْنِ فَإِنْ نَمَّ يُمَيْتًا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ بَصِيرٌ ﴿١٦٥﴾.

﴿وتثبیتاً من أنفسهم﴾ وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح وببذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأنَّ النفس إذا رخصت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها نلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبیتاً لها على الإيمان واليقين، ويجوز أن يراد وتصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله علم أنَّ تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، ومن على التفسير الأول للتبعيض مثلها في قولهم: هز من عطفه وحرك من نشاطه. وعلى الثاني لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿حسدًا من عند أنفسهم﴾⁽¹⁾ ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبیتاً من أنفسهم عند المؤمنین أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه. وتعضده قراءة مجاهد: وتثبیتاً من أنفسهم.

فإن قلت: فما معنى التبعيض؟ قلت: أنَّ من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها ﴿وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾⁽⁴⁾ والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كمثل الجنة﴾ وهي البستان ﴿بربوة﴾ بمكان مرتفع، وخصها لأنَّ الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرًا، ﴿أصابها وابل﴾ مطر عظيم القطر ﴿فأتت أكلها﴾ ثمرتها ﴿ضعفين﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوايل، ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوايل والطل، وكما أنَّ كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده.

وقرىء: كمثل حبة وبربوة بالحركات الثلاث، وأكلها بضمين.

أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَمْ جَنَّةٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرِي مِنْ

منع نائله وضنّ، وفيها طعم الآلاء أحلى من المنّ، وهي أمر من الآلاء مع المنّ.

والأذى: أن يتناول عليه بسبب ما أزال إليه، ومعنى ﴿ثم﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وإن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من النحول فيه بقوله، ﴿ثم استقاموا﴾.

فإن قلت: أي فرق بين قوله ﴿لهم أجرهم﴾ وقوله فيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾⁽¹⁾؟ قلت: الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمته ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها ذلك على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿قول معروف﴾ رد جميل ﴿ومغفرة﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يتقّل على المسؤول، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو وعفو من جهة السائل؛ لأنه إذا رده رداً جميلاً عذره. ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة، ﴿والله عني﴾ لا حاجة به إلى منق يمين ويؤذي. ﴿حليم﴾ عن معالجته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له، ثم بالغ في ذلك بما أتبعه.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَغُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً نَّارٍ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾.

﴿كأذي ينفق ماله﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كإبطال المنافع الذي ينفق ماله ﴿رشاء للناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ﴿فمثله كمثّل صفوان﴾ مثله ونفقتة التي لا ينتفع بها البتة بصفوان: بجزر أملس عليه تراب، وقرأ سعيد بن المسيب: صَفْوَانَ بوزن كروان ﴿فأصابه وابل﴾ مطر عظيم القطر، ﴿فتركه صلداً﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، ومنه صلد جبين الأصل إذا برق. ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا﴾ كقوله: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾⁽²⁾، ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال، أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق.

= يصحب الفعل، لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام، إنني ذاهب إلى ربي سيهدين، وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية، الذي خلقتني، فهو يهدين، فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له، من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس نوام الهداية الحاصلة له، وتراخي بقائه، وتمادي أمدها، ولعل الزمخشري أشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام، فتأمل هذا =

(1) سورة البقرة، الآية: 274.

(2) سورة الفرقان، الآية: 23.

(3) سورة البقرة، الآية: 109.

(4) سورة الصف، الآية: 11.

تَحِيَّهَا الْأَنْهَارُ لِي فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ
شُمْسَاءُ فَأَصَابَهَا إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

فَأَنْ قُلْتُ: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على ما
كسبتم، حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من
الأرض؟ قُلْتُ: معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلا أنه
حذف لنكر الطيبات. ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا
المال الرديء ﴿هِنَّ تَتَفَقُونَ﴾ تخصصونه بالإففاق، وهو: في
محل الحال. وقرأ عبد الله: ولا تأمموا، وقرأ ابن عباس: ولا
تيمموا بضم التاء، ويَمِّمُه وتَيَمَّمُه وتَأَمَّمُه سواء في معنى
قصده. ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْنِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في
حقوقكم ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلا بأن تتسامحوا في
أخذه وتترخصوا فيه، من قولك: أغمض فلان عن بعض
حقه، إذا غَضَّ بصره، ويقال للبايع: أغمض، أي: لا تستقص
كأنك لا تبصر. وقال الطرماع:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضبي رجال يرضون بالإغماض
وقرا الزهري: تغمضوا وأغمض وأغض بمعنى: وعنه
تغمضوا بضم الميم وكسرهما من غمض يغمض ويغوض،
وقرا قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى: إلا أن
تدخلوا فيه وتجنبوا إليه، وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين،
وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموهم في السوق يباع
ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره
فنهاه عنه.

الشَّيْطَانُ يُدْعِكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْتِكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَاللَّهُ يَدْعُكُمْ مَغْفِرَةً
رَبِّنَا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

أي: يعذبكم في الإففاق ﴿الفقر﴾ ويقول لكم إن عاقبة
إنفاقكم أن تففقوا. وقرئ: الفقْر بالضم، والفقْر بفتحين،
والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿النار
وعدها الله الذين كفروا﴾⁽³⁾ ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾
ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الأمر للمأمور،
والفاحش عند العرب البخيل. ﴿والله يعذبكم﴾ في الإففاق
﴿مغفرة﴾ لذنوبكم وكفارة لها، ﴿وفضلاً﴾ وأن يخلف
عليكم أفضل مما أنفقتم، أو وثوباً عليه في الآخرة.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٧٩﴾

﴿يؤتي الحكمة﴾ يوفق للعلم والعمل به، والحكيم
عند الله هو العالم العامل. وقرئ: ومن يؤت الحكمة بمعنى:
ومن يؤته الله الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش: و ﴿خيراً﴾
كثيراً. تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي، أي: خير كثير.
﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ يريد الحكماء العلام العمال،

الهمزة في ﴿أيود﴾ للإنكار. وقرئ: له جنات، وذرية
ضعاف، والإعصار الريح التي تستدير في الأرض ثم
تسطع نحو السماء كالعمود، وهذا مثل لمن يعمل الأعمال
الحسنة لا يبتغي بها وجه الله، فإذا كان يوم القيامة وجدها
محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من
أبهى الجنان وأجمعها للثمار، فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف،
والجنة معاشهم ومنتعشهم، فهلك بالصاعقة. وعن عمر
رضي الله عنه: أنه سأل عنها الصحابة، فقالوا: الله أعلم،
فغضب. وقال: قولوا نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس
رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين.
قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك، قال: ضربت مثلاً
لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات، ثم
بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله
كلها⁽¹⁾. وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثل قل واللؤ من
يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه
أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحكمكم والله أفقر ما يكون إلى
عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف قال: جنة من نخيل وأعناب، ثم قال: له
فيها من كل الثمرات؟ قُلْتُ⁽²⁾: النخيل والأعناب لما كانا
أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر وجعل الجنة
منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغلياً لهما
على غيرهما، ثم أرفقهما نكر كل الثمرات، ويجوز أن يريد
بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها، كقوله: ﴿وكان
له ثمر﴾⁽³⁾ بعد قوله: ﴿جناتين من أعناب وحفناهما
بنخل﴾⁽⁴⁾.

فَأَنْ قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿وأصابه الكبر﴾؟ قُلْتُ:
الواو للحال لا للعطف، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه
الكبر، وقيل: يقال ودبت أن يكون كذا ودبت لو كان كذا،
فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحكمكم لو كانت
له جنة، وأصابه الكبر.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسُهُمْ مِنْ طَبَقَاتٍ مِمَّا حَرَّجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيَاتِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَسَمَّ بِحَاذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُشْرَفُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٨٠﴾

﴿من طيبات ما كسبتم﴾ من جياذ مكسوباتكم، ﴿ومما
أخرجنا لكم﴾ من الحب والتمر والمعادن وغيرها.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قوله ﴿أيود﴾
أحكمكم أن تكون له جنة. الحديث رقم: (4538).

(3) سورة الكهف، الآية: 34.

(4) سورة الكهف، الآية: 32.

(5) سورة الحج، الآية: 72.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تشبيه نكر ما يقع الاهتمام به
مرتتين، عموماً، وخصوصاً، ومثله: فيهما فاكهة ونخل ورمان، إلا
أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم، وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص، =

مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب، **«ولكن الله يهدي من يشاء»**، يطف بمن يعلم أن اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه. **«وما تنفقوا من خير»** من مال **«فلائفسكم»** فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنوا به على الناس، ولا تؤنؤهم بالتطاول عليهم. **«وما تنفقون»** وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله. ولطلب ما عنده، فما بالكتم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله **«وما تنفقوا من خير يوف إليكم»** ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وإن يكون على أحسن الوجوه وأجملها. وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فأتتها أمها تسالها وهي مشرقة فأبت أن تعطياها، فنزلت: وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين، وروي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع، وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم، وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك، واختلف في الواجب فجوز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل النعمة، وأباه غيره.

لِلْفَرَاءِ الَّذِي أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَتَلَبَّرُونَ
شَرًّا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُ الْكَاذِبُ غِيَاةً مِنَ الْمَغْطَفِ
تَرَفُّهُمُ بَيْنَهُمْ لَا يَتَلَوَّكُ النَّاسُ إِلْحَاكًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَرَأَى اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْهِمْ (٧٧)

الجار متعلق بمحذوف، والمعنى: أعمدوا الفقراء، أو اجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: **«في تسع آيات»** ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: صدقاتكم للفقراء **«والذين أحصروا في سبيل الله»** هم الذين أحصرهم الجهاد، **«لا يستطيعون»** لاشتغالهم به **«خبرياً في الأرض»** للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد وهي سقيفته يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: **«أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم**

والمراد به: الحد على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٨)

«وما أنفقتم من نفقة» في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، **«أو نذرتم من نذر»** في طاعة الله، أو في معصيته. **«فإن الله يعلمه»** لا يخفى عليه وهو مجازيك عليه، **«وما للظالمين»** الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يفون بالنذور، أو يندرون في المعاصي. **«من أنصار»** ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

إِنْ بُدُوا أَلْدَقْتُمْ قَيْمًا مِنْهُمْ وَإِنْ تُخَفُّوهُمْ وَتُوْتُوهُمْ أَلْفُورَةً
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَخِرَ بِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَحْمَلُونَ
خَيْرٌ (٧٩)

ما في نعماً نكرة غير موصولة، ولا موصوفة ومعنى **«فنعما هي»** فنعم شيئاً إيدأوها، وقرئ: بكسر النون وفتحها. **«وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء»** وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء، **«فهو خير لكم»** فالإخفاء خير لكم، والمراد الصدقات المتطوع بها؛ فإن الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً^(١)، وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل لنفي التهمة حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل. **«ونكفر»** قرئ: بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نكفر، أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأ ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده؛ لأنه جواب الشرط، وقرئ: ويكفر، بالياء مرفوعاً، والفعل لله، أو للإخفاء، وتكفر بالياء مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات. وقرأ الحسن رضي الله عنه: بالياء والنصب بإضمار أن، ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم وأن يكفر عنكم.

لَيْسَ عَلَيْكَ مَدِينَةٌ وَاللَّيْنُ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِنَفْسِكُمْ وَجِئْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٨٠)

«ليس عليك هدام»^(٢) لا يجب عليك أن تجعلهم

(١) أخرجه الخطيب عن ابن عباس، نكره الهندي في كذب العمال /6 = تعالى إضافة الهدى إليه، كما في هذه الآية، فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل، للعبد على أن يخلق هداً، إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزغة من تواب معتقدم السييء، في خلق الأفعال، وليس علينا هدام، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

(٢) قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح، أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداً، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري، أن الهدى ليس خلق الله، وإنما العبد يخلق لنفسه، وإن أطلق الله =

أَشْرَكُوا مِنْ أَمْسٍ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَالُوا إِنَّمَا اتَّبَعْنَا مِثْلَ آبَائِنَا وَإِنَّمَا اللَّهُ
اتَّبَعُوا وَحَرَّمَ الزُّبُرَ فَمَنْ جَاءَهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ فَاذْبَهُمْ فَلَهُ مَا سَلَّ
وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾

﴿الربوا﴾ كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لا يقومون﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾ (3) أي: المصروع، وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فصرع.

والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشاء، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجن يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه: ضربته الجن، ورايتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿من المس﴾؟ قلت: بـ ﴿لا يقومون﴾ أي: لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يقوم﴾. أي: كما يقوم المصروع من جنونه، والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة مخيلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرين على الإيفاض. ﴿نلك﴾ العقاب بسبب قولهم: ﴿إنما البيع مثل الربوا﴾.

فإن قلت (4): هلا قيل: إنما الربا مثل البيع؛ لأن الكلام

عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي في الجنة (1). ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بحالهم ﴿اغنياء من التعفف﴾ مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ من صفرة الوجه وراثته الحال.

والإحلاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه من قولهم: لحفتي من فضل لحافه، أي: أعطاني من فضل ما عنده. وعن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يحب الحيي الحليم المتعفف، ويبغض البذي السأل الملحف» (2). ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا يتلطف ولم يلحوا. وقيل: هو نفي للسؤال والإحلاف جميعاً. كقوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره
يريد نفي المنار والاهتداء به.

أَلَّذِينَ يُبْعَثُونَ أَمْ لَهُمْ آيَاتٌ وَاللَّهِ سِرًّا وَعَلَايَةً فَهُمْ
أَجْرَمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾

﴿بالليل والنهار سرأً وعلانية﴾ يعمون الأوقات والأحوال بالصنعة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصنق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في علي رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصنق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرأً، وبدرهم علانية، وقيل: نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية.

أَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الزُّبُرَ لَا يَتُومُونَ إِلَّا كَمَا يُتَمُّ الَّذِينَ يَخْبِطُونَ

على خافية من خوافيه، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره، واعتقاد السلف، وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة، كما أخبر الشرع عنها، وإنما القدرية خصماء العلانية، فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً، مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم من ذلك السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن، وإن اعترفوا بشيء من ذلك، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة، وينبئ عنه ظاهر الشرع في خبط طويل لهم، فأحذرهم قاتلهم الله، أنى يؤفكون.

(4) قال أحمد: وعندي وجه في الجواب عن السؤال، الذي أورده غير ما نكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم، فللقائل أن يسوي بينهما طرداً، فيقول مثلاً: الربا مثل البيع، وغرضه من ذلك أن يقول: والبيع حلال، فالربا حلال، وله أن يسوي بينهما في العكس، فيقول: البيع مثل الربا، فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً، ضرورة المماثلة، ونتيجته التي دلت قوة الكلام عليها، أن يقول ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام، وجب أن يكون الربا مثله، والأول على طريقة قياس الطرد، والثاني على طريقة قياس العكس، ومكلمها إلى مقصد واحد، فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر، لعذر المبالغة أو غيره، وليس الغرض من هذا كله، إلا بيان هذا الذي تخيلوه، على أنموذج =

(1) كشف الاستار، كتاب: البر والصلة، باب: الضيافة الحديث رقم: (2031).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والادب، باب: استحباب العفو والتواضع الحديث رقم: (6535).

(3) قال أحمد: قوله وتخبط للشيطان من زعمات العرب، أي: كذبتهم وزخارفهم، التي لا حقيقة لها كما يقال في الغول والعنقاء، ونحو ذلك، وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المربودة، بقواطع الشرع، فقد ورد ما من مولود يولد، إلا يمسه الشيطان، فيستهول صارخاً، وفي بعض الطرق إلا طعن الشيطان في خاصرته، ومن ذلك يستهل صارخاً، إلا مريم وابنها، لقول أمها: إني أعيدنها بك ونزيتها من الشيطان الرجيم، وقوله عليه السلام: «التقطوا صبيانكم أول العشاء، فإنه وقت انتشار الشياطين». وفي حديث مكحول أنه مرّ برجل نائم بعد العصر، فركضه برجله، وقال: لقد بقع عنك الشياطين، أو لقد عوفيت، إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون، وفيها يكون الخبثة، قال شمر: كان في لسان مكحول لكنه، وإنما أراد الخبثة من الشيطان، أي: إصابة مس أو جنون، وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين، وركبته في زمنه عليه الصلاة والسلام، أنه حدث عن شاته معهم قال: «فجأني طائر كأنه جمل، فتعزرتني، فاحتلني =

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمرنا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. وقرأ الحسن رضي الله عنه: ما بقي، بقلب الباء الفأ على لغة طيء، وعنه: ما بقي، بباء ساكنة، ومنه قول جرير:

هو الخليفة فارضوا مارضى لكموا ماضي العزيمة ما في حكمه جنف
﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن صح إيمانكم يعني: أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك.

وَإِن لَّمْ تَسْمَعُوا فَاذِنُوا يَحْرِبَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَكُفُّوا
 زُؤُسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَطْلُبُوهَا وَلَا تَطْمَؤُنْ بِهَا (٧٧)

﴿فاننوا بحرب﴾ فاعلموا بها، من أنن بالشيء إذا علم به، وقرئ: فأننوا، فاعلموا بها غيركم، وهو من الأذن وهو الاستماع؛ لأنه من طرق العلم. وقرأ الحسن: فأيقنوا، وهو دليل لقراءة العامة.

فإن قلت: هلا قيل: بحرب الله ورسوله؟ قلت: كان هذا أبلغ؛ لأن المعنى فأننوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. روي: أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا يدى لنا بحرب الله ورسوله. **﴿وإن تبتم﴾** من الارتباء **﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾** المدينون يطلب الزيادة عليها، **﴿ولا تظلمون﴾** بالتقصان منها.

فإن قلت: هذا حكمهم إن تابوا، فما حكمهم لو لم يتوبوا؟ قلت: قالوا: يكون مالهم فيا للمسلمين، وروي المفضل عن عاصم: لا تظلمون ولا تظلمون.

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرٍ فَيُطْرَقْ إِلَى مَيسِرٍ وَأَنْ نَصَدُّوا حَيْرَ لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧٨)

﴿وإن كان ذو عسرة﴾ وإن وقع غريم من غرمانكم ذو عسرة أي: ذو إعسار، وقرأ عثمان رضي الله عنه: ذا عسرة، على وإن كان الغريم ذا عسرة، وقرئ: ومن كان ذا عسرة، **﴿فإنظر﴾** أي: فالحكم، أو فالأمر نظرة، وهي

في الربا لا في البيع فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع، فاستلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساري إلا رهما بدرهمين جان، فكنك إذا باع رهما بدرهمين. قلت: جاء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع، وقوله: **﴿وأحل الله البيع وحرم الربوا﴾** إنكاراً لتسويتهم بينهما ودلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل اللبيل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه. **﴿فمن جاءه موعظة﴾** فمن بلغه وعظ من الله وجزع بالنهي عن الربا **﴿فانتهى﴾** فتبع النهي، وامتنع **﴿فله ما سلف﴾** فلا يؤخذ بما مضى منه لأنه أخذ قبل نزول التحريم، **﴿وأمره إلى الله﴾** يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به. **﴿ومن عاد﴾** إلى الربا **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** (١) وهذا دليل بيقين على تخليد الفساق وذكر فعل الموعظة؛ لأن تانيها غير حقيقي؛ ولأنها في معنى الوعظ. وقرأ أبي، والحسن: فمن جاءته.

يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الْمَدَنَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٧٩) إِنَّ الرِّبَا مَأْمُورٌ وَكَيْفَ الْكَيْفِيَّةِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٨٠)

﴿يحق الله الربوا﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: الربا وإن كثر إلى قل. **﴿ويربي الصدقات﴾** ما يتصدق به، بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه، وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط». **﴿كل كفار أثيم﴾** تغليب في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين.

يَأْتِيهَا الرِّبَا مَأْمُورًا أَتَمُّوا اللَّهُ وَدَرُوا مَا بَيْنَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨١)

نكره، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذي سلف نكره فعل الربا، واعتقاد جوازها، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع، ولا شك عندنا أهل السنة والجماعة، أن من تعاطى معاملة الربا، مستحلاً لها مكابراً في تحريمها مستنداً لإحلالها إلى معارضة آيات الله البيّنات، بما يتوهم من الخيالات، فقد كفر ثم ازداد كفراً، وإن ذلك يكون الموعود بالخلود في الآفة من يقول إنه كافر مكذب غير مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذا على اعتزاليه في هذه الآية، والله الموفق، وإنما هو موكل بتحميل الآيات من المعتقدات الباطلة، ما لا تحتمله، وإنى له ذلك في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

النظم الصحيح، وإن كان قياساً فاسد الوضع، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا، وتحليل البيع، وقطع القياس بينهما، ولكن إذا استعملت الطريقتين المنكورتين استعمالاً صحيحاً، فقل في الأولى: النبيذ، مثل الخمر في علة التحريم، وهو الإسكار، والخمر حرام، فالنبيذ حرام. وقل في الثانية: إنما الخمر مثل النبيذ، فلو كان النبيذ حلالاً، لكان الخمر حلالاً، وليست حلالاً اتفاقاً، فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه، والله أعلم.

(١) قال أحمد: هو يبني على أن الموعود عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذي استدلل به، فإن الذي وقع العود إليه مسكوت عنه في الآية، إلا تراه قال ومن عاد، فلم يذكر الموعود إليه، فيجمل على ما تقدم، كأنه قال ومن عاد إلى ما سلف

تَكُونُ بَعْدَهُ حَاضِرَةً تُوَدِّعُهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارُّكُمْ كِتَابٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَعَمَلُوا فَإِنَّهُ سَوْفَ بِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ اللَّهُ وَآلَهُ بِكُلِّ نَسْوَةٍ عَلِيمٌ ﴿١٨٧﴾.

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ إذا دأبنا بعضكم بعضاً، ويقال: دأبت الرجل عاملته. ﴿بَيْنَكُمْ﴾ معطياً، أو أخذاً، كما تقول: بايعته إذا باعته، أو باعك. قال رؤية:

دأبت أروى والديون تقضى فمطلت بعضاً وأنت بعضاً والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فالتكثير.

فإن قلت⁽⁴⁾: هلا قيل إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأي حاجة إلى نكر الدين، كما قال: دأبت أروى، ولم يقل بين؟ قلت: نكر ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿فالتكثير﴾، إذ لو لم ينكر لوجب أن يقال: فالتكثير الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن؛ ولأنه أبين لتتويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾؟ قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً، كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية، وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق وأمن من النسيان وأبعد من الجحود والأمر للندب. وعن ابن عباس: أن المراد به السلم، وقال: لما حرّم الله الربا أباح السلف، وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية⁽⁵⁾، ﴿بالعدل﴾ متعلق بكتاب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالسوية والاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتدأبين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيهاً نيناً. ﴿ولا باب كاتب﴾ ولا يتمتع أحد من الكتاب، وهو معنى تنكير كاتب ﴿أن يكتب كما علمه الله﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير، وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿واحسن كما أحسن الله إليك﴾⁽⁶⁾ أي: ينفع الناس بكتابتها، كما نفعه الله بتعليمها، وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله يجوز أن يتعلق بأن يكتب ويقول: ﴿فليكتب﴾.

فإن قلت: أي فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المفيدة، ثم قيل له: فليكتب، يعني: فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها، للتوكيد،

الإنظار. وقرئ: فنظرة بسكون الظاء، وقرأ عطاء: فناظره، بمعنى: فصاحب الحق ناظره، أي: منتظره، أو صاحب نظرتة على طريقة النسب، كقولهم: مكان عاشب وياقل، أي: ذو عشب، ونو بقل، وعنه فناظره على الأمر بمعنى، فسماحه بالنظرة، وياسره بها. ﴿إلى ميسرة﴾ إلى يسار، وقرئ: بضم السين، كمقبرة ومقبرة، ومشرقة ومشرقة، وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة، كقوله:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

قوله تعالى: ﴿واقام الصلاة﴾⁽¹⁾ ﴿وان تصدقوا خير لكم﴾ ندب إلى أن يتصدقوا برؤوس أموالهم على من أعسر من غرمائهم، أو ببعضها، كقوله تعالى: ﴿وان تعفوا أقرب للتقوى﴾⁽²⁾ وقيل: أريد بالتصدق الإنظار؛ لقوله ﷺ: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»⁽³⁾ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أنه خير لكم فتمعلوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه. وقرئ: تصدقوا، بتخفيف الصاد على حذف التاء.

وَأَتَقُوا يَوْمًا تُجْمَعُونَ يَوْمَ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِمَنْ تُوَفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهِيَ لَا يَظُنُّونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿ترجعون﴾ قرئ: على البناء للمفاعل والمفعول، وقرئ: يرجعون، بالياء على طريقة الالتفات، وقرأ عبد الله: تردون، وقرأ أبي: تصيرون. وعن ابن عباس أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: وضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة. وعاش رسول الله ﷺ بعدها لحداً وعشرين يوماً، وقيل: لحداً وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات.

يَأْتِيهَا الذُّبُرُ ؕ أَمْثَلًا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ أَجَلٌ مُسَمًّى فَاصْتَبِرُوا ۖ وَلَا يَكْتُبُ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بِالْمَدْلِ وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۖ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ ضَالًّا أَوْ لَا يَسْتَلِيمُ ۖ أَنْ يُبَلَّغَ هُوَ قَلِيلٌ وَلِيْلٌ بِالْمَدْلِ ۖ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ بِإِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ۚ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْفُرُوا صَغِيرًا ۚ أَرْ كَبِيرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ ذِكْرُكُمْ أَفْسَلُ ۚ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِشَهَادَةِ أَدْنَىٰ ۚ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِنْ أَنْ

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

(2) سورة البقرة، الآية: 237.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الصدقات، باب: إنظار المعسر الحديث رقم: (2418)، وأحمد في المسند 360/5، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فصل في إنظار المعسر والرفق بالمعسر الحديث رقم: (11261).

(4) قال أحمد: الأجل المسمى، والمعلوم انتهؤه، ولعلم الانتهاء طرق، منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر، ومنها التحديد بما =

= يعتاد وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف، كالحصاد ومقدم الحاج، وكيفما علم الأجل صح ضربه، فمن ثم أجاز ملك البيع إلى الحصاد؛ لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها، حتى لو حل زمن قدوم الحاج، فمنعه مانع من القدوم مثلاً لم يكن به عبرة، وحكمنا بحلول أجل الدين، والله اعلم.

(5) الحاكم في المستدرک 286/2.

(6) سورة القصص، الآية: 77.

ومنه الحديث: «لا يقول المؤمن كسلت»⁽¹⁾، ويجوز أن يراد من كثرت مدايناته فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب. والضمير في «تكتبوه» للدين أو الحق. «صغيراً أو كبيراً» على أي حال كان الحق من صغر أو كبر، ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً ولا يُخلو بكتابته «إلى لجله» إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته، «نلكم» إشارة إلى أن تكتبوه؛ لأنه في معنى: المصدر. أي: نلكم الكتب «اقسط» عدل من القسط، «واقوم» للشهادة، وأعون على إقامة الشهادة، «وانسى ألا ترتابوا» وأقرب من انتفاء الريب.

فإن قلت: مم بنى أفعلا التفضيل، أعني: اقسط واقوم؟ قلت: يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من اقسط وأقام، وأن يكون اقسط من قاسط على طريقة النسب، بمعنى: ذي قسط، واقوم من قويم، وقرئ: ولا يساموا أن يكتبوه بالياء فيها.

فإن قلت: ما معنى «تجارة حاضرة» وسواء كانت المبيعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة، وما معنى: إدارتها بينهم؟ قلت: أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيهم إياها بدأ بيد، والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يبدأ بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، وقرئ: تجارة حاضرة بالرفع على كان التامة، وقيل: هي الناقصة على أن الاسم تجارة حاضرة، والخبر تديرونها، وبالنصب على إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوماً ذاكوكب أشنعا
أي: إذا كان اليوم يوماً. «واشهدوا إذا تبايعتم» أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كالتأ؛ لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف، ويجوز أن يراد، وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كافٍ فيه نون الكتابة، وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد. وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل. «ولا يضار» يحتمل البناء للفاعل والمفعول واللليل عليه قراءة عمر رضي الله عنه: ولا يضارُّ بالإظهار والكسر، وقراءة ابن عباس رضي الله عنه: ولا يضارُّ بالإظهار والفتح. والمعنى: نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرر بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزم، أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد، وقرأ الحسن: ولا يضار بالكسر، «وإن تفعلوا» وإن تضاروا «فإنه» فإن الضرر «فسوق بكم». وقيل: وإن تفعلوا شيئاً مما نهيت عن.

وإن علته بقوله: فليكتب، فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة. «وليملل الذي عليه الحق» ولا يكن المملي إلا من وجب عليه الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في نمته وإقراره به، والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن، فهي تملى عليه. «ولا يبخص منه» من الحق «شيئاً»، والبخص النقص، وقرئ: شيئاً بطرح الهمزة وشيئاً بالتشديد. «سفيهاً» محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف. «أو ضعيفاً» صيباً أو شيئاً مختلاً. «أو لا يستطيع أن يمل هو» أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعي به أو خرس، «فليملل وليه» الذي يلي أمره من وصي إن كان سفيهاً أو صيباً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه، وقوله تعالى: «أن يمل هو» فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه. «واستشهدوا شهيدين» واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على اللين «من رجالكم» من رجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن علي رضي الله عنه: لا تجوز شهادة العبد في شيء، وعند شريح، وابن سيرين، وعثمان البتي: أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل. «فإن لم يكونا» فإن لم يكن الشهيديان «رجلين فرجل وامرأتان» فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص «ممن ترضون» ممن تعرفون عدالتهم. «أن تضل إحداهما» أن لا تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنسأها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنه مفعول له، أي: إرادة أن تضل.

فإن قلت: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ قلت: لما كان الضلال سبباً للإنكار، والإنكار مسبباً عنه وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإنكار إرادة للإنكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، ونظيره قولهم: أعدت الخشبة، أن يميل الحائط فأدعمه، وأعدت السلاح، أن يجيء عدو فأنفعه. وقرئ: «فتذكر» بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان فتذاكر، وقرأ حمزة: أن تضل إحداهما على الشرط، فتذكر بالرفع والتشديد، كقوله: «ومن عاد فينتقم الله منه». وقرئ: أن تضل إحداهما على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع التفاسير فتذكر فتجعل إحداهما الأخرى نكراً يعني: أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر. «إذا ما دعوا» ليقموا الشهادة، وقيل: ليستشهدوا، وقيل لهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن، وعن قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء العظيم فيه القوم، فلا يتبعه منهم أحد فنزلت. كنى بالسأم عن الكسل؛ لأن الكسل صفة المنافق،

وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية، وأما⁽³⁾ القبض فلا بد من اعتباره. وعند مالك: يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بدون القبض. **﴿فإن أمن بعضهم بعضاً﴾** فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظنه به، وقرأ أبي: فإن أمن، أي: آمنه الناس ووصفوا المدينين بالأمانة والوفاء، والاستغناء عن الارتهان من مثله، **﴿فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾** حث المدينون على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه وإثمانه، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه، فلم يرتهن منه، وسمى الدين أمانة، وهو مضمون لا تئمانه عليه بترك الارتهان منه، والقراءة أن تنطق بهزمة ساكنة بعد الدال أو ياء، فتقول: الذي أؤتمن، أو الذي تؤن وعن عاصم أنه قرأ: الذي أؤتمن بإدغام الياء في التاء قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس بصحيح؛ لأن الياء منقلبة عن الهمزة فهي في حكم الهمزة وتزجر عامي، وكذلك ربا في رؤيا **﴿أتم﴾** خبر إن و **﴿قلبه﴾** رفع بأتم على الفاعلية؛ كأنه قيل: فإنه ياتم قلبه، ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء،

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَتَهُ إِنْ أَيْنَ بِكُمْ مَعْبَأٌ فَلَْيَوِّدْ الَّذِي آوْتُنَّ آمَنَتَهُ وَرِثَىٰ اللَّهُ رِبِّيُّ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٨٧﴾

﴿على سفر﴾ مسافرين. وقرأ ابن عباس وأبي رضي الله عنهما: كتاباً، وقال ابن عباس: أريت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والذوابة. وقرأ أبو العالية: كتاباً. وقرأ الحسن: كتاباً جمع كاتب. **﴿فرهن﴾** فالذي يستوثق به رهن. وقرئ: فرهن بضم الهاء وسكونها، وهو: جمع رهن كسقف وسقف وفرهان.

﴿فإن قلت﴾⁽¹⁾: لم شرط السفر في الارتهان، ولا يختص به سفر يوم حضر، وقد رهن رسول الله ﷺ دبره في غير سفر⁽²⁾؛ قلت: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد.

== الرهن وجوازه في الحضر والسفر الحديث رقم: (4090)، وحديث انس أخرجه البخاري في الحديث رقم: (2069).

(3) قال أحمد رحمه الله: ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب، والقبول دون القبض، ولكنه عند مالك رضي الله عنه يصح بذلك، ويلزم الرهان بالعقد تسليمه للمرتهن، وعند الشافعي لا يلزم بالعقد، ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء، والدوام ولا يشترط الشافعي كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقاررا على القبض، ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعي وامتناع به ولم ينتفع به عند مالك، وكان أسوة الغرماء فيه، حتى يضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معاينة الدينة لذلك؛ لأنه يتبهما بالتواطؤ على إسقاط حق الغرماء، فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعاينة، فالقبض من هذا الوجه أدخل في الاعتبار على رأي مالك منه على رأي الشافعي، هذا في الابتداء، وأما في الدوام، فمالك رضي الله عنه يشترط بقاءه في يد المرتهن، حتى لو عاد إلى يد الرهان، بأن أودعه المرتهن إياه، أو أجزه منه، أو أعاره إياه إعارة مطلقة، فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الرهان بوجه من الوجوه المنكورة، كان أسوة الغرماء فيه، والشافعي رضي الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل للرهن عند الشافعي أن ينتفع بالرهن، ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكني الدار واستخدام العبد، وله أن يستوفي منافع نفسه، على الصحيح عنده المنصوص عليه في الأم، ولا يؤثر ذلك في الرهن بطلاناً، ولا خلافاً، فقد علمت أن القبض أدخل في الاعتبار على مذهب مالك ابتداء، ودواماً، والآية تعضده؛ فإن الرهن في اللغة هو الدوام، أنشد أبو علي:

فالخبر واللحم لهم رهن وقهوة راووقها ساكب
ولعل القائل باشرط نوام الرهن في يد المرتهن، تمسك بما في لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله في ذلك متمسك، وما طوأت في حكاية مذهب مالك في القبض، إلا لأن المفهوم من كلام الزمخشري إبطاح القبض عند مالك؛ لأنه فهم من قول أصحابه، إن القبض لا يشترط في صحة الرهن، ولا في لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلي، والله أعلم.

(1) قال أحمد رحمه الله: فالتخصيص بالسفر على هذا، جرى على وفق الغالب، فلا مفهوم له، وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضي الله عنه في إقامة الرهن، عند التنازع في قدر الدين مقام الشاهد للمرتهن، إلى تمام قيمته، حتى لو تنازعا، فقال الرهان رهنك بمائة، وقال المرتهن بل الرهن بمائتين، لكان الرهن شاهداً بقيمته خلافاً للشافعي رضي الله عنه، فإنه يرى القول قول الرهان مطلقاً؛ لأنه غارم ووجه الدليل، لمالك رضي الله عنه من الآية، أن الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الإشهاد، والكتابة، وخصه بالسفر لإعوازهما حينئذ، ولو كان القول قول الرهان شرعاً لم يكن قائماً مقام الإشهاد، ولا مفيداً فائدته بوجه، إذ لو لم يكن الرهان لكان القول قول المديان في قدر الدين، فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الإشهاد، ولا يقال إن فائدته الامتياز به على الغرماء؛ لأن تلك فائدة الإشهاد، حتى يكون نائباً عنه عند تعذره، ولا فائدة إذ ذلك، إلا جعل القول قول المرتهن في قدر الدين عند التخالف، وهو مذهب مالك المقدم نكره، ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته، لا فيما زاد عليها معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه، إلا الموفى بقيمته، فدعواه أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر، فيما هو أقل، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد، وهو أن المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر، أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زان، أو نقصت، وإنما يعتبر يوم القضاء ولقائل أن يقول: إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه؛ لأن العادة تقتضي أن الناس إنما يرهنون في الدين المساوي قيمته لها، فينبغي أن تعتبر القيمة يوم الرهن غير مرجحين على زيادتها، ونقصانها يوم القضاء، وعند ذلك يتجانب أطراف الكلام في أن المقترضى لإقامته مقام الشاهد، هو المعنى المتقدم أو غيره، وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة، وأما تفاصيل المسألة، فنلك من حظ الفقه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة الحديث رقم: (2068)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب:==

وأثم خبر مقدمٌ والجملة خبر إن.

فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: ﴿فإنه أثم﴾ وما فائدة نكر القلب والجملة هي الأثمة لا القلب وحده؟ **قلت:** كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله؛ فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الأثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعين اقترافه، واللسان ترجمان عنه؛ ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾⁽¹⁾ وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وقرئ: قلبه بالنصب، كقوله: ﴿سفه نفسه﴾⁽²⁾ وقرأ ابن أبي عمير: أثم قلبه، أي: جعله أثماً.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تَحْمَرُّوا يُعَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْمِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَمِمَّا زَكَّاهُ اللَّهُ عَلَى كَلْبٍ شَرِّ قَدِيرٍ ﴿٧٤﴾

﴿وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ يعني من السوء **﴿يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء﴾** لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره، **﴿ويعذب من يشاء﴾** ممن استوجب العقوبة بالإصرار، ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان الوسواس وحديث النفس؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لتهلكن، ثم بكى حتى سمع نسيجه، فنكر لابن عباس، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد⁽³⁾ فنزل **﴿لا يكلف الله﴾**⁽⁴⁾ وقرئ: فيغفر ويعذب، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب.

فإن قلت: كيف يقرأ الجازم؟ **قلت:** يظهر الراء ويدغم الباء، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشاً،

ورأيه عن أبي عمرو مخطئ مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو. وقرأ الأعمش: يغفر بغير فاء مجزوماً على البديل من يحاسبكم، كقوله:

متى تاتنا تلمم بنا في بيارنا طباجرلاً وناراً تاججا
ومعنى: هذا البديل التفصيل لجملة الحساب؛ لأن التفصيل أوضح من المفصل فهو جار مجرى بدل البعض من الكل، أو بديل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البديل وقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

أَمَّا أَرْسُولٌ يَمَّا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرٌ بَيْنَكَ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٧٤﴾

﴿والمؤمنون﴾ إن عطف على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في كل راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم آمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله من المنكوبين ووقف عليه، وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين، ووجد ضمير كل في آمن على معنى كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: **﴿وكل أتوه داخرين﴾**⁽³⁾. وقرأ⁽⁶⁾ ابن عباس: وكتابه، يريد القرآن أو الجنس، وعنه: الكتاب أكثر من الكتب.

فإن قلت: كيف يكون الولد أكثر من الجمع؟ **قلت:** لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع. **﴿لا نفرق﴾** يقولون لا نفرق، عن أبي عمرو: يفرق بالياء، على أن الفعل لكل، وقرأ عبد الله: لا يفرقون. و **﴿أحد﴾** في معنى الجمع، كقوله تعالى: **﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾**⁽⁷⁾ ولئلك سخل عليه بين **﴿سمعنا﴾** أجبتنا **﴿غفرانك﴾** منصوب بإضمار فعله، يقال: غفرانك لا كفرانك، أي: نستغفرك ولا نكفرك. وقرئ: وكتبه ورسله بالسكون.

لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَرَسُولًا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَغَلِبَهَا مَا كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ سَيِّئًا أَوْ أَسْطَقْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا

التصور، فإن التمر استرسل على الجنس، لا بصيغة لفظية، والتصور يردّه إلى تخيل الواحد، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب، وهذا الكلام من الإمام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا، لأشهر الفرضية في الاستشهادية على صحة مقالته هذه، فلا نعيده.
(7) سورة الحاقة، الآية: 47.

(1) سورة المائدة، الآية: 72.
(2) سورة البقرة، الآية: 130.
(3) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (72/4).
(4) سورة البقرة، الآية: 286.
(5) سورة النمل، الآية: 87.
(6) قال أحمد: وقد قال مالك إن التمر أحرق باستغراق الجنس من

الأنفوس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وغير ذلك. وقرئ: أصاراً على الجمع، وفي قراءة أبي: ولا تحمل علينا بالتشبيد.

فَبِأَن قُلْتِ: أي فرق بين هذه التشديدية والتي في ﴿وَلَا تَحْمِلُنَا﴾؟ **قُلْتِ:** هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حملة من مفعول واحد إلى مفعولين، ﴿وَلَا تَحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفریطهم في المحافظة عليها. وقيل: المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطيع من التكليف، وهذا تكرير لقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾. ﴿مَوْلَانَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو ناصرنا، أو متولي أمورنا. ﴿فَأَنْصَرْنَا﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبده، أو فإن ذلك عادتك، أو فإن ذلك من أمورنا التي عليك توليها، وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة: قد فعلت⁽⁴⁾، وعنه عليه السلام: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»⁽⁵⁾. وعنه عليه السلام: «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يوتهن نبي قبلي»⁽⁶⁾. وعنه عليه السلام: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل»⁽⁷⁾.

فَبِأَن قُلْتِ: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة؟ **قُلْتِ:** لا بأس بذلك، وقد جاء في حديث النبي ﷺ: «من أقرأ سورة البقرة، وخواتيم سورة البقرة»⁽⁸⁾ وخواتيم البقرة، وعن علي رضي الله عنه: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: أنه رمى الجمره، ثم قال: من ههنا، والذي لا إله غيره رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة⁽⁹⁾، ولا فرق بين هذا، وبين قولك: سورة الزخرف، وسورة الممتحنة، وسورة المجادلة. وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أن المراد سورة البقرة، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾⁽¹⁰⁾

طَائِفَةً لَنَا بِهِ وَأَعْتَفَ عَنَّا وَأَعْفَرَ لَنَا وَارْتَمَى أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصَرْنَا عَلَى أَقْوَامٍ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٦﴾.

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يخرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه بكون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾⁽¹⁾ لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وقرأ ابن أبي عملة: وسعها بالفتح. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها.

فَبِأَن قُلْتِ: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكْتَسَاب؟ **قُلْتِ:** في الاكْتَسَابِ اعْتِمَالٌ فَلَمَّا كَانَ الشَّرُّ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ وَهِيَ مُجْنِبَةٌ إِلَيْهِ وَأَمَارَةٌ بِهِ كَانَتْ فِي تَحْصِيلِهِ أَعْمَلٌ وَأَجْدُ، فَجَعَلْتَ لِلذَّكَاءِ مَكْتَسَبَةً فِيهِ، وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ فِي بَابِ الْخَيْرِ وَصَفْتَ بِمَا لَا دَلَالَهَ فِيهِ عَلَى الْعَمَالِ. أَي: لَا تَوَاضَعْنَا بِالنِّسْيَانِ أَوْ الْخَطَا إِنْ فَرَطْنَا.

فَبِأَن قُلْتِ:⁽²⁾ النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ **قُلْتِ:** نكر النسيان والخطأ، والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفریط والإغفال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾⁽³⁾ والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفریط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيداناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه.

والإصر: العيب الذي ياصر حامله، أي: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق من نحو قتل

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) قال أحمد: ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة؛ لأننا نقول إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع، كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن امتي الخطأ والنسيان». وإذا كان كذلك، فلعل رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة، فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها قد فعلت، وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرية، الناهيين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ، والنسيان عقلاً؛ لأنه من تكليف ما لا يطبق، وهو مستحيل عندهم تفریباً على قاعدة التحسين، والتقبيح، وكلها قواعد باطلة، ومذاهب ماحلة، فانه تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويلهمنا المعتقد الحق، والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(3) سورة الكهف، الآية: 63.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق الحديث رقم: (326).

(5) ابن عدي في الكامل.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة الحديث رقم: (5008)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الحديث رقم: (1875)، كلهم عن أبي مسعود.

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1165)، وابن خزيمة في كتاب: الوضوء، باب: نكر الدليل على أن ما وقع عليه اسم التراب... الحديث رقم: (264).

(8) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة... الحديث رقم: (1874).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: رمي الجمار من بطن الوادي الحديث رقم: (1747)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: رمي جمره العقبة من بطن الوادي الحديث رقم: (3118).

(10) سورة يوسف، الآية: 82.

وعن بعضهم أنه كره ذلك، وقال: يقال: قرأت السورة التي تنكر فيها البقرة. عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تنكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة، وتركها حسرة ولن تستطيعها البطة. قيل: وما البطة؟ قال: السحرة»⁽¹⁾.

سورة آل عمران

مكية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي قَلَّبَ

ميم: حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف لام، وأن يبدأ ما بعدها، كما تقول: واحد اثنان، وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة القيت عليها حين أسقطت للتخفيف.

فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام، فلا تثبت حركتها؛ لأن ثبات حركتها كثباتها. قلت: هذا ليس بدرج؛ لأن ميم في حكم الوقف، والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حذفت تخفيفاً والقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال.

فإن قلت: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت: لأن التقاء الساكنين لا يبالي به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان في ألف لام ميم لالتقاء الساكنين ولما انتظر ساكن آخر.

فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم؛ لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك، فحركوا. قلت: الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا

بين ساكنين، كما قالوا: أصيم ومنيق، فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين.

فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي بمقولة.

رَزَّكَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٦﴾

والتوراة والإنجيل اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وأقعليل إنما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وهو ليل على العجمة؛ لأن أقعليل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب.

فإن قلت: لم قيل: نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل⁽²⁾؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات جملةً. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب.

مِن قَبْلِ هَذِهِ قَتَانٍ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّ الْأَرْضَ كَرْمًا يَكْتَرِبُ أَنتَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾

«هدى للناس» أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال: نحن متعبدون بشرائع من قبلنا، فسره على العموم.

فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت⁽³⁾: جنس الكتب السماوية؛ لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكروها، كإنه قال: بعد نكر الكتب الثلاثة وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما قال: «وأتينا داود زبوراً»⁽⁴⁾ وهو ظاهر، أو كرر نكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما نكره باسم الجنس تعظيماً لشانه وإظهاراً لفضله، «بآيات الله» من كتبه المنزلة وغيرها. «ذو انتقام»⁽⁵⁾ له انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾

= التعبير عن نزول القرآن، بصيغة فعل تفرقة في التنزيل، كما تقدم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن، والتعبير عنه بالفعل كغيره، فإن يكن هذا، والله أعلم، فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى نكروه ثانياً لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميزه أولاً، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى الكلام يجعل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(4) سورة النساء، الآية: 163.

(5) قال أحمد: وإنما يلحق هذا الترخيم من التنكير، وهو من علاماته مثله في قوله: «فقل ربكم نو رحمة واسعة»، قوله تعالى: «منه آيات محكمات» الآية.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة الحديث رقم: (1871).

(2) قال أحمد: ويريد لأن فعل صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً، كان أكثر تنزيلاً من غيره، لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة، لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة، والتكثير، والله أعلم.

(3) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي نكروها أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما أنكره وأخر نكره في قوله: «وأتينا داود زبوراً»، أو كرر نكر القرآن بما هو نعت له، ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعدما نكره باسم الجنس تعظيماً لشانه، وإظهاراً لفضله، والله أعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر =

﴿فَأَنْ قُلْتَ:﴾ فهذا كان القرآن كله محكماً؛ قلت: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به بسهولة ماخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمترزّلز فيهِ، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجلية والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله؛ ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، أزداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه. ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ هم أهل البدع، ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق. ﴿ابتغاء الفتنة﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم، ﴿وابتغاء تآويله﴾ وطلب أن يأولوه التآويل الذي يشتهونه، ﴿وما يعلم تآويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ أي: لا يهتدي⁽²⁾ إلا تآويله الحق الذي يجب، أي: يحمل عليه، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من

﴿لا يخفى عليه شيء﴾ في العالم فعبّر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّزِيقُ الْغَنِيُّ﴾.

﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ طائوس: تصوركهم، أي: صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالا، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتآثلته إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، كأنه نَبّه بكونه مصوراً في الرحم على أنه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَآيَاتِنَا تَأْوِيلَهُ وَمَا يَسْمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿محكمات﴾⁽¹⁾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. متشابهات مشتبهات محتملات ﴿هْنَّ﴾ أم الكتاب، أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك ﴿لا تتركه الأبصار﴾ ﴿إلى ربها ناظرة﴾ ﴿لا يامر بالفحشاء﴾ ﴿أمرنا مترفياً﴾.

= ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال، قد ثبت الفرق بين نخول كل على المعرف تعريف الجنس، وبين عدم دخولها إلا ترى أنهم يقولون إن قولنا الإنسان كاتب مهمل في قوة الجزئي، وأن قولنا كل إنسان حيوان كلي لا جزئي. لانا نقول إنما جارتنا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين، لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملًا، بل هذا هو الكلي عندهم، والله الموفق، وأما الآيتان الأخريان، اللتان إحداهما قوله تعالى: ﴿إن الله لا يامر بالفحشاء﴾ والأخرى، التي هي قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفياً ففسقوا فيها﴾ فلا ينازع الرمزخشري في تمثيل المحكم، والمتشابه بهما.

(2) قال أحمد رحمه الله: وقوله لا يهتدي إليه إلا الله عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة إيهاماً إذاً، لاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال، جل الله عزّ، حتى أن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه فلان المهتدى، ذلك مقتضى اللفظة فيه، فإنه مطروح هدى يقال: هنيته، فاهتدى، الإجماع منقعد على أن ما لم يرد إطلاقه، وكان موهماً لا يجوز إطلاقه على الله عزّ وجل، ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى، حيث حدّ مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه، فلان ينكر على الرمزخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجبر، وما أراها صدرت منه إلا وهماً حيث أضاف العلم إلى الله تعالى، وإلى الراسخين في العلم، فإطلاق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه نكرهم مضامين إلى الله تعالى في الفعل المنكور، والله أعلم.

(1) قال أحمد: هذا كما قمته عنه من تكلفه، لتزليل الآي على وفق ما يعتقد، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي، أو ذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية، والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية، كقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه، حتى يردّوه بزعمهم إلى الآية، التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم، والآية، قوله تعالى: ﴿لا تتركه الأبصار﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول محمل قوله: ﴿لا تتركه الأبصار﴾ في دار الدنيا، ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الآئله، أو نقول الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم، إلا أن المراد بها الخصوص، أي: لا تتركه أبصار الكفار، كقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، أو نقول: لا تعارض بين الآيتين، فتقرّ كل واحدة منهما في نصابها، وبيان ذلك أن الأبصار عالم بالآلف واللام الجسديتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم، إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذ يكون في العموم مراقبة لدخول كل: لأن كليهما أعني المعرف، والجنسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا ثبت ذلك، فالسلب داخل على الكلية، والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئي لفة ومتعقلاً، الا ترى أن القائل، إذا قال لا تتفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإذن في إنفاق البعض، والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد، ولو واحداً وحينئذ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار، وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة؛ لانهم يثبتونها للموحدين، ويسلبونها عن الكفار، كما أتبا عنه قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ فقد ثبت أن هذه الآية، إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها دليلاً على =

بالتي تقربكم عندنا زلفى»⁽⁴⁾. وقرئ: وقود بالضم، بمعنى: أهل وقودها، والمراد بالذين كفروا: من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير.

كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَحَدَّاهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾.

الداب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كذاب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن» تغني أو بالوقود، أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كذاب أبيك، تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإن فلاناً لمحارف كذاب أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كذبوا بآياتنا﴾ تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُنُوبُهُمْ وَبُخْرُهُمْ وَإِلَىٰ جَهَنَّمَ رِيَسٌ أَلَيْسَٰ

﴿قل للذين كفروا﴾ هم مشركو مكة ﴿ستغلبون﴾ يعني: يوم بدر، وقيل: هم اليهود، ولما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، وهما باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل: جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنني نبي مرسل». فقالوا: لا يغررك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصةً لأن قاتلتنا علمت أننا نحن الناس⁽⁵⁾. فزلت. وقرئ: سيغلبون ويحشرون بالياء، كقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم﴾⁽⁶⁾ على قل لهم قولي لك سيغلبون.

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالياء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه اللفظ، ومعنى القراءة بالياء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبر به من وعيدهم بلفظه، كأنه قال: إذ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

يقف على قوله ﴿إلا الله﴾ ويبتدئ ﴿والراسخون في العلم يقولون﴾ ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه والأول هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل. ﴿يقولون أماناً به﴾ أي: بالمتشابه ﴿كل من عند ربنا﴾ أي: كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه. ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل، ويجوز أن يكون ﴿يقولون﴾ حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلا عند الله. وقرأ أبي: ويقول الراسخون.

رَبَّنَا لَا تُغِثْ قُلُوبَنَا بَدًّا إِذْ هَدَيْتَنَا رَبَّ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨﴾.

﴿لا تزغ قلوبنا﴾⁽¹⁾ لا تبلىنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا لإطافك بعد إذ لطفت بنا. ﴿من لحنك رحمة﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرئ: لا تزغ قلوبنا بالتاء والياء، ورفع القلوب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَيْبٍ وَإِنَّكَ لَ الْخَلِيقِ أَلِيمٌ ﴿٩﴾.

﴿جامع الناس ليوم﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾⁽²⁾. وقرئ: جامع الناس على الأصل ﴿إن الله لا يخلق للميعاد﴾، معناه: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله. والميعاد: الموعد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُشِيقَ عَلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ رُؤُوسُ النَّارِ ﴿١٧﴾.

قرأ علي رضي الله عنه: لن تغني، بسكون الياء، وهذا من الجد في استئفال الحركة على حروف اللين. من في قوله: ﴿من الله﴾ مثله في قوله: ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾⁽³⁾، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله ﴿شيئاً﴾، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد». أي: لا ينفعه جدّه، وحظه من الدنيا بذلك. أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم

= نحن، وأفعالنا منها.

(2) سورة التغابن، الآية: 9.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) سورة سبأ، الآية: 37.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة الحديث رقم: (3001).

(6) سورة الانفال، الآية: 38.

(1) قال أحمد: أما أهل السنة، فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرّفة؛ لأنهم يوحون حق التوحيد، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ، مخلوق لله تعالى، وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى، وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرّفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ب، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة، بأن لا يبيتنا، ولا يمنعنا لطفه أمين؛ لأن لكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو، وأفعاله التي =

يريهام الله ذلك بقدرته. وقرئ: فثة تقاتل وأخرى كافرة بالجر على البذل من فثتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقا. ﴿رَأَى الْعَيْنَ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معانية كسائر المعانيات، ﴿وَالله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالنَّطِيقِ الْمُنْتَهَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَبْلِ الْمَسْرُومِ وَالْأَنْمَكِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿٧﴾

﴿زين للناس﴾ (8) المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ (9). ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان والله زينها لهم لأننا لا نعلم أحداً أتم لها من خالقها، ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (10) جعل الأعيان التي نكرها شهوات مبالغة في كونها مشتبهة محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسمىها شهوات؛ لأن الشهوة مستنزلة عند الحكماء مذموم من تبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. وقال: ﴿زين للناس حبَّ الشهوات﴾ ثم جاء بالتفسير ليقرر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأل على ذم من يستعظمها ويتهاك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله.

والقنطار: المال الكثير، قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و ﴿المقنطرة﴾ مبنية

قَدْ صَدَّكُمْ عَنِ الْبَيْتِ فِي بَيْتِكُمْ أَنْتُمْ أَفْتَنَّا فَمَا تَكْفُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجْنَا كَأْفَاءَ يَرْوَنَهُمْ مِثْلَيْمَ رَأَى الْآمِنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٧﴾

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركي قريش، ﴿في فثتين التقتا﴾ يوم بدر. ﴿يرونهم مثليهم﴾ (1) يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من الفين، أو مثلي عدد المسلمين (2) ستمائة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله، كما أمدهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم بالتاء، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم.

فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: ﴿ويقللهم في أعينهم﴾ (3) قلت: قللوا أولاً في أعينهم حتى اجتروا عليهم، فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسئل عن نبيه إنس ولا جان﴾ (4) وقوله تعالى: ﴿وقفوههم إنهم مسؤولون﴾ (5) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ (6) بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ (7) ولذلك وصف ضعفهم بالقلّة؛ لأنّه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرف: يرونهم على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي:

(8) قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق، ويراد به خلق حيبها في القلوب،

وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء من جوهر، ومن عرض قائم بالجواهر حب، أو غيره محمود في الشرع أولاً، ويطلق التزيين، ويراد به الحض على تعاطي الشهوات، والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً، كالنكاح المقترن بقصد التناسل، واتباع السنة فيه، وما يجري مجراه، وأما الشهوات المحظورة، فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته، وتحسينه منزلة الأمر بها، والحض على تعاطيها، وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأول، فإنه يحاشا أن ينسب خلق الله إلى غير الله، وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة، تنزيلاً لها على قواعد القدرة الفاسدة، فتفتن لها وبرئ قائلها من السلف الصالح، عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(9) قال أحمد: يريد لإحاطها بباب رجل صوم وقطر مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(10) سورة الكهف، الآية: 7.

(1) قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدّمة على رأي أهل السنة.

(2) قال أحمد: إنما قال ذلك؛ لأنّ الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي: ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين، وقد جاء على لفظ الغيبة، فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة، والالتفات، وإن كان سائفاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين، وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة؛ لأنّ مثليهم مفعول ثانٍ للرؤية، ولو قال القائل ظننتك يقوم على لفظ الغيبة بعد الخطاب لم يكن بذلك، فهذا هو الوجه الذي باعد الزمخشري به بين قراءة نافع، وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً؛ لأنه قال معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم، أو مثلي فتتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني، يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة، في الجملة بعينها، كما الرّمه هو على ذلك الوجه، والله أعلم.

(3) سورة الأنفال، الآية: 44.

(4) سورة الرحمن، الآية: 39.

(5) سورة الصافات، الآية: 24.

(6) سورة الأنفال، الآية: 66.

(7) سورة الأنفال، الآية: 65.

من لفظ القنطار للتركيد كقولهم: ألف مؤلفة وبذرة مبدرة، و ﴿المسومة﴾ المعلمة، من أسامة الدابة وسومها. و ﴿الأنعام﴾ المطهمة، أو المرعية، من أسام الدابة وسومها. و ﴿الأزواج الثمانية﴾، ﴿نلك﴾ المنكور ﴿متاع الحياة﴾.

﴿قُلْ أَذِيْتِكُمْ بَيْتِيْ مِنْ دَابْحِكُمْ لِلَّذِيْنَ أَنْتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَبْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِيْنَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِالْمَكَاوِدِ﴾ (١٥).

﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من نلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم، عندي رجل من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بخير، واختص المتقين لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع ﴿جنات﴾ على هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ: جنات بالجر على البديل من خير. ﴿والله بصير بالعباد﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات.

﴿الَّذِيْنَ يُؤْتُوْنَ رَبِّيْكَ إِنَّمَا طَاعْتَ مَا فَعَلْنَا لَكَ ذُوقْنَا وَمَا عَلَّمْنَا لَكَ إِلَّا الَّذِيْنَ رَزَقْنَا وَاللَّذِيْنَ أَتَيْنَا فِي الْمَوْتِ وَالَّذِيْنَ وَرَّوْنَا فِي الْمَوْتِ وَالَّذِيْنَ وَرَّوْنَا فِي الْمَوْتِ وَالَّذِيْنَ وَرَّوْنَا فِي الْمَوْتِ﴾ (١٦).

﴿الذين يقولون﴾ نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجرّ صفةً للمتقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها وقد مرّ الكلام في ذلك. وخص الأسحار؛ لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(١). وعن الحسن: كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم وهذا ليلهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالَّذِيْكَ وَأُولُو الْأَيْمَانِ قَائِمًا بِالنَّبِيْهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحِيْمُ الْمَكِيْمُ﴾ (١٧).

شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة أولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه. ﴿قائماً بالقسط﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والأجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه، كقوله: ﴿وهو الحق مصدقاً﴾.

فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال بون المعطوفين عليه، ولو قلت جاعني زيد وعمرو ركباً لم يجز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس، كما جاز في قوله: ﴿وهوبنا له إسحق ويعقوب﴾^(٢) نافلة، أن تنصب نافلة حالاً عن يعقوب،

ولو قلت: جاعني زيد وهند ركباً جاز لتمييزه بالذكورة، أو على المدح.

فإن قلت: ليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة، كقولك: الحمد لله الحميد، إنا معشر الأنبياء لا نورث، إنا بني نهمش لا ندعى لأب! قلت: قد جاء نكرة، كما جاء معرفة، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهنلي:

وياوي إلى نسوة عطل وشعساً مرضيع مثل السعالي
فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفةً للمنفي، كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت: لا يبعد فقد رأيناها يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

فإن قلت: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في لا إله إلا هو؟ قلت: نعم؛ لأنها حال مؤكدة، والحال مؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فاعلتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

فإن قلت: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم، كما دخلت الوجدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفةً للمنفي، كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قياً بالقسط. ﴿العزیز الحكيم﴾ صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل، يعني: أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله.

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعنده؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعنده بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وقرئ: أنه بالفتح، وإن الدين بالكسر على أن الفعل واقع على أنه بمعنى: شهد الله على أنه، أو بآئه.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الْأَبْرَارَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمْ أَوْلَاهُ بَيِّنَاتٍ مِنْهُمْ وَمَنْ يُكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعٌ لِّلْعِقَابِ﴾ (١٨).

وقوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته أن قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ توحيد وقوله: ﴿قائماً بالقسط﴾ تعديل، فإذا أرفقه قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أن من ذهب إلى

(2) سورة الأنبياء، الآية: 72.

(1) سورة فاطر، الآية: 10.

تشبيهه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى. وقرئنا مفتوحين على أن الثاني بدل من الأول، كأنه قيل: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً لأن دين الله هو التوحيد والعدل. وقرئ: الأول بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على أن، وما بينهما اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إله إلا هو، وقرأ أبي: أن الدين عند الله الإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرئ: شهداء الله بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله.

فإن قلت: فعلم عطف على هذه القراءة، **﴿والملائكة، وأولو العلم﴾**؟ قلت: على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما.

فإن قلت⁽¹⁾: لم كرر قوله: **﴿لا إله إلا هو﴾**؟ قلت: ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأميين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: **﴿العزیز الحكيم﴾** لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل. **﴿الذين أوتوا الكتاب﴾** أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد والعدل. **﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾** أنه الحق الذي لا محيد عنه، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش؛ لأنهم أميون، ونحن أهل كتاب، وهذا تجوير لله **﴿بغياً بينهم﴾** أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب هؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة، وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤون أعقابهم لا شبهة في

الرؤية التي يظهر أن جردهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محايدة، ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يستترون بتسمية أنفسهم أهل العدل، والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة، فانا أول المجبرين ولو نظرت إليها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرية، وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة، وظلالها ولخرجت عن مزالق البدع، ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم، ولعلمت، أي: الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة، المشرفين بعظفهم على اسم الله عز وجل اللهم، الهمتا على اقتناء السنة شرك، ولا تؤمنا شرك، إنه لا يامن من مكر الله، إلا للقوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف، والله ولي التوفيق.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قمته في نظيره، مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد، ثم عقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله قائماً بالقسط، وهو التنزيه، فطال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله: **﴿أن الدين عند الله الإسلام﴾** ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم، مما أريد إيصاله به، والله أعلم، قال: وفيه أن من ذهب إلى تشبيه الخ، قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ريقة الإسلام، بل تصريح وما ينقم إلا أن صنعوا، وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر، لا يضمون في رؤيته؛ ولأنهم وحدوا الله حق توحيد، فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم، ولافعالهم إلا هو واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدر تقارن فعلهم لا خلق لها، ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية، والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: **﴿وما كسبت أيديكم﴾** هذا إيمان القوم وتوحيدهم لا تقوم بغيرون في وجه النصوص، فيجحدون =

يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، ومن إما للتبويض وإم للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم: ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ نخل مدارسهم، فدعاهم، فقال نعيم بن عمر والحارث بن زيد على أي بين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة فهلما إليها فأبياً⁽²⁾. وقيل: نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليتهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرئ: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرئ: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرئ: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا أَن نَرَىٰ آيَاتِنَا مَذْمُومَاتٍ وَعَرَمْنَا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ذلك﴾ (3) التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، كما طمعت المجبرة والحشوية. ﴿وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، كما غرت أولئك شفاعت رسول الله ﷺ في كبائرهم.

فَكَيِّتَ إِذَا جَسَّتْهُمُ يَوْمَ لَا رَبَّ يَبِيهِ وَرُويَتْ كُلُّ شَيْءٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون، فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تحلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروي إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم

لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلّا: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (1) بعد ما نكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعادنة وقلة الإنصاف؛ لأنّ المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعادن بعد تجلي الحجة ما يضرب أسدأداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في هل فهمتها: توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي فهل أنتم منتهون بالتقاعد عن الانتهاء، والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد نفخوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور. ﴿وإن تولوا﴾ لم يضروك فإنك رسول منبه عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتُوهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ مَرْيَمَ حَتَّىٰ وَكَلَّتْ الْأَكْشُوفُ رِمَاقَهُمْ فَغَبَّوهُ بِكَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٢٥﴾

قرأ الحسن: يقتلون النبيين، وقرأ حمزة: ويقتلون الذين يأمرون، وقرأ عبد الله: وقاتلوا، وقرأ أبي: يقتلون النبيين والذين يأمرون، وهم أهل الكتاب قتل أولهم الأنبياء، وقتلوا أتباعهم، وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله أي الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»، ثم قرأها، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار.

أَوَّلِيكَ الَّذِينَ حَبَلَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ ﴿١٢٦﴾

﴿في الدنيا والآخرة﴾ لأن لهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلتم: لتضمن اسمها معنى الجزاء؛ كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم، بمعنى من يكفر فبشرهم، وإن لا تغير معنى الابتداء، فكان دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعل لا تمتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

أَزَّ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُعْزَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ

(1) سورة المائدة، الآية: 91.

(2) كشف الاستار، كتاب: الفتن، باب: فيمن قتل على ذلك الحديث رقم: (3314)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 56، والطبري في التفسير.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد، إلى مشيئة الله تعالى، وإن مات مصرراً عليها إيماناً، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير أن

= يشرك به، ويفغر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وتصديقاً بالشفاعة، لأهل الكبائر، ويقوم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القتالين، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة، وشقاً كيف ملا الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن أخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فاصمى أفتنتهم من قواطع الجرائم، بمقومات الآسنة.

أَلَمَّيْتُمْ وَتُخْرِجُ أَلَمَّيْتُمْ مِنَ أَلَمِّي وَتَرْزُقُهُ مِنْ نَشَاءِ بَيْتِي حَسَابٍ (١٧).

ثم نكر قدرته الباهرة بنكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم وينلهم، ويؤتية العرب ويعزهم، وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تستغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم.

لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاتُوا وَبِمَوَازِينِ اللَّهِ تَنصُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَمُبْتَلٍ (١٨).

وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»⁽³⁾. نهوا أن يولوا الكافرين لقربة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصانق بها ويتعاشروا، وقد كثر ذلك في القرآن: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء لا تجد قوما يؤمنون بالله»⁽⁴⁾ الآية: والمحبة في الله، والبغض في الله، باب عظيم، وأصل من أصول الإيمان. «ومن لون للمؤمنين» يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثرهم عليهم. «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء» ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني: أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عبوه متنافيان، قال:

تودّ عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس الذوك عنك بعازب

«إلا أن تتقوا منهم تقاة» إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، وقرئ: تقيّة، قيل للمتقى: تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه، رخص لهم في موالاتهم إذا خافهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: كن وسطاً وامش جانباً. «ويحذركم الله نفسه» فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن تتقوا معنى: تحذروا وتخافوا، فيعدى بمن، ويتنصب تقاة، أو تقيّة على المصدر، كقوله تعالى: «اتقوا الله حق تقاته»⁽⁵⁾.

يأمر بهم إلى النار. «وهم لا يظلمون» يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنه في معنى: كل الناس، كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ وَكُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩).

الميم في «اللهم» عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالثناء في القسم، ويدخل حرف النداء عليه وفيه لام التعريف ويقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك. «مالك الملك» أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، «تؤتي الملك من تشاء» تعطي من تشاء النصيب الذي سئمت له واقتضته حكمتك من الملك «وتنزع الملك ممن تشاء» النصيب الذي اعطيته منه، فالملك الأول عام شامل والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أن رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعر وأمنع من ذلك⁽¹⁾ وروي: أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين نراعاً، وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتلل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر، وكبر المسلمون. وقال: «أضاعت لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال: «أضاعت لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاعت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام: أن أمتي ظاهرة على كلها فابشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعلمك الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا⁽²⁾. فنزلت.

فإن قلت: كيف قال: «بيدك الخير» فنكر الخير بون الشر؛ قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتية أوليائك على رغم من أعدائك؛ ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإتياء الملك ونزعه.

قُلْ أَيْدِي فِي أَثْقَارِ رُوَيْلِ أَهْمَارٍ فِي أَيْدِي رُوَيْلِ أَلَمِّي مِنْ

(3) نكره الهندي في «بكنز العمال» (الحديث: 14972)..

(4) سورة المائدة، الآية: 51.

(5) سورة آل عمران، الآية: 102.

(1) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 57.

(2) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 57، وأخرجه أحمد في المسند 4/303، وابن أبي شيبة 422/14، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق.

والأمد: المسافة، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ (4) وكَرَّرَ قوله: ﴿وَيَحْذَرُكَ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿وَاللهَ رُؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني: أَنْ تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رآفته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محنوراً لعلمه وقدرته مرجو لسعة رحمته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَنُورٌ مُّغْفِرٌ وَنُورٌ عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ (5).

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ حتى يصح ما تدعون من إرادة عبادته يرض عنكم ويغفر لكم، وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكنه، وإذا رأيت من ينكر محبة الله ويصفق بيديه مع نكرها ويطرب وينعر ويصعق، فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقتة إلا لأنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المني قد ملأ أزار ذلك المحب عند صعقتة، وحمقى العامة على حواليه قد ملؤوا أردانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون ويحببكم ويحببكم، من حبه يحبه. قال:

أحب أبا ثروان من حب تمره وأعلم أن الرفق بالجار أرفق والله لولا تمره ما حبيبته ولا كان أنسى من عبيد ومشرق

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿فإن تولوا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وإن يكون مضارعاً، بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى بِمُدُنِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَوَعْدَ لَهُمْ الْجَهَنَّمَ وَاللَّهُ يَبِئْسَ الَّذِي يَشْتَرِي بِأَنفُسِهِمْ ثَمَنًا كَبِيرًا ﴿٣٨﴾

﴿آل إبراهيم﴾ إسماعيل وإسحق وأولادهما، و﴿آل عمران﴾ موسى وهرون ابنا عمران بن يصر، وقيل:

قُلْ إِنْ تُحِبُّوهُ مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ بُدُّوا بِعَلَمِ اللَّهِ وَرَمَيْتُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله ﴿يعلمه﴾ ولم يخف عليه، وهو الذي ﴿يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سرهم وعلنهم. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر على عقوبتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (1) لأن نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا تختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقنودون مقنود، فهي قادرة على المقنودات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره، وتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابية به، فما بال من علم أن العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترلك.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٠﴾

﴿يوم تجد﴾ منصوب بـ ﴿تود﴾. والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرا وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمدا بعيداً، ويجوز أن ينتصب يوم تجد بمضمرة نحو: انكر، ويقع على ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتود خبره. أي: والذي عملته من سوء تود هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تود.

فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله: وندت قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى؛ لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة، ويجوز أن يعطف وما عملت على ما عملت، ويكون تود حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وندت تباعد ما بينها وبين اليوم، أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ (2) يعني: مكتوباً في صحفهم يقرؤونه. ونحوه: ﴿فينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه﴾ (3).

(1) سورة آل عمران، الآية: 28.

(2) سورة الكهف، الآية: 49.

(3) سورة المجادلة، الآية: 6.

(4) سورة الزخرف، الآية: 38.

(5) سورة فصلت، الآية: 43.

(6) قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني، أن السورة تسمى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى ومريم، في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأما موسى وهارون، فلم ينكر من قصتهما في هذه السورة، فدل ذلك على أن عمران المنكوب هنا، هو أبو مريم، والله أعلم.

﴿مَحْرُورًا﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه، ولا استخدمه، ولا اشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروي أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي: محروراً مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن تترق نكراً.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن لَّا دُرِّيْتَ إِلَّا نُبْرًا مَّيْمَنًا فَرِحْتُ بِهَا وَأُنْثَىٰ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَوِّدَ وَجْهًا وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمَهُ الْكُفْرَانُ ﴿٣٦﴾

﴿فلما وضعتها﴾ (2) الضمير لما في بطني وإنما أنت على المعنى؛ لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تاويل الحبله أو النفس أو النسمة.

فإن قلت: كيف جاز انتصاب ﴿انثى﴾ حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك: وضعت الانثى انثى؟ قلت: الأصل وضعت انثى، وإنما أنت لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في ﴿ما كانت أمك﴾ لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ (3) وأما على تاويل الحبله أو النسمة، فهو ظاهر، كأنه قيل: إنني وضعت الحبله أو النسمة انثى.

فإن قلت (4): فلم قالت: ﴿إنني وضعتها انثى﴾ وما أرات إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربه؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد نكراً ولذلك نذرت محروراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿وإله أعلم بما وضعت﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها يقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس: والله أعلم بما وضعت، على خطاب الله تعالى لها أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره. وقرئ: وضعت، بمعنى: ولعل الله تعالى فيه سرراً وحكمة ولعل هذه الانثى خير من النكر تسليه لنفسها.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وليس الذكر كالانثى﴾؟ قلت: هو بيان لما في قوله ﴿وإله أعلم بما وضعت﴾ من

عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة.

ذُرِّيَّةً بِسُبْحَانَ بَشَرٍ مِّمَّنْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿ذرية﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بعضها من بعض﴾ يعني: أن الألبان ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، موسى وهرون من عمران، وعمران من يصر، ويصر من قاهث، وقاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ (1) ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عَمْرَأْتٍ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٨﴾

﴿إذ﴾ منصوب به، وقيل: بإضمار انكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان أم مريم البتول جدة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاووذ، وقوله: ﴿إذ قالت امرأت عمران﴾ على أثر قوله ﴿وآل عمران﴾ مما يرجح أن عمران هو عمران بن ماثان جد عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرب بإبراهيم كثيراً في النكر.

فإن قلت: كانت لعمران بن يصر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول نون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول؛ لأن زكريا بن أنس وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوج زكريا بنته إيشاع أخت مريم، فكان يحيى وعيسى ابني خالة.

روي: أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل.

(1) سورة التوبة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: الضمير في قوله وضعتها يتناول، إذا ما نسب إليها الوضع والانوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة، وتلك الجهة كونها شيئاً وضع، لا لخصوص نسبة الانوثة إليها، وقد من هذا البحث بعينه، عند قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾.

(3) سورة النساء، الآية: 176.

(4) قال أحمد: هذا التاويل على أنه من كلام الله تعالى، لا حكاية عنها، وقد نكر أهل التفسير توابلاً آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاية الله تعالى عنها، أعني قوله وليس الذكر كالانثى، ويرشد إليه =

= عطف كلامها عليه، وهو قوله: ﴿وإني سميتها مريم﴾ الخ، ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون، وليست الانثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الانثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل، لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولست كنح من النساء﴾، فنفي عن الكامل شبه الناقص مع أن الكامل، لازواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم، ومنه أيضاً ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

في الكعبة، فقالت لهم: بونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنت مائز، رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر، فالتقوا فيها أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها. والثاني أن يكون مصدرأ على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بندي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى فتقبلها: فاستقبلها. كقولك: تعجله بمعنى: استعجله، وتقصد بمعنى: استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه. قال القطن:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بان تتبعه اتباعاً
ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»، أي: فاخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. «وأنبتتها نباتاً حسناً» مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرئ: وكفلها زكرياء، بوزن وعملها «وكفلها زكرياء» بتشديد الفاء ونصب زكرياء الفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيده قراءة أبي: وكفلها من قوله تعالى: «فقال أكفلنيها»⁽³⁾. وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها وأنبتتها، وكفلها على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ندعوا بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها: كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. «وجد عندها رزقاً» كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. «إني لك هذا» من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للدخول به إليك. «قالت هو من عند الله» فلا تستبعد، قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهدي، وعن النبي ﷺ: أنه جاع في زمن قحط، فأهدت له فاطمة

التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس النكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد. فإن قلت: علام عطف قوله: «وإني سميتها مريم»؟ قلت: هو عطف على «إني وضعتها أنثى» وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: «ورأته لقسماً لو تعلمون عظيم»⁽¹⁾.

فإن قلت⁽²⁾: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصلق فيها ظننها بها. الا ترى كيف أتبعته طلب الإعادة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»⁽³⁾. فانه أعلم بصحته، فإن صح، فمعناه أن كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتها، كقوله تعالى: «لأغوينهم أجمعين» * إلا عبادك منهم المخلصين⁽⁴⁾ واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسّه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن اغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وأما حقيقة المس والنخس، كما يتوهم أهل الحشو، فكلما ولو سلب إبليس على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبيلونها به من نخسه.

فَقَبَلَهَا رِزْقًا يَقْبُولُ حَسَنًا وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِمَّا يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٧)

«فتقبلها ربها» فرضي بها في النذر مكان الذكر، «بقبول حسن» فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء، كالسعوط واللذود لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس، كالحجبة

(1) سورة الواقعة، الآية: 76.

(2) قال أحمد: أما الحديث، فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام، بتحمله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إحداء ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قمت عند قوله تعالى: «لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»، ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان، إلا طعن في خواصر القدرية، حتى يقرأها، وكرر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري، وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى، وكلام رسوله عليه السلام، بما يتخيل كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة، وسوء =

= ادب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود، لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، وما هو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الوهمي، وارتكاب الهوى الويليل.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: «وانكر في الكتاب مريم إذا انتبنت من أهلها مكاناً شرقياً» الحديث رقم: (3431)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام الحديث رقم: (6086).

(4) سورة الحجر، الآيتان: 39، 40.

(5) سورة ص، الآية: 23.

سيئة قط، ويا لها من سيادة.

والحصور: الذي لا يقرب الناس حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل: هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأختل:

وشارب مريح بالكأس نامني لا بالحصور ولا فيها بسار
فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنه مرّ وهو طفل بصبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: مالعب خلقت. ﴿من الصالحين﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾⁽³⁾.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عَلِيمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَمَلُّ مَا يَشَاءُ⁽⁴⁾.

﴿أنتى يكون لي غلام﴾ استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم ﴿وقد بلغني الكبر﴾، كقولهم: أدركته السنّ العالية، والمعنى: أثر في الكبر فأضعفني وكانت له تسع وتسعون سنة ولأمراته ثمان وتسعون، ﴿كذلك﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل تلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ يَا أَيُّكَ آلَا تَكْفُرُ أَتَنْتَ أَتِيَا إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّهْيِ وَالْإِبْرَاقِ⁽⁵⁾.

﴿آية﴾ علامة اعرف الحبل لاتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر، ﴿قال آيتك أن لا﴾ تقدر على تكليم الناس ﴿ثلاثة أيام﴾، وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بنكر الله، ولذلك قال: ﴿وانكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة.

فإن قلت: لم يحبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال ومنزجاً منه. ﴿إلا رمزاً﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك. يقال: ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر: الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب: إلا رمزاً، بضمّتين جمع رموز كرسول ورسول. وقرئ: رمزاً بفتحّتين جمع رامز كخادم وخدم،

رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم أكرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت، وعلمت أنها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنتى لك هذا؟» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل». ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها⁽¹⁾. ﴿إن الله يرزق﴾ من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير لكثرتة، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

مُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ⁽²⁾.

﴿هنالك﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت⁽²⁾، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفلكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿ذرية﴾ ولداً، والذرية يقع على الواحد والجمع. ﴿سميع الدعاء﴾ مجيبه.

فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُسَلِّ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُبَشِّرًا بِكَيْمَرٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ⁽³⁾.

قرئ: فناداه الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركب الخيل. ﴿إن الله يبشرك﴾ بالفتح على بان الله، وبالكسر على إرادة القول، أو لأنّ النداء نوع من القول. وقرئ: يبشرك ويبشرك من بشره وأبشره، وببشرك بفتح الباء من بشره. ويحيى إن كان أعجمياً، وهو الظاهر، فمع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كيتمر. ﴿مصنقاً بكلمة من الله﴾ مصنقاً بعيسى مؤمناً به. قيل: هو أول من آمن به، وسمى عيسى كلمة؛ لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصنقاً بكلمة من الله مؤمناً بكتاب منه، وسمى الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويردة لقصيدته.

والسيد: الذي يسود قومه أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يرتكب

= شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم، امتدّ أمه إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 130.

(1) أبو يعلى.

(2) قال أحمد: لا يلبق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر، على مشاهدة مثله، فإنّ العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى، وإن لم يقع نظيره، وأحسن من هذه العبارة، وأسلم أن يقال لما =

وهو حال منه ومن الناس بفعلة، كقوله:

متى ما تلقني فربدين ترجف روائف البيتك وتستطارا
بمعنى: إلا مترا مزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة
ويكلمهم. والعشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب،
و﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرئ:
والأبكار بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وإسحار، يقال: أتيت
بكرأ بفتحتين.

فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى
منه؟ قلت: لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه
سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾

﴿يا مريم﴾ روي أنهم كلموها شفاهاً معجزةً لذكريا،
أو إرهاباً لنبوة عيسى. ﴿اصطفاك﴾ أولاً حين تقبلت من
أمك وربك واختصك بالكرامة السنية، ﴿وطهرك﴾ مما
يستقدر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿واصطفاك﴾
آخرأ ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من
غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

يَمْرُؤَهُ أَقْنِي رِيكِ وَأَسْجُرِي وَأَرْكِي مَعَ الرَّكِيِّنَ ﴿١٢٨﴾

أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيآت
الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿واركعي مع الراكعين﴾
بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو
انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم
ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها
من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع، وفيه من يركع،
فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ
أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبا زكريا ويحيى
ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني: أن ذلك من الغيوب
التي لم تعرفها إلا بالوحي.

فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير
شبهة، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟
قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل
السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا

المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة فنفيت على
سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له
ولا قراءة، ونحوه: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ (1) ﴿وما
كنت بجانب الطور﴾ (2) ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا
أمرهم﴾ ﴿اقلامهم﴾ أزلامهم، وهي قداهم التي طرحوها
في النهر مقترعين، وقيل: هي: الأقلام التي كانوا يكتبون
بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها. ﴿إذ يختصمون﴾
في شأنها تنافساً في التكفل بها.

فإن قلت: ﴿أيهم يكفل﴾، بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دل
عليه ﴿يلقون أقلامهم﴾ كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم
يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق
والفاروق، وأصله مشيحاً بالبرانية ومعناه المبارك، كقوله:
﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ (3) وكذلك ﴿عيسى﴾ معرب
من أيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في
الماء.

فإن قلت: ﴿إذ قالت﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو بدل من
﴿وإذ قالت الملائكة﴾، ويجوز أن يبدل من ﴿إذ
يختصمون﴾ على أن الاختصاص والبشارة وقعا في زمان
واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

فإن قلت (4): لم قيل ﴿عيسى ابن مريم﴾ والخطاب
لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات
فاعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا
إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين.

فإن قلت: لم نكر ضمير الكلمة؟ قلت: لأن المسمى بها
منكر.

فإن قلت (5): لم قيل: ﴿اسمه المسيح عيسى ابن
مريم﴾ وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح
والابن لقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها
ويتميز من غيره، فكانه قيل: الذي يعر به ويتميز ممن
سواه مجموع هذه الثلاثة. ﴿وجيهاً﴾ حال من كلمة،
وكنك قوله: ﴿ومن المقربين﴾ ﴿ويكلم﴾ ﴿ومن
الصالحين﴾ أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وضح
انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجهة في
الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو

= المسيح في الآية إن أريد به التسمية، وهو الظاهر فما موقع قوله
عيسى ابن مريم، والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح
المسمى بهذه التسمية لم يلتزم مع قوله اسمه، ويجاب عن
الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه والمراد التسمية، وأما
عيسى ابن مريم، فخبر مبتدأ محذوف تقديره هو عيسى ابن
مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة
منقطعاً عن قوله المسيح، والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه
هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

(1) سورة القصص، الآية: 44.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

(3) سورة مريم، الآية: 31.

(4) قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها، أتى يكون لي ولد، ولم
يمسني بشر، فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد، ما يدل على
أنه من غير أب إلا أنه لما نسب إليها دل على أنها فهمت من ذلك،
كونه من غير أب، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه، فيقولون =

الدرجة في الجنة. وكونه ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ رفعه إلى السماء، وصحبه للملائكة.

وَيَكْفُرُ النَّاسُ بِأَهْلِهِمْ وَكَهَلًا وَإِنَّ الْمَلَكِينَ لَكَانُوا

والمهد: ما يهدد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر، وفي المهد في محل نصب على الحال، ﴿ووكهلاً﴾ عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء.

قَالَتْ رَبِّي إِنَِّّي يَكُونُ لِي وَوَلَدٌ لِّمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخَلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَعَّضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٧﴾

ومن بدع التفاسير أن قولها: ﴿رب﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى: يا سيدي.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٧٨﴾

﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجبها، أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع: ويعلمه بالياء.

رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَنزَلْتُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ الْكُتُبَ فَانظُرُوا فِيهَا فَيَكُونُ لَكُمْ أَدَبًا يُذَكِّرُ اللَّهُ بِآيَاتِهِ الْأَكْثَمَ وَالْأَبْرَارَ وَأَنِّي أَمَوْتُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ ذَكَرَا أَنَّ كَتُمُ التُّورَةَ وَمَا تَنخَرُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تُوْحِينَ ﴿٧٩﴾ وَمِمَّا قَالُوا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِذْ لَكُمْ مَعَهُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِوَجَهُ ﴿٨٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨١﴾

فإن قلت: علام تحمل ﴿ورسولاً﴾ و﴿ومصدقاً﴾ من المنصوبات المتقدمة وقوله: ﴿إني قد جئتكم﴾ و﴿لما بين يدي﴾ يابى حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق وفيه وجهان.

أحدهما: أن يضر له وأرسلت على إرادة القول تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً باني قد جئتكم، ومصدقاً لما بين يدي، والثاني: أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق، فكانه قيل: وناطقاً باني قد جئتكم، وناطقاً باني اصدق ما بين يدي. وقرأ البيهقي: ورسول، عطفاً على كلمة ﴿إني قد جئتكم﴾ أصله أرسلت باني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل. و﴿إني لخلق﴾ نصب بدل من إني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي إني لخلق لكم. وقرئ: إني بالكسر على الاستئناف أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فانفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فيكون طيراً﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: فانفخها. قال: كالهبرقي تنحى ينفخ

الفحما. وقيل: لم يخلق غير الخفاش. ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروي: أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطلق منهم آتاه، ومن لم يطق آتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿بإذن الله﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروي: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا: هذا سحر، فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرئ: تنخرون، بالذال والتخفيف.

﴿ولاحل﴾ رد على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم ولاحل لكم، ويجوز أن يكون مصدقاً مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم، والثروب، ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك، قيل: أحل لهم من السمك والطيور ما لا صيغة له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ: حرم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عز وجل، أو موسى عليه السلام؛ لأن نكر التوراة دل عليه؛ ولأنه كان معلوماً عندهم. وقرئ: حرم بوزن كرم. ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ شهادة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إن الله ربي وربكم﴾ لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البديل من آية، وقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ اعتراض.

فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت: لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل حيث هداه للنظر في آلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جئتكم بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية بعد أخرى مما نكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله: وجئتكم بآيات من ربكم فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات وأطيعوني فيما أذعوكم إليه، ثم ابتداء، فقال: إن الله ربي وربكم. ومعنى قراءة من فتح؛ ولأن الله ربي وربكم فاعبوه كقوله: ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾ (١) ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَصَابَ عَنِ اللَّهِ فَكَانَ الْعَارِضِينَ مِمَّنْ أَصَابَ اللَّهُ مَاتًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَشْهَدَ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿فلما احس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و ﴿إلى الله﴾ من صلة انتصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرنني، أو

يتعلق بمحذوف حالاً من الياء أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه. ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه ورسوله.

وحواري الرجل صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضرىات الحواريات لخلوص الوانهن ونظافتهن، قال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح
وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة. وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم.

رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا آتَاكَ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَ مَا كُتِبََا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾

﴿مع الشاهدين﴾ مع الانبياء الذين يشهدون لاممهم، أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ومكروا﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة. ﴿ومكر الله﴾ أن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل. ﴿والله خير الماكرين﴾ أقوامهم مكرراً وانفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَىٰ إِذِى مُتَوَلِّىكَ وَرَأَيْتَكَ إِلَىٰ وَمَنْ مَّرَكْرِكْ مِنْ آلِى كَفَرُوا وَجَاعِلِىَ آيَاتِى آيَاتِكَ قَوْلَ آيَاتِكَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ آتِىَتَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَمَّا آيَاتِى كَفَرُوا فَأَعَذَّيْتَهُمْ عَذَابًا سَكِينًا فِى الْمَرْكَبِ وَالْآخِرَةُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا آيَاتِى مَأْسُومًا وَعَبُوا الشَّيَاطِينَ فَمَا يَشْكُرُونَ أَجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجُؤُ الْظَالِمِينَ ﴿٥٦﴾

﴿إذ قال الله﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إني متوفيك﴾ أي: مستوفي أجلك ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخره إلى أجل كتبتك لك، ومميتك حتف انفك لا قتلاً بأيديهم، ﴿ورافعك إلي﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي، ﴿ومظهرك من الذين كفروا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل: متوفيك قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته، وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفى نفسك بالنوم، من قوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾⁽¹⁾ ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب. ﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يعلنهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت

الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى. ﴿فأحكم بينكم﴾ تفسير الحكم قوله: ﴿فأعذبهم﴾ ﴿فنفوهم أجورهم﴾ وقرىء: فيوفهم بالياء.

ذَلِكَ نَتَلَوُ عَيْتِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرُ الْمَكْرِي ﴿٥٤﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره ﴿نتلوه﴾، و﴿من الآيات﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي وبتلوه صلته ومن الآيات الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه. ﴿والذكر الحكيم﴾ القرآن وصف بصفة من هو من سببه، أو كانه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٥﴾

﴿إن مثل عيسى﴾ إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله: ﴿خلقته من تراب﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، فنكلك حال عيسى.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه بونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استقر به، وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: فأدم أولى؛ لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيى الموتى، قال: فحزقيل أولى؛ لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والابريص. قال: فجرجيس أولى لأنه طبع وأحرق، ثم قام سالماً. ﴿خلقته من تراب﴾ قدره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أي: انشأه بشراً، كقوله: ﴿ثم انشأناه خلقاً آخر﴾⁽²⁾ ﴿فيكون﴾ حكاية حال ماضية.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ ﴿٥٦﴾

﴿الحق من ربك﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس⁽³⁾، ونهيه عن الامتراء - وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً - من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

فَمَنْ سَأَلَكَ فِىهِ مِنْ بَدَىٰ مَا جَاءَكَ مِنَ الْآيَاتِ فَقُلْ مَا كُنْتُ بَدَعْتُ آيَاتَهُنَّ وَأَيُّنَّاهُ كُرْ وَسَيَأْتَاكَ وَسَيَأْتَاكُمْ وَأَنْفُسَاكُمْ ثُمَّ تَبْتَهِلْ فَتَجْعَلْ

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: 27 الحديث رقم: (3647)، والحديث ليس عند مسلم.

كُنْتُمْ عَلَى الْكُفْرَيْنَ ﴿١١﴾.

منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاتبه، فما معنى: ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وأصدقهم بالقلوب وريماً فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الزادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في النكر على الأنفس لينبهه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بانهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يرو واحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَمَرُ الْحَقُّ وَمَا مِنَّ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَرَبُّكَ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي قصص عليك من نبأ عيسى ﴿لهو﴾ القصص الحق ﴿قوى﴾: بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون؛ لأن اللام تنزل من هو منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر إن.

فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تتخلل على المبتدأ ومن في قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾ بمنزلة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد: الرد على النصارى في تثليثهم.

فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عِيسَى الْمَسْمُومَ ﴿١٣﴾.

﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زيناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾^(١).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَآكَلُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسُبَّ إِلَهَ اللَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آيَاتًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَوْلُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾.

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة. ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة

﴿فمن حاكك﴾ من النصارى ﴿فيه﴾ في عيسى ﴿من﴾ بعد ما جاءك من العلم ﴿أي﴾ من البينات الموجبة للعلم. ﴿تعالوا﴾ لهموا والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعال تفكر في هذه المسألة، ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة، ﴿ثم نتباهل﴾ ثم نتباهل، بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم.

والبهلة: بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، من قولك: أبهله إذا أهمله، وناقاة باهل لا صرار عليها، وأصل الابتهاهال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وروي: أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا، قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا الف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ، وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزِيل جبالاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نترك على دينك ونثبت على ديننا. قال: «فإذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم للمسلمين وعليكم ما عليهم». فابوا. قال: «فإنني أناجزكم». فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصلحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تترننا عن ديننا، على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستاصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا»^(١). وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم علي ثم قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾^(٢).

فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في أخذ

الجزية الحديث رقم: (3041).

(3) سورة الأحزاب، الآية: 33.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل = (4) سورة النحل، الآية: 88.

يَنْ أُولَى الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا ﴿حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ كما لم يكن منكم، أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيزاً والمسيح.

إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِذْنِهِمْ لَدَيْنَ أَتْبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَكَرَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب ﴿للذين اتبعوه﴾ في زمانه وبعده ﴿وهذا النبي﴾ خصوصاً ﴿والذين آمنوا﴾ من أمته. وقرئ: وهذا النبي بالنصب عطفًا على الهاء في اتبعوه أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفًا على إبراهيم.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُحِبُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ودت طائفة﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعانداً إلى اليهودية. ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، أو وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَنْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

﴿بآيات الله﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها وشهادتهم اعترافهم بأنها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول. ﴿وانتم تشهدون﴾ نعته في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً، وانتم تعلمون أنها حق.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَسْمُونَ ﴿٧١﴾

قرئ: تلبسون بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتازرا

وَوَالَّتِ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَائِمًا بِاللَّذَةِ أُرِزَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآخِرُ مَا جَزَاءُ لَهُمْ بِرِيمُونَ ﴿٧٢﴾

﴿وجه النهار﴾ أزه قال:

من كان مسروراً بمقتل ملك فليات نسوتنا بوجه نهار والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار ﴿واخفروا﴾ به في آخره، لعلهم يشكون في

والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: ﴿إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾⁽¹⁾، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: ليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالي اطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرئ: كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن: سواء بالنصب بمعنى: استوت استواء. ﴿فإن تولوا﴾ عن التوحيد ﴿فقولوا لشهدوا باننا مسلمون﴾ أي: لزمتمك الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا باننا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف باننا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ فِي إِذْنِهِمْ وَمَا أُرِزَ أَنْزَلُهُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَيِّنَةٍ أَمَّا تَقُولُونَ ﴿٧٣﴾

زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه، ف قيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على نين لم يحدث إلا بعد عهده بازمته متطولة. ﴿أفلا تعقلون﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءَ حَبِيبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ها انتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه، وانتم مبتدأ، وهؤلاء خبره. و ﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعني: انتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبين حماقتكم وقلة عقولكم انكم جالتم ﴿فيما لكم به علم﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل، ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ ولا نكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها انتم، هو آ انتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاء، ومعنى الاستفهام: التعجب من حماقتهم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلتها، ﴿والله يعلم﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وانتم﴾ جاهلون به.

مَا كَانَ إِذْنِهِمْ يَهْدِيكُمْ وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَبِيبًا مُّسَلِّمًا وَمَا كَانَ

والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أن يؤتى أحد، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذا؟ **قلت:** معناه ببرتكم ما ببرتكم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من حاجتكم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون هدى الله بدلاً من الهدى، وأن يؤتى أحد خبر إن على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ﴿أو يحاجوكم﴾ حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويحضوا حجتكم، وقرئ: أن يؤتى أحد، على إن النافية وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، حتى يحاجوكم عند ربكم. يعني: ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأن قولهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَيَهْتَمُّ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِبَيْتِكُمْ لَآ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَنْهَكُمُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْكُمُ فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذُوبَ وَهُمْ يَكْمُرُونَ﴾ (٧٦).

عن ابن عباس ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فآذاه إليه، و ﴿من إن تأمنه ببينار﴾ فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجدده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصرارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم. ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ إلا مدة بواكك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البيعة عليه. وقرئ: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرهما بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تأمنه بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دل عليه لم يؤده أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي: لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا،

دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم، إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: انخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرننا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، وظهر لنا كذبه ويطلان بينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أول النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة لعلمهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٧) يَعْنِي رِجْعِيهِمْ مِّنْ بَيْتِكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٦).

﴿ولا تؤمنوا﴾ متعلق بقوله: ﴿أن يؤتى أحد﴾ وما بينهما اعتراض أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم نون غيرهم، أوالوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياكم وهدم نون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، وبنون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام^(١). ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على ﴿أن يؤتى﴾^(٢) والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنه في معنى الجمع بمعنى: ولا تؤمنوا لغير اتباعكم، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحقبة.

فإن قلت: فما معنى: الاعتراض؟ **قلت:** معناه أن الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كينكم وحيلكم، وزيك تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء﴾ يريد الهداية والتوفيق، أو يتم الكلام عند قوله: ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ على معنى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغبط لهم. وقوله: ﴿أن يؤتى﴾ معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك وديرتموه لا لشيء آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد

(1) قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب؛ لأن الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله، أنه أنكروا عليهم، ووبخهم على ما وقع منهم، وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بني إسرائيل، لأجل العلتين المنكورتين، فهو إثبات محقق، ويمكن أن يقال: روعيت صيغة=

(2) قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾.

وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم. وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر»⁽¹⁾. وعن ابن عباس: أنه سأل رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال: فنقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل إنهم إذا أتوا الجزية لم يحل لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم **«ويقولون على الله الكذب»** بادعائهم أن ذلك في كتابهم **«وهم يعلمون»** أنهم كانوا.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُبْئِ الْمُؤْمِنِينَ (٧٦).

«بلى» إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: **«من أوفى بعهده»** جملة مستأنفة مقرزة للجملة التي سنت بلى مسدها، والضمير في بعهده راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه.

فإن قلت: فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل لأنهم إذا وفوا بالعهد وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لائقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، وينحل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقائه من الكفر وأعمال السوء.

فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا تَلَاقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧).

«يشترتون» يستبدلون **«بعهد الله»** بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم، **«وإيمانهم»** وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمن به ولننصرته، **«ثمناً قليلاً»** متاع الدنيا من التروث والارتشاء، ونحو ذلك. وقيل: نزلت في أبي رافع ولبلابة ابن أبي الحقيق وحيي بن

أخطب حرقوا الثوراة وبللوا صفة رسول الله ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: لقد هممت أن أميركم واكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعث الذي نعت لنا. ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس: نزلت في، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر فاخصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهدك أو يمينه»، فقلت: إن يحلف ولا يبالي. فقال: «من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»⁽²⁾. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: **«بعهد الله»**، بقوي رجوع الضمير في بعهد إلى الله. **«ولا ينظر إليهم»** مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتدائه به وإحسانه إليه. **«ولا يركبهم»** ولا يثني عليهم.

فإن قلت: أي فرق بين استعمله فيمن يجوز عليه النظر، وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثم نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر.

وَأَنَّ يَمُنَّ تَرِيماً يَلُودَنَّ أَيْسَنَّهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُ وَمُمْ يَمْلُونَ (٧٨).

«ليريقاً» هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وغيرهم. **«يلوون السننهم بالكتاب»** يفتلون بقراءته عن الصحيح إلى المحرف. وقرأ أهل المدينة يلوون بالتشديد، كقوله: **«لووا رؤوسهم»**⁽³⁾. وعن مجاهد وابن كثير: يلوون، ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

فإن قلت: لإم يرجع الضمير في **«لتحسبوه»**؟ قلت: إلى ما دل عليه يلوون السننهم بالكتاب وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون السننهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب. وقرئ: ليحسبوه بآلية بمعنى يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، **«ويقولون هو من عند الله»** تأكيد لقوله: **«هو من الكتاب»** وزيادة تشنيع عليهم وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم

(2) عبد الرزاق في مصنفه 6/91، الحديث رقم: (10102).

(3) سورة المنافقون، الآية: 5.

(1) نكره الطبري في تفسيره، (227/3)، ونكره السيوطي في الدرر

المنثور (44/2)، ونكره ابن كثير في «تفسيره» (51/2).

وقرىء: ولا يامرکم، بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾ وفيه وجهان: أحدهما أن تجعل لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾⁽³⁾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يامر الناس بأن يكونوا عباداً له ويامرکم ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ كما نقول ما كان بد أن اكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة، والمعنى أن رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يامر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله: ولن يامرکم، والضمير في ولا يامرکم وأيامرکم لبشر، وقيل لله، والهمزة في أيامرکم للإنكار. ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأنوه أن يسجدوا له.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم. والثالث أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبي وابن مسعود: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين أوتوا الكتاب. واللام في (4) ﴿لما آتيتكم﴾ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي لتؤمنن لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن ساء مسد جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى الذي آتيتكموه لتؤمنن به وقرىء: لما آتيناكم، وقرأ حمزة: لما آتيتكم بكسر اللام، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، على أن ما مصدرية والفعلان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرته لأجل

لا يعرضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك، لفرط جراتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

مَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يُؤَيِّدَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلُ وَالنَّبِيُّ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ مُكْرِمِينَ الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى، وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بئلك بعثني ولا بئلك أمرني»⁽¹⁾ فنزلت. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله»⁽²⁾. ﴿والحكمة﴾ والحكمة هي السنة، ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ ولكن يقول: كونوا، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة. وعن الحسن: ربانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني العالم العامل المعلم. ﴿بما كنتم﴾ بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكثر روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء توثقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقرىء: تعلمون من التعليم وتعلمون من التعلم. ﴿تدرسون﴾ تقرأون، وقرىء: تدرسون من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم وأنزل ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس، كقوله: لتقرأه على الناس، فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخَدُّوا لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَاْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَدَّ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٧﴾

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65.

(3) سورة آل عمران، الآية: 79.

(4) قال أحمد: يزيد على أن قوله رسول فاعل جاء؛ لأنه لا يخلو من

= الضمير، وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً، ورسول خبر الموصول، ولم يرد الزمخشري إلا الأول، وهو ظاهر الآية.

﴿وكرها﴾ بالسيف، أو بمعانية ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الفرق فرعون، والإشفاء على الموت. فلما رأوا بأسنا قالوا: أمانا بالله وحده، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال بمعنى طائعين ومكرهين.

قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِن قَبْلِهِمْ إِنَّمَا نَحْنُ نَسْمِعُ بِمَا يُنَادُونَكَ مِن وَجْهِكَ وَمَا أَنتَ بِبَارِئٌ مِّنْهُمُ إِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً فَلَتَوَلَّوْا كِفْلًا يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٤﴾

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحّد الضمير في ﴿قل﴾، وجمع في ﴿أماناً﴾. ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه.

فإن قلت: لم عدّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدّم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأنّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين وأخرى بالأخر. ومن قال: إنّما قيل: علينا لقوله قل، ولينا لقوله قولوا، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأنّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف ألا ترى إلى قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ (3) ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾ (4)، وإلى قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾ (5) ﴿ونحن له مسلمون﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

ثم قال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ يعني: التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿ديناً فلن يقبل منه... من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشباع، وقرئ: ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام. ﴿كيف يهدي الله قوماً﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودلّ على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرسول حق، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة وهم اليهود، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم: طعمة بن أبيرق ووحوح بن الأسلت والحرث بن سويد بن الصامت.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِسْمَائِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ أَرْسُولَ حَقٍّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أَوْلَيْتُكَ

أني آتيتكم الحكمة، وإن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون ما موصولة.

فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: ﴿ثم جاءكم﴾ لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة لأنك لا تقول للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت (1): بلى لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتيتكم وجاءكم رسول مصدق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت لهما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به. وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إصري﴾ عهدي، وقرئ: أصري بالضم، وسمي إصراً؛ لأنه مما يؤصر أي: يشدّ ويعقد، ومنه الأصار الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغةً في أصر كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار. ﴿فاشهدوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. ﴿ولنا على نلكم﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿من الشاهدين﴾ وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿فمن تولى بعد نلك الميثاق والتوكيد﴾ فالولئك هم الفاسقون﴾ أي: المتمردون من الكفار.

أَفَتَرَى بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ مَا كَفَرُوا أَن يَرْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُوا لِمَا لَمَّخُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُرَّهَا وَكَرَّهَا وَإِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ ﴿٨٨﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملةً على جملة، والمعنى: فالولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغيون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أ﴾ يتولون، ﴿فغير دين الله يبغيون﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل، وروي: أنّ أهل الكتاب اختلفوا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك (2)، فنزلت. وقرئ: يبغيون بالياء وترجعون بالياء، وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس. وقرئنا: بالياء معاً وبالياء معاً. ﴿طوعاً﴾ بالنظر في الألة والإنصاف من نفسه،

(3) سورة النساء، الآية: 166.

(4) سورة المائدة، الآية: 48.

(5) سورة آل عمران، الآية: 72.

(1) قال أحمد: يريد أن الكلام، وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد، فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

(2) الواحدي في أسباب النزول على 65 - 66.

مقبول التوبة إذا تاب فما معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ؟﴾
 قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل
 توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن
 اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ماتوا على الكفر،
 داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين لن تقبل بغير فاء،
 وفي الأخرى فلن يقبل؟ قلت: قد أوزن بالفاء أن الكلام بني
 على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو
 الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا
 دليل فيه على التسيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم.
 لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك:
 فله درهم.

فإن قلت: فحين كان معنى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾
 بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر
 مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من
 قساسة القلوب وركوب الرين وجره إلى الموت على الكفر؟
 قلت: لأنه كم من مرتدٍ مزاد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا
 يموت على الكفر.

فإن قلت: فاي فائدة في هذه الكناية، أعني إن كني عن
 الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة. قلت: الفائدة فيها
 جلية وهي التلغيز في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز
 حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ
 الأحوال وأشدها، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف
 من أجل اليأس من الرحمة.

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تَوْبَةٌ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤١﴾

﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: ذهب بالرفع
 رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال.
 فإن قلت⁽²⁾: كيف موقع قوله: ﴿ولو اقتدى به؟﴾ قلت:
 هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل: فلن تقبل من

جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَمَسَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ خَلِيلِينَ
 فِيهَا لَا يُغْنِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٨﴾.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وشهدوا؟﴾ قلت: فيه
 وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأن
 معناه بعد أن آمنوا كقوله تعالى: ﴿فأصدقوا﴾⁽¹⁾ وقول
 الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا
 وقد شهدوا أن الرسول حق. ﴿والله لا يهدي﴾ لا يطفئ
 بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٨﴾.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم
 والارتداد، ﴿وواصلحوا﴾ ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح.
 قيل: نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على رذته
 وأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة؟ فأرسل إليه
 أخوه الجلاس بالآية، فأتقبل إلى المدينة فتاب، وقبل
 رسول الله ﷺ توبته.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ هم اليهود كفروا بعبسوا والإنجيل
 بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم
 بمحمد والقرآن، أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به
 مؤمنين قبل بيعته، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك
 وطعنهم فيه في كل وقت وعداوتهم له ونقضهم ميثاقه
 وفتنتهم للمؤمنين وصدّهم عن الإيمان به وسخرتهم بكل
 آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة.
 ازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نرتبص بمحمد ريب
 المنون وإن أربنا الرجعة ناقفتنا بإظهار التوبة.

فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب
 إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن
 ظاهره، ثم نقرر وجهاً يطابق الآية، وذلك أن هذه الواو المصاحبة
 للشرط تستدعي شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به
 ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على
 المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً، ولو أساء،
 فهذه الواو عطف المذکور على محذوف تقديره أكرم زيداً، لو
 إكرامه إن أحسن بطريق الأولى، ومنه كونوا قوامين بالقسط
 شهداء لله، ولو على أنفسكم معناه، والله أعلم لو كان الحق على
 غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه نكر ما هو أعسر عليهم، فأوجه
 تنبيهاً على ما هو أسهل، وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو
 في مثل هذه المواضع، وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا
 النمط ظاهراً؛ لأن قوله، ولو اقتدى به يقتضي شرطاً آخر؛

= محذوفاً، يكون هذا المذکور منبهاً عليه بطريق الأولى، وهذه الحال
 المذكورة، وهي حالة اقتدائهم بملء الأرض ذهباً، هي حالة اجدر
 الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى
 بالقبول منها، فلنلك قدر الكلام بمعنى لن يقبل من أحد منهم
 فدية، ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون
 الاقتداء الخاص بملء الأرض ذهباً، هو أولى بالقبول منها، فإذا
 انتفى حيث كان أولى فلان ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا
 كله بيان للباعث له على التقدير المذکور، وأما تنزيل الآية عليه،
 فمفسر جداً، فالأولى نكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل
 وجه، وأقرب ماخذ إن شاء الله، فنقول قبول الفدية التي هي ملء
 الأرض ذهباً، يكون على أحوال منها أن يؤخذ منه على وجه القهر
 فدية عن نفسه، كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول،
 ومنها أن يقول المعتدي في التقدير، اقتدى نفسي بكذا، وقد لا
 يفعل، ومنها أن يقول هذا القول، وينجز المقدم الذي يفدي به
 نفسه، ويجعله حاضرأ عتيداً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول=

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ فاعتقها⁽⁶⁾. ونزل بابي نَزَّ صَيفٌ فَقَالَ لِلرَّاعِي: ائْتِنِي بِخَيْرِ إِبِلِي، فجاء بناقاة مهزولة، فقال: خنتني. قال: وجدت خير الإبل فحلها، فنكرت يوم حاجتكم إليه. فقال: إِنَّ يَوْمَ حَاجَتِي إِلَيْهِ لِيَوْمٌ أَوْضَعُ فِي حَفْرَتِي. وقرأ عبد الله: حَتَّى تُنْفِقُوا بَعْضَ مَا تَحِبُّونَ⁽⁷⁾، وهذا دليل على أَنَّ مَنْ فِي مِمَّا تَحِبُّونَ لِلتَّبَعِيضِ، وَنَحْوِهِ: أَخَذْتَ مِنَ الْمَالِ. وَمَنْ فِي ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ لِتَبْيِينِ مَا تُنْفِقُوا أَيَّ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ طَيِّباً تَحِبُّونَهُ أَوْ خَبِيثاً تَكْرَهُونَهُ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ تُنْفِقُونَهُ فَمَا جَازِيكُمْ بِحَسَبِهِ.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنْتُمْ مَكِيدِينَ﴾⁽⁸⁾.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر، يقال: حل الشيء حلاً، كقولك: نلت الدابة ذلاً، وعزَّ الرجل عزراً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيبه لحله وحرمه⁽⁸⁾، ولذلك استوى في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حَلَّ لِهِنَّ﴾⁽⁹⁾. والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل والبانها، وقيل: العروق، كان به عرق النسا فنذر إن شفي أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه فحرمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداءً، والمعنى: أَنَّ الطَّعَامَ كُلَّهُ لَمْ تَنْزَلْ حَلَالًا لِابْنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلِ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ، وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا لِظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، لَمْ يَحْرَمْ مِنْهَا شَيْءٌ قَبْلَ ذَلِكَ غَيْرِ الطَّعَامِ الْوَاحِدِ الَّذِي حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ فَتَبِعُوهُ عَلَى تَحْرِيمِهِ. وَهُوَ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ وَتَكْذِيبٌ لَهُمْ حَيْثُ أَرَادُوا بَرَاءَةَ سَلْحَتِهِمْ بِمَا نَعَى عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْغِظُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾⁽¹⁰⁾ إِلَى قَوْلِهِ

أَحَدَهُمْ فَنِيَّةٌ وَلَوْ افْتَدَى بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا⁽¹¹⁾، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ وَلَوْ افْتَدَى بِمِثْلِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾⁽²⁾ وَالْمِثْلُ يَحْنَفُ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ كَقَوْلِكَ: ضَرْبَتُهُ ضَرْبٌ زَيْدٌ، تَرِيدُ مِثْلَ ضَرْبِهِ، وَأَبُو يَوْسُفَ أَبُو حَنِيفَةَ، تَرِيدُ مِثْلَهُ: وَلَا هَيْثُمُ اللَّيْلَةُ لِلْمَطْيِ، وَقَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا، تَرِيدُ وَلَا مِثْلَ هَيْثُمُ وَلَا مِثْلَ أَبِي حَسَنٍ. كَمَا أَنَّهُ يَرَادُ فِي نَحْوِ قَوْلِهِمْ: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ كَذَا تَرِيدُ أَنْتَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُثْلَيْنِ يَسُدُّ أَحَدُهُمَا مَسَدَ الْآخَرِ فَكَانَا فِي حُكْمِ شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يَرَادَ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا كَانَ قَدْ تَصَدَّقَ بِهِ وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أَيْضًا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ. وَقَرَى: فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَعَلَا، وَنَصَبَ مِلءُ وَمِلْ لِرِضِ التَّخْفِيفِ الْهَمْزَيْنِ.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ⁽¹²⁾.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا برَّ الله وهو ثوابه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها، كقوله: ﴿انْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾⁽³⁾ وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرِحًا فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِخَ بَخِ ذَاكَ مَالِ رَابِحٍ، أَوْ مَالِ رَائِحٍ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَفَسَمَهَا فِي أَقْرَابِهِ⁽⁴⁾. وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله. فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فكان زيدا وجد في نفسه وقال: إِنَّمَا أُرِدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَهَا مِنْكَ»⁽⁵⁾. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سببي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبتة، فقال:

= لأنه نَبِهَ بِعَدَمِ قَبُولِ مِثْلِي مِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَعَلَى عَدَمِ قَبُولِ مِثْلِهَا مِرَّةً وَاحِدَةً بِطَرِيقِ الْأُولَى.

- (2) سورة الزمر، الآية: 47.
- (3) سورة البقرة، الآية: 267.
- (4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: استعذاب الماء الحديث رقم: (5611)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين... الحديث رقم: (2312).
- (5) الطبري وعبد الرزاق في تفسيرهما.
- (6) الطبري في تفسيره.
- (7) راجع الدر المنثور.
- (8) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطيب عند الإحرام الحديث رقم: (1539)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام الحديث رقم: (2818).
- (9) سورة الممتحنة، الآية: 10.
- (10) سورة النساء، الآية: 160.

فنيته، وإذا تعددت الأحوال، فالمراد في الآية إبلاغ الأحوال، وأجبرها بالقبول، وهو أن يفندي بمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا افتداءً محققاً، بلان يقدر على هذا الأمر العظيم، ويسلمه وينجزه اختياراً ومع ذلك لا يقبل منه، بمجرد قوله أبذل المال، وأقدر عليه، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون نخول الواو، والحالة هذه على بابها تنديهاً على أن ثم أحوالاً آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المنكورة، وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتِنُوهُ بِمَا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كُلُّهُ تَسْجِيلُ بَيَانِهِ لَا مَحِيصَ، وَلَا مُخْلَصَ لَهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ، وَإِلَّا فَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُمْ أَعْجَزُ عَنِ الْفَلْسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَنَظِيرُ هَذَا التَّقْبِيرِ مِنَ الْأَمْثَلَةِ أَنْ يَقُولَ الْقَاتِلُ: لَا أَيْبُكَ هَذَا الثَّوْبُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَلَوْ سَلَّمْتَهَا إِلَيَّ فِي يَدِي هَذِهِ، فَتَأَمَّلْ هَذَا النَّظَرَ، فَإِنَّهُ مِنَ السَّهْلِ الْمَمْتَنِّعِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوَفِيقِ.

(1) قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التاويل المتقدم؛

وهو الله، ومعنى وضع الله نبيّاً للناس أنّه جعله متعبداً لهم، فكانه قال: إن أوّل متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس». وسئل: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة⁽⁵⁾. وعن عليّ رضي الله عنه أنّ رجلاً قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأوّل من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم، فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أوّل بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بالفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أوّل بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بالفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات. **﴿الذي ببكة﴾** البيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام.

ومكة وبكة: لغتان فيه، نحو قولهم: النبط والنبيط في اسم موضع بالهدناء، ونحوه من الاعتقاب أمر راتب وراتم، وحصى مغمطة ومغيطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكة إذا زحمة لازحام الناس فيها. وعن قتادة: بيك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذا الشريب أخذته الأكة فخله حتى يبك بكه
وقيل: تبك أعناق الجبارة أي: تدققها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. **﴿مباركاً﴾** كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقتر في الظرف من فعل الاستقرار. **﴿وهدى للعالمين﴾** لأنه قبلتهم ومتعبدهم.

يٰٓرَبِّ اٰیٰتِیۡنَاۗ بِیۡنَتۡنَاۗ مَعَامُۗمُۙ اِۡرۡسٰۤیۡمٍۙ وَمَنۡ دَخَلَهٗۙ كَانَۙ اٰمِیۡنًاۙ وَلِلّٰهِۙ عَلَیۡ النَّاسِۙ حُجُّۙ اَلْبَیۡتِیۡنِیۡنِیۡ وَنَسَاجَتِهِنَّۙ وَمَنۡ کَفَرَۙ اِنَّ اللّٰهَۙ عَزِیۡزٌۙ عَلَیۡۙ اَلۡمُکۡذِبِیۡنِۙ ﴿٤٧﴾

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان لقوله: **﴿آيات بينات﴾**. فإن قلت⁽⁶⁾: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت: فيه

تعالى: **﴿عذاباً اليماء﴾**⁽¹⁾ وفي قوله: **﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾**⁽²⁾ إلى قوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾**⁽³⁾ وجود ما غاظهم واشمازوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم. فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلمّ جزاً إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكتيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدت من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم. **﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾** أمر بأن يحاجهم بكتابتهم ويكتهم مما هو ناطق به من أنّ تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعون. فروي أنّهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

مَنۡ اَتٰۤىكَ مِّنۡ اٰتِیۡنَاۗ عَلَیۡ اللّٰهِ اَلۡكُذِبُۙ مِنْۢ بَعۡدِۙ ذٰلِكَۙ فَاُولٰٓئِکَۙ هُمُۙ الظّٰلِمُوۡنَ ﴿٤٨﴾

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أنّ ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، **﴿فاولئك هم الظالمون﴾** المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

قُلۡ صَدَقَ اللّٰهُۙ فَاَتَّبِعُوۡاۙ يٰۤاَيُّهَاۙ الَّذِیۡنَۙ اٰمَنُوۡاۙ مَا كَانَ مِنَ اللّٰهِۙ مِنۡۢ شَیۡءٍۙ لَّیۡسَۙ بِمَعۡرُوفٍۙ لِّمَنۡ كَفَرَۙ ﴿٤٩﴾

﴿قل صدق الله﴾ تعريض بكنبهم، كقوله: **﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾**⁽⁴⁾ أي: ثبت أنّ الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾** وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم وبنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم والزمتمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

لَآۤ اُوۡلَآءِۙ يَتَّبِعُوۡنَ اللّٰهَۙ لَآۤ اُوۡلَآءِۙ يَتَّبِعُوۡنَ اَمۡرَۙ الرَّسُوۡلِۙ لَآۤ اُوۡلَآءِۙ يَتَّبِعُوۡنَ اَمۡرَۙ الرَّسُوۡلِۙ لَآۤ اُوۡلَآءِۙ يَتَّبِعُوۡنَ اَمۡرَۙ الرَّسُوۡلِۙ لَآۤ اُوۡلَآءِۙ يَتَّبِعُوۡنَ اَمۡرَۙ الرَّسُوۡلِۙ ﴿٥٠﴾

﴿وضع للناس﴾ صفة لبيت، والواضع هو الله عز وجل، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل

= المساجد، ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1161).

(1) سورة النساء، الآية: 161.

(2) سورة الانعام، الآية: 146.

(3) سورة الانعام، الآية: 146.

(4) سورة الانعام، الآية: 146.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الانبياء، باب: قول الله تعالى:

﴿وهوينا لداود سليمان﴾ الحديث رقم: (3425)، ومسلم في كتاب: =

(6) قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى: **﴿وقالوا**

لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيتهم.

والوجه الثاني اشتماله على آيات: لأن اثر القدم في الصخرة

الصماء آية وغرضه فيها إلى الكعبين آية، والآنة بعض الصخر

نون بعض آية، وإبناؤه نون سائر آيات الانبياء آية، وحفظه مع =

وجهان:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (1).

والثاني: اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، والآنة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يراد: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله لأن الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان يطوى نكر غيرهما دلالة على تكرار الآيات. كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما، ونحوه في طي النكر قول جرير:

كانت حنيفة اثلاثاً فثلثهمو من العبيد وثلث من موالها ومنه قوله عليه السلام: «حبيب إلي من بنيكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة» (2). وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المنيني في رواية قتيبة: آية بيّنة، على التوحيد، وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان.

فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات، وقوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ جملة مستأنفة، إما ابتدائية وإما شرطية! قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى لأن قوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ دل على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات، مقام إبراهيم وأمن داخله، ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بيّنة من دخله كان آمناً صح، لأنه في معنى قولك: فيه آية بيّنة أمن من دخله.

فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ قلت: فيه قولان: أحدهما أنه لما ارتفع بنیان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه

ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ معنى قوله: ﴿ولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ (3)، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: رب اجعل هذا البلد آمناً. وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه (4) وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار. وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً» (5). وعنه عليه الصلاة والسلام: «الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة» (6). وعن ابن مسعود: وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر» (7). وعن النبي ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام» (8). ﴿من استطاع﴾ يدل من الناس، وروي: أنّ رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة (9)، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أنّ الرجل إذا وثق بقوته لزمه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة. وعن الضحّاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه، بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكنك يجب عليه الحج. والضمير في ﴿إليه﴾ للبيت أو للحج، وكل ما تاتي إلى الشيء فهو سبيل إليه، (10) وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: ﴿وشه على للناس حج البيت﴾ يعني: أنّه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده، ومنها

(7) نكره الهندي في مكنز العمال (الحديث: 34960).

(8) قال الزيلعي غريب 1/201.

(9) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (2998) عن ابن عمر. وكذلك ابن ماجه عن ابن عمر في كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2896)، والحاكم عن أنس في المستدرک 1/442، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2897)، والدارقطني في كتاب: الحج 2/215.

(10) في هذا الكلام أنواع من التوحيد، منها قوله: ﴿وشه على الناس﴾ أي: في رقابهم لا ينفكون عنه إلخ.

= كثرة عدوه من المشركين، وأهل الكتاب، والملاحدة الوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

(1) سورة النحل، الآية: 120.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/128، 285).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 67.

(4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 5/153 الحديث رقم: (9228).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك، فضل الحج والعمرة الحديث رقم: (4158)، وعبد الرزاق في المصنف 9/267 الحديث رقم: (17166)، والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (193)، والطبري في الصغير ص 304 الحديث رقم: (814).

(6) نكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/419).

تَمَلُّونَ ﴿١٧﴾.

﴿وَالله شهيد﴾ الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي لنتكم على صدق محمد ﷺ، والحال أنّ الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته⁽⁹⁾.

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَمَلُّونَ ﴿١٨﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ مَأْمُورًا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٧﴾.

قرأ الحسن: تصدون من أصدّه، ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين حق، علم أنّه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّمه عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فنكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾⁽¹⁰⁾ تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة.

فَأَنْ قُلْتُ: كيف تبغونها عوجاً وهو محال؟ قلتُ: فيه معنيين:

أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهمهم أنّ فيها عوجاً بقولكم: إنّ شريعة موسى لا تتسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنّها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضالّ مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يتقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظام أمورهم،

أنّه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً وفيه ضربان من التاكيد: أحدهما أنّ الإبدال ثنائية للمراد وتكرير له، والثاني، أنّ الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ومنها قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾⁽¹⁾ مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»⁽²⁾. ونحوه من التغليظ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»⁽³⁾، ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنّه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنّه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب. وروي: أنّه لما نزل قوله: ﴿وَالله على الناس حج البيت﴾، جمع رسول الله ﷺ أهل الأبيان كلهم فخطبهم فقال: «إنّ الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فأمنت به ملة واحدة وهو المسلمون وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه. فنزل: ومن كفر⁽⁴⁾. وعن النبي ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنّه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»⁽⁵⁾. وروي: «حجوا قبل أن لا تحجوا. حجوا قبل أن يمنع البر جانب»⁽⁶⁾. وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تثبت في البادية شجرة لا تاكل منها دابة إلا فقتت⁽⁷⁾. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا⁽⁸⁾. وقرئ: حج البيت، بالكسر.

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا

= الصلاة الحديث رقم: (1079)، والحاكم في المستدرک 1/ 6-7. الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2622).

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک عن علي 1/ 448. وابن أبي شيبة 15/ 49، كتاب: الفتن، باب: من كره الخروج...

(6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (294).

(7) قال الزليعي غريب 1/ 207.

(8) عبد الرزاق في مصنفه 13/ 5، الحديث رقم: (8827).

(9) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 67. والطبري في تفسيره.

(10) قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول، حيث قال تطلبون لها اعوجاجاً تنقيص من المعنى، وأنتم من إعرابه، معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به، وعوجاً حال وقع فيها المصدر، الذي هو عوجاً موقع الاسم، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في زهم وتوبيخهم، والله أعلم.

(1) قال أحمد: قوله إنّ المراد بمن كفر من ترك الحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أنّ تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج، جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد، لا إلى مجرد الترك، وأما الرّمخشري فيستحل ذلك، لأنّ تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربة الإيمان، ومن اسمه ومن حكمه؛ لأنه عنده غير مؤمن، ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما نكرناه هذا، إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج، ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، الحديث رقم: (812)، وأخرجه الدارمي عن أبي أمامة، كتاب: المناسك، باب: من مات ولم يحج الحديث رقم: (1785)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في المناسك الحديث رقم: (3978)، وعن أبي أمامة 3979.

(3) أخرجه أحمد في المسند 5/ 346 والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2621)، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة الحديث رقم: (463) وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن ترك =

مرفوعاً⁽¹⁾. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، والتقاة: من اتقى كالتؤدة من اتاد. ﴿ولا تموتن﴾ معناها: ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تاتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَأَذْكُرُوا بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِذْ كُنْتُمْ أُمَّةً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَىٰ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٦﴾.

قولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يامن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهد إلى عبادته وهو الإيمان والطاعة، أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»⁽²⁾. ﴿ولا تفرقوا﴾ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يبابه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فآلف الله بين قلوبهم بالإسلام وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إخواناً﴾ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله. وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم فوَقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله نلك بالإسلام، وآلف بينهم برسول الله ﷺ. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام⁽³⁾، والضمير للحفرة

وهو الأحبار. ﴿وما الله بغافل﴾ وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

قيل: مرشاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه نلك، حيث تآلفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم وينكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل، فتنازع القوم عند نلك وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح: فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتعدون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وآلف بينكم». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فآلقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من نلك اليوم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَعْلَمُ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْلَمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٦﴾.

﴿وكيف تكفرون﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿تتلى عليكم﴾ على لسان الرسول غضة طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويذريح شبهكم. ﴿ومن يعتصم بالله﴾ ومن يتمسك بيئته، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. ﴿فقد هدى﴾ فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول إذا جئت فلاناً: فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل، فهو يخبر عنه حاصل، ومعنى التوقع في قد ظاهر لأن المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

يَأْتِيهَا الْآيِينَ مَأْتُوا أَتَوْا اللَّهَ حَقَّ قُرْبَانِهِ وَلَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٧٧﴾.

﴿حق تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وروي

(1) نكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/101).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن، الحديث رقم: (2906)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، والحاكم في المستدرک 1/555، وأخرجه ابن أبي شيبة 10/482، كتاب: فضائل القرآن، باب: في التمسك بالقرآن.

(3) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة، فلا يحتاج إلى تأويله المنكور، كما تقول أكرمت غلام هند، وأحسنيت إليها، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالإنتقاذ منها حقيقة وأما الامتنان بالإنتقاذ من الشفاء، فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة، فيكون الإنتقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة، التي يتوقع الهوى فيها، فإضافة المنة إلى الإنتقاذ من الحفرة تكون =

«أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر واتقاهم الله وأوصلهم»⁽⁴⁾ وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شئني الفاسقين وغضب الله غضب الله له⁽⁶⁾. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه، فاعلم أنه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فنذب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبیح.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما طريق الوجوب؟ قلتم: قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل، وعند أبي هاشم السمع وحده.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما شرائط النهي؟ قلتم: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأن الواقع لا يحسن النهي عنه وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما شروط الوجوب؟ قلتم: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد الآلة، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف يباشر الإنكار؟ قلتم: يبتدئ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر، قال الله

أو للنار أو للشفا، وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة وهو منها، كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وشفا الحفرة وشفقتها، حرفها بالتذكير والثاني، ولأما واو، إلا أنها في المنكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلتم: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالعمود على حرفها مشفين على الوقوع فيها. **﴿كذلك﴾** مثل ذلك البيان البليغ، **﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾** إرادة أن تزدادوا هدى.

وَأَتَكَّرَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿ولتكن منكم أمة﴾⁽¹⁾ من للتبعيض،⁽²⁾ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر. **﴿فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلب في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمائياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المأصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون﴾⁽³⁾ **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي ﷺ أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال:**

= أبلغ واقع، مع أن اكتساب الثاني من المضاف إليه قد عدّه أبو علي في التعليقات، من ضرورة الشعر خلاف رآه في الإيضاح نقله ابن يسعون، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا، إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها، وقد بينا في أنراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني، إلا ترى إلى قوله عليه السلام: «المرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، وإلى قوله تعالى: «أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم» وانظر كيف جعل تعالى كون البنين على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله «هار»، والله أعلم.

(1) قال أحمد، وفي هذا التبعض، وتذكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: «اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد» فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: «وتعياً أنن وأعية»، حتى ورد في التفسير أن المراد أنن واحدة مخصوصة، وهي أنن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتنا بالخاص، =

= لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله من كان عبداً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، وكقوله: «فيهما فاكهة ونخل ومران» وكقوله: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى» وشبه ذلك؛ لأن الإقتصار على تخصيص ما يفرده بالذكر، يفيد تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناولها، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهى لا يعنى واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال، فائدة هذا التخصص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً، وفي تنبيه أن الذكر على وجهين، ما لا يخفى من العناية، والله أعلم، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، فإذا ذلك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

(4) أخرجه أحمد في المسند 1/432.

(5) ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (2104/6) وكذب العمال (5564).

(6) أبو نعيم في الحلية 1/74.

تعالى: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾⁽¹⁾ قال: فقاتلوا.

فإن قلت: فمن يبشيره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه وقد اجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنه معلوم قبحه لكل أحد، وأما الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عنتها.

فإن قلت: فمن يؤمر وينهى؟ قلت: كل مكلف وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوبوها كما يؤخرون بالصلاة ليمرنوا عليها.

فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ قلت: نعم يجب عليه لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا؛ وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل. فقال: وإينا يفعل ما يقول، وذ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يامر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر.

فإن قلت: كيف قيل: يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ قلت: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضلها، كقوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾⁽²⁾.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ⁽³⁾.

﴿كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ وهم اليهود والنصارى، من بعد ما جاءهم البينات الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية واشباههم⁽³⁾.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِبْتِنِكُمْ فَرَّدَوْا قَوْلًا وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ⁽⁴⁾.

﴿يوم تبيض وجوه﴾ نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار انكر. وقرئ: تبيض وتسود، والبياض من النور والسواد المضارعة، وتبياض وتسواد، والبياض من النور والظلمة، فمن كان من أهل نور الحق، وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل، وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته، وأسودت صحيفته، وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة

رحمته من ظلمات الباطل وأهله. ﴿أكفرتم﴾ فيقال لهم: أكفرتم، والهزمة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء. وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دعت عيناه، ثم قال: «كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء» فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بل سمعت من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دعت عينك! قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده، فقال: إن بارضك منهم كثيراً فأعانك الله منهم⁽⁴⁾. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ﴿الست بربكم قالوا بلى﴾.

وَأَمَّا الَّذِينَ آيَنَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ⁽⁵⁾.

﴿ففي رحمة الله﴾ ففي نعمته وهي الثواب المخلد. فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ بعد قوله: ﴿ففي رحمة الله﴾؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ⁽⁶⁾ وَبَلَّغْ مَا فِي السُّورَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ⁽⁷⁾.

﴿تلك آيات الله﴾ الواردة في الوعد والوعيد، ﴿نزلوها عليك﴾ ملتبسة ﴿بالحق﴾ والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه. ﴿وما الله يريد ظلماً﴾ فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن، ونكر ظلماً. وقال: ﴿للعالمين﴾ على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسيحان من يحلم عن يصفه بإرادة القباح والرضا بها⁽⁸⁾.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُكِّرْتُمْ بَلَّغْ وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ إِنْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْفَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ⁽⁹⁾.

كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع

= في المستدرک 2/149.

(4) إن أراد بهم: أهل السنة ومن وافقهم، كعاقبته، فقد أقرط في التصب للمعتلة.

(5) يريد: أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف.

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) سورة البقرة، الآية: 238.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، الحديث رقم: (3000)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في نكر الخوارج الحديث رقم: (176)، وأحمد في المسند 5/253، والحاكم =

أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فَأَنْ قُلْتَ: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوك ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فَأَنْ قُلْتَ: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولييتهم الأديار.

فَأَنْ قُلْتَ: ما موقع الجملتين، أعني: ﴿منهم المؤمنون﴾ ﴿ولن يضروكم﴾؟ قلت: هما كلامان واردان على طرق الاستطراد عند إجراء نكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى نكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء من غير عاطف.

ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّهُ إِلَهَ إِنْ مَا تُفْعَلُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنْ الْآثَارِ
وَبَاءُ يَعْصَى مِنْ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَوْ
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَأَوْ
يَسْتَدْرُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿بحبل من الله﴾ في محل النصب على الحال بتقدير إلا معتمدين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس. يعني: ذمة الله وذمة المسلمين. أي: لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ استجوبوه، ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما نكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. ثم قال: ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه: ﴿مما خطيبتهم أغرقوا﴾، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وكلهم أموال الناس بالباطل.

﴿لَسَوْا سَرَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ
مَاءَةً أَلِيلًا وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ ﴿١٧٨﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٩﴾﴾

طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (١) ومنه قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾، كأنه قيل: وحدثم خير أمة. وقيل: كنتم في علم الله خير أمة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم منكرين بأنكم خير أمة موصوفين به. ﴿أخرجت﴾ أظهرت، وقوله: ﴿تأمرون﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسومهم ويقوم بما يصلحهم: ﴿وتؤمنون بالله﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله. ويقولون: تؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين تلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب مع إيمانهم بالله لكان خيراً لهم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين. ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿واكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون في الكفر.

لَنْ يُضِرُّكُمْ إِلَّا أَذَىٌّ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا
يُضْرَرُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتصرأ على أذى، بقول من طعن في الدين أو تهديداً ونحو ذلك. ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأديار﴾ منزهين ولا يضروكم بقتل أو أسر. ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلوي بهم وتوبيخهم وتضليلهم، وتهديدهم بأنهم لا يقدرين أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالي به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وإن عاقبة أمرهم الخذلان والذل.

فَأَنْ قُلْتَ: (٢) هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فَأَنْ قُلْتَ: فاي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأديار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية إنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما

= مطلقاً، ويزيد هذا الترتي يدخل ﴿ثم﴾ دون الواو، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال: ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان، وأوسع في رتب الإحسان، وهو: أن هؤلاء قوم ﴿لا ينصرون﴾ البيت، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 96.

(2) قال أحمد: وهذا من الترتي في الوعد، عما هو أدنى، إلى ما هو أعلى؛ لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأديار، عند المقابلة، ثم ترتي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح، من أن هؤلاء ﴿لا ينصرون﴾ =

إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قليل: فلن تحرموه، بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ: يفعلوا ويكفروه بالياء والتاء. ﴿وَاللهَ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُقُونَ فِي هَذِهِ الْحَبْوَةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾.

الصر (3): الريح الباردة، نحو الصرصر. قال: لا تعلقن آتوا بين تضربهم نكباء صرباً أصحاب المحلات كما قالت ليلى الأخيلية: ولم تغلب الخصم الألد وتملا الجفان سديفاً يوم نكباء صرصر.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ؟﴾ قلت: فيه أوجه:

أحدهما: أن الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرّة صر، كما تقول برد بارد على المبالغة.

والثاني: أن يكون الصر مصدرأ في الأصل بمعنى البرد، فجيء به على أصله.

والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (6) ومن قولك: إن ضعيفي فلان ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث ﴿قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ.

فإن قلت (7): الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح! قلت: هو من

الضمير في ﴿ليسوا﴾ لأهل الكتاب أي: ليس أهل الكتاب مستوين. وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تأمرن بالمعروف﴾ (1) بيانا لقوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ (2) أمة قائمة مستقيمة عادلة من قولك: أقمتم العود فقام، بمعنى استقام. وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهمدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما يفعلون وأدل على حسن صورة أمرهم. وقيل: عنى صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخرج رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم» (3). وقرأ هذه الآية. وقوله: ﴿يتلون﴾ و﴿يؤمنون﴾ في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة. تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً وكفروهم بيع الكتب والرسل نون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا مدهنيين، ومن المسارعة في الخيرات لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها.

والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وأثر الفور على التراخي. ﴿وَأُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بما وصفوا به ﴿من﴾ جملة ﴿الصالحين﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثنائه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين.

وَمَا يَتَعَلَّمُوا مِنْ حَبْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنصِفَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿والله شكور حلِيم﴾ (4) في معنى توفية الثواب، نفى عنه تقيض ذلك.

فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان

== ذلك المطلق المجرد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه النكتة، فإنها لطيفة، والله الموفق.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(7) قال أحمد: أما إيراد السؤال، فلا ترتضى صيغته، لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل، المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى، أن يذكر بصيغته الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة، والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإن أحداً لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر، بمرأى منه وسمعه، تحيل في أنواع التطفف

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

(3) أخرجه أحمد في المسند 1/396، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب: مواقيت الصلاة، الحديث رقم: (1530).

(4) سورة التغابن، الآية: 17.

(5) قال أحمد: كلها أوجه وجيبة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها، فنقول: إذا قلت مثلاً، إن ضيعني زيد، ففي عمر، وبعد الله كاف، فقولك: كاف، أثبت منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمر محلاً له، فنشخصت ==

الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين لكم فعملتم به.

فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة؟ قلت: يجوز أن يكون لا يالونكم صفة للبطانة، وكذلك قد بدت البغضاء، كأنه قيل: ببطانة غير أليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما قد بينا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم ببطانة.

هَاتَمَةُ أَوْلَادِهِمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتَوَسَّوْنَ بِالْكِتَابِ كُؤُوبًا وَإِذَا لَقَوُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاؤُنَا عَلَيْنَا مِنَ الْآيَاتِ قُلْ مُؤْمِنًا يَغِيظُكُمُ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿١٨﴾

﴿ها﴾ للتبني، و ﴿انتم﴾ مبتدأ، و ﴿أولاء﴾ خبره: أي: انتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: أولاء موصول

تحبونهم صلته. والواو في ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم. أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك ييغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم! وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه فإنهم يالونكم كما تالون، وترجون من الله ما لا يرجون. ويوصف المغتاط والنادم بعض الأنامل والبنان والإيهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواماً لثاماً أثلتُ يعضون من غيظ رؤوس الأباهم
﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من النل والخزي والتبار. ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها.

فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان دخلاً في جملة المقول فمعناه أخبرهم بما يسرونه من

التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله: ﴿كمثل الذي استوفد ناراً﴾، ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ربح وهو الحرث. وقرئ: تنفقون بالياء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمتقين، على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفاقهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقاً للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم. أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ: ولكن بالتشديد، بمعنى: ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ دُورًا مَّا عَيْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾

بطانة الرجل ووليجه: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار، والناس نثار»⁽¹⁾. ﴿من دونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بلا تتخونوا وبيطانة على الوصف، أي: ببطانة كائنة من دونكم مجازة لكم. ﴿لا يالونكم خبالاً﴾ يقال: ألا في الأمر يالو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدي إلى مفعولين في قولهم: لا أوك نصحاً ولا أوك جهداً، على التضمين. والمعنى: لا أمنع نصحاً ولا أنقصه، والخبال الفساد. ﴿وتوا ما عنتم﴾ وتوا عنتم، على أن ما مصدريه، والعنت شدة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره. أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم وديناكم أشد الضرر وأبلغه. ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ لأنهم لا يتملكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من السننهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك. وفي قراءة عبد الله: قد بدأ البغضاء. ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب

= هذا النظم في المثل المنكور، لفائدة جلية، وهو تقديم ما هو أهم؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب، نكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من نكر الحرث، فقدمت عنابة بنكرها، واعتماداً على أن الألفاظ الصحيحة تستخرج المطابقة، برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: ﴿فرجل وأمرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ الآية ومثله أيضاً: أعدت هذه الخشبة أن يعيل الحائط فادعمه، والأصل أن تنكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وإن أدم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف الحديث رقم: (4330)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... الحديث رقم: (2443).

= في إيراده، وبعد عن أمثاله هذه العبارة، ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً، لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع، على علم بأنه كلام لا ياتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد، وأن يتأدب في الإيراد، ثم تعود إلى جواب الرمزخشري الثاني، وهو قوله: أن المراد: مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب، عن المطابقة المسؤول عنها، والسؤال باقي، وذلك أن الريح المشبه بها، ليست: الإهلاك، وإنما هي: المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول أصل للكلام، والله أعلم مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم، فواصلته ربح فيها صر، فأهلكته ولكن خولف==

عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم مما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بالسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثم قول وأن يكون قوله: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعود الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِن تَسْتَكْمِ حَسَنَةً سَتُؤْتَمُّ وَإِن تُبْسِكُمْ سَيِّئَةً يَبْرَحُوا بِهَا وَإِن تَسْرِوْا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْكُرُوتُ حَيْطٌ ۝١٧٠

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع.

والسيئة: ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسبونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة.

فَأَنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ قلت: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إن تصيبك حسنة تسؤم وإن تصيبك مصيبة﴾⁽²⁾ ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾⁽³⁾ ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾⁽⁴⁾. ﴿وإن تصبروا﴾ على عداوتهم، ﴿وتتقوا﴾ ما نهيتهم عنه من موالاتهم، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم. وقرئ: لا يضركم، من ضاره يضيره ويضركم، على أن ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد، كقولك: مد يا هذا. وروى المفضل عن عاصم: لا يضركم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أرابت أن تكبت من يحسبك فازد فضلاً في نفسك. ﴿إن الله بما تعملون﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿محيط﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء، بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بُؤَى الْمُؤْمِنِينَ مَعْبُدُوا لِغَالٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧١

﴿و﴾ انكر ﴿إذ غنوت من اهلك﴾ بالمدينة، وهو غنوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عنق قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف واثت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبننا عنهم. فقال ﷺ: «إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبحاً حولي فأولتها خيراً، ورأيت في نياي سفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كأنني اندخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم». فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزلوا به حتى نخل، فلبس لامته، فلما أروه قد لبس لامته ندموا وقالوا: بشما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه. وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل». فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بها القدح، إن رأى صدراً خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عبوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا». ﴿تبؤى المؤمنين﴾ تنزلهم، وقرأ عبد الله للمؤمنين بمعنى تسوي لهم وتهيئهم. ﴿مقاعد للقتال﴾ مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿في مقعد صدق﴾ ﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾ من مجلسك وموضع حكمك. ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بنياتكم وضمائركم.

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فَتَنَّا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ الْقِيَامَةُ ۝١٧٢

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غنوت، أو عمل فيه معنى سميع عليم. والطائفتان: حيان من الأنصار بنو سلمة من

(2) سورة التوبة، الآية: 50.

(3) سورة النساء، الآية: 79.

(4) سورة المعارج، الآيتان: 20، 21.

(1) قال أحمد: يمكن أن يقال المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكان الكلام، والله أعلم: إن تصيبك الحسنة أنى تسؤم، ويحسبوك عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها، إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها، فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم، ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

ينعم الله عليكم نعمةً أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ ظرف لنصركم، على أن يقول لهم نلك يوم بدر، أو بدل ثانٍ من إذ غنوت على أن يقوله لهم يوم أحد. فَإِنَّ قُلْتَ: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقوا بنصر الله. ومعنى ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنما جاء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلنتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر.

بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَيْبَكُمْ بِحَسَّةٍ مِّنَ الْغُلَامِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سُورِينَ ﴿١٢٧﴾

و ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يمدكم بأكثر من ذلك العدد مسؤمين للقتال، ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ يعني: المشركين، ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة. ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها، ف قيل: خرج من فوره، كما تقول من ساعته لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمددكم ويكم﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد أن الله يجعل نصرتم وييسر فتحكم إن صبرتم و اتقيتم. وقرئ منزلين بالتشديد، ومنزلين بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر. ومسؤمين بفتح الواو وكسرها، بمعنى معلمين ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على اكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأنسابها، وعن مجاهد: مجرزة أناب خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوموا قبل أن الملائكة قد تسومت»⁽³⁾.

وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُرْئَىٰ لَكُمْ وَإِلْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِئِ وَآلِ النَّصْرِ إِلَّا

الخرزج وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين. والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله ابن أبي بثلث الناس، وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا. فتبعهم عمرو بن حزم الأنصار فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو تعلم قتالاً لاتبعناكم، فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ⁽¹⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمرنا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردا صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه. كما قال عمرو بن الأبطانية:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كنت أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأبطانية: ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية. والله تعالى يقول: ﴿وَالله وليهما﴾ ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله.

فإن قلت: فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه علينا؟ قلت: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة، بصحة الولاية، وإن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لنزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم، كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾⁽²⁾. أمرهم بالآ يتوكلوا إلا عليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه.

وَلَقَدْ نَعَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَقْرَأَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾

ثم نكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة وذلة.

والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على نلتهم كانوا قليلاً. ونلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضع يعقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقتلهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة.

وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به. ﴿فأتقوا الله﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لعلمكم تشكرون﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته، أو لعلمكم

(3) ابن أبي شيبة 358/14، كتاب: المغازي، باب: غزوة بدر الكبرى.

(1) السير والمغازي لابن إسحاق ص 324.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

مِنَ عِنْدِ اللَّهِ الْمَهْزُومِ الْكَبِيرِ ﴿١٣٦﴾.

﴿وما جعله الله﴾ الهاء لأن يملككم، أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشاراً لكم بأنكم تنصرون. ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشاراً بالنصر وطمأنينة لقلوبهم. ﴿وما للنصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله وجاء النصر والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين. ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الحكيم﴾ الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

لِيَقَطَّعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ يَنْتَلِفُوا لِيُحِيطُوا بِكُمْ ﴿١٣٧﴾.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم. ﴿أو يكبتهم﴾ أو يخزيهم ويغيطهم بالهزيمة، ﴿ففيقلبوا خائبين﴾ غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾⁽¹⁾.

ويقال: كبتته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرق. وقيل: في قول أبي الطيب:

لا كبت حاسداً وأرى عدواً

هو من الكبد والرثة واللام متعلقة بقوله: ولقد نصركم الله، أو بقوله: وما النصر إلا من عند الله.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ غُلَامٌ ﴿١٣٨﴾.

﴿أو يتوب﴾ عطف على ما قبله. ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض. والمعنى: أن الله مالك أمرهم فإذا يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن يتوب، منصوب بإضمار أن، وأن يتوب في حكم اسم معطوف بـ «أو» على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل: أو بمعنى إلا أن، كقولك: لا أزمناك أو تعطيتني حقي، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم

فتتشفى منهم. وقيل: شج عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم⁽²⁾ فنزلت. وقيل: أراد أن يدعو عليهم، فنهاه الله تعالى لعلمه أن فيهم من يؤمن.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٩﴾.

وعن الحسن⁽³⁾: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للثائبين. ﴿ويعذب من يشاء﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً، وإتباعه قوله: ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾⁽⁴⁾ تفسير بين لمن يشاء وأنهم المتوب عليهم أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ويطيّبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

يَأْتِيهَا النَّارُ آتِيَةً مَّا تَأْكُلُ الْأَرْضُ الْأَضَعِفَا مُضَاعَفَةً وَأَنْفُوا اللَّهُ لَمَلَكُم مِّنْ حَوْثٍ ﴿١٤٠﴾.

﴿لا تاكلوا الربوا ضعافاً مضاعفة﴾ نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل، فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون.

وَأَنْفُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لِمَلَكُم مِّنْ حَمْرٍ ﴿١٤٢﴾.

﴿ولتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ كان أبو حذيفة رحمه الله يقول: هي أخرف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمد ذلك بما اتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى. وفي ذكره تعالى لعل وعسى في نحو هذه المواضع، وإن قال الناس ما قالوا، ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

= الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين، وعندهم: أن المؤمن الثالث من كفره، هو: المعنى في قولهم: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ كما قاله الزمخشري، وأما تسلفه من ذلك على تعميم هذا الحكم، وتعنيته إلى الموحدين، فمن التعامي والتصام حقيقة، وإلا فهو أحق من ذلك، وأما نسبتها إلى أهل السنة: التعامي، والتصام، والهوى، والبدعة، والافتراء، فإله حسيبه في ذلك والسلام.

(4) سورة آل عمران، الآية: 128.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 291/5 الحديث رقم: (9649)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: المجن ومن يترس بترس صاحبه الحديث رقم: (2903)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد الحديث رقم: (4618).

(3) قال أحمد: هذه الآية واردة في الكفار، ومعتقد أهل السنة: أن المغفرة في حقه مشروطة بالتوبة من الكفر، والرجوع إلى

أمتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الامم التي مضت»⁽⁵⁾. ﴿والله يحب المحسنين﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المنكورون، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٦﴾

﴿والذين﴾ عطف على المتقين أي: أعدت للمتقين وللتائبين. وقوله: أولئك، إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون الذين مبتدأ خبره أولئك. ﴿فاحشة﴾ فعله متزايدة القبح، ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أو آذنبوا أي نذب كان مما يؤخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما بونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة. ﴿نكروا الله﴾ تنكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين⁽⁶⁾. ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا نذب له، وإنه لا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه، وإنَّ عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأنَّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو⁽⁷⁾ والتجاوز، وفيه تطيب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط، وإنَّ الذنوب وإن جلت فإنَّ عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنه وحده معه مصحات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿ولم يصروا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»⁽⁸⁾. وروى: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»⁽⁹⁾. ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فعل الإصرار، وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها؛ لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أنَّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرون، وإنَّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين⁽¹⁰⁾، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربّه.

﴿وَسَارِعاً إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَجَعَتْ عَنْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٣٧).

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو، وقرأ بالباقون بالواو، وتنصره قراءة أبي وعبد الله: وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يستحقان به. ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطة، وخصَّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: بطاننها من إستبرق. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبح سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض.

الَّذِينَ يُبْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ الْعَظِيمِ وَالْمَعَاوِي عَنِ النَّكَاسِ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿في السراء والضراء﴾ في حال الرخاء واليسر، وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة. وعن عائشة رضي الله عنها: أنها تصدقت بحبة عنب⁽¹⁾، أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة لا تمنعهم حال فرح وسرور ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وألذ على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقاء المسلمين.

كظم القرية: إذا مالاها وشدَّ فاهها، وكظم البعير إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده ملا الله قلبه أمناً وإيماناً»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ خادماً لها غاظها فقالت: لله بر التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء»⁽³⁾. ﴿والعاقين عن الناس﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخضوه. وروى: ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا⁽⁴⁾. وعن ابن عبيدة: أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي ﷺ: «إنَّ هؤلاء في

- (6) لعله: عازمين على عدم العود.
(7) أما سمعاً، فياتفاق، وأما عقلاً، فعند المعزلة فقط.
(8) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار الحديث رقم: (1514)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (107) الحديث رقم: (3559).
(9) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 10238).
(10) يعني: أن الإصرار كبيرة، وفاعل الكبيرة يخلد في النار، لكن هذا عند المعزلة، وخالف أهل السنة؛ لأنه مؤمن عندهم، والمؤمن لا يخلد فيها، وتحقيقه في علم التوحيد.
(1) قال الزيلعي أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن رنجويه في كتابه: الأموال، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب: الآنية.
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً الحديث رقم: (4777)، وأحمد في المسند 3/438.
(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8313).
(4) الدلمي في مسند الفردوس. والثعالبي في تفسيره.
(5) لم يخرج الزيلعي.

أَوْلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِيَةً فِيهَا وَقَعُوا الْأَعْمَالُ ﴿١٧٦﴾

قال: ﴿اجر العاملين﴾ بعد قوله: جزاؤهم، لأنهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون^(١). وروي: أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: ما أقل حياء من يطعم في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ننب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاع الرحمة ممن لا يطاع بحق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة: «جوزوا الصراط بعفوي واسخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم». وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تتشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس
والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر
العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات.

قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنٌّ قَبِيرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿١٧٧﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعه كقوله: ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾ * سنة الله في الذين خلوا من قبل^(٢) ﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ * سنة الله التي قد خلت من قبل^(٣).

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعني: أنه مع كونه بيانا وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قد خلت﴾، جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما نكر من أجر العاملين، ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾، إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصريين.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي:

لا يورثكم نك وهنا وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح. ﴿وانتم الاعلون﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وانتم الاعلون شأناً لأن قتالكم الله وإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتالكم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وانتم الاعلون في العاقبة ﴿وان جننا لهم الغالبون﴾^(٤) ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهاي، بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

إِنْ يَسْئَلْكُمْ فِرْعَانُ مَنِ آلَؤُمَّ فَزَيِّرْهُ وَيُنَالِ الْأَيَّامُ نُدَاوِلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٨٠﴾

وقرىء: فرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم المها. وقرأ أبو السمال: فرح بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرود، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منه قبله يوم بدر، ثم لم يضعف نك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: ﴿فإنهم بالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾^(٥) وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿فرح مثله﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل فرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾^(٦). ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ، والأيام صفته، ﴿نداولها﴾ خبره. ويجوز أن يكون تلك الأيام مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها نصرناها بين الناس. ندليل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا
ويوماً نساء ويوماً نسر
ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام نول والحرب سجال. فقال عمر

(4) سورة الصفات، الآية: 173.

(5) سورة النساء، الآية: 104.

(6) سورة آل عمران، الآية: 152.

(1) يريد بهم: أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء.

(2) سورة الاحزاب، الآيات: 61 - 62.

(3) سورة الفتح، الآيات: 22 - 23.

بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه، لأنه منتفح بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع، فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعني أن يفعل كذا، ولما تريد ولم يفعل وأنا أتوقع فعله. وقرئ: ولما يعلم الله بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها. ﴿وَيَعْلَم الصابرين﴾ نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: ويعلم بالرفع، على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَبَدَّلَ رَأْيُكُمْ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ خوطب به النبي لم يشهدوا بديراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر وهم الذين أحووا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رايه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته وصعوبة مقاساته، ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي: رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم، وشارفتم أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنينهم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده.

فإن قلت: كيف يجوز تمنى الشهادة وفي تمنيتها تمنى غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمنى الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب نواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة وإحسان إلى عبو الله وتنفيقا لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له: ربكم الله:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرع تنفذ الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جنبي أرسدك الله من غاز وقد رسدا

رضي الله عنه: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار. فقال: إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إنن وخسرنا والمدولة مثل المعاورة⁽¹⁾. وقال:

يرد الميأه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثل وسماع
يقال: داوت بينهم الشيء فتداولوه. ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محنوقاً، معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا نك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فاش عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه ليعلمهم علماء يتعلق به الجزء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثابت.

والثاني: أن تكون العلة محنوقة وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله؛ وأنما حذف للإيدان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أن العبد يسوء ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أن الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه. ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبطل به صيركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾⁽²⁾ ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يجب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله المحمضين، من الذنوب.

وَيَمَسَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَسَّ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٨﴾

والتمحيص: التطهير والتصفية. ﴿ويمحق الكافرين﴾ ويهلكهم، يعني: إن كانت النولة على المؤمنين فللتمييز، والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

أَرَحَبْتُمْ أَنْ تَلُؤُوا آلَ جَنَّةٍ وَلَمَّا يَلَغِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَكْتُمُ الْقَائِدِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿أنم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿ولما يعلم الله﴾ بمعنى⁽³⁾: ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق

= مطلقاً، ويعتقد الملازمة المنكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ أنه عبر عن نفي المعلوم، بنفي العلم؛ لأنه من لوازمه، وسيأتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم، وإنما عبر فرعون بذلك تليساً على ملته، وتتميماً لدعوى الوهية الكاذبة، بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواء على دعواه، لتعلق علمه به، وهذا يعد من حماقات فرعون، ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/297.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، خاص بعلم الله تعالى؛ لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء، ما عدم ذلك الشيء ضرورة، أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء، بنفي تعلق العلم القديم، بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق، والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير =

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله، فذبح عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان. ففشا في الناس خبر قتله فانكفوا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: إليّ عباد الله، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بأبائنا وأمهاتنا، أتنا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مجبرين، فنزلت. وروي أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين أنه مرّ بآنصاري يتشطح في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ كَذَبُوا كَذِباً كُفُوراً وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ
مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا آمَنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَمُومُوا وَمَا
اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٨﴾

والمعنى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله للرسول﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن اتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تمسكوا بدينه بعد خلوه^(١)؛ لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿أفان مات﴾ الفاء معلقة للحملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه يموت أو قتل، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإن قلت: لم نكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجزواً عند المخاطبين.

فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾^(٢). قلت: هذا مما يخص بالعلماء منهم نوي

البصيرة، إلا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنه الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعقاب: الإibar عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد وما ارتد أحد من المعلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، يجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ وإسلامه. ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع. ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ الذين لم يتقبلوا، كأنس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يائن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن حوَّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني نكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهضة للمخلص من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل، ﴿كتاباً﴾ مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿موجلاً﴾ موقفاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾ تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نؤوته منها﴾ أي من ثوابها، ﴿وسنجزي﴾ الجزء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرئ: يؤته وسيجزي بلباء فيها.

قرئ: قاتل وقتل بالتشديد، والفاعل ربيون أو ضمير النبي، و﴿معه ربيون﴾ حال عنه بمعنى: كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول. وعن سعيد بن جببر رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحركات الثلاث: فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرئ: فما وهوا بكسر الهاء، والمعنى: ﴿فما وهوا﴾ عند قتل النبي، ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد بعده، ﴿وما استكانوا﴾ للعدو وهذا تعريض مما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّيْنِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَكَيْتٌ أَتَمَّامًا وَأَضْرَبْنَا عَلَى الْعُقُورِ الْكُفْرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب

الرعب في قلوبهم فأمسكوا. ﴿بما أشركوا﴾ بسبب إشراكهم أي: كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به. ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة.

فَأَنْ قُلْتَ (1): كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك! قلت: لم يعن أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله: ولا ترى الضب بها ينحجر.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنَيْكُمْ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا نُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (2).

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وعدمه الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم﴾ (2) ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ (3) فلما فشلوا وتنازعا لم يرعبهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت. وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا كانت الدولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

يحسونهم أي: يقتلونهم قتلاً نريعاً حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا. وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر بون العشرة، وهم المعنيون بقوله: ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ ونفر أعقابهم ينهبون وهم الذين أرادوا الدنيا. فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صبا حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها. ﴿ولقد عفا عنكم﴾ لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر

ثبتيه الاقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون ملتبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع وأقرب إلى لاستجابة.

فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَصَنَ تَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (4).

﴿فقاتلهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصر والغنيمة والعز طيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله تقدّمه وأنه هو المعتد به عنده، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة.

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَابُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَى أَفْئِكِهِمْ فَتَنَلُوا حَسْرِينَ (5).

﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ قال علي رضي الله عنه: زلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى خوانكم وادخلوا في بيئهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إن استنصحو اليهود والنصارى وتقبلوا منهم؛ لأنهم كانوا يستغفونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم؛ إنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه تستامنوهم ﴿يرئوكم﴾ إلى دينهم، وقيل: هو عام في جميع الكفار وإن على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء، ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى يستجروهم إلى موافقتهم.

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (6).

﴿بل الله مولاكم﴾ أي: ناصركم لا تحتاجون معه إلى صرة أحد وولايته. وقرئ بالنصب على بل أطيعوا الله ولاكم.

سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (7).

﴿سنلقي﴾ قرئ بالنون والياء. ﴿والرعب﴾ بسكون عين وضمها، قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف وم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة الغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق الواو: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن اهرون ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك لقي الله

(1) قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال، لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة، وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله، ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكن كقول القائل:

على لاحب لا يهتدي بمناره

فإنه بإضافة المنار إليه، يوم أن فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى

= حمله على معنى لا منار فيه، فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: على لاحب لا يهتدي فيه بمنار مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 125.

(3) سورة آل عمران، الآية: 151.

رسول الله ﷺ، «وإنه لو فضل على المؤمنين» يتفضل عليهم بالعفو، أو هو مفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أنبل لهم أو أنبل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصر رحمة.

فإن قلت: أين متعلق حتى إذا قلت: محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

﴿إِذْ صَبَرْتُمْ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ آسَافٍ وَلَا رُسُوكُمْ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَنْتُمْ عَمَّا كُنْتُمْ لَكَيْلًا تَحْرُجُوا عَلَىٰ مَا نَأْتِكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٧).

﴿إذ تصعدون﴾ نصب بصرفكم، أو بقوله: ﴿لبيتليكم﴾^(١) أو بإضمار انكر.

والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني: في الجبل. وتعصد الأولى قراءة أبي: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون بفتح التاء وتشديد العين من تصعد في السلم. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون بواو واحدة، وقد نكرنا وجهها. وقرئ: يصعدون ويلون بالياء. ﴿والرسول يدعوكم﴾ كان يقول: إلي عباد الله إلي عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. ﴿في أخراكم﴾ في ساقتم وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى. ﴿فإنابكم﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غما﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاككم ﴿ببسبب غم﴾ أنقتموه رسول الله ﷺ بعضيانكم له، أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم، من الإغتمام بما أرفج به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، ﴿لكيلا تحزنوا﴾، لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في فأنابكم من رسول أبي: فأساكم في الإغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم فأنابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله. ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتمكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لثلاث تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدِّ أَمَرٍ نَّاسًا يَشْعُنَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلَتْ هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَرَزَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَسَاجِدِهِمْ وَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَيَمْحِصُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥٨).

وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبيهم النوم. وعن أبي طلحة رضي الله عنه: غشينا النعاس ونحن في مصافتنا فكار السيف يسقط من يد أحدها فيأخذه ثم يسقط فيأخذه، وم أحد إلا ويميل تحت جحفته^(٢) وعن ابن الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم، والله إني لاسمع قول معتب يز قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا^(٣).

والأمنة: الأمن، وقرئ: أمنة بسكون الميم، كأنها المرأ من الأمن. ﴿نعاساً﴾ بدل من أمنة، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى: نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى نوي أمنة، أو على أنه جمع أمر كبار وبررة. ﴿يغشى﴾ قرئ: بالياء والتاء، رداً على النعاس أو على الأمنة. ﴿وطائفة منكم﴾ هم أهل الصدوة واليقين، ﴿وطائفة﴾ هم المنافقون ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم من الهموم والأشجان فهم في التشاكي والتباب. ﴿غير الحق﴾ فم حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به، و﴿ظن الجاهلية﴾ بدل منه. ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية وغير الحق تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك، و﴿ظن الجاهلية﴾ كقولك: حاتم الجود ورجل صدق يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرا جاهلون بالله. ﴿يقولون﴾ لرسول الله ﷺ يسألونه ﴿ها لنا من الأمر من شيء﴾ معناه: هل لنا معاشر المسلمية من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ ولأوليائه المؤمنين، وهو النص والغلبة ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾^(٤) وإن جندنا له الغالبون^(٥). ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من

= والبزار في مستدبرهما، والزليعي 1/233.

(4) سورة المجادلة، الآية: 21.

(5) سورة الصافات، الآية: 173.

(1) سورة آل عمران، الآية: 152.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿أمنة نعاساً﴾ الحديث رقم: (4562).

(3) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وإسحاق بن راهويه =

﴿استزلمهم﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه. ﴿ببعض ما كسبوا﴾ من ذنوبهم، ومعناه: إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا اطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنباً، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وقيل: استزال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقممت لهم لأن الذنب يجزى إلى الذنب كما أن الطاعة تجزى إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: استزلمهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه، فجرهم ذلك إلى الهزيمة. وقيل: نكروهم تلك الخطايا فكروها لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية.

فإن قلت: لم قيل ﴿ببعض ما كسبوا﴾؟ قلت: هو كقوله تعالى: ﴿ويغفوا عن كثير﴾⁽²⁾ ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إن الله غفورٌ للذنوب حلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾⁽³⁾ ومعنى الأخوة، اتفاق الجنس أو النسب. ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ إذا سافروا فيها وأبعدها للتجارة أو غيرها، ﴿ولو كانوا غزى﴾ جمع غاز كعافٍ وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون. وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة.

فإن قلت: كيف قيل: إذا ﴿ضربوا﴾ مع ﴿قالوا﴾؟ قلت: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض.

فإن قلت: ما متعلق ﴿ليجعل﴾؟ قلت: قالوا، أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ﴿حسرة في قلوبهم﴾ على أن اللام مثلها في ﴿ليكون لهم عدواً وحرزاً﴾ أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق

شيء؟ سؤال المؤمنين المسترشدين، وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكبين قولك لهم: أن الأمر كله لله. ﴿لو كان لنا من الأمر شيء﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ يعني: من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن يد من وجوده فلو قعبتم في بيوتكم ﴿لبرز﴾ من بينكم ﴿الذين﴾ علم الله أنهم يقتلون ﴿إلى مضاجعهم﴾ وهي مصارعهم، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العقاب في الغلبة لهم، وإن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة وحرصهم على الشهادة مما يحرصهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه: هل لنا من التدبير من شيء، يعنون: لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبي وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة. قل: إن التدبير كله لله، يريد أن الله عز وجل قد نبر الأمر كما جرى ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم وقرئ: كتب عليهم القتال وكتب عليهم القتل على البناء للفاعل، ولبرز بالتشديد وضم الباء، ﴿وليبتلي الله﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة للابتلاء والتمحيص.

فإن قلت: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله: ﴿وطائفة﴾؟ قلت: قد أهمتهم صفة لطائفة، ويظنون صفة أخرى أو حال بمعنى قد أهمتهم أنفسهم ظانين، أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، ويقولون بدل من يظنون.

فإن قلت⁽¹⁾: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟ قلت: كانت مسألتهم صادرة عن الظن فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، وقل إن الأمر كله لله اعتراض بين الحال ونوي الحال، ويقولون بدل من يخفون، والأجود أن يكون استئنافاً.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٧﴾

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، فإن هذا السؤال استفهام والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصق، ونقيضه ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، يعني في قولكم اتجعل فيها من

(2) سورة السائدة، الآية: 15.
(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

خالفوه وعصوا أمره وانهمزوا وتركوه. ﴿ولو كنت فظاً﴾ جافياً ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ فيما يختص بك، ﴿واستغفر لهم﴾ فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ يعني: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: قد علم الله أنّ ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده. وعن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «ما تشاور قوه قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»⁽⁵⁾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورةً من أصحاب الرسول ﷺ⁽⁶⁾. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي نونهم. وقرئ: وشاورهم في بعض الأمر، ﴿فإذا عزمت﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فتوكل على الله﴾ في إمضاء أمرك على الإرشاد الأصح؛ فإنّ ما هو أصح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت ولا من تشاور. وقرئ: فإذا عزمت بضم التاء بمعنى: فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل علي ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وَإِنْ يَخَذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٦﴾

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر، فلا أحد يغلِبكم. ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد، ﴿فمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ﴾. فهذا تنبيه على أنّ الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾⁽⁷⁾ ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ من بعد خذلانه، أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان، تريد إذا جاوزته. وقرأ عبید بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذله إذا جعله مخذولاً. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان. ﴿وعلى الله﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ أَمَّنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ

الصلور فعل الله عز وجل، كقوله: ﴿يجعل صدره صديقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضانتهم مما يغمهم ويغیظهم. ﴿والله يحيي ويميت﴾ رد لقولهم، أي: الأمر بيده قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنّه قال عند موته: ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء⁽²⁾. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني: الذين كفروا.

وَلَكِنْ يُنَزِّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتَّ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً حَيْرَ مًا بِحَمُوكَ ﴿١٦٧﴾

﴿المغفرة﴾ جواب القسم وهو ساد مسدّ جواب الشرط، وكذلك ﴿إلى الله تحشرون﴾⁽³⁾، كذب الكافرين أولاً في زعمهم أنّ من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: لئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت ﴿في سبيل الله خير مما تجمعون﴾ من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء، وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار.

وَلَكِنْ مَتَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿إلى الله تحشرون﴾ إلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون، ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه، وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. وقرئ: تمّ بضم الميم وكسرها، من مات يموت، ومات يمات.

يَمَّا رَحِمَ رَبُّكَ إِنَّ اللَّهَ يَنْتَ لَهُمْ وَكَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦٩﴾

ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينة لهم ما كان إلا برحمة من الله، ونحوه: ﴿فيما نقصهم ميثاقهم لعناهم﴾⁽⁴⁾. ومعنى الرحمة: ربطه على جاشه وتوفيقه المرفق والتلطّف بهم، حتى اثابهم غماً بغم، وأساهم بالمباينة بعد ما

(1) سورة الأنعام، الآية: 125. (2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 331/5 الحديث رقم: (9720)، والقرمذي تعليقا، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في المشورة، وابن حبان في كتاب: السير، باب: المواعدة والمهادنة الحديث رقم: (4872). (3) سورة آل عمران، الآية: 158. (4) سورة المائدة، الآية: 13. (5) [قال الزبلي غريب، لم أجده إلا من قول الحسن 234/1]. (6) = (7) سورة فاطر، الآية: 2.

كَمْ بَاءٍ سَحَطَ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ رَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٧٦﴾ .

يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلواً وأغلّ وإغلالاً إذا أخذه في خفية، يقال: أغلّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغل الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»⁽¹⁾. وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول»⁽²⁾، وعنه: «ليس على المستعير غير المغل ضمان»⁽³⁾، وعنه: «لا إغلال ولا إسلال»⁽⁴⁾. ويقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأقحمته، ومعنى: «وما كان لنبي أن يغفل» وما صحّ له ذلك، يعني: أنّ النبوة تنافي الغلول. وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأول، لأنّ معناه: وما صحّ له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان⁽⁵⁾.

أحدهما: أن يبرأ رسول الله ﷺ من ذلك وينزهه وينبهه على عصمته بأنّ النبوة والغلول متنافيان لثلاثي يظن به ظان شيئاً منه وأن لا يستريب به أحد، كما روي: أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلّ رسول الله ﷺ أخذها⁽⁶⁾. وروي: أنّها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، وأنّ لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر. فقال لهم النبي ﷺ: «الم أعد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا ووقفنا، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم».

والثاني: أن يكون مبالغةً في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنّه بعث ثلاث غنم فغنمت غنائم، فقسمها ولم يقسم للطلائع⁽⁷⁾. فنزلت: يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غلواً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر. ولو قرئ: أن يغفل من أغلّ، بمعنى: غلّ، لجاز: «يات بما غلّ يوم القيامة» يات بالشيء الذي غله بعينه يحمله، كما جاء

في الحديث: جاء يوم القيامة يحمله على عنقه⁽⁸⁾. وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي بيغير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها نغاء، فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك»⁽⁹⁾. وعن بعض جفاة الأعراب: أنّه سرق ناقة مسك فتليت عليه الآية، فقال: إذا أحملها طيبة الريح خفيفة الحمل. ويجوز أن يراد: يأت بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه.

فإن قلت: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به! قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت لأنّه إذا علم الغال أنّ كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه علم أنّه غير متخلص من بينهم من عظم ما اكتسب. «وهم لا يظلمون» أي: يعدل بينهم في الجزاء كل جزأه على قدر كسبه.

هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ .

«هم درجات» أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، كقوله:

انصب للمنية تعترتهم رجالى أم همودج السيول
وقيل: نور درجات، والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم
ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. «والله بصير بما يعملون» عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَكَتْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرَضُّوا عَنْهُمْ وَيَتْلُوهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَى سَافِلِينَ ﴿١٧٨﴾ .

«لقد منّ الله على المؤمنين» على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه. «من أنفسهم» من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسماعيل كما أنّهم من ولده.

أن تكون له أسرى» «ما كان لنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وما كان لعم أن تؤنوا رسول الله ﷺ إلى غير ذلك على أنّ الرمزخشري حاف في العبارة، إذ يقول عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً، وتقبيحاً، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله الله ﷺ في التاديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف، والتعطف، الا ترى إلى قوله تعالى: «عفا الله عنك لم أذنت لهم» قال بعض العلماء: بدأه بالعفو قبل العتب، ولو لم يبدأه بالعفو، لانفطر قلبه ﷺ.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (3009)، والواحد في أسباب النزول ص 73.

(7) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 73-74. وابن أبي شيبه في 413/12، كتاب: الجهاد، باب: ليس له شيء إذا قدم بعد الوقعة.

(8) نكره السيوطي في الدر المنثور (92/2) ونكره ابن كثير في «تفسيره» (135/2).

(9) أخرجه الطبري في تفسيره، وأبو يعلى الموصلي.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في عمال الصدقة الحديث رقم: (1810)، والحديث عن أبي حميد الساعدي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة، باب: من لم يقبل الهدية لعله الحديث رقم: (2597) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال الحديث رقم: (4715).

(2) كشف الاستار، كتاب: الإمارة، باب: في هدايا العمال الحديث رقم: (1599)، وحديث جابر، أخرجه عبد الرزاق في المصنف 147/8 الحديث رقم: (14665).

(3) أخرجه البيهقي في سننه في كتاب: للعارية.

(4) أخرجه الدارمي في السنن 303/2، كتاب: السير، باب: في الغال إذا جاء بما غل به، حديث رقم: (2491)، وأحمد في المسند 325/4، وأبو داود في السنن، كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو، الحديث رقم: (2766).

(5) قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له، ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي، في أمثال قوله تعالى: «ما كان لنبي

أتى لك هذا؟ لقوله: ﴿من عند أنفسكم﴾ ، وقوله: ﴿من عند الله﴾ والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم عن المركز. وعن علي رضي الله عنه: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيبكم تارة ويصيب منكم أخرى.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَرَبِّعَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٧﴾

﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين، ﴿ف﴾ هو كائن ﴿بإذن الله﴾، أي: بتخليته استعارة الإذن لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم لأن الآن محل بين المانور له ومراده

وَرَبِّعَلَّمَ الَّذِينَ نَانَفُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَتِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْعَوْا قَالُوا لَوْ تَمَّمْنَا آلَاءَ لَأَكْبَرْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإيْبَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وليعلم﴾ وهو كائن ليميز المؤمنين والمنافقون وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. ﴿وقيل لهم﴾ من جملة الصلة عطف على نفاقوا؛ وإنما لم يقل: فقالوا، لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال. كأنه قيل: فماذا قالوا لهم؟ فقيل: قالوا لو نعم. ويجوز أن تقتصر الصلة على نفاقوا، ويكون ﴿وقيل لهم﴾ لهم كلاماً مبتدأ. قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للأخرة كما يقاتل المؤمنون وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الأخرة فنعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم. ونلك ما روي: أن عبد الله بن أبي انخزل مع حلفائه، فقيل له، فقال نلك. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين، وإن لم تقاتلوا لأن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره: لو أمكنني لبعث داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصره؟ قال: لقوله: أو ادفعوا، أراد: كثروا سوادهم. ووجه آخر: وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لو نعم قتالاً﴾، لو نعم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿لاتبعناكم﴾، يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزلكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأن رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج. ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعني: أنهم قبل نلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة تؤذن بكفرهم، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا، تباعدوا بنلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن

فإن قلت: فما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم! قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان نلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وإنه لنكر لك ولقومك﴾⁽¹⁾. وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة رضي الله عنها من أنفسهم، أي: من أشرفهم. لأن عدنان، نروة ولد إسماعيل، ومضر نروة نزار بن معد بن عدنان، وخنيف نروة مضر، ومدركة نروة خنيف، وقريش نروة مدركة، ونروة قريش محمد ﷺ، وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من نروة إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به وهو والله بعد هذا له نبا عظيم وخطر جليل. وقريء: لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم، وفيه وجهان: أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم فحنف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه. ﴿يتلو عليهم آياته﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿ويزكهم﴾ يطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملاسة المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم. ﴿وإن كانوا من قبل﴾ من قبل بعث الرسول ﴿لفي ضلال﴾، إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال ﴿مبين﴾ ظاهر لا شبهة فيه.

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٨﴾

﴿أصابكم مصيبة﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. ولما نصب ب ﴿قلتم﴾ و﴿أصابكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلت حين أصابكم و﴿أنى هذا﴾ نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقرير.

فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: ولقد صلقتكم الله وعده، ويجوز أن تكون معطوفة على محنوف، كأنه قيل: أفلتم كذا وقتلتم حينئذ كذا، أنى هذا، من أين هذا؟ كقوله تعالى:

تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين. **﴿يقولون بأفواههم﴾** لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم، ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، ونكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أفواههم. معدوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم: **﴿واشأ أعلم بما يكتمون﴾** من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿ولا تحسبن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرئ: بالياء على ولا يحسبن رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبن حاسب، ويجوز أن يكون **﴿الذين قتلوا﴾** فاعلاً ويكون التقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً.

فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ فحذف كما حذف المبتدأ في قوله: **﴿أحياء﴾**، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرئ: ولا تحسبن بفتح السين، وقتلوا بالتشديد، وأحياء بالنصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، **﴿عند ربهم﴾** مقربون عنده نوح زلفى، كقوله: **﴿فالذين عند ربك﴾** (2) **﴿يرزقون﴾** مثل ما يرزق سائر الأحياء ياكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التمتع برزق الله.

رَحِيمٌ يَمَا ءَاتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَكَسْتَبْشِرُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا حَرْبٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٥﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي ﷺ: **﴿لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش﴾** (3) **﴿ويستبشرون ب﴾** إخوانهم المجاهدين **﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾** أي: لم يقتلوا فيلحقوا بهم. **﴿من خلفهم﴾** يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَمَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأوْا عَنِّي أَشْيَكُمْ أَلَمْ تَمُوتُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٦﴾

﴿الذين قالوا﴾ في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذم أو على الرد على الذين ناقضوا أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من أو يكتمون، ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم، كقوله: على جوده لضعن بالماء حاتم. **﴿لإخوانهم﴾** لأجل إخوانهم، من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار. **﴿وقعدوا﴾** أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل. **﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني: أن ذلك الدفع غير مغن عنكم لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبتوتة ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

فإن قلت⁽¹⁾: فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: **﴿إن كنتم صادقين﴾**؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يديركم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون

(1) قال أحمد: السؤال المذكور إنما يرد على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأن المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أن الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل، بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور، وأما أهل السنة فمعتقدم أن كل ميت بأجله يموت، ويقولون إن الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأن ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل إيماناً؛ بقوله تعالى: **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** وخلافاً للمنافقين، وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا، ولعمري إنهم في هذا

= المعتقد مقلدون لنمروز، في قوله: أنا أحيي وأميت، فإن الأحق ظن أنه يقتل إن شاء، فيكون ذلك إمامة ويعفو عن القتل، فيكون ذلك أحياء، وغاب عنه أن الذي عفا عن قتله، إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأن الذي قتله إنما مات؛ لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، الحديث رقم: (2520)، والحاكم في المستدرک 88/2، ومسلم عن ابن مسعود في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون الحديث رقم: (4862).

ومنزلتهم. ﴿الْأَخَافُ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الذين، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم يبعثون أمينين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. وفي نكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم وإحماذ لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧).

وكرر ﴿يستبشرون﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿الْأَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)، من نكر النعمة والفضل وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع. وقرئ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَبِالْكَسْرِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَعَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ اعْتِرَاضٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ الْكِسَائِي، وَتَعَضُّدٌ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ﴾.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَبُوا بِنِعْمِمْ وَأَتَقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ (٧٧).

﴿الذين استجابوا﴾ مبتدأ خبره للذين أحسنوا، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريبهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، والقي الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت^(٢). ﴿وَمَنْ فِي﴾ للذين أحسنوا منهم ﴿للتبیین مثلها في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾^(٣)، لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة رضي الله عنها: إن أبوك لمن الذين استجابوا لله والرسول، تعني: أبا بكر والزبير^(٤).

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَرَادَهُمْ إِلَيْكُمْ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٧٨).

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ روي: أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقبال إن شئت. فقال النبي ﷺ: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران، فالتقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً، فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده تلك جراءة، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل. فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقرارك فلم يقلت منكم أحد إلا شريد اقتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يقلت منكم أحد^(٥). وقيل: مرّ بابي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة، فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أُخْرِجَنَّ وَلَوْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِيَ أَحَدٌ﴾. فخرج في سبعين ركباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار. حتى وافوا بدرًا وأقاموا بها ثمانين ليالٍ وكانت معهم تجارات فباعوها وأصلبوا خيراً ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السوق. قالوا: إنما خرجتم لتشربوا السوق، فالناس الأولون المثبطون والآخرون أبو سفيان وأصحابه^(٦).

فإن قلت: كيف قيل الناس إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد، أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضاومونه ويصلون جناح كلامه ويثبطون مثل تثبيطه.

فإن قلت: إلام يرجع المستكن في ﴿فزادهم﴾؟ قلت: لما إلى المقول الذي هو ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فآخشوهم﴾ كانه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له، أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده.

فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو قوله إيماناً؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله، وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة،

== استجابوا لله ورسوله، الحديث رقم: (4077)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير الحديث رقم: (6199).

(5) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(6) أخرجه ابن سعد في الطبقات. زيلعي 1/246.

(1) سورة آل عمران، الآية: 170.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وابن إسحاق والزيلعي 1/244، ونكره ابن هشام في السيرة 121/2.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: «الذين»

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿يسارعون في الكفر﴾ يعنون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشد رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ولا يحزنك﴾، ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً﴾ يعني: إنهم لا يضررون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وبال تلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي: نصيباً من الثواب، ﴿ولهم﴾ بدل الثواب ﴿عذاب عظيم﴾. وذلك أبلغ ما ضرَّ به الإنسان نفسه.

فإن قلت: هلا قيل لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأي فائدة في نكر الإرداء؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تملايهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه حتى أن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم.

إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿إن الذين اشتركوا بالكفر بالإيمان﴾ إما أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإما أن يكون عاماً للكفار والأول خاصة فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الإسلام أو على العكس. و﴿شيئاً﴾ نصب على المصدر، لأن المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكَ تَرْكِبُهُمْ إِنَّمَا تَكِبُّ لَهُمْ لِيَذَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٧٨﴾

﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالثناء نصب، و﴿إنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل منه، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم، وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أم تحسبن أن أكثرهم يسمعون﴾ (5) وما مصرية بمعنى: ولا تحسبن أن إملأنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف.

فإن قلت: كيف صح مجيء البديل ولم يذكر إلا أحد

والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (1). وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزيد إيماناً (2). وعنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به (3). ﴿حسبنا الله﴾ محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه، والدليل على أنه بمعنى المحسب، أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة. ﴿ونعم الوكيل﴾ ونعم الموكل إليه هو.

فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَقَدْ لَبِئْسَ اللَّهُ مَبْعُوثًا لِمَنِ كَانَتِ هَوَالِيكُمْ وَأَنْتُمْ بِاللَّهِ عَاكِفُونَ وَأَنْتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٩﴾

﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بنعمة من الله﴾ وهي السلامة وحذر العدو منهم، و﴿وفضل﴾ هو الريح في التجارة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ (4) ﴿لم يمسسهم سوء﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو ﴿وانتبعوا رضوان الله﴾ بجراتهم وخروجهم. ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. روي: أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

إِنَّمَا تَدْعِيَكُمْ إِلَى الْكَيْفِ كَمَا دَعَاكُمْ وَإِنَّمَا تَدْعِيكُمْ إِلَى الْكَيْفِ كَمَا دَعَاكُمْ وَإِنَّمَا تَدْعِيكُمْ إِلَى الْكَيْفِ كَمَا دَعَاكُمْ ﴿٨٠﴾

﴿الشیطان﴾ خير نلكم بمعنى إنما نلكم المثبط هو الشيطان، ويخوف أولياءه: جملة مستأنفة بيان لشيطنته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوف الخبر، والمراد بالشیطان نعيم أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى: إنما نلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله. ﴿يخوف أولياءه﴾ يخوفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوفكم أولياءه، وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ.

فإن قلت: فإلام رجع الضمير في ﴿فلا تخافوهم﴾ على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس في قوله: إن الناس قد جمعوا لكم فلا تخافوهم فتقعوا عن القتال وتجنبا. ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: إن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحداً إلا الله.

(1) الثعلبي في تفسيره [الزليعي 2471].

(3) أخرجه البيهقي في الشعب 1/69، الحديث رقم: (36).

(4) سورة البقرة، الآية: 198.

(2) البيهقي في شعب الإيمان، باب: القول في زيادة الإيمان

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

وتقصاته... الحديث رقم: (38).

من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أمان بمعنى ميز.

فإن قلت: لمن الخطاب في انتم؟ قلت: للمصنفين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله لينز المخلصين منكم على الحال التي انتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم. ثم قال: ﴿وما كان الله

ليطلعكم على الغيب﴾ أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر إنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها. ﴿ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأن في الغيب كذا وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة إطلاعه على المغيبات.

ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله قلوبهم، كبذل الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائكم وشاهداً بضمائركم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والإطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها. ولكن الله

﴿يجتبي من رسله من يشاء﴾ فيخبره ببعض المغيبات، ﴿فأمنوا بالله ورسله﴾ بأن تقدره حق قدره وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عبداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِّمَنْ بَلَّ هُوَ سَرًّا لَهُمْ سِطْوَاتٌ مَّا يَبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٦﴾

﴿ولا تحسبن﴾ من قرأ بالباء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء. وجل فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأول عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ والذي سوغ حذفه دلالة يبخلون عليه وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو. ﴿سيطوقون﴾ تفسير

المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صخ ذلك من حيث إن التعويل على البديل والمبدل منه في حكم المنحى، إلا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدر مضاف محذوف على ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع والفعل متعلق بأن وما في حيزه.

والإملاء لهم: تخليتهم وشانهم مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبن أن الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع أجالهم. ﴿إنما نعلمي لهم﴾ ما هذه حقها أن تكتب متصلة لأنها كافة نون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها. كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم: فقيل: ﴿إنما نعلمي لهم ليزدانوا إنمأ﴾.

فإن قلت^(١): كيف جاز أن يكون ازدياد الإنم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم؟ قلت: هو علة للإملاء وما كل علة بغرض، إلا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك وإنمأ هي علل وأسباب، فكنك ازدياد الإنم جعل علة للإمهال وسبباً فيه.

فإن قلت: كيف يكون ازدياد الإنم علة للإملاء كما كان العجز علة للنعوذ عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزدانون إنمأ فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية: ولا يحسبن بالياء على معنى: ولا يحسبن الذين كفروا أن إملائنا لازدياد الإنم كما يفعلون، وإنمأ هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: إنمأ نعلمي لهم خير لأنفسهم اعتراض بين الفعل ومعموله، ومعناه أن إملائنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسيح المدة وترك المعالجة بالعقوبة.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ولهم عذاب مهين﴾ على هذه القراءة؟ قلت: معناه ولا تحسبوا إن إملائنا لزيادة الإنم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزدانوا إنمأ معداً لهم عذاب مهين.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَلِّمَكُمْ عَلَى الطَّيِّبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَّا إِلَى اللَّهِ وَّرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٧﴾

اللام لتأكيد النفي على ﴿ما انتم عليه﴾ من اختلاط المؤمنين الخالص والمنافقين، ﴿حتى يميز للخبيث من الطيب﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرئ: يميز

= ازدياد الإنم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً، لإتمام الفساد، وضرباً في حديد باره، فجعل ازدياد الإنم سبباً، وليس بغرض.

(١) قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على ﴿شفا جرف هار﴾؛ لأن معتقده أن الإنم الواقع منهم، ليس مراداً لله تعالى، بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما وردت الآية مشعرة بأن =

رضي الله عنه: نَقَّ عَقَقَ (6). وقرأ حمزة: سيكتب بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال نوقوا.

ذَلِكَ يَمَا فَدَمْتَ أَيْيَكُمُ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلَمُ لِمَعْمِدٍ (٧٨).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم. وذكر الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاوّل بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فلم عطف قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلَمُ لِلْعَبِيدِ﴾ على ما ﴿قَدَّمْتُمْ لِيَدِيكُمْ﴾، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب! قُلْتُمْ: معنى كونه غير ظلام للعبيد: أنه عادل عليهم، ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

أَلَيْسَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِتَيْنَا آلَ ثَمُودَ رَسُولٌ حَقٌّ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ الْأَنْفُسُ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَاللَّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَكْفُرُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧٩).

﴿عهد إيتنا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن برسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل ناراً من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آياتهم كان يقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة واقتراء على الله لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إن سائر الآيات سواء، فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤوا بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق وجاؤهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوه إن كانوا صائقين إن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرئ: بقربان بضمّتين، ونظيره السلطان.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما معنى قوله: ﴿وبالذي قلتم﴾؟ قلت: معناه وبمعنى الذي قلتموه من قولكم قربان تأكله النار، ومؤداه كقوله: ﴿ثم يعوبون لما قالوا﴾ أي: لمعنى ما قالوا.

إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُوبِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٨٠).

في مصاحف أهل الشام: وبالزبير، وهي: الصحف، ﴿والكتاب المنير﴾ التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. وقرأ البيهقي: نائقة الموت، على الأصل. وقرأ الأعمش: نائقة الموت، بطرح التنوين على النصب، كقوله: ولا ذاك الله إلا قليلاً

لقوله: ﴿هو شر لهم﴾، أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به لإزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي ﷺ في مانع لزكاة: «يطوق بشجاع أقرع» (1). وروي: «بشجاع أسود». وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار. ﴿ووه ميراث السموات والأرض﴾ أي: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ (2) وقرئ: بما تعملون بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَوْرٌ وَمَعْنُ أَغْبِيَاءُ سَكَتُهُمْ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِمَكْرٍ حَتَّى وَنَقُولُ ذُرُوقًا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٨١).

قال تلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ (3) فلا يخلو إنا ما يقوله عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وإيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه وأنه أعد له كفاءه من العقاب. ﴿سنكتب ما قالوا﴾ في صحائف الحفظه أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف قال: ﴿لقد سمع الله﴾ ثم قال: ﴿سنكتب﴾ وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلت: نكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهما في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ركبهه من العظائم وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول. وروي: أن رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حين سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وجحد ما قاله، فنزلت (4). ونحوه قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾ (5). ﴿ونقول﴾ لهم: ﴿نوقوا﴾ ومنتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: نوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ كما أنقمت المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحسن وثق. وقال أبو سفيان لحمزة

(3) سورة البقرة، الآية: 245.

(4) رواه الوحيد في أسباب النزول، ص 77.

(5) سورة المائدة، الآية: 64.

(6) ابن هشام في سيرته: 93/2.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (1403)، ومسلم بنحوه في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (2293).

(2) سورة الحديد، الآية: 7.

كُلِّ نَفْسٍ ذَلِيلَةٌ الْمَوْتُ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَمَنْ رُحِّقَ عَنِ الْكُفْرِ وَأَدْخِلَ الْحِكْمَةَ فَذَّ قَاذٌ وَمَا الْحَيَاةُ إِلَّا
إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ (١٨٥).

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿وإنما توفون
لجوركم﴾ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد
لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم
ومعاصيكم عقيب موتكم وإنما توفونها يوم قيامكم من
القبور.

فإن قلت: فهذا يومهم نفي ما يروى أن القبر روضة من
رياض الجنة أو حفرة من حفر النار! (1) قلت: كلمة التوفية
تزيل هذا الوهم (2)، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها
يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور.

الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزح وهو الجذب
بعجلة. ﴿فقد فاز﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول
لكل ما يفاض به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله
والعذاب السرمذ ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم
وفقنا لما نرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي ﷺ:
«من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتتركه منيته
وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن
يؤتى إليه» (3). وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله
وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يلبس به على
المستام ويغز حتى يشتريه ثم يتبين له فسادته وردائه،
والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما
هذا لمن أثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها
متاع، بلاغاً خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على
احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى
إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من
تصبيه الشدة بغتة فيكرها وتشمئز منها نفسه.

﴿لَتُؤْتِيَنَّكَ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِكَمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَتَسْتَمْتِعَ مِنَ الَّذِينَ
أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا أَذَى كَثِيراً
وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد
عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال الإنفاق
في سبيل الخير وما يقع فيها من الآفات.
وما يسمعون من أهل الكتاب: المطاعن في الدين

الحنيف، وصد من أراد الإيمان وتخطئة من آمن، وما كان
من كعب بن الأشرف من عجائه لرسول الله ﷺ وتحريض
المشركين، ومن فنحاص ومن بني قريظة والنضير: ﴿فإن
ذلك﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿من عزم الأمور﴾ من
معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو
مما عزم الله أن يكون، يعني: إن ذلك عزمة من عزمات الله
لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ النَّبِيِّينَ الْوَيْثَاقَ أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَلْمِزْنَاكُمْ
بِأَعْيُنِنَا وَتَقُولُوا إِنَّمَا أَكْرَمْنَاكُمْ بِالْحَدِيثِ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ
النَّبِيِّينَ الْوَيْثَاقَ أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَلْمِزْنَاكُمْ بِأَعْيُنِنَا وَتَقُولُوا
إِنَّمَا أَكْرَمْنَاكُمْ بِالْحَدِيثِ (١٨٧).

﴿وإذ أخذ الله﴾ وانكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب
﴿للتبين﴾ الضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب
واجتناب كتمانها كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه. وقيل
له: الله لتعلن ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ فنبذوا الميثاق،
وتكيد عليهم يعني: لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه.

والنبذ وراء الظهر: مثل في الطرح وترك الاعتداء،
ونقبضه: جعله نصب عينيه وإلقاء بين عينيه، وكفى به
لبليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس
وما علموه وأن لا يكتنوا منه شيئاً لغرض فاسد من
تسهيل على الظلمة؛ وتطبيب لنفوسهم، استجلاب
لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام نبيأ، أو لتقية مما لا دليل
عليه، ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه
غيرهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله الجم بلجام
من نار» (4). وعن طاووس أنه قال لو هب: إنني أرى الله
سوف يعنكب بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت
العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعنكبك. وعن محمد بن
كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه،
ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن
علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن
يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا (5). وقرئ:
لبيئته ولا يكتنونه بالياء لأنهم غيب، وبالتاء على حكاية
مخاطبتهم، كقوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب
لتفسدن﴾ (6).

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرُمُونَ بِمَا آتَوَا وَجِئُوا أَن يُحْسَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨).

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في كتمان العلم الحديث رقم: (2460).
(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه المعقيدة، فإنهم يجعلون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث =

(5) سند الفردوس - الثعالبي.

(6) سورة الإسراء، الآية: 4.

وباهر حكمته ﴿أولاي الألباب﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار أملاً عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها، متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رايت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: «يا عائشة هل لك أن تأتني لي الليلة في عبادة ربي». فقلت: يا رسول الله إنني لأحب قربك وأحب هواك، قد أننت لك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رايت دموعه قد بلت الأرض، فاتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرأه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً» ثم قال: «ومالي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»⁽⁴⁾. وروي: «ويل لمن لاکها بين فكيه ولم يتأملها»⁽⁵⁾. وعن علي رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: «إن في خلق السموات والأرض»⁽⁶⁾ وحكي: إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبدتها فتى من فتيانهم فلم تظله، فقالت له أمه: لعل فرطت فرطت منك في منتك. فقال: ما أنكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعل. قالت: فما أتيت إلا من ذاك.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وِكَمَا رَعَوْا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ رَتَقَ كُرُورًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ قَبِلْنَا عَذَابَ آثَارِ ﴿١٣١﴾

﴿الذين يذكرون الله﴾ نكراً دائماً، على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالنكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة، أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾. فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي ﷺ: «من أحب

﴿لا تحسبن﴾ خطاب لرسول الله ﷺ وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾، والثاني بمفازة، وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ: لا تحسبن فلا تحسبنهم بضم الباء على خطاب المؤمنين، ولا يحسبن فلا يحسبنهم بالياء وفتح الياء فيهما على أن الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني على أن الفعل للذين يفرحون والمفعول الأول محذوف على لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، فلا يحسبنهم تأكيد ومعنى ﴿بما أتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى: ﴿إنه كان وعده مائياً﴾⁽¹⁾، ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾⁽²⁾ ويدل عليه قراءة أبي: يفرحون بما فعلوا. وقرئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمداً إليه وفرحوا بما فعلوا، فاطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم⁽³⁾، أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب. ومعنى: يفرحون بما أتوا، بما أتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ويحبون أن يحموا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا: أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمداً إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم ووصلهم بذلك إلى إغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب يحب أن يحمده الناس، ويثنوا عليه بالديانة والزهد، وبما ليس فيه.

رَبِّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٢﴾

﴿وهو ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير فهو يقدر على عقابهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَكِبْرَةٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٣٣﴾

﴿آيات﴾ دلالة واضحة على الصانع وعظيم قدرته

(5) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب: التفسير،

باب: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الحديث رقم: (4569)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه الحديث رقم: (1785).

(6) أخرجه ابن أبي شيبة 302/10، كتاب: الدعاء، باب: في ثواب ذكر الله.

(1) سورة مريم، الآية: 61.

(2) سورة مريم، الآية: 27.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿لا تحسبن﴾ الذين يفرحون بما أتوا﴾ الحديث رقم: (4568)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (620).

(4) ابن سريويه في تفسيره.

فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق، على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم، كقوله: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تقدير نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل الحديث رقم: (4647).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 264/1.

(5) نكره ابن كثير في البداية والنهاية (237/1) ونكره الزبيدي في إتحاف المتقين (105/2).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تقدير نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل الحديث رقم: (4647).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 264/1.

(5) نكره ابن كثير في البداية والنهاية (237/1) ونكره الزبيدي في إتحاف المتقين (105/2).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

﴿من عند الله﴾ لَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ﴾⁽⁸⁾ و﴿لَا يَخْلِفُكُمْ﴾ في معنى لا يثيبهم غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضوره. وهذا تعليم من الله كيف يدعي وكيف يبتهل إليه ويتضرع، وتكرير ربنا من باب الإبتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة، وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولاً إليه بالعمل بالجهل والغباوة. وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم. إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

لَا يَغْرُوكَ فَتَلُبُّ الْيَأْسَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ (١٣٦).

﴿لَا يَغْرُوكَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب وبرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون. عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروي: أن ناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد.

فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن مدره القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكانه قيل: لا يغرنكم.

والثاني: أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾⁽²⁾، ﴿وَلَا تَكُونْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾⁽³⁾، ﴿وَلَا تَطْعَمِ الْمَكْدُوبِينَ﴾⁽⁴⁾، وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾⁽⁵⁾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾⁽⁶⁾، وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأن التقلب لو غرّه لاغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرئ: لا يغرنك بالنون الخفيفة.

مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْتَهُمْ حَمِيمٌ وَيَسُورُ الْإِهَادُ (١٣٧).

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل

وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك، إلا تراه كيف اتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول، وقوله: آمنا وهو التصديق، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك أو محمولاً على رسلك لأن الرسل محمولون ذلك فإنما عليه ما حمل. وقيل: على السنة رسلك، والموعود هو الثواب. وقيل: النصر على الأعداء.

فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد؟ قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو هو باب من اللجا إلى الله، والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التخلل لربهم، والتضرع إليه، واللجا الذي هو سيما العبودية.

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرَ أَنَّي بِمَعْصِمِكُمْ مِّنْ بَعْضِ الْفَالِئِينَ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٣٨).

يقال:

استجاب له واستجاب به فلم يستجبه عند ذلك مجيب ﴿إني لا أضيع﴾ قرئ: بالفتح على حذف الياء، وبالكسر على إرادة القول. وقرئ: لا أضيع بالتشديد. ﴿من ذكر واثني﴾ بيان لعامل ﴿بعضكم من بعض﴾، أي: يجمع تكرمك وإناكهم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله أو كانه منه لفرط اتصالكم واتحانكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

وروي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء⁽¹⁾ فنزلت. ﴿قالين هاجروا﴾ تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم. كانه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السننية الفاتقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطروا إلى الخروج من بيارهم التي ولدوا فيها ونشؤوا بما سامهم المشركون من الخسف. ﴿وآوذوا في سبيلي﴾ من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين. ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا وقرئ وقتلوا بالتشديد، وقتلوا وقتلوا على التقديم بالتخفيف والتشديد، وقتلوا وقتلوا على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وقتلوا وقتلوا على بناءهما للفاعل. ﴿ثواباً﴾ في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تثويباً.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث رقم: (3023).

(2) سورة هود، الآية: 42.

(3) سورة الانعام، الآية: 14.

(4) سورة القلم، الآية: 8.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 6.

(6) سورة النساء، الآية: 136.

يؤمن في معنى الجمع. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعده في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرْتينَ﴾⁽⁴⁾، ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلينَ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾⁽⁵⁾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ عمله في كل شيء فهو عالم بما يستوجهه بكل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآتٍ قريب بعد نكر الموعود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٣٥﴾.

﴿اصبروا﴾ على الدين وتكاليفه، و﴿صابروا﴾ أعداء الله في الجهاد. أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة باب من الصبر نكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشنته وصعوبته. و﴿ورابطوا﴾ واقبموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو وعدوكم﴾⁽⁶⁾. وعن النبي ﷺ: «من رباط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفلت عن صلاته إلا لحاجة»⁽⁷⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي ينكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»⁽⁸⁾.

سورة النساء

مدنية وهي مائة وستة وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ وَطَلَّقَ بَيْنَ زَوْجَيْهَا رَبُّكُمْ مِنْهَا رَجَالٌ كَثِيرٌ مِمَّا وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ مِنْهُ رِجَالَهُمْ إِنْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا بني آدم، ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم.

وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل لحكم أصبعه في اليم فليُنظر بـم يرجع»⁽¹⁾. و﴿وبئس المهاد﴾ وساء ما مهودا لأنفسهم.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذُوْا لَدُنِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٣٨﴾.

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي: وكنا إذا الجبار ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلًا وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف، والعامل اللام: ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً أو عطاءً ﴿من عند الله وما عند الله﴾ من الكثير الدائم. ﴿خير للأبرار﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش: نزلًا بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكنّ الذين اتقوا بالتشديد.

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَلْقِيَوْمٍ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾.

﴿وأن من أهل الكتاب﴾ عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل نجران، وأثنين وثلاثين، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى الله واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط وليس على بينه⁽²⁾. فنزلت، وبخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كقوله: ﴿وأن منكم لمن ليبطئن﴾⁽³⁾ ﴿وما أنزل إليكم﴾ من القرآن، ﴿وما أنزل إليهم﴾ من الكتابين، ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل يؤمن لأن من

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة الحديث رقم: (7126).

(2) الدارمي في أسباب النزول ص 81.

(3) سورة النساء، الآية: 72.

(4) سورة القصص، الآية: 54.

(5) سورة الحديد، الآية: 28.

(6) سورة الأنفال، الآية: 60.

(7) أحمد في المسند 440/5، ولفظه «أو ليلة»، ولم ينكر وقيامه»، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل الحديث رقم: (4915) وأخرجه ابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، الحديث رقم: (4623).

(8) ابن الجوزي في الموضوعات - ابن مردويه - الواحد في تفسيره. [زليعي 1/268].

شديدي الاتصال فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة فلم يجز ووجب تكرير العامل كقولك: مررت به وبزيد، وهذا غلامه وغلّام زيد. ألا ترى إلى صحة قولك: رايتك وزيداً، ومررت بزويد وعمر، ولما لم يقو الاتصال لانه لم يتكرر. وقد تحمل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها:

فما بك والأيام من عجب

والرفع على أنه مبتدأ خبره محنوف كأنه قيل: والأرحام، كذلك على معنى: والأرحام مما يتقي، أو والأرحام مما يتساءل به، والمعنى أنهم كانوا يقرون بأن لهم خالقاً وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم، فقيل لهم: اتقوا الله الذي خلقكم واتقوا الذي تتناشدون به واتقوا الأرحام فلا تقطعوا، أو واتقوا الله الذي تتعاطفون بإنكاره وبإنكار الرحم. وقد آن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه أن صلتها منه بمكان كما قال ﴿إِنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾. وعن الحسن: إذا سالك بالله فاعطه، وإذا سالك بالرحم فاعطه. وللرحم حجة عند العرش. ومعناه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاه الواصل بشت به وكلمته، وإذا أتاه القاطع احتجبت منه. وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام: «تخبروا لنطفكم»⁽²⁾. فقال: يقول لأولادكم، وذلك أن يضع ولده في الحلال، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾⁽³⁾. وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال فلا يقطع رحمه ولا نسبه؛ فإنما للعاهر الحجر. ثم يختار الصحة ويجتنب الدعوة ولا يضعه موضع سوء يتبعه شهوته وهواه بغير هدى من الله.

وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَكُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا لَهَا بَطْلِيًّا وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي

أَمْوَالِكُمْ إِنَّكَ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ﴿٤٧﴾

اليتامى: الذين مات أبأؤهم فانفردوا عنهم، واليتيم الانفراد ومنه الرملة اليتيمة والدرّة اليتيمة. وقيل: اليتم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات.

فإن قلت: كيف جمع اليتيم وهو فعيل كمريض على يتامى؟

قلت: فيه وجهان: أن يجمع على يتامى كاسرى لأن اليتم من وادي الأوقات والأوجاع ثم يجمع فعلى على فعالي كاسارى، ويجوز أن يجمع على فعائل لجري اليتيم مجرى

فإن قلت⁽¹⁾: علام عطف قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يعطف على محنوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها؛ وإنما حذف دلالة المعنى عليه. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها. ﴿وبث منها﴾ نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها. والثاني: أن يعطف على خلقكم، ويكون الخطاب في يا أيها الناس للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، والمعنى: خلقكم من نفس آدم لأنهم من جملة الجنس المفرع منه وخلف منها أمكم حواء، ﴿وبث منهما رجلاً كثيراً ونساء﴾ غيركم من الأمم الفائتة للحصر.

فإن قلت: الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة.

وقرىء: وخالق منها زوجها وبث منهما بلفظ اسم الفاعل وهو خبر مبتدأ محنوف تقديره وهو خالق. ﴿تساءلون به﴾ تتساءلون به، فادغمت التاء في السين. وقرىء: تتساءلون بطرح التاء الثانية، أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم فيقول: بالله وبالرحم أفعل كذا، على سبيل الاستعطف، وأنشكك الله والرحم، أو تسألون غيركم بالله والرحم. فقيل: تتعاطفون موضع تتعاطفون للجمع، كقولك: رأيت الهلال وتراءبناه، وتنصره قراءة من قرأ تسلون به مهموز أو غير مهموز. وقرىء: والأرحام بالحركات الثلاث، فالنصب على وجهين: إما على واتقوا الله والأرحام، أو أن يعطف على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزويد وعمراً. وينصره قراءة ابن مسعود: تسألون به وبالأرحام، والجرّ على عطف الظاهر على المضمّر وليس بسديد لأنّ الضمير المتصل متصل كاسمه والجار والمجرور كشيء واحد فكأنما في قولك: مررت به وزيد، وهذا غلامه وزيد،

(1) قال أحمد: وإنما قدر المحنوف في الوجه الأوّل، حيث جعل الخطاب عاماً في الجنس؛ لأنه لولا التقدير، لكان قوله وبث منها تكراراً لقوله: خلقكم إذ مؤداهما واحد، وليس على سبيل بيان الأوّل؛ لأنه معطوف عليه حينئذ، وأما هو معطوف على المقتر، فذاك المقتر واقع صفة مبنية، والمعطوف عليه داخل في حكم البيان، فاستقام، وأما الوجه الثاني: فالتكرار فيه ليس بلازم، إذ المخاطب بقوله: ﴿خلقكم﴾ الذين بعث إليهم النبي عليه الصلاة =

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الاكفاء الحديث رقم: (1968)، والحاكم في المستدرک 163/2، والدارقطني في كتاب: النكاح، باب: المهر الحديث رقم: (198).

(3) سورة الإسراء، الآية: 23.

فترافعا إلى النبي ﷺ، فنزلت. فلما سمعها العم قال: أظننا الله وأظننا الرسول نعود بالله من الحوب الكبير، فندفع ماله إليه، فقال النبي ﷺ: «ومن يوق شح نفسه ويضع ربه هكذا فإنه يحل داره؛ يعني: جنته. فلما قبض الغفوا ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر ثبت الأجر وبقي الوزر». قالوا: يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر، كيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: «ثبت أجر الغلام، وبقي الوزر على والده»⁽³⁾. ﴿ولا تتبيلوا الخبيث بالطيب﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم، وما أبيع لكم من المكاسب ورزق الله المبتوث في الأرض فتأكلوه مكانه، أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتدورع منها. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز منه التعجل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستئثار، قال ذو الرمة:

فياكرم السكن الذين تحملوا عن الدار والمستخلف المتبدل
أراد: ويا لؤم ما استخلفته الدار واستبدلته. وقيل: هو أن يعطي ربيئاً ويأخذ جيداً. وعن السدي: أن يجعل شاةً مهزولة مكان سميئة، وهذا ليس بتبدل وإنما هو تبديل إلا أن يكارم صديقاً له فيأخذ منه عجفاء مكان سميئة من مال الصبي. ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ولا تنفقوها معها، وحققتها⁽⁴⁾ ولا تضموها إليها في الإنفاق حتى

الأسماء نحو صاحب وفارس، فيقال: يتأثم ثم يتأثم على القلب، وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء إلا أنه قد غلب أن يسوما به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبا كفاةً يكفلون غيرهم ويقومون عليهم زال عنهم هذا الاسم. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: يتيم أبي طالب، إما على القياس وإما حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضعاً له. وأما قوله عليه السلام: «لا يتم بعد الحلم»⁽¹⁾، فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة، يعني: أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وأتوا اليتامى أموالهم﴾؟ قلت⁽²⁾: إما أن يراد باليتامى الصغار، وبإيتائهم الأموال أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاية السوء وقضاته ويكفوا عنها أيبيهم الخاطفة حتى ناتي اليتامى إذا بلغوا سالمةً غير محنوفة، وإما أن يراد الكبار تسميةً لهم يتامى على القياس، أو لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر كما تسمى الناقة عسراء بعد وضعها، على أن فيه إشارة إلى أن لا يؤخر نفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ ولا يملطوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار. وقيل: هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ المال فمتعه عمه

(1) نكره الهيمى في «مجمع الزوائد» (226/4).

(2) قال أحمد: والوجه الأول قوي بقوله بعد آيات، وابتلوا اليتامى، حتى إذا بلغوا النكاح، فإن أنستهم منهم رشداً، فأنفوا إليهم أموالهم، بل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم، والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ، والرشد، ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى، ولا تتبيلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، فهذا كله تأييد للوصي ما دام المال بيده، واليتيم في حجره، وإما على الوجه الآخر، فيكون مؤدى الآيتين واحداً، وهو الأمر بالإيتاء حقيقة، ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالمجملة، والثانية كالمبينة، لشرط الإيتاء من البلوغ، وإيناس الرشد، والله أعلم.

(3) أخرجه الحكيم الترمذي في نوارد الأصول وإسحاق بن راهويه [الزليعي 1/273].

(4) قال أحمد: أهل البيان يقولون المنهي متى كان درجات، فطريق البلاغة النهي عن أناسها تنبيهاً على الأعلى، كقوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾، وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية، وجته ببادئ الرأي مخالفاً لها، إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهي أن يأكله، وهو غني عنه، وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه، فكان مقتضى القانون المنكدر، أن ينهي عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه، حتى يلزم نهى الغني عنه من طريق الأولى، وحينئذٍ، فلا بد من تمهيد أمر، يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهي في هذه الآية، فنقول: أبلغ الكلام ما تعدت وجه إفادته، ولا شك أن النهي عن الأدنى، وإن أفاد النهي عن الأعلى، إلا إن للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى خلية لا تؤخذ من النهي عن الأدنى، وذلك أن المنهي كلما كان أقرب كانت النفس عنه أنفر،

= والداعية إليه أبعد، ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغني عنه، أقبح صور الأكل، فخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء، داعاه ذلك إلى الإجماع عن كل ماله مطلقاً، ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل، لو خصص النهي بالكل مع الفقر، إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الاجتناب، كإعتابها عليه في الصورة الأولى، ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل، مع أن تناول مال اليتيم على أي وجه كان منهي عنه كان ذلك بالإخبار، أو بالتباس، أو ببئله في لذة النكاح مثلاً، أو غير ذلك، إلا أن حكمة تخصيص النهي بالأكل، أن العرب كانت تتنم بالإكثار من الأكل، وتعد البطنة من البهيمية، وتعيب على من اتخذها بينه، ولا كذلك سائر الملاء، فإنهم ربما يتفاحرون بالإكثار من النكاح، ويعتونه من زينة الدنيا، فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاء، خص النهي به حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى سائر الملاء، جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملاء، أو غيرها أكلاً، أو غيره، ومثل هذه الآية في تخصيص النهي، بما هو أعلى قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾، فخص هذه الصورة؛ لأن الطبع على الانتهاء عنها أعون، ويقابل هذا النظر في النهي نظر آخر في الأمر، وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى، وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التنزيه، إلا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة، وإذا حضر القسمة ﴿أولوا القربى واليتامى والمساكين، فأزقوهم﴾ الآية، كيف خص صورة حضورهم، وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم، وذلك أن الله تعالى علم شح النفس الأموال، =

فَقِيلَ: إن خَفْتُم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حل لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرّمات. وقيل: كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال أو يكون وليها فيتزوجها ضناً بها عن غيره، فربما اجتمعت عنده عشر منهنّ فيخاف لضعفهنّ وفقد من يغضب لهنّ أن يظلمهنّ حقوقهنّ، ويفرط فيما يجب لهنّ. فقيل لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في يتامى النساء فانكحوا من غيرهنّ ما طاب لكم. ويقال للإناث: اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة على القلب، كما قيل: أيامى والأصل أيّام وميثام. وقرأ النخعي: تقسطوا بفتح التاء، على أن لا مزيدة مثلها في لثلا يعلم، يريد: وإن خفتم أن تجوروا ﴿ها طاب﴾ ما حل ﴿لكم من النساء﴾ لأنّ منهنّ ما حرّم كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ما ذهباً إلى الصفة، ولأنّ الإناث من العقلاء يجري مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾⁽⁴⁾ ﴿مفنى وثلاث ورباع﴾ معدولة عن اعداد مكرّرة؛ وأما منعت الصرف لما فيها من العبلين. عدلها عن صيفها، وعدلها عن تكررها. وهي نكرات يعرفن بلام التعريف، تقول: فلان ينكح المثني والثلاث والرابع، ومحلّهنّ النصب على الحال. مما طاب تقديره فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً.

فإن قلت: الذي اطلق للنكاح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير في مثني وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل نكاح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي اطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم، درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أقررت لم يكن له معنى.

لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال.

فإن قلت: قد حرّم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم فلم ورد النهي عن أكله معها؟ قلت: لأنهم إذا كانوا مستغنيين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذمّ أحق، ولأنهم كانوا يفعلون كذلك، فنعى عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزر لهم.

والحوب: الذنب العظيم، ومنه قوله عليه السلام: «إن طلاق أم أيوب لحوب»⁽¹⁾، فكأنه قيل: إنّه كان ذنباً عظيماً كبيراً. وقرأ الحسن: حوباً بفتح الحاء، وهو مصدر حاب حوباً. وقرئ: حاباً، ونظير الحوب والحاب القول والقال، والطرء والطرء.

وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتيم فانكحوا ما طاب لكم من النساء ممنون وتلك رزق وإن خفتم ألا مملوا فصيحة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدقّ ألا تمولوا ﴿٣﴾.

ولما نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى، وأخذوا يتحرّجون من ولايتهم، وكان الرجل منهم ربماً كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهنّ ولا يعدل بينهنّ، فقيل لهم: إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرّجتم منها فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد المنكوحات لأنّ من تحرّج من نذب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرّج ولا تائب، لأنّه إنّما يجب أن يتحرّج من الذنب ويتاب عنه لقبحه، والقبح قائم في كل ذنب. وقيل⁽²⁾: كانوا لا يتحرّجون من الزنا وهم يتحرّجون من ولاية اليتامى.

فمن تمّ يقولون لا تفيد التوبة عن بعض الذنوب، والإصرار على بعضها؛ لأنه بوحدة من الكبائر ساوى الكافر في الخلود في العذاب، ولا يفيد توجيده، ولا شيء من أعماله هذا هو معتقدهم الفاسد، الذي يروم الزمخشري تفسير الآية عليه فاحذرهُ أمّا أهل السنة، فيقولون إذا تاب العبد من بعض الذنوب، كان الخطاب بوجود التوبة من باقيها متوجهاً عليه، وكأنه قام ببعض الواجبات، وترك القيام ببعضها، فإفادته التوبة محو المتوب عنه بإذن الله، وعده وهو في العهد، فيما لم يتب عنه، فإن كان تفسير الآية على أنهم خوطبوا بالتحرّج في حقوق النساء، والتوبة من الجور عليهنّ، كما تابوا عن الحيف على اليتامى، فالامر في ذلك منزل على ما بيانه من قواعد السنة، والله ولي التوفيق.

(3) قال أحمد: وهذا التأويل الذي أخرجه جدير بالتقدم، وهو الاظهر، وتكون الآية معه لبيان حكم اليتامى، وتحذيراً من التورط في الجور عليهنّ، وأمرأ بالاحتياط وفي غيرهنّ متسع إلى الأربع، وأصدق شاهد على أنه هو المراد قوله تعالى: ﴿وأتوا النساء صفتاهنّ نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾.

(4) سورة النساء، الآية: 3.

فلو أمر بإسعاف الاقارب، واليتامى من المال الموروث، ولم يذكر حالة حضورهم القسمة لم تكن الانفس بالمنبذة إلى هذا المعروف، كانبعاثها مع حضورهم بخلاف ما إذا حضروا، فإن النفس يرق طبعها، وتنفّر من أن تأخذ المال الجزل، ونو الرحم حاضر محروم، ولا يسعف، ولا يساعد، فإذا أمرت في هذه الحالة بالإسعاف هان عليها امتثال الامر، واتلافها على امتثال الطبع، ثم تدربت بذلك على إسعاف ذي الرحم مطلقاً حضر، أو غاب، فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يلقى، إلا في الكتاب العزيز، ولا يعثر عليه إلا الحائق لفظن المؤيد بالتوفيق، نسأل الله أن يسلك بنا في هذا النمط، فخذ هذا القانون عمدة، وهو أن النهي إن خصّ الأدنى، فلغاثة التنبيه على الأعلى، وإن خصّ الأعلى، فلغاثة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الاقبح، ومثل هذا النظر في جانب الامر، والله الموفق.

(1) أخرجه أبو داود في المرسليل، باب: في الطلاق الحديث رقم: (233)، والحاكم في المستدرک 302/2.

(2) قال أحمد: قد ثبت أنّ قاعدة القدرية، وعقيبتهم أن الكبيرة الواحدة توجب خلود العبد في العذاب، وإن كان موحداً ما لم يتب عنها، =

كلام الشافعي» شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب فسلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

فإن قلت: كيف يقل: عيال من تسري وفي السراري نحو ما في المهاجر! قلت: ليس كذلك لأن الغرض بالترؤج التوالد والتناسل بخلاف التسري، ولذلك جاز العزل عن السراري بغير إنهن، فكان التسري مظنة لقلة الولد بالإضافة إلى التزوج كترؤج الواحدة بالإضافة إلى ترؤج الأربع. وقرأ طابوس: أن لا تعيوا، من أعال الرجل إذا كثرت عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي رحمه الله من حيث المعنى الذي قصده.

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ مِثْلَهُ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنِ نَيْوِ مَيْتِهِ قَسَا
كَلْمُهُ مَيْتًا مَرِيئًا (٤).

«صدقاتهن» مهورهن، وفي حديث شريح: قضى ابن عباس لها بالصدقة. وقرئ: صدقاتهن بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهن؛ وصدقاتهن بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة. وقرئ: صدقاتهن بضم الصاد والدال على التوحيد، وهو تثقيب صدقة كقولك: في ظلمة ظلمة. «نحلة» من نحله كذا، إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلةً ونحلاً، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: إني كنت نحلتك جداد عشرين وسقاً بالعالية^(٢). وانتصابها على المصدر لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء^(٣)، فكأنه قيل: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلةً، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم، أو على الحال من المخاطبين، أي: آتوهن صدقاتهن ناحلين، طيببي النفوس بالإعطاء، أو من الصدقات أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس وقيل: النحلة الملة ونحلة الإسلام خير النحل، وفلان ينتحل كذا أي: يدين به. والمعنى: آتوهن مهورهن ديانة على أنها مفعول لها، ويجوز أن يكون حالاً من الصدقات، أي: ديناً من الله شرعه وفرضه، والخطاب للزوج، وقيل: للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وكانوا يقولون: هنيئاً لك النافجة، لمن تولد له بنت، يعنون تأخذ مهرها فتفتج به مالك، أي: تعظمه. الضمير في منه جار مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: عن شيء من ذلك، كما قال الله تعالى:

فإن قلت: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الذي حنوته لك، ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع. وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو وتحريره أن الواو بلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرلوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شأواً مختلفين في تلك الأعداد، وإن شأواً متفقين فيها محظوراً عليهم ما وراء ذلك. وقرأ إبراهيم: وثلاث وربيع، على القصر من ثلاث ورباع. «فإن خفتم إلا تعيوا» بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها «فولحدة» فالزمو أو فاختراروا واحدةً ونروا الجمع راساً فإن الأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتم العدل فعليكم به. وقرئ: فولحدة بالرفع على فالمقنع واحدة، أو فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة. «أو ما ملكت إيمانكم» سوى في السهولة واليسر بين الحرّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد. ولعمري إنهن أقل تبعاً وأقصر شغباً وأخف مؤنةً من المهاجر لا عليك أكثرت منهن أم أقلت عدلت بينهن في القسم أم لم تعدل عزلت عنهن أم لم تعزل. وقرأ ابن أبي عبله: من ملكت. «نلك» إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري «إني إلا تعيوا» أقرب من أن لا تعيوا، من قولهم: عال الميزان عولا إذا مال، وميزان فلان عائل، وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروي: أن أعرابياً حكم عليه حاكم، فقال له: آتعول علي. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «أن لا تعيوا، أن لا تجوروا». والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنه فسّر: أن لا تعيوا، أن لا تكثر عيالك، فوجه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم: ماتهم يموتهم، إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحال والرزق الطيب، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وأن لا يظنّ به تحريف تعيوا إلى تعيوا. فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من فمي أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً^(١). وكفى بكتابتنا المترجم بكتاب «شافي العي» من

كذلك أفراد الصداق المقتر، فإنه ليس بأصل الكلام بل الأصل الجمع، وأما الأفراد، فقد يأتي في مثله على سبيل الاختصار استغناء عن الجمع بالإضافة، ولا يرد أنهم قد راعوا ما ليس بأصل في قوله:

بدالي أني لست متروك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً
لأن دخول الباء، وإن لم يكن أصلاً، إلا أنها قد توطنت بهذا الموضوع، وكثر حلولها فيه، فصارت كان الأصل دخولها في الخبر، والله أعلم، والأمر في ذلك القريب.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8345).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الاقضية، باب: ما لا يجوز من النحل الحديث رقم: (40).

(٣) قال احمد: هذا الفصل بجملته حسن جداً غير أن في حمله تنكير الضمير في منه على الصداق، ثم تنظيره نلك بقوله، فاصبق نظراً، ونلك أن المراعي، ثم الأصل، وهو: عدم دخول الفاء والجزم، وتقدير ما هو الأصل، وإعطاؤه حكم الموجود ليس ببدع، ولا =

الواحد فيكون متناولاً بعبضه ولو أنث لتناول ظاهره هبة الصداق كله لأن بعض الصدقات واحدة منها فصاعداً.

الهنيء والمريء: صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنفيس فيه. وقيل: الهنيء ما يلذه الأكل، والمريء ما يحمّد عاقبته. وقيل: هو ما ينساغ في مجراه. وقيل لمدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة: المريء، لمروء الطعام فيه وهو انسياغه وهما وصف للمصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير أي: كلوه وهو هنيء مريء. وقد يوقف على فكلوه ويبتدأ هنيئاً مريئاً على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين، كأنه قيل: هنا مرة، وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعه.

وَلَا تُؤْتُوا أَسْتَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَمَعَلَّ اللَّهُ لَكُمْ إِنَّمَا وَارِثُكُمْ فِيهَا وَأَكْثَرُكُمْ وَوَرُثًا لَكُمْ قَوْلًا مَّزْمُومًا ﴿٥﴾.

﴿السفهاء﴾ المبدرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا يدي لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها، والخطاب للأولياء. (4) وأضاف الأموال إليهم لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم، كما قال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ (5) ﴿فمما ملكت أيمنكم من فتياتكم المؤمنات﴾ (6) والدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامي قوله: ﴿وارثوهم فيها واكسومهم﴾ ﴿جعل الله لكم قياماً﴾ أي: تقومون بها وتتعتشون ولو ضيعتموها لضعتم، فكأنها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرئ: قياماً بمعنى قياماً، كما جاء عوداً بمعنى عياداً. وقرأ عبد الله بن عمر: قواماً بالواو، وقوام الشيء ما يقام به، كقولك: هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان وكانت له بضاعة يلقبها: لولاها لتمنل بي بنو العباس. وعن غيره: وقيل له: إنها تدنيك من الدنيا، لئن أنتنتي من الدنيا لقد صابتني عنها. وكانوا يقولون: أتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما ياكل دينه. وربما راوا رجلاً في جنازة فقالوا له: اذهب إلى مكانك. ﴿وارثوهم فيها﴾ واجعلوها مكاناً لورثهم بأن تتجروا فيها وتترجوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يكلها الإنفاق. وقيل: هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء قريب أو أجنبي رجل أو امرأة يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده. ﴿قولا معروفا﴾ قال ابن جريج: عدّة جميلة إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وعن عطاء: إذا رحبت أعطيتك، وإن

﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلك﴾ (1) بعد نكر الشهوات أو من الحجج المسمومة من أفواه العرب ما روي عن روية أنه قيل له: في قوله:

كأنه في الجلد توليع البهق

فقال: أردت كأن ذلك، أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق لأنك لو قلت: وأتوا النساء صداقهن، لم تخل بالمعنى فهو نحو قوله: ﴿فأصنق وأكن من الصالحين﴾. كأنه قيل: أصنق. و ﴿نفسا﴾ تمييز، وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه، والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجاقت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات مما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فكلوه﴾ فأنفقوه. قالوا: فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة علم أنها لم تطب عنه نفساً. وعن الشعبي أن رجلاً أتى مع امرأته شريحاً في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع، فقال شريح: رد عليها. فقال الرجل: ليس قد قال الله تعالى: ﴿فإن طبن لكم﴾ قال: لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه. وعنه: أقبليها فيما وهبت ولا أقبيله لأنهن يخذعن.

وحكي: أن رجلاً من آل أبي معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقاً كان لها عليه، فلبث شهراً ثم طلقها، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان. فقال الرجل: أعطتني طيبة بها نفسها. فقال عبد الملك: فأين الآية التي بعدها، ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، اردد عليها. وعن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى قضاته: إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فنلك لها (2). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: إذا جادت لزوجها بالعطية طائعة غير مكرهة لا يقضي به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله به في الآخرة (3). وروي: أن ناساً كانوا يثأمون أن يرجع أحد منهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فقال الله تعالى: إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة، فكلوه سائغاً هنيئاً، في الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بني الشرط على طيب النفس. فقيل: فإن طبن، ولم يقل فإن وهبن أو سمحن، إعلماً بأن المراعى هو تجاقي نفسها عن الموهوب طيبة. وقيل: فإن طبن لكم عن شيء منه، ولم يقل فإن طبن لكم عنها، بعثاً لهن على تقليل الموهوب. وعن الليث بن سعد: لا يجوز تبرعها إلا باليسير، وعن الأوزاعي: لا يجوز تبرعها ما لم تلد أو تقم في بيت زوجها سنة. ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق

(1) سورة آل عمران، الآية: 15.

(2) عبد الرزاق في المصنف، 115/9 الحديث رقم: (16562)، وابن أبي شيبة 191/6، كتاب: البيوع والاقضية، باب: في المرأة تعطي زوجها.

(3) الثعلبي والواحد.

(4) قال أحمد: ويؤيد هذا المعنى أنه لما أمر بإسعاف نوي القربى، على سبيل المواساة قال: وارثوهم منه؛ لأن المدفوع إليهم من صلب المال، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 29.

(6) سورة النساء، الآية: 25.

غنمت في غزاتي جعلت لك حظاً. وقيل: إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل: عافانا الله وإياك بارك الله فيك. وكل ما سكنت إليه النفس واحبته لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل فهو معروف، وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر.

وَأَبْتَلُوا الَّذِينَ سَخَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْتِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

﴿وابتلوا اليتامى﴾⁽¹⁾ واختبروا عقولهم ونوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ حتى إذا تبينتم منهم رشداً أي: هدايةً نفعتهم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ.

وبلوغ النكاح: أن يحتلم لأنه يصلح للنكاح عنده ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد والتناسل.

والإيناس: الاستيضاح فاستعير للتبيين. واختلف في الابتلاء والرشد، فالابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه: أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه، والرشد التهذي إلى وجوه التصرف، وعن ابن عباس: الصلاح في العقل والحفظ للمال. وعند مالك والشافعي: الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والإعطاء ويتبصر مخايله وميله إلى الدين، والرشد الصلاح في الدين

لأنّ الفسق مفسدة للمال.

فإن قلت: فإن لم يؤنس منه رشد إلى حدّ البلوغ؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأنّ مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانين سنة، فإذا زابت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغيير أحوال الإنسان؛ لقوله عليه السلام: «مروم بالصلاة لسبع»⁽²⁾. دفع إليه ماله لو نس منه الرشد أو لم يؤنس. وعند أصحابه لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد.

فإن قلت: ما معنى تنكير الرشد؟ قلت: معناه نوعاً من الرشد وهو الرشد في التصرف والتجارة أو طرفاً من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد.

فإن قلت⁽³⁾: كيف نظم هذا الكلام؟ قلت: ما بعد حتى إلى فادفعوا إليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهي حتى التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

ما زالت القتلى تمج بماءها ببنجلة حتى ماء بنجلة أشكل والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأنّ إذا متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأوّل الذي هو إذا بلغوا النكاح، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم.

وقرأ ابن مسعود: فإن أحسيتهم، بمعنى أحسستم. قال:

أحسس به فهن إليه شوس

وقرئ رشداً بفتححتين ورشداً بضمحتين. ﴿إسرافاً

(1) قال أحمد: الابتلاء على هذا الوجه مذهب مالك رضي الله عنه، غير أنه لا يكون عنده إلا بعد البلوغ، ولا يدفع إليه من ماله شيء قبله، وكذلك أحد قولي الشافعي رضي الله عنه، وقوله الآخر كمدّهب أبي حنيفة غير أنّ عنه خلافاً في صورته، قبل البلوغ على وجهين، أحدهما: أن يسلم إليه المال، ويباشر العقود بنفسه، كالبالغ، والأخر أن يكون وظيفته أن يسارم، وتقريب الثمن، إذا بلغ الأمر إلى العقد بشاره الوليّ دونه وسلم الصبيّ الثمن، فأما الرشد، فالمعتبر عند مالك رضي الله عنه فيه، هو أن يحرز ماله وينميه، وإن كان فاسقاً في حاله، وعند الشافعي المعتبر صلاح الدين، والمال جميعاً، وغرضنا الآن أن نبين وجه تنزيل مذهب مالك في هذه الآية، والله المستعان، فأما منعه من الإيتاء قبل البلوغ، وإن كان ظاهر الآية، أنّ الإيتاء قبله من حيث جعل البلوغ، وإيناس الرشد غاية للإيتاء، والغاية متأخرة عن المعنى ضرورة، فيتبين وقوع الإيتاء قبل، ولهذا النكتة أثبت أبو حنيفة قبل البلوغ، والله أعلم، فعلى جعل المجموع من البلوغ، وإيناس الرشد هو الغاية حينئذ يلزم وقوع الابتلاء قبلهما أعني المجموع، وإن وقع بعد أحدهما، وهو البلوغ؛ لأنّ المجموع من اثنين، فصاعداً لا يتحقق إلا بوجود كل واحد من مفرديه، ويحقق هذا التنزيل أنك لو قلت، وابتلوا اليتامى بعد البلوغ، حتى إذا اجتمع الأمران، وتضاماً البلوغ والرشد، فادفعوا إليهم أموالهم، لاستقام الكلام، ولكان البلوغ قبل الابتلاء، وإن كان الابتلاء مفياً بالأمرين، واقعاً قبل مجموعهما، ونظير هذا النظر توجيه مذهب أبي حنيفة في قوله، إنّ فيئة المولى إنما تعتبر في أجل الإيتاء، لا بعده، وتنزله على قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر، =

= فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم﴾ فجذب به عهداً يتضح لك تناسب النظرين، والله أعلم، وأما اقتضاره رضي الله عنه بالرشد على المال، فإن كان المولى عليه فاسق الحال، فوجه استخراجه من الآية أنه علق إيناس الرشد فيها بالابتلاء، يدفع مال إليهم ينظر تصرفهم فيه، فلو كان المراد صلاح الدين فقط لم يقف الاختيار في ذلك، على دفع المال إليهم، إذ الظاهر من المصلح لدينه أنه لا يتفاوت حاله في حالتي، عنده ويسره، ولو كان المراد صلاح الدين، والمال معاً، كما يقول الشافعي رضي الله عنه، لم يكن صلاح الدين موقوفاً على الاختيار، كما مرّ آنفاً وأيضاً، فالرشد في الدين والمال جميعاً، هو: الغاية في الرشد، وليس الجمع بينهما بقيد، وتنكير الرشد في الآية يابى ذلك إذ الظاهر: فإن آنستم منهم رشداً ما، فبادروا بتسليم المال إليهم غير منتظرين بلوغ الغاية فيه، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة الحديث رقم: (494)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده الحديث رقم: (495)، والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الصبي بالصلاة الحديث رقم: (407)، والدارقطني في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها.

(3) قال أحمد رحمه الله: هو يروم بهذا التقدير تنزيل مذهب أبي حنيفة في سبق الابتلاء، على البلوغ على مقتضى الآية، وقد أسلفنا وجه تنزيل مذهب مالك عليها باظهر وجه، وأقربه، والحاصل أنّ مقتضى النظر إلى المجموع من حيث هو، ومقتضى مذهب أبي حنيفة النظر إلى المفردين، والظاهر اعتبار المجموع، فإن العطف بالفاء يقتضيه، والله أعلم.

الْوَالِدَانَ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾.

﴿الاقربون﴾ هم المتوارثون من نوي القربان نون غيرهم. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل، و ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على الاختصاص بمعنى: أعني نصيباً مفروضاً مقطوعاً واجباً لا بد لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد، كقوله: ﴿فريضة من الله﴾. كأنه قيل: قسمة مفروضة. روي: أَنَّ أوس بن الصامت الأنصاري ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابناً عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرمح و زاد عن الحوزة وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيف فشكت إليه، فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله». فنزلت فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين» فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ (5). فاعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم (6).

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبْيَ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾.

﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة التركة ﴿أولوا القربى﴾ ممن لا يرث ﴿فأرزقوهم منه﴾ الضمير لما ترك الولدان والاقربون وهو أمر على النذب. قال الحسن: كان المؤمنون يفعلون ذلك، إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع، فحضهم الله على ذلك تاديباً من غير أن يكون فريضة. قالوا: ولو كان فريضة لضرب له حدٌ ومقدار كما لغيره من الحقوق. وروي: أَنَّ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قسم ميراث أبيه وعاشة رضي الله عنها حية، فلم يدع في الدار أحد إلا أعطاه، وتلا هذه الآية. وقيل: هو على الوجوب. وقيل: هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية. وعن سعيد بن جبيرة أَنَّ ناساً يقولون نسخت، ووالله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس.

والقول المعروف: أن يلطفوا لهم القول ويقولوا: خنوا برك الله عليكم، ويعتدروا إليهم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يستكثروه ولا يمتنوا عليهم. وعن الحسن والنخعي: أدر كنا الناس وهم يقسمون على القربان والمساكين واليتامى من العين - يعنيان الورق والذهب - فإذا قسم الورق والذهب

ويداراً مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع ويقتنع بما رزقه الله من الغني إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله، والفقير يأكل قوتاً مقدراً محتاطاً في تقديره على وجه الأجرة أو استقراضاً على ما في ذلك من الاختلاف، ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها. وعن النبي ﷺ: أَنَّ رجلاً قال له: إن في حجرٍ يتيماً، فأأكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير متأكل مالا ولا واق مالك بماله». فقال: فأضربه؟ قال: «مما كنت ضارباً منه ولدك» (1). وعن ابن عباس: أَنَّ ولي اليتيم قال له: أقترب من لبن إبله؟ قال: «إن كنت تبغي ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم وريها، فأشرب غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب» (2). وعنه: يضرب بيده مع أيديهم فليأكل بالمعروف ولا يلبس عمامةً فما فوقها. وعن إبراهيم: لا يلبس الكتان والحلل ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة. وعن محمد بن كعب: يتقرم تقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه. وعن الشعبي: يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه. وعنه: كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضي. وعن مجاهد: يستسلف فإذا أيسر أئى. وعن سعيد بن جبيرة: إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر وليس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو في حل. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم إن استغنيت استعفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت (3). واستعف (4) أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. ﴿فأشهدوا عليهم﴾ بأنهم تسلموا وقبضوها وبرثت عنها ذممكم، وذلك أبعد من التخاسم والتجاهد، وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنه إذا لم يشهد فادعى عليه صدق مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعي، لا يصنق إلا بالبينة. فكان في الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضي إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة. ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي: كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض أو محاسباً، فعليكم بالتصديق وإياكم والتكاذب.

لِيَجْزِيَ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

(3) ابن أبي شيبة 324/12، كتاب الجهاد، باب: عدل الوالي..

(4) قال أحمد: في هذا إشارة إلى أنه من استتعل بمعنى الطلب، وليس كذلك، فإن استتعل الطلبية متعنية، وهذه قاصرة، والظاهر أنه مما جاء فيه فعل، واستتعل بمعنى، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 11.

(6) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 83.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء فيما لولي اليتيم... الحديث رقم: (2872)، والنسائي في كتاب الوصايا، باب: ما للوصي من مال اليتيم الحديث رقم: (3668)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً﴾ الحديث رقم: (2718)، وأحمد في المسند 290/6، وأخرجه ابن حبان في كتاب الرضاع، باب: للنفقة الحديث رقم: (4244).

(2) الموطأ برواية محمد بن الحسن بن 331، الحديث رقم: (938).

وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولاً معروفاً. كانوا يقولون لهم: بورك فيكم.

وَلَيْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً يُصَلُّوا عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ فَلَيَسِفُوا اللَّهَ وَيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٤٦﴾

﴿لو﴾ مع ما في حيزه صلة للذين⁽¹⁾، والمراد بهم الأوصياء، أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حوزهم من اليتامى ويشفقوا عليهم خوفهم على نريتهم لو تركوهم ضعافاً وشفقتهم عليهم، وأن يفتروا ذلك في أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة. ويجوز أن يكون المعنى: وليخشوا على اليتامى من الضياع. وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون: إن نريك لا يغنون عنك من الله شيئاً فقدم مالك فيستفرقه بالوصايا. فأمروا بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا، ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين، وأن يتصوروا أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة.

فإن قلت: ما معنى وقوع لو تركوا وجوابه صلة للذين؟ قلت: معناه: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارقوا أن يتركوا خلفهم نريةً ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم. كما قال القائل:

لقد زاده الحياة إلي حباً بناتي انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي وإن يشرين رنقاً بعد صافي
وقرى: ضعفاء وضعافى وضعافى نحو سكارى
وسكارى. والقول السيد من الأوصياء أن لا يؤنوا اليتامى
ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالألب الحسن والترحيب
ويدعوهم بيا بني ويا ولدي، ومن الجالسين إلى المريض
أن يقولوا له إذا أراد الوصية: لا تسرف في وصيتك
فتجحف بأولادك، مثل قول رسول الله ﷺ لسعد: «إنك إن
تترك وللك أغنياء خير من أن تدعهم عالمةً يتكفون

الناس»⁽²⁾. وكان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث، وأن الخمس أفضل من الربع، والربع من الثلث، ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُونُونَ آمَوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَمْلَأُونَ سَعِيرًا ﴿٤٧﴾

﴿ظلماً﴾⁽³⁾ ظالمين، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته. ﴿في بطونهم﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه. قال:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا

ومعنى ياكلون ناراً: ما يجر إلى النار فكأنه نار في الحقيقة. وروي: أنه يبعث أكل مال اليتيم يوم القيامة والسخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان ياكل مال اليتيم في الدنيا⁽⁴⁾ وقرئ: وسيصلون بضم الياء وتخفيف اللام وتشديدها. ﴿سعيراً﴾ ناراً من النيران مبهمة الوصف.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُءُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّهِ الشُّدُءُ مِمَّا بَعَدَ وَصِيَّتِي يُوصِي بِهَا أَوْ دِيْنٌ مَّا بَايَأْتِكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَسَبًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٨﴾

﴿يوصيكم الله﴾ يعهد إليكم ويامرکم ﴿في أولادكم﴾ في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة، وهذا إجمال تفصيله ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾.

فإن قلت⁽⁵⁾: هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ قلت: ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضعف حظه لذلك، ولأن قوله: ﴿الذكر مثل حظ الأنثيين﴾ قصد إلى بيان فضل الذكر، وقولك: للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان قصد

(1) قال أحمد: وإنما الجاه إلى تقدير تركوا بقوله شارقوا أن يتركوا: لأن جوابه قوله خافوا عليهم، والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم، وذلك في دار الدنيا، فقد دل على أن المراد بالترك، الإشراف عليه ضرورة، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط، وهو باطل ونظيره، فإذا بلغن أجلهن، فأمسكنهن معروف، أو سرحوهن بمعروف، أي: شارفن بلوغ الأجل، ولهذا المجاز في التعبير عن المشاركة على الترك بالترك سرّ بديع، وهو التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمح في الحياة، ولا في الذنب عن النرية الضعفاء، وهي الحالة التي وإن كانت من النبيا، إلا أنها لقربها من الآخرة، ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: أن يترك ورثته =

= أغنياء خير... الحديث رقم: (2742)، ومسلم في كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث الحديث رقم: (4191).

(3) قال أحمد: ومثله قد بدت البغضاء من أقواهم، أي: شدقوا بها، وقالوا بملء أقواهم، أو يكون المراد بذكر البطن تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير، ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم في ماله خص الأكل: لأنه أبشع الأحوال التي يتناول مال اليتيم فيها، والله أعلم.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب الحظر والإباحة، الحديث رقم: (5566).

(5) قال أحمد: لأن الأفضلية حينئذ ملول عليها بواسطة الاستلزام، لا منطوق بها، وأما على نظم الآية، فالأفضلية منطوق بها غير محتاجة إلى ذلك.

نساء ﴿﴾

فإن قلت: هل يصح أن يكون الضميران في كن وكانت مبهمين ويكون نساء واحدة تفسيراً لهما على أن كان تامة! قلت: لا أبعد ذلك.

فإن قلت⁽²⁾: لم قيل: فإن كن نساء، ولم يقل: وإن كانت امرأة! قلت: لأن الغرض ثمة خلوصهن إناثاً لا نكر فيهن ليميز بين ما نكر من اجتماعهن مع الذكور في قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وبين أفرادهن، وأريد هنا أن يميز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لا قرينة لها.

فإن قلت: قد نكر حكم البنيتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفرد ولم يذكر حكم البنيتين في حال الانفرد، فما حكمهما وما باله لم يذكر! قلت⁽³⁾: أما حكمهما فمختلف فيه، فابن عباس أبى تنزيلهما منزلة الجماعة لقوله تعالى: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾، فاعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف، وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة، والذي يعطى به قولهم: إن قوله ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ قد دل على أن حكم الأنثيين حكم الذكر، وذلك أن الذكر كما يحوز الثلثين مع الواحدة فالانثيان كذلك يحوزان الثلثين، فلما نكر ما دل على حكم الأنثيين قيل: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ على معنى: فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرتهم ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت. وقيل: إن الثنتين أمس رحماً بالميت من الأخنتين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحماً منهما. وقيل: إن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها ويكون لأختها معها

إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من مع إبنائهن من القرابة بمثل ما يلون به.

فإن قلت⁽¹⁾: فإن حظ الأنثيين الثلثان فكأنه قيل: للذكر الثلثان! قلت: أريد حال الاجتماع لا الانفرد، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان كما أن لهما سهمين، وأما في حال الانفرد فالابن يأخذ المال كله، والبناتان يأخذان الثلثين، والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع أنه أتبعه حكم الانفرد وهو قوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ والمعنى الذكر منهم أي: من أولادكم، فحنف الرجاء إليه لأنه مفهوم كقولهم: السمن منوان بدرهم. ﴿فإن كن نساء﴾ فإن كانت البنات أو المولودات نساء خلصاً ليس معهن رجل، يعني: بنات ليس معهن ابن. ﴿فوق اثنتين﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين. ﴿وإن كانت واحدة﴾ وإن كانت البنت أو المولودة منفردة فذة ليس معها أخرى ﴿فلها النصف﴾ وقرئ: واحدة بالرفع على كان التامة والقراءة بالنصب أوفق لقوله: ﴿فإن كن نساء﴾ وقرأ زيد بن ثابت: النصف بالضم. والضمير في ترك للميت: لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت.

فإن قلت: قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد لا لبيان حظ الأنثيين، فكيف صح أن يربف قوله ﴿فإن كن نساء﴾ وهو لبيان حظ الإناث؟ قلت: وإن كان مسوقاً لبيان حظ الذكر إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيها كان كأنه مسوق للأميرين جميعاً، فلذلك صح أن يقال ﴿فإن كن

= والثلاثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين أزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً، فيما بين النصف والثلاثين بقدر مجمل، وأما غيره، فظاهر للتقييد فائدة سوى المخالفة، وتلك الفائدة رفع الفرق المتوهم بين الأنثيين، وما فوقهما، ومتى ظهرت للتخصيص فائدة جلية سوى المخالفة، وجب المصير إليها وسقط التعلق بالمفهوم، وكانه على القول المشهور لما علم أن الأنثيين يستوجبان الثلثين بالطرق المنكورة، وكان الوهم قد يسبق إلى أن الزائد على الأنثيين يستوجب أكثر من فرض الأنثيين؛ لأن ذلك مقتضى القياس رفع هذا الوهم بإيجاب الثلثين، لما فوق الأنثيين كوجوبه لهما، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يريد أن حكم البنيتين حال اجتماعهما مع الابن، منكور في قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وأن حكم البنات منفردة منكور في قوله: ﴿فإن كن نساء﴾، وأن حكم البنت منفردة منكورة في قوله: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾، وبقي عليه أن نكر الابن في حال الانفرد مستفاد من قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، إذا ضمته إلى قوله: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ على التقرير الذي قدمته.

(1) قال أحمد: وعلى مقتضى هذا لا يكون حكم الابن، إذا انفرد منكوراً في الآية؛ لأنه حيث نكره، فإنما عنى حالة الاجتماع مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المنكور أولاً ميراث الذكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المنكور أولاً ميراث الذكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، ومنفرداً، أما وجه تلقي حكمه حالة الاجتماع، فقد قرره الزمخشري، وأما وجه تلقيه حالة الانفرد، فمن حيث أن الله تعالى جعل له مثل حظ الأنثيين، فإن كانت معه فذلك، وإن كانت منفردة عنه، فقد جعل لها في حال انفرداها النصف، فانتضى ذلك أن للذكر عند انفرداه مثلي نصيبها عند انفرداها، وذلك الكامل، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومجرد النظر أن ابن عباس أجرى التقيد بالصفة، وهي قوله فوق اثنتين على ظاهره من مفهوم المخالفة، غير أنه ما كان يقتضى اللفظ أن يقتصر لهما على النصف، لأجل تعارض المفهومين إذ مفهوم فلهن ثلثا ما ترك أن تكون الأثني أقل من الثلثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين أزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً فيما بين النصف =

مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه فوجب لهما الثلثان. **﴿ولأبويه﴾** الضمير للميت⁽¹⁾ و**﴿ولكل ولد واحد منهما﴾** بدل من لأبويه بتكرير العامل وفائدة هذا البديل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه، ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها.

فإن قلت: فهلا قيل: ولكل واحد من أبويه السدس، وأي فائدة في نكر الأبوين أولاً ثم في الإبدال منهما؟ **قلت:** لأن في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشبيهاً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير، والسدس مبتدأ وخبره لأبويه والبديل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة: السدس بالتخفيف، وكذلك الثلث والرابع والثلثين.

والولد يقع على الذكر والأنثى ويختلف حكم الأب في ذلك، فإن كان نكراً اقتصر بالأب على السدس وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس.

فإن قلت⁽²⁾: قد بين حكم الأبوين في الإرث مع الولد ثم حكمهما مع عمه فهلا قيل: فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث، وأي فائدة في قوله: **﴿وورثه أبواه﴾**. **قلت:** معناه فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب، فلأمه الثلث مما ترك، كما قال: **﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾** لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للام ثلث ما بقي بعد إخراج نصيب الزوج لا ثلث ما ترك، إلا عند ابن عباس. والمعنى: أن الأبوين إذا خلاصا تقاسما الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قلت: ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي بون ثلث المال؟ **قلت:** فيه وجهان: أحدهما أن الزوج إنما استحق ما

يسهم له بحق العقد لا بالقرابة فأشبه الوصية في قسمة ما وراه، والثاني أن الأب أقوى في الإرث من الأم ببليلى أنه يضعف عليها إذا خلاصا ويكون صاحب فرض وعصبة وجامعاً بين الأمرين، فلو ضرب لها الثلث كمالاً لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها الا ترى أن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين فصار للزوج النصف، وللأم الثلث، والباقي للأب حازت الأم سهمين، والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكـرين. **﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾** الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعداً، إلا عند ابن عباس. وعنه: أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم.

فإن قلت⁽³⁾: فكيف صح أن يتناول الإخوة الأخوين والجمع خلاف التثنية؟ **قلت:** الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق فدل بالإخوة عليه. وقرئ: فلأمه بكسر الهمزة اتباعاً للجر، إلا تراها لا تكسر في قوله: **﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾** ⁽⁴⁾ **﴿من بعد وصية﴾** متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها لا بما يليه وحده، كأنه قيل: قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصي بها. وقرئ: يوصي بها بالتخفيف والتشديد، ويوصي بها على البناء للمفعول مخففاً.

فإن قلت: ما معنى أو؟ **قلت:** معناها الإباحة وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما قدم على قسمة الميراث كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.

فإن قلت⁽⁵⁾: لم قدمت الوصية على الدين، والدين مقدم عليها في الشريعة؟ **قلت:** لما كانت الوصية مشبهة للميراث

(1) قال أحمد: وفي إعرابه بدلاً نظراً، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء، وهما كمين واحدة، ويكون أصل الكلام والسدس لأبويه، لكل واحد منهما، ومقتضى الاقتصاص على المبدل منه التشريك بينهما في السدس، كما قال: **﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾**، فاقترضى اشتراكهن فيه، فيقتضي البديل لو قدر إهدار الأول أفراد كل واحد منهما بالسدس، وعدم التشريك، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البديل؛ لأنه يلزم في هذا النوع أن يكون مؤدى المبدل والبديل واحداً، وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لا غير بلا زيادة معنى، فإذا تحقق ما بينهما من التباين تعرفت البلية المذكورة، وليس من بديل التقسيم أيضاً على هذا الإعراب، وإلا لزم زيادة معنى في البديل، فالوجه، والله أعلم أن يقدر مبتدأ محذوف، كله قيل ولأبويه الثلث، ثم لما نكر نصيبهما مجعلاً يصلة بقوله لكل واحد منهما السدس، وساغ حذف المبتدأ لدلالة التفصيل عليه ضرورة، إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما للسدس استحقاقهما معاً للثلث، والله أعلم، ولا يستقيم على هذا الوجه أيضاً جعله من بدل التقسيم، إلا تراك لو قلت الدار كلها لثلاثة، لزيد، ولعمرو، ولخالد كان هذا بدلاً، وتقسيماً صحيحاً؛ لأنك لو حذفت المبدل منه، فقلت الدار، لزيد، ولعمرو، ولخالد، ولم ترد في البديل زيادة استقام، فلو قلت الدار

= لثلاثة، لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها لم يستقم بدل تقسيم، إذ لو حذفت المبدل منه لصار الكلام الدار لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها، فهذا كلام مستأنف؛ لأنك زنت فيه معنى تمييز ما لكل واحد منهم، وذلك لا يعطيه المبدل، ولا سبيل في بدل الشيء من الشيء، إلى زيادة معنى.

(2) قال أحمد: ومذهب ابن عباس أن الإخوة يأخذون السدس، الذي حجبوا الأم عنه مع وجود الأب، فعلى هذا يكون فائدة قوله: **﴿وورثه أبواه﴾**، ولم يكن ثم إخوة، فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة، فلأمه السدس ولا يمكن جعله على مذهب ابن عباس مقيداً بعدم الزوجين؛ لأن ثلث الأم عنده لا يتغير بوجود واحد منهما، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ولقد أحسن في هذا التقرير ما لم يحسن كثير من حذاق الأصوليين، يريد متلقى في تغاير وصفي الجمع، والتثنية إذ الجمع يتناول الاثنين، ويتناول زائد منهما، ولك هذا وأما التثنية، فقاصرة على الاثنين، فيبينها على هذا العموم، والخصوص، فكل تثنية جمع، وليس كل جمع تثنية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

(5) قال أحمد: الوصية على ضربين لغير معين، فلا يطالب بها إلا الإمام إن عثر عليها، ولمعين فله المطالبة، ولكن يتباينان في القوة =

مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهَنْ وَلِدٌ﴾ ولدٌ منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج، كما جعلت كذلك بحق النسب واحدة، والجماعة سواء في الربع والثلث. ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني: الميت، و ﴿يُورِثُ﴾ من ورث أي يورث منه وهو صفة لرجل، و ﴿كَلَالَةٌ﴾ خبر كان. أي: وإن كان رجل موروث منه كلالة، أو يجعل يورث خبر كان وكلالة حالاً من الضمير في يورث. وقرئ: يورث ويورث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل وكلالة حال أو مفعول به. فَإِنْ قُلْتُمْ: ما الكلالة؟ قُلْتُمْ: ينطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلالة. كما تقول: ما صمت عن عي وما كفَّ عن جبن. والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء. قال الأعشى:

فأليت لا أرثي لها من كلالة

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كآلة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذي كلالة، كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق.

فإِنْ قُلْتُمْ: فإن جعلتها اسماً للقرابة في الآية فعلام تنصها؟ قُلْتُمْ: على أنها مفعول له، أي: يورث لأجل الكلالة أو يورث غيره لأجلها.

فإِنْ قُلْتُمْ: فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث فما وجهه؟ قُلْتُمْ: الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث. فَإِنْ قُلْتُمْ: فالضمير في قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ إلى من يرجع حينئذ؟ قُلْتُمْ: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته وعلى الأول إليهما.

فإِنْ قُلْتُمْ: إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر الأنثى فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قُلْتُمْ: نعم لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيه برأبي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء، الكلالة ما خلا الولد والوالد⁽¹⁾. وعن عطاء والضحاك إن الكلالة هو الموروث. وعن سعيد بن جبير: هو الوارث.

في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاضدهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قَدِّمَتْ على الدين بعثاً على وجوبها والمسارة إلى إخراجها مع الدين. ولذلك جاء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجوب، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: ﴿أَبَاؤَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ أي: لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتون آمن أوصى منهم آمن لم يوصَ يعني: أن من أوصى ببعض ماله فعرضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعاً وأحضر جدوى ممن ترك الوصية فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا ذهاباً إلى حقيقة الأمر، لأنَّ عرض الدنيا وإن كان عاجلاً قريباً في الصورة إلا أنه فإن فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى وثواب الآخرة وإن كان أجلاً إلا أنه باقٍ فهو في الحقيقة الأقرب الأنسى. وقيل: إن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه، فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه سأل أن يرفع إليه ابنه. فانتم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعاً. وقيل: قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة، وقيل: الأب يجب عليه النفقة على الابن إذا احتاج وكذلك الابن إذا كان محتاجاً فهما في النفع بالنفقة لا يدرى أيهما أقرب نفعاً، وليس شيء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجاوب له لأنَّ هذه الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراضي أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه والقول ما تقدم. ﴿فَرِيضَةٌ﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض وقسم من الموارد وغيرها.

﴿وَلَكُمْ يَصِئُ مَا تَرَكُوا أَزْوَاجُكُمْ إِنْ أَرَّ بِكُمْ لَهَنٌ وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَوَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُوعُ وَمَا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يَوْصِيَتِ بِهَا أَوْ ذَرْبٌ وَلَهُنَّ الرُّبُوعُ وَمَا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَكِنْ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ وَمَا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي تُوْصَرُ بِهَا أَوْ ذَرْبٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُنَّ أُنْ أَوْ أُخْتُ فَلَِكُلِّ رَجُلٍ مِمَّنْهُمَا الثُّمُنُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يَوْصِي بِهَا أَوْ ذَرْبٍ غَيْرَ مُصَاوٍ وَصِيَّتِي

= ما يبدا به إخراج الدين، ثم الوصية، ثم اقتسام ذوي الميراث، فانظر كيف جاء إخراج الميراث آخراً تلو إخراج الوصية تلو الدين، فوافق قولنا قسمة الموارث بعد الوصية، والدين صورة الواقع شرعاً، ولو سقط نكر بعد، وكان الكلام أخرجوا الميراث والوصية والدين، لما أمكن ورود السؤال المنكور، والله أعلم.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 416/11، كتاب الفرائض، باب: الكلالة من هم.

= بين مطالبة رب الدين بدينه، والموصى له بوصيته؛ لأنَّ ربَّ الدين يطالب بحق مستقر في النعمة سبق له به الفضل، على مبيانه، والموصى له إنما يطلب صدقة تفضل بها عليه الميت، لا عن استحقاق سابق، فالكفتي بما لرب الدين من القوة عن تقديمه في الذكر، وعضد ضعف الموصى له، بتقديمه في النكر عوناً له على حصول رفق الوصية، ويمكن في دفعه طريق آخر، فاقول لم يخالف ترتيب الآية الواقع شرعاً، فلا يرد السؤال، وذلك أنَّ أوَّل

والنون، ﴿وَكُنْكَ يَدْخُلُهُ نَارًا﴾ وقيل: يدخله وخالدين حملاً على لفظ من ومعناه، وانتصب خالدين وخالداً على الحال. **فإن قلت:** هل يجوز أن يكونا صفتين لجنات ونارا؟ **قلت:** لا، لأنهما جريا على غير من هما له فلا بد من الضمير، وهو قولك: خالدين هم فيها، وخالداً هو فيها.

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحْشَةَ مِنْ سَائِبِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَسْكُرُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْمَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾.

﴿باتين الفاحشة﴾ يرهقنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها بمعنى. وفي قراءة ابن مسعود: باتين بالفاحشة، والفاحشة الرنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. ﴿فامسكوهن في البيوت﴾ قيل: معناه فخلوهن محبوسات في بيوتكم، وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام. ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ الآية. ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوماً بالكتاب والسنة، ويوصي بإمسكهن في البيوت بعد أن يحدد صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ هو النكاح الذي يستغنين به عن السفاح. وقيل: السبيل هو الحد لأنه لم يكن مشروعاً ذلك الوقت.

فإن قلت: ما معنى يتوفاهن الموت، والتوفي والموت بمعنى واحد، كأنه قيل: حتى يميتهن الموت! **قلت:** يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت، كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ (4) ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ (5) ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ (6)، أو حتى يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن.

وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّاهُمْ مِنْكُمْ فَادْعُوهُمْ بِآيَاتِنَا وَأَسْلَمُوا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ نَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾.

﴿واللذان يأتيناها منكم﴾ يريد الزاني والزانية، ﴿فادعوهما﴾ فوبخوهما ونموهما وقولوا لهما: أما استحبيتما أما خفتما الله. ﴿فإن تابا وأصلحا﴾ وغيرها الحال ﴿فأعرضوا عنهما﴾ واقطعوا التبويخ والمنمة، فإن التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب. ويحتمل أن يكون خطاباً للشهود العائرين على سرهما، ويراد بالإيذاء نهما وتعنيفهما وتهديهما بالرفع إلى الإمام والحد، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فأعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما. وقيل: نزلت الأولى في السحاقيات وهذه في اللواطين. وقرئ: اللذان بتشديد النون، واللذان بالهمزة وتشديد النون.

إِنَّمَا اتَّوَبْتُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِي يَعْمَلُونَ أَسْوَأَ مِنِّمََّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

وقد أجمعوا على أن المراد أولاد الأم. وتدل عليه قراءة أبي: وله أخ أو أخت من الأم، وقراءة سعد بن أبي وقاص: وله أخ أو أخت من أم. وقيل: إنما استدل على أن الكلاله ههنا الإخوة للأم خاصة بما ذكر في آخر السورة من أن للاختين الثلثين وأن للإخوة كل المال فعلم ههنا لما جعل للواحد السدس وللثنتين الثلث ولم يزدوا على الثلث شيئاً أنه يعني بهم الأخوة للأم، وإلا فالكلالة عامة لمن عدا الولد والوالد من سائر الإخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات وغيرهم. ﴿غير مضار﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضار لورثته، وذلك أن يوصي بزيادة على الثلث أو يوصي بالثلث فما نونه ونيته مضارة ورثته ومغاضبتهم لا وجه الله تعالى. وعن قتادة: كره الله الضرار في الحياة وعند الممات، ونهى عنه. وعن الحسن: المضارة في الدين أن يوصي بدين ليس عليه ومعناه الإقرار. ﴿وصية من الله﴾ مصدر مؤكّد، أي: يوصيكم بذلك وصية، كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ (1) ويجوز أن تكون منصوبة بغير مضار، أي: لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما نونه بزايته على الثلث، أو وصية من الله بالأولاد، وأن لا يدعهم عالية بإسرافه في الوصية. وينصر هذا الوجه قراءة الحسن: غير مضار وصية من الله، بالإضافة. ﴿ووالله عليم﴾ بمن جار أو عدل في وصيته، ﴿حليم﴾ عن الجائر لا يعاجله، وهذا وعيد.

فإن قلت: في يوصي ضمير الرجل إذا جعلته الموروث، فكيف تعمل إذا جعلته الوارث؟ **قلت:** كما عملت في قوله تعالى: ﴿فلهنّ ثلثا ما ترك﴾ (2) لأنه علم أن التارك والموصي هو الميت.

فإن قلت: فإين ذو الحال فيمن قرأ: يوصي بها، على ما لم يسم فاعله؟ **قلت:** يضم يوصي فينتصب عن فاعله لأنه لما قيل: يوصي بها علم أن ثم موصياً. كما قال: ﴿يسبح له فيها بالغنق والأصاال﴾ (3) على ما لم يسم فاعله، فعلم أن ثم مسبحاً فاضمر يسبح. فكما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح كان غير مضار حالاً عما يدل عليه يوصي بها.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ رُشُوكُمْ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْؤُورٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَمَسَّ اللَّهَ رُشُوكُمْ وَيَتَمَكَّدْ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَالْحَلِيمِ فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٨﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأحكام التي نكرت في باب اليتامى والوصايا والمواريث، وسمها حدوداً لأن الشرائع كالحدود المضروبة الموقفة للمكلفين لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق. ﴿يدخله﴾ قرئ بالياء

(4) سورة النحل، الآية: 28.

(5) سورة النساء، الآية: 97.

(6) سورة السجدة، الآية: 11.

(1) سورة النساء، الآية: 11.

(2) سورة النساء، الآية: 11.

(3) سورة النور، الآية: 36.

بأنه يفي بما وجب عليه، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب.

يَنْ رَبِّهِ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾.

﴿التوبة﴾ من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له⁽¹⁾، يعني: إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء. ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿من قريب﴾ من زمان قريب، والزمان القريب ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾⁽²⁾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا يقبل فيه التوبة بقبي ما وراء ذلك في حكم القريب. وعن ابن عباس: قبل أن ينزل به سلطان الموت، وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب، وعن النخعي: ما لم يؤخذ بكلمه. وروى أبو أيوب عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ»⁽³⁾. وعن عطاء: ولو قبل موته بفوق ناقة. وعن الحسن: أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض: وعزتك لا أقارق ابن آدم ما دام روحه في جسده. فقال تعالى: «وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر»⁽⁴⁾.

﴿ولا الذين يموتون﴾ عطف على الذين يعملون السيئات سوى بين الذين سوفوا نوبتهم إلى حضرة الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم، لأن حضرة الموت أول أحوال الآخرة فكما أن المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين فكذلك المسوف إلى حضرة الموت، لمجاورة كل واحد منهما أو أن التكليف والاختيار، ﴿أولئك أعتدنا لهم﴾ في الوعيد نظير. قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾⁽⁵⁾ في الوعد، ليتبين أن الأمرين كائنان لا محالة.

فإن قلت: من المراد بالذين يعملون السيئات أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد الكفار لظاهر قوله: ﴿وهم كفار﴾ وأن يراد الفساق لأن الكلام إنما وقع في الزانيين والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا ويكون قوله: ﴿وهم كفار﴾ وارداً على سبيل التغليظ، كقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾⁽⁶⁾ وقوله: «فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»⁽⁷⁾. «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»؛ لأن من كان مصدقاً ومات وهو لا يحدث نفسه بالتوبة حاله قريبة من حال الكافر؛ لأنه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت. كانوا يبيلون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم فزجروا عن ذلك.

فإن قلت: ما معنى من في قوله: ﴿من قريب﴾؟ قلت: معناه التبعية، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً، ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ بعد قوله: ﴿إنما التوبة على الله﴾؟ قلت: قوله: ﴿إنما التوبة على الله﴾ إعلام بوجودها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات، وقوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ عدة

= فيها مستروحاً، فإننا نقول معاشر أهل السنة: قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة، ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر، فهما ورد من صيغ الوجوب، فمُنزل على وجوب صدق الوعد، ومعنى قولنا: صدق الخبر واجب، كمعنى قولنا: وجود الله واجب؛ لأن أحداً لا يستوجب على الله شيئاً، اللهمنا الله الألب في حق جلاله، وعصمنا من زيغ القول وضلاله.

(2) سورة النساء، الآية: 18.
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة، الحديث رقم: (3538)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، الحديث رقم: (2449)، وأحمد في المسند 132/2، والحاكم في المستدرک 257/4، كشف الاستار، كتاب: التوبة، باب: إلى متى يقبل التوبة، الحديث رقم: (3243)، بلطف «لا يزال الله تبارك وتعالى يقبل التوبة...» وأخرجه أيضاً عن أبي زر بلطف: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ...» الحديث رقم: (3241).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(5) سورة النساء، الآية: 17.

(6) سورة آل عمران، الآية: 97.

(7) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (10/3).

(1) قال أحمد: وقد تقدم في مواضع أن إطلاق مثل هذا من قول القائل، يجب على الله كذا مما نعوذ بالله منه تعالى، عن الإلزام والإيجاب ربُّ الأرباب، وقاعدة أهل السنة أن الله تعالى مهما تفضل، فهو لا عن استحقاق سابق؛ لأنهم يقولون: إن الأفعال التي يتوهم القدرة أن العبد يستحق بها على الله شيئاً، كلها خلق الله، فهو الذي خلق لعبيده الطاعة، وأثابه عليها، وخلق له التوبة، وقبلها منه، فهو المحسن أولاً وأخراً، ويطأن، وظاهره، لا كالقدرة الذين يزعمون أن العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله ليستوجب على ربه المغفرة، بمقتضى حكمته التي توجب عليه على زعمهم المجازاة على الأعمال إيجاباً عقلياً، فلذلك يطلقون بلسان الجراءة هذا الإطلاق، وما أبشع ما أكد الزمخشري هذا المعتقد الفاسد، بقوله يجب على الله قبول التوبة، كما يجب على العبد بعض الطاعات، فنظر المعبود بالعبد وقاس الخالق على الخلق، وأنه لإطلاق يتقيد عنه لسان العاقل، ويقشعر جلده استبشاعاً لسماعه، ويتعثر القلم عند تسطيره على أن من لطف الله تعالى، أن لم يجعل حاكي الكفر كافراً، ولا حاكي البدعة لضرورة ردها، والتحذير منها مبتدعاً، وما بلغ الزمخشري في هذا الإطلاق، إلا اغتناماً لفرصة التمسك على صحته بصيغة على المشعرة بالوجوب، فجعلها نزيعة لاستباحة هذا الإطلاق، ولم يجعل الله له =

يَأْتِيهَا الدَّيْنِ مَأْمُوتًا لَا يَجِئُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَمًا وَلَا تَمْلُوهُنَّ لِذَهَبًا يَمُوعُ مَا آتَيْتُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَايِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سَيِّئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا ﴿٨﴾.

كان الرجل^(١) إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة القى ثوبه عليها وقال: أنا أحق بها من كل أحد، فقول: ﴿لا يحل لكم أن تترثوا النساء كرهًا﴾؛ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك، أو مكروهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقول: لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى تترثوا منهن وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته، حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقول: ﴿ولا تعضلوهن لذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ والعضل الحبس والتضييق، ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وهي النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة، أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرت في طلب الخلع. ويدل عليه قراءة أبي: إلا أن يفحش عليكم. وعن الحسن: الفاحشة: الزنا، فإن فعلت حل لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل: كانوا إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها. وعن أبي قلابة ومحمد بن سيرين: لا يحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة: لا يحل له أن يحبسها ضراراً حتى تفتدي منه، يعني: وإن زنت. وقيل: نسخ ذلك بالحدود وكنوا يسيرون معاشره النساء، فقول لهم: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ وهو النصفة في البيت والنفقة والإجمال في القول: ﴿فإن كرهتموهن﴾ فلا تفارقوهن لكرامة الأنفس وحدها فربما كرهت النفس ما هو أصح في الدين وأحمد وأنسى إلى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك ولكن للنظر في أسباب الصلاح.

وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذوهن بهنئنا وإمما شيئاً ﴿٩﴾.

وكان الرجل إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة بهت التي تحته ورامها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها، فقول: ﴿وإن أردتم استبدال زوج﴾ الآية. والقنطار المال العظيم من قنطرت الشيء إذا رفعت، منه القنطرة لأنها بناء مشيد. قال:

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنغن حتى تشاد بقرمد
وعن عمر رضي الله عنه أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس لا تغالوا بصدقات النساء، فلو كانت مكرومة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثني عشر أوقية. فقامت إليه امرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقاً جعله الله لنا والله يقول: ﴿وآتيتن إحداهن قنطاراً﴾ فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، ثم قال لأصحابه: تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تتكروني علي حتى ترد علي امرأة ليست من أعلم النساء^(٢). والبهتان أن تستقبل الرجل بامر قبيح تقف به وهو بريء منه، لأنه يبهت عند ذلك أي: يتحير. وانتصب ﴿بهتاناً﴾ على الحال، أي: باهتين وأتقين، أو على أنه مفعول له وإن لم يكن غرضاً، كقولك: قعد عن القتال جيناً.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٠﴾.

والميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً، أي: بإفشاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغليظ لقوته وعظمه. فقد قالوا: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج. وقيل: هو قول الولي عند العقد: أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وعن النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عون في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(٣).

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفُ وَإِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً وَمَعْتًا وَسَاءَ مَسِيلاً ﴿١١﴾.

وكانوا^(٤) ينكحون رواههم، وناس منهم يعقوتونه من نوي

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها الحديث رقم: (1163)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: حق المرأة على الزوج الحديث رقم: (1851)، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الوصية بالنساء الحديث رقم: (5186)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء الحديث رقم: (3632)، وأخرجه أيضاً في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث رقم: (2941).

(٤) قال أحمد: وعندي في هذا الاستثناء سر أضر، وهو: أن هذا المنهي عنه، لفظاعته وبشاعته عند أكثر الخلق، حتى كان مقوتاً قبل ورود الشرع، جدير أن يمثل النهي فيه فيجتنب، فكانه قد امتثل النهي عنه، حتى صار مضرباً عن عدم وقوعه، وكأنه قيل: ما يقع نكاح الأيتام المنكوحات للأباء، ولا يؤخذ منه شيء، إلا ما

(١) قال أحمد: وخص تعالى نكر من أتى قنطاراً من المال بالنهي، تنبيهاً بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان هذا على كثرة ما ينزل لامراته من الأموال، منهياً عن استعادة شيء يسير حقير منها على هذا الوجه، كان من لم يبتذل إلا الحقيق منهياً عن استعادته بطريق الأولى.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: الصداق الحديث رقم: (2106)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: سفه (22) الحديث رقم: (1114)، والنسائي في كتاب: النكاح، باب: القسط في الأصقة، الحديث رقم: (3349)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: صداق النساء الحديث رقم: (1887)، والدارمي في كتاب: النكاح، باب: كم كانت مهور أزواج النبي ﷺ وبناته الحديث رقم: (2199)، والحاكم في المستدرک 172/2.

يَهْرَ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَمَلَآءُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ
أُمَّتِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ
أَلَّهُ كَانَ عَافِيًا رَحِيمًا (١٧).

معنى (١٧): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ تحريم نكاحهن،
لقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (٣)، ولأنَّ
تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن، كما يفهم من
تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير
تحريم أكله. وقرئ: وبنات الأخت، بتخفيف الهمزة. وقد
نزل الله الرضاة منزلة النسب حتى سمي المرضعة أمًّا
للرضيع والمرضاة أختًا، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه
جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل
الرضاع ويعدده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة
جنته وأختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم
إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم
إخوته وأخواته لأمه. ومنه قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما
يحرم من النسب» (٦). وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم
النسب، إلا في مسألتين:

إحداهما: أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من
النسب، ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع؛ لأنَّ المانع
في النسب وطوره أمها وهذا المعنى غير موجود في
الرضاع.

والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب ويجوز
في الرضاع؛ لأنَّ المانع في النسب وطء الأب إياها وهذا
المعنى غير موجود في الرضاع. ﴿مَنْ نَسَأْتُمْ﴾ متعلق
بربائبتكم، ومعناه أنَّ الربيبية من المرأة المدخول بها محرمة
على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

فإنَّ قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله: ﴿وَأُمَّهَاتِ
نِسَائِكُمْ﴾؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهنَّ وبالربائب
فتكون حرمتهم وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً، وإما
أن يتعلق بهنَّ دون الربائب فتكون حرمتهم غير مبهمة
وحرمة الربائب مبهمة، فلا يجوز الأوَّل لأنَّ معنى من مع
أحد المتعلقين خلاف معناه مع الآخر، إلا تراك أنك إذا
قلت: وأمَّهات نساءكم من نساءكم اللاتي دخلتم بهنَّ، فقد
جعلت من لبيان النساء وتمييز المدخول بهنَّ من غير
المدخول بهنَّ، وإذا قلت: وربائبكم من نساءكم اللاتي دخلتم
بهنَّ، فإنك جاعل من الابتداء الغاية كما تقول: بنات

مروآتهم، ويسمونه نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له:
المقتي، ومن ثمَّ قيل: ﴿وَمَقْتًا﴾ كأنه قيل: هو فاحشة في
دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد
على ما يجمع القبحين.

وقرئ: لا يحل لكم بالتاء، على أن ترثوا بمعنى الوارثة،
وكرهاً بالفتح والضم من الكراهة والإكراه. وقرئ: بفاحشة
مبينة، من أبانت بمعنى تبينت أو بينت. كما قرئ: مبينة
بكسر الباء وفتحها، ويجعل الله بالرفع على أنه في موضع
الحال، وأتيتم إحداهنَّ بوصل همزة إحداهنَّ، كما قرئ: فلا
إثم عليه.

فإنَّ قلت: ﴿تَعْضَلُوهُنَّ﴾ ما وجه إعرابه؟ قلت: النسب
عطفًا على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن
ترثوا النساء ولا أن تعضلوهنَّ.

فإنَّ قلت: أي فرق بين تعدية ذهب بالباء وبينها
بالهمزة؟ قلت: إذا عدى بالباء فمعناه الأخذ والاستصحاب،
كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ (١) وأما الإذناء فكالإزالة.
فإنَّ قلت: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾ ما هذا الاستثناء؟ قلت: هو
استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل:
ولا تعضلوهنَّ في جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين
بفاحشة، أو ولا تعضلوهنَّ لعله من العلل إلا لأن يأتين
بفاحشة.

فإنَّ قلت: من أي وجه صح قوله: ﴿فَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا﴾ (٢) جزاءً للشرط؟ قلت: من حيث إنَّ المعنى ﴿فَإِنْ
كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ (٣) فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة، فلعل لكم فيما
تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

فإنَّ قلت: كيف استثنى ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾، مما نكح
آبَاؤُكُمْ؟ قلت: كما استثنى غير أنَّ سيوفهم من قوله: ولا
عيب فيهم، يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف
فانكحوه فلا يحل لكم غيره. وذلك غير ممكن والغرض
المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق
بالمحال في التأييد في نحو قولهم: حتى يبيض القار
وحتى يلج الجمل في سم الخياط.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ وَعَوْنَتِكُمْ
وَحَلَائِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَهْنُتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتِكُمْ
وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي
حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ

(2) سورة النساء، الآية: 19.

(3) سورة النساء، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وهذا تفريع على القول بعموم المشترك في معانيه،
فاستقام تعليق الجار المنكوح بهما، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 22.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي
أَرْضَعْتِكُمْ﴾ الحديث رقم: (5099)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب:
يحرم من الرضاة... الحديث رقم: (3554).

قد سلف، وأمَّا في المستقبل بعد النهي، فلا يقع منه شيء البتة،
ومثل هذا النظر جار في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَخْنَانَا مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فالجراه مرفوعاً على أنه خبر، وإن
كان المراد: تبهيم عن عبادة غير الله، ولكن لما كان هذا المنهي
جديراً بالاجتناب، وكأنه اجتناب، عبر عن النهي فيه بصيغة الخبر،
ورفع الفعل، وقد مضى هذا للتقدير بعينه، ثم لم يجر مثله في
هذه الآية، والله أعلم.

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

رسول الله ﷺ من خديجة، وليس بصحيح أن يعني بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيين مختلفان⁽¹⁾، ولا يجوز الثاني، لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به ما لم يعترض أمر لا يرد إلا أن تقول أعلقه بالنساء والريائب واجعل من للاتصال كقوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾⁽²⁾ فإني لست منك ولست مني، ما أنا من دد ولا البد مني، وأمّهات النساء متصلات بالنساء لأنهن أمهاتهن كما أن الريائب متصلات بأمهاتهن لأنهن بناتهن. هذا وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الريائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى وقد روي عن النبي ﷺ في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها، أنه قال: «لا بأس أن يتزوج ابنتها، ولا يحل له أن يتزوج أمها»⁽³⁾. وعن عمر وعمران بن الحصين رضي الله عنهما: أن الأم تحرم بنفس العقد. وعن مسروق: هي مرسله فأرسلوا ما أرسل الله. وعن ابن عباس: أبهوا ما أبهم الله. إلا ما روي عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير أنهم قرؤوا: وأمّهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن، وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل إلا هكذا. وعن جابر روايتان، وعن سعيد بن المسيب عن زيد: إذا ماتت عنده فاخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت مقام النخول في ذلك كما قام مقامه في باب المهر، وسمي ولد المرأة من غير زوجها ريبياً وربيباً لأنه يربهما كما يرب ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسمياً بذلك وإن لم يربهما.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما فائدة قوله: ﴿في حجوركم﴾؟ قلت: فائدته التعليل للتحريم، وأنهن لا احتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم وفي حكم التقلب في حجوركم إذا دخلتم

بأمهاتهن، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبتت الخلطاً والالفة وجعل الله بينكم المودة والرحمة وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهم مجرى أولادكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم. وعن علي رضي الله عنه أنه شرط ذلك في التحريم وبه أخذ داود.

فإن قلت: ما معنى ﴿دخلتم بهن﴾؟ قلت: هي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب يعني: أدخلتموهن الستر، والباء للتعدية واللمس ونحوه يقوم مقام النخول عند أبي حنيفة وعن عمر رضي الله عنه أنه خلا بجارية فجزمها فاستوهبها ابن له فقال: إنها لا تحل لك. وعن مسروق: أنه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال: أما أتني لم أصب منها إلا ما يحرمها على ولدي من اللمس والنظر. وعن الحسن في الرجل يملك الأمة فيغمرها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها: أنها لا تحل لولده بحال. وعن عطاء وحمام بن أبي سليمان: إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح أمها ولا ابنتها. وعن الأوزاعي: إذا نخل بالأم فعرأها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر فلا يحل له نكاح ابنتها. وعن ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار: أن التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده. ﴿الذين من أصلابكم﴾ نون من تبنيتم. وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب حين فارقتها زيد بن حارثة⁽⁵⁾ وقال عز وجل: ﴿لكني لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم﴾⁽⁶⁾ ﴿وأن تجمعوا﴾⁽⁷⁾ في موضع الرفع عطف على المحرّمات أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين، والمراد حرمة النكاح لأن التحريم في الآية تحريم النكاح، وأما الجمع بينهما في ملك اليمين، فعن عثمان وعلي

(1) قال أحمد: يعني: أن لهذا الإعراب وجهاً في الصحة، وتكون من على هذا مستعملة في معنى واحد من معانيها، وهو: الاتصال، فيستقيم تعلقها بهما، وقد نقل ذلك عن ابن عباس مذهباً، ونقل أيضاً قراءة علي، وابن عباس، وزيد، وابن عمر، وابن الزبير، وأمّهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن، وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل إلا هكذا، انتهى. نقل الزمخشري، والقول المشهور عن الجمهور: إبهام تحريم المرأة، ويقيد تحريم الربيبية بدخول الأم، كما هو ظاهر الآية، ولهذا الفرق سر وحكمة، وذلك لأن المتزوج بابتة المرأة لا يخلو، بعد العقد وقبل الدخول، من محاورة بينه وبين أمها، ومخاطبات، ومسارات، فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم، ليقطع شوقه من الأم، فيعاملها معاملة نوات المحارم، ولا كذلك العاقد على الأم، فإنه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول بالأم، فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة، وأما إذا وقع الدخول بالأم، فقد وجدت مظنة خلطة الربيبية، فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 67.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء فيمن يتزوج امرأة ثم يطلقها... الحديث رقم: (1117).

(4) قال أحمد: وهذا مما قمته، من تخصيص أعلى صور المنهي عنه، بالمنهي، فإن النهي عن نكاح الربيبية المدخول بأمها، عام في =

= جميع الصور، سواء كانت في حجر الزوج، أو بائنة عنه في البلاد القاصية، ولكن نكاحها لها، وهي في حجر، أقيع الصور، والطبع عنها أوفر، فصخت بالنهي، لتساعد الجيلة على الانقياد لأحكام الملة، ثم يكون ذلك تدريجياً وتدرجاً إلى استقباح المحرم في جميع صورته، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في حديث أنس رضي الله عنه، عن زواج الرسول ﷺ عن زينب في كتاب: التفسير، باب: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم...﴾ الحديث رقم: (4791)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب... الحديث رقم: (3488).

(6) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(7) قال أحمد: موقع هذا الاستثناء، كموقع نظيره المقدم ذكره عند قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء﴾ على الوجه الذي بينت وهو أن هذا النهي، لكونه جديراً بأن يمتثل، أجرى مجرى الإخبار عن امتثاله، حتى كأنه قيل، لا يقع شيء من هذه المحرّمات، إلا السالف منها لا غير، أو على الوجه الذي بينته الزمخشري فيما تقدم، وهو أن يكون المراد: إلا ما قد سلف، فإنه غير محرّم، فتعاطوه إن كان ممكناً من باب التعليق على المحال بنا للتحريم، إلا أن الزمخشري لم يسلك هذا المسلك ههنا؛ لأن قوله: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يرشد إلى أن المراد: إلا ما قد =

فإن قلت: أين مفعول ﴿تبتغوا﴾؟ قلت: يجوز أن يكون مقدرًا وهو النساء، والأجود أن لا يقدر. وكأنه قيل: إن تخرجوا أموالكم، ويجوز أن يكون إن تبتغوا بدلاً من وراء نلكم. والمسافح الزاني، من السفح وهو صبّ المنى، وكان الفاجر يقول للفاجرة: سافحيني وما نيتي، من المذي. ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن، ﴿فأتوهن لجورهن﴾ عليه. فاسقط الراجع إلى ما لأنه لا يلبس، كقوله: ﴿إن نلك من عزم الأمور﴾⁽⁵⁾ بإسقاط منه، ويجوز أن تكون ما في معنى النساء، ومن للتبويض أو البیان، ويرجع الضمير إليه على اللفظ في به وعلى المعنى في فأتوهن وأجورهن مهورهن، لأن المهر ثواب على البضع. ﴿فريضة﴾ حال من الأجور، بمعنى مفروضة أو وضعت موضع إيتاء، لأن الإيتاء مفروض، أو مصدر مؤكد، أي: فرض نلك فريضة ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ فيما تحط عنه من المهر أو تهب له من كله أو يزيد لها على مقداره، وقيل: فيما تراضيا به من مقام أو فراق. وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام ثم نسخت. كان للرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلةً أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير نلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها، سميت متعةً لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها. وعن عمر: لا أوتي برجل تزوج امرأةً إلى أجل إلا رجمتها بالحجارة⁽⁶⁾ وعن النبي ﷺ أنه أباحها، ثم أصبح يقول: يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، إلا إن الله حرّم نلك إلى يوم القيامة⁽⁷⁾. وقيل: أبيع مرتين وحرّم مرتين. وعن ابن عباس: هي محكمة⁽⁸⁾، يعني: لم تنتسخ، وكان يقرأ: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى. ويروى: أنه رجع عن نلك عند موته وقال: اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف⁽⁹⁾.

وَمَنْ لَمْ يَسْطَعِ مِثْلَكُمْ طَوْلًا أَنْ يَسْكَحَ النُّعْمَتِ الْمُؤْمِنِي
فَإِنَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفْسِكُمُ الْمُؤْمِنِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ

ضحي الله عنهما أنهما قالوا: أحلتها آية وحرمتها آية⁽¹⁾.
عنيان هذه الآية وقوله: ﴿أو ما ملكت إيمانكم﴾ فرجع
لبي التحريم، وعثمان التحليل⁽²⁾. ﴿إلا ما قد سلف﴾ ولكن
ما مضى مغفور، بلليل قوله: ﴿إن الله كان عفورا
رحيما﴾.

﴿وَالنُّعْمَتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا رَزَقَكُمْ أَنْ تَتَفَوَّؤْا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْسِنِينَ غَيْرَ
مُسْتَفْسِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ رِيصَةً وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الرَّيصَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿والمحصنات﴾ القراءة بفتح الصاد، وعن طلحة بن
مصرف أنه قرأ بكسر الصاد. وهن نوات الأزواج لانهن
أحصن فروجهن بالتزويج فهن محصنات ومحصنات. ﴿إلا
ما ملكت إيمانكم﴾ يريد ما ملكت إيمانهم من اللاتي سبين
ولهن أزواج في دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين وإن
كن محصنات. وفي معناه قول الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بهالم تطلق
﴿كتاب الله عليكم﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله نلك
عليكم كتاباً وفرضه فرضاً وهو تحريم ما حرّم.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وأحل لكم﴾؟ قلت: على
الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله، أي: كتب الله عليكم
تحريم نلك وأحل لكم ما وراء نلكم. ويدل عليه قراءة
اليمني: كتب الله عليكم وأحل لكم. وروي عن اليمني:
كتب الله عليكم، على الجمع والرفع، أي: هذه فرائض الله
عليكم، ومن قرأ: وأحل لكم على البناء للمفعول، فقد عطفه
على حرمت. ﴿أن تبتغوا﴾ مفعول له، بمعنى: بين لكم ما
يحل مما يحرم، إرادة أن يكون ابتغواكم. ﴿بأموالكم﴾ التي
جعل الله لكم قياماً في حال كونكم ﴿محصنين غير
مسافحين﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما
لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم، ولا مفسدة أعظم مما
يجمع بين الخسرانين. والإحصان العفة وتحصين النفس
من الوقوع في الحرام، والأموال المهور وما يخرج في
المنالك.

سلف، فإنه مغفور لاستثنائه في الآية الأولى؛ لأنه عقبه ثم بقوله:
إنه كان فاحشة، ومقتاً، وساء سبيلاً، فقدر في كل آية ما يناسب
سياقها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) حديث عثمان، أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: النكاح، باب: ما جاء
في كراهية إصابة الأختين بملك اليمين الحديث رقم: (34) وحديث
علي أخرجه في كشف الاستار، كتاب: النكاح، باب: في الأختين
المملوكتين الحديث رقم: (1438).

(2) الموطأ المصدر السابق.

(3) سورة لقمان، الآية: 17.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: نكاح المتعة... الحديث رقم:
(3408)، عن الربيع بن سبرة الجهني عن أبيه، وليس عن الربيع بن
سبرة.

(5) مسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: نكاح المتعة الحديث رقم:
(3409)، وابن حبان في كتاب: الحج، باب: نكر العلة التي من أجلها
ينهى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن التمتع بالعمرة إلى
الحج، الحديث رقم: (3940).

(6) قال الزبيدي: غريب 1/302.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في تحريم نكاح
المتعة الحديث رقم: (1122)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب
التجارات، باب: من قال لا ربا إلا في النسيسة الحديث رقم:
(2258)، والطبراني، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف 118/8

الحديث رقم: (14548).

الرجل، وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الأفضل الإيمان لأفضل الإحسان والأنساب، وهذا تانيس بنكاح الإمام وترك الاستنكاف منه. ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لاشتراككم في الإيمان لا يفضل حرّ عبد إلا برجحان فيه. ﴿بإذن أهلهن﴾ (2) اشتراط لإنّ المولي في نكاحهن، ويحتج به لقول أبي حنيفة أنّ لهنّ أن يباشرن العقد بأنفسهنّ لأنه اعتبر إننّ المولي لا عقدهم. ﴿وأتوهنّ لجورهنّ بالمعروف﴾ وأتوا إليهنّ مهورهنّ بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز.

فأَنْ قُلْتَ: المولي هم ملاك مهورهنّ لا هنّ، والواجب أدائها إليهنّ لا إليهنّ، فلم قيل: وأتوهنّ؟ قلت: لأنهنّ وما في أيديهنّ مال المولي فكان أدائها إليهنّ أداء إلى المولي، أو على أنّ أصله فاتوا مواليهنّ فحنف المضاف. ﴿محصنات﴾ عفائف والأخدان: الأخلاء في السرّ، كأنه قيل: غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرّات له. ﴿فإنّ أحصن﴾ بالتزويج، وقرئ: أحصن. ﴿نصف ما على المحصنات﴾ أي: الحرائر. ﴿من العذاب﴾ من الحدّ، كقوله: ﴿وليشهد عذابهما ويدأ عنها العذاب﴾، ولا رجم عليهنّ لأنّ الرّجم لا يتنصف. ﴿نلك﴾ إشارة إلى نكاح الإمام ﴿لمن خشي العنت﴾ لمن خاف الإثم الذي يؤدّي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من موقعة المأثم. وقيل: أريد به الحدّ لأنه إذا هويها خشي أن يواقعها فيحدّ فيتزوّجها. ﴿وأن تصبروا﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإمام متعفيين ﴿خير لكم﴾ وعن النبي ﷺ: «الحرائر صلاح البيت، والإمام هلاك البيت» (3).

يُرِيدُ اللهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ رِيْبَكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزيت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت في لا أبا لك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى: يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتتقنوا بهم. ﴿ويتوب عليكم﴾

بِالْمَرْوِفِ مَحْصَنَتِي غَيْرَ مُسَوِّدَتِي وَلَا مَنَحْدَاتٍ أَعْدَانِي فَكَيْدًا أَمْحِيَنَّ فَإِنَّ آيَاتِي بِتَحْوِشَةٍ مِّثْلِهِنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْعُمَمَتِي مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَمَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِرُوا غَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

الطول: الفضل، يقال: لفلان على فلان طول، أي: زيادة وفضل، وقد طاله طولاً فهو طائل. قال:

لقد زانني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل ومنه قولهم: ما حلا منه بطائل، أي بشيء يعتد به مما له فضل وخطر، ومنه الطول في الجسم لأنه زيادة فيه كما أنّ القصر قصور فيه ونقصان (4). والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعةً يبلغ بها نكاح الحرّة فليتكح أمة. قال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرّم عليه نكاح الإمام، وهو الظاهر وعليه مذهب الشافعي رحمه الله. وأمّا أبو حنيفة رحمه الله فيقول: الغني والفقير سواء في جواز نكاح الأمة، ويفسر الآية بأن من لم يملك فراش الحرّة، على أنّ النكاح هو الوطاء، فله أن يتكح أمة. وفي رواية عن ابن عباس أنّه قال: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية، وإن كان موسراً، وكذلك قوله: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ الظاهر أن لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وهو مذهب أهل الحجاز، وعند أهل العراق يجوز نكاحها ونكاح الأمة المؤمنة أفضل فحملوه على الفضل لا على الوجوب، واستشهدوا على أنّ الإيمان ليس بشرط بوصف الحرائر به مع علمنا أنّه ليس بشرط فيهنّ على الاتفاق ولكنه أفضل.

فأَنْ قُلْتَ: لم كان نكاح الأمة منحلطاً عن نكاح الحرّة؟ قلت: لما فيه من اتباع الولد الأمّ في البرق، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها، ولأنّها منتهنة مبتللة خراجة ولا حاجة وذلك كله نقصان راجع إلى النكاح ومهانة، والعزة من صفات المؤمنين. وقوله: ﴿من فتياتكم﴾ أي: من فتيات المسلمين لا من فتيات غيركم وهم المخالفون في الدين.

فأَنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿والله أعلم بآيمانكم﴾؟ قلت: معناه أنّ الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرّة، والمرأة أفضل في الإيمان من

(1) قال أحمد: وعلى هذا يكون الطول عند أبي حنيفة وجود الحرّة تحته، وهو أحد القولين لمالك رضي الله عنه، لكن يبعد هذا المعنى: لأنّ الطول عند مالك في أحد قوليه: القدرة بالمال على نكاح الحرّة خاصة، حتى لو كانت الحرّة تحته، فأراد نكاح الأمة عجزاً عن حرّة أخرى، جاز له ذلك، وفي القول الآخر، الطول لحدّ الأمرين، إمّا القدرة بالمال على نكاح الحرّة، وإمّا وجود الحرّة تحته، حتى لا يجوز له نكاح أمة على حرّة، إن كان عاجزاً عن حرّة أخرى، ومقتضى ما نقله المصنف عن أبي حنيفة، أنه لا يجوز لمن تحته حرّة نكاح أمة، وأنه يجوز لمن ليست تحته حرّة، أن يتكح الأمة، ولو كان غنياً، وهو قول لا يساعده ظاهر =

(2) الآية: لأنّ الاستطاعة تثبت، وإن لم يفعل بمقتضاها، فالمستطيع لنكاح الحرّة نو الطول، وإن لم يكن تحته الحرّة، وتفسير الاستطاعة على مذهب أبي حنيفة، بعيد جداً.

(3) قال أحمد: وليس في الآية اشتراط إننّ المولي، لمن يتولى عقد نكاح أمته، ومتولى العقد ومباشرته، مسكوت عنه في الآية، فيجمل على إننه لو كيله في العقد على أمته، ولا يلزم أن تكون الأمة هي المباشرة، ولا دليل في الآية على ذلك، والله أعلم.

(4) نكره الهندي في دكّن العمال، (الحديث: 44543).

ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم.

وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَن يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن يُبَيِّتُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم، ﴿ويريد﴾ الفجرة ﴿الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقته على اتباع الشهوات، وقيل: هم اليهود. وقيل: المجوس كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرّمهن الله، قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة والعمّة، والخالة والعمّة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ والأخت. فنزلت يقول تعالى: يريدون أن تكونوا زناةً مثلهم.

يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٧٨﴾.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص، ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات، وعن سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء، فقد أتى علي ثمانون سنةً وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء. وقرئ: أن يميلوا بالياء، والضمير للذين يتبعون الشهوات. وقرأ ابن عباس: وخلق الإنسان على البناء للفاعل، ونصب الإنسان. وعنه رضي الله عنه: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. ﴿يريد الله لبيّن لكم﴾ (1) ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ (2) ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ (3) ﴿أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ (4) ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (5) ﴿إن الله لا يظلم مثقال نرة﴾ (6) ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ (7) ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ (8).

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٧٩﴾.

﴿بالباطل﴾ بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا. ﴿إلا أن تكون

تجارة﴾ إلا أن تقع تجارة، وقرئ: تجارةً على إلا أن تكون التجارة تجارةً. ﴿عن تراض منكم﴾ والاستثناء منقطع معناه: ولكن اقصدا كون تجارة عن تراض منكم، أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وقوله: عن تراض صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض، وخص التجارة بالذكر لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها والتراضي رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وعند الشافعي رحمه الله تعالى: تفرقتهما عن مجلس العقد متراضيين ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ من كان من جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن: لا تقتلوا إخوانكم، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة. وعن عمرو بن العاص أنه تأوله في التيمم لخوف البرد، فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (9). وقرأ علي رضي الله عنه: ولا تقتلوا بالثدي. ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ ما نهاكم عما يضرّكم إلا لرحمته عليكم، وقيل: معناه أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لحظاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكالييف الصعبة.

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوًا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٨٠﴾.

﴿نلك﴾ إشارة إلى القتل، أي: ومن يقدم على قتل الأنفس ﴿عدواناً وظلماً﴾ لا خطأ ولا اقتصاصاً، وقرئ: عدواناً بالكسر. ونصليه بتخفيف اللام وتشديدها، ونصليه بفتح النون من صلاه يصليه، ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك لكونه سبباً للصلي. ﴿ناراً﴾ أي: ناراً مخصوصةً شديدة العذاب. ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ لأن الحكمة تدعو إليه ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه.

إِن تَحْتَابُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَذِطْكُمْ مُّدْحَكًا كَرِيمًا ﴿٨١﴾.

﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ وقرئ: كبير ما تنهون عنه، أي: ما كبر من المعاصي التي ينهاكم الله عنها والرسول ﴿تكفر عنكم سيئاتكم﴾ نमित ما تستحقونه من العقاب في كل وقت على صفاتركم، ونجعلها كان لم تكن لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها على

(9) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: إذا خاف الجنب البرد، إيتيم الحديث رقم: (334)، والبخاري تعليقاً، كتاب: التيمم، باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش، تيمم، وأحمد في المسند 4/203، والحاكم في المستدرک 1/177، والدارقطني في كتاب: الطهارة، باب: التيمم، الحديث رقم: (12) و(13).

(10) الطبري في تفسيره.

(1) سورة النساء، الآية: 26.
(2) سورة النساء، الآية: 27.
(3) سورة النساء، الآية: 28.
(4) سورة النساء، الآية: 31.
(5) سورة النساء، الآية: 116.
(6) سورة النساء، الآية: 40.
(7) سورة النساء، الآية: 110.
(8) سورة النساء، الآية: 147.

عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنَّما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلمها.

والتكفير: إمطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة، والإحباط: نقيضه، وهو إمطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بدم على الطاعة. وعن علي رضي الله عنه الكبائر سبع: الشرك، والقتل، والقذف، والزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة⁽¹⁾. وزاد ابن عمر: السحر، واستحلال البيت الحرام⁽²⁾. وعن ابن عباس: أنَّ رجلاً قال له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبعمائة أقرب؛ لأنَّه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وروي: إلى سبعين⁽³⁾. وقرئ: يكفر بالياء. ومثلاً بضم الميم وفتحها، بمعنى المكان، والمصدر فيهما.

وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّرِجَالٍ نَّصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلرِّسَالَةِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْتُمْ وَرَسُولُوا اللَّهَ مِنْ قَضِيئِهِ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَيْءٌ عَلَيْكُمْ (٣٢).

﴿ولا تتمنوا﴾ نهوا عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأنَّ ذلك التقضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له، علماً بأن ما قسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، ولا يحسد أخاه على حظه. **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾** جعل ما قسم لكل من الرجال والنساء على حسب ما عرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له. **﴿واستلوا الله من فضله﴾** ولا تتمنوا أنصبا غيركم من الفضل ولكن سلوا الله من خزائنه التي لا تنفذ، وقيل: كان الرجال قالوا: إنَّ الله فضلنا على النساء في الدنيا لنا سهمان ولهنَّ سهم واحد، فترجو أن يكون لنا أجران في الآخرة على الأعمال ولهنَّ أجر واحد. فقالت أم سلمة ونسوة معها: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم فنزلت.

وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلَىٰ وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَدَدْتَ أَيْتِنَهُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣).

﴿مما ترك﴾ تبين **﴿لكل﴾**، أي: ولكل شيء **﴿مما ترك للوالدان والأقربون﴾** من المال جعلنا موالى وراثاً يولونه ويحرزونه، أو ولكل قوم جعلناهم موالى نصيب مما ترك

الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع إلى كل محنوف والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول لكل من خلقه الله إنساناً. من رزق الله أي: حظ من رزق الله، أو ولكل أحد جعلنا موالى مما ترك، أي: وراثاً مما ترك، على أن من صلة موالى لأنهم في معنى الوراث، وفي ترك ضمير كل، ثم فسّر الموالى بقوله: **﴿الوالدان والأقربون﴾** كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون **﴿والذين عاقدت إيمانكم﴾** مبتدأ ضمن معنى الشره فوقع خبره مع الفاء، وهو قوله: **﴿فآتوهم نصيبهم﴾** ويجوز أن يكون منصوباً على قولك: زيداً فاضريه، ويجوز أن يعطف على الوالدان ويكون المضمرة في فآتوهم للموالى، والمراد بالذين عاقدت إيمانكم موالى الموالاة. كان الرجل يعاقد الرجل فيقول: نمي بكم، وهدمي هدمك وثاري ثارك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك. فيكوز للحليف السمس من ميراث الحليف، فنسخ. وعن النبي ﷺ أنه خطب يوم الفتح فقال: «ما كان من حلف في جاهلياً فتمسكوا به فإنه لم يزد الإسلام إلا شدة، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»⁽⁴⁾. وعند أبي حنيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة، خلافاً للشافعي. وقيل: المعاقدة التبني ومعنى عاقدت إيمانكم، عاقدتهم أييكم وماسحتهم وقرئ: عقلت بالتشديد والتخفيف، بمعنى عقلت عوده أيانكم.

الرِّجَالُ قَوْمَاتٌ عَلَىٰ النِّسَاءِ مِمَّا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَمِمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلْهَاتُ قَدِيدَةٌ حَفِظْتُمْ لِقَيْبٍ مِمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي عَمَّاؤُنَ تُؤْمَرُونَ يَتُوبُونَ وَأَمْبَرُونَ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَمْبَرُونَ فَإِنَّ أَلْفَلْهَاتُ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً (٣٤).

﴿قوامون على النساء﴾ يقومون عليهن أمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعاية، وسما قوماً لذلك، والضمير في **﴿بعضهم﴾** للرجال والنساء جميعاً. يعني: إنَّما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال على بعض وهم النساء، وفيه دليل على أنَّ الولاية إنَّما تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر، وقد ذكرنا في فضل الرجال العقل والحزم والعزم والقوة والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وإنَّ منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة والشهادة في الحدود والقصاص وزيادة السهم والتعصيب في الميراث والحماية والقسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة

(3) الطبري في تفسيره. وقال الزليعي: غريب بهذا اللفظ 320/1.

(4) أبو داود في المراسيل، باب: في القسامة الحديث رقم: (274).

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم الحديث رقم: (2875).

(2) عبد الرزاق في المصنف 460/10 الحديث رقم: (19702).

المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهنّ الوعظ والهجران⁽⁵⁾. وقيل: معناه اكرهوهنّ على الجماع، واربطوهنّ من هجر البعير إذا شدّه بالهजार، وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا: يجب أن يكون ضرباً غير مبرح لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه. وعن النبي ﷺ: «علق سوطك حيث يراه اهلك»⁽⁶⁾. وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحداها ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها⁽⁷⁾، ويروى عن الزبير أبيات منها:

ولولا بنوها حولها لخبطنها

﴿فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً﴾ فزلبوا عنهنّ التعرّض بالأذى والتوبيخ والتجني، وتوبوا عليهنّ، واجعلوا ما كان منهنّ كان لم يكن بعد رجوعهنّ إلى الطاعة والانقياد، وترك النشوز: ﴿إنّ الله كان علياً كبيراً﴾ فاحزروه واعلموا أنّ قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم. ويروى أنّ أبا مسعود الأنصاري رفع سوطه ليضرب غلاماً له فيصر به رسول الله ﷺ، فصاح به: «أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه». فرمى بالسوط واعتق الغلام⁽⁸⁾ أو إنّ الله كان علياً كبيراً وإنكم تعصونه على علوّ شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحقّ بالعفو عنم يجني عليكم إذا رجع.

وإنّ جفنته شقاقاً بينهما فأبعثوا حكماً من أهله. وحكماً من أهلهما إن يريداً إصلاحاً يوفّق الله بينهما إنّ الله كان علياً خبيراً⁽⁹⁾.

﴿شقاق بينهما﴾ أصله شقاقاً بينهما، فاضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع، كقوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، وأصله بل مكر في الليل والنهار، أو على أن جعل البين مشاقاً والليل والنهار ماكرين، على قولهم: نهارك صائم، والضمير للزوجين، ولم يجر نكرهما لجرى نكر ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء، ﴿حكماً من أهله﴾ رجلاً مقنعاً راضياً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما، وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما لأنّ الأقارب أعرف بيوطن الأحوال وأطلب للصالح، وإنما تسكن إليهم

وعدد الأزواج واليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم. ﴿ومما انفكوا﴾ وبسبب ما أخرجوا في نكاحهنّ من أموالهم في المهور والنفقات، وروي: أنّ سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فطمعها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ، وقال: أفرشته كريمتي فطمعها. فقال: «لنقتص منه»⁽¹⁾. فنزلت. فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير». ورفع القصاص واختلف في ذلك فقيل: لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها ولكن يجب العقل. وقيل: لا قصاص إلا في الجرح والقتل، وأما اللطمة ونحوها فلا. ﴿قائنات﴾ مطيعات قائمات بما عليهنّ للأزواج. ﴿حافظات للغيب﴾ الغيب خلاف الشهادة، أي: حافظات لموجب الغيب، إذا كان الأزواج غير شاهدين لهنّ حفظن ما يجب عليهنّ حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي ﷺ: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظت في مالها ونفسها»⁽²⁾. وتلا الآية. وقيل: للغيب لأسرارهم. ﴿بما حفظ الله﴾ بما حفظهنّ الله حين أوصى بهنّ الأزواج في كتابه، وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً»⁽³⁾. أو بما حفظهنّ الله وعصمنّ ووفقهنّ لحفظ الغيب، أو بما حفظهنّ حين وعدهنّ الثواب العظيم على حفظ الغيب وأوعدهنّ بالعذاب الشديد على الخيانة، وما مصدرية، وقرئ: بما حفظ الله بالنصب، على أنّ ما موصولة، أي: حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله وهو: التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم. وقرأ ابن مسعود: فالصالح قوائن حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهنّ.

نشوزها ونشوصها: أن تعصي زوجها ولا تطمئن إليه، وأصله الانزعاج. ﴿في المضاجع﴾ في المراقده، أي: لا تداخلوهنّ تحت اللحف، أو هي كناية عن الجماع. وقيل: هو أن يوليها ظهره في المضجع، وقيل: في المضاجع في بيوتهنّ التي يبتنّ فيها، أي: لا تبايتوهنّ. وقرئ: في المضجع وفي المضطجع، وذلك لتعرف أحوالهنّ وتحقق أمرهنّ في النشوز⁽⁴⁾. أمر بوعظهنّ أولاً، ثم هجرانهنّ في

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال الحديث رقم: (1664)، والحاكم في المستدرک، 333/2، وأخرجه النسائي في السنن، كتاب: النكاح، باب: أي النساء خير الحديث رقم: (3231)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: أفضل النساء الحديث رقم: (1857).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه»، (الحديث: 276/5).

(3) قال أحمد: وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة، غير متلقي من صيغة لفظية، إذ العطف بالواو، وهي مسلوبة الدلالة على الترتيب، متمحضة الإشعار بالجمعية فقط، وإنما يتلقى للترتيب المنكور من قرائن خارجة عن اللفظ، مفهومة من مقصود الكلام وسياقه.

(4) البخاري في الأدب المفرد 2/632، باب: تعليق السوط في البيت الحديث رقم: (1229)، وأبو نعيم في الحلية 7/250.

(5) ابن عدي في الكامل.

(6) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الأيمان، باب: صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده الحديث رقم: (4284).

(7) سورة الأنفال، الآية: 63.

نفوس الزوجين ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزيونه عن الأجنب ولا يحبان أن يطلعوا عليه.

فإن قلت: فهل يليان الجمع بينهما والتفريق إن رآيا ذلك؟ قلت: قد اختلف فيه، فقيل: ليس إليهما ذلك إلا بإنان الزوجين، وقيل: ذلك إليهما وما جعلنا حكيمين إلا إليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما. وعن عبيدة السلماني: شهدت علياً رضي الله عنه وقد جاءته امرأة وزوجها ومع كل واحد منهما فقام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً، وهؤلاء حكماً. فقال علي رضي الله عنه للحكمين: اتريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا ففرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما، فقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك

وعليك. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي. وعن الحسن: يجمعان ولا يفرقان. وعن الشعبي: ما قضى الحكمان جاز. والالف في ﴿إن يريدنا إصلاحاً للحكمين، وفي ﴿يوفق الله بينهما﴾ للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتها صحيحة وقلوبها ناصحة لوجه الله بورك في وساطتهما وأوقع الله بطيب نفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والالفة والقي في نفوسهما المودة، وقيل: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان في طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد. وقيل: الضميران للزوجين، أي: إن يريدنا إصلاح ما بينهما وطلبنا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الالفة وأبدلها بالشقاق وفاقاً وبالبيضاء مودة. ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المفترقين ﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم﴾ (1).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَاللَّهُ لَئِيمٌ لِّلَّذِينَ إِحْسَنَّا وَبَدَىٰ الْقُرْآنُ وَالْيَتِيمَ وَالسَّكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ الْجُنْبِ وَالَّذِي السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (2).

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ واحسنوا بهما إحساناً ﴿وبذي القربى﴾ وبكل من بينكم وبينه قربي من أخ أو عم أو غيرها، ﴿والجار ذي القربى﴾ الذي قرب جواره، ﴿والجار الجنب﴾ الذي جواره بعيد، وقيل: الجار القريب السيب، والجار الجنب الأجنبي، وأنشد لبلعاء بن قيس:

لا يجتوبينا مجاور أبداً نورحم أو مجاور جنب

وقرئ: والجار ذا القربى نصباً على الاختصاص، كما قرئ: حافظوا على الصلوات، والصلوة الوسطى، تنبيهاً على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقربى. ﴿والصاحب بالجنب﴾ هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رقيقاً في سفر وإما جاراً ملاصقاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك من أبنى صحبة التامت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وقيل: صاحب بالجنب المرأة. ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع به، وقيل: الضيف. والمختال التياه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقرابه وأصحابه ومماليكه فلا يحفى بهم ولا يلتفت إليهم. وقرئ: والجار الجنب بفتح الجيم وسكون النون.

الَّذِينَ يَخْلُونُ بِأَمْوَالِهِمُ النَّاسَ بِالْجَنبِ وَيَكْسِبُونَ مَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَسْبِهِ وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِمًّا (3).

﴿الذين يخلون﴾ بدل من قوله: ﴿من كان مختالاً فخوراً﴾ (2) ونصب على النّم ويجوز أن يكون رفعاً عليه وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، كأنه قيل: الذين يخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة. وقرئ: بالبخل يضم الباء وفتحها، ويفتحين ويضمين، أي: يخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد. وفي أمثال العرب: أبخل من الضنين بنائل غيره، قال:

وإن امرأة ضنت يدها على امرئ بنيل يد من غيره لبخيل

ولقد رأينا ممن بلي بداء البخل من إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد، شخص به وحلّ حبوته واضطرب ودارت عيناه في رأسه كأنما نهب رحله وكسرت خزائنه ضجراً من تلك وحسرة على وجوده. وقيل: هم اليهود، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحنون لهم، ويقولون: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون. وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضل الغنى والتفاقر إلى الناس. وعن النبي ﷺ: «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده» (3). وبنى عامل للرشيد قصراً أحذاء قصره، فتم به عنده، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن للكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحبيت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك، فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله ﷺ.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا

(1) سورة النساء، الآية: 36.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک، 4/135. وأخرجه الترمذي في کتاب الأدب، باب: ما جاء إن الله تعالى يجب أن يرى أثر نعمته على عبده الحديث رقم: (2819)، وابن حبان في کتاب اللباس وأدابه =

= الحديث رقم: (5417)، وأحمد في المسند 2/403، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الملابس والأواني، فصل فيمن لبس ليري أثر نعمة الله عليه الحديث رقم: (6201).

(3) قال أحمد: وقد تقدم له مثل ذلك في قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة

يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَاتَّقُوا اللَّهَ (٣٨).

كَفَيْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٣٩).

﴿فكيف﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم. ﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم، كقوله: ﴿وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم﴾ (3) ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ المكنيين ﴿شهداء﴾، وعن ابن مسعود: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهداء﴾ فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حسبنا» (4).

﴿رثاء الناس﴾ للفقار، وليقال: ما أسخامهم وما أجودهم، لا ابتغاء وجه الله، وقيل: نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿فساء قريناً﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقربهم في النار. وَمَاذَا عَلَّمْتُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَعُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩).

﴿وماذا عليهم﴾ وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله، والمراد الذم والتوبيخ وإلا فكل منفعة ومفلة في ذلك، وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت، وللعاق: ما كن يرزوك لو كنت باراً. وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزاة في العفو والبر، ولكنه ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ وعيد.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَإِنَّ تَكُ حَسَنَةً يَكُونِ عَلَيْهَا وَبُؤْسٌ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠).

الذرة: النملة الصغيرة. وفي قراءة عبد الله: مثقال نملة. وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة. وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أنى في شيء وأصغره أو زاده في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعله لاستحاله في الحكمة لا لاستحاله في القدرة. ﴿وإن تك حسنة﴾ وإن يكن مثقال ذرة حسنة (1)؛ وإنما أنت ضمير المتقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. وقرئ: بالرفع على كان التامة. ﴿يضاعفها﴾ يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب في كل وقت من الأوقات المستقبلية غير المتناهية. وعن أبي عثمان النهدي أنه قال لأبي هريرة: بلغني عنك أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يعطي عبده للمؤمن الحسنة ألف ألف حسنة». قال أبو هريرة: لا بل سمعته يقول: «إن الله تعالى يعطيه ألفي ألف حسنة». ثم تلا هذه الآية (2)، والمراد الكثرة لا التحديد. ﴿ويؤت من لئنه أجراً عظيماً﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاءً عظيماً، وسماه أجراً لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وقرئ: يضعفها بالتشديد والتخفيف، من أضعف وضعف. وقرأ ابن هرمز: نضاعفها بالنون.

يَوْمَئِذٍ يَرَوُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُلَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالُ كَانَتَا سَمُومًا يَلْعَبُونَ (٤١).

﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ لو يذفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، وقيل: يؤنون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء. وقيل: نصير البهائم تراباً فيؤنون حالها. ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ ولا يقدرين على كتمانها لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل: اللوا للحال، أي: يؤنون أن يذفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتُمون الله حديثاً ولا يكتُمون في قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين لأنهم إذا قالوا ذلك وجدوا شركهم ختم الله على أفواههم عند ذلك وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك، فلشدّة الأمر عليهم يتمنون أن تسوى بهم الأرض. وقرئ: تسوى بحذف التاء من تتسوى، يقال: سويته فتسوى، نحو: لويته فتلوى، وتسوى بإدغام التاء في السين، كقوله: ﴿يسمعون﴾ (3) وماضيه أسوى كازكى.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا الْمَكَارَةَ وَأَنْتُمْ سُكْرَى حَتَّى تَتَلَمَّأُوا مَا تُلَاقُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهُونًا وَعَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَتْكُمْ عِلْمٌ مِنْ الْمَأْتِلِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٢).

ودوي: إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ حين كانت الخمر مباحة فاكلوا وشربوا فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قَدَمُوا أحدهم ليصلي بهم، فقرأ: أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد. فنزلت فكانوا لا يشربون في أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحوا إلا وقد

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، من سورة النساء، باب: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾... الحديث رقم: (4582)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل لستم القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع الحديث رقم: (1864).

(4) سورة الصافات، الآية: 8.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: في تحريم الخمر الحديث

= من النار فانقنكم منها﴾ وقد بينا ثم أن عوده إلى الحفرة جائز، بل أولى، وكذلك عوده ههنا إلى الذرة، ولا يمنع ذلك كون المضاف إليه غير مخبر عنه؛ لأن عود الضمير، لا يستلزم الإخبار عنه الكلام الأول، ويجوز كانت دابته، وكل ذلك أسهل من اكتساب المضاف للتانيث، من المضاف إليه، فقد نص أبو علي في التعليقات، على أنه شاذ.

(1) أخرجه أحمد في المسند 521/2.

(2) سورة المائدة، الآية: 117.

وروي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَأْتِ أَحَدًا أَنْ يَجْلِسَ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ يَمُرَ فِيهِ وَهُوَ جَنِبٌ، إِلَّا لَعَلِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ بَيْتَهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ⁽⁵⁾.

فإن قلت: أدخل في حكم الشرط أربعة وهم: المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة، فيمن تعلق الجزء الذي هو الأمر بالتيمم عند عدم الماء منهم؟ قلت: الظاهر أنه تعلق بهم جميعاً، وأنَّ المرضى إذا عدوا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتموا، وكذلك السفر إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج⁽⁶⁾: الصعيد وجه الأرض تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب التيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه.

فإن قلت: فما يصنع بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾⁽⁷⁾ أي: بعضه، وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه؟ قلت: قالوا إن من ابتداء الغاية.

فإن قلت: قولهم: إنها لابتداء الغاية قول متعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب إلا معنى التبعض! قلت: هو كما تقول والإذعان للحق أحق من المراء. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ كناية عن الترخيص والتيسير، لأنَّ من كانت عاقبته أن يعفو عن الخطئين ويفغر لهم أثر أن يكون ميسراً غير معسر.

فإن قلت⁽⁸⁾: كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين، وبين المحدثين والمجنبيين، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحلث سبب لوجوب الوضوء، والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلت: أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عالمون الماء في التيمم بالتراب، فخصَّ أوَّل من بينهم مرضاهم وسفرهم لأنهم المتقدمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوذ به الماء

ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها⁽¹⁾، ومعنى: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها، كقوله: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾⁽²⁾ ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾⁽³⁾ وقيل: معناه ولا تقربوا مواضعها وهي المساجد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»⁽⁴⁾. وقيل: هو سكر النعاس وغلبة النوم، كقوله:

ورأنا بسكر سناتهم كل الريون

وقرئ: سكارى بفتح السين، وسكرى على أن يكون جمعاً نحو هلكت وجوعى، لأنَّ السكر علة تلحق العقل، أو مفرداً بمعنى: وأنتم جماعة سكرى، كقولك: امرأة سكرى وسكر بضم السين كحلبى، وأن تكون صفةً للجماعة. وحكى جناح بن حبيش: كسلى وكسلى بالفتح والضم. ﴿ولا جنباً﴾ عطف على قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ لأنَّ محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجنب. ﴿إلا عابري سبيل﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين وانتصابه على الحال.

فإن قلت: كيف جمع بين هذه الحال، والحال التي قبلها؟ قلت: كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعزرون فيها وهي حال السفر، وعبور السبيل عبارة عنه، ويجوز أن لا يكون حالاً ولكن صفة لقوله: ﴿جنباً﴾ أي: ولا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير معزورين.

فإن قلت: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلت: أريد بالجنب الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين حتى تغتسلوا، لا أن تكونوا مسافرين. وقال من فسر الصلاة بالمسجد: معناه لا تقربوا المسجد جنباً إلا مجتازين فيه إذا كان الطريق فيه إلى الماء أو كان الماء فيه أو احتمتم فيه. وقيل إنَّ رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا في المسجد فرخص لهم.

(5) قال احمد: هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الصعيد، وثم وجه آخر، وهو: عود الضمير على الحدث الملول عليه، بقوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ إلى آخرها، فإن المفهوم منه: وإن كنتم على حدث حال من هذه الأحوال: سفر، أو مرض، أو مجيء من الغائط، أو ملامسة النساء، فلم تجنوا ماء تتطهرون به من الحدث، فتيمموا منه، يقال: تيممت من الجنابة، وموع من على هذا مستعمل متداول، وهي على هذا الإعراب، إما للتعليل، أو لابتداء الغاية، وكلاهما فيها متمكن، والله أعلم.

(6) سورة المائدة، الآية: 6.

(7) قال احمد: وهذا من نكر المعنى به خاصاً ومندرجاً في العموم، تنبيهاً بذكره على وجهين مختلفين؛ لأنَّ المرض والسفر مندرجان في عموم المحدثين والمجنبيين، والله أعلم.

(8) قال احمد: مراده، بذلك، أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء، وهو:

(3671)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة النساء الحديث (3026)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 2/307. تقدّم تخريجه.

(1) سورة الإسراء، الآية: 32.

(2) سورة الأنعام، الآية: 151.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد الحديث رقم: (750)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف عن مكحول 1/442 الحديث رقم: (1727)، وعن أبي هريرة (1728).

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: (21) الحديث رقم: (3727)، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع من محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغربه.

أن **«يحرّفون»** صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون، كقوله:

وما الدهر إلا تاراتان فمنهما موت وأخرى ابتغي العيش أكدح

أي: فمنها تارة أموت فيها، **«يحرّفون الكلم عن مواضعه»** يميلونه عنها ويزيلونه لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلاً غيرَه فقد أملوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها وأزالوه عنها، وذلك نحو تحريفهم: أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه، ونحو تحريفهم الريح بوضعهم: الحد بدلَه.

فإن قلت⁽¹⁾: كيف قيل ههنا: **«عن مواضعه»**، وفي المائة: **«من بعد مواضعه»**؟ قلت: أمّا عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأمّا من بعد مواضعه: فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارَه، والمعنيين متقاربين. وقرئ: **يحرّفون الكلام والكلم بكسر الكاف** وسكون اللام، جمع كلمة تخفيف كلمة. قولهم: **«غير مسمع»** حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو جهين يحتمل الهمّ أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلك اتكالاً على أن قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه:

غير مسمع جواباً يوافقك، فكانك لم تسمع شيئاً، أو اسمع غير مسمع كلاً ما ترضاه فسمعك عنه ناب، ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع، أي: اسمع كلاً ما غير مسمع إياك لأنّ أنك لا تعبه نبواً عنه، ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: اسمع فلان فلاناً إذا سبه. وكذلك قولهم: **«راعنا»** يحتمل راعنا نكلمك، أي: ارقبنا وانتظرنا، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فكانوا سخريةً بالدين وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام **«لياً بالسنتهم»** فتلاً بها وتحريفاً، أي: يفتلون بالسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا، وغير مسمع

لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق في مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر، وقرئ: من غيط، قيل: هو تخفيف غيط، كهين في هين، والغيط: بمعنى الغائط.

أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُرْسُوا تُجَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُخْتَلَفُونَ الْكَلِمَةَ فَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا أَتَيْبًا ﴿١٤﴾.

«الم تر» من رؤية القلب، وعدى بإلى على معنى ألم ينته علمك إليهم، أو بمعنى ألم تنظر إليهم. **«أوتوا نصيباً من الكتاب»** حظاً من علم التوراة، وهم أحبار اليهود. **«يشترون الضلالة»** يستبدلونها بالهدى، وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه هو النبي العربي المبشّر به في التوراة والإنجيل. **«ويريدون أن تضلوا»** أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه وتخرطوا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ: أن يضلوا بلباء بفتح الضاد وكسرهما.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَيُؤْمَلُونَ سَمَئًا وَعَصَافًا وَمَتَمَّ عَصَافٌ مُّسَمَّعٌ وَرَدَعًا لِّئَا لَسَانِهِمْ وَمَتَمًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَمَّ وَانظُرْنَا لَكَانَ عَجْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ يَكْفُرُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾.

«والله أعلم» منكم **«بأعدابكم»** وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم. **«وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً»** فتقوا بولايته ونصرته دونهم، أو لا تبالوا بهم فإنّ الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

«من الذين هادوا» بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب لأنهم يهود ونصارى، وقوله: **«والله أعلم»** **«وكفى بالله»** وكفى بالله جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض، أو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيراً، أي: ينصركم من الذين هادوا، كقوله: **«ونصرناه من القوم الذي كذبوا»**، ويجوز أن يكون كلاً ما مبتدأ على

= الاختلاف المراد بالكلم في السورتين، قيل في سورة المائدة: **«يحرّفون الكلم من بعد مواضعه»** أي: ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع، فبقي كالغريب المتأسف عليه، الذي يقال فيه: هذا غريب، من بعد مواضعه ومقارَه، ولا يوجد هذا المعنى في مثله: **«راعنا»** و **«غير مسمع»** وإن وجد على بعد، فليس الوضع اللغوي مما يعبا بانتقاله عن موضعه، كالوضع الشرعي، ولولا اشتغال هذا النقل على الهزة والسخرية، لما عظم أمره، فلذلك جاء هنا: **«يحرّفون الكلم عن مواضعه»** غير مقرون بما قرن به الأوّل من صورة التأسف، والله أعلم.

= إنشاء وطلب، وقد أوقعه حالاً، والحال: خبر، أراد أن يبين أوجه صحة التعبير عن الخبر بالإنشاء، بواسطة أن هؤلاء كانوا يظنون دعاءهم مستجاباً، مخبراً بوقوع المدعوة فيه، ونظيره ورود الأمر بصيغة الخبر، تنبيهاً على تحقق وقوعه. وقال أحمد: والظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد في هذه السورة، مثل: **«غير مسمع»** و **«راعنا»** ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام وتوسطها بين الكلمتين، وبين قوله: **«يحرّفون»** وبين قوله: **«لياً بالسنتهم»** والمراد أيضاً: تحريف مشاهد بين، على أنّ المحرّف هما أمثالهم، وأما في سورة المائدة، فالظاهر، والله أعلم أنّ المراد فيها بالكلم: الأحكام وتحريفها، تبديلها كتبديلهم الريح بالجلد، إلا تراه عقبه بقوله: **«يقولون إن أوتيتهم هذا فنحوه وإن لم تؤتوه فاحذروا»**

لوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه، لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات ﴿أو نلعنهم﴾ أو نجزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت.

فإن قلت: فأين وقوع الوعيد؟ قلت: هو مشروط بالإيمان، وقد آمن منهم ناس، وقيل: هو منتظر ولا بد من طمس ومسح لليهود قبل يوم القيامة؛ ولأن الله عز وجل أوعدهم بأحد الأمرين: بطمس وجوه منهم، أو بلعنهم، فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم أو إجلائهم إلى الشام، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾⁽¹⁾ ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ فلا بد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَيِّرُ لَأُمَّةٍ يَشْرِكُ بِهِ، وَيُؤَيِّدُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٧﴾.

فإن قلت⁽²⁾: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة، فما وجه قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾؟ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجّهين إلى قوله تعالى: ﴿لمن يشاء﴾ كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك، على أن المراد بالأول: من لم يتب، وبالثاني: من تاب. ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. ﴿فقد افترى إثماً﴾، أي ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُونَ أَنَّهُمْ بِلِلَّهِ بِرٌّ وَلَا يَطْلُقُونَ قَوْلًا إِلَّا

﴿الذين يزكون أنفسهم﴾ اليهود والنصارى، قالوا:

موضع لا أسمعت مكروهاً، أو يفتلون بالسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرهونه من التوقير نفاقاً.

فإن قلت: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا: سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء، ويجوز أن يقولوه فيما بينهم، ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. وقرأ أبي: وانظرنا، من الإنتظار وهو الإمهال.

فإن قلت: لإم يرجع الضمير في قوله: ﴿لكن خيراً لهم﴾؟ قلت: إلى أنهم قالوا، لأن المعنى: ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا لكان قولهم: ذلك خيراً لهم، ﴿واقوم﴾ وأعدل وأسد. ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أي خذلهم بسبب كفرهم وأبعدهم عن الطافه. ﴿فلا يؤمنون إلا﴾ إيماناً ﴿قليلاً﴾، أي: ضعيفاً ركيكاً لا يعبا به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغیره، أو أراد بالقلة العم، كقوله:

قليل التشكي للمهم يصيبه

أي: عديم التشكي، أو إلا قليلاً منهم قد آمنوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكُتُبَ مَا تَرَكْنَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهَكُمْ فَزَكَّاها عَنْ آثَارِها أَوْ نَلْعَنَها كَمَا لَمَّا أَصْحَبَ النَّبِيُّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعُولًا ﴿٤٧﴾.

﴿أن نطمس وجوهاً﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم. ﴿فزكها على آبارها﴾ فنجعلها على هيئة آبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها، والفاء للتسيب، وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعدوا بعقابين: أحدهما عقيب الآخر ردها على آبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكسها الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام، وجه آخر وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير كما طمس أموال القبط قلبهما حجارة، وبالوجوه رؤوسهم وجهاؤهم، أي: من قبل أن نغير أحوال وجهاؤهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ونكسهم صغارهم وإبصارهم، أو نردهم إلى حيث جاؤوا منه، وهي أترعات الشام، يريد إجلاء بني النضير.

فإن قلت: لمن الراجع في قوله: ﴿أو نلعنهم﴾؟ قلت:

(1) سورة المائدة، الآية: 60.

(2) قال أحمد رحمه الله: عقيدة أهل السنة: أن الشرك غير مغفور البتة، وما يونه من الكبائر مغفور، لمن يشاء الله أن يغفر له، هذا مع عدم التوبة، وأما مع التوبة، فكلاهما مغفور، الآية إنما ورتت فيمن لم يتب، ولم ينكر فيها توبة كما ترى، فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة للشرك، وأثبت مغفرة ما يونه، مقرونة بالمشيئة، فأما أن يكون المراد فيها من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما، بتعليق المغفرة في أحدهما بالمشيئة، وتعليقها بالآخر مطلقاً، إذ هما سيان في استحالة المغفرة، وإما أن يكون المراد فيهما: التائب، فقد قال في الشرك: إنه لا يغفر، والتائب من الشرك مغفور له، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما عن الآخر، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة، ومع الكبائر التوبة، حتى تنزل الآية =

= على وفق معتقده، فيحملها أمرين، لا تحمل واحداً منهما. أحدهما: إضافة التوبة إلى المشيئة، وهي غير منكورة، ولا دليل عليها فيما نكر، وأيضاً لو كانت مرادة، لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلاً، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل، فكيف يليق السكوت عن نكر ما هو العمد والموجب ونكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الرديء. الثاني: أنه بعد تقريره التوبة، لاحتكم فقدها على أحد القسمين بون الآخر، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأي، نعوذ بالله من ذلك، وأما القدرية، فهم بهذا المعتقد، يقع عليهم المثل السائر: السيد يعطي، والعبد يمنع؛ لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة، للصر على الكبائر إن شاء، وهم يدفعون في وجه هذا التصريح، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح، والصالح التي هي بالفساد أجبر وأحق.

يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم، فقال: **﴿إم لهم نصيب من الملك﴾** على أن أم منقطعة⁽³⁾، ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك. ثم قال: **﴿فإن لا يؤتون﴾**، أي: لو كان لهم نصيب من الملك، فإن لا يؤتون أحدا مقدار نقيير لفرط بخلهم.

والنقيير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل والقطمير، والمراد بالملك: إمّا ملك أهل الدنيا، وإمّا ملك الله، كقوله تعالى: **﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق﴾**⁽⁴⁾ وهذا أوصف لهم بالشح وأحسن لطباقة نظيره من القرآن، ويجوز أن يكون معنى الهمزة في **﴿إم﴾** لإنكار أنهم قد أوتوا نصيباً من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة، كما تكون أحوال الملوك، وأنهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئاً. وقرأ ابن مسعود: **﴿فإن لا يؤتوا﴾** على إعمال إذا عملها الذي هو النصب، وهي ملغاة في قراءة العامة. كأنه قيل: فلا يؤتون الناس نقيراً إذا.

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

﴿إم يحسدون للناس﴾ بل أيسدون ورسول الله ﷺ والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه، وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم. **﴿فقد آتينا﴾** إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة. **﴿آل إبراهيم﴾** الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتاه الله مثل ما أتى أسلافه. وعن ابن عباس: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان. وقيل: استكثرُوا نساءه. فقيل لهم: كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلثمائة مهيرة وسبعمائة سرية.

قَوْمَهُمْ مِّنْ ءَامَنَ بِهِمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

﴿فمنهم﴾ فمن اليهود **﴿من آمن به﴾**، أي: بما نكر من حديث آل إبراهيم. **﴿ومنهم من صد عنه﴾** وأنكره مع علمه بصحته، أو من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر. كقوله: **﴿فمنهم مهتو وكثير منهم فاسقون﴾**⁽⁵⁾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودَهُمْ بَذَلَّتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿بصلبناهم جلوداً غيرها﴾ أبصناهم إياها.

﴿فإن قلت﴾ كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم

﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقيل: جاء رجال من اليهود إلى رسول الله ﷺ باطفاهم، فقالوا: هل على هؤلاء نيب؟ قال: لا، قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار⁽¹⁾. فنزلت. ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله.

﴿فإن قلت﴾ أما قال رسول الله ﷺ: **﴿والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض﴾**⁽²⁾. قلت: إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل في القسمة، إذ نادياً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه، وشتان من شهد الله له بالزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم. **﴿بل الله يزكي من يشاء﴾** إعلم بأن تزكية الله هي التي يعتد بها لا تزكية غيره، لأنه هو العالم بمن هو أهل للزكية، ومعنى يزكي من يشاء، يزكي المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به. **﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾** أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم، ونحوه: **﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾**.

أَنْظُرْ كَيْفَ يَتَرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٧﴾

﴿كيف يفترون على الله بالكذب﴾ في زعمهم أنهم عند الله أذكيا، **﴿وكفى﴾** بزعمهم هذا **﴿إثماً مبيناً﴾** من بين سائر آثامهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِ اللَّهُ عَنْهُمْ كُفْرَهُمْ وَلَٰكِنَّ كُفْرَهُمْ لَم يُغْنِهِمْ شَيْئًا ﴿٥٩﴾

الجبت: الأصنام وكل ما عبد من نون الله، والطاغوت الشيطان. وذلك أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. فهذه إيمانكم **﴿بالجبت والطاغوت﴾** لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: نحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك. قال: وما بينكم؟ قالوا: نحن ولادة البيت ونسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني، ونكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلاً.

أَمْ لَهُمْ نَبِيٌّ مِّنَ الْأَمْثَلِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَبِيًّا ﴿٦٠﴾

وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شرّ خصلتين،

(4) سورة الإسراء، الآية: 100.

(5) سورة الحديد، الآية: 26.

(1) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(2) قال الزيلعي غريب، 327/1.

(3) أي: تفسر ببل والهمزة.

الامانات والعدل في الحكم. وقرئ: نعماً بفتح النون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٨٩).

لما أمر الولاة بإداء الامانات إلى أهلها وإن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضايهم، والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق لأن أمراء الجور: الله

ورسوله بريئان منهم. فلا يعطون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل، واختيار الحق والأمر بهما، والنهي عن أضادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم

بإحسان، وكان الخلفاء يقولون: اطيعوني ما عدلت فيكم فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: أستم أمرتم بطاعتنا في قوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ قال: ليس قد نزعتم عنكم إذا خالفتكم الحق، بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله

والرسول﴾ وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميرى فقد أطاعني، ومن يعص أميرى فقد عصاني» (3). وقيل: هم العلماء الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم

في شيء من أمور الدين ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جرح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك وهو أن أمرهم أولاً بإداء الامانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخر بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما

أشكل. وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل ولا يربون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهب بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم للصوص المتغلبة. ﴿تلك﴾ إشارة إلى الرد، أي: الرد إلى الكتاب والسنة. ﴿خير﴾ لكم وأصلح، ﴿وأحسن تأويلاً﴾ وأحسن عاقبة. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَزَقْتُم مِّنْهُم مَّا مَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا يُزِيلُ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَّكُمُوا إِلَى الْكُلْفِ وَقَدْ أُنذِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٩٠).

روي: أن بشراً المنافق خاصم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، ففضلى لليهودي فلم

تعص؟ قلت: العذاب للجملة الحساسة وهي التي عصت لا للجلد. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج. وعن رسول الله ﷺ: «تبدل جلودهم كل يوم سبع مرّات» (1). وعن الحسن: سبعين مرّة يتبدلون جلوداً بيضاء كالقراطين.

﴿ليذوقوا العذاب﴾ ليذوق لهم نوقه ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك الله، أي: أدامك على عزك وذاك فيه.

﴿عزيزاً﴾ لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، ﴿حكيماً﴾ لا يعجب إلا بعدل من يستحقه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَدُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٩٧).

﴿ظليلاً﴾ صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل الليل ويوم يوم وما أشبه ذلك. وهو ما كان فينانياً لا جوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس وسجسجاً لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفتيح تحت ذلك الظل. وفي قراءة عبد الله: سيذخلهم بالياء.

إِنَّ اللَّهَ بِأُمَّرِكُمْ أَن تُوَدُّوا الْأَمْثَلِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأًا بَصِيرًا (٩٨).

﴿أن تؤدوا الامانات﴾ الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة. وقيل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة، وذلك أن رسول الله ﷺ حين نخل مكة يوم

الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يفتح المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمتعه. فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذ منه، وفتح، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأل

العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت. فامر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه. فقال عثمان لعلي: أكرهت وأنتيت ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً. وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فهبط

جبريل وأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبداً (2). وقيل: هو خطاب للولاة بإداء الامانات. والحكم بالعدل. وقرئ: الامانة على التوحيد. ﴿نعماً يعظكم به﴾

ما إما أن تكون منصوبة موصوفة بيعظكم به، وإما أن تكون مرفوعة موصولة به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح محنوف، أي: نعماً يعظكم به ذاك وهو المأمور به من أداء

(1) قال الزبيدي غريب 1/328.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص: 90.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: يقاتل من وراء =

= الإمام الحديث رقم: (2957)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب:

وجوب طاعة الأمراء... الحديث رقم: (4726).

عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله. وقيل: جاء أولياء المناق يطلبون بدمه وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالتنا أنه يحكم له بما حكم به.

أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَمَلِكُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾.

﴿فاعرض عنهم﴾ لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم ولا تزد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه. ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار.

﴿فإن قلت﴾⁽²⁾ بم تعلق قوله: ﴿في أنفسهم﴾؟ قلت: بقوله: ﴿بليغاً﴾ أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغمتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً؛ وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، وأطلع قرنه وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وسراركم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف، أو يتعلق بقوله: ﴿قل لهم﴾ أي: قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً، وإن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغني عنكم إبطانه فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداوواها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشر من انتقامه وشرأ من ذلك وأغلظ، أو قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم مسازراً لهم بالنصيحة؛ لأنها في السرائع وفي الإمحاض أدخل ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾.

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ وما أرسلنا رسولا قط ﴿إلا ليطاع بإذن الله﴾ بسبب إذن الله في طاعته وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عن الله فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في

يرض المناق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه، فقال للمناق: كذلك. قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المناق حتى برد ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت. وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل. فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق».

والطاغوت: كعب بن الأشرف سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم﴾. وقرئ: بما أنزل وما أنزل على الباء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل: أن يكفروا بها ذهاباً بالطاغوت إلى الجمع كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم﴾⁽¹⁾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٥﴾.

وقرأ الحسن: تعالوا بضم اللام على أنه حذف اللام من تعاليت تخفيفاً، كما قالوا: ما باليت به بالة، وأصلها بالية كعافية. وكما قال الكسائي: في آية إن أصلها آية فاعلة فحذفت اللام فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت فصار تعالوا نحو تقدموا. ومنه قول أهل مكة: تعالي بكسر اللام للمرأة. وفي شعر الحمداني: تعالي أقاسمك الهموم تعالي والوجه فتح اللام.

كَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَهُمْ لِآيَاتِنَا ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَلَّا نَحْسَبَنَّكَ تَوْفِيقًا ﴿١٦﴾.

﴿فكيف﴾ يكون حالهم وكيف يصنعون، يعني: أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه. ﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم. ﴿ثم جاءوك﴾ حين يصابون فيتعذرون إليك، ﴿ويخلفون﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك. ﴿إلا إحساناً﴾ لا إساءة ﴿وتوفيقاً﴾ بين الخصمين، ولم يرد مخالفة لك ولا تسخفاً لحكمك، ففرج عنا بدعائك، وهذا وعيد لهم على فعلهم وأنهم سيندمون

== لا تكون مؤاخبتهم بها، مانعة من نصحهم ووعظهم، ثم جاء قله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ كالشرح للوعظ، ولذكر أهم ما يعظم فيه، وتلك نفوسهم التي علم الله ما انطوت عليه من المذام، وعلى هذا يكون المراد: الوعظ وما يتعلق به، وأما الثالث، فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام، لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم، وتسميتهم له بأسمائهم، وأخباره في هذا المعنى كثيرة.

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

(2) قال احمد: ولكل من هذه التاويلات شاهد على الصحة، أما الأول، فلأن حاصله أمره بتهديدهم، على وجه مبلغ صميم قلوبهم، وسياق التهديد في قوله: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك﴾ يشهد له، فإنه أخبر بما سيق لهم على سبيل التهديد، وأما الثاني، فيلائمه من السياق قوله: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني ما انطوت عليه من الخبث، والمكر، والحيل، ثم أمره بوعظهم، والإعراض عن جرائمهم، حتى =

خالصةً. و «تسليماً» تأكيد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظاهرم وباطنهم. قيل: نزلت في شأن المنافق واليهودي⁽⁶⁾. وقيل: في شأن الزبير وحاطب بن أبي بلتعة، وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة كانا يسقيان بها النخل، فقال: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك». فغضب حاطب وقال: لأن كان ابن عمك. فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقه ثم أرسله إلى جارك»⁽⁷⁾. كما قد أشار على الزبير برأي فيه السعة له ولخصمه، فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد، فقال له: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصاري: قضى لابن عمته، ولوى شذقه. ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل الله هؤلاء يشهلون أنه رسول الله ثم يتهمون في قضاء يقضي بينهم، وأيم الله لقد أنذنا نبياً مرةً في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا، فبلغ قتلتنا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شمس: أما والله إن الله ليعلم مني الصق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها. وروي أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»⁽⁸⁾. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: والله لو أمرنا ربنا لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك، فنزلت الآية في شأن

طاعته. «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم» بالتحاكم إلى الطاغوت «جاءوك» تائبين من التفات متصلين عما ارتكبوا، «فاستغفروا الله» من ذلك بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيدائك برداً قضائك حتى انتصبت شفيحاً لهم إلى الله ومستغفراً. «لوجدوا الله تواباً» لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه⁽¹⁾ إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وتببها على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُكَلِّمُوكَ رِيسًا مَّحَرَّ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥﴾.

﴿فلا وربك﴾ معناه: فوريك، كقوله تعالى: ﴿فوريك لنسألهم﴾⁽²⁾. ولا مزيدة لتأكيد⁽³⁾. معنى القسم كما زينت في ﴿لئلا يعلم﴾⁽⁴⁾ لتأكيد وجوب العلم، و ﴿لا يؤمنون﴾ جواب القسم.

فإن قلت: ملا زعمت أنها زيدت لتظاهر لا في ﴿لا يؤمنون﴾ قلت: يابى ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم﴾⁽⁵⁾ ﴿فيما شجر بينهم﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿حرجاً﴾ ضيقاً، أي: لا تضيق صدورهم من حكمك. وقيل: شكاً لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين. ﴿ويسلموا﴾ وينقادوا ويذعنوا لما تأتي به من قضائك لا يعارضوه بشيء، من قولك: سلم لأمر الله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها إذا جعلها سالمة له

= المنكور، وقد قرّر الزمخشري هذا المعنى في دخول «لا» عند قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ على وجه مجمل هذا بسطه وإيضاحه، فإذا بين ذلك، فهذا الوهم الذي يراد إزاحته في القسم بغير الله، مندفع في الإقسام بالله، فلا يحتاج إلى دخول «لا» مؤكدة للقسم، فيتعين حملها على الموطئة، ولا تكاد تجدها في غير الكتاب العزيز داخلة على قسم مثبت، وأما دخولها في القسم وجوابه نفي، فكثير مثل:

فلا وأبيك ابنة الحامر ي لا يدعي القوم أنني أقر وكقوله:

الا نانت أمامة باحتمال لتحزنني فلا بك ما أبالي وقوله:

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل ولا أقاما وقوله:

حلف فلا والله تهبط تلعة من الأرض إلا أنت للذل عارف وهو أكثر من أن يحصى، فتأمل هذا الفصل، فإنه حقيق بالتأمل.

(4) سورة الحديد، الآية: 29.

(5) سورة الحاقة، الآيات: 38 - 40

(6) الواحدي في أسباب النزول ص 93.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: المساقاة، باب: سكر الأنهار الحديث (2359)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب اتباعه ﷺ، الحديث (6065).

(8) أخرجه التعلبي في تفسيره.

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع من الالتفات خصوصية، وهي لشماله على نكر صفة مناسبة لما أضيف إليه، وذلك زائد على الالتفات، بنكر الاعلام الجامدة، والله الموفق.

(2) سورة الحجر، الآية: 92.

(3) قال أحمد: يشير إلى أن لا لما زيدت مع القسم، وإن لم يكن المقسم به، دل ذلك على أنها إنما تدخل فيه، لتأكيد القسم، فإذا دخلت حيث يكون المقسم عليه نفيًا، تعين جعلها لتأكيد القسم طرداً للباب، والظاهر عندي، والله أعلم، أنها هنا لتوطئة للنفي المقسم عليه، والزمخشري لم ينكر مانعاً من ذلك، وحاصل ما نكره: مجيئها لغير هذا المعنى في الإثبات، وذلك لا يابى مجيئها في النفي على الوجه الآخر من التوطئة، على أن في دخولها على القسم المثبت نظراً، وذلك أنها لم ترد في الكتاب العزيز، إلا مع القسم، حيث يكون بالفعل مثل: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ ولم تدخل أيضاً إلا على القسم بغير الله تعالى، ولذلك سر يابى كونها في أية النساء لتأكيد القسم، ويعين كونها للتوطئة، وذلك أن المراد بها في جميع الآيات التي عدناها: تأكيد تعظيم المقسم به، إذ لا يقسم بالشئ، إلا إعظاماً له، فكانه يدخلها يقول: إن إعظامي لهذه الأشياء بالقسم بها كلا أعظام، يعني: أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك، وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعاً، لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم وللإقسام بها، فيزاح هذا الوهم بالتأكيد في إبراز فعل القسم، مؤكداً بالنفي =

حاطب ونزلت في شان هؤلاء.

وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ نَتْمَلَّأُوا مِنْكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلْنَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَمَا يُوعِظُونَ بِهٖ إِلَّا كَمَا يُوعِظُونَ أَوْلَادَهُمْ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا إِنَّا أَكُنَّا بِآيَاتِكَ لَافْتِنَاءً ﴿١٦١﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتتلوا انفسكم﴾ أي لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم انفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتبوا من عبادة العجل ﴿ما فعلوه إلا﴾ ناس ﴿قليل منهم﴾ وهذا توبيخ عظيم، والرفع على البذل من الواو وفي فعلوه، وقرئ: إلا قليلاً بالنصب على أصل الاستثناء، أو على إلا فعلاً قليلاً ﴿ما يوعظون به﴾ من اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. ﴿لكن خيراً لهم﴾ في عاجلهم وأجلهم. ﴿وأشد تفتيناً﴾ لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه.

وَإِذَا لَآتَيْتَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾

﴿وإذا﴾ جواب السؤال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت، فقيل: وإذا لو ثبتوا ﴿لأتيناهم﴾ لأن إذا جواب جزاء. ﴿من لنا أجراً عظيماً﴾ كقوله: ﴿وربوت من لئنه أجراً عظيماً﴾⁽¹⁾ في أن المراد العطاء المتفضل به من عنده، وتسميته أجراً لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته.

وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾

﴿ولهديناهم﴾ وللطفا بهم ووقفناهم لازدياد الخيرات. وَمَنْ يُبِغِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رِيفًا ﴿١٩﴾

الصديقون: أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا في تصديقهم كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم. وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة حيث وعدوا مراقبة

أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده. ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ فيه معنى المتعجب، كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقاً، ولا استقلاله بمعنى التعجب قرئ: وحسن بسكون السين. يقول المتعجب حسن الوجه وجهك، وحسن الوجه وجهك بالفتح والضم مع التسكين، والرفيق كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه. ويجوز أن يكون مفرداً بين به الجنس في باب التمييز. وروي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فاتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: يا رسول الله ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، فنكرت الآخرة فختت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإن انخلت الجنة كنت في منزل دون منزل، وإن لم انخل فذاك حين لا أراك أبداً. فنزلت: فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين»⁽²⁾. وحكي نلك عن جماعة من الصحابة.

ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧﴾

﴿نلك﴾ مبتدا و﴿الفضل﴾ صفة، و﴿من الله﴾ الخبر، ويجوز أن يكون نلك مبتداً والفضل من الله خبره، والمعنى: أن ما أعطي المطيعون من الأجر⁽³⁾ العظيم ومراقبة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم. ﴿وكفى بالله عليمًا﴾ بجزاء من اطاعه، أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه، وكفى بالله عليمًا بعباده فهو يوفقه على حسب أحوالهم.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عُدُورًا فَانزِلُوا مِنَّا آيَاتٍ أَوْ أَنْزِلُوا جِيحًا ﴿٧﴾

﴿خنوا حذرکم﴾ الحذر والحذر بمعنى كالأثر والأثر، يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آتة التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه، والمعنى:

= المطيعين في طاعتهم، وتمييزهم بأعمالهم، وجعل معنى كونها فضلاً من الله أنه وفقهم لاكتسابها، ومكثهم من ذلك لا غير، يعني: أما إحدائهم فيقدرهم، وهذا من الطراز الأول، والحق أن الكل أيضاً فضل من الله بكل اعتبار؛ لأن معتقنا معاشر أهل السنة، أن الطاعات والأعمال التي يتميز هؤلاء الخواص، خلق الله تعالى وقوله، وأن قدرهم لا تأثير لها في أعمالهم، بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات، ويثيبهم عليها، فالطاعة إذا من فضله، وثوابها من فضله، فله الفضل على كل حال، والمنة في الفاتحة والمآل، وكفى بقول سيد البشر في تلك حجة وقودة، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته». قيل: ولا أنت يا رسول الله! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة، قل بفضل الله وبرحمته». فبذلك فليفرحوا، اللهم اختم لنا باقتناء السنة، وأنخلنا بفضلك المحض الجنة.

(1) سورة النساء، الآية: 40.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ الحديث (1380)، وأخرجه الطبراني في الصغير الحديث (52).

(3) قال أحمد: عقيدة أهل السنة، وأن المطيع لا يستحق على الله بطاعته شيئاً، وأنه مهما أتى به من دخول الجنة والنجاة من النار، فذاك فضل من الله لا عن استحقاق ثابت، فهم يقرؤون هذه الآية في رجائها، وأما القدرية، فيزعمون أن المطيع يستوجب على الله ثواب الطاعة، وأن المقابل لطاعته من الثواب أجر مستحق، كالأجرة على العمل في الشاهد، ليس بفضل، وإنما الفضل ما يزيده العبد على حقه من أنواع الثواب، وصنوف الكرامة، فلما وردت هذه الآية، ناطقة بأن جملة ما يناله عباد الله فضل من الله، اضطر الزمخشري إلى ردها إلى معتقده، فجعل الفضل المشار إليه، هو الزيادة التابعة للثواب، يعني: المستحق، ثم اتسع في التأويل، ففكر وجهاً آخر، وهو: أن يكون المشار إليه مزاياء هؤلاء =

بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾.

﴿يشرون﴾ بمعنى يشترون ويبيعون، قال ابن مفرغ: وشريت بردا ليتني من بعد برد كنت هامة فالذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطلون، وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد، والذين يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الأجلة على العاجلة، ويستبطلونها بها، والمعنى أن صد الذين مرضت قلوبهم، وضعت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون. ووعد المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَعْمَالُ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٧﴾.

﴿والمستضعفين﴾ فيه وجهان: أن يكون مجروراً عطفاً على سبيل الله، أي: في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين. ومنصوباً⁽³⁾ على الاختصاص، يعني: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين، لأن سبيل الله عام في كل خير وخلص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستنذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد، وكانوا يدعون الله بالخلص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لئنه خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فراوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس: كان ينصر الضعيف من القوي حتى كانوا أعز بها من الظلمة.

فإن قلت: لم ذكر الولدان؟ قلت: تسجيلاً بإفراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لأبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء. وعن ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ويجوز أن

أحزنوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسهم. ﴿فانفروا﴾ إذا نفرتم إلى العدو إما ﴿ثبات﴾ جماعات متفرقة سرية بعد سرية، وإما ﴿جميعاً﴾ أي: مجتمعين كوكبة واحدة، ولا تتخانلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ: فانفروا بضم الفاء.

وَأِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَدِلَ الْإِيمَانَ فَيُدْخِلَكُمُ فِيهِ كُفْرًا وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ سَاءَ الَّذِي يَبْدِلُ إِيمَانَهُ بِكُفْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾.

اللام في ﴿لمن﴾ للإبتداء بمنزلتها في قوله: ﴿إن الله لغفور﴾⁽¹⁾ وفي ﴿ليبدلن﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبدلن، والقسم وجوابه صلة من، والضمير الرجاع منها إليه ما استكن في ليبدلن، والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، والمبطلون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقاً. ومعنى: ليبدلن ليتناقلن وليتخلفن عن الجهاد، وبطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى اعتم إذا أبطأ. وقرئ: ليبدلن بالتخفيف، يقال: بطأ على فلان وأبطأ على، ويطؤ نحو ثقل. ويقال: ما بطأ بك، فيعدي بالباء، ويجوز أن يكون منقولاً من بطؤ نحو ثقل من ثقل، فيراد ليبدلن غيره وليبدلنه عن الغزو، وكان هذا بين المنافق عبد الله بن أبي موسى الذي ثبت الناس يوم أحد. ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾⁽²⁾ من قتل أو هزيمة.

وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُقْبِلَ الْإِيمَانَ فَيُدْخِلَكُمُ فِيهِ كُفْرًا وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ سَاءَ الَّذِي يَبْدِلُ إِيمَانَهُ بِكُفْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٧٩﴾.

﴿فضل من الله﴾ من فتح أو غنيمة. ﴿ليقولن﴾، وقرأ الحسن: ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من لأن قوله: لمن ليبدلن في معنى الجماعة، وقوله: ﴿كان لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ اعتراض بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله وهو ﴿يا ليتني﴾، والمعنى: كان لم تتقدم له محكم مودة لأن المنافقين كانوا يوافقون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر وإن كانوا يبيعون لهم الغوائل في الباطن، والظاهر أنه تهكم لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم. وقرئ: فاقوز بالرفع، عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم، والفوز معنى التمني فيكونا متمنيين جميعاً، ويجوز أن يكون خبر مبتداً محذوف، بمعنى: فانا اقوز في ذلك الوقت.

﴿فليقتل في سبيل الله الذين يشرون الحيوة الدنيا

= بيان شاف إن شاء الله تعالى.

(3) قال أحمد: وفيه على هذا، مبالغة في الحث على خلاصهم من جهتين، إحداهما: التخصص بعد التعميم، فإنه يقتضي إضمار الناصب الذي هو: اختص، ولولا النصب، لكان التخصص معلوماً من إفراده بالترك، ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم، بأن أخرجه إلى النطق.

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وفي هذه القراءة نكتة غريبة، وهي: الإعادة إلى لفظ، من بعد الإعادة إلى معناها، وهو مستغرب، أترك بعضهم وجوده في الكتاب العزيز، لما يلزم من الإجمال بعد البيان، وهو خلاف قانون البلاغة، إذ الإعادة إلى لفظها، ليس بمفصع عن معناها، بل تناوله للمعنى محمل مبهم، فوقعه بعد البيان عسر، ومنهم من أثبت، وعد موضعين، وهذه الآية على هذه القراءة ثالث، وسياتي =

القتال ﴿بالمدينة كع فريق منهم لا شكاً في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفاً من الموت.﴾

﴿خشية الله﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول. فإن قلت⁽²⁾: ما محل ﴿خشية الله﴾ من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في يخشون، أي: يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله. ﴿أو أشد خشية﴾، بمعنى: أو أشد خشية من أهل خشية الله، وأشد مطوف على الحال.

فإن قلت: لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر، ولم تقدّر يخشون خشيةً مثل خشية الله، بمعنى: مثل ما يخشى الله؟ قلت: أبى ذلك قوله: ﴿أو أشد خشية﴾ لأنه وما عطف عليه في حكم واحد، ولو قلت: يخشون الناس أشد خشية لم يكن إلا حالاً عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر؛ لأنك لا تقول: خشي فلان أشد خشيةً فتنصب خشيةً وأنت تريد المصدر، وإنما تقول: أشد خشيةً فتجرها، وإذا نصبها لم يكن أشد خشية إلا عبارة عن الفاعل حالاً منه، اللهم إلا أن تجعل الخشية خاشية وذات خشية، على قولهم: جدّ جدّه، فتزعم أن معناه: يخشون الناس خشيةً مثل خشية الله، أو خشية أشد خشية من خشية الله، ويجوز على هذا أن يكون محل أشد مجروراً عطفاً على خشية الله، تريد: خشية الله، أو خشية أشد خشية منها. ﴿لولا أخرجتنا إلى أجل قريب﴾ استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر، كقوله: ﴿لولا أخرجتنا إلى أجل قريب فاصدق﴾⁽³⁾ ﴿ولا تظلمون فتبلاً﴾ ولا تتقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترضوا عنه. وقرئ: ولا يظلمون بالياء.

﴿كفوا أيديكم﴾ أي: كفوها عن القتال، وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه. ﴿فلما كتب عليهم

يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرث، وبالولدان العبيد والإماء، لأن العبد والأمة يقال لهما: الوليد والوليدة. وقيل للولدان والولائد: الولدان، لتغليب الذكور على الإناث، كما يقال الآباء والإخوة.

فإن قلت⁽¹⁾: لم نكر الظالم وموصوفه مؤنث؟ قلت: هو وصف للقرية إلا أنه مسند إلى أهلها، فاعطي إعراب القرية لأنه صفتها، ونكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها؟ ولو أنت فقيل: الظالمة أهلها لجان، لا لتأنيث الموصوف، ولكن لأن الأهل يذكر ويؤنث.

فإن قلت: هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها؟ قلت: نعم كما تقول: التي ظلموا أهلها، على لغة من يقول: اكلوني البراغيث. ومنه: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُثَبِّتُونَ فِي سَبِيلِ الْكُفْرِ فَيَقِيلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

رغب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله فهو وليهم وانصرهم، وأعدائهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأْمُرُوا بِالْعَدْلِ وَأَنزِلُوا الزُّكُوفَ مَنَافَا كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْقِنَالُ إِذَا رُفِعُوا مِنْهُمِ يَخْتُونَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً وَقَالُوا لَوْلَا كُنْتُمْ عَلَيْنَا لَوْلَا أَعْرَجْنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ اللَّهُ مَا كَانَ كَيْدًا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَئِنِ اتَّفَقُوا عَلَى كَيْدٍ لَّيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمُ السُّبُلَ وَمَنْعَ اللَّهُ مَا كَانَتْ يَدَاكَ لِتَفْعَلَ مَا يَشَاءُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٧٧﴾

﴿كفوا أيديكم﴾ أي: كفوها عن القتال، وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه. ﴿فلما كتب عليهم

خشي فلان خشية أشد خشية، فتوقع خشية الثانية على الأولى، وإن نصبتها، فهو كما قلت: زيد أشجع رجلاً، فأوقعت رجلاً على زيد، وإن كنت نصيبته، فهو على الأصل أن تقول: أشد خشية، فتجرها، كما كان الأصل أن تقول: زيد أشجع رجل فتجره، وما منع الزمخشري من النصب مع وقوعه على المصدر، إلا أن مقتضى النصب في مثله، خروج المنصوب عن الأول، بخلاف المجرور، لا تترك تقول: زيد أكرم أباً، فيكون زيد من الأبناء، وأنت تفضل أباه، وتقول: زيد أكرم أب، فيكون من الأبناء، وأنت تفضله، فلو ذهبت توقع أشد على الخشية الأولى، وقد نصبت ميمها، لزم خروج الثاني عن الأول، وهو محال، إذ لا تكون الخشية خشية، فنتحتاج إلى التاويل المنكسر، وهو: جعل الخشية الأولى خاشية، حتى تخرجها من المصدر المميز لها، وقد بينا في كلام سيبويه جواز النصب، مع وقوع الثاني على الأول، كما لو جررت، فمثل يجوز في الآية من غير تاويل، والله أعلم. وقد مضت وجوه من الإعراب في آية البقرة، يتعذر بعضها هنا، لمنافرة المعنى، والله الموفق. ومثل هذه الأنواع من الإعراب، منزل من العربية، منزلة اللب الخالص، فلا يوصل إليها، إلا بعد تجاوز جملة القشور، وربك الفتاح العليم.

(3) سورة المنافقون، الآية: 10.

(1) قال أحمد: ووقفت على نكتة في هذه الآية حسنة، وهي: أن كل قرية نكرت في الكتاب العزيز، فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز، كقوله: ﴿وضرب الله مثلاً قرية آمنة مطمئنة﴾ إلى قوله: ﴿وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها﴾. وأما هذه القرية في سورة النساء، فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة؛ لأن المراد بها مكة، فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها، شرفها الله تعالى: ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

(2) قال أحمد: وقد مرّ نظير هذه الآية في الإعراب، وهو قوله تعالى: ﴿فإنكروا الله كترككم آباءكم وأشدّ نكراً﴾ وقد قرأ الزمخشري، ثم ما أذن له هنا، وهو الجرّ عطفاً على الذكر وبيننا، ثم جوازه بالتاويل الذي ذكره الزمخشري هنا، وهو إلحاقه بباب جدّ جده، وأصل هذا الإعراب لأبي الفتح، وقد بينت جواز الجرّ عطفاً على الذكر، من غير احتياج إلى التاويل المنكسر، وأجرى مثله هنا، وهو وجه حسن، استنبطته من كتاب سيبويه، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمنني، والله الموفق. الذي نكر سيبويه جواز قول القائل: زيد أشجع الناس رجلاً، ثم قال سيبويه: فرجل واقع على المبتدأ، ولك أن تجره فقول: زيد أشجع رجل، وهو الأصل، أنتهى المقصود من كلام سيبويه، وإذا بنيت عليه، جاز أن تقول: خشي فلان أشد خشية، فتنصب الخشية، أنت تريد المصدر، كانك قلت: =

ثم قال: ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ يا إنسان؟ خطاباً عاماً ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾، أي: من نعمة وإحسان. ﴿فَمَنْ اللَّهُ﴾ تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أي: من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما اكتسبت يدك، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (5). وعن عائشة رضي الله عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها حتى انقطاع شسع نعله إلا بننّب وما يعفو الله أكثر. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: رسولاً للناس جميعاً، لست برسول العرب وحدهم أنت رسول العرب والعجم، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. ﴿وَوَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٧﴾.

﴿مَنْ يطع الرسول فقد اطاع الله﴾ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، فكانت طاعته في امتثال ما أمر به والانتفاء عما نهى عنه طاعة لله. وروي أنه قال: من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله. فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارب الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله، ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذة رباً كما اتخذت النصراني عيسى. فنزلت ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فأعرض عنه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا نَذِيرًا﴾ (6)، لا حفيظاً ومهيماً عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم، كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (7).

وَيَتَوَلَّوْكَ طَاعَةً فَإِنَّا بَرُّوْنَا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِعَةٌ مِنْهُمْ عَيْرَ الَّذِي تَتَوَلَّىٰ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُشِئُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٨﴾.

﴿ويقولون﴾ إذا امرتهم بشيء ﴿طاعة﴾ بالرفع، أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز النصب بمعنى: اطعنك طاعة، وهذا من قول المرتسم: سمعاً وطاعة، وسمع وطاعة، ونحوه قول سيبويه، وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم

عِنْدَكَ قُلْ كُلٌّ رَّبٌّ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا بَكَدُونَ يَقْفَهُونَ حَرِيثًا ﴿٨٧﴾.

قري⁽¹⁾: يدرككم بالرفع. وقيل: هو على حذف الفاء، كأنه قيل: فيدرككم الموت، وشبهه بقول القتال:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

ويجوز أن يقال: حمل على ما يقع موقع أينما تكونوا وهو أينما كنتم كما حمل ولا ناعب على ما يقع موقع ليسوا مصلحين وهو ليسوا بمصلحين، فرفع كما رفع زهير:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

وهو قول نحوي سيبوي، ويجوز أن يتصل بقوله: ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم. أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها. ثم ابتدا قوله: ﴿يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ والوقف على الوجه على أينما تكونوا. والبروج: الحصون. مشيدة: مرفعة. وقري: مشيدة، من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص، وقرأ نعيم بن ميسرة: مشيدة بكسر الياء، وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً، كما قالوا قصيدة شاعرة، وإنما الشاعر فارضها. السيئة تقع على البلية والمعصية. والحسنة على النعمة والطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَيُولُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (2)، وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (3)، والمعنى: وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله، وإن تصبهم بلية من قحط وشدة أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك وما كانت إلا بشؤمك، كما حكى الله عن قوم موسى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾. وعن قوم صالح قالوا: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ (4). وروي عن اليهود لعنت أنها تشامت برسول الله ﷺ، فقالوا: منذ نخل المدينة نقصت ثمارها وغلث أسعارها، فرد الله عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح. ﴿لَا يَكُونُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٧﴾.

= يا أترع بن حابس يا أترع إنك إن يصرع أخوك تصرع فليس من قبيل، ولا ناعب، والله الموفق، وفي الوجه الأخير الذي أيداه الزمخشري حجة واضحة، على أن القتل في المعارك والملاحم، لا يعترض على الأجل المقدر بنقص، وإن كل مقتول، فيبجله مات، لا كما يزعمه القدرية، والله الموفق.

(2) سورة الاعراف، الآية: 168.

(3) سورة هود، الآية: 114.

(4) سورة النمل، الآية: 47.

(5) سورة الشورى، الآية: 30.

(6) سورة سبأ، الآية: 28.

(7) سورة الانعام، الآية: 107.

(1) قال أحمد: أما الوجه الذي الحقه بتوجيه سيبويه في الشعرين المذكورين، ففيه نظر، أما قوله: ولا ناعب، فمختار، فإن دخول الباء في خبر، ليس أم مطرد غالب، والخبر وطن معروف لها، فإذا قدرت فيه حيث تسقط، روعي هذا التقدير في المعطوف، لما نكرناه من الغلبة، التي تقتضي إلحاق دخولها بالأصل الواجب الذي يعتبر نطق به أو سكت عنه، وأما تقدير: ﴿أينما تكونوا﴾ في معنى كلام آخر يرتفع معه قوله: ﴿يُدْرِكُكُمُ﴾، فذلك تقدير لم يعهد له نظير، ولم يغلب هذا المقدر، فإلتحق بغلبة دخول الباء في الخبر، فلا يلزم من مراعاة ما يقتضيه غالب الاستعمال، ومعهوده مراعاة ما لم يسبق به عهد، وأما البيت الآخر لزهير، فالمنقول عن سيبويه حمله، أو حمل مثله على التقديم والتأخير، كقوله:

يَقَالُ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَيَقُولُ: حَمْدُ اللَّهِ وَثَنَاءُ عَلَيْهِ. كَأَنَّهُ قَالَ: أَمْرِي وَشَأْنِي حَمْدُ اللَّهِ، وَلَوْ نَصَبَ حَمْدُ اللَّهِ وَثَنَاءً عَلَيْهِ كَانَ مِنَ الْفِعْلِ، وَالرَّفْعُ يَدُلُّ عَلَى ثِبَاتِ الطَّاعَةِ وَاسْتِقْرَارِهَا. **بَيْتِ طَائِفَةٍ** زُورَتْ طَائِفَةٌ وَسَوَتْ، **غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ** خِلَافَ مَا قُلْتَ وَمَا أَمَرْتَ بِهِ، أَوْ خِلَافَ مَا قَالَتْ وَمَا ضَمَنْتَ مِنَ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ أَبْطَلُوا الرَّدَّ لَا الْقَبُولَ وَالْعَصِيَانَ لَا الطَّاعَةَ وَإِنَّمَا يَنَافِقُونَ بِمَا يَقُولُونَ وَيُظْهِرُونَ. وَالتَّبَيُّتُ: إِذَا مِنَ الْبَيْتِ لِأَنَّهُ قَضَاءُ الْأَمْرِ وَتَدْبِيرُهُ بِاللَّيْلِ، يُقَالُ: هَذَا أَمْرٌ بَيْتٌ لَبِيلٌ، وَإِنَّمَا مِنَ آيَاتِ الشَّعْرِ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَبْرِهَا وَيَسُوِّهَا. **وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يَبْتَئُونَ** يَثْبُتُهُ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ الْوَعْدِ، أَوْ يَكْتُبُهُ فِي جَمَلَةٍ مَا يُوحِي إِلَيْكَ فَيَطْلَعُكَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ، فَلَا يَحْسِبُونَ أَنَّ إِطْنَانَهُمْ يَغْنِي عَنْهُمْ **فَاعَرَضَ عَنْهُمْ** وَلَا تَحَنَّنَ نَفْسُكَ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ. **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** فِي شَأْنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفِيكَ مَعْرَتَهُمْ⁽¹⁾ وَيَنْتَقِمُ لَكَ مِنْهُمْ إِذَا قَوِيَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَعَزَّ أَنْصَارُهُ. وَقَرَأْ: بَيْتِ طَائِفَةٍ، بِالْإِدْغَامِ وَتَنْكِيرِ الْفِعْلِ، لِأَنَّ تَأْنِيثَ الطَّائِفَةِ غَيْرُ حَقِيقِي، وَلِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الْفَرِيقِ وَالْفَوْجِ.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجُدُوا فِيهِ أَخْلِقْنَا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾

تدبر الأمر: تأمله والنظر في إبطاره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه. **فَلَوْجِدُوا فِيهِ لَخْتَلَفَا كَثِيرًا** لَكَانَ الْكَثِيرُ مِنْهُ مَخْتَلَفًا مُتَنَاقِضًا قَدْ تَفَاوَتْ نَظْمُهُ وَبَلَغَتْهُ وَمَعَانِيهِ فَكَانَ بَعْضُهُ بِالْغَا حُدَّ الْإِعْجَابِ، وَبَعْضُهُ قَاصِرًا عَنْهُ يُمْكِنُ مَعَارَضَتُهُ، وَبَعْضُهُ إِخْبَارًا بِغَيْبٍ قَدْ وَافَقَ الْمَخْبِرَ عَنْهُ، وَبَعْضُهُ إِخْبَارًا مُخَالَفًا لِلْمَخْبِرِ عَنْهُ، وَبَعْضُهُ دَالًّا عَلَى مَعْنَى صَحِيحٍ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي، وَبَعْضُهُ دَالًّا عَلَى مَعْنَى فَاسِدٍ غَيْرِ مِلْتَمَثٍ فَلَمَّا تَجَاوَبَ كُلُّهُ بِبَلَاغَةِ مَعْجَزَةِ فَائِئَةِ لِقَوَى الْبَلْغَاءِ وَتَنَاصَرَ صِحَّةَ مَعَانٍ وَصَدَقَ إِخْبَارًا، عِلْمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا مَنْ عِنْدَ قَادِرٍ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ عَالِمٌ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِكَ وَكُوِّرُوهُ إِلَى الرُّسُولِ وَاللَّيْلُ أَوَّلُ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَمَلَمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَكَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لِاتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِكَ وَكُوِّرُوهُ إِلَى الرُّسُولِ وَاللَّيْلُ أَوَّلُ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَمَلَمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَكَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لِاتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَانَهُ عِلْيَاءَ نَارٍ أَوْ قَسَتْ بِشَقُوبِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: فَعَلُوا بِهِ الْإِذَاعَةَ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ أَذَاعِهِ. وَقَرَأْ: لَعَلَّمَهُ بِإِسْكَانِ اللَّامِ كَقَوْلِهِ: فَإِنَّ أَهْجَهُ يَضْرَجُ كَمَا ضَجْرُ بَازِلٍ مِنَ الْأَمِّ نَبْرَتْ صَفْحَتَاهُ وَغَارِبَهُ وَالنَّبِطُ: الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ أَوَّلَ مَا تَحْفَرُ، وَإِنْبَاطُهُ وَاسْتِنْبَاطُهُ إِخْرَاجُهُ وَاسْتِخْرَاجُهُ، فَاسْتَعِيرَ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ الرَّجُلُ بِفَضْلِ ذَهْنِهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّدَابِيرِ فِيمَا يَعْضَلُ بِهِمْ. **فَوَلُولُوا فَضَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ** (7) وَهُوَ إِسْرَالُ الرَّسُولِ وَإِنْزَالُ الْكِتَابِ وَالتَّرْفِيقِ **لِاتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ**

(1) قوله: معرفتهم، أي: إثمهم، وعبارة النسفي: مضرتهم، فحزب. (2) سورة الأعراف، الآية: 107 وسورة الشعراء، الآية: 32. (3) سورة النمل، الآية: 10 وسورة القصص، الآية: 31 (4) سورة الحجر، الآية: 92. (5) سورة الرضخ، الآية: 39. (6) قال أحمد: وفي اجتماع الهزمة والياء على التعديعية نظر: لأنهما متعاقبتان، وهو الذي اقتضى عند الزمخشري، قوله في الوجه الثاني: فعلوا الإذاعة، ليخرجها عن الباء المعاقبة للهزمة، ثم في هذه الآية تأتي لمن يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذبا، وخصوصاً عن مثل السرايا، والعناصر بين الأعداء، والمقيمين في

(7) قال أحمد: وفي تفسير الزمخشري هذا نظر، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة، التي وليها بناء على ظاهر الإعراب، وأغفل المعنى، وذلك أنه يلزم على ذلك، جواز أن ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه، وليس لله عليه في ذلك فضل، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك، وبيان لزومه، أن لولا =

لبقيت على الكفر. ﴿إلا قليلاً﴾ منكم أو إلا اتباعاً قليلاً.

فَنَبِّئْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفَّ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ
أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾.

لما ذكر في الآي قبلها تنبئهم عن القتال وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ إن أقرتوك وتركوك وحدك. ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾ غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإن الله هو ناصرك لا الجنود فإن شاء نصرك وحلك كما ينصرك وحولك الألواف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها فكره بعض الناس أن يخرجوا. فنزلت. فخرج وما معه إلا سبعون لم يلوا على أحد ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده. وقرئ: لا تكلف بالجزم على النهي، ولا تكلف بالنون وكسر اللام، أي: لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها. ﴿وحرض المؤمنين﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم. ﴿وعسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ وهم قريش وقد كف بأسهم، فقد بدأ لأبي سفيان وقال: هذا عام مجنب، وما كان معهم زاد إلا السويق ولا يلقون إلا عام مخضب فرجع بهم. ﴿والله لشد بأساً﴾ من قريش ﴿وواشد تنكيلاً﴾ تعديباً.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَوِيْبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُبْتَلِياً ﴿٨٥﴾.

الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم ودفعت بها عنه شر، أو جلبت إليه خير، وابتغيت بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله، ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق: أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع جارية، فغضب وردّها، وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلّم فيما بقي منها. وقيل:

الشفاعة الحسنة هي الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله. وعن النبي ﷺ: «من دعا أخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك» (1). فذلك النصيب، والدعوة على المسلم بصد ذلك «مقيتاً» شهيداً حفيظاً. وقيل: مقتدراً وأقوات على الشيء. قال الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن نغيت السوء عنه وكنت على إساءته مقيتاً
وقال السموال:

إلى الفضل أم علي إذا حو سبت إنني على الحساب مقيت
واشتقاقه من القوت؛ لأنه يمسك النفس ويحفظها.

وَإِذَا جِيءَ بِبَحْرَةٍ فَبِحَوْهَا أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَلِيمًا حَسِيبًا ﴿٨٦﴾.

الأحسن منها: أن تقول: وعليكم السلام ورحمة الله. إذا قال: السلام عليكم، وأن تزيد: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. وروي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك».

فقال الرجل: نقصنتني، فأين ما قال الله؟ وتلا الآية. فقال: «إنك لم تترك لي فضلاً فردت عليك مثله» (2). ﴿أو رُدُّوْهَا﴾ أو أجيبوها بمثلها. وردّ السلام ورجعه جوابه بمثله لأنّ المجيب يردّ قول المسلم ويكرره، وجواب التسليمة واجب والتخيير إنما وقع بين الزيادة وتركها. وعن أبي يوسف رحمه الله: من قال لآخر: أقرئ فلاناً السلام وجب عليه أن يفعل، وعن النخعي: السلام سنة، والردّ فريضة. وعن ابن عباس: الردّ واجب، وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردّون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة، ولا يردّ السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم والأذان والإقامة. وعن أبي يوسف: لا يسلم على

= حرف امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان، فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة، فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان، وعصيان الشيطان الداعي إلى الكفر، بأنفسهم لا بفضل الله، إلا تراك إذا قلت، لمن تذكره بحق عليه: لولا مساعدتي لك، لسلبت أموالك إلا قليلاً، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً في بقاء القليل للمخاطب، وإنما مننت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله، لا في كله، ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم، أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان، إلا بفضل الله تعالى عليه، أمّا قواعد أهل السنة، فواضح أنّ كل ما يعذب به العبد عاصياً للشيطان من إيمان وعمل وخير، مخلوق لله تعالى، وواقع بقدرته، ومنعم على العبد به، وأمّا المعتزلة، فهم وإنّ ظنوا أن العبد يخلق لنفسه، إيمانه، وطاعته، إلا أنهم لا يخالفون، في أنّ فضل الله منسحب عليه في ذلك؛ لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد، ذلك على زعمهم، ووفقه لإرادة الخير، فقد وضع لك تعذر

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، الحديث (86 - 2732).

(2) أخرجه الطبراني والبخاري.

كان الكذب أحلى على حنكه من الصلح. وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال: لو غرغرت لهواتك به ما فارقته، وقيل لكذاب: هل صدقت قط؟ فقال: لولا أنني صادق في قولي لا لقلتها. فكان الحكيم الغني الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم منزهاً عنه كما هو منزّه عن سائر القبائح.

﴿ نَمَّا لَكَ فِي النَّبِيِّينَ يَتَّبِعِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٨٧).

﴿فتبين﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً؟ روي أن قوماً من المنافقين استأنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البنو معتلين باجتماع المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلةً مرحلةً حتى لحقوا بالمشركين، فاختلّف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار. وقال بعضهم: هم مسلمون، وقيل: كانوا قوماً هاجروا من مكة ثم بدا لهم فرجعوا، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنا على دينك، وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد ثم رجعوا. وقيل: هم العرنيون الذين اغاروا على السرح وقتلوا يساراً. وقيل: هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفرقتم فيه فرقتين، وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم. ﴿واوه أركسهم﴾ أي: ردهم في حكم المشركين كما كانوا. ﴿بما كسبوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله ﷺ، أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه لما علم مرض قلوبهم. ﴿اتريدون أن تهدوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿من أضل الله﴾ من جعله (٥) من جملة الضلال وحكم عليه بذلك، أو خذله حتى ضل. وقرئ: ركسهم وركسوا فيها.

﴿وَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فُؤَدُهُمْ وَأَقْلُوبُهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ وَرَيْكًا وَلَا صَبْرًا ﴾ (٨٨).

﴿فتكونون﴾ عطف على تكفرون، ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى: ودوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة

لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري من غير عذر في حمام أو غيره. ونكر الطحاوي أن المستحب رد السلام على طهارة. وعن النبي ﷺ: أنه تيمم لرد السلام (١). قالوا: ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، ولا يسلم على أجنبية. ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر، وإذا التقيا ابتدرا. وعن أبي حنيفة: لا تجهر بالرد، يعني: الجهر الكثير. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم. أي: وعليكم ما قلتم» (٢). لأنهم كانوا يقولون: السلام عليكم. وروي: «لا تبتدئ اليهودي بالسلام» (٣) وإن بدأك فقل: وعليك». وعن الحسن: يجوز أن تقول للكافر: وعليك السلام، ولا تقل ورحمة الله فإنها استغفار. وعن الشعبي أنه قال لنصراني سلم عليه: وعليك السلام ورحمة الله. فقيل له في ذلك. فقال: ليس في رحمة الله يعيش. وقد رخص بعض العلماء في أن يبدأ أهل النمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم. وروي ذلك عن النخعي وعن أبي حنيفة: لا تبداه بسلام في كتاب ولا غيره. وعن أبي يوسف: لا تسلم عليهم ولا تصافحهم، وإذا دخلت فقل: السلام على من اتبع الهدى، ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه في دنياه. ﴿على كل شيء حسيباً﴾ أي: يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِنْ يَوْرِ أَلَيْمَمَ لَا رَبَّ يَوْمَئِذٍ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٨٧).

﴿لا إله إلا هو﴾ إما خبر للمبتدأ وإما اعتراض والخبر ليجمعكم، ومعناه: الله والله ليجمعكم ﴿إلى يوم القيامة﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة والقيام كالطالبة والطلاب وهي قيامهم من القبور، أو قيامهم للحساب، قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ (٤) ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لأنه عز وعلما صادق لا يجوز عليه الكذب، وذلك أن الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه، ووجه قبحه الذي هو كونه كذباً وإخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليجر منفعة أو يدفع مضرة، أو هو غني عنه إلا أنه يجهل غناه، أو هو جاهل بقبحه، أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالي بأيهما نطق، وربما

== بالسلام، الحديث (5626).

(4) سورة المطففين، الآية: 6.

(5) قال أحمد: هو بهذين الوجهين يفر من الحق والحقيقة، أما الحق، فلأن الله هو الذي خلق الضلال لمن ضل، إذ لا خالق إلا الله، وأما الحقيقة، فلأنها، أعني: الآية، اقتضت نسبة الأصل إلى فعل الله تعالى، فالتخيل في تحريف الفاعلية إلى التسبب، عدول عن الحقيقة إلى المجاز، وقد علمت الباعث له على هذا المعتقد، فلا نعیده.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: التيمم في الحضرة إذا لم يجد الماء الحديث (337)، ومسلم في كتاب: الحيض، باب: التيمم الحديث (820)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: التيمم في الحضرة الحديث (330).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: كيف الرد على أهل النمة بالسلام الحديث رقم: (6258)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام الحديث (5617).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب ==

صحيحة هي لله ورسوله لا لغرض من أغراض الدنيا مستقيمة ليس بعدها بدء ولا تعرب. ﴿فإن تولوا﴾ عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحل والحرم، وجانبوهم مجانبة كلية وإن بنلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

إِلَّا الَّذِينَ يَبُولُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبْرٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَبْرٌ سُدْرُهُمْ أَوْ يُبَلِّغُوكُمُ أَوْ يُبَلِّغُوا قَوْمَهُمْ وَلَا شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَمَقْتُلُوهُمْ فَإِنِ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُبَلِّغُوا وَأَقْرَأُوا إِلَيْكُمْ أَنَسَلُمْ مَا جَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١٧﴾.

﴿إلا الذين يصلون﴾ استثناء من قوله: ﴿فخنوهم﴾ و﴿اقتلوهم﴾، ومعنى: يصلون إلى قوم، ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبي عبيدة: هو من الانتساب، وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتميت إليه. وقيل: إن الانتساب لا أثر له في منع القتال، فقد قاتل رسول الله ﷺ بمن معه من هو من أنسابهم.

والقوم: هم المسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ونلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة للال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى للال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح. ﴿أو جاءوكم﴾ لا يخلوا من أن يكون معطوفاً على صفة قوم، كأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم، أو على صلة الذين، كأنه قيل: إلا الذين يتصلون بالمعاهدين، أو الذين لا يقتلونكم، والوجه العطف على الصلة، لقوله: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ بعد قوله: ﴿فخنوهم﴾ و﴿اقتلوهم﴾ حيث وجنتموهم^(١) فقرر أن كفهم عن القتال أحد سببي استحقاقهم لنفي التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم.

فإن قلت: كل واحد من الاتصاليين له تأثير في صحة الاستثناء واستحقاق إزالة التعرض، الاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين، لأن الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم فهلا جوزت أن يكون العطف على صفة قوم ويكون قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ تقريراً لحكم اتصاليهم بالمكافين واختلاطهم بهم وجريهم على سننهم! قلت: هو جائز ولكن الأول أظهر وأجزى على أسلوب الكلام، وفي قراءة أبي: بينكم وبينهم ميثاق جاؤوكم حصرت صدورهم، بغير أو، ووجهه أن يكون جاؤوكم بيانا ليصلون، أو بدلا، أو استثناءفاً، لو صفة بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم، في موضع الحل بإضمار قد، وللليل عليه قراءة من قرأ: حصرة صدورهم، وحصرات صدورهم، وحصرات

صدورهم، وجعله المبرد صفة لموصوف محنوف على أو جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم. وقيل: هو بيان لجاؤوكم، وهم بنو مدلج، جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين، والحصر الضيق والانتقباض. ﴿أن يقاتلوكم﴾ عن أن يقاتلوكم، أو كراهة أن يقاتلوكم.

فإن قلت: كيف يجوز أن يسلم الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا لئذف الله الرعب في قلوبهم، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقنعه، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين، فنلك معنى التسليط. وقرئ: فمقتلوكم بالتخفيف والتشديد. ﴿فإن اعتزلوكم﴾ فإن لم يتعرضوا لكم، ﴿والقوا إليكم السلم﴾، أي: الانقياد والاستسلام. وقرئ: بسكون اللام مع فتح السين، ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ فما أتت لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ كَافِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدَدُوا إِلَىٰ الْبُرْجَةِ أَوْ كَرِهُوا نَبَأًا فَإِن لَّمْ يَتَوَلَّوْكُمْ وَيُقِيمُوا إِلَيْكُمْ أَلْسِنَةً يُبَدِّلُوا وَيَكْتُمُوا آيَاتِهِمْ يُخَدِّدُوكُمْ وَأَنْتُمْ لَمْ تَعْلَمُوا حَيْثُ يَنْفَعُوكُمْ وَأُولَٰئِكَ جَمَلًا لَّكُمْ عَلَيْهِمْ سَلَطْنَا مِثْلًا ﴿١٨﴾.

﴿ستجدون آخرين﴾ هم قوم من بني أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليامنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم. ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أزكسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عنق. ﴿حيث نفقتموهم﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿سلطاناً مبيناً﴾ حجة واضحة، لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام، أو تسليطاً ظاهراً حيث أتنا لكم في قتلهم.

وَمَا كَانَتْ لِيُؤْمِنُوا أَن يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَوَلَّىٰ رَبُّهُ رَبِّهُ مُؤْمِنًا وَدِيَةٌ مِّنْهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَدَّقُوا فَإِن كَانَتْ مِن قَوْمٍ عَدُوٌّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَتْ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبْرٌ فِدْيَةٌ مِّنْهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ مَّن لَّمْ يَجِدْ فِدْيًا شَهْرَيْنِ مُكْتَابَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾.

﴿وما كان لمؤمن﴾ وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: ﴿وما كان لني أن يغلب﴾^(٢) ﴿وما يكون لنا أن نعدو فيها﴾^(٣) ﴿أن يقتل مؤمناً﴾ ابتداء غير قصاص، ﴿إلا خطأ﴾ إلا على وجه الخطأ.

فإن قلت: بم انتصب ﴿خطأ﴾؟ قلت: بآته مفعول له، أي: ما ينبغي له أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده،

(1) سورة النساء، الآية: 89.

(2) سورة آل عمران، الآية: 161.

(3) سورة الاعراف، الآية: 89.

الورثة. كما قال رسول الله ﷺ: «أنا وارث من لا وارث له»⁽²⁾. وعن عمر رضي الله عنه: أنه قضى بدية المقتول فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله، فقال: لا أعلم لك شيئاً، إنما البنية للعصبة الذين يعقلون عنه. فقام الضحاک بن سفيان الكلابي فقال: كتب إلي رسول الله ﷺ يأمري أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم، فورثها عمر⁽³⁾، وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من البنية غير القتال. وعن شريك: لا يقضى من البنية دين ولا تنفذ وصية. وعن ربيعة: الغرة لام الجنين وحدهما وذلك خلاف قول الجماعة.

فإن قلت: على من تجب الرقبة والدية؟ قلت: على القتال، إلا أن الرقبة في ماله، والدية تتحملها عنه العاقلة، فإن لم تكن له عاقلة، فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إلا أن يصدقوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، ومعناه العفو، كقوله: ﴿إلا أن يعفون﴾⁽⁴⁾ ونحوه: ﴿وإن تصدقوا خير لكم﴾ وعن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»⁽⁵⁾ وقرأ أبي: إلا أن يتصدقوا.

فإن قلت: بم تعلق ﴿أن يصدقوا﴾ وما محله! قلت: تعلق بعليه، أو بمسلمة، كأنه قيل: وتجب عليه الدية أو يسلمها إلا حين يتصدقون عليه، ومحلهما النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان، كقولهم: اجلس ما دام زيد جالساً، ويجوز أن يكون حالاً من أهله بمعنى إلا متصدقين: ﴿من قوم عدو لكم﴾ من قوم كفار أهل حرب، وذلك نحو: رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم فعلى قتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلة لاهله شيء لأنهم كفار محاربون، وقيل: كان الرجل يسلم ثم يأتي قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنونهم كافرين مثلهم. ﴿وإن كان من قوم﴾ كفرة لهم نمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل النمة من الكتابيين، فحكمه حكم مسلم من مسلمين. ﴿فمن لم يجد﴾ رقبة بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها، ﴿ففي﴾ عليه ﴿صيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ قبولاً من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه.

هذه⁽⁶⁾ الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبرق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثم روي عن ابن عباس ما

ويجوز أن يكون حالاً بمعنى لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، وأن يكون صفة للمصدر إلا قتلاً خطأ، والمعنى: أن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمي كافراً فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم.

وقرى: خطأ بالمد، وخطأ بوزن عمى بتخفيف الهمزة. وروي أن عياش بن أبي ربيعة وكان أخاً أبي جهل لأمه أسلم وهاجر خوفاً من قومه إلى المدينة وذلك قبل هجرة رسول الله ﷺ، فأتسمت أمه لا تاكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم فقتل منه أبو جهل في الثروة والغارب، وقال: ليس محمد يحثك على صلة الرحم، انصرف ببر أمك وأنت على بينك، حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا عن المدينة كتفاه وجلده كل واحد مائة جلدة. فقال للحرث: هذا أخي، فمن أنت يا حارث؟ الله علي إن وجدتك خالياً أن أقتلك. وقيما به على أمه فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد، ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم. وأسلم الحرث وهاجر فلقبه عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فانحى عليه فقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فقال: قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت⁽¹⁾ ﴿فتحرير رقبة﴾ فعليه تحرير رقبة، ولتحرير الإعتاق، والحر والعتيق الكريم لأن الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد ومنه: عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها، وحر الوجه أكرم موضع منه، وقولهم للثيم: عبد. وقلان عبد الفعل، أي: لثيم الفعل. والرقبة عبارة عن النسمة، كما عبر عنها بالراس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق. والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء. وعن الحسن: لا تجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت، ولا تجزئ الصغيرة. وقاس عليها الشافعي كفاية الظهار فاشتراط الإيمان. وقيل: لما أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار. ﴿مسلمة إلى أهله﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث لا فرق بينها وبين سائر الثركة في كل شيء، يقضى منها الدين وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثاً فهي لبيت المال لأن المسلمين يقومون مقام

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(1) أخرجه الوليدي في أسباب النزول ص 97.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأب، باب: كل معروف صدقة الحديث (6021)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف للحديث (2325).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في ميراث نوي الأرحام الحديث (2899)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفرائض، باب: نوي الأرحام الحديث (2738).

(6) قال أحمد: وكفى بقوله تعالى في هذه السورة إن الله لا يفتقر أن يشرك به، ويفقر ما من ذلك لمن يشاء، لئلا أبلغ على أن القتال للموحد، وإن لم يتب في المشيئة، وإمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء غفر له، وقد مر الكلام على الآية، وما بالعهد من قدم وأما =

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في المرأة ترث من دية زوجها الحديث (2927)، والترمذي في كتاب: الفرائض، باب: ما جاء في ميراث المرأة من دية زوجها الحديث (2110)، وأخرجه ابن ملجه في كتاب: الديات، باب: للميراث من الدية، الحديث (2642).

روي: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة⁽¹⁾. وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له. وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك بليلاً. وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»⁽²⁾. وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرك وأخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه»⁽³⁾ وفيه: «أن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه». وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»⁽⁴⁾. والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية أو يرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتباعهم هوامهم، وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: «أقلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»⁽⁵⁾.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ حَبْلًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَلَبَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا^(١٣).

ثم نكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطعام، وأي حسم ولكن لا حياة لمن تنادي.

فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر! قلت: ما أبين للدليل وهو تناول قوله: «ومن يقتل» أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليات بدليل مثله.

يَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَأَسْوَأُ إِذَا صَرَّمْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَسَّرُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتُمْ مُمِينًا تَبَعْتُمْ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ مَكَانَهُ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَاتِبًا بِمَا تَعْمَلُونَ حَسِيرًا^(١٤).

﴿فتبينوا﴾ وقرئ: فتثبتوا، وهما من التقلع بمعنى الاستفعال، أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تتهوكوا فيه من غير روية. وقرئ: السلم والسلام، وهما الاستسلام. وقيل: الإسلام. وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام. ﴿لست مؤمناً﴾. وقرئ: مؤمناً بفتح الميم من آمنه، أي:

لا تؤمنك، وأصله أن مرداس بن نهيك رجلاً من أهل فندك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ كان عليها غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقي مرداس لثقتة بإسلامه، فلما رأى الخيل الجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا، كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه. فاجبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة. فقال: يا رسول الله استغفر لي. قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ قال أسامة: فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لي وقال: اعتق رقبة⁽⁶⁾. ﴿تبتغون عرض الحيوة الدنيا﴾ تطلبون الغنمية التي هي حطام سريع النفاذ فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبيت وقلة البحث عن حال من تقتلونهم ﴿فعند الله مغنم كثيرة﴾ يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لالسننكم. ﴿فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم، وإن صرتم أعلاماً فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة، ولا تقولوا إن تهليل هذا لالتقاء القتل لا لصق النية فتجعله سلباً إلى استباحة دمه وماله وقد حرّمها الله. وقوله: ﴿فتبينوا﴾ تكرير للامر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فلا تتهاقوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك.

لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوُّ أُولِي الْأَرْحَامِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْهَنَسَ وَقَتَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا^(١٥) دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَوَافِقَ وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا^(١٦).

﴿غير أولي الضرر﴾ قرئ بالحرركات الثلاث: فالرفع صفة للقاعود، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم، والجر صفة للمؤمنين. والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها. وعن زيد بن ثابت: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ أفغشيته السكينة، فوقعت فخذة على فخذتي، حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه، فقال:

- = الدم، باب: تعظيم الدم الحديث (4001)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تحريم النفوس والجنايات عليهما الحديث (5342)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً الحديث (2619).
 (3) قال الزيلعي غريب جداً 346/1.
 (4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل المسلم ظلماً الحديث (2620).
 (5) سورة محمد، الآية: 24.
 (6) الطبري في تفسيره.

- = نسبة أهل السنة إلى الشعبية، فذلك لا يضيرهم؛ لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ولم يقنطوا من رحمة الله إنه لا يقطن من رحمة الله، إلا القوم الظالمون.
 (1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الفرقان، باب: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر» الحديث رقم: (4764)، وأخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: الحديث (7461).
 (2) أخرجه الترمذي في كتاب: الديات، باب: في تشديد قتل المؤمن الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم الحديث (3998)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم

التي هي درجات مقدمة عليها، وانتصب مغفرةً ورحمةً
بإضمار فعلهما؛ بمعنى: وغفر لهم ورحمهم مغفرةً ورحمةً.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا الْمَلَائِكَةَ غَالِيَةً أَلَيْسَ فِيهِمْ قَوْلًا مَّا قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾.

﴿توفاهم﴾ يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ
توتفهم، ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم. كقراءة من قرأ توفاهم
على مضارع وفيت، بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم
فيتوفونها، أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظالمي
أنفسهم﴾ في حال ظلمهم أنفسهم. ﴿قالوا﴾ قال الملائكة
للمتوفين، ﴿فيم كنتم﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم،
وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت
الهجرة فريضة.

فإن قلت: كيف صح وقوع قوله: ﴿كنا مستضعفين
في الأرض﴾ جواباً عن قولهم: ﴿فيم كنتم﴾ وكان حق
الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم تكن في شيء؟ قلت:
معنى فيم كنتم التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من
الدين حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا. فقالوا: كنا
مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به واعتلالاً بالاستضعاف،
وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء
فيكنتهم الملائكة بقولهم: ﴿الم تكن أرض الله واسعة
فتهاجروا فيها﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من
مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم
ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى
أرض الحبشة، وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد
لا يتمكن فيه من إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير
العوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير
بلده أقوم بحق الله وأنوم على العبادة حقت عليه الهجرة،
وعن النبي ﷺ: «من فرّ بينه من أرض إلى أرض وإن كان
شبراً من الأرض استوجبت له الجنة». «وكان رفيق أبيه
إبراهيم ونبية محمد عليهما الصلاة والسلام» (4). اللهم إن
كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بدينني،
فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك
والمبتغى من رحمتك، وصل جواركي لك بعكوفي عند بيتك
بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة.

إِلَّا السُّتْمِينَ مِنِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْطِطِعُونَ حِيلَةَ وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾.

ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين
لا يستطيعون حيلةً في الخروج لفقركم وعجزهم ولا معرفةً

«اكتب» فكتبت في كتف ﴿لا يستوي القاعدون من
المؤمنين والمجاهدين﴾ فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى: يا
رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟
فغشيتة السكينة كذلك، ثم قال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت:
﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾.
قال زيد: أنزلها الله وحدها فالحققتها، والذي نفسي بيده
لكاني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكتف (1). وعن ابن
عباس: لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون إليها. وعن
مقاتل: إلى تبوك.

فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد،
لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإنكار
بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد لئانف القاعد
ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيهتز للجهاد ويرغب
فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه: ﴿هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون﴾ (2)، أريد به التحريك من حمية الجاهل
وانفته ليهاب به إلى التعلم ولينهض بنفسه عن صفة
الجهل: إن لي شرف العلم. ﴿فضل الله المجاهدين﴾ جملة
موضحة لما نفي من استواء القاعدين والمجاهدين. كأنه
قيل: ما لهم لا يستوون؟ فأجيب بذلك. والمعنى: على
القاعدين غير أولي الضرر، لكون الجملة بيانا للجملة الأولى
المتضمنة لهذا الوصف. ﴿وكلاً﴾ وكل فريق من القاعدين
والمجاهدين. ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى
وهي الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين
درجةً. وعن النبي ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم
مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» (3). وهم الذين
صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوي إلى
الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره.

فإن قلت: قد ذكر الله تعالى مفضلين درجةً ومفضلين
درجات فمن هم؟ قلت: أما المفضلون درجةً واحدةً فهم
الذين فضلوا على القاعدين الأضراء، وأما المفضلون
درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين آئن لهم في
التخلف اكتفاءً بغيرهم لأن الغزو فرض كفاية.

فإن قلت: لم نصب ﴿درجةً﴾ و﴿أجرًا﴾ و﴿درجاتٍ﴾؟
قلت: نصب قوله: درجةً لوقوعها موقع المرة من التفضيل،
كأنه قيل: فضلهم تفضيلاً واحدةً، ونظيره قولك: ضربه
سوطاً، بمعنى: ضربه ضربةً. وأما أجرًا فقد انتصب بفضل
لأنه في معنى أجرهم أجرًا. ودرجاتٍ ومغفرةً ورحمةً بدل
من أجر، أو يجوز أن ينتصب درجاتٍ نصب درجة كما
تقول: ضربه أسواطاً، بمعنى ضرباتٍ. كأنه قيل: وفضله
تفضيلاتٍ، ونصب أجرًا عظيماً على أنه حال عن النكرة

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: (81) الحديث (4423)،
وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الرخصة في القعود
من العذر الحديث (2508).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النساء، باب:
لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله
الحديث (4592)، وأحمد في المسند 191/5، وأبو داود في كتاب:
الجهاد، باب: الرخصة في القعود من العذر الحديث (2507).

(2) سورة الزمر، الآية: 9.

لهم بالمسالك. وروي: أن رسول الله ﷺ بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة، فقال جنب بن ضمرة أو ضمرة بن جنب لبنيه: احمولني فإنني لست من المستضعفين، وأني لا هتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم⁽¹⁾.

فإن قلت⁽²⁾ كيف أخذ الولدان في جملة المستثنين من أهل الوعيد كأنهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء لو استطاعوا حيلةً واهتدوا سبيلاً؛ قلت: الرجال والنساء قد يكونون مستطيعين مهتدين وقد لا يكونون كذلك، وأما الولدان فلا يكونون إلا عاجزين عن ذلك فلا يتوجه عليهم وعيد لأن سبب خروج الرجال والنساء من جملة أهل الوعيد إنما هو كونهم عاجزين، فإذا كان العجز متمكناً في الولدان لا ينفكون عنه كانوا خارجين من جملتهم ضرورة. هذا إذا أريد بالولدان الأطفال، ويجوز أن يراد المراهقون منهم الذين عقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقوا بهم في التكليف وإن أريد بهم العبيد والإماء البالغون فلا سؤال.

فإن قلت: الجملة التي هي «لا يستطيعون» ما موقعها؟ قلت: هي صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان، وإنما جاز ذلك والجمال نكرات لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس لشيء بعينه كقوله: ولقد أمر على اللثيم يسبني

فَأُذِلَّتْ عَنِّي اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَوْفًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

فإن قلت: لم قيل: «عسى الله أن يعفو عنهم» بكلمة الإطماع؟ قلت: للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعه فيه حتى أن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عني فكيف بغيره.

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبِذْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَبِيرًا وَسَمٌّ وَيَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوَيْتُ فَقَدْ رَفَعَ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَوْفًا رَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾

﴿مرغماً﴾ مهاجراً وطريقاً يراغم بسلوكة قومه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم.

والرغم: الذل والهوان وأصله لصرق الأنف بالرغام وهو التراب؛ يقال: راغمت الرجل إذا وهو فارقتة وهو يكره مفارقتك لمنلة تحلقه بذلك. قال النابغة الجعدي:

كسطود يلاذ بلركانه عزيز المراغم والمذهب وقرئ: مرغماً⁽³⁾. قرئ: ثم يدركه الموت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقيل: رفع الكاف منقول من الهاء كأنه أراد أن يقف عليها ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف، كقوله:

من عنزى سبني لم أضرب
وقرئ: يدركه بالنصب على إضمار أن كقوله:

والحق بالحجاز فاستريحا
﴿فقد وقع لجره على الله﴾ فقد وجب ثوابه عليه وحقيقة الوجوب الوقوع والسقوط ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ ووجبت الشمس سقط قرصها، والمعنى: فقد علم الله كيف يثيبه وذلك واجب عليه. وروي في قصة جنب بن ضمرة: أنه لما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبياعك على ما بايعك عليه رسولك. فمات حميداً، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو توفي بالمدينة لكان أتم أجراً. وقال المشركون وهم يضحكون: ما أدرك هذا ما طلب، فنزلت، وقالوا: كل هجرة لغرض بيني من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعةً وزهداً في الدنيا أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله.

وَإِنَّا صَرَفْنَا فِي الْأَرْضِ نَافِثَاتٍ لِيَكُنَّ مِنَ الْفَالِقَاتِ
فَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْتِكُمُ الرَّسُولَ الْوَيْتُ فَكَفِّرْ بِهِ قَدْ عَصَى اللَّهَ وَالرَّسُولَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ عَلَى عَهْدِهِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

الضرب في الأرض: هو السفر، وأبني مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن سير الإبل ومشى الأقدام على القصد ولا اعتبار بلبطاء الضارب وإسراعه، ولو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن في يوم قصر، ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام لم يقصر. وعند الشافعي: أبني مدة السفر أربعة برد مسيرة يومين، وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ ظاهره التخيير بين القصر والإتمام وأن

(3) قال أحمد: توجيه الرفع على إضمار المبتدأ، فيه عطف الإسمية على الفعلية، والأولى خلافه ما وجد عنه سبيل، وأما الوجه الثاني من إجراء الوصل، مجرى الوقف، شنوذ بين على أن الإقصح في الوقف، خلاف نقل الحركة، وقد زاد شنوذاً، بلجراء الوصل مجرى الوقف، وعندني وجه حسن خالص من الشنوذ مرتفع النوة في الفصحة، وهو العطف على ما يقع موقع من مما يكون الأول معه مرفوعاً، كأنه قال والذي يخرج من بيته مهاجراً، ثم يدركه الموت، وهو الذي نكره الزمخشري عند قوله: ﴿إينما تكونوا يدرككم الموت﴾، فبين قرأ بالرفع، وقال ثم هو وجه نحوي سببوي، ولجراؤه ههنا أقرب وأصوب منه ثمة، والله أعلم.

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص: 101-102.

(2) قال أحمد: قوله إن المراهقين من الولدان يكلفون إحاقاً بالبالغين، مرود بقوله عليه، وعلى آله الصلاة والسلام: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم...» فجعل البلوغ نفساً مناط التكليف، وهذا مذهب الجماهير، ولم يبلغنا خلافه، وقال الزمخشري: أراد الحديث العهد بالصبي، وإن بلغوا تسعية لهم بالاسم السالف، تقرب عهدهم به، كما قال: «وأتوا ليتامى أموالهم»، فسماهم يتامى، وإن بلغوا، إذ لا تنفع أموالهم، حتى يبلغوا؛ لأنهم حديث عهد باليتيم، والغرض تعجيل نفع الأموال لهم، إذا رشدوا، وإن قرب عهدهم باليتيم، حتى أنهم لذلك يعبر عنهم باليتامى، ولا يماطلوا، ولو قال الزمخشري في الولدان كذلك، لكان قولاً سديداً، والله أعلم.

طَائِفَةٌ أُخْرِيَتْ لَمْ يُصَلُّوا قَلِيلًا مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَإِنِ اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَمَا يَصْلِحْ لَهُمْ دِينُكُمْ وَمَا يَشَاءُونَ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ عَظِيمٌ
 وَأَسْلِحَتْكُمْ رَبُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَاتَلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَنْبِيَاءِكُمْ
 يَسِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَدَى
 مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْرَضِينَ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٧﴾

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم للصلاة﴾ يتعلق بظاهره من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله ﷺ حيث شرط كونه فيهم. وقال: من رأها بعده: إن الأئمة نواب عن رسول الله ﷺ في كل عصر، قولكم بما كان يقوم به. فكان الخطاب له متتوالاً لكل إمام يكون حاضر للجماعة في حال الخوف عليه أن يؤمهم، كما أم رسول الله ﷺ للجماعات التي كان يحضرها، والضمير في فيهم للخائفين. ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك فصل بهم، ﴿ولياخذوا أسلحتهم﴾ (7) الضمير إما للمصلين وإما لغيرهم، فإن كان للمصلين فقالوا: ياخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر وتحولهما، وإن كان لغيرهم فلا كلام فيه. ﴿فإذا سجدوا فليكونوا﴾ (8) يعني غير المصلين ﴿ومن ورائكم﴾ يحرسونكم، وصفة صلاة الخوف عند أبي حنيفة أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين، والأخرى بإزاء العدو ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو وتأتي الأخرى فيصلّي بها ركعةً ويتم صلاته ثم تقف بإزاء العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة ويتم صلاتها ثم تحرس، وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة ويتم صلاتها، والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة، وعند

الإمام أفضل، وإلى التخخير، ذهب الشافعي، وروي عن النبي ﷺ: أنه أتم في السفر (1). وعن عائشة رضي الله عنها: اعترت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى إذا قمت مكة قلت: يا رسول الله ﷺ بابي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأقشرت، فقال: ولحسنت يا عائشة. وما علم علي، (2). وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر (3). وعند أبي حنيفة رحمه الله: القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره. وعن عمر رضي الله عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم (4). وعن عائشة رضي الله عنها: أول ما فرضت للصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيت في الحضر (5).

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا﴾؟ قلت: كأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه. وقرئ: تقصروا من أقصر، وجاء في الحديث: أتصار الخطبة، بمعنى تقصيرها (6). وقرأ الزهري: تقصروا بالتشديد. والقصر ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصة وهو قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾، وأما في حال الأمن فبالسنة، وفي قراءة عبد الله: من الصلاة أن يفتنكم، ليس فيها إن خفتم، على أنه مفعول له بمعنى كراهة أن يفتنكم، والمراد بالفتنة القتال والتعرض بما يكره.

وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتوا

= وتنبههم عليه، وهم إما أخروا الصلاة لذلك أما المصلون، فهم في مظنة طرح الأسلحة؛ لأنهم لم يتناولوا حملها في الصلاة، فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة، وإن كانوا في الصلاة لضرورة الخوف، وخشية الفرة، وأيضاً فصنيع الآية يعطي ذلك؛ لأنه قال: فلتقم طائفة منهم معك، وعقب ذلك بقوله وليأخذوا أسلحتهم، فالظاهر رجوع الضمير إليهم، وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة المعود إليهم، بدلالة قوة الكلام عليهم، وإن لم ينكروا.

(8) قال أحمد: والظاهر أن معنى السجود ههنا، الصلاة وقد عبر عنها بالسجود كثيراً، والمراد: فإذا صلت الطائفة، أي: أتمت صلاتها، فليكونوا من ورائكم، وفيه دليل لمشهور مذهب مالك من أن الطائفة الأولى، تتم صلاتها، والإمام منتظر للطائفة الأخرى، وقوله: ولتأت طائفة أخرى يعني إذا أتمت الأولى صلاتها، ووقفت من ورائكم، فتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل بعد شيئاً، فليصلوا معك وفيه دليل بين أيضاً، لأحد القولين في مذهب مالك من أن الإمام ينتظر للثانية، حتى تتم صلاتها ويسلم بهم؛ لأن ظاهر المعية المطلقة يوجب ذلك، إذ لو كانوا يقضون بعد سلامه، لم يكونوا مصلين معه على الإطلاق، والله أعلم. فهذه الآية منطوقة على أكثر مشهور مذهبه في تفصيل صلاة الخوف، والله الموفق للصواب.

- (1) كشف الاستار، كتاب: الصلاة، باب: الإتمام في السفر الحديث (682)، والدارقطني في كتاب: الصيام، باب: القليلة للصائم الحديث (44).
- (2) أخرجه النسائي في كتاب: التقصير، باب: المقام الذي يقصر بمثله الصلاة، الحديث (1451).
- (3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: الصلاة بمعنى الحديث (1082)، وعن عبد الرحمن الحديث (1084)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: قصر الصلاة بمعنى الحديث رقم: (1588) وحديث عبد الرحمن أخرجه، الحديث (1594).
- (4) أخرجه النسائي في كتاب: تقصير الصلاة بالسفر الحديث (1439)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها الحديث (1063)، والطريق الثاني أخرجه في الحديث (1064).
- (5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: يقصر إذا خرج من موضعه الحديث (1090)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة المسافرين وقصرها الحديث (1570).
- (6) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إقصار الخطب، الحديث (1106)، والحاكم في المستدرک 1/289، وابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الخوف الحديث (2882).

(7) قال أحمد: والظاهر أن المخاطب يأخذ الأسلحة المصلون، إذ من لم يصل إنما أعد للحرس، فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك، =

بذكر الله ودعائه واللجأ إليه، ﴿فإذا اطمأننتم﴾ فإذا اقمتم، فاقبموا الصلاة فاتمروها.

وَلَا تَهِنُوا فِي آيَاتِهِ الْقَوِيَّةِ إِنْ تَكُونُوا تَالِمُونَ فَإِنَّهُمْ بِالْكَوْرِ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾

﴿ولا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا ﴿في ابتغاء القوم﴾ في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم الزمهم الحجة بقوله: ﴿إن تكونوا تالمون﴾ أي: ليس ما تكابون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى منهم بالصبر، لأنكم ﴿ترجون من الله ما لا يرجون﴾ من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب العظيم في الآخرة. وقرأ الأعرج: أن تكونوا تالمون بفتح الهمزة، بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تالمون. وقوله: ﴿فإنهم يالمون كما تالمون﴾ تعليل. وقرئ: فإنهم ييلمون كما تيلمون وروي: أن هذا في بدر الصغرى كان بهم جراح فتواكلوا، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ لا يكلفكم شيئاً ولا يامرکم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حَصِيماً ﴿١٥﴾

روي: أن طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جابر له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخباها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها. فقال: دفعها إلي طعمة. وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي. فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي، وقيل: هم أن يقطع يده فنزلت⁽³⁾. وروي: أن طعمة هرب إلى مكة وأرتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله. ﴿بما أراك الله﴾ بما عرفك وأوحى به إليك. وعن عمر رضي الله عنه: لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً لأن الله كان يريه إياه وهو منا الظن والتكلف. ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ولا تكن لأجل الخائنين مخلصاً للبراء، يعني: لا تخاصم

مالك بمعنى الصلاة، لأن الإمام يصلي عنده بطائفة ركعة ويقف قائماً حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب، ثم يصلي بالثانية ركعة ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها ويسلم بهم، ويعضده. ﴿ولتات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾. وقرئ: وأمتاعكم.

فإن قلت⁽¹⁾: كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ؟ قلت: جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ وجعلنا مأخوذين، ونحوه قوله تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان﴾⁽²⁾ جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبوأً لتمكنهم فيه، فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوء. ﴿فيميلون عليكم﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة، ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهم عليهم العدو.

فإن قلت: كيف طابق الأمر بالحذر قوله: ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾؟ قلت: الأمر بالحذر من العدو يوم توقع غلبته واعتزازه، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم: أن الله يهين عدوهم ويخنله وينصرهم عليه، لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك وإنما هو تعبد من الله. كما قال: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾⁽³⁾.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا وَذُكِّرُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابًا مَّقْرُونًا ﴿١٦﴾

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال، ﴿فادكروا الله﴾ فصلوها ﴿قياماً﴾ مسايقين ومقارعين، ﴿وقعوداً﴾ جاثين على الركب مرامين، ﴿وعلى جنوبكم﴾ منحنين بالجراح. ﴿فإذا اطمأننتم﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم ﴿فاقيموا الصلاة﴾ فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ محبوداً بلوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كنتم خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حال المسايقة والمشى والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها، فإذا اطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن، وقيل: معناه فإذا قضيت صلاة الخوف فادبموا نكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاج، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير

(3) سورة البقرة، الآية: 195.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث (3036).

(1) قال أحمد: وحسن هذا المجاز وبلغ به نزوة الفصاحة، عطف الحقيقة عليه.

(2) سورة الحشر، الآية: 9.

اليهود لأجل بني ظفر.

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانُ عَقُورًا رَجِيمًا ﴿١٦٦﴾

﴿واستغفر الله﴾ مما هممت به من عقاب اليهودي.

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٦٧﴾

﴿يختارون أنفسهم﴾ يخونونها بالمعصية، كقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختارون أنفسكم﴾⁽¹⁾. جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلماً لها لأن الضرر راجع إليهم.

فإن قلت: لم قيل للخائنين: ويختارون أنفسهم، وكان السارق طعمة وحده؛ قلت: لوجهين: أحدهما أن بني ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم. والثاني أنه جمع لبيتناول طعمة وكل من خان خيانة، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه.

فإن قلت: لم قيل: ﴿خواناً أثيماً﴾ على المبالغة قلت: كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المأثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر رضي الله عنه: أنه أمر بقطع يد سارق، فجاجت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقتها فاعف عنه. فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ حُجُبًا ﴿١٦٨﴾

﴿يستخفون﴾ يستترون ﴿من الناس﴾ حياة منهم وخوفاً من ضررهم. ﴿ولا يستخفون من الله﴾ ولا يستحيون منه ﴿وهو معهم﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنهم في حضرته لا ستر ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح. ﴿يبينون﴾ يببرون ويذورون، وأصله أن يكون بالليل ﴿ما لا يرضى من القول﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد ليسرق لونه ويحلف ببراءته.

فإن قلت: كيف سمي التدبير قولاً وإنما هو معنى في النفس! قلت: لما حدث بذلك نفسه سمي قولاً على المجاز، ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته، وتوريكه الذنب على اليهودي.

هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلْ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٦٩﴾

﴿هأنتم هؤلاء﴾ ما للتنبية في أنتم وأولاء وهما مبتدا وخبر. و﴿جاءلتم﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً، كما

تقول لبعض الأسخياء أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك، ويجوز أن يكون أولاء اسماً موصولاً بمعنى: الذين، وجاءلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرأ عبد الله: عنه، أي: عن طعمة. و﴿وكيلاً﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله وانتقامه.

وَمَنْ يَمَلَّ سَوْءًا أَوْ يظَلِّمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَجِيمًا ﴿١٧٠﴾

﴿ومن يعمل سوءاً﴾ قبيحاً متعمداً يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب، وقيل: ومن يعمل سوءاً من ذنب دون الشرك أو يظلم نفسه بالشرك، وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة مع العلم بما يكون منه أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذنب عنه.

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧١﴾

﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾، أي: لا يتعداه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٧٢﴾

﴿خطيئة﴾ صغيرة ﴿أو إثماً﴾ أو كبيرة. ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً﴾ لأنه بكسب الإثم آثم وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: ومن يكسب بكسر الكاف والسين المشددة، وأصله يكتسب.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمَتَّ ظَالِمُكَ مِنْهُ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٧٣﴾

﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ أي: عصمته والطاقه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم ﴿لهمت طائفة منهم﴾ من بني ظفر ﴿أن يضلوك﴾ عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم. فقد روي أن ناساً منهم كانوا يعلمون كنه القصة ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لأن وباله عليهم، ﴿وما يضررونك من شيء﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك، ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ من خفيات الأمور وضمانر القلوب، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير في منهم إلى الناس. وقيل: الآية في

المنافقين.

وقيل: هي في طعمة وارتدائه وخروجه إلى مكة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّوَعُّبُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَيَتَّوَعُّبُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَكْفُرُ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٧).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ تكرير للتأكيد. وقيل:
كرد لقصة طعمة، وروي: أنه مات مشركاً. وقيل: جاء شيخ
من العرب إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني شيخ منهمك في
الذنوب إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وأمنت به،
ولم اتخذ من دونه ولياً، ولم توقع المعاصي جرأة على الله
ولا مكبرة له، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً،
وأنتي لنا من تائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله؟
فنزلت (3). وهذا الحديث ينصر قول من فسر من يشاء
بالتائب من ذنبه.

إِنْ يَشْكُرْ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُوا إِلَّا سَعْيُنَا
مَرِيدًا (١٣٨).

﴿إلا إنائنا﴾ هي اللات والعزى ومناة. وعن الحسن: لم
يكن حي من إحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه
أنتى بنتي فلان. وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هن
بنات الله. وقيل: المراد الملائكة، لقولهم: الملائكة بنات الله.
وقرئ: أنتى جمع أنتى أو أنثى، ووثننا وأثنا بالتخفيف
والتثقيب جمع وثن، كقولك: أسد وأسد وأسد، وقلب الواو
الفأ نحو أجوه في وجوه. وقرأت عائشة رضي الله عنها:
لوثننا. ﴿وإن يدعون﴾ وإن يعبدون بعبادة الأصنام ﴿إلا
شيطاناً﴾ لأنه هو الذي اغرامهم على عبادتها فاطاعوه
فجعلت طاعتهم له عبادة.

لَمَسَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا (١٣٩).

﴿لعنه الله وقال لاتخذن﴾ صفتان، بمعنى شيطاناً
مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول للشنيع ﴿نصيباً
مفروضاً﴾ مقطوعاً واجباً فرضته لنفسي من قولهم: فرض
له في العطاء وفرض الجند رزقه. قال الحسن: من كل ألف
تسعمائة وتسعين إلى النار.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأُؤْتِنَهُمْ لَمْ يُكْفِرُوا بِهِمْ وَلَا يُرِيدُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ لِأُؤْتِنَهُمْ لَمْ يُكْفِرُوا بِهِمْ وَلَا يُرِيدُونَ
دُونَ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرًا مُبِينًا (١٤٠) بِيَدِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ
وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ الشَّقَلُ إِلَّا غُرُوبًا (١٤١) أُولَئِكَ مَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا
يُحَدِّثُونَ عَنْهَا حَيْصًا (١٤٢).

﴿ولامنينهم﴾ (4) الاماني الباطلة من طول الأعمار،

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ من تناجي الناس.
﴿إلا من أمر بصدقة﴾ إلا: نجوى من أمر، علي أنه
مجرب بدل من كثير، كما تقول لا خير في قيامهم إلا قيلم
زيد، ويجوز أن يكون منصوباً على الانقطاع، بمعنى: ولكن
من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. وقيل: للمعروف القرض،
وقيل: إغلة الملهوف. وقيل: هو علم في كل جميل، ويجوز
أن يراد بالصدقة الواجب والمعروف ما يتصدق به على
سبيل التطوع. وعن النبي ﷺ: كلام ابن آدم كله عليه
لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو
نكر الله (1). وسمع سفيان رجلاً يقول: ما أشد هذا
الحديث. فقال: ألم تسمع الله يقول: ﴿لا خير في كثير من
نجواهم﴾ فهو هذا بعينه. أو ما سمعته يقول: ﴿والعصر *
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ (2) فهو هذا بعينه. وشرط في
استيجاب الأجر العظيم أن ينوي فاعل الخير عبادة الله
والتقرب به إليه وأن يبتغي به وجهه خالصاً لأن الأعمال
بالتنيات.

فَأَنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ ﴿إلا من أمر﴾، ثم قال: ﴿ومن
يفعل ذلك؟ قلت: قد نكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله
لأنه إذا نحل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم
أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فنكر الفاعل وقرن به
للوعد بالأجر العظيم، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبر
عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال. وقرئ:
يؤتته بالياء.

وَمَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ تَلَوَّيْ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصِّبْ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١٤٥).

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وهو السبيل الذي هم
عليه من الدين الحنيفي القيم، وهو دليل على أن الإجماع
حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب
والسنة؛ لأن الله عز وعلأ جمع بين اتباع سبيل غير
المؤمنين وبين مشاققة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه
الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كموالاة الرسول عليه
الصلاة والسلام. قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ جعله والياً لما
تولى من الضلال بأن نخلته ونخلي بينه وبين ما اختاره.
﴿ونصله جهنم﴾ وقرئ: ونصله بفتح النون، من صلاة.

(4) قال أحمد: هو تعريض بأهل السنة الذين يعتقدون، أن الموحد ذا
الكبر، غير التائب أمره يرجأ إلى الله تعالى، والمفو عنه موكول
إلى مشيئته، إيماناً وتصديقاً بقوله في الآية المعتبرة في هذا،
إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والمجيب
أن هذه الآية تكررت في هذه السورة مرتين، على أن =

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: (62) منه الحديث (2412)،
وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة
الحديث (3974)، والحكم في المستترك 512/2.

(2) سورة العصر، الأيتان: 1 - 2.

(3) نكره القرطبي في تفسيره (385/5).

وبلوغ الآمال، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلك.

وتبتيكهم الأذان: فلعلم بالباحث، كانوا يشقون أذن الناقة إذا ولت خمسة أبطن وجاء الخامس نكراً، وجرموا على أنفسهم الانتفاع بها.

وتغييرهم خلق الله: فوء عين الحامي وإعفاؤه عن الركوب. وقيل: الخصاء، وهو في قول عامة العلماء مباح في البيهائم، وأما في بني آدم فمحظور. وعند أبي حنيفة: يكره شراء الخصيان وإمساحهم واستخدامهم؛ لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. وقيل: فطرة الله التي هي بين الإسلام. وقيل للحسن: إن عكرمة يقول هو الخصاء. فقال: كذب عكرمة، هو دين الله. وعن ابن مسعود: هو الوشم، وعنه: لعن الله اللواشرا والمتمنصات والمستوشمات المعيرات خلق الله⁽¹⁾. وقيل: التختث.

وَأَلْبَسَ مَا مَاتُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

«وعد الله حقاً» مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره. «ومن صدق من الله قيباً» تأكيد ثالث بليغ. فإن قلت: ما فائدة هذه التوكيدات؟ قلت: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقربائه بوعد الله الصالح لأوليائه، ترغيباً للعباد في إيثار ما يستحقون به تنجز وعد الله على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف. مواعيد الشيطان.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُفْبِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ. وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِيَا وَلَا صَبِيْرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا ﴿١٢٤﴾

في «ليس» ضمير وعد الله، أي: ليس يقال ما وعد الله من الثواب «بإمانيكم ولا» بـ «إماني أهل الكتاب» والخطاب للمسلمين؛ لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به، وكذلك نكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعد الله. وعن مسروق والسدي: هي في المسلمين. وعن

الزمخشري، وهو مع ذلك يتصام عنها، ويجعل العقيدة المتلقاة منها من جملة الأمانى الشيطانية، تعود بالله من إرسال الرسن في اتباع الهوى، وكذلك أيضاً عرض بإهل السنة في اعتقادهم، صنق الوعد الصالح بالشفاعة المحمية، وعد ذلك أيضاً أمانة شيطانية، وما أرى من جحد الشفاعة ينالها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد مكر بهذا الفاضل، فلا يأمن بعده عاقل «إنه لا يأمن مكر الله، إلا القوم الخاسرون».

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الحشر، باب: «وما أتاكم الرسول فخذوه» الحديث (4886)، ومسلم في كتاب: لباس، باب: تحريم فعل الواصلة الحديث (5538).

(2) سورة البقرة، الآية: 81.

الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. إن قوماً ألهمهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله، وكنبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له. وقيل: إن المسلمين وأهل الكتاب اقتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم. وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فنزلت. ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً وأوتين مالاً وولداً إن لي عنده للحسنى. وكان أهل الكتاب يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، ويعضده تقدم نكر أهل الشرك قبله. وعن مجاهد: إن الخطاب للمشركين. قوله: «من يعمل سوءاً يجز به»، وقوله: «ومن يعمل من الصالحات»، بعد نكر تمنى أهل الكتاب، نحو من قوله: «يولى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته»⁽²⁾. وقوله: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات»⁽³⁾ عقيب قوله: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»⁽⁴⁾ وإذا بطل الله الأمانى وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل وأن من أصلح عمله فهو الفائز، ومن أساء عمله فهو الهالك. تبين الأمر ووضح ووجب قطع الأمانى وحسم المطامع والإقبال على العمل الصالح، ولكنه نصح لا تعيه الأذان ولا تلقى إليه الأذهان.

فإن قلت: ما الفرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، أراد ومن يعمل بعض الصالحات لأن كلاً لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكمن من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكمن من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، والثانية لتبیین الإبهام في من يعمل.

فإن قلت⁽⁵⁾: كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الرجوع في ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً.

(3) سورة البقرة، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 80.

(5) مدار هذا التطويل بالسؤال والجواب، على بث المعتقد الفاسد، في أن الله تعالى يجب عليه أن يثبت على الطاعات، وأن الثواب منقسم إلى واجب، ليس بفضل، وإلى زيادة على الواجب، وهي الفضل خاصة، وهذا المعتقد هو الذي يصدق عليه أن الشيطان مناه للقضية، حتى زعموا أن لهم على الله واجباً، تعالى الله عن ذلك، إن الله لغني عن عمل يوجب عليه حقاً، جل الله وعز لقد نفخ الشيطان بهذه الأمانة في آذان القرية، اللهم لا عمدة لنا إلا فضلك، فاجزل نصيبنا منه يا كريم.

السماوات والأرض فطاعته واجبة عليهم. ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ فكان عالماً بأعمالهم فمجازيهم على خيرها وشرها، فعليهم أن يختاروا لأنفسهم ما هو أصلح لها.

رَسْتَنْتُوكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمُّ الْإِنْسَاءَ الَّتِي لَا تُوَفُّنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكْرَهُنَّ وَالسُّتْمِينَ مِنْ أَوْلَادِنَ وَأَنْ تَقُولُوا لَلْيَتَمَّنَّ بِالْقِسْطِ وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا ﴿١٧٧﴾.

﴿ما يتلى﴾ في محل الرفع، أي: الله يفتيكم والمتلو ﴿في الكتاب﴾ في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿ولئن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ (2) وهو من قولك: أعجبني زيد وكرمه، ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره على أنها جملة معترضة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيماً للمتلو عليهم وأن العدل والنصفة في حقوق اليتامى من عظام الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله، ونحوه في تعظيم القرآن ﴿ولأنه في أم الكتاب لينا لعلي حكيم﴾ (3). ويجوز أن يكون مجروراً على القسم كأنه قيل: قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضاً لمعنى التعظيم وليس بسيد أن يعطف على المجرور في فيهن لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى.

فإن قلت: بم تعلق قوله في: ﴿يتامى النساء؟﴾ قلت: في الوجه الأول هو صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناه، ويجوز أن يكون في يتامى النساء بدلاً من فيهن، وأما في الوجهين الآخرين فبدل لا غير.

فإن قلت: الإضافة في يتامى النساء ما هي؟ قلت: إضافة بمعنى من كقولك: عندي سحق عمامة. وقرئ: في يتامى النساء بيايين على قلب همزة أيامى ياء. ﴿لا تؤتوهن ما كتب لهن﴾ وقرئ: ما كتب الله لهن، أي: ما فرض لهن من الميراث، وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه ومالها، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال، وإن كانت نائمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها. ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يحتمل في أن تنكحوهن لجمالهن، وعن أن تنكحوهن لمامتهن. وروي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر فإن كانت جميلة غنية قال: زوجها غيرك، والتمس لها من هو خير منك، وإن كانت نائمة ولا مال لها قال: تزوجها فانت أحق بها (4). ﴿والمستضعفين﴾ مجرور معطوف على يتامى النساء، وكانوا في الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمور نون الأطفال والنساء، ويجوز أن يكون خطاباً للوصياء، كقوله: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ (5)

والثاني: أن يكون نكره عند أحد الفريقين دالاً على نكره عند الآخر، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأن ظلم المسيء أن يزداد في عقابه وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزداد في عقاب المجرم، فكان نكره مستغنى عنه. وأما المحسن فله ثواب وتواب للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب، فكان نفي الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل.

وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٧٨﴾.

﴿أسلم وجهه لله﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه. ﴿وهو محسن﴾ وهو عامل للحسنات تارك للسيئات. ﴿حنيفاً﴾ حال من المتبع أو من إبراهيم، كقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (1) وهو الذي تحنف، أي: مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ مجاز عن اصطفاؤه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

والخليل: المخال وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلاك أو يسايرك في طريقك، من الخل وهو: الطريق في الرمل، أو يسد خلك كما تشد خلكه، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كنحو ما يجيء في الشعر من قولهم: والحوادث جمة، فائتبتها تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلفي عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته، ولو جعلتها معطوفة، على الجملة قبلها لم يكن لها معنى، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه، فقال خليله: لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفلعت، ولكنه يريدنا للأضياف. فاجتاز غلمانه ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياة من الناس، فلما أخبروا إبراهيم عليه السلام ساءه الخبر فحملته عيناه، وعمدت امرأته إلى غرارة منها فأخرجت أحسن حوارى واختبرت، واستنبه إبراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز، فقال: من أين لكم؟ فقالت امرأته: من خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل، فسماه الله خليلاً.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَاطِقًا ﴿١٧٩﴾.

﴿و لله ما في السموات وما في الأرض﴾ متصل بنكر العمال الصالحين والطلحين، ومعناه: أن له ملك أهل

(4) لم أجد، كما قال ابن حجر، ولم يخرج الزيلعي.

(5) سورة النساء، الآية: 2.

(1) سورة البقرة، الآية: 135.

(2) سورة النساء، الآية: 3.

(3) سورة الزخرف، الآية: 4.

غيرهن وتصبروا على تلك مراعاةً لحق الصحبة. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ وهو يثيبكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من آدم بنى آدم وامراته من أجملهم، فجالت في وجهه نظرها يوماً، ثم تابعت الحمد لله. فقال مالك: قالت: حمدت الله على أنني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ قال: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت. وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين⁽²⁾.

وَلَنْ نَسْتَعْتِبَ مِنْ أَنْ تَمْلُؤُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَكْبُرُوا عَلَى الْمَوْلَى فَمَنْ تَدْرَوْهَا كَالْمَلَكَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَوْرًا رَحِيمًا ﴿١٣٨﴾

﴿ولن تستطيعوا﴾ ومحال أن تستطيعوا العدل ﴿بين النساء﴾ والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، فرجع لذلك عنكم تمام العدل وغايته وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم وطاقتكم لأن تكليف ما لا يستطاع داخل في حد الظلم ﴿وما ريك بظلام للعبيد﴾. وقيل: معناه أن تبدلوا في المحبة. وعن النبي ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك. يعني: المحبة»⁽³⁾، لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحب إليه، وقيل: إن العدل بينهما أمر صعب بالغ من الصعوبة جداً يوهم أنه غير مستطاع، لأنه يجب أن يسوي بينهما في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمالحة والمفاكة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتي من ورائه، فهو كالخارج من حد الاستطاعة، هذا إذا كن محبوبات كلهن، فكيف إذا مال القلب مع بعضهن. ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضی منها. يعني: أن اجتناب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله، وفيه ضرب من التوبيخ. ﴿فتدروها كالمعلقة﴾ وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة. قال:

هل هي إحظة أو تطليق أو صلف أو بين ذاك تعليق

وفي قراءة أبي: فتدروها كالمسجونة. وفي الحديث: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»⁽⁴⁾. وروي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله ﷺ بمال. فقالت عائشة رضي الله

﴿وإن تقوموا﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى يفتيكهم في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا، ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: ويامرکم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ولا يخلوا أحداً يهتضمهم.

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَیْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصَلِحَ لِنَفْسِهَا صَلَاحًا وَالصَّلَاحُ حَيْرٌ وَأَحْيَرَتِ الْأَنْفُسَ الشَّعْ وَإِنْ تَحْسَبُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٨﴾

﴿خافت من بعلها﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقتها والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة وأن يؤذيها بسب أو ضرب.

والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقلل محادثتها ومؤانستها وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن أو دمامة أو شيء في خلق أو خلق أو ملال أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك، فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما. وقرئ: يصلحا ويصلحا بمعنى يتصلحا ويصلحا، ونحو أصلح أصبر في اصطبر. ﴿صلحاً﴾ في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة، ومعنى الصلح أن يتصلحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وعرفت مكان عائشة من قلبه فوهبت لها يومها⁽¹⁾. وكما روي: أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي، وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها، أو تهب له بعض المهر أو كله أو النفقة، فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها. ﴿والصلح خير﴾ من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة، أو هو خير من الخصومة في كل شيء، أو الصلح خير من الخيور كما أن الخصومة شر من الشرور، وهذه الجملة اعتراض، وكذلك قوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضرًا لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها ويغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها. ﴿وإن تحسنوا﴾ بالإقامة على نساتكم، وإن كرهتموهن وأحببتم

= التسوية بين الضرائر الحديث (1140)، والنسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه الحديث (3953)، وأخرجه ابن ماجه في السنن في كتاب: النكاح، باب: القسمة بين النساء الحديث (1971)، والحاكم في المستدرک 2/187.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2133)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/60 وفي الصحيحين، البخاري في كتاب: النكاح، باب: المرأة تهب يومها... الحديث (5212)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها الحديث (37 - 1463).

(2) لم أجده، ولم يخرج الزليعي. 363/1.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2134)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في

إِنْ يَسْأَلُ بَدِينِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِي بِخَارِجَتِكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ ذَلِكَ
فَوَيْرًا ﴿١٧٧﴾.

﴿إِنْ يَسْأَلُ بَدِينِكُمْ﴾ يفنكم ويعنكم كما أوجنكم
وأنشاكم، ﴿وَيَأْتِي بِخَارِجِينَ﴾ ويوجد إنسا آخرين مكانكم،
أو خلقاً آخرين غير الإنس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ ذَلِكَ﴾ من
الإعدام والإيجاد ﴿فَوَيْرًا﴾ بليغ القدرة، لا يمتنع عليه شيء
أراده، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره. وقيل:
هو خطاب لمن كان يعادي رسول الله ﷺ من العرب، أي:
إِنْ يَسْأَلُ يَمْنَعُ وَيَأْتِي بِنَاسٍ آخَرِينَ يُولُونَهُ. ويروى: أنها لما
نزلت ضرب رسول الله ﷺ بيده على ظهر سلمان، وقال:
«لأنهم قوم هذا يريد أبناء فارس».

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فَمِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَالْآخِرَةُ وَكَانَ
اللَّهُ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴿١٧٨﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده
الغنيمة، ﴿فَمِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب
أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه أحسهما؛ لأن من جاهد الله
خالصاً لم تحطه الغنيمة وله من ثواب الآخرة ما للغنيمة
إلى جنبه كلا شيء، والمعنى: فعند الله ثواب الدنيا والآخرة
له إن أراد، حتى يتعلق الجزء بالشرط.

يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَةٍ أَدْنَىٰ أَلْسِنَةٍ أَوْ لَوْ عَلَىٰ
أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَسْلُبُوا أَنْ تَكُونُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٧٩﴾.

﴿قَوْمَيْنِ بِالْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى
لا تجوروا. ﴿شُهَدَاءَ﴾ تقيمون شهادتكم لوجه الله كما
أمرتم بإقامتها ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة
على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم.

فَأَنْ قُلْتُ: الشهادة على الوالدين والأقربين أن تقول:
أشهد أن فلان على الذي كذا أو على أقاربي، فما معنى
الشهادة على نفسه؟ قلت: هي الإقرار على نفسه لأنه في
معنى الشهادة عليها بالزمام الحق لها، ويجوز أن يكون
المعنى: وإن كانت الشهادة وبالآ على أنفسكم أو على
آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من
سلطان ظالم أو غيره. ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إن يكن المشهود عليه
﴿غَنِيًّا﴾ فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلباً لرضاه، ﴿أو
فَقِيرًا﴾ فلا تمنعها ترحمًا عليه. ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني
والفقير، أي: بالنظر لهما وإرادة مصلحتهما، ولولا أن

عنها: إلى كل أزواج رسول الله بعث عمر مثل هذا؟ قالوا:
لا بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهن بغيره. فقالت:
أرفع رأسك، فإن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا في القسمة
بماله ونفسه. فرجع الرسول فأخبره، فأتته لهن جميعاً⁽¹⁾.
وكان لمعاذ امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في
بيت الأخرى، فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد⁽²⁾.
﴿وَأَنْ تَصْلِحُوا﴾ ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة،
﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيما يستقبل غفر الله لكم.

وَأَنْ يَنْفَرًا يَتَّبِعَنَّ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَكِينَةٍ وَكَانَ اللَّهُ رَسِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٨٠﴾.

وقرئ: وَأَنْ يَتَفَارَقَا، بمعنى وإن يفارق كل واحد منهما
صاحبه. ﴿يَتَّبِعَنَّ اللَّهُ كَلًّا﴾ يرزقه زوجاً خيراً من زوجته،
وعيشاً أمناً من عيشه، والسعة: الغنى والمقدرة، والواسع:
الغنى المقدر.

وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٨١﴾.

﴿مَنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بوصينا أو بأوتوا، ﴿وَأِيَّاكُمْ﴾
عطف على الذين أوتوا. الكتاب اسم للجنس يتناول الكتب
السموية. ﴿أَنْ تَتَّقُوا﴾ بأن اتقوا، أو تكون أن المفسرة لأن
التوصية في معنى القول. وقوله: ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ﴾
عطف على اتقوا، لأن للمعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى،
وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن الله، والمعنى: إن الله للخلق
كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم
كلها، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصى، يتقون
عقابه ويرجون ثوابه، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من
الأمم السالفة ووصيناكم أن اتقوا الله يعني: أنها وصية
قيمة ما زال يوصي الله بها عباده لستم بها مخصوصين؛
لأنهم بالتقوى يسعون عنده وبها ينالون النجاة في
العاقبة، وقلنا لهم ولكم: وإن تكفروا فإن الله في سمواته
وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه.
﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ مع ذلك ﴿غَنِيًّا﴾ عن خلقه وعن عبادتهم
جميعاً، مستحقاً لأن يحمده لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد
منهم.

وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَكُنَّ لِلَّهِ كَفِيرًا ﴿١٨٢﴾.

وتكرير قوله: ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾
تقرير لما هو موجب تقواه ليقوره فيطيعوه ولا يعصوه؛
لأن الخشية والتقوى أصل للخير كله.

(1) أخرجه أحمد في المسند 3/475.

(2) قال الزيلعي غريب ويقرب منه ما رواه أحمد في المسند، وساق
الحديث 1/363.

= التسوية بين الضرائر الحديث (1141)، والنسائي في كتاب: عشرة
النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نساته... الحديث (3952)، وابن
ماجه في كتاب: النكاح، باب: للقسمة بين النساء الحديث (1969)،
والحاكم في المستدرک 2/186. وأخرجه ابن حبان في كتاب:
النكاح، باب: للقسم، الحديث (4207).

مؤمنين بهما فحسب وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب فأمرُوا أن يؤمنوا بالجنس كله لأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيماناً به لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة فلم يكن إيمانهم إيماناً، وهذا الذي أراد عز وجل في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ وَهُمْ يَئِسُّونَ أَن يَنْخَلِئَهُم بِبَيْنِ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (2).

فإن قلت: لم قيل: ﴿نزل على رسوله﴾ و﴿وانزل من قبل﴾؟ قلت: لأن القرآن نزل مفزقاً منجماً في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله، ومعنى قوله: ﴿ومن يكفر بالله﴾ الآية: ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿فقد ضل﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بكله، ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعاً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّئِن يَكُنِ اللَّهُ يَتَوَفَّاكُم لَمَّا لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ (3) نفي للغفران والهداية وهي اللطف على سبيل المبالغة التي تطيها اللام والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيهما وهو الإيمان للخالص الثابت، والمعنى: أن الذين تكرروا منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة، ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله؛ لأن قلوب أولئك الذين هذا دينهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأهون حيث يبدو لهم فيه كرامة بعد أخرى. وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجع منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبيعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ.

بَيِّنَ الْمُنْفِقِينَ إِنَّا كُنَّا عَدَاؤَآ لِيَسَاءَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَانَ

الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها لأنه انظر لعباده من كل ناظر.

فإن قلت: لم ثنى الضمير في ﴿أولى بهما﴾ وكان حقه أن يوحد لأن قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ في معنى: إن يكن أحد هذين! قلت: قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ إلا إلى المنكور فلذلك ثنى ولم يفرد وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنه قيل: فإله أولى بجنس الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء. وفي قراءة أبي: فإله أولى بهم، وهي شاهدة على ذلك. وقرأ عبد الله: إن يكن غني أو فقير، على كان التامة. ﴿إن تعجلوا﴾ يحتمل العدل والعنول، كأنه قيل: فلا تتعجلوا للهوى كراهة أن تعجلوا بين الناس، أو إرادة أن تعجلوا عن الحق. ﴿وإن تلوا أو تعرضوا﴾ وإن تلوا السننكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أو تعرضوا عن الشهادة بما عنديكم وتمنعوها. وقرئ: وإن تلوا أو تعرضوا بمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة أو عرضتم عن إقامتها، ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ وبمجازاتهم عليه.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رُسُومِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي آتَى مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِآلِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِآلِهِ وَرُسُومِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ سَلَكًا بَعِيدًا ﴿٢٨﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمسلمين، ومعنى: ﴿آمنوا﴾ اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه. ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، والليل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾ وقرئ: وكتبه، على إرادة الجنس. وقرئ: نزل وانزل، على البناء للفاعل. وقيل: الخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض. وروي: أنه لعبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وكتبناك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال عليه السلام: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله». فقالوا: لا نفعل. فنزلت فآمنوا كلهم (1). وقيل: هو للمنافقين، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً.

فإن قلت: كيف قيل لأهل الكتاب ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلت: كانوا

(1) الطبري في تفسيره.

(2) سورة النساء، آيات: 150، 151.

(3) قال أحمد: وليس في هذه الآية ما يخالف ظاهر القاعدة المستقرة، على أن التوبة مقبولة على الإطلاق؛ لأن آخر ما ذكر من حال هؤلاء ازدياد الكفر، ولو كان المنكور في آخر أحوالهم التوبة، والإيمان لاحتج إلى الجمع بين الآية والقاعدة إذاً، وإنما يقع هذا الفصل، الذي أورده الزمخشري موقعه في آية آل عمران، وهو قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل

= توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ وقد ظهر الآن في الجمع بين هذه الآية، والقاعدة وجه آخر، سوى ما تقدم في آل عمران، وهو أن يكون المراد أن يصدر منهم توبة، فإن يكون قبول من باب:

على لاحب لا يهتدي بمناره

وعلى هذا يكون خيراً لا حكماً، والمخبر عنهم من سبق في علم الله أنه لا يتوب من المرتنتين، والله أعلم، وفي قول الزمخشري إن الناكث للتوبة العائد إليها يغلب من حاله، أنه يموت بشر حال نظر، فقد ورد في الحديث المؤمن مفتن تواب.

فكان ترك الإنكار لرضاهم.

الَّذِينَ يَبْرِصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْكُمْ وَمِنكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكُنْ بِجَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَيِّئًا ﴿١٧١﴾.

﴿الذين يترصبون﴾ إما بدل من الذين يتخذون، وإما صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم. ﴿يترصبون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق. ﴿ألم تكن معكم﴾ مظاهرين فأسهموا لنا في الغنيمة. ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسرهم فابقينا عليكم. ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بأن نبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم. وقرئ: ونمنعكم بالنصب بإضمار أن. قال الحطية:

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء
فإن قلت: لم سمي ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً! قلت: (3) تعظيماً لشأن المسلمين وتخصيماً لحظ الكافرين، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه، وأما ظفر الكافرين فما هو إلا حظ نني ولمظة من الدنيا يصيبونها.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ بَرَاءُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧٢﴾.

﴿يخادعون الله﴾ يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر. ﴿وهو خادعهم﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلصهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأسٍ ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت لخدع منه، وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون، فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينالون ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾. ﴿كسالى﴾ قرئ: بضم الكاف وفتحها، جمع كسلان كسكارى في سكران، أي: يقومون متناقضين متعاسين كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة. ﴿براءون الناس﴾ يقصون بصلاتهم الرياء والسمعة. ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ (4) ولا يصلون إلا

أولياته من دون المؤمنين أَيْبَنُوتُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٧٣﴾.

﴿الذين﴾ نصب على الذم أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو هم الذين، وكانوا يميلون الكفرة ويوالونهم، ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم. وقال: وش العزة ولرسوله وللمؤمنين (1).

﴿بشر المنافقين﴾ وضع بشر مكان، اخبر تهكماً بهم.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا يُنَادِئُهُمْ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حَاسِرُونَ ﴿١٧٤﴾.

﴿أن إذا سمعتم﴾ هي أن المخففة من الثقيلة، والمعنى: أنه إذا سمعتم، أي: نزل عليكم أن الشأن كذا، والشأن ما أقادته الجملة بشرطها وجزائها، وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع ينزل، أو في موضع النصب ينزل فيمن قرأ به والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة، من قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ (2) وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في نكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به، فنهي المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة، وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون. فقيل لهم: إنكم إذا مثل الأحبار في الكفر. ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين﴾ يعني: القاعدين والمقعود معهم.

فإن قلت: الضمير في قوله: ﴿فلا تقعدوا معهم﴾ إلى من يرجع؟ قلت: إلى من دل عليه ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ كأنه قيل: فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستهزئين بها.

فإن قلت: لم يكونون مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟ قلت: لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين والراضي بالكفر كافر.

فإن قلت: فهلا كان المسلمون بمكة حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين منافقين؟ قلت: لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم، وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم،

= بينهم مطابق أيضاً للواقع، والله أعلم.

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة الانعام، الآية: 68.

(3) قال أحمد: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن، فإن الذي كان يتفق للمسلمين فيه استئصال لشفاعة الكفار، واستيلاء أرضهم، ونيارهم، وأموالهم، وأرض لن يطؤها، وأما ما كان يتفق للكفار، فمثل الغلبة، والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً، فالتفريق =

(4) وإنما منع من أن يرد بها العدم؛ لأنه خير، فيجب صدقه، وقد كانوا ينكرون الله في بعض الأحيان، فلا يمكن أن يسلب نكر الله مطلقاً، وإذا بنيينا على أن المراد بالنكر الصلاة، وهو الظاهر، فالمراد أيضاً الصلاة المعتبرة التي ينكر بها الإنسان حق الله عليه، فينتهي عن الفحشاء والمنكر، والصلاة في هذه الوجهة

خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وأنه يحق عليك أن تتخلص المؤمن.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾.

﴿الدرك الأسفل﴾ الطبقة الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك؛ لأنها متداخلة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرئ: بسكون الراء، والوجه التحريك لقولهم: أدرك جهنم.

فإن قلت: لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت: لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجماتهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَمَرُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا إِلَيْهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٦﴾.

﴿وأصلحو﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق، ﴿واعتصموا بالله﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخالص، ﴿وأخلصوا بينهم﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه، ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين. ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

فإن قلت: من المنافق؟ قلت: هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فالتغليظ، كقوله: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»⁽¹⁾. وقيل لحذيفة رضي الله عنه: من المنافق؟ فقال: الذي يصف بالإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر: نخل على السلطان وتكلم بكلام، فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه. فقال: كنا نعهده من النفاق. وعن الحسن: أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفاً، يعني: الحجاج.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٤٧﴾.

﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعاً، أم يستنفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغني الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك؛ وإنما هو أمر أوجبه الحكمة أن يعاقب المسيء فإن قمتم بشكر نعمته وأمنتم به فقد أبعثتم عن أنفسكم استحقاق العذاب. ﴿وكان الله شاكراً﴾ مثيباً موفياً أجوركم ﴿عليماً﴾ بحق شركم وإيمانكم.

فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل

قليلاً؛ لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه، أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتلهيل إلا نكراً قليلاً في الندرة. وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلية ولا تسبيحة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه، ولا يجوز أن يراى بالقلة العدم.

فإن قلت: ما معنى المراءة، وهي مفاعلة من الرؤية؟ قلت: فيها وجهان: أحدهما: أن المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه، والثاني: أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل، فيقال: رأى الناس، يعني: رأهم. كقولك: نعمة وناعمة وفنقة وفنانقة وعيش وفائق. روى أبو زيد: رأت المرأة المرأة الرجل إذا أمسكتها لترى وجهه. ويدل عليه قراءة ابن أبي إسحق. يراؤنهم بهمزة مشددة مثل يروعنهم، أي: يبصرونهم أعمالهم ويرأؤنهم كذلك.

مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا يَجْعَلْ لَهُ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾.

﴿مذبذبين﴾ إما حال نحو قوله: ولا يذكرون عن واو يراؤون، أي: يراؤونهم غير ذاكين مذبذبين، أو منصوب على الذم، ومعنى مذبذبين: مذنبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون.

وحقيقة المذذب: الذي يذب عن كلا الجانبين، أي: يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان. إلا أن المذذب فيها تكرير ليس في الذب، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذنب عنه. وقرأ ابن عباس: مذبذبين بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم، أو بمعنى يتذبذبون كما جاء صلصل وتصلصل بمعنى. وفي مصحف عبد الله: مذبذبين. وعن أبي جعفر: مذبذبين بالدال غير المعجمة، وكان المعنى أخذ بهم تارة في بية وتارة في بية فليسوا بماضين على بية واحدة، والذبة الطريقة ومنها بية قريش. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان. ﴿لا إلى هؤلاء﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين، ﴿ولا إلى هؤلاء﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسبون مشركين.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا بِكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٤٩﴾.

﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾ لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء. ﴿سلطاناً﴾ حجة بينة، يعني: أن موالاة الكافرين بيئة على النفاق وعن صعصعة بن صوحان: أنه قال لابن أخ له:

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق الحديث (210).

= مسلوبية عن المنافقين مطلقاً، فيجوز إذا حمل القلة على العدم بهذا التفسير، والله أعلم.

ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شاكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شاكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا﴾ (٤٨).

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ (١) إلا جهر من ظلم، استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء، وقيل: هو أن يبداً بالشتم فيرد على الشاتم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ (٢). وقيل: ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فأصبح شاكياً فعوتب على الشكاية. فنزلت وقرئ: إلا من ظلم على البناء للفاعل للانقطاع، أي: ولكن الظالم راكب ما لا يحبه فيجهر بالسوء، ويجوز أن يكون من ظلم مرفوعاً، كأنه قيل: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا للظالم، على لفة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو، بمعنى: ما جاءني إلا عمرو. ومنه: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ (٣).

إِنْ يُدْرَأْ حَيْثُ أَوْ خُفِّهْ أَوْ تَمَعَّرْ عَن سُوَى فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (٤٩).

ثم حث على العفو وإن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً حثاً على الأحب إليه، والأفضل عنده، والاندخل في الكرم، والتخضع والعبودية، ونكر إبداء الخير وإخفائه تشبيهاً للعفو، ثم عطف عليهما اعتدالاً به وتنبهياً على منزلته وإن له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بنكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام. فليكن أن تقتنوا بسنة الله.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَفْتَرُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (٥٠).

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله، أو آمنوا بالله وبيعض رسله وكفروا ببعض، كافرين بالله ورسله جميعاً

لما ذكرنا من العلة. ومعنى: اتخاذهم بين ذلك سبيلاً: أن يتخذوا ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، كقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ (٤)، أي طريقاً وسطاً في القراءة وهو ما بين الجهر والمخافة. وقد اخطأوا فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان.

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٥١).

ولذلك قال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي: هم الكاملون في الكفر، وحقاً تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حق ذلك حقاً، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: هم الذين كفروا كفرةً حقاً ثابتاً يقيناً لا شك فيه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَرَرُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أُولَئِكَ سَوَاءٌ يَأْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٢).

فإن قلت: كيف جاز دخول ﴿بين﴾ على ﴿أحد﴾ وهو يقتضي شيئين فصاعداً؟ قلت: إن أحداً عام في الواحد المنكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما تقول: ما رأيت أحداً، فتقصد العموم، الا تراك تقول: إلا بني فلان وإلا بنات فلان، فالعنى: ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لستن كاحد من النساء﴾ (٥٣). ﴿سوف يؤتيتهم لجورهم﴾ معناه: أن إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به تأكيد الوعد وتشبيته لا كونه متأخراً.

سَمِعَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُ الشَّيْطَانُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْحِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَمَقَوْا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (٥٤).

روي: أن كعب بن الأشرف وفتحاص بن عازور أو غيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فاتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى، فنزلت (٥٤). وقيل: كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان بلئك رسول الله. وقيل: كتاباً نعالينه حين ينزل. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. قال الحسن: ولو سألوه لكي يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما أتاهم كفاية. ﴿فقد سألوا موسى﴾ (٥٥) جواب الشرط مقدر معناه: إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى.

(5) سورة الاحزاب، الآية: 32.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) قال احمد: وهذا من المواضع التي استولى عليه فيها الإغفال، ولوح به اتباع هواه الضلال؛ لأنه بنى على أن الظلم المضاف إليه لم يكن، إلا لمجرد كونهم طلبوا الرؤية، وهي محال عقلاً نبيياً، وأخرة على زعم القدرية، لما يلزم عندهم لو قيل بجوازها من اعتقاد التشبيه، فلذلك سمي أهل السنة المعتقدين لجوازها، ووقفوا في الآخرة وفاء بالوعد الصانع مشبهة، وغفل عن كون اليهود اقترحوا على موسى عليه السلام خصوصية علقوا إيمانهم بها، ولم يعتبروا المعجز من حيث هو كما يجب اعتباره، فقالوا:

(1) قال احمد: ووجه التفسير إن الظالم لا يندرج في المستثنى منه، كما أن الله تعالى مقس أن يكون في السموات، أو في الأرض، فاستحال دخوله في المستثنى منه، وكذا لا يندرج المستثنى في المستثنى منه، في قولك ما جاءني زيد إلا عمرو، وكلام الزمخشري في هذا الفصل لا يتحقق لي منه ما يسوغ مجازيته فيه، لإغلاق عبرته، والله أعلم بمرله.

(2) سورة الشورى، الآية: 41.

(3) سورة النمل، الآية: 65.

(4) سورة الإسراء، الآية: 110.

فَمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَإِيَّاتِهِمْ بَدَّلَ اللَّهُ وَوَقِيلُهُمُ الْآيَاتِ بِمِثْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْبِعٍ بُهَتْنَا عَظِيمًا ﴿١٥٧﴾.

﴿فيما نقضهم﴾ فبنقضهم، وما مزيدة للتوكيد.

فإن قلت⁽¹⁾: بم تعلقت الباء، وما معنى التوكيد؟ قلت: إما أن يتعلق بمحذوف، كأنه قيل: فيما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم ما فعلنا، وإما أن يتعلق بقوله: ﴿حرمنا عليهم﴾ لن قوله: ﴿فبظلم من الذين هانوا﴾⁽²⁾ ويدل من قوله: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ وأما التوكيد فمعناه: تحقيق أن العقاب أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك.

فإن قلت⁽³⁾: هلا زعمت أن المحذوف الذي تعلقت به الباء ما دل عليه قوله: ﴿بل طبع الله عليها﴾ فيكون التقدير: فيما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم، بل طبع الله عليها بكفرهم! قلت: لم يصح هذا التقدير؛ لأن قوله: بل طبع الله عليها بكفرهم رد وإنكار لقولهم: قلوبنا غلف. فكان متعلقاً به وذلك أنهم أرادوا بقولهم: قلوبنا غلف، أن الله خلق قلوبنا غلفاً، أي: في أكنة لا يتوصل إليها شيء

﴿أكبر من ذلك﴾ وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آياتهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبيهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعتت ﴿جهرة﴾ عياناً بمعنى أنراه نره جهره. ﴿بظلمهم﴾ بسبب سؤالهم الرؤية، ولو طلبوا أمراً جائزاً لما سماوا ظالمين، ولما أخذتهم للصاغة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى فلم يسمه ظالماً ولا رماه بالصاغة فتباً للمشيئة ورمياً بالصواعق. ﴿وأتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ تسلطاً واستيلاءً ظاهراً عليهم، حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتى يتاب عليهم فطاعوه واحتبوا بآفتينهم والسيوف تتساقط عليهم فيا لك من سلطان مبين.

وَرَفَعْنَا قَوْلَهُمُ الطُّورَ بَيْنَهُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا عَظِيمًا ﴿١٥٧﴾.

﴿بميثاقهم﴾ بسبب ميثاقهم لياخفوا فلا ينقضوه. ﴿وقلنا لهم﴾ والطور مظل عليهم ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ ﴿ولا تعدوا في السبت﴾ وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك. وقولهم: سمعنا وأطعنا، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ثم نقضوه بعد. وقرئ: لا تعتدوا ولا تعدوا، بإدغام التاء في اللال.

(3) قال احمد: هؤلاء قوم زعموا أن لهم على الله حجة بكونه خلق قلوبهم غير قابلة للحق، ولا متمكنة من قبوله، فكذبهم الله في قولهم: لأنه خلق قلوبهم على الفطرة، أي: أن الإيمان وقبول الحق من جنس مقهورهم، كما هو من جنس مقبور المؤمنين، وذلك هو المعبر بالتمكن، وبظلمهم ميسرين للإيمان متأيماً منهم قبول الحق قامت عليهم حجة الله، إذ يجد الإنسان بالضرورة الفرق بين قبول الحق، والدخول في الإيمان، وبين طيرانه في الهوى، ومشيه على الماء ويعلم ضرورة أن الإيمان ممكن منه، كما يعلم أن الطيور غير ممكن منه عادة، فقد قامت الحجة وتبلجت، ألا الله للحجة البالغة، فمن هذا الوجه اتجه الرد عليهم، لا كما يزعمه الزمخشري من أن لهم قدرة على الإيمان يلحقونه بها لانفسهم ويقرونه في قلوبهم، وتلك القدرة موجودة سواء وجد الفعل أولاً، كسيف المعد في يد القاتل سواء وجد أو لا، وأن هذه القدرة التي هي كالأداة للمخلق على زعمه، يصرفها العبد حيث شاء في إيمان وكفر وابق ذلك مشيئة الله أو لا، وأن هؤلاء صرفوا قدرتهم إلى خلق الكفر، لانفسهم على خلاف مشيئة الله تعالى، لذلك يعرض الزمخشري باهل السنة للقائلين بأن الله تعالى لو شاء من عبدة الأوثان أن لا يعبواها لما عبوها، وتسميتهم لذلك مجبرة، ويجعل قوله تعالى: ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبناهم﴾ رداً على الأشعرية كما هو رد على الوثنية، ويغفل عن النكتة التي نبهنا عليها، وهي أن الرد على الوثنية بذلك لم يكن إلا: لأنهم ظنوا أن هذا المقدر يقين لهم للحجة على الله، ولذلك قال تعالى عقيب ذلك: ﴿قل فله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم لجمعين﴾ فأوضح الله تعالى أن الرد عليهم لم يكن لقولهم أن الله لو شاء لهداكم لجمعين، ولكن إنما كان الرد لظنهم أن ذلك حجة على الله بقوله، فله الحجة البالغة، فهذا التقرير هو الإيمان المحض، والتوحيد الصرف، وما عداه من الإشراك الصراح فخرى، نعوذ بالله منه.

﴿إن يؤمن لك، حتى نرى الله جهره﴾، فهذا الاقتراح والتعنت بكفهم ظلماً ألا ترى أن الذين قالوا أن يؤمن لك، حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، أو حتى تفجر الأرض، أو يكون لك بيت من زخرف كيف هم من اظلم الظلمة، وإن كانوا إنما طلبوا أموراً جائزة، ولكنهم اقترحوا في الآيات على الله، وحقق أن يسندوا إيمانهم إلى أي معجز اختاره الله، بل ذلك دلالة يلجا على أن ظلمهم مسبق عن اقتراحهم، لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً، والعجب بتنظير هذا السؤال لو كان المسؤول جائزاً، كسؤال إبراهيم عن إحياء الموتى على زعم الزمخشري غفلة منه، عما انطوى عليه سؤال إبراهيم عليه السلام من صريح الإيمان، حيث قال له تعالى: ﴿ولم تؤمن﴾ قال: بلى، وعما انطوى عليه سؤال هؤلاء الملاعين من محض الكفر، والإصرار عليه في قولهم: ﴿إن يؤمن لك﴾، فصدروا كلامهم بالجد، والنفي، وأما دعاء الزمخشري على أهل السنة بالتب، والصواعق، فإله أعلم أي الفريقين لحق بها، ويكفيه هذه الغفلة التي تتدلى بها عليه، بإتباع الهوى الذي يعمي ويصم، نسال الله المعصمة من الضلالة، والغواية.

(1) ولنكر البديل المنكور سر، وهو أن الكلام لما طال بعد قوله فيما نقضتهم حتى بعد عن متعلقه الذي هو حرمنا قوى نكره بقوله، فبظلم من الذين هانوا حتى يلي متعلقه، وجاء النظم به على وجه من الاختصار في إجمال ما سبق تفصيله؛ لأن جميع ما تقدم من النقض والقتل، وقولهم قلوبنا غلف، وكفرهم، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، ودعواهم قتل المسيح ابن مريم، قد انطوى عليه الإجمال المنكور آخره، انطواء جامعاً مع التنجيس على أن جميع أفعالهم المصادرة منهم ظلم، وقد تقدم لهذا التقرير نظائر، والله الموفق.

من النكر والموعظة. كما حكى الله عن المشركين: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبناهم﴾⁽¹⁾. وكذهب المجبرة أخزاهم الله فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها اللطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة للنكر ولا متمكنة من قبوله.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿ويكفرهم﴾ قلت: الوجه أن يعطف على فيما نقضهم، ويجعل قوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾، كلاماً تبع قوله: ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ على وجه الاستطراد يجوز عطفه على ما يليه من قوله: ﴿بكفرهم﴾.

فإن قلت: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه نكره سواء عطف على ما قيل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله: ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ وقوله: ﴿بكفرهم﴾! قلت: قد تكرر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بيسى ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم، وافتخارهم بقتل عيسى عاقبتناهم، أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم: هو التزنية.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَشَكٌّ فِيهِمْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٨﴾

فإن قلت: كانوا كافرين بيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر بن الساحرة والفاعل بن الفاعلة، فكيف قالوا: ﴿إنا قتلنا للمسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾؟ قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾⁽²⁾، ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان نكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا ينكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله، كقوله: ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾⁽³⁾ روي: أن رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني اللهم العن من سبني وسب والنتي، فمسخ الله من سبهما قرده وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله

بأنه يرفعه إلى السماء ويظهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبيهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقال رجل منهم: أنا. فالقى الله عليه شبيهه، فقتل وصلب. وقيل: كان رجلاً يناق عيسى فلما أرادوا قتله قال: أنا ألكم عليه. فدخل بيت عيسى فرفع عيسى، والقي شبيهه على المناق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى، ثم اختلفوا. فقال بعضهم: إنه إله لا يصح قتله، وقال بعضهم: إنه قد قتل وصلب. وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ وقال بعضهم: رفع إلى السماء. وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

فإن قلت: ﴿شبهه﴾ مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له نكر؟ قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو ﴿لهم﴾ كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله: ﴿إنا قتلنا﴾ يدل عليه، كأنه قيل: ولكن شبه لهم من قتلوه. ﴿إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن.

فإن قلت⁽⁴⁾: قد وصفوا بالشك، والشك: أن لا يرجح أحد الجائزين، ثم وصفوا بالظن، والظن: أن يرجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن إن لاحت لهم أمانة فظنوا فذاك. ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ وما قتلوه قتلاً يقيناً، أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك في قولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح، أو يجعل يقيناً تأكيداً لقوله: وما قتلوه، كقولك: ما قتلوه حقاً، أي: حق انتفاء قتله حقاً، وقيل: هو من قولهم: قتلت الشيء علماً ونحرته علماً، إذا تباع فيه علمك، وفيه تهكم لأنه إذا نفي عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستفراق، ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكماً بهم.

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا لَبِئْتُمْ بِهِ قَوْلَ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ لَنَا بِبُرْهَانٍ كَذِبٍ ﴿٥٩﴾

﴿ليؤمنن به﴾ جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محنوف تقديره: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، ونحوه ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾⁽⁵⁾ ﴿وإن منكم إلا واردها﴾⁽⁶⁾ والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته ببعيسى وبأنه عبد الله ورسوله،⁽⁷⁾ يعني:

(1) سورة الزخرف، الآية: 20. = يعلم الشيء على خلاف ما هو به، فجاءت العبارة الثانية على

(2) سورة الشعراء، الآية: 27.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 9 - 10.

(4) قال أحمد: وليس في هذا الجواب شفاء للغليل، والظاهر، والله أعلم

أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك في أمره، والتردد فجاءت العبارة

الأولى على ما يغلب من حالهم، ثم كانوا لا يخلون من ظن في

بعض الأحوال، وعنده يقفون لا يرفعون إلى العلم فيه البتة، وكيف =

(5) سورة الصافات، الآية: 164.

(6) سورة مريم، الآية: 71.

(7) قال أحمد: كقول فرعون لما عين الهلاك: وأمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

تعالى. وقيل: إلى محمد ﷺ.

فِيظَلُّرٍ مِّنَ اللَّيْلِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَّيْتِ أَحَلَّتْ لَمْ رَمَصَهُمْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١١٦﴾.

﴿فيظلم من الذين هادوا﴾ فبأي ظلم منهم. والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه، وهو ما عدد لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حرمت عليهم، ما نكره في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ (5) حرمت عليهم الابنان وكلما اذنوا نذبا صغيراً أو كبيراً حرم عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿ووبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ ناساً كثيراً أو صدأً كثيراً.

وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَخْلَصُوا إِلَيْهِ فَأَتَى الْأَيْمَانَ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٧﴾.

﴿بالباطل﴾ بالرشوة التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب.

لَنْ كُنَ الرَّسَخُونَ فِي الْإِيمَانِ فِي الْوَيْلِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَضِينَ بِاللَّهِ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا لِقَاءَ رُسُلِهِمْ حَرَجًا أُولَئِكَ سَتُؤْتِيهِمْ اللَّهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٨﴾.

﴿لكن الرساخون﴾ يريد من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، والراسخون في العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون، ﴿والمؤمنون﴾ يعني: المؤمنين منهم أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الرساخون على الابتداء، و﴿يؤمنون﴾ خبره، و﴿المقيمين﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع وقد كسره سيويه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الاقتنائ، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام ونب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقيل: هو عطف على ﴿بما أنزل إليك﴾ أي: يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفي مصحف عبد الله: والمقيمون بالواو. وهي قراءة مالك بن دينار والجحدري وعيسى الثقفي.

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ

إذا عين قبل أن تزهر روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها، يعني: هذه الآية. وقال إنني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه، فلا أسمع منه ذلك. فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بدهر وجهه، وقالوا: يا عدو الله أتاك موسى نبياً فكنت به. فيقول: أمنت أنه عبد نبي. وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله. فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً، فنظر إليّ، وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن عليّ ابن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه، ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية، أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدثني محمد بن عليّ ابن الحنفية؟ قال: أردت أن اغيظه، يعني: بزيادة اسم علي؛ لأنه مشهور بابن الحنفية (1). وعن ابن عباس: أنه فسره كذلك، فقال له عكرمة: فإن اتاه رجل فضرب عنقه؟ قال: لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه. قال: وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به (2). وتدل عليه قراءة أبي: إلا ليؤمنن به قبل موتهم، بضم النون، على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم، لأن أحداً يصلح للجمع.

فإن قلت (3): ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت: فائده الوعيد وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعايمة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثاً لهم وتنبهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله، وقيل: الضميران لعيسى، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روي: أنه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة، وهي: ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والنذاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون وينفوناه (4). ويجوز أن يراد: أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم في قبورهم في تلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل: الضمير في به يرجع إلى الله

= الأمة، ويكون الرسول عليكم شهيداً، والله أعلم.

(1) لم أجده. ولم يخرج الزليعي، 368/10.

(2) نسبة الزليعي إلى الطبراني، ونسبه ابن حجر إلى الطبري.

(3) قال أحمد: ويبيد هذا التاويل قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ فإن ظاهره التهديد، ولكن ما أريد بقوله في حق هذه

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التفسير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الحديث (4675). ولم ينكر النزول.

(5) سورة الأنعام، الآية: 146.

من سنة الغفلة وينبها لما وجب الانتباه له.

لكن الله يَهْدِي بِنَا أَرْوَلِ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُةُ
يَهْدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٧﴾

قرا السلمي: لكن الله يشهد بالتشديد.

فإن قلت⁽³⁾: الاستدراك لا بد له من مستدرك، فما هو
في قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾ قلت: لما سال أهل الكتاب
إنزال الكتاب من السماء وتعتنوا بذلك واحتج عليهم بقوله:
﴿إننا أوحينا إليك﴾. قال: لكن الله يشهد، بمعنى: أنهم
لا يشهدون لكن الله يشهد. وقيل: لما نزل: ﴿إننا أوحينا
إليك﴾ قالوا: ما تشهد لك بهذا، فنزل: لكن الله يشهد.
ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه إثباته لصحته بإظهار
المعجزات كما تثبت الدعوى بالبينات. وشهادة الملائكة
شهادتهم بأنه حق وصق.

فإن قلت: بم يجابون لو قالوا: بم يعلم أن الملائكة
يشهدون بذلك؟ قلت: يجابون بأنه يعلم بشهادة الله لأنه لما
علم بإظهار المعجزات أنه شاهد بصحته علم أن الملائكة
يشهدون بصحة ما شهد بصحته لأن شهادتهم تبع
لشهادته.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، وما موقعه
من الجملة التي قبله؟ قلت: معناه: أنزله ملتبساً بعلمه
الخاص الذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم وأسلوب
يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وموقعه مما قبله موقع
الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة، وأن شهادته بصحته
أنه أنزله بالنظم المعجز الفائت للقدرة. وقيل: أنزله وهو
عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنت مبلغه، وقيل: أنزله بما علم
من مصالح العباد مشتملاً عليه، ويحتمل أنه أنزله وهو

رَعِيْسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَمُوسَى وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا ﴿١٧٨﴾

﴿إننا أوحينا إليك﴾ جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم
رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج
عليهم بأن شانه في الوحي إليه كشأن سائر الانبياء الذين
سلفوا، وقرئ: زبوراً بضم الزاي، جمع زبر وهو الكتاب.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيماً ﴿١٧٩﴾

﴿ورسلاً﴾ نصب بضمير في معنى: أوحينا إليك، وهو
أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسره ﴿قصصناهم﴾.
وفي قراءة أبي: ورسل قد قصصناهم عليك من قبل،
ورسل لم نقصصهم. وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنهما
قرأ وكلم الله بالانصب⁽¹⁾، ومن بدع التفسير أنه من الكلم
وأن معناه: وجرح الله موسى بإفطار المحن ومخالف الفتن.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَدَّ
الرُّسُلَ وَكَانَ اللَّهُ غَافِرًا حَكِيمًا ﴿١٨٠﴾

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ الأوجه ان ينتصب على
المدح، ويجوز انتصابه على التكرير.

فإن قلت⁽²⁾: كيف يكون للناس على الله حجة قبل
الرسال وهم محجوجون بما نصبه الله من الأئمة التي النظر
فيها موصل إلى المعرفة، والرسال في أنفسهم لم يتوصلوا
إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأئمة ولا عرف أنهم
رسل الله إلا بالنظر فيها؛ قلت: الرسل منبهون عن الغفلة
وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد
مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال
التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة لليلة وتنميماً
لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا

مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
وقيل لهم: ما هذه الآية تناديكم يا معشر القدرية أن الحجة إنما
قمت على الخلق بالأحكام الشرعية المؤدية إلى الجزاء بإرسال
الرسل، لا بمجرد العقل، فما يقولون فيها صمت حينئذ قاتهم،
وغيروا في وجه هذا النص، وغيروه عما هو موضوع له، فقالوا:
المراد أن الرسل تتم حجة الله، وتنبه على ما وجب قبل بعثها
بالنقل، كما أجاب به الرمخشري، وقرئياً من هذا التعسف يقولون
إننا ورد عليهم قوله تعالى: ﴿وما كنا معنيين حتى نبعث رسولا﴾
وربما يئس على ضعفة المطالعين لهذا الفصل، من كلام
الرمخشري قوله: إن أئمة التوحيد والمعرفة منصوبة قبل إرسال
الرسل، وبذلك تقوم الحجة، فتظن أن ذلك جار على سنن الصحة،
إذ المعرفة بتفائق والتوحيد بإجماع، إنما طريقه العقل لا النقل
الذي يئس عليه أن النظر في أئمة التوحيد، هو فعل المكلف، ليس
بالحكم الشرعي، بل الحكم وجوب النظر والمعرفة متلقاة من
العقل المحض، والوجوب متلقى من النقل الصريح وبه تقوم
الحجة، وعليه يرتب الجزاء، والله سبحانه ولي التوفيق والمعونة.

(3) قال أحمد: ورود هذا الفصل في كلامه، مما يفتبط به.

(1) قال أحمد: وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لإنكارهم
الكلام القديم الذي هو صفة الذات، إذ لا يثبتون إلا الحروف،
والاصوات قائمة بالأجسام، لا بذات الله تعالى، فيرد عليهم
بجدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام في
التكليم، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً، واصواتاً قائمة
ببعض الأجرام، وذلك مشترك بين موسى، وبين كل سماع لهذه
الحروف حتى للمشرك الذي قال الله فيه، حتى يسمع كلام الله،
فيضطر المعتزلي إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم
على التجريح، وصق الرمخشري، وأنصف إنه لمن بدع التفسير
التي ينبو عنها الفهم، ولا يبين بها إلا الوهم، والله الموفق.

(2) قال أحمد: قاعدة المعتزلة في التحسين والتقيح العقلين تجرهم،
وتجرؤهم إلى إثبات لحكام الله تعالى بمجرد العقل، وإن لم يبعث
رسولاً، فيوجبون بقولهم ويحرمون، ويبيحون على وفق زعمهم،
ومما يوجبونه قبل ورود الشرع النظر في أئمة المعرفة، ولا
يتوقفون على ورود الشرع العوجب، فمن ثم يلزمون بعد خبط
وتطويل أن من ترك النظر في الأئمة قبل ورود الشرع، فقد ترك
ولجياً استحق به التعنيب، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب، وإن
لم يكن شرع، وإن تليت عليهم هذه الآية، وهي قوله: ﴿رسلاً﴾

جعفر بن محمد: إنَّما المسيح بوزن السكيت. وقيل لعيسى: كلمة الله، وكلمة منه، لأنَّه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير، واسطة أب ولا نطفة. وقيل له: روح الله وروح منه لذلك لأنَّه ذو روح وجد من غير جزء، من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي؛ وإنَّما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة، ومعنى «ألقاها إلى مريم»

أوصلها إليها وحصلها فيها. «ثلاثة» خبر مبتدأ محذوف، فإن صحت الحكاية عنهم أنَّهم يقولون: هو جوهر واحد ثلاثة اقانيم: اقنوم الأب واقنوم الابن واقنوم روح القدس، وأنَّهم يريون باقنوم الأب الذات، وباقنوم الابن العلم، وباقنوم روح القدس الحياة، فتقديره: الله ثلاثة، وإلا فتقديره الألهة ثلاثة. والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأنَّ الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأنَّ المسيح ولد الله من مريم، الا ترى إلى قوله: «أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» (4) وقالت النصراني: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنَّهم يقولون: في المسيح لاهوتية ونسوتية من جهة الأب والام. ويدل عليه قوله: «إنَّما المسيح عيسى ابن مريم». فأثبت أنَّه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأُمَّهاتها وإنَّ اتصاله بالله تعالى من حيث إنَّه رسوله، وإنَّه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب، فنفي أن يتصل به اتصال الأبناء بالأبَاء، وقوله: «سبحانه أن يكون له ولد» وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى: «سبحانه أن يكون له ولد» سبحة تسبيحاً من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن: إن يكون بكسر الهمزة ورفع النون، أي: سبحانه ما يكون له ولد، على أنَّ للكلام جملتان. «له ما في السفوات وما في الأرض» بيان لتنزّهه عما نسب إليه، يعني: أن كل ما

فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه على أن الجزء إنَّما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأمراض. «وكفى بالله وكيداً» يكل إليه الخلق كلهم أمورهم فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه. أن يَسْتَكْفِ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُرُؤُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْفِرْ سَيُجْزِمُ إِلَيْهِ جَمِيعًا (٧٧)

«لأن يستكف المسيح» (5) لن يأنف ولن يذهب بنفسه

عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة، والملائكة يشهدون بذلك، كما قال في آخر سورة الجن: الا ترى إلى قوله تعالى: «ولاحظ بما لديهم» (1) والإحاطة بمعنى العلم. «وكفى بالله شهيداً» وإن لم يشهد غيره؛ لأن التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً «قل أي شيء لكبر شهادة قل الله» (2).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْزِيهِمْ وَلَا يُرِيدُهُمْ طَرِيقًا (٧٨)

«كفروا وظلموا» (3) جمعوا بين الكفر والمعاصي، أو كان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين أصحاب كباثر؛ لأنَّه لا فرق بين الفريقين في أنَّه لا يغفر لهما إلا بالتوبة. «ولا يهديهم طريقاً» لا يلفظ بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم، أو لا يهديهم يوم القيامة طريقاً إلا طريقها.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٧٩)

«يسيراً» أي: لا صراف له عنه.

يَأْتِيهَا النَّاسُ نَذَّجَاءَكُمْ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَيُّهَا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٨٠) يَأْتِيهِ الْكُتُبُ لَا تَمْلَأُ فِي رَيْبِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْ رَبِّهِ فَأَيُّوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

«فأمنوا خيراً لكم» وكذلك «انتهوا خيراً لكم» انتصابه بضمير، وذلك أنَّه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنَّه يحملهم على أمر، فقال: خيراً لكم، أي: اقتصدوا أو اثرتوا خيراً لكم مما لنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الإيمان والتوحيد.

«لا تغلوا في دينكم» غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته حيث جعلته مولوداً لغير رشدة، وغلت النصراني في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهاً. «ولا تقولوا على الله إلا الحق» وهو تنزيهه عن الشريك والولد. قرأ

(4) سورة المائدة، الآية: 116.

(1) سورة الجن، الآية: 28.

(2) سورة الانعام، الآية: 19.

(3) قال احمد: يعنى من الظاهر لعله يتروح إلى بث طرف من العقيدة الفاسدة في وجوب وعيد العصاة، وانهم مخلدون تخليد الكفار، وقد تكررت ذلك منه، وهذه الآية تنبؤ عن هذا المعتقد، فإنه جعل الفعلين؛ أعني الكفر والظلم كليهما صلة للموصول المجموع، فيلزم وقوع الفعلين جميعاً من كل واحد من أحواله، الا تراك إذا قلت الزيون قاموا، فقد استندت القيام إلى كل واحد من أحوال الجمع، فتكلم لو عطف عليه فعلاً آخر لزم فيه ذلك ضرورة، والله الموفق.

(5) قال احمد: وقد كثر الاختلاف في تفضيل الانبياء على الملائكة، فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الانبياء، وذهب القاضي أبو بكر منا، والحليبي وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة، واتخذ المعتزلة هذه الآية عمنتم في تفضيل الملائكة من حيث الوجه الذي استدل به للزمخشري، ونحن بعون الله نشعب القول في المسألة من حيث الآية، فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة. لحدما: إن سبينا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح أن تكون أفضل من محمد عليه =

الآية: لأنك إذا نهيته عن إيداء المسلم، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام، فلا يلزم من ذلك نهي عن الكفار المسلوبه عنه هذه الخصوصية، فإذا قلت: ولا نهيًا، فقد جئنا فائدة لم تكن في الأول، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى إلى النهي عن أكثر منه، ولو رتب هذا المثال، كترتيب الآية، فقلت: لا تؤذ نهيًا، فهم المنهي أن أذى المسلم أسهل في النهي، إذ يساوي الذمي في سبب الاحترام، وهو الإنسانية مثلاً، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم، وهو الإسلام، فيقتنه هذا النهي عن تجديده نهي آخر عن أذى المسلم، فإن قلت: ولا مسلماً لم تجدد له فائدة، ولم تعلمه غير ما علمه أولاً، فقد علمت أنها نكتة واحدة توجب أحياناً تقديم الأعلى، وأحياناً تأخيره، ولا يميز لك ذلك إلا السياق، وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى، وتأخير الأعلى ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة، قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ استفتاء عن نهي عن ضربهما، فما فرقته بتقديم الأدنى، ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التاكيف، والإنهار؛ لأنه مستغنى عنه وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾، ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية، لتفضيل الملائكة، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيقة عند المعتقد، لنك جمع بين الآية، وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف، وذلك أن تفضيل الملائكة في القوة، وشدة البطش وسعة المتكبر، والافتقار قال، وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية؛ لأن المقصود الرد على النصراني في اعتقادهم الوهية عيسى عليه السلام مستندين إلى كونه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة، فناسب ذلك أن يقال هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق لا يستنكف عن عبادة الله تعالى بل من هو أكثر خورق، وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين الذين من جعلتهم جبريل عليه السلام، وقد بلغ من قوته، وإقدار الله له أن اقتلع المدائن، واحتملها على ريشة من جناحه، فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة إذ بهذا الاعتبار لا خلاف أنهم أقوى وأبطش، وأن خوارقهم أكثر وإنما الخلاف في التفضيل، باعتبار مزيد الثواب والكرامات، ورفع الدرجات في دار الجزاء، وليس في الآية عليه دليل ولما كان أكثر ما ليس على النصراني الوهية عيسى كونه مخلوقاً، أي: موجوداً من غير أب أنبأنا الله تعالى، أن هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله بل، ولا الملائكة المخلوقين من غير أب، ولا أم، فيكون تأخير تكريم؛ لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى، ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بأدم عليهما السلام، فنظر الغريب بالأغرب، وشبه العجيب من قدرته بالعجيب، إذ عيسى مخلوق من أم وأدم من غير أم، ولا أب، ولذلك قال: ﴿خلقهم من تراب، ثم قال له كُن فيكون﴾ ومدار هذا البحث على النكتة التي نبهت عليها، فمتى استقامت اشتغال المنكور أياماً على فائدة لم يشتمل عليها الأول، بأي طريق كان من تفضيل، أو غيره من الفوائد، فقد أسند النظر وطابق صيغة الآية، والله أعلم، وعلى الجملة فالمسألة سمعية، والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلًا، ووجوده عسر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما أحسن تأكيد الزمخشري لاستدلاله بعبث الملائكة المعنيتين بأنهم المقربون، ومن ثم ينشئ ظهور من فصل اللثة في الملائكة، والأنبياء فلم يعجم التفضيل في الملائكة، ولا في الأنبياء بل فضل ثم فصل، وليس الغرض إلا ذكر محامل الآية لا البحث في اختلاف المذاهب، والله الموفق.

الصلوة والسلام، وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من أحاد الأنبياء، أفضل من كل واحد من أحاد الملائكة، وبين طائفتنا في هذا الطرف خلاف. السؤال الثاني، أن قوله ولا الملائكة المقربون صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح، ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح، وفي هذا السؤال أيضاً نظر؛ لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من أحاد الملائكة، فقد يقال يلزم القول بأنه أفضل من الكل، كما أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أفضل من كل واحد من أحاد الأنبياء، كان أفضل من كلهم، ولم يفرق بين التفضيل على التفضيل، والتفضيل على الجملة أحد من صنف في هذا المعنى، وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين، وأدعى أنه لا يلزم منه على التفصيل تفضيل على الجملة، ولم يثبت عنه هذا القول، ولو قاله أحد، فهو مردود بوجه لطيف، وهو أن التفضيل المراد جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة، والاحاديث متوافرة بذلك، وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحدة من المفضولين على من انتق على أنه أفضل من كل واحد منهم، أولاً: ترفع درجة أحد منهم على سبيل إلى الأول؛ لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل، فتعيين الثاني: وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع ضرورة، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم قطعاً. الثالث: أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً، وأما الاستشهاد بالمثال المنكور على أن الثاني أبداً يكون أعلى رتبة، فمعارض بامثلة لا تقتضي ذلك، كقول القائل ما عابني على هذا الأمر زيد، ولا عمرو. قلت: وكقولك: لا تؤذ مسلماً ولا نهيًا، فإن هذا الترتيب وجه الكلام، والثاني أنني وأخضف درجة، ولو ذهبت تعكس هذا فقلت لا تؤذ نهيًا، ولا مسلماً ليجمع الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الكلام، وقانون البلاغة، وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرر، ولكن الحق أولى من المراء، وليس بين المثاليين تعارض، ونحن نهد تمهيداً برفع اللبس، ويكشف الغطاء، فنقول: النكتة في الترتيب في المثاليين الموهوم تعارضهما واحدة، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره، وتلك النكتة مقتضى البلاغة الثاني عن التكرار والسلامة عن النزول، فإذا اعتمدت ذلك، ففهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول قد أقاده، وأنت مستغنى عن الآخر فاعمل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستثنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول مثاله الآية المنكورة، فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة، وأعلى رتبة لكان نكر الملائكة بعده، كالمستغنى عنه؛ لأنه إذا كان الأفضل، وهو المسيح على هذا التقدير عبداً لله غير مستنكف من العبودية لزم من ذلك أن من بونه في الفضيلة، أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله، وهم الملائكة على هذا التقدير، فلم يتجدد إذا بقوله، ولا الملائكة المقربون إلا ما سلف أول الكلام، وإذا قُرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى، بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك، وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل، فالحكمة داعية إلى ذكر الملائكة إذ لم يستلزم الأول الآخر، فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده، وتترادى وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز؛ لأنه الغاية في البلاغة وبهذه النكتة يجب أن تقول لا تؤذ مسلماً، ولا نهيًا، فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في

فَأَنْ قُلْتَ⁽³⁾: التفصيل غير مطابق للمفصل لأنه اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد! قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به. وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أن يحذف نكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، ولأن نكر أحدهما يدل على نكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بالله واعتصموا به﴾. والثاني: وهو أن الإحسان إلى غيرهم مما يفهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنه قيل: ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله.

يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ ذِكْرًا مُبِينًا ﴿٧٧﴾.

البرهان والنور المبين: القرآن، أو أراد بالبرهان دين الحق، أو رسول الله ﷺ، وبالنور المبين ما بينه ويصقه من الكتاب المعجز.

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَمُوا بِهِ سَيُدْعِيهِمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَضْلِهِ وَرَبِّهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٧٧﴾.

﴿في رحمة منه وفضل﴾ في ثواب مستحق وتفضل. ﴿ويهديهم إليه﴾ إلى عبادته ﴿صراطاً مستقيماً﴾ وهو طريق الإسلام، والمعنى: توفيقهم وتبتيبتهم.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرًا لَكَ لَيْسَ لَكَ وَلَا لَكُمْ أَثَرٌ فَلَمَّا نَصَبَ مَا تَرَكُوا وَهُوَ بَرِّئُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَا لَكُمْ فَإِنْ كَانَتَا أَثْمَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّمَانُ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصَلَوْا بِاللَّهِ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ﴿٧٧﴾.

روي: أنه آخر ما نزل من الأحكام. كان رسول الله ﷺ في طريق مكة عام حجة الوداع فأتاه جابر بن عبد الله فقال: إن لي اختاً فكم أخذ من ميراثها إن ماتت⁽⁴⁾. وقيل: كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إنني كلاله فكيف

عزّة، من نكفت الدمع إذا نحيتها عن خدك بأصبعك. ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدرأ وأعظم منه خطراً، وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم.

فَأَنْ قُلْتَ: من أين دلّ قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ على أن المعنى ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلّوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يرتفع عيسى عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجة. كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية، فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجةً وأعلامه منزلةً. ومثاله قول القائل:

وما مثله ممن يجاودحاتم ولا البحر نوايا موج يلتج زاخره لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود، ومن كان له نوق فلينق مع هذه الآية قوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾⁽¹⁾ حتى يعترف بالفرق بين. وقرأ علي رضي الله عنه: عبید الله، على التصغير. وروي: أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟» قالوا: عيسى. قال: «وأي شيء أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله». قالوا: بلى، فنزلت. أي: لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه⁽²⁾، لو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأن العار الصق به.

فَأَنْ قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ولا الملائكة﴾؟ قلت: لا يخلو إما أن يعطف على المسيح، أو على اسم يكون، أو على المستتر في عبداً لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة، كقولك: مررت برجل عبد أبوه، فالعطف على المسيح هو الظاهر لاداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه.

فَأَنْ قُلْتَ: قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبد الله في هذا العطف، فما وجهه؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد ولا كل واحد من الملائكة، أو ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبداً الله عليه إيجازاً، وأما إذا عطفهم على الضمير في عبداً فقد طاح هذا السؤال. قرئ: فسيحشرهم بضم الشين وكسرهما وبالنون.

= المقربين، وغيرهم جميعاً، ووقوع الفعل المتصل به الضمير جزء لقوله: ﴿ومن يستنكف﴾ لا يعين اختصاص الضمير بالمستنكفين؛ لأن المصحح لارتباط الكلام قد وجد مندرجاً في طي هذا الضمير الشامل لهم، وبغيرهم، وحينئذ يكون المفصل مشتملاً على الفريقين، وتفصيله منطبق عليه، والله أعلم.

(4) الثعلبي في تفسيره. وقال الزيلعي غريب 1/369.

(1) سورة البقرة، الآية: 120.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص: 106، 107.

(3) قال أحمد: المراد بالمفصل من لم يستنكف، ومن استنكف لسبق نكرهما إلا ترى أن المسيح، والملائكة المقربين، ومن نونهم من عباد الله، لم يستنكفوا عن عبادة الله، وقد جرى نكرهم، ويرشد إليه تأكيد الضمير بقوله جميعاً، فكأنه قال، فسيحشر إليه =

وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم.

سورة المائدة

مدنية إلا آية 3 فنزلت في حجة الوداع

وهي مائة وعشرون آية

نزلت بعد الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَمْثَرِ إِلَّا مَا بَيْنَ عَيْنَيْكُمْ غَيْرَ عِلِّيِّهِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

يقال (٤): وفي بالعهد وأوفى به، ومنه: والموفون بعهدهم. والعقد: العهد الموثق، شبه بعقد الخيل، ونحوه قال الخطيب:

قوم إذا عقدوا عقداً جازهم شئوا العناج وشئوا فوقه الكربا
وهي عقود الله التي عقدها على عباده والزمها إياهم من
موجب التكليف، وقيل: هي ما يعقدون بينهم من عقود
الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبيعات
ونحوها، والظاهر أنها عقود الله عليهم في بيته من تحليل
حلاله وتحريم حرامه، وأنه كلام قدم مجملاً ثم عقب
بالتفصيل، وهو قوله: «أحلت لكم» وما بعده.

البهيمة: كل ذات أربع في البر والبحر، وإضافتها إلى
الأنعام للبيان، وهي الإضافة التي بمعنى من خاتم فضة
ومعناه البهيمة من الأنعام. «إلا ما يتلى عليكم» إلا
محرم ما يتلى عليكم من القرآن، من نحو قوله: «حرمت
عليكم الميتة» وإلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام
الأزواج الثمانية، وقيل: بهيمة الأنعام الطباء وبقر الوحش
ونحوها، كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيتها من جنس
البهائم في الاجترار وعدم الأنياب، فأضيفت إلى الأنعام
للملابسة الشبه. «غير محلي الصيد» نصب على الحال
من للضمير في لكم، أي: أحلت لكم هذه الأشياء لا محلي
الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله: «أوفوا

أصنع في مالي؟ فنزلت (١): «إن امرؤ هلك» لرتفع امرؤ
بمضمير يفسره الظاهر ومحل «ليس له ولد» الرفع على
الصفة لا التنصب على الحال، أي: إن هلك امرؤ غير ذي
ولد، والمراد بالولد الابن، وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه
على الذكر وعلى الأنثى، لأن الابن يسقط الأخت
ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس. وبالأخت التي
هي لأب وأم دون التي لأم لأن الله تعالى فرض لها
النصف وجعل أخاها عصبية، وقال: «للذكر مثل حظ
الأنثيين»، وأما الأخت للأم فلها السدس في آية المواريث
مسوى بينها وبين أخيها «وهو يرثها» وأخوها يرثها إن
قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها «إن لم
يكن لها ولد» أي: ابن لأن الابن يسقط الأخ دون البنت.

فإن قلت: الابن يسقط الأخ وحده فإن الأب نظيره في
الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: بين حكم انتفاء
الولد ووكل حكم انتفاء الولد إلى بيان السنة وهو قوله
عليه السلام: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلاولى
عصبية نكره» (٢). والأب أولى من الأخ، وليس بأول حكمين
بين أحدهما بالكتاب والأخر بالسنة، ويجوز أن يدل بحكم
لانتفاء الولد، على حكم انتفاء الولد لأن الولد أقرب إلى
الميت من الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب فأولى
لأن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأن الكلاله تتناول انتفاء الولد
والمولد جميعاً فكان نكر انتفاء أحدهما دالاً على انتفاء
الأخر.

فإن قلت (٣): إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في
قوله: «فإن كانوا اثنتين»، «وإن كانوا إخوة»؟ قلت:
أصله فإن كان كائنا من يرث بالأخوة اثنتين وإن كائنا من
يرث بالأخوة نكوراً وإناثاً، وإناثاً قيل: فإن كائنا، وإن كانوا
كما قيل: من كانت أمك، فكما أنت ضمير من لمكان تأنيث
الخبر، كذلك نثنى وجمع ضمير من يرث في كائنا وكانوا
لمكان تثنية الخبر وجمعه. والمراد بالإخوة الإخوة
والأخوات تغليظاً لحكم النكورة، «أن تضلوا» مفعول له
ومعناه: كراهة أن تضلوا. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة
النساء فكأنما تصنق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثه»
وأعطى من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرئ من الشرك،

= مثل بقول القائل: حصان كانت دابته، لكان أسلم إذ في لفظ
دم، من الإبهام ما يسوغ وقوعها على الأصناف المختلفة من
منكر، ومؤنث، وتثنية، وجمع، ومثل الآية سواء، قوله تعالى:
«يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو» فيمن جعل الجملة
مفعولاً ثانياً للحسبان، فإن أصل الكلام هي: العدو إذ للضمير
على هذا الإعراب للصيحة، ولكنه نكره، وجمعه لمكان الخبر،
والله أعلم.

(4) قال أحمد: ورد في الكتاب العزيز، وفي بالتضعيف في قوله تعالى:
«وإبراهيم الذي وفى» وورد لوفى كثير، ومنه: «أوفوا
بالعقود»، وأما وفي ثلاثياً، فلم يرد، إلا في قوله تعالى: «ومن
أوفى بعهده من الله» لأنه بنى أعمل من التفضيل، وفي إذ لا ييني،
إلا من ثلاثي.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المرضي، باب: وضوء العائد للمريض
الحديث (5676)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث
الكلالة، الحديث (4121)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض،
باب: في الكلالة، الحديث (2886)، أخرجه الترمذي في كتاب:
الفرائض، باب: ميراث الأخوات، الحديث (2097)، وأخرجه ابن
ماجة في كتاب: الفرائض باب: الكلالة، الحديث (2726).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الجد مع الأب...
الحديث (6737)، ومسلم في كتاب: الفرائض، باب: الحقوا الفرائض
بأهلها الحديث (4117)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفرائض، باب:
في ميراث العصبية، الحديث (2098)، وأخرجه الحاكم في
المستدرک 338/4، وأبو يعلى في المسند 2371/4.

(3) قال أحمد: وقد سبق له هذا التمثيل في مثل هذا الموضوع، ولو =

بالعقود وقوله: ﴿وانتم حرم﴾ حال عن محلي الصيد، كأنه قيل: أحللتنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وانتم محرمون لئلا تخرج عليكم. ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام ويعلم أنه حكمة ومصلحة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا حُرْمَةَ اللَّهِ وَلَا النَّهْيَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَفَاؤُكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَتَّخِذُوا عَلَى الْإِزْرِ وَالْقُرُوبِ وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِزْرِ وَالْمَدْرَيْنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

والحرم: جمع حرام وهو للمحرم.

الشعائر: جمع شعيرة وهي اسم ما اشعر، أي جعل شعاراً وعلماً للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر. والشهر الحرام: شهر الحج.

والهدي: ما أهدي إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك، وهو جمع هدية، كما يقال: جدي، في جمع جدية السرج.

والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلده به الهدي من نعل أو عروة مزادة أو لحاء شجر أو غيره. وأموا المسجد الحرام: قاصدوه وهم الحجاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهلون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتسكين بها، وأن يحذوا في أشهر الحج ما يصنون به الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله، وأما القلائد ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد بها نوات القلائد من الهدي وهي البدن، وتعطف على الهدي للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى، كقوله: وجبريل وميكال، كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً.

والثاني: أن ينهى عن التعرض للقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، على معنى: ولا تحلوا قلائدنا فضلاً أن تطوها، كما قال: ﴿ولا يبين زينتهن﴾ فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها. ﴿ولا آمين﴾ ولا تحلوا قوماً قاصدين المسجد الحرام ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ وهو الثواب ﴿ورضواناً﴾ وأن يرضى عنهم، أي: لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم واستنكاراً أن يتعرضوا لمثلهم. قيل: هي محكمة. وعن النبي ﷺ: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها»⁽¹⁾. وقال الحسن: ليس فيها منسوخ. وعن أبي ميسرة: فيها ثماني عشرة فريضة، وليس فيها منسوخ. وقيل: هي منسوخة. وعن ابن عباس: كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً فنهى الله المسلمين

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزُرِ وَمَا أُوْهِلَ لِلَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَقَةُ وَالْمَوْوَدَةُ وَالْمَذْرُوبَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَأْذِنُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِ الْيَوْمِ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ رَبِّكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَآخِثُوهُمْ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَضْتُ عَلَيْكُمْ بِمَتَى رَزَيْتُمْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِزْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾

كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفسيد وهو الدم في المباغر يشوونها ويقولون لم يحرم من فزد له. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند نبحه. ﴿والممنخقة﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بسبب. ﴿والموودة﴾ التي أخنقوها ضرباً بعضاً أو حجر حتى ماتت. ﴿والمذروبة﴾ التي

أخرجه الحاكم في المستدرک 311/2.

(2) سورة النساء، الآية: 89.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 311/2.

غالبين، ﴿واخشوني﴾ وأخلصوا لي الخشية ﴿أكملت لكم دينكم﴾ كفيتمكم أمر عبوكم وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك اليوم: كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد. ﴿وأتملت عليكم نعمتي﴾ بفتح مكة ودخلها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان، أو أتملت نعمتي عليكم بأكمل أمر الدين والشرائع، كأنه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتملت عليكم نعمتي بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام. ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ يعني: اخترته لكم من بين الأديان وأنتنكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ إن هذه أمتكم أمة واحدة.

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿فمن اضطر؟﴾ قلت: بنكر المحرمات، وقوله: ﴿نلكم فسق﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم، وكذلك ما بعده، لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل، ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها ﴿في مخصصة﴾ في مجاعة ﴿غير متجانف لإثم﴾ غير منحرف إليه، كقوله: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ ﴿فإن الله غفور﴾ لا يؤاخذه بذلك.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ اللَّيْتَةَ وَمَا عَشَرَ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُؤَمُّوهُنَّ بِمَا عَمَّكُمْ اللَّهُ فُكُلُوا بِمَا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

في السؤال معنى القول فلذلك وقع بعده ﴿ماذا أحل لهم﴾، كأنه قيل: يقولون لك: ماذا أحل لهم؟ وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا حكاية ما قالوه؛ لأن يسألونك بلفظ الغيبة، كما تقول: أقسم زيد ليفعلن، ولو قيل: لأفعلن وأحل لنا لكان صواباً. وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم، ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم، كأنهم حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبثات المأكَل سالوا عما أحل لهم منها، فقيل: ﴿أحل لكم الطيبات﴾، أي: ما ليس بخبيث منها، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد. ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ (١) عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف، أو تجعل ما شرطية وجوابها فكلوا، والجوارح الكواكب من سبع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب مؤنث الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها وراثتها لذلك بما

تردت من جبل أو في بئر فماتت. ﴿والنطيحة﴾ التي نطحها أخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السبع﴾ بعضه ﴿إلا ما نكيتم﴾ إلا ما أدركتم نكاته وهو يضطرب اضطراب المنبوح وتخشب أوداجه. وقرأ عبد الله: والمنطوحة، وفي رواية عن أبي عمرو: والسبع بسكون الباء. وقرأ ابن عباس: واكيل السبع. ﴿وما نوح على النصب﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت ينبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها تسمى الانصاب، والنصب واحد. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تبغينه لعاقبة والله ربك فاعبدا
وقيل: هو جمع والواحد نصاب. وقرئ: النصب بسكون الصاد. ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، أي: بالقدرح. كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاطم الأمور ضرب بالقدرح، وهي مكتوب على بعضها نهاني ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غفل، فإن خرج الأمر مضى لطيبته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أجلها عوداً. فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام، وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الانصاء المعلومة. ﴿نلكم فسق﴾ الإشارة إلى الاستقسام أو إلى تناول ما حرم عليهم، لأن المعنى: حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا.

فإن قلت: لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً؟ قلت: لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، وقال: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾. واعتقاد أن إليه طريقاً، وإلى استنباطه وقوله: أمرني ربي ونهاني ربي، افتراء على الله وما يدرية أنه أمره أو نهاه، والكهنة والمنجمون بهذه المثابة، وإن كان أراد بالرب الصنم، فقد روي: أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم فأمره ظاهر. ﴿اليوم﴾ لم يرد به يوماً يعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك، ونحوه الآن في قوله:

الآن لما أبيض مسربرتي وعضضت من نابي على جذم
وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع. ﴿ينس الذين كفروا من دينكم﴾ يشسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ما حرمت عليكم، وقيل: يشسوا من دينكم أن يغلبوه لأن الله عز وجل وفي بوعده من إظهاره على الدين كله. ﴿فلا تخشوهم﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا

(1) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي، غير أن الحال بأصلاتها منتقلة غير لازمة، ومقتضى هذا التقرير جعلها من الصفات اللازمة لمعلم الجوارح الثابتة له.

الْيَوْمَ أَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابَ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ تَكْرُرًا
 وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَكُمْ وَالْمَصْنَعُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَصْنَعُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِينَ عَنِ مَسْفُوحِينَ وَلَا
 تُحْذِرِي أَعْدَاءَ مَنْ يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَدَحِطْ عَلَيْهِمْ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾.

﴿طعام الذين أتوا الكتاب﴾ قيل: هو نباتهم، وقيل: هو جميع مطاعهم، ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن علي رضي الله عنه: أنه استثنى نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية، لم يأخذوا منها إلا شرب الخمر⁽⁶⁾، وبه أخذ الشافعي، وعن ابن عباس: أنه سئل عن نبات نصارى العرب، فقال: لا بأس⁽⁷⁾ وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة، وقال أصحابه: هم صنفان: صنف يقرؤون الزبور ويعبسون الملائكة، وصنف لا يقرؤون كتاباً ويعبسون النجوم، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم بون أكل نباتهم ونكاح نسائهم. وقد روي عن ابن المسيب أنه قال: إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسي أن يذكر اسم الله ويذبح فلا بأس. وقال أبو ثور: وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء. ﴿وطعامكم حل لهم﴾⁽⁸⁾ فلا عليكم أن تطعموهم لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساء لهم إطعامهم. ﴿للمحصنات﴾ الحرائر أو العائفات وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم، والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق، وكذلك نكاح غير العائفات منهن، وأما الإماء الكتابيات فعند أبي حنيفة هن كالمسلمات، وخالفه الشافعي، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات، ويحتج بقوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾⁽⁹⁾، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها إن ربها عيسى. وعن عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ ﴿محصنين﴾ أعتاق ﴿ولا متخذى أعداء﴾ صدائق، والخنن: يقع على الذكر والأنثى. ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾

علم من الحيل وطرق التأديب والتتقيف، واشتقاقه من الكلب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرة في جنسه، أو لأن السبع يسمى كلباً. ومنه قوله عليه السلام: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله الأسد»⁽¹⁾. أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة، يقال: هو كلب بكذا إذا كان ضارياً به، وانتصاب ﴿مكلبين﴾ على الحال من ﴿علمتم﴾.

فإن قلت: ما فائدة هذه الحال، وقد استغني عنها بـ ﴿علمتم﴾؟ قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريراً في علمه مدرباً فيه موصوفاً بالتكليب، و ﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية أو استثناء، وفيه فائدة جلية⁽²⁾، وهي: أن على كل أخذ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرم درايةً وأغوصهم على لطائفه وحقائقه. وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من أخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعرض عند لقاء النحارير أنامله. ﴿مما علمكم الله﴾ من التكليب لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وإنزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمسك الصيد عليه وأن لا يأكل منه. وقرئ: مكلبين بالتخفيف، وأقل فعل يشتركان كثيراً. والإمسك على صاحبه أن لا يأكل منه؛ لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم: ﴿وإن أكل منه فلا تاكل، إنما أمسك على نفسه»⁽³⁾. وعن علي رضي الله عنه: إذا أكل البازي فلا تاكل⁽⁴⁾. وفرق العلماء فاشتروا في سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدب بالضرب ولم يشترطوه في سباع الطير، ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلاً ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة رضي الله عنهم: إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه، وذكر اسم الله عليه فكل⁽⁵⁾.

فإن قلت: إلام رجع الضمير في قوله: ﴿وانكروا لسم الله عليه﴾؟ قلت: إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم نكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح، أي: سموا عليه عند إرساله.

= النكاح، باب: في الرجل يتزوج امرأة الخ. (8) قال أحمد: وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة؛ لأن التحليل حكم، وقد علقه بهم في قوله: ﴿وطعامكم حل لهم﴾ كما علق الحكم المؤمنين، وهذه الآية إبين في الاستدلال بها، من قوله: ﴿لا هم حل لهم، ولا هم يحلون لهن﴾، فإن لقاتل أن يقول في تلك الآية نفي الحكم، ليس بحكم ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه؛ لأن الحكم فيها مثبت، والله أعلم، ولما استشعر الزمخشري دلالتها على ذلك، وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين، أي: لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب كما رأيته في كلامه أيضاً.

(9) سورة البقرة، الآية: 221.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 539/2.
 (2) قال أحمد: وفي الآية دليل على أن البهائم لها علم؛ لأن تعليمها معناه لغة تحصيلي العلم لها، بطريقة خلافاً لمنكري ذلك.
 (3) أخرجه البخاري في كتاب: الصيد والنبات، باب: إذا أكل الكلب الحديث (5483)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والنبات، باب: الصيد بالكلاب المعلمة الحديث (4958).
 (4) لم أجده ولم يخرج الزليعي 379/1.
 (5) أخرجه ابن أبي شيبة 358/5، في كتاب: الصيد، باب: من رخص في أكله 358/5.
 (6) ابن أبي شيبة 161/4، في كتاب: النكاح، باب: في الرجل يتزوج المرأة الخ.
 (7) أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب: النبات، باب: ما جاء في التسمية على النبيحة الحديث (5)، وابن أبي شيبة 161/4، كتاب:

بشرائع الإسلام وما أحل الله وحرم.

يَتَأْتِيَا الْزَّيْبَ مَأْمُوتًا إِذَا مُتُّهُ إِلَى الْمَكْلُوفَةِ فَأَسْبَلُوا وَجْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْسُرْكُمْ إِلَى الْأَكْمَبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْفِرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ فَغَسَّوْا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَيْدًا طَيِّبًا فَأَمَسَّوْا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَيُخَيِّرَ لَكُمْ مَعْلَمًا تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ (1) كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (2) وكقولك: إذا ضربت غلامك فهو ن عليه، في أن المراد إرادة الفعل.

فإن قلت: لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن للفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه، فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم: الإنسان لا يطير والأعمى لا يبصر، أي: لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (3) يعني: إِنَّا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى الْإِعَادَةِ كُنْتُكَ عَبْرَ عَنِ إِرَادَةِ الْفِعْلِ بِالْفِعْلِ وَنَدَكَ لِأَنَّ الْفِعْلَ مَسْبَبٌ عَنِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ فَاتَّقِمْ الْمَسْبَبَ مَقَامَ السَّبَبِ لِلْمَلَابَسَةِ بَيْنَهُمَا، وَإِيجَازُ الْكَلَامِ وَنَحْوَهُ مِنْ إِقَامَةِ الْمَسْبَبِ مَقَامَ السَّبَبِ قَوْلُهُمْ: كَمَا تَدِينُ تَدَانُ، عَبْرَ عَنِ الْفِعْلِ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْجَزَاءِ بِلَفْظِ الْجَزَاءِ الَّذِي هُوَ مَسْبَبٌ عَنْهُ. وَقِيلَ: مَعْنَى قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ: قَصَدْتُمُوهَا، لِأَنَّ مِنْ تَوَجُّهِ إِلَى شَيْءٍ وَقَامَ إِلَيْهِ كَانُ قَاصِدًا لَهُ لَا مُحَالَةً فَعَبَّرَ عَنِ الْقَصْدِ لَهُ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ.

فإن قلت (4): ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة محدث وغير محدث، فما وجهه؟ قلت: يحتمل أن يكون الأمر للوجوب فيكون الخطاب للمحدثين خاصة، وأن يكون للندب، وعن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أنهم

كانوا يتوضؤون لكل صلاة (5)، وعن النبي ﷺ: من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات (6). وعنه عليه السلام: أنه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له عمر: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه. فقال: «عدداً فعلته يا عمر» (7)، يعني: بياناً للجواز.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون الأمر شاملاً للمحدثين وغيرهم، لهؤلاء على وجه الإيجاب ولهؤلاء على وجه الندب؟ قلت: لا لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاف والتعمية، وقيل: كان الوضوء لكل صلاة واجباً أول ما فرض ثم نسخ. «إلى» تفيد معنى الغاية مطلقاً فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل فمما فيه دليل على الخروج قوله: «فنظرة إلى ميسرة» (8)؛ لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة ولو دخلت الميسرة فيه لكان منتظراً في كلتا الحالتين معسراً وموسراً، وكذلك «ثم اتعوا الصيام إلى الليل» (9)، لو دخل الليل لوجب الوصال، ومما فيه دليل على الدخول قوله: حفظت القرآن من أوله إلى آخره، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: «من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» (10) لوقوع العلم بأنه لا يسري به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله، وقوله: «إلى المرافق» و«إلى الكعبين» لا دليل فيه على أحد الأمرين فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكوا بدخولها في الغسل، وأخذ زفر وداود بالمتيقن، فلم يدخلها، وعن النبي ﷺ: أنه كان يدير الماء على مرفقيه (11). «وامسحوا برءوسكم» المراد إصصاق المسح بالرأس ومسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه، وقد أخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح. وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله ﷺ وهو ما روى أنه مسح على ناصيته (12)، وقدر الناصية بربع الرأس. (13) قرأ

- (6) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الرجل يجند الوضوء من غير حدث الحديث (62)، والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء لكل صلاة الحديث (59)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء على الطهارة الحديث (512).
- (7) مسلم ذكر المسح في الحديث، راجع الحديث (434): (3).
- (8) سورة البقرة، الآية: 280.
- (9) سورة البقرة، الآية: 187.
- (10) سورة الإسراء، الآية: 1.
- (11) أخرجه الدارقطني في كتاب: الطهارة، باب: وضوء رسول الله ﷺ الحديث (15).
- (12) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: المسح على الناصية والعمامة الحديث (632).
- (13) قال أحمد: ولم يوجه الجرح بما يشفي الغليل، والوجه فيه: أن الغسل والمسح متقاربان، من حيث إن كل واحد منهما أساس بالعضو، فيسول عطف المفصول على الممسوح، من ثم كقوله: متقلداً سيفاً ورمحاً وعلقتها تبنياً وماء بارداً

- (1) قال أحمد: هذا الكلام يستقيم وروده من السني، كما يستقيم من المعتزلي؛ لانا نقول الفعل يوجد بقدرة العبد ملتبساً بها، ومقلراً لها، والمعتزلي يقول، ويعني: مخلوقاً بها، وناشئاً عن تأثيرها، فالعبارة مستعملة في المذهبين، ولكن باختلاف المعنى، والله الموفق.
- (2) سورة النحل، الآية: 98.
- (3) سورة الأنبياء، الآية: 104.
- (4) قال أحمد: الرمخضري أنكروا أن يراد بالمشترك كل واحد من معانيه على الجمع، وقد سبق له إنكار ذلك، ومن جواز إرادة جميع المحامل إجاز ذلك في الآية، ومن المجوزين لذلك الشافعي رحمه الله تعالى، ونهايه بإمام الفن وقنوته، هذا إذا وقع البناء على أن صيغة أفعال مشتركة بين الوجوب والندب، صح تناولها في الآية للفرقيين المحدثين، والمتطهرين وتناولها للمتطهرين من حيث الندب، والله أعلم.
- (5) ابن أبي شيبة 29/1، كتاب: الطهارات، باب: من كان يتوضأ إذا صلى...

﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ أي: عاقبتكم به عقداً وثيقاً، وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره. فقالوا: وقالوا سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيِمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَحْرِيغِكُمْ سُخْرُوكُمْ عَنْ آلَا تَدْلُوا أَتَدْلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

عَدَى ﴿يجرمكم﴾ بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم، ويجوز أن يكون قوله: أن تعتنوا، بمعنى على أن تعتنوا، فحنف مع أن. ونحوه قوله عليه السلام: «من اتبع على مليء فليتبع»⁽⁶⁾ لأنه بمعنى أحيل. وقرئ: شتأن بالسكون، ونظيره في المصادر لبيان، والمعنى: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فاعتنوا عليهم، بأن تنتصروا منهم، وتنتشروا بما في قلوبكم من الضغائن، بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قنف أو قتل أولاد أو نساء، أو نقض عهد، أو ما أشبه ذلك. ﴿اعملوا هو أقرب للتقوى﴾ نهامهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالامر بالعدل تأكيداً وتشديداً ثم استأنف فنكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله: ﴿هو أقرب للتقوى﴾: أي: العدل أقرب إلى التقوى وأدخل في مناسبتها، أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها، وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحبائه.

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنه قال: قتم لهم وعداً، فقيل: أي شيء وعده لهم؟ فقيل: لهم مغفرة وأجر عظيم، أو يكون على إرادة

جماعة: وأرجلكم بالنصب، فدل على أن الأرجل مغسولة.

فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجرح وبخولها في حكم المسح! قلت: الأرجل من بين الأضواء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنموم المنهي عنه فغطت على الثالث الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: ﴿إلى الكعبين﴾ فجيء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن علي رضي الله عنه أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً، فقال: «ويل للأعقاب من النار». فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلًا ويبلكونها ذلكاً. وعن ابن عمر: كنا مع رسول الله ﷺ فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح، فقال: «ويل للأعقاب من النار»⁽¹⁾. وفي رواية جابر: «ويل للعراقيب»⁽²⁾. وعن عمر: أنه رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه فأمره أن يعيد الوضوء وذلك للتغليظ عليه⁽³⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: لأن قطعاً أحب إلي من أن أمسح على القدمين بغير خفين⁽⁴⁾. وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين⁽⁵⁾. وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح، وعن الحسن أنه جمع بين الأمرين، وعن الشعبي: نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن: وأرجلكم بالرفع، بمعنى: وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين. وقرئ: فاطهروا، أي: فطهروا أيدانكم، وكذلك ليطهركم. وفي قراءة عبد الله: فأموأ صعيداً. ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ في باب الطهارة حتى لا يرخص لكم في التيمم، ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء. ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمهم ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فييتيكم.

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيقَاتِ الْأَيِّ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تَلْتَمَسُونَ سَمِعَتَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿وانكروا نعمة الله عليكم﴾ وهي نعمة الإسلام

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب: غسل العراقيب الحديث (453)، وأحمد في المسند 3/369، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (573)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطهارة، باب: إيجاب غسل الرجلين الحديث (111)، وأبو يعلى عن عائشة الحديث (4426).

(3) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 36/1، الحديث (118).

(4) قال الزيلعي: رواية غريبة 1/387، وقال ابن الجوزي: مرفوع على عائشة رضي الله عنها [لعل المتناهية].

(5) لم أجده ولم يخرج الزيلعي 1/387.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة الحديث (2287)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني...

الحديث (3978).

= ونظائره كثيرة، وبهنا وجه الحناق، ثم يقال: ما فائدة هذا التشريك بيلة التقارب، وهما أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة، فيقال: فائنته الإيجاز والاختصار، وتوكيد الفائدة بما نكره الزمخشري، وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلاً: وأغسلوا أرجلكم غسلًا خفيفاً، لا إسراف فيه كما هو المعتاد، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح، وبه بهذا التشريك الذي لا يكون، إلا في الفعل الواحد، أو الفعلين المتقاربين جداً على أن الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب المسح، وحسن إدراجها معه تحت صيغة واحدة، وهذا تقرير كامل لهذا المقصود، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري بنحوه في كتاب: العلم، باب: من رفع صوته بالعلم الحديث (60)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (569).

السَّبِيلِ ﴿١٧﴾

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إنني كتبتها لكم داراً قراراً فاحرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإنني ناصركم. وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به وثقةً عليهم، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم، فلما بنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فراوا أجراماً عظيمةً وقوةً وشوكةً فهابوا ورجعوا وحثوا قومهم، وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحثوهم فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط أفرائيم بن يوسف، وكانا من النقباء، والنقيب الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها، كما قيل له: عريف، لأنه يتعرفها ﴿إني معكم﴾ أي: ناصركم ومعينكم. ﴿عزرتوهم﴾ نصرتموهم ومنعتوهم من أيدي العدو، ومنه التعزيز وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد. وقرئ بالتخفيف، يقال: عزرت الرجل إذا حطته وكنته، والتعزير والتأزير من واد واحد، ومنه: لانصرتك نصراً مؤزراً، أي: قوياً. وقيل: معناه: ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثني عشر ملكاً يقيمون فيهم العدل ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام في ﴿لئن قمتم﴾ موطئة للقسم، وفي ﴿لاكفرون﴾ جواب له، وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً. ﴿بعد ذلك﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم.

فإن قلت: من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضلّ سواء السبيل؟ قلت: أجل ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم، لأن الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة، فإذا زالت النعمة زاد قبح الكفر وتمادي.

يَسَا نَعْمِهِمْ يَشْفِقُهُمْ لَنَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿لعناهم﴾ طرناهم وأخرجناهم من رحمتنا، وقيل: مسخناهم. وقيل: ضربنا عليهم الجزية. ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ خذلناهم ومنعناهم اللطاف حتى قست قلوبهم، أو أملينا لهم ولم نعالجهم بالعقوبة حتى قست. وقرأ عبد الله: قسية، أي: رديةً مغشوشةً من قولهم: درهم قسي، وهو من القسوة لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين،

القول بمعنى: وعدهم وقال: لهم مغفرة، أو على إجراء وعد مجرى، قال: لأنه ضرب من القول، أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التي هي لهم مغفرة كما وقع تركاً على قوله: ﴿سلام على نوح﴾⁽¹⁾ كأنه قيل: وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم. وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة فيسرون به ويستروحون إليه ويهون عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا يَضَعُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ

روي: أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معاً، وذلك بعسفان في غزوة ذي أتمار، فلما صلوا نموا أن لا كانوا أكبروا عليهم، فقالوا: إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، يعنون صلاة العصر، وهموا بأن يوقفوا بهم إذا قاموا إليها فنزل جبريل بصلاة الخوف⁽²⁾، وروي: أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ومعهم الشيخان وعلي رضي الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك. فاجلسوه في صفة وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره فخرج⁽³⁾ وقيل: نزل منزلاً وتفرق الناس في العضاء يستظلون بها، فعلق رسول الله ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي فسل سيف رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه، فقال: من يمنك مني؟ قال: «الله»، قالها ثلاثاً. فشام الأعرابي السيف، فصاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم، وأبى أن يعاقب⁽⁴⁾.

يقال: بسط إليه لسانه: إذا شتمه، وبسط إليه يده إذا بطش به، ويبسطوا إليكم أيديهم وألصقتهم بالسوء، ومعنى: بسط اليد مدها إلى الميطوش، ألا ترى إلى قولهم: فلان بسيط الباع ومديد الباع، بمعنى: ﴿كفك أيديهم عنكم﴾ فمنعها أن تمد إليكم.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ أَخِي عَسْرَ نَقِيًّا وَقَالَ اللَّهُ لِي مَعْكُمْ لِيْنِ أَمْتُمُ الْكُفْرَ وَالْأَيْتِمُ الْزُكْرَةَ وَالْمَنْتُمُ بُرْسِي وَعَزَّيْتُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

(1) سورة الصافات، الآية: 79.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف الحديث (1943).

(3) البيهقي في دلائل النبوة، الزيلعي 389/1.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستغلال بالشجر الحديث (2913)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: توكله على الله تعالى وعصمه الله تعالى من الناس الحديث (5909).

مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ خطاب لليهود والنصارى. ﴿مما كنتم تخفون﴾ من صفة رسول الله ﷺ ومن نحو الرجم. ﴿ويعفو عن كثير﴾ مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته مما لا بد من بيانه، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن: ويعفو عن كثير منكم، لا يؤاخذهم. ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك وإيادته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز.

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

﴿من اتبع رضوانه﴾ من آمن به. ﴿سبل السلام﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو سبل الله.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ مَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

قولهم: ﴿إن الله هو المسيح﴾ معناه: بت القول على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير، قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، وقيل: ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدير أمر العالم. ﴿فمن يملك من الله شيئاً﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيطته شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك﴾ من دعوه إليها من المسيح وأمه، دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وأراد يعطف من في الأرض على المسيح وأمه أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي: يخلق من نكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير نكر وأنثى كما خلق آدم، أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ

والمغشوش فيه ييس وصلابة، والقاسي والقاسح بالحاء أخوان في الدلالة على الييس وصلابة. وقرئ: قسية بكسر القاف للإتباع. ﴿يخرفون للكلم﴾ بيان لقسوة قلوبهم لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه. ﴿وونسوا حظاً﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً وقسطاً وأقياً ﴿مما نكروا به﴾ من التوراة، يعني: أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية⁽¹⁾، وتلا هذه الآية، وقيل: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعتهم، ﴿ولا تزال تطلع﴾ أي: هذه عانتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك ينكثون عهوبك ويظاهرون المشركين على حريك ويهون بالفتك بك وأن يسموك. ﴿على خائنة﴾ على خيانه، أو على قلة ذات خيانه، أو على نفس أو فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل رواية للشعر، للمبالغة. قال:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للخدر خائنة مغل الأصبع وقرئ: على خيانة منهم إلا قليلاً منهم وهم الذين آمنوا منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ بعث على مخالفتهم، وقيل: هو منسوخ بآية السيف. وقيل: فاعف عن مؤمنيههم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم. ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ أخذنا من النصارى ميثاق من نكر قبلهم من قوم موسى، أي: مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسل وبتعال الخير، أو أخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك.

فإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: فهلا قيل: من النصارى؟ قلت: لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاءً لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصاراً للشيطان.

وَرَبِّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ الْحَقُّ وَمِنْتَهُمْ قَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَسْتُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿فاعرنا﴾ فالفقنا والزمننا، من غرى بالشئ إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغراء الذي يلصق به. ﴿بينهم﴾ بين فرق النصارى المختلفين، وقيل: بينهم وبين اليهود ونحوه. ﴿وكنكذ نولي بعض الظالمين بعضاً﴾⁽³⁾، ﴿أو يلبسكم شيعاً وينيق بعضهم بأس بعض﴾⁽⁴⁾.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

(1) أخرجه الدارمي في السنن 1/117 الحديث (376).

(2) قال أحمد: وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضوع، بإسناد النصرانية إلى دعواهم، ولم يتفق ذلك في غيره الا ترى إلى قوله تعالى، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، فالوجه في ذلك، والله أعلم، أنه لما كان المقصود في هذه الآية نهم بنقض الميثاق الماخوذ عليهم في نصرة الله تعالى، ناسب ذلك أن يصدر =

= الكلام، بما يدل على أنهم لم ينصروا الله، ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوة النصرة، وقولها بون فعلها، والله أعلم.

(3) سورة الانعام، الآية: 129.

(4) سورة الانعام، الآية: 65.

وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

﴿ابناء الله﴾ أشياخ ابني الله عزيز⁽¹⁾ والمسيح، كما قيل لأشياخ أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير: الخبيبيون، وكما كان يقول رطط مسيلمة نحن أنبياء الله، ويقول أقرباء الملك ونووه وحشمه: نحن الملوك، ولذلك قال مؤمن آل فرعون ﴿لكم الملك اليوم﴾. ﴿فلم يعذبكم بنوبيكم﴾ فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تنبئوا وتعذبوا بنوبيكم فتمسخون وتمسك النار أياماً معدودات على زعمكم، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب، ولو كنتم أحبباء لما عصيتموه ولما عاقبكم ﴿بل أنتم بشر﴾ من جملة من خلق من البشر. ﴿يغفر لمن يشاء﴾⁽²⁾ وهم أهل الطاعة، و﴿يعذب من يشاء﴾ وهم العصاة.

يَأْمَلُ الْكُفْبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولًا يَبِينُ لَكُمْ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ نَبِيٌّ وَكَذَّبْتُمُوهُ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

﴿يبيِّن لكم﴾ إما أن يقدر المبين وهو الدين والشرايع وحفنه لظهور ما ورد الرسول لتبينه، أو يقدر ما كنتم تخفون وحفنه لتقدم نكره، أو لا يقدر ويكون المعنى: يبذل لكم البيان، ومحلّه النصب على الحال، أي: مبيناً لكم و ﴿على فترة﴾ متعلق بجاءكم، أي: جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي. ﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا. ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة، وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة وثلاثون سنة، وعن الكلبي: كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء ثلاث من بني إسرائيل وواحد من العرب: خالد بن سنان العبيسي. والمعنى: الامتنان عليهم وأن الرسول بعث إليهم حين لتطمست آثار الوحي أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه

(1) قال أحمد: ومنه قول الملائكة: لأنهم خواص عباد الله ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم﴾، إلى قوله: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ فأضاقوا التقدير إليهم، وفي الحقيقة المقدر الله، وكذلك قول الدالية: لأنها من خواص آيات الله: ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ فيمن جعله من قول الدالية، والله أعلم.

(2) قال أحمد رحمه الله: بل مشيئة الله تعالى تسع لفتاب المنيب، والمعاصي العصر، إنا كان موحداً، والزمخشري أخرج هذا التفسير على قاعته المتكررة في غير ما موضع، وهي: القطع بوعيد العصاة المصيرين الموحدين، وأن لهم المغفرة محال.

(3) قال أحمد والحامل على تفسير الملك بهذه التفسير أن الله تعالى أنبا في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكاً بقوله، وجعلكم ملوكاً، ولم يقل وجعل فيكم ملوكاً، كما قال جعل فيكم أنبياء، فلما عم الملك فيهم، ولا شك أن الملك المعهود هو الاستيلاء العلم، لم

ويعنوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتكزهم الحجة، فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبئهم عن غفلتهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ بَدِّعُوا أَدْرُكُوا بِسْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَمَلْتُمْ فِيكُمْ آيَاتِي وَجَعَلْتُكُمْ مَلُوكًا ۖ وَأَنْتُمْ كَأَنَّ كَيْدَ الْكَاذِبِينَ ﴿٩﴾

﴿جعل فيكم أنبياء﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. و﴿وجعلكم ملوكاً﴾⁽³⁾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه وبعد الجبارة ملكهم، لأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثراً الأنبياء، وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط فاتقدهم الله فسمى إناقدهم ملكاً. وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل: من له بيت وخدم. وقيل: من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق. ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ من فلق البحر وإغراق العنق وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك من الأمور العظام. وقيل: أراد علمي زمانهم.

يَقَوْمِ أَدْرِكُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَزِدُوا عَلَيْهَا ذِكْرًا فَلْيَنْبَغُوا خَيْرِينَ ﴿٩﴾

﴿الأرض المقدسة﴾ يعني: أرض بيت المقدس. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: الشام. وقيل: فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثاً لولده حين رفع على الجبل، فقيل له: انظر فلك ما أترك بصرك. وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿كتب الله لكم﴾ قسمها لكم وسماها، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم. ﴿ولا تزدوا على أنباركم﴾ ولا تنكسوا على أعقابكم مندبرين من خوف الجبارة جبناً وهلعاً. وقيل: لما حدثهم لئقباة بحال الجبارة رفعا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ويجوز أن يراد: لا تزدوا على أنباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم، فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

= ثبت لكل أحد منهم، فبتعين حمل الملك على ما كان ثابتاً لجميعهم، أو لاكثرهم من الأيعاض المنكورة هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك، والله أعلم، وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم، إلا أنه كان ثابتاً لملوكهم وهم منهم إذ إسرائيل الأب الأقرب يجمعهم، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقربواهم وأشياعهم وملتبسون بهم جز الامتنان عليهم بهذه الصنيعة، والمعنى مفهوم، وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفاً في قول اليهود، والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، وما بالعهد من قدم، فإن قلت: فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء؛ لأن الأنبياء منهم كما قلت في الملوك. قلت: النبوة مزية غير الملك، وأحد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكاً، ولا كذلك النبوة، فإن درجتها أرفع من أن يشارك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها، وخصوصيتها، ونعتها، فهذا هو سبب تمييز الأنبياء وتعميم الملوك، والله أعلم.

ذهلها حقيقةً بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرةً، والدليل عليه مقابلة ذهلها بقعودهم. ويحكي: أن موسى وهرون عليهما السلام خزا لوجوههما قدامهم؛ لشدة ما ورد عليهما فهما برجمهما، ولامر ما قرن الله اليهود بالمشركين، وقدمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (2) لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي تَأْتَرَقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥﴾

﴿قال رب إني لا أملك﴾ (3) لنصرة دينك ﴿إلا نفسي وأخي﴾ وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي يمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل للنصرة. ونحوه قول يعقوب عليه السلام: ﴿إنما أشكوا بني وحزني إلى الله﴾ وعن علي رضي الله عنه: أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة فما لجأه إلا رجلاً، فتنفس الصعداء ودعا لهما، وقال: أين تقعان مما أريد؟ ونكر في إعراب أخي وجوه أن يكون منصوباً عطفاً على نفسي، أو على الضمير في إني بمعنى ولا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، ومرفوعاً عطفاً على محل إن واسمها، كأنه قيل: أنا لا أملك إلا نفسي وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه، أو على الضمير في لا أملك، وجاز للفصل، ومجروراً عطفاً على الضمير في نفسي، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور إلا بتكرير الجار.

فإن قلت: أما كان معه الرجلان المنكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ناق على طول الزمان واتصال الصحبة من لحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم ينكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره، ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منه تقليلاً لمن يوافق، ويجوز أن يريد: ومن يؤلخيني على ديني. ﴿فأفرق﴾ فافصل ﴿بيننا﴾ وبينهم بأن تحك لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم ولذلك وصل به قوله: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ على وجه للتسبيح، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿ونجني من القوم

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّى يَبْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَبْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٦﴾

الجبار: فعال من جبره على الأمر بمعنى: لجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا آتَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿قال رجلان﴾ هما كاليب ويوشع، ﴿من الذين يخافون﴾ من الذين يخافون الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلاً من المتقين، ويجوز أن تكون الواو لبني إسرائيل والراجع إلى الموصول محنوف تقديره من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون وهما رجلاً منهم. ﴿انعم الله عليهما﴾ بالإيمان فأمناء، قالا لهم: إن العملاقة أجسام لا قلوب فيها فلا تخافوهم وازحقوا إليهم فإنكم غالبوهم يشجعانهم على قتالهم. وقراءة من قرأ يخافون بالضم شاهدة له، وكذلك انعم الله عليهما، كأنه قيل: من المخوفين. وقيل: هو من الإخافة، ومعناه: من الذين يخوفون من الله بالتنكرة والموعظة، أو يخوفهم وعيد الله بالعقاب.

فإن قلت: ما محل ﴿انعم الله عليهما﴾ قلت: إن انتظم مع قوله: ﴿من الذين يخافون﴾ في حكم الوصف لرجلان مرفوع، وإن جعل كلاماً معترضاً فلا محل له.

فإن قلت: من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك، وقوله تعالى: ﴿كتب الله لكم﴾. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرته رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبيرة والباب باب قريتهم.

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ لَنَا نَنذُرًا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْمَبْ أُنْتُ وَرَبُّكَ فَتَتَلَّ إِنَّا هَهُنَا نَبِيدُونَ ﴿١٨﴾

﴿لن نذللها﴾ نفي للخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤس، و﴿أبداً﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاوول، و﴿ما داموا فيها﴾ بيان للأبد. ﴿فأذهب أنت وربك﴾ (1) يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب، ولكن كما نقول: كلمته فذهب، يجيبي: تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنهم قالوا: أريدنا قتالهم، والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانةً بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا

= وتكريره هذا القول مراراً مصداق، لما ذكره الزمخشري، وأما أن كان المراد بالرجلين غير يوشع، وكالب، وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل، ويكون معنى يخافون، أي: يخافهم بنو إسرائيل، فالضمير على هذا يرجع إلى بني إسرائيل، والمعاند محنوف، وهو المفعول، فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بني إسرائيل المكتوب عليهم قتال العملاقة، وإنما عنى موسى عليه السلام، إني لا أملك من بني إسرائيل، المفروض عليهم القتال أمر أحد، إلا نفسي وأخي، والله أعلم.

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد الزمخشري سألوا رؤية الله جهرة، وهي محال عقلاً تمتناً منهم، وقد مر له ذلك وبيننا أن تبسهم بذلك كان لعدم فهم الإيمان به على التعمين اقتراحاً، وتقاعساً عن الحق في قوله: ﴿لن نؤمن لك، حتى ترى الله جهرة﴾.

(2) سورة المائدة، الآية: 82.

(3) قال أحمد: وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء لتبيننا عليه الصلاة والسلام: إني جرّيت بني إسرائيل، وخبرتهم فارجع إلى ربك، فأسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، =

الظالمين» (١).

قَالَ فَإِنَّهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَبْتَهِمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ (١٦).

﴿فإنها﴾ ﴿فإن الأرض المقدسة﴾ ﴿محرمة عليهم﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها.

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله: ﴿التي كتب الله لكم﴾ (٢)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم. والثاني: أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب. فقد روي: أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء، وأقام فيها ما شاء الله، ثم قبض صلوات الله عليه، وقيل: لما مات موسى بعث يوشع نبياً فأخبرهم بأنه نبي الله، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فصنقوه وبيعوه، وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم، وصار الشام كله لبني إسرائيل. وقيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال: إننا لن ندخلها وهلكوا في التيه. ونشأت نواشئ من نرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها. والعامل في الظرف إما محرمة وإما يتيهون، ومعنى ﴿يتيهون في الأرض﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً، والتيه المفازة التي يتاه فيها. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرين كل يوم جادين حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله.

فإن قلت: فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون! قلت: كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركاً لهم وعليهم مع تلك النعمة متظاهرة، ومثل ذلك مثل الوالد المشفق بضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتقف ولا يقطع عنه معروفه وإحسانه.

فإن قلت: هل كان معهم في التيه موسى وهرون عليهما السلام؟ قلت: اختلف في ذلك، فقيل: لم يكونا معهم لأنه كان عقاباً، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم، وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وسلامة لا عقوبة كالنار لإبراهيم وملائكة العذاب. وروي: أن هرون مات في التيه، ومات موسى بعده فيه بسنة، ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر، ومات النقباء في التيه بختة، إلا كالب ويوشع. ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن عليهم لأنه ندم على الدعاء عليهم، فقيل: إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب فلا تحزن ولا تندم.

(1) سورة التحريم، الآية: 11.

(2) سورة المائدة، الآية: 21.

﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ آتَىٰ مَادِمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَكَمْ يَبْغُلُ مِنَ الْأَخْرِ قَالَ لِأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَبْغُلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٧).﴾

هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما تومة الآخر، وكانت تومة قابيل أجمل واسمها إقليما، فحسد عليها أخاه وسخط، فقال لهما آدم: قريبا قرباناً فمن أيكما تقبل زوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فاكلته، فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل. وقيل: هما رجلان من بني إسرائيل. ﴿بالحق﴾ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة، واتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين، أو بالفرض الصحيح وهو تقييح الحسد؛ لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ويبغون عليه، أو اتل عليهم وأنت محق صادق. و﴿إذ قربا﴾ نصب بالنبا أي: قصتهم وحديثهم في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون بدلاً من النبا، أي: اتل عليهم النبا نبأ ذلك الوقت على تقدير المضاف، والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيكة أو صدقة كما أن الحلوان اسم ما يحلى، أي: يعطى، يقال: قرب صدقةً وتقرب بها لأن تقرب مطاوع قرب. قال الأصمعي: تقربوا قرب القمع، فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب.

فإن قلت: كيف كان قوله: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ جواباً لقوله: ﴿لاقتلنك﴾؟ قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل، قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول. فاجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم. وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال: إنني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

لَبِنَ بَسَطَ إِلَٰهَ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ (٨).

﴿ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفاً من الله؛ لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره.

إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبْرِأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَٰلِغِينَ (٩).

﴿إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك﴾ أن تحتمل إثم قلتي لك لو قتلتك وإثم قتلك لي.

تتمتع وله لزيادة الربط كقولك: حفظت لزيد ماله، وقيل: قتل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء، وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءً أَخِيهِ قَالَ يُرِيهِمْ آعْرَجُهُمْ أَنِ أَكُونُ مِثْلَ هَذَا الْكُرَابِ فَأُرِى سَوَاءً آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِينَ ﴿٣٧﴾

﴿فبعث الله غراباً﴾ روي أنه أول قتيل قتل على وجه الأرض من بني آدم، ولما قتله تركه بالعراء لا يديري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين فافتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه ثم القاه في الحفرة، ﴿قال يا ويلتنا أعجزت أن نكون مثل هذا الغراب﴾ ويروي: أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكياً. فقال: بل قتلته، ولذلك اسود جسك. ويروي: أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. ﴿ليريه﴾ ليريه الله أو ليريه الغراب، أي: ليعلمه، لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز. ﴿سواء أخيه﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، والسواة: الفضيحة لقبها. قال:

يا لقوم للسواة السوءة

أي: للفضيحة العظيمة، فكني بها عنها. ﴿فاواري﴾ بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ: بالسكون على فانا أواري، أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف. ﴿من النادمين﴾ على قتله لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره، وتبين له من عجزه وتلمذه للغراب وأسوداد لونه وسخط أبيه. ولم ينم ندم التائبين.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا

(1) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن الأسباب الحثيث (6534).

(2) قال أحمد: وهذا من دسه للمعتد الفاسد في بيان كلامه، والفاسد من هذا، اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مراداً الله تعالى، وتلك القبائح بجملتها، فإنها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية، وهذا هو الشرك الخفي، فليكن أن تحوم حول شركه، والعباد بالله، فإما إرثته لإثم أخيه وعقوبته، فمعناه: إن لا أريد أن أقتلك، فأعاقب ولما يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما إثم بتقدير أن يدفع عن نفسه، فيقتل أخاه، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم، وكان غير مرید للاول اضطر إلى الثاني، فلم يرد إذا إثم أخيه لعينه، وإنما أراد أن الإثم هو المدافعة المؤدية إلى القتل، ولم تكن حينئذ مشروعة، فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه، وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة، ومعناها أن يبوء الكافر بقتله، وبما عليه في ذلك من الإثم، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله، ضمناً، وتبعاً، والذي =

(4) سورة المائدة، الآية: 28.

يَعْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ نَكَلْنَا مَثَلُ النَّاسِ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَسُرُورُونَ ﴿٣٦﴾

﴿من أجل ذلك﴾ بسبب ذلك وبعلته. وقيل: أصله من أجل شراً إذا جناه باجله أجلاً. ومنه قوله:

وأهل خباء صالح نك بينهم قد لحنبروا في عجل أنا أجله
كأنك إذا قلت: من أجلك فعلت كذا، أريت من أن جنيت فعله وأوجبه، ويبدل عليه قولهم: من جراك فعلته، أي: من أن جررته بمعنى جنيت، ونلك إشارة إلى القتل المنكور، أي: من أن جنى نلك القتل الكتب وجره. ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ ومن لا ابتداء للغاية، أي: ابتداء، والكتب نشأ من أجل نلك. ويقال: فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال: أجل كذا بحذف الجار ويصالح الفعل. قال:

أجل لأن الله قد فضلكم

وقرئ: من أجل نلك بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر: من أجل نلك بكسر الهمزة، وهي لغة، فإننا خفف كسر النون ملقياً لكسرة الهمزة عليها. ﴿بغير نفس﴾ بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص، ﴿أو فساد﴾ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد ﴿في الأرض﴾ وهو الشرك. وقيل: قطع للطريق، ﴿ومن أحيائها﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك.

فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يبلي بما يبلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمة، وعلى العكس فلا فرق إذا بين الواحد والجميع في نلك.

فإن قلت: فما الفائدة في نكر نلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ويترغبوا في المحاماة على حرمتها، لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد: قاتل للنفس جزاؤه جهنم وغضب الله والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على نلك. وعن الحسن: يا ابن آدم أريت لو قتلنا الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي نلك فيغفر لك به، كلا إنه شيء سولته لك نفسك والشيطان فكذلك إذا قتلنا واحداً. ﴿بعد نلك﴾ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿لمسرفون﴾ يعني: في القتل لا يباليون بعظمتهم.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة، 281/12، في كتاب الجهاد، باب: فيمن

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿يحاربون الله ورسوله﴾ يحاربون رسول الله ﷺ، ومحاربة المسلمين في حكم محاربتهم، ويسعون في الأرض فساداً، مفسدين، أو لأن سعيهم في الأرض كان على طريق الفساد نزل منزله ويفسدون في الأرض فلانتصب فساداً على المعنى، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. نزلت في قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، وقد مر بهم قوم يريون رسول الله ﷺ فقطعوا عليهم، وقيل: في العرنين، فالوحى إليه أن من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب، ومن أقرد القتل، ومن أقرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال ورجله لإخافة السبيل، ومن أقرد الإخافة نفي من الأرض. وقيل: هذا حكم كل قاطع طريق كافراً أو مسلماً. ومعناه ﴿أن يقتلوا﴾ من غير صلب وإن أقرروا للقتل، ﴿أو يصلبوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: يصلب حياً ويطعن حتى يموت. ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ إن أخنوا المال، ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ إذا لم يزيبوا على الإخافة، وعن جماعة منهم الحسن والنخعي: أن الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفي: الحبس عند أبي حنيفة. وعند الشافعي: النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب فرعاً. وقيل: ينفي من بلده، وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد في أقصى تهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة. ﴿خزي﴾ نل وفضيحة.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَجِمَ ﴿٣٨﴾

﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة، وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فيألى الأولياء إن شاؤوا عفا وإن شاؤوا استوفوا. وعن علي رضي الله عنه: أنه الحرث بن بدر جاءه تائباً بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة⁽¹⁾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا اللَّهَ وَابْتِغَوْا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لِمَلِكِكُمْ تَلْحَقُونَ ﴿٣٩﴾

الوسيلة: كل ما يتوسل به، أي: يتقرب، من قرابة أو صنعية أو غير نلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي. وأنشد للبيد:
لرى الناس لا يدرون ما قدر لهموم الأكل ذي لب إلى الله وأسئل

قرأ أبو واقد: أن يخرجوا بضم الياء من أخرج، ويشهد قراءة العامة قوله: ﴿بخارجين﴾⁽²⁾. وما يروى عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ فقال: ويحك اقرأ ما فوقها هذا للكفار⁽³⁾، فمما لفقته المجبرة وليس بأول تكانبيهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله ﷺ وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده من بني عبد المطلب وهو حبر الأمة وبحرها ومفسرها بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا ويرفعه إلى عكرمة لبليين ناصين أن الحديث: قرية ما فيها مرية.

وَالسَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

﴿والسارق والسارقة﴾⁽⁴⁾ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه، كأنه قيل: وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، أي: حكمهما، ووجه آخر وهو أن يرتقعا بالابتداء والخبر. ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط لأن المعنى: والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَرِيشَهُ مَعَهُ لَيَقْتُلُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ وَمَنْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿ليفتدوا به﴾ ليجعلوه فديةً لأنفسهم، وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه. وعن النبي ﷺ: يقال للكافر يوم القيامة: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك⁽¹⁾، ولو مع ما في حيزه خبر أن. فإن قلت: لم وحد الراجع في قوله: ﴿ليفتدوا به﴾ وقد نكر شيئان؟ قلت: هو نحو قوله:

فإنني وقياربها الغريب

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: ليفتدوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في ومثله بمعنى مع فيتوحد المرجوع إليه.

فإن قلت: فبم ينصب المفعول معه؟ قلت: بما يستدعيه لو من الفعل لأن التقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض.

يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا الْأَرْضَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ ﴿٣٧﴾

= فهو محمول على هذا الإضمار، والله أعلم، وكذلك الزانية والزاني، لما قال جل ثناؤه: ﴿سورة أنزلناها، وفرضناها﴾ قال في جملة الفرائض الزانية، والزاني، ثم جاء، فاجلدوا بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه، لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المنكور بعد بل بني على محذوف متقدم، وجاء الفعل طارئاً، قال: كما جاء وقائلة حولان، فأنكح فنتاحم. فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمهر وكذلك السارق والسارقة، وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث، وقد قرأ ناس السارق والسارقة بالنصب، وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة، ولكن أبت العامة إلا الرفع يريد سيبويه: أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدم، فكان النصب قوياً بالنسبة إلى الرفع، حيث يبني الاسم على الفعل، لا على متقدم، وليس يعني أنه قوي بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم، فإنه قد بين أن ذلك يخرج من الباب الذي يختار فيه النصب، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه، والباب مع القراءتين مختلف، وإنما يقع الترجيح بعد التساوي في الباب، فالنصب أرجح من الرفع حيث ينبني الاسم على الفعل، والرفع متعين لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم، ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ولو كان كما ظنه الزمخشري لم يحتج سيبويه إلى تقدير، بل كان يرفعه على الابتداء، ويجعل الأمر خبره، كما أعربه الزمخشري، فالملخص على هذا أن النصب على وجه واحد، وهو بناء الاسم على فعل الأمر، والرفع على وجهين أحدهما: ضعيف، وهو الابتداء، وبناء الكلام على الفعل، والآخر: قوي بالغ، كوجه النصب، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف، دل عليه السياق، وحيثما تعارض لنا وجهان في الرفع، وأحدهما قوي، والآخر: ضعيف، تعين حمل القراءة على القوي، كما أعربه سيبويه رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عُدب الحديث (2538) وأخذه: «قد سئلت ما هو أيسر من ذلك»، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً الحديث (7016).

(2) قال أحمد: في هذا الفصل من كلامه، وتمشيقه بالسفافة على أهل السنة، ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكتب، والتخليق، والافتراء، ما يحسى الكبد المملوء بحب السنة، وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية، ولا وقف الله صحة العقيدة على صحتها.

(3) لم أجده. وقد نكره الزليعي 1/394.

(4) قال أحمد: للمستقراً من وجوه القراءات، أن العامة لا تتفق فيها أبداً على العنول عن الأضمح، وجدير بالقرآن أن يجري على أقصع الوجوه، وأن لا يخلو من الأضمح، وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى نروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها وسيبويه يحاشي من اعتقاد عراء القرآن عن الأضمح واشتماله على الشاذ الذي لا يعد من القرآن، ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية، ليوضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل، قال سيبويه: في ترجمة باب الأمر والنهي، بعد أن نكر المواضيع التي يختار فيها النصب، وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر، فذاك موضع اختيار النصب، ثم قال كالمرضح لامتياز هذه الآية، عما اختار فيها النصب، وأما قوله عز وجل: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا﴾ الآية، وقوله: ﴿الزانية والزاني، فاجلدوا﴾ فإن هذا لم يبين على الفعل، ولكنه جاء على مثال قوله مثل الجنة التي وعد المتقون، ثم قال بعد: فيها أنهار فيها كذا يريد سيبويه: تمييز هذه الآية عن المواضيع التي بين اختيار النصب فيها، ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنياً على الفعل، وأما في هذه الآية، فليس بمبني عليه، فلا يلزم فيه اختيار النصب وقال: وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصاً، فكانه قال: ومن القصص مثل الجنة، =

أيديهما، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، وفضلها سيبيويه على قراءة العامة لأجل الأمر، لأن زيدا فاضربه أحسن من زيد فاضربه **«أيديهما»** أيديهما ونحوه: **«فقد صفت قلوبكما»**، اكتفى بثنية المضاف إليه عن ثنية المضاف، وأريد باليدين اليمينان، لبليلى قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا إيمانهم، والسارق في الشريعة من سرق من الحرز والمقطع الرسغ، وعند الخوارج المنكب، والمقدار الذي يجب به القطع عشرة دراهم عند أبي حنيفة. وعند مالك والشافعي رحمهما الله ربع دينار. وعن الحسن درهم، وفي مواضعه: أحذر من قطع يدك في درهم. **«جزاء»** و**«نكالا»** مفعول لهما.

فَن تَابَ مِنْ بَدِّ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّكَ اللَّهُ تَبُوتُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٨﴾.

«فمن تاب» من السراق **«من بعد ظلمه»** من بعد سرقة **«وأصلح»** أمره بالتفصي عن التبعات **«فإن الله يتوب عليه»** ويسقط عنه عقاب الآخرة، وأما القطع فلا تسقطه التوبة عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند الشافعي في أحد قوله تسقطه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كُنْتُمْ الْأَرْضَ مَآبًا وَأَنْتُمْ بِالْأَرْضِ مُعَذِّبٌ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُورُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴿٤١﴾.

«من يشاء» من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصيرين والثائبين. وقيل: يسقط حدّ الحربي إذا سرق بالتوبة ليكون ادعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه، ولا يسقطه عن المسلم لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة، **«ولكم في القصص حياة»**. **«فإن قلت: لم قُتِمَ التعذيب»** (١) على المغفرة؛ **«قلت: لأنه قوبل بذلك تقدّم السرقة على التوبة»**.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ وَرَبُّ الَّذِينَ هَادُوا سَنَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَنَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِالْحَقِّ مِنَ الْكَفْرِ مِنْ بَدِّ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيُوهِمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾.

قري: ولا يحزنك بضم الياء ويسرعون، والمعنى: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين **«في الكفر»**، أي: في إظهاره

بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن مواءة المشركين، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم: يقال: أسرع فيه الشيب، وأسرع فيه الفساد، بمعنى - وقع فيه سريعاً. فكذلك مسارعتم في الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه أسرع شيء إذا وجبوا فرصة لم يخطئها، و**«أمناء»** مفعول قالوا، و**«بأقوابهم»** متعلق بقالوا لا بأمناء. **«ومن الذين هادوا»** منقطع مما قبله خبر لسماعون، أي: ومن اليهود قوم سماعون، ويجوز أن يعطف على من الذين قالوا ويرتفع سماعون على هم سماعون والضمير للفريقين أو للذين هادوا، ومعنى **«سماعون للكذب»** قابلون لما يفتره الأخبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه، من قولك: الملك يسمع كلام فلان، ومنه: سمع الله لمن حمده. **«سماعون لقوم آخرين لم يأتوك»** يعني: اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ، وتجاؤا عنه لما أقرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة. أي: قابلون من الأخبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدر أن ينظروا إليك، وقيل: سماعون إلى رسول الله ﷺ لأجل أن يكذبوا عليه، بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود، وجهوهم عيوناً ليلغوهم ما سمعوا منه. وقيل: السماعون بنو قريظة، والقوم الآخرون يهود خيبر. **«بحرفون الكلم»** يميلونه ويزيلونه **«عن مواضعه»** التي وضعه الله تعالى فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع. **«إن أوتيتهم هذا»** المحرف المزال عن مواضعه. **«فخذوه»** واعلموا أنه الحق واعملوا به. **«وإن لم تؤتوه»** وأفتاكم محمد بخلافه. **«فاحذروا»** وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال. وروي أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدثهما الرجم في التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إن أمركم محمد بالجدل والتحميم فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، وأرسلوا الزانيين معهم. فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن سوريا، فقال: «هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له: ابن سوريا؟» قالوا: نعم وهو أعلم يهودي على وجه الأرض، ورضوا به حكماً. فقال له رسول الله ﷺ: «أنتسلك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي أنزل عليك كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن». قال: نعم. فوثب عليه سفلة اليهود. فقال: خفت إن

(١) قال أحمد: هو مبني على أن المراد بالمغفور لهم الثائبون، وبالمعنيين السراق، ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة، إلا بقيد التوبة؛ لأن غير الثائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم نكره، ونحن نعتقد أن المغفرة في حق غير الثائب من السحدين تتبع =

(١) قال أحمد: هو مبني على أن المراد بالمغفور لهم الثائبون، وبالمعنيين السراق، ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة، إلا بقيد التوبة؛ لأن غير الثائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم نكره، ونحن نعتقد أن المغفرة في حق غير الثائب من السحدين تتبع =

يذهبون إلى أنهم قد صولحوا على شركهم، وهو أعظم الحدود. ويقولون: إن النبي ﷺ رجم اليهوديين قبل نزول الجزية. ﴿قلن يضروك شيئاً﴾ لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم كالجسد مكان الرجم، فلذا عرض عنهم وأبى الحكومة لهم شق عليهم وتكروها إعراضه عنهم، وكانوا خلقاء بان يعادوه ويضاروه فأمّن الله سره. ﴿بالقسط﴾ بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم.

كَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿وكيف يحكمونك﴾ تعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به ويكتابه، مع أنّ الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به. ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به. ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بكتابتهم كما يدعون، أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم.

فإن قلت: فيها حكم الله، ما موضعه من الإعراب؟ قلت: إما أن ينتصب حالاً من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم، وإما أن يرتفع خبراً عنها، كقولك: وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله، وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبيّنة لأنّ عندهم ما يغنيهم عن التحكيم، كما تقول: عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع بغيره.

فإن قلت: لم أنتت التوراة؟ قلت: لكونها نظيرة لموامة ودواة ونحوها في كلام العرب.

فإن قلت: علام عطف ﴿ثم يتولون﴾؟ قلت: على ﴿يحكمونك﴾.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ آسَافُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِيمِينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَغْفِرُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَحْشَوْا نَاسًا وَأَخْشَوْا وَلَا تَتَزَوَّرُوا بِكُلِّ مِمَّا قَالُوا قَوْلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿فيها هدى﴾ يهدي للحق والعدل ﴿ونور﴾ يبين ما استبهم من الأحكام ﴿الذين أسلموا﴾ صفة⁽⁶⁾ أجريت على

كذبيته أن ينزل علينا العذاب. ثم سأل رسول الله ﷺ عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون. وأمر رسول الله ﷺ الزانيين فرجما عند باب مسجده⁽¹⁾. ﴿ومن⁽²⁾ يرد الله فتنه﴾ تركه مفتوناً وخذلاناً ﴿قلن تملك له من الله شيئاً﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً. ﴿أولئك الذين لم يرد الله﴾ أن يمنحهم من الطافه ما يطهر به قلوبهم؛ لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجح، إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وكيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم⁽³⁾.

سَتَمُرُّ بِالْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِبَيْنِهِمْ أَوْ اعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُرْمِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَمْزُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاعْلَمْ بِبَيْنِهِمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٩﴾

﴿السحت﴾ كل ما لا يحل كسبه، وهو من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة، كما قال تعالى: ﴿يحمق الله الربوا﴾⁽⁴⁾ والربوا باب منه. وقرئ: السحت بالتخفيف والتثقيب، والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته، والسحت بفتحتين، والسحت بكسر السين، وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وعن الحسن: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا اتاه أحدهم برشوة جعلها في كفه. فأراها إياه وتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فياكل الرشوة ويسمع الكذب. وحكي أن عاملاً قدم من عمله فجاءه قومه فقدم إليهم العراضة وجعل يحثهم بما جرى له في عمله، فقال أعرابي من القوم: نحن كما قال الله تعالى: ﴿سماعون للكذب آكلون للسحت﴾ وعن النبي ﷺ: «كل لحم أنبته السحت فلنار أولى به». قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وعن عطاء والنخعي والشعبي: أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين فإن شاوروا حكموا وإن شاوروا عرضوا. وقيل: وهو منسوخ بقوله: ﴿وان احكم بينهم بما أنزل الله﴾⁽⁵⁾ وعند أبي حنيفة رحمه الله: إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئاً أقيم عليه الحد، وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم،

(1) ابن إسحاق في المغازي [زليعي 1/396].

(2) قال أحمد رحمه الله: كم يتلجج، والحق أبلج، هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة، في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة، ووضر الكفر لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى، ما أراد الفتنة من أحد وأراد من كل أحد الإيمان، وطهارة القلب، وإن الواقع من الفتنة على خلاف إرادته، وإن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع فحسبهم هذه الآية، وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع، «أقالا يتبديرون القرآن أم على قلوب أقفالها»، وما أشبع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها، بقوله: لم يرد الله =

= أن يمنحهم الطافه، لعلمه أن الطافه لا تنجح فيهم، ولا تنفع تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وإذا لم تنجح الطاف الله تعالى، ولم تنفع، فلطف من ينفع، وإرادة من تنجح. وليس وراء الله للمرء مطمح.

(3) سورة آل عمران، الآية: 86.

(4) سورة البقرة، الآية: 276.

(5) سورة المائدة، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وإنما بعثه على حمل هذه الصفة، على المدح دون التفصّل والتوضيح أن الانبياء لا يكونون إلا متصفين بها، فنكر النبوة يستلزم نكرها، فمن تم حملها على المدح، وفيه نظر، فإن =

ظلموا آيات الله بالاستهانة وتمزّبوا بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الكافرين والظالمين والفساقين أهل الكتاب. وعنه: نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم، وما كان من مرّ فهو لأهل الكتاب، من جحدكم حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي: هذه في أهل الإسلام، والظالمون في اليهود، والفساقون في النصارى. وعن ابن مسعود: هو عام في اليهود وغيرهم. وعن حنيفة: أنتم أشبه الأمم سمّاً ببني إسرائيل، لتركيّن طريقهم حنو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، غير أنني لا أدري أتعبون العجل أم لا.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾.

في مصحف أبي: وانزل الله على بني إسرائيل فيها وفيه، وأنّ الجروح قصاص، والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة، والرفع للعطف على محل أنّ النفس، لأنّ المعنى: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا، وإما لأنّ معنى الجملة التي هي قولك: النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله، وقرأت: سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج: لو قرئ إنّ النفس بالنفس بالكسر لكان صحيحاً أو للاستئناف والمعنى: فرضنا عليهم فيها ﴿أنّ النفس﴾ مأخوذة ﴿بالنفس﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿و﴾ كذلك ﴿العين﴾ مفقودة ﴿بالعين والأنف﴾ مجذوع ﴿بالأنف والأذن﴾ مصلومة ﴿بالأذن والسن﴾ مقلوطة ﴿بالسن والجروح قصاص﴾ ذات قصاص وهو المقاصة، ومعناه ما يمكن فيه القصاص وتعترف المساواة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة

النبیین علی سبیل المدح كالصفات الجارية علی القديم سبحانه لا للتفصّل والتوضیح، وأريد بجزائها التعريض باليهود وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي بين الانبياء كلهم في القديم والحديث، وأنّ اليهودية بمعزل منها. وقوله: ﴿الذين أسلموا للذين هادوا﴾ مناد على ذلك ﴿والريانيون والأحبار﴾ والزهاد والعلماء من ولد فرعون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا بين اليهود. ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ بما سألهم أنبيأؤهم حفظه من التوراة، أي: بسبب سؤال انبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل «ومن» في ﴿من كتاب الله﴾ للنبيين. ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ رقباء لئلا يبدل، والمعنى: يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى، وكان بينهما ألف نبي وعيسى للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة؛ لا يتكونهم أن يعلوا عنها، كما فعل رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم، وإرغام أنوفهم وإيائه عليهم ما اشتهوه من الجلد، وكذلك حكم الريانيين والأحبار المسلمون بسبب ما استحفظهم أنبيأؤهم من كتاب الله، والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في استحفظوا للأنبياء والريانيين والأحبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من الله، أي: كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء. ﴿فلا تخشوا الناس﴾ نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أنية أحد من القرباء والأصقياء، ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبيلوا ولا تستعوضوا ﴿بآيات الله﴾ وأحكامه ﴿ثمناً قليلاً﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرّف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة فهلكوا، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ مستهيناً به ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ والظالمون والفساقون، وصف لهم بالعقوب في كفرهم حين

= أعلم جرى وصف الانبياء في هذه الآية، بالإسلام تنويهاً به، ولقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف، والناظم في منحه عليه الصلاة والسلام:

فلئن منحت محمداً بقصبيتي فلقد منحت قصبيتي بمحمد

والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له، ويستحيل عليه ويجوز في حقه، إلا أنّ النبوة أشرف وأجل، لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة، فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في نكر الإسلام بعد النبوة، في سياق المدح، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز، وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترتيبي، من الأدنى إلى الأعلى، لا النزول على العكس، ألا ترى أبا الطيب كيف ترزح عن هذا البهع في قوله:

شمس ضحاها هلال ليلتها در تقاصيرها زبرجدها

فنزل عن الشمس إلى الهلال، وعن الدر إلى الزبرجد في سياق المدح، فمضفت الألسن غرض بلاغته، ومزقت أديم صيغته، فعلياً إن تنكير الآيات المعجزات، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها في البلاغة.

= المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة، التي يتميز بها الممدوح، وعن دونه، والإسلام أمر عام يتناول أمم الانبياء، ومتبعيهم كما يتناولهم إلا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي، أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً، فإن أقل متبعيه كذلك، فالوجه والله أعلم أنّ الصفة قد تنكر للعظم في نفسها، وليتوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويهاً بقدر موصوفها، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الانبياء بالصالح، في قوله تعالى: ﴿وبشراهم بإسحاق نبياً من الصالحين وأمثلة﴾ تنويهاً بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الانبياء، وبعثاً لأحد الناس على الداب في تحصيل صفته، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فاخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيماً لقدر الإيمان، وبعثاً للبشر على الدخول فيه، ليساوا الملائكة المقربين في هذه الصفة، وإلا فمن المعلوم أنّ الملائكة مؤمنين ليس إلا، ولهذا قال: ويستغفرون للذين آمنوا يعني من البشر، لثبوت حق الإخوة في الإيمان بين الطائفتين، فنكلك والله =

وَمَهَيِّبًا عَلَيْهِ قَاتِكُمْ يَوْمَهُ يَمَا أُنزِلَ اللَّهُ وَلَا تَنْجِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلْنَاكُمْ آئَةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيُنذِرَكُمْ فِي مَا أَنْتُمْ فَاَسْتَفِيحُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَمِنْكُمْ يَمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾.

فَأَنْ قُلْتُ: أي فرق بين التعريفين في قوله: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾! قُلْتُ: الْأَوَّلُ: تعريف العهد لأنه عنى به القرآن، والثاني: تعريف الجنس؛ لأنه عنى به جنس الكتب المنزلة، ويجوز أن يقال: هو للعهد؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق وإنما أريد نوع معلوم منه وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن. ﴿ومهييماً﴾ ورتيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات وقرئ: ﴿ومهييماً﴾ عليه بفتح الميم، أي هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، كما قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽⁴⁾، والذي هيمن عليه الله عز وجل أو الحفاظ في كل بلد لو حرف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ولاشمازوا رائين ومنكرين: ضمن ﴿ولا تتبع﴾ معنى ولا تنحرف فلذلك عدى بـ «عن»، كأنه قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم. ﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الناس ﴿شريعة﴾ شريعة. وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين. ﴿ومنهاجاً﴾ وطريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه. وقيل: هذا دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا. ﴿لجعلكم آمة واحدة﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو نوي آمة واحدة، أي: بين واحد لا اختلاف فيه. ﴿ولكن﴾ أراد ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها مدعنين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة، أم تتبعون الشبه وتفترطون في العمل. ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ فابتدروها وتسابقوا نحوها. ﴿إلى الله مرجعكم﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات. ﴿ففينبئكم﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محققم وعاملكم ومفترطكم في العمل.

وَأَنَّ أَحْمَكُمْ يَوْمَهُ يَمَا أُنزِلَ اللَّهُ وَلَا تَنْجِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَسَدَرُهُمْ أَنْ يَنْتَزِلُوا عَنْ بَعْضِ مَا أُنزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ إِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْتَمْتُمْ أَنَّا نُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ يَوْمَهُمْ دُونَكُمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَسِقُونَ ﴿٤٨﴾.

فَأَنْ قُلْتُ: ﴿وَأَنَّ أَحْمَكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ معطوف على ماذا؟ قُلْتُ: على الكتاب في قوله: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾⁽⁵⁾ كأنه قيل: وأنزلنا إليك أن احكم، على أن وصلنا بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، ويجوز أن يكون معطوفاً على بالحق

فنزلت. ﴿فمن تصدق﴾ من أصحاب الحق ﴿به﴾ بالقصاص وعفا عنه ﴿فهو كفارة له﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وعن عبد الله وابن عمر: ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وقيل: فهو كفارة للجاني إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه. وفي قراءة أبي: فهو كفارة له، يعني: فالمتصدق بكفارته له، أي: الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها، وهو تعظيم لما فعل، كقوله تعالى: ﴿فأجره على الله﴾⁽¹⁾ وترغيب في العفو.

وَقَفَيْنَا عَلَى مَا نَزَّلَهُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَنْزِيلِ وَأَنبِئْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَنْزِيلِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ يَمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَرَّ يَحْكُمُ يَمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٠﴾.

قفيته: مثل عقبته إذا اتبعته ثم يقال: قفيته بفلان وعقبته به فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء.

فَأَنْ قُلْتُ: فأين المفعول الأول في الآية؟ قُلْتُ: هو محنوف والظرف الذي هو ﴿على آثارهم﴾ كالسائر مسده، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبیین في قوله: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾⁽²⁾. وقرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهزعة، فإن صح عنه فلأنه أعجمي خرج لعجمته عن زناة العربية كما خرج هابيل وأجر. ﴿ومصدقاً﴾ عطف على محل فيه هدى ومحل النصب على الحال. ﴿وهدى وموعظة﴾ يجوز أن ينتصبا على الحال كقوله ﴿مصدقاً﴾ وأن ينتصبا مفعولاً لهما، كقوله ﴿وليحكم﴾ كأنه قيل: وللهدى والموعظة آتيانه الإنجيل، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام.

فَأَنْ قُلْتُ: فإن نظمت هدى وموعظة في سلك مصدقاً، فما تصنع بقوله ﴿وليحكم﴾؟ قُلْتُ: أصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتها مفعولاً لهما فاقدراً: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيانه إياه.

وقرئ: وليحكم على لفظ الأمر بمعنى: وقلنا ليحكم، وروي في قراءة أبي: وأن ليحكم، بزيادة أن مع الأمر على أن، أن موصولة بالأمر كقولك: أمرته بأن قم، كأنه قيل: وآتيانه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل: إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام؛ لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة، وظاهر قوله: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، يرد ذلك، وكذلك قوله: ﴿لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجاً﴾⁽³⁾ وإن ساغ لقائل أن يقول معناه: وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

(4) سورة فصلت، الآية: 42.

(5) سورة المائدة، الآية: 48.

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة المائدة، الآية: 44.

(3) سورة المائدة، الآية: 48.

أي: أنزلناه بالحق وبأن احكم. ﴿أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أن يضلوك عنه ويستزلوك، وذلك أن كعب بن أسيد وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ففتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أننا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا، إن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصنقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرأوا غيره. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ نَوَائِبِهِمْ﴾ يعني: بذنوب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه، فوضع ببعض نوائبهم موضع ذلك، وأراد أن لهم نوباً جمّة كثيرة العدد وأن هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها، وهذا الإيهام لتعظيم التولي واستشرافهم في ارتكابه، ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حماتها

أراد نفسه، وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإيهام كأنه قال: نفساً كبيرة ونفساً أي نفس. فكما أن التذكير يعطي معنى التكبير وهو معنى البعضية، فكذلك إذا صرح بالبعث. ﴿لِفَاسِقُونَ﴾ لمتزلبون في الكفر معتدون فيه. يعني: أن التولي عن حكم الله من التمرّد العظيم والاعتداء في الكفر.

أَفَحَكَمَ الْكَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُؤْتُونَ ﴿٥١﴾

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى، وروي: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «القتلى بواء». فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك^(١). نزلت.

والثاني: أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحي من الله تعالى. وعن الحسن: هو عام في كل من يبغي غير حكم الله، والحكم حكمان: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وقرئ: تبغون بالتاء والياء. وقرأ السلمي: أفحكم الجاهلية يبغون، برفع الحكم على الابتداء وإيقاع يبغون خبراً، وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾، وعن الصفة في: الناس رجلان رجل أهدت ورجل أكرمت، وعن الحال في: مررت بهند يضرب زيد. وقرأ قتادة: أفحكم الجاهلية، على

أن هذا الحكم الذي يبغونه إنما يحكم به أفعى نجران أو نظيره من حكام الجاهلية، فأرأوا بسفهم أن يكون محمد خاتم النبيين حكماً كأولئك الحكام. اللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يوقنون﴾ للبيان كاللام في ﴿هيت لك﴾، أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم الذين يتيقنون أن لا عدل من الله ولا أحسن حكماً منه.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِذُوا بِالْهَيْدِ وَالصَّكْرِ آيَاتَهُ بِمَعْنَى آيَاتِهِ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَوَلَّكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

لا تتخذوهم أولياء تنصروهم وتستنصروهم وتؤاخوهم وتصافوهم وتعاشروهم معاشرّة المؤمنين، ثم علل النهي بقوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي: إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر، فما لمن دينه خلاف دينهم ولمواليتهم. ﴿ومن يتولهم منكم فإنه من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تراءى ناراهما»^(٢). ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى في كتابه النصراني: لا تكروهم إذ إهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله، ولا تدنوهم إذ اقصاصهم الله. وروي أنه قال له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام^(٣). يعني: هب أنه قد مات فما كنت تكون صناعاً حينئذٍ فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين ظلموا أنفسهم بموالاتة الكفر يمنعهم الله الطافه ويخذلهم مقتاً لهم.

فَدَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ مِمَّا كَتَبُوا أَن ثَمِينًا دَائِرَةٌ مَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْبَتَّحَ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَمُصْحِحًا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَلْبِيكَ ﴿٥١﴾

﴿يسارعون فيهم﴾ ينكشون في موالاتهم ويرغبون فيها ويعتدون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من نواثر الزمان، أي: صرف من صرفه وبولة من دوله فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من يهود كثيراً عندهم وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال عبد الله ابن أبي: إنني رجل أخاف النواثر لا أبرأ من ولاية موالي، وهم يهود بني قينقاع^(٤). ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أو أمر من عنده﴾ يقطع شاقة اليهود ويجلبهم عن بلادهم فيصبح المنافقون نادمين على

(1) ابن أبي شيبه 434/9، كتاب: الديات، باب: إن المسلمين تتكافأ

بماؤهم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود الحديث (2645)، والترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين الحديث (1604)، والنسائي =

(3) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب: ابن القاضي.

(4) أخرجه ابن أبي شيبه 137/12، كتاب: الفضائل، باب: عبادة بن الصامت.

= في كتاب: القسامة، باب: القعود بغير حبيدة الحديث: (4780).

العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال رسول الله ﷺ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلة قتل فسراً المسلمون، وقبض رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول. وبنو حنيفة قوم مسيلمة محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة. وكان يقول: قتل خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام، أراد في جاهليتي وإسلامي. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فانهزم بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فزاره قوم عبيدة بن حصن، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر الممتنبة التي زوجت نفسها مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرّي في كتاب استغفر واستغفري:

أمت سجاح ووالها مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب⁽¹⁾
 وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه. «فسوف يأتي الله بقوم» قيل: لما نزلت أشار رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري، فقال: قوم هذا⁽²⁾، وقيل: هم الغان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أقبان الناس جاهدا يوم القادسية. وقيل: هم الأنصار. وقيل: سئل رسول الله ﷺ عنهم، فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه». ثم قال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لئله رجال من أبناء فارس»⁽³⁾. «يحبهم ويحبونه»⁽⁴⁾ محبة العباد لربهم

سأحدثوا به أنفسهم، وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول الله ﷺ ويقولون: ما نظن أن يتم له امر، وبالبحري ن تكون النولة والغلبة لهؤلاء، وقيل: «أو امر من عنده»، وأن يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم يندموا على نفاقهم. وقيل: أو امر من عند الله لا يكون فيه للناس فعل، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجب عليهم بخيل ولا ركاب.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيَتِهِمْ مِنْهُمْ لَمَكُمْ حِجَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَيْرِينَ ﴿٥٧﴾

«ويقول الذين آمنوا» قرئ: بالنصب عطفاً على إن باتي، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ، أي: ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت، وقرئ: يقول بغير واو، وهي في مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك، على أنه جواب قائل يقول: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا: هؤلاء الذين آمنوا؟

فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتباطاً بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص «أهؤلاء الذين أقسموا» كم بإغلاظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضوكم على الكفار، إما أن يقولوه لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضة النصره كما حكى الله عنهم، «وإن قوتلتهم لننصرنكم» «حبطت أعمالهم» من جملة قول المؤمنين، أي: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين الناس، وفيه عنى التعجب كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم فما أضرهم! أو من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجيباً من سوء حالهم.

يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَّخِذُونَ يَدَيْهِمْ يُعْرِضُونَ وَأُولُو عُلَى الثُّورَيْنِ أُعِزُّوا عَلَى الْكُفْرَيْنِ بِجَهْدِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُلَاقُونَ أُولَئِكَ قَدْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِمْ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾

وقرئ: «من يرتد» ومن يرتد، وهو في الإمام بدالين، هو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها، قيل: بل كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة، ثلاث في عهد رسول الله ﷺ: بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود

(1) قصة الردة صنف فيها ابن إسحاق والواقدي وأصحاب المغازي، وغيرهم.

(2) حديث هم قومك يا أبا موسى، أخرجه الحاكم في المستدرک 2/313، وابن أبي شيبة 12/123، كتاب: الفضائل، باب: أبو موسى الأشعري.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجمعة، باب: (1) الحديث (4897)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، الحديث (6445).

(4) قال أحمد: لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب، والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعزها، فليمتحن

= حقيقة المحبة لغة بالقواعد، لينظر أهي ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا؛ إذا المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر ملا، والذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق في المطعوم، ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة، ولذة الشم في الروائح العطرة، ولذة السمع في النغمات الحسنة، وإلى لذة تدرك بالعقل، كلذة الجاه والرياسة والعلوم، وما يجري مجراها، فقد ثبت أن في الذات الباعثة على المحبة، ما لا يدركه إلا العقل دون الحس، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها، فليس اللذة برئاسة الإنسان على أهل قرية، كلذته بالرياسة على أقاليم معتبرة، وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث، فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات، فليس معلوم

طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه، ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم. وأما ما يعتقدُه أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشر وأسوأهم طريقة، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهالة والسفهاء شيئاً، وهم الفرقة المفتعلة المتفعله من الصوف وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم - خزبها الله - وفي مراقصهم - عطلها الله - بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء، وصعقاتهم التي أين عنها صعقة موسى عندك الطور، فتعالى الله عنه علواً كبيراً، ومن كلماتهم: كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فإن الهاء راجع إلى الذات بون النعوت والصفات، ومنها: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة.

فإن قلت: أين الراجع من الجزء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط؟ قلت: هو محذوف معناه: فسوف يأتي الله بقوم مكالهم، أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك. ﴿أئله﴾ جمع نليل، وأما نليل فجمعه نلل، ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه أن نلولا لا يجمع على أئله.

فإن قلت: هلا قيل: أئله للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن النذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التلذذ والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم، ونحوه قوله عز وجل:

== اكمل، ولا أجمل من المعبود الحق، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى، ومعرفته جلاله وكماله تكون أعظم، والمحبة المنبثقة عنها تكون أمكن، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات، والموافقات، فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد ممكنة، بل واقعة من كل مؤمن، فهي من لوازم الإيمان، وشروطه، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لفة، وكانت الطاعات والموافقات، كالمسبب عنها، والمغاير لها لا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أعددت لها»، قال: ما أعددت لها كبير عمل، ولكن حب الله ورسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنت مع من أحببت». فهذا الحديث ناطق، بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال، والتزام الطاعات؛ لأن الأعرابي نفاها، وأثبت الحب وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك، ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لفة، فالمحبة في اللغة إذا تكدت سميت: عشقاً، فمن تكدت محبته لله تعالى، وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات في نكره وطاعته، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقاً، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة، وما أرتب بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاب لأحباب الله عز وجل من الرمزخشري، فإنه خلط كلامه الغث بالسمين، فاطلق القول كما سمعت بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير تحرم منه نسب إليهم ما لا يعبا بمرتبه، ولا يعد في ==

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾⁽¹⁾ وقرئ: أئله وأعزة؛ بالنصب على الحال. ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ يحتمل أن تكون الواو للحال على أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا مولين لليهود - لعنت - فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط. وأن تكون للعطف على أن من صفتهم المجاهدة في سبيل الله وأنهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمر من أمور الدين إنكار منكر، أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يربحهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. واللومة المرة من اللوم وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام، و ﴿نلك﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والنلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة. ﴿بيوتيه﴾ يوفو له ﴿من يشاء﴾ ممن يعلم أن له لطفاً ﴿واسع﴾ كثير الفواضل والألطف ﴿عليم﴾ بمن هو من أهلها.

إِنَّا وَرَدْنَاكَ اللَّهُ رَسُوْلُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم نكر من تجب موالاتهم بقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ ومعنى إنمأ: وجوب اختصاصهم بالموالاة.

== البهائم فضلاً عن خواص البشر، ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما يتنافى حال المسمين به، حقيقة أن يؤاخذ الصالح بالطالح، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، وهذا كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا للريفة، فجدحوا صفات الله تعالى، وقضاه، وقدره، وقالوا: إن الأمر أنف، وجعلوا لأنفسهم شركاً في المخلوقات، وفعلوا، وصنعوا، فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً؛ لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم، و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، ولا شك أن في الناس من أنكرو تصور محبة العبد لله، إلا بمعنى طاعته له لا غير، وهو الذي يحاز إليه الرمزخشري، وقد بينا تصور ذلك وأوضاعه، والمعترفون بتصور ذلك وثبوته، ينسبون المنكرين إلى أنهم جهلوا فأنكروا كما أن الصبي ينكر على من يعتقد أن وراء اللعب لذة من جماع أو غيره، والمنهمك في الشهوات والغرام بالنساء يظن أن ليس وراء ذلك لذة من رياسة أو جاه، أو شبه ذلك، وكل طائفة تسخر بمن فوقها، وتعتقد أنهم مشغولون في غير شيء، قال الغزالي: والمحبون لله يقولون لمن أنكرو عليهم ذلك ﴿إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

(1) سورة الفتح، الآية: 29.

المشركين خاصةً والدليل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. وقرئ: والكفار بالنصب والجر، وتعصد قراءة الجر قراءة أبي: ومن الكفار. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالة الكفار وغيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً، لأنَّ الإيمان حقاً يأبى موالة أعداء الدين.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاجْتَمِعُوا لِلَّهِ وَرِجَالِهِ خَائِفِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا سُلُوكَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ يُؤْتُونَ

﴿اتخذوها﴾ الضمير للصلاة أو للمناداة، قيل: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكاتب. فدخلت خادمة بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو وأهله⁽³⁾. وقيل: فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده. ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّ لعبيهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْتُمُونَ نَبَأَ إِلاَّ أَنَّ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَ قَوْمٍ لَّيْسُوا بِعَالِمِينَ

قرأ الحسن: هل تنقمون بفتح القاف، والفصيح كسرهما. والمعنى: هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكاتب المنزلة كلها. ﴿وَإِنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَإِنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾؟ قلت: فيه وجوه: منها: أن يعطف على ﴿أَنْ آمَنَّا﴾، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمريركم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في بين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: واعتقاد أنكم فاسقون، ومنها: أن يعطف على المجرور، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف، كأنه قيل: كما تنقمون منا إلا الإيمان لقلّة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن: بفسقكم نعمتم ذلك علينا.

وروي: أنه أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فسألوه عن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلينا، إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾⁽⁴⁾ فقالوا حين سمعوا نكر عيسى عليه السلام: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فنزلت⁽⁵⁾، وعن نعيم بن ميسرة: وإن أكثركم بالكسر، ويحتمل أن ينتصب

فإن قلت: قد نكرت جماعةً، فهلا قيل: إنما أولياؤكم؟ قلت: أصل الكلام إنما وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الصلاة، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع. وفي قراءة عبد الله: إنما مولاكم.

فإن قلت: ﴿الذين يقيمون﴾ ما محله؟ قلت: الرفع على البديل من الذين آمنوا أو على هم الذين يقيمون، أو النصب على المدح، وفيه تمييز للخلص من الذين آمنوا نفاقاً أو اوطات قلوبهم السنتم إلا أنهم مفرطون في العمل. ﴿وهم راعون﴾ الواو فيه للحال، أي: يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل: هو حال من يؤتون الزكاة بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة، وأنها نزلت في علي كرم الله وجهه حين سألته وهو راعك في صلاته فطرح له خاتمه، كأنه كان مرجأ في خصمه فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تقصد بمثله صلاته⁽⁶⁾.

فإن قلت: كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة! قلت: جيء به على لفظ الجمع، وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ليرغب الناس في مثل فعله، فينالوا مثل ثوابه، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان، وتفقد الفقراء، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

وَمَنْ يَرْوِ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُتْلُونَ

﴿فإن حزب الله﴾⁽²⁾ من إقامة الظاهر مقام المضمّر، ومعناه: فإنهم هم الغالبون ولكنهم بذلك جعلوا علامة لكونهم حزب الله، وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم، ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرسول والمؤمنين، ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِبَاءً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَذَّابُ أَكْثَرُ وَأَتَوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

روي: أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرنا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يواؤونهما. فنزلت. يعني: أن اتخاذهم بينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخانكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة. وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار؛ إطلاقاً للكفار على

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في تفسيره والثعلبي.

(2) قال أحمد: ومقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أنفسهم وأهليهم يوم القيامة إلا أن الظالمين في عذاب مقبم﴾ فوضع الظالمين موضع ضمير الأول، ليزيدهم سمة الظلم إلى

(3) الطبري في تفسيره.

(4) سورة آل عمران، الآية: 84.

(5) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 114.

وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، وحذف الراجع بمعنى وعبد الطاغوت فيهم أو بينهم، وعبد الطاغوت بمعنى صا الطاغوت معبوداً من نون الله، كقولك: أمر إذا صار أمير وعبد الطاغوت بالجر عطفاً على من لعنه الله.

فإن قلت: كيف جاز أن يجعل الله منهم عباد الطاغوت قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنه خذلهم حتى عبدوها.

والثاني: أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به، كقول

تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾⁽⁴⁾

وقيل: الطاغوت العجل لأنه معبود من نون الله، ولأن

عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان، فكانت عبادتهم ل

عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضي الله

تعالى عنه: أطاعوا الكهنة وكل من أطاع أحداً في معصية الله

فقد عبده. وقرأ الحسن: الطواغيت. وقيل: وجعل منها

القردة أصحاب السبت، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى

وقيل: كلا المسخين من أصحاب السبت، فشانهم مسخو

قردة، ومشابهم مسخوا خنازير، وروي أنها لما نزلت كان

المسلمون يعيرون اليهود ويقولون: يا إخوة القردة

والخنازير فينكسون رؤوسهم. ﴿أولئك﴾ الملعونون

الممسوخون. ﴿شر مكاناً﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي

لأهله وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل

لدخوله في باب الكناية التي أخت المجاز.

وإذا جاءكم قالوا آمناً وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم

بما كانوا يكفرون ﴿٦٦﴾

نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على

رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً، فأخبره الله تعالى

بشانهم، وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلق

بهم شيء مما سمعوا به من تنكيرك بآيات الله ومواعظك.

وقوله: ﴿بالكفر﴾⁽⁵⁾ وبه حالان، أي: دخلوا كافرين وخرجوا

كافرين، وتقديره ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله: ﴿وقد

دخلوا... وهم قد خرجوا﴾، ولذلك دخلت «قد» تقريباً

للماضي من الحال، والمعنى آخر وهو أن أمارات النفاق

كانت لائحة عليهم وكان رسول الله ﷺ متوقفاً لإظهار الله

ما كتموه، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله: ﴿قالوا

وإن أكثركم بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون، أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف، أي: وفسقكم ثابت معلوم عنكم لأنكم علمتم أننا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لا يدعم فتتصفوا.

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَى عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَلِخَنَازِيرٍ وَعِيدَ الْفُلُجُونَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٦﴾

﴿لذلك﴾ إشارة إلى المنقوم ولا بد من حذف مضاف

قبله أو قبل من تقديره بشر من أهل ذلك أو دين ﴿ومن لعنه الله﴾

و﴿من لعنه الله﴾ في محل الرفع على قولك:

هو من لعنه الله، كقوله تعالى: ﴿قل أقاتبكم بشر من ذلك

النار﴾⁽¹⁾ أو في محل الجر على البديل من شر. وقرئ:

مثوبة ومثوبة، ومثالهما مشورة ومشورة.

فإن قلت: المثوبة مختصة بالإحسان فكيف جاءت في

الإساءة؟ قلت: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة

قوله: تحية بينهم ضرب وجيع. ومنه: ﴿فبشروهم بعذاب

اليم﴾⁽²⁾.

فإن قلت: المعاقبون من الفريقين هم اليهود فلم شورك

بينهم في العقوبة؟ قلت: كان اليهود - لعنوا - يزعمون أن

المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب، ف قيل لهم: من

لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام

في زعمكم ودعاؤكم⁽³⁾. ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على

صلة من، كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت. وفي قراءة أبي:

وعبدوا الطاغوت، على المعنى: وعن ابن مسعود: ومن

عبدوا، وقرئ: وعابد الطاغوت عطفاً على القردة. وعابدي

وعباد وأعبد وعبد ومعناه: الغلوة في العبودية، كقولهم: رجل

حذر وفطن، للبلغ في الحذر والفطنة، قال:

ابني لبيني إن أمك أمة وإن إياكم عبد

وعبد: بوزن حطم، وعبيد وعبد بضممتين جمع عبيد

وعبيدة بوزن كفرة، وعبد وأصله عبدة فحذفت التاء

للإضافة، أو هو كخدم في جمع خادم، وعبد وعباد وأعبد

(1) سورة الحج، الآية: 72.

(2) سورة آل عمران، الآية: 21.

(3) قال أحمد رحمه الله: السؤال يلزم القدرية؛ لأنهم يزعمون أن الله

تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وإن

عبادتهم للطاغوت قبيحة، والله تعالى لا يريد القبائح، بل تقع في

الوجود على خلاف مشيئته، فلذلك يضطر الزمخشري إلى تأويل

الجملة بالخذلان، أو بالحكم، وكذلك أول. قوله تعالى: ﴿وجعلناهم

أئمة يدعون إلى النار﴾ بمعنى حكمنا عليهم بذلك هذا مقتضى

قاعدة القدرية، وأما على عقيدة أهل السنة الموحدين حقاً، فالآية

على ظاهرها، والله تعالى هو الذي اشقامهم، وخلق في قلوبهم

طاعة الطاغوت، وعبادته ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا =

= رجوع القدرية في تحقيق الخذلان، أو الحكم الذي يستروح إلى

التأويل به لم يقدر منه على حقيقة، ولم يفسره بغير الخلق إن

اعترف بالحق، وترك ارتكاب المرء، والتذبذب مع الأهواء، والله

ولي التوفيق.

(4) سورة الزخرف، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وفي تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد

حالهم في الكفر، أي: وقد دخلوا بالكفر وخرجوا، وهم أولئك على

حالهم في الكفر، كما تقول: لقيت زيداً بعد عوده من سفره، وهو

هو، أي: على حاله، وفي المثل وعبد الحميد عبد الحميد، أي:

حالته باقية، والله أعلم.

بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاءً قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاءً جزئياً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليبين بوابلٍ شكرت نداءه تلاعه وهاده
ولقد جعل لبيد للشمال يداً في قوله:
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به. فإن قلت⁽⁵⁾: قد صح أن قولهم: «يد الله مغلولة» عبارة عن البخل فما تصنع بقوله: «غلت أيديهم» ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر الكلام وزل عنه سننه؟ قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم. ونحوه بيت الأشر: بقيت وفري وانحرفت عن العلاء ولقيت أضيافي بوجه عبوس ويجوز أن يكون دعاءً عليهم بغل الأيدي، حقيقة يغفلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم. والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقول:

سبني سب الله دابره، أي: قطعه، لأن السب أصله القطع. فإن قلت: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزيديون بخلاً إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الاحوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم. فإن قلت⁽⁶⁾: لم تثبت اليد في قوله تعالى: «بيل يداه

أفنا» أي: قالوا ذلك وهذه حالهم⁽¹⁾.

وَرَوَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْمُنْذَرُونَ وَأَكْثِلَهُمْ أَسْحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَتَكُونُونَ⁽²⁾.

الإثم: الكذب ببديل قوله تعالى: «عن قولهم الإثم والعدوان» الظلم. وقيل: الإثم كلمة الشرك، وقولهم: عزير ابن الله، وقيل: الإثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم. والمسارة في الشيء الشروع فيه بسرعة.

لَوْلا يَهْتَمُّمُ الرَّزِيئُونَ وَالْأَجَابُ عَن قَوْلِهِ الْإِثْمُ وَأَثْمُهُمُ أَسْحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ⁽³⁾.

«لبئس ما كانوا يصنعون»⁽²⁾ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير؛ لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرّب وينسب إليه. وكان المعنى في ذلك: أن مواقع المعصية مع الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهيه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشدّ حالاً من المواقع. ولعمري أنّ هذه الآية مما يفذ السامع وينعي على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشدّ آية في القرآن. وعن الضحّاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها⁽³⁾.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُتُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوتَتَانِ يُوفِي كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِدْكَ كِبْرًا مِنْهُمْ مَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ دُونِ حَقِّنَا وَكُفْرًا وَالْقِتْنَا مِنْهُمْ آتِدَاءً وَالْبَعْصَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَاةً اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ⁽⁴⁾.

غل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط»⁽⁴⁾ ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا

(1) قال أحمد: وقوله عن قولهم الإثم، يدل على أنّ الإثم الأوّل مقول، فيحتمل أن يكون المراد: الكذب مطلقاً، ويحتمل أن يراد كلمة الشرك، واستدلال الزمخشري على أنّ المراد: الكذب لا يتم، وإنما يدل على أنه مقول، فيحتمل الأمرين، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني أنه لما عبر عن الواقع المنعوم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله، لبئس ما كانوا يعملون، وعبر عن ترك الإنكار عليهم، حيث نّمّه بالصناعة في قوله: «لبئس ما كانوا يصنعون» كان هذا اللم أشدّ؛ لأنه جعل المنعوم عليه صناعة لهم، وللرؤساء وحرقة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم هذا مراده، والله أعلم.

(3) قال أحمد: والنكته في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالباً، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن، فلما كان الجود، والبخل معنيين لا يدركان بالحس، ويلازهما صورتان تدركان بالحس، وهو بسط اليد للجود، وقبضها للبخل عبر عنهما بلازمهما، لفائدة الإيضاح، والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات، والله أعلم.

(4) سورة الإسراء، الآية: 29.

(5) قال أحمد: لقد نقص فضيلته التي أوردتها في هذا الفصل، بما ضمنه هذا السؤال، والجواب من القاعدة الفاسدة في أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئاً، مانعاً عليهم، ويبنى على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل؛ لأنه لم يرده منهم ويستحيل أن يريد منهم، فوجه هذا النص بالتأويل، والتمسك بالأباطيل، والحق أنّ الله يدعو عليهم بالبخل، ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح في قلوبهم، والقبض في أيديهم، فهو الداعي والخالق، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل، ويتفلسف عنه، «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»، فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن، إلا من حيث علم البيان، فإنه فيه أفرس الفرسان لا يجاري في ميدانه، ولا يجاري في بيانه.

(6) قال أحمد: ولما كان المعهود في العطاء أن يكون بلحدي اليبين، وهي اليمين، في نسبة البخل، وفي إضافته إلى الواحدة تنزيلاً منهم، على اعتقاد الجسمية بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط، وبأن أضافه اليبين جميعاً؛ لأنّ كلنا يديه يمين، كما ورد في الحديث تنبيهاً على نفي الجسمية، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها، لكانت إحدى اليمين يميناً، والأخرى شمالاً ضرورة، =

عنهم﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها، ﴿وَلَا خَلْنَاهُمْ﴾ مع المسلمين الجنة، وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتح باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى⁽¹⁾، وأن الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى. كما قال الحسن: هذا العمود، فأين الأطناب؟

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَرُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مَنَّهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَمْعُرُونَ ﴿١١﴾

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ أقاموا أحكامهما وحيودهما وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وما أنزل إليهم﴾ من سائر كتب الله لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم. وقيل: هو القرآن، لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد تحطوا، وقوله: ﴿لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ عبارة عن التوسعة، وفيه ثلاثة أوجه: أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض، وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة، وأن يرزقهم الجنان البانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم. ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ طائفة حالها أمم في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى. ﴿وساء ما يعملون﴾ فيه معنى التعجب كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

﴿يَأْتِيَا الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْسُطُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿بلغ ما أنزل إليك﴾⁽²⁾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء

مبسوطان، وهي مفردة في ﴿يد الله مغلولة﴾؟ قلت: ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبخله السخي بماله من نفسه أن يعطيه ببنيه جميعاً، فبني المجاز على ذلك. وقرئ: ولعنوا بسكون العين، وفي مصحف عبد الله: بل يده بسطان. يقال: يده بسط بالمعروف، ونحوه مشية شح وناقة صرح. ﴿ينفق كيف يشاء﴾ تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روي أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذبوه، كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازراء: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون فاشركوا فيه ﴿وليوزيدن﴾ يزدانون عند نزول القرآن لحسدهم تماًبياً في الجحود وكفروا بآيات الله. ﴿واقفيناً بينهم العداوة﴾ فكلمهم أبداً مختلف وقلوبهم شتى لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد ﴿كلما أوقدوا ناراً﴾ كلما أراوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، وقد اتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل: خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. وعن قتادة رضي الله عنه: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجنتهم من أذل الناس ﴿ويسعون﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو نكر رسول الله ﷺ من كتبهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَأْمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَخِيمَةً وَّلَا كُنْتُمْ عَنْهُمْ جُنَّاتٍ النَّيْمِ ﴿١٥﴾

﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ مع ما عدنا من سيئاتهم ﴿أمنوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريعة في الفوز بالإيمان ﴿لكفرنا

فما أثبت أن كلتيهما يمين في الجسيمة، وأضاف الكرم إليهما، لا كما يضاف في الشاهد إلى اليد اليمنى، خاصة إذ الأخرى شمال، وليست محلاً للكرم، والله اعلم.

قال أحمد: وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية، فيجعله دليلاً على قاعدته في أن مجرد الإيمان، لا ينجي من الخلود في النار، حتى يضاف إلى التقوى؛ لأن الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطاً للتكفير، وإدخال الجنة، وظاهره أنها ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير، ولا دخول الجنة، وأني له ذلك، والإجماع، والاتفاق من الفريقين أهل السنة، والمعزلة عن أن مجرد الإيمان يجب ما قبله، ويمحوه كما ورد النص، فلو فرضنا موت الداخل في الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه، باتفاق مكرر الخطايا محكوماً له بالجنة، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين، ليس بشرط هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال، وإن كانت التقوى على أصل وضعها الخوف من الله عز وجل، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن، وإن قارب الكبائر، وحينئذ لا يتم الزمخشري منه

غرض، وما هذا إلا إلحاح في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى، أو سرق» كرهها النبي ﷺ مراراً، ثم قال: «وإن رغم أنف أبي نره. لما راجعه رضي الله عنه في ذلك، ونحن نقول وإن رغم أنف القدرية.

قال أحمد: وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر؛ لأن حاصله إن لم تبلغ الرسالة، لم تبلغ الرسالة باتحاد المبتدأ والخبر، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئاً في الظاهر، كقوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

فجعل الخبر عن المبتدأ، بلا مزيد في اللفظ، وأراد: وشعري شعري المتهور بلاغته، والمستفيض فصاحته، ولكنه أهم بالسكوت عن هذه الصفات، التي بها تحصل الفائدة من لوازم شعره في أفهام الناس، السامعين لاشتهاره بها، وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وديعها، وكذلك أريد في الآية؛ لأن عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس، مستقر في الأذهان أنه عظيم شنيع

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ومعناه: أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن انس: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس».

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالْتَّوْحِيدِ وَإِخْوَالَكُمْ أَرْزَلْ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلِكُلِّ ذِكْرٍ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طَعَيْنًا وَّكَفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكُفْرَانِ ﴿١٨﴾.

﴿لستم على شيء﴾ أي: على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً فساداً وبطلاناً، كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم: أقل من لا شيء. ﴿فلا تأس﴾ فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك وفي المؤمنين غنى عنهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالْمَعْرُوفِينَ مِّنْ أُمَّةٍ يَأْتِيهِمُ الرِّسَالَةُ بَعْدَ مَا هَدَوْا لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾.

﴿والصائبون﴾^(١) رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصائبون كذلك، وأشد سببويه شاهداً له:

ولا فاعلماواناوانتم بغاة ما بقينا فاني شقاق
أي: فاعلماوا أنا بغاة وأنتم كذلك.
فإن قلت: هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن
واسمها؟ قلت: لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر، لا تقول:
إن زيداً وعمرو منطلقان.

فإن قلت: لم لا يصح والنية به التأخير، فكأنك قلت: إن زيداً منطلق وعمرو؟ قلت: لأنني إذا رفعت رفعت عطفاً على محل إن واسمها والعامل في محلها هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في

ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع، فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول، فاستغنى عن ذكر الزيادات، التي يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوصها بالجزاء في الأفهام، وأن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد، والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز، ينكر الشرط عاماً، بقوله: وإن تفعل، ولم يقل، وإن لم تبليغ الرسالة، فما بلغت الرسالة حتى يكون اللفظ متغيراً، وهذه اللفظية، وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدأ، بلفظ الخبر وحق له أن تتضاهل فصاحته عند فصاحة المعجز، فلا يعاب عليه في ذلك، وهذا الفصل كاللبيان، والله الموفق.

(١) قال أحمد: صدق لا ورود للسؤال بهذا التوجيه، ولكن ثم سؤال متوجه، وهو أن يقال: لو عطف الصائبين، ونصبه، كما قرأ ابن كثير، لآفاذ أيضاً دخولهم في جملة المنوب عليهم، ولغهم من تقديم نكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع، من أن هؤلاء الصائبين، وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم، فما الظن =

= بالنصارى، ولكن الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جمليتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب، والعطف الإفرادي، ويجب عن هذا السؤال، بأنه لو نصب وعطفه لم يكن فيه إقحام خصوصية لهذا الصنف؛ لأن الأوصاف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنها واحد، وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي، وتبقى بقية الأوصاف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل، تقديره مثلاً، والصائبون كذلك. فيجزي كأنه مقيس على بقية الأوصاف، وملحق بها، وهو بهذه المثابة؛ لأنهم لما استقر بعد الأوصاف من قبول التوبة، فكانوا إحقاقاً يجعلهم تبعاً وفرعاً، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر، وفائدة التقديم على الخبر، أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر، بين الجزئين، أدل على الخبر المحذوف من نكره، بعد تقضي الكلام وتمامه، والله أعلم.

عمله كما تنتظمها إن في عملها، فلو رفعت الصابئون المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بين لاعملت فيهما رافعين مختلفين.

فإن قلت: فقله ﴿والصابئون﴾ معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت: هو مع خبره المحنوف جملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إن الذين آمنوا...﴾ إلخ ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليها.

فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعنويين ضلالاً وأشدهم غياً، وما سماوا صابئين إلا لأنهم صبؤوا عن الأيمان كلها، أي: خرجوا. كما أن الشاعر قدم قوله: وأنتم تنبئها على أن المخاطبين أوغل في الرصف بالبغيثة من قومه حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو بغاة لئلا يسلخ قومه في البغي قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت تماماً.

فإن قلت: فلو قيل: والصابئين وإياكم، لكان التقديم حاصلاً؟ قلت: لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء لأنه لا إزالة فيه عن موضعه، وإنما يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقرار في مكانه. ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض في الكلام.

فإن قلت: كيف قال الذين آمنوا ثم قال: ﴿من آمن؟﴾ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بالسننهم وهم المنافقون، وأن يراد بمن آمن من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه.

فإن قلت: ما محل: ﴿من آمن؟﴾؟ قلت: إما الرفع على الابتداء وخبره ﴿فلا خوف عليهم﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن، وإما النصب على البديل من اسم إن وما عطف عليه أو من المعطوف عليه.

فإن قلت: فإين الرجوع إلى اسم إن؟ قلت: هو محنوف تقديره: من آمن منهم، كما جاء في موضع آخر. وقرئ: والصابيون بياء صريحة وهو من تخفيف الهمزة، كقراءة من قرأ: يستهزئون، والصابون وهو من صبوت لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أئمة العقل والسمع. وفي قراءة أبي رضي الله عنه: والصابئين بالنصب، وبها قرأ ابن كثير، وقرأ عبد الله: يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
قَالَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَرِيقًا
يَتَّقُونَ (٧).

﴿لقد أخذنا﴾ ميثاقهم بالتوحيد ﴿وارسلنا إليهم﴾ رسلاً ليقومهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم. ﴿كلما جاءهم رسول﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً، والراجع محنوف، أي: رسول منهم. ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع.

فإن قلت^(١): أين جواب الشرط؟ فإن قوله: ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ ناب عن الجواب، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه لا يحسن أن تقول: إن أكرمت أخي إحك أكرمت؟ قلت: هو محنوف يدل عليه قوله: ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: ﴿فريقاً كذبوا﴾ جواب مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسولهم.

فإن قلت^(٢): لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالأخر مضارعاً؟ قلت: جيء ﴿يقتلون﴾ على حكاية الحال الماضية استقظاعاً للقتل، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها.

وَحَيَّوْا آلَ تَارُوتَ إِتْنَةَ فَمَرُوا وَمَمَرُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمَرُوا وَمَمَرُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمِعْرِهِمْ بَصِيرٌ (٧).

قرئ: أن لا يكون بالنصب على الظاهر وبالرفع على أن هي المخففة من الثقلية، أصله أنه لا يكون فتنة فخفت أن وحذف ضمير الشأن.

فإن قلت: كيف نخل فعل الحسابان على أن التي للتحقيق؟ قلت: نزل حسابانم لقوته في صورهم منزلة العلم.

فإن قلت: فإين مفعولاً حسب؟ قلت: سد ما يشتمل عليه صلة أن وإن من المسند والمسند إليه مسد المفعولين، والمعنى: وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة، أي: بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿فعموا﴾ عن الدين ﴿وصموا﴾ حين عبدوا العجل ثم تابوا عن عبادة العجل ﴿تاب الله عليهم ثم عموا وصموا﴾ كرهة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو

(١) قال أحمد: ومما يدل على حذف الجواب، أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى، وهي قوله هذه، قوله تعالى: ﴿الكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فلوقع قوله: ﴿استكبرتم﴾ جواباً، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء، بقتل البعض وتكذيب البعض، ولو قدر لزمنخشي ههنا الجواب المحنوف، مثل المنطوق به في آخذ الآية، فقال: وارسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا، لكان أولى، لدلالة على مثله عليه.

(٢) قال أحمد: لو يكون حالاً على حقيقته، لأنهم داروا حول قتل محمد

= عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد قيل هذا الوجه في آخذ هذه الآية في البقرة، وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع، لاستحضاره بون الماضي، وتمثيله بقوله تعالى: ﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ فعدل عن «فأصبحت»، إلى «تصبح»، تصويراً للحال، واستحضاراً لها في ذهن السامع، ومنه:

باني قد لقيت الغول تسعى بسبب كالصحيفة صححان
فأخذها فاضرب بها فخرت صريعاً للبيدين وللجران
وامثاله كثيرة، والله أعلم.

من النصرانية.

أَنَّا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَشْرَ رَجِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿انقلبوا يتوبون﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكزرة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه وفيه تعجب من إصرارهم. ﴿وإله غفور رحيم﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْدِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِمَّا نَكَلُكُمْ أَنْ تُظَنُّوا أَنْ أَنْظَرَكُمْ كَيْفَ بُدِّئَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظَرْتُمْ أَنْ يُؤْتَكَلُوكَ ﴿٧٥﴾

﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، إن أبرا الله الأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسمى وخلق البحر وطمس على يد موسى. وإن خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. ﴿وإمامه صديقه﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا صديقة كبعض النساء المصنقات للأنبياء المؤمنين بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشريين أحدهما نبي والآخر صحابي. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتوهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم، مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه، ثم صرح بعدهما عما نسب إليهما في قوله: ﴿كانا ياكلان الطعام﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاق وأمزجة مع شهوة وقرم، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام. ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ أي الاعلام من الآلة الظاهرة على بطلان قولهم: ﴿أنتى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتامله.

فَإِنْ قُلْتَ⁽²⁾: مَا مَعْنَى التَّرَاخِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْظَرْتُمْ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ: مَا بَيْنَ الْعَجَبِينَ، يَعْنِي: أَنَّهُ بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ بَيَانًا عَجِيبًا وَأَنَّ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهَا أَعْجَبَ مِنْهُ.

قُلْ أَسْتَدْرُجُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ أَسْتَجِيبُ أَلْتَلِيمِ ﴿٧٦﴾

﴿ما لا يملك﴾ هو عيسى، أي شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبقاقدار الله وتمكينه فكانته لا يملك منه شيئاً، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب

الرؤية. وقرئ: عموا وضموا بالضم على تقدير عماهم الله وضمهم، أي: رماهم وضربهم بالعمى والضمم. كما يقال: نزكته إذا ضربته بالنزك، وربكته إذا ضربته بركبتك. ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير أو على قولهم: أكلوني البراغيت، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مربيوب كمثلهم، وهو احتجاج على النصارى.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ في عبانته أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله. ﴿فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرّمه دخولها ومنعه منه كما يمنع المحرّم من المحرم عليه. ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ من كلام الله على أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم وروّده وأنكره، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره، أو من قول عيسى عليه السلام، على معنى: ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدهم عليه لاستحلالته وبعده عن المعقول، أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَكْفُرُوا لَأَكْفُرُوا كُفْرًا مِنَّمْهُ عَذَابٌ أُكْرِمُ ﴿٧٦﴾

من في قوله: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ للاستغراق وهي المقدره مع لا التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله، والمعنى: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له وهو الله وحده لا شريك له. ومن في قوله: ﴿ليمسنّ الذين كفروا منهم﴾ للبيان كالتي في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾⁽¹⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَا قِيلَ: لِيَمْسَنَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ؟ قُلْتُ: فِي إِقَامَةِ الظَّاهِرِ مَقَامَ المَضْمَرِ فَائِدَةٌ وَهِيَ تَكْرِيرُ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمُ بِالْكَفْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وَفِي الْبَيَانِ فَائِدَةٌ أُخْرَى وَهِيَ الْإِعْلَامُ فِي تَفْسِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ بِمَكَانٍ مِنَ الْكَفْرِ، وَالْمَعْنَى: لِيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّصَارَى خَاصَّةً ﴿عَذَابُ الْيَمِّ﴾ أَي: نَوْعٌ شَدِيدٌ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا تَقُولُ: أَعْطَنِي عَشْرِينَ مِنَ الثِّيَابِ، تَرِيدُ مِنَ الثِّيَابِ خَاصَّةً لَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ الَّتِي يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا عَشْرُونَ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّبَعِيضِ عَلَى مَعْنَى: لِيَمْسَنَ الَّذِينَ بَقُوا عَلَى الْكَفْرِ مِنْهُمْ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ تَابُوا

= كيف قدر ثم قتل كيف قدر، وهي في سائر هذه المواضع منقولة من التراخي الزماني، إلى التراخي المعنوي في المراتب.

(1) سورة الحج، الآية: 30.

(2) قال احمد: ومنه: ﴿ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم﴾ وقوله: ﴿فقتل =

أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقبور عن قدرته. **«وإله هو السميع العليم»** متعلق بـ **«تعتدون»**، أي: أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون، أو تعتدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رَيْبِكُمْ عِزَّ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَسْأَلُوا كَثِيرًا مَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧).

«غير الحق» صفة للمصدر، أي⁽¹⁾: لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي: غلواً باطلاً، لأن الغلو في الدين غلوان: غلو حق وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجهتد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم، وغلوا باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع. **«قد ضلوا من قبل»** هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ **«وأضلوا كثيراً»** ممن شايعهم على التثليث. **«وضلوا»** لما بعث رسول الله ﷺ **«عن سواء السبيل»** حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

لَمَنْ أَلَّيْنِ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨).

نزل الله لعنهم في الزبور **«على لسان داود»**، وفي الإنجيل على لسان عيسى، وقيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخوا قرده. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعبه أحداً من العالمين

والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي. **«ذلك بما عصوا»** أي: لم يكن نك العن الشنيع الذي كان سبب المسخ إلا لأجل المعصية والاعتداء لا شيء آخر. ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله:

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩).

لا ينهى بعضهم بعضاً **«عن منكر فعلوه»**. ثم قال: **«لبئس ما كانوا يفعلون»** للتعجيب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التنهي عن المنكير وقلة عبئهم به كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب.

فإن قلت⁽²⁾: كيف وقع ترك التنهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أن الله تعالى أمر بالتنهي فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء لأن في التنهي حسماً للفساد فكان تركه على عكسه.

فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهي بعد الفعل؟ قلت: معناه: لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أراؤوا فعله، كما ترى إشارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيا فتنتكرو، ويجوز أن يراد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه بل يصبرون عليه ويدومون على فعله. يقال: تنهى عن الأمر وانتهى عنه، إذا امتنع منه وتركه.

كَرِهَ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ حَلِيلُونَ (٨٠).

«ترى كثيراً منهم» هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم. **«أن سخط الله عليهم»** هو المخصوص بالذم ومحل الرفع، كأنه قيل: لبئس زادهم

= بانهم كانوا يفعلون المنكر، والأخر أنهم كانوا ياركن للنهي عنها، أي: عن أمثالها في المستقبل، ولولا زيادة فعلوه، لما صرح بوقوعها منهم، ولكن المصرح به ترك النهي عن المنكر عند استحقاق النهي، وذلك حين الإشراف على تعاطيه، وظهور الامارات الدالة عليه، فانتظم ثبوت الأمرين جميعاً على أخصر وجه وأبلغه، وقد دلت هذه الآية، على المذهب الصحيح الأشعري، من أن متعلق النهي فعل، وهو: الترك، خلافاً لأبي هاشم المعتزلي في قوله: إن متعلقه نفي محض، وعدم صرف، ووجه دلالة الآية على أن متعلقه فعل، أنه عبر عن ترك التنهي، الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل، حيث قال **«لبئس ما كانوا يفعلون»** أي: لبئس الترك للتنهي فعلاً، كما تقول: زيد بش الرجل، فتجعل الرجل واقعاً على زيد، وقد سمي تركهم للنهي عن المنكر، في الآية السالفة قبل هذه صنفاً، فقال: **«لولا بنهاهم الربانيون والأحبار»** إلى قوله: **«لبئس ما كانوا يصنعون»** وذلك أبلغ في الدلالة على أن متعلق النهي أمر ثابت، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات، وقد مر هذا التقرير، والله الموفق.

(1) قال أحمد: يعني: بأهل العدل والتوحيد المعتزلة، ويعني بغلوه: الذي هو حق عنده، أنهم غلوا في التوحيد، فجددوا الصفات الإلهية، وغلوا في التعديل، فنفوا أكثر الأفعال، بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى، لانطوائها في مفاسد، ولأن الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه، فهذا غلوه في التعديل، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد؛ لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً، فالنصارى غالوا فأشركوا ثلاثة، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير الأسميين في الخلق، الذي هو خاص بالرب، ويعني الزمخشري بأهل البدع والأهواء: من عدا الطائفة المنكورة، ويعين بغلوه الباطل: إثبات الصفات لله تعالى، وتوحيده على الحق، حتى لا خالق سواء، ولا مخلوق إلا بقدرته، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه، وسكت عن نكر ما عداهم، ونحن نقول: اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برباك، وهذه دعوة أيضاً بلا خلاف، والله الموفق.

(2) قال أحمد: وفي هذا التوبيخ الإخبار بأمرين قبيحين، أحدهما: =

إلى الآخرة. ﴿سخط الله عليهم﴾ والمعنى: موجب سخط الله.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُكُمْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ آلِهَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ لَسُبَّوا بِهَا لَكِنِ كَانُوا جَاهِلِينَ بِذَلِكَ فَجَاءَهُمْ نَذْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ لَسُبَّوا بِهَا لَكِنِ كَانُوا جَاهِلِينَ بِذَلِكَ فَجَاءَهُمْ نَذْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ

﴿ولو كانوا يؤمنون﴾ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين ﴿أولياء﴾ يعني: أن موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم وأن إيمانهم ليس بإيمان ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ متعمدون في كفرهم ونفاقهم. وقيل: معناها: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

لَسُبَّوا بِهَا لَكِنِ كَانُوا جَاهِلِينَ بِذَلِكَ فَجَاءَهُمْ نَذْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ لَسُبَّوا بِهَا لَكِنِ كَانُوا جَاهِلِينَ بِذَلِكَ فَجَاءَهُمْ نَذْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ

(1) وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولين عريكة النصارى وسهولة أرواحهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل في قوله: ﴿لتجننهم أحرص الناس على حياة﴾ (2) ومن الذين أشركوا ولعمري إنهم كذلك وأشد. وعن النبي ﷺ: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هماً بقتله» (3). وعلل سهولة ماخذ النصارى وقرب موتهم للمؤمنين. ﴿بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء وعباداً. ﴿وأنهم﴾ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل بين على أن التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأثله على الفوز حتى علم القسيسين، وكذلك غم الآخرة والتحدث بالعاقبة وإن كان في راهب، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَجَرًا عَلَيْهِمْ تَوَيْسُ مِنَ الدَّمِغِ مِمَّا عَرَبُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۙ

ووصفهم الله بركة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن. وذلك نحو ما يحكى عن النجاشي رضي الله عنه: أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركين - لعنوا - وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنقهم عنده: هل في كتابكم نكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها. فقرأها إلى قوله: ﴿ذلك عيسى ابن مريم﴾ (4) وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ (5) فبكى النجاشي (6) وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس فبكوا (7).

فإن قلت: بم تعلقت اللام في قوله: ﴿للذين آمنوا﴾؟ قلت: بعبادة ومودة على أن عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشد العداوات وأظهرها، وأن مودة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودات وأدناها وجوداً وأسهلها حصولاً، ووصف اليهود بالعداوة، والنصارى بالمودة مما يؤنن بالتفاوت، ثم وصف العداوة والمودة بالأشد والأقرب.

فإن قلت (8): ما معنى قوله: ﴿تفويض من الدمع﴾؟ قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعاً.

فإن قلت: أي فرق بين ﴿من﴾ و﴿من﴾ ومن في قوله: ﴿مما عرفوا من الحق﴾؟ قلت: الأولى: لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، وتحتمل معنى التبعض على أنهم عرفوا بعض الحق

(7) ابن مرويّه والطبري، الزليعي، 416/1.

(8) قال أحمد: وهذه العبارة من أبلغ العبارات وأنهاها، وهي ثلاث مراتب، فالأولى فاض دمع عينه، وهذا هو الأصل، والثانية محوّل من هذه، وهي قول القائل: فاضت عينه دمعاً، حوّل الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة، ثم نهبت على الأصل والحقيقة، بنصب ما كان فاعلاً على التمييز، والثالثة فيها هذا التحويل المنكور، وهي الواردة في الآية، إلا أنها أبلغ من الثانية بإطراح المنبهة على الأصل، وعدم نصب التمييز، وإبرازه في صورة التعليل، والله أعلم، وإنما كان الكلام مع التعليل، أبعد عن الأصل منه مع التمييز؛ لأن التمييز في مثله قد استقر، كونه فاعلاً في الأصل، في مثل: تصيب زيد عرقاً، وتفقاً عمرو شحمياً، واشتعل الرأس شيباً، وتفجرت الأرض عيوناً، فإذا قلت: فاضت عينه دمعاً، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله، وأما التعليل، فلم يعهد فيه ذلك، إلا تراك تقول: فاضت عينه عن نكر الله، كما تقول: فاضت عينه من الدمع، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وإنما قال ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل النصارى تعريضاً بصلاية اليهود في الكفر، والامتناع عن الامتناع للامر؛ لأن اليهود قيل لهم: ﴿انخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أباركم﴾ فقابلوا ذلك بأن قالوا: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعون﴾ والنصارى قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ لكنه ههنا نكر تنبيهاً، على أنهم لم يثبتوا على الميثاق، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله، وفي الآية الثانية نكر تنبيهاً على أنهم أقرب حالاً من اليهود، لأنهم لما ورد عليهم الأمر، لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود، بل قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ واليهود قالت: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعون﴾ فهذا سرّه، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 96.

(3) أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والثعالبي في تفسيره.

(4) سورة مريم، الآية: 34.

(5) سورة طه، الآية: 9.

(6) قال الزليعي غريب، 415/1.

أو لا تقولوا حرمانها على أنفسنا مبالغةً منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً. وروي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ وأشنع الكلام في الإنذار، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش، ولا ياكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح، ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم. فبلغ نك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أؤمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا واقطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وائم وأصوم وأقتر وأكل اللحم واللحم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁽¹⁾. ونزلت، وروي: أن رسول الله ﷺ كان ياكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة»⁽²⁾. وعن ابن مسعود: أن رجلاً قال له: إني حرمت الفرش، فقتل هذه الآية وقال: نم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن: أنه دعي إلى طعام ومعه فرقد السنجي وأصحابه فقعوا على المائدة وعليها الألوان من النجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان. فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه أنه قيل له: فلان لا ياكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد، قالوا: نعم. قال: إنه جاهل إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه: إن الله تعالى أتب عباده فأحسن أبهم. قال الله تعالى: ﴿لِيَنْفِقَ نَوْ سَعَةً مِنْ سَعَتِهِ﴾⁽³⁾ ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عنر قوماً رواها عنهم فعصوه. ﴿ولا تعتدوا﴾ ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً فنهى عن الاعتداء لئلا تحت النهي عن تحريمها نخولاً أولاً لوروده على عقبه، أو أراد ولا تعتدوا بذلك.

وَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ بِكُمْ

مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقاً. ﴿حلالاً﴾ حال مما رزقكم الله. ﴿واتقوا الله﴾ تأكيداً للتوصية بما أمر به وزاده تأكيداً بقوله: ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء

فأبكامهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة. وقرئ: ترى أعينهم على البناء للمفعول. ﴿ربنا أماناً﴾ المراد به إنشاء الإيمان والنخول فيه. ﴿فأكتبنا مع الشاهدين﴾ مع أمة محمد ﷺ، الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة. ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾. وقالوا نك لأنهم وجدوا نكرهم في الإنجيل كذلك.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨٨﴾

﴿وما لنا لا نؤمن بالله﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجب وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فاجابوهم بذلك، أو أراوا: وما لنا لا نؤمن بالله وحده؛ لأنهم كانوا مثلثين ونك ليس بإيمان بالله، ومحل لا نؤمن بالنصب على الحال بمعنى: غير مؤمنين، كقولك: ما لك قائماً، والواو في ﴿ونطمع﴾ واو الحال.

فإِنْ قُلْتُمْ: مَا الْعَامِلُ فِي الْحَالِ الْأُولَى وَالثَانِيَةِ؟ قُلْتُمْ: الْعَامِلُ فِي الْأُولَى مَا فِي اللَّامِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَي شَيْءٍ حَصَلَ لَنَا مِنْ غَيْرِ مُؤْمِنِينَ، وَفِي الثَّانِيَةِ مَعْنَى هَذَا الْفِعْلِ وَلَكِنْ مَقِيداً بِالْحَالِ الْأُولَى لِأَنَّكَ لَوْ أزلْتَهَا وَقُلْتُمْ: ﴿وَمَا لَنَا﴾ ﴿ونطمع﴾ لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ونطمع حالاً من لا نؤمن على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحسون الله ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين، وأن يكون معطوفاً على لا نؤمن على معنى: وما لنا نجتمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين، أو على معنى: وما لنا لا نجتمع بينهما بالنخول في الإسلام لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين.

فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ حَتْمِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ يَبِئْسَ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٠﴾

قرأ الحسن: فاتاهم الله ﴿بما قالوا﴾ بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص، من قولك: هذا قول فلان، أي اعتقاده وما يذهب إليه.

يَبِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا حُرْمُومًا طَيِّبَاتٍ مَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَمْتَدُّوا إِلَى اللَّهِ لَا يَحِبُّ الْمُتَمَدِّينَ ﴿٩١﴾

﴿طيبات ما أحل الله لكم﴾ ما طاب ولذ من الحلال، ومعنى ﴿لا تحرموا﴾: لا تمنعوا أنفسكم كمنع التحريم،

(2) أخرجه البخاري في كتاب: النبايح والصديد، باب: لحم البجاج الحديث (5518)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نذب من حلف يميناً... الحديث (4241)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل الحديث (5614)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرّم امرأته ولم ينو طلاق الحديث (3664).

(3) سورة الطلاق، الآية: 7.

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص: 116-117، وأخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح الحديث (5063)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3389)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتل... الحديث (5073)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3390)، والبخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: لزوج عليك... الحديث (5199).

إلى ما أمر به وعما نهى عنه.

والكسوة ثوب يغطي العورة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت العبادة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء، وعن مجاهد: ثوب جامع، وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني: أو كاستوتهم، بمعنى أو مثل ما تطعمون أهلכם إسرافاً كان أو تقديراً لا تفصونهم عن مقدار نفقتهم ولكن تواسون بينهم وبينهم.

فإن قلت: ما محل الكاف؟ قلت: الرفع تقديره ﴿أو﴾ طعامهم كاستوتهم بمعنى: كمثل طعامهم، إن لم يطعموهم الأوسط، ﴿أو تحريز رقبة﴾ شرط الشافعي رحمه الله الإيمان قياساً على كفارة القتل، وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل.

فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: التخبير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق بآيتها أخذ المكفر فقد أصاب. ﴿فمن لم يجد﴾ إحداها ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ متتابعات عند أبي حنيفة رحمه الله تمسكاً بقراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما. فصيام ثلاثة أيام متتابعات، وعن مجاهد: كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان، ويخير في كفارة اليمين. ﴿نلك﴾⁽²⁾ المنكور ﴿كفارة إيمانكم﴾ ولو قيل: تلك كفارة إيمانكم لكان صحيحاً بمعنى تلك الأشياء، أو لتأنيث الكفارة، والمعنى: ﴿إذا حلقتكم﴾ وحنثتم، فترك نكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة إنما تجب بالحنث في الحلف لا بنفس الحلف. والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه. ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث⁽³⁾. ﴿واحفظوا إيمانكم﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا، أراد الإيمان التي الحنث فيها معصية لأن الإيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله، وقيل: احفظوها بأن تكفروها. وقيل: احفظوها كيف حلقتكم بها ولا تنسوها تهانواً بها. ﴿كنلك﴾ مثل ذلك البيان ﴿بيِّن الله لكم آياته﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿لعلمكم تشكرون﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه⁽⁴⁾.

لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَيِّدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُ إِطْمَاءً عَتْرَةً مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْلُمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾.

اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم واختلف فيه. فعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عنه فقالت: هو قول الرجل: لا والله بلى والله⁽¹⁾. وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ﴿بما عقبتكم الإيمان﴾ بتعقيدكم الإيمان وهو توثيقها بالقصد والنية، وروي أن الحسن رضي الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد دعني أجب عنك فقال:

ولست بماخوذ بلغوتقوله إذا لم تعدم عاقدات العزائم وقرئ: عقبتكم بالتخفيف وعاقدتم، والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم. فحنث وقت المواخذه لأنه كان معلوماً عندهم، أو بنكث ما عقدتم فحنث المضاف: ﴿فكفارتكم﴾ فكفارة نكثه، والكفارة الفعل التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها. ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ من أقصده لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتير. وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغديهم ويعشبهم. وعند الشافعي رحمه الله مد لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم بسكون الياء، والأهالي اسم جمع لأهل كالليالي في جمع ليلة والأراضي في جمع أرض. وقولهم: أهلون كقولهم: أرضون بسكون الراء، وأما تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف، كما قالوا: رأيت معد يركب، تشبيهاً للياء بالالف. ﴿أو كسوتهم﴾ عطف على محل من أوسط، وقرئ بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في أسوة،

= اليمين على بر، والأقوال الثلاثة في مذهب مالك، إلا أن القول المنصور هو المشهور.

(3) قال أحمد: وفي هذه التاويل إشعار، بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها، يشدد عليه، ويؤاخذ بالأحوط، فأرشد الله إلى حفظ اليمين، لئلا يفرض أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر، على وجه الاحتياط، ما لم يصدر منه في علم الله تعالى، كالذي يحلف بالطلاق، وينسى هل قيده بالثلاث مثلاً، أو أطلقه، فيلزمه الثلاث على المذهب للمشهور، ويحتمل أن يكون في علم الله تعالى، أنه إنما حلف بالطلاق مطلقاً، فأرشد إلى الحفظ، لئلا يجزئه النسيان إلى هذا التشديد، والمراد بالإيمان: كل ما ينطلق عليه يمين، سواء كان حلقاً بالله، أو بغيره، مما يلزم في الشرع حكماً، والله أعلم.

(4) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الرجس، الذي انطوى على سائر ما نكر، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، باب: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ الحديث (6663)، ومالك في الموطأ، كتاب: النذور والإيمان، باب: اللغو في اليمين، الحديث (9)، وأبو داود في السنن، كتاب الإيمان، باب: لغو اليمين الحديث رقم: (3254).

(2) قال أحمد: بل في هذه الآية وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث، وهو المشهور من مذهب مالك، وبيان الاستدلال بها، إنه جعل ما بعد الحلف ظرفاً لوقوع الكفارة المعتبرة شرعاً، حيث أضاف إذا إلى مجرد الحلف، وليس في الآية إيجاب الكفارة، حتى يقال: قد اتفق، على أنها إنما تجب بالحنث، فتعين تقديره مضافاً إلى الحلف، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة، ووقوعها على وجه الاعتبار، إذ لا يعطى قوله ذلك كفارة إيمانكم إيجاباً، إنما يعطى صحة واعتباراً، والله أعلم، وهذا انتصار على من منع التكفير، قبل الحنث مطلقاً، وإن كانت

دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة، ويجوز أن يراد: واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر أو في ترك طاعة الله والرسول. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأن الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات وإنما ضررتم أنفسكم حين عرضتم عما كلفتم.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِمَّا طَمِعُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَمَا نَسُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَمَا نَسُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَمَا نَسُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْحَيَاتِ (٤٣).

رفع الجناح عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ما حرم عليهم منها، ﴿وَأَمَنُوا﴾ وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا﴾ ثم ثبتوا على التقوى والإيمان، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم أو أحسنوا إلى الناس واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات، وقيل: لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة: يا رسول الله فكيف بلخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر (4). فنزلت، يعني: إن المؤمنين لا جناح عليهم في أي شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ثم اتقوا وأمنوا ثم اتقوا وأحسنوا على معنى: أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان، ومثله أن يقال لك: هل على زيد فيما فعل جناح؟ فتقول وقد علمت أن ذلك أمر مباح: ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً تريد أن زيداً تقي مؤمناً محسناً وأنه غير مؤاخذ بما فعل.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَسْأَلُونَكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَلَهُ أَيَّيْكُمْ وَيَمْسَأُكُمْ يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ مِنْ خِيفَتِهِ بِالَّذِي قَدْ نَذَرَ أُولَئِكَ فَكَلِمَةٌ أَلِيمٌ (٤٤).

نزلت عام الحديبية، ابتلاههم الله بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ خِيفَتِهِ بِالَّذِي قَدْ نَذَرَ﴾ ليمتيز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقي الصيد ممن لا يخافه فيقدم عليه. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء فالوعيد لا حق به.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَتْرُ وَالْيَسِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجِسُّ مِنْ عَسَلِ الشَّطْرِ فَاجْتَبِهُ لِمَلِكِكُمْ تَلْحُونَ (٤٥) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْفَتْرِ وَالْيَسِيرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٤٦).

أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد: منها: تصدير الجملة بإتّما، ومنها: أنه قرنها بعبادة الأصنام، ومنه: قوله عليه الصلاة والسلام: «شارب الخمر كعابد الوثن» (1)؛ ومنها: أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ (2) من الأوثان، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان والشیطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها: أنه أمر بالاجتناب، ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبةً ومحقةً، ومنها: أنه نكر ما ينتج منهما من الوبال وهو: وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤنيان إليه من الصد عن نكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيها من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كان لم توقعوا ولم تزجروا.

فَإِنْ قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنَّما شأن الخمر والميسر أو تعاطيها أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: ﴿رَجَسَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ (3): لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً ثم أفردهما آخرًا؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنَّما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ونكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره وكأنه لا مبالغة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب وبين من شرب خمرًا أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذکر الخمر والميسر. وقوله: ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ اختصاص للصلاة من بين الذکر، كأنه قيل: وعن الصلاة خصوصاً.

وَأَلْبِسُوا اللَّهَ وَأَلْبِسُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَنَ رَسُولُنَا الْبَلْغُ الْأَلْبِينُ (٤٧).

﴿واحذروا﴾ وكونوا حذرين خاشين، لأنهم إذا حذروا

(1) كشف الاستار، كتاب: الأشربة، باب: في شارب الخمر الحديث رقم: (1925)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأشربة، باب: مدمن الخمر الحديث (3375).

(2) سورة الحج، الآية: 30.
(3) قال أحمد: ويرشد إلى أن المقصود: الخمر والميسر خاصة؛ لأنهم إنما كانوا يتعاطونها خاصة، الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر

(4) أخرجه أحمد في المسند 2/351، وأخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة المائدة، باب: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...» الحديث (4620)، ومسلم في كتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر الحديث (5102).

فإن قلت⁽¹⁾: ما معنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بشيء من الصيد﴾؟ قلت: قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تحض عندها أقدام الثابتين كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو شبيه بما ابتلي به أهل أيلة من صيد السمك، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه. وقرأ إبراهيم: يناله بالياء.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّيَةِ أَوْ كَثْرَةً مِمَّا سَكَبَتْهُ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا لِكُلِّ يَدٍ رُبَّكَ أَمْرٌ مَعَا اللَّهُ عَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقْمٍ (١٥).

﴿حرم﴾ محرمون، جمع حرام كرددح في جمع رداح. والتعمد أن يقتله وهو ذاك لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله، فإن قتله وهو ناس لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو قصد برمي غير صيد فعُدل السهم عن رميته فاصاب صيداً فهو مخطئ.

فإن قلت: فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلت: لأن مورد الآية فيمن تعمد فقد روي أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم. فنزلت، ولأن الأصل فعل التعمد والخطأ لاحق به للتغليظ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره... ومن عاد فينتقم الله منه﴾ وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالخطأ. وعن سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط العمد في الآية، وعن الحسن روايتان ﴿فجزاء مثل ما قتل﴾ برفع جزء ومثل جميعاً بمعنى: فعليه جزء مماثل ما قتل من الصيد وهو عند أبي حنيفة قيمة المصيد يقوم حيث صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدي تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد وبين أن يشتري بقيمته طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً، فإن فضل مالاً يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدق به.

وعند محمد والشافعي رحمهما الله: مثله نظيره من النعم، فإن يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبي حنيفة رحمه الله.

فإن قلت: فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله: ﴿من النعم﴾ وهو تفسير للمثل بقوله: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾! قلت: قد خير من أوجب القيمة بين أن يشتري بها هدياً أو طعاماً أو يصوم، كما خير الله تعالى في الآية، فكان قوله: ﴿من النعم﴾ بياناً للهدى المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه فقد جرى بمثل ما قتل من النعم، على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أي الثلاثة يختار، فأما إذا عمد إلى النظر وجعله الواجب وحده من غير تخير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قوم حينئذ ثم يخير بين الإطعام والصوم ففيه نبؤ عما في الآية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أكفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ كيف خير بين الأشياء الثلاثة ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله: فجزأه مثل ما قتل. وقرئ: فجزاء مثل ما قتل على الإضافة، وأصله فجزاء مثل ما قتل بنصب مثل بمعنى فعليه أن يجزي مثل ما قتل ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضرب زيداً، ثم من ضرب زيد. وقرأ السلمي على الأصل. وقرأ محمد بن مقاتل: فجزاء مثل ما قتل بنصبهما، بمعنى: فليجز جزء مثل ما قتل. وقرأ الحسن: من النعم بسكون العين، استتقل الحركة على حرف الحلق فسكنه ﴿يحكم به﴾ بمثل ما قتل ﴿ذوا عدل منكم﴾ حكمان عادلان من المسلمين. قالوا: وفيه دليل على أن المثل القيمة لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد لكون الأشياء المشاهدة، وعن قبيصة أنه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر فشاور عبد الرحمن بن عوف ثم أمره بذبح شاة، فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره فأقبل عليه ضرباً بالدره، وقال: أتغصص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم، قال الله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فانا عمر وهذا عبد الرحمن⁽²⁾. وقرأ محمد بن جعفر: نو عدل، أراد يحكم به من يعدل

(1) قال أحمد: وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة، في قوله تعالى: ﴿ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ فلا خفاء في عظم هذه البلايا والمحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر؛ لأنه صبر على عظيم، فقول الزمخشري إذا: إنه قلل وصغر، تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام، مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها، والظاهر والله أعلم أن المراد بما يشعر به اللفظ، من التقليل والتصغير: التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا، بضع من كل، بالنسبة إلى مقبور الله تعالى، وإنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك، أعظم ما يقع وأهول، وإنه مهما اندفع عنهم، مما هو أعظم في المقبور، =

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 4/406 الحديث (8239).

الكفارة.

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَمًا لَكُمْ وَالسَّبَاقُوتُ وَرَمَّ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمًا وَآتَوْا اللَّهَ الْوَدَّاتِ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿صيد البحر﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل. و﴿طعامه﴾ وما يطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة، وعند ابن أبي ليلى جميع ما يصاد منه، على أن تفسير الآية عنده: أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه. ﴿ومتاعاً لكم﴾ مفعول له أي: أحل لكم تمتعاً لكم، وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾⁽³⁾ في باب الحال لأن قوله: ﴿ومتاعاً لكم﴾ مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب، يعني: أحل لكم طعامه تمتعاً لتنتاعكم ياكلون طرياً ولسيارتكم يتزودونه قبيداً كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام. وقرئ: وطعمه.

وصيد البر⁽⁴⁾: ما صيد فيه، وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء عند أبي حنيفة، واختلف فيه فممنهم من حرم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد وهو قول عمر وابن عباس، وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير: أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يدل ولم يشر، وكذلك ما نبهه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله لا يباح له ما صيد لأجله.

فإن قلت: ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله: ﴿صيد البر﴾! قلت: قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ لأن ظاهره أنه صيد المحرمين بون صيد غيرهم لأنهم هم المخاطبون، فكأنه قيل: وحرم عليكم ما صدتم في البر، فيخرج منه مصيد غيرهم ومصيدهم حين كانوا غير محرمين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾⁽⁵⁾. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: وحرم عليكم صيد البر، أي: الله عز وجل؛ وقرئ: ما دمتم بكسر الدال، فيمن يقول دام يدام.

﴿جَمَلُ اللَّهِ الْكَبِيمَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْأَمْدَى وَالْقَلْبَةَ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَلْمَسْهُ أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ مَا فِي الْأَنْفُسِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكْفُلُ نَفْسَ عِلْمِهِ﴾^(٦).

منكم ولم يرد الوحدة، وقيل: أراد الإمام هدياً حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل لأن الصفة خصصته فقرّبه من المعرفة، أو بدل عن مثل فيمن نصبه، أو عن محل فيمن جرّه، ويجوز أن ينتصب حالاً عن الضمير في به. ووصف هدياً بـ ﴿ببالغ الكعبة﴾ لأن إضافته غير حقيقية ومعنى بلوغه الكعبة أن ينبح بالحرم فأما التصق به فحيث شئت عند أبي حنيفة وعند الشافعي في الحرم.

فإن قلت: بم يرفع ﴿كفارة﴾ من ينصب جزاء؟ قلت: يجعلها خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: أو الواجب عليه كفارة، أو يقدر فعلية أن يجزي جزاء أو كفارة فيعطفها على أن يجزي. وقرئ: أو كفارة طعام مساكين على الإضافة، وهذه الإضافة مبينة كأنه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة بمعنى خاتم من فضة. وقرأ الأعرج: أو كفارة طعام مسكين، وإنما وحّد لانه واقع موقع التبيين فاكتفى بالواحد الدال على الجنس. وقرئ: أو عدل ذلك بكسر العين، والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عائله من غير جنسه كالصوم والإطعام، وعائله ما عدل به في المقدار ومنه: عدلا الحمل، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا، كان المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول به كالذبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل. و ﴿نلك﴾ إشارة إلى الطعام، و﴿وصياماً﴾ تمييز للعدل، كقولك: لي مثله رجلاً، والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف، وعند محمد إلى الحكيمين. ﴿لينوق﴾ متعلق بقوله: ﴿فجزاء﴾ أي: فعلية أن يجازي أو يكره لينوق سوء عاقبة هنك لحرمة الإحرام.

والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، كقوله تعالى: ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾⁽¹⁾ ثقيلاً والطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا يستمر، ﴿عفى الله عما سلف﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله ﷺ وتسالوه عن جزاءه، وقيل: عما سلف لكم في الجاهلية منه، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً، ﴿ومن عاد﴾ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد نزول النهي ﴿فبينتم الله منه﴾ ينتقم خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت الفاء، ونحوه: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف﴾⁽²⁾، يعني: ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن وجوبها، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح: أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر وأنه لم ينكر

(1) سورة العزمل، الآية: 16.

(2) سورة الجن، الآية: 13.

(3) سورة الانبياء، الآية: 72.

(4) قال أحمد: وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين: لأن

مالكاً رضي الله عنه، يجيز أكل المحرم لصيد البر، إذا صاده حلال لنفسه، أو لحلال، فلا بد إذاً على مذهبه من تخصيص

(5) سورة المائدة، الآية: 95.

= العموم المخصوص غاية، ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبي حنيفة، تكون أكثر منها على مذهب مالك؛ لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم، كما نقله عنه، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة، والله أعلم.

اللَّهُ يَتَأُولَى الْأَكْتَبِ لَمَلَكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾

(2) البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى وإن كان قريباً عنكم، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثره لكثرتهم على القليل الطيب، فإن ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان في الخبيث وفوات الطيب وهو عام في حلال المال وحرامه وصالح العمل وطالحه وصحيح المذاهب وفاسدها وجيد الناس وريديهم. ﴿فاتقوا الله﴾ وآثروا الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثرت، ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة إذا افتخروا بالكثرة، كما قيل:

وكثير بسعد إن سعداً كثيرة ولا ترج من سعد وفاء ولا نصراً
وكما قيل:

لا يدهمك من دهائمهم عدد فإن جلهم بل كلهم بقر
وقيل: نزلت في حجاج اليمامة حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين.

يَتَأَيُّبُ الْآزِبَاتِ مَا نَؤَا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ
تَسْتَلُوا عَنْهَا مِنْ يَزْرَعُ الْقَرْيَاتِ بُدَّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَمَّا وَاللَّهُ عَفُورٌ
عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٣٣﴾

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعني قوله: ﴿إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ صفة للأشياء، والمعنى، لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم، إن افتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على

﴿البيت للحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء الصفة كذلك. (1) ﴿قياماً للناس﴾ انتعاشاً لهم في أمر دينهم وديانهم ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم. وعن عطاء بن أبي رباح: لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا. ﴿والشهر للحرام﴾ الشهر الذي يؤدي فيه الحج وهو ذو الحجة، لأن اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأنه قد عرفه الله تعالى، وقيل: عني به جنس الأشهر الحرم. ﴿والهدي والقلائد﴾ والمقلد منه خصوصاً وهو البدن لأن الثواب فيه أكثر وبهاء الحج معه أظهر، ﴿فلك﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس، أو إلى ما نكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره. ﴿لتعلموا أن الله يعلم﴾ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينشككم مما أمركم به وكلفكم.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَرِيدُ الْعَقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٤﴾

﴿شديد العقاب﴾ لمن انتهك محارمه ﴿غفور رحيم﴾ لمن حافظ عليها.

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَتْلَمَّ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به، وإن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفریط.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّبَعُوا

(1) قال أحمد: وفي هذه الآية ما يبعد تاويلين من التاويلات الثلاثة المنكورة في قوله أول هذه السورة: ﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾ فإن حمل القلائد ثم على ظاهرها، وتاويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد، كقوله:

(2) قال أحمد رحمه الله: وقد ثبت شرعاً أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة، وقد اعترف القدرية أنهم قليل فيها، وشنود بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف، والأمر بهذه المثابة، وهم أيضاً يعتقدون: أنهم الفرقة الناجية، الموعوبون بالجنة، لا غيرهم، إذ كل من عداهم، على طمعهم الفاسد، مخلد في النار مع الكفار، فعلى هذا، تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة، أكثر أهل الجنة، وحاشا أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل مطلع، على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب، ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحد، وهذا الاستنباط الذي استنبطه الزمخشري، من أن المراد بالطيب هذا: النفر المعتزلي، من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ أهل الحديث وأصحاب الرأي، يعني: الحقيقة، وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع، وما هو قد ابتدع قريباً منه في حمله الطيب في هذه الآية، على الفريق المعتزلي، بل والله شرأ من تلك المقالة؛ لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية، نمود بالله من ذلك، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف. قوله: ليس بزمانها، أنها اليوم مقبولة.

﴿ولا يبين زينتهم إلا ما ظهر منها﴾ يريد مواقع الزينة، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه، كانه قال: لا تحلوا قلائدها، فضلاً عنها متعذر في هذه الآية؛ لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله الله ﴿قياماً للناس﴾ من هذه الأمور المعودة، وقد خص المنة بالبدن في قوله: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾ الآية، ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى، حتى يقع الامتنان بالمقلد، بل تلك لا تقع في سياق النهي، أن يخرج من النهي عن الأعلى، إلى التشديد بالنهي عن الأدنى، وأما التاويل الآخر، وهو: بقاء القلائد على حقيقتها، وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة، أي: لا تتعرضوا للقلائد، ولا تنتفعوا بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «اللق قلائدها في دماءها، وخل بين الناس وبينها». فمتعذر أيضاً بما يعد به الذي قبله، وأما التاويل الثالث، وهو: حملها على نوات القلائد، فلائق باللائنين، فيتعين المصير إليه، ومن ثم لم ينكر الزمخشري في هذه الآية سواء، ووجه صلاحيته وظهوره فيها، أن الغرض في سياق النهي، إقراده بالنكر وتخصيصه بالنهي، بعد أن اندرج مع غيره في النهي، فكانه نهى عنه لخصوصيته مرتين، والغرض في =

ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَتْلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤٦﴾.

الوار في قوله: ﴿أَوَّلُوا كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ ووا الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار وتقديره أحسبهم ذلك ولو كان آبائهم ﴿لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدي وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَمَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾.

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة يتمنون نخولهم في الإسلام، فقيل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها في طرق الهدى ﴿لا يضرركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ (2) وكذلك من يتأسف على ما فيه السقطة من الفجور والمعاصي ولا يزال ينكر معاصيهم ومناكيرهم فهو مخاطب به، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه، وعن ابن مسعود أنها قرئت عنده فقال: إن هذا ليس (3) بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكن يوشك أن يأتي زمان تامرون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم، فهي على هذا تسلية لمن يامر وينهى فلا يقبل منه ويسقط لعنره. وعنه: ليس هذا زمان تأويلها، قيل: فمتى؟ قال: إذا جعل بونها السيف والسوط والسجن. وعن أبي ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل: سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا ما رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وندياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع أمر العوام، وإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ قبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» (4). وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، ولاموه. فنزلت: ﴿عليكم أنفسكم﴾ عليكم من أسماء الفعل بمعنى: الزموا صلاح أنفسكم، ولذلك جزم جوابه، وعن نافع: عليكم أنفسكم بالرفع. وقرئ: لا يضرركم (5)، وفيه وجهان: أن يكون خيراً مرفوعاً وتنصره

السؤال عنها، ونلك نحو ما روي أن سراقاً بن مالك أو عكاشة بن محصن قال: يا رسول الله، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد مسأله ثلاث مرّات، فقال ﷺ: «ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» (1).

﴿وإن تسالوا عنها حين ينزل القرآن﴾ وإن تسالوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه: ﴿تبد لكم﴾ تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم وتؤمروا بتحملها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها. ﴿عفى الله عنها﴾ عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعوبوا إلى مثلها، ﴿وإله غفور حلِيم﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته.

فإن قلت: كيف قال: ﴿لا تسالوا عن أشياء﴾، ثم قال: ﴿قد سألها﴾، ولم يقل: قد سأل عنها؟ قلت: الضمير في سألها ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعليته بـ «عن»، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها لا تسالوا، يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أي: بمرجوعها أو بسببها ﴿كافرين﴾. ونلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فلهكذا.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَآءٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَكَرَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١٤٧﴾.

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أنها، أي: شقوها وحزموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي لم يركبها، واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما ولا ميراث، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت نكراً فهو لألتهن، فإن ولدت نكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبوا الذكر لألتهن، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمي ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى ﴿ما جعل﴾ ما شرع نلك ولا أمر بالتبحير والتسيب وغير نلك. ولكنهم بتحريمهم ما حرموا ﴿يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ فلا

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي الحديث (4341)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة المائدة الحديث (3058)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الحديث (4014).

(5) يعني: بالرفع، وهو يفيد أن القراءة الأصلية: بالنصب.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: صحبة النبي ﷺ الحديث (147 - 1218)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: التمتع بالعمرة إلى الحج الحديث (2977).

(2) سورة فاطر، الآية: 8.

(3) لعل هذا الضمير، للنصيحة المفهومة من السياق قوله: ﴿لا يضرركم﴾ وفي وجهان.

العصر لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت ﷺ صلاة العصر ودعا بعدي وتميم فاستحلفهما عند المنبر فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة، فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي، وقيل: هي صلاة أهل النمة وهم يعظمون صلاة العصر. ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه، والمعنى: إن ارتبتم في شأنهما وانهتمومهما فحلفوهما، وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن علي رضي الله عنه: أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما⁽³⁾.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ للقسم، وفي ﴿كَانَ﴾ للمقسم له، يعني: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا، أي: لا نحلف بالله كائنين لأجل المال ولو كان من قسم له قريباً منا، على معنى أن هذه عاتتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾⁽⁴⁾ ﴿شَهَادَةُ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنه وقف على شهادة، ثم ابتداءً الله بالمد على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروي عنه بغير مد على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام، فيقول: الله لقد كان كذا. وقرئ: لملاثمين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها، كقوله: عاد لولي.

فَأَنْ قُلْتَ: ما موقع تحبسونهما؟ قلت: هو استئذان كلام، كأنه قيل: بعد اشتراط العدالة فيهما، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما؟ فقيل: ﴿تحبسونهما﴾.

فَأَنْ قُلْتَ: كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلت: لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها أغنى ذلك عن التقييد، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر، ويجوز أن تكون اللام للجنس وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصنق ونهايةً عن الكذب والزور ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽⁵⁾.

فَإِنْ عُرِّ عَنْ أَهْمًا اسْتَحَقَّ إِذَا فَاقَرَّانِ يُؤَمَّانِ مَقَامُهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَذْيَانُ فَيُؤَمَّانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا

قراءة أبي حنيفة: لا يضيركم، وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً. وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل: لا يضركم، ويجوز أن يكون نهياً، ولا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره.

يَكَايِبُ الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُو عَدْلٍ بَيْنَكُمْ أَوْ إِكْرَانٌ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَشْرَ ضَرْبُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَمْسَبْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصَاةِ فَيُؤَمَّانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا تَشْرَىٰ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَذْيَانِ ﴿١٦﴾.

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدأ الذي هو ﴿شهادة بينكم﴾ على تقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. وقرأ الشعبي: شهادة بينكم بالتثوين. وقرأ الحسن: شهادة بالنصب والتثوين على ليقم شهادة اثنان، وإذا حضر ظرف للشهادة، وحين الوصية بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿منكم﴾ من أقاربكم و ﴿من غيركم﴾ من الأجانب، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم فاستشهدوا أجنبيين على الوصية، وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح وهم له أنصح. وقيل: منكم من المسلمين ومن غيركم من أهل النمة. وقيل: هو منسوخ، لا تجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أول الإسلام لقلّة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول: نسخها قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾⁽¹⁾ وروي أنه خرج بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين مع عدي بن زيد وتميم بن أوس وكانوا نصرانيين تجاراً إلى الشام، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبه وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله ومات، ففتشاً متاعه فأخذاً إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فاصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجداه، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ⁽²⁾، فنزلت ﴿تحبسونهما﴾ تفقونهما وتصبرونهما للحلف ﴿من بعد الصلاة﴾ من بعد صلاة

(1) سورة الطلاق، الآية: 2.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة المائدة الحديث (3059)، وأخرجه مختصراً أبو داود في كتاب: الأقضية، باب: شهادة أهل النمة، وفي الوصية في السفر الحديث (3606)، والبخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم...﴾ الحديث (2780).

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار =

= الحديث (1521)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة آل عمران الحديث (3006)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة الحديث (419).

(4) سورة النساء، الآية: 135.

(5) سورة المعنكوت، الآية: 45.

وَمَا أَعْتَدْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْفَالِغِينَ ﴿١٧٧﴾.

﴿فإن عشر﴾ فإن طلع ﴿على لئهما استحقا لئماً﴾ أي: فعلا ما أوجب لئماً واستوجباً أن يقال: إنهما لمن الأئمين. ﴿فأخران﴾ فشاهدان آخران ﴿يقومان مقامهما من اللذين استحق عليهم﴾ أي: من اللذين استحق عليهم الإثم، ومعناه: من اللذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما وأن شهانتهما أحق من شهانتهما. ﴿الأوليان﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وارتفاعهما على هما الأوليان، وقيل: هما بديل من الضمير في يقومان، أو من آخران، ويجوز أن يرتفعا باستحق، أي: من اللذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ: الأولين على أنه وصف للذين استحق عليهم مجرور أو منصوب على المدح، ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ: الأوليين على التثنية وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن: الأولان ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعي. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك فوجهه عندهم: أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما، فانكر الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ ﴿استحق عليهم الأوليان﴾ على البناء للفاعل وهم علي وأبي وابن عباس؟ قلت: معناه من الورثة اللذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجزئوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكائنين.

ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالْبَهْدَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرَدَّ أَيْتُهُ بَدَّ أَيْتِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْمَوْا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٨﴾.

﴿نلك﴾ الذي تقدم من بيان الحكم ﴿أنبي﴾ أن يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد إيمان﴾ أن تكرر إيمان شهداء آخرين بعد إيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل. ﴿ولسمعوا﴾ سمع إجابة وقبول.

﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ قالوا لا علم لنا إنك أنت علمت الغيوب ﴿١٧٩﴾.

﴿يوم يجمع﴾ (1) بدل من المنصوب في قوله:

﴿واتقوا الله﴾ وهو من بدل الاشتغال، كأنه قيل: واتقوا الله يوم جمعه (2)، أو ظرف لقوله: لا يهدي أي: لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم، أو ينصب على إضمار انكر أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت. و(3) ﴿ماذا﴾ منتصب بأجبتكم انتصاب مصدره على معنى أي إجابة أجبتكم، ولو أريد الجواب لقيل: بماذا أجبتكم؟

فإن قلت: ما معنى سؤالهم؟ قلت: توبيخ قومهم كما كان سؤال الموعودة توبيخاً للوائد.

فإن قلت: كيف يقولون: ﴿لا علم لنا﴾ وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجاباتهم، إظهاراً للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم، وذلك اعظم على الكفرة، وأقت في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي أنبيائه عليهم، ومثاله: أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجي! وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه واتكالاً عليه، وإظهاراً للشكاية، وتعظيماً لما حل به منه (4). وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعد ما تتوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمهم، وقيل: معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا وإنما الحكم للخاتمة وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوه سود الوجوه زرق العيون موبخين (5). وقرئ: ﴿علام الغيوب﴾ (6) بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إنك لنت﴾ أي: إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره، ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم أن.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰبَنِي آدَمَ أَذْكُرُ بَعَثَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكْرِمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْحِكْمَةَ وَالْمَكْنَةَ وَالزُّرْنَةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيِّةَ الطَّيْرِ يٰأَدَمُ فَتَنَّهُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يٰأَدَمُ وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَنَةَ وَالْأَبْرَصَ يٰأَدَمُ وَإِذْ خَلَقْنَا الْمَوَدَّ يٰأَدَمُ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(1) قال احمد: ويكون انتصابه إزاء انتصاب المفعول به، لا الظرف على حكم المبطل منه.

(5) قال احمد: ويكون هذا من باب:

انما ابو النجم وشعري وشعري

وقد مر قبل بآيات، وإنما نكرت هذه الثلاثة من الإعراب، لانتباسها إلا على الخلق، وقليل ما هم.

(6) سورة المائدة، الآية: 109.

(2) قال احمد: وهو على هذا أيضاً: مفعول به.

(3) قال احمد: والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة، في مثل ما حصل، إلا بعد التي واللتيا.

(4) قال احمد: وإيضاً، فالمسؤول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى الله، لا ما حدث بعد ذلك، مما لا يتعلق به علم الرسل، =

﴿مسلمون﴾ مخلصون، من أسلم وجهه لله.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ تُوَیِّدُنِي ﴿١٤٧﴾

﴿عيسى﴾ في محل النصب على اتباع حركة الابن، كقولك: يا زيد بن عمرو وهي اللفظة الفاشية، ويجوز أن يكون مضموماً كقولك: يا زيد بن عمرو والدليل عليه قوله: أحاربين عمرو كائني خمر ويبنو على المرء ما ياتمر لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم.

فإن قلت: كيف قالوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت^(١): ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاهم لهما ثم أتبعه قوله: إذ قالوا، فإن إن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين، وقوله: هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم. وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم: معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقتروا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتوه بعدها. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ: هل تستطيع ربك أي: هل صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، وهي من مائه إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه.

قَالُوا رَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَنَا الْقُرْآنَ لَعَلَّ نَحْنُ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٨﴾

﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة عاكفين عليها، على أن عليها في موضع الحال، وكانت دعواهم لإرادة ما تكروا كدعواهم الإيمان والإخلاص، وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ: ويعلم بالياء على البناء للمفعول وتعلم وتكون بالتاء والضمير للقلوب.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْتِزَانًا وَآتَ خَيْرَ الَّذِينَ أُوتُوا ﴿١٤٩﴾

عَلَيْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِآيَاتِنَا فَقَالَ الْآخَرُونَ كَرِهُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٤٦﴾

﴿إذ قال الله﴾ بدل ﴿من يوم يجمع﴾ والمعنى أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم، وبتعديدهما أظهر على أيديهم من الآيات العظام فكذبوه وسموهم سحرة، أو جاوزوا حد التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البيّنات والمعجزات: هذا سحر مبين، واتخذه بعضهم وأمه إلهين. ﴿إيخنتك﴾ قويتك وقرئ: أيدتك على أتعلتك ﴿بروح القدس﴾ بالكلام الذي يحيا به الدين وإضافة إلى القدس لأنه سبب الطهر من أوضاع الآثام، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿تكلم الناس﴾ و ﴿في المهد﴾ في موضع الحال لأن المعنى تكلمهم طفلاً ﴿وكهلاً﴾ إلا أن في المهد فيه دليل على حد من الطفولة. وقيل: روح القدس جبريل عليه السلام أيد به لتثبيت الحجة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿في المهد وكهلاً﴾؟ قلت: معناه تكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء. ﴿والتوراة والإنجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل: الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿كهية الطير﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بإنتي﴾ بتسهلي، ﴿فتنفخ فيها﴾ الضمير للكاف لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء، وكذلك الضمير في ﴿فتكون﴾، ﴿تخرج الموتى﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم. قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وإذ كفت بني إسرائيل عنك﴾ يعني: اليهود حين هموا بقتله، وقيل: لما قال الله تعالى لعيسى ﴿انكر نعمتي عليك﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يخر شيئاً لغو يقول: مع كل يوم رزقه. لم يكن له بيت فيخرّب ولا ولد فيموت وإنما أمسى بات.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَأَمَّنَّا وَآشَهُدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿لوحيت إلى الحواريين﴾ أمرتهم على السنة الرسل

(1) قال أحمد: وقيل: إن معنى هل يستطيع: هل يفعل، كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم بمبالغة في التقاضي، ونقل هذا القول عن الحسن، فعلى هذا يكون إيمانهم سالماً، عن حدح الشك، في القدرة، فإن استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة، فذاك، والله أعلم، من باب التعبير عن المسبب بالسبب إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد، وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل، تسمية للسبب الذي هو الإرادة، باسم المسبب الذي هو الفعل، في مثل قوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ وقد مضى أول السورة، وفي هذا التاويل الحسن تعضيد، لتاويل أبي حنيفة.

حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة، وجود الحرّة في العصمة وعدمه إن لا يملك عصمة الحرّة، وإن كان قادراً على ذلك، فتباح له حينئذ الأمة، وحمل قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ على معنى: ومن لم يملك منكم، وحمل النكاح على الوطء، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك، كما ترى حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده، فينكح الأمة، وقد مضى نكر مذهبه، وكنت أستعيد إنهاضه، لأن يكون تاولياً يحتمله اللفظ، ويساعده الاستعمال، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا، والله أعلم.

فقال: يا سمكة احبي بإذن الله، فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت فعانت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا قرودة وخنازير، وروي: أنهم لما سمعوا بالشرية وهي قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنني أعنبه﴾. قالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن: والله ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة لقوله: ﴿وأخرنا﴾⁽¹⁾ والصحيح أنها نزلت.

رَأَى قَالَ اللَّهُ يَجِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٦﴾.

﴿سبحانك﴾ من أن يكون لك شريك ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي ﴿أن أقول﴾ قولاً لا يحق لي أن أقوله: ﴿في نفسي﴾ في قلبي والمعنى تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه فقيل ﴿في نفسك﴾ لقوله: في نفسي. ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تقرير للجملتين معاً لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد⁽²⁾.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٧﴾.

﴿إن﴾ في قوله: ﴿أن أعبدوا الله﴾ إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر، والمفسر إما فعل القول، وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له، أما فعل القول فيحكي بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن أعبدوا الله، ولكن ما قلت لهم إلا أعبدوا الله⁽³⁾، وأما فعل الأمر فمستند إلى ضمير الله عز وجل فلو فسرت به بأعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم؛ لأن الله تعالى لا يقول أعبدوا الله ربي وربكم⁽⁴⁾، وإن

﴿اللهم﴾ أصله يا الله فحذف حرف النداء وعوضت منه الميم. و﴿ربنا﴾ نداء ثانٍ ﴿تكون لنا عيداً﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد، ومن ثم اتخذه النصراني عيداً. وقيل: العيد السرور العائد ولذلك يقال: يوم عيد، فكان معناه تكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ عبد الله: تكن على جواب الأمر، ونظيرهما يرثني ويرثني. ﴿لأولنا وأخرنا﴾ بدل من لنا بتكرير العامل أي لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعننا. وقيل: ياكل منها آخر الناس كما ياكل أولهم ويجوز للمقمتين منا والاتباع، وفي قراءة زيد: لأولنا وأخرنا وللتانث بمعنى الأمة والجماعة ﴿عذاباً﴾ بمعنى تعذيباً.

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْبُّهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بِيْكُمْ فَأِنِّي أَغِيبُهُ عَذَابًا
لَّا أَعْلَمُ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْمَلْأَيْنِ ﴿١٧٨﴾.

والضمير في ﴿لا أعنبه﴾ للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء. وروي: أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً ثم قال: اللهم أنزل علينا، فنزلت سفرة حمراء بين غماتين غمامة فوقها وأخرى تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها مثلاً وعقوبةً. وقال لهم: ليقم احسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها وياكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك. فقال عيسى فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل. وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل نسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله. فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟

(1) سورة المائدة، الآية: 114.

(2) قال أحمد: وقد أجاز بعضهم وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول، ولم يقتصر بها على ما في معناه، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول، وقد أبى الزمخشري في مفسله وقوعها، إلا بعد فعل في معنى القول، كذمبه ههنا.

(3) قال أحمد: ويجوز أيضاً هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى، كأنه حكى معنى قول الله عز وجل له، بعبارة أخرى، وكان الله تعالى قال له: مرهم بعبادتي، أو قال لهم على لسان عيسى: أعبدوا الله رب عيسى وربكم، فلما حكاه عيسى عليه السلام، قال: أعبدوا الله ربي وربكم، فكنتي عن اسمه الظاهر بضميره، كما قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهجداً وسلماً لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ فانظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول =

= موسى، وموسى لا يقول: فأخرجنا، ولكن: فأخرج الله، فلما حكاه الله تعالى عن موسى، رد الكلام إليه تعالى، وأضاف الإخراج إلى ذاته، على طريقة المتكلم لا الحاكي، وكذلك قوله تعالى: ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ إلى قوله: ﴿فانشرنا به بلدة ميتاً﴾ ونظائره كثيرة، وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود: ﴿إننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات، المعنافية لاعتقادهم فيه.

(4) قال أحمد: أي، فلا يقتر بالعبادة، ولكن بالأمر بها، كأنه قيل: ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة، والأمر مقول لقلت، على أن جعل العبادة مقولة، ليس بيبعد على طريقة، ثم يعونون لما قالوا، أي: للوطء الذي قالوا قولاً يتعلق به، وكقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول ويتأينا قراباً﴾ وسيتاتي له تصحيح هذا الاستعمال، لوروده كثيراً في القرآن الكريم.

﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ﴾ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

فَأَنْ قُلْتُ⁽⁴⁾: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؟ قلتُ: ما قال إنك تغفر لهم ولكنك بنى الكلام على إن غفرت فقال: إن عذبتهم عدلت لأنهم أحقاه بالعذاب وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة، لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان الجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَنْفَعِ الْكَافِرِينَ مِنْ تَعْتِبِهِمْ وَأَلْأَثَرُهُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا أَدَّى رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٨﴾.

قري: هذا يوم ينفع بالرفع والإضافة وبالنصب إما على أنه ظرف لقال وإما على أن هذا مبتدأ والظرف خبر، ومعناه هذا الذي نكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع ولا يجوز أن يكون فتحاً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾⁽⁵⁾ لأنه مضاف إلى متمكن، وقرأ الأعمش يوم ينفع بالتثنية

جعلتها مرصولة بالفعل لم تخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به، وكلاهما غير مستقيم لأن البديل هو الذي يقوم مقام المبدل منه، ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال⁽¹⁾، وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت أن اعبدوا الله مقام الهاء فقلت: إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته.

فَأَنْ قُلْتُ⁽²⁾: فكيف يصنع؟ قلتُ: يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ﴿وما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم⁽³⁾، ويجوز أن تكون أن موصولة عطف بيان للهاء لا بدلاً ﴿وكنتم عليهم شهيدياً﴾ رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمتهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم من البيئات وأرسلت إليهم من الرسل.

إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَعَذَّبْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾.

المعروف بالالف واللام، إلى العلم، ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال، ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول، وأما الثاني فالتوضيح، والمعتمد في البديل الثاني، وأما الأول فبسط لنكره، لا على أنه مطرح مهمل.

(4) قال أحمد رحمه الله: تذبذب الزمخشري في هذا الموضع، فلا إلى أهل السنة، ولا إلى القدرية، أما أهل السنة، فالمغفرة للكفار جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلاً، بل عقاب المتقي المخلص، كذلك غير ممتنع عقلاً من الله تعالى، وإذا كان كذلك، فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار، وعدم التفردان لهم، إلا أن ورود السمع بذلك، لا يرفع الجواز العقلي، وأما القدرية، فيؤمنون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلاً، لا تجوز على الله تعالى، لمناقضتها الحكمة، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد، إذ لو كان الأمر كزعمهم، لما نخلت كلمة: ﴿إِنْ﴾ المستعملة عند الشك، في وقوع الفعل بعدها لغة، في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلاً، ولكن ذلك من باب التعليق بالمحال، كأن يبيض القار وأشبابه، وليس هذا مكانه، فقول الزمخشري: إن يغفر لهم، لم يعدم وجهاً من الحكمة في المغفرة؛ لأن العفو عن المجرم حسن عقلاً، لا يتألف بقواعد السنة، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي، ولا يتألف أيضاً بنزغات القدرية؛ لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر، ويقطعون بمناقضتها الحكمة، فكيف يخاطب الله تعالى به، فلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق، ومما اشتمل عليه من سوء الأدب، فإن قول القائل لمن يخطبه: ما فعل كذا، فلن يعدم فيه عنراً ووجهاً من المصلحة، كلام مبنول، وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة، فنسأل الله إلهام الأدب، وتجنب ما في إسهامه من مزلات العطب.

(5) سورة الانفطار، الآية: 19.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً غير مانع من البديل، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره، فقد قال في مفصله ما هذا نصه، وقولهم: إن البديل في حكم تنحية الأول، إيدان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته التأكيد، والصفة في كونها اسمين لما يتبعانه، لا أن يعنوا إهدار الأول وإطراحه، الا تراك تقول: زيدا رأيت غلامه رجلاً صالحاً، فلو ذهبت إلى إهدار الأول، لم يسند كلامك، فانظر كيف يرد كلامه في المفصل، وهو الحق ما ارتكبه من رد البديل في هذه الآية، للزوم طرح الأول، فتخلو الصلة من الضمير، ولم يجعل هذا القدر مانعاً في المثال المنكسر، مع أنك لو طرحت الأول، لخلا الخبر من الضمير العائد، ولم يسند الكلام، فهذه وجوه أربعة، منعها في إعراب أن وكلها مسندة حسبما بينا، وهذه المساجلة في هذا الإعراب من الغرر والحجول في صناعة الإعراب وعلم البيان، وفرسان هذا المضمار قليل.

(2) قال أحمد: هذا التحويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول، وليس قولاً صريحاً، وحمل القول على الأمر، مما يصحح المذهب الآخر في إجازة وقوعها بعد القول، فإنه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي، لما جاز إطلاق أحدهما وإرادة الأخرى، والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول وما يُنبههما، إلا عموم وخصوص، وليس في هذا التحويل الذي سلكه، إلا كلفة لا طائل وراءها، ولو كانت العرب تأتي وقوع المفسرة بعد القول، لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول، ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول؛ لأن ذلك كالعود إلى ما وقع القرار منه، وهم بعداء من ذلك.

(3) قال أحمد: يريد بجعله عطف بيان: أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البديل، وخلق الصلة حينئذٍ من العائد، وقد بينا أن ذلك غير لازم في البديل، والعجب أنه أيضاً في مفصله، لم يفصل بين عطف البيان والبديل، إلا في مثل قول المرار:

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلاً للزم، تكرير العامل، وإضافة اسم الفاعل =

كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

جعل: يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى: أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى: صير، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ (2)، والفرق بين الخلق والجعل، أن الخلق فيه معنى التقدير (3)، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك: ﴿وجعل منها زوجها﴾ (5) ﴿وجعل الظلمات والنور﴾؛ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ (6) ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ (7).

فإن قُلْتُ (8): لم أقرء النور؟ قُلْتُ: للقصد إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ (9) أو، لأن الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار.

فإن قُلْتُ (10): علام عطف قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعملون﴾؟ قُلْتُ: إما على قوله: ﴿الحمد لله﴾ على

فإن قُلْتُ (2): ما معنى قوله: ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قُلْتُ: معناه الصدق المستمر بالصادقين في نبيهم وأخوتهم، وعن قتادة: متكلمان تكلما يوم القيامة أما إبليس فقال: إن الله وعدهم وعد الحق، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَجْوَى وَمَا فِيهَا مِنْ مَذْمُورٍ ﴿١٧﴾

فإن قُلْتُ: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم فهل غلب العقلاء فقيلاً؟ ومن فيهن؟ قُلْتُ: ما يتناول الأجناس كلها تناوياً عاماً ألا ترك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد ما هو قبل أن تعرف أعاقل هو لم غيره؟ فكان أولى بإرادة العموم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».

(1) سورة البقرة، الآية: 48. =
(2) قال أحمد: ولو أجاز بحمل الصادقين على الدنيا، وصدقهم على الآخرة، حتى يكون التقدير هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لكان أوضح طباقاً لتفسير قتادة، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم، فإن إبليس، وإن صدق في الآخرة، إلا أنه يكن من الصادقين في الدنيا، فلم ينفعه صدقه في الآخرة، والوجهان متقاربان.

(3) سورة الزخرف، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وقد وردت جعل وخلق مورداً واحداً، فورد وخلق منها زوجها، وورد وجعل منها زوجها وذلك ظاهر في الترانف، إلا أن للخطأ ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن جعل لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما خلق وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض، والجعل إلى الظلمات والنور مصداقاً للتمييز بينهما. والله أعلم.

(5) سورة الاعراف، الآية: 189.

(6) سورة فاطر، الآية: 11.

(7) سورة ص، الآية: 5.

(8) قال أحمد: وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الأفراد، وقد قدمنا ما في ذلك من النظر، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة كتابه أكثر من كتبه على خلاف ذلك، وهو رأي الإمام أبي المعالي، ولو قال =

(9) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب نخوله في حكمها، ولو قال الحمد لله الذي الذين كفروا بربهم يعملون لم يسند لخلو الجملة من العائد، ويمكن أن يقال: وضع الظاهر الذي هو ربهم موضع المضمرة تفخيماً وتعظيماً، وأصل الكلام الذي يعدل به الذين كفروا، أو الذي الذين كفروا يعملون به باتساع وقوعها صلة رعاية لهذا الأصل، فهذا نظر من حيث الإعراب ونظيره، قوله تعالى: ﴿ولما أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، فبين جعل ما موصولة لا شرطية، فإن نخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعي ضميراً عائداً إلى الموصول، وهو: مفقود لفظاً؛ لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمرة، والأصل: ثم جاءكم رسول مصدق له، فاستقام عطفه ونخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور، وهو: أن يصير التقدير الحمد لله الذي الذين كفروا يعملون، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى، فالوجه والله أعلم، عطفه على أول الكلام لا على الصلة، والله الموافق.

ذاته فيها⁽⁵⁾.

فإن قُلْتُ: كيف موقع قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَكُمْ وَجْهَكُمْ﴾ قُلْتُ: إن أُرِيتَ المتوحد بالإلهية كان تقريراً له؛ لأنَّ الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبيراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ، بمعنى: هو يعلم سركم وجهكم، أو خير ثالث. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه ويعاقب.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾

من في ﴿من آية﴾ للاستغراق وفي ﴿من آيات ربهم﴾ للتبويض يعني: وما يظهر لهم ليليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين، تاركين للنظر لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأساً، لقلّة خوفهم وتدبرهم للعواقب.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَا تُبَّتِيْمُ أَبَتُّوْا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾

﴿فقد كذبوا﴾ مرئود على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وكبرها وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ يعني: القرآن الذي تحذوا به على تبالفهم في الفصاحة، فعجزوا عنه ﴿فسوف يأتيهم آتاء﴾ الشيء الذي ﴿كانوا به يستهزؤون﴾ وهو: القرآن أي أخباره وأحواله بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزؤا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ صَدْرًا وَجَعَلْنَا الْآسْمَانَ حِجْرًا مِنْ عَنَيْهِمْ فَاغْلَبَتْهُمْ يُدْرِيهِمْ وَأَشَانًا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

مكّن له في الأرض: جعل له مكاناً فيها ونحوه: أرض له، ومنه قوله: ﴿إننا مكنا له في الأرض﴾⁽⁶⁾ ﴿أولم نمكّن لهم﴾⁽⁷⁾ وأما مكنته في الأرض: فأنثيته فيها ومنه قوله: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾⁽⁸⁾ ولتقارب المعنيين

معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيكفرون نعمته، وإما على قوله: ﴿خلق السموات﴾ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه.

فإن قُلْتُ: فما معنى ﴿ثم﴾؟ قُلْتُ: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك ﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد أن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وياعتهم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ رَمَقَكُمْ أَجْلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَ رَبِّ ثُمَّ أَنْتُمْ تُمَرُّونَ ﴿٧﴾

﴿ثم قضى لجلالاً﴾ أجل الموت ﴿ولجل مسمى عنده﴾ أجل القيامة، وقيل: الأجل الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ، وقيل: الأول النوم، والثاني: الموت.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيرها، فلم جاز تقديمه في قوله: ﴿ولجل مسمى عنده﴾؟ قُلْتُ: لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كئيب، وما أشبه ذلك، فما أوجب التقديم؟ قُلْتُ: أوجبه أن المعنى وأي أجل مسمى عنده، تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى، وجب التقديم.

رَبُّهُ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمُ بِرَبِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿في السموات﴾ متعلق بمعنى اسم الله،⁽³⁾ كأنه قيل: وهو المعبود فيها، ومنه قوله: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾⁽⁴⁾ وهو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها، أو هو الذي يقال له الله فيها لا يشرك به في هذا الاسم، ويجوز أن يكون الله في السموات خبيراً بعد خبر، على معنى: أنه الله، وأنه في السموات والأرض، بمعنى: أنه عالم بما فيهما، لا يخفى عليه منه شيء، كان

(1) قال أحمد: وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم، وقد ورد

(4) سورة الزخرف، الآية: 84.

(5) قال أحمد: وهذه الوجوه كلها كان التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به، كما وقع ذلك في قوله:

لنا أبو النجم وشعري شعري

أي: المعروف المشهور؛ لأنه بنى على أنه متى نكر شعره، فهم السامع عند نكره خواصه من الجودة، والبلاغة، وسلامة النسخ، لاشتهاره بذلك، فاقصر على قوله شعري اتكالاً على فهم السامع.

(6) سورة الكهف، الآية: 84.

(7) سورة القصص، الآية: 57.

(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

(3) قال أحمد: وما الآيتان الكريمتان، إلا توامتان، فإنّ التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع للتمدح به، ههنا من القدرة على الإعادة، والاستثثار بعلم الساعة، والتوحد في الألوهية، وفي كونه تعالى =

أشدّ من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

وَلَوْ جَعَلْتَهُ مَلَكًا لَجَعَلْتَهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٦﴾

﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾⁽⁸⁾ و ﴿لو شاء ربنا لآنزل ملائكة﴾⁽⁹⁾؛ ﴿لجعلناه رجلاً﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة نحية⁽¹⁰⁾؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وللبسنا عليهم﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق باني ملك لا بشر، كنبوه كما كتبوا محمداً ﷺ، فإذا فعلوا ذلك خلنوا كما هم مخولون الآن فهو لبس الله عليهم، ويجوز أن يراد وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة، وقرأ ابن محيصن: ولسنا عليهم بلام واحدة وقرأ الزهري: وللبسنا عليهم ما يلبسون بالتشديد.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَاءَكُمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ لِيُنزِلَ فِي الْأُمَمِ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ وَاللَّطِيفُ حَسِيبٌ ﴿١٧﴾

﴿ولقد استهزئتم﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقى من قومه ﴿فحاق﴾ بهم فحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

جمع بينهما في قوله: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما اعطينا عاداً وتمدناً وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا، والسماء المظلة؛ لأنّ الماء ينزل منها إلى السحاب والسحاب أو المطر. والمدنار: المغزار.

فإن قلت: أي فائدة في نكر إنشاء قرن آخرين بعدهم قلت: الدلالة على أنه لا يتعاضمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده كقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقابها﴾⁽¹⁾.

وَلَوْ زَكَّاهُ لَكُنَّا فِي قَرْطَابِ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الْإِنْسَانُ كَرُورًا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

﴿كتاباً﴾ مكتوباً ﴿في قرطاب﴾ في ورق ﴿فلمسوه بأيديهم﴾⁽²⁾ ولم يقتصر بهم على الرؤية؛ لثلاثاً يقولوا: سكرت أبصارنا ولا تبقى لهم علة لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ نعتاً، وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَكِّةٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

﴿لقضي الأمر﴾ لقضي أمر إهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾⁽³⁾ بعد نزوله طرفه عين، إما لأنهم إذا عينوا الملك «قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته»⁽⁴⁾ وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾⁽⁵⁾ لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة، فيجب إهلاكهم،⁽⁶⁾ وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون⁽⁷⁾، ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنتظار، جعل عدم الإنتظار

(1) سورة الشمس، الآية: 15.

(2) قال أحمد: والظاهر أن فائدة زيادة لمسوه له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أي فقرؤه وهو في أيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يدرك باللمس، حتى يجعل فائدة زيادته إصراجه بوجهين كما يفهم من كلام الرزمخشري.

(3) قال أحمد: لا يحسن أن يجعل سبب مناجرتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك، فإنه ربما يفهم هذا الكلام، أن الآيات التي لزمتهم الإيمان بها بون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك، فالوجه والله أعلم: أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز، من حيث كونه معجزاً، لا المعجز الخاص، فإذا أجبوا على وفق مقترحهم، فلم ينجح فيهم كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة، والله أعلم. عاد كلامه قال: وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك، فيجب إهلاكهم، وإما؛ لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته، زهقت أرواحهم من

= هول ما يشاهدون.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1) (الحديث رقم: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 438).

(5) سورة الأنعام، الآية: 111.

(6) قال أحمد: ويقوي هذا الوجه قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً﴾ قال ابن عباس: لئيمكنوا من رؤيته، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(7) قال أحمد: وهذه النكته من محاسن تنبيهاته.

(8) سورة المؤمنون، الآية: 23 و24.

(9) سورة فصلت، الآية: 14.

(10) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، (الحديث رقم: 4980) عن أسامة بن زيد، ومسلم في صحيحه كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أم سلمة (الحديث رقم: 6265).

مما يشتمل عليه الملوان.

أَمْكُذِّبِينَ ﴿١٦﴾

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَحْسَدًا وَيَكْفُرُ بِالْأَرْضِ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمْ لَا يَضُرُّهُمْ قُلْ إِنَّهُمْ كُفِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾

أولي غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو اتخذ؛ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم ونحوه: **﴿أغغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾** (4) **﴿الله أنن لكم﴾** (5) وقرئ: فاطر السموات بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري: فطر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدعتها (6) **﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾** وهو يرزق ولا يرزق كقوله: **﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾** (7) والمعنى: أن المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع وقرئ: ولا يطعم بفتح الباء وروى ابن المأمون، عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: وهو يطعم ولا يطعم على بناهما للفاعل، وفسر بان معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعت ونحوه أقدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقولك: هو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر، **﴿أول من أسلم﴾** لأن النبي ﷺ سابق أمته (8) الإسلام كقوله: **﴿وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** (9) وكقول موسى: **﴿سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾** (9) **﴿ولا تكونن﴾** وقيل لي: لا تكونن **﴿من المشركين﴾** ومعناه: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الشرك.

مَنْ يُصِرِّفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَذَرْنَاهُ وَمَا نَحْنُ بِمُوقِنِينَ ﴿١٩﴾

و**﴿من يصرف عنه﴾** العذاب **﴿يومئذٍ فقد رحمته﴾** الله الرحمة العظمى (10) وهي النجاة كقولك: إن أطعمت زيدا من جوعه فقد أحسنرت إليه، تريد: فقد أتممت الإحسان إليه، أو

فإن قلت (1): أي فرق بين قوله **﴿فانظروا﴾** وبين قوله: **﴿ثم انظروا﴾**؟ قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: **﴿فانظروا﴾** (2) فكانه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: **﴿سيروا في الأرض ثم انظروا﴾** فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة، وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بتم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنُوزٌ عَنِّي نَفْسِي أَرَحِمَةً لِيَجْزِيََنَّهُمْ إِنْ يَوْرَ الْيَمِينَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ سؤال تبكيت و **﴿قل لله﴾** تقرير لها أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحده، بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض. ثم أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: **﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾** فيجازيكم على إشراككم وقوله: **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** نصب على النзм أو رفع أي: أريد الذين خسروا أنفسهم أو أنتم الذين خسروا أنفسهم.

فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسارتهم والأمر على العكس؟ قلت: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ وَمَنْ أَنْشَبَ إِلَيْهِ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وله﴾ عطف على الله **﴿ما سكن في الليل والنهار﴾** من السكنى وتعديه بقي كما في قوله: **﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾** (3) **﴿وهو السميع العليم﴾** يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء

(1) قال أحمد: وأظهر من هذا التوليد أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً، ليكون ذلك سبباً في النظر، فحيث نخلت الفاء، فلاظهار السببية وحيث نخلت، ثم قلتنبه على أن النظر، هو: المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود، والوسيلة والله أعلم. قوله تعالى: **﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ، فقد رحمته، وذلك الفوز المبين﴾**

(2) سورة آل عمران، الآية: 137.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 45.

(4) سورة الزمر، الآية: 64.

(5) سورة يونس، الآية: 69.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2/ 258 كتاب: في طلب العلم =

(الحديث رقم: 1682).

(7) سورة الذاريات، الآية: 57.

(8) سورة الأنعام، الآية: 163.

(9) سورة الأعراف، الآية: 143.

(10) قال أحمد: وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة، إما بكونها العظمى، وإما برحمة الثواب، أنه لو بقيت على إطلاقها، لما زاد الجزاء على الشرط من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما، والمعجب أن الرّمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب، ولا بدّ وغيره يصحح هذا التخصيص، أنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب لجواز أن يصرف عنه العذاب، ولا يثاب، فإفاد الجزاء، إذا فائدة لم تقم من الشرط هكذا صححه القونوي، ولعمري وإن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ما ذهب إليه الرّمخشري، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة، فالعذاب قطعاً، ويستنون ذلك إلى العقل لا إلى السمع.

فقد أدخله الجنة؛ لأن من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب، وقرئ: من يصرف عنه على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم أي: فقد رحمه بمعنى: من يرفع الله عنه ويحفظه، وقد علم من المنفوع عنه، وترك ذكر المصروف لكونه معلوماً أو منكوراً قبله وهو العذاب ويجوز أن ينتصب يومئذ انتصابها المفعول به أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم أي: هوله فقد رحمه، وينصر هذه القراءة قراءة أبي رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

وإن يَسْتَكَّ اللَّهُ بِمُزٍ فَلَا كَافِيَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَسْتَكَّ بِمُزٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من غنى أو صحة ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ فكان قادراً على إدامته، أو إزالته⁽¹⁾.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْكَلِيمُ اللَّيِّدُ ﴿٨﴾.

﴿فوق عباده﴾ تصوير للظهر، والعلو بالغلبة والقدرة كقوله: ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾⁽²⁾.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُدْرِكَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْبِغْ أَلَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ اللَّهِ وَرَبِّيَ الرَّبُّ رَبِّيَ رَبِّيَ تَبَّ تَشْرِكُونَ ﴿٩﴾.

الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل: شيء لا كالاشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح جسم لا كالأجسام، وأراد أي شهيد ﴿أكبر شهادة﴾ فوضع شيئاً مقام شهيد؛ ليلبغ في التعميم ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: قل الله بمعنى: الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ شهيد بيني وبينكم أي: هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون الله شهيد بيني وبينكم هو الجواب لدلالته على أن الله عز وجل إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له ﴿ومن لبغ﴾ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة أي: لأنزركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم وقيل: من الثقلين وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكانما رأى محمداً ﷺ

﴿أنتم لتشهدون﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد، ﴿قل لا أشهد﴾ شهادتهم.

الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَرَوْنَهُ كَمَا يَسْمَوْنَ أَنبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَكْثَرُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنِ النَّاسِ إِلَّا نَجْمًا ﴿١١﴾.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بحلام ونوعتهم لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم، وهذا استشهاد لاهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوته، ثم قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ به جمعوا بين امرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا﴾⁽³⁾ وقالوا: ﴿والله أمرنا بها﴾⁽⁴⁾، وقالوا: الملائكة بنات الله، و﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾⁽⁵⁾ ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوابغ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها: سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمْماً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرْنَاكُمْ أَلَيْسَ كُنْتُمْ زَعْمُونَ ﴿١٢﴾.

﴿ويوم نحشرهم﴾ ناصبه محنوف تقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف ﴿أين شركاؤكم﴾ أي ألهمتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ معناه: تزعمونهم شركاء، فحنف المفعولان. وقرئ: يحشرهم، ثم يقول: بالياء فيهما، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفقونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة، فكانهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيم وحسرتهم.

ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾.

﴿فتنتهم﴾ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقتلوا عليه، وافتخروا به وقالوا: دين آبائنا، إلا جوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من

(1) قال أحمد: وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا، والمعتزلة فإنهم قالوا: والمعلوم الذي يصح وجوده، فاتفقوا على خروج المستحيل، وعلى الجملة، فهذه المسألة معنوية من علم الكلام باعتبار ما، وأما هذا البحث، فلغوي، والتحكك فيه، لاهل اللغة وظاهر قولهم غضبت من لا شيء، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً أن الشيء لا ينطق إلا على الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عدماً كان، أو=

= وجوداً أو ممكناً، أو مستحيلاً لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء، والأمر في ذلك قريب.

(2) سورة الاعراف، الآية: 127.

(3) سورة الانعام، الآية: 148.

(4) سورة الاعراف، الآية: 28.

(5) سورة يونس، الآية: 18.

كلا، فنزلت⁽⁶⁾. والاكثة على القلوب والوقر في الأذان مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: ﴿وجعلنا﴾ للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم ﴿وفي أذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾⁽⁷⁾، وقرأ طلحة وقرأ بكسر الواو ﴿حتى إذا جاؤك يجادلونك﴾ هي: حتى التي تقع بعدها الجمل، والجملته قوله: ﴿إذا جاؤك﴾؛ ويقول الذين كفروا ﴿يجادلونك في موضع الحال، ويجوز أن تكون الجارة، ويكون إذا جاؤك في محل الجر بمعنى: حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: ﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك وينكرونك، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ فيجعلون كلام الله وأصق الحديث خرافات وكتائب وهي الغاية في التكذيب.

وَهُمْ يَهْتَوُونَ عَنْهُ وَيَتَّوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾

﴿وهم يهتوون﴾ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ويثبطونهم عن الإيمان به ﴿ويهانون عنه﴾ بأنفسهم، فيضلون ويضلون ﴿وإن يهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم﴾ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ﷺ، وقيل: هو أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأى عنه ولا يؤمن به، وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله ﷺ سوء⁽⁸⁾ فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فأصعد بأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر بذاك وقر منه عيوناً ودعوتني وزعمت أنك ناصح
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سببة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا
فنزلت.

وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَفَّيْنَا عَلَى النَّارِ فَأَقُولُ يُبَيِّنُنَا نَرًّا وَلَا نَكْذِبُ بِمَا بَدَّ رَبَّنَا

للثنين به ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، تسمى فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: تكن بالتاء، وفتنتهم بالنصب، وإنما أنت أن قالوا لوقوع الخبر مؤنثاً كقولك: من كانت أمك، وقرئ: بالياء ونصب الفتنة، وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ: ربنا بالنصب على النداء⁽¹⁾.

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَنْكَ أَتُسَبِّحُ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿ووصل عنهم﴾ وغاب عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي: يفترون إليته وشفاعته.

فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن الكذب والجحد لا وجه لمنفعة؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً، ألا تراهم يقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾⁽²⁾، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكروا فيه ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾⁽³⁾ وقد علموا أنه لا يقضى عليهم، وأما قول من يقول معناه: ما كنا مشركين عند انفسنا، وما علمنا أنا على خطأ في معتقنا، وحمل قوله: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني: في الدنيا فتحمل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عي وإفحام؛ لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمرجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشد النبوء، وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون﴾⁽⁴⁾ بعد قوله: ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾⁽⁵⁾ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

وَمَنْهُمْ مَن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ وَجَمَلْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا كَرِهًا لَّآ يَرْجِعُوهَا سَاءَ إِذَا جَاءَكَ بِجُلُودِكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾

﴿ومنها من يستعج إليك﴾ حين تتلوا القرآن، روي أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا فتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته - يعني: الكعبة - ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول: أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنني لأراه حقاً، فقال أبو جهل:

(6) قال أحمد رحمه الله: وهذه الآية حسينا في رد معتقد، القدرية الذي يزعمون أن الله تعالى، أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن، ويفقهوه، وأنه لم يمنعم من ذلك، ومحال على زعمهم أن يمنعم من ذلك، ويريد أن لا يفقهوه؛ لأن ذلك عندهم قبيح، فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالرذ وتنادي عليهم بالخطأ، إذ قوله أن يفقهوه معناه: كراهة أن يفقهوه، وبين الإرادة على زعمهم، والكراهة على ما أثبتت عنه الآية بون بعيد، والله الموفق.

(7) سورة فصلت، الآية: 5.

(8) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(1) قال أحمد: وفي الآية دليل بين على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره، إلا تراه جعل إخبارهم، وتبريهم كذباً مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون، أي: سلبوا علمه حينئذ دهشاً وخبره، فلم يرفع ذلك إطلاق الكتب عليهم.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 107.

(3) سورة الزخرف، الآية: 77.

(4) سورة المجادلة، الآية: 18.

(5) سورة المجادلة، الآية: 14.

وَيَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾.

معابنة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: ﴿وإنهم لكانبون﴾ على معنى: وإنهم ليقوم كاذبون في كل شيء وهم الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ وكفى به ليللا على كتبهم⁽²⁾.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّئِنا قَالُوا فَذَرْهُمْ أَلاَّ يَتَذَكَّرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿وقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه وقيل: وقفوا على جزاء ربهم، وقيل: عرفوه حق التعريف ﴿قال﴾ مراد على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال: ﴿اليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكنيب، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحق، وما هو إلا باطل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفركم بقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حَقَّقَ الكلام فيه في مواضع آخر.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَإِنَّمَا كَانُوا هَادِئِينَ مَدْعُومِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿حتى﴾ غاية لكتبوا لا لخسر؛ لأن خسرتهم لا غاية له، أي: ما زال بهم التكنيب إلى خسرتهم وقت مجيء الساعة.

فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»⁽⁴⁾. أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ فجأة، وانتصابها على الحال بمعنى باغته، أو على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة، ﴿فرطنا فيها﴾ الضمير للحياة الدنيا، جاء بضميرها وإن لم يجر لها نكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرطت في فلان ومنه ﴿فرطت في جنب الله﴾⁽⁵⁾ ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ كقوله: ﴿بما كسبت أيديكم﴾⁽⁶⁾ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهر كما ألف الكسب بالأيدي، ﴿ساء ما يوزون﴾ بسس شيئاً يوزون وزهم كقوله: ﴿ساء مثلاً القوم﴾⁽⁷⁾.

﴿ولو ترى﴾ جوابه محنوف تقديره ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً ﴿وقفوا على النار﴾ أروها حتى يعاينوها، أو اطعموا عليها اطلاقاً هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته. وقرئ: وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقرئاً ﴿يا ليتنا نرد﴾ ثم تمنيههم ثم ابتدؤا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ واعين الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات، وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود بمعنى: دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني، ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حلاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكاذبين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قلت: يدفع ذلك قوله: ﴿وإنهم لكانبون﴾⁽¹⁾ لأن التمني لا يكون كاذباً قلت: هذا تمن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكنيب كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وإكافئك على صنيعك، فهذا ممن في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان⁽²⁾، وقرئ: ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

بَلْ يَدْعُهُمْ إِنَّمَا يَكُونُونَ مِنَ الْقَائِلِينَ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أَن يَقُولُوا يَا قَوْمِ أَغْرَبْتُمْ بِهِ إِلَهُكُمْ فَأَلْبِسُوا إِلَهُكُمْ غِيظاً وَذُكُورًا ﴿٣٠﴾.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم، وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، إلا أنهم عازمون على أنهم لو ربوا لأمنوا، وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله ﷺ ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وإنهم لكانبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

وَقَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَدْعُوا إِلَهُاتِنَا وَمَا كُنَّا بِنِعْمَةِ رَبِّئِنا قَائِلِينَ ﴿٣١﴾.

﴿وقالوا﴾ عطف على ﴿لعادوا﴾⁽³⁾ أي: ولو ردوا الكفر ولقالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل

(1) سورة الأنعام، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وكثيراً ما تنتاب صيغة التمني، والخبر: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وبما كانوا يكتبون﴾ في قوله: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ إلى قوله: ﴿وبما كانوا يكتبون﴾ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنياً بصيغة الخبر، والله أعلم، وأبين من ذلك، قوله تعالى: في آية أخرى: ﴿وهم يسطرحون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ =

= فهذا هو التمني بعينه، ولكن بصيغة الوعد، والخبر الصريحة، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(5) سورة الزمر، الآية: 56.

(6) سورة الشورى، الآية: 30.

(7) سورة الأعراف، الآية: 177.

عن محمد أصابق هو أم كاتب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصابق وما كتب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فمأذ يكون لسائر قريش؛ فنزلت. وقوله: ﴿ولكن الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر للدلالة على أنهم ظلموا في وجودهم⁽⁵⁾.

وَلَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَرَدُّوا حَيْثُ أَنزَلْنَاهُمْ صَبْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد كذبت﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾⁽⁶⁾ ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لفلانك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني، ﴿على ما كذبوا وأوذوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون﴾⁽⁷⁾ ﴿ولقد جاءك من نبا المرسلين﴾ بعض أنبيائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

وَإِن كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَاتَّبِعْهُم بَيِّنَاتٍ وَكُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تُكُونُوا مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿٢٥﴾

كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل ﴿لعلك باخع نفسك﴾⁽⁸⁾ ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾⁽⁹⁾ ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع له آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم﴾ منها ﴿بآية﴾ فافعل يعني: أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم آية من تحت الأرض أو من فوق السماء لآتى بها رجاء إيمانهم، وقيل:

= الطبقات من حديث يعلى بن أمية (437/1). قال أحمد: ولا دلالة فيه؛ لأنه مؤتلف مع نفي التكذيب أيضاً، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين أي: هؤلاء لم يكذبوا، فحق أن تصبر عليهم، ولا يحزنك أمرهم، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم، فاصبروا عليهم، فأنث إذ لم يكذبوا أجدر بالصبر، فقد اختلف، كما ترى بالتفسيرين جميعاً، ولكنه من غير الوجه الذي استدلل به، فيه تقريب لما اختاره، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله، وإن يكذبوك، ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فسلا عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم، لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر، والله أعلم.

(6) سورة الأنعام، الآية: 33.

(7) سورة الصافات، الآيات: 171، 172.

(8) سورة الكهف، الآية: 6.

(9) سورة القصص، الآية: 56.

أَفَلَا تَمَّيَلُونَ ﴿٢٦﴾

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وقوله للذين يتقون﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ولدان الآخرة. وقرئ: تعقلون بالتاء والياء.

قَدْ تَلَّمَّ إِنَّهُ لِحَزْنُكَ الَّذِي يُؤَلُّونَ فَاذَمُّمَ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٢٧﴾

قد في ﴿قد نعلم﴾⁽¹⁾ بمعنى: ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله:

أخافه لا نهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله والهاء في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن ﴿ليحزنك﴾ قرئ: بفتح الياء وضمها و ﴿الذي يقولون﴾ هو: قولهم ساحر كذاب⁽²⁾ ﴿لا يكذبونك﴾ قرئ: بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذباً في زعمه، وأكذبه إذا جده كاذباً والمعنى: أن تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصنق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فإله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه، ونحوه قول السيد لغلماه إذا أهانه بعض الناس إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني، وفي هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾⁽³⁾ وقيل: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بالسنتهم، وقيل: فإنهم لا يكذبونك؛ لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين، فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون⁽⁴⁾، وكان أبو جهل يقول: ما تكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما تكذب ما جئتنا به، وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني

(1) قال أحمد: ومثلها في قوله، وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم، فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكد به ظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين أنيته ورسوخ علمهم برسالته، والله أعلم، ومنه أيضاً قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

والغرض: التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه تنبيهاً على أنه بلغ الآية، التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد وذلك من لطائف لغة العرب، وعرابيتها. قال: وقرئ يكذبونك بالتشديد، والتخفيف من كذبه إلى قوله، ولكن الظالمين إلخ).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من إقامة الظاهر، مقام المضمر فنأن من نكت البيان إحداهما الإسهاب في ذمهم، وهذه النكته يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً، حتى لو كان لقباً جامعاً، والآخرى: زيادة منه تؤكد ذمهم تفهم من اشتقاق الظاهر.

(3) سورة الفتح، الآية: 10.

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث ابن عباس ورواه ابن سعد في =

صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْزِلَتْ مَا
فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْلٍ تُرَىٰ لَكَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا سُبُّهُمْ فِي الْأَلْطَفِ مَنْ يَسُبَّ اللَّهَ يُسَبِّهُهُ وَمَنْ يَسُبَّ جَعَلَهُ
عَلَىٰ سِرِّطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾

﴿أمم أمثالكم﴾ مكتوبة أرزاقها وأجالها وأعمالها، كما
كتبت أرزاقكم وأجالكم وأعمالكم ﴿ما فرطنا﴾ ما تركنا وما
أغفلنا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ ﴿من شيء﴾ من
ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما يجب أن يثبت مما يختص به
﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعني: الأمم كلها من الدواب
والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي أنه:
ياخذ للجمام من القرناء.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿إلا أمم﴾ مع أفراد ﴿الدابة﴾
و ﴿الطائر﴾؟ قُلْتَ: لما كان قوله تعالى: ﴿وما من دابة
في الأرض ولا طائر﴾ دالاً على معنى الاستفراق ومغنياً
عن أن يقال: وما من نواب ولا طير، حمل قوله: ﴿إلا أمم﴾
على المعنى.

فإن قُلْتَ⁽³⁾: هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم
أمثالكم وما معنى زيادة قوله: ﴿في الأرض﴾ و﴿ويطير
بجناحيه﴾؟ قُلْتَ: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه
قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من
طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا
أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها.

فإن قُلْتَ: فما الغرض في نكر ذلك؟ قُلْتَ: الدلالة على
عظم قدرته ولفظ علمه وسعة سلطانه وتديبره تلك
الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ
لمالها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن
شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك نون من
عدهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبلة ولا طائر
بالرفع على المحل كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ
علقة: ما فرطنا بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف أتبعه قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾
قُلْتَ: لما نكر من خلافته وأثار قدرته ما يشهد لربوبيته
وينادي على عظمته قال: والمكذبون ﴿صم﴾ لا يسمعون
كلام المنبه ﴿بكم﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات

كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتماذي
حرصه على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل،
دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله،
حتى يأتبهم بما اقتروحا من الآيات لعلهم يؤمنون، ويجوز
أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو:
الإتيان بالآيات كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت
الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت لعل ذلك يكون لك آية
يؤمنون عندها، وحذف جواب أن كما تقول: إن شئت أن
تقوم بنا إلى فلان تزوره ﴿ولو شاء الله لجمعهم على
الهدى﴾⁽¹⁾ بأن يأتبهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه
عن الحكمة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ من الذين
يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.

﴿ إِنَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَمْعَمُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾
﴿٣٦﴾

﴿إنما يستجيب للذين يسمعون﴾ يعني: أن الذين
تحرص على أن يصنقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون،
وإنما يستجيب من يسمع كقوله: ﴿إنك لا تسمع
الموتى﴾⁽²⁾ ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ مثل لقدرته على
إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من
القبور يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء، فكان
قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت
لا تقدر على ذلك، وقيل معناه: وهؤلاء الموتى يعني: الكفرة
يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون وأما قيل ذلك
فلا سبيل إلى استماعهم، وقرئ: يرجعون بفتح الياء.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُزِيلَ
آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لولا نزل عليه آية﴾ نزل بمعنى: أنزل. وقرئ: أن
ينزل بالتشديد والتخفيف ونكر الفعل والفاعل مؤنث؛ لأن
تأنيث آية غير حقيقي وحسن للفصل، وإنما قالوا ذلك مع
تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ لتركهم
الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات
عناداً منهم ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾
تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني إسرائيل
ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ﴿ولكن أكثرهم
لا يعلمون﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآيات، وأن

(1) قال أحمد: وهذه الآية أيضاً، كافلة بالرّد على القدرية في زعمهم،

أن الله تعالى شاء جميع الناس كلهم على الهدى، فلم يمكن إلا
ترى أن الجملة مصدرية بلو، ومقتضاها امتناع جوابها، لامتناع
الواقع بعدها، فامتناع اجتماعهم على الهدى إنذاراً، إنما كان لامتناع
المشيئة، فمن ثم ترى الرّمخشري يحمل المشيئة على قهرهم
على الهدى، بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختياراً، حتى يتم له
أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع، وإن مشيئة اجتماعهم على
الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممنوعة، ولكن لم يقع متعلقها،
وهذه من خباياها ومكامن، فاحذرها، والله الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 80.

(3) قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم، ولقائل أن يقول: يلزم
من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجوّ، في العموم،
وإن لم ينكر في الجوّ، وكذلك يلزم من عموم الدواب في سائر
أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين، وإن لم ينكر في
الأرض، فلا بد من بيان وجه الزيادة، فنقول: وقع قوله في الأرض،
ويطير بجناحيه موقع الوصف العام، وصفة العام عامة ضرورة
المطابقة، فكانه مع زيادة الصفة تظافت صفتان عامتان، والله
أعلم.

الرسول فكذبوهم فأخذناهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يتنزلون ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن نذوبهم.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٣٥﴾

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه: نفي التضرع كانه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع، إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ من البأساء والضراء أي: تركوا الاعتاظ به ولم ينفع فيهم ولم يجرهم ﴿فتحنا عليهم ابواب كل شيء﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ليزواج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلطفه أخرى طلباً لصلاحه ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الخير والنعم لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار ﴿أخذناهم بغتة﴾ فإذا هم مبلسون ﴿واجمون متحسرون آيسون.

فَقَطَّ دَابِرَ الْوَيْلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَلْمَنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾

﴿فقطع دابر القوم﴾ آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استوصلت شافتهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ (5) إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم. وقرئ: فتحنا بالتحديد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَجَمَعَ اللَّهُ عَيْنَ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ بِكُمْ أَنْظَرَ كَيْفَ تَصْرَفُ الْأَيْتِ تَرَهُ هُمْ يَصِدْقُونَ ﴿٣٦﴾

﴿إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن يصممكم ويعميكم ﴿ووختم على قلوبكم﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم ﴿ياتيكم به﴾ أي: يأتيكم بذاك، إجراء

الكفر فهم غافلون عن تأمل تلك والتفكر فيه، ثم قال: إيداناً بأنهم من أهل الطبع ﴿من يشأ الله يضلله﴾ (1) أي: يخله ويخله وضلاله لم يلفظ به؛ لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أي: يلفظ به؛ لأن اللطف يجدي عليه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا اللَّهُ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأَسَاءِ وَالْفُسْرَةِ لَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ

﴿أرايتكم﴾ أخبروني والضمير الثاني لا محل له من الإعراب؛ لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكانت كأنك تقول: أرايت نفسك زيداً ما شأنه، وهو خلف من القول (2)، ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره إن أتاكم عذاب الله ﴿أو اتاكم الساعة﴾ من تدعون، ثم بكتهم بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ بمعنى: اتخصون ألهتكم بالدعوة فيما هو عانتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها! ﴿بل إياه تدعون﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الألهة ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إن شاء﴾ إن أراد أن يفضل عليكم ولم يكن مفسدة (3)، وتنسون ما تشركون وتتركون ألهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم في تلك الوقت مغمورة بنكر ربكم وحده إذ هو القاهر على كشف الضر بون غيره (4)، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كانه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

فإن قلت: إن عقلت بالشرط به، فما تصنع بقوله: ﴿فيكشف ما تدعون﴾ إليه مع قوله: ﴿أو اتاكم الساعة﴾؟ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة وهو قوله: ﴿إن شاء﴾ إيداناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه. البأساء والضراء البؤس والضر، وقيل: البأساء القحط والجوع، والضراء المرض ونقصان الأموال والنفوس، والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للهداية، والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أن الله تعالى، لا يخلق الهدى ولا الضلال، وإنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة، فيروم أن يرقعها، وقد اتسع الخرق على الرقع، والله الموفق.

(2) قال أحمد: هو لا يدع أن يحجر وأسعاً، فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة المصالح، والاصلاح، قال: ﴿وتنسون ما تشركون﴾، أي: وتتركون ألهتكم الخ.

(3) قال أحمد: وإنما يلقي الاختصاص حيث يقول معناه: اتخصون ألهتكم، ثم قال: بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقم المفعول على الفعل في قوله: أغير الله تدعون، وقوله: بل إياه تدعون، وتقيم المفعول عنده يفيد الاختصاص، والحصر.

(4) قال أحمد: ولقد سدّ النظر لولا أنه نقص ذلك بما يفهم وجوب =

= مراعاة المصالح، وأن مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة، وقد تقدّم آنفاً، فأحذره وعليك بما سواه، فإنه من بيع النظر، والله الموفق.

(5) قال أحمد: ونظيرها، قوله تعالى: ﴿وأطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، فمين وقف ههنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدم نكرهم من الطاغين ومنهم من وقف على المنذرين، وجعل الحمد متصلًا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأول يكون الحمد حتماً وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعاً، ولكنه في آية النمل اظهر في كونه مفتتحاً لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه حتماً إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله اعلم.

للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه ﴿يصدقون﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾

لما كانت البغته أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته قيل ﴿بغته أو جهرة﴾ وعن الحسن ليلاً أو نهاراً وقرئ: بغته أو جهرة ﴿هل يهلك﴾ أي: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: يهلك بفتح الياء.

وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَحَ فَلَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْأَلَتِ الْمَدَائِبِ بِمَا كَانُوا يَسْتَمْتُونَ ﴿٨١﴾ قُلْ لَا أَوْلَى لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَوَّلُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿مبشرين ومنذرين﴾ من آمن بهم وبما جاؤوا به وأطاعهم ومن كذبهم وعصاهم، ولم يرسلهم ليهلك بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة ﴿واصلح﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف. جعل العذاب مأساً كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام ومنه قولهم: لقيت منه الأمرين والأقورين حيث جمعوا جمع العقلاء، وقوله: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾^(١) أي: لا أتعى ما يستبعد في العقول أن يكون

لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه أي: لم أدع الهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستكبرونها، وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة^(٢) ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾^(٣) مثل للضال والمهتدي، ويجوز أن يكون مثلاً لمن أتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع، أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية والملكية ﴿أفلا تتفكرون﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إلي مما لا بد لي منه.

فإن قلت: ﴿أعلم الغيب﴾ ما محله من الإعراب؟ قلت: النصب عطفًا على قوله ﴿عندي خزائن الله﴾؛ لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَرَكٌّ وَلَا شَيْعٌ لَّهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَطْرُقُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْشِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَطَّرْتَهُمْ تَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وانذر به﴾ الضمير راجع إلى قوله: ﴿ما يوحى إلي﴾^(٤) ﴿والذين يخافون أن يحشروا﴾^(٥) إما قوم داخلون في الإسلام مقررون بالبعث إلا أنهم مفروطون في

(1) سورة الفرقان، الآية: 12.

(2) قال أحمد رحمه الله: هو ينبني على القاعدة المتقدمة له في تفصيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري أن ظاهر هذه الآية يؤيده، فلذلك انتهن الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفة أن يقول إنما وردت الآية رداً على الكفار في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول ياكل الطعام، ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك، فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز﴾ الآية، فرد قولهم ما لهذا الرسول ياكل الطعام بأنه بشر، وذلك شأن البشر، ولم يدع أنه ملك، حتى يتعجب من أكله للطعام وحينئذ لا يلزم منها تفصيل الملائكة على الأنبياء؛ لأنه لا خلاف أن الأنبياء ياكلون الطعام، وإن الملائكة ليسوا كذلك، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها، ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وكذلك رد قولهم: أو يلقى إليه كنز فإنه لا يملك خزائن الله تعالى، حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به، وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله لا يستنكف المسيح، أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقرَّبون قال الزمخشري: لأنهم أعلى من الأنبياء، وقد أخرجهم عن دعوى الملكية عن دعوى الإلهية إذ الإلهية أجل، وأعلى الملكية أنى، ولا محل لذلك، إلا التمهيد الذي أسلفته، وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعاً للسباق، فقد تقتضي البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر ولم يحسن الزمخشري في قوله ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل، كالملكية ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ والمنزلة عبارة عن المحل

= الذي ينزل الله فيه العبد من علو، وغيره، فإطلاقها على الإلهية تحريف، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: قوله وادعى المحال يعني: المستحيل ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن وذلك مسيب عن دعوى الإلهية إذا ادعواها لا يجوز أن يجعل البشر أنبياء، ويدل على هذا الجواز قوله، ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً هذا، مع أن العقل يجيزه في قدرة الله تعالى؛ لأن الجواهر متماثلة، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها، فالمعاني التي بها كان الملك ملكاً يجوز أن يخلقها الله تعالى، للبشر وبالعكس، وعدم وقوعه لا يباي استقامته، وإمكانه والله الموفق.

(4) سورة الأنعام، الآية: 50.

(5) قال أحمد: وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل: أنذر به الذين يحشرون؛ لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار كل أحد، والمقصود: تخصيصه بالبعث، وأما وقد قيل: وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فهذا الكلام مستقل برأسه، ومضمونه تخصيص الإنذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث، إما لأنهم مقرَّبون به، وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم، فيحملهم الخوف على النظر المقضي إلى اليقين دون العتاة المصممين على الجحد، وليس كل خائف من البعث، لا شفيع له، فإن الموحدين أجمعين خائفون، وهم مشفوع لهم، وإن عني بالالزمة التي لا ينفك ذو الحال عنها، كالتي في قوله، وهو الحق مصدقاً، فإنما هو حينئذ يبنى على قاعدته في إنكار الشفاعة، فكل خائف عنده لا شفيع له إذا لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل =

كان الأمر على ما يقولون عند الله فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين. وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتَ: أما كفى قوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ حتى ضم إليه ﴿وما من حسابهم عليهم من شيء﴾ قُلْتَ: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى وفي قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل: لا نؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه، وقيل: الضمير للمشركين والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهكم إيمانهم ويحرك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهي، ويجوز أن يكون عطفاً على فتطردهم على وجه التسبب؛ لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم. وقرئ: بالغبوة والعشي.

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْوَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿وكنلك فتناً﴾ ومثل تلك الفتنة العظيم فتناً بعض الناس ببعض أي: ابتليناهم بهم، وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿من الله عليهم من بيننا﴾ أي: انعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من نوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير ونحوه ﴿اللقى الذكر عليه من بيننا﴾⁽⁵⁾ ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾⁽⁶⁾ ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا حتى كان افتتانهم سبباً لهذا القول؛ لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان، وبمن يصمم على كفره فيخله ويمنعه التوفيق.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ كُنْتُمْ رُسُلًا مِّن قَبْلِي فَاسْتَجِبْ لَهُمْ يَكْفُرْ أَمْرًا مِّن عَمَلِكُمْ سَوَاءٌ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِنَا أَوْ لَا يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِنَا إِنَّنَا نَكْفُرُ بِمَا كَفَرُوا وَهِيَ رَجْمَةٌ مِّنَّا لِلْكَاذِبِينَ ﴿٥٨﴾

العمل فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لعلهم يتقون﴾ أي: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقررون بالبعث، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ في موضع الحال من ﴿يحشروا﴾ بمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال. نكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا، ثم أرففهم نكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم وأن لا يطبع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي: عبادته ويوظفون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام وقيل: معناه يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته روي أن رؤوساً من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: لو طردت عنا هؤلاء الأعداء يعنون: فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال وخباب، وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم، وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف، جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فاقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأعدهم معك إن شئت، فقال: نعم طمعاً في إيمانهم⁽¹⁾، وروي أن عمر رضي الله عنه قاله: لو فعلت حتى تنظر إلى ما يصيرون؟ قال: فاكتب بذلك كتاباً، فدعا بصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا وينو منا حتى تمس ركبنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾⁽²⁾ فترك القيام عنا إلى أن تقوم عنه. وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات. ﴿وما عليك من حسابهم من شيء﴾ كقوله: ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾⁽³⁾ وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ما عليك من حسابهم من شيء بعد شهادته لهم بالإخلاص وإبرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن

عنده سواء لا شفيع لهم، إذ لا يخاف، إلا أصحاب الكباثر غير التائبين، أو الكفار ولكل عنده سواء لا شفيع لهم، وحيث اثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه، فهذا عنده لا يخاف من البعث؛ لأنه يستوجب الجنة، فمن تم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان غير حائف، فلا تتناول الآية، وخائف فذاك إنما خاف؛ لأنه استوجب العقاب، فلا شفاعة تتاله، وهذه من دوائفه الخفية، ومكانته المزوية، فتفطن لها والله الموفق برحمته.

- (1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10491).
- (2) سورة الكهف، الآية: 28.
- (3) سورة الشعراء، الآية: 113.
- (4) سورة الأنعام، الآية: 164.
- (5) سورة القمر، الآية: 25.
- (6) سورة الأحقاف، الآية: 11.

﴿فقل سلام عليكم﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييناً لقلوبهم، وكذلك قوله ﴿كتب ريكم على نفسه الرحمة﴾ من جملة ما يقول لهم ليسرهم وييسرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ: إنه فإنه بالكسر على الاستثناف كان الرحمة استفسرت فقبل ﴿أنه من عمل منكم﴾ وبالفتح على الإبدال من الرحمة ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عمله وهو جاهل وفيه معنيان: أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتبوير ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلاً
والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته، وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بواجبة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. وقرئ: ﴿ولتستبين﴾ بالتاء والياء مع رفع السبيل؛ لأنها تنكر وتؤنث، وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل يقال: استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين فنصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع نكر القيامة، ومن نخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم، فنعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ دَعَوْنَ بِنِ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَآ أُتِيحُ
أَهْوَاءَكُمْ فَذُكِّرْتُمْ وَإِنَّا مِنَّا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَّ
بَيِّنَتٍ مِّن رَّبِّي رَكَّبْتُهَا بِرَبِّي مَا سَتَّعِلُّونَ بِرَبِّي إِذِ الْكُفْرُ
إِلَّا لِلَّهِ يَعْصُ أَحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَتِيلِينَ ﴿٥٧﴾

﴿نهيت﴾ صرفت وزجرت بما ركب في من أدلة العقل وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبارة ما تعبدون ﴿من دون الله﴾ وفيه استجهال لهم ووصف بالاحتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة ﴿قل لا تتبع أهواءكم﴾ أي: لا اجري في طريقتكم التي سلكتوها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع اللليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبية لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل ﴿قد ضللت إذا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فانا ضال، وما اتنا من الهدى في شيء، يعني: أنكم كذلك، ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قل

إني على بينة من ربي﴾ ومعنى قوله: ﴿إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صلق ﴿وكذبتم به﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتاً عندك بليل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يفاصوا بالعذاب المستاصل فقال ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (١) ﴿إن الحكم إلا لله﴾ في تأخير عذابكم يقض الحق﴾ أي: القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: القاضين، وقرئ: يقض الحق أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا سَتَّعِلُّونَ بِهِ لَفُضِّتُ بِتِي رَبِّيكَمُ
وَأَنَّهُ أَصَمُّ بِالْأَلْبَابِ ﴿٥٦﴾

﴿لو أن عندي﴾ أي: في قدرتي وإمكانتي ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب ﴿للقضي الأمر بيني وبينكم﴾ لاهلككم عاجلاً غضباً لربي، وامتعضاً من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعاً ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم، وقيل: ﴿على بينة من ربي﴾ على حجة من جهة ربي وهي القرآن وكذبتم به أي: بالبينه، ونكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن.

فإن قلت: بم انتصب الحق؟ قلت: بأنه صفة لمصدر يقضي أي: يقضي القضاء الحق، ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها أي: يصنع الحق ويديره، وفي قراءة عبد الله يقضي بالحق.
فإن قلت: لم أسقط الياء في الخط؟ قلت: اتباعاً للخط اللفظ وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

﴿عندك مغانح أئيب لا يعلمها إلا هو﴾ ويذكر ما في الأبرار والأبرار وما سقط من زركه إلا يعلمها ولا حبة في طلست الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كنف أمين ﴿٥٦﴾

جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال، ومن علم مفاتيحها وكيف تفتح توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتيح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلى ما في المخازن (٢)، والمفاتيح جمع مفتاح وهو:

(1) سورة الأنفال، الآية: 32.

(2) قال أحمد: إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديداً، فإنه يوهم تجدد وصول بعد تباعد، إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد، والله تعالى مقدس عن ذلك والغائب،

= كالحاضر في علمه والعلم بالكائن: هو العلم بما سيكون لا يتغير، ولا يختلف، وليس لنا أن نطلق مثل هذا الإطلاق، إلا عن ثبت، والله الموفق.

ويجوز أن يكون ماضيًا ومضارعًا بمعنى: تتوفاه و «يفرطون» بالتشديد والتخفيف فالتفريط التواني والتأخير عن الحد، والإفراط مجاوزة الحد أي: لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه.

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۚ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسْبِيِّينَ ﴿١٢٧﴾

﴿ثم ردوا إلى الله﴾ أي: إلى حكمه وجزائه ﴿مولاهم﴾ مالكمم الذي يلي عليهم أمورهم ﴿الحق﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿إلا له الحكم﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لا يشغله حساب عن حساب، وقرئ: الحق بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحق.

قُلْ مَنْ يُجِيرُكَ مِنَ ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَرِّ تَدْعُوهُمْ نَضْرَعًا وَخُفِيَةً لَّيِّنَ أَجْنَانًا مِنَ هَذِهِ تَكُونُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢٧﴾ قُلْ اللَّهُ يُجِيرُكُمْ إِنِّي أَمِنُ كُلَّ كَرْبٍ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ظلمات البر والبحر﴾ مجاز عن مخاوقهما وأهوالهما، يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم نو كراكب أي: اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ويجوز أن يراد: ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها ﴿لئن أنجيتننا﴾ على إرادة القول ﴿من هذه﴾ من هذه الظلمة الشديدة، وقرئ: ينجيكم بالتشديد والتخفيف وأنجانا وخفية بالضم والكسر.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَمَسَّ عَیْنُكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ بِيَمِينٍ وَبَعْدًا مِّنْ بَعْدٍ ۚ أَلَمْ تَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَا نَهْمُ بِفَعُولٍ ﴿١٢٨﴾

﴿هو القادر﴾ هو الذي عرفتموه قادرًا وهو: الكامل القدرة ﴿عذابًا من فوقكم﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: ﴿من فوقكم﴾ من قبل أكابركم وسلاطينكم، و ﴿من تحت أرجلكم﴾ من قبل سفلكم وعبيدكم، وقيل: هو حبس المطر والنبات ﴿أو يلبسكم شيعًا﴾ أو يخلطكم فرقةً مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام، ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال من قوله:

وكتبية لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي
وعن رسول الله ﷺ: سألت الله أن لا يبعث على أمتي

المفتاح، وقرئ: مفاتيح وقيل: هي جمع مفتاح بفتح الميم وهو: المخزن ولا حبة ولا رطب ولا يابس عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه، وقوله: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ كالتكرير لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾؛ لأن معنى إلا يعلمها ومعنى: إلا في كتاب مبين واحد، والكتاب المبين علم الله تعالى أو اللوح: وقرئ: ولا حبة ولا رطب ولا يابس بالرفع، وفيه وجهان: أن يكون عطفًا على محل من ورقة، وأن يكون رفعًا على الابتداء وخبره إلا في كتاب مبين، كقولك لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار⁽¹⁾.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَكَّفُ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ۚ ثُمَّ يَبْسُطُكُمْ فِيهِ لِيُقَفَّىٰ أَجَلَ سَمِيِّ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ۚ ثُمَّ يَبْسُطُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَمَلُّونَ ﴿١٢٩﴾

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب للكفرة أي: انتم منسحبون الليل كله كالجيف و«يعلم ما جرحتم بالنهار» ما كسبتم من الأثام فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل وكسب الأثام بالنهار ومن أجله كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول في أمر كذا ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ وهو: الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ وهو: المرجع إلى موقف الحساب ﴿ثم ينبتكم بما كنتم تعملون﴾ في ليالك ونهاركم.

وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿حفظة﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون، وعن أبي حاتم السجستاني أنه كان يكتب عن الأصمعي كل شيء يلطف به من فوائد العلم حتى قال فيه: أنت شبيهة الحفظة تكتب لغط اللفظة، فقال أبو حاتم: وهذا أيضًا مما يكتب.

فإن قلت: الله تعالى غني بعلمه عن كتبة الملائكة فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد؛ لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه مولكون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان تلك أجزر لهم عن القبيح وأبعد من السوء ﴿توفته رسلنا﴾ أي: استوفت روحه، وهم ملك الموت وأعوانه، وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست، يتناول من يتناوله، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين، وقرئ: توفاه،

(1) قال أحمد: وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده؛ لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلف الإيجاب المقصود للعلم في قوله، إلا يعلمها وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم، وهو المقصود، وطالت، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك =

= جديرًا بتجديد العهد بالمقصود، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى، ليلتقاها السامع غضة جديدة غير معلولة بالتكرير، وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان، ونكت اللبان، والله الموفق.

أو كراهة لمساءتهم، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون أي: ينكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها، وروي أن المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخص لهم.

فإن قلت: ما محل ﴿نكرى﴾؟ قلت: يجوز أن يكون نصباً على ولكن يذكرونهم نكراً أي: تذكيراً ورفعاً على ولكن عليهم نكراً، ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل من شيء كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد؛ لأن قوله من حسابهم يأتي ذلك.

وَدَرَّ الَّذِينَ أَحْكَمُوا فِيهِمْ نِيَابًا وَلَهُمْ وَعَرَّهْمُ الْحَيَاةَ الَّتِي بَدَّكَرَ بِهِنَّ أَنْ يُسَلَّ نَفْسٌ يَمَّا كَسَبَتْ لَيْسَ مَا مِنْ دُورٍ اللَّهُ وَرَيٌّْ وَلَا شَيْعٍ وَإِنْ تَمَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّدُ يَمَّهَا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا يَمَّا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَرِيمٍ وَعَدَابٌ أَيْمًا يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧).

﴿اتخذوا بينهم لعباً ولهوا﴾ أي: بينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً، وذلك أن عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب، وغير ذلك من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل نون الجدة، واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها نياباً لهم، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً حيث سخروا به واستهزؤا، وقيل: جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله، والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى نهم: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تشغل قلبك بهم ﴿ونكر به﴾ أي: بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الإيسال المنع؛ لأن المسلم إليه يمنع المسلم قال:

وأبسالي بنى بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق

ومنه: هذا عليك بسل أي حرام محظور، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه أو لأنه شديد البسور، يقال: بسر الرجل إذا اشتد عبوسه فإذا زاد قالوا: بسل، والعباس: منقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ (3) وإن تعدد كل فداء، والعدل الفدية؛ لأن الفادي يعدل

عداباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمي بالسيف، وعن جابر بن عبد الله لما نزل ﴿من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، فلما نزل ﴿أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾ قال: هاتان أهون (1). ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة.

وَكَذَّبَ بِهِنَّ فَمَنْعَهُنَّ وَأَنْ يَكُنَّ عَلَيْهِنَ مِنَ الْكُفْرَانِ (١١).

والضمير في قوله: ﴿وكذب به﴾ راجع إلى العذاب ﴿هو الحق﴾ أي: لا بد أن ينزل بهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم أمنعكم من التكنيب إجباراً إنما أنا منتر.

لِكُلِّ بَرٍّ مَشْتَرٍ بِسَوْفٍ تَمْلُونَ (٧).

﴿لكل نبا﴾ لكل شيء ينبا به يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به ﴿مستقر﴾ وقت استقرار وحصول لا بد منه، وقيل الضمير في به للقرآن.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِلُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْتَدْ بِمَدِّ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٨).

﴿يخوضون في آياتنا﴾ في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فأعرض عنهم﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيرهم﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ ﴿وإمَّا ينسيتك الشيطان﴾ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم ﴿فلا تقعد معهم﴾ بعد الذكرى ﴿بعد أن تذكر النهي﴾. وقرئ: ينسيتك بالتشديد، ويجوز أن يراد، وإن كان الشيطان ينسيتك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين؛ لأنها مما تنكره العقول، فلا تقعد بعد الذكرى، بعد أن ذكرناك قبحها ونهيناك عليه معهم (2).

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦).

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من تنويبهم ﴿ولكن﴾ عليهم أن ينكروهم ﴿نكراً﴾ إذا سمعهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ﴿لعلهم يتقون﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الانعام باب: هل هو القاسر على أن يبعث... (الحديث رقم: 4628).

(2) قال أحمد: وهذا التاويل الثاني يروم تنزيهه على قاعدة التحسين، والتقيح بالعقل، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم، وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل، كمجالسته المستهزئين، فإن قبحها بين بالعقل، فهو مستقل بتحريمها وحيث ورد الشرع بذلك، فهو كاشف لحكمها ومبني على لا منشئ فيها حكماً، وقد علمت

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من عيون إعرابه، ونكت إغرابه التي طالما ذهل عنها غيره، وهو من جنس تنقيحه في منع عود الضمير من

كقوله: ﴿كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (3) فشبّه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعون له فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَبَسَ وَهُوَ الْإِسْلَامُ﴾ وهو الهدى ﴿وَجِدْهُ مَا وَرَاءَهُ ضَلَالًا وَغِيًّا﴾ ومن يبتغ غير الإسلام بيتاً ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

فإن قُلْتُ: فما محل الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾؟ قُلْتُ: للنصب على الحال من الضمير في ﴿نُزِدَ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: اتنكس مشبهين من استهوته الشياطين.

فإن قُلْتُ: ما معنى استهوته؟ قُلْتُ: هو: استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كان معناه: طلبت هويه وحرصت عليه.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿أمرنا﴾؟ قُلْتُ: النصب عطفًا على محل قوله: ﴿إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَبَسَ﴾ على أنها مقولان، كأنه قيل قل هذا القول وقل ﴿أمرنا لنسلم﴾.

فإن قُلْتُ: ما معنى اللام في ﴿لنسلم﴾؟ قُلْتُ: هي: تعليل للأمر بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم.

فإن قُلْتُ (5): فإذا كان هذا وارداً في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ ادْعُوا﴾؟ قُلْتُ: للاتحاد الذي كان بين رسول الله ﷺ والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

فإن قُلْتُ (6): علام عطف قوله: ﴿وَأَنْ تَقِيمُوا﴾؟ قُلْتُ:

المفدى بتمله، وكل عدل: نصب على المصدر وفاعل يؤخذ قوله منها لا ضمير العدل؛ لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ، وأما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُوْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (1) فمعنى المفدى به فصَحَّ إسناده إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً. (2) قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُذِرْ عَلَيْنَا أَعْيَابًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ انْتِنَاءً قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّةَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرًا لِلَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٧٦) وَأَنْ تَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَكُونُوا لِلرِّبَاةِ عَدُوًّا مُّخْلِصِينَ أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ ذَلِكُمْ أَدْعَاؤُكُمْ (٧٧).

﴿قل ادعوا﴾: نعبد ﴿من دون الله﴾ الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا ﴿ونزد على أعقابنا﴾ راجعين إلى الشرك يعد إذ انقذنا الله منه وهدانا للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ كالذي ذهب به مرده الجن والغيلان ﴿في الأرض﴾ المهمة ﴿حيران﴾ تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع ﴿له﴾ أي: لهذا المستهوي ﴿أصحاب﴾ رفقة ﴿يدعونهم إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستوي، أو سمي الطريق المستقيم بالهدى. يقولون له ﴿اتقنا﴾ وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقد أن الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه

قوله، فنفتح فيها إلى الهيئة، من قوله كهيئة الطير مع أنه السابق إلى الذهن، وإنما حمل على القول بأن العدل ههنا: مصدران الفعل تعدى إليه بغير واسطة، ولو كان المراد: المفدى، لكان مفعولاً به، فلم يتعد إليه الفعل، إلا بالباء، وكان وجه الكلام، وإن تعدل بكل عدل، فلما عدل عنه علم أنه مصدر، والله أعلم.

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ومن أنكر الجن، واستيلاءها على بعض الأناسي بقدره الله تعالى، حتى يحدث من تلك الخبطة، والصرع، ونحوهما، فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي حيران له أصحاب من الموحدين، يدعونهم إلى الهدى الشرعي انتناء، وهو راكب في ضلالة التعاسيف، لا يلوي عليهم ولا يلتفت إليهم، فمرة يقول: إن الوارد في الشرع من تلك تخييل كما تقدم في سورة البقرة، ومرة يعده من زعمات العرب، وزخارفها، وقد أسلفنا ذلك في البقرة، وآل عمران قولاً شافياً بليغاً، فجدد به عهداً، والله موفق.

(3) سورة البقرة، الآية: 275.

(4) سورة آل عمران، الآية: 85.

(5) قال أحمد: هو مبني على أن الأمر هو: الإرادة، أو من لوازمه إرادة المأمور به، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا، وأما أهل السنة، فكما علمت أن الأمر عندهم غير الإرادة، ولا يستلزمها وقولهم في هذه اللام، كقولهم في وما خلقت الجن والإنس، إلا ليعبوسن من نفي كونها تليلاً، والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البيئات، وأزيحت عنهم اللل، وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر، جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً، لحضهم على

الامتثال، ولقطع أذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك، ومن شأن المرید للشيء، إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل، ويرفع الموانع، وكذلك فعل مع المكلفين، وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر، كما يقول الزجاج تقديره الأمر للإسلام، وكذلك يقول في قوله تعالى: يريد الله، ليبين لكم الإرادة للبيان، وهي: اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك، لزيد ضربت فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل، وقد قيل إنها بمعنى: أن كأنه قيل، وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل، وكفي، ولا م كفي في أمرت، وأرئت خاصة، بمعنى: أن لا على بابها من التعليل والغرض من دخولها إضافة الاستقبال على وجه أوفق، وأبلغ إذ لا يتعلق هذان المعنيان أعني الأمر، والإرادة، إلا بمستقبل، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكفي وأن في قوله أرئت لكيما أن يطير «البيت»، وهذا الوجه أيضاً سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري، والمحافظة على العقيدة، وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متعينة، والله موفق.

(6) قال أحمد: وهذا مصداق للقول بأن لنسلم، معناه: أن تسلم وأن اللام فيه رديئة أن لا يراد عطفها عليها، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله، وفي ورود آقيمو الصلاة محكياً بصيغته، وورود نسلم محكياً بمعناه، إذ الأصل المطابق، لاقيمو أسلموا مصداق لما قمتمه عند قوله تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾، ويثبت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى: ﴿اعبدوا الله ربي وربكم عيسى﴾ بمعناه، فقال اعبدوا الله ربي وربكم، فهذا مثله في حكاية

المحدثين.

ادعى بأسماء نبزاً في قبائلها كان أسماء أضحت بعد أسماهم

أو أريد عابد أزر فحنف المضاف وأقيم المضاف إليها مقامه. وقرئ: أزر تتخذ أصناماً آلهة، بفتح الهمزة وكسره بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة وهو اسم صنم ومعناه: أتعبد أزر على الإنكار، ثم قال تتخذ أصناماً آلهة تشبيهاً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له (2) ﴿فلما جن عليه الليل﴾ عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾ وقوله: ﴿وكنك نرى إبراهيم﴾ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ يعني: الربوبية والإلهية، ونوفقه لمعرفتها ونرشده، بما شرحنا صدره وسدنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. ﴿وليكون من الموقنين﴾ فعلنا ذلك، ونرى حكاية حال ماضية، (3) وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب؛ فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدير نجر طلوعها وأقولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

﴿هذا ربي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك ادعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿لا أحب الأقلين﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين على حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام ﴿بازغاً﴾ مبتدأ في الطلوع ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هذا أكبر﴾ من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومه ﴿إني بريء مما تشركون﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ أي: الذي بليت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها، وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاها الله، والأول أظهر لقوله: ﴿لئن لم يهدني

على موضع لنسلم كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وإن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا أن نسلم ولأن أقيموا أي: للإسلام وإقامة الصلاة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣).

﴿قوله الحق﴾ مبتدأ ويوم يقول خبره مقدماً عليه وانتصابه بمعنى: الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال، واليوم بمعنى: الحين، والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون تلك الشيء قوله الحق والحكمة أي: لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب و﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾ (1) ويجوز أن يكون قوله الحق فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه الحق كن فيكون قوله الحق، وانتصاب اليوم لمحنوف دل عليه قوله بالحق كأنه قيل وحين يكون ويقدر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ أَنْتَجِدُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَكَ وِقَوْمَكَ فِي صَلَاحٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى النَّجْمَ بَارِئَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩).

﴿أزر﴾ اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وفي كتب التواريخ أن اسمه: بالسريانية تارح، والأقرب أن يكون وزن أزر: فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالغ وفالغ وما أشبهها من أسماهم، وهو عطف بيان لأبيه، وقرئ: أزر بالضم على النداء، وقيل: أزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عيانه، كما نبز ابن قيس بالرققيات اللاتي كان يشب بهن فقيل ابن قيس الرقيات، وفي شعر بعض

= الاستدلال الأول حجة، فانسوا بالقدح في معتقدم، ولو قيل هذا في الأول، فلعلم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض صلوات الله عليه بانهم في ضلالة، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره، والليل على ذلك: أنه ترقى في التوبة الثالثة إلى التصريح، بالبراءة منهم، والتقريع، بانهم على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبليغ الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود، والله أعلم.

= المعنى نون اللفظ، والله أعلم.

(1) سورة غافر، الآية: 16.

(2) قال لحمد: وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه، بما سيأتي من استدلال إبراهيم عليه السلام، وأنه تبصير له من الله تعالى، وتسييد.

(3) قال أحمد: والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح، وأقوى من قوله لولا، لا أحب الأقلين، وإنما ترقى إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد أقامت عليه =

ربي ﴿وقوله: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: لم احتج عليهم بالأنول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قُلْتُ: الاحتجاج بالأنول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

فإن قُلْتُ: ما وجه التنكير في قوله ﴿هذا ربي﴾ والإشارة للشمس؟ قُلْتُ: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك؟ ومن كانت أمك؟ و﴿لم تكن فتنتم إلا أن قالوا﴾⁽³⁾ وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، إلا تراهم قالوا في صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احتراراً من علامة التأنيث. وقرئ: نري إبراهيم ملكون السموات والأرض بالتاء، ورفع الملكوت ومعناه: نصره دلائل الربوبية.

وَمَا جَاءُ قَوْمٌ قَالُوا آمَنَّا بِإِلَهِكُمْ وَإِنَّا لَنَكْفُرُ بِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءُكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ يَأْتِي السَّمْعَ وَأَبْصَرَ وَسَمِعًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ⁽⁴⁾.

﴿وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله﴾ وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك ﴿وقد هدان﴾ يعني: إلى التوحيد ﴿ولا لخاف ما تشركون به﴾ وقد خوفوه أنْ معبوداتهم تصيبه بسوء⁽⁴⁾ ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف، فحنف الوقت يعني: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ننبأ أستوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي ﴿وسع

ربي كل شيء علماً﴾ أي: ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفساد والقادر والعاجز.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿وكيف أخاف﴾ لتخريفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه ﴿و﴾ انتم ﴿ولا تخافون﴾ ما يتعلق به كل مخوف، وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه ﴿سلطاناً﴾ أي: حجة؛ لأنَّ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: ⁽³⁾ وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل فايها أحق بالأمن أنا أم انتم احتراراً من تزكيتة نفسه فعدل عنه إلى قوله: ﴿فأي الفريقين﴾ يعني: فريقي المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله⁽⁶⁾: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس.

وَتِلْكَ حُجَّتُهُمْ دَٰخِلِينَ عَلَىٰ قَوْمِهِمُ الَّذِي كَفَرُوا فَهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لِيُوقَىٰ أُلُوفًا مِّنَ السَّمَاءِ وَتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُدْعُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فلما جنَّ عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ ومعنى ﴿آتيانها﴾ أرشدها إليها ووقفها لها ﴿ترفع درجات من نشاء﴾ يعني: في العلم

(1) قال أحمد: وصدق الزمخشري، بل نك متعين، وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام، فيلتمسون منه الشفاعة، فيقول نفسي نفسي، لا أسأل أحداً غيري، ويذكر كنياته الثلاث، ويقول لست لها يريد قوله، لسارة هي أختي وإنما عنى في الإسلام، وقوله: إنه سقيم، وإنما عنى همه بقومه، وبشركهم، والمؤمن يسقته ذلك وقوله بل فعله كبيرهم، وقد تكررت فيه وجوه من التعريض، فإذا عدَّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام محكى عنه، على أنه نظر لنفسه، لكان أولى أن بعده، وأعظم مما نكرناه؛ لأن حينئذ يكون شكاً بل جزءاً على أن الصحيح، أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك.

(2) قال أحمد: وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) قال أحمد: هو بمعنى يجعلها قادرة على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة، لمن يريد بناء على قاعدته، وقد علمت أن عقيدة أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلاً، أن يخلق غير الله، ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقذور، إلا هو وإن كان الزمخشري لم

= يصرح ههنا من عقيدته، فإنما يعني حيث يصرح، أو يكتى ما يلائمها ويتنزل عليها وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله، لذلك خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى، لا بها وكأنه في الحقيقة لم يخف، إلا من الله؛ لأنَّ الخوف الذي أثبتته منها معلق بمشيئة الله، وقدرته، وهو كلا خوف منها، والله أعلم.

(5) قال أحمد: ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك، ليعم بالأمن كل موحد بالخوف كل مشرك، ويندرج هو في حكم الموحدين، وقومه في حكم المشركين، وأحسن الجواب ما أقاد وزاد (قال: والمراد بقوله ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس).

(6) قال أحمد: وقد ورد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما هو الظلم في قول لقمان، إنَّ الشرك لظلم عظيم، وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة، وأنهم لا حظ لهم في الأمن، كالكفار ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجامعين الأمرين الإيمان، والبراءة من المعاصي، ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة، هو الخوف اللاحق للكفار؛ لأنَّ العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت، وهم آمنون من الخلود، وأما الكفار، فغير آمنين بوجه ما، والله الموفق.

والحكمة، وقرئ: بالثنتين.

وَرَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَسْحُقَ كَلِمَاتٍ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ وَيَمِيْنِ وَإِيَّاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمَسْلُومِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَى الْمَلِكِينَ ﴿٤٩﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَابْنَاتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِرِوَيْدٍ مِّنْ يَشَاءُ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَكَوْضِعُوا لَمِيطَ غَيْرِهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْفُكْرَ وَالشُّرُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدَهُمْ آفَاتَهُ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُنَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿٥٣﴾

﴿ومن ذريته﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم و ﴿داود﴾ عطف على ﴿نوحاً﴾ أي: وهدينا داود ﴿ومن آباؤهم﴾ في موضع النصب عطفًا على ﴿كلاً﴾ بمعنى: وفضلنا بعض آباؤهم ﴿ولو أشركوا﴾ مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حيوط أعمالهم كما قال تعالى وتقدس ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ (١) ﴿آتيناهم الكتاب﴾ يريد الجنس ﴿فإن يكفر بها﴾ بالكتاب والحكمة والنبوة أو بالنبوة ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة ﴿قوماً﴾ هم: الأنبياء المنكورون ومن تابعهم بليل قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وبليل وصل قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ بما قبله، وقيل: هم أصحاب النبي ﷺ وكل من آمن به، وقيل: كل مؤمن من بني آدم، وقيل: الملائكة، وأدعى الانتصار أنها لهم، وعن مجاهد: هم الفرس، ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهد ويحافظ عليه. والباء في بها صلة كافرين. وفي بكافرين تأكيد النفي. ﴿فبهداهم اقتده﴾ فاختص هداهم بالافتداء، ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهم: طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين بون الشرائع فإنها مختلفة وهي هدى ما لم تنسخ فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدًا، والهاء في اقتده للوقف تسقط في الدرج واستحسن إثارة الوقف لثبات الهاء في المصحف.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْمَعُوا قُرْآنِيَّسَ بَدُونَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّيْتُمْ مَا لِرَّ سَامُوا أَنزَلَ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلْ اللَّهُ ذُرُّهُمْ فِي حَوْصِهِمْ يَلْعَنُونَ ﴿٥٤﴾

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ وما عرفوه حق معرفت

في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعث الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجل نعمته ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (٢) أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم، ولد يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة. والقائلون: هم اليهود بليل قراءة من قرأ: تجعلون بالباء وكذلك: تبنونها وتخفون، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فالزمو ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليا السلام (٣)، وادرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليها سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل: ﴿جاء به موسى﴾ وهو نور وهدى للناس حتى غيره ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفزقة ليمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء، وروي أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود رؤسائهم قال له رسول الله ﷺ أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين، فانت الحبر السمين، قد سمعت من مالك الذي يطعمك اليهود، فضحك القوم، فغضب ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه: ويك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف (٤)، وقيل: القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة نكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون: لو أننا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ الخطاب لليهود أي: علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم، إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وقيل: الخطاب لمن آمن من قريش كقوله تعالى: ﴿ولتنترن قوماً ما أنتر آباؤهم﴾ (٥) ﴿قل الله﴾ أي: أنزله الله، فإنهم لا يقدرون أن ينكروا ﴿ثم نرهم في خوضهم﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب و﴿يلعبون﴾ حال من نرهم أو من خوضهم، ويجوز أن يكون في خوضهم حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو لنرهم.

وَهَذَا كَيْفَ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَاطُونَ ﴿٥٤﴾

﴿مبارك﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿ولتنتذر﴾ معطوف

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

(2) سورة الانبياء، الآية: 107.

(3) قال احمد: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في = (5) سورة يس، الآية: 6.

= آثار معانته، وإبراز محاسنه.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 125.

الماء فاستعيرت للشدة الغالبة ﴿بَاسطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ يبسطون⁽⁵⁾ إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح والتشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمهال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من

عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له: اخرج إلي مالي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ خلصوها من أيدينا أي: لا تقدرين على الخلاص ﴿اليوم تجزون﴾ يجوز أن يريدوا وقت الإمامة وما يعذبون به من شدة النزاع وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاوّل الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. و ﴿الهنون﴾ الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكّن فيه ﴿عن آياته تستكبرون﴾ فلا تؤمنون بها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُوهُمْ فَرَأَوُا كَمَا كَفَرْتُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ عَذَابٍ لَّهِمْ وَأَنْتُمْ بِالْغَيْبِ وَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ مُّجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

﴿فردى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم، وما حرصتم عليه وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم شركاء لله ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ على الهيئة التي ولّتم عليها في الانفراد ﴿وتركتكم ما حولناكم﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ لم ينفعكم، ولم تحتملوا منه نقيرًا، ولا قدمتموه لأنفسكم ﴿فيكم شركاء﴾ في استعبادكم؛ لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوها شركاء فيهم وفي استعبادهم. وقرئ: فرادى بالتنوين، وفرداء مثل ثلاث، وفردى نحو سكرى.

فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم ﴿تقطع بينكم﴾ وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل، ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول: قوتل خلفكم وأمامكم، وفي قراءة عبد الله: لقد تقطع ما بينكم.

﴿فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم﴾

﴿فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم﴾

﴿فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم﴾

على ما دلّ عليه صفة الكتاب كأنه قيل: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدّمه من الكتب والإنذار، وقرئ: ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة ﴿أم القرى﴾ لأنها مكان أول بيت وضع للناس؛ ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم؛ ولأنها أعظم القرى شأنًا، وبعض المجاورين.

فمن يلق في بعض القرى رحله فأم القرى ملقى رحالي ومنطابي ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصنّفون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون﴾ بهذا الكتاب وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة، لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ وَالنَّارِ كَيْدًا بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْرَبُونَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿افتري على الله كتابًا﴾ فزعم أن الله بعثه نبيًا ﴿وقال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء﴾ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي، وعن النبي ﷺ: رأيت فيما يرى النائم كان في يدي سوارين من ذهب، فكبرا علي وأهمني، فأوحى الله إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي⁽¹⁾ ﴿وومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فكان إذا أملى عليه سميعًا علميًا، كتب هو: علميًا حكيماً، وإذا قال: علميًا حكيماً، كتب: غفورًا رحيمًا، فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾⁽²⁾ إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبتها فكذلك نزلت، فشك عبد الله، وقال: لئن كان محمدًا صادقًا لقد أوحى إلي مثل ما أوحى إليه، ولئن كان كاذبًا فلقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بمكة ثم رجع مسلمًا⁽³⁾ قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤن ﴿ولو ترى﴾ جوابه محنوف أي: لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إذ للظالمون﴾ يريد الذين نكروهم من اليهود والمثنية فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله، و ﴿غممرات الموت﴾ شدائده وسكراته، وأصل⁽⁴⁾ الغمرة ما يغمر من

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: النفخ في العناب، (الحديث رقم: 7027) وفي كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ (الحديث رقم: 2274).

(2) سورة المؤمنون، الآية: 12.

(3) كشف الاستار، كتاب: للتفسير، باب: سورة الأنعام، (الحديث رقم: 2210).

(4) قال أحمد: هو يجعله من مجاز التمثيل، ولا حاجة إلى ذلك والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة، فلا معدل عنها.

(5) قال أحمد: ومثله ويبسطوا إليكم أيديهم، والسننهم بالسوء.

(6) قال أحمد رحمه الله: وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض﴾

الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا: انشق عمود
الفجر، وانصدع الفجر، وسماوا الفجر فلماً بمعنى: مفلوق،
وقال الطائي:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقرى: فائق الإصباح وجاعل الليل سكناً، بالنصب على
المدح، وقرأ النخعي: فلق الإصباح وجعل الليل. السكن: ما
يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه من
زوج أو حبيب، ومنه قيل للنار: سكن لأنه يستأنس بها، إلا
تراهم سموها: المونسنة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار
لاستراحته فيه وجمامه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل
مسكوناً فيه من قوله: «لتسكنوا فيه»⁽¹⁾ «والشمس
والقمر» قرناً بالحركات الثلاث، فالنصب على إضمار فعل
دل عليه جاعل الليل أي: وجعل الشمس والقمر حساباً، أو
يعطفان على محل الليل.

فإن قلّت: كيف يكون لليل محل الإضافة حقيقية؛ لأن
اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضي ولا تقول: زيد
ضارب عمراً أمس؟ قلّت: ما هو في معنى المضي وإنما
هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة، وكذلك
فائق الحب وفائق الإصباح، كما تقول: الله قابر عالم فلا
تقصد زماناً نون زمان، والجر عطف على لفظ الليل،
والرفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره والشمس
والقمر مجعولان حساباً أو محسوبان حساباً، ومعنى
جعل الشمس والقمر حساباً جعلهما علمي حسابان؛ لأن
حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما، والحسبان بالضم
مصدر حسب، كما أن الحسبان: الكسر مصدر حسب،
وتنظيره الكفران والشكران «نلك» إشارة إلى جعلهما
حساباً أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم «تقدير
العريز» الذي قهرهما وسخرهما «العليم» بتدبيرهما
وتنويرهما «في ظلمات البر والبحر» في ظلمات الليل
بالبر والبحر، وأضافها إليهما لملاستها لهما، أو شبه

مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة «يخرج
الحي من الميت» أي: الحيوان والنامي من النطف والبيض
والحب والنوى «ومخرج» هذه الأشياء الميتة من الحيوان
والنامي.

فإن قلّت: كيف قال: «مخرج الميت من الحي» بلفظ
اسم الفاعل بعد قوله: «يخرج الحي من الميت» قلّت:
عطفه على فائق الحب والنوى لا على الفعل، و «يخرج
الحي من الميت» موقعه موقع الجملة المبينة لقوله:
«فائق الحب والنوى» لأن فلق الحب والنوى بالنبات
والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأن
النامي في حكم الحيوان؛ إلا ترى إلى قوله «يحيي الأرض
بعد موتها»⁽¹⁾ «نلكم الله» أي: نلكم المحيي والميت هو:
الله الذي تحقق له الربوبية «فأنى تؤفكون» فكيف
تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

فَأَيُّ الْإِسْبَاحِ وَجَمَلَ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَاللَّمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْمَرْبِزِ الْعَلِيمِ (١٦) وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٧) وَهُوَ الَّذِي
أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٍ وَمُسْتَوْعٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (١٨).

«الإصباح» مصدر سمي به الصبح، وقرأ الحسن
بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله:
أفنى رياحاً وبنى رياح تنلسخ الإساءة والإصباح
بالكسر والفتح مصدرين وجمع مساء وصبح.
فإن قلّت⁽²⁾: فما معنى فلق الصبح والظلمة هي التي
تنتقل عن الصبح؟ كما قال:

تردت به ثم انغرى عن أديمها تفري ليل عن بياض نهار
فإن قلّت: فيه وجهان: أحدهما: بأن يراد فائق ظلمة
الإصباح وهي الغيبش في آخر الليل ومنقضاه الذي يلي
الصبح، والثاني: أن يراد فائق الإصباح الذي هو عمود

= فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن
السامع، ومنه إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي، والإشراق،
والطير محشورة، فعدل عن مسبحات، وإن كان مطابقاً لمحشورة
بهذا السبب، والله أعلم، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون
العناية به أقوى، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في
القدره من عكسه، وهو أيضاً أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه
ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه، فكان
الأول جديراً بالتصوير والتأكيد في النفس، ولذلك هو مقدم أبداً
على القسم الآخر في الذكر على حسب ترتيبهما في الواقع وسهل
عطف الاسم على الفعل، وحسنه أن اسم الفاعل في معنى الفعل
المضارع، فكل واحد منهما يقدر بالآخر، فلا جناح في عطفه
عليه، والله أعلم.

(1) سورة الحديد، الآية: 17.

(2) قال أحمد: وقيل الخالق والفالق بمعنى، فيكون المراد: خالق
الإصباح، والأظهر ما فسره عليه المصنف، والله أعلم.

(3) = سورة يونس، الآية: 67.

= بعد موتها، وكذلك تخرجون» وقوله: «أمن يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي»، فعطف أحد
القسمين على الآخر كثيراً لئيل على أنهما توأمان مقترنان، ونلك
يبعد قطعه عنه في أية الانعام هذه وروده إلى فائق الحب، والنوى،
فالوجه، والله أعلم أن يقال: كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل
أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله: «فائق
الحب وفائق الإصباح وجاعل الليل ومخرج الحي من الميت» إلا
أنه عدل عن اسم الفاعل إلى للفعل المضارع في هذا الوصف
وحده وهو قوله: «يخرج الحي من الميت» إرادة لتصوير إخراج
الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وهذا التصوير
والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع نون اسم
الفاعل، والماضي، وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى: «الم تر
أن الله أنزل من السماء ماءً، فنصب الأرض مخضرة، فعدل عن
الماضي المطابق، لقوله أنزل لهذا المعنى، ومنه ما في قوله:

إني قد ألقيت الغول تسمى بسبب كالمصحفة صحسحان
فأخذها فأضربه فخرت صريعاً لليبين وللجران

النخل قنوان، ومن قرأ: يخرج منه حب مترابك، كان قنوان عنده معطوفاً على حب، والقنوان جمع قنور، ونظيره صنو وصنوان، وقرئ: بضم القاف ويفتحها على أنه اسم جمع كركب؛ لأنّ فعلان ليس من زيادة التفسير «دانية» سهلة المجتنى معرضة للمقاطف كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول، وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض وقيل: نكر القريية وترك نكر البعيدة لأنّ النعمة فيها اظهر، وأدلّ بنكر القريية على نكر البعيدة كقوله «سرابيل تقيكم الحر»⁽³⁾ وقوله: «وجنات من أعناب» فيه وجهان: أحدهما: أي يراد وثم جنات من أعناب أي: مع النخل، والثاني: أن يعطف على قنوان معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب أي: من نبات أعناب، وقرئ: وجنات بالنصب عطفاً على نبات كل شيء، أي: وأخرجنا به جنات من أعناب وكذلك قوله «والزيتون والرمان» والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص كقوله: «والمقيمين الصلاة»⁽⁴⁾ لفضل هذين الصنفين «مشتبهاً وغير متشابه» يقال: اشتبه الشيطان وتشابها كقولك: استويا وتسوايا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً، وقرئ: متشابهاً وغير متشابه وتقديره: والزيتون متشابهها وغير متشابه والرمان كذلك، كقوله: كنت منه ووادي برياء والمعنى: بعضه متشابهها وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم وذلك لئيل على التعمد نون الإهمال «انظروا إلى ثمره إذا أثمر» إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدرة ومبدره ونقله من حال إلى حال، وقرئ: وينعه بالضم يقال: ينعت الثمرة ينعاً

مشتبهات الطرق بالظلمات. من فتح قاف المستقر كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدره، ومن كسرهما كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول، والمعنى: فلکم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها، أو فمكم مستقر ومنكم مستودع.

فإن قلّت⁽¹⁾: لم قيل «يعلمون» مع نكر النجوم ويفقهون» مع نكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة اللطف وألق صنعة وتبديراً، فكان نكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له.

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْحِهَا قِثَافٌ دَانِيَةٌ وَجَعَلْنَا مِنَ الْأَعْنَابِ وَالرِّمَّانِ مُسْتَبَهِمًا وَجَعَلْنَا مُتَشَابِهًا نَظَرًا إِلَى تَمْرِهِ إِذَا أَمْتَرَ وَيَتَّوَبُ فَإِنِ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾

«فأخرجنا به» بالماء «نبات كل شيء» نبت كل صنف من أصناف النامي يعني: أن السبب واحد وهو: الماء، والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: «تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل»⁽²⁾ «فأخرجنا منه» من النبات «خضراً» شيئاً غصاً أخضر، يقال: أخضر وخضر كأعور وعور وهو: ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة «نخرج منه» من الخضر «حباً متراكباً» وهو: السنبل و«قنوان» رفع بالابتداء «ومن النخل» خبره، و«من طلوعها» بدل منه، كانه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه تقديره: ومخرجة من طلع

تلك درجة خالية ومعناه صار فقيهاً قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم، وفي حديث سلمان أنه قال، وقد سألت امرأة جاهته فقهيته، أي: فهمت، كالمتعجب من فهم المرأة عنه، وإذا قيل: فلان لا يفقه شيئاً كان أتم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئاً وكان معنى قولك لا يفقه شيئاً: ليست له أهلية الفهم، وإن فهم، وأما قولك لا يعلم شيئاً، فغايته نفي حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم، والذي يدل على أنّ التارك للفكرة في نفسه أجهل، وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غير قوله تعالى: «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم آياتاً تبصرون» فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً، وقولنا في إراج الكلام أنه نفي العلم عن أحد الفريقين، ونفي الفقه عن الآخر يعني بطريق التعريض حيث خص العلم بالآيات المفصلة، والتفقه فيها بوقم، فأشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ولا فقه، والله الموفق، فامل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول، فالنظر في الحسن غير ملول.

(2) سورة الرعد، الآية: 4.

(3) سورة النحل، الآية: 81.

(4) سورة النساء، الآية: 162.

(1) قال أحمد: لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة، وما هذا الجواب إلا صناعي، والتحقق أنه لما أريد فصل كليهما فباصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفصلتين متساويتين، في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسناً للنظم، واتساقاً في البلاغة، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتبدر آيات الله، ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المنكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار، ومنافية لها إذ النجوم والنظر فيها، وعلم الحكمة الإلهية في تبديره لها، أمر خارج عن نفس الناظر، لا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقليباتهم في أطوار مختلفة، وأحوال متغايرة، فإنه نظر لا يدعو نفس الناظر، ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك، فجهل الإنسان بنفسه، وبأحواله، وعدم النظر فيها والتفكير أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه، كالنجوم والأفلاك، ومقايير سيرها، وتقليبها، فلما كان لفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفي من أبشع القبيلين جهلاً، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالاً، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف، إذا فهمه، ولو أننى فهم وليس من فقه بضم القاف؛ لأنّ =

وينعاً، وقرأ ابن محيصن: ويانع، وقرئ: وثمره بالضم.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آيِينَ وَظَلَمُوا وَخَرُّوا لَهُمُ يَبِينَ وَبَنَاتٍ يَخْتَرِ عَلَيْهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣٧﴾

أن جعلت ﴿الله شركاء﴾ مفعولي جعلوا نصبت الجن بدلاً من شركاء، وأن جعلت لله لغواً كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على الأول.

فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك، ولذلك قدم اسم الله على الشركاء. وقرئ: الجن بالرفع كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن، وبالجر على الإضافة التي للتبيين، والمعنى: أشركوهم في عبادته؛ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله، وقيل: هم الذين زعموا أن الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضار ﴿وخلقهم﴾ وخلق الجاعلين لله شركاء ومعناه: وعلمو أن الله خالقهم بون الجن، ولم يمنعمهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكاً للخالق، وقيل: الضمير للجن، وقرئ: وخلقهم أي: اختلاقهم الإهك يعني: وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم ﴿والله أمرنا بها﴾^(١) ﴿وخرقوا له﴾ وخلقوا له أي: افتعلوا له ﴿بنين وبنات﴾ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة. يقال: خلق الإهك وخرقه واختلقه وأخرقه بمعنى، وسئل الحسن عنه فقال: كلمة عربية كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي: اشتقوا له بنين وبنات، وقرئ: وخرقوا بالتشديد للتكثير لقوله ﴿بنين وبنات﴾

وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: وخرقوا له بمعنى: وزوروا له أولاداً؛ لأن الموزر محرّف مفير للحق إلى الباطل ﴿بغير علم﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن عمي وجهالة من غير فكر وروية.

بِيدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ وِلْدٌ وَرَبُّكَ لَهُمُ صَاحِبُهُ وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾

﴿بديع السموات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها كقولك: فلان بديع الشعر أي بديع شعره، أو هو بديع في السموات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر أي:

ثابت فيه، والمعنى: أنه عديم النظر والمثل فيها، وقيل البديع بمعنى: المبدع وارتفاعة على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره ﴿إني يكون له ولد﴾ أو فاعل تعالى، وقرئ: بالجر رداً على قوله: ﴿وجعلوا الله﴾ أو على ﴿سبحانه﴾ وبالنصب على المدح وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه أحدها: أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة؛ لأن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والدًا، والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ: ولم يكن له صاحبة بالياء، وإنما جاز للفصل كقوله: لقد ولد الأخیطل أم سوء.

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٧﴾

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترانفة وهي ﴿الله ربيكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أي: ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فاعبُدوه﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيقي بالعبادة فاعبُدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه، ثم قال ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني: وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والأجال رقيب على الأعمال.

لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ
﴿١٣٨﴾

البرص^(٢) هو الجوهر اللطيف الذي ركبته الله في حاسة النظر به تترك المبصرات فالمعنى: أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته؛ لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً كالأجسام والهيئات ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ﴿وهو اللطيف﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الخبير﴾ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار لا تطف عن

= بمجردا حاصلة لكل مؤمن، فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للحسن، وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحسن ثابت غير منفي ولم ينكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلاً لنبلاً، ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأبالة الجواز ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود، لا في جهة إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم، ويجيزهما معاً، وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع، والله الموفق.

(1) سورة الاعراف، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها؛ لأن المصنف تعجل الكلام عليها قبل والذي يريده الآن أن الإبراك عبارة عن الإحاطة ومنه فلما أدركه الفرق، أي: احاط به ﴿وإنا لمدركون﴾، أي: محاط بنا، فالمنفي إذا عن الأبصار إحاطتها به عن، وعلا لا مجرد الرؤية ثم إما أن تقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيد، فنقول يدل لنا أن تخصيص الإحاطة بالنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك، وأقله مجرد الرؤية كما أنا نقول: لا تحيط به الإقحام وإن كانت المعرفة =

إدراكه، وهذا من باب اللطف.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَلَئِمَّا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٧﴾

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله: وما أنا عليكم بحفيظ. والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تبصر، أي: جاءكم من الوحي والتبليغ على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فمن أبصر﴾ الحق وأمن ﴿فلنفسه﴾ أبصر وإياها نفع ﴿ومن عمي﴾ عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضرر بالعمى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

وَكَذَلِكَ نُنْزِلُ الْآيَاتِ لِيَتْلَوْهَا الَّذِينَ يَتُوبُونَ لِيَتُوبُوا ﴿١٨﴾ أَتَبِعَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكُافِرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكِيفٍ ﴿٢٠﴾

﴿وليقولوا﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست تصرفها ومعنى «درست» قرأت وتعلمت، وقرئ: دارست أي: دارست العلماء ودرست بمعنى: قدّمت هذه الآيات وعفّت، كما قالوا: أساطير الأولين، ودرست بضم الراء بالمعنى في درست أي: اشتدّ دروسها، ودرست على البناء للمفعول بمعنى: قرئت أو عفيت، ودارست وفسروها بدارست اليهود محمداً ﷺ، وجاز الإضمار؛ لأنّ الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها أي: دارس أهل الآيات وحملتها محمداً وهم أهل الكتاب، ودرس أي: درس محمد ودارسات علي هي دارسات أي: قديمات أو ذات دروس كـ «عيشة راضية» (١).

فإن قلت: أي فرق بين اللامين في «ليقولوا» و«لنبيينه»؟ قلت: الفرق بينهما أنّ الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أنّ الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل للتبيين شبه به فسيق مساقه، وقيل ليقولوا كما قيل لنبيينه.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: «ولنبيينه» قلت: إلى «الآيات» لأنها في معنى القرآن، كانه قيل: وكذلك نصرف القرآن، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل كقولهم: ضربته زيدا، ويجوز أن يراد فيمن قرأ: درست ودارست درست الكتاب ودرسته فيرجع إلى الكتاب المقدر ﴿لا إله إلا هو﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي لا محل له

من الإعراب، ويجوز أن يكون حالاً من ربك وهي حال مؤكدة كقوله: ﴿وهو الحق مصدقاً﴾ (٢).

وَلَا تَسْبُوا الْآلِهَةَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ لَمَرَّجَهُمْ فَيَتَّبِعُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿ولا تسبوا﴾ الآلهة «الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله» وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (٣) لنهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى.

فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صحّ النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ قلت: ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها؛ لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن نك النهي كما يجب النهي عن المنكر.

فإن قلت: فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة، فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع نك في ديننا؟ قلت: ليس هذا ممن نحن بصده؛ لأن حضور الرجال الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء، فإنهنّ يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن «عدواً» ظلماً وعدواناً، وقرئ: عدواً بضم العين وتشديد الواو بمعناه: يقال عدا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء، وعن ابن كثير: عدواً بفتح العين بمعنى: أعداء «بغير علم» على جهالة باله وبما يجب أن ينكر به «كذلك زينا لكل أمة» مثل تلك التزيين زينا لكل أمة من الأمم الكفار سوء عملهم أي: خليناهم وشانهم ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم، وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا «فيتبئهم» فيؤيخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبُنَا إِنَّا كَانُوا إِتِّفَاقًا ﴿١٩﴾ وَمَا يُشِيرُكُمْ إِلَيْهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَتَقَالِبُ أَنْفُسَهُمْ وَأَعْرَبَهُمْ كَمَا لَرُّ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَرًا وَزَادَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَوْمَهُمْ ﴿٢١﴾

﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم «ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله» وهو (٤) قادر عليها ولكنه لا ينزلها

(١) قال أحمد: ومحز النظر في الآية يتضح بمثال، فنقول إذا قال لك الغائل اكرم، فلأننا فإنه يكافئك وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة، فإذا اشكرت على المشير بكرامه قلت: وما يدريك اني إذا اكرمته

(١) سورة القارة، الآية: 7.

(٢) سورة البقرة، الآية: 91.

(٣) سورة الانبياء، الآية: 98.

إننا نذرهم في طغيانهم أي: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه، وقرئ: ويقلب ويذرهم بإيلاء أي: الله عز وجل، وقرأ الأعمش: وتقلب أفتنتهم وإبصارهم على البناء للمفعول.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا لِلْمَلَكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلُوبًا مَا كَانُوا يَرْجُؤُنَا إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَسْرَفْتُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١٦).

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ (١) ﴿وكلمهم الموتى﴾ كما قالوا: ﴿فاتوا بآياتنا﴾ (٢) ﴿وحسرتنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ كما قالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ (٣) ﴿قبلاً﴾ كفاء بصحة ما بشرنا به وإنزرا، أو جماعات، وقيل ﴿قبلاً﴾ مقابلة، وقرئ: ﴿قبلاً أي: عياناً﴾ إلا أن يشاء الله ﴿مشيئة﴾ إكراه واضطرار ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيقسمون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

﴿وَكَذَلِكَ جَمَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا قَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٧).

﴿وكنكك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم

إلا على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي، فكيف أجيبكم إليها وأتيكم بها؟ ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريك ﴿أنها﴾ أن الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال عز وجل: وما يدريك أنهم لا يؤمنون على معنى: أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به، إلا ترى إلى قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقيل: أنها بمعنى: لعلها، من قول العرب أت السوق أنك تشتري لحماً وقال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خنم وتقويها قراءة أبي: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وقرئ: بالكسر على أن الكلام قد تم قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة، ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح، وقرئ: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أي: يلحفون بانهم يؤمنون عند مجيئها وما يشعركم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعاً عليها فلا يؤمنوا بها ﴿ونقلب أفتنتهم. وذرهم﴾ عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفتنتهم وإبصارهم أي: نطبع على قلوبهم وإبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، وما يشعركم

= يكافئني، فانكرت عليه إثباته المكافاة، وأنت تعلم نفيها، فإن انعكس الأمر، فقال لك: لا تكفره، فإنه لا يكافئك، وكنت تعلم منه المكافاة، فانكرت على المشير بحرمانه قلت، وما يدريك أنه لا يكافئني تريد، وأنا أعلم منه المكافاة، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندین، فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال: وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون، ما تقول في المثال منكرأ على من أثبت المكافاة، وأنت تعلم خلافاً، وما يدريك أنه يكافئني بأسقاط، لا وإن أثبتنا انعكس المعنى إلى أن المعلوم لك الثبوت، وأنت تنكر على من نفي، فلما جاءت الآية تفهم ببديء الرأي، أن الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له، والواقع على خلاف ذلك اختلف العلماء، فحمل بعضهم لا على الزيادة، وبعضهم أول أن بلعل وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محنوف، وقد فتحت أن بعد القسم، فقال التفسير والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأما الرمزخشري، فنطقن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حنن، ولا تأويل، فقال قوله السالف، ونحن نوضح اطراد في المثال المنكور، ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول إذا حرمت زيدا لملك بعدم مكافاة، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافاة، فلك معه حالتان حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعتره في عدم العلم بما أحطت به علماً، فإن أنكرت عليه قلت، وما يدريك أنه يكافئه، وإن عنرته في عدم علمه بأنه لا يكافئه، قلت وما يدريك أنه لا يكافئه يعني: ومن =

= أين تعلم أنت ما علمت أنا من عدم مكافاة، وأنت لم تخبر أمره خيري، فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عنر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى، وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول لا، وتعين، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعداء، والله الموفق للصواب.

(1) سورة الفرقان، الآية: 21.
(2) سورة البخان، الآية: 36.
(3) سورة الإسراء، الآية: 92.
(4) قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الإيمان، فإنه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للإيمان، لاختاروه وأمنوا حتماً ما شاء الله كان، والزمخشري بني على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أن الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً، فلم يؤمنوا إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلعون القول، كما أطلقه سلف هذه الأمة وحملة شريعتها من قولهم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن بل يقولون إن أكثر ما شاءه لم يقع، إذ شاء الإيمان، والصالح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح، إلا القليل، وقليل ما هم وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالرّد تحيلوا في المدافعة بحمل المشيئة المنغية على مشيئة القسر، والاضطرار وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الأراء، وأما وهو القدرة، والمتنوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه، فإلى النار وما بعد الحق، إلا الضلال، والله الموفق للصواب.

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَصِلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي: تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبذل شيئًا من ذلك بما هو أصدق أعدل، و ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ نصب على الحال، وقرئ: كلمة ربك أي: ما تكلم به، وقيل: هي القرآن.

﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الناس أضلوك؛ لِأَنَّ الْأَكْثَرَ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ يَتَّبِعُونَ هَوَاهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أَنْ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ فَهَمَّ يَقْلُدُونَهُمْ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَقْدِرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَوْ يَكْتُمُونَ فِي أَنْ اللَّهُ حَرَّمَ كَذَا وَأَحَلَّ كَذَا. وقرئ: من يضل بضم الياء أي: يضلله الله.

تَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ تَوَكِّفُونَ ﴿١١٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَدَّ فَصَلَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُؤَلَّوْنَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٠﴾ وَذَرُوا ظِلْمَهُ الْإِنْتِهَى وَرَابِطَتَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ آيَاتِ اللَّهِ سَجِرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَخُونُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ لَيُخَوِّلُونَكُمْ إِذَا لَمَعْتُمْ وَلَوْ أَنَّكُمْ لَشُرُوكُمْ ﴿١٢٢﴾

﴿فَكُلُوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تاكلوا مما قتلتم أنتم؟ فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ﴿مما ذكر اسم الله عليه﴾ خاصة بون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما نكر اسم الله عليه هو: المنكى ببسم الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ أي: غرض لكم في أن لا تاكلوا ﴿وقد فصل لكم﴾ وقد بين لكم ﴿ما حرم عليكم﴾ مما لم يحرم وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ﴾ (3) وقرئ: فصل لكم ما حرم عليكم على تسمية الفاعل وهو: الله عز وجل ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة ﴿وإن كثيراً ليضلون﴾ قرئ: بفتح الياء وضمها أي: يضلون فيحرمون ويحللون ﴿بأهوائهم﴾ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

﴿ظواهر الإثم وباطنه﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتهم، وقيل: ما عملتم وما نويتهم، وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر ﴿وإنه لفسق﴾ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي نحل عليه حرف النهي يعني: وأن الأكل منه لفسق، أو إلى الموصول على وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في

نمنهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شياطين﴾ على البعد من عدواً أو على أنهما مفعولان كقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ (1) ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن؛ لاني إذا تعولت بالله ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً. ﴿زخرف القول﴾ ما يزيهه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويمومه ﴿غروراً﴾ خدعاً وأخذاً على غرة ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ ذلك أي: ما علموك أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

وَلَيَصْنَعَنَّ اللَّهُ الْآيَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْمِيَهُمْ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ولتصغي﴾ جوابه محنوف تقديره وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدواً على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما نكر والضمير في ﴿إليه﴾ يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي: ولتميل إلى ما نكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أفئدة﴾ الكفار ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام.

أَفْتَرَى اللَّهُ آيَاتِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُضَلًّا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿أفغير الله ابتغي حكماً﴾ على إرادة القول أي: قل يا محمد أغير الله أطلب حاكماً يحكم ببني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل وهو الذي أنزل إليكم الكتاب المعجز ﴿مفصلاً﴾ مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصلق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ من باب التهيج والإلهاب كقوله تعالى: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ (2) أو ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به، ويجوز أن يكون فلا تكونن خطاباً لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الآلة على صحته وصدقها فما ينبغي أن يمترى فيه أحد، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ خطاباً لأُمَّته.

وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(3) سورة المائدة، الآية: 3.

(1) سورة الأنعام، الآية: 100.

(2) سورة الأنعام، الآية: 14.

نفسه فسقاً.

أي زينه الشيطان أو الله عزّ وعلا على قوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾⁽⁴⁾ ويدل عليه قوله:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمَهَا لِيَحْكُمَ عَلَيْهَا وَمَا نَسْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٦﴾

﴿وكنكك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ يعني: وكما جعلنا في مكة صنائديها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك، ومعناه خليفتاهم ليمكروا وما كففتاهم عن المكر، وخص الأكاير؛ لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس كقوله: ﴿أمرنا مترفياً﴾⁽⁵⁾ وقرئ: أكبر مجرميها على قولك: هم أكبر قومهم وأكابر قومهم ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ لأنّ مكروهم يحيق بهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي أنّ الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأنني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً. وروي أنّ أبا جهل قال: زاحمتنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتية، فنزلت، ونحوها قوله تعالى: ﴿بئس يريد كل امرئ منهم أن يؤتي صحفاً منسرة﴾⁽⁶⁾.

وَإِذَا جَاءَهُمْ مَاءٌ فَآوُوا قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَاءً أَلْحَاقًا اللَّهُ آتَاهُ مَتْنًا حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيَّئَاتُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَصَّارُ عِنْدَ اللَّهِ وَعَدَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفي للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم

فإن قلت⁽¹⁾: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم ينكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد؛ قلت: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما نكر غير اسم الله عليه كقوله: ﴿وفسقا أهل لغير الله به﴾⁽²⁾ ﴿ليوحون﴾ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾ من المشركين ﴿ليجبالوكم﴾ بقولهم ولا تاكلون مما قتلته الله، وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم ينكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصاً في النسيان في العمد ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَجِينَنَّهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَنْ مِّثْلِهِ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِحَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمَكُرُونَ ﴿١٣٨﴾

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به المحق والمبطل والمهتد والضال بمن كان ميثاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به يميز بعضهم من بعض ويفصل بين حلالهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ كمن صفته هذه وهي قوله: في الظلمات ليس بخارج منها بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها كقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾⁽³⁾ أي: صفتها هذه وهي قوله: فيها أنهار ﴿زين للكافرين﴾

يُفَعَلُ الْمَكْلَفُ فِيهَا فَعَلًا يُسَمَّى: فسقاً سوى الأكل، والمنسي تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقاً، لأجل النسيان، فيتعين صرفه إلى الأكل، ومن ثم قوي عند الزمخشري تعميم التحريم، حتى في المنسي؛ لأنه يرى أنّ الميتة مرادة من الآية، ولا بد إذ هي سبب نزول الآية، والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره، فيما عداه، وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسي، كما تقدّم وحينئذ يضطر مبيح المنسي إلى مخصص، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام نكر الله على قلب كل مؤمن من سمى، أو لم يسم وكان الناسي ناكراً حكماً، وإن لم يكن ناكراً وجوداً، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص، ولكن منع لاندراج الناسي في العموم، وسنده الحديث المذكور، ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص، وإن قوي تناوله للسبب، حتى ينهض الظاهرة فيه نصاً، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه، حتى ينحط عن أمالي الظواهر فيه، ويكتفي من معارضته، بما لا يكتفي به منه، لولا السبب، وهذا البحث متطوع بفنون.

(2) سورة الانعام، الآية: 145.

(3) سورة محمد، الآية: 15.

(4) سورة النمل، الآية: 4.

(5) سورة الإسراء، الآية: 16.

(6) سورة المنثر، الآية: 52.

(1) قال احمد: مذهب مالك، وأبي حنيفة سواء في أنّ متروك التسمية عدماً لا يؤكل، سواء كان تهاوناً، أو غير تهاون، ولاشبه قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعداً بيته، فإنه نكر عقيب غير المسمى عليه قوله، وأنه لفسق وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف، وهو: إهمال التسمية، أو تسمية غير الله، فلا يدخل النسيان؛ لأنّ الناسي غير مكلف، فلا يكون فعله فسقاً، ولا هو فاسق، وإن كان نفس الفسق الذبيحة، التي لم يسم عليها، ولم يكن مصدرها، فإنما تسمى الذبيحة: فسقاً نقلاً لهذا الاسم من المصدر إلى الذات، فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسياناً، لا يصح أن تسمى فسقاً إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق، فإذا تمهد ذلك، فيما أن يقول لا دليل في الآية على تحريم منسي التسمية، فبقي على أصل الإباحة، أو يقول فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهي، بما هو فسق، فما ليس بفسق ليس بحرام وهذا، النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية، وأما إذا ثبت أنها مرادة تعين صرف الفسق إلى الأكل، والماكول، وكان الضمير من قوله، وأنه عائد إلى المصدر المنهي عنه، أو إلى الموصول وحينئذ يندرج المنسي في النهي، ولا يستقيم على أنّ الميتة مندرجة، كاندراج المنسي؛ لأنّ الوجه الذي به تدرج الميتة هو: الوجه الذي به يندرج المنسي، إذ يكون الفسق إما للأكل، وإما للماكول نقلاً من الأكل، ولا ينصرف إلى غير ذلك؛ لأنّ الميتة لم

كل آفة وكدر ﴿عند ربهم﴾ في ضمانه، كما تقول لفلان: عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كتبها كقولهم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ (2) ﴿وهو وليهم﴾ مواليتهم ومحبيهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزء ما كانوا يعملون.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَمًا يَمَّشَرُ الْإِنْسَ فَيَدُ اسْتَكْرَاهُ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمُ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آيَاتَكَ أَجَلَتْنَا قَالُوا قَالُوكُمُ اللَّهُ لَا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٧٨)

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف أي: وانكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم قلنا ﴿يا معشر الجن﴾ أو ويوم نحشرهم وقلنا: يا معشر الجن، كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم، والجن هم: الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أضللتهم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم، فحشر معكم منهم الجم الفغير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياء ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين اطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث لئوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم. وقيل: استمتع الإنس بالجن ما في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعونون برجال من الجن﴾ (3) وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال: أعوذ برب هذا الوادي يعني به: كبير الجن، واستمتع الجن بالإنس اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ﴿وويلغنا لجننا الذي أنجلت لنا﴾ يعنون: يوم البعث، وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، واستسلام لربهم وتحسر على حالهم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي: (4) يخلون في عذاب النار الأبدي كله، إلا ما شاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها

بالمكان الذي يضعها فيه منهم ﴿سيصيب الذين لجرموا﴾ من أكابرها ﴿صغار﴾ وقماعة بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وعذاب شديد﴾ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِّبًا كَمَا جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧٩)

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يطف به ولا يريد أن يطف إلا بمن له لطف ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ يطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أن يخذله ويخليه وشانه وهو الذي لا لطف له ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ يمنعه اللطافة حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان، وقرئ: ضيقاً بالتخفيف والتشديد، حرجاً بالكسر وحرجاً بالفتح وصفاً بالمصدر ﴿كانما يصعد في السماء﴾ كأنما يزاول أمراً غير ممكن؛ لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدره، وقرئ: يصعد وأصله يتصعد، وقرأ عبد الله يتصعد ويصاعد وأصله يتصاعد ويصعد من صعد ويصعد من أصدع ﴿يجعل الله الرجس﴾ يعني: الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أو أراد الفعل المؤدي إلى الرجس وهو: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب.

وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذَكَّرْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٨٠)

﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان ﴿مستقيماً﴾ عادلاً مطرداً، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: ﴿وهو الحق مصتقاً﴾ (1).

لَمْ دَارُ اسْتَكْرِهَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَوْ وَابْتِهَارٍ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨١)

﴿لهم﴾ لقوم ينكرون ﴿دار السلام﴾ دار الله يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة السجدة، الآية: 17.

(3) سورة الجن، الآية: 6.

(4) قال أحمد: قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعياً، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية، وفي أختها في سورة هود، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين، وللكفار والمستنئين العصاة؛ لأنهم لا يخلدون، وهذا تأويل أهل السنة، وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود، وتناهى إلى ما نعوذ بالله منه، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، روي الحديث الشاهد لهذا التأويل، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله، وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم، وفقهائهم وزهادهم، وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيتة رفع العذاب، أي: مخلون إلا أن يشاء الله لو شاء

= وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأن خلودهم إنما كان؛ لأن الله تعالى قد شاءه وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم، ولو عذبهم لا يخلدهم، وأن ذلك ليس بامر واجب عليه، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل، وفيها على هذا الوجه نفع في صدر المعتزلة، الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك، وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر باليسر، فقال المراد، والله أعلم إلا ما شاء من زيادة العذاب، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء والمستثنى على هذا التأويل، لم يغير المستثنى منه في الحكم ونحن نبيته، فتقول العذاب والعياذ بالله على درجات متفاوتة، فكان المراد أنهم مخلون في حبس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية، حتى تكاد لبلوغها الغاية، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة تعد =

بعضها ويجحدون في بعضها، أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم.

فإن قلت: لم كرز نكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى: حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون، والثانية: ذم لهم وتخطئة لرايهم ووصف لقلته نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عقوبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه، وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم.

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العقوبة وهو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك و ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة على معنى؛ لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، ولك أن تجعله بدلاً من ذلك كقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع﴾⁽⁴⁾ ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قتموا عليه، أو ظالمًا على أنه لو اهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظلمًا، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿مما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساه عنه، يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

رَبِّكَ لَ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾
 رَبُّكَ أَتَقْوَىٰ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَسْأَلْ بِدِينِكُمْ وَتَسْتَأْذِنُ بَيْنَ يَدَيْكُمْ مَا يَسْأَلُكُمْ مَا يَسْأَلُكُمْ كَمَا أَنْتُمْ كَمَا أَنْتُمْ قَوِيٌّ أَمْخَرِيٌّ ﴿٣٩﴾
 إِنَّكَ مَا نُرِيدُكَ لَأَتَىٰ وَمَا أَنْتَ بِمُحْجَرٍ ﴿٤٠﴾

﴿وربك الغني﴾ عن عبادته وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إن يسألكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستأذن﴾ من بعدكم ما يشاء ﴿من الخلق المطيع﴾ كما أنشاكم من ذرية قوم آخرين ﴿من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

قُلْ يَتَّبِعُوا أَمْرًا عَلَٰكُمْ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَائِلٌ أَسَأَلُكَ تَعَلُّوْتَ مَن كَوَّرْتُ لَهُ عِقَبَةَ النَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٤١﴾

من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي: أنهم يدخلون وأدبًا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خنائه: اهلكتني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئًا إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبدي.

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٢﴾ يَتَمَتَّرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَخْبَرُونَ عَنْكُمْ إِنِّي بَرُّؤُورٌ نَّكَرٌ لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا تَبَدَّلْنَا عَلَٰمًا أَنْفُسًا وَغَرَّاهُمْ كَلْبُؤُورٌ أَلْبُؤُورٌ وَشَهِدُوا عَلَٰمًا أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَكَبِيرَاتٍ ﴿٤٣﴾

﴿نولي بعض الظالمين بعضًا﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضًا كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقربانهم كما كانوا في الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿الم يأتكم رسل منكم﴾ واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم؟ فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم؛ لأنهم به آنس ولو آلف، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة وإنما قيل: رسل منكم؛ لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحَّ ذلك وإن كان من أحدهما كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾⁽¹⁾ وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم كقوله تعالى: ﴿ولو إلى قومهم منذرين﴾⁽²⁾ وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس، ورسول الله ﷺ بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهنا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: ﴿الم يأتكم﴾ لأن الهمة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريرًا لهم وقولهم: ﴿شهنا على أنفسنا﴾ إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم وأنهم محجوجون بها.

فإن قلت: ما لهم مقرين في هذه الآية جاحدين في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾⁽³⁾؟ قلت: تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاوّل، فيقرون في

= معاملة في التعبير، بمعاملة المعابر وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج، إلا بعد هذا البسط وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه ما يؤيده والله الموفق.

(1) سورة الرحمن، الآية: 22.

(2) سورة الاحقاف، الآية: 29.

(3) سورة الانعام، الآية: 23.

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

= ليس من جنس العذاب وخارجة عنه، والشئ إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالصد، كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل، برب، وقومها موضوعان لضرب الكثرة من القلة، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب، وقد حام أبو الطيب حوله، فقال:

لقد جبت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة، فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق، حتى يسوغ =

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٧﴾

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكاً ما جعلوه للأصنام تركوه لها، واعتلوا بأن الله غني، وإنما ذلك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها وقوله ﴿مما ذرأ﴾ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي نراه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذره ولا تزكية ﴿بزعهم﴾ وقرئ بالضم أي: قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك؛ لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القرية ﴿فلا يصل إلى الله﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصلق على المساكين ﴿فهو يصل إلى شركائهم﴾ من إنفاق عليها بذبج نساك عندهما والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ساء ما يحكمون﴾ في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعلمهم ما لم يشرع لهم.

وَكَذَلِكَ زَكَّ يَكْرِيبَ رَبِّ السُّمُكَيْنِ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ يَرُدُّهُمْ وَإِلَيْسُوا عَلَيْهِمْ وَبِهِمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفَرِّقُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وكنكلك﴾ ومثل ذلك التزيين وهو: تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو: علم من الشياطين والمعنى⁽²⁾: أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم

﴿المكانة تكون مصدراً يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان: يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ يحتمل عملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو عملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: أثبت على ما أنت عليه لا تتحرف عنه ﴿إني عامل﴾ أي: عامل على مكانتي التي أنا عليها والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أينا تكون له العاقبة المحمودة وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾⁽¹⁾ وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصى عنه ويعمل بخلافه.

فإن قلت: ما موضع ﴿من﴾ قلت: الرفع إذا كان بمعنى: أي وعلق عنه فعل العلم، أو للنصب إذا كان بمعنى: الذي و﴿عاقبة الدار﴾ العاقبة الحسنی التي خلق الله تعالى هذه الدار لها، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل.

وَجَمَلُوا لِيَوْمَئِذٍ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَأَقْرَأُوا
هَذَا لِيَوْمَ يَرْمِيهِمْ وَهَذَا يُشْرَكُنَا فَمَا كَانَتْ شُرَكَائِهِمْ فَلَآ
يُوصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا كَانَتْ لِيَوْمَ يَوْمِئِذٍ شُرَكَائِهِمْ

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) قال أحمد رحمه الله: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظه كلامه، مما رامهم به، فإنه تخيل أن القراءة أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً، لا نقلًا وسماعاً، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين أن وجه غلظه رؤيته الياء ثابتة في شركائهم، فاستدل بذلك على أنه مجرور وتعين عنده نصب أولاهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً، فقرأه منصوباً قال المصنف: وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جزه بالإضافة وإبدال الشركاء منه وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعني: ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه، الذي يسمج في الشعر فضلاً عن النثر، فضلاً عن المعجز، فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري، أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكان الصواب خلافه، والفصح سواء، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك، ثم تلاها النبي ﷺ على عبد التواتر من الأئمة، ولم يزل عبد التواتر يتناقلونها، ويقرؤون بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد ﷻ، فإذا علمت العقيدة الصحيحة، فلا ميلاة بعدها بقول الزمخشري، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة ولولا عن أن

= المنكر ليس من أهل الشائين أعني علم القراءة، وعلم الأصول، ولا يعد من نوي الفنين المنكورين لخيف عليه الخروج من ربة الدين، وأنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً، فإن هذا القائل لم يشبها بغير النقل، وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر، وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأي غير موقوفة على النقل، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين وما حمله على هذا الخيال، لا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه ونلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وإن كان عسراً إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله، فهو مقدر بالفعل وبهذا التقدير عمل، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة إلا أنه شب بما إضافته غير محضة، حتى قال بعض النحاة: إن إضافته ليست محضة لذلك، فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما يبيانه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس اجنبياً عنه، وكأنه بالتقدير فكه بالفعل، ثم قدم المفعول على الفاعل، وأضافه إلى الفاعل، وبقي المفعول مكانه حين الفك، ويسهل ذلك أيضاً بتغيير حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول، وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل، لوقوعه في =

أَفْرَأَهُ عَلَيْهِ سَبَّحِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿حجر﴾ فعل بمعنى: مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع؛ لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وقرأ الحسن وقاتادة: حجر بضم الحاء، وقرأ ابن عباس: حرج وهو: من التضيق، وكانوا إذا عينوا أشياء من حرتهم وأنعامهم لأهتهم قالوا: ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء ﴿وانعام حرمت ظهورها﴾ وهي: البحائر والسواائب والحوامي ﴿وانعام لا يذكر اسم الله عليها﴾ في الذبح، وإنما ينكرون عليها أسماء الأصنام، وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها، والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله فجعلوها أجناساً بهوهم ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله ﴿افتراء عليه﴾ أي: فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد؛ لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمَرٌ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجٌ وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَبَّحِيهِمْ وَصَنَّهم إِلَهُهم فَكَيْفَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ﴿١٣٩﴾

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسواائب ما ولد منها حياً: فهو خالص للذكور لا تاكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث⁽¹⁾، وأنت ﴿خالصة﴾ للحمل على المعنى؛ لأن ﴿ما﴾ في معنى الأجنة ونكر ﴿محرم﴾ للحمل على اللفظ ونظيره ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾⁽²⁾ ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن تكون مصدرًا وقع

بالواد أو بنحرمهم للأكمة، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب. وقرئ: زين على البناء للفاعل الذي هو: شركاؤهم، ونصب قتل أولادهم وزين على البناء للمفعول الذي هو: القتل، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينهم فقيل: زينهم لهم شركاؤهم، وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمحاً مروئداً كما سمح ورد زج القلوص أبي مزاده.

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء؛ لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك منوحة عن هذا الارتكاب ﴿ليبروهم﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوه عليهم ويشبهوه، وبينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك، وقيل: بينهم الذي يجب أن يكونوا عليه، وقيل: معناه وليوقعوهم في دين ملتبس.

فإن قلت: ما معنى اللام؟ قلت: إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السنة فعلى معنى الصيرورة ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة قسر ﴿ما فعلوه﴾ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل، أو لما فعل الشياطين أو السنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الإشارة ﴿وما يفترون﴾ وما يفترونه من الإفك أو افتراؤهم.

وَقَالُوا هَذَا بَشَرٌ أَلَم يَلْمَهُمْ إِنْ لَهُمْ عِلْمٌ وَإِذْ هُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٤٠﴾

غير مرتبته، إذ ينوي به التأخير، فكانه لم يفصل كما جاز تقدم المضمّن على الظاهر إذا حل في غير رتبته، لأن النية به التأخير وأنشد أبو عبيدة:

فداسهم نوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً:

يفر كن حب السنبل الكناجج بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول، ومما يقوي عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرية، بشواهد من أقسية العربية، تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة، وهذا القدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما، والله الموفق، وما أجريناه في أبحاث الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه، التي يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته، ولا مستبعد من القياس، ولم نغرد في الدلالة المنكورة، إذ المتفق على عدم

= تحمضها لا يسوّغ فيها الفصل، فلا يمكن استقلال الوجه المنكور بالدلالة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: ليسا سواء؛ لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى، وفيه إجمال، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخري الفن وقوعه في الكتاب العزيز، وادعوا أن جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك وعوا في الكتاب العزيز، منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول، وعلى الجملة، فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل، وغيره أولى ما وجد إليه سبيل، وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك، فقال ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن يكون مصدرًا وقع موقع الخالص، كالعافية، أي: نو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب، على أن قوله لنكرونا هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متضمنة؛ لأن المجزور لا يتقدم عليه حاله، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجزور، حتى يتعين المصدر.

(2) سورة محمد، الآية: 16.

بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر، وقيل: منية. والحق هو الزكاة المفروضة، ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقتصدوه واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ في الصدقة، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله ﴿ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾⁽⁴⁾.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَرَشَاءٌ كُنُوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٧٤﴾ تَتَّبِعِيهِ أَرْجَبُ مِنِ الْضَّانِ أَنتَنِي وَمِنَ الْمَمَرِ أَنتَنِي قُلْ الْمَلَائِكَةُ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا أَشْتَكِلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ تَتَّبِعُونَ يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٥﴾ وَمِنَ الْأَيْلِ الْأُنثِيَّيْنَ وَمِنَ الْبَقَرِ الْأُنثِيَّيْنَ قُلْ الْمَلَائِكَةُ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا أَشْتَكِلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفَرَّتْ عَنِّي اللَّهُ كَذِبًا لِيُضِلَّ الْنَّاسَ بِمِثَرٍ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

﴿حمولة وفرشاً﴾ عطف على جنات أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش، وقيل: الحمولة الكبار التي تصلح للحمل، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم. لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحرير من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية.

﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشاً﴾ ﴿اثنين﴾ زوجين اثنين يريد: الذكر والأنثى كالجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة والتميس والعنز، والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجاً وهما زوجان بدليل قوله ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾⁽⁵⁾ الدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ ثم فسرها بقوله: من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، ونحو تسميتهم الفرد بالزوج بشرط أن يكون معه آخر من جنسه تسميتهم الزجاجة كائناً بشرط أن يكون فيها خمر. والضان والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر، وقرنا: بفتح العين، وقرأ أبي: ومن المعزى. وقرى: اثنان على الابتداء. الهمزة في ﴿الذكرين﴾ للإنكار، والمراد بالذكر من الضان والأنثى من المعز. وبالأنثيين الأنثى من الضان والأنثى من المعز على طريق الجنسية، والمعنى: إنكار أن يحرم الله تعالى من جنسي الغنم ضانها ومعزها

موقع الخالص كالعاقبة أي: نو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على أن قوله ﴿الذكورنا﴾ هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدماً؛ لأنَّ المجرور لا يتقدم عليه حاله، وقرأ ابن عباس: خالصة على الإضافة، وفي مصحف عبد الله: خالص ﴿وإن يكن ميتة﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة، وقرى: إن تكن بالتانيث على وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ أهل مكة: وإن تكن ميتة بالتانيث والرفع على كان التامة، وتذكير الضمير في قوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ لأنَّ الميتة لكل ميت نكر أو أنثى فكانه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحرير من قوله تعالى: ﴿وتصف السننهم الكذب﴾⁽¹⁾ ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾⁽²⁾ نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يثنون بناتهم مخافة السبي والفقر.

قَدْ حَبَرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَهْماً بِمِثَرٍ عَلَيْهِمْ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ آفَرَةً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

﴿سَهْماً بغير علم﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم لا هم. وقرى: قتلوا بالتشديد ﴿ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب وغيرها.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُغْتَلِّبًا أَكْثَرَهُمُ وَالزُّيُوتَ وَالرَّيْحَانَ مُنَكِّبًا وَغَيْرَ مُنَكِّبٍ كُنُوا مِنْ شَرِّهِ إِذَا أَمَرَ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٥﴾

﴿أنشأ جنات﴾ من الكروم ﴿معروشات﴾ مسموكات ﴿وغير معروشات﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش، وقيل: المعروشات ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه، وغير معروشات مما أنبتته الله وحشياً في البراري والجبال فهو غير معروش، يقال: عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكتا تعطف عليه القضبان، وسقف البيت عرشه ﴿مختلفاً أكله﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة، وقرى: أكله بالضم والسكون، وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه ومختلفاً حال مقدرة؛ لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ وقرى: ثمره بضمين.

فإن قلت: ما فائدة قوله ﴿إذا أثمر﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قلت: لما أبيع لهم الأكل من ثمره، قيل: إذا أثمر ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾ الآية مكية، والزكاة إنما فرضت

(4) سورة الإسراء، الآية: 29.

(5) سورة النجم، الآية: 45.

(1) سورة النحل، الآية: 62.

(2) سورة النحل، الآية: 116.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

أهل لغير الله به فسقاً.

فإن قُلْتُ: فعلام تعطف ﴿أهل﴾ والام يرجع الضمير في ﴿به﴾ على هذا القول؟ قُلْتُ: يعطف على يكون ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكن في يكون ﴿فمن اضطر﴾ فمن دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿غير باع﴾ على مضطر مثله تارك لمواساته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذ.

وَعَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ وَرَبَّ الْبَقَرِ وَالنَّسْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَوْهَمًا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُلْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِنَبِيِّهِمْ وَإِنَّا لَنَسِيرُونَ ﴿٧٦﴾

نو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرم ذلك عليهم، فعم التحريم كل ذي ظفر ببليق قوله: ﴿فبظلم من الذين هانوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ (2). وقوله: ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها﴾ كقولك: من زيد أخذت ماله تريد بالإضافة زيادة الربط والمعنى: أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة وهي الثروب وشحوم الكلى، وقوله: ﴿إلا ما حملت ظهورها﴾ يعني: إلا ما اشتمل على الظهر والجنوب من السحفة ﴿أو للحوايا﴾ أو اشتمل على الأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الألية، وقيل: الحوايا عطف على شحومها وأو بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهم﴾ وهو: تحريم الطيبات ﴿ببغيتهم﴾ بسبب ظلمهم ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما أوعنا به العصاة لا نخلفه كما لا نخلف ما وعناه أهل الطاعة، فلما عصوا وبغوا الحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب (3).

فإن كَذَّبُوا فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَرِسْمَةٍ وَلَا يُرْدُ بِأَسْمِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فإن كذبوا﴾ في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لأهل طاعته ﴿ولا يرد بأسه﴾ مع سعة رحمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا

شيئاً من نوعي نكورها وإنائها ولا مما تحمل إنثان الجنسين، وكذلك النكران من جنسي الإبل والبقر والأنثيان منهما وما تحمل إنائهما، وذلك أنهم كانوا يحرمون نكورة الأنعام تارة، وإنائها تارة، وأولادهما كيفما كانت نكوراً وإنائاً أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرمها الله، فانكر ذلك عليهم.

﴿نبئوني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن الله حرمه ﴿أم كنتم شهداء﴾ بل كنتم شهداء ومعنى الهمزة: الإنكار يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم، وذكر المشاهدة على مذهبيهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرم هذا الذي تحرمه، فتهكم بهم في قوله: أم كنتم شهداء على معنى: أعرتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالسل ﴿فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿ليضل للناس﴾ وهو: عمرو بن لحي ابن قعدة الذي بحر البحائر وسبب السواحب.

فإن قُلْتُ: كيف فصل بين بعض المعبود وبعضه؟ ولم يوال بينه قُلْتُ: قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبي من المعبود، وذلك أن الله عز وجل من على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبيابحتهم لهم، فاعترض بالاحتجاج على من حرمها، والاحتجاج على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَتَلَمَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ نِسَاءً أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَدْعَى فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَنْ رَبَّنَا غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾

﴿فيما أوحى إلي﴾ تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحى الله تعالى وشرعه لا بهوى الأنفس ﴿محرمات﴾ طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة ﴿أو دمًا مسفوحاً﴾ أي: مصبوحاً سائلاً كالدم في العروق لا كالكدب والطحال، وقد رخص في دم العروق بعد النبح ﴿أو فسقاً﴾ عطف على المنصوب قبله سمي ما أهل به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ (1) و﴿أهل﴾ صفة له منصوبة المحل، ويجوز أن يكون مفعولاً له من أهل أي:

(1) سورة الأنعام، الآية: 121.

(2) سورة النساء، الآية: 160.

(3) قال أحمد: هذه الآية وردت فيمن كفر وافتري على الله، ووعيد الكافر باتفاق واقع به غيره مردود عنه، وأهل السنة وإن قالوا: يجوز العفو عن العاصي الموحّد، فلا يقولون إن ذلك حتم ولا يلزمهم ذلك؛ لأن الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة علق =

= حلول الوعيد بهم بالمشيئة، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر، فهو محمول على المقيد، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر والزمخشري، إنما يندنن حول إلزامهم ذلك، وأنى له.

حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الْكُذِّبَ الْكُذِّبَ مِنْ قَلْبِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنًا ۗ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعْتُمْ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا قَوْمٌ غَرُّونَ ﴿٧٤﴾

﴿سيقول الذين أشركوا﴾⁽¹⁾ إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من نونه من شيء﴾⁽²⁾ يعنون بكفرهم⁽³⁾ وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه ﴿كنلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي جاؤا بالكذب المطلق؛ لأن الله عز وجل ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبرأته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب الكذب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ﴿قل هل عندكم من علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فتخرجوه لنا﴾ وهذا من التهمك والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ في قولكم هذا ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تقديرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف.

قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِيعًا ﴿٧٤﴾

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ يعني: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فلله الحجة البالغة

عليكم على قود مذهبكم ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ منكم ومن مخالفكم في الدين، فإن تعليقكم بينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته فتعالوهم ولا تعابوهم وتوافقوهم ولا تخالفوهم؛ لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنْ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ۗ إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَكُنْ مِنْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٧٥﴾

﴿هلم﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث عند الحجازيين، وبنو تميم تؤنث وتجمع، والمعنى: هاتوا شهادكم وقربوهم.

فإن قلت: كيف أمره باستحضار شهادتهم الذين يشهدون أن الله جرح ما زعموه محرماً ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهادتهم أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به، وقوله: ﴿فلا تشهد معهم﴾ يعني: فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم ﴿ولا يتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع لهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله تعالى.

فإن قلت⁽⁴⁾: هلا قيل قل لهم شهداء يشهدون أن الله

(1) قال أحمد: فأنثت توطين النفس على الجواب، ومكافحتهم بالرّد، وإعادة الحجة قبل أوّنها، كما قال سيقول السفهاء من الناس.

(2) سورة النحل، الآية: 35.

(3) قال أحمد رحمه الله: قد تقدّم أيضاً للكلام على هذه الآية، وأوضحنا أن الرّد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشرافهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا: أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فردّ الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار، لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قلبهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، وأشرك بالله، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأنّ الحجة البالغة له، لا لهم بقوله لا الله الحجة البالغة، ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وأنه لو شاء منهم الهداية، لاهتدوا أجمعوا بقوله، فلو شاء لهداكم أجمعين، والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار، لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة، وإذا تبترت هذه وجبت كافيّة في الرد على من زعم من أهل القبلة: أنّ العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة، والمصنّف يخالف في=

= الحقائق، فيسمى أهل السنة مجبرة، وإن اثبتوا للعبد اختياراً وقدرة؛ لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة، لأنفاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة، وجماع الرد على المجبرة التين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا إلى قوله قل: فلله الحجة البالغة﴾ وتنتمى الآية، ردّ صراح على طائفة الاعتزال القائلين، بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم وجه الردّ أن لو إذا دخلت على فعل مثبت نفته، فيقتضى ذلك أنّ الله تعالى لما قال، فلو شاء لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت فهذا تصريح بطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتغال الآية، على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أوّلها، والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنّها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فإنّ أوّلها كما بينا ثبت للعبد اختياراً، وقدرة على وجه يقطع حجته، وعذره في المخالفة والعصيان، وأخرها ثبت نفوذ مشيئة الله أيضاً، وقدرته في أفعال عباده فهم كما رايت تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت، وينفون ما نفى، مؤيدون بالعقل والنقل، والله الموفق.

(4) قال أحمد رحمه الله: ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل، وهو قوله هلم بشهداء يشهدون، يفهم أن الطالب للشهداء =

حرم هذا، وأي فرق بينه وبين المنزل؟ قُلْتُ: المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقللونهم ويشقون بهم ويعتضدون بشهانتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبيط الباطل، فاضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه: هاتوا أناساً بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغررض، ويناقضه قوله تعالى: ﴿وإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ الْإِلْقِطَ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُوا وَلَا كَافٌ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفُؤًا ذَلِيلًا وَمَنْكُمْ بِهِ لَمَلَكٌ نَذِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم وهي حفظه وتثميته، والمعنى احفظوه عليه حتى يبلغ أشده فانفعوه إليه ﴿بالقسط﴾ بالسوية والعدل ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ إلا ما يسعها ولا تعجز عنه وإنما اتبع الأمر بلفاء الكيل والميزان، ذلك لأن مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه ﴿ولو كان ذا قربي﴾ ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل فما ينبغي أن يزيد في القول أن ينقص كقوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (4). وقرئ: وأن هذا صراطي مستقيماً بتخفيف أن، وأصله وأنه هذا صراطي على أن الهاء ضمير الشأن والحديث، وقرأ الأعمش، وهذا صراطي، وفي مصحف عبد الله: وهذا صراط ربكم، وفي مصحف أبي: وهذا صراط ربك ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿فتفرق بكم﴾ فتفرقكم أيادي سبأ ﴿عن سبيله﴾ عن صراط الله المستقيم وهو: دين الإسلام. وقرئ: فتفرق بإدغام التاء، وروى أبو وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: أنه خط خطأ، ثم قال: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطأ، ثم قال: هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذه

حرم هذا، وأي فرق بينه وبين المنزل؟ قُلْتُ: المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقللونهم ويشقون بهم ويعتضدون بشهانتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبيط الباطل، فاضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه: هاتوا أناساً بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغررض، ويناقضه قوله تعالى: ﴿وإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾.

قُلْ مَكَالًا آتَىٰ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرُكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾

تعال من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله: من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم و ﴿ما حرم﴾ منصوب بفعل التلاوة أي: أتى الذي حرمة ربكم، أو يحرم بمعنى: أقل أي شيء حرم ربكم: لأن التلاوة من القول وأن في ﴿إلا تشرکوا﴾ مفسرة ولا للنهي.

فإن قُلْتُ: هلا قلت هي التي تنصب الفعل وجعلت أن لا تشرکوا بدلاً من ما حرم؟ قُلْتُ: يجب أن يكون لا تشرکوا ولا تقربوا ولا تقتلوا ولا تتبعوا السبل نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ لأن التقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وأوفوا، وإذا قلت فاعملوا، وبعهد الله أوفوا.

فإن قُلْتُ: فما تصنع بقوله: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشرکوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل حتى يكون المعنى أتى عليكم نفي الإشراف والتوحيد، وأتلى عليكم أن هذا صراطي مستقيماً؟ قُلْتُ: أجعل قوله: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً﴾ علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى: ﴿وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ (1) بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل: واتبعوه صراطي، لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم.

فإن قُلْتُ: إذا جعلت أن مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) سورة الإسراء، الآية: 31.

(3) سورة الانعام، الآية: 120.

(4) سورة النساء، الآية: 135.

= ليس على تحقيق من أن ثم شهداء كما يقول الحاكم للمدعي، هات بيينة تشهد لذلك، فهو لا يتحقق أن للمدعي بيينة ثم يكون قوله، فإن شهدوا تحقيقاً: لأن ثم شهداء، فالجمع بينهما متناقض، كما ترى، والله الموفق.

والأصل وأنه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن **﴿عن دراستهم﴾** عن قراءتهم أي: لم نعرف مثل دراستهم.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَمَجِرَىٰ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن آيَاتِنَا سَوَاءَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصُدُّونَ ﴿٧٧﴾

﴿لكننا أهدى منهم﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها على أنا اميون. وقرئ: أن يقولوا أو يقولوا بالياء **﴿فقد جاءكم بيينة من ربكم﴾** تبكيت لهم وهو على قراءة من قرأ: يقولوا على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات، والمعنى إن صدقكم فيما كنتم تعنون من أنفسكم فقد جاءكم بيينة من ربكم فحفظ الشرط وهو من أحسن الحنوف **﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾** بعدما عرف صحتها وصدقها أو تمكن من معرفة ذلك **﴿وصدق عنها﴾** الناس فضل وأصل **﴿سنجزى الذين يصدقون عن آياتنا سوء العذاب﴾** كقوله: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب﴾** ⁽¹⁾ **﴿الملائكة﴾** ملائكة الموت أو العذاب.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْشٌ مِّن رَّبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْشٌ مِّن رَّبِّكَ لَا يَصْنَعُ نَفْسًا إِنشَاءً لَّز تَكُنَّ ءَأَمْنَتٌ مِّن قَبْلٍ أَوْ كَسَبَتْ فِتْنَةً لِّسَانًا غَيْرًا فَلِئِنْ نَظَرُوا إِنَّا سُنْظِرُونَ ﴿٧٨﴾

﴿أو يأتي ربك﴾ أو يأتي كل آيات ربك بلبيل قوله **﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾** يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشرط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك، وعن الجراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ اشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة، قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: اللخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بجزيرة العرب، والجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويجوج وماجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن» ⁽²⁾ **﴿لم تكن آمنت من قبل﴾** صفة لقوله:

﴿نففساً﴾ وقوله: **﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾** عطف على **﴿آمنت﴾** والمعنى: أن أشرط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أو ان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق ⁽³⁾ كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت

الآية **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾** وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وقيل: إنهن أم الكتاب، من عمل بهن نخل الجنة، ومن تركهن دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، أن هذه الآيات لأول شيء في التوراة.

﴿فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾؟ قلت: على ﴿وصاكم به﴾.﴾

﴿فإن قلت: كيف صح عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة لم تزل توصاه كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، فكانه قيل: نلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً.﴾

ثُمَّ ءَأْتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّمَنْ يُّؤْمِنُ ﴿٧٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكًا فَآتَيْنَاهُ وَأَنْشَأُوا لَكُم مِّنْجُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ثم﴾ اعظم من نلك أنا **﴿آتينا موسى الكتاب﴾** وانزلنا هذا الكتاب المبارك، وقيل: هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله تعالى: **﴿وهبنا له إسحق ويعقوب﴾** ⁽¹⁾ **﴿تماماً على الذي أحسن﴾** تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن على من كان محسناً صالحاً، يريد: جنس المحسنين وتدل عليه قراءة عبد الله: على الذين أحسنوا، أو أراد به موسى عليه السلام، أي: تمتة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي: زيادة على علمه على وجه التتميم، وقرأ يحيى بن يعمر على الذي أحسن بالرفع أي: على الذي هو أحسن بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ **﴿مثلاً ما بعوضة﴾** ⁽²⁾ بالرفع أي: على الدين الذي هو أحسن بين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تملماً أي: تماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب أي: على الوجه والطريق الذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبي: أتم له الكتاب على أحسنه.

أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَلنَّظِيرِ ﴿٨١﴾

﴿أن تقولوا﴾ كرامة أن تقولوا **﴿على طائفتين﴾** يريون أهل التوراة وأهل الإنجيل **﴿وإن كنا﴾** هي أن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية،

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة (للحديث رقم: 7214).

(5) قال أحمد رحمه الله: هو يوم الاستدلال على صحة عقيدته، في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية، إذ سوى بينهما في =

(1) سورة الأنعام، الآية: 84.

(2) سورة البقرة، الآية: 26.

(3) سورة النحل، الآية: 88.

﴿بَيْنًا﴾ نصب على البذل من محل إلى صراط؛ لأن معناه: هدائي صراطًا بليلى قوله: ﴿ويهديكم صراطًا مستقيماً﴾⁽³⁾ والقيم فيعمل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم، وقرئ: قِيمًا، والقيم مصدر بمعنى: القيام وصف به ﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان و﴿حنيفًا﴾ حال من إبراهيم.

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وعبادتي وتقربي كله، وقيل: وذبحي، وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾⁽⁴⁾ وقيل: صَلَاتِي وَحُجِّي من مناسك الحج و﴿ومحياي ومماتي﴾ وما أتبه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿الله رب العالمين﴾ خالصة لوجهه و﴿وبنلك﴾ من الإخلاص و﴿أمرت وأنا أول المسلمين﴾: لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته.

قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَيُّ رَبًّا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْفُرْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا ۚ وَلَا تَزِدُ زَائِدَةً وَزَدَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ فَتُبْتَكَرُ فَيُنَبِّئُكَ بِمَا كُنتُمْ فَعِبَاءً ۚ وَقِيلَ: هي منسوخة بآية السيف.

﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَيُّ رَبًّا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْفُرْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا﴾ جواب عن دعائهم له على عبادة آلهتهم، والهزمة للإنكار أي: منكر أن أبغي ربًّا غيره ﴿وهو رب كل شيء﴾ فكل من دونه مريبوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾⁽⁵⁾ ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾⁽⁶⁾.

رَبُّو الْأَرْضِ جَمَلَكُمْ عَلَيَّ الْأَرْضِ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ يَسُبُّوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُتُوْرٌ رَجِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿جعلكم خلائف الأرض﴾: لأن محمدًا ﷺ خاتم

الإيمان وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرًا ليعلم أن قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾⁽¹⁾ جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداها عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد وإلا فالشقوة والهلاك ﴿قل انظروا إنا منقظون﴾ وعيد. وقرئ: أن يأتيهم الملائكة بالباء والتاء. وقرأ ابن سيرين: لا تنفع البتاء، لكون الإيمان مضافًا إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهبت بعض أصابعه.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَنْتُمْ إِلَى اللَّهِ مُمْرِقُونَ يَوْمَ يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامِ ﴿١١٦﴾.

﴿فرقوا دينهم﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى، وفي الحديث: افرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافرقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة⁽²⁾، وقيل: فرقوا دينهم فأمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرئ: فارقوا دينهم، أي: تركوه و﴿كانوا شيعًا﴾ فرقًا كل فرقة تشيع إمامًا لها ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرقهم، وقيل: من عقابهم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُم لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿عشر أمثالها﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف تقديره: عشر حسنات أمثالها، وقرئ: عشر أمثالها برفعها جميعًا على الوصف، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثوابًا بغير حساب، ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزداد على عقابهم.

قُلْ إِنِّي مَهْدِيٌّ رَبِّي وَإِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (الحديث رقم: 4596)، والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (الحديث رقم: 2640)، والحاكم في المستدرک 6/1 و128 وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6247) وأخرجه أبو داود عن معاوية (الحديث رقم 4597).

(3) سورة الفتح، الآية: 20.

(4) سورة الكوثر، الآية: 2.

(5) سورة الزمر، الآية: 64.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 12.

= عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات، ولا يتم له ذلك، فإن هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف، وأصل الكلام يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفسًا لم تكسب في إيمانها خيرًا قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لف الكلامين، فجعلهما كليًا واحدًا بلاغة واختصارًا، وإعجازًا أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل، فهو غير مخالف لقواعد السنة، فإننا نقول لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير، وإن نفع الإيمان المتقدم في السلامة من الخلود، فهذا بان يدل على رد الاعتزال أجدر من أن يدل له، والله الموفق.

(1) وردت الآية في خمسين موضعًا في القرآن، منها: سورة البقرة، الآية: 25.

أنزل إليك إنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنزهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتَ: فما محل ﴿نكروى﴾؟ قُلْتَ: يحتمل الحركات الثلاث: النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتتذرن به وتنكر تنكيراً؛ لأنَّ النكروى اسم بمعنى: التنكير، والرفع عطفًا على كتاب أو بانه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تتذرن أي: للإنذار وللنكر.

فإن قُلْتَ⁽⁵⁾: النهي في قوله: ﴿فلا يكن﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قُلْتَ: هو: من قولهم لا أرىك هنا.

أَتَيْمُوا مَا أُرِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رِزْقٍ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ من القرآن والسنة ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ من نون الله ﴿أولياء﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تتبعوا من الابتغاء ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾⁽⁶⁾ ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من نون دين الله نون أولياء ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ: تذكرون بحذف التاء ويتذكرون: بلباء، وقليلًا نصب بتذكرون أي: تذكرون تنكيراً قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَفْلَكُهَا فَمَا هَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٧﴾

﴿فجاءها﴾ فجاء أهلها ﴿بيئاتاً﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: بائتين، يقال: بات بيئاتاً حسناً وبيئة حسنة، وقوله⁽⁷⁾ ﴿هم قائلون﴾ حال معطوفة على بيئاتاً، كأنه قيل:

النبين فخلفت أمته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الشرف والرزق ﴿وليبلوكم فيما آتاكم﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحر بالعبد، والغني بالفقير ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر نعمته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو أت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي السَّمَاءِ بِحُجْرٍ مُنْجٍ وَمَنْ يَنْزِلْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يُرْسِلُ بِالرُّوحِ الْفَارِغِ الَّذِي يَأْتِي بِالنَّبِيِّينَ وَالَّذِينَ يَكْفُلُونَ ﴿١﴾

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾⁽²⁾ وسمى الشك: حرجاً⁽³⁾؛ لأن الشك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تلبغفه⁽⁴⁾؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأتمته الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿لتتذرن﴾؟ قُلْتَ: بأنزل أي:

(1) الثعلبي في تفسيره: وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكونن من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط للفكر بـمعتقد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتلبج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد مبانياً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتقاد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى ذلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعمل المأخوذ من العلة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي نكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التاويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأما الزجاج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأما قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها، وأو الحال كراهية لاجتماعها، وهي أو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أن أو الحال لا بد أن تمتاز عن أو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قبياً، فالأفصح خلافه، فلما =

فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو: الأهل قبل قرية، أو قبل الضمير في أهلكتناها؟ قلت: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في فجاءها لقوله: ﴿أو هم قائلون﴾.

فإن قلت: لا يقال جاءني زيد هو فارس بغير واو، فما بال قوله ﴿هم قائلون﴾؟ قلت: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح أنها إذا عطف على حال قبلها حذفت الواو استتقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن وار الحال هي واو العطف استعيرت للوصل فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده، وأما جاءني زيد هو فارس فخبث.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿أهلكتناها فجاءها بأسنا﴾ والإهلاك: إنما هو بعد مجيء البأس؟ قلت: معناه: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إنما أتممت إلى الصلاة﴾⁽¹⁾ وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأقطع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

﴿فما كان دعواهم﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانهم وفسادهم وقولهم ﴿إننا كنا ظالمين﴾ فيما كنا عليه، ويجوز فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم دعواهم بالكعب، ويجوز فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم وإن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، ودعواهم نصب خبر لكان، وإن قالوا: رفع اسم له، ويجوز العكس.

فَلَمَّا سَأَلْنَا الَّذِينَ أُورِسُوا مِنَ الْآيَةِ رَبَّهُمْ لِنَسْأَلَكَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعَمْرِ وَوَمَا كُنَّا عَلَيْهِمْ

﴿فلنسالن الذين أورس إليهم﴾ أرسل مسند إلى الجار والمجرور وهو إليهم، ومعناه: فلنسالن المرسل إليهم وهم الأمم يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾⁽²⁾ ويسأل المرسلين عما أجابوا به، كما قال: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم﴾⁽³⁾ ﴿فلنقصن عليهم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿يعلم﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم وعا وجد منهم.

فإن قلت: فإذا كان عالمًا بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى سؤالهم؟ قلت: معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بالسنتهم وشهد عليهم أنبياءهم.

وَالْوَزْنَ بِوِزْيَةِ الْحَقِّ مِمَّنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٧﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿٨﴾

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ يعني: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، ورفعها على الابتداء وخبره يومئذ والحق صفة أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسولهم الوزن الحق أي: العدل وقرئ: القسط، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة وقطماً للمعونة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها السننهم وتشهد بها عليهم أيبيهم وأرجلهم وجلودهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب، وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ جمع ميزان أو موزون أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ﴿بآياتنا يظلمون﴾ يكذبون بها ظلمًا كقوله ﴿فظلموا

على المقسم به، فتدخله في حكم القسم من غير، واو موقعة في مثل ﴿والليل إذا يفضى، والنهار إذا تجلى﴾ وفي مثل، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، ولو قلت في غير التلاوة، وبالليل إذا عسعس، لجاز ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم، لناية العاطف منا به، فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المحذوفة على الحال، عن الواو المحصنة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستئفال، بل أهدت تأكيداً، وإن لم تتب بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 109.

رأيها تتوسط بينهما، والكلام حينئذ هو الأوضح، أو المتعين علمت أنها ممتازة بمعنى، وخاصة عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصة، فأمّا أن تسلبه حينئذ لا غناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو، ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستعراك في مثل قوله، ولكن لا يشعرون فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف، بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد، لكان فصيحاً، لا خبث فيه، ولا كراهة فالتحقيق، والله أعلم، في الجملة المحذوفة على الحال، أن المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية، لما عطف عليه في الحال، فيستغنى عن واو الحال، كما أنك تعطف =

فإن قُلْتَ: كيف يكون قوله ﴿إنا خير منه﴾ جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول منعني كذا؟ قُلْتَ: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وبعلة فضله عليه وهو: أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فلم منه الجواب وزيادة عليه وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمور بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أمر به.

قَالَ فَأَهْلَيْتَ يَا مَعْ كَيْفَ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَى بَوْرٍ يُبْمَرُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

﴿فاهبط منها﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرّ العصاة المتكبرين من الثقلين ﴿فما يكون لك﴾ فما يصح لك ﴿أن تتكبر فيها﴾ وتعصي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً إذا أهنته وفي ضده: قم راشداً، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار البس الصغار، وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض⁽⁴⁾.

فإن قُلْتَ⁽⁵⁾: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عبادته ويغويهم؟ قُلْتَ: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتنح بها عبادته.

قَالَ يَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَمَدَنَّ لِمَ صِرْتُكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

﴿فبما أغويتني﴾⁽⁶⁾ فبسبب إغوائك إياي ﴿لأقعدن لهم﴾ وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفساً

بها⁽¹⁾.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَكَانًا وَرَقَرًا أَوْ مَلَكْنَاكُمْ فِيهَا وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴿١٨﴾ جَمَعَ مَعِيشَةً وَهِيَ مَا يَعِاشُ بِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَغَيْرِهَا، أَوْ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى ذَلِكَ، وَالْوَجْهُ تَصْرِيحُ الْيَاءِ، وَعَنْ ابْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ هَمَزَ عَلَى التَّشْبِيهِ بِصَحَافَتِهِ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسَبَّدَ إِذْ أَمَرْنَاكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٨﴾

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يعني: خلقنا إياكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية ﴿ومن الساجدين﴾ ممن سجد لآدم ﴿ألا تسجد﴾ لا في أن لا تسجد صلة بدليل قوله ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾⁽²⁾ ومثلها ﴿إنلا يعلم أهل الكتاب﴾⁽³⁾ بمعنى: ليعلم. فإن قُلْتَ: ما فائدة زيادتها؟ قُلْتَ: تؤكد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ﴿إذ أمرتك﴾: لأن أمرى لك بالسجود أوجب عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتماً لا بد لك منه.

فإن قُلْتَ: لم سأل عن المانع من السجود وقد علم ما منعه؟ قُلْتَ: للتوبيخ وإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدراءه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

= رجليك، وأشار إلى سلة فيها أخبضة، والوان مختلفة رأها عند المسجون، أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجليك، فعلى هذا يروى حمل هذه الآية يعني: بما كلفتنى من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسى، لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى، فمجاز هذه إحدى النزغتين. والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم: أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(6) قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده، ويلتزم الجواب عنه القدرية، الذين يوجبون على الله تعالى، رعاية المصالح في أفعاله، وأما أهل السنة، فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال، ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

(1) سورة الأعراف، الآية: 103.

(2) سورة ص، الآية: 75.

(3) سورة الحديد، الآية: 29.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل: في التواضع، (الحديث رقم: 8139) وابن أبي شيبة 270/13 كتاب: الزهد، باب: كلام عمر رضي الله عنه.

(5) قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان. أحدهما تحريفه الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يفوه، أي: لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين، والتقيح، والصلاح، والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سبباً في غيه، وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأن الفعل له ملايسات بالفاعل، والمفعول، والزمان، والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار، رجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه هذه وضعت القيود في

في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقد ر عليه كقوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ بحرف الابتداء ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ بحرف المجاوزة؟ قُلْتَ: المفعول فيه عدى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدي في ذلك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما نكرنا في تعال ونحوه من المفعول به، قولهم: رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدىء الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل ﴿ومن بين يديه ومن خلفه﴾⁽⁴⁾ لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول: جتته من الليل تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾⁽⁵⁾ وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾⁽⁶⁾ وأما من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿والعاقبة للمتقين﴾⁽⁷⁾ وأما من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾⁽⁸⁾ ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال تظنيئنا بدليل قوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾⁽⁹⁾ وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

قَالَ أَنْجَرٌ يَا مَدْرُوكَا مُنْحَرًا لَمَنْ يَمَكُ مِنْهُمْ لِأَمْلَانِ جَهَمَ بِكُمْ أَمَّيْنَ

(X)

﴿مذؤماً﴾ من ذأمه إذا ذمه. وقرأ الزهري مذؤماً بالتخفيف مثل مسؤل في مسؤل. واللام في ﴿لمن تبعك﴾

ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك، والمعنى: فسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق الباء فإن تعلقها بالاعدن يصد عنه لام القسم، لا تقول والله بزيد لأمرن؟ قُلْتَ: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره فيما أغويتني أقسم بالله لأعدن أي فسبب إغوائك أقسم، ويجوز أن تكون الباء للقسم أي: فأقسم بإغوائك لأعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضاً لسعادة الأبد فكان جديراً بأن يقسم به. ومن تكايب المجبرة⁽¹⁾ ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفتقه منه قال: رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه أن لفقوا الأكايب على الرسول والصحابة والتابعين، وقيل: ما للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتداء لأعدن وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية قليل شاذ، وأصل الغي الفساد ومنه: غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد في المعدة ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف كقوله:

كما غسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم باطريقة قعد له بطريق الإسلام، فقال له: تدع دين آبائك! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتغرب! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك! فعصاه فقاتل»⁽²⁾.

ثُمَّ لِأَيُّهُمْ رِيٌّ بَيْنَ أَيُّهُمْ وَرِيٌّ عَلَيْهِمْ وَرِيٌّ شَائِلِهِمْ وَلَا جِدَّ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِيكَ (X)

﴿ثم لأتيهم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو

(2) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ما لمن أسلم وما جاز وجاهد، (الحديث رقم: 3134)، وأحمد في المسند 483/3، وابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد (الحديث رقم: 4593).

(3) سورة الإسراء، الآية: 64.

(4) سورة الجن، الآية: 27.

(5) سورة طه، الآية: 82.

(6) سورة هود، الآية: 6.

(7) سورة القصص، الآية: 83.

(8) سورة سبأ، الآية: 54.

(9) سورة سبأ، الآية: 20.

(1) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة، لتلجج الحجة في وجوب الرد عليه، وتعينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهاكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصنقوا قوله تعالى متمحاً لله خالق كل شيء، لا كالتقديرية الذين هم يتهاكون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيقولون الفاعل بالمسبب، فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للضوابط.

﴿من الخالدين﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: من سواتهما بالتوحيد، وسواتهما: بالواو المشددة.

وَقَسَّمَا إِيَّيْكَ لَكَمَا لَيْنَ الشَّيْرَيْنِ ﴿١١﴾

﴿وقاسمهما﴾ وأقسم لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

فإن قُلْتَ⁽⁴⁾: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿تقاسموا بالله لنبيته﴾⁽⁵⁾ قُلْتَ: كانه قال لهما: أقسم لكما اني لمن الناصحين، وقالوا له: اتقسم بالله أنك لمن الناصحين، فجعل تلك مقاسمة بينهم⁽⁶⁾، أو أقسم لهما بال نصيحة، وأقسم له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس عن زنة المفاعلة؛ لانه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.

فَدَلَّهْمَا يَهْرُمُ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لِمَا سَوَّيْتُمَا وَطَيْفًا بِمِصْبَاحٍ عَالِيَيْنَا مِن دَرَجٍ الْمُنَى وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نُسُكًا وَإِن لَّرَ تَقْوِيرًا نَّا وَرَزَقْنَا لَكَؤُونَ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَهْبِطَا بَعْضُكُمَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَمَرٌّ وَمَضَى إِلَى جِبِئِهِ ﴿١٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تَحْرَجُونَ ﴿١٥﴾

﴿فدلاهما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعنقه، فكان عبده يفعلون ذلك طلباً للعق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله نخدعنا له⁽⁷⁾ ﴿فلما ذاقا للشجرة﴾ وجدا طعمها أخذين في الأكل منها، وقيل: الشجرة هي السنبل، وقيل: شجرة الكرم ﴿بهدت لهما سواتهما﴾ أي: تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما

موطئة للقسم و﴿لاملان﴾ جوابه وهو ساد مسدَّ جواب الشرط ﴿منكم﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾⁽¹⁾ روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك بكسر اللام بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لاملان جهنم منكم اجمعين﴾ على أن لاملان في محل الابتداء ولمن تبعك خبره.

وَبَكَدُمُ اسْتَكُنَّ أَنْتَ وَرَزَيْكَ أَجَنَّةً فَلَآ مِن حَيْثُ يَشْتَأُ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾

﴿ويا آدم﴾ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذي الشجرة والأصل الياء والهاء بدل منها.

فَوَسَّوْا لِمَا أَلْبَسْنَا لِيُبَيِّنَ لِمَا مَا وَرَى عَنْهَا مِن سَوَائِهَا وَقَالَ مَا تُكَلِّمَانِ رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِينَ أَوْ تُكُونَا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٧﴾

ويقال وسوس: إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره، ومنه: وسوس الحلي وهو: فعل غير متعد كولت المرأة ووعوع النذب، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو: الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه ألقاه إليه ﴿ليبيدي﴾ جعل تلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً، وفيه⁽²⁾ دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبلاً في العقول.

فإن قُلْتَ: ما للواو المضمومة في ﴿وري﴾ لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قُلْتَ: لأن الثانية مده كالف وارى وقد جاء في قراءة عبد الله: أوري بالقلب ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرئ: ملكين بكسر اللام كقوله: ﴿وملك لا يبيلى﴾⁽³⁾

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبلاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أن التقبيح والتحسين بالعقل، وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد ظاهره، إذ التحسين، والتقبيح إنما يدركان بالشرع، والسمع، لا بالعقل ومعنى هذا الإطلاق، ولو صدر من سني، أن العقل يترك المعنى، الذي لأجله حسن الشرع الستر، وقبح الكشف، الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة، وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء، أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك وسوسته، بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى، ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة، حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاتب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا =

= تصديقه فيه بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما، وغرهما إذ قال الله تعالى عنه، فدلاهما بغرور، فلعل تفضيله للملائكة على النبوة من جملة غروره، والله أعلم.

(3) سورة طه، الآية: 120.

(4) قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلطف المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً، مضافاً لإبليس.

(5) سورة النمل، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وهذا التاويل يتم لوجود المقاسمة عن نكر المقسم عليه، وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التاويل المنكور، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة: نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى﴾ أنه سمي: التزام موسى، للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

(7) رواه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية.

والريش لباس الزينة أستعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سواتكم، ولباساً يزينكم؛ لأنَّ الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿لَتُرَكَّبُوها وَزِينَةً﴾ (4) ﴿ولكم فيها جمال﴾ (5) وقرأ عثمان رضي الله عنه: ورياشاً جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس التقوى﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمَّا الجملة: التي هي ﴿ذلك خير﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأنَّ أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأما المفرد: الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسواة؛ لأنَّ مواراة السواة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خير مبتدأ محذوف أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبي: ولباس التقوى خير، وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمخافير وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرئ: ولباس التقوى بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ﴿ذلك من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني: إنزال اللباس ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب نكر بدو السوات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنَّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

يَبَيْتَ مَادِمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَالْقَوَىٰ
ذَلِكَ خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ مَنِ آتَىٰ اللَّهُ لَمَلَأَهُمْ بِذِكْرٍ ﴿٦٧﴾

﴿لا يفتنكم الشيطان﴾ لا يمتحنكم بأن لا تدخلوا الجنة. كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ حال أي: أخرجهما نازعاً لباسهما بأن كان سبباً في أن نزع عنهما ﴿إنه يراكم هو﴾ تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجي يكييكم ويفتلكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إنَّ عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ﴿وقبيله﴾ وجنوده من الشياطين (6)، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا

ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني (1)، وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار، وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا بمعنى، جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح ﴿يخصفان﴾ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها كما يخصف النعل بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يخصفان. وقرأ الزهري: يخصفان من أخصف وهو منقول من خصف أي: يخصفان أنفسهما، وقرئ: يخصفان من خصف بالتشديد ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ورق التين ﴿الم انهكما﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبية على الخطأ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة منبوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاتباً، قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تتال العيش إلا كذا، فاهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس ونزى وطحن وعجن وخبز. وسمياً (2) ننبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظملاً لأنفسهما وقالوا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات واستصغارهم العظيم من الحسنات ﴿اهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس و﴿بعضكم لبعض عدو﴾ في موضع الحال أي: متعابدين يعابيهما إبليس ويعابيهما ﴿مستقر﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع إلى حين﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء أجالكم. وعن ثابت البناني: لما اهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحطته، وكففته في وتر من الثياب، وحفروا له، ولحدوا، ونفونه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنية: هذه سنتكم بعده.

يَبَيْتَ مَادِمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَالْقَوَىٰ
ذَلِكَ خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ مَنِ آتَىٰ اللَّهُ لَمَلَأَهُمْ بِذِكْرٍ ﴿٦٧﴾

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضي، ثم وكتب، ومنه ﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (3)

- (3) سورة الزمر، الآية: 6.
- (4) سورة النحل، الآية: 8.
- (5) سورة النحل، الآية: 6.
- (6) قال أحمد: إين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم النبي ﷺ يوم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه، فآخذة عليه الصلاة والسلام، فدعته وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، يلعب به الصبيان، حتى نكر دعوة سليمان عليه السلام، فتركه وإذا جاز نك للنبى عليه الصلاة والسلام، كان جائزاً لأولياء الله، والمتبعين.

- (1) أخرجه ابن ماجه، في كتاب: الطهارة وسننها، باب: النهي أن يرى عورة أخيه (الحديث رقم: 662).
- (2) قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي؛ لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصفات، وإن لم يتب العبد منها، فهذا معنى قول الزمخشري، وإن كان صغيراً مغفوراً، وإنما سمت هذا الاعتزال بالخفاء؛ لأنَّ هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً أن الله تعالى تفضل بفرانه، ولو شاء لأخذ به، وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموافق.

يعينكم، احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بإبتداء الخلق والمعنى: أنه يعينكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ أَفْضَلُوا الشَّيْطِينَ
أُولَئِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَسَبَّوْتَ أُنْفُسَهُمْ فَتَلْمِذُونَ ﴿٣٧﴾

﴿فريقًا هدى﴾ وهم الذين أسلموا أي: وفقهم للإيمان
﴿وفريقًا حق عليهم للضلالة﴾ أي: كلمة الضلالة،
وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله: وفريقًا
بفعل مضمَر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقًا حق
عليهم الضلالة ﴿إنهم﴾ إن الفريق الذي حق عليهم
الضلالة ﴿اتخذوا للشياطين أولياء﴾ أي: تولوهم بالطاعة
فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في
ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين
دون الله.

﴿يَبْتَغِي مَادَّةً حُدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿خذوا زينتكم﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿عند كل
مسجد﴾ كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن
طابوس: لم يامرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم
يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي
عليه ضرب وانتزعت عنه: لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب
أذنبتنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من
الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ
الرجل أحسن هيئته للصلاة. وكان بنو عامر في أيام
حجهم لا يكلون الطعام إلا قوتاً ولا يكلون سماً يعظمون
بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم:
﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وعن ابن عباس رضي الله
عنه: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان:
سرف ومخيلة⁽²⁾، ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني
حائق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابك من
علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان،
فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه،
قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا
تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولك شيء في
الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة،
قال: وما هي؟ قال: قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس

يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في
استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة ﴿إننا
جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي: خلينا
بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما
سألوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر ابلغ من
الأول.

فإن قلت: علام عطف وقبيله؟ قلت: على الضمير في
يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشان والحديث، وقرأ
اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم
إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن
وهو الضمير في أنه كان راجعاً إلى إبليس.

وَإِذَا قُلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَحَدَّثَنَا وَعَبَّأَنَا وَاللَّهِ أَزْرَعُنَا يَا قُلِ لِمَ
اللَّهِ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَكْمُلُونَ ﴿٣٩﴾

الفاحشة ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها
اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتنوا بهم، وبأن الله
تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما⁽¹⁾ باطل من العذر؛ لأن
أحدهما: تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني: افتراء
على الله والحاد في صفاته، كانوا يقولون لو كره الله منا ما
نفعله لنقلنا عنه، عن الحسن: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ
إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله
وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا
وجبتنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر
بالفحشاء﴾ لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي
ووجود الصارف فكيف يأمر بفعله؟ ﴿اتقولون على الله ما
لا تعلمون﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن
مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة
طوافهم بالبيت عراة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَقْسَمْتُمْ بِأَقْسَمِهِمْ وَأَقْسَمْتُمْ بِأَقْسَمِهِمْ وَأَقْسَمْتُمْ بِأَقْسَمِهِمْ
عَلَيْكُمْ لَهَ أَزْرَعُنَا كَمَا بَدَأَكُمْ تَعْدُونَ ﴿٤٠﴾

﴿بالقسط﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم
حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد ﴿واقبموا وجوهكم﴾
وقل اقبموا وجوهكم أي: اقصدا عبادته مستقيمين إليها
غير عائلين إلى غيرها ﴿عند كل مسجد﴾ في كل وقت
سجود أو في كل مكان سجود وهو: الصلاة ﴿وادعوه﴾
واعبدهم ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة مبتغيين بها
وجه الله خالصاً ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما أنشأكم ابتداء

= دعواهم أن الله تعالى، أمرهم بالفحشاء وهم كانبون في هذه
الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة؛ لأن الله تعالى يأمر بما
لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(2) رواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة،
(الحديث رقم: 2559)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: البس ما
شئت... (الحديث رقم: 3605)، وأحمد في مسنده 181/20، والحكم
في المستدرک 4/135.

= لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصدّه عن ذلك
جحده لكرامة الأولياء؛ لأنه عقيدة إخوانه إذا الكرامة إنما يؤتاها
الولي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر
من جحدوا، والتكذيب بها رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم تكن
لها أهلاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يهدد قاعدة
التحسين والتقيح، ومراعاة الصلاة، والأصلح، واستحالة مخالفة
ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأن المنكر عليهم =

الدواء، وأعط كل بدن ما عودته⁽¹⁾، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِكَ نَسُئِلُكَ الْآيَاتِ يَقْوَمِ بِمَعْنَى (٢٣).

﴿زينة الله﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿والطيبات من الرزق﴾ المستلذات من المأكول والمشارب، ومعنى الاستفهام في ﴿من﴾ إنكار تحريم هذه الأشياء، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ غير خالصة لهم؛ لأن المشركين شركائهم فيها ﴿خالصة﴾ لهم ﴿يوم القيامة﴾ لا يشركهم فيها أحد.

فإن قلت: هلا قيل هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وأن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار﴾⁽²⁾ وقرئ: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خير بعد خير.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّيئِ بِسَرِّهِ الْعَنَى وَأَنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَرِئْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ (٢٤).

﴿الفواحش﴾ ما تفاحش قبحه أي: تزايد وقيل: هي ما يتعلق بالفروج ﴿والإثم﴾ عام لكل نيب، وقيل: شرب الخمر ﴿والبغى﴾ الظلم والكبر افرده بالنكر كما قال: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾⁽³⁾ ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾⁽⁴⁾ فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بان يشرك به غيره ﴿وإن تقولوا على الله﴾ وأن تقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (٢٥).

﴿ولكل أمة أجل﴾ وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم. وقرئ: فإذا جاء آجالهم، وقال: ﴿ساعة﴾؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة يريد أقصر وقت وأقربه.

يَبْقَى مَادَّةٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُضُونَ عَلَيْكُمْ مَا نَبَى قَلْبُكُمْ وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى قَوْلٍ مِمَّا نُنزِّلُ الْكِتَابَ لَمْ نُكَفِّرْ بَعْدَهُ ذَنْبًا لَهُ شَرِكٌ فَرَأَى نَارَ اللَّهِ وَقُبُورَ كَثِيرَةٍ وَجَهَنَّمَ (٢٦).

وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦).

﴿إما يأتينكم﴾ هي: إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم، وقرئ: تاتينكم بالفاء.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَئِكَ يَمَأْمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُسَلِّمٌ قَالُوا إِنَّا مَا كُنَّا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٢٧).

﴿فمن أظلم﴾ فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له أي: إلى وقت وفاتهم وهي: حتى التي يبتدا بعدها الكلام، والكلام ههنا الجملة الشرطية وهي: إذا جاءتهم رسلنا قالوا ﴿ويتوفونهم﴾ حال من الرسل أي: متوفينهم، والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بآين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الأكلة الذين تدعون ﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

قَالَ أَذْهَبُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَلْبِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كَمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جِئَا قَالَتْ أَخْرَجْتُهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أصْحَابُنَا فَاصْنَمِ عَدَايَا ضَمْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ يَكُلُّ مِنْهُمْ لَوْ كُنَّا أَهْلًا بِالنَّارِ (٢٨) وَقَالَتْ أَخْرَجْتُهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَيْتَانِي فَفَضِّلْ فَدُونُوا الْمَكَّابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٩).

﴿قال اخلوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة: لأولئك الذين قال فيهم ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾⁽⁵⁾ وهم كفار العرب ﴿في أمم﴾ في موضع الحال أي: كائنين في جملة أمم وفي غمارهم مصاحبين له أي: اخلوا في النار مع أمم ﴿قد خلعت من قبلكم﴾ وتقدم زمانهم زمانكم ﴿لعنت أختها﴾ التي ضلت بالافتداء بها ﴿حتى إذا آداركوا فيها﴾ أي: تداركوا بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قالت أخواهم﴾ منزلة وهي الاتباع والسفلة ﴿لأولاهم﴾ منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى: لأولاهم لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم

= ينف أن يكون به سلطان، وكان أصل الكلام، وأن تشرکوا بالله ما لا سلطان به، فينزل، فيكون على طريقة. على لا حب، لا يهتدي بمناره.

(5) سورة الأنعام، الآية: 37.

(1) قال الزليعي، غريب جداً 460/1.

(2) سورة البقرة، الآية: 126.

(3) سورة النحل، الآية: 90.

(4) قال احمد: وإنما يعني: التهكم منه؛ لأن الكلام جرى مجرى ما له سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به، ولم

لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ: في سم بالحرركات الثلاث، وقرأ عبد الله: في سم المخيط والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وَكُنُكُ﴾ ومثل ذلك الجزء الفظيع ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ليؤذن أن الإجمام هو السبب الموصل إلى العقاب وأن كل من أجرم عوقب وقد كرره فقال و ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأن كل مجرم ظالم لنفسه ﴿مَهَادٌ﴾ فراش ﴿غَوَاشٍ﴾ غطية وقرئ: غواش بالرفع كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ (4).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَرِهُوا الْمَنِيلَيْنِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾ وَرَبَّنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَّ عِلْمٍ نَجْمِي مِن تَحِيْمِهِمُ الْآخِرُ وَمَا لَوْ لَمْ نَسْأَلِ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَدَدَّ جَاءَتِ رُسُلٌ رَبِّنَا بِآلِهَاتِنَا وَتَوَدَّوْا أَن تَكْفُرُوا الْجَنَّةُ أُرْسِنَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ مَكْمُولُونَ ﴿١٢﴾.

في قراءة عبد الله ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتننه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: لا تكلف نفس. من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف، وعن علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعمان وطلحة والزيبر منهم (5) ﴿هدانا لهذا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿وما كنا لنهتدي﴾ اللام (6) لتوكيد النفي يعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير أو على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فكان لنا لطفاً وتنبهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً واعتباطاً بما نالوا وتلذذاً بالتكلم به، لا تقرباً وتعبداً كما نرى من

﴿عذاباً ضعفاً﴾ مضاعفاً ﴿لكل ضعف﴾ لأن كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ: بالياء والتاء.

﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لكل ضعف﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة أو من قول الله لهم جميعاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآمَنُوا بِهَا عَنَاءً لَا تُلْفَعُ لَهُمْ آيَاتُنَا مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يَسْتَأْذِنُوا الْبَنَةَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْجَمَلَ فِي سَبْرِ الْفِرَاقِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ لَمْ يَنْ جَهَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿لا تفتح لهم ابواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ (1) ﴿وكلا إن كتاب الأبرار لفي عيدين﴾ (2) وقيل: إن الجنة في السماء فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها لينخلوا الجنة وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ﴿ففتحتنا ابواب السماء﴾ (3) وقرئ: لا تفتح بالتشديد ولا يفتح بالياء، ولا تفتح بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات، وبالياء على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل بوزن القمل، وسعيد بن جببر: الجمل بوزن النغر، وقرئ: الجمل بوزن القفل، والجمل بوزن النصب، والجمل بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغليظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع؛ لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خربت للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، والجمل مثل في عظم الجرم قال:

جسم الجمال وأحلام العصافير

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام، فقيل:

= يتوقف ذلك على خلقه تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشري ذلك جرى على عانته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي يسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسك واعرض القائل المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله، أي: يخلق له الهدى على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق، وما كنا لنهتدي، لولا أن هدانا الله، وانظر تباين هذين القولين، أعني: قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحدين في الآخرة، «في مقعد صدق»، واختر لنفسك، أي: الفريقين تقتدي به، وما أراك، والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا لقول المحكي عن أولياء الله في دار السلام، منوهاً به في الكتاب العزيز قول قدي ضال تذبذب مع هواه، وتحصبه في دار القرور، والزوال نسال الله حسن العاقب، والمآل.

- (1) سورة فاطر، الآية: 10.
- (2) سورة المطففين، الآية: 18.
- (3) سورة القمر، الآية: 11.
- (4) سورة الرحمن، الآية: 24.
- (5) رواه ابن شيبه في مصنفه 282/15، كتاب: الجمل، باب: سير عائشة.
- (6) قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالرؤ، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية، فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذا مهتد، وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفي زعمهم: أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا =

كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ تَلَا الَّذِينَ أَنْتُمْ لَكُمْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ رَحِيمًا
أَدْعُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْلَ عَلَيْكُمْ وَلَا أُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وبينهما حجاب﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين
الفريقين وهو: السور المنكورة في قوله تعالى: ﴿فصرب
بينهم بسور﴾⁽³⁾ ﴿وعلى الأعراف﴾ وعلى أعراف الحجاب
وهو: السور المضروب بين الجنة والنار وهي: أعاليه جمع

عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿رجال﴾ من
المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم
كانهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن
يأذن الله لهم في دخول الجنة ﴿يعرفون كلاً﴾ من زمر
السعداء والأشقياء ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله

تعالى بها يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة. إذا نظروا
إلى أصحاب الجنة نالوهم بالتسليم عليهم ﴿وإذا صرفت
لبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا ما هم فيه من
العذاب استعانوا بالله وفرغوا إلى رحمته أن لا يجعلهم
معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم
﴿أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمة﴾ إشارة لهم
إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم
ويحتقرونهم لفقيرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا
يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ يقال
لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا

على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم
ويقولوا ما يقولون، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر
الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق
عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه
فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على
إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم
بسيماهم التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر،
فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه،
وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس
عملاً، وقوله: ﴿إذا صرفت ابصارهم﴾ فيه أن صارفاً
يصرف ابصارهم لينظروا فيستعينوا ويوبخوا. وقرأ

رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتملك أن لا يقوله
للمفرح لا للقرية ﴿إن تلك الجنة﴾ أن مخفة من الثقيلة
تقديره ونودوا بأنه تلك الجنة ﴿أورثتموها﴾ والضمير
ضمير الشأن والحديث، أو تكون بمعنى أي؛ لأن المناداة
من القول كأنه قيل⁽¹⁾: وقيل لهم أي تلك الجنة أورثتموها
﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما
تقول المبطل.

وَأَذَىٰ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ إِنَّ مَدَّ يَدَيْهَا وَعَدَا رَبَّنَا حَتَّىٰ هَلَكَ
وَيَدَيْهَا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا مَرَّةً فَأَذَىٰ مَوْذُونَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ
الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
كُفْرُونَ ﴿١٩﴾.

أن في ﴿إن قد وجبنا﴾ يحتمل أن تكون مخفة من
الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك ﴿إن
لعنة الله على الظالمين﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً
بحالهم وشماتة بأصحاب النار وزيادة في غمهم، ولتكون
حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤمن بينهم
﴿لعنة الله على الظالمين﴾ وهو ملك يأمره الله فينادي
بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار، وقرئ: أن لعنة الله
بالتشديد والنصب، وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن
على إرادة القول، أو على إجراء أنن مجرى قال.

فإن قلت⁽²⁾: هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ﴿ما
وعدنا ربنا﴾؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه،
ولقائل أن يقول: اطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث
والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم
كانوا مكذبين بذلك أجمع؛ ولأن الموعود كله مما ساءهم،
وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فاطلق لذلك.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَابِ رِجَالٌ يَرَوْنَهُمْ كَلَّا يُبْصِرُهُمْ وَكَادَتْ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ أَنْ سَلَمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمُزُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ
أَبْصَارُهُمْ لِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ وَكَادَتْ
أَصْحَابُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا يَرَوْنَهُمْ يَبْصِرُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا

= بوجودها، ولا يتضرر بتركها تعالى، وتقصد عن ذلك ويطلقون
القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها، أقطاعهم بحق مستحق
على الله تعالى، لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه
بعض الناس من ميثانه، وانظر أي: الفريقين المنكوريين لحق بلقب
المبطل والسلام.

(2) قال احمد: ولقائل أن يقول، ولو نكر المفعول حسب ما ذكره في
الأول، فقيل فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، لكان الفعل مطلقاً
أيضاً، باعتبار الموعود به؛ لأنه لم ينكر، فكان يتناول كل موعود
من البعث والحساب، والعقاب الذي هو أنواع من جملتها، التحسر
على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع
على الموعودين، فالوجه أنه إيجاز وتخفيف، واستغناء عنه بالأول،
والله أعلم.

(3) سورة الحديد، الآية: 13.

(1) قال احمد: يعني بالمبطل قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام:
«لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته»،
قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله
بفضل منه ورحمة»، فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم
أهل السنة، قيل لهم فما معنى قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي
أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة
جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب
للعبادة وجوب الدين، التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين الدليلين
على وجه يطابق، دليل العقل الدال على أن الله تعالى يستحيل أن
يجب عليه شيء، فأنظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من
الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطل، وحاكم نفسك إليها،
ثم إذا وضع لك أنهم براء في هذا البر، فأعرضه على قوم زعموا
أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم، التي لا ينتفع =

عليها و **هدى ورحمة** ﴿٤٦﴾ حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سَبَقُوا مِنْ قَبْلُ مَا جَاءَتْكُمْ مِنْ رُسُلِنَا بِالْحَقِّ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ آيَاتٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَذْهَبَتْ عَنْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٤٧﴾

﴿إلا تأويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿قد جاءت رسلنا بالحق﴾ أي: تبين وصح أنهم جاؤوا بالحق ﴿نزد﴾ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نرد، ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد، وقرأ ابن أبي إسحق: أو نرد بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى: حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن: ينصب نرد ورفع فنعمل بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْوَةِ يَمُنُّ بِاللَّيْلِ بِطَلُوعِ حَبِيبَاتِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ وقرئ: يغشى بالتشديد أي: يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحملهما جميعاً، والدليل على الثاني: قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثاً حسن الملاءمة لقراءة حميد ﴿بأمره﴾ بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أي: خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها، سمي ذلك أمراً على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع. ولما نكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَا تُسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ بِمَدِّ إِسْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٠﴾

﴿تضرعاً وخفية﴾ نصب على الحال أي: ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً، والتضرع^(١) تفعل من الضراعة

الأعشى: وإذا قلبت أبصارهم. وقرئ: ادخلوا الجنة على البناء للمفعول، وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قلت: كيف لأمم هاتين القراءتين؟ قل: ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾؟ قلت: تأويله ادخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فإن قلت: ما محل قوله: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كان سائلاً سال عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أن دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكنهم محبوبين وهم يطمعون لم يياسوا، ويجوز أن يكون له محل بان يقع صفة لرجال. ما أغنى عنكم جمعكم المال أو كثرتكم واجتماعكم. وما كنتم تستكبرون، واستكباركم عن الحق وعلى الناس وقرئ: تستكثرون من الكثرة.

وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْمَنَىٰ أَلَمْ يَسْأَلُوا عَنَّا مِنَّا وَرَزَقْنَاكَ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾

﴿أفيضوا علينا﴾ فيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿أو مما رزقكم الله﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد أو القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله:

علفتها تبتأ وماء بارداً

وإنما يطلبون ذلك مع ياسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن ﴿حرمهما على الكافرين﴾ منعم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْسَ وَعَدْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَالُوا نَسْتَهْتِكُمْ كَمَا سَأَلْنَا لِقَاءَ يَوْمِنَا يُجَادِرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿قال يوم نساهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا ينكرونهم به ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ كما فعلوا بلقائه فعل الناسين فلم يخطروره ببالهم ولم يهتموا به.

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكُتُبٍ فَصَلَّتْهُ عَلَىٰ عَيْرٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيماً قيماً غير ذي عوج، وقرأ ابن محيصن: فصلناه بالضاد المعجمة بمعنى: فصلناه على جميع الكتب عالمين أنه أهل للتفضيل

= ولا وقار يصحبه، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمون الصراخ، والصياح في الدعاء خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم للفظ ويشدد، وتستند المسامع، وتستك، وتهتز داعي بالناس، ولا يعلم

(1) قال أحمد: وحسبك في تعيين الأسرار في الدعاء، اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال به، كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خضوع لقليل الجبوي، فكذلك دعاء لا خفية =

وهو: الذي أي: تنللاً وتملقاً. وقرئ: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إن الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أشركتنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقفرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدأ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ (1) وقد أثنى على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ (2) وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسالك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل (3)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ (4) وإنما نكر قريب على تاول الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محنوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبه ذلك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضعيف، أو لأن تائيت الرحمة غير حقيقي.

﴿بين يدي رحمته﴾ أمام رحمته وهي الغيث الذي هو من أتمَّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً ﴿أقلت﴾ حملت ورفعت واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرفاع المطيق يرى الذي يرفعه قليلاً ﴿سحاباً ثقلاً﴾ سحاباً ثقلاً بالماء جمع سحابة ﴿سقناه﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لآث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقليل ثقلاً ﴿لبلد ميت﴾ لاجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه، وقرئ: ميت ﴿فانزلنا به﴾ بالبدل أو بالسحاب أو بالسوق وكذلك ﴿فأخرجنا به﴾ كذلك، مثل ذلك الإخراج وهو: إخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ فيؤتيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

وَأَلْبَدُ الْآلْبَدِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبَّ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْداً كَذَلِكَ نَصْرُ الْأَيْتِ الْيَوْمِ بِتُكْرُرٍ ﴿٥٧﴾

﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذبة الكريمة التربة ﴿والذي خبث﴾ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿بإذن ربه﴾ بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وأقياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نكداً﴾ والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ: يخرج نباته أي: يخرج البلد وينبت، وقوله: ﴿والذي خبث﴾ صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، فحذف المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه: إلا أنه كان مجروراً بارزاً فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر وبنات الذي خبث. وقرئ: نكداً بفتح الكاف على المصدر أي: ذا نكد ونكداً بلسكانها للتخفيف كقوله: نزه عن الريب بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبية من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم ونزيتهم منهم خبيث وطيب، وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به كالأرض الطيبة أصابها الغيث فانبثت، والكافر بخلاف ذلك وهذا التمثيل واقع على أثر نكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نرديها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها، وقرئ: يصرف بالياء أي: يصرفها الله.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُرُثًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا مِّثْقَالًا سَفَعْتَهُ لِيَلِكِرَ مِيزَانُ مَا كَانُوا فَاعْتَرَجُوا بِهِ، مَن كَرِي الْأَمْزَجَاتِ كَذَلِكَ نُوحِي الْأُمُورَ لِقَوْمِكَ تَذَكُّرُونَ ﴿٥٧﴾

قرئ: نشرًا وهو: مصدر نشر وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكانه قيل نشرها نشرًا، وإما على الحال بمعنى: منتشرات، ونشرًا جمع نشور، ونشرًا تخفيف نشر كرسل ورسل، وقرأ مسروق: نشرًا بمعنى: منشورات فعل بمعنى: مفعول كمنقوض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرًا جميع بشير وبشرًا بتخفيفه، وبشرًا بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى: بشره أي: بأشورات وبشرى

(1) سورة الأعراف، الآية: 55.

(2) سورة مريم، الآية: 3.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، (الحديث رقم: 1480) عن سعد، وأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مغفل في كتاب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء بالدعاء (الحديث رقم: 3864) وأحد في مسنده 87/4، والحاكم في المستدرک (540/1).

(4) سورة طه، الآية: 82.

أنه جميع بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للمعوام حينئذ رقة لا تحصل خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة الآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقعة العارضة للنساء، والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أو فر، وأوفى، وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه.

أبلغكم بالتخفيف.

فإن قُلْتُ (2): كيف موقع قوله ﴿أبلغكم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة لرسول.

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قُلْتُ: جاز ذلك؛ لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه كما قال:

أنا الذي سمعتن أمي حينئذ

﴿رسالات ربي﴾ ما أوحى إلي في الأوقات المتطوالة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة. ﴿وانصح لكم﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة وأنها وقعت خاصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبها لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام. ﴿واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: من صفات الله وأحواله يعني: قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين، وقيل: لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد، وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلي بها.

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ نَجْوَىٰ بُرْسِكُمْ يُذْكَرُكُمْ وَلِتُنذِرُوا أُمَّمَاتِكُمْ بِهِ ۚ ﴿١٣﴾

﴿وعجبتم﴾ الهمة للإنكار والوao للمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: اكنبتم وعجبتم ﴿إن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم كقوله: ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾ (3) وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين﴾ (4) يعنون: إرسال البشر و﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ (5) ﴿لينذركم ولتنتقوا﴾ لينذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلمكم ترحمون﴾ ولترحموا

عَبْرَةً لِمَنْ أَتَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾

﴿لقد أرسلنا نوحاً﴾ جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتُ: ما لهم لا يكاون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقل عنهم نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لنأمو

قُلْتُ: إما كان ذلك؛ لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو: معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة وكان نجاراً وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إبريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجر على اللفظ، والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيداً وغير زيد.

فإن قُلْتُ: فما موقع الجملتين بعد قوله: ﴿اعبدوا الله﴾؟ قُلْتُ: الأولى: بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه نون ما كانوا يعبدون من نون الله. واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو: الطوفان.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَلَالٍ تُبِينُ ﴿١٥﴾ قَالَ يَنْفَوْرُ لَيْسَ بِ سَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ ﴿١٦﴾ أُبَيِّنُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَصْحَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

﴿الملاء﴾ الأشراف والسادة وقيل: الرجال ليس معهم نساء ﴿في ضلال﴾ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قُلْتُ (1): لم قال ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قُلْتُ: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت مالي تمر.

فإن قُلْتُ: كيف وقع قوله ﴿ولكنني رسول﴾ استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟ قُلْتُ: كونه رسولا من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصح لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن الضلالة. وقرئ:

(2) قال أحمد: وقد استترك ابن جنى قوله أبي الطيب:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أبي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أبيه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلاً بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب، (قال: فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه، قال: يا قوم ولم يقل، فقال قلت؛ لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل فما قال هود حينئذ قيل قال يا قوم، وكذلك قال الملاء).

(3) سورة آل عمران، الآية: 194.

(4) سورة القصص، الآية: 36.

(5) سورة فصلت، الآية: 14.

(1) قال أحمد: تعليقه كون فيها أبلغ من نفي الضلال، بانها أخص منه غير مستقيم، والله أعلم، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص بخلاف العكس، إلا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً، ولو قلت: هذا ليس بحيوان لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، والتحقق في الجواب أن يقال الضلالة انبى من الضلال، وأقل؛ لانا لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه، وأما الضلال فينتقل على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأبنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبية بالأبنى على الأعلى، والله أعلم.

بالتقوى إن وجدت منكم.

كَذَّبُوهُ فَأَجَبْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَقْرَبَنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا عَجِبِينَ ﴿٤﴾.

﴿والذين معه﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافت، وستة ممن آمن به.

فإن قلت: ﴿في الفلك﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بمعه كانه قيل: والذين استقرؤوا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان ﴿عميين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين، وقرئ: عامين، والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث، ونحوه قوله ﴿وضائق به صدرك﴾⁽¹⁾.

﴿رَأَى عَادِ نَارًا إِذْ هُمْ يُعْرَضُونَ﴾ قَالَ يَتَوَرَّعُونَ اللَّهُ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَنْتَهُونَ ﴿٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَعَاءٍ وَإِنَّا لَنُلَاقُكَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٦﴾.

﴿لخاهم﴾ واحدًا منهم من قولك: يا اخا العرب للواحد منهم وإنما جعل واحدًا منهم؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صنقه وأمانته وهو: هود بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و ﴿لخاهم﴾ عطف على ﴿نوحًا﴾ و ﴿هودًا﴾ عطف بيان له.

فإن قلت⁽²⁾: لم حذف العاطف من قوله ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؛ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبوا الله، وكذلك ﴿قال للملأ﴾.

فإن قلت: لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ بون الملأ من قوم نوح؛ قلت: كان في أشرف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشرف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾⁽³⁾ ويجوز أن يكون وصفًا واردةً للذم لا غير.

قَالَ يَتَوَرَّعُونَ لَيْسَ فِي سَعَاءَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِيَيْنِ ﴿٧﴾.

في ﴿سفاهة﴾ في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة

الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قال لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل تلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يفضون عنهم ويسبلون أنبيالهم على ما يكون منهم.

أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَتِي رَبي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾.

﴿ناصر أمين﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما خفي أن اتهم، أو أنا لكم ناصر فيما أدعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا اكتب فيه.

أَوْ عَجِبْتَ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرًا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَدِّ قَوْمٍ رَّزَاةً فِي الْحَقِّ بِعَسَلَةٍ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩﴾.

﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: خلقتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكًا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿في الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجرامكم نهبًا في الطول والبدانة، قيل: كان أقصرهم ستين ذراعًا وأطولهم مائة ذراع ﴿فانكروا آلاء الله﴾ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء إلا، نحو آني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعنا.

فإن قلت: إذ في قوله: ﴿إذ جعلكم خلفاء﴾ ما وجه انتصابه؛ قلت: هو مفعول به وليس بظرف أي: انكروا وقت استخلافكم.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَسْبِدَ إِلَهُ اللَّهِ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَبْدُ مَا بَدَأُوا قَائِلًا يَمَا بَدَأْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾.

﴿اجئتنا لنعبد الله وحده﴾ انكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشأوا عليه ولفًا لما صادفوا آباءهم يتبعون به.

فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: ﴿اجئتنا﴾؟ قلت: فيه أوجه؛ أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحدث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إلي جاء قومه يدعومهم⁽⁴⁾، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة فكانهم قالوا: اجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرض بذلك

(1) سورة هود، الآية: 12.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الوحي، باب (3) (الحديث رقم: 3)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 401).

(2) قال أحمد: وحذف العاطف من المقالة الا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تقول موسى عليه السلام، وفرعون كيف أسقط نكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها، والسر في ذلك، والله أعلم أن العاطف ينتظم الجمل، حتى يصيرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناه، والله أعلم.

والقصد كما يقال: ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقتصدنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ﴿فَاتْنَا بِمَا تَعَدْنَا﴾ استعجال منهم للعذاب.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبٌ أَنْجِدُوا رَبِّي نَسْ أَسْمَاءُ سَبَّيْنَهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَعَثْنَا مِنْهُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿قد وقع عليكم﴾ أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونحوه: قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان: أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء يبكي فقال له: يا بني ما لك؟ قال: لسعني طيور كانه ملتفت في بردي حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر والرجز: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب ﴿في أسماء سميتوهما﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الآلهة فيها معدوم محال وجوده وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من لونه من شيء﴾⁽¹⁾ ومعنى سميتوهما: سميتم بها من سميته زيدا، وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن عاد قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها، صداء وصمود والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأفضلهم حساباً، فكذبوه وازدادوا عنواً وتجبراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهلوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشرَكهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سالم بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهبنم لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً قد أسوسا ما يبينون الكلاما
فلما غنتا به قالوا: إن قومك يتغوثون من البلاء الذي

نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فإخلوها الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال: قيل اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها و ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾⁽²⁾ فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فاتوا مكة فعبوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام، كانه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ونجى الله المؤمنين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَكْفَرًا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ عَنْ بَنِي آدَمَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾

قري: وإلى ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة، إلى ثمود بالصرف بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت ثمود: لقلّة ماؤها من الثمد وهو: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القري ﴿قد جاءكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتها. وكانه قيل: ما هذه البينة؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية: نصب على الحال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كانه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كانه قال لكم خصوصاً وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشانها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فعل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله، وروي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمرّوا أعماراً طويلاً حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام وكانوا قوماً عربياً وصالح من أوسطهم

(2) سورة الأحقاف، الآية: 24.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 42.

ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعنين إلا أن تكونوا بأكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك»⁽²⁾، وقرأ أبو جعفر في رواية: تاكل في أرض الله، وهو في موضع الحال بمعنى: آكلة.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَمَعَكُمْ خُلَفَاءُ مِنْ بَدِ عَاكِرٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّبِعُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَتَّخِذُونَ الْجِبَالَ يَتُونَ فَاذْكُرُوا
آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾

﴿وبوآكم﴾ ونزلكم والمباة المنزل ﴿في الأرض﴾ في أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿من سهولها قصوراً﴾ أي: تبنيونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والأجر. وقرأ الحسن: وتحتون بفتح الحاء، وتحتون بإشباع الفتحه كقوله:

ينباع من نفري أسيل حزة

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿بيوتاً﴾؟ قُلْتُ: على الحال كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً وأبر هذه القصبه قلمماً، وهي من الحال المقترنة: لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ولا الثوب ولا القصبه قميصاً وقلمماً في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا مِنْ
أَمَانٍ مِنْهُمْ أَتَمُّنُونَ أَنْ صَلَاحًا تَرْسَلَنَّ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾

﴿الذين استضعفوا﴾ الذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم و ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الذين استضعفوا.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: الضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ماذا؟ قُلْتُ: إلى ﴿قومه﴾ أو إلى ﴿الذين استضعفوا﴾.

فإن قُلْتُ: هل لاختلاف المرجعين اثر في اختلاف المعنى؟ قُلْتُ: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل من آمن مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعفهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ودل أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿اتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية كما تقول للمجسمة: اتعلمون أن الله فوق العرش.

نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وانذرهم فسألوه آية فقال: آية آية تريبون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وتدعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعنا وإن استجيب لنا اتبعنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجيبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكائبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شالكت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجبنناك، فآخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تخمض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فأمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فنزعت مصدر الناقة فوجئته ستين نراعاً، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيه إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي، ففعلوا ما اقتسموا لحمها وطبخوها، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: ادركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغاثة فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم حممزة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالانطاع، فأتتهم صيحة من السماء فقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿تاكل في أرض الله﴾ أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فنزوها تاكل في أرض ربهها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من اثباتكم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله، ويروى أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يلخلن أحد منكم القرية،

(2) رواه الحاكم في المستدرک 3/141.

(3) قال أحمد: فقلوه لمن على الأول بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وعلى الثاني بدل بعض من كل.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر

(الحديث رقم: 4419) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب:

لا تدخلوا مسكن الذين ظلموا... (الحديث رقم: 7389).

قومه،⁽⁶⁾ وروي أن صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه عليه السلام مرّ بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فنكر قصة أبي رغال وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسياقهم فاستخرجوا الغصن»⁽⁷⁾.

تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾

﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولى مغتم متحسر على ما فاتته من إيمانهم يتحنن لهم ويقول ﴿يا قوم لقد﴾ بنلت فيكم وسعي ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم ﴿لا تحبون الناصحين﴾ ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي: أن عقربهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار، وروي: أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قلت: كيف صحَّ خطاب الموتى وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ التَّجَشُّعَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْسَنِ رِزْقِ الْمَلَكِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ولوطاً﴾ وأرسلنا لوطاً و ﴿إذ﴾ ظرف لأرسلنا، أو وانكر لوطاً وإذ يدل منه بمعنى وانكر وقت ﴿قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿ما سبقكم بها﴾ ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله، ومنه قوله عليه السلام: سبقك بها عكاشة ﴿من أحد من العالمين﴾ من الأولى

فإن قلت⁽¹⁾: كيف صحَّ قولهم ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ جواباً عنه؟ قلت: سألوه عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوحاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة⁽²⁾ ﴿إنا بالذي أمنتم به كافرين﴾ فوضعوا أمنتم به موضع أرسل به رداً لما جعله المؤمنون معلوماً واخنوه مسلماً.

فَعَمَّرُوا النَّاقَةَ وَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فعمروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم ﴿وعتروا عن أمر ربهم﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله ﴿فنزوها تاكل في أرض الله﴾⁽³⁾ وشأن ربهم وهو: دينه، ويجوز أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم، ونحو عن هذه ما في قوله: ﴿وما فعلته عن أمري﴾⁽⁴⁾ ﴿واتننا بما تعبدنا﴾ أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلوماً، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرين وهو كونه من المرسلين.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا ﴿٧٩﴾

﴿الرجفة﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿في دارهم﴾ في بلادهم أو في مساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامدين لا يتحركون موتى يقال: الناس جثم أي: قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نسبة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها⁽⁵⁾، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي، وعن جابر أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تسالوا الآيات فقد سالها قوم صالح فأخذتهم الصيحة»، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله، قالوا: من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب

(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

(4) سورة الكهف، الآية: 82.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: الشراب من في السقاء (الحديث رقم: 3719) والترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل لحوم الجلالة والبانها (الحديث رقم: 1825)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: النهي عن لبن الجلالة، (الحديث رقم: 3421).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/320، وأحمد في المسند 3/296.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال (الحديث رقم: 3088).

(1) قال أحمد: وقولهم إنابة مؤمنون ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(2) قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين، لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرين، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إن رسولك الذي أرسل إليك لمجنون، فثبت إرساله تهكماً، ليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلينها خالص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وعلواً في الإصرار.

عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَمْطَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَيْنُهُ تُنْزِرِينَ ﴿٨٧﴾

﴿واهلكه﴾ ومن يختص به من نويه أو من المؤمنين ﴿من الغابرين﴾ من الذين غبروا في ديارهم أي بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفة خمس مداين، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذائهم، وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجرًا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين مطر وأمطر قُلْتُ: يقال (2) مطرتهم السماء وواد مطور، وفي نوابغ الكلم حري غير مطور حري أن يكون غير مطور، ومعنى: مطرتهم أصابتهم بالمطر كقولهم غانتهم ووبلتهم وجانتهم ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (3) ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ (4) ومعنى ﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا يعني: الحجارة، ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾ (5).

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شَيْبًا قَالَ يَنْفَرُوا آتِبُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَيْبٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَاللِّبْرَاتِ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتفاء عما نهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

فإن قُلْتُ: ما كانت معجزته؟ قُلْتُ: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ ولأنه لا بد لمُدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه وكان متبنيًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فيه، ومن معجزات شعيب عليه السلام ما روى من محاربة

زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض.

فإن قُلْتُ: ما موقع هذه الجملة؟ قُلْتُ: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولًا بقوله: أتاتون الفاحشة، ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها، أو على أنه جواب السؤال مقدر كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

إِنَّكُمْ لَأَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٩﴾

﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتاتون الفاحشة﴾ والهمزة مثلها في أتاتون للإنكار والعظيم، وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له أي: للاشتهاء، لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر. ولا تم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه، أو حال بمعنى مشتويين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو: أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ونحوه ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ (1).

وَمَا كَانَتْ حَوَابٌ قَرِيْبَةً إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْزِلُوهُمْ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجهم ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرًا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم وقولهم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخارًا بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتكشفت وأريحونا من هذا المتزهد.

فَأَجْنِبْنَهُ وَهَلْهَلُهُ إِلَّا أَرَأَيْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٩١﴾ وَأَمْطَرْنَا

(1) سورة الشعراء، الآية: 166.

(2) قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من يقول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهم أنها تفرقه وضعية، فبين أن أمطرت، معناه: أرسلت شيئًا على نحو المطر، وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله من السماء أنواعًا من الخيرات، والإرزاق مثلاً، كالمن والسلوى لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي: أرسلتها إرسال المطر، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة =

= الرباعية، ولكن اتفق أن المساء لم ترسل شيئًا سوى المطر، إلا وكان عذاباً، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع، فنبه على تحقيق الأمر فيه، وأحسن، وأجمل.

(3) سورة الأنفال، الآية: 82.

(4) سورة الحجر، الآية: 74.

(5) سورة الشعراء، الآية: 173.

عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرغ خاصة حين وعده أن تكون له الدرغ من أولادها، ووقوع عصي آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلها كانت قبل أن يستنبا موسى عليه السلام فكانت معجزات شعيب.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿الكيل والميزان﴾ وهلا قيل المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام؛ قُلْتُ: أريد بالكيل آلة الكيل وهو: المكيال أو سمي: ما يكال به بالكيل، كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسنها حمقاء وهي باخس، وقيل: ﴿أشياءهم﴾ لأنهم كانوا يخسون الناس كل شيء في مبيعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي بانهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف، فقطعوا قطاعاً ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بئله زيوفاً ﴿بعد إصلاحها﴾ بعد الإصلاح فيها أي: لا تفسوها فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء واتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾⁽¹⁾ بمعنى: بل مكرهم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿أنكم﴾ إشارة إلى ما نكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحدثه وما تطلبونه من التكسب والتريح؛ لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي لنكم خير لكم.

وَلَا تَعْمَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِهِ وَكُنُوهَا عَوجًا وَانكِرُوا إِذْ كُنْتُمْ قِيلًا نَكِرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾.

﴿ولا تعبدوا بكل صراط﴾ ولا تقتنوا بالشيطان في قوله ﴿لا تعبدن لهم صراطك المستقيم﴾⁽²⁾ فتتعلموا بكل صراط أي: بكل منهاج من منهاج الدين، والدليل على أن المراد بالصراط: سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال أي: ولا تعلموا موعدين وصابرين عن سبيل الله وياغيبها عوجاً.

فإن قُلْتُ: صراط الحق واحد ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾⁽³⁾ فكيف قيل بكل صراط قُلْتُ: صراط الحق واحد

ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكلوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعده وصلوه.

فإن قُلْتُ: الإم يرجع الضمير في ﴿أمن به﴾ قُلْتُ: إلى كل صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم ودلالة على عظم ما يصدون عنه، وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مر بهم: أن شعيباً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين ﴿وتبغونها عوجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً أي: تصفونها للناس بانها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصنوه عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكماً بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأن طريق الحق لا يعوج ﴿وانكروا إذ كنتم قليلاً﴾ إذ مفعول به غير ظرف، أي: وانكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عندكم ﴿فكثركم﴾ الله ووفر عندكم قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط، فولدت، فرسى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم فجعلكم أكثرين موسرين، أو كنتم أقله أئمة فاعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عاقبة المفسدين﴾ آخر أمر من أقصد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفة.

وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِرُوا قَائِمُهَا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشِمُوكَ الْوَدَّيْنِ ءَامِنًا مَّعَكَ مِن قَوْمِنَا أَوْ نَكُونَنَّ فِي يَأْسٍ قَالِ أَوْلُو كَمَا كَرِهْتُمْ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي بِلَادِكُمْ بِدَا إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّمُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا وَسِعَ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَلَماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿فصابروا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم كقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾⁽⁴⁾ وهو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الحيف. أي: ليكون أحد الأمرين إما إخراجكم وإما عودكم في الكفر.

(3) سورة الأنعام، الآية: 153.

(4) سورة التوبة، الآية: 52.

(1) سورة سبأ، الآية: 33.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾؟ وكيف أجابهم بقوله ﴿إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والانبيا عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟ قُلْتُ: لما قالوا لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك فعطفوا على ضميره الذين نخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عائنين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراء للكلام على حكم التغليب.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ والله⁽²⁾ تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قُلْتُ: معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا اللطاف لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عبادك كيف تتحوّل وقلوبهم كيف تتقلب وكيف تقسو بعد الرقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لا زياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾⁽³⁾ حسماً لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿أولو كنا كارهين﴾ الهمة للاستفهام، والواو والحال تقديره: لتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين، وما

يكون لنا وما ينبغي لنا وما يصح لنا ﴿ربنا افتح بيننا﴾ احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا ﴿وبين قومنا﴾ وينكشف بان تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ كقوله: ﴿وهو خير الحاكمين﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: كيف أسلوب قوله: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾؟ قُلْتُ: هو إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب كأنهم قالوا: أكتبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأن الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أن الله ندأ ولا ند له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، والثاني: أن يكون قسمًا على تقدير حنف اللام بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّعَمْتُمْ شَيْئًا إِنَّا لَنَخِيرُونَ ﴿١٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ فَأَسْبِغُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١١﴾

﴿وقال الملا الذين كفروا من قومه﴾ أي: أشرافهم للذين بونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿لئن لتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾⁽⁵⁾ وقيل: تخسرون باتباعه فوائدهم البخس والطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والنسوية.

فإن قُلْتُ: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن اتبعتم شعيباً﴾ وجواب الشرط؟ قُلْتُ: قوله: ﴿إنكم إذا

(1) قال احمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، والتحقيق في الجواب عن السؤال المنكور مع اقتضاء العود لذلك، أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار، وحينئذ يجوز أن يكون أحياناً لكان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو: الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل صار، وكانهم قالوا والله أعلم: لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرن كفاراً مثلاً، وحينئذ يندفع السؤال أو يسلم استعمال العود، بمعنى: الرجوع إلى أمر سابق، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ والإخراج يستدعي تحولاً سابقاً، فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان، لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو اراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عودله عن الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له، ولطفاً به، وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة

== بالهدى﴾ وهو: من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذا الموضع تحقيق التمكن، والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

(2) قال احمد: وهذا السؤال كما ترى مفرغ على القاعدة الفاسدة في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح، والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية، هو المعمول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله، وأمّا الاستدلال الزمخشري على صحة تأويله، بقوله: وسع ربنا كل شيء علماً، فمن احتيالاته في التاويلات الباطلة يعضدها ويتبع الشبه، ويلفحها وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علماً، الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والإطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع العبد ولو وقع بقدرته الله ومشيئته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة، والإيمان السالم، والله الموفق، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء، علماً لما رُد الأمر إلى المشيئة، وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(3) قال احمد: وهذا من الطراز الأول، فالحق به وسحقاً سحقاً.

(4) سورة الاعراف، الآية: 87.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

لخاسرون ﴿ سَادَ مَسَدَ الْجَوَابِينَ.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانَتْ يَتَنَوَّىٰ إِلَيْهَا الْآيَاتُ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿الذين كذبوا شعبيًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ وكذلك ﴿كانوا هم الخاسرون﴾ وفي هذا الابتداء معنى: الاختصاص كأنه قيل: الذين كذبوا شعبيًا هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كان لم يقيموا في دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعبيًا قد اتجأهم الله، الذين كذبوا شعبيًا هم المخصوصون بالخسران العظيم بون اتباعه فإنهم الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير مبالغة في ردِّ مقالة الملأ لأشباعهم وتسفيه لرايهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

فَنَوَّلْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رَسُولَنَا لَوْ نَشَاءُ لَقَدْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَلَكِنَّكُمْ كَفَرْتُمْ ﴿١٦٧﴾

الأسى: شدة الحزن قال العجاج:

وانجلبت عيناه من فرط الأسى

اشتدَّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتدَّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعزرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلَّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف أسى عليكم؟ يعني: أنه لا ياسى عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب: فكيف أيسي بكسر الهمزة.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّوْنَ ﴿١٦٨﴾

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ بالبؤس والفقير ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه ﴿لعلهم يضرعون﴾ ليتضرعوا ويتنلوا ويحطوا أودية الكبر والعزة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والصحة والسعة كقوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ (١)

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَاتُنَا الْفِتْرَةَ وَالشَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿حتى عموا﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عمف النبات وعمفا الشحم والوبر إذا كثرت، ومنه قوله ﷺ: «واعفوا للحى» وقال الحطية:

بمستاسد القرعان عاف نباته

وقال:

ولكننا نعوض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم
﴿وقالوا قد مس آبائنا الضراء والسراء﴾ يعني: ابطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آبائنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب ﴿فاخذناهم﴾ أشدَّ الأخذ واقطعه وهو: أخذهم فجأة من غير شعور منهم. اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ (٢) كأنه قال: ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَمَّوْا لَنَخَّصْنَا عَنْهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧٠﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيْنَمَا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧١﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهْجَةً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٧٢﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿أمنوا﴾ بدل كفرهم ﴿واتقوا﴾ المعاصي مكان ارتكابها ﴿افتحننا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لآتيانهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات ﴿ولكن كذبوا فاخذناهم﴾ بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس.

فإن قلَّتْ: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلَّتْ: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارىء، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتحقيق. البيات يكون بمعنى: البيوتة، يقال: بات بيأتًا ومنه قوله تعالى: ﴿فجاءها بأسنا بيأتًا أو هم قائلون﴾ (٣) وقد يكون بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم يقال: بيته العلو بيأتًا، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا باتتين، أو وقت بيات أو مبيتًا أو مبيتين، أو يكون بمعنى: تبييتًا، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بيأتًا ﴿وضحى﴾ نصب على الظرف يقال: اتانا ضحى وضحياً وضحاء، والضحى في الأصل: اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.

والفاء والواو في أقامن واو أمن حرفاً عطف دخلت عليهما همزة الإنكار. فإن قلَّتْ: ما المعطوف عليه ولم عطف الأولى بالفاء والثانية بالواو؛ قلَّتْ: المعطوف عليه قوله: فاخذناهم بغتة، وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطف بالفاء؛ لأن المعنى فعلوا وصنعوا فاخذناهم بغتة أبعد ذلك من أهل القرى أن ياتيهم بأسنا بيأتًا وأمنا أن ياتيهم بأسنا ضحى. وقرى: أو أمن على العطف باو ﴿وهم يلعبون﴾

(3) سورة الأعراف، الآية: 4.

(1) سورة الأعراف، الآية: 168.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

يشغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

فإن قلنت: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿فأفامنوا مكر الله؟﴾ قلنت: هو تكرير لقوله: ﴿فأفامن أهل القرى﴾ ومكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولا استدراج، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة، وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه إن أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾.

أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطع على قلوبهم فهم لا يسمعون (138).

إذا قرئ: ﴿أولم يهد﴾ بالياء كان ﴿أن لو نشاء﴾ مرفوعاً بانه فاعله بمعنى: أولم يهد للذين يخلقون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو: إنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، وإذا قرئ بالنون فهو منصوب كأنه قيل: أولم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أولم نبين لهم إنا ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قلنت: (1) بم تعلق قوله تعالى: ﴿ونطع على قلوبهم؟﴾ قلنت: فيه أوجه: أن يكون معطوفاً على ما دل عليه معنى ﴿أولم يهد﴾ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطع على قلوبهم، أو على ﴿يرثون الأرض﴾ أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطع على قلوبهم.

فإن قلنت: هل يجوز أن يكون ونطع بمعنى وطبعنا، كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قلنت: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوه من هذه الصفة وأن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْمَئِنُّوا بِالْأَمْوَالِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ إِنَّهَا عِندَ رَبِّكُمْ تَحْتَ حِفْظِهِمْ لِنَفْسِهِمْ فِي يَوْمٍ يُنْفَخُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِندَ رَبِّهِمْ إِذَا ضَلَّتْ سُلُوكُكُمْ ظُلُمًا فَانقَسُوا لَهَا وَتُصَارَفُ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ شَاكِرًا غَنِيًّا (139).

قلوب الكافرين (137).

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلي شيخاً﴾ (2) في أنه مبتدأ وخبر وحال، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً، وأن يكون القرى نقص خبراً بعد خبر.

فإن قلنت: ما معنى ﴿تلك القرى﴾ حتى يكون كلاماً مفيداً؟ قلنت: هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قوله: هو الرجل الكريم.

فإن قلنت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلنت: معناه أن تلك القرى المنكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أبناء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواظ عليهم وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد هو كقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ (3) ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الشديد نطع على قلوب الكافرين.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَنِينَ (140).

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني: أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى ﴿وإن وجدنا﴾ وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين، والآية اعتراض، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المنكوبين وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومخافة ﴿لئن أنجبنا لنؤمنن﴾ (4) ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لئن كشفناك عنا الرجز لنؤمنن لك﴾ (5) إلى قوله: ﴿إذا هم ينكتون﴾ (6) والوجود بمعنى العلم من قوله: وجدت زييداً ذا

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنوب، ولا بد إذ الطبع هو التعمد على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة بل يأن الكافر يهدد من تمايه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هدبتهم بامرئين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه انكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنوب بالإيقاع في نوب أكبر منه، وعلى الكفر

= بزيادة التصميم عليه، والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فزانهم رجساً إلى رجسهم، كما زانت المؤمنتين إيماناً إلى إيمانهم﴾ وهذا النوع من الثواب، والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه، فتواب الإيمان إيمان، وثواب الكفر كفر، وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه فحول الطبع في مشيئة الله تعالى، وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنده متعال، واتى يتم الفرار من الحق، وكف من أية صرح بتوقوع الطبع من الله فضلاً عن تعلق المشيئة به.

(2) سورة هود، الآية: 72.

(3) سورة الانعام، الآية: 28.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) سورة الاعراف، الآية: 134.

(6) سورة الاعراف، الآية: 135.

والحفاظ، لبليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

فإن قُلْتَ:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْتُم كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِآيَاتٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿من بعدهم﴾ الضمير المرسل في قوله ﴿ولقد جاءتهم رسالهم﴾^(١) أو لللام ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واحد ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٢) أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدهم وصدوهم عنها وآثروا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلمًا فلنلك قيل ﴿فظلموا بها﴾ أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان.

يقال لملوك مصر: الفراعنة كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة فكانه قال: يا ملك مصر وكان اسمه: قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ فيه^(٣) أربع قرأت: المشهورة وحقيق علي أن لا أقول وهي: قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي: قراءة عبد الله، وحقيق بأن لا أقول وهي: قراءة أبي، وفي المشهورة إشكال ولا تخلو من وجوه أحدها: أن تكون مما يقبل من الكلام لا من الإلباس كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، وحقيق علي أن لا أقول وهي قراءة نافع، والثاني: أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقًا عليه كان هو حقيقًا على قول الحق أي: لازمًا له، والثالث: أن يضمن حقيق معنى: حريص كما ضمن هيجني معنى نكرني في بيت الكتاب، والرابع

﴿ثعبان مبین﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعبانًا نكرًا أشعر فأغرا فاه بين لحييه وثمانون ذراعًا، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، وبخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

= والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرح بذلك في قوله:

طوال الرينيات يقصفها ندى وبيض السرجيات يقطعها حمى
الوجه الثاني: قلب معزى عن هذا المعنى البلخي، ولذلك لا يستفصح، كقولهم خرق الثوب المسمار وأشباهه وعلى الوجه الأول الأنصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نهبت عليه، وأما الوجه الثاني، وهو أن ما لزمك فقد لزمته، ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه لقول الحق من هذا النمط وأما الوجه الثالث: فلا يلائم بين القراءتين، وقد نكر لها وجه خامس، وهو أن يكون على بمعنى الباء، ونقل رميت على القوس بمعنى: رميت بالقوس، وهو وجه حسن يلائم، والله أعلم، ويشهده قراءة أبي حقيق بأن لا أقول.

(1) سورة الاعراف، الآية: 101.

(2) سورة لقمان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وقوله:

قد صرح لاسر عن كتمان وابتلت وضع المحاجن بالمهوية للثقن
فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح، والمهوية تبتذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهًا على أن الرماح قد تنقص، وتنقص في أجوافهم، فعبّر عن ذلك بالشقاء، وأن المحاجن كثيرًا ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهوية، وربما تمزقت عن ذلك، فجعل ذلك ابتداءً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيرًا في أمثال قوله:

= والسيف يشقى كما تشقى لضلوعه به وللسيوف كما للناس أجال

وإنكم لمن المقربين: أراد إني لا اقتصر بكم على الثواب وحده وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو: التقريب والتعظيم: لأنّ المثاب إنما يتهدأ بما يصل إليه ويغتنب به إذا نال معه الكرامة والرفعة، وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل، وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرًا من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفًا، وقيل: سبعين ألفًا، وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا، واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون لا تغالب موسى إلا بما هو منه يعني السحر. تخييرهم إياه أنب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدل، والمتصارعين قبل أن يتأخنوا للصراع.

قَالُوا يَسْمُوعُ إِيمًا أَنْ نُؤَلِّيَ وَإِنَّا أَنْ نَكُونُ نَحْنُ الْمُتَلَيَّنِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلْفًا وَلَمَّا أَلْفًا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْمَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾

وقولهم: ﴿وَإِنَّا أَنْ نَكُونُ نَحْنُ الْمُتَلَيَّنِينَ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدياد لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصنده من التأييد السماوي وأنّ المعجزة لمن يغلبها سحر أبدًا ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أروها⁽¹⁾ بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه كقوله تعالى: ﴿يَخِيلُ إِلَيْهِ ن سَحَرَهُمْ أَنهَا تَسْمَعُ﴾⁽²⁾ روي أنهم القوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طويلاً فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضًا ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وارهبوهم إرهابًا شديدًا كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر. روي أنهم لونا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيهم ما يوهم الحركة قيل: جعلوا فيها الزئبق.

﴿وَأَوْجَعْنَا إِيَّكَ يَوْمَ أَنْ آتَىٰ عَصَاكَ إِذًا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(١٧)

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما موصولة أو مصدرية بمعنى: ما يافكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويؤزرونه، أو

فإن قلت: بم يتعلق ﴿للمناظرين﴾؟ قلت: يتعلق ببيضاء والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بيضاء عجبًا خارجًا عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروي أنه أرى فرعون يده وقال: وما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بيضاء نورانيًا غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأمانة ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والآدم أبيض.

فإن قلت: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم قلت: قد قاله هو وقالوه هم فحكي قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فنلفته منه الملا فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم ﴿أرجه ولخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ وقرئ: سحار أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: ﴿فماذا تأمرون؟﴾ من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمرون من كلام فرعون قاله للملأ: لما قالوا له ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يريد أن يخرجكم﴾ كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجه وأخاه معنى أرجه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرئ: أرجه بالهمزة وأرجه من أرجاه وأرجاه.

فإن قلت: هلا قيل وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قلت: هو على تقدير سائل سال ما قالوا إذ جاءه؟ فأجيب بقوله ﴿قالوا لئن لنا لأجرًا﴾ أي: جعلنا على الغلبة، وقرئ: إن لنا لأجرًا على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتذكير للتعظيم كقول العرب: إن له لإبلًا وإن له لغنمًا يقصدون الكثرة.

فإن قلت: ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ ما الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سد مسدّه حرف الإيجاب كأنه قال إيجابًا لقولهم ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ نعم إن لكم لأجرًا،

(1) قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها لظواهر على ما هي عليه؛ لأنّ العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستنق، فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر، ما يستائر الإقتدار عليه، وذلك واقع بقدرته الله تعالى عند إرشاد الساحر هذا، هو الحق، والمعتقد الصدق، وإنما أجزيت هذا الفصل؛ لأنّ كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أنّ هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن

(2) سورة طه، الآية: 66.

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنّا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أزانوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ومنه قوله:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

﴿افرغ علينا صبراً﴾ هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحذكم ليفرغ على أخيه نوباً ثم يقول: قد مزحتك أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أضرار الآثام وهو الصبر على ما توعنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَرَقْمَهُ يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَيَإْتِيكَ فَال سَقَطِلْ آتَاءَهُمْ وَنَسَوْنِي سَاءَ مَا رَدَّنَا وَأَوْفَوْنَهُمْ فَنُرِيدُكَ ﴿١٧٧﴾

﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا؛ لأنه إذا تركنهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤدياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته فكانته تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء نحو قول الحطيئة:

الم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء والنصب بإضمار أن تقديره أكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك، وقرئ: ويذرك وآلهتك بالرفع عطفاً على أتدر موسى بمعنى أتدره وأبذرك يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفاً، أو حالاً على معنى: أتدره وهو يذرك وآلهتك، وقرأ الحسن: ويذرك بالجزم كأنه قيل يفسدوا، كما قرئ: ﴿وأكن من الصالحين﴾⁽¹⁾ كأنه قيل أصدق، وقرأ: أنس رضي الله عنه: ويذرك بالنون والنصب أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرنا، وقرئ: ويذرك وإلهتك أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقريباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾⁽²⁾ ولذلك قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾⁽³⁾ ﴿سنقتل أبناءهم﴾ يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وإن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وأنه منتظر بعد.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْمَعُوا يَا اللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنِّي الْاَرْضُ لِلَّهِ

إفكهم تسمية للماقوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصيانا.

وَقَوَّعَ الْحَقُّ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَتَلَبَّوْا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَبْرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَاللَّيْلِ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا مَا مَنَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَنَّمُ بِهِ قِيلَ أَنْ مَادَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَنَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَوَدَّةِ لِيُخْرِجُوا مِنَّا أَهْلَهَا سَتَوَفَّ تَمَكَّرُونَ ﴿١٨٣﴾ لِأَقْبَلِينَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَيِّرَنَّ كَأَجْمَعِينَ ﴿١٨٤﴾

﴿فوق الحق﴾ فصل وثبت، ومن بدع التفسير فوق قلوبهم أي: فأنثر فيها من قلوبهم: فاس وقبيح ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ وصاروا أدلاء مبهوتين ﴿واللقي السحرة﴾ وخرُوا سجداً كأنما القاهم ملق لشدة خروهم، وقيل: لم يتملكوا مما رأوا فكانهم أقوا. عن قتادة: كانوا أول النهار كنفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله.

﴿أمنتم به﴾ على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخاً لهم وتقريعاً، وقرئ: أمنتم بحرف الاستفهام ومعناه: الإنكار والاستبعاد ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أن صنعكم هذه الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد توأطتكم على ذلك لغرض لكم، وهو: أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: تؤمن بي إن غلبتك، قال: لا تئين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتي لأؤمن بك، وفرعون يسمع فلذلك قال ما قال ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله ﴿لاقطعن﴾ وقرئ: لاقطعن بالتحفيف وكذلك ثم لأصلبكنم ﴿من خلاف﴾ من كل شق طرفاً، وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿إننا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه أن يريدوا إننا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخالصنا منك ومن لقاءك، أو ننتقل إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شذائذ القطع والصلب، وإننا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننتقل إلى الله فيحكم بيننا، أو أنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه.

وَمَا نُنِمْ مِنَّا إِلَّا أَتَّ أَمَّا يَأْتِي رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَنْزَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٨٦﴾

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) سورة الزمر، الآية: 3.

(3) سورة النازعات، الآية: 24.

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَنَاتِهِ وَالْمَيْمَنَةَ لِلْمُنْتَبِهَةِ ﴿١٣٨﴾.

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك حين قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾⁽¹⁾ فجزعوا منه وتضجروا يسكنهم ويسليهم ويعددهم النصره عليهم وينكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأنخلت على التي قبلها؛ قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة وأما ﴿وقال للملأ﴾ فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿إن الأرض لله﴾ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة كقوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾⁽³⁾ وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس وغرضه أن يتناول تناولاً أولياً ﴿والعاقبة للمتقين﴾ بشارة بأن الخاتمة المحموده للمتقين منهم ومن القبط وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأوا: العاقبة للمتقين بالنصب، أبي وابن مسعود عطفًا على الأرض.

قَالُوا أُرِدْنَا مِنْ كَبَلٍ أَنْ تَأْتِيَنَا رِيحٌ بَدِيءٌ مَا جِئْتَنَا قَالِ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِذَّتُكُمْ بِنِسْطِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾.

﴿أونينا من قبل أن تاتيها ومن بعد ما جئتنا﴾

يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبى وأعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتحنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسونه به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عذوكم﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلاقهم بعده في أرض مصر ﴿فلينظر كيف تعملون﴾ فيري الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد رحمه الله: أنه نخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائنته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم نخل عليه بعدما استخلف فنكر له ذلك وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾

رَلَقَدْ أَخَذْنَا مَالَ فِرْعَوْنَ بِلَيْسِينَ وَرَقِيسٍ مِنَ النَّمْرَاتِ لَمَلْهُدٍ يَدْعُونَ ﴿١٤٠﴾.

﴿بالسنين﴾ بسني القحط، والسنة من الأسماء الغالبة، كالذابة، والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أطحوا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون، فكانت لبائيتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمره ﴿لعلمهم يذكرون﴾⁽⁴⁾ فيتنبها على أن نلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله؛ ولأن الناس في حال الشدة أضرع خنودًا والين أعطافًا وأرق أقدمة، وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما أذى الربوبية⁽⁵⁾.

إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمِائِمَةٍ وَمَنْ مَعَهُ آيَاتُنَا طَرَفَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجبل للفرس ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ من ضيقة وجذب ﴿يطيئروا بموسى ومن معه﴾ يطيئروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ﷺ: هذه من عندك.

فإن قلت: كيف قيل؟ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ بإن وتكثير السيئة قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرت واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: قد عدت أيام البلاء فهل عدت أيام الرخاء ﴿طائرهم عند الله﴾ أي: سبب خيرهم وشهرهم عند الله، وهو حكمه ومشيتته والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾⁽⁶⁾ ويجوز أن يكون معناه إلا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿النار يعرضون عليها﴾⁽⁷⁾ الآية ولا طائر أشأم من هذا، وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله وهو اسم لجمع طائر غير تكسيره، ونظيره التجر والركب، وعند أبي الحسن هو: تكسير.

(5) قال أحمد: وقد ورد وإن تصيبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصيبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، فلم يراع فرق ما بينهما، ولعل بين سياق الآيتين اختلافًا أوجب في كل واحد منهما ما نكر فيه.

(6) سورة النساء، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 46.

(1) سورة الاعراف، الآية: 127.

(2) سورة الاعراف، الآية: 109.

(3) سورة الزمر، الآية: 74.

(4) قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة، وأما دعوى اختصاصها بهم، حتى لا يشركهم فيها أحد، فدل عليه تقديم الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر، كالمفعول والخبر ونحوه.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَكُنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: كيف سموها آية ثم قالوا: ﴿لتحسرننا بها؟﴾ قُلْتُ: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ أَيْبَتِي مُفَصَّلَتِي فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾

﴿الطوفان﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمرًا ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلات بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصريف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي قلابة: الطوفان الجدي وهو أول عذاب وقع فيهم بقي في الأرض، وقيل: هو: الموتان، وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرقع عنهم فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلا والزرع ما لم يعهد بمثله، فاقاموا شهراً، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعده التوبة فكشف عنهم، بعد سبعة أيام، خرج موسى عليه السلام إلى

﴿مههما﴾⁽¹⁾ هي ما المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى تخرج أخرج ﴿أيما تكونوا يدرككم الموت﴾⁽²⁾ ﴿فإما نذهبن بك﴾⁽³⁾ إلا أن الألف قلبت هاء استقفاً لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم: أن مه هي الصوت الذي يصوت به الكاف، وما للجزاء، كأنه قيل: كف ما تاتنا به ﴿من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿مههما﴾؟ قُلْتُ: الرفع بمعنى أيما شيء تاتنا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحضرنا تاتنا به، ومن آية تبين لهما والضميران في به وبها راجعان إلى مههما إلا أن أحدهما: ذكر على اللفظ، والثاني: ائث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما بمعنى: متى ما ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه وليس من كلام واضح العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر ﴿مههما تاتنا به من آية﴾ بمعنى: الوقت فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه.

= بشاذ والمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه إلى غيره، وأظهر ما قوى به مذهب الخليل، والله أعلم أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام، حسب استعمالها في الجزاء وأنشودوا:

مهما لي الليلة مهماليه أودي بنعلي وسرياليه أراد: ما لي الليلة ولا إشكال ههنا، أنها ما الاستفهامية كررت تأكيداً كما يقولون لا لا ونعم نعم ثم استكره تكرار اللفظ بعينه، فقلبت ألف الأولى هاء، وقد جاء قلب الاستفهامية، وإن لم يكن تكرار، فهو معه أجدر، وإذا وضع أن مهما الواقعة في الاستفهام أصلها، ما مكورة كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في الجزاء كذلك، والاستشهاد بالانطاش أميز حجج العربية، والله أعلم، وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى: متى ما فرد فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله من آية دل على أن الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع مهما عليها ضرورة اتحاد المرجع في المضمر، ومظهره، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع مهما على الوقت زاعماً أنها بمعنى: متى ما ذهب عن الصواب وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله، وإغلاظ التكبير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه، فتأمل هذا الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للليل، والله الموفق.

(2) سورة النساء: الآية: 78.

(3) سورة الزخرف، الآية: 41.

(1) قال أحمد: والذي عدّه أولاً من كلام سيبويه، وسنذكره قال سيبويه وسالت الخليل عن مهما، فقال هي ما أدخلت معها ما بلغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت متى ما تأتي حدثك انتهى كلام سيبويه وكان هذا القائل، والله أعلم اغترّ بتشبيه الخليل لها بمتى ما فلظنها في معناها، وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة، مؤكدة للأولى، بما اللاحقة لمتى عاد كلام سيبويه، قال: ولكنهم استجبوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء من الألف، التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل، قال سيبويه: ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد: ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما، أن الجزاء بجملة الكلمة، لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل، والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال: أول هذا الباب، وأما حيث، وإن فلا يجازي بهما، حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما، وكانما وليست ما فيهما بلغوا، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله وليست ما فيهما بلغو يعني: ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء، حتى لا يفيد إلا اجتماع جزئي الكلمة، ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن ما ضمت إلى مه التي هي الصوت، أو إلى ما الجزائية، والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت؛ لأنها لو كانت منضمة إلى الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام ما إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث ولا يكون تنظير سيبويه مطابقاً، وهذا الذي فهمه ابن طاهر، وتبعه فيه تلميذه ابن خروف وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد قول ابن بشاذ، أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن

ألم يكتون إزماً للحجة عليهم.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَا عِيسَى
عِنْدَكَ لَئِن كُفِّتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرِيَنَّكَ مَعَكَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٦﴾.

﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية والمعنى: بعهد عندك، وهو: النبوة، والباء إما أن تتعلق بقوله ﴿ادع لنا ربك﴾ على وجهين أحدهما: أسعفتنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهد عندك. وإما أن يكون: قسماً مجاباً بلؤمنن أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلَهْوِهِمْ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ
﴿١٣٦﴾ فَأَنْتَعَمْنَا فِيهِمْ فَأَفْرَقْتَهُمْ فِي الرِّجْزِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعتبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حوله ﴿إذا هم ينكتون﴾ جواب لما يعني ﴿فلما كشفناه عنهم﴾ فأجابوا النكت وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكتوا ﴿فانتمننا منهم﴾ فارادنا الانتقام منهم ﴿فاغرقناهم﴾ واليم: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأن المستنقعين به يقصدونه ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُكْفِرُونَ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا كَافِرِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَنْتَعَمْنَا فِيهِمْ فَأَفْرَقْتَهُمْ فِي الرِّجْزِ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٨﴾.

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم: بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية ﴿باركنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كلمت ربك الحسنی﴾ قوله: ﴿ونزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾^(١) إلى قوله: ﴿ما كانوا يحذرون﴾^(٢) والحسنى تأنث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تم على الأمر إذا مضى عليه ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر

الفضاء فإشار بعباه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا: ما نحن بتاركي ليننا فاقاموا شهراً، فسلط الله عليهم القمل وهو: الحممان، في قول أبي عبيدة: كبار القردان، وقيل: الدبا وهو: أولاد الجراد قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس فاكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان ياكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قملًا، وكان يخرج أحدهم عشرة أجرة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيراً، وعن سعيد بن جبير: أنه كان إلى جنبهم كتيب أغفر فضربه موسى بعصاه فصار قملًا، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجبري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا تصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلات منها أنبيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيء من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرن على الرقاد، وكانت تقذف بانفسها في القبور وهي تغلي وفي التنانير وهي تغور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في في فيصير الماء في فيها دماً، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاباً، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماً، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي: أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، روي أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب إن عيبك هذا قد علا في الأرض فخذ بعقوبة تجعلها له ولقومه نعمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم يربد القمل المعروف ﴿آيات مفصلات﴾ نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبيئات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونعمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم

(2) سورة القصص، الآية: 6.

(1) سورة القصص، الآية: 5.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿معتبر ما هم فيه﴾ مدمر مكسر ما هم فيه من قولهم: إناء متبر إذا كان فضاءً، ويقال لكسار الذهب: التبر أي: يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه، ويتركها رضاءاً ﴿ويباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقرّباً إلى الله كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (4) وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبارة وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ إِنَّهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْكَلْبِيِّتِ ﴿٧٦﴾.

﴿أغير الله ابغيعكم إليها﴾ أغير المستحق للعبادة اطلب لكم معبوداً وهو فعل بكم ما فعل نون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله.

وَأَنَّ أَمِيَّتَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ يُمَيَّلُونَ
أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَجِيبُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿يسؤونكم سوء العذاب﴾ ييغونكم شدة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَحَلُّ يَسُؤُونَكُمْ؟ قُلْتُمْ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ لَّا مَحَلَّ لَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الْمَخَاطِبِينَ، أَوْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿وَنُكِّمَكُمْ﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. وللبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

﴿وَأَعَدْنَا مُوسَىٰ ذُلِّيَّتًا لِّآلِهِ وَآتَمَنَّا بِهَا بِمُوسَىٰ فَتَمَّ بِهَا رَبِّيهِ أَزْجِيَّتًا لِّآلِهِ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَقِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧).

وروي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سال موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو: شهر ذي القعدة، فلما أتت الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك، وقيل: أمره الله أن

وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، عن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله: وتلا الآية ومعنى خف: طاش جزعاً وقلة صبر ولم يزن رزاة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسنى ونظيره ﴿من آيات ربه الكبرى﴾ (1) ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ ما كانوا يعملون ويسون من العمارات وبناء القصور ﴿ما كانوا يعرشون﴾ من الجنات وهو الذي أنشأ جنات معروشات (2) أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وقرئ: يعرشون بالكسر والضم، ونكر اليزيدي أنّ الكسر أقصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يفرسون من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

وهذا آخر ما اختص الله من نبياً فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبياً بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستيعاده ومعاينتهم الآيات العظام ومجاورتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلم كفار جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ (3) وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله تعالى.

وَجَوْرًا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَىٰ أَسْبَاطٍ
لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مَّجَاهِلُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿فأتوا على قوم﴾ فمروا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر ونلك أول شان العجل، وقيل: كانوا قوماً من لخم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم. وقرئ: وجورنا بمعنى: أجزنا يقال: أجاز المكان وجوزّه وجاوزه بمعنى: جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه، وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرهما ﴿لجعل لنا إلها﴾ صنماً تعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها، وما كافة للكاف ولنلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي رضي الله عنه: أن يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه، فقال: قلت اجعل لنا إلهاً قبل أن تجف أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوقفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

إِنَّ هَؤُلَاءِ سُنِبُّ مَا هُمْ فِيهِ وَيُظَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾.

(3) سورة سبأ، الآية: 13.

(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

(1) سورة النجم، الآية: 18.

(2) سورة الانعام، الآية: 141.

ليلة وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين
﴿أرني انظر إليك﴾⁽²⁾ ثاني مفعول أرني محذوف، أي:
أرني نفسك انظر إليك.

فإن قُلْتُ: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: ﴿أرني انظر
إليك﴾؟ قُلْتُ: معنى أرني نفسك اجعلني متمكناً من رؤيتك
بأن تنجلي لي فانظر إليك وأراك.

فإن قُلْتُ: فكيف قال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل لن تنظر إلي
لقوله: ﴿انظر إليك﴾؟ قُلْتُ: لما قال: أرني بمعنى: اجعلني
متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلبة هي الرؤية
لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل: لن تراني ولم يقل لن تنظر
إلي.

فإن قُلْتُ: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من
أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز،
وبتعاليه عن الرؤية التي هي: إدراك ببعض الحواس، وذلك
إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض
فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول
غير لازم؛ لأنه ليس بأول مكابرتهم وأرتكابهم، وكيف يكون
طلبه؛ وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا: ﴿أرنا الله
جهره﴾⁽³⁾ ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾⁽⁴⁾ إلى قوله:
﴿تضل بها من تشاء﴾⁽⁵⁾ فتراها من فعلهم وندعاهم سفهاء

يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقربه من الله، ثم
أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد اجمل نكر
الأربعين في سورة البقرة وفصلها ههنا و﴿ميقات ربه﴾
ما وقته له من الوقت وضربه له و﴿أربعين ليلة﴾ نصب
على الحال أي: تمّ بالغا هذا العدد و﴿هرون﴾ عطف بيان
لاخيه، وقرئ: بالضم على النداء ﴿لخلفني في قومي﴾ كن
خليفتي فيهم و﴿واصلح﴾ وكن مصلحاً أو وأصلح ما يجب
أن يصلح من أمور بني إسرائيل. ومن دعاك منهم إلى
الإفساد فلا تتبعه ولا نطعه.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِنَّكَ بَآءٌ
لَنْ تَرِنِي وَلَكِنَّ آفَظَّرَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَمَرَ مَكَّاهُ سَوَّوْ رَرِنِي
فَلَمَّا جَعَلَ رَبُّهُ لِيَجْعَلَ جَمَلَهُ دَكَّاً وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا آفَادَ قَالَ
سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحدنا، ومعنى اللام:
الاختصاص، فكانه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول:
أتيتك لعشر خلون من الشهر ﴿وكلمه ربه﴾⁽¹⁾ من غير
واسطة كما تكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به
في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطاً في اللوح، ودوي: أن
موسى عليه السلام كان يسمع تلك الكلام من كل جهة،
وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يوماً وأربعين

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة، فامر وهمي مثله عرض
للمعطة، فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ومن
اتباع الأوهام اغتسق مهامه الضلال، وهام، ولو كانت الرؤية
تتوقف على جهة المرئي، لكانت المعرفة تتوقف على جهة
المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى
لا في جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه
لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع،
ويجروهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على
معتقدهم، وما هم حينئذ إلا ممن أنوا موسى، فبراه الله مما قالوا
وكان عند الله وجيهاً، وأما قوله عليه السلام أتهلكنا بما فعل
السفهاء منا تديراً من أفاعيلهم وتسفيهاً لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا
راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام
لجواز الرؤية، فإن الذي كان الإهلاك بسببه، إنما هو عبادة العجل
في قول أكثر المفسرين، ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس،
لأنها غير جائزة على الله ولكن؛ لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع
في دار الدنيا، والخبر صق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية، فلما
سألو، وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم
تكنيباً للجهل، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم
على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها، حيث قالوا:
لن نؤمن لك، حتى نرى الله جهره، إلا ترى أن قولهم لن نؤمن لك
حتى تقجر لنا من الأرض ينبوعاً، إنما سألوها فيه جائزاً، ومع ذلك
قرعوا به، لاقتراحهم على الله، ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه،
فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الرمزخشري بعين
الهمى، وغنايتهم عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(1) قال احمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة،
والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه، أنها سيقت مساق
الامتنان على موسى، باصطفاه الله له، وتخصيصه إياه بتكليمه،
وكذلك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إني اصطفيتك على الناس
برسالاتي وبكلامي، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين﴾ فلو كان
تكليم الله له بمعنى خلق الحروف، والأصوات في بعض الأجرام،
واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام
في ذلك، بل كان أحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أدر
بهذه العزية، وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم
سمعوا الكلام على الوجه المنكور من أفضل الأجرام، وأزكاها
خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر، وخصوصيتهم
أوفر، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه
الصلاة والسلام بهذه العزية، فلا يجمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع
الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى، بلا واسطة لليل
عليه من حروف، ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات
الباري سبحانه وتعالى، وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجيز أن يسمع
كلامه، وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً، والكلام في هذه العقيدة
طويل والشروط بطين، وهذه النكتة هي الخاصة، بهذه الآية، والله
الموفق.

(2) قال احمد: ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية؛ لأن غرضه أن
يخص الحق بالضلالة، ويشين بكفه الغزالة هيئات قد تبين
الصحيح، لذي عينين، فالحق بلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين
أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى، فوظيفة علم الكلام
وأخصر وجه في إجابة ذلك، أن الوجود مصحح الرؤية بلليل أن
جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً، وقد شمل للجواز الجوهر،
والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود،
وإذا كان الوجود هو المصحح، فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده،

(3) سورة النساء، الآية: 158.

(4) سورة الاعراف، الآية: 155.

(5) سورة الاعراف، الآية: 155.

والنظام وأبي الهذيل والشخين وجميع المتكلمين؟

فإن قُلْتُ (3): ما معنى ﴿لن﴾؟ قُلْتُ: تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً والمعنى: أن فعله ينافي حالي كقوله: ﴿لن يخلقوا ذبأباً ولو اجتمعوا له﴾ (4) فقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ (5) نفي للرؤية فيما يستقبل، و ﴿لن تراني﴾ تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر، وهو: أن تنظر إلى الجبل الذي يرفج بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله نكاً بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه (6) عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وتخرّ الجبال هذا﴾ * أن دعوا للرحمن ولداً (7) فإن استقر مكانه (8) كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته ﴿فسوف تراني﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يبكه نكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وأرد على أسلوب عجيب ونمط بديع، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب

وضلالاً قُلْتُ: ما كان طلب الرؤية إلا ليكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكروا عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتملأوا في لجاجهم، وقالوا: لا بد ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله: ﴿لن تراني﴾؛ ليتيقنوا وينزاح عنهم ما لخلهم من الشبهة فلذلك قال: ﴿رب أرني انظر إليك﴾.

فإن قُلْتُ (1): فهلا قال أرهم ينظروا إليك؟ قُلْتُ: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أروا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمع كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى: ﴿أرني انظر إليك﴾؛ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار؛ ولأن الرسول إمام أمته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم، وقوله (2): ﴿انظر إليك﴾ وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقلوبهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد

= كقوله تعالى: ﴿قل لن تخرجوا معي أبداً، فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، ولن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ لن تتبعونا، فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(4) سورة الحج، الآية: 73.

(5) سورة الأنعام، الآية: 103.

(6) قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الرمخشري، كنسبة الولد إليه، وهذا مفرغ على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة، إلا تتبع الشبه لامتناع تلفقها من كل فج، والحق أن بك الجبل إنما كان، لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء، ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء، وهذا هو الماثور عن السلف في هذه الآية، ومعناه: عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إماً؛ لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإماً؛ لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا، وإماً؛ لأنهم كفروا بالاتراح، أو بالمجموع.

(7) سورة مريم، الآيتان: 90 و91.

(8) قال أحمد: وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون، قد علقها الله على شرط محال، وهو استقرار الجبل حال نكه، والمعلق على المحال محال، وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم، ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع، ولا العكس وحيث يتوجه لئلاً، لأهل السنة، فنقول استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقبوراً، ونحن نقول مقبور، ولكن ما تعلقت المشيئة بليجاده وقلنا أقعد بالأداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(1) قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأوّل، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم، حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد، لهذا الغرض؛ لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى، ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود، من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يرد ذاته، على علم بأن ذلك محال، وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام، فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك، فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازه على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا، وإن كان جائزاً.

(2) قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها، وأما تنزيه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استجالة الرؤية إليه، فهو غني عنه، وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله ويصفاته، على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام، وأبي الهذيل، والشخين، فهو نقص عن منصبه العلي وأقل العوام المقلدين، لأهل السنة راجع عند الله على أصحاب البدع، والأهواء، وإن ملؤوا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(3) قال أحمد: لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز تأكيده، وأما استنباط الرمخشري من ذلك مناقاة الرؤية لحال الباربي عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي عقلاً مرئود كثيراً بكثير من الأبي، =

عرفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك. ﴿انظر إليك﴾ أعرفك معرفة اضطرار كاني أنظر إليك كما جاء في الحديث: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»⁽⁴⁾ بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى. قال: ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوتك تلك الآية المضطرة، ولكن انظر إلى الجبل فإنني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعض فسوف تثبت لها وتطيقها، ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته ﴿جعله نكاً وخرز موسى صعقاً﴾ لعظم ما رأى، فلما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ مما اقتدرت وتجاسرت ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وباسك.

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَمَطَيْتُكَ عَلَىٰ أَنَايِسَ رِسَالَتِي وَيَكَلِّمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ السَّكِينِ ﴿١٤٣﴾.

﴿اصطفيتك على الناس﴾ اخترتك على أهل زمانك أشرك عليهم ﴿برسالاتي﴾ وهي أسفار التوراة ﴿وبكلامي﴾ وبتكلمي إياك ﴿فخذ ما آتيتك﴾ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خرز موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر.

فإن قُلْتُ: كيف قيل: ﴿اصطفيتك على الناس﴾ وكان هرون مصطفى مثله ونبياً؟ قُلْتُ: أجل، لكنه كان تابعاً له ورداً ووزيراً، والكليم هو: موسى عليه السلام والأصيل في حمل الرسالة.

وَكَبَّتْنَا لَهُ فِي الْأَنْزَاجِ بَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ مَّرْوَطَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ سَأْوَرِكُوكَ دَارَ الْفَيْسِقِينَ ﴿١٤٤﴾.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة، ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، وشاعره، والمنافع عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المنقلبين بالعلية، وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافع عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعدها ما لن يخلفه وتلقبوا علية قلنا أجل عدلوا بربهم ففسدوا سفه وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى سفه

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير في سورة ق، باب: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» (الحديث رقم: 4851)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» (الحديث رقم: 1432).

النظر على الشريطة في وجود الرؤية أعني قوله: ﴿فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿جعله نكاً﴾ أي: ملكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والندك والندق أخوان كالشق والشوق، وقرى: نكاً والنداء اسم للرابية الناشرة من الأرض كالندكة، أو أرضاً نكاء مستوية ومنه قولهم: ناقة نكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: أبسط يدك نكاء أي: مدها مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: نكاً أي: قطعاً نكاً جمع نكاء ﴿وخرز موسى صعقاً﴾⁽¹⁾ من هول ما رأى، وصعق من باب فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق وأصله من الصاعقة، ويقال لها: الصاعقة من صعقه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خرز مغشياً عليه غشية كالموت، وروي: أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه ففعلوا يلكنونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته ﴿قال سبحانك﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿تبت إليك﴾ من طلب الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي نكرته فمم تاب؟ قُلْتُ: من إجراءاته تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إن فيهِ من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله نكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كلمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبى ربه ملتجئاً إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال: ﴿أنا أول المؤمنين﴾ ثم تعجب من المتسمين بالإسلام⁽³⁾ المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يفرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمرا لعمرى موكفه قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه وتفسير آخر وهو: أن يريد بقوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾

(1) قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية، فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد، والوجه التورك بالغلط على ناقليها، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله، بالوكز بالرجل، والغمص في الخطاب.

(2) قال أحمد: أما دك الجبل، فقد سلف الكلام على سره، وأما تسبيح موسى عليه السلام، فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن قوع خلاف معلومه، وعن الحلف في خبره الحق، وقوله الصوق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبى الله، وقدم علمه وخبره عن الخلف، وأما التوبة في حق الأنبياء، فلا تستلزم كونها عن نذب؛ لأن منصبهم الجليل، ينبغي أن يكون منزهاً مبراً من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإن، كان أكمل، وقد ورد سيئات المقربين حسنات الأبرار.

﴿سأصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: نكر لنا عن رسول الله ﷺ: «إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي»⁽⁴⁾ وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل، ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم، وفيه إنذارًا للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى: يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كل آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشاد والرشاد والرشاد كقولهم السقم والسقم والسقام، وما أسفه من ركب المفازة فإن رأى طريقًا مستقيمًا عرض عنه وتركه، وإن رأى معسفاً مردياً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ﴿ذلك﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبَلَتُ أَعْيُنُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَجَلًا جَسَدًا لَمْ خُورْ أَلَّهُ بَرَزًا أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا أَخَذَهُمْ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿ولقاء الآخرة﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة ﴿من بعده﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قلت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلًا والمتخذ هو السامري؟ قلت: فيه وجهان أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذهم راضين به فكانهم أجمعوا عليه، والثاني: أن يراد واتخذوه إلهاً وعبوه. وقرئ: من حليهم بضم الحاء والتشديد جمع حلى كئدي، وثدي، ومن حليهم بالكسر للاتباع كئلي، ومن حليهم على التوحيد، والحلي اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

نكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينهاله فقطعها بيده وشققها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كُتِبَنا و﴿موعظة﴾ وتفصيلاً بدل منه، والمعنى: كُتِبَنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي: سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيه، ولا تقنلوا، ولا تزنوا، ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها عطفًا على كُتِبَنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فخذ ما أتيتك﴾⁽¹⁾ والضمير في خذها للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء أو للرسالات أو للتوراة ومعنى: ﴿بقوة﴾ جِدْ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿ياخذوا باحسانها﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾⁽²⁾ وقيل: ياخذوا بما هو واجب أو نبي؛ لأنه أحسن من المباح ويجوز أن يراد: ياخذوا بما أمروا به نون ما نهوا عنه على قولك: الصيف أحر من الشتاء ﴿ساريتكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي: مصر كيف أقرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرمك عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم، وقرأ الحسن: ساوريتكم وهي: لغة فاشية بالحجاز يقال: أورني كذا، وأوريتي، ووجهه أن تكون من أوريت الزند كان المعنى بينه لي وأنزه لأستبينه، وقرئ: ساوريتكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾⁽³⁾.

سَامِرِيُّ عَنْ أَبِي الْأَيْبِ الْبَكْرِيِّ فِي الْأَرْضِ بِمِثْرِ الْحَقِّ وَإِنْ بَرَزُوا كُلُّ مَاءٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ بَرَزُوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَسْتَجِدُّهُ سَبِيلًا وَإِنْ بَرَزُوا سَبِيلَ الْفِي يَسْتَجِدُّهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٧٨﴾

(4) قال الزيلعي: لم أجده، عن الفضيل بن عياض، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوارس الأصول 1/473.

(1) سورة الأعراف، الآية: 144.

(2) سورة الزمر، الآية: 55.

(3) سورة الأعراف، الآية: 137.

تَمَلَّنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿خلفتموني﴾: قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم: فرعون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخلفني في قومي﴾ (5) والمعنى: بشس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قُلْتُمْ: أين ما تقتضيه بشس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قُلْتُمْ: الفاعل مضمّر يفسره ما خلفتموني والمخصوص بالذم محذوف تقديره بشس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قُلْتُمْ: أي معنى لقوله: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله: ﴿خلفتموني﴾؟ قُلْتُمْ: معناه من بعد ما رأيتم من توحيد الله ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبقارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾ (6) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه ونحوه ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ (7) أي:

من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة. يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته فيقال: عجلت الأمر والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو: انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به فبينتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ (8) إن موسى لن يرجع وأنه قد مات، وروي أنهم عدوا عشرين يوماً لبلياليها ففعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا ﴿والقى الألواح﴾ وطرحتها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل غضبًا لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديدًا شديد الغضب، وكان هارون العين منه جانبًا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي: أن التوراة كانت سبعة أسابيع، فلمالقى الألواح تكسرت فرقع منها ستة أسابيعا وبقي منها سبع واحد، وكان فيما فرقع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿وتخذ براس لحيه﴾ أي: بشعر رأسه ﴿يجرّه إليه﴾ بنؤابته وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفظنته وظنًا بأخيه أنه فرط في الكف ﴿ابن أم﴾ قرى: بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، وابن أمي بالياء، وابن أم بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لآبيه

فإن قُلْتُمْ: لم قال: ﴿من حليهم﴾ ولم يكن الحلي لهم، وإنما كانت عواري في أيديهم؟ قُلْتُمْ: الإضافة تكون بأدنى ملابس، وكونها عواري في أيديهم كفى به ملابس على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، إلا ترى إلى قوله عزّ وعلا ﴿فاخرجنهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾ (1) ﴿كنكك وأورثناها بني إسرائيل﴾ (2) ﴿جسدًا﴾ بدنا ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار صوت البقر. قال الحسن: إن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقفنه في العجل، فكان عجلًا له خوار، وقرأ علي رضي الله عنه: جوار بالجيم والهمزة من جار إذا صاح، وانتصاب جسدًا على البذل من عجلًا ﴿الم يروا﴾ حين اتخذوه إلهًا أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مدائنًا لكلماته لندف البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الآلة وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدا فقال ﴿اتخذوه﴾ أي: اقدموا على ما اقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وكانوا ظالمين﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم ولا أول منكريهم.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيِّدِهِمْ رَوَّأُوا أَنَّهُمْ قَدَ صَلَّوْا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرَحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦﴾.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرتة أن يعض يده غمًا، فتصير يده مسقوطة فيها لأنّ فاه قد وقع فيها، وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية، وقرأ أبو السميغ: سقط في أيديهم على تسمية الفاعل أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج معناه: سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: حصل في يده مكروه وإن كان محالًا أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبيينًا كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرئ: لأنّ لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا بالياء وربنا بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾ (3) الأسف الشديد الغضب ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم﴾ (4) وقيل: هو الحزين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ غَافِبًا فَالَّ بِسَاسَا ظَلَمْتُوهُ مِنْ بَدِئَةٍ أَوْجَلَتْ أَسْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُخَيِّبْنِي مِنَ الْأَعْدَاءِ وَلَا

(5) سورة الاعراف، الآية: 142.

(6) سورة الاعراف، الآية: 138.

(7) سورة الاعراف، الآية: 169.

(8) سورة طه، الآية: 88.

(1) سورة الشعراء، الأيتان: 57 و58.

(2) سورة الشعراء، الآية: 59.

(3) سورة الاعراف، الآية: 23.

(4) سورة الزخرف، الآية: 55.

﴿والذين عملوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصي كلها ﴿ثم تابوا﴾ ثم رجعوا ﴿من بعدها﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿وأمنوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إن ربك من بعدها﴾ من بعد تلك العظائم ﴿لغفور﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رحيم﴾ منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم (3) عام يدخل تحته متخو العجل ومن عداهم عظم جنائتهم أولاً، ثم أرفها تعظيم رحمته ليعلم أنّ الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بدّ من حفظ الشريعة وهي: وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم.

رَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُجْحٍ هَدَىٰ
رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ ﴿١٣٦﴾

﴿ولما سكّت عن موسى الغضب﴾ (4) هذا مثل كان الغضب كان يغيره على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وبنوق صحيح إلا لذلك، و؛ لأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة، وقرئ: ولما سكّت وأسكت أي: أسكته الله أو أخوه باعتذاره إليه وتصله، والمعنى: ولما طفى غضبه ﴿أخذ الألواح﴾ التي قامها ﴿وفي نسختها﴾ وفيما نسخ منها أي كتب والنسخة فعلة بمعنى: مفعول كالخطبة ﴿لربهم يرهبون﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأنّ تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً ونحو ﴿للرؤيا تعبرون﴾ (5) وتقول لك ضريت.

وَأَخَذَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا يُحِبُّونَ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَيَٰئِي أَهْلِكَ بِمَا فَعَلَ أَشْهَاهُ بِئْسَ مَا هِيَ إِلَّا فِتْنَتَكَ تَتَّبِعُنَّهَا مِّن تَشَأُ وَيَتَّبِعُ مَن تَشَأُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَأَعِزَّنَا لِئَآؤُنَا بِرَبِّكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِرِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿ولخّار موسى قومه﴾ أي: من قومه فحنف الجار وأوصل الفعل كقوله:

منا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة

وأه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد وذلك ألقى إلى العطف والرقّة وأعظم للحق الواجب، و؛ لأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، و؛ لأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ﴿إن القوم استضعفوني﴾ يعني: أنه لم يأل جهداً في كفههم بالوعظ والإنذار وبما بلغت طاقتهم من بذل القوة في مضائهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ فلا تفعل بي ما هو أمنيته من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرئ: فلا يشمت بي الأعداء على نهى الأعداء عن الشماتة، والمراد: أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قريباً لهم وصاحباً، أو ولا تعتقد أنني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلا أَخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣٨﴾

لما اعتذر إليه أخوه ونكر له شماتة الأعداء ﴿قال رب اغفر لي وأخي﴾ ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه وأخيه إن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ أَحَدُوا الْأَلْبَابَ مَسَّاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذُلٌّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿غضب من ربهم ونلة﴾ الغضب: ما امرؤ به من قتل أنفسهم والنلة: خروجهم من ديارهم؛ لأنّ ذلّ الغربية مثل مضروب، وقيل: وهو: ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن النلة بضرب الجزية ﴿المفتريين﴾ المتكبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ (1) ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالنلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، ونلة في الحياة الدنيا، ووضريت عليهم النلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله (2).

وَالَّذِينَ عَلِمُوا أَن تَحْتَابَ لَكَ تَابُوا مِمَّا بَدَّاهُمْ وَآمَنُوا بِكَ بِرَبِّهِمْ وَأَخَذُوا الْغُرُوبَ رَٰجِعِينَ ﴿١٤٠﴾

= المسمار، والتحقيق أنه ليس منه، وإنّ هذا القلب اشرف، وأفصح؛ لأنه بما له على معنى بليغ، وهو: أنّ الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به، ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى حقيق على ان لا أقول على الله، إلا الحق على خلاف قراءة نافع، وقد تقدّم ذلك آنفاً، والله الموفق.

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق، وإنّ مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عند ذلك من الأهواء، والبدع، بل الحق أنّ المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة غير منتنة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(4) قال أحمد: وهو من النمط الذي قمته من قلب الحقيقة، إلى المجاز، وكان الأصل، ولما سكّت موسى عن الغضب، ولذلك عدّه بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب =

(5) سورة يوسف، الآية: 43.

حتى تماموا اثنين وسبعين فقال: ليتخلف منكم رجالان فنشاحوا فقال: إن لمن قعد منكم مثل اجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبأ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويظهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما بنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى وبخل فيه وقال للقوم: ائتوا فننوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً فسمعه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه افعلا ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فاقبلوا إليه فطلبوا الرؤية، فوعظهم وزجرهم وأكر عليهم فقالوا: ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ (1)

فقال: ﴿رب أرني انظر إليك﴾ (2) يريد أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت اهلكتهم من قبل وإياي﴾ وهذا تمن منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لاهلكني قبل هذا ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعني: أتهلكنا جميعاً يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء وهم طلبوها سفهاً وجهلاً ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعتوا كلامك، فاستلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً حتى افتتنوا وضلوا ﴿تفضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ تفضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدى العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأن محنته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا، فكانه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام ﴿أنت ولينا﴾ مولانا القائم بأمرنا.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ آيَاتٍ مَّا لَمْ يَكُن لَكَ آيَاتُهَا قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ عَلَيْكَ الْكِتَابُ مِنْ سَمَاءٍ لَكُنَّ أَهْلًا عِلَّةً يَوْمَهُمُ الَّذِي كَانُوا يُكْفَرُونَ﴾ (3)

﴿واكتب لنا﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة ﴿وفي الآخرة﴾ الجنة ﴿هنا إليك﴾ تبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، واليهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم:

ياراكب الذنوب هدهد وأسجدك انتك هدهد
وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حركه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً

للفاعل والمفعول بمعنى: حركنا إليك أنفسنا وأملناها، أو حركنا إليك وأملنا على تقدير فعلنا كقولك: عدت يا مريض بكسر العين فعلت من العيادة، ويجوز عدت بالإشمام، وعدت بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون هدنا بالضم فعلنا من هاده يهيده ﴿عذابي﴾ من حاله وصفته إني ﴿أصيب به من إني﴾ أي: من وجب علي في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مسأغ لكونه مفسدة. وأما رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة، فساكتب هذه الرحمة كتابة خاصة منكم يا بني إسرائيل اللذين يكونون في آخر الزمان من أمة محمد ﷺ اللذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون لا يكفرون بشيء منها.

الَّذِينَ بَشَّرْتُمُوسَى بِالْحَقِّ الْأَخْرَجَ الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَجِئِلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَوُجِّدَ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَبَضَعَ
عَنْهُمْ إِسْرَاهِيمَ وَالْإِسْحَاقَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِمُ الْقَالِيلَاتِ مَا تَوَّابًا
وَعَزَّزُوهُ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ الْقُرْآنَ
الْمُبِينُ (4)

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو: القرآن ﴿النبى﴾ صاحب المعجزات الذي يجدونه. يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. ويصل لهم الطيبات﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما نكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. الاصر الثقل الذي ياصر صاحبه أي: يحبس من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرئ: أصارهم: على الجمع ﴿وعززوه﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، وقرئ: بالتخفيف، وأصل العزز: المنع،

﴿لعلمكم تهتدون﴾ إرادة أن تهتوا.

فإن قُلْتَ: ملا قيل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إني رسول الله إليكم﴾؟ قُلْتَ: عدل عن المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقه الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو: هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري إظهارًا للنصفة وتفانيًا من العصبية لنفسه.

وَمِن قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعُولُونَ ﴿٧٨﴾

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ هم: المؤمنون التائبون من بني إسرائيل لما نكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمنتين: عبادة العجل واستجاسة رؤية الله تعالى، نكرانًا منهم أمة موقنين ثابتين يهون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعملون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وأمن به من أعقابهم، وقيل: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطًا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتنوا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفاقًا في الأرض فساروا فيه سنة ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا، ونكر عن النبي ﷺ: ﴿إن جبريل ذهب ليلة الإسراء نحوهم فكلهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا؛ قال: هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام، فرد محمد على موسى عليهما السلام السلام، ثم أقرهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت، وعن مسروق قرئ: بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله - يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين - وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئًا؟ من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخير بشريعة محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملا به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

وَقَطَّنْهُمْ أَتَقَى عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ ضَرْبٍ بِمَصَالِكِ الْحَجَرِ فَأَلْبَسَتْهُ مِنَّا عَشْرَةَ عِيَّاتٍ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ

ومنه التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح، إلا ترى إلى تسمية الحد والحد هو المنع و﴿النور﴾ القرآن.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿أنزل معه﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ قُلْتَ: معناه أنزل مع نبوته؛ لأن استنباهه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه أصحابين له في اتباعه.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قُلْتَ: لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل أجيب بما هو منطوق على توبيخ بني إسرائيل على استجارتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجزأها على يد موسى وعرض بذلك في قوله: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ (١) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وما جاء به، كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وفي أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِرَبِّمَا أَلَّذِي لَمْ يَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَخِي الَّذِي يُوَدِّعُ بِاللَّهِ رَكَنَيْتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

﴿إني رسول الله إليكم جميعًا﴾ قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن و﴿جميعًا﴾ نصب على الحال من إليكم.

فإن قُلْتَ: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ما محله؟ قُلْتَ: الأحسن أن يكون منتصبًا بإضمار أعني وهو الذي يسمى النصب على المدح، ويجوز أن يكون جزأً على الوصف وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إليكم جميعًا﴾ وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض وكذلك ﴿يحيي ويميت﴾ وفي لا إله إلا هو بيان للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والأماتة غيره ﴿وكلماته﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه، وقرئ: وكلمته على الأفراد وهي: القرآن أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم، وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: كن، وإنما قيل: إن عيسى كلمه الله فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمني

قُلْتُ: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله: ﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا منها﴾ وبين قوله: ﴿فكلوا﴾⁽²⁾ لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنائها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو آخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزید المحسنين﴾ موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزید المحسنين. وكذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فارسلنا﴾ وانزلنا و﴿يظلمون﴾ ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطياتكم ونغفر لكم خطاياكم وخطياتكم وخطيتكم على البناء للمفعول.

وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَمْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبُوتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلْوَهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْئُرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وسألهم﴾ وسل اليهود، وقرئ: واسألهم، وهذا السؤال معناه: التقرير والتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي، ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك أعدوتم في السبت. والقرية أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج. يعني: رجلين من أهل المنن ﴿حاضرة البحر﴾ قريبة منه راكبة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو: اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ: يعدون بمعنى: يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعنون من الإعداد وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت مصدر، سبنت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالعبادة، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: ﴿يوم سبتهم﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه قوله ﴿ويوم لا يسبوتون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم أسباتهم، وقرئ: لا يسبتون بضم الباء، وقرأ علي: لا يسبتون بضم الباء من أسبتوا، وعن الحسن: لا يسبتون على البناء للمفعول أي: لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن قُلْتُ: ﴿إذ يعدون﴾ و﴿إذ تأتيتهم﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: أمّا الأول: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها كانه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوبًا بكانت أو بحاضرة، وأمّا الثاني: فمنصوب

أَلْفَمَمٌ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَى كَلُوا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعاً أي: فرقاً وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم، وقرئ: وقطعناهم بالتحفيف ﴿انثني عشرة أسباطاً﴾ كقولك: انثني عشرة قبيلة؛ والأسباط أولاد جمع سبط وكانوا انثني عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام.

فإن قُلْتُ: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً، وهلا قيل انثني عشر سبطاً؟ قُلْتُ: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً؛ لأن المراد: وقطعناهم انثني عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة ونظيره.

بين رماحي مالك ونهشل

و﴿أممًا﴾ بدل من انثني عشرة بمعنى: وقطعناهم أممًا؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤم الأخرى لا تكاد تاتلف. وقرئ: انثني عشرة بكسر الشين ﴿فانجبست﴾ فانفجرت والمعنى واحد وهو: الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وكيف غربي دلج تبجسًا

فإن قُلْتُ: فهلا قيل: فضرب فانجبست؟ قُلْتُ: لعدم الإلباس وليجعل الإنبجاس مسبباً على الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، وقوله ﴿كل أناس﴾ نظير قوله: ﴿انثني عشرة أسباطاً﴾⁽¹⁾ يريد كل أمة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والآناس اسم جمع غير تكسير نحو رخال وتناء وتوام وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير والضمه بدل من الكسرة كما أبدلت في نحو سكارى وغيارى من الفتحة ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ وجعلنا ظليلاً عليهم في التيه و﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وما ظلمونا﴾ وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم. ولكن كانوا يضررون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْعُوا أَبَانَ سَجْدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ بَدَلُ الذُّرَى ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿وإذ قيل لهم﴾ وانكر إذ قيل لهم: والقرية بيت المقدس.

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟

ببعدون، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة **﴿شَرَعًا﴾** ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فإريته يفعل كذا **﴿كُنْكَ نَبْلُوهُمْ﴾** أي: مثل نك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

وَأِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْمِدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَدْرَةٌ إِنْ رَبُّكَ لِوَكِيلٌ وَلَكُلَّمَا يَنْقُرُونَ ۝١٣٤ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِنْ أَلْسِنَةٍ رَوْحًا وَمَعَكُمْ أَلْسِنَةٌ رَوْحًا بَعْضٌ مِنْ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِيَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجِيمِ ۝١٣٥

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على إذ يعنون وحكمه حكمه في الإعراب **﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾** جماعة من أهل القرية من صلحتهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم حتى أسوا من قبولهم لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم **﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾** أي: مخترمهم ومطهر الأرض منهم **﴿أَوْ مُعْمِدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** لتماذيرهم في الشر، وإنما قالوا ذلك: لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم **﴿قَالُوا مَدْرَةٌ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** أي: موعظتنا إبلاء عنز إلى الله ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط **﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ: معذرة بالنصب أي: وعظناهم معذرة إلى ربكم واعتذرنا معذرة **﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾** يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما نكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه **﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا﴾** الظالمين الركابين للمنكر.

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على إذ يعنون وحكمه حكمه في الإعراب **﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾** جماعة من أهل القرية من صلحتهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم حتى أسوا من قبولهم لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم **﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾** أي: مخترمهم ومطهر الأرض منهم **﴿أَوْ مُعْمِدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** لتماذيرهم في الشر، وإنما قالوا ذلك: لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم **﴿قَالُوا مَدْرَةٌ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** أي: موعظتنا إبلاء عنز إلى الله ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط **﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ: معذرة بالنصب أي: وعظناهم معذرة إلى ربكم واعتذرنا معذرة **﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾** يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما نكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه **﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا﴾** الظالمين الركابين للمنكر.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الْأُمَّةُ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ﴾ مِنْ أَيِ الْفَرِيقَيْنِ هَمْ؟ أَمِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ أَمْ الْمَعْنَبِينَ قُلْتُمْ: مِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ فَرِيقِ النَّاهِينَ وَمَا قَالُوا مَا قَالُوا إِلَّا سَائِلِينَ عَنْ عِلَّةِ الْوَعظِ وَالْغَرَضِ فِيهِ حَيْثُ لَمْ يَرَوْا فِيهِ غَرَضًا صَحِيحًا لَعَلَّهُمْ بِحَالِ الْقَوْمِ، وَإِذَا عِلْمُ النَّاهِي حَالِ الْمَنْهِي وَأَنَّ النَّهْيَ لَا يُوَثِّرُ فِيهِ سَقَطَ عَنْهُ النَّهْيُ وَرَبَّمَا وَجِبَ التَّرَكُّ لِلدُّخُولِ فِي بَابِ الْعَيْثِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى الْمَكَاسِينِ الْقَاعِدِينَ عَلَى الْمَأْصَرِ وَالْجَلَادِينَ الْمُرْتَبِينَ لِلتَّعْذِيبِ لَتَعْظَمَ وَتَكْفَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ كَانَ ذَلِكَ عِبْتًا مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَبَبًا لِلتَّلْهِمِيِّ بِكَ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَمَاذَا لَمْ يَعْضُوا عَنْهُمْ إِمَّا لِأَنَّ يَأْسَهُمْ لَمْ يَسْتَحْكَمْ كَمَا اسْتَحْكَمْ يَأْسُ الْأَوْلَادِ وَلَمْ يَخْبَرُوهُمْ كَمَا خَبَرَهُمْ، أَوْ لَفَرَطَ حِرْصَهُمْ وَجَدَّهُمْ فِي أَمْرِهِمْ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ﴾ (١) وَقِيلَ: الْأُمَّةُ هُمُ الْمَوْعُظُونَ لَمَّا وَعِظُوا قَالُوا لِلْوَاعِظِينَ: لِمَ تَعْبُدُونَ مِنَّا قَوْمًا تَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْمِدُهُمْ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ

لَمَّا عَرَّأَ عَنْ مَا نُهَا عَنْهُ قَتْنَا لَمْ كُونُوا قَرَدَةً خَسِيرَةً ۝١٣٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَنْ يَسُؤُهُمْ سِوَةَ الْمَلَكِ الْبَاطِلِ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجِيمِ ۝١٣٧

﴿فَلَمَّا عَرَّأَ عَمَّا نُهَا عَنْهُ﴾ فلما تكبروا عن ترك ما

ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل سيغفر الجار والمجرور وهو: لنا، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو: مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الوار للحال أي: يرجون المغفرة وهم مصررون عائثون إلى مثل فعلهم غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة والمصر لا غفران له ﴿الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة هو: مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن نينار رحمه الله: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به قالوا: سيغفر لنا لأننا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداينة، فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين نكرهم الله وتلا الآية ﴿والدار الآخرة خير﴾ من نكك العرض الخسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب والا تقولوا بالباء، وادارسوا بمعنى: تدارسوا وأقلا تمقلون بالياء والتاء.

فإن قُلْتَ: ما موقع قوله: ﴿إلا يقولوا على الله إلا الحق﴾ قُلْتُ: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى ميثاق الكتاب: الميثاق المنكور في الكتاب وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب واقتراء على الله وتقول عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم نكره كان أن لا يقولوا مفعولاً له، ومعناه: لئلا يقولوا، ويجوز أن تكون أن مفسرة ولا تقولوا نهياً كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾؟ قُلْتُ: على ﴿الم يؤخذ عليهم﴾؛ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

وَالَّذِينَ بَيَّسُوا بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ الْمُصَلِّينَ ﴿٧٧﴾.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إننا لا نضيع أجرهم؛ لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب كقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾⁽⁶⁾ والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ويكون قوله: ﴿إننا لا نضيع﴾ اعتراضاً. وقرئ: يمسكون بالتشديد وتنصره قراءة أبي: والذين مسكوا بالكتاب.

فإن قُلْتَ: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها

نہوا عنه كقوله: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾⁽¹⁾ ﴿قلنا لهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾⁽²⁾ والمعنى: أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: ﴿فلما عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلما نسوا﴾⁽³⁾ العذاب البئيس هو: المسخ ﴿تأذن ربك﴾ عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيّب بما يجب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثن﴾ والمعنى: وإن حتم ربك وكتب على نفسه ليعثن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤذون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فضرها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى: ليعثن عليهم ليسلطن عليهم كقوله: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد﴾⁽⁴⁾.

وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا ﴿٧٨﴾ وَفَرَقْنَاهُمْ فِيهَا فِلا يَكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم للصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم بون ذلك﴾ ومنهم ناس بون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الكفرة والفسقة.

﴿وقطعناهم في الأرض أماً﴾ وفرقناهم فيها فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم للصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم بون ذلك﴾ ومنهم ناس بون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الكفرة والفسقة.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿بون ذلك﴾؟ قُلْتُ: الرفع هو: صفة لموصوف محذوف معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحو ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾⁽⁵⁾ يعني: وما منا أحد إلا له مقام ﴿وبولوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلمهم﴾ ينتهون فينبون.

نَخَلَتْ مِنْ بَيْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَوُّوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا رَبَّنَا وإن يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَتَّبِعُوهُ يَأْخُذُوا أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالنَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَتَوَلَّوْنَ ﴿٧٩﴾.

﴿خلف﴾ من بعد المنكوبين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحرير ولا يعملون بها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا، وما يتمتع به منها وفي قوله: هذا الأدنى تخسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى: القرب لانه عاجل قريب، وإما من: دنو الحال وسقوطها وقتها، والمراد:

(4) سورة الإسراء، الآية: 77.

(5) سورة يس، الآية: 82.

(6) سورة الكهف، الآية: 165.

(1) سورة الأعراف، الآية: 77.

(2) سورة يس، الآية: 82.

(3) سورة الأعراف، الآية: 165.

﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم وقوله: ﴿ألمست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ من باب التمثيل⁽³⁾ والتخييل ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم: ألمست بربكم؟ وكانهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا أقرنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾⁽⁴⁾ ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾⁽⁵⁾ وقوله:

إذا قلت الانساع للبطن الحق قالت له ريح الصب قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ﴿أن تقولوا﴾ مفعول له أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لم ننبه عليه ﴿أو﴾ كراهة أن ﴿تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فاعتدنا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتراء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن قُلْتُ⁽⁶⁾: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قُلْتُ: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيزاً ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم واللليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل﴾ واللليل على أنها في اليهود الآيات التي عطف عليها والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾⁽⁷⁾ ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون﴾⁽⁸⁾ ﴿وإذ تآمن ريبك﴾⁽⁹⁾ ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾⁽¹⁰⁾ ﴿واتل عليهم نبا الذي آتيناها آياتنا﴾⁽¹¹⁾ ﴿افتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدمهم فيه وتركه سنة لنا.

إقامة الصلاة فكيف أقردت؟ قُلْتُ: إظهاراً لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿والذين استمسكوا بالكتاب﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹²⁾.

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾⁽¹³⁾ ومنه نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرئ: بالطاء من أطل عليه إذا أشرف ﴿وظنوا﴾ أنه واقع بهم ﴿وعلموا أنه ساقط عليهم وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلمتوها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خز كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرحاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وانغض لها رأسه ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ على إرادة القول أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بقوة﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وانكروا ما فيه﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه أو وانكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه كقوله: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾⁽²⁾ ﴿وانكروا ما فيه﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار ﴿لعلكم تتقون﴾ ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: ﴿وتنكروا﴾، وقرئ: ﴿وانكروا﴾ بمعنى: وتنكروا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَسْتُ رَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽¹⁴⁾ ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُنْكِرُوا﴾⁽¹⁵⁾.

(6) قال أحمد والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم، فتدخل اليهود في عمومها؛ لأن كل واحد من بني آدم يصلق عليه الأمران جميعاً، أنه ابن آدم، وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا، إلا آدم عليه السلام، وإنما لم ينكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة، باللف اختصاراً، وإيجازاً.

(7) سورة الأعراف، الآية: 163.

(8) سورة الأعراف، الآية: 164.

(9) سورة الأعراف، الآية: 167.

(10) سورة الأعراف، الآية: 171.

(11) سورة الأعراف، الآية: 175.

(1) سورة النساء، الآية: 154.

(2) سورة الرحمن، الآية: 33.

(3) قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى، فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول، ويجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثلاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فإله أعلم بذلك.

(4) سورة النحل، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 11.

وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَمْ نُحَمِّلْ بِرِجْمَتِكَ (٧٧).

﴿وكنلك﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نفصل الآيات﴾ لهم ﴿ولعلمهم يرجعون﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم فصلها. وقرئ: نريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء.

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبَاؤُا آيَاتِنَا فَانصَلَحَ مِنْهَا فَاَتَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (٧٨).

﴿واتل عليهم﴾ على اليهود ﴿نبا الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها﴾ هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل: من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله ﴿فانسلخ منها﴾ من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿فاتبعه الشيطان﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته وقرئ: فاتبعه بمعنى: فتبعه ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فابى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟ فالحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَوَّلَ عَلَيْهِ يَأْتِيهِ إِلَهُ فَمَثَلُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانصَلِحْ لِمَنْ لَمْ يَنْتَكِرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا ظُلْمًا فَانصَلِحْ لَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ كَآوُوا يَظْلِمُونَ (٧٩) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاطِرُونَ (٨٠).

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ لعظمانه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلت: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فنكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها إلا ترى إلى قوله: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو: فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ فصفته التي هي مثل في الخسة والضعفة كصفة الكلب في أخس أحواله وأثلها. وهي حال نوا الملهث به واتصاله سواء حمل عليه أي: شد عليه وهيج فطرده، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه الملهث إلا إذا هيج منه وحركه وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع

قوله ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ موضع حططناه أبلغ حظ: لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأثلها في معنى تلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه^(١)، وقيل معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طرسته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟ قلت: النصب على الحال كأنه قيل: كمثل الكلب نليلاً دائماً النلة لاهتاً في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، ونكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به، ﴿فاقصص﴾ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لعلمهم يتفكرون﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذ ساروا نحو سيرته وزاغوا شبه زيفه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم ﴿سواء مثل القوم﴾ أي: مثل القوم، أو سواء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري سواء مثل القوم ﴿وانفسهم كانوا يظلمون﴾ إما أن يكون معطوفاً على كذبوا فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصو أنفسهم بالظلم لم يتعدا إلى غيرها ﴿فهو المهتدي﴾ حمل على اللفظ و﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ثُمَّ قَلْبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ فِيهَا آيَاتٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ فِيهَا آيَاتٌ لَّا يَشْعُرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا أَسْمُلَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (٨١).

﴿كثيراً من الجن والإنس﴾ هم: المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يقنون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر كأنهم عدمو فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الأذان، وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلبهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار، ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوفاً عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة ذرة النار^(٢)، ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا، والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ﷺ مع علمهم أنه النبي الموعود وأنهم

(2) أبو عبيدة في كتاب: غريب الحديث، الزيلعي 1/473.

(1) لم يخرج الزيلعي 1/473.

الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْتَلُونَ ﴿٧٦﴾

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاب أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى:

فلو كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنا القول حتى تهرة وتعلم أتي عنكم غير مفحم

ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى «سنستدرجهم» سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع أنهم ماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدوا معصية فيبتدرون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن مواترة النعم آثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبديد، فهو استدراج الله تعالى، تعود بالله منه.

وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَيِّنُ ﴿٧٧﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٨﴾

«وأملي لهم» عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السنين «إن كيدي مئين» سماه كيذاً لأنه شبيه بالكي من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان «وما بصاحبهم» بمحمد ﷺ «من جنّة» من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون، وعن قتادة: أن النبي ﷺ: «علا الصفا فدعاهم فخذأ فخذأ يحذرهم بأس الله». فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح.

أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيْئًا وَيُسْمِعُوا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ مَرَدٍ لَهُمْ وَرَدَّهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَمَعُونَ ﴿٨٠﴾

«أولم ينظروا» نظر استدلال «في ملكوت السموات والأرض» فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت الملك العظيم⁽⁹⁾ «وما خلق الله من شيء» وفيما خلق الله مما

من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم خلقوا للنار «أولئك كالأنعام» في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبير «بل هم أضل» من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبير «أولئك هم الغافلون» الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلتزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْرَبُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾

«و لله الأسماء الحسنى»⁽¹⁾ التي هي أحسن الأسماء؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك «فادعوه بها» فسموه بتلك الأسماء «وذروا الذين يلحدون في أسمائهم» واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم⁽²⁾: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخعي، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن وقد قال الله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنى»⁽³⁾ ويجوز أن يراد⁽⁴⁾: لله الأوصاف الحسنى وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصقوه بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشبهة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها، وقيل⁽⁵⁾: الحادهم في أسمائه تسميتهم الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

وَمَنْ حَقَّكَ آتَمَةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ رِبِّهِ يَدْعُلُونَ ﴿٨٢﴾

لما قال «ولقد رانا لجهنم كثيراً»⁽⁶⁾ فاخبر أن كثيراً من الثقيلين عاملون بأعمال أهل النار أتبعه قوله «وممن خلقنا آمة يهدون بالحق» وعن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى آمة يهدون بالحق»⁽⁷⁾ وعنه ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام»⁽⁸⁾ وعن

(1) قال أحمد: أي، مما يجوز عليه، وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالسيف والعارف، ونحو ذلك.
(2) قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد؛ لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه الحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا يدل على الحرمان منه على مثل أبيض الوجه، ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(3) سورة الإسراء: الآية: 110.

(4) قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم

القدرة، والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق

أفعالهم، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وإن كل قضائه =

(5) قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(6) سورة الأعراف، الآية: 179.

(7) الثعلبي في تفسيره.

(8) رواه أحمد في مسنده 429/4.

(9) رواه الطبراني في تفسيره.

متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت وأيّ فعل من أويت إليه؛ لأنّ البعض أو إلى الكل متساند إليه قاله ابن جني وأبي أن يكون من أين لأنه زمان وأين مكان، وقرأ: السلمي إيان بكسر الهمزة ﴿مرساها﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره، ومنه رسي الجبل وأرسي السفينة والمرسي الأنجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة بدليل قوله: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾

والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿إنما علمهما﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه ليكون ذلك ادعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو: وقت الموت ذلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا تزال خفية لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاءها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ووبوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها؛ لأنّ أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدنا وأموالنا أو؛ لأنّ كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها ﴿إلا بغتة﴾ إلا فجأة على غفلة منكم،

وعن النبي ﷺ: إنّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه⁽¹⁾ ﴿كانك حفي عنها﴾ كأنك عالم بها، وحقيقته كأنك بليغ⁽²⁾ في السؤال عنها؛ لأنّ من بالغ في المسألة عن الشيء والتتقير عنه استحكم علمه فيه وحرصن، وهذا التركيب معناه: المبالغة، ومنه إحقاق الشارب، واحتفاء البقل استئصاله، وأحفى في

يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف ﴿وأن عسى﴾ أن مخفة من الثقيلة والأصل وأنه عسى على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ ولعلمهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب؛ ويجوز أن يراد باقترب الأجل اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق؟ قوله: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا. قرئ: وينزهم بالياء والنون والرفع على الاستثناف، وينزهم بالياء والجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد وينزهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَرَقِبًا إِلَّا هُوَ نَسَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآ تَأْتِيكَ إِلَّا بَنَّةٌ يُسْأَلُونَكَ عَنْهَا حِينَ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

﴿يسئلونك﴾ قيل: إنّ قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإننا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّ الله تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش. والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أيان﴾ بمعنى:

بسطه، ومن أنق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير، = لاجل بعد العهد تطرية للذكر قوله: ﴿عجل﴾ لنا هذا، والحقنا بدأ ال الشحم إننا قد مللناه بجل، أي: فقط، فنذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى نكرها، وأبقى الأولى في مكانها، ومن ثم استدل ابن جني على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعدًا، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، الا ترى أن عبيدًا لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأول آل لم يعدها أول المصراع الثاني؛ لأنه بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قوله:

يا خليطي أربعاً ولست تجرأ ال منزل الدراس من أهل الحلال
مثل سحق البرد عفى بعدك ال قطر مغتاء وتاويب الشمال
ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكته كيف بلغت العرب في رعايتها، حتى عنت القريب بعيداً، والمتقاصر مبدأً، فتاملها، فإنها تحفة إنما عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية، والبيان، والله المستعان.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: (40) (الحديث رقم: 6506) ومسلم في كتاب: الفتن واشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (الحديث رقم: 7339).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من التكرير نكته لا تلقى، إلا في هذا الكتاب العزيز، وهو لجل من أن يشارك فيها، وذلك أنّ المعهود في أمثال هذا التكرير، أنّ الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في أثناءه عارض، فأريد الرجوع لتتيم المقصد الأول، وقد بعد عهده طرى بنكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببديته، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ثم اعترض نكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾، إلى قوله: ﴿بغتة﴾ أريد تعميم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كأنك حفي عنها، وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى نكرة تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى، إلا بنوع من الإجمال، كالنكته للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل يسألونك، ولم ينكر المسؤول عنه، وهو الساعة اكتفاء بما تقدم، فلما كثر السؤال لهذه الفائدة كثر الجواب أيضاً مجملاً، فقال قل إنما علمها عند الله، ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد =

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَاءَ حَبَلٌ خَائِفًا فَأَمَرَ رَبِّهِ لَمَّا آتَتْكُمْ دُورًا اللَّهُ
رَبُّهَا لِيَنْ مَاتَيْنَا صَلِيمًا يُكَفِّرُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٦﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهَا
صَلِيمًا جَمَلًا لَمْ يَشْكُرْهَا فِيمَا آتَيْنَاهَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْكِرُونَ ﴿١١٧﴾

﴿من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم عليه السلام
﴿وجعل منها زوجها﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم
من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله: ﴿جعل لكم من
أنفسكم أزواجاً﴾⁽¹⁾ ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل
ولا ينفرد؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل وبه أنس، وإذا كانت
بعضاً منه كان السكن والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان
إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وقال:

﴿ليسكن﴾ فذكر بعد ما أتت في قوله واحدة منها زوجها
ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم؛ لأنَّ
الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التنكير
أحسن طباقاً للمعنى. والتغشي كناية عن الجماع وكذلك
الغشيان والإتيان ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ خف عليها ولم
تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب
والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهم

تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته
﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إحداج
ولا إزلاق، وقيل: ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ يعني: النطفة
فمرت به فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه:

فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به بالتخفيف،
وقرأ غيره: فماتت به من المربة كقوله: ﴿اقتمارونه﴾⁽²⁾
واقتمرونه، ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل فارتابت به
﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت،
وقرئ: أثقلت على البناء للمفعول أي: أثقلها الحمل دعوا الله
ربهما دعا آدم وحواء ربهما وملك أمرهما الذي هو الحقيق
بان يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا
﴿صالحاً﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولداً
نكراً؛ لأنَّ النكورة من الصلاح والجودة والضمير⁽³⁾ في
آتيتنا و﴿لنكونن﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما
﴿فلما آتاهما﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلنا
له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف
المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فيما
آتاهما﴾ أي: أتى أولادهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله:

المسألة إذا الحف، وحفي بفلان وتحفي به بالغ في البر به،
وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت، وقرأ ابن
مسعود: كأنك حفي بها أي: عالم بها بليغ في العلم بها،
وقيل: عنها متعلق بيسئلونك أي: يسئلونك عنها كأنك حفي
أي: عالم بها، وقيل: إنَّ قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك
قربة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفي
تنحفي بهم فتخصصهم بتعليم وقتها لأجل القربة وتزوي
علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله
في إخبارك به لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير
تخصيص كسائر ما أوحى إليك، وقيل: كأنك حفي بالسؤال
عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من
علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحد من خلقه.

فإن قلت: لم كرر ﴿يسئلونك﴾ وإنما علمها عند الله؟
قلت: للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي
عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون
المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي
حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه
العالم بها وأنه المختص بالعلم بها.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَكُنْتُ عَرُوفًا مِنَ الْعَمِيرِ وَمَا سَمِعْتُ النَّوْءَ إِذْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَيَبِيرٌ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٨﴾

﴿قل لا أملك لنفسي﴾ هو: إظهار للعبودية والانتفاء
عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي: أنا عبد ضعيف
لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا نفع ضرر كما للممالك
والعبيد ﴿إلا ما شاء﴾ ربي ومالكي من النفع لي والدفع
عني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكانت حالي على خلاف ما
هي عليه من استكثار الخير واستغفار المنافع واجتناب
السوء والمضار حتى لا يمسي شيء منها، ولم أكن غالباً
مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ورايحاً وخاسراً في
التجارات، ومصيباً ومخطئاً في التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد
أرسلت نذيراً وبشيراً وما من شائي أني أعلم الغيب ﴿لقوم
يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً؛ لأنَّ
النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده
ويكون المتعلق بالنذير محنوقاً أي: إلا نذير للكافرين
وبشير لقوم يؤمنون.

= كافر إن الإنسان لفي خسر﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأول
أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلى
التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبه، والمراد البعض، فهذا
السؤال، وأرد على التاويلات الثلاثة، وجوابه واحد، ويسلم هذا
الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التاويل الأول، ومما
ينصرف إلى التاويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا
الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه، وكون المراد
بذلك أن يسكن إليها، لأنَّ ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) سورة النجم، الآية: 12.

(3) قال أحمد: وأسلم من هذين للتفسيرين، وأقرب، والله أعلم أن يكون
المراد: جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان
المعنى، والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم
أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تنفسي الجنس، الذي هو الذكر الجنس
الأخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسين كيت، وكيت،
وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون؛ لأنَّ
المشركين منهم إذا ما مت لسوف أخرج حياً، ﴿وقتل الإنسان ما

فقليل: إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحدائكم دعاهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

إِنَّ الَّذِينَ نَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّاكُم مَّا دَعَوْهُمْ فَلَيْسَ جِبْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٤﴾ أَلَمْ أَنْزَلْ بِسُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُنذِرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يَصْنَعُونَ ﴿١٧٥﴾

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ﴿عباد أمثالكم﴾ وقوله: عباد أمثالكم استهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿ألم أنزل بسورة بني إسرائيل﴾ وقيل: عباد أمثالكم ملوكون أمثالكم، وقراً سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية﴾ قل ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثم كيدون﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم ﴿فلا تنظرون﴾ فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خرفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ (4) قال لهم: ﴿إني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ (5).

إِنَّ رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَوَدُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٦﴾ وَالَّذِينَ نَدُّونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى مَخْرَجِكُمْ وَاللَّهُ يَبْظُرُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَهُمْ يَلْتَمِسْ جَهَنَّمَ إِنَّهَا أُصْغَتْ مِن دُونِهَا وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا الْوَحْيَ الْغَيْبَ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿١٧٨﴾

﴿إن ولي الله﴾ أي: ناصرى عليكم الله ﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي أوحى إلي كتابه وأعزني برسالته ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ ومن عانته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخلفهم ﴿ينظرون إليك﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وهم لا يبصرون﴾ وهم لا يدركون المرثي.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧٩﴾

﴿العفو﴾ ضد الجهد أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تداقمهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ: ﴿يسروا ولا تعسروا﴾ وقال: خذي العفو مني تستيمني مودتي ولا تنطقي في سورتى حين أفضب

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ حيث جمع الضمير وأدم وحواء بريثان من الشرك ومعنى: إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم، ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم: آل قصي، ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد (1).

فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يباري وسود ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتنوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ: شركاً أي: نوي شرك وهم: الشركاء، أو أحدثا لله شركاً في الولد.

أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٨٠﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُرُونَ ﴿١٨١﴾

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله ﴿وهم يخلقون﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يخلقون؛ لأن الله عز وجل خالقهم أو لا يقدر على اختلاق شيء لأنه جماد وهم يخلقون لأن عبنتهم يخلقونهم فهم أعجز من عبنتهم ﴿ولا يستطيعون لهم لعبتهم﴾ نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾ فينبغون عنها ما يعترها من الحوائث، بل عبنتهم هم الذين ينبغون عنهم ويحامون عليهم.

وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى مَخْرَجِكُمْ وَاللَّهُ يَبْظُرُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَهُمْ يَلْتَمِسْ جَهَنَّمَ إِنَّهَا أُصْغَتْ مِن دُونِهَا وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا الْوَحْيَ الْغَيْبَ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿١٧٨﴾

﴿وإن تدعوهم﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إلى الهدى﴾ أي: إلى ما هو هدى ورشاداً وإلى أن يهدوك، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى لا يتبعوكم إلى مراتكم وطلبكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ويدل عليه قوله: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صابقين﴾ (2) ﴿سواء عليكم ادعوتهم﴾ أم صمت عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم.

فإن قلت: هلا قيل أم صمتهم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبه أمر دعوا الله نون أصنامهم كقوله: ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ (3) فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم،

(1) رواه الحاكم في المستدرک 9/3.

(2) سورة الأعراف، الآية: 194.

(3) سورة الروم، الآية: 33.

(4) سورة هود، الآية: 54.

(5) سورة هود، الآيتان: 54 و55.

فإن قُلْتُ: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟
قُلْتُ: المراد به الجنس كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾⁽⁴⁾.

وإذا لم تأت بهم بكاءً قالوا لولا اجتبتهم قل إنما أتيت ما يؤمن إلى
من ربِّي هكذا بصائر من ربكُم وهذا رمزاً لقوم يؤمنون⁽¹³⁷⁾.

اجتبت الشيء بمعنى: جباه لنفسه أي: جمعه، كقولك:
اجتمع، أو جبي إليه فاجتباه أي: أخذه، كقولك: جلبت إليه
العروس فاجتلاها، ومعنى ﴿لولا اجتبتيتها﴾ هلا اجتمعتها
افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك
مفتري أو هلا أختتها منزلة عليك مقترحة ﴿قل إنما تتبع
ما يوحي إلي من ربي﴾ ولست بمفتعل للآيات أو لست
بمقترح لها ﴿هذا بصائر﴾ هذا القرآن بصائر ﴿من
ربكم﴾ أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد
العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وإذا قرئ: الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لِمَا كُنْتُمْ تُرْحَمُونَ⁽¹³⁸⁾.

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا﴾ ظاهره
وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة
وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم
صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في
مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول
القرآن عند نزوله فاستمعوا له، وقيل معنى فاستمعوا له:
فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَسِيكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْغَدُوِّ وَالْأَكْمَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ⁽¹³⁹⁾.

﴿وانكسر ربك في نفسك﴾ هو: عام في الإنكار من
قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل وغير ذلك
﴿تضرعاً وخيفة﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿وبدون الجهر﴾
ومتكلماً كلاماً نون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص
واقرب إلى حسن التفكير ﴿بالغدو والأصالة﴾ لفضل هذين
الوقتين، أو آزاد النوام ومعنى بالغدو: بأوقات الغدو وهي
الغدوات، وقرئ: والإيصال من أصل إذا دخل في الأصيل
كأقصر وأتم وهو مطابق للغدو ﴿ولا تكن من
الغافلين﴾ من الذين يغفلون عن نكر الله ويلهون عنه.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَرُحُومُهُمْ وَلَهُمْ
يَسْبُؤُونَ⁽¹⁴⁰⁾.

﴿إن الذين عند ربك﴾ هم: الملائكة صلوات الله عليهم،
ومعنى: عند دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله
لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ﴿وله يسجدون﴾
ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض
بمن سواهم من المكلفين.

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل
نزل آية الزكاة فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو
كرهاً. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال ﴿وواعرض
عن الجاهلين﴾ ولا تكافي السفهاء بمثل سفهم ولا
تمازهم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم،
وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل فقال: لا ادري حتى
أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل
من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك⁽¹⁾، وعن
جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام
بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم
الأخلاق منها.

وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿إِنَّ الْبَشَرَ لَكَاذِبٌ إِذَا سَمِعُوا بِحَدِيثٍ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا وَإِذَا
هُم مُّشِيرُونَ﴾⁽¹⁴¹⁾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّرُهُمْ فِي الْآلِي ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ⁽¹⁴²⁾.

﴿وإما ينزعك من الشيطان نزع﴾ وإما ينخسك منه
نخس بأن يملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به
﴿فاستعذ بالله﴾ ولا تلعه النزغ والنسخ والغرز والنخس
كانه ينخس الناس حين يفريهم على المعاصي وجعل
النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لم نزلت قال
رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب»⁽²⁾ فنزل ﴿إما
ينزعك من الشيطان نزغ﴾ ويجوز أن يراد بنزع
الشيطان: اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه: إن
لي شيطاناً يعتريني⁽³⁾ ﴿طيف من الشيطان﴾ لمة منه
مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً قال:

أني لم أبك الخيال بطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل من طاف يطيف كلين، أو من
طاف يطوف كهين، وقرئ: طائف وهو يحتمل الأمرين
أيضاً، وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة
بالله عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عانتهم إذا
أصابهم أننى نزغ من الشيطان والممام بوسوسته
﴿تذكروا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه، فابصروا السداد،
ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما
إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإن الشياطين
يمدونهم في الغي أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم.
وقرئ: يمدونهم من الإمداد ويمدونهم بمعنى: يعاونونهم
﴿ثم لا يقصرون﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى
يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أن الخبر جار على غير ما هو له، ويجوز أن يراد
بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى
الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هو له، والأول أوجه؛
لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

(3) أخرجه الزيلعي في مسنده 481/1.

(1) رواه الطبراني في تفسيره.

(4) سورة البقرة، الآية: 257.

(2) رواه الطبراني في تفسيره.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شقيعاً له يوم القيامة»⁽¹⁾.

يسر الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال مدنية

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ فِي الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مَا تَقَرَّرُوا اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ لِمَنْ يُفْسِدُ الْبَلَاءَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمَّا دَرَجْتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٤﴾

فإن قلت: ما معنى الجمع بين نكر الله والرسول في قوله ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾؟ قلت: معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، والمراد أن الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواصي المقاتلة المشروط لهم بالتنفيذ الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسمهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي ﴿فاتقوا الله﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متآخين في الله ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسما غنائمكم بالعدل فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض.

فإن قلت: ما حقيقة قوله ذات بينكم؟ قلت: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق كقوله: ﴿بذات الصدور﴾⁽⁵⁾ وهي مضمراتها لما كانت الأحوال ملاسة للبين قيل لها: ذات البين كقولهم: أسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب، وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ومعنى قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم كاملي الإيمان، واللام في قوله ﴿إنما المؤمنون﴾ إشارة إليهم أي: إنما الكاملون الإيمان من صفتهم كيت والليل عليه قوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ ﴿وجلت قلوبهم﴾

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شقيعاً له يوم القيامة»⁽¹⁾.

يسر الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال مدنية

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ فِي الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مَا تَقَرَّرُوا اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ لِمَنْ يُفْسِدُ الْبَلَاءَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمَّا دَرَجْتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٤﴾

النفل الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:

إن تقوى ربنا خير نفل

والنفل ما ينقله الغازي أي: يعطاه زائداً على سهمه من المغنم، وهو: أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه، أو ربه، ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه، وعند الشافعي رحمه الله في أحد قولي: لا يلزم، ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ اللهم اجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله ﷺ، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينقله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداً لكم وفتة تنحازون إليها إن انهزمتم⁽²⁾، وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك، فنزلت، وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن الله قد شفى صدري من

(4) رواه أحمد في مسنده (322/5).

(5) شطر آية ورد في اثني عشر موضعاً منها: سورة آل عمران، الآية: 119.

(1) نكره ابن الجوزي في الموضوعات والتعلبي والذيلي، الزيلعي / 1، 483.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النفل، (الحديث رقم: 2737)، والحاكم في المستدرک 326/2.

(3) رواه أحمد في مسنده (181/1) وأبو عبيدة في الأموال (الحديث رقم 756).

فقال له: هلا اقتديت به في قوله: ﴿أولم تؤمن قال بلى﴾⁽⁴⁾ ﴿درجات﴾ شرف وكرامة وعلو منزلة ﴿ومغفرة﴾ ونجواز لسيئاتهم ﴿ورزق كريم﴾ نعيم الجنة، يعني: لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم وهذا معنى الثواب.

كَمَا أَحْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يُبْعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الْأَطْلَافَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ رِيْبُورَةٌ أَنْ عَرَّ ذَاتَ الشُّرَكَةِ تَكْرُوتٌ لَكُمْ وَبُرَيْدٌ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبُطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَيْسِرُونَ بِنَبِيِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ وَأَنَا جَمَعَهُ اللَّهُ إِلَيَّ بِشُرْكَائِكُمْ وَلَسَلَيْتُ بِكُمْ قُلُوبَكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾ إِذْ يُنْفِثُكُمْ الْعَاصِ أَسْنَدَهُ مِنْهُ وَيُرِيدُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُؤْتِيَ بِهِنَّ الْأَقْدَامَ ﴿١٠﴾

﴿كما أخرجك ربك﴾⁽⁵⁾ فيه وجهان: أحدهما: أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك يعني: أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿الأنفال لله والرسول﴾⁽⁶⁾ أي: الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون و﴿من بيتك﴾ يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجرة ومسكنه فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ﴿بالحق﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ في موضع الحال أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون ركاباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم،

فزعت، وعن أم الدرداء: الوجع في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له تشعيرية؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإن الدعاء يذهب، يعني فزعت لنكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ويطشه بالعصاة وعقابه، وهذا النكر خلاف الذكر في قوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى نكر الله﴾⁽¹⁾؛ لأن ذلك نكر رحمته ورافته وثوابه، وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهجم بمعضية فيقال له: اتق الله فينزع، وقرئ: وجلت بالفتح وهي لغة نحو وبق في وبق، وفي قراءة عبد الله: فرقت ﴿زانتهم إيماناً﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمانينة نفس؛ لأن تظاهر الأدلة أقوى للملول عليه وأثبت لقدمه وقد حمل على زيادة العمل، وعن أبي هريرة رضي الله عنه الإيمان سبع وسبعون شعبة أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأبناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان⁽²⁾، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه. جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

﴿حقاً﴾ صفة للمصدر المحذوف أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي: أولئك هم المؤمنون كقولك: هو عبد الله حقاً أي: حق ذلك حقاً، وعن الحسن: أن رجلاً سأله مؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان: فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والجنة، والنار، والبعث، والحساب فإنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إنما المؤمنون﴾ فوالله لا أدرى أمنهم أنا أم لا؟ وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد أمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه يعني: كما لا يقطع بانه من أهل ثواب المؤمنين حقاً فلا يقطع بانه مؤمن حقاً، وبهذا تعلق من يستثنى في الإيمان، وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ممن لا يستثنى فيه، وحكي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثنى في إيمانك؟ قال: أتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾⁽³⁾

= ينكر في معنى الآية وجهاً أوجه من هذين، وهو أن المراد: تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة، والجزاء بإخراجها من بيته طمئناً له تعالى سامعاً لامره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة، فشبّه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية، فكما بلغت طاعة الغاية في نوع الطاعات، فكذلك بلغت إثابة الله له، الغاية في جنس الثوابات، وجماع هذا المعنى هو: المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام الأجر، على قدر النصب، ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة، ومنصوبة على حسب التقدير، والله الموفق.

(6) سورة الأنفال، الآية: 1.

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: عدد شعب الإيمان (الحديث رقم: 151) وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في رد الإرجاء (الحديث رقم: 4676)، والترمذي في كتاب: الإيمان باب: ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه (الحديث رقم: 2614)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائطه، باب: شعب الإيمان (الحديث رقم: 5004)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب في الإيمان (الحديث رقم: 57).

(3) سورة الشعراء، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 265.

(5) قال أحمد: وكان جدي أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله=

فنادى أبو جهل فوق الكعبة، يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب ونلؤل، غيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تغفلوا بعدها أبداً. وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً! رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة، فحثت بها العباس، فقال أبو جهل: ما يرضي رجالهم أن يبتنّبوا حتى تنتبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير، فقبل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإنّ محمداً لم يصب العير وإننا قد أعضضناه، فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله وعديكم إحدى الطائفتين إننا العير وإما قريشاً، فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب ونلؤل فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم رد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فإننا معك حيث لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»⁽¹⁾ ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار»؛ لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا براء من نمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فانت في ذمامنا نمنعك مما نمنع أبائنا ونساءنا، فكان النبي ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عنق دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل قال: قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف

﴿بعد ما تبين﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب، ونلك لكرامتهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها، وقيل: كان خوفهم لقلة العدد وأنهم كانوا رجالة، وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان ﴿إن﴾ منصوب بإضمار انكر. ﴿إنها لكم﴾ بدل من إحدى الطائفتين والطائفتان العير والنفير ﴿غير ذات الشوك﴾ العير؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوك كانت في النفير لعندهم وعنتهم، والشوك الحدة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال: شوك القنا لشباهها، ومنها قولهم: شائك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير؛ لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة ولا تريون الطائفة الأخرى ﴿أن يحق الحق﴾ أن يثبت ويعلية ﴿بكلماته﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوك، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسره وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، والدابر الآخر فاعل من بذر إذا أوبر، ومنه دابرة الطائر، وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال⁽³⁾ يعني: أنكم تريون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوك وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم وأعزكم وأتلهم، وحصل لكم ما لا تعارض أنناه العير وما فيها. وقرئ: بكمته على التوحيد.

(1) سورة المائدة، الآية: 24.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الأنفال، (الحديث رقم: 3080) وأحمد في مسنده 1/229، والحاكم في المستدرک 2/327.

(3) قال أحمد: والتحقيق في التمييز بين الكلامين، أن الأول نكرت الإراءة فيه مطلقاً، غير مقيدة بالواقعة الخاصة، كأنه قيل وتولون =

= أن غير ذات الشوك تكون لكم، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق، وتحقيق الكفر على الإطلاق، وإرادته أن يحق الحق، ويبطل الباطل خصم بذات الشوك، فبين الكلامين عموم، وخصوص، وإطلاق، وتقييد، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى، بنكره على وجهين إطلاق، وتقييد، والله أعلم.

السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة، وقرئ: «مرفين بكسر الدال وفتحها من قولك ردفه إذا تبعه ومنه قوله تعالى: ﴿ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾⁽⁴⁾ بمعنى: ردفكم وأرذفته إياه إذا أتبعته، ويقال: أرذفته كقولك: أتبعته إذا جئت بعده فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى: متبعين أو متبعين، فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو من أن يكون بمعنى متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى متبعين إياهم المؤمنين أي: يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقاتهم ليكونوا على أعينهم وحفظهم، أو بمعنى: متبعين أنفسهم ملائكة آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾⁽⁵⁾ ﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾⁽⁶⁾ ومن قرأ مرفين بالفتح فهو بمعنى: متبعين أو متبعين. وقرئ: مرفين بكسر الراء وضمتها وتشديد الدال وأصله مرتدفين أي: مترادفين أو متبعين من ارتدته فادغمت تاء الافتعال في الدال فالتقى ساكنان فحزكت الراء بالكسر على الأصل، أو على أتباع الدال، وبالضم على أتباع الميم، وعن السدي: بألف من الملائكة على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران.

فإن قُلْتُ: فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المرفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين والمرفين بارتدافهم غيرهم؟ قُلْتُ: بأن المراد بالألف من قاتل منهم أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم.

فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في ﴿وما جعله﴾؟ قُلْتُ: إلى قوله: ﴿أني ممدكم﴾ لأن المعنى: فاستجاب لكم بإمدانكم.

فإن قُلْتُ: ففيم قرأ بالكسر؟ قُلْتُ: إلى قوله: ﴿أني ممدكم﴾ لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر كالكسبية لبني إسرائيل يعني: أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتمكم ونلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً منكم وربطاً على قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله ﴿إذ يغشاكم﴾ بدل ثان من ﴿إذ

فإن قُلْتُ: بم يتعلق قوله ﴿ليحق الحق﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف تقديره ليحق الحق، ويبتل الباطل فعل تلك ما فعله إلا لهما وهو: إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قُلْتُ: ليس هذا تمييزاً قُلْتُ: لا، لأن المعنيين متباينان وذلك أن الأول تمييز بين الإرائتين، وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو: سيد الأغراض، ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى، وقيل: قد تعلق بيقطع.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق ﴿إذ تستغيثون﴾ قُلْتُ: هو بدل من ﴿إذ يعيدكم﴾ وقيل: بقوله: ﴿ليحق الحق ويبتل الباطل﴾، واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله ويقولون أي ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين اغثنا، وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فلقاه على منكبهِ والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك⁽¹⁾ ﴿أني ممدكم﴾ أصله باني ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله، وعن أبي عمرو: أنه قرأ إني ممدكم بالكسر على إرادة القول أو على إجراء استجاب مجرى قال: لأن الاستجابة من القول.

فإن قُلْتُ: هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قُلْتُ: اختلف فيه فقيل: نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكايل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن بي طالب، في صور الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخو أئناهبها بين أكتافهم فقاتلت، وقيل: قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروي أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خرّ مستلقياً وشق وجهه، فحث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذاك من مدد السماء⁽²⁾، وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي⁽³⁾، وقيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون

(4) سورة النمل، الآية: 72.

(5) سورة آل عمران، الآية: 124.

(6) سورة آل عمران، الآية: 125.

(1) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (الحديث رقم: 4563).

(2) نفس الحديث السابق.

(3) نكره ابن هشام في السيرة 1/633.

وناموا فاحتلم أكثرهم، فقال لهم: انتم يا أصحاب محمد تزعمون انكم على الحق وانكم تصلون على غير وضوء وعلى الجناية وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهنكم العطش، فإذا قطع العطش اعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة، فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا، فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، واتخذ رسول الله ﷺ وأصحابه الحياض على عدوة الوادي وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبّد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس⁽⁴⁾، والضمير في به للماء، ويجوز أن يكون للربط؛ لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة ثبتت القدم في مواطن القتال.

إِذ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَئِئْتَا الْبُرُوقِ سَائِرِي فِي قُرْبِ الْأَنْبِيَاءِ كَذَبُوا الْأَعْيُنَ فَأَنزَلْنَا لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ بَاقٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ وَمَنْ يُضَاقِ اللَّهَ زُرُّهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾

﴿إذ يوحى﴾ يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من ﴿إذ يعينكم﴾ وأن ينتصب بيثب ﴿إني معكم﴾ مفعول يوحى وقرئ: إني بالكسر على إرادة القول أو على إجراء يوحى مجرى يقول، كقوله: ﴿إني ممككم﴾⁽⁵⁾ والمعنى: إني معينكم على التثبيت فثبتوهم وقوله ﴿سألي... فاضربوا﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: ﴿إني معكم﴾ فثبتوا، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب اعناقهم، واجتماعهما غلية النصر، ويجوز أن يكون غير تفسير وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة، وقيل: كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، ويمشي بين الصفيين فيقول: أبشروا فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ: الرعب بالتحليل ﴿فوق الأعناق﴾ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها

يعينكم﴾ أو منصوب بالنصر، أو بما في ﴿من عند الله﴾ من معنى الفعل، أو بما جعله الله، أو بإضمار انكر⁽¹⁾، وقرئ: يغشيكم بالتحفيف والتشديد ونصب النعاس والضمير لله عز وجل و ﴿أمنة﴾ مفعول له.

فإن قلّت: إما يجب أن يكون فاعل الفعل المعلن والعلّة واحداً؟ قلّت: بلى ولكن لما كان معنى: يغشاكم النعاس تنعسون انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم، والمعنى: إذ تنعسون أمنة بمعنى: أمناً أي؛ لأنكم و ﴿منه﴾ صفة لها أي: أمنة حاصلة لكم من الله عز وجل.

فإن قلّت⁽²⁾: فعلى غير هذه القراءة قلّت: يجوز أن تكون الأمنة بمعنى: الإيمان أي: ينعسكم إيماناً منه، أو على يغشيكم النعاس فتعسون أمناً.

فإن قلّت: هل يجوز أن ينتصب على أن الأمنة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم أي: يغشاكم النعاس لأمنة على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو: لأصحاب النعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم، وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلّت: لا تبعد فصاحة القرآن عن احتمالها وله فيه نظائر وقد ألم به من قال:

يهاب النوم أن يغشي عيوننا تهابك فهونفار شرود وقرئ: أمنة بسكون الميم ونظير أمن أمنة حيي حياة، ونحو: أمن أمنة رحم رحمة والمعنى: أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقبوا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان⁽³⁾ ﴿وينزل﴾ قرئ: بالتحفيف والتثقيب. وقرأ الشعبي: ما ليظهركم به، قال ابن جني: ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره فكانه قال: ما للظهور، و ﴿رجز الشيطان﴾ وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش وقيل: الجناية؛ لأنها من تخييله، وقرئ: رجس الشيطان، وذلك أن إبليس تمثل لهم وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء ونزل المسلمون في كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء

(1) قال أحمد: ومثل هذا النظر يجري عند قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، لأن فاعل الإرادة، هو: الله عز وجل، وفاعل الخوف، والطمع هم، وقد انتصبا مفعولاً لهما، فالجواب أنه لما كان الله تعالى إذا أراه البرق راؤه كانوا فاعلين في المعنى، وكان المعنى، وهو الذي يريكم البرق، فتروته خوفاً وطمعاً، فهذا مثل آية الأنفال، فإن المفعول في المعنى فاعل، وسياأتي مزيد بحث في هذه النكتة، وقد جرى القلم بتعجيلها ههنا، وذلك أن لقاتل أن يقول فاعل يغشى النعاس إياهم هو الله تعالى، وهو فاعل الأمنة أيضاً، وخالفها، وحينئذ يتحد فاعل الفعل، والعلّة، فيرتفع السؤال، ويؤول الإشكال على قواعد السنة، التي تقتضي نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى، على أنه خالقها ومبدعها، ولمورد

(2) قال أحمد: وجه حسن بشرط الأدب في إسقاط لفظة التخييل، وقد تقدمت له أمثاله.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 499/2 (الحديث رقم: 4219).

(4) نكره الثعلبي والطبري في تفسيرهما، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

(5) سورة الأنفال، الآية: 9.

(1) قال أحمد: ومثل هذا النظر يجري عند قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، لأن فاعل الإرادة، هو: الله عز وجل، وفاعل الخوف، والطمع هم، وقد انتصبا مفعولاً لهما، فالجواب أنه لما كان الله تعالى إذا أراه البرق راؤه كانوا فاعلين في المعنى، وكان المعنى، وهو الذي يريكم البرق، فتروته خوفاً وطمعاً، فهذا مثل آية الأنفال، فإن المفعول في المعنى فاعل، وسياأتي مزيد بحث في هذه النكتة، وقد جرى القلم بتعجيلها ههنا، وذلك أن لقاتل أن يقول فاعل يغشى النعاس إياهم هو الله تعالى، وهو فاعل الأمنة أيضاً، وخالفها، وحينئذ يتحد فاعل الفعل، والعلّة، فيرتفع السؤال، ويؤول الإشكال على قواعد السنة، التي تقتضي نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى، على أنه خالقها ومبدعها، ولمورد

الصبي إذا دبَّ على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا فضلاً أن تذاوهم في العدد أو تساوهم، أو حال من الفريقين أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً، وتقدمة نهي لهم عن الفرار يومئذ.

وفي قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ﴾ أمانة عليه ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ هو: الكرُّ بعد الفرِّ يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو: باب من خدع الحرب ومكابدها ﴿أو متحيزاً﴾ أو منحازاً ﴿إلى فئة﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها، وعن ابن عمر رضي الله عنه: خرجت سرية وأنا فيهاهم ففروا، فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت يا رسول الله: نحن الفرارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فئتكم⁽¹⁾، وأنهم رجل من القاسية فاتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلكت، ففرت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فئتكم⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

فإن قلت: بم انتصب ﴿إلا متحرفاً﴾؟ قلت: على الحال وإلا لغو، أو على الاستثناء من المولين أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً. وقرأ الحسن بديره بالسكون ووزن متحيز متفعيل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز.

قَلَّمَ تَقَلُّوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلَّهٗمْ وَمَا رَبَّيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَئِنَّ أَوْلِيَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَكَاذِبُونَ سَبَّحْتَ عَلَىٰ سَمْعٍ عَلِيمٍ ﴿٧﴾

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وأقبلوا على التفاخر فكان القائل يقول: قتلت، وأسرت⁽³⁾، ولما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكتبون رسلك، اللهم إني أسالك ما وعدتني، فاتاه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شامت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهمزوا، وريفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم⁽⁴⁾ فقبل لهم ﴿قلم

مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حرّاً وتطبيراً للرؤوس، وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني: ضرب الهام قال:

وأضرب هامة البطل المشيح وغشيته وهو في جأوه باسلة
عضباً أصاب سواء الرأس فانفلقا

والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى؛ لأنَّ الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً، ويجوز أن يكون قوله: ﴿سالمقي﴾ إلى قوله: ﴿كل بنان﴾ عقيب قوله: ﴿فقتبوا الذين آمنوا﴾ تلقيناً للملائكة ما يشبهونهم به، كأنه قال: قولوا لهم قولي ﴿سالمقي﴾ في قلوب الذين كفروا للربيب، أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم فقيل: قولوا لهم قولي ﴿سالمقي﴾ فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

نلك﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ومحل الرفع على الابتداء ﴿وبأنهم﴾ خبره أي: نلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم، والمشافة مشتقة من الشق؛ لأنَّ كلا المتعابين في شق خلاف شق صاحبه، وستلت في المنام عن اشتقاق المعادة فقلت: لأنَّ هذا في عدوة وذلك في عدوة كما قيل: المخاصمة والمشافة؛ لأن هذا في خصم أي في جانب وذلك في خصم، وهذا في شق وذلك في شق، والكاف في ذلك لخطاب الرسول عليه السلام أو لخطاب كل واحد وفي:

ذَلِكُمْ فَذُرُّوهُ وَاتَّكُفِّرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿٧﴾

﴿نلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات ومحل نلكم الرفع على نلكم العقاب أو العقاب نلكم ﴿فذوقوه﴾ ويجوز أن يكون نصباً على عليكم نلكم فذوقوه كقولك: زيداً فاضربه ﴿وإن للكافرين﴾ عطف على نلكم في وجهيه، أو نصب على أن الواو بمعنى: مع، والمعنى: نوقوا هذا العذاب العاجل مع الأجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقرأ الحسن: وإن للكافرين بالكسر.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحِمًا فَلَا تُولَّوهُمْ
الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧﴾ وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلِ اللَّهِ
إِلَّا يَنْفَرُ فَقَدْ بَكَتْ يَمَاسِي مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ
لِلْمُؤْمِنِ ﴿٧﴾

﴿زحفاً﴾ حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الدهم الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف أي: يدبَّ بديباً من زحف

= وجوه القدرة بالرذ، ونلك أن الله تعالى أثبت الفعل للخلق، ونفاه عنهم، ولا حمل لنلك، إلا أن ثبوته لهم مجاز، والفاعل، والخالق حقيقة، هو: الله تعالى، فثبتته لهم مجازاً، ونفاه عنهم، حقيقة، وإياك أن تعرج على تعكيس الزمخشري في تأويل الآية، فإنه نظر أعوج، وباطل مخلص، والحق أبلج، والله الموفق بكرمه.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (الحديث رقم: 4595).

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (الحديث رقم: 1716) وأحمد في مسنده (86/2).

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 538/12 كتاب الجهاد باب الفرار من الزحف.

(3) قال أحمد رحمه الله: أوضح مصداق في التمييز بين الحقيقة، والمجاز ألا تراك تقول للبليد ليس بحمار، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجاوز إنه حمار، فإذا ثبت لك أن من ميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة، فافهم أن هذه الآية تكف =

تستفتحوا» خطاب للمؤمنين «وإن تنتهوا» خطاب للكافرين يعني: وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ فهو خير لكم» وأسلم «وإن تعودوا» لمحاربهته «نعد» لنصرته عليكم «وإن الله» قرئ بالفتح علي ولأن الله معين المؤمنين كان نك، وقرئ: بالكسر وهذه أوجه، ويعضدها قراءة ابن مسعود والله مع المؤمنين. وقرئ، ولن يعني عنكم بالياء للفصل.

يَأْتِيَا الزَّيْرَ مَأْمُورًا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعُوا سَمْعُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾

«ولا تولوا» قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها، والضمير في «عنه» لرسول الله ﷺ؛ لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله ﷺ كقوله: «والله ورسوله أحق أن يرضوه»^(١) ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد «من يطع الرسول فقد أطاع الله»^(٢) فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع فلا فلان، ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامثاله وأنتم تسمعونه، أو ولا تولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه «وأنتم تسمعون» أي: تصنعون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكينين من الكفرة «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا» أي: ادعوا السماع «وهم لا يسمعون» لأنهم ليسوا بمصنفين فكانهم غير سامعين، والمعنى: أنكم تصنعون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كلاً تصديق، وأشبهه سماعكم سماع من لا يؤمن.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾

ثم قال: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ» أي: إن شر من يدب على وجه الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها «ولو علم الله» في هؤلاء الصم البكم «خيرًا» أي: انتفاعاً باللطف «لأسمعهم» للطف بهم حتى يسمعوا سماع المصنفين، ثم قال «ولو أسمعهم لتولوا» عنه يعني: ولو لطف بهم^(٣) لما نفع فيهم اللطف فلذلك منعهم

تقتلوهم» والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم «ولكن الله قتلهم» لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر، وقوى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع «وما رميت» أنت يا محمد «إذ رميت ولكن الله رمى» يعني: أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت تلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكانها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً، وقرئ: «ولكن الله قتلهم» «ولكن الله رمى» بتخفيف لكن ورفع ما بعده «وليبيلى للمؤمنين» وليعطيه «ببلاء حسناً» عطاء جميلاً. قال زهير:

فابلاهما خير البلاء الذي يبلى

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك «إن الله سميع» لدعائهم «عليم» بأحوالهم.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

«ذلكم» إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي: الغرض ذلكم «وأن الله موهن» معطوف على ذلكم يعني: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقرئ: موهن بالتشديد، وقرئ: على الإضافة وعلى الأصل الذي هو التتوين والإعمال.

إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدَّ جَاءَكُمْ الْفَسْحُ وَإِنْ نَنْهَوْا فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَمْدٌ وَإِنْ تَقَى عَتْرَكُمْ يَفْتَكَمْ شَيْئًا وَلَوْ كَرِهْتَ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾

«إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم وذلك أنهم حين أراوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقراننا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره وإن كنا على حق فانصرنا، وروي أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أهدر وأقطع للرحم فأحنه اليوم أي: فاهلكه، وقيل: «إن

= الأفعال: لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه يقول الحق، والهداية، وحسن الاستماع، والإصغاء، وإن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق، ولا يلزم حصول مراده على العموم تعالى الله عما يقولون، ثم ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة، لما استقام تأويل الرمزشري أيضاً، فإن حاصله، ولو علم الله فيهم خيراً، لطف بهم، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم، وهذا غير مستقيم لما =

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة النساء، الآية: 80.

(3) قال أحمد رحمه الله: إطلاق القول، بأن الله تعالى يطف بالعبد، فلا ينفع لطفه مرونه، فإن اللطف هو إسداء الجميل، والإلطف به واسمه اللطيف من ذلك، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بان أسمعه إسماع لطف به، فتلك الغاية المرجوة، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق، وحسن الإصغاء إليه، والاهتداء به، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال، والرأي الفاسد في خلق

ويبيله بالخوف أمناً وبالآمن خوفاً وبالذكر نسياناً
وبالنسيان نكراً وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى،
فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا،
والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر، وبينه
وبين الكفر إذا آمن، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً،
وقيل: معناه: أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباله
لا يخفى عليه شيء من ضمائره فكانه بينه وبين قلبه.
وقرى: المرء بتشديد الراء، ووجهه أنه قد حنفت الهمزة
والقى حركتها على الراء كالخب ثم نوى الوقف على لفة
من يقول مرتت بعمر.

وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ حَاسَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾

﴿فتنة﴾ نبتاً قيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم، وقيل:
افتراق الكلمة، وقيل: فتنة عذاباً، وقوله: ﴿لا تصيبين﴾
لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر، أو
صفة لفتنة، فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتمك لا تصب
الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وهذا كما يحكى أن
علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً فعمهم الله
بالعذاب، وإذا كانت نهياً بعد أمر فكانه قيل: واحذروا نبتاً
أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر
الذنب ويوبه من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة
على إرادة القول كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبين
ونظيره قوله:

حتى إذا جنّ الظلام واختلف جاؤا بمنق هل رأيت الذنب قط
أي: بمنق مقول فيه هذا القول؛ لأنه سمار فيه لون
الورقة التي هي لون الذنب، ويعضد المعنى الأخير قراءة
ابن مسعود: لتصيبين على جواب القسم المحنوف، وعن
الحسن: نزلت في عليّ وعمار وطلحة والزبير وهو يوم
الجملة خاصة، قال الزبير: نزلت فينا وقرانها زماناً وما
أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وعن السدي: نزلت
في أهل بدر، فاقتتلوا يوم الجملة، وروي أن الزبير كان
يسائر النبي ﷺ يوماً إذا أقبل عليّ رضي الله عنه، فضحك
إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «كيف حبك لعلي؟ فقال: يا

الطافه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتبوا بعد ذلك وكذبوا
ولم يستقيموا، وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم
منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، كانوا
يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه
ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء، وعن
ابن جريج: هم المنافقون، وعن الحسن: أهل الكتاب.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخَشِّرٌ ﴿١٥﴾

﴿إذا دعاكم﴾ وحّد الضمير كما وحّده فيما قبله؛ لأن
استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته وإنما يذكر أحدهما مع
الأخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال،
وبالدعوة البحث والتحريض، وروي أبو هريرة: أن النبي ﷺ
مرّ على باب أبي إبن كعب فناده وهو في الصلاة فعجل
في صلاته، ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت
أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحى إلي ﴿استجبوا لله
وللرسول﴾ قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك⁽¹⁾، وفيه
قولان: أحدهما: أن هذا مما اختص به رسول الله ﷺ،
والثاني: أن دعاه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع
مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته ﴿لما يحييكم﴾ من
علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة كما أن الجهل
موت، ولبعضهم:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن

وقيل: لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم
وقتلوهم كقوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾⁽²⁾ وقيل:
لله شهادة لقوله: ﴿بل أحياء عند ربهم﴾⁽³⁾ ﴿واعلموا أن الله
يحول بين المرء وقلبه﴾⁽⁴⁾ يعني: إنه يميتة فتفوته
الفرصة التي هو واجدها وهي: التمكن من إخلاص القلب
ومعالجة انوائه وعلله ورده سليماً كما يريد الله، فاعتنوا
هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله
﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيثيبكم على حسب
سلامة القلوب وإخلاص الطاعة، وقيل: معناه: إن الله قد
يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمته ويغير نيته ومقاصده

= يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى، وذلك محال عقلاً، فلا يرتفع الإشكال، إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً، كيلا يتكرر الوسط، فيلزم المحال المذكور، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين، أن يراد بالأول، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعاً يخلق لهم به الهداية والقبول، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الاهتداء، بل إسماعاً مجرداً من ذلك لتولوهم وهم معرضون، فهذا هو الوجه في تأويل الآية، والله الموفق.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (الحديث رقم: 2875) والسنائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ =

(2) الحديث رقم: 20430.

(3) سورة البقرة، الآية: 179.

(4) سورة آل عمران، الآية: 169.

قال أحمد رحمه الله: نعم هذا قد أهل السنة الذي استعار لهم لقب المجبرة، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى، وتقويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق، فإن كان ذلك ظلماً، فانا بريء من الطائفة المتسمية بالعلنية إصراراً على هذا الرأي الباطل، والمعتقد الماحل، والله الموفق.

رسول الله بابي أنت وأمي إني أحبه كحبي لوالدي أو أشد حباً. قال: «كيف أنت إذا سرت إليه فتقاتله»⁽¹⁾.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن تخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قُلْتَ: لأن فيه معنى النهي، إذا قلت: انزل عن الدابة لا تطرحك، فلنلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبين و ﴿لا يحطمنكم﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتَ: فما معنى من في قوله: ﴿الذين ظلموا منكم﴾؟ قُلْتَ: التبعية على الوجه الأول، والتبيين على الثاني؛ لأن المعنى لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم؛ لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس.

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِيلَ سَتَمُمُونَ فِي الْأَرْضِ نَحَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ أَتَاشُ فَأَوْرِكُمْ وَيَأْتِيكُمْ بِصَرِيحِهِ وَرَفَقَكُمْ بَيْنَ الطَّيِّبِ لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ⁽³⁾.

﴿إن أنتم﴾ نصبه على أنه مفعول به منكور لا ظرف أي: أنكروا وقت كونكم أقلّة أنلة مستضعفين ﴿في الأرض﴾ أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش ﴿تخافون أن يخطفكم الناس﴾ لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء منافين مضابين ﴿فأولكم﴾ إلى المدينة ﴿وليبكم بنصره﴾ بمظاهرة الانصار وإمداد الملائكة يوم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم، وعن قتادة: كان هذا الحي من العرب أدلّ الناس وأشقاهاهم عيشاً وأعراهم جلدًا وأبينهم ضلالاً يؤكلون ولا ياكلون، فمكّن الله لهم في البلاد ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْنُوتُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْنُوتُوا أُمَّتَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تَمْتَرُونَ⁽⁴⁾.

معنى الخون: النقص كما أن معنى الوفاء: التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير فقبيل: خان الدلو الكرب وخان المشتر السبب؛ لأنه إذا انقطع به فكانه لم يقف له ومنه قوله تعالى: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ والمعنى: لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنوا به، و﴿أماناتكم﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وانتم تعلمون﴾ تبعة ذلك ووباله، وقيل: وانتم تعلمون أنكم تخونون يعني: أن الخيانة توجد منكم عن عمد لا عن سهو، وقيل: وانتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن، وروي أنّ نبي الله ﷺ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا

إلى أنرعات وإريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبيبة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى هل تنزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه أنه النجيب، قال أبو لبيبة: فما زالت قدمائي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت، فشدّ نفسه على سارية من سواربي المسجد، وقال: والله لا أتوق طعماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، فقال: إن من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وإن أتخلع من مالي، فقال ﷺ: «يجزيك الثلث أن تتصدق⁽⁵⁾ به»، وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: أماناتكم ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده.

فإن قُلْتَ: ﴿وتخونوا﴾ جزم هو أم نصب؟ قُلْتَ: يحتمل أن يكون جزمًا داخلًا في حكم النهي، وأن يكون نصبًا بإضمار أن كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾⁽⁴⁾ وقرأ مجاهد: وتخونوا أمانتكم على التوحيد.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ رَبُّكُمْ وَأَنَّكُمْ أَتَمَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ⁽⁵⁾.

جعل الأموال والأولاد فتنة؛ لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي: الإثم أو العذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، والله عنده أجر عظيم فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدي إليه هممكم، وتزهّدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما كقوله: ﴿المال والبنون﴾⁽⁶⁾ الآية، وقيل: هي من جملة من نزل في أبي لبيبة، وما فرط منه لأجل ماله وولده.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَرُوا اللَّهَ لَيَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ⁽⁷⁾.

﴿فرقاناً﴾ نصرًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حربه والإسلام بإعزاز أهله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾⁽⁶⁾ وبيانًا وظهورًا يشهر أمركم ويبث صينكم وأثركم في أقطار الأرض من قولهم: بثّ أفعال كذا حتى سطع الفرقان أي: طلع الفجر، أو مخرجًا من الشبهات وتوفيقًا وشرحًا للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأسيان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة.

وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنْزِلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِكَوكَ

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة الكهف، الآية: 46.

(6) سورة الانفال، الآية: 41.

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 241/11 (الحديث رقم: 20430).

(2) سورة النمل، الآية: 18.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 406/5 (الحديث رقم: 9745).

رَبِّكَرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ النَّاصِرِينَ ﴿٣٥﴾.

الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤا غلبة من تحدهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح العلوي لونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يمانتهم واحد فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس من حرصهم على أن يقهروا رسول الله ﷺ وتهالكهم على أن يغمروه، وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبورا حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون لو شئت لقلت مثل هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعم أن هذا مثل ذلك وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعداب آخر، ومراده نفي كونه حقا، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا، فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة، وقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق، وقرأ الأعمش: هو الحق بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال: أمطرت السماء كقولك: أنجمت وأسبلت ومطرت كقولك: هتنت وهتلت وقد كثرت الأمطار في معنى العذاب.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿هُنَّ السَّمَاوَاتُ وَالْأَمْطَارُ لَا تَكُونُ إِلَّا مَنَاهَا؟ قُلْتُ: كانه أريد أن يقال فأمطر علينا السجيل وهي: الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد تريد نرجعا ﴿بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ أي: بنوع آخر من جنس العذاب الاليم يعني: أن أمطار السجيل بعض العذاب الاليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه، وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً﴾ ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهمنا له. اللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة؛ لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبههم بين أظهرهم، وفيه إشعار بانهم مرصون بالعذاب إذا هاجر عنهم والنليل على هذا الإشعار قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب كانه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم إذا فارقتهم وما لهم أن لا يعذبهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في موضع الحال ومعناه: نفي الاستغفار عنهم أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما

لما فتح الله عليه نكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم، وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: وأنكر إذ يمكرون بك، وذلك أن قريشا لما أسلمت الأنصار وبإيعوه فروا أن يتفاهم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فنخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة، دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولئن تعدموا مني رأيا ونصحا، فقال أبو البخزري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشلوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وترتبصوا به ريب المنون، فقال إبليس: بش الرأي يأتيتكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم، فقال إبليس: بش الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا، فقال الشيخ - لعنه الله - صدق هذا الفتى هو أجوبكم رأيا، فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأن الله له في الهجرة، فأمر عليا رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: «اتشح ببردي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وياتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فابصروا عليا فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم^(١) ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعا، وقرئ: ليثبتوك بالتشديد، وقرأ النخعي: ليبئتوك من البيات، وعن ابن عباس: ليقيدوك وهو دليل لمن فسره بالإيثاق ﴿وَيَمَكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيتهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل، ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آخَرَ ﴿٣٧﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ نفاجة منهم وصلف تحت

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه 384/5 (الحديث رقم: 9743).

نَسْبُهُنَّ ثُمَّ تَكُوثٌ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُعْتَرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر، وقيل: قالوا لكل من كان له تجارة في العير اعينوا بهذا المال على حرب محمد لعنا ندرك منه ثارنا بما أصيب منا ببدر، وقيل: نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد الغين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنا وأربعون مثقالاً ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو: سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ أي: تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكان ذاتها تصير ندماً وتقلب حسرة ﴿ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجلاً قبل ذلك فيرجعون طلقاء ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَإِبْرَاهِيمَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ (3) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْمَلَ الْخَبِيثَ بِصَفِّهِ عَلَىٰ بَعْضِ نِعَمَتِهِ جِيماً يَجْمَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿من﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ من المؤمنين. فيجعل الفريق ﴿الخبث﴾ بعضه على بعض فيركمه جميعاً عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكبوا كقوله تعالى: ﴿كادوا يكونون عليه لبدا﴾ (4) يعني: لفرط ازحامهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث، وقيل: ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كابي بكر وعثمان في نصرته ﴿فيركمه﴾ فيجعل في جهنم في جملة ما يعذبون به كقوله: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم﴾ (5) الآية، واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ وعلى الأول بيحشرون، وأولئك إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ: ليميز على التخفيف.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْتَرَّ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَكُوا وَإِنْ يَبُوءُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

﴿قل للذين كفروا﴾ من ابي سفيان وأصحابه أي: قل لاجلهم هذا القول وهو ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقليل: إن تنتهوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود ونحو: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ (6) خاطبوا به غيرهم لاجلهم ليسمعوه أي:

عذبهم كقوله: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصلحون﴾ (1) ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم، وقيل: معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين، وما لهم أن لا يعذبهم الله وأي شيء لهم في انتقاء العذاب عنهم يعني: لا حظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة.

وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُوهُمْ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَاللَّهِ يَكْفُرُ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَمَا كَفَرُوا بِاللَّهِ وَإِنَّ أَوْلِيَآؤَهُ إِلَّا اللَّهُ لَكُنُوزٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصنون عن المسجد الحرام كما صنوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله ﷺ والمؤمنين من الصد، وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿وما كانوا أولياءه﴾ وما استحقوا مع إشرابهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاية أمره وأربابه ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً فكيف بالكفرة عبدة الأصنام ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة، أو أراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلّة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيحَةً فَذَرُوهَا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾

المكاء فعال بوزن الثغاء والرغاء من مكأ يمكو إذ اصفر، ومنه: المكاء كانه سمي بذلك لكثرة مكائه، وأصله الصفة نحو الوضاء والقراء، وقرئ: مكأ بالقصر ونظيرهما البكي والبكاء. والتصديح: التصفيق تفعلة من الصدى أو من صد يصد ﴿إذا قومك منه يصدون﴾ (2). وقرأ الأعمش: وما كان صلاتهم بالنصب على تقييد خبر كان على اسمه.

فإن قلت: ما وجه هذا الكلام قلت: هو نحو من قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه اذاهم سوداً أو محرجة سمرها والمعنى: أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ووضعوا المكاء والتصديح موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يظفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون عليه ﴿فذنقوا﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر بسبب كفرهم وأتعلمكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

إِنَّ الْكَلْبَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَوْلَاهُمْ لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(4) سورة الجن، الآية: 19.

(5) سورة التوبة، الآية: 35.

(6) سورة الاحقاف، الآية: 11.

(1) سورة هود، الآية: 117.

(2) سورة الزخرف، الآية: 57.

(3) سورة المجادلة، الآية: 21.

يَبْتَغِي وَيَجِيءُ مَن حَرَمَ عَنَّا يَبْتِغِي وَرِثَةً إِنَّهُ لَسَجِيحٌ عَليْمٌ ﴿٤٢﴾

﴿إنما غنمتم﴾ ما موصولة و ﴿من شيء﴾ بانه قيل: من شيء حتى الخيط والمخيط ﴿فإن الله﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره فتحق أو فواجب أن الله خمسته، وروى الجعفي عن أبي عمرو: فإن الله بالكسر، وتقويه قراءة النخعي قلله خمسته، والمشهورة أكد وثابت للإيجاب، كانه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث إنه إذا حنف الخبر واحتمل غير واحد من المقتررات، كقولك: ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ: خمسته بالسكون.

فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ، وسهم لنزوي قرياه من بني هاشم وبني المطلب نون بني عبد شمس وبني نوفل استحقره حينئذ بالنصرة والمظاهرة لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، رأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال ﷺ: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبني المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه⁽²⁾، وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم نوي القريبى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطي أغنياؤهم فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من السلاح والكرام ونحو ذلك، وسهم لنزوي القريبى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم ﴿لذاكر مثل حظ الانثيين﴾⁽³⁾ والباقي للفقر الثلاث.

وعند مالك بن انس رحمه الله: الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم نون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم.

فإن قلت⁽⁴⁾: ما معنى نكر الله عز وجل وعطف الرسول

إن ينتهوا عما هم عليه من عدواة رسول الله ﷺ وقته بالدخول في الإسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ لهم من العدواة ﴿وإن يعودوا﴾ لقتاله ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم فدمروا فليتقوا مثل ذلك إن لم ينتهوا، وقيل: معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي وخرجوا منها كما تنسل الشعرة من العجين، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يجب ما قبله»⁽¹⁾ وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط، وأما الذمي: فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الأمميين، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله: في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتركة في حال الردة وقبلها، وفسر ﴿وإن يعودوا﴾ بالارتداد. وقرئ: يغفر لهم على أن الضمير لله عز وجل.

وَتَنبِئُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ نَارًا أَنْتَهُمْ فَرَّتْ أَنَّهُ يَمَّا يَمْشُونَ بِصِيرٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَمْ الْمَوْلَىٰ وَبِعَمِّ النَّصِيرِ ﴿٤٤﴾

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط ﴿ويكون للدين كله﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يثيبهم على توبتهم وإسلامهم، وقرئ: تعملون بالباء، فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بصير يجازيك عليه أحسن الجزاء ﴿وإن تولوا﴾ ولم ينتهوا ﴿فإن الله مولاكم﴾ أي: ناصركم ومعيبكم فنقروا بولايته ونصرته.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَاءِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ إِذْ أَنتُمْ بِالْمَدِينَةِ الَّذِينَ هُمْ بِالْمَدِينَةِ الْقَصْرَىٰ وَالرَّكْبُ سَقَلٌ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْيَمْعَادِ وَلَكِنْ لَقَضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَمَا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا

(3) سورة النساء، الآية: 11.

(4) قال أحمد: لأن مالكاً رضي الله عنه، لا يرى نكر الوجوه المنكورة، لبيان أنه لا يصرف فيما سواها، ليس؛ لأن يتماكها، ولا على التحديد، حتى لا يجوز الاقتصاد على بعض الوجوه نون بعض، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الإمام، فيصرف الخمس في مصالح المسلمين، ومن جعلتها قرابته عليه الصلاة والسلام، ولا تحديد عنده في ذلك البتة، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهبه، وبيان ذلك أن المراد حينئذ بنكر الله تعالى، بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقربات لله تعالى، غير مقيد، ثم تخصيص =

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (الحديث رقم: 317)، وأحمد في مسنده 4/ 199.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، (الحديث رقم: 2980)، وابن ماجه في كتاب: الجهاد باب: قسمة الخمس (الحديث رقم: 2881)، والنسائي في كتاب: قسم الفيء (الحديث رقم: 4136)، والبخاري في كتاب: الخمس باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام الخ... (الحديث رقم: 3140).

وبالمنزل ﴿على عبدنا﴾ وقرئ: عبدنا كقوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾⁽⁵⁾ بضم تين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر و ﴿الجمعان﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿وإنه على كل شيء قدير﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿إنه بدل من يوم الفرقان. والعدوة شط الوادي بالكسر والضم والفتح، وقرئ: بهن وبالعدية على قلب الواو ياء؛ لأن بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية. والذنيا والقصوى تانيث الأتني والأقصى.

فإن قُلْتَ: كلتاها فعلى من بنات الواو فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؛ قُلْتَ: القياس هو: قلب الواو ياء كالعليا، وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل وقد جاء القصيا إلا أن استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال استصوب مع مجيء استصاب وأغليت مع أغالت، والعدوة الدنيا مما يلي المدينة والقصوى مما يلي مكة ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني: الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل، وأسفل نصب على الظرف معناه: مكاناً أسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل؛ لأنه خبر للمبتدأ.

فإن قُلْتَ⁽⁶⁾: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم؟ قُلْتَ: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنفاً من الله سبحانه ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدو القصوى التي أتاخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العين وراء ظهور العدو مع كثرة عدوهم فكانت الحماية نونها تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليعبتهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيدهم في القتال وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه فيجمع تلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شنتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر

وغيره عليه؟ قُلْتَ: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿وإنه ورسوله أحق أن يرضوه﴾⁽¹⁾ وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب، وأن يراد بقوله ﴿فإن لله خمسه﴾ أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه لا غير، ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة تفضيلاً لها على غيرها كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكايل﴾⁽²⁾ فعلى الاحتمال الأول؛ مذهب الإمامين.

وعلى الثاني: ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة، وعنه: كان رسول الله ﷺ يأخذ الخمس، فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجلبها للكعبة وهو سهم الله تعالى، ثم يقسم ما بقي على خمسة⁽³⁾، وقيل: إن سهم الله تعالى لبيت المال.

وعلى الثالث: مذهب مالك بن أنس، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان على ستة أسهم: لله وللرسول سهمان وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة، وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء، وروي أن أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم الخمس وقال: إنما لكم أن يعطي فقيركم ويوزج أيمكم يخدم من لا خاسم له منكم، فاما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل، غني لا يعطي من الصدقة شيئاً، ولا يتيم موسر، وعن زيد بن علي رضي الله عنه كذلك قال: ليس لنا أن نبني منه قصوراً ولا أن نركب منه البرانين، وقيل: الخمس كله للقراية، وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له: إن الله تعالى قال: ﴿واليتامى والمساكين﴾⁽⁴⁾ فقال: أيتامنا ومساكيننا، وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله ﷺ: أنه لولي الأمر من بعده، وعن الكلبي رضي الله عنه أن الآية نزلت ببدر، وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله؟﴾ قُلْتَ: بمحذوف يدل عليه ﴿واعلموا﴾ المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد ولكنه العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله تعالى؛ لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر ﴿وما أنزلنا﴾ معطوف على ﴿بإياه﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله،

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في قسمة الخمس (الحديث رقم: 374).

(4) سورة البقرة، الآية: 83.

(5) سورة المائدة، الآية: 60.

(6) قال أحمد: وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري، وتنقيحه عن أسرار الكتاب العزيز.

= الوجود المنكورة بعد، ليس تحديداً، ولك تنبيهاً على فضلها، والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأول، بل هو قار على حاله، كما أن العموم ثابت للملائكة، ولأن خص جبريل وميكايل بعده، والله تعالى أعلم.

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة البقرة، الآية: 98.

الإقدام «ولتتازعتم» في الرأي وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم وترجحتم بين الثبات والفرار «ولكن الله سلم» أي: عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف «إنه عليهم بذات الصدور» يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبين والصبر والجزع.

وَأَذَىٰ يُرِيكُمْوَهُمْ إِذَ التَّقِيَمَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيَلْأَكُفَرُ فِي أَعْيُنِهِمْ يَتَقِيضُ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

«وإذ يريكموهم» الضميران مفعولان يعني: وإذ يبصركم إياهم و«قليلًا» نصب على الحال وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعابنوا ما أخبرهم به فيزيدا يقينهم ويجدوا ويشبوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال ألفاً⁽¹⁾. «ويقللكم في أعينهم» حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور.

فإن قُلْتُ: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قُلْتُ: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجتروا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وذلك قوله: «يرونهم مثليهم رأي العين»⁽²⁾ ولئلا يستعدوا لهم وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قتلهم أولاً وكثرتهم آخرًا.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قُلْتُ: بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك ولحد فقال: ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَبِثُوا فِيكَ فَانظُرُوا أَذْكَرُوا اللَّهُ كَثِيرًا أَمْ لَكُمْ تَفَاهُوتٌ ﴿٤٥﴾

«إذا لبيتهم فئة» إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك أن يصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار ولللقاء اسم للقتال غالب «فانظروا» لقتالهم ولا تقفوا «وانظروا الله كثيرًا» في مواطن الحرب مستظهريين بذكره مستنصرين به داعين له عوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم

ليقضي أمرًا كان مفعولاً من إغزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان «ولو تواعدتكم» انتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً، فثبطكم قتلتم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله وسبب له «ليقضي» متعلق بمحنوف أي: ليقضي أمرًا كان واجباً أن يفعل، وهو: نصر أوليائه وقهر أعدائه ببر تلك.

يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنَّا يَبَيِّنُ وَيَبَيِّنُ مَنْ حَمَىٰ عَنَّا يَبَيِّنُ وَإِلَىٰ اللَّهِ لَسِيْعٌ عَلَيْهِ ﴿٤٦﴾ إِذْ يُرِيكُمْوَهُمْ اللَّهُ فِي سَمَائِكَ قَلِيلاً وَرَوَّ أَرْبَابَهُمْ كَثِيرًا لَقِيْنَاهُمْ وَكُنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ إِتْمٌ عَلَيْهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٧﴾

وقوله: «ليهلك» بدل منه واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينه لا عن مخالفة شبيهة حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به، وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها. وقرئ: ليهلك بفتح اللام وحيي بإظهار التضعيف «لسميع عليهم» يعلم كيف يبدر أموركم ويسوي مصالحكم، أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه وبإيمان من آمن وثوابه.

«إذ يريكموهم الله» نصبه بإضمار انكر، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بقوله: «لسميع عليهم» أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك «في منامك» في رؤياك، وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان تشبيهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم، وعن الحسن: في منامك في عينك؛ لأنها مكان النوم، كما قيل للقطيفة: المنامة لأنه ينام فيها، وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وقصاحتها. «لفشلتم» لجنبتم وهبتم

(1) إسحاق بن راهويه وابن مروي، الزيلعي 32/2.

(2) سورة آل عمران، الآية: 13.

(3) قال أحمد: وفي هذا دليل بين على أن الله تعالى، هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة، غير موقوف على سبب من مقابلة، أو قرب، أو ارتفاع حجب، أو غير ذلك إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً، لما أمكن أن يستر عنهم البعض، وقد ادركوا البعض، والسبب الموجب مشترك، فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك =

= مع اجتماعها، فلا ربط إذ بين الرؤية، ونفيها في مقدرة الله تعالى، وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً، وأنها تستلزم الجسمية إذ المقابلة، والقرب، وارتفاع الحجب، إنما تتأتى في جسم، فهذه الآية حسيبهم في إبطال زعمهم، ولكنهم يعمرن عليها، وهم عنها معرضون، والله الموفق.

سَوِيْدُ أَيْقَابٍ (٤٦).

﴿و﴾ انكر ﴿إذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي عملوها في معادة رسول الله ﷺ ووسوس إليهم أنهم لا يفلبون ولا يطاقون وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم. فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم أي: بطل كيدته حين نزلت جنود الله، وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم، وقيل: لما اجتمعت قريش على السير نكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب فكاد ذلك يثنهم فتمثل لهم إبليس في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرافهم في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة نزلت نكص، وقيل: كانت يده في يد الحرث بن هشام، فلما نكص قال له الحرث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، وبلغ في صدر الحرث وانطلق وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقاة، فبلغ ذلك سراقاة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان، وفي الحديث: وما روى إبليس يوماً أصغر ولا أحر ولا أعظم من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما روى يوم بدر (3).

فإن قُلْتُ: هلا قيل: لا غالباً لكم كما يقال: لا ضارباً زيداً عنينا قُلْتُ: لو كان لكم مفعولاً لغالب بمعنى: لا غالباً إياكم، لكان الأمر كما قلت، لكنه خبر تقديره لا غالب كائن لكم.

إذ يسْئَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَنَّا هُؤُلَاءِ يَنْهَوْنَكَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٧).

﴿إذ يقول المنافقون﴾ بالمدينة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام، وعن الحسن: هم المشركون ﴿عز هؤلاء دينهم﴾ يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جواباً لهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿ولو ترى﴾ ولو عاينت وشاهدت: لأن لو ترد المضارع إلى معنى الماضي كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال.

وَلَوْ تَرَكَ إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَلَائِكَةً يَبْصُرُونَ رُجُومَهُمْ وَأَذْبَتَهُمْ وَذُرُوعًا عَذَابِ الْحَرِيقِ (٤٨).

﴿إذ﴾ نصب على الظرف. وقرئ: يتوفى بالياء والتاء

﴿لعلمكم تغفلون﴾ لعلمكم تغفلون بمرانكم من النصرة والمنوبة، وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن نكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همًا، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره، وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهدته مع البلاغة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعاني وبلغات المواعظ والنصائح ليلياً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن نكر الله شاغل وإن تقاوم الأمر.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَشَلُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ مَعَ الْكُفْرِ (٤٩).

﴿ولا تنازعوا﴾ قرئ: بتشديد التاء ﴿فتفشلوا﴾ منصوب بإضمار أن، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ: ﴿وتذهب ريحكم﴾ (1) بالتاء والنصب، وقراءة من قرأ: ويذهب ريحكم بالياء والجزم. والريح البولة شبيهت في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له البولة ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبني الألاحي بالوادي إلا عبيد عود بين أنواد
انتظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعبدون فلن الرياح للعادي

وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى، وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» (2). حذرهم بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله ﷺ من فشلهم وذهاب ريحهم.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِينِهِمْ بَطَرًا وَرِيفَةً لِّلنَّاسِ
يُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمْشُونَ مُخِيطٌ (٥٠).

﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ هم: أهل مكة حين خرجوا لحماية العير فاتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بطلاً نشرب بها الخمر وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فذلك بطرهم ورتاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرآئين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكأبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم لله.

وَإِذْ زَيْنٌ لَّهُمُ السَّبِيلُ أَسْأَلُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِن
النَّاسِ وَإِن جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْيَتَامَى نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ
وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ «نصرت بالصبا» (الحديث رقم: 1035) ومسلم في كتاب: الاستسقاء، باب: في ربح الصبا (الحديث رقم: 2084).

(3) أخرجه مالك في الموطأ كتاب: الحج، باب: جامع الحج (الحديث رقم: 245)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك فضل الوقوف بعرفات، (الحديث رقم: 4069).

وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون ﴿كذاب آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد وفي قوله ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجود الحق. وفي نكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين انفسهم بالكفر والمعاصي.

إِنَّ سَرَ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾
عَهَدَتْ مِنْهُمْ لَمَّا يَنْفَرُونَ فِيهِمْ فِي كُلِّ مَرْزُوقٍ لَا يَنْفَرُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي: اصروا على الكفر ولجوا فيه فلا يتوقع منهم إيمان وهم: بنو قريظة، عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن اعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطانا، ثم عاهدتهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فخالفهم ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الذين كفروا أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا، وجعلهم شر النواجب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصيرين الناكثون للعهد ﴿وهم لا يتقون﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يباليون ما فيه من العار والنار.

فَإِنَّا نَنْفَعُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَمْ يَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿فإما تنفقهم في الحرب﴾ فيما تصادفهم وتظفرون بهم ﴿فشردهم بهم من خلفهم﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكايه فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم لحد اعتباراً بهم واتعاطاً بحالهم، وقرا ابن مسعود رضي الله عنه: فشردهم بالذال المعجمة بمعنى: ففرق وكأنه مقلوب شذر من قولهم: ذهبوا شذر مذر، ومنه: الشذر المتلطف من المعدن لتفرقه، وقرا أبو حيوة: من خلفهم، ومعناه: فافعل التشريد من ورائهم؛ لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الورا وأوقعه فيه؛ لأن الورا جهة المشربين فإذا جعل الورا ظرفاً للتشريد فقد دل على تشريد من فيه فلم يبق فرق بين القراءتين ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعل المشربين من ورائهم يتعظون.

وَإِنَّا نَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ تَأْتِيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُخَافِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقًا أَيُّهُمْ لَا يَحْزُرُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وإما تخافن من قوم﴾ معامدين ﴿خيانة﴾ ونكثاً بأمارات تلوح لك ﴿فانبذ إليهم﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم

﴿والملائكة﴾ رفعها بالفعل ﴿ويضربون﴾ حال منهم ويجوز أن يكون في يتوفى ضمير الله عز وجل والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر. وعن مجاهد: ﴿وأبصارهم﴾ استأهمهم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوصهما بالضرب؛ لأن الخزي والنكال في ضربيهما أشد، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطي الرجل القوي البطش شيئاً عمل من حديد كهينة الطبق فيه رزانه وله مقبض فيضربه على بصره ضربة واحدة بقوة فيجمد في مكانه، وقيل: يضربون ما قبل منهم وما أئبر ﴿ونوقوا﴾ معطوف على يضربون على إرادة القول أي: ويقولون نوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ أي: مقدمة عذاب النار، أو نوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به، وقيل: كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا بها التهببت النار، أو ويقال لهم يوم القيامة نوقوا وجواب لو محذوف أي: لرأيت أمراً فظيلاً منكراً.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْبِكُمْ وَرَأَى اللَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٩﴾.

﴿ذلك بما قدمت أيبكم﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره ﴿وأن الله﴾ عطف عليه أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين، وقيل: ﴿ظلام للتكثير لأجل العبيد، أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثل ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه.

كذَاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا ينادي الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ تَمَّ بِكَ مِعْرَاً نِعْمَةً أَنْهَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفَرِّدُوا مَا يَفْتَسِمُونَ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ كَذَاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا ينادي ربهم فأهلكهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿٥٨﴾.

الكاف في محل الرفع أي: داب هؤلاء مثل داب آل فرعون، ودابهم عادتهم وعملهم الذي دابوا فيه أي: نوموا عليه وواظبوا و ﴿كفروا﴾ تفسير لداب آل فرعون ﴿ونلك﴾ إشارة إلى ما حل بهم يعني: نلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم ﴿حتى يغيروا ما﴾ بهم من الحال.

فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة؟ قلت: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى اسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة اصنام فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه

(1) قال أحمد: بهذه النكتة يجاب عن قول القائل: نفي الاثنى، أبلغ

من نفي الاعلى، فلم عدل عن الأبلغ، والمراد تنزيه الله تعالى، وهو =

= جدير بالمبالغة، فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال.

﴿ومن رباط الخيل﴾ تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به كقوله: ﴿وجبريل وميكال﴾⁽⁴⁾ وعن ابن سيرين رحمه الله: انه سئل عن أوصى بثلاث ماله في الحصون فقال: يشترى به الخيل فترابط في سبيل الله ويفزى عليها، فقيل له: إنما أوصى في الحصون؟ فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

إن الحصون الخيل لا مدر القرى

﴿ترهبون﴾ قرئ: بالتخفيف والتشديد وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: تخرون والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى ما استطعتم ﴿عدو الله وعدوكم﴾ هم أهل مكة ﴿وأخرين من دونهم﴾ هم: اليهود، وقيل: المنافقون، وعن السدي هم: أهل فارس، وقيل: كفرة الجن، وجاء في الحديث: إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق⁽⁵⁾، ودوي أن سهيل الخيل يهرب الجن. جنح له واليه إذا مال.

﴿وَإِنْ جَنَّوْا لِلسَّلَامِ فَأَجَحَّ مَا وَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْكَلِيمُ﴾^(٦) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي إِذْكَ يَتَّعَرُّوهُ وَاللَّوْثِيُّونَ^(٧).

والسلم تؤنث تأنث نقيضها وهي الحرب قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرح وقرئ: يفتح السين وكسرها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾⁽⁸⁾ وعن مجاهد بقوله: ﴿فماقتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾⁽⁷⁾ والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً ويجابوا إلى الهدنة أبداً. وقرأ الأشهب العقيلي: فاجنح بضم النون ﴿ونوكل على الله﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم، قال مجاهد: يريد قريظة ﴿فإن حسبك الله﴾ فإن حسبك الله. قال جرير:

إني وجدت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
رَأَيْتَ بَيْتَ قُرَيْشٍ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفَّتْ بَيْتَ
قُرَيْشٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَى بَيْنَهُمْ إِتْمَانًا عَزِيزًا حَكِيمًا^(٩).

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ التاليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة؛ لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء ولقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد ياتلف منهم

نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بيئاً أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تتاجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلا يكن منك إخفاء نكت العهد والخداع، وقيل: على استواء في العلم بنقض العهد، وقيل: على استواء في العداوة، والجار والمجرور في موضع الحال كأنه قيل: فانبذ إليهم ثابتاً على طريق قصد سوي، أو حاصلين على استواء في العلم، أو العداوة على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم مآ ﴿سبقوا﴾ أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم ﴿إنهم لا يعجزون﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وقرئ: أنهم بالفتح بمعنى: لأنهم، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تليل، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تليل صريح، وقرئ: يعجزون بالتشديد، وقرأ ابن محيصن: يعجزون بكسر النون. وقرأ الأعمش: ولا تحسب الذين كفروا بكسر الباء ويفتحها على حذف النون الخفيفة، وقرأ حمزة: ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا، وقيل فيه: أصله أن سبقوا فحذفت أن كقوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾⁽¹⁾ واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: أنهم سبقوا، وقيل: وقع الفعل على أنهم لا يعجزون على أن لا صلة وسبقوا في محل الحال بمعنى: سابقين أي: مفتلين هاربين، وقيل معناه: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهوماً، وقيل: ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا، وهذه الأقاويل كلها متمحلة وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة، وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أقلت من قل المشركين.

وَأُيْتُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَمَأْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تُلْمِزْنَهُمْ اللَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبِزْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُلْمِزُونَ^(١٠).

﴿من قوَّة﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب من عدهاء وعن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ألا إن القوَّة الرمي»⁽²⁾ قالها ثلاثاً ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله⁽³⁾، وعن عكرمة هي: الحصون، والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى: المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ريبط كفصيل وفصال، وقرأ الحسن: ومن ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط، ويجوز أن يكون قوله

(1) سورة الروم، الآية: 24.

(2) قال أحمد: والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدرأ، والله أعلم، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه...

(الحديث رقم: 4923).

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

(5) قال الزبيدي: غريب 34/2، وأخرجه ابن عدي في الكامل وابن سعد نحوه.

(6) سورة التوبة، الآية: 29.

(7) سورة التوبة، الآية: 5.

والإظهار من الله تعالى، وعن ابن جريج: كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة، وكان رسول الله ﷺ بعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكبًا فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب، قيل: ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه وذلك بعد مدة طويلة، ففسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنتين، وقيل: كان فيهم قلة في الابتداء ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف. وقرئ: ضعفاً بالفتح والضم كالمكث والمكث والفقر والفقر، وضعفاء جمع ضعيف. وقرئ: الفعل المسند إلى المائة بالتاء والياء في الموضعين، والمراد بالضعف الضعف في البدن، وقيل: في البصيرة والاستقامة في الدين وكانوا متقاتلين في ذلك.

فإن قُلْتُ: لم كَرَّرَ المعنى الواحد هو: مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده؟ قُلْتُ: للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت؛ لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين. وقرئ: للنبي على التعريف وأسارى ويثخن بالتشديد ومعنى الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه من قولهم: اثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة وأثخنه المرض إذا أثقله من الشخانة التي هي الغلظ والكثافة يعني: حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك.

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكْرَهَ لَهُ أُشْرَى حَتَّى يُتَخَرَّكَ فِي الْأَرْضِ رَيْدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأُخْرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

ومعنى ﴿مَا كَانَ﴾ ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر، فلما كثر المسلمون نزل ﴿فَمَا مَنَّا بِعَدِّ مَا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ﴾⁽¹⁾ وروي: أن رسول الله ﷺ أتى بسبعين أسيرًا فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب، فاستشار أبا بكر رضي الله عنه فيهم فقال: قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله عنه: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء، مَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ، وحمزة من العباس، ومكني من فلان لنسب له فاضرب أعناقهم، فقال ﷺ: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون الين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾⁽²⁾ ومثلك يا عمر مثل نوح قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾⁽³⁾ ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق» وروي أنه قال لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم وأستشهد منكم بعنتهم» فقالوا: بل نأخذ

قلبان، ثم اثلت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث بينهم من التحاب والتواد وأماط عنهم من التباغض والتماقت وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقبلها كما شاء ويصنع فيها ما أراد، وقيل هم: الأوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك ساداتهم رؤساءهم وبق جماعهم ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى، وبينهما للتجار الذي يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما أثرت أختها وتكرهه ونفرت عنه، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصارًا وعادوا أعوانًا وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبلغ قدرته.

يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَرِيصًا اللَّهُ وَمِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾

﴿وَمِنْ تَبِعِكَ﴾ الواو بمعنى: مع وما بعده منصوب تقول: حسبك وزيدًا رهم، ولا تجر؛ لأنَّ عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع. قال:

فحسبك والضحاك عضب مهند

والمعنى: كفاك وكفى تبعك من المؤمنين الله ناصرًا، أو يكون في محل الرفع أي: كفاك الله وكفاك المؤمنون، وهذه الآية نزلت بالبدياء في غزوة بدر قبل القتال، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبیر: أنه أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت.

يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَرِيصًا اللَّهُ وَمِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
صَابِرُونَ يَتْلُوا بِأَتْنَيْتٍ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَا النَّبِيَّ
أَذْيَبٌ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَقْهَرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَنْ حَفَّتْ اللَّهُ عَنْكُمْ
وَعَلِمَ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَمْلُوكًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِيَا النَّبِيَّ
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَتْلُوا النَّبِيَّ بِأَذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٠﴾

التحريض المبالغة في الحث على الأمر من الحرص، وهو أن ينهك المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت، أو أن تسميه حرصًا وتقول له: ما أراك إلا حرصًا في هذا الأمر وممرضًا فيه ليهيج ويحرك منه، ويقال: حركه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه وحرصه بالصاد غير المعجمة حكاها الأخص من الحرص. وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأييده ثم قال ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَقْهَرُونَ﴾ أي: بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كاليهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه، خلاف من يقاتل على بصيرة ومع ما يستوجب به النصر

(3) سورة نوح، الآية: 29.

(1) سورة محمد، الآية: 4.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 36.

لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ قُلَّ لَيْسَ فِي أَيْدِيكُمْ نَيْبُ الْأَنْسَرَةِ إِنْ تَعَلَّمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَنْفَعُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾.

﴿في أيديكم﴾ في ملكتكم كان أيديكم قابضة عليهم. وقرئ: من الأسرى ﴿في قلوبكم خيراً﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء إما أن يخلصكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة، وفي قراءة الأعمش: يثيبكم خيراً، وعن العباس رضي الله عنه أنه قال: كنت مسلماً لكنهم استكروني، فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن ما تنكره حقاً فإله يجزيك، فإما ظاهر أمرك فقد كان علينا». وكان أحد النين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك، وروي أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «أقد ابني أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث»، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال له: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة» وقلت لها لا أنري ما يصيبني في وجهي هذا؟ فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل». فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» قال العباس: فإنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنت عبده

ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس رضي الله عنه: فأبلىني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً إن أذناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي (2)، وروي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً فتوضاً لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ ما قدر على حمله وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة، وقرأ الحسن وشيبه: مما أخذ منكم على البناء للفاعل.

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنَّكُمْ مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ نكت ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستحباب دين آبائهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم

الفداء، فاستشهدوا بأحد، وكان فداء الأسارى عشرين أوقية، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً وستة دنانير، وروي: أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله، أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أننى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه» وروي أنه قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ، رضي الله عنهما لقوله: «كان الإثخان في القتل أحب إلي» (1) ﴿عرض الدنيا﴾ حطامها سمي بذلك لأنه حدث قليل اللبث يريد الفداء ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعني: ما هو سبب الجنة من إعران الإسلام بالإثخان في القتل. وقرئ: يريدون بالياء، وقرأ بعضهم: والله يريد الآخرة بجز الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله كقوله:

أكل امرئ تحسبين أمراً ونار توقد بالليل نارا ومعناه: والله يريد عرض الآخرة على التقابل يعني: ثوابها ﴿والله عزيز﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء ولكنه ﴿حكيم﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون.

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَذْنَمْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو: أنه لا يعاقب أحداً بخطا، وكان هذا خطأ في الاجتهاد؛ لأنهم نظروا في أن استبقاهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وتوبيتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم، وقيل: كتابه أنه سيحل لهم الغنية التي أخذوها، وقيل: إن أهل بدر مغفور لهم، وقيل: أنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك.

فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا وَحَلَالًا وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾.

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت، وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم ﴿واتقوا الله﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

فإن قلنت: ما معنى الفاء؟ قلت: التسبب والسبب مهنوف معناه: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالاً نصب على الحال من المفعول، أو صفة للمصدر أي: أكلاً حلالاً، وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ معناه: إنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن

إلى الهجرة كقوله: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ (2) الحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أولو القرباب أولى بالتوارث، وهو: نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ تعالى في حكمه وقسمته وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن وهو: آية الموارث، وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا» (3).

سورة التوبة مدنية

لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة، سورة العذاب لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلمهم وتشردهم بهم وتخزيهم وتندم عليهم، وعن حنيفة رضي الله عنه: أنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هَلَا صَدَرَتْ بِآيَةِ التَّسْمِيَةِ كَمَا فِي سَائِرِ السُّورِ؟ قُلْتُمْ: سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ أَوْ آيَةُ قَالَ: اجْعَلُوهَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَذْكَرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا (4). وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين، وعن أبي بن كعب: إنما توهموا ذلك؛ لأن في الأنفال نكر العهود، وفي براءة نذر العهود، وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النذر والمحاربة قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (5) قيل: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب بسم الله الرحمن الرحيم (6) قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى، فمن دعي إلى الله عز وجل فاجاب، ودعي إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، وأما النذر فإنما هو: البراءة واللجنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس ولا بأس هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة

إن أعادوا الخيانة، وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الغداء، الذين هاجروا أي: فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله، ورسوله هم المهاجرون. والذين آوهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرباب حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (1). وقرئ: من ولايتهم بالفتح والكسر أي: من توليهم في الميراث، ووجه الكسر: أن تولي بعضهم بعضاً شبه بالعمل والصناعة كأنه يتوليه صاحبه يزال أمراً ويياشر عملاً ﴿فَعَلَيْكُمْ لِلنَّصْرِ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْهُمْ بَيْنُكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتغون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَتَمَلَّؤُا تَكُنْ وَتَنَّةٌ فِي الْأَرْحَامِ وَسَاءَ كَبِيرٌ (٧٦)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين ﴿أُولَئِكَ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وإن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً، وقرئ: كثير بالباء.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَغْفِرُوا رِزْقًا رِيبًا (٧٧)

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين وليس بتكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٨)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين

(1) سورة الأنفال، الآية: 75.

(2) سورة الحشر، الآية: 10.

(3) نكره الخطابي في تفسيره.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: من جهر بهذا (الحديث

رقم: 786)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة =

= التوبة (الحديث رقم: 3086).

(5) سورة النساء، الآية: 94.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6) (الحديث رقم: 7)

ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: بدء الوحي.

واحدة كلتاها نزلت في القتال، تمدان السابعة من الطول، وهي سبع وما بعدها المائون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَمُوا أَنَّكَ عِزٌّ مُجْرِيٌّ اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَجْرِي الْأَكْفَرِينَ ﴿٢﴾.

﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هذه براءة و ﴿من﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة وأصله من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتكم﴾ كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر إلى الذين عاهدتكم كما تقول: رجل من بني تميم في الدار. وقرئ: براءة بالنصب على اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران من الله بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرتهم، والمعنى: أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتكم به المشركين وأنه منبؤ إليهم.

فإن قُلْتَ: لم عقلت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قُلْتَ: قد أن الله في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم: اعلموا⁽¹⁾ أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتكم به المشركين. روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناساً منهم وهم: بنو ضمرة وبنو كنانة، فنبذ العهد إلى الناكثين وأمرؤ أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر أمينين أين شأوا لا يتعرض لهم وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فإنذا انسلخ الأشهر الحرم﴾⁽²⁾ وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب ابن أسيد، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقراها على أهل الموسم، فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما ننا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقه رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال: مأمور⁽³⁾. وروي أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً، فرجع أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أشيء نزل من السماء قال: نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالأي فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، وعن مجاهد رضي الله عنه: ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا عند ذلك: يا علي أبلغ ابن عمك أنا قد نبينا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرمح وضرب بالسيوف، وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؛ لأن العرب عاداتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا في نقض العهود، فازيحت عنهم بتولية ذلك علياً رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ: الأشهر الأربعة ما هي؟ قُلْتَ: عن الزهري رضي الله عنه: أن براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر وكانت حراماً؛ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتلهم أو على التغليب؛ لأن ذا الحجة والمحرم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول؛ لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة.

فإن قُلْتَ: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك قُلْتَ: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها ﴿غير معجزى الله﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم. وهو مخزيكم أي: منكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

(1) قال أحمد: ووراء ما نكره سر آخر، هو المرعي، والله أعلم، وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرعاً إلا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ، لامراء السرايا حيث يقول لهم، وإذا نزلت بحسن، فطلبوا النزول على حكم الله، فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادت حكم الله فيهم أولاً، وإن طلبوا نمة الله، فأنزلهم عن نمتك، فلان تخفر نمتك خير من أن تخفر نمة الله، فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام، بتوقير نمة الله مخافة أن تخفر، وإن كان لم

= يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله، وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبؤ إلى الله أحري، وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين بون البراءة منه، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 5.

(3) قال الزيلعي: غريب. ونكر حديث قريب منه، أخرجه الحاكم، وقال الذهبي: عنه موضوع 50/2.

قبله ولا بعده، فعظم في قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً، وقرئ: **إِنَّ اللَّهَ بِالْكَسْرِ؛ لَأَنَّ الأذَانَ فِي مَعْنَى الْقَوْلِ «وَرَسُولُهُ» عَطَفَ عَلَى الْمَنُورِيِّ فِي بَرِيءٍ، أَوْ عَلَى مَحَلِّ الْكُفْرِ وَالْمَكْسُورَةِ وَاسْمِهَا، وَقُرِئَ: بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى اسْمِ بَرِيءٍ، أَوْ لَأَنَّ الْوَاوَ بِمَعْنَى: مَعَ أَي: بَرِيءٍ مَعَهُ مِنْهُمْ، وَبِالْجَرِّ عَلَى الْجَوَارِ، وَقِيلَ: عَلَى الْقَسْمِ كَقَوْلِهِ: لَعَمْرُكَ، وَيُحْكِي أَنَّ إِعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُهَا فَقَالَ: إِنْ كَانَ اللَّهُ بَرِيئًا مِنْ رَسُولِهِ فَانَّا مِنْهُ بَرِيءٌ، فَلْيَبِهِ الرَّجُلُ إِلَى عَمْرٍ، فَحَكَى الْإِعْرَابِيُّ قِرَاءَتَهُ: فَعِنْدَهَا أَمْرٌ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَعْلُمِ الْعَرَبِيَّةِ⁽³⁾ «فَإِنْ تَبَيْتُمْ» مِنَ الْكُفْرِ وَالْغَدْرِ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عَنِ التَّوْبَةِ أَوْ تَبَيْتُمْ عَلَى التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْوَفَاءِ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ سَابِقِينَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا فَاتِتِينَ أَخْذَهُ وَعَقَابَهُ.**

فَإِنْ قُلْتُمْ: مِمَّ اسْتَنْتَى قَوْلُهُ: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ؟ قُلْتُمْ⁽⁴⁾: وَجْهٌ أَنْ يَكُونَ مَسْتَنْتَى مِنْ قَوْلِهِ: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ»؛ لَأَنَّ الْكَلَامَ خَطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَمَعْنَاهُ: بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَوْلُوا لَهُمْ سِيحُوا إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا فَاتَمَّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ⁽⁵⁾، وَالِاسْتِثْنَاءُ بِمَعْنَى: الْاسْتِرْكَاءِ كَمَا نَهَى بَعْدَ أَنْ أَمَرُوا فِي النَّكَاتَيْنِ: وَلَكِنَّ الَّذِينَ لَمْ يَنْكُتُوا فَاتَمَّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ وَلَا تَجْرَهُمْ مَجْرَاهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا الْوَفَى كَالْفَادِرِ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يَعْنِي: أَنَّ قِضِيَةَ التَّقْوَى أَنْ لَا يَسُوِيَ بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي ذَلِكَ «لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا» لَمْ يَقْتُلُوا مِنْكُمْ أَحَدًا وَلَا يَضْرُوكُمْ قَطْ «وَلَمْ يَظَاهَرُوا» وَلَا يِعَاوَنُوا «عَلَيْكُمْ» عَدُوًّا كَمَا عَدَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خِرَازَةِ عَبِيدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَظَاهَرْتَهُمْ قَرِيشٌ بِالسَّلَاحِ، حَتَّى وَقَدَ عَمَرُوا بَيْنَ سَلْمِ الْخِرَازِيِّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْتَدَى:

لَا هُمْ أَنَسِي نَاشِدًا مُحَمَّدًا حَلْفَ أَبِي نَاوِيٍّ وَأَبِيكَ الْآتِلِدَا
إِنَّ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا نَامَاكَ الْمَوْكِدَا
هَمْ بَيْتُونَا بِالْحَطِيمِ هَجِينَا وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسَجِدَا
فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا نَصْرَتَ لَكُمْ إِنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ».
وَقُرِئَ: لَمْ يَنْقُضُواكُمْ بِالضَّادِ مَعْجَمَةً أَي: لَمْ يَنْقُضُوا

وَأَذَانَ مِنْ اللَّهِ رَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَابِ آيِمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا وَلَا يظهروا عليكم أحدًا فآتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾.

«وَأَذَانَ» ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال عمر ومعطوف على زيد في قولك: زيد قائم وعمرو قاعد والأذان بمعنى: الإيذان وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيذان والإعطاء.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ **قُلْتُمْ:** تلك إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم علفت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ **قُلْتُمْ:** لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والنكثين منهم، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث **«يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»** يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن علي رضي الله عنه: **لَنْ رَجُلًا أَخَذَ بِلِجَامِ دَابْتِهِ فَقَالَ: وَمَا الْحَجُّ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: يَوْمُكَ هَذَا خَلَّ عَنْ دَابْتِي⁽¹⁾،** وعن ابن عمر رضي الله عنهما: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ يَوْمَ النَّحْرِ عِنْدَ الْجِمْرَاتِ فِي حِجَةِ الْوُدَاعِ، فَقَالَ: هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ⁽²⁾،** بوصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى: الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو: الحج الأكبر لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج فهو الحج الأكبر، وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين للمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك

(1) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: يوم الحج الأكبر (الحديث رقم: 1945)، والحاكم في المستدرک 331/2 وأبو نعيم في الحلية 274/10.

(3) قال الزيلعي: نكر القرطبي الفقه في كتابه: التتکار، ولم يعزوه 2/53.

(4) قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله: **«فَسِيحُوا»** خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمَر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين، لا الباقين على العهد، فاتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله إلى =

(5) نكره ابن هشام في السيرة 388/2.

عهدكم، ومعنى ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ﴾ فأتوه إليهم تاماً كاملاً قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فاتم إليهم عهدهم. انسلخ الشهر كقولك: انجرد الشهر وستة جرداء.

إِذَا انْسلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَدُّوهُمْ وَأَحْصَرُوهُمْ وَأَقْدَرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾.

و﴿الأشهر الحرم﴾ التي أبيع فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فأقتلوا المشركين﴾ يعني: الذين نقضوك وظامروا عليكم ﴿حيث وجبتهم﴾ من حل أو حرم ﴿وخذوهم﴾ وأسروهم، والأخذ الأسير ﴿واحصروهم﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصروهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ﴿كل مرصد﴾ كل ممر⁽¹⁾ ومجتاز ترصونهم به وانتصابه على الظرف كقوله: ﴿لاقعنن لهم صراطك المستقيم﴾⁽²⁾ ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فاطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم كقوله: خل السبيل لمن يبني المنار به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وأتيان المسجد الحرام ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِئْهُ مَائِمَةً ذَلِكَ يُبَاهِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ ﴿٦﴾.

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأن إن من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستامنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن وتبين ما بعثت له فامنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتبدره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم ابنيه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبيرة: جاء رجل من المشركين إلى علي رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله أو يأنبه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن أحد من المشركين

استجارك﴾ الآية، وعن السدي والضحاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فأقتلوا المشركين﴾⁽³⁾ ﴿ذلك﴾ أي: ذلك الأمر يعني: الأمر بالإجارة في قوله فأجره ﴿بب﴾ سبب ﴿أنهم﴾ ﴿قوم﴾ جهة ﴿لا يعلمون﴾ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوها ويفهموا الحق.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ لَأَن يُرْمُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا دِمَةٌ بِيْرُضْرُوتِكُمْ بَأْفْوِهِمْ وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ أَكْثَرُكُمْ نَيْسِرَةٌ ﴿٧﴾.

﴿كيف﴾ استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله ﷺ وهم أضداد وغرة صدورهم يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحثنوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرجك ذلك بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكت كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم ﴿فما استقاموا لكم﴾ على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ على مثله ﴿إن الله يحب المتقين﴾ يعني: أن التربص بهم من أعمال المتقين ﴿كيف﴾ تكرار⁽⁴⁾ لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

وخبر تمناني إنما الموت بالقرى فكيف وهاتاهضبة وقلبيد
يريد فكيف مات أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إن يظهرها عليكم﴾ بعدما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقو عليكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلقاً، وقيل: قرابة وأتشد لحسان رضي الله عنه:

لعمرك إن لك من قریش كال السقب من رال النعما
وقيل: إلا لها، وقرى: إيلا بمعناه وقيل: جبرئيل وجبرئيل من ذلك، وقيل: منه اشتق الال بمعنى: القرابة كم اشتقت الرحم من الرحم، والوجه أن اشتقاق الال بمعنى الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواته وشهروه من الال وهو: الجوار، وله اليل أي: أنين يرفع به صوته، ودعت أليها إذا ولولت، ثم قيل: لكل عهد وميثاق

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة التوبة، الآية: 5.

(4) قال أحمد: السر في تكرار كيف، والله أعلم أنه لما نكره أو لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله، ولم ينكر إذ ذاك سبب اليع للغاية، باستثناء الباقين على العهد، وطال الكلام أعينت كية نظرية للسكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجر التكرار، بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، والله الموفق.

(1) قال أحمد: ويكون لنتصابه نون جزه من الاتساع؛ لأن المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نصبه، ويكون مثل قوله في الاتساع. كما غسل الطريق الثعلب. ويحتمل، والله أعلم أن يكون مرصد مصدر؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان، والمصدر من فعله واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً، لأن أتعنوا في معنى ارضعوا؛ كانه قيل: وارصدوهم كل مرصد؛ إلا أن الظرفية فيقولها قوله حيث وجبتهم، فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي المكان، والله أعلم.

إيمانهم﴾ ثم نقاهما عنهم؟ قُلْتُ: أراد إيمانهم التي اظهروها، ثم قال: لا إيمان لهم على الحقيقة وإيمانهم ليست بإيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها بليليل أنه وصفها بالنكت ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله: فقاتلوا أئمة الكفر أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظام أن تكون المقاتلة سبباً في انتهاهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قُلْتُ: كيف لفظ أئمة؟ قُلْتُ: همزة بعدها همزة بين أي: بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين، وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاجن محرف.

أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُوتُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بِدَعْوَتِكُمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً تَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِرِينَ ﴿١٣﴾

﴿ألا تقاتلون﴾ دخلت الهمزة على لا تقاتلون تقريراً بانتفاء المقاتلة ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نكثوا إيمانهم﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار النوبة حتى أنن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه ﴿وهم بدؤكم أول مرة﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداية بالمقاتلة؛ لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتال والباديء أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثلهم وإن تصدموهم بالشر كما صدموكم، ويخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكت العهد وإخراج الرسول والبده بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها ﴿تخشونهم﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فأشحق أن تخشوه﴾ فقاتلوا أعداءه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (2).

تَتَذَكَّرُونَ بِعَدْبِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَسْرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَسُوفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِرِينَ ﴿١٤﴾

لما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم ليثبت قلوبهم ويصح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً ويخزيهم أسراً ويوليهم النصر والغلبة

إل، وسميت به القربة؛ لأن القربة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق ﴿يرضونكم﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرراً لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإياء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان لما يجرونه على السننهم من الكلام الجميل ﴿واكثرهم فاسقون﴾ متمربون خلعاء لا مروءة تزعمهم ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد نلك في بعض الكفرة من التفادي عن الكذب والنكت والتعفف عما يثلم العرض ويجر أحذوثه السوء.

أَشْرَوْا بِعَاتِ اللَّهِ نَكْثًا قَلِيلًا فَصَبْرًا عَنْ سَبِيلِهِ إِيْنَهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَرْءٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُكِّمُ فِي الَّذِينَ وَنُصِّلَ الْأَيْدِي لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

﴿اشترؤا﴾ استبدلوا ﴿بآيات الله﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ثمننا قليلاً﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فصنوا عن سبيله﴾ فعلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿هم المعتنون﴾ المجاوزون للغاية في الظلم والشرارة ﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر ونقض العهد ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوانكم على حنف المبتدأ كقوله تعالى: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم﴾ (1) ﴿ونفصل الآيات﴾ وبنينها وهذا اعتراض كأنه، قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعناً وتحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

وَإِنْ نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَدِّ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي رِبْعِكُمْ فَتَبَلَّوْا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِيْنَهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَمَلَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴿١٧﴾

﴿وطعنوا في دينكم﴾ وتلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعاراً بانهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرذاً وطغياًناً وطرحاً لعانت الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون: ليس بين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر ونور الرياسة والتفكر فيه لا يشق كافر غبارهم، وقالوا إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهراً جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكت عهده وخرج من الذمة ﴿إنهم لا إيمان لهم﴾ جمع يمين، وقرئ: لا إيمان لهم أي: لا إسلام لهم، أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكت ولا سبيل إليه.

فإن قُلْتُ: كيف اثبت لهم الإيمان في قوله ﴿وإن نكثوا

عليهم ﴿ويشف صدور﴾ طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذَوِّبُ عَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿ويذهب غيظ﴾ قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها فكان ذلك نبيلاً على صلح رسول الله ﷺ وصحة نبوته ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: ويتوب بالنصب بإضمار أن يدخل التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى ﴿والله عليم﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَأَنْ يَسْتَجِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ بَرَاءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أم منقطعة﴾ ومعنى الهمزة فيها: التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: انكم لا تتركون على ما انتم عليه حتى يتبين الخلق منكم وهم: الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ولم يتخذوا وليجة أي: بطانة من الذين يضاهون رسول الله ﷺ والمؤمنين رضوان الله عليهم ﴿ولمما﴾ معناها: المتوقع وقد دلت على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا بينهم الله يميز بينهم وبين المخلصين وقوله: ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على جاهدوا داخل في حيز الصلة كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من نون الله، والوليجة فعيلة من ولج كالندخيلة من نخل، والمراد بنفي العلم، نفي المعلوم كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل فيي يريد ما وجد ذلك مني.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿ما كان للمشركين﴾ ما صح لهم وما استقام ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ يعني: المسجد الحرام لقوله: ﴿وعماره المسجد الحرام﴾⁽¹⁾ وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان: أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد

لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولأن كل بقعة منه مسجد، والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها نخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو أكد؛ لأن طريقته طريقة الكناية كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك و﴿شاهدين﴾ حال من الواو في يعمروا والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متناقضين: عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون عراة ويقولون لا تطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها، وقيل هو: قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أساري بدر فعيروهم بالشرك، ففطق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم وأغلظ في القول، فقال العباس: تنكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني فنزلت ﴿حبطت أعمالهم﴾ التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة، وإذا هدم الكفر⁽²⁾ أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبها فما ظنك بالمقارن؟ وإلى ذلك أشار في قوله: ﴿شاهدين﴾ حيث جعله حالاً عنهم، ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة وذلك محال غير مستقيم.

إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَبِينَ ﴿١٨﴾

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وقرئ: بالتحديد أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر ومن النكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لا تبين له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعون فيها حلقات، نكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس الله بهم حاجة»⁽³⁾ وفي الحديث: «الحديث في المسجد ياكل الحسنات كما تاكل البهيمة الحشيش»⁽⁴⁾ وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: إن بيوتني في أرضي المساجد، وإن

= إخباره ﷺ عما يكون في أمته (الحديث رقم: 6761)، والحاكم في المستدرک 4/423.

(4) الحديث لم يخرججه الزليعي ولا ابن حجر لا هنا ولا في لقمان.

(1) سورة التوبة، الآية: 19.

(2) قال أحمد: كلام صحيح الا قوله إن الكبيرة تهدم الاعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه 162/15، كتاب: التاريخ، باب: =

السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولا بد من مضاف محذوف تقديره: «أجعلتم» أهل «سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله» وتصقفه: قراءة ابن الزبير، وأبي وجزة السعدي - وكان من القراء - سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين أعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقلت لهم اليهود: أنتم أفضل، وقيل: إن علياً رضي الله عنه قال للعباس: يا عم ألا تهاجرون؟ ألا تحقون برسول الله ﷺ؟ فقال: الست في أفضل من الهجرة، أسقي حاج بيت الله وأمر المسجد الحرام. فلما نزلت قال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا، فقال عليه السلام: «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً»⁽⁵⁾. هم «أعظم درجة عند الله» من أهل السقاية والعمارة عندهم «و أولئك هم الفائزون» لا أنتم والمختصون بالفوز بونكم. قرئ: يبشرهم بالتخفيف والتثقل. وتكثير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة⁽⁶⁾.

يَأْتِيَا الزَّيْرَ مَأْمُورًا لَا تَخْذَلُوا أَبَاءَكُمْ وَاخْوَانَكُمْ أُولِيَّةَ إِنْ أَسْتَعْرَبُوا الصَّغِيرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَيَعْتَرِزُوهَا فَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُ وَارْتَقِبُوا يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةَ الَّتِي لَا يَمْلِكُ الْبَاطِلُ إِصْرَ الْبَاطِلِ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾

كان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع مولاتهم فقالوا يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خلفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا ويقينا ضائعين فنزلت ف «هاجروا»⁽⁷⁾ فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتلوا ولحقوا بمكة، فنهى الله تعالى عن مولاتهم، وعن النبي ﷺ: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان

زوّاري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائرته»⁽¹⁾ وعنه عليه السلام: «من ألف المسجد أله الله»⁽²⁾ وقال عليه السلام: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»⁽³⁾، وعن أنس رضي الله عنه: «من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحمة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءاً».

فإن قُلْتُمْ: هلا نكر الإيمان برسول الله ﷺ؟ قُلْتُمْ: لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه انطوى تحت نكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام، وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فإن قُلْتُمْ: كيف قيل: «ولم يخش إلا الله» والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك لا يخشاها؟ قُلْتُمْ: هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران أحدهما: حق الله والآخر: حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم «فحسب أولئك أن يكونوا من المهتدين»⁽⁴⁾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى اهتدأهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون وناثلون عند الله الحسنى؟ وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكِّيِّ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٥﴾ يُبَيِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِمْ إِنَّهُمْ لَرِضْوَانٌ وَجَّهَتْ لَهُمْ فِيهَا قِيسَةٌ مُبَيِّرَةٌ ﴿٣٦﴾ خَالِفِينَ فِيهَا أَيْدِيًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٧﴾

= على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين، والحق فيما قال الزمخشري، ولكن الخطاب مصروف إليهم، أي: فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة، والمعاقبة عند الله معلومة، وش عاقبة الأمور.
(5) نكروه الواحد في أسباب النزول.
(6) نكروه الثعلبي في تفسيره.
(7) سورة الأنفال، الآية: 72.

(1) قال الزيلعي: غريب [2/57].
(2) نكروه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (4/1470).
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، (الحديث رقم: 2617)، وابن ماجه في كتاب: المساجد، باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، (الحديث رقم: 802) والحاكم في المستدرک 1/212 وابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: فضل الصلوات الخمس (الحديث رقم: 1721).
(4) قال أحمد: وأكثرهم يقول إن عسى من الله واجبة بناء منهم =

حتى يحب في الله ويبغض في الله، حتى يحب في الله أهد الناس ويبغض في الله أقرب الناس إليه»⁽¹⁾. وقرئ: عشيرتكم وعشيرتاكم، وقرأ الحسن: وعشائركم «فتريصوا حتى يأتي الله بامرهم» وعيد. عن ابن عباس هو: فتح مكة، وعن الحسن هي: عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها كأنها تعني على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين، فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له بينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله، أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه نباب فطيره.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّكُمْ يَقُولُ بِكُمْ مَا أَهْلُ الْبَيْتِ وَمَا جَعَلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ دُونَ اللَّهِ قَدْ أَفْضَى اللَّهُ الْبَيْتَ وَاللَّهُ يَهْتَدِي لِقَوْمٍ يُسَبِّحُونَ ﴿١٥﴾

مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها⁽²⁾ قال:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النبيق⁽³⁾ منهوى وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة وقعات بدر وقریظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة.

فإن قلت: كيف عطف الزمان على المكان وهو «يوم حنين» على المواطن؟ قلت: معناه: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالمواطن: الوقت كمقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمّر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أن قوله «إذ أعجبتكم» بدل من «يوم حنين» فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به إلا إذ نصبت إذا بإضمار انكر، وحنين: واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة منضمّاً إليه ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامهم من إمداد سائر العرب فكانوا الجَمَّ الغفير، فلما التقوا قال

رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله ﷺ، وقيل: قائلها رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه⁽⁴⁾، وذلك قوله: «إذ أعجبتكم كثرتكم» فاقتتلوا قتالاً شديداً وادركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلل ليس معه إلا عمه العباس رضي الله عنه أخذاً بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه ﷺ وما هي إلا من آيات النبوة، وقال: يا رب اثنتي بما وعدتني، وقال ﷺ للعباس وكان صبيّاً «صبح بالناس» فنادى الأنصار فخذاً فخذاً، ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب البقرة فكروا عنفاً واحداً وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين، فقال هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفاً من تراب، فرامهم به، ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. قال العباس: لكانني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته «بما رحبت» ما مصرية والباء بمعنى: مع، أي: مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أن الجارّ والمجرور في موضع الحال كقولك: دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبساً بها لم أهلها تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب فكانها ضاقت عليكم «ثم وليتم مبيرين» ثم انهزمت.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَدَ الْوَيْلِ كَثُوراً وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

«سكينته» رحمته التي سكنوا بها وأمنوا «وعلى المؤمنين» الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حين وقع الهرب «وأنزل جنوداً» يعني: الملائكة وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، ستة عشر ألفاً «وعذب الذين كفروا» بالقتل والأسر وسبي النساء والزاري «ثم يتوب الله» أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي: أن ناساً منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر

(1) قال الزبلي: غريب، وأخرج للطبراني في معجمه نحوه [61/2].
(2) قال أحمد: لا مانع، والله أعلم من عطف الظرفين المكاني والزمني، أحدهما على الآخر، كمعطف أحد المفعولين على الآخر، والفعل واحد إذ يجوز أن تقول: ضرب زيد عمراً في المسجد، ويوم الجمعة كما تقول ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد، وغير الأول هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعيين بالمفعولين، في الحقيقة فإنك إذا قلت أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً، لم يشك في أن الضربين متغايران، بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصنعة، فعلى هذا يجوز في الآية، والله أعلم

(3) التيق: أرفع موضع في الجبل.
(4) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (الحديث رقم: 4588).

(1) قال الزبلي: غريب، وأخرج للطبراني في معجمه نحوه [61/2].
(2) قال أحمد: لا مانع، والله أعلم من عطف الظرفين المكاني والزمني، أحدهما على الآخر، كمعطف أحد المفعولين على الآخر، والفعل واحد إذ يجوز أن تقول: ضرب زيد عمراً في المسجد، ويوم الجمعة كما تقول ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد، وغير الأول هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعيين بالمفعولين، في الحقيقة فإنك إذا قلت أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً، لم يشك في أن الضربين متغايران، بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصنعة، فعلى هذا يجوز في الآية، والله أعلم
بقاء كل واحد من الظرفين على حاله، غير مؤول إلى الآخر على =

الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل: سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إنّ عندي ما ترون، إنّ خير القول أصدقه، اختاروا إما نزاريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن هؤلاء جاؤا مسلمين، وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشانه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه»، قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أرى لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه العرفاء أنّ قد رضوا»⁽¹⁾.

يَتَأَيَّبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ بَحْسٌ فَلَا يَفْرَوْنَ السَّجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِمٍ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁽²⁾.

﴿النجس﴾ مصدر يقال: نجس نجساً وقدر قدرًا ومعناه: نوى نجس، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ، وأهل المذاهب: على خلاف هذين القولين، وقرئ: نجس بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف كأنه قيل: إنّما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس وهو: تخفيف نجس نحو كبد ﴿في كبد﴾⁽²⁾ ﴿فلا يقرئوا للمسجد الحرام﴾ فلا يحجروا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بعد عامهم هذا﴾ بعد حج عامهم هذا وهو: عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو: مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي - كرم الله وجهه - حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمتعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي يمتعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك، يمتعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء رضي الله عنه: أنّ المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأنّ على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقرّبوه⁽³⁾ راجع إلى نهي

المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمتنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي: فقرًا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قلوبهم عليكم من الأرفاق والمكاسب ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فإرسل السماء عليهم مدرارًا فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تاكلون، فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغنامهم بالجزية، وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة بمعنى المصدر: كالعافية أو حالاً عائلة ومعنى قوله ﴿إن شاء﴾ الله إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم ﴿إن الله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة ووصاب.

قِيلُوا الَّذِينَ لَا دِينَهُمْ بِاللَّهِ وَلَا يَتْلُوا الْآخِرَ وَلَا يَحْزَنُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ⁽³⁾.

﴿من الذين أتوا الكتاب﴾ بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأنّ اليهود مثنية، والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذ دينه ومعتقده، سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿عن يد﴾ إما أن يراد يد المعطي⁽⁴⁾ أو الآخذ⁽⁵⁾ فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأنّ من أبي وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد ولذلك قالوا: أعطى بيده إذا انقاد وأصبح الآ ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة كما يقال: خلع ربة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة لا مبعوثًا على يد أحد ولكن عن يد

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس... (الحديث رقم: 3131).

(2) سورة البلد، الآية: 4.

(3) قال أحمد: وقد يستدل به من يقول إنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمنامي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد؛ لأنّ المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود، إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أنّ المخاطب في الحقيقة =

= المسلمين تصدير الكلام بخطابهم في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وتضمنته ناصاً بخطابهم بقوله، وإن خفتم عيلة وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت، ثم ملازمه كقوله لا أرينك ههنا، ولا تموتن إلا، وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(4) قال أحمد: فيكون كاليد في قوله عليه السلام: «لا تتبعوا الذهب»، إلى قوله: «إلا يدا بيد».

(5) قال أحمد: وهذا الوجه أملا بالفائدة، والله أعلم.

مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قُلْت: كل قول يقال بالفم، فما معنى قوله ﴿نلك قولهم بافواهم﴾؟ قُلْت: فيه وجهان: أحدهما: إن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهمة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، ونلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير، والثاني: إن يراد بالقول المذهب كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: نلك مذهبهم ودينهم بافواهم لا بقولهم؛ لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، ونلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم يبق شبهة في انتفاء الولد ﴿يضاهون﴾ لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدامتهم يعني: أنه كفر قديم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عنه، وقيل: الضمير للنصارى أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم، وقرئ: يضاهون بالهمز من قولهم: امرأة ضهياً على فعيل وهي التي ضاهت الرجال في أنها لا تحيض، وهمزتها مزيدة كما في غرقى ﴿قاتلهم الله﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجباً من شناعة قولهم كما يقول لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحق.

أَنكَرُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفَقَاتِهِمْ أَرْكَابًا بَيْنَ دُورِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ
أَبْنِ مَرْيَمَ وَمَا أَسْرَأَ إِلَّا يَمُدُّوا إِلَيْهَا رَجْدًا لَّا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾

اتخاذهم أرباباً أنهم اطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم الله وتحريم ما حله كما تطاع الأرباب في أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده ﴿بيل كانوا يعبدون الجن﴾⁽³⁾ ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾⁽⁴⁾ وعن عدني بن حاتم رضي الله عنه انتهيت إلى رسول الله ﷺ وفي عتقي صليب من ذهب فقال: «اليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرمه الله فتحلونه». قلت: بلى، قال: «فتك عبادتهم»⁽⁵⁾ وعن فضيل رضي الله عنه: ما أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة، وأما المسيح فحين جعلوه ابناً لله فقد أهله للعبادة ألا ترى إلى قوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين﴾⁽⁶⁾ ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا

المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه: حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والنذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، وأن يتلث ثلثة ويؤخذ بتليبيه، ويقال له: أد الجزية، وإن كان يؤديها ويخز في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة تضرب على كل كافر من نبي ومجوسي وصابئ وحزبي إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري: أن رسول الله ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب⁽¹⁾، وقال لاهل مكة: ههل لكم في كلمة إذا قلتوها دانت لكم بها العرب وأنت إليكم العجم الجزية⁽²⁾. وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أول كل سنة: من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهماً، ومن المتوسط في الغني ضعفاً، ومن المكثّر ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيراً كان أو غنياً كان له كسب أو لم يكن.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
أَبْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْفَرِيسِيِّ بِنَهْبَرْتِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِئْسَ قَوْلٌ فَكَلَّمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفَّكُونَ ﴿٣٧﴾

﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾ وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نون فقد جعله عربياً، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: أحد الله، أو لأن الأين وقع وصفاً والخبر محنوف وهو: معيونا، فتحمل عنه مندوحة، وهو: قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك ابن الصيف فقالوا ذلك، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرجع الله عنهم التوراة ومحاهما من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسبح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، واللليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كتبوا

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/326 (الحديث رقم: 19259).

(2) لم يخرج عن ابن حجر ولا الزيلعي.

(3) سورة سبأ، الآية: 41.

(4) سورة مريم، الآية: 44.

(5) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3095).

(6) سورة الزخرف، الآية: 81.

إنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام والتخفيف والمسماحة في الشرائع ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأبحار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل وكنز الأموال والرضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشئين من اليهود والنصارى تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيب ماله سواء في استحقات البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي ﷺ: «ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً»⁽²⁾ أو عن عمر رضي الله عنه أن رجلاً سأل عن أرض له باعها فقال: احرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: اليس بكنز؟ قال: ما أدى زكاته فليس بكنز⁽³⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنه «كل ما أتيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤد زكاته فهو الذي نكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض»⁽⁴⁾.

فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضي الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «تباً للذهب تباً للفضة قالها ثلاثاً» فقالوا له: أي مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحكمكم على دينه»⁽⁵⁾ وبقوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»⁽⁶⁾، وتوفي رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كبة» وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال: «كيتان»⁽⁷⁾ قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة فأما بعد فرض الزكاة فالله عدل وكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أئن له فيه ويؤذي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كعبيد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية؛ لأن الإعراض اختيار للافضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا والافتناء مباح موسع لا يندم صاحبه ولكل شيء حد، وما روي عن علي رضي الله عنه: أربعة آلاف فما نونها نفقة فما زاد فهو

إلها واحداً أمرتهم بذلك أئمة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن الإشراك به واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في وما أمروا للمتخذين أرباباً أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحده، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم. مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الأفق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَيْدِيهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَرَبِّنَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَ عَلَى الْدِينِ كَلِمَةَ اللَّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾.

فإن قلت⁽¹⁾: كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال: كرهت وأبغضت إلا زياداً؟ قلت: قد أجرى أبي مجرى لم يرد، إلا ترى كيف قول ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ بقوله: ﴿ويأبى الله﴾ وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتم نوره.

﴿ليظهره﴾ ليظهر الرسول عليه السلام ﴿على الدين كله﴾ على أهل الأديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِإِذْنِ كَثِيرٍ مِنَ الْإِحْبَارِ وَالرُّقِيَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ مِمَّا دُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ بِأَمْوَالِهِمْ وَالْبُخْسَةَ وَلَا يُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾.

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للاخذ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإما على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل، ومنه قوله:

إن لنا أحمره عجاناً ياكلن كل ليلة إكافا
يريد علفاً يشترى بثمان إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل:

= النساء، (الحديث رقم: 1856)، وأحمد في المسند 282/5، وأبو نعيم في الحلية 1/ 182-183.

(6) رواه البخاري في تاريخه، والطبري وابن مردويه، الزيلعي [2/ 72].

(7) رواه أحمد في مسنده 252/5، وابن أبي شيبه في مصنفه في الكتاب (9)، باب: (177) (الحديث رقم: 2)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 4997)، وأخرجه ابن جبان عن ابن مسعود في كتاب: الزكاة، (الحديث رقم: 3263).

(1) قال أحمد: ولا يقال على هذا، إن الإباء عدم الإرادة، فكما صح الإيجاب بعد نفي الإرادة، فينبغي أن يصح بعد ما هو في معناها مطلقاً؛ لانا نقول لوجود حرف النفي، أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد، فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلبي (الحديث رقم: 1564).

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/ 157، (الحديث رقم: 7141).

(4) الحديث تقدم.

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3094) وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: أفضل =

كَنْزٌ (1). كلام في الأفضل.

فإن قُلْتُ: لم قيل: ﴿ولا ينفقونها﴾ وقد نكر شيئان؟ قُلْتُ: ذهاباً بالضمير إلى المعنى بون اللفظ: لأن كل واحد منهما جملة وأفية وعدة كثيرة وبنانير ودرامه فهو كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ (2) وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله:

فإنني وقيارها الغريب

وقيار كذلك.

فإن قُلْتُ: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قُلْتُ: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ولا يكنزهما إلا من فضلاً عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعد سائر أجناس المال، فكان نكر كتنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿يحمى عليها﴾ (3) وهلا قيل تحمى من قولك: حمى الميسم وأحميته، ولا تقول أحميت على الحديد؟ قُلْتُ: معناه: أن النار تحمى عليها أي: توقد ذات حمى وحر شديد من قوله ﴿نار حامية﴾ (4) ولو قيل: يوم تحمى لم يعط هذا المعنى.

فإن قُلْتُ: فإذا كان الإحماء للنار فلم نكر الفعل؟ قُلْتُ: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله يوم تحمى النار عليها، فلما حذف النار قيل: يحمى عليها لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: تحمى بالثناء. وقرأ أبو حيو: فيكوى بالياء.

فإن قُلْتُ: لم خصت هذه الأعضاء قُلْتُ: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوهم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ﷺ: «ذهب أهل النثور بالأجور» (5)، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس أزرؤا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقابليهم ومآخبرهم وجنوبهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول وقوله: ﴿لأنفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفع به

نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتغلب، هو توبيخ لهم ﴿فوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وقرئ: تكنزون بضم النون أي: وبال المال الذي كنتم تكنزون، أو وبال كونكم كائنين.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْبَيْنُ الْقَسِمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٧).

﴿في كتاب الله﴾ فيما أثبتته ولوجه من حكمه ورأه حكمة وصواباً وقيل: في اللوح ﴿أربعة حرم﴾ ثلاثة سرد نو القعدة ونو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب، ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «الا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات نو القعدة ونو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه وعاد الحج في ذي الحجة وبطل النسب الذي كان في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الأربعة هو: الدين المستقيم بين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً الأصم ومنصل السنة حتى أحدثت النسب فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ في الحرم ﴿أنفسكم﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تاله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا وما نسخت. وعن عطاء الخراساني - رضي الله عنه - أحلت القتال في الأشهر الحرم ﴿براءة من الله ورسوله﴾ (6) وقيل: معناه لا تأثموا فيهن بياناً لعظم حرمتهم كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق﴾ (7) الآية، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصر لاهلها.

إِنَّمَا النَّسِيءُ رِيكَاةٌ فِي الْكُفْرِ بِمَنْ لِي بِهِ الذِّبْرُ كَثْرًا يُجَوِّدُهُ عَامًا وَيُجَوِّدُهُ عَامًا يُرِاطُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُجَاوِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنًا لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧).

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، (الحديث رقم: 843)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة (الحديث رقم: 1346).

(6) سورة التوبة، الآية: 1.

(7) سورة البقرة، الآية: 197.

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 109/4 (الحديث رقم: 7150).

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) قال أحمد: وفي هذا الفصل نقائق إعراب يشوب حسنها إغراب، والله الموفق.

(4) سورة القارعة، الآية: 11.

﴿إِثْمَلْتُمْ﴾ ثناقلتم، وبه قرأ الأعمش أي: تباطاتم وتقااستم وضمن معنى الميل والاخلاد فعدي بـإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ونحوه. ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾⁽³⁾ وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، وقرئ: اثاقلتم على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فإن قُلْتُمْ: فما العامل في إذا وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ قُلْتُمْ: ما دل عليه قوله: ﴿إِثْمَلْتُمْ﴾ أو ما في ﴿مَالِكُمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم، كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائماً؟ وكان نك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقبظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة⁽⁴⁾ ﴿مِنَ الْأَخْرَةِ﴾ أي: بدل الأخرة كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لِبِئْسَاتٍ﴾⁽⁵⁾ ﴿فِي الْأَخْرَةِ﴾ في جنب الأخرة.

إِلَّا تَوْبَتُمْ يُرْزِقَكُمْ عَذَابًا آليماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٨﴾ إِلَّا تَضُرُّهُ فَتَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَارِكِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَافِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَ الْفَائِزِ اللَّهُ سَكِينَةٌ لَكُمْ وَكَانَتْ يُجْزَوْنَ لَكُمْ تَرَوْكُمْ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا مِنْكَ وَاللَّهُ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾⁽⁶⁾ سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب اليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة بينه لا يقدح ثناقلهم فيها شيئاً، وقيل: الضمير للرسول أي: ولا تضره؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، وعده الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فإن قُلْتُمْ: كيف يكون قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ جواباً للشروط؟ قُلْتُمْ: فيه وجهان: أحدهما: إلا تنصروه فسينصر من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد فدل بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده.

والنسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: ﴿لِيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو: أحد الواجبين، وربما زانوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ولذلك قال عز وعلا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾⁽¹⁾ يعني من غير زيادة زانوها.

والضمير في يحلونه ويحرمونه للنسيء أي: إذا حلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرموه في العام القابل. يروى: أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إن ألهتكم قد أحلت لكم المحرم فاحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول إن ألهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه.

جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية أزداد كفراً فزادتهم رجساً إلى رجسهم كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة أزداد إيماناً ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾⁽²⁾ وقرئ: يضل على البناء للمفعول ويضل بفتح الياء والضاد ويضل على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ الزهري: ليوطئوا بالتشديد.

والنسيء مصدر نساء إذا أخره يقال: نساء نسا ونساء ونسيا كقولك: مسه مساً ومساساً ومسيساً، وقرئ: بهن جميعاً، وقرئ: النسي بوزن الندى والنسي بوزن النهى وهما تخفيف النسيء والنساء.

فإن قُلْتُمْ: ما معنى قوله ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟ قُلْتُمْ: معناه: فيحلوا بمواطاة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سِوَى أَعْمَالِهِمْ﴾ خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يُلطف بهم بل يخذلهم وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَبُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخْرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخْرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٠﴾

(1) سورة التوبة، الآية: 36. كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6949).

(2) سورة الزخرف، الآية: 60.

(3) قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول، أن الضمير في قوله إلا تنصروه غيب، ذلك عائذ إليه اتفاقاً، والله أعلم.

(1) سورة التوبة، الآية: 36.

(2) سورة التوبة، الآية: 124.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب من أراد غزوة نوي بغيرها، (الحديث رقم: 2948) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة=

خفافاً وثقالاً إلا أنه من يحبه الله يبتهل. وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع **﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾**، إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعْتُكَ وَلَكِنْ بَدَأْتَ عَلَيَّمُ الشَّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِأَلَلِهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾.

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أي: لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال **﴿وسفراً قاصداً﴾** وسطاً مقارباً **﴿الشقة﴾** المسافة الشاقة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: بدعت عليهم الشقة بكسر العين والشين ومنه قوله:

يقولون لا تبعدوهم ينفنونه ولا بعد إلا متوارى الصفائح **﴿بإش﴾** متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين. أي: سيحلفون يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتزتين يقولون بالله **﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾** أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: **﴿لخرجنا﴾** سد مسد جوابي القسم، ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القبول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا، وقرئ: لو استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: **﴿فتمنوا الموت﴾** (10) **﴿يهلكون أنفسهم﴾**، إما أن يكون بدلاً من سيحلفون أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: **﴿لخرجنا﴾** أي لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا والقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم، ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلن **﴿ولافعلن﴾** فالغيبية على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية.

عَمَّا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَوَدْتَ لَهُمْ حَقَّ بَيْنِي لَكَ الْيَتِيمَ صَدَقُوا وَتَمَرَّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿عفا الله عنك﴾ (11) كناية عن الجناية؛ لأن العفو رائف

وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسنده إليهم في قوله: **﴿من قرئتك التي أخرجتك﴾** (1) لأنهم حين هموا بإخراجه أن الله له في الخروج فكانهم أخرجوه **﴿ثاني اثنين﴾** أحد اثنين كقوله: **﴿ثالث ثلاثة﴾** (2) وهما: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى أن جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر (3). وانتصاه على الحال، وقرئ: ثاني اثنين بالسكون و **﴿إذ هما﴾** بدل من إذ أخرجه. والغار ثقب في أعلى ثور وهو: جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة مكثاً فيه ثلاثاً **﴿إذ يقول﴾** بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فاشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» (4). وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه (5) وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعلوا يتربدون حول الغار ولا يفتنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه (6)، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر لإنكار كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة **﴿سكينته﴾** ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه، والجنود والملائكة يوم بدر والأحزاب وحنيين. وكلمة الذين كفروا دعوتهم إلى الكفر **﴿وكلمة الله﴾** دعوته إلى الإسلام وقرئ: كلمة الله بالنصب والرفع أوجه و **﴿هي﴾** فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

انزُرُوا خِفَاتًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿خفافاً وثقالاً﴾ خفافاً في النفور لنشاطكم له وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو خفافاً لقله عيالكم وأنيالكم وثقالاً لكثرتها، أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه، أو ركبائنا ومشاء، أو شباباً وشيوخاً، أو مهازيل وسمائاً، أو صلحاء ومراضاً، وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ: علي أن انفر؟ قال: «نعم» حتى نزل قوله (7). **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** (8) وعن ابن عباس: نسخت بقوله: **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾** (9) وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، فرجع حاجبيه وقال: يابن أخي استنفرنا الله

(1) سورة محمد، الآية: 13.

(2) سورة المائدة، الآية: 73.

(3) لم يخرج ابن حجر والزيلعي أيضاً.

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير من سورة براءة، باب:

قوله عز وجل: **﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾** (الحديث رقم:

4663).

(5) أخرجه البزار في كشف الاستار، كتاب: الهجرة والمغازي، باب:

الهجرة إلى المدينة، (الحديث رقم: 1741).

(6) قال الزيلعي: لم أجده [77/2].

(7) (لم يخرج الزيلعي، أو ابن حجر).

(8) سورة النور، الآية: 61.

(9) سورة التوبة، الآية: 91.

(10) سورة البقرة، الآية: 94.

(11) قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير،

وهو بين أحد امرين، إما أن لا يكون هو المراد، وإما أن يكون هو

المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، =

وقرى: عَدَّة بكسر العين بغير إضافة وعَدَّة بإضافة. فإن قُلْتُ: كيف موقع حرف الاستدراك قُلْتُ: لما كان قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ كانه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكرامة انبعاثهم كما تقول: ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إلي ﴿فثبطهم﴾ فكسلهم وخنلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ﴿وقيل اقعدهوا﴾ جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالسوسة، وقيل: هو قولهم لانفسهم، وقيل: هو إن رسول الله ﷺ لهم في القعود.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة؟ وتعالى الله عن إلهام القبيح، قُلْتُ: خروجهم كان مفسدة لقوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصحة.

فإن قُلْتُ: فلم خطأ رسول الله ﷺ في الإنن لهم فيما هو مصلحة؟ قُلْتُ: لأن إن رسول الله ﷺ لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القبول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأنوه في ذلك واعتذروا إليه فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوز في قبولها فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله ﷺ الإنن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى فبإننه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إنن من رسول الله ﷺ قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: ما معنى قوله: ﴿مع القاعدين﴾؟ قُلْتُ: هو ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين

لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت و﴿لم أننت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالقعود، ومعناه: ما لك أننت لهم في القعود عن الغزو حين استأنوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإنن؟ ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شيان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إنه للمناققين، وأخذه من الأسارى، فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَأْنِفُكَ الَّذِينَ يُمْرُونَ بِاللَّيْلِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَالِمِينَ بِالْغَيْبِ ﴿٤٥﴾.

﴿لا يستأنفك﴾⁽¹⁾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلف من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأن النبي أبداً ولنجاهد أبداً معه بأموالنا وأنفسنا ومعنى ﴿أن يجاهدوا﴾ في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين وعدة لهم بأجل الثواب.

إِنَّمَا يَسْتَأْنِفُكَ الَّذِينَ لَا يُمْرُونَ بِاللَّيْلِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْزَأَتْ قُلُوبَهُمْ فِيهِ فِي رَيْبِهِمْ بَرَذَلُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿إنما يستأنفك﴾ يعني: المناققين وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿يترددون﴾ عبارة عن التحير؛ لأن التردد بين المتحير كما أن الثبات والاستقرار بين المستبصر.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله أيمانهم فثبطهم وقيل أعدوا مع القلوبين﴾⁽²⁾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأرضوا جلالكم ببعونكم أئنة ويكر سعنون لهم والله عليم بالظالمين ﴿٤٦﴾.

قرى: عَدَّة بمعنى: عدته فعل بالعدَّة ما فعل بالعدَّة من قال:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

من حنف تاء التانيث وتعويض المضاف إليه منها،

= كالمتستأن له في الضيافة، فهذا من الأداب التي ينبغي أن يتمسك بها نور المروءة، وأولوا الفتوة، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد، ونصرة الدين، والتناقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه، والمناذرة وأسوأ أحوال المتناقل، وقد دعى الناس إلى الغزاة أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق تعود بالله من التعرض لسخطه.

(2) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعنتين فاستتين إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين، والتقبيح، وقد تكرر بطلان ذلك، فأخذه، واعلم أن معتقد السنة أن الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم؛ لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مراقبتهم، إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ الشبهة، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً، فنقول لو قيل اقموا مقتضراً عليه لم يقد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك كونوا مع القاعين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالخلف، والتقاعد الموسومين بهذه

= وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين زاهل، عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، ولقد أحسن من قال في هذه الآية، أن من لطف الله تعالى بنبيه، أن بدأه بالقعود قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أننت لهم لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الألب يجب احتذائه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(1) قال أحمد: وهذا الألب يجب أن يقتفي مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأن أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً، فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمانة التكلف، والتكره، وصلوات الله على خليله، وسلامه لقد بلغ من كرمه وأنبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التيق للضيافة بمرأى منهم، فلذلك منحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة، والأدب الجليل، فقال تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾، أي: ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهتم يامر ضيفه بمرأى منه ربما يعد،

وَرَأَى جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٨﴾

﴿إِذْنًا لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتَنِي﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأنن لي، فإنني إن تخلفت بغير إنك أئمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة فإنني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي، وقيل: قال الجد بن قيس: قد علمت الانصار أنني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببناات الأصفر يعني: نساء الروم، ولكني أعينك بمالي فاتركني، وقرئ: ولا تفتني من أفتنه ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي: فتنة التخلف، وفي مصحف أبي رضي الله عنه سقط؛ لأن من موحد اللفظ مجموع المعنى ﴿للمحيطة بالكافرين﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم الآن؛ لأن أسباب الإحاطة معهم فكانهم في وسطها.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسِّرْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَقُولُوا زُهْمٌ فَرِحُوا ﴿٤٩﴾

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿فُسِّرْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك و ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متسمون به من الحذر والתיقظ والعمل بالحزم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾ مسرورون، وقيل: تولوا عرضوا عن رسول الله ﷺ.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ تَبَتُّوكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾

قرأ: ابن مسعود رضي الله عنه: قل هل يصيبنا، وقرأ طلحة رضي الله عنه: هل يصيبنا بتشديد الياء ووجهه أن يكون يفعل لا يفعل لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب وصاب السهم يصوب ومصاب في جمع مصيبة فحق يفعل منه يصوب، الا ترى إلى قولهم صوب رايه إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله بإيجابته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة، الا ترى إلى قوله: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: الذي يتولانا ونتولاه ﴿فَلَنْكُ بَأْسُ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (3) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ وحق المؤمنون أن لا يتوكلوا على غير الله فليقلعوا ما هو حقهم.

شانهم القعود والجنوم في البيوت وهم: القاعدون والخالفون والخوالف وببينه قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ (1).

﴿إِلَّا خِبَالًا﴾ ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون؛ لأن الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك: ما زالوكم خيرًا إلا خبالًا، والمستثنى منه في هذا الكلام غير منكور وإذا لم ينكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء فكان استثناء متصلًا؛ لأن الخيال بعض أعم العام كأنه قيل: ما زالوكم شيئًا إلا خبالًا، والخبال: الفساد والشرُّ ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالاضريب والتمائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البيعر وضعًا إذا أسرع وأوضعت أتا، والمعنى: ولا وضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالتمائم؛ لأن الراكب أسرع من العاشي، وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: ولأرقصوا من رقصت الناقاة رقصًا إذا أسرع وأرفصتها قال:

والراقصات إلى منى فالغيب

وقرى: ولا وفضوا.

فإِنْ قُلْتُمْ: كيف خط في المصحف ولا أوضعوا بزيادة الف؟ قُلْتُمْ: كانت الفتحة تكتب ألفًا قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريبًا من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفًا وفتحها ألفًا أخرى ونحو: ﴿أَوْ لَا بُحْنَهُ﴾ (2) ﴿يُيَغْوُنَا الْفِتْنَةَ﴾ يحاولون أن يفتنوك بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم.

لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَّمْنَا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥١﴾

﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ أي: العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله ابن أبي يوم أحد حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله ﷺ على الثانية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلًا ليفتكوا به ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلْبُوا لَكَ أُمُورًا﴾ وديروا لك الحيل والمكائد وديروا الآراء في إبطال أمرك، وقرئ: وقلبوا بالتخفيف ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه وعلا شرعه.

وَهُمْ مَن يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَقْنِيءُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا

(1) سورة التوبة، الآية: 93.

(2) سورة النمل، الآية: 21.

(3) سورة محمد، الآية: 11.

= السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون لقد بلغ في توعد موسى عليه السلام بقوله لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل لأجعلنك مسجونًا لمثل هذه النكته من المبالغة.

وسمى الإلزام إكراهة لأنهم منافقون، فكان الإلزام الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجذ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعينك به فاتركني ﴿إنكم﴾ لتعليق لرد إنفاقهم. والمراد بالفسق التمرد والعتو.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ يُفْتَنُونَ وَإِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُؤْتُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿أنهم﴾ فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: أن تقبل بالتاء، والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم ونفقاتهم على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي أن يقبل منهم نفقاتهم على أن الفعل لله عز وجل ﴿كسالى﴾ بالضم والفتح جمع كسلان نحو سكارى وغيارى في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (3) وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ كره للمؤمن أن يقول كسلت كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإن الكسل من صفات المنافقين فما ينبغي أن يسند المؤمن إلى نفسه.

فإن قُلْتُ: الكراهية خلاف الطوعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله: ﴿طوعاً﴾ ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون قُلْتُ: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار لا عن رغبة واختيار.

فَلَا تُحِبُّكَ أَوْلَادُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَزَقَهُمْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَرَحِيلُونَ بِاللَّهِ مِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِبُرُوتٍ ﴿٥٨﴾.

الإعجاب بالشيء أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله تعالى: ﴿ولا تمننّ عينيك﴾ (4) فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرضه للتغتم والسبي وبلاهم فيه بالأفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

فإن قُلْتُ: إن صح تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى فما بال زهوق أنفسهم ﴿وهم كارهون﴾؟ قُلْتُ: المراد الاستدراج بالنعم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدانوا

قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِهْدَىٰ الْحُسَيْنِيُّ وَحَنُّ نَرَضَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَرَضًا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَضُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿إلا إهدى الحسينيين﴾ إلا إهدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما: النصره والشهادة و﴿ونحن نتريص بكم﴾ إهدى السواتين من العواقب إما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ وهو: قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود ﴿أو﴾ عذاب ﴿بابدينا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فتريصوا﴾ بنا ما نكرنا من عواقبنا ﴿إننا معكم متريصون﴾ ما هو عاقبتكم فلا بد أن يلقي كلنا ما يتربصه لا يتجاوز،

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿انفقوا﴾ يعني: في سبيل الله ووجه البر ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ نصب على الحال أي طائعين أو مكرهين.

فإن قُلْتُ: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: ﴿لن يتقبل منكم﴾؟ قُلْتُ: هو أمر في معنى الخير كقوله تبارك وتعالى ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً﴾ (1) ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوه قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ (2) وقوله:

أسيئي بنا أو احسني لا ملومة

أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا تلومك أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قُلْتُ: متى يجوز نحو هذا؟ قُلْتُ: إذا دل الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغيره.

فإن قُلْتُ: لم فعل ذلك؟ قُلْتُ: لكمة فيه وهي: أن كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل يتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة وفي معناه قول القائل:

أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً لتضربه لم يستغشك في الود وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه.

فإن قُلْتُ: ما الغرض في نفي التقبل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قُلْتُ: يحتمل الأمرين جميعاً وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين،

(1) سورة مريم، الآية: 75.

(3) سورة البقرة، الآية: 45.

(4) سورة طه، الآية: 131.

(2) سورة التوبة، الآية: 80.

أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط. جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنا إلى الله﴾ في أن يغمنا ويحولنا فضله لراغبين.

﴿إِنَّمَا السَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْمَسْكِينِ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَبَاءِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ (4) قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كانه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم ونحوه قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وعن حنيفة، وابن عباس، وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزاءك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحب إلي، وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة رضي الله عنه: أنها تفرق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز: تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية ﴿والعاملين عليها﴾ السعاة الذين يقضونها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أشرف من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة. و ﴿الرقاب﴾ المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق ﴿والغارمين﴾ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل: الذين تحملوا الحمالات فتدينوا فيها وغرموا ﴿وفي سبيل الله﴾ فقراء الغزاة والحجاج المنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع عن ماله، فهو فقير حيث هو، غني حيث ماله ﴿فريضة من الله﴾ في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرئ: فريضة بالرفع على تلك فريضة.

إثماً (1) كانه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهمون بالتمتع عن النظر للعاقبة، ﴿لنمك﴾ لمن جملة المسلمين ﴿يفرقون﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية.

لَوْ يَخْرُجُ مَلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَخْلًا لَوْلَا إِلَهُهُمْ لَيَبْغُضُوهُ ﴿١٧﴾

﴿ملجأ﴾ مكاناً يلجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أو مغارات﴾ أو غيرأنا، وقرئ: بضم الميم من أغار الرجل وغار إذا نخل الغور، وقيل: هو تعبئة غار الشيء وأغرته أنا يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى: مهاب ومفاز ﴿أو مَخْلًا﴾ أو نفقاً يندسون فيه وينحجرون وهو مفتعل من النخل. وقرئ: مَخْلًا من نخل ومخلاً من أدخل مكاناً يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: متخلاً، وقرئ: لو ألوا إليه لالتجؤا إليه ﴿يجمchon﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء من الفرس الجموح وهو: الذي إذا حمل لم يرده اللجام، وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمزون، فسئل فقال: يجمchon ويجمزون ويشتون واحد.

وَمِنْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا بِهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا بِهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا مَاتَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿١٩﴾

﴿يلمزمك﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفة قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: وويلك إن لم أعدل فمن يعدل (2) وقيل: هو أبو الجواز من المنافقين قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل فقال رسول الله ﷺ: «لا أبا لك أما كان موسى راعياً؟ أما كان داود راعياً؟ فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون» (3) وقرئ: يلزمك بالضم ويلزمك ويلازمك التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأنّ رسول الله ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فحضر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة

(1) سورة آل عمران، الآية: 178.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، (الحديث رقم: 3610)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: نكر الخوارج وصفاتهم (الحديث رقم: 2453).

(3) قال الزبيعي: غريب 2 / 78-79.

(4) قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب =

= صرفها إلى جميع الأصناف، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتمليك، كما ذهب إليه الشافعي لا يسعده السياق، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً، فهذا هو الغرض الذي سيقته له، فلا اقتضاء فيها لما سواه، والله أعلم.

يصدق بالله لما قام عنده من الألفة، ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار، وهو: رحمة لمن آمن منكم أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أن كما قلت إلا أنه أن خير لكم لا أنن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة، وقيل: إن جماعة منهم نذمو صلوات الله عليه وسلامه وبلغه نك فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أنن ساممة قد سمع كلام المبلغ فأنن ونحن ناتيه ونعتذر إليه فيسمع عذر أيضاً فيرضى، فقيل: هو أنن خير لكم، وقرئ: أنن خير لكم على أن أنن خير مبتدأ محذوف وخير كذلك أي: هو أنن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء نخلتكم، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قُلْتُ: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ قُلْتُ: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونه صادقين عنده فعدي باللام إلا ترى إلى قوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾⁽³⁾ ما أنباه عن الباء ونحوه: ﴿فما آمن لموسى إلا نرية من قومه﴾⁽⁴⁾ ﴿أؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾⁽⁵⁾ ﴿أمنتهم له قبل أن أنن لكم﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة ابن أبي عبله ورحمة بالنصب؟ قُلْتُ: هي علة معلها محذوف تقديره ورحمة لكم يأنن لكم حفن؛ لأن قوله أنن خير لكم يدل عليه.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: لم عدل عن اللام إلى في الأربعة الأخيرة؟ قُلْتُ: للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق نكره؛ لأن في اللوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة، أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قُلْتُ: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف نكر المنافقين ومكايدهم؟ قُلْتُ: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة نون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان وأنهم ببدء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلّم فيها ولمن قاسمها صلوات الله عليه وسلامه.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ حَرِيرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ

الأذن الرجل⁽²⁾ الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجراحة التي هي: آلة السماع كان جملة أنن سامعة، ونظيره قولهم: للريثة عين، وإيدأؤهم له هو قولهم فيه ﴿هو أذن﴾ و ﴿أذن خير﴾ كقولك: رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أنن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد هو أنن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأنن في غير ذلك، يدل عليه قراءة حمزة: ورحمة بالجر عطفاً عليه أي: هو أنن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله، ثم فسر كونه أنن خير بأنه

= التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك، أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي لكن الأول متعين؛ لأنه تقدير يكتفي به في الحفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول هذا الشيء مصروف في كذا، ولكذا بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتزم مع اللام، وعند الانتهاء إلى في يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتزم بها، فنقديره من اللام عام التعلق شامل الصحة متعين، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لا شيء أبليغ من الرد عليهم بهذا الوجه؛ لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقسه بالياس منه، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء القول بالموجب؛ لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتأ للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع، ثم الياس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(3) سورة يوسف، الآية: 17.

(4) سورة يونس، الآية: 83.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة طه، الآية: 71.

(1) قال أحمد: ثم سر آخر هو أظهر، وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملك، لما عساه يدفع إليهم، وإنما ياخذونه ملكاً، فكان دخول اللام، لا نقاً بهم، وأما الأربعة الأواخر، فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالملك الذي يصرف في الرقاب إنما يتناول السادة المكاتبون، والبايعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيبيهم، حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف، والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب بيوتهم تخلصاً لنفوسهم، لا لهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل، فكانه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أقر بالذکر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب، والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المنكوبين وجهاً في الاستدلال، لملك على أن الغرض بيان المصرف، واللام لذلك لام الملك، فيقول متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فيما أن يكون =

يَلْفُوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ يُرِيتُكُمْ وَاللَّهُ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْسُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِرِينَ ﴿١٦﴾.

﴿لَكُمْ ليرضوكم﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتدون إليهم ويؤكدون معانيهم بالحلف ليعنروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكاننا في حكم مرضى واحد كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ رَسُولُهُ فَأَنْتَ لَمْ تَرَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾.

المحاذة مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق ﴿فإن له﴾ على حذف الخبر أي: فحق أن له ﴿نار جهنم﴾ وقيل معناه: فله وأن تكرير لأن في قوله: أنه تأكيداً، ويجوز أن يكون فإن له معطوفاً على أنه على أن جواب من محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم، وقرئ: ألم تعلموا بالتاء.

يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِلَهَ اللَّهِ فَخُجِّجْ مَا كُفِّرُونَ ﴿١٨﴾.

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله لوددت أنني قمت فجلدت مائة جلدة وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا، والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين وفي قلوبهم للمنافقين وصح ذلك؛ لأن المعنى يقول إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معاناهم فهي نازلة عليهم، ومعنى: تنبئهم بما في قلوبهم كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تنبئ أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكانها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر الأمر بالحذر أي: ليحذر المنافقون.

فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله: ﴿مخرج ما تحذرون﴾؟ قلت: معناه: محصل مبرز إنزال السورة أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخْشَى وَلَكُمُ قُلُوبُ آبَائِهِمْ وَآبَائِهِمْ وَرَسُولِهِمْ كَسَبَتْ سَتْرَةً ﴿١٩﴾.

بيننا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل

يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فاطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فاتاهم فقال: قلت كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر⁽¹⁾ ﴿إياها وآياتها ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ لم يعبا باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كائنين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخرا باخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.

لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعِذْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿لا تعتدوا﴾ لا تستغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرکم ﴿قد كفرتم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بعد إيمانكم﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤنوا رسول الله ﷺ ولم يستهزؤا فلم نعذبهم في العاجل نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذنين لرسول الله ﷺ مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التانيث، والوجه التنكير؛ لأن المسند إليه الظرف كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفة فانت لذلك وهو غريب والجيد قراءة العامة؛ إن يعف عن طائفة بالتنكير وتعذب طائفة بالتانيث. وقرئ: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة على البناء للفاعل وهو: الله عز وجل.

الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ رِيءٌ بِأُخْرَى بِالْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢١﴾ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ رِيءٌ بِأُخْرَى بِالْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٢﴾ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ رِيءٌ بِأُخْرَى بِالْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٣﴾.

﴿بعضهم من بعض﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾⁽²⁾ وتقرير قوله: ﴿وما هم منكم﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين ﴿يامرون بالمنكر﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وينهون عن المعروف﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿ويقبضون أيديهم﴾ شحاً بالمبار والصنقات والإنفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله﴾ أغفلوا نكره ﴿فمنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿هم الفاسقون﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين

(2) سورة التوبة، الآية: 56.

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول.

الراضي به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله، وأما ﴿وَحَضَّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ نقيض قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ لِجِرِّهِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (2).

أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِينَهُمْ فَمَا كَانُوا يَلْقَاهُمْ إِلَّا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٧٧).

﴿وأصحاب مدنين﴾ وأهل مدنين وهم: قوم شعيب ﴿والمؤتفات﴾ مدائن قوم لوط، وقيل: قربات قوم لوط وهود وصالح، وانتفاكهن: انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ فما صح منه أن يظلمهم، وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح، وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرُهُنَّ مُوَدَّةٌ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ رُسُلُهُنَّ يُوَفُّونَ الصَّلَاةَ وَآتَوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧٨).

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في مقابلة قوله في المنافقين: ﴿بعضهم من بعض﴾ (3) ﴿سيرحهم الله﴾ السنين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك: سانتقم منك يوماً تعني: أنك لا تقوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سجعل لهم الرحمن ودا﴾ (4) ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (5) ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ (6) ﴿عزيز﴾ غالب على كل شيء قدير عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حكيم﴾ واضح كلاً موضعاً على حسب الاستحقاق.

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٩).

﴿ومساكن طيبة﴾ عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و ﴿عدن﴾ علم ببليد قوله: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن﴾ (7) ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها

حين بالغ في نهمهم، وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول كسلت؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: ﴿كسالى﴾ (1) فما ظنك بالفسق.

وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَمَنَّهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ (٨٠).

﴿خالدين فيها﴾ مقترين الخلود ﴿هي حسبهم﴾ دلالة على عظم عذابها وأنه لا شيء أبلغ منه وأنه بحيث لا يزداد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ولعنهم الله﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملائع، كما عظم أهل الجنة والحقهم بالملائكة المكرمين ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن، خوفاً من المسلمين وما يحزنونه ابداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ مَا اسْتَغْنَوْا كَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِحُلِيِّكُمْ مَا كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ أُولَئِكَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَهْلَ الْخَيْرِ (٨١).

الكاف محلها رفع على أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتكم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو: أنكم استمتعتم وخصتم كما استمتعوا وخاضوا ونحوه قول النمر:

كاليوم مطلوباً ولا طالباً

بإضمار لم أر، وقوله: ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ تفسير لتشبيهم بهم وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب وهو: ما خلق للإنسان أي: قدر من خير. كما قيل له: قسم؛ لأنه قسم ونصب؛ لأنه نصب أي أثبت. والخوض: الدخول في الباطل واللهو ﴿كالذي خاضوا﴾ كالفوج الذي خاضوا وكالخوض الذي خاضوه.

فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾؟ وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾؟ مفن عنه كما أغنى قوله: ﴿كالذي خاضوا﴾ عن أن يقال وخاضوا فخصتم كالذي خاضوا؟ قلت: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها والتهاثم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وإن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر

(1) سورة التوبة، الآية: 54.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(3) سورة التوبة، الآية: 67.

(4) سورة مريم، الآية: 96.

(5) سورة الضحى، الآية: 5.

(6) سورة النساء، الآية: 152.

(7) سورة مريم، الآية: 61.

غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن نكلك،⁽¹⁾ وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جنته على حافته «ورضوان من الله أكبر» وشيء من رضوان الله أكبر من نكلك؛ لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاة راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المرة من مشايخنا يقول: لا تلطم عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة كما تلطم وتنازع إلى رضاه عني وإن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده «نلك» إشارة إلى ما وعد الله أو إلى الرضوان أي: «الفوز العظيم» وحده نون ما يعده الناس فوزاً، وروي أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من نلك، قالوا: وأي شيء أفضل من نلك؟ قال: أدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً.⁽²⁾

يَأْتِيَا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكَفَّارِ وَالْمُنْبِيِّينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأَمِيرُ (٧٦).

«جاهد الكفار»⁽³⁾ بالسيف «والمنافقين» بالحجة «وأغلظ عليهم» في الجهادين جميعاً ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه⁽⁴⁾، يريد: الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين: على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

يَجْلِسُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَقَدْ قَالُوا كَيْمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَمَا لَمْ يَتَّأَلُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ رِزْقَهُ مِنْ قَصَبٍ. إِنْ يَتُوبُوا بِكَ سَبْرًا كَثُرًا وَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْنَا اللَّهُ عَذَابُ آلِيكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَوْلٍ وَلَا نَصِيرٍ (٧٧).

أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجللاس بن سويد فقال الجللاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس

الانصاري للجللاس: أجل والله إن محمداً لصديق وأنت شر من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونيك تصديق الكاتب وتكنيب الصانع⁽⁵⁾ فنزلت «يحلطون بالله ما قالوا» فقال الجللاس: يا رسول الله لقد عرض الله علي التوبة، والله لقد قلتة وصلقت عامر، فتاب الجللاس وحسنت توبته «وكفروا بعد إسلامهم» وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام «وهموا بما لم ينالوا» وهو: الفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك تواتر خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ اتسم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحنيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حنيفة بوقع أخفاف الإبل ويقعقة السلاح، فالتفت فإذا قوم مثلثون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا⁽⁶⁾، وقيل: هم المنافقون يقتل عامر لردّه على الجللاس، وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ «وما نقموا» وما أنكروا وما عابوا «إلا أن اغناهم الله» وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجللاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى «فإن يتوبوا» هي الآية التي تاب عندها الجللاس «في الدنيا والآخرة» بالقتل والتار.

رَمَتْهُم مِّنْ عَهْدِ اللَّهِ كَيْتٌ مَّا كُنَّا مِنْ قَصَبٍ. لَصَفَرٌ وَلَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ قَصَبٍ جَبَلًا بِدٍ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّصِرٌّ (٧٦).

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، فقال ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، «فدعا له» فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي اللود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل والياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومراً بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: أرجعا حتى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه، «يا ويح ثعلبة» مرتين، فنزلت فجاءه ثعلبة بالصدقة فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك»، فجعل التراب على رأسه، فقال: «هذا

(3) قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحياناً، والله الموفق.

(4) نكره الطبري في تفسيره.

(5) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/46 (الحديث رقم: 18303).

(6) رواه أحمد في مسنده 453/5.

(1) كشف الاستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في الجنة ما لا عين رأت ولا (الحديث رقم: 3516).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6540) ومسلم في كتاب: الجنة باب: لحال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً (الحديث رقم: 7070).

فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعلي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت». فبارك الله له حتى صولحت تماضر امراته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً⁽²⁾. وتصنق عاصم بن عددي بمائة وسق من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بت ليلتي أجز بالجري على صاعين فتركت صاعاً لعلي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن ينكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿إلا جهدهم﴾ إلا طاقتهم، قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله: ﴿الله يستهزي بهم﴾⁽³⁾ في أنه خبر غير دعاء، ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب اليم﴾. سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ وكان رجلاً صالحاً: أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فنزلت، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد رخص لي فسازيد على السبعين، فنزلت ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾⁽⁴⁾. وقد نكرنا⁽⁵⁾ أن هذا الأمر في معنى الخير كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، ونكرنا النكته في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فإن قلت⁽⁶⁾: كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أقصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاً والذي يفهم من نكر هذا العدد كثرة الاستغفار؟ كيف وقد تلاه بقوله: ﴿نلك بانهم كفروا﴾ الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: قد رخص لي ربي فسازيد على السبعين قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورافته على من بعث إليه كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾⁽⁷⁾ وفي إظهار النبي ﷺ الرفقة والرحمة لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله ﷺ، فجاه بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه⁽¹⁾. وقرئ: ﴿لنصدقن ولنكونن﴾ بالنون الخفيفة فيهما ﴿من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحج.

فَاعْتَمِرْ يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى بَرِّ يُلْقَوْنَ يَمَّا أَنْفَلُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ يَمَازُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾.

﴿فاعقبهم﴾ عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما أن الضمير للبخل يعني: فأورثهم البخل ﴿نفاقاً﴾ متمكناً ﴿في قلوبهم﴾؛ لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه، والظاهر أن الضمير لله عز وجل والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصديق والصلاح وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق، وقرئ: يكتبون بالتشديد ولم تعلموا بالتاء عن علي رضي الله عنه. ﴿سزهم ونجواهم﴾ ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعده وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية، وتبدير منعها.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿الذين يلمزون﴾ محله النصب أو الرفع على الذم ويجوز أن يكون في محل الجر بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ: يلمزون بالضم ﴿المطووعين﴾ المتطوعين المتبرعين. روي أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة، فجاه عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف

(1) راجع الزليعي 85/2.

(2) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة براءة (الحديث رقم: 3625).

(3) سورة البقرة، الآية: 15.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف (الحديث رقم: 1269) ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 6958).

(5) قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا، وأمثاله من محنوف هو المقصود بالأمر، وهذا واقع موقعه، كقول كثير غرة:

اسيئي بنا أو احسنني لا ملومة

كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي، وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة، أو =

= محسنة، وكذلك معنى الآية ﴿استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار، وتركه، وهل يتفاوت الحلال أولاً، قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سواء عليهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم.

(6) قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار، ولم يصححه، وتغالي قم في قبوله، حتى أنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام، فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

(7) سورة إبراهيم، الآية: 36.

من المرات؟ قُلْتُ: أكثر اللغتين هند أكبر النساء وهي أكبرهن، ثم إن قولك هي كبرى امرأة لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة، وعن قتادة نكر لنا: أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

وَلَا تُصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَا تَأْتِيكَ بِهِمْ كَثُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَأْتِيكَ بِهِمْ فَتَسْفُوتَ (٨٤) وَلَا تُجِيبَكَ أُمَّؤُكُمُ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥).

روي أن رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم، فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبي بعت إليه لياثيه، فلما نخل عليه قال: «أهلك حب اليهود» فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنّبني، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته فسأله عن اسمه فقال: «أنت عبد الله بن عبد الله، الحباب اسم شيطان» فلما هم بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلي على عبد الله؟^(١) فنزلت، وقيل: أراد أن يصلي عليه فجنّبه جبريل^(٢).

فإن قُلْتُ: كيف جازت له تكريمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قُلْتُ: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له، وذلك أن العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ لما أخذ أسيراً بيد لم يجدوا له قميصاً، وكان رجلاً طويلاً، فكساه عبد الله قميصه^(٣) وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأمن لمحمد ولكننا نأمن لك، فقال: لا إن لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فشكر رسول الله ﷺ له ذلك^(٤)، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على نواعي المروءة، ويعمل بعبادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره لا يشمت به الأعداء^(٥)، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون إلباسه إياه لطفًا لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإنني أوّل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب»، فيروي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رآه طلب الاستشفاء بنوب رسول الله ﷺ^(٦)، وكذلك ترحمه واستغفاره، كان للدعاء إلى التراجع والتعاطف؛ لأنهم إذا رآه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورأه حتمًا عليه.

فإن قُلْتُ: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قُلْتُ: لم يتقدم نهي

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ جُلُفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٦) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٧) إِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَ قَتْلَ لَنْ تَجْرُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَى مَرَّةً فَأَقْدَمُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٧).

﴿المخلفون﴾ الذين استأنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأنزلهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿بمقعدهم﴾ بقعودهم عن الغزوة ﴿خلاف رسول الله﴾ خلفه يقال: أقام خلاف الحي بمعنى: بعدمه ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حنيفة خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له، أو حال أي قعدوا لمخالفته، أو مخالفيين له ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ تعريض بالمؤمنين وبتمحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم تلك على الدعة والخفض، وكره تلك المنافقون، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ استجهال لهم؛ لأن من تصون من مشقة ساعة فوق بسبب تلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل، ولبعضهم:

مسرة لحقاب تلقيت بعدها مساة يوم ربهاشبه الحصاب فكيف بان تلقى مسرة ساعة وراه تقضيها مساة لحقاب معناه فسيضحكون قليلاً ويبيكون كثيراً ﴿جزاء﴾ إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروي أن أهل النفاق يكون في النار عمر الدنيا لا يرقا لهم دمع ولا يكتلون بنوم. وإنما قال ﴿إلى طائفة منهم﴾؛ لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين فأراد بالطائفة المنافقين منهم ﴿فاستأنوك للخروج﴾ يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك و ﴿أول مرة﴾ هي: الخرجة إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق بخلاف غيرهم من المتخلفين ﴿مع الخالفيين﴾ قد مر تفسيره، وقرأ مالك بن دينار رحمه الله مع الخلفين على قصر الخالفيين.

فإن قُلْتُ: مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم نكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة

- (4) الواقي في المغازي.
- (5) نكره الطبري في تفسيره.
- (6) نكره ابن مردويه في تفسيره.

(1) لم يخرج الزلمي.

(2) رواه أبو يعلى.

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى (الصحيح رقم: 3008).

عن الصلاة عليهم وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم لما في نك من المصلحة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة إلا أنني أعلم أنّ رسول الله ﷺ لا يخادع ﴿مات﴾ صفة لأحد وإنما قيل: مات وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة ﴿إنهم كفروا﴾ تعليل للنهي وقد أعيد قوله ﴿ولا تعجبك﴾: لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيد إرادته أن يكون على بال من مخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ أَنْ مَأْمُونًا بِاللَّهِ وَجَهْدًا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكُفَّيرِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَظِيمِ ﴿٨٩﴾

يجوز أن يراد السورة بتمامها وأن يراد بعضها في قوله: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل: هي براءة؛ لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿إن آمنوا﴾ هي أن المفسرة ﴿أولوا الطول﴾ نور الفضل والسعة من طال عليه طولاً ﴿مع القاعدين﴾ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك ﴿لكن الرسول﴾ أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً كقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً﴾ (1) ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك﴾ (2) ﴿الخيرات﴾ تتناول مناقع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور لقوله: ﴿ففيهن خيرات﴾ (3).

وَبَلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُذَنِّبَهُمْ وَيَعَلَّمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ رَسُولَهُ سَبِيْبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يومه أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له، أو المعذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لاتباع الميم ولكن لم تثبت بهما قراءة وهم الذين يعتذرون بالباطل كقوله: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ (4) وقرئ: المعذرون بالتخفيف وهو: الذي يجتهد

في العذر ويحتشد فيه قيل: هم أسد وغطفان قالوا: إن لنا عيلاً وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهاليها ومواشينا فقال ﷺ: سيغنييني الله عنكم، وعن مجاهد: نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرئ: المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهذا غير صحيح؛ لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد في المطوعين وأزكى وأصلق، وقيل: أريد المعذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون على قراءة ابن عباس رضي الله عنه: الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد النبي كذبوا الله ورسوله﴾ هم: منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبي: كذبوا بالتشديد ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ من الأعراب ﴿عذاب أليم﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾

﴿الضعفاء﴾ الهرمى والزمني. و ﴿الذين لا يجدون﴾ الفقراء قيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله الإيمان بهما وطاعتها في السر والعلن، وتوليها والحب والبغض فيهما كل يفعل الموالي الناصح بصاحبه ﴿على المحسنين﴾ على المعذرين الناصحين، ومعنى لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم.

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْتَصِمْتُمْ نَفْسُ مِنَ الدَّعْوَى حَرَاً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ يَسْتَأْذِنُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُونَ لَنْ نؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ نُبَايِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْبِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَبَيِّنْكُمْ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿قلت لا أجد﴾ حال من الكاف في أتوك وقد قبله مضمرة كما قيل في قوله: ﴿أو جازكم حصرت صورهم﴾ (5) أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد ﴿وتولوا﴾ ولقد حصر الله المعذرين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدوا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجوها، وقيل: المستحملون أبو موسى

(4) سورة التوبة، الآية: 94.

(5) سورة النساء، الآية: 90.

(1) سورة الانعام، الآية: 89.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) سورة الرضن، الآية: 70.

لكل لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً منافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»، وقيل: جاء عبد الله بن أبي حلف أن لا يتخلف عنه أبداً.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِزَعْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿الأعراب﴾ أهل البو، ﴿أشد كفرة ونفاقاً﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأنجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام منه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفذائين»⁽¹⁾ ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم مخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَبْتَغِي مَا يُؤْتِي مَعْرَاً وَيَرِيصُ بِكُرِّ الدُّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوِّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿معرماً﴾ غرامة وخسراناً والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقيّة من المسلمين ورياء لا لوجه الله عز وجل وابتغاء الثوبة عنده ﴿ويريص بكم الدوائر﴾⁽²⁾ دوائر الزمان بوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض دعي عليهم بنحو ما دعوا به كقوله عز وجل: ﴿قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾⁽³⁾ وقرئ: السوء بالضم، وهو: العذاب، كما قيل: له سيئة، والسوء بالفتح وهو: ثم الدائرة كقولك: رجل سوء في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأن من دارت عليه نم لها ﴿والله سميع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُؤْتِي قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَبْدُ اللَّهِ فِي رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿قربيات﴾ مفعول ثانٍ ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربيات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر

الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤون وهم ستة نفر من الأنصار ﴿تفيض من الدمع﴾ كقولك: تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض، ومن للبيان كقولك: أفيدك من رجل، ومحل الجار والمجرور والنصب على التمييز ﴿إلا يجنوا﴾ لئلا يجد واو محله نصب على أنه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

فإن قلت: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟ قلت: هو استئناف كأنه قيل: ما بالهم استأنفوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوالم ﴿وطبوع الله على قلوبهم﴾ يعني: أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: ﴿قلت لا نجد﴾ استئنافاً مثله كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: ﴿قلت لا نجد ما أحملك عليه﴾ إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالأعتراض؟ قلت: نعم، ويحسن ﴿لن تؤمن لكم﴾ علة للنهي عن الاعتذار؛ لأن غرض المعتذر أن يصنق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكنب وجب عليه الإخلال، وقوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ علة لانتفاء تصديقهم؛ لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وأحوالهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معانيرهم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أتنبون أم تثبتون على كفركم ﴿ثم تردون﴾ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية فيجازيكم على حسب ذلك.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا رَهْمُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾

﴿لتعرضوا عنهم﴾ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معابرتهم يعني: أن المعاتب لا تنفع فيهم ولا تصلحهم إنما يعاتب الأديم نو البشرية والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وماواهم جهنم﴾ يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا عتابهم ﴿لترضوا عنهم﴾ أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفعمهم ذلك في نياهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فإن رضاكم وحكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها، وقيل: إنما قيل

= عليهم، ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تريض الدوائر مطلقاً، والذي دعي عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر، لا على الإطلاق، والله الموفق.

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قوم الأشعريين، الحديث رقم: (4387)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه. (الحديث رقم: 179).

(2) قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء، لحال المدعو = (3) سورة المائدة، الآية: 64.

وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّبِعُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ سَنَعَدِيهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَيْكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾

﴿وممن حولكم﴾ يعني: حول بلدتكم وهي المدينة ﴿منافقون﴾ وهم: جبهة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو: ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت، ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أن مردوا صفة لموصوف محنوف كقوله: أنا ابن جلاء، وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه من مرن فلان عمله ومرد عليه إذا ترب به وضري حتى لان عليه ومهر فيه، يدل على مراتبهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾ أي: يخفون (8) عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي ما يشك في أمرهم، ثم قال: ﴿نحن نعلمهم﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبيطون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً، ويبرزون لك ظاهراً كظواهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلم فيه اليد الطولى ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل: هما القتل وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة وعذاب القبر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم اختلفوا في هاتين المراتين، فقال: قام رسول (9) الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان فإنك منافق، أخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناساً وفضحهم». فهذا العذاب الأول، والثاني: عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿إلى عذاب عظيم﴾ إلى عذاب النار.

وَأَخْرَجُوا عَنْكُمْ أَصْحَابَ الْأَيْمَانِ سَوَاءً مَّنْ قَبْلُ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَوِي عِلْمٍ ﴿١٣٢﴾

﴿اعترفوا بنوبهم﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعازير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على انفسهم بأنهم بسئ ما فعلوا متذممين نادمين وكانوا ثلاثة، أبو لبابة

لهم كقوله: «اللهم صلي على آل أبي أوفى» (1) وقال تعالى: ﴿وصل عليهم﴾ (2) فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قرايات وصلوات ﴿إلا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قرايات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سيبخلهم﴾ وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة (3) منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: قربة بضم الراء، وقيل: هم عبد الله ونو البجادين ورهطه.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهبوا بدرًا، وعن الشعبي: من بايع بالحبيبية، وهي: بيعة الرضوان ما بين الهجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أو زارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن، وقرأ عمر رضي الله عنه: والآنصار بالرفع عطفاً على ﴿السابقون﴾. وعن عمر أنه كان يرى أن قوله: ﴿والذين لتبعوهم بإحسان﴾ بغير واو: صفة للأنصار حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: اثنتوني بأبي، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة ﴿وأخبرين منهم﴾ (4) وأوسط الحشر ﴿والذين جاؤا من بعدهم﴾ (5) وآخر الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعده﴾ (6) وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: أقرانيه رسول الله ﷺ وإنك لتتبع القرظ بالبقيع. قال: صدقت وإن شئت قلت: شهدنا وغيتم، ونصرنا وخذلتم، وأوينا وطردتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء (7)، وخبره ﴿رضي الله عنهم﴾ ومعناه رضي عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية. وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي: قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف تحتها بغير من.

(4) سورة الجمعة، الآية: 3.

(5) سورة الحشر، الآية: 10.

(6) سورة الأنفال، الآية: 75.

(7) رواه الطبري وابن مروي الزيلعي 2/ 96-95.

(8) قال أحمد: وكان قوله تعالى: ﴿مردوا على النفاق﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام، لما لهم من الخبرة في النفاق، والضلالة به، والله أعلم.

(9) رواه الطبراني في الأوسط، والطبري والثعلبي، الزيلعي 2/ 96.

(1) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (الحديث رقم: 1497)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (الحديث رقم: 2489).

(2) سورة التوبة، الآية: 103.

(3) قال أحمد: وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن، ولا كافر، وأنه مخلد في النار، وإن كان موحدًا، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي رسم به المنافق، هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحدًا، فأحذره، والله أعلم.

مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، وبيعة بن حزام، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم، بلغهم ما نزل في المتخلفين فإيقنوا بالهلاك فوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عانته ﷺ كلما قدم من سفر، فرأهم موثقين فسأل عنهم فنكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أؤمر فيهم» فنزلت، فاطلقهم وعزهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً»⁽¹⁾ فنزلت: «خذ من أموالهم عملاً صالحاً» خروجاً إلى الجهاد «وأخر شيئاً» تخلفاً عنه، عن الحسن، وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به؟ قُلْتُ: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأن المعنى خلط كل واحد منهم بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو: جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعث الشاة شاة ودرهماً بمعنى شاة بدرهم.

فإن قُلْتُ: كيف قيل: «أن يتوب عليهم» وما نكرت توبتهم؟ قُلْتُ: إذا نكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة فقد نكرت توبتهم «تطهرهم» صفة لصدقة وقرى تطهرهم من أظهره بمعنى: طهره، وتطهرهم بالجزم جواباً للامر. ولم يقرأ: وتزكيتهم إلا بثبوت الباء والتاء في تطهرهم للخطاب، أو لغيبة المؤنث، والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الأتماء والبركة في الماء «وصل عليهم» واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصنق لصاحب الصدقة إذا أخذها، وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت وجعله طهوراً وبارك لك فيما أبقيت. وقرى: إن صلواتك على التوحيد «سكن لهم» يسكنون إلي وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم «والله سميع» يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعائهم «عليهم» بما في ضمائرهم والغم من الندم لما فرط منهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ⁽¹⁴⁾ وَقُلِ اصْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةَ فَيَنْتَعِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁽¹⁵⁾

وقرى: «الم يعلموا» بالياء والتاء وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد المتوب عليهم يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم «إن الله هو يقبل التوبة» إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو: للتخصيص والتأكيد وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين، وقيل: معنى التخصيص في «هو» أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصده بها ووجهها إليه.

«وقل» لهؤلاء التائبين «اعملوا» فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أم شراً - على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: «وياخذ الصدقات»؟ قُلْتُ: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل⁽³⁾، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: «فسيرى الله» وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

وَأَكْفُرُوا مِرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْبُدُونَهُ وَإِنَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁽¹⁶⁾

قرى: مرجون ومرجون من أرجيته وأرجاته إذا أخرته ومنه المرجحة يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم «إمّا يعذبهم» إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا «وإمّا يتوب عليهم» إن تابوا وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوؤوا أمرهم إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم ونصحت

= واللبن، يفيد ما يفيد مع الباء، وزيادة ليس كذلك، فالظاهر في الآية، والله أعلم أن العدول عن الباء، إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل عملوا عملاً صالحاً، وأخر شيئاً ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط، فبقر عنهما معب، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب (الحديث رقم: 1410) ومسلم في صحيحه كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من كسب الطيب وترتيبها (الحديث رقم: 2339).

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(2) قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن، فالمصرح به في هذا الكلام، أن الماء المخلوط، واللبن مخلط به، والمنلول عليه لزوماً، لا تصريحاً، كون الماء مخلوطاً به، واللبن مخلوطاً، وإذا قلت خلطت الماء، واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً، وأمّا ما خلط به كل واحد منهما، فغير مصرح به بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به، ويحتمل أن يكون قرينة، أو غيره، فقول الرمخشري إن قولك خلطت الماء =

توبتهم فرحمهم الله⁽¹⁾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي قراءة عبد الله: غفور رحيم، ﴿وَإِنَّمَا لِلْعِبَادِ أَيْ خَافُوا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَأَرْجُوا لَهُمُ الرَّحْمَةَ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَمَرُوا بِالْحَقِّ وَرَأَوْا بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوكَ لَمْ يُصَلِّوا عَلَيْكَ وَمَنْ لَمْ يَلِدْ يُسَلِّمْ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ قَاتَلُوا بِرَأْسِكَ يَأْتُونَكَ بِرَأْسِكَ أَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّعُودِ ﴿١٧﴾

فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً، وعن عطاء، لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنيوا المساجد، وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

فإن قُلْتُمْ: ﴿والذين اتخذوا﴾ ما محله من الإعراب؟ قُلْتُمْ: محله النصب على الاختصاص كقوله: ﴿والمقيمین الصلاة﴾⁽³⁾ وقيل: هو مبتدأ خبره محنوف معناه: وفيمن وصفا للذين اتخذوا كقوله: ﴿والسارق والسارقة﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُمْ: بم يتصل قوله ﴿من قبل﴾؟ قُلْتُمْ: باتخذوا أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافي هؤلاء بالتخلف ﴿إن أردنا﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿الإلا﴾ الخصلة ﴿الحسنى﴾ أو الإرادة الحسنی وهي: الصلاة ونكر الله والتوسعة على المصلين.

لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا لَتَسْجِدَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوْلَىٰ يَوْمٍ آخِرٍ أَنْ تَقْرَأُ فِيهِ بِرِجَالٍ يُخَيَّرُونَ أَنْ يُطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾.

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي: يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة وهو أولى، لأن الموازنة بين مسجد قباء أوقع، وقيل: هو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»⁽⁵⁾ ﴿من أول يوم﴾ من أول يوم من أيام وجوده ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: «أؤمنون أنتم؟» فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «تشكرون في الرخاء»، قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار»، إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الرضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا النبي ﷺ⁽⁶⁾ ﴿رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وقرئ: أن يطهروا بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون

في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير وأ؛ لأنها قصة على حياها وفي سائرنا بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فاتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوانهم، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ «الفاسق»، وقال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعنوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر، وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً بجانب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ: بنيينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال ﷺ: «إني على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدما إن شاء الله صلينا فيه، فلما قفل من غزوة تبوك سالوه إتيان المسجد، فزلت عليه، فدعا بمالك بن النخشم، ومع بن عدي، وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا «وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الحيف والقمامة» ومات أبو عامر بالشام بقنسرين⁽²⁾ ﴿ضرازا﴾ مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة ﴿وكفرا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتنص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿وارصادا﴾ وإعداداً ﴿إله﴾ أجل ﴿من حارب الله ورسوله﴾ وهو: الراهب أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ، وقيل: كل مسجد بني مباحة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق: أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني

(3) سورة النساء، الآية: 162.

(4) سورة المائدة، الآية: 38.

(5) رواه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى (الحديث رقم: 3373).

(6) رواه الطبراني في الأوسط الزيلعي 104/2.

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 2769 53).

(2) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 147، ونكره ابن هشام في السيرة 2/ 529 530.

ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه.

مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَدَىٰ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْسَبُ الْجَبَابِ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٨﴾.

﴿ما كان للنبي﴾ ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ماتوا على الشرك.

قرأ طلحة: وما استغفر إبراهيم لأبيه وعنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه وهو قوله: ﴿لاستغفرن لك﴾ (5) ويدل عليه قراءة الحسن، وحماد الرواية: وعدها أباه.

فإن قلَّت: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلَّت: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ألا ترى إلاقوله عليه السلام لعمه: «لاستغفرن لك ما لم أنه» وعن الحسن: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يستغفر لأبيه المشركين؟ فقال: «ونحن نستغفر لهم» (6) فنزلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبيه وهما مشركان، فقلت له فقال: اليس قد استغفر إبراهيم» (7).

فإن قلَّت: فما معنى قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾؟ قلَّت: معناه فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أواه فعال من أوه كلال من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: ﴿لأرجمنك﴾ (8) يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين (9) أنه محظور لا يؤخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالاً، ولا

«كلام الله» قال: بيع والله مريح لا نقيه ولا نستقبله، فخرج إلى الغزو فاستشهد (1) «يقاتلون» فيه معنى: الأمر كقوله «تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» (2) وقرئ: فيقتلون ويقاتلون على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس «وعدا» مصدر مؤكد أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته «في التوراة والإنجيل» كما أثبتته في القرآن ثم قال: «ومن أوفى بعهده من الله»؛ لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلف مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْمُؤْتِرُونَ السَّاجِدُونَ الْمُهَيَّبُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْدُومِ وَالْمُتَّقُونَ عَنِ الشُّكْرِ وَالْمُنْتَظَرُونَ لِجُذُومِ اللَّهِ وَرَشْرِ الرَّزِيَةِ ﴿١١٧﴾.

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي: هم التائبون يعني: المؤمنين المنكوبين ويدل عليه قراءة عبد الله وأبي رضي الله عنهما: التائبين بلياء إلى والحافظين نصباً على المدح، ويجوز أن يكون جرّاً صفة للمؤمنين، وجوز الزجاج: أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله: «وكلاً وعد الله الحسنى» (3) وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون: مبتدأ وخبره العابدون وما بعده خبر بعد خبر أي: التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن هم: الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق و ﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها و ﴿الساجدون﴾ الصائمون شبهوا بذوي السيادة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسبحون في الأرض يطلبونه في مظانه. قيل: قال ﷺ لعمه أبي طالب: «أنت أعظم الناس عليّ حقاً وأحسنهم عندي يداً، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي». فابى فقال: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه» (4) فنزلت، وقيل: لما افتتح مكة: «سال أي أبويه أحدث به عهداً» فقيل: أمك أمّنة فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأنتت ربي في زيارة قبر أمي فأنن لي، واستأنتته في الاستغفار لها فلم يأنن لي» فنزلت. وهذا أصح؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة وهذا آخر

= 106

(1) نكرة الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 105/2.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

(3) سورة الحديد، الآية: 10.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، (الحديث رقم: 1360)، ومسلم في صحيحه كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (الحديث رقم: 131).

(5) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(6) قال الزيلعي: غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن 2/ =

(7) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة،

(الحديث رقم: 3101) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب: النهي عن

الاستغناء للمشركين (الحديث رقم: 2036).

(8) سورة مريم، الآية: 46.

(9) قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين، والتقيح، وأن العقل

حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه تابع لمقتضاه، وهذه

القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

الضمير للفريق تاب عليهم لكيد وبتهم.

وَعَلَّ الثَّلَاثَةَ الْكُفْرَ حُفُوا حَقَّ إِذَا صَاتَ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رُبَّتْ
وَصَاتَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ
تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ (١٧٤).

﴿الثلاثة﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ومعنى ﴿خلفوا﴾ خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم، وقرئ: خلفوا أي: خلفوا جعفر الصادق رضي الله عنه: خلفوا وقرأ الأعمش: وعلى الثلاثة المخلفين ﴿بما رحبت﴾ برحبها أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي: قلوبهم لا يسعها انس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وظنوا﴾ وعلموا ﴿أن لا ملجأ من﴾ سخط ﴿الله إلا﴾ إلى استغفاره ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرامة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه ما خلفني إلا ظلك وانتظار شرك اذهب فانت في سبيل ما ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطاني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم والله لا كابدن المفاز حتى الحق برسول الله فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلى نفسه لا أهل ولا مال فقال: يا نفسي ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لا كابدن الشدائد حتى الحق برسول الله ﷺ فتأبط زاد ولحق به، قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من نوبه ولا يصير عليها، وعن أبي نر الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره وأتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فقال رسول الله ﷺ: لما رأى سواده: «كن أبا نر» فقال الناس: هو ذلك، فقال: «رحم الله أبا نر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»^(١)، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحى والرياح؛ ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومز كالرياح، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكانه، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له، ومنهم من بقي لم يلحق به منهم الثلاثة. قال كعب: لما قفل رسول الله ﷺ

يخلفهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم بانه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم، وهذا بيان لعذر من خاف المواخذه بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي أن المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال.

وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسِيرَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِنَّ اللَّهَ يُكَلِّمُ مَنْ يَشَاءُ عِلْمٌ (١٧٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَكِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٧٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٧٧).

والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي فاما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوبيعة فغير موقوف على التوقيف ﴿تاب الله على النبي﴾ كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾^(١) وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾^(٢) وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل معناه: تاب الله عليه من إنته للمنافقين في التخلف عنه كقوله: ﴿عفا الله عنك﴾^(٣) ﴿في ساعة العسرة﴾ في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق كما استعملت الغداة والعشية واليوم. غداة طفت علماء بكر بن وائل.

وكننا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية فارعنا جذام وحميرًا إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الفنى يجد جمع كف غير ملأى ولا صفراً والعسرة حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد، تزودا التمر المدود والشعير المسوس والأهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجنب والقحط والضيقة الشديدة ﴿كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي كاد ضمير الشأن وشبهه سبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرئ: يزيغ بالياء، وفي قراءة عبد الله: من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يريد المتخلفين من المؤمنين كابي لبابة وأمثلة ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون

(3) سورة التوبة، الآية: 43.

(1) سورة الفتح، الآية: 2.

(4) رواه الحاكم في المستدرک 3/50.

(2) سورة غافر، الآية: 55.

تلقاه نفسه، علماً بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهاقت فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربثوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها يضنون بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته كانه قيل: ذلك الوجوب ﴿بب﴾ سبب ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ شيء من عطش ولا تعب ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدرسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيظهم ويضيق صدورهم ﴿ولا ينالون من عدوهم نيلاً﴾ ولا يرزؤنهم شيئاً يقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالطوء: الإيقاع والإبادة لا الطوء بالأقدام والحوافر كقوله عليه السلام: «آخر وطاة وطئها الله بوج»⁽³⁾ والموطئ إما مصدر كالمورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطؤه، والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدرًا مؤكداً وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزاه نقصه، وهو عام في كل ما يسوءهم وينكبهم ويلحق بهم ضرراً، وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً، من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر وقد قدام بعد تقضي الحرب⁽⁴⁾، وأمد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المهاجرين أبي أمية وزيد بن أبي ليبي بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس فلحقوا بعلما فتحوا فأسهم لهم⁽⁵⁾، وعند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد بن عمير: ظماء بالمد يقال: ظمى ظماء وظماء.

وَلَا يُغْفِرُونَ نَفَقَةَ صَوْبِرٍ وَلَا كِبْرَةَ وَلَا يَقَطُّونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لِمَنْ يَلْحَقُهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَمْتَلُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿ولا يغفرون نفقة صوبرة﴾ ولو تمره ولو علاقة سوط ﴿ولا كبرية﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي: أرضاً في

سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما نكرني وقال: «ليت شعري ما خلف كعباً؟» فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفه، فقال: «معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً»⁽¹⁾ ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقتربهنّ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا ببدء من نروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربي ﴿وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم﴾ وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». ثم تلا علينا الآية، وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَأْتِيهَا الْوَيْلُ ؕ آمِنُوا أَنْتُمْ اللَّهُ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿مع الصادقين﴾ وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾⁽²⁾ وقيل: هم الثلاثة أي: كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار ووافقهم وانتظموا في جملتهم وأصدقوا مثل صدقهم، وقيل: لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا أن يعد أحلكم صبيه ثم لا ينجزه، أقرؤا إن شئتم ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فهل فيها من رخصة؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوَّرَتْ مَوَاطِنًا يَعْطَلُ الْكُفَّارُ وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلِيحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْغِحُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ امرؤ بأن يصحبه على البساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأموال برغبة ونشاط واعتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما

(4) رواه أبو داود نحوه في كتاب: الجهاد، باب: فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له (الحديث رقم: 2725) والترمذي مختصراً، وأخرج البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب: غزوة خيبر (الحديث رقم: 4223).

(5) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 115/12.

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6947).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) رواه أحمد في مسنده 409/6.

ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وأكام يكون منفذاً للسيل وهو في الأصل فاعل من ودي إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون: لا تصل في وادي غيرك ﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك من الأنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله ﴿يلجزيهم﴾ متعلق بكتب أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٣٧).

اللام لتأكيد النفي (١) ومعناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن ولم يؤد إلى مفسدة لوجب، لوجب النفقة على الكافة، ولأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿فلولا نفر﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة طائفة﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة يكونهم النفير ﴿ليتفقوا في الدين﴾ ليتكلموا الفقهاء فيه ويتجشمو المشاق في أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمنونه من المقاصد الركيكة، من التصرُّ والتروُّس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومناقسة بعضهم بعضاً، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرمذة جثوا بين يديه، وتهالكة على أن يكون موطن العقب نون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل: ﴿لا يريون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ (٢) ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً، ووجه آخر وهو: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف، وقوله: ﴿ليتفقوا﴾ الضمير فيه

للفرق الباقية بعد الطواف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٣٧).

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم (٣)، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبتهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ونظيره: ﴿وانذر عشيرتک الأقربين﴾ (٤) وقد حارب رسول الله ﷺ قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال النبيل فقال: عليك بالروم. وقرئ: غلظة بالحركات الثلاث فالغلظة كالشدَّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة ونحو: ﴿واغلظ عليهم﴾ (٥) ﴿ولا تهنوا﴾ (٦) وهو يجمع الجراءة أو الصبر على القتال وشدَّة العداوة والعنف في القتل والأسر ومنه: ﴿ولا تأخذنكم بهما رأفة في دين الله﴾ (٧) ﴿مع المتقين﴾ ينصر من اتقاه فلم يتراف على عدوه.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىٰ أَمِ ابْتِغَاءَ مَمَانٍ أَلَيْسَ لِمَنْ أُوذِيَ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ (١٣٨).

﴿فمنهم من يقول﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿إيماناً﴾ إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به وأيكم مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: أيكم بالفتح على إضمار فعل يفسره زانته تقديره أيكم زانته هذه إيماناً ﴿فزادتهم إيماناً﴾؛ لأنها أزيد للمؤمنين والثبات وأثلج للصدر، أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

وَأَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا كِتَابَهُمْ فَسَأَلُوكَ فِي آلِ مَرْيَمَ وَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا (١٣٩).

(٣) قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين، أما من نزل بهم عنوة، وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم، حتى يكتفوا، وأما من عينهم الإمام لذلك، وإن بعثت بهم الدار، وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال، وإزعاج العدو من دياره، وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٧) سورة النور، الآية: ٢.

(١) قال أحمد: قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، على التفسير الأول أمر لا نهي، وعلى الثاني خبر، المراد به النهي؛ لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله، لكان جائزاً، أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية، وأما في الثاني، فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين، وكان ذلك ممكناً، بل واقعاً، فنهوا عن إطراح النفقة بالكلية، وأمروا به أمر كفاية، والله أعلم.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصربك، فاستعن وفض إليه فهو كافيك معرفتهم ولا يضرورك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: العظيم بالرفع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: أخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ عن رسول الله ﷺ: «ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة، براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الرَّيَّةَ يَا أَيُّهَا الْكَلْبِيُّ الْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿الرَّيَّةَ﴾ تعيد للحروف على طريق التحدي و﴿تلك آيات الكتاب﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة و﴿الحكيم﴾ نو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثه قال الأعشى:

وغريبه تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها
أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَرْحَبًا إِلَى رَجُلٍ يَتَمَّ أَنْ أَدِيرَ النَّاسَ وَيَنْبِرَ
الْبُرِّ مَأْمُورًا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَلْبِيُّ إِنَّ هَذَا
لَسِرٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾.

الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه و﴿أنا أوحينا﴾ اسم كان وعجباً خبرها وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسماً وهو نكرة وأن أوحينا خبراً وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها غسل وماء. والأجود أن تكون كان تامة وإن أوحينا بدلاً من عجب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى اللام في قوله: ﴿إكان للناس عجباً﴾ وما الفرق بينه وبين قولك إكان عند الناس عجباً؟ قُلْتُمْ: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظامتهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم

﴿فَرَأَيْنَاهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ كَفَرًا مضمومًا إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جدوا بتجديد الله الوحي كَفَرًا ونفاقًا أزداد كفرهم واستحکم وتضاعف عقابهم.

أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَارٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾.

قرئ: أو لا يرون بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا ينكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهد مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْآعْرُكُمْ أَنْصَرَفْتُمْ اللَّهُ مُرْسِلًا فَالْتَمِمْ بَأْتَمُّ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾.

﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكارًا للوحي وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لتنصرف فإننا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لوأذا يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه وإذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾⁽¹⁾ دعاء عليهم بالخذلان ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بانهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾.

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبيكم عربي قرشي مثلكم، ثم نكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: شديد عليه شاق لكونه بعضاً منكم عنتم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بيد الحق الذي جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾. وقرئ: من أنفسكم أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما، وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

= تعير عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة للفعل الصابر منهم، وهو الانصراف، كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾، وكقوله: ﴿ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾.

(2) نكرة الثلثي في تفسيره.

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبراً؛ لأنَّ صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤوّل الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مرّ له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حدّ سواء =

ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو: ريكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة ﴿فاعبدوه﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أفلا تذكرون﴾ فإن أنسى التفكير والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَّاتٌ مِّنْ حَسْبٍ وَوَعْدُ اللَّهِ يُبَدَّلُ كَمَا يَشَاءُ أَلَيْسَ لَهُ عِلْمٌ ۗ ﴿٤﴾

﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ و﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وعد الله﴾ ﴿إنه يبدو الخلق ثم يعيده﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: ﴿أنه يبدو الخلق﴾ بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بئسه.

وقرئ: وعد الله على لفظ الفعل ويبدئ من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً أي: حق حقاً بدأ الخلق كقوله: أحقاً عباد الله أن لست جائئاً ولا ذاهباً إلا علي رقيب وقرئ: حق أنه يبدو الخلق، كقولك: حق أن زيداً منطلق

﴿بالقسط﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزي والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيههم أجورهم أو بقسطهم وبما أقتسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأن الشرك ظلم قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁵⁾ والعصاة ظلام انفسهم وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿بما كانوا يكفرون﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَوَادًا وَالنَّجْمَ نُورًا وَوَدَّرَ الْمَنَازِلَ لِيَسْأَلُوا عَدَدَ النُّجُومِ وَالْحِسَابَ مَا عَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آيَاتِنَا لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الياء في ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: ضياء بهمزتين بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل: في عاق عقا والضياء أقوى من النور ﴿وقدره﴾ وقدر القمر والمعنى وقدر مسيره ﴿منازل﴾ أو قدره ذا منازل كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾⁽⁶⁾ و﴿الحساب﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ﴿نلك﴾ إشارة إلى المنكور أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ: يفصل بالياء.

البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾⁽¹⁾

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً؛ لأن الله تعالى إنما يختار من استحسن الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾⁽²⁾ والبعث للجزاء على الخير والشر هو: الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً؛ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿إن أنذر الناس﴾ أن هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشان قولنا: أنذر الناس و﴿إن لهم﴾ البياء معه محنوف ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة.

فإن قلت⁽³⁾: لم سميت السابقة قدماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وبإعاً لأن صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لسحر﴾ ومن قرأ لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو لليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كالبني في تسميته سحراً، وفي قراءة أبي: ما هذا إلا سحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْسِيِّ بِرُؤُوسِ الْأَمْثَرِ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَوْمَ ذَلِكُمْ أَنَّهُ رَئِيكُمُ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾

﴿يبدبر﴾ يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للضوابط الناظر في أبعاد الأمور وعواقبها لئلا يلقاه ما يكره آخرًا و﴿الأمر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض مع بسطتها واتساعها في وقت يسير وبالإستواء على العرش، وآتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿ما من شفيح إلا من بعد إننه﴾ دليل على العزة والكبرياء كقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾⁽⁴⁾ و﴿نلكم﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي:

(1) سورة الإسراء، الآية: 95.

(2) سورة سبأ، الآية: 37.

(3) قال أحمد: لم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً، ولكن غلب العرف على قصرها، =

(4) سورة لقمان، الآية: 13.

(6) سورة يس، الآية: 39.

= كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(4) سورة النبا، الآية: 38.

(5) سورة لقمان، الآية: 13.

(6) سورة يس، الآية: 39.

الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟ قُلْتُ: الأمر كذلك، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل كأنه قال: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح وهو بين واضح لا شبهة فيه.

دَعَوْنَهُمْ فِيمَا سَخَّكَ اللَّهُمَّ وَرَبِّهِمْ فِيمَا سَلَّمُ وَأَجْرُهُ دَعَوْنَهُمْ أِنْ لَمَسَدَ لِلَّهِ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿دعواهم﴾ دعاؤهم؛ لأنَّ اللهمَّ نداء الله ومعناه: اللهم إنا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله﴾⁽⁵⁾ على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحموه، وذلك ليس بعبادة إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾⁽⁶⁾ ﴿وأخر دعواهم﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ومعنى: وتحيتهم فيها سلام أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل هي: تحية الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، وأن هي المخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله على أن الضمير للشأن كقوله: أن هالك كل من يحيي وينتعل. وقرئ: أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَةً أَسْتَعْجِلُ لَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَندَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُلُقَيْنِهِمْ يَمْمَرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أصله ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ تعجيله⁽⁷⁾ لهم الخير فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة﴾⁽⁸⁾ من السماء يعني: ولو

خَصَّ الْمُتَّقِينَ؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرונה ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا ياملون حسن لقاءنا كما يامله السعداء، أو لا يخافون سوء لقاءنا الذي يجب أن يخاف ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ من الآخرة وأثروا القليل الفاني على الكثير الباقي كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾⁽¹⁾ ﴿واطمأننوا بها﴾ وسكنوا فيها سكنون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأملوا بعيداً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتٍ بِيَدِهِمْ رِزْقٌ مُبَارَكٌ يَتَرَجَمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ الْأَنْهَارُ فِي حِجَّتِ النَّيْبِ ﴿٤﴾

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يستدهم⁽²⁾ بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب ولذلك جعل ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ بياناً له وتفسيراً؛ لأنَّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة كقوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾⁽³⁾ ومنه الحديث: «إنَّ المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا عمك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عمك فينطق به حتى يدخله النار»⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو: إيمان مقيد، وهو: الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان

(6) سورة الأنفال، الآية: 35.

(7) قال أحمد: وهذا أيضاً من تشبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على نقة نظره شاهدة وبيّنة، ولا يكاد يضع المصدر مؤكداً، أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز، يخلو من مثل هذه الفائدة الجليّة، والتحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى، والله أنبتكم من الأرض نباتاً أنه أجرى المصدر على الفعل مقدرأ عدم الزيادة، أو هذا المصدر لفعل دل عليه المنكسر تقديره نبت نباتاً، ولا يزيديون على ذلك، وإذا رجع القطن قريحته، ونأجى فكرته هل قرن المصدر في كتاب بغير فعله لفائدة، أو لا تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة، والله أعلم في اقتران قوله نباتاً، بقوله أنبتكم للتنبية على تحتم نفوذ القدرة في المقدر، وسرعة إضفاء حكمها، حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم، أي: إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً، فكان أحد الأمرين عين الآخر، فقرن به، والله أعلم.

(8) سورة الأنفال، الآية: 32.

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) قال أحمد: هو يقرّر بنلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح، وإن من لم يعمل مخلد في النار، كالكافر، وأتى له ذلك، وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال يهديهم ربهم بإيمانهم، وقول الزمخشري أن المراد إضافة العمل لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإن الله لم يعطل بغير الإيمان، وإن جرى لغيره نكر أولاً، فلا يلزم إجراؤه ثانياً، ولا محوج إليه، وشبهته أن الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيدا في التسبب، وهو ممنوع، فإن الضمير إنما يعود على النوات، لا باعتبار الصفات، وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال، وأشكال، والله الموفق.

(3) سورة الحديد، الآية: 12.

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الزهد، باب: كلام ابن عمر 324/13.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

تأكيداً لنفي إيمانهم وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إيمانهم بعد أن الرزوا الحجة ببعثة الرسل ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء يعني: الإهلاك ﴿نجزي﴾ كل مجرم وهو: وعيد لاهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ وقرىء بجزي بالياء.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَدُوًّا لِّلْأَرْضِ مِنَ بَنِيهَا كَيْفَ تَمَلُّونَ﴾ (٧)

﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكتنا ﴿لننظر﴾ اتعلمون خيراً أم شرّاً فنعاملكم على حسب عملكم و﴿كيف﴾ في محل النصب بتعلمون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يجب أن يتقدم عليه عامله.

فإن قلت^(١): كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قلت: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبه بنظر الناظر وعيان المعايين في تحققه.

﴿وَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ أُمَّةٍ وَأَنَّا بِبَنِيهَا أَنَّىٰ يُسْفَرُونَ عَرَّ هَذَا أَوْ يَدَّبَّ فَقُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ يَدَيَّ نَفْسِيٰ إِنَّهُ لَأَنفَعُ الْإِنسَانِ إِن كَانَتْ هِيَ عَصِيَّتَ رَبِّيٰ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥)

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا: ﴿أنت بقرآن﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أو بدله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط نكر الآلهة وذم عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو: أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما انزل، وأن يسقط نكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقدر عليه للإنسان ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾^(٢) ﴿أن بدله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي، وقرىء: بفتح التاء، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ لا أتى ولا أدر شيئاً من نحو ذلك إلا متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بطلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس إلي تبديل ولا نسخ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أنت بقرآن غير هذا؟﴾ قلت: بلى

عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لقضى إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا، وقرىء: لقضى إليهم أجلهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم.

فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فندز الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه؟ قلت: قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضى إليهم أجلهم فندزهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فتمهلهم ونفيس عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنسَانُ عَلَىٰ مَا هُوَ بِجَاهِلٍ بِهَا أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَنَّا كُنُفَاءً عَنْهُ سُرِرَةٌ مَّرَكَّانٌ لَّا يَدْعُنَا إِلَىٰ سُرِّ مَسْرُوكِنَا كَذَلِكَ نُزِيلُ لِلْمُتَّبِعِينَ مَا كَانُوا يَمْتَرُونَ﴾ (١٧)

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحاليين عليه أي: دعانا مضطجماً ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾.

فإن قلت: فما فائدة نكر هذه الأحوال؟ قلت: معناه: أن الضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها: كان منبطحاً عاجز النهض متخاذل النوم، أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي، والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها، ويجوز أن يراد أن من الضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفرائض، ومنهم من هو أخف، وهو: القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستنفاذ البلاء؛ لأن الإنسان للجنس ﴿مز﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد، أو مز عن موقف الابتهاال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ﴿كان لم يدعنا﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن قال: كان ثدياه حقان. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زين للمسرفين﴾ زين الشيطان بوسوسته، أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن النكر واتباع الشهوات.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءتَهُم رُسُلُهُم بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (١٣)

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال أي: ظلّموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجيج والشواهد على صدقهم وهي: المعجزات وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ﴿ظلّموا﴾ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً،

(١) قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين

النزغتين، عقيدة طائفة من القدرية، يقولون إن الله لا يرى، ولا يرى تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدم إبطال =

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

عمرًا ﴿وقرى: عمراً بالسكون يعني: فقد أقيمت فيما بينكم ياقماً وكهلاً فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما نسوه تحت قولهم: ﴿أثبت بقرآن غير هذا﴾ من إضافة الافتراء إليه.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُنصِحُونَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾

﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه نو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافه إليه من الافتراء.

وَيَسْتَدْرِكُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْتَرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرر، وقيل: إن عبودها لم تنفعهم وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون منياً على الطاعة معاقباً على المعصية، وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافاً ونائلة ﴿و﴾ كانوا ﴿يقولون هؤلاء شفعأؤنا عند الله﴾ وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ﴿اتنبئون الله بما لا يعلم﴾ اتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خيراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبؤا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبؤا به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكانهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه، وقرئ: اتنبئون بالتخفيف، وقوله: ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معبود ﴿تشركون﴾ قرئ: بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ وَإِذْ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩﴾

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ حفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل وهابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾

ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾⁽¹⁾ ويقولون: ﴿افترى على الله كذباً﴾⁽²⁾ فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغاتها إذا عجزوا عنه كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلت: لعلمهم أراوا اثت بقرآن غير هذا أو بله من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته؟ وأراد بقوله: ﴿ما يكون لي﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبله قلت: يرده قوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾.

فإن قلت: فما كان غرضهم وهم ادهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح قلت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنتك قاصر على مثله فأبطل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع واختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فيما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخرها منه ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافتراءه على الله.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَكَيْفَ لَيْتُ فِيكُمْ عُمَرًا مِّن قَبْلِهِ أَتَلَا تَمُوتُونَ ﴿١٠﴾

﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات وهو: أن يخرج رجل أمة لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليك كتاباً فصيحاً ينهر كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيتكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ولا يخفي عليكم شيء من أسرارها، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه والصقهم به ﴿ولا أدراكم به﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: ولا أدراكم به على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته في معنى: أعطيته وأرضيته، وتعضده قراءة ابن عباس ﴿ولا أنذرتكم به﴾، ورواه الفراء: ولا أدراكم به بالهمز وفيه وجهان: أحدهما: أن تقلب الألف همزة كما قيل: وليات بالحج، ورثات الميت، وحلات السويق، وذلك لأن الألف والهمزة من واد واحد، ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة، والثاني: أن يكون من دراته إذا نفعته وأدراته إذا جعلته دارتاً، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤني بالجدال وتكذبوني، وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الإبراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لساني غيري، ولكنه يمن علي من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورأني لها أهلاً نون سائر الناس ﴿فقد لبثت فيكم﴾

(2) سورة سبأ، الآية: 8.

(1) سورة الانفال، الآية: 31.

وهو: تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لِقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْقَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠﴾

وقالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يعتدونها بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، بقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتماليهم في التمرد وانهمالكهم في الغي ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتهموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحوبكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كانوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعلمون رسول الله ﷺ ويكيدونه.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ مَرَارَةٍ سَمَّوْهُمْ إِذَا لُهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ ﴿١١﴾

وإذا الأولى للشرط والآخرة جوابها وهي للمفاجأة والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا﴾؟ قلت: بلى نلت على ذلك كلمة المفاجأة كأنه قال: وإذا رحمانهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم والمعنى: أن الله

تعالى نبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تنبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إن رسلنا يكتوبون﴾ إعلم بأن ما تظنون خافيًا مطويًا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون بالتاء والياء وقيل: مكرهم قوله: سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا⁽¹⁾. قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾⁽²⁾ ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾⁽³⁾.

هُوَ الَّذِي يُبْرِئُكَ فِي الْكَلْبِ وَالْبَيْتِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي الْعَلَقِ وَرَجَمَ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ حَمَلِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أُجِيبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾

فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما جواب إذا؟ قلت: جاءت.

فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به.

فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه ينكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.

فإن قلت: ما وجه قراءة أم الدرداء في الفلكي بزيادة يائي النسب؟ قلت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جريين﴾ للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد في فعل أخي فعل، وفي قراءة أم الدرداء

= البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيبا، واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف، بأن المجعول غاية هو حمله ما في حيز، حتى من البلوغ مقرونا بلياناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل، والآخر بعد فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء، ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها مضافا إلى ما ذكر معه، ونحن نعلم أن كونهم في الفلك، وذلك أحد ما جعل غاية متقدم على التسيير، وإن كان المجموع واقعا، وكقوة الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك، والله أعلم، وإنما بسط القول ههنا لغواته، ثم فجند بما مضى عهدا.

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرفا بالنوء (الحديث رقم: 229).

(2) سورة الجمعة، الآية: 10.

(3) سورة الروم، الآية: 20.

(4) قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسننها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن أنستم منهم رشداً، فانبغوا إليهم أموالهم﴾ وقد استدل الزمخشري بها، لابي حنيفة في أن الصغير يبنتلي قبل البلوغ أن يسلم إليه قبر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ، قال الزمخشري وجه الاستدلال أن الله تعالى، جعل =

لِلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ سَخَّ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْأَرْضَ تُزْرِفُهَا وَأَزَيْنَتْ
وَزَيَّنَّا أَهْلَهَا أَنَّهُمْ كَيُذَوِّرُونَ عَلَيْهَا آثَنًا أَمْثَلًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾

هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التفت وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه ﴿فاختلط به﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ﴿أخذت الأرض زخرفها وأزيناها﴾ كلام فصيح، جعلت الأرض أخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكستتها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل أزيناها تزينت فادغم وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: وأزيناها على أفعلت من غير إعلال الفعل كأفعلت أي: صارت ذات زينة، وأزيناها بوزن ابياضت ﴿قادرين عليها﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿آتاها أمرنا﴾ وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعدًا منهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدًا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿وكان لم تغن﴾ كان لم يغن زرعها أي: لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: كان لم يغن بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كان لم تتغن بالأمس من قول الأعشى:

طويل الثواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كان لم تغن آنفًا.

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿دار السلام﴾ الجنة أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، وقيل: السلام السلامة؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفسق السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إلا قبيلاً سلاماً سلاماً﴾⁽⁵⁾ ﴿ويهدي﴾ ويوفق ﴿ومن يشاء﴾ وهم الذين علم أن اللطف يجدي عليهم؛ لأن مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يخلها إلا المهديون.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْجَىٰ وَرِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُونَ وُجُوهَهُمْ نُورٌ وَلَا ذُلٌّ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْبَغِيهَا وَرَهَقَهُمْ ذُلٌّ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ

للفلك أيضاً؛ لأن الفلكي يدل عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الرياح الطيبة أي تلتقتها، وقيل: الضمير للفلك من كل مكان من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أي: أهلكوا، جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿ولئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول، ولأن دعوا من جملة القول.

فَلَمَّا أَحْبَبْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا سَرَجِمَكُم بِمَا كُنْتُمْ تَمُورُونَ ﴿١٩﴾

﴿يبغون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في تلك ممعنين فيه من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿بغير الحق﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قلت: بلى وهو: استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب.

فإن قلت: ما الفرق بين القراءتين؟ قلت: إذا رفعت كان المتاع خبيراً للمبتدأ الذي هو بغيكم، وعلى أنفسكم صلته كقوله: بغيي عليهم، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني: بغي على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت فعلى أنفسكم خبر غير صلة معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم ومتاع الحياة الدنيا في موضع المصدر المؤكد كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكر ولا تعن مكرًا، ولا تبغ ولا تغن باغيًا، ولا تتكث ولا تعن ناكثًا، وكان يتلوها»⁽¹⁾. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابًا البغي واليمين الفاجرة»⁽²⁾. وروي «ثنتان يجعلهما الله تعالى في الدنيا البغي، وعقوق الوالدين»⁽³⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغي جبل على جبل لندك الباغى⁽⁴⁾، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه.

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فاربغ فخير فعالم المرء أعدله فلو بغي جبل يومًا على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر قال الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَبِيبَةِ الْأُذْيَا كَمَا أَرْزَلْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتٌ

(1) رواه الحاكم في المستدرک 338/2.

(2) رواه أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 4512).

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 48/2 باب: البغي (الحديث رقم: 591).

(4) سورة الواقعة، الآية: 26.

رقم: 6693.

(4) رواه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم اعراض الناس (الحديث رقم: 6693).

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ
فَزَلْنَا بَيْنَهُمُ الْقُلُوبَ فَكَانُوا كَالْهِيَاطِ الْمُرْتَمِلِينَ ﴿١٧﴾

﴿مكائكم﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم و ﴿انتم﴾ أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه، وقرئ: وشركاءكم على أنّ الواو بمعنى: مع والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿فزلبنا بينهم﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون، ومن بون الله قالوا ضلوا عنا﴾ (5) وقرئ: ﴿فزلبنا بينهم كقولك: صاعر خده وصعره وكالتمه وكلمته﴾ ما كنتم ايانا تعبدون ﴿إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث امرؤكم ان تتخونوا الله اناداء فاطعتومهم.

كَلَّا وَاللَّهِ سَيَسِّرُنَا بَيْنَكُمُ وَإِنَّا لَنَافِلِينَ ﴿١٨﴾

﴿ان كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وهم: الملائكة والمسيح ومن عبوه من بون الله من اولي العقل، وقيل: الاصنام ينطقها الله عز وجل فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها اطماعهم.

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴿١٩﴾

﴿هنالك﴾ في تلك المقام وفي تلك الموقف، أو في تلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلوا كل نفس﴾ تختبر وتدق ﴿ما أسلفت﴾ من العمل فتعرف كيف هو؟ أقبيح أم حسن، انافع أم ضار، أمقبول أم مربود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويعرفه ليكتنه حاله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (6) وعن عاصم: نبلو كل نفس بالنون ونصب كل أي: نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل فتعرف حالها بمعرفة حال عملها إن كان حسناً فهي سعيدة وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى نفع بها كما فعل الخابر كقوله تعالى: ﴿لبيلوكم ايكم أحسن عملاً﴾ (7) ويجوز أن يراد نصب بالبلاء وهو: العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: تتلو أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهده إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر ﴿مولاهم الحق﴾ ربهم الصائق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرئ: الحق بالفتح على

كَلَّمَآ أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمُ وَقَلَّمَآ مِن آيَلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَحْسَبُ النَّارَ
هُمُ يَوْمَ يَخْلَوْنَ ﴿٢٠﴾

﴿الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ (1) وعن علي رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريون أن أمطرکم؟ فلا تريون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة: أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إننا نخل أهل الجنة الجنة نوبوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فواه ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه» (2) ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاهم ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا نلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إنكاراً بما ينقدهم منه برحمته الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وترهقهم نلة﴾ (3)

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ وكيف يتلام؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿والذين كسبوا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿الذين أحسنوا﴾ كانه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وإما أن يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها وهذا أوجه من الأول؛ لأن في الأول عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عمله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: يرهقهم نلة بالياء، ﴿من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿مظلمًا﴾ حال من الليل، ومن قرأ قطعاً بالسكون من قوله: ﴿يقطع من الليل﴾ (4) جعله صفة له وتعضده قراءة أبي بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم.

فإن قلت: إذا جعلت مظلمًا حالاً من الليل فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون أغشيت من قبل إن من الليل صفة لقوله: ﴿قطعاً﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإما أن يكون معنى الفعل في من الليل.

(4) سورة هود، الآية: 81.

(5) سورة غافر، الآيات: 73 و74.

(6) سورة الطارق، الآية: 9.

(7) سورة هود، الآية: 7.

(1) سورة النساء، الآية: 173.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (الحديث رقم: 448).

(3) سورة عبس، الآية: 41.

فإن قُلْتَ: كيف قيل لهم: ﴿هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قُلْتَ: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن نفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب يعني: أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى ومنه قوله: ﴿أمن لا يهدي﴾ وقرئ: لا يهدي بفتح الهاء وكسرهما مع تشديد الدال والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهذا للمبالغة ومنه قولهم: يتهدى ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الألة التي نصبها لهم وبما لطف بهم ووقفهم والهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً ل أحد من أشرفهم كالملائكة والمسبح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أقمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي: لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدي﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهبه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله.

وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ في إقرارهم بالله ﴿إلا ظناً﴾؛ لانه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إن الظن﴾ في معرفة الله ﴿لا يغني من الحق﴾ وهو: العلم ﴿شئياً﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إن الله عليهم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون بالتاء.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَتَّبِعَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ صَدِيقَ الْوَلِيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْضِي الْكُتُبَ لَا رَبَّ يَوْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ وهو: ما تقدمه من الكتب المنزلة؛ لأنه معجز دونها فهو عبارة عليها وشاهد لصحتها لا يؤمنون.

تأكيد قوله: ﴿ردوا إلى الله﴾ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح كقولك: الحمد لله أهل الحمد ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلفون من الكذب وشفاعة الآلهة.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ نَقْلَ أَفَلَا نُنْفِئُ ﴿٣٨﴾

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي: (١) يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿من يملك السمع والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويها عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميها ويحصنها من الأفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلماته وحفظه ﴿ومن يدير الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال.

فَلْيُذَكِّرْ اللَّهُ رِزْقَهُمْ فَمَاذَا بَدَّ الْحَيِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَلَّا تُصْرَفُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ربكم للحق﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخلى الحق وقع في الضلال ﴿فأني تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ عَلَى اللَّهِ يَسْتَبْدُونَ أَلَمْ نَكُنْ نَمُودُ فَمَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٢﴾

﴿كذلك﴾ مثل تلك الحق ﴿حققت كلمت ربك﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكنك حقت كلمة ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأن إيمانهم غير كائن، أو أراد لكلمة العدة بالعذاب و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تحليل بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

(1) قال أحمد: وهذه الآية كافية لوجه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق = العبد لنفسه، وهو: الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا، أقانت تسمع الصم، ولو كانوا لا يعقلون.

(1) قال أحمد: وهذه الآية كافية لوجه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق = منتقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه

كقوله تعالى: ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾⁽¹⁾ وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على ﴿ولكن هو تصديق... وتفصيل﴾ ومعنى: وما كان أن يفترى، وما صح وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾⁽²⁾.

فإن قُلْت: بم اتصل قوله: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؟ قُلْت: هو داخل في حيز الاستبرك وأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتقياً عنه الريب كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضاً كما تقول: زيد لا شك فيه كريم.

أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ مَا تَنزَّلْنَا بِنُورٍ مِّن لَّدُنَّا مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَلْمَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُفْرًا سَدِيدًا ﴿٢٨﴾.

﴿ثم يقولون افتراه﴾ بل يقولون اختلقه على ان الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فأتوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ومعنى: بسورة مثله أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: بسورة مثله على الإضافة أي: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من نون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره فلا تستعينوه وحده ثم استعينوا بكل من نونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَزِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، ونلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشيء على التقليد من الحشوية إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وآله وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أول وهلة وأشماز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا بصحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قُلْت: ما معنى التوقع في قوله: ﴿ولما ياتهم تأويله﴾؟ قُلْت⁽³⁾: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليداً للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً، فمهمم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كثر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كذلك﴾ أي: مثل نك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ولكن قلوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى ﴿ولما ياتهم تأويله﴾ ولم ياتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز، ونظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، ففسرعو إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُنِيبِينَ ﴿٤١﴾.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصر ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندنين، أو المصريين.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَجَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك ويثست من إجابتهم فبترأ منهم وخلصهم فقد أعذرت كقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل لني بريء﴾⁽⁴⁾ وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمْتَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصَّمْتَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: اتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في

= للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بانهم قد أحاطوا بعلمه، حتى تنحس أعذارهم، ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(1) سورة فاطر، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 24.

(3) قال احمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يومه عنراً ما = (4) سورة الشعراء، الآية: 216.

فإن قُلْتُ: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم؟ قُلْتُ: نكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عملة ثم: بالفتح أي: هنالك، ويجوز أن يراد أن الله مؤدِّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولَهُمْ فَهُمْ بِالْقَسْطِ وَمَنْ لَا يَظْلُمُونَ (١٧) وَيُرْوَدُ أَنَّ هَذَا الْوَعْدُ إِذْ كُنْتُمْ صَوَابِينَ (١٨).

﴿ولكل أمة رسول﴾ يبعث إليهم لينبئهم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضى بينهم﴾ أي بين النبي ومكذبيه ﴿بالقسط﴾ بالعدل فانجى الرسول وعذب المكذبون كقوله: ﴿وما كنا معنيين حتى نبعث رسولا﴾ (١) ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبیین والشهداء وقضى بينهم بالحق﴾ (٢) ﴿مضى هذا الوعد﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له.

قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةٌ وَإِذَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةٌ وَإِذَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةٌ وَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ (١٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُوا بِبَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْلِمُونَ (٢٠) أُمَّةٌ إِذَا مَا رَعَى مَا سَمِعَ بِهِمْ وَأَلْفَنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْمَعُونَ (٢١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّاقِ هَلْ تَجِرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٢)

﴿لا أملك لنفسي ضراً﴾ من مرض أو فقر ﴿ولا نفعاً﴾ من صحة أو غنى ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟ ﴿لكل أمة نجل﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحدٌ محدد من الزمان ﴿إذا جاء﴾ تلك الوقت أنجز وعيدكم لا محالة فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء أجالهم ﴿ببيئات﴾ نصب على الظرف بمعنى: وقت بيات.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ليلاً أو نهاراً؟ قُلْتُ: لأنه أريد إن اتاكم عذابه وقت بيات فبياتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نهاراً﴾ معناه في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش والكسب ونحوه: ﴿ببياتاً وهم نائمون﴾ (٣) ﴿ضحى وهم يلعبون﴾ (٤) الضمير في ﴿منه﴾ للعذاب والمعنى: أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه:

صماخه نوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر. واتحسب أنك تقدر على هداية العمى؟ ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحس ويتظن، وأما العمى مع الحق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول وقوله ﴿أفانت﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حبيدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٢٣).

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب. ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يُبَيِّنُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَيْعَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٢٤).

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم.

فإن قُلْتُ: كان لم يلبثوا؟ و﴿يتعارفون﴾ كيف موقعهما؟ قُلْتُ: أما الأولى: فحال من هم أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة لقوله: ﴿كان لم يلبثوا إلا ساعة﴾ لأن التعارف لا يبيق مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قد خسروا﴾ على إرادة القول أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ للتجارة عارفين بها، وهو: استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أخسروا.

وَأَمَّا رَبُّكَ بِعِزِّ الَّذِي يُؤْتِيهِمْ أَوْ نَوِّتَهُمْ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَمْشُرُونَ (٢٥).

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾ وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعددهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نرينك فنحن نرينك في الآخرة.

(3) سورة الاعراف، الآية: 97.

(4) سورة الاعراف، الآية: 98.

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.

(2) سورة الزمر، الآية: 69.

التعجب كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من للبيان في هذا الوجه وقيل: الضمير في منه لله تعالى.

فإن قُلْتُ: بم تعلق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قُلْتُ: تعلق بأرايتم؛ لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: فهلا قيل ماذا تستعجلون منه؟ قُلْتُ: أريد الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو: الإجمام؛ لأنَّ من حق المجرم أن يخاف التعنيب على إجرامه ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أباطاً فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون جواباً للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، ثم تعلق الجملة بأرايتم وأن يكون ﴿أنتم إذا ما وقع أمنتم به﴾ جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضاً والمعنى: إن أتاكم عذابه أمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وبخول حرف الاستفهام على ثم كدخله على الواو والفاء في قوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿أوأمن أهل القرى﴾⁽²⁾ ﴿الآن﴾ على إرادة القول أي: قيل لهم إذا أمنوا بعد وقوع العذاب الآن أمنتم به ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنَّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: ﴿الآن﴾ بحذف الهمة التي بعد اللام والفاء حركتها على اللام. ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ عطف على قيل المضمرة قبل ﴿الآن﴾.

﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي رَزَقَ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ يُمْعِرِينَ﴾⁽³⁾

﴿ويستنبؤنك﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أحق هو﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: أحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل وذلك أنَّ اللام للجنس فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو هو الذي سميتومه الحق والضمير للعذاب الموعود و ﴿أي﴾ بمعنى: نعم في القسم خاصة كما كان هل بمعنى: قد في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: أو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِمْ وَأُسرُوا أَندَامَةً لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُوضَ إِلَيْهِمْ بِالْوَسْطِ وَمَنْ لَا يظلمُونَ﴾⁽⁴⁾

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على ولو أنَّ لكل نفس ظالمة ﴿ما في الأرض﴾ أي: ما في الدنيا اليوم من خزائنها

وأموالها جميع منافعها على كثرتها ﴿لافتدت به﴾ لجعلته فدية لها يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعابنوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم، وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب كما ترى المقدم للصلب يخنخه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامداً مهزواً، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم سر الشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة أظهورها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد ﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين دل على نك نكر الظلم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٌ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽⁶⁾

ثم أتبع ذلك ذكر الإعلام بأنَّ له الملك كله، وأنه المتيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك فيخاف ويرجى ولا يفترقه المغترون.

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁷⁾

﴿قد جاءكم موعظة﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد ﴿ووه﴾ هو ﴿شفاء﴾ أي: نواء ﴿لما في﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق ﴿ورحمته﴾ لمن آمن به منكم.

قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ رِزْقِيهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾⁽⁸⁾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْرَبُوا﴾⁽⁹⁾

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح بون ما عدهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المنكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك فبمجئها

(2) سورة الأعراف، الآية: 98.

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمرة، والآخرى: نكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة، والمبالغة، والله أعلم.

ولشأن الأمر وأصله الهمز بمعنى: القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده والضمير في ﴿منه﴾ للشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل النكر تفخيم له أو لله عز وجل وما ﴿تعملون﴾ أنتم جميعاً ﴿من عمل﴾ أي عمل كان ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إن تفيضون فيه﴾ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب، ومنه: الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل من مثقال ذرة أو على لفظ مثقال ذرة فتحاً في موضع الجر لامتناع الصرف إشكالاً؛ لأن قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل.

فإن قُلْتَ: لم قَدِّمْتَ الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ (5) قُلْتَ: حق السماء أن تقدم على الأرض ولكنه لما نكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: لا يعزب عنه، لاعم ذلك أن قَدِّمَ الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم الثنية.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا حَوَافَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾
أَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الشَّرَفُ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ السَّمْعُ
الْمُطِيبُ ﴿١٤﴾

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وقد فسر ذلك في قوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبیر: أن رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين ينكر الله برؤيتهم» (6) يعني: السمات والهيئات، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من عباد الله عبادة ما هم بانيبء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم؛ وما أعمالهم، فلعلنا نجيبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور

فليفرحوا، وقرئ: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روي، وعنه: «لتأخنوا مصافكم» (1) قالها في بعض الغزوات وفي قراءة أبي: فافرحوا ﴿وهو﴾ راجع إلى ذلك. وقرئ: مما تجمعون بالياء والتاء وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ فقال: «بكتاب الله والإسلام» (2) وقيل: فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه ﴿أرايتم﴾ أخبروني و ﴿ما أنزل الله﴾ ما في موضع النصب بانزل أو بأرايتم في معنى أخبروني ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ أي: أنزل الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه وقتلتم: هذا حلال، وهذا حرام كقولهم: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ (3) ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ (4) ﴿الله أن لكم﴾ متعلق بأرايتم، وقل تكرير للتوكيد والمعنى: أخبروني الله أن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بأنهم؟ أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريراً للافتراء وكفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغاً عن التجوز فيما يستل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُرُّ
مُقْبِلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: وما ظن على لفظ الفعل ومعناه: وأي ظن ظنونا يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكان قد كان ﴿إن الله لنوا فضل على الناس﴾ حيث انعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ بِنَاءٍ وَمَا يَمُرُّ عَنْ رَبِّكَ يَنْتَقِلُ
ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾

﴿وما تكون في شأن﴾ ما نافية والخطاب لرسول الله ﷺ

(4) سورة الأنعام، الآية: 139.

(5) سورة سبأ، الآية: 3.

(6) رواه ابن أبي شيبة.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص، (الحديث رقم: 3235).

(2) رواه ابن أبي شيبة 501/1 كتاب: فضائل القرآن، باب: في الفضل.

(3) سورة الأنعام، الآية: 138.

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِيَّاهُ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
وَأَنَّهُمْ إِلَّا بَحْرُومٌ ﴿١٦﴾

﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ يعني: العقلاء
المميزين وهم الملائكة والثقلان وإنما خصهم ليؤثروا
هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم وهو سبحانه
وتعالى ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون
شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون
له نداً وشريكاً، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك
أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما
أدى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى وما يتبعون شركاء
أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛
لأن شركة الله في الربوبية محال ﴿إن يتبعون إلا﴾ ظنهم
أنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يخرصون ويقدرون
أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً، ويجوز أن يكون وما يتبع
في معنى الاستفهام يعني: وأي شيء يتبعون وشركاء على
هذا نصب يبدعون وعلى الأول يتبع، وكان حقه وما يتبع
الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقصر على
أحدهما للدلالة، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على
من كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله
شركاء أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: تدعون بالباء ووجهه أن يحمل وما يتبع
على الاستفهام أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء
من الملائكة والنبیین يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه فما
لكم لا تفعلون مثل فعلهم كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين
يدعون يتبعون إلى ربهم الوسيلة﴾ (8) ثم صرف الكلام عن
الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن
ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبیین من الحق.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْمَعُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي
يستحق بها أن يوحده بالعبادة بأنه جعل لهم الليل مظلاً
ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في
المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطلب أرزاقهم
ومكاسبهم ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع معتبر منكر.

وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا
يحزنون إذا حزن الناس⁽¹⁾. ثم قرأ الآية ﴿الذين آمنوا﴾
نصب أو رفع على المدح أو على الوصف الأولياء أو على
الابتداء والخبر ﴿لهم البشرى﴾ والبشرى في الدنيا ما
بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن
النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى
له»⁽²⁾ وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوة وبقيت
المبشرات» وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن
أبي نر: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه
الناس؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽³⁾ وعن عطاء: لهم
البشرى عند الموت تاتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى:
﴿تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا
بالجنة﴾⁽⁴⁾ وأما البشرى في الآخرة: فتلقى الملائكة إياهم
مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض
وجوههم، وإعطاء الصحائف بإيمانهم، وما يقرؤون منها،
وغير ذلك من البشارات ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير
لاقواله ولا إخلاف لمواعيده كقوله تعالى: ﴿ما يبذل القول
لدي﴾⁽⁵⁾ و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين،
وكلتا الجملتين اعتراض.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ جَئِيمٌ هُوَ السَّجُّ
الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ولا يحزنك﴾ وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه
﴿قولهم﴾ تكتبيهم لك وتهديهم وتشاورهم في تدبير
هلاك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إن
لعزة لله﴾ استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي
لا أحزن فقيل: إن العزة لله جميعاً أي: إن الغلبة والقهر في
ملكة الله جميعاً لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم،
فهو يغلبهم وينصرهم عليهم ﴿كتب الله لأغلبن أنا
ورسلي﴾⁽⁶⁾ ﴿إننا لننصر رسلنا﴾⁽⁷⁾ وقرأ أبو حيوة: أن
العزة لله بالفتح بمعنى لأن العزة على صريح التعليل، ومن
جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره فالمنكر هو يخرجها لا ما
أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما
يقولون ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم
بذلك.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْجُ

= 315/5

(3) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على
الصالح ففيه بشرى ولا تصره (الحديث رقم: 6663).

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة ق، الآية: 29.

(6) سورة المجادلة، الآية: 21.

(7) سورة غافر، الآية: 51.

(8) سورة الإسراء، الآية: 57.

(1) رواه أبو نعيم في الحلية 1/5، والبيهقي في الشعب، باب: في
مقاربة ومودة أهل الدين فصل في المصافحة والمعانقة عند
الانتقاء، (الحديث رقم: 8998)، رواه ابن حبان في كتاب: البر
والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، (الحديث رقم: 573)، والحاكم
في المستدرک 4/420.

(2) رواه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: «لهم البشرى في الحياة
الدنيا» (الحديث رقم: 2275)، وابن ماجه في كتاب: تعبیر الرؤيا،
باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (الحديث رقم:
3898)، والحاكم في المستدرک 4/391 والإمام أحمد في المسند =

والواو بمعنى: مع يعني فاجمعوا أمركم مع شركائكم وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفاً على الضمير المتصل وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام كما تقول: اضرب زيداً وعمرو وقرئ: فاجمعوا من الجمع وشركاءكم نصف للعطف على المفعول، أو لأن الواو بمعنى: مع، وفي قراءة أبي: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم كقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾ (٣).

فإن قلت: ما معنى الأمرين أمرهم الذي يجمعونه وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعني: فاجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلّة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاته وعصمته إياه وأنهم لن يجنوا إليه سبيلاً، وأما الثاني: ففيه وجهان أحدهما: أن يرد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم يعني: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي: غماً وهماً، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يرد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمة إذا ستره ومنها قوله عليه السلام: «ولا غمة في فرائض الله» (٤)، أي: لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصمك إلا إهلاكك مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به ﴿ثم اقصوا إلي﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي أي: أنوا إلي قطعته وتصحيحه كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ (٥) أو أنوا إلي ما هو حق عليكم عنكم من هلاكك كما يقضي الرجل غريمه ﴿ولا تنظرون﴾ ولا تمهلوني وقرئ: ثم اقصوا إلي بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلي بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى القضاء أي: اصحروا به إلي وأبرزوه لي.

فإن تولى فما سألنك من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المشيرين (٦).

﴿فإن توليتم﴾ فإن عرضتم عن تنكيري ونصيحتي ﴿فما سألتكم من أجر﴾ فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به نبياً، يريد أن نلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به،

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لِمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨).

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغني﴾ علة لنفي الولد؛ لأن ما يطلب به الولد من يلد وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: إن عندكم على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك: ما عندكم بارضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿اتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُلْمُونَكَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا نُورًا إِنَّمَا مَرْحَمُهُمْ ثُمَّ يُبْقِيهِمُ اللَّهُ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧).

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه ﴿متاع في الدنيا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناسبة النبي ﷺ بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا تُوقِئُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ عَابِدِينَ لِمَا أَنتُمْ شُرَكَاءُكُمْ فَمَنْ حَقَّ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّفٌ فَاجْتَمِعُوا أُنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أُنْتُمْ عَلَيْهِمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُظْهِرُوا (٧).

﴿كبر عليكم﴾ عظم عليكم شق وثقل ومنه قوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (١) ويقال: تعاطمه الأمر ﴿مقامي﴾ مكاني يعني: نفسه كما تقول فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقيل الظل، ومنه: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ (٢) بمعنى: خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم مدداً طوياً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو مقامي وتنكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بيتاً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ من أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يوماً وأمرى مجمع

(4) نكره القاضي عياض في الباب الأول من كتاب الشفاء في فصل فصلحته (الزليعي 136/2).

(5) سورة الحجر، الآية: 66.

(1) سورة البقرة، الآية: 45.

(2) سورة الرحمن، الآية: 46.

(3) سورة الاعراف، الآية: 195.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: هم قطعوا بقولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ على أنه سحر. فكيف قيل لهم: اتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿اتقولون للحق﴾ اتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تدعنوا له وتعظموه من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول. إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونحو القول الذكر في قوله: ﴿سمعنا فتى ينكرهم﴾⁽²⁾ ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ فانكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول اتقولون وهو ما دل عليه قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كانه قيل: اتقولون ما تقولون يعني: قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ ثم قيل: أسحر هذا وإن يكون جملة قوله: ﴿أسحر هذا﴾ ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: اجثتما بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ولا يفلح للساحرون﴾ كما قال موسى للسررة: ﴿ما جثتم به لسحر إن الله سيطلعك﴾⁽³⁾.

فَأَلَّا أَجْتَنَّا لَلِإِنْسَانِ عَصَاً وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَكُنَّا لَكُمْ كَذِبِيَّةً فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عِلْمِي ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقُولُوا مَا أَنْتُمْ تُقُولُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿لتفتننا﴾ لتصرفنا، والفت والغفل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانتقال ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿وتكونون لكما كبرياء﴾ أي: الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر، ولذلك قيل للملك الجبار، وصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

ملكه ملك رافة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا نهما وإنما إن ملكاً أرض مصر تجبراً وتكبيراً كما قال القبطي لموسى عليه السلام: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾⁽⁴⁾ ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: مصنفين لكما فيما جثتما به. وقرئ: يطبع ويكون لكما بالياء.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا قَالِ اللَّهُ لَمُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَحْسَرُ هَذَا وَلَا تُلْهِجُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُتَمَيِّنِينَ ﴿٨١﴾.

والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحتهم، فنكر أن توليهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير.

فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَّمَّ فِي النَّارِ وَجَمَلَتْهُمْ حَلَّتْ بِهَا وَغَرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان ﴿وجعلناهم خلثف﴾ يخلفون الهالكين بالفرق ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن اتنزههم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسليته له.

ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَدْوِهِ رُسُلًا إِنَّ قَوْمَهُمْ لَفَاسِقُونَ وَالَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ نَطِيعٌ عَلَى قُرْبِ الْمُتَمَتِّينَ ﴿٧٦﴾.

﴿من بعده﴾ من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ يعني: هوذا، وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعبياً ﴿فجاؤهم بالبينات﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث إليهم أحد ﴿كنك نطيع﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطيع ﴿على قلوب المعتدين﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَدْوِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِبِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل ﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ كفاراً نوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا قَالِ اللَّهُ لَمُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَحْسَرُ هَذَا وَلَا يُلْهِجُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾.

= يستفاد ذلك بما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام إبي المعالي في مسألة تحريمه التكبير، لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإننا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه، فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جازاً به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء، وأما القراءة الثانية، ففيها، والله أعلم إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولاً اتقولون للحق لما جاءكم أسحر من هذا حكاية لقولهم، ويكون أسحر هذا هو الذي قالوه، ولا يناقض =

(1) قال أحمد: في الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً، وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 60.

(3) سورة يونس، الآية: 81.

(4) سورة القصص، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جازاً به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً، وإنما =

وَقَالَ مُوسَىٰ يُدْعَىٰ إِنَّ كُنتُمْ مَأْمَنُومٌ بِاللَّهِ فَقَلِّدْ نَوْكَوًا إِنْ كُنتُمْ تُسْلِبِينَ ﴿٨٤﴾

﴿إِنْ كُنتُمْ مَأْمَنُومٌ بِاللَّهِ﴾ صدقتكم به وبآياته ﴿فعلية توكلوا﴾ فإليه استنوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوة.

فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَرَبَّنَا بَرِّئْنَا مِنَّا مِنَ الْكُفْرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لأن القوم كانوا مخلصين لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة لهم أي: عذاب يعنبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

وَأَرْجَسْنَا إِلَىٰ مِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَىٰ وَآلِيهِ أَنْ يَبْرِئُوا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٨٧﴾

تبوأ المكان اتخذته مائة كقولك: توطنه إذا اتخذته وطناً والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مائة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿واجعلوا بيوتكم﴾ تلك «قابلة» أي: مساجد متوجهة نحو القبلة وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤنؤهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة. فإن قلت: كيف نوع الخطاب فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟ قلت: خاطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوأ

﴿ما جئتم به﴾ ما^(١) موصولة واقعة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله وقرئ: السحر على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي: أي شيء جئتم به أهو السحر. وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحر، وقرأ أبي: ما أتيتم به سحر والمعنى: لا ما أتيت به ﴿إن الله سيبتله﴾ سيمحقه ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبت ولا يديمه ولكن يسلط عليه الدمار.

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّبَشِيرٍ. وَوَكَّرِ الْمَجْرُمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿ويحق الله الحق﴾ ويثبت ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضياه وقرئ: بكلمته بامرهم ومشيتهم.

فَمَا مَأْمَنَ يُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ. عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِمْ أَنْ يَقْتُلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَلِمًا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٧﴾

﴿فما آمن لموسى﴾ في أول أمره ﴿إلا ذرية من قومه﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، ولجأته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون والذرية، مؤمن آل فرعون، وأسرة امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وما شطته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله «وملئهم»؟ قلت: إلى فرعون بمعنى: آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه نزل أصحاب ياتمرون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ويدل عليه قوله «أن يفتنهم» يريد: أن يعذبهم «وإن فرعون لعال في الأرض» لغالب فيها قاهر «وإنه لمن المسرفين» في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتق بادعائه الربوبية.

المترانفة المتساوية المعاني، وحاصل هذا البحث، أن قول موسى عليه السلام اتقون للحق لما جاءكم أسحر هذا إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافاهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً، فقال: ما جئتم به أسحر على قراءة الاستفهام قرصاً برفاء على السواء، والذي يحق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى، مؤداهما واحد، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جئتم به هو السحر على الوجهين الخبر، والاستفهام على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أن مؤدي الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر، وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعريب، أو إضمار مفعول تقولون استشكل وقوع الاستفهام محكياً بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر، وقد أوضحنا أنه لا تناقض، ولا تنافي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل على التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا: إن هذا لسحر مبين وذلك، إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً بتبؤا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق، والاستهتار بكونه حقاً، والاستهتار بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن آيت من الإخبار، ألا ترى أنهم يقولون في قوله: أنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله مخبراً: أنت أم سالم، ثم تنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا إن هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، وويخهم موسى على قولهم الأول، ومعنى العبارتين ومألهما واحد، وإما إن لا يكونوا قالوا سوى أسحر هذا على سبيل الإنكار حسماً تقدم، فحكاه الله تعالى عنهم بمأله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبت القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام: قولهم بلفظه، ولم يؤده بعبارة أخرى، وحكاية القصص المتولة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالالفاظ =

نعمة الله سبباً في الضلال، فكانهم أوتوها ليضلوا وقوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أنك أتيت على الاستقهام واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُبَيِّتَ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتِمَّاعًا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

قرئ: دعواتكما قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إن دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿فاستقيما﴾ فاتبتا على ما انتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً، ولا تستعجلاً، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين يعلمون﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلاً فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال نوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (2) وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرهما لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التنثية وبخفيف التاء من تبع.

﴿وَجَوْرَنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَبْعَثَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُوْدُهُ بَيْنًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ مَا نَسْتُكُمْ إِلَّا آلَ الَّذِينَ مَا نَسْتُكُمْ بِهِمْ بَرًّا بِإِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠).

قرا الحسن: وجورنا من أجاز المكان وجوره وجاوزه وليس من جوز من الذي في بيت الأعمش:

وإذا يجوزها جبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: وجورنا بني إسرائيل في البحر كما قال، كما جوز السكي في الباب فيق. ﴿فاتبعهم﴾ فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: وعدوا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الباء التي هي صلة الإيمان وأنه بالكسر على الاستئذان بدلاً من أمنت. كرر المخنول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف (3).

لقومهما بيوتاً ويختارها للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها والمبشر بها.

وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس عن أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب العظيم ﴿٨٩﴾.

الزينة ما يترزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو اثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معان من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؟ قلت: (1) هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: ﴿ربنا اطمس... واشدد﴾ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيئاته عرضاً مكرراً، وردت عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنزهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورأهم لا يزيبون على عرض الآيات إلا كفرًا، وعلى الإنذار إلا استكبارًا، وعن النصيحة إلا نبوءًا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحى من الله، اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقتته وكرهاته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزي الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستاهلون إلا أن يخلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه كأنه قال: ليثبوتوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا، وما علي منهم هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر: إذا ما لم يقبل منه حسرة على ما فاته من قبول نصيحته وجردها عليه لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدد﴾ أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل على أنهم جعلوا

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزله الخفي الذي هو ألق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفًا، ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل، والباطن أن اللام للتعليل، وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استنتراجاً ليزدانوا إثمًا وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملئ لهم ليزدانوا إثمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمنخشي بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجوار أن يملئ لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما

(2) سورة هود، الآية: 46.

(3) قال أحمد: ولقد انكر منكرًا، وغضب الله ولملائكته، كما يجب لهم، والله الموفق.

ءَأَتَيْنَ وَكَدَّ عَصِيَّتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُتَعِدِّينَ ﴿١١﴾.

وكان مطرحة كان على ممر من بني إسرائيل حتى قيل: ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ﴾ وقيل ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عيوبته ومهانتة وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل فما الظن بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلفك بالالف أي: لتكون لخالفك آية كسائر آياته ويجوز أن يراد ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة إن مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعدد منه لإمطة الشبهة في أمرك.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِلِمْبُؤِ صِدْقِي وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْوَيْلُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتُكْرَبُونَ مِنَ الْخَائِرِينَ ﴿١٤﴾.

﴿مبوا صدق﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو: مصر والشام ﴿فما اختلفوا﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة وعلما أن الاختلاف فيه تفرق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب اختلفهم في صفته ونعته وأنه هو، أم ليس به بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ (3).

فإن قلت (4): كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله: في الكفرة ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ (5) قلت: فرق عظيم بين قوله: ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه فتقديراً ﴿فاسئل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى: أن الله عز وجل قدم نكر بني إسرائيل وهم قراءة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ

﴿الآن﴾ اتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدرك الغرق وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين الجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى: أنه حين قال: آمنت، أخذ جبريل من حال البحر ففسده في فيه المغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات الباهتئين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (1) روي أن جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته ووجد حقه وأدعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماء أن يغرق في البحر، فلما الجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه (2).

تَالْيَوْمِ نَبِّحُكَ بِذَنبِكَ لَتُكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كِبْرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا لَكُنِيئًا لَّكُنِيئُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف نبعك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقبك بنجوة من الأرض، وقرئ: ننجيك بالحاء نلقبك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿ببندك﴾ في موضع الحال أي: في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن، أو ببندك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك، قال عمرو بن معد يكرب:

أعاندل شكنتي بنني وسيفي وكل مقلص سلس القياد
وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بآبدانك وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني ببندك كله واقياً بأجزائه، أو يريد بدرعك كأنه كان مظاهراً بينها ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم: بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبداً، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فآلقاه الله على الساحل حتى عاينوه

= ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله﴾، فامر بالسؤال، والجواب جميعاً، لكان اتوم وأسلم والله أعلم.

(5) سورة هود، الآية: 110.

(1) سورة النحل، الآية: 88.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره 241/8.

(3) سورة البقرة، الآية: 146.

(4) قال أحمد: ولو قال هذا المفسر إن نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام، توطئة لأمره بالسؤال، لتقوم حجته على المسؤولين، لا =

التي أهلكتها ثابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعايبة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه لم ﴿ففنعها إيمانها﴾ بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبي عبد الله: فهلا كانت ﴿إلا قوم يونس﴾ استثثناء من القرى؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلًا والجمله في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى المهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ: بالرفع على البدل هكذا روي عن الجرمي والكسائي: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنة بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسود هائلًا يدخن بخانًا شديدًا، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسأهم وصبيانهم ونوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين النواب وأولادها، فحنَّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترائوا المظالم حتى إن الرجل كان يقطع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لاحي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا اللهم إن نؤوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ
الْأَنْسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا تُرُوبِيًّا ﴿١٧﴾

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة⁽⁵⁾ القسر والإلجاء ﴿لأمن من في الأرض كلها﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جميعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، إلا ترى إلى قوله: ﴿فأفأنت تكره الناس﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور

مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضًا وتقديرًا وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإمطاتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإما بمقابلة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علمًا بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلًا عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهيج والإلهاب كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾⁽¹⁾ ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾⁽²⁾ ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»⁽³⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين ولا سال أحدًا منهم، وقيل: حوخط رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله: ﴿وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا﴾⁽⁴⁾ وقيل: الخطاب للمسمع ممن يجوز عليه الشك كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: إن للنفي أي: فما كنت في شك فاسأل يعني: لا نامرك بالسؤال؛ لأنك شك ولكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: فاسأل الذين يقرؤون الكتب.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَوَلَوْ
جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾

﴿حققت عليهم كلمة ربك﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة: أنهم يموتون كفارًا فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَّنتْ فَفَعَمَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسَسُ لَهَا ءَاسْرًا
كُفِبْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ النَّارِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧﴾

﴿فلولا كانت﴾ فهلا كانت ﴿قرية﴾ واحدة من القرى

= أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر، والإلجاء ليثبت له أن المشيئة المرادة في الآية، لم تقع إلا أنا نواقفه على أن الله تعالى ما قسر الخلق، ولا سلب اختيارهم بل أمرهم بالإيمان، وخلق لهم اختيارًا له، وقصدًا، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل، بل هو أجدر بالتعليل، فوجب رده، وإقرار الظاهر على حاله نعوذ بالله من زيغ الشيطان، وإضلاله، والله الموفق.

(1) سورة القصص، الآية: 86.

(2) سورة القصص، الآية: 87.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 6/126، (الحدِيث رقم: 10211).

(4) سورة النساء، الآية: 174.

(5) قال أحمد: وهذا من سبه الاعتزال مخلصًا، وخط الباطل بالحق مندلسًا، ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى، لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لولا امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون =

التي تعبونها من نون من هو إلهكم وخالفكم ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفي ليريبهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي فيعبد نون ما لا يقدر على شيء ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل وبما أوحى إلي في كتابه، وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني وما أنا عليه أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني أطعامكم واعلموا أنني لا أعبد الذين تعبون من نون الله ولا اختار الضلالة على الهدى كقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبون﴾ (2) أمرت أن أكون أصله بان أكون، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع إن وإن، وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

فإن قلت: عطف قوله ﴿وإن أقم﴾ على أن أكون فيه إشكال؛ لأن أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأن عطفها على الموصولة يابى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى لا يساعد عليه لفظ الأمر وهو أقم؛ لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب قلت: قد سوغ سيبويه أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ﴿أقم وجهك﴾ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً و﴿حنيفاً﴾ حال من الدين أو من الوجه.

ولا تنح من دين الله ما لا ينعمك ولا يضرك وإن فلتك إنك إذا من الظالمين (3).

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من نون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (3).

وإن يستسك الله بضرك فلا كسيف له إلا هو وإن يردك يحير فلا راد لفسيليه، يصيب يوم من يشاء من عبادوه وهو المنفور الرجيم (4).

اتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أن الله عز وجل هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده نون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أراك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان فهو

عليه وإنما الشان في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وما كانت يمين أن تؤمن إلا بإذن الله ويعمل الإنسان على الدين لا يعقلون (5).

﴿وما كان لنفس﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بتسهيله وهو منح اللطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإنان بالرجس وهو الخذلان والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر كقوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (1) وهي الخذلان رجساً وهو العذاب، لأنه سببه، وقرئ: ونجعل بالنون.

قل أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والدُّر عن قورٍ لا يؤمنون (6).

﴿ماذا في السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر ﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: وما يغني بالياء وما نافية أو استفهامية.

فهل ينظرون إلا مثل آيات الدين خلوا من قبلهم قل فانظروا إلى منكم من المنتظرين (7).

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها.

نرى نبي رؤسنا والدين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين (8).

﴿ثم ننجي رسلنا﴾ معطوف على كلام محنوف يدل عليه قوله: إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم. كذلك ننج المؤمنين مثل تلك الإجابة ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض يعني: حق ذلك علينا حقاً، وقرئ: ننج بالتشديد.

قل يتأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تبتدون من دين الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين (9) وأن أفرد وجهك للدين حنيفاً ولا تكون من المشركين (10).

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه وأعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة

(3) سورة لقمان، الآية: 13.

(1) سورة البقرة، الآية: 171.

(2) سورة الكافرون، الآيتان: 1 - 2.

الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ (1).

فإن قلْت: لم نكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلْت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن نكر المس وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما نكر على ما ترك على أنه قد نكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخِذُوا حَتَّى يَأْتِيَ بِنُورٍ يَنْبَغِي لِنُورِهِ وَمَنْ صَلَّى فَإِنَّمَا يُعِدُّ عَذَابًا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْسِنٍ (18).

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عنر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن أثار الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكل إلي أمركم وحملكم علي ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَأَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَسْبِرُ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَبِيرٌ لِلْخَائِبِينَ (19).

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال آثامهم وإعراضهم ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني»، يعني: أني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين التواضع؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

إلا أبلغ معاوية بن حرب أمير الظالمين لشاكلامي باناصبرون فمنظروكم إلى يوم التغابن والخصام (2) عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يونس أعطي من

الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الرَّ كَذَّبُوا كَذَّبَتْ أَيُّهَا النَّاسُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1).

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظاماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ (5) وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفاهاكم إني أخاف عليكم أن أغضبا وعن قتادة: أحكمت من الباطل ﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قلْت: ما معنى ثم؟ قلْت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خير مبتداً محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده أحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْبَاطِلِينَ (2).

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لثلاث تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَنْ أَسْتَفْهِرُوا نَكَرًا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مِنْهَا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى رَوَّيْتُمْ كُلَّ دَيْ فَصَلِّ فَصَلِّ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4).

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792)

(3) ومسلم في كتاب: الإمامة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة =

(4) سورة يونس، الآية: 1.

(5) (الحديث رقم: 4756).

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف 60/11، (الحديث رقم: 19909).

(4) نكروه ابن الجوزي في الموضوعات، والثعلبي الزيلعي 142/2.

﴿وقان استغفروا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ منقطعًا عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة ويدل عليه قوله: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله إنني لكم منه نذير كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبِ الرِّقَابَ﴾⁽¹⁾ والضمير في منه لله عز وجل أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته كقوله: ﴿رسول من الله﴾⁽²⁾ أو هي صلة لنذير أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم وابتشرتم بثوابه إن أمتم.

فإن قُلْتُ: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾؟ قُلْتُ: معناه: استغفروا من الشرك ثم أرجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها كقوله: ﴿ثم استقاموا﴾⁽³⁾ يطمعون بفضله في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن يتوفاكم كقوله: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾⁽⁴⁾ و﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبغض منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وإن تولوا﴾ وإن تتولوا ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادرًا على أنشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: ﴿وإن تولوا من ولي﴾.

فإن قُلْتُ: كيف قال⁽⁷⁾: ﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل قُلْتُ: هو: تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضل واجبًا كندور العباد. والمستقر مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودعًا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ﴿كل﴾ كل واحد من الدواب ورزقها، ومستقرها، ومستودعها في اللوح، يعني: نكرها مكتوب فيه مبين.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَكُمْ أَجَلَكُمْ وَسَمَّنَ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾.

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض وارتفاعه فوقها إلا الماء وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء على متن الريح والله أعلم بذلك، وكيفما كان فإله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بخلق أي: خلقهن لحكمة بالغة وهي: أن يجعلها مساكن لعباده وينعم عليهم فيها بفنون النعم ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر

﴿فإن قُلْتُ: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾؟ قُلْتُ: معناه: استغفروا من الشرك ثم أرجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها كقوله: ﴿ثم استقاموا﴾⁽³⁾ يطمعون بفضله في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن يتوفاكم كقوله: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾⁽⁴⁾ و﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبغض منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وإن تولوا﴾ وإن تتولوا ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادرًا على أنشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: ﴿وإن تولوا من ولي﴾.

أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتِغُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُ يَنبَأُهُمْ اللَّهُ بِمَا يَكْفُرُونَ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَوْمَ تُنْفَخُهَا وَسَوَدَّهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾.

﴿يبتغون صدورهم﴾ يوزون عن الحق وينصرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ليستخفوا منه﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على أوزورهم، ونظير إضمار: يريدون لقود المعنى: إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى: ﴿أضرب بعصاك البحر فانفلق﴾⁽⁵⁾ معناه: فاضرب فانفلق ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضًا كراهة لاستماع كلام الله تعالى

= الدنيا، أو ثواب في الآخرة، فلذلك كله فضل، ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة، فمحمول على أن الله عز وجل لما عدهم فضله، وعدهم خير، وخبره صدق وجب وقوع الموعود، أي: يستحيل في العقل أن لا يقع للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبير عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور، هذه قاعدة أهل الحق، وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى، إنما التوبة على الله، والله الموفق.

(1) سورة محمد، الآية: 4.
(2) سورة البينة، الآية: 2.
(3) وسورة الأحقاف، الآية: 13.
(4) سورة النحل، الآية: 97.
(5) سورة الشعراء، الآية: 63.
(6) سورة نوح، الآية: 7.
(7) قال أحمد: كل ما يسببه الله تعالى من رزق لبييمة، أو مكلف في =

وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليلوكم يريد ليفعل بكم ما يفعل المبتي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قُلْتَ: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قُلْتَ: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهًا واسمع أيهم أحسن صوتًا؛ لأنَّ النظر والاستماع من طرق العلم.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿إيكم أحسن عملاً﴾ وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قُلْتَ: الذين هم أحسن عملاً هم: المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عبادته، فخصهم بالذكر وأطرح ذكر من وراءهم تشريعاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفًا للسامعين وترغيباً في حياة فضلهم، وعن النبي ﷺ: «ليلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورد عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»⁽¹⁾ وقرئ: ﴿ولئن قلت أنكم مبعوثون﴾ بفتح الهمزة ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشتري لنا لحمًا وأنت تشتري بمعنى: علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه ولا تبتوا القول بإنكاره لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن قلت معنى نكرت، ومعنى قولهم: إن هذا إلا سحر مبين، أنَّ السحر أمر باطل وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به، أو أشاروا بهذا القرآن؛ لأنَّ القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحت إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: إن هذا إلا ساحر يزيون: الرسول، والساحر كاتب مبطل.

وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِنَّكَ أَنْتَ مَعْدُودٌ لَيُؤْتِيَنَّكَ مَا يَشَاءُ آلَ يَوْمِ إِلَهِتُمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

﴿العذاب﴾ عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين ﴿إلى أمه﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿ما يحبسهم﴾ ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء و ﴿يوم يأتيهم﴾ منصوب بخبر ليس ويستدل به من يستجيز تقويم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقويم معمول خبرها عليها كان ذلك لئلاً على جواز تقويم خبرها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع العامل ﴿وحواق بهم﴾ وأحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزؤون موضع يستعجلون؛ لأنَّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء والمعنى: ويحقيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في إخباره.

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ

كُفُورًا (٩)

﴿الإنسان﴾ للجنس ﴿رحمة﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة ﴿ثم نزعناها منه﴾ ثم سلبناه تلك النعمة ﴿إنه ليؤس﴾ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع ﴿كفور﴾ عظيم الكفران لما سلف له من الثقلب في نعمة الله نساء له.

وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ نِعْمَةً بَعْدَ سِرَّةٍ مَسَّته لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ النَّيِّبَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجْحٌ مُّحَرَّرٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَرَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَتْلِيكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَمَّا كَذَّبُوكُمْ بِبَعْضِ مَا بَوَّأْتُمْ إِلَيْكُمْ وَصَيَّأْتُمْ بِهِ سَدَّدْنَا أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا كَثُرَ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)

﴿ذهب السيئات عني﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إنه لفرح﴾ أشر بفر ﴿فخور﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

﴿إلا الذين﴾ آمنوا فإنَّ عبادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا. كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يعتنون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيف صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرَّك الله منه وهيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة برؤمهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردِّهم له وتهاونهم به ﴿وضائق به صدرك﴾ بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ثم قال: ﴿إنما أنت نذير﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ربوا أو تهاونوا أو اقترحوا ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفهمهم واستهزائهم.

فإن قُلْتَ: لم عدل من ضيق إلى ضائق؟ قُلْتَ: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجدو الثابتين المستقرين فإذا أريت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه: كانوا قومًا عامين في بعض القراءات، وقول

(1) ذكره ابن مردويه، والثعلبي وداود بن المجر في كتاب العقل،

السهمري العكلي:

بمنزلة أما اللثيم فسامن بها وكرام الناس بادشحبوها
أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلٌّ فَأَتَا بَعْشَرَ سِوَىٰ مِثْلِهِ مُفْتَرِيًّا وَأَدْعَا
مَنْ اسْتَفْتَاهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْ صِدْقِي (١٣) فَإِنَّهُمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّ إِلَهًا مَّا هُوَ قَهْلٌ أَفْهَلْ أُنْتُمْ
مُسْلِمُونَ (١٤).

أنتم مخلصون.
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْخَيْرَ الَّذِي وَرَيْنَهَا نُورٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهَرَّ
فِيهَا لَا يَحْسُونَ (١٥).

﴿نوف إليهم﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة،
من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة
والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقرءاء منهم: أوردت أن
يقال فلان قارىء، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصنق
فعلت، حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل، قاتلت حتى يقال
فلان جريء فقد قيل، وعن أنس بن مالك: هم اليهود
والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً عجل لهم
جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم
الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، فأسهم لهم
في الغنائم، وقرئ: يوف بالياء، على أن الفعل لله عز وجل،
وتوف إليهم أعمالهم بالتاء على البناء للمفعول، وفي قراءة
الحسن: نوفي بالتخفيف وإثبات الياء؛ لأن الشرط وقع
ماضياً، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَنْكَارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا
وَيَطُولُ مَا كَانُوا يَمَكُرُونَ (١٦).

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وحبط في الآخرة ما
صنعه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم
يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما
أرادوا ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: كان عملهم في
نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل
لا ثواب له، وقرئ: وبطل على الفعل، وعن عاصم: وباطلاً،
بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب
بيعملون، ومعناه: باطلاً أي باطل كانوا يعملون، وأن تكون
بمعنى المصدر: على وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ وَتَلَّوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كُتِبَ مُرُوءًا إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ
الْأَخْرَابِ فَأَلْخَاذٌ مَّوعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَبِّهِ مِثْلُ مَا هُوَ لَكُمْ مِنْ رَبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧).

﴿أفمن كان على بينة﴾ معناه: أمن كان يريد الدنيا،
فمن كان على بينة، أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا
يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً،
وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره
كان على بينة ﴿من ربه﴾ أي: على برهان من الله وبيان
أن دين الإسلام حق وهو: لبيل العقل ﴿ويتلوه﴾ ويتبع
ذلك البرهان ﴿شاهد منه﴾ أي: شاهد يشهد بصحته وهو:
القرآن ﴿منه﴾ من الله أو شاهد من القرآن فقد تقدم ذكره

﴿أم﴾ منقطعة. والضمير في ﴿افتراه﴾ لما يوحي إليك.
تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول
المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما
اكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتضت
منك على سطر واحد، ﴿مثله﴾ بمعنى أمثاله، ذهاباً إلى
مماثلة كل واحدة منها له ﴿مفتريات﴾ صفة لعشر سور
لما قالوا: افتريت القرآن واختلقت من عند نفسك وليس من
عند الله، قاودهم على دعواهم، وأرخص معهم العنان، وقال:
هبوا أني اختلقت من عند نفسي، ولم يوح إلي، وأن الأمر
كما قلت، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند
أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما
أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، مفترى، وهذا
غير مفترى؟ قلت: معناه: مثله في حسن البيان، والنظم، وإن
كان مفترى.

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله:
﴿لحكم فاعلموا﴾ بعد قوله قل؟ قلت: معناه: فإن لم
يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين
كانوا يتحدونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فإن لم
يستجيبوا لك فاعلم﴾^(١) ويجوز أن يكون الجمع؛ لتعظيم
رسول الله ﷺ، كقوله:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين،
والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم، يعني: فإن لم
يستجب لكم من تدعونه من نون الله، إلى المظاهرة على
معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن
تبلغه ﴿فاعلموا إنما أنزل بعلم الله﴾ أي: أنزل ملتبساً
بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وأخبار
بغيب لا سبيل لهم إليه ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن﴾
لا إله إلا الله وحده، وأن توحيد واجب، والإشراك به
ظلم عظيم ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مباحون بالإسلام بعد
هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل
الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم
عليه، وازدادوا يقيناً، وثبات قدم، على أنه منزل من
عند الله، وعلى التوحيد، ومعنى فهل أنتم مسلمون: فهل

أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إظهارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** وقرئ: يضعف **﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾** أراد⁽⁴⁾ أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع، ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوعر به على أهل العدل كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمع، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: وما كان لهم من أولياء أنهم جعلوا آلهم أولياء من نون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾** فكيف يصلحون للولاية وقوله: **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** اعتراض بوعيد.

أنفا **﴿ومن قبله﴾** ومن قبل القرآن **﴿كتاب موسى﴾** وهو: التوراة أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: كتاب موسى بالنصب، ومعناه: كان على بيته من ربه وهو: الدليل على أن القرآن حق ويتلوه وقرأ القرآن شاهد منه، شاهد ممن كان على بيته كقوله: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾**⁽¹⁾ **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**⁽²⁾ **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾**⁽³⁾ ويتلو من قبل القرآن التوراة **﴿إماماً﴾** كتاباً مؤتمناً به في الدين قدوة فيه **﴿ورحمة﴾** ونعمة عظيمة على المنزل إليهم **﴿أولئك﴾** يعني: من كان على بيته **﴿يؤمنون به﴾** يؤمنون بالقرآن **﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾** يعني: أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ **﴿فالنار موعده فلا تك في مرية﴾** وقرئ: مرية بالضم وهما الشك **﴿منه﴾** من القرآن، أو من الموعد.

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَشْرَرُ ﴿١٢﴾.

﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرتهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه وهو أنهم خسروا أنفسهم **﴿وصل عنهم﴾** وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو **﴿ما كانوا يفتنون﴾** من الأكلة وشفاعتها **﴿لا جرم﴾** فسر في مكان آخر **﴿هم الأخرسون﴾** لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَحَلَمُوا فَخَلَقْتِ لَهُمْ أَزْوَاجًا وَسَخَّرْنَا لَكَ رِيحَهُمْ أَتُوبَةً
لِجَنَّتِكَ فَسَبَّحُوا بُحْبُوحًا فِيهَا يَدْتَسُونَ ﴿١٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَابِ
وَالْبَصِيرِ وَالسَّبَّاحِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿ولخبتوا إلى ربهم﴾ واطمانوا إليه وانقطعوا إلى عيانتها بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة ومنه قولهم للشئء الذي الخبيث قال:

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيث وقيل: لتاء فيه بدل من التاء. شبه⁽⁵⁾ فريق الكافرين بالاعمى والاصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَزْوَاجًا يُعْرَضُونَ
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم **﴿الأشهاد﴾** من الملائكة والنبیین بانهم الكذابين على الله بانه اتخذ ولداً وشريكاً ويقال **﴿اللعنة الله على الظالمين﴾** فواخزيه وواقضيتها، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد كاصحاب أو أشرف.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ
﴿١٦﴾ أَزْوَاجًا لَمْ يَكُونُوا مُعْجِبِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضْمَنُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد. وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا

== معتقده الباطل به، وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس، أو العارث بن حلزة، وأما أدب القرآن، فيضيق عن أسهل من ذلك والله الموفق.

(5) قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف، وأما نظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين، ففيه نظر فإن امرأ القيس، شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن، تشبيهين وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه، أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولك في صفتين متعدتين والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(2) سورة الرعد، الآية: 43.

(3) سورة هود، الآية: 17.

(4) قال أحمد: أهل الحق، وإن نفوا تأثير استطاعه العبد وخلصوا الخلق لقدره الخالق عز وجل، فلا ينفون استطاعه العبد نفسها، ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفى الاستطاعة جملة، هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة والحق مع الزمخشري في هذا الموضوع، إلا في غفلته حيث يقول، فيوعر بها على أهل العدل، يعني: الآية المنكورة، وهذه سقطه عظيمة وهب أن المجرر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراد الآية ووعوة، وإنما تلا كتاب الله تعالى، غير أن خطاه في تصحيح =

ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقروهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه فضلاً أن يجعله سباً في الاختيار للنبوة والتأهيل لها، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله والتشرف بما هو ضعة عند الله ﴿من فضل﴾ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوة ﴿هل نظنكم كافرين﴾ فيما تدعون.

قَالَ يَقُولُ رَبِّيَ إِنَّ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْكَ مِن رَّبِّي وَأَنَا نِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَمَعَيْتَ عَلَيْكَ أَنْتَ مَكْرُومًا وَأَنْتَ لَمَّا كَرِهْتَهُ ﴿١٧﴾.

﴿أرايتم﴾ أخبروني ﴿إن كنتم على بيعة﴾ على برهان ﴿من ربي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ بإيتاء البيعة على أن البيعة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبيعة المعجزة وبالرحمة النبوة.

فإن قُلْتُ: فقولته: ﴿فعميت﴾ ظاهر على الوجه الأول فما وجهه على الوجه الثاني وحقه أن يقال فعميتاً؟ قُلْتُ: الوجه أن يقدر فعميت بعد البيعة وأن يكون حذفه للاقتصار على نكره مرة، ومعنى عميت خفيت، وقرئ: فعميت بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعماهما عليكم.

فإن قُلْتُ: فما حقيقته؟ قُلْتُ: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البيعة فلم تهدمكم كما لو عمي على القوم نليلهم في المغازة بقوا بغير هاد.

فإن قُلْتُ: فما معنى قراءة أبي؟ قُلْتُ: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فحلاهم الله وتصميمهم فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله ﴿أنزلنكموها واقتم لها كارهون﴾ يعني: أنكرهم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها وأنتم تكروهونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين، وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً، كقوله: أنزلنكم إياها، ونحوه: ﴿فسيكفيكم الله﴾⁽³⁾ ويجوز فسيفيكم إياهم،

من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعتاب، وأن يشببه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في والأصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله:

الصابح فالغانم فالأيب

﴿هل يستويان﴾ يعني: الفريقين ﴿مثلاً﴾ تشبيهاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾.

أي: أرسلنا نوحاً باني لكم نذير ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ بالكسر فلما اتصل به الجارز فتح كما فتح في كان والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيدا كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول ﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من إني لكم نذير أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. وصف اليوم باليوم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قُلْتُ: فإذا وصف به العذاب قُلْتُ: مجازي مثله؛ لأن الأليم في الحقيقة هو: المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجد جده.

قَعَالَ أَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا رَبَّنَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثَلْنَا وَمَا رَبَّنَا بِأَعْيُنِكَ إِلَّا الْآيَاتُ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا رَبِّي لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿١٧﴾.

﴿الملا﴾ الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا إذا كان مطيقاً له وقد ملأ بالامر؛ لأنهم ملأوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها ويتدبيرها، أو لأنهم يتمالون أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملأ بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ تعريض⁽¹⁾ بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملا ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قلهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً. والأرائل جمع الأرذل كقوله: ﴿أكابر مجرميها﴾⁽²⁾ أحاسنكم أخلاقاً، قرئ: بادي الرأي بالهمز وغير الهمز بمعنى اتبعوك أول الرأي، أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف

(1) قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي، ولكنه ترك الهمز استقلالاً؛ إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربين، وقد زعم هؤلاء، أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أرادل ليسوا بقوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه، ولا

= أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة، ولا روية، وغرض هؤلاء، أن لا يقوم عليهم حجة، بأن منهم من صدقه وأمن به، والله أعلم.

(2) سورة الأنعام، الآية: 123.

(3) سورة البقرة، الآية: 137.

لي ما أنت إلا بشر مثلنا. ولا أحكم على من استرلتم من المؤمنين لفقهم أن الله ﴿لن يؤتيهم خيراً﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿إني إذا لمن الظالمين﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء افتعال من زري عليه إذا عابه وأزرى به قصر به يقال: ازدرته عينه واقتحمته عينه.

قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَأَنزَلْنَا مَا يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾

﴿جاءلنا فاكثرت جادلنا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فاكثرته كقولك: جاد فلان فاكثرت وأطاب ﴿فأنا بما تعذنا﴾ من العذاب المعجل.

قَالَ إِنَّمَا يَا أَيُّكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنَّمَا أَنْتَ بِمُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَنْفَعُكَ نُسُوحُ إِذْ أَرَدْتَ أَنْ نَصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتَوَكِّمَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُحْجَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿إنما ياتيكم به الله﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إلي إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إن شاء﴾ يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاكثرت جدلنا.

فَأَنْ قُلْتَ (4): ما وجه ترانف هذين الشرطين؟ قُلْتَ: قوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ جزاؤه ما دل عليه قوله: ﴿لا ينفعكم نصحي﴾ وهذا الدال في حكم ما دل عليه فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إلي أحسنت إليك إن أمكنتني.

فَأَنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: إن كان الله يريد أن يغويكم؟ قُلْتَ: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشانه ولم يلجئه سمي ذلك: إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي لطف به سمي: إرشاداً وهداية، وقيل: أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعم نصائح الله ومواعظه وسائر الطافه كيف ينفعكم نصحي؟

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيَهُ قُلْ إِنْ أَفَرَرْتَهُ فَمَنْ يَعْزِمُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿فعلي إجرامي﴾ وإجرامي بلفظ المصدر والجمع كقوله: ﴿وإن يعلم إسرائيلهم﴾ (3) وإسرائيلهم ونحو جرم وإجرام قفل وإقفال وينصر الجمع أن فسره الأولون بأثامي

وحكي عن أبي عمرو: إسكان الميم، ووجهه: أن الحركة لم تكن إلا خلصة خفيفة فظنها الراوي سكوناً وإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

وَيَقُولُونَ لَا تَنْفَعُكُمْ عَلَيْهِ مَالٌ إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِكَلِمَةٍ أَرْبُوعًا وَمَا يَجْتَمِعُونَ ﴿٣٠﴾

والضمير في قوله: ﴿لا أسئلكم عليه﴾ راجع إلى قوله لهم: ﴿إني لكم نذير مبين أن لا تعبوا إلا الله﴾ (1) وقرئ: وما أنا بطارد الذين آمنوا بالتونين على الأصل.

فَأَنْ قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿إنهم ملأوا ربهم؟﴾ قُلْتَ: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ (2) الآية، أهم مصدقون بلقاء ربهم موثقون به عالمون أنهم ملأوه لا محالة ﴿تجهلون﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل من قوله:

أَلَا يَجْهَلُونَ أَحَدَ عَلَيْنَا

أَوْ تَجْهَلُونَ لِقَاءَ رَبِّكُمْ، أَوْ تَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ.

وَيَقُولُونَ مَنْ يَضُرُّنَا مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ إِلَّا نَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

﴿من ينصرنى من الله﴾ من يمنعي من انتقامه ﴿إن طرقتهم﴾ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على سواء.

وَلَا أَوَّلَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَوَّلَ إِلَى مَلِكٍ وَلَا أَوَّلَ لِلَّذِينَ تَرْدُونَ أَمْثَلَكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ سِرًّا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِذَا لَيْنَ الْقَلْبِيِّينَ ﴿٣٢﴾

﴿أعلم الغيب﴾ معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله فادعي فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ (3) ولا ادعي علم الغيب حتى تنسبونني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس اتباعي وضمائر قلوبهم ﴿ولا أقول إني ملك﴾ حتى تقولوا

(1) سورة هود، الآيتان: 25 و26.

(2) سورة الأنعام، الآية: 52.

(3) سورة هود، الآية: 27.

(4) قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء، قول القائل: أنت طالع إن شربت إن أكلت، وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط، والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت، لم =

= يحنث وإن أكلت ثم شربت حنث، وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي: للذي يليه ثم جعلها معاً جزءاً للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا تطول بذكره، وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية، كما رأيت، والله أعلم.

(5) سورة محمد، الآية: 26.

وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي: أَنَّ نوحًا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط النواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة، وقيل: إنَّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها؟ فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من نك التراب، فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: هذا كعب بن حام قال: فضرب الكتيب بعصاه، فقال: قم بلأن الله، فإذا هو قائم ينفخ التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: هكذا اهلكت؟ قال: لا مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت، قال: حدُّنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للنواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بلأن الله كما كنت فعاد ترابًا.

سَوِّفَ تَمْلِكُونَ مِنْ بَأْسِ عَذَابٍ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٢٦﴾

﴿من ياتييه﴾ في محل النصب بـ «تعلمون» أي: فسوف تعلمون الذي ياتييه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكك له عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّرُنَا وَنَحَرْنَا لَكُمْ فَانصَبْنَا لَكُمْ الْحَبْلَ الْآسِفِينَ ﴿٢٧﴾
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّرُنَا وَنَحَرْنَا لَكُمْ فَانصَبْنَا لَكُمْ الْحَبْلَ الْآسِفِينَ
 أَنْتَبِهْ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ أَنْصَبْنَا لَكُمْ الْحَبْلَ الْآسِفِينَ لَنْ نُجِيبَنَّكَ
 لَنْ نُجِيبَنَّكَ ﴿٢٩﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَتهُ
 وَكَانَتْ فِي مَعْزِلٍ يُبَيِّنُ أَنْصَبْنَا لَكُمْ الْحَبْلَ الْآسِفِينَ لَنْ نُجِيبَنَّكَ
 قَالَ سَوَّيْتَهُ لِي جَبَلٍ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ
 اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ إِلَىٰ رَبِّهِ مَلْمُومًا مَلْمُومًا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣٠﴾

﴿حتى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾ (2) أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت حتى بـ «يصنع» فما تصنع بـ «ما»

والمعنى: إن صح وثبت باني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي: افتراضي وكان حقي حينئذ أن تقرضوا عني وتتألبوا علي ﴿وإنا بريء﴾ يعني: ولم يثبت نك وأنا بريء منه، ومعنى ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعادتكم.

وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا يَبْتَهِسُ بِمَا كَاذِبُوا يَمْكُرُونَ ﴿٣١﴾

﴿لن يؤمن﴾ إقنات من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن باس مستكين قال:

ما يقسم الله غير مبتئس منه واقعد كريمة ناعم البال والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعادتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

وَأَصْبَحَ الْفُلُوكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَوَحْيُنَا فِي الْذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٢﴾

﴿بأعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: أصنعها محفوظًا، وحقيقته ملتبسًا بأعيننا كان الله معه أعيانًا تكلوه أن يزيغ في صنعه عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحينا﴾ وإنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جوجو الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستنفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مفرقون﴾ إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب نك وقضي به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم عرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ (1).

وَصَبَّحَ الْفُلُوكَ وَكَلَّمَ رَبَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالِ
 إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا نَسَخَرُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ويصنع الفلك﴾ كحكاية حال ماضية ﴿سخرها منه﴾ ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية يهماء في أبعاد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضحكون ويقولون له: يا نوح صرت نجارًا بعد ما كنت نبيًا ﴿فإننا نسخر منكم﴾ يعني: في المستقبل ﴿كما تسخرون﴾ منا الساعة أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلوننا فيما نصنع فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو إن تستجهلوننا فإننا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر

وجاؤنا بهم سكر علينا

فلا تكون كلاماً برأسه ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك كأنه قيل: اركبوا فيها مجراً ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير كقوله تعالى: ﴿ادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ لولا مغفرته لننوبكم ورحمته إليكم لما نجاكم.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾؟ قُلْتُ: بمحنوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون بسم الله، وهي تجري بهم أي: تجري وهم فيها ﴿في موج كالجبيل﴾ يريد موج الطوفان شبه كل موجة منه بالجبيل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قُلْتُ: الموج ما يرتفع فوق الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة فما معنى جريها في الموج؟ قُلْتُ: كان ذلك قبل التطبيق وقبل أن يغمر الطوفان الجبال ألا ترى إلى قول ابنه: ﴿ساوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ قيل: كان اسم ابنه كنعان وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي، وعروة بن الزبير: ابنه بفتح الهاء يريد أن ابنها فاكتمها بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه ﴿إن ابني من أهلي﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ بيته من أهل الكتاب واستدل بقوله: ﴿من أهلي﴾ ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان: أحدهما: أن يكون ربياً له كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام، وقرأ السدي: ونادى نوح ابناه على النذبة والترثي أي: قال: يا ابتاه. والمعزل مفعول من عزله عنه إذا نحاه وأبعد يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل: كان في معزل عن دين أبيه ﴿يا بني﴾ قرى بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبيلة من ياء الإضافة في قولك يا بني، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة ﴿إلا من رحم﴾⁽⁴⁾ إلا الراحم وهو: الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل

بينهما من الكلام؟ قُلْتُ: هو حال من يصنع كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه.

فإن قُلْتُ: فما جواب كلما؟ قُلْتُ: أنت بين أمرين إما أن تجعل سخروا جواباً وقال استثناءً على تقدير سؤال سائل، أو تجعل سخروا بدلاً من مرّ أو صفة لملأ وقال جواباً ﴿ووأهلك﴾ عطف على اثنين وكذلك ﴿ومن آمن﴾ يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك.

قال الضحاك: أراد ابنه وأمراته ﴿إلا قليل﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونسأؤهم»⁽¹⁾ وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وأولاد نوح: سام وحام ويافت ونسأؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل بسم الله بـ «اركبوا» حالاً من الواو بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون بسم الله مجراها ومرسأها جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أي: بسم الله إجراؤها وإرسأؤها.

يروى: أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقم الاسم⁽²⁾ كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجراؤها وإرسأؤها أي: بقدرته وأمره وقرى: مجراها ومرسأها بفتح الميم من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين. وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله.

فإن قُلْتُ: ما معنى قولك جملة مقتضبة؟ قُلْتُ: معناه: أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرسأها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال كقوله:

(1) قال الزبيدي: غريب، ورواه الطبري في تفسيره موقوفاً على قتادة، الزبيدي 146/2.
(2) قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو: المسمى، ولو اعتقدت ذلك لما جملة مقصداً، والله أعلم.
(3) سورة الزمر، الآية: 73.
(4) قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم، =

بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر، وَأَنْ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي ماءك ويا سماء اقلعي، ولا أن يقضي تلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما نكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما قوله: ﴿ابليعي﴾ و﴿اقلعي﴾ ونلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي: أنها مرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد اعتقه الله من الفرق، وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ لَأَحْسَنُ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْمَكِيدِينَ ﴿١٥﴾

نداؤه ربه دعائه له وهو قوله: رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في نتيجة أهله.

فَإِنْ قُلْتَ: فإذا كان النداء هو قوله: رب، فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء قُلْتُ: أريد بالنداء إرادة النداء ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نداءً خفياً﴾ (5) قال رب بغير فاء ﴿إِنْ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه وكان ربيباً له فهو بعض أهله ﴿وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي: ﴿وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (6) أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في

ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني: السفينة، وقيل: لا عاصم بمعنى: لا إله إلا الله من رحمه الله كقوله: ﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾ (1) و﴿عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ﴾ (2) وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ استثناء منقطع كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (3) وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ على البناء للمفعول.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلِي مَاءَكَ وَنَسَمَةَ أَقْلِي وَرَيْصَ الْمَاءِ وَفِي الْأَمْرِ وَأَسْرَتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَبِئْسَ بَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾ و﴿يَا سَمَاءُ﴾ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابليعي ماءك﴾ و﴿اقلعي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء (4) مميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدر، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف بون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلغ عبارة عن: النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: أطلع المطر وأقلعت الحمى و«وغيض الماء» من غاضه إذا نقضه «وقضي الأمر» وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه «وأسوت» واستقرت السفينة «على الجودي» وهو جبل بالموصل «وقيل بعداً» يقال: بعد بعداً وبعداً إذا أرباد البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا

(6) قال أحمد: ثم حث بعد الزمخشري ترفع عن اقتضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى، أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة، لأقضاهم في الوصف، وإن يزداد عليهم، فترفعوا أن يشاركهم أحد في وصفهم ممن يوثقهم في المنصب، فعلموا عما يشاركون فيه إلى ما ليس كذلك، فاقربوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة، أي: هو الذي يقضي بين القضاة، ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة اقتضى القضاة، إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه، أو إقليمه، وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، اقتضى قضاة الصحابة في زمانه، كما أطلق عليه النبي ﷺ حيث قال: «أقضاكم علي»، فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على عدل قضاة الزمان، أو الإقليم وأعلمهم قاضي القضاة، واقتضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده وكل قرن ناجم في زمن، فهو: شبيه زمن فيه بدأ هذا اللب.

(1) سورة الطارق، الآية: 6.
(2) سورة الحاقة، الآية: 21.
(3) سورة النساء، الآية: 157.
(4) قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن نكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراد به، السكوت عن نكر الأوصاف أحياناً اكتفاء بنكر الموصوف، لتبينه بها وتوحده فيها، وإنه متى نكر مكانها بنكره في مثل قوله: ﴿وهو الله في السموات﴾ وفي الأرض الآية، والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين، ومنه:

أنا أبو النجم، وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأنيا هذا المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب: يمدح عضد الدولة:

لا تحمئنها واحمنن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعني: لا تمدح نفسك، فإنك المنفرد بالمعادح، حتى إذا نكرت، ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك، لتفردك بها.

(5) سورة مريم، الآية: 3.

زمانك قد لقب أفضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة، كما قيل: دارع من الدرع وحائض وطاق على مذهب الخليل.

قَالَ يَنْتُحِ إِيَّائِي لَيْسَ بَيْنَ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ عَيْرٌ مَبْلُغٌ فَلَا تَنْتَلِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِيَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَعَفَّرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾.

﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في نينك ومعتمدك من الأباعد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في نَهْ كقولها:

فإنما هي إقبال وإبصار

وقيل: الضمير لنداء نوح أي إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قُلْتُ (1): فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قُلْتُ: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفي عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله: ﴿كانتا تحت عبيد من عبادنا صالحين فخانتهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ (2) وقرئ: عمل غير صالح أي: عملاً غير صالح. وقرئ: فلا تستلن بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء يعني: فلا تلتمس مني ملتسماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه، ونكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فإن قُلْتُ: لم سمي نداءه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قُلْتُ: قد

(1) قال احمد: ولهذا المعنى، والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام: ﴿وانذر عشيرتاك الاقربين﴾، وإن كان مأموراً بالإنذار عن العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال، والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم، ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: «إني لا أملك لكم من الله شيئاً»؛ أو قال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه.

(2) سورة التحريم، الآية: 10.

(3) قال احمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه، ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها، مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبتها إليه، فنقول لما وعد نوح أولاً تنجية أهله، إلا من سبق عليه القول منهم، ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المنكور، ولا

تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا نكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤالاً ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة ووعظة أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قُلْتُ (3): قد وعده أن ينجي أهله وما كان عنده أن ابنه ليس منهم شيئاً فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد فطلب إمطة الشبهة، وطلب إمطة الشبهة واجب فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؛ قُلْتُ: إن الله عز وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه ﴿أن أسئلك﴾ من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته تادباً بأدبك واتعاطاً بمروعتك ﴿والا تغفر لي﴾ ما فرط مني من ذلك ﴿وترحمني﴾ بالتوبة علي ﴿أكن من الخاسرين﴾ أعمالاً.

قِيلَ يَنْتُحِ أَقِطْ بِسَلْوِي نِنَا وَرَكَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَمْلَكٌ وَأُمَّمٌ سَمْتِيهِمْ مِمَّنْ بِسَهْمٍ مِمَّنْ عَدَابُ أَيْمٍ ﴿١٨﴾.

وقرئ: يا نوح اهبط بضم الباء ﴿بسلام منا﴾ مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً ﴿وبركات عليك﴾ ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ: وبركة على التوحيد ﴿وعلى أمم ممن معك﴾ يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأن الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لابتداء الغاية أي: على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وامم﴾ رفع بالابتداء ﴿وسنمتهم﴾ صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتهم، وإنما حذف لأن قوله: ممن معك يدل عليه، والمعنى: إن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك،

مطلعاً على باطن أمره، بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضها يقين في كفر ابنه، حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بان يكون إيابة عنز أولى منه أن يكون عتياً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً، وأما قوله: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فالمراد منه: النهي عن وقوع السؤال في المستقبل، بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين، والغرض من ذلك تقديم ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها، أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه، والله أعلم.

وَمَنْ مَعَهُ أُمَّةٌ مَمْتَعُونَ بِالدُّنْيَا مَنقَلِبُونَ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا الْأَنْبِيَاءِ وَالْخَلْقِ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِنْهُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرظِيِّ: بَخِلَ فِي ذَلِكَ السَّلَامِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِيمَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعَذَابِ كُلِّ كَافِرٍ. وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ: هَبَطُوا وَاللَّهُ عَنْهُمْ رَاضٍ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُمْ نَسْلًا مِنْهُمْ مِنْ رَحِمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ عُنِبَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ الْمَمْتَعَةُ: قَوْمٌ هُودٍ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ.

يَلَيْكَ مِنْ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا قَاصِرٌ إِنَّ الْعَلَمَةَ لَشَتَّى لِكُلِّ قَوْمٍ (٤٨).

﴿تلك﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلهما الرفع على الابتداء والجمل بعدها أخبار أي: تلك القصة بعض أبناء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿من قبل هذا﴾ من قبل إحيائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالرحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فصابري﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه ﴿إن العاقبة﴾ في الفوز والنصر والغلبة للمؤمنين. وقوله: ﴿ولا قومك﴾ معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه فكيف برجل منهم، كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

وَالَّذِي عَادَ أَخَاهُمْ هَرُودًا قَالَ يَغْفِرُونَ أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَقُونَ (٤٩) يَغْفِرُونَ لَا أَتُكَلِّمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَتَّقُونَ (٥٠).

﴿أخاهم﴾ واحدًا منهم وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا نوحًا﴾ (١) و﴿هودًا﴾ عطف بيان و﴿غيره﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجور، وقرئ: غيره بالجر صفة على اللفظ ﴿إن أنتم إلا مفترقون﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لا يحصها ولا يحصها إلا حسم المطابع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿أفلا تعقلون﴾ إذ ترون نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله وهو: ثواب الآخرة، ولا شيء أنفي للتهمة من ذلك.

وَيَغْفِرُونَ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوحُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً إِنَّ قُوَّتَكُمْ وَلَا تَنُورُوا تَجْرِمِينَ (٥١).

قيل: ﴿استغفروا ربكم﴾ آمنوا به. ﴿ثم توبوا إليه﴾ من عبادة غيره؛ لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان. والمدرار: الكثير الدرور كالمغزار، وإنما قصد استمالتهم إلى

قَالُوا يَا هَرُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِرِينَ (٥٢).

﴿ما جئتنا ببينة﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ (3) مع فوت آياته الحصر ﴿عن قولك﴾ حال من الضمير في تاركي آلهتنا كانه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك: ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصفوا مثلك فيما يدعوهم إليه إقناتًا له من الإجابة.

إِنْ نَزَّلَ إِلَّا نَزَّلْنَا بَعْضَ آيَاتِنَا سُبُوًّا قَالَ إِنِّي أَنشَدْتُ اللَّهَ وَأَنشَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا شَرَكُونَ (٥٣) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوهُنَّ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ (٥٤) إِنِّي نَزَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكَ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبَحِهَا إِنْ رَبِّي عَلَنَ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ (٥٥).

﴿اعتراك﴾ مفعول نقول وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا: ﴿اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: خبلك ومسك بحنون لسبك إياها وصلدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين، وليس يعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خيالًا وجنونًا وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك، وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنونًا والمنيب إلى ربه مخبلًا، ولم نجد مع على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من المودة، وما ذلك إلا لعرق من الإلحاد أبي إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد

(3) سورة يونس، الآية: 20.

(1) سورة هود، الآية: 25.

(2) سورة نوح، الآية: 12.

للشرط؟ قُلْتُ: معناه فإن تتولوا لم اعاتب على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبئتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف يريد ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئاً﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: ويستخلف بالجزء وكذلك ولا تضروه عطفًا على محل فقد أبلغتكم، والمعنى: إن تتولوا يعزرنى ويستخلف قومًا غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿على كل شيء حفيظ﴾ أي رقيب عليه مهيمن فما تخفي عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيبًا على الأشياء كلها حافظًا لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار لم يضر مثله مثلكم.

وَلَمَّا جَاءَ أَرْسَلْنَا زَيْدًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نُنَظِرُ ۝٤٨

﴿والذين آمنوا معه﴾ قيل: كلنا أربعة آلاف.

فإن قُلْتُ: ما معنى تكرير التنجية؟ قُلْتُ: نكر أولًا أنه حين أهلك عوهم نجاهم ثم قال ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أديارهم فتقطعهم عضواً، وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغاظ منه وأشد. وقوله: ﴿برحمة منا﴾ يريد بسبب الإيمان الذي أتعنا عليهم بالتوفيق له.

وَلَمَّا جَاءَ عَادَ جَمَلُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٤٩ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنَّهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ آلاَ إِنَّا عَادًا كَذَرْنَا رَبِّهِمْ آلَاَ بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هَوِيٍّ ۝٥٠

﴿وتلك عاد﴾ إشارة إلى قبورهم وأثارهم كانه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جحودوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لا تفرق بين أحد من رسله﴾⁽³⁾ قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده ﴿كل جبار عنيد﴾ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ومعنى: اتباع أمرهم طاعتهم ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللفظة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله ﴿آلا﴾ وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم

أن يطلع رأسه، وقد نلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصح ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبه متناه حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقتهم بربه وأنه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبتهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾⁽¹⁾ أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد فيقول الرجل: الله شهيد على أنني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنني لا أفعله.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: هلا قيل إنني أشهد الله وأشهركم؟ قُلْتُ: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد على أنني لا أحبك تهكماً به واستهانة بحاله ﴿مما تشركون من لونه﴾ من إشراككم آلهة من بونه، أو مما تشركون من آلهة من بونه أي: أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء ولم ينزل بملك سلطاناً.

﴿فكيدوني جميعاً﴾ أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون من غير إنظار فإنني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معزرتكم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرنى آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصدت عن عبادتها بان تخبلي وتذهب بعقلي. ولما نكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلامته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم. من كون كل دابة في قبضته وملكته تحت قهره وسلطانه والأخذ بنواصيها تمثيل لذلك ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به.

إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسَخْتُ رِيبَ قَوْمِ يَثْرِبَ وَلَا تُصِرُّوهُ سِتْرًا إِنَّ رَبِّي عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ حَاطِطٌ ۝٥٧

﴿فإن تولوا﴾ فإن تتولوا.

فإن قُلْتُ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزء

(1) سورة يونس، الآية: 71.

(2) قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر؛ لأنه إشهاد صحيح ثابت وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم، وقلة المبالاة به، وهو في مراده هذا المقام معهم، ويحتمل أن يكون إشهادهم لهم =

= حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتمييز بين خطابي الله تعالى، وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

(3) سورة البقرة، الآية: 285.

القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً تقدمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن نتخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿يُعْبَدُ آبَاؤُنَا﴾ حكاية حال ماضية ﴿مُرِيبٌ﴾ من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

قَالَ يَتَوَرَّأَرْبَةً إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَأَنْتَى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرُقْ مِنْكَ اللَّهُ إِنْ عَصَيْتُهُ مَا زَيْدُونِي غَيْرَ تَحْيِيرٍ ﴿١٣﴾

قيل: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي﴾ بحرف الشك وكان على يقين أنه على بيته؛ لأنَّ خطاباً للجاحدين فكانه قال: قدروا أنني على بيته من ربي وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعي من عذاب الله ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إِنْ حِينَدُوْهُ ﴿غَيْرَ تَحْيِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالكم وتبطلونها، أو فما تزيديني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخسركم أي: انسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم خاسرون.

وَيَتَوَرَّأَرْبَةً نَذِيْرَةً نَأْفَهُ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فَذَرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْهَا سِهْوً فَأَعْدَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾

﴿آيَةً﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دلَّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فَإِنْ قُلْتُ: فبِم يتعلق ﴿لَكُمْ﴾؟ قُلْتُ: بآياته حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يستأخر عن مسك لها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم.

فَمَرَّوْهَا فَقَالَ تَسْتَمَوْنَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴿١٥﴾

﴿تَمْتَعُوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في بلدكم وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها أي: يتصرف يقال: ديار بكر لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار يريدون من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت ﴿غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾ غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف ولجرائه مجرى المفعول به كقولك: يوم مشهود من قوله: ويوم شهيدناه، أو على المجاز كأنه قيل للوعد: نفي بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أنَّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول وكالمصدوقة بمعنى الصنق.

فَلَمَّا جَاءَ أُمَّرَأَانَا جَنَّتَا صَالِحًا وَالزَّيْنَبَ أُمَّتًا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا

تهويل لأمرهم وتظهير له وبعث على الاعتبار بهم والحنز من مثل حالهم.

فَإِنْ قُلْتُ: ﴿يُعْبَدُ﴾ دعاء بالهلاك فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قُلْتُ: معناه: الدلالة على أنهم كانوا متساهلين له ألا ترى إلى قوله:

إِخْوَتِي لَا تَبْعُوا أَبَدًا وَيَلِي وَاللَّهِ قَدْ بَعَلُوا
﴿قَوْمٌ هُودٌ﴾ عطف ببيان لعاد.

فَإِنْ قُلْتُ⁽¹⁾: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بونه؟ قُلْتُ: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأنَّ عاداً عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

﴿وَالَّذِينَ تَتَوَدَّوْنَ صَالِحًا﴾ قَالَ يَتَوَرَّأَرْبَةً اللَّهُ مَا لَكَ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَشْرَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَمْرَكُوا فِيهَا فَاسْتَعْرَبُوهُ ثُمَّ تَوَرَّأُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ يُجِيبُ ﴿١٦﴾

﴿هُوَ أَشْرَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشأؤهم منها خلق آدم من التراب ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وأمركم بالعمارة والعمارة متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميمهم، فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان: أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

ليس الفتى يفتى لا يستضاء به ولا تكون له في الأرض آثار
وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء،

وقد جعل من العمرى وفيه وجهان: أن يكون استعمر في معنى: أمر كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أمركم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم، والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأنَّ الرجل إذا ورث داره من بعده فكانما أمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره ﴿قَرِيبٌ﴾ داني الرحمة سهل المطلب ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن دعاه وسأله.

قَالُوا يَصْلِحُ مَنْ كُنْتُ فِيْنَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَنَّنْهَلْنَا أَنْ نَبُدَّ مَا يَبُدُّ
عَابَاتُهَا وَإِنَّا لَنِي سَلَى مِنَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٧﴾

﴿فِيْنَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُواً﴾ كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجو لنتنتفع بك وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا

(1) قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى: تناسب الأبي بذلك، فإن =

= قبلها واتباعوا أمر كل جبار عنيد، وقيل ذلك حفيظ، وغلِيظ، وغير ذلك مما هو على وزن فَعِيل المناسِب، لفعلول في القوافي، والله أعلم.

لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِيَّاكَ قَوْمَ لُوطَ ﴿٧٧﴾.

يقال: نكره وانكره واستنكره ومنكور قليل فيكلامهم، وكذلك أنا أنكرتك ولكن منكور ومستنكر وانكرتك، قال الأعشى:

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحواشي إلا الشيب والصلعا

قيل (3): كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروفاً، وقيل: كانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا ﴿فأوجس﴾ (4) فأضمر. وإنما قالوا لا تخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب.

وَأَرْسَلْنَا قَائِمَةَ فَضَحَّتْ بِشَرَّتِهَا إِسْحَاقَ وَبَيْنَ رِزْلِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٨﴾.

﴿وامراته قائمة﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤسهم تخدعهم. وفي مصحف عبد الله: وامراته قائمة وهو قاعد ﴿فضحكت﴾ (5) سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخباثت، أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلم العذاب، وقيل كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: فضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: فضحكت بفتح الحاء ﴿يعقوب﴾ رفع بالابتداء كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود أي: من بعده، وقيل: الوراثة ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: اهَذَا ابْنُكَ؟ فقال: نعم من الوراثة وكان ولد ولده وقرى: يعقوب بالنصب كأنه قيل: وهبنا لها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

وَمِنْ خَزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَلْوَمُ الْمُعْرِضِ ﴿٧٩﴾ وَأَسَدُّ الْأَدْبِثِ طَلَمْنَا الصَّبِيحَةَ فَأَمْسَحُوا فِي رِيحِهِمْ جَبِينِيكَ ﴿٨٠﴾ كَأَنَّ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَاكُمْ إِتْمُودَ ﴿٨١﴾.

﴿ومن خزي يومئذ﴾ قرى: مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ وهو غير متمكن بقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فإن قُلْتُ: علام عطف؟ قُلْتُ: على نجينا؛ لأن تقديره ونجيناهم من خزي يومئذ كما قال: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ (1) على وكانت النتيجة من خزي يومئذ أي: من نله ومهانتة وفضيحتة ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة، وقرى: إلا إن تمود ولتمود كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِيْرِهِمْ بِالْبُرْهَانِ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا كَيْتُ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِيْدٍ ﴿٨٢﴾.

﴿ورسلنا﴾ يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر ﴿بالبشرى﴾ هي: البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد ﴿سلاماً﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿سلام﴾ أمرمك سلام، وقرى: فقالوا سلماً قال سلم بمعنى: السلام، وقيل: سلم وسلام كحرم وحرم وأنشد:

مررنا فقلنا إيه سلم فسلمت كما اكنل بالبرق الغمام للوائح

﴿فما لبث أن جاء﴾ فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر ﴿حنيد﴾ مشوي بالرضف في أخدود، وقيل: حنيد قطر دسمه من حنذت الفرس إذا ألقيت عليه الجمل حتى تقطر عرقاً ويدل عليه ﴿بعجل سمين﴾ (2).

فَلَمَّا رَأَى آيَاتِهِمْ لَّا يَسْتَلُ إِيْرَهُمْ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا

(1) سورة هود، الآية: 58.

(2) سورة الذاريات، الآية: 26.

(3) قال أحمد: وقد وردت في قصة إبراهيم هذه ثلاثة مواضع، هذا أحدها، وهو نال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة، وعدم علمه جاءوا الثاني في الحجر قوله: ونبتهم عن ضيف إبراهيم إلى قوله لا توجل إنا نبشرك، فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بانهم مبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه الثالث في الذاريات، ﴿فلوجس منهم خيفة قالوا لا تخف، وبشروه﴾، فهو أيضاً كذلك، وأما لوط، فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية، وبين أي إبراهيم =

= مصداق؛ لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يعد على فراسته، أن يعد أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.
(4) قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري، والله أعلم؛ لأنهم إنما علموا خوفه ووجهه بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قول تعالى في آية أخرى قال: ﴿إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة، والله الموفق للصواب.
(5) قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد: ﴿يا ويلنا ألد وأذ عجز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ فلو كان حيضه قبل بشارتها، لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض والحيض في العادة مهمام على إمكان الحمل، والله الموفق.

ومجالسته إياهم أنهم قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال: أرايتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين اتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فاربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ العشرة، قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم اتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾⁽²⁾ لننجينه وأهله، ﴿في قوم لوط﴾ في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان⁽³⁾.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ **أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** ﴿٧٥﴾

﴿إن إبراهيم لكليم﴾ غير عجول على كل من أساء إليه ﴿أواه﴾ كثير التآوه من الذنوب ﴿منيب﴾ تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرفقة والرحمة، فبين أن ذلك مما حملة على المجاملة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حملة على الاستغفار لآبائه.

يَا إِبْرَاهِيمُ **أَعْرِضْ عَنَّا هَذَا إِنَّكَ قَد جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْتُونُ عَدَاؤُكَ عَن مَّوَدَّةِ رَبِّكَ** ﴿٧٦﴾

﴿يا إبراهيم﴾ على إرادة القول أي: قالت له الملائكة: ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدل وإن كانت الرحمة بيدك فلا فائدة فيه ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة والعذاب نازل بالقوم لا محالة لا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

كانت مساء لوط وضيق زرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم حيث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، وروي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلوكهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بائس إنها لشر قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها. يقال يوم عصيب وعصوصب: إذا كان شديداً من قولك: عصبه إذا شدّه.

وَجَاءَهُمْ قَوْمٌ مِّنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَمْلِكُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَرُوا هَذِهِ بَنَاتُ هُنَّ أَهْلُهُنَّ لَكُمْ فَأَنْفَرُوا اللَّهُ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبِيحِ الْبَيْتِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتِ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ

قَالَتْ يَنْفَرْنَ إِلَيْكَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي سَيِّئًا إِنَّ هَذَا لَكَلِيمٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَسْمَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٧﴾

الألف في ﴿يا ويلتأ﴾ مبدلة من ياء الإضافة وكذلك في ياء لهما ويا عجباً، وقرأ الحسن: يا ويلتي بالياء على الأصل و﴿شيخاً﴾ نصب بما دل عليه اسم الإشارة، وقرئ: شيخ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر، أو يكونان معاً خبرين. قيل: ولها ثمان وتسعون سنة وإبراهيم مائة وعشرون سنة ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، وإنما انكرت عليها الملائكة تعجبها ﴿فقالوا اتعجبين من أمر الله﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوفر ولا يذهيها ما يذهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب. وأمر الله قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم﴾ كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم، وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم ﴿حميد﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده ﴿مجيد﴾ كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت نصب على النداء، أو على الاختصاص؛ لأن أهل البيت مدح لهم، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن.

لَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ جُبُودًا فِي قَوْرِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾

﴿الروع﴾ ما أوجس من الخيفة حين نكر اضيافه والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملى سروراً بسبب البشرى بدل الغم فرغ للمجاللة.

فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿يجادلنا﴾ كلام مستأنف دال على الجواب وتقديره اجترأ على خطبنا، أو فطن لمجاللتنا، أو قال: كبت وكيت. ثم ابتداء فقال: يجادلنا في قوم لوط، قيل في يجادلنا: هو جواب لما وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن لما ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل معناه: أخذ يجادلنا وأقبل يجادلنا والمعنى: يجادل ولسنا،

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 32.

(3) رواه الطبراني في معجمه والبيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في

دلائل النبوة، (الزليعي 2/ 146 - 147).

﴿يهرعون﴾ يسرعون كأنما ينفعون دفعا ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل تلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ففرضوا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يفهم حياء، وقيل معناه: وقد عرف لوط عانتهم في عمل الفواحش قبل ذلك ﴿هؤلاء بناتي﴾ أراد أن يقي أضيافه ببنااته وذلك غاية الكرم، وأراد هؤلاء بناتي: فتزوجهن، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص ابن وائل قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان فاراد أن يزوجهما ابنتيه. وقرأ ابن مروان: هن أظهر لكم بالنصب، وضعفه سيبويه وقال: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: هن أظهر بالنصب فقد تربع في لحنه وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل كقوله: ﴿هذا بعلي شيخا﴾⁽¹⁾ أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر كأنه قيل: خنوا هؤلاء وبناتي بدل ويعمل هذا المضمر في الحال وهن فصل وهذا لا يجوز؛ لأن الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة ولا يقع بين الحال وذو الحال، وقد خرج له وجه لا يكون هن فيه فصلا وذلك أن يكون هؤلاء مبتدا وبناتي هن جملة في موضع خبر المبتدا كقولك: هذا أخي هو، ويكون أظهر حالا ﴿فاتقوا الله﴾ بليثا هرن عليهم ﴿ولا تخزوني﴾ ولا تهنوني ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزية وهي: الحياء ﴿في ضيقي﴾ في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل والكف عن السوء. وقرئ: ولا تخزون بطرح الإياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضع لهم وإظهارا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ومن ثم ﴿قالوا لقد علمت﴾ مستشهدين بعلمه ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ لأنك لا ترى مناكحتنا وما هو إلا عرض سابري، وقيل: لما اتخذوا إتيان النكران مذهباً وديناً لنواطؤهم عليه كان عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على

وجه الخلاعة والغرض نفي الشهوة ﴿لتعلم ما تريد﴾ عنوان إتيان التكرار وما لهم فيه من الشهوة.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَيْكَ رَبِّي لَأَكْفُرَنَّ بِمَا كُفَرْتُمْ بِهِ فَأَمَّا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا يَبْنَطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ نَبْسُلَوكَ إِنَّا كَاشِرُونَ بِأَهْلِكَ يَفْطَحُ مِنَ الْآيَاتِ وَلَا يَلْتَوِي وَيَنْصُرُكُمْ أَهْلُكُمْ إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُمْ مُمِيذَاتُ مَا سَاءَ بِهِمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَدِيئَهَا سَاقِيَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّضْرِبٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْغَالِبِينَ بِبَيْتِهِ ﴿٨٤﴾

جواب لو محذوف كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾⁽²⁾ يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت، يقال: ما لي به قوة، وما لي به طاقة ونحوه: لا قبل لهم بها، وما لي به يدان؛ لأنه في معنى لا اضطلع به ولا استفل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوتي استند إليه واتمعت به فيحمني منكم، فشبّه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»⁽³⁾. وقرئ: أو أوي بالنصب بإضمار أن، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو أويًا كقولها:

لبس عباءة وتقر عيني

وقرئ: إلى ركن بضمين، وروي: أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل برأهم ما حكى الله عنه ويجانلهم، فتسوروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد ﴿إننا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأنن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم فأعماههم كما قال الله تعالى: ﴿فطمسنا أعينهم﴾⁽⁴⁾ فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سحرة. ﴿لن يصلوا إليك﴾ جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. قرئ: فأسر بالقطع والوصل وإلا أمرتك بالرفع والنصب، وروي: أنه قال لهم: متى وعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟ وقرئ: الصبح بضمين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ إلا امرأتك بالنصب؟

(1) سورة هود، الآية: 72.

(2) سورة القمر، الآية: 37.

(3) رواه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله «ولو طأ إن قال لقومه...»

(4) الحديث رقم: (3375) ومسلم كتاب: الفضائل، باب: من فضائل =

التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْم لِمَ الْمَلِكَ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (4) ﴿يَوْمَ مُحِيطٌ﴾ مهلك من قوله: ﴿وَاحِيطٌ بِثَمَرِهِ﴾ (5) وأصله من إحاطة العدو.

فإن قُلْتُمْ: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟ قُلْتُمْ: بل وصف اليوم بها؛ لأنَّ اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.

فإن قُلْتُمْ (6): النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا؟﴾ قُلْتُمْ: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنَّ في التصريح بالقبيح نوعياً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيداً بالقسط أي: ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هو الواجب؛ لأنَّ ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنَّ الموفى عليه أن ينوي بالوفاء القسط؛ لأنَّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد. البخس: الهضم والنقص ويقال للمكس: البخس. قال زهير:

وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم

وروي مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عتياً منهم في الأرض.

يَعِيَتْ اللَّهُ سِرَّ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨١).

﴿بقيت الله﴾ (7) ما بقي لكم من الجلال بعد التنزه عما هو حراماً عليكم ﴿خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا، وإنما حوطينا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قُلْتُمْ (8): بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف فلم شرط الإيمان؟ قُلْتُمْ: لظهور

قُلْتُمْ: استثنائهما من قوله: ﴿فاسر باهلك﴾ والليل عليه قراءة عبد الله فاسر باهلك يقطع من الليل إلا امرأتك، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت على أصل الاستثناء. وإن كان الفصيح هو البذل أعني: قراءة من قرأ: بالرفع فأبطلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي: أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه: فأدركها حجر فقتلها. وروي: أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ جعل جبريل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح النيكة، ثم قلبها عليهم واتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿من سجيل﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنككل بديل قوله: ﴿حجارة من طين﴾ (1) وقيل: هي من أسجله إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين ويدل عليه قوله: ﴿لنرسل عليهم حجارة﴾ (2) وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل وسجل لفلان ﴿منضود﴾ نضد في السماء نضداً معدداً للعذاب وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب، وعن الحسن رضي الله عنه: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿وما هي﴾ من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سال جبريل عليه السلام: «فقال: يعني ظالمي أمك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» (3) وقيل: الضمير للقرى أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرزون بها في مسائرهم ﴿ببعيد﴾ بشيء بعيد، ويجوز أن يراد وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى فكانها بمكان قريب منه.

﴿وَإِنْ مَدَّ يَدَيْهِمْ سَعياً قَالَ يَقَوُّوا آمَنُوا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَقْسُرُوا الْيَكَالَ وَالْيَمَانَ إِنْ أُرْسِكُمْ بِحَيْرٍ وَإِنْ آتَاكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحِيطُ (٨٢) وَيَقَوُّوا أَوْفُوا الْيَكَالَ وَالْيَمَانَ لَا يَلْسِطُ وَلَا تَبْحَسُوا النَّاسَ أَشْبَاهَهُمْ وَلَا تَمْتَرُوا فِي الْأَرْضِ مُسْبِحِينَ (٨٣)﴾.

﴿إني أراكم بخير﴾ يريد بشرة وسعة تغنيكم عن

(1) سورة الذاريات، الآية: 33.
(2) سورة الذاريات، الآية: 33.
(3) قال: الزيلعي: غريب، وأخرجه الثعلبي من غير سند 148/2.
(4) سورة غافر، الآية: 29.
(5) سورة الكهف، الآية: 42.

(6) قال أحمد: ولمن قال: إنَّ الأمر بالشئ ليس نهياً عن ضده، أن يستدل بهذه الآية؛ فإنَّ الأمر لو كان عين النهي. عن الضد، لكان وروده عقبيه تكراراً، وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أنَّ النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل

(7) قال أحمد: المنقول عن المعتزلة، أنَّ الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهياً، ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي، وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر، بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(8) قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، =

بفعل غيره. وقرئ: أصلاتك بالتحديد. وقرأ ابن أبي عمير: أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء بقاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم والدنانير وتطبيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إنك لانت الحلِيم الرشيد﴾ نسبته إلى غاية السفه والغبي فحكسوا ليتهاكموا به كما يتهم بالشحيح الذي لا يبض حجره فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تامر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

قَالَ يَنْفَرُ أَرْبَعَةَ إِذْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَيْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَبَيَّنَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٧﴾

﴿ورزقني منه﴾ أي من لئنه ﴿ورزقاً حسناً﴾ وهو ما رزقه من النبوة والحكمة وقيل: رزقاً حسناً حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

فإن قلت: أين جواب أرايتم؟ وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبياً على الحقيقة، أيسح لي أن لا أمرك بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي والأنبياء لا يبيعون إلا لذلك. يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتساله عن صاحبه فيقول: خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهوراتكم التي نهيتكم عنها لا استبد بها نونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحك بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهبي عن المنكر ﴿وما استطعت﴾ ﴿ظرف أي: مدة استطاعتي

فأثبتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائتها مع فقهه لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان وتنبيه على جلالته، ويجوز أن يراد إن كنتم مصنفين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم⁽¹⁾، ويجوز أن يراد ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم كقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾⁽²⁾ وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأما الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله وقرئ: تقية الله بالتاء، وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

قَالُوا يَسْتَعِيبُ أَمْرًا لَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَبْغُدُ أَمْثَانًا أَوْ أَنْ نَعْمَلَ فِي أَمْثَالِنَا مَا كُنْتُمْ أَتْلُكَ لَأَتَّكِلُكَ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه إذا رآه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصصوا بقولهم ﴿أصلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزاء، والصلوة وإن جاز أن تكون أمرة على طريق المجاز كما كانت ناهية في قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽³⁾ وإن يقال: إن الصلاة تامر بالجميل والمعروف كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه، إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تامر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هنيان ووسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداول عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتوابع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال⁽⁴⁾. ومعنى تأمرك ﴿أن نترك﴾ تأمرك بتكليف أن نترك ﴿ما يعبد أبوانا﴾ نحذف المضاف الذي هو التكليف لأن الإنسان لا يؤمر

(3) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(4) قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون: إن نفعل، معطوفاً على أن نترك، وعلى المشهور لا يجوز ذلك، والله أعلم لاستحالة المعنى، فيعتين العطف فيها على ما يعبد، كأنهم قالوا: أصلواتك تأمر أن نترك عبادة آبائنا، أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي: أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنية لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره تأمرك بتكليف أن نترك، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره، إذ، والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله، فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المنكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(5) قال أحمد: والظاهر أنه ظرف، كهو في قوله: فاتقوا الله ما استطعتم، وأما جعله مفعولاً للمصدر، وقد عرف بالألف واللام

= ومعنى السؤال: أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتنب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك، فلا معنى لاشتراط الإيمان، والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء، ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتثال، إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر، فهم مخلون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مامن العذاب، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وقد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾، وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً أو حقيقة، وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد، راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(2) سورة الكهف، الآية: 46.

وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٤٧﴾ قَالُوا
بَشْتِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضِعِيمًا وَرَوَّلَا
رَهْطَكَ لِرَحْمَتِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ ﴿٤٨﴾ قَالَ بِتَقْوِيرٍ أَزْمَعِيحُ أَعَزُّ
عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَعْتَدْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَمْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٤٩﴾

﴿رحيم ودود﴾ عظيم الرحمة للتائبين فاعل بهم ما يفعل البليغ. والمودة بمن يوده من الإحسان والإجمال ﴿ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً مما تقول﴾ لأنهم كانوا لا يلقون إليه آذنانهم رغبة عنه وكراهية له كقوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾⁽¹⁾ أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه فكانهم لم يفقهوه، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة به كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبا بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هنيئاً وتخليطاً لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان الشغ⁽²⁾ ﴿فينا ضعيفاً﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكرهاً، وعن الحسن: ضعيفاً مهيناً، وقيل: ضعيفاً أعمى، وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريباً، وليس بسديد لأن فينا ياباه ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطاً. والرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة، وإنما قالوا: ولولاهم احتراماً لهم واعتدالاً بهم لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم ﴿لرحمتنا﴾ لقتلتناك شر قتلة ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي: لا تعز علينا ولا تكرم حتى تكرم من القتل وترفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي أن الكلام واقع في الفعل لا في الفعل؛ كانه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أرھطي أعز عليكم من الله﴾ ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم بونه، فكيف صح قوله: ﴿أرھطي أعز عليكم من الله﴾؟ قلت: تهاونهم به وهو نبي الله، فحين عز عليهم رهط بونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽³⁾ ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ ونسبتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبا به، والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي

للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو مفعول له كقوله:

ضعيف النكاية إعداءه

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسلكم ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما أتى وأثر وقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه وطلب منه التأييد والإظهار على عبوه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

وَبِتَقْوِيرٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لِيُصِيبَكُمْ بِعِيبِي ﴿٤٩﴾

جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، تقول: جرم ننبأً وكسبه، وجرمته ننبأً وكسبته إياه، قال:

جرمت فزاره بعدها أن يفضبوا

ومنه قوله تعالى: ﴿لا يجرمنكم شقاقِي أن يصيبكم﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير: بضم الياء من أجرمته ننبأً إذا جعلته جارماً له أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد كما نقل: أكسبه المال من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً واكسبته إياه، فكلك لا فرق بين جرمته ننبأً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أقصح لفظاً كما إن كسبته مالاً أقصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أنورهم له أكثر استعمالاً. وقرأ أبو حيوة: ورويت عن نافع: مثل ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعيدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك.

فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه؟ قلت: إما أن يراد وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان، أو مكان بعيد ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المنكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والبهيق ونحوهما.

(1) سورة الأنعام، الآية: 25.
(2) قال أحمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحدافة في علم البيان، والله المستعان.
(3) سورة النساء، الآية: 80.

= فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعروف في المفعول الصريح ليس بذلك، قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح، ولا في غيره، إلا في قوله: لا يحب الله الجهر بالسوء، فاعمله في الجار والعلول عن إلقاء الإعراب إلى وجوهه، وهي ممكنة عديدة متعين، خصوصاً في أقصح الكلام، والله أعلم.

﴿بما تعملون محيط﴾ قد احاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها.

وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَدِلْتُ سَوْفَ تَمْلِكُونَ مِن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مِصْرَ رَيْبَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي بَيْتِهِمْ جُنُودَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّزِبْتُمْ إِلَيْهَا أَلَا بَعْدًا لِّلَّذِينَ كَفَّٰ بِعَدَّتِ شُؤْمُهُ ﴿١٥﴾.

﴿على مكانتكم﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارين على جهنم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها ﴿إني عامل﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿من يأتيه﴾ يجوز أن تكون من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه، وأينما هو كاذب. وإن تكون موصولة قد عمل فيها كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إخال الفاء ونزعها في ﴿سوف تعلمون﴾؟ قلت: إخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئذان الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئذان للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئذان وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى: الضارب والصارم، أو بمعنى: المراقب كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمترفع.

فإن قلت⁽¹⁾: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ثم اتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس

أن يقول من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قلت: القياس ما نكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاتبًا قال: من هو كاتب يعني: في زمعكم ودعواكم تجهيلاً لهم.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد وثلث قوله: ﴿إن موعدهم الصبح﴾⁽²⁾ ﴿ذلك وعد غير مكتوب﴾⁽³⁾ فجاء بالفاء الذي هو للتسبب كما تقول: وعنته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة وإنما وقعنا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطف بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم كاللايد يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا ﴿كان لم يغنوا﴾ كان لم يقيموا في بيارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد بمعنى: البعد وهو: الهلاك كالرشد بمعنى: الرشد ألا ترى إلى قوله: ﴿كما بعدت﴾ وقرأ السلمي: بعدت بضم العين والمعنى: في البناءين واحد وهو نقيض العرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضمانتي الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي: جاءت على الأصل اعتبارًا لمعنى البعد من غير تخصيص كما يقال: ذهب فلان ومضى في معنى الموت، وقيل: معناه بعدًا لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَبِيحٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ بِنَدْمٍ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّىٰ الْوَرْدَ الْمُرْوَدُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْسُ الرِّدَّ الْمُرْوَدُ ﴿١٩﴾.

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد: بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شاعبه على أمره

= منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ إلا تراه كيف لكتفي بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الانعام: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ فنكر هناك أيضًا إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك، كقوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ واستغنى عن نكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل، فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(2) سورة هود، الآية: 81.

(3) سورة هود، الآية: 65.

(1) قال أحمد: والظاهر والله أعلم أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله: ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ مضمن نكر جرهم الذي يجازون به، وهو: الكذب. ويكون من باب عطف الصفة على الصفة، والموصوف واحد، كما تقول لمن تهده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم، لم يخل نك من دلالة على نكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً، فالآخر هو المحق قطعاً، فنكره لإحدى العاقبتين صريحاً، يفهم نكر الأخرى تعريضاً، والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما، وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيانه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قال إن تسخروا منا فإننا نسخر =

فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله **﴿يدعون﴾** يعبدون، وهي حكاية حال ماضية و **﴿لما﴾** منصوب بما أغنت **﴿أمر ربك﴾** عذابه ونقمته **﴿تتبيب﴾** تخسير يقال: تبَّ إذا خسر، وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَى وَهِيَ طَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٧٢).

محل الكاف الرفع تقديره ومثل ذلك الأخذ **﴿أخذ ربك﴾** والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك بلفظ الفعل. وقرئ: إذا أخذ القرى **﴿وهي ظالمة﴾** حال من القرى **﴿اليم شديد﴾** وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بنبذ يقترفه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد فيبائر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ عَدَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُورٌ (١٧٣).

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم **﴿آية لمن خالف﴾** لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى ونحوه: **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** (١) **﴿ذلك﴾** إشارة إلى يوم القيامة؛ لأن عذاب الآخرة دل عليه و **﴿الناس﴾** رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لاي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله (2)؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضرورياً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾** (3) تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب، **﴿يوم مشهود﴾** (4) مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويوم شهدنا سليماً وعامراً

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود الذي كثر شاهده، ومنه قولهم: لفلان

وهو ضلال مبين لا يخفي على من فيه أننى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالفسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام وعلما أن معه الرشد والحق ثم عللوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط **﴿يقدم قومه﴾** أي: كما كان قنوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله: **﴿يقدم قومه﴾** تفسيراً لذلك وإيضاحاً أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمى ويرتضى، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: مقدمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدم، ومنه: مقدم العين.

فإن قلت: هلا قيل يقدم قومه فيوردهم ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكانه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة و **﴿الورد﴾** و **﴿المورود﴾** الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بشس الورد الذي يردونه النار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضده **﴿وتتبعوا في هذه﴾** في هذه الدنيا **﴿لعنة﴾** أي: يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة **﴿بشس الرفد المرفود﴾** رفدهم أي: بشس العون المعان، وذلك أن اللعنة في الدنيا رعد للعذاب ومدد له وقد رعدت باللعنة في الآخرة وقيل: بشس العطاء المعطى.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَضِجَتْ عَالِيَتُهَا قَائِمَةً وَرَحِيمَةٌ (١٧٤) وَمَا كَلَّمَتْهُمُ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا رَادُّهُمْ عَنِّي تَتَبِيبٍ (١٧٥).

﴿ذلك﴾ مبتدأ **﴿من أنباء القرى﴾** نقصه عليك **﴿خبير بعد خبر أي: ذلك النبا بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك﴾** منها **﴿الضمير للقرى أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزروع القائم على ساقه والذي حصد.**

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها **﴿وما ظلمناهم﴾** بإهلاكنا إياهم **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بارتكاب ما به أهلكوا **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾**

(1) سورة النازعات، الآية: 26.

(2) قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى: **﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة﴾** فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً إلخ.

(3) سورة التغابن، الآية: 9.

(4) قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به، مسكوتاً عنه، مبهماً، ومن الإبهام ما يكون، وتقخيماً، وهذا مكانه.

مجلس مشهود وطعام محضور، قال:

في محفل من نواصي الناس مشهود

فإن قُلْتُ: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه نون أن تجعله مشهوداً فيه؟ كما قال الله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾⁽¹⁾ قُلْتُ: للغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه نونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدا كل من يشهده. وكذلك قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾⁽²⁾ الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في فليصمه والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطئه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر لا يشهده المقيم ويغيب عنه المسافر.

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذَاتِهِ، فَيَنْهَرُ شَرًّا وَسَيِّئًا ﴿١٥﴾.

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها فيقولون: انتهى الأجل وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، فإذا جاء أجلهم يراذ: آخر مدة التأجيل والعد إنما هو: للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وما يؤخره إلا لأجل معدود﴾ إلا لانتهاه مدة معدودة بحذف المضاف وقرى: وما يؤخره بالياء. قرى: يوم يات بغير ياء ونحوه قولهم: لا أثر حكاة الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاحتراز عنها بالكسرة كثير في لغة هنيل.

فإن قُلْتُ: فاعل يأتي ما هو؟ قُلْتُ: الله عز وجل كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾⁽³⁾ ﴿ويأتي ربك﴾⁽⁴⁾ ﴿وجاء ربك﴾⁽⁵⁾ وتعضده قراءة من قرأ: وما يؤخره بالياء، وقوله: ﴿بإبانه﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم كقوله تعالى: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: بما انتصب الطرف؟ قُلْتُ: إما أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار انكر، وإما بالانتهاه المحذوف في قوله: ﴿إلا لأجل معدود﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قُلْتُ: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم فقد جعلت

اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدت الشيء بنفسه؟ قُلْتُ: المراد إتيان هوله وشدائده ﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم وهو نظير قوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن﴾⁽⁷⁾.

فإن قُلْتُ: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾⁽⁸⁾ وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾⁽⁹⁾ قُلْتُ: ذلك يوم طويل له موافق ومواظن فقي بعضها يجاللون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿فمنهم﴾ الضمير لاهل الموقف ولم ينكروا لأن ذلك معلوم ولأن قوله: ﴿لا تكلم نفس﴾ يدل عليه وقد مر نكر الناس في قوله: ﴿مجموع له الناس﴾⁽¹⁰⁾ والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

فَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا فِي النَّارِ لَمْ يَبْأَ زَوْفِرٌ وَسَيْقٌ ﴿١٦﴾.

قراءة العامة بفتح الشين، وعن الحسن: شقوا بالضم، كما قرئ: سعدوا. والزفير إخراج النفس. والشهيق رده قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير وينلوه شهيق محشرج

خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتْ أَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ نَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ أَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرَ مَحْدُورٍ ﴿١٨﴾.

﴿ما دامت السموات والأرض﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تتراد سموات الآخرة وأرضها هي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾⁽¹¹⁾ وقوله: ﴿وأورثنا الأرض نتبواً من الجنة حيث نشاء﴾⁽¹²⁾ ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء، والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قُلْتُ: فما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قُلْتُ: هو: استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالمزهرير وبأنواع من العذاب

(7) سورة النبا، الآية: 38.

(8) سورة النحل، الآية: 111.

(9) سورة المرسلات، الآيتان: 35 و36.

(10) سورة هود، الآية: 103.

(11) سورة إبراهيم، الآية: 48.

(12) سورة الزمر، الآية: 74.

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) سورة البقرة، الآية: 185.

(3) سورة البقرة، الآية: 210.

(4) سورة الأنعام، الآية: 158.

(5) سورة الفجر، الآية: 22.

(6) سورة يوسف، الآية: 107.

وكما يجوز أن تكون: مصدرية وموصولة أي: من عبادتهم وكعبانهم، أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ (6) أي: حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباهم.

فإن قلت: كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالاً عن النصيب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل، إلا ترك تقول: وفيته شطر حقه وثالث حقه وحقه كاملاً وناقصاً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ ذِكْرًا وَلَا كَلِمَةً سَبَيْتَ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْصُرُنَّهُمُ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي سَكِّتَ مِنْهُ رَبِّمْ ﴿١١﴾ وَإِنَّ كَلَامَنَا لِيُرْوِيهِمْ رَبُّكَ أَعْلَمُ إِنَّهُمْ بِمَا يَمْكُرُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾

﴿فاتختلف فيه﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن ﴿ولو لا كلمة﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لنقض بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية أيضاً ﴿وإن كلاً﴾ التنوين عوض من المضاف إليه يعني وإن كلهم وإن جميع المختلفين فيه ﴿ليوفينهم﴾ جواب قسم محذوف. واللام في لما موطئة للقسم وما مزيدة والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم ﴿ربك أعمالهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلاً بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبي: وإن كل لما ليوفينهم على أن إن نافية ولما بمعنى: إلا وقراءة عبد الله مفسرة لها؛ وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرقم: وإن كلاً لما ليوفينهم بالتنوين كقوله: ﴿أكلأ لمأ﴾ (7) والمعنى: وإن كلاً ملمومين بمعنى: مجموعين، كأنه قيل: وإن كلاً جميعاً كقوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ (8).

فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا لِيُرْوِيَهُمْ نَبِيَّهُمْ عَزَّزْتُكُمْ ﴿١٣﴾

﴿فاستقم كما أمرت﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق غير عادل عنها ﴿ومن تاب معك﴾ معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ عالم فهو مجازيك به فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد

سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سحق الله عليهم وخسؤه لهم وإهانتهم إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم وهو رضوان الله كما قال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾ (1) ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو فهو المراد بالاستثناء والليل عليه قوله: ﴿عطاء غير مجنون﴾ (2) ومعنى قوله في مقابلته ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخدعك عنه قول المجبرة (3): إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل باقترانهم، وما ظنك بقوم نبؤا كتاب الله لما روي لهم بعض النوايب عن عبد الله بن عمرو بن العاص: لياتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (4) وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث فاعتقد أن الكفار لا يخلون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زانداً الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه وتبنيها على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص فمعناه: أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير، فنلك خلو جهنم وصفق أبوابها، وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث ﴿غير مجنون﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ (5).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَمُنُّ هَؤُلَاءُ مَا يَمُونُ إِلَّا كَمَا يَمُنُّ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَبِيَّهُمْ عَزَّزْتُكُمْ ﴿١٤﴾

لما قص قصص عبدة الأوثان ونكر ما أحل به من نعمة وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: فلا تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آباؤهم من غير تفاوت بين الحاليين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استثناء معناه: لتعليل النهي عن المرية وما في ﴿مما﴾

= الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه، والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي الأخذ، ومن قال: أعطيت فلاناً حقه، كان جديراً أن يؤكد بقوله غير منقوص، والله أعلم.

(7) سورة الفجر، الآية: 19.

(8) سورة ص، الآية: 73.

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة هود، الآية: 108.

(3) يريد: أهل السنة، أما المعتزلة، فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار ابدى، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد.

(4) أخرجه البزار.

(5) سورة التين، الآية: 6.

(6) قال أحمد: وهم، والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان =

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوق يلقون غياً﴾⁽⁴⁾ فإنك تعامل من لا يجهد ويحفظ عليك من لا يفغل، فداو بينك فقد دخله سقم، وهى زالك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم وإي لا يسكنه إلا القرءاء الزاثرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الثناب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا ظالمًا بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»⁽⁵⁾ ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة هل يسقي شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت، فقال: دعه يموت ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ حال من قوله: فتمسك أي: فتمسك النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثم لا تنصرون﴾ ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلنت: فما معنى ثم؟ قلت: معناها الاستبعاد؛ لأن النصره من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

وَأَمِيرَ الْمَلَكَةِ طَرَفِي الْبَهَارِ وَزَلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿طرفي النهار﴾ غدوة وعشية ﴿وزلفًا من الليل﴾ وساعات من الليل، وهي: ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وازلف إليه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف المغرب والعشاء، وانتصاب طرفي النهار على الطرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك: أقمته عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ونحوه ﴿وأطراف النهار﴾⁽⁶⁾ وقرئ: وزلفًا بضمين، وزلفًا بسكون اللام، وزلفى بوزن قربي، فالزلف: جمع زلفة كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون نحو: بسرة وبسر، والزلف بضمين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة كما أن القريبى بمعنى: القربة، وهو: ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: وزلفًا من الليل وقربًا من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تحذف على الصلاة أي: أقم الصلاة طرفي النهار وأقم زلفًا من الليل على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل ﴿إن الحسنات

ولا أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال: «شيبنتني هود والواقعة وأخواتهما». وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب فقال: «شيبنتني هود»⁽¹⁾، وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبنتني هود؟ فقال: «نعم» فقلت: ما الذي شيبك منها، أقصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ قال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت»، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال: أفنقر إلى الله بصحة العزم.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ تَرَىٰ لَا ضُرَّورَ ﴿١٧﴾

قرئ: ﴿ولا تركنوا﴾ بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الباء في كل ما كان من باب علم يعلم، ونحوه: قراءة من قرأ: فتمسك النار بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: ولا تركنوا على البناء للمفعول من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيمهم ومد العين إلى زهرتهم ونكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله: ﴿ولا تركنوا﴾ فإن الركون هو: الميل اليسير وقوله: ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم ولم يقل إلى الظالمين. وحكي: أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم؟ وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاثين ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾ ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتنة فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه: ﴿التبيينه للناس ولا تكتمونه﴾⁽²⁾ واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك أنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤذ حقًا ولم يترك باطلاً، حين أدنك اتخذوك قطبًا تدور عليك رحي باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلانهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقتابون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك⁽³⁾، وما أكثر ما أختوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم؟

(4) سورة مريم، الآية: 59.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في مساعدة الكفار والمفسدين فصل في مجانية الظلم (الحديث رقم: 9423).

(6) سورة طه، الآية: 130.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3297).

(2) سورة آل عمران، الآية: 187.

(3) لعل هنا سقطاً تقديره في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحوك في جنب ما أفسدوا الخ.

والجودة ببقية؛ لأنَّ الرجل يستبقي مما يخرجُه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم أي: من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

ان تذبوا ثم ياتيني بقيتكم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى كالتيقبة بمعنى التقوى أي: فهلا كان منهم نوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية بوزن لقية من بقاءه يبقيه إذا راقبه وانتظره، ومنه «بقينا رسول الله ﷺ»⁽⁷⁾، والبقية المرّة من مصدره، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلاً﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً مما أنجبنا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ومن في ﴿ومن أنجبنا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة إنما هي للناهيين وحدهم بليل قوله تعالى: ﴿أنجبنا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾⁽⁸⁾.

فإن قُلْتَ: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؛ قُلْتَ: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً الأولى البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد: استثناء الصالحاء من المحضيين على قراءة القرآن وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً. كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأقصح أن يرفع على البديل ﴿واتبع للذين ظلموا ما أتروا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، وبنوه وراء ظهورهم وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: واتبع الذين ظلموا يعني: واتبعوا جزء ما أتروا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزءاً إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم وهلك السائر.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾؟

يذهبن السيئات﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات بأن يكن لطفاً في تركها كقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾⁽¹⁾ وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري كان يبيع التمر، فأتته امرأة فأعجبتة فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «انتظر أمر ربي» فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال: «نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت»، وروي: أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: هذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»⁽²⁾، وروي أن رسول الله ﷺ قال له: «توضاً وضوياً حسناً، وصل ركعتين، إن الحسنات يذهبن السيئات» ﴿نلك﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فاستقم﴾⁽³⁾ فما بعده ﴿ندكرى للذاكرين﴾ عظة للمتعتلين.

وَأَسِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبية على مكان الصبر ومحلّه كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحقّ بالوصية وهو: الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاة عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاة عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

مَثَلًا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَعَثَ يَهُودُكَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْآيَاتِ ظَلَمُوا مَا أَتَرُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات. وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء﴾⁽⁴⁾ ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾⁽⁵⁾ ﴿ولولا أن ثبتنك لقد كنت تركن إليهم﴾⁽⁶⁾ ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير، وسمي الفضل

(4) سورة القلم، الآية: 49.

(5) سورة الفتح، الآية: 25.

(6) سورة الإسراء، الآية: 74.

(7) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «في وقت العشاء الآخرة» (الحديث رقم: 421).

(8) سورة الأعراف، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: «ومن سورة هود» (الحديث رقم: 3115) والبخاري في كتاب التفسير ومن سورة هود، باب: «أقم الصلاة طرفي...» (الحديث رقم: 4687) ومسلم في كتاب التوبة باب: قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (الحديث رقم: 6932).

(3) سورة هود، الآية: 112.

﴿وَكَلَّا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبياً ﴿نَقَصَّ عَلَيْكَ﴾ و ﴿مَنْ أَنْبَأَ الرَّسُلَ﴾ بيان لكل و ﴿مَا نَثَبْتَ بِهِ فَوَالِكَ﴾ بدل من كلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقصّ عليك على معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبيت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأنّ تكاثر الأدلة اثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعْمَلُوا﴾ على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا﴾ بنا السواثر ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ رِجْعُ الْأُمُورِ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وش غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيها فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وكفاك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صوّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك» (2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الرَّيَّةَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب المبين﴾ السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشبته على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سالت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمراً؛ لأنّ المعنى إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجبنا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزءهم.

فإن قُلْتُ: فقلوه: ﴿وكانوا مجرمين﴾؟ قُلْتُ: على أتراف أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأنّ تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهَيِّجَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُخْلِصُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿كان﴾ بمعنى: صحّ واستقام. واللام لتأكيد النفي و ﴿بظلم﴾ حال من الفاعل والمعنى: استحالة في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها ﴿وآهلها﴾ قوم ﴿مصلحون﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيداناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَتَمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلُوعِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجَعَ إِلَىٰ رَبِّكَ وَاللَّذَالِكُمْ كَلْفَهُمْ وَسَمْتَ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكون أهل أمة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (1) وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكّنه من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاخترت بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلّفوا فلذلك قال: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مخلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَسِيرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٣٩﴾

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنون، الآية: 52.

(2) نكده ابن مرويّه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزليعي 157/2.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدًا ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَضَعُ رُءُوكَ عَلَى
إِسْرَائِيلَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾

﴿إذ قال يوسف﴾ بدل من أحسن القصص وهو من بدل الاشتمال؛ لأن الوقت مشتمل على القصص، وهو: المقصوص، فإذا قص وقته فقد قص، أو بإضمار انكر، ويوسف اسم عبراني وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربيًا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ يوسف بكسر السين أو يوسف بفتحها؟ هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من آسف، وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؛ قلت: لا لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى. ونحو يوسف يونس رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من أسس وأوس، وعن النبي ﷺ: «إذا قيل من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»⁽³⁾ ﴿يا ابت﴾ قرئ بالحركات الثلاث.

فإن قلت: ما هذه التاء؟ قلت: تاء تانيث وقعت عوضًا من ياء الإضافة، والليل على أنها تاء تانيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التانيث بالمنكر؟ قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة نكر وشاة نكر ورجل ربعة وغللم يفة.

فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التانيث من ياء الإضافة؟ قلت: لأن التانيث والإضافة يتناسبان في أن كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قلت: فما هذه الكسرة؟ قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أباي قد زحلقفت إلى التاء لاقتضاء تاء التانيث أن يكون ما قبلها مفتوحًا.

فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قلت: امتنع ذلك فيها لأنها اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفًا، لأنها حرف لين، وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير فلزم تحريكها.

فإن قلت: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه؛ لأنها في حكم الياء إذا

سلوا محمدًا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦﴾

﴿أنزلناه﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿قرآنًا عربيًا﴾ وسمي بعض القرآن قرآنًا؛ لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لعلكم تعقلون﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾⁽¹⁾.

عَنْ نَفْسٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْجَدْنَا لِإِيَّاكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَرَأَى كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ. لَيْنَ الْمَنْفِيلِ ﴿٧﴾

﴿القصص﴾ على وجهين يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص تقول: قص الحديث يقصه قصصًا كقولك: شله يشله شللاً إذا طرده، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنقص والحسب ونحوه: التبا والخبر في معنى: المنبا به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بإيحاءنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوبًا نصب المصدر لإضافته إليه ويكون المقصوص محنوقًا؛ لأن قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحاءنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتص على أبداع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه⁽²⁾ أحسن ما يقتص في بابيه كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم يراد في فنه.

فإن قلت: مم اشتقاق ﴿القصص﴾؟ قلت: من قص أثره إذا تبعه؛ لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿وإن كنت﴾ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في ﴿قبله﴾ راجع إلى قوله: ﴿بما أوحينا﴾ والمعنى: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحاءنا إليك من الغافلين عنه أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف منه.

(1) سورة فصلت، الآية: 44.

(2) لعله في غيره، كعبارة النسفي.

(3) رواه الترمذي في كتاب: للتفسير، باب: ومن سورة يوسف (الحديث رقم: 3116) والحاكم في المستدرک 570/2، والبخاري في =

= كتاب: الأنبياء باب: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت» (الحديث رقم: 3382) ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام (الحديث رقم: 6111).

أربعون سنة وقيل: ثمانون.

فإن قُلْتُ: لم أخرج الشمس والقمر؟ **قُلْتُ:** أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرها من الطوالع، كما أخرج جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قُلْتُ (2): ما معنى تكرار «رأيت»؟ **قُلْتُ:** ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: «إني رأيت أحد عشر كوكباً» كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: «رأيتهم لي ساجدين».

فإن قُلْتُ: فلم أجريت مجرى العقلاء في «رأيتهم لي ساجدين»؟ **قُلْتُ:** لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة. عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بأبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم. والرؤيا بمعنى: الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام نون اليقظة، فرق بينها بحرفي التانيث كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: رويك بقلب الهمزة واو، وسمع الكسائي: ريك وريك بالإدغام وضم الراء وكسرهما وهي ضعيفة؛ لأن الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: اتزر من الإزار واتجر من الأجر «فيكيديوا» منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كانوا.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: فيكيديوك كما قيل: «فيكيديوني» (3) **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون أكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر «عدو مبین» ظاهر العداوة لما فعل بأدم وحواء ولقوله: «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» (4) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله.

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنَبِّئُكَ بِمِثْرٍ مِمَّا كُنْتَ تَعْمَلُ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلٍ بِمَقْرَبٍ كَمَا أَنْتَ عَلَىٰ آبَائِكَ مِنْ قَبْلُ يَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ
لِنَازِلِينَ ﴿٦﴾

«وكنلك» ومثل ذلك الاجتناب «يجتبيك ربك» يعني:

قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتي لا يجوز يا أبت؟ **قُلْتُ:** الباء والكسرة قبلها شيئان، والتاء عوض من أحد الشئيين وهو الباء، والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه إلا إذا جمع بين التاء والباء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من الباء كيف جاز الجمع بينهما وين التاء ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قُلْتُ: فقد نلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الباء ولصيققتها فإن نلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو وجودها كعدمها **قُلْتُ:** بل حالها مع التاء كحالها مع الباء إذا قلت: يا أبي.

فإن قُلْتُ: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ **قُلْتُ:** أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الباء في يا غلام، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك: يا أبي، وأما من ضم فقد رأى أسماً في آخره تاء تانيث فاجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول: ياتبة من غير اعتبار لكونها عوضاً من غير باء الإضافة. وقرئ: «إني رأيت بتحريك الباء، وأحد عشر بسكون العين تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد وكذا إلى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية؛ لأن ما نكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قُلْتُ: ما أسماء تلك الكواكب؟ **قُلْتُ:** روى جابر أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم؟» قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذئال وقابس وعمودان والفليق والمصيح والضروح والفرغ ووثاب وبنو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال اليهودي: أي والله إنها لأسمائها (1)، وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته، وعن وهب: أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تنكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيلغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه

(1) رواه الحاكم في المستدرک 396/4.

(2) قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال،

فطري نكر الفعل لمناسبة الحال، وهي المقصودة، إذ الآية في =

(3) سورة هود، الآية: 55.

(4) سورة الاعراف، الآية: 16.

بيان لأبيوك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حَكْمٌ﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِفِينَ﴾ (٧).

﴿في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آياتٌ﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميه: يهوذا وروبييل وشمعون ولاوى وريالون ويشجر وبينة ودان ونفتالي وجاد، وأشر، السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحْمَقُ مِنَ الَّذِينَ بَيْنَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨).

﴿ليوسف﴾ (٣) اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أراولوا: أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿وأخوه﴾ هو: بنيامين وإنما قالوا: أخوه وهم جميعاً إخوته؛ لأنَّ أمهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أحب﴾ في الاثنين؛ لأن أقرع من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المنكر والمؤنث إذا كان معه من، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والراو في ﴿ونحن عصبية﴾ أو الحال يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنتان صغيران لا كفاية فهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة تقوم بمرافقه، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إنَّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب، وروى النزال بن سبرة عن علي

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شان كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام وقوله: ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك، والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلت لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، والأحاديث الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويبدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ (١) ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ (٢) وهو: اسم جمع للحديث وليس بجمع أحوثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بان جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: آتمها على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن نبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال: وعلى آل يعقوب، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسوده وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمع الله لك بعد دهر طويل. و﴿آل يعقوب﴾ أهله وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلها. وأراد بالابويين الجد وأبى الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصالة ومن ثمَّ يقولون: ابن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدة و﴿إبراهيم وإسحاق﴾ عطف

(1) سورة الأعراف، الآية: 185.

(2) سورة الزمر، الآية: 23.

(3) قال أحمد: هذه تؤيد قراءة ابن مروان: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، بالنصب، وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أي: تمكن، وحيث تأييد بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه، فلا بد من التماس المجمع الصحيح لها، وليس ذلك ببعيد إن شاء الله، فنقول: لو قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن نحن على طريقة:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو أنا أنا، وأنت أنت، لم يكن في فصاحته مقال، وقد علمت أن معنى: أنا أنا، أي: أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى =

= عن نكرها، فلا بعد، والحالة هذه في حذف الخبر لمساواته المبتدأ، وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحنوف، وإذا كان كذلك، فقول القائلين: ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾، ونحن معنا، ونحن نحن، ولكن استغفوا عن الخبر للسز الذي نكرناه، فقولهم: ونحن، كلام تام بالتقدير المنكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقوله: هن، في حكم الكلام التام، والمراد: هؤلاء بناتي هن المشهورات، بالأوصاف الحميدة الظاهرة، وأصل للكلام: هن، هن، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

ومنه: ذهب بعض أصابعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَحْصُلُ بِهِ غَرْضُكُمْ فَهَذَا هُوَ الرَّايِ. قَالُوا يَا أَبَا نَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُ كَافِرُونَ ﴿١١﴾.

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ قرئ: بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، وتيمناً بكسر التاء مع الإدغام والمعنى: لِمَ تَخَافُنَا عَلَيْهِ وَنَحْنُ نَرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ وَنَحْبَهُ وَنَشْفُقُ عَلَيْهِ وَمَا وَجَدْنَا فِي بَابِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ النَّصِيحَةِ وَالْمَقَّةِ، وَأَرَانُوا بِنَلِكِ لَمَّا عَزَمُوا عَلَى كَيْدِ يُوْسُفَ اسْتَنْزَالَهُ عَلَى رَأْيِهِ وَعَادَتِهِ فِي حِفْظِهِ مِنْهُمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْهُمْ بِمَا أَوْجَبَ أَنْ لَا يَأْمَنَهُمْ عَلَيْهِ.

أَرْسِلَهُ مَنَّا عَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَمُ كَافِرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿نَرْتَعُ﴾ نتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، وقرئ: يرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع من ارتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سبيبة: يرتع بكسر العين، ويلعب بالرفع على الابتداء.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَجَازَ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْعَبِّ؟ قُلْتَ: كَانَ لِعَبِّهِمُ اسْتِبَاقُ وَالْإِنْتِضَالُ لِيُضْرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ لَا لِلهُوِّ بَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ (6) وَإِنَّمَا سَمَوْهُ لِعَبًّا؛ لِأَنَّهُ فِي صُورَتِهِ ﴿يَلْحِزُّنُنِي﴾ اللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (7) وَدَخَلُوهَا أَحَدٌ مَا نَكَرَهُ سَبِيوِيهِ مِنْ سَبِيِي الْمَصَارِعَةِ.

قَالَ إِبْنُ كَيْسَرٍ: أَنْ تَدَّهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾.

اعتذر إليهم بشيئين (8) أحدهما: أَنْ ذَهَبَهُمْ بِهِ وَمَفَارِقَتَهُ إِيَّاهُ مِمَّا يَحِزُّنُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ سَاعَةً وَالثَّانِي: خَوْفُهُ عَلَيْهِ مِنْ عُدُوِّ الذُّنْبِ إِذَا غَفَلُوا عَنْهُ بِرَعِيهِمْ وَلَعَبِهِمْ وَأَقَلُّ بِهِ اِهْتِمَامَهُمْ وَلَمْ تَصْنُقْ بِحِفْظِهِ عَنَابَتِهِمْ، وَقِيلَ: رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّ الذُّنْبَ قَدْ شَدَّ عَلَى يُوْسُفَ فَكَانَ يَحِزُّهُ فَمَنْ ثَمَّ قَالَ ذَلِكَ فَلَقْنَهُمُ الْعِلَّةَ، وَفِي امْتِثَالِهِمْ: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ. وَقَرَأَ: الذُّنْبُ بِالْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ وَالتَّخْفِيفِ، وَقِيلَ: اسْتَفْتَاكَ مِنْ تَدَاعَبَتِ الرِّيحُ إِذَا تَمَّتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

قَالُوا لَيْنَ أَكَّاهُ الذُّنْبُ وَرَحُّ عَصَبُهُ إِنَّا إِذَا لَحِينُورُونَ ﴿١٤﴾.

القسم محنوف تقديره والله ﴿لَشَنَّ أَكَلَهُ الذُّنْبُ﴾ وَاللَّامُ مُوَطَّئَةٌ لِلْقِسْمِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا لَحِاسِرُونَ﴾ جَوَابٌ لِلْقِسْمِ مُجْزِيٌّ عَنْ جِزَاءِ الشَّرْطِ. وَالْوَاوُ فِي وَنَحْنُ عَصَبَةٌ أَوْ الْحَالِ، حَلْفُوا لَهُ لِشَنَّ كَانَ مَا خَافَهُ مِنْ خَطْفِهِ الذُّنْبُ أَحَاَهُمْ

رضي الله عنه: وَنَحْنُ عَصَبَةٌ بِالنَّصْبِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَنَحْنُ نَجْتَمِعُ عَصَبَةٌ، وَعَنْ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ: هَذَا كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: إِنَّمَا الْعَامِرِيُّ عَمْتُهُ أَي: يَتَعَدُّ عَمْتَهُ.

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اكْرَهُهُ أَرْضًا يَحِلُّ لَكُمْ رِبْحُهَا وَيَكُونُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَيَكُونُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَمَا صَلِحِينَ ﴿١٥﴾.

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكى بعد قوله: ﴿إِنْ قَالُوا﴾ (1) كَانَهُمْ أَطْبَقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قَالٍ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوْسُفَ﴾ (2) وَقِيلَ: الْأَمْرُ بِالْقَتْلِ شَمْعُونَ، وَقِيلَ: دَانَ وَالْبَاقُونَ كَانُوا رَاضِينَ فَجَعَلُوا أَمْرَيْنِ ﴿أَرْضًا﴾ أَرْضًا مَنْكُورَةً مَجْهُولَةٌ بَعِيدَةٌ مِنَ الْعِمْرَانِ وَهُوَ مَعْنَى تَنْكِيْرُهَا وَإِخْلَاطُهَا مِنَ الْوَصْفِ، وَإِبْهَامُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ نَصَبَتْ نَصْبَ الظُّرُوفِ الْمُبْهَمَةِ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ يَقْبَلُ عَلَيْكُمْ إِقْبَالَةً وَاحِدَةً لَا يَلْتَفِتُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمُرَادُ سَلَامَةُ مَحَبَّتِهِ لَهُمْ مِمَّنْ يَشَارِكُهُمْ فِيهَا وَيَنْزِعُهُمْ إِيَّاهُ، فَكَانَ نَكَرَ الْوَجْهَ لِتَصْوِيرِ مَعْنَى إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ أَقْبَلَ بَوَجْهِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالْوَجْهِ: الذَّاتُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ (3) وَقِيلَ يَخْلُ لَكُمْ يَفْرَغُ لَكُمْ مِنَ الشَّغْلِ بِيُوْسُفَ ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ مِنْ بَعْدِ يُوْسُفَ أَي: مِنْ بَعْدِ كِفَايَتِهِ بِالْقَتْلِ أَوْ التَّغْرِيْبِ، أَوْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى مَصْدَرِ اِقْتُلُوا أَوْ اطْرَحُوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا جَنَيْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يَصْلُحُ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَبِيكُمْ بَعْدَ تَمَهُّونِهِ، أَوْ تَصْلُحُ نِيَاكُمُ وَتَنْتَظِمُ أُمُورَكُمْ بَعْدَهُ بَخْلُو وَجْهَ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا إِمَّا مُجْزِومٌ عَطْفًا عَلَى يَخْلُ لَكُمْ أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ أَنْ، وَالْوَاوُ بِمَعْنَى: مَعَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ (4).

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَكْرَهُهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَشَرٌ أَسْبَاوَةٌ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿١٦﴾.

﴿قائل منهم﴾ هو: يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو: الذي قال: ﴿فلن أبرح الأرض﴾ (5). قال لهم: القتل عظيم ﴿القوه في غيابة الجب﴾ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله قال المنخل:

إِنْ أَنَا يَوْمًا غَيْبْتَنِي غِيَابَتِي فَسِيرُوا بِسِرِّي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ أَرَادَ غِيَابَةَ حَفْرَتِهِ الَّتِي يَدْفَنُ فِيهَا، وَقَرَأَ: غِيَابَاتٍ عَلَى الْجَمْعِ، وَغِيَابَاتٍ بِالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ: غَيْبَةً، وَالْجَبُّ الْبُتْرُ لَمْ تَطُورْ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَجِبُ جَبًّا لَا غَيْرَ ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ يَأْخُذُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ: بَعْضُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَقَرَأَ: تَلْتَقِطُهُ بِالتَّاءِ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ بَعْضَ السَّيَّارَةِ سَيَّارَةُ كَقَوْلِهِ:

كما شرقت صدر القناة من الدم

(7) سورة النحل، الآية: 124.

(8) قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذنْب عليه؛ لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع، ويلعب، ويعود سالماً إليه عما قتل، فأمر سهل، فكانهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه، وتطمينه من أشد الأمرين عليه، والله أعلم.

(1) سورة يوسف، الآية: 8.

(2) سورة يوسف، الآية: 10.

(3) سورة الرحمن، الآية: 27.

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة يوسف، الآية: 80.

(6) سورة يوسف، الآية: 17.

يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المبطل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان يدينه نونكم، وأنكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، ويعتموه بثمن بخص. ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بقوله: وأوحينا على أنا أنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك وبحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، وقرئ: لنتبئتهم بالنون على أنه وعيد لهم، وقوله: وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير.

وَجَاءُوا بِأَهْمٍ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٣﴾

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لقيته عشيًا وعشيانًا وأصيلًا وأصيلانًا، ورواه ابن جني: عشي بضم العين والقصر، وقال عشاوا: من البكاء، وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم مظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي^(١): أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما لكم؟ ولين يوسف؟

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَرَكَعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَمِنَا فَكَكَّ الْكُذِّبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان، كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، وغير ذلك والمعنى: نتسابق في العدو، أو في الرمي وجاء في التفسير نتضل ﴿بمؤمن لنا﴾ بمصدق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ ولو كنا عندك من أهل الصق والثقة لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا.

وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَسْبٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٥﴾

﴿بدم كذب﴾ ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته، ونحوه.

فَهَزَّ بِهِ جُودَ وَأَنْتَمُ بِهِ بِخُلٍ

وقرئ: كذبًا نصًا على الحال بمعنى: جاؤا به كاذبين ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة رضي الله عنها: كذب بالبدال غير المعجزة أي: كدر، وقيل: طرى، وقال ابن

من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنه غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال: خسروهم الله ودمروهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضررون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قد اعتذر إليهم بعدرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قُلْتُمْ: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه أدانًا صمًا ولم يعبوا به.

لَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَرُوا أَنْ يَجْمُلُوهُ فِي عُيَيْنَيْ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾

﴿أن يجعلوه﴾ مفعول أجمعوا من قولك: أجمع الأمر وأزمعه فأجمعوا أمركم. وقرئ: في غيابات الجب قيل: هو بئر ببيت المقدس، وقيل: بأرض الأرين، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما محنوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرية أظفروا له العداوة وأخنوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يفته إلا بالإهانة والضرب حتى كانوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا ابتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء! فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعو قميصه، فقال: يا إخوتاه ربوا علي قميصي أتراى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا تؤنسك، ويلوه في البئر فلما بلغ نصفها القوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنانوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فاجابهم، فأرأوا أن يرذخوه ليقتلوه، فمتعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروي: أن إبراهيم عليه السلام حين لقي في النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فالبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيمية علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه ﴿وأوحينا إليه﴾ قيل: أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ كان ذاك مدركًا، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة ﴿لنتبئتهم بأمرهم هذا﴾ وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿وهم لا يشعرون﴾ إنك

(1) قال أحمد: وقواه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولًا، وهو: أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقوا العذر من قوله لهم: ﴿وأخاف أن يكله﴾

الذئب وكثيراً ما تتلف الأعداء الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

جني: أصله من الكذب وهو: الفوف البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه. روي: أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه، وروي: أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كالذيوم نثباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان ليلياً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، وليلياً على براءة يوسف حين قد من ببر.

فإن قلت: ﴿على قميصه﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجازاً فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ قلت: لا؛ لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿سؤلت﴾ سهلت من السؤل وهو: الاسترخاء أي سهلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استئل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحى إليه بأنهم قصوده ﴿فصبر جميل﴾ خير أو مبتداً لكونه موصوفاً، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبي: فصبراً جميلاً، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع أنه الذي لا شكوى فيه⁽¹⁾، ومعناه: لا شكوى فيه إلى الخلق إلا ترى إلى قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾⁽²⁾ وقيل: لا أعياشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصا، فقال له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها لي ﴿وإله المستعان﴾ أي: استعنيه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

وَمَاءَت سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا عَلِيمٌ
وَأَسْرَوْهُ يُضَمُّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا بَمَلُوكَ ﴿١٦﴾

﴿وجاءت سياره﴾ رفة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من لقاء يوسف في الجب، فأخطأوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملكاً فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿فأرسلوا﴾ رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء. والوارد الذي يرد الماء

ليستقي للقوم ﴿يا بشري﴾ نادى البشري كأنه يقول: تعالى فهذا من أونتك، وقرئ: يا بشراي على إضافتها إلى نفسه وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولاي، وعن نافع: يا بشراي بالسكون وليس بالوجه لما فيه من اللقاء السالكين على غير حده إلا أن يقصد الوقف. قيل: لما أنلى بلوه أي: أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بسلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي ﴿هذا غلام﴾ وقيل: ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿وأسروه﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجد أنهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه و﴿بضاعة﴾ نصب على الحال أي: أخفوه متاعاً للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي: قطع ﴿والله عليم بما يعملون﴾ لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم، والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَسَرَّوهُ بِسَبِّ بَنِي دَرَاهِمٍ مَدْرَدَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنْ
الزَّاهِدِينَ ﴿١٧﴾

﴿وسروه﴾ وباعوه ﴿بئمن بخس﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ لا دنانير ﴿معدودة﴾⁽³⁾ قليلة تعد عدداً ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ويعنون ما دونها، وقيل للقليلة: معدودة؛ لأن الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً، وعن السدي: اثنين وعشرين ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه؛ لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى وسروه: واشتروه يعني الرفقة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنهم اعتقدوا أنه أبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه، ويروى: أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، وقوله: ﴿فيه﴾ ليس من صلة الزاهدين؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول. إلا تراك لا تقول: وكانوا زياداً من

= مراداً، لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك، وهو لازم العدد، وبذلك القلة فلما كان كل قليل معدوداً، وكل كثير غير معدود، دعي عليهم بالقلة، وعبر عنها بلازمها، وهو: الإحصاء، والله أعلم.

(1) نكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة يوسف، الآية: 86.

(3) قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد، الدعوة الماثورة على الكثرة: اللهم أحصهم عدداً، واستاصلهم ببدأ، ولا تبق منهم أحداً، فالمدعو به، وإن كان إحصاءهم عدداً في الظاهر، إلا أن هذا ليس =

الضاربين، وإنما هو: بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟
فقال: زهدوا فيه.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَهُمَا أَوْ يَخَذَهُمَا لَنَا وَكذلك مَكَّنًا لِيُؤَسِّسَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

﴿الذي اشتراه﴾ قيل: هو قطفير، أو اطفير، وهو: العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بلليل قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ (١). وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: انخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا وورقًا وحريرًا فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريمًا أي: حسنًا مرضيًا بلليل قوله: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ (٢) والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثوك وأم مثوك؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد: هل تطيب نفسك بثوانك عنده؟ وهل يراعي حق نزولك به؟ واللام في لامراته متعلقة بقال لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيمًا لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامراته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾ والمرأة: التي أتت موسى وقالت لابيها: ﴿يا أبت استأجره﴾ (٣) وأبو بكر: حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكنكلك﴾ الإشار إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكنا﴾ له، أي: كما أنجينا عطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكًا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنَّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من

علم وعمل ﴿وإياه غالب على أمره﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يديره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله وديره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مَاتَ وَكَانَ حُكْمًا وَيَلْمَأُ كَذَلِكَ بَعْرِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

قيل في الأشد: ثماني عشر سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿حكمًا﴾ حكمة وهو: العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكمًا بين الناس وفقها ﴿وكنكلك نجزي للمحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسنًا في عمله منقياً في عنفوان أمره، وأنَّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شببته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَوَدَتْهُ الْمَوْتُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُزْبُجَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

المراد: مفاعلة من راد يروء: إذا جاء وذهب كان المعنى: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقفته إياها ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل: كانت سبعة قرى: هيت بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء وبناؤه كبناء ابن وعيط، وهيت كجير، وهيت كحيت، وهنت بمعنى: تهيأت يقال: هاء بييء كجاء يجيء، إذا تهيأ وهيت لك، واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فلبيان كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿معاذ الله﴾ أعوذ بالله معاذًا ﴿إنه﴾ إن الشأن والحديث ﴿ربي﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿أحسن مثواي﴾ حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمًا بِرَهْنٍ رَبُّهُ كَذَلِكَ يُصِرُّ عَنْهُ كَثُورًا وَاللَّحْمَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨﴾

همَّ بالأمر إذا قصدته وعزم عليه قال: هممت ولم أفعل وكنت وليتني تركت على عثمان تبكي حالته ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدًا ولا همًا أي: ولا أكاد أن أفعله كيدًا، ولا أهم بفعله همًا حكاة سيبويه، ومنه: الهمام هو: الذي إذا همَّ بامر أمضاه ولم يتكل عليه،

(3) سورة القصص، الآية: 26.

(1) سورة غافر، الآية: 34.

(2) سورة يوسف، الآية: 23.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وهمَّ بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحذف؛ لأن قوله: وهمَّ بها يدل عليه كقولك: همت بقتله لولا أنني خفت الله؛ معناه: لو أنني خفت الله لقتلته.

فإن قُلْتُ: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قُلْتُ: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمَّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممنوعًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما منح الله بانه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله وهمَّ بها: وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله يريد: مشاركة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أم هو خارج عنه؟ قُلْتُ: الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلامًا برأسه أن يقف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ويبتديء قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وفيه أيضًا إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قُلْتُ: لم جعلت جواب لولا محذوفًا يدل عليه همَّ بها وهلا جعلته هو الجواب مقنمًا؟ قُلْتُ: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيز من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قُلْتُ: فلم جعلت لولا متعلقة بهمَّ بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ لأن الهمَّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معًا فكانه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قُلْتُ: نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهمَّ بمخالطتها على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه وتوصله إلى ما هو حظها من قضاء شهوته منها، لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظها من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهمَّ بها وحده، وقد فسر همَّ يوسف بانه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بانه سمع

صوتًا: إياك وإياها، فلم يكثر له فسمعه ثانيًا فلم يعمل به فسمع ثالثًا اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب أعاضًا على أنملمته، وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدًا من أجل ما نقص من شهوته حين همَّ وقيل: صبح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها، وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين فلم ينصرف، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته، ثم رأى فيها، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فيه فقال الله لجبريل عليه السلام: أترك عبدي قبل أن يصيب الخبيثة، فانحط جبريل، وهو يقول: يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: استحي منه أن يرانا، فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذوات الصدور. وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أننى زلة لنعيت عليه ونكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون ونكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد آثني عليه وسمي مخلصًا فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام المحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم ناظرًا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبيت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقندي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حل نكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جائم في مريضه لا يتحلل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبجباريه، ولو أن أوفح الزناة وأشرطهم وأحذهم حدقة وأجلحهم وجهًا لقي باندني ما لقي به نبي الله مما نكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فيا له من مذهب ما أقحشه ومن ضلال ما أبيت به ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل أي: مثل ذلك التثبيت ثبتنا، أو مرفوعه أي: الأمر مثل ذلك ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة السيد ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين

يفعل ما أمره ليسجنن ﴿٤﴾ وما أنا فيه أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قُلْتَ: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف وإنه أراد بها سوءاً؟ **قُلْتَ** ﴿٥﴾: قصدت العموم وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأنك أبلغ فيما قصصته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الاليم الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه النفع عن نفسه فقال: ﴿هي راوتنتني عن نفسي﴾ ولولا ذلك لكنتم عليها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل: كان ابن عم لها، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فيصر بها من حيث لا تشعر، فأغضب الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيّاً في المهدي. وعن النبي ﷺ: «تلكم أربعة وهم صفار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى» ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ ﴿٧﴾: لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ **قُلْتَ**: لما أدى مؤدى الشهادة في ﴿إن﴾ ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قُلْتَ: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ **قُلْتَ**: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قُلْتَ: إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقته، فمن أين دل قده من قبل على أنها صانقة وأنه كان تابعها؟ **قُلْتَ**: من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعه عن نفسها قذت قميصه من قدامه بالدفع، والثاني ﴿٨﴾: أن يسرع خلفها

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ونحو ذلك وقوله: ﴿من عباننا﴾ معناه: بعض عباننا أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من نزية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ ﴿١﴾.

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَوَدَّتْ قَيْصُومُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْتَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ إِلَيْهِ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ زَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ شَاهِدًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ قُبُلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُمْ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾.

«واستبقا الباب» وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله: ﴿اختار موسى قومه﴾ ﴿٢﴾ على تضمين استبقا معنى: ابتدرا، نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قُلْتَ: كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾ ﴿٣﴾؟ **قُلْتَ**: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب: أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿وودت قميصه من دبر﴾ اجتذبت من خلفه فانقذ أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿والفيا سيدها﴾ وصادفاً بعلها وهو قطفير؛ تقول المرأة لبعلها سيدي، وقيل: إنما لم يقل سيدهما؛ لأن ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدياً له على الحقيقة قيل: ألقيا مقبلاً يريد أن يدخل، وقيل: جالساً مع ابن عم للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المرئية وهي مغتاضة على يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يؤاتها خيفة منها ومن مكرها وكرمها لما أيست من مؤاتاته طوعاً، ألا ترى إلى قولها: ﴿لئن لم

- (1) سورة ص، الآية: 46.
- (2) سورة الاعراف، الآية: 155.
- (3) سورة يوسف، الآية: 23.
- (4) سورة يوسف، الآية: 32.
- (5) قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها: هذا أراد بي سوءاً، ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإيماناً للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالترج والفتحة، وعلى الضد من مقصودها، وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال، قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها، قالت: ﴿أحدهما يا أبت استاجرته، إن خير من استاجرت القوي الأمين﴾، ولم تقل إنه قوي أمين حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء، وأمرأة العزيز إنما بعثها عليه التلكف والاستعمال، لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.
- (6) رواه الحاكم في المستدرک (497/2)، وابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (الحديث رقم: 2904)، وأحمد في مسنده 310/1، والبيهقي في «شعب الإيمان» (الحديث رقم: 1636).
- (7) قال أحمد: مهما قرئه من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقد قميصه من قبل، بتقدير أن يكون اجتذبتها، حتى صارا متقابلين، فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل، إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبت، حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجنب، لا النفع.
- (8) قال أحمد: وهذا بعينه محتمل، لو كانت هي التابعة، وهو فار منها، فانقد قميصه في إسرعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذلك، والحق والله ولي التوفيق: أن الشاهد المذكور إن كان صبيّاً في المهدي، كما ورد في بعض

الْحَاطِئِينَ ﴿١٣﴾.

﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه ﴿اعرض عن هذا﴾ الأمر واكتمه ولا تحدّث به ﴿واستغفري﴾ أنت ﴿لننكب إنك كنت من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال: خطئ إذا آتنب متعمداً، وإنما قال من الخاطئين بلفظ التنكير تغليباً للذكور على الإناث وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً. وروي أنه كان قليل الغيرة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وقال نسوة﴾ وقال: جماعة من النساء وكُنْ خمساً: امرأة الساقى، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأتيه غير حقيقي كتأنيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان كسر النون وضمها ﴿في المدينة﴾ في مصر ﴿امرات العزيز﴾ يرلدن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ﴿فتاها﴾ غلامها يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي ﴿شغفها﴾ خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب قال النابغة:

وقد حال هم نون ذلك والج مكان الشغاف تبغيه الأصابع

ليلحقها فيتعثر في مقام قميصه فيشقه، وقرئ: من قبل ومن نبر بالضم على مذهب الغيايات، والمعنى: من قبل القميص ومن نبره، وأما التنكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: نبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: من قبل ومن نبر بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمعنهما الصرف للعلمية والتأنيث، وقرئنا: بسكون العين.

فإن قلت: كيف جاز الجمع بين إن الذي هو للاستقبال، وبين كان؟ لأن المعنى: أن يعلم أنه كان قميصه قد، ونحوه كقولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل لمن يمتن عليك بإحسانه؛ تريد: إن تمتن علي أمتن عليك ﴿فلما رأى﴾ يعني: قطفير، وعلم براءة يوسف وصدقته وكذبها ﴿قال إنه﴾^(١) إن قولك: ما جزء من أراد باهلك سوءاً، أو أن هذا الأمر وهو طمعها في يوسف ﴿من كيدكن﴾ الخطاب لها ولأمتها، وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال إلا أن النساء اللطف كيداً وأنفذ حيلة ولهن في تلك نيفة ورفق وبنلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: ﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾^(٢) والقصريات من بينهن مهون ما ليس مع غيرهن من البوائق، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾^(٣) وقال للنساء: ﴿إن كيدكن عظيم﴾.

يُوسُفُ اعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكُ إِنَّكَ كُنْتَ مِنْ

= الامارة الآخرة فقط، والمناسبة فيها محققة، وأما الامارة الاولى، فليست مقصودة، وإنما نكرها توطئة كما تقدم، فلم يلتصق لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير، والله أعلم، وكأنه قال: إن كان قميصه قد من قبل، فهي صانقة، لكنه يعلم انتفاء الامارة المذكورة، فعلق صنقها على محال، وهو وجود قدمه من قبل حالة عمه، فهذا التقرير هو الصواب، والحق للباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشير به، كما ورد في بعض التفاسير، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين؛ لأنها عهدة الحكيم، وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من نبر دليل على إنباره عنها، وقد من قبل دليل على إقباله عليها بوجه، والله أعلم.

(١) قال احمد: وفيما قاله هذا العالم، نظراً لأن الآية التي نكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى، غير محكي، وأما هذه الآية، فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاها الله تعالى عنه، فيحتمل حكايته عن أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وايضاً فإن كيد الشيطان منكر في الآية، مقابلاً لكيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه الا ترى أول الآية ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وايضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن، مستفاد من الشيطان، بوسوسته وتسويله، شواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصور حينئذ، أن يكون كيدهن أعظم من كيده، والله أعلم.

(2) سورة الفلق، الآية: 4.

(3) سورة النساء، الآية: 76.

= الحديث، فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه حتى لو قال: صدق يوسف، وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في العهد، برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الامارة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأن العدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار، فيصير بها من حيث لا تشعور، فاغضبه الله ليوسف بالشهادة له، وإقامة الحق كما نكر الزمخشري، فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى، فيصدق يوسف، ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من نبر، فنصبه اماراً لصدقته، وكذبها، ثم نكر القسم الآخر، وهو: قد من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً، فينكر اماراً على صدقها المعلوم، نفيه كما نكر اماراً على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم اماراً صدقها على اماراً صدقه في النكر إزاحة للتهمة، ووثقاً بأن الامارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها، والله أعلم هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: وإن يك كاتباً فعليه كنبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثقاً بأن القسم الثاني، وهو: صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيرها في النكر لهذه الفائدة، ومن ثم قال: بعض الذي يعدكم، ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وينجو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به، لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم، فقص هذا الشاهد =

قطعه وقرأ الأعرج: متكاً مفعلاً من تكى يتكأ إذا اتكأ ﴿أكبرنه﴾ أعظمته وهبنا ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف. فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر»⁽³⁾، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجيزان كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل: كان يشبه أم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حزن، والهاء للسكت. يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر؛ لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واسترذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخنور العواتق
﴿قطعن أيديهن﴾ جرحنها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد: جرحتها. حاشا كلمة تفيد معنى: التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساء القوم حاشا زيد قال:

حاشا أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتم
وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى: حاشا الله براءة الله وتنزيهه، وهي قراءة ابن مسعود على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: حاشا لله فنحو قولك سقياً لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله لبيان من يبرأ وينزه، واللليل على تنزيل حاشا منزلة المصدر قراءة أبي السمال: حاشا لله بالتثوين، وقراءة أبي عمرو: حاش لله بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: حاشا لله بحذف الألف الأولى، وقرئ: حاش لله بسكون الشين على أن الفتحة تبعث الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حد، وقرئ: حاشا إليه.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى براءة لله؟ قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية إلا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله، وعلى في قوله: غدت من عليه، منقلب الألف إلى الياء مع الضمير والمعنى: تنزيهه الله تعالى من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾⁽⁴⁾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ نفين عنه البشرية⁽⁵⁾ لغرابته جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

وقرئ: شعفها بالعين من شعف البعير إذا هناه فأحرقه بالقطران قال:

كما شعف المهنوء الرجل الطالبي
و﴿حياً﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب.

فَمَا سَمَتْ بِمَكْرَمٍ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَمَتْ كُلَّ وَجِدٍ
رَبِّهِنَّ بِرَبِّكَ وَقَالَتْ أَوْرَاجُ عَلِيٍّ فَمَا رَأَيْتُ أَكْبَرَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦٦﴾.

﴿بمكرهن﴾ باغتيالهن، وسوء قائلتهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدا الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتيال مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهن سرها فاقشينه عليها ﴿أرسلت إليهن﴾ دعتهن، قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المنكورات ﴿واعتدت لهن متكا﴾ ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي: قعودهن متكئات والساككين في أيديهن أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكى إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهن فتضع الحناجر في أيديهن ليقطن أيديهن فتبكتهن بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر توهمه أنهن يثبن عليه، وقيل: متكاً مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهي «أن ياكل الرجل متكاً»⁽¹⁾، وأنتهن الساككين ليعالجن بها ما ياكلن، وقيل: متكاً طعاماً من قولك: اتكنا عند فلان طعمنا على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكاة يتكى عليها. قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد: متكاً طعاماً يحز حراً كان المعنى: يعتمد بالسكين؛ لأن القاطع يتكى على المقطوع بالسكين. وقرئ: متكاً بغير همز، وعن الحسن: متكاء بالمد كأنه مفتعال وذلك لإشباع فتحة الكاف قوله: بمنتزاح بمعنى: بمنتزح، ونحوه ينباع بمعنى: ينبع وقرئ: متكاً وهو: الأترج وأنشد:

فاهلت متكة لبني أبيها تخب بها العثمثة⁽²⁾ الوراق
وكانت أهبت أترجة على ناقة، وكانها الأترجة التي نكرها أبو داود في سننه: أنها شقت بنصفين، وحملا كالعبلين على جمل وقيل: الزمورده، وعن وهب أترجاً وموراً وبطيخاً وقيل: أعتدت لهن ما يقطع من منك الشيء معنى: بتك إذا

(1) روي في كشف الاستاره، كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن الأكل متكاً (الحديث رقم: 2870).

(2) العثمثة: الشديدة.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/606.

(4) سورة يوسف، الآية: 52.

(5) قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يذعه التحصن للمعتقد الفاسد، أن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق، فينسب إليهم الإيجاب، والخسار، والمكابرة في الضروريات، وجدد الحقائق تمكيساً، وهذا كله هم براء منه، وحسبه من المعادلة بذلك، خطؤه في اعتقاد تفضيل =

ألفاً على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحْسَبُ إِلَيْكَ مِمَّا يَدْعُونَ بِإِيَّتِي وَإِلَّا صَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾.

وقرىء السجدة بالفتح على المصدر وقال: ﴿يُدْعُونِي﴾ على إسناد الدعوة إليهن جميعاً؛ لأنهن تتصحن له وزين له مطاوعتها وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: رَبِّ نَزِّلِ السَّجْنَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رُكُوبِ الْمَعْصِيَةِ.

فإن قُلْتُ: نزول السجن مشقة على النفس شديدة وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة؟ قُلْتُ: كانت أحب إليه وأكثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهاها ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ فزع منه إلى الطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجماع على التعفف والإلجاء إليه ﴿أصب إليهن﴾ أمل إليهن، والصبوة: الميل إلى الهوى ومنها الصبا؛ لأن النفوس تصبوا إليها لطيب نسيماها وروحها، وقرئ: أصب إليهن من الصباية ﴿من الجاهلین﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأن الحكيم لا يفعل القبيح.

فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾.

وإنما نكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء؛ لأن قوله: ﴿وإلا تصرف عني﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللفظ ﴿السميع﴾ لدعوات الملنجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُذَهُنَّ حَتَّىٰ يَبِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿بدا لهم﴾ فاعله مضمرة لدلالة ما يفسره عليه وهو ﴿ليسجنهن﴾ والمعنى: بدأ لهم بدءاً أي: ظهر لهم رأي ليسجنهن والضمير في لهم للعزیز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي: الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وقتلها منه في الذروة والغراب وكان مطاوعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق

الصور وثابتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق وجوهرهم للعلوم الضرورية ومكابرهم في كل باب وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القنمى الحجازية، وبها ورد القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا لَهَا نَبِيُّهَا وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١) ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشر بالرفع وهي: في قراءة ابن مسعود، وقرئ: ما هذا بشري أي: ما هو بعبد مملوك لئيم ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ تقول: هذا بشري أي: حاصل بشري بمعنى: هذا مشرى، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك.

فَأَلَّتْ فَذَالِكُنَّ الذَّيِّ لُتُنَّيْ يَدِي وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَبِيِّهِ فَاسْتَعَمَّ وَكَيْنَ لَمْ يَعْلَمْ مَا أَمْرُهُ لِيَسْجُنَ وَرِيكُونَ مِنَ الْفَصِيرِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿قالت فذالك﴾ (2) ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ورباً بحاله واستبعاداً لمحلّه، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه؛ تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعنرتنني في الافتتان به. الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الفتح واستجمع الرأي واستفحل الخطب، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أبرر منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمم والبرهان.

فإن قُلْتُ: الإضمير في ﴿أمره﴾ راجع إلى الموصول أم إلى يوسف؛ قُلْتُ: بل إلى الموصول والمعنى: ما أمر به فحذف الجار في قولك: أمرتك الخير ويجوز أن تجعل ما مصدرية فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ: وليكونا بالتشديد، والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأن النون كتبت في المصحف

(1) سورة المجادلة، الآية: 2.

(2) قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أوّل البقرة: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ لما جعل الإشارة إلى الحروف المنكورة، فقال: إن قلت: كيف أشار إليها وهي قريبة، كما يشار إلى البعيدة؛ أجاب: هو بأن كل متقضى بعيد، وأجبت أنا: بأن الإشارة بذلك، إلى بعد منزلة هذا الكتاب، بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

الملك عند قائله ليس ضرورياً، ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة، بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً، وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما ركز فيها حب الشهوات، وإيثار المعالجة، وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أميكون ذلك حقاً، إلا عند ناظر بعين الهوى، أمعى في سبيل الهدى؟ والله ولي التوفيق.

ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿نَبئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؟ قُلْتُ: إلى ما قصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كانه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقُونَ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَيَّ رَيْبٌ إِيَّيْكَمَا مَلَأَ قُورًا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُ مَلَأَ أَبَايَ إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾.

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفة كيت وكيت فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفته واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفته فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ﴿بتأويله﴾ ببيان ماهيته وكيفية؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ذلكما﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وأوحى به إلي ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿إني تركت﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إلي، لاني رفضت ملة أولئك واتبع ملة الأنبياء المذكورين وهي: الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة وأن غيرهم كانوا قومًا مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهًا على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما راوا الآيات الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، ونكر آباءه ليريحها أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما نكر من إخباره بالغيب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: ﴿ما كان لنا﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشرك بالله﴾ أي شيء كان من ملك، أو جن، أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ثم قال: ﴿ذلك﴾ التوحيد ﴿من فضل الله علينا

الصفار به كما أوعيته به، وذلك لما أيست من طاعته لها أو لطمعها في أن ينزله السجن ويسخره لها، وفي قراءة الحسن: لتسجنه بالتاء على الخطاب خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان كانها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود: عتي حين وهي لغة هنيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ عتي حين فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هنيل. والسلام.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَوْقَى قَوْقُ رَأْسِي خَمْرًا تَأْكُلُ اللَّعْنَةُ مِنْهُ نَيْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾.

مع: يدل على معنى الصحبة واستحدثها تقول: خرجت مع الأمير تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبيدان للملك خبازه وشرابيه، رقي إليه أنهما يسمانه فأمر بهما إلى السجن فأنخلا السجن ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمراً﴾ يعني: عنياً تسمية للعنب بما يؤل إليه، وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنباً ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أي: يجيدونها، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له فقالا له ذلك، أو من العلماء لأنهما سمعاه ينكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا: بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم، وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا أصبروا توجروا إن لهذا لأجزاء فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن نبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خلعت سبيك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيتين قالتا له: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشركما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء. لقد أحببتني عمتي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحبني أبي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحببتني زوجة صاحبي فدخل علي من حبه بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما. وعن الشعبي: أنهما تحالما ليمتحناه، فقال الشرابي: إني أراني في بستان فإذا باصل حبله عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي

وعلى الناس ﴿أي: على الرسل، وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبههم عليه وأرشدهم إليه﴾ ولكن أكثر الناس المبعوث إليهم ﴿لا يشكرون﴾ فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إن ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأئمة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل تلك الأئمة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين.

يَمَكِّجِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَّفِرِّقُونَ حَيْرٌ أَرَأَيْتَ اللَّهُ الَّذِي
أَلْفَهَارٌ ﴿٣٦﴾.

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد: يا صاحبي في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو: يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصلح فتضيفهما إلى الصلح ولا تريد أنهما صحبا الصلح ولكن كما تقول رجلاً صديقاً وسميتهما صاحبين؛ لأنهم صحبك ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾^(١) ﴿أرباب متفرقون﴾ يريد للفرق في العدد والتكاثر يقول: أن تكون لكما أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية بل هو ﴿القهار﴾ الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمَا أُتْرُوبًا وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن الِكْفَمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْ آلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على بينهما من أهل مصر ﴿إلا أسماء﴾ يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية ألهة ثم طففتم تعبدونها فكانكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها يقال: سميت به يزيد وسميته زيداً ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتسميتها ﴿من سلطان﴾ من حجة ﴿إن للحكم﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إلا الله﴾ ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين للقيم﴾ للثابت الذي يلت عليه البراهين.

يَمَكِّجِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْتَقِرَّ رَيْبٌ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الْلُحْمَ مِن رَأْسِهِ فَبِئْسَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣٨﴾.

﴿أما أحدكما﴾ يريد الشرابي ﴿فيسقي ربه﴾ سيده، وقرأ عكرمة: فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، أما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضي الأمر﴾ قطع وتم ما ﴿تستفتيان﴾ فيه من أمركما وشانكما.

فإن قُلْتَ: ما استفْتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ قُلْتَ: المراد بالأمر ما اتفهما به من سم الملك وما سجننا من أجله وظننا أن ما راياه في معنى ما نزل بهما، فكانهما كأننا استفْتياه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك؟ فقال لهما: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: ما يجر إليه من العقاب وهي: هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جحداً وقالوا: ما رأينا شيئاً على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كأن صفتكما أو كذبتما.

وَمَا لِّلَّهِ لَدَيْهِ ظَنٌّ أَنَّهُ يَكْفُرَ بِبَطْرِ رَبِّكَ فَانْسَأْ
الْبَطْرَ وَيَكْفُرْ رَبِّهِ قُلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضَعِّ سِنَّينَ ﴿٣٩﴾.

﴿ظن أنه ناج﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، أو يكون الظن بمعنى اليقين ﴿انكرني عند ربك﴾ صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ﴿فانساه الشيطان﴾ فانسى الشرابي ﴿نكر ربه﴾ أن ينكره لربه، وقيل: فانسى يوسف نكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

فإن قُلْتَ: كيف يقدر الشيطان على الإنساء؟ قُلْتَ: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه نكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾^(٢).

فإن قُلْتَ: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك، وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قُلْتَ: قد لابس في قولك: فانساه الشيطان نكره لربه أو عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأن الإضافة تكون إندي ملابسة، أو على تقدير فانساه الشيطان نكر إخبار ربه فحذف المضاف الذي هو: الإخبار.

فإن قُلْتَ: لم انكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾^(٣) وقال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿من

(3) سورة المائدة، الآية: 2.

(1) سورة الحشر، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 106.

مجري الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها، الا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قُلْتُ: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه، الا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ قُلْتُ: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء، وأقل وفعلاء، لا يجمعان على فعال حمله على سمان لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

فإن قُلْتُ: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسات كانت سبغاً كالخضر؟ قُلْتُ: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنبال الخضر، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ويكون قوله: وأخر يابسات بمعنى: وسبغاً آخر.

فإن قُلْتُ: هل يجوز أن يعطف قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ على «سنبلات خضر» فيكون مجرور المحل؟ قُلْتُ: يؤدي إلى تدافع وهو: أن عطفاً على سنبلات خضر يقتضي أن ندخل في حكمها فتكون معها مميّزاً للسبع المذكورة، ولفظ الآخر يقتضي أن تكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد ﴿يا أيها الملأ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله: ﴿للرؤيا﴾ إما أن تكون للبيان كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾⁽⁴⁾ وإما أن تدخل؛ لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت هو عابر للرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه و﴿تعبرون﴾ خبر آخر أو حال وأن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا، وحقيقة عبرت الرؤيا: نكرت عاقبتها وأخر أمرها كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه: أولت الرؤيا. إذا نكرت مألها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا بالتخفيف: هو الذي اعتمده الأثبات، ورايتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض

انصاري إلى الله⁽¹⁾ وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». «ومن فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كربة الآخرة»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ لم يأخذ النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت عطيطه⁽³⁾، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالألوية، والتقوي بالأشربة والأطعمة، وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والفرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ قُلْتُ: كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليفته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاهم، والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ولا يعتضد إلا به خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً لثلاث يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فرعنا إلى الناس.

وَقَالَ أَمَلِكُ إِنَّ أَرَا سَعَّ بَكَرَتِ سَكَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَبَّحَ عِمَاثُ
وَسَبَّحَ سُبُلَتِ خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَتِ يَأْتِيهَا الْكَلَا أَتَوَى فِي رُبَيِّ
إِنْ كَثُرَ لِلرُّؤْيَا مَتْرُوكٌ (٤٣).

لما لنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبه هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبغاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها «سمان» جمع سمين وسمينة وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للميز وهو بقرات نون للمميز وهو سبع وأن يقال: سبع بقرات سمان؟ قُلْتُ: إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قُلْتُ: هلا قيل سبع عجاف على الإضافة؟ قُلْتُ: التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع للبيان به وحده.

فإن قُلْتُ: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ قُلْتُ: الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت

(1) سورة آل عمران، الآية: 52، وسورة الصف، الآية: 14.
(2) رواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (الحديث رقم: 6793).

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في الغزو... =

(4) الحديث رقم: 2885) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد، (الحديث رقم: 6181).

(4) سورة يوسف، الآية: 20.

الاعراب:

المعنى فأرسلوه إلى يوسف فاتاه فقال: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أيها البالغ في الصنق وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كلمة كلام محترز فقال ﴿لعلي﴾ أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون؛ لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى لعلهم يعلمون: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محتك.

فَأَلَّ زَرْعُونَ سَحَّ سَيِّئِينَ دَابًّا قَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلا قَيْلًا يَمَّا نَاكُرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَدِي ذَلِكَ سَحَّ سَيِّئًا يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَيْلًا يَمَّا تَحْصُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَدِي ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُورِي بِيءَ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَتَنَّهُ مَا بَالَ الْإِنْسَوَةَ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

﴿تزرعون﴾ خبر في معنى الأمر كقولهم: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾⁽²⁾ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، واللليل على كونه في معنى الأمر

قوله: ﴿فذروه في سنبله﴾ ﴿دابًّا﴾ بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدران داب في العمل وهو: حال من المأمورين أي: دائبين، إما على تدابون دابًّا، وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى: نوي داب ﴿فذروه في سنبله﴾ لئلا يتسوس و ﴿ياكلن﴾ من الإسناد المجازي جعل أكل أهلن مسند إليهن ﴿تحصنون﴾ تحززون وتخبيئون ﴿يغاث الناس﴾ من الغوث أو من الغيث يقال: غيث البلاد إذا مطرت ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا ﴿يعصرون﴾ بالياء والتاء يعصرون العنب والزيتون والسمسم، وقيل: يخلبون الضروع، وقرئ: يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا انجاه وهو مطابق للإغاثه، ويجوز أن يكون المعنى للفاعل بمعنى: ينجون كأنه قيل: فيه يغاث الناس؛ وفيه يغيثون أنفسهم أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً. وقيل: يعصرون يمتطرون من أعصرت السحابة وفيه وجهان: إما: أن يضمن أعصرت معنى: مطرت فيعدى تعديته، وإما: أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأول البقرات السماء والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

رايت رؤيا ثم عبرتها وكنت للاحلام عبارًا
قَالُوا أَمْسَعَتْ أَعْلَمُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَعْلَمِ بِبَيِّنٍ ﴿٤٦﴾

﴿اضغات أحلام﴾ تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الاضغات ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد ضغت، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي: اضغات من أحلام، والمعنى هي اضغات لأحلام.

فإن قلت: ما هي إلا حلم واحد فلم قالوا: ﴿اضغات أحلام﴾ فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخزل لمن لا يركب إلا فرساً واحداً، وما له إلا عمامة فردة تزيئاً في الوصف، فهؤلاء أيضاً تزيئوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه اضغات أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة⁽¹⁾ فيقولوا ليس لها عندنا تأويل فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٥١﴾

قرئ: ﴿وأنكر﴾ بالدال وهو الفصيح، وعن الحسن: وأنكر بالذال المعجمة والأصل تنكر أي: تنكر الذي نجا من الفتيتين من القتل يوسف وما شاهد منه ﴿بعد أمة﴾ بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملا تأويلها تنكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن ينكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: بعد إمة بكسر الهمزة والأمة: النعمة قال عدي:

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القصور
أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة وقرئ: بعد أمة بعد نسيان يقال: أمة يأمه أمها إذا نسي، ومن قرأ: بسكون الميم فقد خطئ ﴿أنا أنبتكم بتأويله﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا أتاكم بتأويله ﴿فارسلون﴾ فابعتوني إليه لأسأله ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَتَيْنَا فِي سَبْعِ بَنَاتٍ يَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُئِلَتْ خُصْمِي وَأَخْرَجَ يَأْسِنِي لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(1) قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل للكلام على الأول يصيره من وادي، على لا حب يهتدى بمناره. كأنهم قالوا: لا تأويل للاحلام الباطلة، فنكون عالمين، وقول الملك لهم أولاً: إن كنتم للرؤيا تعبرون، دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها؛ لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور، مطابقاً لشك الملك، الذي

(2) أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا، أو لا، وقول الفتى: أنا أنبتكم بتأويله، إلى قوله لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ إِلَيَّ مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سَوَاءِ قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ أَفَنَنْحَصَّ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٥١﴾.

﴿ما خطبكن﴾ ما شانكن ﴿إذ راوتن يوسف﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليك ﴿قلن حاش لله﴾ تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي: ثبت واستقر، وقرئ: حصحص على البناء للمفعول وهو من حصحص البعير إذا القى ثفناته للإناخة قال:

فحصص في صم الصفا ثفناته⁽⁶⁾ وناء بسلمى نوءة ثم صمما ولا مزيد على شهانتهن له بالبراءة والنزاهة⁽⁶⁾ واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما عرفته به لأنهن خصومه، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، وقالت المجبرة والحشوية: نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ننق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ نَمٍ أَخْنَهُ وَالنَّبِيِّ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿ذلك ليعلم﴾⁽⁷⁾ من كلام يوسف أي: ذل التثبيت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ بظهر الغيب في حرمة. ومحل ﴿بالغيب﴾ الحال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه خفي عن عينه، أو وهو غائب عني خفي عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفاً أي: بمكان الغيب وهو: الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿و﴾ ليعلم ﴿إن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ لا ينفذه ولا يسده وكانه تعريض بأمراته في خيانتها أمانة زوجها وبه في خيانتها أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سده.

﴿وَمَا أَرْبَى نَفْسٌ إِذَا نَفَسَ لِأَمَارَةٍ بِأَنفُسِهِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي أَنَّى رَجَمَ غُورٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾.

فإن قلت: معلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً وقوله: ﴿فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ تفصيل لحال العام وذلك لا يعلم إلا بالوحي. إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك⁽¹⁾، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لثلاثا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ولثلاثا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم»⁽²⁾ ومنه قال رسول الله ﷺ للمازين به في معتكفه وعنده بعض نسائه «هي فلانة»⁽³⁾ اتقاء للتهمة. وعن النبي ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتراط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه وليبت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر»⁽⁴⁾ إن كان لحليماً ذا أناة وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فإراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة وقص الحديث حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: النسوة بضم النون، ومن كرمه وحسن أنه لم يذكر سيده مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على نكر المقطعات أيديهن ﴿إن ربي﴾ إن الله تعالى ﴿بكيدهن عليهم﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعده غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهم كنهه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن أي: هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه.

(6) قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة، تنزيه أهل الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتبع أي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل، وذهب منهم طائفة مع القدرية، إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة، والصحيح عندها في قصة يوسف عليه السلام، أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله: همت به، ثم يبتدأ وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه، كما تقول: قتلت زيداً، لولا أنني أخاف الله، فلا يكون لهم واقعاً لوجود المانع معه، وهو: رؤية البرهان، فإن كان الزمخشري يعرض بأهل السنة، فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشانه وإياهم.

(7) قال أحمد: وإرانبته لعموم الأحوال، أنخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه، من التبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى، من حمله على الحادثة الخاصة، والله أعلم.

(1) قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: «ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف، لأجبت الداعي، وكان في طي هذه المسحة بالأناة والتثبيت، تنزيهه، وتبريقه، مما لعله يسبق إلى الوهم، من أنه هم بزليخا هماً يؤاخذ به؛ لأنه إذا صبر، وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهيم، أولى وأجدر، والله أعلم.

(2) يأتي في سورة الاحزاب.

(3) رواه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، (الحديث رقم: 2038) ومسلم في كتاب: السلام باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بأمارة. (الحديث رقم: 5643).

(4) الطبري، وإسحاق بن راهويه وعبد الرزاق في تفسيره (الزليعي) 168/2.

(5) ثفناته: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وظل كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح.

تقديم القرآن وتأخيره ذهب إلى أن ذلك ليعلم متصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ (8) ولقد لفقت المبطله روايات مصنوعة (9) فزعموا أن يوسف حين قال: إني لم أخنه بالغيب، وقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حلت تكة سراويلك يا يوسف؟ وذلك لتهاكهم على بهت الله ورسله.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ بِهَذَا اسْتَنْصِمَهُ لِتَنِيَّ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾

يقال: استخلصه واستخصه: إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ نو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء، روي: أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخيار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من رن السجن ولبس ثياباً جديداً، فلما نخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان أبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه جميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي، يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

قَالَ أَجْمَعِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾

﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ و﴿أني خزائن أرضك﴾ ﴿إني حفيظ عليهم﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لثلاث يكون لها مركزاً وبحالها في الأمانة معجيباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (1) وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها، ولا يخلو إماماً أن يريد في هذه الحادثة لما نكرنا من الهم الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم، وإما أن يريد عموم الأحوال ﴿إن النفس لامارة بالسوء﴾ أراد الجنس أي: إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني: أنها أماره بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿ولا هم ينقون﴾ * إلا رحمة ﴿2﴾ وقيل معناه: ذلك ليعلم أنني لم أخنه؛ لأن المعصية خيانة، وقيل ﴿3﴾: هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنني لم أخنه ولم أكتب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصلق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإنني قد خنته حين فرقتك وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾ (4) وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت.

فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائللاً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: ﴿قال الملا من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ (5) ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ (6) ثم قال: ﴿فماذا تأمرون﴾ (7) وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (الحديث رقم: 5899) وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6242) والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (الحديث رقم: 3615).

(2) سورة يس، الآيتان: 43، 44.

(3) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا الجأ إليه محوج، كقوله: فمأذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلوه قوله وإنه لمن الصادقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براعته =

= بقولها، بعث يخرجها من السجن، فذلك قوله: ﴿وقال الملك اثنتونى به استخلصه لنفسى﴾.

(4) سورة يوسف، الآية: 25.

(5) سورة الاعراف، الآية: 109.

(6) سورة الشعراء، الآية: 35.

(7) سورة الاعراف، الآية: 11.

(8) سورة يوسف، الآية: 50.

(9) قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على ما نقله هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطله من كل طائفة، كما لفقت القدرية على قصة موسى، حين طلب الرؤية وخرّ صعقاً، أن الملائكة جعلت تلكه بارجلها، وتقول: يا ابن النساء الحيض، طمعت في رؤية رب العزة، كل ذلك ليتم لهم غرضهم، في أنه طلب لهم محالاً في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته، ويبطل الباطل والله الموفق.

من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين ﴿برحمتنا﴾ ببطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿من نشاء﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أن نأجرهم في الدنيا ﴿ولا أجر الآخرة خير﴾ لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية.

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَرَغَبَهُ وَهُمْ لَهُ مُكْرَبُونَ ﴿٥٦﴾

لم يعرفوه (2) لطول العهد ومفارقتة إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذاهبه عن أوهامهم لقلّة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريقاً في البئر مشرباً بدهام معبودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكنبوا أنفسهم ووطنونهم، ولأن الملك مما يبذل الرّي ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: راوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما راوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقههم وهم رجال، وراى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك؛ ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفةتهم فكان يتأمل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونَ بَاخَ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَمْ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا سَوْرُ الْمَوَازِينِ ﴿٥٧﴾ فَإِنْ لَرَأْتُونِي يَوْمَ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَعْرَبُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَتَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرين وأوقر ركائبهم بما جاؤا من الميرة، وقرى: ﴿بجهازهم بكسر الجيم﴾ قال اتنوني باخ لكم من أبيكم﴾ لابدّ من مقنمة سبقت له معهم حتى اجتر القول هذه المسألة، وروي: أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فاين الاخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وإن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاد لا يعرفنا

طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتكتم مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة» (1).

فإن قلّت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟ قلّت: روى مجاهد: أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البيعة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بامر الله ودفع الظلم إلا بتمكن الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا نُجْزِي الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وكنك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مكنا ليوسف﴾ في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين ﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ قرى: بالنون والياء أي: كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبواً له لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ونخوله تحت ملكته وسلطانه، وروي أن الملك توجه وختمه بخاتمة ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، وروي أنه قال له: أما السرير فاشد به ملكك، وأما الخاتم فادبر به امرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آباي، فقال: قد وضعت إجلالاً لك وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما نخل عليها قال: اليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عزراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحظ الطعام بالندانير والدرهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالطي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم براقبهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله ما رأينا كالأيوم ملكاً أجل ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولتني فما ترى؟ قال: الرأي رايك. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني اعتقت أهل مصر عن آخرهم، وردنت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من احد

(1) أخرجه الثعالبي والواحدي في تفسيره.

(2) قال أحمد: وتوارد القاميين في دخولهم عليه، ومعرفة لهم، عند = والله أعلم

بحفظه ولا بجمع علي مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَضْعَمَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَاكَ مَا تَبَيَّنْ هَذِهِ. بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلُنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلٌ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٌ ﴿١٥﴾.

وقرى: ردت إلينا بالكسر على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع، وحكي قطرب: ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنفي أي: في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، انزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نتبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا، وفي قراءة ابن مسعود: ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صلتنا، وقيل معناه: ما نزيد منك بضاعة أخرى وقوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى إن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿ونمير أهلها﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسقو بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فاي شيء تبغي وراء هذه المباعي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا. وإنما قالوا: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ لما نكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قُلْتُ: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فاما إذا فسرتها بالكذب والتزيد في القول كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ بياناً لصقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم فما تصنع بالجمل البواقي؟ قُلْتُ: أعطفهم على قوله ﴿ما نبغي﴾ على معنى لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا وتفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتداً كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا كما تقول: سمعت في حاجة فلان واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسمى وينبغي لي أن لا أقصر، ويجوز أن يراد ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع بياناً لأنهم لا يبيغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه وهو وجه حسن واضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: تلك مكيل قليل لا يكفينا يعنون ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير أي: تلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاطمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير

فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وأثتوني بأخيك من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فالصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً عطفاً على محل قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾ كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن: يكون بمعنى النهي ﴿سنراود عنه إياه﴾ سنخادعه عنه وسنجهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإننا لفاعلون﴾ وإننا لقادرون على ذلك لا نتعابا به، أو وإننا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

وَقَالَ لِيُنْيِيهِمْ أَمْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحْلِهِمْ لَمَّا هُمْ يَمْرُؤُونَ إِذَا أَنْكَلُوا إِلَيْهِمْ لَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾.

﴿للفتيته﴾ قرى: لفتيانه وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ، وفعله اللقطة وفعالان للكثرة، أي: لغلمانه الكياليين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرم بإعطاء البليدين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: خوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعلهم يردونها.

لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَاكَ مَنَعَنَا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ﴿١٧﴾.

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا اندرنا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرى: يكتل بمعنى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قَالَ هَلْ مَأْسُكُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا أَمْسُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ بَلِّ فَأَلَّهْ سَخِرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٨﴾.

﴿هل أمسكم عليه﴾ يريد أنكم قلت في يوسف ﴿وإننا له لحافظون﴾^(١) كما تقولونه في أخيه خنتم بضمانكم، فما يؤمني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فأش خير حافظاً﴾ فتوكل على الله فيه وبقعه إليهم، وحافظاً تمييز كقوله: هو خيرهم رجلاً، والله دَرَه فارساً، ويجوز أن يكون حالاً وقرى: حفظاً، وقرأ الأعمش: فأش خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم للراحمين﴾ فارجو أن ينعم علي

ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيبعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصم بالثفرق في الكزة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قُلْتُ: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟ قُلْتُ: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده ليميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، فيقول الحشوي: هو أثر العين كما قال تعالى: ﴿وما جعلنا عنهم إلا فتنة للذين كفروا﴾⁽⁴⁾ الآية. وعن النبي ﷺ: «إنه كان يعود الحسن والحسين فيقول: أعينكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة»⁽⁵⁾. ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من الثفرق وهو مصيبكم لا محالة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ثم قال ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي: متفرقين ﴿ما كان يغني عنهم﴾ رأى يعقوب وبخولهم متفرقين شيئاً قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيه بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إلا حاجة﴾ استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة ﴿في نفس يعقوب قضاها﴾ وهي شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿وإنه لذنو علم﴾ يعني قوله: ﴿وما أغني عنكم﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

فإن قُلْتُ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ قُلْتُ: ﴿إن يحاط بكم﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لتأتني به﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعله من العطل إلا لعله واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلا بد من تأويله بالنفي، وتظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿على ما نقول﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وكيل﴾ رقيب مطلع.

لا يخاطر لملته بالولد كقوله: ﴿ذلك ليعلم﴾⁽¹⁾.

قَالَ لَنْ أُرِيَهُمْ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتِيَنِي مَرْيَمًا بِنْتُ اللَّهِ أَنَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَاهُ مُرِيَهُهُرُ قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾.

﴿إن أرسله معكم﴾⁽²⁾ مناف لحالي وقد رايت منكم ما رايت إرساله معكم ﴿حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ حتى تعطوني ما أتوتق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به اليهود وتشدد، وقد آذن الله في ذلك فهو إن منة ﴿لتأتني به﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتني به ﴿إلا أن يحاط بكم﴾⁽³⁾ إلا أن تغلبوا فلم تطبقوا الإتيان به أو إلا أن تهلكوا.

فإن قُلْتُ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ قُلْتُ: ﴿إن يحاط بكم﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لتأتني به﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعله من العطل إلا لعله واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلا بد من تأويله بالنفي، وتظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿على ما نقول﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وكيل﴾ رقيب مطلع.

وَقَالَ بَيْنِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِوْرٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ بِنْتُ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْكُفْرُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ قَلْبِي أَتَتَوَكَّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذَرَّ عِلْمَ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا نوي بهاء وشارة حسنة اشتهروهم أهل مصر بالقرية عند الملك التكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح لأبصار إليهم من بين الوفود وأن يشار إليهم بالأصابع

مقرون بنكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: ﴿وأخاف أن ياكله الذئب﴾ فابتلي من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

(4) سورة المدثر، الآية: 31.

(5) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: (10) (الحديث رقم: 3371) وأبو داود في كتاب: السنة، باب: في القرآن (الحديث رقم: 3737).

(1) سورة يوسف، الآية: 52.

(2) قال أحمد: لن للنفي المؤكد، وأما قول الزمخشري في المناقاة له، فله وراء ذلك غرض، إنما يطلع عليه من قل كلامه معلماً، وذلك أنه اعتمد في حالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى: ﴿إن تراني﴾ معناه: أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذا المناقاة من مقتضى لن، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى لن، وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(3) قال أحمد: وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي؛ لأن المستثنى منه، مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان، مثلاً: نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكانه لعمومه =

كفيل أؤيبه إلى من جاء به وأراد سق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

قَالُوا تَاللَّهِ لَدَدَ عَلَمُهُ مَا جِئْنَا لِنُعِيدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرَفِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ رَبِّهِ فِي رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿تالله﴾ فسم فيه معنى التعجب مما اضيف إليهم، وإنما قالوا: ﴿لقد علمتم﴾ فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل بينهم وأمانتهم في كرسي مجيئهم ومدخلتهم للملك؛ ولأنهم نخلوا أفواه رواحهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق؛ ولأنهم ربوا بضاعتهم التي وجبواها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقة ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في حجوبكم وانعائكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾ أي: جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلنلك استفتوا في جزائه، وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم أي: فاخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير كقولك: حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فنلك حقه أي: فهو حقه لتقرر ما نكرته من استحاقه وتلزمه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمرة، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأوّل إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه مقيماً للمظهر مقام المضمرة، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه ثم اقتوا بقولهم: ﴿ومن وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ فجزاء مثل ما قتل من النعم⁽¹⁾.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَمَعَ النَّبِيُّ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدَّيْ أَبْنَتَيْهَا أَلِيمُ إِنَّكُمْ لَسَرَفُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا نَفْعُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٨﴾.

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة ممومة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أدن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال آذنه أعلمه، وأن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأركوا وحبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حنف جواب لما كانه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أقتته إذا وجنته فقيداً. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير

بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِبُؤْسٍ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفِعَ دَرَجَتَكَ مِنْ شَاءِ وَقَوْكَ كَلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٧﴾.

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم: من وكل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فلنصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير: إعا أخيه بقلب الواو همزة.

يوسف: بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائنته وجعل يواكله وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يملك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمت. وعن ابن عباس: تعرف إليه. وعن وهب: إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: فإنا لا أفرقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غم ولا سبيل إلى ذلك إلا أن انسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا ابالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني انس صاعى في رحلك ثم أتادي عليك بانك قد سرقته ليهيأ لي ريك بعد تسريحك معهم، قال: افعل.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَمَعَ النَّبِيُّ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدَّيْ أَبْنَتَيْهَا أَلِيمُ إِنَّكُمْ لَسَرَفُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا نَفْعُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٨﴾.

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة ممومة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أدن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال آذنه أعلمه، وأن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأركوا وحبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حنف جواب لما كانه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أقتته إذا وجنته فقيداً. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير

وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما اضافوا إلى يوسف من السرقة فقيل: كان أخذ في صباحه صنماً لجدّه أبي أمه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: نخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فبفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو سحابة فأعطاهما السائل، وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقنت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها، فوجئوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أعلم به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿فأسرها﴾ إضمار على شريطة التفسير تفسيره ﴿أنتم شر مكاناً﴾ وإنما أنت؛ لأنّ قوله: أنتم شر مكاناً جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة كأنه قيل: فاسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: أنتم شر مكاناً، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً، لأنّ قوله: قال أنتم شر مكاناً بدل من أسرها، وفي قراءة ابن مسعود: فاسرّه على التنكير يريد القول أو الكلام، ومعنى: أنتم شر مكاناً أنتم شر منزلة في السرقة؛ لأنكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخاكم من أبيكم ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة وليس الأمر كما تصفون.

قَالُوا يَا أَبَا نَسْرَةَ إِنَّ لَكَ لَأَبًا سَيِّئًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

فاستعطفوه بإنكارهم إياه حق أبيهم يعقوب وإنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر وإن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستانس بأخيه ﴿فخذ أحينا مكانه﴾ فحذه بنله على وجه الاستهزاء أو الاستعباد ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ إينا فإتمم إحسانك، أو من عانتك الإحسان فاجر على عانتك ولا تغيرها.

قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا بِعَدُوِّهِ إِنَّا إِذَا نُنَازِلُكُمْ ﴿٧٩﴾

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ظاهره أنه وجب على قضية فنواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبيكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه إن الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمّة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعملاً على خلاف الوحي، ومعنى: معاذ الله ﴿إن ناخذ﴾ نعوذ بالله معاذًا من أن ناخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به

فإن قلّت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم انته؟ قلت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية أو آنت الصواع لأنه ينكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل به منه صواعًا ﴿كذلك كننا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كننا ﴿ليوسف﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في بين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق: أن يغرّم مثلي ما أخذ لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإنه فيه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: يرفع الباليه ودرجات بالتونين ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فوّه أرفع درجة منه في علمه، أو وفوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وعلّا.

فإن قلّت: ما أن الله فيه يجب أن يكون حسنًا، فمن أي وجه حسن هذا الكيد، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق وتكذيب لمن لم يكتب وهو قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ ﴿فما جزأوه إن كنتم كاذبين؟﴾ قلت: هو في صورة البهتان وليس بهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤنن لا من يوسف، وقوله: ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فرض لانتهاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكذيبًا، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ (1) هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع بينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وخذ بيك ضعفًا﴾ (2) يتخلص من جلدها ولا يحث وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلمًا ونريعة إليها فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما نكرنا.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَسْوِهِ وَكَمْ بِيَدِهَا لَهْمٌ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿أخ له﴾ أراوا يوسف، روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منك بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي

وحذف من، و﴿إِنَّا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا ببله ظلمنا.

فَلَمَّا أَنْتَبَسُوا مِنْهُ حَكَمُوا فِيهَا قَالَ كَيْدُهُمْ أَنْتُمْ تَمَكَّرْتُمْ أَنْتُمْ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَرْيَبًا مِنْ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ
فَلَنْ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي آيَةٌ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
(٨٦).

﴿استياسوا﴾ يشسوا وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مر في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى: المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقربناه نجياً﴾⁽¹⁾ ويعنى المصدر الذي هو: التناجى كما قيل النجوى بمعناه، ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل: ﴿وإذ هم نجوى﴾⁽²⁾ تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى، كما قيل: هم صنيق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع انجية، قال:

إنى إذا ما القوم كانوا انجية

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفربوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نجياً﴾ ذي نجوى، أو فوجاً نجياً أي: مناجياً لمنجاة بعضهم بعضاً، وأحسن منه أنهم تمحصوا نتاجياً لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه يجذب واهتمام كانهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقتها، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيههم؟ كقوم تعابوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى التشاور ﴿كبيرهم﴾ في السن وهو: روييل، وقيل: رئيسهم وهو: شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو: يهوذا ﴿ما فرطتم في يوسف﴾ فيه وجوه: أن تكون ما صلة أي: ومن قبل هذا قصر تم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية: على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل، ومعناه: ووقع. من قبل تفرطكم في

يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول: ألم تعلموا وهو أن أباكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفرطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة: بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أي: قدمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ومحل الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي ليبي﴾ في الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

أَرْجِعُوا إِلَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَاتَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ حَافِظِينَ (٨٧).

وقرى: سرق أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهنتا﴾⁽³⁾ عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقة وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾⁽⁴⁾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، ومن قرأ سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التشريق، وما كنا للغيب: للامر الخفي، حافظين: أسرق بالصحة أم نس الصاع في رحله ولم يشعر.

رَسَلْنَا الْقُرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْمِيَثَاقَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ
(٨٧) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جِيسٌ إِنَّهُمُ الْعَمَلِيُّ الْحَكِيمُ (٨٧).

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر أي: أرسل إلى أهلها فسلمهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، وقبل: من أهل صنعاء. معناه فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أصراً﴾⁽⁵⁾ أرذتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق

= علماء، ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

(1) سورة مريم، الآية: 52.

(2) سورة الإسراء، الآية: 47.

(3) قال أحمد: إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ، أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره، يوجب له أحكام السارق، فيكون العلم على ظاهره إذا، وإما أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله، لا يوجب علم كونه سارقاً، وغايته أن يفيد ظناً بئناً، فيكون المراد بالعلم ههنا: الظن، وقد ورد مثله، ويكون قولهم: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظنٌ بمقتضى ظاهر الحال، وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم، فليسوا يدعون عليه.

(4) قال أحمد: وإنما تلتمم القراءتان على التاويل الذي نكرته، وهو: أنهم إنما أضافوا إليه السرقة، ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحتزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة، فقالوا: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فالقراءتان على التاويل المنكر، يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه، وأما على غيره من التاويلات المنكورة، فلا تنتظم القراءتان؛ لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة =

(5) قال أحمد: وهذا الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلًا

يقول: هم في الوقعة الأولى، سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سواء، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر، إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بد من زيد بسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لم أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من بين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس، ولا من عانتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لياخذ أخاه في دين الملك﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أقتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً، ليتخلف لأخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل

تلكى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط»⁽⁷⁾.

فإن قُلْتُ: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع تلك المبلغ. قُلْتُ: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنما عليك يا إبراهيم لمحزونون»⁽⁸⁾. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ: أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقن: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»⁽⁹⁾. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك: فقال: «ما رأيت الله جعل الحزن عازاً على يعقوب» فهو مملوء من الفيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم: من كظم السقاء إذا شدته على ملته والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بالكظامه.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَلَكِينَ ﴿٨٥﴾

«تفتؤ» أراد لا تفتؤ فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدمن اللام والنون، ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

ومعنى لا تفتؤا: لا تزال، وعن مجاهد: لا نفتر من حبه كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين، يقال ما فتئ يفعل، قال أوس:

فما فتئت خيل تثوب وتدمي ويلحق منها لاحق وتقطع
«حرضاً» مشفياً على الهلاك مرضاً، وأحرضته

يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم **«بهم جميعاً»** بيوسف وأخيه ودوبيل أو غيره **«إنه هو العليم»** بحالي في الحزن والأسف **«الحكيم»** الذي لم يبتلى بملك إلا بالحكمة ومصلحة.

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِجَارَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْخُرْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٨٦﴾

«وتولى عنهم» وأعرض عنهم كرامة لما جاؤا به **«بها أسفى»** أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والآف بدل من ياء الإصابة والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه: **«أناقلتم إلى الأرض أرضيتكم»**⁽¹⁾ **«وهم ينهون عنه وينأون عنه»**⁽²⁾ **«يحسبون أنهم يحسنون»**⁽³⁾ **«من سبنا نبينا»**⁽⁴⁾ وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمة من الأمم **«إنا لله وإنا إليه راجعون»**⁽⁵⁾ عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، إلا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال **«يا أسفى»**⁽⁶⁾.

فإن قُلْتُ: كيف تأسف على يوسف لول أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً؟ قُلْتُ: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف وأنه لم يقع فائت عنده موقعه. وإن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً ولم تنسني أو في المصيبات بعده، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به **«وابيضت عيناه»** إذا كثرت الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إبراكاً ضعيفاً، قرئ: من الحزن ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكانه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عيننا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين

= أن يدعى عليهم السرقة، فنكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود لإزامهم بما قالوا، وإتهام من هو، بحيث تنطبق التهمة إليه، لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل، والله أعلم، أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك، ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراساً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم، وقوله: **«بل سولت لكم أنفسكم أمراً»** واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول، والله المستعان.

- (2) سورة الأنعام، الآية: 26.
- (3) سورة الكهف، الآية: 104.
- (4) سورة النمل، الآية: 22.
- (5) سورة البقرة، الآية: 156.
- (6) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب (الحديث رقم: 9691).
- (7) لم يروه الطبري إلا من قول الحسن 174/2.
- (8) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» (الحديث رقم: 1303) ومسلم في صحيحه كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ بالصبيان (الحديث رقم: 5979).
- (9) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «ينب الميت ببعض بكاء أهله عليه» (الحديث رقم: 1284)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (الحديث رقم: 2132).

المرض ويستوي فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث لانه مصدر، والصفة حرض بكسر الراء ونحوهما: دنف وبنف، جاءت القراءة بهما جميعاً، وقرأ الحسن: حرضاً بضمين ونحوه في الصفات رجل جنب وغرب.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرِّزَ لِي اللهُ وَأَعْلَمُ مِنْهُ اللهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

البيت أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيثبه إلى الناس أي: ينشره، ومنه: باثه أمره وأبثه إياه ومعنى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا﴾ إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً وملتجئاً إليه فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يعقوب قد تهشمت وفنيت من السن ما بلغ أبوك فقال: هشمني وأفئاني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أشكوني إلى خلقي؟ قال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرِّزَ لِي اللهُ﴾ وروي: أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنْهُ اللهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب، وروي: أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحين، وحزني بضمين قتادة.

يَبْنَئِي أَذْهَبُوا مَمَّحَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَجِيبُوا وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿فَتَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو: المعرفة ﴿فَلَمَّا أَحْسَسَ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾^(١)، ومن الجس وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان الحواس والجواس ﴿مِنْ رُوحِ اللهِ﴾ من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقاتدة: من روح الله: بالضم أي: من رحمته التي يحيي بها العباد.

فَلَمَّا دَعُلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَبَتِئِمَّا كَرَّرْنَا مَسْنَا وَأَهْلَنَا النَّهْرُ وَحَسْنَا بِضَعْفِ مَرْحَمَةِ قَارُونَ لَنَا الْكَيْلُ وَصَدَقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

﴿الضر﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيتها إذا نفعت وطربته، والريح تزجي السحاب. قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحب الخضراء، وقيل: سويق المعقل والأقط، وقيل: نراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضعية ﴿فاوف لنا الكيل﴾ الذي هو حقنا ﴿وتصدق علينا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أوزنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة؛ لأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع ﴿وتصدق علينا﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تسكنوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ومن ثم رق لهم وملكتهم الرحمة عليهم فلم يتملك أن عرفهم نفسه وقوله: ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ شاهد لذلك لنكر الله وجزائه، والصدقة: العطفية التي تبتغي بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق عليّ: إن الله تعالى لا يتصدق، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل عليّ أو ارحمني.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُ مَا نَعِلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قال هل علمتم﴾^(٢) اتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ لا تعلمون قبحه فلذلك أقمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين لا معاتبة وتوبيخاً، إيناراً لحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينثف المصدر ويتشفى المغيظ المحنق ويدرك ثاره الموتور، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجها، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم

== فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي، فوضعت المبية في قفاه لينبج، ففداه الله، وأما أنا، فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله النذب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان إخاه من أمه، وكنت اتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا فقالوا إنه سرق، وأنت حبست لذلك، وإنما أهل بيت، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددت عليّ، وإلا دعوت عليك دعوة، تبلغ السابح من ولدك، والسلام. فلما قرأ الكتاب، بكى، وكتب الجواب: أصبر كما صبروا، تطفر كما ظفروا.

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.

(2) قال أحمد: ومن تلتفه بهم قوله: ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ كالاتعذار عنهم؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار، لم يلفوا عنراً كهذا، إلا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر نفسه، لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً، وأنا من الضالين، وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه، أرفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أتوا إليه كتاباً من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر: أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي، فشئت يدها ورجلاه، ورمى إلى النار ليحرق، ==

جاهلين، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزانة روي: أنهم لما قالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾ (1) وتضرعوا إليه أرفضت عيناه ثم قال: هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يدها ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عينا من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنيت اتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وأنت حبسته لذلك، وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابغ من ولدك، والسلام، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي: أنه لما قرأ الكتاب بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

فإن قُلْتُ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُ: تعريضهم إياه للغم والتكلم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام اللئيل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٤١﴾

﴿لقد آتَرَكَ الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وَإِنْ شَانُنَا وَحَالُنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ متعمدين للإثم لم ننتق ولم نصبر، لا جرم أَنْ الله أعزك بالملك وأئلنا بالتمسكن بين يديك.

قَالَ لَا تَرْجِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٤٢﴾

﴿لا تتريب عليكم﴾ لا تانيب عليكم ولا عتب، وأصل التتريب من الترب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب كما أن التجليد والتقرير إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غلية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقرير الذي يمزق الأعراس ويذهب بماء الوجوه.

فإن قُلْتُ: بم تعلق ﴿اليوم﴾ قُلْتُ: بالترتيب، أما بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار، أو يغير والمعنى: لا أتريبكم اليوم، وهو: اليوم الذي هو مظنة التتريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتداءً فقال: ﴿يعفو الله لكم﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويعفو الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم، واليوم يغفر الله لكم بشارة بعجل غفران الله لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضائتي باب الكعبة يوم الفتح لقريش: «ما ترونني فاعلأ بكم؟ قالوا: نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تتريب عليكم اليوم﴾» (3) وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه ﴿قال لا تتريب عليكم﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك» (4). ويروي: أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه إنك تدعوننا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: لئن أهل مصر ولئن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنك إخوتي وأني من حفدة إبراهيم.

(1) سورة يوسف، الآية: 88. = يفران نذهب، حينئذ بإخبار النبي الصديق، ويحتمل أن يقال: إنما أراد: مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم. (قوله: كانت أمه تحي، وقيل: هما أبوه وأخته).

(2) قال أحمد: وهذا المعنى: إنما يتوجه على الإعراب الأول، وهو الوجه، لا ترى إلى قولهم بعد ذلك: ﴿يا أبانا استغفر لنا نوبنا إنا كنا خاطئين﴾ وقوله: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بغير الزم، لقطعوا =

(3) رواه أبو عبيد في كتاب: الأموال ص 51 (الحديث رقم: 298).

(4) قال الزيلعي: غريب جداً 179/2.

بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾.

﴿سوف استغفر لكم﴾ قيل: آخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليعتمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ وَلَهُمْ أَجْمَعِينَ، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا؛ فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبداً، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أئمة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَابَ دَعْوَتَكَ فِي وَلَدِكَ وَعَقَدَ مَوَاقِفَهُمْ بَعْدَكَ عَلَى النَّبِوَّةِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي اسْتِنَابَتِهِمْ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ مَأْوِينَ ﴿١٨﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْسِيِّ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر باجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهودا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحرار، وقيل: إِنَّ يُوسُفَ قَالَ لَهُ لَمَّا التَّقِيَا: يَا ابْتَ بَكَيْتَ عَلَيَّ حَتَّى ذَهَبَ بِصْرِكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إِنَّ يُعْقُوبَ وَوَلَدَهُ دَخَلُوا مَصْرَهُمْ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَخَرَجُوا مِنْهَا مَعَ مُوسَى وَمَقَاتِلَتَهُمْ سِتْمِائَةَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةَ وَبِضْعَةَ وَسَبْعِينَ رَجُلًا سِوَى الذَّرِيَّةِ وَالْهَرَمِيِّ، وَكَانَتِ الذَّرِيَّةُ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ ﴿أَوَىٰ إِلَيْهِ لِيُؤْوِيَهُ﴾ ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحق: كانت أمه تحيي وقيل: هما أبوه وخالته ماتت أمه فتزوجها وجعلها أحد الأبوين، لأن الرابطة تدعى أمًا لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب ومنه قوله:

أَدَهَبُوا بِقِيَمِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفٍ بِأَفْئِكُمْ أَجْمُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿أذهبوا بقميصي هذا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي ﴿يات بصيرًا﴾ يصر بصيرًا كقولك جاء البناء محكمًا بمعنى: صار، ويشهد له ﴿فارتد بصيرًا﴾^(١) أو بات إلي وهو بصير وينصره قوله: ﴿وأتوني باهلكم لجمعين﴾ أي ياتني أبي وياتني آله جميعًا وقيل: يهونا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخًا بالدم إليه فافرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

رَكْنَا فَصَلَبَ الْإِيرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفْرِدُونِ ﴿٢١﴾.

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولًا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير ﴿قال﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيذ النسبة إلى الفند وهو: الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لم تكن في شببيتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيذكم إياي لصدقتُموني.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَبِيرِ ﴿٢٢﴾.

﴿لفي ضلالك القديم﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدمًا في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقاءه، وكان عندهم أنه قد مات.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِرَاطٍ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿القاء﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب ﴿فارتد بصيرًا﴾ فرجع بصيرًا، يقال: رده فارتد وارتده إذا ارتجعه ﴿الم أقل لكم﴾ يعني: قوله: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾^(٢) أو قوله: ﴿ولا تياسوا من روح الله﴾^(٣) وقوله: ﴿إني أعلم﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾^(٤) وروي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، ما أصنع

(3) سورة يوسف، الآية: 87.

(4) سورة يوسف، الآية: 86.

(1) سورة يوسف، الآية: 96.

(2) سورة يوسف، الآية: 94.

﴿وَالَهُ آيَاتُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ (1).

يأكله الذئب﴾ (3) قال: فهلا خفتني. وروي: أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له طلبت نفسه الملك الدائم الخالد فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهرًا، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه، كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقًا من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعًا واحدًا، وولد له إفرائيم وميشاء، وولد لإفرائيم نون وبنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وأبائه إلى أن بعث الله موسى ﷺ.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السُّكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الْأَلْأَمْرِ فَوَفِّي مَسْئَلًا وَالْحَقَّ بِالْمَسْئَلِينَ﴾ (12).

من في ﴿من الملك﴾ و ﴿من تاويل الأحاديث﴾ للتبويض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التاويل ﴿أنت وليي﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿توفني مسلمًا﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتنَّ إلا وائتم مسلمون﴾ (4) ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل ﴿والحقني بالصالحين﴾ من آياتي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له: صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا، أحبيت سننًا وأمت بدعًا، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرَّ الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿توفني مسلمًا والحقني بالصالحين﴾.

فإن قلت: علام انتصب ﴿فاطر السموات﴾؟ قلت: على أنه وصف لقوله: ﴿ربِّ﴾ كقولك: أخا زيد حسن، أو على النداء.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْكَلِيمِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اتَّمَعُوا أَرْحَمَ رَبِّهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ (13).

﴿نُوحِي﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء وقوله: ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إن، ويجوز أن يكون اسمًا موصولًا بمعنى الذي، ومن أنباء الغيب صلته وتوحيه الخبر

فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبالهم نزل لهم في مضرب أو بيت، ثم فدخلوا عليه وضمَّ إليه أبويه. ثم قال لهم: ﴿انحلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستويًا على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرَّوا له﴾ يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجدًا﴾ ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه فدخلوا عليه القبة فأواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه وقال بعد ذلك: انحلوا مصر.

فإن قلت: ثم تعلقت المشيئة قلت: بالدخول مكيفًا بالامن؛ لأنَّ القصد إلى اتصافهم بالامن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا ولكن مقيدًا بالسلامة والغنمية مكيفًا بهما، والتقدير: انحلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال، ومن بدع التفسير أن قوله: إن شاء الله من باب التقديم والتأخير وإن موضعها ما بعد قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ (2) في كلام يعقوب، وما أري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهوت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تغيير الجباه وخرورهم سجدًا بإياه، وقيل معناه: وخرَّوا لأجل يوسف سجدًا لله شكرًا وهذا أيضًا فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة

﴿من البديو﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجم ﴿نزرغ﴾ أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري يقال: نزرغه ونسغه إذا نخسه ﴿لطيف لما يشاء﴾ لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي: أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فانخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحلبي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزنة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وأخاف أن

(3) سورة يوسف، الآية: 13.

(4) سورة آل عمران، الآية: 102.

(1) سورة البقرة، الآية: 133.

(2) سورة يوسف، الآية: 98.

أَنَّا لَمَّا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾

﴿غاشية﴾ نعمة تغشاهم، وقيل: ما يفرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبِيلَنَا اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق ينكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿ادعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: ادعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء و ﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر في ادعو ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، يريد ادعو إليها أنا ويدعو إليها من اتبعني، ويجوز أن يكون أنا مبتداً وعلى بصيرة خبراً مقدماً ومن اتبعني عطفاً على أنا إخباراً مبتداً بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى؛ ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من ادعو عاملة الرفع في أنا ومن اتبعني ﴿وسبحان الله﴾ وأنزهه من الشركاء.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لآنزل ملائكة﴾⁽⁴⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل في سجاج المتنبئة؛ ولم تنزل أنبياء الله نكراساً

وقرى: نوحى إليهم بالنون ﴿من أهل القرى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ودار الساعة أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرى: أفلا تعقلون بالتاء والياء.

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُحِىَ مِّنْ نَّشَأِهِمْ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾

﴿حتى﴾ متعلقة بمحنوف دل عليه الكلام كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استياسوا عن النصر⁽⁵⁾ ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبتم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكنيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمانت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة

والمعنى: أن هذا النبا غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين اجتمعوا أمرهم وهو إلقاءهم أخاهم في البئر كقوله: ﴿واجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب﴾⁽¹⁾ وهذا تهكم بقريش وبمن كذب؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم بالمكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية ونحوه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾⁽²⁾ ﴿وهم يكمرون﴾ بيوسف ويبنون له الغوائل.

وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم كقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾⁽³⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: أراد أهل مكة أي: وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿وما نسئلهم﴾ على ما تحدثهم به وتنكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى كما يعطي حملة الأحابيث والأخبار ﴿إن هو إلا نكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

وَكَايِنِ يَن مَّآبٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنَّا مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرى: والأرض بالرفع على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي: والأرض بالنصب على ويطؤون الأرض يمرن عليها، وفي مصحف عبد الله، والأرض يمشون عليها برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير تلك من العبر.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ في إقراره بالله وبيانه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلق.

(4) سورة فصلت، الآية: 14.

(5) قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه، لا عن إخبار وحي.

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة القصص، الآية: 44.

(3) سورة هود، الآية: 17.

عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلمًا،⁽³⁾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

الرَّعْدَ تِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ من القرآن كله هو ﴿الحق﴾ الذي لا مزيد عليه لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الانمارية: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها تريد الكلمة.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا وَمَآثِرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجْسًا لِيُغْشِيَ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿والذي﴾ خبره بلبيل قوله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ خبر بعد خبر وينصره ما تقسمه من نكر الآيات ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ كلام مستأنف استشهد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد ويعضده قراءة أبي: ترونها، وقرئ: عمد بضميتين ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل﴾ آياته في كتبه المنزلة ﴿لعلكم توقنون﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا يد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: ندبر بالنون ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿يغشي الليل والنهار﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً، وقرئ: يغشي بالتشديد.

وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَبَعَاتٌ وَرَحَتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَغَيْلٌ مُّسَوَّانٌ وَعَيْرٌ مُّسَوَّانٌ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَبِغَيْرِ غَيْثٍ يُفَضَّلُ بَعْضٌ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿قطع متجاورات﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

من غير احتساب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا⁽¹⁾ حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشراً وتلا قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾⁽²⁾ فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحيث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بريهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح، وقيل: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي: أخلفوا أو وظن المرسل إليهم كذبوا من جهة الرسل أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقهم فيه، وقرئ: كذبوا بالتشديد علي وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: كذبوا بالتخفيف على البناء للفاعل هي وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصر، إما على تأويل ابن عباس، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتُمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، وقرئ: بهذا مشدداً: لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبهم في موعدهم. قرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد من أتجاه ونجاه وفنجي على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصة: فنجا. والمراد: ﴿من نشاء﴾ المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم وقد بين ذلك بقوله: ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾

الضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسل وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قلت: فلأمر يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي: قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد ألة العقل، وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان، وقرئ: ذلك بالرفع علي ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «علموا أرقاكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هون الله

(2) سورة البقرة، الآية: 214.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً تأويل حسن، ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمم كتب رسلكم، فكيف لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا، والمثلة العقوبة بوزن الصمرة، والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة «وجزاء سيئة سيئة مثلها»⁽²⁾ ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه، والمثال: القصاص، وقرئ: المثالات بضمين لاتباع الفاء العين، والمثالات: بفتح الميم وسكون الناء كما يقال: السمرة، والمثالات: بضم الميم وسكون الناء تخفيف المثالات بضمين، والمثالات: جمع مثلة مركبة وركبات «لذو مغفرة للناس على ظلمهم» أي: مع ظلمهم انفسهم بالنزوب ومحلها الحال بمعنى: ظالمين لأنفسهم⁽³⁾، وفيه أوجه: أن يريد السينات المكفرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال، وروي: أنها لما نزلت قال النبي عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزته ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»⁽⁴⁾.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُذَرِّئٌ
وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

«لولا أنزل عليه آية من ربه» لم يعتدوا بالآية المنزلة على رسول الله ﷺ عنادًا، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصاحية، وإحياء الموتى. فقيل لرسول الله ﷺ: إنما أنت رجل أرسلت منذرًا ومخوفًا لهم من سوء العقوبة وناصحًا كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بآية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها «ولكل قوم هاد» من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعًا واحدًا في آيات مخصوصة «ووجه آخر» وهو أن يكون المعنى: أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعانون فلا يهمنك ذلك إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلحاء وهو الله تعالى، ولقد دل بما أرفده من نكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضايا حكمته، إن إعطاء كل منذر آيات خلاف آيات غيره، أمر مدير بالعلم النافذ مقدر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيرًا ومصلة لأجابهم إليه، وأما على الوجه الثاني: فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه هو القادر وحده على هدايتهم العالم بأي طريق يهديهم ولا

متلاصقة طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها مع انتظامها جميعًا في جنس الأرضية، وذلك ليل على قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقي بماء واحد وتراما متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم الروائح متفاضلة فيها، وفي بعض المصاحف قطعًا متجاورات على وجعل. وقرئ: وجنات بالنصب للعطف على زوجين، أو بالجر على كل الثمرات. وقرئ: وزرع ونخيل بالجر عطفاً على اعناب أو جنات. والصنوان جمع صنو وهي: النخلة لها رأسان وأصلهما واحد، وقرئ: بالضم والكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة بني تميم، وقيس «تسقي» بالتاء والياء «ونفضل» بالنون والياء على البنا للفاعل والمفعول جميعًا «في الأكل» بضم الكاف وسكونها.

وَإِنْ تَجَبَّ قَوْلُهُمْ أَودَا كُنَّا نُرَبِّهَا لَكُمْ أَنْتَ لَمْ تَكُنْ جَدِيدٌ
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ قَدْ أَغْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ
أَحْسَبُ أَنَّكَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

«وإن تعجب» يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي يخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب «أئذا كنا» إلى آخر قولهم، يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوبًا بالقول، وإذا نصب بما دل عليه قوله: أئذا لفي خلق جديد «أولئك الذين كفروا بربهم» أولئك الكاملون المتمسكون في كفرهم «وأولئك الأغلال في اعناقهم» وصف بالإصرار كقوله: «إننا جعلنا في اعناقهم أغلالاً»⁽¹⁾ ونحوه:

لهم عن الرشد أغلال وآبياد

أو هو من جملة الوعيد.

وَيَسْتَبِطُونَكَ يَا سَيِّدِي قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْكَلْبَةُ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقَرٍّ لِنَاسٍ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ
﴿٦﴾

«بالسيئة قبل الحسنة» بالنعمة قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال، وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره «وقد خلت من قبلهم المثالات» أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم

(1) سورة يس، الآية: 8.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) قال أحمد: والوجه الحق، بقاء الوعد على إطلاقه، إلا حيث دل اللبيل على التقييد في غير الموحد، فإن ظلمه، أعين شركه، لا يفر، وما عاد الشرك، فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبيِّن =

= عقيته التي وضع فسادها، في استحالة الغفران لصاحب الكبار، وإن كان كوحداً، إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسعاً، والله الموفق.

(4) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره والتعلبي والواحد في تفسيره (الزيلي 2/183).

سبيل إلى ذلك لغيره.

﴿المتعال﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.
سَوَاءٌ سَنُكَرُ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ
بِأَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ﴿١٧﴾.

﴿الله يعلم﴾ يحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا وأن يكون المعنى: هو الله تفسيرًا لهاد على الوجه الأخير ثم ابتدئ فقبل ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ وما في ما تحمل وما تغيض وما تزاد؛ إما: موصولة، وإما: مصدرية، فإن كانت موصولة فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من نكورة وأثوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقية، ويعلم ما تغيضه الأرحام أي: تنقصه، يقال: غاض الماء وغضته إناء، ومنه قوله تعالى: ﴿وغيض الماء﴾⁽¹⁾ وما تزاده أي: تأخذه زائدًا تقول: أخذت منه حقي وازيدت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وازدانوا تسعًا﴾⁽²⁾ ويقال: زبته فزاد بنفسه وازداد، وما تنقصه الرحم وتزاده: عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة، ويروي أن شريكًا كان رابع أربعة في بطن أمه، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًا ومخنجا، ومنه مدة ولانته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وازيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة وإلى أربع عند الشافعي وإلى خمس عند مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي: هرما، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر، وإن كانت مصدرية فالمعنى: أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك ومن أوقاته وأحواله، ويجوز: أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيانته فأسند الفعل إلى الأرحام، وهو لما فيها على أن الفعلين غير متعديين، ويعضده قول الحسن: الغيوضضة إن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر، وعنه: الغيوض الذي يكون سقطا لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام ﴿بمقدار﴾ بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله: ﴿إنما كل شيء خلقناه بقدر﴾⁽³⁾.

عَزِيزُ الْبَيْنِ وَاللَّهْدَى الْكَبِيرُ الْمَعَالِ ﴿١٨﴾.

﴿الكبير﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء نونه

لَمْ مَوْجِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١٨﴾.

والضمير في ﴿له﴾ مردود على من كانه قيل: لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب ﴿معبقات﴾ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل معتقبات فادغمت التاء في القاف كقوله: ﴿وجاء المعذرون﴾⁽⁵⁾ بمعنى: المعتذرون، ويجوز معقبات بكسر العين ولم يقرأ به، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه كما يقال: قفاء لأن بعضهم يعقب بعضًا، أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ هما صفتان جميعًا، وليس من أمر الله بصلة للحفظ كانه قيل له: معقبات من أمر الله، أو يحفظونه من أجل أمر الله⁽⁶⁾ أي: من أجل أن الله أمرهم بحفظه، والدليل عليه قراءة علي رضي الله عنه، وابن عباس، وزيد بن علي، وجعفر ابن محمد، وعكرمة: يحفظونه بأمر الله، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أنذب بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب

لو قدرت داخلة في صلة الأوّل بواسطة العاطف، لم يكن للنهي موقع، وإنما صحب في الأوّل الموصول، لا الصلة ومنه.

فمن يهجوا رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي: ومن يمدحه وينصره، والله أعلم.

(5) سورة التوبة، الآية: 90.

(6) قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم الله أنه يدفعه عنه، بسبب دعائهم، ولولا هذا السبب، لكان في علم الله أن النعمة تحل عليه؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون، لو كان، كيف كان يكون، وسع ربنا كل شيء علما.

(1) سورة هود، الآية: 44.

(2) سورة الكهف، الآية: 25.

(3) سورة القمر، الآية: 49.

(4) قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري، أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به، أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أن يكون الموصول المعطوف، وبقاء صلته شائع، وخصوصًا وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم﴾ والأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي بخيلا غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية، =

وعن ابن عباس: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوف بها السحاب»⁽⁵⁾. وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك، ومن بدع المتصوفة، الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكأؤهم **«والملائكة من خيفته»** ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله. نكر علمه النافذ في كل شيء، واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيتها ثم قال **«وهم»** يعني: الذين كفروا وكتبوا رسول الله وأنكروا آياته **«يجالون في الله»** حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم:

«من يحيي العظام وهي رميم»⁽⁶⁾ ويرثون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ويجعلونه بعض الأجسام المتوالة بقولهم: الملائكة بنات الله، فهذا جدالهم بالباطل كقوله: **«وجدنا بالباطل ليدحضوا به الحق»**⁽⁷⁾ وقيل: الواو للحال أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك إن أريد أخوا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولوية، وأرسل على أريد صاعقة فقتلته: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد⁽⁸⁾ **«المحال»** المماثلة وهي: شدة المماكرة والمكايذة، ومنه: تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعي به إلى السلطان، ومنه الحديث: ولا تجعله علينا محلاً مصدقاً⁽⁹⁾، وقال الأعشى:

فرع نبع يهش في غصن المجـ د غزير الندى شديد المحال
والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وقرأ الأعرج: بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول محلاً، إذا احتال، ومنه أحول من نذب أي: أشد حيلة، ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقار، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشد وموساه أحد؛ لأن الحيوان إذا اشتد محاله كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. الا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر، وذلك أن الفقار: عمود الظهر وقوامه.

لَمْ دَعْرَةٌ لَنْقٍ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِيطٍ
كَتَبْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَنْتَظِرَهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبِئِهِ وَمَا دَعَا الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ (٧).

وينيب كقوله: **«قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن»**⁽¹⁾ وقيل: المعقبات الحرس والجلالوة حول السلطان يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي: من قضاياه ونوازلها، أو على التهكم به، وقرئ: له معاقيب جمع معقب أو معقبة والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير **«إن الله لا يغير ما بقوم»** من العافية والنعمة **«حتى يغيروا ما بأنفسهم»** من الحال الجميلة بكثرة المعاصي **«من وال»** ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ الْسَّحَابَ لِيُنزِلَ (١٧).

«خَوْفًا وَطَمَعًا»⁽²⁾ لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما؛ لأنها ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف، وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين، ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فتى كالسحاب الجون نخشى وترتجى يرجى لحيانها ويخشى للصواعق
وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومن في جريته التمر والزبيب، ومن له بيت يكف، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كاهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع ويحيا به **«السحاب»** اسم الجنس والواحدة سحابة و**«الثقال»** جمع ثقيلة لأنك تقول: سحابة ثقيلة وسحاب ثقيل، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهي الثقال بالماء.

وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ (١٤).

«ويسبح الرعد بحمده» ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامنين له أي: يضحجون بسبحان الله، والحمد لله، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»⁽³⁾. وعن علي رضي الله عنه: سبحان من سبحت له، وإذا اشتد الرعد قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»⁽⁴⁾.

(1) (الحديث رقم: 3450) والنسائي في عمل اليوم واللييلة باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق (الحديث رقم: 933).

(2) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرعد (الحديث رقم: 3117)، رواه أحمد في مسنده (2/274).

(3) سورة يس، الآية: 78.

(4) سورة غافر، الآية: 5.

(5) رواه أبو يعلى في مسنده 88/6.

(6) رواه ابن حبان في كتاب: العلم (الحديث رقم: 124).

(1) سورة الأنبياء، الآية: 42.

(2) قال أحمد: ومفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل، فاعل في المعنى؛ لأنه إذا أراه، فقد راوا، والأصل: وهو الذي يريكم البرق، فترتبه خوفاً وطمعاً، أي: ترقيبه وتترامونه، تارة لأجل الخوف، وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في الالب المفرد 185/2، باب: «إذا سمع الرجل...» (الحديث رقم: 723).

(4) رواه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا سمع الرعد

وَالْأَسْمَالَ ﴿١٥﴾

﴿وَالله يسجد﴾ أي: ينقادون لإحداث ما أَرَادَهُ فِيهِمْ مِنْ أفعالِهِ شاقُوا أو أبوا لا يقدرُونَ أَنْ يمتنعُوا عَلَيْهِ، وَتَنقَادَ لَهُ ﴿ظلالهم﴾ أَيضاً حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال. وقرئ: بالغنق والإيصال من أصلاً إذا نخلوا في الأصل.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللهُ قُلْ أَنَا عَزَمْتُ مِنَ ذُرِّيَّتِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَلِيكُنْ لِأَسْمَاءٍ نَمَّا وَلَا صَرْاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَتْهُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أَمْ جَمَلُوا بَيْنَهُ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ اللَّهُ الْفَلَكُ عَالِمٌ قُلْ اللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَاءَتِ أَرْضُهُ بِغَدْرِهَا فَاصْتَلَّ السَّبِيلَ زَيْدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلْدٍ أَوْ مَتَاعٍ زَيْدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَيْرُ فَنَزَغَهُمْ جَحْشًا وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَكَّبُوا فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿قل الله﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم؛ لأنه إذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله، كقوله: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ سيقولون الله⁽³⁾ وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قورك؟ فإذا قال: هذا قلبي، هذا قورك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيقاقاً منه، ثم يقوله له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقيناً أي: إن كعوا عن الجواب فلنقهم فإنهم يتلقونونه ولا يقدرُونَ أَنْ يَنْكروهُ ﴿فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أبعاد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء؟ فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ لِنَفْسِهِمْ أَنْ يَنْفَعُوا أو يَنْفَعُوا عَنْهَا ضَرًّا فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ وقد أثرتموه على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ (4) بل اجعلوا، ومعنى الهمزة: الإنكار و﴿خلقوا﴾ صفة

﴿دعوة الحق﴾⁽¹⁾ فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق المختصة به، وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى: أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقةً بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه، والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلأ على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكل دعاء إليه دعوة الحق.

فإن قُلْتُ: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله؟ قُلْتُ: أما على قصة أريد فظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكرهه من حيث لم يشعر، وقد دعا رسول الله ﷺ وعلى صاحبه بقوله: «اللهم أخسفهما بما شئت»،⁽²⁾ فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على الأول، فوعيد للكفرة على مجاللتهم رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ أن دعا عليهم فيهم ﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعورهم الكفار ﴿من﴾ نون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ من طلباتهم ﴿إلا كيباسط كفيه﴾ إلا استجابة كاستجابة بلسط كفيه أي: كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا يعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم، وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لألهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناسراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه. وقرئ: تدعون بالتاء كيباسط كفيه بالتنوين ﴿إلا في ضلال﴾ إلا في ضياع لا منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

وَالَّذِي يَسْتَدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا هُمْ وَأَنْذَرُوا

- (1) قال أحمد: سن تحت تأويل الأول، نبذة من الاعتزال على وجه الاعتزال، فحجر وأسعا من لطف الله، واستجابته أدمية عباده، وحتم رعاية المصالح، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق: التباسها بالمصلحة، وقد انكشف الغطاء، وتبين أن الله تعالى لا تعلق أفعاله، ولا تقف استجابته على الشرط المنكور، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع، من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة، والله الموفق.
- (2) نكره الواحد في أسباب النزول ص 154.
- (3) سورة المؤمنون، الآيتان: 86 و 87.
- (4) قال أحمد: وفي قوله تعالى: ﴿خلقوا خلقه﴾ في سياق الإنكار، تهكم بهم؛ لأن غير الله، لا يخلق خلقاً البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة، الله، تقس عن التشبيه، ولا بطريق الاحتياط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم، أن الشركاء التي اتخونها، لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿خلقهم﴾ تهكم، يزيد

= الإنكار تأكيداً، والزمخشري لا يطبق التنبيه على هذه السكنة، مع كونه أظن من أن تستتر عنه؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق، وهم العبيد، يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم، لا غير، وفي قوله عز من قائل: ﴿الله خالق كل شيء﴾ إلقاء لأنواء المشركين الأولين، ثم لأنواء التابعة لهم في هذه الضلالة، كالتقيرية؛ فإن الله تعالى بت هذه البتة، أن كل شيء يصدق عليه، أنه مخلوق جوهرًا كان أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك، إلا عند كل أئيم أقاله، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصير مستكبراً، كان لم يسمعا، كان في آنتيه وقرأ، فبشره بعذاب اليم، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية، وقرن شفاشقه، والله الموفق.

واجفل، وفي قراءة رؤية بن العجاج: جفلاً، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقرأة رؤية لأنه كان ياكل الفار. وقرئ: يوقدون بالياء أي: يوقد الناس.

لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعَهُ لَأَفْتَدُوا بِوَدِّ أَوْلِيَّكَ لَمَّا سَأَوْهُ لِيَسَابَ وَمَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَيَسَّ لَهُمَا ۗ ﴿١٧﴾

﴿للذين استجابوا﴾ اللام متعلقة بيضرب أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا للكافرين الذين لم يستجيبوا أي: هما مثلاً للفريقين و﴿الحسنى﴾ صفة لمصدر استجابوا أي: استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله: ﴿لو أن لهم﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين، وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (2) وما بعده كلام مستأنف، والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا، والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه و﴿سوء الحساب﴾ المناقشة فيه، وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

۞ اَمَّن يَبْدَأُ الْاَرْضَ وَمَا فِيهَا يُبَدِّلُهَا كَمَا يَبْدَأُ السَّمَاءَ ۗ اِنَّ رَبَّكَ لَمَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله: ﴿أفمن يعلم﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم ﴿إنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَبَسَ اللَّهُ ۗ بَلَىٰ ۗ اِنَّ رَبَّكَ لَمَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ مبتدأ وأولئك لهم عقبي الدار خبره كقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله... أولئك لهم اللعنة﴾ (3) ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب والأول أوجه. وعهد الله ما عقده على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾ (4) ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلُفُونَ سَوَاءً لِيَسَابَ ۗ ﴿٢٠﴾

﴿ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام والقربيات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة

لشركاء يعني: أنهم لم يتخنوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿فتشابهه﴾ عليهم خلق الله وخلقهم حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فتتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخنوا له شركاء عاجزين لا يقدرن على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ﴿وهو للوحد﴾ المتوحد بالربوبية ﴿القهار﴾ لا يغالب وما عداه محبوب ومقهور. هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه الباس الشديد لكفى به، وأن ذلك ما كثر في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه وتبقى آثاره في العيون والبنار والحبوب والثمار التي تنبت به مما ينخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطولة، وشبهه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أنيب.

فإن قلنت: لم نكرت الأوبية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فإن قلنت: فما معنى قوله ﴿يقدرها﴾؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للمطور عليهم غير ضار، ألا ترى إلى قوله: ﴿وإنما ما ينفع الناس﴾؛ لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف.

فإن قلنت: فما فائدة قوله: ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: ﴿يقدرها﴾ لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: ﴿وإنما ما ينفع الناس﴾؛ لأن المعنى: وإنما ما ينفعهم من الماء والفلز فنكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب وهو الحلية والمتاع، وقوله: ﴿ومما يوقنون عليه في النار﴾ ابتغاء حلية أو متاع عبارة جامعة لأنواع الفلز مع إظهار الكبرياء في نكره على وجه التهاون به كما هو هجيري الملوك نحو ما جاء في نكر الأجر: ﴿أوقد لي يا هامان على الطين﴾ (1) ومن لابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبداً رابياً منتخفاً مرتفعاً على وجه السيل ﴿جفأه﴾ يجفؤه السيل أي: يرمي به، وجفأت القدر بزبدتها، واجفأ السيل

(3) سورة الرعد، الآية: 25.

(4) سورة الاعراف، الآية: 172.

(1) سورة القصص، الآية: 38.

(2) سورة الرعد، الآية: 17.

إذا أنبئوا تابوا، وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ﴿عقبى الدار﴾ (3) عاقبة الدنيا وهي الجنة؛ لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها و ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار. وقرئ: فنعم فتح النون والأصل نعم، فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل. وقرئ: يدخلونها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبي عبلة: صلح بضم اللام والفتح أفصح، علم أن الأنساب لا تنفع إذا تجربت من الأعمال الصالحة. وآياتهم جمع أبوي كل واحد منهم فكانه قاتل من آباؤهم وأمهاتهم.

سَلَّمَ عَلَيْكَ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ يَرْفَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفِيدُونَ فِي الآزْمِينَ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَلْفَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿١٥﴾.

﴿سلام عليكم﴾ في موضع الحال؛ لأن المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين.

فإن قلت: بم تعلق قوله ﴿بما صبرتم﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم يعنون: هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتكم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم، والمعنى: لئن تعبتكم في الدنيا لقد استرحتم الساعة كقوله:

بما قدرى فيها أو أنس بدنا

وعن النبي ﷺ: أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» (4) ويجوز أن يتعلق بسلام أي: نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوا به من الاعتراف والقبول ﴿سوء الدار﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار ويجوز أن يراد بالدار جهنم ويسوئها عذابها.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿١٦﴾.

﴿الله يبسط الرزق﴾ أي: الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره نون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم ﴿وفرحوا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر

بسبب الإيمان ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (1) بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعبادة مرضاهم، وشهود جنازتهم، ومنه: مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر وكل ما تعلق منهم بسبب حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض: أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين ﴿ويخشون ربهم﴾ أي: يخشون وعيده كله ﴿ويخافون﴾ خصوصاً ﴿سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكَ آلَسُنَّةِ الَّذِينَ أَتَوْكَ لَمَّ عَقْبَى الدَّارِ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ عَنِ يَدْيُنَا مَنَّ صَلَحٌ مِّنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَاللَّيْكُفَّةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾.

﴿صبروا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف ﴿ابتغاء وجه﴾ الله لا ليقال ما أصبره وأحملة للنوازل وأوقره عند الزلازل، ولا ثلثا يعاب بالجزع وثلثا يشمت به الأعداء كقوله:

وتجلدي للشامتين أربهم

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مرد فيه للفئات كقوله: ما إن جزعت ولا هلع ت ولا يرد بكاي زندا وكل عمل له وجوه يعمل عليها فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً وكان فعلاً كلا فعل ﴿مما رزقاهم﴾ (2) من الحلال؛ لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله ﴿سراً وعلانية﴾ يتناول النوافل لأنها في السر أفضل، والفرائض لوجوب المجاهرة بها نفيًا للتممة ﴿ويدرون بالحسنة السيئة﴾ ويدفعونها، عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم، وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، عن ابن كيسان

(1) سورة الحجرات، الآية: 10.

(2) قال أحمد: الحق إن لا رازق إلا الله، إن الله هو الرازق، نو القوة المتين، كما أنه لا خالق إلا الله، هل من خالق غير الله؟ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله، فاي مقال بعد ذلك يبقى للكفري؟ الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم؛ لأن الغالب الحرام، وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يبدعه، ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية وتردعه، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

(3) قال أحمد: قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة، مثل: ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ و ﴿العاقبة للمتقين﴾ والمراد في جميع تلك: عقبى الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة، والمراد

= عاقبة الخير، أنها هي التي أرادها الله، فهي الأصل، والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة، بل عرضة على خلاف المراد، والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها، إلا بتقيد يفهمها، كقوله: ﴿وعقبى الكافرين على النار﴾ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع، ومشبته ما لم يكن مصادمة لما أنطق الله به السنة حملة الشريعة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق، ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدى إلى حمد العاقبة، مأمور به، والمؤدى إلى سوئها، منهي عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(4) رواه عبد الرزاق في مصنفه 573/3 (الحديث رقم: 6716).

أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿في أمة قد خلت من قبلها أمة﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمة كثيرة فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء لتتلو عليهم ﴿الذي أوحينا إليك﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم النبيين أوحينا إليك ﴿وهم يكفرون﴾ وخال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء وما بهم من نعمة فمنه فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصنق لسائر الكتب عليهم ﴿قل هو ربي﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء ﴿عليه توكلت﴾ في نصرتي عليكم ﴿وإليه متاب﴾ فيثيبنني على مصابرتكم ومجاهدكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ خِمْ بِهِ الْمَوْتُ كُلَّ لَيْلَةٍ لَآتَيْنَ الْقُرْآنَ مَآسِرًا أَوْ بَشَاءً اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَنِينًا وَإِنَّ اللَّهَ لَآتِيهِ الْبُرْهَانُ ﴿٢١﴾

﴿ولو أن قرآنًا سيّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو خيم به الموت كل ليلة لآتين القرآن مأسراً أو بشاءً﴾ أي: لو أن قرآنًا سيّرت به الجبال، عن مقامها وزعزعت عن مضاجعها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً ﴿أو كلم به الموتى﴾ فستمع وتجبب؛ لكان هذا القرآن لكونه غاية في التنكير ونهاية في الإنذار والتخويف كما قال: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرآيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (2) هذا يعضد ما فسرت به قوله: ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ من إرادة تعظيم ما لويحي إلى رسول الله ﷺ من القرآن، وقيل: معناه: ولو أن قرآنًا وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبههم، لما آمنوا به، ولما تندبوا عليه، كقوله: ﴿ولو أنزلنا إليهم الملائكة﴾ (3) الآية، وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تسع لنا فننخذ فيها البساتين والقطائع كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم؟ فقلت بأهون على الله من داود، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام، أو ابعت لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا منهم قصي بن كلاب (4)، فنزلت.

ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاورتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال وما بينهما اعترض وليس ببعيد من السداد، وقيل: قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿بيل لله الأمر جميعاً﴾ على معنيين:

لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرًا يتمتع به كعجالة الركب، وهو: ما يتعجله من تيميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا بَيِّنَاتٍ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَيُحِيطُ بِالْغُيُوبِ ﴿٢٢﴾

فإن قلت: كيف طابق قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ قوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ قلت: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم، وبذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كان آية لم تنزل عليه قط كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكانه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ويهدي إليه من﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿إناب﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في توبة الخير و﴿الذين آمنوا﴾ بدل من إناب ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى نكر الله﴾ (1) وتطمئن بنكر دلائله الدالة على واحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بيّنة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ ﴿٢٣﴾

﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ و﴿طوبى لهم﴾ خبره، ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب على تقدير حذف المضاف أي تطمئن القلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك: أصبت خيرًا وطيبًا، ومحلها النصب أو الرفع كقولك: طيبًا لك وطيب لك وسلامًا لك وسلام لك. والقراءة في قوله: وحسن مأب بالرفع والنصب تلك على محلها، واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمه ما قبلها كموقن وموسر، وقرأ مكوزة الأعرابي: طيبى لهم فكسر الطاء لتسلم الياء كما قيل: بيض ومعيشة.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَّةٍ مِّن دُونِكَ فِي قَبْلِهَا أُمَّةٌ لِّتَلْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٤﴾

﴿كذلك أرسلناك في مثل تلك الإرسال أرسلناك يعني:

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

(2) سورة الحشر، الآية: 21.

(3) سورة الانعام، الآية: 111.

(4) رواه أبو يعلى في المسند 40/2 - 41.

كَيْفَ كَانَ عَنَابٍ (٣٢).

الإملاء: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملئ لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسليية له.

أَتَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَطَّلُونَ مِنَ الْقَوَائِمِ بِالرُّؤْيَيْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ النَّبِيِّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣).

﴿أفمن هو قائم﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني: أفتاه الذي هو قائم رقيب ﴿على كل نفس﴾ صالحة أو طالحة ﴿بما كسبت﴾ يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك، ويجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا، وتمثيلاً أفمن هو بهذه الصفة لم يوحوه ﴿وجعلوا﴾ له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده ﴿شركاء قل سموهم﴾ أي: جعلتم له شركاء، فسموهم له من هم ونبوؤه بأسمائهم ثم قال: ﴿أم تنبؤونه﴾ على أم المنقطعة كقولك للرجل: قل لي من زيد؟ أم هو قل من أن يعرف، ومعناه: بل اتنبؤونه⁽²⁾ بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد: نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قل اتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾⁽³⁾ ﴿أم بظواهر من القول﴾ بل اتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله: ﴿ذلك قولهم بأقوالهم﴾⁽⁴⁾ ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها﴾⁽⁵⁾ وهذا الاحتجاج وأساليبه⁽⁶⁾ العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾⁽⁷⁾ وقرئ: اتنبؤنه بالتخفيف ﴿مكرهم﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وصدوا﴾ قرئ: بالحركات الثلاث، وقرأ ابن أبي إسحاق: وصد بالتنوين ﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخله لعلمه أنه لا يهتدي ﴿فما له من هادٍ﴾ فما له من أحد يقدر على هدايته.

لحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه، والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار ويعضده قوله: ﴿أفلم يبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله﴾ يعني: مشيئة الإلجاء والقسر ﴿لهدي الناس جميعاً﴾ ومعنى أفلم يبين: أفلم يعلم قيل: هي لغة قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل للياس بمعنى: العلم لتضمنه معناه: لأنّ اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى للخوف، والنسيان في معنى الترك؛ لتضمن ذلك. قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ يبسونني ألم تياسوا نبي ابن فارس زهدم ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يتبين، وهو تفسير ﴿أفلم يبين﴾ وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين نفتي الإمام وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمين عليه، لا يغفلون عن جلائله وبقائقه خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية، ويجوز أن يتعلق أن لو يشاء بأمنوا على أولم يقطن عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدي الناس جميعاً ولهداهم ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قارعة﴾ داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريباً﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطير إليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو القيامة، وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة: لأنّ رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواشيهم⁽¹⁾ أو تحل أنت يا محمد قريباً من دراهم بجيشك كما حل بالحبشية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

وَلَقَدْ أَسْتَهْرَجْتُمْ رِمْطِلَ بْنِ قَيْكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ

(1) نكره الزيلعي عند السرايا في تخريجه (الحديث رقم: 191/2 - 195).

(2) قال أحمد: وحقيقة هذا النفي، أنهم ليسوا بشركاء، وإن الله لا يعلمهم كذلك؛ لأنهم ليسوا كذلك، وإن كانت لهم نوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة، لا آفة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو ببيع، لا تكنه بلاغته وبراعته، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان ﴿وجعلوا شركاء﴾ وما هم بشركاء، فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة.

(3) سورة يونس، الآية: 18.

(4) سورة التوبة، الآية: 30.

(5) سورة يوسف، الآية: 40.

(6) قال أحمد: هذه الخاتمة كلمة حق، أراد بها بطلاً؛ لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ، والله أعلم.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 14.

لَمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢٤).

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وهو: ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ولذلك سماه: عذاباً ﴿وما لهم من الله من واق﴾ وما لهم من حافظ من عذابه، أو ما لهم من جهته واق من رحمته.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٢٥)﴾.

﴿مثل الجنة﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه. أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة وقال غيره: الخبر ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد، وقرأ علي رضي الله عنه: أمثال الجنة على الجمع أي: صفاتها ﴿أكلها دائم﴾ كقوله: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ (١) ﴿وظلها﴾ دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِفَرَحٍ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْآخِرَاتِ مَنْ يُكْرِ بِعَضِّ قَلْبٍ إِنَّمَا أُتِرْتُ أَنْ أَبْعِدَ اللَّهُ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَوَابٍ (٢٦).

﴿والذين آتيناهم للكتاب﴾ يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام، وكعب، وأصحابهما، ومن أسلم من النصراني، وهم: ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وأثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن هؤلاء ﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ يعني: ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيد، والعاقب أسقفي بنجران وأشياعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقباصيص، وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام، ونعت رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما حرّفوه وببلوه من الشرائع.

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ بما قبله؟ قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله

ولا نشرك به شيئاً﴾ (٢) وقرأ نافع في رواية أبي خليل: ولا أشرك بالرفع على الاستئناف، كأنه قال: وأنا لا أشرك به، ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى أمرت أن أعبد الله غير مشرك به ﴿إليه ادعوا﴾ خصوصاً لا ادعوا إلى غيره ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاوٍ وَلَا وَاقٍ (٢٧).

﴿وذلك أنزلناه﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿حكما عربياً﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال.

كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوله الله عنها، فقيل له: لأن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة خللك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتبويض والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحنة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَمَلْنَا لَهُمْ أَنْوَابًا وَمُزِينَةً وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ يَأْتِيَ بِطَائِفَةٍ إِلَّا يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ كِتَابٌ (٢٨).

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ (٣) وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فقيل: كان الرسل قبله بشراً مثله نوي أنواج ونزية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات براهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلعل وقت حكم يكتب على العباد أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم.

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٢٩).

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت بئله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظه ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ﴿ويثبت﴾ غيره، وقيل: يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ويثبت إيمانهم وطاعتهم، وقيل: يمحو بعض الخلائق ويثبت من الأناسي وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أصل كل كتاب، وهو: اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه. وقرئ: ويثبت.

(3) سورة الفرقان، الآية: 7.

(1) سورة الواقعة، الآية: 33.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

وَأَن مَّا نُرِيكَ بَمَضٍ أَلَرِي نِيدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ وَإِنَّا عَلَيْكَ الْخَبِيرُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١١﴾

﴿وإن ما نرينك﴾ وكيفما دارت الحال أرينك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْصُهَا مِن أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْجَبَ لِحُكْمِهِ. وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾

﴿اولم يروا أنا نأتي الأرض﴾ أرض الكفر ﴿تنقصها من أطرافها﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصر والغلبة، ونحوه: ﴿أفلا يرون لنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أقهم الغالبون﴾⁽¹⁾ ﴿سنزيم آياتنا في الآفاق﴾⁽²⁾ والمعنى عليك بالبلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيك ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها، ثم طيب نفسه ونفس عنها بما نكر من طلوع تباشير الظفر، وقرئ: ننقصها بالتشديد ﴿لا معقب لحكمه﴾ لا راد لحكمه، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يعقبه أي: يقفيه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفي غريمه بالاعتضاء والطلب قال لبيد:

طلب المعقب حقه المظلوم

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإبهار والانتكاس ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

فإن قلت: ما محل قوله: ﴿لا معقب لحكمه﴾؟ قلت: هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد: حاسراً.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَئِمَّا مَكَرُ جَمِيعًا يَمْزُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَبَّحُوا الْكُفْرَ لِمَن عَنَى الدَّارِ ﴿١٢﴾

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ وصفهم بالمكر ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال: ﴿قلله المكر جميعاً﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة مما يراد بهم، وقرئ: الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر أي: أهله، والمراد بالكافر: الجنس، وقرأ جناح بن حبيش: وسيعلم الكافر من أعلمه أي: سيخبر.

وَيَعْرِفُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مَرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عَدُوٌّ عِلْمِ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

﴿كفى بالله شهيداً﴾ لما أظهر من الأدلة على رسالتي ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾⁽³⁾ والذي عنده علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز الفاتت لقوى البشر، وقيل⁽⁴⁾: ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، وقيل⁽⁵⁾: هو الله عز وعلا، والكتاب: اللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارة أي: من لدنه علم الكتاب؛ لأن علم من علمه من فضله ولطفه، وقرئ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارة، وعلم على البناء للمفعول، وقرئ: وبمن عنده علم الكتاب.

فإن قلت: بم ارتفع ﴿علم الكتاب﴾؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقتر في الظرف فيكون فاعلاً؛ لأن الظرف إذا وقع صلة أو غل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول فعمل عمل الفعل، كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقر في الدار أخوه، وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله»⁽⁶⁾.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 44. =
(2) سورة فصلت، الآية: 53.
(3) قال أحمد: فيكون المراد حينئذ: جنس المؤمنين.
(4) قال أحمد: فالكتاب على التأويل الأول مراد به: القرآن خاصة، وعلى الثاني: جنس الكتب المتقدمة عليه. (قال محمود: وقيل: هو الله عز وجل، والكتاب، واللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، والذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ، إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ، ومن عنده علم الكتاب على من الجارة). =

(5) قال أحمد: وإنما قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله بالذي يستحق العبادة، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً، وإنما أخذ الحصر حيث يقول: ومن لا يعلم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم، والله الموفق للصواب.

(6) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن مريويه، (الزليعي 2/196).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ كُلِّ نَفْسٍ لَهَا رِزْقٌ مِمَّا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْ حَلْهَلًا مِمَّا كَرِهَتْ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُجْرَبُونَ ﴿١﴾

﴿كتاب﴾ هو كتاب يعني: السورة. وقرئ: ليخرج الناس. والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى ﴿بإذن ربهم﴾ بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو: تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله: إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾^(١) ويجوز أن يكون على وجه الاستثناء كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل إلى صراط العزيز الحميد.

اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ إِنَّهُ أَلَمٌ لَدُنِّي ۚ عَلِيمٌ ﴿٢﴾

وقوله: ﴿الله﴾ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا، وقرئ: بالرفع على هو الله. الويل نقيض الوال وهو: النجاة، اسم معنى كالهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال: ويلاً له فينصب نصب المصادر ثم برفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال: ويل له كقوله: سلام عليك، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿من عذاب شديد بالويل؟ قلت: لأن المعنى: أنهم يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون: يا ويلاه كقوله: ﴿دعوا هنالك شبوراً﴾^(٢).

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ ۚ يُصَدِّقُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَابًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي صُلْحٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

﴿الذين يستحبون﴾ مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على النّم، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون، أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو:

استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصنون بضم الياء وكسر الصاد يقال: صده عن كذا وأصده قال:

أناس أصنوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخلة على صد صدوداً لتنقله من غير التعدي إلى التعدي، وأما صده فموضوع على التعدي كمنعه وليست بفصيحة كلوقفه؛ لأن الفصحاء استغنوا بصدده وقفه عن تكلف التعدي بالهمزة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ ويطلبون لسبيل الله زيفاً واعوجاجاً وأن يلبوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق ووقفوا بونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضلال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ يُزَيِّنُ لَهُمْ فَيُضِلُّ ۚ وَأَلَّهُ مَن يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾^(٣) أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾^(٤).

فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً. قلت: بل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً^(٥) إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً. قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نياحة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد

(1) سورة الأعراف، الآية: 75.

(2) سورة الفرقان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: جميع الفصل مرضى، لكن في هذه الخاتمة نظر؛ لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة، يتقاصر عن إعجازه لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى أنه لو ينزل بجميع اللغات، لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلهاماً إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يقيد =

(4) سورة فصلت، الآية: 44.

(5) سورة الأعراف، الآية: 158.

= العلم بصق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم، لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، وهذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه، على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو افاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الشكر والصبر من سجاياهم تنبيهاً عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْهَاكُمْ مِنْ عَمَلِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَقُولُوا لَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَرَبِّنَا وَأْتَاكُمُ الْغُلَامَ إِذْ أَنْهَاكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا دِينَكُمْ وَأَخَذَ مِنْكُمْ الْبَيْعَةَ وَأَخْرَجَكُمْ مِنَ الْبَلَدِ فَاسْتَغِيثَ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ الْبَيْعَةِ يَا لَكُمْ مِنْ ظُلْمٍ إِذْ تَقُولُونَ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِفْكًا ﴿١٦﴾

﴿إذ أنجاهم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعليكم، قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى: الإنعام، أو غير صلة إذا أرئت بالنعمة العظيمة، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: انكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين: أنك إذا قلت نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول: فائضة أو نحوها وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون إذ بدلاً من نعمة الله أي: انكروا وقت إنجائكم وهو من بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة ﴿ويذبون﴾⁽²⁾ وفي الاعراف ﴿يقتلون﴾⁽³⁾ وهما ﴿ويذبون﴾ مع الواو فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبيانياً له، وحيث أضيف جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاءً من الله، ووجه آخر: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاءً بالنعمة والمحنة جميعاً قال تعالى: ﴿ونيلوكم بالشر والخير فتنة﴾⁽⁴⁾ وقال زهير:

فابلاهما خير البلاء الذي يبلى

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

﴿وإذ تأذن ربكم﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نعمة الله عليكم﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه: انكروا نعمة الله عليكم، وانكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أنن ربكم، ونظير تأذن وأذن، تواعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعال كأنه قيل: وإذ أنن ربكم إيداناً بليغاً تنتقى عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال ﴿لئن شكرتم﴾ أو أجرى تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: وإذ قال ربكم

المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكذ القرائح، فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوهم عليهم معجزاً، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى بلسان قومه: بلغة قومه، وقرئ: بلسن قومه، واللسن واللسان كالريش والرياش بمعنى: اللغة، وقرئ: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة وهو: جمع لسان كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أداها كل نبي بلغة قومه وليس بصحيح؛ لأن قوله: لبيّن لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية لبيّن للعرب وهذا معنى فاسد ﴿فيضل الله من يشاء﴾ كقوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾⁽¹⁾ لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخليّة ومنع الألفاظ، وبالهداية التوفيق واللفظ، فكان ذلك كتابة عن الكفر والإيمان ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الحكيم﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يطف إلا بأهل اللطف.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ مَكَّةَ فَقَالُوا لَنْ نَذَرَهُمْ بِاللَّيْلِ وَأَنْتَ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْحَمِيمِ ﴿٥﴾

﴿أن أخرج﴾ بمعنى أي: أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، واللليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل قولهم: أوعز إليه بأن أفعال، فادخلوا عليها حرف الجر، وكذلك التقدير بأن أخرج قومك ﴿ونكرهم بأيام الله﴾ وأنذرهم بوقائعهم التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نعمائهم وبلاؤهم، فأما نعمائهم: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقلق لهم البحر، وأما بلاؤهم، فإهلاك القرون ﴿لكل صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله، ويشكر

(3) سورة الاعراف، الآية: 141.

(4) سورة الانبياء، الآية: 35.

(1) سورة التباين، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 49.

رَبُّوَا نَعْمَ الْاَنْبِيَاءِ الَّتِي هِيَ اَجَلُ النِّعَمِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَنِصَائِحِهِمْ وَمَا اَوْحِيَ اِلَيْهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْاَيَاتِ فِي اَقْوَاهِمُ؛ لَانَّهُمْ اِذَا كَذَّبُوْهَا وَلَمْ يَقْبَلُوْهَا فَكَانَتْ رَدُّوْهَا فِي اَقْوَاهِمُ وَرَجَعُوْهَا اِلَى حَيْثُ جَاءَتْ مِنْهُ عَلَى طَرِيْقِ الْمَثَلِ ﴿مِمَّا تَدْعُوْنَا اِلَيْهِ﴾ مِنَ الْاِيْمَانِ بِاللّٰهِ وَقَرَى: تَدْعُوْنَا بِاِدْغَامِ النَّوْنِ ﴿مَرِيْبٍ﴾ مَوْجِدٍ فِي الرَّبِّيَّةِ، اَوْ نَوِي رَبِّيَّةٍ مِنْ اَرَابِهِ وَاَرَابُ الرَّجُلِ هِيَ: قَلْقُ النَّفْسِ وَاِنْ لَا تَطْمَئِنُّ اِلَى الْاَمْرِ.

﴿فَاَتَتْ رُسُلَهُمْ اَتَى اللّٰهُ سَكَّ فَاَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ يَدْعُوْكُمْ يَنْتَعِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُوْخِّرُكُمْ اِلَى اَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوْا اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا مُرُّوْنَا اَنْ تَصُدُّوْنَا عَمَّا كَانَتْ يَدْعُوْنَا اَبَاؤُنَا فَاَنْتُمْ اِسْطَلْتُمْ مِثْرَ﴾ (١).

﴿اَفِي اللّٰهِ شَكٌّ﴾ اَخْلَعَتْ هِمَّةَ الْاِنْكَارِ عَلَى الظَّرْفِ؛ لِاَنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ فِي الشُّكِّ اِنْمَاءٌ هُوَ فِي الْمَشْكُوْكَ فِيهِ، وَاِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ الشُّكَّ لظَهْوَرِ الْاَدْلَةِ وَشَهَادَتِهَا عَلَيْهِ ﴿يَدْعُوْكُمْ لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ﴾ اَي: يَدْعُوْكُمْ اِلَى الْاِيْمَانِ لِيُغْفَرَ لَكُمْ، اَوْ يَدْعُوْكُمْ لِاجْلِ الْمَغْفِرَةِ كَقَوْلِهِ: دَعْوَتُهُ لِيُنْصِرَنِي، وَدَعْوَتُهُ لِيَأْكُلَ مَعِي، وَقَالَ:

دَعْوَتٌ لِمَا نَابَنِي مَسُوْرًا فَلَئِبِي فَلَئِبِي يَدِي مَسُوْرًا
فَاِنْ قُلْتُ: مَا مَعْنَى التَّبَعِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ ذُنُوْبِكُمْ﴾؟
قُلْتُ: مَا عَلِمْتَهُ جَاءَ هَكَذَا اِلَّا فِي خُطَابِ الْكَافِرِيْنَ كَقَوْلِهِ:
﴿وَاتَّقُوْهُ وَاَطِيعُوْهُ﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ (٣) ﴿يَا قَوْمِنَا اٰجِبُوْا دَاعِيَ اللّٰهِ وَاٰمَنُوْا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ﴾ (٤) وَقَالَ فِي خُطَابِ الْمُؤْمِنِيْنَ: ﴿هَلْ اَلَيْكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تَنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ﴾ (٥) اِلَى اَنْ قَالَ: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوْبِكُمْ﴾ (٦) وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْفُقُ عَلَيْهِ الْاِسْتِقْرَاءُ، وَكَانَ ذَلِكَ لِلتَّفَرُّقَةِ بَيْنِ الْخُطَابِيْنَ وَثَلَاثًا يَسُوْى بَيْنَ الْفَرِيْقِيْنَ فِي الْمِعَادِ، وَقِيلَ: اُرِيدُ اَنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللّٰهِ بِخِلَافِ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الْمِظَالِمِ وَنَحْوِهَا: ﴿وَيُوْخِّرُكُمْ اِلَى اَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ اِلَى وَقْتٍ قَدْ سَمَاهُ اللّٰهُ وَبَيْنَ مِقْدَارِهِ يَبْلُغُكُمْوَهُ اِنْ اٰمَنْتُمْ وَاِلَّا عَاجَلَكُمْ بِالْهَلَاكِ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿اِنْ اَنْتُمْ﴾ (٧) مَا اَنْتُمْ ﴿اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لَا فَضْلَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ، وَلَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْنَا، فَلَمْ تَخْصُوْنَ بِالنَّبُوَّةِ نَوْنَنَا، وَلَوْ اَرْسَلَ اللّٰهُ اِلَى الْبَشَرِ رَسُلًا لَجَعَلَهُمْ مِنْ جِنْسِ اَفْضَلِ مِنْهُمْ وَهَمَّ الْمَلَائِكَةُ ﴿بِاسْلُطَانِ مَبِيْنٍ﴾ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رَسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ،

لِثَنِّ شُكْرَتِكُمْ اَي: لِثَنِّ شُكْرَتِكُمْ يَا بَنِي اِسْرَائِيْلَ مَا خَوْلْتُمْ مِنْ نِعْمَةِ الْاِنْجَاءِ وَغَيْرِهَا مِنَ النِّعَمِ بِالْاِيْمَانِ الْخَالِصِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿لَا زَيْدِيْنَكُمْ﴾ نِعْمَةٌ اِلَى نِعْمَةٍ، وَلَا ضَاعَفْنَ لَكُمْ مَا اَتَيْتُمْكُمْ ﴿وَلَنْ نُّكْفِرَنَّكُمْ﴾ وَغَمَطْتُمْ مَا اَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿اِنْ اَعَذَابِي لَشَدِيْدٌ﴾ لِمَنْ كَفَرَ نِعْمَتِي.

وَقَالَ مُوْسَى اِنْ تَكْفُرُوْا اَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ جَمِيْعًا فَاِنَّكَ اللّٰهُ لَتَنِيْءُ جِيْدٌ (٨).

﴿وَقَالَ مُوْسَى اِنْ تَكْفُرُوْا اَنْتُمْ﴾ يَا بَنِي اِسْرَائِيْلَ وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ فَاِنَّمَا ضَرَرْتُمْ اَنْفُسَكُمْ وَحَرَمْتُمْوَا الْخَيْرَ الَّذِي لَا بَدَّ لَكُمْ مِنْهُ وَاَنْتُمْ اِلَيْهِ مَحَاوِيْجٌ وَاللّٰهُ غَنِيٌّ عَنِ شُكْرِكُمْ ﴿حَمِيْدٌ﴾ مُسْتَوْجِبٌ لِلْحَمْدِ بِكَثْرَةِ اَنْعَمِهِ وَاِيَابِيهِ وَلَنْ لَمْ يَحْمَدِ الْحَامِدُوْنَ.

اَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَاُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَاِكَادُ وَتَمُوْدُ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَنِي اِسْرَائِيْلَ لَا يَمْلِكُوْنَ اِلَّا اللّٰهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوْا اَيْدِيَهُمْ فِيْ اَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوْا اِنَّا كَفَرْنَا بِمَا اُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَاِنَّا لَنِيْ سُلْطٰنٌ مِّمَّا تَدْعُوْنَا اِلَيْهِ مُرِيْبٍ (٩).

﴿وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ﴾ جُمْلَةٌ مِنْ مَبْتَدَاٍ وَخَبِرٍ وَقَعَتْ اِعْتِرَاضًا، اَوْ عَطْفٍ لِلَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَلَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ اِعْتِرَاضًا، وَالْمَعْنَى: اَنْهُمْ مِنَ الْكَثْرَةِ بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ عَدَدُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: بَيْنَ عَنَّاوَنِ وَاِسْمَعِيْلَ ثَلَاثُوْنَ اَبًا لَا يَعْرِفُوْنَ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ اِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْاَيَةَ قَالَ: كَذَبَ النَّسَابُوْنَ يَعْنِي: اَنْهُمْ يَدْعُوْنَ عِلْمَ الْاَنْسَابِ، وَقَدْ نَفَى اللّٰهُ عِلْمَهَا عَنِ الْعِبَادِ ﴿فَرَدُّوْا اَيْدِيَهُمْ فِيْ اَفْوَاهِهِمْ﴾ (١) فَعَضُّوْهَا غِيْظًا وَضَجْرًا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ كَقَوْلِهِ: ﴿عَضُّوْا عَلَيْكُمْ الْاَنْاْمِلَ مِنَ الْغِيْظِ﴾ (٢) اَوْ ضَحْكًا وَاِسْتِهْزَاءً كَمَنْ غَلِبَهُ الضَّحْكُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، اَوْ اَشَارُوْا بِاَيْدِيهِمْ اِلَى اَسْنَنَتِهِمْ وَمَا نَطَقَتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿اِنَّا كَفَرْنَا بِمَا اُرْسَلْتُمْ بِهِ﴾ اَي: هَذَا جَوَابِنَا لَكُمْ لَيْسَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ اِقْتِنَاطًا لَهُمْ مِنَ التَّصْدِيْقِ، اِلَّا تَرَى اِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَدُّوْا اَيْدِيَهُمْ فِيْ اَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوْا اِنَّا كَفَرْنَا بِمَا اُرْسَلْتُمْ بِهِ﴾ وَهَذَا قَوْلٌ قَوِيٌّ، اَوْ وَضَعُوْهَا عَلَى اَفْوَاهِهِمْ يَقُوْلُوْنَ لِالْاَنْبِيَاءِ: اَطْبِقُوْا اَفْوَاهَكُمْ وَاِسْكُتُوْا، اَوْ رَدُّوْهَا فِيْ اَفْوَاهِ الْاَنْبِيَاءِ يَشِيْرُوْنَ لَهُمْ اِلَى السُّكُوْتِ، اَوْ وَضَعُوْهَا عَلَى اَفْوَاهِهِمْ يَسْكُتُوْنَهُمْ وَلَا يَذَرُوْنَهُمْ يَتَكَلَّمُوْنَ، وَقِيلَ: الْاَيْدِيُ جَمْعٌ يَدٌ وَهِيَ: النِّعْمَةُ بِمَعْنَى: الْاِيَادِيُ اَي:

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.

(3) سورة نوح، الآيات: 3 و4.

(4) سورة الاحقاف، الآية: 31.

(5) سورة الصف، الآية: 10.

(6) سورة الصف، الآية: 12.

(7) قال احمد: ومن تهالكه على الانتصار، لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون، كمعتقد القرية، في تفضيل الملك على الرسول؛ لأنه يدعي ذلك أمراً مركزاً في الطباع، معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(1) قال احمد: واقوى هذه الوجوه، هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك؛ لأن إقناتهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً، بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسداهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب، وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد، وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ، ولا لتصميم الرسل كما سبته لإقناتهم من القبول، الا ترى أنهم لما اعانوا للرسل القول، ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجاملة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله اعلم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتُوبَكُمْ فِي يَأْتِيَنَّ قَارُونُ بِسُوءٍ لَكُمْ لَوْلَا لَكِنَّا أَتَيْنَاكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ فَتُؤَكِّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَقَدْ رَئَوْا عَذَابَ اللَّهِ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ فَتُؤَكِّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

والمراد بالارض ارض الظالمين وديارهم ونحوه: **«وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها»** (2) **«وأورثكم ارضهم وديارهم»** (3) وعن النبي ﷺ: «من أذى جاره ورثه الله داره» (4) ولقد عاينت هذا في مدة قربية كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي انا منها ويؤذني فيهِ، فمات ذلك العظيم وملكتي الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون، فنكرت قول رسول الله ﷺ وحدثتهم به وسجدنا شكرًا لله **«ذلك»** إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وأسكان المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر حق **«لمن خاف مقامي»** موقفي هو: موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله والمعنى: أن ذلك حق للمؤمنين كقوله: **«والعاقبة للمتقين»** (5).

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيبٍ ﴿١٣﴾

«واستفتحوا» واستنصروا على أعدائهم: **«إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح»** (6) أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي: الحكومة كقوله تعالى: **«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق»** (7) وهو معطوف على أوحى إليهم، وقرئ: **«واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على لنهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكن، وقال لهم: استفتحوا»** **«وخاب كل جبار عنيد»** معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم على الحق والرسول على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه.

بَيْنَ رِجَالِهِمْ جَهَنَّمَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ أَلْسِنَةٌ حَمِيمَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ مِمَّنْ يَدْعُونَكَ عِدَابُ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

«من ورائه» من بين يديه قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يسكون وراءه فرج قريب وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم فكانها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف.

وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَ عَلَى مَنْ يُشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ فَتُؤَكِّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَقَدْ رَئَوْا عَذَابَ اللَّهِ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ فَتُؤَكِّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

«إن نحن إلا بشر مثلكم» تسليم لقولهم وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فاما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم ينكروا فضلهم تواضعًا منهم واقتصرُوا على قولهم **«ولكن الله يمين على من يشاء من عباده»** بالنبوة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها لخصائص فيهم قد استاثروا بها على أبناء جنسهم **«إلا بإذن الله»** أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله **«وعلى الله فليتوكل المؤمنون»** أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصد أولياء وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معانديتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم، الا ترى إلى قوله: **«وما لنا أن لا نتوكل على الله»** ومعناه: وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه **«وقد هदानا»** وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو: التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فَإِنْ قُلْتَ⁽¹⁾: كَيْفَ كَرَّرَ الْأَمْرَ بِالتَّوَكُّلِ؟ قُلْتُ: الْأَوَّلُ لِاسْتِحْدَاثِ التَّوَكُّلِ، وَقَوْلُهُ: **«فليتوكل المتوكلون»** معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى انفسهم على ما تقدم **«لنخرجنكم... أو لتعودن»** ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالقين على ذلك.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ حَتَّى يَعُودُوا فِيهَا؟ قُلْتُ: مَعَادُ اللَّهِ، وَلَكِنْ الْعُودُ بِمَعْنَى: الصَّيرُورَةُ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَثْرَةُ فَاشِيَةِ، لَا تَكَادُ تَسْمَعُهُمْ يَسْتَعْمَلُونَ صَارَ وَلَكِنْ عَادَ، مَا عَدْتَ أَرَاهُ، عَادَ لَا يَكْمُنِي، مَا عَادَ لِفُلَانٍ مَالٌ، أَوْ خَاطَبُوا بِهِ كُلَّ رَسُولٍ وَمَنْ أَمَّنَ بِهِ فَغَلِبُوا فِي الْخُطَابِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ **«لنهلكن الظالمين»** حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حنيفة: **«ليهلكن»** وليسكننكم بالياء اعتبارًا لأوحى وأن لفظه لفظ الغيبة ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولاخرجن.

(1) قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي من قتل قتيلًا، فله سلبه، والله أعلم.

(2) سورة الاعراف، الآية: 137.

(3) سورة الاحزاب، الآية: 27.

(4) نكوه العجلوني في «كشف الخفاء» (303/2).

(5) سورة الاعراف، الآية: 128.

(6) سورة الانفال، الآية: 19.

(7) سورة الاعراف، الآية: 89.

الملهوفين، والإجارة وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برمد طيرته الريح العاصف ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿على شيء﴾ أي: لا يرون له أثرًا من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْيَقِينُ إِنْ يَكُنْ يَدْرِبِكُمْ
وَرَأَيْتَ بِحَبْلِ جَبْرٍ ﴿١٧﴾

﴿بالحق﴾⁽²⁾ بالحكمة والغرض الصحيح والامر العظيم ولم يخلقها عبثًا ولا شهوة. وقرئ: خالق السموات والارض ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبِكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقًا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلامًا باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدم يقدر على الشيء وجنس ضده.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾⁽³⁾ بمتعذر بل هو هين عليه يسير؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف تكون من غير توقف كتحرريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض بونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

وَيَبْرُؤُوا لِلَّهِ حَرِيمًا فَقَالَ السُّمَعِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
بِمَا فَعَلْتُمْ مُمْتُونِينَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّئْنَا اللَّهَ
مَدِينَتَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴿١٧﴾

﴿ويبرؤوا لله﴾ ويبرزون يوم القيامة، وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عز وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونظائر له، ومعنى: بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له، أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرؤوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلت: علام عطف ﴿ويسقى﴾؟ قلت: على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها فخصص بالنكر مع قوله: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى ﴿من ماء صديد﴾؟ قلت: صديد عطف بيان لماء قال: ويسقى من ماء فابهمه إيهامًا ثم بينه بقوله: صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يتجرعه﴾ يتكلف جرعه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ دخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإسافة كقوله: ﴿لم يكد يراها﴾⁽¹⁾ أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ كان أسباب الموت وأصنافه كلها قد تالبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تظليعًا لما يصيبه من الآلام وقيل: من كل مكان من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة ﴿ومن ورائه﴾ ومن بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشد مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا، فنكر سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأمهم.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي
يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ السَّلْطَلُ
الْبَيْدُ ﴿١٧﴾

وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سببويه تقديره: وفيما يقص عليك ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أعمالهم كرماد﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبرًا للمبتدأ أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبنول، أو يكون أعمالهم بدلًا من مثل الذين كفروا على تقدير مثل أعمالهم وكرماد الخبر. وقرئ: ﴿الرياح في يوم عاصف﴾ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح، أو الرياح كقولك: يوم ماطر، وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها، وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة

(1) سورة النور، الآية: 40.

(2) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي، وقد تقدمت أمثاله.

(3) قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه =

= عن سمع المحققين العارفين بأداب الله تعالى، وبما يجب في حق جلاله وقد تقدم ما فيه كفاية.

(4) سورة الاعراف، الآية: 44.

النجاة كما سلكننا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا نجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية ونحوه: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ (6) وروي: أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون سواء علينا.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله: ﴿سواء علينا﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصاله به من حيث أن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه فقالوا: سواء علينا اجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من تلك أطم، أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنيانا عنكم وأنجيناكم أتبعوه الإقنات من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أي: منجي ومهرب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً كانه قيل: قالوا جميعاً: سواء علينا كقوله: ﴿نلك ليعلم أنني لم أخنه﴾ (7)، والمحيص يكون مصدرًا: كالمغيب، والشيب، ومكانًا كالمبيت، والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض بمعنى واحد.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ لَكُمْ وَوَعَدَكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِلَى كَعْبَرْتِ يَمَا أَتْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلِ إِنْ الْأَطْلَاقِيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿لما قضى الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه وهو الحساب، وتصادر الفريقين وبخول أحدهما الجنة وبخول الآخر النار، وروي: (8) أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في

فإن قُلْتُ: لم كتب ﴿الضعفاء﴾ بواو قبل الهمزة؟ قُلْتُ: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿علموا بني إسرائيل﴾ (1) والضعفاء: الأتباع والعوام. والذين استكبروا ساداتهم وكبرواهم الذين استتبعوهم واستغروهم وصنّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم ﴿تبعاً﴾ تابعين جمع تابع على تبع كقولهم: خادم وخدم، وغائب وغيب، أو نوي تبع، والتبع الأتباع يقال: تبعه تبعاً.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين من في ﴿عذاب الله﴾ وبينه في ﴿من شيء﴾؟ قُلْتُ: الأولى: للتبيين والثانية: للتبويض كانه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبويض معاً بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله أي: بعض بعض عذاب الله.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ قُلْتُ: (2) الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستغوانهم وقولهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ من باب التبيكيت: لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرين على الإغناء عنهم فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم، بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلّوهم إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آبأنا﴾ (3) ﴿لو شاء الله ما عبدنا من لونه من شيء﴾ (4) يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يوم يبعثهم الله جميعات فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾ (5) وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلفظ بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان، وقيل معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي: لأغنيانا عنكم وسلكننا بكم طريق

(1) سورة الاعراف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتعلة على

(3) سورة الانعام، الآية: 148.

(4) سورة النحل، الآية: 35.

(5) سورة المجادلة، الآية: 18.

(6) سورة الطور، الآية: 16.

(7) سورة يوسف، الآية: 52.

(8) قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى، على إبطال الانتحال؛ لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكتب حينئذ غير ممتنع، ولا متعذر، بقوله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه، وإن كان قاتله الشيطان، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه، وأية سلك، ونحن معاصر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة، نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير رأه له، ولا مخطيء فيه للشيطان، كما اقتضت كلام الكفار في الآية الأولى كذلك، ونحن نعتقد أن العلامة إنما تتوجه على المكلف، وأما الله تعالى، فمقتس عن ذلك، وحجته البالغة، وقضاؤه الحق، وذلك أننا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبيد، من الاختيار الذي يجده من نفسه عن تجانب طرفي الأفعال الإرادية =

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتعلة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتوا، وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق، حين حقت لهم الحقائق، وانكشف الغطاء، والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة، إذا حق عليهم العذاب، واعترفوا بالحق، وقالوا القول المنكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك، شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة، كما خطاهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار، فإن الله تعالى يشاءها في الدنيا، لكنها لم تكن، وأنه له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المنكور، وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة إذ لا ينجع كما ورد كلام الشيطان عقيب ذلك، حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه الندم إيمانه، فيقول: ﴿إن الله وعكم وعد الحق ووعدكم فأخلفنكم﴾ الخ. وإنما سبق تحذيراً وإنذاراً إتقافاً، والله =

بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ﴾⁽²⁾ ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾⁽³⁾ وقيل: من قبل يتعلق بكفرت وما موصولة أي: كفرت من قبل حين أتيت السجود لأنم بالذي أشركتموني وهو: الله عز وجل، تقول: شركت زيداً فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركني فلان أي: جعلني له شريكاً ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخركن لنا، ومعنى: إشراكهم الشيطان بالله. طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس وقوله: ﴿أَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِمْ﴾⁽⁴⁾.

وَأَدْخَلَ الْأَرْبَعَةَ مَأْمُورًا وَعَمِلُوا الْمَلَائِكَةَ حَتَّىٰ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَلِيلِينَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ حَتَّىٰ تَمُوتَ فِيهَا سَائِمٌ⁽⁵⁾.

وقرأ⁽⁵⁾ الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل الذين آمنوا: على فعل المتكلم بمعنى: وأدخل أنا، وهذا دليل على أنه من قول الله لا من قول إبليس ﴿يَأْذِنُ بِهِمْ﴾ متعلق بأدخل أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتزم قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم: بما بعده أي ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَلَائِكَةً طَيِّبَةً كَشَجَرٍ طَيِّبٍ أَسْلَمَهَا نَائِبٌ وَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ تَوَقَّ أَكْلَهَا كُلَّ يَوْمٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁽⁶⁾.

قرئ: ألم تر ساكنة الرء كما قرئ: من يتوق، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضع و ﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر أي: جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة

الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ وهو: البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعدتم﴾ خلاف ذلك ﴿فأخلفتمكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فأفسركم على الكفر والمعاصي والجنح إليها ﴿إلا أن دعوتكم﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني وليس الدعاء من جنس السلطان ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؛ قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام إلا ترى إلى قوله: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتمكم فأخلفتمكم﴾ كيف أتى فيه بالحق والصق، وفي قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾⁽¹⁾ ﴿وما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ الإغاثة. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قال لها هل لك ياتاني قالت له مانت بالمرضي وكأنته قدر ياء الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ولكنه غير صحيح؛ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكانها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحركت بالكسر على الأصل؛ قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في ﴿بما أشركتموني﴾ مصدرية و﴿من قبل﴾ متعلقة بأشركتموني يعني: كفرت اليوم

كانت له في تلك منبوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض﴾ ولم يقل: تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر أدخل بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإن، يشعر بإضافة النحول إلى الوساطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

ضرورة، وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلينا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذا بين عقيدة السنة، وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

- (1) سورة الحجر، الآية: 42.
- (2) سورة فاطر، الآية: 14.
- (3) سورة المعنحة، الآية: 4.
- (4) سورة يونس، الآية: 22.
- (5) قال أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والجاه إلى تعليقه بما بعده، وقد

قرار أي: استقرار، يقال: قر الشيء قراراً كقولك: ثبت ثباتاً، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه من قولهم الباطل لجلج، وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

يُنِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الضَّالِّينَ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأن إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأعداء، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثوا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل معناه: الثابت عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي»⁽²⁾، فذلك قوله: **يُنِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** **ويضل الله الضالين** الذين لم يتمسكوا بحجة دينهم، وإنما اقتصرنا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: **«إنا وجدنا آباءنا على أمة»**⁽³⁾ وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل **ويفعل الله ما يشاء** أي: ما توجهه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخية بينهم وبين شانهم عند زلهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَنَّهُمْ اللَّهُ كَثْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبِرِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَهَا الْقَرَارُ ﴿١٩﴾ ﴾

بدلوا نعمة الله أي: شكر نعمة الله **كفراً**؛ لأن شكرها الذي يجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر وبلبوه تبديلاً، ونحوه: **«وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»**⁽⁴⁾ أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة

طيبة وهو: تفسير لقوله: ضرب الله مثلاً كقولك: شرف الأمير زيداً كسائه حلة وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب مثلاً وكلمة بضرب أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدا محذوف بمعنى هي: كشجرة طيبة **«أصلها ثابت»** يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها **«وفرعها»** وأعلامها ورأسها **«في السماء»** ويجوز أن يريد وفرعها على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها.

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس اجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة، والتحميدة، والاستغفار والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة، وشجرة التين، والعناب، والزمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيهاً فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة»⁽¹⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة، وقوله: في السماء، معناه: في جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد: ارتفاعه وشموخه.

نؤتي أكلها كل حين تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لأثمارها **«بإذن ربها»** بتيسير خالقها وتكوينه **«لعلهم يتذكرون»** لأن في ضرب الأمثال زيادة إهام وتنكير وتصوير للمعاني.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

كشجرة خبيثة كمثل شجرة خبيثة أي: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل، والكشوث، ونحو ذلك، وقوله: **«اجتثت من فوق الأرض»** في مقابلة قوله: أصلها ثابت، ومعنى اجتثت: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها **«ما لها من**

(2) رواه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في المسالة في القبر وعذاب القبر، وأحمد في مسنده 287/4 - 288.

(3) سورة الزخرف، الآيات: 22 و23.

(4) سورة الواقعة، الآية: 82.

(1) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء... (الحديث رقم: 4698)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: مثل المؤمن مثل النخلة، (الحديث رقم: 7029).

ليقيموا، وليتفقوا ويكون هذا هو المقول. قالوا: وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز.

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟ قُلْتُ: على الحال أي: نوي سر وعلانية بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى: إخفاء المتطوع به من الصلوات والإعلان بالواجب. والخلال المخالة.

فإن قُلْتُ: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف لليوم بأنه ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾؟ قُلْتُ: من قيل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعتلون بدلاً لياخذوا مثله، وفي المكارم ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهدياها أمثالها أو خيرا منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصا كقوله: ﴿وَمَا لَأُحَدِّثُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْرِي * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (3) فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فبعثوا عليه لياخذوا بدله في يوم لا يبيع فيه ولا خلال أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالاة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارم، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: لا يبيع فيه ولا خلال بالرغم.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (31) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (32) وَأَنَّكُمْ بَيْنَ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (33).

﴿الله﴾ مبتدا و﴿الذي خلق﴾ خبره و﴿ومن الثمرات﴾ بيان للرزق أي: أخرج به رزقا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج و﴿ورزقا﴾ حالا من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق ﴿بإمراه﴾ بقوله: كن ﴿دائبين﴾ يدابان في سيرهما وإنارتهما، ودرثهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات و﴿وسخّر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفا لمعاشكم وسباتكم و﴿وأتاكم من كل ما

كفرا، على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبين النعمة موصوفين بالكفر حاصلا لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمة وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقا في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه، هم: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفبتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية ففتحوا حتى حين، وقيل هم: منتصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه ﴿واحلوا قومهم﴾ مما تابعهم على الكفر ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك. وعطف ﴿جهنم﴾ على دار البوار عطف بيان.

وَجَمَلُوا لِيَّ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِي. قُلْ تَتَّبِعُونَ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (34).

قرئ: يضلوا بفتح الياء وضمها.

فإن قُلْتُ: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ قُلْتُ: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد كما كان الإكرام في قولك: جثتك لتكرومني نتيجة المجيء، نخلته اللام وإن لم يكن غرضا، على طريق التشبيه والتقريب ﴿تمتعوا﴾ إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورين به قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرا لونه وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن تمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخليية ونحوه: ﴿قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ (1).

قُلْ لِيَمَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُبَيِّنُوا السَّعْيَةَ وَيُفَقِّهُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّن قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٍ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (35).

المقول محذوف؛ لأن جواب قل يدل عليه وتقديره ﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾ (2) أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا للصلاة وينفقوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى:

= يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم و ﴿قل للمؤمنات﴾ يغضن من أبصارهم الثاني: تكتر مجيئه للموصوفين، بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا: إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز، إلا مدحه للمؤمنين، وخصوصا إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآية، من هو يصعد الامتثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصق، أما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(3) سورة الليل، الآيات: 19 - 20

(1) سورة الزمر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر؛ لأن الجواب حينئذ يكون خبرا من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول، امتثلوا مقتضاه، فأتوا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم، فلم يمثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجمل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين، على العنول عن هذا الوجه من الإعراب، مع تباينه فيما نكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب، لا على الاستفراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق، المنوّه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية، وكقوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ و﴿قل للمؤمنين﴾

«من غشنا فليس منا»⁽²⁾ أي: ليس بعض المؤمنين على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم «ومن عصاني فإنك غفور رحيم» تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه ومن عصاني فيما بون الشرك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِئُمِمَّا الصَّلَاةَ أَتَمَلَّ أَفئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْتَدُّوا
مِنْ الْكُفْرَةِ لِمَلَأَهُمْ بِشُكْرُونَ ﴿٢٧﴾

«من ذريتي» بعض أولادي وهم: إسماعيل ومن ولد منه «بوادٍ» هو: وادي مكة «غير ذي زرع» لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله: «قرآنًا عربيًا غير ذي عوج»⁽³⁾ بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم: لأن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنوعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أي: منع منه، كما سمي: عتيقاً لأنه اعتق منه فلم يستول عليه «ليقيموا الصلاة» اللام متعلقة بأسكنت أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفع ومرتق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، وما تعمر به مساجدك ومتعبداك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به، والركوع والسجود حوله مستنزلي الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك «أفئدة من الناس» أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل من لازحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون من اللابتداء كقولك: القلب مني سقيم تريد: قلبي، فكانه قيل: أفئدة ناس وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتكثير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة وقرئ: أفئدة بوزن عافدة وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: أفر في أفر، والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفئدة الرحلة إذا عجلت أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: أفئدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفئدة «تهوي إليهم» تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً من قوله:

يهوي مزارها هوي الأجل

وقرئ: تهوي إليهم على البناء للمفعول من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوي إليهم من هوى يهوي إذا أحب ضمن

سألتموه من للتبعيض أي: أتاكم بعض جميع ما سألتموه نظراً في مصالحكم، وقرئ: من كل بالتونين، وما سألتموه نفي ومحل نصب على الحال أي: أتاكم من جميع ذلك غير سائلي، ويجوز أن تكون ما موصولة على أتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به، فكانتم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال «لا تحسوها» لا تحسروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله «لظلمكم» يظلم النعمة بإغفال شكرها «كفار» شديد الكفران لها، وقيل: ظلم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس فيتناول الإخبال بالظلم والكفران من يوجدان منه.

رَادُّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٨﴾

«هذا البلد» يعني: البلد الحرام زاده الله آمناً وكفاه كل باغ وظالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام «آمناً» ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: «اجعل هذا بلداً آمناً»⁽¹⁾ وبين قوله: «اجعل هذا البلد آمناً»؟ قلت: قد سأل في الأول: أن يجعله من جملة البلاد التي يامن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً «واجنبني» وقرئ: واجنبني وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، واجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبني واجنبني والمعنى: ثبتنا وادمنا على اجتناب عبادتها «وبني» أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبثت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً واحتج بقوله: «واجنبني وبني» «إن نعبد الأصنام» إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا: البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يديرون بذلك الحجر ويسمونه: الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال: دار بالبيت.

رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْكَاثِرِ مَنْ رَمَى إِلَيْكَ مِيًّا وَمَنْ عَصَانِي
فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

«إنهن أضللن كثيراً من الناس» فاعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات لأن الناس ضلوا بسببهن فكانهن أضللنهم كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم أي: افتتنوا بها واغترتوا بسببها «فمن تبعني» على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي «فإنه مني» أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله:

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

(2) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا»

(3) سورة الزمر، الآية: 28.

= فليس منا (الحديث رقم: 279).

وَتَبَكَّى دُعَاءً ۝١١

على قوله: ﴿على الكبير﴾ بمعنى: مع كقوله.

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف وهو في موضع الحال معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبير. روي: أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما نكر حال الكبير لأن المنة بهية الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلامها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (2) فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه؟ قلت: هو من قولك: سمع لك كلام فلان إذا اعتد به قبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كأنه لئني يتغنى بالقرآن» (3).

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء وقد نكر سيبويه فعيلًا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك: هذا ضروب زيدًا، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أمورًا، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعًا على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله ﴿ومن ذريتي﴾ وبعض ذريتي عطفًا على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أن يكون في ذريته كفار وذلك قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ (4) ﴿وتقبل دعائي﴾ أي: عبادتي ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ (5).

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝١١

في قراءة أبي: ولابوي، وقرأ سعيد بن جبير: ولوالدي على الأفراد يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولدي يعني: إسماعيل إسحاق، وقرئ: لولدي بضم الواو، والولد بمعنى: الولد كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد كاسد في أسد، وفي بعض المصاحف: ولذريتي.

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: هو من مجوزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط

معنى تنزع فعدي تعديته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع سكتاهم وأديًا ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فعمله حرماً أمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لئنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الإعجوبة التي يريها الله بواد غير ذي زرع وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته عجيب، متعنا الله بسكنى حرمة، ووقفنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَنَزَّلُ مَا نَحْنِي وَمَا تَكُنُّ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٣٨

النداء المكرر لئيل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إنيك تعلم ما تخفي وما نعلن﴾ تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك، والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولها إلى رحمتك، وكما يتعلق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفة مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح فأراد أن ينكره، فقال: مثلك لا ينكر استقصاراً ولا توهمًا للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إن لا نخشى تركتنا إلى كاف. ﴿وما يخفي على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وكنك يفعلون﴾ (1) أو من كلام إبراهيم يعني: وما يخفي على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ومن للاستغراق كأنه قيل: وما يخفي عليه شيء ما.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَبَّ لِي عَلَى الْكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٩ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَرَبِّ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

(1) سورة النمل، الآية: 34.

(2) سورة الصافات، الآية: 100.

(3) رواه البخاري في كتاب: «فصائل القرآن» باب: «من لم يتغن

بالقرآن (الحديث رقم 5023) ومسلم في كتاب: «صلاة المسافرين»

= وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث رقم: 1842).

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

تقبل ببصرك على المرثي تديم النظر إليه لا تطرف
﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعها **﴿لا يردد إليهم طرفهم﴾**
لا يرجع إليهم أن يطوفوا بعينهم أي: لا يطوفون ولكن
عينونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان، أو
لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء
الذي لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء
إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة، ويقال للأحمق
أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلمان جوجؤه هواء

لأن النعام مثل في الجبن والحق، وقال حسان:

فانت مجوف تخب هواء

وعن ابن جريج: أفتلتهم هواء صفر من الخير خاوية
منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَمَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا
إِلَّا أَجَلَ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ لَوْلَا نَكَّرْنَا نَفْسَنَا
مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ. ٤١.

﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ مفعول ثانٍ لانذر وهو: يوم
القيامة ومعنى **﴿أخرنا إلى أجل قريب﴾**: ردنا إلى الدنيا
وأهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب تدارك ما فرطنا فيه
من إجابة دعوتك واتباع رسلك، أو أريد باليوم يوم هلاكهم
بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات
ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم
ربهم إلى أجل قريب كقوله: **﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب
فاصدق﴾** (6) **﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾** على إرادة القول
وفيه وجهان: أن يقولوا: نلك بطراً وأثراً ولما استولى
عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال
حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً و**﴿ما لكم﴾** جواب القسم
وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم، ولو حكى لفظ
المقسمين لقل: ما لنا **﴿من زوال﴾** والمعنى: أقسمتم أنكم
باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون
إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث كقوله: **﴿واقسموا بالله
جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾** (9).

وَسَكَنْتُمْ فِي سَكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ. ٤٢.

يقال: سكن الدار وسكن فيها ومنه قوله تعالى:
﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأن
السكنى من السكون الذي هو: اللبث، والأصل تعنيه بقي
كقولك: قر في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل

الإسلام ويأباه قوله: **﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن
لك﴾** (1) لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال
فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى
فيه بإبراهيم؟ **﴿يوم يقوم الحساب﴾** أي: يثبت وهو
مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قوله: قامت
الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا
أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل، ويجوز أن
يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل:
﴿واسئل القرية﴾ (2) وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما
سال فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد
أمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته
من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين
فلما قال إبراهيم: **﴿ربنا اني أسكنت﴾** (3) الآية رفعها الله
فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم.

وَلَا تَسْرَبْ إِلَى عَذَابِ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيُوزِنَ
نَحْوَهُ فِيهِ أَضْرًا. ٤٣.

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه
رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل **﴿ولا
تحسبن الله غافلاً﴾**؟ قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ
ففيه وجهان: أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه
لا يحسب الله غافلاً كقوله: **﴿ولا تكونن من المشركين﴾** (4)
﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ (5) كما جاء في الأمر **﴿يا أيها
الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾** (6) والثاني: أن المراد
بالنهي عن حسبانته غافلاً الإيدان بأنه عالم بما يفعل
الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قلبه
وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: **﴿والله بما
تعلمون عليم﴾** (7) يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه
يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب
عليهم المحاسب على النقيير والقطمير، وإن كان خطاباً
لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته فلا
سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم،
فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه.
وقرى: يؤخرهم بالنون والياء **﴿تشخص فيه الأبصار﴾**
أي: أبصارهم لا تفرقي أماكنها من هول ما ترى.

مُهَيَّوَاتٍ مُّقْنِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَنْذَرْتُمْ هَرَاءً
. ٤٤.

﴿مهطعين﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(2) سورة يوسف، الآية: 82.

(3) سورة البقرة، الآية: 283.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(4) سورة المنافقين، الآية: 10.

(4) سورة الانعام، الآية: 14.

(5) سورة النحل، الآية: 38.

(5) سورة القصص، الآية: 88.

لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (5) ثم قال: أرسله ليؤنن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرئ: مخلف وعده رسله بجرّ الرسل ونصب الوعد وهذه في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم ﴿عزیز﴾ غالب لا يماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالتَّسْمُوتُ بَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٤)

﴿يوم تبدل الأرض﴾ انتصابه على البديل من ﴿يوم يأتيهم﴾ (6)، أو على الظرف للانتقام، والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السموات، والتبديل التغيير، وقد يكون في النوات كقولك: بدلت الدراهم بنانير، ومنه: ﴿وبلناهم جلوداً غيرها﴾ (7) ﴿وبلناهم بجنتيهم جنتين﴾ (8) وفي الأوصاف كقولك: بدلت الحلقة خاتماً إذا أنبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى: ﴿فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسناً﴾ (9) واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها، فتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير وأنشد:

وما للناس بالناس للذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم وتبدل السماء بانثثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخرى، وعن ابن مسعود، وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن الضحاک: أرضاً من فضة بيضاء كالصاحف، وقرئ: يوم تبدل الأرض بالنون.

فإن قلت: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قلت: هو كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (10) لأن الملك إذا كان لواحد غالب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغات لأحد إلى غيره ولا مستجار كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة.

وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١٥)

﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين، أو

إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي: قرؤا فيها وأطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: ونبين لكم بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرَهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لَيَرْزُقُنَّهُمْ مِنْهُ أَلْبَابًا (١٦)

﴿وقد مكرؤا مكرهم﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لا يخلو إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة فضررب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشنته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (1) والمعنى: ومجال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشراعه: لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثابتاً وتمكناً وتنصره قراءة ابن مسعود: وما كان مكرهم، وقرئ: لتزول بلام الابتداء على وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها، وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (١٧)

﴿مخلف وعده رسله﴾ يعني: قوله: ﴿إننا لننصر رسلاً﴾ (2) ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (3).

فإن قلت (4): هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) سورة غافر، الآية: 51.

(3) سورة المجادلة، الآية: 21.

(4) قال أحمد: وفيما قاله نظر: لأن الفعل تنقيد بمفعول، انقطع طلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية ليلاً على إطلاق الفعل، باعتبار الموعود، حتى يكون نكر الرسل باثناً كالأجنبي، من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي نكره، بين تقديم نكر الرسل وتأخيرها، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني، إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية: لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به على

(5) سورة آل عمران، الآية: 9، سورة الرعد، الآية: 31.

(6) سورة إبراهيم، الآية: 44.

(7) سورة النساء، الآية: 56.

(8) سورة سبأ، الآية: 16.

(9) سورة الفرقان، الآية: 70.

(10) سورة غافر، الآية: 16.

= السنة الرسل، فالمهم في التهديد نكر الوعيد، وأما كونه على السنة الرسل، فنلك أمر لا يقف التخويف عليه، ولا بد حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ معطوف على محذوف أي: لينصحا وولينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ: وولينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعمله ﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن خشية أم الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر مكية

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ ثَمِينٍ ۝١

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب والقرآن المبين السورة، وتكثير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وآي قرآن مبين، كانه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢

قرئ: ربما وربتما بالتشديد وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فإِن قُلْتُمْ: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قُلْتُمْ: لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكانه قيل: ربما ود.

فإِن قُلْتُمْ: متى تكون ودايتهم؟ قُلْتُمْ: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضاً باب من الودادة.

فإِن قُلْتُمْ⁽⁵⁾: فما معنى التقليل؟ قُلْتُمْ: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندّم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه ولا يقصصون

قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين وقوله: ﴿في الأصفاد﴾ إمّا أن: يتعلق بمقرنين أي: يقرون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل: وزيد الخيل قد لاقى صفاناً بعض يساعده وبعض ساق

سرايلهم من قطرانٍ وتغشى وجوههم أنثارٌ ۝٥

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وقطران، بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأبهل فيطبخ فتحنأ به الإبل الجربي، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربح: لذع القطران، وحرقتها، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وتنت الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فيبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندهنا منه إلا الاسامي والمسميات ثمة، فيكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ننجينا من عذابه، وقرئ: من قطرانٍ والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآتي المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقى بوجهه سوء العذاب﴾⁽¹⁾ ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾⁽²⁾ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفتدة﴾⁽³⁾ وقرئ: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٥

﴿ليجزى الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطبيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَاسْتِنذَارٌ بِهِ وَنَبَأٌ بَرٌّ وَلِيَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٦

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التنكير والموعظة يعني:

= نكره الزمخشري أنفأ، من التنبيه بالابني على الأعلى، ومنهم من وجهه بان المقصود في تلك: الإيذان بان المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته، أن يعود إلى عكسه، وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجبت حتى كنت تبخل حائلاً للمنتهي ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بان المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

(1) سورة الزمر، الآية: 24.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) سورة الهزعة، الآية: 7.

(4) نكره ابن مردويه والواحدى نكره (الزيلعي 2/205).

(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أتامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أنني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما =

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

قرأ الأعمش يا أيها الذي التي عليه الذكر، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾⁽²⁾ وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهمك مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها، ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾⁽³⁾ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽⁴⁾ وقد يوجد كثيراً في كلام العمج والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذكر.

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾

لو ركبت مع لا وما لمعنيين، معنى: امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى: التحضيض، وأما هل فلم تتركب إلا مع لا وحدها للتحضيض. قال ابن مقبل:
لوما الحياء ولوما للدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصديقك ويعضونك على إنذارك كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾⁽⁵⁾ أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كنت تأتي الأمم المكذبة برسلاها.

مَا نَزَّلْنَا الْمَلَأِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾

قرئ: تنزل بمعنى: تنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ونزّل الملائكة بالنون ونصب الملائكة ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصديق النبي ﷺ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾⁽⁶⁾ وقيل: الحق الوحي أو العذاب و ﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء، لأنه جواب لهم، وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخرج عذابهم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾⁽⁷⁾ ردّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾⁽⁸⁾ ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبيات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظ في كل وقت من كل زيادة ونقصان

تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل؛ لأن العقلاء يتحززون من التعرض للغم المظنون كما يتحززون من المتيقن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودانهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك: حلف بالله ليفعلن، ولو قيل: حلف بالله لافعلن، ولو كنا مسلمين لكان حسناً سيدياً، وقيل: تدمشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلنلك قلل.

ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُهِيمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني: اقطع طمعك من أرواثهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتنكرة والنصيحة وخلصهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيراً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم عن أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معانية ما ينذرون به حين لا ينفهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَمَا كُنَّا بِمَعْلُومٍ ﴿١١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴿١٢﴾

﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾⁽¹⁾ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب كتاب ﴿مَعْلُومٌ﴾ مكتوب معلوم، وهو: أجلها الذي كتب في اللوح وبين، ألا ترى إلى قوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ في موضع كتابها وأنت الأمة أولاً ثم نكرها آخرًا حملاً على اللفظ والمعنى، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَجِرُونَ﴾ بحذف عنه؛ لأنه معلوم.

(7) قال أحمد: ويحتمل أن يراد: حفظه مما يشينه، من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى، وذلك أيضاً من اللبيل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

(8) سورة الحجر، الآية: 6.

(1) سورة الشعراء، الآية: 208.

(2) سورة الشعراء، الآية: 27.

(3) سورة آل عمران، الآية: 21.

(4) سورة هود، الآية: 87.

(5) سورة الفرقان، الآية: 7.

(6) سورة الحجر، الآية: 85.

إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَمِنَّا قَوْمٌ مَّشْرُورُونَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبْنَا فِي السَّمَاءِ بَرُورًا وَزَيَّنَّا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾

قرئ: يعرجون بالضم والكسر و﴿سكرت﴾ حيرت أو حبست من الإبصار من السكر، أو السكر، وقرئ: سكرت بالتخفيف أي: حبست كما يحسب النهر من الجري، وقرئ: سكرت من السكر أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا: هو شيء نتخيله لا حقيقة له، ولقالوا: قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك، ونكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للابصار.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَآتَاهُ شَيْءٌ مِّنْهُنَّ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَعْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونًا ﴿١٨﴾

﴿من استرق﴾ في محل النصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يجيبون عن السموات فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها ﴿شهاب مبین﴾ ظاهر للمبصرين ﴿موزون﴾ وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أوله وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.

وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيَشَ وَمَنْ نَسْتَمُ لَهُمُ بَرِّزِينَ ﴿١٩﴾

﴿معاش﴾ بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصریح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة أو إخراج الياء بين بين، وقد قرئ: معاش بالهمز على التشبيه ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معاش أو على محل لكم كانه قيل: وجعلنا لكم فيها معاش وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو وجعلنا لكم معاش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرزاق

وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأخبار فاختلفوا فيما بينهم بغيًا فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

فإن قلت: فحين كان قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ رداً لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قوله: ﴿وإنا له لحافظون﴾؟ قلت: قد جعل ذلك لئلا على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواء، وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وإله يعصمك﴾⁽¹⁾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢١﴾

﴿في شيخ الأولين﴾ في فرقهم وطوائفهم، والشبهة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نباتاه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم.

﴿وما يأتهم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

كَذَلِكَ نَسَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾

يقال: سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: نسله والضمير للذكر أي: مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر في ﴿قلوب المجرمين﴾⁽²⁾ على معنى: أنه يلقيه في قلبهم مكنياً مستهزأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلثيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللثام تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مربودة غير مقضية، ومحل قوله: ﴿لا يؤمنون به﴾ النصب على الحال أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: ﴿كذلك لنسله﴾ سنة الأولين، طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلكهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُؤُونَ ﴿٢٤﴾ لَقَالُوا

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين، بأن الله تعالى سلک القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائهم، كما سلک في قلوب المؤمنين المصدقين، فكتب به هؤلاء، وصنق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة، بأنهم فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فاعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة، وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين، باغين، غير معترفين، والله أعلم، ولذلك عقبه الله تعالى بقوله: ﴿ولو فتحنا عليهم بلباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: هؤلاء فهموا القرآن =

= وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم وقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيتمتهم اللد، حتى لو سلک بهم أوضع السبيل وأدعاهما إلى الإيمان، بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء، ويعرج بهم إليهم، حتى يدخلوا منه نهاراً، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فظلوا﴾ لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فاسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع، ووعي، ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين؛ لأن ذلك حصل لهم، وإنما بهم العناد، واللد، والإصرار لا غير، والله أعلم.

الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجعياً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا انتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصوّر من سنة الوجه، وقيل: المصوب المفرغ أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها، وقيل: المنتن من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتناً ﴿من حمأ﴾ صفة لصلصال أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ، وحق ﴿مسنون﴾ بمعنى: مصور أن يكون صفة لصلصال كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف فيبس، حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر.

وَلَمَّا كَلَّمَتْهُ مِنْ بَلُّ مِنْ نَارِ السُّورِ (٧٧).

﴿والجان﴾ للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمرو بن عبدي: والجان بالهمز ﴿من نار السموم﴾ من نار الحر الشديد النافذ من المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجان.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (٧٨) إِذًا سَوَّيْتُهُ وَفَضَّيْتُهُ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٩) نَسِجَ الْمَلَائِكَةِ كُلُّهُنَّ أَجْمَعْنَ (٨٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبًا أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٨١).

﴿إذ قال ربك﴾ وانكر وقت قوله: ﴿سويته﴾ عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها، ومعنى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغلب كقولك: رأيتهم إلا هذا و ﴿أبى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه ولكن إبليس أبى.

قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٨٠) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (٨١).

حرف الجر مع أن محذوف وتقديره ﴿ما لك﴾ في ألا تكون مع الساجدين ﴿بمعنى أي غرض لك في إبتاك السجود وأي داع لك إليه؟ اللام في لأسجد﴾ لتأكيد التفتي ومعناه: لا يصح مني وينافي حالي ويستحيل أن أسجد لبشر.

يرزقهم وإياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما يتلك المثابة مما الله رزقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الراقون، ولا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في لكم؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٨١).

نكر الخزائن تمثيل والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما تعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلح له، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقبور.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَحْضٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَالْتَمَيْتَهُمْ بِهٖ وَأَنْشُرَ لَهُمْ خَبْرَتَهُنَّ (٨٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤَيِّتُهُمْ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٨٣).

﴿لواح﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الريح لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحب ماطر كما قيل: للتي لا تأتي بخير ربح عقيم، والثاني: أن اللواح بمعنى الملاقح كما قال: ومختبب مما تطيح الطوايح

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: وأرسلنا الريح على تأويل الجنس ﴿فأسقيناكموه﴾ فجعلنا لكم سقياً ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم ما أتته لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (١) كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم ﴿ونحن الوارثون﴾ أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فئانه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «واجعله الوارث مناه» (٢).

وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِيَّةَ بِكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا السَّمْعَانَ (٨٤) وَإِنَّا رَبُّكَ مُرْسِلُهُمْ رَبَّهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٥).

﴿ولقد علمنا﴾ من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي: أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ فكان بعض القوم يستقدم لثلا ينظر إليها وبعض يستأخر ليصبرها (٣) فنزلت ﴿هو يحشرهم﴾ أي: هو وحده القادر على حشرهم والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْئُورٍ (٨٦).

(1) سورة الحجر، الآية: 21.

(2) رواه الترمذي في كتاب: «الدعوات» باب (80) (الحديث رقم: 3502)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (الحديث رقم: 404)

والحاكم في المستدرک 528/1.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (الحديث رقم: 3122)، والنسائي في كتاب: الإمامة، باب المنفرد خلف الصف، (الحديث رقم: 870).

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيدِه لا يعلم فيهم ولا يقبلون منه. أي «هذا» طريق حق «علي» أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ: علي؛ وهو: من علو الشرف والفضل.

وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٦﴾ لَمَّا سَمِعَتْ أَبَوابُ كُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءًا مَّقْسُورًا ﴿٤٧﴾

﴿لموعدهم﴾ الضمير للغاوين، وقيل: أبواب النار اطلبها وإراكها، فاعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبد النار، والحطمة لعبد الأصنام، وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: جزء بالتخفيف والتثقل، وقرأ الزهري: جَزَّ بالتشديد كأنه حنف الهمة والقى حركتها على الزاي، كقولك: حَب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٨﴾ أَتْلُوهَا يَسْلَوْنَ ءَأَمِينٍ ﴿٤٩﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَجْوَىٰ صَاحِبٍ مِّنْهَا يَمْحُورِينَ ﴿٥١﴾

المتقي على الإطلاق من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم نوب تكفرها الصلوات وغيرها ﴿انخلوها﴾ على إرادة القول، وقرأ الحسن: انخلوها ﴿بسلام﴾ سالمين أو مسلماً عليكم، تسلم عليكم الملائكة. الغل الحقد الكامن في القلب من أنغل في جوفه وتغلغل أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر، نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحرث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علي: مرحباً بك يا ابن أخي أما والله إنني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ فقال له قائل: كلا الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أم لك، وقيل معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسنوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غل، والقى فيها التواد والتحاب و﴿إخواناً﴾ نصب على الحال و﴿على سرر متقابلين﴾ كذلك، وعن مجاهد: تنور بهم الأسرة حينما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

قَالَ فَاتْرَجْ مِنْهَا إِنَّاكَ رَجِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِذْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ النَّظِيرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ يَوْمَ أُولَئِكَ الْأَمْثَلُورُ ﴿٥٦﴾

﴿رجيم﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرحم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في منها راجع إلى الجنة، أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حداً للجنة إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم كقوله: ﴿وما دامت السموات والأرض﴾^(١) في التأييد، وإما أن يراد أنك ممنوم مدعو عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه. ويوم الدين، ويوم يبعثون، ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سال الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لثلاث يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف.

قَالَ رَبِّ يَا أَعْيُنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَعْيُنِيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٦٠﴾

﴿بما أعويتني﴾ الباء للقسام وما مصدرية وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ومعنى إغوائه إياه: تسببه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام فاقضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به ونحو قوله: ﴿بما أعويتني لأزينن﴾ لهم قوله: ﴿فبعزتكم لأغوينهم أجمعين﴾^(٢) في أنه إقسام إلا أن أحدهما: إقسام بصفته والثاني: إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز أن لا يكون قسماً يقدر قسم محذوف ويكون المعنى: بسبب تسبيحك لإغوائتي أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسبب لإغوائهم بأن أزين لهم المعاصي، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿في الأرض﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى: ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾^(٣) وأراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأننا علي التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد لأجعل مكان التزيين عندهم الأرض، ولأفعلن تزييني فيها، أي لأزيننها في أعينهم، ولأحسنتهم بأن الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحيوها على الآخرة ويطمئنوا إليها نونها، ونحوه: يجرح في عراقبيها نصلي،

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

(1) سورة هود، الأيتان: 107، 108.

(2) سورة ص، الآية: 82.

كقوله: ﴿لَا يَبِيْثُ مِنْ رُوحِ اِلٰهٍ اِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ﴾ (1) يعني: لم استنكر تلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي اجراها الله.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّمَا آل لُوطٍ إِنَّا لَنَجِّيْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾.

فإن قُلْتُ (2): قوله تعالى: ﴿إِلَّا آل لُوطٍ﴾ استثناء متصل أم منقطع؟ قُلْتُ: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعاً؛ لأنَّ القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنس، وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين فيكون متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجزموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (3).

فإن قُلْتُ: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناء؟ قُلْتُ: نعم وذلك أنَّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأما في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أنَّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول.

فإن قُلْتُ: فقولته: ﴿إنا لمنجوههم﴾ بم يتعلق على الوجهين قُلْتُ: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط؛ لأنَّ المعنى لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: إنا لمنجوههم.

إِلَّا أَمْرَاتَهُ مَذْرَأًا لِيَهَيِّئَ لِنَارٍ ﴿٦٠﴾.

فإن قُلْتُ: فقولته: ﴿إلا امرأته﴾ مم استثنى؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ قُلْتُ: استثنى من الضمير المجزور في قوله: لمنجوههم، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأنَّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً إلا اثنين إلا واحدة، وفي قول المقر لفلان: علي عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا برهماً، فأما في الآية فقد اختلف الحكماء؛ لأنَّ آل لوط متعلق بارسلنا أو بمجرمين، وإلا امرأته قد تعلق بمنجوههم، فإني يكون

﴿يَنْقُ يَبَايَعُ أَيُّ أَنَا الْكَافِرُ الرَّجِيْهُ﴾ (٤٨) وَأَنَّ عَدَايَ هُوَ الْمَكْرَاهُ الْأَلْيَمُ ﴿٥٦﴾ وَيَتَّبِعُهُمْ عَنْ صَفِيْفٍ إِزْرِهِمْ ﴿٥٦﴾.

لما اتهم نكر الوعد والوعيد اتبعه ﴿نبي عبادي﴾ تقرير لما نكر وتمكيناً له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب وعذابه لمن لم يتب وعطف ﴿ونبئهم﴾ على ﴿نبي عبادي﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنَّ عذابه هو العذاب الأليم.

إِذْ نَسُوا لَآئِيَهُ عَلَيْهِ فَمَأْتُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا إِلَيْنَا مَنَكُم مَّرِجُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿سلاماً﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً ﴿وجلون﴾ خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل، وقيل: لأنهم نخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن: لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه، وقرئ: لا تاجل، ولا توجل من واجله بمعنى: أوجله.

قَاتِلُوا لَّا تُوْجَلْ إِنَّا نَبِّئُكُمْ بِمَلَكٍ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي وَعَلَىٰ أَنْ سَأَيْتُ الْكَبِيْرَ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٥٨﴾ قَاتِلُوا بَشْرْتَكُمْ بِالْعَمَىٰ فَلَا تُكْفَرَنَّ مِنَ الْفِتْيَانِ ﴿٥٩﴾ قَالَ وَمَنْ يَمْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِذَا سَأَلْتَهُ ﴿٥٩﴾.

وقرئ: نبشرك بفتح النون والتخفيف ﴿إنا نبشرك﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أرأوا أنك بمثابة الأمن المبشر فلا توجل. يعني ﴿أبشرتموني﴾ مع مس الكبر بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر ﴿فبم تبشرون﴾ هي: ما الاستفهامية نخلها معنى التعجب كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشرون! أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنَّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء، ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد والبشارة به لا طريقة لها في العادة.

وقوله: ﴿بشركنا بالحق﴾ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة أي: بشركنا باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشركنا بطريقة هي حق وهو: قول الله، ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقرة؟ وقرئ: تبشرون بفتح النون ويكسرهما على حذف نون الجمع، والأصل تبشرون وتبشرون بإدغام نون الجمع في نون العماد. وقرئ: من القنطين من قنط يقنط. وقرئ: ومن يقنط بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطؤون طريق الصواب، أو إلا الكافرون

(1) سورة يوسف، الآية: 87.

= منها، إلا في سياق نفي؛ لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زبداً، وحسن ما رأيت أحد إلا زبداً، والله أعلم.

(3) سورة الذاريات، الآية: 36.

(2) قال أحمد: وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أن في استثناءهم من الضمير العائد على قوم منكوبين بعداً، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولا، لدخل المستثنى في حكم الأول، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى =

استثناء من استثناء؛ وقرئ: لمنجوههم بالتخفيف والتثقيب.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: لَمْ جاز تعليق فعل التقدير في قوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ إنها لمن الغابرين؛ والتعليق من خصائص أفعال القلوب؛ قُلْتُ: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم.

فإن قُلْتُ: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى انفسهم ولم يقولوا قدر الله؟ قُلْتُ: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: ببرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدير والأمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه، وقرئ: قدرنا بالتخفيف.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ شَاكِرُونَ ﴿١٧﴾
فَأَلَّا بَلَّ جِنَّتَكَ يَا كَاوُؤًا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿منكرون﴾ أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر بلبيل قوله: ﴿بَلَّ جِنَّتَكَ﴾ بما كانوا فيه يمترون؛ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فركك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه ويكذبونك.

وَأَنْتَكَ بِالْحَيِّ وَرَبَّنَا لَمَدِينُونَ ﴿١٩﴾ فَأَشْرَ بِأَهْلِكَ بِقَطْعِ بَيْنِ الْبَيْتِ
وَأَنْتَ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْفِتُ مِنْكَ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءَ مَقْطُوعٌ مُتَعَمِّينَ ﴿٢١﴾.

﴿بالحق﴾ باليقين من عذابهم ﴿وإننا لصادقون﴾ في الإخبار بنزوله بهم. وقرئ: فأسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى، وروي صاحب الإقليد: فسر من السير. والقطع في آخر الليل قال:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهم
وقيل: هو بعدما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قُلْتُ: ما معنى أمره باتباع أدبارهم⁽²⁾ ونهيه عن الالتفات؟ قُلْتُ: قد بعث الله الهلاك على قومه ونجاه أهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بد من

الاجتهاد في شكر الله وإدامة نكره وتفريغ باله لنلك، فأمر بأن يقدمهم لثلاثا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحنورة، ولثلاثا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سر به ويفوت به⁽³⁾، ونهوا عن الالتفات لثلاثا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أخادعه كما قال:

تلقت نحو الحي حتى وجلتني وجمعت من الإصغاء ليئناً وأخذعا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأن من يتلفت لا بد له في ذلك من انسي وقفة ﴿حيث تؤمرون﴾ قيل: هو مصر، وعدي، وامضوا إلى حيث، تعديته إلى الطرف المبهم؛ لأن حيث مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في تؤمرون وعدي قضينا بئالي؛ لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً وفسر ﴿نلك الأمر﴾ بقوله: ﴿إن دابر هؤلاء مقطوع﴾ وفي إيهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: إن بالكسر على الاستثناء كأن قائلًا قال: أخبرنا عن ذلك الأمر؟ فقال: إن دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إن دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعني: يستاصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِيرُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ سَبِيحٌ فَلَا
تَنْصَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَنْفَرُوا اللَّهُ وَلَا تَخْزِيوهُنَّ ﴿٢٤﴾ فَأَلَّا أَرَأَيْتُمْ تَنْهَكُ عَنِ
الْمَلَكِيكِ ﴿٢٥﴾ قَالَ هَؤُلَاءَ بَنَاتٌ إِنْ كُنَّ تَعْلَمِينَ ﴿٢٦﴾.

﴿أهل المدينة﴾ أهل سدوم التي ضرب بقاضياها المثل في الجور مستبشرين بالملائكة ﴿لا تفضحون﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأن من أسى إلى ضيفه أو جاره فقد أسى إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم ﴿ولا تخزون﴾ ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي وهو: الهوان، أو ولا

(1) قال أحمد: وهذه أيضاً من دلائله الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أن الأمر أنف؛ لأنهم لا يعتقدون أن الله تعالى مرید لأكثر أفعال عبده، من معصية ومباح ونحوهما، ولا مقتر لها على العبيد بمعنى أنه مرید، ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدلل على أن التقدير هو العلم، بتعليق فعله على العلم، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره، وبقه طلنته في ابتغاء السنة يلقفها ويعاندها بها البراهين الواضح لفلها، وفي كلامه شاهد على رده، فإن التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر، أن يبقى على معناه الأصلي مضافاً إليه المعنى الطاري، فقيدها جميعاً، فالتقدير إذاً كما آتاه العلم الطاري، بقيد الإرادة أصلاً ووضعاً، والله أعلم على أن من الناس

(2) قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، حيث تقدم قومه، فقال: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ والله أعلم.

(3) قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها، آداب المسافرين لهم ديني أو دنيوي من الأمر والمأمور، والتابع والمتبوع، ما فرطنا في الكتاب من شيء.

من جعل قوله تعالى: ﴿قَدَرْنَا﴾ منها من الغابرين؛ من كلامه تعالى =

وَإِنَّ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِبِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْقَسْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَامِرِ
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿أصحاب الأيكة﴾ قوم شعيب ﴿وإنهما﴾ يعني: قرى؛
قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة، ومدين؛ لأن شعيباً
كان مبعوثاً إليهما، فلما نكر الأيكة دل بذكرها على مدين
فجاء بضميرهما ﴿لبإمام مبين﴾ لبطريق واضح، والإمام
اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق، ومطمر البناء، واللوح
الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجِزِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا كَاذِبُونَ
مُتْرَبِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجُرُونَ مِنْ لَيْلٍ يُؤْتُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ
الْفَيْصَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٢﴾ قَا أَتَىٰ عَتَمٌ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿أصحاب الحجر﴾ ثمود والحجر واليهيم، وهو بين
المدينة والشام ﴿المرسلين﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأن
من كذب واحداً منهم فكاننا كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً
ومن معه من المؤمنين كما قيل: الحبييون في ابن الزبير
وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر
فقال لنا: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن
تكونوا باكين حنزراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء، ثم
زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها⁽⁴⁾. ﴿أمينين﴾
لوثيقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ويتداعى بنيانها،
ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء، وحوادث الدهر، أو أميين
من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميمهم منه ﴿وما كانوا
يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

وَمَا عَلَّمْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ
لَأَيُّمَةٌ فَاصِّحُ الْفَصْحِ الْخَبِيرُ ﴿٨٤﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة لا باطلاً
وعبثاً، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال
﴿وإن الساعة لأنيئة﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك
ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما إلا لذلك ﴿فاصصح﴾ فأعرض
عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعرافاً جميلاً بحلم وإغضاء،
وقيل: هو منسوخ بأية السيف، ويجوز أن يراد به المخالفة
فلا يكون منسوخاً.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٥﴾.

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ الذي خلقك وخلقهم وهو
﴿العليم﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم،
وهو يحكم بينكم، أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو
الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون
السيف أصلح، وفي مصحف أبي، وعثمان: إن ربك هو

تشوروا بي من الخزاية وهي الحياء ﴿عن العالمين﴾ عن
أن تجبر منهم أحداً أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم،
فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن
المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرض له فأوعده وقالوا:
﴿لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾⁽¹⁾ وقيل: عن
ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط
﴿هؤلاء بناتي﴾ إشارة إلى النساء؛ لأن كل أمة أولاد نبيها
رجالهم بنوه ونسأؤهم بناته فكانه قال لهم: هؤلاء بناتي
فانكحوهن واخلو ابني فلا تتعرضوا لهم ﴿إن كنتم
فاعلين﴾ شك في قبولهم لقوله كانه قال: إن فعلتم ما
أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريون قضاء
الشهوة فيما أحل الله لهن ما حرم.

لَمَرَكُ إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْرُورٌ ﴿٧٦﴾.

﴿لمعرك﴾ على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط
عليه السلام لمعرك ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ أي: غوايتهم
التي أذهبت عقولهم، وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه
وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى
البنات ﴿يعمهمون﴾ يتحيرون، فكيف يقبلون قولك
ويصفون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ
وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له،
والعمر والعمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإيثار
الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على السننهم
ولذلك حنفوا الخبر، وتقديره لمعرك مما أقسم به، كما
حذفوا الفعل في قولك: بالله، وقرئ: في سكرهم وفي
سكراتهم.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْمَةُ مَرَّةً مَّرَّةً ﴿٧٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمُ سَابِغَةً وَأَطْرَافًا عَلَيْهِمُ
حِجَابَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّمَا لِيَسْبِيلٍ
مُتَبِّرٍ ﴿٨٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾.

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿مشرقين﴾
داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿من سجيل﴾
قيل: من طين عليه كتاب من السجل ولبليه قوله تعالى:
﴿حجارة من طين * مسومة عند ربك﴾⁽²⁾ أي: معلمة
بكتاب ﴿للمتوسمين﴾ للمتفرسين المتأملين، وحقبة
المتوسمين للظنار المتثبتون في نظرم حتى يعرفوا حقيقة
سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي: عرفت وسمه
فيه. والضمير في ﴿عاليها سافلها﴾ لقرى قوم لوط
﴿وإنها﴾ وإن هذه القرى يعني: آثارها ﴿لبسبيل مقيم﴾
ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعنومهم ييصرون تلك الآثار،
وهو تنبيه لقريش كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم
مصبحين﴾⁽³⁾.

(4) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: نزول النبي ﷺ بالحجر

(الحديث رقم: 4419).

(1) سورة الشعراء، الآية: 167.

(2) سورة الذاريات، الآيتان: 33 - 34.

(3) سورة الصافات، الآية: 137.

أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا⁽⁴⁾. وقيل: وافت من بصري وأنزعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البن والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولانفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم إنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعض بهم المؤمنون. وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفسًا عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتْمَسِّينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَاءُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

﴿وقل﴾ لهم ﴿إني أنا النذير المبين﴾ أنزركم ببيان وبرهان: أن عذاب الله نازل بكم.

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿كما أنزلنا﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾⁽³⁾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ حيث قالوا بعنادهم وعنوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتمسوه إلى حق وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزؤون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتصموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسليية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم: سحر وشعر وأساطير بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: وأنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود وهو: ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو: من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبًا بالنذير أي: أنذر المعضين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم: الاثنا عشر الذين اقتصموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدها في كل منخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ،

الخالق، وهو يصلح للقليل والكثير، والخالق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب وقطع الثوب والثياب.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

﴿سبعًا﴾ سبع آيات وهي: الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الانفال وبراءة؛ لأنها في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي: الأسباع و﴿المثاني﴾ من التثنية وهي التكرير؛ لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لشمالتها أعلى ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للأية، وأما السور أو الأسباع: فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء كانها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى، وصفاته الحسنى، و﴿من﴾ إمَّا: للبيان، أو للتبعيض: إذا أريدت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان: إذا أريدت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني لأنها تثني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها.

فإن قُلْتُ: كيف صحَّ عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على السبع؟ وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قُلْتُ: إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءه من ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل إلا ترى إلى قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾⁽¹⁾ يعني: سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني، والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النوعين وهو: الثناء، أو التثنية، والعظم. أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له.

لَا مَدَدَ عَيْنِكَ إِلَيَّ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحَزَنَ عَلَيْهِمْ وَأَنْخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿إلى ما متعنا به أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفار. فإن قُلْتُ⁽²⁾: كيف وصل هذا بما قبله؟ قُلْتُ: يقول لرسوله ﷺ قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي: القرآن العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا، ومنه الحديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»⁽³⁾. وحديث أبي بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي من الدنيا أفضل مما

(1) سورة يوسف، الآية: 3.

(2) قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حملة كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن تغني إمَّا يبنى من الغناء المملود، لا من الغنى المقصور، وإن فعله استغني خاصة، وقد وجدت بناء تغني من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخليل، وأما التي هي ستر، فرجل ربطها تغنيًا وتعفًا، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعًا وانقطاعًا، وهو مصدر تغني، فدل على ذلك على أنه مستعمل من البنامين جميعًا، على خلاف دعوى المخالفين =

= والله الموفق.

(3) رواه البخاري في كتاب: «التوحيد» باب: قول الله تعالى: «واسروات قلوبكم» (الحديث رقم: 7527).

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، ورواه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عدي في الكامل عن ابن مسعود 2/218.

(5) سورة الحجر، الآية: 87.

بدر، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأوما إلى ساق الوليد فمَرَّ بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبة فقطعه فمات، وأوما إلى أخصم العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى انف الحرث بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (4).

وَلَقَدْ مَلَأْنَاكَ بِيَبُيُوتِكَ بِمَا يُولُونَ ﴿١٧﴾ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾.

﴿بما يقولون﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن ﴿فسبح﴾ فافزع فيما نابك إلى الله، والفرع إلى الله هو: النكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك ﴿حتى ياتيك اليقين﴾ أي: الموت أي: ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (5).

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ» (6).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل مكية

أَنَّا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكديباً بالوعد فقيل لهم: ﴿أتى أمر الله﴾ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ﴿فلا تستعجلوه﴾ روي: أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً. فنزلت: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ (7) فاشفقوا وانتظروا قريباً فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به. فنزلت: ﴿أتى أمر الله﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾ فاطمأنوا، وقرئ: تستعجلوه بالتاء والياء ﴿سبحانه وتعالى عما

يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر، وقبله بأفات كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا إلى الرهط الذين تقاسموا على أن يبينوا صالحاً عليه السلام، والاقتراس بمعنى: التقاسم.

فإن قلت: إذا عقلت قوله: ﴿كما أنزلنا﴾ بقوله: ﴿ولقد أتيناك﴾ (1) فما معنى توسط ﴿لا تمدن﴾ (2) إلى آخره بينهما؟ قلت: لما كان نك تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلي، من النهي عن الالتفات إلى نبياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين. عضين: أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس نين الله بالمعضى

وقيل: هي فعلة من غضهته إذا بهته، وعن عكرمة: العضة السحر بلغة قريش يقولون للساحر: عاضة، ولعن النبي ﷺ: «العاضة والمستعضة» (3) نقصانها عن الأول وأو وعلى الثاني هاء.

رَبِّكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾.

﴿لنسألهم﴾ عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

فَأَسْرَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرَضَ عَنِ الشَّرِكِينَ ﴿١٤﴾.

﴿فأسرع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحة إذا تكلم بها جهاراً كقولك: صرح بها من الصديع وهو: الفجر، والصدع في الرجاجة الإبانة، وقيل: فاصدع فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: بإمرك مصدر من المبني للمفعول.

إِنَّا كُنَّا كَاتِبِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ سَوًى يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر نوء أسنان، وشرف الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن اللطالة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل

(1) سورة الحجر، الآية: 87.

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 141/3 (الحديث رقم: 5090).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(5) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «وقت قيام النبي ﷺ من الليل» (الحديث رقم: 1319).

(6) نكره الثعلبي والواحدي في تفسيره وابن مريويه الزيلعي 221/2.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 1.

الإنسان والأنعام ثم قال: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والنفء اسم ما يذفا به كما أنَّ الماء اسم ما يملأ به وهو: النفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: ذف بطرح الهمزة والفاء حركتها على الفاء ﴿ومنافع﴾ هي: نسلها وذرهما وغير ذلك.

فإن قُلْتُ: تقديم الظرف في قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ مؤنن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها؟ قُلْتُ (4): الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معاشهم، وأما الأكل من غيرها من اللجاج والبطن وصيد البر والبحر فكخبر المعتد به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبِّ والشمار التي تاكلونها منها، وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها والبانها وجلودها.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَرَخُونَ ﴿٦﴾

مَنْ اللهُ بالتجمل بها كما مَنْ بالانتفاع بها؛ لأنه من اغراض أصحاب المواشي بل هو من معاشها؛ لأنَّ الرعيان إذا رَوَّحوا بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الألفية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لتركيوها وزينة﴾ ﴿يوارى سواتكم وريشاً﴾ (5).

فإن قُلْتُ: لم قدمت الإراحة على التسريح قُلْتُ: لأنَّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حيناً تريحون وحيناً تسرحون على أن تريحون وتسرحون وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه كقوله تعالى: يوم لا يجزى والد.

وَيَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ إِلَىٰ يَدِّكَ تَرْكُؤًا بَلِيغًا إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ إِنَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمُونَ ﴿٧﴾

قرئ: بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى: المشقة، وبينهما فرق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقاً وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم؟ قُلْتُ: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم

يشركون﴾ تبرأ عن أن يكون له شريك وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أنَّ ما موصولة أو مصدرية.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قُلْتُ: لأنَّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

بُرِّئَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ بِنَاءٌ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٧﴾

قرئ: ينزل بالتخفيف والتشديد وقرئ: تنزل الملائكة أي: تنزل ﴿بالروح من أمره﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد و﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وتقديره بأنه أنذروا أي: بأن الشأن أقول لكم: أنذروا، أو تكون أن مفسرة لأنَّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى ﴿أنذروا أنه لا إله إلا أنا﴾ أعلموا بأنَّ الأمر نك من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولاي ﴿لا إله إلا أنا فاتقون﴾.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

ثم دلَّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما نكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدَّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلأفه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ حَسِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فيه معنيان: أحدهما: فإذا هو منطيق مجالد عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من مني، جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته، والثاني: فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ (1) وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أتري الله يحيي هذا بعد ما قد رم (2).

وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِينًا وَمَنْعَكُمْ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠﴾

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية وأكثر ما تقع على الإبل وانتصابها بمضمرة يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قترناه﴾ (3) ويجوز أن يعطف على الإنسان أي: خلق

(4) قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل، يوجب حصره فيه فكانه قال: وإنما تاكلون منها.

(5) سورة الأعراف، الآية: 26.

(1) سورة يس، الآية: 78.

(2) يأتي في سورة يس.

(3) سورة يس، الآية: 39.

يكونوا بالغيه في الحقيقة.

وَعَلَّ اللَّهُ صَدُّ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَمَدَدْنَاكُمْ آمِيمِينَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٢﴾

المراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد وقال: ﴿ومنها جائر﴾ والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد أي: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أن هداية⁽³⁾ الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: لم غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿ومنها جائر﴾؟ قُلْتُ: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها، أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره والله بريء منه ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ قسراً والهاء ﴿لكم﴾ متعلق بانزل، أو بشراب خيراً له والشراب ما يشرب ﴿شجر﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تاكلوا ثمن الشجر فإنه سحت⁽⁵⁾، يعني: الكلا ﴿تسيمون﴾ من سامت المشية إذا راعت في سائمة، وأسماها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قري: ينبت بالياء والنون.

فإن قُلْتُ: لم قيل: ﴿ومن كل الثمرات﴾؟ قُلْتُ: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للذكورة ﴿يتفكرون﴾ ينظرون فيستدلون

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: كيف طابق قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ قوله: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهلا قيل: لم تكونوا حاملها إليه؟ قُلْتُ: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة ﴿لرؤوف رحيم﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

وَالزَّيْلَ وَالرِّبَاةَ وَالْحَوِيرَ لِتَرْكَبُنَّ هُنَّ مَعَ مَا لَا تَمْلُونَهُ ﴿٤﴾

﴿والخيل والبيغال والحمير﴾ عطف على الأنعام أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة وقد احتج على حرمة لكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ولم ينكر الأكل بعد ما نكره في الأنعام.

فإن قُلْتُ: لم انتصب ﴿وزينة﴾؟ قُلْتُ: لأنه مفعول له وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قُلْتُ: لأن الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو: الخلق، وقري: لتركبوها زينة بغير أو أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفصيله ويمن علينا بنكره كما من بالاشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيننا دلالة على اقتداره بالأخبار بملك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

= ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تاويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كاتهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق، بانه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لانفسهم، وقد تقدم في غير ما موضع، أن كل فعل صدر على يد العبد، فله اعتباران هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى، ومضاف إليه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له، وبالتالي له، وتيسره عليه، يضاف إلى العبد، وإن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد، إضافة الهداية إلى الله تعالى، باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد، باعتبار اختياره له، والحاصل أنه نكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المنكورة في الآخر، ليناسب ذلك إقامة الحجة، إلا الله حجة البالغة، والله الموفق للصواب.

(4) سورة الليل، الآية: 12.

(5) رواه أبو عبيد في كتاب الاموال ص 126 (الحديث رقم: 747).

(1) قال احمد: ويحتمل أن يكون المراد: تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها، إلا بشق الأنفس، واستغنى بنكر البلوغ عن نكر حملها؛ لأن العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها، والمعنى الأول أعلى، والله أعلم.

(2) قال احمد: يعني: فجاز أن ينصب مجرداً من لام التعليل؛ لأنه فعل فاعل للفعل الأول، ويعينه اقتران الركوب باللام؛ لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقاتل أن يقول كان من الممكن مجيئها معاً باللام، فيأتيان على سنن واحد، ولا غرو في ذلك، فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف، هو الركوب، وأما التزين بها، فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة، للتعليل تنبيهاً على أنه أهم الغرضين، وأقوى السببين، وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته، أو تصوره عن الركوب، والله أعلم.

(3) قال احمد: أين يذهب به عن تنمة الآية وذلك: قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية، لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين، وما كانهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب، =

بالإنكار، ومثاله أن الله تعالى سمي الكافر: دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (2) فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث ﴿حَلِيَّةٌ﴾ (3) هي اللؤلؤ والمرجان، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم، فكانما زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو: صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل التجارة.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ يَدَيْكُمْ وَيَمْشِي وَأَنْهَزَهَا وَهَبَّهَا فَلَمْ يَكُفَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿إن تمديد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، والمائد الذي يدار به إذا ركب البحر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وانهازا﴾ وجعل فيها انهازًا؛ لأن ألقى فيه معنى جعل الأ ترى إلى قوله: ﴿الم نجعل الأرض مهادًا * والجبال أوتادًا﴾ (4).

وَعَلَّمَنَّاكُمْ رَبَّالْجَبَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿وعلامات﴾ هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي هو: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمين، وبضمة وسكون، وهو: جمع نجم كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفًا.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فمن المراد بهم؟ قُلْتُ: كأنه أراد قريشًا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسابريهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار أكرم لهم، فخصصوا.

أَفَنَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

فإن قُلْتُ: (5) من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جاء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قُلْتُ: فيه أوجه أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدها فاجروها مجرى أولي العلم، الا ترى إلى قوله على أثره ﴿والذين يدعون من لوان الله لا يخلقون شيئًا وهم

بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية الدلالة الواضحة وعن بعضهم: ينبت بالتشديد، وقرأ أبي بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنْ أَيْلِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ مَسْخَرَاتٍ
يَأْمُرُهُمْ رَبُّكَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَلْبَسُوا يُقَالُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَافِيءٌ يُذَكِّرُونَ ﴿١٨﴾

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات، أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكانه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمرة، ويجوز أن يكون المعنى أنه سخرها أنوعًا من التسخير جمع مسخر بمعنى تسخير من قولك: سخره الله مسخرًا كقولك: سرحه مسرحًا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمرة، وقرئ: بنصب الليل والنهار وجدهما ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: والنجوم مسخرات بالرفع وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فجمع الآية ونكر العقل؛ لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ﴿وما ذرا لكم﴾ معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيات والمناظر.

هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حَبًّا يُتَسَوَّرُهَا وَيَخْرُجُ مِنْهُ الْغَالِثُ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلَيَلْبَسَنَّهُمْ
مِنْ فِضْلِهِ. وَلَكُمْ فِي تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿لحمًا طريًا﴾ (1) هو السمك، ووصفه بالطراة لأن الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

فإن قُلْتُ: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا ياكل لحمًا فاكل سمكًا لم يحنث، والله تعالى سماه: لحمًا كما ترى؟ قُلْتُ: مبني الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا نكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا

(1) قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طريًا، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته، أضر شيء يكون، والله أعلم.

(2) سورة الأنفال، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والله بر مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظه يواء مؤيدًا=

بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(4) سورة النبا، الآيتان: 6 و7.

(5) قال أحمد: هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم، ومن لا يخلق، كالعاجزين والزمني حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم، وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع، حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتزئله الآية على هذا التاويل، ويتمنى لو تم له ذلك:

وما كل ما يتمنى المرء يدركه

أعجز من عبديتهم أموات جمادات لا حياة فيها غير أحياء يعني: أن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها ﴿وما يشعرون إيان يبعثون﴾ أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، تهكمًا بحالها لأن شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحي القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات أي: لا بد لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: إيان بكسر الهمزة.

إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُبْطِلُونَ ﴿١٧﴾

﴿الهلكم إله واحد﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره وأنها له وحده لا شريك له فيها. فكان من نتيجة ثبات الوجدانية ووضوح دليلها استمرارهم على شركهم، وأن قلوبهم منكرة للوجدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها ﴿لا جرم﴾ حقاً ﴿إن الله يعلم﴾ سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعم كل مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ بِبُيُوتِكُمْ وَمَا يُؤْتِيكُمْ إِنَّهُ لَا يَبْخُلُ أَهْلَ السُّبُكِيِّينَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ سَمَوَاتٍ لَقَالُوا أَصْطَلِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾

﴿ماذا﴾ منصوب بانزله بمعنى: أي شيء ﴿أنزل ربكم﴾، أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أي شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى ﴿أساطير الأولين﴾ ما يدعون نزوله أساطير الأولين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأولين كقوله: ﴿ماذا ينفقون قل العفو﴾ (4) فيمن رفع.

فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل بهم وأساطير؟ قلت: هو على السخرية كقوله: ﴿إن رسولكم﴾ (5) هو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفقون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم.

لِيَحْمِلُوا أَوْزَانَهُمْ كَمَا لَمَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ ﴿٢٠﴾

يخلقون (1) والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق، والثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: ﴿الهم أرجل يمشون بها﴾ (2) يعني: أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأذان وقلوب؛ لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قلت (3): هو إلزام للذين عبثوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أقمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فانكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أقمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

وَإِن تَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَنَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ يَسَّرَ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشْرِكُ وَمَا يُشْرِكُ ﴿٢٢﴾

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطبقوا القيام بحقها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدت من نعمه تنبيهاً على أن وراءها ما لا ينحصر ولا ينعى ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ من أعمالكم، وهو وعيد.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٣﴾ أَمَرٌ غَيْرُ لَحِيمٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٤﴾

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من دون الله﴾ وقرئ: بالثناء، وقرئ: يدعون على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى ﴿أموات غير أحياء﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي: غير جائز عليها الموت كالحَي الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في يبعثون للداعين أي: لا يشعرون متى تبعث عبديتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث أنه من لوازم التكليف، ووجه آخر وهو: أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنعث والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم

(1) سورة النحل، الآية: 20. = كالانثى ﴿فجند بها عبداً﴾.

(2) سورة الاعراف، الآية: 195. = (4) سورة البقرة، الآية: 219.

(3) قال أحمد: وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وليس النكر﴾ = (5) سورة الشعراء، الآية: 27.

خَلِيلِكُمْ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣١﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ قَالَُوا خَيْرٌ مِمَّا نَحْسَبُ فَأَنْزَلْنَا هُدًى لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ حَسَنَةٌ وَلَذَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيْسَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَمَسَّ فِيهَا مَا يَشَابُهَ مَثْوًى كَذَلِكَ يُجْرَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ تَوَدَّعُهُمْ اللَّامِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُوتُونَ ﴿٣٤﴾.

قرى: تتوفاهم بالثناء والياء، وقرى: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء ﴿فالقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا ورجأوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعُدوان، فرد عليهم أولوا العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة، وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم... خيراً﴾ أنزل خيراً.

فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعمثوا واطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً، وأولئك عللوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصلته وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً، وقوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ وما بعده، بدل من خيراً حكاية لقوله: الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاها، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحموا عليه ﴿حسنة﴾ مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ (2) ﴿ولنعلم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم نكرة، و﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي انفسهم﴾، ويقولون سلام عليكم، قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ اللَّامِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَسَابَهُمْ سِحَابٌ مَاءً عَائِلُوا وَكَانَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصداً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأن المضل والضال شريكان هذا يضلله وهذا يطاوعه على إضلاله فيتحملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضاً كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ بَيِّنَتُهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنَ قُوَّتِهِمْ وَأَنتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾.

القواعد أساطين البناء التي تعمده وقيل: الأساس، وهذا تمثيل يعني: أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنياناً وعمده بالأساطين فأتى البنين من الأساطين بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وهلكوا، ونحوه: من حفر لأخيه جُباً وقع فيه منكباً، وقيل: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فاهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرى: فأتى الله بيتهم فخر عليهم السقف بضمين.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَكَّرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا آيَاتَهُ إِنَّ الْخَيْرَ لَمِنَ اللَّهِ وَالشَّوْءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿يجزيهم﴾ بئلهم بعداب الخزي: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت﴾ (1) يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائهم﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعاون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرى: تشاقون بكسر التون بمعنى: تشاقونني؛ لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة.

الَّذِينَ تَوَدَّعُهُمْ اللَّامِكَةُ طَالِحٍ أَنفُسِهِمْ قَالُوا لَنْ نَسَلَّ مَا كُنَّا نَمَلُّ مِنْ سَوْمِ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُونَ ﴿٣٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ

يَسْتَهْرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ قَوْلَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

من أهل اللطف ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي:
ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً
على الكفر لا يأتي منه خير ﴿فسيروا في الأرض
فانظروا﴾ ما فعلت بالمكذبين، حتى لا يبقى لكم شبهة في
أني لا أقدر الشر ولا أشاؤه حيث أقعل ما أقعل بالأشعار.

إِنْ تَحَرَّضَ عَنْ هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَصِيرَةٍ ﴿٢٧﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على
إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة وأنه
﴿لا يهدي من يضل﴾ أي: لا يلفظ بمن يخذل لأنه عبث،
وأنه تعالى متعال عن العبث لأنه من قبيل القبائح التي
لا تجوز عليه، وقرئ: لا يهدي أي: لا تقدر أنت ولا أحد
على هدايته وقد خذله الله، وقوله: ﴿وما لهم من
ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان الذي
هو: نقيض النصر، ويجوز أن يكون لا يهدي بمعنى:
لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدي، وفي قراءة أبي فإن الله
لا هادي لمن يضل، ولمن أضل، وهي معاضدة لمن قرأ
لا يهدي على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله يهدي
بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ: يضل
بالتفتح. وقرأ النخعي: إن تحرض بفتح الراء وهي لغية.

وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَمَعْتُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ يُبَيِّنُ لَهُمْ الَّذِي
يَحْتَلِفُونَ بِهِ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٢٩﴾

﴿واقسموا بالله﴾ معطوف على ﴿وقال الذين
أشركوا﴾ (3) إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان
حقيقتان بأن تحكيا وتدوئا توريك ذنوبهم على مشيئة الله،
وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد
النفي أي: بلى يبعثهم. ووعد الله مصدر مؤكد لما دل عليه
بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أن الوفاء بهذا الموعد
حق واجب عليه في الحكمة ﴿ولكن أكثر الناس
لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله

يَسْتَهْرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ قَوْلَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

﴿تأنيدهم الملائكة﴾ قرئ: بالتاء والياء يعني: أن تأنيدهم
لقبض الأرواح و ﴿أمر ربك﴾ العذاب المستاصل، أو
القيامة ﴿حكلك﴾ أي: مثل تلك الفعل من الشر والتكذيب
﴿فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم
﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ لأنهم فعلوا ما استوجبوا
به التدمير ﴿سيئات ما عملوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم، أو
هو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (1) هذا من جملة ما
عدد من أصناف كفرهم وعنادهم من شركهم بالله وإنكار
وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث واستعجاله
استهزاء منهم به، وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم واستكبارهم
عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرموا ما
أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم
إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه
﴿حكلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: أشركوا وحرموا
حلال الله، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم
﴿فهل على الرسل﴾ إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء
الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان
الشرك وقبحه، وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم
فأعلوا بقصدهم وإزانتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم
على جميلها وموقفهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم
عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ يَتَّبِعُهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمَنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٢٦﴾

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشية الشر بأنه ما من
أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو:
الإيمان وعبادة الله، واجتناب الطاغوت الذي هو: طاعة
الطاغوت ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أي: لطف به؛ لأنه عرفه

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) قال أحمد: قد تكرر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المقامة في
سورة الأنعام، وقد قنمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي
زاده هنا يثبت معتقده على ما زعمه بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في
كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ووجه تمسكه به
أن الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين، مأمور به ومنهى عنه،
والأمر والنهي عند المصنف، راجعان إلى المشيئة بناء على زعم
القدرية في إنكار كلام النفس، وحمل الاقتضاء على الإرادة،
فالحاصل حينئذ من هذه التهمة أن الله شاء عبادة الخلق له، وشاء
اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر
بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم،
فجاءت التهمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها،
هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أن مبناه على إنكار =

= كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً، والعجب أن الله تعالى
أوضح في الآيتين جميعاً، أن الذي إنكره من القائلين لو شاء الله
ما أشركنا، إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي
لا حجة لهم فيها مع ما خلق لهم من الاختيار، بقوله ههنا
﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ ويقول في
آخر آية الأنعام: ﴿فإنه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾
فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة ولو شاء
هدايتهم أجمعين، لاهتدوا عن آخرهم، وحصل من هذا البيان
صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو
الذي قمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أن حججهم
في تلك داحضة، والله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(3) سورة النحل، الآية: 35.

يعلمون ﴿الضمير للكفار أي: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزالوا في اجتهادهم وصبرهم.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦﴾

﴿الذين صبروا﴾ على هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي: صبروا على العذاب، وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّحْيِيهِم مِّمَّا تَشَاءُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ ﴿١٧﴾ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ على السنة الملائكة ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً.

فإن قلنت: بم تعلق قوله: ﴿بالبينات﴾؟ قلت: له متعلقات شتى، فلما ان يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيداً بالسوط، وإما برجالاً صفة له أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بأرسلنا مضمراً كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأول على كلام واحد، وإما بيوحي أي: يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبيكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة، وأهل الذكر أهل الكتاب، وقيل للكتاب: الذكر لأنه موعظة وتنبية للغافلين ﴿ما نزل إليهم﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾ وإرادة أن يصفوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَحْبَفَ اللَّهُ بِهِمَ الْأَرْضَ أَوْ لِيَأْتِيَهُمُ الْمَدَائِدُ مِنَ سَحَابٍ لَا يُغْمَرُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ لِيَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ مَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٠﴾ أَوْ لِيَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾

﴿مكروا السيئات﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿في تقليبهم﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿على تخوف﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخوتته

لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل، ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دل عليه بلى، أي: يبعثهم ليبين لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كتبوا في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ (١) وفي قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ (٢) أي: بعثنا ليبين لهم ما اختلفوا فيه وإنهم كانوا على الضلالة قبله مفتريين على الله الكتب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ يَكُونُ ﴿٢٢﴾

﴿قولنا﴾ مبتدأ ﴿وإن نقول﴾ خبره ﴿وكن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى حدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: حدث فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل: لأن مراداً لا يمتنع عليه وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثم والمعنى: أن إيجاد كل مقدر على الله تعالى بهذه السورة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدرات، وقرئ: فيكون عطفاً على نقول.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِيَنَّ الْأَخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٢٣﴾

﴿والذين هاجروا﴾ هم: رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، وقيل هم: الذين كانوا محبوسين معنيين بعد هجرة رسول الله ﷺ، وكلما خرجوا تبعوهم فربوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه، فكيف ﴿في الله﴾ في حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر أي: لنبوانهم تيوثة حسنة، وفي قراءة علي رضي الله عنه: لنتوئينهم، ومعناه: أتواة حسنة، وقيل: لنتوئينهم في الدنيا منزلة حسنة وهي: الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعد ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبوانهم مباءة حسنة وهي: المدينة حيث أوامه أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا﴾

إذًا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن
أي: بأخذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شيء في
أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه
قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من
هنبل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف
العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا، وأنشد
البيت. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا:
وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم
﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم، ولا
يعاجلكم مع استحقاقكم.

أَوْلَتْ بَرًّا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ يَنْفِيئُ ظِلْمَهُ عَنِ الْيَوِينِ
وَالشَّمَايِلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهُوَ دَرَجُونَ ﴿٤٨﴾

قري: أولم يروا ويتفياؤا بالياء والتاء. وما موصولة
بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفياؤا ظلالة﴾
واليمين بمعنى: الأيمان و ﴿سجداً﴾ حال من الظلال
﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير في ظلالة لأنه في
معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع
بالواو لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة
ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أولم يروا إلى ما خلق الله
من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن إيمانها وشماثلها أي:
عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين
الإنسان وشماله لجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب
إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من
التفياؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة
لأفعال الله فيها لا تمتنع.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ
وَهُمْ لَا يَسْكَرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿من دابة﴾ ويجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما
في الأرض جميعاً، على أن في السموات خلقاً لله يديون
فيها كما يذب الاناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في
الأرض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له
الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده ويراد بما في

السموات الملائكة، وكَرَّرَ نكرهم على معنى: والملائكة
خصوصاً من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعيدهم،
ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهم ويقوله:
والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قُلْتُ (1): سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام
خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟
قُلْتُ: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وسجود
غيرهم انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا
السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن
يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قُلْتُ: فهلا جيء بمن دون ما تغليباً للعقلاء من
الدواب على غيرهم؟ قُلْتُ: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه
ليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجاء بما هو
صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم.

﴿يخافون﴾ (2) يجوز أن يكون حالاً من الضمير في
لا يستكبرون أي: لا يستكبرون خائفين وأن يكون بياناً
لنفي الاستكبار وتأكيداً له؛ لأن من خاف الله لم يستكبر
عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون فمعناه:
يخافونه إن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته
بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عالياً قاهراً كقوله:
﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ (3) ﴿وأنا فوقهم قاهرون﴾ (4)
وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر
والنهي، والوعد والوعيد، كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف
والرجاء.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا بِالْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّهُمُ اللَّهُ وَرَبُّهُمُ الرَّحْمَنُ
فَأَرْهَبُونَ﴾ (٥١).

فإن قُلْتُ: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء
الواحد والاثنتين فقالوا: عندي رجال ثلاثة، وأقراس أربعة؛
لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل
ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد،
فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد، ورجلان اثنان، فما وجه
قوله (5): ﴿الهيبن اثنتين﴾؟ قُلْتُ: الاسم الحامل لمعنى الأفراد
والثنائية دال على شيتين: على الجنسية؛ والعدد المخصوص.
فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي يساق إليه

(1) المذكور فيها منسوباً للمكلفين، وهو الفعل الخاص المتعارف
شرعاً، الذي يكون نكره سبباً لفعله سببياً معتادة في عزائم
السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

(2) قال أحمد: هذا هو الوجه الثاني ليس الأول، وأما الحال فيعطي
انتقالاً، ويوهم تقيد العدم استكبارهم، مع أن الواقع أن عدم
استكبارهم مطلق، غير مقيد بحال، والله موفق.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 18 و 61.

(4) سورة الأعراف، الآية: 127.

(5) قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله
الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد
لحقيقته، ومجاهزه شمولاً، ولم ير ذلك متناقضاً، فإن السجود
يتناول فعل المكلف حقيقة، ويتناول حال غير المكلف بطريق
مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك
في مواضع مرتت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أن
السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف، وحال غير
المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرة، وغرضه من ذلك أن يكون
اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة
والمجاز؛ لأنه يابى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية، والله
أعلم، لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود =

تَفَرَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿لما لا يعلمون﴾ أي: لأكثرهم ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها، وقيل الضمير في لا يعلمون للآلهة أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم نلك تقريباً إليهم ﴿لتستلن﴾ وعيد ﴿عما كنتم تفترون﴾ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَعْمَلُونَ لِيَلْبِسَ رَبُّكُمُ الصُّلُوبَ وَاللَّيْمَانَ يَنْزِيلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ آيَاتٍ لِلسَّاعَةِ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْغُرُوبِ مِنْ سَوَاءِ مَا بَشَّرَ بِهِ أُمُّهُ عَلَىٰ هَيْبَةٍ مِنَ الرَّأْبِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني: البنين، ويجوز في ما يشتهون الرفع على الابتداء والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور و﴿ظل﴾⁽²⁾ بمعنى: صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتماً مريد الوجه من الكتابة والحياة من الناس ﴿وهو كظيم﴾ مملوء حقناً على المرأة ﴿يتوارى من لقوم﴾ يستخفي منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ومن أجل تعبيرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به ﴿على هون﴾ على هوان وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أم يثده. وقرئ: أيمسكها على هون، أم يدسها على التراب، وقرئ: على هوان ﴿الأساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث وأودهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ووالله المثل الأعلى﴾ وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.

وَلَوْ يُرِيدُ اللَّهُ الْفِتْنَةَ لَكُنَّا لَهُ سَاجِدِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾

﴿يظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ما ترك عليها﴾ أي:

الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية ﴿فإياي فارهبون﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وجاز لأن الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكُمُ الْيَوْمَ رَاحِبٌ أَنَّ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿الذين﴾ الطاعة ﴿وواصباً﴾ حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأن كل نعمة منه، فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفاً، أو وله الجزاء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول. يعني: والثواب العقاب.

وَمَا يَكُمُ مِنْ يَمَعٍ فَمِنْ أَنتُمْ إِذَا مَسَّكُمْ الْأَمْرُ فِإِلَيْهِ يَجْتَرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ﴿فإليه تجارون﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهباً:

يرأوح من صلوات الملبس كطوراً سجدوا وطوراً اجزوا
وقرى: تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها على الجيم.

ثُمَّ إِذَا كَفَّ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾

وقرأ قتادة: كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو: أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان لا للتبويض، كأنه قال: فإذا فريق كافروهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾⁽¹⁾.

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَعُوا سَوَوْا سَلْمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد، وقرئ: فيمتعوا بالياء مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، ويجوز أن يكون ليكفروا فيمتعوا من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

وَيَعْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَبِيًّا مِمَّا رَفَعْتَهُمُ اللَّهُ لَسْتُ أَنْتَ عَمَّا كُنْتُمْ

(1) سورة لقمان، الآية: 32.

(2) قال أحمد: وجاز أن يراد: الظلول نهاراً، لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي يتغابى =

= على البصر شيء إلى السماء، لتماموا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا إِشْرِيًّا لِمَنْ أَلْفَلَقُوا فِيهِ وَهَدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ
بَدَدًا مَوْتًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾.

﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبيين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. وبخل اللام على للبين؛ لأنه فعل المخاطب لأفعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلن. والذي اختلفوا فيه البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار. ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأن من يسمع بقلبه فكأنه أصم لا يسمع.

وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْثَرِ لَمِيزَةً تُشِيرُكَ بِنَا فِي بُطْرَيْهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْهِ وَدَرِّ لَبْنَا
حَالِصًا سَاهِبًا لِلشَّرِيرِينَ ﴿١٧﴾.

نكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وأما ﴿في بطونها﴾⁽⁵⁾ في سورة المؤمنين فلأن معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكثير نعم كاجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم فإذا نكر فكما ينكر نعم في قوله:

في كل عام نعم تحورنه يلقحه قوم وتنتجونه
وإذا أنت ففيه، وجهان: أنه تكسير نعم وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم وهو استئناف كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم ﴿من بين فرث ودم﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفل فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع وتبقي الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته والطف حكمته لمن تفكر وتأمل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سائغاً﴾ سهل المرور في الحلق ويقال: لم يخص أحد باللبن قط، وقرئ: سيغاً بالتشديد وسيغاً بالتخفيف كهين ولين.

على الأرض ﴿من دابة﴾ قط، ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضُرُّ إلا نفسه، فقال: بلى والله حتى أن الحباري لتموت في وكرها بظلم الظالم⁽¹⁾، وعن ابن مسعود: كاد جعل يهلك في حجره بنخب ابن آدم أو من دابة ظالمة⁽²⁾، وعن ابن عباس: من دابة: من مشرك يب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيَسْمَعُونَ لِلَّهِ مَا يَكْفُرُونَ وَصِفَ آيَاتُهُمُ الْكُذُوبَ أَنَّ لَهُمْ
لَسُنًّا لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ أُنثَارًا وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكفرون﴾⁽³⁾ لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلمهم، والتهاون برسالاتهم ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف السننهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾⁽⁴⁾ وعن بعضهم أنه قال لرجل من نوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما نفع إلى السلاطين وأعاونهم؟ فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال: هاتوا ما نفع إلي؟ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: ﴿أن لهم الحسنى﴾ هو قول قريش: لنا البنون وإن لهم الحسنى بدل من الكذب. وقرئ: الكذب جمع كذوب صفة للأسنة ﴿مفراطون﴾ قرئ: مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً، فالمفتوح بمعنى: مقدمون إلى النار معجلون إليها من أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي، والمشدد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

ثَاوُلَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ النَّبِيَّاتِ أَعْمَلَهُمْ
فَهُوَ وَرِثَتِهِمُ الْآزِمُ وَكُفْرَ عَدَابُ آيَةٍ ﴿١٧﴾.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى وليهم: قرينهم وبئس القرين، أو يجعل ﴿فهو وليهم لليوم﴾ حكاية للحال الآتية وهي: حال كونهم معذبين في النار أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف

== كابين عمر ونظرائه، ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون، اللهم إن لم نزل رتبة أولياك، فإنا نأحب محبتهم، فمن أحب قوماً حشر معهم.

(4) سورة فصلت، الآية: 50.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 21.

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طاعة أولي الأمر، فصل: في نكر ما ورد من التشديد في الظلم (الحديث رقم: 7479).

(2) رواه ابن أبي شيبة 301/1، كتاب الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(3) قال أحمد: ونقيض هؤلاء، من إذا أعجبه شيء من ماله، جعله لله، بل إذا أحب أمة له، اعتقها، وإذا اشتبه طمعاً قدم إليه، تصدق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، ==

روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به؟ فأبى، فقيل له: فقد صنعت في تحليله فقال: تناولته الدعارة فسمح في المروءة، وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي: تنقلت بأعراضهم، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابتكر في أعراض الناس فكانه تخمر بها. والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا كأنه قيل: تتخون منه ما هو سكر وندق حسن.

وَأَرِجِي رَيْكُ إِلَى الْفَلَّيْ أَنْ أَتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا بَعْرُشُونَ ﴿٧٧﴾

الإيحاء إلى النحل إلهامها والقنف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنقيتها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل بيّنة شاهدة على أن الله أودعها علمًا بذلك وفطنها كما أولى أولي العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب: إلى النحل بفتحيتين وهو منكر كالنخل وتأتيه على المعنى «أن اتخذني» هي: أن المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول. قرئ: بيوتًا بكسر الباء لأجل الياء، ويعرشون بكسر الراء وضمها يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تنفصل فيها، والضمير في يعرشون للناس.

فإن قُلْتَ: ما معنى من في قوله: «أن اتخذني من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون» وما قيل في الجبال وفي الشجر؟ قُلْتَ⁽³⁾: أريد معنى: البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها.

ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا فَسُرَّاتٍ يَخْتَلِفُ أَلْوَانُهَا فِيهَا سِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٨﴾

«من كل الثمرات» إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهيها فإذا أكلتها «فاسلكي سبل ربك» أي: الطرق، متى ألهمك وأقهمك في عمل العسل، أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتَ: الأولى: للتبعيض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبًا، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأن بين الفرث، والدم مكان الإسقاء الذي منه يبدأ فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالًا من قوله: لبنا مقدمًا عليه فيتعلق بمحذوف أي: كأننا من بين فرث ودم، إلا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبنا من بين فرث ودم كان صفة له وإنما قدم، لأنه موضع العبارة فهو قمن بالتقديم، وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجسًا لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول، وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرًا.

وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ نَجْدُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: «ومن ثمرات النخيل والأعناب»؟ قُلْتَ: بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي: من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: «تتخون منه سكرًا» بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتخون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون تتخون صفة موصوف محذوف كقوله: بكفي كان من أرمي البشر، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ لأنهم ياكلون بعضها ويتخون من بعضها السكر.

فإن قُلْتَ: فالإلام يرجع الضمير في «منه» إذا جعلته ظرفًا مكرّرًا قُلْتَ: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجح في قوله تعالى: «أو هم قائلون»⁽¹⁾ إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرًا نحو رشد رشدًا ورسدًا قال:

وجأؤنا بهم سكر علينا فاجلى اليوم والسكران صاحي وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل السكر: النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر، ويحتج بهذه الآية، وبقوله ﷺ: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»⁽²⁾. وبأخبار جمّة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قس الله

(1) سورة الأعراف، الآية: 4.

(2) العقباني في الضعفاء والنسائي: في السنن الكبرى.

(3) قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الرمخشري، في تبعيض من المتعلقة باتخاذ البيوت، بإطلاق الأكل، كأنه تعالى، وكل الأكل إلى شهوتها، واختيارها، لم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛

= لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه، وأما البيوت، فلا تحصل مصلحتها في كل موضع، ولهذا المعنى دخلت، ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسطه، ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان الطيف الخبير.

فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساوا في الملبس والطعم، كما يحكى عن أبي نر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون»⁽⁴⁾. فما روي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت⁽⁵⁾.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كَفَرَ فَأُتِيَ الرِّزْقَ يَرْزُقُهُ رَبُّهُ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِجَمْدُونَ ﴿٧١﴾

﴿أفبينعمة الله يجحدون﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبديكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبدي لي شركاء؟ وقيل: المعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على ممالئكم من عندهم شيئاً من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ: يجحدون بالتاء والياء.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَمِمَّا يَنْزِلُ فِي الرِّزْقِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَبْغُوا فِيهِ الْمَالِ الْكَثِيرَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ رَبِّقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ شَيْئًا ﴿٧٣﴾

﴿وبن أنفسكم﴾ من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي: يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت. وإليك نسعى ونحفد

وقال:

حفد الولائد بينهن وأسلمت باكفهن أزمة الأجمال

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: ﴿سكراً ورزقاً حسناً﴾⁽⁶⁾ كانه قيل: وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون أي: جامعون بين الأمرين ﴿من الطبيبات﴾ يريد بعضها؛ لأن كل الطبيبات في الجنة، وما طبيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿أقبالباطل يؤمنون﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه ببليل ولا أمانة، فليس لهم

المز عسلاً من أجوافك ومنافذ مأكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجند عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: ثم كلي: ثم اقتصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ﴿نللاً﴾ جمع نلول وهي حال من السبل؛ لأن الله نلها لها ووطأها وسهلها كقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض نلولا﴾⁽¹⁾ أو من الضمير في فاسلكي أي: وأنت نلل منقاداً لما أمرت به غير ممتنعة ﴿شراباً﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب ﴿مختلف اللونه﴾ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ﴿فيه شفاء للناس﴾ لأنه من جملة الأشفية والألوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لمن ينكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل نواء كذلك، وتنكيره إما بتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ: «إن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكى بطنه فقال: اذهب واسقه العسل. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع؟ فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبراً كأنما أنشط من عقال»⁽²⁾، وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصور، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل⁽³⁾، ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: علي وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوة من أضحيتهم.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ رِزْقِهِ إِنَّ أَرْذَلَ أَلْمُرِّ لِكَيْ لَا يَكْفُرَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٤﴾

﴿إلى أزدل العمر﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، وعن علي رضي الله عنه: وتسعون سنة، وعن قتادة لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه أي: جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مما ليحكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا

(1) سورة الملك، الآية: 15.

(2) رواه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (الحديث رقم: 5684).

(3) رواه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (الحديث رقم: 3452) والحكم في المستدرک 200/4.

(4) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: قول النبي ﷺ «العبيد=

= إخوانكم فاطعموهم ما تاكلونه (الحديث رقم: 2545)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما ياكل (الحديث رقم: 4289).

(5) قال الزيلعي: ليس في الحديث وإنما هو من كلام المصنف 2/ 229.

(6) سورة النحل، الآية: 67.

أَكْرَهُمْ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَرَبَّ اللَّهِ مَثَلًا لِّمَنْ أَكْرَهُمَا أَبْغَضَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُرْجَاهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْكَذِبِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ (1) تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال وقصة بقصة ﴿إن الله يعلم﴾ كنه ما تغفلون وعظمه وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأن العقاب على مقدار الإثم ﴿وانتم لا تعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجراكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وانتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حراً له قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلْت: (2) لم قال ﴿مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف قلْت: أما نكر المملوك فليميز من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مانون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصح له.

فإن قلْت: من في قوله: ﴿ومن رزقناه﴾ ما هي؟ قلْت: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل: وحرراً رزقناه ليطابق عبداً، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قلْت: لم قيل ﴿يستون﴾ على الجمع؟ قلْت: معناه:

إيمان لا به كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله: المشاهدة المعينة التي لا شبهة فيها لذي عقل، وتمييزهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقل، وقيل: الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم الرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أرئت المصدر نصبت به ﴿شيئاً﴾ كقوله: أو إطعام يتيماً على لا يملك أن يرزق شيئاً، وإن أرئت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك شيئاً من الملك. ومن السموات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرًا بمعنى لا يرزق من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً، أو صفة إن كان اسماً لما يرزق والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قيل: لا يملك على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو الباب من ذلك شيئاً فكيف بالجماد الذي لا حس به.

فإن قلْت: ما معنى قوله: ﴿ولا يستطيعون﴾؟ بعد قوله: ﴿لا يملك﴾ وهل هما إلا شيء واحد؟ قلْت: ليس في لا يستطيعون تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً لأنهم موت، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكو، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَرَبَّ اللَّهِ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ رِزْقًا وَجْهَرًا هَلْ يَسْتَوِي الْكَلِمَةُ لِلَّهِ بِالْ

فبينني على القول بأن المراد بعدم القدرة: عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المانون له مالاً عند هذا القائل، وهذا بعيد عن مطابقة قوله: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فإنها توجب إن يكون المراد بقوله لا يقدر على شيء: لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي: لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه، فنلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول هذه الصفة لازمة، كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفة اللازمه له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء، أي: لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة، لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إليها نحر برهان له به﴾ فقوله: ﴿ولا برهان له به﴾ لا يقصد به تمييز له سوى الله من إله لأن كل مدعو لها غير الله تعالى لا برهان به، وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد، ولنا أن نقول في نذعة، أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد، وأما الوارد من ذلك لازماً، فنأثر على خلاف الأصل، والله الموفق.

(1) قال أحمد: فعلى تفسيره الأول يكون قوله له متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله، ولا تشبهوه، وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل، إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم، وانتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وفي هذه الآية له معتمض: لأن الله تعالى مثل بالمملوك؛ لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود، وهو: أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده، فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في العماليك، عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى لا يقدر على شيء، كالتكرار لما فهم من قوله عبداً مملوكاً، وقول القائل، يقول: إنه احتراز من المكاتب بعيد من فصاحة القرآن، فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البيت، إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن، واستيلائه على صنوف البلاغة، ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيا امرأة نكحت بغير إذن وليها على المكاتب، لبعده القصد إليها على شئونها، وأما الاحتراز به عن المانون له، =

هل يستوي الأحرار والعبيد.

الأبكم الذي ولد أحرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وهو كلّ على مولاه﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿لئنا يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لا ينفق ولم يأت بنجح ﴿هل يستوي هو ومن﴾ هو سليم الحراس نفاعاً نو كفايات مع رشد وديانة فهو ﴿يامر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته والطفه ونعمه اللبينة والنبوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: أينما يوجهه بمعنى: أينما يتوجه من قولهم: أينما أوجه الق سعداء، وقرأ ابن مسعود: أينما يوجه على البناء للمفعول.

وَلَوْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُنزِلَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

ووش غيب السموات والأرض: أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقرايه، ونحوه قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب وإن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾ (1) أي: هو عنده دن وهو عنكم بعيد، وقيل المعنى: إن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدرات، ثم دل على قدرته بما بعده.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُسَيِّرُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

قرئ: أمهاتكم بضم الهمزة وكسرهما والهاء مزيدة في أمات كما زيدت في أراق فقيل: أهراق وشذت زيادتها في الواحدة قال:

أمهتي خندف والياس أبي

﴿لا تعلمون شيئاً﴾ في موضع الحال، ومعناه: غير

عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وجعل لكم﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولتتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعكم. والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرت تلك المجرى.

قرئ: ألم يروا بالتاء والياء ﴿مسخرات﴾ مثللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المتواتية لذلك، والجو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو، والسكاك أبعاد منه، واللوح مثله ﴿ما يمسكهن﴾ في قبضهن وبسطهن وقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُدُرِ الْآخِثِرِ بُيُوتًا تَنْصِفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِتْيَانِكُمْ وَمِنْ أَمْوَالِهَا وَأَنْبِيَائِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ جِوَيْنِ ﴿٨٠﴾

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها، والسكن فعل بمعنى: مفعول، وهو: ما يسكن إليه وينقطع من بيت أو ألف ﴿بيوتاً﴾ هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم طعنكم ويوم إقامتكم﴾ (2) أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون، وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً على أن اليوم بمعنى: الوقت ﴿ومتاعاً﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: يوم طعنكم بالسكون.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُم بِأَسْمِكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكناناً﴾ جمع كن، وهو: ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال، والغيران، والكهوف ﴿سرابيل﴾ هي القمصان (3) والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ لم ينكر البرد؛ لأن الوقاية من الحر أهم عندهم، وقلما يهتمم البرد لكونه يسيراً محتملاً، وقيل (4): ما بقي من الحر بقي من البرد، فدل نكر الحر على البرد

(1) سورة الحج، الآية: 47.

(3) قال أحمد: يعني عند العرب، وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(4) قال أحمد: والأول أظهر، إلا ترى إلى تقديم لمنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر، فامتد الله عليهم بأعظم

(2) قال أحمد: والتفسير الأول أولى؛ لأن ظهور المنعة في خفتها، إنما يتحقق في حال السفر، وأما المستوطن؛ فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم، إن المراد: خفة ضربها، وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾
كقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة فتنبهتهم﴾ (1) الآية.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا
الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦).

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا
التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين؛ فلأنهم
شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي و ﴿ندعوا﴾
بمعنى: نعبد.

فإن قلت: لم قالوا ﴿إنكم لكانبون﴾ وكانوا يعبدونهم
على الصحة؟ قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان
عبادتهم لم تكن عبادة واللبليل عليه قوله الملائكة: ﴿كانوا
يعبدون الجن﴾ يعنون: أن الجن راضيين بعبادتهم لا نحن
فهم المعبودون نوننا، أو كنبوهم في تسميتهم شركاء
وألهة تنزيهاً لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء الشياطين
جاز أن يكون كاذبين في قولهم: إنكم لكانبون كما يقول
الشیطان: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾ (2).

وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْطَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧).

﴿والقوا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام
لامر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضل
عنهم﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الله شركاء
وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كنبوهم وتبرؤا منهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ (٨٨).

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم. وحملوا غيرهم على
الكفر. يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في
زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال
تلسع إحداهن للسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريقاً،
وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبارون من شدة
برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين
الناس بصددهم عن سبيل الله.

وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَاكَ عَلَى الْكُتُبِ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى
رَحْمَةً وَبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ (٨٩).

﴿شهاداً عليهم من أنفسهم﴾ يعني: نبينهم؛ لأنه كان
يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿ووجئنا بك﴾ يا محمد

﴿وسراييل تقيكم باسكم﴾ يريد الدروع والجواشن،
والسريال عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره
﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه الفاضلة
فتؤمنون به وتتقانون له، وقرئ: تسلمون من السلامة أي:
تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم من الشرك،
وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ (٩٠) يَمْرُقُونَ فَمَتَّ اللَّهُ نُورَ
يُكْرِمُونَ وَأَكْرَمَهُمُ الْكَبِيرُونَ (٩١).

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عنك بعد ما
أبيت ما وجب عليك من التبليغ، فنكر سبب العذر وهو:
البلاغ ليدل على المسبب.

﴿يعرفون نعمت الله﴾ التي عدناها حيث يعترفون بها
وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها
وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم
قولهم: ورثناها من آباؤنا، وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت
كذا لبعض نعم الله، وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم
يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً
في نيلها ﴿واكثرهم الكافرون﴾ أي: الجاحسون غير
المعترفين، وقيل: نعمة الله نبوة محمد عليه السلام كانوا
يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحسون المنكرون
بقلوبهم.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثم﴾؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم
أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة
أن يعترف لا أن ينكر.

وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ (٩٢) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّئْ عَنْهُمْ وَلَا
هُمْ يُنظَرُونَ (٩٣).

﴿شهاداً﴾ نبياً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق
والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في
الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإنز على أن
لا حجة لهم ولا عذر وكذا عن الحسن ﴿ولا هم
يستعتبون﴾ ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم أرضوا
ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قلت: فما معنى ﴿ثم﴾ هذه؟ قلت: معناها: أنهم
يؤمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها وهو: أنهم
يؤمنون الكلام فلا يؤنون لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء
بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره وانكر يوم نبعث، أو
يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب

(1) سورة الانبياء، الآية: 40.

(2) سورة سبأ، الآية: 41.

= نعمه موقعاً عندهم، وقول القائل: إن ما بقي الحرّ بقي البرد،
مشهود عليه بالعرف، فإن الذي يتقي به الحرّ من القمصان،
رقيقها ورقيقها، وليس نلك من لبوس البرد؛ بل لو لبس الإنسان
في كل واحد من الفصلين، القيط والبرد، لباس الآخر، يعدّ من
التقلاء.

﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ على أمك ﴿تَبَيَّنًا﴾ بيانًا بليغًا، ونظير تبيان تلقاء في كسر أوله، وقد جَوَزَ الزَّجَاجَ فَتَحَهُ في غير القرآن.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ كَانَ الْقُرْآنُ تَبَيَّنًا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؟ قُلْتُمْ: الْمَعْنَى أَنَّهُ بَيِّنٌ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ حَيْثُ كَانَ نَصًّا عَلَى بَعْضِهَا وَإِحَالَةً عَلَى السَّنَةِ حَيْثُ أَمْرٌ فِيهِ بِاتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَطَاعَتِهِ، وَقِيلَ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (1) وَحَتَّىٰ عَلَى الْإِجْمَاعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) وَقَدْ رَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَمَتِهِ اتِّبَاعَ أَصْحَابِهِ وَالِاقْتِدَاءَ بِأَثَرِهِمْ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ بَأَيْمِهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ» (3). وَقَدْ اجْتَهَدُوا وَقَاسُوا وَوَطَّأُوا طَرِيقَ الْقِيَاسِ وَالِاجْتِهَادِ فَكَانَتِ السَّنَةُ وَالِإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ وَالِاجْتِهَادُ مُسْتَنْدَةً إِلَى تَبْيَانِ الْكِتَابِ، فَمَنْ ثَمَّ كَانَ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ (4).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يُطِيعُكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ (5).

العدل (5) هو الواجب؛ لأنَّ الله تعالى عدل فيه على عباده (6) فجعل ما فرضه عليهم واقعًا تحت طاعتهم ﴿وَالِإِحْسَانَ﴾ الندب، وإنما علق أمره بهما جميعًا؛ لأنَّ الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب (7)، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لَمَنْ عَلِمَهُ الْفِرَاطُ فَقَالَ: وَالله لَا زَيْتَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَّقَ» (8) فَعَقِدَ الْفَلَاحَ بِشَرَطِ الصَّدَقِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ التَّفْرِيطِ، وَقَالَ ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تَحْصُوا» (9). فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتْرَكَ مَا يَجْبِرُ كَسْرَ التَّفْرِيطِ

من النوافل. والفواحش (10) ما جاوز حدود الله ﴿وَالْمُنْكَرَ﴾ ما تنكره العقول ﴿وَالْبَغْيَ﴾ (11) طلب التناول بالظلم. وحين (12) أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري أنها كانت فاحشة ومنكرًا وبغيًا ضاعف الله لمن سنها غضبًا ونكالًا ومخزيًا إجابة لدعوة نبيه وعادي من عاداه (13)، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَالِغٌ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَلْجُذُونَ بِأَنْفُسِكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ إِنْ مَا يَلُوكُ اللَّهُ يَدَهُ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾.

عهد الله هي البيعة لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ على الإسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (14) ﴿وَلَا تَنْقُضُوا﴾ أيمان البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد وواكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل ﴿كفيلًا﴾ شاهدًا وريقيًا؛ لأنَّ الكفيل مراد لحال المكفول به مهيم عليه ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقض الأيمان كالمرأة التي انحثت على غزلها بعد أن أحكمتها وأبرمتها فجعلته ﴿انكاثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث قتله قيل: هي ربيعة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلاً قدر نزع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر، ثم تامرهن فينقضن ما غزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿بخلاف﴾ أحد مفعولي اتخذ يعني: ولا

= المحكوم بفلاحة لأجله، إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

(8) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان (الحديث رقم: 1891) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (الحديث رقم: 100).

(9) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسنتها باب المحافظة على الوضوء (الحديث رقم: 277) وأحمد في مسنده 277/5، والحاكم في المستدرک 1/130.

(10) قال أحمد: وهذه أيضاً لفظة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع، لوافق الحق، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقيق بالعقل، والله الموفق.

(11) قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومنه ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقاً خاصاً بطلب الظلم عرفاً.

(12) قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة لاحظ التطبيق بين نكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلي باغ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: «تتلك الفئة الباغية»، والله أعلم، فقتل مع علي يوم صفين.

(13) رواه الحاكم في المستدرک 3/190 وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 653).

(14) سورة الفتح، الآية: 10.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) سورة النجم، الآية: 3.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) رواه البيهقي في المنخل والدارقطني في غرائب مالك وفي المؤلف والمختلف (الزليفي 2/229 - 231).

(5) قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر، ما يدل لمن قال: إن صيغة الأمر، أعنى هذه المبنية من الهمزة، والميم، والراء، لا صيغة أفعل تتناول القبيلين بطريق التواطؤ، وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب، والله أعلم.

(6) قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال، ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق؛ لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال، والحق السنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه، وعدل منه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرته الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض، وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، ووجهه البالغة قائمة لى الكلف بما خلقه له من الثاني والتيسر في الأفعال الاختيارية، التي هي محال التكاليف، والله الموفق.

(7) قال أحمد: وهذه نكتة حسنة، يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام، بفلاح المصّر على ترك السنن، فيقال: =

﴿وتذوقوا السوء﴾ في الدنيا بصدولكم ﴿عن سبيل الله﴾ وخرجكم من الدين، أو بصلنكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وأرتنوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ في الآخرة.

كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعنونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبيلوا ﴿بعهد الله﴾ وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثمنا قليلاً﴾ عرضًا من الدنيا يسيرًا وهو؛ ما كانت قريش يعنونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إنما عند الله﴾ من إظهاركم وتغنيكم ومن ثواب الآخرة ﴿خير لكم... ما عندكم﴾ من أعراض الدنيا ﴿ينفد وما عند الله﴾ من خزائن رحمته ﴿بإق﴾ لا ينفد. وقرئ: ليجزي بالنون والياء ﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام.

فإن قلت⁽³⁾: لم وحدت القدم ونكرت؟ قلت: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قلت: ﴿من﴾ متناول في نفسه للذكر والانثى فما معنى تبيينه بهما؟ قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا نكر كان الظاهر تناوله الذكور فقيل ﴿من ذكر أو أنثى﴾ على التبيين ليعم الموعد النوعين جميعًا ﴿حياة طيبة﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر لقوله ﴿ولنجزيهم﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾⁽⁴⁾ وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فامرء على العكس إن كان معسرًا فلا إشكال في امره وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَعَنَ اللَّهُ مَن كَفَرَ بِهَا وَهُوَ يَدْعُ إِلَى الْكُفْرِ وَكَانَ كَافِرًا مِّمَّنْ لَعَنَ اللَّهُ مَن كَفَرَ بِهَا وَهُوَ يَدْعُ إِلَى الْإِيمَانِ ۚ سَبِيلَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَدْعُونَ ۚ

تنقضوا إيمانكم متخذينها نخلاً ﴿بينكم﴾ أي: مفسدة ودغلاً ﴿أن تكون أمة﴾ بسبب أن تكون أمة يعني: جماعة قريش ﴿هي أرى من أمة﴾ هي: أزيد عدلاً وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله: ﴿أن تكون أمة﴾ لأنه في معنى: المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أرى لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم وكدتم من إيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقروهم وضعفهم ﴿وليبينن لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾⁽¹⁾ حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قاصر على تلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضل ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصم عليه ﴿ويهدي من يشاء﴾⁽²⁾ وهو أن يطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإلجاء الذي لا يستحق به شيء من تلك وحققه بقوله: ﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ ولو كان هو المضطر إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملاً يستلون عنه.

وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِنَا دَعَالًا بَيْنَكُمْ فَرَلَّ قَدَمُ بَدِّ بُرْيَهَا وَتَدَوَّقُوا أَلْسُوهُ يَمَا صَدَدْتَر عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُرَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَلَا تَشْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكَرَ إِنْ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ۚ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ هُوَ مُؤْمِنٌ ۖ فَلَنُجْزِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

ثم كَرَّرَ النهي عن اتخاذ الايمان نخلاً بينهم تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها

(1) قال احمد: وهذا تفسير اعترزالي قد قدم امثاله في اخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من اللق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أن مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النص، ويقول: قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده، فإذا قبل له، فعلام تحمل المشيئة في الآية، قال: على مشيئة إيمانهم، فسراً لا اختياراً، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً.

(2) قال احمد: أما أهل السنة، يسميهم المصنف مجبرة، فهم من الإلجاء بمعزل؛ لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالا، =

(3) قال احمد: ومن جنس إفادة التنكير مهنا للتقليل، إفادته له في قوله تعالى: ﴿وتعيبها أن واعية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ فنكر الإذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس، لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

نسخ القرآن بها. في ينزل ونزله وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح، إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة ﴿وَرُوحَ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقتس، وحاتم الجود، وزيد الخير، والمقتس: المطهر من المأثم، وقرئ: بضم الدال وسكونها ﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال أي: نزله ملتبساً بالحكمة يعني: أن النسخ من جملة الحق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليلبثهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا، والحكمة حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمانينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرِ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتها لهم وإرشاداً وبشارة فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ: ليثبت بالتخفيف.

وَلَقَدْ سَأَلْنَا عَنْهُمُ بِقَوْلِكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ شَبِيهُ (١٢٣)

أرادوا بالبشر غلاماً كان لخويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرَّ وقف عليهما ما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان اللغة. ويقال: الحد القبر ولحده وهو ملحد ملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة حفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا: الحد فلان في قوله، والحد في بينه، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن بين إلى بين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ غير بين ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ نو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لظنهم. وقرئ: يلحدون بفتح الياء والحاء وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلَّت: الجملة التي هي قوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ ما محلها؟ قلَّت: لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم، ومثله قوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (3) بعد قوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾ (4).

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَاثِبِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

لما نكر العمل الصالح ووعده عليه وصل به قوله: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أريت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ (1) وكقولك: إذا أكلت قسم الله.

فإن قلَّت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلَّت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قوي وملازمة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن أم عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» (2).

إِنَّمَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٢٤)
إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِمَشْرُوكَاتِ (١٢٥)

﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿إنما سلطانه﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿به مشركون﴾ الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان على معنى بسببه وغروره ووسوسته.

وَإِذَا بَدَلْنَا آيَاتِنَا فَكُنَّا آيَاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَزَكَّىٰ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٢٦) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٢٧)

تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله: ﴿والله أعلم بما يتزكَّى﴾ إننا أنت مفتر. وجبوا مدخلا للظعن فظعنوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالاهون والاهون بالأشق والاهون بالاهون والأشق بالأشق؛ لأن الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

فإن قلَّت: هل في نكر تبدل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قلَّت: فيه إن قرأتنا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح

(3) سورة الأنعام، الآية: 124.

(4) سورة الأنعام، الآية: 124.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) نكره الثعلبي في تفسيره، الواحد في الوسيط (الزليعي 2/245).

بلحمه وبمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعلهم بما قلت» (3). ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاة وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

فإن قلت: أي: الأمرين أفضل أفعال عمار أم فعل أبويه؟ قلت: بل فعل أبويه؛ لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام. وقد روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فاعاد عليه ثلاثاً فاعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأول: فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني: فقد صدع بالحق فهنيئاً له» (4).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَمْرُهُمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿نلك﴾ إشارة إلى الوعيد وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم ﴿وإولئك هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة الذين لا أحد اغفل منهم؛ لأن الغفلة عن تدبير العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَرَسُوا ثَمَرَ هَاجَرُوا وَصَلُّوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿ثم إن ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك وهم عمار وأصحابه، ومعنى إن ربك لهم: أنه لهم لا عليهم بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عنوهم وخانلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محمياً منقوعاً غير مضور ﴿من بعد ما فتنوا﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: فتنوا على البناء للفاعل أي: بعد ما عنبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه ﴿من بعدها﴾ من بعد هذه الأفعال وهي: الهجرة والجهاد والصبر ﴿يوم تأتي﴾ منصوب برحيم أو بلضمار انكر.

فإن قلت: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ قلت: يقال لعين الشيء وأنته نفسه وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها

أَيْمٌ ﴿١٩﴾.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿ولا يهديهم الله﴾ لا يطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة لا من أهل اللطف والثواب.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ رد لقولهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾ (1) يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه ﴿وإولئك﴾ إشارة إلى قريش ﴿هم الكاذبون﴾ أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عانتهم الكذب لا يبألون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قلوبهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾ (2) ﴿من كفر﴾ بدل من: ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ على أن يجعل ﴿وإولئك هم الكاذبون﴾ اعتراضاً بين اللبيل والمبديل منه والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ أي: طاب به نفساً واعتقده ﴿فعليلهم غضب من الله﴾.

ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: أولئك على ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو: الكاذبون على وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوزوا أن يكون من كفر بالله شرطاً مبتدأ ويحذف جوابه؛ لأن جواب من شرح دال عليه، كانه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب. وروي أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة للكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم عنبوا، فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة قالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر وهما: أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً فقيل: يا رسول الله إن عملاً كافر، فقال: «كلا إن عملاً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلف الإيمان

(4) رواه ابن أبي شيبة 357/12 كتاب الجهاد، باب: المشركون يدعون

المسلمين.

(1) سورة النحل، الآية: 101.

(2) سورة النحل، الآية: 101.

(3) رواه الحاكم في المستدرک 284/3.

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقي عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمر رويك يا أبا عمر بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني وبونك فاعتجر منه بشطر
أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر فنظر إلى
المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه
لقليل: فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافي
الرداء إذا تبسم ضاحكاً ﴿وهم ظالمون﴾ في حال
التباسهم بالظلم كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي
أنفسهم﴾⁽⁵⁾ نعوذ بالله من مفاجأة النعمة والموت على
الغفلة. وقرئ: والخوف عطفاً على اللباس، أو على تقدير
حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله ولباس
الخوف وقرئ: لباس الخوف والجوع.

فَكَلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّكُرُوا بِمَتِّ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالَّذِمَّ وَكَحْمَ
الْخِزِيرِ وَمَا أَوْلَىٰ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَسْطَرَّ عَيْنَ بَيْعٍ وَلَا عَاوَىٰ فَايَكُ
اللَّهُ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٥﴾.

لما وعظهم بما نكر من حال القرية وما أوتيت به من
كفرها وسوء صنيعها وصل بذلك بالفاء في قوله:
﴿فكلوا﴾ صدهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة
التي كانوا عليها، بأن أمرهم بكل ما رزقهم الله من الحلال
الطيب وشكر إتمامه بذلك وقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾
يعني: تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة
الآلهة لأنها شفاعتكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله،
ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون
اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ
لِنَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ
اللَّهَ شَيْئًا ﴿١٣٦﴾.

وانتصاب ﴿الكذب﴾ بلا تقولوا على ولا تقولوا الكذب
لما تصفه السننكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم:

وذاتها فكانه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهيمه
شان غيره كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها:
الاعتذار عنها كقوله: ﴿هؤلاء أضلونا﴾⁽¹⁾ ﴿وما كنا
مشركين﴾⁽²⁾ ونحو ذلك.

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَرَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ إِسَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي: جعل القرية التي هذه
حالتها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة
فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قدرية
مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية
كانت هذه حالها فضرىها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل
عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لا يزعجها خوف؛ لأن الطمانينة مع
الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغداً﴾ وأسعاً.
والأنعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع والدرع،
أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث: «نادى منادي
النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا
تصوموا»⁽³⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽⁴⁾: الإذاعة واللباس استعارتان فما وجه
صحتهما، والإذاعة المستعارة موقعة على اللباس المستعار
فما وجه صحة إيقاعها عليه قُلْتُمْ: أما الإذاعة فقد جرت
عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما
يمس الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه
العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من
طعم المرِّ والبشع، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على
اللباس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث،
وأما إيقاع الإذاعة على لباس الجوع والخوف: فلأنه لما وقع
عبارة عما يغشي منهما ويلبس فكانه قيل: فاذاقهم ما
غشيه من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: لا بد
من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما.

أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نظر إليه
هنا، ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

(1) سورة الاعراف، الآية: 38.

(2) سورة الانعام، الآية: 23.

(3) قال الزيلعي: غريب جداً.

(4) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه، يستحق على علماء البيان أن
يكتبوه يتوب التبر، لا بالحر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله
تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم
وما كانوا مهتدين﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على
الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً
لشراء المستعار قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ فاستعمل التجارة =

= والريح، ليناسب تلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة
الأصلية المستعار لها قوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فإنه مجرد عن
الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا، وما كانوا مهتدين، لكان
الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في
بابه، كترشيع المجاز في بابهِ ومنه. إذا الشيطان قصع في قفاها.
تنقفاها بالحبل التؤام. فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً، ثم نافقاً،
ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثني، كما يستخرج الحيوان
من جحره، والشرط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق.

(5) سورة النحل، الآية: 28.

بالله وبعقابه، أو غير متبهرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم **﴿من بعدها﴾** من بعد التوبة **﴿كان أمة﴾** (3) فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم لكمالها في جميع صفات الخير كقوله:

وليس بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار.
والثاني: أن يكون أمة بمعنى مأموم أي يؤمّه الناس
ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتم به كالرحلة والنخبة وما
أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل
قوله: **﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾** (4) وروى الشعبي،
عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن ابن مسعود أنه قال: إن
معاذاً كان أمة قانتاً لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم فقال:
الامة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان
معاذ كذلك (5). وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حين قيل
له: ألا نستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، ولو
كان معاذ حياً لاستخلفته، ولو كان سالم حياً لاستخلفته،
فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه
الامة، ومعاذ أمة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة
إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله
لم يعصه» (6). وهو ذلك المعنى أي: كان إماماً في الدين؛
لأن الأئمة معلمو الخير. والقانت: القائم بما أمره الله.
والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى
عنه الشرك تكنيهاً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة
إبراهيم **﴿شاكراً لأنعمه﴾** روي: أنه كان لا يتغذى إلا مع
ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه، فإذا هو بفوج
من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخلوا
له أن بهم جذاماً فقال: الآن وجبت موالكتكم شكراً لله على
أنه عافاني وابتلاككم **﴿اجتباها﴾** اختصه واصطفاه للنبوّة
﴿وهده إلى صراط مستقيماً﴾ إلى ملة الإسلام
﴿حسنة﴾ عن قتادة هي: تنويه الله بذكره حتى ليس من
اهل دين إلا وهم يتولونه وقيل: الأموال والأولاد، وقيل:
قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم **﴿لمن
الصالحين﴾** لمن اهل الجنة.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْبِئْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
(١٣٧)

﴿ثم أوحينا إليك﴾ (7) في ثم هذه ما فيها من تعظيم

﴿هما في بطون هذه الأنعام خالصة لنكورتنا ومحرم على
أزواجنا﴾ (1) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله،
أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا
لما أحل الله هو حرام، وقوله: **﴿هذا حلال وهذا حرام﴾**
بدل من الكذب ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول
أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه السننكم فتقول: هذا حلال
وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بتصف وتجعل ما
مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا على ولا
تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف السننكم الكذب أي:
لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به السننكم ويجول
في أفواهكم لا لأجل حجة وبينه ولكن قول ساذج ودعوى
فارغة.

فإن قلت: ما معنى وصف السننهم الكذب؟ قلت: هو من
فصيح الكلام بليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه،
فإذا نطقت به السننهم فقد حلت الكذب بحيلته وصورته
بصورته كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف
السحر، وقرئ: الكذب بالجرّ صفة لما المصدرية كأنه قيل:
لوصفها الكذب بمعنى: الكاذب كقوله تعالى: **﴿بئس كذب﴾** (2)
والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ:
الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على
الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من
قولك: كذب كذاباً نكره ابن جنبي. واللام في **﴿لتفتروا﴾** من
التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

مَنْعَ قِيلٍ وَمَنْعَ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٣٧) وَعَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَمْنَا
عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٣٨) ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِحِمْطٍ مِّنْ تَائِبًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَحُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهِ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٣٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ
حَنِيفًا وَاَلَهُ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤١) وَمَا يَنْتَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا تَهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ
أَصْلَحِينَ (١٤٢)

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: منعتهم فيما
هم عليه من أفعال الجاهلية منفعه قليلة وعقابها عظيم
﴿ما قصصنا عليك﴾ يعني: في سورة الأنعام **﴿بجهالة﴾**
في موضع الحال أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين

(7) قال أحمد: وإنما تفيد ذلك، ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي
المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو
المرتبة، بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة، واشمخ محلاً مما
عطف عليه، فكانه بعد أن عُدّ مناقب الخليل عليه السلام، قال
تعالى وهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد
رفعة، وهو: أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر، متبع لملة
إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم،
ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا
التعظيم، أوفر وأكبر على ما مهننا، والله الموفق للصواب.

(1) سورة الأنعام، الآية: 139.

(2) سورة يوسف، الآية: 18.

(3) قال أحمد: ويقوي هذا الثاني قوله تعالى: **﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع
ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي: كان أمة تؤمّه الناس، ليقتبسوا منه
الخيرات، ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أتت على جلالة قدرك قد
أوحينا إليك أن اتبع ملته، ووافق سيرته، والله أعلم.

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) رواه الحاكم في المستدرک 271/3.

(6) لم يخرج الزيلعي.

طرق المجادلة من الرفق واللين من غير قظاظلة ولا تعنيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وإِنَّ عَابَتَهُ فَمَا يَوْمًا يَمِثُّ مَا عُوِثَتْ بِهِ وَلَكِنْ صَبْرَتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِي مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾

سمى الفعل الأوَّل باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيبوا عليه. وقرئ: وإن عقبتكم فعقبوا أي: وإن قفبتكم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحدًا غير ممثل به إلا حنظلة بن الرباهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرأه مقبور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرتني الله بهم لأمتلئن بسبعين مكانك»^(١). فنزلت. فكفر عن يمينه وكف عما أراه، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار «بالنهي عنها»^(٢) حتى بالكلب العقور. إما أن يرجع الضمير في ﴿لهو﴾ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم ويراد بالصابرين المخاطبون أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير اثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم كأنهم قيل: وللصبر خير الصابرين ونحوه قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾^(٣) «وأن تغفوا أقرب للتقوى»^(٤) ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿واصبر﴾ أنت، فعزم عليه بالصبر «وما صبرك إلا بالله﴾ أي: بتوفيقه وتثبيتته وربطه على قلبك ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: على الكافرين، كقوله: ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾^(٥) وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكافرون ﴿ولا تك في ضيق﴾ وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيقت صدرك من مكرهم، والضيقت تخفيف الضيق أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيقت مصدرين كالقيل والقول ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي ﴿وولي﴾ «الذين هم محسنون» في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله

منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجل ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿السبت﴾ مصدر سببت اليهود إذا عظمت سببها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو: المسخ ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما ختم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في نكر ذلك نحو والمعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما نكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالفين ريقه طاعته.

فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت: معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر وهو أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرنمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت: لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأنزله الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فاطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصيروا عن الصيد فمسخهم الله بون أولئك وهو يحكم ﴿بينهم يوم القيامة﴾ فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى ﴿جعل السبت﴾ فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ ﴿١٧٧﴾

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام ﴿بالحكمة﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بالطريقة التي هي أحسن

(3) سورة الشورى، الآية: 40.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة المائدة، الآية: 68.

(1) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ ونكره الثعلبي هكذا من غير سند 250/2

(2) قال الزيلعي: إنها مستوفاة في الهداية.

كذبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: اتصقه على نك؟ قال: إني لأصنقه على أبعاد من نك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثم، فاستنعتوه المسجد، فجلس له بيت المقدس، فطلق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن غيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون نك اليوم نحو الثانية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أروق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلّفوا في وقت الإسراء، فقليل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه⁽⁶⁾. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رأها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿باركنا حوله﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوظ بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقليل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة ﴿إنه هو السميع﴾ لأقوال محمد ﴿البصير﴾ بأفعاله العالم بتهنّبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب نك.

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَاتِبَ وَحَمَلَنَّهُ هُدًى لَيْتَىٰ إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَنجَذُوا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَكَيْلًا ﴿١٦﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا

بما انعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمّر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و ﴿أسرى﴾ وسرى لغتان و ﴿ليلاً﴾ نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ⁽²⁾: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى نكر الليل؟ قُلْتَ: أراد بقوله ليلاً بلفظ التكرير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التكرير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحنيفة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: ﴿ومن الليل فتهدج به نافلة﴾⁽³⁾ يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقليل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق⁽⁴⁾، وقيل: أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب⁽⁵⁾، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم، وقام ليخرج إلى المسجد فتشبتت أم هانئ بثوبه فقال: «مالك؟ قالت: أخشى أن يكذب قومك إن أخبرتهم، قال: وإن

(1) رواه الثعلبي وابن مردويه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله يامك بقطع من الليل: ﴿فأسر﴾، كقوله تعالى: ﴿فأسر﴾ بعبادي ليلاً، فالظاهر، والله أعلم، أن الغرض من نكر الليل، وإن كان الإسراء يفيد، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسراء لما دلّ على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالنكر، تبييناً في نفس المخاطب، وتنبهياً على أنه مقصور بالنكر، ونظيره في إفراد لحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخنوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾ فالاسم الحامل للتثنية دلّ عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التثنية؛ لأنّ أحد المعنيين، وهو:

= التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأنّ الوجدانية هي المقصودة في قوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ولو اقتصر على قوله: ﴿إنما هو إله﴾ لأوهم أنّ المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوجدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلي 2/259).

شكراً (٢).

للمفعول، ولنفسد بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عبداً لنا﴾ وقرى: عبداً لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخرّبوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً.

فإن قُلْتَ (٢): كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على نك ويسلطهم عليه؟ قُلْتَ: معناه خليتنا بينهم وبين ما فعلوا ولم تمنعهم، على أن الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُولِي أَعْيُنَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٣) وكقول الداعي: وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس: وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء، وقرى: فجوّسوا وخلل الديار.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾؟ قُلْتَ: معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ وَعَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَأَنْتُمْ وَجَمَلَتُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦).

﴿ثم ردنا لكم الكرة﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وقيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، فقيل: هي قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيراً﴾ مما كنتم، والتفكير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جميع نفر كالعبيد والمعين.

إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكَ وَإِنْ أَسَأْتَ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْئُوا مِنْكُمْ وَلِيَحْتَلُوا السُّجُودَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا (٧).

أي: الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿فإذا جاء وعد المرة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم ﴿ليسئوا وجوهكم﴾ حنف لدلالة نكره أولاً عليه، ومعنى ليسئوا وجوهكم: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ (٤) وقرى: ليسوم، والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، ولنسوء بالنون، وفي قراءة علي:

﴿الا تتخذوا﴾ قرى: بالياء على لثلا يتخذوا، وبالتاء على أي: لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا ﴿وكيلاً﴾ ريباً تكلون إليه أموركم ﴿نرية من حملنا﴾ نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا نرية من حملنا ﴿مع نوح﴾ وقد يجعل أرباباً كقوله: ﴿ولا يامرکم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ (١) ومن نرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام، وقرى: نرية من حملنا بالرفع بدلاً من واو تتخذوا، وقرأ زيد بن ثابت: نرية بكسر الذال، وروي عنه: أنه قد فسرها بولد الولد نكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق ﴿إنه﴾ إن نوحاً ﴿كان عبداً شكوراً﴾ قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظماني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حداني ولو شاء أحناني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني آذاه في عافية ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجدته محتاجاً أثره به.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ ما وجه ملامته لما قبله؟ قُلْتَ: كانه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي؛ لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً وأنتم نرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آبائكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند نكره على سبيل الاستطراد.

وَفَقِينًا إِلَى بَحْرٍ آسِرٍ مَلِ فِي الْكِتَابِ لِنُفُودٍ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنْعُلَّ نَفْسٌ كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَأًا عَلَيْهِمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥).

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسلون في الأرض لا محالة ويعلون أي: يتعظمون ويبيغون ﴿في الكتاب﴾ في التوراة و﴿لنفسدن﴾ جواب قسم محنوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لنفسدن جواباً له كأنه قال: وأقسمنا لنفسدن، وقرى: لنفسدن على البناء

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(2) قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدرتي يوجب على الله تعالى، يزعم رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، وأما السني إذا سئل هذا السؤال، أجاب عنه بقوله: لا يسأل عما يفعل، والله الموفق.

اللهم اقطع يديها. فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائتي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأنني بشر أغضب كما يغضب البشر، فلترد سودة يديها»⁽²⁾.

ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة، وكان الإنسان عجولاً يعني أن العذاب آتية لا محالة فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك»⁽³⁾ الآية فاجيب له فضربت عنقه صبراً.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مِّنْ حُنُوفٍ إِلَيْنَا وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مِيزَةً لِّبَنَاتِنَا لِقَوْلِنَا أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكُمْ⁽⁴⁾

فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين

كإضافة العدد إلى المعداد أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، والثاني: أن يراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل أي: جعلنا الليل محو الضوء مطموسه مظلماً لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح المحو، وجعلنا النهار مبصراً أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعاً كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوءها كل شيء «للتبصروا فضلاً من ربكم» لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معاشكم «ولتعلموا» باختلاف الجديدين «عدد السنين» جنس «والحساب» وما تحتاجون إليه منه، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات ولتعطلت الأمور «وكل شيء» مما تفتقرون إليه في لينكم وبنياكم «فصلناه» بيناه بياناً غير ملتبس فازحنا عنكم وما تركنا لك حجة علينا.

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَيْرُهُ فِي غُيُوبِهِ وَخَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا⁽⁵⁾

«طائر» عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم إذا خرج يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى: أن عمله لازم له لزوم القلادة، أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا رقيقة في رقبته، وعن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلديتها في عنقك. وقرئ: في عنقه بسكون النون. وقرئ: نخرج بالنون، ويخرج بالياء، والضمير لله عز وجل، ويخرج

لنسون وليسوان، وقرئ: لنسون بالنون الخفيفة. واللام في «ليدخلوا» على هذا متعلق بمحذوف وهو وبعثناهم ليخلصوا ولنسون جواب إذا جاء «ما علوا» مفعول لبيثروا أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى مده علومهم.

عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنَّ عُذْبَٰكُمْ عَدْنَا ۖ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا⁽⁶⁾

«عسى ربكم أن يرحمكم» بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرت من المعاصي «وإن عنكم» مرة ثالثة «عدنا» إلى عقوبتكم، وقد علوا فأعاد الله إليهم النعمة بتسليط الأكارسة وضرب الإتاوة عليهم، وعن الحسن: علوا فبعث الله محمداً فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة «حصيراً» محبساً يقال للسجن: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطاً كما يبسط الحصير المرمول.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّرُ الْغُيُوبَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْغُلَبَاتِ أَنْ لَمْ يُجْرَأْ كَيْبَرًا⁽⁷⁾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا⁽⁸⁾

«للمتي هي أقوم» للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات نوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحنفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر بالتحفيف.

فإن قلت: كيف نكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة قلت: كان الناس حينئذ: إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قلت: علام عطف «وإن الذين لا يؤمنون»؟ قلت: على أن لهم أجراً كبيراً على معنى أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين، بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالنَّارِ دُعَاءً بِهَٰذَا بَلَدِهِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا⁽⁹⁾

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله كما يدعوهم للخير كقوله: «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير»⁽¹⁰⁾ «وكان الإنسان عجولاً» يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر، وعن النبي ﷺ: «أنه نفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً فاقبل يثن بالليل فقالت له: مالك تنن؟ فشكا ألم القد فارخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشانه فقال ﷺ:

= عائشة نكره ابن الطلاية 260/2.

(1) سورة يونس، الآية: 11.

(2) قال الزيلعي: غريب من حديث سودة، وأورد بسنده حديث عن = (3) سورة الأنفال، الآية: 32.

زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ففسقوا﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا والأمر مجاز⁽²⁾؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها نعمة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكانهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاب أقرىاء وأقرباء على الخير والشر وطلب منهم إثبات الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو: كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قُلْتُ: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قُلْتُ: لأن حذف ما لا ليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؛ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام، وأمرته فقراً، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم أمرته فعصاني، أو فلم يتمثل أمري؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير ملول عليه ولا منوي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

فإن قُلْتُ: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير ليلياً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قُلْتُ: لا يصح ذلك؛ لأن قوله: ﴿ففسقوا﴾ يدافعه، فكانت أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لآسأء إليك، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمير خلاف ما أظهرت وقلت: قد نلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان، أو من أهل الإساءة، فأتى الظاهر المنطوق به وأضمر ما نلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد، وقد فسر بعضهم ﴿أمرنا﴾ بكثرنا وجعل أمرته فأمر

على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب كتاباً على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنياً للمفعول و﴿يلقاه منشوراً﴾ صفتان للكتاب، أو يلقاه صفة، ومنشوراً حال من يلقاه.

أَفَرَأَى كَيْبَكَ كَلَى يَنْفِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَيْبًا ﴿١٧﴾ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّا يَهْتَدَى لِنُفْسِهِ. وَمَنْ سَلَ فَإِنَّمَا يَهْتَدُ لِنَفْسِهِ وَلَا تَرْزُ وَارِزَةً وَزَرَّ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُؤَيِّدِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا ﴿١٨﴾.

﴿اقرأ﴾ على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم ما لم يكن في الدنيا قارئاً و﴿بنفسك﴾ فاعل كفى و﴿حسيباً﴾ تمييز وهو بمعنى: حاسب، كضرب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم، نكرهما سيوبه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدي بعلي؛ لأن الشاهد يكفي المدعي ما أهمله.

فإن قُلْتُ: لم نكر ﴿حسيباً﴾؟ قُلْتُ: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال فكانه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، ويجوز أن يتأول النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم أنصفك الله من جعلك حسيب نفسك. أي: كل نفس حاملة وزراً فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى ﴿وما كنا معنيين﴾⁽¹⁾ وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعتب قوماً إلا بعد أن ﴿نبعث﴾ إليهم ﴿رسولاً﴾ فلنزمهم الحجة.

فإن قُلْتُ: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم آلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متسكون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا إغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان؟ قُلْتُ: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رعدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في آلة العقل.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُرَفِقًا فَنَسَفُوا فِيهَا فَنَحَّ عَلَيَّ الْقَوْلَ فَدَرَرَتْهَا تَدْمِيمًا ﴿١٩﴾.

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا ننا وقت إهلاك قوم ولم يبق من

(1) قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرتي، يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر، وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول، فيكلفه بعقله، ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة، بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقيح العقليين، وأما السني، فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإن العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع، وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم، وتقوم الحجة، كما أنبت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها، فتمتنع =

(2) قال أحمد: نص حسن، إلا قوله أنهم خلوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة، والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا، على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. وشكر الله الثواب على الطاعة.

كَلَّا تُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاؤِكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُكَ رَبِّكَ
عَظُومًا ﴿١٧﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٨﴾.

﴿كَلَّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه ﴿نَمُدُّ﴾ هم نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا يقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُكَ رَبِّكَ﴾ وفضله ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً لا يمنعه من عاص لعصيانه ﴿انظُر﴾ بعين الاعتبار ﴿كيف﴾ جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، وروي: أن قوماً من الأشراف فمن بونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإنن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني: إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلاً، وعن بعضهم: أنها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل.

لَا يَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَعْمَدُ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿١٧﴾.

﴿فتتعبد﴾ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة بمعنى: صارت يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالرَّالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ إِنَّمَا يَلْفَنَ
عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا آوَىٰ وَلَا تَنْهَرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٨﴾.

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿الإلتعبدوا﴾ أن مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. وقرئ: وأوصى، وعن ابن عباس

من باب فعلته ففعل كثيرته فثير، وفي الحديث: «خير المال سكة ماثورة، ومهرة مأمورة، أي: كثيرة النتائج. وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: «إني أرى أمرك هذا حقيراً، فقال ﷺ: «إنه سيامر»⁽¹⁾ أي سيكثر وسيكبر. وقرئ: أمرنا من أمر وأمره غيره، وأمرنا بمعنى أمرنا، أو من أمر أماره، وأمره الله أي: جعلناهم أمراء وسلطانهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَدُونِكَ وَكَانَ مِنْ يَدَيْهِ عَاقِبَةُ
بَيْبَرًا ﴿١٧﴾.

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكتنا﴾ و ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس يعني: عاداً وشموداً وقروراً بين ذلك كثيراً ونبه بقوله ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَآجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ
جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لِمَا
سَعَىٰهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾.

من كانت⁽²⁾ العجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقيدين أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو: غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظاً من الدنيا أو لم يوت، فإن أوتي فيها وإلا قريباً كان الفقر خيراً له وأعون على مراده وقوله: ﴿لمن نريد﴾ بدل من له وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ: يشاء، وقيل: الضمير لله تعالى فلا فرق إذا بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد على أن للعبد ما يشاء من الدنيا وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهدة للغنمية، والنكر كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»⁽³⁾. ﴿مصحوراً﴾ مطروداً من رحمة الله ﴿سعيها﴾ حقها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (الحديث رقم: 4904).

(1) قال الزبيعي: غريب جداً 262/2.

(2) قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ فالنخل من المبعضة على حرث الدنيا، ونخل الطلاب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر (1) كذا. وقرئ: جناح الذل والذل بالضم والكسر.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: «جناح الذل»؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى: واخضع لهما جناحك، كما قال: «واخضع جناحك للمؤمنين» (2) فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخضع لهما جناحك الذليل أو اللؤلؤ، والثاني: أن تجعل لئله أو لئله لهما جناحاً خفيفاً، كما جعل لبيد للشمال: يداً، وللقوة: زماماً مبالغة في التثقل.

وَإخْفِضْ لِهَما جِناحَ الذِّلِّ مِنَ الرِّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيْنا صَبِيْرًا (١١).

والتواضع لهما «من الرحمة» من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وانقارهما اليوم إلى من كان أقدر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكثف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما الباقية، واجعل ذلك جزءاً لرحمتكما عليك في صغرك وتربيتكما لك.

فإن قُلْتُ: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين قُلْتُ: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمرمك به في الأبوين، ولقد كرر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبي ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما» (3) وروى: يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة (4)، وروى سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أن أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما» (5). وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً، وأنا غني، فكنت لا أمنه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف، وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله فبكي رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»، وشكا إليه آخر (6) سوء خلق أمه فقال: ولم تكن سيفة الخلق حين حملتك تسعة

رضي الله عنهما: ووصى، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته «إما» هي إن الشرطية زابت عليها ما تكاد لها ولتلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أقربت إن لم يصح دخولها لا تقول: إن تكرم زيدا يكرمك، ولكن إما تكرمته و «أحدهما» فاعل يبلغن، وهو: فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و «كلاهما» عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قُلْتُ: لو قيل: إما يبلغان كلاهما. كان كلاهما توكيداً لا بدلاً فمالك زعمت أنه بدل؟ قُلْتُ: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للآخرين فانظم في حكمه فوجب أن يكون مثله.

فإن قُلْتُ: ما ضررك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البديل؟ قُلْتُ: لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما علم أن التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول «أف» صوت يدل على تضجر، وقرئ: أف بالحرركات الثلاث منوناً وغير منون، الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة، والتشديد كتم، والضم اتباع كمنذ.

فإن قُلْتُ: ما معنى عندك؟ قُلْتُ: هو أن يكبرا ويعجزا وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما تولي منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق، ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول - لهما إذا أضجره ما يستقنر منهما، أو يستثقل من مؤنهما أف فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة «ولا تنهرهما» ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم أخوات «وقل لهما» بدل التأقيف والنهر «قولاً كريماً» جميلاً كما يقتضيه حسن الألب والنزول على المرءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت مع كفره، ولا يدعوها بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الألب، وعادة الدعار، قالوا: ولا بأس به في غير وجهه كما

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب: الاقضية، باب: ما لا يجوز من النحل،

(الحديث رقم: 40).

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه الترمذي في كتاب: «البر والصلة»، باب ما جاء في الفضل في رضا الوالدين (الحديث رقم: 1899)، والحاكم في المستدرک 4/ =

(= 152).

(4) رواه أبو نعيم في الحلية 10/ 216.

(5) لم يخرج الزيلعي.

(6) أخرج نحوه الطبراني في معجمه الصغير ص 339 (الحديث رقم:

927).

﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين، والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسراً أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا ميسيرين، أو لم يكونوا محارم كابناء العم فحقهم صلتهم بالمودة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاضدة ونحو ذلك ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ يعني: وأت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي نوي القرابة من الحق هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذوي القربى: أقرباء رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ الْبِزْيَانَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

(١٧)

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتبئس عليها وتبذر أموالها في الفخر والسعة وتذكر ذلك في أشعارها فامر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويؤلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فاكثروا، فقال له صاحبه: لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟» قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» (١٧) ﴿إخوان الشياطين﴾ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المنمة؛ لأنه لا شر من الشيطان، أوهم إخوانهم وأصدقائهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أوهم قرنائهم في النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

﴿وَمَا تَرْضَنَ عَنْهُمْ آيَاتَهُ رَمَوْا بَيْنَ يَدَيْكَ رِجُومًا قُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾ (١٨) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَرْغُولًا إِنْ عُدَّتْكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الَيْسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (١٩) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِمَا يَفْعَلُونَ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٢٠).

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، حياء من الرد ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ فلا تتركهم غير مجابيين إذا سالوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء (٢٠) قوله: ﴿ابْتَغَاءً﴾

أشهره قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها، وأظلمات بهارها» قال: لقد جازيتها: قال: «ما فعلت؟» قال: حججت بها على عاتقي. قال: «ما جزيتها ولو طلقة» (١) وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول:

إني لها مطية لا تدعني إذا الركاب نفرت لا تنفر ما جمعت وأرضعتني أكثر الله ربي نوال جلال الأكبر تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة (٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإن الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارٌ إزاره خيلاء، إن الكبرياء لله رب العالمين» (٣)، وقال الفقهاء: لا يذهب بابيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يتأوله الخمر ويأخذ الإنياء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أو قد. وعن حنيفة: أنه استأثن النبي ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين فقال: «دعه يليه غيرك» (٤). وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزراً إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما، فعن النبي ﷺ: «إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل وذابيه» (٥).

﴿رَبُّكَ أَغْلَرُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ (٢١) ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرُ بَبْزِيرًا﴾ (٢٢).

﴿بما في نفوسكم﴾ بما في ضمائرهم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر، وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام، هنة تؤدي إلى أذاهما ثم انبتم إلى الله واستغفرت منها فإن الله غفور ﴿للأوابين﴾ للتوابين، وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأواب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جنابة ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنابته لوروده على أثره.

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في بر الوالدين فضل في حفظ حق الوالدين بعد موتهما (الحديث رقم: 7976)، والبخاري في الأب المفرد 1/62 باب جزاء الوالدين (الحديث رقم: 11).

(3) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل.

(4) لم يخرج الزيلعي.

(5) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصنقاء الأب والأم (الحديث رقم: 6460).

(6) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (الحديث رقم: 425) وأحمد في المسند (2/226).

(7) رواه الحاكم في المستدرک 3/130.

فإنه يراعي أوسط الحالين لا يبالغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه فاستنوا بسنته.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ رَّزْقِهِمْ وَإِن كَانُوا مِن بَيْنِ يَدَيْكُمْ فَاصْبِرُوا لَهَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ قَرْحَةً وَّسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾.

قتلهم أولادهم هو وادهم بناتهم كانوا يثنونهن خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ: خشية بكسر الخاء. وقرئ: خطأ وهو الإثم يقال: خطئ خطأ كإثم إثماً، وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطء كالحذر والحذر، وخطء بالكسر والمد، وخطء بالفتح والمد وخطأ بالفتح والسكون، وعن الحسن: خطأ بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رضاء: بكسر الخاء غير مهموز ﴿فأحشنة﴾ قبيحة زائدة على حد القبح ﴿ووساء سبيلاً﴾ وبئس طريقاً طريقه وهو أن تغضب على غيرك امرأته أو أختها أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِوَيْهِ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُضِرًّا ﴿٣٣﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان ﴿مظلوماً﴾ غير ركب واحدة منهمن ﴿لولييه﴾ الذي بينه وبينه قرابة ترجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه ﴿سلطاناً﴾ تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يشب بها عليه ﴿فلا يسرف﴾ الضمير للولي أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحرث بن عباد: وبشسع نعل كلب وقال:

كل قتييل في كليب غرة حتى ينال القتل آل مرة وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد أن الضمير للمقاتل الأول، وقرئ: فلا تسرف على خطاب الولي، أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبي: فلا تسرفوا رده علي ولا تقتلوا ﴿إنه كان منصوراً﴾ الضمير إما للولي يعني: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبيخ ما وراء حقه، وإما للمظلوم: لأن الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة؟ الثواب وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور

رحمة من ربك ﴿إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً، وعودهم وعداً جميلاً رحمة لهم وتطيبياً لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي: وإن عرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة، فردهم رداً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وإما تعرضن عنهم﴾ وإن لم تتفعمهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل نحس فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كان معناه: قولاً ذا ميسور وهو: اليسر أي: دعاء فيه يسر.

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاعتقاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فتفعد ملوماً﴾ فتصير ملوماً عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول المحتاج: أعطي فلاناً وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تبخير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً فقال: «من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا، فذهب إلى أمه فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك «فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً، وأثن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة⁽¹⁾، وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد دبين عينيه والأقرع وما كان حصن ولا حابس يفوقان جدي في مجمع وما كنت بون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع فقال: «يا أبا بكر اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل»⁽²⁾ فنزلت. ثم سلا رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأن تلك ليس لهوان منك عليه ولا ليخل به عليك، ولكن لأن مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزان في يده، فاما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض

(1) لم يخرج الزليمة.

(2) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.. (الحديث رقم: 2440).

بالعمل به ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام

و ﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾⁽⁴⁾. يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: والفؤاد بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتحة.

وَلَا تَسِرُّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَأَنَّ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

﴿مرحاً﴾ حال أي: ذا مرح وقرئ: مرحاً، وفضل الألفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد ﴿لن تخرق الأرض﴾ لن تجعل فيها خرقاً⁽⁵⁾ بوسك لها وشدة وطاقتك، وقرئ: لن تخرق بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ بطاولك وهو تهكم بالمختال.

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

قرئ: سيئة وسيئته على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيأ في بعض المصاحف، وسيأت وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان شأنه.

فإن قلت: كيف قيل ﴿سيئته﴾ مع قوله: ﴿مكروهاً﴾؟ قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم، زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيته ولا فرق بين من قرأ: سيئة وسيأ، ألا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومثنت.

فإن قلت: فما نكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ سيئته بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئته؟ قلت: كل ذلك إحاطة بما نهي عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعنوية.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا مَأْسَرٌ فَلْتَلِّقْ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

بإيجاب القصاص على المسرف.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَرْوَا بِالْمَهْدِ وَإِنَّ الْمَهْدَ كَأَنَّ مَشْوَكًا ﴿٤٠﴾

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه عليه وتثميته ﴿إن للعهد كان مسؤولاً﴾⁽¹⁾ أي: مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخبيلاً كأنه يقال للعهد: لم نكتت وهلا وفي بك تبكيئاً للناكت، كما يقال للموؤدة: ﴿بأي ننب قتلت﴾⁽²⁾ ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

وَأَرْوَا الْكَيْلَ إِذَا كُتِمَ زَيْتًا بِالْقِسْطِ السَّمِيحِ ذَلِكَ سِرٌّ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤١﴾

قرئ: ﴿بالقسطاس﴾ بالضم والكسر وهو: القرسطون وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها ﴿وأحسن تأويلاً﴾ وأحسن عاقبة وهو: تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يقول إليه.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٤٢﴾

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع وقرئ: ولا تقف يقال: قفا اثره وقافه، ومنه الفاقة يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول، أو فعل كمن يتبع مسلماً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو: ضال، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم، ويخلف فيه النهي عن التقليد بخلاً ظاهراً لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيتك يفعل، وسمعتك، ولم تر ولم تسمع، وقل: القفو شبيه بالعضية ومنه الحديث: «من قفى مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردة الخيال حتى يأتي بالمرج»⁽³⁾ وأنشد:

ومثل للمي شم الفرانين ساكن بهن الحياء لا يشعن التقافيا
أي: التقائف، وقال الكمي:

ولا أرمي البري بغير نذب ولا أفتو الحواصن إن قفينا
وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر

(4) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(5) قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع، لمن يعتاد هذه المشيئة، كفاية في الانذار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسيئتين، أو اجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيد أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه، عن تبره على مراحل، والله ولي التوفيق.

(1) قال أحمد: كلام حسن، إلا لفظة التخبيل، فقد تقدم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل، والظاهر التأويل الأول، ويكون المجرور الذي هو عنه حنف تخفيفاً، وقد نكر في بقية الآي: ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ والله أعلم، ويعضد تأويل سؤال العهد نفسه، على وجه التمثيل، وقوف الرحم بين يدي الله، وسؤالها فيمن وصلها وقطعها، وقنود تلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(2) سورة التكويد، الآية: 9.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 82/2 وأبو داود في كتاب: الأفضية، باب: فيمن يغبن على خصومة.

عليهم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نِفُورًا﴾ عن الحق وقلة طمانينة إليه، وعن سفيان كان إذا قرأها قال: زانني لك خضوعًا ما زاد أعداك نفورًا.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَرُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾

قرئ: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالثاء والياء و ﴿إِذَا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو: لا يتفوا جواب عن مقاتلة المشركين وجزاء للو ومعنى ﴿لَا يَتَفَوُّوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلًا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٤) وقيل لتقربوا إليه كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(٥).

سُبْحٰنَهُ وَمَقَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾

﴿عُلُوًّا﴾ في معنى: تعاليًا، والمراد: البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلو بالكبر: المبالغة في معنى البراءة، والبعد مما وصفوه به.

سُبْحٰنَ لَهٗ الْعَرْشِ السَّبْحِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَحَسِّنَّا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حَسْبًا مَسْئُورًا ﴿١٥﴾ وَحَسِّنَّا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَكُنَّا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ تُقْرًا ﴿١٦﴾ تَحْنُ أُمَّةٌ يَمَا يَسْتَمِعُونَ يَوْمَ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَحْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الْغَالِبُونَ إِنْ تَسْمِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٧﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ صَرِيحًا لَكَ الْأَمْثَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَمِعُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾

والمراد^(٦): أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكانها تتعلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت: الخطاب للمشركين وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض، قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم

﴿نُكِّلَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(١) إلى هذه الغاية، وسماه حكمة؛ لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في الواح أولها ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٢) قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾^(٣) وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بدأ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَقَدَّ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ إِنَّا لَنَكْفُرُ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

﴿أفأصفاكم﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم: البنون ولم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذوا نونهم وهي: البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أربابها وبنوها للسادات ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بانكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بان تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أنون خلق الله وهم: الإنات.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٠﴾

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ يجوز يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكثر نكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانًا للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد ولقد صرفنا يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ قرئ: مشدداً ومخففاً أي: كثرناه ليتعظوا ويعتبروا ويظمنوا إلى ما يحتج به

= نرات الكون تسبح الله، وتنزهه، وتشهد بحلله، وكبريائه، وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكاد ذلك يشغله عن القوت، فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والمالكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها، إن كل ذرة وجوه من نرات لسانه الذي يلققه في سخط الله تعالى عليه مشغولة، مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكادان لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم، أن الآية إنما ورتت خطياً على الغالب في أحوال الغافلين، وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

(1) سورة الإسراء، الآية: 22.

(2) سورة الإسراء، الآية: 22.

(3) سورة الاعراف، الآية: 145.

(4) سورة الانبياء، الآية: 22.

(5) سورة الإسراء، الآية: 57.

(6) قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله: ﴿كان حليماً غفوراً﴾ وهو لا يغفر للمشركين، ولا يتجاوز عن جهلهم، وكفرهم، وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقهننا للتسبيح الصابر من الجمادات، فكانه والله أعلم، من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من =

فَسَيُؤَلِّوُنَ مِنْ يُبَيِّنُهَا قَوْلَ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُبَيِّنُوُنَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيُبَيِّنُوُنَ لَكَ هُوَ قَوْلٌ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

لما قالوا: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ قيل لهم ﴿كونوا حجارة أو حديدًا﴾ فرد قوله: كونوا على قولهم كنا كانه قيل: كونوا حجارة أو حديدًا ولا تكونوا عظامًا فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وعضاضته بعد ما كنتم عظامًا يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائرته، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو: أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدًا، مع أن طباعها الجسولة والصلابة، لكان قادرًا على أن يردهم إلى حال الحياة ﴿أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾ يعني: أو خلقًا مما يكبر عنكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت، وقيل: السموات والأرض ﴿فسينفضون﴾ فسحرونها نحوك تعجبًا واستهزاء.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُ لَهُمْ بِحَمَلِهِمْ وَتَتَذَكَّرُ أَنَّ لَيْتَكَ لَإِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتتبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون وقوله: ﴿بحمده﴾ حال منهم أي: حاملين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر يعني: أنك تحمل عليه وتفسر قسرًا، حتى أنك تلين لين المسحح الراغب الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وتظنون﴾ وترون الهول، فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسونها يوماً أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

وَقُلْ لِيَأْبَى يَقُولُوا أَلَيْسَ هُوَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ زَكَرْنَا أَعْمَرَ يَكْرُ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

﴿وقل لعبادي﴾ وقل للمؤمنين ﴿يقولوا﴾ للمشركين الكلمة ﴿التي هي أحسن﴾ والين ولا يخاشنوهم كقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾⁽³⁾ وفسر التي هي أحسن بقوله: ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما

فكانهم لم ينظروا ولم يقروا؛ لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قلت⁽¹⁾: من فيهن يسبحون على الحقيقة وهم: الملائكة والثقلان وقد عطفوا على السموات والأرض فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ حين لا يعالجكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿حجاباً مستوراً﴾ ذا ستر كقولهم: سيل مفعم نور إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد: أنه حجاب من بونه حجاب، أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾⁽²⁾ كانه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم ﴿أن يفقهوه﴾ كراهة أن يفقهوه، أو لأن قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة فيه معنى: المنع من الفقه فكانه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدًا وحدة نحو وعد يعد وعدًا وحدة ﴿وحده﴾ من باب رجع عوده على بنئه وافعله جهلك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى: واحدًا أو حده. والنفور مصدر بمعنى التولية، أو جمع نافر كقاع وعود أي: يحبون أن تذكر معه آلهته لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا ﴿بما يستمعون به﴾ من الهزؤ بك وبالقرآن ومن اللغو، كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخطون عليه بالأشعار، و﴿به﴾ في موضع الحال كما نقول: يستمعون بالهزؤ أي: هازئين و﴿إذ يستمعون﴾ نصب بأعلم أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وإذ هم نجوى﴾ وبما يتناجون به إذ هم نوى نجوى ﴿إذ يقول﴾ بدل من إذ هم ﴿مسحوراً﴾ سحر فجئ، وقيل: هو من السحر وهو الرثة أي: هو بشر مثلكم.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فضلوا﴾ في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَوْآدَا كَيْبُوتُونَ خَلْقًا حَبِيدًا ﴿٥٥﴾ قُلْ كُونُوا حِجَابًا أَوْ حَبِيدًا ﴿٥٦﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

(1) قال احمد: وقد تقدم نقلي عنه، انه يابى حمل اللفظ على حقيقته، ومجازه نفعه واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه، ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد، وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناً، ولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، =

(2) وقد يكون أراد: ثم للمجاز، والله الموفق.

(3) سورة فصلت، الآية: 5.

(4) سورة النحل، الآية: 125.

يبتغون، وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معني يحرصون، فكانه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصالح **﴿ويرجون﴾** ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة **﴿إن عذاب ربك كان﴾** حقيقةً بأن يحزنه كل أحد من ملك مقرب ونبى مرسل فضلاً عن غيرهم.

وَلَنْ يَنْفَرِي إِلَّا غَنُّ مَهْلُكُمَا قَبْلَ يَوْمِ آلَيْسَكُمْ أَوْ مَعْدُوبًا
عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾.

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال **﴿أو معذبوها﴾** بالقتل وأنواع العذاب وقيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالفرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضرب، ثم نكرها بلداً بلداً **﴿في الكتاب﴾** في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتِنَا
نُودَ آتَاةً مُبِينَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾.

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكنبوا بها تكذيب أولئك وقالوا: **﴿هذا سحر مبين﴾** (3) كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن تؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم نكر من تلك الآيات التي اقترحتها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فاهلكوا واحدة وهي ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم ببصرها صالدهم وورادهم **﴿مبصرة﴾** بينة، وقرئ: مبصرة بفتح الميم **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بها **﴿وما نرسل بالآيات﴾** إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها **﴿إلا تخويفاً﴾** من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

وَلَدَّ قَلْبُكَ إِنَّ رَبَّكَ آتَاكَ مَا تَأْتِي وَمَا جَمَعْنَا آرْثُكَ إِلَّا آتَيْتَ رَبَّنَا

يغیظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: **﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾** اعترض يعني: يلقي بينهم الفساد ويفري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشافة **﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾** أي: رباً موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم ومر أصحابك بالمدارة والاحتمال وترك المحافة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل، فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ بالكسر، وهما لغتان: نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِن فِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
بَعْضٍ وَآيَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٦٠﴾.

هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن تكون العراة الجوع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم نون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبحالهم ومقانيدهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾** إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: **﴿وآتينا داود زبوراً﴾** دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود، وقال الله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** (4) وهم محمد وأمه.

فإن قلت: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله: **﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾**؛ (2) قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل، وأن يريد وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب، وأن يريد ما نكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً.

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَتْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ
وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٦١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمُ الْوَيْسِيلَةَ أُنْتُمْ
أَقْرَبُ بِرَبِّكُمْ رَحْمَتَهُمْ وَغَافِرُونَ عَذَابُهُمْ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٦٢﴾.

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن عبدتهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبطلوه و **﴿أولئك﴾** مبتدأ و **﴿الذين يدعون﴾** صفته و **﴿يبتغون﴾** خبره يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي: القرية إلى الله تعالى و **﴿إيهم﴾** بدل من واو

(3) بعض آية ورد في سبعة مواضع من القرآن منها: سورة المائدة،

(1) سورة الانبياء، الآية: 105.

(2) سورة الانبياء، الآية: 105.

إِلَّا رِنَّةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ فِي الْفَرَزْدَاقِ وَتَوَفُّوهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وانكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني: بشرك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (1) ﴿قُلْ لِلنَّاسِ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ (2) وغير ذلك، فجعله كان قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبى ﷺ في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك عنك وعنك»، ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان»، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم، فكلنا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء (3)، وحين سمعوا بقوله (4): ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ﴾ (5) جعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول بنبت فيها الشجر! وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا وأن يجعل الله الشجرة من جنس لا تاكله النار، فهذا وير السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه منابيل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارًا فلا تحرقها، فمن أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى: أن الآيات إنما يرسل بها تخويفًا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر. فما كان ما ﴿أرئيتكم﴾ منه في منامك بعد الوحي إليك ﴿إلا فتنة﴾ لهم حيث اتخذوه سخريًا، وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم ﴿ونخوفهم﴾ أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغيانًا كبيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات (6)، وقيل الرؤيا هي: الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما

سامها رؤيا على قول المكئبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها وخيال خيل إليك استبعادًا منهم، كما سمي أشياء باسميها عند الكفرة نحو قوله: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ (7) ﴿أين شركائي﴾ (8) ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ (9) وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأن الشجرة لا نذب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن والإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه: ضار ملعون، وسالت بعضهم فقال: نعم، الطعام الملعون القشب المحقوق، وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: هي الشيطان، قيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَضْمُرُ بِئِنَّ خَلَقْتُ لَيْسًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخِيكَ ذَرَيْتَهُ إِلَّا لَيْسًا ﴿١٧﴾

﴿طِينًا﴾ حال إما من الموصول والعمل فيه أسجد على أسجد له وهو طين أي: أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أسجد لمن كان في وقت خلقه طينًا ﴿أرأيتك﴾ الكاف للخطاب و ﴿هذا﴾ مفعول به والمعنى: أخبرني عن هذا ﴿الذي كرمته﴾ أي: عليّ ﴿أي: فضلته لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتداء فقال ﴿لئن أخرتني﴾ واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿لأحتنكن ذريته﴾ لاستأصلهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذ جرد ما عليها أكلًا، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحتنك الشاتين أي: أكلهما.

فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ (10) أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

(5) سورة البخنان، الآيتان: 43 و44.

(6) قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ وقوله: ﴿فإنهم لأكلون منها﴾ والله أعلم.

(7) سورة الصافات، الآية: 91.

(8) بعض آية ورد في أربعة مواضع من القرآن منها: سورة النحل، الآية: 27.

(9) سورة البخنان، الآية: 49.

(10) سورة البقرة، الآية: 30.

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.

(3) قال أحمد: والعمدة في ذلك، أن النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة، أنه خلق الحرق عند ملاقة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار، فله تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في ورح النبي ﷺ (الحديث رقم: 2915).

والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعيد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة وغير ذلك ﴿وعدهم﴾ (3) المواعيد الكاذبة من شفاعة الألهة، والكرامة على الله بالانساب الشريفة، وتسويق التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً، وإيثار العاجل على الأجل ﴿إِنْ عِبَادِي يَرِيدُ الصَّالِحِينَ﴾ ليس لك عليهم سلطان أي: لا تقدر أن تغويهم ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ لهم يتوكلون به في الاستعانة منك ونحوه قوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (4).

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً داعيًا إلى الضر صادقاً عن الخير؟ قُلْتَ: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخليه كما قال للعصاة ﴿اعملوا ما شئتم﴾ (5).

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ كَانِتُمْ رَجِيمًا ﴿١٧﴾ وَإِنَّا مَسْكُومٌ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا إِلَهُ مَا تَحْكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَمْرَتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٨﴾

﴿يزجي﴾ يجري ويسير. والصرّ خوف الغرق ﴿ضلّ﴾ من تدعون إلا إياه ﴿ذهب عن أوهاكم وخواطركم كل من تدعونه في حوائثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في تلك الوقت، ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعويين، ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الألهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه، وحده على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْبِفَ بِكُمْ جَابِئُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا نَدَّرَ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٧﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُمِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ أَلْبَحْرِ فَيَغْرِقَكُمْ يَمًا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَعِيلًا يَوْمَ يُنْفِخُ ﴿١٨﴾

﴿أفامسرتهم﴾ الهمة للإنكار والفاء للطف على محذوف تقديره: أنجوتهم فامسرتهم فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿جانب البر﴾؟ قُلْتَ: بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله: ﴿فخسفنا به وبداره

قَالَ آذَهَبَ فَمَنْ يَمَّكَ يَمُّهُ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٧﴾

﴿انذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء إنما معناه: لبعض لسانك الذي أخذته خذلاناً وتخليه وعقبة بنكر ما جزه سوء اختياره في قوله ﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامري: ﴿فانذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ (1).

فإن قُلْتَ: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى ﴿فمن تبعك﴾؟ قُلْتَ: بلى ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقبل جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب ﴿جزاء موفوراً﴾ بما في فإن جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون، أو على الحال: لأن الجزاء موصوف بالموفور والموفور الموفى يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

وَأَسْتَفْرِزَ مِنْ أَسْتَفْرَزَ مِنْهُمْ بِصَرْفِكَ وَلَيْلَبَ عَلَيْهِمْ بِمَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ وَعَدَّهُمْ وَمَا بِيَدِهِمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧﴾ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٨﴾

استفرّزه استخفه والفز الخفيف ﴿وجللب﴾ من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله أركبي» (2). والرجل اسم جمع للرجال ونظيره الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أن فعلا بمعنى: فاعل نحو تعب وتاعب، معناه: وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضاً فيكون مثل حدث وحدث، ونس وونس، وأخوات لهما يقال: رجل رجل، وقرئ: ورجالك ورجالك.

فإن قُلْتَ: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قُلْتَ: هو كلام ورد مورد التمثيل مثلث حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أملكهم ويقلقهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كل راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة

(1) سورة طه، الآية: 97.
(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند التنفير يا خيل الله أركبي (الحديث رقم: 2560).
(3) قال أحمد: وهذا من تجزئ المصنف على السنة ومتبعتها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان الباطلة، وأمانيه الماحلة، اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(4) سورة الحجر، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 40.

(1) سورة طه، الآية: 97.
(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند التنفير يا خيل الله أركبي (الحديث رقم: 2560).
(3) قال أحمد: وهذا من تجزئ المصنف على السنة ومتبعتها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بانها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من

أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد أنه أحضر طعماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: جاء في تفسير جلك ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق، فردّها وأكل بأصابعه ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ هو ما سوى الملائكة⁽⁴⁾، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعدما سمعوا تفضيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم نكرهم، وعلموا أين أسكنهم وأنى قربهم وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أمهم، ثم جرّمهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منها قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون، ولم تعطنا ذلك؟ فأعطناه في الآخرة فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل نزية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان⁽⁵⁾، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده⁽⁶⁾، ومن ارتكابهم أنهم فسروا كثيراً بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا النوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ جَمِيعِ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ على أن معنى قولهم على جميع ممن خلقنا أشجى لحلوهم وأقضى لعيونهم ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى محلهم وتشبيهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملا الأعلى، كان جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تتحل عن قلوبهم.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ مَنَ أُرْوَىٰ كِتَابُهُ يَسْبِقُوهُ
فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قَرِيْبًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي
هُدُوهُ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾.

قري: يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: يدعو كل أناس على قلب الألف وأوياً في لغة من يقول أفعوا. والظرف نصب بإضمار انكسر،

- = القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم، وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرانف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين ساهموا مجبرة، وتمشق في سبهم، وشقق العبارات في ثلبهم، وما يلغظ من قول، إلا لديه رقيب عتيد، والله ولي التوفيق والتسديد.
- (5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (الحديث رقم: 152) وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: المسلمون في نمة الله تعالى (الحديث رقم: 3946).
- (6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الحديث رقم: 153).

الأرض⁽¹⁾ وبكم حال والمعنى: أن يخسف جانب البر أي: يقبله وأنتم عليه.

فإن قُلْتُمْ: فما معنى نكر الجانب؟ قُلْتُمْ: معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برًا كان أو بحرًا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو: الخسف، لأنه تغيب تحت التراب كما أن الغرق وتغيب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سيمان، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ﴿أو يرسل عليكم حاصبًا﴾ وهي الرياح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرمكم بها فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر ﴿وكيلاً﴾ من يتوكل يصرف ذلك عنكم ﴿ومن أمنتم﴾ أن يقوئ بواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبو البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل ﴿عليكم قاصفاً﴾ وهي: الرياح التي لها فصيف وهو: الصوت الشديد كأنها تنقص أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته ﴿فيغرقكم﴾ وقرئ: بالتاء أي: الريح. وبالنون، وكذلك نخسف، ونرسل، ونعيديكم قرئت بالياء والنون، التبع المطالب من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾⁽²⁾ أي: مطالبة، قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبع

يقال: فلان على فلان تببع بحقه، أي: مصيطر عليه مطالب له بحقه، والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحد يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للنار من جهتنا، وهذا نحو قوله: ﴿ولا يخاف عقابها﴾⁽³⁾ ﴿بما كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة يريد: إعراضهم حين نجاهم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِي آلِ آلِهِمُ الرِّبَا وَكَانَ فِي السِّبْطِ طَائِفَاتٌ مِّنْهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽⁴⁾.

قيل في تكرمة ابن آدم: كرمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتبدير

(1) سورة القصص، الآية: 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 178.

(3) سورة الشمس، الآية: 15.

(4) قال أحمد: وقد بلغ إلى حد من السفه، يوجب الحد، ولستالمساجلته، إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه، والقدر الذي تختص به هذه الآية، أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر، ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم، والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى: ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ وأشابهه كثير، وقد لمح الشاعر بذلك في قوله:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي: لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إن المخلوق قسما بنو آدم أحدهما، وغيرهم من جميع المخلوقين =

وَأَنْ كَادُوا لَيَبْتَغُونَكَ عَنِ الْوَيْلِ أَوْحِيَانًا إِلَيْكَ لِيَتَفَرَّى عَلَيْكَ
عَذْرًا وَإِذَا لَا تَعْتَدُوكَ حِيلًا ﴿٧٢﴾.

روي: أَنْ ثَقِيفًا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَا نَدْخُلُ فِي أَمْرِكَ حَتَّى
تَعْطِينَا خِصَالًا نَفْتَخِرُ بِهَا عَلَى الْعَرَبِ، لَا نَعْشُرُ، وَلَا
نَحْشُرُ، وَلَا نَجْبِي فِي صَلَاتِنَا، وَكُلُّ رِبَا لَنَا فَهُوَ لَنَا، وَكُلُّ
رِبَا عَلَيْنَا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنَّا، وَأَنْ تَمْتَعْنَا بِأَلْبَاتِ سَنَةٍ، وَلَا
تَكْسِرْهَا بِأَيْدِينَا عِنْدَ رَأْسِ الْحَوْلِ، وَأَنْ تَمْنَعُ مِنْ قَصْدِ
وَأَيْنَاوَجٍ فَعَضْدُ شَجْرِهِ، فِإِذَا سَأَلْتِكَ الْعَرَبُ لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ
فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِهِ، وَجِئُوا بِكُتَابِهِمْ، فَكُتِبَ: بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِثَقِيفٍ:
لَا يَعْشُرُونَ، وَلَا يَحْشُرُونَ فَقَالُوا: وَلَا يَجْبُونَ، فَسَكَتَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالُوا لِلْكَاتِبِ: اكْتُبْ وَلَا يَجْبُونَ، وَالْكَاتِبُ
يَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
فَسَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ: أَسْعَرْتُمْ قَلْبَ نَبِينِنَا يَا مَعْشَرَ ثَقِيفٍ
أَسْعَرَ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ نَارًا، فَقَالُوا: لَسْنَا نَكْلِمُ إِيَّاكَ إِنَّمَا نَكْلِمُ
مُحَمَّدًا^(٩)، فَزَلَّتْ. وَيُورِي أَنْ قَرِيشًا قَالُوا لَهُ: اجْعَلْ آيَةَ رَحْمَةِ
آيَةَ عَذَابٍ، وَآيَةَ عَذَابٍ آيَةَ رَحْمَةٍ، حَتَّى نُؤْمِنَ بِكَ، فَزَلَّتْ
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ﴾ إِنْ مَخْفَقَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاللَّامِ هِيَ:
الْفَارِقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْخَافِيَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ الشَّانَ قَارِبُوا أَنْ
يَفْتَنُوكَ، أَيْ: يَخْدَعُوكَ قَانَتَيْنِ ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
مِنْ أَوَامِرِنَا وَنَوَاهِينَا وَعِدْنَا وَعِيدِنَا ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا﴾
لِتَقُولَ عَلَيْنَا مَا لَمْ نَقُلْ يَعْنِي: مَا أَدَارُوهُ عَلَيْهِ مِنْ تَبْدِيلِ
الْوَعْدِ وَعَيْدًا وَالْوَعِيدِ وَعَدًّا، وَمَا اقْتَرَحْتَهُ ثَقِيفٌ مِنْ أَنْ
يَضِيفَ إِلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْهُ عَلَيْهِ ﴿وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ﴾ أَيْ:
وَلَوْ اتَّبَعْتَ مُرَادَهُمْ لَا تَخْذُوكَ ﴿خَلِيلًا﴾ وَلَكِنَّتَ لَهُمْ وَلِيًّا
وَخَرَجْتَ مِنْ وَلَايَتِي.

وَأَوْلَى أَنْ تُبْتَغَى لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِ سَيِّئًا لَيْلًا ﴿٧٦﴾ إِذَا
لَأَذْنُوكَ ضَمَفَ الْحِزْوَةَ وَضَمَفَ الْمَمَاتَ ثُمَّ لَا تَعُدُّ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا
﴿٧٦﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَغَى﴾ وَلَوْلَا تَثْبِيتُنَا لَكَ وَعَصْمَتُنَا ﴿لَقَدْ
كَدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ﴾ لِقَارِبَتِ أَنْ تَمِيلَ إِلَى خُدَعِهِمْ وَمَكْرِهِمْ،
وَهَذَا تَهْيِيجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَفَضْلٌ تَثْبِيتٌ وَفِي ذَلِكَ لُطْفٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِذَا﴾ لَوْ قَارِبْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ أَنْبَى رَكْنَةً
﴿لَأَذْنُوكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أَيْ: لِأَنَّكَ

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا عَلَامَةٌ الْجَمْعِ كَمَا فِي ﴿وَأَسْرُوا
النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١) وَالرَّفْعُ مُقَدَّرٌ كَمَا فِي ﴿يَدْعِي﴾^(٢)
وَلَمْ يُؤْتِ بِالنُّونِ قَلَّةً مِبَالَةً بِهَا؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ضَمِيرٍ لَيْسَتْ إِلَّا
عَلَامَةً. ﴿بِمَامِهِمْ﴾^(٣) يَمُنُّ أَتَمُّوا بِهِ مِنْ نَبِيِّ أَوْ مُقَدَّمٍ فِي
الدِّينِ أَوْ كِتَابٍ أَوْ دِينٍ، فَيُقَالُ: يَا أَتْبَاعَ فُلَانٍ، يَا أَهْلَ بَيْنِ
كَذَا وَكِتَابِ كَذَا، وَقِيلَ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُقَالُ: يَا أَصْحَابَ
كِتَابِ الْخَيْرِ، وَيَا أَصْحَابَ كِتَابِ الشَّرِّ، وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ:
بِكُتَابِهِمْ. وَمَنْ بَدَعَ التَّفْسِيرَ أَنْ الْإِمَامَ جَمَعَ أُمَّ، وَأَنَّ النَّاسَ
يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمَاتِهِمْ، وَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الدَّعَاءِ
بِالْأَمَاتِ نُونُ الْأَبَاءِ رَعَالِيَّةٌ حَقَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِظْهَارُ
شَرَفِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَأَنَّ لَا يَفْتَضِحُ أَوْلَادُ الزَّنَا، وَلَيْتَ
شِعْرِي إِيهَمَا أَبْدَعُ أَصْحَابَةَ لَفْظِهِ أَمْ بِهَاءِ حِكْمَتِهِ ﴿فَمَنْ
أُوتِيَ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَدْعُوعِينَ ﴿كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ فَاوْلُكُ﴾
يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ قِيلَ: أَوْلُكُ؛ لِأَنَّ مِنْ أُوتِيَ فِي مَعْنَى
الْجَمْعِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ خَصَّ أَصْحَابَ الْبَيْمِينِ بِقِرَاءَةِ كِتَابِهِمْ كَانَ
أَصْحَابَ الشَّمَالِ لَا يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ؟ قُلْتُمْ: بَلَى وَلَكِنْ إِذَا أَطَّلَعُوا
عَلَى مَا فِي كِتَابِهِمْ أَخَذَهُمْ مَا يَأْخُذُ الْمُطَالِبَ بِالنَّدَاءِ عَلَى
جَنَائِيهِ وَالْاعْتِرَافَ بِمَسَاوِيهِ أَمَامَ التَّنَكُّلِ بِهِ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُ مِنَ
الْحَيَاةِ وَالْخَجَلِ وَالْإِنْخِزَالِ وَحِبْسَةِ اللِّسَانِ وَالتَّمَتُّعِ وَالْعِزْزِ
عَنْ إِقَامَةِ حُرُوفِ الْكَلَامِ وَالذَّهَابَ عَنْ تَسْوِيَةِ الْقَوْلِ فَكَانَ
قِرَاءَتُهُمْ كَلَامًا قِرَاءَةً، وَأَمَّا أَصْحَابُ الْبَيْمِينِ فَامْرَهُمْ عَلَى عَكْسِ
ذَلِكَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ أَحْسَنَ قِرَاءَةٍ وَأَبِينَهَا وَلَا
يَقْنَعُونَ بِقِرَاءَتِهِمْ وَجَدَهُمْ حَتَّى يَقُولَ الْقَارِئُ لِأَهْلِ الْمَحْشَرِ:
﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ﴾^(٤) ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وَلَا
يَنْقُصُونَ مِنْ ثَوَابِهِمْ أَنْبَى شَيْءٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ
شَيْئًا﴾^(٥) ﴿فَلَا يَخَافُ ظَلَمًا وَلَا هُمُومًا﴾^(٦) مَعْنَاهُ: وَمَنْ كَانَ
فِي الدُّنْيَا أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى كُنْكَلُ ﴿وَأَوَّضَلُ
سَبِيلًا﴾ مِنَ الْأَعْمَى، وَالْأَعْمَى مُسْتَعَارٌ مِمَّنْ لَا يَدْرِكُ
الْمُبْصِرَاتِ لِفَسَادِ حَاسَتِهِ لِمَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ،
أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلِفَقْدِ النُّظُرِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ
الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهِ، وَقَدْ جُوزُوا^(٧) أَنْ يَكُونَ الثَّانِي بِمَعْنَى: التَّفْضِيلِ،
وَمَنْ ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو الْأَوَّلُ^(٨): مَمَالًا، وَالثَّانِي: مَفْخَمًا؛ لِأَنَّ
أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ تَمَامُهُ بِمَنْ، فَكَانَتْ أَلْفُهُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعَةِ فِي
وَسَطِ الْكَلَامِ كَقَوْلِكَ: أَعْمَالِكُمْ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ
فَكَانَتْ أَلْفُهُ فِي الطَّرَفِ مَعْرُضَةً لِلْإِمَالَةِ.

(6) سورة طه، الآية: 112.

(7) قال أحمد: أي: لأنه من عمى القلب، لاعمى البصر، فجاز أن ينبني منه أقبل.

(8) قال أحمد: ويحتمل أن تكون هذه الآية قسمية الأولى، أي: فمن أوتي كتابه ببيمينه، فهو الذي يبصره ويقروه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه بل أعمى عنه، أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التواويلين، والله أعلم.

(9) لم يخرج الزيلعي.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.

(2) سورة الصف، الآية: 7.

(3) قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأمت المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق، لينكر بأمته، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب، غمزية في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإن خلقه من غير أب، كان له آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(4) سورة الحاقة، الآية: 19.

(5) سورة مريم، الآية: 60.

عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين⁽¹⁾.

لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقنسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لأمانا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فإله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله⁽⁴⁾، فنزلت فرجع. وقرئ: لا يلبثون، وفي قراءة أبي: لا يلبثوا على إعمال إذا.

فإن قُلْتَ: ما وجه القراءتين؟ قُلْتَ: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي: ففيها الجملة برأسها التي هي ﴿إِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ عطف على جملة قوله ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ وقرئ: خلافك. قال:

عفت الديار خلافهم فكانما بسط الشواطئ بينهم حصيرا
أي: بعدهم، ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي: سن الله ذلك سنة.

أَمِ الصَّلَاةِ لِذُلُوكِ السَّنِينَ إِكَّ عَسَىٰ آئِيلٌ وَقُرْمَانٌ الْفَجْرَ إِهَّ قَرْمَانَ
الَّذِي كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

لذكت الشمس غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «ثاني جبريل عليه السلام ليلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر»⁽⁵⁾، واشتقاقه من اللذك؛ لأن الإنسان يذك عينه عند النظر إليها، فإن كان اللذك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والفسق: الظلمة وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ صلاة الفجر سميت قرآناً وهو القراءة: لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً وهي: حجة على ابن عليّ والأصم في زعمهما أن القراءة

فإن قُلْتَ: كيف حقيقة هذا الكلام قُلْتَ: أصله لا ذنك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان عذاب في الممات وهو: عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو: عذاب النار، والضعف يوصف به نحو قوله: ﴿فأتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾⁽²⁾ بمعنى: مضاعفاً، فكان أصل الكلام لا ذنك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو: الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لا ذنك اليم الحياة واليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت. وفي نكر الكيدية وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبيح إلى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواية مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجتو عندها ويتبرها فهي جديرة بالتبذر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكني إلى نفسي طرفه عين»⁽³⁾.

وإن كَادُوا يَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا لَيْلًا ﴿٧٧﴾ سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا جِدَّ لِسُنَّتِنَا تَعْوِيلًا ﴿٧٨﴾

﴿وإن كادوا﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ من أرض مكة ﴿وإذا لا يلبثون﴾ لا يبقون بعد إخراجك ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾ فإن الله مهلكهم، وكان كما قال: فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجهم بقليل، وقيل معناه: ولو أخرجوك

(1) قال أحمد: أما تقليل الكيدية، فالذي ينبغي أن يحمل عليه، كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن، لو كان، كيف كان يكون، فعلم تعالى أن الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام، وإن كان ما حصل أمر قليل، وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتشبيه، فإن ذلك لا يكون في الإخبار، إلا ترى أنه لو كان الواقع كيدية ركون كثير، لكن تقليله خلفاً في الخير، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله، على ما ورد حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبيح إلى الله عز وجل، فلقد استعظمو عظيم حق على كل مسلم أن يستفظه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبيح، فلزمهم على ذلك كل فعل استتبع من العبد، استتبع =

- (2) سورة الاعراف، الآية: 38.
(3) قال الزيلعي نكره للتعليبي 2/279.
(4) لم يخرج الزيلعي.
(5) رواه البيهقي في كتاب المعرفة الزيلعي 2/280.

بالكرامة أمناً من السخط، يدل عليه نكره على أثر نكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل: إخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها أمناً من المشركين، وقيل: إخاله الغار وإخراجه منه سالمًا، وقيل: إخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوة، وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلايسه من أمر ومكان ﴿سلطاناً﴾ حجة تنصرتني على من خالفني، أو ملكاً وعزاً قوياً ناصرًا للإسلام على الكفر مظهرًا له عليه. فأجيب دعوته بقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾⁽⁵⁾ ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾⁽⁴⁾ ليظهره على الدين كله⁽⁵⁾ ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾⁽⁶⁾ ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له، وعنه ﴿أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتكم على أهل الله﴾⁽⁷⁾ فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن، وقال: لا والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال ﴿إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديدًا حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُظِلَّوْا كَمَا ظَهَرُوا ﴿٨١﴾

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي بونك، فأوحى الله إلى البيت إنني سأحدث لك نوبة جديدة، فاملاك خبؤاً سجداً يدفون إليك نيف النور يحنون إليك حين الطير إلى بيضها لهم عجاج حولك بالتلبية، ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم القها، فجعل يأتي صنماً صنماً وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» فينكب الصنم لوجهه حتى القها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: «يا علي ارم به» فحملة رسول الله ﷺ حتى سعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ⁽⁸⁾، وشكايه البيت والوحي إليه تمثيل

ليست بركن ﴿مشهوداً﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقا أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون ﴿وقرآن الفجر﴾ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثوراً عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

وَمَنْ أَيْتَلَ فَتَجَدَّ يَوْمَ نَافِلَةٍ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٦﴾

﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتتجد به﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ونحوه: التأمم والتحرج، ويقال أيضاً في النوم بتتجد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجد؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة بون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿مقاماً محمُوداً﴾ نصب على الظرف أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محمُوداً، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمُود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطي وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ هو: «المقام الذي أشفع فيه لأمتي»⁽¹⁾ وعن حنيفة: يجمع الناس في سعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والشرف ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبك بين يديك وبك، وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانه رب البيت⁽²⁾. قال: فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمُوداً﴾.

وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ أَدْنِكَ سُلْطٰنًا نَصِيْرًا ﴿٨٢﴾

قري: مدخل ومخرج بالضم والفتح بمعنى المصدر، ومعنى الفتح أنخلني فأنخل مدخل صدق أي: أنخلني القبر مدخل صدق إخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى

(5) سورة التوبة، الآية: 33.

(6) سورة النور، الآية: 55.

(7) رواه الثعلبي وابن مردويه (الزبيلي 2/286).

(8) قال الزبيلي: غريب ورواه النسائي في السنن الكبرى مختصراً

(1) رواه أحمد في مسنده 478/2، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3137).

(2) رواه الحاكم في المستدرک 363/2 وأبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 2899).

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

(4) سورة المائدة، الآية: 56.

جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن ﴿ومن أمر ربي﴾ أي: من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة فقدموا على سؤالهم⁽⁵⁾ ﴿وما أوتيتم﴾ الخطاب عام، وروي: أن رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾⁽⁶⁾ وساعة تقول هذا⁽⁷⁾، فنزلت ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾⁽⁸⁾ وليس ما قالوه بلازم؛ لأن القلّة والكثرة توران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلّة مضافاً إلى ما فوقه بالكثرة مضافاً إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيتها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا اضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾⁽⁹⁾ فقليل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

وَلَيْنَ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَكَ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

﴿لنذهب﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوانه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثر، أو بقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ﴿ثم لا تجد لك﴾ بعد الذهاب ﴿به﴾ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً ﴿إلا رحمة من ربك﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كان رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المننتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا

وتخيل ﴿وهزق الباطل﴾ ذهب وهلك من قولهم: زهقت نفسه إذا خرجت. والحق الإسلام والباطل الشرك ﴿كان زهوقاً﴾ كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾

﴿ونزل﴾ وقرئ: بالتخفيف والتشديد ﴿من القرآن﴾ من للتبيين كقوله: من الأوثان، أو للتبعض أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيماناً ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: ﴿من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله⁽¹⁾﴾ ولا يزداد به الكافرون ﴿إلا خساراً﴾ أي: نقصاناً لكنيهم به وكفرهم كقوله تعالى: ﴿فزانتهم رجساً إلى رجسهم﴾⁽²⁾.

وَإِذَا نَسَّأَ عَلَى الْإِنْسِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِنَّا نَظَرْنَا كَانَ يَتُوسَّأُ ﴿٨٧﴾

﴿إذا ناعمنا على الإنسان﴾ الصحة والسعة ﴿أعرض﴾ عن نكر الله كأنه مستغني عنه مستبد بنفسه ﴿ونأى بجانبه﴾ تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي: بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأزاد الاستكبار؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين ﴿وإذا مسه الشر﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤسأ﴾ شديد اليأس من روح الله ﴿إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾⁽³⁾ وقرئ: ونأى بجانبه بتقديم اللام على العين كقولهم: راء في رأي، ويجوز أن يكون من نأى بمعنى: نهض.

قُلْ كُلٌّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِرِيهِ، فَرِيضَتِكُمْ أَتَمُّ يَمُّ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

﴿قل كل﴾ أحد ﴿يعمل على شاكلته﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم: طريق ذو شواكل وهي: الطرق التي تتشعب منه والدليل عليه قوله: ﴿فريضتكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: أسد مذهباً وطريقة.

وَسَيَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٩﴾

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان سالوه عن حقيقته، فأخبر أنه من أمر الله أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح⁽⁴⁾، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل:

(6) سورة البقرة، الآية: 269.

(7) نكره الزيلعي 2/290.

(8) سورة لقمان، الآية: 27.

(9) سورة البقرة، الآية: 269.

(1) رواه الثعلبي (الزيلعي 2/288).

(2) سورة التوبة، الآية: 125.

(3) سورة يوسف، الآية: 87.

(4) رواه الواحدي في الوسيط، الزيلعي 2/289.

(5) رواه ابن هشام في السيرة 1/300 - 301.

القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناءنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً

فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب ﴿لا يأتون﴾ جواب قسم محنوف ولولا اللام الموطنة لجاز أن يكون جواباً للشرط كقوله: يقول لا غائب مالي ولا حرم. لأن الشرط وقع ماضياً أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه - وفيهم العرب العاربة أرباب البيان - لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب⁽¹⁾ من النوايب ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال: الله قادر على خلق الأجسام، والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا

مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للمفاعل: قد عجز عنه ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

﴿من زخرف﴾ من ذهب ﴿في السماء﴾ في معارج السماء فحذف المضاف. يقال: رقى في السلم وفي الدرجة ﴿ولن تؤمن لرقيق﴾ ولن تؤمن لأجل رقيق ﴿حتى تنزل علينا كتاباً﴾ من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن تؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر كما قال عز وجل: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾⁽⁴⁾ ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾⁽⁵⁾ وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن، وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لمن يكن إلى تبصرتهم سبيل ﴿قل سبحان ربي﴾ وقرئ: قال سبحان ربي أي: قال الرسول: وسبحان ربي! تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿هل كنت إلا﴾ رسولاً كسائر الرسل ﴿بشراً﴾ مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلي إنما هو إلى الله فما بالكم تخخيرنها علي.

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ إلا أن قالوا أبتت الله بئراً رسولاً ﴿قل لو كان في الأرض ملكة يشرك مضمينين لزرنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾⁽¹⁰⁾ ﴿قل كفن بيأله شبيهاً بيني وبينكم إنهم كان يسأوه حبراً بصيراً﴾⁽¹¹⁾.

أن الأولى نصب مفعول ثان لمنع، والثانية رفع فاعل له و ﴿الهدى﴾ الوحي أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلججت في صدورهم وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهزيمة في ﴿أبعث الله﴾ للإنكار،

﴿من كل مثل﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور الجود.

﴿فإن قلنت: كيف جاز﴾ فإني أكثر الناس إلا كفوراً ولم يجز ضربت إلا زيدا؟ قلنت: لأن أبي متأول بالنفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفوراً. لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبيانات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أنيال الحيرة فقالوا: ﴿لن تؤمن لك حتى﴾ وحتي ﴿تفجر﴾ تفتح، وقرئ: تفجر بالتخفيف ﴿من الأرض﴾ يعنون أرض مكة ﴿ينبوعاً﴾ عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، يفعل من نبع الماء كيعبوب من عب الماء ﴿كما زعمت﴾ يعنون قول الله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾⁽²⁾. قرئ: كسفاً بسكون السين جمع كسفة كسدرة وسدر وبفتحه ﴿قبيلاً﴾

قال أحمد: وما يملك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن ملول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات البراري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أثلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، وأي الكريمة قرآن، وإن المعجز عندهم الدليل لا الملول، لكنهم يتحزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن

(1) قال أحمد: وما يملك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن ملول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات البراري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أثلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، وأي الكريمة قرآن، وإن المعجز عندهم الدليل لا الملول، لكنهم يتحزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(3) سورة الفرقان، الآية: 21.

(4) سورة الانعام، الآية: 7.

(5) سورة الحجر، الآية: 14.

(1) قال أحمد: وما يملك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن ملول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات البراري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أثلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، وأي الكريمة قرآن، وإن المعجز عندهم الدليل لا الملول، لكنهم يتحزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن

جزاؤهم ﴿ إلى قوله: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (١٦).

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ قُلْتَ: على قوله: ﴿أولم يروا﴾ لأنَّ المعنى: قد علموا بليل العقل أنَّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشدَّ خلقاً منهم كما قال: ﴿الأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ (١٥) ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت، أو القيامة، فأبوا مع وضوح اللبيل إلا جحوداً.

﴿لَوْ أَنَّم تَمَلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكُمُ خَشْيَةَ الْإِمْتِنَانِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ تَكْوَرًا﴾ (١٧).

لو حقا أن تدخل على الأفعال نون الأسماء فلا بدَّ من فعل بعدها في ﴿لو أنتم تملكون﴾ وتقديره لو تملكون تملكون فأضمر تلك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضمَر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأنَّ الناس هم المختصون بالشح المتبالم ونحوه قول حاتم: لو نأت سوار لطمتني

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أربوا نقيصتي

وذلك لأنَّ الفعل الأوَّل لما سقط الأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لاهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿فتقورا﴾ ضيقاً بخيلاً.

فإن قُلْتَ: هل يقدر لامسكتم مفعول قُلْتَ: لا؛ لأنَّ معناه: لبخلتم من قولك للبخليل ممسك.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا مَوْسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخَيِّطَ بِحَبِّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَلظُنُّكَ يَكُونُ مَشْهُورًا﴾ (١٨) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنتَ لَهْؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بَيِّنَةٌ مِّنْ مَّشْهُورًا﴾ (١٩).

وما أنكره فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنَّ قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون﴾ (١) على أقدامهم كما يمشي الإنس، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مطمئنين﴾ ساكنين في الأرض قادرين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المرشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿بشراً﴾ و﴿ملكاً﴾ منصوبين على الحال من رسولاً قُلْتَ: وجه حسن، والمعنى له أجوب ﴿شهيذاً بيني وبينكم﴾ على أنني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿إنه كان بعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيراً﴾ عالماً بأحوالهم فهو مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيذاً تمييز أو حال.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَهْدِ لَهُمْ بَدَأَ لَهُمْ أَشْرًا﴾ (٢٠) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢١) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٣) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٥) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٧) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩) ﴿وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ﴾ (٣٠).

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو المهتد﴾ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضلل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصاراً ﴿على وجوههم﴾ كقوله: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ (٢) وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: ﴿إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم﴾ (٣). ﴿عمياً وبكماً وصمماً﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا يتعلقون بما يقبل منهم ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ (٤) ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤون ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها وبللوا غيرها، فرجعت ملتبهة مستعرة كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإقناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تاكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإقناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرمهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دلَّ على ذلك بقوله: ﴿ذلك﴾

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3142).

(4) سورة الإسراء، الآية: 72.

(5) سورة النازعات، الآية: 27.

(1) قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر، وهو قول القائل، إن مجرد وجود الملائكة في الأرض، يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة، فيكون جوابه ما تقدم، والله الموفق.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

قلبك، من قولهم: ما تبرك عن هذا أي: ما منعك
وصرفك، وقرأ أبي بن كعب: وإن أخالك يا فرعون
لمثبوراً على إن المخففة واللام الفارقة.

فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣٧﴾ وَقُلْنَا
مِنْ بَعْدِهِ لِيَنْجِي إِبْرَاهِيمَ إِسْرَائِيلَ أَنْتَكُونُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جَنَّاتٍ بَرَكًا
لَيْفِيًّا ﴿١٣٨﴾.

﴿فاراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض
مصر ويخرجهم منها، أو يفهم عن ظهر الأرض بالقتل
والاستئصال، فحاق به مكروه بأن استفزه الله بإغراقه مع
قبطه ﴿اسكنوا الأرض﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم
منها ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني: قيام الساعة ﴿جننا
بكم لفيفا﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم بينكم
ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف الجماعات من
قبائل شتى.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقَّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٣٩﴾.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما نزل القرآن إلا
بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق
والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما
انزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من
الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من
تخليط الشياطين ﴿وما أرسلناك﴾ إلا لتبشرهم بالجنة
وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء من إكراه
على الدين أو نحو ذلك.

وَرَفَعْنَا فَرْقَنَهُ لِنُقَرِّمَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّبٍ وَرَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٤٠﴾.

﴿وقرأنا﴾ منصوب بفعل يفسرهُ ﴿فرقناه﴾ وقرأ أبي:
فرقناه بالتشديد أي: جعلنا نزوله مفرقاً منجماً، وعن ابن
عباس رضي الله عنه أنه قرأه مشدداً وقال: لم ينزل في
يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة
يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب ﴿على
مكث﴾ بالفتح والضم على مهل وتؤدة وتثبت ﴿ونزلناه
تنزيلاً﴾ على حسب الحوادث.

قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ بِإِذْنِ رَبِّي وَمَنْ يُشَاقِقِ أَمْرًا مِنْ رَبِّي فَلْيُصْبِرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامِ إِنَّهُ يَسْتَعِيبُ الْكَافِرِينَ إِذَا أَتَوْا بِبُرْهَانٍ وَنُزِّلَتْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَإِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ الْكِتَابِ لَأُنزِلَتْ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ رَبِّكَ لِتُخْبِرَ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ الْكِتَابِ لَأُنزِلَتْ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ رَبِّكَ لِتُخْبِرَ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ الْكِتَابِ لَأُنزِلَتْ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ رَبِّكَ لِتُخْبِرَ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٤١﴾.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم
واحتقارهم والازدراء بشانهم، وأن لا يكثر بهم وبيمانهم
وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد،
والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر،
والطور الذي نتقه على بني إسرائيل، وعن الحسن:
الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الحجر، والبحر،
والطور. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل محمد بن
كعب فنكر: اللسان، والطمس، فقال له عمر: كيف يكون
الفقيه إلا هكذا. أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه
فنفقه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم
وجمص وعس كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال
أن بعض اليهود سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال:
«أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا
بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا،
ولا تمسوا ببيء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقنقوا
محصنة، ولا تغزوا من الزحف؛ وأنتم يا يهود خاصة
لا تعدوا في السبت»⁽¹⁾. ﴿فاسئل بني إسرائيل﴾ قلنا
له: سل بني إسرائيل أي: سلهم من فرعون؟ وقل له:
أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم، وعن
حال بينهم، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم
وأيديهم معك، وتدل عليه قراءة رسول الله ﷺ: ﴿فسال
بني إسرائيل﴾ على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة
قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني
إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، عن الآيات
ليزدادوا يقيناً وطمانينة قلب؛ لأن الآلة إذا تظاهرت
كان ذلك أقوى وأثبت كقول إبراهيم: ﴿ولكن ليطمئنن
قلبي﴾⁽²⁾.

فإن قلت: بم تعلق ﴿إذ جاءهم﴾؟ قلت: أما على الوجه
الأول: فبالقول المحذوف أي: قلنا له سلهم حين جاءهم، أو
بسال في القراءة الثانية، وأما على الأخير: فبأيتنا، أو
بإضمار أنكر، أو يخبروك ومعنى: إذ جاءهم إذ جاء آباءهم
﴿مسحوراً﴾ سحرت فحولت عقلك.

﴿لقد علمت﴾ يا فرعون ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات
إلا الله عز وجل ﴿بصائر﴾ بينات مكشوفات، ولكنك
معاند مكابر ونحوه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
ظلماً وعلوا﴾⁽³⁾ وقرئ: علمت بالضم على معنى: إني
لست بمسحور كما وصفتنني بل أنا عالم بصحة الأمر.
وإن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع
ظنه بظنه كأنه قال إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك
﴿مبشوراً﴾ هالكا، وظني أصح من ظنك؛ لأن له أمانة
ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله
بعد وضوحها، وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع
علمك بصحة أمري ﴿إني لأظنك مسحوراً﴾ قول كذاب،
وقال الفراء مبشوراً: مصروفاً عن الخير مطبوعاً على

(2) سورة البقرة، الآية: 260.

(3) سورة النمل، الآية: 14.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة بني

إسرائيل، (الحديث رقم: 3144).

المؤكد لما في أي آي: أي هذين الاسمين سميتم ونكرتم ﴿فله الأسماء الحسنی﴾ والضمير في فله ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأن التسمية للذات لا للاسم، والمعنى: أيًا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنی؛ لأنه إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقدیس والتعظيم ﴿بصلاتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وإنكار، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغواً وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين الجهر والمخافتة﴾ سبيلاً، وسطاً، وروي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أنلجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أجزر الشيطان، وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً⁽¹⁾، وقيل معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، وقيل: بصلاتك بدعائك، وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾⁽²⁾ وابتغاء السبيل مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

رَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لِلْأَلْبَانِ رَبًّا كَمَا رَبَّكَ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَلِكِ رَبًّا
يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا نَكِيرًا ﴿١٧﴾

﴿ولي من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بمولاته.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد قُلْتُ: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية⁽⁴⁾.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند نكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا الله بفضل العيم وإحسانه الجسم.

يصنقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك. فإن خيراً منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصنقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلى عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشّر به من بعثته محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويزيدهم خشوعاً﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قُلْتُ: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ تعليق لمانا؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿أمّنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، وتطبيب نفسه كانه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم.

فإن قُلْتُ: ما معنى الخور للذنن؟ قُلْتُ: السقوط على الوجه، وإنما نكر الذنن وهو مجتمع للحيين؛ لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذنن.

فإن قُلْتُ: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خَرَّ على وجهه وعلى نقته، فما معنى اللام في خَرَّ لنقته ولوجهه؟ قال: فخر صريعاً للبيدين وللنم. قُلْتُ: معناه: جعل نقته ووجهه للخور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص.

فإن قُلْتُ: لم كَرَّرَ ﴿يخرون للذنقان﴾؟ قُلْتُ: لاختلاف الحالين وهما: خورهم في حال كونهم ساجدين، وخورهم في حال كونهم بالكين.

قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَٰهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إليها آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت. والدعاء بمعنى: التسمية لا بمعنى: النداء وهو يتعدى إلى مفعولين تقول: دعوتك زيدا، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيدا، والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى، وأو للتخيير فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ سمووا بهذا الاسم أو بهذا، وإنكر وإما هذا وإما هذا. والتنوين في ﴿أيًا﴾ عوض من المضاف إليه و ﴿ما﴾ صلة للإبهام

(1) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (الحديث رقم: 1329) والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (الحديث رقم: 447).

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أفغله عند قوله تعالى:

﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم

== الذين كفروا ببرهم يعلمون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد، ولا تناسبها، فإنك لو قلت: ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعلمون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 348/1 كتاب الصلوات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية

الْمُتَّبِعِ اللَّهُ أَلَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ فِيمَا
يُنزِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرَ الْتَوْبِينَ الَّذِينَ يَمْشُرُونَ
الْمَالِيحَاتِ إِنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَّكِبِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَنُذِرَ
الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾ فَلَمَّا كَفَرَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴿٦﴾

لقن الله عباده وفقهم كيف يتنون عليه ويحملونه على
أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على
عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم
﴿ولم يجعل له عوجًا﴾ ولم يجعل له شيئًا من العوج
قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي
الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من
الحكمة والإصابة فيه.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿فِيمَا﴾؟ قُلْتَ: الأحسن أن
ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالًا من الكتاب؛ لأن قوله: ولم
يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله
حالًا من الكتاب فاصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة،
وتقديره: ولم يجعل له عوجًا جعله قيمًا؛ لأنه إذا نفى عنه
العوج فقد أثبت له الاستقامة.

فإن قُلْتَ: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات
الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قُلْتَ: فائدته التأكيد،
فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ابني عوج
عند السبر والتصفح، وقيل: قيمًا على سائر الكتب مصدقًا
لها شاهدًا بصحتها، وقيل: قيمًا بمصالح العباد وما لا بد
لهم منه من الشرائع، وقرئ: قيمًا. انذر متعد إلى مفعولين
كقوله: ﴿إنا أنذرتكم عذابًا قريبًا﴾^(١) فاقصر على أحدهما
وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بأسًا شديدًا﴾ والبأس من
قوله: ﴿بعذاب بئيس﴾^(٢) وقد يؤس العذاب ويؤس الرجل
بأسًا وبأسه ﴿ومن لئنه﴾ صادرًا من عنده، وقرئ: من لئنه
بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾
بالتخفيف والتثقل.

فإن قُلْتَ: لم اقصر على أحد مفعولي انذر؟ قُلْتَ: قد

جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه فوجب الاقتصار
عليه، والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿ولينذر الذين
قالوا اتخذ الله ولدًا﴾ متعلقًا بالمنذرين من غير نكر المنذر
به كما نكر المبشر به في قوله: ﴿أن لهم أجرًا حسنًا﴾
استغناء بتقدم نكره. والأجر الحسن الجنة ﴿ما لهم به من
علم﴾ أي: بالولد أو باتخاذها يعني: أن قولهم هذا لم يصدر
عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للأباء، وقد اشتملته
آبائهم من الشيطان وتسويله.

فإن قُلْتَ^(٣): اتخذ الله ولدًا في نفسه محال فكيف قيل:
﴿ما لهم به من علم﴾؟ قُلْتَ: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه
ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء للعلم بالشيء، إما للجهل
بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم
تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز
والرفع إلى الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى:
التعجب، كانه قيل: ما أكبرها كلمة و﴿تخرج من أفواههم﴾
صفة للكلمة تفيد استعظامًا لاجترائهم على النطق بها
وإخراجها من أفواههم، فإن كثيرًا مما يوسوسه الشيطان في
قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون
أن يتفوهوا به ويطلقوا به الاستنهم، بل يخطون عليه تشورًا
من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: كبرت بسكون
الباء مع إشمام الضمة.

فإن قُلْتَ: الإم يرجع الضمير في ﴿كبرت﴾ قُلْتَ: إلى
قولهم: ﴿اتخذ الله ولدًا﴾ وسميت كلمة كما يسمون القصيدة
بها.

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما
تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته
واعزته، فهو يتساقط حشرات على آثارهم، وينزع نفسه
وجدًا عليهم وتلهفًا على فراقهم. وقرئ: باخع نفسك على
الأصل وعلى الإضافة أي: قاتلتها ومهلكها، وهو للاستقبال
فيمن قرأ إن لم يؤمنوا، أو للمضي فيمن قرأ إن لم
يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن
﴿أسفًا﴾ مفعول له أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون
حالًا، والأسف المبالغة في الحزن والغضب يقال: رجل
أسف وأسيف.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَنْ يَسْتَلْهُمُ إِنَّهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴿٧﴾
وإِنَّا لَجَعَلْنَا مَا عَلَيْكَ مِثْلًا لِمَنْ حَرَّرَا ۖ ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ ﴿٩﴾

﴿ما على الأرض﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها

ولا ترى الضب بها ينحجر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام، وارد على سبيل الحقيقة والأصل،
وإن نفي إنزال السلطان، تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده،
وتارة يكون، لأنه لم يقع، وإن كان ممكنًا، والله اعلم.

(1) سورة النبا، الآية: 40.

(2) سورة الاعراف، الآية: 165.

(3) قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى: ﴿وان تشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطانًا﴾ أن نكك وارد على سبيل التهمك، وإلا فلا سلطان
على الشرك، حتى ينزل ونظيره.

وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

ثُمَّ بَشَّرْنَا بِمَنَظَرٍ لِّمَنْ أَتَى الْمَرْيَبَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٧﴾ مَخْنُوعًا
عَلَيْكَ يَا أَيُّهَا الْحَقُّ إِنَّهُمْ فِي نَفْسِهِمْ مَأْمُونُونَ بِرَبِّهِمْ وَرِزْقُهُمْ هُدًى ﴿١٧﴾.

أي: يتضمن معنى: الاستقهام فعلق عنه لنعلم فلم يعمل فيه. وقرئ: ليعلم وهو معلق عنه أيضاً؛ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد يعلم إليه، وفاعل يعلم مضمون الجملة كما أنه مفعول نعلم ﴿أي الحزبين﴾ المختلفين منهم في مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾⁽²⁾ وكان الذين قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم هم: الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم و ﴿أحصى﴾⁽³⁾ فعل ماض أي: أيهم ضبط ﴿أمدًا﴾ لأوقات لبثهم.

فإن قُلْتُ: فما تقول فيمن جعله من أفعال التفضيل؟ قُلْتُ: ليس بالوجه السديد وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، ونحو: أعدى من الجرب، وأفلس من ابن مذاق، وشاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به؟ ولأن أمدًا⁽⁴⁾ لا يخلو إما أن ينتصب بفاعل، فافعل لا يعمل، وإما أن ينصب بلبثوا فلا يسد عليه المعنى، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى كما أضمر في قوله:

واضرب منا بالسيوف القوانسا

على نضرب القوانس فقد أبدعت المتناول وهو قريب حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره.

فإن قُلْتُ: كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدة غرضاً في الضرب على آذانهم؟ قُلْتُ: الله عز وجل لم يزل عالماً بذلك، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدانوا إيماناً واعتباراً ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم ﴿ووزناهم هدى﴾ بالتوفيق والتثبيت.

وَرَبَطْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ عَلَّمْنَا إِذَا سَطَطْنَا ﴿١٧﴾.

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وقويها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم والفرار بالبين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿إذ قاموا﴾ بين يدي الجبار وهو: نقيانوس من غير ميالة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿فقالوا ربنا رب

ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿لننبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿إننا لجاعلون ما عليها﴾ من هذه الزينة ﴿صعيداً جرزاً﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته، وإمطة حسنة، وإبطال ما به، كان زينة من إماتة الحيوان، وتجفيف النباتات والأشجار ونحو ذلك، نكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة تلك كله كان لم يكن ثم قال: ﴿أم حسبت﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة. والكهف الغار الواسع في الجبل ﴿والرقيم﴾ اسم كلبهم، قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همد وقيل: هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماءهم جعل على باب الكهف، وقيل: إن الناس رقمو حديثهم نقرأ في الجبل، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجبل، وقيل: قريتهم، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبا﴾ من آياتنا وصفاً بالمصدر أو على ذات عجب.

إِذْ أَرَى الْآيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَنَادَى رَبِّيَ إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرًا رَشِيدًا ﴿١٨﴾.

﴿من لندك رحمة﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك وهي: المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وهي لنا من أمراً﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رشداً﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو لاجل أمرنا رشداً كله كقولك: رأيت منك سداً.

فَنَرَيْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سَبْرَكَ عَدَدًا ﴿١٨﴾.

﴿فضربنا على آذانهم﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع يعني: أنماهم إمامة ثقيلة لا تنبهم فيها الأصوات كما نرى المستنقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو: الحجاب كما يقال: بنى على أمراته يريون بنى عليها القبة ﴿سنين عدداً﴾ نوات عدد فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده كقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾⁽¹⁾ وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عنده فلم يحتج أن يعد،

= في قوله تعالى: ﴿واحصى كل شيء عدداً﴾ ويعضد حمله على أفعال التفضيل، وروده في نظير الواقعة، واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث، وذلك في قوله تعالى: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ فأمثلهم طريقة، هو: واحصاهم لما لبثوا عدداً، وكلا الوجهين جائز، والله أعلم.

(1) سورة الاحقاف، الآية: 35.

(2) سورة الكهف، الآية: 19.

(3) قال أحمد: وقد جعل بعض النحاة بناء أفعال، من المزيد فيه الهمز قياساً، وادعى ذلك مذهباً لسببويه، وعله بأن بناء منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تعويض همزة بهمزة.

(4) قال أحمد: ولقائل أن ينصبه على التمييز، كالتصاحب العدد تمييزاً =

السفوات والأرض... شططاً قولاً ذا شطط وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط إذا بعد، ومنه: اشط في السوم وفي غيره.

هَذُلَاءَ قَوْمًا أَخَذُوا مِنْ دُورِيهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٧٥﴾.

﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و ﴿قومنا﴾ عطف بيان و﴿واتخذوا﴾ خبر وهو إخبار في معنى إنكار ﴿لولا يأتونك عليهم﴾ هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف ﴿بسلطان بين﴾ وهو تبيكيت؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت و﴿افتري على الله كذباً﴾ بنسبة الشريك إليه.

وَإِذْ أَنْزَلْنَاهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ إِلَّا اللَّهُ فَاتُوا إِلَى الْكَهْفِ بِشَرِّ لَكُمْ رَيْبِكُمْ مِنْ رَحْمَتِي. وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا ﴿٧٦﴾.

﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وما يعيبون﴾ نصب عطف على الضمير يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم ﴿إلا الله﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلًا على ما روي أنهم كانوا يقرنون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة، وأن يكون منقطعاً، وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿مرفقاً﴾ قرئ: بفتح الميم وكسرهما وهو ما يرتفق به أي: ينتفع إما أن يقولوا تلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوح يقينهم، وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً.

﴿وَرَى النَّاسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرٌ عَنْ كَهْنِهِمْ ذَاتَ اللَّيْلِ وَإِذَا عَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ السَّيَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿تزاور﴾ أي: تمايل أصله تتزاور فحذف بإدغام التاء في الزاي، أو حذفها وقد قرئ بهما، وقرئ: تزور وتزاور بوزن تحمر وتحماز وكلها من الزور وهو: الميل، ومنه: زاره إذا مال إليه، والزور: الميل عن الصديق ﴿ذات اليمين﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمينين ﴿تقرضهم﴾ تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم قال نو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أتواز مشرف شمالاً وعن إيمانهن الفوارس ﴿وهم في فجوة منه﴾ وهم في متسع من الكهف والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح

معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: في متسع من غارهم ينالهم فيه روح الهواء ويرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته يعني: أن ما كان في تلك السمات تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبداً، ومعنى ذلك من آيات الله: أن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهلوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلفظ بهم وأعانهم وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنبة والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة، ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

وَتَحْسِبُهُمْ أَيَّكَافًا وَهُمْ رُؤُودٌ وَقَلْبُهُمْ دَاتَ اللَّيْلِ وَذَاتَ السَّيَالِ وَكَلْبُهُمْ بَیْطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَكَّيْتُ مِنْهُنَّ فِرَاقًا وَكَلَّمْتُمْ مِنْهُنَّ رُغَبًا ﴿٧٨﴾.

﴿وتحسبهم﴾ بكسر السين وفتحها خطاب لكل أحد، والأيقاف جمع يقظ كانكاد في نكد، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقيل لهم: تقلبتان في السنة، وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ: ويقلبهم بالياء والضمير لله تعالى، وقرئ: وتقلبهم على المصدر منصوباً وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه وتحسبهم أيقاظاً، كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصائق: وكالبهم أي: وصاحب كلبهم ﴿بأسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى الماضي، وإضافته إذا أضيف حقيقة معرفة كغلام زيداً، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة، وقيل: الباب وأنشد:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقرئ: ولملئت بتشديد اللام للمبالغة، وقرئ: بتخفيف الهمزة وقبلها ياء، و ﴿رغباً﴾ بالتخفيف، والتثقيل وهو: الخوف الذي يربع الصدر أي: يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجزامهم، وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية: أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك، فقال: ﴿لولا اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم⁽¹⁾، وقرئ: لو اطلعت بضم الواو.

وأرخص ﴿وليتلطّف﴾ وليتكلف اللطف والنيقة⁽⁴⁾ فيما يبأشره من أمر المبايعه حتى لا يفبن، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿ولا يشعرون﴾ بكم أحدًا يعني: ولا يفعلن ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعارًا منه بهم لأنه سبب فيه.

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْدِرُوكُمْ فِي بِلَادِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَكْبَدُوا ﴿٧﴾

الضمير في ﴿إنهم﴾ راجع إلى الأهل المقدر في أيها ﴿يرجموكم﴾ يقتلوك أخبث القتل وهو: الرجم، وكانت عابثهم ﴿أو يعيدوكم﴾ أو يدخلوكم ﴿في ملتهم﴾ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها، والعود في معنى: الصيرورة أكثر شيء في كلامهم يقولون: ما عدت أفعل كذا يريدون ابتداء الفعل ﴿ولن تفلحوا إذا أكبدا﴾ إن دخلتم في دينهم.

رَكَدَكَ أَعْتَرَا عَتِيمًا لَعَلِمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِيانًا لِلَّذِينَ أُعْلِمُوا بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَّ أَمْرَهُمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْنَا مَنَاجِمًا ﴿٨﴾

﴿وكنكك أعترا عليهم﴾ وكما أنماهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة اطلعنا عليهم. ليعلم الذين اطلعناهم على حالهم ﴿أن وعد الله حق﴾ وهو: البعث؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث و ﴿إذ يتنازعون﴾ متعلق بأعترا أي: أعتراهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر بينهم، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فقالوا﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ابنوا عليهم بنيانًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرق إليه الناس، ضنًا بتربثهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبنا عليهم ﴿لنتخذن﴾ على باب الكهف ﴿مسجدًا﴾ يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم، وقيل: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ويتكلمون في قصتهم، وما أظهر الله من الآية فيهم، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا كيف يخفون مكانهم وكيف يسنون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنيانًا. روي: أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكروها على عبادتها،

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِ لُؤْلُؤِ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قائلًا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ كَابْتِئُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْوِرْ بَعْدَكُمْ أَحَدًا ﴿٨﴾

﴿وكنكك بعثناهم﴾ وكما أنماهم تلك النومة، كنكك بعثناهم إنكارًا بقدرته على الإنامة والبعث جميعًا، ليسال بعضهم بعضًا ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا، ويستتلوا على عظم قدرة الله تعالى، ويزدانوا يقينًا، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به ﴿قالوا لبئنا يومًا أو بعض يوم﴾ جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذبًا وإن جاز أن يكون خطأ ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبئتم﴾ إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالآلة أو بإلهام من الله أن المدّة متطاولة وإن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروي: أنهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم أشعارهم قالوا ذلك.

فإِنْ قُلْتُمْ: كيف وصلوا قولهم ﴿فابعثوا﴾ بتذاكر حديث المدّة؟ قلن: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهكم. والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث: «إن عرفة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفًا من ورق فانتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب⁽¹⁾، وقرئ: بورقكم بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة، وقرأ ابن كثير: بورقكم بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حذو. وقيل: المدينة طرسوس، قالوا: وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم بليل على أن حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلمين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات، ومنه قول عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه: أوثق عليك نفقتك⁽²⁾، وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله وتعلم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبئلو له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتنر إليهم ويحمد إليهم بنلهم فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيان شد الهيمان والتوكل على الرحمن ﴿أيها﴾ أي: أهلها، فحنف الأهل كما في قوله: ﴿واسئل القرية﴾⁽³⁾ ﴿أزكى طعامًا﴾ أحل وأطيب وأكثر

(1) رواه أبو داود في كتاب: الخاتم، باب: ما جاء في ربط الأسنان

بالذهب (الحديث رقم: 4232) والترمذي في كتاب: اللبس، باب: ما جاء في شد الأسنان بالذهب (الحديث رقم: 1770).

(2) رواه ابن أبي شيبة: 50/4 في كتاب: الحج، باب: في الهيمان =

= للمحرم.

(3) سورة يوسف، الآية: 82.

(4) أي: الإيقان.

عدهم، وأن المصيب منهم من يقول: «سبعة وثامنهم كلبهم». قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من أولئك القليل، وروي: أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا «ثلاثة رابعهم كلبهم»، وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا «خمس ساسهم كلبهم»، وقال المسلمون: كانوا «سبعة وثامنهم كلبهم»، فحقق الله قول المسلمين، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل عليه السلام، وعن علي رضي الله عنه: هم سبعة نفر، أسماؤهم: بليخا ومكشليبتيا ومشليبتيا هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره مرنوش ووبرنوش وشانوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع الراعي الذي واقفهم حين هربوا من ملكهم نقيانوس، واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير.

فإن قُلْتُ: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين كما تقول: قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعاً وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له «رجعاً بالغيب» رمية بالخبر الخفي وإتياناً به كقوله: «ويقذفون بالغيب»⁽¹⁾ أي: يأتون به، أو ووضوح الرجم موضع الظن فكانه قيل: ظناً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظن مكان قولهم: ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قول زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجح

أي: المظنون. وقرئ: ثلاث رابعهم بإدغام التاء في تاء التائين، وثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلاثة، وكذلك خمسة، وسبعة و «رابعهم كلبهم» جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك «ساسهم كلبهم» «وثامنهم كلبهم».

فإن قُلْتُ⁽²⁾: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأولين؟ قُلْتُ: هي الواو التي تدخل الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: «وما أهلكنا من

ومن شد في تلك نقيانوس، فأراد فتية من أشرف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومزوا بكلب فتبعهم فطروه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني أنا أحب أحياء الله فناموا وأنا أحرسكم، وقيل: مزوا براع معه كلب فتبعهم على بينهم وبخلوا الكهف، فكانوا يعبدون الله فيه ثم ضرب الله على آذانهم وقيل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسخاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فالقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهم ما سد به فم الكهف ليأخذ حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثه لابتياح الطعام، وأخرج الورق وكان من ضرب نقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فالقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرأى في المنام كارهين الذهب فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً. «رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ» من كلام المتنازعين، كأنهم تذكروا أمرهم وتناقضوا الكلام في أنسابهم ومدته لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: «رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ» أو هو من كلام الله عز وجل رد لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْمُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ وَجَمَّ بِالْفِجْجِ وَيَقُولُونَ سَمِعُوا وَإِيَّاهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَلْمَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحَارِ فِيهِمْ إِلَّا رِجَاءَ ظُهُورِكَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٧٦).

«سَيَقُولُونَ» الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخّر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في

(1) سورة سبأ، الآية: 53.

(2) قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها الواو الثمانية؛ فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبتة قديم، ويعدون من هذه الواو في قوله في الجنة: «وفتحت أبوابها» بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها: «وفتحت أبوابها» قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة الواو تصحب لثمانية، فتخص بها، فإن نكر العدد في أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة الواو تصحب لثمانية، فتخص بها، فإن نكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن، فتخصه الواو، وربما عنوا من ذلك، والناهون عن المنكر، وهو الثامن من قوله: «التائبين»، وهذا =

= أيضاً مردود، بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لترتبط بينها وبين الأولى، التي هي الأمرون بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط، ألا ترى اقترانهما في جميع مصابريهما ومواردهما، كقوله: «يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وكقوله: «وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر» وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: «ثيبات وإبكاراً»؛ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه الواو التقسيم، ولو ذهبت تحنفها فتقول: ثيبات إبكاراً، لم يستدل الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعنوية واردة، لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

تقوله بأن يائن لك فيه، والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون إن شاء الله في معنى كلمة تأييد كأنه قيل: ولا تقولنه أبداً، ونحوه قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾⁽⁴⁾ لأنّ عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله، وهذا نهى تأييد من الله لتأييد حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وبني القرنين، فسألوه فقال: «أئتوني غداً أخبركم» ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبت قريش ﴿واذكر ربك﴾⁽⁵⁾ أي: مشيئة ربك وقيل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتدركها بالذکر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم تحنت، وعن سعيد بن جبيرة ولو بعد يوم أو اسبوع أو شهر أو سنة، وعن طاوس: هو على ثنياه ما دام في مجلسه، وعن الحسن: نحوه، وعن عطاء: يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة، وعند عامة الفقهاء: أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً، ويحكى: أنه بلغ المنصور أنّ أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالإيمان أقتضى أن يخرجوا من عنك فيستثنوا فيخرجوا عليك، فاستحسن كلامه ورضى عنه⁽⁶⁾، ويجوز أن يكون المعنى: وأنكر ربك بالتسبيح⁽⁷⁾ والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديداً في البعث على الاهتمام بها، وقيل: وأنكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به، وقيل: وأنكره إذا اعترك النسيان لينكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند نكرها، و﴿هذا﴾ إشارة إلى نبي أصحاب الكهف، ومعناه: لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أنني نبي صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبي أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم عن ذلك وأدلّ، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فأنكر ربك، ونكر ربك عند نسيانه أن تقول

قرية إلا ولها كتاب معلوم⁽¹⁾ وفائتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ قاله: عن ثبات علم وطمانينة نفس، ولم يرجعوا بالظن كما غيرهم، والليل عليه أنّ سبحانه أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رجماً بالغيب﴾ وأتبع القول الثالث قوله: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدة أي: لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب، والضمير في سيقولون على هذا لأهل الكتاب خاصة أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين ﴿فلا تمار فيهم﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جداولاً ظاهراً غير متعمق فيه وهو: أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم كما قال: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾⁽²⁾ ﴿ولا تستفت﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده؛ لأنّ ذلك خلاف ما وصيت به من المدارة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد لأن الله قد أرسلك بأن أوحى إليك قصتهم.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٣٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا
رَشَدًا ﴿٣٤﴾ وَيَتُورًا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاذًا مِئًا ﴿٣٥﴾

﴿ولا تقولنّ لشيء﴾ ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه ﴿إني فاعل ذلك﴾ الشيء ﴿غداً﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل؛ لأنه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله⁽³⁾ كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله بون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين: أحدهما: ولا تقولنّ ذلك القول: إلا أن يشاء الله أن

(1) سورة الحجر، الآية: 4. = لا يشاؤه علي زعمهم الفاسد، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع، فسحقاً سحقاً.

(2) سورة الأعراف، الآية: 89.

(3) قال أحمد: أما ظاهر الآية، فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى نكرت، ولو بعد الطول، وأما حلها لليمين حينئذ، فلا دليل عليه منها، والله أعلم (قال: ويجوز أن يكون المعنى: وأنكر ربك بالتسبيح إلخ).

(4) حديث ابن عباس أخرجه الحاكم في المستدرک 303/4.

(5) قال أحمد: ويؤيد هذا التاويل بقوله تعالى أول القصة: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها، وإنكاره من عجائب آيات الله. ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد، وأدخل في الآية، والله أعلم.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) قال أحمد: ولا بدّ من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين، ولولا ذلك، لكان المعنى على الظاهر ببإحدى الرأي، ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول، إلا مقروناً بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كان المعنى إلا أن تعترض المشيئة بونه، معتقداً أنّ مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال فتركت، وكم شاء من التروك ففعلت، على زعم القدرية، فلا معنى على أصلهم الفاسد، لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً، وهو غير متعلق بها وقوعاً، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا، إلا أن يشاء الله أن أفعله، كذب، وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل العياض؛ لأنّ الله تعالى =

ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْمَدْرَةِ وَالْحَنِيَّ يُرِيدُونَ
وَجَهَنَّمَ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٣٨﴾.

قال قوم من رؤساء الكفرة رسول الله ﷺ: نح هؤلاء
الموالي الذين كان ريحهم الضان وهم: صهيب وعمار
وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك، كما
قال قوم نوح: ﴿انؤمن لك واتبعك الأرئلون﴾⁽⁵⁾ فنزلت
﴿واصبر نفسك﴾ واحسبها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب:

فصبرت عارفة لئلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
﴿بالغداة والعشي﴾ دائبين على الدعاء في كل وقت،
وقيل: المراد صلاة الفجر والعصر، وقرئ: بالغدوة،
وبالغداة أجود؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال وإدخال
اللام على تأويل التكبير، كما قال: والزيد زيد المعارك،
ونحوه قليل في كلامهم. يقال: غداه إذا جاوزه، ومنه قولهم:
عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيد، وإنما عدى بعن
لتضمين عدا معنى: نبا، وعلا في قولك: نبت عنه عينه،
وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قُلْتُ: أي غرض في هذا التضمين، وهلا قيل: ولا
تعدم عينك، أو لا تعل عينك عنهم؟ قُلْتُ: الغرض فيه
إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ،
تري كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عينك
مجاوزتين إلى غيرهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تاكلوا
أموالهم إلى أموالكم﴾⁽⁶⁾ أي: ولا تضموها إليهما أكليين لها،
وقرئ: ولا تعد عينك، ولا تعد عينك: من أعاده وعدها نقلاً
بالمهزة، وتثقل الحشو، ومنه قوله:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له

لأن معناه: فعد همك عما ترى، نهي رسول الله ﷺ أن
يزاري بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثانة زيهم
طموحاً إلى زبي الأغنياء وحسن شارتهم ﴿تريد زينة
الحياة الدنيا﴾ في موضع الحال⁽⁷⁾ ﴿من أغفلنا قلبه﴾
من جعلنا قلبه غافلاً عن النكر بالخذلان. أو وجدناه غافلاً
عنه كقولك: أجبنته أحمته وأبخلته إذا وجدته كذلك⁽⁸⁾، ومن
أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي: لم نسمة بالنكر، ولم

عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب
منه ﴿رشداً﴾ وإني خيراً ومنفعة، ولعل النسيان كان
خيرة كقوله: ﴿أو ننسها نات بخير منها﴾⁽¹⁾ ﴿ولبئوا في
كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ يريد لبئهم فيه أحياء مضروباً
على أذانهم هذه المدة، وهو بيان لما أجمل في قوله:
﴿فضرينا على أذانهم في الكهف سنين عدداً﴾⁽²⁾.

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ أَسْتَخِرُ وَالَّذِينَ تَأْتِيهِمْ
بِهِمْ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ لَوْلَى وَلَا يَتْرُكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٣٩﴾.

ومعنى قوله: ﴿قل الله أعلم بما لبئوا﴾ أنه أعلم من
الذين اختلفوا فيهم بمدة لبئهم والحق ما أخبرك الله به،
وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب ﴿وقل الله أعلم﴾
رد عليهم، وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبئوا، وسنين
عطف بيان لثلاثمائة، وقرئ: ثلاثمائة سنين بالإضافة على
وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله:
﴿بالأخسرين أعمالاً﴾⁽³⁾ وفي قراءة أبي: ثلاثمائة سنة.
﴿تسعاً﴾ تسع سنين؛ لأن ما قبله يدل عليه، وقرأ الحسن:
تسعاً بالفتح. ثم نكر اختصاصه بما غاب في السموات
والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها، وأنه هو
وحده العالم به.

وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات
والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد
ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك الطف
الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجماً واكتفها جرماً،
ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿ما لهم﴾ الضمير لاهل
السموات والأرض ﴿من ولي﴾ من متول لأمورهم ﴿ولا
يشرك في حكمه﴾ في قضائه ﴿أحدًا﴾ منهم، وقرأ
الحسن: ولا تشرك بالثناء والجزم على النهي.

وَأَتْلُ مَا أُرْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَتِهِ وَنَ
يُحَدِّثُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا ﴿٤٠﴾.

كانوا يقولون له: اثت بقرآن غير هذا أو ببله، فقيل له:
﴿واتل ما أوحى إليك﴾ من القرآن، ولا تسمع لما يهنون
به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك أي: لا يقدر أحد
على تبديلها وتغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وإذ
بللنا آية مكان آية﴾⁽⁴⁾ ﴿ولن تجد من دونه ملتحذاً﴾

= للمصانفة، ولا يتجراً على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته
بالمصانفة، إلى تفهيم وجدان الشيء بفته، عن جهل سابق، وعدم
علم.

(8) قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية، ولطافة معنى، وغرضه
منه الخلاص مما قدمناه؛ لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة في القلب،
فلا يابى عدم كتب الإيمان، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد
الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة، والتأويل إنما يصار إليه
إذا اعتاص الظاهر، وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله
الموفق.

(1) سورة البقرة، الآية: 106.

(2) سورة الكهف، الآية: 11.

(3) سورة الكهف، الآية: 103.

(4) سورة النحل، الآية: 101.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة النساء، الآية: 2.

(7) قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد: خلقنا له،
وجدير به أن يشمر في اتباع هواه، فإن حمل أغفل على بابيه
صرفه إلى الخذلان، وإلا لخرجه بالكيفية عن بابيه إلى باب أفعل =

مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ ۖ يَمْشُونَ فِي الْأَنْبَاءِ وَحَسْبَتْ مَرْفَقًا ﴿٣١﴾

من الأولى للابتداء، والثانية للتبيين. وتذكير أساور
لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس وهو: مارك
من الديباج، وبين الإستبرق وهو: الغليظ منه، جمعاً بين
النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على
أسرتهم.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ
وَحَفَنَتْهُمَا بِسِتْرِ رَبِّهِمَا جَمْعًا وَيَبْهَمُونَ أَتَيْنَا نَارَ الْجَهَنَّمَ
فَأَمْشَى وَفَجَزَا سَيْتًا دَقَّتْ خِلْمًا كَمَا تَبْرَأُ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي: ومثل حال الكافرين
والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل،
أحدهما كافر اسمه: قطروس والآخر مؤمن اسمه: يهوذا،
وقيل: هما المنكوران في سورة والصفات في قوله: ﴿قال
قاتل منهم إنني كان لي قرين﴾ (4) ورثا من أبيهما ثمانية
آلاف دينار فتشاطرهما، فاشتري الكافر أرضاً بالـف فقال
المؤمن: اللهم إن أخي اشتري أرضاً بالـف دينار وأنا
اشتري منك أرضاً في الجنة بالـف، فتصدق به، ثم بنى
أخوه داراً بالـف، فقال: اللهم إنني اشتري منك داراً في
الجنة بالـف، فتصدق به. ثم تزوج أخوه امرأة بالـف، فقال:
اللهم إنني جعلت ألفاً صدقاً للهور، ثم اشتري أخوه خدماً
ومتاعاً بالـف، فقال: اللهم إنني اشتريت منك الولدان
المخلدين بالـف، فتصدق به، ثم أصابته حاجة فجلس لآخيه
على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه
على التصق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني
مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد وكان
زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ، وكافر وهو الأسود بن
عبد الأشد ﴿جنتين من أعناب﴾ بستاتين من كروم
﴿وحفناهما بنخل﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا

مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة
بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه إذا أطافوا به وحففته بهم
أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد
فتزیده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشبه وغشيته به
﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات
والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم
يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها مع الشكل الحسن
والترتيب الأنيق، ونعتها بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير
نقص، ثم بما هو أصل الخير ومائته من أمر الشرب
فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها،

نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان (1)، وقد أبطل الله
توهم المجبرة بقوله: ﴿ولتبع هواه﴾ وقرئ: أغفلنا قلبه
بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه، غافلين من
أغفلته إذا وجنته غافلاً ﴿فرطاً﴾ متقدماً للحق والصواب
نابذاً له وراء ظهره من قولهم: فرس فرط متقدماً للخيل.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِالظَّالِمِينَ نَارًا أَحْمَقًا يَوْمَ يُسْرَفُهَا وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَبْغَاؤُنَّ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٣٣﴾

﴿وقل الحق من ربكم﴾ الحق خبر مبتدأ محذوف،
والمعنى: جاء الحق وزاغت العقل فلم يبق إلا اختياركم
لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق
الهلاك، وجيء بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مكن من
اختيار أيهما شاء فكانه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء
من النجدين.

شبه ما يحيط بهم من النار بالسرايق وهو الحجرة
التي تكون حول الفسطاط، وبيت مسروق نو سراق، وقيل
هو: دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من
نار يطيف بهم ﴿يبغاثوا بماء كالمهل﴾ كقوله: فاعتبوا
بالصيلم، وفيه تهكم، والمهل ما أنيب من جواهر الأرض،
وقيل: دردي الزيت ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب
أنشوى الوجه من حرارته. عن النبي ﷺ: «هو كعكر الزيت،
فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه» (2). ﴿بئس الشراب﴾
ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ متكا من المرفق وهذا
لمشكلة قوله: ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ (3) وإلا فلا ارتفاق لأهل
النار ولا اتكاء إلا أن يكون من قوله:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ مَشُورًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَمْرًا مِمَّنْ أَحْسَنَ
عَمَلًا﴾ ﴿٣٤﴾

﴿أولئك﴾ خبر إن ﴿وإننا لا نضيع﴾ اعتراض، ولك أن
تجعل إننا لا نضيع وأولئك خبرين معاً، أو تجعل أولئك
كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلت: إذا جعلت إننا لا نضيع خبراً، فإين الضمير
الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: من أحسن عملاً، والذين آمنوا
وعملوا الصالحات، ينتظمهما معنى واحد، فقام من أحسن
مقام الضمير، أو أردت من أحسن عملاً منهم فكان كقولك:
السمن منوان بدرهم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنْفَخُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ

(2) رواه الترمذي في السنن، كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في
صفة شراب أهل النار (الحديث رقم: 2584).

(3) سورة الكهف، الآية: 31.

(4) سورة الصافات، الآية: 51.

(1) قال أحمد: قد تقدم في غير ما موضع، أن أهل السنة يضيفون
فعل العبد إلى الله تعالى، من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من
حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره، ولا تنافي بين الإضافتين،
فبراهين السنة تتبعه أينما سلك، وإية توجهه، فلا محيص له عنها
بوجه.

جعله كافرًا بالله جاحدًا لانعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافرًا ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أصله لكن أنا فنحفت الهمزة والقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فكان الإدغام، ونحوه قول القائل:

وترمينني بالطرف أي أنت مننّب وتقليبنني لكن إياك لا أقلي أي: لكن أنا لا أقليك، وهو ضمير الشأن، والشأن لله ربي، والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير، وقرأ ابن عامر: بإثبات الف أنا في الوصل والوقف جميعًا وحسن نك ووقوع الالف عوضًا من حذف الهمزة وغيره لا يثبتها إلا في الوقف، وعن أبي عمر: وأنه وقف بالهاء لكنه، وقرئ: لكن هو الله ربي بسكون النون وطرح أنا، وقرأ أبي بن كعب: لكن أنا على الأصل، وفي قراءة عبد الله: لكن أنا لا إله إلا هو ربي.

فإن قلت: هو استدراك لماذا؟ قلت: لقوله: ﴿أكفرت﴾ قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد كما تقول: زيد غائب لكن عمرًا حاضر.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ كَرْهِي
أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَسَوَّى رَبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ حَبِيرًا مِنْ جَنَّتِكَ
وَرُبِّيَلٍ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَمُصِيبًا رَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يَصِيحُ
مَأْمُومًا غَرًّا فَلَنْ نَسْتَلِيعَ لَمْ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ما شاء الله يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها: خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ما شاء الله، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى: أي شيء شاء الله كان، ونظيرها في حذف الجواب لو في قوله: ﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾⁽³⁾ والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ما شاء الله، اعترافًا بانها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها، وقلت: ﴿لا قوة إلا بالله﴾ إقرارًا بأن ما قويت به على عمارتها وتبشير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوي أحد في بنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى. وعن عروة بن الزبير: أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ: أقل بالنصب فقد جعل أنا فصلًا، ومن رفع جعله مبتدأ وأقل خبره، والجملة مفعولًا ثانيًا لترني، وفي قوله: ﴿وولدا﴾ نصرة لمن فسر النفر بالاولاد في قوله: ﴿واعز﴾ نفرًا والمعنى: إن ترني أفقر منك فانا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة ﴿خيرًا من جنتك﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك.

والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى: الحساب

والاكل الثمر وقرئ: بضم الكاف ﴿ولم تظلم﴾ ولم تنقص، وآت حمل على اللفظ؛ لأن كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل: آتانا على المعنى لجاز. وقرئ: وفجرنا على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنيتين آتى أكله برد الضمير على كل.

وَكَاكَ لَمْ تَرَمْ فَقَالَ لِمَجِيهِ. وَهُوَ بِحَاوِرِهِ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا وَعَازُ
نَفْرًا ﴿٤٢﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَذِهِ
أَبَدًا ﴿٤٣﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا
مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤٤﴾ قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَزَّرْتَ بِأَلَدِي خَلَقَكَ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ يَنْ تَطْفَعُو ثُمَّ سَوَّكَ رَبُّكَ ﴿٤٥﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرَكَ
بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٦﴾

﴿وكان له ثمر﴾ أي: أنواع من المال، من ثمر ماله إذا كثره، وعن مجاهد: الذهب والفضة أي: كانت له إلى الجنيتين الموصوفتين الأموال الدائرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه متمكنًا من عمارة الأرض كيف شاء ﴿واعز نفرًا﴾ يعني: انصارًا وحشما، وقيل: أولادًا نكوزًا؛ لأنهم ينفرون معه نون الإثنا. وحاویره: يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحر كلمة يعني: قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنيتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما، ويفخره بما ملك من المال بونه.

فإن قلت: فلم أقرد الجنة بعد التثنية قلت: معناه: ودخل جنته ماله جنة غيرها يعني: أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنيتين ولا واحدة منهما ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالمشك في بيودة جنته لطول أمه واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا السننهم فإن السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ إقسام منه على أنه إن ردد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه، ليجدن في الآخرة خيرًا من جنته في الدنيا تطمعًا وتمنيًا على الله وأدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنيتين إلا لاستحقاقه واستثاله، وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله: ﴿إن لي عنده للحسنى﴾⁽¹⁾ ﴿لاوتين مالا وولدا﴾⁽²⁾ وقرئ: خيرًا منهما رداً على الجنيتين ﴿منقلبًا﴾ مرجعًا وعاقبة، وانتصابه على التمييز أي: منقلب تلك خير من منقلب هذه؛ لأنها فانية وتلك باقية ﴿خلقك من تراب﴾ أي: خلق أصلك؛ لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقًا له ﴿سواك﴾ عدلك وملكك إنسانًا نكرًا بالغًا مبلغ الرجال.

(3) سورة الرعد، الآية: 31.

(1) سورة فصلت، الآية: 50.

(2) سورة مريم، الآية: 77.

أبي: مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها، وقال الزجاج: عذاب حسابان، وذلك الحسابان حساب ما كسبت يدك، وقيل: حساباً مرامياً الواحدة حسابانة، وهي: الصواعق ﴿صَعِيدًا زَلْقًا﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقاً، ﴿غَرَزًا﴾ كلاهما وصف بالمصدر. وَأُحِيطَ بِشِرِّهِ فَأَصْحَحَ يَبْلُغُ كَلْبِهِ عَلَى مَا أَتَفَقَ فِيهَا رَوْحِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَمَدًا ﴿١٤﴾

﴿وَأُحِيطَ﴾ به عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ (١) ومثله قولهم: أتى عليه إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعليًا عليهم.

وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر؛ لأنَّ الندام يقرب كفيه ظهرًا لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد؛ ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى كأنه قيل: فأصبح بئدم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: أنفق في عمارتها ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ يعني: أنَّ كرومها المعروشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم، قيل: أرسل الله عليها نارًا فاكلتها ﴿يا ليتني﴾ تنكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركًا حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندمًا على ما كان منه وبخولًا في الإيمان.

وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْهَرًا ﴿١٥﴾

وقرى: ولم يكن بالياء والتاء، وحمل ينصرونه على المعنى بون اللفظ كقوله: ﴿فتنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كفرة يرونهم﴾ (٢).

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ينصرونه من دون الله﴾؟ قلت: معناه يقرون على نصرته من دون الله أي: هو وحده القادر على نصر، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل ﴿وما كان منتصرًا﴾ وما كان ممتنعًا بقوته عن انتقام الله.

هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْخَوِيُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١٦﴾

﴿الولاية﴾ بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك. وقد قرئ بهما، والمعنى: هنالك أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها

وَأَشْرَبَ لَمْ مَثَلُ الْحَيَوَّةِ الْدُنْيَا كَمَا أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا تَدْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿١٥﴾ النَّالُ وَالْبَنُونَ رِبَةً الْحَيَوَّةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْتَاتُ الصَّلَاحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١٦﴾

﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ فالتفت بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضًا، وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روي ورف رقيقًا، وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض، ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه. والهشيم ما تهشم وتحطم الواحدة هشيمة. وقرئ: تدروه الريح، وعن ابن عباس: تنزبه الريح من أدري، شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وأرقًا ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مقتدرًا... الباقيات الصالحات﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفني عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا، وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله ﴿خير... ثوابًا﴾ أي: ما يتعلق بها

= الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع، والحق أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه، فوعاه، متصلًا بلفظ فيه ﴿منزلاً﴾ كذلك من السماء، فلا وقع لفصاحة الفصيح، وإنما هو ناقل كغيره، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة، ومعنى الفتنة، فإن عمرو بن عبيد أول مضمم على إنكار القدر، ولمن جزًا إلى سائر البدع الاعتزالية، فمن ثم أتى عليه.

(1) سورة يوسف، الآية: 66.

(2) سورة آل عمران، الآية: 13.

(3) سورة الكهف، الآية: 42.

(4) سورة الكهف، الآية: 40.

(5) سورة غافر، الآية: 16.

(6) قال أحمد: وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول، فإنه يومه أن القراءات مؤكولة إلى رأي الفصحاه، واجتهاد البلغاء، فتتفاوت في =

من الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة.

وَيَوْمَ سُبُورِ آدَمَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَهُمْ فَلَمْ يَقَارِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

وقرى: تسير من سيرت ونسير من سيرنا وتسير من سارت أي: تسير في الجو، أو يذهب بها بأن تجعل هباءً منبثًا. وقرى: وترى الأرض على البناء للمفعول «بارزة» ليس عليها ما يسترها مما كان عليها «وحشرناهم» وجمعناهم إلى الموقف. وقرى: فلم تغامر بالنون والياء، يقال: غامرته وأغدره إذا تركه، ومنه: الغدر ترك الوفاء، والغدير ما غادره السيل.

وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَمًا لَقَدْ حِشْمْتُونَ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْجِدًا ﴿٤٨﴾

وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان «صمًا» مصطفين ظاهرين يرى جماعتهم كما يرى واحد لا يحجب أحد أحدًا «لقد حشمتونا» أي: قلنا لهم لقد حشمتونا وهذا المضمهر هو عامل النصب في يوم نسير، ويجوز أن ينصب بإضمار نكر، والمعنى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم «أول مرة» وقيل: حشمتونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولًا كقوله: «ولقد حشمتونا فرادى» (1).

فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضيًا بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأحوال العظام، كانه قيل: وحشرناهم قبل تلك «موعدا» وقتًا لإنجاز ما وعدتم على السنة الأنبياء من البعث والنشور.

وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْكَلِمَاتِ مَسْفُوفِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يَأْتِيهِ صَبِيرَةٌ وَلَا كِبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَبَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

«الكتاب» للجنس، وهو: صحف الأعمال «يا ويلتنا» ينالون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات «صغيرة ولا كبيرة» هنة صغيرة ولا كبيرة وهي عبارة عن الإحاطة يعني: لا يترك شيئًا من المعاصي إلا أحصاه أي: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلا ولا كثيرا؛ لأن الأشياء إما صغار وإما كبار، ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صفائر وكبائر، وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصفائر وهي المناقشة، وعن ابن عباس: الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس والكبيرة الزنا، وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال:

ضجوا والله من الصفائر قبل الكبار «إلا أحصاها» إلا ضبطها وحصرها «ووجدوا ما عملوا حاضرًا» في الصحف عتيديًا، أو جزء ما عملوا «ولا يظلم ربك أحدًا» فيكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله في تعذيب أطفال المشركين بنذوب آبائهم.

وَأَيُّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ لَكُمْ عَذَابٌ يُسْرٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

«كان من الجن» كلام (2) مستأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأن قائلًا قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن «ففسق عن أمر ربه» والفاء للتسبب أيضًا، جعل كونه من الجن سببًا في فسقه؛ لأنه لو كان ملكًا كسائر من سجد لأدم لم يفسق عن أمر الله؛ لأن الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس كما قال: «لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» (3) وهذا الكلام المعترض: تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهه في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمد الله وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكًا ورئيسًا على الملائكة، فعصى فلعن ومسخ شيطانًا، ثم وركه على ابن عباس ومعنى فسق عن أمر ربه: خرج عما أمره به ربه من السجود قال:

فواسفًا عن قصدها جوائزًا

أو صار فاسفًا كافرًا بسبب أمر ربه الذي هو قوله: «اسجدوا لأدم» «افتتخذونه» الهمزة للإنكار والتعجب كانه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخونه «وذريته أولياء من نوني» وتستبدلونهم بي، بئس البديل من الله إبليس لمن استبدله فاطاعه بدل طاعته.

مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخَذًا لِلْمُضِلِّينَ عُضْدًا ﴿٥١﴾

«ما أشهنتهم» وقرى: ما أشهناهم يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: «ما أشهنتهم خلق السموات والأرض» لا اعتضد بهم في خلقها «ولا خلق أنفسهم» أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» (4) «وما كنت متخذ المضلين» بمعنى: وما كنت متخذهم «عضدًا» أي: أعوانًا، فوضع المضلين موضع الضمير ثمًا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضدًا

= في حق الله تعالى ولجب، والله الموفق.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 27.

(4) سورة النساء، الآية: 29.

(1) سورة الأنعام، الآية: 94.

(2) قال أحمد: والحق معه في هذا الفصل، غير أن قوله تعمد الله تعالى لفظة، لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفًا، من يفعل في بعض الأحيان خطأ، وفي بعضها تعمدًا، فأجتنبها

﴿قَبْلًا﴾ عيانًا. وقرئ: قبلًا أنواعًا جمع قبيل وقبلاً بفتحين مستقبلًا ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليزيلوا ويبطلوا من إحاض القدم وهو: إزالتها وإزالتها عن موطنها ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ يجوز أن تكون ما موصولة ويكون الراجع من الصلة محذوفًا أي: وما أنذروه من العذاب، أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: هذا بالسكون أي: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم، قولهم للرسول: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (2) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً﴾ (3) وما أشبه ذلك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِذَا حُجِّلًا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَسَكَّةً أَلَّا يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن ولذلك رجع إليها الضمير منكراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿فَاعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتنكر حين نكر ولم يتدبر ﴿وَنَسِيَ﴾ عاقبة ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ من الكفر والمعاصي غير مفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الأفراد حملاً على لفظ من ومعناه ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة كانه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أَبَدًا﴾ مدة التكليف كلها. وإذا جزء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى: أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا ادعوهم حرصاً على إسلامهم، فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.

وَرَبِّكَ الْمُنَوَّرِ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤَيِّنُكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ لَعَاجَلٍ مُّمْ الْمَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾

﴿الغفور﴾ البليغ ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذه أهل مكة عاجلاً من غير إهمال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو: يوم بدر ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ منجى ولا ملجأ. يقال: وال إذا نجا، ووال إليه إذا لجا إليه.

وَلَيْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتُمُ لَمَّا ظَمَرُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وتلك القرى﴾ يريد: قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار لهم إليها ليعتبروا، تلك مبتدأ، والقرى صفة؛ لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس و﴿اهلكناهم﴾ خبر، ويجوز أن يكون تلك القرى نصباً بإضمار اهلكننا على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى اهلكناهم ﴿لَمَّا ظَمَرُوا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما

لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة! وقرئ: وما كنت بالفتح، الخطاب لرسول الله ﷺ والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعزز بهم، وقرأ علي رضي الله عنه: وما كنت متخذ المضلين بالتتوين على الأصل، وقرأ الحسن: عضداً بسكون الضاد ونقل ضميتها إلى العين، وقرئ: عضداً بالفتح وسكون الضاد، وعضداً بضميتين، وعضداً بفتحيتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورسد. من عضده: إذا قواه وأعانه.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٧﴾

﴿يقول﴾ بالياء والنون وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم، وأراد: الجن. والموبق: المهلك من وبق وبقوا، ووبق يوبق وبقاً إذا هلك وأوبقه غيره، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمورد والموعد يعني: وجعلنا بينهم وانبياً من أودية جهنم هو: مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، وعن الحسن: موبقاً عداوة والمعنى: عداوة نعي في شدتها هلاك كقوله: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً، وقال الفراء: البين الوصل أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة، ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم، وبالموبق البرزخ البعيد أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الأشواط لفرط بعده؛ لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

وَرَأَى الْمُجْرِمِينَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِقُوهَا وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْمَذَابُ فَبُكُوا ﴿٥٩﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجِدِّدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ يُدْحِضُوا بِهِ الْبَلْغَ وَأَعْتَدُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ أَذْرًا هَرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فظنوا﴾ فأيقنوا ﴿مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿مصرفاً﴾ معدلاً قال:

أزهير هل عن شبية من مصرف

﴿أكثر شيء جدلاً﴾ أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل، وانتصاب جدلاً على التمييز يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء، ونحو: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ (1) أن الأولى نصب، والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره ﴿وما منع الناس﴾ الإيمان والاستغفار ﴿إلا﴾ انتظار ﴿أن تأتيهم سنة الأولين﴾ وهي الإهلاك ﴿أو﴾ انتظار ﴿أن يأتيهم العذاب﴾ يعني: عذاب الآخرة

(3) سورة المؤمنون، الآية: 24.

(1) سورة يس، الآية: 77.

(2) سورة يس، الآية: 15.

أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فاي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تنله على هدى أو ترده عن ردى، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فأبلغني عليه؟ قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبها يميشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بارضنا السلام، فعزفه نفسه، فقال: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلما ركبا السفينة جاء عصفور، فوقع على حرفها، فنقر في الماء، فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر.

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْهَا حَوْتُهُمَا فَاغْتَدَّ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لَيْسَتَهُ إِينَا غَدَاءَنَا لَعَدَّ لَيْسًا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٢﴾

﴿نسيا حوتهما﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمانة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، وقيل: كان الحوت سمكة ملوحة، وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلا منها، وقيل: توشأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء ﴿سرباً﴾ أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر ﴿فلما جاوزا﴾ الموعد وهو: الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه، ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر، وقيل: سار أبعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه، وقوله: ﴿من سفرنا هذا﴾ إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

فإن قُلْتَ⁽²⁾: كيف نسي يوشع نك ومثله لا ينسى لكونه

ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك الإهلاك ووقته، وقرى: لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة أي: لهلاكهم، أو وقت هلاكهم، والموعد وقت أو مصدر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَنْبِئَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿١٦﴾

﴿لفتاه﴾ عبده وفي الحديث: «ليقل أحكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي»⁽¹⁾ وقيل: هو يوشع بن نون وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه، وقيل: كان يأخذ منه العلم.

فإن قُلْتَ: ﴿لا أبرح﴾ إن كان بمعنى: لا أزل من برج المكان فقد دل على الإقامة لا على السفر، وإن كان بمعنى: لا أزال فلا بد من الخبر قُلْتُ: هو بمعنى: لا أزال وقد حذف الخبر؛ لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم وهو وجه لطيف، ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح ما أنا عليه بمعنى: الزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أترقه حتى أبلغ. كما تقول: لا أبرح المكان، ومجمع البحرين المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو: ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل: طنجة، وقيل: إفريقية، ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين في العلم، وقرى: مجمع بكسر الميم وهي في الشنوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل ﴿أو أمضي حقباً﴾ أو أسير زماناً طويلاً، والحقب ثمانون سنة، وروي: أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقرأ بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن ينكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فنكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علما هذا فاي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين، وهو: الخضر، وكان الخضر في أيام أفرديون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى، وقيل: إن موسى سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فاي عبادك

(1) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: كراهية التناول على الرقيق (الحديث رقم: 2552)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب، باب: حكم إطلاق لفظ العبد (الحديث رقم: 5835).

(2) قال أحمد: وقد ورد في الحديث، أن موسى عليه السلام لم ينصب، ولم يقل: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. إلا منذ جاوز الموضوع الذي حذاه الله تعالى له، فلعل الحكمة في إنساء الله تعالى =

= ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافرين في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه، وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات، أن يبسرهما ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد، وحالة مجاوزته بونا بينا، والله أعلم، وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً

عَلِمَا ﴿١٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٧﴾

﴿رحمة من عندنا﴾ هي: الوحي والنبوة ﴿من لنا﴾ مما يختص بنا من العلم وهو: الإخبار عن الغيوب ﴿رُشْدًا﴾ قرى: بفتحتين وبضمة وسكون أي: علماً ذا رشد أرشد به في بيئتي.

فإن قُلْتُ: ما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه كما قيل: موسى بن ميثا لا موسى بن عمران؛ لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؛ قُلْتُ: لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله، وإنما يغض منه أن يأخذه ممن بونه، وعن سعيد بن جبير: أنه قال لابن عباس: إن نوحاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى، وأن موسى هو موسى بن ميثا، فقال: كذب عدو الله (1).

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ نَصَبِرُ عَلَىٰ مَا نَرَىٰ يُحِطُّ بِهِ خُبْرًا ﴿١٨﴾ قَالَ سَجْدٌ لِيِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٩﴾

نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح فكيف إذا كان نبياً لا يملك أن يشتمز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار و﴿خبراً﴾ تمييز أي: لم يحط به خبرك، أو لأن لم تحط به بمعنى: لم تخبره فنصبه نصب المصدر ﴿ولا أعصي﴾ في محل النصب عطف على صابراً أي: ستجدي صابراً وغير عاصم، أو لا في محل عطفاً على ستجدي. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر، وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمساقرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه بريء من أن يباشر ما فيه غميرة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمح ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم. قَالَ إِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٠﴾

قرى: ﴿فلا تسألني﴾ بالنون الثقيلة يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت وأنكرت في نفسك أن لا تفتاحني بالسؤال ولا تراجعي فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العلم والمتبوع مع التابع.

أمره لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها، ولكونه معجزتين ننتين. وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها، وقيل: ما كانت إلا شق سمكة، وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق، ونفوذها في مثل السرب منه، ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغدو حتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان، وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب واستانس بإخوانه فأعان الألف على قلة الاهتمام.

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْهُوتَ وَمَا أَسْتَبِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ وَأَعْتَدُ سَبِيلًا فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٢١﴾

﴿أرايت﴾ بمعنى: أخبرني.

فإن قُلْتُ: ما وجه التثام هذا الكلام، فإن كل واحد من ﴿أرايت﴾ و﴿إذ أويينا﴾ و﴿فإني نسيت الحوت﴾ لا متعلق له؟ قُلْتُ: لما طلب موسى عليه السلام الحوت نكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك كأنه قال: أرايت ما دهاني إذ أويينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، فحذف ذلك، وقيل: هي الصخرة التي تون نهر الزيت و﴿أن أنكره﴾ بدل من الهاء في انسانيه أي: وما انساني نكره إلا الشيطان، وفي قراءة عبد الله: أن أنكره و﴿عجبا﴾ ثاني مفعولي اتخذ مثل سريا يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجبا وهو: كونه شبيه السرب، أو قال: عجبا في آخر كلامه تعجباً من حاله في رؤية تلك العجبة ونسيانه لها، أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: ﴿وما انسانيه إلا الشيطان أن أنكره﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وقيل: إن عجبا حكاية التعجب موسى عليه السلام وليس بذلك.

قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِئُكَ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٢٢﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً أي: ذلك الذي كنا نطلب؛ لأنه أمانة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام. وقرى: بغير ياء في الوصل وإثباتها أحسن وهي قراءة أبي عمرو، وأما الوقف فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لخط المصحف ﴿فارتدا﴾ فرجعا في إراجهما ﴿قصصاً﴾ يقصان قصصاً أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، أو فارتداً مقتصين.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا

(1) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام (الحديث رقم: 3401)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6113).

لذلك، فالمطلوب إيقاف غيره من أمته، بل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه، ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتبدها، واقتباس أنوارها، ومنافعها عاجلاً وأجلاً، والله أعلم.

حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (2) ﴿نَكَرًا﴾ وقرئ: بضمين وهو: المنكر، وقيل: النكر أقل من الأمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، وقيل معناه: جئت شيئاً أنك من الأول؛ لأن نلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه.

فإن قُلْتُ: ما معنى زيادة لك؟ قُلْتُ: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ نَوْمٍ بَدَّهَا فَلَا تُصِحِّبْنِي فَدَّ بَلَّتَ مِنْ لَدُنِّي عُدْرًا (٧٦).

﴿بعدها﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿فلا تصاحبني﴾ فلا تقاربنني وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على نلك، وقرئ: فلا تصحبني فلا تكن صاحبي، وقرئ: فلا تصحبني أي: فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك ﴿من لدني عذراً﴾ قد أعذرت، وقرئ: لدني بتخفيف النون، ولدني بسكون الدال وكسر النون كقولهم في عضد: عضد، وعن رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك» (3). وقال: «رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الاعاجيب».

فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنَا أَهْلٌ قَرِيَةً اسْتَلَمْنَا أَهْلَهَا فَأَبَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَرَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْتَ عَلَيْهِمُ آجْرًا (٧٧).

﴿أهل قرية﴾ هي انطاكية، وقيل: الأبله وهي أبعد أرض الله من السماء ﴿أن يضيّفوهما﴾ وقرئ: يضيّفوهما، يقال: ضافه إذا ان له ضيفاً، وحقيقته: مال إليه من ضاف السهم عن الغرض، ونظيره: زاره من الأزورار، وأضافه وضيّفه أنزله وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية لثاماً» (4)، وقيل: شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه ﴿يريد أن ينقض﴾ استعيرت الإرادة للمداناة والمشاركة، كما استعير لهم والعزم لذلك. قال الراعي:

في مهمم قُلقت به هاماتها قلق القوس إذا أردن نصولا
وقال:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعمل عن نماء بني عقيل
وقال حسان:

إن دهرًا يلف شملي بجمل لزمان يهم بالإحسان
وسمعت من يقول: عزم الشراج أن يطفأ وطلب أن يطفأ، وإذا كان القول والنطق والشكاية والصق والكف

فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧٦) قَالَ أَلَمْ أَنْزِلْ إِلَيْكَ لَنْ سَتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٧) قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَيْبْتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا (٧٨) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَتَنَّمَهُ قَالَ أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيَةً يَغْتَرِ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٩) قَالَ أَلَمْ أَنْزِلْ إِلَيْكَ لَنْ سَتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٨٠).

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركبها قال أهلها: هما من اللصوص وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة أرى وجوه الأنبياء، وقيل: عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلما لججوا أخذ الخضر الفاس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من الواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وقرئ: لتغرق بالتشديد، وليغرق أهلها من غرق وأهلها مرفوع ﴿جئت شيئاً إمراً﴾ أتيت شيئاً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم قال: داهية دهباء، إذا إمراً.

﴿بما نسيت﴾ بالذي نسيت، أو بشيء نسيت أو بنسياني، أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذه على الناسي، أو إخراج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذه بالنسيان يوهمه أنه قد نسي لبيسط عنزه في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كقول إبراهيم: هذه أختي، و ﴿إني سقيم﴾ (1) أو أراد بالنسيان الترك أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة.

يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه أي: ولا تغشني ﴿عصرًا﴾ من أمرى وهو اتباعه إياه يعني: ولا تعسر علي متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: عصرًا بضمين. ﴿فقتله﴾ قيل كان قتله قتل عنقه، وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سيعد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين.

فإن قُلْتُ: لم قيل ﴿حتى إذا ركبنا في السفينة خرقها﴾ بغير فاء و ﴿حتى إذا لقينا غلاماً فقتله﴾ بالفاء؟ قُلْتُ: جعل خرقها جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء: قال أقتلت.

فإن قُلْتُ: فلم خولف بينهما؟ قُلْتُ: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية وزكية وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أنذبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بغير نفس﴾ يعني: لم تقتل نفساً فيقتص منها، وعن ابن عباس: أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من

(4) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6115).

(1) سورة الصافات، الآية: 89.

(2) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: النساء الغازيات يرضخ لهن... (الحديث رقم: 4662).

(3) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الادعية (الحديث رقم: 988).

﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَنِ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾⁽³⁾ فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل هذا فراق بيني وبينك، وقد قرأ به ابن أبي عملة: فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

أَمَّا السَّيِّئَةُ فَكَانَتْ لِسَكِينٍ يَمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَيِّئَةٍ عَصَبًا ﴿٧٨﴾ وَأَمَّا الْفُلُوكُ فَكَانَ أَبُوهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرَهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٩﴾.

﴿لمساكين﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة خمسة منهم زماني، وخمسة يعملون في البحر ﴿وراءهم﴾ أمامهم كقوله تعالى: ﴿ومن وراءهم برزخ﴾⁽⁴⁾ وقيل: خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو: جلندي.

فَإِنْ قُلْتَ⁽⁵⁾: قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه؛ قُلْتُ: النية به التأخير وإنما قدم للنعانية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل: في قراءة أبي عبد الله: كل سفينة صالحة. وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن كان فيه ضمير الشأن، ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ فحفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما يعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شر أو بلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بدائيه ويضلها بضلاله فيرتد بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعته على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته، وفي قراءة أبي: فخاف ربك والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فخشينا﴾ حكاية لقول الله تعالى بمعنى: فكرهنا كقوله: ﴿لاهب لك﴾⁽⁶⁾.

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا صَبْرًا كَمَا كُنَّا يُبْدِلُهُمَا كُفْرًا وَكُفْرًا وَكُفْرًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾.

والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل فما بال الإرادة! قال:

إذا قالت الانساع للبطن الحق تقول سني للنعوة طني لا ينطق للهو حتى ينطق العود

وشكا إلي عبدة وتحمم فإن يك ظني صانقاً وهو صقني:

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾⁽¹⁾

تمرد مارذوعر الأبلق ولبعضهم يابى على إغفائه إغفاؤه هم إذا انقاد السهموم تمرداً

أبت الرواف والثدي لقصمها مس البطون وإن تمس ظهوراً

قالنا ﴿أبتنا طائعين﴾⁽²⁾ ولقد بلغني بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم أراه أعلى الكلام طبقة أنباه منزلة، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده: أن ما كان أبعد من المجاز كان أنحل في الإعجاز، وانقض إذا أسرع سقوطه من انقضاء الطائر وهو يفعل مطاوع قضضته، وقيل: أفل من النقص كاحمر من الحمرة، وقرئ: أن ينقض من النقص، وأن ينقص من انقاص السن إذا انشقت طولاً. قال نو الرمة: منقاص ومنكتب بالصاد غير معجمة ﴿فأقامه﴾ قيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيد فقام واستوى، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة نراع، كانت الحال حال اضطراب وإفتقار إلى المطعم، وقد لزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا موسياً، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومسلس الحاجة أن ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه لجزاً﴾ وطلبت على عملك جعلاً حتى ننتعش، ونستدفع به الضرورة، وقرئ: لاتخذت والتاء في تخذ أصل كما في تبع، واتخذ أفتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأَيْتُنْكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَرَّ تَسْتَلِجَ عَلَيَّ صَبْرًا ﴿٧٨﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ماذا؟ قُلْتُ: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام:

= ضمير الجماعة والمعظم نفسه، في قوله: ﴿فأردنا أن يبديها ربهما﴾ و ﴿خشينا أن يرهقهما﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة، من باب الألب مع الله تعالى؛ لأن المراد: ثم عيب، فتأدب بان نسب الإعاية إلى نفسه، وأما إسناد الثاني إلى الضمير المنكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبنا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة: ﴿أراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ فانظر كيف تغيّرت هذه الأساليب، ولم تات على نمط واحد مكرر، يمجهما السمع، وينبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المنكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

(6) سورة مريم، الآية: 19.

(1) سورة الاعراف، الآية: 154.

(2) سورة فصلت، الآية: 11.

(3) سورة الكهف، الآية: 76.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 100.

(5) قال أحمد: وكانه جعل السبب في إعايتها، كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسيب، بذكر عادة الملك في غضب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل، أن يرتب الحكم على السبب، ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً، والنية تأخيرها، والله أعلم، ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي، والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً، ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة، بقوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وأسندته في الثانية إلى

وقرى: يبذلها بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف، وروي: أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبياً، وقيل: ابذلها ابناً مؤمناً مثلها.

وَأَمَّا الْإِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٧).

قيل: اسما الغلامين أصرم وصريم، والغلام المقتول اسمه: الحسين، واختلف في الكنز فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة⁽¹⁾، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب! وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله⁽²⁾، وقيل: صحف فيها علم، والظاهر لإطلاقه أنه مال، وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة وأحلّت لنا، أراد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾⁽³⁾ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما، وعن جعفر بن محمد الصانق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء، وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما قال: فإبي وجدّي خير منه، فقال: قد نبأنا الله أنكم قوم خصمون ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول له أو مصدر منصوب بإراد ربك؛ لأنه في معنى رحمهما ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بامر الله.

وَأَمَّا الْإِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٧).

وَأَمَّا الْإِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٧).

وَأَمَّا الْإِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٧).

وَأَمَّا الْإِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٧).

نو القرنين هو: الإسكندر الذي ملك الدنيا قيل: ملكها مؤمناً نو القرنين وسليمان، وكافران نمرود ويختنصر⁽⁴⁾ وكان بعد نمرود، واختلف فيه فقيل: كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة والبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل: نبياً، وقيل: ملكاً من

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ السَّمْسِ وَوَدَّكَ تَرَبُّبًا فِي عَيْشِ حِمْرٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا نَوْءًا قَلْبًا يَدْعُ الْقَرْيَةَ إِنَّمَا أَنْ تَدَّبَّ وَإِنَّمَا أَنْ تَنَجَّدَ فِيهِمْ حَسْبًا (٨٧).

قرى: ﴿حُمَّة﴾ من حمثت البئر إذا صار فيها الحمأة، وحامية بمعنى: حارة، وعن أبي نر: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت فقال: «يا أبا نر أتدري أين تغرب هذه؟ فقلت: الله ورسوله أعلم! قال: «فإنها تغرب في عين حامية»⁽⁶⁾. وهي: قراءة ابن مسعود، وطلحة، وابن عمر، وابن عمرو، والحسن، وقرأ ابن عباس: حمئة وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطنين، كذلك نجده في التوراة. وروي: في شاطئ فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل فانشد قول تبع:

= والزليعي 309/2.

(6) رواه الحاكم في المستدرک 2/244، والإمام أحمد في مسنده 5/165، والبخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر، (الحديث رقم: 3199)، ومسلم في كتاب: الإيمان باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان الحديث رقم: (398).

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف، (الحديث رقم: 3152) والحاكم في المستدرک 2/369.

(2) رواه البزار عن أبي نر مرفوعاً.

(3) سورة التوبة، الآية: 34.

(4) رواه ابن أبي شيبة 11/564 كتاب: الفضائل، باب: في ذي القرنين.

(5) قال الزليعي: غريب، ورواه الدارقطني في المؤتلف والمختلف =

فراى مغيب الشمس عند ماأبها في عين ذي حلب وثلم حرم
أي: في عين ماء ذي طين وحمل أسود، ولا تنافي بين
الحمئة والحامية، فجاثر أن تكون العين جامعة للوصفين
جميعاً.

قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ سَوْفَ نَعْتَبُكَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى رَبِّهِمْ فَمَعَذَاتُ اللَّهِ
﴿٨٧﴾ وَأَمَا مِنْ ءَامَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ حَسَنٌ وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يَسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْعَى سَبِيحًا ﴿٨٩﴾

كانوا كفرة فخيرهم الله بين أن يعذبهم بالقتل، وأن
يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في
استمالتهم. فقال أَمَا مِنْ دعوته فابى إلا البقاء على الظلم
العظيم الذي هو الشرك فذلك هو المعذب في الدارين
﴿وَأَمَا مِنْ ءَامَنٍ وَعَمِلَ﴾ ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُ جَزَاءٌ
لِلْحَسَنِيِّ﴾ وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه: إحساناً
في مقابلة القتل، فله جزاء الحسنى فله أن يجازي المثوبة
الحسنى، أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة
الشهادة، وقرئ: ﴿فله جزاء الحسنى أي: فله الفعلة الحسنى
جزاء. وعن قتادة كان يطبخ من كفر في القنور وهو
العذاب النكرو، ومن آمن أعطاه وكساه ﴿مِنْ أَمْرِنَا يَسْرًا﴾
أي: لا نامره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من
الزكاة والخراج وغير ذلك. وتقديره: ذا يسر كقوله: ﴿قَوْلًا
ميسورًا﴾^(١) وقرئ: يسراً بضمسين.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّجْمِ وَمِمَّا ظَلَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا يَسْرًا ﴿٩٠﴾

وقرئ: مطلع بفتح اللام وهو مصدر. والمعنى: بلغ
مكان مطلع الشمس قوله:

كان مجر الرامسات نيولها

يريد كأن آثار مجر الرامسات ﴿على قوم﴾ قيل: هم
الزنج. والستر: الأبنية، وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية
وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النار
خرجوا إلى معاشيهم، وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت
الصين فسالت: عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم
وليلة فبلغتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى،
ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له: جئتنا ننظر كيف
تطلع الشمس؟ قال: فبيننا نحن كذلك إذ سمعنا كهيفة
الصلصلة فغشي علي، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن،
فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيفة
الزيت، فأنخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النار خرجوا إلى
البحر فجعوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس
فينضج لهم، وقيل: الستر اللباس، وعن مجاهد: من لا يلبس
الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل

الأرض.

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْعَى سَبِيحًا ﴿٩٢﴾

﴿كذالك﴾ أي: أمر ذي القرنين كذلك أي: كما وصفناه
تعليماً لأمره ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الجنود والآلات
واسباب الملك ﴿خبراً﴾ تكثيراً لذلك، وقيل: ﴿لم نجعل
لهم من دونها ستراً﴾ مثل تلك الستر الذي جعلنا لكم من
الجبال والحصون والأبنية، والأكنان من كل جنس، والثياب
من كل صنف، وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي: كما
بلغ مغربها، وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي
تغرب عليهم يعني: أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم
في تعنيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن
منهم.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿بين السدين﴾ بين الجبلين، وهما جبلان سدّ نو
القرنين وما بينهما. قرئ: بالضم والفتح وقيل: ما كان من
خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو
مفتوح؛ لأنّ السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي: هو مما
فعله الله تعالى وخلقه، والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه
الناس. وانتصب ﴿بين﴾ على أنه مفعول به مبلوغ كما
انجز على الإضافة في قوله: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾⁽²⁾
وكما ارتفع في قوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾⁽³⁾ لأنه من
الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في
منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿من دونهما قوما﴾
هم الترك ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾ لا يكادون يفهمونه
إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم،
وقرئ: يفقهون أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛
لان لغتهم غريبة مجهولة.

قَالُوا يَا كَذَّبِ الرَّزْمِيِّ إِنَّهُ بِالْبُحَيْرِ مُتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ
خَرِيماً عَلَا أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

﴿ياجوج وماجوج﴾ اسمان أعجميان بلليل منع
الصرف وقرنا: مهموزين، وقرأ رؤبة: أجوج وماجوج، وهما
من ولد يافث، وقيل: ياجوج من الترك وماجوج من الجبل
والدليم ﴿مفسدون في الأرض﴾ قيل: كانوا ياكلون الناس
وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر
إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً
وإذى شديداً. وعن النبي ﷺ في صفتهم: «لا يموت أحد
منهم حتى ينظر إلى ألف نكر من صلبه كلهم قد حمل
السلاح»⁽⁴⁾. وقيل: هم على صنفين، طول: مفرطو الطول،
وقصار: مفرطو القصر، وقرئ: خرجاً وخرالجا أي: جعلاً

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما
يكون في أمته من الفتن والحوائث (الحديث رقم: 6828).

(1) سورة الإسراء، الآية: 28.

(2) سورة الكهف، الآية: 78.

(3) سورة الانعام، الآية: 94.

أرضًا مستوية ﴿وكان وعد ربي حقًا﴾ آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْنٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لِنَجْعَتَهُمْ جَمًّا﴾ (١٦).

﴿وتركننا﴾ وجعلنا ﴿بعضهم﴾ بعض الخلق ﴿يموج في بعض﴾ أي: يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير لياجوج وماجوج وأنهم يمجون حين يخرجون مما وراء السد مزحمين في البلاد، وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون نوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرين أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفًا في آفاتهم، فيدخل في آذانهم فيموتون.

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ (١٧).

﴿وعرضنا جهنم﴾ وبرزناها لهم فأروها وشاهدوها.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٨) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتِهِمْ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٩).

﴿عن ذكري﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فانكر بالتعظيم، أو عن القرآن وتامل معانيه وتبصرها، ونحوه: ﴿صم بكم عمي﴾ (٣) ﴿وكانوا لا يستطيعون سماعًا﴾ يعني: وكانوا صمًا عنه إلا أنه أبلغ؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به، وهؤلاء كانوا أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿عبادي من دوني أولياء﴾ هم الملائكة يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكي عنهم: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ (٤) وقرأ ابن مسعود: أظن الذين كفروا، وقراءة علي رضي الله عنه: فحسب الذين كفروا أي: إنفكا فيهم ومحسبهم أن يتخونهم أولياء على الابتداء والخير، أو على الفعل والفاعل؛ لأن الاسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك: أقاتم الزيدان، والمعنى: أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا، وهي قراءة محكمة جيدة. النزول ما يقام للتنزيل وهو: الضيف ونحوه ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾ (٥).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (٦) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَمِيمِ﴾ (٧) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَجْعَعًا وَمِنْ دُونِكُمْ مَا لَا آتِيكُمْ بِهِمْ﴾ (٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ رُسُلَهُمْ﴾ (٩) ﴿فَلَا تَعْتَبْهُمْ وَلَا يُعْتَبِئْهُمْ﴾ (١٠) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَخَذُوا عَابِدِي رَسُولِي مُرْتَدًّا﴾ (١١).

يخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال. وقرئ: سداً وسداً بالفتح والضم.

﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقَوْلٍ أَجْمَلَ يُنذِرُ مَنِ ابْتَدَأَ﴾ (١٢) ﴿مَأْتُونِي مُبْغِضِينَ﴾ (١٣) ﴿إِذَا سَأَلَ عَنْ ظُلْمِ إِنْ شَأْنِ أَخِي فَأَيُّكُم شَأْنِي﴾ (١٤) ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِيَنَّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ (١٥) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (١٦) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (١٧).

﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار خير مما تبدلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه كما قال سليمان صلوات الله عليه ﴿فما آتاني الله خيراً مما آتاكم﴾ (١) قرئ: بالإدغام وبفكه ﴿فأعينوني بقوة﴾ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات ﴿وربما﴾ حاجزاً حصيناً موثقاً، والردم أكبر من السد من قولهم: ثوب مردم رقاع فوق رقاع. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زير الحديد، بينهما الحطب والفحم، حتى سد ما بين الجبلين إلا أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمي، فاختلف والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلباً. وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ: سوى وسوي، وعن رسول الله ﷺ: «إن رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال: كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: قد رأيته» (٢). والصدفان بفتحين: جانبيا الجبلين لأنهما يتصافقان أي يتقابلان، وقرئ: الصدفين بضمين، والصدفان بضممة وسكون، والصدفان بفتحة وضممة. والقطر النحاس المذاب؛ لأنه يقطر و﴿قطرًا﴾ منصوب باقترغ وتقديره: أتوني قطرًا أقرغ عليه قطرًا فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ: قال اثتوني أي: جيئوني ﴿فما استطاعوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: فما اصطاعوا بقلب السين صادًا، وأما من قرأ: بإدغام التاء في الطاء فملاق بين ساكنين على غير الحد ﴿أن يظهره﴾ أي: يعلوه أي: لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلاته وخنثته.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعَدَّ رَبِّي حَمَلًا﴾ (١٨) ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (١٩).

﴿هذا﴾ إشارة إلى السد أي: هذا السد نعمة من الله ﴿رحمة﴾ على عباده، أو هذا الإقذار والتمكين من تسويته ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي. جعل السد ﴿بناك﴾ أي: منكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد انكس، ومنه الجمل الالك المنبسط السنام، وقرئ: بكاء بالمد،

(1) سورة النمل، الآية: 36.

(2) رواه الطبري في تفسيره وابن مروي، (الزليعي 312/2).

(3) سورة البقرة، الآيات: 178 و171.

(4) سورة سبأ، الآية: 41.

(5) بعض آية ورد في ثلاثة مواضع منها: سورة آل عمران، الآية: 21.

إِنَّهُ رَبِّيَ فَلْيَمْلِكْ عَنَّا صَلِيمًا وَلَا يَتْرِكْ بِيَعَادَةَ رَبِّيَ أَمَدًا ﴿١٧﴾

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو أقمن كان يخاف سوء لقائه.

والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة أن لا يرثي بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره، وقيل: نزلت في جندب بن زهير، قال للنبي ﷺ: إني أعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرني فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه»⁽⁴⁾. وروي أنه قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»⁽⁵⁾. وذلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»⁽⁶⁾.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»⁽⁷⁾. وعنه ﷺ: «من قرأ عند مضجعه ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»⁽⁸⁾، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم مكية

كَيْبَسَ ﴿١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّأْهُ حَوِيًّا ﴿٣﴾

﴿كهيعص﴾ قرأ بفتح الهاء وكسر الياء حمزة، وبكسرهما عاصم. وبضمهما الحسن، وقرأ الحسن: نكر رحمة ربك أي: هذا المتلو من القرآن نكر رحمة ربك، وقرئ: نكر على الأمر. راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، وأخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرية والشيوخة، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعته تارات، واختلف في سن زكريا عليه السلام،

﴿ضل سعيهم﴾ ضاع وبطل وهم: الرهبان، عن علي رضي الله عنه كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾⁽¹⁾ وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي رضي الله عنه: أن ابن الكوا سألهم عنهم فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً ﴿فلا نقيم لهم يوم للقيامة وزناً﴾ فيزدرى بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحين، وقرئ: ﴿فلا يقيم بالياء﴾

فإن قُلْتُ: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟ قُلْتُ: الأوجه أن يكون في محل الرفع على هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصباً على النّم أو جرّاً على البديل ﴿جهنم﴾ عطف بيان لقوله جزأؤهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْآزْدِيِّ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنتَ رَبِّي لَعَدَّ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئْتِهِنَّ مَدَدًا ﴿١٩﴾

الحول: التحول. يقال: التحول: حال من مكانه حولاً كقولك: عانني حبها عوداً يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامع الطرف إلى أرفع منه؛ ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود.

المداد: اسم ما تمدّ به الدواة من الحبر، وما يمدّ به السراج من السليط، ويقال: السمد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر: الجنس ﴿لننفذ البحر قبل أن تنفذ﴾ الكلمات ﴿ولو جئنا﴾ بمثل البحر مداداً لننفذ أيضاً والكلمات غير نافذة و ﴿مداداً﴾ تمييز كقولك: لي مثله رجلاً، والمد مثل الممد وهو: ما يمد به، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مداداً وقرأ الأعرج: مداداً بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ: ينفذ بالياء، وقيل: قال حيي بن أخطب في كتابكم: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾⁽²⁾ ثم تقرؤن: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾⁽³⁾ فنزلت يعني: أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ رَبِّدُ فَنَ كَانَ يُرْجُوا

= السر (الحديث رقم: 2384).

(6) رواه أحمد في مسنده 428/5، والبيهقي في الشعب، باب: في إخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء (الحديث رقم: 6831).

(7) رواه أحمد في مسنده 439/3.

(8) كشف الاستار، كتاب: الألكار، باب ما يقرأ في الليل، (الحديث رقم: 3108).

(1) سورة الغاشية، الآية: 3.

(2) سورة البقرة، الآية: 269.

(3) سورة الإسراء، الآية: 85.

(4) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 170.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (الحديث رقم: 375) والترمذي في كتاب: الزهد، باب: عمل =

فقال: ستون، وخمس وستون، وسبعون وخمس وسبعون، وخمس وثمانون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ مَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

قري: ﴿وهن﴾ بالحركات الثلاث وإنما نكر العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين في الشين عن أبي عمرو. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوه فيه وأخذه منه كل ما أخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو: الرأس وأخرج الشيب مميّزاً، ولم يصف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة. وعن بعضهم: أن محتاجاً سألوه وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا، فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ رَوْعَىٰ وَكَانَتْ أَمْرًآي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ أَدْنَىٰ لِيًّا ﴿٥﴾

كان مواليه وهم عصبته: إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿من وراثي﴾ بعد موتي، وقرأ ابن كثير: من وراي بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ولكن بحنوف، أو بمعنى الولاية في الموالي أي: خفت فعل الموالي وهو: تبديلهم وسوى خلافتهم من وراثي، أو خفت الذين يلون الأمر من وراثي، وقرأ عثمان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم: خفت الموالي من وراثي، وهذا على معنيين: أحدهما يكون وراثي بمعنى: خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالي أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى: قدامي فيتعلق بخفت، ويريد أنهم خفوا قدامه ورجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ﴿من لهنك﴾ تأكيد لكونه ولياً مرضياً بكونه مضافاً إلى الله

تعالى وصادراً من عنده، وإلا فهب لي ولياً يرثني كاف، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأنني وامراتي لا نصلح للولادة.

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾

﴿يرثني ويرث﴾ الجزم جواب الدعاء والرفع صفة ونحوه ﴿ورثاً يصدقني﴾^(١). وعن ابن عباس والجندي: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجندي، أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب أي: يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان. والمراد بالإرث: إرث الشرع والعلم؛ لأن الأنبياء لا تورث المال، وقيل: يرثني الحبوة وكان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك. ويقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: من للتبويض لا للتعبية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق. وقيل: هو يعقوب بن ماثان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

يَرْزُقْكَ إِنَّا نَبُزُّكَ يُكَلِّمُ اسْمُهُ يَحَيُّ لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد يحيي قبله، وهذا شاهد على أن الاسامي السنن جديدة بالآخرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها نبيه وأنوه وإنزه عن النبر، حتى قال القائل في مدح قوم:

سنن الاسامي مسبلي أزر حمرتمس الأرض بالهيب
وقال رؤية للنسابة البكري وقد سألته عن نسبه: أنا ابن العجاج. فقال: قصرت وعرفت. وقيل: مثلاً وشبيهاً عن مجاهد كقوله: ﴿هل تعلم له سَمِيًّا﴾^(٢). وإنما قيل للمثل سمي؛ لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد منهما سمي لصاحبه. ونحو يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية، وقد سماوا بيموت أيضاً وهو: يموت ابن المزرع قال: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصوفاً أي: كانت علي صفة العقر حين أنا شاب وكهل، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين. أقحين اختل السببان جميعاً أرزقه!

قَالَ رَبِّ إِنَّ يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًآي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

فإن قلت: ^(٣) لم طلب أولاً وهو وامراته على صفة العتي

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة مريم، الآية: 65.

(3) قال أحمد: وفيما اجاب به نظر؛ لأنه التزم أن زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري، ويمكن حصولها بدونها =

= فالظاهر في الجواب، والله اعلم، أن طلبية زكريا إنما كانت ولداً من حيث الجملة، وبحسب ذلك أجيب، وليس في الإجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم، ولا أنه من زوجته وهي عاقر، فاحتمل عنده أن يكون الموعود ومما بهذه الحالة، واحتمل أن تعادلهما قوتها وشبابها، كما فعل الله ذلك لغيرهما، أو أن يكون من غير زوجته =

يَبْحَثِي خُرُوجَ الْكَتَبِ يُؤْتِي وَيَأْتِيهِ الْمَلَكُ صَبِيحًا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرُكُودًا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَمِيًّا ﴿١٥﴾
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ نُمُوتُ وَيَوْمَ نُؤْتَىٰ حَيَاتًا ﴿١٦﴾.

أي: خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد
﴿الحكم﴾ الحكمة ومنه: واحكم كحكم فتاة الحي، يقال: حكم حكماً كحلم، وهو: الفهم للتوراة والفقه في الدين. عن ابن عباس، وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا. عن الضحاك، وعن معمر: العقل، وقيل: النبوة؛ لأن الله أحكم عقله في صباه، وأوحى إليه ﴿حَنَانًا﴾ رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة. انشد سيبويه:

وقالت حنان ما أتى بك ههنا أنوسب أم أنت بالحي عارف
وقيل: حناناً من الله عليه، وحنً في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرأفة. وقيل: لله حنان كما قيل: رحيم على سبيل الاستعارة. والزكاة: الطهارة، وقيل: الصنفة أي: يتعطف على الناس ويتصدق عليهم. سلم الله عليه في هذه الأحوال، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطنين. وَأَذْكَرٌ فِي الْكُتُبِ مَرَمٌ إِذْ أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٧﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ جِبَاً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾.

﴿إذ﴾ بدل من مريم بدل الاشتمال؛ لأن الإحياء مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بنكر مريم: نكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباز: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط، أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سيء الخلق لم ينتقص من الصورة الأدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستانس بكلامه ولا تنفر منه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنَّيَأْمُرُ بِالرَّحْمَنِ بِنِكَ إِن كُنْتَ نَوِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ نَوِيًّا ﴿٢١﴾.

والعقر فلما أسعف بطلته استبعد واستعجب؟ قُلْتُ: ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وأخراً كان على منهاج واحد في أن الله غني عن الأسباب. أي بلغت عتياً وهو: اليبس والجسوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر والظعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً. وقرأ ابن وثاب، وحمزة، والكسائي: بكسر العين وكذلك ﴿صَلِيًّا﴾^(١) وابن مسعود: بفتحهما فيهما. وقرأ أبي ومجاهد: عسيًا.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴿٢٢﴾.

﴿كنك﴾ الكاف رفع أي: الأمر كنك تصديق له، ثم ابتداء ﴿قال ربك﴾ أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يسره ﴿هو علي هين﴾ ونحوه: «وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»^(٢). وقرأ الحسن: وهو علي هين. ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول أي: الأمر كما قلت، وهو على ذلك يهون علي، ووجه آخر وهو: أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكريا، وقال محذوف في كلتا القراءتين أي: قل هو علي هين، قال وهو علي هين، وإن شئت لم تنوه؛ لأن الله هو المخاطب والمعنى: أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق ﴿شيئاً﴾^(٣) لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئاً يعتد به كقولهم: عجبت من لا شيء وقوله:

إذا رأى غير شيء ظننه رجلاً
وقرأ الأعمش، والكسائي، وابن وثاب: خلقناك.
قَالَ رَبِّي أَجْمَلُ لِيءَ آيَةٍ قَالَ ءَأَيْتُكَ أَلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢٣﴾.

أي: جعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ما بك خرس ولا بك. بل نكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام وليالهن.

خَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْيَحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٢٤﴾.

أوحى: أشار، عن مجاهد: ويشهد له: ﴿إلا رمزاً﴾^(٤) وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض ﴿سبحوا﴾ صلوا، أو على لظاهر وأن هي المفسرة.

= المعاد، فاستبعد الولد منهما، وهما بحالهما، فاستخبر أن يكون وهما كذلك، فقيل: كذلك، أي: يكون الولد وانتما كذلك، فقد انصرف الإبعاد إلى عين الموعود، فزال الإشكال، والله أعلم.

(1) سورة مريم، الآية: 70.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) قال أحمد: فسر أولاً على ظاهر النفي الصرف، وهو الحق؛ لأن = (4) سورة آل عمران، الآية: 41.

وبالرحمة: الشرائع والألطف، وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوير. عن ابن عباس: فاطمأت إلى قوله فبنا منها فنفع في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، وقيل: كانت مدة الحمل ستة أشهر، وعن عطاء، وأبي العالية، والضحاك: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعيش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل حملته في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبوته، وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وقالوا: ما من مولود إلا يستهل غيره ﴿فانتبذت به﴾ أي: اعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تدوس بنا الجمامج والترييا

أي: تدوس الجمامج ونحن على ظهورها. ونحوه قوله تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾⁽⁷⁾ أي: تنبت ودهنها فيها، الجار والمجرور في موضع الحال ﴿قصياً﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها، فأتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها.

فَأَمَّا مَا أَلْمَخَّضُ إِلَى جَنَحِ النَّخْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَثٌ قَبْلَ هَذَا
وَكُنْتُ سَكِيًّا مَسِيًّا^(٢٢)

﴿فجاءها﴾ أجاز منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما نقول: بلغته وأبلغنيه، ونظيره: أتيت حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وأتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر يقال: مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو: تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو: إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة، كتعريف النجم والصعق، كان تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل: جذع النخلة فهم منه ذلك نون غيره من جنوع النخل. وإما: أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها؛ ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد،

ودل على عفافها وورعها أنها تعونت باه من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسيراً لعفتها. وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فاتاها الملك، وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه: يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل: إن النصراري اتخذت المشرق قبلة لانتباز مريم مكاناً شرقياً. الروح جبريل: لأنَّ البين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك: أنت روحي، وقرأ أبو حيوة: روحنا بالفتح؛ لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان﴾⁽¹⁾ أو لأنه من المقربين وهم الموعوبون بالروح أي: مقربين وذا روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾⁽²⁾. أي: إنما أنا رسول من استعنت به ﴿لاهب لك﴾ لاكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك، أو هي حكاية لقول الله تعالى: جعل المسَّ عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿من قبل أن تمسوهن﴾⁽³⁾ ﴿أو لمستم النساء﴾⁽⁴⁾ والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس بقم أن تراعى فيه الكنايات والأدب، والبغي الفاجرة التي تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرد: بغوي فادغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقييل بغو، كما قيل: فلان نهو عن المنكر ﴿ولنجعله﴾ آية تحليل معللة محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تحليل مضمرة أي: لنبين به قدرتنا ولنجعله آية، ونحوه: ﴿وخلف الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾⁽⁵⁾ وقوله: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾⁽⁶⁾ ولنعلمه.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ
مَكَانًا قَصِيًّا﴾^(٢٢)

﴿مقضيًّا﴾ مقدراً مسطوراً في اللوح لا بد لك من جريه عليك، أو كان أمراً حقيقاً بأن يكون ويقضي لكونه آية رحمة، والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله،

(5) سورة الجاثية، الآية: 22.

(6) سورة يوسف، الآية: 56.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

(1) سورة الواقعة، الأيتان: 88 و 89.

(2) سورة هود، الآية: 86.

(3) سورة البقرة، الآية: 237.

(4) سورة النساء، الآية: 43.

قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فعل ليس ببدع من شأنها.

وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّخْلَةَ سَنُوطَ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيئًا ﴿١٥﴾ فَكَلِمِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا فَإِنَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَمَدًا فَعَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦﴾

﴿تساقط﴾ فيه تسع قرأت: تساقط بإدغام التام، وتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط، التاء للنخلة والياء للجدع، ورطباً تمييز، أو مفعول على حسب القراءة، وعن المبرد: جواز انتصابه بهزي وليس بذلك، والياء في جدع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (4) أو على معنى: افعلي الهز به كقوله: يحرج في عراقها نصلي، قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جنباً﴾ بكسر الجيم للاتباع أي: جمعنا لك في السري والرطب فائنتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية: سلوة الصدر لكونهما معجزتين وهو معنى قوله: ﴿فكلمي وأشربي وقري عيناً﴾ أي: وطيبني نفساً ولا تغتمي، وارفضي عنك ما أحزنك وأهملك. وقري: ﴿وقري﴾ بالكسر لغة نجد ﴿فإما ترين﴾ بالهمز، ابن الرومي. عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبات بالحج: وحلات السويق، وذلك لتأخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صوماً﴾ صمتاً، وفي مصحف عبد الله: صمتاً، وعن أنس بن مالك مثله، وقيل: صياماً، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت (5)؛ لأنه نسخ في أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم لثلاث تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام المعنيين أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبيري به ساحتها، والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، وفيه أن السكوت عن السفه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً، قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل: سوغ لها بالنطق ﴿إنسياً﴾ أي: أكلم الملائكة دون الإنس.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلاً قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيِّتًا ﴿١٨﴾

الفري: البديع وهو من فرى الجلد ﴿يا أخت هارون﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل وقيل: هو أخوه

وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتهما لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها والجأها إليها. قري: ﴿مت﴾ بالضم والكسر، يقال: مات يموت ومات يمات.

النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (1) وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدرح والشظاظ، تمت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشور من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام نحض قلماً تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، وقرا: ابن وثاب، والأعمش، وحمزة، وحفص: نسيًا بالفتح. قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل، وقرا محمد بن كعب القرظي: نسا بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته. وقرا الأعمش: منسيًا بالكسر على الاتباع كالمغيرة والمنخر.

فَأَدْبَاهَا مِنْ حَمِيمًا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَمَلَ رَبِّي حَمَلِي سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

﴿من تحتها﴾ هو: جبريل عليه السلام قيل: كان يقبل الولد كالقابلة، وقيل: هو عيسى وهي: قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل: تحتها أسفل من مكانها كقوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ (2) وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها: لا تحزني وقرا نافع، وحمزة، والكسائي؛ وحفص؛ من تحتها وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى، وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة، وقرا زر وعلقمة: فخطبها من تحتها. سئل النبي ﷺ عن السري فقال: «هو الجدول» (3). وقال لبيد:

فتوسطا عرض السري فصنعا مسجورة متجاوزاً قلامها
وقيل: هو من السرور والمراد عيسى، وعن الحسن: كان والله عبداً سرياً.

فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب؟ قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) تقدم عن أبي داود في سورة النساء.

(1) سورة الصافات، الآية: 107.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) رواه الحاكم في المستدرک 2/273.

بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿والسلام علي﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك: جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا، والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي، والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعادتها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾⁽³⁾ يعني: أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام منكرة وعاد فهو مئة لنحو هذا من التعريض.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَبْتَئُونَ ﴿٢٦﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا فَعَّضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٧﴾

قرأ عاصم وابن عامر ﴿قول الحق﴾ بالنصب، وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله، وعن الحسن: قول الحق بضم القاف وكذلك في الانعام ﴿قوله الحق﴾⁽⁴⁾ والقول والقال والقول بمعنى واحد: كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك: هو عبد الله حقاً والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى: كلمة الله ﴿وقول الحق﴾ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: كن من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء، والشحم والشحم بالذئب، ويحتمل: إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عز وجل، وأن يكون بمعنى: الثبات والصدق ويعضده قوله: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿ييمترون﴾ يشكون والمربة: الشك، أو يمارون: يتلاحون، قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمترون على الخطاب، وعن أبي بن كعب: قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى. ويكتمهم بالدلالة على إنتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول ولي بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده: يكن، كان منزهاً من شبه الحيوان الوالد. والقول هنا مجاز ومعناه، أن إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبهه ذلك بأمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل.

لَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي رَبِّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾

موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «إنما عنوا هرون النبي، وكانت من أعقابها في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثره». وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل: يا أخت هرون⁽¹⁾ كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحداً منهم، وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب. نكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هرون تبركاً به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجا التيمي: ﴿ما كان لبيك امرؤ سوء﴾ وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها، ثم جاءت تحمله فكلما عيسى في الطريق، فقال: يا أمه ابشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما نخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكبوا وقالوا ذلك، وقيل: همرا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

﴿فأشارت إليه﴾ أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. وروي: أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وأتكا على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿كان﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو هنا: لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر: أن يكون نكلم حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيّاً في المهدي فيما سلف من الزمان حتى تكلم هذا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَوَعَلَّتْ نِيَّتِي ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْأَمَلِ وَالرَّكُوعَ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا ﴿٣٢﴾ وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَوْمٍ أُدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْتُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

انطقه الله أولاً بأنه عبد الله رداً لقول النصارى و﴿الكتاب﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوته، فقيل: أعطيا في طفوليته، أكمل الله عقله واستنبا طفلاً نظراً في ظاهر الآية، وقيل معناه: إن ذلك سبق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿مباركاً أينما كنت﴾ عن رسول الله ﷺ: «نفاعاً حيث كنت»⁽²⁾. وقيل: معلماً للخير. وقرئ: ﴿ويزراً﴾ عن أبي نهيك: جعل ذاته براً لفرط بره، أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني؛ لأن أوصاني

(1) رواه مسلم في كتاب: الآداب باب: النهي التكني بابي القاسم وبيان

(2) سورة طه، الآية: 47.

(3) سورة الانعام، الآية: 73.

(1) رواه مسلم في كتاب: الآداب باب: النهي التكني بابي القاسم وبيان ما يستحب من الاسماء (الحديث رقم: 5563) والترمذي في كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3155).

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٨﴾.

الصديق: من ابنية المبالغة، ونظيره: الضحيك، والنطيق، والمراد: فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسول أي: كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبياً في نفسه كقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (3) وكان بليغاً في الصدق. لأن ملاك أمر النبوة الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبذله أعني: إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ﴾ نحو قولك، رأيت زيداً، ونعم الرجل أخاك، ويجوز أن يتعلق إذ بكان، أو بصديقاً نبياً أي: كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات، والمراد بنكر الرسول إياه وقصته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (4) وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله. التاء في ﴿يَا أَبَتِ﴾ عوض من ياء الإضافة، ولا يقال يا ابتي لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه. وقيل: يا أبنا لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه: باينق وتعويض الباء فيه عن الواو الساقطة. انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه، من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأنب الجميل والخلق الحسن، منتصفاً في ذلك بنصيحة ربه عز وجل، حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه، أظله تحت عرشي، وأسكنه حظيرة القدس، وأبنيه من جواربي» (5). وذلك أنه طلب منه أولاً: العلة في خطئه طلب منبه على تمايه موقظ لإفراطه وتناهيه: لأن المعبود لو كان حياً مميّزاً سميحاً بصيراً مقتدرًا على الثواب والعقاب نافعا ضاراً إلا أنه بعض الخلق، لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلام منزلة كالملائكة والنبیین قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكَ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (6) وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق

وقرأ المدنيون، وأبو عمرو: بفتح أن ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعنوه، كقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (1) والأستار، وأبو عبيد: بالكسر على الابتداء، وفي حرف أبي: إن الله بالكسر بغير واو، وبأن الله أي: بسبب ذلك فاعبده.

فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ لِيَلْزِمُنَّ كُفْرًا مِنْ نَسْهَدَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾.

﴿الأحزاب﴾ اليهود والنصارى. عن الكلبي، وقيل: النصارى لتحزبهم ثلاث فرق، نسطورية ويعقوبية وملكانية، وعن الحسن الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو من وقت الشهود، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء والسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من مكان الشهادة، أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدا به في عيسى وأمه.

أَسْحَبٌ يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ يَأْتُونَكَ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنْزَلْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ يَقُولُ الْأَكْفَرُ وَمَنْ فِي عَفْوَةٍ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ﴿٣٦﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَنَّا وَإِنَّا بِرِجْوَى ﴿٤١﴾.

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد: أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صماً وعمياً في الدنيا، وقيل معناه: التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم. أوقع الظاهر أعني: الظالمين موقع الضمير إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد: بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع.

﴿قضى الأمر﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار. وعن النبي ﷺ أنه سئل عنه أي: عن قضاء الأمر فقال: «حين ينبح الكلب والفريقان ينظران» (2). وإذ بدل من يوم الحسرة، أو منصوب بالحسرة ﴿وهو في غفلة﴾ متعلق بقوله: ﴿في ضلال مبين﴾، عن الحسن ﴿وانذرهم﴾ اعتراض، أو هو متعلق بانذرهم أي: وانذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميّتهم ويخرّب نيارهم وأنه يفني أجسادهم، ويفني الأرض ويذهب بها.

(4) سورة الشعراء، الآية: 69.
(5) رواه الطبراني في الأوسط، والحكيم الترمذي في نوارد الأصول، (الزيلي 326/2).
(6) سورة آل عمران، الآية: 80.

(1) سورة الجن، الآية: 18.
(2) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «وانذرهم يوم الحسرة» (الحديث رقم: 4730) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (الحديث رقم: 40 - 2849).
(3) سورة الصافات، الآية: 37.

العظيم⁽¹⁾ فكانك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله:

يا أبت توسلاً إليه واستعطافاً

﴿ما في﴾ ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿ما لم ياتك﴾ يجوز أن تكون: موصولة وموصوفة والمفعول في لا يسمع ولا يبصر منسي غير منوي كقولك:

ليس به استماع ولا إيصار

﴿شيئاً﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون في موضع المصدر أي: شيئاً من الغناء، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين، والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم:

أغنى عني وجهك

﴿إني قد جائني من العلم ما لم ياتك﴾ فيه تجدد العلم عنده. لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات. أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناده باسمه، ولم يقابل يا أبت بيا بني: وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعني وفيه ضرب من التّعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقي من مثل ذلك من كفر قومه ﴿لأرجمنك﴾ لأرمينك بلساني يريد الشتم والنم، ومنه الرجيم المرمي باللعن، أو لاقتلنك من رجم الزاني، أو لأطردنك رمياً بالحجارة، وأصل الرجم الرمي بالرجام ﴿ملياً﴾ زماناً طويلاً من الملاوة أو ملياً بالذهاب عني والهجران قبل أن أتخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال: فلان ملي بكذا إذا كان مطيقاً له مطلقاً به.

فإن قلت: علام عطف ﴿واهجرتني﴾؟ قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك أي: فاحذرني واهجرتني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقرع.

قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَجِيَّةً إِنَّهُ كَانَتْ بِي حَقِيَّةً (٤٧)

﴿قال سلام عليك﴾ سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾⁽³⁾ وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وإن يعده ذلك؟ قلت: قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط

إلا لمن له غاية الإنعام وهو: الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلى غيره وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره لم يكن إلا ظلاماً وعتوراً وغياً وكفراً وجحوداً وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور: فلا يسمع يا عابده نكر له وثناءك عليه، ولا يرى هيأت خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يفني عنك بان تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيها.

يَأْتِيَنِي إِذِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْوَلَدِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعَنِي أَمْرًا سَوِيًّا (٤٨)

ثم ثنى: بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندني معرفة بالهداية لئلا فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه.

يَأْتِيَنِي لَا تَمْدِي الشَّيْطَانُ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٩)

ثم ثلث: بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو: عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال، وعدو أبوك آدم وأبناء جنسك كلهم. هو: الذي ورطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فانت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الاخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم ينكر من جنابتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى نكر معاداته لأنم وذريته، كان النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه.

يَأْتِيَنِي إِذِي أَخَا أَن يَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٥٠) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَكْفُرُهُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَيْتًا (٥١)

ثم رابع: بتخويفه سوء العاقبة وبما يجزه ما هو فيه من التبعة والويلال، ولم يخل ذلك من حسن الألب حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال: ﴿أخاف أن يمسك عذاب﴾ فنكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: ﴿ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) سورة الفرقان، الآية: 63.

دعوته ﴿واجعل لي لسان صلق في الآخرين﴾ (6) فصيره قنوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ (7) و﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ (8) ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ (9) وأعطى تلك نزيته فأعلى نكرهم وأثنى عليهم كما أعلى نكره وأثنى عليه.

وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانُوا مَخْلُصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾
وَنَذَرْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ نَحِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَعَيْنَا لَمْ مِنْ رَحْمَتِنَا
أَنَاءَ هُرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾.

المخلص: بالكسر الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفتح الذي أخلصه الله الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينسب عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع، الأيمن من اليمين أي: من ناحيته اليمنى، أو من اليمن صفة للطور أو للجانب، شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك. وعن أبي العالية: قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة ﴿من رحمتنا﴾ من أجل رحمتنا وترافنا عليه وهبنا له هرون، أو بعض رحمتنا كما في قوله: ﴿وهوبنا لهم من رحمتنا﴾ (10) وأخاه على هذا الوجه بدل، وهرون عطف بيان، كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيداً، أو كان هرون أكبر من موسى، فوَقعت الهبة على معاضدته وموازرتة. كذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾
وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾.

نكر إسماعيل عليه السلام بصديق الوعد وإن كان ذلك موجوداً في غيره من الأنبياء تشريعاً له وإكراماً كالتلقيب بنحو الحليم، والأواه، والصديق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ (11) كان يبدأ بأهله في الأمر بالصالح والعبادة ليجعلهم قنوة لمن وراءهم ولأنهم أولى من سائر الناس ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ (12) ﴿وأمر

الوضوء والنصاب، وقالوا: إنما استغفر له بقوله: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ (1) لانه وعده أن يؤمن، واستشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ (2) ولقائل (3) أن يقول: إن الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأما القضية العقلية فلا تأباه، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل، والذي يدل على صحته قوله تعالى: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ (4) فلو كان شرطاً للإيمان لم يكن مستنكراً أو مستثنى عما وجبت فيه الأسوة، وأما عن موعدة وعدها إياه، قالوا: عد هو إبراهيم لا آزر أي: ما قال: واغفر لأبي إلا عن قوله: لأستغفرن لك وتشهد له قراءة حماد الراوية وعدها إياه والله أعلم ﴿حفيّاً﴾ الحفي البليغ في البر والإلطف حفي به وتحفى به.

وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشِيَ آلَاءُ أَكْرَمَ
بَدْعَاءَ رَبِّي سَبِيحًا ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا أَعَزَّكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥٧﴾.

﴿واعزلكم﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام. المراد بالدعاء: العبادة؛ لأنه منها ومن وسائلها، ومنه قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (5). ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء، عزّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيّاً﴾ مع التواضع لله بكلمة عسى وما فيه من هضم النفس ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء.

وَوَعَيْنَا لَمْ مِنْ رَحْمَتِنَا رَجَعْنَا لَمْ لِسَانَ مِدْقٍ عَلَيْنَا ﴿٥٨﴾.

﴿من رحمتنا﴾ هي النبوة. عن الحسن، وعن الكلبي: المال والولد وتكون عامّة في كل خير ديني وبنوي أو توه. لسان الصنق: الثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال:

إني أنتني لسان لا أسر بها

يريد الرسالة، ولسان العرب لغتهم وكلامهم. استجاب الله

= (890) وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (الحديث رقم: 3247) وابن ماجه في كتاب: الدعاء باب فضل الدعاء.

(6) سورة الشعراء، الآية: 84.

(7) سورة الحج، الآية: 78.

(8) سورة النساء، الآية: 125.

(9) سورة النحل، الآية: 50.

(10) سورة مريم، الآية: 50.

(11) سورة الصافات، الآية: 102.

(12) سورة الشعراء، الآية: 214.

(1) سورة الشعراء، الآية: 86.

(2) سورة التوبة، الآية: 114.

(3) قال أحمد: وهذه لمظ من الاعتزال، مستطيرة من شرر شرقاً قاعدة التحسين والتقيج، والحق أن العقل لا مخذل له، في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به، ثم لم يوف الزمخشري بها، فإنه جعل العقل يسوغ الاستغفار، وجعل الشرع مانعاً منه، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهذمة، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه، وأما ما يظهر العقل خلافه، فلا.

(4) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(5) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: =

نوح، وإسماعيل من نرية إبراهيم وموسى وهارون وزكريا ويحيى من نرية إسرائيل، وكذلك عيسى لأن مريم من نريته ﴿وممن هدينا﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية.

إن جعلت الذين خبراً لأولئك كان ﴿إذا تتلى﴾ كلاماً مستأنفاً، وإن جعلته صفة له كان خبراً. قرأ شبل بن عباد المكي: يتلى بالتنكير؛ لأن التانيث غير حقيقي مع وجود الفاصل. البكي جمع بك كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ: «أتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»⁽⁷⁾. وعن صالح المري رضي الله عنه: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال في: «هذه القراءة يا صالح فأين البكاء؟»⁽⁸⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأت سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحلكم فليبك قلبه، وعن رسول الله ﷺ: «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحزنوا». وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وإن قرأ: سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

﴿خَلَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ خَلْفٌ أَصَاغِرُ الصَّلَاةِ وَأَتَبِعَهَا الشُّهُورُ فَسَرَفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (٤١) ﴿لَا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلْمَعُونَ شَيْئًا﴾ (٤٢).

خلفه إذا عقبه، ثم قيل: في عقب الخير خلف بالفتح، وفي عقب السوء خلف بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير، ووعيد في ضمان الشر. عن ابن عباس رضي الله عنه: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وعن إبراهيم، ومجاهد رضي الله عنهما: أضعوا بالتأخير وينصر الأول، قوله: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ يعني: الكفار. وعن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من بني الشديد، وركب المنظور. وليس المشهور، وعن قتادة رضي الله عنه: هو في هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والضحاك رضي الله عنهم: الصلوات بالجمع. كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد قال المرقش:

فمن يلق خيراً تحمد الناس أمره ومن يفول لا يعلم على الغي لائماً
وعن الزجاج: جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يَلِقُ اثَامًا﴾⁽⁹⁾

أهلك بالصلاة⁽¹⁾ ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾⁽²⁾ ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم فالإحسان الديني أولى، وقيل: أهله أمته كلهم من القرابة، وغيرهم لأن أمم النبيين في عداد أهاليهم، وفيه أن من حق الصالح أن لا يبالغوا نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به، وإن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَرَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٢﴾

قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو: العلمية فكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاب كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسراء، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى: إدريس في تلك اللغة قريباً من ذلك فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس. المكان العلي: شرف النبوة والزلفى: عند الله. وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم، والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون الجلود. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: إنه رفع إلى السماء الرابعة⁽³⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى السماء السادسة⁽⁴⁾ وعن الحسن رضي الله عنه: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة، وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد عند رسول الله ﷺ الشعر الذي آخره:

بلغنا السماء مجبنا وسناؤنا وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا
قال رسول الله ﷺ: «إلى أين يا أبا ليلى». قال: إلى الجنة⁽⁵⁾.

أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِنَّ تِلْكَ لَفِي عِلْمٍ
مَّا يَذُكَّرُ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا ﴿٥٢﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. ومن في ﴿من النبيين﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾⁽⁶⁾ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم، ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من نرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم عليه السلام من نرية من حمل مع نوح؛ لأنه من نرية سام بن

(1) سورة طه، الآية: 132.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3157).

(4) رواه الطبري في تفسيره وابن مريويه، (الزليعي 328/2).

(5) رواه أبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة، (الزليعي 329/2).

(6) سورة الفتح، الآية: 29.

(7) رواه أبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 689).

(8) رواه أبو نعيم في الحلية 6/196.

(9) سورة الفرقان، الآية: 68.

الوسطى المحمودة، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير؛ لأن المتنعم عن العرب من وجد غداء وعشاء، وقيل: أراد نوام الرزق ودروره كما تقول: انا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرة وعشيّاً يريد: الديمة، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

﴿نورث﴾ وقرئ: نورث استعارة أي: نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث، ولأن الأتقياء يلقون بهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية؛ وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى، وقيل: أورثوا من الجنة المساكين التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُكِينُ أَيْدِيَنَا وَمَا نَلْفَنَّا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ضَالِمًا ﴿١٤﴾

﴿وما ننزل﴾ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطاه رسول الله ﷺ، وروي: أنه احتبس أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة، وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «إبطات حتى ساء ظني، واشتقت إليك». قال: إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست. وأنزل الله سبحانه هذه الآية، وسورة الضحى⁽⁵⁾، والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق كقوله:

فلمست لأنسى ولكن لملاك تنزل من جو السماء يصوب لانه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى: أنزل وبمعنى: التدريج، واللائق بهذا الموضع هو: النزول على مهل، والمراد: أن نزلنا في الأحايين وقتناغب وقت ليس إلا بأمر الله وعلى ما يراه صواباً وحكمة وله ما قدمنا ﴿وما خلفنا﴾ من الجهات والأماكن ﴿وما بين ذلك﴾ وما نحن فيها، فلا نتمالك أن ننقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيتته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فإني لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى تلك مصلحة وحكمة وأطلق لنا الإن في، وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفتين، وهو أربعون سنة، وقيل: ما

أي: مجازاة آثم، أو غياً عن طريق الجنة، وقيل: غي واد في جهنم تستعبد منه أوبيتها. وقرأ الأخفش: يلقون: قرئ: يدخلون ويدخلون أي: لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ولا يمنعون بل يضاعف لهم بيئاً؛ لأن تقدم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، ما منعك، أو لا يظلمون البتة أي: شيئاً من الظلم.

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَقِبِ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿١٥﴾

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبليت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي. وعند معرفة علم بمعنى: العدن، وهو: الإقامة، كما جعلوا فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفه علماً لمعاني الفينة والسحر والأمس فجرى مجرى العدن لذلك، أو هو علم الأرض الجنة لكونها مكان إقامة، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال؛ لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصولة ولما ساغ وصفها بالتي. وقرئ: جنات عدن وجنة عدن بالرفع على الابتداء. أي؛ وعدما وهي غائبة عنهم غير حاضرة، وهم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب والإيمان به. قيل في ﴿ماتياً﴾ مفعول بمعنى: فاعل؛ والوجه: أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها، أو هو من قولك أتى إليه إحساناً أي: كان وعده مفعولاً منجراً.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلُوفًا لَّهُمْ فِيهَا بَكْرَةٌ وَعِجْلًا ﴿١٦﴾

للغو فضول الكلام وما لا طائل تحته، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقانه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها وما أحسن قوله سبحانه: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾⁽¹⁾ ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾⁽²⁾ نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنيننا. أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً⁽³⁾ إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسمعون فيه من العيب والنقيصة على الاستثناء المنقطع، أو لأن معنى: السلام⁽⁴⁾ هو: الدعاء بالسلامة، ودار السلام هي: دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام. من الناس من يأكل الوجبة، ومنهم من يأكل متى وجد وهي: عادة المنهومين، ومنهم من يتغدى ويتعشى وهي العادة

(1) سورة الفرقان، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والفرق بين الوجهين، أنه جعل للؤل عيباً على سبيل التجوز بناءً لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان للؤل السيوف من القراع عيباً، فإنهم نؤو عيب، ومعناه: وإن لم يكن عيباً، فليس فيهم عيب البتة: لأنه لا شيء سوء هذا، فهو بعد هذا التجوز =

= والفرض، استثناء متصل.

(4) قال أحمد: وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة، لا كأول الناشئ عن المجاز، وفي هذا الباب بعد؛ لأنه يقتضي البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول، وحاش لله، فلا غول فيها، ولا لغو.

(5) رواه ابن إسحاق في سيرته وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي والواحد في أسباب النزول ص 170.

وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزى إله، وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى أحد الرحمن غيره، ووجه آخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق بون الباطل؛ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كالتسمية، وقيل: مثلاً وشبهها أي: إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذْ مَا مِثَّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْلَا يَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَّكَ لَتَحْتَرَنَّهُمْ وَالْكَافِرِينَ ثُمَّ تَنْحَرِبُهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا ﴿١٨﴾

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قُلْتُ: لم جازت إرادة الأناسي كلهم وكلهم غير قائلين ذلك؟ قُلْتُ: لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل رجل منهم، قال الفرزدق:

فسيف بني عيس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
فقد أسند الضرب إلى بني عيس مع قوله: نبا بيدي
ورقاء، وهو: ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قُلْتُ: بم انتصب إذا وانتصابه بأخرج متمنع لأجل اللام، لا تقول اليوم لزيد قائم؟ قُلْتُ: بفعل مضممر يدل عليه المنكور.

فإن قُلْتُ⁽³⁾: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال؟ قُلْتُ: لم تجامعها إلا مخلصاً للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحلاً عنها معنى التعريف، وما في إذا ما للتوكيد أيضاً فكانهم قالوا: أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد، والمراد: الخروج من الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم خرج فلان عالماً وخرج شجاعاً، إذا كان نادراً في ذلك يريد: سأخرج حياً نادراً على سبيل الهزؤ، وقرأ الحسن وأبو حيوة: لسوف أخرج، وعن طلحة بن مصرف رضي الله عنه: لسأخرج، كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ولسيعطيك وتقدير الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكراً، ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك: للمسيء إله المحسن: أحيان تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه. الواو عطف لا ينكر على يقول ووسطت همزة

مضى من أعمارنا وما غير منها والحال التي نحن فيها، وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فئتنا، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي ورائنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال نرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صابراً عما توجهه حكمته وياמרنا به ويأمرنا لنا فيه. وقيل: معنى ﴿وما كان ربك نسياً﴾ وما كان تاركاً لك كقوله تعالى: ﴿ما ودَّع ربك وما قلى﴾⁽¹⁾ أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، وأما احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوبيعه إليك، ولكن لتوقفه على المصلحة، وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي: وما ننزل الجنة إلا بان من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمتروقة والحاضرة، اللطف في أعمال الخير والموقف لها والمجازي عليها، ثم قال الله تعالى تقريراً لقولهم: ما كان ربك نسياً لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يتأبوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما.

ثم قال لرسوله ﷺ: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل وابعده يثب كما أتاب غيرك من المتقين، وقرأ الأعرج رضي الله عنه: وما يتنزل بالياء: على الحكاية عن جبريل عليه السلام، والضمير للوحي، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي. وعلى هذا الوجه، يجوز أن يكون ﴿وما كان ربك نسياً﴾ من كلام المتقين، وما بعده من كلام رب العزة.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاسْطَبِرْ لِعِبَادِهِ هَلْ تَمَلَّكَ لَمْ سَيِّئًا ﴿١٩﴾

﴿رب السّموات والأرض﴾ بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدا محذوف أي: هو رب السّموات والأرض ﴿فاعبده﴾ كقوله:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

فإن قُلْتُ: هلا عدى ﴿اصطبر﴾ بعلی التي هي صلته كقوله تعالى: ﴿واسطبر عليها﴾ قُلْتُ⁽²⁾: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: أثبت له فيما يورد عليك من شدته، أريد: أن العبادة تورث عليك شداً ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضيق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحي عليك مدة وشماتة المشركين بك. أي: لم يسم شيء بالله قط،

= لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا، لغت سوف، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأما اللام إذا جرّت من الحال، بقي لها التوكيد، فلم تلغ فتعين، والله أعلم.

(1) سورة الضحى، الآية: 3.

(2) سورة طه، الآية: 132.

(3) قال أحمد: والاعتقاد تناقض الحرفين منع الكوفيين اجتماعهما، وإنما جرّت اللام من معناها، لتلائم سوف لئلا تجرّد سوف، =

الكفرة مقرونين بالشرطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فَإِنْ قُلْتَ: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ **قُلْتُ:** لم يفرق بينهم وبينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة وسروراً إلى سرور ويشتموا بأعداء الله وأعدائهم، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشامتتهم بهم.

فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى إحضارهم جثياً؟ **قُلْتُ:** أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى: أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم علأ على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو قال الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ (5) على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والناقلات من تجاثي أهلها على الركب لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة، أو لما يداهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم حبواً، وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم على أن جثياً حال مقدراً كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب.

﴿مَنْ تَنَزَّعَ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْمَهُمْ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (19) ﴿مَنْ تَنَزَّعَ أَكْفَرًا بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ (20).

والمراد بالشيعية: وهي فعلة كفرة وفتية، الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاويًا من الغواية. قال الله تعالى: ﴿إِنْ

الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني (1): أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى، فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التاليف مشحوناً بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها من غير حذر على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته، وأما الثانية: فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه، وليس فيها إلا تاليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق، وقوله تعالى: ﴿ولم يك شيئاً﴾ دليل على هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾ (2) على أن رب العزة سواء عليه النشاطان لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذا على مثال ولا استعانة بحكيم ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك بفعاً في بحر معانته وكشفاً عن صفحة جهله. القراء كلهم على لا ينكر بالتشديد إلا نافعاً، وابن عامر، وعاصماً رضي الله عنهم، فقد خففوا، في حرف أبي يتنكر ﴿من قبل﴾ من قبل الحالة التي هو فيها وهي: حالة بقائه في إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافاً إلى رسول الله ﷺ تفخم لشان رسول الله ورفع منه كما رفع من شان السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿فوردب السماء والأرض إنه لحق﴾ (3) والواو في ﴿والشياطين﴾ يجوز أن تكون للعطف وبمعنى: مع وهي بمعنى: مع أوقع، والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغروهم، قرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فَإِنْ قُلْتَ: (4): هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ **قُلْتُ:** إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم

النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم، فتنبه لبعده غوره، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار، والله ولي التوفيق. ومعنى تفريق الله تعالى بين النشاطين، أن الجاحد متهافت؛ لأنه اعترف بالأولى، وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل، وأنكر الثانية، وهي أسهل وأهون؛ لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى، فإن الكل، لدى قدرة الله تعالى، هين على سواء.

(2) سورة الروم، الآية: 27.

(3) سورة الذاريات، الآية: 23.

(4) قال أحمد: التبتست عليه إرادة العموم، وبينهما بون، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون، فصرح بأن الله تعالى أراد بالإنسان: العموم، ومعنى إرادة العموم: أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر، إلى كل فرد من أفراد الإنسان، ومعاد الله، وقد صرح الزمخشري بأن النطق بكلمة الشك بعض الجنس، ففي العبارة خلل كما ترى، والعبارة الصحيحة أن يقال: يحتمل أن يكون التعريف جنسياً، فيكون عهدياً، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصاً، والله اعلم.

(5) سورة الجاثية، الآية: 28.

(1) قال أحمد: مذهب أهل السنة أن إعادة المعدوم جائزة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك، إلا أنها تزعم: أن المعدوم له ذات ثابتة في العدم، يقضي عليها بانها شيء، فليس عندهم عدم صرف، ونفي محض قبل الوجود، ولا بعده، فكانهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم، ولانكروا إعادة المعدوم، كما أنكره القماء، وعقيدة أهل السنة هي: المطابقة للآية؛ لأن النشأة الأولى لم يتقدمها وجود، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك، وأما النشأة الثانية، فقد تقدمها وجود، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده، ثم عدم وطلبت شئيته، فظهر فرق ما بين النشاطين، كما نطق به القرآن، وأما المعتزلة، فإن قالوا: إن الأجسام بعمدها الله، ثم يوجد بها، فقد قالوا الحق، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشاطين؛ لأن المعدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة، فإن قالوا: لا تنعدم الأجسام، وإنما تتفرق ثم تجمع، كما صرح به الزمخشري؛ لأنه فطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم، ثم يوجد الله تعالى، مع القول بأن المعدوم شيء يبطل الفرق بين النشاطين، ولم يطق ذلك، وقد نطق به القرآن، فالنزم أن الأجسام لا تنعدم، ليطم له الفرق بين النشأة الثانية، وإنما هي على هذا التقرير جمع وتاليف لموجود، وبين

فيقال لهم: قد وبتموها وهي جامدة»⁽⁶⁾ وعنه رضي الله عنه أنه سئل: عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود النخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا نخلها فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجًا من بردها»⁽⁷⁾. وأما قوله تعالى: ﴿أولئك عنها مبعدون﴾⁽⁸⁾ فالمراد: عن عذابها. وعن ابن مسعود، والحسن، وقتادة، هو: الجواز على الصراط؛ لأن الصراط ممدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء ولا يدخله، كقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾⁽⁹⁾ ووردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو: مس الحمى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه السلام: «الحمى من فيح جهنم»⁽¹⁰⁾. وفي الحديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»⁽¹¹⁾. ويجوز أن يراد بالورود: جثوه حولها، وإن أريد بالكفار خاصة فالمعنى بين: الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب، كقولهم: خلق الله، وضرب الأمير أي: كان ورودهم واجبًا على الله أوجبه على نفسه، وقضى به، وعزم على أن لا يكون غيره.

ثُمَّ نَجِيَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً ۖ ﴿٧٧﴾

قرئ: ﴿ننجي﴾ وندجي وينجي وينجي على ما لم يسم فاعله: إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى: ثم ننجي ﴿الذين اتقوا﴾ إن المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يواربونهم ثم يتخلصون، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، والجحدي، وابن أبي ليلى: ثم ننجي بفتح التاء أي: وقوله ﴿ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾ دليل على أن المراد بالورود: الجثو حولها، وأن المؤمنين يفرقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيمهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

وَأَذَانًا لِّمَنْ عَلَيْهَا عَيْنًا يَتَّبِعُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا ۖ ﴿٧٨﴾

﴿بينات﴾ مرتلات اللفاظ ملخصات المعاني مبينات المقاصد إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان

الذين فرقوا بينهم وكانوا شيعًا⁽¹⁾ يريد نمتاز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فولاهم، أو أراد ﴿بالذين هم أولى بها صليًا﴾ المنتزعين كما هم كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي هن بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشد، ويجوز أن يريد: بأشدهم عتيًا رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم يكونهم ضلالاً ومضلين قال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصنوا عن سبيل الله زناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾⁽²⁾ ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾⁽³⁾ واختلف في إعراب ﴿أيهم أشد﴾ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقدير: لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد، وسيبويه: على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته حتى لو جيء به لأعرب، وقيل: أيهم هو أشد، ويجوز أن يكون النزاع واقعًا على من كل شيعه، كقوله سبحانه: ﴿وهوينا لهم من رحمتنا﴾⁽⁴⁾ أي: لتنزعن بعض كل شيعه، فكان قائلًا قال: من هم؟ فقيل: أيهم أشد عتيًا، وأيهم أشد النصب. عن طلحة بن مصرف، وعن معاذ ابن مسلم الهراء استاذ الفراء.

فإن قلت: بم يتعلق على والباء فإن تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟ قلت: هما: للبيان لا للصلة، أو يتعلقان بأفعل أي: عتوهم أشد على الرحمن، وصلبيهم أولى بالنار، كقولهم: هو أشد على خصمه، وهو: أولى بكذا.

وإن ينكروا إلا وأردها كأن على ربك حتمًا مقويًا ۖ ﴿٧٩﴾

﴿وإن منكم﴾⁽⁵⁾ التفات إلى الإنسان يعضده قراءة ابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهما: وإن منكم، أو خطاب للناس من غير التفات إلى المنكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنه يرونها كأنها إهالة، وروي: دواية: وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إذا نخل أهل الجنة الجنة، قال بعضهم لبعض: اليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟

= في أن دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار، (الحديث رقم: 370) والحاكم في المستدرک 587/4.

(8) سورة الأنبياء، الآية: 101.

(9) سورة القصص، الآية: 23.

(10) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب صفة النار (الحديث رقم: 3263) ومسلم في كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء (الحديث رقم: 5769).

(11) كشف الاستار، كتاب: الجنائن، باب: حظ ذنوب المريض، (الحديث رقم: 760) وابن ماجه: في كتاب: الطب، باب: الحمى (الحديث رقم: 3470) والحاكم في المستدرک 345/1، وأحمد في مسنده 252/5.

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.

(2) سورة النحل، الآية: 88.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 13.

(4) سورة مريم، الآية: 50.

(5) قال أحمد: احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبين أولًا هم المخاطبين ثانيًا، إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بيننا على أن الأول، إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعًا، فالثاني ليس التفاتًا، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص، لقوم معينين، والله أعلم.

(6) قال الزبيعي: غريب ولم أجده إلا من قول خالد بن معدان 332/2.

(7) رواه أحمد في مسنده 429/3، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: =

بالمحكمات، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها، أو حججاً وبراهين، والوجه: أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقاً﴾⁽¹⁾ لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً ﴿للذين آمنوا﴾ يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معاناهم كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾⁽²⁾. قرأ ابن كثير ﴿مقاماً﴾ بالضم وهو: موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو: موضع القيام، والمراد المكان والموضع، والندى: المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتبسون والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أي الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا، حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعف. ويرى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَرَّ أَمَلَكُنَا قَلْبُهُمْ مِّنْ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٦﴾

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و﴿من﴾ تبيين لإبهامها أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم و﴿هم أحسن﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية. الأثاث متاع البيت، وقيل: هو ماجد من الفرش، والخرشي: ما لبس منها، وأنشد الحسن بن علي الطوسي:

تقام العهد من أم الوليد بنا دهرًا وصار أثاث البيت خرشيًا
قري: على خمسة أوجه ﴿رفيًّا﴾ وهو: المنظر والهيئة فعل بمعنى: مفعول من رأيت، وريئًا: على القلب كقولهم: راء في رأي، وريا: على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفة من قولهم: ريان من النعيم، وريا: على حذف الهمزة رأساً ووجهه: أن يخفف المقلوب وهو: ريثا بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وزيا: واشتقاقه من الرزي وهو الجمع؛ لأن الرزي محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء.

قَلَّ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِنَّا أَنزَلْنَا وَإِنَّا أَنزَلْنَا فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَجْمَعُ جُنْدًا
﴿٧٧﴾

أي مد له الرحمن يعني: أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجود ذلك، وأنه مفعول لا

فإن قلت: ﴿حتى﴾ هذه ما هي؟ قلت: هي التي تحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: ﴿إذا أراوا ما يوعدون﴾ ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾⁽⁶⁾ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والندى المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعاونهم، وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى وَيَلَيِّنُ الصَّلَابَ حَتَّىٰ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٧﴾

﴿ويزيد﴾ معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مد، أو يمد له الرحمن ويزيد أي: يزيد في ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ﴿والباقيات الصالحات﴾ أعمال الآخرة كلها، وقيل: الصلوات وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أي: ﴿خير ثواباً﴾ من مفازرات الكفار ﴿وخير مرداً﴾ أي: مرجحاً وعاقبة، أو منفعة من قولهم:

ليس لهذا الأمر مردٌ وهل يرد بكاي زندياً
فإن قلت: كيف قيل: خير ثواباً كان لمفازراتهم ثواباً

(4) سورة آل عمران، الآية: 178.

(5) سورة مريم، الآية: 72.

(6) سورة مريم، الآية: 72.

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة الاحقاف، الآية: 11.

(3) سورة فاطر، الآية: 37.

حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ﴿قُلْتُ﴾ كأنه قيل: ثوابهم النار على طريقة قوله: فاعتبوا بالصليب، وقوله: شجعاء جرّتها الزميل تلوكه اصلاً إذا راح المطي غرائاً وقوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

ثم بنى عليه خير ثواباً وفيه ضرب من التهكم الذي هو اغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قُلْتُ: فما وجه التفضيل في الخير كان لمفاخرهم شركاً فيه؟ قُلْتُ: هذا من وجيز كلامهم يقولون: الصيف أحر من الشتاء أي: أبلغ في حره من الشتاء في برده.

أَفَرَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَلَمَلَّحَ النَّبِيُّ أُمَّ أَقْحَدٍ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾.

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً وصحة الخبر عنها، استعملوا آرايت في معنى: أخبر، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو: التعقيب كأنه قال: أيضاً بقصة هذا الكافر وانكر حديثه عقيب حديث أولئك ﴿اطلع الغيب﴾ من قولهم: اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع الثنية. قال جرير:

لاقت مطلع الجبال وعوراً

ويقولون: مر مطلعاً لذلك الأمر أي: مالكا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن يقول، أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى غيب الذي توحد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتلقى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقتين: وإما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائي: ولذا وهو: جمع ولد كاسد في أسد، أو بمعنى: الولد كالعرب في العرب، وعن يحيى بن يعمر: ولذا بالكسر، وقيل في العهد: كلمة الشهادة، وعن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتية ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها في العاصي بن وائل. قال خباب بن الأثر: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد، قُلْتُ: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث. قال: فإني إذا مت تبعث؟ قلت: ثم، قال: إذا بعثت جثثني وسيكون لي ثم مال ولد فاعطيك، وقيل: صاغ له خباب حلياً فاقتضاه الأجر، فقال: أنكم تزعمون تبعثون، وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا اقتضيك، ثم فإني أوتي مالا وولداً حينئذ⁽¹⁾.

كَلَّا سَكَتَ مَا يَقُولُ وَنَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية على الخطأ أي: هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليردع عنه.

فإن قُلْتُ: كيف قيل ﴿سَكَتَ﴾ بسين التسويف، وهو كما قال. كتب من غير تأخير، قال الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾⁽²⁾ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:

إذا ما انتسبنا تلدني لثيمة

أي: تبين وعلم بالانتساب أنني لست بابن لثيمة. والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف انتقم منك يعني: أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستاجر، فجرّد ههنا لمعنى الوعيد ﴿ونمدّ له من العذاب مداً﴾ أي: تطوّل له من العذاب ما يستأمله، ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزؤون، أو نزيده من العذاب، ونضاعف له من المدد. يقال: مده وأمدّه بمعنى، وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب: ومدّ له بالضم، وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه.

وَرِثَهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾ وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكْفُرُونَ لَهَا عِرًّا ﴿٨١﴾.

﴿ورثه ما يقول﴾ أي: نرثي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة، ونعطيّه من يستحقّه، والمعنى: مسمى ما يقول ومعنى ما يقول: وهو المال والولد. يقول الرجل: أنا أملك كذا، فنقول له: ولي فوق ما تقول. ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتية الله في الدنيا مالا وولداً وبلغت به أشعبيته أن تألى على نكح في قوله: ﴿لاوتين﴾⁽³⁾ لأنه جواب قسم مضمّر ومن يتال على الله يكذبه، فيقول الله عزّ وجل هب أنا اعطيناه ما اشتهاه إما نرثه منه في العاقبة ﴿ويأتينا فرداً﴾ غداً بلا مال ولا ولد كقوله عزّ وجل: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾⁽⁴⁾ الآية فما يجدي عليه تمنيه وتاليه، ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حياً فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه غير قائل له، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيّره به ﴿ويأتينا﴾ على فقره ومسكنه ﴿فرداً﴾ من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان تبعه قوله ووباله. وفقد المطموع فيه ﴿فرداً﴾ على الوجه الأول حال مقدرة نحو: ﴿فانخلوها خالدين﴾⁽⁵⁾ لأنه وغيره سواء في إتيانه فرداً حين يأتي، ثم يتفاوتون بعد ذلك أي: ليتعزّزوا بألهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقدونهم من العذاب.

(2) سورة ق، الآية: 18.

(3) سورة مريم، الآية: 77.

(4) سورة الأنعام، الآية: 94.

(5) سورة الزمر، الآية: 73.

(1) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «أقرايت الذي كفر بآياتنا...» (الحديث رقم: 4732) وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (الحديث رقم: 6993).

وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسول لهم.

فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾

عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبينوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شروهم وتطهر الأرض بقطع دابرهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معودة، كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لوعدت، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْعَدُونَ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ (6) وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، وعن ابن السماك: أنه كان عند المأمون فقراها: فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفذ.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُتَمِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَذَا ﴿٨٦﴾

نصب ﴿يَوْمَ﴾ بمضمرة أي: يوم ﴿نحشُر﴾ ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف، أو أنكروا يوم نحشر، ويجوز أن ينتصب بلا يملكون. نكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاة على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن علي رضي الله عنه: ما يحشرون الله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رجالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت (7). ونكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورد لعطاش؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، وحقيقة الورد المسير إلى الماء قال:

ردي ردي ورد قطاة صما كدرية أعجبها برأ لما
فسمى به الوارون، وقرأ الحسن: يحشر المتقون
ويساق المجرمون.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَقَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهَا ﴿٨٧﴾

الواو (8) في ﴿لا يملكون﴾ إن جعل ضميراً فهو للعباد

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَيْعَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: كَلَّا ﴿سيكفرون بعبانيتهم﴾ أن سيحجسون كَلَّا سيكفرون بعبانيتهم كقولك: زيذا مررت بغلامه، وفي محتسب ابن جني: كَلَّا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه: كل هذا الرأي والاعتقاد كَلَّا، ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي كَلَّا التي هي للردع قلب الواقف عليها ألفها نوياً كما في ﴿قواريراء﴾ (1) والضمير في سيكفرون للآلهة أي: سيحجسون عبانيتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبدتمونا، وأنتم كاذبون. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ بُونِكُمْ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (2) أو المشركين أي: ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (3) ﴿عليهم ضداً﴾ في مقابلة ﴿لهم عزاً﴾ (4) والمراد: ضد العز وهو الذل والهوان أي: يكونون عليهم ضداً لما قصدوه وإرابوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً لا لهم عزاً، أو يكونون عليهم عوناً، وال ضد العون يقال: من أضافكم أي: أعوانكم، وكان العون سمي: ضداً؛ لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانتته لك عليه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ وَحْدًا؟ قُلْتُمْ: وَحْدًا توحيداً قوله عليه السلام: «وهم يد على من سواهم» (5). لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم؛ ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها، وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فإن المعنى: ويكونون عليهم أي: أعداءهم ضداً أي: كفره بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَرْتُزُهُمْ أَرْأَى ﴿٨٧﴾

الاز والهز والاستفزاز أخوات، ومعناها: التهيج وشدة الإزعاج أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس والتسويات والمعنى، خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسراً. والمراد: تعجيب رسول الله ﷺ بعد الآيات التي نكر فيها العناة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحظتهم ومعاندتهم للرسول واستهزؤهم بالدين، من تماليهم في الغي وإفراطهم في العناد

(1) الحديث رقم: (153) وهو في المسند 1/155.

(1) سورة الإسنان، الآيةان: 15 و16.

(2) سورة النحل، الآية: 86.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) سورة مريم، الآية: 81.

(5) رواه أحمد في مسنده 1/122، وأبو داود في كتاب: النيات، باب: إيقاد المسلم (الحديث رقم: 4530) والنسائي في كتاب: القسامة، باب: سقوط اللود من المسلم للكافر، (الحديث رقم: 4745).

(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(7) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على المسند ص 359 =

(8) قال أحمد: وفي هذا الوجه تعسف، من حيث أنه إذا جعله علامة، لمن فقد كشف معناه، وأصح بانها متناولة جمعاً، ثم أعاد على لفظها بالإفراد، ضمير اتخذ، فقيه الإعادة على معناه بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم؛ لأنه إجمال بعد إيضاح، وذلك تعكيس في طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة: الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه، وإن لم تكن عائدة على من، إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له، فتنبه لهذا العقد، فإنه أروج من النقد. وفي عنق الحسناء، يستحسن العقد.

تهد هذا أو مهودة أو مفعول له أي، لأنها تهد.

فإن قُلْتُ (5): ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن الله سبحانه يقول: كنت أقفل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري، وإنني لا عجل بالعقوبة كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (6) والثاني: أن يكون استعظامًا للكلمة وتهويلًا من فظاعتها وتصويرًا لأثرها في الدين وهمها لأركانها وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخز، وفي قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرض لسخطه وتنبية على عظم ما قالوا.

أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْخَذَ وَلَكَا ﴿١٢﴾.

في ﴿أَنْ دَعَا﴾ ثلاثة أوجه: أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه كقوله:

على حالة لو أن في القوم حاتمًا على وجوده لضرَّ بالماء حاتم ومنصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفشاء الفعل أي: هذا لأن دعوا، علل الخور بالهد والهد بدعاء الولد الرحمّن، ومرفوعًا بأنه فاعل هذا أي: هدّ دعاء الولد للرحمّن، وفي اختصاص الرحمّن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمّن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أن أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم، كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه فأتت وجميع ما عنك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمّن. هو من دعا بمعنى: سمى المتعدي إلى مفعولين فاقترصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل ما دعي له ولدًا، أو من دعا بمعنى: نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام: «من ادعى إلى غير مواليه» (7) وقول الشاعر:

إنابني نهشل لا ندعي لأب

ودل عليه نكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في اكلوني البراغيث والفاعل من اتخذ؛ لأنه في معنى الجمع، ومحل من اتخذ رفع على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف أي: إلا شفاعته من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم.

وَقَالُوا أَتُخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١٣﴾.

واتخاذ العهد الاستظهار بالإيمان والعمل، وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك باني أشهد أن لا إله إلا أنت وحك لا شريك لك، وأن محمدًا عبك ورسولك، وأنت إن تكلمي إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدي من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فأجعل لي عنك عهدًا توفيته يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة» (1)، وقيل: كلمة الشهادة، أو يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر به أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأثور له فيها وتعضده مواضع في التنزيل: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (2) ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (3) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (4).

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١٤﴾.

قرئ: ﴿إِذَا﴾ بالكسر والفتح. قال ابن خالويه: الإد والأد: العجب، وقيل: العظيم المنكر، والإد: الشدة، وأدني الأمر وأدني أثقلني وعظم علي إذا.

تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ وَتَنْتَفِقُ الْأَرْضُ وَجَزُرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿١٥﴾.

﴿يكاد﴾ قراءة الكسائي، ونافع بالياء. وقرئ: ﴿ينفطرون﴾ الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شقه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: ينصدعن أي:

(1) رواه الحاكم في المستدرک 377/2.

(2) سورة النجم، الآية: 26.

(3) سورة سبأ، الآية: 23.

(4) سورة طه، الآية: 109.

(5) قال أحمد: ويظهر لي وراءها معنى آخر، والله أعلم، وذلك أن الله تعالى قد استعار، لدلاتها على وجوده عز وجل، موصوفًا بصفات الكمال الواجبة له، أن جعلها تسبح بحمده، قال تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل نزة من نراتها، أن الله تعالى مقس عن نسبة الولد إليه، وفي كل شيء =

= له آية تدل على أنه واحد، فالمتعقد نسبة الولد إلى الله تعالى، قد عطل دلالة هذه الموجودات، على تنزيهه الله وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة، التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد، والانفطار، والانشقاق، فسبحان من قسم عباده، فجعل العباد تستلذ، فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التفريق، مطرود مردود.

(6) سورة فاطر، الآية: 41.

(7) رواه مسلم في صحيحه، بلفظ من «ادعى» كتاب الحج، باب: فضل المنية... (الحديث 3314).

المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يجبهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم. وروي أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «يا علي قل اللهم اجعل لي عنك عهداً، واجعل لي في صلور المؤمنين مودة»⁽²⁾. فانزل الله هذه الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: يجبهم الله ويحبهم إلى خلقه، وعن رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: «يا جبريل قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبهوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»⁽³⁾. وعن قتادة: ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئَلْيَسَرَ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِنُذِرْ لَكَ آيَاتٍ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِن قَرْنٍ هَلْ يُخَشِئُهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعُوا لَهُمْ رِكْزًا⁽⁴⁾.

هذه خاتمة السورة ومقطعها فكانه قال: بلغ هذا المنزل، أو بشره، وأنذر فإنما أنزلناه ﴿بلسانك﴾ أي: بلغتك وهو: اللسان العربي المبين وسهلهناه وفصلناه ﴿لتبشرك به﴾ وتتنر.

واللذ: الشداد الخصومة بالباطل الآخون في كل لئيد أي: في كل شق من المرء والجدال لفرط لجأهم يريد: أهل مكة. وقوله ﴿وكم أهلكنا﴾ تخويف لهم. وإنذار. وقرئ ﴿تحسس﴾ من حسه إذا شعر به، ومنه: الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة ﴿تسمع﴾ مضارع أسمعت. والركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المنفون.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وهرون، وإسماعيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا، وبعدد من لم يدع الله»⁽⁴⁾.

أي: لا تنتسب إليه. انبغي مطاوع بغي: إذا طلب أي: ما يتأني له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها، وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني وليس للقديم سبحانه جنس تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

إِن كُفِّرْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنِّي الرَّحْمَنُ عَدَا⁽⁵⁾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّوْهُمْ عَدًّا⁽⁶⁾ وَكُلُّهُمْ بِأَيْدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا⁽⁷⁾.

﴿من﴾ موصوفة؛ لأنها وقعت بعد كل نكرة ووقعها بعد رب في قوله:

رب من انضجت غيظاً صدره

وقرأ ابن مسعود وأبو حنيفة ﴿أت الرحمن﴾ على أصله قبل الإضافة. الإحصاء الحصر والضيظ يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿وعددهم عدداً﴾ الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله كانوا بين كفرين: أحدهم: القول بأن الرحمن يصح أن يكون والدًا، والثاني: إشراك الذين زعموهم لله أولاداً في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لأبائهم، فهم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ثم عقبه بهدم الكفر الآخر، والمعنى: ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي بالرحمن أي: تآري إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشياً راجياً كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم، لا يدعي لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال، ونحوه قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾⁽¹⁾ وكلهم منقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيم عليهم محيط بهم، ويجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم. قرأ جناح بن حبيش.

إِنَّ إِلَهَكُمْ أُمَّتًا وَمَعَلَا أَلْبَابِكُمْ فَسَبِّحْ لَهُمُ الرَّحْمَنَ وَدًا⁽⁸⁾.

﴿وداً﴾ بالكسر والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير توند منهم ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأولياته بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة أعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم. والسين إما لأن السورة مكية وكان

(1) سورة الإسراء، الآية: 57.

(2) نكرة الثعلبي في تفسيره. (الزليعي 2/341).

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة (الحديث) = (4) نكرة الثعلبي في تفسيره (الزليعي 2/343).

= (رقم: 3209) ومسلم في كتاب: اللبر والصلة باب: إذا أحب الله عبداً، (الحديث رقم: 6647).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

سورة طه مكية

طه ①.

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء، وفخهما ابن كثير، وابن عامر على الأصل، والباقون أما لوهما، وعن الحسن رضي الله عنه: طه وقسر بانه أمر بالوطة وأن النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل طأ فقلبت همزته هاء⁽¹⁾، أو قلبت ألفاً في يطأ فيمن قال: لا هناك المرتع، ثم بني عليه الأمر، والهاء للسكت، ويجوز أن يكتفي بشطري الأسمين، وهما الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن طاهاً في لغة عك في معنى: يا رجل، ولعل عك تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قلبون الباء طاء فقالوا في ياطأ واختصروا هذا فاقترضوا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به:

إن السفامة طاهاً في خلائكم لا تنس الله لأخلاق الملاعين
والأقوال الثلاثة في الفواتح أعني التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعول عليها الألباء المتقنون.

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْتَرَهُ ② إِلَّا نَدْمَةً لِمَنْ يَخْتَرَهُ ③.

﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت طه تعديد الأسماء الحروف على الوجه السابق نكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ و﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن، وأن يكون جواباً لها وهي قسم، وقرئ: ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا بكقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك﴾⁽²⁾ والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن

الحرث قالوا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك، فأريد رد ذلك: بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في ترك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغنت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً⁽³⁾، أي: ما أنزلناه لتنتك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفاحشة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من لتشقى وتنكرة علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفعل الفعل المعطل ففاته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشروط.

فإن قُلْتَ: أما يجوز أن تقول ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله تعالى: ﴿إن تحبب أعمالكم﴾⁽⁴⁾ قُلْتَ: بلى ولكنها نصبه طارئة كالنصبه في: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽⁵⁾ وأما النصبه في تنكرة فهي كالتي في: ضربت زيداً؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغريها.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿تنكرة﴾ بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾؟ قُلْتَ: لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى: لكن، ويحتمل أن يكون المعنى⁽⁶⁾: إنا أنزلناه عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقابلتهم، وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تنكرة على هذا الوجه، يجوز أن يكون تنكرة حالاً ومفعولاً له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبذل بالكفر إيماناً وبالقسوة خشية.

تَنْزِيلًا مِّنْ حَقِّ الْأَرْضِ وَالْمَنْزِلِ ④.

في نصب ﴿تنزيلاً﴾ وجوه أن يكون بدلاً من تنكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تنكرة، أنزلناه تنكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي: أنزله الله تنكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تنزيل إلى قوله: ﴿له الأسماء الحسنى﴾⁽⁷⁾ تعظيم

(1) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة طه (الحديث رقم: 2232)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ. فصل في برامته ﷺ في النبوة (الحديث رقم: 1497).

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

(3) رواه البيهقي في كتاب: الدعوات الكبير، (الزليعي 348/2).

(4) سورة الحجرات، الآية: 2.

(5) سورة الاعراف، الآية: 155.

(6) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد، فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله، عكس الأول، وإن لم تكن اللام سببية، فكانت =

= للضرورة مثلاً، ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ، من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم، وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وأمثلة كثيرة، فالظاهر، والله أعلم، هو التاويل الأول.

(7) سورة طه، الآية: 8.

الثرى ﴿ وما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب، وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة. أي: يعلم ما أسرته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو: ما أخطرتك بيبالك، أو ما أسرته في نفسك **﴿وَأخْفَى﴾** ⁽³⁾ منه وهو ما ستسره فيها، وعن بعضهم: إن أخفى فعل يعني: أنه يعلم أسرار العباد، وأخفى عنهم ما يعلمه هو كقوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** ⁽⁴⁾ وليس بذلك.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف طابق الجزاء الشرط؟ **قُلْتَ**: معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهيًا عن الجهر كقوله تعالى: **﴿وَأَنْكُرْ رِيكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** ⁽⁵⁾ وإما تعليمًا للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾.

﴿الحسنى﴾ تانيث الاحسن وصفت بها الاسماء؛ لأن حكمها حكم المؤنث، كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: **﴿مأرب أخرى﴾** ⁽⁶⁾ **﴿ومن آياتنا الكبرى﴾** ⁽⁷⁾ والذي فصلت به أسماءه في الحسن سائر الاسماء دلالتها على معاني التقديس، والتمجيد، والتعظيم، والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَمَلَىٰ عَلَيْهَا كَيْفَ رَبِّهَا يَبْسُتُ أَوْ أَعْدَىٰ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾.

فقاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل اعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود. يجوز أن ينتصب **﴿إذ﴾** ظرفًا للحديث لأنه حدث، أو لمضمر أي: حين **﴿رأى نارًا﴾** كان كيت وكيت، أو مفعولًا لا نكر، استأنن موسى شعبيًا عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق، وتفترقت ماشيته، ولا ماء عنده وقدح، فوصلد زنده، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة **﴿امكثوا﴾** أقيموا في مكانكم. الإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه: إنسان العين لأنه يتبين به الشيء، والإنس لظهورهم كما قيل: الجنٌ لاستتارهم، وقيل:

وتفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذا أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تنزيلاً نفسه فيقع صلة له، وإما محنوقاً فيقع صفة له.

فَإِنْ قُلْتَ: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب **قُلْتَ**: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه. وصف السموات بالعلی دلالة على عظمة قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

أَرْحَمَنَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿١١﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿١٢﴾ وَإِنْ يُجَهَر بِالتَّوَكُّلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَخْفَى ﴿١٣﴾.

قرى: **﴿الرحمن﴾** مجرورًا صفة لمن خلق، والرفع لحسن لأنه: إما أن يكون رفعًا على المدح على تقدير: هو الرحمن، وإما أن يكون مبتدأ مشارًا بلامه إلى من خلق.

فَإِنْ قُلْتَ: الجملة التي هي **﴿على للعرش استوى﴾** ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟ **قُلْتَ**: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يريف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يربون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضًا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوط، ويد فلان مغلولة بمعنى: أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد، ومنه قول الله عز وجل: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾** ⁽¹⁾ أي: هو يخيل **﴿يد يده﴾** مبسوطتان ⁽²⁾ أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتحمل للثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام **﴿وما تحت**

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

(2) سورة المائدة، الآية: 64.

(3) قال احمد: لا يخفى ان جملة فعلاً قاصر لفظاً، ومعنى: إما لفظاً، فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية، إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع، إن كان المعطوف عليه الصفري، وكلاهما نون الاحسن، وأما معنى: فإن المقصود الحض على ترك الجهر بهسقاط فائدته، من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل، مناسب لترك الجهر، وأما =

= إذا جعل فعلاً، فيخرج عن مقصود السياق، وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾** لأن بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) سورة طه، الآية: 110.

(5) سورة الاعراف، الآية: 205.

(6) سورة طه، الآية: 18.

(7) سورة طه، الآية: 23.

وقيل: لأن الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلاً تصنق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها، وروي: أنه خلع نعليه والقاهما من وراء الوادي **﴿طوى﴾** بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرتين نحو ثني أي: نودي نداءين، أو قدس الوادي كرة بعد كرة.

وَأَنَا أَنْتَرَكَ فَاسْتَعِ لِمَا يُوحَى ﴿١٧﴾ لَيْتِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْبُدِ اللَّهَ لِزَكَاةٍ لِلْعَبَادَةِ ﴿١٨﴾

﴿وانا اخترتك﴾ اصطفتك للنبوة، وقرا حمزة: وانا اخترتك **﴿لما يوحى﴾** للذي يوحى، أو الموحى، تعلق اللام باستمع أو باخترتك **﴿النكري﴾** لتذكرني، فإن نكري أن اعبد ويصلي لي، أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الانكار. عن مجاهد: أو لاني نكرتها في الكتب وأمرت بها، ولأن أنكرت بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق، أو لنكري خاصة لا تشوبه بنكر غيري، أو لإخلاص نكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم نكر ربهم على بال منهم وتوكيل همهم وأفكارهم به كما قال: **﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾** (2) ولأوقات نكري وهي: مواقيت الصلاة، كقوله تعالى: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** (3) واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: **﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾** (4) وقد حمل على نكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا نكرها» (5) وكان حق العبارة أن يقال: لنكرها: كما قال رسول الله ﷺ: «إذا نكرها» ومن يتمحل له يقول: إذا نكر الصلاة فقد نكر الله، أو بتقدير حذف المضاف أي: لنكر صلاتي، أو لأن النكر والنسيان من الله عز وجل في الحقيقة، وقرأ رسول الله ﷺ: «النكري».

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

أي (6): أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من

هو إبصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً حقيقه لهم بكلمة أن ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال **﴿لهلي﴾** ولم يقطع فيقول إني **﴿آتيكم﴾** لثلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرها، ومنه قيل: المقتبسة لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها، **﴿هدى﴾** أي: قومًا يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد، وقتادة: وذلك لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى: الاستحلاء في على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق يقرب من زيد، أو لأن المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها، ومنه قول الأعشى:

وبات على النار الندى والملحق

فَلَمَّا أَنهَا نُورِي يَمْسُوعِي ﴿١١﴾ إِيَّيْنَا رَبُّكَ فَالْخَلْعُ نَمَائِكَ إِنَّكَ بِالرَّوَادِ الْمُفْقَدِينَ طَوَىٰ ﴿١٧﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير **﴿اني﴾** بالفتح أي: نودي بأني **﴿لنا ربك﴾** وكسر الباقون أي: نودي فقيل: يا موسى، أو لأن النداء ضرب من القول فعول معاملة. تكرير الضمير في إني أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمطة الشبهة، روي: أنه لما نودي يا موسى قال: من المتكلم؟ فقال له الله عز وجل: إني أنا ربك، وأن إيليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي، وروي: أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، فخاف وبهت، فالحق عليه السكينة، ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت. وعن ابن اسحق: لما لنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه فلما أراد الرجعة ننت منه ثم كلم. قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مندبوغ (1)، عن السدي وقتادة، وقيل: ليياشر الوادي بقدميه متبركاً به،

(1) رواه الحاكم في المستدرک 28/1 والترمذي في کتاب: اللباس باب: ما جاء في لبس الصوف (الحديث رقم: 1734).
 (2) سورة النور، الآية: 37.
 (3) سورة النساء، الآية: 103.
 (4) سورة الفجر، الآية: 24.
 (5) رواه البخاري في کتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذا نكرها (الحديث رقم: 597) ومسلم في کتاب: المساجد، باب: قضاء الصلاة الفائتة (الحديث رقم: 1566).
 (6) قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهو بنا، فإنه بين الفساد، وذلك أن خفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع، وأحسن ما في محامل الآية، ما نكره الأستاذ أبو علي، حيث قال: المراد: أكاد أزيل خفاءها، أي: أظهرها، إذا لُفَّ الغطاء، وهو أيضاً ما يجعله المرأة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيته، إذا أزلت خفاءها، كما تقول: أشكيتته وأعبتته، إذا أزلت شكايته وعبته، وحينئذ يلتمم القراءة، أعني: فتح الهزمة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

لك هي تلك الزبيرة صيرتها إلى ما ترى من عجب الصنعة وأنيق السرد، وقرى ابن أبي إسحق: عصى على لغة هذيل، ومثله: ﴿يا بشري﴾⁽³⁾ أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن: ﴿عصاي﴾ بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة ﴿بمصرخي﴾⁽⁴⁾ وعن ابن أبي إسحق سكنون الياء ﴿أتوكا عليها﴾ أعتمد عليها إذا أعيت، أو وقفت على رأس القطيع، وعند الظفرة. هش الورق: خبطه أي: أخبطه على رؤس غنمي تاكله، وعن لقمان بن عاد: أكلت حقاً وابن لبون وجذع وهشة نخب وسيلاً نفع والحمد لله من غير شبع سمعته من غير واحد من العرب، ونخب واد قريب من الطائف كثير السدر، وفي قراءة النخعي: أهش وكلاهما من مش الخبز يهش إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة أهس بالسين أي أنحى عليها زاجراً لها، والهس: زجر الغنم، نكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كانه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العبدان ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام به، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعبد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كانه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كتبت تعتد بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما يسبغ منه ويقلل هيئته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المأرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فاجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المأرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من العجرات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها لولاً، وتكونان شمعتين باللليل، وإذا ظهر عدو حاربت عنه، وإذا اشتمت ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نصب، وكانت تقيع الهوام.

فَأَلْعَنَهَا إِذْ أَلَىٰ حَيْثُ تَمَعْنَ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْتَسِبْ سُبُيْهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾

السعي المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قُلْتُ: كيف نكرت بالفاظ مختلفة بالحية والجان

اللفظ لما أخبرت به، وقيل معناه: أكاد أخفيها من نفسي ولا ليل في الكلام على هذا المحنوف، ومحنوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: أكاد أخفيها من نفسي، وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها، وعن أبي الدرداء، وسعيد بن جببر: أخفيها بالفتح من خفاه إذا أظهره أي: قرب إظهارها كقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾⁽¹⁾ وقد جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى: خفاه وبه فسر بيت امرئ القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نعد
فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين ﴿لتجزي﴾ متعلق بآية ﴿يما تسعى﴾ بسعيها. أي: لا يصدك عن تصديقها، أو الضمير للقيامه ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قُلْتُ: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صد موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث، أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب، والثاني أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم: لا أرينك ههنا المراد: نهي عن مشاهدته والكون بحضورته وذلك سبب رؤيته إياه فكان نكر المسبب ليدل على السبب كانه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير، إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقوتهم فيما هم فيه هو الهوى وأتباعه لا البرهان وتدبره، وفي هذا حن عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردي مع التقليد وأهله.

وَمَا تَأْتِيك يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٢﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْزَكْتُهَا عَلَيْهَا وَأَهْسُ بِهَا عَلَىٰ عَنِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ قَالَ أَلَا يَوَسَّىٰ يَمُوسَىٰ ﴿١٤﴾

﴿وما تلك يمينك يا موسى﴾ كقوله تعالى: ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾⁽²⁾ في انتصاب الحال بمعنى: الإشارة، ويجوز أن تكون تلك اسماً موصولاً لا صلته بيمينك، إنما سأله ليريه عظم ما اخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، وليقرر في نفسه المبانيعة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبئه على قدرته الباهرة، ونظيره: أن يريك الزراد زبيرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبيرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول

(3) سورة يوسف، الآية: 19.

(4) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(1) سورة القمر، الآية: 12.

(2) سورة هود، الآية: 72.

بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا الطف ولا أحر المفاصل من كنايةات القرآن وأدابه. يروى: أنه كان أم فآخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر. ﴿بيضاء﴾ و﴿آية﴾ حالان معاً ومن غير سوء من صلة البيضاء، كما تقول آيت من غير سوء، وفي نصب آية وجه آخر، وهو أن يكون بإضمار نحو: خذ بونك وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف ﴿لنريك﴾ أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى، ولنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

أَذَهَبَ إِكَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَلَّقَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾
وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾ وَأَسْأَلُ عِفَّةً مِنْ لِسَانِي ﴿١٧﴾ بِقَهْرٍ قَوْلِي ﴿١٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي زُرُقًا مِنْ آمَلِي ﴿١٩﴾ هُرُونَ أَمْحَى ﴿٢٠﴾ أَتَشُدُّ بِهِ أَرْزِي ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ سَجَّكَ كَيْبَرًا ﴿٢٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَيْبَرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا يَبْغِيكَ ﴿٢٥﴾.

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا نوح جاش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو: خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معازم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قُلْتَ⁽²⁾: لي في قوله ﴿اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ ما جنواه والكلام بونه مستتب؟ قُلْتَ: قد أبهم الكلام أولاً ففعل اشرح لي ويسر لي ففعل أن ثم مشروخاً وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل. عن ابن عباس: كان في لسانه رتة لما روي من حديث الجمرة، ويروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرا، ولما دعاه قال: إلى أي رب تدعونني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها⁽³⁾، وعن بعضهم: إنما لم تبرا يده لثلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتعتقد بينهما حرمة المواكلة، واختلاف في زوال العقدة بكاملها فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها لقوله تعالى: ﴿واخي هرون هو أفصح مني

والشعبان؟ قُلْتَ: أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأما الشعبان والجان فيبينهما تناف؛ لأن الشعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء بنية ثم تتورم ويزيد جرمها حتى تصير شعباناً، فأريد بالجان أول حالها وبالشعبان مآلها، والثاني: أنها كانت في شخص الشعبان وسرعة حركة الجان واللليل عليه قوله تعالى: ﴿فلما رأها تهتز كأنها جان﴾⁽¹⁾ وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحيها أربعون ذراعاً. لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت شعباناً نكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي أم منها، وقيل: لما قال له ربه: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمانينة نفسه أن انحل يده في فمها وأخذ بلحيتها.

السيرة من السير، كالركبة من الركوب. يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأولين، فيجوز أن ينتصب على النظر أي: سنعيدها في طريقته الأولى أي: في حال ما كانت عصا. وأن يكون أعاد منقولاً من عادة بمعنى عاد إليه، ومنه بيت زهير:

وعالمك أن تلاقبها عداه

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وأن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى: أنها أنشئت أول ما أنشئت عصاً ثم ذهبت وطلت بالقلب، فسنعدها بعد ذهابها كما أنشأها أولاً، ونصب سيرتها بفعل مضمرة أي: تسير سيرتها الأولى يعني: سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المأرب التي عرفتها.

وَأَسْمُكُمْ بِذَلِكَ إِلَى جَنَاحِكُمْ مَخْرَجٌ بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ هَآئِلَةٌ أُخْرَى ﴿٢٣﴾
إِذْرِيكَ مِنْ مَا بَيْنَنَا الْكَبْرَى ﴿٢٣﴾.

قيل: لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لمجنبيته، وجناحا الإنسان جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سمياً جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد: إلى جنبك تحت العضد، على ذلك قوله: ﴿مخرج﴾. السوء الرداءة والقبح في كل شيء فكفى به عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوءة، وكان جنيمة صاحب الزباء أبرص فكفوا عنه بالأبرص، والبرص أبيض شيء إلى العرب وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديراً

(1) سورة النمل، الآية: 10.

(2) قال أحمد: ويحتمل عندي، والله أعلم، أن تكون فائنتها: الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، وعائده إليه، فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره تعالى وتقدس، على خلاف رسول الملك، إذا طلب منه أن يريح عليه، فإنما يطلب منه

= ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/575.

أَنْ أَتَذِيرُ فِي الْأَنْبِيَاءِ فَأَتَذِيرُ فِي الْآيَةِ فَلْيَلْزِمِ الْآيَةَ وَالسَّلَامُ يَأْخُذُهُ مَدْرُ
لِي وَعَدُوٌّ لَمْ وَالْقَبْتِ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مَنِيٍّ وَلِتَصْنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْبًا (٣٧).

﴿إِنْ﴾ هي المفسرة؛ لأنّ الوحي بمعنى: القول. القذف
مستعمل في معنى: الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى:
﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ (٦) وكذلك الرمي قال:
غلام رماه الله بالحسن يافعاً

أي: حصل فيه الحسن، ووضعه فيه، والضمائر كلها
راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى
التابوت فيه هجته، لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن قُلْتَ: المقنوف في البحر هو: التابوت، وكذلك الملقى
إلى الساحل؟ قُلْتُ: ما ضرك لو قالت: المقنوف والملقى هو:
موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر
عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع
عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر. لما كانت
مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم
الوصول به إلى الساحل وإلقاه إليه، سلك في ذلك سبيل
المجاز، وجعل اليم كأنه نو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر
ويتمثل رسمه فقيل: ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ روي: أنها
جعلت في التابوت قطعاً ملحوظاً فوضعته فيه وجصصته
وقيرته ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون
نهر كبير، فبينما هو جالس على رأس بركة مع أسية إذا
بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي أصبح الناس
وجهاً، فأحبه عبود الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه،
وظاهر اللفظ: أنّ البحر إلقاه بساحله وهو: شاطئه؛ لأنّ الماء
يسحله أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن
يكون قد إلقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر
فرعون، ثم آداه النهر إلى حيث البركة ﴿مني﴾ لا يخلو إما
أن يتعلق بالقيت فيكون المعنى على إني أحببتك، ومن
أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحنوف هو: صفة
لمحبة أي: محبة حاصلة، أو واقعة مني قد ركزتها أنا في
القلوب وزرعتها فيها، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك.
وروي: أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحه
لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿على عيني﴾ لتربى ويحسن
إليك، وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه
إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني انظر
إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي، ولتصنع معطوف
على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وترام ونحوه، أو حذف
معلله أي: ولتصنع فعلت ذلك، وقرئ: ولتصنع ولتصنع
بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر، وقرئ: ولتصنع
بفتح التاء والنصب أي: وليكون عملك وتصرفك على عين
مني.

لساناً (١) وقوله تعالى: ﴿ولا يكاد يبين﴾ (٢) وكان في لسان
الحسين بن علي رضي الله عنهما رثة فقال رسول الله ﷺ:
«ورثها من عمه موسى» (٣). وقيل: زالت بكاملها لقوله تعالى:
﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وفي تنكير العقدة وإن لم يقل
عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً
جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة و﴿من لساني﴾ صفة
للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني. الوزر من الوزر؛ لأنه
يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر لأن الملك
يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره، أو من الموازنة وهي
المعاونة. عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيراً فقلبت
الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أن فعلاً جاء في مفاعل
مجياً صالحاً كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق
ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على
نظيره ليس بعزيز ونظر إلى يوازر وإخوته وإلى الموازنة.
وزيراً وهرون مفعولاً قوله: اجعل، قدم ثانيهما على أولهما
عناية بامر الوزارة، أولي وزيراً مفعولاه، وهرون عطف بيان
للوزير و﴿لخي﴾ في الوجهين بدل من هرون، وإن جعل
عطف بيان آخر جاز وحسن. قرؤا جميعاً أشد وأشركه على
الدعاء، وابن عامر وحده: أشد وأشركه على الجواب، وفي
مصحف ابن مسعود: أخي وأشد، وعن أبي بن كعب:
أشركه في أمري وأشد به أزي، ويجوز فيمن قرأ على لفظ
الأمر أن يجعل أخي مرفوعاً على الابتداء، وأشد به خبره،
ويوقف على هرون. الأزر: القوة وأزره قواه أي: اجعله
شريكاً في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك ونكر، فإن
التعاون لأنه مهيب الرغبات يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إنك
كنت بنا بصيراً﴾ أي: عالماً بأحوالنا وبيان التعاضد مما
يصلحنا، وأن هرون نعم المعين والشاد لعضدي بأنه أكبر
مني سنأ وأقصح لساناً.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى (٣٧) وَلَقَدْ مَنَّاَ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ
أَرْجَاكَ إِلَهُ أُمَّتِكَ مَا يَرْجَى (٣٨).

السؤال الطلبة فعل بمعنى مفعول كقولك: خبز بمعنى:
مخبوز واكل بمعنى: مأكول. الوحي إلى أم موسى إما أن
يكون على لسان نبي في وقتها كقوله تعالى: ﴿وإذا أوحيت
إلى الحواريين﴾ (٤) ويبحث إليها ملكاً لا على وجه النبوة
كما بحث إلى مريم، أو يريها ذلك في المنام فتنبه عليه، أو
يلهمها كقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ (٥) أي:
أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه، ولا إلى العلم
به إلا بالوحي، وفيه مصلحة بينية، فوجب أن يوحى ولا
يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة، وهو أمر عظيم مثله
يقح بأن يوحى.

(4) سورة القصص، الآية: 34.

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(5) سورة النحل، الآية: 68.

(2) سورة الزخرف، الآية: 52.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 26.

(3) قال الزيلعي: غريب جداً 352/2.

إِذْ نَسِيَ آخْتَهُ فَقَوْلُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرِحَمَتَكَ إِنَّكَ كَيْ نَفَرٌ عَيْنًا وَلَا حَزَنٌ وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُؤَادًا فَلَئِمْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ حِجَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَوْمَئِذٍ ﴿٤٦﴾

العامل (1) في ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ القيت أو تصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من إذ أوحينا.

فإن قُلْتِ: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعداً قُلْتِ: كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعداً طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك وربما لقيه هو في أولها، وأنت في آخرها. يروى: أن أخته واسمها: مريم جاءت متعرفة خبره، فصانفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: ﴿هل أنلكم﴾ فجاءت بالأُم فقبل ثديها. ويروى: أن أسية استوهبت من فروعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة، اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله، ومن اقتصاص فروعون فغفر الله باستغفاره حين قال: ﴿رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ (2) ونجاه من فروعون أن ينسب فيه أظفاره حين هاجر إلى مدين ﴿فنوناً﴾ يجوز أن يكون مصدرًا على فعول في المتعدّي كالثبور، والشكور، والكفور، وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداء بقاء التأنيث كحجوز وبنور في حجة وبدره أي: فتنك ضرورياً من الفتن. سأل سعيد بن جبيرة ابن عباس رضي الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة. ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبيرة، وألفته أمه في البحر، وهم فروعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجر نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتقرت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة، فهذه فتنة يا ابن جبيرة، والفتنة المحنة وكل ما يشق على الإنسان وكل ما يبتل الله به عباده فتنة قال: ﴿وبنبولوك بالشر والخير فتنة﴾ (3) ﴿مدين﴾ على ثمانين مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة منها مهر ابنته، وقضى أو في الأجلين.

وَأَسْطَمَتَكَ لِئَمَّا ﴿٤٧﴾

أي سبق في قضائي وقدرتي أن أكلمك وأستبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء وهو: رأس أربعين سنة. هذا تمثيل لما

خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوا مع خصال فيه وخصائص أهلاً لثلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا اللطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر، ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا ياتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره.

أَذْهَبَ آتٌ وَأَحْوَاكُ يَأْتِيكَ وَلَا تَبِيءَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٨﴾ أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٩﴾

الوحي: الفتور والتقصير وقرئ: تنبأ بكسر حرف المضارعة للاتباع أي لا تنسياني ولا أزال منكما على نكر حيثما تقلبتما، واتخذنا نكري جنلاً تصير أن به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بنكري، ويجوز أن يريد بالنكر: تبليغ الرسالة، فإن النكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم النكر. روي: أن الله تعالى أوحى إلى فروعون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: لهم ذلك.

فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِيَأْتِيَ اللَّهُ بِذِكْرٍ أَوْ يَحْسُنَ ﴿٤٨﴾

قرئ: ﴿لبيئاً﴾ بالتخفيف والقول اللين نحو قوله تعالى: ﴿هل لك إلى أن تزكي. وأهديك إلى ربك فتحشى﴾ (4)، لأن ظاهرة الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عاده شياً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجباه بما يكره، والطفاً له القول لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة، وقيل: كنياه وهو من نوي الكنى الثلاث أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مزة، والترجي لهما أي: أذهباً على رجائكما وطمعكما وباشراً الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن، إلزام الحجة وقطع المعذرة: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسلاً فننتبع آياتك﴾ (5) أي: يتنكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أو يخشى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجزه إنكاره إلى الهلكة.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ ﴿٤٩﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَكِيدٌ سَمِعَ وَأَرَادَ ﴿٤٩﴾

فرط: سبق وتقدم، ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة،

(2) سورة القصص، الآية: 16.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(4) سورة النازعات، الآيات: 18 - 19.

(5) سورة طه، الآية: 134.

(1) قال أحمد: والمعنى يوجب عمل، ولتصنع فيه: لأن معنى صنيعه على عين الله عز وجل تربيته مكلوفاً بكلامته، مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة، هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنونة، وأما إلقاء المحبة عليه، فقبل ذلك أول ما أخذه فروعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخيه لما عرف من فصاحة هرون والرنة في لسان موسى ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ بَيِّنٌ﴾ (7).

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٤).

﴿خلق﴾ أول مفعولي أعطى أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به أو ثانيهما أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجر زوجين، والبعير والناقة والرجل والمرأة فلم يزواج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: خلقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أي: عرف كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل إليه، والله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١).

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه: بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه.

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَسَى (٥٢).

يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ: يضل من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم فتعنت وقال: ما تقول في سؤالي القرون وتماذي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم، فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز أن عليك أيها العبد اللئيل والبشر الضئيل أي: لا يضل كما تضل أنت ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة.

وفرس فرط يسبق الخيل، أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها، وقرئ: ﴿يفرط﴾ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة، خافاً أن يحمله حامل على المعالجة بالعقاب من شيطان، أو من جبوته واستكباره وأدعائه الربوبية، أو من به الرياسة، أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة ﴿قال الملأ من قومه﴾ (1) ﴿وقال الملأ من قومه﴾ (2) وقرئ: ﴿٣﴾: يفرط من الإفراط في الأنية أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجة. أو يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل بنا على ما عرفنا وجرباً من شرارته وعتوه ﴿أو أن يطغى﴾ بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوه بالعظيمة ﴿معكما﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿اسمع وأرى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فافعل ما يوجب حفظي ونصرتي لكما، فجاؤز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم وجاهز أن لا يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة وذهبت المبالاة بالعنوة.

فَأَيُّهَا قَوْمَلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَنَّا بَيْنَ يَدَيْ إِبْرَاهِيمَ وَلَا تَعْبُدْهُمْ قَدْ جُنَّكَ يَا بَرِّ مِنْ رَبِّكَ وَأَسَلَّمْ عَلَيَّ مَنِ اسْتَبَحَّ الْمَلَكَةُ (١٧) إِنَّا قَدْ أَرْسَلْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٨).

كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط يعبدونهم بتكليف الأعمال الصعبة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرية في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء ﴿قد جئنك بأية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولاً ربك مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالأية إنما وحد قوله، بأية ولم يثن ومعه آيتان؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكانه قال: قد جئنك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيته من الرسالة، وكذلك: ﴿قد جئنكم ببينة من ربكم﴾ (4) ﴿فات بأية إن كنت من الصادقين﴾ (5) ﴿أولو جئنك بشيء مبين﴾ (6) يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُبْؤَسَى (١٤).

خاطب الإثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو: موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى بون كلام

= قَدَّمْتَهُ أَنْفَاءً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(4) سورة الاعراف، الآية: 105.

(5) سورة الشعراء، الآية: 154.

(6) سورة الشعراء، الآية: 30.

(7) سورة الزخرف، الآية: 52.

(1) سورة الاعراف، الآية: 60.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(3) قال أحمد: وإذا روعي في الابد، إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الابد بالاعتراف، بتقلد منه الله عز وجل زيادة المجرور في قوله: ﴿أشرح لي صدري﴾ كما =

أراد: بخلقهم من الأرض خلق أصلهم وهو: آدم عليه السلام منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي ينفن فيه فيبدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً، وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلط بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر: ﴿يوم يخرجون من الأعداء سراغاً﴾⁽⁸⁾ عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترنّبون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها اقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفايتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة»⁽⁹⁾.

وَلَقَدْ آرَبْتَهُمْ أَيَّزِينَا كَلَّمَا فَكَلَّبَ وَإِنَّ ﴿٥٦﴾

﴿أربيناهم﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها وإنما كذب لظلمه كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾⁽¹⁰⁾ وقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل لهؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾⁽¹¹⁾ وفي قوله تعالى: ﴿آيأتنا كلها﴾ وجهان: أحدهما: أن يحذي بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل: الآيات كلها أعني أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونبق الجبل، والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما لوتبه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به فكذبها جميعاً ﴿ولبي﴾ أن يقبل شيئاً منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

قَالَ أَجْتَنَّا لَتَرْحِمَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤَمِنُ ﴿٥٧﴾

يلوح من جيب قوله: ﴿اجتنتنا لخرجننا من أرضنا بسحرك﴾ أن فرائضه كانت ترعد خوفاً مما جاء به موسى

الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَكَّ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقَى ﴿٥٧﴾ كَلَّمَا وَرَوَّعَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِرَأْسِي الْأَعْمَى ﴿٥٨﴾

﴿الذي جعل﴾ مرفوع صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وهذا من مظاهره ومجازه ﴿مهذا﴾ قراءة أهل الكوفة أي: مهدها مهذا، أو يتمهونها فهي لهم كالهمد وهو: ما يهد للصبي ﴿وسلك﴾ من قوله تعالى: ﴿ما سللكم في سقر﴾⁽¹⁾ ﴿سلكناه﴾⁽²⁾ ﴿نسلكه﴾ في قلوب المجرمين⁽³⁾ أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري ﴿فأخرجنا﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما نكرت من الاقتتان والإيدان بانه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لامره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته، ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾⁽⁴⁾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها﴾⁽⁵⁾ ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾⁽⁶⁾ وفيه تخصيص أيضاً بأننا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد ﴿أزولجاً﴾ أصنافاً سميت بذلك: لأنها مزبوجة ومقترنة بعضها مع بعض ﴿شتى﴾⁽⁷⁾ صفة للآزواج جمع شتيت كمريض، ومرضى، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النبات كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم قالوا: من نعمته عزّ وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله أي: قائلين ﴿كلوا وارعوا﴾ حال من الضمير في فأخرجنا المعنى: أخرجنا أصناف النبات أنثين في الانتفاع بها مبيحين أن تاكلوا بعضها وتعلقوا بعضها.

﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمْ وَمَا نُحْيِيهِمْ وَمَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٨﴾

= هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيمة، عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ليستقر بانتهاج الحكاية ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء﴾ فأخرج به ﴿أزواجاً من نبات شتى﴾ فلما حكاها الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأنّ الحاكم هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن نقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.

- (8) سورة المعارج، الآية: 43.
 (9) رواه ابن أبي شيبة، (الحديث رقم: 6) والطبراني في الصغير (الحديث رقم: 408).
 (10) سورة النمل، الآية: 14.
 (11) سورة الإسراء، الآية: 102.

- (1) سورة المدثر، الآية: 42.
 (2) سورة الشعراء، الآية: 200.
 (3) سورة الحجر، الآية: 12.
 (4) سورة الأنعام، الآية: 99.
 (5) سورة فاطر، الآية: 27.
 (6) سورة النمل، الآية: 60.
 (7) قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجهه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك، فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ ثم قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً﴾ إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ إما أن يجعل من قول موسى، فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريون الملك، وليس هذا بالالتفات، وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم ابتداء الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس الالتفات أيضاً، وإنما =

وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون موعنكم مبتدأ بمعنى الوقت، وضحي خبره على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحي ذلك اليوم بعينه، وقيل في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيروزة، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخنون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم. قرئ: ﴿نخلفه﴾ بالرفع على الوصف الموعد، وبالجزم على جواب الأمر وقرئ: ﴿سوى﴾ بالكسر والضم ومنوناً وغير منون، ومعناه: منصفاً بيننا وبينك، عن مجاهد: وهو من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم يتون فوجهه: أن يجري الوصل مجرى الوقف. قرئ: ﴿وأن تحشر الناس﴾ بالتاء والياء، يريد وأن تحشر يا فرعون وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون نكرة بلفظ الغيبة أما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿موعدكم﴾ وجعل ﴿يحشر﴾ لفرعون، ومحل أن يحشر الرفع أو الجر عطفًا على اليوم أو الزينة، وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور بينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الخاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدن.

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُفْسِدُكُمْ
يَذَابِقْ وَيَدَابِقْ وَقَدْ حَابَ مِنِّي الْفَرَزْدَقُ ﴿١١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بِئِنَّهُمْ وَأَسْرُؤُا النَّبِيِّ
﴿١٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِن أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا
وَيَذَهِبَا بِطَرِيقِكَ الْمُنْتَلَىٰ ﴿١٣﴾

﴿لا تفتروا على الله كذباً﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً. قرئ: ﴿فيسحنتكم﴾ والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ومنه قول الفرزدق: إلا مسحناً أو مجلف في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه؛ عن ابن عباس: إن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب: لما قال:

عليه السلام لعلمه وإيقانه انه على الحق، وإن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: ﴿ببسحرك﴾ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

فَلَمَّا يَتَذَكَّرْكَ بِسِحْرِ مَيْمُونٍ فَاجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ عَنْ
وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ ﴿١٤﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ
سُحَىٰ ﴿١٥﴾ فَنَزَعُوا فَمَجَّعَ كَيْدَهُمْ ثُمَّ آتَىٰ ﴿١٦﴾

لا يخلو الموعد⁽¹⁾ في قوله: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدرًا فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله تعالى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ مطابق له لزمك شيان أن تجعل الزمان مخلفاً، وأن يعضل عليك ناصب مكاناً، وإن جعلته مكاناً لقوله تعالى: ﴿مكاناً سوى﴾ لزمك أيضاً أن توقع الأخلاف على المكان، وأن لا يطابق قوله: ﴿موعدكم يوم للزينة﴾، وقراءة الحسن: غير مطابقة له مكاناً وزماناً جميعاً؛ لأنه قرأ: يوم الزينة بالنصب فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى: الوعد ويقدر مضاف محذوف أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في تخلفه للموعد، ومكاناً بدل من المكان المحذوف.

فإن قُلْتُ: فكيف طابقه قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟ قلت: هو: مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فنكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة، وطابق هذا أيضاً من طريق المعنى، ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه.

فإن قُلْتُ: فبم ينتصب ﴿مكاناً﴾ قلت: بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قُلْتُ: فكيف يطابقه الجواب؟ قلت: أما على قراءة الحسن: فظاهر، وأما على قراءة العامة: فعلى تقدير: وعدكم

= الضمير على المصدر، وقدره منطوقاً به للنطق، بالفعل الذي هو مشتق منه، وإذا أوضح ذلك، فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره، والله أعلم، وعلى هذين التاويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً، فعمل أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فأسلف الجواب عنه، وضمنها جواباً مفرداً. ولقائل أن يقول: إن كان المسؤول منه المواعدة على المكان، فلم أجاب بالزمان الذي لم يسأل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. (وجوابه) والله أعلم أن يقال: اكتفى بقريته السؤال، عن صريح الجواب، وأما ما لم يسئل عنه، فلو ضمنه، لم يفهم قصده إليه، إذ لا قرينة تدل عليه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي إعماله، وقد وصف بقوله: ﴿لا نخلفه﴾ بعد، إلا أن تجعل الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة، بحيزها الشأن أن تكون صفة، والله أعلم، ويحتمل عندي وجه آخر لأخصر وأسلم، وهو: أن يجعل موعد اسم مكان، فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي نكره، ويبقى عود الضمير، فنقول: هو والحالة هذه، عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان؛ لأن حرفه فيه، والموعد إذا كان اسم مكان، فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان، فحاصله زمان وعد، وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه، وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمعقول به أولى، ومما يحق ذلك أنهم قالوا: من صدق كان خيراً له، يعنون: كان الصنق خيراً له، فاعالوا=

أن مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمَر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه⁽⁴⁾: اختر أحد الأمرين: أو الأمر الإقواك أو الإقاؤنا، وهذا التخير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكان الله عزَّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر، ويستتفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في إذا هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: فإذا حباليهم وعصيتهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حباليهم وعصيتهم وهذا تمثيل والمعنى: على مفاجاته حباليهم وعصيتهم مخيلة إليه السعي وقرئ: ﴿عصيتهم﴾ بالضم وهو الأصل والكسر اتباع ونحوه: دلى ودلى وقسى وقسى، وقرئ: ﴿تخيل﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصي وإبدال قوله ﴿إنها تسعى﴾ من الضمير بدل الاشتمال كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصي مخيلة سعيها وتخيل بمعنى: تتخيل وطريقة طريق تخيل وتخيل على أن الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى: أنهم لطحوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهترت فخلبت ذلك.

فَأَرَسَ فِي نَبِيِّهِ جِبَّةَ مَوْسَى ﴿٧٧﴾ فَمَا لَا تَحْفَ إِذْكَ أَتَ الْأَعْرَ
﴿٧٨﴾ وَأَقَى مَا فِي بَيْتِكَ لَقَفَ مَا سَنَوْنَا إِنَّمَا سَنَوْنَا كَيْدَ سَجْرٍ وَلَا يُطْلِعُ
السَّارِ حَيْثُ أَقَى ﴿٧٩﴾.

إيجاس الخوف إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت تسمع نباه يسيرة منه، وكان ذلك لطبع الجيلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وتكرير الضمير وبلاد التعريف ولفظ العلوّ وهو: الغلبة الظاهرة وبالفضل، وقوله⁽⁵⁾: ﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك

﴿ويلكم﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجانبوا أهداب القول، ثم قالوا: ﴿إن هذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزييره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس عن اتباعهما. قرأ أبو عمرو: ﴿إن هذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير، وحفص: إن هذان لساحران على قولك إن زيد لمنطلق، واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبي: إن ذان إلا ساحران، وقرأ ابن مسعود: إن هذان ساحران بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى، وقيل في القراءة المشهورة: إن هذان لساحران هي: لغة للحرث بن كعب جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها الف كعصا وسعدى فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب، وقال بعضهم: أن بمعنى: نعم وساحران خير مبتدأ محذوف واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق. سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾⁽¹⁾ وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى وهم: بنو إسرائيل، لقول موسى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾⁽²⁾ وقيل: الطريقة اسم لوجه الناس وأشرفهم الذين هم قنوة لغيرهم يقال: هم طريقة قومهم، ويقال للواحد أيضاً، هو طريقة قومه.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٧٦﴾.

﴿فاجمعوا كيدكم﴾ بعضده قوله: ﴿فجمع كيدهم﴾⁽³⁾ وقرئ: فاجمعوا كيدكم أي: أزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا ولا يخلف عن واحد منكم كالمسئلة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفاً أهيب في صدور الرائيين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف: بالمصلى؛ لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: آتوا مصلى من المصليات ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض يعني: وقد فاز من غلب.

قَالُوا يَمْوَسَّيْ إِمَّا أَنْ تُفِيقَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ آلِ عَن ﴿٧٥﴾ قَالَ بَلْ
أَفْلَحْنَا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِجَمَلٍ آلِيٍّ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّىٰ نَسَىٰ ﴿٧٦﴾.

(1) سورة الروم، الآية: 32.

(2) سورة طه، الآية: 47.

(3) سورة طه، الآية: 60.

(4) قال أحمد: وقيل لك تابؤوا معه، بقولهم: فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه، ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عزَّ وجلَّ موسى ههنا، أن يجعلهم مبتئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفها بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق كذلك، ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أقصح لكيدهم، واهتك لستر =

= حرهم، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيروها في جنب القدرة، تحقيق كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منه، وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم، وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة، ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح، وقد قهره، واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداخض بها في طرفه عين.

وعصبيهم للكفر والجحود، ثم القوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين، وروي: أنهم لم يعرفوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خرّوا سجداً أراهم الله في سجدتهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

قَالَ مَأْمَتٌ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرٌ كَمَا الَّذِي عَلَّمَكُمْ الْبَحْرَ فَلَا تَطْمَئِنُّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْتُمْ فِي جُدُوعِ أَنْتَهْلِ وَلَمَّا عَلِمْنَا أَنَّكُمْ أَشَدُّ عَدَاوَةً وَأَبَى (٧).

﴿لكبيركم﴾ لعظيمكم يريد: أنه أسحروهم وأعلامهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبير، وقال لي كبير كذا، يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. قرئ: ﴿فلا قطعن﴾ وألصقن بالتحفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأن كل واحد من العضو من خالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال، ومن لا ابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو لا من وفاقه إياه، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال أي: لا قطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف. شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه فلذلك قيل: في جذوع النخل ﴿أيناً﴾ يريد نفسه لعنة الله وموسى صلوات الله عليه بلبيل قوله: ﴿أمنتكم له﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ (٥) وفيه نفاجة باقتداره وقهره وما ألقاه وضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

قَالُوا لَنْ نُؤْذِكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْتَفِرَ لَكَ

جائز أن يكون تصغيراً لها أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصبيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدره الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمتها، وجائز (١) أن يكون تعظيماً لها أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وانزره عنده، فالقده يتلقفها بإن الله يحقها، وقرئ: ﴿تلقف﴾ بالرفع على الاستثناف أو على الحال أي: القها متلقفة وقرئ: تلقف بالتحفيف ﴿صنعوا﴾ ههنا بمعنى: زوروا وافتعلوا كقوله تعالى: ﴿تلقف ما يافكون﴾ (٢) قرئ: ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع والنصب. فمن رفع فعلى أن ما موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: كيد سحر بمعنى: ذي سحر، أو نوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحروهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخليل أن المقصود هو العدد لا ترى إلى قوله: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قلت: فلم نكر أولاً وعرف ثانياً؟ قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج:

في سعي ننيا طالما قد مدت

وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر ننيا ولا في أمر آخرة (٣) المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري وفي سعي ننيوي وأمر ننيوي وأخري. ﴿حيث أتى﴾ كقولهم: حيث سير وأية سلك وأينما كان.

فَأَلْقَى السِّحْرَ مَجْذُوعًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى (٧)

سبحان (٤) الله ما أعجب أمرهم قد القوا حبالهم

= يناسب التائيس والتثبيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة الاعراف، الآية: 117.

(3) قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل، فسجد السحرة إيقاظ السامع لالطاف الله تعالى، في نقله عباده من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد، إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدمته آنفاً، في إيجاز الخطاب في قوله: ﴿والق ما يمينك﴾ و ﴿ما تلك بيمينك﴾ فتأمل، فإن الحق حسن متناسب، والله الموفق.

(4) سورة التوبة، الآية: 61.

(5) قال أحمد: ووجه آخر، وهو: أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق، طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة؛ لأنها كانت اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وههنا لطيفة، وهو أنه تلقى من هذا النظم أولاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين، وتلك، والله أعلم، هي إرادة المنكوب مبهماً؛ لأن ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإبهام، والإجمال تسلكة مرة، لتحقير شأن ما إبهمته، وأنه عند الناطق به، أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه، وليؤنن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يعني فيه الزمر والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جمعياً، وعندني في الآية، وجه سوى قصد التعظيم والتحقير، والله أعلم، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى، عندما ساله عنها بقوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما نخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿والق ما في يمينك﴾ ليتنظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وما تلك بيمينك﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتائيساً، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به، وقت ظهور آيتها، وذلك مقام

﴿فماضلوننا السبيلا﴾⁽²⁾ ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾⁽³⁾ وأن يكون مثل قوله:

كان لم ترى قلبي أسيراً يمانياً

فَأَتَيْتَهُمْ فَرَعُونَ بِمُؤَيَّدِهِمْ مِّنَ اللَّيْمِ مَا عَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾.

﴿ما غشيهم﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم والتغشية: التغطية وفاعل غشاهم إما الله سبحانه، أو غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله ﴿وما هدى﴾ تهكم⁽⁴⁾ به في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾⁽⁵⁾.

يَبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ قَدْ آمَنَّاكَ مِنْ مَدَوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الْأُطُرِ الْأَيْمَنِ وَرَزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوَٰنَ ﴿٨٠﴾ كُلًّا مِّنْ لَّيْمَتٍ مَا رَزَقْنَاكَ وَلَا نَفَعْنَا فِيهِ فِجْلًا عَلَيْكَ عَصِيٍّ وَمَنْ يَجَلَلْ عَلَيْهِ عَصِيٌّ فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾.

﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ﷺ عليهم بما فعل آبائهم، والوجه هو: الأول أي: قلنا يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن وقرئ: ﴿انجيتكم﴾ إلى رزقتكم وعلى لفظ الوعد والمواعدة وقرئ: ﴿الأيمن﴾ بالجر على الجوار نحو: حجر ضب خرب. نكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح، وإنما عدي المواعدة إليهم لأنها لا يستهم واتصلت بهم، حيث كانت لتبنيهم وتقابهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما افاطن عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروا، ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يبظروا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبظروا فيها ويأشروا ويتكبروا، قرئ: ﴿فيحل﴾ وعند عبد الله: لا يحلن ﴿ومن يحلل﴾ المكسور في معنى: الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أدائه ومنه قوله تعالى: ﴿حتى يبلغ الهدى محله﴾⁽⁶⁾ والمضموم في معنى: النزول⁽⁷⁾.

خَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْكَ مِنْ أَلْحَرِّ وَأَلَّهِ حَيْرٌ وَأَقْبَىٰ ﴿٧٦﴾.

﴿والذي فطرنا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ: ﴿تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الطرف، فانتسج في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك في صمت يوم الجمعة: صيم يوم الجمعة، وروي: أن السحرة يعني: رؤوسهم كانوا اثنين وسبعين الإثنان من القطب، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرهم على تعلم السحر، وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فلبى إلا أن يعارضوه.

إِنَّكَ مِنْ بَآئِنٍ رَّيِّبٍ مَّحْمَرًا فَإِنَّ لَمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٦﴾ وَمَنْ يَأْتِيهِ مَوْتًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ نَأْتِيكَ هُمْ أَلَدْرَحْتُ أَلْمَلِ ﴿٧٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَاوَىٰ ﴿٧٨﴾.

﴿تزكى﴾ تطهر من انفس الذنوب، وعن ابن عباس قال: لا إله إلا الله قيل: في هذه الآيات الثلاث هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله لا على وجه الحكاية.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاسْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ بَيْسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٦﴾.

﴿فاضرب لهم طريقاً﴾ فاجعل⁽¹⁾ لهم من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب اللبن عمله اليبس مصدر وصف به يقال: يبس بيبساً وبيساً، ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس، وناقطنا يبس إذا جف لبنها، وقرئ: بيبساً ويايساً، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يلبس كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيداً كقوله: ومعني جيباً، جعله لفرط جوعه كجماعة جيباع ﴿لا تخاف﴾ حال من الضمير في فاضرب وقرئ: لا تخف على الجواب وقرأ أبو حيوه ﴿دركاً﴾ بالسكون، والدرك والدرك أسمان من الإدراك أي: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك، في ﴿ولا تخشى﴾ إذا قرئ: لا تخف ثلاثة أوجه: أن يستأنف كأنه قيل: وأنت لا تخشى أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله:

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(3) قال أحمد: فإن قلت التهكم: أن يأتي بعبارة، والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: ﴿إنك لانت الحليم الرشيد﴾ وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين، وأما قوله تعالى: ﴿وما هدى﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه، قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل: ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالمًا بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمراً، وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، وتحقيق ذلك أن قوله تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ كاف في

= الإخبار بعدم هدايته لهم، مع مزيد إضلاله إياه، فإن من لا يهدي، قد لا يضل، فيكون كفافاً، وإذا تحقق غناه الأول في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواه، وهو: التهكم، وأه أعلم.

(4) قوله تعالى: ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ قال: الغضب، عقوبة الله تعالى لهم الخ.

(5) سورة غافر، الآية: 29.

(6) سورة البقرة، الآية: 196.

(7) قال أحمد: لا يسعه أن يحمل الغضب، إلا على العقوبة؛ لأنه ينبغي صفة الإرادة، في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأما على قاعدة السنة، فيجوز أن يكون المراد من الغضب: إرادة العقوبة =

انكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبية بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى﴾ ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لاعتاب الله فاذم له ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَدْرِكَ وَأَضَلَّمُ السَّامِرِيُّ (٨٥).

أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً.

فإن قُلْتُ: في القصة انهم اقاموا بعد مفارقتهم عشرين ليلة وحسبوا أربعين مع أيامها، وقالوا: قد اكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمة: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾؟ قُلْتُ: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة الكائنة على عاداته. أو افترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك فكان بدء الفتنة موجوداً. قرئ: ﴿وَأضَلَّهُم السَّامِرِيُّ﴾ أي: وهو أشدهم ضلالاً؛ لأنه ضال مضل وهو منسوب إلى قبلية من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجاً من كرمان واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَيْسَافًا قَالَ يَقْوَرِ أَلَمْ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ وَرَدَّأَ حَسَنًا أَطَّالَ عَلَيْكُمْ الْمَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦).

الأسف الشديد الغضب ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة: «راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»⁽³⁾ وقيل: الحزين.

فإن قُلْتُ: متى رجع إلى قومه قُلْتُ: بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وعدهم الله سبحانه أن

وغضب الله: عقوباته ولذلك وصف بالنزول ﴿هوى﴾ هلك وأصله أن يسقط من جبل فيهلك قالت: هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كعبه ويقولون: هوت أمه، أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده.

وَلِيَّ لَفْظًا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أُنْتَهَى (٨٧).

الاهتداء هو: الاستقامة والثبات على الهدى المنكور وهو: التوبة والإيمان والعمل الصالح ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾⁽¹⁾ وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالة على تباين الوقتين في جاني زيد، ثم عمر، وأعني أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى (٨٧) قَالَ هُمْ أَوْلَاهُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ يَرْضَى (٨٦)﴾.

﴿وما أعجلك﴾⁽²⁾ أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أن عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى نواحي الحكمة وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء وليس لقول: من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقه قبل الميعاد وجه صحيح ياباه قوله ﴿وهم لولاء على أتري﴾ وعن أبي عمرو ويعقوب: أثري بالكسر، وعن عيسى بن عمر: أثري بالضم، وعنه أيضاً: أولي بالقصر. والآخر أقصح من الآخر أما الأثر فمسموع في فرند السيف ملون في الأصول يقال: أثر السيف وأثره وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قُلْتُ: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هم لولاء على أتري﴾ كما ترى غير منطبق عليه؟ قُلْتُ: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين: أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما

= أن يعلم موسى أنب السفر، وهو: أن ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفتهم، وناذاً فيهم، ومهيئاً عليهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدّمه عليهم، إلا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطاً، فقال: ﴿واتبع أنبارهم﴾ فامرهم أن يكون أخيرهم، على أن موسى عليه السلام إنما اغفل هذا الأمر، مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعده الله تعالى له ﷻ.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/598 (الحديث رقم: 6781)، وأبو داود في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجأة (الحديث رقم: 3110).

= فيكون من أوصاف الذات، ويحتمل أن يراد به: معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال، وأما وصفه بالحلول، فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، على التأويل المعروف، أو عبر عن حلول أثر الإرادة، بحلولها تعبيراً عن الأثر بالموثر، كما يقول الناظر إلى عجيب مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله، يعني: أثر القدرة، لا نفسها، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أتري وعجلت إليك رب لترضى﴾ (قال فيه: إن قلت: سئل عن سبب العجلة إلخ).

(1) سورة فصلت، الآية: 30، وسورة الأحقاف، الآية: 13.

(2) قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم =

بخلق العجل، وحملهم السامري على الضلال وأوقعهم فيه حين قال لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي﴾ أي: فنسي موسى أن يطلبه ههنا وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر ﴿يَرْجِعُ﴾ من رفعه، فعلى أن أن مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَائِي حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أُوذِيَ النَّاسُ مِنْكُمْ إِذْ كَفَرْتُمْ فَسَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَفَمَسَّيْتُ أَمْرِي ﴿١٣﴾

﴿من قل﴾ من قبل أن يقول لهم السامري ما قال: كانهم أول ما وقعت عليه إبطارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقيل أن ينطق السامري بإدراهم هرون عليه السلام بقوله: ﴿إنما فتنتم به وإن ربكم للرحمن﴾ لا مزيدة والمعنى: ما منعك أن تتبني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ وما لك لم تبأشر الأمر كما كنت إبأشره أنا لو كنت شاهد؟ أو مالك لم تلتحني؟

قَالَ يَسْمُوعَئِيلُ لَأَتَّخِذَ بِإِخْوَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِيَّاهُ خَيْبٌ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ تَرْفُوقَ قَوْلِي ﴿١٤﴾

قري: ﴿بلحيتي﴾ بفتح اللام وهي: لغة أهل الحجاز، كان موسى صلوات الله عليه زجلاً حديدًا مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلًا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن القى الروح التوراة، لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبًا لله واستنكافًا وحمية، وعنف وبأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضًا على شعر رأسه وكان أقرع وعلى شعر وجهه يجره إليه. أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستأنتيك أن تكون أنت المتدارك بنفسك المتلافي برأيك، وحشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ ﴿١٥﴾

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئًا ما خطبك؟ فمعناه: ما طلبك له.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ

يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل، حكى لنا أنها كانت ألف سورة، كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً ﴿العهد﴾ الزمان يريد مدة مفارقتهم لهم يقال: طال عهدي بك أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعدة بعبادتهم العجل.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَىٰ السَّارِعِ ﴿١٧﴾

﴿بملكنا﴾ قري: بالحركات الثلاث: أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكننا غلبنا من جهة السامري وكيدته. أي: حملنا أحمالًا من حلبي القبط التي استعزناها منهم، أو أرادوا بالأوزار أنها أثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ ﴿فقفناها﴾ في نار السامري التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحلبي، وقري: حملنا، ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ أراهم أنه يلقي حلبيًا في يده مثل ما القوا؛ وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطن حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتًا صار حيوانًا.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَسِي ﴿١٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿١٩﴾

﴿فأخرج لهم﴾ السامري من الحفرة عجلًا خلقه الله من الحلبي التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟ قلت: أما يصح أن يؤثر الله سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما أثره بغيرها من الكرامات وهي: أن يبأشر فرسه بحافره تربة إذا لاق تلك التربة جمادًا أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيوانًا، ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع^(١).

فإن قلت: فلم خلق الله العجل من الحلبي حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالاً؟ قلت: ليس بأول حنة محن الله بها عباده ليهتدوا به النبيون أمثوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين^(٢) ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب، والمراد بقوله: ﴿إننا قد فتنا قومك﴾^(٣) هو: خلق العجل للامتحان أي: امتحانهم

(1) قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدم له في أول سورة الأعراف، وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه، لا علل أفعاله، وجواب هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ فهذا الأمر جائز، وقد أخبر الله تعالى بوقوعه، فلا ينبغي وراء ذلك سبيلًا، لكن الزمخشري تقتضي =

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

(3) سورة طه، الآية: 85.

الرُّسُولَ فَبَدَّلْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴿٦٦﴾.

قرئ: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ بالكسر والمعنى: علمت ما لم تعلموه وقطنت ما لم تقطنوا له. قرأ الحسن ﴿قبضة﴾ بضم القاف وهي: اسم المقبوض كالغرفة والمضغة، وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرأ أيضاً: فقبضت قبضة بالصاد المهملة، الضاد بجميع الكف، والسا باطراف الأصابع، ونحوهما: الخضم والقضم، الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه. قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قلت: لم سماه الرسول نون جبريل وروح القدس؟ قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأنًا فقبض قبضة من تربة موطنه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ولعله لم يعرف أنه جبريل.

كَأَلْ فَذَهَبَ فَارَكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحْرُوقٍ نُّرًا لَنَسِيفَةٍ فِي الْيَوْمِ سَنًا ﴿٦٧﴾.

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أظم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعًا كليًا، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضًا، وإذا اتفق أن يماس أحدًا رجلًا أو امرأة حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرام، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لا مساس﴾ بوزن فجار، ونحو قولهم في الظباء إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا آباب، وهي أعلام للمسة والعبية والآية وهي المرة من الآب وهو: الطلب ﴿لن تخلفه﴾ أي: لن يخلفك الله موعدة الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فانت ممن خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: لن تخلفه وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفًا قال الأعشى:

أثوي واقصر ليله ليزبدا فمضى وأخلف من قتيلة موعدة
وعن ابن مسعود: تخلفه بالنون أي: لن يخلفه الله كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في: ﴿لا هب لك﴾ (١) ﴿ظلمت﴾ وظلمت وظلمت والأصل ظلمت فحنفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه. ولنحرقنه وفي حرف ابن مسعود: لنذبحنه

ولنحرقنه ولنحرقنه القراءتان من الإحراق، ونكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه: أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد وعليه القراءة الثالثة وهي: قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿لنفسفنه﴾ بكسر السين وضمها وهذه عقوبة ثالثة وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه وهدم مكره ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ (٢).

إِن كَسَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٦٨﴾.

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرب ﴿وسع كل شيء علمًا﴾ وعن مجاهد، وقتادة: وسع، ووجهه أن وسع متعد إلى مفعول واحد وهو كل شيء، وأما علمًا فانصبه على التمييز وهو في المعنى فاعل، فلما نقل إلى التعنية إلى مفعولين فنصبهما معًا على المفعولية؛ لأن المميز فاعل في المعنى: كما تقول في خاف زيد عمرًا: خوفت زيدًا عمرًا فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا كَذَلِكَ ﴿٦٩﴾.

الكاف في ﴿كنك﴾ منصوب المحل وهذا موعد من الله عز وجل لرسوله ﷺ أي: مثل ذلك الاقتصاص، ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقص عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثريرًا لبيناتك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في بيته بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعني: القرآن مشتتملاً على هذه الاقتصاص والأخبار الحقيقية بالتفكير والاعتبار، لذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ومن أعرض عنه فقال هلك وشقي.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿٧٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لِمَنْ يَكْفُرْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿٧١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٧٢﴾.

يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحمل وينقض ظهره ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزء الوزر وهو: الإثم، وقرئ: يحمل.

جمع ﴿خالدين﴾ على المعنى؛ لأن ﴿من﴾ مطلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ، ونحوه قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها﴾ (٣) ﴿فيه﴾ أي:

(3) سورة الجن، الآية: 23.

(1) سورة مريم، الآية: 19.

(2) سورة آل عمران، الآية: 54.

في ذلك الوزر، أو في احتماله ﴿ساء﴾ في حكم بثس، والضمير فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره ﴿حملاً﴾ والمخصوص بالذم محنوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾⁽¹⁾ أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وساء مصيراً﴾⁽²⁾ أي: وساء مصيراً جهنم.

فإن قُلْتُ: اللام في ﴿لهم﴾ ما هي وبم تتعلق؟ قُلْتُ: هي للبيان كما في ﴿هيت لك﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: ما انكرت أن يكون في ﴿ساء﴾ ضمير الوزر؟ قُلْتُ: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بثس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فإن قُلْتُ: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بثس وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سيت وجوه الذين كفروا﴾⁽⁴⁾ بمعنى أهم وأحزن؟ قُلْتُ: كذاك صادقاً عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذه اللام وعهدة هذا المنصوب، أسند النفخ إلى الأمر به فيمن قرأ: نفخ بالنون، أو لأن الملائكة المقربين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ: ينفخ بلفظ ما لم يسم فاعله، وينفخ ويحشر بالياء المفتوحة على الغيبة، والضمير لله عز وجل، أو لإسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ: في الصور بفتح الواو جمع صوره، وفي الصور قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الصور وهذه القراءة تدل عليه، والثاني إنه القرن. قيل في الزرق قولان: أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى الغرب؛ لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، والثاني: أن المراد العمى؛ لأن حقيقة من يذهب نور بصره تزرق.

وَسَوَّلَكَ عَنِ اللَّيَالِي فَفَلَّ يَبِيغُهَا رَبِّي سَمًا ﴿١٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَمًصَمًا ﴿١٥٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٥٧﴾

﴿ينسفها﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام ﴿فيذرها﴾ أي: فيذر مقارها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها نكر كقوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾⁽⁷⁾.

فإن قُلْتُ: قد فرقوا بين العوج والوعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني، والوعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قُلْتُ: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقت على أنه لم يبق فيها أعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفي الله عز وجل ذلك العوج الذي نَقَّ ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرقه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر. الأمت النتو اليسير يقال: مذ حبله حتى ما فيه أمت.

يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٥٦﴾ مَنْ أَقْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَمِئَةً إِنْ لَبِثْتَ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٥٧﴾

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٥٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَفَعَ لَهُ كَلِمًا ﴿١٥٩﴾ يَتَلَمَّزُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا مَنَّا ﴿١٦٠﴾

تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفون بالقصر لأن أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت والذاهب وإن طالقت مدته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت أطلال الله بقاءك: كفى بالانتهاء قصرًا، وإما لاستطالتهم الآخرة وإنها أبد سر مد

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يومئذ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة. والمراد الداعي إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائمًا على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعلنون ﴿لاعوج له﴾

(5) سورة المؤمنون، الآيتان: 112 و113.

(6) سورة الروم، الآيتان: 55 و56.

(7) سورة فاطر، الآية: 45.

(1) سورة ص، الآية: 30.

(2) سورة النساء، الآية: 97.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

فَتَمَلَّكَ اللَّهُ الْإِلَهَ الْحَقُّ وَلَا تَجَلَّ بِالْفَرَّانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْضَى
إِلَيْكَ وَخَيْمٌ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٤﴾.

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته. ولما نكر القرآن وإنزاله قال: على سبيل الاستطراد، وإذا لقنك جبريل ما يوحي إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لنعجل به﴾ (5) وقيل: معناه لا تبلغ ما كان منه مجملًا حتى يأتيك البيان. وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رب زدني علمًا﴾ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأنبأ جميلًا ما كان عندي، فزدني علمًا إلى علم فإن لك في كل شيء حكمة وعلمًا، وقيل: ما أمر الله ورسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وَقَدَّ عَيْنًا إِلَّا مَادَمَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٥﴾.

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقم الملك إلى فلان وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون﴾ (6) والمعنى وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيائه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدها بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟ قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصائقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: فنسي أي: نساه الشيطان. العزم التصميم والمضي على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلبًا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: له عزمًا، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

أي: لا يعوج له مدعوى بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أي: خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفضت ﴿فلا تسمع إلا همسًا﴾ وهو: الركن الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو: صوت أخفاها إذا مشت أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ﴿من﴾ يصلح أن يكون مرفوعًا ومنصوبًا، فالرفع على البديل من الشفاعة بتقدير حنف المضاف أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿أذن له الرحمن﴾ والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له ﴿ورضي له﴾ لأجله أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾ (1). أي: يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ولا يحيطون بمعلوماته علمًا.

وَوَعَّتِ الْوُجُوهُ لِلْمَيِّ الْقُبُورِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٦﴾
وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْمَلْئِكَةِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَاطُ ظُلْمًا وَلَا مَهْمًا ﴿١٧﴾.

المراد بالوجوه: وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشفقة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي: نذيلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم: الأسارى، ونحوه قوله تعالى: ﴿فلما راوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ (2) ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ (3) وقوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ وما بعده اعتراض كقولك: خابوا وخسروا، وكل من ظلم فهو: خائب خاسر. الظلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. والهضم أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون ويسترجعون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم وقرئ: فلا يخف على النهي.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ
يَحْتَرِفُونَ لِمِمَّا وَكَّرَ ﴿١٨﴾.

﴿وكنلك﴾ عطف على كنلك نقص أي: ومثل ذلك الإنزال (4) وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكررين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي، أو فعل الخير والطاعة. والذكر كما نكرنا يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ: نحث ونحثت بالنون والتاء أي: تحثت أنت وسكن بعضهم التاء للتخفيف كما في: فاليرم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا أوغل

= سورة الاحقاف، الآية: 11.
سورة الملك، الآية: 27.
سورة القيامة، الآية: 24.
قال احمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى

والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى، لوقعت، وقد تقدمت أمثالها، والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير: لعل أول هذه

(5) سورة القيامة، الآية: 16.

(6) سورة طه، الآية: 113.

(1) سورة الاحقاف، الآية: 11.
(2) سورة الملك، الآية: 27.
(3) سورة القيامة، الآية: 24.
(4) قال احمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى، لوقعت، وقد تقدمت أمثالها، والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير: لعل أول هذه

إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه، قرئ: ﴿وَأَنَّكَ﴾ بالكسر والفتح ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع.

فإن قُلْتَ: أن لا تدخل على إن فلا يقال: إن أن زيداً مطلق والواو نائبة عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قُلْتَ: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن⁽²⁾ وأن. الشبع والري والكسوة والكن هي: الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فنكره اجتماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، ونكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظما والضحو ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذرنا منها حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها.

فإن قُلْتَ: كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله: فوسوس ﴿للهما الشيطان﴾ وأحرى بإيلى؟ قُلْتَ: وسوسة الشيطان كولوثة الثكلى ووعوة الذئب ووقوفة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعوم مخلصاً رب الفلج

فإذا قلت: وسوس له فمعناه: لأجله كقوله:

أجرس لها يا ابن أبي كباش

ومعنى وسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة كقولك: حدث إليه، وأسر إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس الحياة لأن من باشر أثره حي ﴿وملك لا يبلى﴾ دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم: إلا أن تكونا ملكين بالكسر.

فَأَكَلَا مِنهَا فَذَتَا لَهَا سَوَاءَهُمَا وَطَفَقَا يَتَّصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوَى الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَوَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنبَأَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣٢﴾

وَرَادَ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٣٣﴾

﴿إن﴾ منصوب بمضمر أي: وانكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيدته حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قُلْتَ: إبليس كان جنياً بليل قوله تعالى: ﴿كان من الجن فسق عن أمر ربه﴾⁽¹⁾ فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ قُلْتَ: كان في صحبتهم وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام المقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم كان القيام على واحديينهم هو لونه في المنزلة أوجب حتى عن لم يقم عنف وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام.

فإن قُلْتَ: فكيف صح استنناؤه وهو جنى عن الملائكة؟ قُلْتَ: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال ﴿لبي﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو: السجود المنلول عليه بقوله: فسجدوا، وأن يكون معناه: أظهر الإياء وتوقف وتثبط.

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿١٣٤﴾ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ فِيهَا وَلَا تَمَرَّكُ ﴿١٣٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٣٦﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلُغُ ﴿١٣٧﴾

﴿فلا يخرجنكما﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما. وإنما أسند إليه آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكها في الخروج؛ لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن في ضمن سعائته سعائتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه لونه مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي: أنه أهبط

(1) سورة الكهف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سرٌ بديع من البلاغة يسمى: قطع النظر عن النظر، وذلك أنه قطع الظما عن الجوع، والضحو عن الكسوة ما مع بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعنويات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماه هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكندي الأول:

كأنني لم أركب جواداً للذمة ولم اتبطن كاعياً ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الروي ولم أقل لخلي كزي كزة بعد أجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخلي كزي كزة، وقطع تبطن =

= الكاعب عن ترشف الكاس مع التناسب، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جنن الردى وهو نائم

تمزك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغر كباسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته، قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سر، لذلك زانداً على ما نكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظما بالجوع، فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظما، لانتثر سلك رؤوس الآي، واحسن به منتظماً، والله أعلم.

في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتنثل وأمره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٧٦﴾

الضنك مصدر يستوي في الوصف به المنكر والمؤنث. وقرئ: ﴿ضنكى﴾ على فلى، ومعنى ذلك: إن مع الدين التسليم والقناعة والتركل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشاً رافعاً كما قال عز وجل: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾⁽²⁾ والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الزيادة من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتوصفة: لا يعرض أحد عن نكر ربه إلا اظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره، قال الله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾⁽³⁾ وقال: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً﴾⁽⁶⁾ وقال: ﴿وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾⁽⁷⁾ وعن الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري: عذاب القبر. وقرئ: ﴿ونحشره﴾ بالجزم عطفًا على محل فإن له معيشة ضنكاً لأنه جواب الشرط، وقرئ: ﴿ونحشره بسكون الهاء على لفظ الوقف وهذا مثل قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾⁽⁸⁾ وكما فسر الزرق العمى ﴿كنكلك﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أنتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعترف ولم تتبصر وتركتها وعميت عنها، فكنكلك اليوم تتركك على عمالك ولا تنزيل غطاءه عن عينيك.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَمَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْعَدُ ﴿١٧٧﴾

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في الآخرة حتم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ كانه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركتنا إياه في العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا.

طلق يفعل كذا مثل: جعل يفعل وأخذ وأنشأ، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أول الأمر، وكاد لمشارفته والدنو منه. قرئ: ﴿بخصفان﴾ للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي: يلزقان الورق بسواتهما للستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدوراً فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل: كان لياسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس: لا شبهة في أن آدم لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة وذلك العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً فكان غيياً لا محالة؛ لأن الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافية، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعتت علي النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر، وعن بعضهم: فغوى فبشم من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً فيقول في فني وبقي فناً وبقاؤهم: بنوطي، تفسير خبيث.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثم اجتباه ربه﴾؟ قلت: ثم قبله بعد التوبة وقربه إليه من جبي إلي كذا فاجتبيته، ونظيره، جليت على العروس فاجتبيتها، ومنه قوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأنهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾⁽¹⁾ أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة الجمع ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار و﴿هدى﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

قَالَ أَمِطْ مِنْهَا جِيماً بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٧٨﴾

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا جعلنا كأنهما البشر في أنفسهما فحوطبا مخاطبتهم فقول: ﴿فإمّا يأتينكم﴾ على لفظ الجماعة، ونظيره أسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للسبب ﴿هدى﴾ كتاب وشرية. وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله: ﴿فمن تتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل

(5) سورة الاعراف، الآية: 96.

(6) سورة نوح، الآيتان: 10 و11.

(7) سورة الجن، الآية: 16.

(8) سورة الإسراء، الآية: 97.

(1) سورة الاحراف، الآية: 203.

(2) سورة النحل، الآية: 97.

(3) سورة البقرة، الآية: 61.

(4) سورة المائدة، الآية: 66.

المفسرين.

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله: ﴿وأطراف النهار﴾ على الجمع وإنما هما طرفان كما قال: ﴿أقم الصلاة في طرفي النهار﴾⁽⁵⁾ قُلْتُ: الوجه أمن الإلباس، وفي التنثية زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين مجيئهما في قوله: ظهرهما مثل ظهور الترسين، وقرئ: ﴿وأطراف النهار عطا على آتاء الليل. ولعل للمخاطب أي: أنكر الله في هذه الأوقات طمعاً ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك، وقرئ: ترضى أي: يرضيك ربك.

وَلَا تَدْنَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَمَّعًا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الزَّهْرَةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ رِزْقٌ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابْتَى^(٦).

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: نظر عينيك، ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يريده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لنوح حظ عظيم﴾⁽⁶⁾ حتى واجههم أولوا العلم والإيمان: ﴿وهي لكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾⁽⁷⁾ وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملاً منه عينيه قيل: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه، ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن ابنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمرابك وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخاها هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها ﴿أزواجاً منهم﴾ أصنافاً من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم؛ كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم.

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿زهرة﴾ قُلْتُ: على أحد أربعة أوجه: على الذم وهو النصب على الاختصاص، وعلى تضمين متعنا معنى أعطينا وخولنا وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجاً على تقدير نوي زهرة.

فإن قُلْتُ: ما معنى الزهرة فيمن حرك؟ قُلْتُ: معنى الزهرة بعينه وهو: الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة الجهرة وقرئ: ﴿أرنا الله جهرة﴾⁽⁸⁾ وأن تكون جمع زاهر

أَفَلَمْ يَدَّبْدِبْ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ^(١٧٨).

فاعل. لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين﴾⁽¹⁾ أي: تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ويبدل عليه القرءة بالنون. وقرئ: ﴿يمشون﴾ يريد أن قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون ﴿في مساكنهم﴾ ويعينون آثار هلاكهم.

وَلَوْلَا كَيْدُ سَبَّتَ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى^(١٧٩).

الكلمة السابقة هي: العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة. وللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى مفعول أي: ملزم كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه كما قالوا: لزاز خصم ﴿ولجل مسمى﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفاً على كلمة، أو على الضمير في كان أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى نون الأخذ العاجل.

فَأَمْسِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَصَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَفِ النَّهَارِ لَمَّا كُنْتُمْ رَضًا^(١٨٠).

﴿بحمد ربك﴾ في موضع الحال أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أولاً، والأوقات على الفعل آخرًا، فكانه قال: صل الله قبل طلوع الشمس يعني: الفجر، وقبل غروبها يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعد آتاء الليل وأطراف النهار مختصاً لهما بصلاتك، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهنوء الرجل والخلو بالرب، وقال الله عز وجل: ﴿بأن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً﴾⁽²⁾ وقال: ﴿أمن هو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً﴾⁽³⁾ ولأن الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق وللبدن آتعب وأنصب فكانت أنخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آتاء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾⁽⁴⁾ عند بعض

(1) سورة الصافات، الآيتان: 78 و79.

(2) سورة المزمل، الآية: 6.

(3) سورة الزمر، الآية: 238.

(4) سورة البقرة، الآية: 238.

(5) سورة هود، الآية: 114.

(6) سورة القصص، الآية: 79.

(7) سورة النساء، الآية: 153.

(8) قال أحمد: لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى، كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى، لكان البحث لفظياً، فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البينة رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَمَلَّوْا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِجَءَ بِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَزَ ﴿٣٦﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرَضْنَا فَنَتَعَلَّمُونَ مِمَّنْ أَحْسَبُ الْفَرْطِ السَّوِيَّ وَمِمَّنْ أَهْلَكْنَا ﴿٣٧﴾.

قرى: ﴿نزل ونخرى﴾ على لفظ ما لم يسم فاعله ﴿كل﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم. وقرى: السواء بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي، والسوى والسواى والسوء تصغير السوء، وقرى: فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ: «عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار،⁽³⁾ وقال: لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه، ويس»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء مكية

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾.

هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة «لاقترب» أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم كقولك: أرف للحى رحيلهم، الأصل أرف رحيل الحى، ثم أرف للحى الرحيل، ثم أرف للحى رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقر، تؤكداً عليك زيد حريص عليك وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم: لا أباً لك، لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأول، والمراد: اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب، وغير ذلك ونحوه واقتراب الوعد الحق.

هَٰذَا قُلْتُمْ: كيف وصف بالاقتراب وقد عدت بون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟ قُلْتُمْ: هو مقتراب عند الله والليل عليه قوله عز وجل: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾⁽⁵⁾ ﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾⁽⁶⁾ ولأن كل أت وإن طال أوقات استقباله وترقبه قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأن ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بديل انبعث خاتم النبيين

وصفا لهم بأنهم زاهر، وهذه الدنيا لصفاء الوانهم مما يلهون ويتعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتكشف في الثياب ﴿لنفقتهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه⁽¹⁾ ﴿ورزق ربك﴾ هو ما انخرله من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال ﴿خير ولبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب نون ما حرم وخبث. والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً، وعن عبد الله بن قسيط، عن رافع قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى يهودي وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب». فقال: وا الله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله: «إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض أحمل إليه درعي الحديد»⁽²⁾ فنزلت ﴿ولا تمدن عينيك﴾.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا مِّن رَّبِّكَ وَالنَّصِيحَةُ لِلنَّفْسِ ﴿٣٧﴾.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: واقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بامر الرزق والمعيشة فإن رزقك مكفي من عندنا ونحن رازقوك ولا نسالك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين. قرأ: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمة الله، وعن بكر بن عبد الله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّنَا أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾.

اقترحوا على عابثهم في التعنت آية على النبوة ف قيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن. من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ولبيل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرى: الصحف بالتخفيف. نكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى: البرهان والدليل.

(3) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزليعي (356/2).

(4) نكره الثعلبي في تفسيره الزليعي (356/2).

(5) سورة الحج، الآية: 47.

(6) سورة الحج، الآية: 47.

= ما أباح له تناوله وما لا، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله الموفق للصواب.

(1) سورة القصص، الآية: 80.

(2) كشف الاستار كتاب، البيوع، باب: القرض والبيع إلى أجل (الحديث رقم: 1304).

خفية، فما معنى قوله: وأسروا؟ قُلْتُ: معناه وبالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث لا يظن أحد لتناجيهن ولا يعلم أنهم متناجون. أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو ﴿وَأَسْرُوا﴾ إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به، أو جاء على لغة من قال: اكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسْرُوا النجوى﴾ قَدِمَ عليه، والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمّر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم افتتوتون للسكر وانتم تبصرون﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى. أي: وأسروا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً. اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر فلذلك قالوا: على سبيل الإنكار اقتحزون السحر وانتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قُلْتُ: لِمَ أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائها؟ قُلْتُ: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعمل المنصوبة في التثبيط عنه، وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراها ويتجاهدوا في طي سرهم عنهم ما يمكن وأستطيع، ومنه قول الناس: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان»⁽²⁾، ويرفع إلى رسول الله ﷺ. يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقاً فآخبرونا بما أسرنا؟

فإن قُلْتُ: هلا قيل: يعلم السر لقوله: ﴿وأسروا النجوى﴾! قُلْتُ: القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان أكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر كما أن قوله يعلم السر أكد من أن يقول يعلم سرهم. ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته، فكيف تخفى عليه خافية⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: فلم ترك هذا الأكذ في سورة الفرقان في قوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾⁽⁴⁾؟ قُلْتُ: ليس بواجب أن يجيء بالأكذ في كل موضع، ولكن يجيء

الموعود بمعينه في آخر الزمان. وقال عليه السلام: «بعثت في نسمة الساعة»⁽¹⁾. وفي خطبة بعض المتقدمين: ولت الدنيا حذاء ولم تبق إلا صباية كصباية الإناء، وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس: المشركون، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه: للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونهبوا عن سنة الغفلة وفتنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا، وسروا أسمعهم ونفروا.

وقرر إعراضهم عن تنبيه المنبه، وإيقاظ الموقظ بأن الله يجند لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرز على أسمعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق للحق وأجد الجد إلا لعباً وتلهياً واستسحاراً. والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن. وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿محدث﴾ بالرفع صفة على المحل.

لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النجوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٦﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾

قوله: ﴿وهم يلعبون﴾ ﴿لاهية قلوبهم﴾ حالان مترادفتان أو متداخلتان، ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة؛ لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم، واللاهية من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعني: أنهم وإن فطنوا، فهم في قلة جدوى فطنتهم كانهم لم يظنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم.

فإن قُلْتُ: النجوى وهي اسم من التناجى لا تكون إلا

(1) كشف الأستار كتاب: المواعظ، باب: اقترب الساعة (حديث رقم 3215)، ورواه أبو نعيم في الحلية 161/4، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة (حديث رقم 2213)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (حديث رقم 14، 2967).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الحث على ترك الغل والحسد (حديث رقم 6655).

(3) قال أحمد: وهذا من اتباع القرآن للرأي نعوذ بالله من ذلك، لا سيما رأي ينفي صفات الكمال عن الله تعالى، وما الذي دل عليه السميع العليم من نفي صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع، ولا عليم إلا بعلم، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أولاً، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم، فقد سارع إلى إنكار السميع =

= العليم وهو لا يشعر، وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر، وأما الآلة الكلامية فمن هنا تتلقى، وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزعات مختلف، فمرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته، حتى لا يحتمل ما يدعيه بوجه ما، وقد يلجئنا الإنصاف إلى تسليم الظهور له، فننكر وجه التاويل الذي يرشد إليه دليل العقل، ومرة يورد نبذاً من هذا الرأي عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه، وغرضه التعسف حتى لا يخلى شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل، فنتبته على ذلك أيضاً، وما نكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه وقد أوضحناه.

(4) سورة الفرقان، الآية: 6.

الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: نوي ضرب من الأجساد، وهذا رد لقولهم: ما لهذا الرسول ياكل الطعام؟

فَإِنْ قُلْتُمْ: نَعَمْ قَدْ رَدَّ إِنكَارُهُمْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا ياكل ويشرب بما نكرت فماذا رد من قولهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾؟ قُلْتُمْ: يحتمل أن يقولوا: إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت، أو يقولوا: هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين حياتهم المتطولة ويقاءهم الممتد خلوداً.

ثُمَّ سَدَّقْتَهُمْ الرَّعْدَ فَأَجْبَنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَاهْلَكْنَا الشَّرِيفِينَ ﴿١٠﴾

﴿صدقتناهم للوعد﴾ مثل: اختار موسى قومه، والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال، وصدقني سن بكره ﴿ومن نشاء﴾ هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

لَقَدْ آتَيْنَا إِيَّكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

﴿نكركم﴾ شرفكم وصيبتكم كما قال: وإنه لنكر لك ولقومك، أو موعظتكم أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء، أو حسن النكر كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة والسخاء، وما أشبه ذلك.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا قَوْمًا مَخْرُوبًا ﴿١٢﴾

﴿وكم قصمنا من قرية﴾ واردة عن غضب شديد ومنابذة على سخط عظيم؛ لأن القصم أقطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم، وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم، وقال: ﴿قَوْمًا آخِرِينَ﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين. وعن ابن عباس أنها: «حضور». وهي «سحول» قريتان باليمن تنسب إليهما الثياب، وفي الحديث: «كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين»⁽⁵⁾. وروي: حضوريين. بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم، وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف وندى مناو من السماء: يا لثارات الأنبياء. ندموا واعترفوا بالخطأ وذلك حين لم ينفعهم الندم؛ وظاهر الآية على الكثرة. ولعل ابن عباس نكر «حضور» بانها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٣﴾

فلما علموا شدة عذابنا وبطشتنا علم حسن ومشاهدة، لم

بالوكيد تارة وبالأكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره، ليفتن الكلام افتناناً وتجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى، فكانه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، وثم قصد وصف ذاته، بأن إنزاله الذي يعلم السر في السموات والأرض فهو كقوله: ﴿علام الغيوب﴾⁽¹⁾ ﴿عالم الغيب﴾⁽²⁾ ﴿لا يعزب عنه مثقال نزة﴾⁽³⁾. وقرئ: ﴿قال ربي﴾ حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم: «أضربوا» عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليف أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أقصد من الأول والثالث أقصد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث.

بَلْ قَالُوا أَضَلُّنَا أَهْلِيَّ بَلَى أَفَرَبُّهُ بَلَى هُوَ شَاعِرٌ قِيلَإِنَّا بِشَايِرٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْثُونَ ﴿١٤﴾

صحة التشبيه في قوله: ﴿كما أرسل الأولون﴾ من حيث أنه في معنى كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد ﷺ وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة؟

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾

﴿أهم يؤمنون﴾ فيه أنهم أعني من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا فاهلكهم الله، فلو أعطيتناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا بَشَرًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

أمرهم أن يستعلموا أهل النكر، وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معادة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾⁽⁴⁾ فلا يكذبونهم فيما هم فيه رده لرسول الله ﷺ.

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿١٧﴾

﴿لا ياكلون الطعام﴾ صفة لجسد، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله نوي جسد غير طاعمين، ووحّد

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الثياب البيض للكفن (حديث رقم 1264) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: كفن الميت (حديث رقم 456 - 941).

(1) سورة التوبة، الآية: 78.

(2) سورة الرعد، الآية: 9.

(3) سورة سبأ، الآية: 3.

(4) سورة آل عمران، الآية: 186.

يشكوا فيها ركضوا من ديارهم.

والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿اركض بركلك﴾⁽¹⁾ فيجز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب؛ ويجوز أن يشبهوا في سرعة عوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم.

لَا تَرْكُضُوا وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَسَكَرْتُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُسْتَلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا يَبْنَؤُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾

ف قيل لهم: ﴿لا تركضوا﴾ والقول محذوف.

فإن قلنا: من القائل؟ قلنا: يحتمل أن يكون بعض الملائكة، أو من ثم من المؤمنين، أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك، وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعمهم في بينهم، أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿وارجعوا إلى ما أترفتكم فيه﴾ من العيش الرفاه، والحال الناعمة والإتراف إبطار النعمة، وهي الترفه ﴿لعلمكم تستلون﴾ تهكم بهم وتوبيخ أي: أرجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلمكم تستلون غذا عما جرى عليكم. ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو أرجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتبوا في مراتبكم حتى يسالكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره، وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي وننثر كعادة المنعمين المخدومين؟ أو يسالكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بأرائكم، ويسالكم الوافدون عليكم والطعام ويستمتطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأبيادكم، إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء الناس، وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ.

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيبِينَ ﴿١٥﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى ﴿دعواهم﴾، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى: ﴿وأخر دعواهم إن الحمد لله رب العالمين﴾⁽²⁾.

فإن قلنا: لم سميت دعوى؟ قلنا: لأن المولود كأنه يدعو الويل فيقول: تعالى يا ويل فهذا وقتك، وتلك مرفوع أو منصوب اسماً أو خبراً وكذلك دعواهم. الحصيد: الزرع المحصود أي: جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول: جعلناهم رماداً أي: مثل الرماد والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قلنا: كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل؟ قلنا: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد، لأن معنى قولك: جعلته حلواً حامضاً جعلته جامعاً للطعمين، وكذلك معنى: تلك جعلناهم جامعين لمائة الحصيد والخمود.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿١٦﴾

أي: وما سويها هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوي الجبارة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب؛ وإنما سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربانية لتكون مطارح افتكار، واعتبار، واستدلال، ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد، والمرافق التي لا تحصى.

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ قَوْمًا لَّخَلَقْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي، هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فإنا قادر على اتخاذها إن كنت فاعلاً لأنني على كل شيء قدير. وقوله: ﴿لاتخنها من لنا﴾ كقوله: ﴿رزقاً من لنا﴾ أي: من جهة قدرتنا، وقيل: اللهو: الولد بلغة اليمن، وقيل: المرأة، وقيل: من لنا أي: من الملائكة لا من الإنس، رداً لولادة المسيح وعزير.

بَلْ نَقَدَرُ بِإِنْفِئِ عَلَىٰ الْبَطْلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿بل﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال⁽³⁾: سبحانه أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عابتنا

(1) سورة ص، الآية: 42.

(2) سورة يونس، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وله تحت قوله: واستغنائنا عن القبيح نغين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحى عليها في نار جهنم، وذلك أن القدرة يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح، وفعل ما يتوهمونه حسناً بمقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فإن الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فإلى ذلك يلوح الرمز مشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى لكان بخلاً ينافي الجود، أو عجزاً ينافي القدرة حتى اتبعهم في

ذلك من لا نسمة من أهل الملة عفا الله عنه إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو، فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة، وإن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فيقدرته وجد، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وأخركم، وإنسكم وجنكم على اتقى قلب رجل منكم، لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولكم وأخركم، وإنسكم وجنكم على أقجر قلب رجل منكم، لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. اللهم الهما الحق واستعملنا به.

اتخاذهم ﴿آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ الموتى، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قُلْتُ: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون تلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى⁽²⁾؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض، ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ: الله. ويأنه القادر على المقدرات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر، كثنائي القديم فكيف يدعو له للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً! قُلْتُ: الأمر كما نكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدرات، وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ، والتجهيل، وأشعار بأن ما استبعده من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صحَّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة، ونحو قوله: ﴿من الأرض﴾ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد مكي أو مدني، ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيدان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض، لأن الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية، ومن تلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين ربك؟» فأشارت إلى السماء فقال: «إنها مؤمنة»⁽⁴⁾ لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكاناً لله عز وجل، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

فإن قُلْتُ: لا بد من نكتة في قوله⁽⁵⁾: ﴿هم﴾! قُلْتُ: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر

وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ونحض الباطل بالحق⁽¹⁾، واستعارة لذلك القذف واللمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه؛ فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه. ثم قال: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته، وقرئ: فيدمغه بالنصب وهو في ضعف قوله:

سأترك منزلي لبني تميم والحق بالحجاز فاستريحا وقرئ: فيدمغه.

وَلَمْ يَنْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢١﴾

﴿ومن عنده﴾ هم الملائكة والمراد أنهم مكرمون منزليون لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه.

فإن قُلْتُ⁽²⁾: الاستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور! قُلْتُ: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور، وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

يَسْجُرُونَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾

أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفرغ، أو شغل آخر.

أَمْ أَعْتَدُوا مِآلَهُةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴿٢٣﴾

هذه ﴿أم﴾ المنقطعة الكائنة بمعنى: بل، والهمزة قد أنتت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو

بأنهم لم يدعوا لها الإنشار، وأن قوله: هم ينشرون استئناف إزام لهم، وكأنه قال اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى نظم في إبطال هذه الدعوى، وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا﴾. وأزيد هذا التقرير وضوحاً، فاقول: إن دليل التمانع المغتفر من بحر هذه الآية المقتبس من نورها يورده المتكلمون على صورة التقسيم، فيقولون: لو وجد مع الله إله آخر، وربما قالوا: لو فرضنا وجود إلهين، فأما أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشأهم وغير ذلك من الممكنات، أو لا يتصف بها واحد منهما أو لحدما دون الآخر، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف، وأبق الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال، وما عداهم فبيدئ الرأي يبطل، فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساده في إحصار أسلوب وأجزئه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه، وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله: ﴿هم ينشرون﴾ إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم حتى يتحرى أنهم اختاروا لقسم الذي أبطله الله تعالى، ووكل إبطال ما

(1) قال أحمد: وفي مثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوث «إن الحسنات يذهبن السيئات»، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ويمثله اجيب عن قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فانظره قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾.

(3) قال أحمد: فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها، وهو أبلغ في الإنكار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة (حديث رقم 33 - 537)، ورواه أبو داود في كتاب: الإيمان والنور، باب: في الرقية المؤمنة (حديث رقم 3282).

(5) قال أحمد: وفيه هذه النكتة نظر؛ لأن آيات الحصر مفقودة، وليس ذلك من قبيل صديقي زيد، فإن الميتة في الآية أخص شيء؛ لأنه ضمير، وإيضاً فلا يبنيني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم، وتخصيص الإنشار بهم، ونفيه عن الله تعالى إذ هذا لا يناسب السياق، فإنه قال عقبها: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا﴾ ومعناه: لو كان فيهما إله غير الله شريكاً له لفسدنا، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال: لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدنا، وإما المتعلق على خلاف ذلك فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندني: أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله: هم الإيدان

على الإنشار إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن: ﴿يُنشرون﴾ وهما لغتان؛ أنشر الله الموتى ونشرها.

لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٧﴾

وصفت آلهة بـإلا كما توصف بغير لو قيل: آلهة غير الله. فإن قُلْتُ: ما منعك من الرفع على البديل؟ قُلْتُ: لأن لو بمنزلة إن في أن الكلام معه موجب، والبديل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿لا تلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ (١) وذلك لأن أعم العام يصح نفيه ولا يصح إيجابه، والمعنى: لو كان يتولاهما ويدير أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، وفيه دلالة على أمرين: أحدهما: وجوب أن لا يكون مديبرهما إلا واحداً. والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده، لقوله: ﴿إلا الله﴾.

فإن قُلْتُ: لم وجب الأمران؟ قُلْتُ: لعلنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف. وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق كان والله أعز علي من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد، ولأن هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر.

لَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

إذا كانت عادة الملوك والجبابة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم، وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيئاً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك، ورب الأرباب خالقهم ورازقهم لولى بأن لا يستل عن أفعاله مع ما علم، واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بِنواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبيح (٢) ﴿وهم يستلثون﴾، أي هم مملوكون مستعبدون خاطؤون فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم في كل شيء فعلوه؟

أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ يَنْعَى وَيَذْكُرْ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٩﴾

كَرَّرَ ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم أي: وصفتكم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك، إما من جهة العقل وإما من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي: ﴿هذا﴾ الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، كما ورد علي فقد ورد على جميع الأنبياء فهو نكر أي: عظة للذين معي يعني: أمته ونكر للذين من قبلي يريد أمم الأنبياء عليهم السلام وقرئ: ﴿ونكر من معي ونكر من قبلي﴾ بالتثنية ومن مفعول منصوب بالنكر كقوله: ﴿وأطعمهم في يوم ذي مسغبة يتيماً﴾ (٣) هو الأصل، والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: ﴿غلبت الروم في أنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليوبن﴾ (٤) وقرئ: من معي ومن قبلي على من الإضافة في هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد وعند وبن وما أشبه ذلك، فنخل عليه من كما يدخل على أخواته وقرئ: نكر معي ونكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصا الشر والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم وعدم التمييز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ: ﴿الحق﴾ بالرفع على تأكيد بين السبب والمسبب، والمعنى: أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل، ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٠﴾

﴿يوحى﴾ و﴿نوحى﴾ مشهورتان، وهذه الآية مقررة لما سبقها من أي التوحيد.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِندَكُمْ مُكْرَمَاتٌ ﴿٢١﴾

نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم ﴿مكرمون﴾ مقرَّبون عندي مفضلون على سائر العباد (٥) لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم،

١ = عده من الأقسام إلى ما ركبه في عباده من العقول، وكل خطب بهد بطلان هذا القسم جلل والله الموفق، فتأمل هذا الفصل بعين الإنصاف تجده أنفس الأنصاف والله المستعان.

(1) سورة هود، الآية: 81.

(2) قال أحمد: سحاً لها من لفظة ما أسوا لبها مع الله تعالى أعني قوله: نواعي الحكمة، فإن النواعي والصورف إنما تستعمل في حق المحسنيين، كقولك: هو مما توفر نواعي الناس إليه، أو صورفهم عنه، وقوله: لا يجوز عليه فعل القبيح، قلت: وهذا من الطراز الأول، ولو أنه في الذليل.

فقد نسيت وما بالمهد من قدم

ويعبدنا لتفضي دليل التوحيد، وإبطال الشرك من سمعك أيها المزمخشري، وقله، وطب بتقريره، فلم تكسب وانتكست لتقول: أن =

(3) سورة البقرة، الآية: 14.

(4) سورة الروم، الآيات: 2 - 3.

(5) قال أحمد: وهذا لتفسير من جعل للقرآن تبعاً للرأي، فإنه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس غرضنا إلا ببيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما =

أَوَّلَ بَرٍّ أَتَيْنَ كَرِيمًا أَنْ اسْتَوْرَيْنَ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قرئ: ﴿الم ير﴾ بغير واو و﴿رتقاً﴾ بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي: كانتا مرتوقتين.

فإن قُلْتَ: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين؛ لأنه مصدر فما بال الرتق؟ قُلْتَ: هو على تقدير موصوف أي: كانتا شيئاً رتقاً، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السموات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: ﴿ففتقناهما﴾ بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة وإنما قيل: كانتا تون كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ونحوه. قولهم: لقلحان سوداوان أي: جماعتان فعل في المضمهر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قُلْتَ: متى راوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قُلْتَ: فيه وجهان. أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرثي المشاهد. والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص، وهو القديم سبحانه ﴿وجعلنا﴾ لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: ﴿وإله خلق كل دابة من ماء﴾^(١) وكانما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾^(٢) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام «ما لنا من د ولا الد مني»^(٣)، وقرئ: حياً، وهو المفعول الثاني والظرف لغو.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ نَبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُكًا لِمَا لَهُمْ بِهِمْ دُونَ ﴿٢١﴾

أي: كرامة ﴿أن تميد بهم﴾ وتضطرب أو لثلا تميد بهم^(٤)، فحذف لا واللام وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس،

فذلك هو الذي غر منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علواً كبيراً، وقرئ: ﴿مكرمون﴾.

لَا يَسْتَوُونَ بِالْقَوْلِ رَغْمَ بِأَمْرِهِمْ بِمَلُوكِ ﴿٢٢﴾

و﴿لا يسبقونه﴾ بالضم من سابقته، فسبقته أسبقه والمعنى أنهم يتبعون قوله: ﴿ولا يقولون شيئاً حتى يقوله﴾ فلا يسبق قولهم قوله! والمراد بقولهم: فأنيب اللام مناب الإضافة أي: لا يتقدمون قوله بقولهم كما تقول: سبقت بفرسي فرسه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَمَنْ خَتَمَ اللَّهُ شَأْنَهُ فَهُوَ مُحْتَمٌ ﴿٢٣﴾

وكما أن قولهم تابع لقوله: فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه فلا حظتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفوعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿مشفقون﴾، أي: متوقعون من أمانة ضعيفة كانوا على حذر. ورقبة لا يأمنون مكر الله، وعن رسول الله ﷺ: أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله^(١).

﴿وَمَنْ يَتْلُ مِنْهُمْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

ويعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وإثني عليه وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية، فاجأ بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتعميل مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾^(٢) قصد بذلك تفضيح أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

لا تعطيع؛ لأنه أتى عنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة ولبه مطلق، والله الموفق.

(1) كشف الاستار كتاب: الإيمان، باب: منه في الإسراء (حديث رقم 58)، ودواء البهقي في الشعب، باب: في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (حديث رقم: 155).

(2) سورة الأنعام، الآية: 88.

(3) سورة النور، الآية: 45.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(5) أخرجه في كشف الاستار كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته (حديث رقم: 2402)، ورواه البخاري في الأب المفرد 2/256 باب: الغناء واللهو (حديث رقم 785).

(6) قال أحمد: وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم أعنت هذه الخشبة أن تميل الحائط فانعسه. قال سيبويه: ومعناه أن ابع الحائط إذا مال، وإنما قدم نكر الميل اهتماماً بشانه؛ ولأنه

= أيضاً هو السبب في الإعدام، والإدعام سبب في إعداد الخشبة فعامل سبب السبب معاملة السبب، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿إن تضل إحداهما فتنكر إحداهما الأخرى﴾، كذلك ما نحن فيه يكون الأصل، وجعلنا في الأرض رواسي لاهل أن تثبتها إذا مات بهم، فجعل المياد هو السبب كما جعل الميل في المثل المنكسر سبباً، وصار الكلام، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد فنثبتها، ثم حذف قوله فنثبتها لامن الإلباس إيجازاً واختصاراً، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشري الآية عليه، فلن مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأن الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع كما أن مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك فكم من زلزلة مات لها الأرض، وكادت تقلب عاليها سافلها وأما على تقريره، فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مات وهذا لا يأتي وقوع العميد، كما أن قوله أن تضل إحداهما فتنكر إحداهما الأخرى لا يأتي وقوع الضلال والنسيان من

كما تزداد لذلك في نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ﴾ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج: الطريق الواسع.

فإن قُلْتُ: في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل، ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا﴾ (1) قُلْتُ: لم تقدم وهي صفة ولكن جعلت حالاً كقوله:

لعزة موحشا طلال قديم

فإن قُلْتُ: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قُلْتُ: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرفاً واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظاً حفظه بالإمسك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة.

وَحَمَلْنَا أَسْمَاءَ سَفَاحًا عَفْوَطًا وَهَمَّ عَنْ آبَائِنَا مُرْفُوتًا (37)

﴿عن آياتها﴾ أي: عما وضع الله فيها من الألة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومساييرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم تدبرها ونصبها هذه النصبية، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه، وقرئ: عن آيتها على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياء الأرض والحيوان بأمطارها. وهم عن كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (38)

﴿كل﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي: كلهم ﴿في فلك يسبحون﴾ والضمير للشمس والقمر والمراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثف مطالعها، وهو السبب في جمعهما بالشمس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير أو

العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قُلْتُ: الجملة ما محلها؟ قُلْتُ: فمحلها النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قُلْتُ: كيف استبد بها نون الليل والنهار ينصب الحال عنهما؟ قُلْتُ: كما نقول: رأيت زيداً وهنداً متبرجةً ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل؛ ومنه قوله تعالى في هذه السورة ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة﴾ (2) أو لا محل لها لاستثنافها.

فإن قُلْتُ: لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟ قُلْتُ: هذا كقولهم: كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً؛ أي: كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس.

وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ نَبِّكَ الْخُلْدَ أَفْوِينَ يَتَّ فَهُمْ أَكْفُؤُونَ (39)

كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا؛ أي: قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت ايبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْفَقْرِ وَنَسْنَا وَرَأَيْنَا تَرْجُمُونَ (40)

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلى وما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. وإنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختيار و﴿فقتة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظة الذكر يكون بخير، وبخلافه فإذا نلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكر. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم (3). ومنه قوله تعالى: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ (4).

وَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ الْأَنْبِيَاءَ وَمِمَّا يُذَكَّرُونَ (41)

وقوله: ﴿هذا الذي يذكر آهتكم﴾ والمعنى: أنهم

= إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبیت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللحمة.

(1) سورة نوح، الآية: 20.

(2) سورة الانبياء، الآية: 72.

(3) قال أحمد: وكذلك القول، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿اتقولون للحق لما جاءكم﴾ معناه: اتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتداء، فقال: أسحر هذا؟ وإنما لم يجعله معمولاً للقول ومحكياً به؛ لأنهم تفوا القول بأنه سحر، فقالوا: إن هذا لسحر مبين، ولم يشككوا أنفسهم، ولا استفهموا، وقد مضى فيه غير هذا، وإنما أطلقوا في =

= قولهم هذا الذي يذكر آهتكم؟ ولم يقولوا: هذا الذي يذكر آهتكم بكل سواء؛ لأنهم استفعلوا حكاية ما يقوله النبي من القدرح في آهتهم رميةً بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وحاشوها من نقل منها مفصلاً، فأوموا إليه بالإشارة المنكورة كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر، فيؤمئ إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض، فسبحان من أضلهم حتى تادبوا مع الأوثان، وأساقا الألب على الرحمن.

(4) سورة الانبياء، الآية: 60.

وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٣٦﴾.

ويجوز أن يكون **﴿يعلم﴾** متروكاً بلا تعدية بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين، وحين منصوب بمضمر أي: حين **﴿لا يكفون عن وجوههم النار﴾** يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أي: لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم.

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤١﴾.

يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه: **﴿فبهت الذي كفر﴾** أي: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش: يأتيهم فيبهتهم على التذكير، والضمير للوعد أو للحين.

﴿إِنْ قُلْتَ: فَإِلَّا يَرْجِع الضمير المؤنث في هذه القراءة! قُلْتَ: إلى النار أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها، أو على تأويل العدة أو الموعدة أو إلى الحين؛ لأنه في معنى الساعة، أو إلى البغثة. وقيل: في القراءة الأولى الضمير للساعة وقرأ الأعمش: بغتة بفتح الغين ﴿ولا هم ينظرون﴾ تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله وتفسيح وقت التذكر عليهم؛ أي: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ رَبِّكَ فَحَاقَ بِالْأَيْدِي سَخِرُوا مِنْهُمَا كَأَنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾.

سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به، بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة، وأن ما يفعلونه به يحق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْأَيْدِي وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ زَكْرٍ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿من الرحمن﴾ أي: من بأسه وعذابه **﴿بيل هم﴾** معرضون عن نكره لا يخطرونه بباليهم فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاء منه عرفوا من الكالي وصلحوا للسؤال عنه؛ والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالي، ثم بيّن أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن نكر من يكفؤهم.

أَرَأَيْتُمْ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ أَلَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ يَسْأَلُونَ ﴿٤٣﴾.

ثم اضرب عن نكرك بما في **﴿أم﴾** من معنى بل. وقال: **﴿أم لهم آلهة تمنعهم﴾** من العذاب تتجاوز معنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره. ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاء

عاكفون على نكر آلهتهم بهمهم وما يجب أن لا تنكر به من كونهم شفعاء وشهداء ويسوءهم أن ينكرها ذاكراً بخلاف ذلك؛ وأما نكر الله وما يجب أن ينكر به من وحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزواً منك فإنك محق وهم مبطلون. وقيل: معنى بنكر الرحمن قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيماً. وقولهم: وما الرحمن؟ انسجد لما تأمرنا! وقيل: بنكر الرحمن بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أي: يتخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزة والسخرية وهي الكفر بالله.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ سَاطِرٍ كَيْفَ تَلَا سَتَعَجِلُونَ ﴿٣٧﴾.

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولاً ثم الإنسان على إقراط العجلة وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم؛ كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروي: أنه لما نخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما نخل جوفه اشتهى الطعام. وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه النضر بن الحرث؛ والظاهر أن المراد الجنس. وقيل: العجل: الطين، بلغة حمير. وقال شاعرهم: والنخل ينبت بين الماء والعجل، والله أعلم بصحته.

﴿إِنْ قُلْتَ: لم نهاهم عن الاستعجال؟ مع قوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ (1) وقوله: **﴿وكان الإنسان عجولاً﴾** (2) ليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ **﴿قُلْتَ: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقرئ ﴿خلق الإنسان﴾** (3) جواب لو محذوف، وحين مفعول به ليعلم أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: **﴿متى هذا الوعد﴾** (4) وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار عن وراء وقدم فلا يقدر على نفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجنون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هوته عندهم.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ

(3) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(4) سورة يونس، الآية: 48.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(2) سورة الإسراء، الآية: 11.

إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا.

بَلْ مَنَعْنَا مَهْلُوكَهُ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ مَلَكَ عَلَيْهِمُ الظُّمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَنَا نَاقِي الْأَرْضِ نَتَمَصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الضَّالِّينَ ﴿٤١﴾

وما كلاناهم وآبائهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم ﴿حتى طال عليهم﴾ الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمانينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون، ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ وأمد كائب ﴿أفلا يرون أننا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام.

فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿ناتقي الأرض﴾! قلت: الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبية عليها ناقصة من أطرافها.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الذِّمَّةَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٢﴾

قري ﴿ولا يسمع الصم﴾: ولا تسمع الصم بالثناء والياء أي: لا تسمع أنت الصم ولا يسمع رسول الله ﷺ ولا يسمع الصم من أسمع.

فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر، كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل: ﴿إإذا ما ينذرون﴾؟ قلت: اللام في الضم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والأصل، ولا يسمعون إذ ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمحل للدلالة على تصاممهم وسدهم أسمعهم إذا نذروا أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجراسة على التصامم من آيات الإنذار.

وَلَكِنْ سَمَّهْتُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِتَقُولُوا: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ولكن سمهم﴾ من هذا الذي ينذرون به اننى شيء لانعوا ونلوا وأقروا بانهم ظلموا انفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفع في معنى: القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه يعطية رضحها ولبناه للمرة.

وَوَضَعَ النُّزُومَ الْأَسْطَ يُؤَرِّقُ الْقَيْمَةَ فَلَا تَطْمَئِنُّ سَنِينَ وَإِنْ
كَانَ يُنْقَالُ حَبْكُ مِنْ حَرْدَلٍ أَيْتَا يَهَا وَكُنَّ بِرَا حَبِيرِ
﴿٤٤﴾

وصفت ﴿الموازنين﴾ بالقسط وهو: العدل مبالغة كانهما في انفسها قسط، أو على حذف المضاف أي: نوات القسط واللام في ﴿ليوم القيامة﴾ مثلها في قولك: جئتة لخمس

ليال خلون من الشهر ومنه بيت النابغة:

ترسمت آيات لها فعرفتها لستة اعوام وذا العام سابع
وقيل: لاهل يوم القيامة أي: لاجلهم.

فإن قلت: ما المراد بوضع الموازين؟ قلت: فيه قولان: أحدهما: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة من غير أن يظلم عباده مثقال نرة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني: انه يضع الموازين الحقيقية ويوزن بها الأعمال عن الحسن. هو ميزان له كفتان ولسان. ويروى: أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا لهي من ذا الذي يقدر أن يخلأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود إنني إذا رضيت عن عبدي ملاتها بتمرة.

فإن قلت: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراس! قلت: فيه قولان: أحدهما: توزن صحائف الأعمال. والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة؛ وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. وقرئ ﴿مئقال حبة﴾ على كان التامة كقوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة﴾^(١) وقرأ ابن عباس ومجاهد ﴿أتينا بها﴾، وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى: المجازاة والمكافأة؛ لانهم اتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب. وفي حرف أبي جثنا بها وأنت ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذمبت بعض أصابعه.

وَلَقَدْ مَاتِنَا مَرِيضِينَ وَفَرَّقَانِ وَضِيَاءَ وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾

أي: أتيناها. ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة ﴿و﴾ أتينا به ﴿ضياءً وذكراً للمتقين﴾ والمعنى: أنه في نفسه ضياءً وذكراً، أو وأتيناها بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياءً وذكراً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الفرقان والفتح كقوله: ﴿يوم الفرقان﴾^(٢) وعن الضحاك: ﴿فلق البحر﴾ وعن محمد بن كعب: للمخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس ضياءً بغير ولو وهو حال عن الفرقان. والذكر: الموعظة، ونكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، أو الشرف.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْخَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَسْأَةِ الْمُفْجُورِينَ ﴿٤٦﴾

محل ﴿الذين﴾ جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه.

وَمَلَأْ دَرَكًا مَبَارَكًا أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُشْكِرُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وهذا نكر مبارك﴾ هو القرآن وبركته كثرة منافعه وغزارة خيره.

﴿وَلَقَدْ مَاتِنَا﴾ إزهرهم رشدهم من قبل وكنا به عليلين ﴿٤٨﴾

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح. قال الله تعالى: ﴿فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾^(٣) وقرئ: رشده

(٣) سورة النساء، الآية: 6.

(١) سورة البقرة، الآية: 280.

(٢) سورة الأنفال، الآية: 41.

عليه كما تبين الدعوى بالبينات لأنني لست مثلكم فأقول: ما لا أقدر على إثباته بالحجة كما لم تقدرُوا على الاحتجاج لمذهبيكم ولم تزيبوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

وَتَأْتِيهِمْ لَأَكْبِدَهُ لَأَكْبِدَهُ أَصْنَدُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

قرأ معاذ بن جبل: بالله. وقرئ: ﴿تولوا﴾ بمعنى: تتولوا. ويقويها قوله: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ (3).

فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه. لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره، ولعمري أن مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصاً في زمن نمرود مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهلكه على نصرته بينه.

ولكن إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

روي: أن أزر خرج به في يوم عيد لهم فبدوا ببنييت الأصنام فنخلوه وسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا: إلى أن نرجع بركت الأكلة على طعمانا، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنماً مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرهما كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه. عن قتادة قال: ذلك سراً من قومه. وروي سمعه رجل واحد.

فَجَمَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَمَلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿جذاً﴾ قطعاً عن الجذ وهو القطع، وقرئ: بالكسر والفتح، وقرئ: جذاً جمع جذيد وجذذاً جمع جذة، وإنما استبقى الكبير؛ لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لبيئهم وسبه لأهوتهم، فيبكتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم﴾ (4)، وعن الكلبي ﴿إليه﴾ إلى كبيرهم، ومعنى هذا: لعلمهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحاً والفأس على عاتقك؟ قال: هذا بناء على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آهوتهم وتعظيمهم لها، أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم واستجهالاً، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل.

فإن قلت: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم، فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضاً؟ قلت: إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

قَالُوا مَنْ قَعَلْنَا مَدَاً بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لِنَرِ الْكَلْبِيَّةَ ﴿٥٩﴾

والرشد، والرشد كالعدم والعدم، ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن ﴿من قبل﴾ أي: من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعةً وأساراً عجيبةً وصفات قد رضيها وأحمدها حتى أهله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك: في خير من الناس أنا عالم بفلان، فكلارك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل.

إِذْ قَالَ لِإِبْرِيهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا رَبِّنَا مَا آيَاتُنَا لَهَا عِيْدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿إذ﴾ إما أن يتعلق بآيتينا أو برشده أو بمجنوف، أي: أنكر من أوقات رشده هذا الوقت قوله: ﴿ما هذه التماثيل؟﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آهوتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها. لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى، كقولك: فاعلون العكوف لها، أو واقفون لها.

فإن قلت: هلا قيل: عليها عاكفون! كقوله تعالى: ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ (1) قلت: لو قصد التعبية لعاده بصلته التي هي على ما أقيح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلنوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء وجالون في نصرته مذهبيهم، ومجاللون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم.

قَالَ لَمَدَّ كَفْتَهُ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِمَلِكٍ أَوْ بَرٍّ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾

﴿لنتم﴾ من التاكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به؛ لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع، ونحوه ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (2) أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل؟!.

قَالَ بَلْ رَزَقَكُمُ اللَّهُ الْغَنَى وَالْأَرْضُ أَكْبَرُ فَطَرَهَا وَآتَاكُمْ مِنْهَا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾

الضمير في ﴿فطرها﴾ للأرض والارض أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها كما تصح الدعوى بالشهادة كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن

(3) سورة الصافات، الآية: 90.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 63.

(1) سورة الاعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 35.

ويدعى إليها أن يقدر على هذا، وأشد منه. ويحكي: أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها.

وقرأ محمد بن السميع: فعله كبيرهم. يعني: فعله أي: فعل الفاعل كبيرهم.

نَرَجِعُوا إِلَيْكَ أَفْسِهْرَ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾

فلما القهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿أنتم الظالمون﴾ على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلمت من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين.

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكبرية، وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة مضارة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجاللين لإبراهيم عليه السلام مجاللين عنه حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانتكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم وقرىء: نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما سمي فاعله، أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم، قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

أَفِي لَكُمْ رَيْبًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

﴿أف﴾ صوت إذا صوتت به عليم أن صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عنهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم، واللام لبيان المتأفف به أي: لكم ولألهتكم هذا التأفف.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ لَقَدْ بَيَّنَّا كَرِيحَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبراهيمَ ﴿١٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَمَلْنَاهُمُ الأَخْضَرِ ﴿٢٠﴾

أجمعوا رأيهم لما غلبوا بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفرع إلا مناصبته كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة، والذي أشار بإحراقه نمرود. وعن ابن عمر رضي الله عنهما رجل من أعراب العجم يريد الأكراد، وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكونا، وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم عليه السلام ثم أشعلوا ناراً عظيمة كانت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فرموا به فيها فناداها جبريل عليه السلام ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً﴾، ويحكي ما أحرقت منه إلا وثاقه وقال له جبريل

أي: أن من فعل هذا الكسر والحطم لتشديد الظلم معبود في الظلمة، إما لجراته على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام، وإما لأنهم رأوا إفراطاً في حطمها وتمادياً في الاستهانة بها.

قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمُ يُقَالُ لَهُ: يَدُكُرُّهُمُ ﴿٢١﴾

فإن قلت: ما حكم الفعلين بعد ﴿سمعنا فتى﴾، وأي: فرق بينهما؟ قلت: هما صفتان لفتى، إلا أن الأول وهو ﴿يدكرهم﴾ لا بد منه لسمع، لأنك لا تقول: سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع، وأما الثاني: فليس كذلك.

فإن قلت: ﴿إبراهيم﴾ ما هو؟ قلت: قيل: هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى، والصحيح أنه فاعل ﴿يقال﴾ لأن المراد: الاسم لا المسمى.

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَا بَنِي إِبراهيمَ ﴿٢٣﴾

﴿على أعين الناس﴾ في محل الحال بمعنى معانين مشاهداً، أي: يمرأى منهم ومنظر.

فإن قلت: فما معنى الاستعلاء في على؟ قلت: هو وارد على طريق المثل أي: يثبت إثباته في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه. ﴿لعلهم يشهدون﴾ عليه بما سمع منه وبما فعله، أو يحضرون عقوبتنا له.

روي: أن الخبر بلغ نمرود وأشرف قومه فأمروا بإحضاره.

قَالَ بَلْ لَعَلَّكُمْ كِبْرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوَهُمْ إِن كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾

هذا من معاريف الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضية من علماء المعاني، والقول فيه: إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: أنت كتبت هذا؟! وصاحبك أمي لا يحسن الخط، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبتك أنت، كأن قصصك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك، وإثباته للآمي أو المخرمش؛ لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به، وإثباته للقادر ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو الذي تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلي مباشرة يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبيهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد

وَقَامَ الْمَكْرُورَ وَسِوَاهُ الرَّكَّورَ وَكَانُوا لَنَا عُنِيدِينَ ﴿٧٦﴾

﴿يهدون بامرنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتناقل عنها، وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل ﴿فعل الخيرات﴾ أصله أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وَلَوْطًا مَّا يَبِينُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُنَّ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا ﴿٧٧﴾

﴿حكماً﴾ حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم وقيل: هو النبوة، والقرية: سنوم.

وَأَذَلَّنَا فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾

أي: في أهل رحمتنا أو في الجنة ومنه الحديث: «هذه رحمتي أرحم بها من أشياء».

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَخَافَ وَاٰهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾

﴿من قبل﴾ من قبل هؤلاء المنكوبين.

هو نصر الذي مطاوعه انتصر، وسمعت هنلينا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي: اجعلهم منتصرين منه، والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْوَعْدِ إِذْ نَسَخْنَا فِيهِ عَصْمَ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾

أي: وانكرهما و﴿إذ﴾ بدل منهما، والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير؛ لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما وقرئ: لحكهما.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا دَاوُدَ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٢﴾

والضمير في ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى وقرئ: فافهمناها، حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكم فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يتراذان، فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك.

فإن قلَّت: لحكما بوحى أم باجتهاد؟ قلَّت: حكما جميعاً بالوحي إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان عليهما

عليه السلام حين رمي به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. وأطل عليه نمرود من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال: إني مقرب إلى إلهك فنبح أربعة آلاف بقرة؛ وكف عن إبراهيم وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به واقطعه، ولذلك جاء: «لا يعذب بالنار إلا خلقها»⁽¹⁾ ومن ثم قالوا: ﴿إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات، وهي الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها، ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهداً في ذلك جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كما أمر بشيء فامتثلته، والمعنى: ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كان ذاتها برد وسلام، والمراد ابرضي فيسلم منك إبراهيم أو ابرضي برداً غير ضار، وعن ابن عباس رضي الله عنه لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

فإن قلَّت: كيف بردت النار وهي نار؟ قلَّت: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم ويدل عليه قوله: ﴿على إبراهيم﴾ وأرادوا أن يكيوه ويمكروا به فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين؛ غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه.

وَبَيِّنْنَا لَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾

نجيا من العراق إلى الشام وبركاته الواصلة إلى العالمين إن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وأثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والتمر والخصب وطيب عيش الغني والفقير، وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم وقيل: «ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بببيت المقدس»⁽²⁾. وروي: أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

وَرَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّمْنَا صَالِحِينَ ﴿٨٤﴾

النافلة: ولد الولد وقيل: سأل إسحق فاعطيه وأعطى يعقوب نافلة أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ

(2) لم يورد الزيلعي هذا.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب الله (حديث رقم 3016)، ورواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار (حديث رقم 2673).

السلام وقيل: اجتهدا جميعاً فجاه اجتهد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب.

فإن قُلْتُ: ما وجه كل واحدة من الحكومتين! قُلْتُ: أما وجه حكومة داود عليه السلام فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنابيتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه في العبد إذا جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك، أو يفديه، وعند الشافعي رضي الله عنه يبيعه في ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه حكومة سليمان عليه السلام: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً، فأبق من يده: أنه يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر تراء.

فإن قُلْتُ: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها؟ قُلْتُ: أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيه ضماناً بالليل، أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد والشافعي رضي الله عنه يوجب الضمان بالليل وفي قوله: «ففهمناها سليمان» لليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام، وفي قوله: «وكلأ آتينا حكماً وعلماً» لليل على أنهما جميعاً كانا على الصواب «يسبحن» حال بمعنى: مسبحات أو استنثاف كان قائلاً قال كيف سخرنه فقال: يسبحن «والطير» إما معطوف على الجبال، أو مفعول معه.

فإن قُلْتُ: لم قدمت الجبال على الطير! قُلْتُ: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأل على القنطرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق روي: أنه كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قُلْتُ: كيف تنطق الجبال وتسبح؟ قُلْتُ: بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى، وجواب آخر وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله، فلما حملت على التسبيح وصفت به «وكننا فاعلين» أي: قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبا عندكم وقيل: وكنا نفعل بالانبياء مثل ذلك.

وَوَطَّنَهُ سَمَكَةً لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْمِتَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٧﴾

اللبوس: اللباس، قال: ليس لكل حالة لبوسها. المراد: الدرع. قال قتادة: كانت صفائح فأول من حها داود فجمعت الخفة والتحصين، «لتحصنكم» نون

والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل، والتاء للصنعة أو لللبوس على تاويل الدرع والياء لداود أو لللبوس.

وَلَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ عَاصِمَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبًّا لِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٨٨﴾

قرى: الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء، والنصب على العطف على الجبال.

فإن قُلْتُ: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة، وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما! قُلْتُ: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم⁽¹⁾، فإذا مرت بكرسيه أبعثت به في مدة يسيرة على ما قال: «غدوها شهر ورواحها شهر»⁽²⁾ فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة، وقيل: كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفاً لهبوبها على حكم إرادته، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

وَمَنْ أَشَقِيظٌ مِّنْ يُّعُودُونَ لَمْ يَمْلِكُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ ﴿٨٩﴾

أي: يغيثون له في البحار فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون تلك إلى الأعمال والمهن وبناء المداين والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبطلوا، أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

﴿٨٩﴾ وَأَوْرَثَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَتْلَهُمْ مِّمَّهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَزَكَرُوا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾

أي: ناداه بأنني مسني الضر، وقرى: إني بالكسر على إضمار القول، أو لتضمن النداء معناه والضر بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض، وهزال فرق بين البناءين، لافتراق المعنيين لطف في السؤال حيث نكر نفسه بما يوجب الرحمة، ونكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب، ويحكي: أن عجزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشيت جردان بيتي على العصى، فقال لها: اللفت في السؤال لا جرم لأرديتها تثب وثب الفهود، وملا بيتها حباً.

كان أيوب عليه السلام رومياً من ولد إسحق بن يعقوب عليهم السلام وقد استنباه الله، وبسط عليه الدنيا وكثر اهله

(1) قال أحمد: وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بانها جان، وتارة بانها ثعبان، واللجان الرقيق من الحيات، والثعبان العظيم الجاني منها، ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ففي

(2) كل واحد من الريح والرياح والعصا على هذا التقرير معجزتان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 12.

يفسر بالقدرة على معنى: أن لن نعمل فيها قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى، فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان، وما يوسوس إليه في كل وقت، ومنه قوله تعالى: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾⁽¹⁾ والخطاب للمؤمنين ﴿في الظلمات﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله: ﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾⁽³⁾ وقيل: ظلمات بطن الحوت وقيل: ظلمات بطن الحوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر. ﴿إن﴾ أي: بأنه ﴿إلا إلا أنت﴾ أن بمعنى: أي، عن النبي ﷺ: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»⁽⁴⁾، وعن الحسن: ما نجاه الله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿نفجي﴾ وننجي ونجي والنون لا تدغم في الجيم، ومن تحمل لصحته فجعله فعل وقال: نجى النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره، ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف.

وَرَكَّبْنَا آيَاتِنَا لِلْمُبْتَلِينَ ﴿٨٩﴾

سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم رد أمره إلى الله مستسلماً فقال: ﴿وَوَقَّاتِ خَيْرِ الْوَارِثِينَ﴾ أي: إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَسْلَمْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا لَكَاظِمِينَ ﴿٩٠﴾

إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق. الضمير للمتكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمباراتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون، وقرئ ﴿رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ بالإسكان وهو كقوله تعالى: ﴿يحزن الأخره ويرجو رحمة ربه﴾ ﴿خاشعين﴾ قال الحسن: نللا لأمر الله، وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم في القلب، وقيل: متواضعين، وسئل الأعمش، فقال:

وماله كان له سبعة بنين وسبع بنات، وله اصناف البهائم وخمسائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده انهدم عليه البيت فهلكوا، وبذهاب ماله وبالممرض في بدنه ثماني عشر سنة، وعن قتادة: ثلاث عشر سنة، وعن مقاتل: سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات، وقالت له امراته يوماً: لو دعوت الله فقال لها: كم كانت مدة الرخاء فقالت: ثمانين سنة فقال: أنا أستحي من الله أن ادعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي، فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونواقل منهم، وروي: أن امراته ولدت بعد ستة وعشرين ابناً ﴿رحمة من عندنا ونكرى للعابدين﴾ أي: لرحمتنا العابدين، وأن نكرهم بالإحسان لا ننسام، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أئيب في الدنيا والآخرة.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٩١﴾

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾

قيل: في ذي الكفل هو إلياس وقيل: زكريا وقيل: يوشع بن نون، وكأنه سمي بذلك؛ لأنه نوح الحظ من الله والمجود على الحقيقة، وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم وقيل: خمسة من الأنبياء نوح اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس ونوح الكفل، عيسى والمسيح، يونس ونوح النون، محمد وأحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرِبًا فَلَمْ يَأْنِ أَنْ يُنَادِرْ عَلَيْهِ فَكَادَ أَنْ أَطْلَمَنَّ أَنْ لَوْلَا إِلَهُ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾

﴿النون﴾ الحوت فاضيف إليه برم بقومه لطول ما ذكرهم، فلم ينكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وأنفة لدينه، وبغضاً للكفر، وأمله، وكان عليه أن يصابر ويمنتظر الإن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف مغضباً.

قرئ: نقدر ونقدر مخففاً ومثقلاً، ويقدر بالياء بالتخفيف، ويقدر ويقدر على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، وفسرت بالتضييق عليه، ويتقدير الله عليه عقوبة، وعن ابن عباس: أنه دخل على معاروة فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة ففرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك قال: وما هي يا معاروة فقرا هذه الآية، وقال: ﴿أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه﴾ قال: هذا من القنر لا من القنرة. والمخفف يصح أن

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 1/505 و2/382، وأخرجه البيهقي

في الشعب، باب: في محبة الله عز وجل، فصل في آدامة نكر الله عز وجل (حديث رقم 620).

(1) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(2) سورة البقرة، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 257.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ.
وَرَأَى لَهُ كُتُوبًا ۝٤٧

الكفران: مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل: الله شكور، وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا تكفر سعيه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: نحن كاتبوا ذلك السعي ومثبته في صحيفة عمله، وما نحن مثبته فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيْبِهِ أَهْلَكَنَّهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٤٨

استعير الحرام للممتنع وجوده ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (3) أي: منعها منهم وأبى أن يكونا لهم، وقرئ حَرَّمَ وَحَرَّمَ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَحَرَّمَ وَحَرَّمَ وَمَعْنَى «أَهْلَكَنَّهَا»: عزمنا على إهلاكها أو قدرنا إهلاكها، ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أن قومًا عزم الله على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة، فحينئذ يرجعون ويقولون: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم، ويموتون عليه حتى يروا العذاب، وقرئ إنهم بالكسر وحق هذا أن يتم الكلام قبله، فلا بد من تقدير محذوف، كانه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذلك وهو المنكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور، ثم علل فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا أي: لأنهم لا يرجعون، ولا صلة على الوجه الأول.

حَوَّتْ إِذَا فَحِثَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝٤٩ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَوِّبُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥٠

فإن قُلْتُ: بم تعلق **﴿حتى﴾** واقعة غاية له وآية الثلاث هي **﴿قُلْتُ﴾** هي متعلقة بحرام وهي غالة لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكي الجملة من الشرط، والجزاء أعني: إذا، وما في خبرها حذف المضاف إلى **﴿يأجوج ومأجوج﴾**، وهو سدّهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها وقيل: فتحت كما قيل: أهلكناها وقرئ: أجوج وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال: الناس عشرة

أما إنني سألت إبراهيم، فقال: ألا تدري؟ قلت: أفدني، قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق باب، فليبر الله منه خيرًا لعلك ترى أنه إن ياكل خشنًا ويلبس خشنًا ويطاطي رأسه.

وَأَلَّتْ أَحْمَصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا رَأْسَهَا آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١

﴿أحصنت فرجها﴾ إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿ولم يمسنني بشر ولم أك بغيًا﴾.

فإن قُلْتُ: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه، قال الله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ (1) أي: أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم؛ قُلْتُ: معناه: نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها (2) ونحو ذلك أن يقول: الزمار نفخت في بيت فلان أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا، وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: آيتين كما قال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾؛ قُلْتُ: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فعل.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً رَّحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٥٢

الامة: الملة، وهذه إشارة إلى ملة الإسلام أي: أن ملة الإسلام هي ملكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة **﴿وإنا﴾** إلهكم إله واحد، **﴿فاعبدون﴾** ونصب الحسن أمتكم على البديل من هذه ورفع أمة خيرًا، وعنه رفعهما جميعًا خبرين لهذه، أو نوى للثاني مبتدأ والخاطب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوا أَرْهَامَهُمْ يَنْهَمُّ كُلُّ إِنْسَانٍ رَّجُوعًا ۝٥٣

والاصل وتقطعتم إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كانه يعني عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في بين الله، والمعنى: جعلوا أمر بينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلًا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم.

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) قال أحمد: وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل: ﴿إذ أوحينا إلى أمك أن اتقني في التابوت فاتقني في اليوم فليلقه اليم بالساحل﴾ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى، أما الأول فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى في اليم، وكذلك الثالث واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله: ﴿فاتقني في اليم﴾ أن =

= المراد: التابوت، وأما موسى فلم يقذف في اليم، الزمخشري نزل قذف التابوت في اليم، وموسى فيه منزلة قذفه في اليم، وفي هذه الآية مصداق لما اختاره، فإن الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

(3) سورة الاعراف، الآية: 50.

الأحسن إما السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة.

لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا وَمَنْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٣٧﴾

يروي: أَنْ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا مِنْهُمْ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، ثُمَّ أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَمَقَامٌ يَجَزُّ رِءَاةَهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾، وَالْحَسِيسُ: الصَّوْتُ يَحْسُ، وَالشَّهْوَةُ طَلَبُ النَّفْسِ اللَّذَّةَ.

لَا يَحْزَنُهُمْ أَفْرَجُ الْأَكْبَرِ وَتَنَلَّفَهُمُ الْمَلَكُ هَذَا يَوْمَكُمْ أَلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣٨﴾

وقرئ ﴿لَا يَحْزَنُهُمْ﴾ من أحزن و﴿الفرع الأكبر﴾ قيل: النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (2) وعن الحسن الانصراف إلى النار، وعن الضحاك حين يطبق على النار، وقيل: حين ينبح الموت على صورة كبش أملح أي: تستقبلهم ﴿الملائكة﴾ مهئين على أبواب الجنة ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعىكم ربكم.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدُّوا عَيْنًا أَنَا كَمَا فَعَلِينَا ﴿١٣٩﴾

قد حلَّ العامل في ﴿يوم نطوي﴾، لا يحزنهم أو الفرع أو تتلقاهم وقرئ تطوي السماء على البناء المفعول، ﴿والسجل﴾ توزن العتل والسجل بلفظ الدلو وروي فيه الكسر وهو الصحيفة، أي: كما يطوي الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه أو لما يكتب فيه؛ لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وقيل: السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها ﴿أول خلق﴾ مفعول، نعيد الذي يفسره ﴿نعيدته﴾ والكاف مكفوفة بما والمعنى: نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.

فَإِن قُلْتُمْ: وَمَا أَوَّلُ الْخَلْقِ حَتَّى نَعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ! قُلْتُمْ: أَوَّلُهُ إِيجَادُهُ عَنِ الْعَدَمِ فَكَمَا أَوْجَدَهُ أَوَّلًا عَنِ عَدَمِ يَعِيدُهُ ثَانِيًا عَنِ عَدَمِ.

فَإِن قُلْتُمْ: مَا بِالْخَلْقِ مِنْكَرًا! قُلْتُمْ: هُوَ كَقَوْلِكَ: هُوَ أَوَّلُ رَجُلٍ جَاءَنِي تَرِيدُ أَوَّلَ الرِّجَالِ، وَلَكِنَّكَ وَحِثَّهُ وَنَكَرْتَهُ إِيرَادَةَ تَفْصِيلِهِمْ رَجُلًا رَجُلًا، فَكُنْتَ مَعْنَى أَوَّلُ خَلْقٍ: أَوَّلُ الْخَلْقِ بِمَعْنَى: أَوَّلُ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ مَصْدَرٌ لَا يَجْمَعُ، وَوَجْهٌ آخِرٌ وَهُوَ أَنْ يَنْتَصِبَ الْكَافُ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ يَفْسِرُهُ نَعِيدُهُ، وَمَا مَوْصُولَةٌ أَيْ: نَعِيدُ مِثْلَ الَّذِي بَدَأْنَاهُ نَعِيدُهُ وَأَوَّلُ خَلْقٍ

أجزاء تسعة منها ياجوج وماجوج ﴿وهم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم ياجوج وماجوج يخرجون حين يفتح السد الحطب: النشز من الأرض، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: من كل جند وهو القبر الثاء حجازية، والفاء تميمية، وقرئ ﴿ينسلون﴾ بضم السين، ونسل وعسل أسرع.

إِنَّا كُنَّا وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿١٤٠﴾ لَوْ كَانَتْ هَتَاةً إِلَى هَتَاةٍ مَا زُرَدْتُمْ فِيهَا خَالِدِينَ ﴿١٤١﴾ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَمَنْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٤٢﴾

﴿ما تعبدون من دون الله﴾ يحتمل الأصنام، وإبليس وأعدائه، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبادتهم، ويصنف ما روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَصَنَائِدُ قُرَيْشٍ فِي الْحَطِيمِ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ صَنَمًا فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ، فَكَلَّمَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَقْحَمَهُ ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ فَاقْبَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَرَأَاهُمْ يَتَهَامَسُونَ، فَقَالَ: فِيمَ خَوْضِكُمْ؟ فَخَبَّرَهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ يَقُولُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجِدْتَهُ لَخَصَمْتَهُ فَدَعُوهُ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: أَأَنْتَ قُلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَدْ خَصَمْتُكَ رَبُّ الْكَعْبَةِ الْبَيْسُ الْيَهُودِ عَبَدُوا عَزِيرًا، وَالنَّصَارَى عَبَدُوا الْمَسِيحَ، وَبَنُو مَلِيحٍ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ، فَقَالَ ﷺ: «بَلْ هُمْ عَبَدُوا الشَّيَاطِينَ الَّتِي أَمَرْتَهُمْ بِذَلِكَ، فَانزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى﴾ الْآيَةَ (1) يعني: عزيزًا والمسيح والملائكة عليهم السلام.

فَإِن قُلْتُمْ: لِمَ قَرَنُوا بِالْهَتْمِ! قُلْتُمْ: لِأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ لِمَقَارَنَتِهِمْ فِي زِيَادَةِ غَمِّ وَحَسْرَةٍ، حَيْثُ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِسَبَبِهِمْ وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ يَابُ مِنَ الْعَذَابِ، وَلِأَنَّهُمْ قَدَّرُوا أَنَّهُمْ يَسْتَشْفَعُونَ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَيَسْتَنْفَعُونَ بِشَفَاعَتِهِمْ، فَإِذَا صَادَقُوا الْأَمْرَ عَلَى عَكْسِ مَا قَدَّرُوا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ.

فَإِن قُلْتُمْ: إِذَا عَنَيْتُ بِمَا تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَمَا مَعْنَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ﴾؟ قُلْتُمْ: إِذَا كَانُوا هُمْ وَأَصْنَامُهُمْ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ جَازَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: زُفِيرٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الزُّفَيْرَانِ إِلَّا هُمَا دُونَ الْأَصْنَامِ لِلتَّلْغِيبِ وَلِعَدَمِ الْإِلْبَاسِ.

والحصب: المحصوب به أي: بحصب بهم في النار والحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد وصفاً بالمصدر، وقرئ حطب وحضب بالضاد متحرًا وسكناً.

وعن ابن مسعود يجعلون في ثوابيت من نار فلا يسمعون، ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

إِنَّ الْأَوَّلَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أَوَّلِيكَ عَنَّا سَعْدُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿الحسنى﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تانيث

ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحى إلي فتكون ما موصولة.

إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ مَدَّتْكُمْ عَلَىٰ سَوْوٍ وَإِنِ أَدْرَيْتُمْ أَنِّي بِمَيْدٍ
مَا تُوعَدُونَ ﴿١٤٨﴾ إِنَّكُمْ بِعَلَمِ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَرَسُولِ مَا
نُكِّنُوهُنَّ ﴿١٤٩﴾

أئن منقول من آئن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله تعالى: ﴿فانذروا بحرب من الله ورسوله﴾⁽²⁾ وقول ابن حنزة: أننتنا ببينها أسماء

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله، وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنذب إليهم العهد، وشهر النذب وأشاعه، وأنتم جميعاً بذلك ﴿على سواء﴾ أي: مستويين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم، وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه ﴿وما توعدون﴾، من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك لأن الله لم يعلمني علمه، ولم يطلعني عليه والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، ﴿وما تكتُمون﴾، في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه.

وَإِنِ أَدْرَيْتُمْ لَعَلَّمْتُمْ لَكَ وَمَنْعَ الْإِنِّجِينَ ﴿١٥٠﴾

وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم ﴿إني حين﴾ ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٥١﴾

قري: ﴿قل﴾ وقال: على حكاية قول: رسول الله ﷺ ﴿رب احكم﴾ على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم، وربى احكم على أفعل التفضيل، وربى احكم من الأحكام أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر، ومعنى ﴿بالحق﴾: لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال: «أشد وطأتك على مضره»⁽³⁾، قري: ﴿تصفون﴾ بالثناء والياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكتب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين وخذلهم، عن رسول الله وآله ﷺ: «من قرأ: اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي نكر اسمه في القرآن»⁽⁴⁾.

ظرف لبداناه أي: أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى ﴿وعداء﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿نعبيده﴾ عدة للإعادة ﴿إننا كنا فاعلين﴾ أي: قاترين على أن تفعل ذلك عن الشعبي رحمة الله عليه. وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٢﴾

زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعني: اللوح أي: يرثها المؤمنون بعد إجماع الكفار كقوله تعالى: ﴿وإورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾⁽¹⁾ قال موسى لقومه: استعينوا بالله، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي أرض الجنة وقيل: الأرض المقدسة ترثها أمة محمد ﷺ الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد والمواضع.

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَجِبُونَ ﴿١٥٣﴾

البالغة والبلاغ الكفافية، وما تبلغ به البغية أرسل ﷺ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَلِئِكِ ﴿١٥٤﴾

﴿رحمة للعالمين﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها، ومثاله أن يفجر الله عيناً غديقة فيسقي ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرما ما ينفعها وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث إن عقوبتهم أخرجت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٥﴾

إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأن ﴿إنما يوحى إلي﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و﴿إنما إلهك إله واحد﴾ بمنزلة إنما زيد، قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية، وفي قوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع،

(1) سورة الاعراف، الآية: 137.

(2) سورة البقرة، الآية: 279.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (حديث رقم 804)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع =

= الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلوة إذا نزلت بالمسلمين نازلة حديث رقم (294 - 675).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره، ورواه الزيلعي 2/372.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج مكة

غير ست آيات وهي هذان خصمان إلى قوله: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾⁽¹⁾ وهي ثمان وسبعون آية.

يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا وَقَتًا رَيْبَ كَمِ لَيْلَةِ الْبَأْسِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاسُ إِذْ أَنْزَلْنَا السَّمَاءَ سَوَاءً عَضِيمٌ

الزلزلة شدة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها، ولا تخلو ﴿الساعة﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف، وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهِيَ الزَّلْزَلَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا زَلَّزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَّزَالَهَا﴾⁽²⁾ واختلف في وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهل صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شداث ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به، وروي أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقارهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا بالسروج عن الدواب، ولم يضرّبوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرًا وكانوا من بين حزين، وبك ومفكر⁽³⁾.

يَوْمَ تَرَوْهَا تَهْلِكُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَضَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَرَرَى النَّاسُ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بـ ﴿تذهل﴾ والضمير للزلزلة. وقرئ: ﴿تذهل كل مرضعة﴾ على البناء للمفعول وتذهل

كل مرضعة أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قلّت: لم قيل ﴿مرضعة﴾ دون مرضع؟ قلّت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به⁽⁴⁾ فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد أقيمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عما أرضعت﴾ عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ ﴿وقرى﴾ بالضم من أريتك قائمًا، أو رؤيتك قائمًا و﴿النفس﴾ منصوب ومرفوع والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنته على تأويل الجماعة، وقرئ سكرى وبسكرى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان وسكارى وبكسارى، نحو كسالى وعجالي وعن الأعمش سكرى وبسكرى بالضم، وهو غريب والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله. وتمييزه وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى⁽⁵⁾ من الشراب.

فإن قلّت: لم قيل أولًا ترون، ثم قيل: ترى على الأفراد؟ قلّت: لأن الرؤية أولًا علق بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا راثين لها وهي معلقة أخيرًا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم راثيًا لسائرهم.

وَرَى النَّاسِ مَن يَجْزِي فِي اللَّهِ يَغِيْرُ عَلَيْهِ وَيَضَعُ كُلُّ شَيْءٍ مِّنْهُ

قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصرار ترابًا، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعرض فيه بضررس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق

= بحمار فتنني عنه الحقيقة، فكنلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازي نفي الحقيقي أبلغ نفي مؤكد بالياء، والسر في تأكيد التشبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ راجع إلى قوله: ﴿وما هم بسكارى﴾ وكانه تعليق لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب؟ وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب الله تعالى. ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقل كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه: نفسي نفسي.

(1) سورة الحج، الآية: 24.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 1.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج، (الحديث: 3169)، وأخرجه الحاكم في المستدرک، 567/4.

(4) قال لعمد: والفرق بينهما أن روده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، لكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل، وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله: ﴿عما أرضعت﴾ فلخرج الصفة على الفعل والحقه التاء.

(5) قال لعمد: والعلماء يقولون: إن من ألة المجاز صدق نقيضه كقوله: زيد حمار إذا وصفته بالبلادة، ثم يصق أن تقول وما هو

وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً قدر على إعادة ما أبداه بل هذا أنخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس وورود الفعل غير معدى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته، وعلمه ما لا يكتننه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبيدة ليبين لكم ويقرّ بالياء، وقرئ ونقرّ ونخرجكم بالنون والنصب، ويقرّ ويخرجكم ويقرّ ويخرجكم بالنصب والرفع، وعن يعقوب نقرّ بالنون وضم القاف من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ ﴿في الأرحام ما يشاء﴾ أن يقرّه من ذلك ﴿إلى لجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر أو تسعة أو سنتين أو أربع أو كما شاء وقدر وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام، أو أسقطته والقراءة بالنصب لتعليل معطوف على تعليل ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدرج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا، والناس: أن نقرّ في الأرحام من نقرّ حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فالكلفهم، ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثم لتبلغوا نكسكم﴾ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة، والقتود والاباطيل وغير ذلك وكانها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ ومنكم من يتوفى أي: يتوفاه الله ﴿أرذل العمر﴾ الهرم والخرف حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته ضعيف البنية سخييف العقل قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقبه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي: ليصير نساء بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينسب أن ينساه، وبزل عنه علمه حتى يسأل عنه من سألته يقول لك: من هذا فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سألته عنه، وقرأ أبو عمر والعمر بسكون الميم الهامدة الميتة اليابسة وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة كررها الله في كتابه ﴿اهتزت وربت﴾ تحركت بالنبات وانتفخت، وقرئ ربأت أي: ارتفعت، البهيج الحسن السائر للناظر إليه، أي: ذلك الذي نكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم، واللطائف حاصل بهذا، وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور كونه وهو ﴿إن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى، وعلى كل مقدر وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

عن ابن عباس أنه أبو جهل ابن هشام، وقيل: كرز كما كررت سائر الأقباص وقيل: الأوّل في المقلدين وهذا في المقلدين. والمراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير الوحي أي:

والباطل، ﴿ويتبع﴾ في تلك خطوات ﴿كل شيطان﴾ عات علم من حاله وظهور، وتبين أنه من جعله ولياً له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء البدع والحشوة المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أولياً بل هم أشد الشياطين إضلالاً، واقطعهم لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدويناً ولقنوه أشياعهم تلقيناً، وكانهم ساطوه بلحومهم ودمائهم وإياهم عني من قال:

ويارب مقفور الخطابين قومه طريق نجاة عندهم مستونهج ولو قرؤا في اللوح ما خطفه من بيان اعوجاج في طريقته عجوا اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملأئكتك في سمواتك، وأنبيائك في أرضك وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَهُ فَأَنَّهُ يُعَلِّمُهُ وَيَهْدِيهِ لِكَنَادِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

والكتابة عليه مثل أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ودرقم به لظهور ذلك في حاله.

وقرئ ﴿أنه﴾ و﴿فأنه﴾ بالفتح والكسر فمن فتح فلان الأول فاعل كتب، والثاني: عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما تقول: كتبت إن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل أو على أن كتب فيه معنى القول.

يَكَايَهُمُ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ اللَّيْلِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَيُقَرِّى فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَحْسَنُ مُّسَمِّئاً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّؤْتُوا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَيْكَ أَرْدَى الْأُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عَلِيمٍ شَيْئاً وَرَبِّى الْأَرْضِ هَادِئَةً فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ فَهَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بَرِّجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ مَوْلَىٰ وَرَبِّ الْمَوْتِ وَاللَّهُ عَلَن كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ مَأْتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الجلب، والطرذ في الجلب، والطرذ كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ربيكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلقه قطعة الدم الجامدة والمضغة اللحمه الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة المساواة للمساء من النقصان والعييب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه، وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساة كأنّ الله تعالى يخلق المضع متفاوتة منها ما هو كامل الخلقه أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع تلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم، ونقصانهم وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقه إلى خلقه ﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدرج قدرتنا، وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين الماء والتراب

يجادل بظن وتخمين لا بأحد هذه الثلاثة.

كَأَنِّي عَطِينُهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ يُدْفِقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْعَلِيْقِ ﴿١٩﴾.

وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصغير الخد ولي الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر. وعن الحسن: ثاني عطفه بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿ليضل﴾ تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فإن قلت: ما كان غرضه من جداله الضلال ﴿عن سبيل الله﴾ فكيف علل به، وما كان أيضاً مهتنباً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال! قلت: لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه، وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال وخزيه ما أصابه يوم بدر من الصغار، والقتل والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يظَلِّمَ لِلْمَيِّدِ ﴿٢٠﴾.

هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار، وإثابتة الصالحين.

وَمَنْ آتَاكَ مِن بَعْدِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْتُمْ عَلَيْهَا وَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٢١﴾.

﴿على حرف﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون، وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قرء واطمان وإلا فرّ وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أغاريب قدموا المدينة وكان أحدهم: إذا صح بدنه، ونتجت فرسه مهراً سريعاً وولدت امرأته غلاماً سوياً، وكثرت ماله ومشيبته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً، واطمان وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب. وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم، فأصابته مصائب فتشامم بالإسلام فاتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: «إن الإسلام لا يقال» فنزلت (1)، المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله جامع على نفسه محتئين إحداهما ذهاب ما أصيب به، والثانية ذهاب ثواب الصابرين فهو خسران الدارين، وقرئ: خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَّا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ السَّبَلُ الْعَبِيدُ ﴿٢٢﴾.

استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعده في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض! قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً، ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول: هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، وبخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاه لها.

يَدْعُوا لِمَن ضَرَّهُ أَرْبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الشَّيْبُرُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَسْبِيَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٤﴾.

﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرر يدعو كأنه قال: يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شقيقاً لبئس المولى وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام، المولى الناصر، والعشير: صاحب كقولهم: ﴿فبئس القرين﴾.

مَنْ كَانَتْ يَدُّهُ أَوْ لَنَ يَضُرَّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْرِبُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿٢٥﴾.

هذا كلام قد نخله اختصار والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن من حاسديه، وأعابيه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته، فاختنق فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل: للبهز القطع، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكذب به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحققهم على المشركين يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت.

وقد فسّر النصر بالرزق وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام فليبلغ غاية الجزع، وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً، أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنْ يَهْدِي وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَشَدِيدٌ ﴿١١﴾

آيات بيّنات و﴿﴾ - **﴿إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾** به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيناً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالزَّاهِقِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِتَنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزءاً واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن جعل الصابئون مع النصاري لأنهم نوع منهم، وقيل: يفصل بينهم يقضي بينهم أي: بين المؤمنين والكافرين وأنزلت أن على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التوكيد ونحوه قول جرير:
إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَرِيحاً سَرِيحاً لَمْ يَكُنْ سَرِيحاً

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالشَّوَابِكُ وَالْحَائِطُ مِنَ الْإِنسَانِ وَالْكَافِرُونَ
حَتَّىٰ طَائِفَةٌ مِنَ الْعِبَادِ لِمَنْ لَمْ يُحْسِنِ الْعِبَادَةَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ فَعَلَ مَا
يَفْعَلُ ﴿١٧﴾

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيرها لها سجوداً له، تشبيهاً لمطاوعتها بإسخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانتقاد، وهو السجود الذي كل خضوع بونه.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: **﴿وكثير من الناس﴾** وبما فيه من الاعتراضين أحدهما: أن السجود على المعنى الذي فسرت به لا يسجده بعض الناس دون بعض والثاني أن السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أو لا فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة؛ **قلت:** لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل، وإنما أرفعه بفعل مضمحل يدل عليه قوله: يسجد أي: ويسجد كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة، والعبادة في حق هؤلاء؛ لأن اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: **﴿حق عليه العذاب﴾** ويجوز أن يجعل من الناس خيراً له أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتقون ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب، كأنه قيل:

وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب، وقرئ: حق بالضم، وقرئ: حقاً أي: حق عليهم العذاب حقاً، ومن أهانه الله بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره، أو فسقه فقد بقي مهاناً لن تجد له مكرماً، وقرئ: مكرم بفتح الراء بمعنى: الإكرام إنه **﴿يفعل ما يشاء﴾** من الإكرام والإهانة ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين، واعتقاد المعتقدين.

هَذَا كَمَا أَخْبَرَنَا فِي رِوَايَةِ الْقَائِمِ كَفَرُوا فَطَمَعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمْ الْحَمِيمُ ﴿١٨﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾

الخصم صفة وصف بها الفوج، أو الفريق فكانه قيل: هذان فوجان، أو فريقان مختصمان، وقوله: هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا ولو قيل: هؤلاء خصمان أو اختصما جاز يراد المؤمنون، والكافرون قال: ابن عباس رجع إلى أهل الأديان الستة **﴿في ربهم﴾** أي: في دينه وصفاته، وروي أن أهل الكتاب قالوا: للمؤمنين نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم وقال: المؤمنون نحن أحق بالله آمناً بمحمد وآمناً بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتكم به حسداً فهذه خصومتهم في ربهم **﴿فالفنن كفروا﴾** هو فصل الخصومة المعنى بقوله تعالى: **﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾** وفي رواية عن الكسائي خصمان بالكسر.

وقرئ: قطعت بالتخفيف كأن الله تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جنثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض، ونحوه سراويلهم من قطران **﴿الحميم﴾** الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾

﴿يصهر﴾ يذاب وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة أي: إذا صب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أحشاهم، وأمعاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: **﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾** (١).

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ سَائِرِ ﴿٢١﴾

والمقامع: «السياط». في الحديث: لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما اقلوها» (٢).

(1) سورة محمد، الآية: 15.

(2) أحمد في المسند 29/3، وأبو يعلى في المسند، (الحديث رقم:

كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنَّا مِنْ عَمْرِ أَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٦﴾

وقرأ الأعمش رثوا فيها والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً ﴿١٧﴾ قيل لهم: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلِسُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٨﴾

﴿يجلسون﴾ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب على ويؤتون لؤلؤاً كقوله: وحروراً عينا، ولؤلؤاً بقلب الهمزة الثانية وأولاً ولولياً بقلبيهما وأوين، ثم تقلب الثانية ياء كادل ولول كادل فيمن جز ولؤلؤ وليليا بقلبيهما يامين عن ابن عباس.

وَهُدًى إِلَى الْكَافِرِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى مِرْطَبٍ لَمَّيْدٍ ﴿١٩﴾

وهدهم الله والهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهدهم إلى طريق الجنة يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين لا يرد حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمته وأوقاته، ومنه قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّبِيلِ الْكَافِرِ الَّذِينَ جَمَلَتْ لَهُمْ لِحَابِ سَوَاءَ أَلَمِكُمْ فِيهِ وَأَبَادٍ وَمَنْ يَرِدَ فِيهِ بِالْكَافِرِ يَطَّلِمُ بَغْضًا مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٠﴾

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: الصدود منهم مستمر دائم ﴿للناس﴾ أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانى وطارى، ومكي وأفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين إن المراد بالمسجد الحرام: مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي لا يتمتع نك وقد حاور إسحق بن راهويه فاحتج بقوله: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ (١) قال: انسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها واشترى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه، أو غير مالكيه ﴿سواء﴾ بالنصب قراءة حفص والباقرن على الرفع ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه أي: جعلناه مستويًا ﴿العاكف فيه والباد﴾، وفي القراءة بالرفع الجملة مفعول ثان الإلحاد العدول عن القصد، وأصله إلحاد الحافر وقوله:

﴿بإلحاد بظلم﴾ حالان مترافقتان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كانه قال: ومن يرد فيه مراناً ما عادلاً عن القصد ظالمًا، ﴿ننقه من عذاب قيم﴾ يعني: أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده وقيل: الإلحاد في الحرم منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير الاحتكار، وعن عطاء قول: الرجل في المبايع لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل، والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقول له: فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول: الرجل لا والله وبلى والله (٢) وقرئ: يرد بفتح الياء من الورد ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالمًا، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم أراد إلحادًا فيه فأضافه على الاتساع في الظرف كمكر الليل، ومعناه أن يرد أن يلحد فيه ظالمًا وخبر إن محنوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه نذبا فهو كذلك عن ابن مسعود الهمة في الحرم تكتب نذبا.

وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ إِلَى رَبِّهِمْ أَلْبَابَ رَبِّهِمْ لَا تَحْرُفٌ فِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتَ لِلطَّائِبِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢١﴾

وانكر حين جعلنا ﴿لإبراهيم مكان البيت﴾ مباءة أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال: لها الخوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم، وإن هي المفسرة.

فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوة؟ قلت: كانت التبوة مقصودة من أجل العبادة، فكانه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لا تشرك بي شيئًا وطهر بيتي﴾ من الأصنام والأوثان والأقدار أن تطرح حوله، وقرئ: يشرك بالياء على الغيبة.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ ﴿٢٢﴾

﴿وَأذن في الناس﴾ ناد فيهم وقرأ ابن محيصن وأذن والنداء بالحج أن يقول: حجوا وعليكم بالحج وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم (٣) وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (٤) ﴿رجالاً﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام وقرئ: رجالاً بضم الراء مخفف الجيم، ومثقله ورجالي كجالي عن ابن عباس ﴿وعلى كل ضامر﴾ حال معطوفة على حال كانه قال: رجالاً وربكنا ﴿ياتين﴾ صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع وقرئ: يأتون صفة

(3) الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/381.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي 2/381.

(1) سورة الحج، الآية: 40.

(2) رواه الطبري في تفسيره، وأبو الوليد الأزرق في تاريخ مكة.

زيلعي 2/381.

فإن قُلْتُ: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع! قُلْتُ: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهه فعل به ما فعل.

ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا أَلْيَسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٥﴾.

﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن تلك كما يقدم الكتاب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل منك، وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمت خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلو لا يستثنى من الأنعام ولكن المعنى ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ آية تحريمه وذلك قوله: في سورة المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ والمعنى أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البحرية والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك، لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها اتبعه الأمر باجتنب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمت وأسبقها خطأً وجمع الشرك، وقول الزور في قرآن واحد وذلك أن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة، فكانه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح، والسماجة وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله: ﴿رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ (3) جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب ﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس وتمييز له كقولك: عندي عشرون من الدراهم لأن الرجس منهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والزور من الزور والازورار وهو كما أن الإفك من إفكه إذا صرفه، وقيل: قول

للرجال والركبان والعميق البعيد، وقرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

لِيَسْهَدُوا مَنَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فُكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْيَسَ الْفَقِيرَ ﴿٣٨﴾.

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة بنية ودينية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حجَّ فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بنكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن نكر اسمه إذا نحرُوا أو نبجوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى أن ينكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً أن جمع بين قوله: ﴿ليذكروا اسم الله﴾ وقوله: ﴿على ما رزقهم﴾ ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من تلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات أيام العشر عند أبي حنيفة وهو قول: الحسن وقتادة وعند صاحبيه أيام النحر البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالاكل منها أمر إباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا ياكلون من نساكهم، ويجوز أن يكون نبأً لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحباب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيتة مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث يهدي وقال: فيه إذا نحرته فكل وتصق، وأبعث منه إلى عتبة⁽¹⁾ يعني: ابنه وفي الحديث كلوا وأنحروا، واتحجروا⁽²⁾ ﴿البائس﴾ الذي أصابه بؤس أي: شدة. و﴿الفقير﴾ الذي أضعفه الإعسار.

ثُمَّ لِيَقْتَرُوا نَفْسَهُمْ وَيَرْجُوا نُدْرَهُمْ وَيَسْتَظِرُّوا بِالْأَيْدِي الْعَرِيَّةِ ﴿٣٨﴾.

قضاء التفت: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفت الوسخ فالمراد قضاء إزالة التفت، وقرى: وليوفوا بتشديد الفاء ﴿نذورهم﴾ مواجب حجهم أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم ﴿وليظفروا﴾ طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع ﴿للعتيق﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن وعن قتادة أعنت من الجبارة كم من جبار سار إليه ليهدمه، فمنعه الله وعن مجاهد لم يملك قط وعنه أعنت من الغرق وقيل: بيت كريم من قولهم: عتاق الخيل والطير.

= في حبس لحوم الأضاحي، (الحديث رقم: 2812)، والنسائي في الضحايا، باب: الأضاحي، (حديث: 4443).

(3) سورة المائدة، الآية: 90.

(1) الطبراني في معجمه.

(2) أخرجه مسلم في الأضاحي، باب: ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي، (حديث رقم: 28)، وأبو داود في كتاب: الأضاحي، باب: =

الزور قولهم: هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افتراءهم وقيل: شهادة الزور عن النبي ﷺ أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً، واستقبل الناس بوجهه وقال: عدلت شهادة الزور الإشراف بالله عدلت شهادة الزور الإشراف بالله عدلت شهادة الزور الإشراف بالله، وتلا هذه الآية (1) وقيل الكذب والبهتان وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

حُنْفَاءٌ لِلَّهِ عِبْرٌ مُّشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَتْهُ الْأَنْجَارُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَوِيٍّ (٣٦).

يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهاً مركباً فكانه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء، فاختطفته الطير ففترق مزعماً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفروقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهالوي المتلفة (2)، وقرئ فتخطفه ويكسر الخاء والطاء ويكسر اللتاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تخطفه، وقرئ الرياح.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شُكْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٧) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجْلِ سُمِّيَ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٧).

تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حسناً سماناً غالبية الأثمان، ويترك

المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكروهن المكاس فيهن الهدى والأضحية والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعه ويشترى بثمنها بنياً، فنهاه عن ذلك وقال: بل أهدها (3) وأهدى رسول الله ﷺ مائة بنية فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب (4)، وكان ابن عمر يسوق البدين مجللة بالقباطي، فيتصدق بلحومها وبجلالها (5) ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها، وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به، ويسارع فيه «فإنها من تقوى القلوب» أي: فإن تعظيمها من أفعال نوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزء إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء «إلى أجل مسمى» إلى أن تنحر، ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و «ثم» التراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: «تربيتون عرض الدنيا والله يريد الآخرة» (6) وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع «محلها إلى البيت» أي: وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله: «هدياً بالغ الكعبة» (7) والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت، ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتومه، واتصل مسيركم بحوده وقيل: المراد بالشعائر المناسك كلها ومحلها إلى البيت العتيق بإياه.

أخرجه أحمد في المسند 321/4، وأبو داود في كتاب: الإقضية، باب: في شهادة الزور، (الحديث رقم: 3599)، والترمذي في كتاب: الشهادات، باب: ما جاء في شهادة الزور، (الحديث رقم: 2300).

قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفروقاً، فيحتاج تأويل تشبيهه المشرك بالهاوي من السماء إلى التشبيه على أحد أمرين، إما أن يكون الإشراف المراد ربه، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بليامته، ثم هبط بارتداده، وإما أن يكون الإشراف أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به، ثم عدوله عنه اختياراً بمنزلة من علا إلى السماء، ثم هبط كما قال تعالى: «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» فعدمهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه، وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا، وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويع الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق نظر، لأن الأمرين نكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزع الشيطان، فقد جعلهما شيئاً واحداً؛ لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء مضاف إلى نزع الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود، والذي يظهر في تقرير التشبيين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما الأول منهما المتذبذب، =

والمتمادي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفه الطير، وتوزعت فلا يستولي طائر على مزعة منه، إلا انتهت منه آخر، وذلك حال المتذبذب لا يلوح له خيال، إلا اتبعه ونزل عما كان عليه، والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطعم في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل، فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخياء عن السماء. وصف ضلاله بالبعيد في قوله تعالى: «ولئك في ضلال بعيد» «وضلوا ضلالاً بعيداً» أي: صمموا على ضلالهم بعيد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين والله أعلم.

تقدم تخريجه سابقاً.

(3) كشف الأستار، كتاب: الحج، باب: ما جاء في الهدى، (الحديث رقم: 1104).

(4) وأخرجه نحوه أبو داود في سننه، كتاب: الحج.

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: العمل في الهدى، حيث يساق (الحديث رقم: 146).

(6) سورة الأنفال، الآية: 67.

(7) سورة المائدة، الآية: 95.

يديها، فتقوم على ثلاث، وقرى صوافي أي: خوالص لوجه الله وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتونين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صواف نحو مثل العرب أعط القوس باريها بسكون الياء وجوب الجنوب، وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة غربت والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها حل لكم الأكل منها والإطعام ﴿القانع﴾ السائل من قنعت إليه، وكنتت إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿والمعتر﴾ المعترض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده، وبما يعطي من غير سؤال من قنعت قنوعاً وقناعة والمعتر المعترض بسؤال، وقرأ الحسن والمعترى وعزّه وعراه واعتراه واعتره بمعنى، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقناع.

من الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البين مثل التسخير الذي رآوا، وعلموا يأخونها منقادة للآخذ طيبة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يعطون في لبانها ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً، وأقل قوة وكفى بما يتبادل من الإبل شاهداً وعبرة.

لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا يَمَازُهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّعْرَى بِنِكْمٍ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهرقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى: لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثرت منهم، وقرى: لن تنال الله ولكن تناله بالياء وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البين نضحوا له ماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أربابوا مثل ذلك فنزلت، كَرَّرَ تذكير النعمة بالتسخير، ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لإعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعنيته.

إِنَّ اللَّهَ يُدْعِي عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَذُورٍ ﴿٣٨﴾

خصّ المؤمنين بدفعه عنهم ونصرتهم لهم كما قال: ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾^(٤) وقال: ﴿إنهم لهم

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ إِنَّهُ وَيَعِدُ لَهُمْ أَجْرًا وَسَبَّحَ الْمُسْتَبِينَ ﴿٣٩﴾

شرح الله لكل أمة أن ينسكوا له أي: ينجحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النساءك، وقرى: ﴿منسكاً﴾ بفتح السين وكسرهما وهو مصدر بمعنى: النسك والمكسور يكون بمعنى: الموضع ﴿فله أسلموا﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً، أي: خالصاً لا تشويبهه بإشراك. المخيقون المتواضعون الخاشعون من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتِ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُؤْمِنِينَ السَّالِفِينَ ﴿٤٠﴾

وقرأ الحسن ﴿والمقيمي الصلاة﴾ بال نصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لِكُلِّ مِنْ شَعْبٍ اللَّهُ لِكُرِّ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۗ إِنَّا وَجَّعْتُ جُزُؤَهَا فُكُورًا مِثًا وَأَلْوَعْمًا الْفَاقِحَ وَالْمَعْمَرُ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَمْلِكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٤١﴾

﴿البلدين﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة^(١) فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة، وأصحابه وإلا فالبلدين هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن والبلدين بضمين كثر في جمع ثمرة وابن أبي إسحق بالضمين، وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرى: بالنصب والرفع كقوله: ﴿والقمر قدرناه﴾^(٢) ﴿من شعائر الله﴾ أي: من إعلام الشريعة التي شرعها الله وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ﴿لكم فيها خير﴾ كقوله: ﴿لكم فيها منافع﴾^(٣) ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير، ومنافع بشهادة الله عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير، فاشتري بها بدنة فقيل له: في ذلك فقال: سمعت ربي يقول: ﴿لكم فيها خير﴾ وعن ابن عباس دنيا وأخرة وعن إبراهيم من احتاج إلى ظهرها ركب ومن احتاج إلى لبنها شرب، ونكر اسم الله أن يقول: عند النحر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك، ﴿صواف﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرى صوافن من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبك لأن البدنة تعقل إحدى

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: الإشراف في الهدى، (الحديث رقم: 350 - 1318)، وأبو داود في السنن، كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزور عن كم تجزى، (الحديث رقم: 2809)، وأخرج الحديث: «الجزور عن سبعة» (الحديث رقم: 2808)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الإشراف في البدنة والبقرة، (الحديث

= رقم: 904)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: ما تجزى عنه البقرة في الضحايا، (الحديث رقم: 4394).
(2) سورة يس، الآية: 39.
(3) سورة الحج، الآية: 33.
(4) سورة غافر، الآية: 51.

وأوليائه.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَكَاثِرُوا بِالصَّلَاةِ وَأَثَرُوا الرَّكْعَةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عِبَادَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ وَإِنْ
يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فَجَاءَ وَعَادُ وَتَأْمُرُ ﴿١٢﴾

هو أخبار من الله عز وجل بظهور الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم أن مكنتهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أن الله قد آثني عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحثوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله لم يعط التمكين، ونفذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ في ذلك للانصرار والطلاق وعن الحسن هم أمة محمد ﷺ وقيل: الذين منصوب بدل من قوله: من ينصره والظاهر أنه مجرور تابع للذين أخرجوا ﴿الله عاقبة الأمور﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

يقول لرسول الله ﷺ: تسليية له لست بأوحدى في التكنيب فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفك بهم أسوة.

قَوْمٌ لِرَبِّهِمْ قَوْمٌ لَوْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ كَذَّابًا لَمَا كُنَّا بِاللَّيِّنِينَ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ كَذَّابًا لَمَا كُنَّا بِاللَّيِّنِينَ ﴿١٣﴾ وَأَسْحَبُ مَدِينَةٍ وَكَبَّابٌ مَدِينَةٍ فَالْمَلِئْتُ
لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾

فإن قلنت: لم قيل ﴿وكنب موسى﴾ ولم يقل وقوم موسى! قلنت: لأن موسى ما كنبه قومه بنو إسرائيل وإنما كنبه غير قومه، وهم القبط وفيه شيء آخر كانه قيل: بعد ما نكر تكنيب كل قوم رسولهم وكنب موسى أيضا مع وضوح آياته (5) وعظم معجزاته فما ظنك بغيره، النكير بمعنى: الإنكار والتغيير حيث أبلههم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكاً وبالعمارة خراباً.

فَكَانَ مِنَ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَكَانَ مِنَ قَرِيْبٍ
عُرُوشَهَا رَبِّرٌ مُطْمَئِنٌّ وَصَبْرٌ مُشِيدٌ ﴿١٥﴾

كل مرتفع أظلك من سقف بيت، أو خيمة، أو ظلة، أو كرم فهو عرش، والخاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل وقوله: ﴿على عروشها﴾ لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى: أنها ساقطة على سقفها أي حرت سقفها على الأرض، ثم تهتمت حيطانها فسقطت فوق السقف، أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإما أن يكون خبراً بعد خبر كانه قيل: هي

المنصورون ﴿١١﴾ وقال: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ (2) وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغضبونها، ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفاع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ كَذَّابًا لَمَا كُنَّا بِاللَّيِّنِينَ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ كَذَّابًا لَمَا كُنَّا بِاللَّيِّنِينَ ﴿١٣﴾

﴿أنن﴾ و﴿يقاتلون﴾ قرنا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعاً والمعنى: أنن لهم في القتال فحذف المانون فيه دلالة يقاتلون عليه ﴿بأنهم ظلموا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤنونهم أنى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإنني لم أومر بالقتال حتى هاجر (3) فانزلت هذه الآية وهي أول آية أنن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأنن لهم في مقاتلتهم، والأخبار بكونه قادراً على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبارة.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِئْسَ لِحَيِّهِمْ إِذَا لَمْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا
دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَسْمَعُنَّ اللَّهَ مِنْ دُونِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٤﴾

وما مر من دفعه عن الذين آمنوا مؤنن يمثل هذه العدة أيضاً ﴿أن يقولوا﴾ في محل الجر على الإبدال من حق أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار، والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير ومثله ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله﴾ (4)، دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمئتهم، وعلى متعبدهم فهموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لربانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد، أو لقلب المشركون من أمة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في نمتهم وهنموا متعبداً الفريقين، وقرئ: دفاع ولهدمت بالتخفيف وسميت الكنيسة صلاة لأنه يصلي فيها، وقيل: هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلواتاً ﴿من ينصره﴾ أي: ينصر دينه

= تكنيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فالمليت للكافرين﴾ فيتصل المسبب بالسبب كما قال في آية ق بعد تعديدهم ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ فربط العقاب والوعيد وصلهما بالتكنيب بعد أن جدد نكره والله أعلم.

(1) سورة الصافات، الآية: 172.

(2) سورة الصف، الآية: 13.

(3) قال الزيلعي غريب جداً. زيلعي، 388/2.

(4) سورة المائدة، الآية: 59.

(5) قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أنه لما صدر الكلام بحكاية =

مكان العمى هو القلوب لا الأيصار كما تقول: ليس المضاء للسيف؛ ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما أذعته للسانه، وتثبيت لأن محل المضاء هو لا غير وكانك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف، وأثبتته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً.

رَسَعَلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾.

انكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الأجل كانه قال: ولم يستعجلون به كأنهم يجوزون الفتور، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبينهم، ولو بعد حين^(١). وهو سبحانه حلیم لا يعجل ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أن يوماً واحداً عنده كالف سنة عنكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنينكم لأن أيام الشدائد مستطالة، أو كان ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كانه سنة من سني العذاب وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ: تعون بالباء والياء.

وَكَأَنِّ مِّنْ قَرِيبٍ أُنْتِيتُ هَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّرَأْسِهِ فَخَفَّتْ رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَأَقْرَبُوا ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ سِوَىٰ ذَٰلِكَ فَتَنَةٌ مِّنْ رَبِّكَ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَسْحَبُ الْجَحِيمِ ﴿٤٩﴾.

ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد انظرتهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إلي وإلى حكمي. فإن قُلْتُ: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء وهذه بالواو! قُلْتُ: الأولى وقعت بدلاً عن قوله: ﴿فكيف كان تكبير﴾ وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله: ﴿ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة﴾ يقال: سعيت في أمر فلان إذا أصلحه، أو أفسده بسعيه وعاجزه سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير ومن تثبیط الناس عنها سابقين، أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم!

فإن قُلْتُ: كان القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير لنكر الفريقين بعده! قُلْتُ: الحديث مسوق إلى المشركين ﴿هيا أيها الناس﴾ نداء لهم، وهم الذين قيل: فيهم ﴿أقلم

خالية وهي على عروشها أي: قائمة مطلة على عروشها على معنى: أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان، وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قُلْتُ: ما محل الجملتين من الإعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية؟ قُلْتُ: الأولى في محل النصب على الحال والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على أهلكتناها، وهذا الفعل ليس له محل قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكتنا وكم بشر عطلنا عن سقاتها وقصر مشيداً خليئنا عن ساكنيه، فترك ذلك لدلالة معطلة عليه وفي هذا دليل على أن على عروشها بمعنى: مع أوجه روي أن هذه بشر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت وإنما سميت بذلك لأن صالحاً حين حضرها مات وثمة بلدة عند البئر اسمها حضوراء بناها قوم صالح، وأمروا عليهم جلهس بن جلاس وأقاموا بها زماناً ثم كفروا، وعبدوا صنماً وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبياً، فقتلوه فاهلكهم الله وعطل بثرهم وحزب قصورهم يحتمل أنهم لم يسافروا.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ بَلَاغًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾.

فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكتهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كان لم يسافروا ولم يروا وقرئ: ﴿فيكون لهم قلوب﴾ بالياء أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي ﴿فإنها﴾ الضمير ضمير الشأن، والقصة يجيء منكراً ومؤنثاً وفي قراءة ابن مسعود، فإنه ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره ﴿الأبصار﴾ وفي تعمي ضمير راجع إليه والمعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم أو لا يعتد بعنى الأبصار، فكانه ليس بعنى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قُلْتُ: أي: فائدة في نكر الصور؟ قُلْتُ: الذي قد تورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحقيقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين، وفضل تعريف ليتقرر أن

== لا ترجون لله وقاراً فقد نسر بالعظمة، فليس من هذا، وعلى الجملة، فهو موقوف على ثبت في النقل.

(١) قال أحمد: الوار المقرون بالحلم يفهم لغة السكون، وطمانينة الأعضاء عند المزعجات، والأناة والثؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلع على الله تعالى إلا بتوقيف، وأما الوار في قوله تعالى: ﴿وما لكم

يسيروا في الأرض ﴿١﴾ ووصفوا بالاستعجال وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّاهُ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿من رسول ولا نبي﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبي وعن النبي ﷺ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل: فكم الرسل منهم قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمًّا غفيراً»⁽²⁾ والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما عرض عنه قومه، وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم، واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة والنجم وهو في نادى قومه وذلك التمنى في نفسه فأخذ يقرأها فلما بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾⁽³⁾ ﴿اللقى الشيطان في أمنيته﴾ التي تمناها أي: وسوس إليه بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجي»⁽⁴⁾، وروى الغرانيقة ولم يفتن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل: نبهه جبريل عليه السلام، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وإبتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت مكن الله الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل مالقى في أمنيك إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضعاف ثواب الثابتين، ويزيد في عقاب المذبذبين وقيل: تمنى قرأ وأنشد:

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل وأمنيته قراءته وقيل: تلك الغرائيق إشارة إلى الملائكة أي: هم الشفعاء لا الأصنام ﴿فينسخ الله ما يلقي للشيطان﴾ أي: يذهب به ويبطله ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أي: يثبتها.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ سُخْرًا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبِهِمْ وَإِنَّ الشَّاكِرِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

والذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ المنافقون والشاكرون ﴿والقاسية قلوبهم﴾ المشركون المكذبون ﴿وإن الظالمين﴾ يريد وإن هؤلاء المنافقين والمشركين وأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم.

وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَوِّتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٨﴾

﴿إنه الحق من ربك﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق من ربك والحكمة ﴿وإن الله لهادٍ للنبيين آمنوا إلى﴾ أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعثرهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ ﴿لهاد الذين آمنوا﴾ بالتثنية.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٢٩﴾

الضمير في ﴿مرية منه﴾ للقرآن أو للرسول ﷺ، اليوم العقيم يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ربح عقيم إذا لم تنشئ مطراً ولم تلحق شجراً وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه وعن الضحاك أنه يوم القيامة، وإن المراد بالساعة مقدماته ويجوز أن يراد بالساعة ويوم عقيم يوم القيامة وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذابها فوضع يوم عقيم موضع الضمير.

الْمَلِكُ يُوعِظُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَبِّهِمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَفَرُوا السَّالِفِينَ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٣١﴾

فإن قلت: التثنية في ﴿يومئذ﴾ عن أي: جملة ينوب! قلت: تقديره الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مرتبتهم. لقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة﴾.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَزَائِرٌ رِزْقِينَ ﴿٣٢﴾

لما جمعهم المهاجرة في سبيل الله سوى بينهم في

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: فاجعلوا لله واعبوا (الحديث: 4862).

(1) سورة فاطر، الآية: 26.

(2) سورة الحج، الآية: 20.

(3) أخرجه أحمد في المسند، 5/178.

الموعود وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطى من قتل
تفضلاً منه وإحساناً.

لِيَتَّخِذَهُمْ مُتَخَلَّفِينَ رِضْوَانَهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾

والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم
﴿حليم﴾ عن تقريظ المفطر منهم بفضله، وكرمه روى أن
طوائف من أصحاب رسول الله ﷺ، رضي عنهم قالوا: يا
نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من
الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك،
فانزل الله هاتين الآيتين.

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ
لِيَصْرِفَهُ اللَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَعَنُوا عَفْوَ ﴾ ﴿٩٠﴾

تسمية الابتداء بالجزاء لملاسته له من حيث أنه سبب
وذلك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنفق
على النفق للملاسة.

فإن قلت: كيف طابق نكر العفو الغفور هذا الموضع؟
قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال
بالعقاب، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم
ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن أثر ما ندب إليه
وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب
ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره
على الله﴾ (١) ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾ (٢) ﴿ولمن صبر
وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (٣)، ﴿فإن الله لعفو غفور﴾
أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره
في كرتة الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه،
ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ويعرض مع ذلك
بما كان أولى به من العفو ويلوح به بنكر هاتين الصفتين
أو دلل بنكر العفو، والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه
لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ذلك﴾ أي: ذلك
النصر بسبب أنه قادر.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٩١﴾

ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يولج الليل في النهار
ويولج النهار في الليل﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار
ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي
عباده من الخير والشر والبيهي والإنصاف وأنه ﴿سميع﴾
لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون.

فإن قلت: ما معنى إيلاج أحد الملويين في الآخر؟ قلت:
تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيوبية الشمس
وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيء
السرب بالسراج ويظلم بفقده وقيل: هو زيادته في أحدهما
ما ينقص من الآخر من الساعات.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ. هُوَ
الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٩٢﴾

وقرئ ﴿تدعون﴾ بفتح الياء وقرأ اليماني: ﴿وإن ما
يدعون﴾ بلفظ لمبني للمفعول والواو راجعة إلى ما لأنه في
معنى الألهة أي: تلك الوصف يخلق الليل والنهار والإحاطة
بما يجري فيهما وإدراك كل قول: وفعل بسبب أنه الله
الحق الثابت إلهيته وإن كل ما يدعى إليها بونه باطل الدعوة
وأنه لا شيء أعلى منه شأنًا وكبر سلطانًا.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ
مُخْضِرَةً إِنَّ اللَّهَ لَبِيتٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿٩٤﴾

قرئ ﴿مخضرة﴾ أي: ذات خضر على مفعلة كمفعلة
ومسببة.

فإن قلت: هلا قيل فاصبحت ولم صرف إلى لفظ
المضارع! قلت: لنتكته فيه وهي إفاضة بقاء أثر المطر زمانًا
بعد زمان.

كما تقول: انعم على فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرًا
له ولو قلت: فرحت وغوت لم يقع ذلك الموقع.

فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابًا للاستفهام؟
قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه
إثبات الاخضرار، فيتقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثله
إن تقول: لصاحبك ألم تر أنني أنعمت عليك، فتشكر إن
نصبت فانت ناف لشكره شك تقريظه فيه وإن رفعته فانت
مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم
بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله ﴿لطيف﴾ وأصل
علمه أو فضله إلى كل شيء.

﴿ خَبِيرٌ ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْمَلَائِكَةَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَمَنْ يَسِكْ أَسْكَاهُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٩٥﴾

﴿ما في الأرض﴾ من البهائم منزلة للركوب في البر
ومن المركب جارية في البحر وغير ذلك من سائر
المسخرات، وقرئ ﴿وولفلك﴾ بالرفع على الابتداء ﴿إن
تقع﴾ كراهة أن تقع ﴿إلا﴾ بمشيتها.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَخَّرَ بِهٖ الْأَرْضَ
لِكُلِّ شَيْءٍ مِمَّا رَزَقَكُمُوهَا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ لَكُمْ مَاءً حَلِيمًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾

﴿لحيالكم﴾ بعد أن كنتم جمادًا ترابًا ونطفةً وعلقةً
ومضغةً ﴿لكفور﴾ لجمود لما أفاض عليه من ضروب
النعم، هو نهي لرسول الله ﷺ أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا

بمعلوم.

وَيَصِدُّونَ مِنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ (٧١).

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحي، والسمع ولا الجاهم إليها علم ضروري ولا حطهم عليها دليل عقلي ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِحُجَّتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
بِكَادُورٍ يَسْطُرُ بِاللَّيْلِ يَلُوكُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ يُشْرِكُونَ
ذِكْرُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِئُونَ الْإِنْسَانُ لِمَ سَاءُ

﴿المنكر﴾ الفظيع من التجهم والبسور، أو الإنكار كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ يعرف والمنكر، والسطو الوثب والبطش، قرئ ﴿الفار﴾ بالرفع على أنه خير مبتدأ محذوف كأن قائلًا قال: ما هو فقيل: النار أي: هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البذل من شر من نلكم من غيظكم على التالين، وسطركم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلى عليكم ﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرًا وإن يكون حالًا عنها إذا نصبته أو جرتها بإضمار قد.

فإن قُلْتَ: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلًا! قُلْتَ: قد سميت الصفة، أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب مثلًا تشبيهًا لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم.

يَتَأَيَّبُهَا النَّاسُ شُرْبٍ مَثَلٍ فَاسْتَجِمْعُوا لَهُ إِنَّكَ الْبَرُّ تَدْعُوكَ
مِنْ دُونَ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
شَيْئًا لَا يَسْتَنْدِئُ مِنْهُ سَمْعُكَ أَطْرَابُ وَالْأَطْلُوبُ (٧٢).

قرئ ﴿تدعون﴾ بالياء والياء ﴿ويدعون﴾ مبنياً للمفعول ﴿لن﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلا أن لن تنفيه نفيًا مؤكدًا وتأكيديه ههنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل منافي لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ولو اجتمعوا له﴾؟ قُلْتَ: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا خلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالأكهية التي تقتضي الاقتدار على المقدرات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورًا وتمثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه، وأثله وأصغره وأحقره ولو

تمكنهم من أن ينازعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ﷺ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما، قالوا: للمسلمين ملكم تاكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتل الله يعنون الميتة وقال: الزجاج هو نهي له ﷺ عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربك فلان أي: لا تضاربه وهذا جائز في الفعلي الذي لا يكون إلا بين اثنين.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكَهُمْ نَجِيحَهُمْ فَلَا يُسْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ
وَأَدْعُ إِلَيْنَا رَبُّكَ إِنَّكَ لَمَنْ هُدَى سُبُحَّانِ (٧٣).

﴿في الأمر﴾ في أمر الدين وقيل: في أمر النساءك، وقرئ: ﴿فلا ينزعك﴾ أي: أثبت في دينك ثباتًا لا يطمعون أن يجنبوك ليزيلوك عنه، والمراد زيادة التثبيت للنبي ﷺ بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه ومنه قوله: ﴿ولا يصدك عن آيات الله ولا تكونن من المشركين﴾ (١) ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾ (٢) وهيئات أن ترتع همة رسول الله ﷺ حول نك الحمى، ولكنه وارد على ما قلت: لك من إرادة التهيج والإلهاب وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزع أي: غلبته أي: لا يغلبك في المنازعة.

فإن قُلْتَ: لم جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالوار وقد نزعت عن هذه؟ قُلْتَ: لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النساءك، فعطفت على أخواتها وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً.

وَلَنْ جَدُّوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٧٤).

أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجاملة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم ويقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيك به (٣) وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِمْاءُ كَثْرٌ فِيهِ غَضَبُونَ (٧٥).

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين، والكافرين أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي ﷺ مما كان يلقي منهم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٦).

وكيف يخفى عليه ما يعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه ﴿يسير﴾ لأن العالم للذات لا يتعذر عليه، ولا يتمتع تعلق

(1) سورة القصص، الآية: 87.

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) قال أحمد: وقد تقدم مثله، وانكرنا عليه تحميلة القرآن ما لا يحتمله، =

= فإن الأعلم في اللغة هو العلم لرائد المفضل على علم غيره، فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة، هب أن الآلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

بسجدتين، وبذلك احتج الشافعي رضي الله عنه، فرأى سجدتين في سورة الحج وأبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

رَجِهْدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ أَحْبَبْتُكُمْ وَمَا جَمَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ بَيْلَةَ أَيُّكُمْ لِزَيْمِ هُوَ سَتَكُمُ السُّلَيْبِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شَهِدَةً عَلَى النَّاسِ فَأَيُّكُمْ أَصْلَحُ وَأَنَا الرُّكُوزُ وَأَعِصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فِيمَ مَوْلَى وَبِمَا تَصِيرُ (٧٨).

﴿وجاهدوا﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر عن النبي ﷺ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»⁽²⁾. ﴿في الله﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم وجد عالم أي: عالم حقاً وجداً ومنه ﴿حق جهاده﴾.

فإن قُلْتُ: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وجاهدوا في الله﴾! قُلْتُ: الإضافة تكون بانني ملايسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله: ويوم شهدناه سليمان وعامراً ﴿لجبتاكم﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فتح باب النوبة للمجرمين وفسح بانواع الرخص والكفارات والديات والأروش ونحوه قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾⁽³⁾ وأمة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، نصب الملة بمضمون ما تقدمها كانه قيل: وسع بينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حنف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه أو على الاختصاص أي: اعني بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قُلْتُ: لم يكن إبراهيم ﴿أبا للأمة كلها﴾! قُلْتُ: هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أبا لأمة لأن أمة الرسول في حكم أولاده ﴿هو﴾ يرجع إلى الله تعالى وقيل: إلى إبراهيم ويشهد للقول الأول قراءة أبي بن كعب: الله سماكم ﴿من قبل وفي هذا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أنه قد بلغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسل قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبوه وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه فهو خير مولى، وناصر عن رسول الله ﷺ

اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدرُوا، وقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، وألو حقت وجبت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان، وهو جماد وهو غالب وذلك مغلوب وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيلكه.

مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَعَزِيزٌ عَزِيزٌ (٧٩) اللهَ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَكِ رُسُلًا وَمَنْ أَلْتَأْتِيَ إِلَهُكَ اللهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٨٠).

﴿ما قدرُوا الله حق قدره﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموه باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة ولا يتخونه شريكاً له إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟

هذا رد لما اتكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملائكة وبشر.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٨١).

ثم نكر أنه تعالى يراك للمبركات عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها، وما غير لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها والذي هو. بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدبيره واختيار رسله.

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَزَكُّونَ أَمْثَرًا أَرْكَمًا وَسَجْدًا وَغُدُّوا رَبِّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٨٢).

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي نكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات وقيل: كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فامروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وقيل: معنى ﴿واعبدوا ربكم﴾ اقصدا بركوعكم، وسجودكم وجه الله. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وافعلوا الخير﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين، ولا تتكلموا على أعمالكم وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان قال: «نعم إن لم تسجدهما، فلا تقرأهما»⁽¹⁾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فضلت سورة الحج

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريح أبواب السجود

وكم سجدة في القرآن، (الحديث: 1402)، والترمذي في كتاب:

الصلاة، باب: ما جاء في السجدة في الحج، (الحديث: 578)، =

= وأحمد في المسند 4/151).

(2) قال الزيلعي غريب جداً وذكره الثعلبي هكذا من غير سند، 2/395.

(3) سورة البقرة، الآية: 185.

والتشبيك والاختصار وتقليب الحصاص. روي عن النبي ﷺ أنه ابصر رجلاً يعيب بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»⁽⁴⁾ ونظر الحسن إلى رجل يعيب بالحصاص وهو يقول: اللهم زَوِّجني الحور العين، فقال: بشس الخاطب انت تخطب وانت تعبت.

فإن قُلْتَ: لم اضيفت الصلاة إليهم؟ قُلْتَ: لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته ونخبرته، فهي صلاته وأما المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

﴿اللغو﴾ ما لا يعينك من قول: أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إغناء وإطراحه يعني: أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوعِ مُعَدِّلُونَ ﴿٤﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرج الزكاة المزكى من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراد الله فجعل المزكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال: لمحدثه فاعل تقول: للضارب فاعل الضرب، وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول: في جميع الحوادث من فاعل هذا، فيقال: لك فاعله الله أو بعض الخلق⁽⁵⁾ ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها وقد أنشد لامية ابن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة إلا زمة والفاعلون للزكوات ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محنوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصح لأنها فيه مجموعة.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْزِيقِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْزِيقِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾

من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي⁽¹⁾.

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ الرَّحْمَٰنِ

سورة المؤمنون مكية

تَدَأَتْهُ الْآيَاتُ الْكُبْرَىٰ ﴿١﴾

﴿قد﴾ نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، الفلاح الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير و﴿أفلح﴾ دخل في الفلاح كابشر نخل في البشارة ويقال: أفلحه أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على اكلوني البراغيث أو على الإبهام، والتفسير وعنه أفلح بضمة بغير أو اجتزاء بها عنها كقوله: فلو أن الأطبا كان حوالي.

فإن قُلْتَ: ما المؤمن! قُلْتَ: هو في اللغة المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين: أحدهما أن كل من نطق بالشهادتين موافقاً لقلبه لسانه، فهو مؤمن والأخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقى دون الفاسق الشقي⁽²⁾.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾

الخشوع في الصلاة خشية القلب والباد البصر عن قتادة، وهو إلزامه موضع السجود وعن النبي ﷺ أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجد⁽³⁾ وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده، وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقة

(1) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في الوسيط زيلعي... 396/2.

(2) قال أحمد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموجد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر، ولو لم بين المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً، ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده، وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خطباً طويلاً، فنقل عن عدنانهم كعمرو بن عبيد وطبقته: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً، ونقل عن أبي الهذيل العلاف: أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله، ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك =

= شرعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان نبي عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل؛ لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل لأن النقل إما أحاد، أو تواتر إلى آخر مانتة.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في القراءة، (الحديث: 45).

(4) الترمذي في نوابر الأصول.

(5) قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم من القاعد، أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له كزيد وعمرو.

والخسوف وصلاة الضحى والتشهد وصلاة التسبيح
وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل.

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٦﴾

أي: **«أولئك»** الجامعون لهذه الأوصاف **«هم الوارثون»** الأحقاء بأن يسموا ورثاً لكون من عداهم ثم يرثهم الوارثين بقوله:

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَتَامَىٰ هُمُ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴿١٧﴾

بقوله: **«الذين يرثون اليتامى»**، فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر ومعنى الإرث: ما مر في سورة مريم، أنت الفريوس على تأويل الجنة وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر روي أن الله عز وجل بنى جنة الفريوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأنقر وفي رواية ولبنة من مسك منرى وغرس فيها من جيد الفلكة وجيد الريحان.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٧﴾

السلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر وفعالة بناء للقلعة كالقلامة والقمامة وعن الحسن ماء بين ظهرائي الطين.

فإن قلت: ما الفرق بين من ومن؟ قلت: الأول للابتداء والثاني للبيان كقوله من الأوثان.

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي رَاحٍ مَّكِينٍ ﴿١٨﴾

فإن قلت: ما معنى **«جعلنا»** الإنسان **«نطفة»**؟ قلت: معناه أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار المستقر والمراد الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك: طريق سائر أو بمكانتها في نفسها لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت.

رُوحًا خَلَقْنَا نَفْسًا عَاقَّةً فَطَلَقْنَا مَضْجَعًا مَّكَفَكْنَا الْمُؤْمِنَةَ
عِظْمًا فَكَسَرْنَا أَعْظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْمُخَلِّقِينَ ﴿١٩﴾

قرئ عظمًا فكسونا العظم وعظامًا، فكسونا العظم وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس لأن الإنسان نو عظام كثيرة، **«خلقنا آخر»** أي: خلقاً مبايناً للمخلوق الأول مباينة ما بعدهما حيث جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً، وكان أبكم وسميماً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه وأودع بباطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تترك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فافترخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة، **«فتبارك الله»** فتعالى

«على أزواجهم» في موضع الحال أي: الأولين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان ونظيره كان زياد على البصرة أي: والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم، أو تعلق على بمحنوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ علي عنان فرسى على تضمينه معنى النفى كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فلك.

فإن قلت: هلا قيل من ملكتك! قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإنث.

مَنْ أَبَتْ رَأً ذَكَرَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُونُ ﴿٢٠﴾

جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته، واتساعه وهو إباحة أربع من الحرائر ومن الإماء ما شئت **«فأولئك هم»** الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلت: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ قلت: لا لأن المنكوحه نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صح النكاح.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢١﴾

وقرئ **«لأمانتهم»** سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ومنه قوله تعالى: **«إن الله يامركم أن تؤنوا الأمانات إلى أهلها»** (١) وقال: وتخونوا أماناتكم وإنما تؤذي العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه لا الأمانة في نفسها، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء أي: متوليه وصاحبه ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢٢﴾

وقرئ **«على صلاتهم»**
فإن قلت: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخرًا؟ قلت: هما نكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤثروها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها وأيضاً، فقد وجدت أولاً ليقاد الخشوع في جنس الصلاة أي: صلاة كانت وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء والكسوف

أمره في قدرته وعلمه ﴿إحسن الخالقين﴾ أي: أحسن المقدرين تقديرًا فترك نكر المميز لدلالة الخالقين عليه ونحوه طرح المؤمنون فيه في قوله: ﴿إنن للذين يقاتلون﴾ (1) لدلالة الصلة وروي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ قوله: ﴿خلقًا آخر﴾ قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (2) وروي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ، فنطق بملك قبل إملائه فقال له النبي ﷺ: اكتب هكذا نزلت فقال: عبد الله إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فانا نبي يوحى إلي فلحق بمكة كافرًا ثم أسلم يوم الفتح (3).

ثُمَّ لَئِكَ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْتُونَ ﴿٥٧﴾

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمئات أن الميت كالحى صفة ثابتة، وأمّا المئات فيدل على الحدوث تقول: زيد مائة الآن ومائة غدًا كقولك: يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله تعالى: ﴿وضائق به صدرك﴾ (4) جعل الإمامة التي هي إعدام الحياة.

ثُمَّ لَئِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْتَبَرُونَ ﴿٥٨﴾

والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعممه دليلين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قلت: فإذا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث! قلت: ليس في نكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر كما لو نكرت ثلثي ما عندك، وطويت نكر ثلثه لم يكن ليلًا على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض نكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإمامة والإعادة والمطوى نكرها من جنس الإعادة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمَا كُنَّا عَنْ السَّمَاوَاتِ غَافِلِينَ ﴿٥٩﴾

الطرائق السموات لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم. وقيل: الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها، أراد بالخلق السموات كأنه قال: خلقناها فوقهم ﴿وما كنا﴾ عنها ﴿غافلين﴾ وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلًا عنهم وما يصلحهم.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا فِي الْأَرْضِ نَبَاتًا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدْرُوهٖ ﴿٦٠﴾

﴿بقدر﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم،

فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكَاةً كَثِيرَةً وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦١﴾

خصّ هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع ووصف النخل والعنب بأن شرمها جامع بين أمرين بأنه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطبًا، ويابسًا رطبًا وعنبًا وتمرًا وزبيبًا والزيتون بأن دهنه صالح للاستصباح، والاصطباغ جميعًا ويجوز أن يكون قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ (7) من قولهم: ياكل فلان من حرفة يحترفها ومن ضيعة يغتلبها ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم منها ترتزقون وتتعيشون.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سِينَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغَ اللَّكْلِينِ ﴿٦٢﴾

﴿وشجرة﴾ عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: وما أنشئ لكم شجرة ﴿طور سيناء﴾ وطور سينين، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإما أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كامرئ القيس، وكبعلبك فيمن أضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة، أو التانيث لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتانيث كعبلباء وحرباء ومن فتح فلم يصرف لأن الألف للتانيث كصحرَاء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش سيناء على القصر ﴿بالدهن﴾ في موضع الحال أي: تنبت وفيها الدهن وقرئ تنبت وفيه وجهان أحدهما أن أنبت بمعنى نبت وأنشبر لزهير رأيت نوي الحاجات حول بيوتهم، قطيئًا لهم حتى

(4) سورة هود، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 21.

(6) سورة الملك، الآية: 30.

(7) سورة النحل، الآية: 5.

(1) سورة الحج، الآية: 39.

(2) الواحدى في أسباب النزول، ص: 176.

(3) قال الزيلعي غريب وقد نكره الواحدى في أسباب النزول 2/401. ولم اتف عليه عند الواحدى.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ حِجَّةً فَتَرَضُّوْا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٥﴾

والحِجَّةُ الجنون أو الجن أي: به جن يخلبونه ﴿حتى حين﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٦٦﴾

في نصرته إهلاكهم فكانه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي أو انصُرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصره عليهم، أو انصُرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَهْلُهَا وَكَارَ النَّوْرُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطِئْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾

﴿بأعيننا﴾ بحفظنا وكلاءنا كان معه من الله حفاظًا يكلونه بعيونهم لئلا يتعرض له، ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئمة ﴿ووحينا﴾ أي: نامرك كيف تصنع، ونعلمك. روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جوجو الطائر، روي أنه قيل: لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل: كان تنور آدم عليه السلام وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه. فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند. وعن ابن عباس رضي الله عنه التنور وجه الأرض، وعن قتادة أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه. وعن علي رضي الله عنه فار التنور طلع الفجر وقيل: معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل كقولهم: حمى الوطيس والقول: هو الأول، يقال: سلك فيه دخله وسلك غيره وأسلكه قال: حتى إذا سلكهم في قنائة ﴿من كل زوجين﴾ من كل أمتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرمك، ﴿الثنين﴾ واحد من مزدوجين كالجمال والناقة والحصان والرمكة روي أنه لم يحمل إلا ما يلد وبييض، وقرئ من كل بالثنوين أي: من كل أمة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان.

إِذَا اسْتَرَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ أَلَمُدُّ إِلَيْهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

جاء بعلى مع سبق الضار كما جاء باللام مع سبق

إذا أنبت البقل والثاني أن مفعوله محنوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ تنبت بضم التاء وفتح الباء وحكمه حكم تنبت، وقرأ ابن مسعود تخرج الدهن وصبغ الأكلين وغيره تخرج بالدهن وفي حرف أبي ثمر بالدهن وعن بعضهم تنبت بالدهان، وقرأ الأعمش وصبغًا وقرئ وصباغ ونحوهما دبغ ودباغ والصبغ الغمس للائتمام وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: توعد من شجرة مباركة.

وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْثَمِ لِمِزَّةً شَفِيكَةً مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنُفَعٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٦٩﴾

قرئ ﴿تسقيكم﴾ بناء مفتوحة أي: تسقيكم الأنعام ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير وفيها منفعة زائدة وهي الأكل الذي هو انتفاع بوانها.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلِّكَ تُحْمَلُونَ ﴿٧٠﴾

والقصد بالانعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة وقرنها بالفلك، التي هي السفائن لأنها سفائن البر قال: نو الرمة، سفينة بر تحت خدى زمامها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧١﴾

يريد صديحه ﴿غيره﴾ بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالفكم ورازقكم وشكر نعمته التي لا تحسونها، واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَرِيدٌ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَسَّاهُ اللَّهُ لَأَزَلُّ عَلَيْكُمْ مَا سَمِعْتُمَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ ﴿٧٢﴾

﴿أن يفضل عليكم﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويراسمك كقوله تعالى: ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ (١) ﴿بهذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو يمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يدل على أنهم وأباؤهم كانوا في فترة متطاولة أو تكنبوا في ذلك لأنهم كلفهم في الغي وتشمرهم لأن يدفعا الحق بما أمكنهم، وبما عن لهم من غير تمييز منهم بين صلح وكذب إلا تراهم كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ أَفَلَا تُنْقَوْنَ ﴿٢٣﴾

فإن قُلْتَ: حق أرسل أن يعدى بآلى كآخواته التي هي وجه وأنفذ وبعث فما باله عدي في القرآن بآلى تارة وبفي أخرى كقوله: ﴿كذلك أرسلناك في أمة﴾ (9) ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ (10).

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً﴾ أي: في عاد وفي موضع آخر وإلى عاد أخاهم هوداً قُلْتَ: لم يعد بفي كما عدى بآلى ولم يجعل صلوة مثله، ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤبة: أرسلت فيها مصعباً ذا إحام وقد جاء بعث على نك في قوله: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ (11) ﴿إن﴾ مفسرة لأرسلنا أي: قلنا لهم: على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾.

فإن قُلْتَ: نكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٤﴾

قال: ﴿الملا الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ (12) ﴿قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة﴾ (13) وههنا مع الواو فاي: فرق بينهما؟ قُلْتَ: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال: قومه فقيل له: كيت وكيت وأما الذي مع الواو فعطف لما قاله على ما قاله: ومعناه أنه اجتمع في الحصول هذا الحق، وهذا الباطل وشتان ما هما ﴿بإلقاء الآخرة﴾ بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب كقولك: يا حبذا جوار مكة أي: جوار الله في مكة. حذف الضمير والمعنى، من مشروبكم أو حنف منه لدلالة ما قبله عليه.

وَلَمَّا أَطَاعَتْهُ بَشَرًا مِمَّنْ لَكُمْ إِذْ أَخْبِرْتُمْ ﴿٢٥﴾

﴿إذا﴾ واقع في جزء الشرط وجواب للذين قالوهم من قومهم أي: تخسرون عقولكم وتغبون في آرائكم.

أَيُّدْرُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا يَسْتُمْ وَكُنْتُمْ رَبَّاءَ وَعِظْنَا أَنْكُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٢٦﴾

ثنى ﴿انكم﴾ للتوكيد وحسن ذلك لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف و﴿مخرجون﴾ خبر عن الأول أو جعل ﴿انكم مخرجون﴾ مبتدأ وإذا متم خبراً على معنى إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن ﴿انكم﴾، أو رفع

النافع قال الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ (1) ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين﴾ (2) ونحوه قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (3) وقول: عمر رضي الله عنه ليتها كانت كفافاً لا علي ولا لي. فإن قُلْتَ: لم نهاء عن الدعاء لهم بالنجاة! قُلْتَ: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يفرقوا إلا محالة لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول، فلم يزيدوا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم كقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (4).

وَقُلْ رَبِّ ارْتَلَىٰ مُدْرَكًا مَبَاكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٧﴾

ثم أمره أن يدعو بدعاء هو أهم وأنفع له وهو طلب أن ينزله في السفينة، أو في الأرض عند خروجه منها ﴿منزلاً﴾ يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسلته وهو قوله: ﴿وأتت خير المنزلين﴾

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فقولوا لقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾ (5) لانه في معنى: فإذا استويتما! قُلْتَ: لأنه نبههم وإمامهم فكان قوله قولهم: مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي، وقرئ: ﴿منزلاً﴾ بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ﴿ليدخلنهم منخلًا يرضونه﴾ (6).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَلْبَشِيرِ ﴿٢٨﴾

﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى. وإن الشان والقصة ﴿كنا لمبتلين﴾ أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، ومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ (7).

فَرَأَىٰ أَهْلَ الْبَلَدِ الْأَخْرَبِ ﴿٢٩﴾

﴿قرناً آخرين﴾ هم عاد قوم هود عن ابن عباس رضي الله عنهما وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: ﴿وانكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ (8) ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

(8) سورة الأعراف، الآية: 69.

(9) سورة الرعد، الآية: 30.

(10) سورة سبأ، الآية: 34.

(11) سورة الفرقان، الآية: 51.

(12) سورة الأعراف، الآية: 66.

(13) سورة هود، الآية: 53.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 101.

(2) سورة الصافات، الآية: 171.

(3) سورة البقرة، الآية: 286.

(4) سورة الأنعام، الآية: 45.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 28.

(6) سورة الحج، الآية: 59.

(7) سورة القمر، الآية: 15.

امرى القيس:

من السيل والغناء فلكة مغزل

بعداً وسحقاً ودفراً ونحوها مصانير موضوعة مواضع
أفعالها، وهي من جملة المصانير التي قال سيبويه: نصبت
بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى: بعداً، بعدوا، أي: هلكوا
يقال: بعد بعداً وبعداً نحو رشد رشداً ورشداً و **«للقوم
الظالمين»** بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك ولما
توعدون.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُرُونًا أَنْتَبَأُوا مِنْهَا نَبِيًّا لِيُقْرِئَهُمْ آيَاتِنَا وَيُصَلِّحَ قُلُوبَهُمْ ۖ وَبَعَثْنَا فِي ثَمُودَ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا لِلْحَافِرِ الْمَاءِ لِيَأْتِيَهُمْ غَوَّابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ فَيَذَرُوهَا غَوَّابًا ۖ فَمَنْعَهُمْ قَوْمُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِهَا أَعْمَالَهُمْ ۖ فَوَقَدْنَا لَأْمُوتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْغَوَّابِ لِقَاءَ رَبِّهِمْ ۚ فإِذْ هُمْ يُقْرَبُونَ ۚ فَأَنزَلْنَا الْغَوَّابَ سَاجِدًا لِلرَّبِّ حَتَّىٰ أَتَىٰ آلَ مُوسَىٰ مِنْ أَدْنَىٰ الْوَادِي ۚ فَأَوْسَىٰ آلَهُمْ وَأَعْيَتَهُمْ فَذَلِكُمْ مِثْلَ نَارِ الْكَافِرِينَ ۚ

«قرونًا» قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن
عباس رضي الله عنهما بني إسرائيل.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَبْرُونَ ۗ

«اجلها» الوقت الذي حد لهلاكها وكتب.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رِجْلًا نَنظُرُ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رِسَالًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ
بَعْضًا وَصَلَّوْهُمْ أَجْمَعًا فَبَعَدَ لِقَائِهِمْ لَأْمُوتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۚ

«تتري» فعلى الألف للتانيث لأن الرسل جماعة،
وقرى: تتري بالتثنية والتاء بدل من الواو كما في تولج
وتيقود أي: متواترين وأحدًا بعد واحد من الوتر وهو الغرد
أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أمهم، ولقد جاءتهم رسلنا
بالبينات ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات لأن الإضافة تكون
بالملاسة والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً
«فاتبعنا» الأمم أو القرون **«بعضهم بعضاً»** في
الإهلاك **«وجعلناهم»** أخباراً يسمر بها ويتعجب منها
الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث
رسول الله ﷺ وتكون جمعاً للأحاديث التي هي مثل
الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهي مما يتحدث به الناس
تلهياً وتعجباً وهو المراد هنا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين! قلت: يجوز أن
تراد العصا؛ لأنها كانت أم آيات موسى وأولاه، وقد تعلق
بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته
السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر
يضرهما بها، وكونها حارساً وشمعة وشجرة خضراء
ثمرة ولبواً ورشاء جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت
به من الفضل، فلذلك عطف عليها كقوله تعالى: **«وجبريل
وميكال»** (3) ويجوز أن تراد الآيات أنفسها أي: هي آيات
وحجة بيّنة.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ

«عالين» متكبرين **«إن فرعون علا في الأرض»** (4)

«إنكم مخرجون» بفعل هو جزاء للشرط كأنه قيل: إذا
متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن
«إنكم»، وفي قراءة ابن مسعود أيحكم إذا متم.

كَيْتَابَ كَيْتَابٍ لِمَا تُوعَدُونَ ۚ

قرى: **«هيئات»** بالفتح والكسر والضم كلها بتنوين
وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قلت: ما **«توعدون»** هو المستبعد ومن حقه أن
يرتفع بهيئات كما ارتفع في قوله: **«هيئات هيئات»**
العقيق وأهله فما هذه اللام؟ قلت: قال: الزجاج في تفسير
البعد **«لما توعدون»**، أو بعد **«لما توعدون»** فيمن نون
فنزله منزلة المصدر وفيه وجه آخر، وهو أن يكون اللام
لبيان المستبعد ما هو بعد للتصويت بكلمة الاستبعاد كما
جاءت اللام في **«هيت لك»** (1) لبيان المهيت به هذا ضمير
لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة.

إِنَّ مِنْ أُمَّةٍ جَاءَتْ لَدُنِيَ نُورٌ وَنَجِيًّا وَمَا كُنْ بِبَعِيرٍ ۗ

«إلا حياتنا الدنيا»، ثم وضع هي موضع الحياة لأن
الخبر يدل عليها وبيّنها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت
وهي العرب، تقول: ما شاءت والمعنى: لا حياة إلا هذه
الحياة لأن **«إن»** النافية نخلت على **«هي»** التي في
معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوزنت لا التي نفت
ما بعدها نفي الجنس، **«نموت ونحيا»** أي: يموت بعض
ويولد بعض ينقرض قرن ويأتي قرن آخر.

إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِرِينَ ۚ

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ۚ

ثم قالوا: ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من
استنابته له، وفيما يعنا من البعث وما نحن بمصدقين.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيعَنَ نَارِينَ ۚ

«قليل» صفة للزمان كقديم وحديث في قوله: ما رأيته
قديماً ولا حديثاً وفي معناه عن قريب وما تؤكد قلة المدّة
وقصرها.

فَلَعَذَابُهُمْ الصَّعِيقَةُ بِالْحَقِّ فَمَنَّاهُمْ عَنْكَ بَعْدَ اللَّغْوِ الرَّغِيلِينَ ۚ

«الصيحة» صيحة جبريل عليه السلام صاح عليهم
فدمرهم **«بالحق»** بالوجوب لأنهم قد استوجبوا الهلاك،
أو بالعدل من الله من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان
عادلاً في قضاياه شبههم في نمازم بالغناء، وهو حميل
السيل مما يلي وأسود من العيدان والورق ومنه قوله
تعالى: **«فجعله غثاء أحوى»** (2) وقد جاء مشدداً في قول

(3) سورة البقرة، الآية: 98.

(4) سورة القصص، الآية: 4.

(1) سورة يوسف، الآية: 23.

(2) سورة الأعلى، الآية: 5.

أنه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض وقد اختلف في زيادة ميمه وأصلته فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه نحو ركب إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعلاً أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة.

يَأْتِيَا الرُّسُلَ كُلًّا مِنَ اللَّيْلِ وَأَعْلَوْا صَلْبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك⁽³⁾ ووصي به ليعتقد السامع أن أمراً نوذي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات ما حل وطاب وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذي لا يعصي الله فيه والصافي الذي لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المأكّل والفاكهة ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذات قرار ومعين﴾⁽⁴⁾ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فنكر على سبيل الحكاية أي: آريناهما وقلنا: لهما هذا أي: اعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا فكلا مما رزقناكما واعملا صالحاً اقتداء بالرسول.

وَلَنْ هَنِيئَهُمْ أَنْتَكُمُ أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

قرئ: ﴿وَأَنَّ﴾ بالكسر على الاستئناف وأن بمعنى: ولأن وإن مخففة من الثقيلة و ﴿أمتمكم﴾ مرفوعة معها.

تَنْتَقِلُوا أَمْثَلَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِجْرُونَ ﴿٥٣﴾

وقرئ: ﴿زبيرا﴾ جمع زبور أي: كتباً مختلفة يعني: جعلوا بينهم أنبياءً وزبيرا قطعاً استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبيرا مخففة الباء كرسل في رسل أي: كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين بينهم فرح بباطله مطمئن النفس معتقد أنه على الحق.

فَذَرَّهُمْ فِي غُرَّتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

الغمرة الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جلهم وعمائيتهم، أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل قال: كانني ضارب في غمرة لعب وعن علي رضي الله عنه في غمراتهم.

﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾⁽¹⁾ أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَهُمَا لَنَا عِبَادُونَ ﴿٥٧﴾ نَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٨﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً. ﴿بشراً سوياً﴾. لبشريين ﴿فإما ترين من البشر﴾. ومثل وغير بوصف بهما الاثنان والجمع والمنكر والمؤنث ﴿إنكم إذا مثلهم﴾. ومن الأرض مثلهن. ويقال: أيضاً هما مثلاه وهم أمثاله، ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ ﴿وقومهم﴾ يعني: بني إسرائيل كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتخللاً أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَمْ نُهِمْ بِهَذَا قَوْلًا ﴿٥٩﴾

﴿موسى للكتاب﴾ أي: قوم موسى التوراة ﴿لعلهم﴾ يعملون بشرايعها ومواظمها كما قال: على خوف من فرعون وملتهم يريد آل فرعون وكما يقولون: هاشم وتقيف وتميم ويراد قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملته لأن التوراة إنما أوتيتها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملته ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾⁽²⁾.

فإن قلنا: لو قيل: آيتين هل كان يكون له وجه؟ قلنا: نعم لأن مريم ولدت من غير مسيس وعيسى روح من الله القى إليها، وقد تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر فكان آية من غير وجه واللفظ محتمل للثنائية على تقدير.

وَحَلَّلْنَا أَبْنَاءَ مَرْيَمَ وَأَتَيْنَاهُمَا إِلِكِ زَبُورَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٦﴾

﴿وجعلنا لبن مريم﴾ آية ﴿وأوتيه﴾ ثم حنفت الأولى لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في راتهما الحركات، وقرئ: ربوة ورباوة بالضم ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس وأنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً عن كعب وقيل: دمشق ووطنها وعن الحسن فلسطين والرملة وعن أبي هريرة الزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربوة التي نكرها الله وقيل: مصر. والقرار المستقر من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء يعني:

(1) سورة القصص، الآية: 83.

(2) سورة القصص، الآية: 43.

(3) قال أحمد: هذه نحة اعتزالية، فإن مذهب أهل السنة: أن الله تعالى متكلم أمرناه ازلاً، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، هو ثابت ازلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال متفرقين، كما في هذا الخطاب أو =

= مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر، وما بال الزمخشري خص هذه الآية بانها على خلاف الظاهر، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿اتقوا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وجميع الأوامر العامة في الامة على خلاف الظاهر.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: يسرعون في الخيرات ﴿لها سابقون﴾ أي: فاعلون سبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون لها سابقون خيراً بعد خير ومعنى وهم لها كمعنى قوله: أنت لها أحمد من بين البشر.

وَلَا تُكْفِرُ نَفْسًا إِلَّا رُسْمًا وَاَلَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَبْغُونَ
 ﴿١٦﴾

يعني: أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده، وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده بل هو مثبت لديه في كتاب يريد اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق، وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد أو أراد إن الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبدل طاقته، فلا عليه ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ولا نظلم أحداً من حقه، ولا نحطه دون درجته.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
 عَاكِفُونَ ﴿١٧﴾

بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها، ﴿من هذا﴾ أي: مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ولهم أعمال﴾ متجاوزة متخطية لذلك أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هم لها﴾ معتادون، وبها ضارون لا يفتطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ ﴿١٨﴾

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية والعذاب قتلهم يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، ﴿فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف، والكلاب، والعظام المحترقة والقذ والأولاد، الجوار الصراخ باستغاثة قال: جأ ساعات النيام لربه

لَا يَجْعَلُونَ لِحْيَتِهِمْ جَبْرًا وَلَا يُسَوِّرُونَ ﴿١٩﴾

أي: يقال لهم: حينئذ ﴿لا تجاروا﴾ فإن الجوار غير

﴿حتى حين﴾ إلى أن يقتلوا، أو يموتوا سلى رسول الله ﷺ بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيرهم.

أَيَسِّرُونَ أَمَّا يُضِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٢٠﴾

وقرئ: ﴿يهدمهم﴾ ويسارع ويسرع بالياء والفاعل الله سبحانه وتعالى.

سَأَجُّ لَمْ فِي لَمَّزَاتٍ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةِ رَبِّهِمْ
 تُشْفِقُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ لَا
 يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

ويجوز في يسارع ويسرع أن يتضمن ضمير الممدّ به ويسارع مبنياً للمفعول، والمعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي واستجراً إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعالجة بالثواب قبل وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، و ﴿بل﴾ استدراك لقوله: ﴿يحسبون﴾^(١) يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور حتى يتأملوا ويتفكروا في نكأ هو استدراج، أم مسارعة في الخير.

فإن قلت: أين الراجع من خبر أن إلى اسمها إذا لم يستكن فيه ضميره؟ قلت: هو محذوف تقديره تسارع به ويسارع به ويسارع الله به كقوله: ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾^(٢) أي: إن ذلك منه وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ رِجْلٌ أَنَّهُمْ لِكَيْ رَبِّهِمْ رِجْمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿يؤتون ما أتوا﴾ يعطون ما أعطوا وفي قراءة رسول الله ﷺ وعائشة يأتون ما أتوا أي: يفعلون ما فعلوا وعنهما أنها قالت: قلت يا رسول الله هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على نكأ يخاف الله، قال: لا يا ابنة الصديق ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على نكأ يخاف الله أن لا يقبل منه^(٣).

أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي اللَّحْزَاتِ وَهُمْ لَمَّا سَعِيرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿يسارعون في الخيرات﴾ يحتمل معنيين أحدهما أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبارونها والثاني أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام كما قال: ﴿فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾^(٤) ﴿وأتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾^(٥) لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا

(1) سورة المؤمنون، الآية: 55.

(2) سورة الشورى، الآية: 43.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث رقم: 3175)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: لتوقى على العمل، (الحديث رقم: 4198)، وأحمد في =

= المسند 6/205.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

(5) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804).

وقحطان، وعن النبي ﷺ لا تسبوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قساً فإنه كان مسلماً ولا تسبوا الحرث بن كعب ولا أسد بن خزيمه ولا تميم بن مر، فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً⁽²⁾ وروي في أن ضبة كان مسلماً وكان على شرطة سليمان بن داود.

أَرَأَيْتَ لِمَ يَدْعُونَ بِنَبِيِّهِمْ وَقَدْ كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عَالِمِينَ ﴿١٦﴾

﴿أم لم يعرفوا﴾ محمداً، وصحة نسبه وحلوله في وسطه هاشم وأمانته وصنقه وشهامته وعقله واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد كفى برغائها منادياً⁽³⁾، الجنة الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثبهم ذهنًا ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشؤوا عليه وسيط بلحومهم ودمائهم من اتباع الباطل ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا لأنه الحق الأبلج، والصراط المستقيم فأخلدوا إلى البهت وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

أَرَأَيْتَ لِمَ يَدْعُونَ بِنَبِيِّهِمْ وَقَدْ كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عَالِمِينَ ﴿١٧﴾

فإن قلت: قوله: ﴿واكثرهم﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق! قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه وأن يقولوا: صبا وترك دين أبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب⁽⁴⁾.

فإن قلت: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه! قلت: يا سبحان الله كان أبا طالب كان أحمل أعمام رسول الله ﷺ حتى يشتهر إسلام حمزة، والعباس رضي الله عنهما ويخفي إسلام أبي طالب، دل بهذا على عظم شأن الحق وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به.

وَلَوْ أُنزِلَتْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ إِذْ هُمْ يُسَبِّحُونَ ﴿١٨﴾

شيئاً كره ضده، فإذا احبوا البقاء على الكفر، فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب، وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه كما اشتهر إسلام العباس، وحمزة وأجدر؛ لأنه أشهر وللقتال بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته، بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها، كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام هذا، والظاهر أنه لم يسلم وحسبك بليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأن كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك، قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الحقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك والله أعلم.

نافع لكم ﴿منا لا تنصرون﴾ لا تغاثون، ولا تمنعون منا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة قالوا: الضمير في ﴿به﴾ للبيت العتيق أو للحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم والذي سوغ هذا الإضرار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته القائمون به.

فَدَكَانَتْ يَأْتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُتِرَ عَلَى أَغْفِيكُمْ نَبِيكُمْ ﴿١٩﴾

ويجوز أن يرجع إلى آياتي إلا أنه نكر لأنها في معنى: كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٢٠﴾

ضمن مستكبرين معنى مكببين، فعدى تعديته أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتوّاً، فأنتم مستكبرون بسببه أو تتعلق الباء بسامراً أي: تسمرون بنكر القرآن، وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامّة سمرهم نكر القرآن وتسميته سحرًا وشعرًا وسبّ رسول الله ﷺ، أو يتهجرون والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ: سمرًا وسامرًا وتهجرون ونهجرون من أهرج في منطق إذا أفضح، والهجر بالضم الفحش ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى والهجر بالفتح الهنيان.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَرَجَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ ﴿٢١﴾

﴿القول﴾ القرآن يقول: أقلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فصنقوا به بمن جاء به بل إجماعهم ما لم يات آباءهم، فلذلك أنكروه واستبدعوه كقوله: ﴿لنتنر قومًا ما انذر آباؤهم فهو غافلون﴾⁽¹⁾ أو ليخافوا عند تدبير آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكببين أم جاءهم من الأمن ما لم يات آباءهم حين خافوا الله، فأمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه وآبأؤهم إسْمَعِيلَ وأعاقبه من عدنان

وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (الحديث: 1540).

وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلوات (الحديث: 1442).

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) الحاكم في المستدرک 450/2.

(3) لم ينكر لها مخرج.

(4) قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: وأكثرهم على الجنس للناس كافة، ولما نكر هذه الطائفة من الجنس بني الكلام في قوله: وأكثرهم على الجنس بجملة، كقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وكقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بل جاءهم بالحق﴾ والنبي ﷺ جاء إلى الناس كلهم، وبعث إلى الكافة، ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري: إن من تمادى على الكفر، وأثر البقاء عليه تقليدًا لأبيه ليس كارهاً للحق فمربود، فإن من أحب =

بَلْ أَيْتَلَّهُمْ يَبْكِرُهُمْ فَهَرَّتْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

﴿لنناكبون﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المنكور وهو قوله: ﴿إلى صراط مستقيم﴾ (١).

وأن كل من لا يؤمن بالأخرة فهو عن القصد ناكب لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز.

﴿وَلَوْ رَضَيْنَاهُمْ فَكَأَنَّمَا يَمْشِي فِي غَايَتِهِمْ وَمَا بِهُمْ مِنْ سُورٍ لَّأَجْرًا فِي طَعْنِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٦).

جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: انشكك الله والرحم ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقال: بلى فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه يسترحمونه واستشهد على ذلك بأننا أخذناهم أولاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسروهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل وهو أظلم العذاب فإبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاء اعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك أو

أر تَتَلَّهُمْ حَرَمًا فَخَرَجُ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِيانِ ﴿٧٦﴾

مخاضهم بكل محنة من القتل والجوع فما روى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا غلبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفترون عنهم وهم فيه مبلسون﴾. والإبلاس اليأس من كل خير وقيل: السكوت مع التحير.

قرئ: خراجاً فخراج وخرجا فخرج وخرجا فخراج وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك: خراج القرية وخرج الكردي زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ خراجاً فخراج ريك يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير.

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معانيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره، وحاله مخبور سره وعلته خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من نبياهم، واستعطاء أموالهم.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا رَبَّهُمْ وَمَا يَصْرَعُونَ﴾ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾

وَلَيْكَ لِلْعَوْمِ إِلَىٰ حَرِيطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾

فإن قلت: ما وزن استكان؟ قلت: استفعل من الكون أي: انتقل من كون إلى كون كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه كما جاء بمنزاح.

ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أوائهم، وهو إخلاصهم بالتبصر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من النكر يحتمل أن هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالأخرة.

فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكبنون؟ قلت: لأن المعنى محتاهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يستكبنوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد (٢).

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٦﴾

التحوّل لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر فليس استحال من استفعل للتحوّل، ولكنه من استفعل بمعنى: فعل وهو أحد أقسامه إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى والله أعلم، ثم نعود إلى تأويله فنقول المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر، والتجبر والاعتياض إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى، ولقائل أن يقول استكان يفيد على التأويل المنكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حملة على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت جملة محتملة للانتقالين =

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.
(٢) قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله، ينباع من نفر غضوب جسرة فإن هذا الإشباع ليس بغصيح، وهو من ضرورات الشعر فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه لكن تنظير الزمخشري له باستحال وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل الذي معناه التحوّل كقولهم استحجر الطين واستنوق الجمال، وأما استحال فتلاثية حال حول إذا انتقل من حال إلى حال وإذا كان الثلاثين يفيد معنى =

يجهلوا مثل هذا الظاهر البين.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَلَمْ تَذَكَّرْ ﴿٨٥﴾

وقرى: ﴿تذكرون﴾ بحذف التاء الثانية ومعناه أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بان لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَلَمْ نُنْفِرْ ﴿٨٧﴾

قرئ: الأول باللام لا غير، والآخر باللام وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى لأن قولك: من ربه ولمن هو في معنى واحد وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأول بغير لام ولكنها لم تثبت في الرواية.

﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا

رسله.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَاوِزُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

أجرت فلاناً على فلان إذا أغتته منه ومنعته يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا ينيث أحد منه أحدًا ﴿تسحرون﴾

تخدعون عن توحيدهِ وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى.

بَلْ أَنزَلْنَاهُم بِالْإِنشَاءِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

وقرى: آيتهم وآيتهم بالفتح والضم ﴿بالحق﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وإنهم لكانبون﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً لانفرد كل واحد من الآلهة بخلق الذي خلقه واستبد به، ولرايتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضاً كما

وقرى: ﴿فتحننا﴾ إنما خصّ السمع والأبصار، والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أقتنتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ (١).

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَلِيَلَّامَ مَا تَشْكُرُونَ ﴿٩١﴾

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها وأن لا يجعل له ند ولا شريك أي: تشكرون شكراً قليلاً ﴿ووما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى: حقاً.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَكَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٢﴾

﴿ذراكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿وإليه﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ يُشْرِكُ الْإِنسَانُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وله لاختلاف الليل والنهار﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه ولا يقدر على تصريفهما غيره.

وقرى: ﴿يعقلون﴾ بالياء عن أبي عمرو.

بَلْ قَالُوا يَسْتَلِمْ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٩٤﴾

أي: قال أهل مكة كما قال: الكفار قبلم.

قَالُوا أَوَدَا مِنَّا وَرَكْنَا نُرَابًا وَعِظْلًا أَوَدَا لَمَعُونُونَ ﴿٩٥﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَهَابُونَ هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩٦﴾

الأساطير جمع أسطار جمع سطر قال: رؤية، إني وأسطارسطون سطرأ.

وهي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له. وجمع أسطورة أوقف.

قُلْ لَيْسَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

أي: أجيئوني عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالذبيات أن

= بعضهم يوماً لم لا تجعله على هذا التاول من استعمل المبنى للمبالغة مثل استحسر واستحصر من حسر وعصم، فقلت لا يسعني ذلك لأن المعنى يلباه وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها نفي هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهب إلى جعلها للمبالغة أفادت نقض المبالغة لأن نفي الأبلغ أننى من نفي الأننى، وكانهم على ذلك نفي الخشوع الكثير وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها وليس الواقع، فإنهم ما اتسموا بالضراعة لا بلمظة منها فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 26.

= جميعاً، والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما نخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه أظهر من جملة كراماته له أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد، وعقد بهم محفلاً للمناظرة وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية، وإن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال هو مشتق من قول العرب كنت لك إذا خضعت، هي لغة هنالية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقعت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد المروري وهو أحسن محامل الآية وأسلمها والله أعلم، وعلى هذا يكون من استعمل بمعنى: فعل كقولهم استقر واستعلى وحال واستحال على ما مر، وقد قال لي =

ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك.

وَأَنَا عَلِيمٌ أَنْ تُرِيكَ مَا نَيْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾

فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتكم فما وجه هذا الإنكار.

أَدْعَىٰ وَإِلَىٰ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٦﴾

هو ابلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال: انفع بالحسنة السيئة والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة وهذه قضية قوله: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽¹⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي شهادة أن لا إله إلا الله والسيئة الشرك وعن مجاهد السلام يسلم عليه إذا لقبه وعن الحسن الإغضاء والصفح وقيل: هي منسوخة بأية السيف وقيل: محكمة لأن المدارة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما ينكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء نكرهم والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾

الهمز النخس والهمزات جمع المرة منه ومنه مهماز الرائض والمعنى: أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويفرغونهم عليها، كما تهزم الراضة الدواب حثالها على المشي ونحو الهمز الأز في قوله تعالى: ﴿تَوَذَّعْتُمْ أَزًّا﴾⁽²⁾.

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾

أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لبدائته وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً، ويحوموا حوله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند تلاوة القرآن وعن عكرمة عند النزاع.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾

﴿حتى﴾ يتعلق بـيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان أن

تروى حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون وحين لم تروا أثر التمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ كَلِمَةٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لُدَّ هَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢١﴾

فإن قلت: إذ لا تدخل إلا على كلام هو جزء وجواب فكيف وقع قوله ﴿لِذَهَبٍ﴾ جزء وجواباً ولم يتقدم شرط ولا سؤال سائلاً قلت: الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد والأولاد.

عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَمَعَلَلَّ عَمَّا يُتْرِكُونَ ﴿٢٢﴾

﴿عالم الغيب﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف ما والنون مؤكلتان.

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾

أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾

﴿فلا تجعلني﴾ قريباً لهم ولا تعذبني بعذابهم عن الحسن أخبره الله أن له في أمته نقمة، ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيز به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه وإحساناً له واستغفاره ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة، أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: وليتكم ولست بخيركم، كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: إما ترثنهم بالهمز مكان تريني كما قرئ: فإما ترثن ولترؤن الجحيم وهي ضعيفة وقوله: ﴿رب﴾ مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع، وجوار كانوا ينكرون الموعد بالعذاب

= العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه. ونعود إلى الآية، فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً، وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تنفع بها السيئة، فإنها قد تنفع بالصفح والإغضاء، ويقع في دفعها بذلك، وقد يزداد على الصفح الإكرام، وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها نفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة لاشتمالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بالحسنات في نفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل والله أعلم، فتأمل فإنه حسن جداً.

(2) سورة مريم، الآية: 83.

(1) قال أحمد: ما نكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتمييز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة، فإنهما ضدان متقابلان فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد: أن الحسنة من باب الحسنات أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجوز المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة، وهذه سيئة، وذلك شأن كل مفاضلة بين ضمين، كقولهم: العسل أحلى من الخل يعنون: أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة، وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعوب الماجن: أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوتينا. بمعنى: اتهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية، أشعوب بلغ الغاية على السفلة، والأعمش بلغ الغاية على =

﴿يتعارفون بينهم﴾⁽⁴⁾ فكيف التوفيق بينهما؟ قُلْتُ: فيه جوانب أحدهما أن يوم القيامة⁽⁵⁾ مقداره خمسون ألف سنة، وفيه أزمان وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها وفي بعضها لا يفتنون لذلك لشدة الهول والفرع، والثاني أن التناكر يكون عند النفخة الأولى فإذا كانت الثانية قاموا، فتعارفوا وتساءلوا.

فَمَنْ تَقَلَّتْ مَرْزِيئُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَارِفُونَ ﴿١٦٦﴾

عن ابن عباس الموزين جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾⁽⁶⁾.

وَمَنْ خَفَّتْ مَرْزِيئُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿في جهنم خالدون﴾ بدل من خسروا أنفسهم ولا محل للبدل والمبدل منه لأن الصلة لا محل لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف.

تَلَفَّحَ رُجُومُهُمُ النَّارَ وَمِمَّ فِيهَا كَلِيلُ حُوتٍ ﴿١٦٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَيْتِي تُلَّحُّ عَلَيْهِمْ فُكُكُورًا بِمَا تَكْفُرُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿تلفح﴾ تسفع وقال: الزجاج اللفح والنفح واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً والكلوح أن تنقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤس المشوية، وعن مالك بن دينار كان سبب توبة عبدة الغلام أنه مر في السوق برأس أخرج من التنور، فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهن وروى عن النبي ﷺ أنه قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة⁽⁷⁾، وقرئ كحون.

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٧٠﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَأَنَا ظَالِمُونَ ﴿١٧١﴾

﴿غلبت علينا﴾ ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك وأملكه، والشقاوة سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم قرئ ﴿شقوتنا﴾ وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما.

قَالَ أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٧٢﴾

يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: ﴿ورائهم لكانيون﴾⁽¹⁾ خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فلان شئت حرمت النساء سواكم وقوله: إلا فارحموني يا إله محمد إذا أيقن بالموت وأطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه.

لَمَلَّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُرِّقَتْ وَأُثِرَتْ وَمِنْ دَرَجَاتٍ يَرَوْنَ إِلَيْكَ يَوْمَ يُعْتَوْنَ ﴿١٧٣﴾

فسأل ربه الرجعة وقال:

﴿لعلي أعمل صالحاً﴾ في الإيمان الذي تركته والمعنى: لعلي، أتى بما تركته من الإيمان وأعمل فيه صالحاً كما تقول: لعلي أبنني على أس تريد أسس أساً وأبنى عليه وقيل: فيما تركته من المال وعن النبي ﷺ إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان بل قودماً إلى الله، وأما الكافر فيقول: رب ارجعوني ﴿كلاً﴾ رددع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهي قوله: ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾⁽²⁾ ﴿هو قائلها﴾ لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلب الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ والضمير للجماعة: أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة. فَإِذَا فُتِحَ فِي الْأُصْرِ فَلَا أَسَابَ يَنْهَرُ بِرَمِيمٍ وَلَا بَسَاءُ لَوْلَا ﴿١٧٤﴾

﴿الصور﴾ بفتح الواو عن الحسن والصور بالكسر والفتح عن أبي رزين وهذا دليل لمن فسّر الصور بجمع الصورة ونفي الانساب يحتمل أن التقاطع يقع بينهم حيث يتفرقون معاقبين، ومثابين ولا يكون التواصل بينهم والتالف إلا بالأعمال، فتلغوا الانساب وتبطل وأنه لا يعتد بالانساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب إذ يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود ولا يسألون بإدغام التاء في السين.

فإن قُلْتُ: قد ناقض هذا ونحو قوله: ولا يستل حميماً حميماً قوله: وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون⁽³⁾، وقوله:

(1) سورة المؤمنون، الآية: 90.

(2) سورة المعارج، الآية: 10.

(3) قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسؤال الأب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه، ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالبرقة.

(4) سورة يونس، الآية: 45.

(5) قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز اللمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة، ويشمر ذيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ولا تنفعها شفاعة، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة، وبين ما ظاهره ثبوتها بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة والله الموفق.

(6) سورة الكهف، الآية: 105.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3176)، وأخرجه أحمد في المسند 88/3.

في سرور وأيام السرور قصارًا ولأن المنقضى في حكم ما لم يكن وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها.

قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلَّ الْمَآزِينَ ﴿١٣٧﴾.

وقرئ: ﴿فسل العائين﴾ والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله نحسبه يومًا أو بعض يوم، لما نحن فيه من العذاب وما فينا أن نعدّها فسل من فيه أن يعد ومن يقدر أن يلقي إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعنون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ العائين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون: كما نقول.

فَكَلَّ إِن كُنْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أَوْ أَنْتُمْ كَثُرَ تَمَلُّونَ ﴿١٣٨﴾.

وقرئ: ﴿العابدين﴾ أي: القمء المعمرين فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن نونهم وعن ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفتين.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَمَلُّونَ ﴿١٣٩﴾.

﴿عبثًا﴾ حال أي: عابثين كقوله: لابعين أو مفعول له أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وأنكم إينا لا ترجعون﴾ معطوف على أنما خلقناكم، ويجوز أن يكون معطوفًا على عبثًا أي: للعبث ولترككم غير مرجوعين، وقرئ ترجعون بفتح التاء.

تَمَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ أَلْحَقْ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْشِ الْكَوْبِرِ ﴿١٤٠﴾.

﴿الحق﴾ الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كرامًا، وقرئ: ﴿الكريم﴾ بالرفع ونحوه نو العرش المجيد.

وَمَنْ يَلْعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهُهَا مَخَرَّ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤١﴾.

﴿لا برهان له به﴾ كقوله: ما لم ينزل به سلطانًا وهي صفة لازمة نحو قوله: يطير بجناحيه جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان^(١)، ويجوز أن يكون اعتراضًا بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه فالله مثيبه، وقرئ أنه لا يفلح

﴿لخسوا فيها﴾ نلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال: خسا الكلب وخسا بنفسه ﴿ولا تكلمون﴾ في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل:

إِنَّهُ كَانَ قَوْلُهُ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٤٢﴾.

هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس إن لهم ست دعوات إذا دخلوا النار قالوا: ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا، فيجابون حق القول: مني فينالون ألفًا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون نلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم فينالون ألفًا يا مالك ليقض علينا ربك، فيجابون إنكم ماكنون فينالون ألفًا ربنا أخرجنا عمل فيجابون أو لم تكونوا فينالون ألفًا ربنا أخرجنا نعمل صالحًا فيجابون، أو لم نعملكم فينالون ألفًا رب أرجعون فيجابون أخسوا فيها، في حرف أبي أنه كان فريق بالفتح بمعنى: لانه.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ يَتْرِبًا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ ﴿١٤٣﴾.

السخرى بالضم والكسر مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والغراء أن المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أي: تسخروهم واستعبدوهم والأول مذهب الخليل وسيبويه قيل: هم الصحابة وقيل: أهل الصفة خاصة ومعناه اتخدتوهم هزؤًا وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى نسوكم﴾ بتشاكلهم بهم على تلك الصفة ﴿نكروى﴾، فتركتموه أي: تركتم أن تنكروني فتخافوني في أوليائي.

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآكِرُونَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٤٥﴾.

وقرئ: ﴿أنهم﴾ بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء والفتح على أنه مفعول جزيتهم كقولك: جزيتهم فوزهم ﴿قال﴾ في مصاحف أهل الكوفة وقل: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ففي قال: ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وفي قل: ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها أو لأهم كانوا

== لا نخله نحن ولا أنت ﴿ حيث أعرب الزمخشري موعداً مصدرًا نصاباً لمكاناً سوى، واعترضه بان المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام والله أعلم.

(١) قال احمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعى إله مع الله، كقوله: ﴿بئل اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ فنفى إنزال السلطان به، وإن لم يكن في نفس الامر سلطان لا منزل، ولا غير منزل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها ما قلته عند قوله تعالى: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً

بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح، والأصل حسابه أنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأن من يدع في معنى الجمع، وكذلك حسابه أنه لا يفلح في معنى حسابهم أنهم لا يفلحون جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون.

وَقُلْ رَبِّيَ أَظْفَرُ وَأَوَّحَرُ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٤﴾.

وأورد في خاتمها أنه لا يفلح الكافرون فستان ما بين الفاتحة والخاتمة. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت⁽¹⁾، ويروي أن أول سورة قد أفلح وأخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح⁽²⁾، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده نوي كروي النحل، فمكثنا فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: اللهم زنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وأثرنا ولا تؤثر علينا وارضى عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن نخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر⁽³⁾.

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي قَاتِلَاؤُهُ كَفِيٌّ وَيَمْنَعُ بِهَا جُلُودَهُ وَلَا تَأْتَلُوكُمْ فِيهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَدَّ عَلَيْهَا جُلُودُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾.

على معنى فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي: جلدتهما ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي وتضمنه معنى الشرط⁽⁴⁾ تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه، وكقوله: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم﴾⁽⁵⁾ وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر، وقرئ والزاني بلا ياء والجلد ضرب الجلد يقال: جلده كقولك: ظهره وبطنه ورأسه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أَهَذَا حُكْمٌ جَمِيعُ الزَّانَةِ وَالزَّانِي أَمْ حُكْمٌ بَعْضُهُمْ؟ قُلْتُمْ: بَلْ هُوَ حُكْمٌ مِنْ لَيْسَ بِمُحْصَنٍ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمُحْصَنَ حُكْمَهُ الرَّجْمَ وَشُرَاطُ الْإِحْصَانِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ سِتُّ الْإِسْلَامِ وَالْحَرِيَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ وَالتَّزْوِجُ بِنِكَاحٍ صَاحِبٍ وَالدُّخُولُ إِذَا فُقِدتْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا فَلَا إِحْصَانَ وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ الْإِسْلَامُ لَيْسَ بِشَرَطٍ لِمَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَجَمَ يَهُودِيَيْنِ زَنِيًّا⁽⁶⁾، وَحِجَّةُ أَبِي حَنِيفَةَ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ»⁽⁷⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: اللَّفْظُ يَقْتَضِي تَعْلِيقَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ الزَّانَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النور المدنية

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَرَوَّيْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِمَنْ يَكْفُرُ لَكُمْ وَنُذَكِّرُونَ ﴿١﴾.

﴿سورة﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿أنزلناها﴾ صفة أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقرئ بالنصب على زيدا ضربته ولا محل لأنزلناها لأنها مفسرة للمضمر، فكانت في حكمه أو على

- (1) نكره التعليلي في تفسيره، وابن مروي، والواحد في الوسيط (408/2).
- (2) قال الزيلعي غريب جداً، 409/2.
- (3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3173)، وأخرجه أحمد في المسند 34/1، ورواه عبد الرزاق، 3/383، الحديث: 6038.
- (4) قال أحمد: وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين لفظي ومعنوي، أما اللفظي فلأن الكلام أمر، وهو يخيل اختيار النصب، ومع ذلك قراءة العامة، فلو جعل فعل الأمر خبراً وبني المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من مخالفة الاختيار، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ والآية ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله: ﴿مثل الجنة﴾ ولا يستقيم جزءاً أن يكون قوله: فيها أنهار خبره، فتعين تقدير خبره محذوفاً، وأصله فيما نقص عليكم مثل الجنة، ثم لما كان هذا إجمالاً لنكر المثل فصل المجمع بقوله: =
- (5) سورة النور، الآية: 4.
- (6) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: أحكام أهل الذمة، (الحديث: 6841)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود، الحديث: (26 - 1699).
- (7) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحدود والديات وغيره، الحديث: (199).

عذاباً لأنه يمنع من المعاودة كما سمي نكالاً الطائفة الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبية كانها الجماعة الحافة حول الشيء، وعن ابن عباس في تفسيرها أربعة إلى أربعين رجلاً من المصنقين بالله وعن الحسن عشرة، وعن قتادة ثلاثة فصاعداً وعن عكرمة رجلان فصاعداً، وعن مجاهد الواحد فما فوقه وفضل قول: ابن عباس لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحد، والصحيح أن هذه الكبيرة من أمهات الكبائر ولهذا قرنها الله بالشرك، وقتل النفس في قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾⁽⁸⁾ ومن يفعل ذلك يلق أثمًا وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾⁽⁹⁾ وعن النبي ﷺ: يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فاما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر، واما اللاتي في الآخرة فيوجب للسخطه وسوء الحساب والخلود في النار⁽¹⁰⁾ ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكامله بخلاف حد القنف، وشرب الخمر وشرع فيه القتل الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرفافة على المجلود فيه، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير والواحد والاثنتان ليسوا بتلك المثابة واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما إلى أربعين رجلاً من المصنقين بالله.

الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٢).

الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله، أو في مشركة والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرّم عليه محظور لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور موقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد ومجالسة الخطائين كم

والزواني لأن قوله: الزانية والزاني عام في الجميع يتناول المحصن وغير المحصن؛ قلّت: الزانية والزاني يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مطلقاً والجنسية قائماً في الكل والبعض جميعاً، فإيهما قصد المتكلم فلا عليه كما يفعل بالاسم المشترك، وقرئ ولا يأخذكم بالياء ورافة بفتح الهمزة ورافة على فعلة والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجدّ والمتانة فيه ولا يأخذهم اللين والهواة في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك حيث قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»⁽¹⁾ وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهيج وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل: لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود، أو حتى لا توجعهما ضرباً وفي الحديث يؤتى بوال نقص من الحد سوطاً، فيقول: رحمة لعبالك فيقال له: آئت أرحم بهم مني فيؤمر به إلى النار ويؤتى بمن زاد سوطاً، فيقول: لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار⁽²⁾، وعن أبي هريرة إقامة حدّ بأرض خبر لاهلها من مطر أربعين ليلة⁽³⁾، وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب، والرجل يجلد قائماً على مجرّده ليس عليه إلا إزاره ضرباً وسطاً لا مبرحاً ولا هيئاً مفرقاً على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة الوجه والراس والفرج، وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم والمرأة تجلد قاعدة ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حدّ غير المحصن بلا تغريب، وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة، وتغريب عام»⁽⁴⁾ وما يروى عن الصحابة أنهم جلدوا ونفوا⁽⁵⁾ منسوخ عنده، وعند أصحابه بالآية أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب وقول الشافعي: في تغريب الحرّ واحد، وله في العبد ثلاثة أقاويل يغرب سنة كالحرّ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة، ولا يغرب كما قال: أبو حنيفة وبهذه الآية نسخ الحبس والاذى في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبَيْتِ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾⁽⁷⁾ قيل: تسميته عذاباً لليل على أنه عقوبة ويجوز أن يسمى

(1) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: نكر أسامة بن زيد (الحديث: 3733)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، الحديث: (8. 1688).

(2) قال الزيلعي غريب وروى أبو يعلى نحوه، 414/2.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحدود، (الحديث: 4397)، وأخرجه النسائي في كتاب: قطع السارق، باب: الترغيب في إقامة الحد، وأخرجه أحمد في المسند 402/2، وابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود، (الحديث: 2538).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنا، الحديث: (12. 1690)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: في الرجم =

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في تحقيق الرجم، الحديث: 1431.

(6) سورة النساء، الآية: 15.

(7) سورة النساء، الآية: 16.

(8) سورة الفرقان، الآية: 68.

(9) سورة الإسراء، الآية: 32.

(10) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم الفروج، الحديث: 5475.

ليرحمك، ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى أن عانتهم جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها، وقرئ وحرم بفتح الحاء.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْلَةٍ فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ
وَلَا يُغْنَوْنَ لَهُمْ شَفَاعَةُ أَوْلِيائِهِمْ هُمْ أَتَمُّ الْقَوْمِ ٤١

القذف يكون بالزنا وبغيره والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنا شيان: أحدهما: نكر المحصنات عقيب الزواني. والثاني اشتراط أربعة شهداء لأن القذف بغير الزنا يكفي فيه شاهدان، والقذف بالزنا أن يقول: الحر العاقل البالغ لمحصنة يا زانية أو لمحصن يا زاني يا ابن الزاني يا ابن الزانية يا ولد الزنا لست لأبيك لست لرشدة، والقذف بغير الزنا أن يقول: يا أكل الربا يا شارب الخمر يا يهودي يا مجوسي يا فاسق يا خبيث يا ملص بظر أمه فعلية التعزير، ولا يبلغ به أدنى حد العيب وهو أربعون بل ينقص منه وقال: أبو يوسف يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون، وقال: للإمام أن يعزr إلى المائة وشروط إحصان القذف خمسة الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة، وقرئ بأربعة شهداء بالتنوين وشهداء صفة.

فإن قُلْتَ: كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين؟ قُلْتُ: الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد، وإن جاؤا متفرقين كانوا قذفة وعند الشافعي رضي الله عنه يجوز أن يحضروا متفرقين.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحداً منهم؟ قُلْتُ: يجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي.

فإن قُلْتَ: كيف يجلد القائف؟ قُلْتُ: كما جلد الزاني إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو والقائفة أيضاً كالزانية وأشد الضرب ضرب التعزير، ثم ضرب الزنا، ثم ضرب شرب الخمر، ثم ضرب القاذف قالوا: لأن سبب عقوبته محتمل للصدق

فيها من التعرض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب وقد نبه على ذلك بقوله: ﴿وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾^(١) وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهن فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت وعن عائشة رضي الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية وإذا باشرها كان زانياً، وقد أجازها ابن عباس رضي الله عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة، ثم اشتراه وعن النبي ﷺ أنه سئل عن نكاح فقال: أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال، وقيل: المراد بالنكاح الوطء وليس يقول: لأمرين أحدهما أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد، والثاني فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني بها إلا زان، وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ والناسخ قوله: وانكحوا الأيامي منكم. وقيل: الإجماع وروي ذلك عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ: أي: فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قُلْتُ: معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفاف ولكن في الفواجر، ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان^(٢).

فإن قُلْتَ: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانياً؟ قُلْتُ: سبقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنى والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجنائية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدء بنكرها، وأما الثانية فمسوقة لنكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب، وعن عمرو بن عبيد رضي الله عنه لا ينكح بالجزم على النهي والمرفوع فيه أيضاً معنى النهي، ولكن أبلغ وأكد كما أن رحمك الله ويرحمك أبلغ من

(1) سورة النور، الآية: 32.
(2) قال أحمد: وليس فيما نكره إيضاح إطباق الجملتين، ونحن نوضحه، فنقول الأقسام أربعة: الزاني لا يرغب إلا في زانية، الزانية لا ترغب إلا في زان، العفيف لا يرغب إلا في عفيفة، العفيفة لا ترغب إلا في عفيف. وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعاني، وحاصرة للقسم، فنقول: اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين، واقتصرت على قسمين أخرى من المسكوت عنهما، فجاءت مختصرة جامعة، فالقسم الثاني صريح في القسم الأول ويفهم الثالث، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم في الرابع، والقسم الثالث والرابع متلازمان من حيث أن المتقضى لانحصار رغبة العفيف في العفيفة، هو اجتماعهما في الصفة، وذلك بعينه مقتضى لانحصار رغبتهما فيه، ثم يقتصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن نكر الزناة وجوداً وسلباً، فإن معنى الأول: الزانية لا ينكحها عفيف، ومعنى الثاني: العفيفة لا ينكحها زان، والسر في ذلك أن الكلام في أحكامهم، فنكر الأعفاء بسلب نقائصهم حتى لا يخرج بالكلام كما هو المقصود

= منه ثم بيّنه في إسناد النكاح في هذين القسمين للذكور دون الإناث بخلاف قوله: «الزانية والزاني» فإنه جعل لكل واحد منهما، ثم استقلالاً وقدم الزانية على الزاني، والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنا، والأصل فيه المرأة لما يبيو منها من الإيماض والاطماع، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة، والأصل في النكاح الذكور، وهم المبتدئون بالخطبة، فلم يسند إلا لهم لهذا، وإن كان الغرض من الآية تغيير الأعفاء من الذكور والإناث منكمحة الزناة نكحاً وإنثاءً زجراً لهم عن الفاحشة، ولذلك قرن الزنا والشرك، ومن ثم كره مالك رحمه الله مناقحة المشهورين بالفاحشة، وقد نقل بعض أصحاب الإجماع في المذهب على أن للمرأة، أو لمن قام من أوليائها فسبح نكاح الفاسق، ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة، إلا في الدين، وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى، فاستعظمه وتلا: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾.

والكذب إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعا عن هتكها. **فإن قلت:** فإذا لم يكن المقنوف محصناً؛ قلت: يعزر القائف ولا يحد إلا أن يكون المقنوف معروفاً بما قنف به فلا حد ولا تعزير، رد شهادة القائف معلق عند أبي حنيفة رضي الله عنه باستيفاء الحد فإذا شهد قبل الحد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب وكان من الأبرار الاتقياء، وعند الشافعي رضي الله عنه يتعلق رد شهادته بنفس القنف فإذا تاب عن القنف بأن رجع عنه عاد مقبول الشهادة، وكلاهما متمسك بالآية فابو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي الجلد ورد الشهادة عقيب الجلد على التأييد، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أيديهم وهو مدة حياتهم وجعل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلاماً مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥).

و﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من الفاسقين، ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قائفاً وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القنف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية وحق المستثنى عنده أن يكون مجزواً بدلاً من هم في لهم وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوباً لأنه عن موجب والذي يقتضيه ظاهر الآية، ونظماً أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قبل ومن قنف المحصنات فاجلدوهم ورووا شهادتهم وفسقوهم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق إلا الذين تابوا عن القنف وأصلحوا، فإن الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلوبين ولا مردوين ولا مفسقين.

فإن قلت: الكافر يقنف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع والقائف من المسلمين يتوب عن القنف، فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه كان القنف مع الكفر أهون من القنف مع الإسلام؛ قلت: المسلمين لا يعبؤون بسب الكفار لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل، فلا يلحق المقنوف بقنف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقنف مسلم مثله ففسد على القائف من المسلمين ردعاً وكفاً عن إلحاق الشنار.

فإن قلت: هل للمقنوف أو للإمام أن يعفو عن حد القائف؟ قلت: لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحد والمقنوف مندوب إلى أن لا يرافع القائف ولا يطالبه بالحد، ويحسن من الإمام أن يحمل المقنوف على كظم الغيظ ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحد، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ولهذا لم يصح أن يصلح عنه ب말.

فإن قلت: هل يورث الحد؟ قلت: عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث لقوله ﷺ الحد لا يورث. وعند

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْوَجُ أَرَبِ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ (٦) وَالْحَنَافِيسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيُرْوَدُ عَنْهَا الْمَذَابُ أَنَّ شَهَدَةَ أَرَبِ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْحَنَافِيسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩).

قائف امراته إذا كان مسلماً حراً بالغاً عاقلاً غير محلود في القنف والمرأة بهذه الصفة مع العفة صح اللعان بينهما إذا قنفها بصريح الزنا وهو أن يقول لها: يا زانية أو زنيته أو رايتك تزنين، وإذا كان الزوج عبداً أو محلوداً في قنف والمرأة محصنة حد كما في قنف الأجانب، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب لللعان ولللعان أن يبدأ الرجل، فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، ويقول في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، وتقول: المرأة أربع مرات أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا ثم تقول: في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنا، وعند الشافعي رضي الله عنه يقام الرجل قائماً حتى يشهد والمرأة قاعداً، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له: إن أخاف إن لم تكن صادقاً أن تبوء بلعنة الله، وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت وبالمدينة على المنبر وبيت المقدس في مسجده ولعان المشرك في الكنيسة، وحيث يعظم وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام، ثم يفرق القاضي بينهما ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم إلا عند زفر، فإن الفرقة تقع لللعان وعن عثمان البتي لا فرقة أصلاً وعند الشافعي رضي الله عنه تقع لللعان الزوج، وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رضي الله عنهما ولا يتأبد حكمها فإذا كذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه، ويروي أن آية القنف لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ على المنبر، فقام عاصم بن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال: جعلني الله فداك إن وجد رجل مع امراته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته أبداً وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد

ببهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الأفك، وهو القلب لأنه قول: مافوك عن وجهه والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها، والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصبة واعصوبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبي راس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم، وقرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه والذي تولاه عبد الله لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ وانتهازه الفرص وطلبه سبيلاً إلى الغميمة أي: يصيب كل خائن في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه، والعذاب العظيم لعبد الله لأن معظم الشركان منه يحكى أن صفوان رضي الله عنه مر بهوبجها عليه وهو في ملا من قومه فقال: من هذه فقالوا: عائشة رضي الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، والخطاب في قوله: ﴿هو خير لكم﴾ لمن ساءه نك من المؤمنين وخاصة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهم، ومعنى كونه خيراً لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم لأنه كان بلاء مبيئاً ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسليية له وتنزيهه لام المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لآل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم تمجه إننا وعدة اللطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وأداب لا تخفى على متأملها.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ خَبْرٌ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿بأنفسهم﴾ أي: بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾⁽¹⁾ وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال: لام أيوب الا ترين ما يقال فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً، قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني وصفوان خير منك⁽³⁾.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم

قضى الرجل حاجته، ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال: ما وراءك قال: شر وجدت على بطن امرأتي خولة وهي بنت عاصم شريك بن سحماء فقال: هذا والله سؤالي ما أسرع ما ابتليت به فرجعاً فأخبر عاصم رسول الله ﷺ فكلم خولة فقالت: لا أدري الغيرة أدركته أم بخلاً على الطعام وكان شريك نزليهم وقال هلال: لقد رأيته على بطنها فنزلت ولاعن بينهما، وقال رسول الله ﷺ عند قوله وقولها: أن لعنة الله عليه إن غضب الله عليها أمين، وقال القوم: أمين وقال لها: إن كنت ألممت بذنب فاعترفي به، فالرجم أهون عليك من غضب الله إن غضبه هو النار وقال: تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيبه أثيبج يضرب إلى السواد، فهو لشريك وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك، فقال ﷺ لولا الأيمان لكان لي ولها شأن، وقرئ ولم تكن التاء لأن الشهداء جماعة، أو لانهم في معنى الأنفس التي هي بدل وجه من قرأ أربع أن ينتصب لانه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو فشهادة أحدهم وهي مبتدأ محذوف الخبر تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله، وقرئ أن لعنة الله وإن غضب الله على تخفيف أن ورفع ما بعدها، وقرئ أن غضب الله على فعل الغضب، وقرئ بنصب الخماسين على معنى وتشهد الخامسة.

فإن قُلْتَ: لِمَ خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله؟ قُلْتَ: تغليظاً عليها لأنها هي أصل الفجور ومتبعه بخلايتها وإطامعها ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد ويشهد لذلك قوله ﷺ لخولة، فالرجم أهون عليك من غضب الله.

لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ رِجْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الفضل التفضل وجواب لولا متروك وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَهُ نَجَسَهُ مُرًّا لَكُمْ بَلٌ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل: هو

(3) قال احمد: ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان، ونفسها منزلة عائشة، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والامانة حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضي الله عنها، ويحتمل والله أعلم خلاف ما قاله الزمخشري، وهو أن يكون التعبير بالانفس حقيقة، والمقصود إلزام سيء الظن بنفسه: لأنه لم يعتد بوازع الإيمان في حق غيره والغاه، واعتبره في حق نفسه، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى والله أعلم.

(1) سورة الحجرات، الآية: 11.

(2) قال احمد: والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه، وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك والله أعلم. عاد كلامه (قال: ونقل أن أبا أيوب الأنصاري، قال لامرأته: الا ترين مقالة الناس، قالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تخون في حرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته، وصفوان خير منك، وعائشة خير مني).

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ والقول: لا يكون إلا بالعلم! قُلْتُ: معناه أن الشيء المعلوم يكون وعلمه في القلب، فيترجم عنه اللسان^(١) وهذا الإفك ليس إلا قولاً: يجري على السننكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله تعالى: يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة، وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له: فقال: أخاف ننبأ لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم؛ وفي كلام بعضهم لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نكير وصفهم بارتكاب ثلاثة أثام وعلق مس العذاب العظيم بها أحدها تلقى الإفك السننهم ونلك أن الرجل كان يلقي الرجل، فيقول له: ما وراءك فيحنته بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه والثاني التكلم بما لا علم لهم، والثالث استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظام.

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا

بِهِنَّ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

فإن قُلْتُ: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قُلْتُ: للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها وإنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

فإن قُلْتُ: فأي: فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ قُلْتُ: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفانوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

فإن قُلْتُ: فما معنى يكون والكلام بدونه مثلث لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا! قُلْتُ: معناه: معنى ينبغي ويصح أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴿وسبحانك﴾ للتعجب من عظم الأمر.

فإن قُلْتُ: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح! قُلْتُ: الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة؟

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامراً نوح، ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة؟ قُلْتُ: لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعواهم، ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم ولم يكن الكفر عندهم مما

خيراً وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر! قُلْتُ: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصنق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على اختها قول: عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله: في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، وأن يقول: بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هذا إفك مبين﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول: المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الأدب الحسن الذي، قال: القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَيِّمَةٍ شَهَادَةً فإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَنْزَلْتَنَّاكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾

جعل الله التفصلة بين الرمي الصائق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بيعة على قولهم، فقامت عليهم الحجة وكانوا ﴿عند الله﴾ أي: في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك، فلم يجنوا في دفعه وإنكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القائف بغير بيعة والتكليف به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأم المؤمنين الصنيقة بنت الصديق، حرمة رسول الله ﷺ وحببية حبيب الله.

وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرِعَكُمْ فِي الذَّنْبِ وَالْأَجْرِ لَسَكَّرَ فِي مَا أَفْسَرْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

لولا الأولى للتحضيض وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره والمعنى: ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك.

يقال: أفاض في الحديث واندفع وهضب وخاض ﴿إن﴾ ظرف لمسكم، أو لأفضتم ﴿تلقونه﴾ يأخذه بعضكم من بعض يقال: تلقى القول: وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾^(١) وقرئ على الأصل تتلقونه وإذ تلقونه بإدغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى: لقفه وتلقونه من إلقائه بعضهم على بعض وتلقونه وتالقونه من الولق والالاق، وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة رضي الله عنها وعن سفيان سمعت أمي تقرأ إذ تتلقونه، وكان أبوها يقرأ بحرف

(1) سورة البقرة، الآية: 37.

(2) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد المبالغة، أو تعريضاً بأنه ربما يتمسق، ويقضي تمسق جازم عالم، وهذا أشد وأقطع، وهو =

= السر الذي أنبا عنه قوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ والله أعلم.

ينفروا، وأما الكشخنة⁽¹⁾ فمن أعظم المنفرات. وَيُعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَمُودُوا لِيَتْلِيَهُ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ ﴿١٨﴾.

وهو من اثنتي إذا حلف افتعال من الآلية وقيل: من قولهم: ما لوت جهداً إذا لم تدخر منه شيئاً ويشهد للأول قراءة الحسن ولا يقال والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحنة لجناية اقترفوها، فليعوبوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم، ونزوبهم نزلت في شأن مسطح، وكان ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وكان قفيزاً من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط منه ما فرط آلى أن لا ينفق عليه وكفى به داعياً إلى المجاملة، وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء، ويروى أن رسول الله ﷺ قراها على أبي بكر فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبداً، وقرأ أبو حيوة وابن قطيب أن توتوا بالتاء على الالتفات ويعضده قوله: الا تحبون أن يغفر الله لكم.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ مَأْمُرًا لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

المعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة وإرادة

ومحبة لها وعذاب الدنيا الحد ولقد ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي وحساناً ومسطحاً وقعد صفوان لحسان، فضربه ضربة بالسيف وكف بصره وقيل: هو المراد بقوله: والذي تولى كبره منهم ﴿وإنا يعلم﴾ ما في القلوب من الأسرار والضمائر ﴿وانتم لا تعلمون﴾ يعني: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو معاقبه عليها.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٩﴾.

وكرر المنة بترك المعالجة بالعقاب حانفاً جواب لولا كما

حذفه ثمة وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة، وكذلك في التوب والرزوف والرحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

الفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه قال أبو نؤيب:

ضرائر حرمي ففاحش غارها

أي: أفرطت غيرتها والمنكر ما تنكره النفوس فتتفر عنه

ولا ترضيه. وقرئ: ﴿خطوات﴾ بفتح الطاء وسكونها

وزكى بالتشديد والضمير لله تعالى ولولا أن الله تفضل

عليكم بالتوبة المحصنة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من

دنس إنم الإفك ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا

محضوها وهو ﴿سميع﴾ لقولهم: ﴿عليم﴾ بضمائرهم وإخلاصهم.

وَلَا يَأْتِي أَوْلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالشَّيْءُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّكِينِ

وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ ﴿٢٠﴾.

وهو من اثنتي إذا حلف افتعال من الآلية وقيل: من قولهم: ما لوت جهداً إذا لم تدخر منه شيئاً ويشهد للأول قراءة الحسن ولا يقال والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحنة لجناية اقترفوها، فليعوبوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم، ونزوبهم نزلت في شأن مسطح، وكان ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وكان قفيزاً من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط منه ما فرط آلى أن لا ينفق عليه وكفى به داعياً إلى المجاملة، وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء، ويروى أن رسول الله ﷺ قراها على أبي بكر فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبداً، وقرأ أبو حيوة وابن قطيب أن توتوا بالتاء على الالتفات ويعضده قوله: الا تحبون أن يغفر الله لكم.

(1) قال احمد: وما اورد عليه ابرد من هذا السؤال، كان احدًا يشكك عليه ان ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة مما ينكره كل عاقل، ويتعجب منه كل لبيب والله الموفق.

أراد عبد الله بن الزبير وأشباعه وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه⁽¹⁾، وكان مضعوفاً وكنيته المشهورة أبو بكر إلا أن هذا في الاسم وذلك في الصفة.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿هو الحق المبين﴾⁽²⁾ قُلْتُ: معناه نو الحق البين أي: العادل الظاهر العدل الذي لا ظلم في حكمه والمحق الذي لا يوصف بباطل، ومن هذه صفة لم تسقط عنده إساءة مسيء ولا إحسان محسن فحق مثله أن يتقي ويجتنب محارمه.

الْحَبِيثُ الْخَبِيثُ وَالْخَبِيثُ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّيِّبُ الْطَّيِّبُ أَوْلَئِكَ مَرْوَةٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفَرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (١٧)

أي: ﴿الخبثات﴾ من القول: تقال أو تعد للخبثين من الرجال والنساء ﴿والخبثون﴾ منهم يتعرضون للخبثات من القول: وكذلك الطيبات والطيبون و﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيبين وإنهم مبرؤن مما يقول: الخبيثون من خبيثات الكلم⁽³⁾، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب، ويجوز أن يكون أولئك إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرؤن مما يقول: أهل الإفك وأن يراد بالخبثات والطيبات النساء أي: الخبثات يتزوجن الخبث والخبث الخبثات وكذلك أهل الطيب، ونكر الرزق الكريم ها هنا مثله في قوله: وأعدتنا لها رزقاً كريماً، وعن عائشة لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتني في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكرةً وما تزوج بكرةً غيري ولقد توفي وإن رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي ولقد حفته الملائكة في بيتي، وإن الوحي لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه وإني لابنة خليفته، وصديقه ولقد نزل عندي من السماء ولقد خلقت طيبة عند طيب⁽⁴⁾ ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا

تشهد عليهم مما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيههم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك.

يَوْمَ يُؤْمَرُ اللَّهُ بِهَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥).

﴿أن الله هو الحق المبين﴾ فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكزّر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين، عبدة الأوثان إلا ما هو بونه في الفظاعة، وما ذلك إلا لأمر وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات، فقال: من أننب ننباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك ولقد برا الله تعالى أربعة باربعة، برا يوسف بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها إنني عبد الله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز الممتلئ على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والأخريين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق بون كل سابق فليتقن ذلك من آيات الإفك وليتأمل كيف غضب الله له في حرمة، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجاب.

فإن قُلْتُ: إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل: المحصنات؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ وأن يخصصن بأن من قنفهن، فهذا الوعيد لاحق به وإذا أريدن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ كانت المرادة أولاً والثاني أنها أم المؤمنين فجمعت إرادة لها، ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والعفلة والإيمان كما قال:

قَدْنِي مِنْ نَصْرِ الْخَبِيِّنِ قَدِّي

= مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحاً وتضميناً، فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع، وقد اشتملت على فائدة أخرى، وهي الاستشهاد على براءة أم المؤمنين، بأنها زوجة أطيب الطيبين، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبراة مما أفكت به، وهذا التأويل الثاني هو الظاهر، فإن بعد الآية لهم مغفرة ورزق كريم، وبهذا وعد أزواجه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نؤتها أجراً مرتين وأعدتنا لها رزقاً كريماً﴾، والله أعلم عاد كلامه قال: ونقل عن عائشة أنها قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة، فنكرت منهن أنها خلقت طيبة عند طيب.

(4) قال أحمد: وهذا أيضاً يحق ما نكرته إن المراد بالطيبات والطيبين: النساء والرجال: وإن المراد بذلك إظهار براءة عائشة، بأنها زوج أطيب الطيبين، فيلزم أن تكون طيبة وفاء بقوله: ﴿والطيبون للطيبات﴾، والله أعلم.

(1) قال أحمد: والأظهر أن المراد عموم المحصنات، والمقصود بنكرهن على العموم، وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه؛ لأنه إذا كان هذا وعيد قائف أحد المؤمنات، فما الظن بوعيد من قذف سيدهن، وزوج سيد البشر ﷺ، على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه، وهذا معنى قول زليخا: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم؛ فعممت وأرانت يوسف تهويلاً عليه وارجافاً، والمعصوم من عصمة الله تعالى. قوله تعالى: ﴿الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات﴾ الآية (قال): تحتمل الآية امرين أحدهما: أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبثين، والمراد الإفك، ومن أقاض فيه، وعكسه في الطيبات والطيبين. الثاني: أن يكون المراد بالخبثات النساء، وبالخبثين الرجال.

(2) سورة النور، الآية: 25.

(3) قال أحمد: إن كان الأمر على التأويل الثاني فهذه الآية تفصيل لما أجمله. قوله تعالى: ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ وقد بينا أنها =

وَسَيُؤْمَرُ عَنْ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ عَزَّ لَكُمْ لَمَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾

الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر⁽³⁾ وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أستاذن على أمي، قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيري أستاذن عليها كلما دخلت قال: «أتحب أن تراها عريانة». قال: الرجل: لا، قال: «فاستاذن»⁽⁴⁾ **﴿لعلكم تذكرون﴾** أي: أنزل عليكم، أو قيل: لكم هذا إرادة أن تنكروا وتتعضوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

إِن لَّرَّ يَجِدُوا فِيهَا أَحْكَامًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُوَدَّعَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتُوا فَاتَّجِعُوا لَهُمْ أُولَٰئِكَ لَكُمْ وَأَلَلَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾

يحتمل **﴿فإن لم تجدوا فيها أحكام﴾** من الأذنين **﴿فلا تدخلوها﴾** واصبروا حتى تجدوا من يأنن لكم ويحتمل، فإن لم تجدوا فيها أحكاماً من أهلها ولكم فيها حاجة، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها وذلك أن الاستئذان لم يشرع لثلا يطلع الدامر على عوزة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط وإنما شرع لثلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم، ويتحفظون من إطلاع أحد عليها ولأنه تصرف في ملك غيرك، فلا بد من أن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب والتغلب، **﴿فارجعوا﴾** أي: لا تلحوا في إطلاق الإذن ولا تلجوا في تسهيل الحجاب، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدم في قلوب الناس خصوصاً إذا كانوا نوي مروءة ومرتاضين بالأداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف، والتصحيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهنّب من أكثر الناس، وعن أبي عبيد ما قرعت باباً على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله: **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾**.

﴿فإن قلنت﴾ هل يصح أن يكون المعنى: وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع، فامتلوا ولا تدخلوا مع كراهتهم؟ **﴿قلنت﴾** بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين، وغائبين لم تبق شبهة في كونه منهيًا عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن.

﴿فإن قلنت﴾ فإذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهوراً منكراً يجب إنكاره **﴿قلنت﴾** ذلك مستثنى بالليل، أي: الرجوع أطيب لكم وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة أو أنفع وأمنى خيراً، ثم أورد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا

﴿تستأنسوا﴾ فيه وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الإستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله: **﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾**⁽¹⁾ وهذا من باب الكناية والإرداف لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن، فوضع موضع الإذن والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام، والاستكشاف استفعال من انس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً، والمعنى: حتى تستعملوا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قوله: استأنس هل ترى أحداً واستأنست، فلم أر أحداً أي: تعرفت واستعلمت ومنه بيت النابغة. على مستأنس واحد. ويجوز أن يكون من الإنس وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟⁽²⁾ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قلنا: يا رسول الله ما الاستئناس قال: يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبير والتحميدة، ويتنحج يؤذن أهل البيت، والتسليم أن يقول: السلام عليكم أدخل ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا رجع وعن أبي موسى الأشعري أنه أتى باب عمر رضي الله عنهما فقال: السلام عليكم أدخل قالها ثلاثاً، ثم رجع وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول الاستئذان ثلاثاً وأستاذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: ألهج فقال ﷺ لامرأة يقال لها: روضة قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن أن يستأنن قولني له يقول: السلام عليكم أدخل فسمعها الرجل فقالها فقال: أدخل وكان أهل الجاهلية يقول: الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته حبيتم صباحاً وحبيتم مساءً، ثم يدخل وربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد فصدّ الله عن ذلك وعلم الأحسن والأجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به، وباب الاستئذان من ذلك بينا أنت في بيتك إذا رجع عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه، وما قال: رسول الله ﷺ ولكن أين الأذن الواعية، وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأننوا، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير إنما هو حتى تستأننوا فأخطأ الكاتب، ولا يعول على هذه الرواية، وفي قراءة أبي حتى تستأننوا **﴿نلكم﴾** الاستئذان والتسليم **﴿خير لكم﴾** من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير إذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر لعظم ما ارتكب، وفي

(1) سورة الاحزاب، الآية: 53.

(2) قال أحمد: فيكون على هذا الأخير بني من الإنس استعمل، والوجه الأوّل هو البين، وسر التجوز فيه، والدخول إليه عن الحقيقة ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة نكر، فإن له فائدة وثمرة تميل النفوس إليها، وتنفر من ضدها، وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان، ففيه تنهيز للنوعي =

= على سلوك هذا الألب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(3) رواه الطبراني.

(4) أخرجه أبو داود في المراسيل، كتاب: ما جاء في الاستئذان، (الحديث رقم: 488) وأخرجه مالك في الموطأ، وكتاب: الاستئذان، باب: الاستئذان، (الحديث رقم: 1).

به فموف جزاءه عليه.

وَلَا تَصْرِيحًا بِأَرْجُلِهِنَّ يُعَلِّمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُورِأُ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَمَّا كَرَّ قُلُوبُهُمْ (٣٦).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٣٧).

النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته وإن اشتهدت غضت بصرها رأساً، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك وغضها بصرها من الأجنبي أصلاً أولى بها وأحسن منه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن مكتوم ونلك بعد أن امرنا بالحجاب، فدخل علينا فقال: احتجبا فقلنا: يا رسول الله اليس أعمى لا يبصرنا قال: أفعميوان أنتما الستما تبصرانه⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: لم قَدَّم غُضَّ الأبصار على حفظ الفروج؟ قُلْتُ: لأنَّ النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشدَّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، الزينة ما زينت به المرأة من حلِّي، أو كحل، أو خضاب فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتحة والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب وما خفي منها كالسوار والخلخال والدمليج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبنيه، إلا لهؤلاء المنكوبين وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر لأنَّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي النزاع والساق والعضد والعنق والراس والصدر والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها ليعلم أنَّ النظر إذا لم يحل إليها لملاستها تلك المواقع بدليل أنَّ النظر إليها غير ملاسمة لها لا مقال في حله كان النظر إلى المواقع أنفسها⁽³⁾ متمكناً في الحظر ثابت القدم في الحرمة شاهداً على أنَّ النساء حقهن أن يحتطن في سترها، ويتقين الله في الكشف عنها.

فإن قُلْتُ: ما تقول في القراميل هل يحل نظر هؤلاء إليها؟ قُلْتُ: نعم.

فإن قُلْتُ: اليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها ويطننها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذي ما تحت السرة؟ قُلْتُ: الأمر كما قلت: ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلى لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء إلا إذا كان يصف لرقته، فلا يحل النظر إليه فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه.

فإن قُلْتُ: ما المراد بموقع الزينة تلك العضو كله أم المقدار الذي تلبسه الزينة منه؟ قُلْتُ: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة الوجه موقع الكحل في عينيه والخضاب بالوسمة

واستثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها وذلك نحو الفنايق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين، المتاع المنفعة كالاستكنان من الحرِّ والبرد وإيواء الرجال والسلع والشراء والبيع، ويروي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنَّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان وإننا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا نخلها إلا بإذن، فنزلت⁽¹⁾ وقيل: الخريات يتبرز فيها والمتاع التبرز ﴿وإله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وعيد للذين يدخلون الخريات والدور الخالية من أهل الريبة.

قُلْ لِلْمُزْنِيِّكَ بِعَشْرًا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَحَفْظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٨).

من للتبعيض والمراد غُضَّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيويه.

فإن قُلْتُ: كيف دخلت في غُضَّ البصر دون حفظ الفروج؟ قُلْتُ: دلالة على أن أمر النظر أوسع الا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنَّ وصورهنَّ وثديهنَّ وأعضاهنَّ وأسوقهنَّ وأقدامهنَّ وكذلك الجوارى المستعرضات والأجنبية بنظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الرويتين وأما أمر الفرج فمضيق وكفاك فرقاً أن أبيع النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ويجوز أن يراد مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء، وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، ثم أخبر أنه ﴿خبير﴾ بأفعالهم وأحوالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

وَقُلْ لِلزَّوْنِيَّتِ يَتَضَعْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَحَفْظَنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَتَصْرِيحًا بِمُحْرَمِ عَنِ جُورِيَّتِ وَلَا يُبْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِمَوْلَاهُنَّ أَوْ مَأَبَاهُنَّ أَوْ مَأَبَاةَ مَوْلَاهُنَّ أَوْ أَبْنَاهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَ مَوْلَاهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ النَّسَبِيِّكَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْإِطْفَالِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ

= لأنه قد نهى عما هو نزيعة إليه خاصة إذ الضرب بالأرجل لم يعلى النهي عنه، إلا يعلم أن المرأة ذات زينة، وإن لم تظهر فضلاً عن مواضعها والله أعلم.

(1) لم يخرج عند الزيلعي.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، (الحديث رقم: 5576).

(3) قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك ﴿ولا يضرين بارجلهنَّ ليعلم ما يخفين من زينتتهن﴾ محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصود بالنهي؛ =

فإن قُلْتُ: روي أنه «أُفِيَّ لرسول الله ﷺ خصي قبله»⁽⁶⁾ قُلْتُ: لا يقبل فيما نعم به البلوى إلا حديث مكشوف، فإن صح فعله قبله ليعتقه أو لسبب من الأسباب «الإرية» الحاجة قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنهم به لا يعرفون شيئاً من أمرهن، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معون غصوا أبصارهم أو بهم عنانة، وقرئ: غير بالنصب على الاستثناء أو الحال والجر على الوصفية، وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أن المراد به الجمع ونحوه نخرجكم طفلاً «لم يظهر» أما من ظهر على الشيء إذا أطلع عليه أي: لا يعرفون ما العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها وأما من ظهر على فلان إذا قوي عليه وظهر على القرآن أخذه وأطاقه أي: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطاء، وقرئ: عورات وهي لغة هنيل.

فإن قُلْتُ: لم لم ينكر الله الأعمام والأخوال؟ قُلْتُ: سئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه: أن سائر القربايات يشرك الأب والابن في المحرمية إلا العم والخال وأبناءهما فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فبيداني تصوّره لها بالوصف نظره إليها وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر، كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعق خخالها، فيعلم أنها ذات خخال وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى ليعلم أنها ذات خخالين وإذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ، وأمر الله ونواهيته في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، ويتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعون في الدنيا والآخرة.

فإن قُلْتُ: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟ قُلْتُ: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أتى ذنباً، ثم تاب عنه يلزمه كلما ينكره أن يجدد عنه التوبة لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقي ربه، وقرئ: آية المؤمنون بضم الهاء ووجه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف للقاء الساكنين أتبع حركتها حركة ما قبلها.

وَأَنْكُرُوا الْآيَاتِ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ

في حاجبيه وشاربيه والغمرة في خديه والكف، والقدم موقعاً الخاتم، والفتحة والخضاب بالحناء.

فإن قُلْتُ: لم سومع مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قُلْتُ: لأن سترها فيه حرج فإن المرأة لا تجد بدأً من مزاوله الأشياء بيدها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة، والمحاکمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قديمها وخاصة الفقيرات منهن وهذا معنى قوله: «إلا ما ظهر منها» يعني: إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور وإنما سومع في الزينة الخفية أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب واحتجاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك، كانت جيوبهن واسعة تلبو منها تحورهن وصدورهن وما حولها وكان يسدلن الخمر من رءسهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنهن من قدامهن حتى يغطينها، ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية بما يليها ويلابسها ومنه قولهم: ناصح الجيب وقولك: ضربت بخمارها على جيبها كقولك: ضربت بيدي على الحائط إذا وضعتها عليه، «وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت نساء خيراً من نساء الأنصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها المرهل فصدعت منه صدعة، فاختمرن فأصبحن كان على رؤوسهن الغريان»⁽¹⁾، وقرئ: جيوبهن بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك بيوتاً غير بيوتكم قيل: في نسائهن هن المؤمنات لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة، أو كتابية عن ابن عباس رضي الله عنهما والظاهر أنه عني بنسائهن وما ملكت إيمانهن من في صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض وقيل: ما ملكت إيمانهن هم الذكور والإناث جميعاً «وعن عائشة رضي الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها، وقالت لتكون: إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر»⁽²⁾ وعن سعيد بن المسيب مثله⁽³⁾، ثم رجع وقال: لا تغرنكم آية النور فإن المراد بها الإماء⁽⁴⁾، وهذا هو الصحيح لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبية منها خصياً كان، أو فحلاً «وعن ميسون بنت بحدل الكلابية أن معاوية دخل عليها ومعه خصي فتقنعت منه، فقال: هو خصي فقالت: يا معاوية أتري أن المثلة به تحلل ما حرم الله»⁽⁵⁾ وعند أبي حنيفة لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشرأؤهم ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 269/4 كتاب: النكاح، باب: في قوله تعالى: «والمحصنات من النساء».

(5) لم يخرج الزيلعي.

(6) قال الزيلعي نكر في عيون الأثر لأبي الفتح اليعمرى وفي الروض الأنف للسهيلى وابن سعد في الطبقات قصة اهداء المقوقس الخصي لرسول الله ﷺ، الزيلعي 434/2.

(1) أخرجه البخاري بلفظ «يرحم الله النساء المهاجرات...» كتاب: التفسير ومن سورة النور، باب: «وليضربن بخمرهن...» (الحديث رقم: 4758).

(2) أخرجه البخاري تعليقاً كتاب: المكاتب، باب: بيع المكاتب إذا رضي. ودواه عبد الرزاق في كتابه المصنف 394/2 (الحديث رقم: 3824).

(3) ولم يخرج الزيلعي.

فَرَاةٌ فِيهِمْ اللَّهُ مِنْ فَتْنِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾.

والأحاديث فيه عن النبي ﷺ، والآثار كثيرة وربما كان واجب الترك إذا أتى إلى مصيبة أو مفسدة وعن النبي ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال»⁽⁷⁾ وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة»⁽⁸⁾.

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ خَصَّ الصَّالِحِينَ؟ قُلْتُ: لِيُحَصِّنَ بَيْنَهُمْ وَيَحْفَظَ عَلَيْهِمْ صَلَاحَهُمْ لِأَنَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الْإِرْقَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَوَالِيَهُمْ يَشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَنْزِلُونَهُمْ مِنْزِلَةَ الْأَوْلَادِ فِي الْأَثَرَةِ وَالْمُوَدَّةِ، فَكَانُوا مِظَنَّةً لِلتَّوَصِيَةِ بِشَأْنِهِمْ وَالإِهْتِمَامِ بِهِمْ وَتَقْبَلُ الْوَصِيَّةَ فِيهِمْ وَأَمَّا الْمَفْسِدُونَ مِنْهُمْ، فَحَالَهُمْ عِنْدَ مَوَالِيَهُمْ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ أَوْ يُرِيدُ بِالصَّلَاحِ الْقِيَامَ بِحَقُوقِ النِّكَاحِ. يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ شَرِيْطَةُ اللَّهِ غَيْرَ مَنْسِيَةِ فِي هَذَا الْمَوْعِدِ، وَنِظَائِرُهُ هِيَ مَشِيئَتُهُ وَلَا يَشَاءُ الْحَكِيمُ إِلَّا مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ وَمَا كَانَ مُصْلِحَةً وَنَحْوَهُ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وَقَدْ جَاءَتْ الشَّرِيْطَةُ مَنْصُوصَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةَ فَسَوْفَ يَغْنِيْكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾⁽⁹⁾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

﴿الأيامى﴾ واليتامى أصلهما أيام ويتامم فقلبا والأيام للرجل والمرأة وقدم وأمت وتأيما إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين قال:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي وإن كنت أمتى منكم أتايهم وعن رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم»⁽¹⁾، والمراد أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريتكم، وقرئ: من عبيدكم وهذا الأمر للندب لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك وعند أصحاب الظواهر النكاح واجب، ومما يدل على كونه مندوباً إليه قوله ﷺ: «من أحب فطرته فليستن بسنني وهي النكاح»⁽²⁾ وعنه عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به، فلم يتزوج فليس منا»⁽³⁾ وعنه⁽⁴⁾ عليه الصلاة والسلام: «إذا تزوج أحكم عج شيطانه يا ويه عصم ابن آدم مني ثلثي بيته»⁽⁵⁾، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يا عياض لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً فإنني مكاشر»⁽⁶⁾

مع أنا نشاهد كثيراً ممن استمر به الفقر بعد النكاح، بل زاد للزم خلف الوعد تقس الله وتعالى عن ذلك فقد ثبت الاضطراب إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع، فالقدرية يقولون المراد إن اقتضت الحكمة ذلك فكل من لم يفقه الله باثر التزوج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناؤه، وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر وحتماً أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر في الآية الأخرى وحينئذ فكل من لم يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه، فلقاتل أن يقول إذا كانت المشيئة هي المعبرة في غي المتزوج فهي أيضاً المعبرة في غنى الأعبز، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة، فمن متسغنى به ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم وليس هذا كإضرار شرط المشيئة في الغفران للموحد العاصي فإن الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد، وإن ارتبط بالمشيئة أيضاً من حيث أن غير الموحد لا يفقر الله له حتماً، ولا تستطيع أن تقول وغير الناكح لا يفنيه الله حتماً لأن الواقع يباهه، فالجواب وبالله التوفيق أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح أنه قد ركن في الطبائع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها، والغفلة عن المسبب جل وعلا حتى غلب الوهم على العقل فخيّل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به، فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالإيمان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام لنفاد المال، وقد يقتر الإلحاق مع عدمه الذي هو سبب في الإكثار عند الأوهام والواقع يشهد لذلك بلا مراء، فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطاً لا ينفك ليست على ما يزعمونه، وإنما يقتر الغنى والفقر مسبب الأسباب غير موقوف تقدير ذلك إلا على مشيئة خاصة وحينئذ لا ينفرد العاقل المتيقظ من النكاح لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له في الإقتار وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له

(1) نكره ابن قتيبة في غريب الحديث، الزيلعي 35/2.

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف 169/6 (الحديث رقم: 10378).

ورواه أبو يعلى (الحديث رقم: 2748).

(3) قال أحمد: وهذا بان يدل على الوجوب أولى، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً، وكان المراد من لم يستن بسننتنا على أنه قد ورد في الواجب، كقوله: «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة، ومن شهر السلاح في فتنة فليس منا، ومثله كثير. عاد كلامه، قوله: «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» قال: فيه ينبغي أن تكون شريطة الحكمة والمصلحة غير منسية واستشهد على ذلك بقوله: «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء».

(4) رواه أبو داود في المراسيل كتاب: في النكاح (الحديث رقم: 202). ورواه الدارمي في كتاب: النكاح، باب: الحث على التزويج (الحديث رقم: 2164).

ورواه عبد الرزاق 168/6. (الحديث رقم: 10376).

(5) رواه أبو يعلى.

(6) رواه الحاكم في المستدرک 290/3.

(7) قال للزيلعي رواه ابن الجوزي في الموضوعات 441/2.

(8) قال الزيلعي رواه الخطابي في كتاب: العزلة ورواه علي بن سعيد في كتاب: الطاعة والمعصية 442/2.

(9) قال أحمد: جنوحه للمعتقد الفاسد يمتنع عليه بالصواب، فإن معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة مجزاً وأوسعاً من فضل الله تعالى ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له، فإن قوله تعالى في الآية الأخرى إن شاء يقتضى أن وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة وهذا معتقد أهل الحق فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، لكن ينبغي التنبيه لئلا تدعو الحاجة إلى التنبيه عليه ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله، وذلك أنا إذا بيننا على أن ثم شرطاً محنوفاً لا بد من تقديره ضرورة صدق الخبر إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يفني كل متزوج على الإطلاق =

ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت علي العتق، ويجوز عند أبي حنيفة رضي الله عنه جالاً ومؤجلاً ومنجماً وغير منجم لأن الله تعالى لم ينكر التنجيم، وقياساً على سائر العقود وعند الشافعي رضي الله عنه لا يجوز إلا مؤجلاً منجماً، ولا يجوز عنده بنجم واحد لأن العبد لا يملك شيئاً فعقده حالاً منع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البذل عاجلاً، ويجوز عقده على مال قليل وكثير وعلى خدمة في مدة معلومة وعلى عمل معلوم مؤقت مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول، والعرض وبناء دار قد أراه أجرها وجصها وما يبني به وإن كاتبه على قيمته لم يجز فإن أداها عتق، وإن كاتبه على وصيف جاز لقلّة الجهالة ووجب الوسط، وليس له أن يطأ المكاتبه وإذا أدى عتق وكان ولاؤه لمولاه لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له، وهذا الأمر للنسب عند عامة العلماء وعن الحسن رضي الله عنه ليس ذلك بعزم إن شاء كاتب، وإن شاء لم يكاتب وعن عمر رضي الله عنه هي عزمة من عزمات الله وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود **«خيراً»** قدرة على أداء ما يفارقون عليه، وقيل: أمانة وتكسباً وعن سلمان رضي الله عنه أن مملوكاً له ابتغى أن يكاتبه، فقال: أعندك مال، قال: لا، قال: اقتأمرني أن أكل غسالة أيدي الناس **«وأتوهم»** أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله تعالى: **«وفي الرقاب»** (4) عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم.

فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ ما تصدق به عليه؟ **قلت:** نعم، وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البذل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة، ولكن بسبب عقد المكاتبه كمن اشترى الصدقة من الفقير، أو ورثها أو وهب له ومنه قوله **«في حديث بريرة هو لها صدقة، ولنا هديه»** (5) وعند الشافعي رضي الله عنه هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة، وإن لم يفعلوا أجبروا وعن علي رضي الله عنه يحط له الربع، وعن ابن عباس رضي الله

حكيم (1) ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فافقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء ففني وأصبح مسكيناً «وعن النبي **«التمسوا الرزق بالنكاح»** (2) «وشكا إليه رجل الحاجة فقال: عليك بالباءة» (3) وعن عمر رضي الله عنه عجب لمن لا يطلب الغنى بالباءة، ولقد كان عندنا رجل رازح الحال، ثم رأته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته، فقال: كنت في أول أمري على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولداً فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر فلما ولد لي الثاني زنت خيراً فلما تتاموا ثلاثة صبّ الله علي الخير صبّاً فأصبحت إلى ما ترى **«والله واسع»** أي: غني نو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق ولكنه **«عليم»** يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ كَيْدًا حَتَّى يَضُرُّهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِنَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَابُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَمَأْتُهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَذَيْبَكُمْ عَلَى الْيَعْلَى إِنْ أَرَدْتُمْ مَصْحًا لِيَتَّبِعُوا مَرْضَى أَلْيَوْمَ الَّذِينَ وَمَنْ يَكْرَهُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾

«وليستغفف»، وليجتهد في العفة وظلف النفس كان المستغف طالب من نفسه العفاف، وحاملها عليه **«لا يجدون نكاحاً»** أي: استطاعة تزوج، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال **«حتى يغنيهم الله»** ترجية للمستغفين وتقديماً وعد بالتفضل عليهم بالغنى ليكون انتظار ذلك، وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم وربطاً على قلوبهم وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء، وأني من الصلحاء وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد من موقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه **«والذين يبتغون»** مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمير يفسره فكاتبوهم كقولك: زيداً فاضربه وبخلت الفاء لتضمن معنى الشرط والكتاب والمكاتبه كالعتاب والمعاتبه، وهو أن يقول: الرجل لمملوكه كتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق

= بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم، فتأمل هذا الفصل واتخذة عضداً حيث الحاجة إليه.

- (1) سورة التوبة، الآية: 28.
- (2) رواه أبو داود في المراسيل، باب: في النكاح، (الحديث رقم: 203).
- (3) نكر الثعلبي في تفسيره، زيلعي 2/444.
- (4) سورة التوبة، الآية: 60.
- (5) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: لا يكون بيع الأمة طلاقاً، (الحديث رقم: 5279)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، (الحديث رقم: 14 - 1504).

= فيه وإن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتر عليه وإن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس، فمعنى قوله: حينئذ إن يكونوا فقراء الآية أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله فعبر عن نفي كونه مانعاً من الغنى بوجوده معه ولا تبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى: **«فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض»** فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة وليس ذلك بمراد حقيقة، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة وبيان أن الصلاة متى قضيت، فلا مانع فعبر عن نفي المانع بالانتشار=

رضي الله عنها ﴿وموعظة﴾ ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله: ولا تآخنكم بهما رافة في دين الله لولا إذ سمعتموه. ولولا إذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً، نظير قوله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاتٍ فِيهَا يَصْبَاحُ الْمَصْبُوحِ فِي نَجْمٍ الرَّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿الله نور السموات والأرض﴾ مع قوله: مثل نوره. ويهدى الله لنوره: قولك زيد كرم وجود ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى نو نور السموات وصاحب نور السموات ونور السموات والأرض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى: الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور: أي: من الباطل إلى الحق وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين إما للدلالة على سعة إشرافه، وفشوق إضاءته حتى تضئ له السموات والأرض وإما أن يراد أهل السموات، والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مثل نوره﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كمشكاة﴾ كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ﴿فيها مصباح﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿في زجاجة﴾ أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر، شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير كالمشترى والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها ﴿يوقد﴾ هذا المصباح ﴿من شجرة﴾ أي: ابتداء ثقبه من شجرة الزيتون يعني: رويت نبالته بزيتها ﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع، أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين وقيل: بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام وعن النبي ﷺ عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون، فتداووا به فإنه مصحة من الباسور⁽⁵⁾ ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي: منبتها الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل: لا في مضي ولا مقناة، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها، وأصفى لدهنها قال رسول الله ﷺ: لا خير في شجرة في مقناة ولا نبات في مقناة، ولا خير فيهما في مضي⁽⁶⁾ وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشى جميعاً فهي شرقية وغربية، ثم

عنهما يرضخ له من كتابته شيئاً، «وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية، وهو أول عبد كوتب في الإسلام فاتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال: استعن به على مكتبتك، فقال: «لو أخرته إلى آخر نجم فقال: أخاف أن لا أدرك ذلك»⁽¹⁾ وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه التنبؤ، وقال: إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل: معنى وآتوهم: أسلفوهم وقيل: انفقوا عليهم بعد أن يؤنوا، ويعتقوا وهذا كله مستحب وروي أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له: الصبيح سال مولاه أن يكاتبه، فأبى فنزلت، كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار معاذة، ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وفتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب، فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت⁽²⁾، ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة وفي الحديث ليقل أحكم فتاتي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمّتي⁽³⁾، والبغاء مصدر البغي.

فإن قلت: لم أحم قوله: ﴿إن أردن تحصناً﴾! قلت: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن، وأمر الطبيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكراً ولا أمره إكراهاً وكلمة إن وإيثارها على إذا إيدان بأن المساعيات كن يفعلن نك برغبة، وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ الناصر⁽⁴⁾ ﴿غفور رحيم﴾ لهم أولهن أو لهم ولهن إن تابوا، وأصلحوا وفي قراءة ابن عباس لهن غفور رحيم.

فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن لأن المكروه على الزنا بخلاف المكروه عليه في أنها غير آثمة! قلت: لعل الإكراه كان نون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ آيَاتِنَا مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَرْعَةً لِلنَّسْتِغِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿مبينات﴾ هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود، ويجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها فأتسع في الظرف وقرئ بالكسر أي: بينت في الأحكام والحدود جعل الفعل لها على المجاز أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين ﴿ومثلاً من﴾ أمثال من ﴿قبلكم﴾ أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني: قصة عائشة

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف 139/14، كتاب: الأوائل، باب: أول ساقئل.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿ولا تكروها فتياتكم على البغاء﴾، (الحديث رقم: 3029 26).

(3) راجع (الحديث رقم: 318)، الجزء الثاني.

(4) وعند العبد اللقيير إلى الله تعالى أن فائدة ذلك والله أعلم: أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن ياتف =

(5) رواه الطبراني في معجمه.

(6) قال الزيلعي غريب جداً، 2/447.

الباء وتجعل الأوقات مسبحة والمراد ربها كصيد عليه يومان والمراد وحشهما، والأصل جمع أصل وهو العشي والمعنى: بأوقات الغنم أي: بالغنات، وقرئ: والإيصال وهو الدخول في الأصيل يقال: أصيل كأظهر وأتم.

رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ غِنَرَهُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارِهِ صَلَوَاتُكَ وَإِنَّا أَرْكَوهُ
يَحَافُونَ يَوْمًا نَنقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ (٣٧).

التجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشترى للربح فيما أن يريد لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته الهتة ما لا يليه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني لأن هذا يقين وذلك مظنون وأما أن يسمى الشراء تجارة إطلاقاً لاسم الجنس على النوع كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح، أو شراء وقيل: التجارة لأهل الجلب اتجر فلان في كذا إذا جلبه، التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل إقوام، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت ونحوه، وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا، وتقلب القلوب والأبصار إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها وهو أن تضطرب من الهول والفرع وتشخص كقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (3) وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر.

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨).

﴿أحسن ما عملوا﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ (4) والمعنى يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلاً وكذلك معنى قوله: الحسنى وزيادة المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل، وعطاء الله تعالى إما تفضل وإما ثواب وإما عوض ﴿والله يرزق﴾ ما يتفضل به ﴿بغير حساب﴾ فأمّا الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَامٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُ الْظَّالِمَانُ مَا هُمْ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَهُمُ لُحُوبُهُمْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُاطِنِ وَأَسْرَأُ إِلَيْهِمْ فَهُمْ فِي أَوْقَافٍ
أَلْسَابٍ (٣٩).

السراب ما يُرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة بمعنى: القاع أو جمع قاع وهو المنبسطة المستوى من الأرض كجيرة في جار، وقرئ بقبيعات بتاء مبطوطة

وصف الزيت بالصفاء والوبيص وأنه لتأليله ﴿يكاد﴾ يضئ من غير نار ﴿نور على نور﴾ أي: هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة، والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقاً ويمد بإضاءة بقية وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضواؤه وجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإنّ الضواؤ ينبت فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاءه ﴿يهدي الله﴾ لهذا النور الثاقب ﴿من يشاء﴾ من عباده أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس، وعن علي رضي الله عنه الله نور السموات والأرض أي: نشر فيها الحق وبثه فاضات بنوره، أو نور قلوب أهلها به، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه مثل نور من آمن به، وقرئ زجاجة الزجاج بالفتح والكسر ودرى منسوب إلى الدر أي أبيض متلألئ ودرئ بوزن سكيت يدرأ الظلام بضوئه ودرئ كمرق ودرى كالسكينة عن أبي زيد، وتوقد بمعنى: تتوقد والفعل للزجاجة ويوقد وتوقد بالتخفيف ويوقد بالتشديد ويوقد بحذف التاء وفتح الياء لاجتماع حرفين زائدين، وهو غريب ويمسه بالياء لأنّ التانيث ليس بحقيقي والضمير فاصل.

فِي يُورِثُ آذَانَ اللَّهِ أَنَّ تَرْفَعُ وَيُنَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ (٤٠).

﴿في بيوت﴾ يتعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو بما بعده وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت وفيها تكرير كقولك: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف كقوله: في تسع آيات أي: سبحوا في بيوت، والمراد بالإذن الأمر ورفعها بناؤها كقوله: ﴿بناها.. رفع سمكها فسواها﴾ (1) ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾ (2) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى أو تعظيمها والرفع من قدرها، وعن الحسن رضي الله عنه ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أوفق له وهو عام في كل نكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما وأن يتلى فيها كتابه، وقرئ: ﴿يسبح﴾ على البناء للمفعول ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغنم، ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح وهو يسبح له وتسبح بالتاء وكسر الباء وعن أبي جعفر رضي الله عنه بالتاء وفتح الباء ووجهها أن يسند إلى أوقات الغنم، والأصل على زيادة

(3) سورة الاحزاب، الآية: 10.

(4) سورة يونس، الآية: 26.

(1) سورة النازعات، الآيات: 27 - 28.

(2) سورة البقرة، الآية: 127.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا فَتَرَى
الْوَدَّكَ يُخْرَجُ مِنْ خَلْلِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٤﴾.

﴿يزججي﴾ يسوق ومنه البضاعة المزجاة التي يزججها كل أحد لا يرضاهما، والسحاب يكون واحداً كالعماء وجمعاً كالرياب ومعنى تاليف الواحد: أنه يكون فرعاً فيضم بعضه إلى بعض وجاز بينه وهو واحد لأن المعنى بين أجزائه كما قيل: في قوله: بين الدخول، فحومل والركام المترامك بعضه فوق بعض والودق المطر ﴿من خلاله﴾ من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من خلله

﴿وينزل﴾ بالتشديد ويكاد سنا على الإدغام وبرقة جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة واللقمة، وبرقة بضمينين للاتباع كما قيل: في جمع فعلة فعلات كظلمات، وسناه برقه على المد المقصور بمعنى: الضوء، والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك: سنى للمرتفع ويذهب بالابصار﴾ على زيادة الباء كقوله: ولا تلقوا بأيديكم عن أبي جعفر المدني وهذا من تعنيد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره حيث نكر تسبيح من في السموات والأرض، وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاهم له وأبتهالهم إليه وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته ويربهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ليعتبروا، ويحسروا.

يَقِيلُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾.

ويعاقب بين الليل والنهار ويخالف بينهما بالطول والقصر وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته ودلائل منافية على صفاته لمن نظر وفكر وتبصر وتبدر.

فإن قلت: متى رأى رسول الله ﷺ تسبيح من في السموات ودعاهم وتسبيح الطير ودعاه وتنزيل المطر من جبال برد في السماء حتى قيل له ألم ترا قلنت: علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طرق الوحي.

فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله: من السماء من جبال من برد؟ قلت: الأولى لا ابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة للبيان أو الأوليان لا ابتداء والآخرة للتبعيض ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الأول مفعول ينزل من جبال.

فإن قلت: ما معنى من جبال فيها من برد؟ قلت: فيه معنيان أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر، والثاني أن يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال: فلان يملك جبلاً من ذهب.

كديمات وقيمات في نيمة وقيمة وقد جعل بعضهم بقيةا بتاء مدورة كرجل عزهاة شبه ما عمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه، ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم: عاملة ناصية، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وقمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية قد كان تعبد، ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية في كفر في الإسلام.

أَوْ كَطَلَبْتَنِي فِي بَحْرِ لُجِّي بِشَيْءٍ مَوْجٍ مِنْ قَوْوِي. مَوْجٍ مِنْ قَوْوِي. سَحَابٌ طَلَبْتَنِي بَعْضًا قَوْقٍ بَعْضٌ إِذَا أَخْرَجَ كِدَهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١٤﴾.

اللجى العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر، وفي ﴿أخرج﴾ ضمير الواقع فيه ﴿لم يكد يراها﴾ مبالغة في لم يراها أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها ومثله قول ذي الرمة:

إذا غير الناي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح أي: لم يقرب من البراح فما باله يبرح شبه أعمالهم؛ أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق لظلمات مترامكة من لج البحر، والأمواج والسحاب، ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأن الألفاظ إنما تردف الإيمان والعمل، أو كونهما مترقبين ألا ترى إلى قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنتهينهم سبيلنا﴾ (1) وقوله: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ (2)، وقرئ سحاب ظلمات على الإضافة وسحاب ظلمات برفع سحاب وتنوينه وجر ظلمات بدلاً من ظلمات الأولى.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسْخِرُ لَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرَ صَفَّتِ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَرَبُّكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ اللَّهُ الْعَصِيرُ ﴿١٧﴾.

﴿صافات﴾ يصفن أجنحتهن في الهواء، والضمير في ﴿علم﴾ لكل أو لله وكذلك في ﴿صلاته وتسبيحه﴾ والصلوة الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه، وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

سبق لهم من الإيمان إيماناً إنما كان ادعاءً باللسان من غير مواطأة القلب لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمانينة نفس، لم يتعقبه التولي والإعراض والتعريف في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾⁽⁵⁾.

وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾.

معنى ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى رسول الله كقولك: اعجبني زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله: غلسته قبل القطا وفرطه، أراد قبل فرط القطا روي أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله والمنافق يجره إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا روي أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فقال: المغيرة أما محمد فلست آتية ولا أحاكم إليه، فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي.

وَلَا يَكُنْ لَكُمْ مُمْسِكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِلَيْهِ تُعْجَبُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾ صلة يأتوا لأن أتى وجاء قد جاءا معنيين بإلى أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص، والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت يزودون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لثلا تنتزعه من أبحاثهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما ذاب لهم في نمة الخصم.

أَلَمْ يَلْمِزْهُمْ مَزْئِراً أَوْ آذَاناً أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتَكَ هُمُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾.

ثم قسم الأمر في صودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل خوفهم حيفة بقوله: ﴿بَلْ أَوْلَيْتَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جوده وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمة يابون المحاكمة إليه.

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٥١﴾.

وقرى خالق كل دابة ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كان الدواب كلهم مميزون، فمن ثمة قيل: فمنهم وقيل: من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ نَكَرَ الْمَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾؛ قُلْتُمْ: لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الْمَاءِ مُخْتَصِمٌ بِتِلْكَ الدَّابَّةِ، أَوْ خَلَقَهَا مِنْ مَاءٍ مُخْصُوصٍ وَهُوَ النَّطْفَةُ ثُمَّ خَالَفَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ النَّطْفَةِ، فَمِنْهَا هَوَامٌ وَمِنْهَا بَهَائِمٌ وَمِنْهَا نَاسٌ وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾⁽¹⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَمَا بَالُهُ مَعْرِفًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾⁽²⁾!

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾.

قُلْتُمْ: قصد ثمة معنى آخر: وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس⁽³⁾ الذي هو جنس الماء، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط قالوا: خلق الملائكة من ريب خلقها من الماء والجن من نار خلقها منه، وأدم من تراب خلقه منه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ جَاءَتِ الْأَجْنَاسُ الثَّلَاثَةُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ؟ قُلْتُمْ: قَدَّمَ مَا هُوَ أَعْرَقَ فِي الْقَدْرَةِ وَهُوَ الْمَاشِي بِغَيْرِ آلَةٍ مَشِي مِنْ أَرْجُلٍ أَوْ قَوَائِمٍ ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى رَجْلَيْنِ، ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ سُمِّيَ الزَّحْفُ عَلَى الْبَطْنِ مَشِيًّا؟ قُلْتُمْ: عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ كَمَا قَالُوا: فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَمَرِّ قَدْ مَشَى هَذَا الْأَمْرُ وَيُقَالُ: فَلَانَ لَا يَتَمَشَى لَهُ أَمْرٌ وَنَحْوَهُ اسْتِعَارَةُ الشَّفَةِ مَكَانَ الْجَحْفَلَةِ وَالْمَشْفَرِّ مَكَانَ الشَّفَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ أَوْ عَلَى طَرِيقِ الْمَشَاكَلَةِ لِنُكْرِ الزَّاحِفِ مَعَ الْمَاشِينَ.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَأَلْمَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَدْرِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْتَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا أو إلى الفريق المتولي، فمعناه على الأول: إعلام من الله بأن جميعهم منتقب عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده، وعلى الثاني إعلام بأن الفريق المتولى لم يكن ما

= يشمل أنواعه المختلفة فالآية في الأول لإخراج المختلف من المتفق والله أعلم.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(4) سورة النور، الآية: 47.

(5) سورة الحجرات، الآية: 15.

(1) سورة الرعد، الآية: 4.

(2) قال أحمد: وتحريم الفرق أن المقصد في الأولى إظهار الآية بأن شيئاً واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة، نكر تصليها في آية النور والرعد، والمقصد في آية اقتراب أنه خلق الأشياء المنفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع، فنكر معرفاً =

عليه شيء من سرائركم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ ﴿٥٤﴾

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم، يريد فإن تتولوا فما ضررتوه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله، وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقى بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن اطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم وما الرسول إلا ناصح وهادٍ وما عليه إلا أن يبلغ ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى: التبليغ كالإداء بمعنى التادية، ومعنى المبين كونه مقروناً بالآيات والمعجزات.

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

الخطاب لرسول الله ﷺ، ولمن معه ومنكم للبيان كالتي في آخر سورة الفتح وهدم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل بني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام وتمكينه تثبيتته وتوطيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح، فقال ﷺ: لا تغبرون إلا مع حديدة⁽³⁾، فأنجز الله وعدهم وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم، وفسقوا وذلك قوله ﷺ: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكاً، ثم تصير بزيدي قطع سبيل وسفك نماء وأخذ أموال بغير حقها⁽⁴⁾، وقرئ كما استخلف على

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

وعن الحسن قول: ﴿المؤمنين﴾ بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان، أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أوغل لأنه لا سبيل عليه للتكثير بخلاف قول: المؤمنين وكان هذا من قبيل كان في قوله: ﴿وما كان الله أن يتخذ من ولد﴾⁽¹⁾ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، وقرئ: ﴿ليحكم﴾ على البناء للمفعول.

فإن قلت: لإم اسند يحكم ولا بد له من فاعل! قلت: هو مسند إلى مصدره لأن معناه ليفعل الحكم بينهم، ومثله جمع بينهما والف بينهما ومثله لقد تقطع بينكم، فمن قرأ بينكم منصوباً أي: وقع التقطع بينكم وهذه القراءة مجاوبة لقوله: دعوا، قرئ ويثقه بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل ويسكون الهاء ويسكون القاف وكسر الهاء شبه ثقه بكتف، فحذف كقوله: قالت سليمان: اشتر لنا سويقاً ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز وعن ابن عباس في تفسيرها.

وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخُفِ اللَّهَ وَتَخَفُوا فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ومن يطع الله﴾ في فرائضه ﴿ورسوله﴾ في سننه ﴿ويخش الله﴾ على ما مضى من نوبه ﴿ويثقه﴾ فيما يستقبل وعن بعض الملوك أنه سال عن آية كافية، فقلت له هذه الآية.

﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لِيَن أَمْرَهُمْ لِيَعْرِضَن قُل لَّا نَقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

جهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شدتها ووكادتها، وعن ابن عباس رضي الله عنه من قال: بالله جهد يمينه وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله: ﴿فضرب الرقاب﴾⁽²⁾ وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال: جاهدين إيمانهم و﴿طاعة معروفة﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب طاعة الخالص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره لا إيمان تقسمون بها بأقواهم، وقلوبكم على خلافها أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها بالقول: نون الفعل أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكائنة، وقرأ اليزيدي طاعة معروفة بالنصب على معنى اطيعوا طاعة ﴿إن الله خبير﴾ يعلم ما في ضمائركم، ولا يخفى

= (4646)، والترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الخلافة، (الحديث: 2226)، والحاكم في المستدرک 145/3. وأحمد في المسند 220/5.

(1) سورة مريم، الآية: 35.

(2) سورة محمد، الآية: 4.

(3) نكرة الواحدي في أسباب النزول، ص: 186.

(4) أخرج أوله أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخلفاء، (الحديث: =)

البناء المفعول وليبدلنهم بالتشديد.

فإن قُلْتُ: أين القسم المتلقى باللام والنون في ﴿ليستخلفنهم﴾؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره وعدهم الله واقسم ليستخلفنهم، أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم، فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿يعبدونني﴾؟ قُلْتُ: إن جعلته استثناءً لم يكن له محل كأن قائلًا قال: ما لهم يستخلفون ويؤمنون فقل: يعبدونني، وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم، وإخلاصهم فمحلها النصب ﴿ومن كفر﴾ يريد كفران النعمة كقوله: فكفرت بأنعم الله ﴿فاولئك هم الفاسقون﴾ أي: هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على عملها.

فإن قُلْتُ: هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين؟ قُلْتُ: أوضح دليل وأبينه لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

وَأَمِيرًا الصَّلَاةَ وَأَوَّلًا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَبِئْسَ الْأَمِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿واقبوا الصلاة﴾ معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، وكثرت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها، وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطعموا هم في مثل ذلك وهذا معنى قوي جيد وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم نكره في قوله: وأطيعوا الرسول.

وأن يكون الأصل لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد اقتنع بذكر اثنين عن نكر الثالث، وعطف قوله: ﴿وماواهم النار﴾ على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله وماواهم النار، والمراد بهم المقسمون جهد أيمانهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعِذَّ بِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ لَتَلْفُنَّ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَرَضَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بِمَضْمُونِ كَذَلِكَ يَتَّبِعُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

أمر بأن يستأنن العبيد وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ﴿ثلاث مرات﴾ في اليوم والليلية قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة وبالظهيرة لأنها وقت وضع الثياب للقاتلة، وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والإلتحاف بثياب النوم وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختلجوا بينهم، وتحفظهم فيها والعورة الخلل ومنها أعور الفارس وأعور المكان والأعور المختل العين، ثم عذره في ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله: ﴿طوافون عليكم﴾ يعني: أن يكتم بهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدى إلى الحرج، ودوي أن منلج بن عمرو وكان غلاماً أنصاريًا أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهر إلى عمر ليدعوه فدخل عليه، وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر: لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبنائنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده⁽¹⁾ وقد أنزلت عليه هذه الآية، وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله تعالى عنه وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماطنا يدخلون علينا في حال نكرها⁽²⁾، وعن أبي عمرو الحلم بالسكون، وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلاً عن ثلاث مرات أي: أوقات ثلاث عورات وعن الأعمش عورات على لغة هذيل.

فإن قُلْتُ: ما محل ليس عليكم؟ قُلْتُ: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان وإذا نصبت لم يكن له محل، وكان كلاماً مقرراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة.

فإن قُلْتُ: بم ارتفع ﴿بعضكم﴾ قُلْتُ: بالابتداء وخبره ﴿على بعض﴾ على معنى طائف على بعض وحذف لأن طوافون يدل عليه، ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمراً لتلك الدلالة.

وَلَا يَكُفُّ الْأَعْفُلُ بَيْنَكُمْ أَلْمُنَّ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

﴿الأطفال منكم﴾ أي: من الأحرار دون المماليك ﴿الذين من قبلهم﴾ يريد الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال أو الذين نكروا من قبلهم في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستانسوا

(2) نكره الواحد في أسباب النزول، ص 187.

(1) نكره الواحد في أسباب النزول، ص 186.

وتبلج كذلك.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنْفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ أَوْ يُبْرِكُوا مِنْ بِيوتِهِمْ أَوْ سَائِبِهِمْ أَوْ بِيوتِ أَهْلِهِمْ أَوْ بِيوتِ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بِيوتِ أَعْرَابِهِمْ أَوْ بِيوتِ عَشْرَتِهِمْ أَوْ بِيوتِ أَوْلِيائِهِمْ أَوْ بِيوتِ حَكَامِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَيْمَنُهُمْ أَوْ سَدْيِقَتُهُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَوْشِبًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا ذَكَرْتُمْ بِيوتًا فَلْيَمْلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ يَخِيفَةٌ لِيَنْ عِنْدَ اللَّهِ يُرَكِّدُ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ مَبِيتٌ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيْدِي لَمَأْكُمْ تَمَوَّلُونَ ﴿١٦﴾.

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء ونزوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم، فيطمعونهم منها فخالج قلوب المطمئنين والمطمعنين ريةً في ذلك وخافوا أن يلحقهم فيه حرج وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى: ﴿لَا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ (2) فقيل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك، وعن عكرمة كانت الانصار في أنفسها قرآزة فكانت لا تاكل من هذه البيوت إذا استغنوا، وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيهه إليه، وهو لا يشعر والأعرج يتفلسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه، فيضيق على جلسيه والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو أنف يذن ونحو ذلك وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ويدفون إليهم المفاتيح، ويأتون لهم أن ياكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون. حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازياً، وخلف مالك بن زيد في بيته وماله فلما رجع رآه مجهوداً فقال: ما أصابك قال: لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أن أكل من مالك فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا عليكم أن تاكلوا من هذه البيوت وهذا كلام صحيح وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ولا عليكم أن تاكلوا من البيوت المذكورة لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفى عنها الحرج، ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر، فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر.

فإن قُلْتُ: هلا نكر الأولاد! قُلْتُ: بخل نكرهم تحت قوله: ﴿من بيوتكم﴾ لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه وفي الحديث: «إن أطيب ما ياكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه» (3) ومعنى من بيوتكم من البيوت التي فيها

الآية، والمعنى أن الأطفال ماتون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ وجب أن يقطعوا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن، وهذا مما الناس منه في غفلة وهو عندهم كالشريعة المنسوخة وعن ابن عباس آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإنز، وإني لأمر جارتي أن تستأن علي وسأله عطاء أستاذان علي أختي قال: نعم، وإن كانت في حرك تمنونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جدهن الناس الإنز كله وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ (1) فقال: ناس أعظمكم بيتاً وقوله: وإذا حضر القسمة، وعن ابن مسعود عليكم أن تستأنوا على آبائكم ومهاتكم وأخواتكم، وعن الشعبي ليست منسوخة فقيل له: إن الناس لا يعملون بها، فقال: الله المستعان وعن سعيد بن جبير يقولون: هي منسوخة ولا والله ما هي منسوخة، ولكن الناس تهاونوا بها.

فإن قُلْتُ: ما السن التي يحكم فيها بالبلوغ؟ قُلْتُ: قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام وسبع عشرة في الجارية وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما، وعن علي رضي الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزيق في قوله:

مازال منذ عقدت يده إزاره فسما فالرك خمسة الأشبار واعتبر غيره الإنبات وعن عثمان رضي الله عنه أنه سئل عن غلام فقال: هل إخضر إزاره.

وَالْقَرُونَ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرُونَ يَكَلِمًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ يَدَهُنَّ عَلَى مَنَائِحِهِنَّ بَرِيئَةً وَأَنْ يَسْتَمْتِعْنَ حَيْثُ لَهَرْنَ وَاللَّهُ سَعِيدٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

القاعد التي عقدت عن الحيض والولد لكبرها ﴿لا يرجون نكاحاً﴾ لا يطمعن فيه، والمراد بالثياب، الثياب الظاهرة كالملحفة، والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غير متبرجات بزينة﴾ غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية التي أرادها في قوله: ولا يبيدن زينتهن إلا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه والاستعفاف من الوضع خير لهن لما نكر الجائز عقبه بالمستحب بعثاً منه على اختيار أفضل الأعمال، وأحسنها كقوله: وأن تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم.

فإن قُلْتُ: ما حقيقة التبرج؟ قُلْتُ: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارح لا غطاء عليها والبرج سعة العين يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها وبدا وبرز بمعنى: ظهر من أخوات تبرج

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) سورة البقرة، الآية: 188.

(3) وأخرجه ابن حبان، في كتاب: الرضاع، باب: النفقة، (الحديث):

والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، وروي تسع سنين فما قال لي: لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي: لشيء كسرته لم كسرته وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه، فرفع رأسه فقال: ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله قال: متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم أكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوَّلين⁽³⁾ وقالوا: إن لم يكن في البيت أحد فليلق: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت، ورحمة الله وعن ابن عباس إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله، وانتصب تحية بسلاموا لأنها في معنى تسليماً كقولك: قعدت جلوساً.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ اللَّهِ يَسْتَأْذِنُكَ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَخْرُجُوا مِنْ دَارِهِمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده تأكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَضَمَّنَهُ شَيْئاً آخراً وهو أنه جعل الاستئذان كالصداق لصحة الإيمانين، وعرض بحال المنافقين وتسلهم لوآذا، ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيتته، وإنه لمن استصوب أن يأذن له، والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم أو تضام لإرهاب مخالف أو

أزواجكم، وعيالكم ولأن الولد أقرب ممن عدد من القرباب فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولي.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَعْنَى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾؟ قُلْتُمْ: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له أن يأكل من ثمر بستانه، ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتيح كونها في يده وحفظه وقيل: بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه، وقرئ مفتاحه.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽¹⁾: مَا مَعْنَى ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؟ قُلْتُمْ: معناه أو بيوت أصدقائكم والصدیق يكون واحداً وجمعاً وكذلك الخليط والقطين والعدو. يحكى عن الحسن أنه نخل داره، وإذا حلقة من أصفائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطياب الأظعمة وهم مكبون عليها ياكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك، وقال: هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البصريين رضي الله عنهم، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسال جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء فإذا حضر مولاهما فأخبرته أعتقها سروراً بذلك، وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس، والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والآب والآخر والابن، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكبر من الولدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغثوا بالآباء والأمهات فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام نك مقام الإئن الصريح، وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه ﴿جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: مجتمعين أو متفرقين نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يواكله أكل ضرورة وقيل: في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا ياكلون إلا مع ضيفهم. وقيل: تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبيئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة⁽²⁾ ﴿تَحِيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله، ووصفها بالبركة

= ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلاً عن أن يكون صديقاً، ويحتمل في الآيتين والله أعلم: أن يكون المراد به الجمع، فلا كلام ويحتمل أن يراد الأفراد فيكون سره ذلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة، فليطب نفساً بالبساط فيها والله أعلم.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة ومواداة أهل الدين، (الحديث: 8758).

= أخرجه أبو داود في كتاب: البيوع، باب: الرجل ياكل من مال ولده، (الحديث: 3528)، والترمذي في الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (الحديث: 1358)، وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (الحديث: 2290)، والنسائي في كتاب: البيوع، باب: لحد على الكتب. وأحمد في المستد، 6/162، والحاكم في المستدرك 46/2.

(1) قال أحمد: وقد قال الزمخشري: إن سر إفراده في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء، ولا كذلك الشافعين، فإن الإنسان قد يجمي له

﴿فتنة﴾ محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب اليم﴾ في الآخرة وعن ابن عباس رضي الله عنهما فتنة قتل وعن عطاء زلال وأهوال عن جعفر بن محمد يسلم عليهم سلطان جائر.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَسْلَمَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعَتِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَمَّا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١٧﴾

أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكرير في نحو قوله:

فلن تمس مهجور الغناء فربما أقام به بعد السوفود وفود ونحوه قول زهير:

أخي ثقة لا تهلك الحمرمالة ولكنه قد يهلك المال نائله والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون سترها عن العيون وإخفاؤها، وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم والخطاب والغيبة، في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً ويرجعون للمنافقين والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان مكية

بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيُظَاهِرَ عَنِ الْكُفْرِ ﴿١﴾

البركة كثرة الخير وزيادته ومنها تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، والفرقان مصدر فرق بين الشيتين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقاً مفصلاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله وقرآناً فرقناه (٢) لتفراه على الناس على مكث وزلنائه تنزيلاً وقد جاء الفرق بمعناه قال: ومشركي كافر بالفرق، وعن ابن الزبير رضي الله عنه على عبادته وهم رسول الله ﷺ وأمته كما قال: لقد أنزلنا إليكم قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا،

تسامح في حلف، وغير ذلك أو الأمر الذي يعم بضرره أو بشفعه، وقرئ أمر جميع وفي قوله: إذا كانوا معه على أمر جامع أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من نوري رأي وقوة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بأرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رايه فمن غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط الحاجة إليه واعتراض ما بهمهم ويعنيهم وذلك قوله: ﴿لبعض شأنهم﴾، ونكر الاستغفار للمستأنذين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا انفسهم بالذهاب ولا يستأننوا فيه وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخلونهم في نازلة من النوازل، ولا يفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأن على حسب ما اقتضاه رايه.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بَيْنَكُمْ إِيذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضهم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً وينابيه باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، والتواضع ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده قال: دعوات رسول الله ﷺ مسموعة مستجابة ﴿يتسللون﴾ ينسلون قليلاً قليلاً ونظير تسلل تدرج وتدخل، واللوات الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذلك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض ﴿لواذاً﴾ حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأنن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه، وقرئ: ﴿لواذاً﴾ بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه بونه ومنه قوله تعالى: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وخالفه عن الأمر إذا صدعته بونه ومعنى ﴿الذين يخالفون عن أمره﴾ الذين يصنون عن أمره دون المؤمنين وهم المناقون، فحلف المفعول لأن الغرض نكر المخالف والمخالف عنه، الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول ﷺ والمعنى: عن طاعته ودينه

(1) نكره الثعلبي وابن مردويه، والواحد، زيلعي 2/453.

(2) قال أحمد: والأظهر هنا هو المعنى الثاني؛ لأن في أثناء السورة بعد آيات، وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. قال الله تعالى =

= كذلك أي: أنزلناه مفروقاً، كذلك لثبته به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة، والله أعلم، كالمقمة والتوطئة لما يأتي بعد.

﴿قوم آخرون﴾ قيل: هم اليهود وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي قال: تلك النضر بن الحرث بن عبد الدار، جاء واتى يستعملان في معنى: فعل فيعيديان تعديته وقد يكون على معنى: وروا ظلمًا كما تقول: جئت المكان ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل، وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلامًا عربيًا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

وَقَالُوا أَتُطِيرُ الْأَرْيَافَ أَكْتَتِبَهَا فَهِيَ تُمَلِّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

﴿أساطير الأولين﴾ ما سطره المتقدمون من نحو أحاديث رستم وأسفنديار جمع أسطار، أو أسطورة كاحسوتة ﴿اكتتبها﴾ كتبتها لنفسه وأخذها كما تقول: استكتب الماء وأصطبه إذا سكبها وصبه لنفسه وأخذها، وقرأ اكتتبها على البناء للمفعول والمعنى: اكتتبها كاتب له لأنه كان أميًا لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب كقوله: واختار موسى قومه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعًا مستترًا بعد أن كان بارزًا منصوبًا، وبقي ضمير الأساطير على حاله فصار اكتتبها كما ترى.

فإن قلت: كيف قيل: اكتتبها ﴿فهي تملئ عليه﴾، وإنما يقال: أمليت عليه فهو يكتبها! قلت: فيه وجهان أحدهما أراد اكتتابها، أو طلبه فهي تملئ عليه أو كتبت له وهو أمي فهي تملئ عليه أي: تلقي عليه من كتابه يتحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب، وعن الحسن أنه قول الله سبحانه: يكتبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار ووجهه أن يكون نحو قوله:

أفصح أن أرزا الكرام وأن أورث نوبًا شصائصًا نبلا
وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بكرة وأصيلًا﴾.

قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٦﴾

أي: دائمًا أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس، وحين يأوون إلى مساكنهم أي: يعلم كل سر خفي في السموات والأرض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ، وبرأته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿إنه كان غفورًا رحيمًا﴾ هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدمه في معنى: الوعيد عقبه

والضمير في ﴿ليكون﴾ لعبداه أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿للعالمين﴾ للجن والإنس ﴿فتدبروا﴾ منذرًا أي: محوفاً أو إنذارًا كالتركيب بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ (١).

الَّذِي لَمْ يُلِكْ أَتَمَنَاتٍ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ يَخَذُ لَدَا وَنَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ
فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَدَرًا ﴿٧﴾

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البديل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به.

فإن قلت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرًا﴾، كأنه قال: وقتر كل شيء فقدره! قلت: المعنى: أنه أحدث كل شيء إحدائًا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهياه لما يصلح له مثله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجيلة المستوية المقدره بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمور ما، ومصالحة مطابقة لما قتر له غير متجاف عنه أو سمي إحداث الله خلقًا لأنه لا يحدث شيئًا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكانه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتًا وقيل: فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى أمد معلوم.

وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
شُورًا ﴿٨﴾

الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى: ﴿إنما تعبثون من نون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾ (٢) والمعنى: أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئًا وهم يفتعلون لأن عبديتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ولا يملكون﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أُنْفُكٌ أَسْرَبَهُ وَآمَنَّا بِهِ عَلَيْهِ قَوْمٌ
مَّخْرُورٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٩﴾

﴿خُضِرُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: قالوا: فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوة مشتركة بين إنسان وملك والقائه كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجنون قولاً يستقرون عليه أو فضلوا عن الحق فلا يجنون طريقاً إليه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا ﴿١٧﴾

تكاثر خير ﴿الذي إن شاء﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خيرًا﴾ مما قالوا: وهو أن يجعل لك مثل ما عندك في الآخرة من الجنات والقصور، وقرئ ويجعل بالرفع عطفاً على جعل لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسئلة يقول: لا غائب مالي ولا حرم ويجوز في ويجعل لك إذا ادغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً، وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط بالول.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سِوَاهَا ﴿١٨﴾

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ويجوز أن يتصل بما يليه كانه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما عندك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة، السعير النار الشديدة الاستمرار وعن الحسن رضي الله عنه أنه اسم من أسماء جهنم.

إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٩﴾

﴿راهمهم﴾ من قولهم: نورههم تترأ، أي: وتتناظر ومن قوله ﷻ: لا ترا أي: نارهما كان بعضها يرى بعضاً⁽¹⁾ على سبيل المجاز⁽²⁾، والمعنى: إذا كانت منهم برأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير، ويجوز أن يراد إذا راهم زبانيتهما تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار، وشهوة للانتقام منهم الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا.

وَإِذَا أُنزِلَتْ مِنْهَا مَائِدًا فَصَبَّحُوا مُخْرَجِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٢٠﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٢١﴾

ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق،

بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل.

وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا أَرْسُولٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَهِي فِي الْأَشْرَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ سَدْرًا ﴿٢٢﴾

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه، وتسميته بالرسول سخرية منهم، وظن كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول، ونحوه قول: فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون أي: إن صح أنه رسول الله، فما باله حاله مثل حالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما ناكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش؛ ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندوا في الإنذار والتخويف.

أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْنَا كَعَرٌّ أَوْ تَكُونُ لَمْ جِنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشَاءُونَ لِآرِجًا سَجُورًا ﴿٢٣﴾

ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملك فليكن مرفوداً بكنز يلقي إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فاقطنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتق كما الدهاقين والميسير أو ياكلون هم من تلك البستان، فينتفعون به في نياهم ومعاشهم، وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمهر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا: وقرئ فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء وناكل بالنون.

فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب في فيكون؟ قلت: النصب لانه جواب لولا بمعنى: هلا وحكمه حكم الاستفهام والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحل الرفع الا تراك تقول لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه يلقي وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعاً، والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحوراً﴾ سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرمة عنوا أنه بشر لا ملك.

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيحًا ﴿٢٤﴾

(1) تقدم في المائة، الحديث: 457.

(2) قال أحمد: لا حاجة إلى حمل على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدرة الله تعالى سالحة، وقد تضافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إبراكاً حسياً وقلبية، ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى

قولها: هل من مزيد، وإلى اشتكاؤها إلى ربها، فأنن لها في نفسين إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتميز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متمبون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم.

عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ سَكَوُا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾.

يحشرهم فيقول: كلاهما بالنون والياء، وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿وما يعبدون﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبي الأصنام ينطقها الله، ويجوز أن يكون عاماً لهم جميعاً.

فإن قُلْتُ: كيف صح استعمال ما في العقلاء؟ قُلْتُ: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ببليغ قولك: إذا رأيت شيئاً من بعيد ما هو فإذا قيل: لك إنسان قلت: حينئذٍ من هو ويدلك قولهم: من لما يعقل أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبودهم الا تراك تقول: إذا أدت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني: أطويل أم قصير أفتيه أم طيب.

فإن قُلْتُ: ما فائدة أنتم وهم وهلا قبل أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل! قُلْتُ: ليس السؤال عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلا بد من نكره وإبلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

فإن قُلْتُ: فإله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ قُلْتُ: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبتهم بتكذيبهم إياهم فيبتهوا وينخلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعاً مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغضب المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للمكفين وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من نونه: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤن من إضلالهم ويستعينون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وأبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا

النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برات الملائكة والرسل انفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعانوا منه فهم لربهم الغفني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه ولقد نزهوه حين أضفوا إليه التفضل بالنعمة والتمتع بها، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوارج إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله: ﴿يضل من يشاء﴾⁽¹⁾ ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم⁽²⁾ والمعنى: أنتم أوقعتموهم في الضلال

حيث القاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع، وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والشبور الهلاك ودعاؤه أن يقال: وأثوبراه أي: تعال يا ثوبر فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أي: يقال لهم: ذلك أو هم أحقاء بأن يقال لهم: وإن لم يكن ثمة قول ومعنى:

﴿وادعوا ثوبوراً كثيراً﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثوبورك فيه واحداً إنما هو ثوبور كثير إما لأن العذاب أنواع واللوان كل نوع منها ثوبور لشئته وقطاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بخلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم الرجوع إلى الموصولين محذوف يعني: وعدها المتقون وما يشاؤنه وإنما قيل: كانت لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان أو كان مكتوباً في اللوح قبل أن يراه بآزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله:

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَعِيرًا ﴿١٨﴾.

﴿كانت لهم جزاء ومصير﴾؟ قُلْتُ: هو كقوله: نعم، الثواب وحسنت مرتفقاً فمدح الثواب ومكانه كما قال: بئس الشراب وساءت مرتفقاً فذم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة وإن لا تنفص وكذلك العقاب يتضاعف بغثائه الموضع وضيقة وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكرامة، فلذلك نكر المصير مع نكر الجزاء والضمير في:

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِفِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَثْوًوا ﴿١٩﴾.

﴿كان﴾ لما يشاؤون والوعد الموعد أي: كان ذلك موعوداً واجباً على ربك إنجازاً حقيقياً أن يستل، ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد سأل الناس والملائكة في دعواتهم ربنا وأتانا ما وعدتنا على رسلك ربنا أتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ يَنْدُبُونَ اللَّهُ فَيَقُولُ أَلَمْ أَنْتَرُ أَنْضَلْتُمْ

(1) سورة فاطر، الآية: 8.

(2) قال احمد: قد تقدم شرح عقيدة اهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى التزامهم للتوحيد المحض، والإيمان الصرف الذي دل على صحته بعد الالة العقلية. قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والضلال شيء فوجب كونه خالقه هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فأمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي﴾ والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام: إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء، فلو كان الإضلال مستحيلاً على الله تعالى

لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يستلوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضل هؤلاء؟ وإنما قيل لهم: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتهم، ولو كان معتقدهم أن الله هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتهم؟ مجازة لمحن السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم: من أضل عبادي هؤلاء فقد وضع أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وإن عدولهم عنه

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القبول فقد جئنا خراسانا
وقرئ يقولون: بالتاء والياء فمعنى من قرأ بالتاء.

فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ سَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ
يُظْلِمِ نَفْسًا نَفْسَةً عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٨﴾.

فقد كذبكم بقولكم: إنهم آلهة ومعنى من قرأ بالياء فقد
كذبكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من
دونك من أولياء.

فإن قُلْتُمْ: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قُلْتُمْ:
إي: والله هي مع التاء كقوله: بل كذبوا بالحق والجار
والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل: فقد كذبوا بما
تقولون، وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم، وقرئ
يستطيعون بالتاء والياء أيضًا يعني فما تستطيعون أنتم يا
كفار صرف العذاب عنكم وقيل: الصرف التوبة وقيل:
الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال، أو فما يستطيع
آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم،
الخطاب على العموم للمكلفين، والعذاب الكبير لاحق بكل
مَنْ ظلم والكافر ظالم لقوله: إن الشرك لظلم عظيم،
والفاسق ظالم لقوله: ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون،
وقرئ ينفقه بالياء وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ
وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَحَمَلْنَا بِمَعْنِكُمْ لِمَاضٍ فِئْتَةً أَنْصُرُونَ
وَكَانَ رَبُّكَ بَعِيرًا ﴿٩﴾.

الجملة بعد إلا صفة لموصوف محنوف والمعنى: وما
أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين وماشين وإنما
حذف اكتفاء بالجار والمجرور أعني من المرسلين ونحوه
قوله عز من قائل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ (3) على
معنى: وما منا أحد، وقرئ ويمشون على البناء للمفعول
أي: تمشيهم حواشيهم، أو الناس ولو قرئ يمشون لكان
أوجه لولا الرواية وقيل: هو احتجاج على من قال: ما لهذا
الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿فئتة﴾ أي: أي:
محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه
واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما
احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عانتى وموجب
حكمتى على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض، والمعنى: أنه
ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ويمناصبتهم لهم العداوة

عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وضل مطاوع
أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار
كما تركوه في هداة الطريق، والأصل إلى الطريق وللطريق
وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي: ضائعاً لما
كان أكثر نلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه
قيل: أضله سواء كان منه فعل، أو لم يكن.

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ
وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ زِينَةً وَمَا كَانَ لَهُمْ حَقُّ الشُّرَا الْبُكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُرًّا ﴿١٠﴾.

﴿سبحانك﴾ تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم؛
لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال
الذي هو مختص ببليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليلوا
على أنهم المسبحون المتقسون الموسومون بذلك، فكيف
يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصصوا به تنزيهه عن
الانداد، وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرها نداءً، ثم قالوا:
ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى
أحدًا دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا
دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في
توليهم الكفار كما تولاهم الكفار قال الله تعالى: ﴿فقاتلوا
أولياء الشيطان﴾ (1) يريد الكفرة والذين كفروا أولياءهم
الطاغوت، وقال أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول
وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك:
اتخذ ولياً وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلاناً ولياً قال الله
تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض وقال: واتخذ الله إبراهيم
خليلاً، فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من
أولياء والأصل أن نتخذ أولياء فزيت من لتأكيد معنى
النفى، والثانية من المتعدى إلى مفعولين فالأول ما بني له
الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي: لا نتخذ بعض
أولياء وتكثير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم
الجن والأصنام والذكر نكر الله والإيمان به أو القرآن
والشرائع، والبور الهلاك يوصف به الواحد والجمع ويجوز
أن يكون جمع بائر كعائد وعوذ، هذه المفاجأة بالاحتجاج
والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات
وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد
جاءكم رسولنا بين يدي لكم على فترة من الرسل أن تقولوا: ما
جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ (2)
وقول القائل:

ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وقد بقي وراء ذلك
نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق؛
لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى، وإن خلق لهم الضلالة إلا أن
لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم
مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية
ونحوها، وقد قدمنا في مواضع أن كل فعل اختياري له نسبتان:
إن نظر إلى كونه مخلوقاً، فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر
إلى كونه اختياريًا للعبد، فهو منسوب إلى العبد، وبذلك قطعت
الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا

(1) سورة النساء، الآية: 76.

(2) سورة المائدة، الآية: 19.

(3) سورة الصافات، الآية: 164.

التعجب الا ترى ان المعنى ما اشد استكبارهم وما اكبر
عوتهم وما اعلی نابا بواؤها كليب.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِمَجْرِمٍ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٢١﴾

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين إما بما دل عليه
﴿لا بشرى﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو
يعدمونها ويومئذ للتكرير وإما بإضمار انكر أي: انكر يوم
يرون الملائكة، ثم قال: ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾
وقوله: للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنه
عام فقدتنا ولهم بعمومه ﴿حجراً محجوراً﴾ نكره سيبويه
في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك
إظهارها نحو معاذ الله، وقعدك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة
كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتوراً وهجوم نازلة أو
نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه: ويقول
الرجل للرجل: اتفعل كذا وكذا فيقول: حجراً وهي من
حجره إذا منعه لأنَّ المستعبد طالب من الله أن يمنع
المكروه، فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك
منعاً ويحجره حجراً ومحيطه على فعل، أو فعل في قراءة
الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان
قعدك وعمرك كذلك وأنشدت لبعض الرجاز:

تالت وفيها حيدة وذعر عوذ برسي منكم وحجر

فإن قلت: فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى
وصفه بمحجور؟ قلت: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى
الحجر كما قالوا: نيل ذائل والنيل الهوان وموت مائت
والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويترجونه
وهم إذا رأوه عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم،
وفزعوا منهم لأنهم لا يقفونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند
رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة
النازلة وقيل: هو من قول الملائكة: ومعناه حراماً محرماً
عليكم الغفران والجنة والبشرى أي: جعل الله ذلك حراماً
عليكم.

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ مُّجْتَمِعٍ لَهُمْ مَكْرَهُ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مَّا يُشَاءُونَ ﴿١٢٢﴾

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ولكن مثلت حال
هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم
وإغاثة ملهوف، وقرئ ضيف ومن على أسير وغير ذلك من
مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا
عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم
فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثراً ولا عثراً،
والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار
وفي أمثالهم أقل من الهباء ﴿منثوراً﴾ صفة للهباء شبيهه
بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به، ثم
بالممنثور منه لأنك تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته

وأقاولهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم وطلب
منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن
تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ وموقع
﴿لتصبرون﴾ بعد نكر الفتنة موقع أكرم بعد الابتلاء في
قوله: ليلبولكم أكرم أحسن عملاً ﴿بصيراً﴾ عالماً بالصواب
فيما يبتلى به وغيره، فلا يضيق صدرك ولا يستخفك
أقاولهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين
وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو
يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة
للفقراء لينظر هل يصبرون وأنها حكمته ومشيتته يغني من
يشاء ويفقر من يشاء وقيل: جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت
غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك
للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً ليكون طاعة
من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع نبوي وقيل:
كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن ائثل ومن
في طبقتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار
وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إلا لا بالسابقة
فهو افتتان بعضهم ببعض.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِفْئَاكًا وَلَا آلًا لَّآئِنَ آتَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوَّعِنَا رَبَّنَا لَعْنًا لَّعَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

أي: لا ياملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة أو لا يخافون
لقاءنا بالشر والرجاء في لغة تهامة الخوف وبه فسر قوله
تعالى: ﴿لا ترجون ش وقاراً﴾ (١) جعلت الصيرورة إلى دار
جزائه بمنزلة لقاءه لو كان ملقياً، اقترحوا من الآيات أن
ينزل الله عليهم الملائكة فتحبرهم بأن محمداً صادق حتى
يصدقوه، أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه
ولا يخلو إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة
إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى وإنما علقوا
إيمانهم بما لا يكون وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما
أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت
بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن
لك حتى نرى الله جهرة.

فإن قلت: ما معنى ﴿في أنفسهم﴾؟ قلت: معناه أنهم
أضمرُوا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم
واعتقدوه كما قال: إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه
﴿ووعتو﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم يقال: عتا علينا فلان،
وقد وصف العتو بالكبير فيبالغ في إفراطه يعني: أنهم لم
يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية
الاستكبار وأقصى العتو، واللام جواب قسم محذوف وهذه
الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل:
وجارة جساس ابنا بنابها كليباً غلت ناب كليب بواؤها
وفي فحوى هذا الفعل بليغ على التعجب من غير لفظ

الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب ونحوه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾⁽¹⁾ لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفاً بالأكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً، أو مفعول ثالث لجعلناه أي: فجعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾⁽²⁾ أي: جامعين للمسوخ والخسء ولام الهباء واو بلليل الهبوة.

أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٤﴾

المستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحاثون، والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهم وملامستهم كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي معناه قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾⁽³⁾ قيل: في تفسير الشغل افتضاض الأيكار ولا نوم في الجنة وإنما سمي مكان دعوتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه، وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّمِّ وَزَيْلِ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل تشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أدغمها ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منقطر به﴾⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِكَ: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات؟ قُلْتُ: معنى انشقت به: أن الله شقها بطلوعه فانشقت به ومعنى انشقت عنه: أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، وروي تنشق سماء سماء وتنزل الملائكة إلى الأرض وقيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابية ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وفي معناه قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾⁽⁵⁾، وقرئ ونزل الملائكة ونزل الملائكة ونزل الملائكة، ونزلت الملائكة، وأنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة.

الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقٌ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْرًا ﴿١٦﴾

﴿الحق﴾ الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه، عض اليبدين والأنامل والسقوط في اليد واكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايةات عن الفيض والحسرة لأنها من روانفها، فينكر الرانفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ الممكنى عنه، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ، وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن ياكل من طعامه حتى ينطق بالشهانتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: صبات يا عقبة قال لا، ولكن ألي أن لا ياكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلمع عينه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك فقال النبي ﷺ: لا الفاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر علياً رضي الله عنه بقتله وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري، وقال: يا محمد إلي من الصبية قال: إلى النار وطعن رسول الله ﷺ أبياً بأحد فرجع إلى مكة فمات⁽⁶⁾.

يَوْمَ يَعْزُ الْقَلَامُ عَلَى يَدَيْهِ بِقَوْلِ بَنِيَّتِي أَفَعَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

واللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للمعهد يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره، تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والبهوى أو أراد أنني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتني حصلت بنفسني في صحبة الرسول سبيلاً.

يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَرَأَيْتُ فَلَئِمًا خَلِيلاً ﴿١٨﴾

وقرئ: ﴿يا ويلتني﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى: فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحاري ومداري، فلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم اتخذ أبياً خليلاً فكفى عن اسمه وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.

لَقَدْ أَصَلَيْتُ عَنِ الْإِسْكَرِ بَمَدٍّ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشُّيْبَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٩﴾

﴿عن الذكر﴾ عن نكر الله أو القرآن، أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام،

(4) سورة المزمل، الآية: 18.

(5) سورة البقرة، الآية: 210.

(6) نكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 189.

(1) سورة الفيل، الآية: 5.

(2) سورة البقرة، الآية: 65.

(3) سورة يس، الآية: 55 - 56.

واحدة أو مفرقًا، وقوله: ﴿كُنْكَ﴾ جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرقًا، والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تبعه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعبا بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فانزل عليه منجمًا في عشرين سنة وقيل: في ثلاث وعشرين وأيضًا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقًا.

فإن قلت: ذلك في كذا يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرتة بكلك أنزلناه مفرقًا؟ قلت: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة معناه لم أنزل مفرقًا واللليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحلوا بسورة واحدة من أصغر السور فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لانوا بالمناسبة، وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة كانهم قدروا على تفريقه حتى يقدروا على جملة ﴿ورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كانه قال: كذلك فرقناه ورتلناه، ومعنى ترتيله: أن قرئه آية بعد آية ووقفه عقيب وقفه، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله: ﴿ورتل القرآن ترتيلًا﴾⁽⁴⁾ أي: اقرأه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته ﷺ لا كسرلكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها⁽⁵⁾، وأصله الترتيل في الأستان وهو تفلجها يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الإقحوان في تفلججه، وقيل: هو أنزل مع كونه متفرقًا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ولم يفرقه في مدة متقاربة.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ سَبِيرًا ﴿٣٢﴾

﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كانه مثل في البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو للتكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق

والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالفة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطان من الجن والإنس، ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله، واتخذت يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٣﴾

الرسول محمد ﷺ وقومه قريش حكى الله عنه شكواه قومه إليه وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجؤا إليه وشكوا إليه قومه حل بهم العذاب ولم ينظروا.

وَكَذَلِكَ جَمَلًا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣٤﴾

ثم أقبل عليه مسلبيًا ومواسيًا واعدًا النصره عليهم فقال: ﴿وكذلك﴾ كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفك بي هاديًا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرًا لك عليهم، مهجورًا تركوه وصنوا عنه وعن الإيمان به وعن النبي ﷺ من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفًا لم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب العالمين عبيدك هذا اتخذي مهجورًا اقض بيني وبينه⁽¹⁾، وقيل هو من هجر إذا هذى أي: جعلوه مهجورًا فيه فحنف الجار وهو على وجهين أحدهما زعمهم أنه هنيان وباطل وأساطير الأولين، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾⁽²⁾ ويجوز أن يكون المهجور بمعنى: الهجر كالمجلود والمعقول والمعنى اتخذوه هجرًا، والعدو يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾⁽³⁾ وقيل: المعنى وقال الرسول يوم القيامة.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٥﴾

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعًا وهذا أيضًا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه قالوا: هلا أنزل عليه نفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق والقائلون قريش وقيل: اليهود وهذا فضول من القول: وممارسة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، الحديث:

3568. ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبو

هريرة رضي الله عنه، الحديث: (160-2493)، والترمذي في

كتاب: المناقب، باب: في كلام النبي ﷺ، (الحديث: 3639).

(1) نكروه الثعلبي في تفسيره.

(2) سورة فصلت، الآية: 26.

(3) سورة الشعراء، الآية: 77.

(4) سورة المزمّل، الآية: 4.

لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشفياً لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أن تنزله مفرقاً وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها اسخِل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحققون مكانه ومنزلته.

الَّذِينَ يُحْسِرُونَ عَلَىٰ حُبْرِهِمْ إِنَّ جَهَنَّمَ أَكْبَرُ لَمَّا كَانُوا وَأَسْكَلُ سَيْلًا ﴿٢٤﴾

ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أفضل من سبيله وفي طريقته قوله قل: ﴿هل أنبئكم بشرًا من تلك المثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾ الآية، ويجوز أن يراد بالمكان الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾⁽¹⁾ وصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي، وعن النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على البواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلًا⁽²⁾.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَحَمَلْنَا مَعَهُ آخَاهُ هَارُونَ وَزَيَّرْنَا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَزْنَهُمْ نَدِيرًا ﴿٢٦﴾

الوزارة تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازرو بعضهم بعضًا، والمعنى: فذهب إليهم فكذبوهم فدمرناهم كقوله: ﴿اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾⁽³⁾ أي: فاضرب فانفلق أراد اختصار القصة فنكر حاشيتها أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثه الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم وعن علي رضي الله عنه، فدمرتهم وعنه فدمرناهم، وقرئ: ﴿فدمرناهم﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

وَقَدْ سُوحَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَفْرَقْنَهُمْ وَحَمَلْنَهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾

كانهم كذبوا نوحًا ومن قبله من الرسل صريحًا وكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع، ولم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة ﴿وجعلناهم﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿للظالمين﴾ إما أن يعني بهم: قوم نوح واصله وأعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليلهم، فظاهر وإما أن يتناولهم بعمومه.

وَعَادَا وَنَمُودًا وَرَأْسَ الرِّبِّ وَفُرُؤًا بَيْنَ ذَلِكَ كَبِيرًا ﴿٢٨﴾

عطف عادًا على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأن المعنى: وعدنا الظالمين، وقرئ وثمود على تأويله القليلة وأما المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر قيل: في أصحاب الرس كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب أبار ومواش فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس، وهو البئر غير المطوية عن أبي عبيدة، انهارت بهم فحسف بهم وبيدارهم وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا وهم بقية ثمود قوم صالح وقيل هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعقواء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تنقض على صبيانهم، فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم أنهم قتلوا حنظلة فاهلكوا وقيل هم: أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل: الرس بإنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: نسوه فيها ﴿بين ذلك﴾ أي: بين ذلك المذكور وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكررة، ثم يقول: فلنك كيت وكيت على معنى فلنك المحسوب، أو المعدود.

وَكَلَّا مَرَبَاتًا لَهُ الْأَمْتَلُ وَكَلَّا تَرَبَّنَا تَنبِيرًا ﴿٢٩﴾

﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء، وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره، والتنبير: التفقير والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج، وكلا الأول منسوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا، وحزنا والثاني بترنا لأنه فارغ له.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُطْرَتْ مَطَرًا السَّوَاءَ أَفْكَمًا يَكْفُرُونَ بِرَبِّهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ شُورًا ﴿٣٠﴾

أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعًا بأهلها وبقيت واحدة، ومطر السوء الحجارة يعني: أن قريشًا مرّوا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أفلم يكونوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله وينكرون ﴿بل كانوا﴾ قومًا كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نشورًا﴾ وعاقبة فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم ينكروا ومرّوا بها كما مرّت ركابهم أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية إن الأولى نافية

(1) سورة مريم، الآية: 73. = باب: ما جاء في شان المشي، (الحديث: 2424).

(2) 1 - أخرجه أحمد في المسند، 164/5.

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، =

تدبره عقلاً ومشبهين بالانعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها.

فإن قُلْتُ: لم أخرج هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إليها! قُلْتُ: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيداً لفضل عنايتك بالمنطق⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: ما معنى نكر الأكثر؟ قُلْتُ: كان فيهم من لم يصد عن الإسلام الأداء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً.

فإن قُلْتُ: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قُلْتُ: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تغلفها، وتتبعها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينفقون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

أَلَمْ تَرَ لِكُلِّ رِيحٍ رِيحٌ مَدَّ أُنْفُسَهُ إِلَىٰ مَا يَأْتِيهِمْ فَرَسَمَ لَهَا فَيَسُفِرُهَا وَلَا تَحْجُبُ وَلَا يَكْتُمُهَا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

﴿الم ترى إلى ريبك﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مدّ الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي: لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط، فلم ينتفع به أحد سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً ومعنى كون الشمس نليلاً أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ومتساعاً ومتقلصاً، فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك.

ثُمَّ قَبَّضْتَهُ إِثْبَاتًا فَبَصَّأَ يَمِينًا ﴿١١﴾

وقبضه إليه أنه ينسخه يضح الشمس ﴿يسيراً﴾ أي: على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً.

فإن قُلْتُ: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قُلْتُ: موقعها للبيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت وجه آخر وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، وبها الأرض تحتها فالقبة ظلها على الأرض فيناً ناماً في أيمنه جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكناً مستقرّاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي:

والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما.

وَإِذَا رَأَوْهُ تَبَيَّنْتَ وَإِلَّا هُرُؤًا أَمَدًا أَلْوَىٰ بِسَمَكِ اللَّهِ رَسُولًا ﴿١٢﴾

واتخذ هزواً في معنى استهزأ به والأصل اتخذ موضع هزواً ومهزواً به ﴿ههنا﴾ محكي بعد القول المضممر وهذا استصغار ﴿وبعث الله رسولا﴾، وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخيرية واستهزاء ولو لم يستهزوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا.

إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَاتِنَا لَوْلَا أَن سَبَّحَنَا عَلَيْهَا وَسَوَّكَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٣﴾

وقولهم: ﴿إن كاد ليضلنا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعفافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شافروا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاحهم واستمساكلهم بعبادة آلهتهم و﴿لولا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى، لا من حيث الصنعة مجرى التقيد للحكم المطلق ﴿وسوف يعلمون﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير وقوله: ﴿من أضل سبيلاً﴾ كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَنَّىٰ نَكُونُ عَلَيْكَ وَكَيْلًا ﴿١٤﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي وينذر لا يتبصر لليل ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفنتوكل عليه، وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾⁽¹⁾ ﴿لست عليهم بمصيطر﴾⁽²⁾ ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي أم هذه منقطعة معناه: بل اتحسب كان هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أننا ولا إلى

(1) سورة ق، الآية: 45.

(2) سورة الفاشية، الآية: 22.

(3) قال أحمد: وفيه نكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل =

= دخول آرايت متبداً وخبر المبتدأ: هواه، والخبر: إلهه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكانه قال: آرايت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في نمة وتوبيخه والله أعلم.

ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور.

فإن قُلْتُ: فما تقول في قوله ﷺ: حين سئل عن بئر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه⁽³⁾؛ قُلْتُ: قال الواقيدي: كان بئر بضاعة طريقاً للماء إلى البساتين.

لِنَحْيِي بِهِ بِلَدَّةِ مَيْتَا وَشَفِيئِهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَكَا وَأَنَايَ كَثِيرَا
(٤٨)

وإنما قال: ﴿مَيْتَا﴾ لأنَّ البلدة في معنى البلد في قوله: فسقناه إلى بلد ميت وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل، وقرئ نسقيه بالفتح وسقى وأسقى لغتان وقيل: أسقاه جعل له سقياً، الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين، وقرئ بالتخفيف بحذف باء أفاعيل كقولك: أناعم في أناعم.

فإن قُلْتُ: إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليه بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش! قُلْتُ: لما كان سقى الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم وتتميماً للمنة عليهم وبيانا أن من حقه حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروا في بواطنهم ثم في ظواهرهم وأن يربوا بأنفسهم عن مخالطة القانورات كلها كما ربا بهم ربهم.

فإن قُلْتُ: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قُلْتُ: لأنَّ الطير والوحش تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعمامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قُلْتُ: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قُلْتُ: معنى ذلك: أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشفهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله: ﴿لنحيي به بلدة ميتا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قُلْتُ: لم قدم أحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسي؟ قُلْتُ: لأنَّ حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم

سلطها عليه ونصبها ليللاً متبوعاً له كما يتبع الليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد نكر إعدامه بإعدام أسبابه كما نكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله: ﴿قبضناه إلينا﴾ يدل عليه وكذلك قوله: ﴿يسيراً﴾ كما قال: ذلك حشر علينا يسير.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْإِنْسَانَ لِيَاسَا وَالنَّوْمَ سِبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: هلا فسرت بالراحة! قُلْتُ: النشور في مقابلته إياه إباء العيوف الورد وهو مرنق وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن الاحتجاب يستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية وبنوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أي عبدة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنتشر.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)

قرئ الريح والرياح نشرًا إحياء ونشرًا جمع نشور وهي المحيية ونشرًا تخفيف نشر وبشرًا تخفيف بشر جمع بشور وبشرى و﴿بين يدي رحمته﴾ استعارة مليحة أي: فدام المطر ﴿طهوراً﴾ بليفاً في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً ويعضده قوله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك: لما يتطهر به طهور كالوضوء، والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار وقولهم: تطهرت طهوراً حسناً كقولك: وضوا حسناً نكره سيبويه ومنه قوله ﷺ: لا صلاة إلا بطهور⁽²⁾ أي: طهارة.

فإن قُلْتُ: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قُلْتُ: تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير، أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أنس رضي الله عنهما

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.
(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في لا تقبل صلاة بغير طهور، (الحديث: 1)، ومسلم عن ابن عمر في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة الحديث: (224).
(3) (الحديث: 66) والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: أن الماء لا ينجسه شيء، (الحديث: 66)، والنسائي في كتاب: المياه، باب: نكر بئر بضاعة، (الحديث: 326)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الحياض، (الحديث: 519).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة، =

ومواشيهم لم يعدوا أسقياهم. **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥٦﴾**

بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهادًا كبيرًا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْحٌ أَحْمَرٌ وَجَمَلٌ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجَنًّا مَّتَجَرًّا ﴿٥٧﴾﴾

سمى المائين الكثيرين الواسعين بحرين والفرات البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الصلابة والأجاج نقيضه، ومرجعهما خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم، وبحران أحدهما مع الآخر ممزوج وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج ﴿برزخًا﴾ حائلًا من قدرته كقوله تعالى: ﴿بغير عمد ترونها﴾ يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته، وقرئ: ﴿ملح﴾ على فعل وقيل: كانه حذف من مالح تخفيفًا كما قال: وصلبانًا بردًا يريد باردًا.

فإن قلنت: ﴿وحجرًا محجورًا﴾ ما معناه؟ قلنت: هي الكلمة التي يقولها: المتعوذ وقد فسرتها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجرًا محجورًا كما قال: لا يبغيان أي: لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشدها على البلاغة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَمِمَّا سَبَّا وَصِيحْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

أراد فقسم البشر قسمين نوي نسب أي نكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي: إناثًا يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ (2) ﴿وكان ربك قديرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشرًا نوعين نكورًا وأنثى.

﴿وَسَعْبُونَ مِنَ ذُرِّيَةِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون وفعل بمعنى: مفاعل غير عزيز، والمعنى: أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ (3) كما جاء الصديق والخليط يريد بالكافر الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله، وقيل: معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هيئًا مهينًا من قولهم: ظهرت به إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله: ﴿أولئك لا خلاق لهم في

يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، وهو نكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا ﴿فأبى﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجودها وقلة الاكتران لها، وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغيرة وعلى الصفات المتفاوتة من أبلى وظل وجود ورذاذ وديمة ورهام، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا ينكروا صنع الله ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام أقل مطرًا من عام، ولكن الله قسم تلك بين عباده على ما شاء (1) وتلا هذه الآية وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد، وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كانه قال لنحبي به بعض البلاد الميثة ونسقيه بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير.

فإن قلنت: هل يكفر من ينسب الامطار إلى الأنواء؟ قلنت: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله فهو كافر وإن كان يرى إن الله خالقها، وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها لم يكفر.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَمَتْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٦١﴾﴾

يقول لرسوله ﷺ: ﴿ولو شئنا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، و﴿لبعثنا في كل قرية﴾ نبيًا ينذرنا وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمتك به وأجللتك وفضلتك على سائر الرسل، فقابل تلك بالتشديد والتصبر.

﴿لَا تُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ وَيَهْتَدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿فلا تلاحظ الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهيبه وتهيج المؤمنين، وتحريكهم والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه فلا تلاحظ والمراد أن الكفار يجنون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جنك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به، وتعلوهم وجعله جهادًا كبيرًا لما يحتمل فيه من المشاق العظام ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دل عليه، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وجاهدهم﴾

(3) سورة التحريم، الآية: 4.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 2/403.

(2) سورة القيامة، الآية: 39.

الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم» (١).

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنَا نِزِيلًا سَبِيلًا (٥٧).

مثال ﴿إلا من شاء﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول: ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما اطلب منك ثواباً على ما سعت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صورته هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فافاد فائتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني اطلب الثواب والثانية إظهار الشفقة البالغة وأنتك إن حفظت مالك أعتمد بحفظك ثواباً ورضي به كما يرضي المثاب بالثواب، ولعمري أنّ رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة وقيل: المراد التقرب بالصدقة والتفقة في سبيل الله.

وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِنَا الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُرْهَانًا عِبَادَهُ حَبِيرًا (٥٨).

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء ضرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميدته وعرفه أنّ الحي الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده، ولا يتكل عليه غيره من الأحياء الذين يموتون، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء آمنوا لم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْهُ يَوْمَ حَبِيرًا (٥٩) كَذَٰلِكَ قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠).

﴿في ستة أيام﴾ يعني: في مدة مقدارها هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة والظاهر أنها من أيام الدنيا، وعن مجاهد أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقترنة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة نون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة لعلنا أنه لا يقدر تقديراً إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلا معرفته، ومن تلك تقدير لملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر وحملة العرش

ثمانية والشهور اثني عشر والسماوات سبعاً والأرض كذلك والصلوات خمساً وأعداد النصب والحنود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان، وقد نص عليه في قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ (٢)، ثم قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو وهو الجواب أيضاً في إن لم يخلقها في لحظة وهو قاهر على ذلك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليماً لخلق الرفق والتثبث وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين، الذي خلق مبتداً ﴿الرحمن﴾ خبره أو صفة للحي والرحمن خبر مبتداً محذوف، أو بدل عن المستتر في استوى وقرئ الرحمن بالجر صفة للحي، وقرئ فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ (٣) كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ (٤) فسأل به كقوله: اهتم به واعتنى به واشتغل به وسأل عنه كقولك: بحث عنه وفتش عنه ونقر عنه أو صلة خبير أو تجعل خبيراً مفعول سل يريد، فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته أو فسل بسؤاله خبيراً كقولك: رايت به أسداً أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجنته خبيراً أو تجعله حالاً عن الهاء تريد فسل عنه عالماً بكل شيء، وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله منكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسليمة وكان يقال له: رحمن اليمامة ﴿وما للرحمن﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم، والرحوم، والراحم، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى.

﴿لما تأمرنا﴾ أي: للذي تأمرنا بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير، أو لأمرك لنا، وقرئ بالياء كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد ﷺ أو يأمرنا المسمى بالرحمن، ولا تعرف ما هو وفي ﴿زادهم﴾ ضمير اسجدوا للرحمن لأنه هو المقول.

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١).

البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور

(3) سورة المعارج، الآية: 1.

(4) سورة التكاثر، الآية: 8.

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.

(2) سورة المدثر، الآية: 31.

والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والذئب والحوت سميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره السراج الشمس كقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ (1) وقرئ مسرجاً وهي الشمس والكواكب الكبار معها، وقرأ الحسن والأعمش وقمرًا منيرًا وهي جمع ليلة قمرءه كأنه قال: وذا قمرًا منيرًا لأن الليالي تكون قمرًا بالقمر، فأضافه إليها ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسان:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

يريد ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى: القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَيْلٌ وَأَتَهَارَ خَلْفَهُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا (١٧)

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع.

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (١٨)

البيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدرك الليل نمت أو لم تتم وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره يقال: فلان يظل صائماً وبييت قائماً.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (١٩)

﴿غراماً﴾ هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً قال: يوم النسيار ويوم الجفا ركانا عذاباً وكانا غراماً وقال:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يع طجزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم لإلحاحه ولزامه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيداناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾ (4).

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٢٠)

﴿ساعات﴾ في حكم بثست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرًّا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساعات مستقرًّا ومقامًا هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون ساعات بمعنى: أجزت وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز والتعليان يصح أن يكونا متداخلين ومترافين وأن يكونا من كلام الله

الخلفة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما نوي خلفه أي: نوي عقبه أي: يعقب هذا ذلك وذلك هذا ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعقبان ومنه قوله: واختلاف الليل والنهار ويقال: بفلان خلفه واختلاف إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه، وقرئ ينكر وينكر وعن أبي بن كعب رضي الله عنه يتنكر، والمعنى: لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من ناقل، ومغير ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ (2) أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما وردّه من العبادة قام به في الآخر وعن الحسن رضي الله عنه من فاته عمله من التنكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعجب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعجب.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٢١)

﴿وعباد الرحمن﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلاً، وقرئ وعباد الرحمن، وقرئ يمشون ﴿هوناً﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين أو مشياً هيناً إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة

= باب: في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، (الحديث: 8129).

(1) سورة نوح، الآية: 16.

(2) سورة القصص، الآية: 73.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الاقتصاد

في الحب والبغض (الحديث: 1997)، والبيهقي في شعب الإيمان، =

وحكاية لقولهم.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَعُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٧٧﴾

قرئ: ﴿يقترُوا﴾ بكسر التاء وضمها، ويقترُوا بتخفيف التاء وتشديدها والقتر والإقتر والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾⁽¹⁾، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت رجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام نخل عليه الابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنه بين السيتتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بني أهدأ أيضاً مما أعده وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتعنم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكفونهم من الحر والقر، وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرفاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله⁽²⁾ والقوام العدل بين الشيتين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرئ قواماً بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى: ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص المنصوبان أعني بين تلك قواماً جائز أن يكونا خبرين معاً وأن يجعل بين تلك لغواً، وقواماً مستقراً وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالاً مؤكدة وأجاز القراء أن يكون بين ذلك اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: (لم يمنع الشرب منها غير إن نطقت) وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾

﴿حرم الله﴾ أي: حرمها والمعنى: حرم قتلها و﴿إلا بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحنوف أو بلا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك خلال العظيمة

في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين براهم الله وطهرهم مما أنتم عليه والقتل بغير الحق يدخل فيه الواد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت: ثم أي قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل منك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حيلة جارك.⁽³⁾ فانزل الله تصديقه، وقرئ يلق فيه أثاماً، وقرئ يلقي بثبات الألف وقد مر مثله والأثام جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناها قال:

جزى الله بن عروة حيث أمسى عفوئاً والعقوب له أثم وقيل: هو الإثم ومعناه يلق جزاء أثم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أياماً أي: شداًد يقال: يوم نو أيام لليوم العصيب.

يَضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٩﴾

﴿يضاعف﴾ بدل من يلق لأنهما في معنى واحد كقوله: متى تأتانا تلمم بنا في يبارنا نجد حطياً جزلاً وناراً تاججا وقرئ يضعف وتضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد، وقرئ ويخلد على البناء للمفعول مخففاً ومتقلاً من الإخلاق والتخليد، وقرئ ويخلد بالتاء على الالتفات.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨٠﴾

﴿يبديل﴾ مخفف ومثل وكذلك سيئاتهم. فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسناً؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وإبدال السيئات حسناً أنه يحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، والتقوى وقيل: يبديلهم بالشرك إيماناً ويقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصاناً.

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُذَّبُ إِلَى اللَّهِ مُتَابًا ﴿٨١﴾

يريد ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿متاباً﴾ مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي كلام بعض العرب لله أفرح بتوبة العبد من المصل الواجد والظمان الوارد والعقيم الولد أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأي مرجع.

(1) سورة الإسراء، الآية: 29.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 46/5، (الحديث: 5721).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة الفرقان، باب: =

= «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر». (الحديث: 4761)، ومسلم في

كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أجمع الذنوب، وبيان أعظمها بعده،

الحديث: (141 - 86).

لهم سرورهم أراد أئمة فلكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعلم اللبس كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ وأرادوا جعل كل واحد منا إماماً أو أراد جمع أم كصائم وصيام أو أرادوا جعلنا إماماً واحداً لاتحاننا واتفاق كلمتنا، وعن بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

فإن قُلْتُ: من في قوله: من أزواجنا ما هي؟ قُلْتُ: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين ثم بينت القرّة وفسرت بقوله: من أزواجنا ونرياتنا ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين وهو من قولهم: رأيت منك أسداً أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جنتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح.

فإن قُلْتُ: لم قال: قرّة أعين فتنكر وقلل؟ قُلْتُ: أما التنكير فلأجل تنكير القرّة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً وإنما قيل: أعين نون عيون لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾⁽²⁾ ويجوز أن يقال: في تنكير أعين أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين.

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَاتِ يَا صَبْرًا وَيُقْرُونَ فِيهَا حَبَّةً وَمَسْكًا ﴿٧٥﴾ حَلَلِيكَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

المراد يجزون الغرفات وهي العلالى في الجنة فوجد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس والليل على ذلك قوله وهم في الغرفات آمنون، وقراءة من قرأ في الغرفة ﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك وإطلاقه لأجل الشيعاء في كل مصبور عليه، وقرئ يلقون كقوله تعالى: ولقاهم نضرة وسروراً ويلقون كقوله تعالى: يلق اثاماً، والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة يعني: أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو يعطون التبقيّة والتخليد مع السلامة عن كل آفة اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

قُلْ مَا يَمْزُؤُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامًا ﴿٧٦﴾

لما وصف عبادة العباد وعدد صالحاتهم وحسناتهم وأثنى عليهم من أجلها ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة أتبع ذلك بيان أنه إنما أكثر لاولئك وعبأ بهم وأعلى

وَأَلَّيْنِ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٦﴾

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يتلهم لأن مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل: في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأن حضورهم ونظرهم لليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأن الذي سلب على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام إياكم ومجالسة الخطائين، ويحتمل أنهم لا يشهون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللغو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين. ﴿اللغو﴾ كل ما ينبغي أن يلغى وي طرح والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم، والخوض معهم كقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾⁽¹⁾ وعن الحسن رضي الله عنه لم تسفههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وقيل: إذا نكروا النكاح كانوا عنه.

وَأَلَّيْنِ إِذَا دُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَجِرُوا عَلَيْهَا سُوءًا وَعَضَاكَ ﴿٧٦﴾

﴿لم يخروا عليها﴾ ليس بنفي للخروج وإنما هو إثبات له ونفي للصم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً هو للسلام لا للقاء والمعنى: أنهم إذا نكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها وأقبلوا على المنكر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بأذان وأعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين ينكرون بها، فتراهم مكبين عليها مقبلين على من ينكر بها مظهريين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمناقبين وأشباههم.

وَأَلَّيْنِ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٦﴾

قرئ نريتنا ونرياتنا وقرّة أعين وقرّات أعين سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأغقاباً عمالاً لله يسرون بمكانهم وتقرّ بهم عيونهم وعن محمد بن كعب ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم ونريتهم في الجنة ليتم

= أعين، وهذا أسلم من تأويله، فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلاً، إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد، والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالنسبة والإضافة، والله أعلم.

(1) سورة القصص، الآية: 55.

(2) سورة سبأ، الآية: 13.

(3) قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكانه قال: يقول كل واحد منهم: لجعل لنا من أزواجنا ونرياتنا قرّة

المؤلف من الحروف المبسطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَمَّا كَبُرُوا شَكَّ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

البخع أن يبلغ بالبئح البخاع بالباء وهو عرق مستبتن الفقار، وذلك أقصى حد الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولا امتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿بأخع﴾ نفسك على الإضافة.

إِنْ شَاءَ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَاءٍ آيَاتٍ فَلا تَأْتِيهِمْ لَمَّا خَصِيصِينَ ﴿٤﴾

أراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزء الذي هو ﴿نزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحاً ونظيره فاصق وكن كأنه قيل: أصلق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فظلت أعناقهم.

فإن قُلْتُ: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟ قُلْتُ: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة كان الأهل غير منكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿هي ساجدين﴾⁽²⁾ وقيل: أعناق الناس رؤسائهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصدور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لولة فتدل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّمْزِ يُحَدِّثُوهُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُرْسِبِينَ ﴿٥﴾ فَتَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ الْبُنُودَ مَا كَانُوا مِنْهُ يَنْتَهَبُونَ ﴿٦﴾

أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به.

فإن قُلْتُ: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء! قُلْتُ: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين إعرضوا عن النكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقاً لا محالة ولم يظن به التكذيب، ومن كان مصدقاً به كان موقراً له ﴿فسياتتهم﴾ وعيد لهم وإنذار بانهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ها﴾ الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو القرآن وسياتيتهم أنبأوه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَرَأَيْتُمْ بَرَأَ إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهِيَتَنَا بِهَا مِنْ كُلِّ رَجِيءٍ ﴿٧﴾

ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكثر لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به، والدعاء للعبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبا بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبات به ما اعتدت به من فوادح همومي ومما يكون عباً على كما تقول: ما اكترت له أي: ما اعتدت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبا بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي اني لا أعتد بعبادي إلا لعبابتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عابتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعدابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن قُلْتُ: إلى من يتوجه هذا الخطاب قُلْتُ: إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لزاماً وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتل لزاماً، وقرئ لزاماً بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبات والثبوت والوجه أن ترك اسم غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتننه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

طسّر ﴿١﴾

﴿طسم﴾ بتخميم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

بِئَايَاتِكَ الْكَلِمَاتِ الْكُبْرَى ﴿٢﴾

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا

(2) سورة يوسف، الآية: 4.

(1) نكروه الثعلبي وابن مردويه، ونكروه الواحدي في التفسير، زيلعي

بالكسرة.

قَوْمٌ يَرْزُقُونَ آلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿ألا يتقون﴾! قُلْتُ: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنداز والتسجيل عليهم بالظلم تعجيباً لموسى من حالهم التي شنت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحنوهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون لا يتقون حالاً من الضمير في الظالمين أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فاندخلت همزة الإنكار على الحال وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جنائية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه وحمي غضبه قطع مائة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله ألم تستع من الناس.

فإن قُلْتُ: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون! قُلْتُ: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم، وإلقائه إلى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها، وفي ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون كقوله: ألا يا أسجدوا.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمُونِي ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْسُطُ لِي سَبِيلًا فَأَرْسِلْ لِي آيَةً هَارُونَ ﴿١٣﴾

﴿ويضيّق﴾ و﴿ينطلق﴾ بالرفع لأنهما معطوفان على خبر أنّ وبالنصب لعطفهما على صلة أنّ والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل خوف التكنيب، وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة.

فإن قُلْتُ: في النصب تعليق الخوف بالأمور للثلاثة وفي جعلتها نفي انطلاق اللسان وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع وذلك كان واقعاً فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قُلْتُ: قد علق الخوف بتكنيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته وقيل: بقيت منها بقية يسيرة.

فإن قُلْتُ: اعتذارك هذا يرده الرفع لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه يقال: وجه كريم إذا رضي في حسنه وجماله وكتاب كريم مرضي في معانيه وفوائده وقال: حتى يشق الصفوف من كرمه أي: من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه والنبات الكريم المرضي فيما يتعلق به من المنافع.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿إن في﴾ إنبات تلك الاصناف ﴿آية﴾ على أن منبتها قاصر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن ﴿أكثرهم﴾ مطبوع على قلوبهم غير مرجو إيمانهم.

وَلَوْلَا رَبُّكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْفَقِيرُ الْفَلَّاحِينَ ﴿١٠﴾

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرحيم﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

فإن قُلْتُ: ما معنى الجمع بين كم وكل ولو قيل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم؟ قُلْتُ: قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة^(١) فهذا معنى الجمع بينهما وبه نبه على كمال قدرته.

فإن قُلْتُ: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قُلْتُ: يحتمل معنيين أحدهما أن النبات على نوعين نافع، وضار فنكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلقى نكر الضار والثاني أن يعم جميع النبات ناعفه وضاره ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون.

فإن قُلْتُ: فحين نكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصياها إلا عالم الغيث كيف قال إن في تلك آية؟ وهلا قال آيات! قُلْتُ: فيه وجهان أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا فكانه قال: إن في الإنبات آية أو آية وأن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج آية، وقد سبقت لهذا الوجه نظائر سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان كان معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وكانها عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد إن شاء ذكروهم عبر عنهم بالقوم الظالمين وإن شاء عبر بقوم فرعون وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، وشرارتهم ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم قرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى: ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء

(1) قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير الأنواع، والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والانعام، ويدل عليه أنه لو أسقطت كل، فنقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من =

= الصنف الفلاني، لكنت مكنياً عن آحاد تلك الصنف المشار إليه، فإذا اندخلت كلا فقد ائبت بتكريره آحاد كل صنف، لا آحاد صنف معين، وإله أعلم.

حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه فأظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه، ويجوز أن يكونا خبيرين لأن أو يكون مستمعون مستقرًا ومعكم لغواً.

فإن قلت: لم جعلت مستمعون قرينة معكم في كونه من باب الحجاز والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسماع! قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (3) ويقال: استمع إلى حديثه وسمع حديثه أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله ﷺ: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبَّ في آذنيه البرم (4).

فَإِنَّا فَرَعَوْنَا فَعَرَوْنَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ أَمْلَيْنِ ﴿١٦﴾

فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: إنا رسولا ربك! قلت: الرسول يكون بمعنى: المرسل وبمعنى: الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعل ههنا بمعنى: الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور قال:

الكنى إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنوحي الخبر فجعله للجماعة والشاهد في الرسول بمعنى: الرسالة قوله:

لقد كذب الواشون ما فهمت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً فكانهما رسول واحد أو أريد أن كل واحد منا.

أَنْ أَرْسِلَ مَكَأَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾

﴿إن أرسل﴾ بمعنى أي: أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال، وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا لما في الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة، ونحو ذلك ومعنى هذا الإرسال التخيلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي يريد خلعهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: أئنن له لعلنا نضحك منه فأثابنا إليه الرسالة فعرف موسى.

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُرُقٍ سِنِينَ ﴿١٨﴾

فقال له: ﴿ألم نربك﴾ حذف فأتيا فرعون فقولا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل الوليد الصبي لقرب عهده من الولادة وفي رواية عن أبي عمرو ﴿من عمرو﴾ بسكون الميم ﴿سنتين﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي

اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلطة الألسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لساناً﴾ (1) ومعنى ﴿فأرسل إلى هرون﴾: أرسل إليه جبرائيل وأجعله نبياً وأزرنى به واشدد به عضدي وهذا كلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال: فأرسل إلى هرون فجاء بما يتضمن معنى: الاستنباه ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدعناهم تدميراً﴾ (2) حيث اقتصر على نكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ودل بنكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكتبوهما فاهلكهم.

فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر، فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعقل وقد علم أن الله من وراءه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونوا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عنده فيما التمس، ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

وَكَمْ عَلَى ذَنْبٍ فَاحِشٌ أَنْ يَقْتُلُونَ ﴿١٩﴾

أراد بالذنب قتله القبطي وقيل: كان خباز فرعون واسمه: فاتون، يعني: ولهم علي تبعة نذب، وهي قود تلك القتل، فاحش أن يقتلوني به فحذف المضاف، أو سمي تبعة الذنب نذباً كما سمي جزاء السيئة سيئة.

فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللاً وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمس فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استفهام للبلية المتوقعة وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة فكيف يكون تعللاً والليل عليه ما جاء بعده من كلمة الردع والموعد بالكلاءة والذفع.

قَالَ كَلَّا فَآذِنَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴿٢٠﴾

جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله: ﴿كلا فآذينا﴾ لأنه استفدعه بلاهم فوعده الذفع برده عن الخوف والتمس منه الموازنة بأخيه، فأجابته بقوله: آذينا أي: آذنب أنت والذي طلبته وهو هرون.

فإن قلت: علام عطف قوله: فآذينا! قلت: على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فآذنب أنت وهرون وقوله: ﴿معكم مستمعون﴾ من مجاز الكلام نريد أنا لكما ولعوبكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة الفرقان، الآية: 36.

(3) سورة الجن، الآية: 1.

(4) قال الزيلعي: غريب جداً، 473/2.

عشرة سنة وفرّ منهم على أثرها والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي فعلتك بالكسر وهي قتلة القبطي لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل وأما الفعل فلائها كانت وكزة واحدة عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك وفضله.

فَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خُنُوكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَمَلًا مِنَ التَّرْصِيلِ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَتَّبَعُنَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٢﴾

فإن قلت: لم جمع الضمير في ﴿منكم﴾ و﴿خفتكم﴾ مع إفراده في ﴿تمنّها﴾ و﴿عبدت﴾! قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه، ومن ملئه المؤتمرين بقتله بليليل قوله: إن الملائمات ياتمون بك ليقتلوك وأما الامتتان فمنه وحده وكذلك التعبيد.

فإن قلت: تلك إشارة إلى ماذا وإن عبدت ما محلها من الإعراب؟ قلت: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك ونظيره قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه تلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع﴾⁽²⁾ والمعنى: تبديد بني إسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿أن﴾ في موضع نصب المعنى إنما صارت نعمة علي لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفنتي أهلي، ولم يلقوني في اليم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾

لما قال له: بوابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له: عند دخوله ﴿وما رب العالمين﴾ يريد أي شيء رب العالمين؟ وهذا السؤال لا يخلو إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت، وعرفت أجناسها فاجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثل شيء وإما أن يريد به أي شيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثل شيء وإما أن يريد به أي شيء هو على الإطلاق تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأن الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول تفتيش عما لا سبيل إليه والسائل عنه متعنت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما جاب موسى بما أجاب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله: جننه إلى قومه وطنز به⁽³⁾ حيث سماه رسولهم فلما ثلث بتقرير آخر احتد واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهاً غيري.

وَقَمَلتَ فَعَلتَكَ الَّتِي قَمَلتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾

بقوله⁽¹⁾: ﴿وفعلت فعلتك﴾، التي فعلت ﴿وانت من الكافرين﴾ يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت لذلك من الكافرين بنعمتي أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعيشهم بالتقية فإن الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبه من كل كبيرة، ومن بعض الصغائر فما بال الكفر ويجوز أن يكون قوله: وأنت من الكافرين حكماً عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عاداته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعاً منه أو بأنه من الكافرين لفرعون والهيته أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم يشهد لذلك قوله تعالى: وينذك وأهتكت، وقرئ إلهتك فأجابه موسى بأن تلك الفعل إنما فرطت منه وهو.

قَالَ فَمَنْنَهَا إِذَا رَأَىٰ مِنَ السَّآئِلِينَ ﴿١٥﴾

﴿من الضالين﴾ أي: الجاهلين وقراءة ابن مسعود من الجاهلين مفسرة والمعنى من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه كما قال: يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل أو الذاهبين عن الصواب، أو الناسين من قوله: أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكتب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه وبرا ساحتها بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربا بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمى نعمته إلا نعمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بنبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكانه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم تنليلهم واتخاذهم عبداً يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً قال:

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاؤا وعبدان
فإن قلت: إذا جواب وجزاء معاً والكلام وقع جواباً لفرعون، فكيف وقع جزاء؟ قلت: قول فرعون: ﴿وفعلت فعلتك﴾ فيه معنى إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له

(1) قال أحمد: ووجه للتفطيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملًا

(2) مبهماً إيناناً بأنه لفظاته مما لا ينطق به، إلا مكنياً عنه، ونظيره

في التفخيم المستفاد من الإبهام، قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم

ما غشيهم إذ يغشى السدرة ما يغشى فاوحى إلى عبده ما أوحى. ومثله كثير. والله أعلم.

وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾.

فإن قُلْتُ: كيف قيل: ﴿وما بينهما﴾ على التثنية والمرجع إليه مجموع! قُلْتُ: أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال: في الهيجا جمالين.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿إن كنتم موقنين﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قُلْتُ: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعمكم هذا الجواب، وإلا لا ينفع أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله.

قَالَ لِمَنْ حَرَمَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَجُلٌ رَرْتُ مَا بَابَكُمْ الْأَرِيَانَ

﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتُ: ومن كان حوله! قُلْتُ: أشراف قومه قبل كانوا خسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة.

فإن قُلْتُ: نكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلاق كلها فما معنى نكرهم ونكر آياتهم بعد ذلك ونكر المشرق والمغرب؟ قُلْتُ: قد عمم أولاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآبائهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعابن من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان فهبت الذي كفر.

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿رب المشارق والمغرب﴾ الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قُلْتُ: كيف قال: أولاً ﴿إن كنتم موقنين﴾ وأخرًا: ﴿إن كنتم تعقلون﴾؟ قُلْتُ: لآين أولاً فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض إن رسولكم لمجنون بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾. قَالَ لِمَنْ أَحَدَّتْ لَهَا غَيْرِي لَأَجْمَلَنَّكَ مِنَ السَّمْعُونِ ﴿١٩﴾.

فإن قُلْتُ: ألم يكن لاسجنتك أخصر من ﴿لأجعلنك من المسجونين﴾ ومؤبياً مؤداه! قُلْتُ: أما أخصر فنعم وأما مؤد مؤداه فلا لأن معناه: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عاتبه أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها، ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل وأشد.

قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ يَتَوَوُّ ثِيْبِي ﴿٢٠﴾.

الواو في قوله (١): ﴿أولو جثتك﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك، ولو جثتك بشيء مبين أي: جاثياً بالمعجزة.

قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَبَاطِثٌ مِّمِّي ﴿٢٢﴾.

وفي قوله (2): ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوة والحكيم لا يصنع الكاذب، ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا وخفي على ناس من أهل القبلة حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات، وتقديره: ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك أتيت به فحذف الجزء لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

﴿ثعبان ميين﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة

== حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأتقياء، قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصنق الأنبياء أمانة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزته العقل، ولو قدح الإمكان العقلي في علم حاصل يقيني للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عانت تبراً أحمر، وتربها مسكاً أقر، وانقلبت البحار دماً عبيطاً؛ لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان، إلا نو خبل وعتو وعمي وعمه، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكتب الجبال؛ فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما، ثم يقول له: عد فيعود حياً، فيقول له: ما لزيدت فيك إلا بصيرة أنت النجال الذي وصفه لنا رسول الله ﷺ، فيهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه، قال النبي ﷺ: وهو حينئذ خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض، أقرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكتب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه لم يشككه ذلك في معلومه، فلم يتلصق في معاودة تكذيبه، ولكن يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

(1) قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيغه من تأليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيد لاهل السنة، وإن كيد لفي تضليل بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة، وإن كلاً منهم إذا فتن نفسه وجد فيها نصيباً من فرعونته، حيث يقول: أنا ربكم الأعلى؛ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقتهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلاً إنهم لهم المبتدعون المختلقون؛ لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد، فمن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون، ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وإن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأتلية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبثي الله عبادته بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإن توهم ناظر بعين الهوى والغرض معنون عما في قلبه من مرض، أن ذلك يجز إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء ==

وقرأ الأعمش: ﴿بكل ساحر﴾.

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِيَقِينَنَّ يَوْمَ تَمْلُؤُونَ ﴿٣٨﴾.

اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿ومعكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ (2) والميقات ما وقت به أي: حدد من زمان أو مكان منه مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿هل أنتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحاثتهم كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول: تابط شرا:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

لَمَلْنَا نَبِيْحُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَتَقَلِّبِينَ ﴿٤٠﴾.

يريد ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطئ به ﴿لعلنا نبيع السحرة﴾ أي: في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه وليس غرضهم باتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوه لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام. وقرئ نعم بالكسر وهما لغتان.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالُوا لِيَزَعَنَّ مِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ أَتَقَلِّبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَيْنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾.

ولما كان قوله: ﴿إن لنا لأجراً﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله: ﴿وإنكم إذا لمن المتقربين﴾ معطوفاً عليه ومسلخاً في حكمه دخلت إذا قارة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى القربة عنده والزلفى.

فَأَلْفَوْا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ رَبِّنَا إِنَّنَا لِلنَّاسِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾.

أقسموا بعزة فرعون وهي من إيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته كقولك: بالله والرحمن وربِّي ورب العرش وعزة الله وقدرته الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطاغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم

إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت ويقول: فرعون أسالك بالذي أرسلك الا أختنها، فأخذها فعادت عصا.

وَرَجَّحَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيَسَاءَ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نورياً روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها فأخرج يده، فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٥﴾.

فإن قُلْتُ: ما العامل في حوله! قُلْتُ: هو منصوب نصيبين نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي، وهو النصب على الحال قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول حتى زل عنه نكر دعوى الإلهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتفعت فرائضه وانتفخ سحره خوفاً ورفقاً، وبلغت به الاستكاثرة لقومه الذين هم يزعمه عبده وهو إلههم أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه، وتوقعه وأحسن به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه وقوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ قول: باهت إذا غلب وتمحل إذا لزم.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿تأمرون﴾ من المؤامرة وهي المشاورة، أو من الأمر الذي هو ضد النهي جعل العبيد أمرين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة، و«مأذ» منصوب إما لكونه في معنى المصدر وإما لأنه مفعول به من قوله امرتكم الخير.

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَنَا وَابِتٌ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ ﴿٤٦﴾ بِأَتَاؤِكَ يَكْفُلِي سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٤٧﴾.

قرئ: ﴿أرجئه﴾ و﴿أرجه﴾ بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته ومنه المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون هم مرجئون لأمر الله (1) والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل: أحبسها ﴿حاشيرين﴾ شرطاً يحشرون السحرة وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر﴾ بقولهم: ﴿بكل ساحر﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطمأنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه.

(1) قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الإرجاء حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لاهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون أمرهم إلى الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء غفر لهم، فإن كانت المرجئة هم المؤمنون =

(2) سورة مة، الآية: 59.

صادقون⁽¹⁾، ولقد استحدثت الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم باسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فقتل عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْلِكُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ما يافكون﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، وكيدهم ويزورونه فيخيلون في حبالهم وعصيمهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين، أو إفكهم سمي تلك الأشياء إفكاً مبالغة، روي أنهم قالوا: إن بك ما جاء به موسى سحرًا فلن يغلب وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من الله، فأمنوا وعن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سحرة وأمساوا شهداء.

فَأَتَى السَّعْرَةَ سَبْعِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمَّا رَبٌّ أَنَّى يَدْعُنَ ﴿٤٧﴾

وإنما عبر عن الحرور بالإلقاء لأنه نكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضًا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين راوا ما راوا لم يتملكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحًا.

فإن قُلْتُ: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قُلْتُ: هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما علينا من المعجزات الباهرة ولك أن لا تقدر فاعلاً لأنّ القوا بمعنى خزوا وسقطوا.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين لأنّ فرعون لعنه الله كان يدعي الربوبية، فارادوا أن يعزلوه ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي يدعو إليه هذان والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

قَالَ أَمْ نَحْنُ لَهُمْ بَنُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَمْ يَنْصَرُوا لَهُمْ لَو كَانُوا فَاعْتَدُوا ﴿٥١﴾ وَتَوَلَّى وَرُءُوسُهُمْ ﴿٥٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرِنَا أَنتَ الْبَصِيرُ ﴿٥٣﴾

﴿فلسوف تعلمون﴾ أي: وبال ما فاعلمت.

قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِنْ رَجَعْنَا مُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾

الضر والضير والضرور واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، والثواب العظيم مع الأعواض

الكثيرة أو لا ضرير علينا فيما تتوعنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها أو لا ضرير علينا في قتلك إنك إن قتلنا انقلبتنا إلى ربنا انقلاب من يطعم في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف، والمعنى: لا ضرير في نك أو علينا.

إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿إن كنا﴾ معناه لأن كنا وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم أو من رعية فرعون أو من أهل المشهد، وقرئ: ﴿إن كنا﴾ بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل بامرهم المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم ﴿أول المؤمنين﴾ ونظيره قول: العامل لمن يؤخر جعله إن كنت علمت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾⁽²⁾ مع علمه أنهم لا يخرجوا إلا لذلك.

وَأَنبِئْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنبِئْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي السَّمَاءِ حَشِيرَةً ﴿٥٨﴾

قرئ: ﴿أسر﴾ بقطع الهمزة ووصلها وسر ﴿إنكم متبعون﴾ علل الأمر بالإسراء بتتابع فرعون، وجنوده آثارهم والمعنى أنني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فاطبقه عليهم فاهلكهم وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت، ثم انبجوا الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سأمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابيه دم وسأمرهم بقتل أبقار القبط واخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فرعون في ألف حصان سوى الإناث فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً وسماهم شرذمة قليلين.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّمُكُمْ تُجَادِلُكُمْ فِي دِينِكُمْ وَإِنَّكُمْ لَفِي حُكْمٍ ﴿٥٩﴾ وَأَنبِئْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿إن هؤلاء﴾ محكى بعد قول: مضمرة والشرذمة الطائفة القليلة ومنها قولهم: توب شرانم للذي بلى وقطع قطعاً نكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً

(1) - أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان والذنور، باب: الحلف بالامهات، (الحديث: 3769).
(2) - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والذنور، باب: لا تحلفوا = (2) سورة الممتحنة، الآية: 1. = (باب: النهي من الحلف بغير الله تعالى، الحديث: (3 1646)).

لا يبقى منا احد، الفرق الجزء المتفرق منه.

﴿سبيدين﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم.

فَأَرْحَبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَعْرَبَ بِعَبَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْقَاكَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿كل فلق﴾ والمعنى واحد والطود الجبل العظيم المنطاد في السماء.

وَأَرْحَبْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنِ ﴿١٨﴾ وَأَجْبَأَ مُوسَىٰ وَمِنْ نَمَمَةٍ أَجْمِينَ ﴿١٩﴾.

﴿وأللقنا ثم﴾ حيث انفلق البحر.

ثُمَّ أَعْرَبْنَا الْأَخْرَيْنِ ﴿٢٠﴾.

﴿الأخرين﴾ قوم فرعون أي: قربانهم من بني إسرائيل أو أنبيأ بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحداً وقدمناهم إلى البحر، وقرئ: ﴿وأللقنا﴾ بالقاف أي: أزلنا أقدامهم والمعنى: أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبساً وقد ثلثت عرشها ونبیان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل ببساً فيزلقهم فيه، عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط، فيقول: رويكم يلحق آخركم فلما انتهى موسى إلى البحر، قال له مؤمن آل فرعون، وكان بين يدي موسى: أين أمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق، وروي أن يوشع قال: يا كلیم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال موسى: ههنا فحاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فسلخوا، وروي أن موسى قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: أساف.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾.

﴿إن في ذلك لآية﴾ آية آية وآية لا توصف وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم ولا آمن بالله وينو إسرائيل الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاه قد سالوه بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة.

واختار جمع السلامة الذي هو للقلعة^(١)، وقد يجمع القليل على قلة وقلل ويجوز أن يريد بالقلعة النلة والقماء ولا يريد قلة العدد والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده وهذه معانير اعتد بها إلى أهل المدائن لثلاثاً يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.

وَأَنَّا لَجَبَّعٌ حَذِرُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَعْرَضْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ وَيُؤَيِّرُ ﴿٢٣﴾.

وقرئ: ﴿حذرون﴾ وحائرون وحائرون بالدال غير المعجمة، فالحذر اليقظ والحائر الذي يجند حنره وقيل: المؤدى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه والحائر السمين القوي قال:

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبغضه من بغضها وهو حائر أراد أنهم أقوىاء أشداء وقيل: مدمجون في السلاح قد كسبهم تلك حدارة في أجسامهم.

كُؤَيِّرُ وَمَعَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٤﴾.

وعن مجاهد سماها: كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله، والمقام المكان يريد المنازل الحسنة، والمجالس البهية وعن الضحاک: المنابر وقيل: السر في الحجال.

كُنَّا لِكُلِّكُمْ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٥﴾.

﴿كنلك﴾ يحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي، وصفناه والجر على أنه وصف لمقام أي: ﴿مقام كريم﴾ مثل ذلك المقام الذي كان لهم والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كنلك.

فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ ﴿٢٦﴾.

﴿فاتبعوهم﴾ فلحقوهم، وقرئ: فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت.

فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَرُوكُمْ فِي كَلْبٍ إِنَّ مِثْقَالَ نَبِيٍّ سَبْطِينَ ﴿٢٧﴾.

وقرئ فلما تراءت الفتتان إنا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى ومنه قوله تعالى: ﴿هل أدراك علمهم في الآخرة﴾^(٢) قال: الحسن جهلوا علم الآخرة وفي معناه بيت الحماسة: أبعد بني أمي الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت لأجزع والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى

(1) قال أحمد: ووجه آخر في تقليبهم يكون خامساً، وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغاً في لصوق ذلك الوصف بالموصوف، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم معاً: زيد جياح مبالغاً في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشردمة قليلة.

(2) سورة النمل، الآية: 66.

(1) قال أحمد: ووجه آخر في تقليبهم يكون خامساً، وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغاً في لصوق ذلك الوصف بالموصوف، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم معاً: زيد جياح مبالغاً في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشردمة قليلة.

الصحة والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (4) ولأن المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان.

﴿إِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧).

وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ تصويراً للمسألة في نفسه على معنى أنني فكرت في أمري فرايت عبادتي لها عبادة للعدو، فاجتنبتها وأثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً وبني عليها تدبير أمره لينظروا، فيقولوا: ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه ولو قال: فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه نخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً واجهه بشيء، فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أب وسمع رجلاً ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. والعدو والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة قال:

وقوم على نوي مشرة أراهم عدواً وكانوا صديقا
ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (5) شبهها بالمصار للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿إِلَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال: ولكن رب العالمين.

﴿أَلَدَىٰ خَلْقٍ فَهُوَ حَبِيبٌ﴾ (٨) ﴿وَأَلَدَىٰ هُوَ يُطْمِئِنُّ وَيَسْتَبِينُ﴾ (٩).

﴿فهو يهدين﴾ يريد أنه حين أتم خلقه، ونفخ فيه الروح عقب تلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هدها إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصاً، ومن هدها إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ومن هدها لكيفية الارتضاع إلى غير ذلك من هدايات المعاش، والمعاد.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (١٠) ﴿وَأَلَدَىٰ يُبْسِتُ ثَرَّ بَحِيحٍ﴾ (١١).

وإنما قال: ﴿مرضت﴾ دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه (6) وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل: لأكثر الموتى ما سبب أجالكم لقالوا: التخم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَمَرِيكَ الرَّحِيمِ﴾ (١٢).

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه.

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ تَبَأً إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٣).

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريبهم أن ما يعبونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر: ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال. إذ قال لإبيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (١٤).

فإن قلت: ﴿ما تعبدون﴾ سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا: أصناماً كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَلُونَك مَآذًا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (1) ﴿مَآذًا قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ (2) ﴿مَآذًا أَنْزَلَ رَبِّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ (3) قلت: هؤلاء قد جاؤا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصده من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم ﴿نَعْبُدُ﴾.

﴿قَالُوا تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا فَظَلُّوا عَنكَ يَوْمَئِذٍ﴾ (١٥).

﴿فنظفل لها عاكفين﴾، ولم يقتصر على زيادة نعبد وحده، ومثاله أن تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك، فيقول: البس البرد الاتحمى فأجز نيله بين جوارى الحي وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبونها بالنهار نون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ يَنصَرُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا بَلْ سَمِعْنَا بِآبَائِنَا كَذَّابًا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨) ﴿قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كَثُرَ تَعْبُدُونَ﴾ (١٩) ﴿أَسْمُرُ وَأَكْفُكُمُ الْأَعْمُونَ﴾ (٢٠).

لا بد في ﴿يسمعونكم﴾ من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة: ﴿يسمعونكم﴾ أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية، ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا: هل سمعوا أو اسمعوا قط وهذا أبلغ في التبكيت، لما أجابوه بجواب المقلدين لأبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم، فإن التقدّم والأولية لا يكون برهاناً على

= وهي أشد من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المنكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه، كذلك الموت للناسي عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه إلى الله تعالى، ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب، بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالناسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبة =

(1) سورة البقرة، الآية: 219.

(2) سورة سبأ، الآية: 23.

(3) سورة النمل، الآية: 30.

(4) سورة مريم، الآية: 82.

(5) سورة الكهف، الآية: 50.

(6) قال أحمد: والذي نكرو غير الزمخشري: أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأنيب مع الله تعالى بتخصيمه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا: لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإمامة إلى الله تعالى، =

يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه، ولك أن تجعل الاستثناء منقطعاً ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال والمراد بها سلامة القلب وليست هي من جنس المال، والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى، وقد جعل من مفعولاً لينفع أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبيه على جلالته محله في الإخلاص أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه، ثم جعله صفة له في قوله: **وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ومن بدع التفاسير تفسير بعضهم السليم بالليديج من خشية الله وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنهم لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى نكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعُد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليها الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغضبون بأنهم المحشورون إليها.

وَوَرِثَتِ الْجَنَّةَ الْمَلَكُوتُ ﴿١١﴾

والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى: **﴿وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾** (1) وقال: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** (2)، يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات فتجعل النار بمرأى منهم فيهلكون غماً في

وَأَلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي يَوْمَ الرَّبِّيبِ ﴿٨٦﴾.

وقرى: **﴿خطاياي﴾** والمراد ما يندر منه من بعض الصغائر لأن الأنبياء معصومون مختارون على العالمين وقيل هي قوله: **﴿إني سقيم﴾** وقوله: **﴿ويل فعله كبيرهم﴾** وقوله لسارة: **﴿هي אחتي﴾** وما هي إلا معاريض كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار.

فَإِنْ قُلْتُ: إِذَا لَمْ يَنْدِرْ مِنْهُمْ إِلَّا الصَّغَائِرُ وَهِيَ تَقَعُ مَكْفُورَةٌ فَمَالَهُ أَثْبِتَ لِنَفْسِهِ خَطِيئَةً أَوْ خَطَايَا وَطَمَعُ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ! قُلْتُ: الْجَوَابُ مَا سَبَقَ لِي أَنْ اسْتَغْفَرَ الْأَنْبِيَاءُ تَوَاضَعُ مِنْهُمْ لِرَبِّهِمْ وَهَضَمُ لِنَفْسِهِمْ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: أَطْمَعُ وَلَمْ يَجْزَمْ الْقَوْلُ بِالْمَغْفِرَةِ، وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِأَمَمِهِمْ وَلِيَكُونَ لَطْفًا لَهُمْ فِي اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَالْحَذَرِ مِنْهَا وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِمَّا يَفْرُطُ مِنْهُمْ.

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ عُلِقَ مَغْفِرَةُ الْخَطِيئَةِ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا تَغْفِرُ فِي الدُّنْيَا! قُلْتُ: لِأَنَّ أَثَرَهَا يَتَبَيَّنُ يَوْمئِذٍ وَهُوَ الْآنَ خَفِي لَا يَعْلَمُ.

رَبِّ هَبْ لِي حُسْبًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَصَلِّ عَلَيَّ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّبِيِّينَ ﴿٨٩﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيُّهَا النَّاسِ كَانِ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٩٠﴾.

الحكم الحكمة أو الحكم بين الناس بالحق وقيل: النبوة لأن النبي نو حكمة ونو حكم بين عباد الله، والإلحاق بالصالحين أن يوافقهم لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ولقد أجابه حيث قال: **وإنه في الآخرة لمن الصالحين.**

وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُمْتَوَنَ ﴿٩٧﴾.

والإخزاء من الخزي وهو الهوان ومن الخزية وهي الحياة وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي **﴿يعبثون﴾** ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه يعني: **ولا تخزني يوم يبعث الضالون، وأبي فيهم.**

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٩﴾.

﴿إلا من أتى الله﴾ إلا حال من أتى الله **﴿بقلب سليم﴾** وهو من قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع، وما ثوابه إلا السيف وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى: الغنى كأنه قيل:

= يتفق وقد لا أورده مقروناً بشرط: إذا فقال: وإذا مرضت، وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة الماثورة إلا لئلا، والله أعلم.

(1) سورة ق، الآية: 31.

(2) سورة العلك، الآية: 27.

= إلى الله تعالى، وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاه محققاً، فانتضى العلو في الأنبياء مع الله تعالى أن ينسب الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخير عن وقوعه بتأ وجزماً: لأنه أمر لا بد منه، وأما المرض فلما كان قد

كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم.

وَقِيلَ لِمَ لَمْ أَنْتَ مَا كُنْتَ تَعْبُدُونَ ﴿١٦٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصِّرُونَكَ أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿١٦٧﴾.

فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار.

كُنَّا كِبْرًا فِيهَا مُمْ وَالْعَاوُونَ ﴿١٦٤﴾.

وهو قوله: ﴿فكذبوا فيها هم﴾ أي: الآلهة ﴿والعواون﴾ وعبثتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها. اللهم أجرنا منها يا خير مستجار.

وَجَنُودٌ يُبَاسِ أَعْمُونَ ﴿١٦٥﴾.

﴿وجنود إبليس﴾ شياطينه أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

قَالُوا وَمِمَّ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦٦﴾ تَأَلَّهْ إِنْ كُنَّا لِنَفِي صَلَاتِي بَيْنَ ﴿١٦٧﴾ إِذْ شَرِيكُم رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦٩﴾.

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم، ويجوز أن يجري نك بين العصاة والشياطين والمراد بالمجرمين الذين أضلّوهم رؤسائهم وكبرائهم كقوله: ﴿ربنا إنا أطمعنا سانتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا﴾⁽¹⁾ وعن السدي: الأولون الذين اقتدينا بهم وعن ابن جريج: إبليس وابن آدم القتال لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي.

فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٧٠﴾.

﴿فما لنا من شافعين﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفاعا من الملائكة والنبیین.

وَلَا صَافِيينَ حَمِيمٍ ﴿١٧١﴾.

﴿ولا صديق﴾ كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصاقب في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال الله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾⁽²⁾ أو ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنا نعدهم شفاعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفاعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفاعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا ينجونهم.

عنهم فقصوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعنوم، ﴿والحميم﴾ من الاحتمال وهو الاهتمام وهو الذي يهيم ما يهيمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص.

فإن قلت: لم جمع الشافع ووجد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفاعاء في العادة وقلة الصديق⁽³⁾ إلا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدة لشفاعته رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بإكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصانع في وداك الذي يهيم ما أمهك، فاعز من بيض الأنوق وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق، فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع.

قَلَّ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْرَبُ الرَّجِيمِ ﴿١٧٤﴾.

الكرة الرجعة إلى الدنيا.

﴿ولو﴾ في مثل هذا الموضوع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفلعلنا كيت وكيت.

كَذَبَتْ قَوْمٌ نُسِجَ الْمُزْمِلِينَ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُجَيْجٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾.

القوم مؤنثة وتصغيرها قويمه، ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب، ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرد⁽⁴⁾ قيل: أخوهم لأنه كان منهم من قول العرب: يا أخا بني تميم؛ يريدون يا واحداً منهم ومنه، بيت الحماسة.

لا يسألون أخاهم حين ينهبهم في النائبات على من قال برهانا

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾.

كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٨﴾.

﴿وأطيعون﴾ في نصحي لكم وفي ما أدعوكم إليه من الحق.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾.

﴿عليه﴾ على هذا الأمر وعلى ما أنا فيه يعني: دعاءه، ونصحه.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٠﴾.

(4) قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع، بأن

كل من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق، فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل، والله أعلم.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الزخرف، الآية: 67.

(3) قال أحمد: العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد، ثم لو كان المراد الإفراد، لكان أعم لأنه في سياق الظفي فينظي الواحد، فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له، والله أعلم.

اتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعاً في إيمانكم.

إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّرَتَتْهَ بَشَرٌ لَّنَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١١٦﴾.

وما علي إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشانكم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ

ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أنني لا أدعوك عليهم لما غاظوني، وأنوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم.

فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا وَجَّهِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١١٧﴾.

﴿بيني وبينهم﴾ والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات.

فَأَجَبْتَهُ وَأَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمُشْحَبُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بِمَدِّ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٢١﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْأَنْرَاجِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٢٣﴾ إِنِّي لَكُرْشُومٌ أَمِينٌ ﴿١٢٤﴾ فَأَنفَقُوا اللَّهَ وَالْيَحْيُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا أَسْتَكْتَمُ عَلَيْهِ
مِنَ الْبِرِّ إِذْ تَجَرَّى لَهَا غَلَابٌ أَلَمَّا لَوَّى بَصَرًا لِّمَا اسْتَفْتَحَا وَخِيبَهَا وَكَأَنَّمَا
يُرَى سَاحِلَ الْأَرْضِ يَأْتِيهَا سَفْحًا لَّخِيلاً ﴿١٢٦﴾.

﴿الفلك﴾ السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾⁽³⁾ فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل كما كسروا فعلاً على فعل لأنهما أخوان في قولك: العرب والرشد والرشد فقالوا: أسد وأسد وفلك وفلك ونظيره بعير هجان وإبل هجان وسرع دلاص ودروع دلاص، فالواحد بوزن كنان والجمع بوزن كرام، والمشحون: المملوء يقال: شحنتها عليهم خيلاً ورجالاً.

أَتَيْتُونَهُمْ يَكُلُّ رِيعَ آيَةٍ صَبْرُونَ ﴿١٢٧﴾.

قروء: ﴿بكل ريع﴾ بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع قال: المسيب بن علس:

في الأكل يرفعها ويخفضها ريع يلسج كانه سحبل ومنه قولهم: كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم، وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طرقهم أعلاماً طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم وعن مجاهد بنوا بكل ريع بروج الحمام⁽⁴⁾.

ومعنى: ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾. فاتقوا الله في طاعتي وكرره ليؤكد عليهم ويقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحدة منهما بعلّة جعل علّة الأوّل كونه أميناً فيما بينهم، وفي الثاني حسم طعمه عنهم، وقرئ واتباعك جمع تابع كشاهدوا شهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضرر بعدما قد في واتباعك.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ﴾.

وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكثير في قوله: ﴿الذين هم أراذلنا﴾⁽¹⁾ والردالة والندالة الخس والندانة وإنما استردناهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياسة والحجامة والصناعة لا تزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول: في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت اتباع الأنبياء كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن اتباع رسول الله ﷺ فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت اتباع الأنبياء كذلك⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الغافة. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عَلِيٌّ بِمَا كَانُوا يَمْتَلُونَ ﴿١٢٨﴾.

﴿وما علمي﴾، وأي شيء علمي والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم له وإطلاعه على سر أمرهم وباطنه وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا مع استردالهم في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم في قوله الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ويجوز أن يتغابي لهم نوح عليه السلام فيفسر قولهم الأراذلين بما هو الردالة عنده من سوء الأعمال، وفساد العقائد ولا يلتفت إلى ما هو الردالة عندهم ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما علي إلا اعتبار الظواهر نون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم وإن كان لهم عمل سيء فانه محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز.

إِنَّ جَسَدَهُمُ إِلَّا عَلَى رِجِّ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٢٩﴾.

﴿لو تشعرون﴾ ذلك ولكنكم تجهلون فتنسافون مع الجهل حيث سيركم وقصد بذلك رد اعتقادهم، وإنكار من يسمى المؤمن ردلاً وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسباً فإن الغني غنى الدين والنسب نسب التقوى.

وَمَا أَنَا إِلَّا بِطَارِدٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٠﴾.

﴿وما أنا بطارد للمؤمنين﴾ يريد ليس من شأنني أن

== لسان نبينا ﷺ حيث وصف الكافرين آخر الزمان، بأنهم يتطاولون في الدنيا، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالكفاك تكون مرتفعة في المصرب ارتفاعاً كبيراً، لأنهم يمشون، فعبر عن ثلغهم إلى

(1) سورة هود، الآية: 27.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6)، (الحديث: 7).

(3) سورة فاطر، الآية: 12.

(4) قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ثم ذلك على

وَتَحْتَوُونَ مَسَاجِدَ لَمَلِكُمْ مَخْلُودُونَ ﴿٧٦﴾

أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمين وبواحدة، فمعناه: ما هذا الذي نحن عليه من الدين ﴿إلا خلق الأولين﴾ وعادتهم كانوا يدينونه ويعتقدونه ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة، والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلقون مثله ويسطرونه.

أَتَرْكُوكَ فِي مَا هَنَأْتُمْ بِهِ رَبَّكُمْ ﴿٧٧﴾

﴿اتركون﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه، وإن يكون تنكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة ﴿في ما هنأتم﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم.

فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿٧٨﴾

ثم فسره بقوله: ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل.

وَرَزَقَ وَخَلَّيَ لَهَا هَاضِمًا ﴿٧٩﴾

فإن قلت: لم قال ﴿ونخل﴾ بعد قوله: ﴿في جنات﴾ والجنة تتناول البخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى أنهم لينكرون الجنة، ولا يقصون إلا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل، قال زهير: تسقى جنة سحقا! قلت: فيه وجهان أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضلها عليها وأن يريد بالجنات غيرها من الشجر لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، الطلعة هي التي تطلع من النخلة كئصل السيف في جوفه شمرايخ القنن، والقنن اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشمرايخه والهضيم اللطيف الضامر من قولهم كشح هضيم وطلع إناث النخل فيه لطف وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني اللطيف من طلع اللون فنكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه لأن الإنث، ولادة التمر والبرني أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير وإذا كثر الحمل هضم وإذا قل جاء فاخرًا وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

قرأ الحسن ﴿وتفتحون﴾ بفتح الحاء.

والمصانع: مأخذ الماء وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لعلكم تخلدون﴾ ترجون الخلود في الدنيا أو تشبه حالكم حال من يخلد، وفي حرف أبي: كانكم، وقرئ: تخلدون بضم التاء مخففاً ومشدداً.

وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَابِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَنْتُمْ اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿٨١﴾

﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط، أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب لا تثبتون متفكرين في العواقب بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال:

وَأَنْتُمْ الْكَبِيرُ أَتَذَكَّرُ بِمَا تَمْتَرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿امدكم بما تعلمون﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعبيد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة فهو قاهر على الثواب والعقاب فاتقوه ونحوه قوله تعالى: ﴿ويحزنكم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ (١).

أَمَذَكَّرُ بِأَنْتُمْ وَيَيْنَ ﴿٨٣﴾ وَجَعَلْتِ وَعُيُونِ ﴿٨٤﴾ إِنَّ أَعَاذَ عَلَيْكُمْ عَذَابِ بَوْرٍ عَظِيمٍ ﴿٨٥﴾

فإن قلت: كيف قرن البنين بالانعام؟ قلت: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

قَالُوا سَوَاءَ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٨٦﴾

فإن قلت: لو قيل ﴿أوعضت﴾ أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحداً! قلت: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشره فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٧﴾ وَمَا عَنَّا بِمُذَيَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْزَمَهُمْ مُؤْمِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالرَّحِيمِ ﴿٩٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أِينًا ﴿٩٣﴾ فَانْتَمُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿٩٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ ثَمَرٍ إِذْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّي فَأَنْصَبْهُ ﴿٩٥﴾

من قرأ: ﴿خلق الأولين﴾ بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخصصهم كما قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾ (٢).

= مطبق، وما يجري مجراه ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثاً، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 30.

(2) سورة المطففين، الآية: 13.

= المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البيان بالعبث، وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات، وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ففيه بعد من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم

تَمَرُّوعًا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّي الْمَلَكِيَّتِ ﴿١٦٣﴾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَقَدْ نَدِمُوا؟ قُلْتُمْ: لِمَ يَكُنْ
نَدِمَهُمْ نَدَمٌ تَائِبِينَ، وَلَكِنْ نَدَمٌ خَائِفِينَ أَنْ يِعَاقِبُوا عَلَى الْعَقْرِ
عِقَابًا عَاجِلًا كَمَنْ يَرَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ آيَاتًا فَاسِدًا وَيُبِينُ
عَلَيْهِ ثُمَّ يَنْدِمُ وَيَتَحَسَّرُ كِنْدَامَةِ الْكُفْرِ أَوْ نَدِمُوا نَدَمٌ تَائِبِينَ
وَلَكِنْ فِي غَيْرِ وَقْتِ التَّوْبَةِ وَنَدَمٌ عِنْدَ مَعَايَةِ الْعَذَابِ وَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١) الْآيَةَ.
وَقِيلَ: كَانَتْ نَدَامَتُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْوَلَدِ، وَهُوَ بَعِيدٌ وَاللَّامُ فِي
الْعَذَابِ إِشَارَةٌ إِلَى عَذَابِ يَوْمِ عَظِيمٍ أَرَادَ بِالْعَالَمِينَ النَّاسَ.

أَتَاتُونَهُ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَلَكِيَّاتِ ﴿١٦٤﴾.

أَي: أَتَاتُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَوْلَادِ أُمِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ عَلَى فَرْطِ
كَثْرَتِهِمْ، وَتَفَاوَتِ اجْتِنَاسِهِمْ وَغَلْبَةِ إِثْمِهِمْ عَلَى نُكُورِهِمْ فِي
الْكَثْرَةِ نَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا الْإِنَاثُ قَدْ أَعْوَزَتْكُمْ، أَوْ أَتَاتُونَهُمْ مِنْ
بَيْنِ عِدَائِكُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ الذُّكْرَانَ يَعْنِي: أَنْكُمْ يَا قَوْمَ لُوطٍ
وَحُكْمٌ مَخْتَصُونَ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ وَالْعَالَمُونَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ:
كُلُّ مَا يَنْكَحُ مِنَ الْحَيَوَانَ.

وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٥﴾.

﴿مَنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ تَبْيِينًا لِمَا خَلَقَ، وَأَنْ
يَكُونَ لِلتَّبَعِيضِ وَيُرَادُ بِمَا خَلَقَ الْعَضْوُ الْمُبَاحَ مِنْهُنَّ وَفِي
قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿مَا أَصْلَحَ لَكُمْ رِبْكَمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾
وَكَانَهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ بِنِسَائِهِمْ (٢)، الْعَادِي الْمَتَعَدِي
فِي ظَلَمِهِ الْمَتَجَاوِزُ فِيهِ الْحَدُّ وَمَعْنَاهُ أَتْرَكْتُمْ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ
عَلَى عَظْمِهَا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ فِي جَمِيعِ الْمَعْاصِي، فَهَذَا
مِنْ جَمَلَةِ ذَاكَ أَوْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ أَحْقَاءُ بَانَ تَوْصَفُوا بِالْعِدْوَانِ
حَيْثُ ارْتَكَبْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الْعَظِيمَةِ.

قَالُوا لَئِنْ لَمْ نَنْتَهِ بِأَلْوَابِنَا فَتَكُونُنَّ مِنَّا لَمَّا خَلَّوْا بَيْنَ أَعْيُنِنَا ﴿١٦٦﴾.

﴿لَئِنْ لَمْ نَنْتَهِ﴾ عَنِ نَهْيِنَا وَتَقْبِيحِ أَمْرِنَا ﴿لِتَكُونُنَّ﴾
مِنْ جَمَلَةِ مَنْ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا، وَطَرَبْنَاهُ مِنْ بِلْدَانِ
وَلِعَلَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنْ أَخْرَجُوهُ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ مِنْ

وَتَجَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَرْهَبُونَ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَلَا
تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِّينَ ﴿١٦٨﴾.

وَقَرِي: ﴿فَرَهِينٌ﴾ وَفَارَهِينُ وَالْفَرَاهَةُ الْكَيْسُ وَالنَّشَاطُ
وَمَنْ خَيْلٌ فَرَهَةٌ اسْتَعْبِيرَ لَامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَارْتِسَامَهُ طَاعَةَ
الْأَمْرِ الْمَطَاعَ أَوْ جَعَلَ الْأَمْرَ مَطَاعًا عَلَى الْمَجَازِ الْحُكْمِيِّ،
وَالْمُرَادُ الْأَمْرُ وَمَنْ قَوْلُهُمْ: لَكَ عَلَيَّ إِمْرَةٌ مَطَاعَةٌ. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَاطِيعُوا أَمْرِي﴾.

الَّذِينَ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٦٩﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
الْمُتَسَحَّرِينَ ﴿١٧٠﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِئْ بِعَاقِبَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿١٧١﴾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصْلِحُونَ﴾؟ قُلْتُمْ:
فَائِدَتُهُ أَنْ فَسَادَهُمْ فَسَادٌ مَصْمُومٌ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ
الصَّلَاحِ كَمَا تَكُونُ حَالُ بَعْضِ الْمَفْسُودِينَ مَخْلُوطَةٌ بِبَعْضِ
الصَّلَاحِ الْمَسْحُورِ الَّذِي سَحَرَ كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِ
وَقِيلَ: هُوَ مِنَ السَّحْرِ الرَّثْمَةِ، وَهُوَ بَشَرٌ.

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٧٢﴾.

الشَّرْبُ النَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ نَحْوَ السَّقِيِّ وَالْقَيْتُ لِلْحِظِّ مِنَ
السَّقِيِّ وَالْقَوْتُ، وَقَرِي: بِالضَّمِّ. رَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا: نَرِيدُ نَاقَةَ
عِشْرَاءَ تَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَتَلْدُ سَقْبًا فَتَقْعُدُ صَالِحًا
يَتَفَكَّرُ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: صَلِّ رَكَعَتَيْنِ وَسَلِّ رِبْكَ
النَّاقَةَ فَفَعَلَ فَخَرَجَتْ النَّاقَةُ وَبَرَكَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَنَتَجَتْ سَقْبًا
مِثْلَهَا فِي الْعَظْمِ. وَعَنْ أَبِي مُوسَى: رَأَيْتُ مَصْدَرَهَا فَإِذَا هِيَ
سَتُونَ نَرَاعًا. وَعَنْ قَتَادَةَ: وَإِذَا كَانَ يَوْمَ شَرِبَهَا شَرِبَتْ
مَاءَهُمْ كُلَّهُ وَلَهُمْ شَرْبٌ يَوْمَ لَا تَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ.

وَلَا تَسْرُوهَا يَوْمَ يُعَاقِبُكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾.

﴿بِسُوءٍ﴾ بِضَرْبٍ أَوْ عَقْرِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. عَظْمُ الْيَوْمِ
لِحُلُولِ الْعَذَابِ فِيهِ وَوَصَفَ الْيَوْمَ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِ الْعَذَابِ
لِأَنَّ الْوَقْتَ إِذَا عَظُمَ بِسَبَبِهِ كَانَ مَوْقِعُهُ مِنَ الْعَظْمِ أَشَدَّ،
وَرَوَى أَنْ مَسْطَعًا الْجَاهَا إِلَى مُضِيقٍ فِي شَعْبٍ فَرَمَاهَا
بِسَهْمٍ فَاصَابَ رِجْلَهَا فَسَقَطَتْ ثُمَّ ضَرَبَهَا قَدَارًا، وَرَوَى أَنَّ
عَاقَرَهَا قَالَ لَا عَاقَرَهَا حَتَّى تَرْضُوا أَجْمَعِينَ فَكَانُوا يَدْخُلُونَ
عَلَى الْمَرَاةِ فِي خَدْرِهَا فَيَقُولُونَ: أَتَرْضِينَ؟ فَتَقُولُ: نَعَمْ،
وَكَذَلِكَ صَبِيَانَهُمْ.

(1) سورة النساء، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه
الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأثري، وبيانه أن من لو كانت
بيانا لكان المعنى حينئذ على نهم بترك الأزواج، ولا شك أن ترك
الأزواج مضموم إلى إتيان النكران، وحينئذ يكون المنكر عليهم
الجمع بين ترك الأزواج وإتيان النكران، لا أن ترك الأزواج وحده
منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجهاً على
الجمع، وكان إما الأفضح أو المتعين، وقد اجتمعت العمأة على

= القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفضح إلى ما لا مدخل
له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً، فلما وضع ذلك تبين أن هذا
المعنى غير مراد، فيتعين حمل من على البعضية فيكون المنكر
عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما إتيان
النكران، والثاني مجانبة إتيان النساء في المأثري رغبة في إتيانهن
في غيره، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه
الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير، والله
الموفق.

وَلَا رَيْكَ لَوْ أَسْرَبُ الرَّجِيمُ ﴿٧٦﴾.

والمراد بتدميرهم الائتلاف بهم وأما الإمطار، فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فاهلكهم وعن ابن زيد لم يرض بالائتلاف حتى أتبعه مطراً من حجارة.

وَأَطْرَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَدِينِ ﴿٧٧﴾.

وفاعل ﴿سَاءَ مَطَرُ الْمُتَدِينِ﴾ ولم يرد بالمنذرين قوماً باعتبارهم إنما هو للجنس والمخصوص بالذم محنوف وهو: مطرهم.

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الرَّمْلَيْنِ ﴿٧٨﴾.

قريئ: ﴿أصحاب الأيكة﴾ بالهمزة وبخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد فتروهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ كما يكتب أصحاب النحو؛ لأن ولولا على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف وقد كتبت في سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وكان شجرهم اللوم.

إِذْ قَالَ لَكُمْ شُعَيْبٌ يَا قَوْمِ رَبِّيَ أَذُنُكُمْ ﴿٧٩﴾ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ لَوْمَاتِهِمْ ﴿٨٠﴾ وَأَطْرَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارًا وَمِثْلَ النُّجُومِ ﴿٨١﴾ فَذُكِّرُوا بِالْعَذَابِ وَنُذِرُوا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨٢﴾

فإن قُلْتُ: هلا قيل: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع قُلْتُ: قالوا إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة وفي الحديث إن شعيباً أخاً مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

﴿أَطْرَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارًا وَمِثْلَ النُّجُومِ﴾ ﴿٨١﴾.

﴿الحكيل﴾ على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر

تعنيف به واحتباس لاملأه (١) وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

قَالَ إِنِّي لَمَلِكٌ مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٨٣﴾.

و ﴿من السَّمَاءِ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معلوماً في زميرهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم، ويجوز أن يريد من الكاملين في قلائم والقلبي البغض الشديد كأنه بغض ويقلى الفؤاد والكبد، وفي هذا دليل على عظم المعصية والمراد القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين في بين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكرامة الجبلية.

رَبِّ يَحْيَىٰ وَهَارُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿مما يعملون﴾ من عقوبة عملهم، وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة.

فَتَجَنَّبْهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴿٨٥﴾ إِلَىٰ عَجْرًا فِي الْفَجْرِ ﴿٨٦﴾.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿فتجنباها وأهلها لجمعين إلا عجوراً﴾ قُلْتُ: معناه أنه عصمه وأهل من ذلك إلا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة والراضي بالمعصية في حكم العاصي.

فإن قُلْتُ: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ قُلْتُ: الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.

فإن قُلْتُ: ﴿في الغابرين﴾ صفة لها كأنه قيل: إلا عجوراً غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم! قُلْتُ: معناه إلا عجوراً مقدراً غبورها ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك (٢) غير الناجين قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة.

ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

= واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير، وانظر إلى المساق وهو قوله: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كيف الحقمهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمه التخلف حتى صارت له لقباً لاصقاً به، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمله وأقدره قدره، والله الموفق للصواب.

(2) قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة أنفاً، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً، إلا عجوراً غابرة إلى ما نكر في المتلو، هو أن المذكور في التلاوة يقتضي الإسجال عليها، بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذا الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع كقول فرعون: لاجعلنك من المسجونين، وقولهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ وقولهم: ﴿لنكونن من المرجومين﴾ وقوله: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ وقوله تعالى في غيرها: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وكذلك: ﴿نرنا نكن مع القاعدين﴾ وأمثاله كثيرة والسر في ذلك والله أعلم أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أن الصفة المنكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلق به كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة، =

قَالَ رَبِّيَ اعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ربي اعلم بما تعملون﴾ يريد: ان الله اعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ بَوْرٍ أَلْفُؤُا إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧٨﴾
إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْيُنُ الرَّحِيمِ ﴿٨٠﴾

﴿فأخذهم﴾ الله بنحو ما اقترحوا من الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم، يروى أنه حبس عنهم الريح سبيماً وسلط عليهم الومد فأخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلمت سحابة وجدا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم ناراً فاحترقوا، وروى أن شعيباً بعث إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الايكة، فاهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة.

فإن قلنت: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر؟ قلت: كل قصة منها كتنازل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبته، وأن تختتم بما اختتمت به ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الانفس وتثبيتاً لها في الصدور الا ترى أنه لا طزريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تديره فكثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنًا أو يفتق ذهنًا أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدا.

وَأَنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ ﴿٨١﴾

﴿وإنه﴾ وإن هذا التنزيل يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات والمراد: ﴿بالتنزيل﴾ المنزل.

نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿٨٢﴾

والبإيه في ﴿نزل به الروح﴾ ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى: ﴿نزل به الروح﴾: جعل الله الروح نازلاً ﴿به على قلبك﴾ أي: حفظك وفهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ (١).

عَلَّ قَلْبَكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٨٣﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ شِينٍ ﴿٨٤﴾

بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التلطيف، ولم ينكر الزائد وكان تركه عن الأمر والنهي لليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه.

وَرَبُّوْا بِالْفِتْنَانِ أَلْسِنَتِهِمْ ﴿٨٥﴾

قريء: ﴿بالقسطاس﴾ مضموماً ومكسوراً وهو الميزان وقيل: القرسطون فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي وقيل: وهو بالرومية العدل.

وَلَا تَحْسُرُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَمَنَّوْا فِي الْأَرْضِ مُّتَبِعِينَ ﴿٨٦﴾

يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه ومنه قيل للمكس: البخس وهو عام في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً، يقال: عثا في الأرض وعثى وعات وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك.

وَأَنفَعُوا الَّذِينَ خَلَقْتُمْ وَالْجِبَّةَ الْأَرْوِينَ ﴿٨٧﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٩﴾

قريء: ﴿الجبلة﴾ بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلفة ومعناها واحد أي: نوي الجبلة وهو كقولك: والخلق الأولين.

فإن قلت: هل اختلف المعنى بإخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود! قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحوراً ولا يجوز أن يكون بشراً وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد: وهو كونه مسحوراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم.

فإن قلت: إن المخفة من الثقيلة ولأما كيف تفرقنا على فعل الظن وثاني مفعوليه؟ قلت: أصلهما أن يتفرقا على المبتدا والخبر كقولك: إن زيد لمنطلق فلما كان البابان أعني باب كان وباب ظننت من جنس باب المبتدا والخبر فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقاً وإن ظننته لمنطلقاً.

فَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩٠﴾

قريء: ﴿كسفا﴾ بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة نحو قطع وسدر وقيل: الكسف والكسفة كالربيع والريفة وهي القطعة وكسفه قطعه والسماء السحاب أو المظلة، وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، ولو كان فيهم أنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالمهم فضلاً أن يطلبوه، والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء.

الالف؟ قُلْتُ: خط على لغة من يميل الالف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا.

وَلَوْ نَزَّلَهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَبِينَ ﴿٨٨﴾

الأعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجاب والأعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد، وقرأ الحسن: ﴿الأعجميين﴾ ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له: أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا: لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها أعجم. قال حميد: ولا عربياً شاقه صوت أعجماً، سلكناه: ادخلناه ومكناه، والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانظم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله.

فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾

﴿فقرأه عليهم﴾ هكذا فصيحاً معجزاً متحدى به لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجدودهم عذراً ولسموه سحراً.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُخْرِبِينَ ﴿٩٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

ثم قال: ﴿كذلك سلكناه﴾ أي: مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وعلى هذه مثل الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعنا فيها فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فإن قُلْتُ⁽⁴⁾: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قُلْتُ: أراد به الدلالة على تمكنه مكنياً في قلوبهم أشد التمكن وثابته، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفتروا إلا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح يريدون تمكن الشح فيه: لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه

﴿بلسان عربي﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين انثروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتنذر به؛ لأنه لو نزل باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً، وقالوا: ما نضع بما لا نفهمه⁽¹⁾ فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه أن تنزله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك تنزله على قلبك؛ لأنك تفهمه وتفهمه قومك ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفظن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة، وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين.

وَإِنَّ لِي لَبُرِّ الْأَوَّلِينَ ﴿٩١﴾

﴿وإنه﴾ وإن القرآن يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية وقيل: إن معانيه فيها وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ لكون معانيه فيها وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وكذلك في أن يعلمه وليس بواضح.

أَوَّلَ يَكُنْ لَمْ يَأْتِ أَنْ يَعْلَمَهُ عَلَّمَتْهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٩٢﴾

وقرئ: ﴿يكن﴾ بالتنكير وآية بالنصب على أنها خبره، ﴿وأن يعلمه﴾ هو الاسم، وقرئ: ﴿تكن﴾ بالتثنية وجعلت آية اسماً وأن يعلمه خبراً وليست كأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل في ﴿تكن﴾: ضمير القصة وآية أن يعلمه: جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز على هذا أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلاً عن آية ويجوز مع نصب الآية تانيث ﴿تكن﴾ كقوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾⁽²⁾ إلا أن قالوا: ومنه بيت لبيد. فمضى وقدمها وكانت عادة. منه إذا هي عردت أقدامها، وقرئ: ﴿تعلمه﴾ بالثناء و﴿علماء بني إسرائيل﴾ عبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: كيف خط في المصحف ﴿علماء﴾ بواو قبل

(3) سورة القصص، الآية: 53.

(4) قال أحمد: وما ينقم من بقائه على ظاهره، إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق، والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) قال أحمد: يعني بقوله: قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون؛ لأن التقدير عنده العلم، والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون، وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(2) سورة الانعام، الآية: 23.

مهران: انه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عطني فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبليت.

مَا أَتَىٰ عَنَّمْ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قَرِينَةٍ إِلَّا مَا سُدِّرُوا ﴿١٣٨﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٣٩﴾.

وقرئ: ﴿يَمْتَعُونَ﴾ بالتخفيف ﴿منذرون﴾، رسل ينذرونهم ﴿نكرى﴾ منصوبة بمعنى تنكرة إما لأن انذر ونكر متقاربان فكأنه قيل: منكرون تنكرة وإما لأنها حال من الضمير في منذرون أي: ينذرونهم نوي تنكرة وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة، والتنكرة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه نكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى: منذرون نوي نكرى، أو جعلوا نكرى لإمعانهم في التنكرة وإطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون نكرى متعلقة بأهلكتنا مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكتنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما الزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تنكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول.

فإن قُلْتَن كَيْفَ عَزَلْتَ الْوَاوَ عَنِ الْجُمْلَةِ بَعْدَ إِلا، وَلَمْ تَعَزَلْ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١)؟ قُلْتُ: لأصل عزل الواو؛ لأنَّ الجملة صفة لقرية وإذا زُيِّتْ فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

وَمَا تَزَكَّىٰ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿١٣٧﴾ وَمَا يَكْبَهُ لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِئُونَ ﴿١٣٨﴾
إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَزْأُونَ ﴿١٣٧﴾ فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ آلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾.

كانوا يقولون: إنَّ محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة فكذبوا بأنَّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدر على ذلك لأنهم مرجومون بالشبه معزولون عن استماع كلام أهل السماء، وقرأ الحسن: الشياطين ووجهه أنه رأى آخره كأخر يبيرين وفلسطين، فتخيَّر بين أن يجرى الإعراب على النون وبين أن يجرى على ما قبله فيقول: الشياطين والشياطين كما تخيَّرت العرب بين أن يقولوا: هذه يبيرون، ويبيرين وفلسطين وفلسطين ووجهه أن تشقّه من الشيطونة وهي: الهلاك كما قيل له: الباطل وعن الفراء: غلط الشيخ في قراءته الشياطين ظنَّ أنها النون التي على هجائين، فقال النضر بن شميل إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه يريد: محمد بن السميع مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ به إلا وقد سمعا فيه.

أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه. وهو قوله: لا يؤمنون به. فإن قُلْتَن ما موقع ﴿لا يؤمنون به﴾ من قوله: ﴿سلكتناه في قلوب المجرمين﴾ قُلْتَن موقعه منه موقع الموضح والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكنياً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكنيب به وجوده حتى يعابنوا الوعيد ويجوز أن يكون حالاً أي: سلكتناه فيها غير مؤمن به.

يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٧﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١٣٨﴾.

وقرأ الحسن ﴿فتأتيهم﴾ بالتاء يعني: الساعة و ﴿بغتة﴾ بالتحريك وفي حرف أبي: ويروه بغتة.

فإن قُلْتَن ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فتأتيهم بغتة﴾ فيقولوا! قُلْتَن ليس المعنى: ترانف رؤية العذاب ومفاجاته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى: ترتبها في الشدة كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله وترى، ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه.

أَفْبَعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٣٩﴾.

﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ تكبكت لهم بإنكار وتهكم ومعناه كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجاب إليها ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يويخون به عند استنظارهم يومئذٍ، ويستعجلون على هذا الوجه حكاية حال ماضية ووجه آخر متصل بما بعده وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ اشراً ويطراً واستهزاءً واتكالا على الأمل الطويل.

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٤٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٤٦﴾.

ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتمعيرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معاشهم، وعن ميمون بن

الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين: المصنِّقين بالسننهم وهم صنفاً: صنف صنِّق واتبع رسول الله فيما جاء به وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسيق لا يخفض لهما الجناح والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٧٧﴾

﴿وتوكل﴾ على الله يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقالوا: المتوكل من إن دمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج من حد التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله، وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل وبه قرأ نافع وابن عامر وله محلان في العطف أن يعطف على فقل، أو فلا تدع ﴿على العزيز الرحيم﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

الَّذِي بَرَأَكَ مِنْ نَوْمٍ ﴿٧٨﴾ وَقَفَّكَ فِي السَّجْدِ ﴿٧٩﴾

ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو نكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهدج وتقلبه في تصفح أحوال المهتجين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لأخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من بدنتهم بنكر الله والتلاوة والمراد بالساجدين: المصلون.

وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم، وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني فتلا له هذه الآية، ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين.

إِنَّهُ هُوَ السَّجَّعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ السُّبُطِ ﴿٨١﴾

قد علم أن ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرك منه لازدياد الإخلاص والتقوى وفيه لطف لسائر المكلفين كما قال، ولو تقول علينا بعض الأقاويل.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٨٢﴾

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فيه وجهان أحدهما: أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداة ثم بمن يليه، وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه السلام أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول ما أضعه ربا العباس»⁽¹⁾ والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرفقة، ولا يحايبهم في الإنذار والتخويف وروي أنه صعد الصفا لما نزلت فنادى: الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً وقال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمه رسول الله إنني لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم⁽²⁾، وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس على رجل شاة وقعب من لبن، فاكلوا وشربوا حتى صبروا ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن يسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»⁽³⁾، وروي أنه قال: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتنوا أنفسكم من النار فإنني لا أغني عنكم شيئاً، ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمه محمد اشترين أنفسكن من النار فإنني لا أغني عنكن شيئاً».

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي سَمِعٌ وَمَا تَسْمَعُونَ ﴿٨٤﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ومنه قول بعضهم: وأنت الشهير بخفض الجناح، فلا تك في رفعه أجدلاً ينهيه عن التكبر بعد التواضع.

فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله: ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشعراء، باب: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الحديث: 4770) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» الحديث: (355) - (208).

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث (147 - 1218).

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: تبليغه ﷺ وما لقي من قومه، (الحديث: 6551)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين.

يخى عن الجنى، وأكثرهم مفتر عليه.

فإن قُلْتَ: وإنه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل أنبتكم على من تنزل الشياطين لم فرق بينهن وهن أخوات! قُلْتَ: أريد التفريق بينهن بأيات ليست في معانها ليرجع إلى المعنى بهن وتطرية نكر ما فيهن ككرة بعد كرة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزل فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد نكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

وَالشُّرَكَةَ يَبْغِمُهُمُ الْفَاوُونَ ﴿٣٦﴾

والشعراء: مبتدأ و«يتبعهم الغاؤون» خبره، ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكنبهم وفضل قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراس والقدح في الأنساب، والنسيب بالخرم والغزل والابتهاج ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن نك منهن ولا يطرب على قولهم: إلا الغاؤون والسفهاء والشطار وقيل: الغاؤون الراؤون وقيل: الشياطين وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبير وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وقرأ عيسى بن عمر والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب، قرأ: «حمالة الحطب» و«السارق والسارقة» و«سورة أنزلناها» وقرئ: «يتبعهم» على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيهاً لتبعه بعض.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾

نكر الوادي والهيم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره وأشحمهم على حاتم وأن يبهتوا البري ويفسقوا التقى وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

بتن بجانبني مصرعات وبست أفض اغلاق الختنام
فقال: قد وجب عليك الحدّ فقال: يا أمير المؤمنين قد
درا الله عني الحدّ بقوله: «وأنهم يقولون ما
لا يفعلون».

«إنه هو السميع» لما تقوله: «العليم» بما تنويه وتعمله وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فوالله إنني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم»⁽¹⁾، وقرئ: ويقلبك.

نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَقْلٍ أُتِيمٍ ﴿٣٩﴾

«كل أفاك أئيم» هم الكهنة والمتنبئة كشقّ وسطيح ومسيلمة وطليحة.

يَلْقَوْنَ الشَّمْعَ وَكَتَرَهُمْ كَثِيرٌ ﴿٤٠﴾

«يلقون السمع»: هم الشياطين كانوا قبل أن يجربوا بالرجم يسمعون إلى الملا الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك «وأكثرهم كانبون» فيما يوجون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي: المسموع من الملائكة، وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كانبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً وفي الحديث الكلمة يتخطفها الجنى فيقرها في أنن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كنية⁽²⁾ والقر: الصب.

فإن قُلْتَ: كيف نخل حرف الجرّ على من المتضمنة لمعنى الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام إلا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت ولا تقول: على أزيد مررت! قُلْتَ: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً، معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه: أن الأصل أمن حفن حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حنفة كما حذف من هل، والأصل أهل قال، أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم فإذا أدخلت حرف الجرّ على من فقدت الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت.

فإن قُلْتَ: «يلقون» ما محله! قُلْتَ: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي: تنزل ملقين السمع وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلًا قال: لم تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: «وأكثرهم كانبون» بعد ما قضى عليهم أن كل واحد سنهم أفاك؟ قُلْتَ: الأفاكون: هم الذين يكثرون الإفك ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فاراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصلق منهم فيما

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق... (الحديث: 7561)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، الحديث: (122 - 222).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنور، (الحديث: 6644)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، الحديث: (112 - 426).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل مكية

لَسَ يَلِكُ يَا بَنِي إِفْرَائِينَ وَكِتَابٍ مِّبِينٍ ﴿١﴾

﴿طس﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: إما اللوح وإبانتته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إيانة وإما السورة، وإما القرآن وإبانتتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأن إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأن المضاف إلى العظيم يعظم؛ بالإضافة إليه.

فإن قُلْتُ: لم نكر الكتاب المبين؟ قُلْتُ: ليبيهم بالتنكير فيكون أقخم له كقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ (7).

فإن قُلْتُ: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قُلْتُ: كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم؛ لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكانه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك أي كتاب مبين وقرأ ابن أبي عبيدة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿ألم تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ (8) قُلْتُ: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح فالأول نحو قوله تعالى: وقولوا حطة وانخلوا الباب سجداً ومنه ما نحن بصدهه والثاني نحو قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ (9).

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾

﴿هدى وبشرى﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه: على هي هدى

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَدِّ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعَتِ الرَّحْمَةُ لَكُمْ أَيُّ مَتَلَبٍ بَقِيَتِينَ ﴿١٧﴾

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون نكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بنذب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاءهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ (1)، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (2)، وعن عمر بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري لي جيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبيح الكلام وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجة قريش، وعن كعب بن مالك: أن النبي ﷺ قال له: «أهجم فولذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل» (3) وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك (4)، ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأملين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله: ﴿وسيعلم﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الذين ظلموا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه (5) وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتنازرون شئنها وتفسير الظلم بالكفر تعليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف وقرأ ابن عباس: أي منقلت ينفلتون، ومعناها: إن الذين ظلموا يطعمون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو: النجاة. اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكتب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدهد من كتب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام» (6).

(5) أبو حاتم وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 2/ 481 - 482.

(6) نكرة الثعلبي وابن مربيوه والواحد في التفسير، الزيلعي 2/ 483.

(7) سورة القمر، الآية: 55.

(8) سورة الحجر، الآية: 1.

(9) سورة آل عمران، الآية: 18.

(1) سورة النساء، الآية: 148.

(2) سورة البقرة، الآية: 194.

(3) أخرجه عبد الرزاق 11/ 263، (الحديث: 20500)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الأنب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، (الحديث: 2847).

(4) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: نكر الملائكة، الحديث: (3212 و3213)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، الحديث: (151 - 2485).

عليهم في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابس ظاهرة للتزيين فاسند إليه: لأن المجاز الحكمي يصححه بعض الملابس، وقيل: هي أعمال الخير التي يجب عليهم أن يعملوها زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا⁽⁴⁾ ويعزى إلى الحسن، والعمه: التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق وعن بعض الأعراب أنه دخل السوق وما أبصرها قط، فقال: رأيت الناس عمهين أراد: مترددين في أعمالهم وأشغالهم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرَوْا مِنَ الْأَسْوَاقِ وَمِمَّنْ فِي الْأَخْزَرِ مِمَّنْ الْأَخْزَرُونَ ﴿٥﴾

﴿سوء العذاب﴾ القتل والأسر يوم بدر، و﴿الأخسرون﴾ أشد الناس خسراً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

وَلَيْكَ نُكَلِّئُ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿لتلقى القرآن﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿من﴾ عند أي ﴿حكيم﴾ وأي ﴿عليم﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقايص وما في ذلك من لطائف حكمته ويقائق علمه.

إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِرَةً فِيهَا ظَهَرَ آيَاتِكُمْ بِشَاهِبٍ قَبِيرٍ لَأَكُونُ تَسْلُوكًا ﴿٧﴾

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر وهو: انكر كانه قال على اثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم، وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كئى الله عنها بالأمل فتبع ذلك أو ورد الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: امكثوا، الشهاب: الشعلة

ويشرى وعلى البذل من الآيات وعلى أن يكون خيراً بعد خير أي: جمعت أنها آيات وأنها هدى وبشرى والمعنى في كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزانتهم إيماناً﴾⁽¹⁾.

الَّذِينَ يُبْسِئُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَمِمَّنْ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

فإن قلت: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية.

كانه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهو الوجه ويبدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق⁽²⁾.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّكَ لَمْ أَصَلِّمْهُمْ فَهُمْ يَمْهُونَ ﴿٤﴾

فإن قلت: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾⁽³⁾ قلت: بين الإنسانيين فرق وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عز وجل مجاز وله طريقان في علم البيان أحدهما: أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة والثاني أن يكون من المجاز الحكمي، فالطريق الأول: أنه لما متعتهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إنعام الله بنلك عليهم وإحسانه إليهم نزيعة إلى اتباع شهواتهم، وبطهرهم وإيتارهم الروح والترفة ونفاهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكانه زين لهم بذلك أعمالهم واليه أشارت الملائكة صلوات الله

(1) سورة التوبة، الآية: 124.

(2) قال أحمد: قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هم ينشرون﴾ أن معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس بيّناً، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر، وأما وجه تكراره هنا والله أعلم، فهو أنه لما كان أصل الكلام وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عنانية به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما فطري نكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعدما يوجب التطرية، فاقرب منها أن الشاعر قال:

سق نو عجل ذا والحفنا بذا الشحم إنا قد مللنا بخل
والأصل والحقنا بهذا الشحم فوق منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنيت الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقفة ما، ففتر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآفة التعريف فطراما ثانية، فهذه النظرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المعزز، ولا كلمة واحدة سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمل هذا الفصل، فإنه جدير =

= بالتأمل، والله أعلم.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 38.

(4) قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وأمتناع أن يخلق الله تعالى للبعد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناده التزيين إلى الله تعالى مجازاً وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لغاز بالصواب، وتأمل ميله إلى التناويل الآخر من أن المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وإنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ على أن غالب وروده في غير البر كقوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ زين للنين كفروا الحياة الدنيا، وكذلك زين لكثير من المشركين، ومما يعيد حمله على أعمال البر إضافة الأعمال إليهم في قوله: أعمالهم، وأعمال البر ليست مضافة إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وقوله: ﴿قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ فأطلق الإيمان في المكائين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم؛ لأنه صدر منهم، والله أعلم.

صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأموثاً.

يُؤْمِنُونَ إِنَّهُمُ إِنَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

فإن قُلْتُ: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قُلْتُ: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعجب لموسى عليه السلام من ذلك وإيدان بأن ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظام الشؤون. الهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن والشأن ﴿إِنَّا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للخبر وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله يعني: أن مكلّمك أنا والله بيان؛ وأنا و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للمبين، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

وَأَنِّي عَسَاكَ قَلَمًا رَهَاكَ نَهْرًا كَأَنَّهَا جَاءَتْ وَلِي مُدْرِكًا وَرَبِّ يُؤْمِنُونَ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الرَّسُولِ ﴿١١﴾

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿وَالِقَ عَصَاكَ﴾! قُلْتُ: على ﴿بورك﴾؛ لأن المعنى ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ ﴿وَأَن لِّقَ عَصَاكَ﴾ كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له: بورك من في النار وقيل له: الق عصاك والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن لِّقَ عَصَاكَ﴾⁽⁴⁾ بعد قوله ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾⁽⁵⁾ على تكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليك أن حج وإن اعتمر وإن شئت أن أحج واعتمر، وقرأ الحسن: ﴿جَان﴾ على لغة من يجد في الهرب من التقاء الساكنين فيقول: شابة ودابة ومنها قراءة عمرو بن عبدي ولا الضالين ﴿وَلِمَ يَعْقِبُ﴾ لم يرجع يقال: عقب المقاتل إذا كَرَّ بعد الفرار قال:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به ويدل عليه ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الرَّسُولِ﴾، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن؛ لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل كان ذلك مظنة لطرو الشبهة فاستردك ذلك.

إِلَّا مَنْ ظَلَرَ تَرُّ بَدَلًا حُسًّا بَعْدَ سَوْءٍ فَإِنِّي عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَنْجِلْ بِدَاكٍ فِي سَبِيلِكَ تَمَجُّجٌ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي سَبِيلِكَ إِذْ رَضَعَنَّ وَقَوْمُؤُهُ إِتَمُّ كَأَنَّهَا قَوْمًا قَبِيضِينَ ﴿١٣﴾

والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي: فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من أمم ويونس وداود

والقبس: النار المقبوسة وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبساً وغير قبس ومن قرأ بالتونين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس، والخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضله.

فإن قُلْتُ: ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ﴾، و﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ﴾⁽¹⁾ كالمتدافعين؛ لأن أحدهما ترج والأخر تيقن! قُلْتُ: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قُلْتُ: كيف جاء بسين التسويف؟ قُلْتُ: عدة لاهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قُلْتُ: فلم جاء ب﴿أور﴾ دون الوار؟ قُلْتُ: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعبادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما اندراه حين قال: ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة.

قَلَمًا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ الْعَلِيِّنَ ﴿١٤﴾

﴿أَن﴾ هي المفسرة؛ لأن النداء فيه، معنى القول: والمعنى قيل: له بورك.

فإن قُلْتُ: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره ﴿نودي﴾ بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن! قُلْتُ: لا لأنه لا بد من قد.

فإن قُلْتُ: فعلى إضمارها! قُلْتُ: لا يصح لأنها علامة لا تحذف، ومعنى ﴿بورك من في النار ومن حولها﴾ بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المنكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾⁽²⁾ وتدل عليه قراءة أبي تباركت الأرض ومن حولها، وعنه بوركت النار والذي بوركت له البقعة وبورك من فيها وحولها حدوث أمر بئني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه ورب خبير يتجدد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويبيت آثار يمنه في أبعادها، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون، والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحوليهما من أرض الشام ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿وَنَجِيْنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾ وحققت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء

(4) سورة القصص، الآية: 31.

(5) سورة القصص، الآية: 30.

(1) سورة القصص، الآية: 29.

(2) سورة القصص، الآية: 30.

(3) سورة القصص، الآية: 71.

والكسر كما قرئ: عْتِيَا وَعِيتِيَا، وفائدة نكر الانفس انهم جحدوها بالسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضماثرهم والاستيقان ابلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أحض من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بيّنة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرًا بيّنًا مكشوفًا لا شبهة فيه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِيَّ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَيَّ كِبِيرًا مِّنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

﴿عِلْمًا﴾ طائفة من العلم أو علمًا سنينًا غزيرًا⁽³⁾.

فإن قُلْتِ: ليس هذا موضع الفاه دون الواو كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبر! قُلْتِ: بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قاله بعض ما أحدث فيهما إتياء العلم وشيء من مواجهه، فاضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال: ولقد آتيناها علمًا فعلمًا به وعلماه وعرضا حق النعمة فيه، والفضيلة ﴿وقالوا الحمد لله الذي فضلنا﴾ والكثير المفضل عليه من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلًا على كثير وفضل عليهما كثير وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم وأن من أوتيته فقد أوتي فضلًا على كثير من عباد الله كما قال: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾⁽⁴⁾ وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء⁽⁵⁾ إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم منها أن يحمداوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر كل الناس أقره من عمر⁽⁵⁾.

وَوَرِيثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنْطِقِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَكُمُ الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ ﴿١٦﴾

ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر وكان داود أكثر تعبدًا وسليمان أفضى وأشكر لنعمة الله ﴿وقال يا أيها الناس﴾ تشهيرًا لنعمة الله وتنويهًا بها واعترافًا بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيته من عظام الأمور والمنطق كل ما يصوت به من

وسليمان، وإخوة يوسف ومن موسى بوكزة القبطي ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها وسماء ظلمًا كما قال موسى: رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي. والحسن والسوء حسن التوبة وقبح الذنب وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بحرف التنبيه، وعن أبي عمر وفي رواية عصمة حسنًا ﴿وفي توسع آيات﴾ كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إلى فرعون﴾ ونحوه:

فقلت إلى الطعام فقال: منهم فريق يحسد الإنس الطعام ويجوز أن يكون المعنى ﴿والق عصاك﴾ و﴿انخل يديك﴾ في تسع آيات أي: في جملة تسع آيات وعددهن ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب في بوابيهم والنقصان في مزارعهم المبصرة الظاهرة البيّنة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأملها لأنهم لا يسموها، وكانوا بسبب منها ينظروهم وتفكرهم فيها ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار كل ناظر فيها من كافة أولى العقل وأن يراد إبصار فرعون وملئه لقوله: ﴿واستيقننها أنفسهم﴾، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى لأن العمى لا تقدر على الاهتداء فضلًا أن تهدى غيرها ومنه قولهم: كلمة عيناء وكلمة عوراء لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى ونحوه قوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات﴾⁽¹⁾.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾

والأرض بصائر فوصفها بالبصارة كما وصفها بالإبصار وقرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما وفتادة مبصرة وهي نحو مجبنة ومبخلعة ومجفرة أي مكانًا يكثر فيه التبصر.

وَحَمَدُوا بِهَا وَاتَّبَعْنَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾

الواو في ﴿واستيقننها﴾ أو الحال وقد يعدها مضمرة والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله تعالى: ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾⁽²⁾ وقرئ: عَلِيًّا وَعُلِيًّا بالضم

(1) سورة الإسراء، الآية: 102.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 46 - 47.

(3) قال أحمد: التبعض والتقليل من التذكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر فكذلك يرد للتعظيم من شأنه، كما مر آنفًا في قوله تعالى: ﴿وانك لتكفي القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ولم يقل: الحكيم العليم، والغرض من التذكير التعظيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علمًا﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتيته، كأنه قال: علمًا أي: علم وهو كذلك، فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومن ذلك علم =

= منطق الطير وسائر الحيوانات التي خصهما الله تعالى به، وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل، والله أعلم.

(4) سورة المجادلة، الآية: 11.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، (الحديث: 3641)، والترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، (حديث: 2683)، وابن ماجه في المقدمة، (حديث: 223)، وابن حبان في كتاب: العلم (حديث: 88).

(6) راجع حديث رقم 334، سورة النساء.

بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة
وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب،
وإبريسم فرسخاً في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه
وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من
ذهب، وفضة فيقعد الأنبياء على كرسي الذهب والعلماء
على كرسي الفضة وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ
والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه
الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر
ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء
تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أنني
قد زنت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في
سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً
عظيماً فالقته الريح في أذنه فنزل، ومشى إلى الحراث
وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال:
لتسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود
﴿يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي: توقف سلاف
العسكر حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف
منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة.

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ الْأَنْبِلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا آتِلُوا أَغْطُوا
سَرَكَكُمْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ سَيِّئُونَ وَشُرُودُ وَمُرَّ لَا يَشْمُرُونَ ﴿٧٧﴾

قيل: هو واد بالشام كثير النمل.

فإن قلت: لم عدى ﴿أتوا﴾ بـ﴿على﴾؟ قلت: يتوجه على
معنيين: أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف
الاستعلاء كما قال أبو الطيب:

ولشدة ما قربت عليك الأنجم

لما كان قريباً من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي
وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره
كانهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي لأنهم ما دامت
الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطهم، وقرئ: ﴿نملة
يا أيها النمل﴾ بضم الميم وبضم النون والميم وكان
الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال
تخفيف عنه كقولهم: السبع في السبع قيل: كانت تمشي
وهي عرجاء تنكاس فنامت: ﴿يا أيها النمل﴾ الآية فسمع
سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وقيل: كان اسمها طاخية
وعن قتادة أنه نخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا
عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً، وهو غلام
حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت نكراً أم أنثى
فسأله فأنجم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين
عرفت؟ قال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قالت نملة﴾ ولو
كانت نكراً لقال قال: نملة⁽³⁾ وذلك أن النملة مثل الحمامة

المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب بن
السكيت كتابه بإصلاح النطق، وما أصلح فيه إلا مفردات
التكلم وقالت العرب: نطقت الحمامة وكل صنف من الطير
يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير هو
ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويحكى أنه
مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل نذبه فقال
لأصحابه: أتدرون ما يقول قالوا: الله ونبيه أعلم قال: يقول:
أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاخنة فأخبر
أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طائوس فقال:
يقول: كما تدنين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله
يا مذنبين. وصاح طيطوى فقال: يقول: كل حي ميت وكل
جديد بال. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجدوه.
وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء
سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي
الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطة
تقول: من سكت سلم. والبيغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه،
والديك يقول: انكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم
عش ما شئت أخرج الموت. والعقاب يقول: في البعد من
الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القنوس. وأراد
بقوله: ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتي كما تقول: فلان
يقصده كل أحد ويعلم كل شيء تريد: كثرة قصاده
ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه ومثله قوله:
وأوتيت من كل شيء ﴿إن هذا لهو للفضل للمبين﴾ قول
أراد على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله ﷺ:
«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»⁽¹⁾ أي: أقول هذا القول شكراً
ولا أقوله فخرًا.

فإن قلت: كيف قال: ﴿علمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ وهو من
كلام المتكبرين؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يريد نفسه
وأباه والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع
وكان ملكاً مطاعاً فلكم أهل طاعته على صفته، وحاله التي
كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك وقد يتعلق بتجمل
الملك وتفخمه وإظهار آيئته وسياسته مصالح فيعود تكلف
تلك واجباً وقد كان رسول الله ﷺ يفعل نحواً من ذلك إذا
وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدو ألا ترى
كيف أمر العباس رضي الله عنه بأن يحبس أبا سفيان
حتى تمر عليه الكتاب⁽²⁾.

رُحَيْرٌ إِسْمَيْنٌ جُرُودٌ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُرْعَوْنَ ﴿٧٧﴾

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة
وعشرون للجنّ وخمسة وعشرون للإنس وخمسة
وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف

(1) تقدم في سورة يوسف، الحديث رقم 212.

(2) أخرجه البخاري في المغازي، في كتاب: أين ركن النبي ﷺ،
(الحديث: 4280).

(3) قال أحمد: لا أبري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك
عنه، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى؛

= لانه اسم جنس يقال: نملة نكر ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة
نكر وحمامة أنثى، وشاة نكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث، ومعناه
محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على نكر،
بل هذا هو الفصيح المستعمل ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة
والسلام: «لا تضحي بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج =

على الوالدين خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك، وروي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوفقت لثلاثا يذعرن حتى نخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة⁽³⁾. ومعنى ﴿وَأَنخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ واجعلني من أهل الجنة.

وَتَقَدَّمَ الظِّيرَ فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٧٠﴾

أم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال: ﴿مالي لا أرى﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لسائر ستره، أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ونحو قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء⁽⁴⁾، وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يوم سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسنة أعجبتة خضرتها، فنزل ليتعدى ويصلي فلم يجدوا الماء وكان الهدهد فثاقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاج⁽⁵⁾، فيجيء الشياطين فيسألونها كما يسأل الإهاب ويستخرجون الماء فتفقدته لذلك وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهداً واقفاً فانط إلىه، فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس⁽⁶⁾، وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: علي به فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال: بحق الله الذي قوأك وأقدرك علي إلا رحمتي، فتركته وقالت: ثكلتك

والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة نكر وحمامة أنثى وهو وهي. وقرئ: مسكنكم، ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ: ﴿لا يحطمنكم﴾ بفتح الحاء وكسرهما واصله يحطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولى العقل أجرى خطابهم مجرى خطابهم.

فإن قلت: ﴿لا يحطمنكم﴾ ما هو! قلت: يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر، والذي جوز أن يكون بدلاً منه أنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم على طريقة لا أرىك ههنا أراد ﴿لا يحطمنكم﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

فَبَسَّرَ صَاحِبًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْصِيْ أَنْ أَشْكُرَ بِمَنِّكَ الْيَوْمَ أَنْ مَنَّمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الْمَلَكِيِّينَ ﴿٧١﴾

ومعنى ﴿فتبسم صاحباً﴾ تبسم شارعاً في الضحك وأخذاً فيه يعني: أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام وأما ما روي أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه⁽¹⁾ فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي وإلا فبئد النواجز على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب وقرأ ابن السميع: ضحكا.

فإن قلت: ما أضحك من قولها! قلت: شيان: إعجابها بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله، وحالهم في باب التقوى وذلك قولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ تعني: أنهم لو شعروا لم يفعلوا وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من إبراك بسمعه ما همس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر، والقلة ومن إحاطته بمعناه ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى⁽²⁾، وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وكفه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرًا لك وإنما أدرج نكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة

(1) (الحديث رقم: 657)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: آخر أهل النار خروجاً، (الحديث رقم: 308 - 186).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله... (الحديث رقم: 6520).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً... (الحديث رقم: 29 - 1478).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، (الحديث رقم: 132 - 1807).

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعا في الولد (الحديث رقم: 2269)، والحاكم في المستدرک 2/ 207.

= هذه الصفات على اللفظ مؤنفة، ولا يعني الإناث من الانعام خاصة، فحينئذ قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ روعي فيه تانيث اللفظ وأما المعنى، فيحتمل على حد سواء، وإنما اطلت في هذا، وإن كان لا يتمشى عليه حكم؛ لأنه نسبته إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذ الجواب معجباً لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له فيأله العجب العجاب، والله الموفق للصواب.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة الزمر، باب: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الحديث رقم: 4811)، أخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة، والجنة والنار، (الحديث رقم: 20 - 2786).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، =

لا يخفى منه معلوم قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ قرى بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبأ بالالف كقولهم: ذهبوا أيدي سبأ وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر صرف قال:

من سبأ الحاضرين مارب إذ يبنون من نون سيله العرما
وقال:

الواربون وتيم في نرى سبأ قد عض اغناقهم جلد الجواميس
ثم سميت مدينة مارب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أم، ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ الخبر الذي له شان. وقوله: ﴿من سبأ بنياً﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحذون البيدع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً، ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنياً بخبر لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

إني وجدت امرأة تلبكهم وأوتيت من كليل ثوب وما عرش
عظيم (٣٢).

المرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها وقد ولده أربعون ملكاً ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس والضمير في ﴿تملكهم﴾ راجع إلى سبأ فإن أريد به القوم فالامر ظاهر وإن أريدت المدينة فمعناها تملك أهلها، وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين نراعاً في ثمانين وسمكه ثمانين وقيل: ثلاثين مكان ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللها بأنواع الجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الاطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم، ويستخدمهم ومن نوكى القصاص من يقف على قوله: ولها عرش ثم يبتدىء عظيم.

وجدتها وقومها يسجدون للشيء من دون الله وزيّن لهم الشيطان
أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهدون (٣٣).

﴿وجبتها﴾: يريد أمر عظيم أن وجبتها وقومها

أمك إن نبي الله قد حلف ليعذبك قال: وما استثنى قالت: بلى قال: وليأتيني بعذر مبين^(١)، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه فقال: يا نبي الله انكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سألته.

لأعذبته عذاباً شديداً أو لأذنبته أو ليأتيني سلطانين
(٣٤).

تعذيبه أن يؤنب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه، وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل: أن يطلي بالقطران ويشمس وقيل: أن يلقى للنمل تأكله وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين ألفه وقيل: لألزمه صحة الأضداد، وعن بعضهم: أضيقت السجن معاشرة الأضداد، وقيل: لألزمه خدمة أقرانه.

فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدد؟ قلت: يجوز أن يبيح له الله لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للاكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن تباح له ما يستصلح به، وقرى لياتيني وليأتين. والسلطان الحجة والعذر.

فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعلية لا مقال فيه ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدد، ومن أين دري أنه يأتي بسلطان حتى يقول: ﴿أو لياتيني بسلطان﴾! قلت: لما نظم الثلاثة باو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قولك ليكون أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء نراية على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحى من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فثلت بقوله: ﴿أو لياتيني بسلطان مبين﴾ عن نراية وإيقان.

فمكك عرّ ببيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من
سبأ بئز يعين (٣٥).

﴿فمكك﴾ قرى بفتح الكاف وضمها ﴿غير بعيد﴾ غير زمان بعيد كقوله: عن قريب ووصف مكته بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرّاً له ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى ﴿أحطت﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق ألهم الله الهدد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه، وتنبهها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاد! علماً بما لم يحط به لتحقاق إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة والإحاطة بالشئ علماً أن يعلم من جميع جهاته

وقيل: كلام رب العزة وفي إخراج الخبء أمانة على أنه من كلام الهدد لهندسته ومعرفته الماء. تحت الأرض، ونلك بالهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفي على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فن من العلم في رواته ومنطقه وشمائله ولهذا ورد ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

فإن قُلْتَ: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً؛ أم في إحداهما؟ قُلْتَ: هي واجبة فيهما جميعاً لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو نم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمراً بالسجود والآخرى نم للمتارك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أن سجدة القرآن أربع عشر وإنما اختلفا في سجدة ص فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة، وعند الشافعي سجدة شكر وفي سجدي سورة الحج وما نكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه.

فإن قُلْتَ: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قُلْتَ: نعم إذا خفف وقف على فهم لا يهتدون، ثم ابتداء ألا يسجدوا، وإن شاء وقف على ألا ياتم ابتداء اسجدوا وإذا شدد لم يقف إلا على العرش العظيم.

فإن قُلْتَ: كيف سوى الهدد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قُلْتَ: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم، تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾

ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وقرئ: ﴿العظيم﴾ بالرفع.

﴿قَالَ سَتَرْتُ لَكَ مَا كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٧).

﴿سننظر﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كنت من الكاذبين﴾ (١) أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به.

أَذْهَبَ بِكَيْتَابِي هَذَا فَأَلَيْتَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَوَّلَ عَنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾

﴿نول عنهم﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يرجعون﴾ من قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض﴾ (٢) القول فيقال: نخل عليها من كوة فلقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة.

يسجدون للشمس، فر من استعظام الهدد عرشها فوق عرشها في عظمة وهي مسخ كتاب الله.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مع قول سليمان، وأوتينا من كل شيء كأنه سوى بينهما؟ قُلْتَ: بينهما فرق بين؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله: على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير فرجع أولاً إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا وعطفه الهدد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد.

فإن قُلْتَ: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قُلْتَ: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

فإن قُلْتَ: من أين للهدد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قُلْتَ: لا يبعد أن يلهمه الله نلك كما يلهمه، وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي يكاد العقلاء الرجح العقول يهتدون لها ومن أراد استقراء نلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصاً في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقتها وجعل نلك معجزة له، من قرأ بالتشديد أراد فصدّم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحفن الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ومن قرأ بالتخفيف فهو وألا يسجدوا إلا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال:

ألا يا أسلمي يادارمي على البلي

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى: ألا تسجدون على الخطاب.

أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي الْأَسْوَابِ وَالْأَرْضَ رِيحًا مَا تُحْمَرُونَ وَمَا تُسْوَرُونَ ﴿٦٩﴾

وفي قراءة أبي: ﴿ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سرهم وما تعلنون﴾ وسمى المخبوء بالمصدر وهو النبات، والمطر وغيرها مما خبأه عز وعلا من غيوبه وقرئ: الخبء على تخفيف الهمزة بالحذف والخبأ على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار ووجهها أن تخرج على لغة من يقول في الوقف هذا الخبو ورأيت الخبا ومررت بالخبى، ثم أجرى الواصل مجرى الوقف لا على لغة من يقول: الكمأة والحماة؛ لأنها ضعيفة مسترئلة وقرئ: يخفون ويعلنون بالياء والتاء وقيل: من أحطت إلى العظيم هو كلام الهدد

(2) سورة سبأ، الآية: 31.

(1) قال أحمد: وهذا مما نبهت عليه في سورة الشعراء من العول عن الفعل الذي هو أم كذبت، وعن مجرد صفة في قوله: أم كنت كاذباً إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد، والله اعلم.

فإن قلت: لم قال: ﴿فألقه إليهم﴾ على لفظ الجمع قلت: لأنه قال: وجدها وقومها يسجون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا بينهم اهتماماً منه بأمر الدين واشتغالاً به عن غيره وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّكُمْ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾

﴿كريم﴾ حسن مضمونه، وما فيه أو وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم قال ﷺ: «كرم الكتاب ختمه»⁽¹⁾، وكان ﷺ يكتب إلى العجم فقيل له أنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاصطنع خاتماً⁽²⁾، وعن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به.

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٧﴾

وقيل: مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم هو استئناف، وتبين لما ألقى إليها كتابها لما قالت: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾ قيل لها: ممن هو وما هو فقالت: إنه من سليمان وإنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه عطفاً على إني وقرئ: إنه من سليمان وأنه بالفتح على أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقى إلى أنه من سليمان، ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه كانتا كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله وقرأ أبي: أن من سليمان، وأن بسم الله على أن المفسرة.

أَلَّا تَمْلُؤُوا عَلَيَّ وَأَتُونَ مَسِيئِينَ ﴿٣٨﴾

وإن في ﴿ألا تملؤا﴾ مفسرة أيضاً، لا تملؤا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالفين معجمة من الغلو وهو: مجاوزة الحد يروى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من أتبع الهدى أما بعد فلا تملؤا علي واتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً لا يطيرون ولا يكترون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمارب، وكانت إذا رقت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة و طرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة وقيل: أتاها والقادة والجنود حوالها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة كتابه عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري فلما رأته الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت، ﴿مسلمين﴾ منقادين أو مؤمنين.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أُمَّرًا حَتَّى تَشْهَدُوا ﴿٣٩﴾

الفتوى: الجواب في الحادثة اشتقت على طريق

الاستعارة من الفتا في السن والمراد بالفتوى ههنا الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتبدير وقصدت بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم استعطاقهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿قاطعة أمراً﴾ فاصلة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: قاضية أي: لايت أمراً إلا بمحضركم وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف.

قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا فُرُوقًا وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٠﴾

أرأبوا بالقوة: قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد، وبالبناس: النجدة والبلاء في الحرب ﴿والأمر إليك﴾ أي: هو موكل إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعمك ولا نخالفك، كأنهم أشاروا عليها بالقتال أو أرأبوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتبدير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك، لما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأيت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ورتبت الجواب فزيفت أولاً ما نكروه وارتهم الخطأ فيه.

قَالَ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آؤُلَاءِ يَكْفُرُونَ ﴿٤١﴾

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ عنوة وقهراً ﴿أفسدوها﴾ أي: خربوها ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة، وأنلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فنكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت: ﴿وكنكك يفعلون﴾ أرأبت وهذه عانتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت ثم نكرت بعد ذلك حديث الهنية وما رأيت من الرأي السيد وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حرماً فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿مرسلة إليهم بهدية﴾ أي: مرسله رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي ﴿فناظرة﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك فرؤى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الأساور والأطواق والقرطه راكبي خيل مغطاة بالديباج محلاة للجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر

= وعلى ما يقاتلون عليه (الحديث رقم: 2938)، ومسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: اتخاذ النبي ﷺ خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم.

(1) ذكره الواحدي في تفسيره والتلمبي والقضاعي والطبراني في الأوسط، زبلي 16/3.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى=

أقول له: أنكرك عليك ما فعلت فإني غني عنه وعليه ورد قوله فما أتاني الله.

فإن قُلْتَ: فما وجه الإضراب؟ قُلْتُ: لما أنكرك عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو: أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك بأنكم قدرتكم على إهداء مثلها، ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد كأنه قال: بل أنتم من حركم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

أَتَجِدُ إِلَيْهِمْ فَلَئِنَّمَا يَنْتَهِمُ عَنْ يُخَوِّرُ لَأَ قِيلَ لَكُمْ بِهَا وَلَخُرْجَتِمْ مِنْهَا أَيْدِيَهُمْ وَمِمَّ سَوَّوْنَهُ (٧٧)

﴿ارجع﴾ خطاب للرسول وقيل: للهدهد محملاً كتاباً آخر ﴿لا قبل﴾ لا طاقة وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة أي: لا يقدر أن يقابلهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: لا قبل لهم بهم، الضمير في منها لسبب. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْئِدَتِكُمْ بَعْرِيهَا قِيلَ أَنْ يَأْتُوا مُنْجِلِيكَ (٧٨)

يروي أنها امرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة آيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب وولت به حرساً يحفظونه، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويريبها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها، وعن قتادة: أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أثبته أم تنكره اختبأراً لعقلها.

قَالَ عَفْرِيَّةٌ مِنْ لَيْلِنَ أَنَا مَا لَيْكَ بِهِ قِيلَ أَنْ تَقُومِي مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٧٩)

وقرى: عفرية والعفر والعفريت والعفرية والعفراة والعفارية من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد وقالوا: كان اسمه نكوان ﴿لقوي﴾ على حمله ﴿أمين﴾ أتى به كما هو لا اختزل منه شيئاً ولا أبله.

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنَ مَا شَكَرْتُمْ أَمْ أَكْفَرْتُمْ وَمِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَمَّا كَفَرْتُمْ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ كَرِيمٌ (٨٠)

﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾ رجل كان عنده اسم الله

والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة النقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو وآخر ذا رأي وعقل وقال: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرّة ثقباً مستويًا وسلك في الخريزة خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولك وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي فاقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنة وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير، فأقيموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريه والكراسي من جانبه واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والإنس صفوفاً فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبنة فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم وقال: أين الحق وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفقت فيها، فجعل رزقها في الشجرة وأخذت بودة بيضاء الخيط بفيها ونفقت فيها فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها، فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر: أرجع إليهم، فقالت: هو نبي وما لنا به طاقة فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل الوف.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُونِي بِسِلَاحٍ فَأَنَا إِتَاتِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا مَاتَكُمْ بِهِ لَأَشْرُ بِرَبِّيكُمْ فَنَرَحُونَ (٨١)

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: فلما جاؤوا ﴿تمدونني﴾ وقرى: بحنف الياه والاكثفاء بالكسرة وبالانغام كقوله: اتحاجوني وينون واحدة تمدوني، الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدي إليه تقول هذه هدية فلان تريد: هي التي أهداها أو أهديت إليه والمضاف إليه مهنا هو المهدي إليه والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله أتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وأتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به ﴿بل أنتم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك ﴿تفرحون﴾ بما تزاون ويهدي إليكم؛ لأن ذلك مبلغ همتمكم وحالي خلاف حالكم وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين قولك أتمدني بمال وأنا أغني منك وبين أن تقول له بالفاء؟ قُلْتُ: إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالماً بزياتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فانا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كاني

مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله. وقرئ: ﴿نَنْظُرُ﴾ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف ﴿تَهْتَدِي﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البيّنة من تقدم عرشها، وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس، هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة.

فَلَمَّا جَاءَتْ يَدَ الْمَلِكِ قَالَتْ إِنَّهُ مُرٌّ وَأَوْثِينًا أَلِيمًا مِنْ قِبَلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ (٤١).

لم يقل: أهذا عرشك ولكن هذا عرشك لثلا يكون تلقينا ف ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، ولم نقل هو هو ولا ليس به وذلك من راحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل (١).

﴿وَأَوْثِينَا الْعِلْمُ﴾ من كلام سليمان وملئه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: علام عطف هذا الكلام وبم اتصل! قُلْتُمْ: لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابته بما أجابته به مقاماً أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم: ﴿وَأَوْثِينَا الْعِلْمُ﴾ نحو أن يقولوا عند قولها ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾: قد أصابت في جوابها، وطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم: وأوثينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على بين الإسلام شكر الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها.

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَسْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٢).

﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: كأنه هو والمعنى: وأوثينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة تعني: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر وبخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: ﴿صَدَّهَا﴾ قبل ذلك عما نخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل وقرئ: وصدّها الله أو سليمان عما كانت تعيد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صد أو بمعنى: لأنها.

يَدٌ لَمَّا أَذْخَلَ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَةً نُجَعًا وَكَذَّبَتْ عَنْ سَائِبِهَا قَالَتْ إِنَّكُمْ صَرِحٌ مُرَّةٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ

الأعظم وهو: يا حي يا قيوم وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت وقيل: يا ذا الجلال والإكرام وعن الحسن رضي الله عنه: والرحمن، وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقاً عالماً وقيل: اسمه أسطوم وقيل: هو جبريل وقيل: ملك أيد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه كأنه استبطاً العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول عن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام، ﴿علم من الكتاب﴾ من الكتاب المنزل وهو: علم الوحي والشرائع وقيل: هو اللوح والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام، ﴿وَأَتَيْكَ﴾ في الموضوعين يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريك أجهانك إذا نظرت فوضع موضع النظر ولما كان الناظر موصوفاً بإرساله الطرف في نحو قوله:

وَكُنْتُ إِذَا أُرْسِلْتُ طَرَفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا اتَّعَيْتَكَ الْمُنَاطِرُ

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد، ومعنى قوله: ﴿قَبِلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك، ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن، ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمبارب ثم نبغ عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله قبل أن يردّ طرفه، ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدة المجيء به كما تقول لصاحبك: أقبل كذا في لحظة، وفي ردة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة ﴿بِشُكْرِ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران وترتبط به النعمة ويستمد المزيد، وقيل: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفي كلام بعض المتقدمين أن كفران النعمة بوار ولقما أقتشعت نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر واستمد راهنها بكرم الجوار واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً ﴿غَفْنِي﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٍ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرًا لربه جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بجسن الشكر كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

قَالَ نَكَرُوا لَمَّا عَرَسَهَا نَنْظُرُ أَنْ تَهْتَدِي أَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَهْدُونَ (٤٣).

﴿نَكَرُوا﴾ اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لثلا يعرفوه، قالوا: وسعوه وجعلوا

== فنقول: حكمته، والله أعلم. أن كنهه هو عبارة عن قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغيرات بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغيرات الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهاذا عدلت إلى العبارة المنكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها، والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال أحمد: وفي قولها: كأنه هو عدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بان تقول هكذا هو نكتة حسنة، ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه إذ كاف التشبيه فيها جميعاً، وإن كانت في إحداها داخلية على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلية على المضمر، وكلاهما أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقتها للسؤال، فلا بد في اختيار كنهه هو من حكمة، =

قولهم واعتقادهم. ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ﴿لعلمكم ترحمون﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

قَالُوا أَكَلْنَا مِنَّا مِن لَّدُنكَ وَبِئْسَ مَا كُنَّا يَفْعَلُونَ ﴿٤٧﴾
قَالُوا أَكَلْنَا مِنَّا مِن لَّدُنكَ وَبِئْسَ مَا كُنَّا يَفْعَلُونَ

وكان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيمين وإن مر بارحاً تشام، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ومنا قالوا: طائر الله لا طائرك أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائر الذي تشام به وتيمين فلما قالوا: اطيرنا بكم أي: تشاءمنا، وكانوا قد قحطوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه قوله: ﴿طائركم معكم﴾^(١) وكل إنسان الزمناه طائرته في عنقه، وقرئ: تطيرنا بكم على الأصل ومعنى تطير به: تشام به، وتطير منه: نفر منه ﴿تفتنون﴾ تختبرون أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

وَكَاذِبٌ فِي السَّمَانِ ﴿٤٨﴾
وَكَاذِبٌ فِي السَّمَانِ سَمِعَ رَهْطٌ يُسْأِرُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ

﴿المدينة﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة فكأنه قيل: تسعة أنفس والفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماءهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم رباب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخزومة سبيط بن صدقة سمعان بن صفي قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام وكانوا من أبناء أشراهم ﴿ولا يصلحون﴾ يعني: أن شانهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

قَالُوا تَسَاءَلُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَكَادِبُونَ ﴿٤٩﴾

﴿تقاسموا﴾ يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد أي: قالوا متقاسمين وقرئ: تقسموا، وقرئ: لتبييتهن بالثناء والياء والنون فتقاسموا مع النون والثناء يصح فيه الوجهان ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً والتقاسم والتقسم كالتظاهر والتظهر التحالف والبيات

مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾

﴿الصرح﴾ القصر وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: ساقبها بالهمز ووجهه أنه سمع سوقاً، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدمها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من بواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يترؤجها، فنفضي إليه بأسرارهم: لأنها كانت بنت جنية وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأقطع فقالوا له: إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافرا الحمار فاختر عقلها بتكثير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداه ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة أمر بها الشياطين، فاتخذوها واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زويعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميراً حتى مات سليمان ﴿ظلمت نفسي﴾ تريد: بكفرها فيما تقدم، وقيل: حسبت أن سليمان عليه السلام يفرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ نُوحٍ أَنَا هُمْ سَلِيحًا إِنَّ أَعْيُنُ اللَّهِ فِئَادًا مِّمَّ فَرِيقَانِ ﴿٥٠﴾

وقرئ: ﴿أن اعبدوا﴾ بالضم على اتباع النون الياء ﴿فريقان﴾ فريق مؤمن وفريق كافر وقيل: أريد بالفريقين صالح عليه السلام، وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يختصمون﴾ يقول كل فريق: الحق معي.

قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَجِلُّونَ بِالْبَيْتَةِ بَلِ الْمَسَكَةُ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَمَكُنَّكُمْ نُجُومٌ مُّسْرُوعَةٌ ﴿٥١﴾

﴿السيئة﴾ العقوبة و﴿الحسنة﴾ التوبة. فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدّها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا مقترين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت، وإن لم تقع فنحن على ما نحن عليه فخطبهم صالح عليه السلام على حسب

وحكمه وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عبادته؛ لأنه أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين أو تبصرونها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في باديتهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلافة ومجانة، وإنهما كما في المعصية، وكان أبا نواس بنى على مذهبه قوله:

وبع باسم ماتاتي ونرني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما تزل بهم.
فإن قلت: فسرت «تبصرون» بالعلم وبعده.

أَيْكُمْ لَتَأْوُنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾

﴿بل لئنم قوم تجهلون﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ قلت: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.

فإن قلت: «تجهلون» صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طبقت الصفة الموصوف فقرأ بالياء دون التاء وكذلك بل انتم قوم تفتنون! قلت: اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة؛ لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ بِطَّاهِرُونَ ﴿٥٧﴾

وقرأ الأعمش جواب قومه بالرفع والمشهورة أحسن. «يتطهرون» يتنزهون عن القانورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو استهزاء.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْقَابِطِينَ ﴿٥٧﴾

﴿قدرناها﴾ قدرنا كونها «من الغابرين» كقوله: قدرنا إنها لمن الغابرين فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءً مَطَرًا الشَّدِيدِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ لَكُمْ دِينُ رَبِّي وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يَشْرُكُونَ ﴿٥٩﴾

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عبادته وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكريين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين وإصفائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغونها المسمع ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ، كباراً عن كبار. هذا الأب الأب فحملوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتلكرة وفي مفتتح كل خطبة وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن وقيل: هو متصل بما

مباغثة العدو ليلاً وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات، فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقرئ: ﴿مهلك﴾ بفتح الميم واللام وكسرهما من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والزمان والمكان.

فإن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فاتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قلت: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: «ما شهدنا مهلك أهله» فنكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سؤوا للصدق في خبرهم حيلة يتقصون بها عن الكذب.

وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَنْ لَا يَتَمَرَّزْ ﴿٥٦﴾

مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم في مكانه ونجى صالحاً ومن معه وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون رامياً.

فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمُ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾

﴿إننا دمَرناهم﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على أنه خبر كان أي: كان عاقبة مكرهم الدمار.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَمْلِكُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿خاوية﴾ حال عمل فيها ما دل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر: «خاوية» بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا اتَّخَذْنَا آلِهَتَنَا بَشَرًا مِثْلَهُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَمَثَلُ الْفَرَجِ حَيْثُ يَخْرُجُ ﴿٥٨﴾

﴿و﴾ انكر «لوطاً» أو أرسلنا لوطاً لدلالة ولقد أرسلنا عليه، و﴿إذ﴾ بدل على الأوّل ظرف على الثاني «وانتم تبصرون» من بصر القلب أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الانثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الانثى للانثى فهي مضادة لله في حكمته

شجرها﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء أراد: أن تأتي ذلك محال من غيره وكذلك قوله: بل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطفة رأيهم، والحقيقة: البستان عليه حائط من الإحداق وهو: الإحاطة وقيل: ذات لأن المعنى: جماعة حداثق ذات بهجة كما يقال: النساء ذهبت وبهجة الحسن لأن الناظر يبتهج به ﴿إله مع الله﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له، وقرئ إلهها مع الله بمعنى أتدعون أو أتشركون ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدة وتخرج الثانية بين بين ﴿يعبدون﴾ به غيره، أو يعبدون عن الحق الذي هو التوحيد.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَهْرًا وَجَعَلَ مَاءَ رِيسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَتْلُونَ ﴿١٧﴾

﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من ﴿أمن خلق﴾ فكان حكمهما حكمه ﴿قراوا﴾ نحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿حاجزاً﴾ كقوله: برزخاً.

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْفِي السُّوءَ وَيَجْمَعُ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجا والاضطرار: افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر: الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجا والتضرع إلى الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو المجهود، وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة وقيل: المنذب إذا استغفر.

فإن قلت: قد عم المضطرين بقوله: يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ قلت: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة⁽³⁾ وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً يصلح لكه ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا ببليلى وقد قام الدليل على البعض وهو الذي إجابته مصلحة فبطل تناول على العموم ﴿خلفاء الأرض﴾ خلفاء فيها وذلك توارثهم سكنها، والتصرف فيها قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ ينكرون بالياء مع الإذغام، وبالتاء مع الإذغام والحذف وما مزيدة أي: ينكرون تذكراً قليلاً والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا

قبله وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام، وأشياعهم الناجين وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكة، وإنما هو إلزام لهم وتبكيك⁽¹⁾ وتهكم بحالهم وذلك أنهم أنروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقبل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما أنوره وإنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى، وعبثاً لينبها على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز وبندهم المعقول وليعلموا إن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد، ونحوه ما حكاه عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي تعي آثار رحمته وفضله كما عددها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء، وقرئ يشركون بالياء والتاء، وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قراها يقول: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم⁽²⁾.

فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في أم ما تشركون وأمن خلق؟ قلت: تلك متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله تعالى: ﴿الله خير أم الألهة﴾.

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأُولَئِكَ يَهْتَكِرُونَ ﴿١٩﴾

قال: بل أمن خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء، وقرأ الأعمش: ﴿أمن﴾ بالتخفيف ووجه أن يجعل بدلاً من الله كأنه قال: أمن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون.

فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيدان بأن إنبات الحداثق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسناتها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا

(1) قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع خالق كل شيء مكان قوله: خالق كل خير، فإنه تخصيص قدي أو إشراك خفي، والتوحيد الأبلج ما قلناه والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في استحباب التكبير عند الختم، (حديث: 2082).

(3) قال أحمد: للصواب أن الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، =

= وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرة لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة فاسد، فإن المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٦﴾

لم تلحق علامة التأنيت بفعل العاقبة لآن تأنيتها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم، وأراد بالمجرمين الكافرين وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجماع ليكون لطفًا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها الا ترى إلى قوله: ﴿فندم عليهم ربهم بنبيهم﴾ (1) وقوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ (2).

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨﴾

﴿ولا تحزن عليهم﴾ لأنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قریش كقوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (3) ﴿في ضيق﴾ في حرج صدر من مكروهم وكيدهم لك ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما والضيق أيضًا تخفيف الضيق قال الله تعالى: ﴿ضيقًا حرجًا﴾ (4) قرئ مخففًا ومثقلًا، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكروهم.

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعْسُ الَّذِينَ سَتَمِعُوا ﴿٧﴾

استعجلوا العذاب الموعود فقبل لهم: ﴿عسى أن يكون﴾ ردف لكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو لنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقد عدى بمن قال: فلما ردفنا من عمير وصحبه، تولوا سرعًا والمنية تعنق يعني: دنونا من عمير وقرأ الأعرج: ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

وَلَنْ يَكْفُرَهُ لَوْ قَسَمَ لَ الْتَائِي وَإِنَّ أَسْأَفَ الْأَسْفَافِ ﴿٧﴾

الفضل والفاضلة: الإفضال ولفلان فواضل في قومه وفضول، ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة وأنه لا يعاجلهم بها وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب وهم قریش.

وَلَنْ يَكْفُرَهُ لَوْ قَسَمَ لَ الْتَائِي وَإِنَّ أَسْأَفَ الْأَسْفَافِ ﴿٧﴾

قرئ: نكن يقال: كذنت الشيء وأكذنته: إذا سترته

علمهم وكذلك من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة.

فإن قلت: فمن قرأ بلى أدرك وبلى أدرك! قلت: لما جاء ببل بعد قوله: ﴿وما يشعرون﴾ كان معناه بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكانه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أدرك على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿في الآخرة﴾ في شأن الآخرة ومعناها.

فإن قلت: هذه الاضطرابات الثلاث ما معناها! قلت: ما هي إلا تنزيل لآحوالهم وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة الا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشاه فلذلك عداه بمن دون عن لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتبصرون ولا يتبصرون.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاءُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾

العامل في إذا ما دل عليه ﴿أنا لمخرجون﴾ وهو نخرج؛ لأن بين يدي عمل اسم الفاعل فيه عقاباً وهي همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء واحدة منها كافية فكيف إذا اجتمع، والمراد: الإخراج من الأرض أو من حال الفناء إلى الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإسخاله على إذا وإن جميعاً إنكار على إنكار وجود عقيب وجود ولليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير في إننا لهم ولآبائهم؛ لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآبائهم.

لَقَدْ وَعَدْنَا مَا كُنْتُمْ وَآبَاءَكُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾

فإن قلت: قدم في هذه الآية ﴿هذا﴾ على ﴿نحن وآبائنا﴾ وفي آية أخرى قدم ﴿نحن وآبائنا﴾ على ﴿هذا﴾! قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سيق لأجله ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصد.

(1) سورة الشمس، الآية: 14.

(2) سورة نوح، الآية: 25.

(3) سورة الكهف، الآية: 6.

(4) سورة الانعام، الآية: 125.

اتباعهم أمر قد يش منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم واذاهم وشبهوا بالموتى، وهم أحياء صحاح الحواس: لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم، وكان سماعهم كلا سماع كانت حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينقع بهم فلا يسمعون وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع نك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾! قُلْتُ: هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبراً، كان أبعد عن إدراك صوته.

وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْأَمْنِي عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُشِيعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

وقرئ ولا يسمع الصم وما أنت بهادي العمى على الأصل وتهدي العمى وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمى، وهده عن الضلال كقولك: سقاه عن العيمة أي: أبعده عنها بالسقي وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إِنْ تَسْمَعُ﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي: يصدقون بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون من قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: جعله سالماً لله خالصاً له سمي معنى القول.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه: حصوله والمراد: مشاركة الساعة وظهور أشراتها وحين لا تنفع التوبة ودابة الأرض الجساسة جاء في الحديث أن طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب^(١) وروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأنثى فيل وقرن إبل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هر وذب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام، وروي لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون، فلا يخرج إلا ثلثها وعن النبي ﷺ أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني: المسجد الحرام، وروي أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج باقصي اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرًا طويلًا فبينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها

وأخفيته يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكائدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

وَمَا مِنْ عَلَائِبٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

سمى الشيء الذي يغيب ويخفي غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة ونظائرهما النطيحة والرمية والذبيحة في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالرواية في قولهم: ويل للشاعر من رواية السوء كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله واحاط به وأثبتته في اللوح المبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُرُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي تُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد: اليهود والنصارى.

وَأِنَّهُ لَكُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم وآمن أي: من بني إسرائيل، أو منهم ومن غيرهم.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْمَرْتَبُ الْقَلِيلُ ﴿٧٨﴾

﴿بينهم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قُلْتُ: ما معنى: يقضي بحكمه ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قُلْتُ: معناه بما يحكم به وهو عدل؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به: حكماً أو أراد بحكمته وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه: جمع حكمة ﴿وهو العزيز﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿للعليم﴾ بمن يقضي له ويمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحققين.

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

أمره بالتوكل على الله، وقلة المبالاة بأعداء الدين وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وينصرته وأن مثله لا يخذل.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَرْتَدَ وَلَا تُسْمِعُ الْقَوْمَ الذُّعْمَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

فإن قُلْتُ: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك! قُلْتُ: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يغيب رسول الله ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب من ترك اتباعه وتشجيع ذلك بالاذى والعداوة فلام ذلك أن يعلى توكل متوكل مثله بأن

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة الأمم بين أيديهم إلى النار.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتُ: الأولى للتبويض والثانية للتبيين كقوله: ﴿مِنَ الْأَوَّاثِنَ﴾⁽²⁾.

حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكْذَبْتُمْ وَيَا بَيْتِي وَرَبِّ حُطْرًا يَا عَلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَمْلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾.

الواو للحال كأنه قال: أكذبتُم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب أو للعطف أي: أجدتُموها ومع جوبكم لم تلقوا انذمانكم لتحققها، وتبصرها فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقره ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بها للتبكيك لا غير وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرُونَ أن يكذبوا ويقولوا: قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب ومثاله أن تقول: لراعيك وقد عرفته رويعي سوء: أتكلل نعمي أم ماذا تعمل بها فتجعل ما تبدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحَّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك أم ماذا تعمل بها مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبته وتعلمه علمك بأنه لا يجئ منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك أو أراد أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر، والتكذيب بآيات الله أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك يعني: أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكون فيها وذلك قوله:

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يريد: أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾⁽³⁾.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كَرُوفٍ فِيهِ وَالشَّهَارَ مُجِزًّا لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَأَيُّكُمْ أَقْرَبُ بِرُؤْسِهِ ﴿٨٦﴾.

جعل الإبصار للنهار وهو لاهله.

فإن قُلْتُ: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿لَيْسَ كَرُوفًا﴾ و﴿مَبْصَرًا﴾ حيث كان أحدهما علة، والآخر حالا! قُلْتُ: هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصرًا: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرَى مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن

على الله⁽¹⁾، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون، وقوم يقفون نظارة وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان نلق فتقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات وتقول: الا لعنة الله على الظالمين، وعن السدي تكلمهم ببطلان الأبيان كلها سوى دين الإسلام وعن ابن عمر رضي الله عنه تستقبل المغرب، فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروي: تخرج من أجباد، وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعاه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا ما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنتك نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يرضئ لها وجهه أو فترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنتك الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة يا فلان أنت من أهل النار وقرئ: تكلمهم من الكلم، وهو: الجرح والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضًا على معنى التكثر يقال: فلان مكلم أي: مجرح ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أن المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر لنحرقنه بقراءة علي رضي الله عنه: لنحرقنه، وأن يستدل بقراءة أبي: تنبيههم، وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأن الناس على أنه من الكلام، والقراءة بيان مكسورة حكاية لقول الدابة، إما لأن الكلام بمعنى القول، أو بإضمار القول أي: تقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك.

فإن قُلْتُ: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا؟ قُلْتُ: قولها حكاية لقول الله تعالى، وعلى معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده وأنها من خواص خلقه أضافت آيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاة وبلادها ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي: تكلمهم بان.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَرِيًّا وَمَن يَكْذِبْ يَكَلِّبْنَا فَنُؤْرَعُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿فهم يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيككبوا في النار وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وكذلك قوله: ﴿فَوْجًا﴾ فإن الفوج: الجماعة الكثيرة ومنه قوله تعالى:

(3) سورة المرسلات، الآية: 35.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/484.

(2) سورة الحج، الآية: 22.

سَكَّةَ اللَّهِ وَكُلَّ أَنْوَاهِ دَخْرَيْنَ ﴿٨٧﴾.

قد كان الا ترى إلى قوله: صنع الله وصبغة الله ووعده الله وفطرة الله بعدما وسماها بإضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله: ﴿الذي اتقن كل شيء﴾ ومن أحسن من الله صبغة لا يخلف الله الميعاد لا تبديل لخلق الله، وقرئ ﴿تفعلون﴾ على الخطاب ﴿فله خير منها﴾ يريد: الإضعاف وأن العمل ينقضي والثواب يوم وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد وقيل: فله خير منها أي: له خير حاصل من جهتها وهو: الجنة، وعن ابن عباس: الحسنة كلمة الشهادة، وقرئ: ﴿يومئذ﴾ مفتوحاً مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن قوله وأخرس الشقاشق في الصحاح شقشق الفحل شقشقة هنر وإذا قالوا للخطيب: نو شقشقة فإنما يشبهه بالفحل ومنصوباً مع تنوين فزع.

فإن قلنت: ما الفرق بين الفزعين؟ قلنت: الفزع الأول: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به كما يدخل الرجل على الملك بصدر هيب وقلب وجاب وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية، وأما الثاني: فالخوف من العذاب.

فإن قلنت: فمن قرأ: ﴿من فزع﴾ بالتنوين ما معناها! قلنت: يحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأما ما يلحق الإنسان من النهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم فلا يخلون منه؛ لأن البشرية تقتضي ذلك، وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتننه الوصف وهو: خوف النار، وأمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾⁽¹⁾.

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ كَفَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾.

وقيل: السيئة: الإشرار، يعبر عن الجملة بالوجه والراس والرقبة فكانه قيل: فكبوا في النار كقوله تعالى: ﴿فككبوا فيها﴾⁽²⁾ ويجوز أن يكون نكر الوجوه إيداناً بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هل تجزون﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَدِيَهُ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَكِنْ كُنْتُ نَسِيًّا وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ السَّالِفِينَ ﴿٨٧﴾.

أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكاً كما فعلت قريش وإن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام.

وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ مِمَّنْ أَمَنَدْنَا إِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٧﴾.

﴿وان تلو القرآن﴾ من التلاوة أو التلو كقوله: ﴿واتبع

فإن قلنت: لم قيل: ﴿ففزع﴾ دون فيفزع؟ قلنت: لكتبة وهي: الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إلا من شاء الله﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: الشهداء، وعن الضحاک الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر منهم موسى عليه السلام؛ لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وقرئ: أتوه وآتاه وبخريين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر: الصاغر وقيل: معنى الإتيان: حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد: رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَرَوَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّكَابِ صَنَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَرَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿جامدة﴾ من جمد في مكانه: إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وهي تمر﴾ مرأ حثيثاً كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة في صفة جيش:

بارعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لجاج والركاب تهملج

﴿صنع الله﴾ من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وعد الله﴾ و﴿صبغة الله﴾ إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت آتاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: ﴿صنع الله﴾ يريد به: الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي اتقنها، وآتى بها على الحكمة والصواب حيث قال: ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ يعني: أن مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك، ثم لخص ذلك بقوله:

﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخر الآيتين فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماره ورسالة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أقرغ إفرافاً واحداً ولأمر ما أعجز القوي، وأخرس الشقاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداذه، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما

(2) سورة الشعراء، الآية: 94.

(1) سورة الاعراف، الآية: 99.

له من الأجر عشر حسنات بعدد من صنق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص مكية

طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْبَيِّنِ ﴿٢﴾ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَذُرِّيَّتِ بِالْحَقِّ لَعَلَّكَ يُبْهَرُونَ ﴿٣﴾.

﴿من نبا موسى وفرعون﴾ مفعول ﴿تتلو﴾ أي: تتلو عليك بعض خبرهما ﴿بالحق﴾ محقين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾⁽⁷⁾ ﴿لقوم يؤمنون﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

إِنَّ رِعْرَعَكَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَكَلْ أهلكنا شيكاً يستصوف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستخفون بسأئهم إنهم كانوا من المكفبين^(٤).

﴿إن فرعون﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل كان قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما، فقال: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ يعني: أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحد في الظلم والعسف ﴿شيعاً﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه قال الأعشى: وبلدة يرهب الجواب بلجتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يتسخر صنفاً في بناء وصنفاً في حرث وصنفاً في حفر ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل، وسبب نبح الأبناء: أن كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل ﴿ويستضعف﴾ حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف ﴿يذبح﴾ بدل من يستضعف، وقوله: ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بيان أن

ما يوحى إليك^(١)، والبلدة: مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها: لأنها أحب بلادها إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره فلما بلغ الحزوة استقبلها بوجهه الكريم فقال: إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت⁽²⁾ وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيّه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا للجأى إليها آمن، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء⁽³⁾. اللهم بارك لنا في سكانها وأما فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن عن أبي وأن اتل عن ابن مسعود ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصده من توحيد الله ونفي الانداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل علي من الوحي فممنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلي ﴿ومن ضل﴾ ولم يتبعني فلا علي وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ.

وَلَوْ لَمَعَدَ لِلَّهِ سِيرِكُكُمْ مَا بُدِيَ قَتَرُوهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾.

ثم أمره أن يحمده الله على ما حوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة، وأن يهتد أعداءه بما سير بهم الله من آياته التي تلجهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله وذلك حين لا تنفعهم المعرفة يعني: في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: اللخان وانشقاق القمر وما حل بهم من نعمات الله في الدنيا، وقيل: هو كقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم﴾⁽⁴⁾ الآية. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه؛ لأن الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات⁽⁵⁾، وهو من وراء جزاء العاملين قرئ: ﴿تعملون﴾ بالياء. عن رسول الله ﷺ: من قرأ طس سليمان كان

(4) سورة فصلت، الآية: 53.

(5) قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى؛ لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا يعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى؛ لأن علمه لا يعزب عنه مثقال نرة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عامّ التعلق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(6) نكروه الثعلبي وابن مردويه، والواحد في التفسير، زيلعي 2/23.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

(1) سورة يونس، الآية: 109.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: فضل مكة، (الحديث: 3708)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة، (الحديث: 3925)، وابن ماجه في المناسك، باب: فضل مكة، الحديث: 3108. وأحمد في المسند 4/305. والحاكم في المستدرک 3/431.

(3) قال أحمد: وتحت قوله: وله كل شيء، فائدة أخرى سوى ذلك وهي: أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها أتبع تلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

وسرورًا وهو رده إليها وجعله من المرسلين، وروي أنه نبج في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد وروي أنها حين أقربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالي بني إسرائيل مصافية لها فقالت لها: لينفغنني حبك اليوم فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة، ووضعت في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئًا فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فلما لَحَّ فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فآلقته في اليم وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى مطلي بالقر من داخله.

فَالْقَلْبَةُ مَالٌ مَرْغُورٌ يَكُونُ لَهُمْ عُدْوًا وَحَزْنًا إِنَّ مَرْغُورًا
وَمَنْعَنَ رَحْمَتُهُمَا كَانُوا حَاطِطِينَ (٨) وَقَالَتْ أَمْرَأَتُ مَرْغُورَ قُرْتُ
عَيْنِي لِي وَكَأَنَّ لِي نَفْسًا عَنَى أَنْ يَمْنَعَنِي أَوْ تَنْخِذَنِي وَكَأَنَّ رَهْمًا لَا
يَنْعَمُونَ (٩).

اللام في ﴿ليكون﴾ هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: جئتكم لتكرمني سواء بسواء، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز بون الحقيقة؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكن المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وشرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتاب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأب، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد، وقرئ: ﴿وحزنًا﴾ وهما لغتان كالعدم والعدم ﴿كانوا حاططين﴾ في كل شيء فليس خطوهم في تربية عدوهم ببدع منهم، أو كانوا منبئين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ: ﴿حاططين﴾ تخفيف ﴿حاططين﴾ أو ﴿حاططين﴾ الصواب إلى الخطأ، روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فاعياهم فندت أسية فرأت في جوف التابوت نورًا، فعالجته ففتحته فإذا بصبي نوره بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنًا فأحبوه وكانت نـفرعون بنت برصاء وقالت له الأطباء: لا تبرا إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه إنسان بواؤها ريقه فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت، وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت: إن هذه لخنسة مباركة فهذا أحد ما عطفهم عليه فقال: الغواة من قومه: هو الصبي الذي تحذر منه. فأتنا لنا في قتله، فهم بذلك فقالت أسية:

﴿قرة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك لا لي وروي في حديث: لو قال: هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله

القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب؛ لأنه فعل لا طائل تحته صلح الكاهن أو كذب.

وَرِيدٌ أَنْ تَمَّ عَلَى الْبُرِّكَ اسْتَشْفِيَتْ فِي الْأَرْضِ وَجَمَلَهُمْ آيَةً
وَجَمَلَهُمْ الْوَرِيدَ (٥).

فإن قلت: علام عطف قوله:

﴿ونريد أن نمن﴾ وعطفه على ﴿نتلو﴾ ويستضعف غير سديد! قلت: هي جملة معطوفة على قوله: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبا موسى وفرعون واقتصاصًا له ونريد حكاية حال ماضية، ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم.

فإن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ قلت: لما كانت منة الله بخلصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم ﴿ثمة﴾ مقدمين في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قادة يقتدي بهم في الخير وعن مجاهد رضي الله عنه: دعاة إلى الخير، وعن قتادة رضي الله عنه ولاة كقوله تعالى: ﴿وجعلكم ملوكًا﴾ ﴿لوارثين﴾ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

وَتَكُنَّ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي مَرْغُورٌ وَمَنْعَنَ رَحْمَتُهُمَا يَنْهَمُ مَا
كَانُوا يَحْدُرُونَ (٦).

مكن له: إذا جعل له مكانًا يقعد عليه أو يرقد فوطاه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ولا تغث عليهم كما كانت في أيام الجيابرة وينفذ أمرهم ويطلق أيديهم ويسلطهم، وقرئ: ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي: يرون ﴿منهم ما﴾ حذره من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

وَأَوْحَىٰ إِلَهُ أَرْمُوزٍ أَنْ أَرْضِيَهُ إِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمَهُ فِي
الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧).

اليم: البحر قيل: هو نيل مصر.

فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر! قلت: أما الأول: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فيمنوا عليه وأما الثاني: فالخوف عليه من الفرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبتوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف.

فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهت عنهما جميعًا وأومت بالوحي إليها ووعدت ما يسلبها ويطمأن قلبها ويملؤها غبطة

الضمة في جارة الواو وهي الميم كأنها فيها فهمزت كما تهمز واو وجوه.

وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ: فُصِّبِي بَصُرَتِ بِهِ عَن جُنُبٍ رَّهْمٍ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١١﴾.

﴿قصيه﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره وقرئ: فبصرت بالكسر يقال: بصرت به عن جنب وعن جنباً بمعنى: عن بعد، وقرئ: عن جانب وعن جنب والجنب الجانب يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخالطة، وهم لا يحسون بأنها أخته وكان اسمها: مريم.

﴿وَرَمَىٰ عَلَيْهِ الْرَمْلَ مِن قَبْلُ فَكَانَ هَلْ أُنكِرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِي يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا﴾ ﴿١٢﴾ قَرَدَدَتْهُ إِلَيْكَ أُمِّي كَىٰ نَقَرٍ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَعَلَّمْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾.

﴿والمراضع﴾ جمع مرضع وهي: المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو: موضع الرضاع يعني: الثدي أو الرضاع ﴿من قبل﴾ من قبل قصصها أثره، روي أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قال همام: إنها لتعرفه وتعرف أهله فقالت: إنما أريت وهم للملك ناصحون والنصح إخلاص العمل⁽⁴⁾ من شائب الفساد فانطلقت إلى أمها بامرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استانس والتقم ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبي كل ثدي إلا ثديك قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فنفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في علمها أن سيكون نبياً وذلك قوله: ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ يريد: وليثبت علمها ويتمكن.

فإن قُلْتَ: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها! فإن قُلْتَ: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على وجه الاستباحة وقوله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ داخل تحت علمها المعنى لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجذعت وأصبح فؤادها فارغاً يروي أنها حين أقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما آتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدو، فنسيت وعد الله ويجوز أن يتعلق ﴿ولكن﴾ بقوله: ﴿ولتعلم﴾ ومعناه: أن الرد إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصديق وعد الله ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له من قرّة العين

كما هداها⁽¹⁾، وهذا على سبيل الغرض والتقدير أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كأسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت، هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل قرّة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و﴿لا تقتلوه﴾ خبراً ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه لليل على أنه خبر قرأ: لا تقتلوه قرّة عين لي ولك بتقديم لا تقتلوه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فإن في مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله وذلك لما عابنت من النور وارتضاع الإبهام وبراء البرصاء ولعلها توسمت في سيماء النجابة المؤنثة بكونه نفاعاً، أو نتبناه فإنه أهل للتبني ولأن يكون ولذا لبعض الملوك.

فإن قُلْتَ: ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال فما نو حالها! قُلْتَ: ذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيّه، وقوله: إن فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَّمَهَا يَكُونُ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٤﴾.

﴿فارغاً﴾ صفرًا من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى: ﴿واقننتهم هوا﴾⁽²⁾ أي: جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان: ألا أبلغ أبا سفيان عني، فانت مجوف نخب هواً وذلك أن القلوب مراكز العقول ألا ترى إلى قوله: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾⁽³⁾ ويبدل عليه قراءة من قرأ: فرغاً، وقرئ: قرغاً أي: خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإثناء وقرع الفناء، وفرغاً من قولهم: نماؤهم بينهم فرغ أي: هدر يعني: بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها ﴿لتبدي به﴾ لتصح به، والضمير لموسى والمراد: بأمه وقصته وأنه ولدها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المنقلت ليقرّ ويطمئن ﴿لنكون من المؤمنين﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله: إنا رانوه إليك، ويجوز وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بانه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أننا طامنا قلبها وسكننا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه، وقرئ: مؤسى بالهمز جعلت

(4) قال احمد: اوردت هذه التورية استحساناً لفظتها، ولكنها من بيت

النبوءة وأخت النبي، فحقيق لها ذلك.

(1) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، زيلعي 27/3.

(2) سورة الحج، الآية: 46.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 43.

وزهاب الحزن.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(٧٤)

﴿واستوى﴾: واعتدل وتمَّ استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزداد عليه كما قال لقيط:

واستحملوا امركم شذر المريرة لاحمًا ولا ضرعًا
وذلك أربعون سنة ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة⁽¹⁾، العلم: التوراة والحكم: السنة وحكمة الأنبياء سنتهم قال الله تعالى: ﴿وانكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾⁽²⁾ وقيل معناه: آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَفَّ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ

(٧٥)

المدينة: مصر وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وحين غفلتهم ما بين العشاءين وقيل: وقت القائلة وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهولهم وقيل: لما شبَّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل، وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿من شيعته﴾ ممن شايه على دينه من بني إسرائيل وقيل: هو السامري ﴿من عدوه﴾ من مخالفيه من القبط، وهو: فاتون وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، والوكز: الدفع بأطراف الأصابع وقيل: بجمع الكف وقرأ ابن مسعود: فلكره باللام ﴿فقضى عليه﴾ فقتله.

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

(٧٦)

فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلمًا لنفسه واستغفر منه.

قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل فكان ننبأ يستغفر منه وعن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل مالم يؤمر.

قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنُكِّمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ كُفْرًا وَلَٰكِنِّي ظَلَمْتُ لِنَفْسِي

﴿بما أنعمت علي﴾ يجوز أن يكون قسمًا جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأنوين ﴿فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾ وأن يكون استعطافًا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن

عصمتني ظهيرًا للمجرمين، وأن يكون استعطافًا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرًا للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين إما صفة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواه حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له، وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى يعني: لم يقل فلن أكون إن شاء الله وهذا نحو قوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾⁽³⁾ وعن عطاء: أن رجلاً قال له: إن أخي يضرب بقلمه ولا يعدر رزقه قال: فمن الرأس يعني: من يكتب له قال: خالد بن عبد الله القسري قال: فأين قول موسى: وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم نواة، أو برى لهم قلمًا فيجمعون في تابوت من حديد فيرمي به في جهنم وقيل⁽⁴⁾: معناه بما أنعمت علي من القوة لن استعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ولا أدع قبطيًا يغلب أحدًا من بني إسرائيل.

فَأَصْحَبُ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَمَرَ بِالْأَمْسِ بَسَّصَهُمْ قَالَ لَمْ يُؤَمِّرْكُم مِّنْ قَبْلِكُمْ فَأَوَلَيْكُمْ أَن تَعْبُدُوا

بِشَيْءٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ بِيَعْدِكُمْ سُلْطَانًا

﴿يترقب﴾ المكروه، وهو: الاستقادة منه أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغني؛ لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر.

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ لِتَمَلِكُنَا كَمَا تَمَلِكُنَا بِالْأَنْدلسِ إِنَّ رَبِّي لَمَلِكٌ جَبَّارٌ قَاتِلٌ وَمَا أَرِيدُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُجْسِمِينَ

(٧٧)

وقرى: ﴿يبطش﴾ بالضم، والذي هو عدو لهما القبطي؛ لأنه ليس على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، والجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا ينفذ بالتالي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ولما قال هذا أفضى على موسى فانتشر الحديث في المدينة وركى إلى فرعون وهموا بقتله.

وَمَا رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَدْعُو قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ بِأَمْثَارِهِمُ الْبِلَادَ فَاصْحَبْ رَجُلًا مِّنْ قَبْلِكَ

بِأَمْثَارِهِمُ الْبِلَادَ فَاصْحَبْ رَجُلًا مِّنْ قَبْلِكَ

قيل: الرجل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون و﴿يسعى﴾ يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾ وإذا جعل صلة لجاه لم يجز في يسعى إلى الوصف، والائتمار: التشاور يقال: الرجلان يتأمران

= هم بصدده، ويروى أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة؛ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلمًا، فيجعلون في تابوت من حديد، ويلقى بهم في النار.

(1) قال الزيلعي غريب، 27/3.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 34.

(3) سورة هود، الآية: 113.

(4) قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما =

للملهور والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفرغهم فما أخطأت همته في بين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب، وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الرحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورسانة الحيلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره، وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم.

فإن قُلْتُ: لم ترك المفعول غير منكور في قوله: ﴿يسقون﴾ و﴿تذودان﴾، ولا نسقي! قُلْتُ: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الزيادوم على السقي، ولم يرحمهما لأن منودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً وكذلك قولهما: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ المقصود فيه: السقي لا المسقي.

فإن قُلْتُ: كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قُلْتُ: سالهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به أبلنا إليه عنهما في توليها السقي بانفسهما.

فإن قُلْتُ: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنته بسقي الماشية؟ قُلْتُ: الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا ياباه وأما المرواة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البند فيه غير مذهب أهل الحضرة خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إني﴾ أي شيء ﴿انزلت إلي﴾ قليل أو كثير غث أو سمين لـ ﴿فقير﴾ وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب قيل: نكر لك، وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ما سال الله إلا أكلة ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما انزلت إلي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال: نلك رضا بالبدل السنوي وفرحاً به، وشكراً له وكان الظل ظل سمرة.

فَأَمَّا إِذْ يَتَّخِذُهَا ثَمَرًا فَغَنِيمًا فَالْتَّخِذُ إِذْ أَبَى يَتَّخِذُ لِيَجْزِيكَ أَجْرًا مَا سَمَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَسَّ عَلَيْهِ الْفَقْرَ قَالَ لَا تَحْتَفِ بِمَجْرَتِ مِنَ الْقَرْوِ الظَّلِيلِينَ ﴿١٥﴾

﴿على استحياهم﴾ في موضع الحال أي: مستحياً متخفراً وقيل: قد استترت بكم روعها، روي أنها لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حقل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهب فادعيه لي فتبعها موسى فالزقت

وياتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لك﴾ بيان وليس بصلة الناصحين.

فَرَجَّحَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّلِيلِينَ ﴿١٦﴾

﴿يترقب﴾ التعرض له في الطريق أو أن يلحق.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَفَّاهُ مَدِينَةَ قَالَ عَمَّن رِيَّتْ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾

﴿تلقاه مدين﴾ قصدها ونحوها، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه و﴿سواء السبيل﴾ وسطه ومعظم نهجه وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزا فانطلق به إلى مدين.

وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدِينَةٍ وَوَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُ وَيَجْعَدُ مِنْ دُونِهِمْ أُمَّةً تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَتَيْتُنَا لَمْ نَسْقِ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبْرِكَ فَشَاحَ كَبِيرٌ ﴿١٨﴾

﴿ماء مدين﴾ ماءهم الذي يستقون منه وكان بثراً فيما روى، ووروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وجد عليه﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أمة﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿من الناس﴾ من أناس مختلفين ﴿من نونهم﴾ في مكان أسفل من مكانهم، والذود: الطرد والدفح وإنما كانتا تذودان لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وقيل: لئلا تختلط أغنامهما وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿ما خطبكما﴾ ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الزياد فسمى المخطوب خطباً كما سمي المشؤن شأناً في قولك ما شأنك يقال: شأنه شأنه أي: قصدت قصده، وقرئ ﴿لا نسقي﴾ و﴿يصدر﴾ و﴿الرعاء﴾ بضم النون والياء والراء والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء، وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام و﴿كبير﴾ كبير السن.

سَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿فسقى لهما﴾ فسقى غنمهما لأجلهما، وروي أن الرعاء كان يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال وقيل: عشرة وقيل: أربعون، وقيل: مائة فأقله وحده وروي أنه سالهم لولاً من ماء فاعطوه لولهم وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصيها في الحوض ودعا بالبركة وروى غنمها وأصدرهما وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما وقيل: كانت بثراً أخرى عليها الصخرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة

وأمانته⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: كيف جعل خير من استاجرت اسماً؛ لأن القوي الأمين خيراً؟ قُلْتُ: هو مثل قوله: إلا إن خير الناس حياً ومالكا، أسير ثقيف عندهم في السلاسل في أن العناية هي سبب التقديم وقد صنعت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خيراً اسماً وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف ومنه قولهم: أهون ما عملت لسان ممخ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أقرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله: عسى أن ينفعنا أبو بكر في عمر.

قَالَ إِبْنُ أَبِي أَرِيْدَةَ أَنَّهُ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ عَلَاءَ أَنْ تَأْجُرَنِي نَمْنِي حِمَجٍ فَإِنَّ أَمْسَمَ عَسْرًا فَمِنْ عَسْرِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَعِدْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧).

روي أنه أنكحه صفراء وقوله: «هاتين» فيه دليل على أنه كانت له غيرهما «تاجرنني» من أجرته إذا كنت له أجيراً كقولك: أبوته إذا كنت له أباً و «ثمانني حجج» ظرفه، أو من أجرته كذا إذا أثبتته إياه ومنه تعزية رسول الله ﷺ: «أجركم الله ورحمكم»⁽²⁾ وثمانني حجج مفعول به ومعناه: رعية ثمانني حجج.

فإن قُلْتُ: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قُلْتُ: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقداً لقال قد أنكحتك ولم يقل إنني أريد أن أنكحك.

فإن قُلْتُ: فكيف صح أن يمرها إجارة نفسه في رعية الغم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنة؛ لأنه في الأول مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار؛ قُلْتُ: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما نكرت وأما الشافعي، فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال الخدمة إذا كان المستاجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً⁽³⁾ ولعل ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة، ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدة وأراد أن ينكحه ابنته فنكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى إنني أقول هذا إذا فعلت

الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي، واتعتي لي الطريق فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بارضنا.

فإن قُلْتُ: كيف ساخ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ قُلْتُ: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً، نكراً كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعو ليجزيه وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع تلك الاحتياط والتورع.

فإن قُلْتُ: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف وقيل إطعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب ومثله حقيق بأن يضيف، ويكرم خصوصاً في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلباً للأجر، وقد روي ما يعضد كلا القولين، روي أنها لما قالت: «ليجزيك» كره ذلك ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع بيننا بطلاع الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه لسمعها فلذلك قيل له: «ليجزيك لجر ما سقيت» أي: جزاء سقيك، «والقصص» مصدر كالعلة سمي به المقصوص.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ النَّوَى الْأَمِينُ (٨).

كبراهما كانت تسمى: صفراء والصفري: صفيراء وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها، وعن ابن عباس أن شعيباً أحفظته الغيرة فقال: وما علمك بقوته وأمانته فنكرت إقلال الحجر ونزع اللؤلؤ وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه وقولها: «إن خير من استاجرت القوي الأمين» كلام حكيم جامع لا يزداد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرارك وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذي سياقته سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته

(1) قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للشمسة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى، فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان يصده رضي الله عنه، وهذا الإيهام من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول، والمستعمل ليس التكحل في العينين كالكحل

(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الديلمي 3/28.

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 3/385، كتاب: الجنائز، باب: الرجل يعثر.

تفاوت بينهما في القضاء وأما التهمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها، وقيل: معناه فلا آكون متعدياً وهو في نفي العوان عن نفسه كقولك: لا إثم علي ولا تبعة علي، وفي قراءة ابن مسعود أي الأجلين ما قضيت وقرئ أيما يسكون الياء كقوله:

تنظرت نصرًا والسماكين أيهما على من الغيث استهلته مواطره
وعن ابن طبيب عدوان بالكسر.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين موقعي ما المزيدة في القراءتين؟ قُلْتُ: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام أي: زائدة في شياعها وفي الشاذة تأكيداً للقضاء كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له، الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل في موضع الشاهد والمهمين، والمقيت عدي بعلي لذلك روي: أن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى: بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها، وكان مكفوفاً فضنَّ بها فقال: غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أن له شأنًا وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً وقيل: أودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعضاً فاتته بها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم؛ لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فاتهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطبقها ورفعها موسى وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعترضاً وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلا، وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيئاً أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلتها وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب من الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى، ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنًا وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء، فأوحى إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى فقال: «تبعدهما وابطاهما» (2)

ذاك على وجه المعامدة لا على وجه المعاقدة ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانين سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قوله: على أن تأجرني ثمانين حجج عبارة عما جرى بينهما «فإن اتهمت» عمل عشر حجج «فمن عنك» فإتمامه من عنك ومعناه فهو من عنك لا من عندي يعني: لا الرزمك ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع وإلا فلا عليك «وما أريد أن أشق عليك» بإلزام أتم الأجلين وإيجابه.

فإن قُلْتُ: ما حقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمر! قُلْتُ: حقيقته أن الأمر إذا تعاطمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول: تارة أطيقه وتارة لا أطيقه، أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات والمداقاة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح في معاملات الناس ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ شريكاً فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري (1) وقوله: «ستجئني إن شاء الله من الصالحين» يدل على ذلك يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب، ويجوز أن يريد بالصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه، ومعونته لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله وإن شاء استعمل خلافه.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْرِقِينَ (٢٨)

«ذلك» مبتداً و«بيني وبينك» خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك، ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان «فلا عدوان علي» أي: لا يعتدي علي في طلب الزيادة عليه.

فإن قُلْتُ: تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المبالغة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً! قُلْتُ: معناه كما أني إن طولبت بالزياد على العشر كان عدواناً لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير

(1) قال أحمد: ومذهب مالك عل ثلاثة أقوال: المنع والكراهة والجواز، والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج، ولم تتعرض لغيره، وما ذلك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه =

= الزمخشري، أو تعريفاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا أو غير ذلك والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأنس، باب: في كراهية المراء (الحديث: 4836) وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الشركة والمضاربة =

وروى أنه قال: قضى أوفاهما وتزوج صغراهما⁽¹⁾ وهذا خلاف الرواية التي سبقت.

﴿لَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ انكروا إني أنسنت نارا نارا لعلَّ آياتكم منها تحبَّر أو حذَّوْرَ مِنَّا أَنَارٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢٧).

الجنوة باللغات الثلاث، وقرئ بهن جميعاً العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن قال كثير: باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا زعر وقال:

لقى على قيس من النار جنوة شديداً عليه حرها والتهابها

لَمَّا أَنهَا تُرْوَى مِنْ شَطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونَتْ إِبْرَةُ أَنَا اللَّهُ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿٢٧﴾ وَأَنْ أَنِّي عَصَاكَ لَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّرْتُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكُونُ أَقْبَلَ وَلَا نَحْفَ إِنَّكَ مِنَ الْأَرْبَابِ ﴿٢٧﴾.

من الأولى والثانية لابتداء الغاية أي اتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، و﴿من الشجرة﴾ بدل من قوله: من شاطئ الوادي بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله تعالى: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم﴾⁽²⁾ وقرئ البقعة بالضم والفتح والرهب بفتحيتين وضميتين وفتح وسكون وضم وسكون وهو الخوف.

أَنَّهُ بَدَلٌ فِي جَنبِكَ فَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ عَيْرٍ سَوَوْا وَاضْمٌ إِلَيْكَ جَانِّكَ مِنْ الرَّقْمِ فَذَلِكَ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْكَ رُفُوعٌ وَمَلَابِغٌ لَهُمْ كَمَا قَوْمًا فَتَسْتَعِينُ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَسُوا مَا آتَيْنَاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ﴿٢٧﴾.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: واضم إليك جناحك من الرهب قُلْتُ: فيه معنيان أحدهما: أن موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية فزع، واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إن اتقاءك بيديك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا اقتبها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقاك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمر أن اجتنب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه، والثاني أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشنئته عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يهرب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما وإلا فجتاحاه

مضمومان إليه مشمران ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتباً له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فحجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك واضم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي، ومعنى قوله: من الرهب من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضم إليك جناحك جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى واضم إليك جناحك وقوله أسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب.

فإن قُلْتُ: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضوعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه وذلك قوله: واضم إليك جناحك وقوله: واضم يدك إلى جناحك فما التوفيق بينهما! قُلْتُ: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليمين ويسراهما جناح ومن بدع التفسير أن الرهب الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زر مانقة من صوف لا كمي لها ﴿فذللك﴾، قرئ مخففاً ومشدداً فالمخفف مثني ذك والمشدد مثني ذلك ﴿برهانان﴾ حجتان بينتان نيرتان.

فإن قُلْتُ: لم سميت الحجة برهاناً! قُلْتُ: لبياضها وإنارتها من قولهم: للمرأة البيضاء برهمة بتكرير العين واللام معاً، والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم إياها سلطاناً من السليط، وهو الزيت لإنارتها.

وَأَخَىٰ كَرُونَ مَوْ أَمْسَحَ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مِنِّي رِدَاءً يَصِيْقُوتُ إِنَّ أَخَاكَ أَنْ يَكْذُوبَ ﴿٢٧﴾.

يقال: ردائه أعنته والردء اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به قال سلامة بن جندل:

وربني كل أبيض مشرفني شحيد الحدّ عضب ذي فلول وقرئ: رداً على التخفيف كما قرئ: الخب ﴿ورداً يصقني﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب نحو ولياً يرثني سواء.

فإن قُلْتُ: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قُلْتُ: ليس

(الحديث: 2287).

(2) سورة الزخرف، الآية: 33.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 407/2. وفي كشف الاستار، كتاب: التفسير باب: سورة القصص (الحديث: 2244).

وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾

﴿سحر مفترى﴾ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله أو سحر ظاهر أفترأوه أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿في آياتنا﴾ حال منصوبة عن هذا أي: كائناً في زمانهم وآيامهم يريد ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلوا من أن يكونوا كانبين في ذلك وقد سمعوا وعلموا بنحوه، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به وهذا ليل على أنهم حجوا وبهتوا وما وجنوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم: هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثله يقول:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَطْلَمَ يَمَنَ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَرِيقَةُ الدَّارِ إِنَّمَا يَمْلِكُ الظُّلُمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ربي أعلم﴾ منكم بحال الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبي ويعني: نفسه، ولو كان كما تزعمون كانبياً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكانبين ولا ينسب الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون و ﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ (1) وقوله: وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها وعقبها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت.

فإن قلت: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاها يصح أن تسمى عاقبة الدار لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختلفت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأراد بعبادته أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصديق ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء، فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار (2) وقرأ ابن كثير قال موسى: بغير وأو

الغيض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول: للناس صدق موسى وإنما هو يخلص بلسانه الحق ويبسط القول فيه: ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطوق نو الغارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان إلا نرى إلى قوله: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فارسه معي﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك لا لقوله: صدقت فإن سحبان وبقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدق الذي يخاف تكذيبه فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق، فإسناده حقيقة وليس في السبب تصديق ولكن استعير له الإسناد؛ لأنه لا بس التصديق بالتسبب كما لا بسه الفاعل بالمباشرة والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ وقرءة من قرأ: ﴿رداً يصدقوني﴾ وفيها تقوية للقرءة بجزء ﴿يصدقني﴾.

قَالَ سَنَدُّ عَضُدِكَ بِأَيْدِكَ وَتَمَعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ بِأَيِّدِنَا أَنَا وَمَنْ أَتَمَكُّمُ الْغُلَبُونَ ﴿٣٨﴾

العضد قوام اليد وبشدتها تشتد قال طرفه: ابني لببني لستموبيد إلايداً ليست لهاعضد ويقال: في دعاء الخير شد الله عضدك وفي ضدّه فت الله في عضدك، ومعنى ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ سنقويك به ونعينك فيما أن يكون ذلك، لأن اليد تشتد بشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاوله الأمور، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشددة بعضد شديد ﴿سلطاناً﴾ غلبة وتسلطاً، أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي: اذهباً بآياتنا أو بنجعل لكما سلطاناً أي: نسلطكما بآياتنا، أو بلا يصلون أي: تمتنعون منهم بآياتنا أو هو بيان للغالبون لا صلة لامتناع تقدّم الصلة على الموصول ولو تأخر لم يكن إلا صلة له، ويجوز أن يكون قسماً جوابه لا يصلون مقدماً عليه أو من لغو القسم.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَبْتَئِنَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ

(1) سورة الرعد، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وقد تقدّم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها، بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معارض بأمثاله في آية أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿ولقد نرانا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ الآية والمراد والله أعلم. ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين، ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضي الله عنه، أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرأ النار أي: خلقها، فلو نلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد نلت آية الاعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين، لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم، وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم

= آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإن المراد ما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبائتي جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى، هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً، وإرادة الخير بها أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بتوابع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إلى عاقبة الخير، ومكثهم منها، وأراح عليهم، ووفر دعواتهم، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير، ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخونها نصب أعينهم فاطلقت العاقبة، والمراد بها الخير تقريباً على ذلك والله أعلم. والحاصل أنها لما كانت هي المأمور بها، والمحضوض عليها عوملت معاملة ما هو مراد، وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم

تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدياً لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم⁽¹⁾ بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وإن لها غيره غير معلوم عنده ولكنه مظنون بليل قوله: ﴿وَإِنِّي لَأظنُّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وإذا ظنَّ موسى عليه السلام كانبأ في إثباته لها غيره ولم يعلمه كانبأ فقد ظنَّ أن في الوجود لها غيره ولو لم يكن المخدول ظاناً ظناً كاليقين بل عالمًا بصحة قول موسى عليه السلام لقوله موسى له: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر لما تكلف ذلك البنين العظيم ولما تعب في بنائه ما تعب لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض⁽²⁾ ولا ترى بيعة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملته وغباوتهم من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يدينونه وليت شعري أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم حيث صانفهم أغبى الناس وأخلاه من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك أم كان في نفسه بتلك الصفة وإن صحَّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم فتهمك به بالفعل كما جاء التهكم بالقول: في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوَّل باليقين كقوله:

فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين

على ما في مصاحف أهل مكة وهي قراءة حسنة؛ لأنَّ الموضوع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة سحرًا مفترى ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى عليه السلام: هذا ليوافق الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر وبضدها تتبين الأشياء.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ عَزِيزٍ فَأَرِئِدْ لِي يَهْمَكَ عَلَى الظُّلُمِ فَاغْمَسْ لِي سَحَابًا مَلَكِي أَلْمَحْ إِلَيَّ إِنَّهُ مُرَوِّدٌ وَإِنِّي لَأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧٨﴾.

وقرى: ﴿تكون﴾ بالتاء والياء روى: أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والأجراء وأمر بطبخ الأجر والحب ونجر الخشب وضرب المسامير فشبوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه بيني فيبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتل ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك ويروى في هذه القصة: أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة من السماء فاراد الله أن يفتنهم فردت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجود معناه ما لكم من إله غيري كما قال الله تعالى: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ معناه: بما ليس فيهن وذلك؛ لأنَّ العلم

كان يدعي الإلهية، ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم تنليسا على ملته، وتلبيسا على عقولهم السخيفة والله أعلم ويناسب تعاطفه هذا قوله: ﴿فاؤد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل فاطبخ لي أجرا، وذلك من التعاطف كما قال تعالى: ﴿وله العظمة والكبرياء﴾ ومن ارتدى بردائهما قصمه، ومما يوقنون عليه في النار ابتغاء حلية، فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوتا بها، وذلك من تجبر الملوك جلَّ الله وعز، ومن تعاطف فرعون أيضاً ندأوه لوزيره باسمه، وبحرف النداء، وتوسيط ندائه خلال الأمر، وينأؤه الصرح، ورجاؤه الاطلاع ليل على أنه لم يكن مصمماً على الجحود، قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ فإما أن يخفى هذا التناقض على قوله لغبوتهم وكآبة أذهانهم، وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا.

(2) قال أحمد: ولقاتل والله أعلم أن يحمل قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ على الشك ونفي علمه خاصة وإجرائه مجرد سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر لجواز أن يكون موجوداً عازياً عن علمه، وحينئذ لا يكون تناقضاً ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا، أو يرفع التناقض عن كلامه؛ لأنه أحقر من ذلك.

كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى نوبها باللام في الآي المنكورة، كقوله: ﴿من تكون له عاقبة الدار وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والعاقبة للمتقين﴾ فاقهمت اللام أنها عاقبة الخير إذ هي لهم، وعاقبة السوء عليهم لا لهم كما يقولون الدائرة لفلان يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ولم يقل عليهم فاستعمل اللام مكان على ليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير والله أعلم.

(1) قال أحمد: لشدة ما بلغ منه الوهم لم يتأمل كيف سقوط السهم، وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ما تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض﴾ فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ماهويه، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم، وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء، ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المنكور، ولكن المعلوم أن فرعون=

قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً إذا دعاه⁽⁵⁾ وقال: إنه بخيل وفاسق ويقول: أهل اللغة في تفسير فسقه، وبخله جعله بخيلاً وفاسقاً ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾⁽⁶⁾، ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ كما ينصر الأئمة الدعاء إلى الجنة، ويجوز خذلانهم حتى كانوا أئمة الكفر ومعنى الخذلان منع اللطاف وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغنى عنه الآيات والنذر ومجره مجرى الكناية لأن منع اللطاف يربف التصميم، والغرض بنكره التصميم نفسه فكانه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاء إليه وإلى سوء عاقبته.

فإن قُلْتَ: فاي فائدة في ترك المربوف إلى الرادفة؟ قُلْتُ: نكر الرادفة يدل على وجود المربوف فيعلم وجود المربوف مع اللبيل الشاهد بوجوده فيكون أقوى لإثباته من نكره إلا ترى أنك تقول لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبتت حكمه لما منعت منه اللطاف فبنكر منع اللطاف يحصل العلم بوجوده التصميم على الكفر وزيادة وهو قيام الحجة على وجوده وينصر هذا الوجه قوله ويوم القيامة لا ينصرون كأنه قيل وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذلون كما قال:

وَأَتَّبَعْتَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَسَكْتُ وَيَوْمَ أَلْقَيْتَهُمْ فِي سَكِّ
الْمَقْبُورِينَ ﴿٤٢﴾

﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي: من المطرودين المبعدين.

وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحِيَ الْكِتَابَ مِنْ بَدْرٍ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَايِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بصائر﴾ نصب على الحال والبصيرة نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناها التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل وإرشاداً لأنهم كانوا يخطبون في ضلال ﴿ورحمة﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ إرادة أن يتذكروا شبهت الإرادة بالترجي، فاستعير لها ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام⁽⁷⁾ لتذكروهم كقوله تعالى: ﴿لعله

وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإنما قال: ﴿فاوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل أبلخ لي الأجر واتخذه لأنه أوّل من عمل الأجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته وأشبهه بكلام الجبارة وأمر هامان وهو وزيره ورفيقه بالإيقاد على الطين منادي باسمه بباقي وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالأجر فقال: ما علمت أن أحداً بني بالأجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع الصعود يقال: طلع الجبل وأطلع بمعنى.

وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَمْكُرُ الْخَوِّ وَظَنًّا أَنَّهُمْ لَا يَرْمُونَهُ ﴿٤٤﴾

الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي: المتبالم في كبرياء الشأن قال رسول الله ﷺ: فيما حكى عن ربه الكبرياء رداثي والعظمة إزارني فمن نازعني واحداً منهما لقيته في النار⁽¹⁾ وكل مستكبر سواء فاستكباره بغير الحق ﴿يرجعون﴾ بالضم والفتح.

فَأَعَزَّتْهُ وَخُودُهُ فَمَبَدَّتْهُمْ فِي آيَةٍ فَنَظَرَ كَيْفَ كَانَتْ
عَيْنُهُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقاقاً لهم واستقلالاً لعدددهم وإن كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن أخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك قوله: ﴿وجعلنا فيها روسي شامخات﴾⁽²⁾ ﴿وجملت الأرض والجبال فنكتنا نكة واحدة﴾⁽³⁾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسّموات مطويات بيمينه﴾⁽⁴⁾ وما هي إلا تصورات وتمثيلات لاقتداره وأن كل مقبور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلِ الْكُفَّارِ وَيَوْمَ أَلْقَيْتَهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وجعلناهم آئمة يدعون إلى النار﴾ قُلْتُ: معناه ودعوناهم آئمة دعاء إلى النار وقلنا: إنهم آئمة دعاء إلى النار كما يدعى خلفاء الحق آئمة دعاء إلى الجنة، وهو من

(1) أخرجه مسلم بمعناه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكبر (الحديث رقم: 136 - 2620).

(2) سورة المرسلات، الآية: 27.

(3) سورة الحاقة، الآية: 14.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) سورة الزخرف، الآية: 19.

(6) قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب واحذر الأول فإنه قنري.

(7) قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ وبين هذه الآية فمن

(1) يتنكر ﴿١﴾.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْوَعْدِ إِذْ قَضَيْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾.

﴿الغريبي﴾ المكان الواقع في شق الغرب وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح، والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه والخطاب لرسول الله ﷺ يقول وما كنت حاضرًا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ولا كنت ﴿من﴾ جملة ﴿الشاهدين﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم نقبواؤه الذين اختارهم للميقات حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته وكتبه التوراة له في الألواح وغير ذلك.

فإن قلنت: كيف يتصل قوله.

وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيلًا وَتِ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَأْيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾.

﴿ولكننا أنشأنا قرونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكًا له؟ قلنت: اتصاله به وكونه استدراكًا له من حيث أن معناه ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونًا كثيرة ﴿فتطاول﴾ على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم ﴿العمر﴾ أي: أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسبتك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى، وما جرى عليه ولكننا أوحينا إليك فنذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة بدل به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وما كنت تأويلًا﴾ أي: مقيمًا ﴿في أهل مدين﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تقرؤها عليهم تحلما منهم يريد الآيات التي

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة النساء، الآية: 165.

(3) قال أحمد: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إن تضل إحداهما فتنكر إحداهما الأخرى﴾ والسر في جعل سبب السبب سببًا، وعطف السبب الأصلي عليه أمران أحدهما أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه، الثاني أن في هذا النظم تنبيهًا على سببية كل واحد منهما، أما الأول فلاقترانه بحرف للتعليل، وهو أن: وأما الثاني فلاقترانه بفاء لسبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك: إن تضل إحداهما، فتنكر لا من قول القائل أن تنكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالًا على النحاة، وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: لولا عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجودًا، وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع، وهو عدم الإرسال؛ لأنه ممتنع بالأولى ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعًا ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة =

فيها قصة شعيب وقومه، ولكننا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِشِدْرِ قَوْمًا مَا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَمَّا هُم بِتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾.

﴿إن نأينا﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه و ﴿لكن﴾ علمناك ﴿رحمة﴾ وقرى رحمة بالرفع أي: هي رحمة ﴿ما أتاهم﴾ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ونحوه قوله: لتتذرن قوما ما أنذر آباؤهم.

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ مِّمَّا فَدَمْتَ آبِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾.

﴿ولولا﴾ الأولى امتناعية، وجوابها محذوف والثانية تحضيضية وإحدى الفاعين للعطف والأخرى جواب لولا لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واحد والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولًا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة، ولا يلزموها كقوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (2) أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك.

فإن قلنت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول؛ لدخول حرف الامتناع عليها بونه؛ قلنت: القول هو المقصود بأن يكون سببًا لإرسال الرسل ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فانخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفًا عليها بالفاء المعطية معنى السببية (3) ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم: هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن

= لأنهم يقولون: لا ظلم قبل بعثة الرسل، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة؛ وذلك؛ لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة، وبشكل الجواب على النحاة؛ لأنه يلزم أن لا يكون واقعًا وهو عدم بعثة الرسل، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه، ثم كان مورد هذا الإشكال يجب عنه بتقدير محذوف، والأصل ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الإشكال عن الطائفتين، والتحقق عندي في الجواب خلاف ذلك، وإنما جاء الإشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس لو، فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها، ثم المانع قد يكون موجودًا، وقد يكون مفروضًا والآية من قبيل فرض وجود المانع، وكذلك اللزوم في لو قد يكون الشيء الواحد لازمًا لشيئين، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه، وعلى هذا التحرير يزول الإشكال الوارد على لو في قوله: نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه، فتأمل هذا الفصل فتحت فوائده للمعامل والله الموفق.

أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهمك بهم.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية وبينه في قوله: فلم يستجبه عند ذلك مجيب، حيث عدى بغير اللام! قُلْتُ: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحنف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه وأما البيت، فمعناه فلم يستجب دعاءه على حذف المضاف.

فإن قُلْتُ: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا! قُلْتُ: قوله: ﴿فأتوا بكتاب﴾ أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه فكانه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلا الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد الزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ثم قال:

فَإِنْ لَرَّ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكْفُرُونَ بآلِهَاتِهِمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
اتَّبَعَ هَوَاهُ يَبْغِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٥١﴾

﴿ومن أضل ممن﴾ لا يتبع في دينه إلا ﴿هواه بغير هدى من الله﴾ أي: مطبوعاً على قلبه ممنوع اللطاف ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي: لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللطف بهم عابث، وقوله بغير هدى في موضع الحال يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

وَلَقَدْ وَصَّيْنَاكَ أَنْ تَقُولَ لَكُمْ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ ﴿٥٢﴾

قرئ: ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف، والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلًا وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح إرادة أن يتذكروا، فيفلحوا أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض كقوله: ﴿وما يأتيهم من نكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾^(١).

الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنتان وثلاثون جاؤا مع جعفر من أرض الحبشة وثمانية من الشام، والضمير في من قبله للقرآن.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين الاستثنائين أنه وأنا؟ قُلْتُ: الأول تعليل للإيمان به؛ لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به والثاني بيان لقوله: ﴿أمننا به﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقدم لأن آباءهم القدماء قرؤا في الكتب الأول نكروه وآبائهم من بعدهم ﴿من قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله.

وَلِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا مَا مَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٥٤﴾

اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عابنوا ما الجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسلاً، وإنما السبب في قولهم: هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم، ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعاً للكثير وتغليب الأكثر على الأقل.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُرْسِلَ مَا أُرْسِلَ مُوسَى
أَرْسَلْنَا بِكَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا
بِكُلِّ كَفْرٍ لَكِنَّا ﴿٥٥﴾

﴿فلما جاءهم الحق﴾، وهو الرسول المصلق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معانيهم وسد طريق احتجاجهم ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية وقلق البحر وغيرهما من الآيات فجاؤا بالافتراحت المبنية على التعنت، والعناد كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك ﴿أولم يكفروا﴾ يعني: أبناء جنسهم، ومن مذهبهم وعنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿بما أوتي موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم ﴿قالوا﴾ في موسى وهارون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أي: تعاوناً، وقرئ: إظهاراً على الإدغام وسحران بمعنى نوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما.

فإن قُلْتُ: بم علقت قوله: من قبل في هذا التفسير! قُلْتُ: بأو لم يكفروا ولي أن أعلقه بأوتي فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا: هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة وقالوا: في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ساحران تظاهرا، أو في الكتابين سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أنه نعتة وصفته، وأنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا: عند ذلك ساحران تظاهرا.

قُلْ قَالُوا يَكْفُرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أهدَىٰ هُدًىٰ مِنْهُمَا أَيْمَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُكْذِبِينَ ﴿٥٦﴾

﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل علي. هذا الشرط من نحو ما نكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأن امتناع الإتيان بكتاب

﴿مسلمين﴾ كائنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصنق للوحي.

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب، ونحوه يؤتكم كفلين من رحمته ﴿بالحسنة السيئة﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة أو بالحلم الأذى.

وَإِذَا سَأَلُوا فَاسْأَلْهُمْ عَنْهُ وَقَالَ لَأَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَأَنْبِيَّ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴿سلام عليكم﴾ توبيع ومشاركة وعن الحسن رضي الله عنه كلمة حلم من المؤمنين ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَنْ خَاطَبُوا بِقَوْلِهِمْ وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ قُلْتُمْ: لِلأَغْيَانِ الَّذِينَ دَلَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا لِلغوِي﴾

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَلْمَهْدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿لا تهدي من أحببت﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿ولكن الله﴾ يدخل في الإسلام ﴿من يشاء﴾ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه وأن الألفاظ تنفع فيه، فيقرن به اللفظ حتى تدعوه إلى القبول ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون قال: الزجاج أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال: عند موته يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصنقوه تفلحوا وترشدوا، فقال النبي ﷺ: يا عم تامرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصابق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجحك ونصيحتك، ولكنني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

وَقَالُوا إِن نَّبَّحْنَاكَ مَعَكَ تُنطَفِّ بِنَ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُنكِن لَهْرَ حَرَمًا أَيْسًا يُجِيبُ إِلَيْهِ نَمْرُتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قالت قريش وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك، وإنما نحن أكلة رأس أي: قليلون أن يتخطفونا من أرضنا⁽¹⁾ فالقهم الله الحجر بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون، ويتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمار، والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها، وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿يجبى إليه﴾ تجلب وتجمع قرىءً بالياء والتاء، وقرىءً تجنى بالنون من الجنى وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة. وثمرات بضمتين وبضمة وسكون، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾⁽²⁾ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ متعلق بقوله: ﴿من لنا﴾ أي: قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفتنون له ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أئذاه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بِمِ انتصب رزقاً! قُلْتُمْ: إِنْ جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد أن يكون مفعولاً له وإن جعلته بمعنى: مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة، هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمرهم الله وخرّب ديارهم.

وَكَمْ أَفْلَكًا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَاءَ سَلَكَهُمْ لُرْ شُكْرًا مِنْ بَدِيدٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا عَنِ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

وانتصبت ﴿معيشتها﴾ إما بحذف الجار، وإيصال الفعل كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽³⁾ إما على الظرف بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم أو بتقدير حذف الزمان المضاف أصله بطرت أيام معيشتها كحقوق النجم ومقدم الحاج وإما بتضمين بطرت معنى كفرت وغمطت وقيل: البطر سوء احتمال الغنى، وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إلا قليلاً﴾ من السكنى قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر وماز الطريق يوماً، أو ساعة يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من

(3) سورة الاعراف، الآية: 155.

(1) قال الزبيعي غريب جداً بهذا اللفظ، زبيعي 3/31.

(2) سورة النمل، الآية: 23.

وسروراً وعكسه، فسوف يلقون غياً ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا النار ونحوه لكننت من المحضرين فكذبوه فإنهم لمحضرون قيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل وقيل: في علي وحمزة وأبي جهل وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة.

فإن قلت: فسر لي الفاعين ثم واخبرني عن مواقعها! قلت: قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله، وتفاوتها ثم عقبه بقوله: ﴿أقمن وعندها﴾ على معنى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها وأما الثانية فللتسبب لأن لقاء الموعد مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير، وأما، ثم فلترأى حال الإحضار عن حال التمتع لا لترأى وقته عن وقته. وقرئ: ثم هو بسكون الهاء كما قيل: عضد في عضد تشبيهاً للمنفصل بالمتصل، وسكون الهاء في فهو وهو ولهو أحسن لأن الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالم متصل.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾

﴿شركائني﴾ مبني على زعمهم وفيه تهكم.

فإن قلت: زعم يطلب مفعولين كقوله: ولم أزعك عن ذلك معزلاً، فأين عما؟ قلت: محذوفان تقديره الذين كنتم تزعمونهم شركائني ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَفَا غَوَيْنَا تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿الذين حق عليهم القول﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورؤوسه ومعنى ﴿حق عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لاملاًن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾⁽³⁾ و﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و﴿والذين اغوينا﴾ صفة والراجع إلى الموصول محذوف و﴿اغويناهم﴾ الخبر، والكاف صفة مصدر محذوف تقديره ﴿اغويناهم﴾ فغوا غياً مثل ما غوينا يعنون أننا لم نغوا إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين اغوينا بقسر منهم وإلجاء أودعونا إلى الغي وسؤلوه لنا، فهؤلاء كذلك غواوا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء فلا فرق إذا بين غينا وغيهم وإن كان تسويلاً داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواظع والزواجر ونهايك بنلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان، وهذا

سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وكنا نحن اللواتين﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد وخرّبناها وسويناها بالأرض.

تختلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَقَّ يَمَتَّ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يُلَاقِي عَلَيْهِمْ دَائِبَةً وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَمَلْنَا غَلَّابُورَك ﴿١٩﴾

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حتى يبعث في﴾ القرية التي هي أمها أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رسولاً﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة مع علمه أنهم لا يؤمنون أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني: مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وقرئ: ﴿أمها﴾ بضم الهمزة وكسرهما لاتباع الجرّ وهذا بيان لعنله وتقديسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة، والإلزام ببعثه الرسل⁽¹⁾ ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين كما قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصلحون﴾⁽²⁾ فنص في قوله: ﴿بظلم﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم دلّ على ذلك بحرف النفي مع لاه كما قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وَمَا أَوْثَقُ مِنَ رَبِّهِ فَتَنَعَ الْحَيَوُ الْأُتْيَا وَرَبِّتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة المتقضية ﴿وما عند الله﴾ وهو ثوابه ﴿خير﴾ في نفسه من ذلك ﴿وأبقى﴾ لأن بقاءه دائم سرمد. وقرئ: يعقلون بالياء وهو أبلغ في الموعظة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالؤمن يتزود، والمنافق يتزين والكافر

أَفَن وَرَدَّتْهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِي كَمَنْ نَمَنَتْهُ مَتَعَ الْحَيَوُ الْأُتْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢١﴾

يتمتع هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها والوعد الحسن الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم، والاستحقاق وأي شيء أحسن منها ولذلك سمي الله الجنة بالحسنى و﴿لاقيه﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقاهم نضرة

(1) قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال،

وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ينشأ السؤال في هذه الآية،

فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف لقامت

الحجة على الناس، وإن لم يكن بعث رسل إذ العقل حاكم، فلا =

= يجنون للخلاص من هذا السؤال سببلاً.

(2) سورة هود، الآية: 117.

(3) سورة هود، الآية: 119.

وَمَكَرَ عَمَّا يُرِيدُ كُونَ ﴿٦٨﴾

الخيرة من التخير كالطيرة من التطير تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةَ﴾ بيان لقوله: ﴿وَيُخْتَارُ﴾ لَأَنَّ مَعْنَاهُ وَيُخْتَارُ مَا يَشَاءُ وَلِهَذَا لَمْ يَدْخُلِ الْعَاطِفُ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْخَيْرَةَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِيهَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَخْتَارَ عَلَيْهِ قِيلَ: السَّبَبُ فِيهِ قَوْلُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغْفِرَةِ: لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيِّتَيْنِ عَظِيمٍ يَعْنِي: لَا يَبِيعُ اللَّهُ الرَّسْلَ بِاخْتِيَارِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَيُخْتَارُ الَّذِي لَهُمْ فِيهِ الْخَيْرَةُ أَي: يَخْتَارُ لِلْعِبَادِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَصْلِحُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْأَمْرَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا خَيْرَةٌ لِمَخْتَارِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَالَّذِينَ الرَّاجِعُ مِنَ الصَّلَةِ إِلَى الْمَوْصُولِ إِذَا جَعَلَتْ مَا مَوْصُولَةٌ أَقْلَتْ: أَصْلُ الْكَلَامِ مَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ الْخَيْرَةُ فَحَنَفَ فِيهِ كَمَا حَنَفَ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ ذَلِكَ لَمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾^(١) لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أَي: اللَّهُ بَرِيءٌ مِنْ إِشْرَاكِهِمْ وَمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَاخْتِيَارِهِمْ عَلَيْهِ مَا لَا يَخْتَارُ.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ﴾ مِنْ عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَحَسَدِهِ ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنْ مَطَاعِنِهِمْ فِيهِ وَقَوْلِهِمْ: هَلَا اخْتَارَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فِي النُّبُوَّةِ.

وَمَنْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَيْرُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَالرَّيُّ رُحْمًا ﴿٧٠﴾

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ وَهُوَ الْمُسْتَأْثَرُ بِالْإِلَهِيَّةِ الْمَخْتَصِّ بِهَا وَ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَقْرِيرٌ لِذَلِكَ كَقَوْلِكَ: الْكَعْبَةُ الْقَبْلَةُ لَا قَبْلَةَ إِلَّا هِيَ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الْحَمْدُ فِي الدُّنْيَا ظَاهِرٌ فَمَا الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ؟ قُلْتُمْ: هُوَ قَوْلُهُمُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَلَقْنَا وَعَدَهُ وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالتَّحْمِيدُ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ لَا الْكَلْفَةِ وَفِي الْحَدِيثِ يَلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ^(٢) ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ بَيْنَ عِبَادِهِ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْإِلَهَ سَرِيحًا لَأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ إِنَّهُ عَزَمَ اللَّهُ بِأَيْكُمُ بِيضِيَاءُ أَمَّا لَسَمُّوكُمْ ﴿٧١﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وَقُرِئَ: ﴿أَرَيْتُمْ﴾ بِحَنْفِ الْهَمْزَةِ وَلَيْسَ بِحَنْفٍ قِيَاسِيٍّ وَمَعْنَاهُ أَخْبِرُونِي مَنْ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا. وَالسَّرْمَدُ الدَّائِمُ الْمَتَّصِلُ مِنَ السَّرْدِ وَهُوَ الْمَتَابَعَةُ وَمَنْهٌ قَوْلُهُمْ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ثَلَاثَةَ سَرْدٍ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ وَالْمِيمُ مَزِيدَةٌ وَوَزْنُهُ فَعْمَلٌ وَنَظِيرُهُ دَلَامَصٌ مِنَ الدَّلَامِصِ.

مَعْنَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنِ الشَّيْطَانِ إِنْ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَاخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى قَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى أَوَّلَ شَيْءٍ حَيْثُ قَالَ لِإِبْلِيسَ: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿تَجِبْنَا لَكَ﴾ مِنْهُمْ وَمِمَّا اخْتَارُوهُ مِنَ الْكُفْرِ بِأَنْفُسِهِمْ هُوَ مِنْهُمْ لِلْبَاطِلِ وَمَقْتًا لِلْحَقِّ لَا بِقُوَّةٍ مَنَا عَلَى اسْتِكْرَاهِهِمْ وَلَا سُلْطَانٍ ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَيَطِيعُونَ شَهْوَاتِهِمْ وَإِخْلَاءَ الْجَمَلَتَيْنِ مِنَ الْعَاطِفِ لَكُونَهُمَا مَقَرَّتَيْنِ لِمَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى.

وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَذَعَبُوا لَمْ يَرَوْا الْمَذَابَ لَوْ أَنَّكُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٣﴾

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لَوْجُهُ مِنْ وَجْهِ الْحَيْلِ يَنْفَعُونَ بِهِ الْعَذَابَ أَوْ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مَهْتَدِينَ مُؤْمِنِينَ لَمَا رَأَوْهُ أَوْ تَمَنَّا لَوْ كَانُوا مَهْتَدِينَ، أَوْ تَحِيرُوا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ وَسَدَرُوا فَلَا يَهْتَدُونَ طَرِيقًا حَكِيًّا أَوَّلًا مَا يُوِيخُهُمْ بِهِ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ لَهُ شُرَكَاءَ ثُمَّ مَا يَقُولُهُ الشَّيْطَانُ: أَوْ أَثَمْتُمْ عِنْدَ تَوْبِيخِهِمْ لِأَنَّهُمْ إِذَا وَبَخُوا بِعِبَادَةِ الْأَلْهَةِ اعْتَنَرُوا بِأَنَّ الشَّيْطَانِينَ هُمُ الَّذِينَ اسْتَقْوَمُوا وَزِينُوا لَهُمْ عِبَادَتَهَا، ثُمَّ مَا يَشْبَهُ الشَّمَاتَةَ بِهِمْ مِنْ اسْتِفَاتَتِهِمْ أَكْثَمْتُمْ وَخَذَلْتُمْ لَهُمْ وَعَجَزْتُمْ عَنْ نَصْرَتِهِمْ ثُمَّ مَا يَبْكُوتُونَ بِهِ مِنَ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرَّسْلِ وَإِزَاحَةِ الْعُلَلِ.

فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ بِوَيْبٍ فَهُمْ لَا يَنْسَءُونَ ﴿٧٤﴾

﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ﴾ فَصَارَتْ الْأَنْبِيَاءُ كَالْمَعْمَى عَلَيْهِمْ جَمِيعًا لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِمْ ﴿فَهُمْ لَا يَنْسَءُونَ﴾ لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا يَسْأَلُ النَّاسُ فِي الْمَشْكَالَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَسَاوَوْنَ جَمِيعًا فِي عَمَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْعَجْزُ عَنِ الْجَوَابِ، وَقُرِئَ: فَعَمِيَّتْ وَالْمُرَادُ بِالنَّبِيِّ الْخَبِيرِ عَمَّا أَجَابَ بِهِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ رَسُولُهُ وَإِذَا كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ لَهْوَلُ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَمَتَّعُونَ فِي الْجَوَابِ عَنِ مِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ وَيَفُوضُونَ الْأَمْرَ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ وَنَلِكِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرَّسْلَ﴾ فَيَقُولُ: مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْبِ وَمَا ظَنُّكَ بِالضَّلَالِ مِنْ أُمَّمِهِمْ.

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَرَجَلَ صَالِحًا فَمَنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الشَّرِكِ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿فَمَنْ أَنْ﴾ يَفْلَحُ عِنْدَ اللَّهِ وَعَسَى مِنَ الْكِرَامِ تَحْقِيقُ وَيَجُودُ أَنْ يَرَادَ تَرْجِي النَّائِبِ وَطَمَعُهُ كَانَهُ قَالَ: فَلْيَطْمَعُ أَنْ يَفْلَحَ.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ

(1) سورة الشورى، الآية: 43.

(2) أخرجهم مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في صفات =

أخيه، وكان يسمى: المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال: إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام والمنذع والقربان إلى هارون فما لي وروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحبيرة لهارون يقرب القربان ويكون رأساً فيهم وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه وجد قارون في نفسه، وحسدهما فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله قال: والله لا أصدقك حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فاصبحوا وإذا بعضا هارون تهتز ولها ورق اخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فبغى عليهم﴾ من البغي وهو الظلم قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده وقيل: زاد عليهم في الثياب شبراً. المفاتيح جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يفتح به وقيل: هي الخزائن وقياس واحدها مفتاح بالفتح ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها واعصوبوا اجتمعوا وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود قال: أبو رزين يكفي الكرفة مفتاح وقد بولغ في نكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة وأولى القوة وقراً بديل بن ميسرة لينوء بالياء ووجهه أن يفسر المفاتيح بالخزائن، ويعطياها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك: ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لا تفرح﴾ كقوله: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾⁽¹⁾ وقول القائل:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

ونلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمان وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح وما أحسن ما قال القائل:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحب انتقالا

وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿ولتبع فيما آتاك الله﴾ من الغنى والثروة ﴿الدار الآخرة﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمنذوب إليه وتجعله زانك إلى الآخرة ﴿ولا تنس نصيبك﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿واحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن بشرك وطاعتك لله كما أحسن إليك، والفساد في

فإن قُلْتَ: هلا قيل: بنهار تصرفون فيه كما قيل: بليل تسكنون فيها! قُلْتَ: نكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من نكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرَجًا إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُدْعَى بِإِسْمِكُمْ بَلِ لَكُمْ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَفَلَا تُعْهِرُونَ ﴿٧٦﴾

﴿أفلا تبصرون﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره وانت من السكون ونحوه.

وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلَ لَكَ الْإِيلَ وَالنَّهَارَ لِشَاكُورًا فِيهِ وَلَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَمَّا كَرِهَ لَكُمْ تَسْكُرُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ومن رحمته﴾ زواج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار وإرادة شكركم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨﴾

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء إيدان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراف به كما لا شيء أنخل في مرضاته من توحيدده اللهم فكما أخلتنا في أهل توحيدك فاسألنا في الناجين من وعيدك.

وَرَزَعْنَا مِنْ كُلِّ آئَةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا ﴿من كل آمة شهيداً﴾ وهو نبينهم لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فقلنا﴾ للامة ﴿هاتوا برهانكم﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق لله﴾ ولرسوله لا لهم ولشياطينهم ﴿وضل عنهم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والباطل.

إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مَوْسَى بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَالِيَهُمْ مِنَ الْكُفْرَى مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَوَاءٌ أَلْمَسْتَهُ أُولَى الْقُرُونِ إِذْ قَالَ لَمْ قَوْمٌ لَا تَفْرَحُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٨٠﴾

﴿قارون﴾ اسم أعجمي مثل هارون ولم ينصرف للجمعة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرن لا تصرف، وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم موسى هو قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهت وقيل: كان موسى بن

الأرض ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن القائل موسى عليه السلام.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ يَدِ عَيْنِيَّةٍ أَرَأَيْتُمْ بَلَمَّ أَتَىٰ اللَّهُ قَدَّ أَهْلَكَ مِن بَيْتِهِ. مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ حِمَاً وَلَا يَسْتَلُ عَن ذُرِّيَّتِهِ الْمَجْرُونَ (٧٨).

وقرىء واتبع ﴿على علم﴾ أي: على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذي فضلت به الناس وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: هو علم الكيمياء عن سعيد بن المسيب كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فإدراك يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل: ﴿عندي﴾ معناه في ظني كما تقول: الأمر عندي كذا كأنه قال: إنما أوتيته على علم كقوله تعالى: ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾⁽¹⁾ ثم زاد عندي أي: هو في ظني ورايي هكذا، ويجوز أن يكون اثباتاً لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل: ﴿أولم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يفتخر بكثرة ماله، وقوته ويجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك لأنه لما قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ فتفتج بالعلم وتعظم به قيل: أعنده مثل تلك العلم الذي أدعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿واكثر جمعاً﴾ للمال أو أكثر جماعة وعدداً.

فإن قُلْتُ: ما وجه اتصال قوله: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم للمجرمون﴾ بما قبله! قُلْتُ: لما نكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى قال: على سبيل التهديد له والله مطلع على ذنوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾⁽²⁾ ﴿والله بما تعملون عليهم﴾⁽³⁾ وما أشبه ذلك.

نَحَرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُمْ لَذَوُّ حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩).

﴿في زينته﴾ قال: الحسن في الحمرة والصفرة وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من

ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل: في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وهو أول يوم روى فيه المعصفر، كان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر، وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبيل الخير وقيل: كانوا قوماً كفاراً، الغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له بونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾، ومن الحسد قوله: ﴿ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقيل لرسول الله ﷺ هل يضر الغبط فقال: لا إلا كما يضر العضاء الخيط⁽⁴⁾، والحظ الجد وهو البخت والدولة وصفوه بأنه رجل مجنون مبخوت يقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَعُكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقُنَهَا إِلَّا الْمَكْرُورُونَ (٨٠).

ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى كما استعمل لا أباً لك وأصله الدعاء على الرجل بالأقرف في الحث على الفعل، والراجع في ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب؛ لأنه في معنى المثوبة أو الجنة أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير، كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى أراكم على كل شيء وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا وسيننا فمر بما شئت قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار وقيل: طستا من ذهب وقيل: طستا من ذهب مملوءة ذهباً وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون وإن كنت أنت قال: وإن كنت أنا قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فاحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقتذك لنفسي فخر موسى ساجداً

(3) سورة النور، الآية: 28.

(4) رواه الطبراني في معجمه، زيلعي 32/3.

(1) سورة الزمر، الآية: 49.

(2) سورة آل عمران، الآية: 153.

أقدم وأنه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول: أو لأنه ﴿لا يفلح الكافرون﴾ كان ذلك، وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويبتدىء كأنه ومنهم من يقف على ويك، وقرأ الأعمش لولا من الله علينا وقرئ: ﴿لخسف بنا﴾ وفيه ضمير الله ولا تخسف بنا كقولك: انقطع بنا كقولك: انقطع به ولتخسف بنا.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِمِثْلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا سَكَنًا وَالنَّبِيَّةَ لِلْمُنْقِبِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿تلك﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني: تلك التي سمعت بنكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون، وعن علي رضي الله عنه: أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها⁽²⁾ وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهب الأمانى ههنا وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّها حتى قبض ومن الطعام من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقاً بقوله: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾⁽³⁾ ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾⁽⁴⁾ ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ كما تدبره علي والفضيل وعمر⁽⁵⁾.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا عَذَابُ اللَّهِ لَمَّا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿٨٨﴾.

معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرر أفضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنه بعشر أمثالها وبسبعمئة وهو معنى قوله: ﴿فله خير منها﴾.

إِنَّ الَّذِي فَرَسَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٩﴾.

﴿فرض عليك القرآن﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه والعمل بما فيه يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف

يبكي وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال: يا أرض خذ بهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال: خذ بهم، فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذ بهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذهم فانطبقت عليهم وأوحى الله إلى موسى ما أظنك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجنوني قريباً مجيباً⁽¹⁾.

فَنَسَفْنَا بِهِ يَدَايِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْكُفْمِينَ ﴿٨٩﴾.

فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿من المنتصرين﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام أو من الممتنعين من عذاب الله يقال: نصره من عدوه، فاننصر أي: منعه منه فامتنع.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِشَرِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَذَّبُ لَا يُغْنِي الْكَافِرُونَ ﴿٩٠﴾.

قد ينكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مكانه﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كان وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيههم وقولهم: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون وتندموا ثم قالوا: ﴿كانه لا يفلح الكافرون﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال: وي كان من يكن له نشب يحب ومن يفتقر يعيش عيش ضر وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك فقال: وي كأنه وراء البيت وعند الكوفيين أن ويك بمعنى يلك وأن المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: ويك عنتر

(4) سورة القصص، الآية: 77.

(5) قال أحمد: هو تعرض لغمص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل حقق طمعهم في رحمته، حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: ومن قال لا إله إلا الله نخل الجنة، وإن زنا، وإن سرق ثلاثاً، وفي الثالثة وإن رغم آنف أبي نره اللهم اقسم لنا من رجا رحمتك ما تعصنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، زيلعي 3/33. أخرجه الحاكم في المستدرک 2/408.

(2) حديث أنس أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6565) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة، (الحديث رقم: 322 - 193)، وحديث أبو هريرة أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ (الحديث رقم: 3340)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة (الحديث رقم: 194 327).

(3) سورة القصص، الآية: 4.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت مكية

الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

(١)

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيذا وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيذا عالماً، وظننت الفرس جواداً لأن قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن تلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بداً في العبارة عن ثباته عندك على تلك الوجه من نكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قلت: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! قلت: هو في قوله: ﴿أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمناً هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمه الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصبير كقوله، فتركته جزر السباع ينشئه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام.

فإن قلت: إن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتابيب وقد كان التابيب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تاييداً لتعليقين وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأيب فتجعلها مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٢)

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على السننهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضرور المحن حتى يبيلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿لتبطلون في

لمثبيك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف و﴿لبرائك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتكثير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد ربه يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معاداً له شأن ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية فكان الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: اشتاق إلى مكة قال: نعم فأرحامها إليه.

فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم﴾ بما قبله! قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنْ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونْ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ (٣)

فإن قلت: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ملجاء الاستثناء فيه قلت: هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مِلَّةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونْ مِنَ الشَّرِكَاءِ (٤)

وقرى: ﴿بصندنك﴾ من اصنّه بمعنى صده وهي في لغة كلب وقال:

إناس اصنوا الناس بالسيف عنهم صود السواتي عن أنوف الحوائث
﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذ وليلتئذ ويومئذ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥)

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهيب الذي سبق نكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى، وكذب به ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً إن كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون^(١).

(١) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/36.

الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون.

فإن قُلْتَ: أين مفعولا حسب؟ قُلْتَ: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حِسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وإم منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازي بمساويه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشس الذي يحكمونه حكمهم هذا أو بشس حكما يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّكِينُ الْمَلِكُ ﴿٥﴾

لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاة على ما كان يأتي ويذر فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ من كان يأمل تلك الحال وإن يلقى فيها الكرامة من الله، والبشر ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة فليبادر العمل الصالح الذي يصنق رجاءه ويحقق أمه، ويكتسب به القرية عند الله والزلفى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه فهو حقيق بالقوى والخشية وقيل: يرجو يخاف من قول الهنلي في صفة عسال، إذا لسعته اللبر لم يرج لسعها.

فإن قُلْتَ: فإن أجل الله لآت كيف وقع جوابا للشرط؟ قُلْتَ: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت لأن الأجل واقع فيه اللقاء كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك، فإن يوم الجمعة قريب إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ومن جاهد﴾ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تنهى ﴿فإنما يجاهد﴾ لها لأن منفعة ذلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهى رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

== بالكائن غير العلم بأن سيكون، والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبلة وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم هنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم والله أعلم.

أموالكم وأنفسكم ولتسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴿١﴾ وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله وقيل: في ناس أسلموا بمكة فكتب إليهم المهاجرون ﴿ولا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا﴾ فخرجوا فتبعهم المشركون فرؤهم فلما نزلت كتبوا بها إليهم فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي، فقال رسول الله ﷺ: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع عليه أبواه وامراته ﴿٢﴾ ﴿ولقد فتننا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه يعني: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم، أو ما هو أشد منه فصبروا كما قال: وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا الآية وعن النبي ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما تون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿٣﴾ ﴿فليعلمن الله﴾ بالامتحان ﴿الذين صدقوا﴾ في الإيمان ﴿وليعلمن الكافرين﴾ فيه.

فإن قُلْتَ: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل: لم يزل يعلم معبوماً ولا يعلم موجداً إلا إذا وجد ﴿٤﴾ والمعنى وليتميزن الصالح منهم من الكاتب، ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً كأنه قال: وليثبئن الذين صدقوا وليعاقبن الكافرين وقرأ علي رضي الله عنه والزهري، وليعلمن من الإعلام أي: وليعرفنهم الله الناس من هم أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من يبيض الوجه وسوادها وكحل العيون وزرقتها.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْمُوتَنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

﴿أن يسبقونا﴾ أن يفوتنا يعني: أن الجزاء يلحقهم لا محالة وهم لم يطمعوا في الفوت ولم يحنثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدر تلك ويطمع فيه ونظيره وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا تحسبن

(1) سورة آل عمران، الآية: 186.

(2) قال الزيلعي: غريب 39/3، وحديث ابن أبي شيبة 77/14، كتاب: الأوائل باب: أول ما فعل الخ...

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3612).

(4) قال أحمد: فيما نكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم ==

إِذَا أَنْ يَرِيدَ قَوْمًا مُسْلِمِينَ صَالِحِينَ قَدْ أَسَاؤًا فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ مَغْمُورَةٌ بِحَسَنَاتِهِمْ فَهُوَ يَكْفُرُهَا عَنْهُمْ أَي: يَسْقُطُ عِقَابُهَا بِثَوَابِ الْحَسَنَاتِ وَيَجْزِيهِمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ أَي: أَحْسَنَ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ وَإِمَّا قَوْمًا مُشْرِكِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَالْهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْفُرُ سَيِّئَاتِهِمْ بِأَنْ يَسْقُطَ عِقَابُ مَا تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَيَجْزِيهِمْ أَحْسَنَ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ (1).

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَلْبِسُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨).

وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول: أمرته بأن يفعل ومنه بيت الإصحاح:

وَبَيَانِيَّةٍ وَصَّتْ بِبَنِيهَا بِأَنْ كَذَبَ الْقِرَاطِفَ وَالْقِرُوفَ

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها ومنه قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه﴾ (2) أي: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه وصيته بتعهدهم عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وصيناه بليتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً أي: فعلاً ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقرئ: حسناً وإحساناً، ويجوز أن تجعل حسناً من باب قولك: زيداً بإضمار اضرب إذا رأيته متبهاً للضرب فتصبه بإضمار أولهما أو افعل بهما لأنَّ التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا: أولهما معروفًا ﴿فلا تطعهما﴾ في الشرك إذا حملك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه، وابتدأ حسناً حسن الوقف وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي: لا علم لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نبه بنهيه عن طاعتها إذا إذا أراداه على ما نكر على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال إلي: مرجع من آمن منكم ومن أشرك فلأجازيكم حق جزائكم، وفيه شيان أحدهما أنَّ الجزاء إلي فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما بركٍ ومعروفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي والثاني التحذير من متابعتهم على الشرك والحث على الثبات

والاستقامة في الدين بنكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك قد صبت، فواه لا بظلي سقف بيت من الضحّ والريح وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحد ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الاحقاف، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويتراضاها بالإحسان (3) وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخزومة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقال له: إن من دين محمد صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تاري بيتاً حتى تراك وهي أشدّ حباً لك منا فأخرج معنا وقتلاً منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه، فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي ببني وبينك فما زال به حتى أطاعهما وعصي عمر فقال له: عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتي قد كلت فاحملني معك قال: نعم، فنزل ليوطى لنفسه وله فأخذاه وشدها وثاقاً وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبوا إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت (4).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩).

﴿في الصالحين﴾ في جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني أنبياء الله قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وإدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ (5) وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (6) أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى:

وَمَنْ الْكَافِرِينَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلٌ فَتَنَهُ الْكُفْرُ كَذَابٌ اللَّهُ وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَأْتِيَنَّ إِيَّاكُمْ مَكْرَهُمْ أَوْ لَيَسَّ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمَلَائِكَةِ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١).

(1) قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبار، إلا بالتوبة، وأطلق تكفير الصغائر، وإن لم تكن توبة إذا غمرت بها الحسنات، وكلا الأصلين قدري مجتنب والله الموفق.

(2) راجع الحديث 381، سورة النساء.

(3) سورة النمل، الآية: 19.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(5) سورة البقرة، الآية: 132.

أَنْ مَا ضَمْنُوهُ لَا طَرِيقَ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَفُوتَا بِهِ فَكَانَ ضَمَانَهُمْ عِنْدَهُ لَا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْمُضْمُونُ بِالْكَافِرِينَ الَّذِينَ خَبَرَهُمْ لَا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْمَخْبِرُ عَنْهُ وَيُجُوزُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُمْ كَانُوا لِأَنَّهُمْ قَالُوا تِلْكَ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى خِلَافِهِ كَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَعُدُونَ الشَّيْءَ وَفِي قُلُوبِهِمْ نِيَّةَ الْخَلْفِ.

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقَالَهُمْ وَأَقَالَهُمْ وَأَقَالَهُمْ وَيَسْتَأْذِنُ يَوْمَ أُنْفِثْتُمْ عَنْهَا كَأَنَّهُمْ يَفْرَوْنَ ﴿١٧﴾

﴿وَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال أنفسهم ﴿وَأَقَالَهُمْ﴾ يعني: أثقالاً آخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿وَلَيْسْتُمْ﴾ سؤال تقرير ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقون من الأكاذيب والباطيل، وقرئ: من خطياتهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيلًا مَّا فَآخِذُهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ مُسْتَمِرُونَ ﴿١٨﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة. فإن قلت: هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة! قلت: ما أورده الله أحكم لأنه لو قيل: كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك (3) وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وأفية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملاً بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي: أن القصة مسوقة لنكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وما كابدته من طول المصابرة تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتاً له فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع، وأوصل إلى الغرض من استطلاعة السامع مدة صبره.

فإن قلت: فلم جاء التمييز أولاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تخميم، أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك و﴿الطوفان﴾ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج، وغم طوفان الظلام الأثاب.

فَأَجْمَعَتْهُ وَأَمْسَكَتْهُ السُّيُوفُ وَجَمَلْنَهَا أَيْةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾

﴿أصحاب السفينة﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفساً

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ (1) الآية هم ناس كانوا يؤمنون بالسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعتراضهم وقالوا: ﴿إنا كنا معكم﴾ أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فاعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما في صدور العالمين﴾ من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكفر صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأبعد المنافقين وقرئ: ليقولن بفتح اللام.

رَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلِنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٠﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم أمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرأوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع وهذا قول: صنائيد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم، وقرئ في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه: إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم أفعل هذا وإثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلتهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال: وما هي قال: شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمون (2).

فإن قلت: كيف سماهم كافرين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرُونَ على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز؛ لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه! قلت: شبه الله حالهم حيث علم

(1) سورة النساء، الآية: 69.

(2) قال احمد: عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست إلا آية مطابقة للحكاية، ولكن الزمخشري يبني على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ بالله من ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿إنهم لكانبون﴾ نكتة حسنة يستدل به على صحة جميع الأمر بمعنى الخبر، فإن من الناس من انكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية؛ لأن الله تعالى أرفق قولهم ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله: ﴿إنهم لكانبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الإخبار.

(3) قال احمد: لأن الاستثناء استدراك رجوع على الجملة بالتنقيص تحريراً للعهد فلا يحتمل المبالغة؛ لأنها لا يجوز معها العدد. عاد كلامه قال: وفيه نكتة أخرى، وهي: أن القصة مسوقة لنكر ما ابتلى به نوح، وكابده من طول المصابرة تسلية له عليه السلام، فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين، فنكر في الأول السنة، وفي الثاني العام تجنباً للتكرار الذي لا يعمد إلا لقصد تخميم أو تعظيم. قال احمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تخميم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقتترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكنباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كتبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصنق ولا يكتب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: فما كان جواب قومه محتمة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه: وإن تكون آياتنا وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم: فما المراد بالأمم قبله! قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جمة مكنبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وأمن به ألف إنسان منهم علي عند سنه وأعقابهم على التكذيب.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: «قل سيروا في الأرض!»: قلت: هي حكاية كلام حكاة إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكى رسولنا ﷺ كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن.

فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش فما وجه توسطها بين طرفي قصة إبراهيم والجملة، أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله: «وإن تكنبوا» على معنى أنكم يا معشر قريش إن تكنبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمة نبيها لأن قوله: «فقد كذب أمم من قبلكم» لا بد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أنياله وتوابعها لكونها ناطقة بالتحديد دلالته وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

أرأيت برؤا كيف يبدئ الله الخلق ثم يبيد إن ذلك على الله يسير ﴿٨﴾

قرئ يروا بالياء والتاء «ويبدئ» ويبدأ وقوله: «ثم يعيده» ليس بمعطوف على يبدئ وليست الروية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى: «فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة»^(١) على البدء نون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوتر فلاناً وأستخلفه على من أخلفه^(٢).

نصفهم نكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح عليه السلام سام وحام ويافث ونسأوهم وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقد روي عن النبي ﷺ كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة والضمير في «وجعلناها» للسفينة أو للحادثة والقصة، نصب.

وَأَرْسِلْ رَبِّي إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

«وإبراهيم» بإضمار انكر وأبدل عنه «إذ» بدل الاشتمال لأن الأحيان تشتمل؛ على ما فيها أو هو معطوف على نوحا وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم «إن كنتم تعلمون» يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم أو إن نظرتكم بعين الدراية المبصرة نون عين الجهل العمياء علمتم أنه خير لكم.

إِنَّمَا تَسْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَسْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وقرى: «تخلقون» من خلق بمعنى التكاثر في خلق وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرص.

وقرى: «إفكاً» فيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكنب واللعب من أصلهما أن يكون صفة على فعل أي: خلقاً إفكاً أي ذا إفك وباطل واختلافهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه أو سمي الأصنام «إفكاً» عملهم ولها ونحتهم خلقاً للإفك.

فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوك شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره «إليه ترجعون».

وَأَنْ كَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْبَأَ النَّبِيَّ ﴿١٨﴾

وقرى بفتح التاء فاستعدوا للقاءه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكنبونني فلا تضرونني بتكذيبهم فإن الرسل قبلي قد كذبتم أممهم وما ضرهم وإنما ضرروا أنفسهم حيث حل بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل وأما

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: «أمن يبدئ الخلق ثم يعيده» أنه معطوف، وصح العطف، وإن كانوا ينكرون الإعادة؛ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداية لخلت في الروية =

= العاضية، وهي لم تقع بعد ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعولت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح والله أعلم.

الارض واعماقتها أو علوتهم في البروج والقلاع الذاهب في السماء كقوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (4) أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والارض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الارض أو ينزل من السماء.

وَأَلَيْكَ كَفَرُوا يَٰبْنَـدُ اللَّهِ وَفَلَآئِيهِ أُوذِيكَ يَهُسُّوٓا۟ مِن رَّحْمَتِي وَأُوذِيكَ لَمْ يَخَافْ عَذَابَ ٱلْءِثْمِ ﴿١٣﴾

﴿بآيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يُهِسُّوٓا۟ مِن رَّحْمَتِي﴾ وعيد أي يياسون يوم القيامة كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ (5). أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن إنما يكون راجياً خاشعاً فاما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يش من الرحمة وعن فتادة رضي الله عنه أن الله تم قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أولئك يهسوا من رحمتي﴾. وقال: إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون فينبغي للمؤمن أن لا يياس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يامن عذابه وعقابه صفة المؤمن أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦ ۖ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ أَأَنۡتَۜهُرُ أَوْ حَرِّهُرُ فَأَجۡنَبۡهُ ٱللَّهُ مِنۡ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوۡمٍ يُّؤۡمِنُونَ ﴿١٤﴾

قريء ﴿جواب قومه﴾ بالنصب والرفع ﴿قالوا﴾ قال: بعضهم لبعض، أو قاله: واحد منهم وكان الباقون راضين فكلنا جميعاً في حكم القاطنين، وروي أنه لم ينتفع في تلك اليوم بالنار معني: يوم القي إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها.

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِبَيْتِكُم مِّنَ ٱلْحَيۡوةِ ٱلْءِثۡمِ ۖ ثُمَّ يَوۡرِءُ ٱلْقِيَمَةَ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضِكُمۡ يَغۡمِضُ بَعۡضُكُمۡ بَعۡضًا وَمَأۡوِنُكُمۡ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرٍ ﴿١٥﴾

قريء على النصب بغير إضافة وبإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين على التعليل أي: لتتوانوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصانقهم وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله: ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ (6) أي: اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم بمعنى مودة بينكم كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله﴾ (7) وفي الرفع وجهان أن يكون خبراً لأن على أن ما موصولة وأن يكون خبر

فإن قلنت: هو معطوف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلنت: هو جملة قوله: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وكذلك وأستخلفه معطوف على جملة قوله ما زالت أوثر فلاناً ﴿نلك﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: وهو أهون عليه من معنى يعيد دل بقوله: قُلۡ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلصَّخۡرَ ثُمَّ ٱللَّهُ يَخۡشِئُ ٱلنَّشَاةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَنۡ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾

﴿النشأة الآخرة﴾ على انهما نشأتان، وإن كل واحد منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، وقريء ﴿النشأة﴾ والنشأة كالرأفة والرأفة.

فإن قلنت: ما معنى الإنصاح باسمه مع إيقاعه مبتداً في قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ (1) بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلنت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي يجب أن لا تعجزه الإعادة فكانه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى (2) هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتداً.

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقۡلَبُونَ ﴿١٦﴾

﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ومن المعصوم والتائب ﴿تقبلون﴾ تردون وترجعون.

وَمَا أَشۡرَ بِمُجۡرِمِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾ (3) وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه: أمن يهجو رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء ويحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفما هبطم في مهاري

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة الروم، الآية: 12.

(6) سورة الفرقان، الآية: 43.

(7) سورة البقرة، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: والأصل الإظهار، ثم الإضمار، ويليه لقصد التخييم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أخصم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية والله أعلم.

(3) سورة الرحمن، الآية: 33.

الثاني بحرفين الياء والنون.

أَيْبِكُمْ لَأَتُورَكَ أَلَيْمًا وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ
الْمُكْرَرُ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْلِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِمَكَادِبِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾.

وقطع السبيل عمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ
الأموال وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة وعن الحسن
قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث و ﴿المنكر﴾ عن ابن
عباس رضي الله عنهما هو الخنث بالحصي والرمي
بالبنائوق والفرقة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل
الأزرار والسباب والفحش في المزاح، وعن عائشة رضي الله
عنها كانوا يتحابون وقيل: السخرية بمن مر بهم وقيل:
المجاهرة في ناديم بذلك العمل وكل معصية، فإظهارها
أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياة فلا غيبة
له ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا
عنه لم يبق نادياً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تعدناه
من نزول العذاب.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾.

كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من
المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة
وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى: ﴿الذين كفروا
وصنوا عن سبيل الله﴾ (2) زيناهم عذاباً فوق العذاب بما
كانوا يفسدون، فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله
عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُونَ أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٨﴾.

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد والنافلة هما إسحق
ويعقوب، وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى
لاستقبال القرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي
سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه: أن الظلم قد استمر منهم
إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرور وظلمهم
كفرهم والوان معاصيهم.

قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِيهَا فَتَجَسَّعَتْ وَأَهْلُهُ
إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾.

﴿إِنْ فِيهَا لَوْطًا﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها وإنما هو
جدال في شأنه لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم
اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم، وأراد
بالجدال إظهار الشفقة عليهم وما يجب للمؤمن من التحزن
لأخيه والتشمير في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسّه
أذى، أو يلحقه ضرر قال: قتادة لا يرى المؤمن إلا يحوط
المؤمن إلا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾

مبتدأ محنوف والمعنى: أَنَّ الْاَوْثَانَ مَوْدَّةٌ بَيْنَكُمْ أَي: موبودة
أو سبب مودة وعن عاصم مودة بينكم بفتح بينكم مع
الإضافة، كما قرئ لقد تقطع بينكم بفتح وهو فاعل وقرأ
ابن مسعود رضي الله عنه أوثاناً إنما مودة بينكم في
الحياة الدنيا أي: إنما تتوادون عليها أو تودونها في الحياة
الدنيا ﴿ثم يوم القيامة﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض
والتعادي يتلاعن العبدية ويتلاعن العبدية، والأصنام كقوله
تعالى: ﴿ويكونون عليهم أضداداً﴾ (1).

فَقَامَنَّ لَمْ لَوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾.

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهم السلام وهو أول من
أمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وقال﴾ يعني: إبراهيم
﴿إني مهاجر﴾ من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى حران
ثم منها إلى فلسطين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة
وإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته لوط وامراته
سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إلى ربي﴾
إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي
يمنعني من أعدائي ﴿الحكيم﴾ الذي لا يامرني إلا بما هو
مصلحتي.

وَوَعَدْنَا لَهُمْ إِيحَاقَ وَمَعْقُونَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَتَيْنَاهُ آجُرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾.

﴿لجره﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه آخر الدهر
والزنية الطيبة والنبوة وأن أهل الملل كلهم يتولونه.
فإن قُلْتُ: ما بال إسماعيل عليه السلام لم ينكر وذلك
إسحق وعقبة! قُلْتُ: قد دل عليه في قوله: ﴿وجعلنا في
ذريته النبوة والكتاب﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو
قدره.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالكتاب! قُلْتُ: قصد به جنس الكتاب
حتى نخل تحته ما نزل على نريته من الكتب الأربعة التي
هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِغُورِهِ إِنَّكُمْ لَأَأْتُونَ النَّجْمَةَ مَا سَبَّحْتُمْ
بِهَا مِنْ آخَرٍ مِنْ الْمَلَكِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿ولوطاً﴾ معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه
و﴿الفاحشة﴾ الفعلة البالغة في القبح و﴿ما سبَّحْتُمْ بها
من أحد من العالمين﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك
الفعلة كأن قائلها قال: لم كانت فاحشة، فقيل له لَأَنْ أَحَدًا
قبلهم لم يقدم عليها أشمزازاً منها في طباعهم لإفراط
قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طبيعتهم وقذر
طباعهم قالوا: لم ينزل نكر على نكر قبل قوم لوط قط.
وقرئ ﴿إنكم﴾ بغير استفهام في الأوّل دون الثاني قال:
أبو عبيد وجنته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ورايت

(2) سورة محمد، الآية: 1.

(1) سورة مريم، الآية: 82.

الشيء لئلا أعذبهم فصددهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴿٣٨﴾.

﴿وعاداً﴾ منصوب بإضمار اهلكتنا لأن قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾⁽¹⁾ يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك وقد تبين لكم ذلك يعني: ما وصفه من إهلاكهم ﴿من﴾ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرت إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرّون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وكانوا مستبصرين﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ولكنهم لم يفعلوا، أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على السنة الرسل عليهم السلام ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

وَوَضَّعُوا لَهُمْ أَسْفَارَهُمْ فَبَصَّرُونَهَا ﴿٣٩﴾
وَوَضَّعُوا لَهُمْ أَسْفَارَهُمْ فَبَصَّرُونَهَا ﴿٣٩﴾

﴿سابقين﴾ فائتين انركهم أمر الله فلم يفوتوه.

كَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

الحاصب لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة لمدین وثمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون، الغرض تشبيهه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الرهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت الا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله:

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ رَبِّهِمْ آيَاتٍ كَثِيرًا وَمَتَّعَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا هُمْ بِلَهْمِهِمْ مُشْكِرُونَ ﴿٤١﴾
مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ رَبِّهِمْ آيَاتٍ كَثِيرًا وَمَتَّعَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا هُمْ بِلَهْمِهِمْ مُشْكِرُونَ ﴿٤١﴾

﴿وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت: معناه: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الرهن ووجه آخر وهو أنه إذا صح تشبيهه ما اعتمده في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الايمان لو كانوا يعلمون أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكانه قال: ﴿وإن أوهن﴾ ما يعتمد عليه في الدين عبادة الاوثان لو كانوا يعلمون ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بأجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقرتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الايمان إذا استقرتها بيتاً

يعنون نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحال قومه وامتيازه منهم الامتياز البين وأنه لا يستأهل ما يستأهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب، وقرئ لنجيبته بالتشديد والتخفيف وكذلك منجوك ﴿أن﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: كما أحس بمجيبهم فاجاته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَكَانُوا عَلَيْهَا أَقْبَصُ أَبْصَارٍ وَأُصْبَحُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي جَهَنَّمَ حَبَابًا ﴿٤٢﴾
وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَكَانُوا عَلَيْهَا أَقْبَصُ أَبْصَارٍ وَأُصْبَحُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي جَهَنَّمَ حَبَابًا ﴿٤٢﴾

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ وضاق بشانهم وبتدبير امرهم ذرعه أي: طاقته وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رعب الذراع بكذا إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت نراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرِبَ ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

إِنَّا مَرْسَلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْرًا مِنْ سَمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٣﴾

الرجز والرجس العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿منزلون﴾ مخففاً ومشدداً.

وَلَقَدْ رَءَوْهَا مِنْهَا رَبَّكَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ آلِ الْمَدِينَةِ الْمَكَانَ الَّذِي كَانُوا يَأْكُلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿منها﴾ من القرية ﴿آية بيئة﴾ هي آثار منازلهم الخربة وقيل: بقية الحجارة وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو ببينة.

وَلِئَلَّكَ مَدِينَةٌ مَسْجُودًا لِلْإِنسَانِ فَكَانُوا يُعَذِّبُونَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ لَمَّا وَرَّجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَمَنَّا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وارجوا﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة فاتم المسبب مقام السبب أو امرؤ بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا ﴿٤٦﴾

﴿والرجفة﴾ الزلزلة الشديدة وعن الضحاک صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت لها ﴿في دارهم﴾ في بلدهم وأرضهم أو في بيارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يلبس ﴿جاتمين﴾ باركين على الركب ميتين.

وَعَادًا وَكَوْمًا وَقَدْ بُعِثَ لَكُمْ مِنْ مَسْكُونَتِهِمْ ذُرِّيَّةٌ لَهُمْ

دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ. مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾.

والجوارح فقد روى عن حاتم كأن رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء، ثم يحوطها بعد أن يصلبها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم تأمره صلته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بصلته من الله إلا بعداً⁽³⁾، وعن الحسن رحمه الله: من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر فليست صلته بصلاة وهي وبال عليه، وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلى أنه ينتهي عن السيئات يومًا ما، فقد روي أنه قيل: لرسول الله ﷺ إن فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إن صلته لتردعه» وروى: أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركبهُ فوصف له فقال: إن صلته ستنهيه فلم يلبث أن تاب⁽⁶⁾ وعلى كل حال إن المراعي للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضًا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول: إن زيدًا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم «ولنذكر الله أكبر» يريد للصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بنكر الله كما قال: «فاسعوا إلى نكر الله»⁽⁷⁾ وإنما قال: ولنذكر الله ليستقل بالتعليل كانه قال: وللصلاة أكبر لأنها نكر الله أو ولنكر الله عند الفحشاء والمنكر ونكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولنكر الله إياكم برحمته أكبر من نكركم إياه بطاعته «وإله يعلم ما تصنعون» من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

قري: «تدعون» بالتاء والياء وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئًا «وهو العزيز الحكيم» فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلًا وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وتدبير. كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال:

وَبِأَنَّكَ الْأَشْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾.

«وما يعقلها إلا العالمون» أي: لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الاستار حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»⁽¹⁾.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾.

«بالحق» أي: بالغرض الصحيح⁽²⁾ الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ألا ترى إلى قوله: «إن في ذلك آية للمؤمنين» ونحوه قوله تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا»⁽³⁾ ثم قال: تلك ظن الذين كفروا.

أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الْمَكْتَبَةَ إِسْكُ الْمَكْتَبَةَ نَعْنِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾.

الصلاة تكون لطفًا في ترك المعاصي فكانها ناهية عنها.

فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهيه صلته؟ قلت: الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدمًا للتوبة النصوح متقيًا لقوله تعالى: «إنما يتقبل الله من المتقين»⁽⁴⁾ ويصلبها خاشعًا بالقلب

﴿وَلَا تَجِدُوا أُمَّةَ أَحْسَنَ مِنِّي إِلَّا يَأْتِيَنِي مِنِّي أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلًا مَّا نَأْتِيَنِي بِهِمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَاللَّهُمَّ وَرَدُّكُمْ وَجِدْ وَيَسِّرْ لَكُمْ سُبُلَكُمْ﴾ ﴿١١﴾.

«بالتي هي أحسن» بالخصلة التي هي أحسن وهو مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسورة بالأنابة كما قال: «ادفع بالتتي هي أحسن» «إلا الذين ظلموا» فاقترطوا في الاعتداء والعدا ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين أنوا رسول الله ﷺ وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات، فصل في تحسين الصلاة، والإكثار منها، (حديث: 3262).

(6) قال الزيلعي غريب، 46/3.

(7) سورة الجمعة، الآية: 9.

(1) نكره الثعلبي والوحيد في التفسير وابن الجوزي في الموضوعات، 43/3.

(2) قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد رديء.

(3) سورة ص، الآية: 27.

(4) سورة المائدة، الآية: 27.

ليس بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي.

فإن قُلْتُ: ما فائدة قوله: ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؟ قُلْتُ: نكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبًا الا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لإثباتك أنه تولى كتابته.

بَلْ مَرْءٌ مَّا كُنْتُ بَيِّنًا فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

فكنكك النفي ﴿بل﴾ القرآن. ﴿آيات بينات في صدور﴾ العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظًا في الصور يتلوه أكثر الأمة ظاهرًا بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة صورهم أناجيلهم⁽⁴⁾ ﴿وما يجحد﴾ بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

قريء آية وآيات أراونا هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل إبتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانتها بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أتخير على الله آياته فاقول أنزل علي آية كذا نون آية كذا مع علمي أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَسَدٌ وَيُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبيين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تنوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في كل مكان نون مكان، إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمه عظيمة لا تشكر، وتنكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل: ﴿أولم يكفهم﴾ يعني: اليهود أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك وقيل: إن ناسًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتف قد كتبوا فيها بعض ما

المؤدّن للجزية ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية فإن أولئك مجاللتهم بالسيف وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾⁽¹⁾ ولا مجادلة أشد من السيف، وقوله: ﴿قولوا أمانا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: ﴿ما حننكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا أمانا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم﴾⁽²⁾، ومثل ذلك الإنزال.

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمُ الْكِتَابُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِن مَّثَلِهَا مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصنفًا لسائر الكتب السماوية تحقيقًا لقوله: ﴿أمانا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾⁽³⁾ وقيل: وكما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم للكتاب﴾ هم: عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنْتُمْ تَلَوْنَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُمُ بِمِثْلِكَ بِأَنَّا لَآرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٥٣﴾

وأنت أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إنذا﴾ لو كان شيء من ذلك أي: من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو ﴿لارتاب﴾ مشركوا مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

فإن قُلْتُ: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أميًا وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صابقين محقين ولكن أهل مكة أيضًا على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب! قُلْتُ: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب فكانه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أميًا لارتابوا أشد الريب، فعين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتابهم وشيء آخر وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزلين

= البخاري في كتاب التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها، (الحديث: 7542).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(4) الطبراني في معجمه.

(1) سورة التوبة، الآية: 29.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (حديث: 6257).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في رواية حديث أهل الكتاب، (الحديث: 3644)، وأحمد في المسند 4/136. وأخرجه =

تعملون ﴿ أي: جزاءه.

بِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً لِّأُنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾.

معنى الآية أَنَّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً ولعمري أَنَّ البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، وقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما درنا وداروا أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت، وأضمر للهم المنتشر وأحس على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فَلله الحمد على ما سهل من تلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر وعن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد⁽⁵⁾ وقيل: هي في المستضعفين بنكة الذين نزل فيهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وإنما كان ذلك لأن أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهرائي الكفرة ﴿فإياي فاعبدون﴾ في المتكلم نحو إياه ضربته في الغائب وإياك عضتك في المخاطب والتقدير إياي فاعبدوا فاعبدون.

فإن قُلْتُ: ما معنى الفاء في ﴿فاعبدون﴾ وتقديم المفعول! قُلْتُ: الفاء جواب شرط محذوف لأن المعنى: إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصنق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد، وإن شسعت اتبعه قوله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعُهُمْ ﴿٥٧﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المنوق، ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَنْ أَعْرَجَ أَلْمِيلِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لنؤتيهم﴾ لتنزلنهم ﴿من الجنة﴾ علالى، وقرئ لنؤتيهم من النواء وهو النزول للإقامة يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً نحو ذهب، وأذهبته والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى

يقول: اليهود فلما أن نظر إليها القاهما وقال: وكفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم،⁽¹⁾ فنزلت والوجه ما نكرناه.

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَنِيَّ وَيَشَكُّكُمْ نَبِيَدًا بَعْلًا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾، فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ منكم وهو ما تعبدون من بون الله ﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون في صفتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿ولنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾⁽²⁾ كقول حسان، فشر كما لخير كما الفداء، وروي أَنَّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

وَسَتَجِدُنَا إِلَىٰ يَوْمِئِذٍ وَوَلَا أَجَلَ لِمُنَىٰ لِحَاةِ الْمُرِّ وَالْبَابُ وَيَأْتِيَهُمْ بَعْتُهُ وَهُمْ لَا بَشِيرِينَ ﴿٦٠﴾.

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيباً والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم امطر علينا حجارة من السماء كما قال: أصحاب الأيكة فاسقط علينا كسفاً من السماء ﴿ولولا أجل﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيرهم إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لجاءهم للعذاب﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة لما روي أَنَّ الله تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه ولا يستاصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة⁽³⁾ وقيل: يوم بدر وقيل: وقت فنائهم بأجلهم.

سَتَجِدُنَا إِلَىٰ يَوْمِئِذٍ وَوَلَا أَجَلَ لِمُنَىٰ لِحَاةِ الْمُرِّ وَالْبَابُ وَيَأْتِيَهُمْ بَعْتُهُ وَهُمْ لَا بَشِيرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿المحيطة﴾ أي: ستحيط بهم.

يَوْمَ يَشْتَرُهُمُ الْمَنَابِتُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُرُّوْنَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾.

﴿يوم يغشاهم للعذاب﴾، أو هي محيطة بهم في الدنيا لأن المعاصي التي توجبها محيطة بهم أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكانها الساعة محيطة بهم ويوم يغشاهم على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت و﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾⁽⁴⁾ و﴿ونقول﴾ قرئ بالنون والياء ﴿ما كنتم

(4) سورة الزمر، الآية: 16.

(5) نكرة الثعلبي في التفسير، وتقدم في النساء.

(1) أبو داود في العرائيل، باب: ما جاء في العلم (الحديث: 454).

(2) سورة سبأ، الآية: 24.

(3) قال الزليعي غريب، 49/3.

مَوَيْهَا لَيْقُولَنَّ اللَّهُ قُلِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣٧﴾

استحمد رسول الله ﷺ على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقولون: وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد، أو لا يعقلون ما تريد بقولك: الحمد لله ولا يفتنون لم حمدت الله عند مقالتهن.

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَيْبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿هذه﴾ فيها ازدياد للنسب وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، يريد ما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يترفقون ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكانها في ذاتها حياة⁽¹⁾ والحيوان مصدر حي وقياسه حيوان فقلبت الياء الثانية أوأ كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمي ما فيه حياة حيواناً قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتري من الحيوان وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة، والاضطراب كالنزون والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجئته على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة ﴿لو كانوا يعلمون﴾، فلم يؤثرها الحياة الدنيا عليها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله:

فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعْوًا اللَّهُ تَخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا جَنَنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿فإنذا ركبوا﴾؟ قُلْتَ: بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإنذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ كاشنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا ينكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهاً آخر وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهكم ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وأمنوا عادوا إلى حال الشرك.

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمْتِعُوا بِحَرَمِ الْبَيْتِ ﴿١٤٠﴾

واللام في ﴿ليكفروا﴾ محتملة أن تكون لام كي وكذلك في ﴿وليتمتعوا﴾ فيمن قراها بالكسر والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين

الغرف إما إجراؤه مجرى لنزلتهم ونبوئتهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم، وقرأ يحيى ابن وثاب فنعمة بزيادة الفاء.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، لما أمر رسول الله ﷺ: من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت، والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل.

وَكَلَّانَ مِنَ الذَّابَّةِ لَآ حَمَلٌ يَرُدُّهَا اللَّهُ يَرُدُّهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤٢﴾

﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفا عن حمله ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفارة وعن بعضهم رأيت البلبيل يحتكر في حضنيه ويقال: للقعق مخابئ إلا أنه ينسأها ﴿وهو السميع﴾ لقولكم نخشى الفقر والضيعة ﴿العليم﴾ بما في ضمائركم.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٤٣﴾

الضمير في ﴿سألتهم﴾ لأهل مكة ﴿فأني يؤفكون﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وإن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٤﴾

فإن قُلْتَ: الذي رجع إليه الضمير في قوله ﴿ويقدر له﴾ هو من يشاء فكان بسط الرزق وقدره جعلاً لواحد! قُلْتَ: يحتمل الوجهين جميعاً أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ تَرَكَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَآخَا بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ

(1) قال احمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزون والجولان والحيوان من ذلك والله أعلم.

التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترأوا مثل هذه الجراءة.

وَالَّذِينَ جَهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ لنزيينهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (2) وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لتأصروهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين (3).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم مكية

الرَّ ١٧

القراءة المشهور الكثيرة.

عُلِّيَتْ أَرْوَمُهُ ﴿١٧﴾

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيفلبون بفتح الباء والارض أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

فِي آدَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَنِي بَدْرٍ عَلَيْهِمْ سَكِينَةٌ ﴿١٧﴾

والمعنى: غلبوا في أبنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أبنى أرضهم إلى عدوهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أبنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أترعات وبيصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشتموا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة نريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ وأن تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (1).

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، ويأمر بعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قُلْتُ: هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حررت عليه وقلت: أنت وشانك، وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والأمر بالشيء مرید له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كائن تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فانت أهل ليقال: لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُورًا وَنُحَيْثُفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضاً ويتفاورون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فنكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذباً زعمهم إن الله شريكا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

وتكذيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعثوا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يضح لهم صدقه أو كذبه ﴿اليس﴾ تقرير لثوابهم في جهنم كقوله: أستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهزمة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثبون في جهنم وألا يستوجبون الثواب فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) سورة محمد، الآية: 17.

(3) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/

وقل هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوة للإسلام وعن أبي سعيد الخدري وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ بنصر عليكم تارة، وينصركم أخرى.

وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدُّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَمْلِكُونَ
﴿٦﴾ يَمْلِكُونَ ظَهْرًا مِنْ لَمِيْزَةِ الدُّنْيَا وَمَنْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَيْرُونَ ﴿٧﴾.

﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد كقولك لك على ألف درهم عرفاً لأن معناه اعترف لك بها اعترافاً ووعد الله ذلك وعداً لأن ما سبقه في معنى وعد.

نمهم الله عز وجل بانهم عقلاء في أمور الدنيا بله في أمر الدين وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب وعن الحسن بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أمدى هو أم جيد وقوله: ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله: ﴿لا يعلمون﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أيدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسدّه ليملك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا وقوله: ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملذاتها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر⁽²⁾، وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ و﴿غافلون﴾ خبره والجملة خبرهم الأولى وأن يكون تكريراً للأولى و﴿غافلون﴾ خبر الأولى وأية كانت فنكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومعلمها، وأنها منهم تتبع واليهم ترجع.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ
﴿٨﴾.

﴿في أنفسهم﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أو لم يحسبوا التفكير في أنفسهم أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكير لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقدت في قلبك وأضرمت في نفسك، وأن يكون صلة للتفكير كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره و﴿ما خلق﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه، ﴿أولم يتفكروا﴾ فيقولوا: هذا القول وقيل: معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إلا بالحق وأجل مسمى﴾ أي: ما خلقهما باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه

اجعل بيننا أجلاً أتاحك عليه والمنحابة المرهنة فنأحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلنا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال:

فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿٥﴾.

البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزياده في الخطر وماده في الأجل فجعلها مائة قلووس إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله وظهرت الروم على فارس يوم الحديدية وذلك عند رأس سبع سنين⁽¹⁾ وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين فأخذ أبو بكر الخطر من نرية أبي وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وقرئ غلبهم بسكون اللام والغلب والغلب مصدران كالجلب والجلب والحلب والحلب وقرئ ﴿غلبت الروم﴾ بالفتح وسيغلبون بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول وفي الثانية إضافته إلى الفاعل ومثالهما محرّم عليكم إخراجهم ولن يخلف الله وعده.

فإن قلت: كيف صحت المنحابة وإنما هي قمار؟ قلت: عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتج على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي: في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبيين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبيين يعني: أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبيين آخرًا ليس إلا بامر الله وقضائه وتلك الأيام ندلو لها بين الناس، وقرئ: ﴿من قبل ومن بعد﴾ علي الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل: قبلًا وبعداً بمعنى: أولاً وآخرًا و﴿ويومئذ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عز وجل من غلبتهم.

﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به المشركين من غلبة الروم وقيل: نصر الله أنه ولي بعض الظالمين بعضًا وفرق بين كلمهم حتى تفتانوا وتناقصوا

= حتى يطابق المبدل منه، وروي عن الحسن أنه قال: في تلاوته هذه الآية بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه، فيعلم أجيد هو أم رديء.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة الروم، (الحديث: 3193).

(2) قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله بقربه من النفي =

قرئ: ﴿عاقبة﴾ بالنصب والرفع و﴿السواى﴾ تانيث الاسوا وهو الأقبح كما أن الحسنى تانيث الاحسن والمعنى: انهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السواى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمّر أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدت للكافرين و﴿أن كذبوا﴾ بمعنى لأن كذبوا ويجوز أن يكون بمعنى أي: لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكنيب والاستهزاء كانت في معنى القول نحو نادي وكتب وما أشبه ذلك ووجه آخر وهو أن يكون أساؤا السواى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا وأن كذبوا عطف بيان لها وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإيهام.

اللَّهُ يَدْرَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُوعٌ ﴿١١﴾

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى ثوابه وعقابه، وقرئ بالياء والياء الإيلاس أي: يبقى بائساً ساكناً متحيراً يقال: نالطره فأبلس إذا لم ينبس ويشس من أن يحتج ومنه الناقاة المبلّس التي لا ترعو.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ لِلْجَاهِلِينَ ﴿١٢﴾

وقرئ: ﴿يبليس﴾ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

﴿من شركائهم﴾ من الذين عبدوهم من دون الله و﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي: يكفرون ببلهيتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتبوا شفعاؤا في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علماء بني إسرائيل وكذلك كتبت السواى بالف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ لِلْقَائِلِينَ ﴿١٤﴾

الضمير في ﴿يتفوقون﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه وعن الحسن رضي الله عنه هو تفريق المسلمين والكافرين هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل السافلين، وعن قتادة رضي الله عنه فرقة لا اجتماع بعدها.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ فَمِنْ فِي رَوْحِهِ يُعْجَبُونَ ﴿١٥﴾

﴿في روضة﴾ في بستان وهي الجنة والتكثير لإيهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء وفي أمثالهم أحسن من بيضة في روضة يريون بيضة النعامة ﴿يحجبون﴾ يسرون يقال حبره: إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن مجاهد

وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (1) كيف سمي تركهم غير راجعين إليه عبثاً، والباء في قوله: ﴿إلا بالحق﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد اشتراه وهو ملتبس بالسرج، واللجام غير منفك عنهما وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلّت: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟ قلّت: معناه: أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتنبهوا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير بون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذي بجر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

أَوَّلَ مَا يَبْرَأُونَ فِي الْأَرْضِ يُنظَرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَمَا أَنْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ فَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿أولم يسيروا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وانهم ﴿كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض﴾ وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لا تلول تثير الأرض﴾ (2) وقيل: لبقر الحرث المثيرة وقالوا: سمي ثوراً لإثارته الأرض وبقرة لأنها تبقرها أي: تشقها و﴿وعمروها﴾ يعني أولئك المدمرون ﴿أكثر مما عمروها﴾ من عمارة أهل مكة وادي غير ذي زرع مالههم إثارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها رأساً فما هو إلا تهكم بهم وبضعف حالهم في دنياهم لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة وهم أيضاً ضعاف القوى فقوله: ﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ أي: عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل كقوله: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ (3) وإن كان هذا أبلغ لأنه خالق القوى والقدر، فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم لأن حاله منافية للظلم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأَوْا أَنَّ كَذِبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهُ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٧﴾

(3) سورة فصلت، الآية: 15.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(2) سورة البقرة، الآية: 71.

يرضي الله عنه يكرمون، وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن أبي بكر بن عياش التيجان على رؤوسهم، وعن وكيع السماع في الجنة وعن النبي ﷺ أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم⁽¹⁾ وفي آخر القوم أعرابي، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي إن في الجنة لنهرًا حافتاه الأبار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة، قال الرولي: فسالت أبا الدرداء بم يتغنين قال: بالتسبيح، وروي: إن في الجنة لأشجارًا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لامتوا طربًا⁽²⁾.

وَأَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

﴿محضرون﴾ لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾⁽³⁾ لا يفتّر عنهم لما نكر الوعد والوعيد أتبعه نكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة، وقيل: الصلاة وقيل: لابن عباس رضي الله عنهما هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِندِي وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

وتلا هذه الآية ﴿تمسون﴾ صلاتا المغرب والعشاء و﴿تصبحون﴾ صلاة الفجر و﴿وعشيًا﴾ صلاة العصر و﴿تظفرون﴾ صلاة الظهر، وقوله: ﴿وعشيًا﴾ متصل بقوله: ﴿حين تمسون﴾ وقوله: ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ اعتراض بينهما ومعناه: إن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمده.

فَبِأَن قُلْتِ: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أن هذه الآية منبئة؛ قلت: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم، والقول الأكثر أن الخمس إنما فرضت بمكة وعن عائشة رضي الله عنها فرضت الصلاة ركعتين فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر⁽⁴⁾ وعن رسول الله ﷺ: «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾⁽⁵⁾، الآية، وعنه عليه السلام: «من قال حين

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿١٩﴾

﴿الحي من الميت﴾ الطائر من البيضة و﴿الميت من الحي﴾ البيضة من الطائر، وإحياء الأرض إخراج النبات منها و﴿وكذلك تخرجون﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون، والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحي وإخراج الحي من الميت وإحياء الميت وإماتة الحي، وقرئ الميت بالتشديد وتخرجون بفتح التاء.

وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ مِنْ تَرَابٍ مِّنْ ذُرِّ أُتْرَجٍ نَّسْرًا تَتَخِفُّونَ ﴿٢٠﴾

﴿خلقكم من تراب﴾ لأنه خلق أصلهم منه و﴿إذا﴾ للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرًا منتشرين في الأرض كقوله: وبئ منهما رجالًا كثيرًا ونساء.

وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

﴿من أنفسكم أزواج﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف، والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر و﴿وجعل بينكم﴾ التواد والتراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ولا لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة، أو رحم وعن الحسن ري الله عنه المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال: ورحمة منا وقال: ذكر رحمة ربك عبده، ويقال: سكن إليه إذا مال إليه كقولهم انقطع إليه وأطمأن إليه ومنه السكن وهو الألف المسكون إليه فعل بمعنى مفعول وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرق من قبل الشيطان.

وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ الْأَنْعَامِ وَالْوَبَاكُ

= وقصرها، باب: صلاة المسافرين، الحديث: (1 - 685).

(5) نكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 57/3.

(6) سورة الروم، الآية: 19.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، (الحديث: 5076).

(1) نكره الثعلبي في تفسيره وابن عدي في الكامل، زيلعي 55/3.

(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الثعلبي، 56/3.

(3) سورة المائدة، الآية: 37.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، الحديث: (350)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين =

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْلَمُهَا (١٧).

يكونا حالين أي: خائفين وطامعين. وقرئ ينزل بالتشديد.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ مَخْرُجُونَ (١٥).

ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكلهما بغير عمد ﴿بأمره﴾ أي بقوله: كونا قائمتين والمراد بإقامته لهما: إرابتة لكونتهما على صفة القيام بون الزوال وقوله ﴿إذا دعاكم﴾ بمنزلة قوله: يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجب الداعي المطاع مدعوه كما قال القائل:

دعوتك كليباً دعوة فكانما دعوت به ابن الطود أو هو أسرع
يريد بأن الطود الصدى، أو الحجر إذا تدهدى وإنما
عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بياناً لعظم ما
يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول: يا
أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا
قامت تنظر كما قال تعالى: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام
ينظرون، قولك: دعوته من مكان كذا كما يجوز أن يكون
مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك تقول: دعوت زيداً من
أعلى الجبل فنزل عليّ ودعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ.
فإن قلت: بم تعلق ﴿من الأرض﴾ أبالفعل أم بالمصدر!
قلت: هيئات إذا جاء نهر الله بطل نهر مقل.

فإن قلت: ما الفرق بين ﴿إذا﴾ و﴿إذا﴾؟ قلت: الأولى
للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب
الشرط، وقرئ تخرجون بضم التاء وفتحها.

وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَّهُ قَلْبٌ (١٦).

﴿قانتون﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون
عليه.

وَهُوَ الَّذِي يَدْرَأُ الْحَقَّ نُرّاً يُبِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٧).

﴿وهو أهون عليه﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على
أصولكم ويقضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة شيء
كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعذرون للصانع إذا
خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أول الغزو أخرق
وتسمون الماهر في صناعته معاوذاً تعنون أنه عاودها كرة
بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه.

الالسنة اللغات أو اجناس النطق واشكاله خالف عز
وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقيين متفقين
في همس واحد ولا جهرارة ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة
ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات
النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنوعها
ولاختلاف تلك وقع التعارف وإلا فلو انفقت، وتشاكلت
وكانت ضرباً واحداً لوقع التجامل والالتباس ولتعطلت
مصالح كثيرة وربما رايت توأمين يشتبهان في الحلية
فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في
المخالفة بين الحلي وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب
واحد وفرعوا من أصل فنوهم على الكثرة التي لا يعلمها
إلا الله مختلفون متفاوتون، وقرئ للعالمين بفتح اللام
وكسرهما ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا
العالمون﴾، هذا من باب اللف وترتيبه.

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَازِلُ بَالِيٍّ وَالنَّهَارِ وَأَيَّامُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٧).

ومن آياته منامكم وابتغواكم من فضله بالليل والنهار إلا
أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين لأنهما
زمانان والزمان والواقع فيه بشيء واحد مع إعانة اللف
على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاكم
فيهما والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني
ما دل عليه القرآن يسمونه بالأذان الواعية.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَدَاءً مَّوْتِهَا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (٢٤).

في ﴿يريككم﴾ وجهان إضمار أن وإنزال الفعل منزلة
المصدر وبهما فسر الممثل تسمع بالمعيدي خير من أن
تراه وقول القائل: وقالوا: ما تشاء فقلت الهو، إلى الإصباح
أثر ذي أثر ﴿خوفاً﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف
﴿وطمعا﴾ في الغيث وقيل: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر
وهما منصوبان على المفعول له.

فإن قلت^(١): من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل
الفعل المعلل والخوف والطمع ليسا كذلك! قلت: فيه وجهان
أحدهما أن المفعولين فاعلون في المعنى لأنهم راؤن، فكانه
قيل: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً والثاني أن يكون
على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وإرادة طمع
فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن

= يكون الفاعل متصفاً به مثاله، إذا قلت: جئتكم إكراماً لك، فقد
وصفت نفسك بالإكرام، فقلت: في المعنى جئتكم مكرماً لك، والله
تعالى وإن خلق الخوف والطمع لعباده، إلا أنه مقسّس عن
الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبيين
جميعاً. والله أعلم.

(١) قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار
قدرته، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما، وهي كونهما
مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بد من
التنبية على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول معنى قول
الحنابلة في المفعول له لا بد وأن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بد أن =

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: القاهر لكل مقدر الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن مجاهد المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله ومعناه وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده.

صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، وقال: الزجاج وله المثل الأعلى في السموات والأرض أي قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل يريد التفسير الأول.

فإن قلنا: أي فرق بين ﴿من﴾ الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ ﴿مما ملكت أيامكم من شركاء﴾؟ قلنا: الأولى للابتداء كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبويض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه: هل ترضون لأنفسكم وعببيكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء من غير تفصلة بين حرّ وعبد⁽³⁾، تهابون أن تستبدوا بتصرف نونهم وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضهم بعضاً من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبده له شركاء ﴿كنلك﴾ أي: مثل هذا التفصيل ﴿نفصل الآيات﴾ أي: نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير، والتشكيل لها ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة.

يَلِ أَعْيُنَ النَّاسِ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَيَعْبَرُونَ بِهَا لَوْلَا ذَلَّلْنَا لَكَ الْأَعْيُنَ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٩﴾

﴿الذين ظلموا﴾ أي: أشركوا كقوله تعالى: ﴿إن الشرك

فإن قلنا: لم أخرج الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدمت في قوله: ﴿هو علي هين﴾ هناك قصد الاختصاص وهو مجزء فقيل: هو علي هين وإن كان مستصعباً عنكم أن يولد بين هم وعاقرة وأما ههنا، فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى⁽¹⁾.

فإن قلنا: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثم إذا دعاكم﴾ حتى كانها فضلت على قيام السموات والأرض بأمرة، ثم هونت بعد ذلك! قلنا: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء⁽²⁾ وقيل: الضمير في عليه للخلق ومعناه: أن البعث أهون على الخلق من الإنشاء؛ لأن تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبداً من أن ينتقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد وقيل: الأهون بمعنى الهين ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وإن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رفيف المحال لأن الصارف يمنع وجوه الفعل كما تمنعه الإحالة وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله، وأن لا يفعله وإما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعداً من الامتناع كانت أخفها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به، ووصف في السموات والأرض على السنة الخلائق والسنة الدلائل وهو أنه القاهر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى:

(1) قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بنوب التبر لا بالحر، وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك. قال: في تقرير معنى قوله: وهو أهون عليه الأفعال، إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله، وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وإن لا، وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل، أما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل، وكانت أهون من الإنشاء.

(2) قال أحمد: إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بثم إيداناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها، وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإن الإعادة نكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمرة وقيامها ابتداء، وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن

= الإنشاء، ويعود الإشكال، والمخلص والله أعلم جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، وإن سلم أنها لتراخي المراتب فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه والله أعلم.

(3) قال أحمد: لقد ضل وصد عن السبيل فلا نواقفه ولا نرافقه، والحق أن لا واجب على الله تعالى، وكل ما نكره في هذا الفصل نزغات قدرية على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتة، فإن مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضع أن المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في حضيض الاعتزال بقي فله العصمة.

لظلم عظيم^(١) ﴿بغير علم﴾ أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كالهيمية لا يفكه شيء ﴿من أضل الله﴾ من خذله ولم يلف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَمَّا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلْتِبًا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْغَافِقِينَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

وإذا من الناس من دعوا ربهم مبيينين إليه ثم إذا أدأقهم ربه رحمة إذا فرق بينهم بينهم يشركون ﴿٣٢﴾

الضرر الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك، والرحمة الخلاص من الشدة واللام في.

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَمَتَّقُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ليكفروا﴾ مجاز مثلها في ليكون لهم عدواً ﴿فتمتعتوا﴾ نظير اعملوا ما شئتم ﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعك وقرأ ابن مسعود وليتمتعتوا.

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهْوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾

السلطان الحجة وتكلمه مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته، وما في ﴿بما كانوا﴾ مصرية أي بكونهم بالله يشركون، ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون ويحتمل أن يكون المعنى أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي: ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَأَيُّدِهِمْ إِذَا هُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وإذا أنقنا الناس رحمة﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فرحوا بها وإن تصيبهم سيئة﴾ أي: بلاء من جذب أو ضيق أو مرض والسبب فيها شؤم معاصيهم فنتظوا من الرحمة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْتُونَ ﴿٣٦﴾

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقظون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته.

فَتَابَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتِيمَ الْإِنسَابُ ذَلِكَ حَيْثُ لِلْيَتِيمِ يُرِيدُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْمُتَمَلِّحُونَ ﴿٣٧﴾

حق ذي القربى صلة الرحم، وحق المسكين وابن

﴿بغير علم﴾ أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كالهيمية لا يفكه شيء ﴿من أضل الله﴾ من خذله ولم يلف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَمَّا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلْتِبًا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْغَافِقِينَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

﴿فأقم وجهك للدين﴾ فقوم وجهك له وعمله غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسند إليه نظره وقوم له وجهه مقبلاً به عليه ﴿حنيفاً﴾ حال من المأمور أو من الدين ﴿فطرت الله﴾ أي: الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله وإنما أضمرت على خطاب الجماعة لقوله.

﴿مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَأَنفُوهُ وَأَمِيرًا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿مبنيين إليه﴾ ومبنيين حال من الضمير في الزموا وقوله: ﴿وأتقوه وأقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوف على هذا المضمرة والفطرة الخلقة ألا ترى إلى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوراً للعقل مساوفاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»⁽²⁾ وقوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»⁽³⁾ ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير.

فإن قلت: لم وجد الخطاب أولاً ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله ﷺ أولاً وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

مِنَ الَّذِينَ فَزَعُوا بِهِمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٦﴾

﴿من الذين﴾ بدل من المشركين ﴿فرحوا دينهم﴾ تركوا دين الإسلام، وقرئ ﴿فرحوا دينهم﴾ بالتشديد أي: جعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وكانوا شيعاً﴾

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (حديث: 1358)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (الحديث: 22 - 2658).

(1) سورة لقمان، الآية: 13.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (الحديث: 63

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره ﴿الذي خلقكم﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال ﴿هل من شركائكم﴾ الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها ﴿من يفعل﴾ شيئاً قط من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبت إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم ويجوز أن يكون الذي خلقكم صفة للمبتدأ والخبر هل من شركائكم، وقوله ﴿من نلکم﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ؛ لأن معناه من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتجيز شركائهم وتجهيل عبثهم.

ظَهَرَ النَّسَاءُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَمَأْهُمْ رِجْوْنًا ﴿٤١﴾

﴿الفساد في البر والبحر﴾ نحو الجذب والقحط وقلة الربيع في الزراعات والرياح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار، وعن ابن عباس أجذبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا: إذا انقطع القطر عميت نواب البحر وعن الحسن أن المراد بالبحر مدن البحر وقراه التي على شاطئه وعن عكرمة العرب تسمى الأمصار البحار، وقرئ في البر والبحر ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾، وعن ابن عباس ظهر الفساد في البر يقتل ابن آدم أخاه وفي البحر يان جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً، وعن قتادة كان ذلك قبل البعث فلما بعث رسول الله ﷺ رجع راجعون عن الضلال والظلم، ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ليذيقهم بعض عملوا لعلهم يرجعون﴾! قلت: أما على التفسير الأول فظاهر وهو أن الله قد أقسد أسباب دنياهم ومحققها ليعاقبهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، وأما على الثاني فاللام مجاز على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكانهم إنما أقسدوا وتسببوا لفسو المعاصي في الأرض لأجل ذلك، وقرئ لنذيقهم بالنون.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ودل بقوله: ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم،

السبيل نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رحمه الله لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين قاس سائر القرابات على ابن العم لأنه لا ولد بينهم.

فإن قلت: كيف تعلق قوله ﴿فأت ذا القربى﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء قلت: لما نكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه نكر ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يترك ﴿يريدون وجه الله﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه أي: يقصدون بمعرفهم إياه خالصاً وحقه كقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾، أو يقصدون جهة التقرب إلى الله لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا
آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٤٣﴾

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات سواء بسواء﴾^(١) يريد وما أعطيتكم أكلة الربا ﴿من ربا ليربوا في﴾ أموالهم ليزيد ويزكو في أموالهم، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي صدقة تبتغون به وجهه خالصاً لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ نور الإضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار، وقرئ: بفتح العين وقيل: نزلت في تقيف وكانوا يربون وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل، أو يهدي له ليعوضه أكثر مما وهب، أو أهدى فليست تلك الزيادة بحرام ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة وقالوا: الربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه، أو يجر منفعة والذي ليس بحرام أن يستدعي بهيته أو بهيته أكثر منها وفي الحديث المستغزر يثاب من هبته، وقرئ: وما آتيتم من ربا بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا وقرئ: لتربوا أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يزيدها وقوله تعالى: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه، فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون والمعنى المضعفون به لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ماء وجه آخر وهو أن يكون تقيده، فمؤتوه أولئك هم المضعفون والحنف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذاً والأول أملاً بالفائدة.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْسِكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَتَعْلَمُونَهُمْ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾

وَأَنْ مَا بُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي يَكُونُ سَبَبًا لِذَلِكَ.

قَالَ رَبِّهِ لِيَزِيدَ الْفَئِيرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ
بِوَيْبٍ يَصُدُّونَ (١٣).

القيم البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج
﴿مَنْ اللَّهُ﴾ إِمَّا أَنْ يَتَلَقَّ بِيَأْتِي فَيَكُونُ الْمَعْنَى مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ لَا يَرُدُّهُ أَحَدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا
يَسْتَيْمِنُونَ﴾ رُدُّهَا أَوْ بَرَدًا عَلَى مَعْنَى، لَا يَرُدُّهُ هُوَ بَعْدَ أَنْ
يَجِيءُ بِهِ وَلَا رُدُّهُ مِنْ جِهَتِهِ، وَالْمَرْدُ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى: الرَّدُّ
﴿يَصُدُّونَ﴾ يَتَصَدَّعُونَ أَي يَتَفَرَّقُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (١).

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَرَبِّ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ (١٤).

﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ مِنْ
الْمُضَارِّ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ ضَارًّا كُفْرُهُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ كُلُّ
مُضَرَّةٍ ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَي: يَسُوءُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا
يَسُوءُ لِنَفْسِهِ الَّذِي يَمْهَدُ فِرَاشَهُ، وَيُوطِئُهُ لِثَلَا يَصِيبُهُ فِي
مُضْجَعِهِ مَا يَنْبِيءُ عَلَيْهِ وَيَنْغُصُ عَلَيْهِ مَرَقَدَهُ مِنْ نَتْوٍ أَوْ
قَضَضٍ أَوْ بَعْضٍ مَا يُؤْذِي الرَّاقِدَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ، فَعَلَى
أَنْفُسِهِمْ يَشْفِقُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْمَشْفُوقِ أَمْ فَرَشْتَ فَاثَامَتْ
وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ضَرَرَ الْكُفْرِ
لَا يَعُودُ إِلَّا عَلَى الْكَافِرِ لَا يَتَعَدَّاهُ وَمَنْعَةُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ تَرْجِعُ إِلَى الْمُؤْمِنِ لَا تَتَجَاوَزُهُ.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ
(١٥).

﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿يَمْهَدُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لَهُ ﴿مَنْ
فَضْلُهُ﴾ مِمَّا يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ تَوْفِيَةِ الْوَاجِبِ مِنَ الثَّوَابِ
وَهَذَا يَشْبَهُ الْكِنَايَةَ لِأَنَّ الْفَضْلَ تَبِعَ لِلثَّوَابِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ
حُصُولِ مَا هُوَ تَبِعٌ لَهُ أَوْ أَرَادَ مِنْ عَطَائِهِ وَهُوَ ثَوَابُهُ؛ لِأَنَّ
الْفُضُولَ وَالْفَوَاضِلَ هِيَ الْأَعْلِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَتَكَرَّرَ
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَتَرَكَ الضَّمِيرَ إِلَى
الصَّرِيحِ لِتَقْرِيرِ أَنَّهُ لَا يَفْلَحُ عِنْدَهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ،
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ تَقْرِيرٌ بَعْدَ تَقْرِيرِ عَلَى
الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ.

وَمَنْ مَاتَ بِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْرِزَةً وَيُذَبِّكُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
أَنْفُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَتَقَرَّأَ مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَكْفُرَ تَشْكُرُونَ (١٦).

﴿الرِّيحُ﴾ هِيَ الْجَنُوبُ وَالشَّمَالُ وَالصَّبَا وَهِيَ رِيَاحُ
الرَّحْمَةِ، وَأَمَّا الدُّبُورُ فَرِيحُ الْعَذَابِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ
اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا» (٢)، وَقَدْ عُنِدَ الْأَغْرَاضِ فِي
إِرْسَالِهَا وَأَنَّهُ أُرْسِلَتْ لِلبَّشَارَةِ بِالغَيْثِ وَالْإِذَاةِ الرَّحْمَةِ وَهِيَ

نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع
هبوب الريح وزكاه الأرض قال رسول الله ﷺ: إذا كثرت
المؤتفكات زكت الأرض (٣) وإزالة العفونة من الهواء وتندرية
الحبوب وغير ذلك، ﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر عند
هبوبها، وإنما زاد ﴿بإمره﴾ لِأَنَّ الرِّيحَ قَدْ تَهَبَ، وَلَا تَكُونُ
مُؤَاتِيَةً فَلَا بَدَّ مِنْ إِرْسَاءِ السَّفِينِ وَالِاحْتِيَالِ لِحَبْسِهَا وَرَبِمَا
عَصَفَتْ فَأَغْرَقَتْهَا ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ يَرِيدُ تِجَارَةَ
الْبَحْرِ، وَلِتَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهَا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بِمَ يَتَعَلَّقُ وَلِيُنِيقَكُمْ! قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ أَنْ يَكُونَ
مَعطُوفًا عَلَى مَبْشَرَاتٍ عَلَى الْمَعْنَى كَأَنَّهُ قِيلَ: لِيَبْشُرَكُمْ
وَلِيُنِيقَكُمْ، وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحْنُوفٍ تَقْدِيرُهُ وَلِيُنِيقَكُمْ وَلِيَكُونَ كَذَا
وَكَذَا أُرْسِلْنَا هَا خِطَرُ الطَّرِيقِ إِلَى الْغَرَضِ بِأَنْ أُدْرَجَ تَحْتَ
نَكَرِ الْإِنْتِصَارِ وَالنَّصْرِ نَكَرِ الْفَرِيقَيْنِ، وَقَدْ أَخْلَى الْكَلَامَ أَوَّلًا
عَنْ نَكَرِهِمَا وَقَوْلِهِ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا مِنْ قَوْمِهِ فَأَخَذَهُمُ بِالْبَاطِلِ فَلَأَنقَضْنَا بَيْنَ
الَّذِينَ أَلْمَزُوا رَبَّكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧).

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعْظِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
وَرَفْعٌ مِنْ شَانِهِمْ وَتَاهِيلٌ لِكِرَامَةِ سَنِيَةِ وَإِظْهَارٌ لِفَضْلِ
سَابِقَةٍ وَمِزِيَّةٍ حَيْثُ جَعَلَهُمْ مُسْتَحْقِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَنْصُرَهُمْ
مُسْتَوْجِبِينَ عَلَيْهِ أَنْ يَظْهَرَهُمْ وَيُظْفِرَهُمْ، وَقَدْ يَوْقِفُ عَلَى
حَقًّا وَمَعْنَاهُ وَكَانَ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ حَقًّا ثُمَّ يَبْتَدَأُ عَلَيْنَا نَصْرَ
الْمُؤْمِنِينَ وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٌ يَرُدُّ عَنْ
عَرَضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤) ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تَنْفِثُ سَحَابًا مَبْسُطَةً فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُ لِكُلِّ أُمَّةٍ قَدْرًا مِمَّا كَفَرَ مِنَ الرِّيحِ وَإِذَا صَابَ بِرِيحٍ مِنْ شَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ (١٨).

﴿فِيْبَسْطُهُ﴾ مُتَصَلًّا تَارَةً ﴿وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا﴾ أَي قَطْعًا
تَارَةً ﴿فَتُرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾ فِي التَّارَتَيْنِ
جَمِيعًا وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ سَمَتِ السَّمَاءِ وَشَقَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وَبِإِصَابَةِ الْعِبَادِ إِصَابَةُ بِلَادِهِمْ
وَأَرَاذِلِهِمْ.

لَنْ كَاتِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتْلَبِك (١٩).

﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ وَالتَّوَكُّيدِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (٥).

وَمَعْنَى التَّوَكُّيدِ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَهْدَهُمُ بِالْمَطَرِ قَدْ
تَطَاوَلَ وَبَعْدَ فَاسْتِحْكَامِ يَأْسِهِمْ وَتَمَادِي إِبْلَاسِهِمْ فَكَانَ
الِاسْتِشَارَةُ عَلَى قَدْرِ اغْتِمَامِهِمْ بِذَلِكَ.

(1) سورة الروم، الآية: 14.

(2) أخرجه أبو يعلى، (الحديث رقم: 2456).

(3) قال الزيلعي غريب، 60/3.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن
عرض المسلم (الحديث رقم: 1931)، وأحمد في المسند 6/449.

(5) سورة الحشر، الآية: 17.

ضعافًا ونلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة وتلك حال القوة إلى الاكتهال وبلوغ الأشد، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم وقيل: من ضعف من النطف كقوله تعالى: ﴿مَنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾⁽²⁾ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَسِّرُ الْمُجْرِمِينَ مَا لَيْسُوا بِرَّ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ⁽³⁾.

﴿السَّاعَةَ﴾ القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة كما تقول: في ساعة لمن تستعجله وجرت علمًا لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة، وأرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث وفي الحديث ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون قالوا: لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة⁽³⁾ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقدرُونَ وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم أو ينسون أو يكتنبون أو يخمنون ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي مثل ذلك الصنف كانوا يصرفون عن الصلوة والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق، أو مثل تلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

وَقَالَ الَّذِينَ أُرُوا آلِهَتَهُمْ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِكْرَامًا يُؤْتَى فَمَكَدًا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁽⁴⁾.

القاتلون هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ﴿في كتاب الله﴾ في اللوح أو في علم الله وقضائه أو فيما كتبه أي أوجبه بحكمته ربنا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوه على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريهم على إنكار البعث بقولهم ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه.

فَرِيضَةٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ⁽⁵⁾.

فإن قلت: ما هذه الفاء وما حقيقتها قلت: هي التي في قوله، فقد جئنا خراسانا، وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال: إن صح ما قلت من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وأن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث، فهذا يوم البعث أي: فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث بالتحريك ﴿لا ينفع﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يستعْتَبُونَ﴾ من قولك: استعْتَبني فلان فأعتبت أي: استرضاني فأرضيته وذلك إذا

نَظَرَ إِلَى مَا نَسَرَ رَبَّهُ اللَّهُ حَكِيمٌ بِنِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِي السُّوْفَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽⁶⁾.

قرئ: أثر وأثار على الوحدة والجمع وقرأ أبو حيوة وغيره كيف تحيي أي الرحمة ﴿إن ذلك﴾ يعني: أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من المقدرات قادر وهذا من جملة المقدرات ببليال الإنشاء ﴿فراوه﴾ فراوا أثر رحمة الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجح الضمير إلى معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّوهُ مُصَفَّرًا لَطَلُوا مِنْ بَعْدِهِ يُكْفَرُونَ⁽⁷⁾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ السُّوْفَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَعْيَاءَ إِذَا نَلَّوْا مَثِيرِينَ⁽⁸⁾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي السُّمِيِّ عَنْ سَلْبَتِهِمْ إِنْ سَمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ⁽⁹⁾.

ولئن هي اللام الموطئة للقسم نخلت على حرف الشرط و﴿لظلوا﴾ جواب القسم سد مسد الجوابين أعني جواب القسم وجواب الشرط ومعناه: ليظللن نهم الله تعالى بانه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أنقذهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحًا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المنمومة كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقتنطوا وأن يشكروا نعمته ويحموه عليها فلم يزيوا على الفرح والاستبشار وأن يصبروا على بلائه، فكفروا والريح التي اصفر لها النبات يجوز أن تكون حرويًا وحرجفًا، فكلتاهما مما يصوح له النبات ويصبح هشيمًا وقال مصفرًا؛ لأن تلك صفة حادثة وقيل: فراوا السحاب مصفرًا لأنه إذا كان كذلك لم يمطر. قرئ: بفتح الضاد وضمها وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قراتها على رسول الله ﷺ من ضعف فاتقاني من ضعف⁽¹⁾.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ⁽²⁾.

وقوله: ﴿خلقكم من ضعف﴾ كقوله: خلق الإنسان من عجل يعني: أن أساس أمركم وما عليه جبلتكم وبينتكم الضعف وخلق الإنسان ضعيفًا أي: ابتدأنكم في أول الأمر

(3) لخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزمر، باب: «ونفخ في الصور فمصق...» (الحديث رقم: 4814)، ومسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين الفتنين (الحديث رقم: 141 - 1955).

(1) لخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الروم (الحديث رقم: 2936) وأبو داود في كتاب: الحروف والقراءات (الحديث رقم: 3978).

(2) سورة السجدة، الآية: 8.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان مكية

التر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٦﴾

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذي الحكمة أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد. هُدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُتَّيِّبِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الصَّالَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَّمَ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات والعمل فيها ما في تلك من معنى الإشارة وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ﴿للمحسنين﴾ للذين يعملون الحسنات وهي التي نكروها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الاعمى: الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعاً حكى عن الأصمعي أنه سئل عن الاعمى فأنشده ولم يزد أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائلين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها، اللهم كل باطل الهوى عن الخير وعماً يعني.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَرِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِعَرِّ عَرِيرٍ وَيَحْدَهُمُ هُرُوقُ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿لهو الحديث﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وقصول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتعلم الموسيقى وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فانا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطمعنيه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن»⁽²⁾ وعنه ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر

كنت جانباً عليه، وحقيقة اعتبته أنلت عتبه الا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فاعتبوا بالصيلم كيف جعلهم غضاباً، ثم قال فاعتبوا أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب، والمعنى لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى: ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتين؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته ﴿ولقد﴾ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها.

وَلَقَدْ صَرَبَآ لِّلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَاتٍ لِّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا سَأَرْنَا إِلَىٰ بَطُولُونَ ﴿٨﴾

وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصبتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومع اسماعهم حديث الآخرة إذا جتتهم بأية من آيات القرآن قالوا: جتتنا بزور وباطل.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ثم قال: مثل تلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة ومعنى طبع الله منع الإلطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه، ولا تغني عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو، ولا تنجح فيه فوق ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها فكانه قال: كذلك تقسو وتصدا قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

فَأَسْرِبْ إِنَّا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَجِزُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿فأصبر﴾ على عدواتهم ﴿أن وعد الله﴾ بنصرتك وإظهار بينك على الدين كله ﴿حق﴾ لا بد من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم تلك وقرئ: بتخفيف النون، بقرا ابن أبي إسحاق ويعقوب ولا يستحقنك أي: لا يفتنك فيملوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»⁽¹⁾.

(1) نكحه الثعلبي وابن مردويه والواحد في التفسير، الزيلعي 63/3. = المغنيات (الحديث رقم: 1282)، وأحمد في المسند 264/5.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع=

الأولى حال من ﴿مستكبراً﴾ والثانية من ﴿لم يسمعها﴾ ويجوز أن تكونا استئنافين والأصل في كان المخففة كأنه والضمير ضمير الشأن.

خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الرَّزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾.

﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران مؤكداً الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره لأن قوله لهم: جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقاً فمدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعاً قوله لهم: جنات النعيم ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه يقدر على الشيء وضده فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء وهو ﴿الحكيم﴾ لا يشاء إلا ما توجه الحكمة والعدل.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِعَمْرِ رَوَّحًا وَالْفَنِّ فِي الْأَرْضِ رَوَّحِي أَنْ تَوَيْدَ بِكُمْ وَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَرْكَانًا مِنَ السَّمَاءِ مَا هُنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾.

﴿ترونها﴾ الضمير فيه للسَّمَوَاتِ، وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾ كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف ولا رمح تراني.

فإن قلت: ما محلها من الإعراب؟ قلت: لا محل لها لأنها مستأنفة أو هي في محل الجر صفة للعمد أي بغير عمد مرثية يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما نكر من مخلوقاته.

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَارُوقًا مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾.

والخلق بمعنى المخلوق و ﴿الذين من دونه﴾ آلهتهم بكتهم بان هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه فاروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَمَمْنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٩﴾.

هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل: كان من أولاد أزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل: مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقبل له فقال: ألا أكتفي إذا كفتي وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان راعياً أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا

على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت،⁽¹⁾ وقيل: الغناء منغدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب.

فإن قلت: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث! قلت: معناه التبيين وهي الإضافة بمعنى من وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقولك: صفة خز وباب ساج والمعنى من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث، ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش⁽²⁾، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعية كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه، وقوله: يشتري إما من الشراء على ما روي عن النضر من شراء كتب الأعاجم أو من شراء اللقيان وأما من قوله: اشتروا الكفر بالإيمان أي: استبدلوه منه واختاروه عليه وعن قتادة اشتراؤه استحبابه يختار حديث الباطل على حديث الحق وقرئ: ﴿ليضل﴾ بضم الياء وفتحها و﴿سبيل الله﴾ دين الإسلام أو القرآن.

فإن قلت: القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان: أحدهما ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ولا يصنف عنه ويزيد فيه ويمده فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصد الناس عنه والثاني: أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة فدل بالرديف على المردوف.

فإن قلت: ما معنى قوله ﴿بغير علم﴾؟ قلت: لما جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى: ﴿فما رحبت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها، وقرئ: ﴿ويتخذها﴾ بالنصب والرفع عطفاً على يشتري أو ليضل والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة كقوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجاً﴾.

وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِ مَائِنًا وَلَنْ مُسَكَّرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقَرَّ قَسْرُهُ يَعْدَابُ أَلِيمٍ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْنُ أَلَيْبٍ ﴿٢١﴾.

﴿ولئى مستكبراً﴾ زاماً لا يعبا بها ولا يرفع بها رأساً. تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كان في أننيه وقرأ﴾ أي ثقلاً ولا قر فيهما وقرئ: بسكون الـذال.

فإن قلت: ما محل الجملتين المصدرتين بكان! قلت:

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(1) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: للتجارات، باب: ما لا يحل بيعه (الحديث رقم: 2168)، رواه الطبراني وأبو يعلى.

وَأَتَّعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

أي ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهنا على وهن﴾ كقولك: رجع عودًا على بدء بمعنى يعود عودًا على بدء وهو في موضع الحال، والمعنى: أنها تضعف ضعفًا فوق ضعف أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازادات ثقلاً وضعفًا، وقرئ: ﴿وهنا على وهن﴾ بالتحريك عن أبي عمر ويقال: وهن يوهن ووهن يهن وقرئ: ﴿وفصله﴾ ﴿إن اشكر﴾ تفسير لوصينا.

﴿ما ليس لك به علم﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء⁽²⁾ يريد الأصنام كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾⁽³⁾ ﴿معرفة﴾ صحابيًا أو مصاحبًا معروفًا حسنًا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من اناب إلي﴾ يريد واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما في الدنيا، ثم إلي مرجعك ومرجعهما فاجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما علم بذلك حكم الدنيا، وما يجب على الإنسان في صحبتها ومعاشرتها من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه وما لهما من الموابج التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة وروي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه وفي القصة أنها مكثت ثلاثًا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فإها يعود وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفسًا فخرجت لما ارتدت إلى الكفر.

فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قلت: فقوله: ﴿حملته أمه وهنًا على وهن وفصله في عامين﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين نكر ما تكابده الأم وتعانیه من المشاق والمتاعب في حمله وفصله هذه المدة المتطاوله إيجابًا للتوصية بالوالدة خصوصًا وتنكيرًا بحقها العظيم مفرودًا⁽⁴⁾ ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟ «أمك، ثم أمك ثم أمك» ثم قال: بعد ذلك ثم: «أباك»⁽⁵⁾ وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في

بوصيته وقال عكرمة والشعبي: كان نبيًا وقيل: خَيْرَ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة⁽¹⁾ وعن ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطًا وعن مجاهد كان عبدًا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين، وقيل: كان نجارًا وقيل: كان راعيًا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة وعنه أنه قال: لرجل ينظر إليه إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض، وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألسنت الذي ترى ترعى معي في مكان كذا قال: بلى قال: ما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني وروي أنه نخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأنكرته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها، وقال: نعم، لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود: بحق ما سميت حكيماً وروي أن مولاه أمره بنبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج لللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين، فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما: أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا وعن سعيد بن المسيب أنه قال لاسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان ﴿إن﴾ هي المفسرة لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبه الله سبحانه على أن للحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله، والشكر له حيث فسّر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غنى﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حميد﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

وَلَا قَالُ قَسَمٌ لِأَتِيَهُ وَهُوَ بِعَظْمٍ يَبِيئُ لَا تَشْرِكُ بِاللهِ إِنَّكَ أَتَرَكُ لَقَطْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾.

قيل كان اسم ابنه أنعم وقال الكلبي: اشكم وقيل: كان ابنه وامراته كافرين فما زال بهما حتى أسلما ﴿الظلم عظيم﴾ لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً أُمَّهُ رَمَامًا عَلَّ وَهِيَ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا

== البر والصلة، (الحديث رقم: 5971)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، والأب، باب: بر الوالدين، (الحديث رقم: 3548/1).

(4) قال أحمد: هو من باب قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي ما ليس بالله فيكون لك علم بالإلهمية، وليس كما نكره في قول فرعون: ما علمت لكم من إله غيري، وقد من معناه فيما تقدم.

(5) قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: أن اللام من عمل الولد قبل الحلم جله، وهو مما يفيد تأكيد حقها والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا بعد بين وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة وقطرة من بحرهما، وأعلى درجات الحكماء تحط عن أنبي درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره، وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، (الحديث رقم: 5139)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في بر الوالدين، (الحديث: 1897)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ==

حدثه بنفسه:

أحمل أمي وهي الحماله ترضعني الدرّة والعلاله
ولا يجازي والدفعاله

فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين! قلت: المعنى في توقيتها بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم إن علمت أنه يقوي على الطعام فلها أن تطفمه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾⁽¹⁾ وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاعة سنتان لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه فمدة الرضاع ثلاثون شهراً وعن أبي حنيفة إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام، ثم أرضعته لم يكن رضاعاً وإن أكل أكلاً ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته فهو رضاع محرم.

يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ نَكَحَ الرَّقْءَ مِنْ حَرَمٍ فَكَفَّ فِي سَخَرٍ اَوْ فِي اَلْسَخَرِ اَوْ فِي اَلْاَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللهُ اِنْ اللهُ لَكَلِيْمٌ خَبِيْرٌ ﴿١٧﴾

قري: ﴿منقال حبة﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر والقماءة كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة⁽²⁾، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يات بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خبير﴾ عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها، ومن قرأ بالرفع كان ضمير القصة وإنما أنت المنقال لإضافته إلى الحبة كما قال. كما شرقت صدر القناة من الدم، وروي أن ابن لقمان قال له: أرايت الحبة تكون في مقل البحر أي في مغاصه يعلمها الله فقال: إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض وهي السَّجِّين يكتب فيها أعمال الكفار، وقري: فتكن بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر في وكنته وهي مقره ليلاً.

يَبْنِيْ اَقْبِرَ الصَّلَاةَ وَاَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ الْاَمْرِ ﴿١٧﴾

﴿واصبر على ما أصابك﴾، يجوز أن يكون عاماً في

كل ما يصيبه من المحن وأن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أذى من يعيئهم إلى الخير وينكر عليهم البشر ﴿إن ذلك﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»⁽³⁾ أي لم يقطعه بالنية إلا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام»⁽⁴⁾ ومنه: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمهم» وقولهم: عزمة من عزمات ربنا ومنه عزمات الملوك، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده عزمت عليك إلا فعلت كذا إذا قال: ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله، ولا منبوحة في تركه وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ويجوز أن يكون مصدرًا في معنى الفاعل أصله من عازمات الأمور من قوله تعالى: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ كقولك: جد الأمر وصنق القتال وناهيك بهذه الآية مؤنثة يقدم هذه الطاعات وأنها كانت مأمورًا بها في سائر الأمم وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موسى بها في الأديان كلها.

وَلَا تُصِرِّمَ عَيْنَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ فِي الْاَرْضِ مَرِحًا اِنَّ اللهَ لَا يَهْدِيْ كُلَّ مُتَعَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٨﴾

تصاعر وتصعر بالتشديد والتخفيف يقال: أصعر خده وصعره وصاعره كقولك: أعلاه وعلاه وعلاه بمعنى والصعر والصيد داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون. أراد ﴿ولا تمش﴾ تمرح ﴿مرحاً﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحاً، ويجوز أن يريد ولا تمش لأجل المرح والأشر أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك لا لكفاية مُمهم بيني، أو نديوي ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس﴾⁽⁵⁾ والمختال مقابل للماشي مرحاً وكذلك الفخور للمصعر خده كبيراً.

وَأَصْبِرْ فِي سَبِيْكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُهَيَّبِ ﴿١٨﴾

﴿واقصد في مشيك﴾، وأعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين لا تدب بيبب المتماوتين ولا تثب وثيب الشطار قال رسول الله ﷺ: سرعة المشي تذهب بها المؤمن⁽⁶⁾

(1) سورة البقرة، الآية: 233.

(2) قال أحمد: يعني: أنه تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من واد قولها كأنه علم في رأسه نار.

(3) نكره الزيلعي في مناصب الراية، (433/2).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: النية في الصيام (الحديث:

2454) وأخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء لا صيام = (6) رواه أبو نعيم في الحلية 10/290.

= لمن لم يعزم من الليل (الحديث: 730) وأخرجه النسائي في كتاب: الصيام، باب: نكر اختلاف الناقلين (الحديث: 2330) وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام، باب: ما جاء في قرض الصوم (الحديث: 1700).

(5) سورة الأنفال، الآية: 47.

ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه.

فإن قُلْتُ: فما معنى الظاهرة والباطنة قُلْتُ: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها وقد أكثروا في ذلك فعن مجاهد الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة وعن الحسن رضي الله عنه الظاهرة الإسلام والباطنة الستر، وعن الضحك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروي في دعاء موسى عليه السلام إلهي بلني على أخفى نعمتك على عيالك، فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس ويروي أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس⁽²⁾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ مَا بَاءَنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنَ السَّائِقِينَ يَا عَادِ الْتَعِيرِ ﴿١٦﴾.

معناه (١) يتبعونهم ﴿لو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِزَّةُ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿ومن يسلم﴾ بالتشديد يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله.

فإن قُلْتُ: ماله عدي بآلى وقد عدى باللام في قوله بلى من أسلم وجهه لله! قُلْتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله أي خالصاً له ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من باب التمثيل مُثَلَّتْ حال المتوكل بحال من أراد أن يتلى من شاقق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿والى الله عاقبة الأمور﴾ أي هي صائرة إليه.

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَّا نَا مَرِيحُهُمْ فَنَيْبُكُمْ يَمَّا عِيلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾.

قرئ يحزنك ويحزنك من حزن وأحزن والذي عليه الاستعمال المستفيض أحزنه ويحزنه، والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيفه للإسلام فإن الله عز وجل دافع كيدته في نحره ومنقته منه ومعاقبه على عمله ﴿إن الله﴾ يعلم

وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع⁽¹⁾ فلإنما أرادت السرعة المرتفعة عن بسبب المتماوت، وقرئ: ﴿واقصد﴾ بقطع الهمزة أي: سد في مشيك من أقصد الرامي إذا سد سهمه نحو الرمية ﴿واقضض من صوتك﴾ وانقص منه واقصر من قولك: فلان يقضض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿انكر الأصوات﴾ أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل في الذم واليلبغ والشثيمة وكذلك نهاقه ومن استفحاشهم لنكره مجرداً وتفاليهم من اسمه أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأننين كما يكنى عن الأشياء المستقنرة وقد عد في مساوي الآداب أن يجري نكر الحمارة في مجلس قوم من أولى المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمارة استنكافاً، وإن بلغت منه الرحلة فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقاً مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التشبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه وتذنيه على أنه من كراهة الله بمكان.

فإن قُلْتُ: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؛ قُلْتُ: ليس المراد أن ينكر صوت كل واحد من أحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وانكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾.

﴿وما في السموات﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وما في الأرض﴾ البحار والأنهار والمعادن والنبات، وما لا يحصى ﴿واسبغ﴾ وقرئ: بالسبين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول: في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سالخ صالح وقرئ: نعمه ونعمة ونعمته.

فإن قُلْتُ: ما النعمة! قُلْتُ: كل نفع قصد به الإحسان والله تعالى خالق العالم كله نعمة؛ لأنه إما حيوان وإما غير حيوان فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان من حيث أن إيجاده حياً نعمة عليه لأنه لولا إيجاده حياً لما صح منه الانتفاع وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة.

فإن قُلْتُ: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان؛ قُلْتُ: لأنه لا يخلقه إلا لغرض وإلا كان عبثاً والعبث لا يجوز عليه،

(2) قال الزيلعي غريب جداً 77/3.

(1) قال الزيلعي غريب، وفي النهاية لابن الأثير، عن عائشة: كان عمر إذا مشى أسرع... وعن ابن سعد عن الشفاء بنت عبد الله 76/30.

ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه.

نِيْمَهُمْ وَيَلَا تُمْ نَضَطْرَهُمْ إِلَّا عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٤﴾

وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال قُلْتُ: هو كقوله: وقد اغتدى والطير في وكناتها، وجئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف ويجوز أن يكون المعنى وبحرها والضمير للأرض.

فإن قُلْتُ: لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قُلْتُ: أريد تفصيل الشجر وتفصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا قد بريث أقالماً.

فإن قُلْتُ: الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثرير لا التقليل، فهلا قيل كلم الله! قُلْتُ: معناه: إن كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت جواباً لليهود لما قالوا قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة وقيل: إن المشركين قالوا: إن هذا يعنون الوحي كلام سينفذ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ وهذه الآية عند بعضهم مندية وأنها نزلت بعد الهجرة وقيل: هي مكية وإنما أمر اليهود وقد قرئش أن يقولوا لرسول الله ﷺ الست تتلوا فيما أنزل عليك إنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء ومثله لا تنفذ كلماته وحكمه.

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيِيكُمْ إِلَّا كَتَبَ وَرَجَدَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٥﴾

﴿إلا كنفس واحدة﴾ إلا كخلقها وبعثها أي سواء في قدرته القليل والكثير. الواحد والجمع لا يتفاوت وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل وقد تعالى عن ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل صوت، ويبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فذلك الخلق والبعث.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ اللَّسْمَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَمْرٍ إِذْ لَمْ يُسَمِّ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَمَلَّونَ خَبِيرٌ ﴿٢٦﴾

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر وعن الحسن الأجل المسمى يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ دل أيضاً بالليل والنهار وتعاقيهما وزياتهما ونقصانهما، وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب وإباحتها بجميع

﴿نمتعهم﴾ زماناً ﴿قليلاً﴾ بنيامهم ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرماقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه^(١) والغلط مستعار من الأجزاء الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذب.

وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

﴿قل الحمد لله﴾ أزم لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

﴿إن الله هو الغني﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد وإن لم يحمده.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾

قري: ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفًا على اسم إن وبالرفع عطفًا على محل إن ومعمولها على ولو ثبت كون الأشجار أقالماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر، أو على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أن الأشجار أقالم في حال كون البحر ممدوداً وفي قراءة ابن مسعود وبحر يمدّه على التكثرير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول. وقري يمدّه ويمدّه وبالطاء والياء.

فإن قُلْتُ: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أن الشجر أقالم والبحر ممداد قُلْتُ: أغنى عن نكر المداد قوله: يمدّه لأنه من قولك مدّ الدواة وأمدّها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة ممداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صلباً لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الأرض أقالم والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقالم وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقالم والممداد كقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾^(٢).

فإن قُلْتُ: زعمت أن قوله والبحر يمدّه حال في أحد

= إخبار عن اضطرار وبإذلال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول: يرون الموت قداساً وخلفاً فيختارون الموت اضطراراً

(2) سورة الكهف، الآية: 109.

(1) قال احمد: وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابسون من النار يطلبون البهد، فيرسل الله عليهم الزمهرير، فيكون عليهم كشدة اللهب، فيتمنون عود اللهب اضطراراً، فهو=

أعمال الخلق على عظم قدرته وحكمته.

فإن قُلْتَ: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى هو من تعاقب الحرفين! قُلْتَ: كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى تريد يجري لإبرك أجل مسمى تجعل الجري مختصاً بإبرك أجل مسمى ألا ترى أن جري الشمس مختص بأخر السنة وجري القمر مختص بأخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذلك﴾ الذي وصف من عجائب قدرته، وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأن من لونه باطل الإلهية.

ذَلِكَ يَأْنُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ ﴿٣٥﴾

﴿وأن الله هو العلي﴾ الشان ﴿الكبير﴾ السلطان أو تلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق وأن لها غيره باطل وأن الله هو العلي الكبير عن أن يشرك به.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ جَمْرِي فِي الْبَحْرِ يَبْعَثُ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٦﴾

قري: ﴿الفلك﴾ بضم اللام، وكل فُعل يجوز فيه فُعل كما يجوز في كل فعل فعل على مذهب التعويض، وينعمات الله بسكون العين وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿بنعمة الله﴾ بإحسانه ورحمته ﴿صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا المؤمن فكانه قال: إن في تلك آيات لكل مؤمن.

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَاُ اللَّهُ عَالِمِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلْنَا جَنَّاهُمْ إِلَى الَّذِينَ فِينَهُمْ مُنْقِذٌ وَمَا يَمُودُ بِعَيْنَيْنَا إِلَّا كَلٌّ خَسَارٌ كَفِيرٍ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلِيِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَصْرَفْنَهُمْ أَحْيَاؤَهُ الدُّنْيَا وَلَا يُصْرَفْنَكُمْ بِاللَّهِ الصَّرُورُ ﴿٣٨﴾

يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظل والظلة كل ما اظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، وقري كالظلال جمع ظلة كقطة وقلال ﴿فمنهم مقتصد﴾ متوسط في الكفر

والظلم خفض من غلوائه وانزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني: أن تلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر والختر أشد الغدر ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك بأعما من ختر قال:

وانك لو رأيت أبا عمير ملات يسيدك من غدر وختر

﴿لا يجزي﴾ لا يقضي عنه شيئاً ومنه قيل: للمتقاضي المتجازي وفي الحديث في جذاعة بن نيار تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك⁽¹⁾.

وقري لا يجزي لا يغني يقال: أجزأت عنك مجزاً فلان والمعنى: لا يجزي فيه، فحنف ﴿الغرور﴾ الشيطان وقيل الدنيا وقيل تمنيكم في المعصية المغفرة وعن سعيد بن جببر رضي الله عنه الغرة بالله أن يتمادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله للمغفرة وقيل: نكرت لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غره وقري بضم الغين وهو مصدر غره غروراً وجعل الغرور غاراً كما قيل: جدّ جدّه أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، وارد علي طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؟ قُلْتَ: الأمر كذلك لأن الجملة الإسمية أكد من الفعلية وقد انضم إلى تلك قوله هو وقوله مولود والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين⁽²⁾ وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر، وعلى الدين الجاهلي فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن يتفوعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الأكيد ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأبنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوّه من أجداده؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَرِيحَ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٩﴾

روي أن رجلاً من محارب، وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد أقيت حباتي في الأرض وقد لبطات عنا السماء فمتى تمطر وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها أنكر أم أنثى وإني علمت ما

(2) نكره الولدي في أسباب النزول ص: 196.

(1) تقم في البقرة رقم (49).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة مكية

التر ١.

﴿التر﴾ على انها اسم السورة مبتدأ خبره.

تَبْدِئُ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢.

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله:

أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنِ تَذَكَّرُونَ مَا آتَاهُمْ مِنْ نَبِيٍِّّ مِنْ قَبْلِكَ لَمَّا لَهُمْ هَدًى ٣.

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهزمة إنكاراً لقولهم وتعجبياً منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم افتراه! قلت: معنى لا ريب فيه أن لا مسخ للريب في أنه تنزيل الله! لأن نافي الريب ومميطة معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزاً للبشر

علمت أمس فما عمل غداً وهذا مولدي قد عرفته فإني أموت⁽¹⁾، فنزلت وعن النبي ﷺ مفتاح الغيب خمس وتلا هذه الآية⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب بإيكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار وعن المنصور أنه أهما معرفة مدة عمره فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمس أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساهم ﴿ويُنزل الغيث﴾ في إبانته من غير تقويم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوز به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أنك أم أنتى أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غداً﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيراً ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضرت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حننتها به ظنونها وروى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان نوام نظري إليه تعجباً منه لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك⁽³⁾ وجعل العلم لله والدرية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن عملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عدهما بُعد، وقرئ بآية أرض وشبهه سبويه تانيت أي بتانيت كل في قولهم كلتهن عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر⁽⁴⁾.

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، ولو جوب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الولد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان أجزاء الولد عن الولد مظنون =

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: إن الله عنده علم الساعة... (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن أبي شيبة 205/13، كتاب: الفزهد، باب: كلام سليمان.

(4) نكره الثعلبي والواحدي وأبن مروييه في التفسير 79/3.

ومثله أبعد شيء من الريب وأما قولهم افتراه فلما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما اتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله: ﴿ما أنذر أبأؤهم﴾ (1) وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ.

فإن قلت: فإذا لم ياتهم نذير لم تقم عليهم حجة قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته، فنعم لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان (2) ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان أن يكون على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتنكر على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

فإن قلت: ما معنى قوله.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْنَبِيِّ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾.

﴿ما لكم من نونه من ولي ولا شفيع﴾ قلت: هو على معنيين أحدهما: أنكم إذا جاؤتم رضاه لم تجواوا لأنفسكم ولياً أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم، والثاني: أن الله وليكم التي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي: ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وما لكم من نون الله من ولي ولا نصير﴾ فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا نصير ﴿الأمر﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مديراً ﴿من السماء إلى الأرض﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه تلك المأمور به خالصاً كما يريد ويرضيه إلا في مدة متطاولة لقلّة عمال الله والخلص من عباده وقلّة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره قليلاً ما تشكرون أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال: وإن يوماً عند ربك كآلاف سنة مما تعدون ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر، ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضاً ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة

وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة، وقرأ ابن أبي عمير يعرج على البناء للمفعول.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾.

وقرئ: ﴿يعدون﴾ بالتاء والياء ﴿أحسن كل شيء﴾ حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي: يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان، وقرئ خلقه على البديل أي أحسن فقد خلق كل شيء وخلقته على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسنه.

ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَبِيدًا وَابْتَدَأَ بِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِسْرَائِيلَ وَيَعْقُوبَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَإِسْحَاقَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَقِيقَةُ كَلِمَةٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا تَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾.

سميت الذرية نسلاً لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل.

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَعَ فِيهِ مِنْ تَرَبُّوهُ وَحَمَلَ لَكُمْ الْوِجْدَانَ وَابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿١١﴾.

﴿وسواه﴾ قومه كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾ (3)، ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ (4) الآية كانه. قال ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾.

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعاً، وقرئ أننا وأنا على الاستفهام وتركه. ﴿ضللنا﴾ صرنا تراباً وزهبننا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿في الأرض﴾ باللفظ فيها من قوله، وأب مضلوه بعين جلية،

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع، وما نكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقييب بالعقل، وقد مجها السمع فلم يبيح بها القلم فأعرض عنه حتى يخوض في حنيث غيره، وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم، كآبيهم إسماعيل =

= وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿ما اتاهم من نذير﴾ يعني: ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلفظ الله تعالى بهم ويبعث فيهم رسولا منهم.

(3) سورة التين، الآية: 4.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

الموجود المقطوع به في تحقيقه ولا يقدر لترى ما يتناوله كانه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذا ظرف له، يستغيثون بقولهم ﴿ربنا ابصرنا وسمعنا﴾.

فلا يثابون يعني ابصرنا صدق وعك ووعيك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عمياً وصماً فابصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا.

رَبُّوْهُنَا لَا يَتَّبِعُنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾.

﴿لأتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلحاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله:

فَذُوقُوا يَمَا سَيَبَسُّ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل نوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العقاب وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها والمراد بالنسيان خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات اذهلكم وألهاكم عن تذكر العقاب وسلط عليكم نسيانها ثم قال: ﴿إننا نسيناكم﴾ على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم وقيل هو، بمعنى: الترتك أي تركتم الفكر في العقاب فتركتكم من الرحمة وفي استئناف قوله: ﴿إننا نسيناكم﴾ وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى: فنوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرأس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة⁽²⁾.

إِنَّمَا يُرِيدُ بِعِبَادِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا سجدوا تواضعا لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه وأثنوا عليه حامدين له ﴿وهم لا يستكبرون﴾ كما يفعل من بصر مستكبراً كان لم يسمعها ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾⁽³⁾ إذا يتلى عليهم يخرون للانقياد سجداً ويقولون سبحان ربنا.

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٠﴾.

وقرأ على وابن عباس رضي الله عنهما ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضل وضل يضل وقرأ الحسن رضي الله عنه ضللنا من صل اللحم وأصل إذا انتن وقيل ضلنا من جنس الصلة وهي الأرض.

فإن قُلْتُ: بم انتصب الظرف في إذا أضللنا قُلْتُ: بما يدل عليه إنا لفي خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا، لقاء ربهم هو الوصول إلى العقاب من تلقى ملك الموت، وما وراءه فلما نكر كفرهم بالإنشاء أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العقاب لا بالإنشاء وحده ألا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما نكرنا.

قُلْ يُؤَفِّكُم مَّلكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ وَإِلَّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾.

والتوفى استيفاء النفس وهي الروح قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس، وقال أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء من قولك توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وأفيًا كاملاً من غير نقصان والتفعل والاستفعال يلتقيان في مواضع منها تقصيته واستقصيته وتعلجته واستعجلته، وعن مجاهد رضي الله عنه حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وعن قتادة يتوفاهم معه أعوان من الملائكة وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِهُمُ رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا لَعَلَّ إِنَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ﷺ وفيه وجهان أن يراد به التمني كانه قال وليتك ترى كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها»⁽¹⁾، والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلم يهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشتت بهم وأن تكون لو الامتناعية، قد حذف جوابها وهو لرأيت أمراً فظيعة أو لرأيت أسوأ حال ترى ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما يقول فلان لثيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطباً بعينه فكانك قلت إن أكرم وإن أحسن إليه ولو واذ كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة

(2) قال احمد: قد تمهد عن مذاهب أهل السنة أن المقترض لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة، وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً، والمسألة سمعية وألتها من الكتاب والسنة قطعية خلافاً للقرنية.

(3) سورة الإسراء، الآية: 107 - 108.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، (الحديث: 4043)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة، (الحديث: 1087)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، (الحديث: 1865)، و احمد في المسند 226/4. والحكم في المستدرک، 165/2.

ولا أنن سمعت ولا خطر على قلب بشر به⁽⁵⁾ ما أطلعتهم عليه أقرؤا إن شئتم، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن الحسن رضي الله عنه أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله له ما لا عين رأت ولا أنن سمعت.

أَقَمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٨﴾

﴿كان مؤمناً﴾ و﴿كان فاسقاً﴾ محمولان على لفظ من و﴿لا يستوون﴾ محمول على المعنى بلبيل قوله تعالى:

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ نَسُوا فَأَتَاهُمُ النَّارُ كَمَا آتَاهَا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِدُّوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُورُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿أما الذين آمنوا وأما الذين فسقوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك و﴿جنات المأوى﴾ نوع من الجنان قال الله تعالى: وولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة

المأوى﴾ سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تأتي إليها أرواح الشهداء وقيل: هي عن يمين العرش، وقرئ: ﴿جنة المأوى﴾ على التوحيد ﴿نزلاً﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً.

﴿فماواهم النار﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم، ويجوز أن يراد جنة ماواهم النار أي: النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين كقوله فبشرهم بعذاب اليم.

وَلَذِيئَتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلَدْنَ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَلَهُمْ بِرَجْحُونِ ﴿٢١﴾

﴿العذاب الأدنى﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين وعن مجاهد رضي الله عنهما عذاب القبر و﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لعلهم

﴿تتجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عن المضاجع﴾ عن الفراش ومواضع النوم داعين ربهم عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتجهدون وعن رسول الله ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل⁽¹⁾ وعن الحسن رضي الله عنه أنه التهج، وعن رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقيم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقيم الذي كانوا يحمدون الله في البساء والضراء فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقيم الذين كانوا يحمدون الله في البساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس⁽²⁾ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة⁽³⁾ فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ما أخفى لهم﴾ على البناء للمفعول ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم الثلاثة للمتكم وهو الله سبحانه وما بمعنى الذي أو بمعنى أي، وقرئ: ﴿من قرة أعين﴾ وقرأت أعين والمعنى لا تعلم النفوس كلهن ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب انخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فحسم أطماع المتمنين⁽⁴⁾، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت

= جنته، ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً تعالى وتقدس صارت الأعمال بالوعد، كانتا أسباب موجبات فعملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور هو: أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أنن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أقرؤا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ورده إلى المتكم، وهي من القرأت المستفيضة، والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث، وهو أعدت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أنن سمعت ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً والله الموفق.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (الحديث: 3244)، ومسلم في كتاب: الجنة، الحديث: 2824 - 2.

- (1) أخرجه أحمد في المسند، 237/5. والحاكم في المستدرک 413/2.
- (2) أخرجه الحاكم في المستدرک، 363/2.
- (3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (الحديث: 1322).
- (4) قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن المعاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصالح، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ اغتتم الفرصة في الاستدهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا دليل في ذلك لمعتدهم مع قوله ﷺ: ولا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة. فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة، فإنه على حسب الأعمال وليس بذلك، فإن المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها، وإما أن تحمل وهو الظاهر والله أعلم. على أن الله تعالى لما وعد المؤمنين =

واطلع على شئتها.

فإن قلت: هلا قيل إنا منه منتقمون! قلت: لما جعله
اظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد
دل على إصابة الأظلم للنصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله
بالضمير لم يقد هذه الفائدة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣٢﴾

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير في ﴿لِقَائِهِ﴾ له ومعناه
إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب
ولقيناك مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك
لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك
مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ (6)
ونحو قوله من لقائه قوله: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن
حكيم عليم﴾ (7) وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه
منشوراً﴾ (8) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه
السلام ﴿هدى﴾ لقومه.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ وَإِمْرًا لِمَا صَبَرُوا وَكَاثِرًا مَبْغُوثًا
يُرْوُونَ ﴿٣٣﴾

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما
في التوراة من دين الله وشرايعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات
وكذلك لنجعلن الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً ولنجعلن من
أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من
نصرة الدين، وثبتوا عليه من اليقين وقيل: من لقائك موسى
عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء
موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقيه له بالرضا
والقبول، وقرئ: ﴿لما صبروا﴾ ولما صبروا أي: لصبرهم
وعن الحسن رضي الله عنه صبروا عن الدنيا، وقيل: إنما
جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما
فيها ولد إسماعيل عليه السلام.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٣٤﴾

﴿يفصل بينهم﴾ يقضي فيميز المحق في دينه من
المبطل، الواو في.

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

يرجعون﴾ أي: يتوبون عن الكفر أو لعلمهم بربوبون الرجوع
ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فارجعنا نعمل صالحاً﴾ (1) وسميت
إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله
تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ (2) ويدل عليه قراءة من قرأ
يرجعون على البناء للمفعول.

فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل
من الله إرادة وإذا أراد الله شيئاً كان، ولم يمتنع وتوبتهم
مما لا يكون ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا
ذائقين العذاب الأكبر قلت: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأعمال
عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع للاقتدار،
وخلوص الداعي وأما أفعال عباده فيما أن يريدوها وهم
مختارون لها أو مضطرون إليها بقسره وإجائه فإن أرادها
وقد قسرها عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن
يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في
اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك
طاعتك، وهو لا يختارها؛ لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا
لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك (3) ودوى
في نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه
والوليد ابن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له
الوليد: اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد منك
جلاً وأزرب منك لساناً وأحد منك سنناً وأشجع منك جناناً
وأملأ منك حشواً في الكتيبة فقال له علي رضي الله عنه:
اسكت فإنك فاسق (4) فنزلت عامة للمؤمنين والفاستقين
فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما، وعن الحسن بن
علي رضي الله عنهما، أنه قال للوليد كيف تشتم علياً وقد
سماه الله مؤمناً في عشر آيات وسمك فاسقاً (5).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْتَقِمُونَ ﴿٣٥﴾

ثم في قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد والمعنى: أن
الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها
وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد
التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك
وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه
الانتهاز ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنتها

(1) سورة السجدة، الآية: 12.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

(3) قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا
على الإشراك الخفي، فاعتصم ببليلى الوجدانية على رده واجتنبه
من أصله والله المستعان، وإنما جزه في تفسير لعل إلى الإرادة
والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله
تعالى، كذا فسرها سيوييه فيما تقدم والله أعلم.

(4) نكره الواحدي في أسباب النزول ص: 198.

(5) قال أحمد: نكر للسبب المحقق لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا
الذين كفروا؛ لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أخرج فيه
المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق
الكافرين، فلم يزل يورد هذه المعانيد الفاسد ولقد اتسع الخرق
على الرائق.

(6) سورة يونس، الآية: 94.

(7) سورة النمل، الآية: 6.

(8) سورة الإسراء، الآية: 13.

مَنَّكَهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ أَلَّا يَسْمَعُوا ﴿١٦﴾.

فإن قُلْت: فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر! قُلْت: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَنْظَرَ إِلَيْهِمْ سُنَّطَرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿وانتظر﴾ النصره عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ (2) وقرأ ابن السميع رحمه الله منتظرون بفتح الظاء ومعناه وانتظر وهاككم، فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني: أنهم هالكون لا محالة أو وانتظر نك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه. عن رسول الله ﷺ: من قرأ آية من آيات القرآن وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر (3) وقال: من قرأ آية من آيات القرآن في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب مدنية

عن زر قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه: كم تعلمون سورة الأحزاب قلت: ثلاثاً وسبعين آية قال: فولدني يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة (5)، أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبي رضي الله عنه أن تلك من جملة ما نسخ من القرآن، وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فالكتمها الداجن فمن تاليفات الملاحدة والروافض (6) جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله:

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَوْىُّ اللَّهِ وَلَا تُلْجَأُ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١﴾.

﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ يا أيها النبي لم تحرم، يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً وديناً بمحلته وتبويبها بفضله.

فإن قُلْت: إن لم يوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله محمد رسول الله وما محمد إلا رسول.

﴿أولم يهد﴾ للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف والضمير في ﴿لهم﴾ لاهل مكة، وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دل عليه ﴿كم اهلكنا﴾ لأن كم لا تقع فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون أو هذا الكلام كما هو بضمونه، ومعناه كقولك يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون و﴿القرون﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يمشون في مساكنهم﴾ يعني: أهل مكة يمشون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم وقرئ يمشون بالتشديد.

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ فَخَرَجَ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْثَاهُمْ وَأَنْثَاهُمْ أَلَّا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿الجرز﴾ الأرض التي جرز نباتها أي: قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جزر ويدل عليه قوله.

﴿فخرج به زرعاً﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن وعن مجاهد رضي الله عنه: هي أبين، به بالماء ﴿تاكل﴾ من الزرع ﴿إنعامهم﴾ من عصفه ﴿وانفسهم﴾ من حبه وقرئ ياكل بالياء.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾.

الفتح النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿ربنا افتح بيننا﴾ (1) وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا ﴿متى هذا الفتح﴾ أي في أي وقت يكون ﴿إن كنتم صادقين﴾ في إنه كائن.

قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَبْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿يوم لفتح﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم، وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما يوم فتح مكة.

فإن قُلْت: قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم؟ قُلْت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكنيب والاستهزاء فاجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكاني بكم وقد حصلت في ذلك اليوم وأمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم في إدراك العذاب فلم تنظروا.

(1) سورة يوسف، الآية: 89.

(2) سورة التوبة، الآية: 52.

(3) بكرة الثعلبي وابن مردويه، وبكرة الواحدي في التفسير، الزيلعي 88/3.

(4) قال الزيلعي غريب جداً، الزيلعي 89/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک 415/2، وابن حبان في كتاب الحدود، باب: الزنى وحده (حديث: 4428).

(6) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب: الرضاع (الحديث: 22)، 4/179.

أي: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم.

وَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾.

﴿وتوكل على الله﴾ وأسند امرك إليه وكله إلى تدبيره
﴿ووكيلاً﴾ حافظاً موكلاً إليه كل امر.

مَا جَمَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْتٍ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَمَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلَيْسَ
تُظَاهِرُونَ بَيْنَهُنَّ أَهْبَاتِكُمْ وَمَا جَمَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ إِتَاءَكُمْ ذَلِكَ مِمَّا قَوْلَكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾.

ما جمع الله قلبين في جوف ولا زوجية وأمومة في
امرأة ولا بنوة ودعوة في رجل، والمعنى: أن الله سبحانه
كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو
إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال
القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا
غير ما يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى انصاف الجملة بكونه
مريداً كارهاً عالماً ظانناً موقناً شاكاً في حالة واحدة لم ير
أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجاً له؛ لأن الأم
مخدومة مخفوض لها جناح الذل والزوجة مستخدمة
متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة، وهما حالتان
متناقضتان وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وأبناً له لأن
النبوة أصالة في النسب وعراقة فيه والدعوة إلصاق عارض
بالتسمية لا غير لا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون
أصيلاً غير أصيل وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة،
وهو رجل من كلب سبى صغيراً وكانت العرب في
جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام
لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له وطلبه
أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ، فأعتقه⁽³⁾ وكانوا
يقولون زيد بن محمد فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقوله:
﴿وما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾، وقيل: كان أبو معمر
رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم فقيل له نو القلبين⁽⁴⁾ وقيل:
هو جميل بن أسد الفهري، وكان يقول إن لي قلبين أقهم
بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فروي: أنه أنهزم يوم بدر
فمَرَّ بابي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى
في رجليه فقال له: ما فعل الناس فقال هم ما بين مقتول
وهارب فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجليك، والأخرى
في يدك فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي فأكذب الله قوله
وقولهم وضربه مثلاً في الظهار والتبني، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما: كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان

قُلْتُ: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أن
يسموه بذلك ويدعو به فلا تفاوت بين النداء والإخبار إلا
ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف
نكره بنحو ما نكره في النداء لقد جاءكم رسول من
أنفسكم وقال الرسول: يا رب، لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة. والله ورسوله أحق أن يرضوه، النبي أولى
بالمؤمنين من أنفسهم. إن الله وملائكته يصلون على النبي،
ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي، اتق الله واطب على ما أنت
عليه من التقوى وثابت عليه وازيد منه وذلك لأن التقوى
باب لا يبلغ آخره ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾
لا تساعدهم على شيء ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة
وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين
لا يريون إلا المضارة والمضارة وروى أن النبي ﷺ لما
هاجر إلى المدينة، وكان يحب إسلام اليهود قريظة
والنضير وبني قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق
فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى
منهم قبيح تجاوز وزعنه وكان يسمع منهم⁽¹⁾ فنزلت وروى
أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأور
السلمي قدموا عليه في الموادة التي كانت بينه، وبينهم
وقام معهم عبد الله بن أبي معتب بن قشير والجد بن
قيس فقالوا للنبي ﷺ: أرفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع
وتنفع وتدعك وربك فشق ذلك على رسول الله ﷺ وعلى
المؤمنين وهموا بقتلهم⁽²⁾، فنزلت أي اتق الله في نقض
العهد ونبذ الموادة ولا تطع الكافرين من أهل مكة
والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك، وروي أن أهل
مكة دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه
شطر أموالهم وأن يزوجه شبيبة بن ربيعة بنته وخوفه
منافقو المدينة أنهم يقتولونه إن لم يرجع فنزلت ﴿إن الله
كان عليماً﴾ بالصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة
﴿حكيماً﴾ لا يفعل شيئاً ولا يامر به إلا بداعي الحكمة.

وَأَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٥﴾.

﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ في ترك طاعة الكافرين
والمنافقين، وغير ذلك ﴿إن الله﴾ الذي يوحى إليك خبير
﴿بما تعملون﴾ فموج إليك ما يصلح به أعمالكم فلا
حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة، وقرئ: يعملون بالياء

= المتناقضة كجعل الأعداء أبناء، والزوجات أمهات. قال: وهذه
الأمور الثلاثة متناقضة: أما الأولى فلأنه يلزم من اجتماع القلبين
قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر، وذلك كالعلم
والجهل، والأمن والخوف، وغير ذلك، وأما الثاني فلأن الزوجة في
مقام الامتثال، والأم في محل الإكرام، فنافى أن تكون الزوجة أمًا،
وأما الثالث فلأن النبوة أصالة وعراقة، والدعوة لاصقة عارضة
فهما متناقضتان وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه
حتى يبارره السامع بالإنتكار.

(1) قال الزيلعي غريب، 95/3.

(2) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 198.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: ادعوه
لآبائهم هو اقتسط عند الله. (الحديث: 4782).

ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل زيد بن حارثة
واسامة بن زيد، الحديث: (62 - 2425).

(4) قال أحمد: ما نكر فيه من التلويحات أنهم كانوا يدعون لابن حنظل
قلبين فنفي الله صحة ذلك، وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل =

فانكذبهم الله وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع أصحابه وقلب معكم، وعن الحسن نزلت في أن للواحد يقول نفس تأمرني ونفس تنهاني، والتكثير في رجل وإنخال من الاستغرافية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه.

فإن قُلْتُ: أي فائدة في نكر الجوف؟ قُلْتُ: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: القلوب التي في الصدور وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمبلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار وقرئ اللائي بياء وهمزة مكسورتين واللادي بياء ساكنة بعد همزة. وتظاهرون من ظاهر وتظاهرون من أظهار بمعنى تظهرون من أظهر بمعنى: تظهرون من ظهر بمعنى: ظاهر كعقد بمعنى: عاقد وتظهرون من ظهر بلفظ فعل من الظهور ومعنى ظاهر من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، ونحوه في العبارة عن اللفظ لبي المحرم إذا قال: لبيك وأقف الرجل إذا قال: أف وأخوات لهن.

فإن قُلْتُ: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قُلْتُ: كان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية فكانوا يتجنّبون المرأة المظاهر منها كما يتجنّبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها: تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها تحرز منها وظاهر منها حازر منها وظهر منها وحش منها وظهر منها خلص منها ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدى بمن، وإلا فالأى في أصله الذي هو بمعنى حلف وأقسم ليس هذا بحكمه.

فإن قُلْتُ: ما معنى قولهم أنت علي كظهر أمي! قُلْتُ: أرادوا أن يقولوا أنت علي حرام كبطن أمي فكنوا عن البطن بالظهر لثلاثاً يذكروا البطن الذي نكره يقارب نكر الفرج وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن، ومنه حديث عمر رضي الله عنه: يجيء به أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره وجه آخر وهو: أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً، وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول فلقصد المطلق منهم إلى التخليط في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمه فلم يترك.

فإن قُلْتُ: الدعى فعيل بمعنى: مفعول، وهو الذي يدعى ولذا فما له جمع على أفعلاء وبيابه ما كان منه بمعنى فاعل كقتى وأتقياء وشقي وأشقياء ولا يكون ذلك في نحو رمى

وسمى. قُلْتُ: إن شئنا عن القياس كشئنا قتلاء وأسراء، والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي ﴿لنكم﴾ النسب هو ﴿قولكم بأفواهكم﴾ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً، والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ولا يهدي إلا سبيل الحق، ثم قال: ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله:

أَعْرَفْتُمْ لِبَابِئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا مَا بَاءَهُمْ فَاذْكُرُونَهُمْ فِي الْبَيْنِ وَمَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ يَمَّا أَخْطَأْتُمْ بِهِ. وَلَكِنْ مَّا تَمَنَّاتُمْ لِقَائِهِمْ وَسْكَانَ اللَّهُ عَفْوَكَمْ رَحِيمًا ۝٥.

﴿ادعوهم لأبائهم﴾ وبين أن دعاءهم لأبائهم هو ادخل الأمرين في القسط والعدل وفي فصل هذه الجملة ووصلها من الحسن والفصاحة ما لا يغيب على عالم بطرق النظم، وقرأ قتادة وهو الذي يهدي السبيل وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال فلان ابن فلان ﴿فإن لم تعلموا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فهم إخوانكم في الدين﴾ وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي يريد الأخوة في الدين والولاية فيه ﴿ما تعمدت﴾ في محل الجر عطفاً على ما أخطأتم، ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء والخبر محذوف تقديره ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من تلك مخطئين جاهلين قبل ورد النهي ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بني على سبيل الخطأ وسبق اللسان ولكن إذا قلتموه متعمدين ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ بون العمد على طريق العموم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد»⁽¹⁾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه»⁽²⁾، ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده.

فإن قُلْتُ: فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قُلْتُ: إذا كان المتبني مجهول النسب وأصغر سناً من المتبني ثبت نسبه منه وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت النسب، وإن كان لا يولد مثله لمثلته لم يثبت النسب ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند صاحبيه لا يعتق، وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبداً عتق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد.

الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: فضل الأمة (الحديث: 7219)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي (الحديث: 2043).

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/534. والبيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل (الحديث: 10314)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب جمع المال من حله (حديث: 3222).

الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة.

فإن قُلْتُ: مم استثنى ﴿ان تفعلوا﴾ قُلْتُ: من أعم العالم في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية تريد أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهدية، وصلقة وغير ذلك إلا في الوصية والمراد بفعل المعروف: التوصية: لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى؛ لأنه في معنى تسدوا وتزلوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما نكر في الآيتين جميعاً وتفسير الكتاب ما مر آنفاً والجملة مستأنفة كالخاتمة لما نكر من الأحكام. ﴿و﴾ إنكر حين.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا يَشَاءُ الْمُنَافِقِينَ إِذْ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿أخذنا من النبيين﴾ جميعاً ﴿ميثاقهم﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم ﴿ومنك﴾ خصوصاً ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾، وإنما فعلنا ذلك ﴿ليسئل﴾ الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم، وفوا به من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألت بريكهم قالوا: بلى.

﴿عن صدقهم﴾ عهدهم وشهادتهم فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم، وكانوا مؤمنين أو ليسال المصدقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصابق صدقت كان صادقاً في قوله، أو ليسال الأنبياء ما الذي أجابتهم به أمهم وتأويل مسألة الرسل تبكيت الكافرين بهم كقوله أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله.

فإن قُلْتُ: لم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده؟ قُلْتُ: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم ونزاريهم فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم⁽⁵⁾، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه.

فإن قُلْتُ: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية وهي قوله: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ثم قدم على غيره. قُلْتُ: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وبذلك أن الله تعالى إنما أوردما لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصلي الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء

بعضهم أولئك يعض في كتب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تعلموا لك أوليائكم معروفًا كما كان ذلك في الكتب مسطورًا ﴿١﴾.

﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾ في كل شيء من أمور الدين، والنيا ﴿من أنفسهم﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه أثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوا بونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ووقاهه إذا لقت حرب وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه؛ لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لثلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، أو هو أولى بهم على معنى: أنه أرفق بهم وأعطف عليهم واتفق لهم كقوله تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾⁽¹⁾ وعن النبي ﷺ «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك شيئاً أو ضياعاً، فإلي»⁽²⁾ وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال: مجاهد كل نبي فهو أبو أمته ولذلك صار المؤمنين إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ تشبيه لهم بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن قال الله تعالى: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾⁽³⁾ وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبية، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسننا أمهات النساء⁽⁴⁾ تعني: أنهن إنما كن أمهات الرجال لكونهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم والدليل على ذلك أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمهات كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين، وبالهجرة لا بالقرابة كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات، ثم نسخ ذلك لما بجا الإسلام وعز أهله وجعل التوارث بحق القرابة ﴿في كتاب الله﴾ في اللوح أو فيما أوحى الله إلى نبيه، وهو هذه الآية أو في آية الموارث أو فيما فرض الله كقوله: كتاب الله عليكم ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولى الأرحام أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ويجوز أن يكون لابتداء الغلبة أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في

(4) أخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن سعد في الطبقات، الزبلي 98/3.

(5) رواه ابن هشام في سيرته، 214/2 - 233.

(1) سورة التوبة، الآية: 128.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، من سورة الأحزاب، باب: (1) (الحديث: 4781).

(3) سورة الأحزاب، الآية: 53.

﴿تعملون﴾، قرئ بالتاء والياء.

إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَلَيَغْتَ أَلْقَابُ الْكٰفِرِينَ الَّذِيْنَ رَضُوا بِآلِهِنَا وَالَّذِيْنَ أَلْحَمُوا أَن يَكُوْنُوا
مِنْكُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ﴿١٧﴾

﴿من فوقكم﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو
غطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ من أسفل الوادي من قبل
المغرب قريش تحزبوا، وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى
نستأصل محمداً ﴿زأغت الأبصار﴾ مالت عن سنها
ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً وقيل: عدلت عن كل
شيء فلم تلتفت إلا إلى عبثها لشدة الروع، الحنجرة رأس
الغليظة وهي منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام
والشراب قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب
أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس
الحنجرة، ومن ثمة قيل: للجان انتفخ سحره، ويجوز أن
يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ
الحناجر حقيقة ﴿وتظنون بالله الظنون﴾ خطاب للنين
أمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين
هم على حرف، والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا
بالسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا
الزلزل وضعف الاحتمال وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى
عنهم وعن الحسن ظنوا ظنوناً مختلفه ظن المنافقون أن
المسلمين يستأصلون.

هٰذَا الَّذِيْ جَاءَكُمْ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ الَّذِيْنَ رَضُوا بِآلِهِنَا وَالَّذِيْنَ أَلْحَمُوا أَن يَكُوْنُوا
مِنْكُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ﴿١٧﴾

وظن المؤمنون أنهم يبتلون، وقرئ الظنون بغير الف في
الوصل والوقف وهو القياس وبزيادة الف في الوقف
زانوها في الفاصلة كما زادها في القافية من قال: ألقى
اللوم عائل والعتاباء، وكذلك الرسولا والسبيلا، وقرئ
بزيابتها في الوصل أيضاً إجراء له مجرى الوقف قال أبو
عبيد: وهن كلهن في الإمام بالف. وعن أبي عمرو إشمام
زاي زلزلوا، وقرئ: ﴿زلزالاً﴾ بالفتح والمعنى: أن الخوف
أزعجهم أشد الإزعاج.

وَإِذْ يَقُولُ الْمَشْكُورَةُ وَالَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرْسٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَوَعْدُهُ
إِلَّا غُرُوْرًا ﴿١٨﴾

﴿إلا غروراً﴾ قيل قائله معتب بن قشير حين رأى
الأحزاب قال: بعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر
أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور.

وَإِذْ قَالَتْ كَاهِنَةٌ مِنْهُمْ يَا مَعْ لَكَ عُقُوْبٌ وَسَمْعَانُ

في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء
المشاهير.

فإن قلت: فماذا أراد بالميثاق الغليظ قلت: أراد به ذلك
الميثاق بعينه معناه وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً
والغليظ استعاره من وصف الأجرام، والمراد عظم الميثاق
وجلاله شأنه في بابه وقيل الميثاق الغليظ اليمين بالله على
الوفاء بما حملوا.

فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وواعد للكافرين﴾ قلت:
على أخذنا من النبيين لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء
الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً
البيماً، أو على ما دل عليه ليسال الصادقين كانه قال: فاثاب
المؤمنين وأعد للكافرين.

يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيْحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ بَصِيْرًا ﴿١٩﴾

﴿انكروا﴾ ما انعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم
الخنق⁽¹⁾ ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ وهم الأحزاب فارس الله
عليهم ريح الصبا قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا
وأهلك عاد بالدبور»⁽²⁾ ﴿وجنوداً لم تروها﴾ وهم
الملائكة وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صباً باردة في ليلة
شائية فأخضرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر
الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفت النيران،
واكفأت القبور وماجت الخيل بعضها في بعض وقنف في
قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال
طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بداكم بالسحر
فالنجاه النجاه فانهمزوا من غير قتال، وحين سمع
رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخنق على المدينة أشار
عليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم خرج في
ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخنق بينه
وبين القوم وأمر بالزراري والنساء فرفعوا في الأطم
وأشدت الخوف، وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من
المنافقين حتى قال: معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز
كسرى، وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط وكانت قريش
قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل
تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان في ألف ومن
تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة ابن حصن، وعامر بن
الطفيل في هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنظير،
ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا
الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر

(1) قال أحمد: وليس التقديم في النكر بمقتضى لذلك؛ إلا ترى إلى قوله:

بهاليل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم لحد المتخير

فاخر نكر النبي ﷺ ليختم به تشريفاً له، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازم التقديم فيظهر والله أعلم في سر تقيمه عليه الصلاة والسلام على نوح، ومن بعده في النكر أنه هو المخاطب =

= من بينهم والمنزل عليه هذا المثل، فكان تقديمه لذلك، ثم لما قدم نكره عليه للصلاة والسلام جرى نكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب والصباء» (الحديث: 1035) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ريح الصبا والذبور (الحديث: 2084).

حتف أنف أو قتل، وإن نفعمكم الفرار مثلاً فمتعمت بالتأخير لم يكن نك التمتع إلا زماناً قليلاً وعن بعض المروانية أنه مر بحائط مائل فاسرع فتلّيت له هذه الآية فقال نك القليل نطلب.

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَصِّمُكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَخْدَعُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾

فإن قُلْتُ: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قُلْتُ: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فلتختصر الكلام، وأجرى مجرى قوله: متقلداً سيفاً ورمحاً أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْتَنَا وَلَا يَأْتُونَكَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ﴿١٨﴾

﴿المعوقين﴾ المثبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون، كانوا يقولون ﴿لإخوانهم﴾ من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ﷺ ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم، و﴿هلم إلينا﴾ أي: قربوا أنفسكم إلينا وهي لغة أهل الحجاز يسون فيه بين الواحد والجماعة وأما تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال، وهو صوت سمي به فعل متعد مثل احضر وقرب قل هلم شهداءكم ﴿إلا قليلاً﴾ إلا إتياناً قليلاً يخرجون مع المؤمنين يومئذ يهونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه كقوله: ما قاتلوا إلا قليلاً.

أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَوْكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْكُمْ لَمْ يُؤْمِرُوا فَاحْبَسَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

﴿أشحة عليكم﴾ في وقت الحرب أضناء بكم يتفرقون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل بونه عند الخوف ﴿ينظرون إليك﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا وخورًا ولوإذا بك فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم، وقعت القسمة نقلوا نك الشح تلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ونسوا تلك الحالة الأولى واجتروا عليكم وضربوكم بالسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإننا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاني غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه ونصب ﴿أشحة﴾ على الحال أو على الذم، وقرئ أشحة بالرفع وصلوكم بالصاد.

فإن قُلْتُ: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط قُلْتُ: لا ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي عليه فبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن

فَرَأَى مِنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا نِيُونَا عَوْرَةً وَمَا مِنْ عَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

﴿طائفة منهم﴾ هم أوس بن قيطي ومن وافقه على رايه وعن السدي عبد الله بن أبي وأصحابه، ويثرب اسم المدينة وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لا مقام لكم﴾، قرئ بضم الميم وفتحها أي: لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقيمون فيه، أو تقومون ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة أمرهم بالهرب من عسكر رسول الله ﷺ، وقيل قالوا لهم: ارجعوا كفارًا وأسلموا محمداً وإلا فليست يثرب لكم بمكان، قرئ عورة بسكون الواو وكسرهما فالعورة الخلل والعورة ذات العورة يقال عور المكان عورًا إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق، ويجوز أن تكون عورة تخفيف عورة اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسارق؛ لأنها غير محرزة ولا محصنة فاستأنوه ليحصنوها، ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون نك، وإنما يريون الفرار.

وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا آلَيْتَنَا لَأَنزَلْنَا وَمَا نَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾

﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة وقيل: بيوتهم من قولك دخلت على فلان داره ﴿من أقطارها﴾ من جوانبها، يريد ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفًا منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها والثالث على أهاليهم، وأولادهم ناهيين سابيين ثم سئلوا عند ذلك الفرز وتلك الرجفة ﴿الفتنة﴾ أي: الردة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين لأتوا لجأها وفعلوها، وقرئ لأتوا لاعطوها ﴿وما تلبثوا بها﴾ وما البثوا إعطاءها ﴿إلا يسيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف، أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرًا فإن الله يهلكهم، والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحلوا ليفروا عن نصره رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولاً وروعياً وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وبيارهم وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لاسرعوا إليه وما تعلقوا بشيء وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه. عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة أن يمنعه مما يمنعون منه أنفسهم وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، وعن محمد بن إسحق عاهدوا يوم أحد أن لا يفروا بعدما نزل فيهم ما نزل.

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُرْزَقُوا الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

﴿مسئولاً﴾ مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَنْصُرُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

﴿لن ينفعمكم الفرار﴾ مما لا بد لكم من نزولة بكم من

وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة والمؤتسى برسول الله ﷺ من كن كذلك.

وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٣﴾.

وعدمه الله ان يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْلَىٰ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (١) فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا وربعوا الربع الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي: ﷺ لأصحابه إِنَّ الْأَحْزَابَ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ تَسْعًا أَوْ عَشْرًا أَي فِي آخِرِ تِسْعِ لَيَالٍ، أَوْ عَشْرٍ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا لِلْمِيعَادِ قَالُوا ذَلِكَ (٢)، وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿إِيمَانًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴿١٣﴾.

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير، وغيرهم رضي الله عنهم ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ﴾ يعني: حمزة ومصعباً ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ يعني: عثمان وطلحة وفي الحديث من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة (٣).

فإن قُلْتُ: ما قضاء النحب! قُلْتُ: وقع عبارة عن الموت لأن كل حي لا بد له من أن يموت فكانه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي: نذره وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَفْسَهُ﴾ (٤) يحتمل موته شهيداً ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله ﷺ.

فإن قُلْتُ: فما حقيقة قوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قُلْتُ: يقال صدقني أخوك وكذبني إذا قال: لك الصدق والكذب وأما المثل صدقني سن بكره، فمعناه صدقني في سن بكره بطرح الجار وإيصال الفعل فلا يخلو ما عاهدوا الله عليه إما أن يكون بمنزلة السن في طرح الجار، وإما أن يجعل المعاهد عليه مصدقاً على المجاز كأنهم قالوا: للمعاهد عليه سنفي بك وهم وافون به فقد صدقوه ولو كانوا ناكثين لكنبوه، ولكن مكنوبياً ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ العهد ولا غيره لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ولقد ثبت طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى

كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباء منثوراً.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ وكل شيء عليه يسير قُلْتُ: معناه أن أعمالهم حقيقة بالإحباط تدعو إليه الدواعي، ولا يصرف عنه صارف.

يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَدْهَبُوا وَلَئِنْ بَاتَ الْأَحْزَابُ بَوْدًا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْكُم فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ آبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤﴾.

﴿يحسبون﴾ أن الأحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد وبخلهم من الجبن المفرط ﴿وإن يات الأحزاب﴾ كزة ثانية تمنوا لخوفهم مما منوا به هذه الكزة أنهم خارجون إلى البؤى حاصلون بين الأعراب ﴿يسألون﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعمما جرى عليكم ﴿ولو كانوا فيكم﴾، ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال لم يقاتلوا إلا تلة رياء وسمعة وقرئ بدى على فعل جمع باد كغاز وغزى وفي رواية صاحب الإقليد بدى بوزن عدى ويسألون أي يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك، أو يتساءلون الأعراب كما تقول رأيت الهلال وترآيناها، كان عليكم أن تواسوا رسول الله ﷺ بأنفسكم، فتوازروه وتثبتوا معه كما أساكم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مرحى الحرب حتى كسرت ربايعته يوم أحد وشج وجهه.

فإن قُلْتُ: فما حقيقة قوله:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ﴿١٥﴾.

﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة﴾، وقرئ: ﴿أسوة﴾ بالضم قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة أي: قوة وهو المؤتسى أي: المقتدى به كما تقول في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، والثاني أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها أو تتبع وهي المواساة بنفسه ﴿لمن كان يرجو الله﴾ يدل من لكم كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم، يرجو الله واليوم الآخر كقولك رجوت زيداً وفضله أي: فضل زيد أو يرجو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً والرجاء بمعنى: الأمل أو الخوف ﴿وذكر الله كثيراً﴾،

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

(2) لم يخرج الزيلعي.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب طلحة بن عبيد الله

رضي الله عنه (الحديث: 3739)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، =

= باب: في فضائل اصحاب الرسول ﷺ، فضل طلحة بن عبيد رضي الله عنه (الحديث: 125)، والحاكم في المستدرک 3/376.

(4) سورة الاحزاب، الآية: 23.

وعشرين ليلة حتى جهدهم للحصار، فقال لهم رسول الله ﷺ: تنزلون على حكمي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم ونسأؤهم فكبر النبي ﷺ وقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثم استنزلهم وخذلق في سوق المدينة خندقاً وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل: كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير⁽²⁾، وقرئ: ﴿الرعب﴾ بسكون العين وضمها وتأسرون بضم السين.

وَأَرْوَكُكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَذَرُهُمْ وَأَرْضَهُمْ تَطْوَاهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾

وروي أن النبي ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين نون الانصار، فقالت: الانصار في ذلك فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر قال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة نون الناس قال: رضينا بما صنع الله ورسوله⁽³⁾ ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْوَاهَا﴾ عن الحسن رضي الله عنه فارس والروم، وعن قتادة رضي الله عنه كنا نحدث أنها مكة، وعن مقاتل رضي الله عنه هي خيبر، وعن عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ومن بدع التفسير أنه أراد نساءهم.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ فَلَ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَأَتَاكِمْ أُمَّتَكُمْ وَأَسْرِمَكُنَّ سِرْمًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِثْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايير فغم ذلك رسول الله ﷺ فنزلت فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ، ثم اختارت جميعهن اختيارها فشكر لهن الله ذلك فانزل لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبديل بهن من أزواج⁽⁴⁾ روي أنه قال لعائشة: إنني ذاكرك أمراً ولا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ عليها القرآن فقالت آفي هذا استأمر أبوي فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة⁽⁵⁾، وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أنني اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً⁽⁶⁾.

أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة⁽¹⁾ وفيه تعريض بمن بلبوا من أهل النفاق، ومرض القلوب جعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأراوها بتبديلهم.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾

كما قصد الصادقون عاقبة الصق يوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب فكانهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما، ويعذبهم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْبَتِهِمْ لَمَّا بَاءُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْعِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢١﴾

﴿ورد الله الذين كفروا﴾ الأحزاب ﴿بغيبتهم﴾ مغيبين كقوله: ﴿تنتب بالدهن﴾ ﴿لم يبالوا خيراً﴾ غير ظافرين وهما حالان يتداخل، أو تعاقب ويجوز أن تكون الثانية بياناً للأولى أو استئنافاً ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالريح والملائكة.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَفَرِيقًا قَرِيبًا ﴿٢٢﴾

﴿وأنزل الذين﴾ ظاهرها الأحزاب من أهل الكتاب ﴿من صياصيصهم﴾ من حصونهم والصيصية ما تحصن به يقال لقرن الثور والطبي: صيصية ولشوكة الديك وهي مخلبه التي في ساقه لأنه يتحصن بها. روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم على فرسه الحيضوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ما هذا يا جبريل قال: من متابعة قريش فجعل رسول الله ﷺ يمسح للغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله: إن الملائكة لم تضع السلاح إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فإن الله داquem بق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة فأن في الناس أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله ﷺ: فحاصرهم خمساً

(3) نكره الواحدي في المغازي، الزليعي 104/3.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزليعي 105/3.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: ﴿قل لأزواجك إن كنتم ترمن...﴾ (الحديث: 4785) و(حديث: 4786).

وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، (الحديث: 22 - 1475).

(6) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، (الحديث: 29 - 1478).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: نكر طلحة بن عبيد الله، (الحديث: 3724).

وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم، (الحديث: 6979).

أخرجه الترمذي في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الدرع، (الحديث: 1692)، وأبو يعلى (الحديث: 670)، والحاكم في المستدرک، 3/373.

(2) رواه ابن هشام في سيرته، 2/211.

الفاحشة السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة، والمبينة الظاهرة فحشها والمراد كل ما اقترف من الكبائر وقيل: هي عصيانهن رسول الله ﷺ ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيّق به نزعها ويغتم لأجله وقيل: الزنا والله عاصم رسوله من ذلك كما مر في حديث الإفك، وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن، وأقبح لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً فمتى ازداد قبحاً ازداد عقابه شدة، ولذلك كان نم العقلاء للعاصي العالم أشد منه للعاصي الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح، ولذلك فضل حد الأحرار على حد العبيد حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ إيدان بأن كونهن نساء النبي ﷺ ليس بمغن عنهن شيئاً، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه.

قرئ: ﴿يات﴾ بالتاء والياء، مبنية بفتح الياء وكسرهما من بين بمعنى تبين يضاعف ويضعف على البناء للمفعول ويضاعف ويضعف بالياء والنون.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ مَكْرًا لَّهُ رِوَايَةٌ وَسَمَلٌ مِّنْهَا نُزَيْجًا أَمْرًا مَّرِيئًا وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١).

وقرئ تقنت وتعمل بالتاء والياء ونؤتتها بالياء والنون والقنوت الطاعة وإنما ضوعف أجرهن رضا رسول الله ﷺ بحسن الخلق وطلبهن طيب المعاشرة والقناعة وتوفرهن على عبادة الله والتقوى.

يَسَاءَ الَّذِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُ فَلَا تَحْضَمَنَّ بِالْقَوْلِ فِطْمَعُ الذِّي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَكَلَّ قَوْلًا مَّرُوفًا (٣٢).

أحد في الأصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستويًا فيه المنكر والمؤنث والواحد وما وراءه، ومعنى قوله:

﴿لستن كاحد من النساء﴾ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء أي إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ومثله قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ (2) يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين (3) ﴿إن لتقيتن﴾ إن أردتن التقوى وإن كنتن متقيات ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ فلا تلتن بقولكن خاضعاً أي ليناً خنتاً

فإن قلت: ما حكم التخيير في الطلاق؟ قلت: إذا قال لها: اختاري فقالت: اخترت نفسي، أو قال: اختاري نفسك فقالت: اخترت لا بد من نكر النفس في قول المخير، أو المخيرة وقعت طلاقاً بائنة عند أبي حنيفة، وأصحابه واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلاق رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود، وعن الحسن وقتادة والزهري رضي الله عنهم أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأصمصار وعن عائشة رضي الله عنها خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعد طلاقاً (1) وروى أئكان طلاقاً، وعن علي رضي الله عنه إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة، وروى عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء، أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطئ ثم كثر حتى استوتت في استعماله الأمكنة، ومعنى تعالين أقبلن بإرائكن واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهن إليه نفسهن كما تقول: أقبلن يخاصمني، وذهب يكلمني وقام يهدني ﴿امتكن﴾ أعطكن متعة الطلاق.

فإن قلت: المتعة في الطلاق واجبة أم لا؟ قلت: المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه وأما سائر المطلقات، فمتعتهن مستحبة، وعن الزهري رضي الله عنه متعتان إحداهما يقضي بها السلطان من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها والثانية حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض، ويدخل وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متعتها إن كنت من المتقين ولم يجبره، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه المتعة حق مفروض، وعن الحسن رضي الله عنه لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة والمتعة درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فيجب لها الأقل منهما، ولا تنقص من خمسة دراهم لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ امتكن وأسرحكن بالرفع! قلت: وجه الاستئناف ﴿سراحاً جميلاً﴾ من غير ضرار طلاقاً بالسنة ﴿متكن﴾ للبيان لا للتبعيض.

يَسَاءَ الَّذِي مَن يَأْتِ مَكْرًا يَفْجَسُوهُ مِثْنًا يَضَعَفَ لَهَا الْمَدَابُ ضَعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٣).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: من خير أزواجه، (الحديث: 5262)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تغيير امرأته... (الحديث: 1477 - 24).

(2) سورة النساء، الآية: 152.

(3) قال أحمد: إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام، وبين جماعات النساء لا أحادهن أن يطابق بين المتفاضلين؛ لأن الأول جماعة، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة، ويكون المعنى أبلغ، والتقدير ليست واحدة =

وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ويرغبهم فيما رضىه لهم وأمرهم به. و﴿اهل البيت﴾ نصب على النداء، أو على المدح وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

وَأَذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢٤﴾

ثم نكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين هو آيات بينات تدل على صدق النبوة لأنه معجزة بنظمه، وهو حكمة وعلوم وشرائع ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ خير علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم، فأنزله عليكم أو علم من يصلح لنبوته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته، أو حيث جعل الكلام الواحد جامعاً بين الغرضين يروى أن أزواج النبي ﷺ قلن يا رسول الله نكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير أنذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة⁽²⁾، وقيل: السائلة أم سلمة⁽³⁾ وروي أنه لما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل قال: نساء المسلمين، فما نزل فينا شيء فنزلت⁽⁴⁾.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِمِينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْمُحْسِنِينَ
وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ
وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ
عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

والمسلم الداخل في السلم بعد الحرب المنقاد الذي لا يعاند أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله والمؤمن المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به، والقانت القائم بالطاعة الدائم عليها والصابق الذي يصدق في نيته وقوله وعمله. والصابر الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي، والخاشع المتواضع لله بقلبه وجوارحه، وقيل: الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله، والمتصدق الذي يزكي ماله ولا يخل بالناوافل، وقيل: من تصلّق في أسبوع ب درهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين، والذاكر الله كثيراً من لا يكاد يخلو من نكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر، وقال رسول الله ﷺ: من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته

مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي ريبة وفخور، وقرئ بالجرم عطفًا على محل فعل النهي على أنهن نهين عن الخضوع بالقول، ونهى المريض القلب عن الطمع كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع، وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول أي: فيطمع القول المريب ﴿قولاً معروفاً﴾ بعيداً من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث أو قولاً حسناً مع كونه خشناً.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَرَحْنَ نَجْجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٦﴾

﴿وقرن﴾ بكسر القاف من قر يقر وقارًا أو من قر يقر حذفت الأولى من رائي أقرن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظنن، وقرن بفتحها وأصله أقرن فحذفت الراء والقيت فتحتها على ما قبلها كقولك ظنن، ونكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان وجهًا آخر قال: قاريفًا إذا اجتمع ومنه القارة لاجتماعها لا ترى إلى قول عضل، والذئب اجتمعوا فكونوا قارة و﴿الجاهلية الأولى﴾ هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجاهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل: ما بين آدم ونوح وقيل: بين إدريس ونوح وقيل: زمن داود وسليمان والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق، والفجور في الإسلام فكان المعنى ولا تحذثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر ويعضده ما روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي السرداء رضي الله عنه: إن فيك جاهلية قال: جاهلية كفر أم إسلام فقال: بل جاهلية كفر⁽¹⁾ أمرهن أمرًا خاصًا بالصلاة والزكاة، ثم جاء به عامًا في جميع الطاعات لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات من اعتنى بهما حق اعتناك جرتاه إلى ما ورائها ثم بين أنه إنما نهاهن، وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المأثم وليتصونوا عنها بالتحقوى، واستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها، ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر،

(1) منكن كاحد من النساء، أي: كواحدة من النساء، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من أحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة، ولا يلزم نك في المكس فتامله والله أعلم، وجاء التفضيل هنا كمجيئه في قوله تعالى: ﴿أقمن يخلق كمن لا يخلق﴾، وقوله: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ في تقديم الأفضل عند التفضيل، وقد مضت في تلك نكتة حسنة والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المعاصي في أمر الجاهلية (الحديث رقم: 30).

(2) رواه الطبراني في معجمه.

(3) أخرجه الترمذي عن أم عمارة في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 3211).

(4) أخرجه الطبري في تفسيره، ونكره ابن سعد.

وبتوفيقك لعنته ومحبه واختصاصه ﴿وأنعمت عليه﴾ بما وفقك الله فيه فهو مقلّب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يعني: زينب بنت جحش رضي الله عنها وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال: سبحان الله مقلّب القلوب وذلك أنّ نفسه كانت تجفوا عنها قبل ذلك لا تريدها ولو أرايتها لاخطبها، وسمعت زينب بالتسيحة فنكرتها لزيد فظن والقي الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أراك منها شيء قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذيني فقال له: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ ثم طلقها بعد فلما اعتدت قال رسول الله ﷺ: ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك أخطب على زينب قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجبتها فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله ﷺ نكحها فولبتها ظهري وقلت يا زينب أبشري إن رسول الله ﷺ يخطبك ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن زوجناكها، فتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها نبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما أراد بقوله: ﴿واتق الله﴾؟ قلت: أراد واتق الله فلا تطلقها وقصد نهي تنزيه لا تحريم لأن الأولى أن لا يطلق، وقيل: أراد واتق الله فلا تنمها بالنسبة إلى الكبير وأذى الزوج.

فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه! قلت: تعلق قلبه بها، وقيل: مودة مفارقتها زيد إياها، وقيل: بأن زيداً سيطلقها وسينكحها لأن الله قد أعلمه بذلك، وعن عائشة رضي الله عنها لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية⁽⁵⁾.

فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها وكان من الهجة أن يقول له: أفلع فإنني أريد نكاحها. قلت: كان الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك أو يقول له: أنت أعلم بشانك حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن والتصلب في الأمور والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبّة كما جاء في حديث إرادة رسول الله ﷺ قتل

فصلياً جميعاً ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات⁽¹⁾، والمعنى والحفاظتها والذاكراته فحنف لأن الظاهر يدل عليه.

فإن قلت: أي: فرق بين العطفين أعني عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين. قلت: العطف الأوّل نحو قوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ في أنهما جنسان مختلفان إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسط العاطف بينهما، وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع فكان معناه أنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أعد الله لهم﴾ خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة فابت وأبى أخوها عبد الله فنزلت فقال: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماتاً وملحقة وبرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر⁽²⁾، وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أوّل من هاجر من النساء وهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت وزوجها زيداً فسخطت هي وأخوها وقالوا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده⁽³⁾.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ رِسْوَلَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ آيَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ وَنَبِيٌّ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ سَلَ ضَلَالًا سُبُلًا ﴿٣٧﴾

والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ أي: رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أمراً﴾ من الأمور، أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرايه واختيارهم تلوا لاختياره.

فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاعني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ، وقرئ: يكون بالتاء والياء و﴿الخيرة﴾ ما يتخير.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشِيَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْتُوكًا ﴿٣٨﴾

﴿الذي أنعم الله عليه﴾ بالإسلام الذي هو لجل النعم

(4) أخرجه البخاري عن نس ما أوّلم النبي ﷺ على شيء من نسائه أكثر وأفضل مما أوّلم على زينب في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168).

(5) يأتي في حَم عسق، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 89 - 1428).

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الحث على قيام الليل، (الحديث رقم: 1451)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، (الحديث رقم: 1335).

(2) أخرجه الدارقطني في سننه 301/3، كتاب: النكاح، (الحديث رقم: 301).

(3) نكحه الطبري في تفسيره.

عليك زوجك واثق الله وان لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر والثبات في مواطن الحق حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرأاً.

فإن قُلْتَ: الواو في وتخفى في نفسك وتخشى الناس والله أحق ما هي؟ قُلْتَ: واو الحال أي: تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف كأنه قيل: وإذا تجمع بين قولك: أمسك وإخفاء خلافه وخشية الناس والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك، إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره، والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاشرت عنها همته وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدتها ﴿زَوْجِنَاكِهَا﴾، وقراءة أهل البيت زَوْجَتِكَا وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: أليس تقرأ علي غير ذلك فقال: لا والذي لا إله إلا هو ما قرأتها على أبي إلا كذلك ولا قرأها الحسن بن علي على أبيه إلا كذلك ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبي ﷺ إلا كذلك ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ جملة اعتراضية يعني: وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه مفعولاً مكوّناً لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبينين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن ويجوز أن يراد بأمر الله المكوّن لأنه مفعول يكن وهو أمر الله.

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

﴿فرض الله له﴾ قسم له وأوجب من قولهم فرض لفلان في الديوان كذا ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر كقولهم ترباً وجندلاً مؤكداً لقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾ كأنه قيل: سنّ الله لك سنة في الأنبياء الماضين وهو أن لا يخرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسرايري وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة وسبعمائة ﴿في الذين خلوا﴾ في الأنبياء الذين مضوا.

الَّذِينَ يَلْفَنُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَحْشُونَ وَلَا يَحْشُونَ أَمَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَيْبًا ﴿٣٩﴾

﴿الذين ييلفون﴾ يحتمل وجوه الإعراب الجرّ على الوصف للأنبياء والرفع والنصب على المدح على هم الذين ييلفون أو على أعني الذين ييلفون، وقرئ: رسالة الله. قدراً

عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له أنّ عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك هل تشير إلي فاقته فقال: إنّ الأنبياء لا تومض ظاهرهم وباطنهم واحد⁽¹⁾.

فإن قُلْتَ: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح ولا يستهجن النبي ﷺ التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ولم يعصم نبي ﷺ عن تعلق الهجئة به وما يعرضه للقالة؟ قُلْتَ: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متمتع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه السننم إلا من أوتي فضلاً وعلماً وبيناً ونظراً في حقائق الأمور وليوبها نون قشورها ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله ﷺ بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستانسين بالحديث، وكان رسول الله ﷺ يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم والحياء يصدّه أن يأمرهم بالانتشار حتى نزلت ﴿إنّ لكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق﴾ ولو أبرز رسول الله ﷺ مكنون ضميره، وأمرهم أن ينتشروا لشق عليهم ولكن بعض المقالة فهذا من ذاك القبيل لأنّ طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته من امرأة، أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئذان زيد عنها ولا طلب إليه، وهو أقرب منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقتها مع قوة العلم بأنّ نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء بل كانت تجفوا عنها، ونفس رسول الله ﷺ متعلقة بها ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ولا مستهجنًا إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر فإنّ المهلجرين حين نخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء حتى إنّ الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما ونكحها المهلجر وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح، ولا مفسدة ولا مضرة بزيد ولا بأحد بل كان مستجراً مصالح ناهيك بوحدة منها أنّ بنت عمه رسول الله ﷺ أمّنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعانت أمّاً من أمّهات المسلمين إلى ما نكر الله عزّ وجلّ من المصلحة العامة في قوله لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضاوا منهمنّ وطراً فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتّمه وبالغ في كتّمه بقوله أمسك

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 374/5، (الحديث رقم: 9739)، ولخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: الحكم فيمن ارتد، (الحديث رقم: 4359).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾

﴿انكروا الله﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله وأكثروا ذلك.

وَسَيُؤْتِيكُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿بكرة وأصيل﴾ أي: في كافة الأوقات قال رسول الله ﷺ: نكر الله على فم كل مسلم، وروي في قلب كل مسلم⁽³⁾ وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعن مجاهد هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان أعني انكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة، والأصيل كقولك صم وصل يوم الجمعة والتسبيح من جملة النكر وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة لبيان فضله على سائر الإنكار لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال وتبرئته من القبايح ومثال فضله على غيره من الإنكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أناس المعاصي والطهر من أرجاس المآثم على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام والتوفير على الطاعات كلها والاشتغال على العلوم والاشتغال بالفضائل، ويجوز أن يريد بالنكر وإكثاره تكثير الطاعات والإقبال على العبادات، فإن كل طاعة وكل خير من جملة النكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلًا، وهي الصلاة في جميع أوقاتها الفضل الصلاة على غيرها أو صلاة الفجر والعشاءين لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد. لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوًا عليه وتروفاً كعائد المريض في انعطافه عليه والمرأة في حنوها على ولدها. ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والتروفاً ومنه قولهم صلى الله عليك أي: ترحم عليك وتراف.

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُحْمَدَكُمْ مِنْ أَطْرَافِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

فإن قلت: قوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ إن فسرت به بترحم عليكم ويتراف فما تصنع بقوله ﴿وملائكته﴾ وما معنى صلاتهم؟ قلت: هي قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرافة ونظيره قوله حيياك الله أي أحياك، وأبقاك وحييتك أي: دعوت لك بأن يحييك الله لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك⁽⁴⁾ كأنك تبقيه على الحقيقة وكذلك عمرك الله وعمرتك،

مقدورًا قضاءً مقضيًا وحكمًا مبيتورًا، ووصف الأنبياء بانهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾⁽¹⁾ ﴿حسيبًا﴾ كافيًا للمخاوف أو محاسبًا على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حق الخشية من مثله.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاشَ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ يَبْغِي كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾

﴿ما كان محمد أبًا أحد من رجالكم﴾ أي: لم يكن أبًا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسول الله﴾ وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه حكمكم والإدعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾ يعني: أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيًا ولم يكن هو خاتم الأنبياء كما يروى أنه قال: في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيًا⁽²⁾.

فإن قلت: أما كان أبًا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم! قلت: قد أخرجوا من حكم النبي بقوله: من رجالكم من وجهين أحدهما أن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال والثاني أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم.

فإن قلت: أما كان أبًا للحسن والحسين! قلت: بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ وهما أيضًا من رجاله لا من رجالهم وشيء آخر، وهو أنه إنما قصد ولده خاصة لا ولد ولده لقوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما على الأربعين والآخر على الخمسين، قرئ ولكن رسول الله ﷺ بالنصب عطفًا على أبًا أحد وبالرفع على، ولكن هو رسول الله ولكن بالتشديد على حذف الخبر تقديره ولكن رسول الله من عرفتموه أي لم يعيش له ولد نكر وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع وبكسرهما بمعنى الطابع وفاعل الختم، وتقوية قراءة ابن مسعود ولكن نبيًا ختم النبيين.

فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان قلت معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبا أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد مصليًا إلى قبلته كأنه بعض أمته.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز: باب: ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ ونكر وفاته، (الحديث رقم: 1511)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأب، باب: من سمي بأسماء الأنبياء (الحديث رقم: 6194).

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ 115/3. يرواه البيهقي والدارقطني =

= نحوه في سننه 295/4، (الحديث رقم: 94).

(4) قال أحمد: كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة، والمجاز معاً بلفظ واحد، وقد التزمه ههنا، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة، ومن الملائكة مجازاً؛ لأنه حملها على الرحمة، وأما غيره فحملها على الدعاء وجعلها من الملائكة حقيقة، ومن الله مجازاً، والله أعلم.

بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار وصفه بالإتارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل: سليله وبقت فتيلته، وفي كلام بعضهم ثلاثة تضيئ رسول بطيء وسراج لا يضيء ومائدة ينتظر لها من يجيء وسئل بعضهم عن الموحشين، فقال ظلام ساتر وسراج فاتر وقيل: وإذا سراج منير أو تالياً سراجاً منيراً ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف أرسلناك.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾

الفضل ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب وإذا نكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب، ويجوز أن يريد بالفضل الثواب من فوقهم للعطايا فضول وفواضل وأن يريد أن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم وذلك الفضل من جهة الله وأنه آتاهم ما فضلوه به.

وَلَا يُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَبَعَّ أَدْنَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿ولا تطع الكافرين﴾ معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه، أو التهييج ﴿أذاهم﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول يعني: ودع أن تؤذيه بضرر، أو قتل وخذ بظاهرهم وحسابهم على الله في باطنهم أو ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي منسوخة بأية السيف ﴿وتوكل على الله﴾ فإنه يفيكهم، وكفى به مفوضاً إليه ولقائل أن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾⁽²⁾ لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير، والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا عرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للإشارة والتنذير بدع آذاهم لأنه إذا ترك آذاهم في الحاضر، والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو أجل كانوا منذرين به في المستقبل والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتماء به وكيلاً لأن من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأْمُرُوا إِذَا تَكَهَّمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَعَتْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوْرَهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدُوٍّ تَمُدُّوْنَهَا فَمِعُوْرَهُنَّ وَسِرْجُوْرَهُنَّ سِرْجًا مَّجِيْلًا ﴿٤٩﴾

النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا لأنها سبب في اقتراف الإثم ونحوه في علم البيان قول الراجز: أسنمة الأبال في سحابه، سمي الماء بأسنمة الأبال لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته ولم يرد لفظ النكاح في

وسقاك الله وسقيتك وعليه قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه﴾ أي: ادعوا الله بأن يصلي عليه، والمعنى هو الذي يترحم عليكم ويتراف حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بلكثار النكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿ليخرجكم﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة، ويروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾⁽¹⁾ قال أبو بكر رضي الله عنه: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فانزلت.

فَجِيءَهُمْ يَوْمَ يَقُومُ السَّمْعُ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيْمًا ﴿٤٩﴾

﴿تحيتهم﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أي: يحيون يوم لقائه بسلام، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور وقيل: عند دخول الجنة كما قال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، والأجر الكريم الجنة.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٠﴾ وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ لِذُبْحِهِ وَسِرْجًا مَّجِيْرًا ﴿٥١﴾

﴿شاهداً﴾ على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم.

فَإِنْ قُلْتُمْ: وكيف كان شاهداً وقت الإرسال، وإنما يكون شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها قُلْتُمْ: هي حال مقدرة كمسألة الكتاب مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي مقدرًا به الصيد غداً.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قد فهم من قوله إنا أرسلناك داعياً أنه مانون له في الدعاء، فما فائدة قوله: ﴿بإذنه﴾ قُلْتُمْ: لم يرد به حقيقة الإذن، وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتيسير لأن الدخول في حق المالك متعذر فإذا صوف الإذن تسهل وتيسر فلما كان الإذن تسهياً لما تعذر من ذلك وضع موضعه وذلك إن دعاء أهل الشرك، والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر فقيل: بإذنه للإيدان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره ومنه قولهم: في الشحيح أنه غير مانون له في الإنفاق أي غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخلاً في حكم التعذر.

جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، أو أمد الله

كتاب الله إلا في معنى العقد لأنه في معنى: الوطاء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ لملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإيتيان.

فإن قُلْتُ: لم خصَّ المؤمنات والحكم الذي نطفت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات قُلْتُ: في اختصاصهنَّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به أن يتخير لنطفته وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة ويبتزّه عن مزاجة الفواسق، فما بال الكوافر ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة الله ووليّه فالتّي في سورة المائدة تعليم ما هو جائز غير محرّم من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمن من نكاح المؤمنات.

فإن قُلْتُ: ما فائدة ثم في قوله ﴿ثم طلقتموهن﴾ قُلْتُ: فائدته نفي التوهّم عن عسى يتوهّم تغاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريية العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حباله الزواج ثم يطلقها.

فإن قُلْتُ: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها الملمس هل يقوم ذلك مقام المساس قُلْتُ: نعم، عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فما لكم عليهنَّ من عدّة﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعنتونها﴾ تستوفون عدها من قولك عدت الدراهم فاعتدها كقولك كلته فاكلته له وزنته فاتزنته وقرىء تعنتونها مخففاً أي: تعنتون فيها كقوله ويوم شهدها والمراد بالاعتداء ما في قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهنَّ ضراراً تعنتوا﴾⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: ما هذا التمتع أوجب أم منسوب إليه قُلْتُ: إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضاً لها فالمتعة مختلف فيها فبعض على التذب والاستحباب ومنهم أبو حنيفة وبعض على الوجوب ﴿سراً جليلاً﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ؕ آتَيْتَ أُجْرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَأَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَمَنَاتِ عَيْكَ وَمَنَاتِ عَنَيْكَ وَمَنَاتِ خَالِكَ وَمَنَاتِ خَلَيْكَ أَلَيْ هَاجِرٌ مَمْلُوكٌ وَأَمْرُهُ مُؤْمَنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

﴿أجورهن﴾ مهورهن لأن المهر أجر على البضع وإيتاؤها إما إعطاؤها عاجلاً وإما فرضها وتسميتها في العقد.

فإن قُلْتُ: لم قال اللاتي آتيت أجورهنَّ ومما آفأ الله عليك واللاتي هاجرن معك وما فائدة هذه التخصيصات؟ قُلْتُ: قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأزكى كما اختصه بغيرها من الخصائص وأثره بما سواها من الأثر، وذلك أن تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية، وإن وقع العقد جائزاً وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن نخل بها، والمتعة إن لم يدخل بها وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل دين السلف وسنتهم وما لا يعرف بينهم غيره، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكاها وخطبه سيفه ورمحه ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شقّ الجلب والسبي على ضربين سبي طيبة وسبي خبيثة فسبي الطيبة ما سبي من أهل الحرب، وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبيثة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مما آفأ الله عليك﴾ لأن فيء الله لا يطلق إلا على الطيب نون الخبيث كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال نون الحرام، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله ﷺ من قرابته غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه، وعن أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله ﷺ فاعتزرت إليه فعزني⁽²⁾، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لاني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء، وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهرًا من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك، ولذلك نكرها واختلف في اتفاق ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن عند رسول الله ﷺ أحد منهنَّ بالهبة وقيل: الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضي الله عنهنَّ قرىء ﴿إن وهبت﴾ على الشرط وقرأ الحسن رضي الله عنه أن بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام، ويجوز أن يكون مصدرًا محنوقًا معه الزمان كقولك: اجلس ما دام زيد جالسًا بمعنى: وقت نومه جالسًا ووقت هبتها نفسها وقرأ ابن مسعود بغير أن.

فإن قُلْتُ: ما معنى الشرط الثاني مع الأول! قُلْتُ: هو تقييد له شرط في الإحلال هبتها نفسها وفي الهبة إرادة استنكاح رسول الله ﷺ كأنه قال: أحللنا لك إن وهبت لك نفسها، وانت تريد أن تستنكحها لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم.

فإن قُلْتُ: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿نفسها للنبي إن أراد النبي﴾ ثم رجع إلى الخطاب قُلْتُ: للإيدان بأنه مما خص به وأوثر ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكمة له لأجل النبوة وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته، واستنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقد استشهد به أبو حنيفة على

= الأحزاب، (الحديث رقم: 3214)، والحاكم في المستدرک 2/185.

(1) سورة البقرة، الآية: 231.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة =

من تشاء وتمسك من تشاء، أو لا تقسم لآيتهن شئت وتقسم لمن شئت أو تترك تزوج من شئت من نساء أمته وتزوج من شئت وعن الحسن رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن أوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضي الله عنهن أرجى خمساً وأوى أربعاً⁽⁴⁾، وروي أنه كان يسوى مع ما أطلق له وخير فيه الأسود فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك⁽⁵⁾ ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أبني﴾ إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً لأنه إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء، وارتفع التفاضل ولم يكن لإحدهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى وعلمن أن هذا التفويض من عند الله بوحيه اطمانت نفوسهن، وذهب التنافس والتغاير وحصل الرضا وقرت العيون وسلت القلوب ﴿وإله يعلم ما في قلوبكم﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسول الله ﷺ وبعث على تواطى قلوبهن بتصافي بينهن، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وما فيه طيب نفسه، وقرى تقر أعينهن بضم التاء ونصب الأعين وتقر أعينهن على البناء للمفعول ﴿وكان الله عليماً﴾ بذات الصدور ﴿حليماً﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقي ويحذر. كلهن تأكيد لنون يرضين وقرأ ابن مسعود ويرضين كلهن بما آتيتهن على التقويم وقرأ كلهن تأكيداً لهن في آتيتهن.

لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَنْفِئَةٍ وَلَوْ أَعْرَجَكَ حَسْبُكَ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا

(٥٧)

جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله ﷺ وأمه سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل، وقال الشافعي: لا يصح وقد خص رسول الله ﷺ بمعنى الهبة ولفظها جميعاً لأن اللفظ تابع للمعنى والمدعى للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الأجرة جائز لقوله تعالى: ﴿اللاتي آتيت أجورهن﴾⁽¹⁾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الأجرة عقد مؤقت وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان ﴿خالصة﴾ مصدر مؤكد كوعد الله، وصيغة الله أي خلص لك إحلال ما أطلنا لك خالصة بمعنى: خلوصاً والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد والعافية والكانية والدليل على أنها وردت في أثر الإحالات الأربع مخصوصة برسول الله ﷺ على سبيل التوكيد لها، وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ بعد قوله من نون المؤمنين وهي جملة اعتراضية وقوله: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ متصل بخالصة لك من نون المؤمنين ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أن الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء، وعلى أي حد وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله ﷺ بما اختص به ففعل، ومعنى: لكيلا يكون عليك حرج لئلا يكون عليك ضيق في دينك حيث اقتصصناك بالتنزيه، واختيار ما هو أولى وأفضل وفي نيك حيث أحلنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبه نفسها وقرى خالصة بالرفع أي ذاك خلوص لك، وخصوص من نون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة فعلى مذهبه هذه المرأة خالصة لك من نونهم ﴿وكان الله غفوراً﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رحيماً﴾ بالتوسعة على عباد.

رُجِيَ مِنْ نِكَاحِ بَيْنِهِمْ وَتَوَرَّى إِلَيْكَ مَنْ نَكَحَهُ وَمَنْ أُنْعِيَتْ مِنْ عَزَلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْرَأْ أَنْ تَفَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَلَا يَحْزَنَكَ وَرِضْيَتِكَ بِمَا آتَيْنَهُمْ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥٨)

روي أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله ﷺ هجرن شهراً ونزل التخيير، فاشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت⁽²⁾ وروي أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أرى ربك يسارع في هواك ﴿ترجي﴾ بهمز وغير همز تؤخر ﴿وتؤوى﴾ تضم يعني تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء أو تطلق

(4) ذكره ابن أبي شيبة في 204/4، كتاب: النكاح، باب: في الرجل يكون له...

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء، (الحديث رقم: 3040).

(1) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: وترجى من تشاء منهن... (الحديث رقم: 4788) ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها، (الحديث رقم: 49 - 1464).

«أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم و «غير ناظرين» حال من لا تدخلوا وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا وقت الإن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ومعناه لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه وإلا فلر لم يكن لهؤلاء خصوصاً لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إننا خاصاً، وهو الإن إلى الطعام فحسب وعن ابن أبي عتبة أنه قرأ غير ناظرين مجروراً صفة لطعام وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه أنتم كقولك هند زيد ضاربه هي، وإني الطعام إدراكه يقال: أني الطعام أني كقولك قلاه قلى ومنه قوله: «بين حميم أن» بالغ إناه وقيل: إناه وقته أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله وروى أن رسول الله ﷺ أوكم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنسا أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجا ياكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فاطلوا فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال السلام عليكم أهل البيت فقالوا عليك السلام يا رسول الله كيف وجدت أهلك وطاف بالحجرات، فسلم عليهن ودعون له ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى فلما رآه متولياً خرجوا فرجع ونزلت⁽⁵⁾ «ولا مستانسين لحديث» نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستانس بعضه ببعض لأجل حديث يحدثه به، أو عن أن يستانسوا حديث أهل البيت واستنسانه تسمعه وتوجه وهو مجرور معطوف على ناظرين وقيل: هو منصوب على ولا تدخلوها مستانسين. لا بد في قوله «فيستحى منكم» من تقدير المضاف أي من إخراجكم بليل قوله والله لا يستحى من الحق يعني: أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل: «لا يستحى من الحق» بمعنى: لا يمتنع منه ولا يتركة ترك الحي منكم وهذا ادب أنب الله به الثقلاء وعن عائشة رضي الله عنها حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال:

ورضين، فقصر النبي ﷺ عليهن وهي التسع اللاتي مات عنهن عائشة بنت أبي بكر حفصة بنت عمر أم حبيبة بنت أبي سفيان سودة بنت زمعة أم سلمة بنت أبي أمية صفية بنت حيي الخبيرية ميمونة بنت الحارث الهلالية زينب بنت جحش الأسدية جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن⁽¹⁾. من في «من أزواج» لتأكيد النفي وفائنته استغراق جنس الأزواج بالتحريم وقيل معناها: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص لإحلالهن لك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات، أو من الإماء بالنكاح وقيل: في تحريم التبديل هو من البديل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: باللني بامراتك وأبالبك بامراتي فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه ويحكى أن عيينة بن حصن نخل على النبي ﷺ. وعنده عائشة عن غير استئذان فقال رسول الله ﷺ: يا عيينة أين الاستئذان قال يا رسول الله: ما استئذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدرت، ثم قال من هذه الجميلة إلى جنبك فقال ﷺ: هذه عائشة أم المؤمنين قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال ﷺ: إن الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: من هذا يا رسول الله قال: أحقق مطاع وأنه على ما ترين لسيد قومه⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء⁽³⁾ تعني: أن الآية قد نسخت، ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة وإما بقوله تعالى: «إنا أحللنا لك أزواجك»⁽⁴⁾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف «ولو أعجبك» في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في تبديل لا من المفعول الذي هو من أزواج لأنه موغل في التنكير، وتقديره مفروضاً إعجابك بهن وقيل: هي أسماء بنت عيسى الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب والمراد أنها ممن أعجبه حسنهن واستثنى ممن حرم عليه الإماء «رقيباً» حافظاً مهيماً، وهو تحنير عن مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه.

يَأْتِيَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَا نَدَّلُوا يَوْمَ يُبَيِّنُ إِلَيْكَ آيَاتِ اللَّهِ فَتَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلْتُمُوهُنَّ مِنْ وَجْهِ جِبَابٍ دَلِيكُمْ أَطْهَرُ لِقَالِكُمْ وَقُولِيهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ دَلِيكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾.

(1) التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 3216)، والحاكم في المستدرک 2/437.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168 و5169)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 90 1428).

(1) رواه أبو خيثمة في تاريخه، الزيلعي 3/120.

(2) كشف الاستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 2251).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6366)، أخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: ما افترض الله عز وجل على رسول الله ﷺ، والترمذي في كتاب: =

فنزلت.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي مَآبِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخْوَانِهِمْ وَلَا يَسَاءِلَهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

﴿لا جناح عليهم﴾ أي لا إثم عليهم في أن لا يحتجب من هؤلاء ولم ينكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الولدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى: ﴿والله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق﴾⁽⁶⁾ وإسماعيل عم يعقوب، قيل: كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لابنائهما وأبنائهما غير محارم، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد فقيل ﴿والتقين الله﴾ فيما أمرت به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار وأحاطن فيه وفيما استثنى منه ما قدرت، واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان، وأنتن غير محجبات ليفضل سركن عنكن ﴿إن الله كان على كل شيء شهيد﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شهاداً﴾ لا يتفاوت في علمه الأحوال.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

قرئ وملائكته بالرفع عطفًا على محل إن واسمها وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ووجهه عند البصريين أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صلوا عليه وسلموا﴾ أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام ومعناه الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم.

فإن قلت: الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوبة إليها: قلت: بل واجبة وقد اختلفوا في حال وجوبها فمنهم من أوجبها كلما جرى نكره وفي الحديث من نكرت عنده فلم يصل عليّ فنبخل النار فابعده الله⁽⁷⁾ ويروي أنه قيل: يا رسول الله أرايت قول الله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ فقال ﷺ هذا من العلم الممكنون، ولو لا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله وكل بي ملكين فلا أنكر عند عبد مسلم فيصلى عليّ إلا قال: ذاك المكان غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذيتك الملكين أمين⁽⁸⁾ ولا أنكر عند عبد مسلم، فلا يصلى عليّ إلا قال ذاك الملكان لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته لذيتك الملكين أمين ومنهم من قال تجب في كل مجلس مرة إن تكرّر نكره

فإذا طعمتم فانتشروا⁽¹⁾ وقرئ: لا يستحي بياء واحدة، الضمير في ﴿سألتموهن﴾ لنساء النبي ﷺ ولم يذكرن لأن الحال ناطقة بذكرهن ﴿متاعاً﴾ حاجة ﴿فالسألوهن﴾ المتاع قيل: إن عمر رضي الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهنّ محبة شديدة كان يذكره كثيرًا ويود أن ينزل فيه وكان يقول: لو أطاع فيكنّ ما راتكنّ عيني وقال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب⁽²⁾ فنزلت، وروي أنه مرّ عليهنّ وهنّ مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتنّ، فإنّ لكرنّ على النساء فضلاً كما أنّ لزوجكنّ على الرجال الفضل، فقالت زينب رضي الله عنها: يا ابن الخطاب إنك لا تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فلم يلبسوا إلا سبيراً حتى⁽³⁾ نزلت، وقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصاب يد رجل منهم يد عائشة فكره النبي ﷺ ذلك⁽⁴⁾ فنزلت آية الحجاب ونكر أنّ بعضهم قال أنتهي أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لأن مات محمد لأزواج عائشة، فأعلم الله أنّ ذلك محرّم⁽⁵⁾ ﴿وما كان لكم إيذاء رسول الله ﷺ ولا نكاح أزواجه من بعده، وسمى نكاحهنّ بعده عظيماً عنده وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمة حيًا وميتًا وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسرّ قلبه واستغفر شكره، فإنّ نحو هذا مما يحثّ الرجل به نفسه ولا يخلى منه فكره ومن الناس من تفرط غيرته هلى حرمة حتى يتمني لها الموت لثلاث تنكح من بعده، وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفًا واستهتارًا فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلى نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب فلم يزل به تلك حتى قتلها تصورًا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره وعن بعض الفقهاء أنّ الزوج الثاني في هدم الثلاثي مما يجري مجرى العقوبة، فصين رسول الله ﷺ عما يلاحظ ذلك:

إِنْ تَدُوًّا سَيًّا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُ شَيْءٌ عَلِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿إن تبدوا شيئاً﴾ من نكاحهنّ على السننكم ﴿أو تخفوه﴾ في صدوركم ﴿فإن الله﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عمًا لكل باد وخاف لينخل تحته نكاحهنّ وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله، أونحن أيضًا نكلمهنّ من وراء الحجاب

(6) سورة البقرة، الآية: 133.

(7) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الادعية، (الحديث رقم: 907)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصيام، فصل: فضائل شهر رمضان، (الحديث رقم: 3622).

(8) رواه الطبراني في معجمه.

(1) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/125.

(2) قال الزيلعي، رواه النسائي وساق الحديث، وعزاه الواحدي للبخاري في تفسيره 3/126.

(3) نكره الطبري في تفسيره، ونكره الثعلبي، الزيلعي 3/127.

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) رواه ابن سعد في الطبقات: 8/162.

رسول الله ﷺ قولهم ساحر شاعر كاهن مجنون وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً.

وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِفْكًَا مُّبِينًا ﴿٤٨﴾

وأما أذى المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه ومعنى «بغير ما اكتسبوا» بغير جنابة واستحقاق للأذى وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤنون علياً رضي الله عنه ويسمعونه وقيل: في الذين أفتكروا على عائشة رضي الله عنها وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات، وعن الفضيل لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل النمة لما فيه من الروعة عند كز الحول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَأَزِيدَنَّكُمْ دِينًا وَتَقْوَىٰ وَتُحْسِنُونَ كَلِمَاتِكُمْ لَئِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ الثَّوَابِ مَا يُغْفِرُ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٩﴾

الجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار وبدون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستتر من فوق إلى أسفل وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره قال أبو زيد: مجلبب من سواد الليل جلابياً، ومعنى «يدنين عليهن من جلابييهن» يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة أنسى ثوبك على وجهك وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في لرع وخمار فصل بين الحرّة، والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والعيطن للإماء وربما تعرّضوا للحرّة بعلّة الأمة يقولون حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤس والوجوه ليحتشمن، ويهين فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله «ذلك أنفي أن يعرفن» أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن.

فإن قلت: ما معنى من في من جلابييهن! قلت: هو للتبعيض إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين: أحدهما أن

كما قيل: في آية السجدة، وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر مرة وكذا قال في إظهار الشهادتين، والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه عند كل نكر لما ورد من الأخبار⁽¹⁾.

فإن قلت: فالصلاة عليه في الصلاة هي شرط في جوازها أم لا؟ قلت: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطاً، وعن إبراهيم النخعي كانوا يكتفون عن نكاح الصلابة بالتشهد وهو السلام عليك أيها النبي، وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً.

فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى «هو الذي يصلي عليكم» وقوله تعالى: «وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»، وقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك، وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك صلى الله على النبي وآله فلا كلام فيها وأما إذا أقرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لنكر رسول الله ﷺ ولأنه يؤدي إلى الالتئام بالرفض، وقال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم⁽²⁾.

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَسَنَ يَكْفُرُ اللَّهُ فِي آذَانِهِمْ وَأَنزَلْنَا لَهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا ﴿٥٧﴾

«يؤنون الله ورسوله» فيه وجهان أحدهما أن يعبر بلبائثهما عن فعل ما يكرهانه، ولا يرضيانه من الكفر والمعاصي وإنكار النبوة ومخالفة الشريعة وما كانوا يصيبون به رسول الله ﷺ من أنواع المكروه على سبيل المجاز وإنما جعلته مجازاً فيها جميعاً وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ﷺ لثلاث أسباب العبارة الواحدة معطية معنى المجاز، والحقيقة والثاني أن يراد يؤنون رسول الله ﷺ وقيل في أذى الله هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغفولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه وقيل قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته وعن رسول الله ﷺ فيما حكى عن ربه شتمني ابن أمّ، ولم ينبغ له أن يشتمني وأذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني فأما شتمه إياي فقلوه إنني اتخذت ولدًا وأما آذاه⁽⁴⁾، فقلوه إن الله لا يعينني بعد أن بداني، وعن عكرمة فعل أصحاب التصاوير الذين يرمون تكوين خلق مثل خلق الله وقيل: في أذى

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقاق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: 908) والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول ﷺ رغم

أنف رجل، (الحديث رقم: 3545)، نكره الطبراني، أخرجه الترمذي

في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول ﷺ رغم أنف رجل، (الحديث

رقم: 3546)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة

فيها، باب: الصلاة على النبي ﷺ، (الحديث رقم: 908)، وأخرجه =

فإن قُلْتُ: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء وأن يقال لنفرينك بهم، فلا يجاورونك قُلْتُ: لو جعل الثاني مسبباً عن الأوّل لكان الأمر كما قلت ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأوّل، وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الاوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن نَّصِدَّ لِّسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٧﴾

﴿سنة الله﴾ في موضع مصدر مؤكد أي سنّ الله في الذين يناقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما تقفوا، وعن مقاتل يعني: كما قتل أهل بدر وأسروا.

يَسْتَلِكُ الْبَاطِنُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٨﴾

كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحاناً، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب فأمر رسول الله ﷺ بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به لم يطلع عليه ملكاً، ولا نبياً، ثم بيّن لرسوله أنها قريبة الوقوع تهيئاً للمستعجلين وإسكاتاً للممتحنين ﴿قريباً﴾ شيئاً قريباً أو لأن الساعة في معنى اليوم أو في زمان قريب.

إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَوِيرًا ﴿١٩﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا سَآئِرًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٠﴾

السعير النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَمْنَا اللَّهَ وَأَطَمْنَا الرَّسُولَ ﴿٢١﴾

وقرى: ﴿تقلب﴾ على البناء للمفعول وتقلب بمعنى تتقلب وتقلب أي تقلب نحن وتقلب على أن الفعل للسعير ومعنى تقلبها تصريفها في الجهات كما نرى البضعة تدور في القدر إذا غلت، فنرامي بها الغليان من جهة إلى جهة أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها، أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة وانصب الظرف يقولون أو محذوف وهو أنكر وإذا نصب بالمحذوف كان يقولون حالاً.

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَمْنَا سَادَاتَنَا وَكِبْرَاتَنَا فَأَسْأَلُونَكَ النَّبِيَّ ﴿٢٢﴾

وقرى: ﴿ساداتنا﴾ وساداتنا وهم رؤساء الكفر الذين

يتجلببن ببعض ما لهم من الجلابيب والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في برع، وخمار كالأمة والمهانة ولها جلاببان فصاعداً في بيتها والثاني أن ترخي المرأة بعض جلاببها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة، وعن ابن سيرين سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها، وعن السدي أن تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين، وعن الكسائي يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن أراد بالانضمام معنى الإنشاء ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما سلف منهن من التفريط مع التوبة لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

﴿لئن أُرِّبْتُمْ لَأَنْتُمْ فُتُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُفَرِّقَنَّ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾

﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان، وقلة ثبات عليه وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ ﴿والمرجفون﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنامرناك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوهم وتتوهم، ثم بأن تضطرمهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لا يساكنوك فيها ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾ ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعبالاتهم⁽¹⁾ فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز.

لَمُعُونِينَ ﴿٢٤﴾ أَيَّمَا فُتُونًا أُخِذُوا وَقُتِلُوا فَرِيحًا ﴿٢٥﴾

﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال أي لا يجاورونك إلا ملعونين يخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً كما مر في قوله: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾⁽²⁾ ولا يصح أن ينتصب عن أخذوا لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.

وقيل: في قليلاً هو منصوب على الحال أيضاً ومعناه لا يجاورونك إلا اقلاء أنلاء ملعونين.

فإن قُلْتُ: ما موقع لا يجاورونك؟ قُلْتُ: لا يجاورونك عطف على لنفرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم الا ترى إلى صحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 53.

(1) قال أحمد: وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي يمول ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعباله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

قيل: إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها سالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنبت تلك على النهي عما يؤدي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليتراعى عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه، لما قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم أتبعه قوله.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾

﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها، وفخم شأنها وفيه وجهان: أحدهما أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد عقلها وهو ما يتأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته، وإرادته إيجاباً وتكويلاً وتسوية على هياكل مختلفة وأشكال متنوعة كما قال ﴿قالنا اتينا طائعين﴾، وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء، وعرضها على الجمادات وإبائها وإشفاقها مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تنزل عن نمته ويخرج عن عهدتها لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها وهو حاملها الا تراهم يقولون ركبته الديون، ولي عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها ونحوه قولهم لا يملك مولى لمولى نصرًا يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخائن ومنه قول القائل:

أحرك الذي لا تملك الحس نفسه وترفض عند المحفظات الكتائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمسك المالك الضنين ما في يده بل يبذل ذلك ويسمح به ومنه قولهم أبغض حق أخيك لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤده وإذا أبغضه أخرجه وأذاه فمعنى، ﴿فأبين أن يحملها وحملها الإنسان﴾ فأبين إلا أن يؤديها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً ل أداء الأمانة وبالجهل لأخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها، والثاني أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحملة ويستقل به فابى حملة والاستقلال به وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه

لقنوه الكفر وزينوه لهم، يقال: ضلّ السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الأي كقوافي الشعر وفانثتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف، وقرى كثيراً تكثرًا لإعداد اللعائن وكبيرًا لبيدل على أشد اللعن وأعظمه.

رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِن رِّبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٧﴾

﴿ضعفين﴾ ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شيء من ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِنَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٧٨﴾

﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قيل: نزلت في شان زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس، وقيل: في آذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، وقيل: اتهمهم إياه بقتل هارون وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً، فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول وقيل: أحياءه الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام وقيل: قرفوه بعبع في جسده من برص، أو أذرة فأطلعهم الله على أنه بريء منه ﴿وجيهاً﴾ ذا جاه ومنزلة عنده فلذلك كان يميظ عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وسم ولا يوصف بنقيصة كما يفعل الملك بمن له عنده قرية ووجاهة، وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوه وكان عبد الله وجيهاً قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان فسمعتة يقرؤها، وقراءة العامة أوجه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله كقولته تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ وهذه ليست كذلك.

فإن قُلْتُ: قوله ﴿مما قالوا﴾ معناه من قوله أو من مقولهم، لأن ما: إما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فكيف تصح للبراءة منه؟ قُلْتُ: المراد بالقول أو المقول مؤداه ومضمونه، وهو الأمر المعيب الا ترى أنهم سمو السببة بالقالة والقالة بمعنى القول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٩﴾

﴿قولاً سديداً﴾ قاصداً إلى الحق والسداد القصد إلى الحق والقول بالعدل يقال: سدد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها كما قالوا: سهم قاصد والمراد نهيم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على أن يسد قولهم في كل باب، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله والمعنى: راقبوا الله في حفظ السننكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها و.

يُطِيعُ لَكُمْ أَعْيُنَكُمْ وَيَعْبُرُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبا مكية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

ما في السموات والارض كله نعمة من الله وهو الحقيق بان يحمد ويثنى عليه من اجله ولما قال ﴿الحمد لله﴾، ثم وصف ذاته بالانعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه انه المحمود على نعم الدنيا كما تقول احمد اخاك الذي كسك وحملك تريد احمده على كسوته وحملانه ولما قال: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ علم انه المحمود على نعم الآخرة، وهو الثواب.

فان قُلْتُمْ: ما الفرق بين الحمدين؟ قُلْتُمْ: اما الحمد في الدنيا فواجب لا انه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب واما الحمد في الآخرة، فليس بواجب لا انه على نعمة واجبة (2) الإيصال إلى مستحقها إنما هو تنمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتنون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم أمور الدارين وببرها بحكمته ﴿الخبير﴾ بكل كائن يكون.

يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَرْسُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾.

ثم نكر مما يحيط به علماً ﴿ما يبلغ في الأرض﴾ من الغيث كقوله فسلكه ينابيع في الأرض، ومن الكنوز والنفائض والأموات وجميع ما هي له كفات ﴿وما يخرج منها﴾ من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والذواب وغير ذلك ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وهو﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿الرحيم الغفور﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه تنزل بالنون والتشديد.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ
الْعَظِيمُ لَا يَمُرُّ عَنْهُ يَشْقَالٌ دَرَجٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا
أَصْبَحَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَكَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقتهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل: للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات وتصور مقابلة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قببحة كما أن العجف مما يقبح حسنه فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع وهي به آس وله آقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محلها والوفاء بها.

فان قُلْتُمْ: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرابين، وتركه المضي على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماء، وإبائه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول. قُلْتُمْ: الممثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشققن منها.

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧﴾.

واللام في ليعذب لام التعليل على طريق المجاز، لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويتوبى ويتوب الله ومعنى قراءة العامة ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر» (1).

(1) نكرة الثعلبي وابن مردويه، الزليعي 3/137.

(2) قال أحمد: والحق في الفرق بين الحمدين أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية =

= كالجيليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق، والله الموفق.

﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُنْجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ يَنْزِجُهُ
أَلِيمٌ ﴿٥﴾.

قولهم: ﴿لا تاتينا الساعة﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعده من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله ﴿ليجزى﴾ لأن عظمة حال المقسم به تؤنن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته، واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وأكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قلنا: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى قلنا: نعم، وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأولها مسارعة إلى القلب إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيباً واضحاً.

فإن قلنا: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فهب أنه حلف لهم بأغظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلنا: هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يتبعها الحجة القاطعة والبيينة الساطعة.

وهي قوله: ﴿ليجزى﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب والعسيء لا بد له من عقاب وقوله: ﴿ليجزى﴾ متصل بقوله ﴿لتاتينكم﴾ تعليلاً له، قرئ: ﴿لتاتينكم﴾ بالتاء والياء ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم أو يسند إلى عالم الغيب أي لياتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾، أو يأتي ريك وقال: ﴿أو يأتي أمر ريك﴾. وقرئ: ﴿عالم الغيب﴾ و﴿وعالم الغيب﴾ بالجر صفة لربي وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ولا يعزب بالضم والكسر في الزاي من العزوب، وهو البعد يقال روض عزيز بعيد من الناس ﴿مثقلاً نزة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿للك﴾ إشارة إلى مثقال نزة، وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء وبالفتح على نفي الجنس كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بالرفع والنصب وهو كلام منقطع عما قبله.

فإن قلنا: هل يصح عطف المرفوع على مثقال نزة كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال نزة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي وعطف المفتوح على نزة بأنه فتح في موضع الجر

لامتناع الصرف كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال نزة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قلنا: يابى ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في عنه للغيب وجعلت الغيب اسماً للخفيات قبل أن تكتب في اللوح لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح.

﴿الذين سعوا في آيتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ وقرئ: معجزين واليم بالرفع والجر، وعن قتادة الرجز سوء العذاب.

وَبَرَى الَّذِينَ أَوْفُوا أَلَمَهُمُ الَّذِي نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾.

﴿ويرى﴾ في موضع الرفع أي ويعلم أولوا العلم يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما، الذي أنزل إليك الحق وهما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع جعله مبتدأ والحق خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني، وقيل: يرى في موضع النصب معطوف على.

ليجزى أي: وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علماً لا يزداد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا، ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق، فيزدالوا حسرة وغماً.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَيْبٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَنِي حَلْقِي جَدِيدٍ ﴿٧﴾.

﴿الذين كفروا﴾ قريش قال بعضهم لبعض.

﴿هل نملككم على رجل﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً. يمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد.

أَنزَلْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْمَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾.

أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، ثم قال سبحانه: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار فيما يؤذيهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجن الجنون وأشدّه إطباقاً على عقولهم جعل وقوعهم في العذاب رسياً لوقوعهم في الضلال كأنهما كائنان في وقت واحد، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته جعلاً كأنهما في الحقيقة مقترنان، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه ينيبكم.

فإن قلنا: فقد جعلت الممزق مصدرًا كبيت الكتاب.

بالإدغام وليست بقوية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْكَلِيمُ﴾ (١٧)

﴿يا جبال﴾ إما أن يكون بدلاً من فضلاً وإما من آتينا بتقدير قولنا: يا جبال أو قلنا يا جبال، وقرئ: أُوْبِي وأُوْبِي من التاويب والأوب أي: رجعي معه في التسيب أو رجعي معه في التسيب كلما رجع فيه لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه، ومعنى تسيب الجبال أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسيباً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسيح معجزة لداود وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تساعد على نوحه بأصدائها والطيير بأصواتها، وقرئ: والطيير رفعاً ونصباً عطفاً على لفظ الجبال ومحلها وجوزوا أن ينتصب مفعولاً معه وأن يعطف على فضلاً بمعنى وسخرنا له الطير.

فإن قُلْتُ: أي: فرق بين النظم وبين أن يقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ تاييب الجبال معه والطيير قُلْتُ: كم بينهما إلا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفي من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته ﴿وَالنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾، وجعلناه له ليئناً كالطين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة.

﴿أَن أَعْلَى سَيْمَنْتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَكْمُلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٧)

وقرئ: صابغات وهي الدرود الواسعة الضافية، وهو أول من اتخذها وكانت قبل صفائح وقيل: كان يبيع الدرود بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكراً فيسال الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود، فيثنون عليه فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عابته فقال: نَعَمْ الرجل لولا خصلة فيه فريخ داود، فسأله فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدرود ﴿وَوَقَدَّرَ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتفصم الحلق والسرود نسج الدرود ﴿وَأَعْمَلُوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿وَو﴾ سخرنا.

﴿وَالسَّيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا رَوَّاحَهَا شَهْرًا وَأَسْنَا لَهُ عَيْنَ الطَّيْرِ وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ تُبْعَثُونَ وَمَنْ يُرِجْ رِيحَهُمْ عَنْ شَرْيَا نُزِقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٧)

﴿لسليمان الريح﴾ فيمن نصب ولسليمان الريح مسخرة فيمن رفع وكذلك فيمن قرأ الرياح بالرفع ﴿غَدُوًّا﴾ شهرٌ جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك،

لم تعلم مسرحي القوافي فلا عيابهن ولا اجتلابا فهل يجوز أن يكون مكاناً؟ قُلْتُ: نعم ومعناه ما حصل من الاموات في بطون الطير والسباع وما مرّت به السيول فذهبت به كل مذهب وما سفته الرياح فطرحت كل مطرح.

فإن قُلْتُ: ما العامل في إذا؟ قُلْتُ: ما دل عليه إنكم لفي خلق جديد وقد سبق نظيره.

فإن قُلْتُ: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قُلْتُ: هو عند البصريين بمعنى فاعل تقول جد فهو جديد كحد فهو حديد وقل فهو قليل وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جده إذا قطعه وقالوا: هو الذي جد الناسح الساعة في الثوب ثم شاع ويقولون ولهذا قالوا: ملحفة جديد وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ونحو ذلك.

فإن قُلْتُ: لم أسقطت الهمزة في قوله افتري نون قوله للسحر وكتاهما همزة وصل؟ قُلْتُ: القياس الطرح ولكن أمراً اضطرهم إلى ترك إسقاطها في نحو أسحر وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام.

فإن قُلْتُ: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتُ: هو من الإسناد المجازي لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة وكما ازداد عنها بعداً كان أضل.

فإن قُلْتُ: كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم فما معنى قوله: ﴿هل نلتكم على رجل ينبئكم﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول قُلْتُ: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِٰ إِن شَاءَ نَحْنُ نَحْيِفُهُمْ أَرْضَ الْاَرْضِٰ أَوْ نَسُفُهُمْ عَلَيْهِنَّ كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّا فِي ذَٰلِكَ لَآبِينَ لِكُلِّ عَدُوٍّ مُّبِينٌ﴾ (١٨)

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لآية﴾ ودلالة ﴿لكل عبد منيب﴾ وهو الرجوع إلى ربه المطيع له لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى: ﴿افتري على الله كتاباً﴾ وبالنون لقوله: ولقد آتينا وكسفاً بفتح السين وسكونه، وقرأ الكسائي يخسف بهم

وقرى غبوتها وروحها وعن الحسن رضي الله عنه كان يغبو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية نجلة كتبه بعض أصحاب سليمان نحن نزلناه وما بنيانه ومبنيًا وجنانه غبوتنا من اصطخر فقلناه ونحن راثون منه فباتتوا بالشام إن شاء الله. القطر النحاس المذاب من القطران.

فإن قلت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أسأله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما أل إليه كما قال: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بإذن ربه﴾ بأمره ﴿ومن يزغ منهم﴾ ومن يعدل ﴿عن أمرنا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرى يزغ من أزاغه، وعذاب السعير عذاب الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى.

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْنَبٍ وَتَسْبِيلٍ وَحِجَابٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَكُمْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾.

المحاريب المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها وينب عنها وقيل: هي المساجد، والتمائيل صور الملائكة والنبيين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبثوا نحو عبادتهم.

فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكنب وعن أبي العالية لم يكن اتخاذ الصور إذ ناك محرماً، ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو تصور محذوفة الرؤوس، وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوفاه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما والجوابي الحياض الكبار قال:

تروح على آل المعلق جفنة كجابية⁽¹⁾ السبح العراقي تفهوق⁽²⁾

لأن الماء يجيبى فيها أي: يجمع جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، وقرى: بحنف الباء اكتفاء بالكسرة كقوله تعالى: ﴿يوم يدع الداع﴾ وراسيات، ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمتها ﴿اعملوا آل داود﴾ حكاية ما قيل: لأل داود وانتصب ﴿شكراً﴾ على أنه مفعول له أي: عملوا لله وأعبده على وجه الشكر لنعمائه وفيه دليل على أن العبادة

يجب أن تؤدى على طريق الشكر أو على الحال أي: شاكرين أو على تقدير اشكروا شكراً لأن عملوا فيه معنى اشكروا من حيث أن العمل للمنع شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به ومعناه أنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة ﴿والشكور﴾ المتوفر على أداء الشكر البائز وسعيه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً وكنياً وأكثر أوقاته، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من يشكر على أحواله كلها، وعن السدي من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وعن داود أنه جزاً ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء فقال الرجل: إني سمعت الله يقول ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر⁽³⁾.

لَمَّا فَصَيَّنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَٰنَ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْمَلُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ ﴿٧﴾.

قرى: فلما قضى الموت ودابة الأرض والارضة وهي الدوبية التي يقال لها السرقة والأرض فعلها فاضيفت إليه يقال: أرضت الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرض، وقرى: بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضاً وهو من باب فعلته ففعل كقولك أكلت القوادح الأسنان أكلاً فاكلت أكلاً، والمنسأة العصا لأنه ينسأ بها أي يطرد ويؤخر، وقرى: بفتح الميم ويتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس ولكن إخراج الهمزة بين بيْن هو التخفيف القياسي ومنسأته على مفعلة كما يقال: في الميضاء ميضاء ومن سأت أي من طرف عصاه سميت بساة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم قحة وقحة وقرى: أكلت منسأته ﴿تبيئت الجن﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وجلى، و﴿أن﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك تبين زيد جهله والظهور له في المعنى أي ظهر أن الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب﴾ أو علم الجن كلهم علماً بيئاً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم وتوهمهم أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهم بهم كما تنهك بمدعي الباطل إذا نحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل وانت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً، وقرى: ﴿تبيئت الجن﴾ على البناء للمفعول

(3) رواه ابن أبي شيبة 322/10، كتاب: الدعاء، باب: ما نكر عن أبي بكر وعمر والخ.

(1) الجابية: أي الماء الجاري على وجه الأرض.

(2) وفهوق الإناء: أي إذا امتلأ حتى يتصب.

على ان المتبين في المعنى هو ان مع ما في صلتها لانه بدل، وفي قراءة أبي تبينت الإنس وعن الضحاك تباينت الإنس بمعنى: تعارفت وتعالمت والضمير في كانوا للجن في قوله: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ما لبثوا، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة ثابتة قد أنطقها الله فيسألها لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة فسألها فقالت: نبت لخراب هذا المسجد فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعتها وغرسها في حائط له وقال اللهم: عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يستترون السمع ويوهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال: لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرخاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان، فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خرّ ميتاً ففتحو عنه، فإذا العصا قد اكلتها الأرضة فارأوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فاكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو فوجوهه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة. وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سال أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب، روى أن أفريون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتداء بناء بيت المقدس لأربع مضي من ملكه.

فإن قُلْتَ: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية عن شكر الله تعالى عليهما فخرَّبهما وأبدلهم عنهما الخمط والأثل آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، ويجوز أن تجعلهما آية أي علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره.

فإن قُلْتَ: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحترف بها من الجنان ما شئت؟ قُلْتَ: لم يرد بستانيين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم: أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم: لسان الحال أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ولما قال: كلوا من رزق ربكم ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المکتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجرة فيمتلئ المکتل بما يتساقط فيه من الثمر طيبة لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا نباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وقرئ بلدة طيبة ورباً غفوراً بالنصب على المدح، وعن ثعلب معناه: أسكن واعد.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمِ وَيَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلٍ حَمْظٍ وَاتِّلِ وَتَقْوَىٰ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾.

﴿العرم﴾ الجرد الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروفاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله، ويذكرونهم نعمته عليهم فكنبوهم وقالوا: ما نعرف الله نعمة سبط الله على سدهم الخلد فنقبه من أسفله ففرقهم وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المروكمة ويقال: للكس من الطعام عرمة والمراد المسناة التي عقبوها سكرًا وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد، وقرئ: ﴿العرم﴾ بسكون الراء، وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ﷺ، وقرئ: ﴿اكل﴾ بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والأكل الثمر، والخمط شجر الأراك وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعاماً من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً ووجه من نون أن أصله نواتي أكل خمط فحفن المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدُ طَيْبَةٍ وَرَبِّ عَرْوَةِ ﴿١٧﴾.

قرئ ﴿لسبأ﴾ بالصرف ومنعه وقلب الهمزة الفاء، ومسكنهم بفتح الكاف وكسرهما وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم، وقرئ مسكنهم و﴿جنتان﴾ بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة من قرأ جنتين بالنصب على المدح.

فإن قُلْتَ: ما معنى كونهما آية؟ قُلْتَ: لم نجعل الجنتين

قرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبعدها ربنا على الدعاء، بطروا النعمة وبشموا من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهي، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد فعجل الله لهم الإجابة، وقرئ: ﴿ربنا﴾ بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعها به كما تقول: سير فرسخان ويوعد بين أسفارنا.

وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء، والمعنى: خلاف الأول وهو استبعاد مسيرهم على قصرها وبتنوها لفرط تمنعهم وترفعهم كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحاذنون عليه ﴿أحاديث﴾ يتحذت الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقتهم تفرقاً اتخذها الناس مثلاً مضرورياً يقولون ذهبوا أيدي سبأ وتفرقوا أيادي سبأ قال كثير بن أيادي: سبأ يا عز ما كنت بعدكم، فلم يجلب بالعينين بعدك منظر لحق غسان بالشام وأثمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصي ﴿شكور﴾ للنعيم.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسَ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

قرئ: ﴿صدق﴾ بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدد فعلى حقيق عليهم ظنه أو وجده صابقاً، ومن خفف فعلى صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً نحو فعلته جهنك وينصب إبليس، ورفع الظن فمن شدد فعلى وجد ظنه صابقاً ومن خفف فعلى قال له: ظنه الصابق حين خيله إغواءهم يقولون صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعها على صدق عليهم ظن إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعها لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إن نزيته أضعف عزماً منه فظن بهم اتباعه وقال: ﴿أضلنهم لاغوينهم﴾ وقيل: ظن نك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها، والضمير في عليهم واتبعوه إما لاهل سبأ أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقاً﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لاحتنكن نزيته إلا قليلاً﴾ ولا تجد أكثرهم شاكرين.

وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يَرْؤُنَ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطِطٌ ﴿١٧﴾

﴿وما كان له عليهم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستفواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه وفعل ومفاعل متأخيان.

أو وصف الأكل بالخط كأنه قيل: نواتي أكل بشع ومن أضاف، وهو أبو عمرو وحده فلاذن أكل الخط في معنى البرير كأنه قيل: نواتي برير والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمت لأن الأثل لا أكل له وقرئ: وأثلاً وشيئاً بالنصب عطفاً على جنتين وتسمية الليل جنتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم وعن الحسن رحمه الله قتل السدر لأنه أكرم ما بلوا.

ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ يَمًا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفْرُ ﴿١٧﴾

وقرئ: ﴿وهل﴾ يجازي وهل نجازي بالنون وهل يجازي والفاعل الله وحده وهل يجزى والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازي بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر، وهو أن الجزاء عام لكل مكافاة يستعمل تارة في معنى: المعاقبة وأخرى في معنى: الإثابة فلما استعمل في معنى: المعاقبة في قوله جزيناهم بما ﴿كفروا﴾ بمعنى: عاقبتناهم بكفرهم قيل: وهل يجازي إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقاتل أن يقول لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه ألا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا هل يجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسد كلاماً فتيين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

رَمَعْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا أَكْثَرًا سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيًا وَأَيَّامًا آيِينَ ﴿١٨﴾

﴿القرى التي باركنا فيها﴾، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين أو راحة متن الطريق ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدردنا فيها للسير﴾ قيل: كان الغادي منهم يقبل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عنواً ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾، وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما كانوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأن لهم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ليالي وأياماً﴾ قلت: معناه سيروا فيها إن شتمت بالليل وإن شتمت بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين لا تخافون وإن تطولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْزُقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

من الراجين للشفاعة، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإنن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التريص ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صواباً﴾⁽²⁾ كأنه قيل: يتريصون ويتوقفون ملياً فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبهم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإنن. تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال: ﴿الحق﴾ أي: القول الحق وهو الإنن بالشفاعة لمن ارتضى وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعت الشفاعة⁽³⁾، وقرئ إنن له أي أذن له الله وإنن له على البناء للمفعول وقرأ الحسن فزع مخففاً بمعنى فزع، وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده؛ وفزع أي نفي الوجل عنها وأقنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك نكر الوجل، وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول نفع إلي زيد إذا علم ما المنفوع وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أي انتفي عنه وفي، ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ افرنقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما افاق قال: ما لكم تكلكتم علي تكلكتم على ذي جنة افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وقرئ الحق بالرفع أي مقوله الحق ﴿وهو العلي الكبير﴾ نو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم نك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَمَنِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾⁽¹⁾

أمره بأن يقرهم بقوله: ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقررون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد أجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق إلا نرى إلى قوله: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ حتى قال: ﴿سيقولون الله﴾، ثم قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فكانهم كانوا يقرّون بالسنتهم مرة ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضراواً وحذراً من إلزام الحجة ونحوه قوله عز وجل: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل افتخنتم من

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَتَلْجَأُونَ إِلَى اللَّهِ سَكْرَتٍ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿١١﴾

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبثتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتهم باسمه كما تدعون الله والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يملكون شيئاً نذرة﴾ من خير أو شر أو نفع أو ضرر ﴿في السفوات ولا في الأرض وما لهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك كقوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾⁽¹⁾، وماله منهم من عوين يعين على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجي.

فإن قلت: أين مفعولاً زعم قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول، وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون الله لا يلتئم كلاماً ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليه وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد، فيبقى أن يكون محذوفاً تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله، فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: أهذا الذي بعث الله رسولا استخفافاً فالطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله، والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفعولاً؛ فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين، تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول القيام لزيد.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾⁽²⁾

فاتحتم قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه، أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله، وكانه قيل إلا لمن وقع الإنن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكتيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولاي شيء وقعت حتى غاية قلت: بما فهم من هذا الكلام من أن ثم انتظراً للإنن وتوقفاً وتمهلاً وفزعاً

(3) قال الزيلعي: غريب: 141/3.

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة النبا، الآيات: 37، 38.

بإبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلظهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كانه قال: أين الذين الحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده أو ضمير الشأن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرساله عامة لهم محيطه بهم لأنها إذا شملتهم، فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعلها حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاة الراوية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ، ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطئين.

قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيرُونَ ﴿٢٠﴾

قري: ﴿ميعاد يوم﴾ وميعاد يوم وميعاد يوماً والميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان واللليل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فأبدل منه اليوم.

فإن قُلْتَ: فما تأويل من اضافه إلى يوم أو نصب يوماً! قُلْتَ: أما الإضافة فإضافة تبين كما تقول سحق ثوب وبغير سانية وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون الرفع على هذا أعني التعظيم.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قُلْتَ: ما سألوا عن نلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجى السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدماً عليه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الْآيَاتِ لَآئِدًا إِلَّا أَصْنَامَهُمْ لِيَطَّلِعُوا عَلَىٰ إِحَالَةِ الْقِيَاسِ إِلَيْهِ وَالْإِشْرَاكَ بِهِ ﴿٢١﴾ وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ أَصْنَامُهُمْ لِيَطَّلِعُوا عَلَىٰ إِحَالَةِ الْقِيَاسِ إِلَيْهِ وَالْإِشْرَاكَ بِهِ ﴿٢٢﴾ وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ أَصْنَامُهُمْ لِيَطَّلِعُوا عَلَىٰ إِحَالَةِ الْقِيَاسِ إِلَيْهِ وَالْإِشْرَاكَ بِهِ ﴿٢٣﴾

(2) قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظام، وعن العظام بما يعبر به عن الهفوات التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه نكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي نلك، والله أعلم.

نونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، وأمره أن يقول لهم: بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وإنا أو إياكم لعلی هدى أو في ضلال مبين﴾، ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون الرانق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة لعلی أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام لمنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف، قال: لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك وفي درجة بعد تقممه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنزل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكتة بالهويينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصابق مني ومنك وإن أهدنا لكاتب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفاء فشركما الخيركما الفداء^(١)
فإن قُلْتَ: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قُلْتَ: لأن صاحب الحق كانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كانه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه وفي قراءة أبي وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُلْ لَا تُشْرِكُوا عَمَّا آخَرْتُمْ وَلَا تُشْرِكُوا عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول حيث أسند الإجماع إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإجماع الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعالم الكفر والمعاصي العظام⁽²⁾.

قُلْ يَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَبَازٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَمَا أَفْتَحُ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

وفتح الله بينهم وهو حكمه وفصله أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أَحْمَرْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ أَعَزُّ مِنَ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٦﴾

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿أروني﴾ وكان يراهم ويعرفهم قُلْتَ: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به ﴿كلا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال

(1) قال أحمد: وهذا تفسير مهذب، وافتنان مستعذب رديته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعادته خاطر كاني بطيه الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخر، والفقه في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فتأمل، والله الموفق.

لَكُمْ مَوْبِيتٌ ﴿٣٦﴾

الليل والنهار بالتنونين ونصب الظرفين وبل مكرز الليل والنهار بالرفع والنصب أي: تكونون الإغواء مكرزًا دائمًا لا تفترون عنه.

فإن قُلْتُمْ: ما وجه الرفع والنصب! قُلْتُمْ: هو مبتدأ أو خبر على معنى: بل سبب نلك مكرمك أو مكرمك أو مكرمك أو مكرمك سبب نلك والنصب على بل تكونون الإغواء مكرز الليل والنهار.

فإن قُلْتُمْ: لم قيل قال: الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال: الذين استضعفوا قُلْتُمْ: لأن الذين استضعفوا أمر ولا كلامهم فجئى بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جئى بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول.

فإن قُلْتُمْ: من صاحب الضمير في ﴿وأسروا﴾ قُلْتُمْ: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله: ﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿في أعناق الذين كفروا﴾ أي: في أعناقهم فجاء بالصریح للتنبؤ بنهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال، وعن قتادة أسروا الكلام بذلك بينهم وقيل أسروا الندامة أظهورها وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَرْفُوعًا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾

هذا تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكنيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أي: الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ: أهل مكة وكابوه بنحو ما كابوه به وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

وقد أبطل الله تعالى حسابهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح وربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقد الرزق تضيقه قال

الذي بين يديه ما نزل قبل القرآن من كتب الله يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجنون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعًا، وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: أو للمخاطب ﴿ولو ترى﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجانبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب فحنف الجواب، والمستضعفون هم الاتباع. والمستكبرون هم الرؤس والمقدمون.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ أَنْزَلْنَا سَكَنًا تُرْكَ عَنِ أَعْيُنِ بَعْدَ إِذْ جَاءَهُمْ بَلْ كُتِرَ تَجْرِبِينَ ﴿٣٧﴾

أولى الاسم أعني نحن حرف الإنكار، لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصائين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: نحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بعد إذ جاءكم﴾ بعد أن صمتم على الدخول في الإيمان، وصحت نياتكم في اختياره بل انتم منعمت أنفسكم حظها وأثرت الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهي، فكنتم مجرمين كافرين لا اختياركم لا لقولنا وتسويلنا.

فإن قُلْتُمْ: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافًا إليها؟ قُلْتُمْ: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان كما أضيف إلى الجمل في قولك جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ وكان نلك أو أن الحجاج أمير وحين خرج زيد لما أنكر المستكبرون بقولهم: نحن صددناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن نلك بكسبهم واختيارهم.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَأَنَّهُارٍ لِّذِ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمِلَ لَهُ أَثْمَانًا وَأَسْرُوا الدَّيْمَةَ لَنَا رَأَوْا الْعَنَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٣٨﴾

مكر عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فابطلوا إضراهم بإضراهم كأنهم قالوا: ما كان الأجرام من جهتنا بل من جهة مكرمك لنا دائمًا ليلًا ونهارًا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ومعنى مكر الليل والنهار: مكرمك في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، وقرئ بل مكر

تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾⁽¹⁾، وقرئ يقدر بالتشديد والتخفيف.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا وَبِعْدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا بِعِبْدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿٤٢﴾

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على الممثل السائر إياك أعني واسمعي يا جاره ونحوه قوله تعالى: ﴿أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾⁽³⁾ وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد، وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم وهو أنه الزم ويكون اقتصاص ذلك لطفًا لمن سمعه وزاجر لمن اقتص عليه والموالاة خلاف المعادة ومنها اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أن المعادة من العداوة وهي البعد والولي يقع على الموالي والموالي جميعًا والمعنى: أنت الذي تواليه من نونهم إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعادة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك.

﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يريدون الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله وقيل: صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبت فيعبدون بعبادتها، وقرئ: ﴿نحشروهم﴾ ونقول بالنون والياء، الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والنار فيها مخلق بينهم يتضارون ويتنافعون والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم نكر معاقبته الظالمين بقوله:

قَالِيمٌ لَا يَمْلِكُ بِمُضْكَرٍ لِمَعْصُومٍ وَلَا صَرًَا وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرْفًا عَذَابِ النَّارِ أَلَّتْ كَثْرًا بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفًا على لا يملك، الإشارة الأولى إلى رسول الله ﷺ والثانية إلى القرآن والثالثة إلى الحق والحق أمر النبوة كله وبين الإسلام كما هو وفي قوله:

وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي عَنَّا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكَ عَنَّا كَانَ عَبْدًا مَبْذُورًا وَمَا هَذَا إِلَّا أَنْفُكَ تُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَحِقَ لَنَا جَاءَهُمْ لِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٤﴾

﴿وقال الذين كفروا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا وفي قوله ﴿لالحق لما جاءهم﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى

وَمَا آمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي تَقْرَبُونَ عِنْدَنَا ذَلْفَقَ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَجْرِهِمْ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْآفَاقِ وَأَيْسُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

أراد وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتقريب وتوابعكم وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التانيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها أي ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب، وقرأ الحسن باللاتي تقربكم لأنها جماعات، وقرئ بالذي يقربكم أي بالشئ الذي يقربكم، والزلفى والزلفة كالكبرى والكربة ومحلها النصب أي: تقربكم قربة كقوله تعالى: ﴿انبتكم من الأرض نباتًا﴾⁽²⁾ ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من كم في تقربكم والمعنى أن الأموال لا تقرب أحدًا إلا المؤمن الصالح الذي ينفعها في سبيل الله والأولاد لا تقرب أحدًا إلا من علمهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فالولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرًا وقرئ جزاء الضعف على فالولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف مرفوعان الضعف بدل من جزاء، قرئ في الغرفات بضم الراء وفتحها وسكونها وفي الغرفة.

قُلْ إِنَّ رِزْقَ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَنْ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْفِيهِ وَهُوَ خَبِيرُ الرِّزْقِ ﴿٣٩﴾

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوضه لا معوض سواء إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما أجلاً بالثواب الذي كل خلف نونه، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه، فليقتصد فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبق طول عمره في فقر ولا يتأولن وما أنفقتم من شيء، فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلام رب العزة بأن كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق، وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجبو واجد لا يشتهي.

(3) سورة المائدة، الآية: 116.

(1) سورة الطلاق، الآية: 7.

(2) سورة نوح، الآية: 17.

القائلين، والمقول فيه وفي لما من المبادأة بالكفر لئيل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب من أمرهم بليغ كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمربون بجراتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن ينوقوه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحرًا.

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤).

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ كتبًا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيرًا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: أم آتيناهم كتابًا من قبله فهم به مستمسكون، فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَعْثَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي وَكَذَّبَ كَانْ كَبِيرٍ﴾ (٤٥).

﴿وكذب للذين﴾ تقدّمهم من الأمم والقرون الخالية كما كتبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال فحين كتبوا رسلهم جاءهم إنكارهم بالتنمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ يدرسونها من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب ودرس الكتب ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس والمعشار كالمرباع وهما العشر والرابع.

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

﴿فإن قلت: ما معنى ﴿فكتبوا رسل﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قلت: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكنيب واقتدوا عليه جعل تكنيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدي لها كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها أو يقال: فإنما أضل بنفسي قُلْتُ: هما متقابلان من جهة المعنى لأن النفس كل ما عليها فهو بها، أعني أن كل ما هو وبها عليها وضارٌ لها فهو بها وبسببها لأنها الأمانة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عامٌ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا نخل تحته مع جلالته حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالٍ ومهدت وقعله لا يخفى عليه منها شيء.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُنذِرُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف يعني: لرأيت أمرًا عظيمًا وحالًا هائلة ولو وإذ والأفعال التي هي: فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجه لتحقيقه وقت الفزع وقت البعث وقيام الساعة وقيل: وقت الموت وقيل: يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في خسف البيداء وذلك أن ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا نخلوا البيداء خسف بهم ﴿فلا فوت﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه وقرئ: فلا فوت، والأخذ من مكان قريب من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم.

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله وأخذوا قُلْتُ: فيه وجهان العطف على فزعوا أي: فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا وقرئ: وأخذ وهو معطوف على محل لا فوت ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ.

وَقَالُوا مَائِمًا بِهِ وَأَنَّ لَهُمُ التَّنَاوُشَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٥﴾

﴿أمنا به﴾ بمحمد ﷺ لمرور نكره في قوله ما بصاحبكم من جنة، والتناوش والتناول أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم ويقال تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضًا وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في تلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من قيس نراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه، وقرئ: التناوش همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه والوثر وعن أبي عمرو التناوش بالهمز التناول من بعد

إن أعطيتني شيئاً فخذ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن والثاني أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾⁽¹⁾ في قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى﴾⁽²⁾ لأن اتخاذ السبيل إلى الله تصببهم وما فيه نفعهم وكذلك المودة في القرابة لأن القرابة قد انتظمتها وإياهم ﴿على كل شيء شهيد﴾ حفيظ مهيمن يعلم اتني لا اطلب الأجر على نصيحتكم وبعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء، القنف والرمي تزجية السهم، ونحوه يدفع واعتقاد ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وقنف في قلوبهم الرعب أن قنفيه في التابوت، ومعنى «يقنف بالحق» يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرسي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿علام للغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكن في يقنف أو هو خبر مبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب صفة لربي أو على المدح وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالببوت والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جدًا.

قُلْ جَاءَ أَلْفُكُمْ وَمَا يُبَدِّئُ التَّيْلُ وَمَا يُبَدِّئُ ﴿٥٦﴾

والحي إِمَّا إن يبدي فعلًا أو يعيد فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدي ولا يعيد مثلًا في الهلاك ومنه قول عبيد:

أففر من أهله عبيد فالיום لا يبدي ولا يعيد والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه نخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد﴾⁽³⁾، و﴿الحق﴾ القرآن وقيل الإسلام وقيل: السيف وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي ما ينشئ خلقًا ولا يعيده، المنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدي لأهله خيرًا ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أي شيء ينشئ إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل: للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان من شاط إذا هلك.

قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَلَيْسَ أَسْبَلُ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُرِيحُنِي إِلَّا رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٧﴾

قرئ: ﴿ضللت﴾ أضل بفتح العين مع كسرهما وضللت أضل بكسرهما مع فتحها وهما لغتان نحو ضللت أضل وظللت أظل، وقرئ: أضل بكسر الهمزة مع فتح العين.

فإن قُلْتُ: أين التقابل بين قوله فإنما أضل على نفسي

(3) تقدم في سورة الإسراء.

(1) سورة الفرقان، الآية: 57.

(2) سورة الشورى، الآية: 23.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

من قولهم ناشت إذا ابطت وتاخرت ومنه البيت:
تمني نثيشان يكون اطاعني

أي: أخيراً.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَذُفُونَ بِالْعَبِيٍّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

(٥٧)

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُؤُلًا أُنثَىٰ
مُنْتَنٍ وَرَبِّعَ بَرِيدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٧﴾.

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها⁽²⁾ وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ: جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حانمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعنى أن الملائكة خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة الينين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلْتُ: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة قُلْتُ: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياة من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح⁽³⁾. وروي أنه سال جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إنني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فاتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال:

﴿ويذفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كتبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عانته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ: ويذفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتيهم به شياطينهم ويلقونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله، وقالوا أمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم أمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبًا عنه شاحطًا والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعنيين إن كان الأمر كما تصفون أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

وَجِبَلٍ بَيْنَهُمْ وَيَوْمَ مَا يَشْتَرُونَ بِمَا كَفَرُوا بِأَشْيَائِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِيْتِهِمْ كَأُتُوًا فِي سَكِّ مَرْيَبٍ ﴿٥٨﴾.

﴿ما يشترون﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفلوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم أرجعنا نعمل صالحًا ﴿باشياعهم﴾ بأشباعهم من كفره الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما قريبًا وهو أنّ المريب من الأوّل منقول ممن يصح أن يكون مريبًا من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رقيقًا ومصافحًا⁽¹⁾.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

(1) نكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي

ابن عباس رضي الله عنهما؟ قُلْتُ: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب فمرود لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿من بعده﴾ من بعد إمساكه كقوله تعالى: ﴿من يهديه من بعد الله﴾⁽³⁾ فبأي حديث بعد الله أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القاسر على الإرسال والإمساك ﴿الحكيم﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

يَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عَرَّ اللَّهُ بِرِزْقِكُمْ
مَنْ أَسْكَنَهُ وَالْأَرْضَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّكُفُّوا لَهُ (٤).

ليس المراد بذكر النعمة نكرها باللسان فقط ولكن به القلب وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليتها ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: انكر أيدي عنك؛ يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد يا أهل مكة انكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمة ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم وعنه نعمة الله العافية، وقرئ: غير الله بالحرركات الثلاث فالجَزَ والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً والنصب على الاستثناء.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿يرزقكم﴾! قُلْتُ: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعتة صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له، أو جعلته كلاماً مبتدأ⁽⁴⁾ بعد قوله ﴿هل من خالق غير الله﴾.

فإن قُلْتُ: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى! قُلْتُ: نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق⁽⁵⁾، والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات ﴿لا إله إلا هو﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلت كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر

جبريل فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحاً جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحابيين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير⁽¹⁾ وروي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ «هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن»⁽²⁾ وقيل: الخط الحسن وعن قتادة الملاحه في العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامته واعتدال صورةه وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

مَا يَبْتِغِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمِصُّكَ فَلَا مَرِيئَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥).

استعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ مكان لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعدها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإيهام كانه قال من آية رحمة كانت سماوية، أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وجبسا وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

فإن قُلْتُ: لم أنت الضمير أولاً ثم نكر آخرًا وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط قُلْتُ: هما لغتان الحمل على المعنى، وعلى اللفظ والمنتكلم على الخيرة فيهما فأنث على معنى الرحمة ونكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنث فيه ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التنكير. وقرئ: فلا مرسل لها.

فإن قُلْتُ: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره قُلْتُ: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ولكنه ترك لدلالته عليه وأن يكون مطلقاً في كل ما يمسه من غضبه ورحمته وإنما فسر الأوّل بون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فإن قُلْتُ: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى

(1) نكره الثعلبي في تفسيره، ورواه ابن المبارك في كتاب: الزهد / 3 / 146.

(2) عزاه الإمام القرطبي في تفسيره للإمام القشيري 320/14.

(3) سورة الجاثية: الآية: 23.

(4) قال أحمد: والوجه المؤخر لوجهها.

(5) قال أحمد: القدرية إذا قرعت هذه الآية أسمعهم قالوا بجرأة على الله تعالى: نعم تم خالق غير الله؛ لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهاذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ووجهها هو الحق والظاهر، وأخره في النكر تأسياً له، =

= والذي يحق الوجه الثالث وأنه هو المراد أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشربون إذا سئلوا عن رزقهم من السموات والأرض، قالوا: الله قررروا بذلك، وقرعوا به إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن ذلك فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية، وأما من حيث النظم اللفظي فلأنّ الجملة التي هما قوله: يرزقكم، وقوله: لا إله إلا هو سيقناً واحداً، والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدم، فنكلك وزينتها.

دعة شيعته ومتبعي خطواته هو أن يوردهم مورد الشفوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير، ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الاطماع الفارغة والأمانى الكاذبة فبني الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

لما نكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه:

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿افمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني: اقمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكان رسول الله ﷺ قال لا فقال: ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب ذلك خذلان الله تعالى، وتخليته وشأنه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق أمر النهي ويعتق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني حسناً عند القبيح
وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم
فإن على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بإلا إلى
نكرهم ولا يحزن، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله تعالى
في خذلانهم وتخليتهم ونكر الزجاج أن المعنى: اقمن زين
له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة فحذف الجواب
لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو اقمن زين له سوء عمله
كمن هداه الله فحذف لدلالة فإن الله يضل من يشاء ويهدي
من يشاء. عليه حسرات مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك
للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حباً
ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن
يتعلق بحسرات لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته ويجوز
أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما
قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاً كلاً وصدوراً
يريد رجعن كلاً كلاً وصدوراً أي لم يبق إلا كلاً كلاً
وصدورها ومنه قوله:

فعلى اثرهم تساقط نفسي حسرات ونكرهم لي سقام
وقرى: ﴿فلا تذهب نفسك﴾ ﴿إن الله عليم بما
يصنعون﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق غير مستقيم لأن قولك هل
من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك كنت
مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ﴿فاننى تؤفكون﴾ فمن أي وجه
تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور ﴿٩﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم آيات الله وتكذيبهم بها
وسلى رسوله ﷺ بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم
جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى
حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقه، وقرئ:
﴿ترجع﴾ بضم التاء وقتحها.

فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء
أن يتعقب الشرط وهذا سابق له قلت: معناه وإن يكذبوك
فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع فقد كذبت رسل من
قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعني
بالتكذيب عن التأسى.

فإن قلت: ما معنى التذكير في رسل؟ قلت: معناه، فقد
كذبت رسل أي رسل نوح عند كثير وأولو آيات ونذر وأهل
أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى
له وأحث على المصابرة.

يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَرْجِعْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبْكُمْ
بِأَلْسِنَةِ الْفَرِيدِ ﴿١٠﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿فلا تغرنكم﴾ فلا
تخدعنكم ﴿الدنيا﴾ ولا يذهبنكم التمتع بها والتلذذ
بمنافعها عن العمل للأخرة وطلب ما عند الله ﴿ولا يغرنكم
بإثاء الغرور﴾ لا يقولون لكم اعملوا ما شئتم، فإن الله
غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة^(١) والغرور
الشیطان لأن ذلك دينه وقرئ: بالضم، وهو مصدر غره
كالزوم والنهوك أو جمع غار كقاع قعود.

إِنَّ السُّلْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَحْسَنِ الْأَشْيِرِ ﴿١١﴾

أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين واقتص
علينا قصته وما فعل بابينا أم عليه السلام، وكيف انتدب
لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك
نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا
عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في
العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله
﴿فاتخذوه عدوا﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجد منكم
إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سرهم وجهركم، ثم
لخص سر أمره وخطا من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمّه في

(١) قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد وإن لم يكن توبة وهذا لا يناقض صلت وعده تعالى، لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة =

= في مثل قوله لهم: ﴿إن الله لا يفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فهم إذا مصتقون بوعده الله تعالى موقنون به على حسب ما ورد.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفْرِئُ مَخَابًا مِّنْهُنَّ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

وقرى: ﴿أرسل الريح﴾

فإن قُلْتُ: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قُلْتُ: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تابط شراً.

باني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صححان
أضربها بلا دهمش فخرت صريعاً لليبين وللجران
لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها
بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياهم ويطلعهم
على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول
وثباته عند كل شدة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت
وأحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على
القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معلولاً بهما عن لفظ
الغيبية إلى ما هو أنخل في الاختصاص وأدل عليه والكاف
في ﴿كذلك﴾ في محل الرفع أي مثل إحياء الموات نشور
الأموات، ويوي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يحيي الله
الموتى وما آية تلك في خلقه فقال: «هل مررت بوادي أهلك
محللاً بم مررت به يهزّ خضراً». قال: نعم قال: «فكذلك
يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه»^(١). وقيل: يحيي الله
الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تثبت منه
أجساد الخلق.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْكَلِمُ الطَّيِّبُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَبْكُورُونَ السِّيئَاتِ لَمْ يَدَأْهُمُ سُدُودٌ
وَمَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُورِثُ ﴿١٧﴾

كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل:
﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ والذين آمنوا
بالسننتهم من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعززون
بالمشركين كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين أيتبعون عندهم العزة فإن العزة لله
جميعاً﴾^(٢) فبين أن لا عزة إلا الله ولأوليائه، وقال: ﴿وش
العزة ولسوله وللمؤمنين﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله
فوضع قوله ﴿قلله العزة جميعاً﴾ موضعه استغناء به
عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه
ومالكة ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار،

تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه
ومعنى فله العزة جميعاً أن العزة كلها مختصة بالله: عزة
الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو
الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب لا إله إلا الله. عن
ابن عباس رضي الله عنهما يعني: أن هذه الكلم لا تقبل
ولا تصعد إلى السماء، فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة
كما قال عز وجل: إن كتاب الأبرار لفي عِلِّيِّين إلا إذا اقترن
بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها
وقيل: الرفع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا
من موحد وقيل: الرفع هو الله تعالى والمرفوع العمل
وقيل: الكلم الطيب كل نكر من تكبير وتسبيح وتهليل،
وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك وعن النبي ﷺ هو
قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء، فحيا بها وجه
الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه^(٣)، وفي
الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً
إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة^(٤)،
وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا نسم وسحاب بلا
مطر وقوس بلا وتر. وقرى: إليه يصعد الكلم الطيب على
البناء للمفعول وإليه يصعد الكلم الطيب على تسمية الفاعل
من أصدق والمصدق هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل
الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب، وقرى: والعمل
الصالح يرفعه بنصب العمل والرفع الكلم أو الله عز وجل.

فإن قُلْتُ: مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله
فبم نصب ﴿السيئات﴾؟ قُلْتُ: هذه صفة للمصدر أو لما
في حكمه كقوله تعالى: ﴿ولا يحق المكر السيء إلا
بأهله﴾^(٥) أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف
المكر السيئات وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في
دار الندوة وتداولوا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها
برسول الله ﷺ إما إنباته أو قتله أو إخراجه كما حكى الله
سبحانه عنهم: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك
أو يخرجوك﴾ ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعني ومكر أولئك
الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي: يكسد
ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم
وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق
فيهم قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٦)
وقوله: ﴿ولا يحق المكر السيء إلا بأهله﴾^(٧).

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ

(١) أخرجه أحمد في المسند 11/4، والحاكم في المستدرک 560/4.

(٢) سورة النساء، الآية: 139.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک 426/2.

(٤) رواه الخطيب البغدادي في كتاب: الجامع لأدب الراوي والسامع،

الزليعي 149/3.

(٥) سورة فاطر، الآية: 43.

(٦) سورة الأنفال، الآية: 30.

(٧) سورة فاطر، الآية: 43.

قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿ومن كل﴾ أي ومن كل واحد منهما ﴿تاكلون لحمًا طريًا﴾ وهو السمك ﴿وتستخرجون حلية﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك فيه﴾ في كل ﴿مولخر﴾ شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿من فضله﴾ من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل دلالة المعنى عليه، وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتشكروا، والفرات الذي يكسر العطش. والسائغ المرى السهل الانحدار لعنوبته وقرى سيخ بوزن سيد وسيخ بالتخفيف وملح على فعل، والأجاج الذي يحرق بملوحته ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العنب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾⁽⁴⁾، ثم قال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق، فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾⁽⁵⁾.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كَمَا اللَّهُ رَزَقَكُمْ لَهُ الْمَالُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

﴿نلكم﴾ مبتدا و﴿الله ربكم له الملك﴾ اخبار مترافعة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قمطير﴾ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان وربكم خبرًا لولا أن المعنى ياباه والقمطير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَوَ تَعْمُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

إن تدعوا الأوثان ﴿لا يسمعون دعاءكم﴾ لأنهم جماد ﴿ولو سمعوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل لـ ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها وقيل: ما نفعوكم ﴿يكفرون بشرككم ولا يبنيك مثل خبير﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة نون سائر المخبرين به والمعنى أن هذا الذي

مِنْ أَنْتَ وَلَا تَنْصَحُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾

﴿ازولجا﴾ أصنافًا أو نكرانًا وإنائًا كقوله تعالى: ﴿أو يزوجه نكرانًا وإنائًا﴾، وعن قتادة رضي الله عنه زوج بعضهم بعضًا ﴿بعلمه﴾ في موضع الحال أي إلا معلومة له.

فإن قلت: ما معنى قوله: وما يعمر من معمر؟ قلت: معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرًا بما هو صائر إليه.

فإن قلت: الإنسان إما معمر أي: طويل العمر أو منقوص العمر أي: قصيره فيما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسبيدهم معناه بقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون: لا يثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلا بحق، وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي، وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر وإذا أقرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون وإليه أشار رسول الله ﷺ في قوله: «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار»⁽¹⁾.

وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله⁽²⁾ فقيل لكعب: اليس قد قال الله: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾⁽³⁾ قال: فقد قال الله: وما يعمر من معمر وقد استفاض على الألسنة أطال الله بقاءك وفسح في منتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يوما حتى يأتي على آخره وعن قتادة رضي الله عنه المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب اللوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان وقرى ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِغٌ شَرَابَهُمْ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَنْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾

ضرب البحرين العنب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم

(4) سورة البقرة، الآية: 74.

(5) سورة البقرة، الآية: 74.

(1) أخرجه أحمد في المسند 6/159.

(2) عزاه الزبيلي لإسحاق بن راهويه 3/151.

(3) سورة النمل، الآية: 61 وسورة الاعراف، الآية: 34.

من خطاياهم من شيء ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين معنى قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وبين معنى ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾؟ قُلْتُ: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ننبها والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى أن نفساً قد أثقلت الأوزار وبهظتها لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ.

فإن قُلْتُ: إلام أسند كان في ﴿ولو كان ذا قربي﴾ قُلْتُ: إلى المدعو المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة.

فإن قُلْتُ: فلم ترك نكر المدعو؟ قُلْتُ: ليعم ويشمل كل مدعو.

فإن قُلْتُ: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربي للمثقلة قُلْتُ: هو من العموم الكائن على طريق البديل.

فإن قُلْتُ: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربي على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة قُلْتُ: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربي وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت، ولو وجد ذو قربي لتفكك وخرج من تساقفه والتثامه على أن ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته ﴿بالغيب﴾ حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه فكانت عابثهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوا ما ناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم بون متمزئهم وأهل عنادهم ﴿ومن تزكى﴾ ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي، وقرئ: ومن أزكى فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي ﴿والى الله المصير﴾ وعد للمتمزكين بالثواب.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ قُلْتُ: لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم اتبعه الإنذار بيوم القيامة ونكر أهوالها، ثم قال: إنما تنذر كان رسول الله ﷺ أسمعهم ذلك فلم ينفع فزول إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾.

أخبرتمكم به من حال الأوثان هو الحق لاني خبير بما أخبرت به وقرئ: يدعون بالياء والياء.

﴿يَكَايِبًا نَّاسٌ أُنْتَرُ الْفَرَّاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَبِيرُ﴾
﴿١١﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢﴾.

فإن قُلْتُ: لم عرف الفقراء؟ قُلْتُ: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلاق كلهم مفتقرين إليه من الناس، وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وخلق الإنسان ضعيفاً وقال سبحانه وتعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾^(١) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء.

فإن قُلْتُ: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قُلْتُ: لما أثبت فقرهم إليه وغاناه عنهم وليس كل غني نافعاً بغانه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد نكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغانه خلقه للجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده الحميد على السنة مؤمنهم.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣﴾.

﴿بعزيز﴾ بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له انداداً وكفرهم بآياته ومعاصيهم كما قال: وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم وعن ابن عباس رضي الله عنهما يخلق بعنكم من يعبد لا يشرك به شيئاً.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِذْلِهَا لَا يَحْمِلُ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ بَعْرَكَ لَبِئْسَ مَا لَكَ مِنَ الْاَصْبِرِ﴾
﴿١٣﴾.

الوزر والوقر أخوان ووزر الشيء إذا حملة، والوازية صفة للنفس والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤخذ نفس بنذب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة قُلْتُ: لأن المعنى: أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.

فإن قُلْتُ: كيف توفق بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم قُلْتُ: تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى: ﴿وما هم بحاملين

اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ﷺ.

فإن قُلْتُ: كيف اكتفى بنكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد نكرهما؟ قُلْتُ: لما كانت النذارة مشفوعة بالبطانة لا محالة دل نكرها على نكرها لا سيما قد اشتملت الآية على نكرها.

وإن يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبِيرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾

﴿بالبينات﴾ بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات ﴿وبالزبير﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبير والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٧٧﴾

﴿الوانها﴾ اجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها والجند: الخطط والطرائق قال لبيد: أو مذهب جند على الواح، ويقال جند الحمار للخططة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جنتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وغرابيب﴾ معطوف على بيض أو على جند كأنه قيل: ومن الجبال مخطط نو جند، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وعن عكرمة رضي الله عنه هي الجبال الطوال السود.

فإن قُلْتُ: الغرابيب تأكيد للأسود يقال: أسود غرابيب وأسود حلكوك وهو الذي أبعاد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك. قُلْتُ: وجهه أن يضم المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمم كقول النابغة والمؤمن العائذات الطير، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد﴾ بمعنى ومن الجبال نو جند بيض وحمرة وسود حتى يؤل إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفاً ألوانها.

وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَيَوَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّطُ لِلْإِنسَانِ عُرْفَهُ ﴿٧٨﴾

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ قرئ: ألوانها وقرأ

﴿الاعمى والبصير﴾ مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عز وجل.

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥١﴾

والظلمات والنور والظلل والحرور مثلاً للحق والباطل وما يؤنيان إليه من الثواب والعقاب.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِسَمِيعٌ مِّنَ الظُّبُورِ ﴿٥٢﴾

والأحياء والأموات مثل الذين سخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر. والحرور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقيل: بالليل خاصة.

فإن قُلْتُ: لا المقورنة بواو العطف ما هي؟ قُلْتُ: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قُلْتُ: بعضها ضمت شفعاً إلى شفع وبعضها وترأ إلى وتر ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه وأما أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص وتتهاكك على إسلام قوم من المخنولين وملك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين وينذر ذلك ما لا سبيل إليه ثم قال:

إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٥٣﴾

﴿إن أنت إلا نذير﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ويحتمل أن الله يسمع من يشاء أنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٥٤﴾

﴿بالحق﴾ حال من أحد الضميرين يعني: محققاً أو محقين أو صفة للمصدر أي: إرسالاً مصحوباً بالحق أو صلة لبشير ونذير على بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعد الحق، والأمة الجماعة الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وجد عليه أمة من الناس﴾ (١) ويقال لأهل كل عصر: أمة وفي حدود المتكلمين الأمة هم المصدقون بالرسول ﷺ نون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد هنا أهل العصر.

فإن قُلْتُ: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قُلْتُ: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين

رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿١٧﴾.

﴿يتلون كتاب الله﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وبينهم وعن مطرف رحمه الله هي آية القراءة وعن الكلبي رحمه الله يأخذون بما فيه وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به، وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يرجون﴾ خبر إن والتجارة طلب الثواب بالطاعة.

لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٠﴾.

﴿وليوفيهم﴾ متعلق بـلن تبور أي تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أجورهم﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل عن المستحق وإن شئت جعلت يرجون في موضع الحال على وأنفقوا راجين ليوفيهم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إنه غفور شكور﴾ على معنى غفور لهم شكور لأعمالهم والشكر مجاز عن الإثابة.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَصْنَعُونَ لَبَصِيرٌ ﴿٢١﴾.

﴿الكتاب﴾ القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعض ﴿مصديقاً﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿لخبير بصير﴾ يعني: أنه خبيرك وأبصر أحوالك فراك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

فإن قلت: ما معنى قوله:

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾.

﴿ثم أوحينا إليك الكتاب﴾ قلت: فيه وجهان أحدهما إنا أوحينا إليك القرآن ثم أوحينا من بعدك أي حكمتنا بتوريثه أو قال أورشناه وهو يريد نوره لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاه على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجأ لأمر الله ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وسابق من السابقين والوجه

الزهري جدد بالضم جمع جديدة وهي الجدة يقال جديدة وجدد وجدائد كسفيينة وسفن وسفائن وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه جدد بفتحتين وهو الطريق الواضح المفسر وضعه موضع لطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض، وقرئ: والدواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ ولا الضالين لأن كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين فحرك ذلك أولهما وحذف هذا آخرهما وقوله ﴿كنلك﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال المراد العلماء به الذين علموه بصفاته وعنله وتوحيده وما يجوز عليه، وما لا يجوز فعظموه وقدروه حق قدره وخشوه من خشيته ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل أمن وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشنكم له خشية»⁽¹⁾. وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفقتي أيها العالم فقال: العالم من خشى الله وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو آخره؟ قلت: لا بد من ذلك فإنك إذا قيمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء نون غيرهم وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾⁽²⁾ وهما معنيان مختلفان.

فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال ألم تر بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ كانه قال: إنما يخشاه تلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به»⁽³⁾.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكي عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلبهم ويعظمهم كما يجلب المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا

(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبله للصائم (الحديث رقم: 13).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» (الحديث رقم: 20) (بمعناه).

(2) سورة الاحزاب، الآية: 39.

وَقَالُوا لَمَحْدُ إِلَهٍ الَّذِي آذَنَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾

وقرئ الحزن والمراد حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ آتَىٰ اللَّهَ عَلَيْنَا فِئْتَانًا يَلْبِسُ غِيبَ اللَّهِ لَنَا فِي الْبُيُوتِ مَوْتًا وَمُنَافِقَاتٍ فِي الْأَبْطَانِ مُبِينًا﴾ (٥) وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاک حزن إبليس ووسوسته وقيل هم: المعاش وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكانني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي آذنبنا الحزن (٦)، وذكر الشكور دليل على أن القوم كثيرو الحسنة.

الَّذِي لَطَمْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمُنُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمُنُّنَا فِيهَا نُفُورٌ ﴿٢٥﴾

المقامة بمعنى الإقامة يقال أقمت إقامة ومقامًا ومقامة ﴿من فضله﴾ من عطائه وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع، وقرئ لغوب بالفتح وهو اسم ما يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا أو مصدر كالقبول والولوج أو صفة للمصدر كانه لغوب لغوب كقولك: موت مائت.

فإن قلنت: ما الفرق بين النصب واللغوب قلنت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفترة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَنُّنَ عَلَيْهِمْ فِتْرَتًا وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ كَافِرٍ ﴿٢٦﴾

﴿فيموتوا﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار أن وقرئ فيموتون عطفًا على يقضي وإسحالا له في حكم النفي أي لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْنَسُ

الثاني أنه قدم إرساله في كل أمة رسولا وأنهم كذبوا برسلمهم، وقد جاؤهم بالبينات والزبير والكتاب المنير ثم قال إن الذين يتلون كتاب الله فاتني على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ثم قال: ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا أي من بعد أولئك المذكورين يريد بالمصطفين من عباده أهل الملة الحنيفية.

فإن قلنت: فكيف جعلت

جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿جنات عدن﴾ بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؛ قلنت: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كانه هو الثواب فابطلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكون عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذرًا وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» (١) فإن شرط ذلك صحة التوبة لقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ (٢) وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْنِيهِمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (٣) ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخذع (٤)، وقرئ سباق ومعنى بإذن الله بتيسيره وتوفيقه.

فإن قلنت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلنت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل، وقرئ جنة عدن على الأفراد كأنها جنة مختصة بالسابقين وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أن يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول، ويحلون من حليت المرأة فهي حال ﴿ولؤلؤا﴾ معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب كانه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقيل: إن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ وقرئ ولؤلؤا بتخفيف الهمزة الأولى.

(1) قال الزيلعي رواه البيهقي في كتاب: البعث والنشور: 3/ 153.

(2) سورة التوبة، الآية: 102.

(3) سورة التوبة، الآية: 106.

(4) قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم، والمقتصد السابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحين في المصطفين، وإنه لمنهم وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفاؤه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في التنسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترى، =

= وقوله: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها جنات مبتدأ ويدخلونها الخبر. وقوله: ﴿يدخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ إلى آخر الآية خبر بعد خبر، وخير على خير والله المستعان.

(5) سورة الطور، الآية: 26 - 27.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الإيمان بالله عز وجل (الحديث: 100).

لهم فيعتدرون»⁽¹⁾ ﴿كنلك﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿يجزي﴾ وقرئ يجازي ونجزي ﴿كل كفور﴾ بالنون.

وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَتًّا أَحْرَجًا نَعْمَلْ صَالِحًا عَنِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْلَىٰ نَمِيرُكُمْ مَا يَتَكَبَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ لِّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾

﴿يصطرخون﴾ يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته.

فإن قُلْتُ: هلا اكتفى بصالحًا كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فارجعنا لعمل صالحًا﴾، وما فائدة زيادة ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه قُلْتُ: فائدة زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحه كما قال الله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾ فقالوا: أخرجنا بعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله ﴿أو لم نعمركم﴾ توبيخ من الله يعني فنقول لهم، وقرئ ما ينكر فيه من انكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعتز الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»⁽²⁾. وعن مجاهد بين العشرين إلى الستين وقيل: ثمانين عشر وسبع عشر و﴿النذير﴾ الرسول ﷺ وقيل: الشيب، وقرئ: وجاءكم النذر.

فإن قُلْتُ: علام عطف وجاءكم النذير؟ قُلْتُ: على معنى أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار كانه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تأنث نو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه نو بطن خارجة جارية⁽³⁾ وقوله لتغني عن ذا إنائك أجمعاً، المعنى ما في بطنها من الحبل وما في إنائك من الشراب لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء ألا ترى إلى قولهم معها حبل وكنلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها ونو موضوع لمعنى الصحبة.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كَثْرٍ مَعَلَيْهِ كُفْرًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَنًّا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٩﴾

يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة جمع خلائف والخليف خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعتها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنوية فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزفي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار والمقت أشد البغض ومنه قيل: لمن ينكح امرأة أبيه مقتى لكونه ممقوتاً في كل قلب وهو خطاب الناس وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ﷺ جعلكم أمة خلفت من قبلها ورات وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة كما أن ذلك حكم من قبلكم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ لَيْسَ لَهُمْ شِرْكٌ إِلَّا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿أروني﴾ ببل من أرايتم لأن المعنى أرايتم أخبروني كانه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم معهم كتاب من عند الله ينطق بانهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب أو يكون الضمير في آياتناهم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾⁽⁴⁾ ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾⁽⁵⁾ بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بعضاً﴾ وهم الاتباع ﴿إلا غروراً﴾ وهو قولهم هؤلاء شفعأونا عند الله وقرئ: ﴿بيئات﴾.

﴿إن الله يسئلك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالنا إن أمسكهما من أمر من أمره وإنه كان عليماً عفوراً﴾⁽⁶⁾.

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا أو يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ غير معالج بالعقوبة حيث يسكهما وكانتا جديرتين بأن تهذا هذا لعظم كلمة الشرك كما قال: تكاد السموات يتقطرن منه وتنشق الأرض، وقرئ ولو زالتا وإن أمسكهما جواب القسم في ولئن زالتا سد مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء، من بعده من بعد إمساكه وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام من لقيت به؟ قال: كعباً قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(3) تقدم في الإسراء.

(4) سورة الروم، الآية: 35.

(5) سورة الزخرف، الآية: 21.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر (الحديث: 6419).

﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلمهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم وبين أن عابته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبيلها ولا يحولها أي لا يغيرها وإن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسابريهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

أَرَأَيْتَ يَبْرَأُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَلُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعْجِزُ مِن قُوَّتِهِ مِنَ الَّذِينَ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا إِفْكٌ كَذِبٌ أَلَسْتَ بِذِي قُوَّةٍ عَلَىٰ مَا نَفَعْنَاكَ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ كُنْتَ أَتَىٰهَا تَرَاهَا إِذْ يَنْبَعثُ مِن تَحْتِهَا الْأَرْضُ يَنزِيلًا مِّن سَحَابٍ مِّثْلَ بَرَدٍ لَّهُمْ فِيهَا يُنزِلُ السَّمَاءَ كَاسِيَةً يُرَىٰ فِيهَا ظَهَارٌ وَالْأَرْضُ كَالْحَسَاءِ ﴿١٥﴾

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.
وَلَوْ يَوَازِئُكَ اللَّهُ النَّاسَ يَمَّا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا بِنَاءَ كَابِكَةٍ وَلَكِنْ يُوقِظُهُمْ إِلَهُ أَعْمَلُ مُسِيئًا فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَّخَذَ اللَّهُ لَكَ مِثْلًا بِعِبَادِهِ يَسِيرًا ﴿١٥﴾

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كان الجعل يعذب في جحره بنذب ابن آدم⁽⁶⁾ ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أن الضب ليموت هزلاً في جحره بنذب ابن آدم⁽⁷⁾ وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى لجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيرًا﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن يدخل من أي باب شئت⁽⁸⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قارئ: يس بالفتح كائين وكيف أو بالنصب على أتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحديث وفخمت الألف وأميلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معنا: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثرت النداء به على السننهم حتى اقتصرنا على شطره كما قالوا، في القسم

يقول إن السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعد! ثم قرأ هذه الآية⁽¹⁾.

وَأَنسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِهِمْ لَكِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن لِّدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٦﴾

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا برسلمهم فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتهم الرسل فكذبهم فواش لئن آتانا رسول لتكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زالوا أنفسهم نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾⁽²⁾.

أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن نَحْدُ لِحَتِّ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَحْدُ لِحَتِّ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٦﴾

﴿استكباراً﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين ومكربين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفاً على نفوراً.

فإن قلت: فما وجه قوله ومكر السيء قلت: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر للسيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق للمكر السيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق للمكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق للمكر السيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا مكرراً»⁽³⁾، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً﴾⁽⁴⁾ يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيتكم على أنفسكم﴾⁽⁵⁾ وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكباً وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستتقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظن سكوناً أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتداء ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكرراً شيئاً

(1) نكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة التوبة، الآية: 125.

(3) نكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.

(4) سورة فاطر، الآية: 43.

(5) سورة يونس، الآية: 23.

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک، وتقدم في يونس.

(7) أخرجه الحاكم في المستدرک وتقدم في النحل.

(8) نكره الولحدي وابن مرويہ والثعلبي في التفسير، الزيلعي /3

م الله أيمن الله.

وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٧﴾

﴿الحكيم﴾ ذي الحكمة أو لأنه ليليل ناطق بالحكمة كالحكي أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

إِنَّكَ لَكِنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٩﴾

﴿على صراط مستقيم﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قُلْتُ: أي حاجة إليه خبرًا كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لا يكونوا إلا على صراط مستقيم؟ قُلْتُ: ليس الغرض بنكره ما ذهب إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضًا فإنَّ التذكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه^(١).

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قرئ تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجر على البذل من القرآن.

إِنشِزْ قَوْمًا مَّا أُنزِرَ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلٰى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿قَوْمًا ما أنذر أبائهم﴾ قَوْمًا غير منذر أبائهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: ﴿لَتَنْذِرُنَّ قَوْمًا ما أتاهم من نذير من قبلك﴾^(٢) و﴿ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾^(٣) وقد فسر ما أنذر أبائهم على إثبات الإنذار ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتندرن قَوْمًا أنذر أبائهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتندرن قَوْمًا ما أنذره أبائهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إنا أنذرتكم عذابًا قريبًا﴾^(٤).

فإن قُلْتُ: أي فبق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قُلْتُ: هو على الأوّل متعلق بالنفي أي لم يندروا، فهم غافلون على أن عدم نذارهم هو سبب غفلتهم وعلى الثاني بقوله إنك لمن المرسلين لتندرن كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتندرنه، فإنا غافل أو فهو غافل.

فإن قُلْتُ: كيف يكونون مندرين غير مندرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخرى؟ قُلْتُ: لا مناقضة لأنَّ الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وأبائهم القديماء من ولد إسماعيل، وكانت النذارة فيهم.

فإن قُلْتُ: ففي أحد التفسيرين أن أباءهم لم يندروا وهو

الظاهر فما تصنع به؟ قُلْتُ: أريد أبائهم الأنون دون الأبعاد ﴿القول﴾ قوله تعالى: ﴿لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(٥) يعني: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَمَعْنَا فِي آخِثِهِمْ أَهْلًا لَّا فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعواثهم بأن جعلهم كالمفلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأون رؤسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾! قُلْتُ: معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأ رأسه ويوطئ قذا له فلا يزال مقمحًا، والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرقع رأسه ومنه شهرًا قماح لأنَّ الإبل ترفع رؤسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان، ومنه اقتحمت السوق.

فإن قُلْتُ: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعًا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان نكر الاعناق، دالًا على نكر الأيدي! قُلْتُ: الوجه ما نكرت لك والدليل عليه قوله فهم مقمحون ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان، ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرًا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجاج.

فإن قُلْتُ: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيماهم فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قُلْتُ: يابى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما نكرت.

وَجَمَعْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

وقرئ سداً بالفتح والضم وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فأغشيناهاهم﴾ فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن

(١) قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التذكير قد يفيد تفضيلاً وتعظيماً وهذا منه.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٤.

(٣) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٩.

(٥) سورة القصص، الآية: ٤٦.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِمَّا كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كَادِبُونَ ﴿١٣﴾

﴿واضرب لهم مثلاً﴾ ومثل لهم مثلاً من قولهم عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثل وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي انكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثاني بيان للآول، وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية والقرية انطاكية ﴿والمرسلون﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَمَزَّجْنَا بِهِنَّ بَنَاتَآئِنَا لِيَكُنَّ لَكُنَّ حُرْمًا لِمَن بَدَّ لَهُ نَفْسًا لَّغِيًّا ﴿١٤﴾

أرسل إليهم اثنتين فلما قربا من المدينة رأيا شيئاً يرعى غنيمات له وهو حبيب التجار صاحب يس فسألها فأخبراه فقال أمكما آية فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمة والأبرص وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فأمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقى حديثهما إلى الملك، وقال لهما: لنا إله سوى ألهتنا؟ قالا: نعم من أوجك وألهتك فقال: حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما وقيل: حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا حال الغضب بيني وبينك، فدعاها فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأجزا قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال: وما أتیکما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذاً بنقنتين فوضعاهما في حقيقته فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له: شمعون أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت أمانة به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إنني أنزلت في سبعة أودية من النار وأنا أحزركم ما أنتم فيه فأمّنوا وقال: فتحت أبواب السماء فرايت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن هم قال شمعون: وهذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن وأمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿ففهزنا﴾ فقوينا يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها وتعزز لحم الناقة، وقرئ بالتخفيف من

أن تطمح إلى مرثي وعن مجاهد فاغشيناهم فالبسنا أبصارهم غشاوة، وقرئ بالعين من العشا وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه فاتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكه عنها بجهد فرجع إلى قومه، فأخبرهم فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فاعمى الله عينيه⁽¹⁾.

وَمَوْءَاةٍ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾

فإن قلت: قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إنما تنذر وإنما كانت تصح هذه التفتية لو كان الإنذار منفياً قلت: هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفعياً للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان.

إِنَّمَا نُنذِرُ مَن نَّوَعَّى الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ فَتَرَهُ بِنَفْسِهِ أَجْرَ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾

ففي بقوله: إنما تنذر، على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر وهو القرآن أو الوعظ الخاشعون ربهم.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكَلَّئُهُمْ أَصْحَابَةَ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾

﴿نحيي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن إحياءهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿ونكتب ما﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك أو سبى كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من الحان، وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخَّر﴾⁽²⁾ أي قدم من أعماله وأخر من آثاره وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد وعن جابر أرينا النقلة إلى المسجد والباق حوله خالية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والباق حوله خالية فقال: عليكم دياركم، فإنما كتب آثاركم قال: فما وبدنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ⁽³⁾ وعن عمر بن عبد العزيز لو كان الله مغفلاً شيئاً لاغفل هذه الآثار التي تففيها الرياح والإمام اللوح، وقرئ ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للمفعول وكل شيء بالرفع.

(1) ذكره ابن هشام في سيرته: 1 / 290 - 299.
(2) سورة القيامة، الآية: 13.
(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: الإمامة والجماعة.

(حديث: 2042)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: (280 - 665).

نكرتم بهمة الاستفهام وحرف الشرط وأثن بالف بينهما بمعنى: تطيرون إن نكرتم وقرئ أن نكرتم بهمة الاستفهام وأن الناصبة يعني: تطيرون لأن نكرتم، وقرئ أن وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار أي تطيرون لأن نكرتم أو إن نكرتم تطيرون، وقرئ أين نكرتم على التخفيف أي شؤمكم معكم حيث جرى نكرتم وإذا شئتم المكان بنكرهم كان بحلولهم فيه أشام ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ في العصيان ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاهمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

رَسُولَهُ مِنْ أَفْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْمَى قَالَ يَنْفِرُوا أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ

(١٤)

﴿رجل يسعى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام وهو ممن آمنوا برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل، وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاويل الكفرة فقالوا: أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل رجموه، وهو يقول اللهم اهد قومي وقبره في سوق انطاكية فلما قتل غضب الله عليهم فاهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام وعن رسول الله ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون» (2).

أَيُّهَا مَنْ لَا يَسْتَلْزِمُ أَحَدًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ

(١٥)

﴿من لا يستلزم لجزأ وهم مهتدون﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي لا تخسرون معهم شيئاً من بنيامك وترهبون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويديريهم ولأنه أدخل في إحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله:

وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(١٦)

﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ مكان قوله ومالك لا تعبدون الذي فطركم إلا ترى إلى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع.

ءَأَنجِدُّ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفَعُونَ (١٧) إِنْ لَمْ يَأْتِ سَلَكِي شَيْئًا (١٨) إِنْ مَاتَتْ بَرِيكَتُكُمْ فَأَسْمُرُونَ (١٩)

وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: أمنت بربكم

عزه يعزه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا ﴿بفالث﴾ وهو شمعون.

فإن قلت: لم ترك نكر المفعول به قلت: لأن الغرض نكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التعبير حتى عز الحق وذل الباطل وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه قولك بالحق فلذلك رفضت نكر المحكوم له والمحكوم عليه.

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَوَاتٍ إِلَّا نَزْلٌ مَكْرُوهٌ (٢٠)

إنما رفع بشر ونصب في قوله ما هذا بشرأ لأن إلا تنقض النفي فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه فلا يبقى له عمل.

فإن قلت: لم قيل إنا إليكم مرسلون أولاً

قَالُوا رَبَّنَا يَا أَيْدِيكَ لَرَسُولِنَا (٢١)

و ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخر قلت: لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار (1) وقوله ربنا يعلم جار مجرى القسم في التوكيد وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم.

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٢٢)

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته وإلا فلو قال المدعي والله إني لصائق فيما ادعي ولم يحضر البينة كان قبيحاً.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْهَؤْا لَتَرْجُمُنَّو وَكَيْسَكُمُ بِنَاءُ عَدَابِ الْبَرِّ (٢٣)

﴿تطيرنا بكم﴾ تشاهمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وأثروه وقبلته طباعهم ويتشاهموا بما نفروا عنه وكرهوه فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا كما حكى الله عن القبط وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه وعن مشركي مكة وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عنك وقيل: حبس عنهم القطر، فقالوا ذلك وعن قتادة إن أصابنا شيء كان من أجلكم.

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكْرُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ (٢٤)

﴿طائركم معكم﴾ وقرئ طيركم أي سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفرهم ومعاصيهم وقرأ الحسن أطيركم أي تطيركم، وقرئ أئن

(2) رواه الطبراني في معجمه.

(1) قال احمد: أي فلاق توكيده.

المآت هي قُلْتُ: المصدرية أو الموصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصاهرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أن قولك بم غفر لي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً يقال قد علمت بما صنعت هذا أي بأي شيء صنعت وبم صنعت.

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٣٨)

المعنى إن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنوداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر أو الخندق.

فإن قُلْتُ: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾ قُلْتُ: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنوداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه بون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة أوجبته المصلحة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا على حاصبٍ ومنهم من أخذت الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾ (٣).

فإن قُلْتُ: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ (٤)، بالغة من الملائكة مرتبين، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين؟ قُلْتُ: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله: ﴿وما أنزلنا﴾ ﴿وما كنا منزلين﴾: إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا ملك وما كنا نفعله بغيرك.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَائِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر المنبني بالرفع على كان التامة أي ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تنكير الفعل لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وإن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وبيت ذي الرمة، وما بقيت إلا الضلوع الجراشع، وقرأ ابن مسعود الأزقية واحدة من زقا الطائر يزقو ويزقى

فاسمعون يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نهبتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، وإليه مرجعكم وما أنفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أراكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكننا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحياب لو اتعوم في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز، وقيل لما نصح قومه أخذوا يرجعون فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إني أمنت بربكم فاسمعون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به، وقرئ إن يرديني الرحمن بضر بمعنى أن يرديني ضراً أي يجعلني مورداً للضر، أي لما قتل.

يَلْ أَسْحَلُ الْجِنَّةَ فَالْ بَيْتَ قَوْمِي بِمَكُونٍ ﴿٤٠﴾

﴿قيل﴾ له ﴿أنحل الجنة﴾ وعن قتادة أنحل الله الجنة وهو فيها حي يزرق أراد قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾ (١) وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قُلْتُ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قُلْتُ: مخرجه مخرج الاستئناف لأن هذا من مظاهر المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأن قائله قال كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة بينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل أنحل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلوماً وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة، وفي حديث مرفوع: ﴿نصح قومه حياً وميتاً﴾ (٢) وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والتروء على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عدواتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور والأول أوجه.

يَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٤١﴾

وقرئ: ﴿المكرمين﴾.

فإن قُلْتُ: ما في قوله تعالى: ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 9.

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 - 170.

(2) رواه ابن مردويه في تفسيره، للزبيدي: 3/163.

وقيل: محضرون معذبون.

فإن قُلْتَ: كيف أخبر عن كل بجمع ومعناها واحد؟ قُلْتَ: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وإن لا ينقل منهم أحد والجميع معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم والجميع فعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجأؤوا جميعاً⁽²⁾، القراءة بالميتة على الخفة أشيع لسلسها على اللسان.

وَأَيَّةٌ لَّمْ أَلْأَرْضُ أَلَيْتَهُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَوَيْتَهُ بِأَكْأُونَ⁽³⁾.

﴿أحييناها﴾ استثناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما الجنس من مطلقين لا أرض وليل باعيانهما⁽⁴⁾ فعمولاً معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه، ولقد أمر على اللثيم يسبني، وقوله ﴿فمنه ياكلون﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجْرًا فِيهَا مِّنَ الْأَعْيُونَ⁽⁵⁾.

قرئ: ﴿وفجرنا﴾ بالتخفيف والتثقيب والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، وقرئ ﴿ثمره﴾ بفتحين وضمين وضمه وسكون والضمير لله تعالى.

لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ⁽⁶⁾.

والمعنى: لياكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿و﴾ من ﴿ما﴾ عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني: أن الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبلق كأنه في الجلد توليع البيهق فقيل له فقال: أردت كأن ذاك ولك أن تجعل ما نافية على أن الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرين عليه.

سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنفُسِهِنَّ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ⁽⁷⁾.

إذا صاح ومنه المثل أثقل من الزواقي ﴿خامدون﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رماً كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماً بعد إذ هو ساطع
يَحْضَرُهُ عَلَى أَلْبَابٍ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَأَنَّهُ بِوَجْهِ بَسْتَرِيهِ وَنَ⁽⁸⁾.

﴿يا حسرة على العباد﴾ نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقت أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسول والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلف على حالهم المتلهفون أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى: تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ يا حسرتنا تعضد هذا الوجه لأن المعنى يا حسرتي، وقرئ: يا حسرة العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجهة إليهم ويا حسرة على العباد على إجراء الوصل مجرى الوقف.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ⁽⁹⁾.

﴿الم يروا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في ﴿حكم﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم يروا إن زياداً لمنطلق وإن لم يعمل في لفظه و﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وعن الحسن كسر إن على الاستثناف وفي قراءة ابن مسعود ألم يروا من أهلكنا والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال وهذا مما يرد قول أهل الرجعة ويحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة فقال: بئس القوم نحن إنن نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه⁽¹⁰⁾.

وإن كلُّ لَمَّا جَمِعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ⁽¹¹⁾.

وقرئ: ﴿لما﴾ بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد، وإن مخففة من الثقيلة وهي متلقاه باللام لا محالة ولما بالتشديد بمعنى إلا كالتي في مسألة الكتاب نشدتك بالله لما فعلت وإن نافية، والتتوين في كل هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه كقولك مررت بكل قائماً والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة،

= كان جنسياً وليس الغرض منه معيناً، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفي ومنه:

ولقد أمر على اللثيم يسبني

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک 145/3.

(2) قال أحمد: ومن ثم وقع اجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه اخص منه وازيد معنى.

(3) قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع جملة صفة للمعرف، وإن =

مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العو السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الدابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا فإذا كان في آخر منازل بق واستقوس ﴿وَعَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو عود العنق ما بين شماليه إلى منبته من النخلة وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، وقرئ: العرجون بوزن الفرجون وهما لغتان كالبيزون والبيزون والتقديم المحول، وإذا قدم بق وانحنى واصفر فشب به من ثلاثة أوجه وقيل: أقل مدة الموصوف بالقدم الحول فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم، فهو حر أو كتب ذلك في وصيته عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

لَا أَلْسَنُ بِنَبِيِّ مَا أَنْ تَدْرِكُ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٧﴾

وقرئ: ﴿سابق النهار﴾ على الأصل والمعنى أن الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتهما قسماً من الزمان وضرب له حداً معلوماً ودبر أمرهما على التعاقب فلا ينبغي للشمس أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله ﴿أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليل النهار، يعني: آية الليل آية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويطلع الشمس من مغربها.

فإن قُلْتَ: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قُلْتَ: لأن الشمس لا تقطع فلها إلا في سنة والقمر يقطع فلها في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإنزال لتباطئ سيرها عن سير القمر والقمر خليفاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وَكُلُّ﴾ التنونين فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى وكلهم والضمير للشمس، والأقمار على ما سبق نكره.

وَأَيُّهُم مَّنْ آتَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٨﴾

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهملهم حملة وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهن مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعني النساء.

وَعَلَقْنَا لَمَن مِّن مِّنْهُ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٩﴾

﴿من مثله﴾ من مثل الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل وهي سفائن البر وقيل: الفلك المشحون سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم ذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل

وقرئ: على الوجه الأول وما علمت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير ﴿الأزواج﴾ الأجناس والأصناف ﴿ومما لا يعلمون﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم وبنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يسمهم وفي الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعهم عليه فاعلمنا بوجوده وإعادته ولم يعلمنا به ما هو ونحوه فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دل على عظم قدرته واتساع ملكه.

وَأَيُّهُم مَّنْ أَيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾

سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها وأزاله ومنه سلخ الحية لخرسائها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله ﴿مظلمون﴾ داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول أعتمنا وأدجينا.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٨﴾

﴿لمستقر لها﴾ لحد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لمنتهى لها من المشارق والمغرب لأنها تتقاصها مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدو أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب وقيل: مستقرها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة، وقرئ: تجري إلى مستقر لها وقرأ ابن مسعود لا مستقر لها أي: لا تزال تجري لا تستقر، وقرئ: لا مستقر لها على أن بمعنى ليس ﴿تلك﴾ الجري عن تلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجها وتحرير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علماً بكل معلوم.

وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٩﴾

وقرئ: ﴿والقمر﴾ رفعا على الابتداء أو عطفاً على الليل يريد من آياته القمر ونصباً بفعل يفسه قدرناه ولا بد في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل والمعنى قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي

نصيباً فحرمهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً رَّجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٤﴾

قرئ: ﴿وهم يخصمون﴾ بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها واتباع الياء الخاء في الكسر ويختصمون على الأصل، ويخصمون من خصمه والمعنى أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها بيالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنى خصمون، يخصم بعضهم بعضاً وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْيَةَ وَلَا إِلَآ أَهْلِيَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٥﴾

﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿نوصية﴾ ولا يقدرن على الرجوع إلى منازلهم وأهليهم بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

وَيُفِيحُ فِي الْأُصُورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٤٦﴾

قرئ: الصور بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحركها بعضهم و ﴿الاجداث﴾ القبور وقرئ: بالفاء ﴿ينسلون﴾ يعدون بكسر السين وضمها وهي النفخة الثانية.

قَالُوا يَا بَنِيَّآ مَا نُبْعَثُ مِنْ بَعْثِنَا مِنْ تَرْفِدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٧﴾

قرئ: يا ويلتنا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه من أهينا من هب من نومه إذا انتبه وأهيه غيره وقرئ: من هبنا بمعنى أهينا وعن بعضهم أراد هب بنا فحنف الجار وأوصل الفعل، وقرئ: من بعثنا ومن هبنا على من الجارة والمصدر و ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿وما وعد﴾ خبره وما مصدرية أو موصولة، ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن أي مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد ﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق، وعن مجاهد للكفار هجة يجبون فيها طعم النوم فإذا صحح بأهل القبور قالوا من بعثنا وأما هذا ما وعد الرحمن فكلام الملائكة، عن ابن عباس وعن الحسن كلام المتقين وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً.

فإن قلت: إذا جعلت ما مصدرية كان المعنى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله وصدق المرسلون إذا

أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق.

وَلَنْ نَسْأَلَ نَفَرَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَمْ وَلَا هُمْ يَبْذُرُونَ ﴿٤٧﴾

﴿لا صريح﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة يقال اتاهم الصريح ﴿ولا هم يتقنون﴾ لا يجنون من الموت بالفرق.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٨﴾

﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتع بالحياة ﴿إلى حين﴾ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الفرق ولقد أحسن من قال:

ولم اسلم لكي ابقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام (1)
وقرأ الحسن رضي الله عنه نغرقهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَرُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى: ﴿اتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ من السماء والأرض (2) وعن مجاهد ما تقنم من نوبيكم وما تأخر وعن قتادة ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة ﴿اعلمكم ترحمون﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا محذوف ملول عليه بقوله:

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ مَّآبٍ مِنْ مَّآبٍ يَنْزِلُونَ ﴿٥٠﴾

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ثم قال ودابهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَرُوا وَمَا رَفَعَكَ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَلِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَطَمَسَهُ إِنَّ أُشْرَ إِلَّا فِي سَلْبِ مُبِينٍ ﴿٥١﴾

كانت الزنافة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون لو شاء الله لأغنى فلاناً ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه: انطعم المقول فيه هذا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنافة فإذا أمروا بالصنفة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قانراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله، وجعلوا لله مما نرا من الحرث والأنعام

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(1) سلمت من الحمام إلى حمام؛ لأنه تعالى: أخبر أنهم إن سلموا من موت الفرق، فتلك السلامة متاع إلى حين أي: إلى أجل يموتون فيه ولا بد.

فَمَ وَازَّجَجُرْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَّكُونَ ﴿٥٦﴾

﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير في شغل وفي فاكهون على أن أزواجهم يشاركونهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرباب تحت الظلال، وقرئ في ظلل والأريكة السرير في الحجلة وقيل: الفراش فيها وقرأ ابن مسعود متكئين.

لَمْ فِيهَا فَنَكَّهُمْ وَلَمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿يدعون﴾ يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واحتمل إذا شوي وجمل لنفسه قال لبيد: فاشتوى ليلة ريح واجتمل. ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه وقيل: يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه على وفلان في خير ما ادعى أي في خير ما تمنى قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿وسلام﴾ بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قولا من﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناه لهم ذلك لا يمنعونه قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وقيل: ما يدعون مبتدأ وخبره سلام بمعنى لهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه وقولاً مصدر مؤكد لقوله تعالى: ولهم ما يدعون سلام أي عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازة، وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين وعن ابن مسعود سلاماً نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصاً.

وَأَنْزَلُوا إِلَيْهَا أَلْجُرْمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ونحوه قوله تعالى: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا﴾^(١) الآية يقال مازه فانماز وامتاز وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى، ولا يرى ومعناه: أن بعضهم يمتاز من بعض.

﴿أرأعهد﴾ إليكم بيبي عادم أن لا تعبدوا الشيطان إنكم لكم عدو مبين ﴿٦٠﴾

العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

جعلتها موصولة؛ قُلْتُ: تقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون بمعنى والذي صدق فيه المرسلون من قولهم صدقوهم الحديث والقتال ومنه صدقني سن بكرة.

فإن قُلْتُ: من بعثنا من مرقدا سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جواباً؛ قُلْتُ: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدهم البعث وأنباكم به الرسل إلا أنه جاء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم ونكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما اندروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهيمكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأحوال والأفزع وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على السنة رسله الصالحين.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً إِذَا هُمْ بِجَمِيعِ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة.

فَأَلِيمُ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾

﴿إذ أمسح الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾^(٥٥)

﴿قال يوم لا تظلم نفس شيئاً﴾. ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد يدخل الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم وقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وذلك بعد الوله والصلابة والفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى، والخشية، وتخطي الأحوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط ومعاينة ما لقي العصاة من العذاب، وعن ابن عباس في افتضاض الأبكار وعنه في ضرب الأوتار وعن ابن كيسان في التزاور وقيل: في ضيافة الله، وعن الحسن شغلهم عما فيه أهل النار التمتع بما هم فيه وعن الكلبي هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهتمهم أمرهم ولا ينكروهم لأن لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم، قرئ في شغل بضمين وضمة وسكون وفتحين وفتحة وسكون، والفاكهة والفاكهة المتنعمة والمتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحة، وقرئ فاكهون وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم رجل حدث وحديث ونطس ونطس وقرئ فاكهين وفكهين على أنه حال والظرف مستقر.

الأعضاء بالكلام والشهادة.

وَلَوْ نَشَاءَ لَمَكَسْنَا عَلَىٰ عَيْنِيهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبَيِّرُوكَ
(١١)

الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فاستبقوا الصراط﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى: ابتدروا أو يجعل الصراط مسبوقة لا مسبوقة إليه أو ينتصب على الظرف والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردوا إليها كثيراً كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور نبياهم لم يقدروا وتعايا عليهم أن ييصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره أو لو شاء لأعمالهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقيين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعمالهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألقوا به وضربوا به من المقاصد دون غيرها.

وَلَوْ نَشَاءَ لَسَخَّطْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَلُّوا مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ (١٢)

﴿على مكانتهم﴾، وقرئ: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسختناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إنبار ولا مضى ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس لمسختناهم قردة وخنازير، وقيل: حجارة وعن قتادة لأقعدهناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ: مضياً بالحركات الثلاث فالمضى والمضى كالعتي والمضى كالصبي.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ (١٣)

﴿ننكسه في الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عز وجل: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى

وقرى: أعهد بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعة الكسر إلا في الياء وأعهد بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب وأعهد بالحاء وأحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: لعا محاً.

وَأَنۢ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (١٤)

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه، ونحو التذكير فيه ما في قول كثير:

لئن كان يهدي برد أنيابها العلى لا فخرمني إنني لفقير
أراد إنني لفقير بليغ حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه في وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يريد صراط بليغ في بابه بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه، ويجوز أن يراد هذا بعض الصراط المستقيمة توبيخاً لهم على العنول عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادي الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة كأنه قيل أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده هذا فيما أظن قول نافع غير ضار توبيخاً له على الإعراض عن نصائحه.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥) هَذِهِ
جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٦) أَصَلُّوْا لِلَّهِ يَمَا كُنْتُمْ تُكْفُرُونَ (١٧)

قرئ: ﴿جيبلاً﴾ بضمين، وضمة وسكون، وضمين وتشديد وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة، وهذه اللغات في معنى الخلق، وقرئ: ﴿جيبلاً﴾ جمع جبلة كفطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: جبلاً واحداً لا جبال.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُهُمْ أَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٨)

يروي أنهم يجحدون، ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إنني لا أجزع عليّ شاهداً إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنك كنت أناضل»^(١)، وقرئ: يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختم على أفواههم وقرئ: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر

يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ: لتنذر بالياء ولينذر من نذر به إذا علمه ﴿من كان حياً﴾ أي: عاقلاً متاملاً لأن الغافل كالميت أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحيق القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأملون، ولا يتوقع منهم الإيمان.

أَوْلَتْ رِزْوَانًا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيئَهُمْ أَنكَمْ لَهُمْ مَلَكُونَ

﴿٧٧﴾.

﴿مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحدائه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال: نلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو وعمل الأيدي استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فهم لها مالكون﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكتها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون أو فهم لها ضابطون قاهرون من قوله:

أصبحت لأحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا أي لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تنليله وتسخيرها لها كما قال القائل: يصرفه الصبي بكل وجه ويحسبه عن الخسف الجريير وتضربه الوليدة بالهراوي فلا غير لسيه ولا نكبير

وَدَلَلْتَهَا لَهُمْ فَمَنَّا رَكُوبُهُمْ وَمَنَّا يَا كُفُورًا ﴿٧٧﴾.

ولهذا الزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ: ركوبهم وركوبتهم وهما ما يركب كالطوب والحلوبة وقيل: الركوبة جمع، وقرئ: ركوبهم أي نوا ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم.

وَلَمْ يَمَسَّ فِيهَا مِنَّا شَيْءٌ وَأَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومشارب﴾ من اللبن نكرها مجملة وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ (٣) الآية، والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب.

وَأَعْتَدْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُضْمَرُونَ ﴿٧٩﴾.

اتخذوا الألهة طمعاً في أن يتقوا بهم ويعتصدا بمكانهم والأمر على عكس ما قدرنا حيث هم جند لألهتهم معنون.

لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ عُضْرُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿محضرون﴾ يخدمونهم ويذوبون عنهم ويفضون لهم

الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسحهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ: بكسر الكاف ونكسه وننكسه من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والياء.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٨١﴾.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فاين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيا الشعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهم إلا أن هذا لفظه عربي كما أن ذلك كذلك ﴿وما ينبغي له﴾ وما يصح له، ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولم يتسهل كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أحض وعن الخليل كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له.

فإن قلت: فقوله:

إنما النبي لا كذب (١) إنابن عبدالمطلب

وقوله:

هل أنت إلا أصبع نमित وفي سبيل الله ما لقيت (٢)

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً ولما نفي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يعني: ما هو إلا نكر من الله تعالى يوعظ به الإنسان والجن كما قال: إن هو إلا نكر للعالمين، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة (الحديث رقم: 2930)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: في غزوة حنين (الحديث: 78 - 1776).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله = (3) سورة النمل، الآية: 80.

(الحديث رقم: 2802)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (الحديث رقم: 812 - 1796).

من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في الزم وصف له والصقه به وهو كونه منشأ من موت وهو ينكر إنشائه من موت وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها. وروي أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي: ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال: واللوات والعزى لأصيرن إليه ولاخصمنه وأخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أتري الله يحيي هذا بعدما قد رم قال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»^(٦٦) وقيل: معنى قوله: «فإنما هو خصيم مبین» فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبین معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: «ومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبین»^(٦٧).

وَرَبِّ لَنَا مَثَلًا وَرَبِّي خَلَقَهُ قَالَ مَنْ بِي أَلْعَلَّمَهُ وَهِيَ رَبِّي^(٦٨)

فإن قلت: لم سمي قوله «من يحيي العظام وهي رميم» مثلاً؟ قلت: لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك بما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه كان تعجيراً لله، وتشبيهاً له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم اسم لما يلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال لم لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب، ويؤمنون أن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

قُلْ يَحْيَى الَّذِي أَنشَأْنَا أَوْلَ مَرَّةً وَهُوَ يَكْفُلُ حَلْقِي عَلِيمٌ^(٦٩)

«وهو بكل خلق عليم» يعلم كيف يخلق لا يتعاطفه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلالها وديانتها.

الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتَ نَارٌ تُوَفَّدُونَ^(٧٠)

ثم نكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر

والأكهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخوذهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقوداً للنار.

فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْزُرُونَ وَمَا يُؤْتُونَ^(٧١)

وقرى: «فلا يحزنك» بفتح الياء وضمها من حزنه أو حزنه والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم فإنما عالمون بما يسرون لك من عداوتهم «وما يعلنون» وإنما مجاوزوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرفقه الحزن.

فإن قلت: ما تقول فيمن يقول إن قرأ قارىء أنا نعلم بالفتح انتقضت صلواته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ قلت: فيه وجهان أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام، وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء وعليه تلبية رسول الله ﷺ إن الحمد والنعمة لك^(١) كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل والثاني أن يكون بدلاً من قولهم كأنه قيل: فلا يحزنك إننا نعلم ما يسرون، وما يعلنون وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقدير كرفن فصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البديل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب تلك القائل فما فيه إلا نهى رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلاانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئاً إلا ترى إلى قوله تعالى: «فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين»^(٢)، ولا تكوننّ من المشركين ولا تدع مع الله إثماً آخر.

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ^(٧٢)

قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقييحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة، وتغلغله في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله وديانة أوله لمخاصمة الجبار وشرذ صفحته لمجالته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التلبية (الحديث رقم: 1549)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها (الحديث رقم: 21 - 1184).

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/429.

(4) سورة الزخرف، الآية: 18.

﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا: ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بموجب مشيئته وقضايا حكمته، وقرئ: ملكة كل شيء ومملكة كل شيء وملك كل شيء والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقرآنها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنين وعشرين مرة،⁽³⁾ وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون نفيه، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشرية من شراب الجنة يشربها، وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال عليه الصلاة والسلام: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات مكية

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: ﴿وإننا لنحن الصافون﴾⁽⁵⁾ أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله.

فَالرَّجْرَجَاتِ رَجْرًا ۝٢

﴿فالزجاجات﴾ السحاب سوقاً.

فَالنَّازِلَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَّيدٌ ۝٤

﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وقيل: الصافات الطير من قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ والزجاجات: كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجيد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزجاجات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله

مع مضادة النار الماء وانطفائها به، وهي الزناد التي توری بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفرار وفي أمثالهم في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفرار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار، وهي أنتى فتتقدح النار بإذن الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب⁽¹⁾ قالوا: ولذلك تتخذ منه كنينقات القصارين، وقرئ: ﴿الأخضر﴾ على اللفظ وقرئ: الخضراء على المعنى ونحوه قوله تعالى: من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾⁽²⁾ وقرئ: يقدر وقوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين أن يخلق مثلهم في الصغر والقماء بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو للخلق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات وقرئ: الخالق.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢

﴿إنما أمره﴾ إنما شأنه ﴿إذا أراد شيئاً﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإن قلت: ما حقيقة قوله أن يقول له كن فيكون؟ قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع.

فإن قلت: فما وجه القراءتين في فيكون؟ قلت: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها، فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن وأما النصب فللعطف على يقول، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه من المباشرة بمحال القدرة واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقنور حتى يعجز عن الإعادة.

فَسَيَحْنُ الَّذِي يَدِينُ مَلَكَوْتُ كُلِّ نَفْسٍ وَمَا يَرْتِجِعُونَ ۝٨٣

= سورة يس (الحديث رقم: 2887).

(4) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 171/3.

(5) سورة الصافات، الآية: 165.

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) سورة غافر، الآية: 57.

(3) أخرج أوله الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في=

انفسها وأصله بزينة الكواكب وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب وإن أردت الاسم فلإضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة لأن مبهما في الكواكب وغيرها مما يزان به وإن يراد ما زينته به الكواكب وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب، ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء وغير ذلك ومطالعها ومساييرها وقرى على هذا المعنى ﴿بزينة الكواكب﴾ بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة.

رَحْمَةً مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾.

﴿وحفظاً﴾ مما حمل على المعنى لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين كما قال تعالى: ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ ويجوز أن يقدر الفعل المعطل كأنه قيل وحفظاً ﴿من كل شيطان﴾ زينها بالكواكب وقيل: وحفظناها حفظاً، والمراد الخارج من الطاعة المتمسك منها.

لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْاَعْوَىٰ وَيَدْفَعُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿لا يسمعون﴾ لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين وقرى بالتخفيف والتشديد وأصله يتسمعون والتسمع تطلب السماع يقال تسمع فسمع أو فلم يسمع وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم يتسمعون ولا يسمعون وبهذا ينصر التخفيف على التشديد.

فإن قلّت: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلّت: لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان أو استثناءً فلا تصح الصفة لأن الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له وكذلك الاستثناء لأن سائلاً لو سأل لم تحفظ من الشياطين فاجيب بأنهم لا يسمعون لم يستقم فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدر أن يسمعو إلى كلام الملائكة أو يتسمعو وهم مقنوفون بالشبه منحورون عن ذلك، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقاً فعندها تعاجله الهلكة باتباع الشهاب الثاقب.

فإن قلّت: هل يصح قول من زعم أن أصله لثلاثا يسمعو فحذفت اللام كما حذفت في قولك جثتك أن تكرمي فبقي أن لا يسمعو فحذفت أن وأهدر عملها كما في قول القائل: ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى؟ قلّت: كل واحد من هذين الحذفين غير مربوط على انفراده فأما اجتماعهما فمترك من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب.

فإن قلّت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث وسمعت إليه

والدارسات شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو النكر مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإن قلّت: ما حكم الغاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلّت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يالهف زيابة للحرث الـ صابح فالغانم فالأيب
كانه قيل: الذي صح فغنم فأب وإما على ترتبها في التفاروت من بعض الوجوه كقولك خذ الأفضل، فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين، فالمقصرين فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الغاء العاطفة في الصفات.

فإن قلّت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصده؟ قلّت: إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل وإن ثلثت فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه بيان ذلك أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل إما أن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة وإن أجريت الصفة الأولى على الطوائف والثانية والثالثة على آخر فقد أضافت ترتب الموصوفات في الفضل أعني أن الطوائف الصافات نوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس وكذلك إذا أردت بالصفات الطير وبالزاجرات كل ما يزرع عن معصية وبالتاليات كل نفس تتلو النكر فإن الموصوفات مختلفة، وقرى بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾.

﴿رب السموات﴾ خبر بعد خبر أو خير مبتدأ محذوف و﴿المشارق﴾ ثلثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين.

فإن قلّت: فماذا أراد بقوله ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾^(١)؟ قلّت: أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا أَلْمَنَّا بِرَبِّهِ الْكَاكِبِ ﴿٦﴾.

﴿الغنيا﴾ القريبى منكم. والزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به الشيء كالبليقة اسم لما تلاق به العوامة ويحتملها قوله ﴿بزينة الكواكب﴾ فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وأصله بزينة الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسها لأنها إنما زينته السماء لحسنها في

يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: **أثنا كنا تراباً وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من نكر إنكارهم البعث وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية وليس هذا القول بملام. وقرئ: لازب ولاتب والمعنى واحد والثاقب الشديد الإضاءة.**

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة **﴿وَيَسْخَرُونَ﴾** منك ومن تعجبك ومما تريبهم من آثار قدرة الله أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرئ: بضم التاء أي بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني عجب منها فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم عنادهم يسخرون من آياتي أو عجبتم من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه.

فإن قُلْتُ: كيف يجوز العجب على الله تعالى وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما أن مجرد العجب لمعنى الاستعظام والثاني أن يتخيل العجب ويفرض وقد جاء في الحديث عجب ربكم من الكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم^(١) وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ** وإنما يعجب من لا يعلم فقال إبراهيم النخعي: **إِنَّ شَرِيحًا كَانَ يَعْجَبُ عِلْمَهُ وَعَبَدَ اللَّهَ أَعْلَمَ يَرِيدُ عِبْدَ اللَّهِ بِنَ مَسْعُودٍ وَكَانَ يَقْرَأُ بِالضَّمِّ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ، قُلْ: يَا مُحَمَّدُ، بَلْ عَجِبْتَ.**

وَإِنَّا نَكْرُهُمْ لَآ يَنْفَعُهُمْ ﴿١٨﴾

﴿وَإِنَّا نَكْرُهُمْ﴾ ودأبهم أنهم إذا عظوا بشيء لا يتعظون به.

وَإِنَّا نَرَاهُمْ فِي سَخِرُونِ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَوَدَا وَنَنَا وَكُنَّا نَرَاكَ وَصَلَّأْنَا نَكْرُهُمْ ﴿٢١﴾

﴿وَإِنَّا نَرَاهُمْ﴾ من آيات الله البينة كانتشقاق القمر ونحوه **﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾** يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

أَوْ أَبَاؤُنَا أَلْوَدُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَأَبَاؤُنَا﴾ معطوف على محل **﴿إِنْ﴾** واسمها أو على الضمير في مبعوثون والذي جَوَزَ العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام والمعنى أيبعث أيضاً أبائنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل وقرئ: أو أبائنا.

يتحدثت وسمعت حديثه وإلى حديثه؟ **قُلْتُ:** المعنى بنفسه يفيد الإدراك والمعنى ببالى يفيد الإصغاء مع الإدراك والملا الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات والإنس والجن هم الملا الأسفل لأنهم سكان الأرض وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة وعن اشرف الملائكة **﴿مَنْ كَلَّ جَانِبَيْ﴾** من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق.

مُحْرَبًا وَلَمْ يَدَأْ بِرَأْسِهِ ﴿٢٣﴾

﴿مُحْرَبًا﴾ مفعول له أي ويقذفون للدحور وهو الطرد أو منحورين على الحال أو لأن القنف والطرذ متقاربان في المعنى فكانه قيل: يدحرون، أو قنفًا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بفتح الدال على قنفًا محروبًا طرودًا أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع والواصب الدائم وصب الأمر وصوبًا يعني: أنهم في الدنيا مرجومون بالشهـب وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع.

إِلَّا مَنْ حَبَلَ خَطْمَهُ فَأَتَمَّهُ يَهَابٌ تَائِبٌ ﴿٢٤﴾

﴿مَنْ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي **﴿خطف الخطفة﴾** وقرئ: **﴿خطف﴾** بكسر الخاء والطاء وتشديدها وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلها اختطف، وقرئ: فاتبعه وفاتبعه. الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها فلذلك قيل: **فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَمْ أَسْأَلُهُمْ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنْآ خَلَقْتَهُمْ بِنَ طِينٍ لَّازِبٍ**

﴿٢٤﴾

﴿فأستفتيهم﴾ أي استخبرهم **﴿أهم أشد خلقاً﴾** ولم يقل فقرهم والضمير لمشركي مكة قيل: نزلت في أبي الأشد بن كعدة وكنى بذلك لشدة بطشه وقوته **﴿أم من خلقنا﴾** يريد ما نكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب والشهب الثواقب والشياطين المردة وغلب أولي العقل على غيرهم فقال: من خلقنا والدليل عليه قوله بعد عد هذه الأشياء فاستفتيهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا بالفاء المعقبة وقوله أم من خلقنا مطلقاً من غير تقييد بالبيان اكتفاء ببيان ما تقدمه كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه فاستفتيهم أهم أشد خلقاً أم الذي خلقناه من ذلك ويقطع به قراءة من قرأ أم من عدنا بالتخفيف والتشديد وأشد خلقاً يحتمل أقوى خلقاً من قولهم شديد الخلق وفي خلقه شدة وأصعب خلقاً وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم **﴿مَنْ طين لازب﴾** إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما

(1) قال الزليعي: غريب ونسبه إلى أبي عبيدة في غريب الحديث /3

قُلْ نَمَّ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿لا تتناصرون﴾ و﴿ولا تناصرون﴾ بالإدغام.

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١٩﴾.

الييمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمينون بها فيها يصاصحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور ويتشاءمون بالشمال ولذلك سموها الشؤمى كما سموا أختها اليمينى وتيمينوا بالسناح وتطيروا بالبارح وكان الأعسر معيباً عندهم وعضدت الشريعة ذلك فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين وأراندلها بالشمال وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن من كل شيء (1) وجعلت اليمينى لكتاب الحسنات والشمال لكتاب السيئات ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء أن يؤتاه بشماله، استعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل أتاه عن اليمين أي من قبل الخير وناحيته فصدّه عنه وأضله وجاء في بعض التفاسير من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فليس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤدّ زكاة.

فإن قلت: قولهم أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق وهذا من ذلك ولك أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر لأن اليمينى موصوفة بالقوة وبها يقع البطش والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم والغواة لشياطينهم.

قَالُوا بَلْ لَرُّكُمْ رُكُوبًا مُّزِينًا ﴿٢٠﴾.

﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين إليه.

وَمَا كَانَ لَأَعْيُنِكُمْ رُبُّنَا سُلْطَانٌ بِئْسَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ سُلْطَانٍ ﴿٢١﴾.

﴿وما كان لنا عليكم﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بل كنت قوماً﴾ مختارين الطغيان.

فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ ﴿٢٢﴾.

﴿فحق علينا﴾ فلزمنا ﴿قول ربنا إنا لذائقون﴾ يعني: وعيد الله باننا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ولو حكى الوعيد كما هو لقال إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك

﴿قل نعم﴾ وقرئ: ﴿نعم﴾ بكسر العين وهما لغتان وقرئ: قال نعم أي الله تعالى أو الرسول ﷺ والمعنى نعم تبعثون و﴿وانتم داحرون﴾ صاغرون.

فَأَمَّا مَنْ زَجَرَهُ زَجْرَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ نَظْرُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿فإنما﴾ جواب شرط مقدر تقديره إذا كان ذلك فما هي إلا زجرة واحدة وهي لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها ويجوز فإتاما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية والزجرة الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فربعت لصوته ومنه قوله:

زجرابي عروة السباع إذا اشفق أن يختلطن بالغنم يريد تصويته بها ﴿فإذا هم﴾ أحياء بصراء ﴿ينظرون﴾ يحتمل أن يكون.

وَقَالُوا يَا بُولُوكَ هَلَّا بِئْسَ الْيَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله احشروا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض وأن يكون من كلام الملائكة لهم وأن يكون يا ويلنا هذا يوم الدين كلام الكفرة.

هَلَّا يَوْمَ الْقَمَلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿هذا يوم للفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم ويوم الدين اليوم الذي ندان فيه أي نجازى بأعمالنا ويوم الفصل يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

﴿احشروا﴾ خطاب الله للملائكة أو خطاب بعضهم مع بعض و﴿وازلجهم﴾ وضرباهم عن النبي ﷺ وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة أهل الزنا مع أهل الزنا وأهل السرقة مع أهل السرقة وقيل: قرناؤهم من الشياطين وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم.

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمَدُومُ إِلَىٰ سِرْبٍ لَّجِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَفَوْفُرُ طَائِفِهِمْ مُّسْرُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿فأهدوهم﴾ فعزّوهم طريق النار حتى يسلكوها.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٨﴾.

هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين.

بَلْ هُمْ آيَاتٌ مُّتَنَبِّهَةٌ ﴿٢٩﴾ وَأَوَّلُ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْهٌ ﴿٣٠﴾.

﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً وخنله عن عجز فكلمهم مستسلم غير منتصر، وقرئ:

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: للمتيمين في دخول المسجد وغيره (الحديث رقم: 426)، ومسلم في كتاب: الطهارة، التيمن في الطهور وغيره (الحديث رقم: 67 - 268).

عن أنفسهم ونحوه قال القائل:

لقد زعمت هوأزن قل مالي

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف
احلف لأخرجن ولتخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء
لإقبال المحلف على المحلف.

فَأَعْرَبْنَكُمْ إِنْ كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾

﴿فأغويناكم﴾ فعدونكم إلى الغي دعوة محصلة للبغيبة
لقبولكم لها واستحيابكم الغي على الرشد ﴿إنا كنا
غاوين﴾ فاربنا إغراءكم لتكونوا أمثالنا.

فَأَنبَأَهُمُ يُؤَيِّرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿فأنبأهم﴾ فإن الاتباع والمتبعين جميعاً ﴿يومئذ﴾ يوم
القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في
الغواية.

إِنَّا كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

﴿إنا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكل مجرم يعني: أن
سبب العقوبة هو الإجماع فمن ارتكبه استوجبها.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إنهم كانوا إذ﴾ سمعوا بكلمة التوحيد نفروا
واستكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

وَيَقُولُونَ إِنَّا نَأْتِيكُم بِالْحَيَاةِ لِنَأْتِيَنَّهُمْ ﴿٣٦﴾

﴿لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ.

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

﴿بل جاء بالحق﴾ رد على المشركين ﴿وصدق
المرسلين﴾ كقوله مصدقاً لما بين يديه وقرئ: لذائقوا
العذاب بالنصب على تقدير النون كقوله:

إِن كُنْتُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾

ولا ذاك الله إلا قليلاً بتقدير التنون وقرئ: على الأصل
لذائقون العذاب.

وَمَا جَزَاءُكُمْ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ إلا مثل ما عملتم جزء سيئاً
بعمل سيء.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُوعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿إلا عباد الله﴾ ولكن عباد الله على الاستثناء المنقطع.

أُولَئِكَ هُمُ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾

فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا
يتقوت لحفظ الصحة يعني: أن رزقهم كله فواكه لأنهم
مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات بأنهم أجسام محكمة
مخلوقة للأبد فكل ما ياكلونه ياكلونه على سبيل التلذذ
ويجوز أن يراد رزق معلوم منعت بخصائص خلق عليها
من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل: معلوم

الوقت كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا وعن قتادة
الرزق المعلوم الجنة، وقوله في جنات ياباه وقوله:

فَوَزَكَّهُمْ وَهُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وهم مكرمون﴾ هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب
على سبيل المدح والتعظيم وهو من أعظم ما يجب أن
تتوق إليه نفوس نوري الهمم كما أن من أعظم ما يجب أن
تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم، التقابل أتم
للسرور وأنس وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض يقال
للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر: نفسها كأساً قال:
وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش، كل كأس في القرآن
فهي الخمر وكذا في تفسير ابن عباس.

يُطَآؤُا عَلَيْهِمْ كَأْسٌ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾

﴿من معين﴾ من شراب معين أو من نهر معين وهو
الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون وصف بما
يوصف به الماء لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري
الماء قال الله تعالى: وأنهار من خمر.

بِيضَاءَ لَبَنٍ لَّسْتَرِيحٍ ﴿٤٦﴾

﴿بيضاء﴾ صفة للكأس ﴿لذة﴾ إما أن توصف باللذة
كانها نفس اللذة وعينها أو هي تانيث اللذ يقال لذ الشيء
فهو لذ ولذيذ ووزنه فعل كقولك رجل طب قال:

ولذ كطعم الصرخدي تركته بارض العدا من خشية الحدثنان
يريد النوم.

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا بِالْمُؤْتَمِرِينَ ﴿٤٧﴾

الغول لمن غاله يغوله غولاً إذا اهلكه وأفسده ومنه
الغول الذي في تكذيب العرب وفي أمثالهم الغضب غول
الحلم و ﴿ينزفون﴾ على البناء للمفعول من نزف الشارب
إذا ذهب عقله، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ويقال
للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله ونزحت الركبة حتى
نزفتها إذا لم تترك فيها ماء وفي أمثالهم أجبن من
المنزوف ضرطاً وقرئ: ينزفون من أنزف الشارب إذا ذهب
عقله أو شربه قال:

لمعري لئن أنزفتموا وصحوتما لبئس الندامى كنتموا آل ابجرا
ومعناه صار ذا نزف ونظيره أقتشع السحاب وقشعته
الريح وأكب الرجل وكببته وحقيقتهما دخلا في القشع
والكب وفي قراءة طلحة بن مصرف وينزفون بضم الزاي
من نزف ينزف يقرب يقرب إذا سكر والمعنى لا فيها
فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من
مغص أو صداع، أو خمار أو عريضة أو لغو أو تأثيم أو
غير ذلك ولا هم يسكرون وهو أعظم مفسادها فأقرزه
وأقرده بالذکر.

وَعِنْدَهُمْ قَاسِرَاتُ الْطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾

﴿قاصرات الطرف﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن
لا يمدن طرفاً إلى غيرهم كقولهم تعالى عرباً، والعين:

النجل العيون.

كَأَنَّ بَعْضَ تَكُونُ ﴿٤١﴾.

شبهه ببيض النعام المكنون في الأدهي وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَكْسَاؤُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾.

فإن قلت: علام عطف قوله:

﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾ قلت: على يطاق عليهم والمعنى يشربون فيتحاشون على الشراب كعادة الشرب قال:

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على بعض ﴿يتساءلون﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جاء به ماضياً على عادة الله في أخباره.

يُرْوَى أَنَّهُ لَيْنَ الْمُصْرَفِينَ ﴿٥٧﴾.

قرئ: ﴿من المصدقين﴾ من التصديق ومن المصدقين مشدد الصاد من التصديق وقيل: نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدي بعض إخوانه فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضني الله به في الآخرة خيراً منه فقال: أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو من المصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئاً.

أَوْهَا وَمَنَا وَكَأَنَّ تَرَاكَ وَعَظَمْنَا أَيْهَا لَمَيُونُ ﴿٥٧﴾.

﴿لمديون﴾ مجزيون من الدين وهو الجزء أو لمسوسون مربوبون يقال دانه ساسه ومنه الحديث: العاقل من دان نفسه ﴿قال﴾ يعني: تلك القائل.

قَالَ هَلْ أَشْرَ ظَلَمُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَلْفَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾.

﴿هل انتم مطلقون﴾ إلى النار لاريكم ذلك القرين قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار وقيل القائل هو الله عز وجل، وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار وقرئ: ﴿مطلقون﴾ فاطلع فاطلع بالتشديد على لفظ الماضي والمضارع المنصوب ومطلقون فاطلع وفاطلع بالتحفيف على لفظ الماضي والمضارع المنصوب يقال: طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلقون إلى القرين فاطلع أنا أيضاً أو عرض عليهم الإطلاع فاعترضوه فاطلع هو بعد ذلك وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره فالمعنى أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم، وهو من آداب المجالسة أن لا يستبد بشيء نون جلسائه فكأنهم مطلقوه وقيل: الخطاب على هذا للملائكة وقرئ: ﴿مطلقون﴾ بكسر النون أراد مطلقون إياي فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هم الفاعلون الخير والأمرونة

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتأخ بينهما كانه

قال: تطلعون وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر ﴿في سواء الجحيم﴾ في وسطها يقال: تعبت حتى انقطع سواثي وعن أبي عبيدة قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سواثي.

قَالَ تَأَلَّهْ إِنْ كِدْتَ تُزَيِّرِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة وهي تدخل على كاد كما تدخل على كان، ونحوه إن كان ليضلنا واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك، وفي قراءة عبد الله لتغويين.

وَلَوْلَا يَمْنَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿نعمة ربي﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام والبراءة من قرين السوء أو إنعام الله بالثواب وكونه من أهل الجنة ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك الذي عطف عليه الفاء محذوف معناه: نحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معنين.

أَنَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيَنَ ﴿٥٩﴾.

وقرئ: ﴿بماتنين﴾ والمعنى: أن هذه حال المؤمنين وصفتهم، وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا ينوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. يقوله المؤمن تحدياً بنعمة ما اغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له يزيد به تعدياً وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً ويجوز أن يكون قولهم جميعاً وكذلك قوله:

إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَرَزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِيَبْلُ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾.

﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه وقيل هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له وقرئ: لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة تمت قصة المؤمن وقرينه ثم رجع إلى نكر الرزق المعلوم فقال:

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوَمِ ﴿٦٢﴾.

﴿أذلك﴾ الرزق ﴿خير نزلاً﴾ أي خير حاصلًا ﴿أم شجرة الزقوم﴾ وأصل النزل الفضل والريح في الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء وحاصل الرزق المعلوم للذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، وانتصاب نزلاً على التمييز ولك أن تجعله حالاً كما تقول ثمر النخلة خير بلحا أم رطباً يعني: أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فإيهما خير في كونه نزلاً والنزل ما يقال للنازل بالمكان من الرزق ومنه إنزال الجند لإزراقهم كما يقال لما يقام لسكان الدار السكن، ومعنى الأول أن للرزق المعلوم نزلاً ولشجر الزقوم نزلاً فإيهما خير نزلاً ومعلوم أنه لا خير في شجر الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما

حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ملي تعذيباً بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم والثاني أنه نكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم نكر الشراب بما هو أكره وأبشع فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه، ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الرقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم ومعنى التراخي في ذلك بين.

يَتَمَّمُ الْقَوْمَ آتَاءَهُمْ سَائِلِينَ ﴿١٩﴾ تَهُمَّ عَلَى مَا كَرِهُوا ﴿٧٧﴾

وقرى إن منقلبهم ثم إن مصيرهم ثم إن منفذهم إلى الجحيم على استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم على الضلال وترك اتباع الليل والإهرع الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثاً وقيل: إسراع فيه شبه بالردة.

وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٦﴾

﴿ولقد صلَّ قبلهم﴾ قبل قومك قريش.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٧٧﴾

﴿مُنذرين﴾ أنبياء حنروهم العواقب.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُّذِيرِينَ ﴿٧٧﴾

﴿المُنذرين﴾ الذين أنذروا وحنروا أي أهلكوا جميعاً.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُّخْلِصِينَ ﴿٧٨﴾

﴿إلا عباد الله﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا بينهم لله أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين. لما نكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك نكر نوح ودعائه إياه حين آيس من قومه واللام الداخلة على نعم جواب قسم محنوف والمخصوص بالمدح محنوف تقديره فوالله نعم المحييون نحن والجمع دليل العظمة والكبرياء.

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْمَ الْمُّجِيبُونَ ﴿٧٩﴾ وَخَيَّنَتُهُ وَأَهْلَهُ بِرَبِّ الْكُرْبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

والمعنى: إنا أجبنا أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون.

وَمِمَّا ذُرِّيَّتَهُ هُرُّ الْقَابُونَ ﴿٧٧﴾

﴿هم الباقيون﴾ هم الذين بقوا وهدمهم، وقد فني غيرهم فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من نرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة

أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الرقوم قيل لهم: ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا ذُرِّيَّتَهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿فتنة للظالمين﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكنبوا وقرئ: نابتة.

إِنَّمَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْمُّجِيمِ ﴿٧٩﴾

﴿في أصل الجحيم﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتهم.

طَلَمَهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ ﴿٨٠﴾

والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الرقوم من حملها إما استعارة لفظية أو معنوية وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان كأنه رأس شيطان وإذا صوره المصورون جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فسبهاوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾⁽¹⁾ هذا تشبيه تخيلي وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جداً وقيل إن شجراً يقال له الأستن خشناً منتناً مرّاً منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين وما سمت العرب هذا الثمر برؤوس الشياطين إلا قصداً إلى أحد التشبيهين ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلاً ثالثاً يشبه به.

فَاتَمَّمْ لِأَكْرُونَ وَمِنَا فَتَالُونَ وَمِنَا الْبُطْرُونَ ﴿٨١﴾

﴿منها﴾ من الشجرة أي من طلوعها ﴿فمالمثلون﴾ بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ليكون باباً من العذاب فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شراباً من غساق، أو صديد شوبه أي مزاجه.

تَمُّمٌ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَشَوْبًا مِّنْ حَبِيرٍ ﴿٧٧﴾ تَمُّمٌ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِأَنَّ الْبُطْرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿من حميم﴾ يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم كما قال في صفة شراب أهل الجنة ومزاجه من تسنيم، وقرئ: لشوباً بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول تسمية بالمصدر.

فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله ثم إن لهم عليها لشوباً وفي قوله: ﴿ثم إن مرجعهم﴾؟ قلت: في الأول وجهان أحدهما أنهم يملؤون البطن من شجر الرقوم، وهو

على إفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون إفكاً مفعولاً
يعني: اتريدون به إفكاً، ثم فسّر الإفك بقوله آلهة من
نون الله على أنها إفك في أنفسها، ويجوز أن يكون حالاً
بمعنى اتريدون آلهة من نون الله أفكين.

مَا تَلْكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿فما ظنكم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة لأن من كان رباً
للعالمين استحق عليهم أن يعبوه حتى تركتم عبادته إلى
عبادة الأصنام، والمعنى: أنهم لا يقدر في وهم ولا ظن ما
يصد عن عبادته أو فما ظنكم به أي شيء وهو من
الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً، أو فما ظنكم به ماذا
يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره.

فَنَلَّكَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾

﴿في النجوم﴾ في علم النجوم، أو في كتابها أو في
أحكامها وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتاه فقال
حبيب انظر إليه ومحتاج انظر له، وكتاب انظر فيه، كان
القوم نجامين فاوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم
على أنه يسقم.

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾

﴿فقال إني سقيم﴾ إني مشارف للسقم، وهو الطاعون
وكان أغلب الأسقام عليهم.

فَنَزَّلْنَا عَنْهُ مُرْسِلًا ﴿٩٠﴾

وكانوا يخافون العنوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى
عبيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل
بالأصنام ما فعل.

فإن قُلْتُ: كيف جاز له أن يكنب؟ قُلْتُ: قد جَوَّزه بعض
الناس في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح
بين المتخاصمين والمتهاجرين والصحيح أن الكذب حرام إلا
إذا عرض وورى والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض
من الكلام ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم ومنه
المثل كفى بالسلامة داء وقول لبيد:

دعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داء
وقد مات رجل فجاء فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو
صحيح فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه وقيل:
أراد إني سقيم النفس لكفركم.

فَرَأَى إِلَهُ الْإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿٩٢﴾

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ فذهب إليها في خفية من روعة
الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم: التي هي في زعمهم آلهة
كقوله تعالى: أين شركائتي.

﴿إلا تاكلون ما لكم لا تنظرون﴾ استهزاء بها
ويانحاطها عن حال عبثتها.

فَرَأَى عَلَيْهِمْ سَرَابًا بَاطِلِينَ ﴿٩٣﴾

﴿فراغ عليهم﴾ فاقبل عليهم مستخفياً كأنه قال

أولاد سام وحام ويافت فسام أبو العرب وفارس والروم
وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافت أبو
الترك وياجوج وماجوج.

وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٩٤﴾

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ من الامم هذه الكلمة
وهي.

سَلَّمَ عَلَ نُوحٍ فِي الْآلَمِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّا كَذَّبْنَا نَبِيَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٦﴾ اللَّهُ يَرِنُ
عِبَادًا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ثُمَّ أَهْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿سلام على نوح﴾ يعني: يسلمون عليه تسليماً
ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك قرأت سورة
انزلناها.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله ﴿في العالمين﴾! قُلْتُ: معناه
الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً وإن لا يخلو أحد منهم
منها كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأداه في الملائكة
والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم، علل مجازاة نوح عليه
السلام بتلك التكرمة السنة من تبقية نكره وتسليم العالمين
عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً ثم علل كونه محسناً
بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلاله محل الإيمان وأنه
القصارى من صفات المدح والتعظيم ويرغبك في تحصيله
والازدياد منه.

وَإِنَّ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ ﴿٩٩﴾

﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على أصول الدين وإن
اختلفت شرائعها أو شايعه على التصلب في دين الله
ومصابرة المكذبين ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق
في أكثر الأشياء وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل
دينه وعلى سنته وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود
وصالح وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون
سنة.

فإن قُلْتُ: بم تعلق الظرف؟ قُلْتُ: بما في الشيعة من
معنى المشايعة يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه
حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم أو بمحنوف وهو انكر.

إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿بقلب سليم﴾ من جميع آفات القلوب وقيل: من
الشرك ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق فليس بعض
الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها.

فإن قُلْتُ: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قُلْتُ: معناه أنه
أخلص لله قلبه وعرف نك من فضرب المجيء مثلاً لذلك.

أَيْنَمَا هَلَّهُ دُنَّ اللَّهُ تُبْدُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿إفكاً﴾ مفعول له تقديره اتريدون آلهة من نون الله
إفكاً وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية وقدّم المفعول له
على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم

فإن قُلْتَ: فما أنكرت أن تكون ما مصدرية لا موصولة ويكون المعنى والله خلقكم وعملكم كما تقول المجبرة؟ قُلْتَ: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب أن معنى الآية إياه إباء جلياً وبينو عنه نبواً ظاهرًا وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله لولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها ولو قلت والله خلقكم وخلق عملكم لم يكن محتجاً عليهم ولا كان لكلامك طباق وشيء آخر، وهو أن قوله ما تعملون ترجمة عن قوله ما تنتحون وما في تنتحون موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن اختها إلا متعسف متعصب لمذهبه من غير نظر في علم البيان ولا تبصر لنظم القرآن.

فإن قُلْتَ: أ جعلها موصولة حتى لا يلزمي ما الرزمت وأريد وما تعملونه من أعمالكم قُلْتَ: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإنعان للحق وذلك أنك وإن جعلتها موصولة فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين كحالك وقد جعلتها مصدرية وأيضاً فإنك قاطع بذلك الوصلة بين ما تعملون وما تنتحون حيث تخالف بين المرادين بهما فتريد بما تنتحون الاعيان التي هي الأصنام وبما تعملون المعاني التي هي الاعمال وفي ذلك فك النظم وتبتيه كما إذا جعلتها مصدرية.

تَأْوَأُ أُنُورًا لَمْ يَبَيِّنَا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ (٧٧)

﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الوقود وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر فهي جحيم.

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٧٨)

والمعنى أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً وأنزلهم بين يديه أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله والهمة ما القمهم به الحجر وقهرهم فمالوا إلى المكر فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأسفلين لم يقدروا عليه.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبَّحِينَ (٧٩)

أراد بذهابه إلى ربه مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما قال: إني مهاجر إلى ربي ﴿سبهيدين﴾ سيرشني إلى ما فيه صلاح في بيدي ويعصمني ويوفقني كما قال موسى عليه السلام: كلا إن معي ربي سيهدين كان الله وعده وقال له: ساهديك فأجرى كلامه على سنن موعد ربه أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ السَّعْيِينَ (٨٠)

فضرِبهم ﴿ضرباً﴾ لأن راع عليهم بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً وقرئ: صَفَقًا وسَفَقًا ومعنهما الضرب ومعنى ضرباً ﴿باليمين﴾ ضرباً شديداً قوياً لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما وقيل: بالقوة والتمانة وقيل: بسبب الحلف وهو قوله تالله لا كيداً أصنامكم.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ (٨١) قَالَ أَتَيْدُونَ مَا نَسَحْتُمْ (٨٢)

﴿يرفون﴾ يسرعون من زفيف النعام ويرفون من أرف إذا نحل في الزفيف أو من أرفه إذا حملة على الزفيف أي يرف بعضهم بعضاً ويرفون على البناء للمفعول أي يحملون على الزفيف ويرفون من ورف يرف إذا أسرع ويرفون من رفاه إذا حداه كأن بعضهم يرفو بعضاً لتسارعهم إليه.

فإن قُلْتَ: بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿قالوا من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (١) كالتناقض حيث نكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعه به ونكر، ثم إنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم ينمهم فلعله هو الكاسر ففي أحدهما أنهم شاهدهو يكسرها وفي الآخر أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر قُلْتَ: فيه وجهان أحدهما أن يكون الذين أبصروه ورفوا إليه نفرًا منهم نون جمهورهم وكبرائهم فلما رجع الجمهور والعلية من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوا مكسورة اشمازوا من تلك وسألوا من فعل هذا بها ثم لم ينم عليه أولئك نفر نميمة صريحة، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم سمعنا فتى يذكرهم لبعض الصوارف والثاني أن يكسرها ويذهب، ولا يشعر بذلك أحد ويكون إقبالهم إليه يرفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم: قالوا فتأوا به على أعين الناس.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ (٨٣)

﴿وأنه خلقكم وما تعملون﴾ يعني: خلقكم وخلق ما تعلمونه من الأصنام كقوله بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن أي فطر الأصنام.

فإن قُلْتَ: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعاً؟ قُلْتَ: هذا كما يقال عمل النجار الباب والكرسي وعمل الصائغ السوار والخلخال والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها نون جواهرها والأصنام جواهر وأشكال فخالق جواهرها الله وعاملوا أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذقهم بعض أجزائها حتى يستوي التشكيل الذي يريونه.

المشاوره، وقرئ: ﴿ماذا ترى﴾ أي ماذا تبصر من رأيك وتبديه وماذا ترى على البناء للمفعول أي ماذا تترك نفسك من الرأي ﴿افعل ما تؤمر﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله امرتك الخير فافعل ما أمرت به أو امرك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمرًا وقرئ ما تؤمر به.

فإن قلت: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ قلت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله ولأن المغافصة بالذبح مما يستسمح وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه تلك.

فإن قلت: لم كان ذلك بالمنام نون اليقظة؟ قلت: كما أرى يوسف عليه السلام سجد أبويه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه وكما وعد رسول الله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام وما سوى ذلك من منامات الأنبياء وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام فإذا تظاهرت الحالتان على الصنق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

فَلَمَّا سَأَلْنَا رَبَّنَا وَلِجَبِينِ ﴿١٣٦﴾

يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعاً إذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلم أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وتله للجبين﴾ صرعه على شقه فوقع أحد جنبه على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر وجدل ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان وروي أن تلك كان عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى، وعن الضحك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف تقديره، فلما أسلمنا وتله للجبين.

وَتَدَيَّنْتَهُ أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴿١٣٧﴾ قَدْ سَدَّتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَّابٌ مَجْرِي المَحْسِينِ ﴿١٣٨﴾

﴿ونابيهما﴾ أي إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتابطهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما

﴿هب لي من الصالحين﴾ هب لي بعض الصالحين يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً﴾ قال عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب ووهبنا له يحيى﴾ وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده علي أبي الأملاك شكرت الوهاب ويورك لك في الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله ويموهوب ووهب وموهب.

فَبَشَّرْنَاهُ بِحَلِيمٍ حَلِيمٍ ﴿١٣٩﴾

وقد انطوت البشارة على ثلاث على أن الولد غلام نكر وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حلماً وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ستجديني إن شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾ إن إبراهيم لحليم لأواه منيب لأن الحادثة شهدت بحلمها جميعاً.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ قَالَ يَتَيْئُ إِلَى أَبِي فِي الْمَكَارِ إِلَى أَدِيمِكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَوْتَ قَالَ يَا أَبَتِ أَفَلَمْ مَا تُؤْمَرُ سَمِعْتَهُ إِنْ سَأَلَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿فلما بلغ﴾ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه.

فإن قلت: ﴿معه﴾ بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ أو بالسعي أو بمحذوف فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حد السعي ولا بالسعي لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه فيبقى أن يكون بياناً كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل مع من فقال: مع أبيه والمعنى في اختصاص الأب: أنه أرقق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشر سنة والمراد أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حد الطفولة كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم أتى في المنام ف قيل له: انذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة فلهاذا قال: ﴿إني أرى في المنام أنني أنبئك﴾ فنكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن، وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أنني ناج من هذه المحنة وقيل: رأى ليلة التروية كأن قاتلاً يقول له: إن الله يأمرك بذيح ابنك هذا فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك ففرح أنه من الله فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي اليوم يوم النحر وقيل: إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال: هو إن نبيح الله، فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له أوف بننرك ﴿فانظر ماذا ترى﴾ من الرأي على وجه

لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر نبح ولده أنه يلزمه نبح شاة.

فإن قُلْت: من كان الذبيح من ولديه؟ قُلْتُ: قد اختلف فيه، فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين أنه إسماعيل والحجة فيه أن رسول الله ﷺ قال: أنا ابن الذبيحين⁽⁴⁾ وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر الله لئن سهل الله له أمرها لينبجن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمعه أخواله وقالوا له: أقديناك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل⁽⁵⁾، وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان مجتهد بني إسرائيل يقول إذا دعا: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، فقال موسى عليه السلام يا رب ما لمجتهد بني إسرائيل إذا دعا قال: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتني كلامك واصطفتيني برسالك؟ قال: يا موسى لم يحبني أحد حب إبراهيم قط ولا خير بيني وبين شيء قط إلا اختارني وأما إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه وأما إسرائيل فإنه لم يياس من روحي في شدة نزلت به قط يدل عليه أن الله تعالى لما أتم قصة الذبيح قال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً﴾ وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل، فقال عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله فقال اليهودي لتعلم أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ويدل عليه أن قرني الكباش كانوا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت وعن الأصمعي بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ومما يدل عليه أن الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله: ﴿وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه بصديق الوعد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ولأن الله بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله: ﴿فضحكت فيبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ فلو كان الذبيح إسحق لكان خلفاً للموعد في يعقوب. وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين أنه إسحق والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهمه ولداً ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حلیم، ثم نكر رؤياه بنبح ذلك الغلام المبشر به ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف من

اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب وقوله: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لتحويل ما حوّلهما من الفرج بعد الشدة والظفر بالبغيعة بعد اليأس.

إِنَّ هَذَا لَمُرٌّ أَبْتَرَأُ الْيَتِيمَ^(١٦).

﴿البلاء المبين﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها.

وَقَدَّيْتَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ^(١٧) وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ^(١٨) سَأَلَمَ عَلَّ إِبْرَاهِيمَ^(١٩).

الذبح اسم ما يذبح وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكباش الذي قرّبه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل، وعن الحسن: فدى بوعل أهبط عليه من ثبير، وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت ستة ونبح الناس أبناءهم⁽¹⁾ ﴿عظيم﴾ ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي وقوله عليه السلام: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم»⁽²⁾ وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروي أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمره فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فيقت سنة في الرمي وروي أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالسوسة عند ذبح ولده، وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم عليه السلام: الله أكبر والله الحمد فبقي سنة⁽³⁾ وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلما توسطنا شعب ثبير أخبره بما أمر فقال له: أشدد رباطي لا أضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص اجري وتراه أمي فتحزن واشحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز علي ليكون أهون فإن الموت شديد واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه فقال له: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني والركك رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح فكبر جبريل والكباش وإبراهيم وابنه وأتى المنحر من منى فذبحه وقيل:

(1) لم يخرج الزيلعي.

(3) لم يخرج الزيلعي.

(4) قال الزيلعي غريب: 177/3.

(2) قال الزيلعي غريب، والحديث في الفردوس عن ابن هريرة 177/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک: 554/2.

يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبيح الله بن إبراهيم خليل الله⁽¹⁾.

فإن قُلْتُ: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن ينبح ولده ولم ينبح، وقيل له: قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صبح منه الذبح ولم يصح قُلْتُ: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ولكن سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام الا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً كما لو مضت فيه الشفرة، وفرت الأوداج وأنهرت الدم وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فإن قُلْتُ: الله تعالى هو المفتدي منه لأنه الأمر بالذبح فكيف يكون فادياً حتى قال وفديناه؟ قُلْتُ: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله عز وجل وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال: وفديناه إسناد للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهيته.

فإن قُلْتُ: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح فيما معنى الفداء والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببذل؟ قُلْتُ: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم فوهب الله له الكبش ليقيم نبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسمعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه.

فإن قُلْتُ: فاي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قُلْتُ: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بله حتى يكمل منه الوفاء بالنور وإيجاد المأمور به من كل وجه.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الَّذِينَ

فإن قُلْتُ: لم قيل ههنا: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ وفي غيرها من القصص إنا كذلك؟ قُلْتُ: قد سبقه في هذه القصة إنا كذلك فكانما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن نكره ثانية.

وَتَزَيَّنُّوهُ بِإِسْحَاقَ بَيْتًا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣١﴾

﴿نبيياً﴾ حال مقدرة كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: فرق بين هذا وبين قوله فادخلوها خالدين

وذلك أن المخلول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيماً وليس كذلك المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة لأن الحال حلية والحلية لا تقوم إلا بالمحلى وهذا المبشر به الذي هو إسحق حين وجد لم توجد النبوة أيضاً بوجوده بل تراخت عنه مدة متطاولة فكيف يجعل نبياً حالاً مقدره والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة فتقديرها صفتهم لأن المعنى مقدرين الخلود وليس كذلك النبوة فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة، أو مقدره وقت وجود البشارة بإسحق لعدم إسحق؟ قُلْتُ: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك والذي يحل الإشكال أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف وذلك قولك وبشرناه بوجود إسحق نبياً أي بأن يوجد مقدره نبوته فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة وبذلك يرجع نظير قوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽³⁾ ﴿من الصالحين﴾ حال ثاني وورودها على سبيل الثناء والتقريب لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين وعن قتادة بشره الله بنبوة إسحق بعد ما امتحنه بنبحه وهذا جواب من يقول النبيح إسحق لصاحبه عن تعلقه بقوله وبشرناه بإسحق قالوا، ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معاً لأن الامتحان بنبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً.

وَتَزَكِّيْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا عِيسَىٰ وَعِزَّىٰ لِنَفْسِهِ مِيسِرٌ ﴿١٣٢﴾ وَكَذَلِكَ نَسْأَلُ عَلَىٰ مَوْثِقٍ وَكَذَلِكَ

﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾، وقرئ وبركنا أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا كقوله: ﴿وأتينا أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه وقوله ﴿وظالم لنفسه﴾ نظيره قال: ومن نزييتي قال: لا ينال عهدي الظالمين وفيه تنبيه على أن الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبايع والعناصر وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما يعيب ولا نقیصة، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجتاحت يداه لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

وَتَجَنَّبُهَا وَأَوْفَهَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٣﴾

﴿من الكرب العظيم﴾ من الغرق، أو من سلطان فرعون وقومه وغشهم.

وَصَرَّفْنَهُمْ فَكَانُوا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٤﴾

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

(1) قال الزيلعي: أخرجه الدارقطني في غرائب مالك، وقال لا أصل له: 180/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 73.

﴿ونصرناهم﴾ الضمير لهما ولقومهما في قوله ونجيناهما وقومهما.
وَأَيَّتَهُمَا الْكِتَابَ الْمُنْتَبِئِينَ ﴿١١٧﴾.

﴿الكتاب المستبين﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة كما قال: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (1) وقال: من جواز أن تكون التوراة عربية أن تشتق من وري الزند فوعلة منه على أن التاء مبدلة من واو.

وَمَدَّيْنَهُمَا أَلْبَسَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَرَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾
سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتُوبِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿الصراف المستقيم﴾ صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أئتم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وَرَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا كَانَتْ أُمَّةً لَمِيعَةً ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِئْتِي بِآلِ اللَّهِ قَدْ أَخَذْتَهُمْ بَطْشًا ﴿١٢٤﴾

قرئ: ﴿إلياس﴾ بكسر الهمزة والياء على لفظ الوصل وقيل: هو إدريس النبي وقرأ ابن مسعود: وأب إدريس في موضع إلياس وقرئ إدراش وقيل: هو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى.

أَنْذَرْتَهُمْ بَلَاءًا وَذَرَرْتَ كَسْفًا فَكَيْفَ يُنْفِقُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿تدعون بعلًا﴾ اتعبون بعلًا وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة أرجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه اربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسنة يحفظونها، ويعلمونها الناس (2) وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك وقيل: البعل الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أي: من ربهها والمعنى اتعبون بعض البعول، وتتركون عبادة الله.

اللَّهُ رِبِّكَ رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهٗ فَأَنبَأَهُمُ الْمُحْسِنُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَرَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾.

﴿الله ربكم ورب آبائكم﴾ قرئ بالرفع على الابتداء وبالنصب على البدل وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع، وقرئ على الياسين وإدريسين وإدراسين وإدريسين على أنها لغات في إلياس وإدريس ولعل لزيادة الباء والنون في السريانية معني، وقرئ على الياسين بالوصل على أنه جمع يراد به إلياس وقومه كقولهم الخبييون والمهلبيون.

فإِن قُلْتُمْ: فَهَلَا حَمَلَتْ عَلَىٰ هَذَا الْيَاسِينَ عَلَى الْقَطْعِ وَإِخْوَاتِهِ! قُلْتُمْ: لَوْ كَانَ جَمْعًا لَعَرَفَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ.

سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لَوْلَا لَيْسَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا جَعَلْنَا فِي الْعَذَابِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَعَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾.

وأما من قرأ على آل ياسين فعلى أن ياسين اسم أبي الياس أضيف إليه الآل.

وَلَا تُكْرَهُ الْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّا لَأَنَّا مَقُولُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿مصيبين﴾ داخلين في الصباح يعني: تمرؤن على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها.

وَرَأَىٰ يُوشَعَ لَوْنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾.

قرئ: ﴿يونس﴾ بضم النون وكسرهما.

فَسَافَهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾.

وسمي هربه من قومه بغير إن ربه إيقاً على طريقة المجاز، والمساهمة: المقارعة، ويقال: استهم القوم: إذا اقترعوا، والمدحض المغلوب المقروع وحقيقته المزلق عن مقام الظفر والغلبة. روي أنه حين ركب في السفينة وفت فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبق لم تجر، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال أنا الأبق وزج بنفسه في الماء.

فَأَلْقَاهُ لَوْحًا فَوَعَدْنَاهُ الْيَمِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿فألقاه الحوت وهو مليم﴾ داخل في الملامة يقال رب لائم مليم أي: يلوم غيره، وهو أحق منه باللوم، وقرئ مليم بفتح الميم من ليم فهو مليم كما جاء مشيب في مشوب مبنياً على شيب ونحوه مدعي بناء على دعي.

فَوَلَّىٰ أَمَمًا كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِرِينَ ﴿١٤٣﴾.

﴿من المسبحين﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس وقيل: هو قوله في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وقيل: من المصلين وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن فهو صلاة (3) وعن قتادة كان كثير الصلاة في الرخاء قال وكان يقال إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر وإذا صرع وجد متكا وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد.

لَيْسَ فِي بَطْنِهِ إِلَّا يَوْمَ يُنْفَخُ ﴿١٤٤﴾.

﴿للبث في بطنه﴾ الظاهر لبثه فيه حياً إلى يوم البعث وعن قتادة لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له

(2) لم أجده عند عبد الرزاق.

(1) سورة المائدة، الآية: 44.

سجناً ولم اجعله لك طعاماً، واختلف في مقدار لبثه فعن الكلبي أربعون يوماً وعن الضحاک: عشرون يوماً، وعن عطاء: سبعة، وعن بعضهم: ثلاثة، وعن الحسن: لم يلبث إلا قليلاً ثم أخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقم فيه.

﴿فَبَدَّلَ بِالْمَرْءِ وَهُوَ سَیْرٌ﴾ (٤٥).

وروي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا، وروي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل، والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿وهو سقيم﴾ اعتل مما حل به وروي أنه عاد بنه كبين الصبي حين يولد.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّطِينٍ﴾ (٤٦).

واليطين كل ما ينسجد على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعل من قطن بالمكان إذا أقام به وقيل: هو البباء، فائدة البباء: أن الذباب لا يجتمع عنده وقيل لرسول الله ﷺ إنك لتحب القرع قال: «أجل هي شجرة أخي يونس» (١) وقيل: هي التين وقيل: شجرة الموز تغطي بورقها واستظل بأغصانها وأقطر على ثمارها وقيل: كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها وروي أنه مر زمان على الشجرة فبيست فيكي جزعاً فأوحى الله إليه بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر.

فإن قلت: ما معنى وأنبتنا عليه شجرة؟ قلت: أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنب البيت على الإنسان.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْ يَانَةَ آيَةَ آيٍ أَرْ رِيْدُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى مائة ألف﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى وقيل هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين أو إلى غيرهم وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم وقال لهم: إن الله باعث إليكم نبياً ﴿أو يزيدون﴾ في مرأى الناظر أي إذا رآها الرائي، قال هي: مائة ألف أو أكثر والغرض الوصف بالكثرة.

﴿فَأَمَّا قَوْمُ مَثَلِهِمْ إِي جِبِينِ﴾ (٤٨) ﴿فَأَسْتَجِيبُ أَرْزَاقَ الْبَسَاكِ وَلَهُمْ أَلْبَسُونَ﴾ (٤٩).

﴿إلى حين﴾ إلى أجل مسمى، وقرئ ويزيدون بلواو وحتى حين ﴿فاستفتهم﴾ معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعبارة بعضهم ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهنّ ووأدهم واستنكافهم من نكرهنّ ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر أحدها التجسيم لأنّ الولادة مختصة بالأجسام والثاني تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم كما قال: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (٢) ﴿أو من ينشا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ (٣) والثالث أنهم استهانوا باكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأبناهم: فيك أنوثة أو شكلك شكل النساء للبس لقائله جلد النمر ولانقلاب حماليقه وذلك في أهاجبهم بين مكشوف فكّر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرّات ودل على فظاعتها في آيات ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ (٤) ﴿لقد جئتم شيئاً إندا تكاد السموات يتفطرن منه﴾ (٥) ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ (٦) ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض﴾ (٧) ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ (٨) ﴿إلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله﴾ (٩) ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ (١٠) ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ (١١) ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ (١٢) ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ (١٣) ﴿اصطفى البنات على البنين﴾ (١٤) ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ (١٥) ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ (١٦).

﴿أم خلقنا الملائكة إنثاً وهم شهدون﴾ (١٧) ﴿آآ إناهم من إنكهم يقولون﴾ (١٨).

﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾

فإن قلت: لم قال وهم شاهدون فخص علم المشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل وكذلك قوله: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ (١٧) ونحوه قوله: ﴿ما أشهدتهم خلق

(10) سورة الزخرف، الآية: 15.
(11) سورة النحل، الآية: 57.
(12) سورة الطور، الآية: 39.
(13) سورة النحل، الآية: 62.
(14) سورة الصافات، الآية: 153.
(15) سورة الزخرف، الآية: 16.
(16) سورة الزخرف، الآية: 19.
(17) سورة الزخرف، الآية: 19.

(1) قال الزيلعي: غريب: 3/ 181.
(2) سورة الزخرف، الآية: 17.
(3) سورة الزخرف، الآية: 18.
(4) سورة مريم، الآية: 88.
(5) سورة مريم، الآية: 89، 90.
(6) سورة الانبياء، الآية: 26.
(7) سورة البقرة، الآية: 116.
(8) سورة البقرة، الآية: 117.
(9) سورة الصافات، الآية: 151 - 152.

نسبة بين الله وبينهم وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم سمي الملائكة جنة؟ **قُلْتُ:** قالوا الجنس واحد ولكن من خبت من الجن ومرد وكان شرًا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرًا كله فهو ملك فنكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم وإنما نكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم وفي إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك ومثاله أن تسوي بين الملك وبين بعض خواصه ومقربيه، فيقول لك: اتسوي بيني وبين عبيدي وإذا نكره في غير هذا المقام وقره وكناه، والضمير في **﴿إِنَّهُمْ لَمَحْضُرُونَ﴾** للكفرة والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كائبن مفترين وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون والمراد المبالغة في التكنيب حيث أضيف إلى علم الذين ادعوا لهم تلك النسبة وقيل: قالوا إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة وقيل: قالوا إن الله والشيطان أخوان، وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله، ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين أن يكون الضمير في **﴿إِنَّهُمْ لَمَحْضُرُونَ﴾** لهم والمعنى: أن الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعذبهم، ولو كانوا مناسيين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْكَرُوا مِمَّا تَدْبُرُونَ ﴿١١٧﴾

﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع من المحضرين معناه ولكن المخلصين ناجون وسبحان الله اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون أي يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

مَا أَشْرَ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ ﴿١١٧﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾

والضمير في **﴿عليه﴾** ش عذ وجل ومعناه فإنكم ومعبوديك ما أنتم وهم جميعًا بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف يفتنونهم على الله؟ **قُلْتُ:** يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم من قولك فتن فلان على فلان امراته كما تقول أفسدها عليه وخيبها عليه، ويجوز أن يكون الواو وما تعبدون بمعنى مع مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته وأن كل رجل وضيعته جاز أن يسكت على قوله فإنكم وما تعبدون لأن قوله وما تعبدون ساء مسد الخبر لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون والمعنى فإنكم مع ألهتكم أي فإنكم قرناؤهم

السموات والأرض ولا خلق أنفسهم⁽¹⁾ وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق ولا بطريق استدلال ونظر ويجوز أن يكون المعنى أنهم يقولون ذلك كالكائل قولاً عن ثبج صدر وطمانينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٩﴾

وقرى: **﴿ولد الله﴾** أي الملائكة ولده والولد فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع والمنكر والمؤنث تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي.

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٢٠﴾

فَإِنْ قُلْتُمْ: **﴿اصطفى البنات﴾** بفتح الهمزة استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ **قُلْتُ:** جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم ولد الله وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما وهذه القراءة وإن كان هذا محلها فهي ضعيفة والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبها وذلك قوله: وإنهم لكائبن.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٢١﴾

﴿مالك كيف تحكمون﴾ فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها بخيلة بين نسيين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾

وقرى: **﴿تذكرون﴾** من نكر.

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٣﴾

﴿أم لكم سلطان﴾ أي حجة نزلت عليكم تمن السماء وخبر بان الملائكة بنات الله.

فَأَنزِلْ بِكَيْفِكَ إِنْ كُنْتُمْ سَادِقِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿فأتوا بكتابتكم﴾ الذي أنزل عليكم في ذلك كقوله تعالى: **﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾**⁽²⁾ وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لا قايولهم شديد وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قریش وتجهيل نفوسها واسترتكاع عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً فضلاً أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتْ آلِهَةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٥﴾

سَبَحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢٦﴾

﴿وجعلوا﴾ بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة **﴿نسباً﴾** وهو زعمهم أنهم بناته والمعنى وجعلوا بما قالوا:

أن يزل عنه ظفراً خشوعاً لعظمته وتواضعاً لجلاله ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنتنا مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين وكما يجب على العباد لربهم وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ يعني وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى: ﴿عسى أن يبيعتك ربك مقاماً محموداً﴾، ثم نكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

لَرَأَى عِدْنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٧٩﴾
فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾

هم مشركو قريش كانوا يقولون ﴿لو أن عندنا نكراً﴾ أي كتاباً ﴿من﴾ كتب ﴿الأولين﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الإنكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب فكفروا به ونحوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام، وإن هي المخفة من الثغيلة واللام هي الفارقة وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِجِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمِمَّ السَّوْرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٣﴾

الكلمة قوله: ﴿إنهم لهم المنصورون وإن جنبنا لهم الغالبون﴾، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وقرئ كلماتنا والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة كما قال: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ ولا يلزم انهزامهم في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم لمن بعدهم في العاقبة وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها، وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة، وفي قراءة ابن مسعود: على عباننا على تضمين سبقت معنى حقت.

نَزَّلَ عَنْهُمْ حَقَّ حِينٍ ﴿١٧٤﴾
﴿فقتل عنهم﴾ فأعرض عنهم وأغض على أذاهم ﴿حتى حين﴾ إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال وعن السدي إلى يوم بدر وقيل: الموت وقيل: إلى يوم القيامة.

وَأَبْصَرَهُمْ سَوَّوْا بَصِيرَتَهُ ﴿١٧٥﴾
﴿وأبصرهم﴾ وما يقضي عليهم من الأسر والقتل

وأصحابهم لا تبرحون تعبونها، ثم قال: ﴿ما أنتم عليه﴾ أي على ما تعبدون ﴿ببغاثين﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إلا من هو﴾ ضال مثلكم أو يكون في أسلوب قوله:

فإنك والكتاب إلى على كدابفة وقد حلم الأليم وقرأ الحسن: صال الجحيم بضم اللام وفيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف.

فإن قُلْتَ: كيف استقام الجمع مع قوله من هو؟ قُلْتُ: من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه: في آية واحدة والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شك في شائك والثالث أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجري الإعراب على عينه كما حذف من قولهم ما باليت به بالة وأصلها بالية من بالي كعافية من عافى ونظيره قراءة من قرأ، وجنى الجنيتين دان وله الحوار المنشآت بإجراء الإعراب على العين.

وَمَا يَنَّا إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٨١﴾

﴿وما منا﴾ أحد ﴿إلا له مقام معلوم﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا بكفي كان من أرمى البشر
﴿مقام معلوم﴾ مقام في العبادة والانتهاه إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوز كما روي فمنهم راعك لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه.

وَأَنَا لَنَحْنُ السَّافِرُونَ ﴿١٨٢﴾

﴿نحن الصافون﴾ نصف أقدامنا في الصلاة أو أجنتنا في الهواء منتظرين ما نؤمر وقيل: نصف أجنتنا حول العرش داعين للمؤمنين وقيل: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين.

وَأَنَا لَنَحْنُ السَّيِّئُونَ ﴿١٨٣﴾ وَإِن كَانُوا لَيَكْفُرُونَ ﴿١٨٤﴾

﴿المسبحون﴾ المنزهون أو المصلون والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله سبحانه الله: ﴿عما يصفون﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله ولقد علمت الجنة كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العز وقالوا سبحانه الله فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤهم منه، وقالوا للكفرة فإذا صح نك فإنكم وآهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان مثلكم ممن علم الله لكفرهم لا لتقديره وإرادته تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً أنهم من أهل النار وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل نو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: ﴿تَعَزَّزْ مِنْ تَشَاءِ﴾⁽²⁾ اشتملت السورة على نكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصر عليهم فختما بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون.

وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾

والتسليم على المرسلين.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قويض لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمونات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد وعن علي رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالميكال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين⁽³⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصفات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص مكية

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾

﴿ص﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة، وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ ص بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة،

والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصر والتمكين والثواب في العاقبة والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظرين وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه وقوله ﴿فسوف يبصرون﴾ للوعيد كما سلف لا للتبديد.

أَعِدَّانَا يَسْتَجِلُونُ ﴿٧٣﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا ببروا أمرهم تديباً ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرههم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي نحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود فبئس صباح.

إِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَتَاءٌ صَبَاحٌ أَذْدَرِيَّ ﴿٧٤﴾

وقرئ: ﴿نزل بصاحبهم﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على ونزل العذاب، والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأن ساء وبئس يقتضيان ذلك وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»⁽¹⁾، وإنما تنى.

وَنَزَّلَ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٧٥﴾

﴿وتول عنهم﴾ ليكون تسلية على تسلية وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول.

وَأَبْصَرَ فَتَوَقَّعُ بَصِيرَتَكَ ﴿٧٦﴾

وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به النكر من صنوف المسرة وأنواع المساء وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالأخر عذاب الآخرة.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

= في تفسيره، ونكره الواحدي في تفسيره، وابن حاتم في تفسيره: 182/3.

(4) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي: 3/182.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (الحديث: 4198)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، الحديث: (121 - 1365).

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) نكر الزيلعي أنه أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ونكره الثعلبي =

ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهي.

طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبنان لات حين بقاء
فإن قُلْتُ: ما وجه الكسر في أوان؟ قُلْتُ: شبه بإذ في
قوله وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه
وعوض التنوين لأن الأصل ولات أوان صلح.

فإن قُلْتُ: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟
قُلْتُ: نزل قطع المضاف إليه من مناص لأن أصله حين
مناصهم منزلة قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف
إليه وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ثم بنى
الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن، وقرئ: ولات بكسر
التاء على البناء كجبر.

فإن قُلْتُ: كيف يوقف على لات؟ قُلْتُ: يوقف عليها بالتاء
كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التانيث وأما
الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة
وأما قول أبي عبيد إن التاء داخلة على حين، فلا وجه له
واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به
فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط
والمناص المنا والفوت يقال ناصه ينوصه إذا فاته واستناص
طلب المناص قال حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جرى المسحل
وَجَرَّوْا أَنْ جَاءَهُمْ شِدْرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سَجْرٌ كَذَّابٌ ④.

﴿منذر منهم﴾ رسول من أنفسهم ﴿وقال الكافرون﴾
ولم يقل وقالوا إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا
القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر
المنهمكون في الغي الذين قال فيهم أولئك هم الكافرون
حقاً وهل ترى كفرةً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من
صنعه الله بوحية كاذباً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق
الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل
الذي لا وجه لصحته، روي أن إسلام عمر رضي الله تعالى
عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً وشق على قريش وبلغ
منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا
إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما
فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام
وجنتك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب
رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك
السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ:
«ماذا يسألونني» قالوا ارفضنا وارضض نكر آهتنا وندعك
والهك فقال عليه السلام: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم
أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها
العجم». فقالوا: نعم، وعشراً أي تعطيكها وعشر كلمات
معها فقال: قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا⁽¹⁾.

أَجْمَلُ الْأَيْمَةِ إِلَهًا وَرَبًّا إِنَّ هَذَا لَتَقْرُءُ عَجَابٌ ⑤.

فإن قُلْتُ: قوله ص ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ كلام ظاهره
متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه! قُلْتُ: فيه وجهان
أحدهما أن يكون قد نكر اسم هذا الحرف من حروف
المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مر في
أول الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي
عليه كما قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز والثاني أن
يكون ص خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة كأنه
قال هذه ص يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن
ذي الذكر كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور
بالسخاء والله وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بص
والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز.

بِلِ الْأَيْمَةِ كَفَرُوا فِي عَزْرٍ وَفَقَاتٍ ⑥.

ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان
لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله وإذا جعلتها
مقسماً بها وعظفت عليها والقرآن ذي الذكر جاز لك أن
تريد بالقرآن التنزيل كله وأن تريد السورة بعينها، ومعناه:
أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول مررت
بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير
الرجل والذكر الشرف والشهرة من قولك فلان منكور، وإنه
لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة، أو نكر ما يحتاج
إليه في الدين من الشرائع وغيرها كاقاصيص الأنبياء
والوعد والوعيد والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على
شدتها وتفاقمها، وقرئ: في غرة أي في غفلة عما يجب
عليهم من النظر واتباع الحق.

كُرْ أَمَلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرَّبَهُ قَادُوا وَلَا تَجِيءَ مَنَاسٍ ⑦.

﴿كم أهلكنا﴾ وعيد لنوي العزة والشقاق ﴿فنادوا﴾
فدعوا واستغاثوا وعن الحسن فنادوا بالتوبة ﴿ولات﴾ هي
المشبهة بليس زينت عليها تاء التانيث كما زينت على رب،
وتم للتوكيد وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على
الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضياتها أما الاسم، وإما الخبر
وامتنع بروزها جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعند
الأخفش أنها لا النافية للجنس زينت عليها التاء وخصت
بنفي الأحيان و﴿حين مناص﴾ منصوب بها كأنك قلت:
ولا حين مناص لهم وعنه أن ما ينتصب بعده بفعل مضمّر
أي ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء أي ولا حين
مناص كأنك لهم وعندهما أن النصب على ولات الحين
حين مناص أي وليس الحين حين مناص والرفع على ولات
حين مناص حاصل لهم، وقرئ: حين مناص بالكسر ومثله
قول أبي زيد الطائي:

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون
من الفتنة (الحديث رقم: 3232) وأحمد في المسند 1/362.

أَمْ لِيَ الْزُّكْرِ مِنَ الْيَنبُوتِ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي سَكِّ يَنْ ذِكْرِي بَلْ لَأَمْ بَدُؤُهُمْ عَذَابِ ۝٨

﴿بل هم في شك﴾ من القرآن يقولون في انفسهم اما واما وقولهم ان هذا الا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما ينوقوا عذاب﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ يعني: أنهم لا يصدقون به إلا ان يمسه العذاب مضطرين إلى تصديقه.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّؤُوفِ ۝٩

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شأوا ويصرفوها عن شأوا ويتخيروا للنبوة بعض صنابيرهم ويرفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعلله كما قال: أمهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا ثم رشع هذا المعنى فقال:

أَمْ لَكُمْ السَّكَاةُ وَالْأَنْزِيلُ وَمَا يَنْتَهَى فَلْيَرْكَبُوا فِي الْأَنْبَابِ ۝١٠

﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا يصلحون لتبدير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بليته النبوة دون من لا تحق له ﴿فليترقوا في الأسباب﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويديروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خساهم خساءة عن تلك بقوله:

جُنْدًا مَا هُنَاكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝١١

﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبون على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون، ولا تكثر لما به يهنون وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره إلا أنه على سبيل الهزة وهناك إشارة إلى حيث وضعوا فيه انفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست هناك.

كَذَّبَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَذَّبَتْ آلُ كُرَيْشٍ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ۝١٢

﴿لجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ أي بليغ في العجب، وقرئ: ﴿عجاب﴾ بالتشديد كقوله تعالى: ﴿مَكْرًا كِبَارًا﴾⁽¹⁾ وهو أبلغ من المخفف ونظيره كريم وكرام وكرام، وقوله أجعل الآلهة إلهًا واحدًا مثل قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال اجعل الجماعة واحدًا في قوله لأن ذلك في الفعل محال.

وَأَنطَلَقَ الْأَلْبَابُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْرَأَ وَأَسْرَأَ عَلَى الْإِهْيَاجِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝١٣

﴿الملا﴾ اشرف قريش يريدوا انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي يريد الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه، فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر أو أن هذا الأمر لشيء من نواب الدهر يراد بنا فلا انفكك لنا منه، أو أن بينكم لشيء يراد أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، وأن بمعنى أي لأن المتطابقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلقهم مضمنا معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول وأنهم قالوا امشوا أي ائتروا واجتمعوا من مشيت المرأة إذا كثرت ولانتهى ومنه الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية قال رسول الله ﷺ: «ضموا فواشيكم»⁽²⁾، ومعنى واصبروا على آلهتكم واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ: وانطلق الملا منهم امشوا بغير أن على إضمار القول وعن ابن مسعود وانطلق الملا منهم يمشون أن اصبروا.

مَا يَوْمًا يَبْدَأُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آتِلَاقٌ ۝١٤

﴿في الملة الآخرة﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأن النصراني يدعونها وهم مثلثة غير موحدة أو في ملة قريش التي أركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا كائنًا في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالًا من هذا ولا تعلق بما سمعنا كما في الوجهين، والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله، ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أي افتعال وكنب، أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الطهارة، باب: الأديعة (الحديث رقم:

1276) وعند مسلم «لا ترسلوا فواشيكم...» أخرجه في كتاب:

الأشربة، باب: الأمر بتغطية الأئمة... (الحديث رقم: 98 - 2013).

(1) سورة نوح، الآية: 22.

(2) الفواشي: جمع فاشية، وهي كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم وغيرها.

بالعذاب⁽²⁾ وقيل: نكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزة: عجل لنا نصيبنا منها أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَأْتِيَنَّكَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾.

فإن قلت: كيف تطابق قوله: ﴿أصبر على ما يقولون﴾ وقوله: ﴿وانكر عبينا داود﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة وبوخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه، فاستغفر وأناب ووجد منه ما يحكى من بكانه الدائم وغمه الواصب ونقش جنائته في بطن كفه حتى لا يزال يجند النظر إليها والندم عليها فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قاله ﷺ اصبر على ما يقولون ومن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم وانكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي ﴿هذا الأيدى﴾ ذا القوة في الدين المضطلع بمشاقفه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأيد كل شيء ما يتقوى به ﴿أواب﴾ تَوَابَ رَجَاعَ إِلَى مَرْضَاعِ اللَّهِ.

فإن قلت: ما ذلك على أن الأيد القوة في الدين! قلت: قوله تعالى: ﴿إنه أواب﴾⁽³⁾ لانه تليل لذي الأيد.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾.

﴿والإشراق﴾ وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق»⁽⁴⁾. وعن طاوس عن ابن عباس قال: هل تجنون نكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا. فقرا: ﴿إننا سخرننا له الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ وقال: «كانت صلاة يصلها داود عليه السلام وعنه ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية وعنه لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يسبحن بالعشي والإشراق» وكان لا يصلي صلاة الضحى، ثم صلاها بعد وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجك ذلك في

﴿نو الأوتاد﴾ أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده قال:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود في ظل ملك ثابت الأوتاد وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت وقيل: كان يمدد بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه.

وَمَوِّدٌ وَمَوْ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكِكُو أَوْلِيكَ الْأَحْزَابِ ﴿١٩﴾.

﴿أولئك الأحزاب﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب، ولقد نكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وإبلاغه، ثم قال:

إِن كُلَّ لَأِ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿٢٠﴾.

﴿فحق عقاب﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم.

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا سَيْمَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُرَاقِ ﴿٢١﴾.

﴿هؤلاء﴾ أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة النفخة ﴿وما لها من فواق﴾ وقرئ: بالضم ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: ﴿فلإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾⁽¹⁾ وعن ابن عباس ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة ترجع الدر إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تتنى ولا ترد.

وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ بِقُلُوبٍ رَدِيبٍ أَلْحَسَابِ ﴿٢٢﴾.

القط القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه وقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عجل لنا قطناً﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك

(3) سورة ص، الآية: 44.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/53.

(1) سورة الاعراف، الآية: 34.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 53.

الحق فهو حكمة، الفصل التمييز بين الشيثين وقيل: للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في تقضيه فصل أي مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظانَّ الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله فويل للمصلين إلا موصولاً بما بعده ولا والله يعلم وأنتم حتى يصله بقوله لا تعلمون ونحو ذلك، وكذلك مظانَّ العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأرنت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو قوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه». وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم هو قوله: أما بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بنكر الله وتحميد، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين نكر الله بقوله أما بعد، ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نذر ولا هنر⁽²⁾، كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبتة وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها وقد روي أن الانصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجها وهي أم سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نساءك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هোক، وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فأثرت أهلها فكان نذبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وأما ما يذكر أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلى إبراهيم بنمرود ونبح ولده وإسحاق بنذبه وذهب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة

كتاب الله تعالى يعني: هذه الآية ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾⁽¹⁾ وقول أهل الجاهلية أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهاهه بالشروق، ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات! قُلْتُ: نعم وما لاختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يقاع تحرق.

ولو قال: محرقة لم يكن شيئاً

وَأَلْطَرَّ حَشْرُورٌ كُلُّ لَهْرٍ أَرَابٍ ﴿١٧﴾

وقوله: ﴿محشورة﴾ في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خلفاً لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها، وقرئ: والطيور محشورة بالرفع ﴿كل له أواب﴾ كل واحد من الجبال والطيور لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاء لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب، وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من علدته أن يكثر نكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه، وقيل: الضمير لله أي: كل من داود والجبال والطيور لله أواب أي: مسبح مرجع للتسبيح.

وَوَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَيَّيْتَهُ الْجَنَّةَ وَفَسَلَ لِيَطَّابٍ ﴿١٨﴾

﴿وشدنا ملكه﴾ قويناه قال تعالى: سنشد عضدك وقرئ: ﴿شدنا﴾ على المبالغة قيل: كان يببب حول محرابه أربعون ألف مستتم يحرسونه وقيل: الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فاعلم الرجل، فقال: إن الله عز وجل لم يأخذني بهذا الذنب ولكن باني قتلت أبا هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أنذب أحد نذباً أظهره الله عليه فقتله فهاويه: ﴿الحكمة﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق

(1) سورة الحجر، الآية: 73.

(2) تقدم في الأعراف. أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: الهدي في الكلام (الحديث رقم: 4839).

تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف قال الله تعالى: حديث ضيف إبراهيم المكرمين لأنه مصدر في أصله تقول خصمه خصماً كما تقول ضافه ضيفاً.

فإن قُلْتُ: هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام نلك؟ **قُلْتُ:** معنى خصمان فريقان خصمان واللليل عليه قراءة من قرأ خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: ﴿هَذَا خصمان اختلفوا في ربهم﴾ (2).

فإن قُلْتُ: فما تصنع بقوله إن هذا أخي وهو دليل على اثنين؟ **قُلْتُ:** هذا قول البعض المراد بقوله بعضاً على بعض.

فإن قُلْتُ: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان! **قُلْتُ:** معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصبحها آخرون.

فإن قُلْتُ: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله نبأ الخصم وخصمان؟ **قُلْتُ:** لما كان صعب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

فإن قُلْتُ: بم انتصب ﴿إِنَّ﴾! **قُلْتُ:** لا يخلو إما أن ينتصب باتاك أو بالنبا، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه باتاك لأن إتيان النبا رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبا لأن النبا الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبا القصة في نفسها لم يكن ناصباً بغيري أن ينتصب بمحذوف وتقديره، وهل أتاك نبا تحاكم الخصم ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وأما إذ الثانية فببدل من الأولى ﴿تسوروا للمحراب﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته روي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبنا أن يدخلنا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الخرس فتسوروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاتَّخَذُوا إِلَيْنَا أَلْحِقًا وَلَا نُحِيطُ بِأَعْرَابِنَا إِلَّا سَوَاءَ الْمُرْتَابِ (١٣).

﴿ففرغ منهم﴾ قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزاً زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخواص أموره ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبيحهم، فجازاه في غير يوم القضاء ففرغ منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتكره من يدخل عليه ﴿خصمان﴾ خير مبتدأ محذوف أي نحن خصمان ﴿ولا تشطط﴾ ولا تجر،

حمامة من ذهب فمد يده لياخذها لابن له صغير فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت في كرة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنهما وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن سوريا وهو صاحب بعث البلقاء، أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفتاء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحريث الأعور أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء (1) وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلافها وأعظم بأن يقال غير نلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال: عمر لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبة إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قُلْتُ: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ **قُلْتُ:** لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتمامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ من أن يباليه به صريحاً مع مراعاة حُسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكراً أن يعرض لها بإنكارها عليه ولا يصرح، وإن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية فاستسمح حال نفسه وتلك أجزر له لأنه ينصب نلك مثلاً لحاله ومقياساً لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قُلْتُ: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ **قُلْتُ:** ليحكم بما حكم به من قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعترفاً على نفسه بظلمه.

﴿وَلَوْلَا أَنَّا نُبَوِّئُ الْخَاسِمِينَ إِذْ سُورُوا إِلَى الْحَرَابِ﴾ (١٤).

﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع، ولا

(2) سورة الحج، الآية: 19.

(1) لم يخرج الزيلعي.

يخبروا عن انفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قُلْتُ: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها في انفسهم وكانوا في صورة الاناسي كما تقول في تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سيد ولا ليد وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاة وأربعون فخطاها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعا.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعجة أنثى! قُلْتُ: يقال لك امرأة أنثى للحسنة الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتنبيها الا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله: فتور القيام قطع الكلام وقوله: تمشي رويداً تكاد تتغرف.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكِ إِنَّكِ بِإِمْبِئٍ وَإِنَّ كِبِيرًا مِّنَ الظُّلَمَاءِ لَبِيَّ بِسُؤَالِهِمْ عَلَى بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ مَأْمُورًا وَيَقُولُوا الصَّالِحِينَ وَلَقِيلُ مَا هُمْ وَكَانَ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَّهُ فَأَسْتَفْعِرُ رَبِّي وَحَرَّ رَاكِمًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَمَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾.

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: من دعاء الخير وقد ضمن معنى الإضافة فعدي تعديتها كانه قيل: بإضافة ﴿نعجتك﴾ إلى نعالجه﴾ على وجه السؤال والطلب.

فإن قُلْتُ: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟ قُلْتُ: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ويروى أنه قال: أنا أريد أن أخذها منه وأكمل نعالجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحداً يعرف ما وقع فيه ﴿الخطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة والخليطة والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين لا شيء

وقرى: ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق، وقرى: ﴿ولا تشطط﴾ ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق و﴿سواء للصراط﴾ وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

إِنَّ هَذَا أَيْ لَمْ يَنْحَ وَيَمْرُؤٌ نَجْمٌ وَبِي نَجْمٌ وَجِدَّةٌ فَقَالَ أَكَلَيْتَابًا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾.

﴿أخي﴾ بدل من هذا أو خبر لأن المراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الخطاء﴾⁽¹⁾ وكل واحدة من هذه الأخوات تتلى بحق مانع من الاعداء والظلم، وقرى: تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطح ونطع ولقوة ولقوة ﴿أكلنيها﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكلها كما أكل ما تحت يدي ﴿وعزني﴾ وغلبني يقال عزه تعززه قال:

قطاة عزها شرك نباتت تجانبه وقد علق الجناح يريد جاءني بحجاج لم أقدر أن أورده عليه ما أرد به وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها بوني، وقرى: وعازني من المعازة وهي المغالبة وقرأ أبو حيوة وعزني بتخفيف الزاي طلباً للحنفة وهو تخفيف غريب وكانه قاسه على نحو ظلت ومست.

فإن قُلْتُ: ما معنى نكر النعاج! قُلْتُ: كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما نكرنا وللتنبية على أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمح الإفصاح به وللمستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بمرمته ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوربا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة وخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تنمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراد على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والليل عليه قوله وإن كثيراً من الخطاء وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بنكر النعجة.

فإن قُلْتُ: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرت بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم؛ قُلْتُ: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله:

يا شاة ما قنص لمن حلت له فرميت غفلة عينه عن شاته وشبهها بالنعجة من قال كنعاج الملا تعسفن رملأ لولا أن الخطاء تاباه إلا أن يضرب داود الخطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قُلْتُ: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن

عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة ثلاث شياه.

فإن قُلْتُ: فهذه الخلطة ما تقول فيها! قُلْتُ: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه.

فإن قُلْتُ: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في تلك المقام؟ قُلْتُ: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إثبات عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقتل وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأن له في أكثر الخلطاء أسوة وقرئ ليبغى بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحنفها كقوله: اضرب عنك الهموم طارقها، وهو جواب قسم محذوف وليبغى بفتح الياء اكتفاء منها بالكسرة وما في ﴿وقليل ما هم﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن ﴿أثما فتناه﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرئ فتناه بالتشديد للمبالغة وأفتناه من قوله: لئن فتننتي لهي بالأمس أفتنت وفتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين، وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود وعن الحسن لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبيه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راکعاً أي مصلياً لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة.

﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليله لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ولا يرقا معه حتى نبت العشب من نعمة إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه مع وجهه نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له أيشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزبيغ من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها وقيل: إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهاجر والسراي والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فزع لخلولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان نذب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته.

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾.

﴿خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ومنه قولهم خلفاء الله في أرضه أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي بحكم الله تعالى إذا كنت خليفة ﴿ولا تتبع﴾ هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فيضلك﴾ الهوى فيكون سبباً لضلالك ﴿عن سبيل الله﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعها التي شرعها وأوحى بها ﴿ويوم الحساب﴾ متعلق بنسوا أي بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٦٧﴾.

﴿باطلاً﴾ خلقاً باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة أو مبطلين عابثين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعبين﴾⁽¹⁾ ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾⁽²⁾. وتقديره نوي باطل أو عبثاً فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنياً موضع المصدر وهو صفة أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناهما نفوساً أودعناها العقل والتمييز ومنحناها بالتمكين وأزحنا عليها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿وذلك﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قُلْتُ: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بطل قولهم: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾⁽³⁾ فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكم! قُلْتُ: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جرده

(3) سورة لقمان، الآية: 25.

(1) سورة المخان، الآية: 38.

(2) سورة المخان، الآية: 39.

لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخالص وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جريها⁽²⁾. وروي أنّ سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العملاقة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشى وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لماً فاته فاستردّها وعقرها مقرّباً لله وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل: لما عقرها أبىله الله خيرًا منها وهي الريح تجري بأمره.

فَقَالَ إِنَّ أَحَبَّ حُبِّ الْخَيْرِ عَنِ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ
(٣٧)

فإن قُلْتُ: ما معنى: «أحببت حب للخير عن نكر ربي»! قُلْتُ: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بمن كأنه قيل: أنبت حب الخير عن نكر ربي أو جعلت حب الخير مجزيًا أو مغنيًا عن نكر ربي ونكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيين أن أحببت بمعنى لزمتم من قوله مثل بغير السوء إذا أحبا وليس بذاك والخير المال كقوله إن ترك خيرًا، وقوله: «وإنه لحب الخير لشديد» والمال الخيل التي شغلته أو سمي الخيل خيرًا لأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»⁽³⁾ وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير»⁽⁴⁾. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستقون من السابق، فقال رسول الله ﷺ فقال له الرجل أرتب الخيل فقال وأنا أرتب الخير⁽⁵⁾، والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك أو المخبة بحجابهما والذي دل على أن الضمير للشمس مرور نكر العشى ولا بد للمضمر من جري نكر أو دليل نكر وقيل: الضمير للصفان أي حتى توارت بحجاب الليل يعني: الظلام ومن يدع التفسير أن الحجاب جبل نون قاف بمسيرة سنة تقرب الشمس من ورائه.

رُودًا عَلَى طَقِينٍ مَسْنَا بِالْشَّرْقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٨)

فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقًا كلاً إقرار.

أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمَسِيئِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَالْمُؤْمِنِينَ (٣٨)

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى: الاستفهام فيها الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِزْكًا كَبِيرًا يَنْزِيلًا مِنْ رَبِّكَ وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٣٩)

وقرئ: ﴿مباركاً﴾ وليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب وتدبر الآيات للتفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التاويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة لأن من اقتنع بظواهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لاكثر الله في الناس مثل هؤلاء اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعدنا من القراء المتكبرين.

وَهَمَّكَ لِذَاوُدَ سَبْتَنُ نَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٠)

وقرئ: ﴿نعم العبد﴾ على الأصل والمخصوص بالمدح محذوف، وعلل كونه ممنوحاً بكونه أوَّاباً رجاعاً إليه بالتوبة أو مسبحاً مؤوباً للتسبيح مرجعاً له لأن كل مؤوب أوَّاب. إذ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالرَّبِّيِّ الْمَنِينَتِ لِيَأِيَّاهُ (٤١)

والصافن الذي في قوله ألف الصفون فما يزال كأنه، مما يقوم على الثلاث كسيرا وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن، فالذي يجمع بين يديه وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفوناً فليتبوا مقعده من النار»⁽¹⁾ أي واقفين كما خدم الجبابرة.

فإن قُلْتُ: ما معنى وصفها بالصفون! قُلْتُ: الصفون

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).
(2) قال: الصفون أن يقف على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمتخيم والصفان الذي يجمع بين يديه. قال: وصفها بذلك؛ لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخالص، أو وصفها ليجمع لها للوصفين المحمودين جارية واقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمأنينة؛ لأنَّ

(1) ذلك من لوازم للصفون غالباً.
(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير (الحديث: 2849)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الحديث: (96/1871).
(3) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي: 3/190.
(4) قال الزيلعي: أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب: 3/191.

وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً وكانت له أم ولد يقال لها: أمينة إذا نخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس وأسمه صخر على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فانكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عند ما عبد الوثن في بيته فانكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعه سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنك والخاتم لا يقر في يبك فتب إلى الله عز وجل ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عبادته حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع الا ترى إلى قوله من محاريب وتماثيل وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن ياتن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه وقوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه تبولاً ظاهراً.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْئُتُنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤُوفُ (٢٤)

قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ﴿لَا يَنْبَغِي﴾ لا يتسهل ولا يكون، ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ لوني.

فإن قُلْتُ: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره! قُلْتُ: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً

﴿فطفق مسكاً﴾ فجعل يمسح مسكاً أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقيها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في القاب الزحاف في العروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف وقيل مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله ردوها علي! قُلْتُ: بمحذوف تقديره قال: ردوها علي فاضمر وأضمر ما هو جواب له كان قائلاً قال فماذا قال سليمان لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بامر الدنيا حتى توفته الصلاة عن وقتها، وقرئ بالسؤوق بهمز الواو لضممتها كما في أنور ونظيره الغور في مصدر غارت الشمس وأما من قرأ بالسؤوق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل مؤسى ونظير ساق وسوق أسد وأسد، وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لا من الإلباس قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة فسيبنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغنوه في السحابة فما راعه إلا أن القي على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه، وروي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». ولم يقل إن شاء الله قطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»⁽¹⁾. فلنك قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٢٤)

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يرى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته⁽²⁾ حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أتاه بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ ندمها حزناً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغنو إليها وتروح مع ولانداها يسجدن له كعباتهن في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة

(2) قال الزيلعي: نكره ابن كثير في تفسيره، وقال: إسناده قوي 3/192.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لدواد سليمان...﴾ (الحديث: 3424)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الاستثناء الحديث: (25 - 1654).

غل يدا مطلقها وأرق رقية معتقها
وقال حبيب: إنَّ العطاء إيسار وتبعه من قال:
ومن وجد الإحسان قيِّداً تقيِّداً

وفرقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه
كوعده وأوعده.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتَرُوا أَنْ تَسْبَحُوا بِحَسَابِ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُكْلٌ وَرُحْنٌ

مَنْبَأٌ ﴿٣٩﴾

أي: ﴿هذا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة
﴿عطاؤنا﴾ بغير حساب يعني: جمًّا كثيرًا لا يكاد يقدر
على حسبه وحصره ﴿فامنن﴾ من المنة وهي العطاء أي
فاعط منه ما شئت ﴿أو أمسك﴾ مفوضًا إليك التصرف فيه
وفي قراءة ابن مسعود هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير
حساب أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من
الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير
حساب أي لا حساب عليك في ذلك.

وَأَذَكَّرَ عِبَادًا أُكْرِبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِسُنِيِّ السَّيِّئِينَ يُصِيبُ وَعَذَابٌ

﴿٤١﴾

﴿أيوب﴾ عطف بيان و﴿إذ﴾ بدل اشتمال منه ﴿التي
مسنى﴾ باني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو
لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ نصب بضم
النون وفتحها مع سكون الصاد ويفتحهما وضمهما
فالنصب والنصب كالرشد والرشد والنصب على أصل
المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب
والمشقة، والعذاب الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه
من أنواع الوصب وقيل الضر في البدن والعذاب في ذهاب
الأهل والمال.

فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلمه الله
على أنبيائه ليقضي من اتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر
على ذلك لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرَّر في
القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب! قلت: لما
كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما
مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى
الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه
فاعله ولا يقدر عليه إلا هو وقيل: أراد ما كان يوسوس به
إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء وبغريه على
الكرامة، والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك
بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.
وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم
فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان إنَّ الله لا يبتلي الأنبياء
والصالحين وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على
ظالم فلم يغثه وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر
فداهنه ولم يغزه وقيل: أعجب بكثرة ماله.

أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

﴿أركض برجلك﴾ حكاية ما أجيب به أيوب أي اضرب

لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه
ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد
الإعجاز ليكون ذلك ليلًا على نبوته قاهرًا للمبعوث إليهم
وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات فذلك معنى قوله
لا ينبغي لأحد من بعدي وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن
يعطي مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت
الملائكة: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك وقيل: ملكًا لا أسلبه ولا يقوم
غيري فيه مقامي كما سلبته مرة وأقيم مقامي غيري،
ويجوز أن يقال علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك
العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره
وأوجب الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه
فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه
لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجب الحكمة استيهابه فأمره
أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله، الصفة التي
علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده نون سائر عباد
أو أراد أن يقول ملكًا عظيمًا فقال: لا ينبغي لأحد من بعدي
ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما
ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك
ولكنك تريد تعظيم ما عنده وعن الحجاج أنه قيل له: إنك
حسود، فقال: لأحسد مني من قال هب لي ملكًا لا ينبغي
لأحد من بعدي وهذا من جرأته على الله وشيظنته، كما
حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته
فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وأطلق طاعتنا فقال:
﴿وأولي الأمر منكم﴾.

مَحْرَجًا لَهُ الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّنَا جَبَّتْ سَابِغٌ ﴿٤٣﴾

قرئ: الريح والرياح ﴿وخاء﴾ لينة طيبة لا تززع
وقيل طيبة له لا تمتنع عليه ﴿حيث أصاب﴾ حيث قصد
وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ
الجواب وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه
عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه
طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله بك خيرًا.

وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاسٍ ﴿٤٧﴾

﴿والشياطين﴾ عطف على الريح ﴿كل بناء﴾ بدل من
الشياطين.

وَأَخْرَجَ مُطْرَبِينَ فِي الْأَصْحَادِ ﴿٤٨﴾

﴿وأخرين﴾ عطف على كل داخل في حكم البذل وهو
بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الابنية
ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وهو أوَّل من استخراج
الدر من البحر وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع
بعض في القيود والسلاسل للتأنيب والكف عن الفساد
وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في
الجوامع والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنع
عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك
ومن جفاك فقد أطلقك ومنه قول القائل:

امرته إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان، ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهيني ما ملكت يميني ولم أكل إلا ومعني يتيم ولم أبت شبعا ولا كاسياً ومعني جائع، أو عريان فكشف الله عنه.

وَأَذْكُرُ عِبْدًا إِتْرَاهِمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعبادنا ومن قرأ عبدا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف نزيته على عبدا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحق، لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جنماً لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يريد أولي الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار نوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرين على أعمال جوارحهم والمسلوبين العقول الذين لا استبصار بهم وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في عين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما وقرئ أولى الأيدي على جمع الجمع، وفي قراءة ابن مسعود أولى الأيدى على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيدي من التأييد قلق غير متمكن.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿أخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بنكري الدار شهادة لنكري الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بما خلص من نكري الدار على أنهم لا يشوبون نكري الدار بهم آخر إنما همهم نكري الدار لا غير ومعنى نكري الدار نكراهم الآخرة دائباً ونسيانهم إليها نكر الدنيا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء وبينهم وقيل: نكري الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى أخلصناهم بخالصة! قُلْتَ: معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبيانهم من أهلها أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها وتعهد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم.

وَأَيُّهُمْ عِدَّةٌ لِمَن تَصِفَتَنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَدَا الْكِنَانِ وَكُلَّ مَنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم

برجلك الأرض وعن قتادة هي أرض الجابية فضربها فنبتت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهره وتنقلب ما بك قلبه وقيل: نبتت له عينان فاغتسل من إحدهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإنان الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبتت عين حارّة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبتت باردة فشرّب منها.

رَوَيْتَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُنَّ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٩﴾

﴿رحمة منا وذكرى﴾ مفعول لهما والمعنى أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولي الألباب لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم.

وَعَدُّ يَدِكَ مِثْلًا فَأُشْرِبَ بِهِ، وَلَا تَحْتُ إِذَا وَجَدْتَهُ صَابِرًا يَمَّ أَبَدًا إِنَّهُ أَوْلَىٰ ﴿٥٠﴾

﴿وخذ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وعن ابن عباس قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج قد خبث بأمة فقال: «خذوا عثقالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة»^(١). ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت نؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأرد عليك مالك وأولانكم فهمت بذلك فادركتها العصمة فنكرت ذلك له فحلف وقيل: أوهما الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجنناه صابراً﴾ علمناه صابراً.

فإن قُلْتَ: كيف وجده صابراً وقد شكأ إليه ما به واسترحمه؟

قُلْتُ: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعاً ولقد قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها، فإذا صح أن يسمى صابراً مع تمنى العافية وطلب الشفاء فليسم صابراً مع اللجا إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ

غواش شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرشه النائم.
هَذَا قَلْبُهُمْ جِيبٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾

أي هذا حميم فليذوقوه أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتداء فقال هو: ﴿حميم وغساق﴾، أو هذا فليذوقوه بمنزلة وليأي فارهبون أي ليدوقوا هذا فليذوقوه والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين إذا سال معها وقيل: الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وعن الحسن رضي الله عنه الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا الله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة﴾.

وَأَخَّرَ مِنْ سَكْوَةِ آتِجٍ ﴿٥٨﴾

﴿وآخر﴾ ومنوقات آخر من شكل هذا المنوق من مثله في الشدة والفظاعة ﴿ازواج﴾ أجناس وقرئ وأخر أي وعذاب آخر أو منوق آخر وازواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضرورياً أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير.

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ يَوْمَ يَسْأَلُونَ أَتَّارًا ﴿٥٩﴾

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقترام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وهذه حكاية كلام الطاعين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مرحباً بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعو له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً أو رحبت بلاك رحباً ثم تدخل عليه في دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عليهم ونحوه قوله تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت آختها﴾ وقيل: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ولا مرحباً بهم إنهم صالحوا النار كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

أَوَّلًا بَلْ أَشْرَ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَمَنْ أَتَّارُكُمْ ﴿٦٠﴾

﴿قالوا﴾ أي الاتباع ﴿بل انتم لا مرحباً بكم﴾ يريدون الدعاء الذي دعوت به علينا انتم أحق به وعلوا ذلك بقولهم ﴿انتم قدمتموه لنا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم.

فإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَعْنَى تَقْدِيمِهِمُ الْعَذَابَ لَهُمْ! قُلْتُمْ: الْمَقْدَمُ هُوَ عَمَلُ السُّوءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾^(١) لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه

و﴿الأخيار﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كالأموات في جمع ميت أو ميت ﴿واليسع﴾ كان حرف التعريف دخل على يسع، وقرئ: ﴿واليسع﴾ كان حرف التعريف دخل على ليسع فيعمل من اللسع، والتنوين في ﴿وكل﴾ عوض من المضاف إليه معناه وكلهم من الأخيار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّيِّبِينَ لَصُنَّ مَنَابٍ ﴿٦١﴾

﴿هذا نكر﴾ أي هذا نوع من النكر وهو القرآن لما أجرى نكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن ينكر على عقبه باباً آخر وهو نكر الجنة وأهلها قال: هذا نكر، ثم قال ﴿وإن للمتقين﴾ كما يقول: الجاحظ في كتبه فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه أنه لما أتم نكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بنكر أهل النار قال هذا وإن للطاعين وقيل: معناه هذا شرف ونكر جميل ينكرون به أبداً، وعن ابن عباس رضي الله عنه هذا نكر من مضى من الأنبياء.

جَنَّتْ عَدْنٌ مُنْتَمَةٌ لِمِ الْأَرْبَابِ ﴿٦٢﴾ مُتَّكِبِينَ فِيهَا يَتَعَوَّنَ فِيهَا بِتَنَكُّهَاتٍ كَكَيْفٍ وَتَرَابٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْدَمُ قَصِيرَتُ الْأَرْبَابِ ﴿٦٤﴾

﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله جنات عدن التي وعد الرحمن وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مأب و﴿مفتحة﴾ حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي ﴿مفتحة﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال وقرئ: ﴿جنات عدن مفتحة﴾ بالرفع على أن ﴿جنات عدن﴾ مبتدأ و﴿مفتحة﴾ خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿جنات عدن﴾ هي مفتحة لهم كان اللدات سمين أتراباً لأن التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الأقران أثبت وقيل: هن أتراب لأزواجهن أسنانهن كاسنانهم.

هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِئَرَى الْحَسَابِ ﴿٦٥﴾

قرئ: ﴿يوعدون﴾ بالياء والياء ﴿ليوم الحساب﴾ لأجل يوم الحساب كما تقول هذا ما تلخرونه ليوم الحساب أي ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَمْ يَنْتَهِ مِنْ تَعَادٍ ﴿٦٦﴾ هَذَا وَرَأْسٌ لِللَّيْلِ لَشَرِّ مَنَابٍ ﴿٦٧﴾

﴿هذا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما نكر.

جَهَنَّمَ بَصُورَتَا يَكْفُرُ الْيَهُادُ ﴿٦٨﴾

﴿فبئس المهاد﴾ كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم

قريش كآبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وصهيب وبلال وأشباههم، وقرئ سخرياً بالضم والكسر.

إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿إن ذلك﴾ أي الذي حكينا عنهم ﴿لحق﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو ﴿بتخاصم أهل النار﴾، وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قلت: لم سمى ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأن قول الرؤساء لا مرحباً بهم وقول: اتباعهم بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الَّذِي أَعْتَدَ النَّهَارَ ﴿١٥﴾

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ما أنا إلا رسول ﴿منذر﴾ أنذركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم إن بين الحق وتوحيد الله وأن يعتقد أن إله إلا الله ﴿الواحد﴾ بلا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ لكل شيء.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا أَلَمْ تَرَ ﴿١٦﴾

وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو ﴿العزیز﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك ﴿الغفار﴾ لذنوب من التجأ إليه، أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفة فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أي هذا الذي أنباتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له نبأ عظيم.

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾

لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ إِلَّا الْكَلِمَاتُ إِذْ يُخَوِّصُونَ ﴿١٩﴾

ثم احتج لصحة نبوته بأن ما ينبي به عن الملائكة الأعلى واختصاصهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم، وقرأة الكتب فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله.

إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا كَمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾

﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير﴾ أي لأنما أنا نذير، ومعناه ما يوحى إلي إلا للإنذار فحفز اللام وانتصب بإفشاء الفعل الفعل إليه ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إلي إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا إفراط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إلي غير ذلك وقرئ إنما بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقول

بأغواثهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤسائهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فإن قلت: فالذي جعل قوله لا مرحباً بهم من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بل أنتم لا مرحباً بكم والمخاطبون أعني رؤسائهم لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قلت: كأنه قيل هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغواثكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوي فارتكبه فليل للمزينين أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم فقال المزين لهم للمزينين بل أنتم الألى بالخزي منا فلو لا أنتم لم ترتكب ذلك.

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَلَيْنَا مَصِيفًا ﴿٢١﴾

﴿قالوا﴾ هم الاتباع أيضاً ﴿فرده عذاباً ضعفاً﴾ أي مضاعفاً ومعناه نا ضعف ونحوه قوله تعالى: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً﴾ وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل: ﴿ربنا آتاهم ضعفين من العذاب﴾ وجاء في التفسير عذاباً ضعفاً حيات واقاعي.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّمُ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٢٢﴾

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين ﴿رجالاً﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم ﴿من الأشرار﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراً.

أَعْتَدْنَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٢٣﴾

﴿أتخذناهم سخرياً﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً مثل قوله كنا نعددهم من الأشرار وبهزمة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخرار منهم وقوله ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله: ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فإنا نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل بأخذناهم سخرياً إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخرار منهم أم الأزراء بهم والتحقيق أن أبصارنا كانت تعلق عنهم وقتتمهم على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم وإما أن تكون منقطعة بعد مضي أخذناهم سخرياً على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها لإبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقتر همزة الاستفهام محنوقة فيمن قرأ بغير همزته لأن أم تدل عليها فلا تفترق القراءتان إثبات همزة الاستفهام وحذفها وقيل الضمير في وقالوا لصناديد

قُلْتُ: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلًا وكان من باب الخصومة قُلْتُ: هذا يحقق أن ما تقدّم من قوله لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار من قول المتكبرين الكفار وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾⁽¹⁾ من قول الاتباع فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم خلافاً لمن قال إن الأوّل من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الاتباع فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين الكافرين أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافرًا لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأياها شئت، ويجوز أن يراد وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قَالَ كَيْلَيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾.

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله ﴿خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ قُلْتُ: قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليمين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل: في عمل القلب هو مما عملت يداك وحتى قيل: ممن لا يدي له يداك، أو كتنا وفوك نفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَا﴾⁽²⁾ ﴿وَلَمَّا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ قُلْتُ: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لأنّه واستنكف منه أنه سجد لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزلّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه وأقربهم منه زلّفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوا قدام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرياً بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو نونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي لا شك في كونه مخلوقاً امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة، فنذكر له ما

لكم إنما أنا نذير مبين ولا أدعي شيئاً آخر وقيل: النبا العظيم قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس القرآن وعن الحسن يوم القيامة.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق إذ يختصمون! قُلْتُ: بمحنوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصامهم و﴿إذ قال﴾ يدل من إذ يختصمون.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالملا الأعلى! قُلْتُ: أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

فإن قُلْتُ: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم: قالوا له فأنت بين امرين إما أن تقول الملا الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملا الأعلى قُلْتُ: كانت مقابلة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملا الأعلى، والمراد بالاختصام التقاول على ما سبق.

إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾.

فإن قُلْتُ: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إني خالق بشرًا﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ قُلْتُ: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاها اقتصر على الاسم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿فإذا سويته﴾ فإذا اتممت خلقه وعدلته ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فقعوا﴾ فخرّوا كل للإحاطة واجمعون للاجتماع فاقادوا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

فإن قُلْتُ: كيف ساغ السجود لغير الله؟ قُلْتُ: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يبابه العقل إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينبى عنه.

فإن قُلْتُ: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟

سَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾.

(3) سورة ص، الآية: 75.

(1) سورة ص، الآية: 60.

(2) سورة يس، الآية: 71.

فإن قُلْتُ: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قُلْتُ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

قَالَ فِعْرِيكَ لِأَعْرَبِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٧﴾
﴿فيعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٨﴾

قريء: ﴿فالحق﴾ الحق منصوبين على أن الأول مقسم به كالله في أن عليك الله أن تبايعا وجوابه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾

﴿لاملائن﴾ والحق أقول اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق والمراد بالحق إما اسمه عزّ وعلا الذي في قوله إن الله هو الحق المبين أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر كقوله لعمرك أي فالحق قسمي لاملائن والحق أقول أي أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين على أن الأول مقسم به قد أضر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلن والحق أقول أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه: التوكيد والتشديد وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضاً وهو وجه نقيق حسن، وقريء برفع الأول وجره مع نصب الثاني وتخريجه على ما نكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من نزية آدم.

فإن قُلْتُ: ﴿اجمعين﴾ تأكيد لماذا؟ قُلْتُ: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه: لاملائن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً ولأملأنها من أكتيافين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٩١﴾

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿وما أنا من المتكلمين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً، ولا مدعياً ما ليس عندي حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿إن هو إلا نكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للتقليل أوحى إلي فانا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوّه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم»⁽²⁾.

تركه من السجود مع نكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتباراً لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه يريد هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه أني خلقتك بيدي، فانا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه من إنعام عليه بالكرمة السنوية وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له وقيل: معنى لما خلقت بيدي لما خلقت بغير واسطة، وقريء بيدي كما قريء بمصرخي، وقريء بيدي على التوحيد ﴿من العالمين﴾ ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالين حيث.

﴿قال أنا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ومعنى الهمة التقرير وقريء استكبرت بحذف حرف الاستفهام لأن أم تدل عليه أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو نوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتاكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خلقتني من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قَالَ فَاسْرَجْ مِثْلَ رَجِيمٍ ﴿٩٧﴾

﴿منها﴾ من الجنة وقيل: من السموات وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفخر بخلقته بغير الله خلقتة فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً، والرجيم المرجوم ومعناه المطرود كما قيل له المسحور والملعون لأن من طرد رمي بالحجارة على أثره والرجم الرمي بالحجارة، أو لأن الشياطين يرحمون بالشهب.

فإن قُلْتُ: قوله:

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَنَعْتَجُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٩٨﴾

﴿لنعنتي إلى يوم الدين﴾ كان لعنة إبليس غايتها يرم الدين ثم تنقطع قُلْتُ: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فإن مؤن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾⁽¹⁾ ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة فكانها انقطعت.

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٩٩﴾
إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ ﴿١٠٠﴾

(1) سورة الأعراف، الآية: 44.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حفظ اللسان، فصل: في فضل السكوت عما لا يعنيه (الحديث: 5064).

وَتَعْلَمَنَّ يَا مُحَمَّدٌ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

اتخذوا﴾ يحتمل المتخزين، وهم الكفرة والمتخزين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في ﴿اتخذوا﴾ على الأول راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر نكرهم لكونه مفهوماً والراجع إلى الذين محنوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قُلْتَ: فالخبر ما هو؟ قُلْتُ: هو على الأول إما ﴿إن الله يحكم بينهم﴾، أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿ما نعبدهم﴾ وعلى الثاني أن الله يحكم بينهم.

فإن قُلْتَ: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمر؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أن المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبي ما نعبدكم إلا لتقريبنا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، وقرئ ﴿نعبدهم﴾ بضم النون اتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتثنية في عذاب أركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من نون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في ﴿بينهم﴾ عائذ إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكنوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من نون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله:

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سَيِّئَةٌ مِّنْهُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْوَلَدَ الْفَهَّارَ ﴿٨٩﴾

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق مما يشاء﴾، يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصمهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغرکم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاداً جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه من صحة خبره، وأنه الحق والصدق وفيه تهديد عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرَّ على ذنب صغير أو كبير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر مكية

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محنوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محنوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزمر.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالكتاب قُلْتُ: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾

﴿مخلصاً له الدين﴾ محضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام كقوله تعالى: ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ حتى يطابق قوله:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَىٰ مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَذَّابٌ ﴿٣﴾

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصاً حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين ألا لله الدين الخالص أي هو الذي يجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص هادة لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام ﴿والسنيين

(1) ذكره الثعلبي، وابن مروي، والوحيد في التفسير: الزيلعي /3

صُرُورٌ ﴿٦﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات^(١) التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائق للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أنخل في كونها آية واجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً، ومزية وتراخيا عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت، ثم شفعا الله بزواج وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وانزل لكم﴾، وقضى لكم وقسم لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول^(٢) من السماء حيث كتب في اللوح كل كائن يكون، وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكانه أنزلها وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها ﴿ثمانيه أزواج﴾ تكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز والزواج اسم لواحد معه آخر فإذا انفرد فهو فرد ووتر قال الله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾^(٣) ﴿خلقاً من بعد خلق﴾ حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف، والظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن ﴿نلكم﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿الله ربكم﴾ ﴿فأنى تصرفون﴾، فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَيْكُمْ وَلَا يَرْحَمُ لِيَبَاقُوا الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْحَمْكُمْ وَلَا يَزِدْكُمْ زَاوِدَةً وَيَذَرُ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾.

﴿فإن الله غني عنكم﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم وفلاحكم، فإن ما نكره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصلاحكم لا لأن منفعة ترجع إليه لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة، ولقد

والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ثم تمايتم في جهلكم وسفهمك فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالبين في الكفر، ثم قال ﴿سبحانه﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، يدل على ذلك بما يتفاهيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد وهو معنى قوله أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وقهار غلاب لكل شيء ومن الأشياء ألهمت فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾.

ثم دلّ بخلق السموات والأرض وتكوير كل واحد من الملوك على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى ويث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب، والتكوير اللف واللفي يقال كار العمامة على رأسه وكورها وفيه أوجه منها أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب:

تلوى الثنايا بأحقيها حواشيه لي الملاء بابواب التفاريح

ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبّه في تغييره إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأَبصار، ومنها أن هذا يكر على هذا كروياً متتابعاً فشبّه ذلك بتتابع أكار العمامة بعضها على إثر بعض ﴿ألا هو العزيز﴾ الغالب القادر على عقاب المصريين ﴿الغفار﴾ لذنوب التائبين، أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فسمى الحلم عنهم مغفرة.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآوَّلَ لَكُمْ مِنْ أَلْبَانٍ نَسِيَةً أَزْوَاجٍ مُّخْتَلَفَةً فِي بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلْمَتٍ تَلَدَتْ دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْ

(1) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنثى وقعت بين خلق الذرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها =

(2) قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز أسنمة الأبال في سحابة.

(3) سورة القيامة، الآية: 39.

(1) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنثى وقعت بين خلق الذرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها =

يبعث على عكس ما أمر به هو نظيره في المعنى قوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ مَّاكَ آتِيًّا سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٤٦﴾.

قرئ ﴿أمن هو قانت﴾ بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال أم عليه ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره أمن هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جرى نكر الكافر قبله وقوله: بعده: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقيل: معناه: أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر أو هذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أفضل الصلاة طول القنوت⁽⁵⁾. وهو القيام فيها ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلّي قائماً ﴿ساجداً﴾ حال، وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفيتين، وقرئ ويحذر عذاب الآخرة، وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم وفيه ازراء عظيم بالذين يفتنون العلوم ثم لا يفتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالديانة فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو⁽⁶⁾ فقال: هذا تمن وإنما الرجاء قوله وتلا هذه الآية، قرئ: إنما ينكر بالإدغام.

تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام⁽¹⁾ الذي أريد به الخاص وما أراد إلا عبادة الذين عنانهم في قوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان يريد المعصومين كقوله تعالى: ﴿عِينَا يَشْرَبْ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾⁽²⁾ تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ يرضه بضم الهاء بوصل ويغير وصل ويسكونها ﴿خوله﴾ أعطاه قال أبو النجم:

أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم النرى من خول المخول وفي حقيقته وجهان أحدهما جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال، وخال مال إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة⁽³⁾ والثاني جعله يخول من خال يخول إذا اختال واقتخر وفي معناه قول العرب: إن الغني طويل النيل مياس.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ سُوءٌ دَعَا رِبِّهُ مُبِينًا إِلَيْهِ قُمْ إِذَا حَوْلَهُ يُنَمُّ مَتَّهُ نَبَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أُمَّةٍ نَارٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ما كان يدعو إليه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه وما بمعنى من كقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾⁽⁴⁾، وقرئ ليضل بفتح الباء وضمها بمعنى: أن نتيجة جعله الله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة قد تكون غرضاً في الفعل وقد تكون غير غرض وقوله ﴿تمتع بكفر﴾ من باب الخذلان والتخلية كأنه قيل: له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقا لا تؤمر به بعد ذلك وتؤمر بتركه مبالغة في خذلانه وتخليته وشانه لأنه لا مبالغة في الخذلان لأن أشد من أن

= الثواب والكرامة فيكون معنى الآية، والله أعلم: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه. ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً ومثل هذا يقدر في قوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من الكال والمغوبة.

(2) سورة الإنسان، الآية: 6.
(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخول لهم بالموعظة والعلم... (الحديث: 68)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: الاقتصاد بالموعظة الحديث: (82 / 2821).
(4) سورة الليل، الآية: 3.
(5) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 8/3).
ونكره السيوطي في «الدر المنثور» (306/1).
ونكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 19657).

(6) قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله فإن الحسن أراد أن التمام على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاءه خوفه كان متنعياً؛ لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاءه ولم يرد الحسن إنقاط هذا

(1) قال أحمد: إن المصير على هذا المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين ليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغائر العبارات، وبيع الزمان في صناعة البديع كيف نبا عن جادة الإجابة فهماً وأعار منادى الحذافة أنتم صماً اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى سني مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً؟! ليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضميه واستقبال الشرط لغة وعقلاً واستقر باتفاق الفريقتين أهل السنة وشيعة البديعة أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدّمة على وجود الشكر منهم، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزئاً وباللزام من ذلك عقلاً تقدّم المراد، وهو الشكر على الإرادة وهي: الرضا، ولغة تقدّم المشروط على الشرط والزمخشري أخص من قال إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل. وقد عبرت الآية عن الحرفين المتكويرين على أنه لا بد من تاويل يصح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلًا تحمين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من

﴿قل إنني أمرت﴾ بإخلاص الدين.
وَأَمَرْتُ لِأَنَّهُ أَكُونَ أَوَّلَ السَّالِئِينَ ﴿١٧﴾.

﴿وامرأت﴾ بذلك لأجل ﴿أن أكون أول المسلمين﴾ أي: مقدمهم وسابقتهم في الدنيا والآخرة والمعنى أن الإخلاص له السبق في الدين فمن أخلص كان سابقاً.

فإن قُلْتُ: كيف عطف امرت على امرت وهما واحد؟ قُلْتُ: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحجز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجهها الشيء وصفناه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثله في أردت لأن أفعول، ولا تزداد إلا مع أن خاصة نون الاسم الصريح كأنها زيتت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما عوض السين في أسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وأمرت أن أكون من المسلمين وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أكون أول من أسلم وفي معناه أوجه أن أكون أول من أسلم في زماني، ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعول ما أستحق به الأولوية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني أن الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكل شوب بلبيل العقل والوحي.

قُلْ لِلَّهِ كُفْرًا إِنَّ عَصِيَّتُ رَبِّي مَذَابٌ بَاطِلٌ ﴿١٧﴾.

فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه.
قُلْ اللَّهُ أَغْبَىٰ مَخْلَصًا لِّمَنْ يَرِي ﴿١٨﴾.

فإن قُلْتُ: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ قُلْتُ: ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص والثاني إخبار بأنه يختص الله وحده نون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة

قُلْ يٰٓرَبِّوَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّارْضُ ٱللَّهُ وِرْسَةً إِنَّهُۥ يَرْوِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٥﴾.

﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلمم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة غير مكتنته بالوصف وقد علقه السدي بحسنة ففسر الحسنة بالصحة والعافية.

فإن قُلْتُ: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر فما معنى تعليقه بحسنة، ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه؟ قُلْتُ: هو صفة لها إذا تأخر فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالمتعلق وإن لم يكن التعلق وصفاً ومعنى ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهُ وِرْسَةً﴾ أن لا عنر للمفرطين في الإحسان البتة حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلادهم كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز وتحولوا إلى بلاد آخر واقتنوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدانوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه كقوله تعالى: ﴿الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وقيل: هي أرض الجنة و﴿الصابرون﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم، وعلى غيرها من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير بغير حساب﴾ لا يحاسبون عليه وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرقاً، وهو تمثيل للتكثير وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يهتدي إليه حساب الحُساب ولا يُعرف وعن النبي ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيؤفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً»⁽¹⁾ قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾⁽²⁾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مَخْلَصًا لَهُۥ الدِّينَ ﴿١١﴾.

= كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى لقطاعة خسراتهم. فقال: استأنف الجملة وصنرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتاً وجوهاً ثلاثة من المبالغة أحدها تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان الثاني: بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت وهي الرحمة الواسعة والملكوت، وشبهه الثالث تقديم لاه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

(3) سورة الزمر، الآية: 11.

= من رحمة الله تعالى وحاشاه. وأما قرينة حال الزمخشري: فإنها تتم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحداً يجب خلوه في نار جهنم. ولا معنى لرجائه ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالترام إلى تنميه هذه النزعة وعمما قليل يقرع سمعه ما في آنباه هذه السورة.

(1) نكره الطبراني في معجمه.

(2) قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية، بقوله:

﴿فاعبوا ما شئتم من دونه﴾ فإن مقابله بعدم الحصر توجب =

حضور الموت مبشرين وحين يحشرون قال الله تعالى:
﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِيَمَانِهِمْ بِشْرَاكُمَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ (2) وأراد بعباده.

أَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧٨﴾

وأراد بعباده ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه﴾ الذين اجتنبوا واثابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم
أن يكونوا مع الاجتناب والإجابة على هذه الصفة فوضع
الظاهر موضع الضمير وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين
يميزون بين الحسن والاحسن والفاضل، والأفضل فإذا
اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح
والندب حراًصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً
ويدخل تحته المذاهب واختيار اثبتتها على السبك وأقرواها
عند السبر⁽³⁾ وأبينها دليلاً أو أمارة وأن لا تكون في مذهبه
كما قال القائل: ولا تكن مثل عير قديد فانقادا: يريد المقلد
وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل:
يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصص والعفو
والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ
تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ (4) ﴿وَأَنْ تَخْفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (5) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل
يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو
فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه ومن الوقفة من
يقف على فيشر عبادي ويبتدئ الذير يستمعون يرفعه على
الابتداء وخبره ﴿أولئك﴾ أصل الكلام أمن حق عليه كلمة
العذاب، فانت تنقذه جملة شرطية نخل عليها همزة الإنكار
والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على
محنوف يدل عليه الخطاب تقديره أنت مالك أمرهم.

أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنذِرُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿٧٩﴾

فمن حق عليه العذاب فانت تنقذه والهمزة الثانية هي
الأولى كرتت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من
في النار موضع الضمير فالآية على هذا جملة واحدة
وجه آخر وهو أن تكون الآية جملتين أفمن حق عليه
العذاب فانت تخلصه أفانت تنقذ من في النار وإنما جاز
حذف، فانت تخلصه لأن أفانت تنقذ يدل عليه نزل
استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة نخولهم النار حتى
نزل اجتهاد رسول الله ﷺ وكده نفسه في دعائهم إلى
الإيمان منزلة إنقاذهم من النار، وقوله أفانت تنقذ يفيد
أن الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده
لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ
الداخل في النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه

وأخره في الأوجل فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه
وليجاده وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه
قوله:

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ لِكَلِمَتَيْنِ الْذَيْنِ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٨٠﴾

﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ والمراد بهذا الأمر
الوارد على وجه التخبير المبالغة في الخذلان والتخليّة على
ما حققت فيه القول مرتين قل إن الكاملين في الخسران
الجامعين لوجوه وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم
لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها ﴿و﴾ خسروا ﴿أهليهم﴾
لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا
أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً
لا رجوع بعده إليهم وقبل وخسروهم لأنهم لم يدخلوا
مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة يعني: وخسروا
أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ولقد وصف
خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿ألا ذلك هو للخسران
المبين﴾ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه
ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته
بالمبين.

لَمْ يَنْ يَنْ قَرِيهِمْ ثُلُكٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ نَحْمِهِمْ ثُلُكٌ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ بِهِ
عِبَادَهُمْ يَكْفُرُونَ فَأَنْفَرُونَ ﴿٨١﴾

﴿ومن تحتهم﴾ أطباق من النار هي ﴿ظلال﴾ لآخرين
﴿ذلك﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿به عباده﴾،
ويخوفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يا عباد فاتقون﴾
ولا تعترضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى
ونصيحة بالغة، وقرئ: ﴿يا عباد﴾.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَبْدُوهَا وَأْتَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ بَيِّنَةٌ
عَبَادٌ ﴿٨٢﴾

﴿الطاغوت﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت
إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين أطلقت على
الشیطان أو الشياطين لكونها مصدرًا وفيها مبالغات وهي
التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء
مبالغة، فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك
المبسوط والقلب وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير
الشیطان والمراد بها ههنا الجمع، وقرئ الطواغيت ﴿أن
يعبدوها﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال ﴿لهم
البشرى﴾ هي البشار بالثواب كقوله تعالى: ﴿لهم البشرى
في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (1) الله عز وجل يبشرهم
بذلك في وحيه على السنة رسله وتتلقاهم الملائكة عند

(1) سورة يونس، الآية: 64.

(2) سورة الحديد، الآية: 12.

(3) قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من
المذاهب الربيثة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا =

= أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة البقرة، الآية: 271.

من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَكُمْ عُرْفًا مِّنْ قَوْمِهِمْ عُرْفًا مَّيِّنَةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ﴿٣٥﴾.

﴿عُرف من فوقها عُرف﴾ علالي بعضها فوق بعض.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿مبينة﴾! قُلْتُ: معناه والله أعلم أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ كما تجري من تحت المنازل من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لأنَّ قوله لهم: عُرف في معنى وعدمه الله ذلك.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَوجِبُ فَكَرَّهُ مُصْفًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣٦﴾.

﴿أنزل من السماء ماء﴾ هو المطر وقيل: كل ماء في الأرض، فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله ﴿فسلكه﴾ فأدخله ونظمه ﴿ينابيع في الأرض﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿مختلفاً لوانه﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها ﴿يهيج﴾ يتم جفافه عن الأصمعي لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن مثابته ويذهب ﴿حطاماً﴾ فتاتاً ودريناً ﴿إن في ذلك لذكراً﴾ لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم وأن ذلك كاشن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال ويجوز أن يكون مثلاً للعالم كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾⁽¹⁾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾⁽²⁾ وقرئ مصفراً.

أَمَّنْ سَخَّرَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهَرَّ عَلَى ثَوْرٍ مِّنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ قَالُوا مِّنْ دُونِهِم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلَيْكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾.

﴿أفمن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلفظ به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله هو لطفه وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله كيف انشرح الصدر قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل: يا رسول الله فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت⁽³⁾ وهو نظير قوله أمن هو قانت في حنف الخبر ﴿من نكر الله﴾ من أجل نكره أي إذا نكر الله عندهم أو آياته اشمازوا، وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى: فزادتهم رجساً إلى رجسهم وقرئ عن نكر الله.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قُلْتُ: إذا قلت

قسا قلبه من نكر الله فالمعنى ما نكرت من أن القسوة من أجل النكر وبسببه وإذا قلت عن نكر الله فالمعنى غلظ عن قبول النكر وجفا عنه ونظيره سقاها من العيمة أي من أجل عطشه وسقاها من العيمة إذا أرواه حتى أبعدته عن العطش، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له: حدثنا فنزلت. وإيقاع اسم الله مبتدأ، وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وإنه من عنده وإن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مياين لسان الأحاديث.

اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ اللَّذِيذِ كِنْيَا مُتَّشِبَهَا مَثَابِي تَفْشِيرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَنُونَ رِزْقَهُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِوَيْهِ، مَنْ يَكْفُرْ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾.

و ﴿كتاباً﴾ يدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿ومتشابهاً﴾ مطلق في مشابهة بعضه بعضاً فكان متداولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق وتناسب اللفاظ وتناسفها في التخير والإصابة وتجاوب نظم وتاليفه في الإعجاز والتبكيث ويجوز أن يكون ﴿مثاني﴾ بياناً لكونه متشابهاً لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى بمعنى: مررد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبأته وأحكامه وأوامره ونواهيته ووعده ووعيدته ومواعظه وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد⁽⁴⁾، ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعول من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثم أرجع البصر كرتين﴾ بمعنى كرتة بعد كرتة وكذلك لبك وسعديك وحنانيك.

فإن قُلْتُ: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قُلْتُ: إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفصيل الشيء هي جملة لا غير إلا ترك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وكذلك تقول: أقاليص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله كتاباً متشابهاً فصلاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك برمة أعشار وثوب أخلاق ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منتصباً على التمييز من متشابهاً كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل والمعنى متشابهة مثانيه.

فإن قُلْتُ: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قُلْتُ: النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً عن يده لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک: 311/4.

(4) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود: 405/1.

(1) سورة يونس، الآية: 24.

(2) سورة الكهف، الآية: 45.

فحذف الخبر⁽²⁾ كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدته ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يدها إلى عنقه فلا يتهايا له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه وقيل: المراد بالوجه الجملة وقيل: نزلت في أي جهل ﴿وقيل﴾ لهم: خزنة النار ﴿ذوقوا﴾ وبال ﴿ما كنتم تكسبون﴾.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَلْتَمِمْهُمُ الْمَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿من حيث لا يشعرون﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مامنهم.

فَأَذَانُكُمْ اللَّهُ لِلزَّيْرِ فِي الْمَيْرَةِ الدُّنْيَا وَلَمَّا الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

والخزي: الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء وما أشبه ذلك من نكال الله.

فَرَأَاهَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿قرأنا عربياً﴾ حال مؤكدة كقولك جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿غير ذي عوج﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف.

فإن قُلْتُ: فهلا قيل مستقيماً أو غير معوج! قُلْتُ: فيه فائدتان إحداهما نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: ولم يجعل له عوجاً والثانية أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان وقيل: المراد بالعوج الشك واللبس وأنشد:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكتوب
صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِينَ مَثَلًا لَحْمِدُ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

واضرب قومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف، وتنازع كل واحد منهم يدعي أنه عبدهم فهم يتجادبونه، ويتعارفونه في مهن شتى ومشادة وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سائر قد تشبعت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، وفي آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه فهمه واحد وقلبه مجتمع أي هذين العبيدين أحسن حالاً وأجمل

رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً⁽¹⁾ ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم اقتشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من حروف القشع، وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال اقتشعر جلده من الخوف وقف شعره، وهو مثل في شدة الخوف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل تصويراً لإفراط خشيتهم وأن يريد التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا نكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فإن قُلْتُ: ما وجه تعدية لأن بآلى؟ قُلْتُ: ضمن معنى فعل متعد بآلى كأنه قيل: سكنت أو اطمانت إلى نكر الله لينة غير متقبضة راجية غير خاشية.

فإن قُلْتُ: فلم اقتصر على نكر الله من غير نكر الرحمة؟ قُلْتُ: لأن أصل أمره الرحمة والرافة ورحمته هي سابقة غضبه فلاصالة رحمته إذا نكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤفاً رحيماً.

فإن قُلْتُ: لم نكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً؟ قُلْتُ: إذا نكرت الخشية التي محلها القلوب فقد نكرت القلوب فكانه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة فإذا نكروا الله ومبني أمره على الرافة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينة في جلودهم ﴿لذلك﴾ إشارة إلى الكتاب وهو ﴿هدى الله يهدي به﴾ يوفق به من يشاء يعني عباده المتقين حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء كما قال: ﴿هدى للمتقين﴾ ﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخله من الفساق والفجرة ﴿فما له من هاد﴾ أو تلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله أي أثر هداه وهو لطفه فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى ﴿يهدى به﴾ بهذا الأثر من يشاء من عباده يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم ومن يضل الله ومن لم يؤثر فيه الطافة لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فما له من هاد من مؤثر فيه بشيء قط يقال اتقاء بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده وتقديره.

أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوجْهِهُ سِوَةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا
مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ كمن أمرن العذاب،

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه (الحديث: 95)، وأحمد في المسند 213/3.

(2) قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله لم يقصد الاتقاء بوجهه، =

= ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، فعبر ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

لأن ما هو كائن، فكان قد كان.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿ثم إنكم﴾ ثم إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تختصمون﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكنبوا فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ويعتدرون بما لا طائل تحته تقول الاتباع أطلعنا ساداتنا وكبراءنا، وتقول السادات أغوتنا الشياطين وأبأؤنا الأقدمون وقد حمل على اختصاص الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضاً حتى يقال لهم: لا تختصموا لدي والمؤمنون الكافرين يكتوهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام قال عبد الله بن عمر لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب قلنا كيف نختم ونبيننا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فيها⁽⁴⁾، وقال أبو سعيد الخدري: كما نقول ربنا واحد ونبيننا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيف قلنا: نعم، هو هذا⁽⁵⁾ وعن إبراهيم النخعي: قالت الصحابة: ما خصومتنا، ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا⁽⁶⁾. عن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾⁽⁷⁾ وقوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾⁽⁸⁾ وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة.

﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾⁽⁷⁾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾

﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ هو رسول الله ﷺ جاء بالصدق وأمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون، فلذلك قال: ﴿أولئك هم المتقون﴾ إلا أن هذا في الصفة وذلك في الاسم ويجوز أن يريد والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته الذين صدقوا به وفي قراءة ابن مسعود والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به، وقرئ: وصدق به

شأنًا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا كما قال تعالى: ﴿ولعلنا بعضهم على بعض﴾⁽¹⁾ ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يري أيهم يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقته فهمه شعاع وقلبه أوزاع وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه، وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله و ﴿فيه﴾ صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه والتشاكس والتشاخص الاختلاف تقول تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه ﴿سالمًا لرجل﴾ خالصاً، وقرئ: سلماً بفتح الفاء والعين وفتح الفاء وكسرهما مع سكن العين وهي مصابر سلم والمعنى ذا سلامة لرجل أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة، وقرئ: بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقى به أو سعد فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك ﴿هل يستويان مثلاً﴾ هل يستويان صفة على التمييز والمعنى: هل يستوي صفاتهما وحالهما وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ: مثلين كقوله تعالى: ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾⁽²⁾ مع قوله أشد منهم قوة، ويجوز فيمن قرأ مثلين أن يكون الضمير في يستويان للمثلين لأن التقدير مثل رجل ومثل رجل والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الحمد لله﴾ الواحد الذي لا شريك له نون كل معبود سواه أي يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه وحده، والعبادة فقد ثبت أنه لا إله إلا هو ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون به غيره كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة الباقي بالفاني وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه ونعى إليكم أنفسكم.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٥﴾

وقرئ: مائت ومائتون والفرق بين الميت والمائت⁽³⁾ أن الميت صفة لازمة كالسيد وأما المائت فصفة حادثة تقول زيد مائت غداً كما تقول سائد غداً أي سيموت وسيسود، وإذا قلت زيد ميت فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت والمعنى في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فانتم في عداد الموتى

= حية ويرسل الأخرى، أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لمرتها الحقيقي هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک، 4/572.

(5) نكره التعليق، الزيلعي، 3/204.

(6) رواه عبد الرزاق في تفسيره والطبري والثعلبي، الزيلعي، 3/204.

(7) سورة الزمر، الآية: 32.

(8) سورة الزمر، الآية: 33.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب ونظيره قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾، يعني: توفي الموت والتي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين المنام تشبيهاً للنوم بالموت كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردّها في وقتها =

مفاعلة من الكفاية كقولك: يجازي في يجزي، وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة والمبالاة أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة لما تقدم من قوله: ويجزيهم أجرهم ﴿بالذين من دونه﴾ أراد الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْصُرْهُ اللَّهُ بِعَزِيْزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٢٧﴾

﴿بعزيز﴾ بغالب منبع ﴿ذي انتقام﴾ ينتقم من أعدائه وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَزْوَاجُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِرَاتُ شِرْكِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾

قرئ: ﴿كاشفات﴾ ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف.

فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه بونهم؟ قلت: لأنهم خوفاً معزة الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم أقررتم به بضر من مرض، أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوها هل هؤلاء اللاتي خرفتموني إياهن كاشفات عني ضره، أو ممسكات رحمته حتى إذا القمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا بنبت شفة قال ﴿حسبي الله﴾ كافياً لمعزة أوثانكم ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ وفيه تهكم ويروى أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا ﴿فنزل قل حسبي الله﴾.

فإن قلت: لم قيل كاشفات، وممسكات على التانيث بعد قوله تعالى: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ قلت: انثنون وكان إنثاناً وهن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: ﴿أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم النكر وله الأنثى﴾ (1) ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف، وتعجز عما طالبهم به من كشف الضر وإمسك الرحمة لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن النكورة من باب الشدة والصلابة كانه قال: الإنث اللاتي هن اللات اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز وفيه تهكم أيضاً.

قُلْ يَتَقَوَّرِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَسِىٰ أَسْوَفٌ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿على مكانتكم﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنكم منها والمكانة بمعنى: المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث الزمان وهما للمكان.

بالتخفيف أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به يعني: أذاه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل: صار صادقاً به أي: بسببه لأن القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ولا يجوز أن يصنق إلا لصابق، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة وقرئ: وصدق به.

﴿كذب على الله﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وكذب بالصدق﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ ﴿إذ جاءه﴾ فاجأه بالكذب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿مثنوي للكافرين﴾ أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في للكافرين إشارة إليهم.

لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي أَعْمَلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

فإن قلت: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيل فيهما؟ قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعال إلى الجملة التي يفضل عليها ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك الأشج أعدل بني مروان وأما التفضيل، فإيدان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصفات والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيه فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن، وقرئ: أسوأ الذي عملوا جمع سوء.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْصُرْهُ اللَّهُ مِنْ هَاؤُلَاءِ ﴿٣٦﴾

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقديرها قرئ: بكاف عبده وهو رسول الله ﷺ وبكاف عباده وهم الأنبياء، وذلك أن قریشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخيلك آلهتنا وإنا نخشى عليك معرفتها لعبك إياها ويروى أنه بعث خالدًا إلى العزى ليكسرهما فقال له سادنها: أحذركما يا خالد إن لها لشدة لا يقوم لها شيء فعمد خالدًا إليها فهشم أنفها، فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء وينفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف وفي هذا تهكم بهم لأنهم خوفاً ما لا يقدر على نفع ولا ضرر أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت: أمهم نحو ذلك فكفاهم الله وذلك قول قوم هود إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، ويجوز أن يريد العبد والعباد على الإطلاق لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحتهم، وقرئ: بكافي عباده على الإضافة وكافي عباده وكافي يحتمل أن يكون غير مهموز

والموت والمنام جميعاً بالانفس وما عنوا بنفس الحياة، والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام ﴿أَنْ فِي نَفْسِكَ﴾ إن في توفى الانفس مائتة وناثمة وإمسكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه لقوم يجلبون فيه أفكارهم ويعتبرون، وقرئ: قضى عليها الموت على البناء للمفعول.

أَمْ أَمْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَلِكْ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِينَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾

﴿أم لتخفوا﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار من نون الله من نون إنه شفعاء حين قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه الا ترى إلى قوله تعالى:

﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين أن يكون المشفوع له مرتضى وأن يكون الشفيع مائتاً له، وههنا الشرطان مفقودان جميعاً ﴿أو لو كانوا﴾ معناه أيشفعون ولو كانوا ﴿لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم ﴿له ملك السموات والأرض﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿له والشفاعة جميعاً﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكاً لها.

فإن قلت: بم يتصل قوله ﴿ثم إليه ترجعون﴾! قلت: بما يليه معناه له ملك السموات والأرض اليوم، ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة مدار المعنى على قوله وحده أي.

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَتَى حَكْمَكَ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

إذا أقر الله بالذکر ولم ينکر معه آلهتهم اشمأزوا أي نفروا وانقبضوا ﴿وإذا ذکر الذين من دونه﴾ وهم آلهتهم نکر الله معهم أولم ينکر استبشروا لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هوامم فيها وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفيآ لآلهتهم، وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من نکر آلهتهم حين قرأ والنجم عند باب الكعبة فسجدوا معه لفرحهم ولقد تقابل الاستبشار، والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز أن يمتلئ

فإن قلت: حق الكلام فإني عامل على مكانتي فلم حنف؟ قلت: للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيدان بأن حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوة وشدة لأن الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله الا ترى إلى قوله ﴿فسوف تعلمون من يأتيه﴾.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٦﴾

كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة لانهم إذا اتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من اوليائه وبذل قليل من أعدائه ﴿يخزيه﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب أي عذاب مخز له وهو يوم بدر وعذاب دائم وهو عذاب النار، وقرئ: مكاناتم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اعْتَدَىٰ فَلَنَجْزِيَنَّهُ وَمَنْ صَدَّقَ فَنُؤْتِكُمْ بِمِثْلِ بِرِّهِ ﴿٤٧﴾

﴿للناس﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينفروا فتقوى بواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ولا حاجة لي إلى ذلك فانا الغني فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها، وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى فإن التكليف مبني على الاختيار نون الإيجاب.

اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٧﴾

﴿الانفس﴾ الجمل كما هي، وتوفىها إمامتها وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة بركة من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كان ذاتها قد سلبت ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ يريد وتوفى الانفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام تشبيهاً للناثمين بالموتى ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ (1) حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أن الموتى كذلك ﴿فيمسك﴾ الانفس ﴿التي قضى عليها الموت﴾ الحقيقي أي لا يردها في وقتها حية ﴿ويرسل الأخرى﴾ النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت ضربه لموتها وقيل: يتوفى الانفس يستوفىها، ويقبضها وهي الانفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها وهي انفس التمييز قالوا فالتى تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس وروا، عن ابن عباس رضي الله عنهما في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل، والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه (2) والصحيح ما نكرت أولاً لأن الله عزّ وعلا علق التوفي

غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.
فإن قُلْتُ: ما العامل في إذا نكراً؟ قُلْتُ: العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت نكر الذين من نون فاجأوا وقت الاستبشار بعل رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى وقل أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلياً له ووعيد لهم وعن الربيع بن خثيم، وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه وسخط على قاتله وقالوا: الآن يتكلم فما زاد على أن قال: أه أو قد فعلوا وقرأ هذه الآية، وروي أنه قال على أثره قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

فإن قُلْتُ: كيف نكر الضمير ثم أنثه؟ قُلْتُ: حملاً على المعنى أولاً وعلى اللفظ آخرًا ولأن الخبر لما كان مؤنثاً أعني فتنة ساغ تانيث المبتدأ لاجله لأنه في معناه كقولهم ما جاءت حاجتك، وقرئ: بل هو فتنة على وفق إنما أوتيته.

فإن قُلْتُ: ما السبب في عطف هذه الآية الفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ قُلْتُ: السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله وإذا نكر الله وحده (2) أشمأزت على معنى: أنهم يشمئزون عن نكر الله ويستبشرون بذكر الألهة فإذا مس أحدهم ضر دعا من أشمأز من نكره نون من استبشروا بنكره وما بينهما من الآي اعتراض.

فإن قُلْتُ: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه قُلْتُ: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه، وقوله أنت تحكم بينهم ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لإنكار اشتمزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد نون آلهتهم كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترؤون عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت، وقوله لو أن للذين ظلموا متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل، ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقية محتجبة في اكمامها وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو، وكقولك قام زيد وقعد عمرو.

فإن قُلْتُ: من أي وجه، وقعت مسببة والاشتمزاز عن نكر الله ليس بمقتضى لالتجاهم إليه بل هو مقتضى لصوفهم عنه قُلْتُ: في هذا التسبب لطف وبيان أنك تقول: زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فهذا تسبب ظاهر وقعد عمرو.

فإن قُلْتُ: من أي وجه، وقعت مسببة والاشتمزاز عن نكر الله ليس بمقتضى لالتجاهم إليه بل هو مقتضى لصوفهم عنه قُلْتُ: في هذا التسبب لطف وبيان أنك تقول: زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فهذا تسبب ظاهر وقعد عمرو.

فإن قُلْتُ: ما العامل في إذا نكراً؟ قُلْتُ: العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت نكر الذين من نون فاجأوا وقت الاستبشار بعل رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى وقل أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلياً له ووعيد لهم وعن الربيع بن خثيم، وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه وسخط على قاتله وقالوا: الآن يتكلم فما زاد على أن قال: أه أو قد فعلوا وقرأ هذه الآية، وروي أنه قال على أثره قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا وَمِثْلَهُ مِمَّا لَأَفْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (١٧).

«ويدا لهم من الله» وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدة وهو نظير قوله تعالى في الوعد: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم»، والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء وجزع محمد بن المنكر عند موته فقيل له فقال: أخشى آية من كتاب الله وتلاها، فانا أخشى أن يبدي لي من الله ما لم أحسبه.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٨).

«ويدا لهم سيئات ما كسبوا» أي سيئات أعمالهم التي كسبوها أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم كقوله تعالى: أحصاه الله، ونسوه أو أراد بالسيئات أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا فسامها سيئات كما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها «وحواق بهم» ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ سُوءٌ دَكَانًا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ وَفَسَتْ وَلَكِنَّ أَكْرَهًا لَا يُعْلَمُونَ (١٩).

التحويل مختص بالفضل يقال حولني إذا أعطاك على غير جزاء «على علم» أي على علم مني أني سأعطاه لما

(1) قال احمد: كذلك يقول علي قديري: تمنى على الله أن يثيبه في الآخرة أن الفرق بين حمد الدنيا، وحمد الآخرة. أن حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول: وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في

(2) قال احمد: كلام جليل فافهمه فضلاً عن مشبه قليل.

وعذبوا، فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً فنزلت فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فاسلموا وهاجروا وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وعن رسول الله ﷺ: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة، ثم قال: إلا ومن أشرك ثلاث مرّات⁽¹⁾.

وَأَيُّهَا لَكَ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يَأْتِكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُشْرِكُوا⁽²⁾.

﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما نكر الإنابة على اثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه.

وَأَكْبَرُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ⁽³⁾.

﴿وَاتَّقُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مثل قوله الذين يستمعون القول، فيتجنبون أحسنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهولكم.

أَنْ تَقُولَ نَحْنُ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِي حَبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيِّنَ السُّجُودِ⁽⁴⁾.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كَرَاهَةً أَنْ تَقُولَ﴾

فإن قلت: لم تكرت؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ويجوز أن يراد التفسير كما قال الأعشى:

ورب بقیع لو هتفت بجوه اتاني كريم ينفخ الرأس مغضبا وهو يريد أوقاجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً ونظيره رب بلد قطعت ورب بطل قارعت، وقد اختلس الطعنة لا يقصد إلا التفسير، وقرئ: يا حسرتي على الأصل ويا حسرتاي على الجمع بين العوض والمعوض منه والجنب الجانب يقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه قال سابق البربري:

أما تتفقين الله في جنب وامق له كبعد حزي عليك تقطع وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبتته فيه إلا ترى إلى قوله:

إن السماحة والمروءة والندی في قبة ضربة على ابن الحشرج ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون لأجلك وفي الحديث: من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل⁽²⁾، وكذلك فعلت هذا من جهتك فمن حيث لم يبق

لا ليس فيه، ثم تقول زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فتجئ بالفاء مجيئك به ثمة كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجأ المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء فانت تحكي ما عكس فيه الكافر إلا ترى أنك تقصد بهذا الكلام والانكار والتعجب من فعله، الضمير في.

مَدَّ قَالِمًا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁽⁵⁾.

﴿قَالِمًا﴾ راجع إلى قوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة من القول، وقرئ: قد قاله على معنى القول والكلام ونلك والذين من قبلهم هم قارون وقومه حيث قال: إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها فكانهم قالوا، ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمِمَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ⁽⁶⁾.

﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ من مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ مثل ما أصاب أولئك فقتل صنائدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين.

أَوْلَمْ يَلْمِزُوا أَنْ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁽⁷⁾.

ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم: ﴿أَوْ لِمَ يَعْلَمُوا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل.

﴿قُلْ يَمَازِي أَلَّذِينَ اسْتَفْزَأُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا تَسْطُرُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَفْزِعُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ⁽⁸⁾﴾.

﴿استرفوا على أنفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، قرئ: بفتح النون وكسرهما وضمها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة، وقد تكرّر نكر هذا الشرط في القرآن فكان نكره فيما نكر فيه نكراً له فيما لم ينكر فيه لأن القرآن في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، والمراد بمن يشاء من تاب لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعمله لا لملكه وجبروته وقيل: في قراءة النبي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا﴾ وقيل قال: أهل مكة يزعم محمد أن من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له فكيف ولمّ تهاجر؟ وقد عبنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم الله فنزلت، وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ثم فتنا

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة

(الحديث رقم: 7137).

في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين، ونحو ذلك ونحوه لو هدانا الله لهديناكم وقوله:

بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٨﴾

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ رد من الله عليه معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وأثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى، وقرئ بكسر التاء على مخاطبة النفس.

فإن قلنا: هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله: لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما بآية! قلنا: لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفوق بينهما وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفریط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب.

فإن قلنا: كيف صح أن تقع بلى جواباً لغير منفي؟ قلنا: لو أن الله هداني فيه معنى ما هديت.

وَيَوْمَ الْيَمِينَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجَّهُهُمْ تُسْوَدُّ السَّمَاءُ فِي جَهَنَّمَ مُنَىٰ لِّلْمُكْرِبِينَ ﴿٤٩﴾

﴿كذبوا على الله﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال عنه⁽¹⁾ فأضافوا إليه الولد والشريك وقالوا هؤلاء شفعائنا، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبناهم وقالوا

فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين نكر المكان وتركه قيل: ﴿فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ على معنى فرطت في ذات الله.

فإن قلنا: فمرجع كلامك إلى أن نكر الجنب كلا نكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها فكانه قيل: فرطت في الله فما معنى فرطت في الله؟ قلنا: لا بد من تقدير مضاف محذوف سواء نكر الجنب، أو لم يذكر المعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك وفي حرف عبد الله وحفصة في نكر الله، وما في ما فرطت مصدرة مثلها في بما رحبت ﴿وَأَنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّاخِرِينَ﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل، وإن كنت النصب على الحال كانه قال: فرطت وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي، وروي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق وآتاه إبليس وقال له: تمتع من الدنيا ثم تب فاطاعه وكان له مال فأنفق في الفجور فاتاه ملك الموت في الأذ ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن.

أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ تَقُولُ لِيِن تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥١﴾

﴿لو أن الله هداني﴾ لا يخلو إما أن يريد به الهداية بالإلحاء أو بالإلطاف أو بالوحي فالإلحاء خارج عن الحكمة ولم يكن من أهل الإلطاف، فيلطف به وأما الوحي فقد كان ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدي وإنما يقول هذا تحييراً

(1) أخرجه أحمد في المسند 3/30، والحاكم في المستدرک 4/329.

(2) قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا بواه له إلا التوفيق الذي حرمه ولا يعافيه منه إلا الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه، وسنقيم عليه حد الرد؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولوينا عن الالتفات إليه كشحاً وبالله التوفيق. فنقول: أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أما الزمخشري وإخوانه القدرية، فيقولون في وجه هذه الآية، ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزوها، وإنما أشركوا، وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض فذلك؛ لأن أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفعل لما يشاء، وعند القدرية ليس فعلاً لما يشاء؛ لأن الفعل إما منطوق على حكمة ومصالحة فيجب عليه أن يفعلهم، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعلها فإن أثر المشيئة إذاً؛ وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى فاعتقاد باطل؛ لأن ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق ولازم الحق حق ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه

= تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما تعريضه بانهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظلمين في إيلاء البهائم والأطفال؟ ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية إذ يقولون: لا بد في الألام من استحقاق سابق، أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فهذا النص الذي يبين عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل، وأما قوله: إنهم يتسترون بالبلكفة فيعني به: قولهم بلا كيف أجل إنها لستر لا تهتك يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء، وأما تعريضه بانهم يجعلون لله أنداداً بإثباتهم معه قدماء فنفي لإثباتهم صفات الكمال كلا والله إنما جعل لله أنداداً القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون، ويشتهون على خلاف مراد ربهم حتى قالوا: إن ما شاءه كان وما شاء الله لا يكون، وأما أهل السنة فلم يزيروا على أن اعتقدوا أن الله تعالى علماً، وقدره، وإرادته، وسمعاً وبصراً، وكلاماً، وحياء، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للندري إذا سمع قوله تعالى: ﴿وسع ربنا كل شيء﴾ علماً إلا اعتقاد أن الله تعالى علماً أو جحد =

والذين كفروا هم الخاسرون واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يستحقون عليها من الجزاء وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فإله خالقه، وفتح بابيه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل: سال عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: يا عثمان ما سألتني عنها أحد قبلك تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخِر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير⁽²⁾، وتاويله على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات، والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ إِلَهًا لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ.

﴿أغفیر الله﴾ منصوب بأعبد و﴿تأمروني﴾ اعتراض ومعناه: أغفیر الله أعبد بأمرکم وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا، ونؤمن بإلهك أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تأمروني أعبد لأنه في معنى تعبدوني وتقولون لي: أعبد والأصل تأمروني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل كما في قوله: إلا أيهدأ الزاجري أحضر الوغى. إلا تراك تقول أغفیر الله تقولون لي أعبد وأغفیر الله تقولون لي أعبد فكذلك أغفیر الله تأمروني أن أعبد وأغفیر الله تأمروني أن أعبد والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ أعبد بالنصب، وقرئ تأمروني على الأصل وتأمروني على إدغام النون أو حذفها.

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾

قرئ: ﴿ليحبطن﴾ عملك وليحبطن على البناء للمفعول ولنحبطن بالنون والياء أي: ليحبطن الله أو الشرك.

فإن قُلْتُ: الموحى إليهم جماعة فكيف قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد؟ قُلْتُ: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله، وأوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت، كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا.

والله أمرنا بها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجوز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ويجسمونه بكونه مرئياً معاييناً مدركاً بالحاسة ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً مستترين بالبالغة، ويجعلون له انداداً بإثباتهم معه قديماً. ﴿وَجُوهَهُمْ مَسْوُودَةٌ﴾ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب.

وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ينجي وينجي ﴿بمفازتهم﴾ بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظرف بمراده منه وتفسيره المفازة قوله ﴿لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم فقيل: لا يمسهم السوء أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾⁽¹⁾ أي: بمنجاة منه لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز بسبب فلاحهم لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها، وقرئ: بمفازاتهم على أن لكل متق مفازة.

فإن قُلْتُ: لا يمسهم ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قُلْتُ: أما على التفسير الأول فلا محل له لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح ولا واحد لها من لفظها وقيل: مقاليد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية.

فإن قُلْتُ: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية! قُلْتُ: التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملًا.

فإن قُلْتُ: بما اتصل قوله: ﴿والذين كفروا﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: ينجي الله المتقين بمفازتهم،

= اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه عن حثفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره، وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سنته، فإنه قد أساء عليهم الآب ونسبهم بكتبه إلى الكذب والله الموعد.

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

(2) أخرجه أبو يعلى، وكرهه العقيلي.

= آيات الله، وإطغاء نوره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً فذلك فرية ما فيها مرية ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة، وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان، والعينان، والوجه ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز على أن غيره من أهل السنة حمل اليبين على القدرة، والنعمة، والوجه على الذات، وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب، فقد =

قال ثم قرأ تصديقاً له ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (2) الآية وإنما ضحك أقصَح العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من تلك ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتننها الأوهام هيئة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبادة في مثل هذه الطريقة من التخجيل، ولا ترى باباً في علم البيان أنق ولا أرق ولا اللطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث، والتنقيب حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدره حق قدره لما تخفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه، وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المؤرّبة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكلم آية من آيات التنزيل، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأوّل ليس من هذا العلم في غير ولا نغير، ولا يعرف قبلاً منه من ببير والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله جميعاً وقوله والسموات، ولأنّ الموضوع موضع تقخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة ومع القصد إلى الجمع وتأكيد بالجميع أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن والقبضة المرة من القبض «فقبضت قبضة من أثر الرسول» والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضاً أعطني قبضة من كذا تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر كما روي أنه نهى عن خطفة السبع (3) وكلا المعنيين محتمل والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أي: نوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة يعني: أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول الجزور أكلة لقمان والقلة جرعة أي ذات أكلته وذات جرعة تريد أنهما لا يفيان إلا باكلة فذة من أكلته وجرعة فردة من جرعاته، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر لأنّ المعنى أن الأرضين بحملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب! قُلْتُ: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم، مطويات من الطي الذي هو ضدّ النشر كما قال تعالى: ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ (4) وعادة طوي السجل أن يطويه

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين اللامين؟ قُلْتُ: الأولى موطنه للقسم المحذوف والثانية لام الجواب وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين أعني جوابي القسم والشرط.

فإن قُلْتَ: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قُلْتُ: هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال ألا ترى إلى قوله ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعاً يعني: على سبيل الإلجاء ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ولتكونن من الخاسرين﴾؟ قُلْتُ: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل ويحتمل ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة، ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشدّ فلا يمهله بعد الردة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذا لانتنك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ (1)

بَلِ اللَّهِ فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾

﴿بل الله فاعبد﴾ ردّ لما أمره به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً منه ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمّر هذا معطوف عليه تقديره بل الله أعبد، فاعبد لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَكَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، وقرئ بالتشديد على معنى وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نهى عن عظمته وجلاله شأنه على طريقة التخجيل فقال: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو وبجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلالة لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما

= (الحديث: 1981).

(1) سورة الإسراء، الآية: 75.

(4) سورة الانبياء، الآية: 104.

(2) راجع الحديث رقم 121/1.

(3) أخرجه الدرر في كتاب: الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع =

بيمينه وقيل: قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه بقدرته، وقيل: مطويات بيمينه فنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ومن اشم رائحة من علمنا هذا، فليعرض عليه هذا التأويل ليلتهى بالتعجب منه ومن قائله ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته وما مني من به أمثاله، وأثقل منه على الروح وأصدع للكبد تنوين العلماء قوله واستحسانهم له وحكايته على فروع المنابر واستجلاب الاهتزاز به من السامعين، وقرئ مطويات على نظم السموات في حكم الأرض وبخولها تحت القبضة ونصب مطويات على الحال ﴿سبحانه وتعالى﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَيَفِيحُ فِي الْأُصْرِ فَصَمَوَ مَنْ فِي السَّمَكِرَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُفِيحُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَمَامٍ يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾

فإن قُلْتُ: لم اضيف إليهم اليوم؟ قُلْتُ: ارادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة، وقد جاء استعمال اليوم والايام مستفيضاً في أوقات الشدة.

وَيَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا إِذَا جَاءُوهَا قُيِّمَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾

وَيَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا إِذَا جَاءُوهَا قُيِّمَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: ﴿أخرى﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: يحتمل الرفع والنصب أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ (١) وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نفخة واحدة والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه أخرى وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بنكرها في غير مكان وقرئ قياماً ينظرون يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجاهه خطب، وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

﴿قالوا بلى﴾ اتونا وتلوا علينا ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملان جهنم لسوء أعمالنا كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين فنكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكُنُوزُ وَمِائَةً يَأْتِيَنَّ وَالشُّهَدَاءُ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِأَلْقَىٰ وَهُمْ لَا يَظُنُونَ ﴿٧٩﴾ وَوُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَحْكَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرُوا الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾

اللام في المتكبرين للجنس لأن ﴿مثنوى المتكبرين﴾ فاعل بئس وبئس فاعلها اسم معرف بلام الجنس أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبئس مثنوى المتكبرين جهنم.

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذلك والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عنله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أمر لها منه وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجوز فيها غير ربها ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبیین والشهداء، والقضاء بالحق، وهو النور المذكور وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الأفاق بعنلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول: اظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم

وَيَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا إِذَا جَاءُوهَا قُيِّمَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿حقي﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف وحق موقعه ما بعد خالدين وقيل: حتى إذا جاؤها جاؤها وفتحت أبوابها أي مع فتح أبوابها وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتنقم فتحها بليل قوله: جنات عدن مفتحة

(1) سورة الحاقة، الآية: 13.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات (الحديث: 2447)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة...، باب: تحريم الظلم الحديث: (2579 57).

فإن قُلْتُ: قوله ﴿وقيل الحمد لله﴾ من القائل ذلك؟ قُلْتُ: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾.

قارئ بإمالة الف حاء وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أَيْنَ، وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتانيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنه أعجمي نحو قابيل وهابيل التوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة يقال لفلان على فلان طول وإفضال يقال: طال عليه وتطول إذا تقض.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتذكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف؟ قُلْتُ: أما غافر الذنب، وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبو ظاهر والوجه أن يقال لما صونف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد أذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف، واللام من شديد العقاب ليزواج ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن

لهم الأبواب فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها.

فإن قُلْتُ: كيف عبر عن الذهاب بالرفيقين جميعاً بلفظ السوء؟ قُلْتُ: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكزهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الواقفين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين ﴿طبتم﴾ من نَسَس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا ﴿فانخلوها﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل نَسَس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقى أنفسنا من نون الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ﴿خالدين﴾ مقدرين الخلود.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْرًا
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِمُّ بِمُرُؤَاتِنَا الْمُغْلِيَاتِ ﴿٤٧﴾.

﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبواً، وقد أورثها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً.

فإن قُلْتُ: ما معني قوله ﴿حيث نشاء﴾ وهل يتبوا أهدم مكان غيره! قُلْتُ: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوا من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَهُنَّ فِيهِمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿حافين﴾ محققين من حوله: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله متلذذين لا متعبدين.

فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿بينهم﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعاً لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 434/2. وأخرجه أحمد في المسند:

68/6، وعند أبي يعلى تنزيل السجدة والزمر (الحديث: 7643)

و(4764).

بالكفر والكافر لا أحد أشقى منه عند الله ويجب على من تحقق ذلك أن لا ترجع أحوالهم في عينه ولا يفره إقبالهم في دنياهم وتقبلهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقبلون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون فإن مصير تلك وعاقبتة إلى الزوال ووراء شقاوة الأبد، ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسول وجدالهم بالباطل ما أخر لهم من سوء العاقبة مثلاً ما كان من نحو ذلك من الأمم وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه وقرئ فلا يفر.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذَهُ وَجَدُوا لِابْتِغَالِ يَدَيْهِمْ إِلَهًا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ أَتَتْهُمْ مُعْتَدٍ كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٤٦﴾

﴿الأحزاب﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصرهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿وهمت كل أمة﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح الأحزاب ﴿برسولهم﴾، وقرئ برسولها ﴿ليأخذوه﴾ ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أراها من تعذيب أو قتل ويقال للأسير أخذ ﴿فأخذتهم﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه إن أخذتهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ فإنكم تمررون على بلادهم ومسكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجب.

وَكَذَلِكَ حَمَّتْ كَيْفَ رَبَّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿أنهم أصحاب النار﴾ في محل الرفع بدل من كلمة ربك أي مثل تلك الوجوب ويجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه: كما يجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك يجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل، والذين كفروا قريش ومعناه كما يجب إهلاك أولئك الأمم كذلك يجب إهلاك هؤلاء لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار، قرئ كلمات.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾

روي أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا

قوانينه لأجل الأزواج حتى قالوا ما يعرف سحاليه من عناديه، فثنا ما هو وتر لأجل ما هو شفع على أن الخليل قال في قولهم: ما يحسن بالرجل منك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف ويجوز أن يقال قد تعمد تنكيه وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار، ويجوز أن يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البديل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال.

فإن قلت: ما بال الواو في قوله وقابل التوب قلت: فيها نكتة جليظة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة الذنوب كان لم يذنب كأنه قال: جامع المغفرة والقبول، وروي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكتابه: اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ إلى قوله ﴿إليه المصير﴾⁽¹⁾ وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تنفعه إليه حتى تجده صاحباً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحزني عقابه فلم يبرح يرددتها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم قد زل زلة فسدنوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه⁽²⁾، سجل على المجالدين في آيات الله بالكفر والمراد الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إحاض الحق، وإطفاء نور الله وقد دل على ذلك في قوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾.

مَا يَجِدُ إِلَّا فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَمُرُّكَ تَقَاتُلُهُمْ فِي الْيَدِ ﴿٤٦﴾

فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها، ومقابلة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنهما فاعظم جهاد في سبيل الله وقوله ﷺ: «إن جدالاً في القرآن كفر وإيراده منكره»⁽³⁾، وإن لم يقل إن الجدال تمييز منه بين جدال وجدال.

فإن قلت: من أين تسبب لقلوه: ﴿فلا يفررك﴾ ما قبله؟ قلت: من حيث أنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله

(1) سورة غافر، الآيات: 1 - 3.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يزيد بن الأصم.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في ترك المماراة في القرآن (الحديث: 2257)، وعن أبي هريرة (الحديث: 2255).

ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم وأخرجاً منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

فإن قُلْتُ: قد نكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتقاً على حديثهما جميعاً، وما نكر إلا الغفران وحده قُلْتُ: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك وسبيل الله سبيل الحق التي نهجها لعباده، ودعا إليها.

رَبَّنَا وَأَذِلَّهُمْ جَنَّتْ عَدْنِ أَلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾.

﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الملك الذي لا يغلب وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلا بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تقي بوعدك.

وَرَبَّهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَبَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَرَزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾.

﴿وقهم السيئات﴾ أي: العقوبات أو جزاء السيئات فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر، أو الكبائر المتوب عنها والوقاية منها التكفير أو قبول التوبة.

فإن قُلْتُ: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد.

فإن قُلْتُ: هذا بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكرامة والثواب، وقرئ جنة عن وصلح بضم اللام والفتح أفصح يقال: صلح فهو صالح وصلح فهو صليح وذريتهم أي ينادون يوم القيامة، فيقال لهم:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادِرُكَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُنْفَخُ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿لمقت الله أكبر﴾ والتقدير لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بنكرها مرة و ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بالمقت الأول والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء، والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأتون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم، وأنتم في النار إذ أوقعتم فيها باتباعكم هواهن، وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنوبوا لمقت الله، وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى: ﴿يكفر بعضكم ويلعن بعضكم بعضاً﴾، وإذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه.

فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع⁽¹⁾: وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»⁽²⁾، وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشماثل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر، وقرأ ابن عباس العرش بضم العين.

فإن قُلْتُ: ما فائدة قوله ﴿ويؤمنون به﴾ لا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون! قُلْتُ: فأنته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: تم كان من الذين آمنوا فأبان بذلك فضل الإيمان وفائدة أخرى وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معانين، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزّه عن صفات الأجرام وقد روعي التناسب في قوله ويؤمنون به ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾، كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون ادعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إحاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناس وتباغت الإيمان الأماكن فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض قال الله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾⁽³⁾ أي يقولون ﴿ربنا﴾ وهذا المضمرة يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله وأن يكون حالاً.

فإن قُلْتُ: تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شيء؟ قُلْتُ: الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك

(3) سورة الشورى، الآية: 5.

(1) قال الزبيعي غريب، ونسب إلى تفسير الثعالبي، 3/218.

(2) لم يخرج الزبيعي.

عقاب مثله لا يكون إلا كذلك وهو الذي يطابق كبريائه ويناسب جبروته، وقيل: كان الحرورية أخذوا قولهم لا حكم إلا لله من هذا.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُرِيكُمْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾.

﴿يريككم آياته﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها، والرزق المطر لأنه سببه ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تنكره واتعاطه، ثم قال للمنيبين:

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فادعوا الله﴾ أي عبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾.

﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله: ﴿الذي يريككم﴾، أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفًا وتنكيرًا وقرئ: ﴿رفيع الدرجات﴾ بالنصب على المدح ورفيع الدرجات كقوله تعالى: ﴿ذي المعارج﴾⁽³⁾ وهي مساعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش وهي لليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء العرش فوقهن، ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنة ﴿الروح من أمره﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره يريد الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح كما قال تعالى: ﴿أومن كان ميتًا فأحييناه﴾⁽⁴⁾ ﴿لينذرن﴾ الله أو الملقى عليه وهو الرسول أو الروح، وقرئ: لتنذر أي لتنذر الروح لأنها تؤنث أو على خطاب الرسول، وقرئ: لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ﴿ويوم التلاق﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تلتقي فيه، وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقيل: المعبود والعابد.

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾.

﴿يوم هم بارزون﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل، أو أكمة أو بناء لأن الأرض بارزة قاع صفصف ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلاً⁽⁵⁾ ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم، وعن ابن مسعود

قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا الشَّيْءَ الَّذِي كُنَّا نَعْتَرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ لِإِلَهِ حُرُوجٌ مِنْ سَبِيلِهِ ﴿١٧﴾.

﴿الفتن﴾ إماتتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين وأراد بالإماتتين خلقهم أمواتًا أولًا وإماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث وناهيك تفسيرًا لذلك قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾⁽¹⁾ وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قلنت: كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتًا إماتة؟ قلت: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وقولك للحفار ضيق فم الركبة ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق وإنما أريد الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معًا على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنفله منه ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات وهو خلاف ما في القرآن إلا أن يتحمل، فيمجل إحداها غير معتد بها أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى: ﴿إلا من شاء الله﴾⁽²⁾.

فإن قلنت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى ﴿فَاعترفنا بنذوبنا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث، فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بنذوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فهل إلى خروج﴾ أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿ومن سبيل﴾ قط أم اليأس واقع بون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط وإنما يقولون ذلك تعلقًا وتحيرًا، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله:

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٧﴾.

﴿لنلكم﴾ أي لنلكم الذي أنتم فيه وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فالحكم لله﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمذ وقوله: ﴿العلي الكبير﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن

(4) سورة الأنعام، الآية: 122.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشر (الحديث رقم: 6527)، ومسلم في كتاب: الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم =

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة الزمر، الآية: 68.

(3) سورة المعارج، الآية: 3.

رضي الله عنه لا يخفى عليه منهم شيء.

وإن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (4) وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (5) وتعضده قراءة من قرأ كاظمون ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ﴾ (6) أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: ﴿فَأَسْخَلُوهُمَا خَالِدِينَ﴾. الحميم المحب المشفق. والمطاع مجاز في المشفع لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فرقك.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؟ قُلْتُ: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تتبعه ونفيهما جميعاً وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً، ونحوه ولا ترى الضب بها ينجر يريد نفي الضب وانجحاره.

فإن قُلْتُ: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله! قُلْتُ: على نفي الأمرين جميعاً من قبل أن الشفاعة هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه وأن الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم وإذا لم يحبهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾، ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل وأهل التفضل وزياته وإنما هم أهل الثواب بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (7) وعن الحسن رضي الله عنه والله ما يكون لهم شفيع البتة.

فإن قُلْتُ: الغرض حاصل بذكر الشفيع، ونفيه فما الفائدة في نكر هذه الصفة ونفيها؟ قُلْتُ: في نكرها فائدة جلية وهي أنها ضمت إليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تتأني بلون موصوفها، فيكون نكر إزالة لتوهم وجود الموصوف بيانه أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت ما لي فرس أركبه ولا معي سلاح أحراب به فقد جعلت عدم الفرس، وفقد السلاح علة مانعة والركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي فكنك قوله: ﴿لَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع فكان نكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأنيه بعدم الشفيع وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

يَلْمُ عَائِةَ الْأَعْيُنِ وَمَا عُنْفَى الصُّدُورِ ﴿٨﴾

فإن قُلْتُ: قوله لا يخفى على الله منهم شيء بيان وتقرير لبروزهم والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا فما معناه؟ قُلْتُ: معناه: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (2) وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم وظنهم أن الله لا يبصرهم وهو معنى قوله: وبرزوا لله الواحد القهار ﴿لِمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ و﴿لِلْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يستل عنه في ذلك اليوم ولما يجب به، ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: ﴿لِمَنْ الْمَلِكُ﴾ اليوم فيجيبه أهل المحشر ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وقيل: يجمع الله الخلاق يوم القيامة في صعيد واحد بارض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧﴾

﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ الآية فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب، لما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عند نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون لأن الله ليس بظالم للعبيد وأن الحساب لا يبطئ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين وعن ابن عباس رضي الله عنهما إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ فَتَّرُوا لَهُمُ الْقُلُوبَ لَدَى الْحَتَّارِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٨﴾

﴿الأرزاق﴾: القيامة سميت بذلك لأزوفها أي لقربها ويجوز أن يريد بيوم الأرزاق وقت الخطة الأرزاق وهي مشارفتهم بخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحو ولكنها معترضة كالشجا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (3).

فإن قُلْتُ: ﴿كاظمين﴾ بم انتصب! قُلْتُ: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى، لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب

= القيامة (الحديث رقم: 56 - 2859).

(4) سورة يوسف، الآية: 4.

(5) سورة الشعراء، الآية: 4.

(6) سورة مريم، الآية: 39.

(7) سورة النساء، الآية: 173.

(1) سورة فصلت، الآية: 22.

(2) سورة النساء، الآية: 108.

(3) سورة الملك، الآية: 27.

الخائنة صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى: المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾⁽¹⁾ لا يساعد عليه.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾! قُلْتُ: هو خير من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾⁽²⁾ مثل ﴿يلقي الروح﴾ ولكن يلقي الروح قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق ثم استطرده نكر أحوال يوم التلاق﴾ إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾⁽³⁾ فبعد لذلك عن أخواته.

وَاللَّهُ يَبْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَعْضُونَ يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦﴾.

﴿والله يقضي بالحق﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل لاستغناؤه عن الظلم، وألهمتكم لا يقضون بشيء وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: يدعون بالثناء والياء.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا فِي الْأَرْضِ فَبَنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾﴾.

هم في ﴿كانوا هم أشد منهم﴾ فصل.

فإن قُلْتُ: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة وهو أشد منهم قُلْتُ: قد ضارح المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام فأجرى مجراها، وقرئ: منكم وهي في مصاحف أهل الشام ﴿وأنازاً﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم وما يوصف بالشدة من آثارهم، أو أراوا أكثر آثاراً كقوله متقلداً سيفاً ورمحاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ فِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ قَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٨﴾.

﴿وسلطان مبين﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات فقالوا: هو ساحر كذاب فسموا السلطان المبين سحراً وكذاباً.

لَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِبَادِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ ﴿١٥﴾.

﴿فلما جاءهم بالحق﴾ بالنبوة.

فإن قُلْتُ: أما كان قتل الأبناء، واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرتة الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قُلْتُ: قد كان ذلك القتل حينئذ وهذا قتل آخر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قالوا اقتلوا﴾ أعيدوا عليهم القتل كالذي كان، أو لا يريد أن هذا قتل غير القتل الأول ﴿في ضلال﴾ في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم يعني: أنهم باسطوا قتلهم، أو لا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى، وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهره موسى وما علم أن كيدهم ضائع في الكرتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾.

﴿ذروني لقتل موسى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله ويقولون إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضة بالحجة والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ولكن الرجل كان فيه خب وجريزة، وكان قتلاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وقوله ﴿وليدع ربه﴾ شاهد صق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه وكان قوله ذروني أقتل موسى تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ﴿أن يبدل دينكم﴾ أن يغير ما أنتم عليه وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام بليل قوله: ﴿ويذرك وألهمتكم﴾ والفساد في الأرض: التفانن والتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً كانه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم ديناكم بما يظهر من الفتن بسببه وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو، ومعناه: إني أخاف فساد دينكم وديناكم معاً. وقرئ: يظهر من أظهر والفساد منصوب أي: يظهر موسى الفساد، وقرئ: يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أي: تتابع وتعاون.

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُكْرِمٍ لَا يُؤْمِنُ

(3) سورة غافر، الآية: 18.

(1) سورة غافر، الآية: 19.

(2) سورة غافر، الآية: 13.

يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٧٧﴾.

تعرضتم له.

فإن قلت: لم قال بعض ﴿الذي يعدكم﴾ وهو نبي صادق لا بد لما يهدم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومنكريه إلا أن يلاوهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أرففه يصيبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأفيًا فضلاً أن يتعصب له، أو يرمي بالحصا من ورائه وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت:

ليبد تراك امكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قلت: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلفي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾. يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وأهلكه ولم يستقم له أمر فيتخلصون منه وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة ولما عضده بالبينات، وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشد من ذلك طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردايه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا فقال: «أنا ذلك» فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فالتزمه من ورائه وقال: «أنتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟» وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان حتى أرسلوه⁽¹⁾ وعن جعفر الصادق: أن مؤمن آل فرعون قال نلك سراً وأبو بكر قاله ظاهرًا.

يَعْرِفُ لَكُمْ الْيَوْمَ الظَّاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّهُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَهُ قَالَ رِعْونَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٧٨﴾.

﴿ظاهرين في الأرض﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل يعني: أن لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لباس الله وعذابه فإنه لا قيل لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد وقال: ﴿ينصرون﴾ وجاءنا لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ما أرىكم إلا ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم برأي

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال لقومه: ﴿إني عدت﴾ بالله الذي هو ربي وربكم وقوله: ﴿وربكم﴾ فيه بعث لهم عن أن يقتلوا به، فيعونوا بالله عياده ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه وقال: ﴿من كل متكبر﴾ لتشمل استعانته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإنعان للحق وهو أقبج استكبار وأدله على بناءة صاحبه، ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر، والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها وعدت ولنت أخوان، وقرئ: عت بالإدغام.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذَابًا فَعَلَيْهِ كُذُوبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٧٨﴾.

﴿رجل مؤمن﴾ وقرئ: ﴿رجل﴾ بسكون الجيم كما يقال عضد في عضد، وكان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً وقيل: كان إسرائيلياً و﴿من آل فرعون﴾ صفة لرجل أو صلة ليكتم أي يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب وقيل: خربيل أو حزيبيل والظاهر أنه كان من آل فرعون فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلوا، ولم يعزوا والدليل عليه قول فرعون أبناء الذين آمنوا معه وقول المؤمن فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ليليل ظاهر على أنه ينتصح لقومه ﴿أن يقول﴾ لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم وتبكيك شديد، كانه قال: أنترتكون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ربي الله﴾ مع أنه لم يحضر لتصحیح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم ولك أن تقدر مضافاً محنوفاً أي وقت أن يقول، والمعنى: أنتقتونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره وقوله: ﴿بالبينات﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ف﴿إن يك كاذباً فعليته كذبه﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ﴿وإن يك صادقاً يصيبكم بعض﴾ ما يعدكم إن

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: عتب النبي ﷺ (الحديث

أصحاب الجنة ﴿﴾، ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار نواها هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجبوا ملائكة صفوفاً فبيننا هم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب.

يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْرَارُ مِمَّا كُتِبَ لَهُنَّ وَمِنَ الْأَشْرَارِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَقْبَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿١٢٧﴾

﴿تولون مدبرين﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار وعن مجاهد فارين عن النار غير معجزين.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بُرْسُ بْنُ قَيْسٍ بِالْبَيْتِ قَا زَلَمْتُ فِي سَلَكِي وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿١٢٨﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه وقيل: هو فرعون آخر وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات، فشككنتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين ﴿حتى إذا﴾ قبض ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، وتقدمه عزم منكم على تكذيب الرسل فإذا جاءكم رسول جحتم وكنبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولا بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته، وقرئ: أن يبعث الله على إخال همزة الاستفهام على حرف النفي كان بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث، ثم قال: ﴿كذلك يضل الله﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مراتب في بيته.

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَذِبًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ بِجَارٍ ﴿١٢٩﴾

﴿الذين يجادلون﴾ بدل من من هو مسرف. فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذلك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً فكانه قال: كل مسرف.

فإن قلت: فما فاعل ﴿كبر﴾؟ قلت: ضمير من هو مسرف.

فإن قلت: أما قلت هو جمع ولهذا أبليت منه الذين يجادلون! قلت: بلى هو جمع في المعنى، وأما اللفظ فموجد

إلا بما أرى من قتله يعني: لا أستصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وما أهديك﴾ بهذا الرأي ﴿إلا﴾ سبيل الرشاد يريد سبيل الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أخبر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني: أن لسانه، وقلبه متواطئان على ما يقول وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: الرشاد فعال من رشد بالكسر كعلام، أو من رشد بالفتح كعباد وقيل: وهو من أرشد كجبار من أجبر وليس بذلك لأن فعالاً من أعمل لم يجئ إلا في عدة أحرف نحو نراك وسأر وقصار وجبار، ولا يصح القياس على القليل ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشاد كمواعج وبتات غير منظور فيه إلى فعل.

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِتَقْوَىٰ رَبِّهِمْ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ كَاذِبِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿مثل يوم الأحزاب﴾ مثل أيامهم لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم لعمار اقتصر على الواحد من الجمع لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله: ﴿كلوا في بعض بطنكم تعفوا﴾ وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب ودأب هؤلاء نؤبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائماً دائماً منهم لا يفترون عنه ولا بد من حنف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم.

فإن قلت: بم انتصب مثل الثلثي! قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ولو قلت أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة.

يَسْأَلُ أَيُّ الْقَوْمِ جَاءَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَنًّا لِيَلْبِغُوا ﴿١٣١﴾

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ يعني: أن تمييزهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وما ريبك بظلام للعبيد﴾⁽¹⁾ حيث جعل المنفي إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد وحيث نكر الظلم كأنه نفي أن يريد ظلماً ما لعباده ويجوز أن يكون معناه كمنعنى قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾⁽²⁾ أي لا يريد لهم أن يظلموا يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين.

وَيَقُولُ رَبِّي إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣٢﴾

التنادي ما حكى الله تعالى في سورة الاعراف من قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ونادى أصحاب النار

وَقَالَ الَّذِينَ مَاتُوا بُعُودًا أَلَمْ يَأْتِكُمْ سَبِيلُ الرِّشَادِ ﴿٢٨﴾
يَقُولُونَ إِنَّمَا هَذَا الصَّحْفُ الَّذِي مَتَّعَ بِهِ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَرِ
﴿٢٩﴾.

قال: ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ فاجمل لهم ثم فسّر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاق إليها هو أصل الشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر ونكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يثبط وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين دعوة إلى دين الله الذي ثمرته التجارة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار وحذروا واتنروا واجتهد في نلك واحتشد لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين وهو قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ (2) وفي هذا أيضًا دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون والرشاد نقيض الغي، وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجِزِيهِ إِلَّا رِجْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرَدُّونَ فِيهَا بَعْدَ حِسَابٍ ﴿٤١﴾.

﴿فلا يجزي إلا مثلها﴾ لأن الزيادة على مقدار جزء السيئة قبيحة لأنها ظلم وأما الزيادة على مقدار جزء الحسنه فحسنة لأنها فضل، قرئ: يدخلون ويدخلون ﴿بغير حساب﴾ واقع في مقابلة إلا مثلها يعني أن جزء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزء العمل الصالح، فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ ادْعُرُّكُمْ إِلَى الصَّحْفِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١).

فإن قلت: لم كرر نداء قومه، ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يهتموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصيحه لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه يا أبت، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول هداه إلى الطريق وهداه له.

فحمل البذل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس يبعد أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتًا ويحتمل أن يكون الذين يجادلون مبتدأ وبغير سلطان اتاهم خبرًا وفاعل كبر قوله ﴿كذلك﴾ أي كبر مقتًا مثل نلك الجدال ويطلع الله كلام مستأنف ومن قال: كبر مقتًا عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه وفي كبر مقتًا ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر، وقرئ: سلطان بضم اللام وقرئ: قلب بالتنوين ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعضهما كما تقول: رأيت العين وسمعت الأذن ونحوه قوله عز وجل: ﴿فإنه أثم قلبه﴾ (1) وإن كان الأثم هو الجملة، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب.

وَقَالَ رِعْرَعُونَ بِعَمْرِ بْنِ لِي مَرَمًا لَعْنًا أَلْتَأْتِنَا الصَّيْبَ ﴿٢٣﴾.

قيل: الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر.

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَلِحَ إِلَى اللَّهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَكْفُرُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِرِعْرَعُونَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾.

و ﴿أسباب السموات﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أدرك إلى شيء، فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه.

فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لاجزأ! قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه فلما أراد تفخيماً ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها، ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمراً عسيراً أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ثم أوضحه. وقرئ: فاطلح بالنصب على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني، ومثل نلك التزيين ونلك الصد ﴿زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ والمزين إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾، أو الله تعالى على وجه التسبب لأنه مكن الشيطان وأمهله ومثله: ﴿زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾، وقرئ: وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل دل عليه قوله إلى إله موسى وصد بفتح الصاد وضمها وكسرهما على نقل حركة العين إلى الفاء كما قيل: قيل، والتباب: الحسرن والهلاك وصد مصدر معطوف على سوء عمله وصدوا هو وقومه.

﴿وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعده.

قَوْلُهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِإِلَاقَةِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿١٤﴾.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ شداثد مكروهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم وقيل: نجا مع موسى ﴿وحاق بأل فرعون﴾ ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم.

النَّارُ يَمْزُجُوكَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾.

﴿النار﴾ بدل من سوء العذاب أو خير مبتدأ محذوف كان قائلاً قال: ما سوء العذاب، فقيل: هو النار أو مبتدأ خبره. ﴿يعرضون عليها﴾ وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها وعرضهم عليها إحقاقهم بها يقال عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: ﴿النار﴾ بالنصب وهي تعضد الوجه الأخير، وتقديره يدخلون النار يعرضون عليها ويجوز أن ينتصب على الاختصاص ﴿غدوا وعشيا﴾ في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم فيما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب أو بنفس عنهم، ويجوز أن يكون غدواً وعشيا عبارة عن الدوام هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: ﴿ادخلوا﴾ يا آل فرعون أشد عذاب جهنم وقرئ: ﴿ادخلوا آل فرعون﴾ أي يقال لخزنة جهنم ادخلوهم.

فإن قلت: قوله: ﴿وحاق بأل فرعون سوء العذاب﴾ معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم لم يكن مكروهم راجعاً عليهم لأنهم لا يعذبون بجهنم قلت: يجوز أن يهيم الإنسان بأن يغرق قوماً، فيحرق بالنار ويسمى ذلك حيقاً لأنه هم بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهيم فرعون لما سمع إنذار المسلمين بالنار وقول المؤمن وأن المسرفين هم أصحاب النار فيفعل نحو ما فعل نمرود ويعذبهم بالنار فحاق به مثل ما أضمره، وهم بفعله ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، وإنكر وقت يحتاجون.

وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ قِيلَ لَهُمُ اقْنَمُوا لِلذَّيْرِ اسْكَبُوا إِنَّكُمْ لَكُمْ تِمَارًا فَهَلْ أَنتُمْ مُؤْمِنُونَ عَنَّا نَسِيْبًا وَسَكَنًا لَنَا ﴿١٦﴾.

﴿تبعاً﴾ تبعاً كخدم في جمع خادم، أو نوي تبع أي اتباع أو وصفاً بالمصدر، وقرئ كلاً على التأكيد لاسم إن وهو معرفة والتنوين عوض من المضاف إليه يريد إنا كلنا أو كلنا فيها.

تَدْعُونِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْآمَنَةِ الْفَعْرِ ﴿١٦﴾.

﴿ما ليس لي به علم﴾ أي بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً.

لَا جَرَّ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَرْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٧﴾.

﴿لا جرم﴾ سياقه على مذهب البصريين أن يجعل لا رداً لما دعاه إليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته، أو بمعنى كسب من قوله تعالى: ﴿ولا يجرمكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾⁽¹⁾ أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، ويجوز أن يقال أن لا جرم نظير لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدا فعل من التبييد وهو التفريق فكما أن معنى لا بد أنك تفعل كذا بمعنى: لا بعد لك من فعله فكذلك لا جرم أن لهم النار أي لا قطع لذلك بمعنى: أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً وروي عن العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل أخوان كرشد ورشد وعدم وليس له دعوة معناه أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط أي من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربه وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضج من دعائكم وقوله: ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره وفي الآخرة إذا أنشأه الله حيواناً تبرا من الدعاة إليه ومن عبده وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة، أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم كما تدين تدان قال الله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من نونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾⁽²⁾ ﴿المسرفين﴾ وعن قتادة المشركين وعن مجاهد السفاكين للدماغ بغير حلها وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون.

سَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْأَعْيُنِ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿فستذكرون﴾ أي فسيزكر بعضكم بعضاً

(2) سورة الرعد، الآية: 14.

(1) سورة المائدة، الآية: 2.

لأنها باطلة وأنهم لو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فِيعْتَدُونَ﴾⁽¹⁾.
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
الْآخِرَةِ.⁽²⁾

﴿ولهم اللعنة﴾ البعد من رحمة الله ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها، وقرئ تقوم ولا تنفع بالتاء والياء يريد بالهدى جميع ما أتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرايع.

وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِبْتَابَ.⁽³⁾
﴿وأورثنا﴾، وتركنا على بني إسرائيل من بعده
﴿الكتاب﴾ أي التوراة.

هُدًى وَزَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ.⁽⁴⁾

﴿هدى وذكرى﴾ إرشاداً وتذكرة وانتصابهما على المفعول له أو على الحال وأولو الابواب المؤمنون به العاملون بما فيه.

فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَفِيرُ لِذُنُوبِكَ وَسَخَّ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِأَلْمُسِيِّ وَالْإِبْكَارِ.⁽⁵⁾

﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ يعني أن نصرته الرسل في ضمان الله وضمنان الله لا يخلف واستشهد بموسى، وما أتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده وإبقاء آثار هداة في بني إسرائيل والله ناصر كما نصرهم ومظهر على الدين كله ومبلغ ملك أمتك مشارق الأرض ومغاربها، فاصبر على ما يجزئك قومك من الغصص فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق وأقبل على التقوى واستدرك الفطرات بالاستغفار ودم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿بالعشي والإبكار﴾ وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

إِنَّ الدَّيْرَةَ يَجْدِلُونَ فِيَّ عَائِدَتِ اللَّهِ بِعَثَرِ سُلْطَانِي أَنْتَهُمْ إِنْ فِي سُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.⁽⁶⁾

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ إلا تكبر وتعظم وهو إرادة التقدّم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم ولذلك عدوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة أو إرادة أن تكون لهم النبوة نونك حسداً وغبياً ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾⁽²⁾ أو إرادة دفع الآيات بالجدال ﴿ما هم ببالغيه﴾ أي ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات، وقيل: المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريون النجال ويبلغ

فإن قلت: هل يجوز أن يكون كلاً حالاً قد عمل فيها فيها؟ قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول قائماً في الدار زيد.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْوَيْبِ وَالْخَيْرِ.⁽⁷⁾

﴿قد حكم بين العباد﴾ قضى بينهم وفصل بأن ادخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ اذْعُرُوا رِعْابَكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ.⁽⁸⁾

﴿خزنة جهنم﴾ للقوام بتعذيب أهلها.

فإن قلت: هلا قيل الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في نكر جهنم تهويلاً وتفظيماً، ويحتمل أن جهنم هي أبعاد النار قعرًا من قولهم بئر جهنم بعيدة القعر وقولهم في النابغة جهنم تسمية بها لزعيمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر كما قال أبو نواس في خلف الأحمر: فليذم من العيالي الخسف، وفيها أعني: الكفار وأطغاهم فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قريبهم من الله تعالى فلهذا تعددهم أهل النار بطلب الدعوة منهم.

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْوَةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.⁽⁹⁾

﴿أولم تك تأتيكم﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات ﴿قالوا فادعوا﴾ أنتم فإننا لا نجتري على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين كون المشفوع له غير ظالم، والإن في الشفاعة مع مراعاة وقتها ونلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن الدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرَّب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ.⁽¹⁰⁾

﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي في الدنيا والآخرة يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم ويتبع الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد ﷺ لتكونوا شهداء على الناس واليوم الثاني بدل من الأوّل يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة، ولكنها لا تنفع

باب من العبادة ومن أفضل أبوابها يصنفه قول ابن عباس رضي الله عنهما أفضل العبادة الدعاء⁽²⁾ وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً مرسلأ كان يقول: لكل نبي أنت شاهدي على خلقي وقال: لهذه الأمة لتكونوا شهداء على الناس وكان يقول ما عليك من حرج وقال لنا: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج وكان يقول: ادعني أستجب لك وقال: لنا ادعوني أستجب لكم، وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد ﴿دلخزين﴾ صاغرين.

اللَّهُ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ آيَاتِ لِسْكَوًا فِيهِ وَاللَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾

﴿مبصراً﴾: من الإسناد المجازي لأن الإيصار في الحقيقة لأهل النهار.

فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ولو قيل: ساكناً والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة الا ترى إلى قولهم ليل ساج وساكن لا ربح فيه لم تتميز الحقيقة من المجاز.

فإن قلت: فلو قيل ولكن أكثرهم فلا يتكرر نكر الناس! قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله إن الإنسان لكفور إن الإنسان لربه لكنود إن الإنسان لظلوم كفار ﴿تلنكم﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو.

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلَىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٧﴾

﴿الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمنع عليه شيء والوحدانية لا ثاني له ﴿فآلَىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عيانتة إلى عبادة الأوثان.

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾

ثم نكر أن كل من جحد بآيات الله، ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العقاب أفك كما أفكوا، وقرئ خالق كل شيء نصباً على الاختصاص، وتؤفكون بالتاء والياء هذه أيضاً دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة وهي أنه جعل الأرض مستقراً.

سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله تمنيمهم تلك كبراً ونفى أن يبلغوا متمانهم ﴿فاستعد بالله﴾ فالتجئ إليه من كيد من يحسبك، ويبغي عليك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

فإن قلت: كيف اتصل قوله:

﴿لخلق السموات والأرض﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجالتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمتها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله ﴿لا يعلمون﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا قَلِيلًا مَّا نَسْتَكْثِرُونَ ﴿٦٨﴾

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء، وقرئ ﴿ينذكرون﴾ بالياء والتاء والتاء أعم.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿لا ريب فيها﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة وليس يمرتاب فيها لأنه لا بد من جزاء ﴿لا يؤمنون﴾ لا يصدقون بها.

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٩﴾

﴿ادعوني﴾ ادعوني والدعاء بمعنى: العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ والاستجابة الإثابة وفي تفسير مجاهد: ادعوني أثبكم. وعن الحسن: وقد سئل عنها أعموا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال إن ترك الذنوب هو الدعاء وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»⁽¹⁾. وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ الدعاء هو العبادة⁽²⁾ وقرأ هذه الآية ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ويريد بعبادتي دعائي لأن الدعاء

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (45) (الحديث): (2926).

(2) تقدم في سورة: مريم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک: 1/491.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١٦﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْمَدُونَكَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ أَنَّهُمْ بَصُرُونَا ﴿١٧﴾

﴿فإذا قضى أمراً فإنما﴾ يكونه من غير كلفة ولا معاناة جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما نكر من أفعاله الدالة على أن مقدره لا يمتنع عليه كأنه قال: فلنلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرع.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَصَلُّونَ ﴿١٧﴾

﴿بالكتاب﴾ بالقرآن ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من الكتب.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَسْلَابُ يُسْحَبُونَ ﴿١٧﴾

فإن قلت: وهل قوله:

﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ إلى مثل قولك سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان وجود والمعنى: على الاستقبال، وعن ابن عباس والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الإسمية وعنه والسلاسل يسحبون بحر السلاسل ووجه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إذ الأغلال في أعناقهم لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقتين حمل قوله والسلاسل على العبارة الأخرى ونظيره:

مشائهم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرباها
كانه قيل: بمصلحين وقرئ وبالسلاسل يسحبون.

فِي اللَّعِيمِ نُورٍ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّنَا كُنَّا نَدْعُونَكَ لِكَيْتَمَّ كُفْرُوكُمْ ﴿١٧﴾

﴿في النار يسجرون﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير كأنه سجر بالحب أي ملأه، ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجرون بالنار مملوءة بها أجوافهم ومنه قوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾⁽⁴⁾ اللهم أجرنا من نارك فإننا عائنون بجوارك.

يُنَادِيهِمْ فِي ذُورٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِأَلَمِّ الْكٰفِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع

٣٤٤

فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إنكم وما

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاكًا وَالسَّمَاءَ بِكَاةً وَسَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ السَّمٰوٰتِ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمٰلِكِيْنَ ﴿١٧﴾

﴿والسماء بناء﴾ أي قبة ومنه أبنية العرب لمضاربهما لأن السماء في منظر العين كقبة مضرورية على وجه الأرض ﴿فأحسن صوركم﴾ وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد قيل لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾⁽¹⁾

هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمٰلِكِيْنَ ﴿١٧﴾

﴿فادعوه﴾ فاعبوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء قائلين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين⁽²⁾.

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ دَعَّوْنَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُرِيدُ أَنْ أَسْلِمَ رَبِّي الْمَتَكِبِينَ ﴿١٧﴾

فإن قلت: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان باليلة العقل حتى جاءت البيئات من ربه قلت: بلى ولكن البيئات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة نكرها نحو قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما ننحتون والله خلقكم وما تعملون﴾⁽³⁾ وأشبه ذلك من التنبيه على أدلة العقل كان نكر البيئات نكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً وإنما نكر ما يدل على الأمرين جميعاً لأن نكر تناصر الأدلة العقل والسمع وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَلْفَعٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَمَّا كُمُتُمْ نُصَلِّوْكُمْ ﴿١٧﴾

﴿لتبلغوا أشدكم﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبيقيكم لتبلغوا، وكذلك لتكونوا وأما ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمياً﴾ فمعناه ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمياً وهو وقت الموت وقيل: يوم القيامة، وقرئ شيوخاً بكسر الشين وشيخاً على التوحيد كقوله طفلاً والمعنى: كل واحد منكم أو اقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس ﴿من قبل﴾ من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً ﴿ولعلمكم تعقلون﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

(3) سورة الصافات، الآيات: 95 - 96.

(4) سورة الهمزة، الآيات: 6 - 7.

(1) سورة التين، الآية: 4.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک: 438/2.

نرينك الذي وعدناهم فلنا عليهم مقتدرون»⁽³⁾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنهٗم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَيَنهٗم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَمِن لَّيْلِ يَأْتِيهِمْ نَجْوَىٰ مُنَادٍ فَاتِكَ الثُّبُلَاتِ ﴿٧٨﴾

«ومنهم من لم نقصص عليك» قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس وعن علي رضي الله عنه أن الله تعالى بعث نبياً أسود⁽⁴⁾، فهو ممن لم يقصص عليه وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً يعني أنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم «أن يأتي بآية إلا بإذن الله»، فمن لي بان أتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأتين في الإتيان بها «فإذا جاء أمر الله» وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة «المبطلون» هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فانكروها وسموها سحراً.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوا بِهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

الأنعام الإبل خاصة.

فإن قلت: لم قال «لتركبوا منها» وتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال منها تركيبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم! قلت: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه اغراض نبوية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم وأما الأكل وإصابة المنافع، فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ومعنى قوله:

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا كَيْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

«وعليها وعلى الفلك تحملون» وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر.

فإن قلت: هلا قيل وفي الفلك كما قال قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين! قلت: معنى الإيلاء، ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم لأن الفلك وعاء أن يكون فيها حمولة له يستعملها فلما صح المعنيان صحت العبارتان وأيضاً فليطبق قوله: وعليها وبزواجه.

وَرُبِّيَكُمُ أَيِّنِيهِ فَاثَىٰ أَيَّتِىَ اللَّهُ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾

«فأي آيات الله» جاءت على اللغة المستفيضة، وقولك فاية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في

تعبدون من نون الله حصب جهنم»⁽¹⁾ أنهم مقرنون بالكهتهم فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخرو وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من نون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكانهم ضالون عنهم «إبل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً» أي تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خبراً «كذلك يضل الله للكافرين» مثل ضلال الكهتهم عنهم يضلهم عن ألهمتهم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصانفوا.

ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنِّ اللَّيْلِ وَمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

«ولكم» الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح «بغير الحق»، وهو الشرك وعبادة الأوثان.

أَذْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَن سَمِيَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

«ادخلوا أبواب جهنم» السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم»⁽²⁾ «خالدين» مقررين الخلود «فبئس مثوى المتكبرين» عن الحق المستخفين به متواك أو جهنم.

فإن قلت: ليس قياس النظم أن يقال فبئس مدخل المتكبرين كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار وصل في المسجد الحرام فنعم المصلي؟ قلت: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

فَأَسْرِبْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِبَصِّ الَّذِي تَبْدُمُ أَوْ تَتَوَكَّلُ فَإِنَّا لَنُنَادِيهِمْ يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

«فإما نرينك» أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون بالفعل لا تراك لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن أما تكرمني أكرمك.

فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف «أو نتوفينك» على نرينك وتشركهما في جزء واحد، وهو قوله تعالى «فإلينا يرجعون» فقولك فلما نرينك بعض الذي نعددهم فلإلينا يرجعون غير صحيح وإن جعلت فلإلينا يرجعون مختصاً بالمعطوف الذي هو نتوفينك بقي المعطوف عليه بغير جزء قلت: فلإلينا يرجعون متعلق بنتوفينك وجزاء نرينك محنوف تقديره، فلما نرينك بعض الذي نعددهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فلإلينا يرجعون يوم القيامة، فنتنقم منهم أشد الانتقام ونحوه قوله تعالى: «فإما نذهب بك فلإنا منهم منتقمون، أو

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(2) سورة الحجر، الآية: 44.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 41 - 42.

(4) أخرجه ابن مريويه، وذكره الطبراني في معجمه الأوسط، وذكره

الثعلبي، الزيلعي: 222/3.

واستهزأهم، ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (4) ﴿ذَلِكَ مِبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (5) فلما جاءهم الرسل بعلوم البيانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا لِلَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَدِينُ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِ بَيْتِ﴾ (6).

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْتِنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَّ اللَّهُ آلِيَّ مَدَّ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ وبينه لو قيل فلم ينفعهم إيمانهم؟ قلت: هو من كان في نحو قوله: ﴿ما كان الله أن يتخذ من ولد﴾ (7) والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم.

فإن قلت: كيف ترانفت هذه الفأآت؟ قلت: أما قوله تعالى: ﴿فما أغنى عنهم﴾ (8) فهو نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾ (9) وأما قوله: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ (10) فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فما أغنى عنهم﴾ (11) كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء وقوله: ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ (12) تابع لقوله: ﴿فلما جاءتهم﴾ (13) كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا وكذلك فلم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿سنت الله﴾ بمنزلة وعد الله وما أشبهه من المصادر المؤكدة و﴿هنالك﴾ مكان مستعار للزمان أي وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ (14) بعد قوله: ﴿فإذا جاء أمر الله قضى بالحق﴾ (15) أي وخسروا وقت مجيء أمر الله أو وقت القضاء بالحق، عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».

الاسماء غير الصفات نحو حمار وحماره غريب، وهي في أي أعرب لاتهمه.

أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ يَوْمَهُمْ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَفَهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٦﴾

﴿وآثاراً﴾ قصورهم ومصانعهم وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم ﴿فما أغنى عنهم﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب والثانية موصولة، أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم كسوبهم أو كسبهم فرحوا بما عندهم من العلم فيه وجره منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿ببل أدرك علمهم في الآخرة﴾ (1) وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجنح خيراً منها منقلباً وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البيئات وعلم الأنبياء كما قال عز وجل: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (2) ومنها أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان وكانوا إذا سمعوا بوحى الله نفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم، وعن سقراط أنه سمع بמושى صلوات الله عليه وسلامه وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا ومنها أن يوضع قوله: فرحوا بما عندهم من العلم ولا علم عندهم البتة موضع قوله لم يفرحوا بما جاءهم من العلم مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرّة مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء ومنها أن يراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال: استهزؤا بالبيئات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين مرحين ويدل عليه قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَالِدِ وَمَا كَانُوا يَدِينُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ (3) ومنها أن يجعل الفرح للرسل، ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزأهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزأهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحقاق بالكافرين جزاء جهلهم

(9) سورة غافر، الآية: 82.

(10) سورة غافر، الآية: 83.

(11) سورة الاحقاف، الآية: 26.

(12) سورة غافر، الآية: 84.

(13) سورة غافر، الآية: 83.

(14) سورة غافر، الآية: 78.

(15) سورة غافر، الآية: 78.

(1) سورة النمل، الآية: 66.

(2) سورة الروم، الآية: 32.

(3) سورة الاحقاف، الآية: 26.

(4) سورة الروم، الآية: 7.

(5) سورة النجم، الآية: 30.

(6) سورة الاعراف، الآية: 165.

(7) سورة مريم، الآية: 35.

(8) سورة الاحقاف، الآية: 26.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

إن جعلت. ﴿حَمْدٌ﴾ إسمًا للسورة كانت في موضع
المبتدأ و ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبره وإن جعلتها تعديداً للحروف كان
تنزيل خبر المبتدأ محنوف و ﴿كِتَابٌ﴾ بدل من تنزيل، أو
خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محنوف وجوز الزجاج أن
يكون تنزيل مبتدأ، وكتاب خبره ووجه أن تنزيلاً تخصص
بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ميزت وجعلت
تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواظ ووعد
ووعيد وغير ذلك، وقرئ فصلت أي فرقت بين الحق
والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها من
قولك فصل من البلد ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على
الاختصاص، والمدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من
صفته كيت وكيت وقيل: هو نصب على الحال أي فصلت
آياته في حال كونه قرآنًا عربيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم
عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة
بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق قوله لقوم يعلمون! قُلْتُ: يجوز أن
يتعلق بتنزيل أو بفصلت أي تنزيل يفرق بين الصلوات
والصفات.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

وقرئ بشير ونذير صفة للكتاب أو خبر مبتدأ محنوف
﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون ولا يطيعون من قولك
تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم
يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّا لَنَرُّوهُ مِن بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلًا ﴿٥﴾

والاكنة جمع كنان وهو الغطاء، الوقر بالفتح الثقل
وقرئ بالكسر وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق
واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها كقوله
تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ (١) ومع أسماعهم له كان بها
صعماً عنه ولتباع المذهبين والدينين كان بينهم وما هم
عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابًا ساترًا
وحاجزًا منيعًا من جبل، أو نحوه فلا تلاقي ولا تراثي
﴿فَاعْمَلْ﴾ على بينك ﴿إِنَّا عاملون﴾ أي على بيننا أو
فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، وقرئ

إننا عاملون.

فإن قُلْتُ: هل لزيادة من في قوله ﴿ومن بيننا وبينك
حجاب﴾ فائدة! قُلْتُ: نعم لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب
لكان المعنى: أن حجابًا حاصل وسط الجهتين وأما بزيادة
من فالمعنى أن حجابًا ابتدأ منا، وابتدأ منك فالمسافة
المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قُلْتُ: هلا قيل على قلوبنا اكنة كما قيل: وفي أذاننا
وقر ليكون الكلام على نمط واحد! قُلْتُ: هو على نمط
واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في اكنة
والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ اكنة﴾ (٢)
ولو قيل: إننا جعلنا قلوبهم في اكنة لم يختلف المعنى
وترى المطابع منهم لا يرعون الطبايع والملاحظة إلا في:
المعاني.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَإِنَّ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾

فإن قُلْتُ: من أين كان قوله: ﴿إنما أنا بشر مثلكم
يوحى إلي﴾ جوابًا لقولهم: ﴿قلوبنا في اكنة﴾؟ قُلْتُ: من
حيث أنه قال لهم إنني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم وقد
أوحى إلي بونكم فصحت بالوحي إلي وأنا بشر نبوتي وإننا
صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إلي أن
إلهكم إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، فاستووا إليه بالتوحيد
وأخلاص العبادة غير زاهبين يمينًا ولا شمالًا ولا ملتفتين
إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء
﴿وتوبوا إليه﴾ مما سبق لكم من الشرك ﴿واستغفروا﴾،
وقرئ قال: إنما أنا بشر.

الَّذِينَ لَا يُؤْنُونَ الزُّكْرَةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾

فإن قُلْتُ: لم خص من بين أوصاف المشركين منع
الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟ قُلْتُ: لأن أحب شيء إلى
الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بنله في سبيل الله
فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع
طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ومثل الذين ينفقون
أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم﴾ أي يشبتون
أنفسهم ويبلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع
المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ففرت عصبيتهم ولانت
شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا
بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدها، وفيه بعث
للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث
جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة
وقيل: كانت قريش يطمعون الحاج ويحرمون من آمن منهم
برسول الله ﷺ وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أذكيا.
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

(2) سورة الكهف، الآية: 57.

(1) سورة البقرة، الآية: 88.

سواء فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان، ولو قال في يومين وقد يطلق اليومان على أكثرهما لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما.

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَيْنِيَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِرِينَ ﴿١٧﴾.

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من قولك استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهًا لا يلوي على شيء وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحو قولهم استقام إليه وامتد إليه ومنه قوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾ (2) والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك قيل: كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء فأخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء وعلا عليه فابيس الماء فجعله أرضًا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين ثم خلق السماء من الدخان المرتفع، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنع عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل، ويجوز أن يكون تخييلًا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: اثتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل قال الجدار للوئد لم تشقني قال الوئد: اسأل من يقني فلم يتركني وراثي الحجر الذي وراثي.

فإن قُلْتُ: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قُلْتُ: قد خلق جرم الأرض أولاً غير منحوة، ثم نحاهما بعد خلق السماء كما قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ (3) فالمعنى اثتيا على ما ينبغي أن تاتيا عليه من الشكل والوصف اثتيا يا أرض منحوة قرارًا ومهادًا لاهلك واثتيا يا سماء مقببة سققًا لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع كما نقول أتى عمله مرضيًا وجاء مقبولاً، ويجوز أن يكون المعنى لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتبشير من كون الأرض قرارًا للسماء وكون السماء سققًا للأرض، وتنصره قراءة من قرأ أتيا وأتينا من المؤاتة وهي الموافقة أي لتؤات كل واحدة أختها ولتوافقها قالتا وافقنا وساعدنا ويحتمل وفاقًا أمرى ومشيئتي ولا تمتنعا.

وهو الإيمان الممنون المقطوع وقيل لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل، فاما الأجر فحق أداءه وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كما صح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَكْمَلُونَ لَهُمْ أَجْرًا كَمَا صَحَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

﴿أنتم﴾ بهمزتين الثانية بين وبين وأنكم بالف بين همزتين ﴿نلك﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين هو ﴿رب العالمين﴾.

وَمَحَلَّ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَتَرَكَّ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْتَارَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٩﴾.

﴿رواسي﴾ جبالاً ثوابت.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿من فوقها﴾ وهل اختصر على قوله وجعل فيها رواسي؟ كقوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ (1) وجعلنا في الأرض رواسي وجعل لها رواسي قُلْتُ: لو كانت تحتها كالاساطين لها تستقر عليها أو مركوزة فيها كالمسامير لمنعت من الميدان أيضًا، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون المنافع في الجبال معرض لطالبها حاضرة محصلها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه وهو ممسكها عز وعلا بقدرته ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها واثمها ﴿وقدّر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم وفي قراءة ابن مسعود وقسم فيها أقواتها ﴿في أربعة أيام سواء﴾ فنلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الإثنين وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وقال الزجاج: في أربعة أيام في تنمة أربعة أيام يريد بالتنمة اليومين، وقرئ سواء بالحركات الثلاث الجر على الوصف والنصب على استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء.

فإن قُلْتُ: بم تعلق قوله: ﴿للسائلين﴾! قُلْتُ: بمحروف كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها أو يقدر أي قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المعتادين وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج.

فإن قُلْتُ: هلا قيل في يومين وأي فائدة في هذه الفنلكة؟ قُلْتُ: إذا قال في أربعة أيام وقد نكر أن الأرض خلقت في يومين علم أن ما فيها خلق في يومين فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين، وأن تقول في أربعة أيام

(3) سورة النازعات، الآية: 30.

(1) سورة المرسلات، الآية: 27.

(2) سورة فصلت، الآية: 6.

جانبا واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان لأتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم يعني لأتيتهم من كل جهة، ولأعلمن فيهم كل حيلة وتقول استدرت بفلان من كل جانب فلم يكن لي فيه حيلة وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة لأنهم إذا حنروهم تلك، فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم، وقيل معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم.

فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاؤهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم إنا بما أرسلتم به كافرين؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أي من قبلهم ومنم يجيء من خلفهم أي من بعدهم فكان الرسل جميعاً قد جاؤهم وقولهم إنا بما أرسلتم به كافرون خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم، أن في ﴿أن لا تعبدوا﴾ بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بانه لا تعبدوا أي بأن بالشان والحديث قولنا لكم لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف أي ﴿لو شاء ربنا﴾ إرسال الرسل ﴿لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ معناه فإن أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم أرسلتم به ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. روي أن أبا جهل قال في ملا من قريش، قد التبس علينا أمر محمد فلو التستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي فاتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبا فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حسبك عنا إلا أنك قد صبات فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ثم قال: والله لقد كلمته أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة، عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم

فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل اللزوم تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده لنفعلن هذا شئت أو أبيت ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين.

فإن قلت: هلا قيل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون قلت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعتين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين.

فَقَضَاهُنَّ سَحَّ سَكَّاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهُنَّ وَرَبَّنَا أَلَمَنَّا أَذْيًا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: طائعتين ونحوه أعجاز نخل خاوية، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصيبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز قبل خلق الله السموات وما فيها في يومين في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة وفي هذا ليل على ما نكرت من أنه لو قيل في يومين في موضع أربعة أيام سواء لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان.

فإن قلت: فلو قيل خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها اقواتها في يومين كاملين، أو قيل بعد نكر اليومين تلك أربعة سواء قلت: الذي أورد سبحانه أخصر، وأصح وأحسن طبقاً لما عليه التنزيل من مفاصلة القرائح ومصاك الركب ليمتيز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات ويتضاعف الثواب ﴿أمرها﴾ ما أمر به فيها وديره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك أو شأنها وما يصلحها ﴿وحفظها﴾ وحفظناها حفظاً يعني من المستترقة بالثواب ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى كانه قال: وخلقنا المصباح زينة وحفظاً.

فَإِنَّ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾

﴿فإن أعرضوا﴾ بعدما نتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة أي عذاب شديد الوقع كانه صاعقة، وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهي المرّة من الصعق، أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً وهو من باب فعلته ففعل.

إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةً بِرُءُوسِ السَّمَاوَاتِ أَوْ لَنُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَاسِبًا أَمْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي أتوهم من كل

وقرئ: ﴿ثمود﴾ بالرفع والنصب منونًا وغير منون بالرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء، وقرئ بضم التاء ﴿فهيئناهم﴾ فللناهم على طريقي الضلالة والرشد كقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ (2) ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فاختراروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرش.

فإن قلت: ليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية، وحصوها كما نقول ردهته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وزاح علمهم ولم يبق له عذرًا ولا علة فكانه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها ﴿صاعقة العذاب﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿الهلون﴾ الهوان وصف به العذاب مبالغة، أو أبله منه ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ وكفى به شاهدًا إلا هذه الآية لكفى بها حجة.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾

قرئ: ﴿يحشر﴾ على البناء للمفعول ونحشر بالنون وضم الشين وكسرهما، ويحشر على البناء للفاعل أي يحشر الله عز وجل ﴿أعداء الله﴾ الكفار من الأولين والآخرين ﴿يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليتهم وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته.

حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْكُونُ ﴿١٩﴾

فإن قلت: ما في قوله: ﴿حتى إذا ما جاؤها﴾ ما هي؟ قلت: مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها ومثله قوله تعالى: أثم إذا ما وقع أمنتكم به أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يقضي إليها من المحرمات.

فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلامًا، وقيل المراد بالجلود الجوارح وقيل هي كناية عن الفروج أراد بكل شيء كل شيء من الحيوان كما أراد به في قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ (3) كل شيء من المقدرات، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة وعلى إعانتكم ورجعكم إلى جزائه.

العذاب (1).

فَأَنَّا عَلَّمْنَا سَكْرًا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَمِيِّ وَقَالُوا مَن أَسَدٌ بِنَا قُوَّةٌ أَوْلَىٰ بِرَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَسَدٌ بِنَهُمْ قُوَّةٌ وَكَانُوا بِبَاتِنَاتِنَا يَخْتَفُونَ ﴿١٧﴾

﴿فاستكبروا في الأرض﴾ أي تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم، وهو القوة وعظم الأجرام أو استلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية ﴿من أشد منا قوة﴾ كانوا نوي أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده.

فإن قلت: القوة هي الشدة والصلابة في البنية وهي نقيضة الضعف وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية وهي نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة فكيف صح قوله: ﴿هو أشد منهم قوة﴾، وإنما يصح إذا أريد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية، وحقيقتها زيادة القدرة فكما صح أن يقال الله أقدر منهم جاز أن يقال أقوى منهم على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم ﴿يجحون﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوبيعة وهو معطوف على فاستكبروا أي كانوا كفرة فسقة.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْخِزْيَةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَتَرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿١٨﴾

المرصر العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها وقيل الباردة التي تحرق بشدة بردها تكرير لبناء المرصر، وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض ﴿نحسات﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها ونحس نحسًا نقيض سعد سعدًا وهو نحس وأما نحس فإمًا مخفف نحس أو صفة على فعل كالضخم وشبهه أو وصف بمصدر، وقرئ لتذيقهم على أن الإذاعة للريح أو للأيام النحسات، وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب كأنه قال: عذاب خز كما تقول فعل السوء تريد الفعل السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أخزى﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ألا ترى إلى البون بين قوليك هو شاعر وله شعر شاعر.

وَأَنَّا نُمَوِّدُ هَدْيَهُمْ فَاسْتَجَبُوا لِقَوْلِ الْهُدَىٰ فَأَعَدَّاهُمْ صَعِقَةً الْمَذَابِ الْهُدَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾

(3) سورة الحشر، الآية: 6.

(1) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم في دلائل النبوة، الزيلعي: 228/3.

(2) سورة البلد، الآية: 10.

وَقَالُوا يُمْلِكُونَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْفَعَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَاللَّهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

وإنما قالوا لهم: ﴿لم شهدتم علينا﴾ لما تعاضمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على السنة جوارحهم.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمَكُكُمْ وَلَا أَنْصُرَكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْبَرًا مِمَّا سَمَلْتُمْ ﴿١٢﴾

المعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحضين بالبعث والجزاء أصلاً ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما﴾ كنتم ﴿تعملون﴾ وهو الخفيات من أعمالكم وذلك الظن هو الذي أهلككم وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عيناً كالثقة ورقبياً مهيمناً حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملاء ولا يتبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا ضَمُّتُمْ مِنَ الْغَيْبِينَ ﴿١٣﴾

وقرئ ولكن زعمتم ﴿وذلكم﴾ رفع بالابتداء و﴿ظنكم﴾ و﴿أرداكم﴾ خبران، ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر.

فَإِنْ بَصُرُوا قَالَئِكَ مَتَوًى لَمْ يَكُنْ بِسَعَتَيْهِمَا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿١٤﴾

﴿فإن يصبروا﴾ لم ينفهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار ﴿وإن يستعجبوا﴾ وإن يسألوا العتبي وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزءاً مما هم فيه لم يعتبوا لم يعطوا العتبي، ولم يجابوا إليها ونحوه قوله عز وعلا: ﴿أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص﴾، وقرئ ﴿وإن يستعجبوا﴾ فما هم من المعتبين أي إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم إلى ذلك.

﴿وَفَضَّلْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَسُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَسْمِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وقضينا لهم﴾ وقدئنا لهم يعني لمشركي مكة يقال هذان ثوبان قبضان إذا كان متكافئين، والمقايضة المعاوضة ﴿قرناء﴾ أخذاناً من الشياطين جمع قرين كقوله تعالى: ﴿ومن يعش عن نكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ (١).

فإن قلت: كيف جاز أن يقبض لهم القرناء من الشياطين

وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين، واللليل عليه ومن يعش نقيض ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها أما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم من أمر العاقبة، وإن لا بعث ولا حساب ﴿ووحق عليهم القول﴾ يعني كلمة العذاب ﴿في أمم﴾ في جملة أمم ومثل في هذه ما في قوله:

إن تك عن أحسن الصنيفة ما فركأني آخرين قد أنكوا يريد فانت في جملة آخرين وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد.

فإن قلت: في أمم ما محله! قلت: محله النصب على الحال من الضمير في عليهم أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم، وللأمم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا قَوْمًا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْمُوكُمْ تَلْمِيزًا ﴿١٦﴾

قرئ: ﴿والغوا﴾ فيه بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغي ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته قال من اللغا ورفث التكلم، والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل، وما أشبه ذلك حتى تخلصوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً.

فَلْيَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجْرِيَهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَمْعُرُونَ ﴿١٧﴾

﴿فلنذيقن الذين كفروا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاغين والآميين لهم باللغو خاصة وأن ينكر الذين كفروا عامة لينطوا تحت نكرهم، وقد نكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعلانه وعن ابن عباس ﴿عذاباً شديداً﴾ يوم بدر، و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ في الآخرة.

ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الأسوأ ويجب أن يكون التقدير أسوأ جزء الذين كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة و﴿النار﴾ عطف بيان للجزاء أو خير مبتدأ محذوف.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ قلت: معناه أن النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ (٢) والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة وتقول لك في هذه الدار دار السرور وأنت تعني الدار بعينها ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا

تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾

كما أنّ الشياطين قراء العصاة وإخوانهم فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿تدعون﴾ تتمنون.

زُلْزِلَ مِنَ الْغُورِ رَجِيمٌ ﴿٣٧﴾

والنزل رزق النزول وهو الضيف وانتصابه على الحال. وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ممن دعا إلى الله﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما هو رسول الله ﷺ عليه وسلم دعا إلى الإسلام ﴿وعمل صالحاً﴾ فيما بينه وبين ربه وجعل الإسلام نحلة له وعنه أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وعن عائشة رضي الله عنها ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤمنين وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث أن يكون موحداً معتقداً الدين الإسلام عاملاً بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العِلِّم والتوحيد الدعاء إلى دين الله وقوله ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهباً ومعتقداً كما تقول هذا قول أبي حنيفة تريد مذهب.

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَدٌّ حَنِينٌ ﴿٣٨﴾

يعني أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أخذها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل الولي الحميم مضافة لك، ثم قال: وما يلقي هذه الخليفة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير.

فإن قلت: فهلا قيل فادفع بالتي هي أحسن! قلت: هو على تقدير قائل قال فكيف أصنع فقيل ادفع بالتي هي أحسن، وقيل لا مزيدة والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة.

فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال ادفع بالتي هي حسنة قلت: أجل ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة لأن من دفع بالحسنة هان عليه الدفع بما هو دونها.

يجحدون﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون فيها فنكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْيَمِينِ وَالْإِيمَانِ جَمَلَهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَ مِنَ الْأَسْمَانِ ﴿٣٨﴾

﴿للذين أضلانا﴾ أي الشيطانين اللذين أضلانا ﴿من الجن والإنس﴾ لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ (١) وقال تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ (٢) وقيل: هما إبليس وقابيل لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق، وقرئ أربنا يسكون الرءاء لثقل الكسرة كما قالوا في فخذ فخذ وقيل معناه أعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى بصريه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك ونظيره اشتهاار الإيتاء في معنى الإعطاء وأصله الإحضار.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَوْتُوا تَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ثم﴾ لتراضي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله ونحوه وقوله تعالى: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا والمعنى ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياتها وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً وعنه أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذبوا قال: حملتم الأمر على أشده قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا وغان الثعالب، وعن عثمان رضي الله عنه أخلصوا العمل وعن علي رضي الله عنه أبوا الفرائض وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قلت يا رسول الله أخبرني بأمر اعتصم به قال: قل ربّي الله، ثم استقم قال فقلت ما أخوف ما تخاف على فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال هذا ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ عند الموت بالبشرى وقيل البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت، وفي القبر وإذا قاموا من قبورهم ﴿إلا تخافوا﴾ إن بمعنى: أي أو مخففه من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لا تخافوا أي يقولون لا تخافوا والخوف غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضرر والمعنى أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تنوقوه أبداً وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ولا تحزنوا على ما خلفتم.

تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بالتي هي أحسن الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب، وعن الحسن رحمه الله والله ما عظم حظ دون الجنة وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذناً لرسول الله ﷺ فصار ولياً مضافاً.

وَمَا يَزْعَمُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾

النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس والشيطان بنزغ الإنسان كأنه ينخسه بيعته على ما لا ينبغي وجعل النزغ نازغاً كما قيل جد جده، أو أريد وإما ينزغك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أو لتسويله والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ من شره وامض على شأنك ولا تطعه الضمير في.

وَمِن مَّا يَلِيهِ الْإِنْسُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾

﴿خالقهن﴾ لليل والنهار والشمس والقمر لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى أو الإناث يقال الاقلام بريتها وبريتها، أو لما قال ومن آياته كن في معنى الآيات فقيل خلقهن.

فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى ﴿تعبدون﴾ وهي رواية مسروقة عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها وعند أبي حنيفة رحمه الله يسامون لأنها تمام المعنى: وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الوساطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين.

فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ بُسُحُورٌ لَّهُمْ يَأْتِيهِمُ وَالنَّهَارُ وَهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٢٨﴾

﴿فإن استكبروا﴾، ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشانهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عبداً ولا ساجداً بالإخلاص وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد وقوله ﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة وقرئ لا يسامون بكسر الياء.

وَمِن مَّا يَلِيهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَائِبَةً إِذْ أُنزِلَتِ عَلَيْهَا الْمَاءُ فَهَزَّتْ

وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِينَ أَلْبَسُوا بُسُوحًا عَلَيْهِمْ أَنَّمَا وَعَدَنَّا لَهُم مَّا يُبْغُونَ وَيَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

الخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾^(١) وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ إذا أخضبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالنليل الكاسف البال في الأطار الرثة، وقرئ وربات أي ارتفعت لأن النبات إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض.

إِنَّ الَّذِينَ يَلْمُذُنُ فِي مَائِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يَلْقَى فِي النَّارِ حَبِيرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي أَيَّامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا يَنْتَهُمُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾

يقال الحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ يلحدون ويلحدون على اللغتين وقوله ﴿ولا يخفون علينا﴾ وعيد لهم على التحريف.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ رَبَّهُمْ لَكِنَّهُمْ غَافِلُونَ ﴿٣١﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذکر﴾! قلت: هو بدل من قوله إن الذين يلحدون في آياتنا والذکر القرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منبع محمي بحماية الله تعالى.

لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٢﴾

﴿لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ مثل كان الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به.

فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوله المبطلون؟ قلت: بلى ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قبض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم، وإفساد آقاويلهم فلم يخلو طعن طاعن إلا محوفاً ولا قول مبطل إلا مضمحلاً ونحو قوله تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون ما يقال لك﴾ أي ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم من الكلمات المؤنية والمطاعن في الكتب المنزلة إن ربك لنو مغفرة ورحمة لانيائته.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ فِيلَ الرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿ذو عقاب﴾ لاعداثهم، ويجوز أن يكون ما يقول لك الله إلا مثل ما قال الرسول من قبلك والمقول هو قوله تعالى: ﴿إن ربك لنو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مِرْيَبٍ ﴿٤٦﴾

﴿فاختلف فيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل الكلمة السابقة هي العدة بالقيامه وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك لفضي بينهم في الدنيا قال الله تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم﴾^(١) ﴿لكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾^(٢).

مَنْ عَرِلَ صَلِيحًا لِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْمَبِيدِ ﴿٤٧﴾

﴿فلنفسه﴾ فنفسه نفع ﴿فعليلها﴾ فنفسه ضرر ﴿وما ربك بظلام﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا مِنْ آكْأَمِيهَا وَمَا نَحْمِلُ مِنْ أَنْفٍ وَلَا نَضَعُ إِلَّا بِوَيْبِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنِ شُرَكَائِي قَالُوا مَا أَذْنَكُ مَا مَنَا وَمَنَا مِنْ شَيْبٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم أو لا يعلمها إلا الله، وقرئ: من ثمرات من أكمامهن والكم بكسر الكاف وعاء الثمرة كجف الطلعة أي وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والنمام والنكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك ﴿أين شركائني﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم وبيانه في قوله تعالى: ﴿أين شركائني الذين كنتم تزعمون﴾^(٣) وفيه تهكم وتقريع ﴿أذناك﴾ أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أي ما منا لحد اليوم وقد أبصرنا وسمعنا يشهد بأنهم شركاؤك أي ما منا إلا من هو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التبويخ وقيل هو كلام الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد بما أضفوا إلينا من الشركة.

وَصَلَّى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾
ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير أنهم لا ينفعونهم فكانهم ضلوا عنهم ﴿وظنوا﴾ وأيقنوا والمحيص المهرب.

فإن قلت: أذناك إخبار بإيدان كان منهم فإذا قد آذنا فلم ستلوا قلت: يجوز أن يعاد عليهم أين شركائني إعادة للتوبيخ وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية دليل على إعادة المحكي ويجوز أن يكون المعنى أنك علمت من قلوبنا وعقائنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكانهم أعلموه ويجوز أن يكون إنشاء للإيدان ولا يكون إخباراً بإيدان قد كان كما تقول أعلم الملك أنه كان

وَلَوْ جَمَلْتَهُ فَرَأَانَا أَجْعِيًّا قَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ مَا أَعْرَجِيٌّ وَعَرَفِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَفَرُّهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٨﴾

والغرض تخويف العصاة كانوا لتعتنهم يقولون هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعتن وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي بينت ولخصت بلسان نطقه ﴿أعجمي وعربي﴾ الهمزة همزة الإنكار يعني لانكروا، وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي، وقرئ: أعجمي والأعجمي الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان والعجمي منسوب إلى أمة العجم، وفي قراءة الحسن أعجمي بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل أو المرسل إليه عربي والمعنى أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً لأن القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم ويجوز في قراءة الحسن هلا فصلت آياته تفصيلاً فجعل بعضها بياناً للعجم وبعضها بياناً للعرب.

فإن قلت: كيف يصح أن يراء بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً عجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي، وذلك لأن مبني الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد، أو جماعة فوجب أن يجرد لما سبق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل عرضاً آخر إلا تراك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة؛ اللباس طويل واللباس قصير ولو قلت واللباس قصيرة جئت بما هو لكنة وفضل قول لأن الكلام لم يقع في نكورة اللباس، وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما ﴿هو﴾ أي القرآن ﴿هدى وشفاء﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لما في الصدور﴾ من الظن والشك.

فإن قلت: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ منقطع عن نكر القرآن، فما وجه اتصاله به قلت: لا يخلو إما أن يكون الذين لا يؤمنون في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى للذين آمنوا على معنى قولك هو للذين آمنوا هدى وشفاء وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر إلا أن فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ أو في آذانهم منه وقر، وقرئ: وهو عليهم عم وعمى كقوله تعالى: فعميت عليكم ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يراعونه أسماعهم فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطئة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

من الأمر كيت وكيت.

لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتُوسَّ قُنُوطًا ﴿١٩﴾

﴿من دعاء الخير﴾ من طلب السعة في المال والنعمة، وقرأ ابن مسعود من دعاء بالخير ﴿وإن مسه الشر﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فيؤس قنوط﴾ ولغ فيه من طريقين من طريق بناء فاعول ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاعل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه وهذه صفة الكافر بليل قوله تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (١).

وَلَكِنْ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاةٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِمْتُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَكَيْتَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَكَلَيْفَتُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٠﴾

وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال ﴿هذا لي﴾ أي هذا حقي وصل إليّ لأنني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ أو هذا لي لا يزول عني ونحوه قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ (٢) ونحو قوله تعالى: ﴿وما أظنُّ للساعة قائمة﴾ إن نظنُّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين يريد وما أظنها تكون فإن كانت على طريق التروهم ﴿إن لي﴾ عند الله الحالة الحسنی من الكرامة والنعمة قائلًا أمر الآخرة على أمر الدنيا وعن بعضهم للكافر أمْنيتان يقول في الدنيا: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنی ويقول في الآخرة: يا ليتني كنت ترابًا.

وَإِذَا أَسْمَأُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ ﴿٢١﴾

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجون عليها كرامة وقربة عند الله وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثورًا وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلبًا للافتخار والاستتجار لا غير وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة وأنهم محقوقون بذلك هذا أيضًا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة وكأنه لم يلق بؤسًا قط فنسى المنعم وأعرض عن شكر ﴿ونأى بجانبه﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم، وإن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في البتھال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضًا كما استعير الغلظ بشدة العذاب، وقرئ: ونأى بجانبه بإمالة الالف وكسر النون للاتباع ونأى على القلب كما قالوا راء في رأى.

فإن قُلْتَ: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾. قُلْتُ: فيه وجهان أن يوضع جانبه موضع نفسه كما نكرنا في قوله تعالى على ما فرطت في جنب الله أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه ومنه قوله ونفيت عنه مقام الذنب يريد ونفيت عنه الذنب ومنه ولمن خاف مقام ربه ومنه قول الكتاب حضرت فلان ومجلسه وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريون نفسه، وذاته فكانه قال: ونأى بنفسه كقولهم في المكبر ذهب بنفسه وذهبت به الخيلاء كل مذهب وعصفت به الخيلاء وأن يراد بجانبه عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركته.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢٢﴾

﴿أرايتهم﴾ اخبروني ﴿إن كان﴾ القرآن ﴿من عند الله﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين ولتج الصور، وإنما هو قبل النظر واتباع الليل أمر محتمل يجوز أن يكون من عند الله وإن لا يكون من عنده وأنتم لم تنظروا ولم تتحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقًا وقد كفرتم به، فاخبروني من أضل منكم وأنتم إبعثتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فاهلكتم أنفسكم وقوله تعالى: ﴿ممن هو في شقاق بعيد﴾ موضوع موضع منكم بيانًا لحالهم وصفتهم.

سُرِّيهِمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفَىٰ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِي بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٣﴾

﴿سُرِّيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ يعني: ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عمومًا وفي باحة العرب خصوصًا من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ومن الإظهار على الجبابة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم وتسلط ضعافهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورًا خارجة من المعهود خارقة للعادات ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاليمها والاستقراء يطالعك في التواريخ، والكتب المودنة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علمًا من أعلم الله وآية من آياته يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور وأن للباطل ربحًا تخفق، ثم تسكن وبولة تظهر، ثم تضمحل ﴿بربك﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى

فإن قُلْتَ: فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون؟ قُلْتَ: يرتفع بالابتداء، والعزیز وما بعده أخبار والعزیز الحكيم صفتان والظرف خير.

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْأَرْضُ تُسْجَدُ لِأَيْدِيهِمْ وَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا لِمَن هُوَ الْمُفْرَرُ الرَّجِيمُ (٤).

قرئ: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء والياء وينفطرن ويتفطرن وروى يونس عن أبي عمر، وقراءة غريبة تنفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تشمن ومعناه يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم وقيل من دعائهم له ولدا كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ﴾ (2).

فإن قُلْتَ: لم قال من فوقهن؟ قُلْتَ: لأن أعظم الآيات وألها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقدیس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يتفطرن من فوقهن﴾ أي ببندئ الانفطار من جهتهن الفوقانية أو لأن كلمة الكفر جاءت من النين تحت السموات فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كانه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلّا: يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثرا في أجزائهم الباطنة وقيل: من فوقهن من فوق الارضين.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله وقد قال الله تعالى: ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾ (3) فكيف يكونون لاعتنين مستغفرين لهم؟ قُلْتَ: قوله: ﴿لمن في الأرض﴾ يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا قد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لاولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ (4) وحكايتهم عنهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ (5) كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصّقين طمعا في استغفارهم فكيف للكفرة ويحتمل أن يقصلا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إن الله يممسك السموات والأرض أن تزولا﴾، إلى أن قال: ﴿إنه كان حلیمًا غفورًا﴾ (6) وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ (7) والمراد

وإنه على كل شيء شهيد بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيم يستوي عنده غيبه وشهائته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

أَلَا إِنَّهُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ (٤١).

وقرئ: ﴿في مرية﴾ بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم يجمل الأشياء وتفصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنة» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى مكية

حَمْدٌ (١) عَسَقٌ (٢)

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما حم سق.

كَذَلِكَ يُرْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الْأَيْدِي مَنِ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِينَ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤).

﴿كنلك يوحى إليك﴾ أي مثل نك الوحي أو مثل نك الكتاب إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور وأوحى من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرز هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللفظ العظيم لعباده من الأولين والآخرين ولم يقل أوحى إليك ولكن على لفظ المضارع ليدل على أن إحياء مثله عانته، وقرئ: يوحى إليك على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: فما رافع اسم الله على هذه القراءة قُلْتَ: ما دل عليه يوحى كان قائلًا قال من الموحى فقيل الله كقراءة السلمي، وكنلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم على معنى زينه لهم شركائهم.

(1) نكرو الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 3/230.

(2) سورة مريم، الآية: 90.

(3) سورة البقرة، الآية: 161.

(4) سورة غافر، الآية: 7.

(5) سورة غافر، الآية: 7.

(6) سورة فاطر، الآية: 41.

(7) سورة الشورى، الآية: 5.

الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاماً.

للقرآن ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تجمع فيه قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾⁽¹⁾ وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله ولا ريب فيه﴾ اعتراض لا محل له، قرئ: فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على منهم فريق ومنهم فريق والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلائق والنصب على الحال منهم أي متفرقين كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: كيف يكونون مجموعين متفرقين في حالة واحدة؟ قُلْتُ: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين، وإن أريد بالجمع جمعهم في الموقف فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغَالِبُونَ مَا لَمْ يَرْ وَرِي وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾.

﴿لجعلهم أمة واحدة﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾⁽³⁾ والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿أفأنت تكره﴾⁽⁵⁾ بإدخال همزة الإنكار على المكروه دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

أَرَأَيْتَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ ذُرِّيَّتِهِ أُولِيَاءَ فَأَلَّهَ هُوَ الْوَكِيلُ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾.

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ الإنكار ﴿فأله هو الولي﴾ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: ﴿فأله هو الولي﴾ جواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أراؤنا ولياً بحق فأله هو الولي بالحق لا ولي سواه ﴿وهو يحيي﴾ أي ومن شأن هذا الولي أنه يحيي ﴿الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتُ: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن﴾ بتفسيرين فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قُلْتُ: أما على أحدهما فكانه قيل تكاد السموات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون خضوعاً لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته، وأما على الثاني فكانه قيل يكفن يتفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحنون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامدين له على ما أولاهم من الطافة التي علم أنهم عندها يستعصمون مختارين غير ملجئين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة ومن أهلها أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصاً على نجاة الخلق وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُرِّيَّتِهِ أُولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيطٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَٰكِبٍ ﴿١١﴾.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ جعلوا له شركاء وأناداً ﴿الله حفيظ عليهم﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وما أنت﴾ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان إنما أنت منظر فحسب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَيُنذِرَ يَوْمَ التَّجْمَعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْحَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّصِيرِ ﴿١٢﴾.

ومثل ذلك ﴿أوحينا إليك﴾، وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أن الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأن هذا المعنى كرهه الله في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا و﴿قرآناً عربياً﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لابس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حد الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك ﴿لتنذر﴾ يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا وقد عدى الأول أعني ﴿لتنذر أم القرى﴾ إلى المفعول الأول والثاني، وهو قوله وتذير يوم الجمع إلى المفعول الثاني ﴿أم﴾ للقرى، أهل أم القرى كقوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ ﴿ومن حولها﴾ من العرب، وقرى- لينذر بالياء والفعل

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة يونس، الآية: 99.

(1) سورة التغابن، الآية: 9.

(2) سورة الروم، الآية: 14.

(3) سورة يونس، الآية: 99.

قصودوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عنن يسد مسدّه وعنن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر النعم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومنه قولهم قد أيفعت لذاته وبلغت أترابه يريون إيفاعه وبلوغه وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته⁽⁴⁾ والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾⁽⁵⁾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكانها عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته.

لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

ونحوه قوله عز وجل: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾⁽⁶⁾ فإن معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له فذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد كما كرّرها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال، فاصبحت مثل كعصف مأكول، وقرى ويقدر ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٧﴾

﴿شرع لكم من الدين﴾ بين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾⁽⁷⁾ ومحل أن أقيموا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هي إقامة الدين ونحوه قوله: تعلق أن هذه أممكم أمة واحدة ﴿كبر على المشركين﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ما تدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿يجتبي

﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلك﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربي عليه توكلت﴾ في رد كيد أعداء الدين ﴿وإليه﴾ أرجع في كفاية شرهم وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فربوه إلي والرسول﴾⁽¹⁾ وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾⁽²⁾.

فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا، لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

فَاظْهَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٨﴾

﴿فاطر السموات﴾ قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم أو خبر مبتدأ محذوف والجر على، فحكمه إلى الله فاطر السموات وذلك إلى أنيب اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جعل لكم﴾ خلق لكم ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق من الأنعام أزواجاً ومعناه وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يذروكم﴾ يكثركم يقال نرا الله الخلق بثهم وكثرهم والذرو والذرة أخوات ﴿فيه﴾ في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين نكورهم وإناتهم التوالد والتناسل والضمير في يذروكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلنين.

فإن قلت: ما معنى يذروكم في هذا التدبير وهلا قيل يذروكم به! قلت: جعل هذا التدبير كالمتابع والمعدن للبت والتكثير ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾⁽³⁾ قالوا: مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريون نفيه عن ذاته

(5) سورة الشورى، الآية: 11.

(6) سورة المائدة، الآية: 64.

(7) سورة المائدة، الآية: 48.

(1) سورة النساء، الآية: 59.

(2) سورة الإسراء، الآية: 85.

(3) سورة البقرة، الآية: 179.

(4) رواه الطبراني في معجمه.

إليه ﴿يجتلب إليه ويجمع والضمير للدين بالتوفيق والتسديد ﴿من يشاء﴾ من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِذْ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لَفِي بَيِّنَاتٍ وَلَئِنَّ الَّذِينَ أُوثِرُوا بِالْكِتَابِ مِنْ بَدْوِهِمْ لَكُنَّ يَوْمَئِذٍ مُرْسِبًا ۖ ﴿١٧﴾

﴿وما تفرقوا﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبياءهم ﴿إلا من بعد﴾ أن علموا أن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿لفضي بينهم﴾ حين افترقوا لعظم ما افترقوا ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم﴾ وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لغي شك﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان وقيل كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للغي بينهم وقيل وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ (١) وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم هم المشركون أوتوا القرآن من بعد ما أوتت أهل الكتاب التوراة والإنجيل وقرئ: ووتوا وورثوا.

فَلْيَذَلِكِ فَأَنْذَرْتُ كَمَا أُبْرئتُ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَكُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَإِمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَآ أَمْلِكُمْ وَأَنْتُمْ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۖ ﴿١٨﴾

﴿فلنلك﴾ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فأدع﴾ إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية القديمة ﴿واستقم﴾ عليها على الدعوة إليها كما أمر الله ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب أي كتاب صح أن الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض كقوله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ (٢) إلى قوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ (٣) ﴿لأعدل بينكم﴾ في الحكم إذا تخاضتم فتحاكمتم إلي ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي لا خصومة لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿الله يجمع بيننا﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجة ومشاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجرتهم في مواقف المقابلة لا المقاتلة.

وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مِنْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ ﴿١٧﴾

﴿يحتاجون في الله﴾ يخاضمون في دينه ﴿من بعد﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليرتدوا إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ (٤) كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين كتاباً قبل كتابكم وبنينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق وقيل من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام ﴿داحضة﴾ باطلة زالة.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْبَيِّنَاتُ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۖ ﴿١٧﴾

﴿انزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة وقيل الذي يوزن به، بالحق ملتبساً بالحق مقترناً به بعيداً من الباطل أو بالعرض الصحيح كما اقتضته الحكمة أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك ﴿الساعة﴾ في تأويل البعث فلذلك قيل ﴿قريب﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قلت: كيف يوفق نكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكانه قيل: أمرم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويظف لمن ظف.

يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفُؤُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَكُنَّ بِعِيدٍ ۖ ﴿١٨﴾

المماراة الملاجة لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه ﴿لفي ضلال بعيد﴾ من الحق لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ بَرُّؤُ مِنْ بَشَأَهُ وَهُوَ الْقَرِيبُ الْقَرِيبُ ۖ ﴿١٨﴾

﴿لطيف بعباده﴾ بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

(3) سورة النساء، الآية: 151.

(4) سورة البقرة، الآية: 109.

(1) سورة البينة، الآية: 4.

(2) سورة النساء، الآية: 150.

فَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَرَافِعُ يَهُودَ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٧﴾

﴿ترى الظالمين﴾ في الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين
خوفاً شديداً أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات
﴿وهو واقع بهم﴾ يريد ووباله واقع بهم وواصل إليهم
لا بد لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا، كان روضة جنة
المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب
بالظرف لا بيشاؤون.

ذَلِكَ الَّذِي يَنْبَغِي اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَلَا أَشْرَكَ
عَلَيْهِ جَزَاءٌ إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرَبْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٨﴾

قري: ﴿يبشر﴾ من بشره وبيشر من أبشره وبيشر
من بشره والأصل ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده
فحذف الجار كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽¹⁾ ثم
حذف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: ﴿أهذا الذي
بعث الله رسولا﴾⁽²⁾ أو تلك التبشير الذي يبشره الله عباده،
روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم
لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعطاه أجراً فنزلت
الآية ﴿إلا المودة في القربى﴾ يجوز أن يكون استثناء
متصلاً أي: لا أسالكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل
قرباتي ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأن قرباتهم،
فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ويجوز أن يكون
منقطعاً أي: لا أسالكم أجراً قط ولكنني أسالكم أن تودوا
قرباتي الذين هم قرباتكم ولا تؤنؤهم.

فإن قلت: هلا قيل إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى،
ومعنى قوله: إلا المودة في القربى؛ قلت: جعلوا مكاناً للمودة
ومقرراً لها كقولك لي: في آل فلان مودة ولي فيهم هوى
وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله، وليست في
بصلة للمودة كاللام إذا قلت إلا المودة للقربى إنما هي
متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك المال في الكيس،
وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى وتمتكنة فيها والقربى
مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى قرابة، والمراد في أهل
القربى وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرباتك
هؤلاء الذين وجبت علينا موتهم قال: علي وفاطمة
وابنهما⁽³⁾، ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه
شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي فقال: أما ترضى
أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن
والحسين وأزواجنا عن إيماننا وشمائلنا ونزبتنا خلف
أزواجنا⁽⁴⁾، وعن النبي ﷺ حرمت الجنة على من ظلم أهل

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ بعد
توصل بزه إلا أن البر أصناف وله أوصاف والقسمة بين العباد
تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتبدير فيطير
لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا
حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له
منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله
تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ كما يرزق أحد الأخوين ولذا دون
الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد
﴿وهو للقوي﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء
﴿العزيز﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٩﴾

سمى ما يعمله العامل مما ينبغي به الفائدة والزكاء حرثاً
على المجاز، وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل
للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله
للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه
الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة،
ولم ينكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب
على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة
للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصده من زكاء عمله
وفوزه في المآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ
وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُوتَ بِهِمْ وَرِءَ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٠﴾

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ التقرير والتقريع، وشركاؤهم
شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل
للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم
الشياطين، وتعالى الله عن الإن فيهِ، والأمر به وقيل:
شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيف إليهم لأنهم متخذوها
شركاء لله فتارة تضاف إليهم لهذه الملازمة، وتارة إلى الله
ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم جعلت شارعة لدين
الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: إنهم أضلن كثيراً
من الناس ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق
بتأجيل الجزاء أي: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم
القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين أو
بين المشركين وشركائهم، وقرا مسلم بن جندب وأن
الظالمين بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة
الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضى بينهم
في الدنيا.

= المودة في القربى (الحديث رقم: 4818).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة الانبياء، الآية: 18.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشورى، باب: إلا=

المودة تناولاً أولياً كان سائر الحسنات لها توابع. وقرئ: يزد أي يزد الله وزيادة حسناتها من جهة الله مضاعفتها كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾⁽⁵⁾ وقرئ: حسنى وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ بِنَاءَ اللَّهِ يَحْتَرَى عَلَى قَلْبِكَ وَمَعَ اللَّهِ الْبَيْتُ الْعَلِيُّ وَرَبُّ الْمَقْعَةِ يَكْتُمُهَا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: يتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾، فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تقترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والسخول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا أن يخون بعض الأمانة فيقول لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبية على أنه ركب من تخونه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق ﴿بكلماته﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾⁽⁶⁾ يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم إن الله عليهم بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل: يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك آذاهم.

فإن قلت: إن كان قوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط قلت: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشرك﴾⁽⁷⁾ وقوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾⁽⁸⁾ على أنها مثبتة في بعض المصاحف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه.

بيتي وأذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعه إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازيه عليها فاتنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة⁽¹⁾ وروى أن الانصار قالوا فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الانصار ألم تكونوا آتلة فاعزكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: أفلا تجيبونني قالوا: ما نقول يا رسول الله، قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأريناك أو لم يكذبوك فصدقتك أو لم يخذلوك فنصرتك قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله⁽²⁾ فنزلت الآية وقال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيداً إلا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً إلا ومن مات على حب آل محمد بشرة ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير إلا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة إلا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة إلا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، إلا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله إلا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً إلا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة، وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربي، فلما كذبوه وأبوا أن يبياعوه نزلت⁽³⁾ والمعنى: إلا أن تودوني في القربي أي في حق القربي ومن أجلها كما تقول الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني أنك قومي وأحق من أحببني وأطاعني فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربي، ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي وقيل: أتت الانصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هذان الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوابه وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت⁽⁴⁾ ورده وقيل: القربي التقرب إلى الله تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ: إلا المودة في القربي ﴿ومن يقترف حسنة﴾ عن السدي أنها المودة في آل رسول الله ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما تكرت عقيب نكر المودة في القربي دل ذلك على أنها تناولت

(1) نكره الثعلبي في تفسيره.

(2) رواه الطبري في تفسيره، ورواه الطبراني في معجمه الاوسط، وابن أبي حاتم في تفسيره، الزيلعي 3/237.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/238.

(4) قال الزيلعي غريب 3/239، ونكره الواحدي في أسباب النزول

(5) سورة البقرة، الآية: 245.

(6) سورة الانبياء، الآية: 18.

(7) سورة الإسراء، الآية: 11.

(8) سورة العلق، الآية: 18.

الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى قال خباب بن الأرت: فينا نزلت وثلث أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها **﴿بقدر﴾** بتقدير يقال: قدره قدرًا وقدرًا **﴿خبير بصير﴾** يعرف ما يؤل إليه أحوالهم فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا.

﴿فإن قلت﴾: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم؟ فإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه؟ **﴿قلت﴾**: لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْتِنَ مِنْ بَدْرٍ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ
الَّذِي الْحَمِيدُ (١٧).

﴿قريء﴾ **﴿قنطوا﴾** بفتح النون وكسرهما **﴿وينشر﴾** رحمته أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذا⁽²⁾ أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة **﴿الولي﴾** الذي يتولى عبادته بإحسانه **﴿الحميد﴾** المحمود على ذلك يحمد أهل طاعته.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّكْوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمِيْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (١٨).

﴿وما بث﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا يحمل على المضاف إليه والمضاف.

﴿فإن قلت﴾: لم جاز **﴿فيهما من دابة﴾** والدواب في الأرض وحدها **﴿قلت﴾**: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من اقتضاهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم ومنه قوله تعالى: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾** وإنما يخرج من الملح⁽³⁾ ويجوز أن

وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْتِنَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْلَمُ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
فَعَلُوا (١٥).

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب، وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أنقذتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته **﴿ويعفو﴾** عن السيئات **﴿عن الكبائر﴾** إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ويعلم ما يفعلون قريء بالثاء والياء أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

وَسَتَجِدَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَرَبِّدْتُمْ مِّنْ نَّسَبِهِمْ وَالْكَافِرُونَ
لَمْ يَخَفْ سَدِّدٌ شَدِيدٌ (١٦).

﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ أي يستجيب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: **﴿وإذا كالوهم﴾** أي: يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم وقيل الاستجابة فعلهم أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها **﴿ويزيدهم﴾** هو **﴿من فضله﴾** على ثوابهم وعن سعيد بن جبير هذا من فعلهم يجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن آدم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُّزِيلُ يَدْرٍ
مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبِءَادِهِمْ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (١٧).

﴿لبغوا﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذلك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مباشرة وكفى بحال قارون عبرة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها ولبعض العرب⁽¹⁾، وقد جعل الوسمي ينبت بيننا، وبين بني رومان نبماً وشوحطاً يعني: أنهم أحيوا فحدثوا أنفسهم بالبغي والتفانت، أو من البغي وهو البذخ والكبر أي لتكبروا في

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، (الحديث: 1465).

وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، الحديث: (121 - 1052).

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره، ونكره الثعلبي، الزيلعي: 240/3.

(3) قال أحمد: إطلاق الدواب على الإنساني بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب والله أعلم هو الوجه الأول. وقد جاء مفسراً في غير ما آتته، كقوله: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾**، ثم قال: **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل﴾**

﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب
﴿من ولي﴾ من متول بالرحمة.

وَمِن مَّا يَكْتُمُونَ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾

الجوار: السفن، وقرئ: ﴿الجوار﴾ كالأعلام، كالجبال
قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار.

إِن يَأْتِ سَكِينٌ أَرِيحٌ فَظَلَّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
مُبْصِرٍ شَكِيرٍ ﴿٣٣﴾

وقرئ: ﴿الرياح فيظللن﴾ بفتح اللام وكسرهما من ظل
يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ﴿رواكده﴾ ثوابت
لا تجري ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر^(١) لكل
صبار ﴿على بلاء الله﴾ شكور، لنعمائه وهما صفتا
المؤمن المخلص فجعلها كناية عنه وهو الذي وكل همته
بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر.

أَوْ يُؤْمِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْتَزَّ عَنِ كَبِيرٍ ﴿٣٤﴾

﴿يؤيقهن﴾ يهلكهن، والمعنى أنه: إن يشأ يبطلن
المسافرين في البحر بإحدى بليتين أما أن يسكن الريح
فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعن من الجري وإما
أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقاً، بسبب ما كسبوا
من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها.

فإن قلت: علام عطف ﴿يؤيقهن﴾! قلت: على يسكن
لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها
فيغرقن بعصفها.

فإن قلت: فما معنى إخال العفو في حكم الإيقاق حيث
جزم جزمه؟ قلت: معناه، أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً
على طريق العفو عنهم.

فإن قلت: فمن قرأ ويعفو قلت: قد استأنف الكلام.

وَمِمَّا كَتَبْنَا بِالْأَنْبِيَاءِ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ وَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَكَرَّمْنَا لَدُنَّكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ لَا يُلَاقِيكَ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَبَدَّلْنَا الذُّلَّ بِالْإِكْرَامِ ﴿٣٥﴾

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿ويعلم﴾ قلت:

يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران، فيوصفوا
بالدبيب كما يوصف به الأناسي ولا يبعد أن يخلق في السموات
حيواناً يمشى فيها مشى الأناسي على الأرض سبحانه الذي
خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق، إذا يبخل على
المضارع كما يبخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿والليل إذا
يغشى﴾ ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وإذا ما شاء أبعد منها آخر الليل ناشطاً مذعوراً
وما أصبكم من مُصيبةٍ فيما كُتبت أديركم ويعموا عن كثير
﴿٣٦﴾

في مصاحف أهل العراق ﴿فبما كسبت﴾ بإثبات الفاء
على تضمين ما معنى الشرط وفي مصاحف أهل المدينة
بما كسبت بغير فاء على أن ما مبتدأة وبما كسبت خبرها
من غير تضمين معنى الشرط الآية مخصوصة
بالمجرمين^(١)، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب
المجرم ويعفو عن بعض فأما من لا جرم له كالأنبياء
والاطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو
غيره فللعوض الموفى والمصلحة وعن النبي ﷺ ما من
اختلاج عرق ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بنبت ولما
يعفو الله عنه أكثر^(٢) وعن بعضهم من لم يعلم أن ما
وصل إليه من الفتن والمصائب بالكسبائه وأن ما عفا عنه
مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه وعنه آخر
العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعته أكثر
من جناياته في معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه
وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته
بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا
عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله
عنه وقد رفعه من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة
ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة^(٣)،
وعنه رضي الله عنه هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن.

وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْآخِرِينَ وَمَا لَكُمْ مِّن ذُرِّيَةِ اللَّهِ مِّنْ ذَكَرٍ وَلَا
نَسِيرٍ ﴿٣٧﴾

دابة، فخص هذا الامر بالأرض، والله أعلم.

(١) قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القدرية، ولا يمكنهم ترويع
حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى:
﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب وهو غير ممكن لهم
ههنا، فإنه قد أثبت التبعض في العفو، ومحال عندهم أن يكون
العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعض التوبة أيضاً، وهي
عندهم لا تتبعض، وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس
الاعتزال، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾، فلا محمل لها إلا الحق
الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير
موقوف على التوبة، وقول الزمخشري: إن الآلام التي تصيب
الاطفال والمجانين لها أعراض إنما يريد به وجوب العوض على
الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأن
المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بليجابه في
الاطفال والمجانين، ألا ترى أن القاضي أبا بكر الرزمهم قبح إبلام =

= البهائم والاطفال والمجانين، فقال: لا اعراض لها وليس مترتباً
على استحقاق سابق فيحسن، وإنما يتم إزمه بموافقتهم له على
أن لا أعراض لها.

(٢) لم أقف عليه عند البيهقي في الشعب ولا عند عبد الرزاق.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الحد كفارة، (الحديث:
2604).

وأخرجه أحمد في المسند: 214/5.

وأخرجه الحاكم في المستدرک: 445/2.

(٤) قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً
بخلاف الرياح، وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإن الريح المنكورة هنا
نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو
سكنت لركنت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما
نكروه، وأما اطراده فلا، وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً
ولا تجعلها ريحاً» فلاج الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَكْرَمُوا شُرُوفَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بان آمنوا به وأطاعوه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وأتوا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فآثني الله عليهم أي: لا ينفرون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلا هتوا لأرشد أمرهم⁽³⁾، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: نو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنصَبُوا آبِيَهُمْ فِي الصُّعُورِ ﴿٢٩﴾

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن ينلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

فإن قلت: أهم محمبون على الانتصار قلت: نعم لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه حمامة على عرضه وردعا له فهو مطيع وكل مطيع محمود.

وَمَن كَانَ عَدُوًّا لِلسُّنَّةِ وَسَبَّ سِنَّةً بَنِيهَا فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به قال الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾⁽⁴⁾ يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا والمعنى: أنه يجب إذا قولت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة فإذا قال: أخزأك الله قال أخزأك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾⁽⁵⁾ ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه⁽⁶⁾ تجاوز السينة والاعتداء خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر، وعن النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال: فيقوم خلق فيقال لهم ما أجزكم على الله، فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلماً فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله⁽⁷⁾.

أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف وأما النصب فللعطف على تعليل محنوف تقديره لينتقم منهم ﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ ونحوه في العطف على التعليل المحنوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾⁽²⁾ وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأن قبلها جزاء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك جزماً ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه قال: وأعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تاتني أتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله والحق بالحجاز فاستريحا فهذا يجوز، وليس بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأوّل فعل، فلما ضارع الذي لا يوجب كالاتفهام، ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه اه ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد نكر نظائرها من الآيات المشكّلة.

فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم؟ قلت: كأنه قال وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه.

فَأُوتِيْتُمْ مِنَ اللَّهِ حَرِّاً شَدِيداً وَاللَّهُ عِنْدَ حَرِّهِ شَاقِقٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣١﴾

ما الأولى ضمننت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطاه الكافرون فنزلت.

وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَابَرُوا مُم بِغَفْوَةٍ ﴿٣٢﴾

﴿والذين يجنبون﴾ عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعده ومعنى ﴿كبائر الإثم﴾ الكبائر من هذا الجنس، وقرئ كبير الإثم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون.

(6) قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل لم نكر هذا عقب العفو، مع أن الانتصار ليس بظلم فيشفي غليل السائل، ويحصل منه على كل طائل.

(7) رواه أبو نعيم في الحلية: 53/8، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق فصل في ترك الغضب، الحديث: 8313.

(1) سورة مريم، الآية: 21.

(2) سورة الجاثية، الآية: 22.

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: 1/358، باب: المشورة، (حديث: 258).

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة فصلت، الآية: 34.

المحاب، وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفي وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسر أو يكون قول المؤمنين: واقعاً في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا راوهم على تلك الصفة.

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُوَسِّدُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (١٧).

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد أي: لا يرده الله بعدما حكم به، أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، والنكير الإنكار أي: مالكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما افترقتموه وبون في صحائف أعمالكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْكَلِمَةُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَدَّ بِهَا وَإِنْ نُسِئْتُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ فَبِئْسَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (١٨).

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابه السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسيئة البلاء من المرض والفقير والمخاوف، والكفور البليغ الكفران ولم يقل، فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إن الإنسان لظلم كفار﴾ ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ والمعنى أنه ينكر البلاء وينسى النعم (2) ويغمطها.

وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَدِهِ وَرَى الْقَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ (١٩).

لما نكر إذافة الإنسان الرحمة وإصابته بضعها أتبع ذلك أن له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإنثاء وبعضاً بالذكور وبعضاً بالصفين جميعاً ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لِمَ قَدَّمَ الْإِنثَاءَ أَوْلَادًا عَلَى الذَّكَورِ مَعَ تَقَدُّمِهِمْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ رَجَعَ قَدَّمَهُمْ وَلَمْ يَعْرِفِ الذَّكَورُ بَعْدَ مَا نَكَرَ الْإِنثَاءَ؟ قُلْتُمْ: لِأَنَّهُ نَكَرَ الْبَلَاءَ فِي آخِرِ آيَةِ الْوَأُولَى وَكُفْرَانَ الْإِنثَاءَ بِنِسْيَانِهِ الرَّحْمَةَ السَّابِقَةَ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَقَبَهُ بِنَكَرِ مَلِكِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَنَكَرَ قِسْمَةَ الْوَأُولَادِ، فَقَدَّمَ الْإِنثَاءَ لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا يَشَاؤُهُ لَا مَا يَشَاؤُهُ الْإِنثَاءُ، فَكَانَ نَكَرَ الْإِنثَاءَ اللَّاتِي مِنْ جَمَلَةٍ مَا لَا يَشَاؤُهُ الْإِنثَاءُ أَمُّ وَالْأَهَمُّ وَاجِبٌ التَّقْدِيمِ وَلِكِبَلِيٍّ الْجِنْسِ الَّذِي كَانَتْ الْعَرَبُ تَعَدُّهُ بَلَاءً نَكَرَ

وَلَمْ يَأْتِ أَمَرَ بَعْدَ عَلَيْهِمْ فَأَوْلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلِ (٢٠).

﴿بعد ظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ما عليهم من سبيل﴾ للمعاقب، ولا للعائب والعائب.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١).

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون في الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

وَلَمَنْ سَبَّ وَظَنَّ إِنَّهُ ذَلِكَ لِمَنْ عَزِمَ الْأُمُورَ (٢٢).

﴿ولمن سببر﴾ على الظلم والأذى ﴿ووغفر﴾ ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله ﴿إن ذلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الرجوع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم، ويحكي أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يظلم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية فقال: الحسن عقلا والله وفهمها إذ ضيعها جاهلون، وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاها فلا تنتهي فقال لعائشة: بونك فانتصري (1).

وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَدِهِ وَرَى الْقَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ (٢٣).

﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخذل الله ﴿فما له من ولي بعده﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

وَرَبَّهُمْ يُرْضَوْنَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ مِنَ الذَّلِيلِ يَطْرُقُونَ مِنْ طَرَفٍ حَتَّىٰ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ لِلنَّارِ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا إِنَّ الْقَلِيلِينَ فِي عَذَابٍ مُتَعَمِّرٍ (٢٤) وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَرُّونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلِ (٢٥).

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الذل﴾ وقد يعلق من الذل ينظرون ويوقف على خاشعين ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظرم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارعة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملا عينيه منها كما يفعل في نظره إلى

(1) أخرجه أحمد في المسند: 93/6.

== فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال: إلا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(2) قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين آمنوا أن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة إلا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾.

الحال لَأَنَّ أَنْ يرسل في معنى إرسال ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾⁽¹⁾ والتقدير وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً ويجوز أن يكون موحياً موضوعاً موضع كلاماً لأنَّ الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا اكلمه إلا جهراً وإلا خفائاً لأنَّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة تقول قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك، وقوله: أو من وراء حجاب معناه أو إسماعاً من وراء حجاب ومن جعل وحيًا في معنى أن يوحى وعطف يرسل عليه على معنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أي: إلا بأن يوحى أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرًا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب، وقرئ أو يرسل رسولاً فيوحى بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلاً عطفًا على وحيًا في معنى موحياً، وروي أن اليهود قالت للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتتنظر إليه إن كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه فإننا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الغفيرة، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلث هذه الآية ﴿إنه علي﴾⁽³⁾ عن صفات المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة إما إلهامًا وإما خطابًا.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَمَعْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

﴿روحًا من أمرنا﴾ يريد ما أوحى إليه لأنَّ الخلق يحيون به في ينهيم كما يحي الجسد بالروح.

فإن قلت: قد علم أن رسول الله ﷺ ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه⁽⁴⁾ فما معنى قوله: ﴿ولا الإيمان﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا، وتمكنوا من النظر

البلاء وَأَحْزَرَ النُّكُورَ، فلما أخرجهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحمقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأنَّ التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المنكوريين الذين لا يخفون عليهم.

أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذِكْرَانَا وَإِنَّا نَحْمَدُكَ بِمَنْ يَشَاءُ عَزِيمًا إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾

ثم أعطى بعد ذلك لا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم، ولكن لمقتضى آخر فقال: ﴿نكرانًا وإنانًا﴾ كما قال: إنا خلقناكم من نكر وأنثى فجعل منه الزوجين النكر والأنثى، وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حيث وهب لشعيب ولوط إنانًا وإبراهيم نكور ولمحمد نكورًا وإنانًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿إنه عليهم﴾ بمصالح العباد ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ، مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وما كان لبشر﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أن يكلمه الله إلا﴾ على ثلاثة أوجه إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في نبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليَّ الله أن قد تاملوا بلبل أبي أوفى ففتمت على رجل أي الهمني وقنف في قلبي وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾ مثل أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى، ويكلم الملائكة وأما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على الاستنهم ووحياً وأن يرسل مصدران واقعان موقع

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.

(2) لم يخرج الزيلعي.

(3) تقدم في سورة الأحزاب.

(4) قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري: أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركباً، حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان، ولا يناله وعد المؤمنين، وتفتن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية عدها فرصة لينتهزها، وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإرادة مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكانه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق، كما تقول أهل السنة للزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقاً، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث باتفاق الفريقين، لزم أن لا يكون =

= الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل المبعث، وهذا الذي طمع فيه يخرط للقتاد ولا يبلغ منه ما أراد، وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: أن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد، وإن كان فاسقاً يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

وقرئ أم الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾⁽⁴⁾ سمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ نو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتابهما صفاته وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنضِرْبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿أفنزرب عنكم الذكر صفحاً﴾ بمعنى أفنحى عنكم الذكر وننوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

أضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قورن الفرس
والفاء للعطف على محنوف تقديره أنهملمكم فنزرب
عنكم الذكر إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من
إنزاله الكتاب وخلفه قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجهه،
وصفحاً على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا عرض
منتصب على أنه مفعول له علي معنى: أفنزل عنكم إنزال
القرآن، والزام الحجة به إعراضاً عنكم وإما بمعنى: الجانب
من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى
أفنحيه عنكم جانباً فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه
جانباً وامش جانباً وتعضده قراءة من قرأ صفحاً بالضم
وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح
جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين
﴿إن كنتم﴾ أي لأن كنتم وقرئ أن كنتم وإن كنتم.

فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا
مسرفين على البيت؟ قلت: هو من الشرط الذي نكرت أنه
يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول
الاجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك
ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق
فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاً له.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ سَاهِبِينَ ﴿٧﴾.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية خال ماضيه مستمرة أي: كانوا
على ذلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أشد منهم﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف
الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿ومضى

والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن
يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصفائر التي
فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من
الكفر؟ قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه
العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه
السمع نون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه
بالوحي إلا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿ما
كان الله ليضيع إيمانكم﴾⁽¹⁾ بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله
الإيمان ﴿من نشاء من عباننا﴾ من له لطف ومن لا لطف
له فلا هداية تجدي عليه.

يُرْطِبُ اللَّهُ الْأَبْصَارَ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْآلَ إِلَى اللَّهِ
نَصِيرٌ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾.

﴿صراط الله﴾ بدل، وقرئ لتهدى أي: يهديك الله وقرئ
لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن
تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.
وجعل قوله: ﴿إننا جعلناه قرآنًا عربيًا﴾ جواباً
للقسم⁽³⁾ وهو من الأيمان الحسنة البينة لتناسب القسم
والمقسم عليه وكونهما من واحد ونظيره قول أبي
تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين أنزل
عليهم لأنه بلغتهم وأساليهم وقيل: الواضح للمتدبرين
وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان
ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى:
صيرناه معدى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدى إلى
واحد كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ و﴿قرآنًا
عربيًا﴾ حال، ولعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها
ومعنى الترجي أي: خلقناه عربيًا غير عجمي إرادة أن
تقله العرب وللا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَأَنبَأُ فِي زُرِّ الْكِتَابِ لَدِينًا لَعَلَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

= وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بانه في غاية الحسن ثم
جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي إغريض،
وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً
للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيات: 21 - 22.

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) نكره التعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 246/3.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن،
وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن
عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى،
فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، =

﴿الأزواج﴾ الاصناف ﴿ما تركبون﴾ أي تركبونه.

فإن قُلْتُ: يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك⁽²⁾، وقد نكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قُلْتُ: غلب المتعدّي بغير واسطة لقوته على المتعدّي بواسطة، فقيل: تركبونه.

يَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿على ظهوره﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام، ومعنى نكر نعمة الله عليهم: أن ينكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ثم يحمونها عليها بالسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ إنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال سبحانه الذي سخر لنا هذا إلى قوله، لمنقلبون وكبر ثلاثاً وهل ثلاثاً⁽³⁾ وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم⁽⁴⁾، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا فقال: ابهذا أمرتم فقال: وبم أمرنا: قال أن تذكروا نعمة ربكم كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه⁽⁵⁾، وهذا من حسن مراعاتهم آداب الله ومحافظتهم على نقيقتها وجليلها

مثل الأولين﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه نكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول الله ﷺ ووعيد لهم.

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿ليقولن﴾ خلقهن العزيز العليم، وما سرد من الأوصاف عقيبها إن كان من قولهم⁽¹⁾ فما تصنع بقوله: ﴿فانشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله فما وجهه؟ قُلْتُ: هو من قول الله لا من قولهم ومعنى قوله: ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي هو من صفته كيت وكيت لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه.

وَالَّذِي زَكَّىٰ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَخْرِجُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٦﴾

﴿يقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفاناً.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾

(1) قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم، وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهن وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾، ثم لما قالوا: خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه، وأخذه حذف الموصوف من كلامهم، واتيمت الصفات المنكورة في كلام الله تعالى مقامه، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن نقول للرجل: من أكرمك من القوم، فيقول: أكرمني زيد، فنقول أنت واصفاً للمتكور الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الاقتنان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة، وأخره على الانتقال منها إلى التكلم في قوله: فانشرنا كل تلك اقتنان في اقتان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فجاء أول الكلام حكاية عن موسى إلى قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافاً متصلة بكلام موسى، حتى كأنه كلام واحد وأبتدا في نكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لم يحزر العبارة في هذا الموضع، فإن قوله: غلب المتعدّي بغير واسطة على المتعدّي بنفسه يوم أن بين الفعلين تبايناً وليس كذلك، فإن المتعدّي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدّي إلى السفن غاية ما، ثم أن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة، وباعتبار بعضها بالمتعدّي بنفسه، والاختلاف=

= بالتعدّي والقصور أو باختلاف آيات التعدّي، وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعنون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة؛ مثل: سكرت وأخواته، ويعنون الأفعال المتراففة بألآت مختلفة مثل: دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى لانهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعنون بعضها إلى مفعولين ومرافقه إلى مفعول واحد كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدّي والقصور الاختلاف في المعنى، فالذي يحزر من هذا إن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص أحدهما باقتنان للواسطة الآخر بسقوطها، فالصواب لحد الأمرين، أمّا تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب لتعليه باعتبار التعدّي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: ﴿فاجمعوا أكرم وشركاءكم﴾ على أحد التاويلين فيه، فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى اعني اجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقاربا غلب إحداهما على الآخر، ثم جعل المقلب هو المتعدّي بنفسه، والله أعلم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: المسافر، (الحديث: 2696)، أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر، (الحديث: 2599)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج، وغيره.

(4) قال الزيلعي غريب، لكن رواه الطبراني في معجمه من قوله ﷺ لا من فعله إذ لا يعرف أن النبي ﷺ ركب السفينة، الزيلعي: 3/250.

(5) رواه الطبراني في كتاب: الدعاء، ورواه الطبري، الزيلعي: 251/3.

إلا بعد ما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به فكم بين فعل أولئك الركابين وبين ما أمره الله به في هذه الآية وقيل: ينكرون عند الركوب ركوب الجائزة.

وَجَعَلُوا لَهٗ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾.

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ متصل بقوله: ولئن سألتهم أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع تلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين ومعنى: من عباده جزءاً إن قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضنا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له، ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه اجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً.

إن اجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة وقرىء جزواً بضمين ﴿لكفور مبين﴾ لاجود للنعمة ظاهر جوده لأن نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل لكفران كله.

أَرَأَيْتَ إِذْ أَخَذَ مِمَّا بَخَلُّوا نَبَاتٍ وَأَصْمَكَمُ بِالْبَيْتِ ﴿١٦﴾.

﴿أم اتخذ﴾ بل اتخذوا الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجبياً من شأنهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءاً حتى جعلوا تلك الجزء شر الجزأين، وهو الإناث نون الذكور على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأوهن^(١) كانه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضاً، وتمثيلاً أما

جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ﴿مقرنين﴾ مطيقين يقال أقرن الشيء إذا أطاقه قال ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطلق احتمال الصدى بعد والهجر وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف إلا ترى إلى قولهم في الضعيف لا يقرن به الصعبة وقرئ مقرنين والمعنى واحد.

وَأَنَّا لِكَرْبًا لَمُتْلَيْنِ ﴿١٧﴾.

فإن قلت: كيف اتصل بملك قوله: ﴿وإننا إلى ربنا لمنقلبون﴾ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمس أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب، وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه وأنه هالك لا محالة فمقلب إلى الله غير منقلب من قضائه، ولا يدع نكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه والحذر من أن يكون ركوبه تلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستغيب بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا تنتزعه على الخيل، أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم، وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا ينكرون إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره، وقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر فلم يصح

تخرصون﴾ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكنيب الرسل، والإشراك بالله اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم لو شاء الله ما أشركنا، قضيه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أولئهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾، ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقاتلتهم حجة على الله أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: ﴿فإن الحجة البالغة﴾، ثم أوضح في الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك لا لأن المقالة في نفسها كذب، فقال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، وهو معنى قولهم: لو شاء ما أشركنا من حيث أن لو مقتضاه امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فملت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم بل شاء ضلالتهم ولو شاء هداهم لما ضلوا فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم والنور اللامع والمنهج الواضح، والذي يحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم هو أنه تعالى جعل للعبد تائباً وتيسراً للهداية، وغيرها من الأفعال الكسبية حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينهما وبين العوارض القسرية، فهذه الآية أقامت الحجة ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة، ولما كانت تفرقة نقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الخفيفة، فلا جرم أن أفهامهم تبدت، وأفكارهم تبطل فغلت طائفة القدرية، واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة

(١) قال أحمد: نحن معاصر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئة الله تعالى حتى الضلالة والهدى اتباعاً لدليل العقل وتصديقاً لنص النقل في أمثال قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تهديداً، ولا تفيدته إلا تصويباً وتسديداً فنقول، إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً أما كونها كلمة حق فلما مهدناه وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم البنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا، فإذا وضع ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقاتلتهم هذه لأنهم توهموا أنها حجة على الله فيحض الله حجبتهم ولكن أميئتهم، وبين أن مقاتلتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، وإن هم إلا يظنون، وقد أقصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التفسير ونلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ذلك كذب الذين من قبلهم حتى نذوقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا

واحتقروهم.

وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُمْ آسِهْدُوا خَلْقَهُمْ
سَكَتَ شَهَدْتُمْ وَنَسْتُونَ ﴿٨﴾.

وقرى: ﴿عباد الرحمن﴾ وعبيد الرحمن وعبد الرحمن وهو مثل لزلقاهم واختصاصهم وانائاً وانائاً جمع الجمع، ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: انهم اناء، وقرى: اشهدوا واشهدوا بهمزين مفتوحة ومضمومة واشهدوا بالف بينهما وهذا تهكم بهم بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم فأخبروا عن هذه المشاهدة ﴿سكتت شهادتهم﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من انوتهم ﴿ويسئلون﴾ وهذا وعيد، وقرى: سيكتب وسكتت بالياء والنون وشهادتهم وشهاداتهم ويساءلون على يفاعلون.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٩﴾.

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبناهم﴾ هما كفرتان أيضاً مضمومتان إلى الكفرتان الثلاث وهما عبانتهن الملائكة من نون الله وزعمهم أن عبانتهن بمشيئة الله كما يقول إخوانهم المجبرة.

فإن قُلْتَ: ما انكرت على من يقول قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين! قُلْتَ: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل على أن الله تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له من عبادته جزءاً وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إنائاً وأنهم عبدهم، وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجئوا في النطق به مدحاً لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء، فبقى أن يكونوا جائين وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء نون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتسوية مذهبهم الباطل ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هذا لم يكن لقله تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ معنى لأن من قال: لا إله إلا الله على طريق الهزء كان الواجب أن ينكر عليه استهزأوه

تستحيون من الشطط في القسمة ومن ادعائكم أنه آتكم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما، وتكثير بنات وتعريف البنين وتقديهن في الذكر عليهم لما نكرت في قوله تعالى: ﴿يهب لمن يشاء إنائاً ويهب لمن يشاء النكور﴾.

وَإِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٠﴾.

﴿بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً أي: شبهاً لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه فقد جعله من جنسه ومثلاً له لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت لك بنت اغتم وأريد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب وعن بعض العرب أن امراته وضعت أنثى فهجرت البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لابي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا تلد البنينا ليس لنا من امرنا ماشينا
وإنما ناخذ ما أعطينا

والظلول بمعنى الصيرورة كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها، وقرى: مسود ومسواد على أن في ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة واقعة موقع الخبر ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المضمومة صفته.

أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ عَرِّ مِيمٍ ﴿١١﴾.

وهو أنه: ﴿ينشأ في الحلية﴾ أي يترى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجااة الخصوم ومجارة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال يقال: فلما تكلمت امرأة فأرانت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعاييب والمذام وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعدوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى^(١)، وقرى: ينشأ وينشأ وينشأ ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء المغلاة بمعنى الإغلاء، قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله فاستخفوا بهم

= الله تعالى ومشيبته، ولم يغب عن أفعالهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقورة لما وجوه من التفرة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قرة تقارن بلا تأثير وتمييز بين الضروري والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب: اللباس وأدابه، (الحديث رقم: 5454).

= ربه وجارت الجبرية فاعتقت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى، فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقرة =

ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً.

إِلَّا الَّذِي ظَنَرْتُ بِإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿١٧﴾.

﴿الذي فطرني﴾ فيه غير وجه أن يكون منصوباً على أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين وأن يكون مجروراً بدلاً من المجرور بمن كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني.

فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين أحدهما أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات فكانت مخالفة للذوات ما يعبدون والثاني أن الله تعالى غير معبود بينهم والأثران معبوده؟ قلت: قالوا كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون إلا صفة بمعنى: غير، على أن ما في ما تعبدون موصوفة بتقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿سيهدين﴾ على التسوية قلت: قال مرة فهو يهدين ومرة فإنه سيهدين فاجمع بينهما وقدر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاطِنَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾.

﴿وجعلها﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ كلمة باقية في عقبه في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعوا إلى توحيده لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ونحوه ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه﴾، وقيل: وجعلها الله وقرئ: كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك وفي عقبه أي فيمن عقبه أي خلفه.

بَلْ مَتَّعْتُ هَذَا وَآبَاءَهُمْ حَيَاتٍ بَاطِنَةً لِّئَلَّا يَعْبُرُوا عَنِ الشَّرِّ إِنَّهُمْ أَدَبُوا آلَ اللَّهِ فِي الْغُيُوبِ ﴿١٩﴾.

﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغترتوا بالمهلة وشغلوا بالمتنع واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿ورسول مبين﴾ الرسالة واضحا بما معه من الآيات البينة فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم وقرئ: بل متعنا.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قلت: كان الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾⁽²⁾ فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعبيرهم لأنه

فإن قلت: ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم: إن الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخوضون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله! قلت: تمحل مبطّل وتحريف مكابر ونحوه قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم﴾⁽¹⁾.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَكِبُونَ ﴿٢٠﴾.

الضمير في ﴿من قبله﴾ للقرآن أو الرسول، والمعنى: أنهم الصقروا عبادة غير الله بمشيئة الله قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتاباً قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبايح إلينا فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به بل لاجحة لهم يستمسكون بها إلا قولهم.

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرٍّ وَأَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ فَهَدُونَنَّا ﴿٢١﴾.

﴿إننا وجدنا آباءنا على أمة﴾ على دين، وقرئ: على أمة ﴿بالكسر، وكلتاهما من الأم وهو القصد فالأمة الطريقة التي تؤم أي: تقصد كالرحلة للمرحول إليه والأمة الخالة التي يكون عليها الأم، وهو القاصد وقيل: على نعمة وحالة حسنة ﴿على آثارهم مهتدون﴾ خبر إن أو الظرف صلة لمهتدون.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرٍّ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿مترفوها﴾ الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكليفه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِنْكُمْ مِثْلَ مِثْرِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٢٣﴾.

قرئ: ﴿قل﴾ وقال وجنتكم وجنتاكم يعني: اتبعون آباءكم ولو جنتكم بدين أهدى من دين آباءكم قالوا: إننا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جنتنا بما هو أهدى وأهدى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تُسْبُحُونَ ﴿٢٤﴾.

قرئ: ﴿براء﴾ بفتح الباء وضمها، ويرى فبرى وبراء نحو كريم كرام، وبراء مصدر كظماء ولذلك استوى فيه الواحد والاثنتان والجماعة والمنكر والمؤنث يقال: نحن

الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً.

أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَئِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْجُدَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ سَخِرَآً وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٧﴾

﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم، وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بياهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فاعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وإن الله عزّ وعلا: هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودير أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسو بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش وغير بين منازلهم، فجعل منهم أقوىاء وضعفاء وأغنياء ومحايوج وموالي وخدماء ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدمهم في مهنتهم، ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعاشوا ويترافلوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، وراقته العظمى وهو الطريق إلى حياة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام، ثم قال: ﴿ورحمت ربك﴾ يريد وهذه الرحمة وهي بين الله وما يتبعه من الفوز في المآب خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

فإن قلّت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع⁽³⁾ ومنهم من يعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالحرام، فإنن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال! قلّت: الله تعالى قسم لكل عبد معيسته هي مطاعمه ومشاربه وما يصلحهم من المنافع، وأنن له في تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً وسماها رزق الله وإذا لم يسلكها تناولها حراماً وليس له أن يسميها رزق الله، فالله تعالى قاسم المعاش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة

إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان لا أن يشركوا به، ويجعلوا له أنداداً فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله. وَلَكِنَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ فَأَلَوْا هَذَا بِحِرِّ وَأَنَا بِرِهِ كَثِيرُونَ ﴿٣٨﴾

فإن قلّت⁽¹⁾: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع، ثم أرففه قوله:

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤاده قلّت: المراد بالتمتع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياتها، فقال عزّ وعلا: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيّل بهذه الخاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ثم ابتدا قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله، وشرائعه والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخيير محمد من أهل زمانه.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٩﴾

بقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من الفريقين عظيم﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم قرئ على رجل يسكون الجيم من الفريقين من إحدى الفريقين كقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾⁽²⁾ أي: من أحدهما والفريقان مكة والطائف وقيل: من رجلى الفريقين وهما الوليد بن المغيرة المخزومي وحبیب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وعن قتادة الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول: لو كان حقاً ما يقول: محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي وأبو مسعود كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً فلما، علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاؤا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين وقولهم: هذا القرآن نكر له على وجه الاستهانة به وأرادوا بعظم

(1) قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا، وليس المراد بها أن الفعل المنكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها، كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: ﴿ويل أأراك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾، وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها ردّ للاول، بل ثانيها أكد من

(2) سورة الرحمن، الآية: 22.

(3) قال أحمد: قد تقدّم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالاً كان أو حراماً، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله وقد تقدّم.

(1) قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا، وليس المراد بها أن الفعل المنكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها، كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: ﴿ويل أأراك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾، وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها ردّ للاول، بل ثانيها أكد من

الحرمة بسوء تناولهم وهو عدو لهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرِّحْمَانِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فَضْلِ مَّا جَاءَ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ليؤتوهم﴾ بدل اشتمال من قوله لمن يكفر، ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك وهبت له ثوباً لقميصه، وقرئ: سقفاً بفتح السين وسكون القاف وبضمها وسكون القاف ويضمها جمع سقف كرهن ورهن، وعن الفراء جمع سقيفة وسقفاً بفتحتين كأنه لغة في سقف وسقوفاً، ومعارج ومعاريج والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهي المصاعد إلى العالائي ﴿عليها يظهرون﴾ أي: على المعارج يظهرون السطوح يعلنونها فما استطاعوا أن يظهروه.

وَلِيُؤْتِيَهُمْ آتُونًا وَسُرْرًا عَلَيْهِمْ يَنْكُحُونَ ﴿٢٣﴾.

وسرراً بفتح الراء لاستئصال الضميتين مع حرفي التضعيف.

وَرِزْقًا وَإِنْ كُنَّ لَمَّا مَتَّعَ الْمَلِيَّةَ الْأُثْمِيَّةَ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿لما متاع الحياة﴾ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية وقرئ: بكسر اللام أي: الذي هو متاع الحياة كقوله تعالى: ﴿مثلاً ما بعوضة﴾⁽¹⁾ ولما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرئ: إلا وقرئ: وما كل ذلك إلا، لما قال: ﴿خير

مما يجمعون﴾ فقلل أمر الدنيا وصغرها أرفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندينا للكفار سقفاً ومصاعداً وأبواباً وسرراً كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفاً أي زينة من كل شيء⁽²⁾.

والزخرف الزينة والذهب ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفًا على محل من فضة وفي معناه قول رسول الله ﷺ: لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء⁽³⁾.

فإن قُلْتَ: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام⁽⁴⁾؛ قُلْتَ: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من النخول في الإسلام لأجل الدنيا والنخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما نبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى.

وَمَنْ يَشْرَعْ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَمْ يَسْطَلْنَا فُؤُوهُ لَمْ يَرَيْنَا ﴿٢٥﴾.

وقرئ: ﴿ومن يعش﴾ بضم الشين وفتحها والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به⁽⁵⁾ قيل: عشا ونظيره عرج

(1) سورة البقرة، الآية: 26.

(2) قال أحمد: لولا هنا أخت لولا في قوله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قنمت أيديهم﴾ الآية، فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة تلك بان لا تقدر محنوتاً، كما قنمته فيكون وجه الكلام هنا: أن إجماعهم للكفر مانع من بسط الدنيا، وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبداً مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لنكنتم من الخاسرين﴾، وهو الأكثر، وقد يكون وجوده تقديراً معه، وعلى ذلك الآية أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً لوجد مانعه عندينا، وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد، ثم قال: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان، وأجاب: بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما يؤدي إليه من النخول في الإسلام، لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين. اهـ كلامه.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (الحديث رقم: 2320)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10465) أخرجه أبو نعيم في الحلية: 3/304 و253.

(4) قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاستدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله:

= ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾، وأما الثانية: فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه، بقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾.

(5) قال أحمد: في هذه الآية نكتتان ببيتين، إحداهما الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفانيتها العموم حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول، بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم والنكرة في سياقه تعم، وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه رداً عنيفاً. وفي هذه الآية للإمام، ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان نكر فيها منكرًا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدًا لوجهين أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً، فكيف بالعاشي عن نكر الله، والأخر يؤخذ من الآية وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: وأنهم، فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفانته عموم للشمول لما جاز عود الضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعيل لمخالفي هذا الرأي سكتة، النكتة الثانية: أن في هذه الآية رداً على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك، واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة، وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾، قد أحسن الله له رزقاً، ونخص غيره بقوله: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير

الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسيمهم لشئته وعنايته وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: يا ليت بيبي وبينك على معنى، ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباحة القرين وقوله: ﴿إنكم في العذاب مشتركون﴾ لتعليل أي: لن ينفعكم تمنيتكم لأن حاكم أن تشاركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر وتقويه قراءة من قرأ إنكم بالكسر وقيل: إذا رأى الممنون بشدة من مني يمثلها روحه تلك ونفس بعض كربه وهو التأسى الذي نكرته الخنساء.

أعزي النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى إذا ظلمتم؟ قلت: معناه إذا صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين وذلك يوم القيامة وإذ بدل من اليوم ونظيره. إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة. أي تبين أنني ولد كريمة كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكد روحه في دعاء قومه وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي.

أَأَنْتَ تُسَبِّحُ الْمُرَّ أَوْ تَهْدِي أَلْمَمَىٰ وَمَنْ كَانَتْ فِي صَلْوَىٰ مُبْرَبٍ ﴿١١﴾

فانكر عليه بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر كقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (5).

فَأَمَّا نَذِيرٌ يَكُ فَإِنَّا يَتْمِمُ تَنفِيذَهُ ﴿١٢﴾

ما في قوله: ﴿فإما نذيرٌ يك﴾ بمنزلة لام القسم في أنها إذا نخلت دخلت معها النون المؤكدة والمعنى: فإن قبضناك قبل أن نصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فإننا منهم منتقمون﴾ أشد الانتقام في الآخرة كقوله تعالى: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ (6) وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعناهم من العذاب النازل بهم، وهو يوم بدر فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتونا وصفهم

لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيفة:

متى تآته تعشو إلى ضوء ناره

أي تنظر إليها نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وهو بين في قول حاتم:

أعشوا إذا ما جارتي برزت حتى يوارى جارتي الخدر

وقرىء يعشوا على أن من موصولة غير مضممة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عن نكر الرحمن﴾ وهو القرآن كقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾ (1) وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن نكره أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي كقوله تعالى: ﴿ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (2) ﴿نقيض له شيطاناً﴾ نخله ونخل بينه وبين الشياطين كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرءاً﴾ (3) ﴿الم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ (4)، وقرىء يقيض أي يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان.

وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٣﴾

فإن قلت: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وإنهم ليصدونهم﴾ قلت: لأن من مبهم في جنس العاشي وقد يقيض له شيطان مبهم في جنسه فلما جاز أن يتناول لإبهامهما غير واحد جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُنَّ قَالَ بَلَغَتِ بَيْتِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿حتى إذا جاءنا﴾ العاشي، وقرىء جآنا على أن الفعل له ولشيطانه ﴿قال﴾ لشيطانه ﴿يا ليت بيبي وبينك بعد المشرقين﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران.

فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف البعد إليهما.

وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَتُكَّرُ فِي الْأَذَابِ مُتَرَكَونَ ﴿١٥﴾

﴿إنكم﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعيين في

(1) سورة البقرة، الآية: 18.

(2) سورة النمل، الآية: 14.

(3) سورة فصلت، الآية: 25.

(4) سورة مريم، الآية: 83.

(5) سورة فاطر، الآية: 22.

(6) سورة غافر، الآية: 77.

علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه الآية، وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض تلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: يعش وله مرتين، ثم على المعنى في قوله: ليصونهم، ثم على اللفظ بقوله: حتى إذا جاءنا، وقد قُتبت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك، حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ فإن الجملة واحدة فانظره في موضعه.

بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

أَوْ تَرِيكَ الْكُفْرَ وَعَدَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّتَدِرُونَ ﴿١٧﴾.

وقرى: ﴿تريتك﴾ بالنون الخفيفة وقرى: بالذي أوحى إليك على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء جعلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر.

فَأَسْتَسِيكَ بِأَيْدِي أَرْحَىٰ إِيَّتَكَ إِنَّكَ عَلَٰنِ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾.

فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعامل به؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحدد عنه إلا ضال شقي وزد كل يوم صلابة في المحاماة على بين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخير.

رَأَيْتَهُ لِيُذَكِّرَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْزَلُونَ ﴿١٨﴾.

﴿وانه﴾ وإن الذي أوحى إليك ﴿لذكر﴾ لشرف ﴿لك ولقومك﴾ لسوف ﴿تسئلون﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامك بحقه وعن تعظيمك له وشكرك على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحاطته، ولكنه مجاز عن النظر في أدبياتهم والفحص عن ملهم⁽¹⁾ هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز المصنق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير منه مسالة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً وقيل: إن النبي ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمهم وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل.

وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿١٩﴾.

وقيل معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وعن الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكانه سأل الأنبياء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَكَفَّٰلَٰتٍ إِلَىٰ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾.

ما أجابوه به عند قوله: إني رسول رب ﴿العالمين﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البيعة على ندواه وإبراز الآية ﴿إذا هم منها يحكمون﴾ أي: يسخرون منها ويهزؤون بها، ويسمونها سحراً وإذا للمفاجأة.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ قُلْتَ: لأن فعل المفاجأة معها مقدر، وهو عامل النصب⁽²⁾ في محلها كانه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم.

وَمَا رُبُّهُمْ رَبٌّ إِلَّا مِنَ الْأَكْبَرِ مِنْ أُنْتَهَىٰ وَأَخَذَتْهُمُ بِالْعَدَابِ لَأَلَّهُمْ بَرَّحْمُونَ ﴿٢٢﴾.

فإن قُلْتَ: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما اختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قُلْتَ: اختها التي هي آية مثلها وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل، والاستقراء واحدة بعد واحدة كما تقول: هو أفضل رجل رأيتُه تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذ قروتهم رجلاً رجلاً.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض لأن معناه ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة قُلْتَ: الغرض بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بني الناس كلامهم، فقالوا: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تلق لاقيت سيدهم مثل لنجوم التي يسري بها الساري
وقد فاضلت الأمانرية بين الكلمة من بنيتها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلنهم إن كنت أعلم
أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها
﴿لعلهم يرجعون﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان⁽³⁾.

(1) بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(2) قال أحمد: تقدم في غير موضع أن لعل حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى، فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق وعليه تأول سيبويه ما ورد، وأما الرمز شري فيحمل لعل على الإرادة؛ لأنه لا يتخاشى من اعتقاد أن الله يريد شيئاً، ويريد العبد خلافه فيقع مراد العبد، ولا يقع مراد الرب تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فما

(1) قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم فاستل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: الظاهر في تسويج هذا الإطلاق والله أعلم أن كل واحدة من هذه الأي إذا اقرنتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وإن كل آية نونها فلذا نقل الفكرة إلى اختها استوعبت أيضاً فكره بعظمتها وذهل عن الأولى، فجزم بأن هذه النهاية، وإن كل آية نونها، والحاصل أنها لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة، =

وأزقتها لثلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربح في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبدي قولها الخصيب وكان على وضوئه، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ليس لي ملك مصر والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

أَرَأَىٰ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾

﴿أنا خير﴾ أم هذه متصلة لأن المعنى أقلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه، وضع قوله: أنا خير موضع تبصرون لأنه إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب، ويجوز أن تكون منقطعة على بل أنا خير والهزمة للتقرير وبذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر، وجرى الأنهار تحته ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقرتني أنا خير وهذه حاله ﴿من هذا الذي هو مهين﴾ أي: ضعيف حقير وقرئ أما أنا خير ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما به من الرتبة يريد أنه ليس معه من العدد والآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أنبياء بلغاء.

فَلَوْلَا أَلِيٌّ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَكُكُ الْمُفَرِّقِينَ ﴿٥٧﴾

وأراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار، وطوقوه بطوق من ذهب ﴿مقترنين﴾ إما مقترنين به من قولك قرنته فاقترن به وإما من اقترنوا بمعنى: تقارنوا لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه فوصفه بالضعف وقلة الأعضاء اعترض فقال: هلا إن كان صانقاً ملكه ربه وسوده وسوره وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره، وقرئ أساور جمع أسورة وأساور جمع أسوار وهو السوار وأساوره على تعويض التاء من ياء أساور، وقرئ ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَكِرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿فاستخف قومه﴾ فاستخفهم وحقيقته حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم وكذلك استخف من قولهم للخفيف فز.

فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْفَقْنَا مِنْهُنَّ فَأَعْرَفْنَهُنَّ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾

= مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض نعوذ بالله من هذه الغواية ﴿ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هيبتنا﴾.

فإن قلت: لو أراد رجوعهم لكان قلت: إرأته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع؛ لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه. والمراد بالعذاب السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

رَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا كٰمِهْتَدُونَ ﴿٦٠﴾

وقرى: يا أيه الساحر بضم الهاء وقد سبق وجهه.

فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾؟ قلت: قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾ وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكته معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُورُونَ ﴿٦١﴾

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾، فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم إننا لمهتدون، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر. بما عهد عندك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك وهو النبوة أو بما عهد عندك فوقيت به وهو الإيمان والطاعة، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عن اهتدى.

وَرَأَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ونادى فرعون في قومه﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقفاً له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك فأسند النداء إليه كقولك قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه، ويجوز أن يكون عنده عظامه القبط فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط فكانه نودي به بينهم فقال: ﴿ليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني: أنهار النيل ومعظمهما أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وقيل تحت سريره لارتفاعه، وقيل بين يدي في جناني وبساتيني ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر، وتجري نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر وعجب الناس من مدى عظمتهم وأمر فنودي بها في أسواق مصر،

= أثنعها زلة وإبشعها خلة، ولقد لساء الألب في هذا الموضع حتى أنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اهتدى، وقد جرى على سنن لائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلق، وإن =

﴿أسفوناً﴾ منقول من أسف أسفاً إذا اشتد غضبه ومنه الحديث في موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر (1) ومعناه: إنهم أفرطوا في المعاصي وعدواً طورهم فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم.

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وقرئ: سلف جمع سالف كخادم وخدم وسلفاً بضمين جمع سليف أي: فريق قد سلف وسلفاً جمع سلفة أي ثلة قد سلفت ومعناه فجعلناهم قبوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل يحدثون به، ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال عبد الله بن الزبير: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة ألت ترع من أن عيسى بن مريم نبي وتثنى عليه خيراً وعلى أمه وقد علمت أن النصراني يعبدونها وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا مهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فانزل الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنی﴾ ونزلت هذه الآية (2)، والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبير عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصراني إياه.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿إذا قومك﴾ قريش من هذا المثل ﴿يصدون﴾ ترتفع لهم جلبية وضجيج فرحاً وجزلاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجنله كما يرتفع لفظ القوم ولجبيهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم، وأما من قرأ يصدون بالضم فمن الصدود أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصيد وهو الجلبية وأنها لغتان نحو يعكف ويعكف ونظائر لهما.

﴿وَقَالُوا آلَإِلهَتِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ

خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿وقالوا آللهتنا خير أم هو﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ﴿ما ضربوه﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لك إلا جدلاً﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بل هم قوم خصمون﴾ لشداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى: ﴿قوماً

لداً﴾ (3) وذلك أن قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ (4) ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم (5) إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة؛ إلا أن ابن الزبير يخبه وخداعه وخبت نخلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساعفاً فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقع في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنی﴾ فدل به على أن الآية الآية خاصة في الأصنام على أن الظاهر، قوله: وما تعبدون لغير العقلاء وقيل لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ (6) قالوا نحن أهدى من النصراني لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت وقوله: ﴿آلهتنا خير أم هو﴾ على هذا القول تفضيل لآلهتهم على عيسى لأن المراد بهم الملائكة وما ضربه لك إلا جدلاً معناه وما قالوا هذا القول يعني: آلهتنا خير أم هو إلا للجدال، وقرئ آلهتنا خير بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها للدلالة أم العديلة عليها وفي حرف ابن مسعود خير أم هذا، ويجوز أن يكون جدلاً حالاً أي: جبليين وقيل لما نزلت ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستاهل أن يعبد وإن كان بشراً كما عبت النصراني المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير في ﴿أم هو﴾ لمحمد ﷺ وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السخرية به والاستهزاء، ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم الملائكة بنات الله وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا نكراً من الفعل، فإن النصراني جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشرف منهم قولاً وفعلماً فإننا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقيل لهم مذهب النصراني شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تتصلكم مما أنتم عليه بما، أوردتموه إلا قياس باطل بباطل.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أُنْعَمَ عَلَيْهِ وَمَعَلْتَهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾

وما عيسى ﴿إلا عبداً﴾ كسائر العبيد ﴿أنعمنا عليه﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبدة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ لَبُوكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک: 4/478.

(6) سورة آل عمران، الآية: 59.

(1) تقدم في سورة طه.

(2) تقدم في سورة الأنبياء.

(3) سورة مريم، الآية: 97.

أَلَيْسَ ^(١٥)

﴿الأحزاب﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل اليهود والنصارى ﴿وقيل للذين ظلموا﴾ وعيد للأحزاب.

فإن قُلْتُ: من بينهم إلى من يرجع الضمير فيه قُلْتُ: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قد جئتم بالحكمة وهم قومه المبعوث إليهم.

مَلْ يُظَلُّرُكَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(١٦).

﴿إن تأتيهم﴾ بدل من الساعة، والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

فإن قُلْتُ: أما أدى قوله ﴿بغته﴾ مؤدى قوله ﴿وهم لا يشعرون﴾ فيستغنى عنه؟ قُلْتُ: لا لأن معنى قوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله تعالى: ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾ ⁽²⁾ ويجوز أن تأتيهم بغته وهم فطنون.

الْأَحْيَاءَ يَوْمَئِذٍ يُعَذِّبُهُمْ لِغَيْبِ عَذْرٍ إِلَّا الْأُمْتِرِينَ ^(١٧).

﴿يومئذ﴾ منصوب بعدو أي تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالفين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصافين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رآوا ثواب التحاب في الله تعالى، والتباغض في الله وقيل ﴿إلا المتقين﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء، وقيل نزلت في أبي بن خلف وعقبة ابن أبي معيط.

يَعْبَادٍ لَا حَوْلَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ^(١٨).

﴿يا عبادي﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذ. وقرئ: يا عباد.

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ^(١٩).

﴿والذين آمنوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادي مضاف أي الذين صدقوا ﴿بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقيل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فيباس الناس منها غير المسلمين.

أَدْخَلُوا الْحِجَّةَ أَشْرًا وَأَرْزَقُوا حُرُورًا ^(٢٠).

﴿تحجرون﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره أي أثره على وجوهكم كقوله تعالى: تعرف في وجوههم نضرة النعيم وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

يُطَاغَتْ عَلَيْهِمْ يِصْغَابٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٌ وَفِيهَا مَا شَتَّىهِ الْأَنْفُسُ

﴿لجعلنا منكم﴾ لولنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام وذات القديم متعالية عن نلك.

وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَكُمْ لِسَانُهُمْ وَلَا تَحْمِلُونَهَا وَأَنْتُمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(٢١).

﴿وإنه﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لعلم للساعة﴾ أي: شرط من أشرطها تعلم به فسمى الشرط علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة، وقرئ للعلم وقرأ أبي لنكر على تسمية ما ينكر به نكرًا كما سمي ما يعلم به علمًا، وفي الحديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على نثية بالأرض المقدسة يقال لها أقيق وعليه مصصرتان وشعر رأسه دهين ويديه حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به ⁽¹⁾ وعن الحسن أن الضمير للقرآن وأن القرآن به علم الساعة لأن فيه الإعلان بها ﴿فلا تفترون بها﴾ من المرية وهي الشك ﴿والتبعون﴾، والتبعوا هداي وشرعي أو رسولي وقيل هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وإنه للقرآن.

وَلَا يَصْدَنُكُمْ أَشْيَاطٌ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذْرٌ مُبِينٌ ^(٢٢).

﴿عدو مبين﴾ قد أبانت عداوته لكم إذ أخرج آباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَقْرَأَ اللَّهُ رُؤْيُومَهُ ^(٢٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(٢٤).

﴿بالبينات﴾ المعجزات أو آيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿بالحكمة﴾ يعني: الإنجيل والشرائع.

فإن قُلْتُ: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه قُلْتُ: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعينهم من أمر بينهم.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ

(2) سورة يس، الآية: 49.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير (الحديث: 2222). وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا.. (الحديث: 242).

وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَشْرَفَ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾.

والكوب الكوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ الضمير للجنة، وقرئ تشتبه وتشتهبه وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون.

وَرَبُّكَ لَبِئْسَ الْأَلْفُ أُوْرَّثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الجنة المنكورة وهي مبتدا و﴿الجنة﴾ خبر و﴿التي أورثتموها﴾ صفة الجنة أو الجنة صفة للجنة الذي هو اسم الإشارة والتي أورثتموها خبر المبتدا، أو التي أورثتموها صفة و﴿بما كنتم تعملون﴾ الخبر والباء تتعلق بمحنوف كما في الظروف التي تقع أخباراً، أو في الوجه الأول تتعلق بأورثتموها وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ ورثتموها.

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الْأَشْرَفِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿منها تاكلون﴾ من للتبعيض أي لا تاكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبداً مورقة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وعن النبي ﷺ لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاًها^(١).

لَا يَبْتَغِي عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْرُونَ ﴿٨٠﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَيْسُوا ﴿٨١﴾.

﴿لا يفتقر عنهم﴾ لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرها، والمبلس اليأس الساكت سكوت يأس من فرج، وعن الضحاك يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى ﴿هم﴾ فصل عند البصريين عماد عند الكوفيين، وقرئ وهم فيها أي: في النار وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما يا مال بحذف الكاف للترخيم كقول القائل:

والحق يا مال غير ما تصف

وقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ: ونالوا يا مال، فقال: ما شغل أهل النار عن الترخيم^(٢)؛ وعن بعضهم حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الإسم لضعفهم وعظم ما هم فيه، وقرأ أبو السرار الغنوى يا مال بالرفع كما يقال يا حار.

وَأَدَاؤُا بِمَكِّيكَ لِيَمِينَ عَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكَ تُنْكِرُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿ليقض علينا ربك﴾ من قضى عليه إذا أماته فوكزه موسى فقضى عليه والمعنى: سل ربك أن يقضى علينا.

فإن قُلْتُ: كيف قال ونالوا يا مالك بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قُلْتُ: تلك أزمته متطولة وأحباب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكنون أوقاناً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويفوتون أوقاناً لشدة ما بهم ﴿ماكتون﴾ لا يثون وفيه استهزاء، والمراد خالدون عن ابن عباس رضي الله عنهما إنما يجيبهم بعد ألف سنة^(٣)، وعن النبي ﷺ يلقي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك^(٤).

لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَيِّقٌ كَرِهُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل بلبيل قراءة من قرأ لقد جئتمكم، ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل لما سألوا مالكا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم لأجابه الله بذلك ﴿كارهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُرْسِلُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿أم﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أمراً﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فإننا مبرمون﴾ كيننا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: ﴿لم يريدون كيداً﴾^(٥) فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ.

أَمْ حَسِبُونَ أَنَّ لَسْعَ بَرِّهِمْ يُغْوِيهِمْ بَلْ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالسر والنجوى؟ قُلْتُ: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بلى﴾ نسمعها، ونطلع عليها ﴿ورسلنا﴾ يريد الحظفة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك، وعن يحيى بن معاذ الرازي من ستر من الناس نذوبه وأبداها للذي لا يخفي عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ رِزْقٌ قَلِيلٌ أَوَّلَ الْأَمْسِينِ ﴿٨٦﴾.

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح تورونه وحجة واضحة تلون بها ﴿فإننا أول﴾ من يعظم تلك الولد، وأسبقم إلى طاعته والانقياد له^(٦) كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على

(5) سورة الطور، الآية: 42.

(1) تقدم في سورة البقرة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزخرف، باب: دونوا يا مالك... (الحديث: 4819).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار، (الحديث: 2586).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(6) قال احمد: لقد اجترأ عظيماً، واقتحم مولكة في تمثيله ذلك بقول من سماه علياً إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعنياً عليه، فانا أول القائلين: إنه شيطان وليس بالله، فلينقم عليه ذلك بقول القائل قد ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لنلك في القلوب، كما خلق الإيمان وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق =

يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب وإعلام
لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين
لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب ونلول
وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان كقوله تعالى:
﴿اعملوا ما شئتم﴾⁽²⁾ وإبعاد بالشقاء في العقاب ضم
اسمه تعالى معنى وصف لذلك علق به الظرف في قوله:
في السماء وفي الأرض⁽³⁾ كما تقول: هو حاتم في طي
حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به
كانك قلت هو جواد في طي جواد في تغلب.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾
وَبَارِكْ لِلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَرَأْيِهِ يُرْجَمُونَ ﴿٤٧﴾.

وقرئ: ﴿وهو﴾ الذي في السماء الله وفي الأرض الله
ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾
كأنه ضمن معنى المعبود، أو المالك أو نحو ذلك والراجع
إلى الموصول محنوف لطول الكلام كقولهم ما لنا بالذي
قائل لك شيئاً وزاده طولاً أَنْ المَحْنُوفُ داخل في حيز
الصلة ويحتمل أن يكون في السماء صلة الذي وإله خبر
مبتدا محنوف على أَنْ الجملة بيان للصلة، وَأَنْ كونه في
السماء على سبيل الإلهية والربوبية لا على معنى
الاستقرار وفيه نفي الألهة التي كانت تعبد في الأرض
﴿ترجعون﴾، قرئ بضم التاء وفتحها ويرجعون بياء
مضمومة وقرئ تحشرون بالتاء.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَاءَ بِحَقِّ
رَبِّهِمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن مِّن لِّقَوْلِ اللَّهِ فَأَن يَقُولُكَ ﴿٤٩﴾.

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما
زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شاهد بالحق﴾
وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان
وإخلاص هو الذي يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع
ويجوز أن يكون متصلاً، لَأَنَّ في جملة الذين يدعون من
دون الله الملائكة، وقرئ تدعون بالتاء وتدعون بالتاء
وتشديد الدال.

رَبِّهِمْ يَرْبِّي إِنَّ هَذِهِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿وقيله﴾، قرئ بالحركات الثلاث، ونكر في النصب عن

سبيل الفرض والتمثيل لغرض⁽¹⁾، وهو المبالغة في نفي
الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا
مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب
التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد، وهي محال
في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة
إثبات الكيونة والعبادة، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه
واقواها ونظيره أن يقول العنلي للمجير إن كان الله تعالى
خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فانا أول
من يقول هو شيطان وليس بإله، فمعنى: هذا الكلام وما
وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً
للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة
فيه من الوجه الذي نكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب
وضلالة الذاهب إليه والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح
عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والإشمزاز من ارتكابه،
ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج
حين قال له: أما والله لأبلدك بالنديا نارا تظلي لو عرفت أن
ذلك إليك ما عبيت إلها غيرك، وقد تحمل الناس بما
أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت
والفوائد المستقل بثبات التوحيد على أبلغ وجوه فقيل:
إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فانا أول العابدين
الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه وقيل: إن
كان للرحمن ولد في زعمكم فانا أول الأنفين من أن يكون
له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ
بعضهم العبيدين وقيل هي إن النافية أي ما كان للرحمن
ولد فانا أول من قال بذلك وعبد ووجد، وروى أن النضر بن
عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت فقال
النضر: الا ترون أنه قد صدقني فقال له: الوليد بن المغيرة
ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فانا أول
الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وقرئ ولد بضم الواو.
سُبْحَانَ رَبِّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصُورُونَ ﴿٥١﴾.

ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض
والعرش عن اتخاذ الولد ليدل على أنه من صفة الأجسام
ولو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم وتبدير أمره.
فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَهِمُ الْآلَاءُ يَوْمَئِذٍ يُؤْعَدُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم ﴿ويلعبوا﴾ في
ندياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم﴾ وهذا دليل على أن ما

(2) سورة فصلت، الآية: 40.

(3) قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافاً إلى الطول الذي نكره
وقوع الموصول خيراً عن مضمحل لو ظهر الراجع لكان كالتكرار
المستكر، إذ كان أصل الكلام، وهو الذي هو في السماء إله، ولا
ينكر أن الكلام مع المحنوف الراجع أخف وأسهل، وإن الراجع
إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد، فإنه لم يرد في الكتاب
العزيرين إلا في قوله تماماً على الذي أحسن، ومع أي في موضعين
على رأي.

= إلا الله، وتصديقاً بضمون قوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله﴾،
وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾، وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلأ
لزمه فرك أننه، وغل عنقه إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبقه إليه
أحد من عباده الكفرة، ولا تجراً عليه مارء من مرءة الفجرة، ومن
خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجراً، فقال هذه
المقالة، واقتحم هذه الضلالة بلا محالة، فإنه قد صرح بكلمة
الفكر على اقتبح وجورها وأشنع أحنائها، والله المسؤول أن
يعصمنا وهو حسينا ونعم الوكيل.

(1) نكره للعلبي، وابن مردويه، ونكره الولحدي في التفسير: 258/3.

شعبان ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل في تسميتها ليلة البراءة والصك أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هي مختصة بخمس خصال تفريق كل أمر حكيم، وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ: من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكابيد الشيطان⁽¹⁾، ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: إن الله يرحم، أمّتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب⁽²⁾، وحصول المغفرة قال عليه الصلاة والسلام: إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا الكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للمؤمنين، أو مصرّ على الزنا⁽³⁾ وما أعطى فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير⁽⁴⁾، ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة والقول الأكثر أن المراد بالليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾⁽⁵⁾ ولمطابقة قوله ﴿فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ لقوله: ﴿نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾⁽⁷⁾ وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان.

فإن قلّنت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلّنت: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفارة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا.

فإن قلّنت:

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟ قلّنت: هما جملتان مستانفتان ملفوفتان فسرربهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾⁽⁸⁾ كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة

الأخفش أنه حمله على أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وعنه وقال قيله وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمراً وحمل الجرّ على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده، وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم آمين الله، وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم كأنه قيل واقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

فَأَصْحَعْتُهُمْ وَقُلَّ سَلَمٌ فَسَوَّيْتَهُمْ بِعَلْمُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿فأصفتح عنهم﴾ فأعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم وودعهم وتاركهم ﴿وقل﴾ لهم ﴿سلام﴾ أي تسلّم منكم ومتاركة ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسليّة لرسوله ﷺ والضمير في وقيله لرسول الله ﷺ وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجاء إليه: عن النبي ﷺ من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون أدخلوا الجنة بغير حساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان مكية

حمّ ١ وَالْكَتَبِ الْأَبْيَنِ ٢.

الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت حم تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة مرفوعًا على خير الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسمًا بها.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٢ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن، واللييلة المباركة ليلة القدر وقيل ليلة النصف من

(1) قال الزيلعي: رواه سليم بن أيوب الرازي في كتاب: الترغيب، ورواه محمد بن ناصر السلمي في كتاب: فضائل شعبان، وفي

الغريوس، الزيلعي: 261/3.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 739)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 1389).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: ما جاء في=

= التباض والتحاسد، (الحديث: 5665).

(4) قال الزيلعي غريب: 266/3.

(5) سورة القدر، الآية: 1.

(6) سورة القدر، الآية: 4.

(7) سورة البقرة، الآية: 185.

(8) سورة النخان، الآية: 3.

مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إذباناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المرئيين، وفي قراءة زيد بن علي أمر من عندنا على هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص، وقرأ الحسن رحمة من ربك على تلك رحمة وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تُوقِنُونَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ الْوَلِيُّ ﴿٨﴾.

وقرئ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمْ﴾ بالجر بدلاً من ربك.

فإن قلْت: ما معنى الشرط الذي هو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ موقنين﴾؟ قلْت: كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض رباً وخالفاً فقيل لهم إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول: إن هذا إنعام زيد الذي تسمع الناس بكفره واشتهروا سخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته، ثم ردوا أن يكونوا موقنين.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾.

بقوله: ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ وإن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ ولعب.

فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾.

﴿يوم تأتي السماء﴾ مفعول به مرتقب يقال رقبتة وارتقبتة نحو نظرتة وانتظرتة، واختلف في الدخان، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبه أخذ الحسن أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسمع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيد ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص، وعن رسول الله ﷺ أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلا المحشر قال حنيفة: يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية (2)، وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخرية وأذنيه ووبره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه خمس قد مضت الروم والدخان والقمر والبطشة واللازم (3)، ويروى أنه قيل لابن مسعود إن قاصاً عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق

مفرق كل أمر حكيم، والمباركة الكثيرة الخير لما يتبع الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم وديناهم ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، ومعنى يفرق يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وأجالهم وجميع أمورهم منها إلى الأخرى القابلة، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت، وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على السنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقرئ نفرق بالتشديد ويفرق كل على بنائه للفاعل ونصب كل والفارق الله عز وجل، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه تفرق بالنون كل أمر حكيم كل شأن ذي حكمة أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة وهو من الإسناد المجازي لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز.

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾.

﴿أمراً من عندنا﴾ نصب على الاختصاص جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا كائناً من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتديننا، ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ثم إما أن يوضع موضع فرقان الذي هو مصدر يفرق؛ لأن معنى الأمر والفرقان واحد من حيث أنه إذا حكم بالشيء وكتبه، فقد أمر به وأوحى أو يكون حالاً من أحد الضميرين في إنزاله إما من ضمير الفاعل أي إنزاله أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل. أي إنزاله في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل.

فإن قلْت: ﴿إنا كنا مرسلين﴾ ﴿رحمة من ربك﴾ بم يتعلق قلْت: يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿إنا كنا منذرين﴾ و﴿رحمة من ربك﴾ مفعولاً له على معنى: إنا أنزلنا القرآن لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلاً ليفرق أو لقوله: ﴿أمراً من عندنا﴾ ورحمة مفعولاً به وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها في قوله تعالى: ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ (1) أي: يفصل في هذه الليلة كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عانتنا أن نرسل رحمتنا، وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا لأن الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع والأصل إنا كنا

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة حم الدخان، باب:

«يوم تبطش البطشة الكبرى...» (الحديث: 4825).

(1) سورة فاطر، الآية: 2.

(2) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي: 3/266.

يَوْمَ نَبِّئُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقَرُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يريد يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ (2) ﴿إننا منتقمون﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم.

فإن قلت: بم انتصب يوم نبطش قلت: بما دل عليه إن منتقمون وهو ننتقم ولا يصح أن ينتصب بمننتقمون، لأن إن تحجب عن ذلك وقرئ نبطش بضم الطاء، وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم، وقيل البطشة الكبرى يوم بدر.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا بَنَاهُ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

وقرئ: ﴿ولقد فتنا﴾ بالتشديد للتأكيد أو لوقوعه على القوم، ومعنى الفتنة أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق فكان ذلك سبباً في ارتكابهم المعاصي، واقترافهم الآثام أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا فاختاروا الكفر على الإيمان أو سلبهم ملكهم وأغرقهم ﴿كريم﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم في نفسه لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم.

أَنْ أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

﴿إن أدوا إلي﴾ هي أن المفسرة لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول: لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله أو المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلى ﴿وعباد الله﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول أنوهم إلى وأرسلوهم معي كقوله تعالى: ﴿أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ (3) ويجوز أن يكون نداء لهم على أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي وعلل ذلك بأنه ﴿رسول أمين﴾ غير ظنين قد اتتمته الله على وحيه ورسالته.

وَأَنْ لَا تَمْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّي بِآيَاتِي لَاطِقٌ نَجِيبٌ ﴿١٩﴾

﴿وأن لا تملوا﴾ أن هذه مثل الأولى في وجهيها أي: لا تستكبروا ﴿على الله﴾ بالاستهانة برسوله ووجهه، أو لا تستكبروا على نبي الله ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة.

وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُونِي ﴿٢٠﴾

﴿أن ترجمون﴾ أن تقتلون، وقرئ: ﴿عدت﴾ بالإدغام ومعناه أنه عائد بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن

فقال: من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم؛ فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه الله أعلم ثم قال: ألا، وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف (1)، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض اللخان وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من اللخان فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشده الله والرحم واعنوه إن دعا لهم، وكشف عنهم أن يؤمنوا فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ﴿ببخان ميين﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه بخان.

يَغْفَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿يغفى الناس﴾ يشملهم ويلبسهم وهو في محل الجر صفة لبخان و﴿هذا عذاب﴾ إلى قوله مؤمنون منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك.

رَبَّنَا كَيْفَ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾

﴿إننا مؤمنون﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

أَنْ لَّمْ الْكُفْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾

﴿اني لهم للكفرى﴾ كيف ينكرون، ويتعظون ويفنون بما وعده من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وقد جاءهم﴾ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الإنكار من كشف اللخان وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات، فلم ينكروا.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجَىٰ جَمْعُنَا ﴿٢٤﴾

وتولوا عنه وبهتوه بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ونسبوه إلى الجنون.

إِنَّا كَاثِرُوا الْعَذَابَ قَلِيلاً إِنَّكَ عَائِدُونَ ﴿٢٥﴾

ثم قال: ﴿إننا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ أي: ريثما تكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غيب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهاال.

فإن قلت: كيف يستقيم على قول من جعل اللخان قبل السماء باللخان تصور المعذبون به من الكفار، والمنافقين وغوثوا وقالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إننا مؤمنون﴾ منييون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، فريثما يكشفه عنهم يرتنون لا يتمهلون.

= وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الغنوت في الصلاة (الحديث: 1442).

(2) سورة الفلزات، الآية: 34.

= (3) سورة طه، الآية: 47.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804).

وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب الغنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة والمعينة بالله

(الحديث: 675/295).

﴿كُنُكُلُكُمْ﴾ الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاها﴾ أو في موضع الرفع على الأمر كذلك ﴿قَوْمًا آخِرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم فاهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١٦﴾

إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس وفي حديث رسول الله ﷺ ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض وقال جرير: تبكي عليك نجوم الليل والقمر، وقالت الخارجية:

أي اشجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
ونلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغفة في وجوب
الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس
رضي الله عنهما من بكاء مصلى المؤمن وأثاره في الأرض
ومساعد عمله ومهايط رزقه في السماء تمثيل، ونفي ذلك
عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم
فقده فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض، وعن الحسن
فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم
مسرورين يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض
﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا
إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة بل عجل لهم في
الدنيا.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيهِ بِرِيسَاقٍ إِسْرَافِيًّا مِنَ الْمَدَائِبِ الْمُهِينِ ﴿١٧﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيًّا مِنَ السُّفْرِيِّينَ ﴿١٨﴾

﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه
كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم، ويجوز أن
يكون المعنى من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون،
وقرئ من عذاب المهين، ووجهه أن يكون تقدير قوله من
فرعون من عذاب فرعون حتى يكون المهين هو فرعون،
وفي قراءة ابن عباس من فرعون لما وصف عذاب فرعون
بالشدّة والفظاعة قال من فرعون على معنى هل تعرفونه
من هو في عتوه وشيظنته؟ ثم عرف حاله في ذلك بقوله:

﴿إِنَّه كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبيراً رفيع الطبقة
ومن بينهم فائقاً لهم بليغاً في إسرافه، أو علياً متكبّراً
كقوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، ومن المسرفين
خبر ثان كأنه قيل إنه كان متكبّراً مسرفاً الضمير.

وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَ الْأَمَلِيِّينَ ﴿١٩﴾

في ﴿أخْرَجْنَاهُمْ﴾ لبني إسرائيل و ﴿على علم﴾ في
موضع الحال أي عالمين بمكان الخيرة وبتأنيهم أحقاء بأن
يختاروا، ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بأنهم يزيغون

كيدهم فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم
والقتل.

وَأَنْ لَّرُؤُوسًا إِلَىٰ مَأْرُورِينَ ﴿٢٠﴾

﴿فاعتزلون﴾ يريد إن لم تؤمنوا لي فلا مولاة ببني
وبيين من لا يؤمنوا فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة
عني أي: فخلوني كفافاً لا لي ولا علي ولا تتعرضوا لي
بشركم وأذاكم فليس جزء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم
نلك.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّن مَّوَدَّاءَ قَوْمٍ تُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾

﴿أَنْ هُوَ لَاءٌ﴾ بَأَنْ هُوَ لَاءٌ أي دعا ربه بذلك قيل: كان
دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم وقيل هو
قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وإنما نكر الله
تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك وهو كونهم
مجرمين وقرئ إن هُوَ لَاءٌ بالكسر على إضمار القول أي
فدعا ربه فقال إن هُوَ لَاءٌ.

فَأَتَتْ رِبِّيذِيلُ لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْمُتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾

﴿فأسر﴾ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ووصلها من
سرى وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء، فقال: أسر
بعبادي وأن يكون جواب شرط محذوف كأنه قيل قال إن
كان الأمر كما تقول فأسر ﴿بعبادي﴾ يعني: فأسر ببني
إسرائيل، فقد بئر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده
فينجي المتقدمين ويغرق التابعين، الرهو فيه وجهان
أحدهما أنه الساكن قال الأعشى:

يمشين رهواً فلا الأعجاز خائلة ولا الصبور على الأعجاز تنكل
أي مشياً ساكناً على هيئة أراد موسى لما جاوز البحر
أن يضره بعصاه فينطبق كما يضره، فانفلق فأمر بأن
يتركه ساكناً على هيئة قاراً على حاله من انتصاب الماء
وكون الطريق يبسا لا يضره بعصاه، ولا يغير منه شيئاً
ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم والثاني أن
الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب أنه رأى جملاً
فالجاء، فقال: سبحان الله وهو بين سنامين أي تركه
مفتوحاً على حاله منفرجاً.

وَأَتْرَكَ الْآخَرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿إنهم جند مغرقون﴾، وقرئ بالفتح بمعنى لأنهم.

وَرُزِّعَ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٤﴾

والمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل
الحسنة وقيل المنابر.

وَسَمَّرَ كَانُوا فِيهَا فَنَكِبِينَ ﴿٢٥﴾

والنعمة بالفتح من التمتع وبالكسر من الإنعام، وقرئ
فناكبين وفكبين.

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿٢٦﴾

ويرفط منهم الفراطات في بعض الأحوال ﴿على للعالمين﴾ على عالمي زمانهم، وقيل على الناس جميعاً لكثرة الأنبياء منهم.

وَأَلَيْتُهُمْ مِّنَ الْأَلَيْتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾.

﴿من الآيات﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بلاء مبين﴾ نعمة ظاهرة لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة، أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون كقوله تعالى: ﴿وفي نلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ (1).

إِنَّ مَوْلَانَا لَيُقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى كفار قريش. فإن قلت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت (2) فهلا قيل إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين كما قيل: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ وما معنى قوله:

﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ وما معنى نكر الأولى كأنهم وعدوا مودة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؟ قلت: معناه والله الموفق للصواب أنه قيل لهم: أنكم تموتون مودة تعقبها حياة كما تقمتمكم مودة قد تعقبها حياة وذلك قوله عز وجل: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميئتمكم ثم يحييكم﴾ (3) فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يربون ما المودة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا المودة الأولى بون المودة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها المودة من تعقب الحياة لها إلا للمودة الأولى خاصة فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله إن هي إلا حياتنا الدنيا في المعنى، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم.

فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَمْ حَرِبْتُمْ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعُوا الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَهْلَكْتُمْ بِيَمِينِهِمْ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿فاتوا بآياتنا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين أي: إن صدقتم فيما تقولون فعملوا لنا إحياء من مات من آياتنا بسؤالكم ربكم ذلك

حتى يكون لئلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه؛ فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعظم الشؤون، هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك نَمَّ الله قومه ولم يذمه وهو الذي سار بالجيش وحير الحيرة وبني سمرقند وقيل: هبما وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك برأ وبحراً، وعن النبي ﷺ لا تسبوا تبعاً، فإنه كان قد أسلم (4) وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي (5) وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان نبياً وقيل نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوي وقبر حبي بنت تبع لا تشركان بالله شيئاً وقيل: هو الذي كسا البيت وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل الأقيال لأنهم يتقلون، وسمى الظل تبعاً لأنه يتبع الشمس.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى:

﴿أهم خير﴾ ولا خير في الفريقين قلت: معناه أهم خير في القوة والتمتع كقوله تعالى: ﴿أكفركم خير من أولئكم﴾ (6) بعد نكر آل فرعون وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أهم أشد أم قوم تبع.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِبَةٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿وما بينهما﴾ وما بين الجنسين وقرأ عبيد بن عمير وما بينهن.

إِنَّ يَوْمَ الْقَمَلِ بِيَعْنَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾.

وقرأ: ﴿ميفاتهم﴾ بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل.

يَوْمَ لَا يَنْبِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٤١﴾.

﴿لا يغني مولى﴾ أي مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عن مولى﴾ عن أي مولى كان شيئاً من إغناء أي قليلاً منه ﴿ولا هم ينصرون﴾ الضمير للموالي لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياخ كل مولى.

(1) سورة البقرة، الآية: 49.

(2) قال أحمد: وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين، الأولى: منهما الموت، والأخرى: حياة البعث، أثبتوا الحالة الأولى وهي: الموت، ونفوا ما بعدها وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات، فجعلوها أولى على ما نكرت لهم، وهذا أولى من حمل المودة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين أحدهما: أن الاقتصار عليها لا يمتدونه؛ لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم فيه عنول عن الظاهر بلا حاجة، الثاني: أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالمودة، =

= فإن المودة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان، والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طراً عليها هذا، مع أن في بقية السورة قوله تعالى: ﴿لا يدوقون فيها الموت إلا المودة الأولى﴾ وإنما عنى بالمودة الأولى هنا الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط، ففيه إرشاد لما نكرته والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) أخرجه أحمد في المسند 340/5.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التخيير، بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، (الحديث رقم: 4674).

(6) سورة القمر، الآية: 43.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾.

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ الْحَمِيمِ ﴿١٣﴾.

فَبِأَن قُلْتُمْ: هَلَا قِيلَ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ الْحَمِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمِ لِأَنَّ الْحَمِيمَ هُوَ الْمَصْبُوبُ لَا عَذَابُهُ! قُلْتُمْ: إِذَا صَبَّ عَلَيْهِ الْحَمِيمُ فَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ وَشَدَّتْهُ إِلَّا أَنْ صَبَّ الْعَذَابُ طَرِيقَةَ الْاِسْتِعَارَةِ كَقَوْلِهِ: صَبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبٍ. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾^(١) فَذَكَرَ الْعَذَابَ مُعْلَقًا بِهِ الصَّبَّ مُسْتَعَارًا لَهُ لِيَكُونَ أَهْوَلُ وَأَهْيَبُ.

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٤﴾.

يُقَالُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْوِ وَالتَّهْكِمِ بِمَنْ كَانَ يَتَعَزَّزُ وَيَتَكْرَمُ عَلَى قَوْمِهِ وَرَوَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا بَيْنَ جَبَلِيهَا أَعَزُّ وَلَا أَكْرَمُ مِنِّي فَوَاللَّهِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبِّكَ أَنْ تَفْعَلَ بِي شَيْئًا، وَقَرَى: إِنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ، وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَرَأَ بِهِ عَلَى الْمُنْبَرِ.

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْعَذَابُ أَوْ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أَي تَشْكُونَ، أَوْ تَتَمَارُونَ وَتَتَلَاوُونَ.

إِنَّ اللَّتَّيْنِ فِي مَقَارِ أَمِينِ ﴿١٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُوبِ ﴿١٧﴾.

قَرَى: ﴿فِي مَقَامٍ﴾ بِالْفَتْحِ وَهُوَ مَوْضِعُ الْقِيَامِ وَالْمَرَادُ الْمَكَانَ وَهُوَ مِنَ الْخَاصِّ الَّذِي وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْعَمُومِ، وَبِالضَّمِّ وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ أَوْ الْأَمِينِ مِنْ قَوْلِكَ أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً فَهُوَ أَمِينٌ وَهُوَ ضِدُّ الْخَائِنِ فَوْصَفَ بِهِ الْمَكَانَ اسْتِعَارَةً؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ الْمَخِيفَ كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ قِيلَ السُّنْدُسُ مَارِقٌ مِنَ الدِّيَبَاغِ وَالِاسْتَبْرَقُ مَا غَلِظَ مِنْهُ، وَهُوَ تَعْرِيبٌ اسْتَبْرَقَ.

فَبِأَن قُلْتُمْ: كَيْفَ سَاغَ أَنْ يَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينِ لَفْظَ أَعْجَمِي؟ قُلْتُمْ: إِذَا عَرَبٌ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَجَمِيًّا لِأَنَّ مَعْنَى التَّعْرِيبِ أَنْ يَجْعَلَ عَرَبِيًّا بِالتَّصْرِيفِ فِيهِ وَتَغْيِيرِهِ عَنِ مَنَاجِهِ وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَوْجِهَةِ الْإِعْرَابِ.

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّقِلِينَ ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٩﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهْمَا أَمِينٍ ﴿٢٠﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ الْكَافُ مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ أَوْ مَنْصُوبَةٌ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ أَثْنَانًا ﴿وَوَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ بِحُورٍ عَيْنٍ عَلَى الْإِضَافَةِ وَالْمَعْنَى بِالْحُورِ مِنَ الْعَيْنِ لِأَنَّ الْعَيْنَ إِذَا تَكُونَتْ حُورًا أَوْ غَيْرَ حُورٍ فَهِيَ أَوْلَاءُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ لَا مِنْ شَهْلَهِنَّ مِثْلًا وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بَعِيسَ عَيْنٍ وَالْعِيسَاءُ الْبَيْضَاءُ تَعْلُوهَا حَمْرَةٌ.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْوَاوِ فِي يَنْصُرُونَ أَي لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْاِسْتِثْنَاءِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لَا يَنْصُرُ مِنْهُ مَنْ عَصَاهُ ﴿الرَّحِيمُ﴾ لِمَنْ أَطَاعَهُ.

إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ ﴿١٢﴾ طَعَامُ الْأَيُّمِ ﴿١٣﴾.

قَرَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ﴾ بِكَسْرِ الشَّيْنِ وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ شَجْرَةٌ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَكَسْرُهَا وَشَيْرَةٌ بِالْيَاءِ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ نَلِكٌ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجْرَةُ الرَّزْقِ قَالَ ابْنُ الزَّبَيْرِيِّ: إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ يَدْعُونَ أَكْلَ الرَّبْدِ وَالتَّمْرَ التَّرْقَمَ فِدْعَا أَبُو جَهْلٍ بِتَمْرٍ وَزَيْدٌ فَقَالَ: تَرَقَمُوا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَخُوفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ فَنَزَلَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ طَعَامُ الْأَيْتِيمِ﴾ وَهُوَ الْفَاجِرُ الْكَثِيرُ الْأَثَامِ وَعَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: رَجُلًا، فَكَانَ يَقُولُ طَعَامُ الْيَتِيمِ^(١) فَقَالَ: قُلْ طَعَامُ الْفَاجِرِ يَا هَذَا وَبِهَذَا يَسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ إِبْدَالَ كَلِمَةٍ مَكَانَ كَلِمَةٍ إِذَا كَانَتْ مُؤَيَّدَةً مَعْنَاهَا، وَمِنْهُ أَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ الْقِرَاءَةَ بِالْفَارْسِيَّةِ عَلَى شَرِيطَةٍ وَهِيَ أَنْ يُؤَدِّيَ الْقَارِئُ الْمَعْنَايَ عَلَى كَمَالِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرُمَ مِنْهَا شَيْئًا قَالُوا وَهَذِهِ الشَّرِيطَةُ تَشْهَدُ أَنَّهَا إِجَازَةٌ كَلَامًا إِجَازَةً؛ لِأَنَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ خُصُوصًا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجَزٌ بِفَصَاحَتِهِ وَغَرَابَةِ نَظْمِهِ وَأَسَالِيْبِهِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَعْنَايِ وَالْأَغْرَاضِ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِأَدَائِهِ لِسَانَ مَنْ فَارْسِيَّةٌ وَغَيْرَهَا، وَمَا كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْسِنُ الْفَارْسِيَّةَ فَلَمْ يَكُنْ نَلِكٌ مِنْهُ عَنِ تَحْقِيقِ وَنَبْصَرِ، وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ عَنِ أَبِي يُونُسَ عَنِ أَبِي حَنِيفَةَ مِثْلَ قَوْلِ صَاحِبِيهِ فِي إِنْكَارِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارْسِيَّةِ.

كَأَلْمُهَلِّ يَنْبَلِي فِي الْبَطُونِ ﴿٢١﴾.

﴿كَأَلْمُهَلِّ﴾ قَرَى: بَضْمُ الْمِيمِ وَفَتْحُهَا وَهُوَ بَرْدَى الزَّيْتِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهَلِّ﴾^(٢) مَعَ قَوْلِهِ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ وَقِيلَ هُوَ ذَائِبُ الْفِضَّةِ وَالنَّحَاسِ.

كَذَلِكَ الْحَمِيمِ ﴿٢٢﴾.

وَالْكَافُ رَفَعُ خَبْرٍ بَعْدَ خَبْرٍ وَكَذَلِكَ ﴿تَغْلِي﴾ وَقَرَى: بِالتَّاءِ لِلشَّجَرَةِ وَبِالْيَاءِ لِلطَّعَامِ وَ﴿الْحَمِيمِ﴾ الْمَاءُ الْحَارُّ الَّذِي انْتَهَى غَلِيَانُهُ.

خُدْرَهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَّا سِوَاهُ الْحَمِيمِ ﴿٢٣﴾.

يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: ﴿خُدْرُهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ فَتُؤَدُّهُ بِعَنْفٍ وَغُلْظَةٍ وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ بِتَلْبِيْبِ الرَّجْلِ فَيَجْرِي إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلٍ وَمِنْهُ الْعَتَلُ وَهُوَ الْغَلِيْظُ الْجَافِي، وَقَرَى: بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا ﴿إِلَى سِوَاهُ الْحَمِيمِ﴾ إِلَى وَسْطِهَا وَمَعْظَمِهَا.

(١) قال أحمد: لا دليل فيه لذلك، وقول أبي الدرداء محمول على

إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً، على أن

يأتي بالقرءة كما أنزلت على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار، وهو الوجه والله أعلم.

(٢) سورة البقرة، الآية: 250.

تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب ﴿ومن الله﴾ صلة للتنزيل وإن جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ، والظرف خبراً.

إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يُؤْمِنُ ﴿٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون على ظاهره وإن يكون المعنى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ.

وَرَفَى خَلْقَكَ وَمَا يَبُوءُ بِكَ دَابَّةٌ بَأْسًا كَلِمَاتٍ يُوقِنُونَ ﴿٦٨﴾

لقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾.

فإن قلت: علام عطف ﴿وما يبوء﴾ أعلى الخلق المضاف أم على الضمير المضاف إليه قلت: بل على المضاف لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه استقبلوا أن يقال مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو وكذلك إن أكنوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد، وقرئ: آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك إن زيدا في الدار وعمراً في السوق أو وعمرو في السوق.

فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سيد لا مقال فيه وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده قلت: فيه وجهان عنده أحدهما أن يكون على إضمار في والذي حسنه تقدم نكره في الآيتين قبلها ويعضده قراءة ابن مسعود والثاني أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله على التكرير ورفعها بإضمار هي.

وَأَنْتَ أَعْيُنَ النَّاسِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَعْيُنُكَ يَدُ الْأَرْضِ بِدَمْعٍ مُّزَيَّبٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ؕ إِنَّكَ لَقَوِيٌّ يُقَالُونَ ﴿٦٩﴾

وأما قوله: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف الليل والنهار والنصب في آيات وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وفي عملت الرفع في آيات والجر في واختلاف، وقرأ ابن مسعود وفي اختلاف الليل والنهار وقرئ: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع، وقرئ: آية وكذلك وما يبوء من دابة آية، وقرئ: وتصريف الريح والمعنى إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فأمنوا بالله، وأقرأوا فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف

لَا يَدْرُسُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٠﴾

وقرأ عبید بن عمیر لا يذاقون فيها الموت وقرأ عبد الله لا ينوقون فيها طعم الموت.

فإن قلت: كيف استثنيت الموتة الأولى المنوطة قبل دخول الجنة من الموت المنفي نوقه فيها^(١)؟ قلت: أريد أن يقال لا ينوقون فيها الموت البتة فوضع قوله: ﴿إلا الموتة الأولى﴾ موضع نك لا لأن الموتة الماضية محال نوقها في المستقبل فهو من باب التعليل بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم نوقها في المستقبل، فإنهم ينوقونها وقرئ: ووقاهم بالتشديد.

فَضَلَّكَ يَنْ رَيْكَ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْلُوبُ ﴿٧١﴾

﴿فضلاً من ربك﴾ عطاء من ربك وثواباً يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار، وقرئ: فضل أي نك فضل.

فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فنك للسورة ومعناها نكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه أي: سهلناه حيث أنزلناه عربياً بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا. فَأَنْزَيْتَ لَهُمُ الْقُرْآنَ يُوقِنُونَ ﴿٧٣﴾

﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿أنهم مرتقبون﴾ ما يحل بك مرتبسون بك الدوائر عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك^(٢)، وعنه عليه السلام من قرأ حم التي ينكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية مكية

حم ﴿٦٧﴾

﴿حم﴾ إن جعلتها اسماً مبتدأ مخبراً عنه.

نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٦٨﴾

بـ ﴿تنزيل الكتاب﴾ لم يكن بد من حذف مضاف

= الغيب إلا الله، أي: إن كان الله ممن في السموات والأرض ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني، فجزمت بالنفي، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في المصدر السابق، (الحديث رقم: 2888).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل

حم النخان، (الحديث رقم: 2889).

(1) قال أحمد: هذا الذي نكره مبني على أن الموتة بدل على طريقة بني تميم المجرور فيها البديل من غير الجنس، وأما على طريقة الحجازيين فانصببت الموتة استثناء منقطعاً، وسر اللغة التمييزية بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطعماً في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحداً لا حمار، على معنى إن كان الحمار من الأحمين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتماً بالنفي، وعليه حمل الزمخشري قل لا يعلم من في السموات والأرض =

﴿وَإِذَا﴾ بلفه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتخذها﴾ أي: اتخذ الآيات ﴿هزوا﴾ ولم يقل اتخذها للإشعار بأنه إذا لحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلفه ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبه به المعاند ويجدله محملاً يتسلق به على الطعن والغمضة افترضه واتخذ آيات الله هزواً وذلك نحو افتراض ابن الزبير قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (١) ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله خصمته ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية: نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والمقائم المهدي يكفيها حيث أراد عتبة، وقرئ: علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أئيم لشموله الأفاكين والوراء اسم للجهة التي يواربها الشخص من خلف أو قدام قال:

ليس ورائي أن تراخت مني تبتي أب مع الولدان أرحف كالنسر
ومنه قوله عز وجل:

يَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا أَحْذَرُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَرَأَيْتُمْ وَلِمَ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٦)

﴿من ورائهم﴾ أي من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله﴾ من الأوثان.

هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيٍّ (١١)

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن يدل عليه قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾ لأن آيات ربهم هي القرآن أي: هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل كامل في الرجولية وأيما رجل والرجز أشد العذاب، وقرئ: بحر اليم ورفعه.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ يَجْرِي الْفُلُكُ فِيهِ يَأْتِرُوا وَلِيَتَنَبَّأُوا مِنْ
فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧)

﴿وليتنبغوا من فضله﴾ بالتجارة أو بالفوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر.

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّكَاكِبِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ (١٣)

فإن قلت: ما معنى منه في قوله: ﴿جميعاً منه﴾ وما موقعها من الإعراب؟ قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني: أنه مكنونها وموجدتها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها خلقه ويجوز أن يكون خبر مبتداً محذوف تقديره

الحيوان ازدانوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت باختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ﴿وتصريف الرياح﴾ جنوباً وشمالاً وقبولاً وديوراً علقوا واستحکم علمهم وخلص يقينهم وسمى المطر رزقاً لأنه سبب الرزق.

يَلِكُ إِنَّتَ اللَّهُ تَتَلَوْنَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاِنِّي حَدِيثٌ بَدَّ اللَّهُ وَرَأَيْتُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة أي تلك الآيات آيات الله ﴿وتتلوها﴾ في محل الحال أي متلوة ﴿عليك بالحق﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا بعلي شيئاً، وقرئ: يتلونها بالياء ﴿بعد الله وآياته﴾ أي بعد آيات الله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه يريون أعجبني كرم زيد، ويجوز أن يراد بعد حديث الله وهو كتابه أو قرأته كقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾، وقرئ: ﴿يؤمنون﴾ بالتاء والياء.

وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧)

الأفك الكذاب والأثيم المتبالغ في اقتراف الآثام.

يَسْمَعُ عَائِنَتِ اللَّهِ تَتَلَوَّنَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُرِيهِمْ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعُوا فَيَتَوَلَّى يَمُكَابِ
أَلِيمٍ (٨)

﴿يصر﴾ يقبل على كفره ويقم عليه وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحى عليها صارا أذنيه ﴿مستكبراً﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق مزبوراً لها معجباً بما عنده قيل نزلت في النصر بن الحرث، وما كان يشتري من أحابيث الأعاجم ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامة في كل ما كان مضاراً للين الله.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله ثم يصر مستكبراً؟ قلت: كمنعاه في قول القائل: يرى غمرات الموت ثم يزورها، وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد فمعنى ثم الإيدان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعابنها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تليت عليه وسمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها ﴿كان﴾ مخففة والأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن كما في قوله: كان ظبية تعطو إلى ناضر السلم، ومحل الجملة النصب على الحال أي يصر مثل غير السامع.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً أَخَذَهَا مِزْواً أُوتِيكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ (١٤)

يَخْلِفُونَ ﴿٧٧﴾

أتيناهم ﴿بيانات﴾ آيات ومعجزات ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إلا من بعد ما جاءهم﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم أو لعداوة وحسد.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿على شريعة﴾ على طريقة ومنهاج ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا ارجع إلى دين آبائك.

إِنَّمَا لَنْ يُعْتَوَىٰ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَكَوْنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾

ولا توالمهم إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم. وأما المتقون فوليههم الله وهم موالوه وما أبين الفصل بين الولايتين.

هَذَا بَصَرٌ لِّأَنَّاسٍ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٨٠﴾

﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن وقرئ: هذه بصائر أي هذه الآيات.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٨١﴾

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم ﴿أن نجعلهم﴾ أن نصيرهم وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأولهما الضمير والثاني الكاف والجملة التي هي ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ بدل من الكاف لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد إلا تراك لو قلت أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سيدياً كما تقول ظننت زيذا أبوه منطلق، ومن قرأ سواء بالنصب أجرى سواء مجرى مستويًا وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق للنجم أي سواء في محياهم وفي مماتهم، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا وأن يستتوا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله

هي جميعاً منه، وإن يكون وسخر لكم تأكيداً لقوله تعالى: ﴿سخر لكم﴾ (١) ثم ابتدئ قوله: ﴿ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ منه وإن يكون ما في الأرض مبتدأ ومنه خبره، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما منه وقرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك، أو هو منه حذف المقول لأن الجواب دال عليه والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلَئِبَاءٌ أُوْمٌ إِلَىٰ رَبِّكَ رُحْمَةٌ ﴿٨٣﴾

﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب وقيل: لا ياملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها وقيل: نزلها في عمر رضي الله عنه وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به وعن سعيد بن المسيب كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرا: قارئ: هذه الآية فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع.

لنجزي تحليل الأمر بالمغفرة أي إنما أمروا بأن يغفروا لما اراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قلت: قوله ﴿قوماً﴾ ما وجه تنكيهه وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم كانه قيل: ليجزي أيما قوم وقوماً مخصوصين لصبرهم، وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه، ومعنى قول عمر: ليجزي عمر بما صنع ليجزي بصبره واحتماله وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي وقرئ: ليجزي قوماً أي الله عز وجل، وليجزي قوم وليجزي قوماً على معنى: وليجزي الجزاء قوماً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ النَّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقهاء أو فصل الخصومات بين الناس لأن الملك كان فيهم والنبوة ﴿من لطيبات﴾ مما أحل الله لهم وطاب من الأرزاق ﴿وفضللناهم على العالمين﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما.

وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْأَمْرِ مِمَّا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبُشْرَىٰ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم، وقيل: معناه إنكار أن يستوروا في الممات كما استوروا في الحياة لأنّ المسيئين والمحسنين مستوي محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم كل يموت على حسب ما عاش عليه، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويرد إلى الصباح: ساء ما يحكمون: وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري من أي الغريقين أنت.

وَوَلَّىكَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ولتجزى﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ لأن فيه معنى التعليل أو على معلل محنوف تقديره خلق الله السموات والأرض ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

وَأَن تَأْخُذَ بِهِمْ نَارٌ مِّنْ أَوْسَاطِ السَّمَوَاتِ يَظُنُّونَ أَنَّهَا مُرٌّ كَذِبٌ عَنَّا يَجْعَلُونَ الْإِنشَاءَ كَالَّذِي أَنشَأَ رَبُّكَ أَشْيَاءَهُمْ وَمَا يَخِفُّونَهَا وَلَا خَافُوا لَهُمْ وَمَا يَظُنُّونَ أَنَّهَا مُرٌّ كَذِبٌ عَنَّا يَجْعَلُونَ الْإِنشَاءَ كَالَّذِي أَنشَأَ رَبُّكَ أَشْيَاءَهُمْ وَمَا يَخِفُّونَهَا

فإن قلت: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم ألدوا به كما يبلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم أو لأنه في حسابانهم وتقديرهم حجة أو لأنه في أسلوب قولهم تحية بينهم ضرب وجيع كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة.

قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُم بِمِثْرِ مَا بُنِنْتُمْ وَإِن كُنتُم مِّنْ شَيْءٍ مَّشكُورِينَ ﴿٢٤﴾

فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قل الله يحييكم﴾ جواباً لقولهم اتنوا بآبائنا إن كنتم صادقين؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسوا أن ما قالوه قول مبكت الرزوا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم، ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه.

وَلِلَّهِ الْمُلْكُ الْأَوَّلِيُّ وَالْآخِرِيُّ وَيَوْمَ نَعُودُ السَّاعَةِ يُؤَيِّدُ بَعْضَ الْمُظَلِّمِينَ ﴿٢٥﴾

عامل النصب في ﴿ويوم تقوم﴾ بخسر، و﴿ويومئذ﴾ بدل من يوم تقوم.

وَرَبِّي كُلِّ أُمَّةٍ جَائِدٌ كُلُّ أُمَّةٍ دَعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

﴿جاثية﴾ باركة مستوفزة على الركب، وقرئ: جانبية والجنود أشد استيفازاً من الجنود لأن الجاثية هو الذي يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجنوة وهي الجماعة وجمعها جثى وفي الحديث: من جثى جهنم⁽²⁾ وقرئ: ﴿كل أمة﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ﴿إلى كتابها﴾ إلى صحائف أعمالها فافتقى باسم

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَسْأَلَهُ اللَّهُ عَنِّ عِزِّي وَرَحْمَةً عَلَيَّ سَمِيحَةً وَقَلِيلَةً وَجَعَلَ عَنِّي بَصِيرَةً غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ رَبُّهُ يَأْتِ اللَّهَ أَفْلاً تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكانه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، وقرئ: ﴿آلهة هواه﴾؛ لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه فكانه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها ﴿وإضله الله على علم﴾ وتركه عن الهداية واللفظ وخذله على علم عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه وأنه ممن لا لطف له أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع اللطاف المحصلة والمقربة ﴿فمن يهديه من بعد﴾ إضلال ﴿الله﴾، وقرئ: غشوة بالحركات الثلاث وغشوة بالكسر والفتح وقرئ: تتنكرون.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

﴿نموت ونحيا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا أو يموت بعض ويحيا بعض، أو نكون مواتاً لطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمران الموت والحياة يريون الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة، وقرئ: نحيا بضم النون، وقرئ: إلا دهر يمر وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين كانوا يزعمون أن مرور

رقم: (6233)، أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في فضل الصلاة والصيام والصدقة، (الحديث رقم: 2863)، وأحمد في المسند 130/4، والحاكم في المستدرک 1/117، وأخرجه البخاري في التفسير، سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 4718).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجاثية، (الحديث رقم: 4827)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الأبي، باب: النهي عن سب الدهر، (الحديث رقم: 2246/2).

(2) أخرجه ابن حبان، في كتاب: بدء التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث

يومكم هذا، وهي الطاعة أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به كما لم تبالوا انتم ببقاء يومكم ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا.

فإن قلت: ما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (3) أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه.

ذَلِكَ بِأَنَّكَ أَخَذْتُمْ مَائِنَةَ اللَّهِ هُرْمًا وَعَزَّزْتُمْ لَمِيؤُهُ الْذَّنْبَ فَأَلِيمُ لَا يُخْرِجُونَ مِنَّا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (4).

وقرى: لا يخرجون بفتح الياء ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبا ربهم أي يرضوه.

يَلِلُّ اللَّيْلُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (5).

﴿فليله الحمد﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم، ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والشناء على كل مربوب وكبروه.

وَالَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6).

فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿في السموات والأرض﴾ وحق مثله أن يتكبر ويعظم عن رسول الله ﷺ: ﴿من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب﴾ (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف مكية

حَمَّ (1) تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الرَّزِيزِ الْكَبِيرِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُّرْشَرُونَ (3).

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح ﴿وو﴾ بتقدير ﴿أجل مسمى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿والذين كفروا عما أنذروا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿معرضون﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَدْعُونَ بِمُكْتَبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ

الجنس كقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ (1) ﴿اليوم تجزون﴾ محمول على القول.

هَذَا كَيْبُنًا يَطُؤُ عَيْنَكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8).

فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة وقد لا بسهم ولا بسه أما ملابسته إياهم فلأن أعمالهم مثبتة فيه، وأما ملابسته إياه فلأنه مالكه والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿ينطق عليكم﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿بالحق﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ الملائكة ﴿وما كنتم تعملون﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9).

﴿في رحمته﴾ في جنته.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَآهٌ لَّهُمْ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمْ شُرَكَاءَ فَاتَّكَفَرْتُمْ وَكُفْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (10).

وجواب أما محنوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحنف المعطوف عليه.

وَإِنَّا بِلَيْلٍ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا فَلَمَّا تَدَارَى مَا أَنشَأَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ (11).

وقرى: ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفًا على الوعد وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿ما للساعة﴾ أي شيء الساعة.

فإن قلت: ما معنى إن نظن إلا ظنًا؟ قلت: أصله نظن ظنًا ومعناه إثبات الظن فحسب فأنخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن تركيدًا بقوله: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (12).

﴿سيئات ما عملوا﴾. أي قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (2).

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْنَاكُمْ كَمَا نَبَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَعُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ (13).

﴿ننساكم﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عذة ﴿لقاء﴾

(1) سورة الكهف، الآية: 49.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) سورة سبأ، الآية: 33.

(4) نكحه الثعلبي، ونكحه الواحدي وابن مروي في التفسير، الزيلعي

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

التهمك بها وبعيبتها، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَاكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ (2).

وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهَا آيَاتُنَا بِرَبِّتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ لِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿بينات﴾ جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات مبيّنات. واللام في ﴿للحق﴾ مثلها في قوله: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا﴾ (3) أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا (4) والمراد بالحق الآيات وبالذين كفروا المتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق ﴿لما جاءهم﴾ أي بادهوه بالجوهر ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجلة فكر ولا إعادة نظر، ومن عنادهم وظلمهم أنهم سموه سحراً مبيئاً ظاهراً أمره في البطلان لا شبهة فيه.

أَرَأَيْتُمْ أَتَيْتُمُوهُنَّ قُلُوبُهُنَّ فَكَلِمَاتُكَ يَكْفُرْنَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كُنْ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ إضراب عن نكر تسميتهم الآيات سحراً إلى نكر قولهم إن محمداً افتراه، ومعنى الهمزة في أم الإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا وأسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله ولو قدر عليه بون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له والحكيم لا يصنق الكاذب، فلا يكون مفترياً والضمير للحق والمراد به الآيات ﴿قل إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه فلا تقدرين على كفه عن معاجلتني ولا تطيقون نفع شيء من عقابه عني فكيف افتريه وأتعرض لعقابه يقال: فلان لا يملك إذا غضب، ولا يملك عنائه إذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ومنه قوله عليه السلام: لا أملك لكم من الله شيئاً (5)

﴿بكتاب من قبل هذا﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعني أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فاتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أو إثارة من علم﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين من قولهم سمعت الناقية على إثارة من شحم أي على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب، وقرئ: أثره أي من شيء أوترت به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم، وقرئ: إثارة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون التاء فالإثارة بالكسر بمعنى: الأثرة وأما الأثرة فالهمزة من مصدر اثر الحديث إذا رواه، وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم ما يخطب به.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَّوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ومن أضل﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام (1) حيث يتروكون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من بونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة.

وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَاؤُهُمْ أَعْدَاءَهُمْ وَكَاؤُا بِيَادِهِمْ كَفِرُونَ ﴿٤١﴾

وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضدّاً فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة وفي الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم وإنما قيل من وهم لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغبابة ويجوز أن يريد كل معبود من نون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها، قرئ: ما لا يستجيب وقرئ: يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(4) قال أحمد: هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدّمتها آنفاً في بابها، فإنه انتقال إلى موافق لكنه أزيد من الأول، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدّمه مما ينقص عنه منزلة المتناهيين كالنفي والإثبات الذين يضرب عن أحدهما للأخر، وذلك أنّ نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر، فأضرب عن ذلك الأول إلى نكر ما هو أغرب منه.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: من انتسب إلى آبائه في الجاهلية والإسلام (الحديث رقم: 3527)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: وأنذر عشيرتَك (الحديث رقم: 3481 - 204).

(1) قال أحمد: وفي قوله: إلى يوم القيامة نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحق بالثاني، حتى كأنّ الحاليتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أنّ الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زانت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدّم آنفاً في سورة الزخرف في قوله: ﴿ويل متعت هؤلاء وآبأهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرين﴾.

أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم أتترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيها يعني في متامه ذات نخيل وشجر. وعن ابن عباس ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾⁽³⁾ ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة، وقرئ: ﴿ما يفعل﴾ بفتح الياء أي يفعل الله عز وجل.

فإن قُلْتُ: إن يفعل مثبت غير منفي فكان وجه الكلام ما يفعل بي وبكم قُلْتُ: أجل ولكن النفي في ما أدري لما كان مشتملا عليه لتناوله ما وما في حيزه صح ذلك وحسن ألا ترى إلى قوله: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر﴾⁽⁴⁾ كيف دخلت الباء في حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها⁽⁵⁾، وما في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة وقرئ: يوحى أي الله عز وجل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفِّرَتْ بِيهِ وَسُيِّدَتْ شَاهِدَةٌ مِنْ رَبِّي إِنْ شَاءَ بِدَلِّ عَلَىٰ سُبُلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَغْوَبَكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

جواب الشرط محذوف تقديره إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به أستم ظالمين ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾⁽⁶⁾ والشاهد من بني إسرائيل عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا: نبي ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة، وبإل الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه فقال عليه الصلاة والسلام: «أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء

ثم قال: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى، والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كفى به شهيدًا بيني وبينكم﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى نكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وهو للغفور الرحيم﴾ موعدة بالفقران، والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وأمنوا وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا.

فإن قُلْتُ: فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى: ﴿فلا تملكون لي﴾ قُلْتُ: كان فيما اتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم⁽¹⁾، فكانه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصنكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله فما تغفون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه، ليدع بمعنى البديع كالخف بمعنى الخفيف وقرئ: بدعًا بفتح الدال أي ذا بدع، ويجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم بين قيم ولحم زيم كانوا يفترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب فقيل له:

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أَنِجَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٦﴾

﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل﴾ فأتيتكم بكل ما تفترحونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات، فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما أتاهم الله من آياته ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون فما بال القرون الأولى بقوله: ﴿علمها عند ربي﴾⁽²⁾ ﴿وما أدري﴾ لأنه لا علم لي بالغيب ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ويقدّر لي ولكم من قضاياه ﴿إن تتبع إلا ما يوحى إلي﴾ وعن الحسن وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب وعن الكلبي قال له

= واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بري مما تجرمون﴾ وأمثاله كثيرة، والله أعلم.

- (2) سورة طه، الآية: 52.
- (3) سورة الفتح، الآية: 2.
- (4) سورة الأحقاف، الآية: 33.
- (5) قال أحمد: بنى على أن المجرور معطوف على مثله، وأنها جميعاً في صلة موصول واحد، ولو قيل: إن المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله، حتى يكون التقدير وما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم؟ لكانت لا واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل، وحذف الموصوف المعطوف وتفصيله كثيرة، ومنه فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء: يريد حسان رضي الله عنه: أقمن يهجو رسول الله ﷺ، ومن يمدحه سواء.
- (6) سورة الأنعام، الآية: 144.

(1) قال أحمد: فيه نظر من قبيل أن للكلام جرى فرضاً وتقديراً، ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح، فإن النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن، إلا أن يكون مأموراً به من الله تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعزلة للقاتلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلاً، وقال: إن الله حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول الله إليكم، ولم يكن متوقفاً، فإنه محق في الأمر بالتوحيد؛ لأن العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفترياً في دعوى كونه رسولاً من الله عز وجل، وهذه قاعدة قد أفسستها الأدلة القاطعة، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبية بالشيء على مقابله بطريق المفهوم، فالعنى إذا إن كنت مفترياً فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني، فمفهومه وإن كنت محقاً، وأنتم مفترون فالعقوبة =

نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به
الستم أضل الناس وأظلمهم، وقد جعل الإيمان في قوله فأمن
مسيباً عن الشهادة على مثله لأنه لما علم أن مثله أنزل على
موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من
كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد علته واعترف كان
الإيمان نتيجة ذلك.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ وَإِنَّ لَنَا
بِهِتَدُوا بِهِ سَبِقُولُونَ هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ ﴿١١﴾

﴿للذين آمنوا﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا: عامة
من يتبع محمد السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب،
وابن مسعود فلو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء
وقيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم غفار قالت: بنو
عامر وغطفان وأسد، وأشجع لو كان خيراً ما سبقنا إليه
رعاي إليهم وقيل إن أمة لعمر أسلمت فكان عمر يضربها
حتى يفتري، ثم يقول لو أنني فترت لزنتك ضرباً وكان كفار
قريش يقولون لو كان ما يدعو إليه محمد حقاً ما سبقنا
إليه فلانة، وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن
سلام وأصحابه.

فإن قُلْتُ: لا بد من عامل في الظرف في قوله: ﴿وإن لم
يهتدوا به﴾ ومن متعلق لقوله ﴿فسيقولون﴾ وغير
مستقيم أن يكون (8) فسيقولون هو العامل في الظرف لتدافع
دلالتي الماضي والاستقبال فما وجه هذا الكلام؟ قُلْتُ: العامل
في إذ محنوف لدلالة الكلام عليه كما حذف من قوله فلما
ذهبوا به وقولهم حينئذ الآن وتقديره وإن لم يهتدوا به ظهر
عنادهم، فسيقولون هذا إنك قديم فهذا المضمهر صحَّ به
الكلام حيث انتصب به الظرف وكان قوله: فسيقولون مسبباً
عنه كما صحَّ بإضمار أن قوله حتى يقول الرسول لمصادفة
حتى مجرورها والمضارع ناصبه وقولهم ﴿إنك قديم﴾
كقولهم أساطير الأولين.

الرجل نزعهم وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال أشهد أنك
رسول الله حقاً، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت
وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندي،
فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ أي رجل عبد الله فيكم
فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيننا وابن سيننا وأعلمنا وابن
أعلمنا قال: أرايتم إن أسلم عبد الله قالوا: أعاده الله من ذلك
فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد
أن محمداً رسول الله، فقالوا: شربنا وابن شربنا وانتقصوه
قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله (1) وأحذر قال سعد بن
أبي وقاص ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي
على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام
وفيه نزل ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على
مثله﴾ (2) الضمير للقرآن أي على مثله في المعنى وهو ما
في التوراة من المعاني المطابقة في القرآن من التوحيد
والوعد والوعيد وغير ذلك ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وإنه
لفي زبير الأولين﴾ (3) ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ (4)
كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك، ويجوز أن يكون
المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على
نحو ذلك يعني كونه من عند الله.

فإن قُلْتُ: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه
من جهة النظم (5) قُلْتُ: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل
الشرط كما عطفته، ثم في قوله تعالى: ﴿قل أرايتم إن كان
من عند الله ثم كفرتم به﴾ (6) وكذلك الواو الآخرة عاطفة
لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو في وشهد شاهد فقد
عطفت جملة قوله شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله
فأمن واستكبرتم على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم
به﴾ (7) ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك
وأعرضت عني لم تنفق في أنك أخذت ضميرتين عطفتهما
على مثلثهما والمعنى قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من
عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على

(7) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: (51) (الحديث رقم: 3938).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام (الحديث رقم: 3812)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (الحديث رقم: 2483، 147).

(3) رواه ابن أبي شيبة في كتاب: المفرد، في فضائل القرآن، زيلعي 281/3، راجع بدون حاشية.

(4) سورة الشعراء، الآية: 196.

(5) قال أحمد: إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة؛ لأنَّ التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما، والآية من هذا النمط ومثلها قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ وقوله: ﴿إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية وقد تقدّم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهداً.

(6) سورة الأعلى، الآية: 18.

(8) قال أحمد: إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف، إلا تنافي دلالتي الماضي والاستقبال، فهذا غير مانع، فإن الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى؛ لأن القوم قد حرموا الهداية، وقالوا: هذا إنك قديم وأساطير الأولين، وغير ذلك، فمعنى الآية: إننا لو لم يهتدوا به هذا إنك قديم ودأموا على ذلك، وأصروا عليه، فعبر عن وقوعه، ثم لومه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: إلا الذي فطرني، فإنه سيهدين، وقد كانت الهداية واقعة وماضية، ولكن أخير عن وقوعها ثم دأموها، فعبر بصيغة الاستقبال، وهذا طريق الجمع بين قوله: سيهدين، وقوله في الآخرة: فهو يهدين، ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي نكرته هو الوجه، ولكن الفاء المسببة دلت ببخولها على محنوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم، فوجب تقدير المحنوف عاملاً فيه لينتظم بتقدير عاملاً، أمران لمصادفة الظرف للعامل والفعل المعلى لعلته، فتعين ما ذكره الرمزخشري لأجل الفاء لا لتناهي الداليتين والله أعلم.

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال ووقته، وقرئ: حتى إذا استوى وبلغ أشده وبلغ الأشد أن يكتهل ويستوفي السن التي تستحکم فيها قوته وعقله، وتمييزه وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين وعن قتادة ثلاث وثلاثون سنة ووجهه أن يكون نلك أول الأشد وغايته الأربعين، وقيل لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها نعمة التوحيد والإسلام وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه لأن النعمة عليها نعمة عليه، وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس.

فإن قُلْتُ: ما معنى في قوله: ﴿واصلح لي في ذريتي﴾ قُلْتُ: معناه أن يجعل ذريته⁽²⁾ موقفاً للصالح ومظنة له كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ونحوه، يجرح في عراقبيها نصلي ﴿من المسلمين﴾ من المخلصين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُعْطُونَ ﴿١١﴾.

وقرئ: يتقبل ويتجاوز بفتح الياء الضمير فيهما والله عز وجل وقرئنا بالنون.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله: ﴿في أصحاب الجنة﴾ قُلْتُ: هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم ومحل النصب على الحال على معنى كائنين من أصحاب الجنة، ومعدولين فيهم ﴿وعد الصديق﴾ مصدر مؤكد لأن قوله يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل، والتجاوز، وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم وقيل لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو والوالد وبنوه وبناته غير أبي بكر.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَي لَكُمَا أُمِدَائِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَأَمَّا بَنِيَّ يَبْتَوِيانِ اللَّهُ وَوَلَيْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ فَأَنْبَأَهُ اللَّهُ بِمَا جَعَلَ خَلْفًا لِمَنِ الْأَعْيُنُ الْأُولَى ﴿١٢﴾.

﴿والذي قال لوالديه﴾ مبتدأ خبره أولئك الذين حق عليهم القول، والمراد بالذي قال الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعاً وعن الحسن هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه، وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر⁽³⁾ قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوَدَّةً وَإِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِبَشِيرٍ لِنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُذِرَ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلاَ حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَمْرُؤُونَ ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِمَالِهِمْ ﴿١٥﴾.

﴿كتاب موسى﴾ مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه وهو ناصب ﴿إماماً﴾ على الحال كقولك في الدار زيد قائماً، وقرئ: ومن قبله كتاب موسى على وآتينا الذين قبله التوراة ومعنى إماماً قنوة يؤتم به في دين الله وشرايعه كما يؤتم بالإمام ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب مصدق﴾ لكتاب موسى، أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب وقرئ: مصدقاً لما بين يديه ﴿ولساناً عربياً﴾ حال من ضمير الكتاب في مصدق والعامل فيه مصدق ويجوز أن ينتصب عن كتاب لتخصسه بالصفة⁽¹⁾ ويعمل فيه معنى الإشارة، وجوز أن يكون مفعولاً لمصدق أي يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول، وقرئ: ولينذر بالياء والتاء ولينذر من نذر ينذر إذا حذر ﴿وبشري﴾ في محل النصب معطوف على محل لينذر لأنه مفعول له.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلَتْهُ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنَيْتُ لَكَ إِنسًا مِّنَ الْمُشْكِرِينَ ﴿١٦﴾.

قرئ: حسناً بضم الحاء وسكون السين وبضمهما وبفتحهما وإحساناً وكرهاً بالفتح والضم وهما لغتان في معنى: المشقة كالفقر والعقر وانتصابه على الحال أي ذات كره أو على أنه صفة للمصدر أي حملاً ذا كره ﴿وحمله وفصاله﴾ ومدة حملة ستة أشهر لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة بقيت للحمل ستة أشهر، وقرئ: وفصله والفصل والفصال كالفطم والفظام بناء ومعنى.

فإن قُلْتُ: المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال؟ قُلْتُ: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم سمي فصلاً كما سمي المدة بالأمد من قال:

كل حي مستكمل مدة العمد . رمود إذا انتهى أمده

= بكر، ولكن لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه، فإن له أن يقول أراد عبد الرحمن وأمه، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا: ﴿إنه من كينكن إن كينكن عظيم﴾ فخاطبها وخاطب أمتها والمقصود هي، وقد عاد إلى مخاطبها خصوصاً بقوله: ﴿واستغفري لنبيك إنك كنت من الخاطئين﴾ ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن ما نكره الزمخشري =

(1) قال أحمد: وجهان حسنان اعززهما بثالث، وهو النصب على الاختصاص، وهذه الوجوه في قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا﴾ والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومثله قوله تعالى: ﴿إلا المودة في القربى﴾ عدولاً عن قوله: ﴿إلا مودة القربى﴾، أو المودة للقربى، والله أعلم.

(3) قال أحمد: ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي

إلى الإسلام فاقف بهما، وقال: ابعثوا إلى جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين نلك وأن قوله الذين حق عليهم القول هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية يتابعون لأبنائكم فقال مروان يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه: أف لكما فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فانت فضض من لعنة الله⁽¹⁾ وقرئ: أف بالكسر والفتح بغير تنوين وبالحرركات الثلاث مع التنوين وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال حس علم منه أنه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأكيد لكما خاصة ولاجلكما نون غيركما، وقرئ: أتعدانني بنونين وأتعداني بأحدهما وأتعداني بالإدغام وقد قرأ بعضهم أتعدانني بفتح النون كأنه استنقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من ادغم ومن أطرح أحدهما ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض، وقرئ: أخرج ﴿وَقَدْ خَلَّتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني ولم يبعث منهم أحد ﴿يَسْتَعِثُّانِ اللَّهَ﴾ يقولان الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله ﴿وَوَيْلٌكَ﴾ دعاء عليه بالشبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

إلى الإسلام فاقف بهما، وقال: ابعثوا إلى جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين نلك وأن قوله الذين حق عليهم القول هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية يتابعون لأبنائكم فقال مروان يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه: أف لكما فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فانت فضض من لعنة الله⁽¹⁾ وقرئ: أف بالكسر والفتح بغير تنوين وبالحرركات الثلاث مع التنوين وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال حس علم منه أنه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأكيد لكما خاصة ولاجلكما نون غيركما، وقرئ: أتعدانني بنونين وأتعداني بأحدهما وأتعداني بالإدغام وقد قرأ بعضهم أتعدانني بفتح النون كأنه استنقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من ادغم ومن أطرح أحدهما ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض، وقرئ: أخرج ﴿وَقَدْ خَلَّتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني ولم يبعث منهم أحد ﴿يَسْتَعِثُّانِ اللَّهَ﴾ يقولان الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله ﴿وَوَيْلٌكَ﴾ دعاء عليه بالشبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ أَلَيْنَ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ ﴿٧٨﴾

﴿في أمم﴾ نحو قوله في أصحاب الجنة، وقرئ: أن بالفتح على معنى أمن بان وعد الله حق.

رَبِّكَ وَحَدَّثَ سَمًا عَرِئًا وَرَبِّهِمْ أَعْتَلَمَهُمْ وَهُمْ لَا يظُنُونَ ﴿٧٨﴾

﴿ولكل﴾ من الجنسين المذكورين ﴿درجات مما عملوا﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير أو الشر ومن أجل ما عملوا منهما.

ثانياً، فقال: إن الذين حق عليهم القول هم المخلدون في النار في علم الله تعالى، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم، ونقل أن معاوية كتب إلى مروان: بأن يبايع الناس ليزيد، فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية يتابعون لأبنائكم، فقال مروان: أيها الناس إن هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه﴾ الآية فسمعت عائشة فغضبت، وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه سميته، ولكن الله لعن أباك، وأنت في صلبه، فانت فضض من لعنة الله أه كلامه. قلت: وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعم؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة، ولا في الخبر، فلا يجوز أن تقول الدينار الصفر خير من الدرهم البيض، وهذا مردود بان خبر الذي الواقع جنساً جاء على نعت خبر المجموع، كما رأيت، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحقاف، باب: والذي =

وَيَوْمَ يَرْضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ لَيْبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْوَمُ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يُعَذِّبُ الْحَقُّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أذهبتهم﴾ وعرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم عرض بنو فلان على السيف⁽²⁾ إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها﴾، ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض يربون عرض الحوض عليها فقلبوا، ويدل عليها تفسير ابن عباس رضي الله عنه بجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أذهبتهم طيباتكم﴾ أي ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم وقد ذهبتم به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها وعن عمر رضي الله عنه لو شئت لدعوت بصلائق وصاب وكراكر وأسمنة، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: ﴿أذهبتهم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾⁽³⁾ وعنه: لو شئت لكتنت أطيبكم طعاماً وأحسنتكم لباساً ولكني أستقبني طيباتي⁽⁴⁾ وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالادم ما يجدون لها رقاعاً فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحسنكم في حلة، ويروح في أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بينه كما تستر الكعبة» قالوا: نحن يومئذ خير قال: بل أنتم اليوم خير⁽⁵⁾، وقرئ: أذهبتهم بهمزة الاستفهام وأذهبتهم بالف بين همزتين. الهون والهوان، وقرئ: عذاب الهوان، وقرئ: يفسقون بضم السين وكسرهما الأحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من حقوق الشيء إذا

= قال لواليه أف لكما... (الحديث رقم: 4827).

(2) قال أحمد: إن كان قولهم عرضت لئاقة على الحوض مقولياً فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقولياً؛ لأنه الملجئ؛ ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هي المبركة فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوص بانها حينئذ مبركة إدراك الحيوانات، بل إدراك أولى العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وأحمد بن حنبل في الزهد، وأبو عبيدة في غريب، للزبلي 283/3.

(4) رواه أبو نعيم في ترجمة عمر.

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، باب: (35) (الحديث رقم: 2476).

﴿فلما رآوه﴾ في الضمير وجهان أن يرجع إلى تعدنا وأن يكون مبهمًا قد وضع أمره بقوله ﴿عارضًا﴾ إما تمييزًا وإما حالًا وهذا الوجه أعرب وأصح والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ومثله الحبي والعبان من حبا وعن إذا عرض وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بل هو﴾ القول قبله مضمرة والقائل هود عليه السلام والدليل عليه قراءة من قرأ قال هود بل هو، وقرئ: قل بل ما استعجلتم به هي ريح.

تُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْتِرُ رِيحًا فَأَسْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسْكَنَهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾.

أي قال الله تعالى: قل ﴿تدمر كل شيء﴾ تهلك من نفوس عاد وأمالمهم الجم الكثير فعبء عن الكثرة بالكلية، وقرئ: يدمر كل شيء من دمر دمارًا إذا هلك ﴿لا ترى﴾ الخطاب للراشي من كان وقرئ: ﴿لا يرى﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم ومنه بيت ذي الرمة وما بقيت إلا الضلوع الجراشع وليست بالقوية، وقرئ: الا ترى إلا مساكنهم ولا يرى إلا مساكنهم. وروي أن الريح كانت تحمل الفسطاط والطعينة فترفعها في الجو حتى ترى كأنها جرادة، وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحًا فيها كسهب النار. وروي أول ما عرفوا به أنه عذاب أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم، وما شبيهه تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيام لهم اثنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر وروي أن هودًا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطأ إلى جنب عين تتبع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفوس وأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فيقال له: يا رسول الله ما تخاف، فيقول إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطر⁽¹⁾.

فإن قلنت: ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قلنت: الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته لأنها من أعاجيب خلقه، وأكابر جنوده ونكر الأمر وكونها مأمورة

أعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن، وقيل بين عمان ومهرة.

﴿وَأَذَكَّرْنَا عَادَ إِذْ أَذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنَ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

و﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿من بين يديه﴾ من قبله ﴿ومن خلفه﴾ ومن بعده وقرئ: من بين يديه ومن بعده، والمعنى: أن هودًا عليه السلام قد أنذره فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه يعني الرسل الذين بعثوا قبله، والذين بعثوا في زمانه ومعنى ومن خلفه على هذا التفسير ومن بعد إنذاره هذا إذا علفت وقد خلت النذر بقوله أنذر قومه ولك أن تجعل قوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ اعتراضًا بين أنذر قومه وبين ﴿ألا تعبدوا﴾ ويكون المعنى وانكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل نكف فانكر.

قَالُوا إِنَّمَا كُنَّا مِنْ آلِهَتِنَا لِتَابِعْنَا بِمَا تَوَدَّأْنَا إِنْ كُنَّا مِنْ الْفَٰئِدِيَّةِ ﴿١٦﴾.

الإفك الصرف: يقال أفكه عن رأيه ﴿عن آلهتنا﴾ عن عبادتنا ﴿بما تعدنا﴾ من معالجة العذاب على الشرك ﴿إن كنت﴾ صادقًا في وعك.

قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّظْتَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾.

فإن قلنت: من أين طابق قوله تعالى: ﴿إنما العلم عند الله﴾ جوابًا لقولهم فأتنا بما تعدنا؟ قلنت: من حيث أن قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعنيكم حكمة وصوابًا إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن ياتيك بعذابه في وقت عاجل فتترحونه أنتم ومعنى ﴿وأنبلغكم ما أرسلت به﴾ وقرئ: بالتخفيف أن الذي هو شائي وشرطي أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدي، ولكنكم جاهلون ولا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أنن لهم فيه.

= والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا عصفت الريح، (الحديث رقم: 946).

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم.. (الحديث رقم: 15 - 899)، والترمذي في كتاب:

الدعوات، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، (الحديث رقم: 3449)، =

من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه.

وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْنًا
وَأَفْوَدَهُمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سُمُّهُمْ وَلَا ابْنُهُمْ وَلَا أَفْوَدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
كَانُوا يُجَادُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾

﴿إِنْ﴾ نافية أي فيما ما مكناكم فيه إلا أن أحسن في اللفظ لما فيه مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الأصل في مهما ما فليشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ولقد أغث أبو الطيب في قوله:

لعمرك ما ما بان منك لضارب

وما ضره لو اقتدى بعنوية لفظ التنزيل فقال لعمرك ما أن بان منك لضارب وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشده الأخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه

وتعرض نون أدناه الخطوب. وتؤول بانا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الأول ولقد جاء عليه غير آية في القرآن هم أحسن أثاثاً ورثيا كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثارا وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿من شيء﴾ أي من شيء من الإغناء وهو القليل منه.

فإن قلت: بم انتصب ﴿إذ كانوا يجحدون﴾ قلت: بقوله تعالى: فما أغنى.

فإن قلت: لم جرى مجرى التعليل؟ قلت: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك ضربته لإساعته وضربته إذا أساء لأنك إذا ضربته في وقت إساعته فإنما ضربته فيه لوجود إساعته فيه إلا أن إذ وحيث غلبتا نون سائر الظروف في ذلك.

وَلَقَدْ أَهَلَّكُمَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَرَرْنَا أَلَيْبٍ لَّهُمْ رَجُومٌ ﴿١٧﴾

﴿ما حولكم﴾ يا أهل مكة ﴿من القرى﴾ من نحو حجر نمود، وقرية سلوم وغيرهما والمراد أهل القرى ولذلك قال ﴿لعلهم يرجعون﴾.

فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ آخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ صَلَوَاتُ
عَنَّهُمْ وَذَكَرَ إِفْكَهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾

القربان ما تقرب به إلى الله تعالى أي اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف⁽¹⁾ والثاني إلهة وقرباناً حال، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقرى: قرباناً بضم الراء والمعنى فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي غابوا عن نصرتهم ﴿ونلك﴾ إشارة إلى امتناع نصره آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أي ونلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمره شركهم وإفترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء وقرى: إفكهم والإفك والإفك كالحذر والحذر، وقرى: ونلك إفكهم أي ونلك الاتخاذ الذي هذا اثره وثمرته صرفهم عن الحق، وقرى: إفكهم على التشديد للمبالغة وأفكهم جعلهم آفكين وأفكهم أي قولهم الأفك نو الإفك كما تقول قول كاتب ونلك إفك مما كانوا يفترون أي بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَصْوَاتٌ فَلَمَّا فُتِنُوا وُلُّوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ
الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾

﴿صرفنا إليك نفرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك، وقرى: صرفنا بالتشديد لأنهم جماعة والنفر نون العشرة ويجمع انفاراً وفي حديث أبي نر رضي الله عنه لو كان ههنا أحد من أنفارنا⁽²⁾ ﴿فلما حضروه﴾ الضمير ﴿للقرآن﴾ أي فلما كان بمسمع منهم أو لرسول الله ﷺ، وتعضده قراءة من قرأ فلما قضى أي أتم قراءته وفرغ منها.

﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿انصتوا﴾ استكتوا مستمعين يقال أنصت لكذا واستنصت له روي أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبا حدث فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى منهم زبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته ونلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم، فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف⁽³⁾ وعن سعيد بن جبير

= المفعول الثاني لا غير.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي نر (الحديث رقم: 132 - 2473).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر (الحديث رقم: 773)، ومسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (الحديث رقم: 149 - 449)، والحاكم في المستدرک: 2/456.

(1) قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب، ونحن نبينه فنقول: لو كان قرباناً مفعولاً ثانياً، ومعناه: متقرباً بهم لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقرباً به؛ لأن السيد إذا وبخ عبده، وقال: اتخذت فلاناً سيداً لوني، فإنما معناه: اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصد، فإن الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره، فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو =

يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ حَقٍّ وَقَدِيرٌ ﴿٣٧﴾.

﴿بقادر﴾ محله الرفع لانه خبر أن يدل عليه قراءة عبد الله قادر وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وما في حيزها، وقال الزجاج: لو قلت ما ظننت أن زيداً بقاتم جاز كأنه قيل ليس الله بقادر ألا ترى إلى وقوع بل مقررة للقدره على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم، وقرئ: يقدر ويقال عيبت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ومنه أقعينا بالخلق الأول.

وَيَوْمَ يَمْرُسُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَسَاءً قَالِ قَدُورُوا الْعَذَابِ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿ليس هذا بالحق﴾ محكي بعد قول مضمهر وهذا المضمهر هو ناصب الظرف وهذا إشارة إلى العذاب ببليلى قوله تعالى: ﴿فَنُوقُوا الْعَذَابِ﴾ والمعنى: التهمكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين.

فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ بِيَوْمَ يَأْتُونَ مَا وَعَدُوا رَبَّ يَأْتُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَمَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ أَنفَكُوا ﴿٣٩﴾.

﴿أولوا العزم﴾ أولو الجد والثبات والصبر و ﴿من﴾ يجوز أن تكون للتبويض ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم على النار ونوح ولده، وإسحاق على النبح ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه: إنا لمدركون قال: كلا إن معي ربي سيهدين وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينة على لينة وقال إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى: في آدم ولم نجد له عزماً وفي يونس، ولا تكن كصاحب الحوت ويجوز أن تكون للبيان فيكون أولوا العزم صفة الرسل كلهم ﴿ولا تستعجل﴾ لكفار قريش بالعذاب أي لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر وإنهم مستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوا ﴿ساعة من نهار بلاغ﴾ أي هذا الذي وعظمت به كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فهل يهلك﴾ إلا الخارجون عن الاعتاض به والعمل بموجبه، ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ بلغ فهل يهلك، وقرئ: ﴿بلاغاً﴾ أي بلغوا بلاغاً وقرئ: يهلك بفتح الباء وكسر

رضي الله عنه ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنباه الله باستماعهم⁽¹⁾ وقيل بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرًا منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني قالها ثلاثاً فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لم يحضره ليلة الجن أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطاً وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله ﷺ هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض، فقال: أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك⁽²⁾.

فإن قلت: كيف قالوا من ﴿بعد موسى﴾؟ قلت: عن عطاء رضي الله عنه أنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجن لم تكن سمعت بامر عيسى عليه السلام فلذلك قالت: من بعد موسى.

يَقَوْمًا آيِبُوا دَائِيَ اللَّهِ وَرَأُوا بِهِ يَفُوزَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٠﴾.

فإن قلت: لم بعض في قوله: ﴿من دنوبكم﴾ قلت: لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم⁽³⁾ ونحوها ونحوه قوله عز وجل: ﴿إن اعبدوا الله واتقوه واطيعون يغفر لكم من دنوبكم﴾⁽⁴⁾.

فإن قلت: هل للجن ثواب كما للإنس؟ قلت: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لقوله تعالى: ﴿ويجركم من عذاب اليم﴾ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله، والصحيح أنهم في حكم بني آدم لأنهم مكلفون مثلهم.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَائِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَةٌ أُولَئِكَ فِي سَلَاطِنٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾.

﴿فليس بمعجز في الأرض﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ونحوه قوله تعالى: ﴿وإننا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾⁽⁵⁾.

أَوْلَىٰ بَرًّا أَنْ يَأْتِيَ الْوَعْدَ الَّذِي فِي الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَالْجِبَالُ يَخْفَوْنَ

(1) راجع الحديث: 403.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 503/2.

(3) قال أحمد: ليس ما أطلقه من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح؛ لأنّ الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه جب الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال، ويقال: إنه ما وعد المغفرة للكافر على تغيير الإيمان في كتاب الله تعالى، إلا =

= مبعضة وهذا منه، فإن لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن

مقام الكافر قبض لا بسط، لذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيراً، والله أعلم.

(4) سورة نوح، الآية: 3 - 4.

(5) سورة الأحقاف، الآية: 34.

﴿واصلح بالهم﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا أَتْبَلُ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٤﴾.

﴿نلك﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي نلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كما نكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوباً على هذا ومرفوعاً على الأول و﴿الباطل﴾ ما لا ينتفع به وعن مجاهد الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كذلك﴾ مثل نك الضرب ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المنكوبين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم.

فإن قلَّت: أي ضرب الأمثال؟ قلَّت: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُمْ فَتُذَرُّوا الرِّقَابَ وَإِنَّا مُنَادٍ وَمِنَّا فِتْنَةٌ حَتَّىٰ نَصَّحَ الْمُزَيَّنَاتُ لِرَبِّهِنَّ ذَلِكَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنَضْرِبَنَّهِنَّ وَلَكِنَّ لِنَبِّئًا بِمَا تَعْمَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبْعِلَّ أَعْمَالَكُمْ ﴿٥﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضِلُّكَ بِالْكُفْرِ.

﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل، وقدم المصدر فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لأن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة بون غيرها من الأعضاء وذلك أنهم كانوا يقولون ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته وضرب ما فيه عيناه إذا قتله وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبة فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبة من المقاتل كما نكرنا في قوله: بما كسبت أيديكم على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأوجه أعضائه ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله

اللام وفتحها من هلك وهلك ونهلك بالنون إلا القوم الفاسقين عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾.

وصدوا وأعرضوا وأمتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدوا غيرهم عنه قال ابن عباس: رضي الله عنه: هم المطمعون يوم بدر وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصنون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام وقيل: هو عام في كل من كفر وصد ﴿أضل أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالأضالة من الإبل (٢) التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها، ويعتني بامرأها أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوقة بها كما يضل الماء في اللبن وأعمالهم ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله بأن نصره عليه وأظهر دينه على الدين كله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَّبَتْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ قال مقاتل هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عام وقوله: ﴿وآمنا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيماً لشأنه وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾، وقيل معناها أن دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره وقرئ: نزل وأنزل على البناء للمفعول ونزل على البناء للفاعل ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم

(1) نكره الثعلبي، والولحدي، وابن مرويه في التفسير، الزيلعي 3/ 291.

(2) قال أحمد: هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ثم قال: ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ وأصلح بالهم، وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى =

= صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم، ومقابلة في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة، حتى صار سيئهم مكفراً محققاً في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، والله أعلم.

منهم ﴿لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ليلبوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب، وقرئ قتلوا بالتخفيف والتشديد وقتلوا وقاتلوا، وقرئ فلن يضل أعمالهم وتضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضلّ وعن قتادة: أنها نزلت في يوم أحد.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَبِيًّا ۖ ﴿٦١﴾

﴿عرفها لهم﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستلبون عليها، وعن مقاتل: إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، وفي كلام بعضهم عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري أو حدها لهم فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها من عرف الدار وارفها والعرف والأرف: الحدود.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَصْرِكُمْ وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ ۖ ﴿٧﴾

﴿إن تنصروا﴾ دين ﴿الله﴾ ورسوله ﴿ينصركم﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا نَسَا لَّهُمْ وَاضَلَّ عَنْهُمْ ۗ ﴿٨﴾

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فتعسا لهم﴾ كانه قال: اتعسا الذين كفروا. فإن قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿واضل أعمالهم﴾ قُلْتُ: على الفعل الذي نصب تعسا لأن المعنى فقال تعسا لهم أو ففضى تعسا لهم وتعسا له نقيض لعا له قال الأعشى:

بالتعسا أولى لها من أن أقول لعا

يريد فالغثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردد في النار.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ عَنْهُمْ ۖ ﴿٩﴾

﴿كفروا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك. وتعاضمهم، دمره: أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم.

تعالى فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم قتلهم واغلظتموه من الشيء الثخين، وهو الغليظ أو أثخنتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبت عنهم النهوض ﴿فشنوا الوثاق﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، منا وفداء منصوبان بفعليهما مضميرين أي فإما تمنون منا وإما تفنون فداء، والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفاوهم.

فإن قُلْتُ: كيف حكم أسارى المشركين؟ قُلْتُ: أما عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين إما قتلهم وإما استرقاقهم إيهما رأى الإمام ويقولون في المنّ والفداء المنكورين في الآية نزل نلك في يوم بدر، ثم نسخ وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل، ويسترقوا أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل النمة وبالفداء أن يفادي بأسارهم أسارى المشركين، فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفة والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعولوا حربا للمسلمين، وأما الشافعي فيقول للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين والمنّ ويحتج بأن رسول الله ﷺ منّ على أبي عروة الحنفي⁽¹⁾ وعلي بن أثال الحنفي⁽²⁾ وفادي رجلا برجلين من المشركين⁽³⁾ وهذا كله منسوخ عند أصحاب الراي، وقرئ فدى بالقصر مع فتح الفاء أو زار الحرب آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الأعشى:

واعسدت للحرب أوزارها رماحاطوا وأخيلأنكوروا
وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بدّ من جرّها
فكانها تحملها وتستقل بها فإذا انقضت فكانها وضعتها
وقيل أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم
المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

فإن قُلْتُ: حتى بم تعلقت قُلْتُ: لا تخلوا إما أن تتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء، فالمعنى: على كلا المتعلقين عند الشافعي رضي الله عنه أنهم لا يزالون على نلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، ونلك إذا لم يبق لهم شوكة وقيل إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام وعند أبي حنيفة رحمه الله إذا علق بالضرب، والشدّ والمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ونلك حين لا تبقى شوكة للمشركين وإذا علق بالمنّ، والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفانون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتاول المنّ والفداء بما نكرنا من التاويل ﴿نلك﴾ أي الأمر نلك، أو افعلوا نلك ﴿لانتصر

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في قتل الأسارى

(1) ذكره ابن هشام في سيرته 2/128.

والفداء (الحديث رقم: 1568).

(2) لم أجده.

زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله ومن كان على بينة من ربه أي على حجة من عنده وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ.

﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١٤).

وقرئ: أمن كان على بينة من ربه وقال تعالى: ﴿سوء عمله واتبعوا﴾ للحمل على لفظ من ومعناه.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّدَوِّ الْأَشْرَابِ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى وَكَمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْرُوفَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمَامَهُمْ^(١٥).

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ كمن هو خالد في النار؟ قُلْتُ: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي⁽²⁾ والإنكار لانطوئه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار وبخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾⁽³⁾ فكانه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في النار.

فإن قُلْتُ: فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قُلْتُ: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينية والتابع لهواه وأنه بمنزلة من ثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل:

أفرح أن أرى الكرام وإن أوردت أوصافاً صائناً نبلاً
هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثه النود مع

تعريه عن حرف الإنكار لانطوئه تحت حكم قول من قال: أترفح بموت أخيك وبوراثه إبله والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أذن فكانه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبأن يستبدل منهم نوداً يقل طائله وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد وقوله فيها أنهار داخل في حكم الصلة كالتكرير لها إلا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار، ويجوز أن يكون خبر

﴿أَلَمْ يَبَيِّنُوا فِي الْأَرْضِ مَنَظِرًا يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ يَنْبَغِيهِمْ﴾^(١٦) دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ مَثَلًا.

﴿وللكافرين أمثالها﴾ الضمير للعاقبة المنكورة أو للهلكة لأن التدمير يدل عليها، أو للسنة لقوله عزّ وعلا ﴿سنة الله في الذين خلوا﴾.

ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرَانَ لَا مَوْلَى لَهُمْ^(١٧) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُصْعَقُونَ وَأَكُونُوا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْثَمَةُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ^(١٨).

﴿مولى الذين آمنوا﴾ وليهم وناصرهم وفي قراءة ابن مسعود ولي الذين آمنوا، ويروى أن رسول الله ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشيت فيهم الجراحات وفيه نزلت، فنادى المشركون أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم والحرب سجال إن لنا عزي ولا عزي لكم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿قولوا الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلَى مختلفة أما قتلانا فاحياء يرزقون، وأما قتلناكم ففي النار يعذبون﴾^(١٩).

فإن قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق مناقض﴾ لهذه الآية. قُلْتُ: لا تناقض بينهما لأن الله مولى عباده جميعاً على معنى: أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة.

﴿يتمتعون﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ويأكلون﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كما تاكل الأنعام﴾ في مسارحها ومعالقها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿مثوى لهم﴾ منزل ومقام.

وَكُلٌّ مِّن رَّبِّهِمْ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن رَّبِّكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أهلكتهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ^(٢٠).

وقرئ: وكائن بوزن كاعن، وأراد بالقرية أهلها ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ كانه قال: وكمن قوم هم أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم، ومعنى أخرجوك كانوا سبب خروجك.

فإن قُلْتُ: كيف قال ﴿فلا ناصر لهم﴾ وإنما هو أمر قد مضى؟ قُلْتُ: مجراه مجرى الحال المحكية كانه قال: أهلكناهم فهم لا ينصرون من زين له هم أهل مكة الذين

(1) الزيلعي 3/297.

(2) قال أحمد: كم نكر الناس في تأويل هذه الآية، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي نكرها لا يهونها، إلا التنبيه على أن في الكلام محنوقاً لا بد من تقديره؛ لانه لا معاملة بين الجنة وبين الخالدين في النار، إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ فإنه لا بد من تقدير محنوف مع الأول، أو الثاني ليتعادل القسمان، وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام =

= على أوله، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسبئية، والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة، والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المنكورة في الجهتين، وهو من وادي تنظير السبي بنفسه باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى، فإن المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة والمتبع للهوى هو المعذب في النار المنعوتة، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانياً.

(3) سورة محمد، الآية: 14.

فإن قُلْتُ: بم يتصل قوله ﴿فقد جاء اشراطها﴾ على القراءتين قُلْتُ: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك: إن أكرمني زيد فانا حقيق بالإكرام أكرمه والاشراط العلامات قال أبو الاسود:

إن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت اشراط اوله تبسو

وقيل مبعث محمد خاتم الانبياء ﷺ وعليهم منها وانشقاق القمر والنخان وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الارحام وقلة الكرام وكثرة اللثام، وقرئ بغتة بوزن جربة وهي غريبة لم ترد في المصابر اختها وهي مروية عن أبي عمرو وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو وأن يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم، لما نكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما نكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء.

قَاعَةٌ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ بِعَلْمِ مَنَّابِكُمْ مَعْرُوفٌ ﴿١٦﴾.

فأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معاشكم ومتاجرکم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وإن يستغفر ويسترحم وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ إلى قوله: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ وقال: ﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ثم قال بعد ﴿فاحذروهم﴾ وقال: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه﴾ ثم أمر بالعمل بعد.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا نَزَّلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ بِهَا الْأُمُورُ وَإِنَّا نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ فَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُظَاهِرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْمِ فَاوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١٧﴾.

كانوا يدعون الحرص عليه الجهاد ويتمنون به بالسنتهم ويقولون: ﴿لولا نزلت سورة﴾ في معنى الجهاد ﴿فإننا نزلت﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال وعن قتادة: كل سورة فيها نكر القتال فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين وقيل لها محكمة: لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفع والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وقيل: هي المحنة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك، أو

مبتداً محذوف هي فيها انهار وكان قائلاً قال: وما مثله فقيل فيها انهار وأن يكون في موضع الحال أي مستقرة فيها أنهار، وفي قراءة علي رضي الله عنه أمثال الجنة أي ما صفاتها كصفات النار، وقرئ: ﴿أسن﴾ يقال أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه وأنشد ليزيد بن معاوية:

لقد سقتني رضاباً غير ذي أسن كالمسك فت على ماء لعناقيد
 ﴿من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير البان الدنيا فلا يعود قارصاً ولا حانزاً ولا ما يكره من الطعوم ﴿لذة﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ أو وصف بمصدر، وقرئ بالحركات الثلاث فالجر على صفة الخمر والرفع على صفة الانهار والنصب على العلة أي لأجل لذة الشاربين والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه زهاب عقل، ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ماء حميماً﴾ قيل إذا بنا منهم شوى وجوهم، وإنما زت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم، هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وقيل كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا: ذلك للعلماء وقيل قالوه لعبد الله بن مسعود وعن ابن عباس: أنا منهم وقد سميت فيمن سئل.

وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا حُرُّوا مِن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُورُوا أَلَمْ نَكُن مَعَهُ مَاذَا قَالِ مَائِنًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاجْعَلْ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾.

﴿أنفأ﴾ وقرئ أنفأ على فعل نصب على الظرف قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته، والمعنى: ماذا قال في أول وقت يقرب منا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَكَانَتْهُمْ قَوْلُهُمْ ﴿١٩﴾.

﴿زادهم﴾ الله ﴿هدى﴾ بالتوفيق ﴿وأتاهم تقواهم﴾ اعانهم عليها أو اتاهم جزاء تقواهم وعن السدي: بين لهم ما يتقون، وقرئ: وأعطاهم وقيل: الضمير هم زادهم لقول الرسول أو الاستهزاء المنافقين أن تأتيهم بدل اشتغال من الساعة نحو أن تطوهم من قوله رجال مؤمنون ونساء مؤمنات.

فَهَلْ يُظَاهِرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٠﴾.

وقرئ: ﴿أن تأتيهم﴾ بالوقف على الساعة واستئناف الشرط وهي في مصاحف أهل مكة كذلك.

فإن قُلْتُ: فما جزاء الشرط؟ قُلْتُ: قوله فأنى لهم ومعناه أن تاتهم الساعة فكيف لهم نكرهم أي تذكرهم واتعاطهم إذا جاءتهم الساعة يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذ كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتنكر الإنسان وأنى له النكرى﴾.

لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم الطافة وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعظة وعموا عن إبصار طريق الهدى، ويجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخالص الثابتين وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين فيما بينهم يضحجون منها.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَزَّ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٧٤﴾

﴿أفلا يتذكرون القرآن﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقللة لا يتوصل إليها نكر، وعن قتادة إذا والله يجدا في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تبوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلخوا.

فإن قلت: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أما التنكير، ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في نكح أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين وأما إضافة الأقفال فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح وقرئ أقفالها على المصدر.

إِنَّ الْيَبْرُسَ ارْتَدَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَدَىٰ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ الْهُدَىٰ
السَّيِّئِينَ سَأَلُ لَهُمْ وَاْمَلَّ لَهُمْ ﴿٧٥﴾

﴿الشیطان سؤل لهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لأن كقولك إن زيدا عمرو مر به. سؤل لهم سهل لهم ركوب العظام من السؤل وهو الاسترخاء وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً ﴿وأملى لهم﴾ ومد لهم في الآمال والاماني وقرئ ﴿وأملى لهم﴾ يعني إن الشيطان يغيوهم، وأنا انظرهم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم﴾ وقرئ: ﴿وأملى لهم﴾ على البناء للمفعول أي: أمهلوا ومد في عمرهم وقرئ سؤل لهم، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف.

فإن قلت: من هؤلاء؟ قلت: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعتة في التوراة وقيل هم المنافقون.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ بِعَمَلِ إِسْرَارِهِمْ ﴿٧٦﴾

الذين قالوا: اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله المنافقون وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقریظة والنضير لئن أخرجتم لتخرجن معكم وقيل بعض الأمر التكنيب برسول الله ﷺ أو بلا إله إلا الله أو ترك القتال معه وقيل هو قول أحد الفريقين للمشركين ﴿سنطيعكم﴾ في التظاهر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه ومعنى ﴿في بعض الأمر﴾ في بعض ما تأمرون به أو في بعض الأمر الذي يهكم ﴿ووالله يعلم أسرارهم﴾ وقرئ إسراهم على المصدر قالوا ذلك سراً فيما بينهم فأفشاءه الله عليهم.

تبقى غير منسوخة وفي قراءة عبد الله سورة محذرة وقرئ فإذا نزلت سورة ونكر فيها القتال على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿ينظر المغشي عليه من الموت﴾ أي تشخص ابصارهم جبناً وهماً وغيظاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فاولي لهم﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَّهُمْ ﴿٧٧﴾

﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف أي طاعة وقول معروف خير لهم، وقيل: هي حكاية قولهم أي قالوا طاعة وقول معروف بمعنى أمرنا طاعة وقول معروف وتشهد له قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد والعزم والجهد لأصحاب الأمر وإنما يسندان إلى الأمر إسناداً مجازياً ومنه قوله تعالى: إن ذلك لمن عزم الأمور ﴿قلو صدقوا الله﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطت قلوبهم فيه ألسنتهم.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُشِيدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقِيمُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٧٨﴾

عسيت وعسيتم لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا ولا يلحقون الضمائر وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوكيد.

فإن قلت: ما معنى ﴿فهل عسيتم﴾ ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾؟ قلت: معناه هل يتوقع منكم الإفساد.

فإن قلت: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟ قلت: معناه: أنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريركم، ورخاوة عقدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتامرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ تناحراً على الملك، وتهالكا على الدنيا وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن نبي رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاوير والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً وواد البنات، وقرئ وليتم وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توليتم أي إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم، وقرئ وتقطعوا وتقطعوا من التقطيع والتقطيع.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ فَاسِقُهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٧٩﴾

﴿اولئك﴾ إشارة إلى المنكوريين ﴿لعنهم الله﴾

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُ الْمَلَائِكَةَ يَتَرَوْنَ رُجُومَهُمْ وَأَدْبَرْتَهُمْ (١٧).

كيف يعملون وما حيلتهم حينئذ وقرئ توفاهم ويحتمل أن يكون ماضياً ومضارعاً قد حنفت إحدى تاءيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ﴾ (١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه وبره (٢).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (١٨).

﴿ذلك﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿أسخط﴾ الله من كتمان نعت رسول الله ﷺ و﴿رضوانه﴾ الإيمان برسول الله.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَفَهُمْ (١٩).

﴿أضعفاهم﴾ أحقادهم وإخراجها إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم وكانت صدورهم تغلي حقاً عليهم.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ ظِلْمَهُمْ فَلَمَرْنَاهُمْ بِبَيْمَتِهِمْ وَلَتَوَفَّنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٠) وَلَنُرِيَنَّكُمْ حَيْثُ تَكُنَّ الْمُجَاهِدِينَ وَنَكْرُ وَالْمَنَافِقِينَ وَنَلَوْنَا أَخْبَارَكُمْ (٢١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَتَآفَرُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ (٢٢).

﴿لأريناكم﴾ لعرفناكم ولبلناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم، وهو أن يسممهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها وعن أنس رضي الله عنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكروهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق (٣).

فَإِنْ قُلْتُمْ: أَي فَرِيقٍ بَيْنَ اللَّامِينَ فِي: فَلَعَرَفْتَهُمْ وَلَتَعْرِفْنَهُمْ؟ قُلْنَا: الْأُولَى هِيَ الدَّخَالَةُ فِي جَوَابِ لَوْ كَالَّتِي فِي لَارِيْنَاكُمْ كَرَّرْتُ فِي الْمَعْطُوفِ، وَأَمَّا اللَّامُ فِي وَلَتَعْرِفْنَهُمْ فَوَاقِعَةٌ مَعَ النَّوْنِ فِي جَوَابِ قَسَمِ مَحْذُوفٍ ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فِي نَحْوِهِ وَأَسْلُوبِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ قَوْلُهُمْ مَا لَنَا إِنْ أَطْعَمْنَا مِنَ الثَّوَابِ وَلَا يَقُولُونَ مَا عَلَيْنَا إِنْ عَصَيْنَا مِنَ الْعِقَابِ، وَقِيلَ لِلْحَنِ أَنْ تَلْحَنَ بِكَلَامِكَ أَي تَمِيلُهُ إِلَى نَحْوٍ مِنَ الْإِنْحَاءِ لِيَفْطَنَ لَهُ صَاحِبُكَ كَالْتَعْرِيزِ وَالتَّوْرِيَةِ قَالُ:

ولقد لحنتم لكم لكيما تفقهوا واللحن يعرفه نون الألباب

وقيل للمخطئ لحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿أخباركم﴾ ما يحكى عنكم، وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسناتها من قبيحتها لَأَنَّ الخبر على حسب المخبر عنه إن حسناً فحسن وإن قبيحاً فقبيح، وقرئ يعقوب ونبلو بسكون الواو على معنى ونحن نبلو أخباركم، وقرئ ويلبلونكم ويعلم ويلبلو بالياء وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستاذنا وعذبتنا.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ التي عملوها في بينهم يرجون بها الثواب لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة وهم قريظة والنضير أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم وقيل هم رؤساء قريش والمطمعون يوم بدر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيمُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الرِّسَالَ وَلَا تَبْلُغُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ (٢٣).

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر (٤) كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى أن قال: ﴿أَنْ تَحِطُّ بِأَعْمَالِكُمْ﴾، وعن أبي العالية كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإيمان نيب كما لا ينفع مع الشرك عمل (٥) حتى نزلت:

التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لَأَنَّ القاعدة المتقدمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك يحاشي كل معتبر في الحل، والعقد عن مخالفتها فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التاويل، فإن كان نصاً لا يقبل التاويل، فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه، والتوريك بالقط على النقلة على أن الاثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لاهل السنة، فتأمله وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل، وبركن يقتضي بطلانه من أصله؛ لا أنه يبطل بعد اجتماعه شرائط الصحة والقبول.

(1) سورة النساء، الآية: 97. (2) ونكر القرطبي نحوه بدون سند 16/16، الزيلعي (298/3). (3) قال الزيلعي غريب، وهو في الثعلبي هكذا 298/3. (4) قال أحمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما بون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لَأَنَّ الله لا يظلم مقال نزهة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لئنه أجراً عظيماً نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جلّ وعلا، وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات، ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب سمة الإيمان عنه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه، فعلى هذا بنى الرمضخري كلامه، وجلب الآثار = (5) رواه محمد بن نصر المروزي، الزيلعي 298/3.

﴿يؤتكم لجزوركم﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم
﴿ولا يسألکم﴾ أي ولا يسألکم جميعها إنما يقتصر منكم
على ربع العشر ثم قال:

إِنْ يَنْتَكِرُوا بِحُكْمِ بَنَلُوا وَرَجِحَ أَمْنَتَكُمْ (٧٧).

﴿إن يمتنعوا بحكم﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله
والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه
في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وأحفى شاربته
إذا استأصله ﴿تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي تضطفون
على رسول الله ﷺ وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم
كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم والضمير في
يخرج لله عز وجل أي يضغفكم بطلب أموالكم أو للبخل
لأنه سبب الاضطغان، وقرئ: نخرج بالنون ويخرج بالياء
والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم.

هَاتَتْهُ هَتَاةٌ تَدْعُونَ لِئِنْفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَنْتَكِرُ مَنْ يَبْخُلُ
وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن
تَتَزَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٧٨).

﴿هؤلاء﴾ موصول بمعنى الذين الذين صلته ﴿تدعون﴾
أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبين هؤلاء
الموصوفون ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا: وما وصفنا
فقبل تدعون ﴿لتنفقوا في سبيل الله﴾ قيل هي النفقة
في الغزو وقيل الزكاة كأنه قيل الدليل على أنه لو
أحفاكم لبختم وكرهتم العطاء واضطعنتم أنكم تدعون
إلى أداء ربع العشر فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال
﴿ومن يبخل﴾ بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعداه ضرر
بخله وإنما ﴿يبخل عن نفسه﴾ يقال: بخلت عليه وعنه
وكنك ضننت عليه وعنه، ثم أخبر أنه لا يامر بذلك
ولا يدعو إليه لحاجته إليه فهو الغني الذي تستحيل
عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وإن
تقولوا﴾ معطوف على وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يستبدل
قوماً غيركم﴾ يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم
راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما كقوله
تعالى: ﴿ويأت بخلق جديد﴾ (٤) وقيل: هم الملائكة وقيل:
الأنصار، وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن
العجم وعن عكرمة فارس والرم، وسئل رسول الله ﷺ
عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه،
وقال هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان
منوطاً بالثريا لتناولوه رجالاً من فارس (٥) وعن

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فكانوا يخافون الكبار على
أعمالهم وعن حذيفة، فخافوا أن تحبط الكبار أعمالهم وعن
ابن عمر كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً
حتى نزل، ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا: ما هذا الذي يبطل
أعمالنا فقلنا الكبار الموجبات والفواش حتى نزل: ﴿إن الله
لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾
فكففتنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب
الكبار، ونرجو لمن لم يصبها (١) وعن قتادة رحمه الله
رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء وقيل
لا تبطلوها بمعصيتهما، وعن ابن عباس رضي الله عنهما
لا تبطلوها بالرياء والسمة وعنه بالشك والنفاق، وقيل
بالعجب فإن العجب ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب
وقيل ولا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَكَانَ يُغْفَرُ
اللَّهُ لَهُمُ (٧٩).

﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ قيل هم أصحاب القلب
والظاهر العموم.

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَكَانَ بِرِزْقِكُمْ
أَعْيُنَكُمْ (٨٠).

﴿فلا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تنلوا للعدو ﴿و﴾
لا ﴿تدعوا إلى السلم﴾ وقرئ: ﴿السلم﴾ وهما المسالمة
﴿وأنتم الآخلون﴾ أي الأغلبون الأتقون ﴿والله معكم﴾
أي ناصركم وعن قتادة لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت
إلى صاحبتهما بالموادعة، وقرئ ولا تدعوا من ادعى
القوم وتداعوا إذا دعوا نحو قولك ارتموا الصيد وتراموه
وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي، أو منصوب
لإضمار إن ونحو قوله تعالى: وأنتم الآخلون قوله تعالى:
﴿إنك أنت الأعلى﴾ (٢) ﴿ولن يترككم﴾ من وترت الرجل
إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته
وحقيقته أقربته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد
فسبه إضاعة عمل العامل، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر
وهو من فصيح الكلام ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:
«من فاتته صلاة العصر، فكانما وتر أهله وماله» (٣). أي
أفرد عنهما قتلاً ونهباً.

إِنَّمَا لِكَيْفَتِهِ الدُّنْيَا لِمِمْ وَكَلَهُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا
يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٨١).

(١) المصدر السابق، ونكره ابن مروي في تفسيره، الزيلعي 300/3.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته
صلاة العصر (الحديث رقم: 552)، وأخرجه مسلم في كتاب:
المساجد... باب: التغليظ في تقوية صلاة العصر (الحديث رقم:
626 - 200).

(٤) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب:
الحجاز واليمن والشام وفارس وعمان (الحديث رقم: 7308)،
وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الجمعة،
(الحديث رقم: 3310).

جميع من كان معه وقيل فجاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد⁽³⁾ وقيل: هو فتح خيبر وقيل: فتح الروم، وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح إبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه وقيل معناه قضينا لك قضاء بيننا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة.

لِغَيْرِ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ دُونِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُرِي بِشَمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ سِرًّا مُسْتَقِيمًا (٢).

﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدم في الجاهلية، وما بعدها وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد.

وَرَضِيَ اللَّهُ صِرًّا عَزِيزًا (٣).

﴿نصرنا عزيزاً﴾ فيه عز ومنعة، أو وصف بصفة المنصور إسناداً مجازياً أو عزيزاً صاحبه.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ فِي قُلُوبِ التَّوْرِيِّينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَرَبُّ جِبْرَائِيلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُنزِلَ التَّوْرَةَ فِي قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَعْبَدِ آلْفَتْرٍ خَلِيلِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا (٥).

﴿السكينة﴾ السكنون كالبهيمة للبهتان أي أنزل الله في قلوبهم السكنون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فصل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم، وأنزل فيها السكنون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿ليزدادوا إيماناً﴾ بالشرائع مقروناً إلى إيمانهم، وهو التوحيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ثم الجهاد فإزدادوا إيماناً إلى إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عز وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيماناً إلى إيمانهم وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحوا فيزداد إيمانهم ﴿وهو جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين يصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكروهه.

وَيَذَرِبُ التَّنْزِيهَاتِ وَالْمُنْتَهَاتِ وَالْمُتْرِكِينَ وَالْمُتْرِكَاتِ الطَّائِفَاتِ بِاللَّهِ عَلَى التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ دَاخِرَةُ التَّوْرَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ وَأَمَدَّ لَهُمْ

رسول الله ﷺ من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح مدنية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١).

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وحيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكاتبة الموجودة. وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شان المخبر ما لا يخفى.

فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عند من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كانه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصرتناك على عبوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والأجل، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث انه جهاد للعدو سبباً للغفران والثواب والفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحاً بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوا في يارهم، وعن الكلبي ظهوروا عليهم حتى سألوا الصلح.

فإن قلت: كيف يكون فتحاً وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلت: كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها، وتمت كان فتحاً مبيناً وعن موسى بن عقبة لقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صرنا عن البيت، وصد هدينا فبلغ النبي ﷺ فقال: بنس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسالوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا⁽²⁾ وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدى محله وأطعموا نخل خيبر وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجة فيها قدرت بالماء حتى شرب

(1) نكحه الثعلبي وابن مردويه، ونكحه الواحدي، الزيلعي 3/301.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب: قصة الحديبية، الزيلعي 3/

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، (الحديث

رقم: 4150)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة

ذي قرد، (الحديث رقم: 132 - 1807).

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ إِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ سَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧﴾

لما قال: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكده تأكيداً على طريق التخييل⁽³⁾ فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلوا أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزله عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾⁽⁴⁾ والمراد بيعة الرضوان ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفرّ فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم⁽⁵⁾. وقرئ: ﴿إنما يبايعون الله أي لأجل الله ولوجهه، وقرئ: ينكث بضم الكاف وكسرهما وبما عاهد وعهد﴾ فسيؤتيه﴾ بالثون والياء يقال وفيت بالعهدة، وأوفيت به وهي لغة تهامة ومنها قوله تعالى: أوفوا بالعقود والموفون بعدهم هم الذين خلفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل ونلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حرباً، فتناقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم⁽⁶⁾، وقرئ: شغلنا بالتشديد.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَا مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلُّونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق وطلبهم للاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة ﴿فمن يملك لكم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله

جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَيَلُو جُودُ السَّمَكِ وَالْأَرْبَعِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

وقع السوء عبارة عن رداء الشيء وفساده والصدق عن جودته وصلاحه فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء ومعنى: ﴿ظن السوء﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحياً عنوة وقهراً ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم وناثر عليهم والسوء الهلاك والدمار، وقرئ دائرة السوء بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قلنت: هل من فرق بين السوء والسوء! قلت: هما كالكره والكره والضعف والضعف من ساء إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد منه من كل شيء، وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير يقال أراد به السوء وأراد به الخير، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموماً وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي نكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة فصح أن يقع عليه اسم السوء كقوله عزّ وعلا: ﴿إن أراد بكم سوا أو أراد بكم رحمة﴾⁽¹⁾.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾

﴿شاهدًا﴾ تشهد على أمتك كقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾⁽²⁾.

لَتَرْوِيَنَّ لِلَّهِ رُسُلِيهِمْ وَرُسُلِيهِمْ وَرُسُلِيهِمْ وَرُسُلِيهِمْ بَكْرَةً وَأَمِيلًا ﴿٩﴾

﴿ليؤمنوا﴾ الضمير للناس ﴿وتعزروه﴾ ويقوره بالنصرة ﴿ويوقروه﴾ ويعظموه ﴿ويسبحوه﴾ من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجل، والمراد بتعزير الله تعزير لبيته ورسوله ﷺ ومن فرق الضمائر فقد أبعد، وقرئ: لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بالتاء والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمتة، وقرئ: ﴿وتعزروه﴾ بضم الزاي وكسرهما وتعزروه بضم التاء والتخفيف وتعزروه بالزايين وتوقروه من أقره بمعنى: وقره وتسبحوا الله ﴿بكرة وأصيلًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (الحديث رقم: 69 - 1856).

(6) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بنقص يسير، باب الحديبية 3/ 308.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 17.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدمت أمثاله.

(4) سورة النساء، الآية: 80.

تَبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَبِعْتُمْ كَذَلِكَمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَبْئُوتُونَ بِلَّحْسَدُونَ بَلْ كَاوُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا لِيلًا ﴿١٥﴾

﴿سيقول المخلفون﴾ الذين تخلفوا عن الحبيبية ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أن يبذلوا كلام الله﴾ وقرئ: كلم الله أن يغيروا موعد الله لاهل الحبيبية وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة⁽³⁾ مغانم خيبر إذا قفلوا مواعدين لا يصيبون منهم شيئاً وقيل هو قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾⁽⁴⁾ ﴿تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم قرئ: بضم السين وكسرهما ﴿لا يفقهون﴾ لا يفهمون إلا فهماً ﴿قليلاً﴾ وهو فظنتهم لا مود الدنيا دون أمود الدين كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾⁽⁵⁾.

فإن قلنا: ما الفرق بين حرفي الإضراب؛ قلنا: الأول إضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ أَبْنِ سُدِّيرٍ تَعْتَلُونَ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طُغِمُوا بِؤَيْكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَدْبُورًا عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿قل للمخلفين﴾ هم الذين تخلفوا عن الحبيبية ﴿إلى قوم أولي باس شديد﴾ يعني بني حنيفة قوم مسلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية وعند الشافعي: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب

وقضائه ﴿إن أراد بكم﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أو أراد بكم نفعاً﴾ من ظفر وغنيمة⁽¹⁾ وقرئ: ضراً بالفتح والضم. الأهلون جمع أهل، ويقال أهلات على تقدير تاء التانيث كارض وأرضات وقد جاء أهلة وأما أهال فاسم جمع كليل.

بَلْ طَسَنُمْ أَنْ لَنْ تَبَلَّغَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَيُرِيدُ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا كَثُورًا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾

وقرئ: ﴿إلى أهلهم﴾ وزين على الباء للفاعل وهو الشيطان أو الله عز وجل وكلاهما جاء في القرآن وزين لهم الشيطان أعمالهم وزينا لهم أعمالهم، والبور من بار كالكلمك من هلك بناء، ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعود والمعنى: وكنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٨﴾

﴿للكافرين﴾ مقام مقام لهم للإيدان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سعيراً﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر نارا تلظى.

وَاللَّهُ مُتَكِّمٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٩﴾

﴿وَالله ملك السموات والأرض﴾ يببره تبدير قادر حكيم⁽²⁾ فيغفر، ويعذب بمشيئته ومشيئته تابعة لحكمته وحكمته المغفرة للثائب وتعذيب المصر ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتئاب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَدَائِنَ لِنَاخُذُوهَا ذُرُوعًا

(1) قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل والله أعلم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرملك النفع إن أراد بكم نفعاً؛ لأن مثل هذا

(2) قال أحمد: قد تقدمت أمثالها، والقول بأن موجب الحكمة ما نكر تحكم هذا، وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعقده، فلا تبقى ولا تدر فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد، فيقيد مطلقاً ويحجر واسعاً والله الموفق.

(3) قال أحمد: فالإضراب الأول إنأ هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشد من المنسوب إليهم أولاً؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسداني المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال.

(4) سورة التوبة، الآية: 83.

(5) سورة الروم، الآية: 7.

(1) قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل والله أعلم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرملك النفع إن أراد بكم نفعاً؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضرر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرباً كقوله: فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أملك شيئاً، يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة وسر اختصاصه بنفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، وبغض المضرة نفع يضاف للمدفع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة، فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لنفع المقتر من خير وشر، فلما تقاربا أرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضرر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو

نَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٣٨﴾.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وقرئ: وَأَتَاهُمْ وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة وعن الحسن فتح هجر وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمانًا.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٣٩﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغنم خيبر وكانت أرضًا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله ﷺ عليهم، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفى على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغنم يعني: مغنم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جازوا لنصرتهم فقتل الله في قلوبهم الرعب فنكسوا وقيل أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتُكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وقيل رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله.

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴿٤١﴾ وَتَمَّ قَدِيرًا ﴿٤٢﴾.

﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على هذه أي فعلجل لكم هذه المغنم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغنم هوازن في غزوة حنين، وقال لم تقدرُوا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها، ويجوز في أخرى النصب بفعل مضمرب يفسره قد أحاط الله بها تقديره وقضى الله أخرى قد أحاط بها وأما لم تقدرُوا عليها فصفة لأخرى والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدرُوا وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ والجزء بأضمار رب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قَوْلَهُ تَعَالَى: وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ مَوْقِعُهُ؟ قُلْتُمْ: هُوَ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ وَمَعْنَاهُ وَلِتُكُونَ الكُفَّةَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَعَلْ لَكُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى وَعَدَدَكُمْ المَغَانِمَ فَعَجَلَ هَذِهِ المَغْنِمَةَ وَكَفَّ الأَعْدَاءَ لِئَنفَعَكُم بِهَا وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَجَدُوا وَعَدَّ اللهُ بِهَا صَادِقًا لِأَنَّ صِدْقَ الإخْبَارِ عَنِ المَغْيُوبِ

والمجوس نون مشركي العجم، والعرب وهذا لليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ لكن بعد وفاته، وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وقيل هم فارس والروم ومعنى ﴿يسلمون﴾ ينقادون لِأَنَّ الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية.

فَإِنْ قُلْتُمْ: عَنْ قِتَادَةِ أَنَّهُمْ ثَقِيفٌ وَهَوَازِنٌ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْتُمْ: إِنْ صَحَّ ذَلِكَ، فَالْمَعْنَى: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا مَا دُمْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضِ القُلُوبِ وَالأَضْطِرَابِ فِي الدِّينِ أَوْ عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ كَانَ المَوْعِدَ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَّا مُتَطَوِّعِينَ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي المَغْنَمِ ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ يريد في غزوة الحديبية، أَوْ يَسْلَمُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى تَقَاتُلِهِمْ أَي يَكُونُ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ إِمَّا المَقَاتِلَةَ أَوْ الإِسْلَامَ لَا ثَالِثَ لَهُمَا وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي أُوَيْسٍ يَسْلَمُوا بِمَعْنَى إِلَى أَنْ يَسْلَمُوا.

لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُبْلِغِ اللهُ رِسَالَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَمْزِجْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٧﴾.

نفي الحرج عن هؤلاء من نوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ: نخله ونعذبه بالنون، هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية وقصتها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ نَزَلَ الحَدِيبِيَّةَ بَعَثَ جِوَّاسَ بْنَ أُمِيَّةَ الخَزَاعِيَّ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَهَمَّوْا بِهِ فَمَنَعَهُ الأَحَابِيثُ فَلَمَّا رَجَعَ دَعَا بِعَمْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِيُبْعِثَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَى نَفْسِي لَمَّا عَرَفَ مِنْ عِدَاوَتِي إِيَاهُمْ وَمَا بِمَكَّةَ عُدُوِّي يَمْنَعُنِي، وَلَكِنِّي أُنْكَرُ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَبِعْتُهُ فَخَبِرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِحَرْبٍ وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا البَيْتِ مَعْظَمًا لِحَرَمَتِهِ فَوَقَرُوهُ وَقَالُوا: إِنْ شِئْتَ أَنْ نَطُوفَ بِالبَيْتِ، فَافْعَلْ فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَطُوفَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاحْتِسِبُ عِنْدَهُمْ فَارْجِفْ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا نَبْرَجُ حَتَّى نَنَاجِزَ القَوْمَ» وَدَعَا النَّاسَ إِلَى البَيْعَةِ، فَبَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانَتْ سَمْرَةَ قَالَتْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: لَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ لِأَرِيْتُمْ مَكَانَهَا وَقِيلَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ وَعَلَى ظَهْرِهِ غَصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المَغْفَلِ: وَكُنْتُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ وَبِيَدِي غَصْنٌ مِنَ الشَّجَرَةِ أَتَبَّ عَنْهُ فَرَفَعَتْ الغَصْنَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَبَايَعُوهُ عَلَى المَوْتِ نُونَهُ وَعَلَى أَنْ لَا يَفْرُوا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْتُمْ اليَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ (1)، وَكَانَ عِدَدُ المَبَايِعِينَ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةَ وَخَمْسَةَ وَعِشْرِينَ وَقِيلَ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةَ وَقِيلَ أَلْفًا وَثَلَاثَمِائَةَ (2).

لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

معجزة وآية ويزينكم بذلك هداية وإيقاناً.

ومصلاه في الحرم⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: فإنن قد نحر في الحرم فلم قيل معكوفاً أن يبلغ محله؟ قُلْتُ: المراد المحل المعهود وهو مني ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً و﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بدل اشتغال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم والمعرة مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكره ويشق عليه و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطوهم يعني أن تطوهم غير عالمين بهم والوطء والدوس عبارة عن الإيقاع والإبادة قال:

ووطئتنا ووطأ على حنق⁽⁵⁾ ووطأ المقيد ثابت الهرم وقال رسول الله ﷺ: «وَأَنْ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطْأَتِهَا اللَّهُ بَوَّجٌ»⁽⁶⁾ والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفين الأماكن، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائي المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا⁽⁷⁾ رجال مؤمنون لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون لعذبا هو الجواب.

فإن قُلْتُ: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ قُلْتُ: يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمآثم إذا جرى منهم بعض التقصير.

فإن قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل لماذا؟ قُلْتُ: لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع من قتلهم صوتاً لمن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزِيلُوا﴾ لو تفرقوا، وتميز بعضهم من بعض من زاله يزيله وقرئ لو تزيلوا.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا⁽⁸⁾.

﴿إِنْ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله أي لعذبتناهم، أو

وَلَوْ فَتَنَّاكَ لِلدِّينِ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُرُونَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا⁽⁹⁾.

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة، ولم يصلحوا وقيل من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهمزوا.

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ يُحَدِّثُ اللَّهُ بِتَبْدِيلِكُمْ⁽¹⁰⁾.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد أي سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لَا غَلْبَانَ أَنَا وَرَسُولِي﴾⁽¹¹⁾.

وَمَنْ أَلْزَى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطِغْنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا⁽¹²⁾.

﴿أيديهم﴾ أيدي أهل مكة أي قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازاة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً وقيل كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وانخلة حيطان مكة⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنه أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أنخلوهم البيوت، وقرئ: تعملون بالثناء والياء.

مَنْ أَلْزَيْتُمْ كَفَرُوا وَصَدْرَكُمْ مِنَ السَّجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَذَى مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّارُفْتُمْ فَصَبَّيْكُمْ مِنْهُمْ مَضْرِبًا يَنْزِي عِلْمٌ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزِيلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا⁽¹³⁾.

قرئ: ﴿واللهدي﴾ بتخفيف الياء وتشديد هاء وهو ما يهدى إلى الكعبة بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صنوكم أي صنوكم وصنوا الهدى وبالجر عطفًا على المسجد الحرام بمعنى وصنوكم عن نحر الهدى ﴿معكوفاً﴾ أن يبلغ محله ﴿محبوساً﴾ عن أن يبلغ وبالرفع على وصد الهدى ومحله ومكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب، وهذا دليل لابي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم.

فإن قُلْتُ: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قُلْتُ: بعض الحديبية من الحرم⁽³⁾ وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل

(1) سورة المجادلة، الآية: 21.

(2) نكره الطبري، وابن حاتم في تفسيره، الزيلعي 313/3.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المحصر، باب: النحر قبل الحلق في المحصر، (الحديث رقم: 1812).

(4) أخرجه أحمد في المسند 4/326.

(5) الحنق شدة الاغتيال.

(6) راجع الحديث 164، (2).

(7) قال أحمد: وإنما كان مرجعها ههنا واحداً، وإن كانت لولا تدل =

= على امتناع لوجود، لو تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهراً؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم، وامتناع عدم الوجود وجود، فألا إلى أمر واحد من هذا الوجه، وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني، ويسميه نظرية، وأكثر ما تكون إذا تناول الكلام ويعد عهداً وله، واجتيج إلى رد الآخر على الأول فمرة يطري بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه، وقد تقمتم لها أمثال، والله أعلم وهو الموفق.

الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي صدقه الرؤيا ملتبساً بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام ويجوز أن يكون بالحق قسمًا إمامًا بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالذي هو من أسمائه **﴿وَاللَّخْلَخْلُ﴾** جوابه وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتَ: ما وجه دخول **﴿إن شاء الله﴾** في أخبار الله عن وجل قُلْتَ: فيه وجوه أن يعلق عدته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عاداتهم مثل ذلك متأبين بأبى الله، ومقتدين بسنته وأن يريد لتخلخل جميعاً إن شاء الله ولم يمت منكم أحد أو كان ذلك على لسان ملك فادخل الملك إن شاء الله أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقص عليهم وقيل هو متعلق بآمنين **﴿فعلّم ما لم تعلموا﴾** من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل **﴿فجعل من دون ذلك﴾** أي من دون فتح مكة **﴿فتحكاً قريباً﴾** وهو فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿بالحق﴾ ودين الحق **﴿بدين الإسلام﴾** ليظهره **﴿ليظهره﴾** ليعليه **﴿على الدين كله﴾** على جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام بونه العز والغلبة، وقيل هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر، وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطئ لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** على أن ما وعده كائن عن الحسن رضي الله عنه شهد على نفسه أنه سيظهر دينك.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سِيّدًا يَتَوَكَّفُونَ لِفَلاَءٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَضُوْنَآ سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَمْرِ الْجَوْرِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيحٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَاصْبِرْ فَاصْتَفَلَتْ فَاصْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّطَ بِهِمْ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿محمد﴾ إما خبر مبتدأ أي هو محمد لنقدم قوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله﴾** (4) وإما مبتدأ، ورسول الله عطف بيان وعن ابن عامر أنه قرأ رسول الله بالنصب على

صنّوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت وأن ينتصب بإضمار انكر والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين والحمية الأنفة والسكينة الوقار ما روي أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأخيف على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخطى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا ولكن كتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون فإنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهم المسلمون أن يابوا ذلك ويشمئزوا منه (1)، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا و **﴿كلمة التقوى﴾** بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم وقيل هي كلمة الشهادة، وعن الحسن رضي الله عنه كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى، وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله وكانوا أهلها وأحق بها وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلُؤْمِيًّا يَأْتِيكَ النَّبِيُّ مِنَ السَّجْدِ الْحَرَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِينٌ مُّخْلِئِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُغَيِّرِينَ لَا تُخَافُونَ قَوْلَهُمْ مَا لَمْ يَكُنُوا فَعَمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ قَسَمًا قَرِيبًا ﴿٣٠﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد نخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نغيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت ومعنى: **﴿صدق الله رسوله﴾** الرؤيا (2) صدقه في رؤياه ولم يكنه تعالى الله عن الكذب، وعن كل قببح علواً كبيراً فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى: **﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** (3).

فإن قُلْتَ: بم تعلق **﴿بالحق﴾** قُلْتَ: إما بصدق أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صنفاً ملتبساً بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من

(3) سورة الاحزاب، الآية: 23.

(4) سورة الصف، الآية: 9.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ونكره الطبري في تفسيره،

﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعاً ثم ابتداءً فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله نك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون نك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه نك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾⁽⁴⁾، وقرئ الإنجيل بفتح الهمزة ﴿شطاه﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وقرئ شطاه بفتح الطاء وشطاه بتخفيف الهمزة وشطاه بالمد وشطه بحتف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها وإوا ﴿فأزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أعمل وقرئ فأزره بالتخفيف والتشديد أي فشد أزره وقواه ومن جعل أزر أعمل فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغظ﴾ فصار من اللقطة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم يبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطاه بأبي بكر فأزره بعمر فاستغظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع.

فإن قلت: قوله ﴿ليغيب بهم الكفار﴾ تحليل لماذا قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ويجوز أن يعل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم نك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾⁽⁵⁾ عن رسول الله ﷺ: ﴿من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة﴾⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قِيمَة إذا تقدمت في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير نكر

المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أنلة على المؤمنين أعزة على الكافرين واغظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشدهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئاً من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشداء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سيامهم﴾ علامتهم وقرئ سيامؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيما، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجود من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من أثار السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملك يقال له نو الثغفات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثغفات البعير، وقرئ من أثار السجود ومن أثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: ﴿لا تعلقوا صوركم﴾⁽¹⁾. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثار في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلق وجهك ولا تشن صورتك⁽²⁾ قلت: نك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجود الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحننا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركة البعير فما ندري أثقلت الأرواس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد نك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحاک ليس بالنسب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الطهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار⁽³⁾

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) أخرجه عبد الرزق: 2/173، (الحديث رقم: 2941).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

(5) سورة الحج، الآية: 30.

(6) عزاء الزيلعي لابن مردويه، وللواحد في تفسيره. زيلعي 3/319.

انفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ، وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقه عسلاً. فقلت: إني صائم. فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت. (4) وعن الحسن أن أناساً نبجوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا نبحاً آخر (5) وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله إلا أن تزول الشمس وعند الشافعي يجوز النبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضاً: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فآكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدئوه بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ. وعن قتادة نكر لنا أن نأسأ كانوا يقولون لو أنزل فيه كذا لكان كذا فكره الله ذلك منهم وانزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدم المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه. فإن التقى حذر لا يشافه أمراً إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلية وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون. وحق مثله أن يتقي ويراقب إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفترتوا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يالو عملاً بما يحده عليه وارتداعاً عما يصد عنه وانتهاً إلى كل خير.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا كَجَهْرٍ
لَمْ يَأْقُرُوا كَجَهْرٍ عَنِّي لِيَعْزِبَ عَنْكُمْ رِجَالِي وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
(٦)

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فليكن أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث

مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم، والثاني: أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدم، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل. كقوله تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ (1) ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدم كوجه وبين ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدمة منه. وتعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف إحدى تاءي تتقدموا إلا أن الأول أملاً بالحسن وأوجه وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن والعلماء له أقبل. وقرئ: لا تقيّموا من القنوم أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ولا تعجلوا عليهما (2) حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليمين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة هنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً ولجريها هكذا فائدة جلية ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأثنان فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرتني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص. ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد توطئة لما نغم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته لأن من أحطاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي كان أنى ما يجب له من التهيّب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما. ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بشما صنعتكم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ (3) ونزلت أي: لا تعملوا شيئاً من ذات

(1) سورة المؤمنون، الآية: 80.

(2) قال أحمد: يريد أنه لم ينكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا بإطراح ذلك المفعول، كقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ وحلى الكلام بمجاز التمثيل، في قوله: ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصوّر الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه، مثل: أن يجلس العبد في الجهتين

= المسامتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأن الله ورسوله فيه، فتكونوا مقتدين فيما تاتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

(3) قال الزيلعي: غريب ورواه الثعلبي بغير سند والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» الزيلعي 3/324.

(4) عبد الرزاق في تفسيره، الزيلعي 3/325.

(5) رواه الحاكم في المستدرک 2/462.

الأعلم الهنلي:

فرفعت عيني بالحجا وإلى أناس بالمناقب

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما نون الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته. وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت فُقد ثابت، فتفقدته رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة». وأما ما يروى عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحملة والخطاب للمؤمنين على أن ينهى المؤمنون ليندوح المنافقون تحت النهي ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب أي: لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيم بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها «أن تحبط أعمالكم» منصوب الموضع على أنه مفعول له وفي متعلقه وجهان: أحدهما أن يتعلق بمعنى النهي فيكون المعنى انتهوا عما نهيتهم عنه لحبوط أعمالكم: أي: لخشية حبوطها على تقدير حنق المضاف كقوله تعالى: «يبين الله لكم أن تضلوا»⁽⁴⁾، والثاني: أن يتعلق بنفس للفعل ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جعل كانه فعل لأجله⁽⁵⁾ وكانه العلة والسبب في إيجاده

يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهه باهراً لجهركم، حتى تكون مزيتة عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازته عن جمهوركم كشيء الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلخطكم وتبهروا منطقة بصخبكم، ويقول: «ولا تجهروا له بالقول» إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتهم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدا في مخاطبته القول اللين المقرَّب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه وتعزروه وتوقروه، وقيل معنى: «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار وأخا السرار حتى ألقى الله⁽¹⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستقمه⁽²⁾. وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ، وفد، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ⁽³⁾، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأنَّ ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزيز والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوٍّ أو ما أشبه ذلك. ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: أصرخ بالناس. وكان العباس أجهر الناس صوتاً. يروي أنَّ غارة آتتهم يوماً فصاح العباس: يا صباحاه: فأسقطت الحوامل لشدة صوته وفيه يقول نابغة بني جعدة:

فزجر أبي عروة والسباع إذا شفق أن يختلطن بالغنم
زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق
مرارة السبع في جوفه، وفي قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا
بأصواتكم، والباء مزيدة محنو بها حنو التشديد في قول

= مواضع من هذا المجموع فجدد العهد بها، وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار، وأن الجنة له بوعده الله حتم ولو كانت خطاياها ما نون الشرك أو ما يؤدي إليه كزيد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك، والرّمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها، فيما يدعيه أن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباط الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه لم تستقم الإخافة به، وإني له أن يبلغ من تلك أماله ونظم الكلام بإياه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية: النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام،

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ.

(2) قال الزليعي: غريب 3/327.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: «لا ترفعوا أصواتكم» (الحديث رقم: 4846).

(4) سورة النساء، الآية: 176.

(5) قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة، إياك ورودها، وذلك أنه يعتقد أن ما نون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في =

احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأنَّ تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكانه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك أنت لهذا الآخر أي: كائن له ومختص به قال:

أنت لها أحمد من بين البشر اعداء من لليعملات على الوجي
وهي مع معمولها منصوبة على الحال، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون، لأنَّ حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. وقيل: أخلصها للتقوى من قولهم: امتحن الذهب وفتته إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاها. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب الشهوات عنها والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهنته فقد محنته وأشد:

أنت رذايا باديك لالهها قد محنت واضطربت أطالها
قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخص السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبته عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لأنَّ المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ اسم الإشارة، واستثناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتدال والارتضاء لما فعل النبيين وقرأوا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

والوراء الجهة التي يواربها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ومن لابتداء الغاية وأنَّ المناداة نشأت من ذلك المكان.

فإن قلت⁽⁵⁾: فرق بين الكلامين بين ما ثبتت فيه وما

على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدواً﴾⁽¹⁾.

فإن قلت: لخص الفرق بين الوجهين! قلت: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضمومًا إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب النهي عليهما جميعًا صبا. وفي الأوّل يقدر النهي موجهًا على الفعل على حياله ثم يعلى له منهياً عنه.

فإن قلت: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قلت: بالثاني عند البصريين مقدراً إضماره عند الأوّل كقوله تعالى: ﴿أتوني أفرغ عليه قطراً﴾⁽²⁾ وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أدأه إلى حيوط العمل، وقرآءة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصاً بذلك لأنَّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطفغان في قوله تعالى: ﴿فيحل عليكم غضبي﴾⁽³⁾ والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفتخ بطونها وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطاً أو يلم ومن أخواته حبجت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك»⁽⁴⁾. وأحبط عمله مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبر إذا غفر وهو نكسه وتراميه إلى الفساد جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به أعاننا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد نلت الآية على امرين هائلين أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام وما يحبط عمله، والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط. ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشى في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويحفظ.

إِنَّ الَّذِينَ يُغُفَّرُونَ أَسْوَأَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْرِفَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَادِرُونَ مِنْ دُونِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرج للنهوض به، فهو مضطلع به غير وإن عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى أقوياء على

= والقاعدة المختارة أن إيذاه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للثريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهني عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوف أن يقع فيها هو محبط للعمل، وهو البالغ حد الإيذاء، إذ لا دليل ظاهر يميزه وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر، وقعت الإشارة بقوله: ﴿إن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾، وإلا فلا كان الأمر على ما يعتقد للزمخشري لم يكن لقوله: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ موقع إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كقراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذٍ فيكون كبيرة محببة على رايه قطعاً، فعلى كلا حاله الإحباط به محقق، إذ فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الإحباط ثابت مطلقاً والله أعلم. وهذا التقرير الذي نكرته يدور على =

- (1) سورة القصص، الآية: 8.
(2) سورة الكهف، الآية: 96.
(3) سورة طه، الآية: 81.
(4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهد الدنيا (الحديث رقم: 121 - 1052).
(5) قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تكبيت بني تميم، بما لا تساعده عليه الآية، فلإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنانين له، وقد =

تسقط عنه **قُلْتُ**: الفرق بينهما أنَّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الراء، وفي الثاني لا يجوز لأنَّ الراء تصير بخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا يبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقاً بغير تعيين واختصاص. والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنَّ النداء وقع منهم في أنبار الحجرات أو في وجوها، وإنما أنكر عليهم أنهم نالوه من البرِّ والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة نون جهة. والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضممتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ: **بهنَّ جميعاً**. والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ وكانت لكل واحدة منهنَّ حجرة، ومناداتهم من وراثها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له فناده بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوا حجرة حجرة فنالوه من وراثها، وأنهم نالوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمنه، والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباقيون راضين فكانهم تولوه جميعاً. فقد نكر الأصمُّ أنَّ الذي ناداه عيبنة بن حصن والأقرع بن جابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة، ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنَّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. ودوي أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد فجعوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، فاستيقظ فخرج ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفأة بني تميم لولا أنهم من أشدَّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»⁽¹⁾ فورد الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بيئات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كنايةً عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف بالألالم نون الإضافة، ومنها أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهيئاً للخطب على رسول الله ﷺ وتسلياً له وإمطاً لما تداخله من إحاش

تعجر فهم وسوء أنبهم وهلم جرا من أول السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدِّمةً على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أربف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كان الأول بساط للثاني ووطاء لنكره، ثم نكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصباح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجبر كما يصاح بأهون الناس قدراً، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه. لأنَّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً، ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما نقتطع باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية لأنَّ المعنى ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾**⁽²⁾ وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس. فلهاذا قيل للحبس على اليمين أو القتل صبر، وفي كلام بعضهم الصبر من لا يتجرعه إلا حر.

﴿فإن قُلْتُ: هل من فرق بين «حتى تخرج» وإلى أن تخرج؟ قُلْتُ: إنَّ حتى مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز. وإلى عامة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أنَّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه.

﴿فإن قُلْتُ: فاي فائدة في قوله: «إليهم»؟ قُلْتُ: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولا جملهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنَّ خروجه إليهم «لكان خيراً لهم» في كان إما ضمير فاعل الفعل المضممر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم: من كتب كان شراً له «والله غفور رحيم» بليغ الغفران والرحمة وأسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأتابوا. بعث رسول الله ﷺ الوليد بن

= سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: «هم جفأة بني تميم، وعلى الجملة: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوق في حق أمة عظيمة؛ لأنَّ واحداً منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أن المنادي له عليه السلام هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه

= الكتب الصحاح.

(1) نكره الواحد في أسباب النزول، أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطية (الحديث رقم: 198 - 2525).

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

بجهالة ﴿ حال كقوله تعالى: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾⁽³⁾ يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح بمعنى الصيرورة. والندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها نولم وإلزام لأنه كلما تنكر المتندم عليه راجعه من الندام وهو لزام الشريب ودوام صحبته، ومن مقلوباته أئمن الأمر أدامه ومدن بالمكان أقام به ومنه المدينة، وقد تراهم يجعلون لهم صاحباً ونجباً وسميراً وضجياً وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه.

الجملة المصدرة بلولا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم⁽⁴⁾ ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سيد. والمعنى أن فيكم رسول الله ﷺ على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتثيه المحتذى على أمثلته. ولو فعل ذلك ﴿لعنتم﴾ أي: لوقعتم في العنت والهلاك، يقال: فلان يتعنن فلاناً أي: يطلب ما يؤديه إلى الهلاك، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وإن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعمهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان﴾ أي: إلى بعضكم ولكنه أغنت عن نكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يظن لها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقوله: ﴿أولئك هم الراشدون﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته.

فإن قلت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلت: القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لأرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

عقبة أبا عثمان لأمه وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال: «هل أزيكم». فعزله عثمان مصنقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة: فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوه، فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: لتنهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليه خالد بن الوليد فوجدهم منابدين بالصلاة متجهدين فسلموا إليه الصدقات فرجع⁽¹⁾. وفي تنكير الفاسق والنبا شياع في الفساق والإنباء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ⁽²⁾ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه والفسوق الخروج من الشياء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها ومن مقلوبه فسقت البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضاً فسقت الشياء إذا أخرجته عن يد مالكة مفتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة:

فوسقأعن قصدها جوائزاً

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا، والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرف، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطعم فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَأَيْقُ بِمَا فَعَيْتُوا أَنْ يُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا مَكَتَرْتُمْ لِنُرَيْبِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنُرَيْبِينَ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَرِيسٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالشُّرْكَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴿٧﴾

﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له أي كراهة إصابتكم ﴿قوماً

= سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها: مطالبتهم النبي ﷺ باتتباع آرائهم التي من جملتها: تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضمنت هذه النبذة التي نكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده، تبين لك من حاله أعني الزمخشري ما لا أطبق التصريح به، لأنه لم يصرح، وإنما سلكتنا معه سبيل الإنصاف، وبحجة الانتصاف نص بنص وتلويح بتلويح، فنسال الله العظيم بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين أن يرضى عن صحابه أجمعين وعنا بهم أمين.

(1) قال أحمد: تسامح بلفظ الشياء، والمراد الشمول؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تم، كما إذا وقعت في سياق النفي والله أعلم.

(2) أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيره، نكره في كتاب: الدر المنثور، أخرج الزيلعي 3/332.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(4) قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة تلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قلته، فضم إلى هذا المعتد غير معرج عليه ما أورده الزمخشري في هذا الموضوع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعل الشنعاء عوضاً عن

والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول. و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجوحد و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكباثر. و ﴿العصيان﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي العائد، واعتصت النواة اشتدت، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخر. قال أبو الوانز: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات صلبين الضوء من صم الرشد

فَصَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَرَبَّمَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿١﴾ وَإِنَّ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنَّ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا أَلَيْ تَبَى حَتَّى تَبَى يَوْمَئِذٍ إِنَّكَ أَمْرٌ لِلَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْكَذِبِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٢﴾

و﴿فضلاً﴾ مفعول له أو مصدر من غير فعله.

فإن قُلْتُ: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد (2) فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتخذ الفاعل؟ قُلْتُ: لما وقع الرشد عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندةً إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب. عن الراشدين ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدين اعتراض أو عن فعل مقدر كأنه قيل: جرى ذلك أو

فإن قُلْتُ: فلم قيل يطيعكم بون اطاعكم؟ قُلْتُ: للدلالة على أنه كان في إرابتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه بليل قوله: في كثير من الأمر كقولك: فلان يقري الضيف ويحامي الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمراً.

فإن قُلْتُ: كيف موقع لكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً! قُلْتُ: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصله من حيث المعنى، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غابرت صفتهم صفة المتقدم نكرهم فوقعت لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق (1) وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغيب عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين انزل فيهم ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا.

فإن قُلْتُ: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود! قُلْتُ: الذي سوع ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء وسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة. ومن ثم قالوا أحسن ما في الدميم وجهه، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره. على أن من محققه الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأهماته الخير وهي الفصاحة

= وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى.

(1) قال أحمد: تلجج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً وتغلغل باتباع هوى معجماً، فجزه ذلك بل جزأه على تاويل الآية وإبطال ما نكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذا ممدوح بما ليس من فعله وهذا عنده محال، فاتباع الآية رايه الفاسد فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوجدانية والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإيقاع الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فإنه يتمسك في تاويلها بالبحال المنكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالذي نعتقه ثبتنا الله على الحق أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن، فلا موجود إلا الله صفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بد أن أطارحه القول، فاقول: أخبرني عن ثناء الله على انبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم، هل يكتسب أم بغير مكتسب؟ فلا يسعه أن يقول، إلا أنه اثني عليهم بما لم يكتسبه بل بما وهبه إياهم فانهبوه، وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم اثني عليهم بكتسب لهم من رسالة أو نبوة فقد خرج عن أهل الملة وانحرف عن أهل القبلة، =

(2) قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بيننا أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الإشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعيونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل، وسواء كان حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه، كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه، فلك في الجواب عنه طريقان، إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشداً إذ هو مطاوعه؛ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة، وهو عكس قوله: ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ فإن الإشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصحت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً، وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية، فتامله والله العووق.

واقامتاً على البغي صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكتاتهما عند أنفسهما محقة. فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مرشد الحق. فإن ركبنا متن اللجاج ولم تعملنا على شاكله ما هديتا إليه ونصحنا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين، وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنمت بعد الفئته ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله. فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجدد أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنه عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد والذي نكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد بون ضمان الجنائيات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قلنا: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلنا: لأن المراد بالاعتقالات في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتي شبهة. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا. فحينئذ تجب المقاتلة وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿واقسطوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط يابس، وأقسطته الرياح. وأما القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي: أزال القسط وهو الجور.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشافة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين

كان نكلاً فضلاً من الله، وأما كونه مصدرًا من غير فعله فإن يوضع موضع رشحاً لأن رشحهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ﴿وإياهم أعلم﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم التمايز والتفاضل ﴿حكيم﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ على مجلس الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك عبد الله بن أبي بنائفة وقال: خل سبيل حمارك فقد أذانا نتنته. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك»^(١). ويروي: «حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك»^(٢). ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استتباً وتجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي، وقيل بالأيدي والنعال والسعف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي الاستطالة والظلم وإبائه الصلح، والفء الرجوع وقد سمي به الظل والغنمية، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنمية ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وعن أبي عمرو: حتى تفي بغير همز ووجهه أن أبا عمر خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة فظنه قد طرحها.

فإن قلنا: ما وجه قوله: ﴿اقتتلوا﴾، والقياس اقتتلنا^(٣)؟ كما قرأ ابن أبي عبله، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين! قلنا: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله حتى يفيتوا إلى أمر الله، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل. قاله بعد أن اعتزل، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عمل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»^(٤)، ولا تخلو الفتتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب في ذلك أن يمضي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: في الإصلاح بين الناس (الحديث رقم: 2691)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (الحديث رقم: 1799 - 117).

(٢) تقدم تخريجه سابقاً.

(٣) قال أحمد: قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ من بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: =

(٤) رواه ابن أبي شيبة 389/8 في كتاب: الأدب، باب: النهي عن الوقعة. ورواه الحاكم في المستدرک 155/2.

أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقيين ولكن قصد نكر الذكور وترك نكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتكثير القوم والنساء يحتمل معنيين أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات⁽⁴⁾ من بعض، وأن تقصد إفادة الشياخ وأن تصير كل جماعة منهم منهيّة عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً⁽⁵⁾ بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نساءهم على السخرية واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر. وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيه ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقومًا. وقوله تعالى: ﴿عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه⁽⁶⁾، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته، فلعلة أخلص ضميرًا واتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه، خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه». وعن عبد الله بن مسعود «البلاء موكل بالقول: ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»⁽⁷⁾ وفي قراءة عبد الله: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن. فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ وعلى الأولى التي لا خير لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا﴾. واللمز الطعن والضرب باللسان. وقرئ: ولا تلمزوا بالضم والمعنى: وخصوا أيها

أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًا للسفراء بينهما إلى أن يصابف ما وهي من الوفاق من يرقعه وما استثنى من الوصال من يبيله، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشد منه، وعن النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخنله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره. ثم قال: احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل»⁽¹⁾.

فإن قلت: فلم خص الاثنان بالذكر بون الجمع؟ قلت: لأنّ أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان فإذا لزم المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر الزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنان. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ: بين إخوانكم وإخوانكم والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذلك متحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبانروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع وأحسموه. ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملمم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارة إلى إمطة ما يفرط منه. وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رافته عليكم حقيقًا بأن تعقدوا به رجاءكم.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءُ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفَسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾

القوم الرجال خاصة لأنهم القوام بأمر النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾⁽²⁾ قال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم إلا ما نب عنه»⁽³⁾. والذابون هم الرجال، وهو في الاصل جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر عن بعض العرب إذا أكلت طعامًا أحببت نومًا وأبغضت قومًا أي: قيامًا. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير:

= كانت كل جماعة منهم منهيّة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد أن في التنكير فائدة أن كل جماعة منهيّة على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(5) قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(6) قال أحمد وهو من الطراز الأول.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفة 390/8 في كتاب: الابن في النهي عن الوقية.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغالمة، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 2442)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخنله واحتقاره... (الحديث رقم: 32 - 2564).

(2) سورة النساء، الآية: 34.

(3) قال الزليعي غريب مرفوعًا، ورواه موقوفًا ابن المبارك على عمر بن الخطاب وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث زليعي 3/337.

(4) قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض،

النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد⁽³⁾ وروي أنها «نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ ليسمع. فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا لي حتى أنتهي إلى رسول الله ﷺ فقال الرجل: تنج. فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد ما كان يعيرها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت. فقال ثابت: لا أخخر على أحد في الحسب بعدها أبداً، ﴿الاسم﴾ ههنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من نكره وارتفع بين الناس. الا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين⁽⁵⁾ بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: ﴿بعد الإيمان﴾ ثلاثة أوجه: أحدهما استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يباهه الإيمان ويحظره كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرية الصبوة، والثاني أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق، فنهوا عنه. وقيل لهم: بشئ الذكر أن تنكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه. والجملة على هذا التفسير متعلقة بالتهي عن التنابر، والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بثست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

يقال: جنبه الشر إذا أبعد عنه، وحقيقته جعله منه في جانب فيعدي إلى مفعولين. قال الله عز وجل: ﴿واجنبني وبينني أن نعبد الأصنام﴾⁽⁶⁾ ثم يقال في مطاوعة: اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولاً والمأمور باجتنابه هو بعض الظن. وذلك البعض موصوف بالكثرة الا ترى إلى قوله:

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا بَنِيَّتًا كَبِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكَ بِمَنْ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا يَخْسَرُوا وَلَا يَنْتَبِ بِمَنْظَرِكُمْ بَعْضًا إِحْسًا أَعْدَاكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ آخِيهِ مِمَّا كَرِهَتْهُمُ وَقَالُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾.

﴿إِنَّ بعض الظنِّ إثم﴾. فإن قلت: بين الفصل بين كثير حيث جاء نكرة، وبينه لو جاء معرفة؟ قلت: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تعيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد

المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «انكروا الفاجر بما فيه كي يحذر الناس»⁽¹⁾. وعن الحسن رضي الله عنه في نكر الحجاج: أخرج إلي بنائاً قصيرة فلما عرقت فيها الأعتة في سبيل الله ثم جعل يطبب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال لما مات: اللهم أنت أمته، فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي. فوَّقه الله وتحتة مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، الصلاة أيها الرجل. هيئات بون تلك السيف والسوط، وقيل: معناه لا يجب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكانما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تغفلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به للزم فقد لزم نفسه حقيقة. والتنايز بالألقاب التداعي بها، تفاعل من نيزه وبنو فلان يتنايزون ويتنازبون، ويقال: النبز والنزب لقب السوء والتلقب المنهي عنه. وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تصصيراً به وذنماً له وشيئاً، فاما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بحبب أسمائه إليه»⁽²⁾ ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روي عن الضحاک أن قوماً من بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي نذر وسالم مولى حنيفة فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقوبها بسببة، وسللت طرفها خلفها وكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أم سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: «أن صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن

= هو أولها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى، ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك انحرافاً إلى قاعدة يصرف الذم إلى ارتفاع نكر الفسق من المؤمن، تحوماً على أن الاسم التسمية، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى، وأما الوجه الثاني: فإخله ليمت له حمل الاسم على التسمية صريحاً، وأما الثالث: فليمت له أن الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعتين مخالف للسنة فاحذرهما، وبإباحة التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة، إلا إذا أدركها الحق فكلمها، والله الحمد.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9667).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادة أهل الدين (الحديث رقم: 8772).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (الحديث رقم: 7211)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ (الحديث رقم: 3892).

(4) قال الزيلعي غريب 342/3 ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 221.

(5) قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاهما = (6) سورة إبراهيم، الآية: 35.

فقال: «إن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبتة، وإن لم يكن فيه فقد بهته»⁽⁶⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أيحب أحدكم﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفضح وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى منها الاستهزام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب يأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مودودة أن تأكل منها، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ وقرئ: ميتاً، ولما قرره عز وجل بأن أحداً منهم لا يجب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ معناه فقد كرهتموه واستقر ذلك وفيه معنى الشرط أي: إن صح هذا فكرهتموه وهي إلقاء الفضيحة أي: فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على نفعه وإنكاره لإيذاء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه. فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والظعن في أعراض المسلمين، وقرئ: فكرهتموه أي: جبلتم على كراهته.

فإن قُلْتَ: هلا عدى بإلى كما عدى في قوله: وكره إليكم الكفر وأيهما القياس! قُلْتَ: القياس تعدي بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيب حشوه تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول، أما تعدي بإلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض لأن بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغض إليه كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من نذب يقترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه. والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين للتائبين. وعن ابن عباس «أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك.

على ظن إلا بعد نظر وتامل وتمييز بين حقه وباطله بأمانة بيينة مع استشعار للمتقوى والحذر ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكتر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً وما اتصف منه بالقلّة مرخصاً في تظننه، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والستر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم نمة وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء»⁽¹⁾. وعن الحسن: كنا في زمان الظنّ بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان عمل واسكت وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه أن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتك الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»⁽²⁾. والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعقوبته، الإثم فعال منه كالنكال والعذاب والوبال قال:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة أصاب النوى قبل الممات اثامها والهمزة فيه عن الواو كأنه يتم الأعمال أي: يكسرها بإجباطه. وقرئ: ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تحسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجنس كما أن التلمس بمعنى التطلب من التلمس، لما في التلمس من التطلب. وقد جاء بمعنى التطلب في قوله تعالى: ﴿وإننا لمسنا السماء﴾⁽³⁾ والتحسس التعرف من الحس ولتقاربهما قيل: لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايهم والاستكشاف عما ستره. وعن مجاهد: خنوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ «أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العوائق في خدوره» قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»⁽⁴⁾. وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمراً. فقال ابن مسعود: «إننا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به»⁽⁵⁾. غابه واغتابه كغاله واغتاله، والغتبية من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفسق، باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9664).

(3) سورة الجن، الآية: 8.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: الغيبة (الحديث رقم: 5763)، وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في

تعظيم المؤمن (الحديث رقم: 2032)، وأخرجه أبو داود في كتاب:

(5) = (الحديث رقم: 4880)، وأبو يعلى في (الحديث رقم: 7423).

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في النهي عن التجسس (الحديث رقم: 3890)، وابن أبي شيبة في مصنفه 86/9 في كتاب: الأدب، باب: في الستر على الرجل الخ...

(6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، والأدب، باب: تحريم الغيبة (الحديث رقم: 70 - 2589).

فجاءه وهو في نمائه فتولى غسله وبقفه⁽⁴⁾. فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت.

﴿قَالَ الْأَعْرَابُ مَأْتًا قُلْ لَمْ يُؤَيِّرُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا تَسَلَّمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ يُطِئُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكُوا مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمانينة النفس، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حربياً للمؤمنين بإظهار الشهانتين ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب للسان فهو إيمان.

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم قُلْتُ⁽⁵⁾: أفاد هذا النظم تكذيب دعوهم أولاً ودفع ما انتحلوه، فقيل: قل لم تؤمنوا وروعي في هذا النوع من التكذيب أنب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل: كذبتم ووضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: أولئك هم الصانقون. تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح. واستغنى بالجملة التي هي لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤذاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة! قُلْتُ: ليس كذلك فإن فائدة قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ هو تكذيب دعوهم وقوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا،

فبعد ذلك قالوا لو بعثناه إلى بشر سمجة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا: ما تناولنا لحمًا. فقال: إنكما قد اغتبتما⁽¹⁾. فنزلت.

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿من ذكر وانثى﴾ من آدم وحواء وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فما منكم أحد إلا وهو يبلي بمثل ما يبلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والخذ تجمع الفضائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ العباس فصيلة وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها. وقرئ: لتتعارفوا ولتعارفوا بالإدغام ولتعارفوا أي: لتعلموا كيف تتناسبون ولتتعرفوا. والمعنى أن الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آيائه، لا أن يتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقرئ: أن بالفتح كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم، وعن النبي ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجالان، مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية⁽²⁾، وعنه عليه السلام: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»⁽³⁾. وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: «مر رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقدته يوماً، فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به.

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ، قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلص من حوالات الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما دعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة لا أنهم كذبوا في أن رسول الله ﷺ رسول من الله، وكان المخلص من ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾.

(1) قال الزيلعي: غريب وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب: الترغيب والترهيب. وذكره الثعلبي ثم البغوي بلفظ المصنف من غير سند 349/3.

(2) أخرجه الترمذي في السنن كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الحجرات (الحديث رقم: 3270) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث رقم: 5116).

(3) رواه الحاكم في المستدرک 4/270.

(4) ذكر الواحدي في أسباب النزول ص 222.

(5) قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة، قوله تعالى: =

ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات.

قُلْ أَمَلُّونَ اللَّهَ بِبَيْعِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءًا عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا
عَلَيَّ إِنَّمَا تَمُنُّونَ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكَ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

يقال: ما علمت بقدمك أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُونَ اللَّهَ بِبَيْعِكُمْ﴾ وفيه تجهيل لهم. يقال: من عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه، واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعمد لطلب مثوبة، ثم يقال: من عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعاماً، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاماً ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً. فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْتَوُونَ عَلَيْكَ بَمَا لَيْسَ جَدِيرًا بِالْإِعْتِدَادِ بِهِ مِنْ حُدُثِهِمُ الَّذِي حَقَّ تَسْمِيَتُهُ أَنْ يُقَالَ لَهُ إِسْلَامٌ. فقل لهم: لا تعتنوا علي إسلامكم أي: حديثكم المسمى إسلاماً عندي لا إيماناً. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووقفتم له إن صحَّ زعمكم وصلقت دعاوكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفي على المتأمل وجواب الشرط محنوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان. فله المنة عليكم. وقرئ: إن هداكم بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم.

إِنَّ اللَّهَ يَمَكِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾

وقرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعاوهم. يعني:

أنه عز وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سرهم وعلانيتكم لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»⁽²⁾.

وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لَا يَلْتَكُمُ﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: آلته السلطان حقه أشد الألت، وهي لغة غطفان ولغة أسد وأهل الحجاز لاته ليتا، وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات، وقرئ: باللغتين لا يلتكم ولا يالتكم ونحوه في المعنى فلا تظلم نفس شيئاً. ومعنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نقرأ من بني أسد قموا المدينة في سنة جبية فإظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعزرات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: آتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحها، وجنتك بالأنثقال والذراري، يريون الصنفة ويمنون عليه فنزلت.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَحَدَّثُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٩﴾

ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهم لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه.

فإن قلت: ما معنى ثم ههنا وهي للتراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب! قلت: الجواب على طريقتين: أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر، فشككه ودفن في قلبه ما يثلث يقينه، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات ونظيره قوله: ﴿ثم استقاموا﴾⁽¹⁾ والثاني أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً. ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منوياً وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهده. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا

(1) سورة فصلت، الآية: 30.

(2) رواه الثعلبي وابن مريويه والواحدي في التفسير والزليعي /3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ق مكية

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا نَحْنُ بِعَبِيدٍ ﴿٢﴾ أَمْ آءَانَا وَكُنَّا رُزُبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ .

الكلام في ﴿ق﴾ والقرآن المجيد * بل عجبوا ﴿١﴾ نحوه في ص القرآن ذي النكر بل الذين كفروا سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد. والمجيد ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس وهو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته.

قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس يعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه مترفعاً عليهم خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه. وإذا علم أن مخوفاً أظلم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه وإقرارهم بالنشأة الأولى ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أسخِل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. وهذا إشارة إلى الرجوع وإذا منصوب بمضمر معناه أحيان نموت ونبلى نرجع ﴿ذلك رجع بعيد﴾ مستبعد مستنكر، كقولك هذا قول بعيد وقد أبعد فلان في قوله، ومعناه بعيد من الوهم والعادة، ويجوز أن يكون الرجوع بمعنى المرجوع وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ: إذا متنا على لفظ الخبر ومعناه: إذا متنا بعد أن نرجع والبال عليه ذلك رجع بعيد.

فإن قلت: فما ناصب الظرف إذا كان الرجوع بمعنى المرجوع؟ قلت: ما دل عليه المنذر من المنذر به وهو البعث.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَشِيمٌ ﴿٤﴾

﴿قد علمنا﴾ رد لاستبعادهم الرجوع، لأن من لطف

علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتاكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا. عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب»^(١) وعن السدي: ﴿وما تنقص الأرض منهم﴾ ما يموت فيلفن في الأرض منهم ﴿كتاب حفيظ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيير. وهو اللوح المحفوظ أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴿٥﴾

﴿بل كذبوا﴾ إضراب اتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جازوا بما هو أقطع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكير ولا تبصر ﴿فهم في أمر مريح﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه وجرج، فيقولون تارة شاعر وتارة ساحر وتارة كاهن لا يثبتون على شيء واحد. وقرئ: لما جاءهم بكسر اللام وما المصدرية واللام هي التي في قولهم لخمس خلون أي: عند مجيئه إياهم، وقيل: الحق القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَا دُورُنَا وَأَنَّا نَبُذُهَا وَنَمْلُهَا مِنْ فُورِحٍ ﴿٦﴾

﴿أفلم ينظروا﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم ﴿بنيناها﴾ رفعناها بغير عمد ﴿من فروج﴾ من فتوح يعني: أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل كقوله تعالى: ﴿هل ترى من فطور﴾^(٢).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا فِيهَا رُوسًا وَأَلْبَتْنَا بِهَا مِنْ كُلِّ رِجْعٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾

﴿مددناها﴾ لحوناها ﴿رولسي﴾ جبلاً ثابته لولا هي لنكفات ﴿من كل زوج﴾ من كل صنف ﴿بهيج﴾ يبتهج به لحسنه.

تَبِيرَةً وَذُكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ نَشِيبٍ ﴿٨﴾

﴿تبصرة وذكرى﴾ لتبصر به وتذكر كل ﴿عبد منيب﴾ راجع إلى ربه مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: تبصرة وذكرى بالرفع أي: خلقها تبصرة.

وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَلْبَتْنَا بِهِ حَبَّتٍ وَمَصَّ الْحَمِيدِ ﴿٩﴾

﴿ماء مبارك﴾ كثير المنافع ﴿وحب الحميد﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرها.

(2) سورة الملك، الآية: 3.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير تفسير سورة الزمر، باب: ﴿ونفخ في الصور﴾ (الحديث رقم: 4814) ومسلم في الفتن، باب: ما بين النفتين.

وَأَنْتَلَّ بِإِسْفَتٍ لَمَّا طَلَعُ نَفْسِي^(١).

الإشياء كان على الإعادة أقدر.

فإن قُلْتُ: لم نكر الخلق الجديد⁽²⁾ وهلا عرف كما عرف الخلق الأول؟ قُلْتُ: قصد في تنكيهه إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ويبعث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَسَمِعُ وَحَمَّ أَوْرُبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(١١).

الوسوسة الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهيجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك صوت بكذا وهمس به، ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان أي: ما تجعله موسوساً وما مصدرية لأنهم يقولون: حدث نفسه بكذا. كما يقولون: حدثته به نفسه. قال: واكذب النفس إذا حدثتها ﴿ونحن أقرب إليه﴾ مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكان ذاته قريبة منه كما يقال:

الله في كل مكان وقد جل عن الأمكنة وحبل الوريد مثل في فرط القرب كقولهم:

هو مني مقعد القابلة ومقعد الإزار

وقال نو الرمة:

والموت أدنى لي من الوريد والحبل العرق شبه بواحد الحبال
ألا ترى إلى قوله: كان وريديه رشا أخلب، والوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقيل: سمي وريداً لأن الروح ترده.

فإن قُلْتُ: ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن تكون الإضافة للبيان كقولهم بعير سانية. والثاني أن يراد حبل العائق فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العائق لاجتماعهما في عضو واحد. كما لو قيل حبل العلياء مثلاً.

إِذْ يَلْقَى الْمُتَكَبِّرِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدًا^(١٧).

وعلى الأول ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وقوله: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم وإنَّ المتقين في جنات ونعيم﴾ وقوله: ﴿بإيمان الحقنا بهم نرياتهم﴾ وهو أكثر من أن يحصى، والثاني: هو الأصل في التنكير، فلا يحتاج إلى تمثيله، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم، كأنه قال: في لبس، أي: وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتوهين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول، يحتمل أن يكون للتفخيم، وكأنه أمر أعظم من أن يرضي الإنسان بكونه ملتبساً عليه، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة، فإن يكن هو ما اراده الزمخشري فذاك، وإلا فالعق العسل ولا تسلسل.

﴿باسفات﴾ طوآلاً في السماء. وفي قراءة رسول الله ﷺ باصقات بإبدال السين صاداً لأجل القاف ﴿نضيد﴾ منضود بعضه فوق بعض. إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه أو كثرة ما فيه من الثمر.

رِزْقًا لِيَمَانًا وَأَحْيَانًا بِهِ بَلَدَةٌ مَيْتًا كَذَلِكَ الْمَرْجُوعُ^(١١).

﴿رزقاً﴾ على أنبتاها رزقاً لأن الإنبات في معنى الرزق أو على أنه مفعول له أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿كذلك الخروج﴾ كما حبيت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء. أراد بفروع قوم كقوله تعالى:

كَذَبَتْ قَبْلَهُ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَشَمُودُ^(١٢) وَعَادُ وَرَعُونَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ^(١٣).

﴿من فرعون وملئهم﴾^(١) لأن المعطوف عليه قوم نوح والمعطوفات جماعات.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَنَّ وَرِيدُ^(١٤).

﴿كل﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم وأن يراد جميعهم. إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ بون المعنى ﴿فحق وعيد﴾ فوجب وحل وعيدي وهو كلمة العذاب وفيه تسليط لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

أَفِينًا بِالْأَلْوَالِ الْأَوَّلِ بَلَّ مَرٌّ فِي لَيْسَ مِنْ حَلْقِي حَبِيدٍ^(١٥).

عبي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله، والهزمة للإنكار والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني. ثم قال: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة. ﴿بل هم في لبس﴾ أي: في خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول علي رضي الله عنه: يا حار، إنه لملبوس عليك اعرف الحق تعرف أهله ولبس الشيطان عليهم تسويله إليهم أن أحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك القياس الصحيح أن من قدر على

(1) سورة يونس، الآية: 83.

(2) قال أحمد: هذا كلام كما تراه غير منتظم، والظاهر أنه لفساد في النسخة، والذي يتحرر في الآية وهو مقتضى تفسير الزمخشري، أن فيها أسئلة ثلاثة لم عرف الخلق الأول، ونكر اللبس والخلق الجديد، فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه، ومنه تعريف النكور في قوله: ﴿ويهب لمن يشاء النكور﴾ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول؛ لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى، إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته، فالخلق الآخر أولى أن لا يعبا به، فهذا سر تعريف الخلق الأول، وأما التنكير فأمره منقسم، فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أقبح من أن يخاطبه معرفة، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه، =

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾⁽²⁾ وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما: سكرة الحق بالموت على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له وأنها حكمة، والباء للتعدية لأنها سبب زهوق الروح لشدتها أو لأن الموت يعقبها فكانها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى جاءت معها الموت. وقيل: سكرة الحق سكرة الله أضيفت إليه تفضيلاً لشأنها وتهويلاً. وقرئ: سكرات الموت: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموت والخطاب للإنسان في قوله: ولقد خلقنا الإنسان على طريق الالتفات أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تحديد﴾ تنفر وتهرب. وعن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ فحكاها صالح بن كيسان فقال: والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب هو للكافر. ثم حكاها للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعاً هو للبر والفاجر.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿١٠﴾

﴿ذلك يوم الوعيد﴾ على تقدير حذف المضاف أي: وقت ذلك يوم الوعيد والإشارة إلى مصدر نفخ.

وَمَدَّتْ كُلُّ نَفْسٍ نَمَاهَا سَائِقٌ وَرَهِيبٌ ﴿١١﴾

﴿سائق وشهيد﴾ ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين كانه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها ومحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْتُمْ عَنْكَ غَافِلَةً فَبَصُرُكُمُ الْيَوْمَ حُرَيْبٌ ﴿١٢﴾

قرئ: لقد كنت عنك غطاءك فبصرك بالكسر على خطاب النفس أي: يقال لها: لقد كنت. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فبصر ما لم يبصر من الحق. ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديدًا لتيقظه.

وَقَالَ رَبُّنَا هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدٍ ﴿١٣﴾

﴿وقال قرينه﴾ هو الشيطان الذي قبض له في قوله: نقبض له شيطاناً فهو له قرين يشهد له قوله تعالى: ﴿قال قرينه﴾ ربنا ما أطغيته ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ هذا شيء لدي وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى: أن ملكاً يسوقه وآخر يشهد عليه وشيطاناً مقروناً به يقول: قد اعتدته لجهنم وهيئة لها بإغوائها وإضلالها.

﴿إذ﴾ منصوب بأقرب وساغ ذلك لأن المعاني تعمل في الظرف متقدمة ومتأخرة والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيماناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات. وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ: «إنَّ معقد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مداهما، وأنت تجري فيما لا يعنك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما»⁽¹⁾. ويجوز أن يكون تلقى الملكين بياناً للقرب يعني: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبتنا مولكون به والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة. والقعيد القاعد كالجليس بمعنى المجالس، وتقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه كقوله كنت منه ووآلدي برها.

مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٤﴾

﴿رقيب﴾ ملك يرقب عمله ﴿عتيد﴾ حاضر. واختلف فيما يكتب الملكان فقيل: يكتبان كل شيء حتى أنبئه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه السلام: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل. وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». وقيل: إنَّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعنه جماعة. وقرئ: ما يلفظ على البناء للمفعول. لما نكر إنكارهم البيعت واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي وهو قوله:

وَمَدَّتْ سَكْرَةُ اللَّوْنِ بِأَلَمٍ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ عَائِدٌ ﴿١٥﴾

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ ونفخ في الصور. وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل، والباء في الحق للتعدية يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله، أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان من أن كل نفس ذائقة الموت ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: تنبت بالدهن أي وجاءت ملبسةً بالحق أي: بحقيقة الأمر أو بالحكمة. والغرض الصحيح كقوله تعالى:

(2) سورة الانعام، الآية: 73.

(1) رواه الثعلبي في تفسيره والزليعي 3/358.

لا تختصموا لدي علم أن ثم مقابلة من الكافر لكنها طرحت لما يدل عليها كأنه قال: رب هو أطغاني فقال قرينه: ربنا ما أطغيتنا وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين.

وقول قرينه ما قال له: ﴿ما أطغيتك﴾ ما جعلته طاغياً وما أوقعته في الطغيان. ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾⁽¹⁾.

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ تَأْتُوا بِالشُّكْرِ لَكُمْ وَمَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَكُمْ

وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿قال لا تختصموا﴾ استثناء مثل قوله: قال قرينه: كان قائلاً قال: فماذا قال الله، فقيل: قال: لا تختصموا. والمعنى: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته، وقد أوعتكم بعدايبى على الطغيان في كتبى وعلى السنة رسلى فما تركت لكم حجةً علي. ثم قال: لا تطعموا أن أبدل قولي ووعيدي فأعفيكم عما أوعتكم به. ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في بالوعيد مزيدة مثلها في ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، أو معدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم، ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله: ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ويكون بالوعيد حالاً أي: قدمت إليكم هذا ملتبساً بالوعيد مقترناً به، أو قدمته إليكم موعداً لكم به.

فإن قلت: إن قوله: وقد قدمت إليكم واقع موقع الحال من لا تختصموا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعهما في زمان واحد واجب! قلت: معناه لا تختصموا وقد صرح عندكم أنني قدمت إليكم بالوعيد وصحة ذلك عندهم في الآخرة.

فإن قلت: كيف قال بظلام على لفظ المبالغة؟⁽²⁾ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده، والثاني أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنك ظلاماً مفرط الظلم فنفى ذلك.

يَوْمَ نُبَلِّغُكُمْ أَيْمَانَكُمْ هَلْ أَمْتَلَأْتُمْ بِرَبْوَاتِهِمْ هَلْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿٣٠﴾

فإن قلت: كيف إعراب هذا الكلام؟ قلت: إن جعلت ما موصوفة فعبتيد صفة لها، وإن جعلتها موصولة فهو بدل أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف.

أَلَيْسَ فِي سَمْعِهِمْ كُلِّ كَذَّابٍ عِيدٌ ﴿٣١﴾

﴿القبيا﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد، ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين: أحدهما قول المبردان تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل: ألق ألق للتأكيد، والثاني أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان فكثرت على السننهم أن يقولوا خليلي وصاحبى وقفا وأسعدا حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين. عن الزجاج أنه كان يقول: يا حوسى اضربا عنقه. وقرأ الحسن: القين بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في القيا بدلاً من النون إجراءً للوصول مجرى الوقف. ﴿عبيد﴾ معاند مجانب للحق معاد لاهله.

مَنَعَ لِمَنْ يَرَى مُمْرَرٌ مَّرِيبٌ ﴿٣٢﴾

﴿مناخ للخير﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، جعل ذلك عادةً له لا يدل منه شيئاً قط أو مناخ لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت. ﴿معتد﴾ ظالم متخط للحق ﴿مريب﴾ شاك في الله وفي دينه.

أَلَّذِي جَمَعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَعًا فَالْيَا هُ فِي الْمَذَابِ الْبَشِيرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَيَوْمَ رَبَّنَا مَا أَفْزَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي سَلَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٤﴾

﴿الذي جعل مع الله إلهاً معاً﴾ مضمّن معنى الشرط ولذلك أوجب بالفاء. ويجوز أن يكون الذي جعل منصوباً بدلاً من كل كفار ويكون ﴿فاليقاء﴾ تكريماً للتوكيد.

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأخلت على الأولى؟ قلت: لأنها استؤنفت كما تستأنف الجملة الواقعة في حكاية التقاؤل كما رأيت في حكاية المقابلة بين موسى وفرعون.

فإن قلت: فإين التقاؤل ههنا؟ قلت: لما قال قرينه هذا ما لدي عتيد، وتبعه قوله: قال قرينه ربنا ما أطغيتنا. وتلاه

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) قال أحمد: ونكر فيه وجهان آخران، أحدهما: أن فعلاً قد ورد بمعنى فاعل فهذا منه، الثاني: أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم، إن عظيماً فعظيم وإن قليلاً فقليل، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه قس ذاته عما يتوهم مخنول، والعباد بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود، ولقد بدل القدرية فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أراه وبما هو من خلق العبد، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراه وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفاً بما لا يطلق، واعتقوا أن ذلك ظلم =

= في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلاماً، والله تعالى مبرا من الظلم، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلاماً، والله تعالى مبرا من الظلم، ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاماً لعبيده تعالى الله عن ذلك؛ لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين هو عين ما اعتقدوه ظلاماً فنفيهم، ولئلا يكون للناس على الله وأشباهها لتبيين للناس ما نزل إليهم، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله الموفق للصواب.

قريءٌ نقول بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال وانتصاب اليوم بظلام أو بضمير. نحو أنكرو وأنثرو ويجوز أن ينتصب بنفخ كانه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ولا يقدر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخجيل الذي يقصد به تصوير المعنى⁽¹⁾ في القلب وتثنيته وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزداد على امتلائها لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون هل من مزيد استكثاراً للداخلين فيها واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة. والمزيد إما مصدر كالمحيد والمميد وإما اسم مفعول كالمبيع.

وَأَرْزَقَ الْجَنَّةَ الْيَتِيمَ الَّذِي يَرَىٰ يَتِيمَ ﴿٣١﴾

فإن قُلْتَ: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة⁽³⁾؟ قُلْتَ: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاش مع أن المخشي منه غالب ونحوه. والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب.

أَدْعُوهُمْ بِأَسْمَاءِ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٢﴾

يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من العذاب وزوال النعم أو مسلماً عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾⁽⁴⁾ أي: مقدرين الخلود.

لَمْ نَأْتِ بِشَاوِرَةٍ يَبِيًّا وَلَا ذِي نَرِيدٍ ﴿٣٣﴾

﴿ولدينا مزيد﴾ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيتهم حتى يشاؤهم، وقيل: إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فنقول نحن: للمزيد الذي قال الله عز وجل: ﴿ولدينا مزيد﴾.

وَكَمْ أَمَلَكْنَا بَالَهُمُ بَينَ قَرْنٍ مِّمَّ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَدِ

قريءٌ نقول بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال وانتصاب اليوم بظلام أو بضمير. نحو أنكرو وأنثرو ويجوز أن ينتصب بنفخ كانه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ولا يقدر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخجيل الذي يقصد به تصوير المعنى⁽¹⁾ في القلب وتثنيته وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزداد على امتلائها لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون هل من مزيد استكثاراً للداخلين فيها واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة. والمزيد إما مصدر كالمحيد والمميد وإما اسم مفعول كالمبيع.

﴿غير بعيد﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً غير بعيد. أو على الحال وتذكيره لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل والمصار يستوي في الوصف بها المنكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف أي شيئاً غير بعيد ومعناه: التوكيد. كما تقول: هو قريب غير بعيد وعزيز غير قليل.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٤﴾

وقريءٌ توعدون بالتاء والياء وهي جملة اعتراضية و﴿لكل أواب﴾ بدل من قوله: للمتقين بتكرير الجر كقوله تعالى: ﴿الذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾⁽²⁾ وهذا إشارة إلى الثواب أو إلى مصدر أزلفت. والأواب الرجاء إلى نكر الله تعالى والحفيظ الحافظ لحدوده تعالى.

مَنْ حَقِيَ الرَّحْمَنَ الْأَعْلَىٰ إِنْ شَاءَ رَبُّكَ يُصِيبُ ﴿٣٥﴾

﴿ومن خشى﴾ بدل بعد بدل تابع لكل ويجوز أن يكون

(1) قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخجيل في غير ما موضع، والتكثير هنا أشد عليه، فإن إطلاق التخجيل قد مضى له في مثل قوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ وفي مثل قوله: ﴿بل يدها ميسوطتان﴾ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز، فمعنى كلامه صحيح؛ لأننا نعتقد فيهما المجاز وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه، غير أننا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة، وأي إيهام أشد من إيهام لفظ التخجيل، إلا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل، في قوله: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فلا يشك في وجوب اجتنابه، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هنا، فنقول: هو منكر لفظاً ومعنى، أما اللفظ فقد تقدم، وأما المعنى فلأننا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وإن الله تعالى يخلق فيها الإبرك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك، منها هذا ومنها لجاج الجنة والنار، ومنها اشتكاؤها إلى ربها =

(2) سورة الأعراف، الآية: 75.

(3) قال أحمد: ومن هذا الوادي بالغ رسول الله ﷺ في الثناء على صهيب، بقوله: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه..

(4) سورة الزمر، الآية: 73.

هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ ﴿٣٦﴾

الْمَرْوِبِ ﴿٣٧﴾

﴿فانصبر على ما يقولون﴾ أي: اليهود يأتون به من الكفر والتشبيه، وقيل: فانصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال ﴿بحمد ربك﴾ حامدًا ربك والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة فالصلاة ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ الظهر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيِّمُهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤١﴾

﴿ومن الليل﴾ العشاءان وقيل: التهجد ﴿وأبىار السجود﴾ التسبيح في آثار الصلوات والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل: النوافل بعد المكتوبات. وعن علي رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَتَبَتْ صَلَاتُهُ فِي عِلْيَيْنَ»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الوتر بعد العشاء، والأبىار جمع دبر. وقرئ: ﴿وأبىار﴾ من أدبرت الصلاة إذا انقضت تمت ومعناه ووقت انقضاء السجود. كقولهم: أتيتك خفوق النجم.

وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ النَّاسُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾

﴿وأسمع﴾ يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدث عنه، كما يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ أسمع ما أقول لك»، ثم حدثه بعد ذلك.

فإن قلت: بم انتصب اليوم؟ قلت: بما دل عليه ذلك يوم الخروج أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور. ويوم يسمعون بدل من ﴿يوم ينادي﴾ و﴿المنادي﴾ إسرافيل ينفخ في الصور وينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركم أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿من كان قريب﴾ من صخرة بيت المقدس وهي أقرب الأرض من السماء بأثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: أيتها العظام البالية.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ التَّرْوِجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَمَّبِئُونٌ ﴿٤٣﴾

﴿والصيحة﴾ النفخة الثانية ﴿بالحق﴾ متعلق بالصيحة والمراد به: البعث والحشر للجزاء.

﴿فانقبوا﴾ وقرئ: بالتخفيف فخرقوا في البلاد وبؤخوا، والتنقيب: التنقيب عن الأمر والبحث والطلب. قال الحرث بن حلزة:

انقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال وبخلت الغاء للتسبيح عن قوله: هم أشد منهم بطشاً أي: شدة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه، ويجوز أن يراد فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم. والدليل على صحته قراءة من قرأ فنقبوا على الأمر كقوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض﴾^(١) وقرئ: بكسر القاف مخففة النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال: ما مسها من نقب ولا بئر. والمعنى: فنقبت أخفاف إبليس أو حفيت أقدامهم ونقبت كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد ﴿هل من محيص﴾ من الله أو من الموت.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

﴿لمن كان له قلب﴾ أي: قلب واع لأن من لا يعي قلبه فكانه لا قلب له. وإلقاء السمع الإصغاء ﴿وهو شهيد﴾ أي: حاضر ببطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكانه غائب. وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه: ماشئت من زهزمة والفتى بمصفاً ياذللسفي الزروع أو وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحي من الله أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾^(٢) وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعتة عنده وقرأ السدي وجماعة ألقى السمع على البناء للمفعول ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل: ألقى سمعه أو السمع منه للغوب الإعياء وقرئ: بالفتح بزنة القبول والولوع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾

قيل: نزلت في اليهود لعنت تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش. وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ.

فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

= أبي شيبه 2/198 في كتاب: الجمعة، باب: في ثواب الركعتين لم يخرج الزيلعي.

(1) سورة التوبة، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 3/70 (الحديث رقم: 4833)، وابن =

يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ يَرَاءُكَ ذَلِكَ حَرًّا عَلَيْنَا بَحِيرٌ ﴿١٤﴾

﴿فالمقسمات أمراً﴾ الملائكة لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد تتولى تقسيم أمر العباد جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن علي رضي الله عنه أنه قال هو على المنبر: «سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: ما الذاريات نرواً. قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرراً. قال: السحاب. قال: فالجاريات يسراً. قال: الفلك. قال: فالمقسمات أمراً. قال: الملائكة»⁽⁵⁾. وكذا عن ابن عباس وعن الحسن: «المقسمات السحاب يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة»⁽⁶⁾. ويجوز أن يراد الرياح لا غير لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جرياً سهلاً، وتقسم الأمطار بتصريف الحساب.

فإن قُلْتُ: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قُلْتُ: أمّا على الأول فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجري بها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه، وأمّا على الثاني فلأنها تبتدىء بالهبوب فتدروا التراب والحصباء، فتنتقل السحاب فتجري في الجو بأسطة له، فنقسم المطر.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿١٥﴾

﴿إنما توعدون﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود البعث. ووعد صادق كعيشة راضية.

وَأَنَّ الْبَيْنَ لَرُجُومٌ ﴿١٦﴾

والدين الجزاء. الواقع الحاصل.

وَأَسْمَاءُ ذَاتُ لُجْبٍ ﴿١٧﴾

﴿الحبكب﴾: الطرائق مثل حبك الرمل والماء إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره. قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

والدرع محبوبكة لأن خلقها مطرق طرائق. ويقال: إن خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشي طرائق الوشي، وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم فرس محبوبك المعاقم أي: محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكها! وهو جمع حبك كمثل ومثل أو حبيكة كطريقة وطرق. وقرئ: الحبك بوزن القفل، والحبك بوزن السلك، والحبك

قرئ: تشقق وتشقق بإدغام التاء في الشين وتشقق على البناء للمفعول وتنشق. ﴿سراعاً﴾ حال من المجرور ﴿علينا يسير﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كفناً واحدة﴾⁽¹⁾.

مَنْ أَعْرَبَ بِمَا بِقُلُوبِهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْفُرْقَانِ مَنْ يَخَافُ وَيَعْبُدُ ﴿١٨﴾

﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿بجبار﴾ كقوله تعالى: ﴿بمسيطر﴾⁽²⁾ حتى تقسره على الإيمان إنما أنت داع وباعث. وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان، وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم إذا كان واليهم ومالك أمرهم. ﴿من يخاف وعيد﴾ كقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾⁽³⁾ لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات مكية

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا ﴿١﴾

﴿والذاريات﴾ الرياح لأنها تدرو التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تندروه الرياح﴾. وقرئ: بإدغام التاء في الذال.

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾

﴿فالحاملات وقرراً﴾ السحاب لأنها تحمل المطر. وقرئ: وقرراً بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر أو على إيقاعه موقع حملاً.

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾

﴿فالجاريات يسراً﴾ الفلك ومعنى يسراً: جرياً ذا يسر. أي: ذا سهولة.

فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

(5) رواه الحاكم في المستدرک 466/2.

(6) رواه الطبراني في تفسيره.

(1) سورة لقمان، الآية: 28.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) سورة النازعات، الآية: 45.

(4) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير وأخرجه الزيلعي

بوزن الجبل، والحبك بوزن البرق، والحبك بوزن النعم، والحبك بوزن الإبل.

إِنَّكَ لَبَى قَوْلٍ تَحْتَلِبِ (٨).

﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ قولهم في الرسول ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن ﴿شعر وسحر وأساطير الأولين﴾ وعن الضحك: قول الكفرة لا يكون مستويًا إنما هو متناقض مختلف، وعن قتادة: منكم مصلق ومكذب ومقر ومنكر.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩).

﴿يؤفك عنه﴾ الضمير للقرآن أو للرسول أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه^(١) وأعظم كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله. أي: علم فيما لم يزل أنه مافوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق. ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك ومنهم جاحد، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المافوك. ووجه آخر وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف. وعن مثله في قوله: ينهون عن أكل وعن شرب. أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب، وحقيقته يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك على البناء للفاعل أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أن الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ فيقولون له: احذره، فيرجع، فيخبرهم. وعن زيد بن علي: يافك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو مافوك في نفسه. وعنه أيضًا: يافك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو أفك كذاب. وقرئ: يؤفن عنه من أفن أي: يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

قِيلَ الْمَرْصُورَ (١٠).

﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم. كقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما كفره﴾^(٢) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح. والخراصون الكذابون المقدرين ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم. كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: قتل الخراصين أي: قتل الله.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١).

﴿في غمرة﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ (١٢).

﴿يسئلون﴾ فيقولون: ﴿أيان يوم الدين﴾ أي: متى يوم الجزاء. وقرئ: بكسر الهمزة وهي لغة.

فإن قلت: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان! قلت: معناه أيان وقوع يوم الدين.

فإن قلت: فيم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت: بفعل مضمرة دل عليه السؤال أي: يقع.

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُنْتَوُونَ (١٣).

﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة.

فإن قلت: فما محله مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمرة الذي هو يقع، ورفعًا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عيلى بالرفع. ﴿يفتنون﴾ يحرقون ويعذبون، ومنه الفتين وهي الحرة لأن حجارتها كأنها محرقة.

دُفُورًا يَنْتَكِرُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَسْتَجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَوِينَ فِي جَنَّتِ وَعَبْرُونَ (١٥).

﴿نوقوا فتننكم﴾ في محل الحال. أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿الذي﴾ خبره. أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كنتم به تستعجلون﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلًا من فتننكم أي: نوقوا هذا العذاب.

أَخْبَرَنِي مَا أَنَا فِيهِمْ رَوَاهُ اللَّهُ كَأَنَّا قُلْنَا ذَلِكَ مُخِيبِينَ (١٦).

﴿أخبرني ما آتاهم﴾ ربهم قابلين لكل ما أعطاهم راضين به يعني: أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقي بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وياخذ الصدقات﴾^(٣) أي: يقبلها ويرضاها. ﴿محسنين﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿ما﴾ مزيدة.

كَأَنَّا قِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُرُونَ (١٧).

والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. إن

= فكانك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلًا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(2) سورة عيس، الآية: 17.

(3) سورة التوبة، الآية: 104.

(1) قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي نكر، من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف علم السامع أن قولك: يصرف عنه يعني عن قولك: من صرف؛ لأنه بمجرد كالتكرار للأول لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأتي جعله تكررًا، وتلك الفائدة إنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، =

واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعان المفننة والذباب المنبثة في برها وبحرها، المختلفة الصور والأشكال والأفعال من الوحشي والإنسي والهوام وغير ذلك. ﴿للموقنين﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأقهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم وإيقاناً إلى إيقانهم.

وَقَدْ أَنبِئْنَا قَلِيلاً بِمِثْرِنَ ﴿٦٠﴾

﴿وفي أنفسكم﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالأسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبيئات القاطعة على حكمة المبدى ودع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني، فإنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى اناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَقَدْ أَنبِئْنَا رِزْقَكَ وَمَا تَعُدُّونَ ﴿٦١﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِفُونَ ﴿٦٢﴾

﴿وفي السماء رزقكم﴾ هو المطر لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج، وكل عين دائمة منه. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه: والله رزقكم ولكنكم تحرمونه لخطاياكم. ﴿وما توعدون﴾ الجنة هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء.

قري: ﴿مثل ما﴾ بالرفع صفة للحق أي: حق مثل نطقكم، وبالنصب على أنه لحق حقاً مثل نطقكم، ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن، وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما أنك ههنا وهذا الضمير إشارة إلى ما نكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ، أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

جعلت قليلاً طرفاً ولك إن تجعله صفةً للمصدر. أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. ويجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولة على كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه. وارتقاعه بقليلاً على الفاعلية⁽¹⁾ وفيه مبالغت. لفظ الهجوع وهو القرار من النوم قال:

قد حصت البيضة رأسي فما اطعم نوماً غير تهجاع وقوله: قليلاً ومن الليل لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ما مؤكدة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهددين.

وَالْأَنْبِئَاتِ مِمَّا يَسْتَفْتُونَ ﴿٦٣﴾

إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليهم الجرائم، وقوله: ﴿هم يستغفرون﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين فكانهم المختصون به لاستدامتهم له وإطناهم فيه.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله؟ قلت: لا لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها تقول: زيداً لم أضرب؛ ولا تقول: زيداً ما ضربت.

وَقَدْ أَمَرْتَهُمْ حَتَّى لَسَالَيْلٍ وَالنَّجْوَى ﴿٦٤﴾

السائل الذي يستجدي. ﴿والمحروم﴾ الذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي تردُّه الأكلة والاكلتان، واللقة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما هو؟ قال: الذي لا يجد ولا يتصدق عليه»⁽²⁾. وقيل: الذي لا ينمى له مال. وقيل: المحارف الذي لا يكاد يكسب.

وَقَدْ أَلْأَرْضِ مَائَتٌ لِّتُؤَيِّنَ ﴿٦٥﴾

﴿وفي الأرض آيات﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره، حيث هي منحوة كالبساط لما فوقها. كما قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾⁽³⁾ وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها، والماشين في مناكبها. وهي مجزأة فمن سهل وجبل وبر وبحر، وقطع متجاورات من صلابة ورخوة وعذاة وسبخة، وهي كالطروقة تلقح بالوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح. تسقي بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم

(1) قال أحمد: وجه مستقيمة خلا جعل ما مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع؛ لأنه فاعله، وقوله: ﴿من الليل﴾ لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بياناً له، ولا يستقيم أن يكون من صلة المصدر؛ لأنه تقدم عليه ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل؛ كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون الليل بياناً للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي نكره إنما تبع فيه الزجاج، وقد ردّ الزمخشري أن =

(2) تكون ما نفيًا، وقليلًا منصوب بيهجعون، على تقدير كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى (الحديث رقم: 101 - 1039).

(3) سورة طه، الآية: 53.

غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويعذره، قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر ﴿فجاء بعجل سمين﴾.

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾.

والهمزة في ﴿الآ تاكلون﴾ للإنكار أنكروا عليهم ترك الأكل، أو حثهم عليه.

فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيْفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظْ وَشَرَّوهُ بِمَكْلَمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾.

﴿فأوجس﴾ فاضمر، وإنما خافهم لأنهم لم يتحرموا بطعامه، فظن أنهم يربون به سوءاً، وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه. ﴿بغلام عليهم﴾ أي: يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليهم نبي. والمبشر به إسحاق وهو أكثر الأقاويل وأصحها، لأن الصفة صفة سارة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلمها. وعن مجاهد: هو إسماعيل.

فَأَنبَتَ أُمَّرَأَتَهُ فِي صَرَّرٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَاتَتْ عَجُوزٌ عَلَيْهِمْ ﴿٧٩﴾.

﴿في صرة﴾ في صريحة من صر الجند وصر القلم، والياب ومحلها النصب على الحال، أي: فجاءت صارة، قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء وقيل: فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها ﴿فصكت﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت باطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عجوز﴾ أنا عجوز فكيف ألد.

قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْمَكِيدُ الْغَلِيظُ ﴿٨٠﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به. ﴿قال ربك﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قاهر على ما تستبعبين، وروي أن جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت، فإذا جنوعه مورقة مثمرة لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإنان الله رسلاً في بعض الأمور.

﴿قَالَ مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا الرِّسَالَةَ﴾ ﴿٨١﴾.

﴿قال فما خطبكم﴾ أي: فما شأنكم وما طلبكم.

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٨٢﴾.

﴿إلى قوم مجرمين﴾ إلى قوم لوط.

الرحمن، فقال: أتت علي فتلوت: والذاريات. فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأبهر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما، وولى. فلما حجبت مع الرشيد طففت اطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالاعرابي قد نحل وأصفر. فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرات فورب السماء والأرض إنه لحق. فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى أجؤه إلى اليمين. قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه.

هَلْ أُنَبِّئُكَ حَيْثُ صَبَّيْتَ إِلَيْهِمُ الْكُرْشِيِّ ﴿٨٣﴾.

﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم، لأنه في الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وملك معهم. وجعلهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى، أو أنهم في أنفسهم مكرمون، قال الله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون﴾ (١).

إِذْ نَدَعَاؤُهُ عَلَيْهِ قَتَالُوا قَتَالُوا قَتَالُوا قَالَتْ سَلَّمٌ قَالَتْ سَلَّمٌ قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿إذ نخلوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم، وإلا فيما في ضيف من معنى الفعل أو بإضمار أنكرو ﴿سلاماً﴾ مصدر ساء مسد الفعل مستغنى به عنه، وأصله نسلم عليكم سلاماً، وأما ﴿سلام﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء وخبره محنوف معناه: عليكم سلام. للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بآداب الله تعالى. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. وقرنا مرفوعين، وقرىء سلاماً. قال: سلما والسلم السلام، وقرىء سلاماً. قال: ﴿سلام قوم منكرون﴾ أنكروهم للسلام الذي هو علم الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم. كما لو أبصر العرب قوماً من الخزر، أو رأى لهم حالاً وشكلاً خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤلاً لهم. كأنه قال: أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم.

رَأَىٰ لَكُمْ آٰلِهِي فَمَاءٌ يُعْتَلِ سِينِ ﴿٨٥﴾.

﴿قراغ إلى أهله﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه، ومن أتب المضيف أن يخفي أمره (٢) وأن يباده بالقرى من

(1) سورة الانبياء، الآية: 26.

(2) قال أحمد: معنى حسن، ونقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ، إلا إذا ذهب على خفية، ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحكم خامة حر طعامه، فليقعد معه، وإلا فليروغ له لقمة»، قال =

= أبو عبيد: يقال: روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها، إذا غمسها فروبوت سمناً. قلت: وهو من هذا المعنى؛ لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى، ومن مقلوبه غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

لَأَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ وَرَأَىٰ لِسَافًا ۚ ﴿٢٤﴾

﴿حجارة من طين﴾ يريد السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الأجر حتى صار في صلابة الحجارة.

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلمة من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به، وقيل: أعلمت بانها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين كما سماهم عابدين لإسرافهم وعنوانهم في علمهم، حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم الضمير في. ﴿فيها﴾ للقرية، ولم يجر لها نكر لكونها معلومة، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد وإنهما صفتا مدح، قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لانجاهم ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله.

فَأَنزَجْنَا مِنْهَا مَاءً مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَسَاءَ لِمَا يَصِفُونَ ۚ ﴿٢٥﴾

﴿آية﴾ علامة يعتبر بها الخائفون نون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

وَقَىٰ مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۚ ﴿٢٦﴾

﴿وفي موسى﴾ عطف على وفي الأرض آيات، أو على قوله: وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله: علفتها تناء وماء باردًا.

نَزَّلْنَا بِرَأْسِهِ مَائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَمَن شَاءَ فَاسْتَمْسِكْ ۚ ﴿٢٧﴾

﴿فتولى بركته﴾ فازور وأعرض. كقوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾^(١) وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ: بركته بضم الكاف. ﴿وقال ساحر﴾ أي: هو ساحر.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي فِجَارٍ أَمْتٍ ۚ ﴿٢٨﴾

﴿مليم﴾ أت بما يلام عليه من كفره وعناده. والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه.

فَإِن قُلْتُمْ: ﴿كَيْفَ يَدْعُوا بِهِمْ وَيَدْعِيهِمْ فِرْعَوْنُ بِطُغْيَانِهِ﴾ فَقُلْ أَسْأَلُكُمْ بِاللَّذَىٰ فِيهِ يَدْعُونَ ۚ ﴿٢٩﴾

﴿فإن قلتم﴾ كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾^(٢) قلتم: موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وعصوا رسلك﴾^(٣) ﴿وعصى آدم ربه﴾^(٤) لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

وَقَىٰ عَادَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۚ ﴿٣٠﴾

﴿العقيم﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر، أو إلحاق شجر، وهي ريح الهلاك واختلف فيها. فعن علي رضي الله عنه: النكباء، وعن ابن عباس: الدبور، وعن ابن المسيب: الجنوب.

مَا نَذَرْنَا مِنْهُ لَبِيبٌ يُعْرَبُ ۚ ﴿٣١﴾

الريم: كل ما رم، أي: بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

وَقَىٰ نُوحًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَكُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۚ ﴿٣٢﴾

﴿حتى حين﴾ تفسيره قوله: ﴿تتمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾^(٥)

فَمَن شَاءَ فَلْيُصِرْ ۚ وَمَن يَشَاءْ فَلْيُغْوِرْ ۚ ﴿٣٣﴾

﴿فصبروا عن أمر ربه﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة، والصاعقة النازلة نفسها. ﴿وهم ينظرون﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي: أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضربتهم.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۚ ﴿٣٤﴾

﴿فما استطاعوا من قيام﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾^(٦) وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿ممتصرين﴾ ممتنعين من العذاب.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن بَنِي إِسْمَاعِيلَ ۚ ﴿٣٥﴾

﴿وقوم﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح، وتقوية قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، لأن ما قبله يدل عليه، أو وانكر قوم نوح.

وَأَنبَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا لَنُصَلِّبَنَّكَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۚ ﴿٣٦﴾

﴿بانيذ﴾ بقوة، والأيذ والآذ القوة، وقد آذ يئذ وهو أيد. ﴿وإننا لموسعون﴾ لقارون من الوسع، وهو الطاقة، والموسع القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرذق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

وَأَلْأَرْضَ فَرَّسَتْهَا فَلِمَمَّ السَّيْهُونَ ۚ ﴿٣٧﴾

﴿فنعم الماهدون﴾ فنعم الماهدون نحن.

وَمَن كُلَّ شَيْءٍ رَّزَقْنَاهُ وَنَدَّكَرُونَ ۚ ﴿٣٨﴾

﴿ومن كل شيء﴾ أي: من كل شيء من الحيوان ﴿خلقنا زوجين﴾ نكرًا وأنثى. وعن الحسن: السماء

(٤) سورة طه، الآية: 121.

(٥) سورة هود، الآية: 65.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: 37.

(١) سورة الإسراء، الآية: 83.

(٢) سورة الصافات، الآية: 142.

(٣) سورة هود، الآية: 59.

﴿فتقول عنهم﴾ فأعرض عن الذين كزرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت منهم العناد والججاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة ونبئت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله.

وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي: تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان، أو يزيد الداخلين فيه إيماناً. وروي أنه لما نزلت: فتول عنهم. حزن رسول الله ﷺ، واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر. فانزل الله: ﴿وذكر﴾

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْكُمْ مِنْ زُنُوفٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يَطْمَئِنُّوكم إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا بِنُفْسِهِمْ فَلَا يَسْتَمْلِئُونَ ﴿٥٩﴾

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أرد من جميعهم إلا إياها⁽¹⁾.

فإن قلت: لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً! قلت: إنما أراد منهم أن يعبوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجبت من جميعهم.

يريد أن شأني من عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإما مجهز في تجارة ليفي ربحاً، أو مرتب في فلاحة ليقتل أرضاً، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته، أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق.

فأما مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل

والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، فعدد أشياء قال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له. ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي: فعلنا ذلك كله من بناء السماء، وقرش الأرض، وخلق الأزواج، إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِهُنَّ ذُنُوبَ نِسِيِّنَ ﴿٥٦﴾ وَلَا يَحْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَا حَرَّ إِنِّي لَكَرِهُنَّ ذُنُوبَ نِسِيِّنَ ﴿٥٧﴾

﴿فقرؤا إلى الله﴾ أي: إلى طاعته وثوابه من معصيته⁽¹⁾ وعقابه ووجوهه ولا تشركو به شيئاً، وكرد قوله:

﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً﴾⁽²⁾ والمعنى: قل يا محمد ففروا إلى الله.

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ يَنْزِلُونَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاهٍ أَوْ كِبْرُؤُةٌ ﴿٥٧﴾

﴿كذلك﴾ الأمر أي: مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً ومجنوناً. ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿ما آتى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة باتى لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت لكان صحيحاً على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا:

أَتَاكُمْ بِدِينٍ بَلَّ مُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾

﴿أتواصوا به﴾ الضمير للقول. يعني: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه. ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي: لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُنْتَبِئُ بِمَا لَوْ كَانُوا عِندَ اللَّهِ

(1) قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله؛ لأنه لا يكاد يخلفي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده من معتقده، فس ههنا: لقطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتل في الآية لما نكر، فإن العناية في قوله: ﴿فقرؤا إلى الله﴾ الفرار إلى عبادة الله، فتوعد من لم يعبد الله ثم نهى عباده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعد على ذلك، وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري المأمور به في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الواعدين فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى ليتم بها الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

(2) سورة الانعام، الآية: 158.

(3) قال أحمد: من عادته أنه إذا استشعر أن ظاهراً موافق لمعتقده، =

= نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جواباً، فكذلك صنع ههنا؛ فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما نكره، فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لاهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به، شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم، والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً، أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقته وبه نطق، ولكن الهوى يعمي ويصم، فحاصله وما خلقت الجن والإنس إلا لادعواهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم، وباهل التوفيق.

وَأَلَيْتَ الْمَتَمِرُ ﴿٤﴾

﴿والبيت المعمور﴾ الضراح في السماء الرابعة، وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين.

وَأَلَيْتَ الْمَرْجُوعُ ﴿٥﴾

﴿والسقف المرفوع﴾ السماء.

وَأَلَيْتَ الْمَسْجُورُ ﴿٦﴾

﴿والبحر المسجور﴾ المملوء. وقيل: الموقد. من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ (٤). وروي أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارًا تسجر بها نار جهنم. وعن علي رضي الله عنه «أنه سال يهوديًا: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: في البحر. قال علي: ما أراه إلا صادقًا» (٥) لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾

﴿لواقيع﴾ لنازل قال جبير بن مطعم: «أتيت رسول الله ﷺ كلمه في الأسارى فآلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، أسلمت خوفًا من أن ينزل العذاب» (٦).

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَدَرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ بِمِيزَةٍ لِّلْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ مُّلْتَمُونَ ﴿١٢﴾

﴿تمور السماء﴾ تضطرب وتجيء وتذهب، وقيل: المود تحرك في تموج، وهو الشيء يتردد في عرض كالدافعة في الركبة. غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكنب ومنه قوله تعالى: ﴿وكننا نخوض مع الخائضين﴾ (٧) وخضمت كالذي خاضوا الدع الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلقون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، وينفعونهم إلى النار دفقًا على وجوههم، ورخًا في آفقيتهم. وقرأ زيد بن علي: يدعون من الدعاء أي: يقال لهم: هلموا إلى النار، وانخلوا إلى النار.

يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٤﴾

﴿دعوا﴾ مدعويين يقال لهم: هذه النار.

أَنسِرُهُ هَذَا أَمْ أَنَسْرُ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾

رزقي ولا رزقكم وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي فما هو إلا أنا وحدي. ﴿المتين﴾ الشديد القوة. قرئ: بالرفع صفة لنو وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار. والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة: أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: لرازق. وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق. الذنوب: اللو العظيمة، وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال: لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتنا قلنا القليل ولما قال عمرو بن شاس:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشاس من ندادك ذنوب قال الملك نعم وأننبة والمعنيان الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله. مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجالاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم.

قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَرِّهِمْ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿من يومهم﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعد كل ربيع هبت وجرت في الدنيا» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور مكية

وَأَشْهُرُ ﴿١﴾

الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين.

وَكُنُوزٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾

والكتاب المسطور في الرق المنشور والرق الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال. قال الله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾ (٢) وقيل: هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن. ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب. كقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ (٣).

(6) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطور (الحديث رقم: 4854)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب القراءة في المغرب (الحديث رقم: 174 - 463).

(7) سورة المدثر، الآية: 45.

(1) رواه الثعلبي والواحدي، وابن مردويه في التفسير، والزليعي /3 367.

(2) سورة الإسراء، الآية: 13.

(3) سورة الشمس، الآية: 7.

(4) سورة التكويد، الآية: 6.

(5) رواه البيهقي في البعث والنشور والطبري في تفسيره وأخرجه الزليعي /3 371.

﴿أفسح هذا﴾ يعني: كنتم تقولون للوحي هذا سحر. أفسح هذا؟ يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ وبخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أم انتم لا تبصرون﴾ كما كنتم (1) لا تبصرون في الدنيا يعني: أم انتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخير، وهذا تفرغ وتهمك.

أَصَابَهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿سواء﴾ خبر محذوف أي: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه.

فإن قُلْتُ: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾؟ قُلْتُ: لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازي عليه الصابر جزاء الخير، فاما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع.

إِنَّ الْأُنثَىٰ فِي جَنَّتٍ وَيَبْرُؤُهَا ﴿١٧﴾.

﴿في جنات ونعيم﴾ في آية جنات وأي نعيم بمعنى: الكمال في الصفة أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمؤمنين خلقت لهم خاصة.

فَكَفَّيْنَهُنَّ بِمَا آتَيْنَهُنَّ رِزْقًا وَرَقَّتْهُنَّ رُجُومٌ وَعَذَابٌ لَّجِيمٌ ﴿١٨﴾.

وقرى: فلكهين وفكهين وفكهون، من نصبه حالاً جعل الظرف مستقراً، ومن رفعه خبراً جعل الظرف لغواً أي: متلذذين ﴿بما آتاهم ربهم﴾.

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿ووقاهم ربهم﴾؟ قُلْتُ: على قوله في جنات، أو على آتاهم ربهم، على أن تجعل ما مصدرية. والمعنى: فلكهين بآياتهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمره يقال لهم:

كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مَثُوبِينَ عَلَىٰ سُوءٍ مَّصُونُونَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾.

﴿كلوا واشربوا﴾ أكلاً وشرباً ﴿هنياً﴾ أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيص فيه، ويجوز أن يكون مثله في قوله:

هنياً مرياً غير داء مخامر لعة من أعراضنا ما استحل

أعني صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعاً به ما استحل، كما يرتفع بالفعل كأنه قيل: هنا عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى هنيئاً ههنا: هناك الأكل والشرب أو هناك ما كنتم تعملون أي: جزاء ما كنتم تعملون والباء مزيدة كما في: كفى بالله والباء

متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرى: بعبس عين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآتَيْنَاهُمُ ذُرِّيَّتَهُم بِإِيمَانٍ أَلَقْنَاهُمُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَنتَهُم مِنَّ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ كُلٌّ لِّأَمْرِ بِمَا كَسَبَ رَبُّونَ ﴿٢١﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ معطوف على حور عين أي: قرناهم بالحدود وبالذين آمنوا أي: بالرفقاء والجلساء منهم. كقوله تعالى: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿وتابعناهم ذرياتهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لئن الله يرفع نرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه ليقرب بهم عينه» (2). ثم تلا هذه الآية فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، ثم قال: ﴿بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم﴾ أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء الحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستاهلوننا تفضلاً عليهم وعلى آبائهم لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم.

فإن قُلْتُ: ما معنى تنكير الإيمان؟ قُلْتُ: معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ويجوز أن يراد إيمان النرية الداني المحل. كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء الحقناهم بهم. وقرى: وأتبعناهم ذريتهم، واتبعناهم ذريتهم وذرياتهم. وقرى: ذرياتهم بكسر الذا، ووجه آخر وهو أن يكون والذين آمنوا مبتداً خبره بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم وما بينهما اعتراض. ﴿وما اتناهم﴾ وما نقصناهم يعني: وفرنا عليهم جميع ما نكرنا من الثواب والتفضل، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل: معناه وما نقصناهم من ثوابهم شيئاً نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، إنما الحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرى: التناهم، وهو من بابين من آلت يالت، ومن آلات يليت، كأمات بميت وألتناهم من آلت يؤلمن، ولتناهم من لات يليت، ولتناهم من ولت يلت، ومعناهم واحد. ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرهون. كان نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها.

وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَكَرِهِمْ وَلَعْنٍ مِّنَّا يَشْتَرُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿وأمدناهم﴾ وزناهم في وقت بعد وقت.

يَبْتَزُونَ فِيهَا كَالَّذِينَ لَا تَأْتِيهِمُ ﴿٢٣﴾.

﴿يتنازعون﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من اقربائهم وإخوانهم ﴿كاشاً﴾ خمرًا ﴿لا لغو فيها﴾ في

(2) رواه الحاكم في المستدرک 2/468.

(1) قوله تعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم انتم لا تبصرون﴾ (قال فيه: يريد هذا المصداق أيضاً سحر، وبخلت الفاء لهذا المعنى: أم انتم لا تبصرون كما كنتم لا تبصرون).

وريب المنون ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال: أمن المنون وريبه تتوجع. وقيل: المنون الموت. وهو في الأصل فعول من منه إذا قطعه لأن الموت قطع ولذلك سميت شعوب. قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة.

قُلْ رَتَّبْنَا لِلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢١﴾

﴿من المتربصين﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ آتِلَهُمْ هَيْدًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَزَّلَهُم بَلًا يُؤْمِرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أحلامهم﴾ عقولهم والبابهم، ومنه قولهم أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول وهو قولهم: كاهن وشاعر. مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي. ﴿أم هم قوم طاغون﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم.

فإن قُلْتُ: ما معنى كون الأحلام أمرة؟ قُلْتُ: هو مجاز لادائها إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿أصلواتك تامر أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾⁽¹⁾ وقرئ: بل هم قوم طاغون. ﴿تقوله﴾ اختلفه من تلقاء نفسه.

﴿بل لا يؤمنون﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمنقول لعجز العرب عنه وما محمد إلا واحد من العرب.

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾

وقرئ: بحديث مثله على الإضافة والضمير لرسول الله ﷺ ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادر عليه، فليأتوا بحديث نك المثل.

أَمْ خَلِقُوا مِنْ عَيْرِ رَبِّهِمْ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أم خلقوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم. ﴿من غير شيء﴾ من غير مقدر. ﴿أم هم﴾ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق.

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾

﴿بل لا يوقنون﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض. قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب، وقيل: أخلقوا من غير أب وأم.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُحْسِنُونَ ﴿٢٧﴾

﴿أم عندهم خزائن﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوة من

شربها ﴿ولا تأنيم﴾ أي: لا يتكلمون في أثناء الشرب يسقط الحديث وما لا طائل تحته، كفعل المتنامين في الدنيا على الشراب في سفههم وعربنتهم ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكلف من الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء. وقرئ: لا لغو فيها ولا تأثيم.

﴿وَطَرُقُوا عَلَيْهِمْ عِلْمًا لَهُمْ كَانَتْهُمْ نُزُومًا مَكْرُومًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿غلمان لهم﴾ أي: مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مكنون﴾ في الصدف لأنه رطباً أحسن وأصفى أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»⁽¹⁾ وعنه عليه السلام: «إن أننى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف بياحه لبيك لبيك»⁽²⁾.

وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٢٩﴾

﴿يتساءلون﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استوجب به نيل ما عند الله.

تَاللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي آيَاتِنَا مُتَشَفِّينَ ﴿٣٠﴾

﴿مشفقين﴾ أرقاء القلوب من خشية الله.

فَرَحَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَدَعْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٣١﴾

وقرئ: ووقايا بالتشديد ﴿عذاب السموم﴾ عذاب النار ووجهها ولقحها، والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة.

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿من قبل﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه يعنون في الدنيا ﴿ندعوهُ﴾ نعيده ونسأله الوقاية. ﴿إنه هو للبر﴾ المحسن. ﴿لرحيم﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد آتاب، وإذا سئل أجاب. وقرئ: إنه بالفتح بمعنى لأنه.

فَذَكَّرْنَا مَا أَنْتَ بِرَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣٣﴾

﴿فذكر﴾ فأنشبت على تنكير الناس وموعظتهم ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض. لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصديق النبوة ورجاحة العقل أحد هذين.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُرْتَابِ ﴿٣٤﴾

وقرئ: تتربص به ريب المنون على البناء للمفعول

(3) سورة هود، الآية: 87.

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/373.

(2) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/373.

سنين، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد الله دون ذلك قريباً.

وَأَصْبِرْ لِمَا كَرِهَ رَبُّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾

﴿لحکم ربك﴾ بأمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فإنك بأعيننا﴾ مثل أي: بحيث نراك ونكلوك وجمع العين لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾⁽¹⁾ وقرئ: بأعينا بالإدغام ﴿حين تقوم﴾ من أي مكان قمت. وقيل: من منامك.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿١٩﴾

﴿وإدبار النجوم﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ: وإدبار بالفتح بمعنى: في أعقاب النجوم وأثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ومن الليل صلاة العشاءين، وإدبار النجوم صلاة الفجر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم مكية

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾

النجم الثريا، وهو اسم غالب لها. قال:

إذا طلعت النجم عشاء ابتنفى الراعي كساء

أو جنس النجوم. قال: فباتت تعد النجم في مستحيرة. يريد النجوم. ﴿إذا هوى﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به إذا هوى إذا انقض، أو النجم من نجوم القرآن. وقد نزل منجماً في عشرين سنة إذا هوى إذا نزل، أو النبات إذا هوى إذا سقط على الأرض. وعن عروة بن الزبير: «أن عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتين محمداً فلاؤنيته. فأتاه. فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي نرى، فتدلى ثم تقل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنته وطلقها. فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها. وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة. فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبغة فقال أبو لهب لأصحابه: اغيوثنا يا معشر قريش هذه الليلة

شاؤا، أو أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة. ﴿إم هم المسيطرون﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم. وقرئ: المسيطرون بالصاد.

أَمْ لَمْ سَأَلْهُمْ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ لَقَائِكَ سَتِيعُمُ سِطْطَنَ ثِيْنِ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَمْ أَلْبَسْتُ وَلَكُمْ الْبُتُونَ ﴿٢٩﴾

﴿إم لهم سلم﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة بونه كما يزعمون ﴿يسلطان مبین﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُوا مَقْتَلُونَ ﴿٣٠﴾

المغرم أن يلترم الإنسان ما ليس عليه أي: لزمهم مغرم ثقيل فندحهم فزهدهم ذلك في اتباعك.

أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾

﴿إم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فهم يكتبون﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعبث. أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَمْ يَلِدْ إِلهٌ عِزُّ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إم يريدون كيداً﴾ وهو كيدهم في دار النبوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فالذين كفروا﴾ إشارة إليهم، أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هم المكيدون﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرمهم، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايته فكنته. وَإِن رَوْا كَسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَمَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٣٤﴾

الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض، يطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَؤُا مِنْهُمْ آيَاتِي يَوْمَ يَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ لَا يُخَيَّرُهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ ﴿٣٦﴾

وقرئ: ﴿حتى يلقوا﴾ ويلقوا ﴿يصعقون﴾ يموتون، وقرئ: ﴿يصعقون﴾. يقال: صعقه فصعق، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق.

وَإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وإن للذين ظلموا﴾ وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عذاباً دون ذلك﴾ دون يوم القيامة وهو القتل ببدر، والقحط سبع

(1) سورة طه، الآية: 39.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير والزليعي /3

فإنني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم
وأتاخوها حولهم وأحرقوا بعثية، فجاء الأسد يتشمم
وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله⁽¹⁾. وقال حسان:
من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع
مَا سَلَ صَاحِبُكَ وَمَا عَوَى⁽²⁾.

﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعني: محمداً ﷺ، والخطاب
لقريش وهو جواب القسم والضلال نقيض الهدى. والغى
نقيض الرشد. أي: هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من
نسبتكم إياه إلى الضلال والغى.
وَمَا يَطُوقُ عَنَ الْهَوَى⁽³⁾.

﴿ثم دننا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿فتلقى﴾ فتعلق عليه
في الهواء، ومنه تدلت الثمرة، وبنى رجله من السرير،
والدوالي الثمر المعلق. قال:
تلقى عليها بين سب وخيطة
ويقال: هو مثل القرلي إن رأى خيراً تلى، وإن لم يره
تولى.
كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى⁽⁴⁾.

﴿قاب قوسين﴾ مقدار قوسين عربيتين، والقاب والقيب
والقاد والقيد والقيس المقدار. وقرأ زيد بن علي: قاد.
وقرى: قيد وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والوسط
والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع ومنه:
«لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين». وفي
الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة، وموضع قده خير
من الدنيا وما فيها»⁽⁴⁾. والقَدُّ: السوط. ويقال: بينهما خطوات
يسيرة. وقال: وقد جعلتني من خزيمة أصبغاً.

فإن قلت: كيف تقدير قوله: ﴿فكان قاب قوسين﴾
قلت: تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين⁽⁵⁾،
فحذفت هذه المضافات. كما قال أبو علي في قوله: وقد
جعلتني من خزيمة أصبغاً. أي: ذا مقدار مسافة أصبغ ﴿أو
أدنى﴾ أي: على تقديركم. كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾⁽⁶⁾.
فَأَرَىٰ لِيَ بَعْدَهُ مَا مَأْوَىٰ⁽⁷⁾.

﴿إلى عبده﴾ إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه عز وجل
نكر لأنه لا يلبس. كقوله: على ظهرها ﴿ما أوحى﴾ تفخيم
للولحي الذي أوحى إليه⁽⁷⁾، قيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة
على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.
مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ⁽⁸⁾.

﴿ما كذب﴾ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة
جبريل عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك
ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه. يعني: أنه رآه بعينه
وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق. وقرى: ما كذب.

﴿وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه
ورأيه.﴾
إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ⁽⁹⁾.

وإنما هو وحى من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه
الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ويجاب بأن الله تعالى إذا
سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً
لا نطقاً عن الهوى.
عَلَّمَهُ سُبُطُ الْكُتُبِ ۚ ذُرِّمَتْ نَوَاسِئِرُهُ ۖ رُوِيَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ⁽¹⁰⁾.

﴿شديد القوى﴾ ملك شديد قواه، والإضافة غير
حقيقية لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها وهو
جبريل عليه السلام. ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من
الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، ثم
قلبها، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين. وكان هبوطه
على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف، ورأى
إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض
المقنسة فنحاه بجناحه نفحة فالتقاها في أقصى جبل بالهند.
﴿نو مرة﴾ نو حصافة في عقله ورأيه ومثانة في دينه
﴿فاستوى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية لون
الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وكان ينزل
في صورة نحية. وذلك «أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه
في صورته التي جبل عليها. فاستوى له في الأفق الأعلى
وهو أفق الشمس فملا الأفق»⁽²⁾. وقيل: «ما رآه أحد من

رواه البيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي في
تفسيره والطبراني في معجمه والحاكم في المستدرک تفسير تبت
وأخرجه الزيلعي 378/3.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم «أمين»
(الحديث رقم: 3234)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب:
معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم:
177 - 287)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة
«النجم» (الحديث رقم: 3278).

(3) لم يخرج الزيلعي.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحور العين وصفتهن
(الحديث رقم: 2796).

(5) قال أحمد: وقد قال بعضهم: إنه كناية عن المعاهدة على لزوم
الطاعة؛ لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء
والصفاء الصفا وترى قوسيهما.

(6) سورة الصافات، الآية: 147.

(7) قال أحمد: التفخيم لما فيه من الإبهام، كأنه أعظم من أن يحيط به
بيان، وهو كقوله: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وقوله:
﴿فغشيه من اليم ما غشيه﴾.

أي: صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.

أَمْتَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (٧).

إِذْ يَشَى الْبُرْدَةَ مَا يَشَى (٨).

﴿ما يغشى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنفها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله ﷺ: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله»^(١). عنه عليه السلام: «يغشاها رفراف من طير أخضر»^(٢). وعن ابن مسعود وغيره: «يغشاها فرانس من ذهب»^(٣).

مَا رَأَى الْبَصِيرَ وَمَا طَوَى (٩).

﴿ما زاغ﴾ بصر رسول الله ﷺ ﴿وما طغى﴾ أي: أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزها، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٠).

﴿لقد رأى﴾ والله لقد رأى ﴿من آيات ربه﴾ الآيات التي^(٤) هي كبرها وعظماها يعني: حين رقى به إلى السماء فأرى عجائب الملوك.

أَرَأَيْتَ اللَّذَى وَالَّذِي (١١) وَمَنْزَةَ الْآخِرَى (١٢) أَلَمْ تَكُنْ أَذْكَرَ وَلَهُ الْأُنْفَى (١٣).

﴿اللات والعزى * ومناة﴾ أصنام كانت لهم وهي مؤنثات: فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل: كانت بنخلة تعبدما قريش وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا^(٥) يلون عليها ويعكفون للعبادة أو يلتون عليها أي: يطوفون وقري: اللات بالتشديد وزعموا أنه سمي برجل كان يسلك عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت السويق بالطائف وكانوا يعكفون على قبره فجلعوه وثناً، والعزى كانت لغطفان وهي سمرة، وأصلها تانيت الأعرز وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرة داعية ويلها واضعة

﴿اقتمارونه﴾ من المرء وهو الملاحاة والمجالبة، واشتقاقه من مري الناقة. كأن كل واحد من المتجانلين يمرى ما عند صاحبه. وقري: «اقتمرونه اقتفلوناه في المرء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلي كما تقول غلبته على كذا. وقيل: اقتمرونه اقتجحونه وانشدوا: لئن هجرت لأخضق ومكرمة لقد مريت لأما ما كان يمرىكا وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحنته وتعيبته بعلي لا تصح إلا على مذهب التضمين.

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٤).

﴿نزلة أخرى﴾ مرة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأن الفعل اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج.

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٥).

قيل: في سدرة المنتهى هي شجر نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر، وورقها كأذن الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التي نكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والمنتهى بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وأخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

عِنْدَمَا جَاءَهُ النَّارُ (١٦).

﴿جنة الماوى﴾ الجنة التي يصير إليها المتقون عن الحسن، وقيل: تأوى إليها أرواح الشهداء. وقرأ علي وابن الزبير وجماعة: جنة الماوى أي ستره بظلاله وبخل فيه. وعن عائشة أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فاجنه الله.

(1) رواه الطبري في تفسيره والزليعي 381/3.

(2) قال الزليعي: غريب 381/3.

(3) رواه إسحاق بن راهوي في مسنده والزليعي 381/3.

(4) قال أحمد: ويحتمل أن تكون للكبرى صفة آيات ربه لا مفعولاً به، ويكون المرثى محقوقاً لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى أموراً عظماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا بليغ وأهول، وهذا والله أعلم أولى من الأول؛ لأن فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم وفيه بعد، فإن آيات الله تعالى ما لا يحيط لأحد علماً بحملتها، فإن قال: عام أريد به خاص فقد رجع إلى الوجه الذي نكرنا والله أعلم.

(5) قال أحمد: الأخرى تانيت آخر، ولا شك أنه في الأصل مشتق من

= التأخير الوجودي، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال، حيث يتقدم نكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي بخلاف آخر، وآخرة على وزن فاعل وفاعلة، فإن إشارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر على وزن الأفعال، وجمادى الأخرى إلى ربيع الآخر على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي؛ لأن الأفعال والفعلية من هذا الاشتقاق مسلوب للدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيها وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر منته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر مع ما نعتقه في الوفاء بفصله راس الآية، والله أعلم.

الهمزة فيها الإنكار أي: ليس للإنسان ما تمنى. والمراد طمعهم في شفاعه الآلهة وهو تمن على الله في غاية البعد. وقيل: هو قولهم: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى، وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالا ولذا، وقيل: هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﷺ.

﴿اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (٤٥)

﴿فله الآخرة والأولى﴾ أي: هو مالهما فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَى﴾ (٤٦)

يعني أن أمر الشفاعة ضيق، وذلك أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجمعهم، لو شفعوا بجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له. فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسُؤُنَ الْمُلَئِكَةُ سَمِيَةَ الْأَنْثَى﴾ (٤٧)

﴿ليسمون للملائكة﴾ أي: كل واحد منهم ﴿تسمية الأنثى﴾ لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سماوا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى.

﴿وَمَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٤٨)

﴿به من علم﴾ أي: بذلك وبما يقولون، وفي قراءة أبي بها أي: بالملائكة أو التسمية ﴿لا يغني من الحق شيئاً﴾ يعني: إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَكَرِهَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٤٩)

﴿فأعرض﴾ عن دعوة من رأيتهم معرضاً عن نكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ولا تهالك على إسلامه. ثم قال:

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَتَقَرُّ بِمَنْ أَحْتَدَى﴾ (٥٠)

﴿إن ربك هو أعلم﴾ أي: إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتعها فإنك لا تهدي من أحببت وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ (٤٩) اعتراض أي: فأعرض عنه ولا تقابله، إن ربك هو أعلم بالضال والمهتدي.

يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يا عزكفرانك لا سبحانك إي رأيت الله قد أهانك ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «تلك العزى ولن تعبد أبداً» (١). ومناة صخرة كانت لهذيل وخداعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما لثقيف: وقرى ومناة وكانها سميت مناة لأن لماء النسائك كانت تمنى عندها أي: تراق. ومناة مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. و ﴿الأخرى﴾ نَم وهي المتأخرة الرضيعة المقدار كقوله تعالى: ﴿وقالت أخراهم لأولاهم﴾ (٢) أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم ويجوز أن تكون الأولى والتقدم عندهم لللات والعزى، كانوا يقولون: إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاءؤهم عند الله تعالى مع وأدم البنات. فقيل لهم: ﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومناة إناث وقد جعلتموهن لله شركاء ومن شأنكم أن تحترقوا الإناث، وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادا لله وتسمونهن آلهة.

﴿تِلْكَ إِذًا فِسْمٌ ضِيزَى﴾ (٥١)

﴿قسمة ضيزى﴾ جائرة من ضازه يضيظه إذا ضامه. والأصل ضوزى ففعل بها ما فعل ببيض لتسلم الياء وقرى: ضزى هن ضازه بالهمزة وضيز بفتح الضاد.

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَمَا تَذَكَّرْنَ مَا أُنزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (٥٢)

﴿هي﴾ ضمير الأصنام. أي: ما هي ﴿إلا أسماء﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿ما تعبدون من لونه إلا أسماء سميتوهما﴾ (٣) أو ضمير الأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتوهما بهواكم وشهوتكم ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به، ومعنى ﴿سميتوهما﴾ سميت بها يقال: سميت زيداً وسميته يزيد ﴿إن يتبعون﴾ وقرى: بالثناء ﴿إلا الظن﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق، وإن آلهتهم شفعاءؤهم وما تشبهه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أن بينهم باطل.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَى﴾ (٥٣)

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ هي أم المنقطعة ومعنى

(1) رواه الواقدي في المغازي وابن سعد في الطبقات والزليفي /3

(2) سورة الاعراف، الآية: 39.

(3) سورة يوسف، الآية: 40.

(4) سورة النجم، الآية: 30.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا وَعَمِلُوا
وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَاتِ ﴿٣٦﴾

طاعة ونكرها شكر.

وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ﴿٣٧﴾

﴿أكدى﴾ قطع عطيته وأمسك. وأصله إكداء الحافر وهو ان تلقاه كدية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه أجبل الحافر ثم استعير. فقيل: أجبل الشاعر إذا أحم. روي أن عثمان رضي الله عنه كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي نوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه. فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمل عنك نوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت. ومعنى تولى: ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من نك واجمل.

أَعَدُّهُ عِزًّا أَلَيْبٍ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٨﴾ أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى
﴿٣٧﴾

﴿فهو يرى﴾ فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق.

وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٩﴾

﴿وفى﴾ قرئ: مخففاً ومشدداً، والتشديد مبالغة في الوفاء، أو بمعنى: قرأ تم، كقوله تعالى: ﴿فَاتْمِمْ﴾^(٢) وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية. من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعيان النبوة والصبر على نزع ولده، وعلى نار نمرود وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخاً يرتاد ضيفاً وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهذيل ابن شرحبيل: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريدة غيره ويقتل بابيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامراته والعبد بسيدته فأول من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب عهد أن لا يسأل مخلوقاً فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليكما فلا. وعن النبي ﷺ: «وفى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الضحى»^(٣). وروي: «ألا أخبركم لم سمي الله خليله الذي وفى. كان يقول إذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون إلى حين تظهرون»^(٤). وقيل: وفى سهام الإسلام وهي ثلاثون: عشرة في التوبة التائبون، وعشرة في الأحزاب إن المسلمين، وعشرة في المؤمنين قد أفلح المؤمنون. وقرئ في صُحُفٍ بالتخفيف.

أَلَا تَرَىٰ ذُرِّيَّتَهُ لِرَبِّهِ رَبًّا أَعْتَدَ ﴿٤٠﴾

وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء. قرئ: ليجزي ويجزي بالياء والنون فيهما. ومعناه: إن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض، وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. ويجوز أن يتعلق بقوله: هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما ﴿بما عملوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء و﴿بالحسنى﴾ بالمتوبة الحسنى وهي الجنة، أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى.

الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِهَاءِ وَالْقَوْمِ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ أَعْتَبَهُ
هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِذْ أَنْشَأَ رِيشَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأَ آجِنَةَ فِي بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ
فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمِمَّا أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤١﴾

﴿كباثر الإثم﴾ أي: الكباثر من الإثم، لأن الإثم جنس يشتمل على كباثر وصفائز، والكباثر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة، وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها. ﴿والفواحش﴾ ما فحش من الكباثر. كانه قال: والفواحش منها خاصة. وقرئ: كبير الإثم أي: النوع الكبير منه. وقيل: هو الشرك بالله. واللمم ما قل وصغر، ومنه اللمم المس من الجنون، واللثة منه. والم بالمكان إذا قل فيه لبته، والم بالطعام قل منه أكله، ومنه لقاء أخلاء الصفاء لمام. والمراد الصغائر من الذنوب ولا يخلو قوله تعالى: ﴿إلا للمم﴾ من أن يكون استثناءً منقطعاً أو صفة كقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾^(١) كانه قيل: كباثر الإثم غير اللمم، وآلهة غير الله. وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة. وعن السدي: الخطرة من الذنوب. وعن الكلبي: كل ذنب لم ينكر الله عليه حداً ولا عذاباً، وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين. ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكباثر والكباثر بالتوبة. ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ فلا تنسبوا إلى زكاه العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات، أو إلى الزكاه والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها. فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وأخراً قبل أن يخرجكم من صلب أمم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله ويتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة

(4) أخرجه احمد في المسند 439/3.

(1) سورة الانبياء، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 124.

(3) رواه الطبري والثعلبي وابن مردويه وابن أبي حاتم والثعلبي في تفاسير عم. والزليعي 384/3.

وَأَنَّهُ هُوَ أَتَقَى وَأَقْبَى ﴿٤٨﴾

﴿أقنى﴾ وأعطى القينة وهي المال الذي تائلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك.

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْغَمْرِىٰ ﴿٤٩﴾

﴿الشعري﴾ مرزم الجوزاء وهي التي تطلع وراءها وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان: الغميصاء والعبور وأراد العبور وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم. «وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ أبو كبشة تشبيهاً له به لمخالفته إياهم في دينهم يريد أنه رب معبودهم هذه»⁽⁵⁾.

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَىٰ ﴿٥٠﴾ وَنَوْمًا مَا أَبَقَ ﴿٥١﴾

عاد الأولى قوم هود، وعاد الأخرى إرم. وقيل: الأولى والقدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح أو المتقدمون في الدنيا الأشراف وقرى عاد الأولى وعاد لولى بإدغام التثنية في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضميتها إلى لام التعريف. ﴿ونوموداً﴾.

وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِن قَبْلُ لِيَهُمْ كَاؤًا ثُمَّ أَظْلَمَ وَاَلْمَأْمَأُ ﴿٥٢﴾

وقرى: وثمود ﴿اظلم واطغى﴾ لأنهم كانوا يؤنونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

وَالْمُرْسِيكَةَ آمَوَىٰ ﴿٥٣﴾

﴿والمؤتفكة﴾ والقرى التي ائتفتكت بأهلها. أي: انقلبت وهم قوم لوط، يقال: أفتك فائتفتك. وقرى: والمؤتفكات ﴿أهوى﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها.

فَسَنَنَهَا مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾

﴿ما غشى﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

يَأْتِي الْآلَةَ رَبِّكَ نَسَآئِكَ ﴿٥٥﴾

﴿فبأي آلاء ربك تتمازى﴾ تتشكك. والخطاب

﴿ألا تترز﴾ أن مخففة من الثقيلة والمعنى أنه لا تترز، والضمير ضمير الشأن ومحل أن وما بعدها الجر بدلاً من ما في صحف موسى، أو الرفع على هو أن لا تترز، كان قائلًا قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: أن لا تترز.

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٥٦﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٥٧﴾

﴿إلا ما سعى﴾ إلا سعيه.

فإن قُلْتُ: أما صح في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه وله الأضعاف؟ قلت: فيه جوابان: أحدهما أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمناً صالحاً، وكذلك الأضعاف كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. والثاني أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه.

ثُمَّ يُمِيزُهُ الْبِرَّاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿٥٨﴾

﴿ثم يجزاه﴾ ثم يجزى العبد سعيه. يقال: جزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسره بقوله: ﴿الجزاء الأوفى﴾ أو أبدله عنه. كقوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾⁽¹⁾.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٥٩﴾

﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾ قرى: بالفتح على معنى أن هذا كله في الصحف، وبالکسر على الابتداء وكذلك ما بعده. والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله تعالى: ﴿إلى الله المصير﴾⁽²⁾.

وَأَنَّهُ هُوَ أَسْهَكَ وَبَكَىٰ ﴿٦٠﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَكَلِمًا ﴿٦١﴾ وَأَنَّهُ عَلَقَ الرَّوْجِيْنَ الذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٦٢﴾

﴿اضحك وابكى﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء⁽³⁾.

يَن تَفْعَلُ إِذَا تَشَىٰ ﴿٦٣﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ الْإِنشَاءَ الْآخِرَىٰ ﴿٦٤﴾

﴿إذا تمنى﴾ إذا تدفق في الرحم. يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من منى الماني. أي: قدر المقدر. قرى: الإنشاء والنشأة بالمد، وقال: عليه لأنها واجبة عليه⁽⁴⁾ في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة.

= محتملة، هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى، وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي، وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي: هو الأصل فيه والسند، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (الحديث رقم: 7)، وقد تقدم.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.
(2) سورة آل عمران، الآية: 28.
(3) قال أحمد: وخلق أيضاً فعلى الضحك والبكاء على قواعد السنة، وعليه نلت الآية غير مثابرة لتحريفه، والله الموفق.
(4) قال أحمد: هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة للصلاح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد الإيجاب على رب الأرباب تعالى الله عن ذلك، ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفي فيها كلمة =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر مكية

اَفْتَرَّتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾

انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته. السيرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الكفار سألو رسول الله ﷺ آية فانشق القمر مرتين^(١). وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن عباس: انطلق فلقتين فلقة ذهب، وفلقة بقيت^(٢). وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر^(٣). وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة. وقوله:

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُرْسُوا بَرًّا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِجِرٌ ﴿٢﴾

«وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» يرده وكفى به رأء، وفي قراءة حذيفة: وقد انشق القمر أي: اقتربت الساعة. وقد حصل من آيات اقتربها أن القمر قد انشق كما تقول: أقبيل الأمير وقد جاء الميشر بقدمه. وعن حذيفة أنه خطب بالمداين ثم قال: ألا إن الساعة قد افتترقت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم^(٤). مستمر دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله. قيل فيه قد استمر لما رأوا تتابع المعجزات وترافق الآيات. قالوا: هذا سحر مستمر وقيل: مستمر قوي محكم من قولهم استمر مريده. وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أي: مستبشع عندنا مر على لهواتنا لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر. وقيل: مستمر مار ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لأنفسهم وتعليلاً. وقرئ: وإن يروا.

رَكَدُوا وَأَنبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَعِجِرٌ ﴿٣﴾

«والتبعوا أهواءهم» وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره. «وكل أمر مستعجر» أي: كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها. وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل، وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر. أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ: بفتح القاف يعني: كل أمر نو

لرسول الله ﷺ أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعماً ونقماً وسماها كلها آلاء من قبل ما في نعمة من المزاجر والمواعظ للمعتبرين.

هَذَا يُذَكِّرُ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾

«هذا» القرآن «نذير من النذر الأولى» أي: إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم، أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأوّلين. وقال: الأولى على تأويل الجماعة.

أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾

«أرقت الأرفة» قربت الموصوفة بالقرب. في قوله تعالى: «اقتربت الساعة»^(١) «ليس لها» نفس.

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

«كاشفة» أي: مبيئة متى تقوم كقوله تعالى: «لا يجليها لوقتها إلا هو»^(٢) وليس لها نفس كاشفة أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، غير أنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير. وقيل: الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها مما يدعون من لون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية.

أَفَرَأَى هَذَا الَّذِي كَذَّبُوا وَرَأَى أَنَّهُ يُنزَلُ ﴿٥٩﴾

«أفمن هذا الحديث» وهو القرآن «تعجبون» إنكاراً.

وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾

«وتضحكون» استهزاء «ولا تبكون» والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله ﷺ أنه لم ير ضاحكاً بعد نزولها^(٣). وقرئ: تعجبون تضحكون بغير واو.

وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾

«وأنتم سامدون» شامخون مبرطمون. وقيل: لاهون لابعون وقال بعضهم لجاريته: أسمى لنا أي: غني لنا.

فَأَسْبَدُوا لِلَّهِ وَعَبَدُوا ﴿٦٢﴾

«فأسجدوا لله وعبدوا» ولا تعبدوا الآلهة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النجم: أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجدد به بمكة»^(٤).

= اقتربت الساعة (الحديث رقم: 4868)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 43 - 2800).

(7) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب «وانشق القمر» (الحديث رقم: 4864)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 45 - 2801) والحاكم في المستدرک 2/471.

(8) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/609.

(1) سورة القمر، الآية: 1.

(2) سورة الاعراف، الآية: 187.

(3) الثعلبي وابن مردويه في التفسير زيلي 3/385.

(4) الثعلبي ابن مردويه الواقدي في تفسيرهم زيلي 3/386.

(5) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة انشققت اقتربت الساعة باب: «وانشق القمر» (الحديث رقم: 4867)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (الحديث رقم: 46 - 2802).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب: سورة =

الليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ: يخرجون من الاجداث من القبور ﴿كانهم جراد منتشر﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرة.

مُهَيَّبِينَ إِلَى الدَّاعِ بِقَوْلِ الْكٰفِرِيْنَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِيْرٌ ﴿٨﴾

﴿مهطعين إلى الداعي﴾ مسرعين مادي اعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم قال:

تعبني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

كذبت قلوبهم قوم نوح كذبوا عبداً وقالوا مجنوناً وأزديراً ﴿٩﴾

﴿قبلهم﴾ قبل أهل مكة ﴿فكنبوا عبداً﴾ يعني: نوحاً.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿فكنبوا﴾ بعد قوله: كذبت؟ قلت: معناه كذبوا عبداً أي: كذبوه تكتيباً على عقب تكتيب. كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نوح⁽²⁾ الرسل فكنبوا عبداً. أي: لما كانوا مكذبين بالرسول جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل. ﴿مجنون﴾ هو مجنون ﴿وأزجير﴾ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد. وبالرجم في قولهم: لتكونن من المرجومين. وقيل: هو من جملة قبلهم. أي: قالوا: هو مجنون وقد أزجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَرْغُوبٌ فَاذْبَحْ بِمَنِيِّيْ ﴿١٠﴾

قرئ: ﴿أني﴾ بمعنى: فدعا باني مغلوب وإني على إرادة القول. فدعا فقال: إني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحکم اليأس من إجابتهم لي. ﴿فانتصر﴾ فانتقم منهم بعداذ تبعته عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الزبا. فقد روي أن الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه، فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فَتَنَحَّأَ الْوَيْلَ السَّمَاءِ بِمَا مَتَّعِيْ ﴿١١﴾

وقرئ: ﴿فتحنأ﴾ مخفياً ومشدداً. وكذلك فجرنا.

﴿منهم﴾ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً.

رَفَجْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَنَّا فَرَّ دُورٌ ﴿١٢﴾ رَحَلَتْهُ عَلَّ

ذَاتِ الْأَرْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾

﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها

مستقر أي: نو استقرار أو نو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبي جعفر: مستقر بكسر القاف والجر عطفاً على الساعة. أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿١٤﴾

﴿من الأنبياء﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية وأنبياء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مزجر﴾ ازديجار أو موضع ازديجار والمعنى هو في نفسه موضع الازديجار ومظنة له. كقوله تعالى: ﴿لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾⁽¹⁾ أي: هو أسوة. وقرئ: مزجر بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها.

حِكْمَةٌ بَلِيْغَةٌ فَمَا تُصِرُّ الْأَنْدَرُ ﴿١٥﴾

﴿حكمة بالغة﴾ بدل من ما أو على هو حكمة، وقرئ: بالنصب حالاً من ما.

فإن قلت: إن كانت موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالاً، فكيف تعمل إن كانت موصوفة وهو الظاهر؟ قلت: تخصصها الصفة فيحسن نصب الحال عنها ﴿فما تغني للندر﴾ نفي أو إنكار وما منصوبة أي: فاي غناء تغني النذر.

فَوَلَّ عَنَّهُمْ يَوْمَ يَرْتَعُ الدَّاعِ إِلَىٰ مَنِّهِ تَكْوِيْرٌ ﴿١٦﴾

﴿فتول عنهم﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم. نصب ﴿يوم يدع الداع﴾ يخرجون أو بإضمار انكر وقرئ: بإسقاط الياء اكتفاء بالكسر عنها، والداعي إسرافيل أو جبريل. كقوله تعالى: ﴿يوم يناد المناد﴾ إلى شيء نكر منكر فظيغ تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: نكر بالتحفيف ونكر بمعنى انكر.

خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْشَعُونَ مِنَ الْأَعْيَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ ﴿١٧﴾

﴿خشعاً أبصارهم﴾ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر. كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرئ: خاشعة على تخشع أبصارهم وخشعاً على يخشعون أبصارهم وهي لغة من يقول: اكلوني البراغيث وهم طيء، ويجوز أن يكون في خشعاً ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه، وقرئ: خشع أبصارهم على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله:

وجدته حاضراه الجود والكرم

وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال لأن نلة

(1) سورة الاحزاب، الآية: 21.

(2) قال احمد: قد تقدم كلامه على قوله تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي﴾ واجاب عنه بجوابين، أحدهما: متعذر ههنا، والآخر: ممكن، وهو أن تلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مضى لي جوابان: أحدهما: يمكن إجراؤه ههنا، وحاصله منع ورود السؤال؛ لأن الأول مطلق والثاني مقيد، فليس تكراراً وهو =

= كقوله في هذه السورة ﴿فتعاطى فعقر﴾ فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن نكره من جهة عمومته ثم من ناحية خصوصه إسهاباً، وهو بمثابة نكره مرتين، وجواب آخر ههنا، وهو أن المكذب أولاً محذوف دل عليه نكر نوح، فكانه قال: كذبت قوم نوحاً، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله: عبداً، فوصف نوحاً بخصوص للعوبية، وأضافه إليه إضافة تشريف، فالتكذيب المخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المنكور أولاً لتلك اللعنة، والله أعلم.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِدَكْرِ الْوَيْدِ فَهَلَّ مِنْ مَدْرِكِهِ ﴿١٧﴾

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي: سهلناه للإبكار والاعتاط بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد. ﴿فهل من﴾ متعظ؟ وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر من يسر ناقته للسفر إذا رحلها ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه والجمه، قال:

وقمت إليه باللجام ميسراً هنالك يجزيني الذي كنت أصنع
ويروى أن كتب أهل الأسيان نحو التوراة والإنجيل
لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن.

كَلَبَتْ عَادٌ نَكَفَتْ كَانُ عَدَائِي وَنُدِّرِ ﴿١٨﴾

﴿ونُدِّر﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله أو إنذار أتى في تعنيهم لمن بعدهم.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾

﴿في يوم نحس﴾ في يوم شؤم وقرئ: في يوم نجس. كقوله: في أيام نحسات ﴿مستمر﴾ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة. وكان في أربعماء في آخر الشهر لا تدور، ويجوز أن يريد بالمستمر الشديد المرارة والبشاعة.

نَزَعَ النَّاسُ أَكْثَرَهُمْ أَجْجَارًا تَحْلِي تَنْفَعِرِ ﴿٢٠﴾ نَكَفَتْ كَانُ عَدَائِي وَنُدِّرِ ﴿٢١﴾
وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِدَكْرِ الْوَيْدِ فَهَلَّ مِنْ مَدْرِكِهِ ﴿٢٢﴾

﴿تنزع الناس﴾ تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض ويتدخلون في الشعب ويحفرون الحفر فينسون فيها فتتنزعهم وتكبهم وتلق رقابهم ﴿كانهم أعجاز نخل منقعر﴾ يعني: إنهم كانوا يتساقطون على الأرض أموأناً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل، وهي أصولها بلا فروع. منقعر منقطع عن مغارسه. وقيل: شهبوا بأعجاز النخل لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقي أجساداً بلا رؤوس، وذكر صفة نخل على اللفظ ولو حملها على المعنى لانت كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾.

فَقَالُوا إِنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ إِنَّا إِنَّمَا لَكُم مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا لَكُم مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا لَكُم مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا لَكُم مِثْلُكُمْ ﴿٢٣﴾

﴿أبشراً منا واحداً﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ﴿تتبعه﴾ وقرئ: أبشراً منا واحد على الابتداء وتنبهه خبره والأول أوجه للاستفهام. كان يقول إن لم تتبعوني

عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض، وتظيره في النظم واشتعل الرأس شيباً. ﴿فالتقى الماء﴾ يعني: مياه السماء والأرض. وقرئ: المآن أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي ونحوه قولك: عندي تمران. تريد ضربان من التمر برني ومعلني. قال لنا: إبلان فيهما ما علمتم. وقرأ الحسن: الموان بقلب الهمزة وأوا كقولهم: علبوان ﴿على أمر قد قدر﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. وقيل: على حال جاءت مقنرة مستوية، وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿على ذات قواح ووسر﴾ أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتتوب منابها وتؤدي مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ونحوه: ولكن قميصي مسرودة من جيد. أراد ولكن قميصي لرع وكذلك: ولو في عيون النازيات باكرع؛ أراد ولو في عيون الجراد، ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والنسر: جمع نसार وهو المسمار، فعال من نسره إذا نفعه لأنه يسر به منفعه.

تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿٢٤﴾

﴿جزاء﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أي: فعلنا ذلك جزاء ﴿لمن كان كافر﴾ وهو نوح عليه السلام وجعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (1) فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ومن هذا المعنى ما يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حميت الله عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة: كُفْرُ أي: جزاء للكافرين. وقرأ الحسن: جزاء بالكسر أي: مجازاة. الضمير في.

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلَّ مِنْ مَدْرِكِهِ ﴿٢٥﴾

﴿تركناها﴾ للسفينة أو للفعلة أي: جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة: إبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والمسكر المعتبر. وقرئ: منترك على الأصل، ومنكر بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها وهذا نحو منجر.

نَكَفَتْ كَانُ عَدَائِي وَنُدِّرِ ﴿٢٦﴾

والنذر جمع نذير وهو الإنذار.

الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٦﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٥﴾

﴿صيحة واحدة﴾ صيحة جبريل، والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به يبس طول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار أي الحظيرة.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ نَجَّيْنَاهُ بِسَحْرِ ﴿٣٦﴾

﴿حاصباً﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة أي: ترميهم ﴿بسحر﴾ يقطع من الليل وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والأخر عند انصداعه. وأنشد:

مرت بأعلى السحريين تدال

وصرف لأنه نكرة. ويقال: لقيته سحر إذا لقيته في سحر يومه.

رَبِّمَهُ يَنْ عَذَابًا كَذَلِكَ نَجَّيْنَا مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾

﴿نعمة﴾ إنعاماً مفعول له ﴿من شكر﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَلَاءًا فَكَارًا يَأْتِيهِمْ ﴿٣٦﴾

﴿ولقد أنذرهم﴾ لوط عليه السلام ﴿بطشتنا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فتماروا﴾ فكذبوا ﴿بالبذر﴾ متشاكين.

وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ سَيْبِهِ فَطَسَّأَ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ﴿٣٧﴾

﴿فطمسنا أعينهم﴾ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روي أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة: خلهم يدخلوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فذوقوا﴾ فقلت لهم: نوقوا على السنة الملائكة.

وَلَقَدْ سَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ﴿٣٩﴾

وَلَقَدْ بَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ رَعُونَ الذُّرُّ ﴿٤١﴾

﴿بكرة﴾ أول النهار وبكره كقوله: مشرقين ومصبحين. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: بكرة غير منصرفة. تقول أثبتة بكرة وغدوة بالتثوين إذا أردت التنكير وبغيره إذا عرفت وقصلت بكرة نهارك وغدوته. ﴿عذاب مستقر﴾ ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله: ﴿فذوقوا عذابي ونذر لقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر﴾؟ قلت: فائدته أن يجدوا عند استماع كل نبي من أنبياء الأولين إنكاراً واتعاطاً وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات ويقعق لهم الشن تارات لثلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة. وهكذا

كنتم في ضلال عن الحق، وسعر ونيران جمع سعيير فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إنن كما تقول. وقيل: الضلال الخطأ والبعد عن الصواب، والسعر الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كان بها سعراً إذا العيس هزها نميل وإرخاء من السير متعب

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً؟ قلت: قالوا أبشراً؟ إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة. وقالوا: منا. لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا: واحداً. إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً، أو أرادوا واحداً من أقتانهم ليس بأشرفهم وأفضلهم ويدل عليه قولهم:

أَتَيْتُ الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَتِيٌّ ﴿٤٥﴾

﴿القي الذکر عليه من بيننا﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وفيها من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿أشرف﴾ بطر متكبر حمله بطره وشطارته وطلبة التعظم على ادعاء ذلك.

سَيَعْلَمُونَ عَذَابِي الْكَذَّابُ الْأَتِيُّ ﴿٤٦﴾

﴿سيعلمون عذابي﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿ومن الكذاب الأشر﴾ أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم، أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر بضم الشين. كقولهم: حدث وحدث، وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر: وهو الأبلغ في الشرارة والأخير. والأشر أصل قولهم: هو خير منه وشر منه وهو أصل مرفوض. وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره.

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةَ فَسَنَّهُ لَهُمْ نَارِيهِمْ وَأَمْطِرُ ﴿٤٧﴾

﴿مرسلوا الناقاة﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سالوا ﴿فتنته لهم﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. ﴿فارتقبهم﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿واصطبر﴾ على أذامهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

وَرَبِّهِمْ أَنَّ الْمَاءَ سِنَةٌ لِيَوْمِ كُلِّ شَرِيحٍ مُخَضَّرٍ ﴿٤٨﴾

﴿قسمة بينهم﴾ مقسوم بينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وإنما قال: بينهم. تغليباً للعلاء. ﴿مخضَّر﴾ محضور لهم أو للناقاة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللين في نوبتها.

فَأَدْرَا حَاجِبَهُمْ تَمَلَّكَ سَمَرٌ ﴿٤٩﴾ نَكَيْتَ كَانَ عَذَابِي وَذُرِّ ﴿٥٠﴾

﴿صاحبهم﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فتعاطى﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر التعظيم غير مكترث له. فأحدث العقر بالناقاة. وقيل: فتعاطى الناقاة فعقرها، أو فتعاطى السيف.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً نَكَارًا كَهَيِّبِ الْخَظِيرِ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ بَرْنَا

الدرع ويقول: سيهزم الجمع. عرف تأويلها⁽³⁾. ﴿ويولون
النبر﴾ أي: الأبنار. كما قال:

كلا في بعض بطنكم تعفوا

وقرى: الأدبار.

﴿إنهسى﴾ أشد وأفظح، والداهية الأمر المنكر الذي
لا يهتدى لدوائه. ﴿وأمر﴾ من الهزيمة والقتل والأسر.
وقرى: سنهزم الجمع.

إِنَّ الْمُرْمِينَ فِي صَلْبِ وَمُغْرٍ ١٧٧.

﴿في ضلال وسعر﴾ في هلاك ونيران أو في ضلال
عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة.

يَوْمَ يَسْعَوْنَ فِي النَّارِ عَلَى رُءُوسِهِمْ ذُرُوقًا مِّنْ سَعَرٍ ١٧٨.

﴿مس سقر﴾ كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم
الضرب، لأن النار إذا أصابتهم بحرما ولحفتهم بإيلامها
فكانها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما
يؤذي ويؤلم. ونوقوا على إرادة القول. وسقر علم لجهم
من سقرته النار، وصقرته إذا لوحته. قال نو الرمة:

إذا ذابت الشمس اتقي صقراتها بأفنان مربوع الصريمة معبل
وعدم صرفها للتعريف والتأنيث.

إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ ١٧٩.

﴿كل شيء﴾ منصوب بفعل مضمرة يفسره الظاهر⁽⁴⁾
وقرى: كل شيء بالرفع، والقدر: التقدير. وقرى: بهما. أي:
خلقنا كل شيء مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته
الحكمة أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا قبل كونه قد
علمنا حاله وزمانه.

وَمَا أَمْرًا إِلَّا رَجْدَةٌ كَتَجَّ بِالْبَصْرِ ١٨٠.

﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ إلا كلمة واحدة سريعة
التكوين ﴿كلمح بالبصر﴾ أراد قوله: ﴿كن﴾ يعني: أنه إذا
أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ١٨١.

حكم التكرير كقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾⁽¹⁾ عند كل
نعمة عذها في سورة الرحمن. وقوله: ﴿ويل يومئذ
للمكذبين﴾⁽²⁾ عند كل آية أوردتها في سورة. والمرسلات
وكتلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر
حاضرة للقلوب مصورة للأذهان منكرة غير منسية في
كل أوان.

﴿النذر﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء لأنهما
عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون، أو جمع نذير وهو
الإنذار.

كذُوبًا يَا بَنِيَّاءَ كَلِمًا فَاحْذَرْنَاهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ١٨٢.

﴿بأيأتانا كلها﴾ بالآيات التسع. ﴿أخذ عزيز﴾ لا يغالب
﴿مقتدر﴾ لا يعجزه شيء.

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ بَرَاءَةً فِي الرُّبُوبِ ١٨٣.

﴿أكفاركم﴾ يا أهل مكة ﴿خير من أولئكم﴾ الكفار
المعبودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون. أي:
أهم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا، أو أقل كفرًا وعنادًا.
يعني: أن أكفاركم مثل أولئكم بل شر منهم. ﴿أم﴾ أنزلت
عليكم يا أهل مكة ﴿ببراءة﴾ في الكتب المتقدمة أن من
كفر منكم وكذب الرسل كان أمناً من عذاب الله فأمنتم بتلك
البراءة.

أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ خَيْرٌ مِنْ جَبَلٍ مِّنْ سُنْبُلٍ ١٨٤.

﴿نحن جميع﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿منتصر﴾ ممتنع
لا نلام ولا نضام. وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم
بدر فتقدم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد
وأصحابه فنزلت.

سَيَرُّهُمُ الْجَمْعُ وَيَرْوُونَ الدُّبُرَ ١٨٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ
وَأَمْرٌ ١٨٦.

﴿سيهزم الجمع﴾ عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال
عمر: أي جمع يهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في

(1) سورة الرحمن، الآية: 13.

(2) سورة الطور، الآية: 11.

(3) عبد الرزاق في تفسيره والطبراني في معجمه الأوسط وإسحاق بن
راهويه في مسنده زيلعي 3/391.

(4) قال أحمد: كان قياس ما مهده النحاة اختيار رفع كل، لكن لم يقرأ
بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأن الكلام مع الرفع، جملة
واحدة ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر مع أنه لا مقتضى
للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعني الأمر والنهي إلى
آخرها، ولا لجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعنونه من محال
اختيارهم للنصب، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع
إجماعاً لسر لطيف يعين اختيار النصب، وهو أنه لو رفع لوقعت
الجملة التي هي خلقناه صفة لشيء ورفع قوله: بقدر خبراً عن
كل شيء المفيد بالصفة ويحصل الكلام على تقدير: إننا كل شيء
مخلوق لنا بقدر، فأنهم ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله =

= تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إننا خلقنا كل شيء
بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه
الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع، مع ما في
الرفع من نقصان المعنى، ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من
مجيء المعنى تاماً واضحاً، كفلق الصبح لا جرم أجمعوا على
العول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة
أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله،
فيقولون: هذا لله بزعمهم وهذا لنا، فغرت هذه الآية فاه، وقام
إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح الشفاء وينقل قراءتها
بالرفع، فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه
الرواية مع أنها هي الأولى في العربية، لولا ما نكرناه يجوز في
حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى من غير
معنى اقتضى ذلك أم لا، وهو المخير فيما يحكم به، فإلى الله
ترجع الأمور.

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ﴿٤﴾

و﴿الرحمن﴾ مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار متراففة، وإخلائها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾

﴿بحسبان﴾ بحساب معلوم وتقدير سوى ﴿يجريان﴾ في بروجهما ومنازلهما وفي تلك منافع للناس عظيمة منها علم السنين والحساب.

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾

﴿والنجم﴾ والثبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول، ﴿والشجر﴾ الذي له ساق. وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له وأنهما لا يمتنعان تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده.

فإن قُلْتَ: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن؟ قُلْتَ: استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره. كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان له.

فإن قُلْتَ: كيف أخل بالعاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد؟ قُلْتَ: بكت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقرير الذين أنكروا الرحمن وآلاه، كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قَدَّمته. ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبيكت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قُلْتَ: أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟ قُلْتَ: إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبيليين تناسب من حيث التقابل. وأن السماء والأرض لا تزالان تنكران قرينتين وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر. وقيل: علم القرآن جعله علامة وآية. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإنسان آدم

﴿أشياعكم﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم.

رَكَّلَ شَيْءٌ وَعَلَوْهُ فِي الزَّبْرِ ﴿٥٧﴾

﴿في الزبر﴾ في نواوين الحفظة.

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٨﴾

﴿وكل صغير وكبير﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مستطر﴾ مسطور في اللوح.

إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٩﴾

﴿ونهر﴾ وأنهار اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء، ونهر جمع نهر كاسد وأسد.

فِي مَعْمَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُتَّكِرٍ ﴿٦٥﴾

﴿في مقعد صدق﴾ في مكان مرضي. وقرئ: في مقاعد صدق ﴿عند ملك مقتدر﴾ مقربين عند ملك مبهم أمره في الملك والاعتدال فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فاي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كل غيب بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن مكية

عدد الله عز وعلآ آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قلماً من ضروب آلائه^(٢) وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه. لانه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه في أبواب الدين اثرًا، وهو سنام الكتب السماوية ومصدقها والعيار عليها. وأخر نكر خلق الإنسان عن نكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوجبه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله، وكان العرض في إنشائه كان مقدماً عليه وسابقاً له. ثم نكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب^(٣) عما في الضمير.

(١) أخرجه الثعلبي وابن مرونه والواحدي والزليعي 3/392.

(٢) قال أحمد: تغير من هذا الكلام قوله: أن خلق الإنسان كان الغرض فيه، أي: المراد منه أن يحيط علماً بالكتب والوحي، ويعوض بان المراد بخلقه أن يدعى إلى ذلك، لا أن يقع ذلك منه، فهذا هو المراد العام، ثم منهم من أراد الله منه أن يحيط علماً بالدين فيفسر له ذلك، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق، والله الموفق للصواب.

(٣) قال أحمد: وإنما خص الجمل الأول بنكرها تبيكتاً للإنسان لاجل =

= التصاق معانيها به، الا ترى أنه منكر فيها نطقاً وإضماراً وحققاً ملولاً عليه في الكلام، فهو منطوق به مظهرأ في قوله: ﴿خلق الإنسان﴾ ومضمرأ في قوله: ﴿علمه البيان﴾ وملولاً على حنقه في قوله: ﴿علم القرآن﴾ فإنه المفعول الثاني أما قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان﴾ فليس للإنسان فيهما نكر البتة، وجل المقصود من سياقهما التنبية على عظمة الله تعالى.

وعنه أيضاً: محمد رسول الله ﷺ. وعن مجاهد: النجم نجوم السماء.

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ آلِبْرَانَ ﴿٧﴾.

﴿والسمااء رفعها﴾ خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه، ومتنزل أوامره ونواهيته، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكوته وسلطانه ﴿ووضع الميزان﴾ وفي قراءة عبد الله: وحفص الميزان، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيالي ومقياس أي: خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْبِرِّانِ ﴿٨﴾.

﴿ألا تطغوا﴾ لثلاث تطغوا، أو هي أن المفسرة وقرأ عبد الله: لا تطغوا، بغير أن على إرادة القول.

وَأَيُّمًا الَّوْزَنَ بِالْقِسْطِ وَالْأَنزِلَ الْبُرْجَانَ ﴿٩﴾.

﴿واقيموا الوزن بالقسط﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطغيف ونقصان. وكثر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه. وقرئ: والسمااء بالرفع. ولا تخسروا بفتح التاء، وضم السين، وكسرهما وفتحها، يقال: خسر الميزان يخسره ويخسره. وأما الفتح فعلى أن الأصل ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل.

وَالْأَرْضَ وَصَمَّهَا لِلْأَنَارِ ﴿١٠﴾.

﴿ووضعها﴾ خفضها مدحوة على الماء ﴿للأنام﴾ للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن: الإنس والجن. فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها.

فِيهَا نَكَبُهُ وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾.

﴿فاكهة﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿والأكمام﴾ كل ما يكم أي: يغطي من ليفه وسعفه وكفراته وكله منتفع به كما ينتفع بالكموم من ثمره وجماره وجنوعه. وقيل: الأكمام أوعية الثمر الواحد كم بكسر الكاف.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَإِنِّي ءَأْتَاكُمْ رِيحًا كَذَّابًا ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾.

﴿العصف﴾ ورق الزرع وقيل: التبثن ﴿والريحان﴾

الرزق وهو اللب. أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه. والجامع بين التلذذ والتغذي وهو تمر النخل وما يتغذى به وهو الحب. وقرئ: والريحان بالكسر، ومعناه: والحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام، والريحان الذي هو مطعم الناس. وبالضم على ذو الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه وفيها الريحان الذي يشم وفي مصاحف أهل الشام، والحب ذو العصف والريحان. أي: وخلق الحب والريحان، أو وأخص الحب والريحان، ويجوز أن يراد هذا الريحان فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه.

فَإِنِّي ءَأْتَاكُمْ رِيحًا كَذَّابًا ﴿١١﴾ رَبِّ النَّارِ تَرْفَعُونَ رَبِّ الْمَغْرِبِينَ ﴿١٢﴾ فَإِنِّي ءَأْتَاكُمْ رِيحًا كَذَّابًا ﴿١٣﴾.

والخطاب في ﴿ريكما تكذبان﴾ للثقلين بدلالة الأنام عليهما. وقوله: سنفرغ لكم أيها الثقلان. الصلصال الطين اليابس له صلصلة. والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف.

فإن قلت: قد اختلف التنزيل في هذا ونك قوله عز وجل من حمأ مسنون من طين لازب من تراب! قلت: هو متفق في المعنى ومفيد أنه خلقه من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً و﴿الجان﴾ أبو الجن وقيل: هو إبليس. والمارج للهب الصافي الذي لا نخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط به.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿من نار﴾؟ قلت: هو بيان لمارج كأنه قيل: من صاف من نار أو مختلط من نار، أو أراد من نار مخصوصة. كقوله تعالى: ﴿فانزرتكم ناراً تلتظي﴾ (١) قرئ: رب المشرقين ورب المغربين بالجر بدلاً من ريكما، وأراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِثَانِ ﴿١٤﴾.

﴿مرج البحرين﴾ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين في مرأى العين.

يَتَّبِعُهُمَا بَرَزَجٌ لَّا يُبَيِّنُانِ ﴿١٥﴾ فَإِنِّي ءَأْتَاكُمْ رِيحًا كَذَّابًا ﴿١٦﴾.

﴿بينهما برزخ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لا يبغمان﴾ لا يتجاوزان حديهما ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ:

يَخْرُجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١٧﴾ فَإِنِّي ءَأْتَاكُمْ رِيحًا كَذَّابًا ﴿١٨﴾.

قرئ: يخرج، ويخرج من أخرج وخرج ويخرج - أي: الله عز وجل - اللؤلؤ والمرجان بالنصب ونخرج بالنون. واللؤلؤ الدر، والمرجان هذا الحرز الأحمر وهو البسذ. وقيل: اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ نَذِيرًا ﴿٢٢﴾

﴿كل يوم هو في شأن﴾ أي: كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً. «كما روي عن رسول الله ﷺ أنه تلاها فقليل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»⁽³⁾. وعن ابن عيينة: الدهر عند الله تعالى يومان: أحدهما اليوم الذي هو مد عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإمامة والإحياء والإعطاء والمنع، والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب، وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمتهل إلى الغد وذهب كثيراً يفكر فيها. فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل يسهل لك على يدي فأخبره. فقال له: أنا أفسرها للملك. فاعلمه. فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافاً، ويعافي مبتلياً، ويعز نبيلاً ويذل عزيزاً، أو يفقر غنياً ويغني فقيراً. فقال الأمير: أحسنت، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي هذا من شأن الله، وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله تعالى: ﴿فأصبح من النادمين﴾⁽⁶⁾ وقد صح أن الندم توبة، وقوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾. وقد صح أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾⁽⁷⁾ فما بال الأضعاف. فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة ويكون توبة في هذه الأمة لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم يشار لهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله. وأما قوله: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾⁽⁷⁾ فمعناه ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. وأما قوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ فإنها شؤون بيديها لا شؤون يبتدئها. فقام عبد الله وقبّل رأسه وسوّج خراجه.

سَتَرَعُ لَكُمْ آيَةُ الْفَلَاقِ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ نَذِيرًا ﴿٢٢﴾

فإن قلت: لم قال منهما، وإنما يخرجان من الملح⁽¹⁾ قلت: لما التقيا وصار كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منها. كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من نوره. وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعنب.

وَلَهُ لِمَوَارِثَ السَّنَاتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَكْمَامِ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ نَذِيرًا ﴿٢٣﴾

﴿الجواري﴾ السفن وقرئ: الجوار بحذف الياء ورفع الراء ونحوه:

لها ثانياً أربع حسان وأربع فكلها ثمان و﴿المنشآت﴾ المرفوعات الشرع وقرئ: بكسر الشين وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن. والأعلام جمع علم وهو الجبل الطويل.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٤﴾

﴿عليها﴾ على الأرض.

وَبَيْنَ يَمِينِهِ رَبِّكَ ذُو الْمَنَائِلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٥﴾ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ نَذِيرًا ﴿٢٦﴾

﴿وجه ربك﴾ ذاته والوجه يعبر به عن الجملة والذات. ومسلكين مكة يقولون⁽²⁾: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان؟ و﴿ذو الجلال والإكرام﴾ صفة الوجه. وقرأ عبد الله: ذي على صفة ربك ومعناه: الذي يجله الموحسون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم، أو الذي يقال له: ما أجلك وإكرامك! أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. ولقد قال رسول الله ﷺ: «الظوا بيانا الجلال والإكرام»⁽³⁾. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أنه مر برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجب لك»⁽⁴⁾.

فإن قلت: ما النعمة في ذلك؟ قلت: أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك. كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودينهم.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3524).

(4) كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3527).

(5) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (الحديث رقم: 202). وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: العتق والزهد والقناعة (حديث رقم: 689).

(6) سورة المائدة، الآية: 31.

(7) سورة النجم، الآية: 39.

(1) قال أحمد: هذا القول الثاني مرئود بالمشاهدة، والصواب هو الأول، ومثله: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وإنما أريد إحدى القريتين هذا هو الصحيح الظاهر، وكما تقول: فلان من أهل ديار مصر، وإنما بلده محلة واحدة منها.

(2) قال أحمد: المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التي دل عليها العقل، فكيف بالصفات السمعية؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما نكر، ولم ير بيانها صفات سمعية. ثم قال: فإن قلت: كيف عد هذا من الآلاء والنعم وحاصله فناء الخلق؟ وأجاب: بأن معناه: أنهم يفنون ثم يبعثون إلى دار الجزاء إلى دار النعيم المقيم الحقيقي، بأن يكون هو النعيم لا غير.

كأنهما مزانة متعجل فریان لماتدهنا بدهان
وقيل: الدهان الأسيب الأحمر. وقرأ عمرو بن عبید ردة
بالرفع بمعنى: فحصلت سماء ردة، وهو من الكلام الذي
يسمى التجريد كقوله:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحوي الغنائم أو يموت كريم
فَوَيْبَرٌ لَّا يَشْتَلُ عَنْ ذَيْبِهِ إِسْرٌ وَلَا جَانٌّ (٣١) يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَمَا
تُكْذِبَانِ (٣٢).

﴿إنس﴾ بعض من الإنس ﴿ولا جان﴾ أريد به ولا
جن. أي: ولا بعض من الجن فوضع الجان الذي هو أبو
الجن موضع الجن، كما يقال: هاشم ويراك ولده، وإنما وحد
ضمير الإنس في قوله عن ننبه لكونه في معنى البعض.
والمعنى: لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي
سواد الوجوه وزرقة العينين.

فإن قلت: هذا خلاف قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم
أجمعين﴾ (٢) وقوله: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ (٣) قلت: ذلك
يوم طويل وفيه مواطن فيسألون في موطن ولا يسألون في
آخر. قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم
وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: لا يسأل
عن ننبه ليعلم من جهته ولكن يسأل سؤال توبيخ. وقرأ
الحسن وعمرو بن عبید: ولا جان فراؤا من النقاء الساكنين
ولن كان على حذ.

يُرِثُ النَّجْرُونَ بِسَبِّهِمْ فَيُؤَخِّدُ بِالنَّوْصِي وَالْأَقْدَامِ (٤) يَا أَيُّهَا آلَاءُ
رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ (٥) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٦).

﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ عن الضحاك: يجمع بين
ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره. وقيل: تسحبهم
الملائكة تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام.

يَطْرُقُونَ مِنْهَا بَيْنَ وَبَيْنَ جِيمٍ مِّنْ (٧) يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ (٨).

﴿حميم أن﴾ ماء حار قد انتهى حره ونضجه أي:
يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم. وقيل:
إذا استغاثوا من النار جعل غيائته الحميم. وقيل: إن وادياً
من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم
في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم
يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً. وقرئ:
يطوفون من التطويف ويطوفون. أي: يطوفون ويطافون.
وفي قراءة عبد الله: هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان
تصليان لا تموتان فيها ولا تحببان يطوفون بينها. ونعمة الله
فيما نكره من هول العذاب نجاة الناجي منه برحمته
وفضله وما في الإنذار به من اللطف.

وَلَمَّا سَأَلَ مَقَّامَ رَبِّهِ جَنَّانِ (٩) يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ (١٠) ذَرَانَا

﴿سنفرغ لكم﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده
سافرغ لك، يريد: سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني
عنا حتى لا يكون لي شغل سواه، والمراد التوفر على
النكاية فيه والانتقام منه. ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا
وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها
بقوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ (١) فلا يبقى إلا شأن واحد
وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل.
وقرئ: سيفرغ لكم، أي الله تعالى. وسافرغ لكم وسنفرغ
بالنون مفتوحاً ومكسوراً وفتح الراء وسيفرغ بالياء مفتوحاً
ومضموماً مع فتح الراء. وفي قراءة أبي سنفرغ إليكم
بمعنى سنقصد إليكم والثقلان الإنس والجن سمياً بذلك
لأنهما ثقلا الأرض.

بِمَتَمَّرَ اللَّيْلِ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَفْطَمْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَطْرَافِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْتُدُوا لَا تَفْعُدُوا إِلَّا يَسْطُرِينَ (١٢) يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ
(١٣).

﴿يا معشر الجن والإنس﴾ كالترجمة لقوله: أيها
الثقلان ﴿إن استطعتم﴾ أن تهربوا من قضائي وتخرجوا
من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا. ثم قال: لا تقدرين
على النفود، ﴿إلا بسطان﴾ يعني بقوة وقهر وغلبة، وأنى
لكم ذلك ونحوه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في
السماء. وروي أن الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط
بجميع الخلائق، فإذا راهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون
وجهاً إلا وجنوا الملائكة أحاطت به.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَمَأْسُ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (١٤) يَا أَيُّهَا آلَاءُ
رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ (١٥).

قرئ: ﴿شواظ﴾ و﴿ونحاس﴾ كلاهما بالضم والكسر،
والشواظ اللهب الخالص والنحاس الدخان، وأنشد:

تضيء كوضوء سراج السليبي طلم يجعل الله فيه نحاساً

وقيل: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم. وعن ابن
عباس رضي الله عنهما: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم
شواظ إلى المحشر. وقرئ: ونحاس مرفوعاً عطفًا على
شواظ، ومجروراً عطفًا على نار. وقرئ: ونحاس جمع
نحاس وهو الدخان، نحو لحاف ولحف. وقرئ: وتحس أي:
ونقتل بالعذاب، وقرئ: نرسل عليكم شواظاً من نار
ونحاساً ﴿فلا تنتصران﴾ فلا تمتنعان.

إِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (١٦) يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَمَا
تُكْذِبَانِ (١٧).

﴿وردة﴾ حمراء ﴿كالدّهان﴾ كدهن الزيت. كما قال:
كالمهل وهو بردى الزيت وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن
به كالحزام والإدام قال:

(3) سورة الصافات، الآية: 24.

(1) سورة الرحمن، الآية: 29.

(2) سورة الحجر، الآية: 92.

أَفَاتَىٰ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

﴿مقام ربه﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ونحوه لمن خاف مقامي ويجوز أن يراد بمقام ربه أن الله قائم عليه. أي: حافظ مهيم. من قوله تعالى: ﴿أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾⁽¹⁾ فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل: هو مقحم كما تقوله: أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك. وأنشد:

نعرت به القطا ونفيت عنه
مقام الذئب كالرجل للعين
يريد: ونفيت عنه الذئب.

فإن قلت: لم قال ﴿جنتان﴾؟ قلت: الخطاب للثقلين كأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الأنسي، وجنة للخائف الجنى، ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لتروك المعاصي؛ لأن التكليف دائر عليهما. وإن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل كقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾⁽²⁾ خص الأفنان بالذكر وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة؛ لأنها هي التي تورق وتثمر فمنها تمتد الظلال ومنها تجتني الثمار. وقيل: الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال:

ومن كل أفنان اللذاتة والصبأ لهوت به والعيش أخضر ناضر

فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾

﴿عينان تجريان﴾ حيث شأوا في الأعلى والأسفل. وقيل: تجريان من جبل من مسك. وعن الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما: التسليم والأخرى: السلسيل.

فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهِ زَيْبَانِ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾

﴿زوجان﴾ صنفان قيل: صنف معروف، وصنف غريب. مُكَيِّبِينَ عَلَىٰ فُرُجٍ بَطَّانِيهَا مِنْ أَسْتَرِيٍّ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَاوِيٍّ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

﴿متكئين﴾ نصب على المدح الخائفين، أو حال منهم؛ لأن من خاف في معنى الجمع. ﴿بطائنها من استبرق﴾ من بياض ثخين وإذا كانت البطائن من الاستبرق فما ظنك بالظواهر، وقيل: ظواهرها من سننيس، وقيل: من نور. ﴿دان﴾ قريب يناله القائم والقاعد والناثم. وقرئ: وجنى بكسر الجيم.

فِيهَا فَوْرَاتَانِ نَضَاجَتَانِ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾

﴿نضاجتان﴾ فوراتان بالماء. والنضج: أكثر من النضج لأن النضج غير معجمة مثل الرش.

﴿ففيهن﴾ في هذه الآلاء المعبودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس. ﴿قاصرات الطرف﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الجن⁽³⁾ وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس. وقرئ: لم يطمثهن بضم الميم.

قيل: هن في صفاء البياقوت، وبياض المرجان، وصفار الدر أنصع بياضاً. قيل: إن الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البياض.

مَلْ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

﴿هل جزاء الإحسان﴾ في العمل ﴿إلا الإحسان﴾ في الثواب. وعن محمد بن الحنفية: هي مسجلة للبر والفاجر. أي: مرسلة. يعني: أن كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسىء إليه.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٢٤﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾

﴿ومن دونيهما﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿جنتان﴾ لمن نونهم من أصحاب اليمين.

مُدْمَأَمَّتَانِ ﴿٢٥﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

﴿مدمائتان﴾ قدار هامتا من شدة الخضرة.

فِيهَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾

﴿نضاجتان﴾ فوراتان بالماء. والنضج: أكثر من النضج لأن النضج غير معجمة مثل الرش. فإن قلت: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها!.

فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهِ وَرَبَّانٍ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾

قلت: اختصاصاً لهما وبياناً لفضلهما كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران. كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكائيل﴾⁽⁴⁾ أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا ياكل فاكهة فاكل رماناً أو رطباً لم يحنث وخالفه صاحبه.

= صفة الأوليين، حتى قال: ﴿ومن نونهما﴾؛ لأنه قال: ﴿مدمائتان﴾ وذلك دون نواتا أفنان ونضاجتان، وذلك دون تجريان وفاكهة، وذلك دون من كل فاكهة وكذلك صفة الحور.

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

(1) سورة الرعد، الآية: 33.

(2) سورة يونس، الآية: 36.

(3) قال أحمد: يشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم، وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم تراباً. وقال في قوله: ﴿ومن نونهما جنتان﴾: إنما تقاصرت صفة هاتين الجنتين عن =

فِيهِ سَبْرٌ جَسَدٌ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٦﴾.

﴿خيرات﴾ خيرات فخفت كقوله عليه السلام: «هينون لينون»⁽¹⁾ وأما خير الذي هو بمعنى أخير فلا يقال فيه: خيرون ولا خيرات. وقرئ: خيرات على الأصل والمعنى: فضالات الأخلاق حسان الخلق.

حُرٌّ مَّصْرُورٌ فِي الْحَيَارِ ﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾.

﴿مقصورات﴾ قصرن في خورهن يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة. وقيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة.

لَمْ يَطْمِئِنَّ بِإِنْ قَلْبَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٨﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٨﴾.

﴿قبلهم﴾ قبل أصحاب الجنتين دل عليهم نكر الجنتين. مُكْرِبِينَ عَلَى رُؤْفَى حُضْرٍ وَعَسْرِي حَسَانِ ﴿٧٩﴾ يَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ بَرَكَةُ أُمِّ رَبِّكَ ذِي الْمَلِكِ وَالْأَكْرَمِ ﴿٧٩﴾.

﴿مكربين﴾ صب على الاختصاص والررف ضرب من البسط. وقيل: البسط. وقيل: الوسائد. وقيل: كل ثوب عريض ررف. ويقال لأطراف البسط وفصول الفسطاط: رفار، وررف السحاب: هيد به. والعبقري: منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ: رفار خضر بضمين، وعباقري كمدائني نسبة إلى عباقر في اسم البلد. وروى أبو حاتم: عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا الأوجه لصحته.

فإن قُلْتُ: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن نونهما؟ قُلْتُ: مدهامتان نون نواتنا أقنان، ونضاختان نون تجربان، وفاكهة نون كل فاكهة، وكذلك صفة الحور والمثكا. وقرئ: نو الجلال صفة للاسم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الواقعة مكية

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾.

﴿وقعت الواقعة﴾ كقولك: كانت الكائنة، وحدثت الحادثة، والمراد: القيامة. وصفت بالوقوع أنها تقع لا محالة. فكانه قيل: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها. ووقوع

الامر نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه. أي: نزل ما كنت أتربح نزوله.

فإن قُلْتُ: بم انتصب إذا؟ قُلْتُ: بليس. كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل، أو بمحذوف يعني: إذا وقعت كان كيت وكيت. أو بإضمار انكر.

لَيْسَ لِرُوقَعِهَا كَذِبَةٌ ﴿٢﴾.

﴿كائبة﴾⁽³⁾ نفس كائبة، أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات. كقوله تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾⁽⁴⁾ ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾⁽⁵⁾ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾⁽⁶⁾ أو ليس لها نفس تكذبها وتقول لها: لم تكوني. كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبها يقن لها: لن تكوني. أو هي من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعت على مباشرته. وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه فتعرض له ولا تبال به. على معنى أنها وقعة لا تطاق شدة وفضاعة، وأن لا نفس حينئذ تحث صاحبها بما تحثه به عند عظام الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها؛ لأنهم يومئذ أضعف من نك وأذل، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كالفرش المبثوث﴾⁽⁷⁾ والفرش مثل في الضعف وقيل: ﴿كائبة﴾ مصغر كالعاقبة. بمعنى: التكذيب من قولك حمل على قرنه فما كذب. أي: فما جبن وما تثبط. وحقيقته: فما كذب نفسه فيما حدثته به من إطاقته له وإقدامه عليه. قال زهير:

أي: إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد.

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾.

﴿خافضة رافعة﴾ على هي خافضة رافعة ترفع أقواماً وتضع آخرين. إما وصفاً لها بالشدة؛ لأن الوقائع العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس، وإما لأن الأشقياء يحطون إلى الدركات والسعداء يرفعون إلى الدرجات، وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً، حيث تسقط السماء كسفاً وتنتثر الكواكب وتنكسر وتسير الجبال فتمز في الجو مر السحاب. وقرئ: خافضة رافعة بالنصب على الحال.

إِذَا رَجَوتِ الْأَرْضُ رَجَاً ﴿٤﴾.

﴿رجت﴾ حركت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء

(1) تقدم في الفرقان.

(2) أخرجه الثعلبي والولحدي وابن مردويه في تفسيره وأخرجه الزيلعي 3/399.

(3) سورة الفجر، الآية: 24.

(4) سورة القارة، الآية: 4.

(3) قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كائبة﴾ قال فيه: كائبة صفة تقدير موصوفها نفس كائبة.

فوقها من جبل وبناء.

وَسَيِّبَ الْجِبَالَ مَسَاً ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَأً ﴿٦﴾.

عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال. ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشامة تعجيب من حال (2) الفريقيين في السعادة والشقاوة والمعنى: أي شيء هم. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ يريد والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقوله: وعبد الله عبد الله. وقول أبي النجم: شعري شعري. كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته، وقد جعل السابقون تأكيداً وأولئك المقربون خبراً، وليس بذلك. ووقف بعضهم علي ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ وابتداءً السابقون.

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي حَتَّىٰ أَلْتَمِعَهُمْ ﴿١٢﴾.

﴿أولئك المقربون﴾ والصواب أن يوقف على الثاني؛ لأنه تمام الجملة وهو في مقابلة أصحاب الميمنة وما أصحاب المشامة.

﴿المقربون في جنات النعيم﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم. وقرئ: في جنة النعيم.

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾.

والثلة: الأمة من الناس الكثيرة قال:

وجاءت إليهم ثلة خندقية بجيش كثير من السيل مزبد وقوله عز وجل: ﴿وقليل من الآخرين﴾ كفى به ليلياً على الكثرة، وهي من الثل وهو: الكسر، كما أن الأمة من الأم، وهو الشج كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم. والمعنى: أن السابقين من الأولين كثير، وهم: الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمة محمد ﷺ. وقيل: ﴿من الأولين﴾ من متقمني هذه الأمة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخريها. وعن النبي ﷺ: «الثلاثان جميعاً من أمتي» (3).

فإن قُلْتُ: كيف قال: ﴿وقليل من الآخرين﴾ ثم قال: ﴿وثلة من الآخرين﴾ (4) قُلْتُ: هذا في السابقين، وذلك في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً.

فإن قُلْتُ: فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت ﴿ثلة من الأولين﴾ و﴿ثلة من الآخرين﴾! قُلْتُ: هذا لا يصح لامرين أحدهما: أن هذه الآية واردة في السابقين وروداً جميعاً.

﴿وبست الجبال﴾ وفنت حتى تعود كالسويق، أو سيقت، من بس الغنم إذا ساقها. كقوله: ﴿وسيرت الجبال﴾ (1) ﴿منبأً﴾ متفرقاً. وقرئ: بالتاء أي: منقطعاً. وقرئ: رجت وبست. أي: ارتجت وزهبت. وفي كلام بنت الخس: عيها هاج وصلها راج وهي تمشي وتفاج.

فإن قُلْتُ: بم انتصب إذا رجت؟ قُلْتُ: هو بدل من ﴿إذا وقعت﴾، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض.

وَكُنُفٌ أُرْوِيًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾.

﴿أرؤيأ﴾ اصنافاً، يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو ينكر بعضاً بعض: أرواج.

مَا صَحَبُ الْيَمِينِ مَا صَحَبُ الْيَمِينِ ﴿٨﴾ وَمَا صَحَبُ الْيَمِينِ مَا صَحَبُ الْيَمِينِ ﴿٩﴾.

﴿فأصحاب الميمنة﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيانهم. و﴿وأصحاب المشامة﴾ الذين يؤتونها بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الننية. من قولك: فلان مني باليمين وفلان مني بالشمال، إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعفة. وذلك لتمنهم بالميان وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسائح وتطيرهم من البارح. ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمين وسموا الشمائل الشومي. وقيل: أصحاب الميمنة وأصحاب المشامة. أصحاب اليمين والشؤم؛ لأن السعداء ميامن على أنفسهم بطاعتهم والاشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ ﴿١٠﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عز وجل. وقيل: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ثم يزل

(1) سورة النبا، الآية: 20.

(2) قال أحمد: اختار ما هو المختار؛ لأنه اتعد بالفصاحة، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتحويل لحال المنكورين، فنقول: التعظيم المؤدي بقوله: السابقون أبلغ من قرينه، وذلك أن مؤدي هذا أن أمر السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور، وأما المنكور في قوله: ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ فإنه تعظيم على =

= السامع بما ليس عنده منه علم سابق، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله: ﴿أولئك المقربون﴾ فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف وبين الإخبار عنه بقوله: ﴿المقربون﴾ معرفاً بالالف واللام العهدية، وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين، فإنه مصدر بقوله: ﴿في سدر مخضود﴾.

(3) رواه الطبراني في معجمه.

(4) سورة الواقعة، الآية: 40.

قري: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع على وفيها حور عين، كبيت الكتاب إلا رواكذ جمرهن هباءً ومشجع، أو للعطف على ولدان وبالجر عطفاً على جنات النعيم. كأنه قال: هم في جنات النعيم، وفاكهة ولحم وحوراً وعلى أكواب؛ لأن معنى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب﴾: ينعمون بأكواب، وبالنصب على ويؤتون حوراً.

جَزَاءً يَأْتِي كَأَوْ بِسَلْوَنَ ﴿٢٤﴾

﴿جَزَاءً﴾ مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كله جزاءً بأعمالهم.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾

﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ إما بدل من ﴿قِيلًا﴾ بلبيل قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ إلا سلاماً. وإما مفعول به لقيلاً بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا: سلاماً سلاماً. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاماً بعد سلام. وقري: سلام سلام على الحكاية.

فِي يَدَيْهِمْ تَخَضَّرُوا ﴿٢٨﴾

السدر: شجر النبق. والمخضود: الذي لا شوك له كأنما خضد شوكة. وعن مجاهد: الموقر: الذي تثني أغصانه كثرة حملة، من خضد الغصن: إذا ثناه وهو رطب.

وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ ﴿٢٩﴾

والطلح: شجر الموز. وقيل: هو شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة. وعن السدي: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ: وطلح، وما شأن الطلح؟ وقرأ قوله لها: طلح نضيد. فقيل له: أَوْحَوْهَا. فقال: أي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول. وعن ابن عباس نحوه. والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة.

وَزَلِّي مَقْدُورٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَزَلِّي مَقْدُورٍ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾

﴿مَسْكُوبٍ﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا لا يتعون فيه وقيل: دائم الجرية لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجري على الأرض في غير أخدود.

وَنَكَهَهُمْ مِّنَّا يَشَهَّرُونَ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾

﴿لَا مَقْطُوعَةَ﴾ هي دائمة لا تنقطع في بعض الاوقات كفاوكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ لا تمنع عن تناولها بوجه

ظاهراً، وكذلك الثانية في أصحاب اليمين. ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم، والثاني: أن النسخ في الإخبار غير جائز. وعن الحسن رضي الله عنه: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمة، وثلة خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة.

عَلَى سُرُرٍ مَّوْشَوْنَ ﴿٣٤﴾

﴿مَوْشُونَ﴾ مرمولة بالذهب مشبكة بالدرّ والياقوت قد توخل بعضها في بعض كما توصلن حلق الدرع. قال الأعيى:

ومن نسج داود موضونة

وقيل: متواصلة أننى بعضها من بعض.

مُتَّكِنِينَ عَلَيَّاهُ مُتَّقِبِينَ ﴿٣٥﴾

﴿مُتَّكِنِينَ﴾ حال من الضمير في على وهو العامل فيها. أي: استقرّوا عليها متكنين ﴿مُتَّقِبِينَ﴾ لا ينظر بعضهم في آفء بعض، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿مُخَلَّدُونَ﴾ مبقون أبداً على شكل الولدان وحدّ الوصافة لا يتحولون عنه، وقيل: مقرطون والخلدة: القرط، وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. روي عن علي رضي الله عنه وعن الحسن وفي الحديث: «أولاد الكفار خدام أهل الجنة»^(١).

يَأْكُوبُ وَيُكَادِبُ وَيُكَافِرُ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾

الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم، والأباريق نوات الخراطيم.

لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُرْوَنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها. أو لا يفرقون عنها، وقرأ مجاهد: لا يصدعون بمعنى: لا يتصدعون لا يفرقون كقوله: يومئذ يصدعون ويصدعون أي: لا يصدع بعضهم بعضاً لا يفرقونهم.

وَنَكَهَهُمْ مِّنَّا يَشَهَّرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَشَهَّرُونَ﴾ يأخون خيره وأفضله.

وَلَقَدْ طَبَّرْنَا بِشَهْرُونَ ﴿٤٠﴾

﴿بِشَهْرُونَ﴾ يتمنون. وقري: ولحوم طير.

زُحْرُورٍ عَيْنٍ ﴿٤١﴾ كَأَمْثَلِ الذُّرِّيِّ الْأَكْكَرُونَ ﴿٤٢﴾

(١) كشف الاستار كتاب: القدر، باب: في أطفال المشركين (الحديث رقم: 2172).

وَلَطَّلَ مِنْ يَمِينِهِ ﴿٤٧﴾.

﴿وظل من يحموم﴾ من دخان أسود بهيم.

لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا بَلَدًا مَكْرُومًا ﴿٤٩﴾.

﴿لا بارد ولا كريم﴾ نفي لصفتي الظل عنه، يريد: أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال. سماه ظلًّا ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوي إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في ملول الظل من الاسترواح إليه، والمعنى: أنه ظل حار ضار، إلا أن للنفي في نحو هذا شأنًا ليس للاثبات وفيه تهكم باصحاب المشامة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. وقرئ: لا بارد ولا كريم بالرفع، أي: لا هو كذلك.

وَكَاؤُا يُصْرُونَ عَلَى الْيَمَنِ الْعَظِيمِ ﴿٥٠﴾ وَكَأُؤًا يُقُولُونَ أَيَّدًا مِنَّا وَكَاؤًا ثُرَابًا وَعِظْلًا أَوْنًا لَتَبْعُوهُنَّ ﴿٥١﴾.

﴿الحنث﴾ الذنب العظيم. ومنه: قولهم: بلغ الحنث، أي: اللحم وقت المؤاخذه بالمأثم، ومنه حنث في يمينه خلاف برّ فيها. ويقال: تحنث إذا تأثم وتخرج.

أَوْ أَبَاؤُنَا الْآرُولُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ إِنَّ الْآرُولِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿أو أبأؤنا﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف.

فإن قلت: كيف حسن العطف على المضمرة في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن؟ قلت: حسن للفواصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله تعالى: ﴿ما أشركنا ولا أبأؤنا﴾⁽⁵⁾ لفصل لا المؤكدة للنفي. وقرئ: أو أبأؤنا.

لَتَجْمَعُنَّ إِلَى يَمِينِ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٥٤﴾.

وقرئ: ﴿لمجمعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى من كخاتم فضة، والميقات: ما وقت به الشيء أي: حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

ثُمَّ إِنَّكُمْ إِلَيْهَا تَسْأَلُونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿أيها الضالون﴾ عن الهدى ﴿المكيدون﴾ بالبعث وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم.

لَأَكُونَنَّ مِنْ شَعْرٍ مِّنْ زُؤْمٍ ﴿٥٦﴾.

﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى: لابتداء الغاية والثانية: لبيان الشجر وتفسيره. وأنت ضمير الشجر على المعنى ونكره على اللفظ في قوله: منها وعليه. ومن قرأ: من شجرة من زقوم فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما

ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وقرئ: ﴿وفاكهة كثيرة﴾ بالرفع على وهناك فاكهة. كقوله: وحور عين.

رَفْرَفٌ مُّرْوَعٌ ﴿٥٧﴾ إِيَّا أَشْأَتَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٥٨﴾ لَمَلَّتَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٥٩﴾ عُرْبًا أَزْرَابًا ﴿٦٠﴾.

﴿وفرش﴾ جمع فراش. وقرئ: ﴿وفرش﴾ بالتخفيف ﴿مرفوعة﴾ نضدت حتى ارتفعت أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفرش مرفوعة على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلل على الأرائك متكئون﴾⁽¹⁾ ويدل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ وعلى التفسير الأول: اضممر لهن؛ لأن نكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن أنشأناهن إنشاءً أي: ابتدأنا خلقهن ابتداءً جيداً من غير ولادة، فلما أن يراد اللاتي ابتدئ إنشاءهن أو اللاتي أعيد إنشاءهن. وعن رسول الله ﷺ: أَنَّمْ سَلِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَأَلَتْهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سَلِمَةَ هُنَّ اللَّوَاتِي قَبِضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَائِزَ شَمَطًا رَمَضًا جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿أَتْرَابًا﴾ عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الْإِسْتِوَاءِ كَمَا تَأَاهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ.

وجدهن أبكاراً، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: وأوجعها. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك وجع»⁽²⁾. وقالت عجوز لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «إن الجنة لا تدخلها العجائز»، فولت وهي تبكي فقال عليه الصلاة والسلام: أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز»⁽³⁾. وقرأ الآية.

﴿عربياً﴾ وقرئ: عربياً بالتخفيف جمع عروب وهي: المتحبية إلى زوجها الحسنة التبعيل. ﴿أتراباً﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهن أيضاً كذلك. وعن رسول الله ﷺ: «ينخل أهل الجنة جرداً مرداً أبيضاً جعاداً مكللين أبناء ثلاث وثلاثين»⁽⁴⁾.

لَيَصْحَبَنَّ الْعِيْنَ ﴿٦١﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآرُولِينَ ﴿٦٢﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَصْحَابُ السَّمَائِلِ مَا أَصْحَابُ السَّمَائِلِ ﴿٦٤﴾.

واللام في ﴿أصحاب اليمين﴾ من صلة أنشأنا وجعلنا.

فِي سُورٍ وَكِيمٍ ﴿٦٥﴾.

﴿في سموم﴾ في حر نار ينفذ في المسام ﴿وحميم﴾ وماء حار متناه في الحرارة.

= (رقم: 241).

(1) سورة يس، الآية: 56.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في سنن أهل الجنة (الحديث رقم: 2545)، وأخرجه أحمد في المسند (343/2).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3296).

(4) أخرجه الترمذي في الشمائل ص 117، باب: مزاحه ﷺ (الحديث) = (5) سورة الأنعام، الآية: 148.

ذكر الثاني على تاويل الزقوم لأنه تفسيرها وهي في معناه.

فَأَلْوُورًا مِمَّا أَلْبَسُوا ﴿٥٦﴾ فَتَرَوُوهُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْمٍ ﴿٥٧﴾ فَتَشْرَبُونَ شَرِبَ الْجِيرِ ﴿٥٥﴾

﴿شرب الهيم﴾ قرئ بالحركات الثلاث فالفتح والضم مصدران. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أيام أكل وشرب، وفتح الشين. وأما المكسورة فبمعنى المشروب. أي: ما يشربه الهيم، وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء تشرب منه فلا تروى جمع أهيم وهيماء. قال نو الرمة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يضي عليها هياما
وقيل: الهيم الرمال، ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو: الرمل الذي لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض. والمعنى: أنه يسלט عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ﴿ملؤوا منه البطون﴾ يسלט عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم.

فإن قلنا: كيف صح عطف الشاربيين على الشاربيين وهما لنوات متفقة وصفتان متفتتان فكان عطفًا للشية على نفسه؟ قلنا: ليستا بمتفتتين من حيث إن كونهم شاربيين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضًا فكانتا صفتين مختلفتين.

هَذَا تَرَوُوهُ يَوْمَ الْآزِمِ ﴿٥٦﴾

النزل: الرزق الذي بعد للنازل تركة له وفيه تهكم كما في قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعداب اليم﴾⁽¹⁾ وكقول أبي الشعر الضبي:

وكنا إذا الجبار بالحيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا
وقرى: ﴿نزلهم﴾ بالتخفيف.

عَنْ خَلْقِنَا فَرَوْلًا صَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿فلولا تصدقون﴾ تحضيض على التصديق إما بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكانهم مكذبون به. وإما بالبعث؛ لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانيًا.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ما تمنون﴾ ما تمنونه. أي: تقنقونه في الأرحام من النطف. وقرأ أبو السمال بفتح التاء. يقال: أمني النطفة ومناها. قال الله تعالى: ﴿من نطفة إذا تمنى﴾⁽²⁾.

أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمُنْذِرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿تخلقونه﴾ تقدرونه وتصورونه.

عَنْ قَدَرًا يَتَّبِعُ الْمَوْتَ وَمَا عَنْ حَسْبِ بَشِيرٍ ﴿٦٠﴾ عَلَّ أَنْ يُدِيلَ أُمَّتَكُمْ وَنُنِشِكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

﴿قدرنا بينكم الموت﴾ تقديرًا وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا، فاختلقت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط. وقرئ: ﴿قدرنا﴾ بالتخفيف. سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه. فمعنى قوله:

﴿وما نحن بمسبوقين * على أن تبدل أمثالك﴾ إنا قادرون على ذلك لا تغلبونا عليه وأمثالك جمع مثل أي: على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق وعلى أن ﴿وننشككم﴾ في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أننا نقدر على الأمرين جميعًا على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعانتكم. ويجوز أن يكون أمثالك جمع مثل أي: على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم وننشككم في صفات لا تعلمونها.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَتَرَوْنَا فَتُكْرَرُونَ ﴿٦٢﴾

قرئ: النشأة والنشأة وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جعلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾

﴿أفرايتم ما تحرثون﴾ من الطعام أي: تبذرون حبه وتعملون في أرضه.

أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاعُونَ ﴿٦٤﴾

﴿النتم تزرعونه﴾ تنبتونه وتربونه نباتًا يرف وينمي إلى أن يبلغ الغاية. وعن رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت».

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَتَلَّوْا تَكْفُورًا ﴿٦٥﴾

قال أبو هريرة: أرايتم إلى قوله: أفرايتم الآية والحطام، من حطم كالفئات والجدان من فت وجذ وهو ما صار هشيماً وتحطم ﴿فطلتم﴾ وقرئ: بالكسر وفضلتم على الأصل ﴿تتكفون﴾ تعجبون. وعن الحسن رضي الله عنه: تندمون على تعيبكم فيه وإنفاقكم عليه أو على ما اقترفت من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها. وقرئ: تفكنون، ومنه الحديث: «مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فيينا هم إذ غار ماؤها فاننتفع بها قوله: وبقي قوم يتفكنون أي: يتندمون».

إِنَّا لَكَاثِرُونَ ﴿٦٦﴾ بِرَّ نَحْنُ نَحْرُورُونَ ﴿٦٧﴾

﴿إننا لمغرمون﴾ لمزومون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون

(1) سورة آل عمران، الآية: 21.

(2) سورة النجم، الآية: 46.

﴿تورون﴾ تقمحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب
تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى:
الزند والأسفل: الزنده، شبهوهما بالفحل والطرقة.

أَنْتُمْ أَنْتُمْ سَجَرًا أَمْ تَحْنُ الْمُنْشُورُونَ ﴿٧٦﴾

﴿شجرتها﴾ التي منها الزناد.

تَحْنُ جَمَلَتَهَا تَذَكْرَةً وَمَتَمًّا لِلْمَقْوِينَ ﴿٧٧﴾

﴿تذكرة﴾ تنكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب
المعيش كلها وعمماً بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة
للناس ينظرون إليها وينكرون ما أوعدوا به، أو جعلناها
تذكرة واثمونيّاً من جهنم لما روي عن رسول الله ﷺ:
«ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من
حرّ جهنم»^(١). ﴿ومتاعاً﴾ ومنفعة ﴿للمقوين﴾ للذين
ينزلون القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم أو
مزادهم من الطعام، يقال: اقويت من أيام. أي: لم أكل
شيئاً.

سَخِّحَ بِأَسْرِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾

﴿فسبح باسم ربك﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك،
أراد بالاسم: الذكر. أي: بذكر ربك و ﴿العظيم﴾ صفة
المضاف أو للمضاف إليه. والمعنى: أنه لما نكر ما دل على
قدرته وإنعامه على عباده قال: فأحدث التسبيح، وهو أن
يقول: سبحان الله إما تنزيهاً له عما يقول الظالمون الذين
يجحدون ووجدانيته ويكفرون نعمته، وإما تعجباً من أمرهم
في غمط آلائه وآيابه الظاهرة، وإما شكراً لله على النعم
التي عدّها ونبه عليها.

﴿فَلَا أَمْسِرُ بِمَرْفَعِ الْجُبُورِ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّهُ لَفَسْرٌ لَوْ تَمَلَّوْنَ

عَظِيمٌ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فلا أقسم﴾ معناه فاقسم ولا مزيدة مؤكدة مثلها في
قوله: لثلا يعلم أهل الكتاب. وقرأ الحسن: فلا أقسم، ومعناه:
فلأنا أقسم. اللام لام الإبتداء دخلت على جملة من مبتدأ
وخبر وهي: أنا أقسم. كقولك: لزيد منطلق ثم حذف المبتدأ،
ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين: أحدهما: أن
حقها أن يقرن بها النون المؤكدة والإخلال بها ضعيف
قبيح، والثاني: أن لافعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل
القسم يجب أن يكون للحال. ﴿بمواقع النجوم﴾ بمساقطها
ومغاربها. ولعل الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم
إلى المغرب أفعلاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات
موصوفة، أو لانه وقت قيام المتوجدين والمبتهلين إليه من
عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم. فلذلك

لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك.

﴿بل نحن﴾ قوم ﴿محرومون﴾ محارفون محدودون
لا حظ لنا ولا بخت لنا ولو كنا مجودين لما جرى علينا
هذا. وقرئ: أئنا.

أَوْهَيْبَةُ الْمَاءِ أَلَيْسَ تَشْرَبُونَ ﴿٨١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْزِ أَمْ تَحْنُ
الْمَرْزُورُونَ ﴿٨٢﴾

﴿الماء الذي تشربون﴾ يريد: الماء العذب الصالح
للشرب و ﴿المرز﴾ السحاب، الواحدة: مرزنة. وقيل: هو
السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب ماء.

لَوْ نَشَاءُ جَمَلْتَهُ أَجَابًا لَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾

﴿لجأجا﴾ ملحاً زعاقاً لا يقدر على شربه.

فإِن قُلْتُمْ: لم أدخلت اللام على جواب ﴿للو﴾ في قوله:
لجعلناه حطاماً ونزعت منه ههنا! قُلْتُمْ: إن لو لما كانت داخلة
على جملتين معلقة ثانيتها بالأولى تعلق الجزء بالشرط
ولم تكن مخصصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها، وإنما سرى
فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني
جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها
إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون
علماً على ذلك فإذا حذف بعد ما صارت علماً مشهوراً مكانه
فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوقاً ومأنوساً به
لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناءً بمعرفة السامع. ألا ترى
إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول: خير لمن قال له: كيف
أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه وتساوى حالي
حذفه وإثباته لشهرة أمره، وناهيك بقول أوس:

حتى إذا الكلاب قال لها كالبيوم مطلوباً ولا طلباً

وحذفه لم أر فإن حذفها اختصار لفظي وهي ثابتة في
المعنى فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما على أن تقدم
نكرها والمسافة قصيرة مغن عن نكرها ثانية ونائب عنه.
ويجوز أن يقال إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة
فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن
أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد يفقده
أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً
للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعد أن تطعمه،
ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

إذا سقيت ضيوف الناس محضاً سقوا ضيافهم شيماً زلالاً

وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة،
ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَرَأَيْتُمْ أَتَارَ أَلَيْ تُوْرُونَ ﴿٨٤﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وإنها
مخلوقة (الحديث رقم: 3265) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة
وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها
(الحديث رقم: 2843).

اقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله:

﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أو أراد بمواقعها: منازلها ومساييرها وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف. وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراض؛ في اعتراض لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه⁽¹⁾. وهو قوله: إِنَّهُ لَقَرَأَنُ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿إنه لقرآن كريم﴾ واعترض لو تعلمون بين الموصوف وصفته وقيل: مواقع النجوم أوقات وقوع نجوم القرآن. أي: أوقات نزولها كريم حسن مرضي في جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع أو كريم على الله. فِي كِتَابٍ مَّكْرُورٍ ﴿٧٨﴾.

﴿في كتاب مكنون﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾.

وهم المطهرون من جميع الأناس أناس النوب وما سواها. إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، يعني: مس المكتوب منه، ومن الناس من حملة على القراءة أيضاً. وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا وهو طاهر. وعن ابن عباس في رواية: أنه كان يبيح القراءة للجنب. ونحوه قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»⁽²⁾. أي: لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه. وقرئ: المتطهرون والمطهرون بالإدغام، ﴿والمطهرون﴾ من أظهره بمعنى: طهره. والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحي الذي ينزلونه. نَزِيلٍ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿تنزيل﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: منزل من رب العالمين، أو وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجومًا من بين سائر كتب الله تعالى فكانه في نفسه تنزيل ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به بالتنزيل، أو هو تنزيل على حذف المبتدأ وقرئ: تنزيلًا على نزل تنزيلًا.

أَنْبِئَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ يُدْعُونَ ﴿٨١﴾.

﴿أنبئنا الحديث﴾ يعني: القرآن ﴿انتم مدهنون﴾ أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا

يتصلب فيه تهاونًا به.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾ على حذف المضاف يعني: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب أي: وضعت التكذيب موضع الشكر، وقرأ علي رضي الله عنه: وتجعلون شكركم انكم تكذبون. وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، والمعنى: وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به. وقيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها والرزق المطر يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونوه إلى النجوم. وقرئ: تكذبون وهو قولهم: في القرآن شعر وسحر وافتراء، وفي المطر هو من الأنواء ولأن كل مكذب بالحق كاتب.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلْتَمِتُمْ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ جُنُودٌ تُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَتَعْرَبُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْكُلُّ وَاللَّيْلُ لَكُمْ وَالْجِبْرُوتُ ﴿٨٦﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَزَّزَيْنَا ﴿٨٧﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٨﴾.

ترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، و﴿فلولا﴾ الثانية مكررة للتوكيد والضمير في ﴿ترجعونها﴾ للنفوس وهي الروح وفي ﴿أقرب﴾ إليه للمحتضر.

﴿غير مدينين﴾ غير مريبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت. والمعنى: إنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابًا معجزًا قلتم سحر وافتراء، وإن أرسل إليكم رسولا قلتم ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرًا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد.

فَأَمَّا إِنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿فأما إن كان﴾ المتوفى ﴿من المقربين﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة.

فَرَحَّ رَحْمَانٌ وَرَحْمَتٌ رِيمٍ ﴿٩٠﴾.

﴿فروح﴾ فله استراحة. وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ فروح بالضم⁽³⁾. وقرأ به الحسن وقال: ﴿الروح﴾ الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم⁽⁴⁾. وقيل: البقاء. أي: فهذا له معًا وهو الخلود مع الرزق

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 2938).

(4) أخرجه عبد بن حميد (راجع الدر المنثور 6/166) وأخرجه الزيلعي 411/3.

(1) قال أحمد: وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسباً للقسم، مثل قوله: ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا﴾ ومن وابه وثنايك أنها إغريض كما تقدم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 58 - 2580).

والنعيم، والريحان: الرزق.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَمْحَابِ الْيَبِينِ ﴿١٠﴾ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَمْحَابِ الْيَبِينِ ﴿١١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ فَسَاءَ لَكَ مِنَ السَّيِّئِينَ ﴿١٢﴾.

﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليك. كقوله تعالى: ﴿إلا قبيلاً سلاماً سلاماً﴾.

فَرَزَقْنَا مِنْ عَجْرٍ ﴿١٣﴾ وَنَصِيَّةً حَمِيمٍ ﴿١٤﴾.

﴿فنزل من حميم﴾ كقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وقرئ: بالتخفيف ﴿وتصلية جحيم﴾ قرئت بالرفع والجر عطفًا على ﴿نزل﴾ و﴿حميم﴾.

إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ عَنِّي الْيَبِينِ ﴿١٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الحق الثابت من اليقين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحديد مكية

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

جاء في بعض الفواتح سبّح على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع. وكل واحد منهما معناه: أن من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيره ودينه. وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: ﴿وتسبحون﴾ (2) وأصله التعدى بنفسه؛ لأن معنى سبحته بعنته عن السوء، منقول من سبّح: إذا ذهب وبعد. فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ ﴿سبح لله﴾ أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً.

﴿ما في السموات والأرض﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح.

لَمْ يَكُنْ لَكَ الشُّكْرُ وَالْأَرْضُ حُجَى. وَوَيْتٌ وَمَوْعِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾.

فإن قلت: ما محل ﴿يحيي﴾؟ قلت: يجوز أن لا يكون له محل ويكون جملة برأسها.

كقوله: ﴿له ملك السموات﴾ وأن يكون مرفوعاً على هو يحيي ويميت ومنصوباً حالاً من المجرور في له والجار عاملاً فيها. ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء.

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعَلِّمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَهُ مَعَكُمْ أَيُّ مَّا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ الشُّكْرُ وَالْأَرْضُ حُجَى وَاللَّهُ يُخْرِجُ الْأُمُورَ ﴿٥﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾.

﴿هو الأول﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء و﴿والآخر﴾ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء و﴿والظاهر﴾ بالآلة الدالة عليه و﴿والباطن﴾ لكونه غير مدرك بالحواس.

فإن قلت: فما معنى الواو؟ قلت: الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالآلة والخفاء فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. وقيل: ﴿الظاهر﴾ العالي على كل شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه، و﴿الباطن﴾ الذي بطن كل شيء أي: علم باطنه وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

أَمْثَلُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَلْفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا يَسْكُرُوا أَنْفِقُوا لِمَ أَمَرُكُمْ بِذَلِكَ؟

﴿مستخلفين فيه﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وحقولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب. فانفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أنن له فيه، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به وانفقوا بالانفاق منها أنفسكم.

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِنْكُمُ الذِّكْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ لِيُنذِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾

﴿لا تؤمنون﴾ حال من معنى الفعل في ما لكم كما تقول مالك قائماً بمعنى ما تصنع قائماً؟ أي: وما لكم كافرين بالله. والواو في ﴿والرسول يدعوكم﴾ وارهال فهما حالان متداخلتان. وقرئ: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم﴾ والمعنى: وأي عذر لكم في

(2) سورة الفتح، الآية: 9.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تعظيم القرآن فضل في فضائل السور والآيات (الحديث رقم: 2498).

مَنْ ذَا الَّذِي يَرْفُضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُفُهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ سَوَاءً يَوْمَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَإِخْتِيارِهِمْ شُرَكَائِهِمْ أَلَيْسَ
جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْقَرْضُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾.

القرض الحسن: الإنفاق في سبيله شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكانه أقرضه إياه ﴿فِيضَاعُهُ لَهُ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿أَضْعَافًا﴾ من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه. وقرئ: فيضعفه وقرئنا منصوبين على جواب الاستفهام والرفع عطف على يقرض أو على فهو يضاعفه.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو منصوب بإضمار انكر تعظيماً لذلك اليوم. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأنَّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض اقلحوا؛ فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على المصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور جنبياً لهم ومتقدماً. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ وقرئ: تلك الغوز.

يَوْمَ يُؤْتَى الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَذِبْنَ أَمَّا أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا نُورَكُمْ فَأَلْتَمَسُوا نُورًا فَنَصَبَ بَيْنَهُمْ بَسْرًا لَمْ بَأْسٌ بِأَيْدِيهِمْ فِيهِ أَلْزَمَةٌ وَظَلِيمَةٌ مِنْ رَبِّكَ الْعَمَّا بُ ﴿١٣﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿انظرونا﴾ انتظرونا؛ لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة. أو انظرونا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: انظرونا من النظرة وهي الإمهال. جعل اتداهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم. ﴿نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستضيئوا به. ﴿قِيلَ أَرْجِعُوا وِرَاعَكُمْ فَالْتَمَسُوا نُورًا﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين وتتحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم

ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج. وقيل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان حيث ركب فيكم العقول⁽¹⁾ ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وأزاح عنكم ما لم تيق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبية الرسول فما لكم لا تؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبِيدِهِ آيَاتِهِ بَيْنَتِي رَيْخَجِكُمْ مِنْ أَطْلُكُنَّ إِلَى النَّوْرِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿ليخرجكم﴾ الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان أو ليخرجكم الرسول بدعوته. ﴿لمرءوف﴾ وقرئ: لرفوف.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُقِيمُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ أَنْزَلْنَا لَكُمْ الْكِتَابَ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيائِكُمْ عَظُمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِهِ وَقَتْلُوا وَكَلَّمَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥﴾.

﴿وما لكم لا تنفقوا﴾ في أن لا تنفقوا ﴿وشه ميراث السموات والأرض﴾ يرث كل شيء فيها لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره. يعني: وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله، والله مهلككم فوارث أموالكم وهو من أبلغ البحث على الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق﴾ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في بين الله أفواجا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة ﴿أولئك﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»⁽²⁾ ﴿عظم درجة﴾ وقرئ: قبل الفتح ﴿وكلا﴾ وكل واحد من الفريقين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي: الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرئ: بالرفع على وكل وعده الله. وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (الحديث رقم: 3673)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (الحديث رقم: 222 - 254)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 4658)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل من بايع تحت الشجرة (الحديث رقم: 3861)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أهل بدر (الحديث رقم: 161).

(1) قال احمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ولقد يربيني مع إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والمعول بها عن حقائقها من إمكانها عقلاً ووقوعها بالسمع قطعاً إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخيلاً، فالقاعدة التي تمتد عليها كي لا يضر ما يوميء إليه، أن ما كل ما جزؤه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره، والله الموفق.

القرآن، وعن الحسن رضي الله عنه: أما والله لقد استبطاهم وهم يقرؤون من القرآن أقل مما تقرؤون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق. وعن أبي بكر رضي الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ: نزل وأنزل وأنزل ﴿ولا يكونوا﴾ عطف على تخشع. وقرئ: بالتاء على الالتفات، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهوراتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره.

فإن قلت: ما معنى لنكر الله وما نزل من الحق؟ **قلت:** يجوز أن يراد بالنكر وبما نزل من الحق القرآن؛ لأنه جامع للامرين للنكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء وأن يراد خشوعها إذا نكر الله وإذا تلى القرآن بقوله تعالى: ﴿إذا نكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زابتهم إيماناً﴾⁽³⁾ أراد بالآمد الأجل كقوله: إذا انتهى أمده. وقرئ: الأمد أي: الوقت الأطول. ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَنَا لَكُمْ الْآيَاتُ لَكَلَّمْتُمْ نَبِيَّكُمْ

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ قيل: هذا تمثيل لآثر النكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

إِنَّ الْأَمْثَلِينَ وَالْمُنْتَقِبِينَ وَالرُّسُلَ اللَّهُ قَرَمًا حَسَنًا يُنصِتُ لَهُمْ وَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ

﴿المصنفين﴾ المتصدقين وقرئ: على الأصل والمصدقين من صلق، وهم الذين صدقوا الله ورسوله، يعني: المؤمنين.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿واقترضوا﴾؟ **قلت:** على معنى الفعل في المصنفين؛ لأن اللام بمعنى: الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كأنه قيل: إن الذين اصدقوا واقترضوا والقرض الحسن أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وإنما هو تخييب وإقناط لهم. ﴿فضرِبَ بينهم بسور﴾ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. قيل: هو الاعراف لذلك السور ﴿باب﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بباطنه﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿وظاهره﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿من قبله﴾ من عنده ومن جهته ﴿العذاب﴾ وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: فضرِبَ بينهم على البناء للفاعل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنًا أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ وَرَبِّيكُمْ وَعَزَّكُمْ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْمُرُورُ

﴿الم تكن معكم﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر **﴿فتنتم أنفسكم﴾** محنتموها بالنفاق واهلكتموها **﴿وتربصتم﴾** بالمؤمنين الدوائر **﴿وعزركم الأمان﴾** طول الأمل والطمع في امتداد الأعمار **﴿حتى جاء أمر الله﴾** وهو الموت **﴿وعزركم بالله الغرور﴾** وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعينكم. وقرئ: الغرور بالضم.

قَالِيمٌ لَا يُؤَخِّدُ بَيْنَكُمْ يَدِيَهُ وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَيْكُمْ أَنَاذًا مِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَيُرْسُ الْكَيْبُ

﴿فدية﴾ ما يفتدى به **﴿هي مولاكم﴾** قيل: هي أولى بكم وأنشد قول لبيد:

فغنت كلا للفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وإمامها

وحقيقة مولاكم محراكم ومقمنكم أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم. كما قيل: هو مئة للكرم، أي: مكان لقول القائل إنه لكريم. ويجوز أن يراد هي ناصركم أي: لا ناصر لكم غيرها، والمراد: نفي الناصر على البنات. ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾⁽¹⁾ وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

﴿الم بأن يذنب آمنوا أن تنح قلوبهم ليذكر الله وما نزل من الحق ولا يكفروا كاذبين أووا الكتاب من قبل فقال عليهم الأمد فست قلوبهم وكبير بينهم فيفتوت﴾

﴿الم يان﴾ من أتى الأمر يأتي إذا جاء إياه أي: وقته. وقرئ: ألم يئن، من أن يئين بمعنى: أتى يأتي المأ يان قيل: كانوا مجبيين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت. وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين⁽²⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشر من نزول

(3) سورة الأنفال، الآية: 2.

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿الم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ (الحديث رقم: 24 رقم 3027 -)

المصيبة في الأرض نحو الجذب وآفات الزروع والثمار وفي الأنفس نحو الأذواء والموت.

﴿في كتاب﴾ في اللوح ﴿من قبل أن نبرأها﴾ يعني: الأنفس أو المصائب ﴿إِنَّ نَلِك﴾ إِنَّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿على الله يسير﴾ وإن كان عسيراً على العباد ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال:

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَالنَّاسُ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَنُوزُ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾.

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا﴾ يعني: انكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي؛ لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفادم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نياله. ﴿وإياهم﴾ لا يحب كل مختال فخور ﴿لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه اختال واقتخر به وتكبر على الناس. قرئ: بما آتاكم وآتاكم من الإيتاء والإيتان. وفي قراءة ابن مسعود: بما أوتيتم.

فإن قلنت: فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح! قلنت: المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي المهلي عن الشكر. فإما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

﴿الذين يبخلون﴾ بدل من قوله: ﴿كل مختال فخور﴾ كانه قال: لا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون بالفرح المطغي إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمة في عيونهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطهرهم عند إصابته. ﴿ومن يتول﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه. وقرئ: بالبخل. وقرأ نافع: فإن الله الغني، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرَفُ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾.

﴿لقد أرسلنا رسلنا﴾ يعني: الملائكة إلى الأنبياء ﴿بالبينات﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وأنزلنا معهم

لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٥﴾.

وقرئ: يضعف ويضعف بكسر العين أي: يضاعف الله يريد: أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله. ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي: مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم.

فإن قلنت: كيف يسوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت؟ قلنت: المعنى أن الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضلهم حتى يساوي أجرهم مع إضعافه أجر أولئك. ويجوز أن يكون والشهداء مبتدأ ولهم أجرهم خبره.

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْغَنِيُّ الدُّنْيَا لَيْتَ وهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَثِيلٌ عَلَيْكُمْ عَجَبٌ الْكُفَّارُ بَالَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُ فَرَغَهُ مَصْفًورًا ثُمَّ يَكُونُ حَطَلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَنْفُورَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْغَنِيُّ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُورِ ﴿٢٦﴾.

أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي للعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله. وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل، وأعجب به الكفار الجاحلون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطالاً عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين وقيل: الكفار الزراع. وقرئ: مصفاًراً.

سَأَبِقُوا إِلَىٰ مَنْفُورَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿سابقوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار إلى جنة ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين. ونكر العرض دون الطول؛ لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط وأمد. ويجوز أن يراد بالعرض البسطة كقوله تعالى: ﴿فنو دعاء عريض﴾⁽¹⁾ لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفرح بدخول الجنة. ﴿ذلك﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فضل الله﴾ عطاؤه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ وهم المؤمنون

فعالة. أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه في صفة أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم. والرهبانية ترهيبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة. وذلك أَنَّ الجبابة ظهرها على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوه ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاخترأوا الرهبانية ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان⁽³⁾ وهو الخائف. فعلان من رهب كخشيان من خشى. وقرئ: ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان. وانتصابها بفعل مضم⁽⁴⁾ يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية «ابتدعوها» يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونزروها. «ما كتبناها عليهم» لم نفرضها نحن عليهم «إلا ابتغاء رضوان الله» استثناء منقطع أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله «فما رعوها حق رعايتها» كما يجب على الناصر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه. «فأتينا الذين آمنوا» يريد: أهل الرحمة والرافة الذين اتبعوا عيسى «وكثير منهم فاسقون» الذين لم يحافظوا على نذرهم ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحدثها ما كتبناها عليهم إلا ليعتقوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب. على أنه كتبها عليهم والزماها إياهم ليتخلصوا من الفتنة ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم. فأتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم وكثير منهم فاسقون، وهم الذين لم رعوها.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنشَأُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَلِمَاتٍ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْمَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

(١٧)

«يا أيها الذين آمنوا» يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم فإن كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا

للكتاب» أي: الوحي «والميزان» روي أَنَّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به «وأنزلنا الحديد» قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان والكلبتان والمبقة والمطرقة والإبرة. وروي: ومعه المِرْ والمسحاة. وعن النبي ﷺ: «أَنَّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح»⁽¹⁾. وعن الحسن: وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى: «وأنزل لكم من الأنعام»⁽²⁾ وذلك أَنَّ أوامره تنزل من السماء وقضايها وأحكامها «فيه بأس شديد» وهو القتال به «ومنافع للناس» في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد. «وليعلم الله من ينصره ورسله» باستعمال السيوف والرمح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. «بالغيب» غائباً عنهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه «إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ» غني بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنَهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ

«والكتاب» والوحي وعن ابن عباس: الخط بالقلم يقال: كتب كتاباً وكتابة. «فمنهم» فمن الذرية أو من المرسل إليهم. وقد دل عليهم نكر الإرسال والمرسلين وهذا تفصيل لحالهم. أي: فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق.

ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ نُرْسُلْنَا وَفَتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ

(١٨)

قرأ للحسن: الانجيل بفتح الهمزة، وأمره أهون من امر اليرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء؛ لأنَّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ ابنية العرب. وقرئ: رافة على

(1) أخرجه الثعلبي وهو في الفردوس. وأخرجه الزليفي 418/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 6.

(3) قال أحمد: وفيه إشكال، فإنَّ النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفرده، إلا أن يقال: إنه لما صار للرهبان طائفة مخصوصة، صار هذا الاسم، وإن كان جمعاً كالعلم لهم فلحق بإنصاري ومدائني وأعرابي.

(4) قال أحمد: في إعراب هذه الآية تورط أبو علي الفارسي، وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمير يفسره الظاهر وعلل امتناع العطف، فقال: ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا مع وصفها بقوله: ابتدعوها؛ لأنَّ ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم، والزمخشري ورد أيضاً مورده التميمي واسلمه شيطانه الترجيم، فلما أجاز ما =

= منعه أبو علي من جعلها معطوفة أعذر لذلك، بتحريف الجعل إلى التوفيق قراراً مما فرَّ منه أبو علي من اعتقاد أن تلك مخلوق لله تعالى وجنوحاً إلى الإشراك، واعتقاد أن ما يفعلونه هو لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقدها، فإنه نكر محل الرحمة والرافة مع العلم بأن محلها القلب، فجعل قوله: «في قلوب الذين اتبعوه» تأكيداً لخلقه هذه المعاني، وتصويراً لمعنى الخلق بنكر محله، ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعموا، لم يبق لقوله: «في قلوب الذين اتبعوه» موقع، ويأبى الله أن يشتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له، اللهمنا الحجة وأنهج بنا واضح المحجة، إنه ولي التوفيق وواهب التحقيق.

وقرى: أن لا يقدرُوا ﴿بيد الله﴾ في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يؤتية من يشاء﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة مدنية

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ وَسَّعَ خَوَارِكًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

﴿قد سمع الله﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»⁽⁴⁾. لقد كلمت المجادلة رسول الله ﷺ في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها،⁽⁵⁾ وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها. وقال: قد سمع الله لها. وقرى: تحاورك أي: تراجعك الكلام. وتحاولك أي: تسائلك. وهي: «خولة بنت ثعلبة امرأة أوس»⁽⁶⁾ بن الصامت أخي عبادة. رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها. فأنت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثرت بطني أي: كثر ولدي جعلني عليه كأمه. وروي أنها قالت له: إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليهم ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا. فقال: «ما عندي في أمرك شيء» وروي أنه قال لها: «حرمت علي»، فقالت يا رسول الله ما نكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي. فقال حرمت علي. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدني. كلما قال رسول الله ﷺ: حرمت علي هتفت وشكيت إلى الله فنزلت ﴿في زوجها﴾ في شأنه⁽⁷⁾. ومعناه ﴿إن الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿قد﴾ في قوله ﴿قد سمع﴾؟ قُلْتَ: معناه التوقع لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجاللتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها.

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ يَنْكُحُوا مِنَ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَمْرُقُوتٍ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَحَرْبٌ

بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿يؤتكم﴾ الله ﴿كفلين﴾ أي: نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله. ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نورا﴾ تمشون به وهو النور المنكسر في قوله: ﴿يسعى نورهم﴾ و﴿ويغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

لَيْلًا بِمَا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَمْدُرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ نَّسْلِ اللَّهِ وَاللَّهُ الْفَضَّلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾.

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا ولا مزيدة ﴿إلا يقدرُونَ﴾ أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا يقدرُونَ يعني: أن الشأن لا يقدرُونَ ﴿على شيء من فضل الله﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما نكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطاباً لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾⁽¹⁾ ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. روي: أن رسول الله ﷺ بعث جعفرًا رضي الله عنه في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له. فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: اثنان لنا في الوفاة على رسول الله ﷺ فأنن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهبيا لوقعة أحد فلما راوا ما بالمسلمين من خصاصة استأننوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا بأموال لهم فأسروا بها المسلمين. فانزل: ﴿الله الذين أتيناكم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يؤتون أجرهم مرتين فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين. وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كاجرهم فما فضلكم علينا فنزلت⁽²⁾. وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرى: لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم ولأن يعلم بإدغام النون في الياء، ولين يعلم بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء، وعن الحسن: ليلا يعلم بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام وقيل: في وجهها حذف همزة وأن وادغمت نونها في لام لا فصار للا ثم أبليت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجر الفتح كما أنشد:

أريد لا أنسى نكرها

(1) سورة القصص، الآية: 54.

(2) رواه الطبري في تفسيره. وأخرجه الزيلعي 419/3.

(3) رواه الثعلبي والواحدي وابن مروييه والزيلعي 420/3.

(4) قال أحمد: ولقد استدلت به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي، وليس بقوي؛ لأنه غير المقصود.

(5) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3460)، وأخرجه ابن ماجه المقدمه، باب: فيما نكرت الجهمية

(الحديث رقم: 188)، وأخرجه أحمد في المسند 46/6.

(6) رواه الدارقطني في السنن 316/3 (الحديث رقم: 259).

(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 423/3.

الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجنابة فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه.

فإن قُلْت: هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ؟ قُلْتُ: نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج. ومكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ أو مكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع. نحو أن يقول: أنت علي كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي أو أم امرأتي أو بنتها. فهو مظاهر وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه. وقال الشافعي: لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها. وهو قول قتادة والشعبي، وعن الشعبي: لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات والوداد بون المرضعات. وعن بعضهم: لا بد من نكر الظهر حتى يكون ظهاراً.

فإن قُلْت: فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن تراقه؟ قُلْتُ: لها ذلك وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسها ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأنه يضرب بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع فيلزم إيفاء حقها.

فإن قُلْت: فإن مس قبل أن يكفر! قُلْتُ: عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر. لما روي أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله ﷺ: ظهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها. فقال عليه الصلاة والسلام: «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر»⁽⁴⁾.

فإن قُلْت: أي: رقية تجزي في كفارة الظهار؟ قُلْتُ: المسلمة والكافرة جميعاً؛ لأنها في الآية مطلقة. وعند الشافعي: لا تجزي إلا المؤمنة لقوله تعالى: في كفارة القتل: «فتحرير رقبة مؤمنة»⁽⁶⁾ ولا تجزي أم الولد والمديبر والمكاتب الذي أدى شيئاً فإن لم يؤد شيئاً، جاز. وعند الشافعي لا يجوز.

رَبِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَآكُنَا ذَلِكُمْ فَوَعَدْتَهُ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا مَمْلُُونٌ حَيَّرَ

(٢)

«الذين يظاهرون منكم» في منكم توبيخ للعرب وتهجين لعاباتهم في الظهار؛ لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة بون سائر الأمم «ما هن أمهاتهم» وقرئ: بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود: بأمهاتهم وزيادة الباء في لغة من ينصب، والمعنى: أن من يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين. «إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم» يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن الوداد وغيرهن ملحقات بهن لدخولهن في حكمهن، فالمرضعات أمهات؛ لأنهن لما أرضعن نخلن بالرضاع في حكم الأمهات. وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين؛ لأن الله حرم نكاحهن على الأمة فنخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة؛ لأنهن لسن بأمهات على الحقيقة ولا بدخلات في حكم الأمهات. فكان قول المظاهر منكراً من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزوراً وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق «وإن الله لعفو غفور» لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه، ثم قال: «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا» يعني: والذين كانت عانيتهم أن يقولوا هذا القول⁽¹⁾ المنكر فقطعوه بالإسلام ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرر رقبة، ثم يماس المظاهر منها، لا تحل له مامستها إلا بعد تقديم الكفارة. ووجه آخر ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا⁽²⁾؛ لأن المتدارك للامر عائد إليه ومنه المثل: عاد غيث على ما أفسد أي: تداركه بالإصلاح. والمعنى: أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالها كما كانت قبل الظهار. ووجه ثالث وهو أن يراد بما قالوا⁽³⁾ ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه نحو ما نكرنا في قوله تعالى: «وورثه ما يقول»⁽⁴⁾ ويكون المعنى ثم يريدون العود للتماس، والمماساة الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها لشهوة «نلكم» الحكم «توعظون به» لأن

= الظهار، وتسميته عوداً، والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام، فإيقاعه بعد الإسلام عود إليه، وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار.

(4) سورة مريم، الآية: 80.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (الحديث رقم: 2221)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 1199)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3458)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 2065).

(6) سورة النساء، الآية: 92.

(1) قال أحمد: وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرد قول الظهار في الإسلام لا غير، والقول بوجوبها بمجرد الظهار، قول مجاهد من التابعين، وسيفان من الفقهاء.

(2) قال أحمد: وهذا التفسير منزل، على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار، وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار، ولا يخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التي نكرها العلماء.

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يقوي القول، بأن العود الوطء نفسه؛ لأن حاصله ثم يعودون للوطء، وظاهر قولك: عاد للوطء فعله، وحمل العود على الوطء من جملة أتوال مالك رحمه الله، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له ما أخذ من هذه الآية، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار، فحمل العود على =

عدداً لم يفته منه شيء ﴿ونسوه﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبهوا لم يبألوا به لضرورتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَتْلَمَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ لِمَنْ لَا هُوَ رَايُهُمْ وَلَا حَسْبُهُ إِلَّا هُوَ سَادِمُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ما يكون﴾ من كان التامة. وقرئ: بالياء والياء والياء على أن النجوى تانيثها غير حقيقي ومن فاصلة أو على أن المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة أي: من نجوى ثلاثة نفر أو موصوفة بها أي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى: ﴿خلصوا نجياً﴾⁽¹⁾ وقرأ ابن أبي عمير ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأن نجوى يدل عليه أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قُلْتَ: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قُلْتَ: فيه وجهان أحدهما: أن قوماً من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايبة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقليل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ﴿ولا اننى من﴾ عندهم ﴿ولا أكثر إلا﴾ والله معهم يسمع ما يقولون. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أتري أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله. وصدق؛ لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأن كونه عالمًا بغير سبب ثابت له مع كل معلوم. والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالفين للشورى والمندوبين لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة محتبابة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي التجارب وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فنكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ولا أننى من ذلك فدل على الاثنين والأربعة. وقال: ولا أكثر فدل على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا اتجوا. وقرئ: ﴿ولا اننى من ذلك ولا أكثر﴾ بالنصب على أن لا لنفي الجنس، ويجوز أن يكون ﴿ولا أكثر﴾ بالرفع

فإن قُلْتَ: فإن اعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس قُلْتَ: عليه أن يستأنف نهار أمس أو ليلاً ناسياً أو عامداً عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف. ومحمد عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المس يفسد الصوم استقبل وإلا بنى.

فإن قُلْتَ: كم يعطي المسكين في الإطعام؟ قُلْتَ: نصف صاع من بز أو صاعاً من غيره. عند أبي حنيفة وعند الشافعي مداً من طعام بلده الذي يقات فيه.

فإن قُلْتَ: ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما نكر عند الكفارتين! قُلْتَ: اختلف في ذلك فعند أبي حنيفة أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك نكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله وعند غيره لم يذكر للدلالة على أن التكفير قبله ويعدده سواء.

فإن قُلْتَ: الضمير في أن يتمسأ إلام يرجع؟ قُلْتَ: إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها.

﴿وتلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصديقوا ﴿بإله ورسوله﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم. ﴿وتلك حدود الله﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿وللكافرين﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿عذاب اليم﴾.

مَنْ لَرَّ يَحِدْ فَوِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَآكَ فَمَنْ لَرَّ يَسْطِطْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيْنًا ذَلِكَ لِتُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَلَذَّ حُدُودَ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَوَدَّ أُنزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾

﴿يحادون﴾ يعاونون ويشاقون ﴿كبتوا﴾ اخنوا واهلكوا ﴿كما كبت﴾ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وللكافرين﴾ بهذه الآيات ﴿عذاب مهين﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

يَوْمَ يُنْفِثُ اللَّهُ سَحَابًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَمَّا عِيلُوا أَخَصَّنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ ﴿١﴾

﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم أو بمهين أو بإضمار انكر تعظيماً لليوم ﴿جميعاً﴾ كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول حي جميع ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ تخجلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أحصاء الله﴾ لحاظ به

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الْمُنتَهِنِينَ لِيُخْبِرُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَيَسَّأَرَهُمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾.

﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بليل قوله تعالى: ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم فكانها منه ليغيب الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾.

فإن قلت: كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجوهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا. فقال: لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله أي: بمشيئته. وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن وليحزن.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْأَلُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْحَرُوا
بِسَجِّ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْآيَةَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يَسْمَعُ سَوَاقِدَ خَيْرٍ ﴿١٨﴾.

﴿تفسحوا في المجالس﴾ توسعوا فيه، وليفسح بعضكم عن بعض. من قولهم: أفسح عني أي: تنح. ولا تتضاموا. وقرئ: تفاسحوا. والمراد: مجلس رسول الله وكانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: مقاعد للقتال. وقرئ: في المجالس قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ: في المجلس بفتح اللام وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿يفسح الله لكم﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك. ﴿انفشروا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا. ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة⁽³⁾ ﴿درجات﴾. ﴿بما تعملون﴾ قرئ: بالتاء والياء. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد

معطوفاً على محل ﴿لا﴾ مع ﴿اننى﴾ كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة، ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل من نجوى كأنه قيل: ما يكون أننى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفاً على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أننى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر بالياء ومعنى كونه معهم أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه فكانه مشاهدم ومحاضرم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم يبنثهم على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا هُوُوا عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ
بِالْآثِرِ وَالْمُنُونِ وَمَمَّوَيْتِ الرَّشُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَكُ مَا لَمْ يَحْكُ بِه
اللَّهُ وَيَعُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَسْأَلُونَهَا
فَيَسْأَلُ الْمَمِيءُ ﴿١٩﴾.

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعيانهم إذا راوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم. فنهاهم رسول الله ﷺ فعابوا لمثل فعلهم وكان تناجيبهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعضية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعنوان بكسر العين ومعصيات الرسول.

﴿حيكوك بما لم يحيك به الله﴾ يعني: أنهم يقولون: في تحيكك السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾⁽¹⁾ ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ما له إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول. فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ عذاباً.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّوْا بِالْآثِرِ وَالْمُنُونِ وَمَمَّوَيْتِ
الرَّشُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَأَتُوا اللَّهَ الْبُرْجَةَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بالسنتهم ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيبهم فلا تشبهوا بأولئك في تناجيبهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والقوى﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجأ اثنان نون صاحبهما فإن ذلك يحزنه». وروي: «نون الثالث»⁽²⁾. وقرئ: فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا تنجيتم فلا تنتجوا.

(1) سورة النحل، الآية: 59.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (الحديث رقم: 6290) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين نون الثالث بغير رضاه (الحديث رقم: 37 - 2184).

(3) قال أحمد: في الجزء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل؛ لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان =

= الرفع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا، فلما كان الممثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جوزي على تواضعه برفع الدرجات، كقوله: من تواضع لله رفعه الله، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله تعالى.

بعدها. وقيل: هي منسوخة بالزكاة.

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُدْمَمُوا بَيْنَ يَدَيْ جِبْرِيكَرَ صَدَقْتُمْ فَاذْ تَرْتَمَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبَحُوا الصَّلَاةَ وَهَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَمَلَّوْنَ ﴿١٧﴾.

﴿الشفقتم﴾ اخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴿فإنذا لم تفعلوا﴾ ما أمرتم به وشق عليكم و ﴿تاب الله عليكم﴾ وعذرکم ورخص لكم في أن لا تفعلوه. فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿بما تعملون﴾ قرئ: بالتاء والياء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب الله﴾ (10) ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿ما هم منكم﴾ يا مسلمون ﴿ولا منهم﴾ ولا من اليهود كقوله تعالى: ﴿من يذب بينك وبين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ (11) ﴿ويحلفون على الكذب﴾ أي: يقولون والله إننا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام. ﴿وهم يعلمون﴾ أن المحلوف عليه كذب بحت.

فإن قلت: فما فائدة قولهم وهم يعلمون؟ قلت: الكذب أن يكون الخير لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم. فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغموس، وقيل: «كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان»، يدخل ابن نبتل وكان أزرق. فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل. فقال عليه السلام: «فعلت». فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه» (12) فنزلت.

مائة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة» (1). وعنه عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (2). وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» (3) فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: «خير سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه» (4). وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» (5). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم، وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبير: العلم نكر فلا يحبه إلا نكورة الرجال.

يَأْتِيكَ الَّذِينَ مَآسَرًا إِذَا نَسِيتُمْ أَرْسُلُوا فَرَدُّوا بَيْنَ يَدَيْ جِبْرِيكَرَ صَدَقْتُمْ إِنَّكَ سَرٌّ مُكْرٌ وَأَطْمَرٌ فَإِنْ تَرْتَمَدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَوْرٌ رَجِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿بين يدي نجواكم﴾ استعارة ممن له يدان. والمعنى: قبل نجواكم. كقول عمر: «من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللثيم» (6) يريد: قبل حاجته ﴿تلکم﴾ التقييم ﴿خير لكم﴾ في بينكم ﴿وأظهر﴾ لأن الصدقة طهرة. روي «أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ بما يريدن حتى ملوه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمروا بأن من أراد أن ينجاه قدم قبل مناجاته صدقة. قال علي رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «كم قلت حبة أو شعيرة». قال: إنك لزهيد. فلما راوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا وكفوا، أما الفقير فلعسرته، وأما الغني فلشحه» (7). وقيل: كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي رضي الله عنه: «إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت برهم» (8). قال الكلبي: «تصدق به في عشر كلمات سألهن رسول الله ﷺ» (9). وعن ابن عمر: كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطائه الراية يوم خيبر، وآية النجوى، قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي

(5) رواه ابن عبد البر في كتاب: العلم من غير سند. والزليعي 429/3.

(6) لم يخرج الزليعي.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، ومن سورة المجادلة (الحديث رقم: 3300)، وابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6941).

(8) رواه الحاكم في المستدرک 482/2.

(9) قال الزليعي لم أجده 431/3.

(10) سورة المائدة، الآية: 60.

(11) سورة النساء، الآية: 143.

(12) رواه الحاكم في المستدرک 482/2 وأحمد في المسند 267/1.

(1) أخرجه أبو يعلى بلفظ فضل العالم على العابد سبعين درجة (الحديث رقم: 856).

(2) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث من طلب العلم (الحديث رقم: 223)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم (الحديث رقم: 3641)، وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل التفقه على العبادة (الحديث رقم: 2682).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: نكر الشفاعة (الحديث رقم: 4313)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طلب العلم فصل في فضل العلم وشره (الحديث رقم: 1707).

(4) مسند الفريوس.

يعني: انهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة.

أَسْتَوَوْا عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ الْكَيْفُ فَاسْتَوَوْا وَكَرَّ اللَّهُ أَوْلِيَّكَ جَزْبَ الْكَيْفِ الْآلَا
إِنَّ جَزْبَ الْكَيْفِ كَمْ الْكَيْفِ (١٤).

﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إذا جمعها وساقها غالباً لها، ومنه كان أحونياً نسيج وحده وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق أي: ملكهم ﴿الشیطان﴾ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه. ﴿فانساهم﴾ أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بالسننهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ الَّذِينَ يَمُنُونَ بِاللهِ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْيَانِ (١٥).

﴿في الإنلین﴾ في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحداً أذل منهم.

كَتَبَ اللهُ لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا رَسُولُكَ إِنَّكَ اللهُ قَوْلُ عَزِيزٍ (١٦).

﴿كتب الله﴾ في اللوح ﴿لأغلبن انا ورسلي﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
اللهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَمِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٧).

﴿لا تجد قوما﴾ من باب التخجيل خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملاسته والتوصية بالتصلب في مجانية اعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ ويقوله: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاودة أعدائه بل هو الإخلاص بعينه ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أثبتته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم ﴿وأيدهم بروح منه﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ (١٨).

﴿عذاباً شديداً﴾ نوعاً من العذاب مفاقماً ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعني: أنهم كانوا في الزمان الماضي المتداول على سوء العمل مصرين عليه أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

أَعْتَدُوا لَأِيمَانِهِمْ جَهَنَّمَ فَاصْدُوعًا سَبِيلَ اللهِ فَهَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٩).

وقرى: ﴿إيمانهم﴾ بالكسر أي: اتخذوا إيمانهم التي حلفوا بها أو إيمانهم الذي أظهره ﴿جنة﴾ أي ستره يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم.

﴿فصنوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عن سبيل الله﴾ وكانوا يبتطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

أَنْ تَقِيَّ عَنِّي أَمْؤُلُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَحْسَبُ أَنَّهُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٢٠).

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصددهم كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب﴾ ﴿من الله﴾ من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ قليلاً من الاغناء. روي أن رجلاً منهم قال: لننصرن يوم القيامة بانفسنا وأموالنا وأولادنا.

يَوْمَ يَبْعَثُ اللهُ جَيْمًا يُقْبِرُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْفَرُونَ لَكُمْ وَيَسْبِرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
نُفْعٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٢١).

﴿فيحلفون﴾ لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا على ذلك ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وإن لهم نفعاً في ذلك نفعاً عن أرواحهم واسترجار فوائد نبوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونتهم عليه وأن ذلك بعد موتهم ويعتهم باقي فيهم لا يضمحل. كما قال: ولو ربوا لعابوا لما نهوا عنه. وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بثنائه نطقاً مكشوفاً كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١) نظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، ونحو حساباتهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقبسوا من نورهم لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عن ذلك: يختم على أفواههم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾

ثلاثة أبيات على بعير ما شاقوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأنزعنا إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة⁽⁵⁾.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَدْرٍ لِأَوْلَى الْحَشْرِ مَا
ظَنَّتُمْ أَنْ يَمُوتَ جَوْشَاءً وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَمَهُمُ اللَّهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُجْرُونَ يُؤْتِمِرُ بَأَيْدِهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاتَّبِعُوا أَوْلَى الْأَمْرِ ﴿٢﴾

اللام في ﴿أول﴾ الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾⁽⁶⁾ وقولك جثته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى ﴿أول الحشر﴾: أن هذا أول حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجماع عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأن الحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أن الحشر ههنا يعني الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقاتلهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم وثيقة حصونهم وكثرة عددهم وعنتهم وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فاتاهم﴾ أمر الله ﴿من حيث لم يحتسبوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب والهجم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسابهم ومنه اتاهم الهلاك.

فإن قلَّت: أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلَّت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك:

وظنوا أن حصونهم تمنعهم

وقرى: ﴿فاتاهم الله﴾ أي: فاتاهم الهلاك. و﴿الرعب﴾

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قوماً»⁽¹⁾. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا حنيفة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله «أوفعلته؟» قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته»⁽²⁾. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»⁽³⁾. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحمة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين ركباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك. فقتلناهم بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ففسد عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم. فندبوا على الأرزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فآبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند /3 438

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا.

(1) رواه ابن مردويه في تفسيره وفي مسند الفردوس. والزيلعي /3 432

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 433/3.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 433/3.

(4) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحد في تفسيرهم 434/3.

اللين. قال ذو الرمة:

كأن قتودي فوقها عش طائر على لينة سرقاء تهفو جنوبها
وجمعها لين. وقرئ: قومًا وعلى أصلها وفيه وجهان: أنه
جمع أصل كرهن ورهن، أو اكتفى فيه بالضممة عن الواو
وقرئ: قائمًا على أصوله ذهابًا إلى لفظ ما ﴿فبإذن الله﴾
فقطعها بإذن الله وأمره ﴿وليخزي الفاسقين﴾ وليذل
اليهود ويغيظهم إن في قطعها، وذلك أن رسول الله ﷺ
حين أمر أن تقطع نخلمهم وتحرق قالوا: يا محمد قد كنت
تنهي عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها،
فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء⁽²⁾ فنزلت. يعني:
أن الله أنن لهم في قطعها ليزيكم غيظًا ويضاعف لكم
حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا،
ويتصرفون فيها ما شاؤوا. واتفق العلماء أن حصون الكفرة
وبيارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى
بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو
غير مثمرة، وعن ابن مسعود: قطعوا منها ما كان موضعًا
للقاتل.

فإن قُلت: لم خصت اللينة بالقطع؟ قُلت: إن كانت من
الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من
كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق. وروي أن رجلين
كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما
رسول الله ﷺ فقال: هذا تركتها لرسول الله. وقال: هذا
قطعها غيظًا للكفار⁽³⁾. وقد استدل به على جواز الاجتهاد
وعلى جوازه بحضرة الرسول ﷺ؛ لأنهما بالاجتهاد فعلا
نلك. واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلِكُلِّ أُنثَىٰ فَكَافٍ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦﴾.

﴿أفاء الله على رسوله﴾ جعله له فيأ خاصة.
والإيجاف من الوجيف، وهو: السير السريع، ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات: «ليس البر
بإيجاف الخيل ولا بإيضاع الإبل على هينتكم»⁽⁴⁾. ومعنى
﴿فما أوجفتكم عليه﴾: فما أوجفتكم على تحصيله وتغنمه
خيلاً ولا ركاباً ولا تعبت في القتال عليه وإنما مشيتم إليه
على أرجلكم. والمعنى: أن ما حوّل الله رسوله من أموال
بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن
سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله
على أعدائهم، فالأمر فيه مفروض إليه يضعه حيث يشاء

الخوف الذي يربع الصدر أي: يملؤه. وقذفه إثباته وركزه.
ومنه قالوا في صفة الأسد مقنف كأنما قنف باللحم قنفًا
لاكتنازه وتداخل أجزائه. وقرئ: يخربون ويخربون مثقلًا
ومخففًا والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم،
والخرية الفساد. كانوا يخربون بواطنها والمسلمون
ظواهرها لما أراد الله من استئصال شافتهم وأن لا يبقى
لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخريب
حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسوا بها أفواه الأرزقة،
وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائهم مساكن للمسلمين،
وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب
والساج الملبح، وأما المؤمنون فداعيتهم إزالة متحصنهم
ومتمنعهم وأن يتسع لهم مجال الحرب.

فإن قُلت: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قُلت:
لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به
وكلفوهم إياه. ﴿فاعتبروا﴾ بما نبر الله ويسر من أمر
إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل: وعد
رسول الله ﷺ المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم
بغير قتال فكان كما قال يعني: أن الله قد عزم على تطهير
أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم
أموالهم.

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْنَا فِي آذَانِكُمْ وَكَمْ فِي
الْعَذَابِ عَذَابٌ لَّئِيمٌ ﴿٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَأْمًا وَاللَّهُ رَسُولُهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٨﴾.

فلولا أنه كتب ﴿عليهم الجلاء﴾ واقتضت حكمته ودعاه
إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت ﴿لعذبهم في
اللعنات﴾ بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿ولههم﴾
سواء أجلا أو قتلوا ﴿عذاب النار﴾ يعني: إن نجوا من
عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

مَا قَلَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَضَعْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُمُومِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ
وَالْيُخْرِي الْفَارِغِينَ ﴿٩﴾.

﴿من لينة﴾ بيان لما قطعتم ومحل ما نصب بقطعتم
كانه قال: أي شيء قطعتم وأنث الضمير الراجع إلى ما في
قوله: ﴿أو تركتموها﴾ لأنه في معنى اللينة، واللينة النخلة
من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية
وهما أجود النخيل⁽¹⁾. وبأؤها عن أو قلبت لكسرة ما قبلها
كالدائمة وقيل: اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من

(3) قال الزيلعي غريب، وساق حديث نحوه عند البيهقي في دلائل
النوبة وآخر عند الواحدي في المغازي 3/439.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: أمر النبي ﷺ عند الإفاضة
(الحديث رقم: 1671) وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: الدفعة من
عرفة (الحديث رقم: 1920).

(1) قال أحمد: والظاهر أن الإذن عام في القطع والترك؛ لأنه جواب
الشرط المضمحل لهما جميعاً، ويكون التعليل بإجزاء الفاسقين لهما
جميعاً، وأن القطع يحسره على ذهابها، والترك يحسره على
بقائها للمسلمين ينتفعون بها، فهم في حسرتين من الأمرين
جميعاً.

(2) أخرجه أبو داود في المراسيل باب: في قطع الشجر (الحديث رقم:
346).

يعني أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت. لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها.

مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَارِثُوهُ وَارِثُوهُ
وَأَلْيَسَ لِلَّذِينَ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ
وَمَا مَأْتِكُمْ الرِّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ يُبْتَغَى فَيَأْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَرِسْوَاتِكَ اللَّهُ رِسْوَاتِكَ
هُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿٨﴾.

بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما آفأه الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة. والدولة والنولة بالفتح والضم وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان أي: يدور من الجد يقال: دالت له الدولة، وأدبل لفلان. ومعنى قوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنمية؛ لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة وكانوا يقولون: من عزيز. والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة واثرة جاهلية،

ومنه قول الحسن: اتخنوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل: الدولة ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف يعني: كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء. والدولة بالفتح بمعنى التداول أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولاً بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء. وقرئ: دولة بالرفع على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان نو عسرة يعني: كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء. ﴿وما تاكم الرسول﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فخنوه وما نهاكم﴾ عن أخذن منها ﴿فانتهوا﴾ عنه ولا تتبعه أنفسكم ﴿واتقوا الله﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف رسوله والأجود أن يكون عاماً في كل ما أتى رسول الله ﷺ ونهى عنه

وأمر للفيء داخل في عمومه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لقي رجلاً محرماً وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: اقرأ علي في هذا آية من كتاب الله. قال: نعم فقرأها عليه.

﴿للفقراء﴾ بدل من قوله: ﴿لذي القربى﴾ والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من الله والرسول^(١) والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ أن الله عز وجل

(١) قال أحمد: مذهب أبي حنيفة: أن استحقاق نوي القربى لسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنيائهم، وقد أغلظ الشافعي رضي الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب، بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة، ولم يشترط الحاجة، وعدم اعتبار القرابة مضادة معادة، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة، بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة نكرهم في خمس الفيء والغنيمة، أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم اتبع هذا العذر بان قال: لا ينبغي أن يعبر به، فإن صيغة الآية ناصة على الاستحقاق لهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على عظم أضرارهم، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم، فقد عطل فحوى الآية، ثم استعظم الإمام وقع ذلك عليهم؛ لأنهم يذهبون إلى اشتراط الإيمان في رتبة الظهار زيادة على النص، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس؛ لأنه يستنتج وليس من شأنه الثبوت بالقياس، قال: فكنك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما نكروه بغرض القرب، فاما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالجمعة، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه، انتهى كلام الإمام، وإنما أوردته ليعلم إن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة عن الآية، فلنك لزمه أن تكون زيادة على النص، فاما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البديل المنكور في الآية، فإنما يسلك معه في واد غير هذا، فيقول: هو بدل من المساكين لا غير، وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم، ويحمل الأغنياء على إيثارهم،

= وأن لا يجنوا في صنوبرهم حاجة مما أوتوا، فلما قصد ذلك، وقد فصل بين نكرهم وبين ما يقصد من نكر صفاتهم، بقوله: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ إلى قوله: ﴿شديد العقاب﴾ طري نكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبجلة منها، وهي: الفقر لتشهد النظرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر، ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك، وهي: إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين، وابتغائهم الفضل والرضوان من الله، ونصرهم الله ورسوله، وصنقتهم في نياتهم إلى آخر ذلك، فهذا هو الذي يرشد إليه السياق مؤيداً بالأصل، فإن نوي القربى نكروا بصفة الإطلاق، فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد، وما نكروا من صرف ذلك إلى المساكين يكفي في إقامة وزن الكلام، فيبقى نوي القربى على أصل الإطلاق، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل، يخلص بالجملة الأخيرة؛ لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقى ما تقدمهم على الأصل، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبديل، وكل ما سوى هذا مع أنه لو جعل بدلاً من نوي القربى مع ما بعده، لم يكن إبداله من نوي القربى إلا بدل بعض من كل، فإن نوي القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء، ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلاً للشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، فيلزم أن يكون هذا البديل محسوساً بالنعوين المنكورين في حالة واحدة، وبذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين وكل منهما يتقاضى ما يبايه الآخر، فهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى، وعليه أعرب الزجاج الآية، فجعله بدلاً من المساكين خاصة، والله تعالى الموفق للصواب.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ عطف أيضاً على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد وقيل: التابعون بإحسان **﴿غلا﴾** قرئ: غمراً وهما الحقد **﴿إخوانهم﴾** للذين بينهم وبينهم اخوة الكفر ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَتَخْرُجُنَّ مَعَكُمْ وَلَا تَطِيعُ بِيكُمُ أَمَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ بِيَدِهِمْ لَكَبِيرُونَ ﴿١٧﴾

﴿ولا تطيع فيكم﴾ في قتالكم أحداً من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصر **﴿لكنانبون﴾** أي: في مواعيدهم لليهود وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيوب.

لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُؤَلِّقَنَّ الْوَيْلَ لَكَ لَا يَصُرُونَكَ ﴿١٧﴾ لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾

﴿إن قلت: كيف؟ قيل:

﴿ولئن نصرهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ **﴿قلت:** معناه ولئن نصرهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: **﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾** (2) وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزم المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي: يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو لينهزم اليهود ثم لا ينفعهم نصره المنافقين **﴿رهبة﴾** مصدر رهب المبنى للمفعول كأنه قيل: أشد مرهوبة. وقوله:

﴿في صدورهم﴾ دلالة على نفاقهم يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله. **﴿إن قلت:** كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد! **﴿قلت:** معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله. ويجوز أن يريد أن اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قوماً أولى بأس ونجدة فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم. **﴿لا يفقهون﴾** لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه وحق خشيته.

لَا يَتَذَكَّرُكُمْ جِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُعَسَّرَةٍ مَرَّ مِنْ رِوَالِهِ جُدُرٌ بَأْسُهُمْ

أخرج رسوله من الفقراء في قوله: **﴿وينصرون الله ورسوله﴾** وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل. **﴿أولئك هم الصادقون﴾** في إيمانهم وجهادهم.

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُورُوا وَيُؤَمِّرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٨﴾

﴿والذين تبوءوا﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار.

﴿إن قلت: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال تبوءوا الإيمان؟ **﴿قلت:** معناه تبوءوا الدار، وإخلصوا الإيمان كقوله: علفتها تبنياً وماءً بارداً، أو جعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتمكهن منه واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فاقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه، أو سمي المدينة؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان. **﴿ومن قبلهم﴾** من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم **﴿ولا يجنون﴾** ولا يعلمون في أنفسهم **﴿حاجة مما أوتوا﴾** أي: طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الشيء وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة. يقال: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته. يعني: أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه **﴿ولو كان بهم خصاصة﴾** أي: خلة وأصلها خصاص البيت وهي فروجه. والجملة في موضع الحال أي: مفروضة خصاصتهم. وكان رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبا بجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة. وقال لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة»، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة. فقالت الأنصار: بل تقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا تشاركهم فيها فنزلت. الشح بالضم والكسر وقد قرئ: بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل: فهو المنع نفسه ومنه قوله تعالى: **﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾** (1) **﴿ومن يوق شح نفسه﴾** ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه **﴿فأولئك هم المفلحون﴾** الظافرون بما أرادوا، وقرئ: ومن يوق.

(2) سورة الزمر، الآية: 65.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والامارة والفن، باب: في خير

التنضير (الحديث رقم: 3004).

يَبْهَرُ شَرِيذًا تَحْسَبُهُ جِيمًا وَقُلُوبُهُمْ شَقٌّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمُوتُونَ ﴿٧﴾.

﴿لا يقاتلونكم﴾ لا يقرون على مقاتلتكم ﴿جميعاً﴾ مجتمعين متساندين يعني: اليهود والمنافقين ﴿إلا﴾ كائنين ﴿في قرى محصنة﴾ بالخنادق والدروب ﴿أو من وراء جدر﴾ نون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله الرعب في قلوبهم، وأن تاييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر بالتخفيف، وجدار وجدر وجدرهما الجدار ﴿باسهم بينهم شديد﴾ يعني: أن لباس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم تلك لباس والشدة؛ لأن الشجاع يجبن والعزيز ينزل عند محاربة الله ورسوله ﴿تحسبهم جميعاً﴾ مجتمعين نوري ألفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ متفرقة لا ألفة بينها يعني: أن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُ آذَانٍ وَكَلِ أَمْرِهِمْ وَكَلِ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٧﴾
﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب.

فإن قلت: بم انتصب ﴿قريباً﴾؟ قلت: بمثل على كوجود مثل أهل بدر قريباً ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ من قولهم: كلا وبيل وخيم سيء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ثم متاركتهم لهم وإخلاقهم.

كَتَلِ الَّذِينَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفَرُ لَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرَيْتُمْ يَنْكِلَ إِلَيَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٨﴾ فَكَانَ عَيْتُهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿٧﴾.

﴿كمثل للشيطان﴾ إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشاً يوم بدر وقوله لهم: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ إلى قوله: ﴿إني بريء منكم﴾ وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها على أنه خبر إن ﴿وفي النار﴾ لغو وعلى القراءة

(1) قال أحمد: وقد قيل في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ حتى قيل: إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه، كقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ فمعنى رب مهنا: هو معنى كم وأبلغ منه قول القائل:

قد أترك القرن مصفراً أتامله

إلا أن الزمخشري فر من هذا المعنى؛ لأن الواقع قلة النفوس الناطرة في أمر المعاد، فنزله على معنى يطابق الواقع، ويمكن أن =

المشهورة الظرف مستقر ﴿خالدين فيها﴾ حال. وقرئ: أنا بريء وعاقبتكما بالرفع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَسْتَظِرَّ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾.

كرز الأمر بالتقوى تأكيداً ﴿اتقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل، واتقوا الله في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد. والغد يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له⁽¹⁾. وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: كان لم تغن بالأمس. يريد: تقريب الزمان الماضي وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كان الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد.

فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد؟ قلت: أما تنكير النفس فاستقلال للنفس النواظر فيما قدم للآخرة. كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨﴾ لَا يَسْتَوِي أَحْسَبُ النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩﴾.

﴿نسوا الله﴾ نسوا حقه فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان⁽²⁾ حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، أو فإراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لا يردد إليهم طرفهم﴾. هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة. فمن حقه أن يعلموا ذلك وينهوا عليه كما تقول لمن يعق إباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنته بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية. على أن المسلم لا يقتل بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

لَوْ أَرَأَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا لَوْلَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا مِنَ الْخَالِقِينَ ﴿٩﴾

= يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التذكير للنفوس المأمورات بالنظر في المعاد، وأنه ما من نفس إلا ومن حقه أن تمتثل هذا الأمر، وهو نظر حسن، فإن الفعل المسند إلى النفس مهنا ليس وقوع النظر حتى يستقل، وإنما هو طلب النظر، وهو عام التعلق بكل نفس، والإنصاف أن ما نكره الزمخشري أمكن واحسن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: بل خلق فيهم النسيان.

باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة. كأنه قيل: ووبوا قبل كل شيء كفركم وارتدناكم يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ورتكم كفاراً. ورتكم كفاراً سبق المضارع عندهم وأولها لعلهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها بونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه.

لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قربابتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذي توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾. الآية. فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرض منكم غداً خطأ رأيهم في موالاته الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أولاً ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاته ثانياً ليريهم أن ما أتمنوا عليه من أي جهة نظرت فيه وجنته باطلاً. قرئ: يفصل ويفصل على البناء للمفعول ويفصل ويفصل على البناء للفاعل. وهو الله عز وجل. ويفصل ويفصل بالنون.

لَمَّا كَانَتْ لَكُمْ أَسْرَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِتْرَابِ الْوَالِدِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَبِئْسَ مَا بَرَأْنَا مِنْكُمْ إِنَّا بَرَأْنَاكُمْ وَمِمَّا تَبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرَفًا بِكُمْ وَإِنَّا بِبَيْتِكُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ أَهْدَاءٌ حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا قَوْلَ الْإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَفِرَّكَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْتَضِنَا لَكَ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرُوبُ الْكَرِيمُ ﴿٥﴾

وقرئ: أسوة وأسوة وهو اسم المؤتسى به. أي: كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن يؤتسى به ويتبع أثره. وهو قولهم لكفار قومهم: ما قالوا حيث كاشفوههم بالعداوة وقشروا لهم العصا وأظهروا البغضاء والمقت وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وأمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاته والبغضاء محبة والمقت مقة، فافصحوا عن محض الإخلاص. ومعنى ﴿كفرونا بكم﴾ وبما تعبدون من نون الله أننا لا نعتد بشانكم ولا بشأن آلهتكم وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قُلْتُمْ: مم استثنى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؟ قُلْتُمْ: من قوله: ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لأنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم: الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها.

فإن قُلْتُمْ: فإن كان قوله: ﴿لَا اسْتَغْفِرُونَ لَكَ﴾ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فمال بال قوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾. قُلْتُمْ: أراد استثناء

إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَىٰ بِمَا آخُفْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُ وَمَنْ يَمْلِكُ مِنْكُمْ فَمَدَّ مَثَلٌ سَوَاءٌ الشَّرِّيلِ ﴿٦﴾

عدى اتخذ إلى مفعوليه وهما: ﴿عدوي﴾ ﴿أولياء﴾ والعدو فعلول من عدا كعفو من عفا، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد.

فإن قُلْتُمْ: ﴿تلقون﴾ بم يتعلق؟ قُلْتُمْ: يجوز أن يتعلق بلا تتخونوا حالاً من ضميره وبأولياء صفة له، ويجوز أن يكون استئنافاً.

فإن قُلْتُمْ: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هو له فإن الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمؤدة؛ قُلْتُمْ: ذلك إنما اشترطوه في الأسماء نون الأفعال. لو قيل: أولياء ملقين إليهم بالمؤدة على الوصف لما كان بد من الضمير البارز والإلقاء عبارة عن إيصال المؤدة والإقضاء بها إليهم. يقال: ألقى إليه خراشي صدره، وأقضى إليه بقشوره. والباء في ﴿بالمؤدة﴾ إما زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محنوف معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المؤدة التي بينكم وبينهم. وكذلك قوله: تسرون إليهم بالمؤدة. أي: تفضون إليهم بموتكم سراً، أو تسرون إليهم أسرار رسول الله بسبب المؤدة.

فإن قُلْتُمْ: ﴿وقد كفروا﴾ حال مماذا؟ قُلْتُمْ: إما من ﴿لا تتخونوا﴾ وإما من ﴿تلقون﴾ أي: لا تتولروهم أو توالونهم وهذه حالهم. و﴿يخرجون﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم أو حال من كفروا و﴿إن تؤمنوا﴾ تعليل ليخرجون أي: يخرجونكم لإيمانكم. و﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بلا تتخونوا. يعني: لا تتولروا أعدائي إن كنتم أوليائي. وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محنوف لدلالة ما قبله عليه. و﴿تسرون﴾ استئناف ومعناه: أي طائل لكم في أسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما. وأنا مطلع رسولي على ما تسرون. ﴿ومن يفعله﴾ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدري: لما جاءكم أي: كفروا لأجل ما جاءكم. بمعنى: أن ما كان يجب أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سبباً لكفرهم.

إِنْ يَنْفَرَكُم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ آيَاتِهِمْ وَالَّذِينَ يَلْمِزُوا رُودًا لَوْ تَكَفَّرُونَ ﴿٧﴾

﴿إن يثقفوكم﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم. ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ خالصي العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وييسطوا إليكم آياتهم واستنهم بالسوء﴾ بالقتال والشتم وتمنوا لو ترتنون عن دينكم فإن مواد أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغلطة لأنفسكم. ونحوه قوله تعالى: ﴿لا يالونكم خبالاً﴾.

فإن قُلْتُمْ: كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ثم قال: ﴿وودوا﴾ بلفظ الماضي؟ قُلْتُمْ: الماضي وإن كان يجري في

لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُتِلَّوْا فِي الَّذِينَ دَرَّ بِرَجْرِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ
أَنْ تَزُورَهُمْ وَتَسْطَرُوا عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ
عَنِ الَّذِينَ تَتْلَوْنَ فِي الَّذِينَ وَلَّفَرَجِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَلَمْ تَرَوْا عَلَاقَةً يُرَاجِعْكُمْ أَنْ
تَرْتُوبَهُمْ وَمَنْ يَتُوكُمْ فَلْيَكَ هُمْ أَكْثَلُ عُرْوَةٍ ﴿٩﴾

﴿ان تبروهم﴾ بدل من ﴿الذين لم يقاتلوكم﴾. وكذلك
﴿ان تولوهم﴾ من ﴿الذين قاتلوكم﴾ والمعنى: لا ينهاكم
عن مبرة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا أيضاً
رحمة لهم لتشددهم وجدهم في العداوة متقدمة لرحمته
بتيسير إسلام قومهم حيث رخص لهم في صلة من لم
يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم. وقيل:
أراد بهم خزاعة. وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن
لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد: هم الذين آمنوا
بمكة ولم يهاجروا. وقيل: هم النساء والصبيان. وقيل:
قدمت على أسماء بنت أبي بكر أمها قتيلة بنت عبد العزى
وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها في الدخول
فنزلت، فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم
أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها⁽²⁾. وعن
قتادة: نسختها آية القتال ﴿وتقسطوا إليهم﴾ وتقضوا
إليهم بالقسط ولا تظلموهم. وناهيك بتوصية الله المؤمنين
أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم،
مترجمة عن حال مسلم يجترى على ظم أخيه المسلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ إِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَحْجُرُهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنْ جِلَّ لَكُمْ
وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ زَوَاجُهُنَّ مَا آتَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا
عَلِمْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تَسِيكْرًا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ وَسَتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا
أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حَكْمُ اللَّهِ يَتْلُو بَيْنَكُمْ وَأَلَيْكُمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحِكْمِهِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كَانَتْ عَوْرَةٌ
مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا يَقْبَلَنَّ فَكَاوُوا إِلَيْكُمْ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا
أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿إذا جاءكم المؤمنات﴾ ساهمن مؤمنات لتصديقهن
بالسنتهن ونطقهن بكلمة الشهادة ولم يظهر منهن ما ينافي
نلك، أو لانهن مشارقات لثبات إيمانهن بالامتحان.
﴿فامتحنوهن﴾ فابتلوهن بالحلف والنظر في الامارات
ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن. وكان رسول الله ﷺ
يقول للممتحنة: «بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من
بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، بالله
ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله
ولرسوله»⁽³⁾. ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ منكم لأنكم لا تكسبون
فيه علماً تطمئن معه نفوسكم وإن استحلفتوهن ورزتم
أحوالهن وعند الله حقيقة العلم به ﴿فإن علمتموهن﴾

جملة قوله لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده
مبني عليه وتابع له. كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي
إلا الاستغفار.

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾؟ قلت:
بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة، ويجوز أن
يكون المعنى قولوا: ﴿ربنا﴾ أمراً من الله تعالى للمؤمنين
بأن يقولوه، وتعليماً منه لهم تمييزاً لما وصاهم به من قطع
العلائق بينهم وبين الكفار، والانتساء بإبراهيم وقومه في
البراءة منهم، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من
فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم. وقرئ: براء
كشركاء، وبراء كظراف، وبراء على إبدال الضم من الكسر،
كرخال ورباب، وبراء على الوصف بالمصدر. والبراء والبراءة
كالظماء والظماءة. ثم كرر الحث على الانتساء بإبراهيم
وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم ولذلك جاء به مصدرًا بالقسم
لأنه الغاية في التأكيد.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَرَبَّ
يَتْلُو إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَلِيمُ ﴿١٢﴾

وأبدل عن قوله: ﴿لكم﴾ قوله: ﴿لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر﴾ وعقبه بقوله: ﴿ومن يتول فإن الله هو
لغني الحميد﴾ فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به ولما
نزلت هذه الآيات تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم
وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم. فلما رأى الله
عز وجل منهم الجد والصبر على الوجد الشديد وطول
التمني للسبب الذي يبيع لهم الموالاة والمواصلة رحمهم،
فوعدهم تيسير ما تمنوه فلما يسر فتح مكة ظفرهم الله
بأمنيتهم فأسلم قومهم وتم بينهم من التحاب والتصافي ما
تم. وقيل: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة فلانت عند ذلك
عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة. وكانت
أم حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبي
جحش إلى الحبشة فتنصر وأرادها على النصرانية فابت،
وصبرت على دينها ومات زوجها. فبعث رسول الله ﷺ إلى
النجاشي فخطبها عليه وساق عنه إليها مهرها أربعمئة
دينار. وبلغ ذلك أباه فقال: نلك الفحل لا يقدر أنفه⁽¹⁾.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادَبْتُمْ بِهِمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَوِيٌّ
وَأَلَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿وعسى﴾ وعد من الله على عادات الملوك حيث
يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل. فلا تبقى شبهة
للمحتاج في تمام نلك، أو قصد به إطماع المؤمنين والله
قدير على قلبب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب
المودة. ﴿وواله غفور رحيم﴾ لمن أسلم من المشركين.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الولي (الحديث رقم: 2086)

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الهبة، باب: الهبة للمشركين (الحديث = 3)

= رقم: 2620) وأخرجه الحاكم في المستدرک 485/2، وأحمد في
المسند 347/6

(3) أخرجه الزيلعي 459/3 عن الطبري والبخاري.

أجورهن أي: مهورهن؛ لأن المهر أجر البضع ولا يخلو إما أن يراد بهماً كان يدفع إليهن ليدفعنه إلى أزواجهن، فيشترط في إباحة تزويجهن تقديم أدائه، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به باس. وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر وإنه لا بد من إصداق. وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بئمة وبقي الآخر حربياً وقعت الفرقة. ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملاً. ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب يعني: إياكم وإياهن ولا تكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقه زوجية. قال ابن عباس: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. وعن النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد: أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار معارفتهن. ﴿واستلوا ما انفقتم﴾ من مهور أزواجكم اللاهقات بالكفار ﴿وليستلوا ما انفقوا﴾ من مهور نسائهم المهاجرات. وقرئ: ولا تمسكوا بالتحفيف، ولا تمسكوا بالتحليل، ولا تمسكوا أي: ولا تتمسكوا ﴿ولكنم حكم الله﴾ يعني: جميع ما نكر في هذه الآية ﴿يحكم بينكم﴾ كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي: يحكمه الله أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة. روي أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤثروا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين. فنزل قوله:

﴿وان فاتكم﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم ﴿شيء من أزواجكم﴾ أحد منهن إلى الكفار وهو في قراءة ابن مسعود أحد.

مؤمنات﴾ العلم الذي تبلغه طاعتكم وهو الظن الغالب بالهلف وظهور الأمارات ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فلا تردهن إلى أزواجهن المشركين؛ لأنه لا حل بين المؤمنة والمشرک⁽¹⁾. ﴿وتوهم ما انفقوا﴾ وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور. وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة رد إليهم ومن أتى منكم مكة لم يرد إليكم وكتبوا بذلك كتاباً وختموه. فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي ﷺ بالحديبية. فاقبل زوجها مسافر المخزومي. قيل: صيفي بن الراهب فقال: يا محمد أريد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تحف فنزلت بياناً، لأن الشرط إنما كان في الرجال نون النساء⁽²⁾. وعن الضحاك: كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا، فإن نخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها. وللنبي ﷺ من الشرط مثل ذلك⁽³⁾. وعن قتادة. ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة فاستحلها رسول الله ﷺ فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر⁽⁴⁾.

فإن قلت: كيف سمى الظن علماً في قوله: ﴿فإن علمتموهن﴾! قلت: إيداناً بأن الظن الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وإن صاحبه غير داخل في قوله: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾⁽⁵⁾.

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قلت: فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلق به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب، وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كافٍ في ذلك، وأن تكليفكم لا يعده، ثم نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهن

على وجه لو حصل لكانت متوعة على حصوله، وأما فعل الكافر وهو الوطء مثلاً فمنفى حله، باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء لما يشتمل عليه من المفسدة، وللشرع قصد في أن لا تقع المفسد، وليس الكافر مورداً للخطاب، ولكن الأئمة مثلاً أو من يقوم مقامهم مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كي لا يقع هذا الفعل المنطوي على المفسدة في نظر الشرع، فكلا الفعلين إذا من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع، لكن مورد الخطاب المنطوي على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلاً، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار، وعلى أن للشرع غرضاً في أن لا تحصل المفسد في الوجود، ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب رده عن ذلك ومنعه عنه، وما ذلك إلا لما فهم عن الشرع، من طلب سلامه الوجود عن المفسد، ومورد الخطاب يردع الكافر كي لا يجهر بالفساد يعم الأئمة، والله الموفق.

(2) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(3) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(4) قال الزبيلي غريب نكره البغوي هكذا من غير سند 460/3.

(5) سورة الإسراء، الآية: 36.

(1) قال أحمد: هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع؛ لأنه تعالى قال: ﴿لا هن حل لهم﴾ والضمير الأوّل للمؤمنات، والثاني للكفار، والمراد به: يحرم على الكفار؛ لأن قسيمه متفق على أن المراد به: تحريم الكفار على المؤمنات، فيكون كل من القبيليين المؤمنات والكفار مخاطباً بالحرمة، ولما كان المذهب المعزي إلى أصحاب أبي حنيفة أن الكفار غير مخاطبين، سلك الرمخشري بتفسير الآية ما يوافق ذلك، فحملها على أن المراد نفي الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر وهذا لا متخلص فيه؛ فإنّ لحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة لا بد وأن يتعلق بفعل لهما أو كليهما إذ هو حكم، فإن تعلق بفعل كل واحد منهما أعني التمكن من المرأة والفعل من الرجل، تحقق خطاب الكافر بالحرمة وتعليقه بفعل المرأة نون فعل الرجل ياباه نظم الآية، فإنه نفى الحل من الجهتين جميعاً، ولو كان كذلك لكنى قوله: ﴿ولا هم يحلون لهن﴾ والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول هو ما نذكره إن شاء الله تعالى، فنقول: كل من فعلي المؤمنة والكافر ينفي عنه الحل بالتفسير اللائق، فاما فعل المؤمنة وهو التمكن فلا شك في تعلق الحرمة للشرع، باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود،

بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. ﴿وَلَا يَعْرِضِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيما تامرهن به من المحسنات وتنهأهن عنه من المقبحات. وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف.

فإن قُلْتُ: لو اقتصر على قوله: ولا يعصينك. فقد علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف! قُلْتُ: نَبَهَ بِنِكَ عَلَى أَنْ طَاعَةَ الْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ جِدِيرَةٌ بِغَايَةِ التَّوْقِي وَالْاجْتِنَابِ. وروى أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يباليهمن بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متكررة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها⁽²⁾ فقال عليه الصلاة والسلام: «أباعدنك عن أن لا تشركن بالله شيئاً». فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال. تباع الرجال على الإسلام والجهاد. فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يسرقن». فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فما أري أنحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة». قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: «ولا يزنين». فقالت: أو تزني الحرة. وفي رواية: ما زنت منهن امرأة فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يقتلن أولادهن». فقالت: ربناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان». فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تامرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: «ولا يعصينك في معروف». فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، وقيل: في كيفية المبايعة دعا بقدر من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن⁽³⁾، وقيل: صافحهن وكان على يده ثوب قطري⁽⁴⁾، وقيل: كان عمر يصافحهن عنه⁽⁵⁾. روي أن بعض فقهاء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيروا من ثمارهم⁽⁶⁾.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا مَوَآءِجَهُمْ قَدْ بَسُوا مِنَ

فإن قُلْتُ: هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة؟ قُلْتُ: نعم الفائدة فيه أن لا يفاخر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوض منه تغليظاً في هذا الحكم وتشديداً فيه ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ من العقبة وهي التوبة، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره ومعناه: فجاءت عقبتكم من أداء المهر فأتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. وهكذا عن الزهري: يعطي من صدق من لحق بهم. وقرئ: فاعقبتم فعقبتم بالتشديد فعقبتم بالتخفيف بفتح القاف وكسرهما فمعنى اعقبتم سخطم في العقبة، وعقبتم من عقبه إذا قفاه؛ لأن كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه، وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال: عقبه يعقبه وعقبتم نحو تبعتم وقال الزجاج: فعاقبتم فاصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم والذي ذهب زوجته كان يعطي من الغنيمة المهر وفسر غيرها من القراءات فكانت العقبي لكم أي: فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم. وقيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس ابن عثمان، وعبيدة بنت عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبود، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر. فاعطاهم رسول الله ﷺ مهور نساءهم من الغنيمة⁽¹⁾.

يَأْتِيَا الَّذِينَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكَ عَلَيْنَ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسِرْنَ وَلَا يَزِينَ وَلَا يَنْتَلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَرْوُوفٍ فَبَاهِيَهُنَّ وَأَسْتَفْرِزْنَ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وقرئ: يقتلن بالتشديد يريد: واد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه

(6) قال أحمد: قد كان الزمخشري نكر في قوله: ﴿وما يستوي البحران﴾ إلى قوله: ﴿ومن كل تاكلون لحماً طرياً﴾ أن آخر الآية استطراد، وهو من فنون البيان ميوب عليه عند أهله، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جداً، فإنه نم اليهود، واستطرد منهم بدم المشركين على نوع حسن من النسبة، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن، ولا أمكن منه وما صدروا هذا الفن به قوله: إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه. فليس به بأس، وإن كان من جرم، وقوله: إن كنت كاتبة التي حثنتي فنجوت منجى الحرب بن هشام، وقوله:

ترك الأحبة أن يقاتل نونهم ونجا برأس طمرة ولجام

(1) قال الزيلعي غريب نكرة هكذا الثعلبي ثم البيهقي عن ابن عباس من غير سند ولا راو 461/3.
(2) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، وروى الطبري في تفسيره مختصراً 462/3.
(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (365/6) ونكره الهيثمي في مجمع الزوائد (38/6).
(4) أبو داود في المراسيل باب: ما جاء في القية والإمارة (الحديث رقم: 373).
(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: الجنائز، باب: فضل حمل الجنازة وقولها (الحديث رقم: 3041)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 226).

الْآخِرَةَ كَمَا يَنْبَغِي الْكُفَّارَ مِنْ أَحْسَبِ الدُّبْرِ ﴿٣٧﴾

آخر. فقال عمر لصهيب: أخبر النبي عليه السلام (2) أنك قتلته، فقال: إنما قتلته لله ولرسوله، فقال عمر: يا رسول الله قتله صهيب، قال: «كذلك يا أبا يحيى» قال: نعم. فنزلت في المنتحل، وعن الحسن: نزلت في المنافقين وندأهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم هذا من أقصَح كلام وأبلغه في معناه.

كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾

قصد في «كبر» التعجب من غير لفظه كقوله: غلت ناب كليب بواؤها ومعنى: التعجب تعظيم الأمر (3) في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا: ونصب «مقتًا» على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ومنه قيل: نكاح المقت للمعد على الرابة ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرًا حتى جعل أشده وأقشده و«عند الله» أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشنته وانزاحت عنه الشكوك، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا. فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: تامروني أن أقول ما لا أفعل.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْتَضُونَ ﴿٤١﴾

فاستجمل مقت الله في قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ» عقيب نكر مقت المخلف (4) دليل على أن المقت قد تعلق بقول النبي وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا، وقرأ زيد بن علي: يقاتلون بفتح التاء. وقرئ: يقتلون «صفا» صافين أنفسهم أو مصفوفين «كانهم» في تراصهم من غير فرجة ولا خلل. «بينان» رص بعضهم إلى بعض مرصفا، وقيل: يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص، وعن بعضهم: فيه دليل على فضل القتال رجالاً لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة، وقوله: صفاً كانهم بنيان حالان متداخلتان (5).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

(1) أصواتكم فوق صوت النبي» فالنهي العام ورد أولاً، والمقصود اندراج هذا الخاص فيه، كما تقول للمقترف جرماً معيناً: لا تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشامت زبداً، وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين، مندرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين، فإن ذلك معبود في حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يريد أن معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية، لأن التراص هيئة للإصطفاف، والله أعلم.

فقيل لهم: «لا تتولوا قوماً» مغضوباً عليهم «قد يشسوا» من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة «كما يشس الكفار» من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: «من أصحاب القبور» بيان للكفار أي: كما يشس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة لأنهم تبيينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصف مكية

سَخَّ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

«لم» هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما نخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وفيم ومم وعم وإلام وعلام. وإنما حذفت الألف لأن ما والحرف كشيء واحد ووقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف، كما سمع ثلاثة أربعة بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محنوفة. وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد. ودوي أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا القتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا. فنلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله، فولوا يوم أحد، فعيرهم، وقيل: لما أخبر الله بثواب شهداء بدر، قالوا: لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت، ولم يصبر، وقيل: كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله

(1) الثعلبي ابن مرويه الواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 465/3.
(2) الثعلبي في تفسيره الزيلعي 7/4.
(3) قال أحمد: وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس، وهو تكراره لقوله: «ما لا تفعلون» وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام، وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل: «كبر مقتاً عند الله» ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية، والله أعلم.
(4) قال أحمد: صدق والأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة، كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقنموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا =

من معنى الإرسال أم باليكم! قُلْتُ: بل بمعنى الإرسال، لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئاً، لأن حروف الجر لا تعمل بانفاسها ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل. وقرئ: هذا ساحر مبين، وأي الناس أشد ظمناً ممن يدعو ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله: لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا ساحر، لأن السحر كذب وتمويه. وقرأ طلحة بن مصرف: وهو يدعي، بمعنى: يدعي دعاء وأدعاه نحو لمسه والتمسه، وعنه: يدعي بمعنى يدعو وهو الله عز وجل.

رُيُودَ لِيُنْفِرُوا نُرَّ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبْدِي نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

أصله يريدون أن يطفؤا كما جاء في سورة براءة، وكان هذه اللام زبيد مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتكم لإكرامك. كما زبيد اللام في لا أبالك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أباك. وإطفاء نور الله بأفواههم تهكم بهم في إرابتهم إبطال الإسلام بقولهم: في القرآن: هذا ساحر، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿والله متم نوره﴾ أي: متم الحق ومبلغه غايته. وقرئ: بالإضافة.

مُرَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ رَسُولُهُ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ودين الحق﴾ الملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الذين كلفه﴾ على جميع الأديان المخالفة له، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام، وقرئ: أرسل نبيه.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَكْثَرِ عَرَبِ تَيْمِيمِ بْنِ عَدْنَانَ ﴿٥٠﴾

﴿تنجيكم﴾ قرئ: مخففاً ومثقلاً.

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥١﴾

﴿وإن﴾ منصوب بإضمار انكر أو وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا ﴿تؤذونني﴾ كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه، وجود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعهم، وعيانتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه ﴿وقد تعلمون﴾ في موضع الحال أي: تؤذونني عالمين^(١) علماً يقيناً ﴿لني رسول الله إليكم﴾ وقضية علمكم بذلك وموجبة تعظيمي وتوقيري، لا أن تؤذوني وتستهنئوا بي؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله علماً بأن تعظيمه في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقاً به ﴿فلما زاغوا﴾ عن الحق ﴿أزاع الله قلوبهم﴾ بأن منع الطائفة عنهم ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لا يطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف.

فإن قُلْتُ: ما معنى قد في قوله: ﴿وقد تعلمون﴾؟ قُلْتُ: معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه. قيل: إنما قال: يا بني إسرائيل، ولم يقل: يا قوم كما قال: موسى لأنه لا نسب له فيهم^(٢) فيكونوا قومه والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الذِّكْرِ وَبَشِيرًا لِمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ وَأَنَّكُمْ عَلَى اللَّهِ لَكَايِمٌ ﴿٥٢﴾ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ أَظْلَرُ مِنَ أَفْرَقَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٥٤﴾

﴿من التوراة﴾ وفي حال تبشيري ﴿برسول يأتي من بعدي﴾ يعني: أن بيني والتصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتآخر وقرئ: ﴿من بعدي﴾ بسكون الياء وفتحها. والخليل وسيبويه يختار أن الفتح، وعن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعنا من أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد حكماء علماء أبرار اتقياهم كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

فإن قُلْتُ: بم انتصب مصدقاً ومبشراً بما في الرسول

(١) قال أحمد: أهل العربية تقول: إن قد تصحب الماضي لتقريبه من الحال، ومنه قول المؤنن: قد قامت الصلاة، وتشتمل المصاحبة

للماضي أيضاً على معنى التوقع، فلذلك قال سيبويه: قد فعل جواب لما يفعل، وقال الخليل: هذا الخبر ليقوم بانتظرونه، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل، مثل: ربما كقولهم: إن الكذب قد يصلح، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل، قد دخلت في الآية على مضارع، فالوجه والله أعلم أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفرط فيما ينعكس عنه، وتكون قد في هذا المعنى نظير ربما في قوله: ﴿ربما يؤذون الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير، فلما أوردت ربما في التكثير على عكس معناه الأصلي في التقليل، فنكلك إيراد قد هنا لتكثير علمهم، أي: تحقيق تكديده على عكس معناها الأصلي =

= في تليل الأصل وعليه:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس بينه الأصلي، ولا يقال: إن حملها في الآية على التكثير متعذر؛ لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل؛ لانا نقول يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتكاده وبلوغه الغاية في نوعه، بما يعبر به عن التكثير، وهو تعبير صحيح، إلا ترى أن قوله: ﴿ربما يؤذون الذين كفروا﴾ وهو من هذا القبيل، فإن المراد شدة ودمم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير، والله الموفق.

(٢) قال أحمد: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾: لأن شعيباً لم يكن من قوم من أرسل إليهم.

وَأَمْرِي يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنْ آمَنَ مِنْ اللَّهِ وَيَتَّعِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿ولخرى تحبونها﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الأجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ثم فسرها بقوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي: عاجل وهو فتح مكة، وقال الحسن: فتح فارس والروم. وفي تحبونها شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

فإن قُلْتُمْ: علام عطف قوله: ﴿ويبشر المؤمنين﴾؟ قُلْتُمْ: على تؤمنون لأنه في معنى الأمر كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يشكم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك.

فإن قُلْتُمْ: لم نصب من قرأ نصرًا من الله وفتحًا قريبًا! قُلْتُمْ: يجوز أن ينصب على الاختصاص أو على تنصرون نصرًا ويفتح لكم فتحًا، أو على يغفر لكم ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى نصرًا من الله وفتحًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا أَسْوَاقَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْمَوَدَّعِينَ مَنْ آسَأِرَةً إِلَى اللَّهِ قَالَ الْمَوَدَّعُونَ عَنْ آسَأِرَةِ اللَّهِ فَاسْتَغْلِبَهُمْ مِن بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَكَفَّتْ عَلَيْهِمُ الْغُيُوبُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قُلُوبُهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ مَحَلُّ يَذُوقُونَ ﴿١٤﴾

قري: كونوا أنصار الله وأنصار الله. وقرأ ابن مسعود كونوا أنتم أنصار الله وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم.

فإن قُلْتُمْ: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارًا⁽³⁾ بقول عيسى صلوات الله عليه: ﴿من أنصاري إلى الله﴾! قُلْتُمْ: التشبيه محمول على المعنى وعليه يصح والمراد: كونوا أنصارًا لله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله.

فإن قُلْتُمْ: ما معنى قوله: من أنصاري إلى الله؟ قُلْتُمْ: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين.

﴿نحن أنصار الله﴾ والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندي متوجهًا إلى نصرته الله وإضافة أنصاري خلاف إضافة أنصار الله، فإن معنى نحن أنصار الله نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصاري من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرته الله، ولا يصح أن

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُفُّوا عَنْ يَدَيْكُمْ وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفِّرُ بِكُمْ بِئْسَ الَّذِي كَفَرَ بِكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١٢﴾

﴿تؤمنون﴾ استئناف كأنهم قاما كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون⁽¹⁾، وهو خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾ وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا.

فإن قُلْتُمْ: لم جاء به على لفظ الخبر؟ قُلْتُمْ: للإيدان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجاهاد موجودين، ونظيره قول الداعي: غفر الله لك، ويغفر الله لك، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت.

فإن قُلْتُمْ: هل لقول الفراء أنه جواب هل أنلكم وجه؟ قُلْتُمْ: وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد، فكانه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم.

فإن قُلْتُمْ: فما وجه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما: تؤمنوا وتجاهدوا؟ قُلْتُمْ: وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر كقوله:

محمد تغد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا

وعن ابن عباس أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فنزلت هذه الآية. فمكثوا ما شاء الله يقولون: ليتنا نعلم ما هي فعلهم الله عليها بقوله: ﴿تؤمنون﴾. وهذا دليل على أن تؤمنون كلام مستأنف وعلى أن الأمر الوارد على النفوس بعد تشوف وتطلع منها إليه أوقع فيها وأقرب من قولها له مما فوجئت به ﴿نلكم﴾ يعني: ما نكر من الإيمان والجهاد ﴿خير لكم﴾ من أموالكم وأنفسكم.

فإن قُلْتُمْ: ما معنى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾؟ قُلْتُمْ: معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرًا لكم⁽²⁾ حينئذ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون.

(1) قال أحمد: إنما وجه إعراب الفراء بما نكر؛ لأنه لو جعله جواباً لقوله: ﴿هل أنلكم﴾ فإنلكم إن أنلكم على كذا وكذا أغفر لكم، فتكون المغفرة حينئذ مرتبة على مجرد دلالة إياهم على الخير وليس كذلك إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما بلهم عليه لا على نفس الدلالة، فلذلك أوّل ﴿هل أنلكم على تجارة﴾ بتأويل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مرتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة، وهذا التأويل غير محتاج إليه، فإنّ حاصل الكلام إذا صار إلى هل أنلكم، أغفر لكم للتحقق ذلك بأمثال قوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ فإنه رتب فعل الصلاة على الأمر بها، حتى كأنه قال: فإنك إن تقل لهم

(2) قال أحمد: كأنه يجري الشرط على حقيقته وليس بالظاهر؛ لأن علمهم لذلك محقق، إذ الخطاب مع المؤمنين والظاهر أنه من وادي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ونروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾، والمقصود بهذا الشرط: التنبيه على المعنى الذي يقتضيه الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة، كما تقول لمن تاملره بالانتصاف من عدوه: إن كنت حراً فانتصر، تريد أن تثير منه حمية الانتصاف لا غير، والله أعلم.

(3) قال أحمد: كلام حسن وتمام على الذي أحسن أن يميز بين الإضافتين المذكورتين، بأن الأولى محضة والثانية غير محضة فتنبه لها، والله الموفق.

أقيموا يقيموها. وللتنازل أن يقول: قد قيل لبعضهم: أتم الصلاة فتركها، فالجواب عنه: أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ في الإيمان لما كان مظنة لحصول الامتثال، جعل كالمحقق وقوعه =

وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿وأخريين﴾ مجرور عطف على الأميمين يعني: أنه بعثه في الأميمين الذين على عهده وفي آخرين من الأميمين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم. وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله؟ فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء». وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة. ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في ويعلمهم أي: يعلمهم ويعلم آخرين، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله، فكانه هو الذي تولى كل ما وجد منه. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ في تمكنه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر.

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

﴿ذلك﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغواiber هو ﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته.

مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا النَّارَ ثُمَّ لَمْ يَمَلُّوا كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَمِيلُ سَفَافًا يَنْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم أنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفاً أي: كتباً كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبس المثل. ﴿بئس﴾ مثلاً.

﴿مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ. ومعنى حملوا التوراة كلفوا علمها والعمل بها. ثم لم يحملوها، ثم لم يعملوا بها فكانهم لم يحملوها. وقرئ: حملوا التوراة أي: حملوها، ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ: يحمل الأسفاً.

فإِن قُلْتِ: يحمل ما محله؟ قُلْتِ: النصب على الحال أو الجر على الوصف، لأن الحمار كاللثيم في قوله: ولقد أمر على اللثيم بسبني. هاد يهود إذا تهود.

قُلْ يَكْفِيكَ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِمْتُمْ أَنْكُمُ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ

يكون معناه من ينصرني مع الله لأنه لا يطابق الجواب. والدليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل صفيه وخلصانه من الحور وهو البياض الخالص، والحواري الدرهم ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي (1) وقيل: كانوا قصارين يحوون الثياب ببيضونها. ونظير الحواري في زنته الحوالي الكثير الحيل. ﴿فأمنت طائفة﴾ منهم بعبسى ﴿وكفرت﴾ به ﴿طائفة فآئنا﴾ مؤمنهم على كفارهم فظهروا عليهم، وعن زيد بن علي كان ظهورهم بالحجة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الصف (2) كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجمعة مدنية

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الَّذِي يَتَذَكَّرُ لِنَفْسِهِ ﴿١﴾

قرئت صفات الله عزّ وعلّا بالرفع على المدح. كانه قيل: هو الملك القدوس، ولو قرئت منصوبة لكان وجهها كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد. الأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم، وقيل: بدأت الكتابة بالطائف أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار.

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنَی سَافِلِينَ ﴿٢﴾

ومعنى: ﴿بعث في الأميمين رسولا منهم﴾ بعث رجلاً أمياً في قوم أميين كما جاء في حديث شعيب: اني ابعت أعمى في عميان وأمياً في اميين (3). وقيل: منهم كقوله تعالى: من أنفسم يعلمون نسب وأحواله، وقرئ: في الأميمين بحذف ياء النسب ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يقرؤها عليهم مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمي بغير تعلم آية بينة ﴿ويزكّيهم﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة. وإن في ﴿وإن كانوا﴾ هي المخففة من الثقلية واللام دليل عليها أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه.

(1) النسائي في سننه الكبرى كتاب المناقير زيعلي 7/4.

(2) الثعلبي والواحدى وابن مردويه زيعلي 8/4.

(3) قال الزيعلي لم اجده إلا من قول وهب بن منبه رواه الحافظ أبو

نعيم في دلائل النبوة 11/4.

الْكَافِرِينَ فَتَنَّا آلَ الْكَافِرِينَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾.

أولياء الله كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه أي: إن كان قولكم حقاً وكنتم على ثقة **﴿فتمنوا﴾** على الله أن يميّتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه:

وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا فَدَمْتُ يَدَيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾.

ثم قال: **﴿ولا يتمنونه أبداً﴾** بسبب ما قدموا من الكفر. وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه، فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى. وهي إحدى المعجزات. وقرئ: فتمنوا الموت بكسر الواو تشبيهاً بلو استطعنا. ولا فرق بين لا وإن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا. فأتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه، ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه. ثم قيل لهم:

قُلْ إِنْ أَلَمْتُمْ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّكُمْ مُتْلِقِيكُمْ ثُمَّ رُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفَخُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلَّوْنَ ﴿٨﴾.

﴿إن الموت الذي تقرّون منه﴾ ولا تجسرون أن تمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملائقيكم لا محالة. **﴿ثم تقرّون﴾** إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: إنه ملائقيكم. وفي قراءة ابن مسعود: تقرّون منه ملائقيكم وهي ظاهرة، وأما التي بالفاء فلتضمن الذي معنى الشرط. وقد جعل أن الموت الذي تقرّون منه كلاماً برأسه في قراءة زيد أي: إن الموت هو الشيء الذي تقرّون منه. ثم استؤنف إنه ملائقيكم يوم الجمعة، يوم الفوج المجموع كقولهم: ضحكة للمضحوك منه، ويوم الجمعة بفتح الميم يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة ولعنة ولعبة، ويوم الجمعة تثقيل للجمعة، كما قيل: عسرة في عسرة، وقرئ: بهن جميعاً.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُورِيَ لِلصَّالِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ أَلْجُمُوعَ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ سَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَمَلَّوْنَ ﴿٩﴾.

فإن قلّت: من في قوله:

﴿من يوم الجمعة﴾ ما هي؟ قلّت: هي بيان لإدائها وتفسير له. والنداء الأذان. وقالوا: المراد به الأذان عند تعود

الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله ﷺ مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أتت على باب المسجد، فإذا نزل أقام للصلاة^(١). ثم كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ذلك حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباغت المنازل زاد مؤنذاً آخر فامر بالتائين الأوّل على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر أتت المؤنن الثاني فإذا نزل أقام للصلاة فلم يعب ذلك عليه. وقيل: أوّل من سماها جمعة كعب بن لؤي. وكان يقال لها: العروبة. وقيل: إن الانصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك. فهلّموا بجعل لنا يوماً يجتمع فيه فننكر الله فيه ونصلي فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى. فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصرى بهم يومئذ ركعتين ونكروهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه. فانزل الله آية الجمعة فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام^(٢) وأما أوّل جمعة جمعها رسول الله ﷺ، فهي أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فادركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة^(٣). وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكنبهم في قوله: **﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾**^(٤) وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبهم بالحمار يحمل أسفاراً، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة. وعن النبي ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أنزل الجنة، وفيه اهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة. وهو عند الله يوم المزيد»^(٥)، وعنه عليه السلام: «أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمّتك من بعدك، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد». وعنه ﷺ: «إنّ الله تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار»^(٦). وعن كعب: إنّ الله فضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. وقال عليه السلام: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقى فتنة القبر»^(٧) وفي الحديث: «إذا كان يوم الجمعة، غدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم»^(٨)، وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصّة

(6) أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 3434).

(7) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز (الحديث رقم: 1074).

وعبد الرزاق في مصنفه 159/3 (الحديث رقم: 5595)، وأحمد في

المسند 2/176.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة باب: الاستماع إلى الخطبة

(الحديث رقم: 929).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: المؤنن الواحد يوم الجمعة (الحديث رقم: 913).

(2) عبد الرزاق في مصنفه 159/3 (الحديث رقم: 5144).

(3) ابن هشام في السيرة 1/494.

(4) سورة الجمعة، الآية: 6.

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة (الحديث

رقم: 17 - 854).

لهذا المقام مقالاً، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، وستأتيكم الخطب، ثم نزل، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد»⁽⁷⁾. وعند صاحبيه والشافعي: لا بد من كلام يسمى خطبة.

فإن قُلْتُمْ⁽⁸⁾: كيف يفسر نكر الله بالخطبة وفيها نكر غير الله! قُلْتُمْ: ما كان من نكر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم نكر الله، فأمّا ما عدا ذلك من نكر الظلمة والأقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقّاء بعكس ذلك، فمن نكر الشيطان. وهو من نكر الله على مراحل وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه: صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام. أراد الأمر بترك ما يذهل عن نكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خص البيع من بينها. لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبوابيهم وينصبون إلى المصر من كل أوب، ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء. فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن نكر الله والمضي إلى المسجد قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة واركبوا تجارة الدنيا واسعوا إلى نكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح. ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الذي نفعه يسير وربحه مقارب.

فإن قُلْتُمْ: فإذا كان البيع في هذا الوقت مأموراً بتركه محرماً فهل هو فاسد؟ قُلْتُمْ: عامّة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع، قالوا: لأنّ البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب، وعن بعض الناس إنه فاسد.

وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ
وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج. وقيل: أوّل بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وعن ابن مسعود «أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم ولخذ يعاتب نفسه يقول: أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد»⁽¹⁾. ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة رضي الله عنه⁽²⁾ إلا في مصر، جامع لقوله عليه السلام: «لا الجمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع»⁽³⁾. والمصر الجامع ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام، ومن شروطها: الإمام أو من يقوم مقامه لقوله عليه السلام: «فمن تركها وله إمام عادل أو جائز»⁽⁴⁾، الحديث وقوله ﷺ: «أربع إلى الولاية: الفيء والصنقات والحدود والجماعات»⁽⁵⁾. فإنّ أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاضٍ أو صاحب شرطة لم يجز فإن لم يمكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم جاز، وهي تتعقد بثلاثة سوى الإمام، وعند الشافعي بأربعين ولا الجمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ولا على الأعمى. عند أبي حنيفة ولا على الشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد. وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم: فامضوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: فاسعوا، فقال: من أقرّك هذا، قال: أبي بن كعب، فقال: لا يزال يقرأ بالمسوخ، لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط رداي»⁽⁶⁾، وقيل: المراد بالسعي القصد بون العدو، والسعي التصرف في كل عمل ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾. وعن الحسن: ليس السعي على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب. ونكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطنه أن ابن عمر سمع الإقامة وهو بالبيقع فأسرع المشي قال محمد: وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه. ﴿إِلَى نَكْرِ اللَّهِ﴾ إلى الخطبة والصلاة ولتسمية الله الخطبة نكراً له. قال أبو حنيفة رحمه الله: إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى نكر الله كقوله: الحمد لله سبحان الله جاز، وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال: الحمد لله وأرتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان

(6) لم يخرج الزليعي.

(7) قال أحمد: ساءه بلا اشتباه، فإنّ عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات، الا ترى إلى قوله: وستأتيكم بعد ذلك الخطب، فإنّ ذلك يحقق أنّ مقالته هذه ليس بخطبة، ولو كان في الجمعة لكان تاركاً للخطبة بالكليّة، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عي بيئات، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال وستأتيكم الخطب.

(8) قال أحمد: الدعاء للسلف أنه دعا لسليمان ظالم، فقيل له: اتعدو له وهو ظالم؟ فقال: إي، والله ادعوا له، إن ما يدفع الله ببقائه أعظم مما ينفع بزواله، لا سيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه، والله الموفق.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في التهجير إلى الجمعة (الحديث رقم: 1094).

(2) قال أحمد: ولا دليل فيه، فإن العرب تسمى الشيء باسم بعض ما يشتمل عليه، كما سميت الصلاة: مرة قرأناً ومرة سجوداً ومرة ركوعاً؛ لأنها مشتملة على ذلك، فكنك الخطبة لما كانت مشتملة على نكر الله سميت به، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه، لا سيما والمسمى خطبة عند العرب لا بدّ وأن يزيد على القدر الذي لكتفى به أبو حنيفة، قال بعض أصحاب مالك رحمه الله: أقلها حمد الله والصلاة على نبيه وتحنين وتبشير وقرآن.

(3) ابن أبي شيبة في المصنف 2/101 كتاب: الجمعة، باب: من قال لا الجمعة ولا...

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (الحديث رقم: 1081).

(5) قال الزليعي غريب 25/4.

من لم يأتها في أمصار المسلمين،⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المنافقون مدنية

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَبَأُكَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهْتَهُمْ لَكَ وَاللَّهِ يَسْتَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَسْتَمُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾

أرانا بقولهم: ﴿نشهد أنك لرسول الله﴾ شهادة وأطاعت فيها قلوبهم السننهم فقال الله عز وجل: قالوا ذلك ﴿والله يعلم﴾ أن الأمر كما يدل عليه قولهم: إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم: نشهد، وادعائهم فيه المواطة⁽³⁾ أو إنهم لكاذبون فيه، لأنه إذا خلا عن المواطة لم يكن شهادة في الحقيقة فهم كاذبون في تسميته شهادة، أو أراد والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم: إنك لرسول الله كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في قوله تعالى: والله يعلم إنك لرسوله؟ قُلْتَ: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون لكان يوهم أن قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله: والله يعلم إنك لرسوله ليميط هذا الإيهام.

أَخَذُوا آيَاتِهِمْ جِنَّةً فَسَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا بِمَكَلَمَةٍ ﴿٢﴾

﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ يجوز أن يراد أن قولهم: نشهد إنك لرسول الله يمين من إيمانهم الكاذبة، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد يقول الرجل: أشهد، وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله، في موضع أقسم وأولى. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن أشهد يمين⁽⁴⁾ ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين في استجنائهم بالإيمان وقرأ الحسن البصري: إيمانهم، أي: ما

ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح مع التوصية بإكثار النكر وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وأن تكون همهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتقصون عنه لأن فلاحهم فيه وفوزهم منوط به. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله، وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم، وقيل: صلاة التطوع. وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظراً في هذه الآية.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

روي أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم حنيفة بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبى ﷺ يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشوا أن يسبقوا إليه فما بقي معه إلا يسير قيل: ثمانية وأحد عشر وأثنا عشر وأربعون فقال عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»⁽¹⁾. وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطيب والتصفيق فهو المراد باللهو، وعن قتادة: «فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير».

فإن قُلْتَ: فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع؟ قُلْتَ: إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة فعند أبي حنيفة يستأنف الظهر إذا نفرأ عنه قبل الركوع، وعند صاحبيه إذا كبروه مع مضي فيها وعند زفر إذا نفرأ قبل التشهد بطلت.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قال: ﴿إليها﴾ وقد نكر شيئين؟ قُلْتَ: تقديره إذا رآوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه. فحذف أحدهما لدلالة المنكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ انفضوا إليه، وقراءة من قرأ لهواً أو تجارة انفضوا إليها، وقرئ إليهما. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعده

= المطابقة، لا سيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء للفتنة، الا تراهم كيف غلطوا أنفسهم متعابدين وليسوا على ضعفهم متجاهلين، عندما أنزل قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾.

(4) قال أحمد: أحد القولين عند مالك رحمه الله إذا قال: أشهد وأحلف، وأقسم ولم ينو بالله ولا بغيره، كما نقل عن أبي حنيفة أنه يمين، وليس بالمشهور أما لو نوى بالله وإن لم يلفظ فيمين بلا إشكال، وليس فيما نكره دليل على ما نكره، فإن قوله: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ غايته أن ما نكروه يسمى يميناً، وليس الخلاف في تسميته يميناً، وإنما الخلاف: هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة لا، وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسماً يوجب حكماً، لا ترى أنه لو قال: أحلف ولم يقل بالله ولا بغيره، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به، وإن كان حلفاً لفة باتفاق؛ لأنه فعل مشتق منه.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: إذا نفرأ الناس عن الإمام في صلاة الجمعة (الحديث رقم: 936)، ومسلم كتاب: الجمعة، باب: في قول الله تعالى: ﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا قائما﴾ (الحديث رقم: 36 - 863)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6876)، وحديث كعب بن عجرة أخرجه مسلم في المصدر السابق (الحديث رقم: 39 - 864)، وأخرجه أبو داود في المراسيل. باب: الجمعة (الحديث رقم: 62).

(2) رواه الثعلبي وابن مريويه والواحدي في تفسيرهم 29/4.

(3) قال أحمد: ومثل هذا من نمطه المليح، قوله: ﴿قالت الأعراب أمنا، قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا﴾ وقد كان المطابق لقوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أن يقال لهم: لا تقولوا أمنا، ولكنه لما كان موهماً للنهي عن قول الإيمان، عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ما سلم الكلام فيه من الوهم، وذلك لجل وأعظم من فائدة =

أَنَّ يُزَكَّرُونَ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله:

﴿كانهم خشب مسندة﴾؟ قُلْتُ: شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبها به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جنواهم. والخطاب في رأيهم تعجبك لرسول الله أو لكل من يخاطب. وقرئ: يسمع على البناء للمفعول وموضع كانهم خشب رفع على هم كأنهم خشب، أو هو كلام مستأنف لا محل له، وقرئ: خشب جمع خشبة كبندة وبنن، وخشب كثرة وبئر، وخشب كمدرة ومدرة، وهي في قراءة ابن عباس، وعن اليزيدي أنه قال في خشب: جمع خشبائه، والخشباء الخشبة التي دعر جوفها شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم. ﴿عليهم﴾ ثاني مفعولي يحسبون أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم⁽³⁾ إذا وضارة لهم لجبنهم واهلهم، وما في قلوبهم من الرعب إذا نادى مناو في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم. وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهلك أستارهم ويبيع دماؤهم وأموالهم. ومنه أخذ الأخطل:

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً نكرَ عليهم رجلاً
يوقف على عليهم ويبتدا ﴿هم للعدو﴾ أي: الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء النوي ﴿فاحذرهم﴾ ولا تغتر بظاهرهم. ويجوز أن يكون هم العدو المفعول الثاني كما لو طرحت الضمير.

فإن قُلْتُ: فحقه أن يقال هي العدو قُلْتُ: منظور فيه إلى الخير كما نكر في هذا ربي وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة ﴿قاتلهم الله﴾ نداء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. ﴿أني يؤفكون﴾ كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَسَاءَلُوا يَسْتَفِيزُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ زُرُسَهُمْ وَأَبْنَهُمْ

أظهروه من الإيمان بالسنتهم. ويعضده قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾⁽¹⁾ ﴿سواء ما كانوا يعملون﴾ من نفاقهم وصددهم الناس عن سبيل الله، وفي ساء معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ نَهْرًا لَا يُبْهِتُونَ ﴿٣﴾.

ذلك إشارة إلى قوله: ﴿سواء ما كانوا يعملون﴾. أي: ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿ب﴾ سبب.

﴿إنهم آمنوا ثم كفروا﴾ أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستعجان بالإيمان أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا ﴿فطبع على قلوبهم﴾ ففسروا على كل عظمة.

فإن قُلْتُ: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم⁽²⁾. فما معنى قوله: آمنوا ثم كفروا؟ قُلْتُ: فيه ثلاثة أوجه: أحدها آمنوا أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير. وقولهم في غزوة تبوك: أبطع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقبصر هيهات ونحوه قوله تعالى: يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم أي: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تعتزوا﴾ قد كفرتم بعد إيمانكم. والثاني آمنوا أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام. كقوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إنما نحن مستهزؤن﴾⁽³⁾. والثالث أن يراد أهل الردة منهم. وقرئ: ﴿فطبع على قلوبهم﴾. وقرأ زيد بن علي: فطبع الله كان عبد الله بن أبي رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً نلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستنون فيه ولهم جهارة المناظرة وفصاحة الألسن⁽⁴⁾. فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهيكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مَسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ كَذِبٍ عَلَيْهِنَّ هَرِّ الْمَدَى فَاحْذَرَهُمْ نَسْتَلْهُمْ اللَّهُ

(1) سورة المنافقون، الآية: 3.

(2) قال أحمد: ويحتمل وجهاً رابعاً، وهو: أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المنكورة في التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة، ولعل في المنافقين يهوداً، وإن لم يكن فقد كان الإيمان قبل مبعثه من الفريقين اليهود وعبدة الأوثان من العرب، إلى نزول قوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ كيف حكى الله تعالى عن الفريقين وما كانوا يقولونه والبينة النبي ﷺ.

(3) سورة البقرة، الآية: 14.

(4) قال أحمد: وفيما قال اليزيدي نظر من حيث مقتضى العربية، وإلا فهو متمكن المعنى، ذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءة تين مستقبضتين، ففيه دليل أن أصلها الضم والسكون إنما هو طاري عليه تخفيفاً، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء؛ لأن قياس جمعه فعل يسكون العين كحمرام وجمر، ولا يطرا الضم، فلو كان كما قال لم تضم شينها، والله تعالى أعلم.

(5) قال أحمد: وغلا المتنبّي في المعنى فقال:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

يُصَدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾.

وروي أنه قال له: «لئن لم تقرّ الله ورسوله بالعرض لأضربن عنقك، فقال: ويحك أقاعل أنت؟ قال: نعم فلما رأى منه الجِدَّ قال: أشهد أنّ العزة لله ورسوله وللمؤمنين فقال رسول الله لابنه «جرك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً»⁽⁴⁾. فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك أي شداد فانهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى راسه ثم قال: أمرتوني أن أومن فأمنت، أمرتوني أن أزكي مالي فزكيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد»⁽⁵⁾ فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾. ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات.

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾.

﴿سواء عليهم﴾ الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتنون به لكفرهم أو لأن الله لا يغفر لهم، وقرئ: استغفرت على حذف حرف الاستفهام لأنّ أم المعاملة تدل عليه. وقرأ أبو جعفر: استغفرت، إشباعاً لهمة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلباً لهمة الوصل ألفاً كما في أسحر والله.

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَيْنَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلْمِزُوا السَّعْوَةَ وَالْأَرْضَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٧﴾.

﴿ينفضوا﴾ يتفرقوا، وقرئ: ينفضوا، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم، وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزادهم. ﴿وهو خزائن السموات والأرض﴾ وبيده الأرزاق والقسم فهو رازقهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم، ولكن عبد الله وأضراب جاهلون ﴿لا يفقهون﴾ ذلك فيهدون بما يزين لهم الشيطان. وقرئ: ليخرجن الأعز منها الأذل بفتح الياء وليخرجن على البناء للمفعول، وقرأ الحسن وابن أبي عبيدة: لنخرجن بالنون، ونصب الأعز والأذل. ومعناه: خروج الأذل أو إخراج الأذل أو مثل الأذل.

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ أَلْمُوتُ وَالرُّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿وهو العزة﴾ الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أنّ المذلة والهوان للشيطان ونويه من الكافرين والمنافقين، وعن

﴿لَوْوًا رؤوسهم﴾ عطفوها وأمالوها إعرافاً عن ذلك واستكباراً. قرئ: بالتخفيف والتشديد للكثير. روي أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم. ازحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسنان: يا للانصار؟ فأعان جهجاء جعال من فقراء المهاجرين ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك، وقال: ما صاحبنا محمداً إلا لنلطم، والله ما مثنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يلكك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم اطلتموهم بلانكم وقاسمتوهم أموالكم؟ أما والله لو أمسكتهم عن جعال ونويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال: أنت والله الذليل القليل الميغض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين. فقال عبد الله: أسكت، فإنما كنت العب. فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال: «إن ترعد أنف كثيرة بيثرب». قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً، فقال: «فكيف إذا تحدث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه، وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله أنت صاحب الكلام الذي بلغني» قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيد الكاتب»⁽¹⁾. وهو قوله تعالى: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾⁽²⁾ فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصنق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. وروي أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا. قال: فلعله شبه عليك؟ قال: لا. فلما نزلت لحق رسول الله زيدا من خلفه فعره أنه وقال: «وفت أنك يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين». «ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن عبد الله غير رسول الله اسمه. وقال: إن حباباً اسم شيطان. وكان مخلصاً وقال: وراك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل. فلم يزل حبيساً في يده حتى أمره رسول الله بتخليته»⁽³⁾.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: (يقولون لك لئن رجعنا...) (الحديث رقم: 4907).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره والواحد في أسباب النزول ص 240 - 241.

(5) راجع الحديث 163.

(6) سورة المنافقون، الآية: 5.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ (الحديث رقم: 4901)، ومسلم في كتاب: في صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 2774/1)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المنافقين (الحديث رقم: 3313).

(2) سورة المجادلة الآية: 16.

وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة ﴿لولا أخرتني﴾ وقرئ: أخرتن، يريد هلا أخرت موتي ﴿إلى أجل قريب﴾ إلى زمان قليل ﴿فاصدق﴾ وقرأ أبي فأتصدق على الأصل. وقرئ: وكان عطفًا على محل فأتصدق كأنه قيل: إن أخرتني أصدق ولكن. ومن قرأ وكون على النصب فعلى اللفظ. وقرأ عبید بن عمير: وكون على، وأنا اكون عدة منه بالصلاحي.

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ولن يؤخر الله﴾ نفى للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه: منافية المنفى الحكمة، والمعنى: أنك إذا علمت أنك تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه وأنه هاجم لا محالة وأن الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله، وقرئ: تعملون بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التغابن مدنية

يَسْخَرُ اللَّهُ مَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَسْبُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل، وذلك لأن الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه. وكذلك الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَكُرْ كَارًا وَمِنْكُمْ مٌؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

﴿هو الذي خلقكم كافر ومنكم مؤمن﴾ يعني: فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان^(٢) وفاعل له. كقوله تعالى: ﴿وجعلنا في نريتهما النبوة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾^(٣) والليل عليه قوله تعالى:

بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألت على الإسلام وهو العز الذي لا نل معه، والغني الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيبها، قال: ليس بتيه، ولكنه عزة.

يَأْتِيهَا الْبَرِّينَ ءَامِنُوا لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠﴾

وتلا هذه الآية: ﴿لا تلهكم﴾ تشغلكم ﴿أموالكم﴾ والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاعتلال وابتغاء النجاج والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها. ﴿ولا أولادكم﴾ وسروركم بهم وشفتكم عليهم والقيام بمؤنهم وتسوية ما يصلحهم من معاشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وألونه في جنب ما عند الله ﴿عن نكر الله﴾ وإيثاره عليها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فاولئك هم الخاسرون﴾ في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني وقيل: نكر الله الصلوات الخمس وعن الحسن جميع الفرائض. كانه قال: عن طاعة الله وقيل: القرآن. وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله ﷺ من في.

وَأَيُّقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ يَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾

من في ﴿مما رزقناكم﴾ للتبويض والمراد الإنفاق الواجب ﴿من قبل أن يأتي أحبكم الموت﴾ من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما يياس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الانفاق ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ما كان متمكناً منه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل. وعنه: ما يمنع أحبكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسال ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه أنها نزلت في مانعي الزكاة وواله لو رأى خيراً لما سال الرجعة، فقيل له: أما تنقي الله يسال المؤمنون الكرة. قال: نعم أنا أقرأ عليكم به قرآنًا يعني: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها. وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سال الرجعة،

(1) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفسيريهم والزليعي /4 37.

(2) قال أحمد: لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً السالك فيه هالك والغابر فيه عائر، وإنما ينصب إلى مهاري الأراك ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبعث ولكن على حتفه بظلفه ويتحقق، وما هو إلا يتشقق ويتحقق وما هو إلا يتشقق، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتخافرة على أن الله تعالى خالق كل شيء، واطرد له في الشاهد ما ادعاه ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق

= العبد الفاعل للقبيح، وإن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر، وأن هذا قبيح شاهداً، ولا يلزم أن يكون مثل قبيحاً في خلق الله تعالى، أفلا يجوز أن يكون منطوياً على حكمة استأثر الله تعالى بعلمها، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استجبها العقلاء مخلوقة لله تعالى، وفي خلقها حكمة استأثر الله بعلمها، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم ونفس اتباع الهوى هذا، ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد أن يمكن من القنات لخرط، ومن الجميل أن يلج في سم الخياط.

(3) سورة الحديد، الآية: 26.

منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتاحك بها وتهالكك عليها وقالت الحكماء: شيطان لا غاية لهما: الجمال والبيان. نَبِهْ بعلمه ما في السموات والأرض.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُشِيرُونَ وَمَا تُسْتَوُونَ وَاللَّهُ عَزِيمٌ
بِذَاتِ الْعُدُورِ (٤).

ثم يعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم يعلمه نوات الصور أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه ولا عازب عنه. فحقه أن يتقي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكل ما نكره بعد قوله تعالى: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (١) كما ترى في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته. فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جعلته، والخلق أعظم نعمة من الله على عباده، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم.

أَرَأَيْتُمْ كَرُمًا نَبَوًّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٥).

﴿الم ياتكم﴾ الخطاب لكفار مكة.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسَمَتْنَا اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيمٌ حَيْدٌ (٦).

﴿وولئك﴾ إشارة إلى ما نكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿بأنه﴾ بأن الشأن والحديث ﴿كانت تأتيهم رسلهم﴾ لبشر يهدوننا ﴿أنكروا﴾ أن تكون الرسل بشرًا ولم ينكروا أن يكون الله حجرًا ﴿واستغنى الله﴾ أطلق ليتناول كل شيء ومن جعلته إيمانهم وطاعتهم.

فإن قلت: قوله: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معاً (٢). والله تعالى لم يزل غنياً! قلت: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧).

الزعم أدعاء العلم ومنه قوله عليه السلام: «زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شيء كنية وكنية الكذب، زعموا» (٣) ويتعدى إلى المفعولين تعدي العلم قال:

ولم أزعمك عن ذلك معزلاً وإن مع ما في حيزه قائم مقامها والذين كفروا أهل مكة و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد لن وهو البعث ﴿وولئك على الله يسير﴾ أي: لا يصرفه

﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكركين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعباً وتفرقتم أمماً فمنكم كافر ومنكم مؤمن. وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ومنكم مؤمن به.

فإن قلت: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم، وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفاً باتراً لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرمة فقتل به مؤمناً، أما يطبق العقلاء على نم الواهب وتعينيفه والدق في فروته كما ينمون القاتل بل إنحازهم باللوازم على الواهب أشد! قلت: قد علما أن الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علما أن أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله فوجب أن يكون حسناً وأن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ
(٨).

﴿بالحق﴾ بالعرض الصحيح والحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم. ﴿وصوركم﴾ فأحسن صوركم. وقرئ: صوركم بالكسر لتشكروا. وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه.

فإن قلت: كيف أحسن صورهم؟ قلت: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿في أحسن تقويم﴾.

فإن قلت: فكيف من دميم مشوه الصورة سمح الخلقه تقتحمه العين! قلت: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب. فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاط بيناً وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حده. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن

(3) قال الزيلعي بهذا اللفظ 41/3.

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) قال أحمد: إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيماناً ولا قدرة عليه، فكان قادراً أن يخلق لهم الإيمان والقدرة عليه، وإنما حرّفها الزمخشري إلى قاعدته.

عنه صارف.

قَائِمًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَسْمَعُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾.

وعنى برسوله والنور محمدًا ﷺ والقرآن.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْمَجْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّفْيِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ سَلِمَ يَوْمَ يَكْفُرُ عَنْهُ سَبِيلُهُ. وَيُنَادِي جَنَّتِي جَنَّتِي بِحَيْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَيْدَاءُ ذَلِكَ الْقَوْمُ الْمَكْذِبِينَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَلِيلِينَ فِيهَا وَرِسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾.

وقرى: نجمعكم ونكفر وندخله بالياء والنون.

فإن قلت: بم انتصب الطرف؟ قلت: بقوله: لتنبؤن أو بخبير، لما فيه من معنى الوعيد، كانه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بلضمام انكر ﴿ليوم الجمع﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون. التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغيب بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء، وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغيب، وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» (١). ومعنى ﴿ذلك يوم التغابن﴾ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا. وإن جلت وعظمت ﴿صالحاً﴾ صفة للمصدر أي: عملاً صالحاً.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿إلا بإذن الله﴾ إلا بتقديره ومشيئته كانه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿يهدي قلبه﴾ يلفظ به ويشرحه للزيادة من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة، وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، وعن مجاهد: إن ابتلى صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر. وقرى: يهد قلبه على البناء للمفعول والقلب مرفوع أو منصوب ووجه النصب أن يكون مثل سغه نفسه أي: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى: أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه والمؤمن واجد له مهتد إليه كقوله تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾. وقرى: نهد قلبه بالنون. ويهد قلبه بمعنى: يهتد، ويهد قلبه يطمئن، ويهد

ويهدأ على التخفيف ﴿وإله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾.

﴿فإن توليتم﴾ فلا عليه إذا توليتم لأنه لم يكتب عليه طاعتكم إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَئِنَّ الْمُتَوَلِّينَ لَشَرٌّ ﴿١٣﴾.

﴿وعلى الله فليتوكل للمؤمنون﴾ بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه. إن من الأزواج أرواحاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهن ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولاداً يعاون أباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الفحص والأذى.

يَأْتِيَنَّكَ الْبُرُكُ أَمْوَاتٌ مِنْ أَرْزَاقِكَ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا فَاعْتَدُوا بِأَن يَكُونُوا فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ لِحَيْثُ أَرَادَ إِنَّهُ خَبِيرٌ ﴿١٤﴾.

﴿فاحذروهم﴾ الضمير للعنوا أو للأزواج والأولاد جميعاً أي: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عنو فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غواظهم وشرهم ﴿وإن تعفوا﴾ عنهم إذا طلعت منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها فإن الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل: إن ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقها في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو، وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون ولنكم وعشيرتكم وأموالكم؟ فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير. فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا أن يعفوا عنهم ويرتوا إليهم البر والصلة. وقيل: كان عوف بن مالك الأشجعي ذا أهل وولد، فإذا أراد أن يغزو وتعلقوا به وبكوا إليه ورقوه، فكانه هم بأذاهم فنزلت.

إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾.

﴿فتنة﴾ بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ألا ترى إلى قوله: ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ وفي الحديث يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: «أكل عياله حسناته» (٢). وعن بعض السلف العيال سوس

= والعشي (الحديث رقم: 1379) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار... (الحديث رقم: 2866 - 65).

(2) قال الزيلعي غريب مرفوعاً وهو في الحلبة لابي نعيم من قول سفیان الثوري رواه في ترجمته 42/3.

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6569) وعن انس أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (الحديث رقم: 1338) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (الحديث رقم: 2870. 70) وعن ابن عمر أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالفداء =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطلاق مدنية

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ وَأَحْضُوا الْمِدَّةَ وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِتَحْضَرٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعْنُ اللَّهِ يَحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب⁽³⁾ لأن النبي إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لتروسه وأنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدر عن رأيه ولا يستبدون بأمر نونه، فكان هو وحده في حكم كلهم وساداً مسد جميعهم. ومعنى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إذا أردتم تطبيقهن وهمتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»⁽⁴⁾ ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمُنْتَظَر لها في حكم المصلي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْ﴾ فطلقوهن مستقبلاً لعنتهن⁽⁵⁾ كقولك: أتيت ليلة بقيت من المحرم أي: مستقبلاً لها، وفي قراءة رسول الله ﷺ في قبل عدتهن وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلاً لعنتها، والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه⁽⁶⁾، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق وأخله في السنة وأبعده من الندم. ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون

الطاعات، وعن النبي ﷺ «أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجره على المنبر فقال: صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما ثم أخذ في خطبته⁽¹⁾. وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٧﴾

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ جهنكم ووسعكم أي: ائبلوا فيها استطاعتكم ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ ما توعظون به ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ فيما تأمرون به وتنهون عنه ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ نصب بمحذوف تقديره ائتوا خيراً لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفق. وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِنْ تَرَوْهُ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا يَبْغِيهِمْ لَكُمْ وَيَعْتَرُ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿٧﴾

ونكر القرض تल्प في الاستدعاء. ﴿بِضَاعِهِ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشر أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه ﴿شَكُورٌ﴾ مجاز أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب. وكذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التغابن نفع عنه موت الفجأة»⁽²⁾.

الإقراء الحيض، ولا يتم له ذلك، فقد استدل أصحابنا بالقراءة = المستفيضة، واكتوا الدلالة بالشاذة على أن الإقراء الإطهار ووجه الاستدلال لها على ذلك: أن الله تعالى جعل العدة وإن كانت في الأصل مصدرًا ظرفًا للطلاق المأمور به، وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً، مثل: خفوق النجم ومقدم الحاج، وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به وزمانه هو الطهر وفاقاً، فالطهر عدة إذاً، ونظير اللام هنا على التحقيق اللام في قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ وإنما تمنى أن لو عمل عملاً في حياته، وقراءته عليه السلام في قبل عدتهن تحقق ذلك. فإن قيل: الشيء جزء منه وداخل فيه، وفي صفة مسح الرأس فاقبلت بهما ولبر، أي: مسح قبل الرأس وهو مقدمها، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر.

(6) قال أحمد: الأمر كما نقله وضابط السنة عند مالك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة، والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعاً، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره العقيد بالاستقبال، فلأن الطلاق المأمور به أي المانون فيه في الآية مقيد بوقت تكون العدة مستقبلاً بالنسبة إليه، وهذا يابى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها، وأما على تأويلنا؛ فلأنه مقيد بزمان يكون أولاً للعدة وقبلها لها، وهذا يابى من وقوعه مرافقاً في الطهر الثاني والثالث، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت =

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث (الحديث رقم: 1109)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين (الحديث رقم: 3774)، والنسائي في كتاب: الجمعة، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (الحديث رقم: 1412)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: ليس الأحمر للرجال (الحديث رقم: 3600)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الفرائض، باب: نوي الرحم، (الحديث رقم: 6039)، أخرجه الحاكم في المستدرک 1/287.

(2) الثعلبي والواحدى وابن مردويه في تفسيرهم زليعي 44/6.

(3) قال أحمد: وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى إلى حكاية عن فرعون ﴿قَالَ فَمَنْ رِيكَامَا يَا مُوسَى﴾ فاقترد موسى عليه السلام بالنداء؛ لأنه كان لجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب، وقد تقدم فيه وجه آخر.

(4) تقدم في سورة البقرة.

(5) قال أحمد: حمل القرامتين المستفيضة والشاذة على إن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبلاً بالنسبة إليه، وأدعى أن ذلك معنى المستقبل فيها، ونظر اللام فيها باللام في قوله: مؤرخاً الليلة لليلة بقيت من المحرم، وإنما يعني: أن العدة بالحيض، كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أن =

والصفاثر والحوامل فكيف صح تخصيصه بنوات الاقراء المدخول بهن! قُلْتُ: لا عموم ثم ولا خصوص، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك، فلما قيل: «فطلقوهن لعنتهن» علم أنه أطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض «وألحصوا العدة» واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبليات⁽⁶⁾ كوامل لا نقصان فيهن «ولا تخرجوهن» حتى تنقضي عنتهن «من بيوتهن» من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة وهي بيوت الأزواج وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى.

فإن قُلْتُ: ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهم؟ قُلْتُ: معنى الإخراج أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهةً لمساكنتهن أو حاجة لهم إلى المساكن. وأن لا يأتوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيداناً بأن إذهبن لا أثر له في رفع الحظر ولا يخرجن بأنفسهن إن أردين ذلك «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» قرئ: بفتح الياء وكسرهما قيل: هي الزنى يعني: إلا أن يزينن فيخرجن لإقامة الحد عليهن. وقيل: إلا أن يطلقن على النشوز، والنشوز يسقط حقها في السكنى، وقيل: إلا أن يبذن، فيحل إخراجهن لبدائهن، وتؤكده قراءة أبي إلا أن يفحشن عليكم. قيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه الأمر الذي يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فليراجعها والمعنى: فطلقوهن لعنتهن وأحصوا العدة لعلمكم ترغبن وتندمون فتراجعون.

فإن قُلْتُ: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها! قُلْتُ: الصغيرة والأيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا واحدة، وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعي الوقت.

فإن قُلْتُ: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها! قُلْتُ: الصغيرة والأيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا واحدة، وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعي الوقت.

فإن قُلْتُ: هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ قُلْتُ: اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا والظاهر الكراهة.

فإن قُلْتُ: قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من نوات الاقراء والأيسات

أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة. وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة. وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد فاما مفرقاً في الأطهار فلا، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض ما هكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة⁽¹⁾، وروي أنه قال لعمر: مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء⁽²⁾. وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده.

فإن قُلْتُ: هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ قُلْتُ: نعم وهو أتم. لما روي عن النبي ﷺ أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه، فقال: اتلعبن بكتاب الله وأنا بين أظهركم⁽³⁾؛ وفي حديث ابن عمر أنه قال: يا رسول الله أرأيت لو طلقها ثلاثاً، فقال له: إن عصيت وبنات منك امرأتك⁽⁴⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً وأجاز ذلك عليه⁽⁵⁾. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف.

فإن قُلْتُ: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها! قُلْتُ: الصغيرة والأيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا واحدة، وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعي الوقت.

فإن قُلْتُ: هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ قُلْتُ: اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا والظاهر الكراهة.

فإن قُلْتُ: قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من نوات الاقراء والأيسات

(3) أخرجه السنائي في كتاب: الطلاق باب: الثلاث المجموعة وما فيه من التقليل (الحديث رقم: 3401).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 332/6 (الحديث رقم: 1065) وابن أبي شيبه 11/5 كتاب الطلاق باب من كره أن يطلق الخ.

(6) قال أحمد، وقوله: «واتقوا الله ربكم» توطئة لقوله: «لا تخرجوهن من بيوتهن» حتى كانه نهى عن الإخراج مرتين، مندرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وقد تقدمت أمثاله.

= فلا جرم، قال: إن طلقها في الحيض اجبر على الرجعة، فإن أبي ارتجع عليه الحاكم، وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أرفق الطلاق لم يجبره.

(1) الدارقطني في كتاب الطلاق (الحديث رقم: 6).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: قول الله تعالى: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعنتهن» (الحديث رقم: 5251) ومسلم في كتاب: الطلاق باب: تحريم طلاق الحائض (الحديث رقم: 1471/1).

مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالمًا، فأتى رسول الله فقال: أسر ابني. وشكا إليه الفاقة، فقال: ما أمسى عند آل محمد إلا مد فائق الله واصبر وأكثر من قول لا حول لا قوة إلا بالله ففعل، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت هذه الآية⁽⁶⁾ ﴿بالغ امره﴾ أي: يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب وقرئ: بالغ امره بالإضافة وبالغ امره بالرفع أي: نافذ امره، وقرأ المفضل بالغًا امره على أن قوله: ﴿قد جعل الله﴾ خبر إن وبالغًا حال ﴿قدراً﴾ تقديرًا وتوقييًا وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه⁽⁷⁾ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

وَأَلَّتِي يَتَسَّرَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ إِسَابِكٍ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَوَدَّعُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَأَلَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُرْزُقْتَ الْأَحْمَالُ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ ذَرَأَةً مُبَارَكَةً ﴿٤﴾.

روي أن ناسًا قالوا: قد عرفنا عدة نوات الاقراء فما عدة اللائي لا يحضن. فنزلت فمعنى ﴿إن ارتبتم﴾ إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدن فهذا حكمهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدره بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة. ﴿فعدتهن﴾ ثلاثة أشهر، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بملك ﴿واللائي لم يحضن﴾ هن الصغائر المعنى فعدتهن ثلاثة أشهر فحذف لدلالة المنكور عليه. اللفظ مطلق في أولات الاحمال فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن وكان ابن مسعود وأبي وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون، وعن علي وابن عباس: عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الاجلين⁽⁸⁾، وعن عبد الله: من شاء لاعنته أن سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة⁽⁹⁾ يعني: أن هذا اللفظ مطلق في الحوامل. وروت أم

إذا تبايعتم⁽¹⁾ وعند الشافعي: هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها ولثلا يموت أحدهما فيدعى الباقي ثبوت الزوجية ليرث ﴿منكم﴾ قال الحسن: من المسلمين، وعن قتادة: من أحراركم ﴿الله﴾ لوجهه خالصًا وذلك أن تقيمها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ونبع الظلم كقوله تعالى: ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم﴾⁽²⁾ أي: ﴿نلكم﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط ﴿يوعظ به ومن يتق الله﴾ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة وطريقة الأحسن والأبعد من الندم، ويكون المعنى: ومن يتق الله فطلق للسنة، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فاشهد ﴿بجعل﴾ الله ﴿له مخرجًا﴾ مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص.

وَرِزْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنْ اللَّهُ بَلِّغْ أَمْرَهُ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٥﴾.

﴿ويرزقه﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقلّ ماله، وعن النبي ﷺ أنه سئل عمن طلق ثلاثًا أو ألفًا هل له من مخرج فتلاها⁽³⁾. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال: لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجًا بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند نكر قوله: ﴿نلكم يوعظ به﴾ يعني: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ومخلصًا من غموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قرأها فقال: مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة⁽⁴⁾. وقال عليه السلام: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله فما زال يقرؤها ويعيدها⁽⁵⁾». وروي أن عوف بن

= وقعت بدونها، وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لمخالفتها للإرادة الربانية تأثير في منع وقوعها، فمن يتوغل في أدغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذي يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل، فمهما أراه وقع ومهما لم يره لم يقع شاء العبد أو أبي فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والعبد مجرى لحوث الكائنات الواقعة بقدرته الله تعالى وإرادته لا غير، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، فما القدرى من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحة الإصناف وذات التقوى، ولبيل التوفيق والله حسبنا ونعم الوكيل.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطلاق باب: ﴿أولوات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن...﴾ (الحديث رقم: 4909).

(9) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة البقرة، باب: ﴿والذين يتوفون منكم...﴾ (الحديث رقم: 4532)، وأبو داود في كتاب: الطلاق باب: في عدة الحامل (الحديث رقم: 2307)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها (الحديث رقم: 3522).

(1) سورة البقرة، الآية: 282.

(2) سورة النساء، الآية: 135.

(3) الدارقطني في السنن 20/4 (الحديث رقم: 53).

(4) أبو نعيم في الحلية في ترجمة قتادة والشعبي في تفسيره والواحدى في تفسيره الوسيط زيلي 50/4.

(5) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (الحديث رقم: 4220).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 492/2.

(7) قال أحمد: ليس بعشك فانرجي إبراه القدرى، وابن التسليم للقدر، وليس هذا بينه ولا معتقده، من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام، فمنها: ما يريد الله تعالى وجوده، وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها، ومنها: ما يريد عدمه، وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده، ومنها: ما لا يريد عدمه ولا وجوده، فإن وجد فيغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك، فيتحصل من هذا الهنئان الذي لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق؛ لأنها لا تقع إلا بها، فإن وافقت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعًا لها؛ لأنها =

والنفقة⁽⁵⁾، ﴿ولا تضاروهن﴾ ولا تستعملوا معهن الضرار ﴿لنضيقوا عليهن﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل: هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها، وقيل: هو أن يلجئها إلى أن تغدئ منه.

فإن قُلْتَ: فإذا كانت كل مطلقة عندهم تجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن﴾؟ قُلْتَ: فإنته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل فنفي ذلك الوهم.

فإن قُلْتَ: فما تقول في الحامل المتوفى عنها؟ قُلْتَ: مختلف فيها فأكثروهم على أنه لا نفقة لها لوقوع الإجماع على أن من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته فكذاك الحامل. وعن علي وعبد الله وجماعة أنهم أوجبوا نفقتها ﴿فإن أرضعن لكم﴾ يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فأنتوهن لجورهن﴾ حكمنهن في ذلك حكم الأظفار، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبين ويجوز عند الشافعي. الإلتزام بمعنى التآمر كالاشتوار بمعنى التشاور يقال: اتئمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً، والمعنى: وليأمر بعضهم بعضاً، والخطاب للأبء والأمهات ﴿بمعروف﴾ بجميل وهو المسامحة وإن لا يملكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما معاً وهما شريكان فيه وفي وجوب الأشفاق عليه. ﴿وإن تعاسرتن فسترضعن له أخرى﴾ فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة. كما تقول لمن تستفضيه حاجة⁽⁶⁾ فيتوانى سيقضيها غيرك تريد لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم وقوله له: أي للآب أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه.

لِنُفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَرَّبَ بَنِيهِ إِذْ قَالُوا كُنَّا مُتَنِقِحِينَ وَإِنَّهُ لَكُلِّفَ اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيِّئًا اللَّهُ يَسِّرُ لِلَّذِينَ يَشَاءُ وَيَشَدِّدُ لِلَّذِينَ يَشَاءُ إِنَّهُ بِذُنُوبِهِمْ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿لينفق﴾ كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه

سلمة أن سبعة الأسلمية ولنت بعد وفاة زوجها بليال فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لها: قد حلت فانكحي⁽¹⁾ ﴿يجعل له من امره يسراً﴾ ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى.

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِإِنِّكَ وَمَن يَتَىَّ اللَّهُ يَكْفِرْ عَنِّي سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

﴿ذلك أمر الله﴾ يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات والمعنى: ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما نكر من الإسكان وترك الضرر والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

أَتَيْكُم مِّن مِّن حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَلَا تَضَارُوا لِنُضِيقُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمْلًا فَلْيَضْحَكُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآوَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَأَتَيْنَهُنَّ بِبُرُوقِهِنَّ وَإِنْ سَأَلْتُم مِّنْهُنَّ فَسَرِّضْنَ لَهُنَّ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

﴿اسكنوهن﴾ وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله: ﴿ومن يتق الله﴾⁽²⁾ كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقيل: أسكنوهن.

فإن قُلْتَ: من في ﴿من حيث سكنتم﴾ ما هي؟ قُلْتَ: هي من التبعية مبعضا محذوف معناه أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم أي: بعض مكان سكناكم كقوله تعالى: ﴿يغضوا من أبصارهم﴾⁽³⁾ أي: بعض أبصارهم، قال قتادة: إن لم يكن إلا بيت واحد فأسكنها في بعض جوانبه.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿من وحبكم﴾! قُلْتَ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه والوجد الوسع والطاقة. وقرئ: بالحركات الثلاث والسكنى والنفقة واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك والشافعي: ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها، وعن الحسن وحامد: لا نفقة لها ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها أبت طلاقها، فقال لها رسول الله ﷺ: لا سكنى لك ولا نفقة⁽⁴⁾. وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها سمعت النبي ﷺ يقول لها: السكنى

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: ﴿أولات الأحمال﴾ (الحديث رقم: 46 - 1480) وأبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أنكر على فاطمة... (الحديث: 2291) والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: الرخصة في خروج المبتوتة في بيتها في عدتها لسكانها (الحديث رقم: 3551).

(2) سورة الطلاق، الآية: 4.

(3) سورة النور، الآية: 30.

(6) قال أحمد: وخص الأم بالمعاتبة؛ لأن المبتول من جهتها هو لبنها لولدها، وهو غير متمول ولا مضمون به في العرف، وخصوصاً في الأم على الولد، ولا كذلك المبتول من جهة الأب فإنه المال المضمون به عادة، فالأم إذا أجدى بالوم وأحق بالعتب، والله أعلم.

(4) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها =

وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات كما قال: ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾⁽¹⁾ وقرئ: ليفنق بالنصب، أي: شرعنا ذلك ليفنق. وقرأ ابن أبي عبيدة قدر ﴿سيجعل الله﴾ موعدا لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم أو لفقراء الأزواج إن انفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

وَكَيْفَ يَنْزِلُ مِنْ رَبِّهِ عَنَّا نَزْلًا مِثْلَ مَا نَزَلَ مِنَ رَبِّهِ أَلَسْنَا بِعُتْبَانِ
وَعَذَابِهَا مَا يُنْفِقُونَ فِيهَا مِنَ الْوَبَالِ وَيَلْقَوْنَ فِيهَا الْخُسْرَ
وَجِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ﴾⁽²⁾ ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ﴾⁽³⁾.

﴿عنت عن أمر ربها﴾ عرضت عنه على وجه العتو والعداوة ﴿حساباً شديداً﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿عذاباً نكراً﴾ وقرئ: نكر منكرًا عظيمًا، والمراد حساب الآخرة وعذابها وما ينوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾⁽²⁾ ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ﴾⁽³⁾.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا آلِ آدَمَ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا⁽⁴⁾.

ونحو ذلك لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكان قد وقوله: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقباً كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ﴿يا نولي الأبواب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه، ويجوز أن يراد حصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظ وما أصيبوا به من العذاب في العاجل. وأن يكون عنت وما عطف عليه صفة للقرية وأعد الله لهم جواباً لكأين.

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مِيمَاتٍ يُخْرِجُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْلَأُوا
الْمَلَاحِقَاتِ مِنَ الْكُلُوبِ إِلَى التُّرُوفِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يَخُذْ
حُجَّتَهُ حَتَّى تَمُوتَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَمَنَّ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا
رَبِّكُمْ⁽⁵⁾.

﴿رسولاً﴾ هو جبريل صلوات الله عليه أيدل من نكراً لانه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال النكر⁽⁴⁾ فصح إيداله منه، أو أريد بالنكر الشرف. من قوله: ﴿ولانه لنذكر لك ولقومك﴾ فإبدل منه كانه في نفسه شرف إما لانه شرف للمنزل عليه، وإما لانه نو مجد وشرف عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أو جعل لكثرة نكره لله وعبادته كانه نكر أو أريد ذا نكر أي: ملكاً

(1) سورة البقرة، الآية: 236.

(2) سورة الأعراف، الآية: 44.

(3) سورة الأعراف، الآية: 50.

(4) قال احمد: وعلى هذين الوجهين الاخيرين يكون مفعولاً، إما بالفعل المحنوق أو بالمصدر، وعلى الاربعة المتقدمة بدلاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(5) الثعلبي وابن مردويه والواحي في تفسيرهم زيلي 55/4.

منكوراً في السموات وفي الامم كلها، أو دل قوله: أنزل الله إليكم نكراً علي أرسل فكانه قيل: أرسل رسولا أو أعمل نكراً في رسولا إعمال المصدر في المفاعيل. أي: أنزل الله أن نكر رسولا أو نكره رسولا، وقرئ: رسول على هو رسول. أنزل ﴿ليخرج الذين آمنوا﴾ بعد إنزاله أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح لانهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ، أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون. قرئ: يدخله بالياء والنون ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَبَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بَنَاتٍ
يَتَنَزَّلُ الْأَنْجَاءُ بَيْنَهُنَّ لِيُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَبُّكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا⁽⁶⁾.

﴿الله الذي خلق﴾ مبتدا وخبر. وقرئ: مثلهن بالنصب عطفاً على سبع سموات، وبالرفع على الابتداء وخبره من الأرض. قيل: ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه. وقيل: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وغلط كل سماء كذلك، والأرضون مثل السموات ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن، وعن قتادة: في كل سماء وفي كل أرض من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضاؤه وقيل: هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره. وقرئ: ينزل الأمر. وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق؟ قال: نعم. قال: فما الخلق؟ قال: إما ملائكة أو جن ﴿لتعلموا﴾ قرئ: بالتاء والياء عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ»⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التحريم مدنية

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَّا أَرْوَاهُ وَاللَّهُ عَفُوفٌ
رَحِيمٌ⁽¹⁾.

روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقالت لها: اكتمي علي وقد حرمت مارية على نفسي⁽⁶⁾ وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان

(6) قال احمد: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي ﷺ تقول واقتراء، والنبي ﷺ منه براء، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين، اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمة الله عز وجل، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمه الإيمان، وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان وأسمه. الثاني: الامتناع مما أحله عز وجل وحمل التحريم بمجرد صحیح، لقوله: ﴿وحرمتنا عليه المرضع من قبل﴾ أي: منعنا لا

فإن قُلْتُ: ما حكم تحريم الحلال؟ قُلْتُ: قد اختلف فيه فابو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثاً فكما نوى. وإن قال: نويت الكذب دين فيما بينه وبين الله تعالى ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى. ولا يراه الشافعي يميناً ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده. وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم أنّ الحرام يمين⁽⁷⁾، وعن عمر إذا نوى الطلاق فرجعي، وعن علي رضي الله عنه ثلاث⁽⁸⁾، وعن زيد واحدة بائنة. وعن عثمان ظهار. وكان مسروق لا يراه شيئاً ويقول: ما بأبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد، وكذلك عن الشعبي قال: ليس بشيء محتجاً بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾⁽⁹⁾ وقوله تعالى: ﴿تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾⁽¹⁰⁾ وما لم يحرمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرمه ولا أن يصير بتحريمه حراماً. ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما أحله الله هو حرام عليّ وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله عليه السلام: «والله لا أقرّبها بعد اليوم». فقيل له: لم تحرم ما أحلّ الله لك، أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: قدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك ونحوه قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾⁽¹¹⁾ أي

بعدي أمر امتي فأخبرت به عائشة وكانتا متصافقتين⁽¹⁾ وقيل: خلا بها في يوم حفصة فأرضاهما بذلك واستكتهما فلم تكتم⁽²⁾ فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية⁽³⁾ وروي أنّ عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة⁽⁴⁾ وروي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله ﷺ يكره التفّل فحرم العسل⁽⁵⁾ فمعناه: ﴿لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين أو العسل و﴿تبتغي﴾ إما تفسير لتحريم أو حال أو استئناف وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله لأنّ الله عزّ وجلّ إنما أحلّ ما أحلّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة «والله غفور» قد غفر لك ما زلت فيه «رحيم» قد رحمك فلم يؤاخذك به.

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ الْكُرْهَ أَيْمَانَكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ فيه معنيان: أحدهما قد شرع الله لكم الاستثناء في إيمانكم من قوله: حلّ فلان في يمينه، إذا استثنى فيها. ومنه حلّ آبيت اللعن بمعنى استثنى في يمينك إذا أطلقها وذلك أن يقول: إن شاء الله عقبيها حتى لا يحنث. والثاني قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة ومنه قوله عليه السلام: لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم⁽⁶⁾. وقول ذي الرمة: قليلاً كتليل الألي.

- (1) الطبراني في معجمه.
- (2) قال الزيلعي غريب. ورواه ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن سعد في الطبقات ثم ساق الحديثين 61/4.
- (3) لم يخرج الزيلعي.
- (4) الحاكم في المستدرک 15/4.
- (5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة التحريم باب: «يا أيها النبي لمّ تحرم ما أحلّ الله لك...» (الحديث رقم: 4912)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امراته ولم ينو الطلاق (الحديث رقم: 20 - 1474).
- (6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلاة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحسبه (الحديث رقم: 150 - 2632).
- (7) حديث أبي بكر رواه ابن أبي شيبة 74/5 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث عمر رواه ابن أبي شيبة 73/5 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث ابن عباس رواه مسلم في كتاب: الطلاق باب: وجوب الكفارة على من حرم امراته... (الحديث رقم: 18 - 1473)، وحديث ابن مسعود رواه عبد الرزاق في المصنف 401/6 (الحديث رقم: 11364)، وحديث زيد لم يخرج الزيلعي.
- (8) رواه عبد الرزاق في المصنف 404/6 (الحديث رقم: 11390).
- (9) سورة النحل، الآية: 116.
- (10) سورة المائدة، الآية: 87.
- (11) سورة القصص، الآية: 12.

= غير، وقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف حلال ومحض، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال، فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح يعضده، فإنّ النبي ﷺ حلف بالله «لا أقرب مارية» ولما نزلت الآية كفر عن يمينه، ويبدل عليه «قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم» وقال مالك في المونة عن زيد بن أسلم: إنما كفر النبي ﷺ في تحريمه أم ولده؛ لأنه حلف أن لا يقربها، ومثله عن الشعبي، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح، وإنما قيل له: ﴿لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ رفقا به وشفقة عليه، وتنوياً لقره ولمنصبه ﷺ أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبية، ورفعه عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه، ومن أجله خلقوا ليظهر الله كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه، والزمخشري قطعاً لم يحمل التحريم على هذا الوجه؛ لأنه جعل زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأوّل، ومعاذ الله وحاش لله وإنّ أحاد المؤمنين حاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحلّ الله له، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله، وإطلاق القول من غير تحرير، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير، نعوذ بالله من ذلك، وهو المسؤول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيماً لنبيتنا صلوات الله عليه، وإنّ يجنبنا خطوات الشيطان ويقبلنا من عثرات اللسان آمين.

حريصاً على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل وعملت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده فتوضأ فقلت: من هما؟ فقال: عجبا يا ابن عباس. كأنه كره ما سألته عنه، ثم قال: هما حفصة وعائشة⁽⁴⁾ **﴿فقد صغت قلوبكما﴾** فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حب ما يحبه وكرامة ما يكرهه، وقرأ ابن مسعود: فقد زاغت **﴿وإن تظاهرا﴾** وإن تعاونوا **﴿عليه﴾** بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهاه، وكيف يعلم المظاهر من الله مولاة أي: وليه وناصره، وزيادة هو إيدان بان نصرته عزيمة من عزائمته وأنه يتولى نك بذاته. **﴿وجبريل﴾** رأس الكروبيين وقرن نكره بنكره مفرداً له من بين الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته عنده **﴿وصالح للمؤمنين﴾** ومن صلح من المؤمنين يعني: كل من آمن وعمل صالحاً، وعن سعيد بن جبير: من برئ منهم من النفاق وقيل: الأتنياء، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء منهم.

فإن قلت: صالح المؤمنين واحد أم جمع؟ **قلت:** هو واحد أريد به الجمع، كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس، تريد الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم، ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر، ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ بون وضع الخط **﴿والملائكة﴾** على تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم **﴿بعد ذلك﴾** بعد نصرته الله وناموسه وصالحه المؤمنين **﴿ظهير﴾** فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاينهم، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.

فإن قلت: قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم وقد تقدمت نصرته الله وجبريل وصالح المؤمنين ونصرته الله تعالى أعظم وأعظم! **قلت:** مظاهرة الملائكة من جملة نصرته الله فكانه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى لفضلهم على جميع خلقه. وقرئ: تظاهرا وتظاهرا وتظاهرا.

عَنْ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبْدِلَهُ أَنْ يُؤْتِيَا خَيْرًا مِنْكَ مُؤْمِنِينَ مُمْسِكِينَ تَبَيَّنَ عِبَادَاتِي سَبَّحْتَ تَبَيَّنَ وَأَبْكَرًا⁽⁵⁾.

قرئ: يبدي بالتخفيف والتشديد للكثرة **﴿مسلمات مؤمنات﴾** مقرات مخلصات **﴿سائحات﴾** صائحات وقرئ: سيحات، وهي أبلغ، وقيل للصائم: سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به

منعناه منها وظاهر قوله تعالى: **﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾** أنه كانت منه يمين.

فإن قلت: هل كفر رسول الله ﷺ لملك؟ **قلت:** عن الحسن أنه لم يكفر لانه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تاخر⁽¹⁾ وإنما هو تعليم المؤمنين، وعن مقاتل أن رسول الله ﷺ اعتق رقبة في تحريم مارية⁽²⁾.

﴿وإله مولاكم﴾ سيديكم ومتولي أموركم **﴿وهو للعليم﴾** بما يصلحكم فيشرعه لكم **﴿الحكيم﴾** فلا يامرکم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة، وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته اتفع لكم من نصائحكم لأنفسكم.

وَإِذْ أَمَرْنَا النَّبِيَّ إِذْ بَعَثْنَا نَبَاتًا بِرَبِّهِ وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِرَبِّهِ قَالَتْ مَنْ أُنَبِّئُكَ هَذَا قَالَ نَبِيُّ آلِ مَرْيَمَ الْأَخْيَرُ⁽³⁾.

﴿بعض ازواجه﴾ حفصة والحديث الذي أسر إليها حديث مارية. وإمامة الشيخين **﴿نبات به﴾** أفضته إلى عائشة وقرئ: أنبات به **﴿وأظهره﴾** وأطلع النبي عليه السلام **﴿عليه﴾** على الحديث أي: على إفشائه على لسان جبريل، وقيل: أظهر الله الحديث على النبي ﷺ من الظهور **﴿عرف بعضه﴾** أعلم ببعض الحديث تكريماً، قال: سفيان ما زال التخافل من فعل الكرام، وقرئ: عرف بعضه أي: جاز عليه من قولك للمسيء: لا تعرفن لك ذلك، وقد عرفت ما صنعت، ومنه أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم وهو كثير في القرآن. وكان جزاؤه تطليقه إياها وقيل: المعروف حديث الإمامة والمعرض عنه حديث مارية، وروي أنه ﷺ قال لها: **﴿إله مولاكم﴾** الذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها إياها.

فإن قلت: هلا قيل: فلما نبات به بعضهن وعرفها بعضاً! **قلت:** ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعروف وإنما هو نكر جنابة حفصة في وجود الإنبياء به وإفشائه من قبلها، وأن رسول الله ﷺ بكرمه وحلمه لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه وهو حديث الإمامة ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله: **﴿فلما نبأها به قالت من أنبئك هذا﴾**⁽³⁾ نكر المنبا كيف أتى بضميره.

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ وَالتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ⁽⁴⁾.

﴿إن تتوبا﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، وعن ابن عباس: لم أزل

(1) أخرجه أبو داود في المرسلين، باب في الحرام (الحديث رقم: 240).

(2) لم يخرج الزليعي، وقال المحقق ورد من حديث انس عن ابن مروييه راجع الدر المنثور 240/6، [64/4].

(3) سورة التحريم، الآية: 3.

(4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (الحديث رقم: 2468).

مَعَا عَلَى لَفْظِ الْمَخَاطَبِ ﴿نَارًا وَقُودًا لِلنَّاسِ وَالْحِجَارَةَ﴾
نوعاً من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها
من النيران بالحطب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي
حجارة الكبريت وهي أشد الأشياء حرّاً إذا أوقد عليها وقرئ
وقودها بالضم أي: نو وقودها ﴿عليها﴾ يلي أمرها وتعنيب
أهلها ﴿ملائكة﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم
﴿غلاظ شداد﴾ في أجرهم غلظة وشدة أي: جفاء وقوة أو
في أفعالهم جفاء وخشونة لا تأخذهم رافة في تنفيذ
أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه ﴿ما أمرهم﴾ في
محل النصب على البذل أي: لا يعصون ما أمر الله أي: أمره
كقوله: أفصصت أمري أو لا يعصونه فيما أمرهم.

فإن قُلْت: اليس الجملةتان في معنى واحد؟ قُلْت: لا فإنَّ
معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون بها ولا يأتونها⁽⁴⁾
ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به
لا يتأقنون عنه ولا يتوانون فيه.

فإن قُلْت: قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا
بعينه في قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿أعدت
للكافرين﴾⁽⁶⁾ فجعلها معدة للكافرين فما معنى مخاطبته به
المؤمنين! قُلْت: الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات
الكفار فإنهم مساكنون للكفار في دار واحد فقيل: للذين آمنوا
قوا أنفسكم باجتنب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعنت لهم
هذه النار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد
والندم على النحول في الإسلام وإن يكون خطاباً للذين آمنوا
بالسننهم وهم المنافقون ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره.

يَأْتِيَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَدْرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا حُزْرُونَ مَا كُنْتُمْ سَدْرُونَ ﴿٧﴾

﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون
ما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار
لا تعتذروا لأنه لا عدل لكم أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره، وقيل:
سائحات مهاجرات. وعن زيد بن أسلم لم تكن في هذه
الامة سايحة إلا الهجرة.

فإن قُلْت: كيف تكون المبدلات خيراً ممنه ولم تكن على
وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟ قُلْت: إذا طلقهن
رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك
الصفة وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع
الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه ورضاه خيراً
منهن، وقد عرض بذلك في قوله: قانتات لأنَّ القنوت هو
القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله.

فإن قُلْت: لم اخليت الصفات كلها عن العاطف⁽¹⁾ ووسط
بين الثيبات والابكار؟ قُلْت: لانهما صفتان متنافيتان
لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بد
من الواو.

يَأْتِيَا الَّذِينَ مَأْسُرُوا قَوْمًا أَنكَبُوا وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودًا لِّلنَّاسِ وَالْحِجَارَةَ
عَلَيْهَا مَلَكِكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَعْمَلُونَ مَا يُمْرُونَ ﴿٦﴾

﴿قوا أنفسكم﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات
﴿واهلهم﴾ بان تاخوهم بما تاخون به أنفسكم وفي
الحديث رحم الله رجلاً قال: يا اهلاه صلاتكم صيامكم
زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعهم معي في
الجنة⁽²⁾ وقيل: إنَّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل
أهله وقرئ: واهلوكم⁽³⁾ عطفاً على واوقوا وحسن العطف
للفاصل.

فإن قُلْت: اليس التقدير قوا أنفسكم وليق اهلوكم
انفسهم؟ قُلْت: لا ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو
وانفسكم واقع بعده فكانه قيل: قوا انتم واهلوكم أنفسكم لما
جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما

(1) قال الزيلعي غريب 66/4.

(2) قال احمد: وقد نكر لي الشيخ ابو عمرو بن الحلاج رحمه الله انَّ
القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب رحمه الله كان يعتقد
انَّ الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو
الثمانية؛ لانها نكرت مع الصفة الثامنة، فكان الفاضل يتبجح
باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة أحدها
التي في الصفة الثامنة من قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ عند قوله:
﴿والناهمون عن المنكر﴾ والثانية في قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾
والثالثة في قوله: ﴿وفتحت ابوابها﴾ قال الشيخ ابو عمرو بن
الحاج: ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه، إلى أن نكره
يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقرري فبين له أنه واهم في
عدها من ذلك القبيل، وأحال البيان على المعنى الذي نكره
الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا، لامتناع
اجتماع الصفتين في موصوف واحد، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما
ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للإشعار بتمام نهاية العدد الذي هو
السبعة، فانصه الفاضل رحمه الله واستحسن ذلك منه، وقال:

(3) قال احمد: جوابه الأول مفرغ على قاعدته الفاسدة في اعتقاد
خلود الفساق في جهنم، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه
بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتامته من هذا الباطل،
نعوذ بالله منه، وإلا فالسؤال غير وارد، فإنه لا يمتنع أن المؤمن
يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان، كقوله في آل عمران
خطاباً للمؤمنين: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين، وأطيعوا الله
والرسول لعلكم ترحمون﴾.

(4) سورة البقرة، الآية: 24.

(5) سورة البقرة، الآية: 24.

(6) سورة البقرة، الآية: 24.

أرشدتنا يا أبا الجود.

نورهم ﴿على الصراط﴾ **﴿اتمم لنا نورنا﴾** قال ابن عباس: يقولون ذلك: إذا طفي نور المنافقين إشفاقاً، وعن الحسن الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله كقوله تعالى: **﴿واستغفر لذنبك﴾** (1) وهو مغفور له وقيل: يقوله انبأهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً وقيل: السابقون إلى الجنة يمزون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبواً وزحفاً فأولئك الذين يقولون ربنا اتمم لنا نورنا.

فإن قُلْتُ: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون أم من يأتي أمنا يوم القيامة لا خوف عليهم لا يحزنهم الفزع الأكبر أو كيف يتقربون وليست الدار دار تقرب؟ قُلْتُ: أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن وأما التقرب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة سماه تقرباً.

بِتَابِهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَخَذُوا عَلَيْهِمْ مَوَاهِبَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿١٦﴾

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف **﴿والمنافقين﴾** بالاحتجاج. واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة، وعن قتادة مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم، وعن مجاهد بالوعيد وقيل: بإفشاء أسرارهم. مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعمهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله بحال.

حَرَبَ اللَّهُ مَلَائِكَةً كَفَرُوا أَنْزَلْنَا نُوحًا وَأَمَرَاتٍ لُوطًا كَاتِبَاتًا نَحْتَّ عِبَادِينَ مِنْ عَبَادِنَا مَسْلُومِينَ فَخَلَّاهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ سِتْرًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٧﴾

امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله. **﴿وقيل﴾**: لهما عند موتهما أو يوم القيامة **﴿ادخلا النار مع﴾** سائر **﴿الدخليين﴾** الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالأخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً، وفي طي هذين التمثيلين

بِتَابِهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوتًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أُن يُكْفَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ عَلَّمَ كَلِمَاتٍ نَتَقَدَّرُ بِهَا ﴿١٨﴾

﴿توبة نصحاً﴾ وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها نانمين عليها مغتمين أشد الإغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعيرون في قبائح من القبائح إلى أن يعود اللبث في الضرع موطنين أنفسهم على ذلك، وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه سمع أعرابياً يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، قال: وما التوبة، قال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وأن تنيقها مرارة الطاعات كما أنقتها حلالة المعاصي، وعن حنيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه، وعن شهر بن حوشب أن لا يعود ولو خز بالسيف وأحرق بالنار، وعن ابن السماك أن تنصب الذنوب الذي أقلت فيه الحياء من الله أمام عينك ويستعد لمنظرك وقيل: توبة لا يتاب منها، وعن السدي لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقيل: نصحاً من نصاحة الثوب أي: توبة توفر خروك في دينك وترم خلك وقيل: خالصة من قولهم: غسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها وقرأ زيد بن علي توباً نصحاً وقرئ: نصحاً بالضم هو مصدر نصح والنصح والنصح كالشكر والشكور والكفر والكفور أي: ذات نصح أو تنصح نصحاً أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له **﴿عسى ربكم﴾** إطعام من الله لعباده وفيه وجهان أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبارة من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع واللبت والثاني أن يجيء به تعليماً للعباد وجوب الترجيح بين الخوف والرجاء والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البيت قراءة ابن أبي عبيدة ويدخلكم بالجزم عطفاً على محل عسى أن يكفر كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم ويدخلكم **﴿يوم لا يخزي الله﴾** نصب بيدخلكم ولا يخزي تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق واستحمام إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم **﴿يسعى﴾**

فرفعها إلى الجنة فهي تاكل وتشرب وتتعمم فيها، وقيل: لما قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾. أريت بيتها في الجنة بيني، وقيل: إنه من نرة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظللها الملائكة.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ **قُلْتَ:** طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها: في الجنة، أو أرات ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: عندك ﴿من فرعون وعمله﴾ من عمل فرعون أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ من القبط كلهم. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والاتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين. الآية ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾⁽³⁾. ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾⁽⁴⁾.

وَمِمَّنْ آتَىٰ عَمْرَأَ آلِهِ أَحْصَتَ رَجْعَهَا فَنَفَخَهَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنِيَّهَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَنَيْنِ ﴿١٧﴾.

﴿فيه﴾ في الفرج وقرأ ابن مسعود: فيها، كما قرئ في سورة الأنبياء والضمير للجملة. وقد مر لي في هذا الظرف كلام ومن بدع التفاسير أن الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته منعت جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلياً للارامل وتطبيهاً لأنفسهن **﴿وصدقت﴾** قرئ: بالتشديد والتخفيف، على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة. يعني: وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه.

فإن قُلْتَ: فما كلمات الله وكتبه؟ **قُلْتَ:** يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها⁽⁵⁾، ويكتبه الكتب الأربعة وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرئ: بكلمة الله وكتابه أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿من القانتين﴾ على التنكير؟ قلت: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبليين فغلب ذكوره

تعريض بأبي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أعظم وجه وأشدّه لما في التمثيل من نكر الكفر ونحوه في التغليب قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾⁽¹⁾ وأشار إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفضت عليه كما أفضت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يبق عن تفتن العالم ويزل عن تبصره.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: من عبادنا؟ **قُلْتَ:** لما كان مبني التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائناً من كان وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله، قال: عبيد من عبادنا صالحين فنكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبادان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانة، لأنّ عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأنّ ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب المرجحان عنده.

فإن قُلْتَ: ما كانت خيانتها؟ **قُلْتَ:** نفاقهما وإبطانها الكفر وتظاهرها على الرسولين. فامرأة نوح قالت لقمه: إنه مجنون وامرأة لوط نلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمح في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر، فإنّ الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونهم حقاً.

وَصَرَبَ اللَّهُ مَكَالًا لِلذَّيْبِ ءَأَمَتُوا أَمْرَاتٍ فَرَعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مِنَ الْقَوَامِ وَبِئْسَ مِنَ الْقَوَامِ
الْقَائِلِينَ ﴿١٨﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بغت امرأة نبي قط. وامرأة فرعون أسية بنت مزاحم»⁽²⁾. وقيل: هي عمّة موسى عليه السلام أمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون. عن أبي هريرة أنّ فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحي على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فدعت الله فرقى بروحها، فالتقيت الصخرة على جسده لا روح فيه، وعن الحسن: فنجأها الله أكرم نجاة

= حصراً بقوله: جميع وأين، وصفه لها بالقصر. والحصر من الأيتين التوامتين اللتين إحداهما قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ والآخرى قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وما هو في التحقيق إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى، فالحق أنّ كلام الله تعالى صفة. من صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية، فهكذا أمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب الله العزيز، ثبتنا على الإيمان ووقانا الخذلان، والله المستعان.

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره والزليعي 66/4.

(3) سورة الشعراء، الآية: 118.

(4) سورة يونس، الآيتان: 85 - 86.

(5) قال أحمد: هو يعتقد حدوث كلام الله ويوجد الكلام للقيم، فلا جرم أنّ كلامه لا يعنو الإشعار بأنّ كلمات الله متناهية؛ لأنه في الوجه الأوّل جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها، وفي الثاني =

وحياتكم أيها المكلفون ﴿لبيدوكم﴾ ويسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر ونحوه قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: من أين تعلق قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بفعل البلوى؛ قُلْتُ: من حيث أنه تضمن معنى العلم⁽⁵⁾، فكانه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو، كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً.

فإن قُلْتُ: تسمى هذا تعليقا؟ قُلْتُ: لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعاً كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرًا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق وعلمت زيدا منطلقاً أحسن عملاً. قيل: أخلصه وأصوبه، لأنه إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صواباً غير خالص. فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة، وعن النبي ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾. قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله⁽⁶⁾. يعني: أيكم أتم عقلاً عن الله وفهماً لأغراضه، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه، وقدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وهو العزيز﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الغفور﴾ لمن تاب من أهل الإساءة.

الَّذِي عَلَّمَ سَخَّ سَرَكَ رَبِّكَ طَبَقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّجَمِ مِن تَفَرُّقٍ
فَاتَّبَعِ بِصَرِّ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ⁽⁷⁾.

﴿طَبَقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طبق أو على طويقت طبقاً ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ وقرئ: من تفوت، ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم

على إنائه ومن للتبعيض ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: أسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»⁽¹⁾. وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ: كيف سمى الله المسلمة - تعني مريم - ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضاً لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واهلة، واسم امرأة لوط واهلة. فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبعض لسمي أسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمانة تنم عليه وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الملك مكية

بَنَزَكَ الْوَيْدُ إِلَيْهِمُ اثْنًا وَهُوَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽³⁾.

﴿تبارك﴾ تعالى وتعظم عن صفات المخلوقين ﴿الذي بيده الملك﴾ على كل موجود ﴿وهو على كل﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ ونكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

الَّذِي عَلَّمَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَلْعَلُكُمْ لِيَُلَاقِيََنَّ أَهْلَهُمُ الْمَقْدُورُ⁽⁴⁾.

والموت عدم تلك⁽³⁾ فيه، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصصح وإعدامه، والمعنى خلق موتكم

= وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقاً حادثاً، وعدم الحوادث مقرر أولاً لزم قطع الحوادث أولاً، وذلك أبش من القول بقدم العالم، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه، وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نموذ بالله من الزلل والخطل.

(4) سورة محمد، الآية: 31.

(5) قال أحمد: للتعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة والأصح ما أجزاه، وهو في هذا الفن يمشي، وفيه يدرج ويبري كيف يدخل فيه ويخرج.

(6) تقدم تحريجه سابقاً.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (الحديث رقم: 7114)، وأخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (الحديث رقم: 3719)، وأبو نعيم في الحلية 99/5.

(2) رواه الثعلبي وابن مروييه والوحيد في تفاسيرهم والزليعي 4/68.

(3) قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت بينه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله نكراها: أن الموت عدم وهو خطأ صراح، ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة=

الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ونورهم بإثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها **﴿بمصابيح﴾** أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة وضمنا إلى تلك منافع أحرانا **﴿جعلناها رجوماً﴾** لـ أعدائكم لـ **﴿لشياطين﴾** الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتون بها في ظلمات البر والبحر، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم به. وعن محمد بن كعب: في السماء نجم والله ما لأحد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجع للشياطين: أن الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة في الفلك على حالها وما ذلك إلا كقيس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص، وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب ومنهم من يخبله، وقيل: معناه جعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب⁽²⁾ لشياطين الإنس وهم النجاسون. **﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾** في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَوْجِدُ ۝٦٧

وللذين كفروا بربهم أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم. **﴿عذاب جهنم﴾** ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: عذاب جهنم بالنصب عطفًا على عذاب السعير.

إِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ فَسَمِعَوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٦٨

﴿إذا القوا فيها﴾ أي: طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به. ومثله قوله تعالى: **﴿حصب جهنم﴾** **﴿سمعوا لها شهيقاً﴾** إما لاهلها ممن تقدم طرحهم فيها أو من أنفسهم. كقوله **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾**. وإما للنار تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق **﴿وهي تفور﴾** تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

كَذَٰلِكَ نَمَنَنُ مِنَ السَّمَاءِ لَمَّا أُنزِلَتْ عَلَيْهَا نُزُلًا مِنَ رَبِّكَ يُنزِلُ

۝٦٩

وجعلت كالمغظاة عليهم لشدة غليانها بهم ويقولون: فلان يتميز غيظاً، ويتقصف غضباً. وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. **﴿الم ياتكم نذير﴾**

وتظهروا، وتعاهدته وتعهدته، أي: من اختلاف واضطراب من الخلق، ولا تناقض إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت عدم التناسب كان بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ومنه قولهم: خلقٌ متفاوت وفي نقيضه متناصف.

فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله: طباقاً. وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله: خلق الرحمن تعظيماً لخلقهن وتبنيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه يباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب. والخطاب في ما ترى المرسل أو لكل مخاطب وقوله تعالى: **﴿فارجع البصر﴾** متعلق به على معنى التسبب أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن، ثم قال: فارجع البصر حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعانية ولا تبقى معك شبهة فيه **﴿هل ترى من فطور﴾** من صنوع وشقوق، جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر، ومنه فطر ناب البعير كان يقال: شق ويزل. ومعناه: شق اللحم فطلع.

ثُمَّ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٧٠

وأمره بتكرير البصر فيهن متصفاً ومتتبعاً يلتمس عيباً وخللاً **﴿ينقلب إليك﴾** أي: إن رجعت البصر وكبرت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب بل يرجع إليك بالخسوء والحسور. أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرده عن ذلك طرداً بالصفار والقماء وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد.

فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجعه كرتين اثنتين! قلت: معنى التثنية التكرير⁽¹⁾ بكثرة كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهرين سعد القين من ذلك أي: باطلاً بعد باطل.

فإن قلت: فما معنى **﴿ثم ارجع﴾**؟ قلت: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى بالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

وَأَقْرَبَ سَمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ وَسَمَلَتْهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْكَافِرِينَ ۝٧١

﴿الدنيا﴾ القريبى لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناه السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج سميت بها

(1) تفاوت: وأصله ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه نكرهن منسويات لخلق الرحمن، تنبذ ما على السبب الذي ربابهن على الفطور والتفاوت.

(2) قال أحمد: وهذا من الاستطراد لما نكر وعيد الشياطين استطراد ذلك وعيد الكافرين عموماً، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي قوله: **﴿ينقلب إليك البصر﴾** وضع للظاهر موضع المضمرة، وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مترك للفطور هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء، ومن هذا القبيل قوله: **﴿خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من﴾**

توبيخ يزدلون به عذاباً إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخذلتها مالك وأعوانه من الزبانية.

قَالُوا يَا قَدْ جَعَلْنَا نَذِيرًا فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمَوَاتٍ إِلاَّ فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ ﴿١٠﴾

﴿قَالُوا بلى﴾ اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عنهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة وإنما اتوا من قبل أنفسهم واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده.

فإن قُلْتُمْ: ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ من المخاطبون به! قُلْتُمْ: هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين على أن التنذير بمعنى الإنذار، والمعنى: ألم يأتكم أهل نذير أو وصف منزههم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً، وكذلك قد جاءنا نذير ونظيره قوله تعالى: ﴿إننا رسول رب العالمين﴾ أي: حاملاً رسالته، ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا، أو أرادوا بالضلال الهلاك، أو سموا عقاب الضلال باسمه، أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة، أي: قالوا لنا هذا فلم نقله.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّعِيمِ ﴿١١﴾

﴿لو كنا نسمع﴾ الإنذار سماع طالبين للحق^(١). أو نعقله عقل متاملين، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي^(٢)، كان هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكان سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكان من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة، وعدة المبشرين من الصحابة عشرة لم يضم إليهم حادي عشر كان من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسموا باسم هذين الفريقين.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَحْتَمُونَ رَبَّهُمْ بِالْفِتَنِ لَوَقْفِئَهُمْ مِّنْفَرَةٍ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿بينبهم﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فسحقاً﴾ قرىء بالتخفيف والتثقيب أي: فبعذاباً لهم اعترفوا أو جحدوا فإن ذلك لا ينفعهم.

وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٤﴾

ظاهر الأمر بأحد الأمرين الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستو عنكم إسراكم وإجهاركم في علم الله بهما ثم أنه علله. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بضمايرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟ ثم أنكروا أن لا يحيط علماً بالمضمرة والمسرة والمجهر.

أَلَا يَسَمِعُ مَن حَقَّ رَوْهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٥﴾

﴿من خلق﴾ الأشياء^(٣) وحاله أنه اللطيف الخبير والمتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، ويجوز أن يكون من خلق منصوباً بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. ودوي أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر الله رسوله عليها فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد، فنبه الله على جهلهم.

فإن قُلْتُمْ: قدرت في ألا يعلم مفعولاً على معنى ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق فهلا جعلته مثل قولهم: هو يعطي ويمنع، وهلا كان المعنى ألا يكون عالماً من هو خالق؛ لأن الخلق لا يصح إلا مع العلم! قُلْتُمْ: أبت ذلك الحال التي هي قوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾. لأنك لو قلت ألا يكون عالماً من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنى صحيحاً لأن ألا يعلم معتمد على الحال والشيء لا يوقت بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء.

هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا نِعْمًا وَكَلَّمَ ابْنَ رِزْوَانٍ لِّدِينِهِ قُسُوتًا ﴿١٦﴾

المشي في مناكبها مثل لفرط التلذذ ومجاوزته الغاية، لأن المنكبين وملتقاهما من الغراب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك، وقيل: مناكبها

= اللازم، فهو نور واحد يقبض منه ثبوت العلم للباري عز وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله وإعرا ب الآية، ينزل على هذا المعنى، فإن الوجه فيها أن يكون من فاعلاً مراداً به الخالق، ومفعول العلم محنوف تقديره ذلك إشارة إلى السر والجهر، ومفعول خلق محنوف ضميره، عائد إلى ذلك والتقدير في الجميع ألا يعلم السر والجهر من خلقهما، ومتى حنونا غير هذا الوجه من الإعرا ب لقانا إلى مضايق التكلف والتعسف، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر والتقدير، ألا يعلم الله المسيرين والجاهريين، وليس مطابقاً للمفصل فإنه لم يقع على نوات الفاعلين، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر، وعليه وقع الاستدلال، ويحتمل غير ذلك أبعد منه والأول هو الأولى لفظاً ومعنى، والله الموفق.

(1) قال أحمد: إن عني أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتثقيب، فهو غير بعيد من أصحاب السمعير، وإن عني أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية، فهو مع أهل السنة.

(2) قال أحمد: ولو تطفن نبيه لهذه الآية لقدها بليلاً على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدلل على ذلك بأخفى منها.

(3) قال أحمد: هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم، فإن أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة لبت الآية، فإن الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود

أَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُرْوٍ وَنُفُورٍ ﴿١١﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم. فكانهم الجند الناصر والرازق ونحوه قوله تعالى: ﴿إم لهم آلهة تمنعهم من دنونا﴾. ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ بل تماذوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه. يجعل أكب مطاوع كبه يقال: كبته فأكب من الغرائب والشواذ، ونحوه قشعت الريح السحاب فاقشع. وما هو كذلك ولا شيء من بناء أقعل مطاوعاً ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكب من باب انفضض والام ومعناه: نخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك اقشع السحاب نخل في القشع ومطاوع كب وقشع انكب وانقشع.

أَنْ يَبْنِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْنِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُنَا اللَّهُ وَإِنَّمَا آتَانَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾.

فإن قلت: ما معنى:

﴿يمشي مكباً على وجهه﴾؟ وكيف قابل يمشي سويًّا على صراط مستقيم؟ قلت: معناه يمشي معتسفاً في مكان معتاد غير مستوفية وفيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكباً فحاله نقيض حال من يمشي سويًّا أي: قائماً سالماً من العثور والخرور، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستوي. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام وبالسوي رسول الله ﷺ. وقيل: حمزة بن عبد المطلب.

قَلَّمَا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَقِيلُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُدْعَوْنَ ﴿١٧﴾.

﴿فلما راوه﴾ الضمير للوعد والزلفة القرب وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: راوه ذا زلفة أو مكاناً ذا زلفة. ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد

جبالها، قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التلليل. وقيل: جوانبها. والمعنى: وإليه تشوركم فهو مسائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

أَأَيْنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا فِي هِجْرٍ تَوَرُّوا ﴿١٨﴾

﴿من في السماء﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته، وثم عرشه وكرسیه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيها، والثاني أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: ألمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأيته يركب بعض المعاصي. ﴿فستعلمون﴾ قرئ: بالطاء والياء ﴿كيف نفير﴾ أي: إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

أَمْ أَيْنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٩﴾ وَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٠﴾ أَوْلَىٰ رَبًّا لَّا يَلَّ الْأَطْرَافَ مَنَظَرُهُ مَسْنَدٌ وَيَقِينُ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾.

﴿صافات﴾ باسقاط أجنحتهن في الجو عند طيرانها لأنهن إذا بسطتها صفتن قوادمها^(١) صفاً ﴿ويقبضن﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

فإن قلت: لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران وهو صف الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى: أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ بقدرته وبما نبر لهن من القوادم والخوافي وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتي منها الجري في الجو. ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

أَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٢﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه من الجموع ويقال: ﴿هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه.

(١) قال احمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله: ﴿والطير محشورة﴾ بعد قوله: ﴿إننا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ ولم يقل: مسبحات مثل محشورة، لقربه من هذا التفسير، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القلم مكية

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

قري: ن والقلم بالبيان والإدغام ويسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم، وأما قولهم: هو الدواء. فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي، ولا يخلو إذا كان اسماً للدواء من أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنساً فإين الإعراب والتنوين؟ وإن كان علماً فإين الإعراب؟ وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجرّه وتنوّه ويكون القسم بدواة منكّرة مجهولة. كأنه قيل: وبواة والقلم. وإن كان علماً أن تصرفه وتجرّه أو لا تصرفه وتفتحها للعلمية والتأنيث. وكذلك التفسير بالحوت. إما أن يراد نون من النينان، أو يجعل علماً لليهموت الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر في الجنة نحو ذلك وأقسم بالقلم تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف. ﴿وما يسطرون﴾ وما يكتب من كتب، وقيل: ما يستره الحفظة، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر أو الحفظة.

مَا أَنْتَ بِمَشْهُورٍ ذِكْرُكَ يَمْجُرُونَ ﴿٢﴾

فإن قلت: بم يتعلق الباء فيه.

﴿بنعمة ربك﴾ وما محله؟ قلت: يتعلق بمجنون منفيًا كما يتعلق بعاقل مثبتًا في قولك: أنت بنعمة الله عاقل مستويًا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرًا. وما ضرب زيد عمرًا تعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالاً واحداً ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي. والمعنى: استبعاد ما كان ينسب إليه كفار مكة عداوة وحسدًا وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة.

وَأَنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَسْئُورٍ ﴿٣﴾

﴿وإن لك﴾ على احتمال ذلك وإساعة الغصة فيه والصبر عليه ﴿لأجراً﴾ لثواباً ﴿غير مسئور﴾ غير مقطوع

وجوهم بأن علتها الكآبة وغشيتها الكسوف والقترة وكلحوا وكما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب ﴿وقيل﴾: القائلون الزبانية ﴿تدعون﴾ تفتعلون من الدعاء أي: تطلبون وتستعجلون به، وقيل: هو من الدعوى أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون، وقري: تدعون، وعن بعض الزهاد أنه تلاها في أول الليل في صلواته فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نوى لصلاة الفجر ولعمري أنها لوقادة لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِ اللَّهُ مَنْ مَيَّ أَوْ رَحِمَا فَمَنْ يُبَدِّلُ الْكٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾

كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم نحن مؤمنون متريصون لإحدى الحسينيين إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون من يجيركم وأنتم كافرين من عذاب النار لا بد لكم منه؟ يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه، أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم والأخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم فإن المقول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بنوينا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

فإن قلت: لم آخر مفعول أمناً وقدم مفعول توكلنا؟ قلت: لوقوع أمناً تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب نكرهم.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَمَلِكُونَ مَنْ هُوَ فِي سَكَلِ سَيْبٍ ﴿٥﴾

كأنه قيل: أمناً ولم تكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّيِّمٍ ﴿٦﴾

﴿غوراً﴾ غائر إذا هيا في الأرض وعن الكلبي: لا تناله الدلاء وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته. عن رسول الله ﷺ: ومن قرأ سورة الملك فكانما أحيا ليلة القدر،^(١)

(١) رواه ابن مريويه والواحدي في تفسيرهما والزليعي 71/4.

إدهانك. قال سيبيويه: وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ونوا لو تدهن فيدهنوا.

وَلَا تُطِيعُ كُلَّ سَلَابٍ مُّهَيَّبٍ ﴿١٥﴾

﴿حلاف﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف. ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾. ﴿مهين﴾ من المهانة وهي القلة والحقارة. يريد القلة في الرأي والتمييز، أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس.

هَمَّازٍ مُّشَمِّمٍ بِنَسِيمٍ ﴿١٦﴾

﴿هماز﴾ عياب طعان، وعن الحسن: يلوي شذقيه في آتفة الناس ﴿مشام بنميم﴾ مضرب نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، والنميم والنميمة السعاية. وأنشدني بعض العرب:

تشبي تشبب النميمة تشبي بهازهرأ إلى تميمه

مَنَّاعٍ لِّلخَيْرِ مُّنتَمِئٍ أَمِيرٍ ﴿١٧﴾

﴿منايع للخير﴾ بخيل، والخير المال أو مناع أهله الخير وهو الإسلام. فنكر الممنوع منه بون الممنوع كأنه قال: مناع من الخير، قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي كان موسراً وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم: وللحمته من أسلم منكم منعتة رفدى. عن ابن عباس وعنه أنه أبو جهل. وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث. وعن السدي: الأحنس بن شريق أصله في ثقيف وعداده في زهرة ولذلك قيل زعيم ﴿معتق﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿أثيم﴾ كثير الأثام.

عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْرٍ ﴿١٨﴾

﴿عتل﴾ غليظ جاف من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿بعد ذلك﴾ بعد ما عتله من المثالب والنقائص ﴿زئيم﴾ دعي قال حسان:

وأنت زئيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدر الفرد

وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم أدعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده⁽⁵⁾. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت. هذه الآية جعل جفاه ودعوته أشد معاييه لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ولد الزنى، ولا

كقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾⁽¹⁾ أو غير ممنون عليك به. لأنه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال. استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم.

وَأِنَّكَ لَأَمَلٌ غُلِيٌّ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ فَسَبِّحْهُ وَرَبِّهِمْ رُونَ ﴿٢٠﴾

وقيل: هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، الست تقرأ القرآن؟ قد أفلح المؤمنون⁽³⁾.

يَأْتِيكُمُ الْمُنْتَرُونَ ﴿٢١﴾

﴿المفتون﴾ المجنون لأنه فتن أي: محن بالجنون، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخييل الجن وهم الفتان للفتك منهم والباء مزيدة، أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أي: بايكم الجنون، أو باي الفريقين منكم الجنون: أبفريق المؤمنين، أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الإسم وهو تعريض بابي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وإضرابهما. وهذا كقوله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشهر﴾⁽⁴⁾.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصَلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَيَّبِينَ ﴿٢٢﴾

﴿إن ربك هو أعلم﴾ بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وهو أعلم﴾ بالعقلاء وهم المهنتون أو يكون وعيداً ووعداً وأنه أعلم بجزاء الفريقين.

فَلَا تُطِيعُ الْكُذِّبِينَ ﴿٢٣﴾

﴿فلا تطع المكذبين﴾ تهيج والهيب للتصميم على معاصاتهم وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مده وألهتهم مده ويفكروا عنه غوائلهم.

وَدُّوا أَوْ تُدْرِكُونَ فَيُدْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

﴿لو تدهن﴾ لو تلين وتصانع ﴿فيدهنون﴾

فإن قلت: لم رفع فيدهنون ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني قلت: قد عدل به إلى طريق آخر وهو إن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: فهم يدهنون كقوله تعالى: فمن يؤمن بربه فلا يخاف على معنى ونوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، أو ونوا إدهانك، فهم الآن يدهنون لطمعهم في

(1) قال أحمد: ما كان النبي ﷺ يرضى من الزمخشري بتفسير الآية

هكذا، وهو ﷺ يقول: «لا يدخل أحد منكم الجنة يعلمه»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمني الله بفضله منه ورحمة»، ولقد بلغ الزمخشري سوء الألب إلى حد يوجب الحد، وحاصل قوله: إن الله لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة؛ لأنه قام بواجب عليه نعوذ بالله من الجراءة عليه.

(2) سورة الاعراف، الآية: 199.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل...

= (الحديث رقم: 139 - 746).

(4) سورة القمر، الآية: 26.

(5) قال أحمد: وإنما أخذ كون هذين أشد معاييه من قوله بعد ذلك، فإنه يعطي تراخي المرتبة فيما بين المنكور أولاً والمنكور بعده في الشر والخير، ونظيره في الخير قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ ومن ثم استعملت ثم لتراخي المراتب، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي.

إِنَّا بَلَوْتُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ إِذْ أَهْرَأُوا لَيْسْرَتَنَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾.

أنا بلونا أهل مكة بالقطح والجوع دعوة رسول الله ﷺ عليهم، ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة نون صنعاء بفرسخين⁽⁴⁾، فكان يأخذ منها قوت سنه ويتصدق بالباقي، وكان يترك للمساكين ما أخطاه المنجل وما في أسفل الأكاداس، وما أخطاه القطاف من العنب، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلفوا ليصرمنها مصبحين في السنف خفية عن المساكين، ولم يستثنوا في يمينهم، فأحرق الله جنتهم، وقيل: كانوا من بني إسرائيل ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصبح مبكرين.

وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ولا يستنون﴾ ولا يقولون: إن شاء الله.

فإن قُلْتُ: لم سمي استثناء وإنما هو شرط؟ قُلْتُ: لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد.

فَلَمَّا عَلِمَا مَا لَمْ يَنْزِلَنَّ مِنْ رَبِّكَ وَهَرَّ نَاهِيُونَ ﴿١٩﴾.

﴿قطاف عليها﴾ بلاء أو هلاك ﴿طائف﴾ كقوله تعالى:

﴿وأحيط بشمره﴾⁽⁵⁾ وقرئ: طيف.

فَأَسْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾.

﴿فأصبحت كالصريم﴾ كالصرومة لهلاك ثمرها، وقيل: الصريم الليل أي: احترقت فاسوت، وقيل: النهار أي: يبست وذهبت خضرتها أو لم يبق شيء فيها من قولهم: بيض الإناة إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال.

أَنْ أَهْرَأُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مَسْرِينِ ﴿٢٢﴾.

﴿صارمين﴾ حاصدين.

فإن قُلْتُ: هلا قيل اغنو إلى حرككم، وما معنى على؟ قُلْتُ: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه، كما تقول غداً عليهم الغدو، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال، كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح أي: فأقبلوا على حرككم باكرين.

فَأَهْلَفُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿يتخافتون﴾ يتسارون فيما بينهم، وخفى وخفت

ولده، ولا ولد ولده،⁽¹⁾ وبعد ذلك نظير، ثم في قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾⁽²⁾ وقرأ الحسن: عتل رقماً على الدم، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك والزنيم من الزنمة، وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها لأنه زيادة معلقة بغير أهله.

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَرَبِيحٍ ﴿٢٤﴾ إِذَا تَتَلَّ عَلَيَّوْا مَا كُنَّا قَالِ أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿أن كان ذا مال﴾ متعلق بقوله: ولا تطع يعني: لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي: ليساره وحظه من الدنيا، ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهِراً بالبينين. كذب آياتنا ولا يعمل فيه، قال: الذي هو جواب إذا لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولكن ما نلت عليه الجملة من معنى التكنيب. وقرئ: أن كان على الاستفهام على إلا أن كان ذا مال وبنين كذب، أو أنطعيه لأن كان ذا مال؟ وروى الزبير عن نافع إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أي: لا تطع كل حلاف شارطاً يساره لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكانه اشتراط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى: ﴿لعله يتكره﴾.

سَيَسُؤُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴿٢٦﴾.

الوجه أكرم موضع في الجسد والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين. وقالوا: في النليل جدد أنفه، ورغم أنفه. فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة لأن السمة على الوجه شين وإذالة فكيف بها على أكرم موضع منه. ولقد وسم العباس أباعرة في وجوهها، فقال له رسول الله ﷺ: «أكرموا الوجوه فوسمها في وجوهها»⁽³⁾.

وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة، وقيل: معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة. كما عادي رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم. وقيل: خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه، وقيل: سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعاً فلا تخفي كما لا تخفي السمة على الخرطوم، وعن النضر بن شميل أن الخرطوم الخمر، وأن معناه سنحده على شربها وهو تعسف. وقيل: للخرطوم كما قيل: لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية 3/308.

(2) سورة البلاء، الآية: 17.

(3) رواه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه (الحديث رقم: 108 - 2118) وأخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: رمي الجمار أيام التشريق (الحديث رقم: 3889).

(4) قال أحمد: وفائدة التنكير الإبهام تعظيماً لما أصابها، ومعنى كالصريم أي: لهلاك ثمرها، وقيل الصريم: الليل؛ لأنها احترقت واسوت، وقيل: النهار أي: خالية فارغة من قولهم: بيض الإناة إذا فرغه.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

وخفد ثلاثها في معنى الكتم ومنه الخفود للخفاش.

أَنْ لَا يَسْتَهَيَّبَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ مَسْكُونٌ ﴿١٤﴾

﴿أَنْ لَا يَسْتَهَيَّبَ﴾ أن مفسرة، وقرأ ابن مسعود: بطرحها بإضمار القول أي: يتخافتون يقولون: لا يخلطنها، والنهي عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل. كقولك: لا أرينك ههنا.

وَعَدَا عَنْ حَرِّ قَدِيدٍ ﴿١٥﴾

الحرد من حررت السنة إذا منعت خيرها، وحرارت الإبل إذا منعت برها. والمعنى: وغنوا قادرين على نكد لا غير عاجزين عن النفع. يعني: أنهم عزموا أن يتنكسوا على المساكين ويحرمهم، وهم قادرين على نفعهم. فغنوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرين فيها إلا على النكد والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة، أو وغنوا على محاربة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها. أي: غنوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع أو لما قالوا: غنوا على حرمتكم وقد خبثت نيتهم عقابهم الله بأن حاربت جنتهم وحرموا خيرها فلم يغنوا على حرث وإنما غنوا على حرد.

و﴿قادرين﴾ من عكس الكلام للتهكم. أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين، وعلى حرد ليس بصلة قادرين، وقيل: الحرد بمعنى الحرد، وقرئ: ﴿على حرد﴾ أي: لم يقدرُوا إلا على حنق وغيظ بعضهم على بعض. كقوله تعالى: ﴿يتلاومون﴾⁽¹⁾ وقيل: الحرد القصد والسرعة. يقال: حردت حرك. وقال: أقبيل سيل جاء من أمر الله. يحدد حرد الجنة المغلة وقطا حراد سراع يعني: وغنوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقرر على صرامها وزي منفعتها عن المساكين. وقيل: حرد علم للجنة. أي: غنوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان.

لَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿١٦﴾

﴿قالوا﴾ في بديهة وصولهم ﴿إنا لضالون﴾ أي: ضللنا جنتنا وما هي بها لما رأوا من هلاكها.

بَلْ عَرَّ عُرْوَتَهُمْ ﴿١٧﴾

فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا. ﴿بل نحن محرومون﴾ حرمانا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

قَالَ أَرْسَلْنَا أُمَّرًا أَلَّا يَكْفُوكَ لَوْلَا نَسِيحَةُ ﴿١٨﴾

﴿أوسطهم﴾ أعلمهم وخبرهم من قولهم: هو من سطة قومه، وأعطني من سطات مالك، ومنه قوله تعالى: ﴿أمة وسطا﴾⁽²⁾ ﴿لولا تسبحون﴾ لولا تذكرون الله وتتوبون

إليه من خبث نيتكم كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: انكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النعمة فعصوه، فغيرهم. والدليل عليه قولهم: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة. وقيل: المراد بالتسبيح الاستثناء لالتقاءهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. وعن الحسن: هو الصلاة كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة، وإلا لَنَهَتْهُمُ عن الفحشاء والمنكر ولكانت لهم لطفًا في أن يستنوا ولا يحرموا.

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾

﴿سبحان ربنا﴾ سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح، ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْنَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿يتلاومون﴾ يلوم بعضهم بعضاً لأن منهم من زين، ومنهم من قبل، ومنهم من أمر بالكف، وعذرو منهم من عصى الأمر، ومنهم من سكت وهو راضٍ.

عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ نَجْرًا مِنَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رُغْبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ان يبديلنا﴾ قرئ: بالتشديد والتخفيف. ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه.

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَمَثَلُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿عذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أشد وأعظم منه. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفني تعبًا، وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيرًا منها، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصق فأبدلهم بها جنة، يقال لها: الحيوان فيها عنب البغل منه عنقودًا.

إِنَّ لِلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ كَاتِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَتَجْمَلُ الشُّعْبَانَ كَاللَّذِينَ ﴿٢٥﴾

﴿عند ربهم﴾ أي: في الآخرة ﴿جنت النعيم﴾ ليس فيها إلا التمتع الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا. كان صنابير قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح إنا نبعت كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(1) سورة القلم، الآية: 30.

﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم. يعني: أَنْ أَحَدًا لَا يَسْلَمُ لَهُمْ هَذَا وَلَا يَسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ لَا كِتَابَ لَهُمْ يَنْطِقُ بِهِ، وَلَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا زَعِيمَ لَهُمْ يَقُومُ بِهِ.

يَوْمَ يَكْتُفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى الشُّجْرِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ ﴿١٦﴾ خَيْبَةً
أَسْرَمُوا رَمَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجْرِ وَمَنْ سَلِمُوا ﴿١٧﴾.

الكشف عن الساق، والإبداء عن الخدام. مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب. وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخزرات عن سوقهن في الهرب وإبداء خدامهن. عند ذلك قال حاتم:

لخو الحرب إن عشت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وقال ابن الرقيات:

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العنزاء

فمعنى ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم. ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للقاطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبه فيضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان والذي غزه منه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يكشف الرحمن عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً».

أما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأن فيها سفاقيده،⁽¹⁾ ومعناه: يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله وهو الفرع الأكبر يوم القيامة، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن.

فإن قُلْتُ: فلم جاءت منكراً في التمثيل؟ قُلْتُ: للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله: ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل. ويحكي هذا التشبيه عن مقاتل، وعن أبي عبيدة: خرج من خراسان رجلان أحدهما شبه حتى مثل وهو مقاتل بن سليمان، والآخر نفى حتى عطل وهو جهم بن صفوان. ومن أحس بعظم مضار فقد هذا العلم علم مقدار عظم منفعه، وقرئ: يوم تكشف بالنون، وتكشف بالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال أي: يوم تشتد الحال أو الساعة كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز، وقرئ: تكشف بالياء المضمومة وكسر الشين من كشف إذا دخل في الكشف، ومنه أكشف الرجل فهو مكشوف إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف فلياتوا أو إضماراً نكر أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ. وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم أي: ترد عظاماً بلا مفاصل لا تثني

في الدنيا وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساونا، فقيل: أتخيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَعْكُرُونَ ﴿١٦﴾.

ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

أَمْ لَكُمْ كَيْفَ يَدْرُسُونَ ﴿١٧﴾.

﴿أم لكم كتاب﴾ من السماء ﴿تدرسون﴾ في ذلك الكتاب أَنْ ما تختارونه وتشتهونه لكم. كقوله تعالى: ﴿أم لكم سلطان مبين فاتوا بكتابتكم﴾⁽¹⁾ والأصل ندرسون.

إِنَّ لَكُمْ يَوْمَ لَمَّا تَعْبُرُونَ ﴿١٨﴾.

أن لكم ما تخيرون بفتح أَنْ لأنه مدروس، فلما جاءت اللام كسرت، ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو. كقوله: ﴿تركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين﴾⁽²⁾. وتخير الشيء واختاره، أخذ خيره، ونحوه تنخله وانتخله إذا خذ منخوله. لفلان علي يمين بكذا إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعني: أم ضمناً منكم، وأقسمنا لكم بإيمان مغلظة متناهية في التوكيد.

أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَيَّا بَلْفُؤُا إِلَى يَوْمِ آيَاتِنَا إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَعْكُرُونَ ﴿١٩﴾.

فإن قُلْتُ: بَمَ يتعلق. ﴿إلى يوم القيامة﴾؟ قُلْتُ: القدر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدها إلا يومئذ إذا حكمتاكم وأعطيناكم ما تحكمون، ويجوز أن يتعلق بالصفة على أنها تبلغ نلكم اليوم وتنتهي إليه وافترة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. وقرأ الحسن: بالغة بالنصب على الحال من الضمير في الظرف ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَعْكُرُونَ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم إيمان علينا أم أقسمنا لكم.

سَلَّمَهُمْ أَيُّهُمْ وَبِإِلَهِكُمْ رَبِّكُمْ ﴿٢٠﴾.

﴿إليهم بذلك﴾ الحكم ﴿زعيم﴾ أي: قائم به وبالاحتجاج لصحته كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم.

أَمْ لَمْ تُرْسِكُمْ فَيَأْتُوا بِرِجَالِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢١﴾.

﴿أم لهم شركاء﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه ﴿فلياتوا﴾ بهم

(3) رواه الحاكم في المستدرک 4/582.

(1) سورة الصافات، الآية: 156.

(2) سورة الصافات، الآية: 78.

تَمَرِّ لِيَكْرِيكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ لُؤْلُؤٍ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾

﴿الحكم ربك﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم
﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني: يونس عليه السلام
﴿إذ نادى﴾ في بطن الحوت ﴿وهو مكظوم﴾ مملوء غيظاً
من كظم السقاء إذا ملاه والمعنى: لا يوجد منك ما وجد
منه من الضجر والمغاضبة فتبتلي ببلائه.

لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ يَمَةً مِنْ رَبِّهِ لَيَذَّابِلَهُ لِأَعْمَارِهِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾

حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه. وقرأ ابن
عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تداركه. أي:
تتداركه على حكاية الحال الماضية. بمعنى: لولا أن كان
يقال فيه: تتداركه كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان.
أي: كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقفاً منه القيام.
ونعمة ربه أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه، وقد
اعتمد في جواب لولا على الحال. أعني قوله: ﴿وهو
مذموم﴾ يعني: أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ
بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذم. روي أنها نزلت
بأحد حين حل لرسول الله ﷺ ما حل به فأراد أن يدعو
على الذين انهزموا، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف.
وقرى: رحمة من ربه.

فَأَجَبْتَهُ رَبُّهُ فَسَمَّرَ مِنْ الْعَالِيِينَ ﴿٥٠﴾

﴿فاجتبه ربه﴾ فجمعه إليه وقربه بالتوبة عليه. كما
قال: ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى. ﴿فجعل من
الصالحين﴾ أي: من الأنبياء. وعن ابن عباس رد الله إليه
الوحي وشفعه في نفسه وقومه.

وَأَنْ يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ لَبِئْسَ مَا يَشْكُرُ ﴿٥١﴾

أن مخففة من الثقيلة واللام علمها. وقرى: ليزلقونك
بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه. بمعنى: زلق الرأس
وأزلقه حلقه. وقرى: ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها،
يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً يعيون
العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من
قولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ويكاد ياكلني. أي: لو
أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال: يتقارضون إذا
التقوا في موطن. نظراً يزل موطن الأقدام وقيل: كانت
العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا
يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عانه. فأريد
بعض العيانيين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك
فقال: لم أر كاليوم رجلاً. فعصمه الله. وعن الحسن: نواء
الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية.

﴿لما سمعوا للنكر﴾ أي: القرآن ويملكوا أنفسهم حسداً
على ما أوتيت من النبوة ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ حيرة

عند الرفع والخفض، وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقاً
واحداً. أي: فقارة واحدة.

فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف! قلت: لا
يدعون إليه تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم
السجود في الدنيا مع إقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين
الاستطاعة تحسيرًا لهم وتنديماً على ما فرطوا فيه حين
دعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصل
ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

مَذَرَىٰ وَمَنْ يَكْذِبْ يَدَا لَأَلِيَّةٍ مَنَّتِيئُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يقال: ذرني وإياه، يريدون كله إلي فإني أكفيكه كأنه
يقول: حسبك إيقاعًا به أن تكل أمره إلي وتخلي بيني
وبينه، فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطبق له والمراد:
حسبي مجازيًا لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه
وتوكل علي في الانتقام منه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدًا
للمكذبين. استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة
حتى يورطه فيه، واستدرج الله العصاة أن يرزقهم الصحة
والنعمة فيجعلوا رزق الله نريفةً ومتسلقًا إلى ازدياد الكفر
والمعاصي ﴿من حيث لا يعلمون﴾ أي: من الجهة التي لا
يشعرون أنه استدرج وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسونه
إيثارًا لهم وتفضيلًا على المؤمنين وهو سبب لهلاكهم.

رَأَىٰ لَمَمًا إِنَّ كَيْدِي نَتِينٌ ﴿٥٣﴾

﴿وألمي لهم﴾ وأملهم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم
ليزدابوا إنمًا﴾^(١) والصحة والرزق والمد في العمر إحسان
من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم
يجعلونه سببًا في الكفر باختيارهم. فلما تدرجوا به إلى
الهلاك وصف المنعم بالاستدرج، وقيل: كم من مستدرج
بالإحسان إليه وكم من مفتون بالثناء عليه وكم من مغرور
بالستر عليه. وسمى إحسانه وتمكينه كيدًا كما سماه
استدرجًا لكونه في صورة الكيد حيث كان سببًا للتورط
في الهلكة ووصفه بالمنانة لقوة أثر إحسانه في التسبب
للهلك.

أَمْ فَتَنَّهُمْ لَمَرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلَبُونَ ﴿٥٤﴾

المغرم الغرامة أي: لم تطلب منهم على الهداية والتعليم
أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيبسطهم تلك
عن الإيمان.

أَمْ عِنْدَهُمُ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٥﴾

﴿أم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح ﴿فهم يكتبون﴾ منه
ما يحكمون به.

في أمره وتنفيراً عنه وإلا فقد علموا أنه اعقلهم. والمعنى: إنهم جننوه لأجل القرآن.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلْأَيْنِ ﴿٥٥﴾

فَأَنَّا نُمَوِّدُ فَأَمْكِرُ بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥٥﴾

﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، واختلف فيها. فقيل: الرجفة. وعن ابن عباس: الصاعقة. وعن قتادة: بعث الله عليهم صيغة فاهمبتهم. وقيل: الطاغية مصدر كالعافية. أي: بطغيانهم. وليس بذلك لعدم الطباق بينها وبين قوله.

﴿وما هو إلا نكر﴾ وموعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ فكيف يجنن من جاء بمثله. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم»⁽¹⁾.

وَأَنَّا عَادٌ فَأَمْكِرُ بِرِيحٍ سَرَّصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦١﴾

﴿بِرِيحٍ صَرَّصَرٍ﴾ والصرصر الشديدة الصوت لها صرصررة، وقيل: الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر، فهي تحرق لشدة بردها. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف، والعتو استعارة. أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار بيناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم. وقيل: عتت على خزائنها، فخرجت بلا كيل ولا وزن. وروي عن رسول الله ﷺ: «ما أرسل الله سفينة من ربح إلا بمكيال، ولا فطرة من مطر إلا بمكيال، إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل»⁽²⁾. ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾⁽³⁾ وَإِنَّ الرِّيحَ يَوْمَ عَادَ عَتَّتْ عَلَى الْخِزَانِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهَا سَبِيلٌ. ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرَّصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحاقة وهي مكية

لَمَّا تَهُتُّ ﴿٦١﴾

﴿لِلْحَاقَةِ﴾ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها، أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب، أو التي تحوق فيها الأمور. أي: تعرف على الحقيقة. من قولك: لا أحق هذا. أي: لا أعرف حقيقته. جعل الفعل لها وهو لاهلها، وارتفاعها على الابتداء وخبرها.

مَا لِلْمَلَأَةِ ﴿٦٢﴾

﴿مَا لِلْحَاقَةِ﴾ والاصل: الحاقة ما هي: أي: أي شيء هي. تخفيماً لشأنها وتعظيماً لهولها. فوضع الظاهر موضع المضمرة لأنه أهول لها.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِلْمَلَأَةِ ﴿٦٣﴾

﴿وما أدراك﴾ وأي شيء أعلمك ما الحاقة؟ يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه. وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، وما في موضع الرفع على الابتداء، وأدراك مطلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام.

كَذَّبَتْ ثَمُودٌ بِطَوَافٍ فَطَارَتِ ﴿٦٤﴾

سَخَّرَ مَا عَلَيْهِمْ سَجَّ لِيَالٍ وَتَنَبَّيَّةَ آيَاتِهِ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَانْتَهُمْ أَتَعَجَّازُ تَحَلَّى حَاوِيَةٍ ﴿٧٠﴾

الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود، أو مصدرًا كالشكور والكفور، فإن كان جمعاً فمعنى قوله: حُسُومًا نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة، أو متتابعة هبوب الرياح ما خففت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كزة بعد أخرى حتى ينحسم. وإن كان مصدرًا فلما أن ينتصب بفعله مضمرة أي: تحسم حُسُومًا بمعنى: تستأصل استئصالاً، أو يكون صفة كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولاً له أي: سخرها عليهم للاستئصال. وقال عبد العزيز: ابن زرارة الكلابي:

فسرق بين بينهم زمان تنابع فيه أعوام حسوم
وقرأ السدي حُسُومًا بالفتح حالاً من الريح أي: سخرها عليهم مستأصلة. وقيل: هي أيام العجوز وذلك أن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فاهلكتها. وقيل: هي أيام العجز، وهي آخر الشتاء

القارعة التي تفرع الناس بالإفزع والاهوال، والسماة بالإنشقاق والإنفطار، والأرض والجبيل بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والإنكار. ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها. ولما ذكرها وفخمها أتبع نكر نكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكنيب تنكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم.

(1) رواه الثعلبي والواقدي وابن مروي في تفاسيرهم والزليعي /4 = الطبري والثعلبي وابن مروي والطبراني والزليعي /83.

(3) سورة الحاقة، الآية: 11.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة شهر بن حوشب وكذلك رواه

وحسن تنكيره للفصل.

إِذَا نَفَخَ فِي السُّمْرِ نَفْخَةً وَجِدَةً ﴿١٧﴾

وقرأ أبو السمال: نَفْخَةً واحدةً بالنصب مسنداً للفعل إلى الجار والمجرور.

فإن قُلْتُ: هما نفختان⁽³⁾. فلم قيل: واحدة! قُلْتُ: معناه أنها لا تتنى في وقتها.

فإن قُلْتُ: فاي النفختين هي؟ قُلْتُ: الأولى، لأن عندها فساد العالم. وهكذا الرواية عن ابن عباس وقد روى عنه أنها الثانية.

فإن قُلْتُ: إما قال يعد يومئذ تعرضون والعرض إنما هو عند النفخة الثانية! قُلْتُ: جعل اليوم أسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب. فلذلك قيل: يومئذ تعرضون، كما تقول جثته عام كذا، وإنما كان مجيبك في وقت واحد من أوقاته.

رُجِلَ الْأَرْضُ رَجِيلاً فَذَكَكَ ذَكَّةً وَجِدَةً ﴿١٨﴾

﴿وحملت﴾ ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوّة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بخلق من الملائكة. أو بقدرة الله من غير سبب. وقرئ: وحملت بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة ﴿فدكتنا﴾ فكتت. الجملتان جملة الأرضين وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيراً مهيباً وهباً منبثاً. والذك أبلغ من النق. وقيل: فبسطنا بسطة واحدة فصارتنا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمّتا. من قولك: انك السنام، إذا انفرش. ويعبر أدك، وناقاة نكاه ومنه النكان.

يَوْمَئِذٍ رَقَّتِ الْأَوَامِرُ ﴿١٩﴾

﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة.

وَأَنْفَتِ السَّمَاءُ فَنِيَّ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿٢٠﴾

﴿واهية﴾ مسترخية ساقطة القوّة جداً بعد ما كانت محكمة مستمسكة.

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَجُولُ عَرِشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَّهِيَةً ﴿٢١﴾

يريد والخلق الذي يقال له: الملك. ورد إليه الضمير مجموعاً في قوله: فوقهم على المعنى.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة؟ قُلْتُ: الملك أعم من الملائكة إلا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة. ﴿على أرجائها﴾ على جوانبها الواحد رجا مقصور يعني: أنها

واسماؤها: الصن والصنبر والوبر والأمر والمؤتمر والمعلل ومطفيء الجمر. وقيل: مكفى الظعن. ومعنى:

﴿سخرها عليهم﴾ سلطها عليهم كما شاء. ﴿فيها﴾ في مهابها أو في الليالي والأيام. وقرئ: أعجاز نخيل.

فَهَلْ رَزَقَ لَهُمْ مِنْ بَاطِنِ أُولَئِكَ ﴿٢٢﴾

﴿من باقية﴾ من بقية أو من نفس باقية أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان.

رَبِّكَ يَرْزُقُونَ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ كَثُفًا يُخَالِطُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ومن قبله﴾ يريد ومن عنده من تباعه. وقرئ: ومن قبله أي: ومن تقدمه. وتعضد الأولى قراءة عبد الله وأبي ومن معه وقراءة أبي موسى ومن تلقاه. ﴿والمؤتفكات﴾ قرئ: قوم لوط. ﴿بالخاطئة﴾ بالخطأ أو بالفعل أو الأفعال ذات الخطأ العظيم.

نَسَمًا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَتَذَرُ رَابِيَةً ﴿٢٤﴾

﴿رابية﴾ شديدة زائدة في الشدة كما زالت قبائحهم في القبح. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد ليربو في أموال الناس.

إِنَّا لَنَّا عَلَمًا أَلَمًا مَنَّكَرًا فِي الْبَارِيَةِ ﴿٢٥﴾

﴿حملناكم﴾ حملنا آباءكم ﴿في الجارية﴾ في سفينة لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين كان حمل آباؤهم منة عليهم وكانهم هم المحمولين لأن نجاتهم سبب ولائهم.

يَنْجَلِكُمْ لَكُمْ نَذْرَةً رَبِّمَاءِ أَذْنٌ رَابِيَةٌ ﴿٢٦﴾

﴿لنجعلها﴾ الضمير للفعلية وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة. ﴿تنكرة﴾ عظة وعبرة ﴿أذن واعية﴾ من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضعه بترك العمل. وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته، وما حفظته في غير نفسك⁽¹⁾ فقد أوعيته. كقولك: وعيت الشيء في الظرف. وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه عند نزول هذه الآية: «سألت الله أن يجعلها أنك يا علي». قال علي رضي الله عنه: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: لم قيل أذن واعية على التوحيد والتنكير! قُلْتُ: للإيدان بان الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملثوا ما بين الخافقين. وقرئ: ﴿وتغيبها﴾ يسكون العين للتخفيف شبه تعي بكبد. أسند الفعل إلى المصدر

(3) قال أحمد: وأما فائدة الإشعار بعظم هذه النفخة أن المؤثر لندك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى

(1) قال أحمد: هو مثل قوله: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ وقد نكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الإشعار بقلة الناظرين.

(2) سعيد بن منصور والعلبي وابن مردويه زيلي 84/4.

وقد استحَب إيثار الوقف إيثارًا لثباتها في المصحف. وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعًا لاتباع المصحف.

إِنِّي كُنْتُ أَرَى مِثْلِي حَيَاةً ١٧

﴿ظننت﴾ علمت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال: اظن ظنًا كاليقين أن الأمر كيت وكيت..

فَوَفِّي عِشْرَةَ رَأْسِي ١٨

﴿راضية﴾ منسوبة إلى الرضا، كالدراع والنابل. والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازًا وهو لصاحبها.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٩

﴿عالية﴾ مرتفعة المكان في السماء أو رفيعة الدرجات أو رفيعة المباني والقصور. والأشجار.

فَطَرَفَهَا دَائِمَةً ٢٠

﴿دائمة﴾ ينالها القاعد والنائم.

كُلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ مَا أَنْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّائِيَةِ ٢١ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كَيْدَهُ بِشَاكِلِهِ يَقُولُ بَلَيِّنِي لَرَأْتِ كَيْدِي ٢٢ وَرَأَى أَمْرًا مَا حَسِبَهُ ٢٣

يقال لهم ﴿كلوا واشربوا هنيئًا﴾ أكلاً وشراباً هنيئاً، أو هنيئتم هنيئاً على المصدر ﴿بما أسلفتم﴾ بما قمتم من أيام الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتكم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى: يقول الله عز وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

بَلَيِّنَا كَأَنَّ الْفَأْوِيَةَ ٢٤

الضمير في ﴿يا ليتها﴾ للموتة. يقال: يا ليت الموتة التي مئتها ﴿كانت القاضية﴾ أي: القاطعة لأمري، فلم أبعث

تتشق وهي مسكن الملائكة فينبضون إلى أطرافها⁽¹⁾ وما حولها من حافاتها. ﴿ثمانية﴾ أي: ثمانية منهم. وعن رسول الله ﷺ: هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين⁽²⁾، فيكونون ثمانية. وروى: ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون. وقيل: بعضهم على صورة الإنسان، وبعضهم على صورة الأسد، وبعضهم على صورة الثور، وبعضهم على صورة النسر. وروى: ثمانية أملاك في خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً. وعن شهر بن حوشب: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبمحمد لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبمحمد لك الحمد على حلمك بعد علمك. وعن الحسن: الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف؟ وعن الضحاك: ثمانية صفوف لا يعلم عندهم إلا الله. ويجوز أن تكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر فهو القادر على كل خلق سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

يَوْمَئِذٍ تُرْمَوْنَ لَا تَمَنَّوْنَ بِنَكَرٍ عَلَيْكُمْ ٢٥

العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لمعرفة أحواله. وروى أن في يوم القيامة ثلاثة عرضات: فاما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، واما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله.

﴿خافية﴾ سريرة. وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم.

فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كَيْدَهُ بِشَاكِلِهِ يَقُولُ هَاتِمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِي ٢٦

﴿فأما﴾ تفصيل للعرض. هاء صوت يصوت به فيفهم منه معنى: خذ كاف وحس وما أشبه ذلك. و﴿كتابيه﴾ منصوب بهائم عند الكوفيين وعند البصريين بأقروا لأنه أقرب العاملين. وأصله: هائم كتابي، أقرؤا كتابي. فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. ونظيره: أتوني أقرغ عليه قطراً. قالوا: ولو كان العامل الأول، لقليل: أقرؤه وأقرغه والهاء للسلكت في كتابيه، وكذلك في حسابيه وماليه وسلطانيه⁽³⁾. وحق هذه الهات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل،

لا ينبغي فتح باب، فإنه نورية إلى ما هو أكبر منه، ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبي عمرو رحمه الله مفاوضة في قوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾ على قراءة حفص انتهت إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة؛ لاني حججته بإثبات القراءة المشاهير لها كذلك، ففهمت من رده لذلك ما فهمه من كلام الزمخشري ههنا، ولم أقبله منه رحمه الله، فتراجع عنه، وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرني به خاصته، وذلك صحيح؛ لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه الله، والله أعلم.

(1) قال أحمد: كلاهما معرّف تعريف الجنس، فالواحد والجمع سواء في العموم.

(2) قال الزليعي رواه الطبري ونكره الثعلبي من غير سند وهو في حديث الصور الطويل وقد استوفينا الكلام عليه في غير هذا الباب 85/4.

(3) قال أحمد: لتعليل القراءة باتباع المصحف عجيبي، مع أن المعتقد الحق أن القراءة السبع بتفاصيلها منقولة تواتراً عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتتها من التواتر عن قراءة النبي ﷺ أيها، كذلك قيل إن تكتب في المصحف وما نفس هؤلاء إلا إسخال الاجتهاد في القرآت المستفيضة، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري، وهذا خطأ

القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم. وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين. وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أقلنا نخلع نصفها الآخر. وقيل: هو منع الكفار. وقولهم: ﴿انطعم من لو يشاء الله اطعمه﴾. والمعنى: على بذل طعام المسكين.

قَلِيلٌ لَهُ الْيَوْمَ هَذَا مِمَّا حَبِيبٌ ﴿٢٥﴾

﴿حميم﴾ قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾.

وَلَا طَعْمَ إِلَّا مِنْ غَلِيظٍ ﴿٢٦﴾

والغليظ غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم فعلمين من الغسل.

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٢٧﴾

﴿الخاطئون﴾ الأثمون أصحاب الخطايا، وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب، وهم المشركون عن ابن عباس. وقرئ: الخاطيون بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحتها. وعن ابن عباس: ما الخاطون كلنا نخطو. وروى عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون. ما الصابون؟ إنما هو الصائبون. ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله.

فَلَا أَمْرَ يَمَّا تُبِشْرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبِشْرُونَ ﴿٢٩﴾

هو أقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة لأنها لا تخرج من قسمين مبصر وغير مبصر. وقيل: الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة أن هذا القرآن.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾

﴿لقول رسول كريم﴾ أي: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وما هو بقول شاعر﴾ ولا كاهن كما تدعون. والقلة في معنى العدم. أي: لا تؤمنون ولا تنكرون البتة. والمعنى: ما أكفركم وما أغفلكم.

نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ كَرِيمٍ ﴿٣٣﴾

﴿تنزيل﴾ هو تنزيل بياناً لأنه قول رسول نزل عليه ﴿من رب العالمين﴾. وقرأ أبو السمال: تنزيل أي: نزل تنزيلًا. وقيل: الرسول الكريم جبريل عليه السلام. وقوله: ﴿وما هو بقول شاعر﴾^(١) دليل على أنه محمد ﷺ، لأن المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن.

بعدها ولم القى. ما القى. أو للحالة أي: ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علي، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشنته فتمناه عندها.

مَا أَقْنَى عَنِّي مَالِي ﴿٣٤﴾

﴿ما أغنى﴾ نفي أو استفهام على وجه الإنكار، أي: أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار.

مَلِكٍ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٍ ﴿٣٥﴾

﴿ملك عني سلطانية﴾ ملكي وتسلمي على الناس، وبقيت فقيرًا قليلًا. وعن ابن عباس أنها نزلت في الأسود بن عبد الأشد. وعن فنا خسرو الملقب بالعضد أنه لما قال: عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية. وقال ابن عباس: ضلت عني حجتني. ومعناه: بطلت حجتني التي كنت أحتج بها في الدنيا.

مَلِكٍ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٍ ﴿٣٦﴾ عُدُوهُ قَتْلُوهُ ﴿٣٧﴾

﴿ثم الجحيم صلوه﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان سلطانًا يتعظم على الناس. يقال: صلى النار وصلاه النار.

تُرَى فِي سَيْلِهِ زُرْعَهَا سَمُونٌ زُرْعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٨﴾

سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثنائها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وجعلها سبعين ذراعًا إرادة الوصف بالطول. كما قال أن تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد، والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية. أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أقطع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ومعنى: ثم، الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم وما بينها وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدة.

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْغَيْبِ ﴿٣٩﴾

﴿إنه﴾ تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وَلَا يَحْضُرُ عَنْ طَعْمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٠﴾

وفي قوله: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ ليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين أحدهما: عطفه على الكفر وجعله قرينة له، والثاني نكر الحض نون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. وما أحسن قول القائل:

إذا نزل الأضياف كان عنورًا

على الحي حتى تستقل مراجله يريد حضهم على

وَلَوْ نَفَرْنَا بَعْدَ أَلْقَائِهِ ﴿٤٤﴾

نَسِجَ بَاتِمَ رَبِّكَ أَطْوِيلَ ﴿٤٧﴾

﴿فسبح﴾ الشبكر اسمه العظيم. وهو قوله سبحانه الله واعبده شكراً على ما أهلك له من إيحائه إليك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحاقة حاسبة الله حساباً بسيراً»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المعارج مكية

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾

ضمن سال معنى دعا فدعى تعديته كانه قيل: دعا داع ﴿بعذاب واقع﴾ من قولك: دعا بكذا، إذا استدعى وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾⁽⁴⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث، قال: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾⁽⁵⁾ وقيل: هو رسول الله ﷺ استعجل بعذاب.

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُم دَافِعٌ ﴿٢﴾

للكافرين، وقرئ: سال سائل: وهو على وجهين: إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش يقولون: سلت تسأل وهما بتسيلان، وإن يكون من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس: سال سيلاً، والسيل مصدر في معنى السائل كالغور بمعنى الغائر. والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب فذهب بهم وأهلكهم. وعن قتادة: سال سائل عن عذاب الله على من ينزل، وبمن يقع فنزلت. وسأل على هذا الوجه مضمن معنى: عنى واهتم.

فَإِن قُلْتُمْ: بِمَ يَتَصَلَّ قَوْلُهُ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾؟ قُلْتُمْ: هو على القول الأول متصل بعذاب صفة له، أي: بعذاب واقع كائن للكافرين، أو بالفعل أي: دعا للكافرين بعذاب واقع، أو بواقع أي: بعذاب نازل لأجلهم. وعلى الثاني هو كلام مبتدأ جواب للسائل، أي: هو للكافرين.

فَإِن قُلْتُمْ: فَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ بِمَ يَتَصَلَّ؟ قُلْتُمْ: يتصل بواقع، أي: واقع من عنده، أو بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه.

بِئْسَ اللَّهُ ذِي الْمَسَاجِجِ ﴿٣﴾

﴿ذي المعارج﴾ ذي المصاعد، جمع معرج. ثم وصف

التقول افتعال القول؛ لأن فيه تكلفاً⁽¹⁾ من المفتعل، وسمي الأقوال المتقولة أقاويل تصغيراً بها وتحقيراً. كقولك: الأعاجيب والأضاحيك كانها جمع أفعولة من القول. والمعنى: ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاملةً بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته، وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيبه وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه.

لَاخِذْنَا مِنَهُ بِأَيْمِينِ ﴿٤٥﴾

معنى: ﴿لاخذنا منه باليمين﴾ لاخذنا بيمينه.

ثُمَّ لَقَطْنَا مِنَهُ الْوَيْتَ ﴿٤٦﴾

كما أن قوله: ﴿للقطعنا منه للويتين﴾ لقطعنا وتينه وهذا بين، والويتين نياط القلب وهو حبل الوريد إذا قطع مات صاحبه. وقرئ: ولو تقول على البناء المفعول.

فَمَا يَسْكُرُ مِنْ لَمِيعَةٍ حَجْرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَنَذِيرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

قيل: ﴿حاجزين﴾ في وصف أحد لانه في معنى الجماعة، وهو اسم يقع في النفي العام مستويًا فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. ومنه قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾⁽²⁾ ﴿لستن كاحد من النساء﴾. والضمير في عنه للقتل. أي: لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه. أو لرسول الله أي: لا تقدر أن تحجزوا عنه القتال وتحولوا بينه وبينه والخطاب للناس.

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَسْكُرُ مَكْرِبِينَ ﴿٤٩﴾

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكربين﴾ وهو إبعاد على التأكيد. وقيل: الخطاب للمسلمين. والمعنى: أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن، وأنه الضمير للقرآن.

وَإِنَّهُ لَصَرَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

﴿لحسرة﴾ على الكافرين به المكربين له إذا راوا ثواب المصنفين به أو للتكبيب.

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾

وأن القرآن لليقين حق اليقين. كقولك: هو العالم حق العالم وجد العالم. والمعنى لعين اليقين ومحض اليقين.

(3) ابن مردويه الثعلبي والواحد في تفاسيرهم، زيلعي 85/4.

(4) سورة ص، الآية: 51.

(5) سورة الانفال، الآية: 32.

(1) قال أحمد: وبناء أفعولة من القول، وهو معتل كما ترى غيب عن القياس التصريفي، ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع، كالأناعم جمع أقوال وأنعم وهو الظاهر، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 285.

المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع. فقال:

تَرُجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

﴿كالعهن﴾ كالصوف المصبوغ الواناً، لأن الجبال جدد بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الرياح.

وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴿٥﴾

﴿ولا يسال حميم حميمًا﴾ أي: لا يسأله بكيف حاله ولا يكلمه لأن بكل أحد ما يشغله عن المسألة.

يَبْصُرُونَهُمْ بِرَأْسِ النَّجْمِ لَوْ يَشَاءُ مِنَ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ يَبِينُهُ ﴿٦﴾
وَصَحَّيْبِهِ وَأَخِيهِ ﴿٧﴾

﴿يبصرونهم﴾ أي: يبصر الإحماء الإحماء فلا يخفون عليهم^(١) فما يمنعونهم من المسألة أن بعضهم لا يبصر بعضاً، وإنما يمنعونهم التشاغل. وقرئ: يبصرونهم وقرئ: ولا يستل على البناء للمفعول، أي: لا يقال: الحميم أين حميمك ولا يطلب منه لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب.

فإن قلت: ما موقع ﴿يبصرونهم﴾؟ قلت: هو كلام مستأنف كأنه لما قال: ولا يسال حميم حميمًا قيل: لعله لا يبصره؟ فقيل: يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قلت: لم جمع الضميران في يبصرونهم وهما للحميمين؟ قلت: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، ويجوز أن يكون يبصرونهم صفة أي: حميمًا مبصرين معرفين إياهم. قرئ: يومئذ بالجر والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن، ومن عذاب يومئذ بتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب.

وَصَلَّيْتَهُ إِلَى تَوْبِهِ ﴿٨﴾

﴿وفصلته﴾ عشيرته، الأذنون الذين فصل عنهم. ﴿تأويه﴾ تضمه انتماء إليها أو لياذًا بها في النواذب.

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَمِيمًا ثُمَّ يُبْجِيهِ ﴿٩﴾

﴿ينجيه﴾ عطف على يفتدى، أي: يود لو يفتدى، لو ينجيه الافتداء أو من في الأرض، ثم لاستبعاد الإنجاء، يعني: تمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبللهم في فداء نفسه، ثم ينجيه نك وهيهات أن ينجيه.

كَلَّا إِنَّمَا لَقْنُ ﴿١٠﴾

﴿كلا﴾ رد للمجرم عن الودادة وتنبية على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب، ثم قال: ﴿إنها﴾ والضمير للنار ولم يجر لها نكر لأن نكر العذاب دل عليها، ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا ترجع عنه الخبر أو ضمير القصة. ﴿ولظى﴾ علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب، ويجوز

﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أو امره ﴿في يوم كان مقداره﴾ كمقدار مدة ﴿خمسین ألف سنة﴾ مما بعد الناس. والروح جبريل عليه السلام أفرده لتمييزه بفضله. وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة على الناس.

فإن قلت: بم يتعلق قوله:

فَأَمَرَ صَبْرًا حَبِيلًا ﴿٥﴾

﴿فاصبر﴾! قلت: بسائل سائل لأن استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي، وكان نك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو، فإنما سأل على طريق التعتن وكان من كفار مكة. ومن قرأ: سأل سائل أو سيل، فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد شارفت الانتقام وقد جعل في يوم من صلة واقع، أي: يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنينك وهو يوم القيامة. إما أن يكون استطالة له لشدة على الكفار، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل: فيه خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر. الضمير في.

إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَبِينًا ﴿٦﴾

﴿يرونه﴾ للعذاب الواقع أو ليوم القيامة فيمن علق في يوم بواقع، أي: يستبعثونه على جهة الإحالة.

وَرَزَقَهُ قُرْبًا ﴿٧﴾

﴿و﴾ نحن ﴿نراه قريبًا﴾ هينًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر. فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان، وبالقريب القريب منه. نصب.

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالذَّهَبِ ﴿٨﴾

﴿يوم تكون﴾ بقربًا، أي: يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم، أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه، أو يوم تكون السماء كالمهل كان كيت وكيت، أو هو بدل عن في يوم فيمن علقه بواقع. ﴿كالمهل﴾ كدرى الزيت، وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها.

وَتَكُونُ لِنِجَالٍ كَالْمُهْنِ ﴿٩﴾

(١) قال أحمد: وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعم، كما التزم في: والله لا اشرب ماء من إداوة أنه عام في المياه والأدوات، خلافاً لبعضهم في الأدوات.

أن يراد اللهب.

وهو الذي إذا ناله شرًا أظهره شدة الجزع.

نَزَاعَةٌ لِشَرِّهِ ﴿١٧﴾.

وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ مَرُوعًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الْأَعْمَلَينَ ﴿١٩﴾.

وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس. والخير المال والغنى والشَّرُّ الفقر، أو الصحة والمرض. إذا صَحَّ الغني منع منه المعروف وشحَّ بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصي والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه كأنه (1) مجبول عليهما مطبوع وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري. كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ (2) والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه نَمَّ والله لا يَنَمُّ فعله، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره، وظلّفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين، وعن النبي ﷺ: «شَرٌّ ما أعطى ابن آدم شحَّ هالِع وجبن خالِع» (3).

فَإِنْ قُلَّتْ: كيف؟ قال:

أَلَيْسَ مُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَاهُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿على صلواتهم داهون﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟ قُلَّتْ: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل (4). كما روي عن النبي ﷺ: «أفضل العمل أومه وإن قل» (5). وقول عائشة: كان عمله ديمة (6). ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقبتها وقيامها أركانها ويكملوها بسنتها وأدائها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها.

وَأَلَيْسَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢١﴾.

﴿حق معلوم﴾ هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صفة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة. السائل الذي يسأل.

لِلنَّالِيبِ وَالنَّسْرُورِ ﴿٢٢﴾.

﴿والمحروم﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيًا فيحرم.

و﴿نزاعة﴾ خبر بعد خبر لأنَّ أو خبر للظي إن كانت الهاء ضمير القصة، أو صفة له إن أردت اللهب والتانيث لانه في معنى النار أو رفع على التهويل، أي: هي نزاعة. وقرئ: نزاعة بالنصب على الحال المؤكدة، أو على أنها متظلية نزاعة، أو على الاختصاص للتهويل. والشوي الأطراف أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس تنزعها نزاعًا فتبتكها ثم تعاد.

تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿٢٣﴾.

﴿تدعو﴾ مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم، ونحوه قول ذي الرمة: تدعو أنفة الريب، وقوله: ليالي اللهو يطيني فاتبعه. وقول أبي النجم: تقول للرائد أعشبت أنزل، وقيل: تقول لهم: إلي إلي يا كافر يا منافق. وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح، ثم تلتقطهم التقاط الحب. فيجوز أن يخلق الله فيها كلامًا كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة، ويجوز أن يكون دعاء الزبانية، وقيل: تدعرك تهلك، من قول العرب: دعك الله، أي: أهلكك. قال دعك الله من رجل بافعى ﴿من أدبر﴾ عن الحق ﴿وتولى﴾ عنه.

وَمِمَّا فَازَتْهُ ﴿٢٤﴾.

﴿وجمع﴾ المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وزهى باقتنائه وتكبر. أريد بالإنسان الناس فلنلك استثنى منه إلا المصلين.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٢٥﴾.

والهلع سرعة الجزع عند مسِّ المكروه، وسرعة المنع عند مسِّ الخير من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى: قال لي محمد بن عبد الله بن ظاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسير آيين من تفسيره.

وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ حَرُوعًا ﴿٢٦﴾.

= الجراء والجبن (الحديث رقم: 2511)، وأحمد في المسند 2/320.

(4) قال أحمد: حفظها من الإحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة، فلا يحبط ما سواه خلافًا للقدرية، وقد تقدمت أمثاله، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6466)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (الحديث رقم: 216 - 782).

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6466)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم (الحديث رقم: 217 - 783).

(1) قال أحمد: هو يشرك باطنًا وينزعه ظاهرًا، فينفي كون الهلع الذي هو موجود للأدعي مخلوقًا لله تعالى تنزيهًا له عن ذلك، ويثبت خالقًا مع الله ويتعافل عن اقتضاء نظم الآية، لذلك فإنك إذا قلت: برئت القلم رقيقًا، فقد نسبت إليك الحال وهو ترقيقه، كما نسبت إليك البري، وكذلك الآية، وأما قوله: والله لا يَنَمُّ خلقه، فإله تعالى له الحمد على كل حال، وإنما المنوم العبد، بحجة أنه جعل فيه اختيارًا يفرق به بالضرورة بين الاختيارات والقسريات، ألا الله الحجة البالغة، والله أعلم.

(2) سورة الانبياء، الآية: 37.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب الزكاة، باب الوعيد لمائع الزكاة (الحديث رقم: 3250)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب في =

المنزلة، وهي منصبتهم الذي لا منصب أوضع منه. ولذلك أبهم وأخفى إشعاراً بأنه منصب يستحيا من نكره. فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم. وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حكمنا لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل.

لَا أَقِيمُ رَبِّيَ الشَّرْفَ وَالْمَرْبَ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤﴾ عَلَّ أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا يَنْعَمُ وَمَا نَعْنُ بِسْتَرْفُونَ ﴿٥﴾ فَذَرُّهُ يَمْزُقُوا وَيَلْمِزُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٦﴾.

وقرى: برب المشرق والمغرب ويخرجون ويخرجون، ومن الأحداث سرعاً بالإظهار والإدغام ونصب ونصب وهو كل ما نصب فعيد من نون الله.

يَوْمَ يَمْزُقُونَ مِنَ الْأَجْدَاكِ يَرِيكًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِئُونَ ﴿٧﴾ خَشِيعَةً أَسْرَهُمْ رَهْمَهُمْ وَإِنَّ ذَلِكَ آيَةٌ لِلَّذِي كَانُوا يُضِلُّونَ ﴿٨﴾.

﴿يوفضون﴾ يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى انصابهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة سأل^(١) سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة نوح مكية

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِنْ قَوْمِيهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ إِنِّي كَلِمَةٌ تَنْزِيلٌ ﴿٢﴾.

﴿أن أنذر﴾ أصله بان أنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل، وهي أن الناصبة للفعل. والمعنى: أرسلناه بان قلنا له: أنذر. أي: أرسلناه بالامر بالإنذار. ويجوز أن تكون مفسرة لأن الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: أنذر بغير أن على إرادة القول.

أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَعَزُوا وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾.

﴿أن اعبدوا﴾ نحو أن أنذر في الوجهين.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ؟ قَالَ:

يَتَّبِعُونَ لَكَ مِنْ دُونِكَ وَيُؤَخِّرُونَكَ إِنَّ أَيْلَئِمْ سَمَىٰ إِنَّ أَيْلَئِمْ سَمَىٰ إِذَا جَاءَهُ لَا يَخْفَىٰ لَكَ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قلت: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى. أي: إلى وقت سماه الله وضره أمداً، أنتهون إليه لا تتجاوزونه

وَالَّذِينَ يُصَلُّونَ بِوَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رِجْمٍ مُتَشَفِّقُونَ ﴿٧﴾.

﴿يصلون بيوم الدين﴾ تصديقاً بأعمالهم واستعدادهم له ويشفقون من عذاب ربهم. واعترض بقوله:

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا تُوعَدُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُذُنَيْهِمْ حَافِظُونَ ﴿٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١٠﴾ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ذَكَرَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتَبْرَاحِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿١٢﴾.

﴿إن عذاب ربهم غير مامون﴾ أي: لا ينبغي لأحد ولن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء.

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ لَقِيمُونَ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤﴾.

قرئ: بشهادتهم وبشهاداتهم والشهادة في جملة الامانات وخصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها في زياها تضييعها وإبطالها.

أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُتَّكِرُونَ ﴿١٥﴾.

كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً ورفقاً رفقاً يستمعون ويستنهضون بكلامه ويقولون: إن نخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم فنزلت.

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُتَمَلِّجٌ ﴿١٦﴾.

﴿مهلطين﴾ مسرعين نحوك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

عَنِ الَّذِينَ وَصَّوْا أَهْلِيَّاءَ حِينَهُمْ ﴿١٧﴾ أَبْطَغُ كُلَّ أَمْرٍ يَنْبَغُ أَنْ يَنْحَلَّ جَنَّةَ نَيْمٍ ﴿١٨﴾.

﴿عززين﴾ فرقا شتى، جمع عزة وأصلها عزة. كان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون. قال الكمي:

ونحن وجندل باغ تركنا كتاب جنل شتى عزينا
وقيل: كان المستهزؤون خمسة أرط.

كَلَّا إِنَّا عَلَّمْنَاهُمْ مِمَّا يَلْمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿كلا﴾ رده لهم عن طمعهم في دخول الجنة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إلى آخر السورة. وهو كلام دال على إنكارهم البعث. فكانه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة.

فإن قلت: من أي وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث؟ قلت: من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى كالاتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله: خلقناهم مما يعلمون أي: من النطف، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناساً خيراً منهم، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء. والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة، ويجوز أن يراد إنا خلقناهم مما يعلمون. أي: من النطفة

منصوب بدعوتهم نصب المصدر لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهازاً، أي: مجاهراً به. أو مصدرًا في موضع الحال أي مجاهراً.

قُلْتُ أَسْتَغْفِرُكَ رَبِّكَ إِنَّكَ كَانَ عَمَّارًا ﴿١٦﴾

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحب إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجية ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال: وأخرى تحبونها نصر من الله ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروي سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيك استسقيت؟ فقال: لقد استسقيت بمجاييح السماء التي يستنزل بها القطر⁽²⁾، شبه الاستغفار بالأنوار الصادقة التي لا تخطيء. وعن الحسن أن رجلاً شكاً إليه الجذب، فقال: استغفر الله. وشكاً إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه. فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبولياً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فنلا له هذه الآية: والسماء المظلة لأن المطر منها ينزل إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم.

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ يَدْرَأَكَ ﴿١١﴾

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المنكر والمؤنث كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتقال.

وَيَسْتَدْرِكُ بَأْمُورٍ وَيَبِينُ لَكَ جَنَّتٍ وَيَجْمَلُ لَكَ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾

﴿جَنَاتٍ﴾ بساتين.

مَا لَكَ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾

﴿لا ترجون لله وقاراً﴾ لا تأملون له توقيراً أي: تعظيماً. والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله⁽³⁾ إياكم في دار الثواب، والله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار؟ وقوله:

وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيله، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَوْلَا ذِكْرُكَ ﴿٥﴾

﴿ليلاً ونهاراً﴾ دائماً من غير فتور مستغرقاً به الاوقات كلها.

لَمْ يَزِدْهُمْ دَعْوَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

﴿فلم يزدهم دعائي﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار، والمعنى: على أنهم ازدالوا عنده فراراً لأنه سبب الزيادة، ونحوه فزادهم رجساً إلى رجسهم فزادتهم إيماناً.

رَأَيْتُمْ كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرًا وَيَاسْتَنْسِقُونَ يَا أَيُّهَا أَصْرًا وَأَسْتَكْبِرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

﴿لتغفر لهم﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سئوا مسامعهم عن استماع الدعوة، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجهه من ينصحه في دين الله. وقيل: لئلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى: ﴿ألا أنهم يثنون صبورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم﴾⁽¹⁾ الإصرار من أصر الحمار على العانة إذ أصر أنثيه وأقبل عليها يكتمها ويطردها. استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها. ﴿واستكبروا﴾ وأخنتهم العزة من اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد وبولة على فرط استقبالهم وعتوهم.

فَإِنْ قُلْتُ:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمْتُ لَمْ وَأَسْرَرْتُ لَمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾

نكر أنه دعاهم ليلاً ونهاراً ثم دعاهم جهازاً ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف! قُلْتُ: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يامر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمنصحة في السر فلما لم يقبلوا، ثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر، ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى: ثم، الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين وأغلظ من أفراد أحدهما. و﴿جهازاً﴾

(1) سورة هود، الآية: 5.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 87/3 (الحديث رقم: 4902).

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يبيح الرجاء على بابه، ونقل قولاً آخر لمحله على الخوف، أي: لا تخافون لله عظمة، وعن ابن =

= عباس: أن الوقار العاقبة لاستقرار الثواب، وثبات العقاب من وقر إذا ثبت، قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ قال فيه: وإنما هو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة.

واكد بالمصدر كانه قال: يخرجكم حقاً ولا محالة جعلها بساطاً مبسوطةً تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه.

﴿سَلَكُوا فِيهَا سَبِيلًا وَيَجَاءُ﴾

﴿فَجَاءَ﴾ واسعةً منفضةً.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّي إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُمْ وَلَا خَسَارًا﴾

﴿وَاتَّبِعُوا﴾ رؤوسهم المتقدمين أصحاب الاموال والاولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الاصنام. وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهةً ومنفعةً في الدنيا زائدةً ﴿خَسَارًا﴾ في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها تحقيقاً له وتشبيهاً وإبطالاً لما سواه. وقرئ: وولده بضم الواو وكسرهما.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾

﴿ومكروا﴾ معطوف على لم يزده وجمع الضمير وهو راجع إلى من لأنه في معنى الجمع والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتياليهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على آذاه وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لا تدرن آلهتكم إلى عبادة رب نوح ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ قرئ: بالتخفيف والتثقيل، والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه طول وطوال.

﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُونَ الْبَتَّةَ وَلَا تَدْرُونَ وَا لَا سَوَاعًا وَلَا يَتُوكَ وَيَتُوكَ وَسَرًّا﴾

﴿ولا تدرن ودا﴾ كان هذه المسميات كانت أكبر صنামهم وأعظمها عندهم فخصوها بعد قولهم: لا تدرن آلهتكم. وقد انتقلت هذه الاصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمنحج ويعوق لمراد ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من اولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم. ففعلوا. فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبوهم. وقيل: كان وداً على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر. وقرئ: وداً بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثاً ويعوقاً بالصرف. وهذه قراءة مشككة لانهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سبباً منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل وإما

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ يَبَاطًا﴾

﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ في موضع الحال، كانه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه؟ وهي حال موجبة للإيمان به لانه خلقكم أطواراً أي: تارات، خلقكم أولاً تراباً ثم خلقكم نطقاً ثم خلقكم علقاً ثم خلقكم مضغاً ثم خلقكم عظماً ولحمًا ثم أنشاكم خلقاً آخر. أو لا تخافون الله حلماً وترك معالجة العقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون الله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون الله عاقبةً، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقرأ إذا ثبت واستقر. نبيهم على النظر في أنفسهم أولاً لانها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بَرَكًا﴾

﴿ففيهن﴾ في السموات وهو في السماء الدنيا⁽¹⁾، لأن بين السموات ملابسة من حيث أنها طباق. فجاز أن يقال: فيهن كذا، وإن لم يكن في جميعهن. كما يقال في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أن الشمس والقمر وجوهما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض⁽²⁾. ﴿وجعل للشمس سرجاً﴾ يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى أبصاره، والقمر ليس كذلك إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء للشمس. ومثله قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾⁽³⁾ والضياء أقوى من النور.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾

استعير الإنبات للإنشاء كما يقال: زرعك الله للخير. وكانت هذه الاستعارة أدل على الحدوث، لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات. ومنه قيل: للحشوية النابتة، والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أولية لهم فيه. ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة، والمعنى: أنبتكم فنبت نباتاً أو نصب بانبتكم لتضمنه معنى نبت.

﴿ثُمَّ يُبَدِّلُ فِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ مقبورين، ثم ﴿يخرجكم﴾ يوم القيامة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾

(2) قال الزيلعي غريب وروى نحوه ابن مريويه وعبد الرزاق في تفسيرهما 94/4.

(3) سورة يونس، الآية: 5.

(1) قال احمد: ويلاحظ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾. عاد كلامه قوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ قال فيه: كيف جاز ان يزيد الضلال؟ ولجاب: بأن المراد به منع اللطاف. قلت: هذا على قاعته.

وإن خلا من الخطيئة الكبرى، وقرئ: خطيئاتهم بالهمزة، وخطيئاتهم بقلبيها ياء وإدغامها، وخطاياهم، وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد الكفر. ﴿فَانْخَلُوا نَارًا﴾ جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم لاقترابه ولأنه كائن لا محالة، فكانه قد

كان أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو اكلته السباع والطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحك: كانوا يفرقون من جانب، ويحرقون من جانب. وتذكير النار إما لتعظيمها أو لأن الله أعلمهم على حسب خطيئاتهم نوعاً من النار. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم. كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله. كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ (5).

وَقَالَ مَرِّحٌ رَبِّ لَآ تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرَيْنِ دَبَّارًا (٦).

﴿دَبَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيام وقيوم. وهو فيعال من الدور أو من الدار أصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ولو كان فعلاً لكان دوارًا.

فإن قُلْتُ: بم علم أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة! قُلْتُ: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم. وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حنرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وقد أخبره الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. ومعنى.

إِنَّكَ إِنْ تَدْرَهُمْ يُبْسِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَدْرُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا (٧).

﴿لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» (8).

رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مَثُومًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِرِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٨).

= وينجز الكلام منها إلى حكم الله علينا في العذر إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذرائعهم، إن ذلك لا يوجب الإكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمثوية، ويستدل برمي النبي ﷺ على أهل الطائف بالمجانق، وقيل لهم: فيهم الذرية، فقال: «هم من آباءهم»، وإما رميهم بالنار وفيهم الذرية، فمنعه مالك رحمه الله إلا أن يخاف غائتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها، والله تعالى أعلم.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 43.

(6) تقدم في أول البقرة.

التعريف والعجمة، ولعله قصد الأزواج فصرفهما لمصانفته أخواتهما منصرفات وذاً وسواً ونسراً. كما قرئ: وضحاها بإمالة لوقوعه مع الممالات للزواج.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٩).

﴿وقد أضلوا﴾ الضمير للرؤساء، ومعناه: وقد أضلوا ﴿كثيراً﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام، ليسوا بأول من أضلهم، أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيراً. يعني: أن هؤلاء المضلين فيهم كثرة، ويجوز أن يكون للأصنام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ (1).

فإن قُلْتُ: علام عطف قوله: ﴿ولا تزد الظالمين؟﴾ قُلْتُ: على قوله: ﴿رب إنهم عصوني﴾ (2) على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائية عنه. ومعناه قال: رب إنهم عصوني. وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً. أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال كقولك: قال زيد. نودي للصلاة وصل في المسجد. تحكى قوليهِ معطوفاً أحدهما على صاحبه.

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قُلْتُ: المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الإلطف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال الضياع والهلاك لقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ (3) تقميم.

مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَكَلَّمَ جِدُّوهُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٩).

﴿مما خطيئاتهم﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإخلائهم النار إلا من أجل خطيئاتهم (4) وأكد هذه المعنى بزيادة ما. وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئاتهم ما أغرقوا بتأخير الصلاة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فلن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهن، وقد نعت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكلم المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أن معه ما يستوجب به العذاب

(1) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(2) سورة نوح، الآية: 21.

(3) سورة نوح، الآية: 28.

(4) قال أحمد: هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق أو لإعراض مترقية، أو لغير ذلك من المصالح بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح، والصبيان لا جنابة سبقت منهم ولا عوض يتربق فيهم، فيرد السؤال على ذلك، وأما أهل السنة فالله تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح، =

قضى: ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً **عجباً** بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز وعجب مصدر يوضع موضع العجيب وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره.

يَهْدِي إِلَى الْرُشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَنَنْشُرْكَ رَبَّنَا كَمَا **٦**

يهدي إلى الرشده يدعو إلى الصواب. وقيل: إلى التوحيد والإيمان. والضمير في **به** للقرآن، ولما كان الإيمان به إيماناً بالله ويوحديته وبراءة من الشرك. قالوا: **ولن نشرك بربنا لحدّاً** أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان، ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل. لأن قوله: بربنا يفسره.

وَأَنْتُمْ تَمَنَّوْا بَدْرًا مَا آتَيْنَا صَحِيحَةً وَلَا وَلَدًا **٣**

جد ربنا عظمت من قولك: جد فلان في عيني أي: عظم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا. وروي: في أعيننا أو ملكه وسلطانه أو غناه⁽³⁾. استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت لأن الملوك والأغنياء هم المجربون. والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصحابة والوالد لعظمته أو سلطانه وملكوته أو لغناه. وقوله: **ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** بيان لذلك. وقرئ: جدنا ربنا على التمييز، وجد ربنا بالكسر. أي: صلق ربوبيته وحق ألهيته عن اتخاذ صاحبة والولد. وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان تنبهوا عن الخطأ فيما اعتقدوه كفر الجن من تشبيهه الله بخلقه واتخاذها صاحبةً وولداً فاستعظموه ونزهوه عنه.

وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَى اللَّهِ سَاطِعًا **٤**

سفيهم: إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجن، والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره، ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه. أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، الفرط ما أشط فيه وهو نسبة الصحابة والولد إلى الله.

وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنشِرَ وَالْإِنشِرَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا **٥**

وكان في ظننا أن أحدًا من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفترى عليه ما ليس بحق فكنا نصلقهم فيما أضفوا إليه من ذلك حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وأفترائهم. **كذباً** قولاً كذباً، أي: مكنوياً فيه، أو نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول. ومن قرأ: أن لن تقول، وضع كذباً موضع تقولاً ولم يجعله صفةً لأن التقول لا يكون إلا كذباً.

وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْإِنشِرِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْإِنشِرِ قَرَارُؤُهُمْ رَهَقًا **٦**

ولولدي أبو ملك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما أم وحواء. وقرأ الحسين بن علي: ولولدي، يريد ساماً وحاماً. **بيتي** منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي. خص أولاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه. ثم عم المؤمنين والمؤمنات **تباركاً** هلاكاً.

فإن قلنت: ما فعل صبيانهم حين أغرقوا؟ قلنت: أغرقوا معهم لا على وجه العقاب، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق. وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون. ومنه قوله عليه السلام: **يهلكون مهلكاً واحداً** ويصدرون مصادر شتى⁽¹⁾. وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فاهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسلهم وأبیس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا. عن رسول الله ﷺ: **من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرهم دعوة نوح عليه السلام**⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجن مكية

قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا رُوَاكُنَا عِجَابًا **١**

قرئ: أحي وأصله وحي. يقال: يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزة. كما يقال: أعد وزن. وإذا الرسل أقتت وهو من القلب المطلق جوازه في كل وأر مضمومة، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كاشاح وإسادة وإعاء أخيه، وقرأ ابن أبي عمير: وحي على الأصل **أنه استمع** بالفتح لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجن كسر. وكلهن من قولهم: إلا الثنتين الأخيرين، وأن المساجد، وأنه لما قام ومن فتح كلهن، فعملاً على محل الجار والمجرور في أمنا به. كأنه قيل: صلقتنا وصلقتنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيننا وكذلك البواقي. **نفراً من الجن** جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عبداً، وعمامة جنود إبليس منهم. **فقالوا إنا سمعنا** أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم، كقوله: فلما

(3) قال الزيلعي: غريب من حديث عمر وقد تقدم من حديث أنس. رواه أحمد 99/4

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (الحديث رقم: 8 - 2884).

(2) رواه الثعلبي وابن مرمويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/95

وقال عوف بن الخرع:

يرد علينا العير من نون لفه أو الشور كالسرى يتبعه السم
ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال، فلما
بعث رسول الله ﷺ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى
تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً. وعن معمر:
قلت للزهري: إكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم.
قلت: رأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ فقال: غلظت.
وشد أمرها حين بعث النبي ﷺ وروى الزهري عن
علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما: بينا
رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذا رمى بنجم
فاستنار. فقال: وما كنتم تقولون في مثل هذا في
الجاهلية؟ فقالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم⁽²⁾.
وفي قوله: ﴿مَلِئْتُ﴾ دليل على أن الحادث هو الملاء
والكثرة. وكذلك قوله: ﴿نَقَعْدُ مِنْهَا مَقَاعِدُ﴾ أي: كنا نجد
فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت
المقاعد كلها، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد
حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته.

وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا⁽¹⁾.

يقولون: لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع
الاستراق، قلنا: ما هذا إلا لأمر أراه الله باهل الأرض ولا
يخلو من يكون شرًا أو رشداً. أي: خيراً من عذاب أو من
رحمة أو من خذلان أو توفيق.

وَأَنَا يَمَّا الصَّيْحُورَ وَمَا دُونَ ذَلِكَ كَأَنَّ طَرَائِقَ وَدَكَا⁽¹⁾.

﴿منا الصالحون﴾ منا الأبرار المتقون ﴿ومنا نون
ذلك﴾ ومنا قوم نون ذلك، فحذف الموصوف. كقوله: وما
منا إلا له مقام معلوم، وهم المقتصدون في الصلاح غير
الكاملين فيه، أو أرادوا الطالحين ﴿كنا طرائق قددا﴾ بيان
للقسمة المذكورة، أي: كنا نوي مذاهب مفترقة مختلفة، أو
كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة، أو كنا في
طرائق مختلفة. كقوله:

كما غسل الطريق الثعلب

أو كانت طرائقنا طرائق قدداً على حنف المضاف الذي
هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه. والقدّة: من
قد كالقطعة من قطع، ووصفت الطرائق بالقد لدالته على
معنى التقطع والتفرّق.

وَأَنَا ظَنَنْتُ أَنْ لَنْ تُتَجَرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُتَجَرَّ هَرَا⁽¹⁾.

﴿في الأرض﴾ و﴿هرا﴾ حالان أي: لن نعجزه كائنين
في الأرض أينما كنا فيها ولن نعجزه هارين منها إلى
السماء. وقيل: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن

الرهق: غشيان المحارم، والمعنى: أن الإنس باستعانتهم
بهم زأوهم كبراً وكفراً. وذلك أن الرجل من العرب كان إذا
أمسى في وادٍ قفر في بعض مسابره وخاف على نفسه
قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد الجن
وكبيرهم. فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سيدنا الجن
والإنس. فنلك رهقهم أو فزاد الجن الإنس رهقاً بإغوائهم
وإضلالهم لاستعانتهم بهم.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَمَسَّ اللَّهُ أَحَدًا⁽¹⁾.

﴿وانهم﴾ وأن الإنس ﴿ظنوا كما ظننتم﴾ وهو من
كلام الجن بقوله: بعضهم لبعض. وقيل: الآيتان من جملة
الوحي، والضمير في ﴿وانهم ظنوا﴾ للجن، والخطاب في
ظننتم لكفار قريش. اللمس: المس فاستعير للمطلب لأن
الماس طالب متعريف قال:

مسنا من الآباء شيئاً وكننا إلى نسب في قومه غير واضع

وَأَنَا لَسْنَا أَسْتَأْذِنُ فَوَيْدَهَا مُلِمَّتَ حَرَسًا شَدِيدًا وَثَمِيًّا^(A) وَأَنَا
كَمَا تَمَدُّ يَمَهَا مَقِيدٌ لِلسَّحَجِ فَمَنْ يَسْتَجِجِ الْآنَ يَجِدْ لَمْ يَهَبْهَا رَسَدًا⁽¹⁾.

يقال: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه،
ونحوه: الجس. وقولهم: جسوه بأعينهم ويجسسوه،
والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. والحرس
اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام،
ولذلك وصف بشديد، ولو ذهب إلى معناه لقليل: شديداً
ونحوه. أخشى رجيلاً أو ركبياً غادياً. لأن الرجل والركب
مفردان في معنى الرجال والركاب.

والرصد: مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى
نوي شهاب راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين
يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن
يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعني جياًعاً
يعني: يجد شهاباً راصداً له ولاجله.

فإن قلت: كان الرجم لم يكن في الجاهلية وقد قال الله
تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً
للشياطين﴾. فنكر فائدتين في خلق الكواكب التزيين ورجم
الشياطين⁽¹⁾! قلت: قال بعضهم حدث بعد مبعث
رسول الله ﷺ وهو إحدى آياته والصحيح أنه كان قبل
المبعث. وقد جاء نكره في شعر أهل الجاهلية قال بشر بن
أبي خازم:

والعير يرفقها الخبر وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالسرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

(1) قال أحمد: ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعاً مرادان لله
تعالى يقولهم: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

بهم ربهم رشداً﴾ ولقد أحسنوا الألب في ذكر إرادة الشر محنوفة
الفاعل، والمراد بالمريد: هو الله عز وجل وإبراهيم لاسمه عند =

(1) قال أحمد: ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعاً مرادان لله
تعالى يقولهم: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

الجن على الطريقة المثلى أي: لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله والطاعة ولم يستكبر عن السجود لأدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم. ونكر الماء الغدقي وهو الكثير يفتح الدال وكسرهما، وقرئ: بهما لأنه أصل المعاش وسعة الرزق.

لَتَنبِئَنَّهُمْ فِيهِ وَنَرَىٰ رِيسًا عَنْ دَكِّ رِيسٍ ۚ سَلَكُوكَ عَذَابًا صَمَدًا ﴿٧﴾.

﴿لنتفتنهم فيه﴾ لنتختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه، ويجوز أن يكون معناه: وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم، لنتفتنهم فيه لتكون النعمة سبباً لا اتباعهم شهواتهم ووقوعهم في الفتنة وازدياهم إثماً أو لنعذبهم في كفران النعمة. ﴿عن نكر ربه﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه ﴿يسلكه﴾ وقرئ: بالنون مضمومة ومفتوحة، أي: ندخله ﴿عذاباً﴾ والأصل نسلكه في عذاب كقوله: ما سللكم في سقر، فعدى إلى مفعولين إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله: واختار موسى قومه، وإما بتضمينه معنى ندخله يقال: سلكه وأسلكه. قال: حتى إذا أسلكوهم في قتادة، والصعد: مصدر صعد. يقال: صعد صعداً وصعدوا، فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب أي: يعلوه ويفلجه فلا يطيقه. ومنه قول عمر رضي الله عنه: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح⁽³⁾ يريد: ما شق علي ولا غلبني.

وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٨﴾.

﴿وأن المساجد﴾ من جملة الموجى وقيل: معناه ولأن المساجد ﴿الله فلا تدعوا﴾ على أن اللام متعلقة بلا تدعوا أي: فلا تدعوا ﴿مع الله أحداً﴾ في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته. وعن الحسن: يعني الأرض كلها، لأنها جعلت للنبي ﷺ مسجداً وقيل: المراد بها المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾⁽⁴⁾ وعن قتادة: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمرنا أن نخلص الله الدعوة إذا دخلنا المساجد. وقيل: المساجد أعضاء السجود السبعة. قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أرباب» وهي: الجبهة والأنف واليدين والركبتان والقدمان⁽⁵⁾. وقيل: هي جمع مسجد وهو السجود.

نعجزه هرباً إن طلبنا. والظن بمعنى اليقين وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم منهم أختيار وأشرار ومقتصدون وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجي عنه مهرب.

وَأَنَا لَكَا سَمِيتَا أَهْدَىٰ آثَمًا يَوْمَ الْقِيَامِ ۚ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ كَسَفًا ۚ وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾.

﴿لما سمعنا الهدى﴾ هو سماعهم القرآن، وإيمانهم به ﴿فلا يخاف﴾ فهو لا يخاف أي: فهو غير خائف؛ ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر نخلت الفاء ولولا ذلك لقال: لا يخاف.

فإن قلنا: أي: فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إسخال الفاء وكان ذلك كله مستغنى عنه بان يقال: لا يخاف؟ قلنا: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك يوم غيره، وقرأ الأعمش: فلا يخف على النهي ﴿بخساً ولا رهقاً﴾ أي: جزء بخص ولا رهق لأنه لم يبخص أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزءهما. وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأمورهم»⁽¹⁾. ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخص بل يجزي الجزء الأوفى، ولا أن ترهقه نلة، من قوله عز وجل: ﴿وترهقهم نلة﴾.

وَأَنَا إِنَّا الْكٰفِرُونَ وَمِنَّا الْقٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحْرُورًا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَنَا الْقٰسِطُونَ فَكَأْوُوا لَهُمْ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقِ ۚ لَأَسْتَبِينَهم مِّنْ عَذَابِنَا ﴿١٦﴾.

﴿القاسطون﴾ الكافرون الجاثرون عن طريق الحق. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول في؟ قال: قاسط عادل فقال القوم: ما أحسن ما قال؟ حسوا أنه يصفه بالقسط والعدل. فقال الحجاج: يا جهلة أنه سماني ظالماً مشركاً وتلا لهم قوله تعالى: ﴿أما القاسطون﴾ وقوله تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾⁽²⁾ قد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعدهم قاسطيتهم وما وعد مسلميهم وكفى به وعداً أن قال: فأولئك تحروراً رشداً. فنكر سبب الثواب وموجبه والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

﴿والو استقاموا﴾ أن مخففة من الثقيلة وهو من جملة الموجى والمعنى: وأوحى إلي أن الشان والحديث لو استقام

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: أعضاء السجود (الحديث رقم: 891 و889)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء إنني أسجد على سبعة أعضاء (الحديث رقم: 272)، وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: تفسير ذلك (الحديث رقم: 1093)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: السجود (الحديث رقم: 885).

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: الجار (الحديث رقم: 510)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (الحديث رقم: 2627).

(2) سورة الأنعام، الآية: 1.

(3) قال الزبلي، أخرجه أبو عبيد في غريبه: 100/4.

(4) سورة البقرة، الآية: 114.

وَأَنْتَ مَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكْفُرُونَ عَلَيْهِ يَدَا ﴿١٦﴾.

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٧﴾.

﴿عبد الله﴾ النبي ﷺ.

﴿ولا رشدا﴾ ولا نفعاً أو أراد بالضرر الغي. ويدل عليه قراءة أبي: غيياً ولا رشداً، والمعنى: لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم إنما الضر والنافع الله⁽¹⁾، أو لا أستطيع أن أقسركم على الغي والرشد إنما القادر على ذلك الله عز وجل.

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيبَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا ﴿١٧﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ. وَمَنْ يَبْسِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَنُزِّلَ لَهُ نَارًا جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٨﴾.

﴿ولا بلاغاً﴾ استثناء منه أي: لا أملك إلا بلاغاً من الله. و﴿قل إنني لن يجيرني﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبين عجزه، على معنى أن الله إن أراد به سوءاً من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملأماً يأوي إليه. والملتحد الملتجأ وأصله المنخل من اللحد. وقيل: محيصاً ومعدلاً. وقرئ: قال: لا أملك. أي: قال عبد الله للمشركين أو للجن. ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم. وقيل: بلاغاً بدل من ملتحذ⁽²⁾. أي: لن أجد من دونه منجي إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به. وقيل: إلا هي أن لا، ومعناه: أن لا أبلغ بلاغاً. كقولك: أن لا قياماً فقولاً. ﴿ورسالته﴾ عطف على بلاغاً كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات. والمعنى: إلا أن أبلغ عن الله، فاقول: قال الله: كذا ناسياً لقلوبه إليه، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٥﴾.

﴿قال﴾: للمتظاهرين عليه ﴿إنما ادعوا ربي﴾ يريد ما أتيتكم بأمر منكر إنما أعبد ربي وحده ﴿ولا أشرك به أحداً﴾ وليس ذاك مما يوجب إبطاقتكم على مقتي وعداوتي. أو قال للجن عند ازحامهم متعجبين: ليس ما ترون من عبادتي الله ورفضني الإشراف به بأمر يتعجب منه، إنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكاً. أو قال للجن لقومهم: تلك حكاية عن رسول الله ﷺ.

فإن قُلْتُ: ألا يقال بلغ عنه؟ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني بلغوا عني»⁽³⁾. قُلْتُ: من ليست بصلة للتبليغ، إنما هي بمنزلة من في قوله: «براءة من الله»⁽⁴⁾ بمعنى بلاغاً كأنها من الله. وقرئ: فإن له نار جهنم على فجزاؤه أن له نار جهنم. كقوله: ﴿فإن الله خمس﴾⁽⁵⁾ أي: فحكمه أن الله خمس وقال: ﴿خالدين﴾ حملاً على معنى الجمع في من.

(1) «وإنما لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» فاضافوا الرشد نفسه إلى إرادة الله عز وجل وقدرته.

(2) قال أحمد: فيكون تقدير الكلام بلاغاً من الله مستفاداً من قوله: ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ قال: إن قلت: ما معنا التقسيم والأمد يكون قريباً وبعيداً لقوله: ﴿تود لو أن بيننا وبينه أمداً بعيداً﴾ وأجاب: بأنه كان ﷺ يستقرب الموعد، وكانه قال: ما أدري هل هو حال متوقع في كل ساعة أم له غاية مضروبة؟

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: ما نكر عن بني إسرائيل (الحديث رقم: 3461).

(4) سورة التوبة، الآية: 1.

(5) سورة الانفال، الآية: 41.

(1) قال أحمد: في الآية دليل بين على أن الله تعالى هو الذي يملك لعباده الرشد والغني يخلقهما لا غير، فإن النبي ﷺ إنما سلب ذلك عن قدرته ليحمض إضافته إلى قدرة الله وحده، وفطن الزمخشري لذلك، فأخذ يحمل الحبل فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع فيضيف ذلك إلى الله تعالى، وتارة يكنع عنه: لأن فيه إبطالاً لخصوصية الرشد المنصوص عليه في الآية، فيثور له من تقليده الرأي الفاسد ثائر تصرفه عن الحق، وعن اعتقاد أن الله تعالى هو الذي يخلق الرشد لعبيده مقارناً لاختيارهم فيدخل زيادة القسر: لأن معنى ما ورد من إضافة الرشد إلى قدرة الله تعالى عندهم أنه يخلق أن يخضع لها الرقاب، فيخلق البعد لنفسه عند ظهورها رشداً، فيضاف إلى قدرة الله تعالى لأنه خلق السبب وهو في الحقيقة مخلوق بقدرة العبد هذه قاعدة القرية، وعقيبتهم، وما الجن بعد هذا إلا أوفر عنهم عقلاً وأسوأ منهم نظراً؛ لأنهم قالوا: =

الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. ﴿فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من ارتضى للرسالة ﴿وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطربونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخليطهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك: ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرصونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك.

لَمَّا رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُمْ وَأَمَّا بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْمَى كُلِّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾

﴿ليعلم﴾ الله ﴿أن قد بلغوا رسالات ربهم﴾ يعني: الأنبياء. وحد أولاً على اللفظ في قوله: من بين يديه ومن خلفه، ثم جمع على المعنى كقوله: ﴿فإنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾⁽²⁾ والمعنى: ليلبغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان، ونكر العلم ككركه في قوله تعالى: ﴿حتى نعلم المجاهدين﴾، وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول. ﴿ولاحظ بما لديهم﴾ بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً فهو مهين عليها حافظ لها. ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه، وعدداً حال أي: وضبط كل شيء معدوداً محصوراً، أو مصدر في معنى إحصاء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنّي صنقٌ محمداً ﷺ وكتب به عتق رقبة»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المزمل مكية

بِأَيِّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١٧﴾

﴿المزمل﴾ هو الذي تزمّل في ثيابه أي: تلفف بها بإدغام الباء في الزاي. ونحوه: المذثر⁽⁴⁾ في المذثر. وقرئ: المزمّل على الأصل، والمزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرهما على أنه اسم فاعل أو مفعول من زمه وهو

﴿فإن قلت: بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له؟ قلت: بقوله: يكونون عليه لبدأً على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم.

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْمَعُونَ مِمَّنْ أُنصَفُ ناصراً وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿١٧﴾

﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة. ﴿فسيعلمون﴾ حينئذٍ أنهم ﴿انصفت ناصراً وأقل عدداً﴾، ويجوز أن يتعلق بمحنوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعبده. كانه قال: لا يزالون على ما هم عليه ﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ قال المشركون: متى يكون هذا الموعد إنكاراً له؟ فقيل: ﴿قل﴾ إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه.

قُلْ إِنْ أَنْزَلْتُ أَرْبَابًا مِمَّا تُشْرِكُونَ لَأَرَى يَجْعَلُ لَمْ رَبِّ أَمْدًا ﴿١٧﴾

فإن الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد، وأما وقته فما أدري متى يكون لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لم يجعل له ربي أمداً؟ والامد يكون قريباً وبعيداً، ألا ترى إلى قوله تود لو أن بيننا وبينه أمداً بعيداً! قلت: كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد فكانه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية. أي: هو.

عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَمْدًا ﴿١٧﴾

﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ فلا يطلع، و﴿من رسول﴾ تبين لمن ارتضى يعني: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة لا كل مرتضى. وفي هذا إيصال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين⁽¹⁾ فليسوا برسل.

إِلَّا مَنْ أَرْضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾

وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على

(3) نكره الثعلبي، وابن مروي، والواحد في تفاسيرهم: 104/4.

(4) قال أحمد: أما قوله الأول: إن نداءه بذلك تهجين للحالة التي نكر أنه كان عليها، واستشهاده بالآيات المنكورة فخطا وسوء أدب، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء: أنه لم يخاطب باسمه نداء، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً، فأين نداءه بصيغة مهجنة من نداءه باسمه، واستشهاده على ذلك بالآيات قيلت نداءً في جفاة حفاة من الرعاء، فإنا أبرا إلى الله من ذلك وأربابه ﷺ، ولقد نكرت بقوله:

أردها سعد وسعد مشتمل

(1) قال أحمد: ادعى عاماً واستدل خاصة، فإن دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها، والمندلول عليه بالآية: إبطال اطلاع الوالي على الغيب خاصة، ولا يكون كرامة وخارق العادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها، وذلك إن الله عز وجل لا يتخذ منهم ولياً أبداً، وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم قط، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار، ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوبة عنهم اتفاقاً، وأما سلب الإيمان فمسألة خلاف، فما اطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة؛ لأنه لم يؤتها، والله الموفق.

(2) سورة الجن، الآية: 23.

الساكنين فباي الحركات تحرك فقد وقع الغرض.

يَسْتَهُ أَوْ أَتَشَّ مِنْ يَلَا ﴿٦٧﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ رَزِيلًا أَلْفَرَاكَ تَرِيَلًا ﴿٦٨﴾.

﴿نصفه﴾ بدل من الليل وإلا قليلاً استثناء من النصف كانه قال: قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه للنصف، والمعنى: التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما التقصان من النصف والزيادة عليه، وإن شئت جعلت نصفه بدلاً من قليلاً وكان تخييرًا بين ثلاث. بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما وصف النصف بالقلّة بالنسبة إلى الكل، وإن شئت قلت لما كان معنى قم الليل إلا قليلاً نصفه إذا أبطلت النصف من الليل قم أقل من نصف الليل رجح الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف، فكانه قيل: قم أقل من نصف الليل، أو قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلاً، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث. ويجوز إذا أبطلت نصفه من قليلاً وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع: كانه قيل: أو أنقص منه قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل، أعني الربع نصف الربع، كانه قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقاً تتمم الثلث فيكون تخييرًا بين النصف والثلث والربع.

فإن قُلْتُ: إكان القيام فرضًا أم نفلًا؟ قُلْتُ: عن عائشة رضي الله عنها أن الله جعله تطوعًا بعد أن كان فريضة. وقيل: كان فرضًا قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوعوا به. وعن الحسن: كان قيام ثلث الليل فريضة وكانوا على ذلك سنة وقيل: كان واجبًا وإنما وقع التخيير في المقدار، ثم نسخ بعد عشر سنين. وعن الكلبي: كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين. ومنهم من قال: كان نفلًا بدليل التخيير في المقدار. ولقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾⁽³⁾ ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيهًا بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأخوان وألا يهذه هذا ولا يسرده سرًا. كما قال عمر رضي الله عنه: شر السير الحقيقية، وشر القراءة الهزئة حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر إلا لص⁽⁴⁾ وسئلت عائشة رضي الله عنها عن

الذي زمه غيره أو زمه نفسه. وكان رسول الله ﷺ نائمًا بالليل مترملاً في قتيقة، فنه ونودي، بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قتيقة واستعداده للاستقلال في النوم كما يفعل من لا يهيمه أمر ولا يعنيه شأن. ألا ترى إلى قول ذي الرمة:

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها مترمّل
يريد الكسلان المتعاس الذي لا ينهض في معازم
الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب
ونحوه:

فانت به حوش الفؤاد مبطنًا سهناً إذا ما نام ليل الهوجل
وفي أمثالهم:

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورديا سعد الإبل

فدمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الجهود التهجد، وعلى التزمّل التشمّر والتخفف للعبادة، والمجاهدة في الله لا جرم أن رسول الله ﷺ قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة، وتجاهلوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيمي في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم. وقيل: كان مترملاً في مرط لعائشة يصلي. فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يقوم على ذلك ويوظب عليه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت ما كان تزميله قالت: كان مرطاً طوله أربع عشرة نراعاً، نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي. فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خراً ولا قرأً ولا مرعزي ولا إيريسماً ولا صوقاً كان سداه شعراً ولحمته وبراً⁽¹⁾. وقيل: نخل على خديجة وقد جثت فرقاً أول ما أتاه جبريل وبوانره ترعد فقال: زملوني زملوني. وحسب أنه عرض له فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمّل⁽²⁾. وعن عكرمة: أن المعنى يا أيها الذي زمّل امرأ عظيماً أي: حملة، والمزمّل الحمل، وأزدمه احتمله.

فَرَّ أَيْلًا إِلَّا يَلَا ﴿٦٩﴾.

وقرى: قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من التقاء

(1) قال الزيلعي: غريب: 107/4.
(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (3) (الحديث رقم: 3)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 252 - 160).
(3) سورة الإسراء، الآية: 79.
(4) قال الزيلعي: غريب، وساق حديث أخرجه الخطيب البغدادي في أوائل، كتاب: الجامع لأدب الراوي والسامع 108/4.

= ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري، ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإجحافه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه حتى سماه ابن خروف البرنامج، وأشد عليه أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورديا سعد الإبل وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضي الله عنها فبعيد، فإن السورة مكية وبنى النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، والصحيح في الآية ما نكره آخرًا: لأن ذلك كان في بيت خديجة عندما لقبه جبريل أول مرة، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، والله أعلم.

السلام: اللهم اشد وطأتك على مضر⁽⁶⁾ ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾
وأشدّ مقالاً وأثبت قراءةً لهنو الأصوات، وعن أنس
رضي الله عنه أنه قرأ: وأصوب قِيلاً. فقيل له: يا أبا حمزة
إنما هي وأقوم. فقال: إن أقوم وأصوب وأهيا واحد. وروى
أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ:
فحاسوا، بحاء غير معجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا
بالجيم، فقال: وجاسوا وحاسوا واحد.

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

﴿سَبْعًا﴾ تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك ولا
تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال
وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سخ
الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرق
القلب بالشواغل. كلفه قيام الليل ثم نكر الحكمة فيما كلفه
منه وهو أن الليل أعون على المواظبة وأسد للقراءة لهنو
الرجل وخفوت الصوت، وأنه أجمع للقلب وأضمر لنشر الهم
من النهار لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب
في حوائج المعاش والمعاد. وقيل: فراغاً وسعةً لنومك
وتصرفك في حوائجك. وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك
في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾

﴿وانكر اسم ربك﴾ ودم على نكره في ليلك ونهارك
واحرص عليه، ونكر الله يتناول كل ما كان من نكر طيب
تسيب وتلهيل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة
قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ
يستغرق به ساعة ليله ونهاره. ﴿وتبتل إليه﴾ وانقطع إليه.
فإن قلنت: كيف؟ قيل: ﴿تبتيلاً﴾ مكان تبتلاً؟ قلنت: لأن
معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق
الفواصل.

رَبِّ لَنَشْرِقَ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

﴿رب المشرق والمغرب﴾ قرىء مرفوعاً على المدح
ومجروداً على البذل من ربك. وعن ابن عباس: على القسم
بإضمار حرف القسم. كقولك: الله لأفعلن وجوابه ﴿لا إله
إلا هو﴾ كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن
عباس: رب المشارق والمغرب ﴿فاتخذه وكيلاً﴾ مسبب
على التلهيل لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحيده
بالربوبية أن توكل إليه الأمور. وقيل: وكيلاً كقيلاً بما وعدك
من النصر والإظهار.

رَأْسِزٍ عَلَنَ مَا يَبُولُونَ وَأَمْهَرُمْ هَجْرًا حَيْلًا ﴿١٠﴾

قراءة رسول الله ﷺ فقالت: لا كسر بكم هذا لو أراد السامع
أن يعد حروفه لعدّها. و﴿وترتيلاً﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به
وأنه ما لا بد منه للقارىء.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَبِيلاً ﴿٥﴾

هذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه
من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على
المكلفين وخاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه
ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبھظ له. وأراد بهذا
الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف
الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأن الليل وقت السبات
والراحة والهدو فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه
ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا
نزل عليه الوحي ثقل عليه وتريد له جلده⁽¹⁾، وعن عائشة
رضي الله عنها: رأيت ي نزل عليه الوحي في اليوم الشديد
البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً⁽²⁾. وعن الحسن:
ثقل في الميزان، وقيل: ثقل على المنافقين، وقيل: كلام له
وزن ورجحان ليس بالسفساف.

إِنَّا نُنزِّلُ الْآيَاتِ مِنْ أَسْفَلٍ وَنُنَزِّلُ الْقَوْلَ تَبِيلاً ﴿٦﴾

﴿نناشئة الليل﴾ النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من
مضجها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع، من نشأت
السحابة إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز إذا نهض قال:
نشأ إلى⁽³⁾ حوص بري نبيها السرى والصق منها مشرفات القماحد⁽⁴⁾

وقيام الليل على أن الناشئة مصدر من نشأ إذا قام
ونهض على فاعلة كالعافية، ويدل عليه ما روي عن عبيد بن
عمير: قلت لعائشة: رجل قام من أول الليل اتقولين له قام
ناشئة؟ قالت: لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. ففسرت
الناشئة بالقيام عن المضجع⁽⁵⁾، أو العبادة التي تنشأ
بالليل. أي: تحدث وترتفع، وقيل: هي ساعات الليل كلها
لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، وقيل: الساعات الأول منه،
وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين
المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿إِن
نَاشِئَةُ اللَّيْلِ﴾. هذه ناشئة الليل ﴿هي أشد وطأ﴾ هي
خاصة بون ناشئة النهار أشد مواظبة، يواطئ قلبها لسانها
إن أردت النفس، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أردت
القيام أو العبادة أو الساعات أو أشد موافقة لما يراد من
الخشوع والإخلاص، وعن الحسن: أشد موافقة بين السر
والعلانية لانقطاع رؤية الخلاق. وقرىء: أشد وطأ بالفتح
والكسر، والمعنى: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل أو أثقل
وأغلظ على المصلي من صلاة النهار. من قوله عليه

(1) أخرجه أحمد في المسند 238/1.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، (الحديث رقم: 2)، وأخرجه
مسلم في كتاب: الفضائل، باب: عرق النبي ﷺ في البرد وحين
يأتيه الوحي (الحديث رقم: 86 - 2333).

(3) حوص: جمع حوصاء، وهي غائرة العين.

(4) القمحوة: ما خلف الرأس.

(5) تقدم في سورة الأنبياء.

(6) قال أحمد: فإن حملت الناشئة على النفس فإضافة المواظبة إليها
حقيقية، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع
المجازي.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى رِزْوَانَ رَسُولًا
 ﴿٧٥﴾
﴿شاهدًا عليكم﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم
 وتكذيبكم.

فإن قلنت: لم نكر الرسول ثم عرف؟ **قلنت:** لأنه أراد
 أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل فلما أعاده وهو معهود
 بالنكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المنكر بعينه.

فَمَنْ رِزْوَانُ الرَّسُولِ فَلَعْنَتُهُ أَغْدَا رَيْبًا ﴿٧٦﴾.

﴿وبيبلاً﴾ ثقبلاً غليظاً من قولهم: كلاً وبيبل وخم
 لا يستمرأ لثقله، والوبيبل العصا الضخمة ومنه الواابل
 للمطر العظيم.

مَكَيْتَ تَنْقَرُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْبًا ﴿٧٧﴾.

﴿يومًا﴾ مفعول به أي: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة
 وهوله إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.
 ويجوز أن يكون ظرفاً أي: فكيف لكم بالتقوى في يوم
 القيامة إن كفرتم في الدنيا؟ ويجوز أن ينتصب بكفرتم على
 تأويل جحدم. أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدم
 يوم القيامة والجزاء لأن تقوى الله خوف عقابه. **﴿ويجعل
 الولدان شيباً﴾** مثل في الشدة، يقال: في اليوم الشديد يوم
 يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان
 إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب قال أبو الطيب:

والهم يخترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم
 الشعر كحناك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية
 كالشغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، وأريت
 الناس يقانون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك
 أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول وأن
 الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة، والشيب.

أَسَكَّاهُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿٧٨﴾.

﴿السماء منفطر به﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً، وأن
 السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ذلك بغيرها
 من الخلائق. وقرئ: منفطر ومتفطر، والمعنى: ذات انفطار
 أو على تأويل السماء بالسقف أو على السماء شيء منفطر.
 والباء في به مثلها في قولك: فطرت العود بالعود فانفطر
 به. يعني: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر
 الشيء بما يفسد به. ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إنقالاً
 يؤدي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه.
 كقوله: **﴿نقلت في السموات والأرض﴾** ⁽²⁾ **﴿ووعده﴾** من
 إضافة المصدر إلى المفعول والضمير لليوم، ويجوز أن

الهمج: الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع
 حسن المخالفة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة. وعن
 أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه قوم
 ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقلبيهم⁽¹⁾، وقيل: هو منسوخ
 بآية السيف.

وَذَرِيٍّ وَآلِكَافِينَ أُولَى النَّسَوِ وَمَهْلِكِ رَبِيلًا ﴿٧٩﴾.

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن
 يكفاه، أو بعدو يشتهي أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك
 مقتدر عليه، قال: ذرني وإياه، أي: لا تحتاج إلى الظفر
 بمرارك ومشتهاك إلا أن تخلي بيني وبينه بأن تكل أمره
 إلي وتستكفيني، فإن في ما يفرغ بالك ويجلي همك. وليس
 ثم منع حتى يطلب إليه أن ينزه وإياه إلا ترك الاستكفاء
 والتفويض كأنه إذا لم يكل أمره إليه فكانه منعه منه، فإذا
 وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه. وفيه دليل على
 الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية
 المخاطب وبما يزيد عليه. النعمة بالفتح التمتع بالكسر
 الإنعام وبالضم المسرة. يقال: نعم ونعمة عين، وهم
 صنابير قريش وكانوا أهل تنعم وترفه.

إِنَّ لَدَيْنَا أَكْثَالَ وَجَيْمًا ﴿٨٠﴾.

﴿إن لدينا﴾ ما يضاد تنعمهم: من أنكال وهي القيود
 الثقال. عن الشعبي: إذا ارتفعوا استفلت بهم الواحد نكل
 ونكل، ومن جحيم وهي النار الشديدة الحر والاتقاد.

رَطَمًا نَا عَصُو وَعَدَابًا أَيْمًا ﴿٨١﴾.

ومن طعام ذي غصة وهو الذي ينشب في الحلق فلا
 يساغ. يعني: الضريع وشجر الزقوم. ومن عذاب أليم من
 سائر العذاب فلا ترى موكولاً إليه أمرهم مؤذراً بينه
 وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام. وروي أن النبي ﷺ
 قرأ هذه الآية فصعق⁽²⁾. وعن الحسن أنه أمسى صائماً
 فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال: أرفعه، ووضع
 عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: أرفعه. وكذلك الليلة
 الثالثة. فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء
 فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْبِهَالُ وَكَانَ الْجِبَالُ كَدِيمًا مَهْيَلًا ﴿٨٢﴾.

﴿يوم ترجف﴾ منصوب بما في لدينا، والرجفة الزلزلة
 والزعزعة الشديدة. والكثيب الرمل المجتمع، من كذب
 الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله ومنه
 الكثبة من اللبن. قالت الضائنة: أجز جفالاً وأحلب كثباً
 عجلاً. أي: كانت مثل رمل مجتمع هيل هيبلاً أي: نثر
 وأسيل. الخطاب لأهل مكة.

(2) أخرجه أحمد في الزهد، وأسند ابن عدي في الكامل، زيلعي 4/

111.

(3) سورة الاعراف، الآية: 187.

(1) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب: الابن، باب: المواراة مع الناس.
 وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق، فصل في
 حسن العشرة (الحديث رقم: 8103).

يكون مضافاً إلى الفاعل وهو الله عز وعلا، ولم يجر له نكر لكونه معلوماً.

إِنَّ هَذِهِ تَنْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْكَ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٨﴾.

﴿إن هذه﴾ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد ﴿تَنْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فمن شاء﴾ اتعظ بها. واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه التقرب والتوسل بالطاعة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَخَرُّكَ أَنَّكَ تَقُومُ أَثَرًا مِنْ طُلُقِ اللَّيْلِ وَبَصَمَ وَتَلَمَّ وَطَاهَمَةً مِنْ الْأَرْضِ مَكَرًا وَاللَّهُ يَخَرُّكَ إِلَيْكَ وَالنَّهَارُ عَيْرٌ أَنْ لَنْ تُحْمَرُوا مَابَ عَلَيْكَ فَأَقْرَبُوا مَا يَنْتَهَى مِنَ الْفَرَايَ عِلْمٌ أَنْ سَكُونٌ يَنْكُرُ تَرْهَى وَكَلْرُونَ يَصْرُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَوْنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَكَلْرُونَ يَنْتَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَبُوا مَا يَنْتَهَى مِنْهُ وَأَيْمُوا السَّكْرَةَ وَنَاوُوا الرُّكُوتَةَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ رَبًّا حَسَنًا وَمَا تَقِيمُوا لِأَهْلِكُمْ مِنْ سَبَرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ سَبَرٌ وَأَعْلَمُ لَبْرًا وَأَسْتَمِرُّوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَمْرٌ رَبِّمُ ﴿٩﴾.

﴿أننى من لثني الليل﴾ أقل منهما وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيثيين إذا دنت قل ما بينهما من الاحياز وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث، وهو مطابق لما مر في أول السورة من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين وقرئ: ونصفه وثلثه بالجر. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أننى من الثلثين، وقرئ: ونصفه وثلثه بالجر. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أننى من الثلثين، والثلث وهو أننى من النصف، والربع وهو أننى من الثلث وهو الوجه الأخير. ﴿وطائفة من اللنين معك﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك، ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير. والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه الضمير في ﴿لبن تحصوه﴾ لمصدر يقدر. أي: علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿فتاب عليكم﴾ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله: ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم. فالآن باشروهن﴾ (1) والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها

بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود، يريد فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ثم نسخاً جميعاً بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها. قيل: يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل: خمسين آية، وقد بين الحكمة في النسخ وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء (2)، وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتةً أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله (3) و﴿علم﴾ استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ، و﴿واقموا للصلوة﴾ يعني: المفروضة والزكاة الواجبة، وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك، ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنياً. و﴿واقروضوا الله قرضاً حسناً﴾ يجوز أن يريد سائر الصنقات وأن يريد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وأن يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفوس والمال. ﴿خيراً﴾ ثاني مفعولي وجد وهو فصل وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعال من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجراً بالرفع على الابتداء، والخير عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المزمّل نفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة» (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المئثر مكية

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ

﴿المئثر﴾ لايس الدثار وهو ما فوق الشعار، وهو الثوب الذي يلي الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار» (5). وقيل: هي أول سورة نزلت. وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «كنت على جبل حراء فنويت يا محمد إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً فنظرت فوقي فرأيت

(4) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 4/113.

(5) تقدم في آل عمران.

(1) سورة البقرة، الآية: 187.

(2) قال الزيلعي: رواه الثعلبي في تفسيره، وابن مردويه: 4/112.

(3) رواه البيهقي في الشعب، قاله الزيلعي: 4/113.

وَأَلْجَزَّ فَأَجْبُرُ ﴿٥﴾.

﴿وَالْجَزْءُ﴾ قرئ بالكسر والضم وهو العذاب. ومعناه: أهدر ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم، والمعنى: الثبات على هجره لأنه كان بريئاً منه.
وَلَا تَسْئَلَنَّ سَكَكِيَّ ﴿٦﴾.

قرا الحسن: ولا تمن وتستنكر مرفوع منصوب المحل على الحال. أي: ولا تعط مستكثراً رائيماً لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير، نهى عن الاستغفار وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث «المستغزر يثاب من هيبته»، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون نهياً خاصاً برسول الله ﷺ لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق، والثاني أن يكون نهياً تنزيهياً لا تحريم له ولأتمته، وقرا الحسن: تستنكر بالسكون وفيه ثلاثة أوجه الإبدال من تمنن. كأنه قيل: ولا تمنن، لا تستنكر على أنه من المن في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا انفقوا مَنَّا وَلَا آذَى﴾⁽⁴⁾ لأن من شأن المنان بما يعطي أن يستنكره أي: يراه كثيراً ويعتد به، وإن يشبه ثرو بعضد فيسكن تخفيفاً وإن يعتبر حال الوقف. وقرا الأعمش بالنصب بإضمار أن كقوله:

الايهنا الزاجري أحضر الوغى

وتؤيده قراءة ابن مسعود: ولا تمنن أن تستنكر. ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها. كما روى: أحضر الوغى بالرفع.

وَلَرَبِّكَ نَاصِرٌ ﴿٧﴾.

﴿ولربك فاصبر﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر. وقيل: على أذى المشركين، وقيل: على أداء الفرائض. وعن النخعي: علي عطيتك، كأنه وصله بما قبله وجعله صبراً على العطاء من غير استنكار. والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه، ويراد الصبر على أذى الكفار لأنه أحد ما يتناوله العام. والفاء في قوله:

فَإِذَا نُرِّفَ فِي الْكُفْرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَ عَسِيرٍ ﴿٩﴾.

والفاء في قوله ﴿فإذا نقر﴾ للتسبيح كأنه قال: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.
والفاء في ﴿فذلك﴾ للجزاء.

فإن قلت: بم انتصبت إذا؟ وكيف صح إن يقع ﴿يومئذ﴾ ظرفاً ليوم عسير؟ قلت: انتصبت إذا بما دل عليه الجزاء لأن

شيئاً⁽¹⁾. وفي رواية عائشة: فنظرت فوقى فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض. يعني: الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقالت: «نثروني نثروني. فنزل جبريل وقال: يا أيها المنثر⁽²⁾. وعن الزهري: أول ما نزل سورة: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾⁽³⁾ فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواهد الجبال فاتاه جبريل فقال: إنك نبي الله. فرجع إلى خديجة وقال: نثروني وصبوا علي ماء بارداً، فنزل يا أيها المنثر. وقيل: سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفعراً كما يفعل المغموه فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وأتوه. وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول من نثره وقال: نثرت هذا الأمر وعصب بك.

قُرْ فَأَنْزِرْ ﴿١٠﴾.

كما قال في المزمّل: قم من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم. ﴿فانذر﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، والصحيح أن المعنى فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد.

وَرَبِّكَ كَبِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿وربك فكبر﴾ واختص ربك بالتكبير وهو الوصف بالكبرياء وأن يقال: الله أكبر. ويروى أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر». فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي، وقد يحمل على تكبير الصلاة وبخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره.

وَرَبَّابَكَ فَطَهِّرْ ﴿١٢﴾.

﴿وثيابك فطهر﴾ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى والأحب في غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً. وقيل: هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذبول ونلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات. وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقدر من الأفعال ويستتهجن من العادات. يقال: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والنيل والأردان، إذا وصفوه بالتقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق. وفلان نَس الثياب للغادر ونلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويشتمل عليه فكفي به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبني زيد عقله وخلقه، ويقولون: المجد في ثوبه والكرم تحت حلته. ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عني بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء.

= رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي باب: 3 (الحديث رقم: 4)، ومسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 257 - 161).

(3) سورة العلق، الآيات: 1 - 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 262.

(1) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي باب: 3 (الحديث رقم: 4)، ومسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 257 - 161).

(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿اقرأ باسم ربك الذي

للتصرف في عمل أو تجارة لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بانفسهم، فهو مستانس بهم لا يشتغل قلبه بغيباتهم وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه أنهم رجال يشهدون معه المجمع والمحافل، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه. وعن مجاهد: كان له عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد وخالد وعمار و هشام والعاص وقيس وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة: خالد و هشام وعمار.

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيِّدًا ﴿٤٧﴾

﴿ومهدت له تمهيداً﴾ وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فاتممت عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش.

ثُمَّ يَطَّعُ أَنْ أُرِيدَ ﴿٤٨﴾

﴿ثم يطعم﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه⁽²⁾. يعني: أنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة. وقيل: إنه كان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي.

كَلَّا إِنَّكَ كَأَنَّ الْإِنْسَانَ عِتْدًا ﴿٤٩﴾

﴿كلاً﴾ ردع له وقطع لرجائه وطمعه ﴿إنه كان لإياتنا عتيداً﴾ تعليل للردع على وجه الاستئناف. كأن قائلًا قال: لم لا يزداد؟ فقيل: إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد. ويروى أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك.

سَأُرِيكُمْ صُورًا ﴿٥٠﴾

﴿سأريهم صوراً﴾ سأغشيه عقبة شاقة، المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق. وعن النبي ﷺ: «يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده نابت فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله نابت فإذا رفعها عادت»⁽³⁾، وعنه عليه السلام: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً»⁽⁴⁾.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿٥١﴾

﴿إنه فكر﴾ تعليل للوعيد، كأن الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى والنذل بعد العز في الدنيا لعناده، ويعاقبه في

المعنى: فإذا نقر في الناقد عسر الأمر على الكافرين، والذي أجاز وقوع يومئذٍ ظرفاً ليوم عسير أن المعنى: فذلك وقت النقر، ووقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقد. واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية، ويجوز أن يكون يومئذٍ مبنياً مرفوع المحل بدلاً من ذلك ويوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير.

عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ ﴿٥٢﴾

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿غير يسير﴾ وعسير مغن عنه! قلت: لما قال على الكافرين ف قصر العسر عليهم. قال: غير يسير، ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

ذَرَى وَمَنْ حَلَفْتُ وَمَنْ أَجِدَا ﴿٥٣﴾

﴿وحيداً﴾ حال من الله عز وجل على معنيين: أحدهما نرتني وحدي معه فانا اجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم، والثاني خلقتة وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو حال من المخلوق على معنى: خلقتة وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد. كقوله: ﴿ولقد جنتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾⁽¹⁾ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية، فإن كان ملقباً به قبل فهو تهكم به وبلقبه وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمنونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا إلى وجه النثم والعيب، وهو أنه خلق وحيداً لا مال له ولا ولد، فاتاه الله نكف كفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بيديه.

رَجَعْتُكُمْ مَالًا مَسْدُورًا ﴿٥٤﴾

﴿ممسوداً﴾ ميسوفاً كثيراً أو ممدداً بالنماء، من مدّ النهر ومدّه نهراً آخر. قيل: كان له الزرع والضرع والتجارة. وعن ابن عباس: هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال، وقيل: كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً وشتاءً، وقيل: كان له ألف مقلال، وقيل: أربعة آلاف، وقيل: تسعة آلاف، وقيل: ألف ألف، وعن ابن جريج: غلة شهر بشهر.

وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿٥٥﴾

﴿وبين شهوداً﴾ حضوراً معه بمكة لا يفارقونه

(3) رواه البزار والبيهقي في البعث والنشور، والطبري والثعلبي (الزليعي 120/4).

(4) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (الحديث رقم: 33260)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (الحديث رقم: 4299).

(1) سورة الأنعام، الآية: 94.

(2) قال احمد: لأن الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر لم يتعالم أن نطق بها من غير تلبث. قال: فإن قلت: لم لم يوسط بين الجمليتين عاطفاً؟ وأجاب: بأن الثانية أخرجها مخرج التوكيد للأولى.

فإن قُلْتُ: ما معنى ثم الداخلة في تكرير الدعاء؟ قُلْتُ: الدلالة على أن الكثرة الثانية أبلغ من الأولى ونحوه قوله: الا يا اسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي.

فإن قُلْتُ: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قُلْتُ: الدلالة على أنه قد تآنى في التأمل وتمهل وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِرٌّ يُخْتَرُ (١١) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلٌ آتَى (١٥).

فإن قُلْتُ: فلم قيل: ﴿فقال إن هذا﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟ قُلْتُ: لأنَّ للكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

فإن قُلْتُ: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قُلْتُ: لأنَّ الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد.

سَأَلِيهِ سَرًّا (١٦) وَمَا أَنْزَلَهُ مَا سَرًّا (١٧).

﴿سأليه سقر﴾ بدل من سأله صعداً.

لَا تَبَيَّرْ وَلَا تَنْزُرْ (١٨).

﴿لا تبيي﴾ شيئاً يلقي فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تنزه هالكاً حتى يعاد، أو لا تبيي على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

لَرَأَى لِبَشَرٍ (١٩).

﴿لوحه﴾ من لوح الهجير قال:

تقول مالاحك يامسافر يا ابنة عمي لاحنى الهولجر
قيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل.
والبشر أعالي الجلود. وعن الحسن: تلوح للناس، كقوله:
﴿ثم لترؤنها عين اليقين﴾^(١). وقرئ: لوحه نصباً على الاختصاص للتهويل.

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٢٠).

﴿عليها تسعة عشر﴾ أي: يلي امرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفاً. وقيل: نقيباً. وقرئ: تسعة عشر بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم اسم واحد. وقرئ: تسعة عشر جمع عشير مثل يمين وأيمن. جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرفقة والرقعة ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوانتهم ولأنهم أشد الخلق بأساً وأقواهم بطشاً. عن عمرو بن دينار: واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وعن النبي ﷺ: «كان أعينهم البرق، وكان أقواهم الصياصي. يجرون أشعارهم لأحدهم مثل قوة

الأخرة بأشدَّ العذاب وأقلعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره وتسميته القرآن سحرًا. ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعاً بقوله: سأله صعداً رداً لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له وأخباراً بأنه من أشدَّ أهل النار عذاباً ويعمل ذلك بعناده، ويكون قوله: إنه فكر بدلاً من قوله: إنه كان لآياتنا عنيداً بياناً لكنه عناده. ومعناه: فكر ماذا يقول في القرآن ﴿وقدر﴾ في نفسه ما يقوله وهياه.

مُؤَلِّ كَيْفَ نَدَّرَ (٢١) ثُمَّ يُبَلِّ كَيْفَ نَدَّرَ (٢٢).

﴿فقتل كيف قدر﴾ تعجب من تقديره وإصابته فيه المحن ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش، أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به، أو هي حكاية لما كرزوه من قولهم: قتل كيف قدر تهكمًا بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله: ومعنى قول القائل: قتله الله ما أشجعه، وأخزاه الله ما شعره الأشعار، بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده. بذلك روي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغنق، وإنه يعلو وما يعلو، فقالت قريش: صبا والله الوليد والله لتصبان قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعده إليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فاتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيء من الكذب، فقالوا: في كل ذلك اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يائره، عن مسليمة وعن أهل بابل: فارتج النادي فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله: متعجبين منه.

ثُمَّ نَظَرَ (٢٣).

﴿ثم نظر﴾ في وجوه الناس.

ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّرَ (٢٤).

ثم قطب وجهه ثم زحف مديراً وتشاوس مستكبراً لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء وهم بان يرمي بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاءً به. وقيل: قدر ما يقوله، ثم نظر فيه ثم عيس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول. وقيل: قطب في وجه رسول الله ﷺ.

ثُمَّ أَنْزَرَ وَأَسْتَكْبَرَ (٢٥).

﴿ثم أنبر﴾ عن الحق ﴿واستكبر﴾ عنه فقال ما قال، وثم نظر عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراض بينهما.

فإن قُلْتُ: كيف نكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والسورة مكية ولم يكن بمكة نفاق وإنما نجم بالمدينة؟ قُلْتُ: معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ﴿والكافرون﴾ بمكة ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب، وذلك لا يخالف كون السورة مكية ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب.

فإن قُلْتُ: قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا، فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضاً! قُلْتُ: أفادت اللام معنى العلة والسبب ولا يجب في العلة أن تكون غرضاً. ألا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك، مثلاً تمييز لهذا أو حال منه كقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم﴾ (3) آية.

فإن قُلْتُ: لم سموه مثلاً؟ قُلْتُ: هو استعارة من المثل المضروب لأنه مما غرب من الكلام ويدع استغراباً منهم لهذا العدد واستيداعاً له، والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ومرادهم إنكاره من أصله وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص. الكاف في ﴿كذلك﴾ نصب وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى، أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنون. يعني: يفعل فعلاً حسناً مبنياً على الحكمة والصواب، فيراه المؤمنون حكماً ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيماناً، وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرًا وضلالاً. ﴿وما يعلم جنود ربك﴾ وما عليه كل جند من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عقد ناقص، وما في اختصاص كل جند بعنده من الحكمة ﴿إلا هو﴾ ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة. أو ما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو فلا يعز عليه تميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو

التقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم. وروي أنه لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فلكفوني أنتم اثنين. فانزل الله:

وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا يَتَنَزَّ لِلرَّيْبِ كَفَرُوا يَسْتَوِينَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ وَرَدَّكَ الَّذِينَ مَأْمُورًا إِيَّاكَ وَلَا يَرْابَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَيْكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْمًا وَالْكُفْرَ مَاءً أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَهُدَى مَن يَشَاءُ وَمَا يَهْدِي جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهْدِي إِلَّا ذِكْرُنَا لِلنَّاسِ (٦).

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

فإن قُلْتُ: قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سبباً (1) لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين فما وجه صحة ذلك! قُلْتُ: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً لذلك وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً وذلك أن المراد بقوله: ﴿وما جعلنا عنتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ وما جعلنا عنتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهنئ ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفي عليه وجه الحكمة. كانه قيل: ولقد جعلنا عنتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب لأن عنتهم تسعة عشر في الكتابين، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله وازدياد المؤمنين إيماناً لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ولما رأوا ما تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك.

فإن قُلْتُ: لم قال: ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ والاستيقان وازدياد الإيمان دالا على انتفاء الارتياب (2)؟ قُلْتُ: لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفي الشك كان أكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس وتلج الصدر، ولأن فيه تعريضاً بحال من عداهم. كانه قال: ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر.

(1) قال أحمد: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً لذلك، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً؛ لأن المراد: وما جعلنا عنتهم إلا تسعة عشر فوضع فتنة للذين كفروا موضع ذلك؛ لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ولا يذعن، وإن خفي عليه وجه الحكمة كانه قيل: لقد جعلنا عنتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب.

(2) قال أحمد: أطلق الغرض على الله عز وجل مع أنه موهوم، ولم يرد

(3) فيه سماع وأورد السؤال على قاعدته بعد ذلك كله في أن الله لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم، وإن قالوا على خلاف ما أراد، وقد عرفت فساد القاعدة فأرجح فترك من هذا السؤال، فالكل مراد وحسبك تنمة الآية: ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ قال: وليست بتأنيث رهين إلخ.

(3) سورة هود، الآية: 64.

شاء بدلاً من للبشر على أنها منكرة للمكلفين الممكنين الذين إن شأوا تقدموا ففازوا وإن شأوا تأخروا فهلكوا.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٨﴾

﴿رهينة﴾ ليست بتأنيث رهين⁽²⁾ في قوله: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾⁽³⁾ لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين. لأنَّ فعلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المنكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالتشبية بمعنى الشتم. كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة:

أبعد الذي بالنفع نفع كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل
كانه قال: رهن رمس، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها
عند الله غير مفكوك.

إِلَّا أَحْصَى إِلَهِينَ ﴿٢٩﴾

﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما اطابوه من كسبهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. وعن علي رضي الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتنون بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة.

فِي جَنَّتٍ يَبْتَغُونَ ﴿٣٠﴾ عَنِ النَّبِيِّينَ ﴿٣١﴾ مَا سَأَلَكُمُ فِي سَفَرٍ ﴿٣٢﴾

﴿في جنات﴾ أي: هم في جنات لا يكتنه وصفها. ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ يسأل بعضهم بعضاً عنهم⁽⁴⁾، أو يتساءلون غيرهم عنهم. كقولك: دعوته وتداعيناه.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿ما سلككم﴾ وهو سؤال للمجرمين قوله: ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما كان يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم؟ قلت: ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم لأنَّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم ما سلككم.

قَالُوا لَوْ نَكَّرْنَا لَمَّا كَفَّرْنَا ﴿٣٣﴾ وَرَدَّ نَكَرٌ طَلُومُ السَّكِينِ ﴿٣٤﴾

﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه.

يعلمها. وقيل: هو جواب لقول أبي جهل أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلى قوله: إلا هو اعتراض. وقوله: ﴿وما هي إلا نكري﴾ متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي: وما سقر وصفتها إلا تنكرة للبشر، أو ضمير الآيات التي نكرت فيها.

كَلَّا وَالْقَبْرِ ﴿٣٥﴾

﴿كلا﴾ إنكار بعد أن جعلها نكري أن تكون لهم نكري لأنهم لا يتنكرون أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبرى نظيراً.

وَأَبَلٍ إِذْ أَبَرَّ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْخِ إِذَا شَمَّرَ ﴿٣٧﴾

﴿وغير﴾ بمعنى: أبر، كقبل بمعنى أقبل، ومنه صاروا كأمس الدابر، وقيل: وهو من ببر الليل النهار إذا خلفه. وقرئ: إذا أبر.

إِنَّمَا إِحْدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٨﴾

﴿إنها إحدى الكبير﴾ جواب القسم أو تعليل للكلام، والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التانيث كتابتها فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها. ونظير ذلك السوافي في جمع السافياء والقواصع في جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة. أي: إحدى البليات أو اللواهي الكبير، ومعنى كونها إحداً منها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها، كما تقول هو أحد الرجال وهي إحدى النساء.

نَذِيرًا لِلَّذِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ونذيراً﴾ تمييز من إحدى على معنى إنها إحدى اللواهي إنذاراً كما تقول هي إحدى النساء عفاً، قيل: هي حال. وقيل: هو متصل بأول السورة، يعني: قم نذيراً، وهو من بدع التفاسير، وفي قراءة أبي: نذير بالرفع خبر بعد خبر لأن أو بحذف المبتدأ.

لَمَنْ شَاءَ يَسْكُرْ أَوْ يَتَّقْ ﴿٤٠﴾

﴿أن يتقدم﴾ في موضع الرفع بالابتداء ومن شاء خير مقدم عليه. كقولك: لمن توشاً أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، والمراد بالتقدم والتأخر السابق إلى الخير والتخلف عنه. وهو كقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون لمن

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) سورة الطور، الآية: 21.

(3) قال أحمد: لأنه فعيل بمعنى مفعول يستوي منكره ومؤنثه كقتيل وجديد.

(4) قال أحمد: إنما أورد السؤال نريفة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركي الصلاة مثلاً يسلكون في النار مخلدين مع الكفار، فجعل كل واحدة من خلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود، والصحيح في معنى الآية أنها خاصة بالكفار، =

= ومعنى قولهم: ﴿لم نك من المصلين﴾ لم نك من أهل الصلاة، وكذلك إلى آخرها؛ لأنهم يكتبون بيوم الدين، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات، ولو فعلها لم تنفعه، وقدرت كالتعمد، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم. قال: وفي تشبيههم بالحرر تهجين لهم وشهادة عليهم بالبلادة، وأيضاً المقصود تشبيه إبنارهم عن الحق وتساوعهم إلى الإعراض عنه بنفاز حمر الوحوش، وعادة العرب أنها تشبه في السرعة بعنو الحمر، وخصوصاً إذا احست بقائض فجرى على ما عهدوه، وإش أعلم.

رَكْنَا نَحْنُ مَعَ الْخَالِيَيْنِ ﴿٤٥﴾

الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي.

فإن قُلْتُ: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك؟ قُلْتُ: توبيخًا لهم وتحسيرًا وليكون حكاية الله لك في كتابه تنكرةً للسامعين، وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار.

فإن قُلْتُ: أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع بخل النار أم نخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟ قُلْتُ: يحتمل الأمرين جميعًا.

وَكَا نَكْبُ بِرَبِّهِ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾

فإن قُلْتُ: لم أحر التكنيب وهو أعظمها؟ قُلْتُ: أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيمًا للتكنيب كقوله: ثم كان من الذين آمنوا.

حَٰجَّ أَتْنَا الْيَتِيمَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَعْمُهُمْ شَتْمَةُ الشَّيْمِينَ ﴿٤٨﴾

﴿واليتيمين﴾ الموت ومقدماته، أي: لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبیین وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم، وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذٍ لأنها تزيد في درجات المرتضين.

فَمَا لَمْ يَحِ اتَّكَرَّرَ مُرْتَضِينَ ﴿٤٩﴾

﴿عن التنكرة﴾ عن التنكير وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ. و﴿معرضين﴾ نصب على الحال كقولك: ما لك قائمًا.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّتَبَدِّلَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

والمستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه، وقرئ بالفصح وهي المنفرة المحمولة على النفار، والقسورة جماعة الرماة الذين يتصيدونها، وقيل: الأسد يقال ليوث قساور، وهي فعولة من القسر وهو القهر والغلبة، وفي وزنه الحيدرة من أسماء الأسد. وعن ابن عباس: ركز الناس وأصواتهم. وعن عكرمة: ظلمة الليل، شبههم في أعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بمرح حدث في نفارها مما أقرعها. وفي تشبيههم بالحمير منمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله: ﴿كمثل الحمير يحمل أسفارًا﴾⁽¹⁾ وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل. ولا ترى مثل نفار حمير الوحش وأطرافها في العدو إذا رابها رائب، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمير

وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ سُحُبًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٥٢﴾

﴿صحفًا منشرة﴾ قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي ينكتاب بها، أو كتبًا كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان ابن فلان نؤمر فيها باتباعك، ونحوه قوله: وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه، وقال: ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم الآية وقيل: قالوا إن كان محمد صادقًا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. وقيل: كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوبًا على رأسه نذبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وهذا من الصحف المنشرة بمعزل إلا أن يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة. وقرأ سعيد بن جبير: صحفًا منشرة بتخفيفهما على أن انشر الصحف ونشرها واحد كأنزله ونزله. ردعهم بقوله:

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

﴿كلا﴾ عن تلك الإرادة وزجرهم عن اقتراح الآيات ثم قال: ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلذلك عرضوا عن التنكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ثم ردعهم عن إعرضهم عن التنكرة. وقال:

كَلَّا إِنَّكَ تَذَكِّرُهُ ﴿٥٤﴾

﴿إنه تنكرة﴾ يعني: تنكرة بليغة كافية مبهم أمرها في الكفاية.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾

﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينسأه ويجعله نصب عينه فعل فإن نفع ذلك راجع إليه والضمير في أنه و﴿تذكره﴾ للتنكرة في قوله: فما لهم عن التنكرة معرضين وإنما نكر لأنها في معنى النكر أو القرآن.

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْآخِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ يعني: إلا أن يقسروهم على النكر ويلجئهم إليه لأنهم مطبوع على قلوبهم معلوم أنهم لا يؤمنون اختياريًا. ﴿هو أهل للتقوى وأهل للمغفرة﴾ هو حقيق بان يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بان يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا. وروى أنس عن رسول الله ﷺ: هو أهل أن يتقى وأهل أن يغفر لمن اتقاه⁽²⁾ وقرئ: يذكرون

= (الحديث رقم: 3328)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، (الحديث رقم: 4299).

(1) سورة الجمعة، الآية: 5.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الم نشر =

كريم ﴿. وقرئ: لا قسم على أن اللام للابتداء وأقسم خبير مبتدأ محذوف. معناه: لانا أقسم. قالوا: ويعضده أنه في الإمام بغير ألف.

وَلَا أَقِيمُ بِالنَّحْرِ الْوَأْمَةَ ﴿٢﴾

﴿بالنفس اللوامة﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أي: في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى، أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان. وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لائمًا نفسه وإن الكافر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه. وقيل: هي التي تتلوم يومئذ على ترك الزيادة إن كانت محسنة، وعلى التفريط إن كانت مسيئة، وقيل: هي نفس أم لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وجواب القسم ما دل عليه قوله:

إِصْحَبَ الْإِنْسَانَ أَنْ يُجَمَّ عِظَامُهُ ﴿٣﴾

﴿ايحسب الإنسان أن نجمع عظامه﴾ وهو لتبعثن. وقرأ قتادة: أن لن نجمع عظامه على البناء للمفعول، والمعنى: نجعلها بعد تفزقها ورجوعها رمًا ورفانًا مختلطًا بالتراب وبعدما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض، وقيل: إن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: «اللهم اكفني جار السوء». قال لرسول الله ﷺ: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف امره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: «لو عاينت ذلك اليوم لم أصفك يا محمد ولم أمؤمن به أو بجمع الله العظام فنزلت» (٤).

بَلْ تَدِيرُ عَلَيَّ أَنْ نَسُوِي بَأَنَّهُ ﴿٤﴾

﴿بلى﴾ أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع. فكانه قيل: ﴿بلى﴾ نجعلها وقادرين على تأليف جميعها. وإعادتها إلى التركيب الأول إلى أن نسوي بنائه أي: أصابعه التي هي أطرافه وأخر ما يتم به خلقه، أو على أن نسوي بنائه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولًا من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام. وقيل: معناه بلى نجعلها ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه. أي: نجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفترقة ذات المفاصل والأناامل من فنون الأعمال والبسط والقبض

بالباء والتاء مخففاً ومشدداً، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صلح بمحمد وكذب به بمكة» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾

إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض (٢) في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس:

لا أوبيك ابنة العاصري لا يدعى القوم اني امر
وقال غوية بن سلمى:

الاناءت امامة باحتمال لتحزنني فلابك ما ابالي
وفائدتها تأكيد القسم، وقالوا: انها صلة مثلها في لثلا يعلم أهل الكتاب. وفي قوله: في بئر لا حور سرى وما شعر. واعتراضوا عليه بانها إنما تزداد في وسط الكلام لا في أوله، واجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض، والاعتراض صحيح لانها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ألا ترى إلى امرؤ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته والوجه أن يقال: هي للنفي والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظامًا له بذلك عليه قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ (٣) فكانه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني: أنه يستاهل فوق ذلك. وقيل: أن لا نفي لكلام ورد له قبل القسم كانهم أنكروا البعث. فقيل: لا، أي: ليس الأمر على ما نكرتم. ثم قيل: أقسم بيوم القيامة.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ (٤) والابيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي فهلا زعمت أن لا التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفيًا. كقولك: لا أقسم بيوم القيامة لا تزكون سدى! قلت: لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر. ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان﴾ وكنكك ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن

(1) نكره الثعلبي وابن مروي، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 123.

(2) قال أحمد: إن لا التي قبل أقسم زيدت توطئة للنفي بعده، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفيًا تقديره ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ لا تتكون سدى، وأجاب: بأنه لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان له مساغ، ولكنه ليس يقاصر عليه، ألا ترى كيف لقي ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان﴾ =

= كبد، وقوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾.
(3) سورة الواقعة، الآيتان: 75 - 76.
(4) سورة النساء، الآية: 65.
(5) قال الزيلعي غريب 127/4، ونكره الواحدي في أسباب النزول ص 248.

بما قدم من عمل الخير والشرّ وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده. وعن مجاهد: بأول عمله وآخره، ونحوه فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه.

بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿٧٤﴾

﴿بصيرة﴾ حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالابصار في قوله: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة. أو لأعين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزي عن الإنبياء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك، يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٥﴾

﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها. وعن الضحاك: ولو أرخى ستوره. وقال: المعاذير الستور واحدها معذار فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب.

فإن قلت: ليس قياس المعذرة أن تجمع معاذير لا معاذير؟ قلت: المعاذير ليس بجمع معذرة إنما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر. الضمير في ﴿به﴾ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفقت منه فامر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه ثم يقف به بالدراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل صلوات الله عليه يقرأ

لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَكَلَّمَ بِهِ ﴿٧٦﴾

﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة ولئلا يتفقت منك، ثم علل النهي عن العجلة بقوله:

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧٧﴾

﴿إن علينا جمعه﴾ في صدرك وإثبات قراءته في لسانه. ﴿فإذا قرأناه﴾ جعل قراءة جبريل قراءته. والقرآن القراءة.

فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ ﴿٧٨﴾

﴿فاتبع قرآنه﴾ فكن مقلداً له فيه ولا ترأسه وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٧٩﴾

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٨٠﴾

﴿كلام﴾ ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة وإنكار لها عليه وحث على الأناة والتؤدة وقد بالغ في ذلك باتباعه

والتأني لما يريد من الحوائج. وقرئ: قلدرون أي: نحن قلدرون.

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُتَّخِذَ آتَمَةً ﴿٨١﴾

﴿بل يريد﴾ عطف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهاماً وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب. ﴿ليفجر أمامه﴾ ليوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يقدم الذنب ويؤخر التوبة يقول: سوف أتوب سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله.

يَسْأَلُ أَتَىٰ يَوْمِ الْآزِمَةِ ﴿٨٢﴾ إِنَّا يَوْمَ الْآزِمَةِ ﴿٨٣﴾

﴿يسأل﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله: ﴿إبان يوم القيامة﴾ ونحوه. ويقولون: متى هذا الوعد؟ ﴿برق للبصر﴾ تحير فزعاً وأصله برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. وقرئ: برق من البريق أي: لمع من شدة شخصه. وقرأ أبو السمال: بلى إذا انفتح وانفرج. يقال: بلى الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

وَحَسَبَ الْكُفْرَ ﴿٨٤﴾

﴿وحسب الكفر﴾ وذهب ضوءه أو ذهب بنفسه. وقرئ: وحسف على البناء للمفعول.

وَرَجَعَ الْكُفْرَ وَالْكَفْرَ ﴿٨٥﴾

﴿وجمع الشمس والقمر﴾ حيث يطلعهما الله من المغرب وقيل: وجمعا في ذهاب الضوء، وقيل: يجتمعان أسودين مكدورين كأنهما ثوران عقيران في النار، وقيل: يجمعان ثم يفتغان في البحر فيكون نار الله الكبرى.

يَوْمَ الْآزِمَةِ يُنْفِذُ أَيْنَ الْمَلَأَ ﴿٨٦﴾

﴿المفرّ﴾ بالفتح المصدر وبالكسر المكان، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمرجع، وقرئ: بهما.

كَلَّا لَا وَرَدَ ﴿٨٧﴾

﴿كلام﴾ ردع عن طلب المفرّ ﴿لا وزر﴾ لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزر.

إِلَىٰ رَبِّكَ يُنْفِذُ مَا نَسَخَ ﴿٨٨﴾

﴿إلى ربك﴾ خاصة ﴿يومئذ﴾ مستقرّ العباد أي: استقرارهم، يعني أنهم لا يقدر أن يستقروا إلى غيره وينصبوا إليه، أو إلى حكمة ترجع أمور العباد لا يحكم فيها غيره. كقوله: لمن الملك اليوم؟ أو إلى ربك مستقرهم. أي: موضع قرارهم من جنة أو نار، أي: مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة من شاء أدخله النار.

يُنْفِذُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمَ وَآخَرَ ﴿٨٩﴾

﴿بما قدم﴾ من عمل عمله ﴿و﴾ بما ﴿أخر﴾ منه لم يعمل أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلقه، أو

قوله: ﴿بَلْ تَحْبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة.

وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٦١﴾

﴿وتذرون الآخرة﴾ وقرئ: بالياء وهو أبلغ.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله: لا تحرك به لسانك إلى آخره بذكر القيامة، قُلْتُ: اتصاله به من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة.

وَجُورُ يَوْمِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوا

الوجه: عبارة عن الجملة، والناصرة: من نصرة النعيم.

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٦٢﴾

﴿إلى ربها ناظرة﴾⁽¹⁾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره. وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله: إلى ربك يومئذ المستقر، إلى ربك يومئذ المساق، إلى الله تصير الأمور، وإلى الله المصير، وإليه ترجعون، عليه توكلت وإليه أنيب، كيف دلّ فيها القديم على معنى الاختصاص. معلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة تلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظور إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر نونك زنتني نعماً

وسمعت سرورية مستجدي بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأتون إلى مقاتلهم تقول: عينتي نويظرة إلى الله وإليك، والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

وَوَجُورُ يَوْمِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوا

والباسر الشديد العبوس، والباسل أشد منه ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوجه.

تَنْظُرُ أَنْ يَمْلَأَ بِهَا كَأْفَرَةً ﴿٦٣﴾

﴿تنظرن﴾ تتوقع ﴿أن يفعل بها﴾ فعل هو في شدته وفظاعته ﴿فأفارة﴾ داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير.

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْأَرْشَادَ ﴿٦٤﴾

﴿كلا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن تلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الأجلة التي تبقى فيها مخلدين. والضمير في ﴿بلغت﴾ للنفس وإن لم يجر لها نكر لأن الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم:

أماوى ما يغني الثراء عن الفتى إناحشرجت يوماً وضاق بها الصدر
وتقول العرب: أرسلت، يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء. ﴿التراقي﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال. نكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها.

وَيَبْلُغَنَّ مِنَ كَأْفٍ ﴿٦٥﴾

وقال حاضرو صاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض: ﴿من راق﴾ أيكم يرقيه مما به؟ وقيل: هو من كلام ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب.

وَلَنْ أُنَاقُ الْفَرَاقَ ﴿٦٦﴾

﴿وظن﴾ المحتضر ﴿أنه الفراق﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة.

وَأَلَنَّتِ السَّنَاءُ بِالسَّنَاءِ ﴿٦٧﴾

﴿والتفت﴾ ساقه يساقه والتوت عليها عند عزل الموت، وعن قتادة: ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالاً. وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن السياق مثل في الشدة، وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تلعان في كفافه.

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٦٨﴾

﴿المساق﴾ أي: يساق إلى الله وإلى حكمه.

(1) قال احمد: ما أقصر لسانه عند هذه الآية، فكم له يندنن ويطلب في جحد الرؤية، ويشقق القباء ويكثر ويتعمق، فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصامتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول؛ لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ولا يؤثر عليه غيره ولا يعدل =

= به عزل وعلا منظراً سواه، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثل شيء، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرت برؤية محبوبية لم يصرف عنه لحظه، ولم يؤثر عليه، فكيف بالمحب لله عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم، نسال الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه، وأن يعيننا من مزلق البدعة ومزلات الشبهة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سورة الإنسان

مَا سَأَلَكَ مَا سَأَلَ (٦) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٧).

سورة الإنسان مكية

هَلْ أَقْرَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١).

هل بمعنى قد في الاستفهام خاصة، والأصل أهل بدليل قوله: أهل رأونا بسفع القاع ذي الأكم. فالمعنى: أقدم أتى على التقدير والتقريب جميعاً. أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب **«حين من الدهر لم يكن»** فيه **«شيئاً مذكوراً»** أي: كان شيئاً منسياً غير منكور نطفة في الأصلاب. والمراد بالإنسان جنس بني آدم بدليل قوله:

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١).

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة» حين من الدهر طائفة من الزمن الطويل الممتد.

فإن قلت: ما محل لم يكن شيئاً مذكوراً؟ **قلت:** محله النصب على الحال من الإنسان. كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير منكور، أو الرفع على الوصف لحين كقوله: **«يوماً لا يجزي والد عن ولده»** (٦) وعن بعضهم أنها تليت عنده فقال: لبيتها تمت، أراد لبيت تلك الحالة تمت وهي كونه شيئاً غير منكور ولم يخلق ولم يكلف. **«نطفة أمشاج»** كبرمة أعشار وبرد اكباش، وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد. ويقال أيضاً: نطفة مشج قال الشماخ:

طوت أحشاء مرتجة لوقت على مشج سلالته مهين
ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيراً له بل هما مثلان في
الأفراد لوصف المفرد بهما، ومشجه ومزجه بمعنى.
والمعنى من نطفة قد امتزج فيها المان. وعن ابن مسعود:
هي عروق النطفة. وعن قتادة: أمشاج ألوان وأطوار. يريد
أنها تكون نطفة ثم علقه ثم مضغة **«نبتليه»** في موضع
الحال أي: خلقناه مبتلين له بمعنى مريدين ابتلاءه، كقولك:
مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، تريد قاصداً به
الصيد غداً. ويجوز أن يراد ناقليين له من حال إلى حال
فسمى نك ابتلاء على طريق الاستعارة. وعن ابن عباس:
نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقه، وقيل: هو في تقدير
التأخير. يعني: فجعلناه سمياً بصيراً لنبتليه.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٢).

«فلا صدق ولا صلى» يعني: الإنسان في قوله:
«ايحسب الإنسان أن نجمع عظامه» (١) إلا ترى، إلى قوله:
«ايحسب الإنسان أن يترك سدى» (٢) ومعطوف على
«يسأل أيا ن يوم القيامة»، أي: لا يؤمن بالبعث فلا صدق
بالرسول والقرآن ولا صلى. ويجوز أن يراد فلا صدق ماله
بمعنى فلا زكاه. وقيل: نزلت في أبي جهل.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى آخِرِهِ يَمْتَطِنَ (٣).

«يتمطمى» يتبختر وأصله يتمطط أي: يتمدد لأن
المتبختر يمد خطاه، وقيل: هو من المطأ وهو الظهر لأنه
يلويه، وفي الحديث: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم
فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم» (٣) يعني: كذب
برسول الله ﷺ وتولى عنه وأعرض ثم ذهب إلى قومه
يتبختر افتخاراً بذلك.

أَوَلَمْ لَكَ نَارٌ لَكَ فَارُوكَ (٤) ثُمَّ أَذْكَ لَكَ فَارُوكَ (٥) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٦)
أَمْ يَكُ لُنْفَةٍ مِنْ نَيْرٍ يَتَّبِعُ (٧).

«أولى لك» بمعنى: ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه
ما يكره.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ نُفُوكَ مَرُوكَ (٨).

«فخلق» فقدر **«فسوى»** فعدل.

بَصَرَ يَكُنْ مِنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأُنْثَى (٩).

«منه» من الإنسان **«الزوجين»** الصنفين.

أَيَسَّرَ ذَلِكَ لِغَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْوَلَدَ (١٠).

«ليس نلك» الذي انشأ هذا الإنشاء **«بقادر»** على
الإعادة، وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال:
«سبحانك بلى» (٤)، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة
القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً
بיום القيامة» (٥).

(1) سورة القيامة، الآية: 3.

(2) سورة القيامة، الآية: 36.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: (174) (الحديث رقم: 2261).

(4) لم أجده عند أبي داود، وأخرجه الحاكم في المستدرک 2/510.

(5) نكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/130.

(6) سورة لقمان، الآية: 33.

غايته، وأما العين فيها يمزجون شرابهم. فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول شربت الماء بالعسل. **﴿يفجرونها﴾** يجرونها حيث شاقوا من منازلهم **﴿تفجيراً﴾** سهلاً لا يمتنع عليهم.

يُؤُونَ بِالْأَنَّزِلِ وَالْمَأْوَىءِ يُؤَاوِءُ كَمَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴿٧﴾.

﴿يؤفون﴾ جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى **﴿مستطيراً﴾** فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ، من استطار الحريق واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر.

وَيَطْمِئِنُّ الْقَلَمُ عَلَى حَيْدٍ وَسَكِينٍ وَيُتَبِّأُ وَيَأْبِرُ ﴿٨﴾.

﴿على حبه﴾ الضمير للطعام أي: مع اشتهاه والحاجة إليه. ونحوه وآتى المال على حبه لن تتلوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وعن الفضيل بن عياض: على حب الله **﴿واسيراً﴾** عن الحسن: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير فينفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه. فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه⁽⁶⁾. وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات. وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشرك وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وعن سعيد بن جبير: وعطاء هو الأسير من أهل القبلة. وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون، وسمى رسول الله ﷺ الغريم أسيراً فقال: غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك⁽⁷⁾.

إِنَّمَا نَطَعْمُكُمْ لِيُتَبِّأَ أَهْلَ لَدُنِّكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾.

﴿إنما نطعمكم﴾ على إرادة القول، ويجوز أن يكون قولاً باللسان منعاً لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله فلا معنى لمكافأة الخلق وإن يكون قولهم لهم: لطفاً وتقفيها وتبنيها على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله، وعن عائشة رضي الله عنها أنها

وهو من التعسف شاكراً وكفوراً حالان من الهاء في هديناه⁽¹⁾ أي: مكناه وأقربناه في حالتيه جميعاً أو دعواناه إلى الإسلام بأئلة العقل والسمع. كان معلوماً منه⁽²⁾ أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً. كقوله: **﴿وهديناه النجدين﴾**⁽³⁾ وصف السبيل بالشكر والكفر مجاز. وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في أما وهي قراءة حسنة والمعنى: أما شاكراً فبتوقيفنا وأما كفوراً فبسوء اختياره، ولما ذكر الفريقين اتبعهما الوعيد والوعد.

إِنَّمَا أَهْمَتُنَا لِكَنَفَرَيْنِ سَلَسِلًا وَأَعْزَلًا وَسَمِيرًا ﴿٤﴾.

وقرى: سلاسل غير مننون وسلاسل بالتونين وفيه وجهان: أحدهما أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق⁽⁴⁾ ويجري الوصل مجرى الوقف، والثاني أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف.

إِنَّ الْأَثَرَارَ يَتَرَبَّوْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مَرْيَمُهَا كَأُورًا ﴿٥﴾.

﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد. وعن الحسن: هم الذين لا يؤنون النذر، والكأس الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتسمى الخمر نفسها كأساً **﴿مزجها﴾** ما تمزج به. **﴿كافوراً﴾** ماء كافور وهو اسم عين في الجنة مأوفا في بياض الكافور ورائحته وبرده⁽⁵⁾.

عِنَا يَتَرَبَّوْهُمَا عِبَادَ اللَّهِ يُعَجِّرُونَهَا تَبَعِيرًا ﴿٦﴾.

﴿وعيناً﴾ بدل منه. وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكانها مزجت بالكافور. وعيناً على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير حنف مضاف كانه قيل: يشربون فيها خمرًا عين أو نصب على الاختصاص.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أَوْلًا وبحرف الإلصاق آخرًا؟ قُلْتُمْ: لأن الكأس مبدأ شربهم وأول

لا ينصرف إلا أعمل، والقراءات مشتمة على اللغات المخلفة، وأما قرارير قرارير فقري بترك تنوينهما، وهو الاصل وتنون الأول خاصة بدلاً من الف الإطلاق؛ لأنها فاصلة وتنوين الثانية كالأولى اتباعاً لها، ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية وترك تنوين الأولى، فإنه عكس أن يترك تنوين الثانية الفاصلة مع الحاجة إلى المجانسة وتنوين غيرها من غير حاجة.

(5) قال أحمد: هذا الجواب على القولين الأولين الآخرين وهو أن العين بدل من الكأس، ومعنى مزاجها بالكافور: إما اشتمالها على أوصافه، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدم، فلا يتم الجواب المتكور، فيجاب عن السؤال بأنه لما نرك الشراب أولاً باعتبار الوقوع في الوجود نكره ثانياً مضمناً للالتذاذ به، وكأنه قال: فيشربون منها فيقتلون بها، وعليه حمله أبو عبيد.

(6) لم يخرج الزيلعي.

(7) لم يخرج الزيلعي.

(1) قال أحمد: هذا من تحريفه المنكر، وهو عند أهل السنة على ظاهره.

(2) قال أحمد: واستحسانه لقراءة أبي السمال لتخليه أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد، وليس كذلك فإن التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكراً فمعتاب، وإما كفوراً فمعتاب، ويرشد إليه نكر جزاء الفريقين بعد قوله تعالى: **﴿سلاسل وأغلالاً﴾**.

(3) سورة البلد، الآية: 10.

(4) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول؛ لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي ﷺ في تفصيلها، وإنما موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم، كما مر له وطم على ذلك ههنا، فجعل تنوين سلاسل من قبيل الغلط الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه لتمرنه عليه في موضعه، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواتراً عنه ﷺ، وتنوين هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميع ما

كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا نكر دعاء دعته لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله، ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً. وعن مجاهد: أما أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله منهم فأنشئ عليهم. والشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر.

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَيْرًا قَطِيرًا ﴿١٠﴾

﴿إنا نخاف﴾ يحتمل إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافآتكم وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة، ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقتين أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم. روي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وأن يشبهه في شنته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل. والقمطير الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه. قال الزجاج: يقال اقمطرت الناقة إذا رفعت نبيها وجمعت قطريها وزمت بانفها، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعصة:

واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشر ققطير^(١) الصباح

فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾

﴿ولقاهم نضرة وسرور﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب. وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله.

يَبْرَأَهُمْ بِمَا سَبَّوْا جَنَّةً وَرَرِيرًا ﴿١٢﴾ تُنَكِّسُ فِيهَا عَلَى الْأَعْيُنِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا سَمًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾

﴿بما صبروا﴾ صبرهم على الإيثار. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وقصة - جارية لهما - إن برأ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخبيري اليهودي ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص على عددهم فوضعوا بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين أطمعوني أطمعكم الله من موائد الجنة، فأثروه وياتوا لم ينوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون

فإن قلنت: ما معنى نكر الحرير مع الجنة؟ قلنت: المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري يستأنأ فيه مائل هنئ وحريراً فيه ملبس بهي. يعني: أن هواها معتدل لا حر شمس يحمي ولا شدة برد تؤذي وفي الحديث: هواء الجنة سحسح لا حر ولا قر، وقيل: الزمهرير القمر. وعن ثعلب أنه في لغة طيبي وأنشد:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعته والزمهرير ما زهر والمعنى: إن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أظْفُفُهُمْ ذَلِيلًا ﴿١٤﴾

فإن قلنت: ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ علام عطف؟ قلنت: على الجملة التي قبلها لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم، إلا أنها اسم مفرد وتلك جملة في حكم مفرد تقديره غير راثين فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وبخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر وندو الظلال عليهم. وقرئ: ودانية بالرفع على أن ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة في موضع الحال. والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. والحال أن ظلالها دانية عليهم ويجوز أن تجعل متكئين ولا يرون ودانية كلها صفات لجنة، ويجوز أن يكون ودانية معطوفة على جنة أي: وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين، كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾⁽³⁾ لأنهم وصفوا بالخوف إنا نخاف من ربنا.

فإن قلنت: فعلام عطف ﴿وذللَّتْ﴾؟ قلنت: هي إذا رفعت ودانية جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية، وإذا نصبها على الحال فهي حال من دانية أي: تندو ظلالها عليهم، في حال تنليل قطوفها لهم، أو معطوفة عليها على ودانية عليهم ظلالها ومنللة قطوفها، وإذا نصبت ودانية على الوصف فهي صفة مثلها ألا ترى أنك لو قلت: جنة ذللَّتْ قطوفها كان صحيحاً وتنليل القطوف أن تجعل نللاً لا تمتنع على قطوفها كف شاؤا أن تجعل نليلة لهم خاضعة متقاصرة من قولهم: حائط نليل إذا كان قصيراً.

رَبِّاتٌ عَلَيْهِمْ كَاتِبَةٌ يَنْظُرُونَ بِضُرٍّ وَأَكْرَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ نُضْرَةٍ

(3) سورة الرحمن، الآية: 55.

(1) ققطير: شر ققطير، أي شديد.

(2) نكره الثعلبي في تفسيره، ورواه الحكيم الترمذي في كتاب: نوادر الاصول، زيلعي: 4/134.

مَرْزُوقًا قَبِيرًا (١٦).

الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبداع، وفي شعر بعض المحدثين:

سل سبيلاً فيها إلى راحة النفس من براح كأنها سلسبيل
وعيناً بدل من زنجبيلاً، وقيل: تمزج كأسهم بالزنجبيل
بعينه أو يخلق الله طعمه فيها، وعيناً على هذا القول مبيلة
من كأساً كأنه قيل: ويسقون فيها كأساً كأس عين، أو
منصوبة على الاختصاص.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْجُورًا﴾ (١٧).

شبهوا في حسنهم وصفاء الوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور. وعن المأمون: أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال: لله بر أبي نؤاس كأنه أبصر هذا حيث يقول:
كلن صغري وكبري من فواقعها حصباء بر على أرض من الذهب
وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء.

﴿إِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَيْبًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (١٨).

﴿رايت﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم كأنه قيل: وإذا أوجبت الرؤية ثم ومعناه أن بصر الرائي وإنما وقع لم يتعلق إبراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير و﴿ثم﴾ في موضع النصب على الظرف يعني: في الجنة. ومن قال: معناه ما ثم فقد أخطأ لأن ثم صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة. ﴿كبيراً﴾ واسعاً وهنيئاً. يروى أن أنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أناه. وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أراوا شيئاً كان، وقيل: يسلم عليهم الملائكة ويستأنون عليهم. قرئ: عاليهم بالسكون على أنه مبتدأ خبره.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُنْدُسٍ حُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مِّمْلًا أَسْوَدٌ مِنْ إِسْفَرٍ وَكَأَنَّهُمْ رَبِّيمٌ مُّشْرَكًا طُهْرًا﴾ (١٩).

﴿ثياب سندس﴾ أي: ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس، وعاليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم. أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا للمطوف عليهم ثياب أو حسبتهم لؤلؤاً عاليًا لهم ثياب، ويجوز أن يراد رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب وعاليتهم بالرفع والنصب على ذلك وعليهم، وخضر وإستبرق بالرفع حملاً على الثياب بالجر على السندس (١). وقرئ: وإستبرق نصباً في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف

﴿قوارير قوارير﴾ قرئاً غير منونين وبتنوين الأوّل وبتنوينها وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لاتباع الأوّل، ومعنى قوارير من ﴿فضة﴾ أنها مخلوقة من فضة وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها

فإن قُلْتُ: ما معنى كانت؟ قُلْتُ: هو من يكون في قوله: كن فيكون. أي: تكونت قوارير بتكوين الله تخيماً لتلك الخلفة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ومنه كان في قوله: كان مزاجها كافوراً. وقرئ: قوارير من فضة بالرفع على هي قوارير. ﴿قدروها﴾ صفة لقوارير من فضة ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا. وقيل: الضمير للطائفين بها دل عليهم قوله: ﴿ويطاف عليهم﴾ على أنهم قدروا شربها على قدر الري وهو الذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز، وعن مجاهد: لا تفيض ولا تفيض، وقرئ: قُتروها على البناء للمفعول ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر، تقول قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً له ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شاقوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا.

﴿وَيُتَمَرَّنَ فِيهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ رِيحًا زَجْجِيلاً﴾ (٢٠).

سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها والعرب تستلذه وتستطيبه قال الأعشى:
كان القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأريامشورا
وقال المسيب بن علس:
وكان طعم الزنجبيل به إذ نقته وسلافة الخمر
عيناً فيما شئ سبيلاً (٢٠).

﴿سلسبيلاً﴾ سلاسة انحدارها في الحلق سهولة مسافها، يعني: أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وقد زينت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية وبلت على غاية السلاسة. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة. وقرئ: سلسبيل على منع الصرف لاجتماع العلمية والتانيث، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معناه سل سبيلاً إليها وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علماً للعين كما قيل: تأبط شراً ونرى حباً، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سال إليها سبيلاً بالعمل

= التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤاً، ويحتمل أن يصحح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالاول.

(1) قال أحمد: في هذا الوجه الآخر نظر، فإنه يجعله داخلاً في مضمون الحساب، وكيف يكون ذلك وهم لا يسون السندس حقيقة لا على وجه التشبيه باللؤلؤ بخلاف كونهم لؤلؤاً، فإنه على طريق =

الثالث. وقيل: الأثم عتبة، والكفور الوليد، لأنَّ عتبة كان ركباً للمأثم متعاطياً لأنواع الفسوق، وكان الوليد غالباً في الكفر شديد الشكيمة في العقو.

فإن قُلْتُ: معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جاء بالواو ليكون نهياً عن طاعتها جميعاً؛ قُلْتُ: لو قيل: ولا تطعهما جاز أن يطيع أحدهما. وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أنَّ الناهي عن طاعته أحدهما عن طاعتها جميعاً أنهى كما إذا نهى أن يقول لأبويه: أقب، علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى.

وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿١٥﴾

﴿وانكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً﴾ ودم على صلاة الفجر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَمِّهِ لَيْلاً طَوِيلًا ﴿١٦﴾

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ ويعض الليل فصل له أو يعني صلاة المغرب والعشاء، وأدخل من على الظرف للتبويض كما دخل على المفعول في قوله: ﴿يغفر لكم من نوبتكم﴾⁽¹⁾ ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وتهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مُّسْكِرًا ﴿١٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبَّنَا عَلَيْكَ

أَفْتَرَاءً تَنْزِيلًا ﴿١٧﴾

﴿إن هذا﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدّم من عطاء الله لهم ما جوزيتم به على أعمالكم وشكر به سعيكم، والشكر مجاز تكريم الضمير بعد إيقاعه اسماً لأنَّ تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل، ليتقرّر في نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمةً وصواباً، كانه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا أنا لا غيري، وقد عرفنتي حكيماً فاعلاً لكل ما أفعله بدواعي الحكمة ولقد دعنتي حكمة بالغة إلى أن اتزل عليك الأمر بالمكافاة والمصابرة وسانزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين.

فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُلَاحِظْ مِنْهُمْ يَأْتِيَا أَوْ كَفَرًا ﴿١٨﴾

﴿فاصبر لحكم ربك﴾ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة، ولا تطع منهم أحداً قلة صبر منك على أذاهم وضجراً من تأخر الظفر. وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونهم إلى أن يرجع عن أمره ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم. إن أجابهم.

فَإِن قُلْتُ: كانوا كلهم كفرًا فما معنى القسمة في قوله:

﴿أَمْأًا أَوْ كَفُورًا؟﴾ قُلْتُ: معناه ولا تطع منهم ركباً لما ما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر فنهي أن يساعدهم على الاثنين بون

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

(3) سورة الاعراف، الآية: 187.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 10.

(2) سورة الأعلى، الآية: 16.

ففرّق بين الحق والباطل.

فَالْمُؤْمِنِينَ يَذُكَّرُ ﴿٥﴾.

فالقين نكراً إلى الانبياء.

عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾.

﴿عُذْرًا﴾ للمحققين ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ للمبطلين، أو أقسم بريح عذاب أرسلهنّ عصفن بريح رحمة نشرن السحاب في الجوف ففرّقن بينه كقوله: ﴿ويجعله كسفًا﴾^(٣) أو بسحاب نشرن الموات ففرّقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر كقوله: ﴿ولاسقيناهم ماءً غدقاً لنفتنهم فيه﴾^(٤) فالقين نكراً إمّا عُذْرًا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإمّا إنذاراً للذين يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقيات للنكر لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت.

فإن قُلْتُ: ما معنى عرفاً؟ قُلْتُ: متابعة كشعر العرف، يقال: جاؤوا عرفاً واحداً، وهم عليه كعرف الضبع إذا تالبوا عليه ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر وانتصابه على أنه مفعول له أي: أرسلن للإحسان والمعروف، والأول على الحال. وقرئ: عرفاً على التثقيب نحو نكر في نكر.

فإن قُلْتُ: قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب فكيف يكون إرسالهم معروفًا؟ قُلْتُ: إن لم يكن معروفًا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم.

فإن قُلْتُ: ما العذر والنذر وبما انتصب؟ قُلْتُ: هما مصدر أن من عذر إذا مح الإساءة، ومن أنذر إذا خوّف على فعل كالكفر والشكر، ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذرة، وجمع نذير بمعنى الإنذار أو بمعنى العاذر والمندر وأما انتصابهما فعلى البدل من نكراً على الوجهين الأولين، أو على المفعول له، وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عانرين أو منترين. وقرنا مخفيين ومثقلين.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لِرَبِّعٍ ﴿٧﴾.

إن الذي توعدون من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه وهو جواب القسم. وعن بعضهم أنّ المعنى:

﴿وما تشاءون﴾ الطاعة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ بقسرمه عليها ﴿إن الله كان عليماً﴾ بأحوالهم وما يكون منهم. ﴿حكيمًا﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم وقرئ: تشاؤون بالتاء.

فإن قُلْتُ: ما محل أن يشاء الله^(١)؛ قُلْتُ: النصب على الظرف وأصله إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله، لأنّ ما مع الفعل كان معه.

يُدْرِكُ مَنْ يَنَاءَهُ فِي رَحْمَةٍ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿يدخل من يشاء﴾ هم المؤمنون، ونصب ﴿والظالمين﴾ بفعل يفسره أعد لهم نحو: أو عو كفاً، وما أشبه ذلك، وقرأ ابن مسعود: وللظالمين علي، وأعد للظالمين وقرأ ابن الزبير: والظالمون، على الابتداء وغيرها أولى لهذه الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها مع مخالفتها للمصحف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنةً وحريزاً»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المرسلات مكية

وَالرَّسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾.

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره.

فَالْمُؤْمِنِينَ عَمَّا ﴿٢﴾.

عصفن في مضيهنّ كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، ويطوائف منهم.

وَالنَّشِيرِينَ نَذْرًا ﴿٣﴾.

نشرن أجنحتهنّ في الجو عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين.

فَالْفَرْقَتِينَ رَبًّا ﴿٤﴾.

(١) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للنصوص وتسوّره على خزائن الكتاب العزيز، كدأب الشطار واللصوص فلنقطع يد حجة التي أعدها، وذلك حكم هذه السرقة وحدها فنقول: الله تعالى نفى وأثبت على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه، إلا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي والإثبات؛ لأنّ هذا النظم أعلق شيء بالحصر وألله عليه، فنفى الله تعالى أن يفعل العبد شيئاً له في اختيار ومشية، إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل، فمقتضاه ما لم يشأ الله وقوعه من العبد لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه وقع وهو ربيف: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وانظر إسخاله القسر في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به، فإنّ معنى الآية عنده: أنّ مشيئة العبد الفعل =

= لا تكون إلا إذا قسره الله عليها، والقسر مناف للمشيئة، فصار الحاصل أنّ مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت، فإذا لا مشيئة للعبد البتة، والاختيار وما هو إلا فر من إثبات قدرة العبد غير مؤثرة، ومشية غير خالقة لبتّم له إثبات قدرة ومشية مؤثرين، فوقع في سلب القدرة والمشية أصلاً ورأساً، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال، انحرف بالكلية إلى الطرف الاقصى متحيزاً إلى الجبر، فبما توجه بسوء نظره، والله الموفق.

(2) نكره الثعلبي وابن مربيوه والواحد في تفسيره 136/4.

(3) سورة الروم، الآية: 48.

(4) سورة الجن، الآية: 16.

ورب المرسلات.

وَإِذَا الْكُفُورُ بُسِتَ ﴿٨﴾

﴿طمست﴾ محيت ومحقت، وقيل: ذهب بنورها ومحق نوانها موافق لقوله: انتشرت وانكثرت ويجوز أن يحق نورها ثم تنتثر محققة النور.

وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾

﴿فرجت﴾ فتحت فكانت أبواباً. قال الفارسي: باب الأمير المبهم.

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ﴿١٠﴾

﴿نسفت﴾ كالحب إذا نسف بالمنسف ونحوه، ويست الجبال بساً وكانت الجبال كثيباً مهيلاً، وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختطفته. وقرئت: طمست وفرجت ونسفت مشددة.

وَإِذَا أَرْضٌ مُرْتَلِّتٌ أَفْتَتَتْ ﴿١١﴾

قرئ: اقتت وقتت بالتشديد والتخفيف فيهما والأصل الواو ومعنى توقيت الرسل تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أمهم، والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت.

لَا يَأْتِي بِوَرٍّ أُخْبِتَ ﴿١٢﴾

﴿لاي يوم لجلت﴾ تعظيم لليوم وتعجيب من هوله.

يَوْمَ الْقَسَمِ ﴿١٣﴾ رَبَّكَ أَدْرَبْتَ مَا يَوْمَ الْقَسَمِ ﴿١٤﴾

﴿ليوم للفصل﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، والوجه أن يكون معنى وقتت بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة وأجلت أخرجت.

فَإِنْ قُلْتَ: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾؟ قُلْتُ: هو في أصله مصدر منصوب ساء مسد فعله ولكنه أعدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك وديومه للمدعو عليه. ونحوه: سلام عليكم، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به يقال: ويلاً له ويلاً كلاً.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْآوِينَ ﴿١٦﴾

قرأ قتادة نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه. قال العجاج: ومهمه هالك من تعرجا.

ثُمَّ نُنْمِئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿ثم نتبعهم﴾ بالرفع على الاستثناء وهو وعيد لاهل مكة، يريد ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالاولين ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم. ويقويها قراءة ابن مسعود: ثم سنتبعهم. وقرئ: بالجزم

للعطف على نهلك، ومعناه أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى.

كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا التَّكْذِبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَقُلْكَ مِنْ تَلَوِّ تَهْمِينَ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ نَكِيحٍ ﴿٢١﴾

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نفعل﴾ بكل من أجرم إنذاراً وتحذيراً من عاقبة الجرم وسوء أثره.

إِنَّكَ قَدَرٌ تُمَلُّورٌ ﴿٢٢﴾

﴿إلى قدر معلوم﴾ إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به وهو تسعة الأشهر أو ما نونها أو ما فوقها.

فَقَدَرْنَا فَنِمَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا التَّكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾

﴿فقدرونا﴾ فقدرونا نك تقديرًا ﴿فنعم القادرون﴾ فنعم المقدرين له نحن، أو فقدرونا على نك فنعم القادرون عليه نحن. والأول أولى لقراءة من قرأ فقدرونا بالتشديد. ولقوله: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾^(١) الكفات من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت. كقولهم: الضمام والجماع لما يضم ويجمع، يقال هذا الباب جماع الأبواب وبه انتصب.

أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾

﴿أحياء وأمواتاً﴾ كانه قيل: كافتة أحياء وأمواتاً، أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت، والمعنى: تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها، وقد استدل بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النباش بأن الله تعالى جعل الأرض كفاتاً للأموات فكان بطنها حرراً لهم فالنباش سارق من الحرز.

فَإِنْ قُلْتَ: لم قيل أحياء وأمواتاً على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعاً؟ قُلْتُ: هو من تنكير التفضيم. كانه قيل: تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات، ويجوز أن يكون المعنى: تكفتكم أحياء وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لانه قد علم أنها كفات الإنس.

وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا لِمَنْ شَاءَ وَأَسْفَيْنَاكَ نَاءً فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا التَّكْذِبِينَ ﴿٢٨﴾

فَإِنْ قُلْتَ: فالتنكير في ﴿رواسي شامخات﴾ و﴿ماء فراتاً﴾! قُلْتُ: ليحتمل إفادة التبويض لأن في السماء جبالاً. قال الله تعالى: ﴿وننزل من السماء من جبال فيها من برد﴾^(٢) وفيها ماء فرات أيضاً، بل هي معدنه ومصبه. وأن يكون للتفخيم أي: يقال لهم:

(2) سورة النور، الآية: 43.

(1) سورة عبس، الآية: 19.

أَطْلِقُوا إِنَّكَ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٣٦﴾.

انطلقوا إلى ما كنتم به من العذاب وانطلقوا الثاني تكريماً، وقرئ: انطلقوا على لفظ الماضي أخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه.

أَطْلِقُوا إِنَّكَ ظَلِيٌّ ذِي ثَلَاثِ شَعَبٍ ﴿٣٧﴾.

﴿إلى ظل﴾ يعني نخان جهنم. كقوله: ﴿وظل من يحموم﴾⁽¹⁾ ﴿ذي ثلاث شعب﴾ بتشعب لعظمه ثلاث شعب وهكذا النخان العظيم تراه يتفرق نواثب. وقيل: يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسراد ويتشعب من نخانها ثلاث شعب فتظلمهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يَمُنِي مِنَ اللَّهِ ﴿٣٨﴾.

﴿لا ظليل﴾ تهكم بهم وتعريض بأن ظلمهم غير ظل المؤمنين. ﴿ولا يغمي﴾ في محل الجر أي وغير مغني عنهم من حر اللهب شيئاً.

إِنَّمَا تَرَى بُشْرًا كَالْقَصْرِ ﴿٣٩﴾.

﴿بشور﴾ وقرئ: بشرار ﴿كالقصر﴾ أي: كل شجرة كالقصر من القصور في عظمها. وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمره وجمر، وقرئ: كالقصر بفتحيتين وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر. وقرأ ابن مسعود: كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن، وقرأ سعيد بن جبير: كالقصر في جمع قصرة كحاجرة وحوج.

كَأَنَّ جَمَلًا سَمُرًا ﴿٤٠﴾ وَبِلَّيْمٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿٤١﴾.

﴿جماليات﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل شبهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه، إلا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل. وقرئ: جمالات بالضم وهي قلوب الجسور. وقيل: قلوب سفن البحر الواحدة جمالة. وقرئ: جمالة بالكسر بمعنى جمال، وجمالة بالضم وهي القلس وقيل: ﴿صفر﴾ لإرادة الجنس. وقيل: صفر سود تضرب إلى الصفرة، وفي شعر عمران بن حطان الخارجي: دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشرى

وقال أبو العلاء:

حمراء ساطعة النواثب في اللجى ترمى بكل شرارة كطراف فشبها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سؤل له من توهم الريادة جاء في صدر بيته بقوله: حمراء، توطئة لها ومناداةً عليها وتبنيهاً للسامعين على مكانها ولقد

عمى جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا: ﴿كانه جمالات صفر﴾ فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر، وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجماليات وهي القلوب تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول والصفرة. فابعده الله أغرابه في طرافه وما نفع شقيقه من استطرفه.

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٤٢﴾.

قرئ: ينصب اليوم، ونصبه الأعمش. أي: هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ويوم القيامة طويل نو مواطن ومواقيت ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت. ولذلك ورد الأمران في القرآن، أو جعل نطقهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع.

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَبِلَّيْمٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿٤٤﴾.

﴿فيعتذرون﴾ عطف على يؤذن منحرف في سلك النفي، والمعنى: ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن، ولو نصب لكان مسبباً عنه لا محالة.

هَذَا يَوْمٌ أَلْفَصَلِّ جَمْتًا وَالْأُولَىٰ ﴿٤٥﴾.

﴿جمعناكم والأولين﴾ كلام موضح لقوله: هذا يوم الفصل لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأمهم فلا بد من جمع الأولين والأخريين حتى يقع ذلك الفصل بينهم.

فَإِن كَانَ لَكُم كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٤٦﴾ وَبِلَّيْمٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ النَّاسَ فِي ظُلُمٍ لَّيْمُونَ ﴿٤٨﴾ وَوَكَيْدًا مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿فإن كان لكم كيد فكيدوا﴾ تقريع لهم على كيدهم لدين الله ونويه وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة.

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِمَّا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا كُنَّا لَمَجْرَىٰ لِّلْحَيِّينَ ﴿٥١﴾ وَبِلَّيْمٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿٥٢﴾.

﴿كلوا واشربوا﴾ في موضع الحال من ضمير المتقين في الطرف الذي هو في ظلال. أي: هم مستقرون في ظلال مقولاً لهم ذلك.

كُلُوا وَتَشَبَّهُوا بِالنَّاسِ كَمَا كُنْتُمْ تُحْمِلُونَ ﴿٥٣﴾ وَبِلَّيْمٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿٥٤﴾.

﴿كلوا وتمتعوا﴾ حال من المكذبين أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: كلوا وتمتعوا.

فَإِن قُلْتُمْ: كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة؟ قُلْتُمْ: يقال لهم ذلك في الآخرة إيداناً بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم وكانوا من أهله، تنكيراً بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إثارة المتاع القليل على النعيم والملك

الخالد. وفي طريقته قوله:

إخوتي لا تبعوا أبداً وبلى والله قد بعوا
يريد كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك، وعلل
ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ما له إلا
الاكل والتمتع أياماً قلائل ثم البقاء في الهلاك أبداً، ويجوز
أن يكون: كلوا وتمتعوا كلاماً مستأنفاً خطاباً للمكذبين في
الدنيا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يُرْكَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّيْكُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ ﴿٤٩﴾

﴿اركعوا﴾ اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه
وإتباع بينه واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة، لا يخشعون
ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم، وقيل: ما كان
على العرب أشد من الركوع والسجود. وقيل: نزلت في
تقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا نجبي
فإنها مسبة علينا، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين
ليس فيه ركوع ولا سجود»^(١).

فَيَأْتِي حَرْبِهِ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿بعده﴾ بعد القرآن، يعني: أن القرآن من بين الكتب
المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة فحين لم يؤمنوا به
فبأي كتاب بعده ﴿يؤمنون﴾. وقرئ: تؤمنون بالثناء. عن
رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه
ليس من المشركين»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة عم يتساءلون مكية

وتسمى سورة النبا

عَمَّ يَسْأَلُونَ ﴿١﴾

﴿عم﴾ أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما
الاستفهامية، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر. قال
حسان رضي الله عنه:

على ما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في رماذ
والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل، ومعنى
هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال: عن أي شأن

يتساءلون. ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد^(٣). جعلته
لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك جنسه
فانت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول: ما
الغول وما العنقاء؟ تريد: أي شيء هو من الأشياء، هذا
أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من
لا تخفى عليه خافية^(٤). ﴿يتساءلون﴾ يسأل بعضهم
بعضاً، أو يتساءلون غيرهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين
نحو يتداعونهم ويتراءونهم، والضمير لأهل مكة. كانوا
يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويتساءلون غيرهم عنه
على طريق الاستهزاء.

عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾

﴿عن النبا العظيم﴾ بيان للشأن المفخم. وعن ابن
كثير أنه قرأ عمه بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يجري
الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدئ: يتساءلون عن
النبأ العظيم، على أن يضمم يتساءلون لأن ما بعده يفسره
كشيء يبههم ثم يفسر.

أَلَيْسَ هُوَ فِيهِ مُخَلَّفُونَ ﴿٣﴾

فإن قلت: قد زعمت أن الضمير في يتساءلون للكفار
فما تصنع بقوله: ﴿هم فيه مختلفون﴾! قلت: كان فيهم
من يقطع القول بإنكار البعث ومنهم من يشك. وقيل:
الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً، وكانوا جميعاً يسألون
عنه. أما المسلم فليزداد خشية واستعداداً، وأما الكافر
فليزداد استهزاءً، وقيل: المتساءل عنه القرآن، وقيل: نبوة
محمد ﷺ وقرئ: يتساءلون بالإدغام، وستعلمون بالثناء.

كَلَّا سَمِعْتُونَ ﴿٤﴾

﴿كلا﴾ ردع للمتسائلين، هزواً، و﴿سيعلمون﴾ وعيد
لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون
منه حق لأنه واقع لا ريب فيه، وتكرير الردع مع الوعيد
تشديد في ذلك.

كُلُّ سَمِعْتُونَ ﴿٥﴾

ومعنى: ﴿ثم﴾ الأشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول
وأشد.

أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ يَهْدًا ﴿٦﴾

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿الم نجعل الأرض
مهاداً﴾^(٥)! قلت: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من

(٤) قال أحمد: لأن بعضهم يشك في البعث وبعضهم يبت النفي ومن
ثم قيل: الضمير للمسلمين والكافرين، فسؤال المسلمين ليزدلو
خشية، وإنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر.

(٥) قال أحمد: جوابه الأول سيد، وأما الثاني فغير مستقيم، فإنه
مفروق على المذهب الأعوج في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح،
واعتماد أن الجزاء واجب على الله تعالى عقلاً ثواباً وعقاباً
بمقتضى إيجاب الحكمة، وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: للخراج والإمارة والفقه، باب: ما جاء
في خير الطائف (الحديث رقم: 3026) وأخرجه أحمد في المسند:
218/4، وابن أبي شيبة 197/3، كتاب: الزكاة، باب: ليس على
المسلمين عشور.

(٢) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم 140/4.

(٣) قال أحمد: وقد أكثر أم زرع من هذا التفخيم في قولها: وأبو
زرع ما أبو زرع، إلى آخر حديثها.

أي: يحملان على العصر، ويمكن منه.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فما وجه من قرأ من المعصرات وفسرها بالرياح نوات الأعاصير، والمطر لا ينزل من الرياح! **قُلْتُمْ:** الرياح هي التي تنشئ السحاب وتدثر أخلافه فصح أن تجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب فإن صح ذلك فالإنزال منها ظاهر.

فَإِنْ قُلْتُمْ: نكر ابن كيسان أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات، والعاصر هو المغيث لا المعصر. يقال: عصره فاعتصر! **قُلْتُمْ:** وجهه أن يريد اللاتي أعصرن. أي: حان لها أن تعصر أي: تغيث **﴿تَجَلَّجًا﴾** منصبا بكثرة، يقال: ثجه وثج بنفسه. وفي الحديث: «أفضل الحج: والعج والثج» (2) أي: رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي. وكان ابن عباس مثجًا يسبل غربًا يعني: يثج الكلام ثجًا في خطبته، وقرأ الأعرج: **بحلحاء، ومثاجح الماء مصابه والماء ينسجج في الوادي.**

يُنْجِ بِرَحْمَةٍ وَتَنَاجًا ﴿٥﴾.

﴿حَبَا وَنَبَاتًا﴾ يريد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش. كما قال: كلوا وارعوا أنعامكم. والحب نو العصف والريحان.

رَجَّتْ أَلْفَاةً ﴿٦﴾.

﴿الْفَافَا﴾ ملتفة ولا واحد له كالأوزاع والأخفاف. وقيل: الواحد لف. وقال صاحب الإقليد: انشديني الحسن بن علي الطوسي:

جنة لف وعيش مغسق وندامى كلهم بيض زهر
وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ثم الفاف، وما اظنه واجداً
له نظيراً. من نحو خضر وأخضار وجمر وأحمار. ولو قيل:
هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً.

إِنَّ يَوْمَ الْفِتَنِ كَانَ بِمِثْلِنَا ﴿٧﴾.

﴿كان ميقاتًا﴾ كان في تقدير الله وحكمه حداً توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حد للخلائق ينتهون إليه.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّمُورِ فَأَتُونَ أَوَّلِيًّا ﴿٨﴾.

﴿يوم ينفخ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان. **﴿فتقتون أوليًّا﴾** من القبور إلى الموقف أمماً كل أمة مع إمامهم، وقيل: جماعات مختلفة، وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل عنه رسول الله ﷺ فقال: «يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور، ثم أرسل عينيه وقال: «تحشر عشرة أصناف من أمتي: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمياء، وبعضهم صماً

يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة، فما وجه إنكار قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات، أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة والحكيم لا يفعل فعلاً عبثاً، وما تنكرونها من البعث والجزاء مؤد إلى أنه عابث في كل ما فعل. مهاداً فرأشاً. وقرئ: مهاداً. ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يهد له فينوم عليه تسمية للممهد بالمصدر كضرب الأمير، أو وصفت بالمصدر، أو بمعنى: ذات مهد.

وَأَيُّبَالٌ أَوَادًا ﴿٧﴾ وَتَلَقَّنُكَ أَرْوَابًا ﴿٨﴾.

أي: أرسيناها بالجيال كما يرسى البيت بالآوتاد.

رَجَمْنَا تَوَكَّرَ سَبَاةً ﴿٩﴾.

﴿سببًا﴾ موتاً، والمسبوت الميت من السبوت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة، والنوم أحد التوفيين وهو على بناء الأنواء. ولما جعل النوم موتاً جعل البيظة معاشاً أي: حياة. في قوله: **﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾** (1) أي: وقت معاش تستيقظون فيه وتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. وقيل: السبات الراحة.

رَجَمْنَا أَيْلَ لِيَاةً ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا أَتَهَارَ مَمَاتًا ﴿١١﴾.

﴿لياساً﴾ يستركم عن العيون إذا أرتبتم حرباً من عنو أو بيئاتاً له أو إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور.

وكم لظلام الليل عنك من يد تخبران المانوية تكذب

وَبَيِّنَا تَوَكَّرَ سَبَاةً شِدَادًا ﴿١٢﴾.

﴿سبباً﴾ سبع سموات. **﴿شداداً﴾** جمع شديدة، يعني: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان.

رَجَمْنَا يَرْبَاةً وَقَلَابًا ﴿١٣﴾.

﴿وهلجاً﴾ متلألئاً وقاداً. يعني: الشمس. وتوهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا ﴿١٤﴾.

المعصرات: السحاب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. كقولك: أجز الزرع إذا حان له أن يجز، ومنه أعصرت الجارية إذا ننت أن تحيض. وقرأ عكرمة: بالمعصرات، وفيه وجهان: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحاب، لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها. كما تقول: أعطى من يده رهماً، وأعطى بيده، وعن مجاهد: المعصرات الرياح نوات الأعاصير. وعن الحسن وقتادة: هي السموات، وتأويله أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكان السموات يعصرن

(1) سورة النبا، الآية: 11.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (الحديث رقم: 2998).

الحقبة والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها والاشتقاق يشهد لذلك، ألا ترى إلى حقبة الراكب والحقبة الذي وراء التصدير. وقيل: الحقبة ثمانون سنة ويجوز أن يراد لابئين فيها أحقاباً غير نائقين فيها برداً ولا شراباً إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبيلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب، وفيه وجه آخر وهو أن يكون من حقبة عامنا إذا قل مطره وخيره وحقبة فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقبة وجمعه أحقاب فينتصب حالاً عنهم، يعني: لابئين فيها حقبين جحدين. وقوله:

لَا يَدْرُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٥﴾

﴿لَا يَدْرُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ تفسير له والاستثناء منقطع، يعني: لا يدرون فيها برداً وروحاً يفس عنهم حر النار، ولا شراباً يسكن من عطشهم. ولكن يدرون فيها حميمًا وغساقًا. وقيل: البرد النوم. وأنشد:

فلو شئت حرمت للنساء سواكم وإن شئت لم أطمع نقاخاً ولا برداً
وعن بعض العرب: منع البرد البرد.

إِلَّا حَرِيمًا وَغَسَاقًا ﴿١٦﴾

وقرى: غساقًا بالتخفيف والتشديد، وهو ما يغسق. أي: يسيل من صليدهم.

جَرَائِمًا وَقَاتًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٨﴾

﴿وَقَاتًا﴾ وصف بالمصدر أو نا وفاق، وقرأ أبو حيوة: وفاقًا فعال من وفقه كذا.

رَكَدَبُوا بِأَيَاتِنَا كَذَابًا ﴿١٩﴾

﴿كَذَابًا﴾ تكنيًا، وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره. وسمعتني بعضهم أفسر آية فقال: لقد فسرتها فسارًا ما سمع بمثله، وقرئ: بالتخفيف وهو مصدر كذب بلبيل قوله:

فصنفتها وكذبتها والمرء ينفعه كذاب

وهو مثل قوله: ﴿أنتيكم من الأرض نباتًا﴾⁽⁴⁾ يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابًا، أو تنصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا فكانوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرئ: كذابًا وهو جمع كاذب أي: كذبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب. كقولك: حسان وبخال فيجعل صفة لمصدر كذبوا. أي: تكنيًا كذابًا مفرطًا كذبه، وقرأ أبو السمال: وكل شيء أحصيناه بالرفع على الابتداء.

بكمًا، وبعضهم يعضفون السنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقنرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جنوح من نار، وبعضهم أشد ننتًا من الجيف، وبعضهم ملبسون جبابًا سايغةً من قطران لازقة بجلودهم. فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكسون على وجوهكم فأكلة الربا، وأما العمي فالذين يجرون في الحكم، وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم، وأما الذين يعضفون السنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤنون الجيران، وأما المصلبون على جنوح من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، وأما الذين هم أشد ننتًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء⁽¹⁾.

وَوُحِّتِ الْمَلَائِكَةُ فَمَا كَانَتْ أَبْرَابًا ﴿٢٠﴾

وقرى: وفتحت بالتشديد والتخفيف، والمعنى: كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبوابًا مفتحة، كقوله: ﴿وفجرنا الأرض عيونًا﴾⁽²⁾ كان كلها عيون تتفجر. وقيل: الأبواب الطرق والمسالك، أي: تكشف فيفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدها شيء.

وَسَيَّرَ لَيْلًا فَمَا كَانَتْ سَرَابًا ﴿٢١﴾

﴿فَمَا كَانَتْ سَرَابًا﴾ كقوله: ﴿فكانت هباءً منبثًا﴾⁽³⁾ يعني: أنها تصير شيئًا كذا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٢﴾ لِلظَّالِمِينَ مَنَابًا ﴿٢٣﴾

المرصاد: الحد الذي يكون فيه الرصد، والمعنى: أن جهنم هي حد الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب، وهي مأبهم أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهي مأب للطاغين. وعن الحسن وقتادة نحوه قال: طريقًا وممرًا لأهل الجنة. وقرأ ابن يعمر أن جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصادًا للطاغين. كأنه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء.

لَيْبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٤﴾

قرئ: لابئين وليبين واللبث أقوى؛ لأن اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال لبث إلا لمن شأنه اللبث كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه. ﴿لِحَقَابًا﴾ حقبا بعد حقبة كلما مضى حقبة تبعه آخر إلى غير نهاية، ولا يكاد يستعمل

(3) سورة الواقعة، الآية: 6.

(4) سورة نوح، الآية: 17.

(1) نكرة ابن مروي، والثعلبي في تفسيرهما، زيلي 144/4.

(2) سورة القمر، الآية: 12.

وَكَلَّمَ رَبِّيَ أَحْسَبْتُهُ كَتَبًا ﴿٣٦﴾

للمتقين مفازًا⁽²⁾ كأنه قال: جازي المتقين بمفاز. و﴿عطاء﴾ نصب بجزاء نصب المفعول به أي جزاهم عطاءً. و﴿حسابًا﴾ صفة بمعنى كافيًا من أحسبه الشيء إذا كفاه حق. قال: حسبي. وقيل: على حسب أعمالهم. وقرأ ابن قطيب: حسابًا بالتشديد، على أن الحساب بمعنى المحسب كالدرّك بمعنى المدرك.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

قري: رب السموات والرحمن بالرفع على هو رب السموات الرحمن، أو رب السموات مبتدأ والرحمن صفة ولا يملكون خبر، أو هما خبران. وبالجر على البذل من ربك وبجر الأول ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره لا يملكون. أو هو الرحمن لا يملكون. والضمير في ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض. أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيديون فيه أو ينقصون منه، أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه.

يَوْمَ يَوْمُ أَرْجُ وَأَلْتَلَيْكُهُ صَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَنتَقِمْ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ مِنْ رَبِّهِ مَا تَبَا ﴿٣٩﴾

و﴿يوم يقوم﴾ متعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون. والمعنى: إن الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعةً وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض. والروح أعظم خلقًا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين. وقيل: هو ملك عظيم ما خلق الله بعد العرش خلقًا أعظم منه. وقيل: ليسوا بالملائكة، وهم ياكلون. وقيل: جبريل. هما شريطتان⁽³⁾ أن يكون المتكلم منهن ماثونًا له في الكلام، وإن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾⁽⁴⁾.

إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَاذِبُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَبًّا ﴿٤٠﴾

﴿المرء﴾ هو الكافر لقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾⁽⁵⁾ والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعني: ﴿ما قَدَّمَتْ يداؤه﴾ من الشر. كقوله: ﴿وذوقوا عذاب

﴿كتابًا﴾ مصدر في موضع إحصاء وأحصينا في معنى كتبنا للالتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل، أو يكون حالًا في معنى مكتوبًا في اللوح وفي صحف الحفظة والمعنى: إحصاء معاصيهم. كقوله: إحصاء الله ونسوه وهو اعتراض. وقوله:

فَذَرُونَا أَتَى رَبِّكُمْ إِلَّا عِدَابًا ﴿٤١﴾

﴿فذنقوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وهي آية في غاية الشدة، وناهيك بلن نزيكهم وبدالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة ويمجيئها على طريقة الالتفات شاهدًا على أن الغضب قد تبالغ وعن النبي ﷺ: هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار⁽¹⁾.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٤٢﴾

﴿مفازًا﴾ فورًا وظفرًا بالبغية أو موضع فوز. وقيل: نجاة مما فيه أولئك، أو موضع نجاة. وفسر المفاز بما بعده.

حَدَائِقَ وَالْعِبَابَ ﴿٤٣﴾

والحدائق: البساتين فيها أنواع الشجر المثمر. والاعناب الكروم.

وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا ﴿٤٤﴾

والكواعب: اللاتي فلكت ثديهن وهن النواهد. والأتراب اللذات.

رَوَّابًا وَمَعَاكَا ﴿٤٥﴾

والدهاق: المترعة، وأدهق الحوض ملأه حتى قال قطني. وقري: ﴿ولا كذابًا بالتشديد والتخفيف.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٤٦﴾

أي: لا يكتب بعضهم بعضًا ولا يكتبه أو لا يكاتبه. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين.

جَزَاءً مِّنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٤٧﴾

﴿جزاء﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: ﴿إن

= ثم أخطأ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه، إلا وقد ارتضاهم لذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم﴾ فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضيًا لله تعالى وصاحبه مرتضى.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 28.

(5) سورة النبا، الآية: 40.

(1) ذكره الثعلبي، وابن حاتم في تفسيرهما، وأخرجه البيهقي في البعث والنشور، زيلعي 145/4.

(2) سورة النبا، الآية: 31.

(3) قال أحمد: يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبي الكبائر من الموحدنين، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت له، ويتلقى ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين، ونحو الكبائر ليسوا مرتضين، ومن

مَا لَنَسِيْتَنِي سَبًا ﴿٤﴾ مَا لَمْ يَدْرَأَنَّكَ ﴿٥﴾

فتسبق فتدبر أمرًا من علم الحساب. وقيل: النازعات أيدي الغزاة أو أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنتشط الأوهاق، والمقسم عليه محنوف وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من نكر القيامة.

يَوْمَ رَجَعْتُ الرَّابِعَةَ ﴿٦﴾

و﴿يوم ترجف﴾ منصوب بهذا المضمرة، و﴿الراجفة﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحوثها.

تَبِعَهَا الرَّابِعَةُ ﴿٧﴾

﴿تتبعها الراجفة﴾ أي: الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الراجفة من قوله تعالى: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾⁽³⁾ أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها وهي رانفة لهم لاقترابها. وقيل: الراجفة الأرض والجبال من قوله: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾. والراجفة السماء والكواكب لأنها تنتشق وتنتثر كواكبها على إثر ذلك.

فإن قُلْتُ: ما محل تتبعها؟ قُلْتُ: الحال، أي: ترجف تابعتها الراجفة.

فإن قُلْتُ: كيف جعلت يوم ترجف ظرفًا للمضمرة الذي هو لتبعثن ولا يبعثن عند النفخة الأولى؟ قُلْتُ: المعنى لتبعثن في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان وهم يبعثن في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى ودل على ذلك أن قوله: تتبعها الراجفة، جعل حالاً على الراجفة، ويجوز أن ينتصب يوم ترجف بما دل عليه.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ رَاجِعَةٌ ﴿٨﴾

﴿قلوب يومئذٍ واجفة﴾ أي: يوم ترجف، وجفت القلوب و﴿واجفة﴾ شديدة الاضطراب، والوجيب والوجيف أخوان.

أَبْصَرُومًا خَائِمَةٌ ﴿٩﴾

﴿خاشعة﴾ نليلة.

فإن قُلْتُ: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ قُلْتُ: قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وأبصارها خاشعة خبرها، فهو كقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب؟ قُلْتُ: معناه أبصار أصحابها. بدليل قوله: يقولون:

يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرُودُونَ فِي لَمَافِرَةٍ ﴿١٠﴾

﴿في الحافرة﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت.

الحريق تلك بما قدمت أيديكم⁽¹⁾ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق تلك بما قدمت يدك بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أي: ينظر أي شيء قدمت يده، وموصولة منصوبة بينظر، يقال: نظرت، بمعنى: نظرت إليه والراجع من الصلة محنوف. وقيل: المرء عام وخصص منه الكافر. وعن قتادة: هو المؤمن ﴿يا ليتني كنت ترابًا﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو ليتني كنت ترابًا في هذا اليوم فلم أبعث، وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماة من القرناء ثم يرده ترابًا، فيود الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يرى آدم ولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عم يتسألون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النازعات مكية

وَأَنْزَلَتْ عَرَا ﴿١﴾

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمرًا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو نبياهم كما رسم لهم. ﴿عرقًا﴾ إغراقًا في النزح، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها، أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في اعنتها نزحًا تغرق فيه الأئنة لطول اعناقها لأنها عراب.

وَأَلْقَيْتَنِي نَسْمًا ﴿٢﴾

والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط، إذا خرج من بلد إلى بلد.

وَأَلْسِيْتَنِي سَبًا ﴿٣﴾

والتي تسبح في جريها فتسبق الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التعبير إليها لأنها من أسبابه، أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب وإغراقها في النزح أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب، والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة.

(3) سورة النمل، الآية: 72.

(4) سورة البقرة، الآية: 221.

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 181 - 182.

(2) نكرة الثعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم 146/4.

وفي ضدها نائمة. قال الأشعث بن قيس:

وسامرة يضحى السراب مجلاً لا تطارها قد جيبتها متلثماً
أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة. وعن قتادة: فإذا هم
في جهنم.

أَذْهَبَ إِلَيْكَ بِرَبِّكَ إِذْ تَرَىٰ طَيِّبًا ﴿٧﴾

﴿أذهب﴾ على إرادة القول. وفي قراءة عبد الله إن
أذهب لأن في النداء معنى القول هل لك في كذا وهل لك
إلى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب إليه.

قَلَّ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَرَىٰ ﴿٨﴾

﴿إلى أن ترى﴾ إلى أن تتطهر من الشرك. وقرأ أهل
المدينة: ترى بالإدغام.

وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٩﴾

﴿وأهديك إلى ربك﴾ وأرشدك إلى معرفة الله أنبهك
عليه فتعرفه، ﴿فتخشى﴾ لأن الخشية لا تكون إلا
بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده
العلماء﴾ أي: العلماء به، ونكر الخشية لأنها ملاك الأمر
من خشى الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل
شر. ومنه قوله عليه السلام: من خاف أبلج ومن أبلج بلغ
المنزل⁽²⁾، بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما
يقول الرجل لضييفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأرشفه الكلام
الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمداراة من
عتوه. كما أمر بذلك في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليئناً﴾⁽³⁾.

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٠﴾

﴿الآية الكبرى﴾ قلب العصا حية؛ لأنها كانت المقدمة،
والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتقيها بيده. فقيل له:
أدخل يديك في جيبك أو أرادهما جميعاً إلا أنه جعلهما
واحدة لأن الثانية كانها من جملة الأولى لكنها تابعة لها.

نَكَدَبَ وَعَمَىٰ ﴿١١﴾

﴿فكذب﴾ بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحراً
وسحراً. ﴿وعصى﴾ الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر
وأن الطاعة قد وجبت عليه.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْرًا ﴿١٢﴾

﴿ثم أدبر يسعياً﴾ أي: لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً⁽⁴⁾،
يسعى يسرع في مشيئته، قال الحسن: كان رجلاً طياشاً
خفيفاً. أو تولى عن موسى يسعياً ويجتهد في مكابذته
وأريد: ثم أقبل يسعياً، كما تقول: أقبل فلان يفعل كذا،

فإن قلت: ما حقيقة هذه الكلمة؟ قلت: يقال رجع فلان
في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي: أثر
فيها بمشيئه فيها جعل أثر قدميه حفراً، كما قيل: حفرت
أسنانه حفراً، إذا أثر الأكال في أسناتها، والخط المحفور في
الصخر. وقيل: حافرة. كما قيل: عيشة راضية، أي: منسوبة
إلى الحفر والرضا. أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن
كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجوع إلى حافرته، أي:
إلى طريقته وحالته الأولى. قال:

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من سفه وعمار
يريد أرجوعاً إلى حافرة. وقيل: النقد عند الحافرة
يريدون عند الحالة الأولى وهي الصفة. وقرأ أبو حية في
الحفرة والحفرة بمعنى المحفورة. يقال: حفرت أسنانه
فحفرت حفراً وهي حفرة، وهذه القراءة لليل على أن
الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة.

أَوْدًا كُنَّا عِظْمًا حِجْرَةً ﴿١٣﴾

يقال: نخر العظم فهو نخر وناخر. كقولك: طمع فهو
طمع وطماع وفعل أبلغ من فاعل. وقد قرئ بهما وهو
البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخير.
و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف تقديره أئذا كنا عظاماً نرد
ونبعث.

فَأَلَا يَرَىٰ يَكُ إِذَا كَرَّ عَايِرَةً ﴿١٤﴾

﴿كرة خاسرة﴾ منسوبة إلى الخسران أو خاسر
أصحابها، والمعنى: أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون
لتكذيبنا بها وهذا استهزاء منهم.

فَلَمَّا هَمَّ زَجْرَةٌ زَيْدَةً ﴿١٥﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة؟﴾
قلت: بمحذوف معناه لا مستصعبها فإنما هي زجرة
واحدة. يعني: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل
فإنها سهلة هينة في قدرته ما هي إلا صيحة واحدة -
يريد النفخة الثانية⁽¹⁾.

فَلَمَّا هَمَّ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ مُّوسَىٰ ﴿١٧﴾ إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ
الْقَدِيمِ طُوًى ﴿١٨﴾

﴿فإنما هم﴾ أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً
في جوفها، من قولهم: زجر البعير إذا صاح عليه،
والساهرة الأرض البيضاء المستوية. سميت بذلك لأن
السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة جارية الماء

(1) قال أحمد: وما أحسن تسهيل أمر إعادة بقوله: ﴿زجرة﴾ عوضاً
من صيحة؛ لأن الزجرة أخف من الصيحة ويقول: ﴿واحدة﴾ أي
محتاجة إلى مثوية، وهو يحقق لك ما أجبته به من السؤال الوارد
عند قوله تعالى: ﴿فإنما نخف في الصور نفخة واحدة﴾ حيث قيل:
كيف وحدها وهما نفختان؟ وجدد به عهداً.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 308/4، وأخرجه أبو نعيم في الحلية =

= 377/8، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الخوف من الله
تعالى (الحديث رقم: 881) وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة
القيامة والرقائق والدرع، باب: 18 (الحديث رقم: 245).

(3) سورة طه، الآية: 44.

(4) قال أحمد: وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جداً، وهو على هذا من
أفعال المقاربة.

وهو في الأصل موضع الرعي ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسي وهو الإضمار على شريطة التفسير وقراها الحسن مرفوعين على الابتداء.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هلا أدخل حرف العطف على أخرج (4)؛ قُلْتُمْ: فيه وجهان أحدهما أن يكون معنى دحاها بسطها ومدها للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكنائها من تسوية أمر الماكل والمشرب، وإمكان القرار عليها والسكون بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتاداً لها حتى تستقر ويستقر عليها. والثاني أن يكون أخرج حالاً بإضمار قد كقولهم: أو جاؤكم حصرت صدورهم. وأراد بمرعاها ما ياكل الناس والانعام واستعير الرعى للإنسان كما استعير الرتع في قوله: «نرتع ونلعب» (5) وقرئ: يرتع من الرعي. ولهذا قيل: دل الله سبحانه بنكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح لأنه من الماء.

مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا تَمْتَعُوا بِهِمْ

﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ فعل ذلك تمتيعاً لكم **﴿وَلَا تَمْتَعُوا بِهِمْ﴾**، لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم وإلى انعامهم.

إِذَا بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ

﴿الطامة﴾ الداهية التي تطم على الدواهي، أي: تعلق وتغلب. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطم على القرى، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة. وقيل: هي النفخة الثانية. وقيل: الساعة التي تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَكَنَ

﴿يوم يتذكر﴾ بدل من إذا جاءت يعني: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تنكرها وكان قد نسيها. كقوله: أحصاه الله ونسوه. وما في **﴿ما سعى﴾** موصولة أو مصدرية.

وَرَبَّرَتِ الْبَلْجَمِثَ لَمَن رَّوَى

﴿وبرزت﴾ اظهرت. وقرأ أبو نهيك: وبرزت **﴿لمن يرى﴾** للرائين جميعاً. أي: لكل أحد يعني: انها تظهر إظهاراً بيناً مكشوقاً (6) يراها أهل الساهرة كلهم. كقوله: قد بين الصبح لذي عينين، يريد لكل من له بصر، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد. وقرأ ابن مسعود: لمن رأى. وقرأ عكرمة: لمن ترى، والضمير للجميم، كقوله: إذا رأتهم من مكان بعيد وقيل: لمن ترى يا محمد.

بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أكبر موضع أقبل لثلا يوصف بالإقبال.

نَحَرَ فَنَادَى

﴿فحشر﴾ فجمع السحرة. كقوله: «فارسل فرعون في المدائن حاشرين» (1) **﴿فنادى﴾** في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك. وقيل: قام فيهم خطيباً. فقال: تلك العظيمة. وعن ابن عباس: كلمته الأولى ما علمت لكم من إله غيري والآخرة أنا ربكم الأعلى.

فَأَعْنَتَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (2) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَخْشَى

﴿نكال﴾ هو مصدر مؤكد كوعد الله وصيغة الله، كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة، والأولى والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم. يعني: الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة (2). وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة. وهي قوله: أنا ربكم الأعلى. والأولى وهي قوله: ما علمت لكم من إله غيري. وقيل: كان بين الكلمتين أربعون سنة، وقيل: عشرون. الخطاب لمنكري البعث.

أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ بَنَاهَا

يعني: **﴿النتم﴾** أصعب **﴿خلقاً﴾** وإنشاء **﴿أم السماء﴾** ثم بين كيف خلقها فقال: **﴿بناها﴾** ثم بين البناء فقال:

رَفَعَ سَنَكًا مَّوَدَّبَهَا

﴿رفع سمكها﴾ أي: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام **﴿فسواها﴾** فعلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور، أو فتممها بما علم أنها تتم به. وأصلحها من قولك: سوى فلان أمر فلان. وَأَغْلَسَ لَيْلَهَا وَأَنْجَحَ سَهْمَهَا (3) وَالْأَرْضُ بِمَدِّ ذِكِّ دَحَمَهَا (4)

غطش الليل وأغطشه الله كقولك: ظلم وأظلمه. ويقال أيضاً: أغطش الليل كما يقال: اظلم. **﴿ولخرج ضحاها﴾** وأبرز ضوء شمسها، يدل عليه قوله تعالى: **﴿والشمس وضحاها﴾** (3) يريد وضوؤها. وقولهم: وقت الضحى للوقت الذي تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلها، والشمس هي السراج المتقَّب في جوها.

أَتْرَجَ بَيْنَ مَاءَمَا وَمَرَعَمَا (5) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (6)

﴿ماءها﴾ عيونها المتفجرة بالماء **﴿ومرعاها﴾** ورعيها

(1) سورة الشعراء، الآية: 53. = ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال: بناها بغير عاطف، ثم فسر البناء فقال: «رفع سمكها» بغير عاطف أيضاً.

(5) سورة يوسف، الآية: 12.

(6) قال أحمد: وفائدة هذا النظم الإشعار بأنه أمر ظاهر لا يتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة، أي: لا شيء يحجبه ولا بعد يمنع رؤيته ولا قرب مفرط إلى غير ذلك من مواعظ الرؤية.

(2) قال أحمد: فعلى الأولى يكون قريباً من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لأن الآخرة والأولى صفتان للكلمتين، وعلى الثاني لا يكون كذلك.

(3) سورة الشمس، الآية: 1.

(4) قال أحمد: والأول أحسن، وهو مناسب لقوله: **﴿السماء بناها﴾** لأنه لما قال: **﴿النتم أشد خلقاً أم السماء﴾** تم الكلام لكن مجعلاً، =

فَأَمَّا مَنْ مَلَأَ ﴿٣٧﴾ وَآزَلَّ لِلْوَيْةِ الذَّنْبِ ﴿٣٨﴾.

أحدًا من خلقه، وقيل: فيم إنكار لسؤالهم أي: فيم هذا السؤال⁽⁵⁾؛ ثم قيل: أنت من نكرها. أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسمة الساعة نكر من نكرها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلًا على دنوّها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها.

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾.

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتتنر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفًا له في الخشية منها. وقرئ: منذر بالتنوين وهو الأصل، والإضافة تخفيف. وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة كقولك: هو منذر زيد أمس. أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، وقيل: في القبور.

كَلِمَةً يَوْمَ يُؤْتَىٰ لِكُلِّ أَفْجَاءًا مَّا كَانَتْ تَأْتِيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آتًا فَالْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿إلا عشية أو ضحاها﴾.

فإن قلت: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية قلت: لما بينهما من الملاسة لاجتماعهما في نهار واحد.

فإن قلت: فهذا قيل: إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة؟ قلت: الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملاً ولكن ساعةً منه عشية أو ضحاها، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشية فهو كقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾⁽⁶⁾ عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والنازعات كان ممن حسبه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة»⁽⁷⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة عبس مكية

عَبَسَ وَوَدَّ ﴿١﴾.

أتى رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم⁽⁸⁾، وأم مكتوم أم أبيه، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وعنده صنائيد قريش: عتبة وشيبة ابنا

﴿فما﴾ جواب ﴿فإذا﴾، أي: فإذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك، والمعنى: فإن الجحيم مأواه. كما تقول للرجل غض الطرف تريد طرفك وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة، ولكن لما علم أن الطاغى هو صاحب المأوى وأنه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الإضافة ودخول حرف التعريف في المأوى، والطرف للتعريف لأنهما معروفان.

وَإِنَّ الْجَحِيمَ لَهِيَ الْكَأْرَىٰ ﴿٣٩﴾.

﴿وهي﴾ فصل أو مبتدأ.

وَأَمَّا مَنْ حَادَّ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَسَىٰ آيَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ هِيَ الْكَأْرَىٰ ﴿٤٠﴾.

﴿ونسى النفس﴾ الامارة بالسوء ﴿عن الهوى﴾

المردى، وهو اتباع الشهوات، وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير، وقيل: الأيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله ﷺ بنفسه حتى نفدت المشاقص في جوفه⁽¹⁾.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا ﴿٤١﴾.

﴿أيان مرساها﴾ متى إرساؤها أي: إقامتها، أربوا متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها، وقيل: أيان منتهاها ومستقرها⁽²⁾، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه.

فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِهَا ﴿٤٢﴾.

﴿فيم أنت﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها⁽³⁾

لهم وتعلمهم به يعني: ما أنت من نكرها لهم وتبيين وقتها في شيء، وعن عائشة رضي الله عنها: لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت⁽⁴⁾، فهو على هذا تعجب من كثرة نكره لها. كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من نكرها والسؤال عنها، والمعنى: أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسال عنها، ثم قال:

إِلَىٰ رَبِّكَ سُنْهَهَا ﴿٤٣﴾.

﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: منتهى علمها لم يؤت علمها

(5) قال أحمد: فعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله: فيم ليفصل بين الكلامين.

(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(7) نكره الثعلبي وابن مرويّه والواحد في تفسيرهم، زيلعي: 4/151.

(8) قال أحمد: وإنما أخذ الاختصاص من تصدير الجملة بضمير المخاطب، وجعله مبتدأ مخبراً عنه، وهو كثيراً ما يتلقى الاختصاص من ذلك، ولقد غلط في تفسير الآية، وما كان له أن يبلغ ذلك.

(1) لم يخرج الزيلعي.

(2) قال أحمد: وفيه إشعار بثقل اليوم، كقوله: «ويوترون وراءهم يوماً ثقيلاً» إلا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال.

(3) قال أحمد: وفي هذا الوجه نظر، فإن الآية الأخرى تردده، وهي قوله: «يسئلونك كأنك حفي عنها» أي: أنك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك، وهم يسئلونك كما يسئلك الحفي عن الشيء، أي: الكثير السؤال عنه، فالوجه الأول أصوب.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 5/1.

وقرى: تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر: تصدى بضم التاء أي: تعرض. ومعناه: يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص والتهاك على إسلامه.

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِيَنَّكَ ۖ

وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام إن عليك إلا البلاغ.

وَأَنَا مَن جَاءَكَ يَسِيئًا ۖ

﴿يسعى﴾ يسرع في طلب الخير.

وَمَنْ يَخْشَى اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ

﴿وهو يخشى﴾ الله أو يخشى الكفار وأزاهم في إتيانك. وقيل: جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۖ

﴿تلهي﴾ تتشاغل من لهي عنه والتهى وتلهي. وقرأ طلحة بن مصرف: تلهي، وقرأ أبو جعفر: تلهي، أي: يلهيك شأن الصناديد.

فَإِنْ قُلْتَ: قوله فانت له تصدى فانت عنه تلهي كان فيه اختصاصاً. قُلْتُ: نعم ومعناه: إنكار التصدي والتلهي عليه. أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهي عن الفقير.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ

﴿كلا﴾ ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله، ﴿إنها تذكرة﴾ أي: موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ

﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: كان حافظاً له غير ناسٍ، ونكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ

﴿في صحف﴾ صفة لتذكرة، يعني: أنها مثبتة في صفحة منتسخة من اللوح. ﴿مكرمة﴾ عند الله.

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۖ

﴿مرفوعة﴾ في السماء، أو مرفوعة المقدار. ﴿مطهرة﴾ منزهة عن أيدي الشياطين لا يمسه إلا أيدي ملائكة مطهرين.

يَأْتِي سُرُورًا ۖ

﴿سفرة﴾ كتبه ينتسخون الكتب من اللوح.

كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۖ

﴿بررة﴾ اتقياء. وقيل: هي صفح الانبياء كقوله: ﴿إِنَّ

ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكَرَّرَ ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه⁽¹⁾، فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين. وقال أنس: رأيته يوم القانسية وعليه درع وله راية سوداء⁽²⁾. وقرى: عبس بالتشديد للمبالغة، ونحوه كلح في كلح.

أَنْ جَاءَهُ الْغَمُّ ۖ

﴿أن جاءه﴾ منصوب بتولي أو بعيس على اختلاف المذهبين ومعناه عبس لأن جاءه الأعمى، أو أعرض لذلك. وقرى: أن جاءه بهمزيين وبالف بينهما ووقف على عبس وتولى، ثم ابتدئ على معنى: لأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكاراً عليه. وروي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدى لغني. وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب لئيل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانباً جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهها له بالتوبيخ وإلزام الحجة. وفي نكر الأعمى نحو من ذلك كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً. ولقد تأنب الناس بآب الله في هذا تأنباً حسناً. فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله: أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ يَذْكُرُ ۖ

﴿وما يدريك﴾ أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى. ﴿لعله يزكي﴾ أي: يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوصار الإثم.

أَوْ يَلْذَرُ فَتَكْفُهُ الْإِذْرَاءُ ۖ

﴿أو يذكر﴾ أو يتعظ، ﴿فتنفعه﴾ نكرارك، أي: موعظتك، وتكون له لطفاً في بعض الطاعات. والمعنى: أنك لا تدري ما هو مترقب منه من ترك أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك. وقيل: الضمير في لعله للكافر. يعني: أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو ينتنر فتقربه النكري إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرى: فتتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر وبالنصب جواباً للعل. كقوله: فاطلع إلى إله موسى.

فَأَنْتَ لَمْ تَسْأَلْهُ ۖ

﴿تصدى﴾ تتعرض بالإقبال عليه والمصاداة المعارضة.

(2) أخرجه عبد الرزاق في التفسير، زيلعي 4/156.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة عبس

هذا لفي الصحف الأولى⁽¹⁾ وقيل: السفارة القراء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ.

قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿٧٦﴾

﴿قتل الإنسان﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفضائلها. و﴿ما أكفره﴾ تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا خشن مساً ولا أدل على سخط ولا أبعده شوطاً في المنمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للائمة على قصر متنه، ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلا أن انتهت وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه، وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴿٧٧﴾

﴿من أي شيء خلقه﴾ من أي شيء حقير مهين خلقه، ثم بيّن ذلك الشيء بقوله:

مِنْ تُطْفُو خَلْقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٧٨﴾

﴿من نطفة خلقه فقدّره﴾ فيها لما يصلح له ويختص به، ونحوه: وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا.

ثُمَّ أَنْبِئْ بِرَبِّكَ ﴿٧٩﴾

نصب السبيل بإضمار يسر وفسر بيسر، والمعنى: ثم سهل سبيله، وهو مخرجه من بطن أمه، أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه. كقوله: ﴿إننا هديناه السبيل﴾⁽²⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر.

ثُمَّ أَنَاةً فَأَكْفَرُهُ ﴿٨٠﴾

﴿فأكفّره﴾ فجعله ذا قبر يوارى فيه تركة له ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان. يقال: قبر الميت إذا دفنه، وأقبره الميت إذا أمره أن يقبره ومكنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحاً.

ثُمَّ إِنَّا سَأَلْنَا أَنشُرُهُ ﴿٨١﴾

﴿أنشُرهُ﴾ أنشأه النشأة الأخرى. وقرئ: نشره.

كَلَّا لَنَا بَلَدٌ مَّا أَكْرَمُهُ ﴿٨٢﴾

﴿كلّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه. ﴿لما يقض﴾ لم يقض بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية. ﴿ما أمره﴾ الله حتى يخرج عن جميع أوامره. يعني: أن إنساناً لم يخل من تقصير قط. ولما عدد النعم في نفسه أتبعه نكر النعم فيما يحتاج إليه فقال:

يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٨٣﴾

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبّرنا أمره.

أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٨٤﴾

﴿إننا صببنا الماء﴾ يعني: الغيث. قرئ: بالكسر على الاستئناف، وبالفتح على البذل من الطعام. وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما: أنى صببنا بالإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٨٥﴾

وشققنا من شق الأرض بالنبات⁽³⁾، ويجوز أن يكون من شقها بالكرباب على البقر وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

فَأَنْبَأْنَا فِيهَا جِبًّا ﴿٨٦﴾ وَصَبَّآ وَقَعْبًا ﴿٨٧﴾ وَرَزَقْنَا وَجَلًّا ﴿٨٨﴾

والجب كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، والقضب الرطبة والمقضب أرضه سمي بمصدر قضبه إذا قطعه لانه يقضب مرّة بعد مرّة.

وَعَدَّآئِنَ عَلَبًّا ﴿٨٩﴾

﴿وعدائق غلباً﴾ يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فبريد تكافها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول: حديقة ضخمة. وأن يجعل شجرها غلباً أي: عظماً غلاظاً، والأصل في الوصف بالغلب الرقاب فاستعير. قال عمرو بن معد يكرب:

يعشي بها غلب الرقاب كأنهم بزل كسين من الكحيل جلالاً

والآب المرعى لانه يؤب أي: يؤم ويتنجد، والآب والأب أخوان. قال:

جذمننا قيس ونجد دارنا ولنا الآب به والمكروع⁽⁴⁾

= إضافة الفعل إلى الله تعالى من باب إضافة الشق إلى الحرث؛ لانه السبب قتل القديري ما أكفره، على قول: وما أضله على آخر، وإذا جعل شق الأرض مضافاً إلى الحرث حقيقة، وإلى الله مجازاً فما يمنعه أن يجعل الحرث، هو الذي صبب الماء وانبت الحب والغناب والقضب حقيقة، وهل هما إلا واحد؟
(4) المكروع: النخل القريبة من المحل.

(1) سورة الأعلى، الآية: 18.

(2) سورة الإنسان، الآية: 3.

(3) قال أحمد: ما رأيت كالذي يوم قط عبداً ينازع ربه، الله تعالى يقول: ﴿ثم شققنا﴾ فيضيف فعلة إلى ذاته حقيقة، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله: ﴿من نطفة خلقه﴾ وهلم جرا، والزمخشري يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه، فيجعل

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قيام الليل، لما روي في الحديث: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»⁽³⁾. وعن الضحاك: من آثار الوضوء. وقيل: من طول ما أغبرت في سبيل الله.

وَجِيءَ يُؤْمِدُ عَلَيْهَا عَبْرَةٌ ﴿٥٠﴾

﴿غبرة﴾ غبار يعلواها.

رَفَعَهَا فَنَرَةٌ ﴿٥١﴾

﴿قفرة﴾ سواد كاللحان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما ترى من وجوه الزنوج إذا أغبرت، وكان الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبر.

أَنْزَلَهُ مُمْ الْكَرَّةَ الْفَجْرَةَ ﴿٥٢﴾

كما جمعوا الفجور إلى الكفر، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التكوير مكية

إِذَا انشَرَّتْ كَوْرَتٌ ﴿١﴾

في التكوير وجهان: أن يكون من كَوْرَتِ العمامة إذا لففتها أي: يلف ضوءها لفاً فيذهب انبساطه وانتشاره في الأفق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطة غير ملفوف. أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها لأن الثواب إذا أريد رفعه لف وطوى. ونحوه قوله: يوم نطوي السماء، وأن يكون من طعنه فجوره وكوره إذا القاه أي: تلقى وتطرح عن فلکها كما وصفت النجوم بالانكدار.

فإن قُلْتُ: ارتفع الشمس على الابتداء أو الفاعلية! قُلْتُ: بل على الفاعلية رافعها فعل مضمَر يفسره كَوْرَتٌ، لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط.

وَإِذَا انشَجَرُ أَنْكَدَرَتْ ﴿٢﴾

﴿انكدرت﴾ انقضت. قال: أبصر خريبان فضاء فانكدر. ويرى في الشمس والنجوم أنها تطرح في جهنم ليراهما من عبدها. كما قال: ﴿إنكم وما تعبدون من نون الله حسب جهنم﴾.

وَإِذَا الْبِحَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به⁽¹⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفنا، فما الأب؟ ثم رفض عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تترى ما الأب. ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. قُلْتُ: لم يذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبر همهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم.

وَفِكْمَةٌ وَبِأَيُّهَا ﴿٤﴾ مَتَمَّا لَكُمُ الْوَأَمْرُ ﴿٥﴾

فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكر وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبتة الله للإنسان متاعاً له أو لإتعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك. ولم يشكل مما عند من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة الثبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجمالية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت. ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن.

وَإِذَا جَاءتِ الصَّلَاةُ ﴿٦﴾

يقال: صَخَّ لحديثه مثل أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها.

يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ لَبِئِهِ ﴿٧﴾ وَأَبُوهُ وَأَبِيهِ ﴿٨﴾ وَصَجِيئِهِ وَيَوْمِهِ ﴿٩﴾

﴿يفر﴾ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً، ويبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب. كانه قال: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبه وبنيه. وقيل: يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات. يقول الأخ لم تواسني بمالك، والأبوان قصرت في برنا، والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا. وقيل: أول من يفر من أخيه هانيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبه نوح ولوط، ومن ابنه نوح.

لِكُلِّ أُمَّرٍ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿١٠﴾

﴿يغنيه﴾ يكفيه في الاهتمام به وقرئ: بعينه أي: يهيم.

وَجِيءَ يُؤْمِدُ شَيْئَةً ﴿١١﴾ حَاجِكَةً شَيْئَةً ﴿١٢﴾

﴿مسفرة﴾ مضيئة متهلة من أسفر الصبح إذا أضاء.

(3) تقدم في سورة الفتح.

(4) نكره الثعلبي والواحدى وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي: 4/

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 512/10، كتاب: فضائل القرآن، باب: من كره أن يفسر القرآن.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 514/2.

ولدت ابناً حبسته.

فَإِنْ قُلْتِ: ما حملهم على واد البنات؟ **قُلْتِ**: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن، أو الخوف من الإملاق كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (4) وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به فهو أحق بهن، وصعصعة ابن ناجية ممن منع الواد، فبه افتخر الفرزدق في قوله:

ومنا الذي منع الوائث فأحيا الوئيد فلم تواد

فَإِنْ قُلْتِ:

يَأْتِي ذَنْبِي ثِيْلَتٌ (٤)

فما معنى سؤال المؤودة عن ننبها الذي قتلت به. وهما سئل الوائد عن موجب قتله لها. **قُلْتِ**: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى: ﴿أَنْتَ قَتَلْتَ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿سَبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. وقرئ: سألت أي: خاصمت عن نفسها وسألت الله أو قاتلها. إنما قيل: قتلت بناءً على أن الكلام إخبار عنها، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت. فقيل: قتلت. أو كلامها حين سئلت لقيل: قتلت. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: قتلت على الحكاية. وقرئ: قتلت بالتشديد، وفيه دليل بئب على أن الأطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالننب، وإذ بكَّت الله الكافر ببراءة المؤودة من الننب فما أقبح به وهو الذي لا يظلم مثقال نرّة أن يكزّ عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل الميكت من العذاب الشديد السرمد. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن ذلك فاحتجّ بهذه الآية.

وَإِذَا الْكُفُوفُ سُئِرَتْ (٥)

نُشِرَتْ: قرئ: بالتخفيف والتشديد، يريد صحف الاعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب. عن قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ثم تنشر يوم القيامة، فلينظر رجل ما يملئ في صحيفته، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق عراة حفاة. فقالت أم سلمة: كيف بالنساء؟ فقال: «يحشر الناس يا أم سلمة». قالت: وما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذرِّ ومثاقيل الخردل» (5). ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها. أي: فرقت بينهم. وعن مرثد بن داعة: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع

سُيِرَتْ: أي: على وجه الأرض وأبعثت، أو سيرت في الجو تسيير السحاب. كقوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (1) والعشار في جمع عشاء كالنفاس في جمع نفساء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر. ثم هو اسمها إلى أن تضع لتتمام السنة وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم.

وَإِذَا أَلْيَسَارُ عُطِّلَتْ (٦)

عُطِّلَتْ: تركت مسيبة مهمة، وقيل: عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم. وقرئ: عطلت بالتخفيف.

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٧)

حُشِرَتْ: جمعت من كل ناحية. قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، وقيل: إذا قضى بينها رمت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطالوس ونحوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها: موتها. يقال: إذا أجمعت السنة بالناس وأموالهم، حشرتهم السنة. وقرئ: حشرت بالتشديد.

وَإِذَا أَلْيَمَارُ سُجِرَتْ (٦)

سُجِرَتْ: قرئ: بالتخفيف والتشديد، من سجر التنوير إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا. وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار. وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة.

وَإِذَا الْكُفُوفُ رُؤِمَتْ (٧)

رُؤِمَتْ: قرنت كل نفس بشكلها، وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد، وقيل: بكتبها وأعمالها. وعن الحسن: هو كقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (2) وقيل: نفوس المؤمنين بالحدور، ونفوس الكافرين بالشياطين.

وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨)

وإذ يئد مقلوب من آد يؤد، إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْوُدُهُ حِفْظُهُمَا﴾ (3) لأنه إنقال بالتراب، كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحبيها البسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البداية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لامها: طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أممائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض. وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفر حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن

(1) سورة النمل، الآية: 88.

(2) سورة الواقعة، الآية: 7.

(3) سورة البقرة، الآية: 255.

(4) سورة الإسراء، الآية: 31.

(5) أخرجه الثعلبي وأصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (8)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات الجنة ونعيمها 56.

أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن قارئاً قرأها عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال: وانقطاع ظهر ياء.

﴿لَا أَمِيمٌ إِلَّا نَسِيبٌ﴾ (١٤)

﴿لِخَنَسٍ﴾ الرواجع، بينما ترى النجم في آخر البرج إذا كر رجاعاً إلى أوله.

﴿لِجَوَارِي الْكَأْسِ﴾ (١٥)

﴿وَالْجَوَارِي﴾ السيارة. و﴿لِخَنَسٍ﴾ الغيب من كنس الوحشي إذا نخل كناسه، قيل: هي الدراري الخمسة بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل. أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها.

﴿وَأَلِيلٍ إِذَا عَمَسَ﴾ (١٦) ﴿وَأَلْفَجِجٍ إِذَا نَفَسَ﴾ (١٧)

عسس الليل وسعس إذا أوبر. قال العجاج:

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليها وعسسا
وقيل: عسس إذا أقبيل ظلامه.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٨) ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (١٩)

﴿فَإِن قُلْتُمْ﴾ ما معنى تنفس الصحيح؟ قُلْتُمْ: إذا أقبيل الصبح أقبيل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح. ﴿إِنه﴾ الضمير للقرآن ﴿لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل صلوات الله عليه. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى نُورَةً﴾ (٢٠) لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن. قال: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ (٢١) ليدل على عظم منزلته ومكانته. ﴿ثُمَّ﴾ إشارة

صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم. أي مكتوب فيها ذلك. وهي صحف غير صحف الأعمال.

﴿وَإِذَا أَنشَأَ كُتِبَتْ﴾ (٢٢)

﴿كشطت﴾ كشفت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء. وقرأ ابن مسعود: كشطت، واعتقاب الكاف والقاف كثير. يقال: لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور.

﴿وَإِذَا الْجَبِمُ سُورِتْ﴾ (٢٣)

﴿سعرت﴾ أوقعت إيقاناً شديداً، وقرئ: سعرت بالتشديد للمبالغة، قيل: سعرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم.

﴿وَإِذَا لَمَّةُ زُلَفَتْ﴾ (٢٤)

﴿أزلفت﴾ أنذيت من المتقين. كقوله تعالى: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٢٥) قيل: هذه اثنتا عشرة خصلة ست منها في الدنيا وست في الآخرة. وعلمت هو عامل النصب في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (٢٦)

﴿فَإِن قُلْتُمْ﴾ كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ (٢٧) لا نفس واحدة، فما معنى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؟ قُلْتُمْ: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه. ومنه قوله عز وجل: ﴿بِمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) ومعناه معنى كم وأبلغ منه وقول القائل: قد أترك القرن مصفراً تاملاً

وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندي، أو لا تعدم عندي فارساً، وعنده المقانب. وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه أراد إظهار براعته من التزديد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً

(1) سورة الشعراء، الآية: 90.

(2) سورة آل عمران، الآية: 30.

(3) سورة الحجر، الآية: 2.

(4) سورة النجم، الآيتان: 5 - 6.

(5) قال أحمد: ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوي على التصدير في حق البشر للنذير عليه أفضل الصلاة والسلام، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تمهيد أصول مذهبه الفاسد، فأخطأ على الأصل والفرع جميعاً، ونحن نبين ذلك بحول الله وقوته فنقول أولاً: اختلف أهل التفسير فذهب منهم الجم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر النعوت: محمد ﷺ، فإن يكن كذلك والله أعلم، فلذلك فضل الله المعتاد على نبيه، وإن كان المراد جبريل عليه السلام، فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسول، والمشهور عن أبي الحسن تفضيل الرسول، ومذهب المعتزلة تفضيل الملائكة، إلا أن المختلفين لجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد التبليين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسول؛ لأن =

= التفضيل وإن كان ثابتاً إلا أن في التعيين إيذاء للمفضول، وعليه حمل الحذاق قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، أي: لا تعينوا مفضولاً على التخصيص؛ لأن التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين، أي: تفضيل النبي ﷺ على النبيين أجمعين، وكان جدي رحمه الله يوضح ذلك بمثال فيقول: لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء: فلان أفضل أهل عصره، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل، وإن لزم اندراجهم في المفضولين، ولو عنيت واحداً منهم وقلت: فلان أفضل منك وأتقى لله، لاسرع به الأذى إلى بغضك، وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص، علمت أن الزمخشري أخطأ على أصله؛ لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد لا يجوز أن يقال عن أحد من الملائكة على التخصيص أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص، لا سيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل، وبعد أن نكله في تعيينه النبي ﷺ مفضولاً إلى الله، فنقول: لم يذكر فيها نعت إلا وللنبي ﷺ مثله =

إلى الظرف المنكور، أعني عند ذي العرش على أنه عند الله مطاع في ملائكته المقرّبين يصدرين عن أمره ويرجعون إلى رآيه.

طَاعَ تَمَّ آمِينَ ﴿١٦﴾

وقرى: ﴿ثم﴾ تعظيماً للامانة وبيانا لانها افضل صفاته المعودة.

وَمَا سَاجِدٌ بِمَنْزِلِ ﴿١٧﴾ وَقَدْ رَأَى بِالْأُفُقِ الْآلِينَ ﴿١٨﴾

﴿وما صاحبكم﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما تبهته الكفرة. وناميك بهذا ليلياً على جلالته مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة، ومباينة لمنزلة أفضل الإنس محمد ﷺ إذا وازنت بين النكرين حين قرن بينهما وقايست بين قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾⁽¹⁾ وبين قوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ ولقد رآه﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل.

﴿بالافق للمبين﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

وَمَا عَلَّ الْقَيْبِ بِمَنْزِلِ ﴿١٩﴾

﴿وما هو﴾ وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك ﴿بمظنين﴾ بمتهم، من الظنة وهي التهمة. وقرى: بضنين من الضن وهو البخل، أي: لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه. وهو في مصحف عبد الله بالطاء، وفي مصحف أبي بالضاد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، وإتقان الفصل بين الضاد والطاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الأحرف الشجرية أخت

الجيم والشين، وأما الطاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهي أحد الأحرف الذوقية أخت الذال والطاء، ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الحكمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب.

فَإِن قُلْتُمْ: فَإِن وَضِعَ الْمُصَلِّي أَحَدَ الْحَرْفَيْنِ مَكَانَ صَاحِبِهِ! قُلْتُمْ: هُوَ كَوَاضِعِ الذَّالِ مَكَانَ الْجِيمِ وَالطَّاءِ مَكَانَ الشَّيْنِ لِأَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الضَّادِ وَالطَّاءِ كَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ أَخَوَاتِهَا.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ سَيِّدِنَا رَبِّمِ ﴿٢٥﴾

﴿وما هو﴾ وما القرآن ﴿بقول شيطان رجيم﴾ أي: بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

فَإِنَّ تَهَيُّوهُ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿فإين تذهبون﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق أين تذهب مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴿٢٨﴾

﴿لمن شاء منكم﴾ بدل من للعالمين وإنما أبلوا منهم لأنّ الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكانه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موغظين جميعاً.

وَمَا كُنَّا بِنُورٍ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وما تشاؤون﴾ الاستقامة يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه، أو وما تشاؤونا أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاده الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته»⁽²⁾.

تعطه واشفع تشفع، وأما أمين فقد قال وهو الصادق المصنوق: والله إنني لأمين في الأرض أمين في السماء، وحسبك قوله: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ إن قراته بالطاء فمعناه: أنه أمين على الغيب غير متهم، وإن قراته بالضاد رجع إلى الكرم، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء، وما لي مباحة في أصل المسألة، ولكن الردّ عليه في خطئه على كل قول بتعين، وإلا فالمسألة في غير هذا الكتاب، فنسال الله أن يثبتنا على الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وإن يعمر قلوبنا بحبهم، وأن يجعل توسلنا إليه بهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(1) سورة التكويد، الآية: 19.

(2) نكره الثعلبي وابن مردويه والولحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/

أولها رسول كريم، فقد قال في حقه ﷺ في آخر سورة الحاقة: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وقد قيل أيضاً: أن المراد جبريل إلا أنه ياباه، قوله: ﴿وما هو بقول شاعر﴾ وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم، فهذا أول النعوت وأعظمها، وأما قوله: ﴿ذي قوة﴾ فليس محل الخلاف، إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية، ومن يقتلع الملائن بريشة من جناحه لا مرأه في فضل قوته على قوة البشر، وقد قيل هذا في تفسير قوله: ﴿ذو مرة فاستوى﴾ وقوله: «عند ذي العرش مكين، مطاع﴾ ثم فقد ثبت طاعة الملائكة أيضاً لنبينا ﷺ، وورد أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله يقرئك السلام، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عندما أذنه قرئش فسلم عليه الملك وقال: إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فصبر النبي ﷺ واحتسب، وأعظم من نك و أشرف مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى، يوم لا يتقمه أحد إذ يقول الله تعالى له: ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الانفطار مكية

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ﴿٢﴾.

﴿انفطرت﴾ انشقت.

وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾.

﴿فجرت﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالح وزال البرزخ الذي بينهما وصارت البحار بحرًا واحدًا، وروي أَنَّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية. وهو معنى التسجير عند الحسن. وقرئ: فجرت بالتخفيف. وقرأ مجاهد: فجرت على البناء للفاعل والتخفيف بمعنى بغت لزوال البرزخ. نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾^(١) لِأَنَّ الْبَغِيَّ وَالْفَجُورَ أَخْوَانُ.

وَإِذَا الْغُورُ بُيِّرَتْ ﴿٤﴾ عِلَمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾.

بعثر ويحتر بمعنى وهما مركبان من البعث والبعث مع راء مضمومة إليهما. والمعنى: بحثت وأخرج موتاهما. وقيل: لبراءة المبعثرة لأنها بعثت أسرار المنافقين.

يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾.

^(٢) فَإِن قُلْتُمْ: ما معنى قوله: ﴿ما غرَّك بربك الكريم﴾؟ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به وإنما يغتر بالكريم كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب فقال له: ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه^(٣). وقالوا: من كرم الرجل سوء أئب غلماناه! قُلْتُمْ: معناه: أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكريم الله عليه حيث خلقه حيًا لينفقه، ويتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب اغترارًا بالتفضل الأول، فإنه منكر خارج من حد الحكمة ولهذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها: غرَّه جهله^(٤). وقال عمر رضي الله عنه: غرَّه حمقه وجهله. وقال الحسن: غرَّه والله شيطانه الخبيث. أي: زين له المعاصي وقال له: افعَل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولًا وهو متفضل عليك آخرًا حتى ورطه. وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غرَّك بربك الكريم ماذا

تقول؟ قال: أقول غرَّتني ستورك المرخاة. وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية. ويروون عن أئمتهم إنما قال: بربك الكريم، نون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرَّتني كرم الكريم. وقرأ سعيد بن جبير: ما أغرَّك، إما على التعجب وإما على الاستفهام. من قولك: غرَّ الرجل فهو غار إذا غفل. من قولك: بيتهم العنق وهم غارون، وأغرَّه غيره جعله غارًا.

أَلَيْسَ خَلْقَكَ سَوْنَكَ فَمَدَّكَ ﴿٧﴾.

﴿فسوك﴾ فجعلك سويًا سالم الأعضاء. ﴿فجعلك﴾ فصيرك معتدلًا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحمًا وبعضه أشقر. أو جعلك معتدل الخلق تمشي قائمًا لا كالبهائم. وقرئ: فعدلك بالتخفيف وفيه وجهان: أحدهما أن يكون بمعنى المشدَّد أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت، والثاني فعدلك فصرفك. يقال: عدله عن الطريق. يعني: فعدلك عن خلقه غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات.

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾.

ما في ﴿ما شاء﴾ مزيدة، أي: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه.

فإِن قُلْتُمْ: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قُلْتُمْ: لأنها بيان لعنلك.

فإِن قُلْتُمْ: بم يتعلق الجار؟ قُلْتُمْ: يجوز أن يتعلق بربك على معنى: وضعت في بعض الصور ومكنت فيه، وبمحذوف أي: ركبك حاصلًا في بعض الصور ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعنلك ويكون في أي معنى التعجب، أي: فعدلك في صورة عجيبة، ثم قال: ما شاء ركبك. أي: ركبك ما شاء من التركيب. يعني: تركيبًا حسنًا.

كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ وَالَّذِينَ ﴿٩﴾.

﴿كلا﴾ ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به وهو موجب الشكر والطاعة إلى عكسهما الذي هو الكفر

= ورود السمع بإثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتعين المصير إليه، لكن ما نكرناه في الجواز والاحتمال، فإنَّ الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(3) لم يخرج الزيلعي.

(4) نكره الثعلبي، ورواه الواحدي في تفسيرهما، وأبو عبيدة في كتاب: فضائل القرآن، زيلعي 4/167.

(1) سورة الرحمن، الآية: 20.

(2) قال أحمد: حجة الزمخشري مهنا فارغة، فإنَّ الآية إنما وردت في الكفار، بليل قوله: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ ونحن نوافق على خلودهم وانقطاع معانيرهم، لا على أنَّ تخليدهم واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، فإنَّ الله لا يجب عليه شيء ويجوز عقلاً أن يثيب الكافر ويخلده في الجنة، وبالعكس في المؤمن، ولولا =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المطففين مكية

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾.

التطفيف: البخس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس شيء طفيف حقير. وروي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وكانوا من أحببت الناس كيلاً فنزلت. فأحسنوا الكيل^(٣). وقيل: قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر^(٤). وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطفون، وكانت بياعتهم المنازلة والمامسة والمخاطرة فنزلت. فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم^(٥). وقال: خمس بخمس. قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس. قال: ما نقض قوم العهد إلا سلب الله عليهم عهدهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر^(٦). وعن علي رضي الله عنه أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح. فقال له: أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت، كأنه أمره بالتسوية أولاً ليعتادها ويفصل الواجب من النقل، وعن ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال، والميزان. وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعاً وكانا مفترقين في الحرمين. كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون، وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له: اتق الله وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمان حتى إن العرق ليلجمهم. وعن عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار. فقيل له: إن ابنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. وعن أبي رضي الله عنه: لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤوس المكاييل والسن الموازين.

الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٦﴾.

لما كان اكتيالهم من الناس اكتيلاً يضرهم^(٧) ويتحامل فيه عليهم أبلد على مكان من للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لإفادة

والمعصية. ثم قال: ﴿بَلِّغْ تَكْنِيُونَ بِالْمَدِينِ﴾ أصلاً وهو الجزاء، أو دين الإسلام فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً وهو شر من الطمع المنكر.

وَأَنَّ عَلَيْكُمْ حَتُوتَيْنِ ﴿١٠﴾.

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ﴾ تحقيق لما يكذبون به من الجزاء، يعني: أنكم تكذبون بالجزاء.

كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَتَكَلَّمُونَ مَا تَقُولُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَمْ يَكُن لِيَمِمْ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا الْفَجَارُ لَمْ يَكُن لِيَمِمْ ﴿١٤﴾ يَتَلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾.

والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها وفي تعظيم الكتب بالثناء عليهم تعظيم لأمير الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة، وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين. وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾^(١) ويجوز أن يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك. يعني: في قبورهم. وقيل: أخبر الله في هذه الصورة أن لابن آدم ثلاث حالات: حال الحياة التي يحفظ فيها عمله، وحال الآخرة التي يجازى فيها، وحال البرزخ. وهو قوله: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ يعني: أن أمر يوم الدين بحيث لا تترك دراية دار كنهه في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه، والتكرير لزيادة التهويل ثم اجمل القول في وصفه فقال:

يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَعِيًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه ولا أمر إلا لله وحده، من رفع فعلى البذل من يوم الدين أو على هو يوم لا تملك، ومن نصب قبضامر يدانون لأن الدين يدل عليه أو قبضامر أنكر ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة»^(٢) وبعدد كل قبر حسنة^(٢).

(7) قال أحمد: لا منافرة فيه، ولا يجعل هذا القائل الضمير دالاً على مباشرة ولا إشعاراً أيضاً فيه بذلك، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه، إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه، سواء بأشروه أو لا، وهذا انظم كلام ولحسنه، والله أعلم. والذي يدل على أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل أن لك أن تقول: الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوق، لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم، وإنما معناه: أن فعل ذلك من جهتهم خاصة.

(1) سورة المائدة، الآية: 37.

(2) نكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في تفسيرهم، زيلعي 168/4.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: البيوع (الحديث رقم: 4919)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 33/2.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 25.

(5) قال الزيلعي غريب 172/4.

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 126/2.

المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به فما ظنك بنفسك وانت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل. وقيل: الظن بمعنى اليقين والوجه ما نكر.

وَمَا آذَنَكَ مَا يَجِيءُ (أ) كِتَابَ رَمُومٍ (١) وَهَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)

ونصب ﴿يوم يقوم﴾ بمبعوثون. وقرئ: بالجر بدلاً من يوم عظيم. وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. بكى نحيباً وامتنع من قراءة بعده.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَئِي سَاجِدٍ (٧)

﴿كلا﴾ ردهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن نكر البعث والحساب ونبيههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه، ثم اتبعه وعيد الفجار على العموم. وكتاب الفجار ما يكتب من أعمالهم.

وَمَا آذَنَكَ مَا يَجِيءُ (أ) كِتَابَ رَمُومٍ (١) وَهَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)

فإن قلت: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه من سجين ودون سجيناً بكتاب مرقوم. فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟ قلت: سجين كتاب جامع هو ديوان الشر ودون الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه. فالمعنى: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمى سجيناً فعلاً من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس ونزيرته استهانة به وإذالة وليشهده الشياطين المنحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون.

فإن قلت: فما سجين أصفة هو أم اسم؟ قلت: بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف.

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِبَيْتِ اللَّهِ (١١) وَمَا يَكْفُرُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُتَعَبٍ أَثِيمٍ (١٧)

﴿الذين يكفرون﴾ مما وصف به للذم لا للبيان كقولك: عاد كلامه.

إِذَا نَلَكَ عَلَيْهِ نَزْلَاتُنَا فَأَلْ سَلِيمٌ الْأَرْهَامَ (١٣)

﴿قال﴾ والتعلق في إبطال هذا بخط المصحف لعدم الالف بعد الواو ركيك إلخ... فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث.

كَلَّا بَلْ كَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاءٌ كَأَوْأَى كَبِيرٍ (١٤)

﴿كلا﴾ رذع للمعتدي الأثيم عن قوله: ﴿ران على

الخصوصية. أي: يستوفون على الناس خاصة، فاما أنفسهم فيستوفون لها. وقال القراء: من على يعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه. فإذا قال: اكلت عليك. فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قال: اكلت منك فكوله: استوفيت منك.

وَإِذَا كَأُولِهِمْ أَوْ رَزُقُوهُمْ يُمِرُّونَ (٤)

والضمير في ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾ ضمير منصوب راجع إلى الناس وفيه وجهان: أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال:

ولقد جنيتك كأمراً وعساقلاً ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

والحريص يصيدك لا الجواد، بمعنى: جنيت لك ويصيد لك. وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف هو المكيل أو الموزون ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد. وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا. وهو كلام متناقض لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر والتعلق في إبطاله بخط المصحف، وأن الالف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه ركيك، لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط. على أني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقدمين هذه الالف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى: جميعاً، لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع وإنما كتبت هذه الالف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: هم لم يدعوا وهو يدعو فمن لم يثبتهما قال: المعنى كاف في التفرقة بينهما. وعن عيسى بن عمر وحمرزة أنهما كانا يرتكبان ذلك. أي: يجعلان الضميرين للمطففين ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا.

فإن قلت: هلا قيل: أو اتزنوا كما قيل: أو وزنوهم! قلت: كان المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يدععون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً. ﴿يخسرون﴾ ينقصون، يقال خسر الميزان وأخسره.

أَلَا يَبْطَأُ أَرْطَبَكَ أَنَّهُمْ مَعْرُوفُونَ (٤)

﴿الا يظن﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجترار على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً ﴿أنهم مبعوثون﴾ ومحاسبون على مقدار الذرة والخرلة. وعن قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، وأعدل كما تحب أن يوفى لك، وأعدل كما تحب أن يعدل لك. وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين. أراد بذلك أن

من النعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك.

تَرَفُّ فِي دُجْرِهِمْ نَمْرَةَ النَّيْمِ (٦).

﴿نمصرة للنعيم﴾ بجهة التنعم وماءه ورونقه، كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه. وقرئ: تعرف على البناء للمفعول، ونمصرة النعيم بالرفع. الرحيق الشراب الخالص الذي لا غش فيه.

يَسْتَوْنَ مِنْ رَحِيْقِ مَخْشُورٍ (٧).

﴿مختموم﴾ تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطيبة.

خَتَمُهُ بِسَكِّ وَفِي ذَلِكَ قَلِيْتَانِسُ السَّنَلِيْسُوْر (٨).

وقيل: ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك إذا شرب. وقيل: يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك. وقرئ: خاتمه بفتح التاء وكسرهما، أي: ما يختم به ويقطع. ﴿قليتانفس للمقتانسون﴾ فليرتقب المرتقبون.

وَرِجَالُهُ مِنْ تَسِيْمٍ (٩).

﴿تسليم﴾ علم لعين بعينها سميت بالتسليم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إمّا لأنها أرفع شراب في الجنة، وإمّا لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء متسمة فتتصب في أوانيتهم.

حَيْثُ يَرْبُرُ بِهَا الْمُرْوَرُونَ (١٠).

و﴿عيناً﴾ نصب على المدح، وقال الزجاج: نصب على الحال. وقيل: هي للمقربين يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة.

إِنَّ الْأَبْرَارَ أَجْرُوا كَأَوْ مِنْ الْأَيْنِ مَأْمُورًا يَصْحَكُونَ (١١).

هم مشركو مكة: أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزئون بهم. وقيل: جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلح، فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل علي إلى رسول الله ﷺ.

وَإِذَا مَرَأٌ يَوْمَ يَقَامُرُونَ (١٢).

﴿يقامرون﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم. وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَقْبَلُوا فِيْهِمْ (١٣) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ

قلوبهم﴾ ركبها كما يركب الصداً وغلب عليها، وهو أن يصرّ على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب، يقال: ران عليه الذنب وغان عليه رنياً وغيئاً والغين الغيم. ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه، ورائت به الخمر ذهبت به، وقرئ: بلادغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجود وأمليت الألف وفخمت.

كَلَّا إِنَّكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ يَوْمَ تَمُوتُونَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ لَعَالَمٌ أَلْمِيْعٌ (١٥) ثُمَّ بَأْسًا هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكْفِرُونَ (١٦).

﴿كلا﴾ ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم. وكونهم محجوبين عنه تمثيل^(١) للاستخفاف بهم وإمانتهم لأن لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأبناء المهانون عندهم. قال:

إذا اعتروا باب ذي عبية رجبوا

والناس من بين مرجوب ومحجوب. وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة: محجوبين عن رحمته. وعن ابن كيسان: عن كرامته.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَبِيْ عَيْنٍ (١٧).

﴿كلا﴾ ردع عن التكنيب. و﴿كتاب الأبرار﴾ ما كتب من أعمالهم.

وَمَا أَتَيْنَاكَ مَا عَلَّمْنَا (١٨) كِتَابٌ تَرْمُوهُ (١٩).

و﴿عليون﴾ علم لديوان الخير الذي يؤن فيه كل ما علمته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع علي فعيل من العلو كسجين من السجن، سمي بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة.

يَسْتَهْدُهُ الْمُرْوَرُونَ (٢٠) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَبِيْ نَيْمٍ (٢١).

حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً. وروي أن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم، أنكم الحفظة على عبيدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين فقد غفرت له. وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبيدي وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين^(٢).

عَلَىٰ الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ (٢٢).

﴿الأرباب﴾ الأسرة في الحجال. ﴿ينظرون﴾ إلى ما شاؤوا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله

= الحق وما بعد الحق إلا الضلال، وما أرى من جحد الرؤية المملول عليها بقواطع الكتاب والسنة يخطئ بها، والله المسؤول في العصمة.

(1) قال أحمد: هذا عند أهل السنة على ظاهره من أنلة الرؤية، فإن الله تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك بالعين، وإلا فالحجاب على الله تعالى بغير هذا التفسير محال، هذا هو = (2) قال الزيلعي، رواه ابن المبارك في كتاب: الزهد والرقائق 4/173.

مَوْلَاهُ لَصَّارُونَ ﴿٣٦﴾.

تشقق السماء⁽²⁾ بالغمام، وعن علي رضي الله عنه: تشقق من المجرة.

وَأَذَّتْ رِيْبًا وَحَثَّتْ ﴿٣٧﴾.

أذن له، استمع له⁽³⁾، ومنه قوله عليه السلام: ما أذن الله لشيء كأنه لنبي يتغنى بالقرآن⁽⁴⁾. وقول جحاف بن حكيم: أنذت لكم لما سمعت هريركم. والمعنى: أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم ياب ولم يمتنع. كقوله: ﴿آتَيْنَا طَائِعِينَ﴾⁽⁵⁾ ﴿وَوَحَقَّتْ﴾ من قولك: هو محقوق بكذا وحقيق به، يعني: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه: الإيذان بأن القادر بالذات يجب أن يتأتى له كل مقدر ويحق ذلك.

وَإِنَّا الْأَرْضُ مَدَنٌ ﴿٣٨﴾.

﴿مدت﴾ من مد الشيء فامتد، وهو أن تذال جبالها وأكامها وكل أمت فيها حتى تمتد وتنبسط ويستوي ظهرها. كما قال تعالى: فأعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مدت مد الأديم العكاظي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى، أو من مد بمعنى: أمده، أي: زِيدت سعة وبسطة.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴿٣٩﴾ وَأَذَّتْ رِيْبًا وَحَثَّتْ ﴿٤٠﴾.

﴿والقت ما فيها﴾ ورمت بما في جوفها مما نفن فيها من الموتى والكنوز. ﴿وتخلت﴾ وخلت غاية، والخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرم الكريم وترحم الرحيم إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما في طبعهما. ﴿وأننت لربها﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها.

يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِنَّ رَبَّكَ كَدَمًا فَلْيَلْجِئِ ﴿٤١﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْرَ كَتَّبَهُ بِرَبِّهِ ﴿٤٢﴾.

الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده إذا خدشه. ومعنى: ﴿كادح إلى ربك﴾ جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء. ﴿فملاقية﴾ فملاق له لا محالة لا مفر لك منه. وقيل: الضمير في ملاقيه للكدح.

سَوَّوْا حَسَابًا يَبِيرًا ﴿٤٣﴾.

﴿يسيرًا﴾ سهلاً هيناً لا يناقش فيه ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه، كما يناقش أصحاب الشمال. وعن عائشة رضي الله عنها: هو أن يعرّف نوبه ثم يتجاوز عنه.

﴿فكهيبن﴾ ملتئين بذكورهم والسخرية منهم، أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال.

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاطِطِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَلَيْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿وما أرسلوا﴾ على المسلمين ﴿حافظين﴾ موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدكم وضلالهم وهذا تهكم بهم أو هو من جملة قول الكفار: وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إن هؤلاء لضالون، وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدهم إياهم عن الشرك وبعثتهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿على الأرائك ينظرون﴾ حال من يضحكون أي: يضحكون أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفة وهم على الأرائك آمنون. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: أخرجوا إليها، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم.

هَلْ يُؤْتِي الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ ﴿٣٩﴾.

ثوبه وأثابه بمعنى إذا جازاه. قال أوس: سأجزيك أو يجزيك عني مؤتب وحسبك أن ينثي عليك وتحمدي وقرئ: بإدغام اللام في الناء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

سورة انشقت مكية

إِذَا أَنشَقَّتْ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾.

حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويز والانفطار، وقيل: جوابها ما دل عليه فملاقية أي: إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه، ومعناه: إذا انشقت بالغمام. كقوله تعالى: ﴿ويوم

(1) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ = يسوع له ويطاع، فيثبت لله صفة الكمال، ويوحده حق توحيد، وهو خير من سلب صفة الكمال عن الله تعالى، وإشراك مخلوقاته به جل ربنا وعز.

(2) سورة الفرقان، الآية: 25.

(3) قال أحمد: ننص تفسير الآية بقوله: القادر بالذات وما به لا يقول: القادر الذي عمت قبرته الكائنات، حتى لا كون إلا بقدرته حقيق أن =

(4) تقدم في سورة إبراهيم.

(5) سورة فصلت، الآية: 11.

الشمس، ويسقطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه في إحدى الروايتين أنه البياض، وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه سمي لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان رقة القلب عليه.

وَأَلَيْلٍ وَمَا وَسَقٌ ﴿١٧﴾

﴿وما وسق﴾ وما جمع وضم. يقال: وسقه فاتسق وأستوسق. قال: مستوسقات لو يجدن سائناً ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه وستره وأوى إليه من الدواب وغيرها.

وَأَلْقَمَرٍ إِذَا أَتَقَّ ﴿١٨﴾

﴿إذا اتسق﴾ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة.

لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قري: لتركبن على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان، ولتركبن بالضم على خطاب الجنس لأن النداء للجنس، ولتركبن بالكسر على خطاب النفس، وليركبن بالياء على ليركبن الإنسان. والطبق ما طابق غيره. يقال: ما هذا طبق لكذا، أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق. وإطباق الثرى ما تطابق منه. ثم قيل للحال المطابقة لغيرها: طبق، ومنه قوله عز وعل: ﴿طابقاً عن طبق﴾ أي: حالاً بعد حال كل واحدة مطابقة لاختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة. من قولهم: هو على طبقات، ومنه طبق الظهر لفقاره الواحدة طبقة على معنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها.

فإِن قُلْتُمْ: ما محل عن طبق؟ قُلْتُمْ: النصب على أنه صفة لطبقاً، أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو حال من الضمير في لتركبن، أي: لتركبن طبقاً مجاوزين لطبق، أو مجاوزة على حسب القراءة. وعن مكحول: كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لا يسجدون﴾ لا يستكينون ولا يخضعون، وقيل: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم: وأسجد، واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر فنزلت^(٤) وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على وجوب السجدة، وعن ابن عباس: ليس في المفصل سجدة. وعن

وعن النبي ﷺ أنه قال: «من يحاسب يحاسب حساباً يسيراً». قال: «ذلكم العرض من نوقش في الحساب عنب».

وَوَقَّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ سَرُّرًا ﴿٢٣﴾

﴿إلى أهله﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين أو إلى فريق المؤمنين أو إلى أهله في الجنة من الحور العين.

وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابَ رَبِّهِ ظَهْرًا ﴿٢٤﴾

﴿وراء ظهره﴾ قيل: تغل يمانه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقيل: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره.

سَوَّافٍ يَدْعُوا بُرًّا ﴿٢٥﴾

﴿يدعو لبوراً﴾ يقول: يا ثوراه والثبور الهلاك.

وَيَسْرَلُ سَيْرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ كَانَ فِي أَهْلِهِ سَرُّرًا ﴿٢٧﴾

وقرئ: ﴿ويصلى سعيراً﴾ كقوله ﴿وتصلية جحيم﴾^(٢) ويصلى بضم الياء والتخفيف. كقوله: ﴿ونصله جهنم﴾^(٣) ﴿في أهله﴾ فيما بين ظهرانيهم أو معهم على أنهم كانوا جميعاً مسرورين، يعني: أنه كان في الدنيا مترقفاً بطراً مستبشراً كعادة الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب، ولم يكن كئيهاً حزينا متفكراً كعادة الصالحاء والمتقين وحكاية الله عنهم إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين.

إِنَّكَ ظَنَّ أَنْ أَنْ يَحُورَ ﴿٢٨﴾

﴿ظن أن لن يحور﴾ لن يرجع إلى الله تعالى تكنيهاً بالمعاد. يقال: لا يحور ولا يحول. أي لا يرجع ولا يتغير، قال لبيد: يحور زماناً بعد إذ هو ساطع. وعن ابن عباس: ما كنت أنري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها: حوري. أي: ارجعي.

يَعْنِي إِنْ رَيْتَ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿٢٩﴾

﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي في لن يحور أي: بلى ليحورن. ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها. وقيل: نزلت الآيات في أبي سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد.

فَلَا أُقِيمُ وَالشَّقِيُّ ﴿٣٠﴾

الشفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط

(2) سورة الواقعة، الآية: 94.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) لم يخرج الزليعي.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فراجع حتى

يعرفه (الحديث رقم: 103) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة، باب:

إثبات الحساب (الحديث رقم: 2876 - 2877).

محمد وسائر الامم. وقيل: يوم التروية ويوم عرفة. وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة، وقيل: الحجر الأسود والحجيج. وقيل: الايام والليالي وبنو آدم. وعن الحسن: ما من يوم إلا وينادي اني يوم جديد واني على ما يعمل في شهيد، فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تتركني إلى يوم القيامة، وقيل: الحفظة وبنو آدم، وقيل: الانبياء ومحمد عليه السلام.

تِلْ أَمْصَبُ الْأَخْدَوِ ①

فإن قُلْتَ: أين جواب القسم؟ قُلْتُ: محنوف يدل عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾. كانه قيل: أقسم بهذه الاشياء انهم ملعونين. يعني: كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على اذى اهل مكة، وتنكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان والحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم، حتى يانسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحروقين بالنار ملعونين أحقاء بأن يقال فيهم: قتل قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود. وقتل دعاء عليهم، كقوله: ﴿قتل الإنسان ما كفره﴾⁽²⁾ وقرئ: ﴿قتل﴾ بالتشديد، والأخدود: الخد في الأرض وهو الشق ونحوها بناء ومعنى الخق والأخقوق ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جردان. روي عن النبي ﷺ أنه قال: كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضمَّ إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس فاخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الاكمة والابرس ويشفي من الادواء. وعمي جليس للملك فابراه فابصره الملك فسأله فقال: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن بينه، فخذ بالمنشار وأبى الغلام. فذهب به إلى جبل لي طرح من نروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به ليغرقوه، فدعا فانكفات بهم السفينة فغرقوا ونجا. فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جزع، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: أمنا برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فأمر بأخايد في اقواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقااست أن تقع فيها فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق

أبى هريرة رضي الله عنه أنه سجد فيها. وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها⁽¹⁾. وعن انس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة.

﴿الذين كفروا﴾ إشارة إلى المنكورين.

وَأَفْهَ أَعْلَمَ بِمَا يُوعُونَ ②

﴿بما يوعون﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغى والبغضاء.

فَيَنْزِعُهُمْ بِمَذَابٍ أَلِيمٍ ③

أو بما يجمعون في صفوفهم من أعمال السوء ويدخرون لانفسهم من العذاب.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ④

﴿إلا للذين آمنوا﴾ استثناء منقطع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة انشقت أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البروج مكية

وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ ⑤

هي البروج الاثنا عشر وهي قصور السماء على التشبيه، وقيل: البروج النجوم التي هي منازل القمر، وقيل: عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها، وقيل: أبواب السماء.

وَالْيَوْمِ الْوَعُودِ ⑥

﴿واليوم للوعود﴾ يوم القيامة.

وَرَبَّانِيٍّ وَمَنْشُورٍ ⑦

﴿وشاهد ومشهور﴾ يعني: وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه. والمراد بالشاهد من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من عجائب وطريق تنكيرهما: إما ما نكرته في قوله علمت نفس ما أحضرت، كأنه قيل: وما أقرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما الإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما فقيل: الشاهد والمشهود محمد ﷺ ويوم القيامة، وقيل: عيسى وأمه. لقوله: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. وقيل: أمة

(2) نكره التعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي 4/

178

(3) سورة عبس، الآية: 17.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجدة إذا السماء انشقت (الحديث رقم: 1074)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (الحديث رقم: 1018

الرقيات:

ما نقصوا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وقرأ أبو حيوية: نقموا بالكسر والفصيح: هو الفتح،
ونكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو
كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه، حميداً منعماً يجب له
الحمد على نعمته ويرجى ثوابه.

الَّذِي لَمْ تَكُ الْأَرْضُ وَالْأَسْمَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠﴾

﴿له ملك للسموات والأرض﴾، فكل من فيهاما تحق
عليه عبادته والخشوع له تقديراً لأن ما نقصوا منهم هو
الحق الذي لا ينقمة إلا مبطل منهمك في الغي وإن الناقلين
أهل للانتقام الله منهم بعداب لا يعمله عذاب. ﴿والله على
كل شيء شهيد﴾ وعيد لهم. يعني: أنه علم ما فعلوا أو
هو مجازيهم عليه.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنَّا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِمَّا لَمْ يَأْتُوا ظَهْرَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَكِنَّ
عَذَابَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾

يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأعداء خاصة،
وبالذين آمنوا المطروحين في الأعداء، ومعنى: فتنوهم،
عذبوهم بالنار وأحرقوهم. ﴿فلهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب
جهنم﴾ بكفرهم ﴿ولهم عذاب للحريق﴾ وهي نار أخرى
عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين، أو لهم
عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا. لما
روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد
الذين فتنوا المؤمنين أي: بلوهم بالأذى على العموم،
والمؤمنين المفتونين وأن للفاتنين عذابين في الآخرة:
لكفرهم ولقتنتهم.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾

البطش الأخذ بالعنف، فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف
وتفاقم وهو بطشه بالجبايرة والظلمة وأخذهم بالعذاب
والانتقام.

إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَدِئُ ﴿١٤﴾

﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: يبدئ البطش ويعيده،
يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دل باقتداره
على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، أو أوعد الكفرة بأنه
يعيدهم كما أبداهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء
وكتبوا بالإعادة، وقرئ: يبدأ.

فاثتمت^(١). وقيل: قال لها قعي ولا تنافقي. وقيل: قال لها
ما هي إلا غميضة فصبرت، وعن علي رضي الله عنه أنهم
حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا
متمسكين بكتابتهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها
بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندب وطلب
المخرج. فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها
الناس إن الله أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك
فتقول إن الله حرمه، فخطب فلم يقبلوا منه، فقالت له:
ابسط فيهم السوط. فلم يقبلوا. فقالت له: ابسط فيهم
السيف. فلم يقبلوا، فأمرته بالآخايد وإيقاد النيران وطرح
من أبي فيها. فهم الذين أرادهم الله بقوله: قتل أصحاب
الأعداء^(٢). وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين
عيسى عليه السلام فدعاهم فاجابوه فسار إليهم نو نواس
اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية
فأبوا. فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الآخايد. وقيل:
سبعين ألفاً^(٣). ونكر أن طول الأعداء أربعون نراعاً
وعرضه اثنا عشر نراعاً^(٤). وعن النبي ﷺ أنه كان إذا نكر
أصحاب الأعداء تعوذ من جهد البلاء^(٥).

أَلَا تَرَى ذَاتَ آوْتُو ﴿١٥﴾

﴿النار﴾ بدل اشتمال من الأعداء ﴿ذات الوقود﴾
وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من
الحطب الكثير وأبدان الناس. وقرئ: الوقود بالضم.

إِذْ هَرَّ عَنَّا قَوْمٌ ﴿١٦﴾

﴿إذ﴾ ظرف لقتل أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدتين
حولها. ومعنى: ﴿عليها﴾ على ما يدنو منها من حافات
الأعداء. كقوله: وبات على النار الندى والمعلق. وكما تقول:
مررت عليه ترديد مستعلياً لمكان يدنو منه.

وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿١٧﴾

ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين أنهم وكلوا بذلك
وجعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك إن أحداً
منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب. ويجوز
أن يراد أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون
شهادتهم يوم القيامة يوم تشهد عليهم أسنتهم وأيديهم
وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٨﴾

﴿وما نقصوا منهم﴾ وما عابوا منهم وما نكروا إلا
الإيمان، كقوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم. قال ابن

المعرفة 184/4.

(3) نكره ابن هشام في السيرة 1/35.

(4) نكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 4/155.

(5) رواه ابن أبي شيبة 13/227 في كتاب: الزهد، باب: عن النبي ﷺ في الزهد.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الادعية، (الحديث رقم: 873) وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج، (الحديث رقم: 3340) وأخرجه أحمد في المسند 17/6.

(2) قال الزيلعي: رواه عبد بن حميد في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحد في الوسيط، وأخرجه البيهقي في كتاب: =

في الدنيا عشر حسنات»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطارق مكية

رَأَيْتَهُمُ اللَّائِكِينَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا اللَّائِكَةُ ﴿٢﴾ أَن تَكُونَ أُنثَىٰ ﴿٣﴾

﴿النجم الثاقب﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه. كما قيل: درى لأنه يدرؤه أي: يدفعه، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالميل، كما يقال: للآتي ليلاً طارق، أو لأنه يطرق الجنى أي: يصكه. والمراد: جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرحم بها.

فإن قلت: ما يشبه قوله: وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب، إلا ترجمة كلمة بأخرى. فبين لي أي فائدة تحتها؟ قلت: أراد الله عز من قائل أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيماً له لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة، وأنه ينبه على ذلك. فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره وهو الطارق. ثم قال: وما أدراك ما الطارق؟ ثم فسره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ كل هذا إظهار لفخامة شأنه. كما قال: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وأنه لقسم لو تعلمون عظيم»⁽⁴⁾ روي أن أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ فانحط نجم فامتلا ماثم نوراً فجزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال عليه السلام: «هذا نجم روي به وهو آية من آيات الله». فعجب أبو طالب فنزلت⁽⁵⁾.

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

فإن قلت: ما جواب القسم؟ قلت:

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ لأن إن لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة بمعنى: إلا أن تكون نافية، وفيمن قرأها مخففة على أن ما صلة تكون مخففة من الثقيلة، وأينهما كانت فهي مما يتلقى به القسم حافظ مهيم عليها رقيب وهو الله عز وجل وكان الله على كل شيء رقيباً وكان الله على كل شيء مقبلاً، وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر. وروي عن النبي ﷺ: وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذوبون عنه كما يذوب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين⁽⁶⁾.

وَمَا الْقَوْرُ الْوَدُودُ ﴿٥﴾

وقرئ: يبدأ ﴿الوود﴾ الفاعل باهل طاعته ما يفعله الوود من إعطائهم ما أرادوا.

ذُرِّ التَّرْتِيبِ الْجِيدُ ﴿٦﴾

وقرئ: ذي العرش صفة لربك، وقرئ: المجيد بالجر صفة للعرش ومجد الله عظمته، ومجد العرش علوه وعظمته.

فَأَلَّا لِيَأْ بَرِيءٌ ﴿٧﴾ هَلْ أَنْتَ حَسْبُ لِمُؤَدِّهِ ﴿٨﴾

﴿فعال﴾ خبر مبتدأ محذوف. وإنما قيل: فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة⁽¹⁾.

يَرْعَوْنَ رَعُودَ ﴿٩﴾

﴿فرعون وثمود﴾ بدل من الجنود وأراد بفرعون إياه وآله كما في قوله ﴿من فرعون وملثهم﴾⁽²⁾. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود المرسل وما نزل بهم لتكذيبهم.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٠﴾

﴿بل الذين كفروا﴾ من قولك: ﴿في تكذيب﴾ أي: تكذيب واستيجاب للعذاب والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه.

وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي السَّحَابِ مُنِظِّمٌ ﴿١١﴾

والإحاطة بهم من ورثتهم، مثل لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به، ومعنى الإضراب أن أمرهم عجب من أمر أولئك لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا وكنبوا أشد من تكذيبهم.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١٢﴾

﴿بل هو﴾ أي: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قرآن مجيد﴾ شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه، وقرئ: قرآن مجيد بالإضافة: أي: قرآن رب مجيد. وقرأ يحيى بن يعمر: في لوح: واللوح، الهواء. يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح.

فِي تَوَجُّهِ مَحْفُوظٍ ﴿١٣﴾

﴿محفوظ﴾ من وصول الشياطين إليه. وقرئ: محفوظ بالرفع صفة القرآن. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون

(3) نكده الثعلبي وابن مردويه، والولحي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/186.

(4) سورة الواقعة، الآيتان: 75 - 76.

(5) رواه الولحي في أسباب النزول ص 250.

(6) رواه الطبراني في معجمه.

(1) قال أحمد: ما قدر الله حق قدره، هلا قال: إنه لا فاعل إلا هو، وهل المخالف لذلك إلا مشرك، وكما أراد الله تعالى على معتقد القدرية من فعل فلم يفعله، وهب أنا طرحنا النظر في مقتضى مبالغة الصيغة، ليس قد دل بقوله لما يريد على عموم فعله في جميع مراده، فما رده إلى الخصوص إلا تكوص عن النصوص.

(2) سورة يونس، الآية: 83.

يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُؤْتَى .

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿فليُنظر﴾ بما قبله؟ قلت: وجه اتصاله به أنه لما نكر أن على كل نفس حافظًا اتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من نشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. و﴿مخلق﴾ استفهام جوابه.

يُؤْتَى مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ .

﴿مخلق من ماء دافق﴾. والنفع صب فيه نفع، ومعنى دافق: النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق، كاللابن والتامر، أو الإسناد المجازي والدفق في الحقيقة لصاحبه. ولم يقل مامين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه.

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أُنْثَى وَالرَّأْيِ .

﴿من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام الصدر حيث تكون القلاية، وقرئ: الصلب بفتحيتين، والصلب بضميتين. وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصلب، قال للعجاج: في صلب مثل: العنان المؤدم، وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

إِنَّهُ عَلَّمَ رَبِّيَ نَتَائِرَ .

﴿إنه﴾ الضمير للخالق لدلالة خلق عليه. ومعناه: أن ذلك الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفة ﴿على رجعه﴾ على إعادته خصوصًا ﴿للقادر﴾ لبين القدرة لا يلتفت عليه ولا يعجز عنه. كقوله: إنني لفقير.

يَوْمَ تَبَى الرَّأْيِ .

﴿يوم تبى﴾ منصوب برجعه ومن جعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بمضمر. ﴿السراير﴾ ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفي من الأعمال. وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث. وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد:

سبقت لها في مضمرة القلب والحشا سريرة ويوم تبى لسراير فقال: ما أغفله عما في السماء والطارق.

فَأَلَمَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

﴿فما له﴾ فما للإنسان ﴿من قوَّة﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها، ﴿ولا ناصر﴾ ولا مانع يمنعه، سمي المطر رجماً كما سمي أوباً قال:

رباه (1) شماء (2) لا يايوي لقلتها (3) إلا السحاب وإلا الأوب (4) والسبيل وأنته ذات أنج (5).

تسمية بمصدري رجع وأب، وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرابوا التفاؤل فسموه رجماً وأوباً ليرجع ويؤب. وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً قالت الخنساء: كالرجع في المبعثة السارية.

وَالْأَرْضِ ذَاتِ السَّعْيِ .

والصدع ما يتصدع عنه الأرض من النبات.

إِنَّهُ لَنَزَّلَ مَنًى .

﴿إنه﴾ الضمير للقرآن، ﴿فصل﴾ فاصل بين الحق والباطل. كما قيل له: فرقان.

وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ .

﴿وما هو بالهزل﴾ يعني: أنه جد كله لا هواده فيه. ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور معظماً في القلوب، يترفع به قارنه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وإن يلقي ذهنه إلى أن جبار السموات يخاطبه فيأمره وينهاه ويوعده ويوعده، حتى إن لم يستغزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فأنسى أمره أن يكون جاداً غير هازل. فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله: وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامعون والغوا فيه.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا .

﴿إنهم﴾ يعني: أهل مكة يعملون المكائد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق.

وَأَكِيدُ كَيْدًا .

وأنا أقابلهم بكيدي من استدراجي لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم.

فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ أَن يَأْتِيَهُمُ الرَّبُّ .

﴿فويل للكافرين﴾ يعني: لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به. ﴿أهلهم رويداً﴾ أي: إمهالاً يسيراً، وكردّ وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات» (6).

(4) الأوب: النحل.

(5) نكره الثعلبي، والواحدي، وابن مروييه في تفاسيرهم، زيلعي: 4/

(1) رباه: من ربا إذا علا وارتفع.

(2) شماء: من شمم بمعنى الارتفاع، ويقال: اسم كمة.

(3) لقلتها: أي لعلوها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحْمَنِ

سورة سبح اسم ربك الأعلى مكية

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧﴾

أسود، ويجوز أن يكون أحوى حالاً من المرعى، أي: أخرجته أحوى أسود من شدة الخضرة والري فجعله غشاءً بعد حوته بشرة الله بإعطاء آية بيّنة وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينسأه.

﴿إلا ما شاء الله﴾ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته، كقوله: أو ننسأه، وقيل: كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل فقيل: لا تعجل فإن جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءةً مكررةً إلى أن تحفظه ثم لا تنسأه إلا ما شاء الله ثم ننكره بعد النسيان، أو قال: إلا ما شاء الله، يعني: القلة والنثرة، كما روي أنه أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فساله فقال: نسيتها. أو قال: إلا ما شاء الله⁽²⁾. والغرض نفي النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء. وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وقيل قوله: فلا تنسى، على النهي والألف مزيدة للفاصلة كقوله: السبيل. يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنسأه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. ﴿إنه يعلم الجهر﴾ يعني: أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر فلا تفعل فانا أكفيك ما تخافه، أو يعلم ما أسرتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم وما ظهر ويطن من أحوالكم وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه فينسى من الوحي ما يشاء ويترك محفوظاً ما يشاء.

وَيُبَيِّنُكَ لِلشَّرِّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿٨﴾

﴿ونيسرك لميسري﴾ معطوف على سنقرتك وقوله: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض، ومعناه: نوفك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، يعني: حفظ الوحي. وقيل: للشرعية السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً. وقيل: نوفك لعمل الجنة.

﴿فإن قلنت﴾ كان الرسول ﷺ مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع؟ قلنت: هو على وجهين: أحدهما أن رسول الله ﷺ قد استفرغ مجهوده في تنكيرهم وما كانوا يزيبون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغياناً، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلفهاً ويزداد جداً في تنكيرهم وحرصاً عليه. فقيل له: وما أنت عليهم بجبار فنكر بالقرآن من يخاف وعيد وأعرض عنهم وقل سلام.

فَذَكِّرْ إِن نَّمَى الذُّكْرَى ﴿٩﴾

تسبيح اسمه عز وعلا تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه كالجبر والتشبيه. ونحو ذلك مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاعتدال لا بمعنى العلو في المكان والاستواء على العرش حقيقة، وأن يسان عن الابتذال والنكر لا على وجه الخشوع والتعظيم. ويجوز أن يكون الأعلى صفة للرب والاسم. وقرأ علي رضي الله عنه: سبحان ربي الأعلى. وفي الحديث: لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال: «اجعلوها في سجودكم»⁽¹⁾. وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود اللهم لك سجدت.

اللَّهُ عَلِيمٌ غَیْبٍ ﴿١٠﴾

﴿خلق فسوی﴾ أي: خلق كل شيء فسوی خلقه تسویةً ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم، ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم وأنه صنعة حكيم.

وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

﴿قدر فهدى﴾ قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به. يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرزايانج الغض يرد إليها بصرها. فريماً كانت في بركة بينها وبين الريف مسيرة أيام فطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرزايانج لا تخطئها فتحمك بها عينها وترجع باصرة بإذن الله. وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يحد من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغنيته وألويته وفي أبواب نياه ودينه. وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع وشوط بطين لا يحيط به وصف وأصف فسبحان ربي الأعلى. وقرئ: قدر بالتخفيف. أحوى صفة لغشاء أي.

﴿أخرج المرعى﴾، أنبته.

فَجَعَلَهُ غَشاءً أَحْوَى ﴿١٢﴾ سَنُرِيكَ فَلَا تَشْكِي ﴿١٣﴾

﴿فجعلله﴾ بعد خضرته ورفيفه ﴿غشاءً أحوى﴾ رديناً

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: صفة الصلاة، (الحديث: 1898) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (الحديث رقم: 869) وأخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب: التسبيح في الركوع، (الحديث رقم: 887) وأخرجه =

= أحمد في المسند 4/155.

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، والطبري والبخاري في الأدب المفرد، زيلعي 4/194.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: نكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له. وعن الضحاك: ونكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٧﴾

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ فلا تفعلون ما تفعلون به. وقرئ: تؤثرون على الغيبة. ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود: بل انتم تؤثرون.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْوَنُ ﴿١٨﴾

﴿خير وأبقي﴾ أفضل في نفسها وأنعم وأوم. وعن عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب.

إِنَّ هَذَا لَبَى الْأَوَّلَى ﴿١٩﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قد افلح﴾ إلى ﴿أبقي﴾، يعني: أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف وقيل: إلى ما في السورة كلها. ودوي عن أبي نر رضي الله عنه أنه سال رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة كتب: منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان⁽²⁾. وقيل: إن في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظًا للسانه عارفًا بزمانه مقبلًا على شأنه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف»⁽³⁾.

صُحِّبَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿٢٠﴾

أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد، وكان إذا قرأها قال: سبحان ربي الأعلى⁽⁴⁾، وكان علي وابن عباس يقولان ذلك وكان يجبها⁽⁵⁾، وقال: أول من قال سبحان ربي الأعلى ميكائيل⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الغاشية مكية

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١﴾

﴿الغاشية﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها، يعني: القيامة. من قوله: يوم يغشاهم الصلبي إلخ. قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ ونكر اسم ربه

ونكر إن نفعت النكرة وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التنكير، والثاني أن يكون ظاهره شرطًا ومعناه ضمًا للمتكربين وإخبارًا عن حالهم واستبعادًا لتأثير النكرة فيهم وتسجيلًا عليهم بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: عظم المكاسين إن سمعوا منك. قاصدًا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون.

سَيَذَرُكَ مَنْ كَفَىٰ ﴿٢﴾

﴿سيزرك﴾ فيقبل التنكرة وينتفع بها ﴿من يخشى﴾ الله وسوء العاقبة فينظر حتى يقوده ويفكر النظر إلى اتباع الحق. فأمًا هؤلاء فغير خاشعين ولا ناظرين فلا تأمل أن يقبلوا منك.

وَيَجْعَلُكَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٣﴾

﴿ويجعلها﴾ ويتجنب النكرة ويتحاماها ﴿الاشقى﴾ الكافر لأنه أشقى من الفاسق، أو الذي هو أشقى من الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

أَلْوَىٰ يَصِلُ نَارَ الْكَبْرِ ﴿٤﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٥﴾

﴿النار الكبرى﴾ السفلى من أطباق النار⁽¹⁾. وقيل: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا. وقيل: ثم لأن الترحج بين الحياة والموت أقطع من الصلبي فهو متراح عنه في مراتب الشدة. والمعنى: لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٦﴾

﴿تزكى﴾ تطهر من الشرك والمعاصي، أو تطهر للصلاة، أو تكثر من التقوى، من الزكاة وهو النماء، أو تفعل من الزكاة كتصلق من الصلقة.

وَنَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿٧﴾

﴿فصلى﴾ أي: الصلوات الخمس. نحو قوله: واقام الصلاة وأتى الزكاة. وعند ابن مسعود: رحم الله امرئ تصلق وصلّى. وعن علي رضي الله عنه أنه التصلق بصدقة الفطر. وقال: لا إبالي أن لا أجد في كتابي غيرها لقوله: ﴿قد افلح من تزكى﴾ أي: أعطى زكاة الفطر فتوجه إلى المصلى فصلى صلاة العيد ونكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح. وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة، (الحديث رقم: 883). وأخرجه الحاكم في المستدرک 1/263.

(5) نكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 4/197 - 198.

(6) نكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 4/197.

(1) قال أحمد: يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر في أسافل النار، والفاسق أعلى منه كما تقم له التصريح بذلك كثيرًا.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: اللبر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، (الحديث رقم: 361).

(3) نكره ابن مردويه، ونكره الثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 197/4.

تَشَقُّ مِنْ عَيْنِي كَأَنِّي ۝٥

﴿أَنِّي﴾ متناهية في الحر. كقوله: ﴿وبين حميم أن﴾ (3) الضريع يبیس الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل. قال أبو نؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا نوى وعاد ضريعاً بان عنه النحائص
وقال:

وحبسني في هزم الضريع فكلها حبياء دامية اليبدين حرود

لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي الحاقة ولا طعام إلا من غسلين! قُلْتَ: العذاب ألوان والمعذبون طبقات: فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع. لكل باب منهم جزء مقسوم.

لَا يَسْمُنُ وَلَا يَتَنَّىٰ مِنْ شَرِّحٍ ۝٧

﴿لا يسمن﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع، يعني: أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الإبل (4) وتتولع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه. ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إمطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن، أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد، وقيل: قالت كفار قريش إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿لا يسمن﴾ فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنوا بذلك وهو الظاهر فيرد قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا. فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغنٍ من جوع.

وَجُودٌ يُؤْمِلُ رَاعِيَةً ۝٨

﴿راعية﴾ ذات بهجة وحسن. كقوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ (5) أو متنعة.

لَسِيحًا رَاضِيَةً ۝٩

فصلي﴾ (1) نقل عن علي أنه قال: هو التصلّق بصدقة الفطر. وقال: لا إبالى أن لا أجد في كتابي غيرها إلخ. قال أحمد: في تلقي هذين الحكمين الآخرين من الآية تكلف، أما الأول فلأن العطف وإن اقتضى المغايرة فيقال بموجبها فنحن إن قلنا: أن تكبيرة الإحرام جزء من الصلاة فالجزء مغاير للكل فلا غرو أن يعطف عليه، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه. وأما الثاني فلأن الاسم معرف بالإضافة، وتعريف بالإضافة عهدي عند محققي الفن حتى أن القائل إذا قال: جاءني غلام زيد، ولزيد غلامان، فإنما تفهم من قوله: معيّنًا منهم بسابق عهد بينك وبينه. وهذا مهيع تعريف بالإضافة والمعهود في افتتاح الصلاة ما استمر النبي ﷺ على العمل به قولاً وفعلاً وهو التكبير المعروف. ولو تنزلنا على أنه في الآية مطلق فالحصر في قوله: تحريمها التكبير قيد إطلاقه. وعاد كلامه ونقل عن الضحاك: أن المراد نكر الله بالتكبير في طريق المصلى فصلى صلاة العيد. العذاب وقيل: النار. من قوله: وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواشٍ.

وَجُودٌ يُؤْمِلُ خَنِيْعَةً ۝٧

﴿يومئذ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خاشعة﴾ نائلة.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٢

﴿عاملة ناصبة﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل (2) والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في حور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتتت بها وتنعمت فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة. من قوله: وقدما إلى ما عملوا من عمل وهم يحسبون أنهم محسنون صنفاً أولئك الذين حبطت أعمالهم. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب. وقرئ: عاملة ناصبة على الشتم.

تَصَلَّىٰ نَارًا كَابِتَةً ۝٤

قرئ: ﴿تصلى﴾ بفتح التاء، و﴿تصلى﴾ بضمها، وتصلى بالتشديد. وقيل: المصلى عند العرب أن يحفر حفيراً فيجمعوا فيه جمراً كثيراً ثم يعملوا إلى شاة فيدسوها وسطه. فاما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصلياً.

(1) سورة الأعلى، الآية: 14.

(2) قال أحمد: الوجه الأول متعين؛ لأنّ اللظرف المنكور وهو قوله: يومئذ مقطوع عن الجملة المضاف إليها تقديراً يوم إذ غشيت، وذلك في الآخرة بلا إشكال، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها، أعني ﴿خاشعة عاملة ناصبة﴾ فكيف يتناول أعمال الدنيا.

(3) سورة الرحمن، الآية: 44.

(4) قال أحمد: فعلى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة نكرت شارحة لحقيقة الضريع، وعلى الثاني تكون صفة مخصصة.

(5) سورة المطففين، الآية: 24.

سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى إن أظماها لترتفع إلى العشر فصاعداً وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحاً القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة. قلت: وما تصنع بها، قال: انظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قُلْتَ: كيف حسن نكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة! قُلْتُ: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبوابيهم فانتظمها النكر على حسب ما انتظمها نظرهم. ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة، ولعله لم يراد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك. وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز.

وَأَلِ أَسْمَاءَ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَآلِ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ

﴿كيف رفعت﴾ رفعا بعيد المدى بلا مساك وبغير عمد. و﴿كيف نصبت﴾ نصبا ثابتا فهي راسخة لا تميل ولا تزول.

و﴿كيف سطحت﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة فهي مهاده للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلقت ورفعت ونصبت ووسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها، فحنف المفعول، وعن هرون الرشيد أنه قرأ سطحت بالتشديد والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه. أي: لا ينظرون فنكرهم ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا ينكرون.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ

﴿إنما أنت منكر﴾ كقوله: إن عليك إلا البلاغ.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ

﴿لست عليهم بمسيطر﴾ بمتسلط. كقوله: وما أنت عليهم بجبار. وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعدٍ عندهم. وقولهم: تسيطر، يدل عليه.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَرِهَ ۖ

﴿إلا من تولى﴾ استثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم ولكن من تولى ﴿وكفر﴾ منهم فإن الله الولاية والقهر فهو يعذبه.

﴿لسعيها راضية﴾ رضيت بعملها لما رأت ما آذاهم إليه من الكرامة والثواب.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ

﴿عالية﴾ من علو المكان أو المقدار.

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيِّنَةَ

﴿تسمع﴾ يا مخاطب أو الوجوه. ﴿لايئة﴾ أي: لغوا، أو كلمة ذات لغو، أو نفساً تلغو. لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. وقرئ: لا تسمع، على البناء للمفعول بالتاء والياء.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ

﴿فيها عين جارية﴾ يريد عيوناً في غاية الكثرة. كقوله: علمت نفس.

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْوُومَةٌ ۖ

﴿مرفوعة﴾ من رفعة المقدار أو السمك ليرى المؤمن يجلسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم. وقيل: مخبوة لهم، من رفع الشيء إذا خباه.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۖ

﴿موضوعة﴾ كلما أرادها وجدوها موضوعة بين أيديهم، عديدة حاضرة لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار أوساط بين الصغر والكبير. كقوله: ﴿قدروها تقديراً﴾⁽¹⁾

وَنَارًا مَّصْفُوفَةٌ ۖ

﴿مصفوفة﴾ بعضها إلى جنب بعض. مساند ومطرح أينما أراد أن يجلس على مسورة واستند إلى أخرى.

وَرِزَابٌ مَّسُومَةٌ ۖ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ

﴿وزرابي﴾ وبسط عراض فاخرة. وقيل: هي الطنافس التي لها خمل وقيق جمع زربية. ﴿مبسومة﴾ مبسوطه أو مفرقة في المجالس.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾ نظر اعتبار، ﴿كيف خلقت﴾ خلقاً عجيباً دالا على تقدير مقدر شاهداً بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالاثقال وجرحها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقاداً لكل من اقتادها بأزمته لا تعاز ضعيفاً ولا تمنع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء أنه حنث عن البعير ويبيع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون

يَمْدُئُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٦﴾.

في التنكير، ولأنَّ الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الالغاز والتعمية.

وَأَشْفَعُ وَالْوَتْرُ ﴿٢﴾.

وبالشفع والوتر إما الأشياء كلها شفعتها ووترها، وإما شفع هذه الليالي ووترها. ويجوز أن يكون شفعتها يوم النحر، ووترها يوم عرفة لأنه تاسع أيامها وذاك عاشورها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه فسرها بذلك. وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كانوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة.

وَأَيْلٌ إِنَّا سِرٌّ ﴿٤﴾.

أقسم بالليل على العموم. ﴿إنَّا يسر﴾ إذا يمضي كقوله: ﴿والليل إذا أنبر﴾ (7) ﴿والليل إذا عسعس﴾ (8) وقرئ: والوتر بفتح الواو، وهما لغتان كالخبر والحبر في العدد وفي الثرة الكسر وحده. وقرئ: والوتر بفتح الواو وكسر التاء. رواها يونس عن أبي عمرو. وقرئ: والفجر والوتر، ويسر بالتنوين وهو التنوين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق، وعن ابن عباس: وليالٍ عشر، بالإضافة يريد وليالٍ أيام عشر، وياء يسر تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وقيل: معنى يسرى يسرى فيه.

هَلْ فِي ذَلِكَ سَمٌّ لِيَّ جَمْرٍ ﴿٥﴾ أَمْ تَرَى كَيْفَ قَمَلٌ رُبَّكَ بِمَادٍ ﴿١﴾

﴿هل في ذلك﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قسم﴾ أي: مقسم به ﴿لذي حجر﴾ يريد: هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها، أو هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر، أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه. والحجر العقل لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهيةً لأنه يعقل وينهي، وحصة من الإحصاء وهو الضبط. وقال الفراء: يقال إنه لنو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، والمقسم عليه محذوف وهو ليعنبن يدل عليه قوله: ألم تر إلى قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب. قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لبني هاشم هاشم، ثم قيل: للأوليين منهم عاد الأولى، وإرم تسمية لهم باسم جددهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة. قال ابن الرقيات:

مجددًا تليدًا بناه أوله أترك عادًا وقبلها إرمًا

فإرَمَ في قوله: ﴿بعاد * إرم﴾ عطف بيان لعاد وإيدان بأنهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي

﴿العذاب الأكبر﴾ الذي هو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فإنكر﴾ (1) أي: فنكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض، وقرئ: إلا من تولى على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه وقرأ أبو جعفر المندي: إياهم التشديد، ووجهه أن يكون فيعلاً مصدر أيب فيعمل من الإياب، أو أن يكون أصله أوأبًا فعلاً من أوب.

إِنَّ لِيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٦﴾.

ثم قيل إيوأبًا كديوان في نوآن، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد وميت.

فإن قُلْتُ: ما معنى تقديم الظرف؟ قُلْتُ: معناه التشديد في الوعيد (2) وأن إياهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

ثُمَّ لِيَنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴿٧﴾.

وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي يحاسب على النقيير والقطمير. ومعنى: الوجوب، الوجوب في الحكمة (3)، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حسابًا يسيرًا» (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفجر مكية

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾.

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ (5) ﴿والصبح إذا تنفس﴾ (6) وقيل: بصلاة الفجر.

وَلِيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾.

أراد: بالليالي العشر، عشر ذي الحجة.

فإن قُلْتُ: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قُلْتُ: لأنها ليالٍ مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها.

فإن قُلْتُ: فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليالٍ معلومة معهودة! قُلْتُ: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي

(4) نكروه ابن مروييه والثعلبي في تفسيره نكروه الزيلعي 197/4.

(5) سورة العنثر، الآية: 34.

(6) سورة للتكوير، الآية: 18.

(7) سورة العنثر، الآية: 33.

(8) سورة للتكوير، الآية: 17.

(1) سورة الغاشية، الآية: 21.

(2) قال لعمد: ومعنى ثم الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته.

(3) قال لعمد: أخطأ على عادته ليس على الله واجب، وقد تقم معنى على في غير هذا، والله أعلم.

نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة.

وَرَوَّعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٦﴾

قيل له: نو الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربيهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعنيبه بالأوتاد كما فعل بامشطة بنته وبأسية.

الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْأَيْدِي فَكَفَّرُوا بِهَا الْفَسَادَ ﴿١٧﴾

﴿الذين طفَّوا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على هم الذين طفَّوا، أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٧﴾

يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، ونكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها.

إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٨﴾

المرصاد المكان الذي يترتب فيه، الرصد مفعال من رصده، كالميقات من وقته. وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب، وأنهم لا يفوتونه. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إن ربك لبالمرصاد يا فلان. عرض له في هذا النداء بانه بعض من توعد بذلك من الجبابرة فله دره أي: أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الأهواء والبذع باحتجاجة.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٩﴾

فإن قلَّت: بم اتصل قوله: ﴿فأما الإنسان﴾ (3)؟ قلَّت: بقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (4) كانه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي. فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمله إلا لعاجله وما يلذه وينعمه فيها.

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٢٠﴾

فإن قلَّت: فكيف توازن قوله: ﴿فأما الإنسان﴾ (5). ﴿إذا

كانوا فيها. ويدل عليه قراءة ابن الزبير: بعاد إرم، على الإضافة، وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: وأسأل القرية، ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. وقرأ الحسن: بعاد إرم، مفتوحتين، وقرئ: بعاد إرم، بسكون الراء على التخفيف، كما قرئ: بورقكم. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، بإضافة إرم إلى ذات العماد. والإرم: العلم. يعني: بعاد أهل اعلام ذات العماد.

إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾

و﴿ذات العماد﴾ اسم المدينة. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، أي: جعل الله ذات العماد رميماً بدلاً من فعل ربك. وذات العماد إذا كانت صفةً للقبيلة، فالمعنى: أنهم كانوا بدويين أهل عمد، أو طوال الأجسام على تشبيه جنودهم بالعمدة. ومنه قولهم: رجل معمد وعمدان إذا كان طويلاً، وقيل: ذات البناء الرقيق، وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين. وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد فملكا وقهرا، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها. فسمع بنكر الجنة فقال: ابني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عين في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد وسيخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال: هذا والله نك الرجل (1).

الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْأَيْدِي ﴿٨﴾

﴿لم يخلق مثلها﴾ مثل عاد ﴿في البلاد﴾ عظم أجرام وقوة كان طول الرجل منهم أربعمئة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقبها على الحي فيهلكهم. ولم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير: لم يخلق مثلها أي: لم يخلق الله مثلها.

وَتَمَرُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿١٦﴾

﴿جاءوا الصخر﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً كقوله: ﴿وتنتحون من الجبال بيوتاً﴾ (2) قيل: أول من

(1) نكزه الثعلبي في تفسيره الزيلعي 206/4.

(2) سورة الشعراء، الآية: 149.

(3) قال أحمد: قوله: لا يريد من الإنسان إلا الطاعة، ولا يأمره إلا بها فاسد الصدر مبني على أصله الفاسد سليم العجز.

(4) سورة الفجر، الآية: 14.

(5) سورة الفجر، الآية: 15.

فأكرمه⁽⁵⁾. وقرئ: فقدر بالتخفيف والتشديد، وأكرم من وأمانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الباء في الدرج مكتفياً منها بالكسرة.

كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله: ثم قال: بل هناك شر من هذا القول⁽⁶⁾ وهو أنّ الله يكرمهم بكثرة المال فلا يؤنون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة.

وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٨﴾

وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأتباع ويحبونه فيشحون به. وقرئ: يكرمون وما بعده بالياء والتاء. وقرئ: تحاضون أي: يحض بعضهم بعضاً. وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون بضم التاء من المحاضّة.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿٩﴾

﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ ذا لم، وهو الجمع بين الحلال والحرام. قال الحطّية:

إذا كان لما يتبع الذمّ ربه فلا نُسّ الرحمن تلك الطواحن يعني: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل: كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوارث البطلون.

وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَهُمْ حُبًّا جَمًّا ﴿١٠﴾

﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

كَلَّا إِذَا دُكِّيَ التُّرَاثُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعالهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة ويومئذ بدل من ﴿إِذَا نَكَتِ الْأَرْضُ﴾ وعامل النصب فيهما يتنكر. ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ نكاً بعد ذلك. كقوله: حسبته باباً باباً، أي: كزّر عليها لك حتى عانت هباءً منبثاً.

ما ابتلاه ربه⁽¹⁾، وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما، وأما تقول أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك! قُلْتُ: هما متوازنان من حيث إنّ التقدير، وأما هو إذا ما ابتلاه ربه. وذلك أن قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنُ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان وبخول الفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل: فإما الإنسان فقاتل ربي أكرم من وقت الابتلاء، فوجب أن يكون فيقول الثاني خبر المبتدأ واجب تقديره.

فإن قُلْتُ: كيف سمي كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ قُلْتُ: لأنّ كل واحد منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أي شكر أم يكفر، إذا قدر عليه فقد اختبر حاله أي صبر أم يجزع. فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾⁽²⁾.

فإن قُلْتُ: هلا قال فإمانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه. قُلْتُ: لأنّ البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير فليس بإمانه له لأنّ الإخلال بالتفضل لا يكون إماناً ولكن تركاً للكرامة، وقد يكون المولى مكرماً لعبده مهمبناً له وغير مكرم ولا مهين. وإذا أهدى لك زيد هدية قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

فإن قُلْتُ: فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبتته ثم أنكّر قوله: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنُ﴾⁽³⁾ ونمّه عليه كما أنكّر قوله: ﴿أَهَانَنُ﴾ ونمّه عليه! قُلْتُ: فيه جوابان: أحدهما أنه إنما أنكّر قوله: ربي أكرم من، ونمّه عليه. لأنّه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبتته وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً مستوجباً على عادة افتخارهم وجمالة أقدارهم عندهم. كقوله: إنما أوتيته على علم⁽⁴⁾ عندي. وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله إلا به وهو التقوى نون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها. والثاني أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله: ربي أهانن. يعني: أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمي ترك التفضل هواناً وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه نكر الإكرام في قوله:

= لا إته منموم معه.

(6) قال أحمد: وفي هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثاني في جوابي الزمخشري، فإنه جعل قوله: أكرم من غير منموم، ودلت هذه الآية على أنّ المعنى أنّ للمكرم بالبسط بالرزق حالتين، إحداهما: اعتقاده أنّ إكرام الله له عن استحقاقه الثانية أشدّ من الأولى، وهي أن لا يعترف بالإكرام أصلاً؛ لأنه يفعل أفعال جاحدي النعمة، فلا يؤذّي حق الله الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمسكين.

(1) قال أحمد: يريد أنه صر ما بعد أما الأولى بالاسم، وما بعد أما الثانية بالفعل، ومقصود السائل أن يكونا مصدرين إما بإسمين أو بفعلين.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(3) سورة الفجر الآية: 15.

(4) قال أحمد: والقدر لا يبعد عن ذلك؛ لأنه يرى أنّ التعميم الأعظم في الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه، ليس بتفضل ولا منون.

(5) قال أحمد: كأنه يجعل قوله: فأكرمه توطئة لذمة على قوله: أهانن =

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّعِبُوا

﴿يا ليتها النفس﴾ على إرادة القول أي: يقول الله للمؤمن يا أيتها النفس. إما أن يكلمه إكراماً له كما كلم موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك. ﴿المطمئنة﴾ الأمنة التي لا يستفزها خسوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها تلج اليقين فلا يخالجه شك، ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي بن كعب: يا أيتها النفس الأمنة المطمئنة.

فإن قلت: متى يقال لها ذلك؟ قلت: إما عند الموت، وإما عند البعث، وإما عند دخول الجنة.

أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّسَبِّحَةً

على معنى ﴿ارجعي﴾ إلى موعد ربك ﴿راضية﴾ بما أوتيت ﴿مرضية﴾ عند الله.

فَأَنْذِرْ فِي عِبَادِي

﴿فانخلي في عبادي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم.

وَأَنْذِرْ جَنِّي

﴿وانخلي جنتي﴾ معهم. وقيل: النفس الروح، ومعناه: فانخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: فانخلي في عبادي، وقرأ ابن مسعود: في جسد عبدي، وقرأ أبي: اثنتي ربك راضية مرضية، انخلي في عبدي، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة. فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلك، فحوّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله، والظاهر العموم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البلد مكية

لَا أُقِيمُ بِهَا الْكَلْبُ

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله:

وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَا الْكَلْبُ

فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عسكريه كلها ووذرائه وخواصه عن بكرة أبيهم.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا

﴿صفاً صفاً﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محققين بالجن والإنس.

رَبِّائِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ الْإِنْسَانَ وَإِنَّ لَهُ الذِّكْرَىٰ

﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾ كقوله: ﴿برزت الجحيم﴾⁽¹⁾ ودوي أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه. فأخبروا علياً رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه، ثم قال: يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - ما الذي حدث اليوم؟ وما الذي غيرك؟ فتلا عليه الآية. فقال علي له: كيف يجاء بها، قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقولونها بسبعين ألف زمام فتشرد شرده لو تركت لأحرق أهل الجمع⁽²⁾. أي: يتنكر ما فرط فيه أو يتعظ. ﴿وانسى له الذكرى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى، لا بد من تقدير حذف المضاف. وإلا فبين: يوم يتنكر وبين: وأنسى له الذكرى تنافٍ وتناقض.

يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ الْبَأْسَ

﴿قدمت لحياتي﴾ هذه وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا. كقولك: جئته لعشر ليالٍ خلون من رجب، وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَمُذِّبُ عَنْهَا أَحَدٌ وَلَا يُؤْتِي وَكَافَّةً أَحَدٌ

قرئ: بالفتح يعذب ويؤثق، وهي قراءة رسول الله ﷺ. وعن أبي عمرو: أنه رجع إليها في آخر عمره. والضمير للإنسان الموصوف. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يؤثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله: ﴿ولا تزد وزدة وذر أخرى﴾⁽³⁾ وقرئ: بالكسر، والضمير لله تعالى أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

(1) سورة النازعات، الآية: 36.

(2) نكرة الواحدي والثعلبي وابن مروي في تفسيرهم، الزيلعي 4/

(3) سورة النجم، الآية: 38.

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فأتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة. ومنه اشتقت المكابدة كما قيل: كبته، بمعنى: أهلكه. وأصله كبده إذا أصاب كبده. قال لبيد:

يا عين هلا بكيت أريد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد
أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤

والضمير في ﴿أَيْحَسِبُ﴾ لبعض صنابير قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، والمعنى: أيظن هذا الصنيد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين أن لن تقوم قيامة ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافاته بما هو عليه.

يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَأَبَدًا ⑥

ثم نكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه يقول: ﴿أَهْلَكَ مَا لَأَبَدًا﴾ يريد كثرة ما انفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر.

أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦

﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رثاء الناس وافتخارًا بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبًا، ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف، ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء، فهو حقيق يأن أعظمه بقسمي به. لقد خلقنا الإنسان في كبد أي: في مرض وهو مرض القلب وفساد الباطن. يريد الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد هو أبو الأشد وكان قويًا بسيط له الأنيم العكازي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعًا ويبقى موضع قدميه. وقيل: الوليد بن المغيرة. لبدا: قرى بالضم والكسر، جمع لبدة، ولبدة وهو ما تلبد يريد الكثرة. وقرى: لبدا بضمين، جمع لبود، ولبداً بالتشديد جمع لا بد.

أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ⑧

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المرثيات.

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨

﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم عن ضمائره، ﴿وشفتين﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب والنفخ وغير ذلك.

﴿وانت حل بهذا البلد﴾ يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ ويعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده بفتح مكة تنميًا للتسلية والتنفيس عنه. فقال: وأنت حل بهذا البلد، يعني: وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان⁽¹⁾. ثم قال: إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يخلو خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد. فقال العباس: يا رسول الله إلا الأنخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا. فقال ﷺ: إلا الأنخر⁽²⁾.

فإن قلنت: أين نظير قوله: وأنت حل في معنى الاستقبال؟ قلنت: قوله عز وجل: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾⁽³⁾ ومثله وأسع في كلام العباد. تقول لمن تعده الإكرام والحياء: أنت مكرم محبو. وهو في كلام الله واسع لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفأك دليلًا قاطعًا على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتح.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ⑩

فإن قلنت: ما المراد بوالد وما ولد! قلنت: رسول الله ﷺ ومن ولده. أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه.

فإن قلنت: لم نكر؟ قلنت: للإبهام المستقل بالمدح والتعجب.

فإن قلنت: هلا قيل ومن ولد؟ قلنت: فيه ما في قوله: والله أعلم بما وضعت. أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعًا عجيب الشأن. وقيل: هما آدم وولده. وقيل: كل والد وولد.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ⑪

(1) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: قتل الأسير (الحديث رقم: 3044)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز دخول مكة بغير إحرام (الحديث رقم: 1357 450).

(2) رواه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يحل القتال بمكة (الحديث رقم: 1834)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة =

= وصيدها (الحديث رقم: 445، 1353).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/217، وأحمد في المسند 4/299 والبيهقي في الشعب، باب: في العتق ووجه التقرب إلى الله عز وجل (الحديث رقم: 4335).

وَعَدَيْتَهُ أَتَجَلِّتِينَ ﴿١٦﴾

﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقَي الخير والشر. وقيل: الشئين.

فَلَا أَتَنَّمَّ الْعَبَّةَ ﴿١٧﴾

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله لا أن يهلك مالاً لبداً في الرياء والفخر فيكون مثله كمثل ربح صر أصابت حرت قوم الآية.

فإن قلت: فلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكررة. ونحو قوله: فأي أمر سيبر، لا فعله لا يكاد يقع فما لها لم تكرر في الكلام الأوضح! قلت: هي متكررة في المعنى لأن معنى: فلا اقتحم العقبة، فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً، إلا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك. وقال الزجاج قوله ثم كان من الذين آمنوا يدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. والاقترام، الدخول والمجازة بشدة ومشقة، والقحمة الشدة وجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحاماً لها لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة، والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

وَمَا أَدْرَبَكَ مَا الْعَبَّةُ ﴿١٧﴾

﴿وما أدرك ما العقبة﴾ اعتراض ومعناه: أنك لم تدرك صعوبتها على النفس وكثرة ثوابها عند الله.

فَكَ رَقِيَّةٌ ﴿١٨﴾

وفك الرقبة تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: بلني على عمل ينخلني الجنة. فقال: تعتق النسمة وتفك الرقبة. قال: أوليسا سواء. قال: لا إعتاقها أن تنفرد بعقبتها، وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم. والعتق والصدقة من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة أبيضه في ذي قرابة أو تعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأن النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار»⁽¹⁾. قرئ: فك رقبة أو إطعام، على هي فك رقبة أو إطعام. وقرئ: فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم العقبة. وقوله:

أَوْ يَلْمُنْ فِي يَوْمِ ذِي مَعْبُوتٍ ﴿١٩﴾ يَبِينَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿٢٠﴾ أَوْ يَسْتَكْبِرُ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿٢١﴾

والمسغبة والمقربة والمترية: مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب. وأما أترب فاستغنى. أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة. كما قيل: أترى، وعن النبي ﷺ في قوله: ذا مترية: الذي ماواه المزابل⁽²⁾. ووصف اليوم بذى مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة نصبه بإطعام، ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

نُدَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَوَأَسْرًا بِالسَّيْرِ وَوَأَسْرًا بِالرَّحْمَةِ ﴿٢٢﴾

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت، لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به. والمرحمة، والرحمة. أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلئ بها المؤمن. وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله.

أُولَئِكَ أَحْصَى الْيَمِينَةَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَانِي هُمْ أَصْحَابُ النَّشْتَةِ ﴿٢٤﴾

اليمينة والمشامة اليمين والشمال، أو اليمن والشؤم. أي: اليمامين على أنفسهم والمشائيم عليهم.

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَسَّسَةٌ ﴿٢٥﴾

قرئ: مؤسدة بالواو والهمزة، من أوصلت الباب وأصدته إذا أطبقته وأغلقته. وعن أبي بكر بن عياش: لنا إمام يهزم مؤسدة فأشتهي أن أسد أني إذا سمعته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ: لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة»⁽³⁾.

(3) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم. الزيلعي 4/

(1) رواه الحاكم في المستدرک 211/2.

(2) ذكره ابن مردويه من رواية مجاهد عن ابن عمر وأخرجه الحاكم في المستدرک عند ابن عباس بنحوه. ابن حجر ص 185.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشمس مكية

وَأَنْتُمْ وَضَعَهَا ①

ضحاها ضوءها إذا أشرقت وقام سلطانها. ولذلك قيل: وقت الضحى، وكان وجهه شمس الضحى. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف.

وَأَنْتُمْ إِذَا لَأْتَهَا ②

﴿إِذَا تَلَاهَا﴾ طالماً عند غروبها آخذاً من نورها، وذلك في النصف الأول من الشهر، وقيل: إذا استدار فتلاها في الضياء والنور.

وَأَنْتُمْ إِذَا جَلَّتْهَا ③

﴿إِذَا جَلَاهَا﴾ عند انتفاخ النهار وانبساطه لأن الشمس تنجلي في تلك الوقت تمام الانجلاء، وقيل: الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها نكر. كقولهم: أصبحت باردة، يريون الغداة. وأرسلت، يريون السماء.

وَأَنْتُمْ إِذَا يَسَّنَّهَا ④

إذا يغشاها فتغيب وتظلم الآفاق.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الأمر في نصب إذا معضل؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: مررت أمس بزيد واليوم عمرو. وإما أن تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على

استكراهه! قُلْتُ: الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطاراً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل وأضمر فكانت الواو قائمة مقام الفعل والباء سادة مسددهما معاً. والواوات العواطف نوابغ عن هذه الواو فحققن أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعاً. كما تقول: ضرب زيد عمراً، وبكر خالدًا فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها.

جعلت ما مصدرية في قوله: ﴿وما بناها﴾ ﴿وما طحاها﴾ ﴿وما سواها﴾. وليس بالوجه لقوله: فآلهما، وما يؤدي إليه من فساد النظم. والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية. كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها في كلامهم سبحانه ما سخركن لنا.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لم نكرت النفس؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يريد نفساً خاصةً من بين النفوس وهي نفس آدم كأنه قال: وواحدة من النفوس، والثاني أن يريد كل نفس وينكر للكثير عن الطريقة المذكورة في قوله: علمت نفس.

فَأَقَمَهُمَا جُورَماً وَتَقَوَّيْهَا ⑤

ومعنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعاقلهما وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه⁽¹⁾ عن اختيار ما شاء منهما بليليل قوله:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑥ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑦

﴿قد أفلح من رزقها وقد خاب من دسها﴾ فجعله فاعل التزكية والتسوية ومتوليها. والتزكية الإنماء والإعلاء بالتقوى.

(1) قال أحمد: بين في هذا الكلام نوعين من الباطل أحدهما: في قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعاقلهما، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، والذي يكنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل، ألا ترى إلى قوله: إعاقلهما أي: خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح، وإنما اغتتم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد، والذي يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا: إن الحسن والقبح لا يدركان بالسمع؛ لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التي ليست عندها بصفات الأفعال، فإننا لا نلغي حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية، بل لا بد في علم كل حكم شرعي من المقدمتين العقلية، وهي الموصلة إلى العقيدة، وسمعية مفرعة عليها وهي الدالة على خصوص الحكم على أن تعلقه بظاهر لو سلم ظهوره في قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب. النزعة الثانية: وهي التي كشف القناع في إبرازها أن التزكية وقيمتها ليسا مخلوقين لله تعالى، بل لشركائه المعتزلة، وإنما تعارضه في الظاهر من فعوى الآية، على أنه لم ينكر وجهاً في الرد على من قال: وأن الضمير لله تعالى، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة، فنقول: لا مرأ في احتمال عود للضمير إلى الله تعالى وإلى ذي النفس، لكن عوده =

= إلى الله تعالى أولى لوجهين، أحدهما: أن الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله: ﴿والسماء وما بناها﴾ وهلم جرا، والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالاتفاق، ولم يجر لغير الله تعالى نكر، وإن قيل يعود للضمير إلى غيره، فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمناً واستلزماً، لا نكراً ونطقاً، وما جرى نكروه أولى أن يعود للضمير عليه، الثاني: أن الفعل المستعمل في الآية التي استدلل بها في قوله: ﴿قد أفلح من رزقها﴾ تفعل ولا شك أن تفعل مطاوع فعل، فهذا بان يدل لنا أولى من أن يدل له؛ لأن الكلام عندها نحن قد أفلح من رزقها الله فتزكى، وعنده الفاعل في الاثنين واحد، أضاف إليه الفعلين المختلفين، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ونحن عنه في غنية، على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتسوية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات؛ لأن له عندها اختياراً وقدرة ومقارنة، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى، ونفي الشريك أن نجعل قدرة للعبد مؤثرة خالقة، فهذا جوابنا على الآية تنزلاً، وإلا فلم ينكر وجهاً من الرد فيلزمنا الجواب عنه، وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة فالسكوت، والله الموفق.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى: فسواها بالأرض، أو في الهلاك ولا يخاف عقبي هلاكها. وفي مصاحف أهل المدينة والشام فلا يخاف. وفي قراءة النبي ﷺ: ولم يخف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشمس فكأنما تصنق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الليل مكية

وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَى ﴿١﴾

المغشى إما الشمس من قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾⁽²⁾ وإما النهار من قوله: ﴿يغشى الليل النهار﴾⁽³⁾ وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إذا وقب﴾⁽⁴⁾.

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾

﴿تجلى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطول الشمس.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾

﴿وما خلق﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقيل: هما آدم وحواء. وفي قراءة النبي ﷺ والذكر والأنثى، وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى، وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى، بالجر على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى: وما خلقه الله. أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه. وقيل: إن الله لم يخلق خلقاً من نوي الأرواح ليس بنكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالنكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه نكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً كان خائناً؛ لأنه في الحقيقة إما نكراً وأنثى وإن كان مشكلاً عندنا.

إِنَّ سَعْيَكُم لَنَاقٍ ﴿٤﴾

﴿سعتي﴾ جمع شتيت أي: إن مساعيكم أشتات مختلفة وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

﴿أعطى﴾ يعني: حقوق ماله. ﴿واتقى﴾ الله فلم يعصه.

والتنسية: النقص والإخفاء بالفجور وأصل نسي نسى كما قيل: في تقضض تقضى، وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ قد أفلح من تزكى وقد خاب من حمل ظلماً. وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ونسى لله تعالى وأن تانيت الراجع إلى من لأنه في معنى النفس فمن تعكيس القنوية الذين يورثون على الله قديراً هو بريء منه ومتعالٍ عنه، ويحيون ليلاليهم في تحمل فاحشة ينسبوننا إليه.

فإن قلت: فإين جواب القسم؟ قلت: هو محنوف تقديره ليدمنن الله عليهم أي: على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود: لأنهم كذبوا صالحاً، وأما قد أفلح من زكاهما فكلام نابع لقوله: فالحقها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿٦﴾

الباء في ﴿بطغواها﴾ مثلها في كتبت بالقلم، والطفوى من الطفيان. فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الباء بأن قلبوا الباء واواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا: امرأة خزيًا وصديًا يعني: فعلت التكذيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجرأته على الله، وقيل: كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى، كقوله: فاهلكوا بالطاغية. وقرأ الحسن: بطغواها بضم الطاء، كالحسنى والرجمي، في المصادر.

إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٧﴾

﴿إذ انبعث﴾ منصوب بكنيت أو بالطغوى، و﴿اشقاهها﴾ قدار بن سالف، ويجوز أن يكونوا جماعة، والتوحيد لتسويتك في أفعال التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. وكان يجوز أن يقال: أشقوها كما تقول أقاضلهم. والضمير في ﴿لهم﴾ يجوز أن يكون للاشقين، والتفضيل في الشقاوة لأن من تولى العقر وبارسه كانت شقاوته أظهر وأبلغ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٨﴾

و﴿ناقة الله﴾ نصب على التحذير كقولك الأسد الأسد والصبي الصبي بإضمار نروا أو احذروا عقرها. و﴿وسقياها﴾ فلا تزوها عنها ولا تستأثروا بها عليها. فكذبوه فمروها فقدمت عليهم ربهم بذبيهم فسؤنوا ﴿٩﴾.

﴿فكذبوه﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا. ﴿فدمدم عليهم﴾ فاطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا البسها الشحم. ﴿بذبيهم﴾ بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل منذب أن يعتبر ويحذر. ﴿فسواها﴾ الضمير للدممة أي: فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

(3) سورة الاعراف، الآية: 54.

(4) سورة الفلق، الآية: 3.

(1) نكرة الثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 219/4.

(2) سورة الشمس، الآية: 4.

رَصَدًا بِالْمَسْئِ ۝١٦

وَمَا يَنبَغِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١٧

﴿وما يغني عنه﴾ استفهام في معنى الإنكار أو نفي ﴿تردى﴾ تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت، أو تردى في الحفرة إذا قبر، وتردى في حجر جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٧

﴿إن علينا للهدى﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع.

وَلَا لَنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝١٨ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٩

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي: ثواب الدارين للمهتدى كقوله: ﴿وأتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (4) وقرأ أبو الزبير تنظلي.

لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝٢٠ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝٢١ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ۝٢٢

﴿فإن قلت: كيف قال: ﴿لا يصلها إلا الأشقي﴾ وسيجزيها الآتى؟ وقد علم أن كل شقي يصلها (5)، وكل تقي يجزيها، لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجزيها الآتى﴾ (6) فقد علم أن أفسق المسلمين يجذب تلك النار المخصوصة لا الآتى منهم خاصة قلت: الآية وإردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبلغ في صفتيهما المتناقضتين. فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلى كان النار لم تخلق إلا له.

﴿وصنق بالحسنى﴾ بالخصلة الحسنة وهي الإيمان، أو بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، أو بالمتوبة الحسنى وهي الجنة.

فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ ۝٢٣

﴿فسيسره لليسى﴾ فسهيؤه لها، من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها والجمها، ومنه قوله عليه السلام كل ميسر لما خلق له (1). والمعنى: فسنتلف (2) به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها. من قوله: ﴿فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

أَلَيْسَ لِمَنْ يَخْلُقُ بِشَأْنُهَا فِي الْإِلَهَادِ ۝٢٤ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٢٥

﴿واستغنى﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة لأنه في مقابلة وأتقى.

فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ ۝٢٦

﴿فسيسره للعسرى﴾ فسندخله ونمنعه الألفاظ حتى تكون الطاعة أيسر شيء عليه وأشدّه. من قوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ (3) أو سمى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسهيدهما في الآخرة للطريقين، وقيل: نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه. وفي أبي سفيان بن حرب.

= يشوى فوق الجمر أو على العقلى أو على التنور فليس بمصلى، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقله عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضاً، وأنا وقتت عليه في كتبهم، فإذا عرفت معنى التصلية لغة وإنما أشد أنواع الإحراق بالنار، وفي علمك ان الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف: مؤمن صالح فائز، ومؤمن عاص وكافر، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفيئ نوره لهبها، ولا يؤلم بمسها البتة، وإنما يردّها تحلة القسم، والعاصي إن شاء الله تعنيبه ومجازاته، فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه، وأشدهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها البتة بوعده الله تعالى، والكافر هو المعذب بين أطباقها تبين لك أن النار لا يصلها أي: يعذب بين أطباقها كما علمت تفسيره في اللغة إلا الكافر، وهو الأشقى؛ لأن المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء، وأن المؤمن الفائز هو الآتى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجذب النار بالكلية، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها، وإن المؤمن العاصي الذي بالآتى ولا بالأشقى لا يصلها ولا يعذبها بالكلية؛ لأن وروده تحلة القسم لا يعذب فيها إلا بالصلى، فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة، وأما الزمخشري فينحرف عنها، فلا جرم أنه في عبدة الجواب يفكر ويقدر، والله أعلم.

(1) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر (الحديث رقم: 1362)، ومسلم في كتاب القدر بكيفية الخلق (الحديث رقم: 6. 2647).

(2) قال أحمد: لا يطول لسانه ههنا على أهل السنة؛ ولكن قصره الحق فتراه يؤول الكلام بل يعطله؛ لأنه يحمله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثاله روعة السارق الخائف.

(3) سورة الأنعام، الآية: 125.

(4) سورة المنكوب، الآية: 27.

(5) قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أن التخصيص ههنا لفائدة أخرى غير النفي، هما عدا المخصص وتلك الفائدة المقابلة، وحيث تمحض لك السؤال والجواب فهو يلاحظ نظر الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ فإنه لم يقل بمفهوم حصرها وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية لا لنفي ما عدا المحصور، على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المنكوب التفاتة إلى قاعته الفاسدة، وحنره أن تنقض ويأبى الله إلا نقضها ورفضها، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قتله، فتقول: المصلى في اللغة أن يحفرها حفيراً فيجمعوا فيه جمرأ كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيسوها وسطه بين أطباقه، فأما ما =

وقيل: الاتقى وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

وَأَلَيْلَ إِذَا سَجَى ﴿٢٧﴾

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلامه، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكنون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٢٨﴾

﴿وما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ: بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر فرأى أطراف المنقفة السمير والتوديع: مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي أن الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه⁽⁴⁾. وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت⁽⁵⁾. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذكارات في قوله: والذاكرين الله كثيراً. والذكارات يريد والذكارات ونحوه. فأوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٢٩﴾

فإن قلنت: كيف اتصل قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله؟ قلنت: لما كان في ضمن نفي التوديع واللقى أن الله مواسلك بالوحي إليك⁽⁶⁾. وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من تلك ولا نعمة أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من تلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنئية.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴿٣٠﴾

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعود شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة وبخول الناس في الدين أوقاجاً. والغلبة على قريظة والنضير وأجلانهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابة وأنهبهم من كنوز الكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفسق الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما اندخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

وقيل: الاتقى وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٣١﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿٣٢﴾

﴿يتزكى﴾ من الزكاة أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة.

فإن قلنت: ما محل يتزكى؟ قلنت: هو على وجهين إن جعلته بدلاً من يؤتى فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة، والصلوة لا محل لها، وإن جعلته حالاً من الضمير في يؤتى فمحله النصب.

إِلَّا أَنْبَاءَ رَبِّهِمْ لَأَكْفَى ﴿٣٣﴾

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمازاً. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حماز. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاءً قفاراً لا أنيس بها إلا الجائر⁽¹⁾ والظلمان تختلف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعاقير وإلا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولاً له على المعنى، لأن معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا كمكافأة نعمة.

وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٣٤﴾

﴿ولسوف يرضى﴾ موعود بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الضحى مكية

وَالضُّحَى ﴿١﴾

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجداً، لقوله: ﴿وَأَنْ يَحْشُرَ

(1) الجائر: ولد العقرة الوحشية.

(2) نكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم الزيلعي 4/224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿وما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 - 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

بالصانع. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

وَوَجَدَكَ عَابِلًا أُنْفَقًا ﴿٨﴾

﴿عابلاً﴾ فقيراً. وقرئ: عيلاً. كما قرئ: سبحات وعديماً، ﴿فأنفقي﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بما آفأ عليك من الغنائم. قال عليه السلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي (2). وقيل: قنعتك وأغنى قلبك.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ ﴿٩﴾

﴿فلا تهجر﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه، وفلان نو كهرورة عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبي وأمي هو ما كهرني النهر (3)، والنهم الزجر عن النبي ﷺ: «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليك أن تزيره».

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾

وقيل: إما أنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها يريد ما نكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء، وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن فحدث، أقرئه وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً قرأت كذا وصليت كذا. فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا. قال: يقول الله تعالى:

وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره. وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخير. والمعنى: أنك كنت يتيماً وضالاً وعابلاً فأواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خلقت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد نقت اليتيم. وهو أنه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقدته بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحثت بنعمة الله كلها. ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل» (4).

عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأن سوف يعطيك. كما نكرنا في لأقسم أن المعنى: لانا أقسم: ونلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء. فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر وأن يكون أصله: ولأن سوف يعطيك.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. عند عليه نعمه وأياديه وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه ترويضاً لما أراد به ليقبس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لثلاً يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿١٦﴾

و ﴿الم يجدك﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولاً وجد، والمعنى: ألم تكن يتيماً، ونلك أن أباه مات وهو جنين قد آتت عليه ستة أشهر، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته (1). ومن بدع التفسير أنه من قولهم: نرة يتيمة، وأن المعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظر فأواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى: أواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين أوي هذه الموقسة؟ وإما من أوى له إذا رحمه.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿١٧﴾

﴿ضالاً﴾ معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع. كقوله: ما كنت تدري ما الكتاب! وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليلة عند باب مكة، حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. فهذاك ففرق القرآن والشرائع، أو فإزال ضلالك عن جيك وعمك. ومن قال: كان على امر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوصهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائبة فما بال الكفر والجهل

= الكلام في الصلاة (الحديث رقم: 33 - 537).

(1) رواه الحاكم في المستدرک 605/2.

(4) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدى في تفسيرهم، الزيلعي 4/

(2) رواه البخاري تعليقاً في الكتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في

الرماح، وأحمد في مسنده 50/2.

(3) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم=

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ألم نشرح مكية

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه فكانه قيل: شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه وضعنا اعتبارًا للمعنى. ومعنى شرحنا صدرك. فسحناه حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين جميعًا، أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم.

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾

وأزلنا عنه الضيق والحرَج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملئ حكمةً وعلماً. وعن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: ألم نشرح لك بفتح الحاء. وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها.

أَلَيْسَ أَتَقَى ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

والوزر: الذي انتقض ظهره أي: حملة على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله، مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ ويغمه من فرطاته قبل النبوة، أو من جهله بالأحكام والشرائع، أو من تهالكه على إسلام أولي العباد من قومه وتلفه. ووضعناه عن أن غفر له، أو علم الشرائع، أو مهد عنده بعد ما بلغ وقرأ أنس وحللتنا وحططنا. وقرأ ابن مسعود: وحللتنا عنك وقرَك.

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

ورفع نكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب وفي غير موضع من القرآن. ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ (١) ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٢) ﴿وَاطِيعُوا اللهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (٣) وفي تسميته رسول الله ونبي الله ومنه نكره في كتب الأولين والأخذ على الأنبياء وأمهم أن يؤمنوا به.

فإن قُلْتُمْ: أي فائدة في زيادة لك والمعنى مستقل بدونه (٤)؟ قُلْتُمْ: في زيادة لك ما في طريقة الإبهام والإيضاح. كأنه قيل: ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحًا. ثم قيل: صدرك. فأوضح ما علم مبهمًا، وكذلك لك نكرت وعنك ووزرك.

فَإِن مَّعَ الْعَسْرِ بَاسِرًا ﴿٥﴾

فإن قُلْتُمْ: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِن مَّعَ الْعَسْرِ بَاسِرًا﴾ بما قبله؟ قُلْتُمْ: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فنكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثم قال: فَإِن مَّعَ الْعَسْرِ بَاسِرًا. كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تباأس من فضل الله فَإِن مَّعَ الْعَسْرِ الَّذِي أَنْتَم فِيهِ يَسِرًا.

فإن قُلْتُمْ: إن مع للصحة فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قُلْتُمْ: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرَّب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادةً في التسلية وتقوية القلوب.

فإن قُلْتُمْ: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين (٥). وقد روي مرفوعًا أنه خرج ﷺ ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين! قُلْتُمْ: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء، وإن موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول في أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرًا للأولى كما كرر قوله: ﴿وَيَلِ يَوْمئِذٍ الْمَكْذِبِينَ﴾ (٦) لتقرير معناه في النفوس وتمكينها في القلوب. وكما يكرر المفرد في قولك: جاعني زيد زيد، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مرئوف بيسر لا محالة.

إِن مَّعَ الْعَسْرِ بَاسِرًا ﴿٦﴾

والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وإنما كان العسر واحدًا لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالا، إن مع زيد مالا. وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضًا وأما اليسر فمفكر متناول لبعض الجنس فإذا كان الكلام الثاني مستأنفًا غير مكرر فقد تناول بعضًا غير البعض الأول بغير إشكال.

فإن قُلْتُمْ: فما المراد باليسرين؟ قُلْتُمْ: يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله ﷺ وما تيسر لهم في أيام الخلفاء، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَابُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ﴾ (٧) وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب.

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة النور، الآية: 52.

(3) سورة المائدة، الآية: 92.

(4) قال احمد: وقد تقدم عند الكلام على نظيرها في قوله: ﴿قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري﴾ قريب من هذا المعنى، والله اعلم.

(5) أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبي حمزة عن إبراهيم عن ابن مسعود، ابن حجر ص 185.

(6) سورة الطور، الآية: 11.

(7) سورة التوبة، الآية: 52.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التين مكية

وَالَّتَيْنِ وَالتَّوْرَةَ (١).

اقسم بهما لانهما عجيبان من بين اصناف الاشجار المثمرة. وروي انه اهدى لرسول الله ﷺ طبق من تين فاكل منه، وقال لاصحابه: «كلوا، فلو قلت أن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه. لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس»⁽³⁾. ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيباً واستاك وقال: إنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة»⁽⁴⁾. وسمعته يقول: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي». وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو تينكم هذا وزيتونكم وقيل: جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما: بالسريانية: طور تيناً وطور زيتاً لانهما منبتا التين والزيتون. وقيل: التين جبال ما بين حلوان وهمدان، والزيتون جبال الشام لانها منابتها. كانه قيل: ومنابت التين والزيتون.

وَطُورِ سِينٍ (٢).

وأضيف الطور، وهو الجبل إلى سينين وهي البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك التون بحركات الإعراب.

وَعَدَا آلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٣).

والبلد: مكة حماها الله. والأمين: من أمن الرجل أمانةً فهو أمين. وقيل: أمان، كما قيل: كرام في كريم، وأمانته أن يحفظ من نخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل، كما وصف بالأمين في قوله تعالى: «حَرَمًا آمِنًا»⁽⁵⁾ بمعنى: ذي أمن. ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين. فمُنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه، والطور: المكان الذي نودي منه موسى. ومكة: مكان البيت الذي هو هدًى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤).

فإن قُلْتُ: فما معنى هذا التنكير؟ قُلْتُ: التفخيم. كانه قيل: إن مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر. وهو مصحف ابن مسعود مرة واحدة.

فإن قُلْتُ: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه إنه لن يغلب عسر يسرين! قُلْتُ: كانه قصد باليسرين ما في قوله: يسراً من معنى التفخيم فتأوله بيسر الدارين وذلك يسران في الحقيقة.

فإن قُلْتُ: فكيف تعلق قوله:

إِذَا رَجَعْتَ فَاصْبُ (٧).

«فإنذا فرغت فانصب» بما قبله؟ قُلْتُ: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الأنفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ويتابع ويحرص على أن لا يخلى وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ننبها بأخرى. وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء. وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك. وعن الشعبي أنه رأى رجلاً يشيل حجراً فقال: ليس بهذا أمر الفارغ وقعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في بيته أو نياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة. ولقد قال عمر رضي الله عنه: إنني لأكره أن أرى أحداً فارغاً سهلاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة⁽¹⁾. وقرأ أبو السمال: فرغت بكسر الراء وليست بفصيحة. ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد أي: فانصب علياً للإمامة، ولو صح هذا للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض على وعداوته.

وَلِكُلِّ رِيٍّ قَلْبٌ نَّازِبٌ (٨).

«وإلى ريبك فارغب» واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. وقرئ: فرغب أي: رغب الناس إلى طلب ما عنده. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم نشرح فكانما جاءني وأنا مغتم ففرج عني»⁽²⁾.

(3) أخرجه أبو نعيم في كتاب: الطب، الزيلعي 241/4.

(4) رواه الطبراني في الأوسط والتعلبي في تفسيره، الزيلعي 242/4.

(5) سورة القصص، الآية: 57.

(1) حديث عمر قال عنه الزيلعي 236/4 وحديث ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة 300/13 كتاب: الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والولحي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/

﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه.

تُرْ رَدَدَتْهُ أَسْفَلَ سَفَلَيْنِ ﴿٥﴾.

ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمته تلك الخلقة الحسنة القويمة لسوية أن رددناه أسفل من سفلى خلقاً وتركيباً، يعني: أقيح من قبح صورة وأشوهه خلقاً وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفلى من أهل الدرجات، أو ثم رددناه بعد ذلك للتقويم والتحسين أسفل من سفلى. وحسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشيين جلده وكان بضاً، وكل سمعه وبصره وكانا حديبين، وتغير كل شيء منه فمشيه بليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف. وقرأ عبد الله: أسفل السافلين.

فإن قلت: فكيف الاستثناء على المذهبيين؟ قلت: هو على الأول متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾.

يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.

فإن قلت:

فَمَا يَكْفِيكَ بَعْدَ الْبَلَاءِ ﴿٧﴾.

﴿فما يكتفيك﴾ من المخاطب به؟ قلت: هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل. يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾^(١) والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرنل العمر. لا ترى قليلاً أوضح منه على قدرة الخالق وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ.

أَبَسَ اللَّهُ يَأْكُرُ لَتَكِيمِينَ ﴿٨﴾.

﴿أبس الله باحكم الحاكمين﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله. وعن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: بلى، وأنا على ذلك من الشاميين^(٢). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد ما قرأ هذه السورة»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العلق مكية

عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت. وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم.

أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾.

محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل بسم الله ثم اقرأ.

فإن قلت: كيف قال: ﴿خلق﴾ فلم ينكر له مفعولاً. ثم قال: ﴿خلق الإنسان﴾؟ قلت: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناول الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان﴾^(٤) فقيل الذي خلق مبهماً، ثم فسره بقوله خلق الإنسان تفيهما لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته.

فإن قلت: لم قال: ﴿من علق﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقه. كقوله: ﴿من نطفة﴾^(٥) ثم من علقه؟ قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع. كقوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾^(٦).

أَقْرَأَ رَبِّكَ الْأَكْرُمِ ﴿٣﴾.

﴿الأكرم﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقرار العظام. فما لكرمه غلية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: الأكرم.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ﴿٥﴾.

(١) سورة النمل، الآية: 100.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/510.

(٣) ذكره الثعلبي والواحدي، وابن مردويه، زيلعي 4/243.

(٤) سورة الرحمن، الآيات: 1 - 3.

(٥) سورة النمل، الآية: 4.

(٦) سورة العصر، الآية: 2.

أَرَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾

وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن.

أَرَيْتَ بِأَنَّهُ اللَّهُ بَرِيءٌ ﴿١٨﴾

﴿الم يعلم بأن الله يرى﴾ ويطلع على أحواله من هده وضلاله فيجزيه على حسب ذلك وهذا وعيد.

فإن قُلْتَ: ما متعلق رأيت؟ قُلْتَ: الذي ينهى مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين.

فإن قُلْتَ: فأي جواب الشرط؟ قُلْتَ: هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى الم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة نكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قُلْتَ: فكيف صح أن يكون الم يعلم جواباً للشرط؟ قُلْتَ: كما صح في قولك: إن أكرمك أكرمك. وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟

فإن قُلْتَ: فما رأيت الثانية وتوسطها بين مفعول رأيت! قُلْتَ: هي زائدة مكررة للتوكيد. وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

كَلَّا لَئِنْ لَرَّ بَنُو سُلَيْمَانَ بِأَلْيَمِيَّةٍ ﴿١٩﴾

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل وخسوه له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات. ثم قال: ﴿لئن لم ينته﴾ عما هو فيه ﴿لنسفعا بالناصية﴾ لناخذن بناصيته ولنسحبناه بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. قال عمرو بن معدي كرب:

قوم إذا يقع الصريخ رأيتهم من بين لمجم مهره أو سافع وقرى: لنسفعا بالنون المشددة. وقرأ ابن مسعود: لاسفعا. وكتبتها في المصحف بالالف على حكم الوقف ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفى بلام العهد عن الإضافة.

نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَالِفَةٍ ﴿٢٠﴾

﴿ناصية﴾ بدل من الناصية وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت فاستقلت بفائدة. وقرى: ناصية على هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطا على الإسناد المجازي وهما في الحقيقة لصاحبها، وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاتب خاطيء.

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّيْكُمْ ﴿٢١﴾

والنادي المجلس الذي يندى فيه القوم، أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي. كما قال جرير:

﴿الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط ليكفي به. ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم⁽¹⁾ رفش كمثل أراقم نطف للخطا نبيلة أقصى المدى سواد القوائم ما يجد مسيرها إلا إذا لعبت بها بيض المدى وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ ﴿٢٢﴾

﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم ينكر لدلالة الكلام عليه.

أَنْ رَأَى اسْتَنْتَضَى ﴿٢٣﴾

﴿أن رآه﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني، وذلك بعض خصائصها، ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين و﴿استغنى﴾ هو المفعول الثاني.

إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ ﴿٢٤﴾

﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان، والرجعى مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبي جهل.

أَرَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٢٥﴾ عِبْدًا إِذَا سَأَلَ ﴿٢٦﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَ الْاُنْتَكَا ﴿٢٧﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿٢٨﴾

وكذلك ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طفى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع بيننا ونتبع دينك. فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة. فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاء عليهم⁽²⁾. وروى عنه لعنه الله أنه قال: هل يغفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي يحلف به لئن رأيت توطأت عنقه. فجاءه ثم نكص على عقبيه. فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحةً فنزلت: ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ ومعناه: أخبرني عن من ينهى بعض عباد الله عن صلواته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد.

(2) قال الزيلعي: لم أجده. وقال ابن حجر: وآخره تقدم في الإسراء بغير هذا السياق.

(1) رواقم: من الرقم أي الكتابة. أراقم جمع رقم، وهي الحية التي على ظهرها نقش.

لهم مجلس صهب السبال أئمة

وقال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوهم

والمقامة: المجلس. روي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنك. فأغظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهدنتني وأنا أكثر أهل الوادي نائياً فنزلت⁽¹⁾. وقرأ ابن أبي عبلة: سيدي الزبانية على البناء للمفعول.

سَنَعُ الزَّيْنَةَ ﴿٧﴾

والزبانية في كلام العرب: الشرط. الواحد: زبانية كعفرية من الزبن وهو البقع. وقيل: زبني وكثته نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم: إمسى وأصله زباني. فقيل: زبانية على التعويض، والمراد ملائكة العذاب. وعن النبي ﷺ: ولو دعا ناييه لأخذته الزبانية عياناً⁽²⁾.

كَلَّا لَا طِيلَهُ وَأَسْمَدُ وَأَقْرَبُ ﴿٨﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل ﴿لَا طَعْمَهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه. كقوله: ﴿فَلَا طَعْمَ الْمَكْنِبِينَ﴾⁽³⁾ ﴿وَأَسْجِدُ﴾ ودم على سجودك يريد الصلاة، ﴿وَأَقْرَبُ﴾ وتقرب إلى ربك. وفي الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد⁽⁴⁾ عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله»⁽⁵⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القدر مختلف فيها

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به بون غيره، والثاني أنه جاء بضميره بون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفارة، ثم كان ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها فأكثروهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها. ولعل

الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريد لها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفروا في غيرها. ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها. من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾⁽⁶⁾ وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرها على سائر الليالي.

وَمَا أَنْزَلْنَا مَا يُلَى الْقَدْرِ ﴿٢﴾

﴿وما أنزلنا ما ليلة القدر﴾ يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتها علو قدرها.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

ثم بيّن ذلك بأنّها خير من ألف شهر، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي نكرها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم ونكر في تخصيص هذه المدة أن رسول الله ﷺ نكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك وتفاضرت إليهم أعمالهم فاعطوا ليلة هي خير من مدة تلك الغاوي⁽⁷⁾. وقيل: إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فاعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

﴿تنزل﴾ إلى السماء الدنيا. وقيل: إلى الأرض، ﴿والروح﴾ جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة. ﴿من كل أمر﴾ أي: تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: من كل امرئ أي: من أجل كل إنسان. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة.

سَكَّرَ هِيَ حَتَّى مَطَّلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿سكّر هي﴾ ما هي إلا سلامة. أي: لا يقتر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ: مطلع بفتح اللام وكسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر»⁽⁸⁾.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ﴿اقرأ﴾ (الحديث رقم: 3349).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة: «اقرأ»، باب: ﴿كَلَّا لئن لم ينته﴾ (الحديث رقم: 4958).

(3) سورة القلم، الآية: 8.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع...=

= (الحديث رقم: 215 - 482).

(5) نكره الثعلبي في تفسيره وابن مرويّه والواحدي، زيلعي 4/ 249 - 250.

(6) سورة النخاع، الآية: 4.

(7) نكره الواحدي في أسباب النزول، ص 255.

(8) نكره الثعلبي وابن مرويّه والواحدي، زيلعي 4/ 253 - 254.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَرَأَيْتُ الْيَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ عَنْ تَابِعِهِمْ
الْبَيْتَةَ ①.

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ﷺ لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ. فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ① يعني: أنهم كانوا يعنون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرّقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفكٍ مما أنا فيه حتى يبرزني الله الغني، فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، ينكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً. وانفكك الشيء من الشيء أن يزياله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة. و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة.

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ②.

﴿رسول﴾ يدل من البينة. وفي قراءة عبد الله رسولاً حالاً من البينة. ﴿صحفاً﴾ قراطيس، ﴿مطهرة﴾ من الباطل.

فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَّا جَاءَتْهُمْ الْبَيْتَةُ ④.

﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. والمراد بتفرّقهم تفرّقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرّقهم فرقاً فمنهم من آمن ومنهم من أنكر. وقال: ليس به ومنهم من عرف وعاند.

فإن قلت: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أولاً؟ ثم أقرّد أهل الكتاب في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابٍ؟﴾ قلت: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ⑤.

﴿وما أمروا﴾ يعني: في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ولكنهم حرّفوا وبللوا ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي: دين الملة القيمة. وقرئ: وذلك الدين القيمة على تأويل الدين بالملة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥.

فإن قلت: ما وجه قوله: وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ قلت: معناه. وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة.

رَبِّ الَّذِينَ آمَنُوا وَرَحِمُوا الصَّالِحِينَ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦.

وقرأ ابن مسعود: إلا أن يعبدوا. بمعنى بأن يعبدوا. قرأ نافع البريئة بالهمز والقرءاء على التخفيف. والنبي والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل. وقرئ: خيار البرية جمع خير كجياذ وطياب في جمع جيد وطيب. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساءً ومقبلاً» ②.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزلزلة مختلف فيها

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا ①.

﴿زلزلهما﴾ قرئ: بكسر الزاي وفتحها، فالمكسور مصدر، والمفتوح اسم. وليس في الأبنية فعلاً بالفتح إلا في المضاعف.

فإن قلت: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت: معناه زلزالها الذي تستوجب في الحكمة ومشية الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقى إكرامه، وأهن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه.

وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②.

الاثقال: جمع ثقل وهو متاع البيت، وتحمل اثقالكم جعل ما في جوفها من النفاثن اثقالاً لها.

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَمَّا ③.

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر القطيع. كما يقولون: من بعثنا من مردقنا؟ وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: ﴿هذا

ما وعد الرحمن وصنق المرسلون».

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما معنى تحديث الأرض والإحياء لها؟ **قُلْتُمْ:** هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان حتى ينظر من يقول: ما لها؟ إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير وشر. وروي عن رسول الله ﷺ تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها⁽¹⁾.

يَوْمَ يَرْجُؤُا خَبَرَهُمْ⁽⁴⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: إذا ويومئذ ناصبهما! **قُلْتُمْ** يومئذ بدل من إذا وناصبهما تحدث، ويجوز أن ينتصب إذا بمضمر ويومئذ بتحدث.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أين مفعولا تحدث؟ **قُلْتُمْ:** قد حذف أولهما، والثاني إخبارها. وأصله: تحدث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود نكر تحديثها الأخبار لا نكر الخلق تعظيماً لليوم.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَرْحَمُ لَهَا⁽⁵⁾.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بم تعلق الباء في قوله: «بأن ربك»؟ **قُلْتُمْ:** بتحدث معناه تحدث أخبارها بسبب إحياء ربك لها وأمره إياها بالتحديث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها. كما تقول: نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين. ويجوز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها. كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها، لأنك تقول: حديثه كذا وحديثه بكذا. و«أوحى لها» بمعنى: أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: أن نقول له كن فيكون. قال: أوحى لها القرار فاستقرت. وقرأ ابن مسعود: تنبئ أخبارها. وسعيد بن جبير: تنبئ بالتخفيف. يصدر عن مخارجهم من القبور إلى الموقف.

يَوْمَ يَرْجُؤُا بَصُرَتْهُمُ النَّاسُ أَنِ اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ⁽⁶⁾.

﴿اشْتَاتَا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين أو يصدرين عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقاً الجنة والنار ليروا جزاء أعمالهم. وفي قراءة النبي ﷺ ليروا بالفتح. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي يره بالضم.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ⁽⁷⁾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ⁽⁸⁾.

ويحكي أن أعرابياً آخر خيراً يره. فقيل له: قدمت وأخرت. فقال:

خذا بطن هرشي اقفاما فإنه كلا جانبي هرشي لهن طريق

والذرة، النملة الصغيرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

فَإِنْ قُلْتُمْ: حسنات الكافر محبطة بالكفر⁽²⁾، وسيئات المؤمن معفوة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر! **قُلْتُمْ:** المعنى فمن يعمل مثقال نرة خيراً من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال نرة شراً من فريق الأشقياء. لأنه جاء بعد قوله: يصدر الناس أشتاتاً، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات مختلف فيها

وَالْمَلَوَاتِ صَبَاً⁽¹⁾.

اقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت انفاسها⁽⁴⁾ إذا عدون. وعن ابن عباس أنه حكاها فقال: أح

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة «إذا زلزلت الأرض» (الحديث رقم: 3353) وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس، (الحديث رقم: 7360) وأخرجه الحاكم في المستدرک 532/2.

(2) قال أحمد: السؤال المبني على قاعدتين إحداهما: أن حسنات الكافر محبطة بالكفر وهذه فيها نظر، فإن حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم، وأما تخفيف العذاب بسببها فغير منكر، فقد وردت به الأحاديث الصحيحة، وقد ورد أن حاتماً يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، ورد ذلك في حق غيره كإبي طالب أيضاً، فحينئذ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرثي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأما القاعدة الثانية: وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصفات ويكفرها عن المؤمن، فمربود عند أهل السنة فإن الصفات عندهم حكمها في التكفير =

(3) أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت، وله شاهد من حديث أنس مرفوعاً، نكره ابن كثير في تفسيره: 8/480. والنطيط في تاريخه 380/11.

(4) قال أحمد: ولم ينكر حكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم فنقول: إنما عطف اثرن على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعطف معنى الفعل وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل تصوير هذه الأفعال في النفس، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير =

أ.ح. قال عنتره:

المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والثفر للثورة، وما أشبه ذلك. وقيل: الصبح لا يكون إلا للفرس والكلب والثعلب. وقيل: الضبح، بمعنى: الضبع، يقال: ضبحت الإبل، وضبعت إذا مدت أظباعها في السير، وليس بثبت وجمع هو المزلفة.

والخيل تكدح حين تضـ بح في حياض الموت ضبكا وانتصاب ضبكا على يضبحن ضبكا، أو بالعائيات. كانه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو. أو على الحال أي: ضابحات.

فَأَلْمُورِيَّتِ قَدَمَا ﴿٦﴾

فإن قُلْتُ: علام عطف فائرن؟ قُلْتُ: على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لأن المعنى: واللاتي عدون فأورين فأورن فائرن.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾

الكنود: الكفور، وكند النعمة كنودا، ومنه سمي كنده لأنه كند أباه ففارقه. وعن الكلبي: الكنود بلسان كنده العاصي، وبلسان بني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور، يعني: أنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران، لأن تفريطه في شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة، لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبيه، ثم إن عظامها في جنب أبنى نعمة الله قليلة ضئيلة.

﴿فالموريات﴾ توري نار الحباب، وهي ما ينقدح من حوافرها. ﴿قندكا﴾ قانحات صاكات بحوافرها الحجارة، والقدر: الصك. والإبراء: إخراج النار. تقول: قدح فأورى، وقدح فاصلد، وانتصب قندكا بما انتصب به ضبكا.

فَأَلْمُورِيَّتِ مَبِيًا ﴿٧﴾

﴿فالمغيرات﴾ تغيير على العدو ﴿صبكا﴾ في وقت الصبح.

فَأُتْرَنَ يَوْمَ نَمَّا ﴿٨﴾

﴿فائرن به نغما﴾ فهيجن بذلك الوقت غبارا.

﴿وانه﴾ وإن الإنسان ﴿على نلك﴾ على كنوده ﴿لشهيدي﴾ يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجده لظهور امره، وقيل: وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ﴿٩﴾

﴿فوسطن به﴾ بذلك الوقت أو بالنقع، أي: وسطن النقع الجمع، أو فوسطن ملتبسات به ﴿جمعا﴾ من جموع الأعداء ووسطه بمعنى: توسطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، وقيل: للعدو الذي دل عليه والعائيات. ويجوز أن يراد بالنقع الصياح من قوله عليه السلام: ما لم يكن نقع ولا لقلقة^(١). وقول لبيد: فمتى ينقع صراخ صانق، أي: فهيجن في المغار عليهم صياحا وجلبة، وقرأ أبو حيوة: فائرن بالشديد، بمعنى: فأظهرن به غبارا، لأن التأثير فيه معنى الإظهار أو قلب ثورن إلى ورثن وقلب الواو همزة. وقرئ: فوسطن بالشديد للتعدي، والباء مزيدة للتوكيد، كقوله: ﴿وأتوا به﴾^(٢) وهي مبالغة في وسطن، وعن ابن عباس: كنت جالسا في الحجر فجاء رجل فسألني عن العائيات ضبكا ففسرتها بالخيل، فذهب إلى علي وهو تحت سقاية زمزم فسأله ونكر له ما قلت. فقال: ادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العائيات ضبكا الإبل من عرفة إلى المزلفة، ومن المزلفة إلى منى^(٣)، فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل، كما استعير

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

﴿الخير﴾ المال من قوله تعالى: إن ترك خيرا. والشديد: البخيل الممسك. يقال: فلان شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموت يعنام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني: وإنه لأجل حب المال وإن إنفاقه يثقل عليه لبخيل ممسك، أو أراد بالشديد القوي، وإنه لحب المال ويثار الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متعاس. تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقا له ضابطا، أو أراد أن لحب الخيرات غير هش منبسط ولكنه شديد منقبض.

﴿أفلا يعلم إذا بعير ما في الأبور﴾^(١)

﴿بعير﴾ بعث وقرئ: بحثر وبحث وبحث وحصل على بنائهما للفاعل وحصل بالتخفيف.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٩﴾

(1) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النباحة على الميت وأخرجه الحاكم في المستدرک 217/3.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 533/2.

= بالمضارع بعد الماضي، وقد تقدمت له شواهد أقربها قول ابن معيكر:

بانني لقيت الغول تهوى بسهب كالصحية صحصحا

فأضربها بلا دهمش فجرت صريعا للبينين وللجران

وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف.

فَأَمَّهُ هَاوِيَةً ﴿١٠﴾

﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةً﴾ من قولهم: إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه⁽³⁾ لأنه إذا هوى أي: سقط وهلك فقد هوت أمه تكلاً وحزناً. قال:

هوت أمه ما يبعث الصبح غائباً وماذا يراد السليل حين يروى
فكانه قيل: وأما من خفت موازينه فقد هلك. وقيل: هاوية من سماء النار، وكانها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً. كما روي: يهوي فيها سبعين خريفاً⁽⁴⁾. أي: فمواها النار. وقيل: للماوى أم على التشبيه لأن الأم ماوى الولد ومفرغه. وعن قتادة: فأمه هاوية أي: فأم رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوساً.

وَمَا أَدْرَبَكَ مَا هِيَ ﴿١١﴾

﴿هيه﴾ ضمير الداهية التي دل عليها قوله: فأمه هاوية. في التفسير الأول، أو ضمير هاوية والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حنظفاً وقيل: حقه أن لا يندرج لثلا يسقطها الإدراج لأنها ثابتة في المصحف، وقد أجيز إثباتها مع الوصل. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة»⁽⁵⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التكاثر مكية

الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

الهاه عن كذا وأقهاه إذا شغله. و﴿التكاثر﴾ التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء نحن أكثر هؤلاء نحن أكثر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عنداً فكثروهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكننا في الجاهلية فعانونا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم، والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات. عبر عن بلوغهم نكر الموتى بزيارة المقابر تهكمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا

ومعنى حصل جمع في الصحف أي: أظهر محصلاً مجموعاً. وقيل: ميز بين خيره وشره، ومنه قيل للمنخل: المحصل. ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم على مقادير أعمالهم لأن ذلك أثر خبره بهم.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

وقرأ أبو السمال: إن ربهم بهم يومئذٍ خبير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزيفة وشهد جمعاً»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القارعة مكية

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَبَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة أي: تفرع.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ﴿٤﴾

﴿يوم يكون للناس كالفرش المبعوث﴾. شبههم بالفرش في الكثرة والانتشار والضعف والنزلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار. قال جدير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفرش غشين نار المصطلي
وفي أمثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل، وسمي فراشا لتفرشه وانتشاره.

وَتَكُونُ أَلْجَبَالُ كَالْهَيْهَاتِ الْمَنْفُورِ ﴿٥﴾

وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ الواناً لأنها ألوان، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها. وقرأ ابن مسعود: كالصوف.

فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾

الموازين جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، أو جمع ميزان. ونقلها رجحانها. ومنه حديث أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته⁽²⁾ له وإنما نقلت موازين من نقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق ونقلها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

= جهنم (الحديث رقم: 2575)، وأخرجه الحاكم في المستدرک 4/ 597.

(5) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، (الحديث رقم: 6478).

(1) نكره الثعلبي والولحدي وابن مريويه 297/4.

(2) رواه ابن أبي شيبة 573/14، كتاب: المغازي، باب: خلافة عمر.

(3) قال أحمد: والأول أظهر؛ لأنه مثل معروف كقولهم لامة: للهب.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة قعر =

وتعظيمه في التهديد وزيادة في التهويل. وقرئ: لتروُنْ بالهمز وهي مستكرهة.

فإن قُلْتْ: لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد! قُلْتْ: ذاك في الواو التي ضمتها لازمة وهذه عارضة لالتقاء الساكنين.

ثُمَّ لَتَرَوْهَا بَعِيدَ الْآبَتِينَ ﴿٧﴾

وقرئ: لترون ولترونها على البناء للمفعول. ﴿عين اليقين﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ويجوز أن يراد بالرؤية العلم والإبصار.

ثُمَّ لَتُنْتَأَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﴿٨﴾

﴿عن النعيم﴾ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاد به عن الدين وتكاليفه.

فإن قُلْتْ: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه فما من أحد إلا وله نعيم؟ قُلْتْ: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعيش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعيا بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما، فاما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل وكان ناهضًا بالشكر فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى أنه أكل هو وأصحابه تمرًا وشربوا عليه ماءً فقال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»⁽¹⁾. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ الهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العصر مكية

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

أقسم بصلاة العصر لفضلها ببديل قوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى﴾⁽¹⁾ صلاة العصر في مصحف حفصة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»⁽⁴⁾. ولأن التكليف في أداؤها

قبر فلان عند تفاخرهم. والمعنى: الهاكم ذلك وهو مما لا يعينكم ولا يجدي عليكم في نبياكم وأخرتكم عما يعينكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعني من كل مهم، أو أراد الهاكم التكاثر بالاموال والاولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت لا هم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لأخرتكم. وزيارة القبور عبارة عن الموت قال:

لن يخلص العام خليل عشرًا ذاق الضماد أو يزور القبر وقال:

زار القبور أبو مالك فاصبح الأم زوارها

وقرأ ابن عباس: الهاكم، على الاستفهام الذي معناه التقرير.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

﴿كلا﴾ ردع وتنبية على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه. ﴿سوف تعلمون﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم. والتكرير تأكيد للردع والإنذار عليهم.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

و﴿ثم﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل. والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدأمكم من هول لقاء الله، وإن هذا التنبية نصيحة لكم ورحمة عليكم.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَاقِينَ ﴿٥﴾

ثم كرر التنبية أيضًا وقال: ﴿لو تعلمون﴾، محذوف الجواب، يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أي: كعلمكم ما تستيقنون من الأمور التي وكلتم بعلمها همكم لفعلمت ما لا يوصف، ولا يكتنه ولكنكم ضلال جهلة، ثم قال:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾

﴿لتروُنْ للجحيم﴾ فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به. وقد مر ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه

(2) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/278.

(3) سورة البقرة، الآية: 238.

(4) أخرجه أحمد في المسند 2/54، 134 - 145. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 1/342.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة، (الحديث رقم: 3411) والنسائي في كتاب: الوصايا، باب: قضاء الدين قبل الميراث، (الحديث رقم: 3640) أخرجه أبو داود في كتاب: الأطلعة، باب: ما يقول الرجل إذا طعم (الحديث رقم: 3850) وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام، (الحديث رقم: 3457).

والوعيد عامًا ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جاريًا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أجزر له وأنكى فيه.

أَلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٦﴾

﴿الذي﴾ يدل من كل أو نصب على الذم. وقرئ: جمع بالتشديد وهو مطابق لعدده، وقيل: عدده جعله عدة لحوائث الدهر. وقرئ: وعدده، أي: جمع المال وضبط عدده وأحصاه، أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه. من قولك: فلان وعدد وعدد، إذا كان له عدد وافر من الانتصار وما يصلحهم، وقيل: وعدده معناه وعدده على فك الإدغام نحو ضننوا.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٧﴾

﴿أخلده﴾ وخلده بمعنى: أي طول المال أمه ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمه يحسب أن المال تركه خالدًا في الدنيا لا يموت، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والأجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض عمل من يظن أن ماله أبقاه حيًا، أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فاما المال فما أخلد أحدًا فيه. وروي أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار. وقيل: عشرة آلاف، وعن الحسن أنه عاد موسرًا فقال: ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لثيم، ولا تفضلت على كريم، قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزمان، وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر. قال: إن تدعه لمن لا يملك وترد على من لا يعزرك.

كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّهُ فِي أَنْفُسِنَا ﴿٨﴾

﴿كلا﴾ ردع له عن حساباته. وقرئ: لينبذان، أي هو وماله. ولينبذن بضم الذا ل أي: هو وأنصاره. ولينبذنه ﴿في الحطمة﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقي فيها. ويقال للرجل الأكل: إنه لحطمة.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لُحْمَةٌ ﴿٩﴾

وقرئ: ﴿الحاطمة﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفتنتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان المطف من الفؤاد ولا أشد تالمًا منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه.

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿١٠﴾ الَّتِي تَلْأَلُ عَلَى الْأَعْيُنِ ﴿١١﴾

اشق لتهاقت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحي لما فيها جميعًا من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿١٢﴾

والإنسان للجنس. والخسر الخسران. كما قيل: الكفر في الكفران، والمعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٣﴾

﴿وتووصوا بالحق﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. ﴿وتووصوا بالصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلى الله به عباده، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالْحَصْرِ غُفِرَ لَهُ وَكَانَ مِنَ تَوَاصِيِ بِالْحَقِّ وَتَوَاصِيِ بِالصَّبْرِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الهزرة مكية

الهز كسر كالهزم واللمز الطعن. يقال: لمزه ولهزه، طعنه، والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم، واغتيالهم والطعن فيهم، وبناء فعله يدل على أن تلك عادة منه قد ضرى بها. ونحوهما: اللعنة والضحكة. قال:

وإن أغيب فانت الهامز للزمة

وَبَلَّ يَكُلُّ هَمْزٌ لَمْزٌ ﴿١٤﴾

وقرئ: ويل للهزمة للزمة^(٢). وقرئ: ويل لكل همزة لمزة، بسكون الميم وهو المسخرة الذي يأتي بالأاويد والأصاحيك فيضحك منه ويشتم. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عاتده الغيبة والوقية، وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيالها لرسول الله ﷺ وغيظه منه، ويجوز أن يكون السبب خاصًا

(1) نكرة الثعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 281.

(2) قال أحمد: وما أحسن مقابلة الهزمة للزمة بالحطمة، فإنه لما وسه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة

منه، تتبع المبالغة بوعيد النار التي سماها بالحطمة، لما يلقي =

يكسوم وطاقره يخلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة فلما آتتها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه.

وقيل: كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ بأربعين سنة وقيل: بثلاث وعشرين سنة. وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه اعميين مقعدين يستطعمان. وفيه أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فجهره وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني جثت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فالهاك عنه نود أخذلك. فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بقلته وهو يقول: لا هم إن المرء يم — نع أهله فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك إن كنت تاركهم وكعد بتنافامرما بدالك يارب لا أرجولهم سواك يارب فامنع منهم حماك فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحر اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي ببحرية ولا تهامية. وفيه أن أهل مكة قد احتوا على أموالهم وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجود وكان سبب يساره، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سئل عن الطير فقال: حمام مكة منها. وقيل: جاءت عشية ثم صبحتهم، وعن عكرمة: من أصابته جدريته وهو أول جدري ظهر.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾

وقرى: ﴿ألم ترى﴾ بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم. والمعنى: أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة فقامت لك مقام المشاهدة.

﴿وكيف﴾ في موضع نصب بفعل ربك، لا بآلم تر لما في كيف من معنى الاستفهام.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾

﴿في تضليل﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضلالاً ضائعاً، ومنه قوله تعالى: وما كيد الكافرين إلا في ضلال. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل، لأنه ضلل ملك أبيه، أي ضيعه، يعني: أنهم كانوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه وكانوه، ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

﴿أبَابِيل﴾ حزائق الواحدة إبالة، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الحزقة من الطير في

نار جهنم واستولت عليه، ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. ومعنى: اطلاع النار عليها أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها، أو تطالع على سبيل المجاز معانٍ موجبها.

إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٤﴾ فِي عَرَصٍ مُّندَمَةٍ ﴿٥﴾

﴿مؤصدة﴾ مطبقة قال:

نحن إلى أجدال مكة ناقتي ومن نونها أبواب صنعاء مؤصدة

وقرى: في عمد بضميتين، وعمد بسكون الميم، وعمد بفتحيتين، والمعنى: أنه يؤكد ياسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فنؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيقاناً في استيقان. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة موتقين.

في عمد ممددة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الهمة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ محمد وأصحابه»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّافِ الْأَعْيَنِ

سورة الفيل مكية

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أضحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء سماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة ففقد فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أجمت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها. فحلف ليهب من الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً، وأثنا عشر فيلاً غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: كان معه ألف فيل وكان وحده. فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى، وعياً جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هربول. فأرسل الله طيراً سوداً، وقيل: خضراً، وقيل: بيضاً، مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجله أكبر من العدة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه. ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل. ودوى أبرهة فتساقطت أنامله وأرأبه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو

(١) نكروه الثعلبي وابن مروييه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي / 4

بلا فصل، وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى والثين⁽³⁾ والمعنى: أنه أهلك الحبيشة الذين قصوهم ليستسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترئ أحد عليهم، وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام. فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم، والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلاًفاً إذا آلفته فأنا مؤلف، قال: من المؤلفات الزهو غير الأوراك، وقرئ: لثلاف قريش، أي: لمؤلفة قريش. وقيل: يقال آلفته إلفاً وإلفاً. وقرأ أبو جعفر: إلف قريش. وقد جمعها من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلف
وقرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف،
وقريش ولد النضر بن كنانة سماوا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن ولا تطاق إلا بالنار. وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تاكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلق. وأنشد:

وقريش هي التي تسكن البحر ربها سميت قريش قريشاً
والتصغير للتعظيم. وقيل: من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضرهم في البلاد، أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف. وتذكيراً بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به كما نصب يتيماً بإطعام. وأراد رحلتي الشتاء والصيف فافرد لأمن الإلباس كقوله: كلوا في بعض بطنكم. وقرئ: رحلة بالضم، وهي الجهة التي يرحل إليها. والتذكير في جوع وخوف لشدهما يعني: أطمعهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وأمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسائرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وأمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل: نلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وأمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في غيرهم. وقرئ: من خوف بإخفاء النون. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»⁽⁴⁾.

تضامها بالإبالة، وقيل: أبابيل، مثل عبايد، وشماطيط لا واحد لها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله، يرميهم، أي: الله تعالى أو الطير، لأنه اسم جمع منكر وإنما يؤنث على المعنى.

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

﴿وسجيل﴾ كانه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجيناً علم للديوان أعمالهم. كانه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المنون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأن العذاب موصوف بذلك وأرسل عليهم طيراً فارسنا عليهم الطوفان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر، وقيل: هو معرب من سنككل، وقيل: من شديد عذابه، ورووا: بيت بن مقبل. ضرباً تواصت به الأبطال سجيلاً وإنما هو سجيناً. والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه وشبهوا بورد الزرع إذا اكل. أي: وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو بتين أكلته الدواب وراثته ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن. كقوله: ﴿كانا ياكلان الطعام﴾⁽¹⁾ أو أريد أكل حبه فبقي صفرًا منه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسح»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة قريش مكة

إِلَافٍ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الِئْتَاءِ وَالْمَبِيِّ ﴿٢﴾
فَلْيَسْبُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ أَلَدَّتْ آمَمَتُهُم مِّنْ جُوعٍ وَأَمَمَتُهُمْ
مِّنْ حَوْبٍ ﴿٤﴾

﴿إيلاف قريش﴾ متعلق بقوله: ﴿فليعبوا﴾، أمرهم أن يعبوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

فإن قلت: فلم دخلت الفاء؟ قلت: لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إما لا فليعبوه لإيلافهم على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصي فإن لم يعبوه لسائر نعمه فليعبوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وقيل: المعنى عجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هو متعلق بما قبله. أي: فجعلهم كعصف ماكول لإيلاف قريش. وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبي سورة واحدة

(1) سورة المائدة، الآية: 75.

(2) نكروه الثعلبي وابن مردويه والواحد في تفاسيرهم، زيلعي /4 .289

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف: 2/109، (الحديث رقم: 2697).

(4) نكروه الثعلبي والواحد وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي /4 .293

باللحبة والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة أرايت مكية

الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ ﴿١﴾

كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عابتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم. والمعنى: أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفرق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام. علماً على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل من العلماء منهم من هو على هذه الصيغة فيا مصيبتاه! وطريقة أخرى أن يكون فذلك عطفاً على الذي يكتب، إما عطف ذات على ذات أو صفة على صفة. ويكون جواب أرايت محنوفاً لدلالة ما بعده عليه. كأنه قيل: أخبرني وما تقول فيمن يكتب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين، أنعم ما يصنع! ثم قال: فويل للمصلين، أي: إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين، على معنى: فويل لهم! إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكتيب، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم.

فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكتب وهو واحد! قلت: معناه الجمع لأن المراد به الجنس.

فإن قلت: أي: فرق بين قوله: عن صلاتهم، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلت: معنى عن أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى: في أن السهو يعترتهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره⁽²⁾. ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم، وقرأ ابن مسعود: لاهون.

فإن قلت: ما معنى المراءاة؟ قلت: هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها. لقوله عليه الصلاة والسلام: ولا غمة في فرائض الله⁽³⁾

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِأَلْبَابٍ ﴿١﴾

قرئ: «أرايت» بحذف الهمزة وليس بالاختيار لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب ريت، ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام ونحوه:

صاح هل ريت أو سمعت براء رُد في الضرع ما قرئ في العلاب وقرأ ابن مسعود: أرايتك بزيادة حرف الخطاب. كقوله: «أرايتك هذا الذي كَرَمْت علي»⁽¹⁾، والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلْيَسَ ﴿٢﴾

«فذلك الذي» يكذب بالجزاء هو الذي «يدع اليتيم»، أي: يدفعه دفعاً عينياً بجفوة وأذى ويردّه رداً قبيحاً بزجر وخشونة. وقرئ: «يدع» أي: يترك ويجفو.

وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾

«ولا يحض» ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكتيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف، يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك فحين قدم عليه علم أنه مكذب، فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾

ثم وصل به قوله: «فويل للمصلين» كأنه قال فإذا كان الأمر كذلك. فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى تقوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث

(1) سورة الإسراء، الآية: 62.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الأب، باب: ما يجوز من نكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير.. (الحديث رقم: 6051)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 97 - 573) وأخرجه البخاري في كتاب: السهو، باب: ما جاء في السهو إذا قام من ركعتين الفريضة (الحديث رقم: 1224)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 86 - 570)، وأخرجه البخاري

= في كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة، حيث كان (الحديث رقم: 401)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة، والسجود له، (الحديث رقم: 89 - 572) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: سجدتي السهو فيما تشهد، (الحديث رقم: 1039)، أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: سجود السهو، (الحديث رقم: 2674)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إذا صلى خسفاً، (الحديث رقم: 1023).

(3) تقدم في سورة يونس.

الجنة وعنديه ربي فيه خير كثير⁽⁵⁾. وروى في صفته: أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، والين من الزبد، حافته الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء⁽⁶⁾. وروى: لا يظلم من شرب منه أبداً، أول وأرديه فقراء المهاجرين الذين الشيب الثياب الشعث لرؤوس الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو أقسم على الله لأبره⁽⁷⁾، وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير. فقال له سعيد بن جبير: إن ناساً يقولون: هو نهر في الجنة. فقال: هو من الخير الكثير.

صَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾

والنحر نحر البين، وعن عطية هي صلاة الفجر بجمع، والنحر بمنى. وقيل: صلاة العيد والتضحية، وقيل: هي جنس الصلاة، والنحر وضع اليمين على الشمال. والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرة من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعنى ذلك كله أنا إله العالمين⁽⁸⁾، فاجتمعت لك الغبطتان السنبتان إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من ممن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله، وأنحر لوجهه وباسمه إذا نحررت مخالفاً لهم في النحر للآوثان.

إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿إِنَّ﴾ من ابغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، لا أنت. لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، ونكرك مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بنكر الله ويثنى بنكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف. فمثلك لا يقال له: أبتَر، وإنما الأبتَر هو شانئك المنسى في الدنيا والآخرة، وإن نكر نُكِرَ باللعن. وكانوا يقولون: إِنَّ محمداً صنوبر إذا مات مات نكره. وقيل: نزلت في العاص بن وائل وقد سماه الأبتَر، والأبتَر الذي لا عقب له. ومنه الحمار الأبتَر الذي لا نذب له. عن رسول الله ﷺ⁽⁹⁾: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه»⁽¹⁰⁾.

لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت. فوجب إمطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفى لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه العين فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر واطلها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك! وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: الرياء أخفى من نبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود.

وَيَتَمَتَّعُونَ أَلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿الْمَاعُونَ﴾ الزكاة. قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمنعوا، ماعونهم ويضيعوا التهليلاً وعن ابن مسعود: ما يتماور في العادة من الفأس والقدر والبلو والمقبحة ونحوها: وعن عائشة: الماء والنار والملح. وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة أرايت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكوثر مكية

في قراءة رسول الله ﷺ: إنا أنطينك بالنون⁽²⁾، وفي حديثه ﷺ: «وانطوا النجبة»⁽³⁾. والكوثر فوعل من الكثرة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم أب ابنك؟ قالت: أب كوثر. وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل⁽⁴⁾ كوثراً

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾

وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال: «أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في

(1) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفسيرهم زيلعي 4/ 299.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک في کتاب القراءات...

(3) تقدم في يونس.

(4) العقائل: جمع عقيلة وهي في الأصل المرأة الكريمة النفيسة.

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: بالبسملة آية من أول كل سورة (الحديث رقم: 53 - 400).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک في 171/3.

(7) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: نكر الحوض (الحديث رقم: 4303)، وأخرجه أحمد في المسند (الحديث رقم: 275/5).

(8) قال أحمد: جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزئين مفيد للاختصاص؛ لأن إفادته ههنا لذلك بيئة مكشوفة.

(9) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفسيرهم زيلعي 4/ 305.

(10) نكره الزبيدي في الاتحاف 645/9، وصدره عند الترمذي من حديث انس في كتاب: ثواب القرآن (10).

ما مصدرية أي: لا أعبد عبائكم ولا تعبدون عبائتي.
لَكُمْ وَيُنَادِي رَبِّي ①.

﴿لَكُمْ بَيْنَكُمْ وَلِي بَيْن﴾ لكم شرككم ولي توحيدتي.
والمعنى أنني نبي مبعوث إليكم لادعوكم إلى الحق والنجاة،
فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ولا تدعوني
إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكافرين
فكانما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ
من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①.

﴿إِذَا﴾ منصوب يسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك
قبل كونه من أعلام النبوة. روي أنها نزلت في أيام
التشريق بمنى في حجة الوداع.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟
قُلْتُمْ: النصر الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه نصر الله
الأرض غائها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر
رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل:
جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان
فتح مكة لعشر ماضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع
رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار
وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى
هوازن وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله
إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم
الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أنني فاعل
بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم
الطلقاء. فاعتقهم رسول الله ﷺ⁽³⁾. وقد كان الله تعالى
أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيا فلذلك سمي أهل مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ①.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم
لا يؤمنون. روي أنه رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم
فاتبع ديننا وتتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة.
فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض
آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام
وفيه الملا من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم
فأيسوا.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ① وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ②.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن لا تدخل
إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل
إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد
فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أن أصله لا أن. والمعنى:
لا أفعال في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم،
ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ①.

﴿ولا أنا عابد ما عبديتم﴾ أي: وما كنت قط عابداً فيما
سلف⁽¹⁾ ما عبديتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في
الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ②.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي: وما عبديتم في وقت
ما أنا على عبادته.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فهلا قيل: ما عبديتم، كما قيل: ما عبديتم؟ قُلْتُمْ:
لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن
يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فلم جاء على ما دون من؟ قُلْتُمْ: لأن المراد
الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: أن

= في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأن الماضي لم يحصل
فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيها والله أعلم
على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على
مجرد توحيد الله تعالى ومعرفة، فإن ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل
المبعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصد تصوير عبادته
في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿إلم تر أن الله أنزل
من السماء ماء فتصبغ الأرض مخضرة﴾ والأصل: فأصبحت،
ولمّا عدل عنه للمعنى المنكسر وهو وجه حسن فتامله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح في رمضان
(الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 343/3).

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على
أصله القسري، فإنه وإن كان مقتضاه أن النبي ﷺ لم يكن قبل
المبعث على دين نبي قبله، لاعتقاد القرية أن تلك غمزة في
منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم
يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر
في آيات الله تعالى وإثبات توحيد ومعرفة، وأن وجوب النظر
بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل المبعث يلزمهم أن لا يظنوا
به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضي أصلهم أنه كان قبل المبعث
يعبد الله تعالى، فالنمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم
اتباعه لنبي سابق، فأخذ بالتفريع على أصله الآخر في وجوب
العبادة بالعقل، والحق أن النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحدث

الطلاق. ثم بايعوه على الإسلام.

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَتَوَابًا ﴿٢﴾.

بين الطاعة والاحتباس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفًا لأمته، ولأنَّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لاستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»⁽⁵⁾. وروي أنه لما قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه استبشروا، وبكى العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعت إليك نفسك. قال: «إنها لكما تقول، فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكًا مستبشراً. وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»⁽⁶⁾. وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: إن عبدًا خيرُه الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله. فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فديناك بانفسنا وأموالنا وأبائنا وأولادنا»⁽⁷⁾. وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يندبه ويأثن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن: أتأثن لهذا الفتى معنا وفي أبائنا من هو مثله. فقال: إنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأنن لهم ذات يوم وأنن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى: «إذا جاء نصر الله»⁽⁸⁾ ولا أراه سألهم إلا من أجلي. فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك، ولكن نعت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون»⁽⁹⁾. وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه إنه نعت إلي نفسي». فبكت. فقال: «لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقًا بي»⁽¹⁰⁾. وعن ابن مسعود: أن هذه السورة تسمى سورة التوبيع «كان توبيا» أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توبيا عليهم إذا استغفروا، فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»⁽¹¹⁾.

﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. ﴿أقوالًا﴾ جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا»⁽¹⁾. وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفتح يمان والحكمة يمانية»⁽²⁾. وقال: «أجد نغير ربكم من قبل اليمن»⁽³⁾. وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان. وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فإن قلت: ما محل يدخلون؟ قلت: نصب إما على الحال على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، أو هو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَمِعْ لَهُ إِنَّكَ كَأَنَّ تَوَّابًا ﴿٢﴾.

﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدًا له، أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فأنكره مسبحًا حامدًا زيادةً على عبادته والثناء عليه لزيادة اتعانه عليك، أو فصلًا له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمانين ركعات، وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك»⁽⁴⁾. والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع

- (6) أخرجه الثعلبي في تفسيره زيلعي 319/4.
- (7) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (الحديث رقم: 3904)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل أبي بكر رضي الله عنه (الحديث رقم: 2382/2).
- (8) سورة النصر، الآية: 1.
- (9) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ (الحديث رقم: 4970).
- (10) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل، وابن مردويه في تفسيره، زيلعي 322/4، وله شاهد عند البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3623).
- (11) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي: 4/324.

- (1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه (الحديث رقم: 52/82).
- (2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 583.
- (3) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، فإن ظاهره يومه أنه صلاها داخل الكعبة، وفي الصحيح ما أخرجه في كتاب: المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح (الحديث رقم: 4292)، ورواه أبو داود بنحو آخر في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الضحى (الحديث رقم: 1290).
- (4) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (الحديث رقم: 817)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث رقم: 484/217).
- (5) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (الحديث رقم: 2702/41).

سورة المسد

سورة تبت وهي مكية

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

التبّاب: الهلاك، ومنه قولهم: أشلبه أم تابة. أي: هالكة من الهرم والتعجيز. والمعنى: هلكت يداه^(١)، لأنه فيما يروى أخذ حجرًا ليرمي به رسول الله ﷺ. «وتبّ» وملك كله أو جعلت يداه هالكيتين، والمراد هلاك جملته. كقوله تعالى: «بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ»^(٢) ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقوله:

جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء الكلاب العلوب وقد فعل

ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب. وروي أنه لما نزل: «وانذر عشيرتكم الأقربين» رقى الصفا وقال: «يا صباحاه». فاستجمع إليه الناس من كل أوب. فقال: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيالاً كنتم مصدقي». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تبّأ لك لهذا دعوتنا^(٣) فنزلت.

فإن قلّت: لم كناه والكنية تكرمة؟ قلّت: فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مشتهراً بالكنية بون الاسم فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له نكر الأشهر من علميه. ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب. كما قيل: علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان. لثلا يغير منه شيء فيشكل على السامع. ولقليته بن قاسم أمير مكة ابنان: أحدهما: عبد الله بالجر، والآخر عبد الله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له: عبد الله بجرّة الدال لا يعرف إلا هكذا، والثاني: أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته، والثالث: أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرًا بأن ينكر بها. ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير. وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلب: أبا صفرة^(٤) بصفرة في وجهه. وقيل: كني بذلك لتلعب وجنتيه وإشراقهما. فيجوز أن ينكر بذلك تهكمًا به وبافتخاره بذلك. وقرئ: أبي لهب بالسكون وهو من تغيير الأعلام كقولهم: شمس بن مالك بالضم.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

«ما أغنى» استفهام في معنى الإنكار ومحله النصب، أو نفي «وما كسب» مرفوع وما موصولة أو مصدرية بمعنى: ومكسوبه أو وكسبه. والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله. يعني: رأس المال والأرباح أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها. وكان ذا سائباء^(٥) أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه، أو ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس: ما كسب ولده. وحكى أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاققتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع. فغضب فقال: اخرجوا عني الكسب الخبيث. ومنه قوله عليه السلام: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». وعن الضحّاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث. يعني: كيد في عداوة رسول الله ﷺ، وعن قتادة: عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل»^(٦) وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فانا أفقدت منه نفسي بمالي وولدي.

سَيَصَلُّنَاكَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

«سيصلي» قرئ بفتح الياء وبضمها مخففًا ومشددًا والسين للوعيد. أي: هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وَأَمْرًا تُرَىٰ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾

«وامراته» هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتثرتها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويقال: للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم. أي: يوقد بينهم النائرة ويورث الشر. قال: من البيض لم تصطد على ظهر لامة ولم تش بين الحي بالحطب الرطب جعله رطبًا ليندل على التخين الذي هو زيادة في الشر، ورفعت عطفًا على الضمير في سيصلي. أي: سيصلي هو وامراته.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْكِ ﴿٥﴾

«وفي جيدها» في موضع الحال أو على الإبتداء وفي جيدها الخبر. وقرئ: حمالة الحطب بالنصب على الشتم، وأنا استحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل. وقرئ: حمالة للحطب وحمالة للحطب بالتونين والرفع والنصب. وقرئ: ومريته بالتصغير. المسد الذي قتل من الحبال قتلاً شديدًا من ليف

(1) قال لحمد: وفي هذا دليل؛ لأنّ الرفع أسبق وجوه الإعراب وأولها، إلا تراهم إنما حافظوا على صيغته التي بها اشتهر الاسم، وكانت أول أحواله.

(2) سورة الحج، الآية: 10.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة تبت (الحديث) = (6) سورة الفرقان، الآية: 23.

(4) انظر الإصابة في تمييز الصحابة 4/108.

(5) سائباء: أي كثير المال والنتاج والإبل.

كان أو جلدًا أو غيرهما. قال:

ومسدا أمر من أيا نثق

ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون، تخسيسًا لحالها وتحقيرًا لها وتصويرًا لها بصورة بعض الخطابات من المواهن، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلمها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة. ولقد غير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحملة الحطب فقال:

ماذا أرتت إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعير من حملة الحطب غراء شاشخة⁽¹⁾ في المجد غرتها كانت سلية شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإخلاص مكية

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①

﴿هو﴾ ضمير الشأن و﴿الله لحد﴾ هو الشأن. كقولك: هو زيد منطلق: كانه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له.

فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء، والخبر الجملة.

فإن قلت: فالجملة الواقعة خبر الأبد فيها من راجع إلى المبتدأ فابن الراجع! قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك أن قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيدًا والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد صف لنا ريك الذي تدعوننا إليه فنزلت، يعني: الذي سألتوني وصفه هو الله واحد، بدل من قوله الله أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد. وقرأ

عبد الله أبي: هو الله أحد بغير قل. وفي قراءة النبي ﷺ: «الله أحد بغير قل هو». وقال: «من قرأ الله أحد كان يعدل القرآن». وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد. وقرئ: أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف ونحوه، ولا ذاكراً لله إلا قليلاً. والجديد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

اللَّهُ الصَّمَدُ ②

﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصد، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقربون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لَمْ يَكِلْهُ وَكَمْ يُؤَكِّدُ ③

﴿لم يكله﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دل على هذا المعنى بقوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. ﴿ولم يولد﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفيًا للصاحبة. سألوه أن يصف لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قاهر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعًا على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. وقوله: الصمد، وصف بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجًا إليه فهو غني، وفي كونه غنيًا مع كونه عالمًا أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبائح وعلمه بغناه عنه. وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأولية. وقوله: لم يلد، نفي للشبه والمجانسة. وقوله: ولم يكن له كفواً أحد، تقرير لذلك وبت للحكم به.

فإن قلت: الكلام العربي الفصحى أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد قص سيبويه على ذلك⁽³⁾ في كتابه فما به مقدّمًا في أقصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباربي سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناؤه وأحقه بالتقدم وأحراره.

وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

وقرئ: كفوًا بضم الكاف والفاء، ويضم الكاف وكسرها مع سكنون الفاء.

فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على

(3) نكره ابن حجر في لسان الميزان (442/6) ونكره الذهبي في ميزان الاعتدال (8915).

(1) شاشخة: أي شذخت شذوخًا اتسعت في الوجه.

(2) أخرجه الخطابي وابن مردويه والوالحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/

فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى نور أهل النمة وماهم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم. فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٧﴾

﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه وشرهم، ما يفعله المكلفون⁽³⁾ من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارة بعضهم بعضاً من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك. وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

وَمِنْ شَرِّ عَائِيٍّ إِذَا وَجَبَ ﴿٨﴾

والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾⁽⁴⁾ ومنه غسقت العين امتلات دماً، وغسقت الجراحة امتلات دماً، ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هذا حين حلها». يعني صلاة المغرب⁽⁵⁾. وقيل: هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوذني بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»⁽⁶⁾. ووقوبه دخوله في الكسوف وأسوداده. ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ونقبه، والوقب النقب. ومنه وقبة الثريد والتعوذ من شر الليل لأن أنبثائه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا أظلم أكثر فيه الغدر. وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه.

وَمِنْ شَرِّ الَّتَمَنَّتْ فِي الِّمَعْدِ ﴿٩﴾

﴿النفائات﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفتن عليها⁽⁷⁾ ويرقن، والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم

قصر متنها وتقارب طرفيها! قُلْتُ: لأمر ما يسود، من يسود. وما ذلك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعمله وتوحيده وكفى ليلياً من اعترف بفضلها. وصدق بقول رسول الله ﷺ فيها أن علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضيق بضيقه، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق بونه، ومن ازدهاه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلو من خشيته وبعده من النظر لعاقبته. اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك العالمين لك القائلين بعبدك وتوحيديك الخائفين من وعيدك. وتسمى: سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين. وروى أبي وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»⁽¹⁾. يعني: ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة. عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت» قيل: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفلق مختلف فيها

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾

الفلق والفرق الصبح لأن الليل يفلق عنه، ويفرق فعل بمعنى مفعول. يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر. وقيل: هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وإي في جهنم أوجب فيها. من قولهم: لما أطمأن من الأرض الفلق، والجمع

(1) قال أحمد: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد كفواً له، وجرى هذا الجلف على عاتقه، فجفا طبعه عن لطف المعنى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الإسم، وذلك أن الغرض التي سيق له الآية نفي المكافاة والمساواة عن ذات الله تعالى فكان تقديم المكافاة المقصود بأن يسلب عنه أولى، ثم لم تُمَت لتسلب نكر معها الظرف لبيّن الذات المقدسة بسلب المكافاة، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (الحديث رقم: 2897)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الحديث رقم: 994).

(3) قال أحمد: لا يسعه على قاعته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقد خالفاً=

= لأفعاله، أو لما هو غير فاعل له البتة كالأموات، وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك فلا؛ لأنه يعتقد أن الله لا يخلق أفعال الحيوانات، وإنما هم يخلقونها؛ لأنها شر والله تعالى لا يخلق لقبه، كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضع فسادهما حتى حَرَف بعض القدرية الآية فقرأ: ﴿من شر ما خلق﴾ بتنوين وجعل ما تافية.

(4) سورة الإسراء، الآية: 78.

(5) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، زيلعي 4/335.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعونتين (الحديث رقم: 3366).

(7) قال أحمد: وقد تقدم أن قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه، والأمر بالتعوذ منه، وقد سحر ﷺ=

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

سورة الناس مكية

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاِنْسَانِ ﴿١﴾

قريء قل أعوذ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونحوه فخذ أربعة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿بِرب للناس﴾ مضافاً إليهم خاصة؟⁽⁵⁾ **قُلْتَ:** لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكانه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب سيدهم ومخولمهم ووالي أمرهم.

مَلِكِ الْاِنْسَانِ ﴿٢﴾ إِنَّهُ الْاِنْسَانِ ﴿٣﴾

فإن قُلْتَ: ﴿ملك للناس إله للناس﴾ ما هما من رب الناس؟ **قُلْتَ:** هما عطف بيان كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق. بين بملك الناس ثم زيد بياناً بإله الناس لأنه قد يقال لغيره: رب الناس. كقوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله. وقد يقال: ملك الناس. وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فَجَعَلَ غاية البيان.

فإن قُلْتَ: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة؟ **قُلْتَ:** لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار بون الإضمار.

مِن سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ﴿٤﴾

﴿الوسواس﴾ اسم بمعنى الوسوسة كالزلال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال. والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كانه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعتها وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد ذو الوسواس، والوسوسة الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلى، و﴿الخنس﴾ الذي عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات لما روي عن سعيد بن جبير:

إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه. ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبث على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسبه الحشو والرعاع إليهم وإلى نفثهم، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعيرون به.

فإن قُلْتَ: فما معنى الاستعاذة من شرهن؟⁽¹⁾ **قُلْتَ:** فيها ثلاثة أوجه: أحدها أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك، والثاني أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن، والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن. ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات، من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾⁽²⁾ تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك.

وَمِن سَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿إذا حسد﴾ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد. ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره.

فإن قُلْتَ: قوله من شر ما خلق تعميم في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفثات والحاسد؟ **قُلْتَ:** قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمره وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجي الذي يكيك من حيث لا تشعر.

فإن قُلْتَ: فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؟ **قُلْتَ:** عرفت النفثات؛ لأن كل نفثة شريرة ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض نون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين»⁽³⁾. وقال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال:

إن العلاحسن في مثلها الحسد

(الحديث رقم: 73)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (الحديث رقم: 816/268).

(4) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/338 وقال ابن حجر: والحدِيث المرفوع في ذلك موضوع الكاف الشاف ص 190.

(5) قال أحمد: وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف، فإنه معه أم.

= في مشط ومشاطة في جف طلعة نكر، والخديث مشهور. وإنما الزمخشري استقره الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزله ويغطي بكفه وجه الغزالة.

(1) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول فعذ عنه جانباً، ولو فسر غيره النفثات في العقد بالمتخيلات من النساء وليس ساحرات حتى يتم إنكار وجود السحر، لعنه من بدع التفاسير.

(2) سورة يوسف، الآية: 28.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة =

عنيت به من مهاجرتي إليه ومجاورتني ومرابطتي بمكة ومصابرتي. على توكل من القوى. وتخاذل من الخطأ. ثم أسأله بحق صراطه المستقيم. وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين. وعرق الجبين. في عمل الكشاف عن حقائقه. المخلص عن مضايقه. المطلع على غوامضه. المثبت في مباحضه. الملخص لنكته ولطائف نظمه. المنقري عن فقره وجواهر علمه. المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه. المخيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه. مع الإيجاز الحائف للفضول. وتجنب المستكره المملول. ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه. لكفى به ضالة ينشدها محققة الأحبار. وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار. وبما شرفني به ومجديني واختصني بكرامته وتوحيثني. من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونزله. ومنتزل آياته وسوره. من البلد الأمين بين ظهراني الحرم. وبين يدي البيت المحرم. حتى وقع التناويل. حيث وجد التنزيل. أن يهب لي خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء ويتجاوز عن فرطاتي يوم التناد. ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد. ويحلني دار المقامة من فضله. بوسع طوله وسابغ نوله. إنه الجواد الكريم الرؤوف الرحيم.

في نسخة ما نصه

في أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى: وهذه النسخة هي نسخة الأصل الأولى التي نقلت من السواد وهي أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها في السنة الشهباء فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح دار السليمانية التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة: ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسائة وهو حامد لله على باهر كرمه ومصل على عبده ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

إذا نكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه.

الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾.

﴿الذي يوسوس﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث: فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين.

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾.

﴿من الجنة والناس﴾ بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان جنني وانسي كما قال شياطين الإنس والجن. وعن أبي نر رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس. ويجوز أن يكون من متعلقاً بيوسوس ومعناه ابتداء الغاية. أي: يوسوس في صلورهم من جهة الجنّ ومن جهة الناس. وقيل: من الجنة والناس بيان للناس وأن اسم الناس ينطلق على الجنة، واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجن. وما أحقه لأن الجن سموا جنّاً لاجتنانهم، والناس ناساً لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشرّاً، ولو كان يقع الناس على القبيلين وصح ذلك وثبت لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبعده من التصنع وأجود منه أن يراد بالناس الناسي كقوله: ﴿يوم يدع الداع﴾^(١) وكما قرئ: من حيث أقاض الناس. ثم يبين بالجنة والناس لأنّ الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل. عن رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما، يعني: المعوذتين، ويقال: للمعوذتين: المقشقشتان: قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامة، والوذ بكنف رحمته الشاملة العامة، من كل ما يكلم الدين، ويثلم اليقين، أو يعود في العقابة بالندم. أو يمدح في الإيمان المسوط باللحم والدم. وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر، ووضع الخدّ لجلاله الأعظم الأكبر. مستشفعاً إليه بنوره الذي هو الشيبية في الإسلام متوسلاً بالتوبة المحصنة للأثام. وبما

نبذة من ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى

فإنها في غاية البرودة ومنها خلق كثير سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعده من لا يعرفه، وقيل أن الزمخشري لما نخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أتى كنت في صباي أمسكت عصفورًا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي، فأدركته وقد نخل في خرق فجذبتة فانقطعت رجله في الخيط فتأملت والنبي لذلك، وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخاري أطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي، وعملت عليّ عملاً، أوجب قطعها. والله أعلم بالصحة وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي قد كتب إليه من الإسكندرية وهو يومئذ مجاور مكة حرسها الله يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فردّ جوابه بما لا يشفى الغليل فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضًا مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفى الغليل وله في ذلك الأجر الجزيل فكتب إليه الزمخشري ما لم يكن له في حساب ولولا خوف التطويل لنكرت الاستدعاء والجواب لكن لا بأس بذكر بعض الجواب وهو ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثّل السها مع مصابيح السماء والجهم الصفر من الرهام مع الغواصي الغامرة للقيعان والأكام والسكيت المخلف مع خيل السباق والبلغاث مع الطير العتاق وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم بالعلامة والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين نو بضاعه مزجاة ظلى فيه أقلص من ظل حصاة أما الرواية فحديثه الميلاد قريبة الإسناد لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير وأما الدراية فتمد في وفلان وعند جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها ولو سررناها لطل الحال ثم قال فإنّ ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذي غرهم مني ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وإيصال الشفقة إلى المستفيدين وقطع المطامع عنهم وإفاضة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والرب بها عن السفاسف اللذيات والإقبال على خويصتي والإعراض عما لا يعنيني فجللت في عيونهم وغلطوا فيّ ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولا دبير وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسي كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه وليتكم ولست بخيركم إن المؤمن ليهضم نفسه وإنما صدقت الفاحص عني وعن كنه روایتي وبرايتي ومن لقيت وأخذت عنه وما بلغ علمي وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمري وأفضيت إليه بخبية سرى والقيت إليه عجري وبجري وأعلمته نجمي وشجري وأما المولد فقريبة مجهولة من قرى خوارزم تسمى: زمخشر وسمعت أبي رحمة الله تعالى يقول: اجتاز بها أعرابي فسأل عن اسمها واسم عبيرها

قد نكر الأستاذ الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح دار الطباعة المصرية الميرية سابقاً رحمه الله، جملة من ترجمة مؤلف الكشاف نيل بها النسخة التي جرى عليها الطبع، فاستحسن نقلها بنصها لتكون مرآة للاطلاع على بعض ما للمؤلف من رفيع المزاي وحמיד السجاي ولسان صدق في الآخرين وأنموذجاً لفضله المتين ونصها:

هو إمام الأئمة وهادي هداة هذه الأمة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري من هو بأحاسن النعوت حرى صاحب التأليف الزاهرة والتصانيف الفاتحة الباهرة فهو الإمام الكبير في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغيرها بلا معاني كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحال من كل مكان شاسع، أخذ الألب عن شيخه منصور أبي مضر، وصنف التصانيف البديعة الغرر، منها هذا الكتاب في تفسير القرآن، ولم يدرك شاوه فيه إنسان، والمحاجة بالمسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفاثق في تفسير الحديث، ولم ير مثله في القديم ولا في الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، ولم يبلغ كتاب قبله في التمييز مبلغه، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ومتشابه أسامي الرواة والنصائح الكبار، والنصائح الصغار، وضالة الناشد والرائض، في علم الفرائض، والمفصل في النحو وهو كتاب كبير، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، والأنموذج في علم العربية، والمفرد والمؤلف في المسائل النحوية، ورؤوس المسائل الفقهية، والمستقصى في الأمثال العربية، والنبور السافرة. في الأمثال السائرة. والكتاب الجليل: المسمى بديوان التمثيل، وشقائق النعمان: في حقائق النعمان، وشافي العي: من كلام الشافعي، والقسطاس في العروض ومعجم الحدود والمنهاج في الأصول ومقدمة الأدب في اللغة وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسائل الناصحة والامالي الواضحة في كل فن وغير ذلك وكان شروعه في تأليف المفصل في غرة شهر رمضان سنة 513 ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه في غرة المحرم سنة 515 خمس عشرة وخمسمائة وكان قد سافر إلى مكة حرسها الله تعالى وجاور بها زماناً فصار يقال له: جار الله لذلك وكان هذا الاسم علماً عليه وقد اشتهر أنّ إحدى رجليه كانت ساقطة وأنه كان يمشي في جازن من خشب واختلف في سبب سقوطها فقيل: إنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لرؤية الثلج والبرد كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط به خصوصاً خوارزم

والذ من نقر الفتاة لبيها
أبيت سهران اللجى وتبينه
ومن كلامه:

إذا سالوا عن مذهبي لم أبح به
فإن حنفيًا قلت قالوا بآثني
وإن مالكيًا قلت قالوا بآثني
وإن شافعيًا قلت قالوا بآثني
وإن حنبلية قلت قالوا بآثني
وإن قلت من أهل الحديث وحرزبه
تعجبت من هذا الزمان وأهله
وأخبرني دهري وقدم معشرا
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني

وكانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين
من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشري
وتوفي رحمه الله تعالى ليلة عرفة سنة 538 ثمان وثلاثين
وخمسائة بجرجانيه خوارزم بعد رجوعه من مكة رحمه الله
تعالى ورثاه بعضهم بابيات ومن جملتها:

فارض مكة تدرى اللمع مقلتها
حزنالفرقة جارا الله محمود
وزمخشري بفتح الزاي والميم وسكون الخاء وفتح الشين
المعجمتين وبعدها راء. قرية كبيرة من قرى خوارزم
وجرجانيه بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء
بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من
تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة وهي قصبه خوارزم
قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: يقال لها بلغتهم
كركانج فعربت وقيل لها: جرجانيه وهي على شاطئ
جيحون. انتهى ما ذكره الأستاذ السوقي رحمه الله تعالى.

بِعُونِهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ وَمُنَّه
تَمَّ تَفْسِيرُ الْكَشَافِ لِلزَّمْخَشَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ

ف قيل له: زمخشري فقال: لا خير في شر ورد ولم يلزم بها
وقت الميلاد شهر الله الأصم في عام سبع وستين
وأربعمائة والله المحمود والمصلى على سيدنا محمد وآله
وأصحابه هذا آخر الإجازة وقد أطل الكلام فيها ولم
يصرح له بمقصوده فيها ولا يعلم هل أجازته بعد ذلك أولاً.
ومن شعره السائر قوله وقد ذكره السمعاني في الذيل قال
أنشدني أحمد بن محمود الخوارزمي إملاءً بسمرقند قال
أنشدنا محمود بن عمر الزمخشري لنفسه بخوارزم:

ألا قل لسعدي ما لنا فيك من وطر
وما نطلب للنجل من أعين البقر
فإننا اقتصرنا بالذين تضايقت
عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة
ولم أر أنس إذ عزلته قرب روضة
فقلت له جئني بورد وإنما
فقال انتظرنى رجع طرف أجي به
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر
ومن شعر يرثي شيخه أبا مضر المذكور أولاً:

وقائلة ما هذه الدرر التي
تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا
أبو مضر أنني تساقط من عيني
ومما أنشد لغيره في كتابه الكشاف عند تفسير قوله
تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾:

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب عن فرطاته
ما كان منه في الزمان الأول
وقيل: إن الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره
هذه الأبيات:

ومن كلامه رضي الله عنه:

زمان كل حب فيه خب
وطعم الخل خل لويذاق
لهم سوق بضاعته نفاق
فنافق فالنفاق له نفاق
ومن كلامه:

سهرى لتنقيح العلوم الذلي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا للحل عويصة
أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامى على أوراقها
أحلى من اللوكاء والعشاق

فهرس الموضوعات

<p>841 سورة السجدة - 32</p> <p>846 سورة الأحزاب - 33</p> <p>867 سورة سبأ - 34</p> <p>879 سورة فاطر - 35</p> <p>889 سورة يس - 36</p> <p>901 سورة الصافات - 37</p> <p>917 سورة ص - 38</p> <p>933 سورة الزمر - 39</p> <p>949 سورة غافر - 40</p> <p>964 سورة فصلت - 41</p> <p>973 سورة الشورى - 42</p> <p>984 سورة الزخرف - 43</p> <p>998 سورة الدخان - 44</p> <p>1004 سورة الجاثية - 45</p> <p>1108 سورة الأحقاف - 46</p> <p>1017 سورة محمد ﷺ - 47</p> <p>1024 سورة الفتح - 48</p> <p>1030 سورة الحجرات - 49</p> <p>1043 سورة ق - 50</p> <p>1049 سورة الذاريات - 51</p> <p>1055 سورة الطور - 52</p> <p>1058 سورة النجم - 53</p> <p>1064 سورة القمر - 54</p> <p>1069 سورة الرحمن - 55</p> <p>1074 سورة الواقعة - 56</p> <p>1081 سورة الحديد - 57</p> <p>1086 سورة المجادلة - 58</p> <p>1092 سورة الحشر - 59</p> <p>1097 سورة الممتحنة - 60</p> <p>1102 سورة الصف - 61</p> <p>1105 سورة الجمعة - 62</p> <p>1108 سورة المنافقون - 63</p> <p>1111 سورة التغابن - 64</p> <p>1114 سورة الطلاق - 65</p> <p>1118 سورة التحريم - 66</p> <p>1124 سورة الملك - 67</p>	<p>5 مقدمة المحقق</p> <p>7 ترجمة الإمام الزمخشري</p> <p>11 التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه</p> <p>19 المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة</p> <p>23 مقدمة المؤلف</p> <p>1 - سورة فاتحة الكتاب</p> <p>2 - سورة البقرة</p> <p>3 - سورة آل عمران</p> <p>4 - سورة النساء</p> <p>5 - سورة المائدة</p> <p>6 - سورة الأنعام</p> <p>7 - سورة الأعراف</p> <p>8 - سورة الأنفال</p> <p>9 - سورة التوبة</p> <p>10 - سورة يونس</p> <p>11 - سورة هود</p> <p>12 - سورة يوسف</p> <p>13 - سورة الرعد</p> <p>14 - سورة إبراهيم</p> <p>15 - سورة الحجر</p> <p>16 - سورة النحل</p> <p>17 - سورة الإسراء</p> <p>18 - سورة الكهف</p> <p>19 - سورة مريم</p> <p>20 - سورة طه</p> <p>21 - سورة الأنبياء</p> <p>22 - سورة الحج</p> <p>23 - سورة المؤمنون</p> <p>24 - سورة النور</p> <p>25 - سورة الفرقان</p> <p>26 - سورة الشعراء</p> <p>27 - سورة النمل</p> <p>28 - سورة القصص</p> <p>29 - سورة العنكبوت</p> <p>30 - سورة الروم</p> <p>31 - سورة لقمان</p>
---	---

- 1206 92 - سورة الليل
- 1208 93 - سورة الضحى
- 1210 94 - سورة ألم نشرح
- 1211 95 - سورة التين
- 1212 96 - سورة العلق
- 1214 97 - سورة القدر
- 1215 98 - سورة القيامة
- 1215 99 - سورة الزلزلة
- 1216 100 - سورة العاديات
- 1218 101 - سورة القارعة
- 1218 102 - سورة التكاثر
- 1219 103 - سورة العصر
- 1220 104 - سورة الهمزة
- 1221 105 - سورة الفيل
- 1222 106 - سورة قريش
- 1223 107 - سورة أرايت
- 1224 108 - سورة الكوثر
- 1225 109 - سورة الكافرون
- 1225 110 - سورة النصر
- 1227 111 - سورة تبت
- 1228 112 - سورة الإخلاص
- 1229 113 - سورة الفلق
- 1230 114 - سورة الناس
- 1232 - نبذة من ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى
- 1128 68 - سورة القلم
- 1134 69 - سورة الحاقة
- 1138 70 - سورة المعارج
- 1141 71 - سورة نوح
- 1145 72 - سورة الجن
- 1149 73 - سورة المزمل
- 1153 74 - سورة المنثر
- 1160 75 - سورة القيامة
- 1163 76 - سورة الإنسان
- 1168 77 - سورة المرسلات
- 1171 78 - سورة عم يتساءلون
- 1175 79 - سورة النازعات
- 1178 80 - سورة عبس
- 1181 81 - سورة التكوير
- 1185 82 - سورة الانفطار
- 1186 83 - سورة المطففين
- 1189 84 - سورة انشقت
- 1191 85 - سورة البروج
- 1193 86 - سورة الطارق
- 1195 87 - سورة سبح اسم ربك الأعلى
- 1196 88 - سورة الغاشية
- 1199 89 - سورة الفجر
- 1202 90 - سورة البلد
- 1205 91 - سورة الشمس

ISBN 9953-420-87-4



9 789953 420875